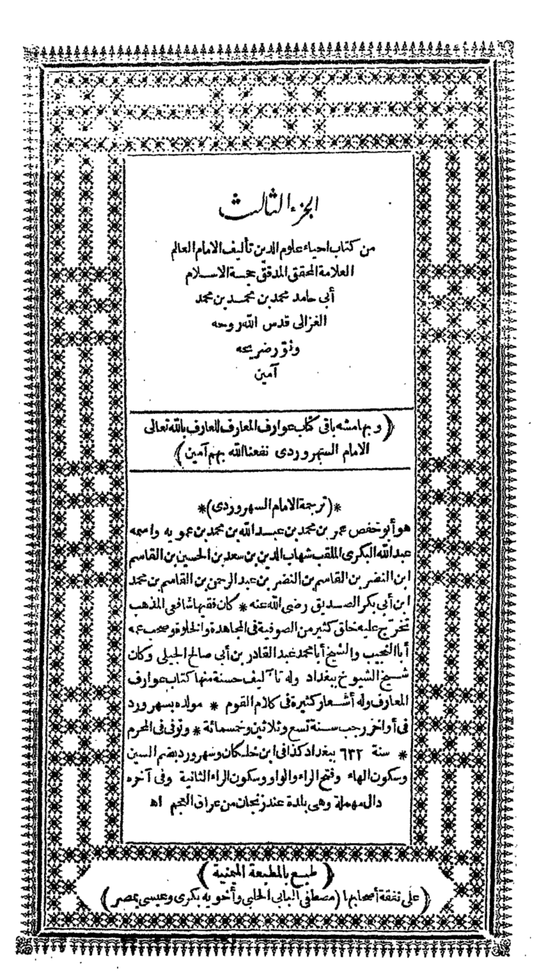




الجزء الثالث

من كتاب احياء علوم الدين تأليف الامام العالم
العلامة المحقق المدقق حجة الاسلام
أبي حامد محمد بن محمد بن محمد
الغزالي قدس الله روحه
ونور ضريحه
آمين

(وبهامشه باقي كتاب عوارف المعارف للعارف بالله تعالى
الامام السهروردي نفعنا الله بهم آمين)

(ترجمة الامام السهروردي)

هو أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمويه واسمه
عبد الله البكري الملقب شهاب الدين بن سعد بن الحسين بن القاسم
ابن النضر بن القاسم بن النضر بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد
ابن أبي بكر الصديق رضي الله عنه * كان فقيها شافعي المذهب
تخرج عليه خلق كثير من الصوفية في المجاهدة والخلوة وصحب عمه
أبا النجيب والشيخ أبا محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلي وكان
شيخ الشيوخ ببغداد وله تآليف حسنة منها كتاب عوارف
المعارف وله أشعار كثيرة في كلام القوم * مولده بسهرورد
في أواخر رجب سنة تسع وثلاثين وخمسمائة * وتوفي في المحرم
* سنة ٦٣٢ ببغداد كذا في ابن خلكان وسهرورد بضم السين
وسكون الهاء وفتح الراء والواو وسكون الراء الثانية وفي آخره
دال مهملة وهي بلدة عند زنجان من عراق العجم اهـ

(طبع بالمطبعة الميمنية)
(على نفقة أصحابها (مصطفى البابي الحلبي وأخويه بكري وعيسى بمصر)



الحمد لله الذى تتحير دون ادراك جلاله القلوب والخواطر * وتدهش فى مبادى اشراق أنواره الاحداق والنواظر * المطلع على خفيات السرائر * العالم بمكنونات الضمائر * المستغنى فى تدبير مملكته عن المشاور والموازر * مقلب القلوب وغفار الذنوب * وستار العيوب * ومفرج الكروب * والصلاة على سيد المرسلين * وجامع شمل الدين * وقاطع دابر الملحدين * وعلى آله الطيبين الطاهرين * وسلم كثيرا (أما بعد) فشرف الانسان وفضيلته التى فاق بها جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه التى هى فى الدنيا جماله وكماله وفخره وفى الآخرة عدته وذخره وانما استعد للمعرفة بقلبه لا بجارحة من جوارحه فالقلب هو العالم بالله وهو المتقرب الى الله وهو العامل لله وهو الساعى الى الله وهو المكاشف بما عند الله ولديه وانما الجوارح أتباع وخدم وآلات يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد واستخدام الراعى للرعية والصانع للآلة فالقلب هو المقبول عند الله اذا سلم من غير الله وهو المحجوب عن الله اذا صار مستغرقا بغير الله وهو المطالب وهو المخاطب وهو المعاتب وهو الذى يسعد بالقرب من الله فيفلح اذا زكاه وهو الذى يخيب ويشقى اذا دنسه ودساه وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى وانما الذى ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره * وهو العاصى المتمرد على الله تعالى وانما السارى الى الاعضاء من الفواحش آثاره * وباظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه اذ كل اناء ينضح بما فيه وهو الذى اذا عرفه الانسان فقد عرف نفسه واذا عرف نفسه فقد عرف ربه وهو الذى اذا جهله الانسان فقد جهل نفسه واذا جهل نفسه فقد جهل ربه ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل اذ أكثر الخلق جاهلون بقلوبهم وأنفسهم وقد حيل بينهم وبين أنفسهم فان الله يحول بين المرء وقلبه وحيلولته بان يمنعه عن مشاهدته ومراقبته ومعرفة صفاته وكيفية تقلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن وانه كيف يهوى مرة الى أسفل السافلين وينخفض الى أفق الشياطين وكيف يرتفع أخرى الى أعلى عليين ويرتقى الى عالم الملائكة المقربين ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ويترصد لما يلوح من خزائن

(الباب الثلاثون فى تفاصيل أخلاق الصوفية)
من أحسن أخلاق الصوفية التواضع ولا يلبس العبد لبسة أفضل من التواضع ومن ظفر بكنز التواضع والحكمة يقيم نفسه عند كل أحد مقدارا يعلم انه يقيمه ويقيم كل أحد على ماعنده من نفسه ومن رزق هذا فقد استراح وأراح ومايعقلها الا العالمون (أخبرنا) أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسى قال أنا عثمان ابن عبد الله قال أنا عبد الرحمن بن ابراهيم قال ثنا عبد الرحمن بن حمدان قال ثنا أبو حاتم الرازى قال ثنا النضر بن عبد الجبار قال أنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن سنان بن سعد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى أوحى الى أن تواضعوا ولا يبغى بعضكم على بعض وقال عليه

الملكوت عليه وفيه فهو ممن قال الله تعالى فيه نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون فمعرفة القلب وحقيقة أوصافه أصل الدين وأساس طريق السالكين واذ فرغنا من الشطر الاول من هذا الكتاب من النظر فيما يجرى على الجوارح من العبادات والعادات وهو العلم الظاهر ووعدنا أن نشرح فى الشطر الثانى ما يجرى على القلب من الصفات المهلكات والمنجيات وهو العلم الباطن فلا بد أن نقدم عليه كتابين كتابا فى شرح عجائب صفات القلب وأخلاقه وكتابا فى كيفية رياضة القلب وتهذيب أخلاقه ثم نندفع بعد ذلك فى تفصيل المهلكات والمنجيات فلنذكر الآن من شرح عجائب القلب بطريق ضرب الامثال ما يقرب من الافهام فان التصريح بعجائبه وأسراره الداخلة فى جملة عالم الملكوت مما يكل عن دركه أكثر الافهام

(بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل وما هو المراد بهذه الاسامى)

اعلم أن هذه الاسماء الاربعة تستعمل فى هذه الابواب ويقل فى فحول العلماء من يحيط بهذه الاسامى واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها وأكثر الاغاليط منشؤها الجهل بمعنى هذه الاسامى واشتراكها بين مسميات مختلفة ونحن نشرح فى معنى هذه الاسامى ما يتعلق بغرضنا *(اللفظ الاول) لفظ القلب وهو يطلق لمعنيين *أحدهما اللحم الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الايسر من الصدر وهو لحم مخصوص وفى باطنه تجويف وفى ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته اذ يتعلق به غرض الاطباء ولا يتعلق به الاغراض الدينية وهذا القلب موجود للبهائم بل هو موجود للميت ونحن اذا أطلقنا لفظ القلب فى هذا الكتاب لم نعن به ذلك فانه قطعة لحم لا قدر له وهو من عالم الملك والشهادة اذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلا عن الآدميين *والمعنى الثانى هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسمانى تعلق وتلك اللطيفة هى حقيقة الانسان وهو المدرك العالم العارف من الانسان وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب ولها علاقة مع القلب الجسمانى وقد تحيرت عقول أكثر الخلق فى ادراك وجه علاقته فان تعلقه به يضاهى تعلق الاعراض بالاجسام والاوصاف بالموصوفات أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة أو تعلق المتمكن بالمكان وشرح ذلك مما نتوقاه لمعنيين أحدهما انه متعلق بعلوم المكاشفة وليس غرضنا من هذا الكتاب الا علوم المعاملة * والثانى أن تحقيقه يستدعى افشاء سر الروح وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فليس لغيره أن يتكلم فيه والمقصود أنا اذا أطلقنا لفظ القلب فى هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقتها فى ذاتها وعلم المعاملة يفتقر الى معرفة صفاتها وأحوالها ولا يفتقر الى ذكر حقيقتها *(اللفظ الثانى) الروح وهو أيضا يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين * أحدهما جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسمانى فينتشر بواسطة العروق الضوارب الى سائر أجزاء البدن وجريانه فى البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها يضاهى فيضان النور من السراج الذى يدار فى زوايا البيت فانه لا ينتهى الى جزء من البيت الا ويستنير به والحياة مثالها النور الحاصل فى الحيطان والروح مثالها السراج وسريان الروح وحركته فى الباطن مثال حركة السراج فى جوانب البيت بتحريك محركه والاطباء اذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب وليس شرحه من غرضنا اذ المتعلق به غرض الاطباء الذين يعالجون الابدان فأما غرض أطباء الدين المعالجين للقلب حتى ينساق الى جوار رب العالمين فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلا *المعنى الثانى هو اللطيفة العالمة المدركة من الانسان وهو الذى شرحناه فى أحد معانى القلب وهو الذى أراده الله تعالى بقوله قل الروح من أمر ربى وهو أمر عجيب ربانى تعجز أكثر العقول والافهام عن درك حقيقته *(اللفظ الثالث) النفس وهو أيضا مشترك بين معان ويتعلق بغرضنا منه معنيان أحدهما أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الانسان على ما سيأتى شرحه وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف لانهم يريدون بالنفس الاصل الجامع للصفات المذمومة من الانسان فيقولون لا بد من مجاهدة النفس وكسرها واليه الاشارة بقوله عليه السلام أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك * المعنى الثانى هى اللطيفة التى ذكرناها التى هى الانسان بالحقيقة وهى نفس الانسان وذاته

السلام فى قوله تعالى قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى قال على البر والتقوى والرهبة وذلة النفس (وكان) من تواضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يجيب دعوة الحر والعبد ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب ويكافئ عليها ويأكلها ولا يستكبر عن اجابة الامة والمسكين (وأخبرنا) أبو زرعة اجازة عن ابن خلف اجازة عن السلمى قال أنا أحمد ابن على المقرى قال أنا محمد بن المنهال قال حدثنى أبى عن محمد بن جابر اليمنى عن سليمان بن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من رأس التواضع أن تبدأ بالسلام على من لقيت وترد على من سلم عليك وان ترضى بالدون من المجلس وأن لا تحب المدحة والتزكية والبر (وورد)

ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها فاذا سكنت تحت الامر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة قال الله تعالى فى مثلها يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية والنفس بالمعنى الاول لا يتصور رجوعها الى الله تعالى فانها مبعدة عن الله وهى من حزب الشيطان واذا لم يتم سكونها ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت النفس اللوامة لانها تلوم صاحبها عند تقصيره فى عبادة مولاه قال الله تعالى ولا أقسم بالنفس اللوامة وان تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعى الشيطان سميت النفس الامارة بالسوء قال الله تعالى اخبارا عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز وما أبرئ نفسى ان النفس لامارة بالسوء وقد يجوز أن يقال المراد بالامارة بالسوء هى النفس بالمعنى الاول فاذا النفس بالمعنى الاول مذمومة غاية الذم وبالمعنى الثانى محمودة لانها نفس الانسان أى ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات *(اللفظ الرابع) العقل وهو أيضا مشترك لمعان مختلفة ذكرناها فى كتاب العلم والمتعلق بغرضنا من جملتها معنيان أحدهما انه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الامور فيكون عبارة عن صفة العلم الذى محله القلب والثانى انه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعنى تلك اللطيفة ونحن نعلم ان كل عالم فله فى نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه والعلم صفة حالة فيه والصفة غير الموصوف والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم وقد يطلق ويراد به محل الادراك أعنى المدرك وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم أول ما خلق الله العقل فان العلم عرض لا يتصور أن يكون أول مخلوق بل لابد وأن يكون المحل مخلوقا قبله أو معه ولانه لا يمكن الخطاب معه وفى الخبر أنه قال له تعالى أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر الحديث فاذا قد انكشف لك أن معانى هذه الاسماء موجودة وهى القلب الجسمانى والروح الجسمانى والنفس الشهوانية والعلوم فهذه أربعة معان يطلق عليها الالفاظ الاربعة ومعنى خامس وهى اللطيفة العالمة المدركة من الانسان والالفاظ الاربعة بجملتها تتوارد عليها فالمعانى خمسة والالفاظ أربعة وكل لفظ أطلق لمعنيين وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف هذه الالفاظ وتواردها فتراهم يتكلمون فى الخواطر ويقولون هذا خاطر العقل وهذا خاطر الروح وهذا خاطر القلب وهذا خاطر النفس وليس يدرى الناظر اختلاف معانى هذه الاسماء ولاجل كشف الغطاء عن ذلك قدمنا شرح هذه الاسامى وحيث ورد فى القرآن والسنة لفظ القلب فالمراد به المعنى الذى يفقه من الانسان ويعرف حقيقة الاشياء وقد يكنى عنه بالقلب الذى فى الصدر لان بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة فانها وان كانت متعلقة بسائر البدن ومستعملة له ولكنها تتعلق به بواسطة القلب فتعلقها الاول بالقلب وكأنه محلها ومملكتها وعالمها ومطيتها ولذلك شبه سهل التسترى القلب بالعرش والصدر بالكرسى فقال القلب هو العرش والصدر هو الكرسى ولا يظن به انه يرى أنه عرش الله وكرسيه فان ذلك محال بل أراد به انه مملكته والمجرى الاول لتدبيره وتصرفه فهما بالنسبة اليه كالعرش والكرسى بالنسبة الى الله تعالى ولا يستقيم هذا التشبيه أيضا الا من بعض الوجوه وشرح ذلك أيضا لا يليق بغرضنا فلنجاوزه

(بيان جنود القلب)

قال الله تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو فلله سبحانه فى القلوب والارواح وغيرها من العوالم جنود مجندة لا يعرف حقيقتها وتفصيل عددها الا هو ونحن الآن نشير الى بعض جنود القلب فهو الذى يتعلق بغرضنا وله جندان جند يرى بالابصار وجند لا يرى الا بالبصائر وهو فى حكم الملك والجنود فى حكم الخدم والاعوان فهذا معنى الجند فاما جنده المشاهد بالعين فهو اليد والرجل والعين والاذن واللسان وسائر الاعضاء الظاهرة والباطنة فان جميعها خادمة للقلب ومسخرة له فهو المتصرف فيها والمردد لها وقد خلقت مجبولة على طاعته لا تستطيع له خلافا ولا عليه تمردا فاذا أمر العين بالانفتاح انفتحت واذا أمر الرجل بالحركة تحركت واذا أمر اللسان بالكلام وجزم الحكم به تكلم وكذا سائر الاعضاء وتسخير الاعضاء والحواس للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة لله تعالى فانهم مجبولون على الطاعة لا يستطيعون له خلافا بل لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وانما يفترقان فى شئ وهو أن الملائكة عليهم السلام عالمة بطاعتها وامتثالها والاجفان تطيع القلب فى الانفتاح والانطباق على سبيل

أيضا عنه عليه السلام طوبى لمن تواضع من غير منقصة وذل فى نفسه من غير مسكنة (سئل الجنيد) عن التواضع فقال خفض الجناح ولين الجانب (وسئل) الفضيل عن التواضع فقال تخضع للحق وتنقاد له وتقبله ممن قاله وتسمع منه (وقال أيضا) من رأى لنفسه قيمة فليس له فى التواضع نصيب (وقال) وهب بن منبه مكتوب فى كتب الله انى أخرجت الذر من صلب آدم فلم أجد قلبا أشد تواضعا الى من قلب موسى عليه السلام فلذلك اصطفيته وكلمته (وقيل) من عرف كون نفسه لم يطمع فى العلو والشرف وسلك سبيل التواضع فلا يخاصم من يذمه ويشكر الله لمن يحمده وقال أبو حفص من أحب أن يتواضع قلبه فليصحب الصالحين وليلتزم بحرمتهم فمن شدة

التسخير ولا اخبرا لها من نفسها ومن طاعتها للقلب وانما افتقر القلب الى هذه الجنود من حيث افتقاره الى المركب والزاد لسفره الذى لاجله خلق وهو السفر الى الله سبحانه وقطع المنازل الى لقائه فلاجله خلقت القلوب قال الله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وانما مركبه البدن وزاده العلم وانما الاسباب التى توصله الى الزاد وتمكنه من التزود منه هو العمل الصالح وليس يمكن العبد أن يصل الى الله سبحانه مالم يسكن البدن ولم يجاوز الدنيا فان المنزل الادنى لابد من قطعه للوصول الى المنزل الاقصى فالدنيا مزرعة الآخرة وهى منزل من منازل الهدى وانما سميت دنيا لانها أدنى المنزلتين فاضطر الى أن يتزود من هذا العالم فالبدن مركبه الذى يصل به الى هذا العالم فافتقر الى تعهد البدن وحفظه وانما يحفظ البدن بان يجلب اليه ما يوافقه من الغذاء وغيره وأن يدفع عنه ما ينافيه من أسباب الهلاك فافتقر لاجل جلب الغذاء الى جندين باطن وهو الشهوة وظاهر وهو اليد والاعضاء الجالبة للغذاء فخلق فى القلب من الشهوات ما احتاج اليه وخلقت الاعضاء التى هى آلات الشهوات فافتقر لاجل دفع المهلكات الى جندين باطن وهو الغضب الذى به يدفع المهلكات وينتقم من الاعداء وظاهر وهو اليد والرجل الذى بهما يعمل بمقتضى الغضب وكل ذلك بامور خارجة فالجوارح من البدن كالاسلحة وغيرها ثم المحتاج الى الغذاء مالم يعرف الغذاء لم تنفعه شهوة الغذاء والفه فافتقر للمعرفة الى جندين باطن وهو ادراك السمع والبصر والشم واللمس والذوق وظاهر وهو العين والاذن والانف وغيرها وتفصيل وجه الحاجة اليها ووجه الحكمة فيها يطول ولا تحويه مجلدات كثيرة وقد أشرنا الى طرف يسير منها فى كتاب الشكر فليقتنع به فجملة جنود القلب تحصرها ثلاثة أصناف صنف باعث ومستحث اما الى جلب النافع الموافق كالشهوة واما الى دفع الضار المنافى كالغضب وقد يعبر عن هذا الباعث بالارادة والثانى هو المحرك للاعضاء الى تحصيل هذه المقاصد ويعبر عن هذا الثانى بالقدرة وهى جنود مبثوثة فى سائر الاعضاء لاسيما العضلات منها والاوتار والثالث هو المدرك المتعرف للاشياء كالجواسيس وهى قوة البصر والسمع والشم والذوق واللمس وهى مبثوثة فى أعضاء معينة ويعبر عن هذا بالعلم والادراك ومع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة وهى الاعضاء المركبة من الشحم واللحم والعصب والدم والعظم التى أعدت آلات لهذه الجنود فان قوة البطش انما هى بالاصابع وقوة البصر انما هى بالعين وكذا سائر القوى ولسنا نتكلم فى الجنود الظاهرة أعنى الاعضاء فانها من عالم الملك والشهادة وانما نتكلم الآن فيما أيدته به من جنود لم تروها وهذا الصنف الثالث وهو المدرك من هذه الجملة ينقسم الى ما قد أسكن المنازل الظاهرة وهى الحواس الخمس أعنى السمع والبصر والشم والذوق واللمس والى ما أسكن منازل باطنة وهى تجاويف الدماغ وهى أيضا خمسة فان الانسان بعد رؤية الشئ يغمض عينيه فيدرك صورته فى نفسه وهو الخيال ثم تبقى تلك الصورة معه بسبب شئ يحفظه وهو الجند الحافظ ثم يتفكر فيما حفظه فيركب بعض ذلك الى البعض ثم يتذكر ما قد نسيه ويعود اليه ثم يجمع جملة معانى المحسوسات فى خياله بالحس المشترك بين المحسوسات ففى الباطن حس مشترك وتخيل وتفكر وتذكر وحفظ ولولا خلق الله قوة الحفظ والفكر والذكر والتخيل لكان الدماغ يخلو عنه كما تخلو اليد والرجل عنه فتلك القوى أيضا جنود باطنة وأماكنها أيضا باطنة فهذه هى أقسام جنود القلب وشرح ذلك بحيث يدركه فهم الضعفاء بضرب الامثلة يطول ومقصود مثل هذا الكتاب أن ينتفع به الاقوياء والفحول من العلماء ولكنا نجتهد فى تفهيم الضعفاء بضرب الامثلة ليقرب ذلك من أفهامهم

(بيان أمثلة القلب مع جنوده الباطنة)

اعلم أن جندى الغضب والشهوة قد ينقادان للقلب انقيادا تاما فيعينه ذلك على طريقه الذى يسلكه وتحسن مرافقتهما فى السفر الذى هو بصدده وقد يستعصيان عليه استعصاء بغى وتمرد حتى يملكاه ويستعبداه وفيه هلاكه وانقطاعه عن سفره الذى به وصوله الى سعادة الابد وللقلب جند آخر وهو العلم والحكمة والتفكر كما سيأتى شرحه وحقه أن يستعين بهذا الجند فانه حزب الله تعالى على الجندين الآخرين فانهما قد يلتحقان بحزب الشيطان فان ترك الاستعانة وسلط على نفسه جند الغضب والشهوة هلك يقينا وخسر خسرانا مبينا وذلك حالة أكثر الخلق فان عقولهم صارت مسخرة لشهواتهم فى استنباط الحيل لقضاء الشهوة وكان ينبغى أن تكون

تواضعهم فى أنفسهم يقتدى بهم ولا يتكبر (وقال لقمان عليه السلام) لكل شئ مطية ومطية العمل التواضع (وقال النورى) خمسة أنفس أعز الخلق فى الدنيا عالم زاهد وفقيه صوفى وغنى متواضع وفقير شاكر وشريف سنى (وقال الجلاء) لولا شرف التواضع كنا اذا مشينا نخطر وقال يوسف بن أسباط وقد سئل ما غاية التواضع قال ان تخرج من بيتك فلا تلقى أحدا الا رأيته خيرا منك ورأيت شيخنا ضياء الدين أبا النجيب وكنت معه فى سفره الى الشام وقد بعث بعض أبناء الدنيا اليه طعاما على رؤس الاسارى من الافرنج وهم فى قيودهم فلما مدت السفرة والاسارى ينتظرون الاوانى حتى تفرغ قال للخادم أحضر الاسارى حتى يقعدوا على السفرة مع الفقراء فجاء بهم

الشهوة مسخرة لعقولهم فيما يفتقر العقل اليه ونحن نقرب ذلك الى فهمك بثلاثة أمثلة *(المثال الاول)* أن نقول مثل نفس الانسان فى بدنه أعنى بالنفس اللطيفة المذكورة كمثل ملك فى مدينته ومملكته فان البدن مملكة النفس وعالمها ومستقرها ومدينتها وجوارحها وقواها بمنزلة الصناع والعملة والقوة العقلية المفكرة له كالمشير الناصح والوزير العاقل والشهوة له كالعبد السوء يجلب الطعام والميرة الى المدينة والغضب والحمية له كصاحب الشرطة والعبد الجالب للميرة كذاب مكار خداع خبيث يتمثل بصورة الناصح وتحت نصحه الشر الهائل والسم القاتل وديدنه وعادته منازعة الوزير الناصح فى آرائه وتدبيراته حتى أنه لا يخلو عن منازعته ومعارضته ساعة فكما أن الوالى فى مملكته اذا كان مستغنيا فى تدبيراته بوزيره ومستشيرا له ومعرضا عن اشارة هذا العبد الخبيث مستدلا باشارته فى أن الصواب فى نقيض رأيه وأدبه صاحب شرطته وساسه لوزيره وجعله مؤتمرا له مسلطا من جهته على هذا العبد الخبيث وأتباعه وأنصاره حتى يكون العبد مسوسا لا سائسا ومأمورا مدبرا لا أميرا مدبرا استقام أمر بلده وانتظم العدل بسببه فكذا النفس متى استعانت بالعقل وأدبت بحمية الغضب وسلطتها على الشهوة واستعانت باحداهما على الاخرى تارة بأن تقلل مرتبة الغضب وغلوائه بمخالفة الشهوة واستدراجها وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها وتقبيح مقتضياتها اعتدلت قواها وحسنت أخلاقها ومن عدل عن هذه الطريقة كان كمن قال الله تعالى فيه أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وقال تعالى واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث وقال عز وجل فيمن نهى النفس عن الهوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى وسيأتى كيفية مجاهدة هذه الجنود وتسليط بعضها على بعض فى كتاب رياضة النفس ان شاء الله تعالى (المثال الثانى) اعلم أن البدن كالمدينة والعقل أعنى المدرك من الانسان كملك مدبر لها وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده وأعوانه وأعضاؤه كرعيته والنفس الامارة بالسوء التى هى الشهوة والغضب كعدو ينازعه فى مملكته ويسعى فى اهلاك رعيته فصار بدنه كرباط وثغر ونفسه كمقيم فيه مرابط فان هو جاهد عدوه وهزمه وقهره على ما يحب حمد أثره اذا عاد الى الحضرة كما قال تعالى والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وان ضيع ثغره وأهمل رعيته ذم أثره فانتقم منه عند الله تعالى فيقال له يوم القيامة يا راعى السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تأو الضالة ولم تجبر الكسير اليوم أنتقم منك كما ورد فى الخبر والى هذه المجاهدة الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر (المثال الثالث) مثل العقل مثال فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه فمتى كان الفارس حاذقا وفرسه مروضا وكلبه مؤدبا معلما كان جديرا بالنجاح ومتى كان هو فى نفسه أخرق وكان الفرس جموحا والكلب عقورا فلا فرسه ينبعث تحته منقادا ولا كلبه يسترسل باشارته مطيعا فهو خليق بأن يعطب فضلا عن أن ينال ما طلب وانما خرق الفارس مثل جهل الانسان وقلة حكمته وكلال بصيرته وجماح الفرس مثل غلبة الشهوة خصوصا شهوة البطن والفرج وعقر الكلب مثل غلبة الغضب واستيلائه نسأل الله حسن التوفيق بلطفه

(بيان خاصية قلب الانسان)

اعلم ان جملة ما ذكرناه قد أنعم الله به على سائر الحيوانات سوى الآدمى اذ للحيوان الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة أيضا حتى ان الشاة ترى الذئب بعينها فتعلم عداوته بقلبها فتهرب منه فذلك هو الادراك الباطن فلنذكر ما يختص به قلب الانسان ولاجله عظم شرفه واستأهل القرب من الله تعالى وهو راجع الى علم وارادة أما العلم فهو العلم بالامور الدنيوية والاخروية والحقائق العقلية فان هذه أمور وراء المحسوسات ولا يشاركه فيها الحيوانات بل العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل اذ يحكم الانسان بأن الشخص الواحد لا يتصور أن يكون فى مكانين فى حالة واحدة وهذا حكم منه على كل شخص ومعلوم انه لم يدرك بالحس الا بعض الاشخاص فحكمه على جميع الاشخاص زائد على ما أدركه الحس واذا فهمت هذا فى العلم الظاهر الضرورى فهو فى سائر النظريات أظهر وأما الارادة فانه اذا أدرك بالعقل عاقبة الامر وطريق الصلاح فيه انبعث من ذاته

وأقعدهم على السفرة صفا واحدا وقام الشيخ من سجادته ومشى اليهم وقعد بينهم كالواحد منهم فأكل وأكلوا وظهر لنا على وجهه ما نزل باطنه من التواضع لله والانكسار فى نفسه وانسلاخه من التكبر عليهم بايمانه وعلمه وعمله (أخبرنا) أبو زرعة اجازة عن أبى بكر بن خلف اجازة عن السلمى قال سمعت أبا الحسين الفارسى يقول سمعت الجريرى يقول صح عند أهل المعرفة أن للدين رأس مال خمسة فى الظاهر وخمسة فى الباطن فأما اللواتى فى الظاهر فصدق فى اللسان وسخاوة فى الملك وتواضع فى الابدان وكف الاذى واحتماله بلا اباء وأما اللواتى فى الباطن فحب وجود سيده وخوف الفراق من سيده ورجاء الوصول الى سيده والندم على فعله والحياء من ربه

شوق الى جهة المصلحة والى تعاطى أسبابها والارادة لها وذلك غير ارادة الشهوة وارادة الحيوانات بل يكون على ضد الشهوة فان الشهوة تنفر عن الفصد والحجامة والعقل يريدها ويطلبها ويبذل المال فيها والشهوة تميل الى لذائذ الاطعمة فى حين المرض والعاقل يجد فى نفسه زاجرا عنها وليس ذلك زاجر الشهوة ولو خلق الله العقل المعرف بعواقب الامور ولم يخلق هذا الباعث المحرك للاعضاء على مقتضى حكم العقل لكان حكم العقل ضائعا على التحقيق فاذا قلب الانسان اختص بعلم وارادة ينفك عنها سائر الحيوان بل ينفك عنها الصبى فى أول الفطرة وانما يحدث ذلك فيه بعد البلوغ وأما الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة فانها موجودة فى حق الصبى ثم الصبى فى حصول هذه العلوم فيه له درجتان * احداهما أن يشتمل قلبه على سائر العلوم الضرورية الاولية كالعلم باستحالة المستحيلات وجواز الجائزات الظاهرة فتكون العلوم النظرية فيه غير حاصلة الا انها صارت ممكنة قريبة الامكان والحصول ويكون حاله بالاضافة الى العلوم كحال الكاتب الذى لا يعرف من الكتابة الا الدواة والقلم والحروف المفردة دون المركبة فانه قد قارب الكتابة ولم يبلغها بعد * الثانية أن تحصل له العلوم المكتسبة بالتجارب والفكر فتكون كالمخزونة عنده فاذا شاء رجع اليها وحاله حال الحاذق بالكتابة اذ يقال له كاتب وان لم يكن مباشرا للكتابة بقدرته عليها وهذه هى غاية درجة الانسانية ولكن فى هذه الدرجة مراتب لا تحصى يتفاوت الخلق فيها بكثرة المعلومات وقلتها وبشرف المعلومات وخستها وبطريق تحصيلها اذ تحصل لبعض القلوب بالهام الهى على سبيل المبادأة والمكاشفة ولبعضهم بتعلم واكتساب وقد يكون سريع الحصول وقد يكون بطىء الحصول وفى هذا المقام تتباين منازل العلماء والحكماء والانبياء والاولياء فدرجات الترقى فيه غير محصورة اذ معلومات الله سبحانه لا نهاية لها وأقصى الرتب رتبة النبى الذى تنكشف له كل الحقائق أو أكثرها من غير اكتساب وتكلف بل بكشف الهى فى أسرع وقت وبهذه السعادة يقرب العبد من الله تعالى قربا بالمعنى والحقيقة والصفة لا بالمكان والمسافة ومراقى هذه الدرجات هى منازل السائرين الى الله تعالى ولا حصر لتلك المنازل وانما يعرف كل سالك منزله الذى بلغه فى سلوكه فيعرفه ويعرف ما خلفه من المنازل فاما ما بين يديه فلا يحيط بحقيقته علما لكن قد يصدق به ايمانا بالغيب كما انا نؤمن بالنبوة والنبى ونصدق بوجوده ولكن لا يعرف حقيقة النبوة الا النبى وكما لا يعرف الجنين حال الطفل ولا الطفل حال المميز وما يفتح له من العلوم الضرورية ولا المميز حال العاقل وما اكتسبه من العلوم النظرية فكذلك لا يعرف العاقل ما افتتح الله على أوليائه وأنبيائه من مزايا لطفه ورحمته ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وهذه الرحمة مبذولة بحكم الجود والكرم من الله سبحانه وتعالى غير مضنون بها على أحد ولكن انما تظهر فى القلوب المتعرضة لنفحات رحمة الله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم ان لربكم فى أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لها والتعرض لها بتطهير القلب وتزكيته من الخبث والكدورة الحاصلة من الاخلاق المذمومة كما سيأتى بيانه والى هذا الجود الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم ينزل الله كل ليلة الى سماء الدنيا فيقول هل من داع فاستجيب له وبقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن ربه عز وجل لقد طال شوق الابرار الى لقائى وأنا الى لقائهم أشد شوقا وبقوله تعالى من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا كل ذلك اشارة الى ان أنوار العلوم لم تحتجب عن القلوب لبخل ومنع من جهة المنعم تعالى عن البخل والمنع علوا كبيرا ولكن حجبت لخبث وكدورة وشغل من جهة القلوب فان القلوب كالاوانى فما دامت ممتلئة بالماء لا يدخلها الهواء فالقلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله تعالى والیه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا الى ملكوت السماء ومن هذه الجملة يتبين ان خاصية الانسان العلم والحكمة وأشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله فيه كمال الانسان وفى كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال فالبدن مركب للنفس والنفس محل للعلم والعلم هو مقصود الانسان وخاصيته التى لاجله خلق وكما أن الفرس يشارك الحمار فى قوة الحمل ويختص عنه بخاصية الكر والفر وحسن الهيئة فيكون الفرس مخلوقا لاجل تلك الخاصية فان تعطلت منه نزل الى حضيض رتبة الحمار كذلك الانسان يشارك الحمار والفرس فى أمور ويفارقهما فى أمور هى خاصيته وتلك الخاصية من صفات الملائكة المقربين من رب العالمين والانسان على

وقال يحيى بن معاذ التواضع فى الخلق حسن ولكن فى الاغنياء أحسن والتكبر سمج فى الخلق ولكن فى الفقراء أسمج (وقال ذو النون) ثلاثة من علامات التواضع تصغير النفس معرفة بالعيب وتعظيم الناس حرمة للتوحيد وقبول الحق والنصيحة من كل واحد (وقيل) لابى يزيد متى يكون الرجل متواضعا قال اذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا من علمه بشرها وازدرائها ولا يرى ان فى الخلق شرا منه (قال) بعض الحكماء وجدنا التواضع مع الجهل والبخل أحمد من الكبر مع الادب والسخاء وقيل لبعض الحكماء هل تعرف نعمة لا يحسد عليها وبلاء لا يرحم صاحبه عليه قال نعم أما النعمة فالتواضع وأما البلاء فالكبر والكشف عن حقيقة التواضع ان

رتبة بين البهائم والملائكة فان الانسان من حيث يتغذى و ينسل فنبات ومن حيث يحس و يتحرك بالاختيار فحيوان ومن حيث صورته وقامته فكالصورة المنقوشة على الحائط وانما خاصيته معرفة حقائق الاشياء فمن استعمل جميع أعضائه وقواه على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة فحقيق بأن يلحق بهم وجدير بأن يسمى ملكا وربانيا كما أخبر الله تعالى عن صواحبات يوسف عليه السلام بقوله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم ومن صرف همته الى اتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الانعام فقد انحط الى حضيض أفق البهائم فيصير اما غمرا كثور واما شرها كخنزير واما ضريا ككلب أوسنور أوحقودا كجمل أومتكبرا كنمر أوذا روغان كثعلب أو يجمع ذلك كله كشيطان مريد وما من عضو من الاعضاء ولا حاسة من الحواس الا ويمكن الاستعانة به على طريق الوصول الى الله تعالى كما سيأتي بيان طرف منه في كتاب الشكر فمن استعمله فيه فقد فاز ومن عدل عنه فقد خسر وخاب وجملة السعادة في ذلك أن يجعل لقاء الله تعالى مقصده والدار الآخرة مستقره والدنيا منزله والبدن مركبه والاعضاء خدمه فيستقر هو أعني المدرك من الانسان في القلب الذي هو وسط مملكته كالملك و يجري القوة الخيالية المودعة في مقدم الدماغ مجرى صاحب بريده اذ تجتمع أخبار المحسوسات عنده ويجري القوة الحافظة التي مسكنها مؤخر الدماغ مجرى خازنه و يجري اللسان مجرى ترجمانه و يجري الاعضاء المتحركة مجرى كتابه و يجري الحواس الخمس مجرى جواسيسه فيوكل كل واحد منها بأخبار صقع من الاصقاع فيوكل العين بعالم الالوان والسمع بعالم الاصوات والشم بعالم الروائح وكذلك سائرها فانها أصحاب أخبار يلتقطونها من هذه العوالم و يؤدونها الى القوة الخيالية التي هي كصاحب البريد و يسلمها صاحب البريد الى الخازن وهي الحافظة و يعرضها الخازن على الملك فيقتبس الملك منها ما يحتاج اليه في تدبير مملكته واتمام سفره الذي هو بصدده وقمع عدوه الذي هو مبتلى به ودفع قواطع الطريق عليه فاذا فعل ذلك كان موفقا سعيدا شاكرا نعمة الله واذا عطل هذه الجملة أو استعملها لكن في مراعاة أعدائه وهي الشهوة والغضب وسائر الحظوظ العاجلة أوفي عمارة طريقه دون منزله اذ الدنيا طريقه التي عليها عبوره ووطنه ومستقره الآخرة كان مخذولا شقيا كافرا بنعمة الله تعالى مضيعا لجنود الله تعالى ناصرا لأعداء الله مخذلا لحزب الله فيستحق المقت والابعاد في المنقلب والمعاد نعوذ بالله من ذلك والى المثال الذي ضربناه أشار كعب الاحبار حيث قال دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت الانسان عيناه هاد وأذناه قمع ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريد والقلب منه ملك فاذا طاب الملك طابت جنوده فقالت هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وقال علي رضي الله عنه في تمثيل القلوب ان لله تعالى في أرضه آنية وهي القلوب فأحبها اليه تعالى أرقها وأصفاها وأصلبها ثم فسره فقال أصلبها في الدين وأصفاها في اليقين وأرقها على الاخوان وهو اشارة الى قوله تعالى أشداء على الكفار رحماء بينهم وقوله تعالى مثل نوره كمشكاة فيها مصباح قال أبي بن كعب رضي الله عنه معناه مثل نور المؤمن وقلبه وقوله تعالى أو كظلمات في بحر لجي مثل قلب المنافق وقال زيد بن أسلم في قوله تعالى في لوح محفوظ وهو قلب المؤمن وقال سهل مثل القلب والصدر مثل العرش والكرسي فهذه أمثلة القلب

(بيان مجامع أوصاف القلب وأمثلته)

اعلم أن الانسان قد اصطحب في خلقته وتركيبه أربع شوائب فلذلك اجتمع عليه أربعة أنواع من الاوصاف وهي الصفات السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية فهو من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء والتهجم على الناس بالضرب والشتم ومن حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق وغيره ومن حيث انه في نفسه أمر رباني كما قال الله تعالى قل الروح من أمر ربي فانه يدعي لنفسه الربوبية و يحب الاستيلاء والاستعلاء والتخصص والاستبداد بالامور كلها والتفرد بالرياسة والانسلال عن ربقة العبودية والتواضع و يشتهي الاطلاع على العلوم كلها بل يدعي لنفسه العلم والمعرفة والاحاطة بحقائق الامور و يفرح اذا نسب الى العلم و يحزن اذا نسب الى الجهل والاحاطة بجميع الحقائق والاستيلاء بالقهر على جميع الخلائق من أوصاف الربوبية وفي الانسان حرص على ذلك ومن حيث يختص من البهائم بالتمييز مع

التواضع رعاية الاعتدال بين الكبر والضعة فالكبر رفع الانسان نفسه فوق قدره والضعة وضع الانسان نفسه مكانا يزري به و يفضي الى تضييع حقه وقد انفهم من كثير من اشارات المشايخ في شرح التواضع أشياء الى حد أقاموا التواضع فيه مقام الضعة و يلوح فيه الهوى من أوج الافراط الى حضيض التفريط يوهم انحرافا عن حد الاعتدال و يكون قصدهم في ذلك المبالغة في قمع نفوس المريدين خوفا عليهم من العجب والكبر فقل أن ينفك مريد في مبادي ظهور سلطان الحال من العجب حتى لقد نقل عن جمع من الكبار كلمات مؤذنة بالاعجاب وكل ما نقل من ذلك القبيل من المشايخ لبقايا السكر عندهم وانحصارهم في مضيق سكر الحال وعدم

مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شريرا يستعمل التمييز في استنباط وجوه الشر ويتوصل الى الاغراض بالمكر والحيلة والخداع ويظهر الشر في معرض الخير وهذه أخلاق الشياطين وكل انسان فيه شوب من هذه الاصول الاربعة أعني الربانية والشيطانية والسبعية والبهيمية وكل ذلك مجموع في القلب فكأن المجموع في اهاب الانسان خنزير وكلب وشيطان وحكيم فالخنزير هو الشهوة فانه لم يكن الخنزير مذموما للونه وشكله وصورته بل لجشعه وكلبه وحرصه والكلب هو الغضب فان السبع الضاري والكلب العقور ليس كلبا وسبعا باعتبار الصورة واللون والشكل بل روح معنى السبعية الضراوة والعدوان والعقور وفي باطن الانسان ضراوة السبع وغضبه وحرص الخنزير وشبقه فالخنزير يدعو بالشره الى الفحشاء والمنكر والسبع يدعو بالغضب الى الظلم والايذاء والشيطان لا يزال يهيج شهوة الخنزير وغيظ السبع ويغري أحدهما بالآخر ويحسن لهما ما هما مجبولان عليه والحكيم الذي هو مثال العقل مأمور بان يدفع كيد الشيطان ومكره بان يكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة ونوره المشرق الواضح وأن يكسر شره هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه اذ بالغضب يكسر سورة الشهوة ويدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه ويجعل الكلب مقهورا تحت سياسته فان فعل ذلك وقدر عليه اعتدل الامر وظهر العدل في مملكة البدن وجرى الكل على الصراط المستقيم وان عجز عن قهرها قهروه واستخدموه فلا يزال في استنباط الحيل وتدقيق الفكر ليشبع الخنزير ويرضي الكلب فيكون دائما في عبادة كلب وخنزير وهذا حال أكثر الناس مهما كان أكثر همتهم البطن والفرج ومنافسة الاعداء والعجب منه ان ينكر على عبدة الاصنام عبادتهم للحجارة ولو كشف الغطاء عنه وكوشف بحقيقة حاله ومثل له حقيقة حاله كما يمثل للمكاشفين اما في النوم أو في اليقظة لرأى نفسه ماثلا بين يدي خنزير ساجدا له مرة وراكعا أخرى ومنتظرا لاشارته وأمره فمهما هاج الخنزير لطلب شئ من شهواته انبعث على الفور في خدمته واحضار شهوته أو رأى نفسه ماثلا بين يدي كلب عقور عابدا له مطيعا سامعا لما يقتضيه ويلتمسه مدققا بالفكر في حيل الوصول الى طاعته وهو بذلك ساع في مسرة شيطانه فانه الذي يهيج الخنزير ويثير الكلب ويبعثهما على استخدامه فهو من هذا الوجه يعبد الشيطان بعبادتهما فليراقب كل عبد حركاته وسكناته وسكوته ونطقه وقيامه وقعوده ولينظر بعين البصيرة فلا يرى ان أنصف نفسه الا ساعيا طول النهار في عبادة هؤلاء وهذا غاية الظلم اذ جعل المالك مملوكا والرب مربوبا والسيد عبدا والقاهر مقهورا اذ العقل هو المستحق للسيادة والقهر والاستيلاء وقد سخره لخدمة هؤلاء الثلاثة فلا جرم ينتشر الى قلبه من طاعة هؤلاء الثلاثة صفات تتراكم عليه حتى يصير طابعا ورينا مهلكا للقلب ومميتا له أما طاعة خنزير الشهوة فيصدر منها صفة الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والحرص والجشع والملق والحسد والحقد والشماتة وغيرها وأما طاعة كلب الغضب فتنتشر منها الى القلب صفة التهور والبذالة والبذخ والصلف والاستشاطة والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف وتحقير الخلق وارادة الشر وشهوة الظلم وغيرها وأما طاعة الشيطان بطاعة الشهوة والغضب فيحصل منها صفة المكر والخداع والحيلة والدهاء والجراءة والتلبيس والتضريب والغش والخب والخنا وأمثالها ولو عكس الامر وقهر الجميع تحت سياسة الصفة الربانية لاستقر في القلب من الصفات الربانية العلم والحكمة واليقين والاحاطة بحقائق الاشياء ومعرفة الامور على ما هي عليه والاستيلاء على الكل بقوة العلم والبصيرة واستحقاق التقدم على الخلق لكمال العلم وجلاله ولاستغنى عن عبادة الشهوة والغضب ولانتشر اليه من ضبط خنزير الشهوة ورده الى حد الاعتدال صفات شريفة مثل العفة والقناعة والهدو والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والظرف والمساعدة وأمثالها ويحصل فيه من ضبط قوة الغضب وقهرها وردها الى حد الواجب صفة الشجاعة والكرم والنجدة وضبط النفس والصبر والحلم والاحتمال والعفو والثبات والنبل والشهامة والوقار وغيرها فالقلب في حكم مرآة قد اكتنفته هذه الامور المؤثرة فيه وهذه الآثار على التواصل واصلة الى القلب اما الآثار المحمودة التي ذكرناها فانها تزيد مرآة القلب جلاء واشراقا ونورا وضياء حتى يتلألأ فيه جلية الحق وينكشف فيه حقيقة الامر المطلوب في الدين والى مثل هذا القلب الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله

الخروج الى قضاء الصحو في ابتداء أمرهم وذلك اذا حدق صاحب البصيرة نظره يعلم انه من استراق النفس السمع عند نزول الوارد على القلب والنفس اذا استرقت السمع عند ظهور الوارد على القلب ظهرت بصفتها على وجه لا يخفو على الوقت وصلافة الحال فيكون من ذلك كلمات مؤذنة بالعجب كقول بعضهم من تحت خضراء السماء مثلي وقول بعضهم قدمي على رقبة جميع الاولياء وكقول بعضهم أسرجت وألجمت وطفت في أقطار الارض وقلت هل من مبارز فلم يخرج الى أحد اشارة منه في ذلك الى تفرده في وقته ومن أشكل عليه ذلك ولم يعلم انه من استراق النفس السمع فليزن ذلك بميزان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتواضعهم واجتنابهم أمثال هذه

بعبد خيرا جعل له واعظا من قلبه وبقوله صلى الله عليه وسلم من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ وهذا القلب هو الذى يستقر فيه الذكر قال الله تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب وأما الآثار المذمومة فانها مثل دخان مظلم يتصاعد الى مرآة القلب ولا يزال يتراكم عليه مرة بعد أخرى الى أن يسود ويظلم ويصير بالكلية محجوبا عن الله تعالى وهو الطبع وهو الرين قال الله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون وقال عز وجل أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون فربط عدم السماع بالطبع بالذنوب كما ربط السماع بالتقوى فقال تعالى واتقوا الله واسمعوا واتقوا الله ويعلمكم الله ومهما تراكمت الذنوب طبع على القلوب وعند ذلك يعمى القلب عن ادراك الحق وصلاح الدين ويستهين بأمر الآخرة ويستعظم أمر الدنيا ويصير مقصورا لهم عليها فاذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الاخطار دخل من اذن وخرج من اذن ولم يستقر فى القلب ولم يحركه الى التوبة والتدارك أولئك الذين يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور وهذا هو معنى اسوداد القلب بالذنوب كما نطق به القرآن والسنة قال ميمون بن مهران اذا أذنب العبد ذنبا نكت فى قلبه نكتة سوداء فاذا هو نزع وتاب صقل وان عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه فهو الران وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر وقلب الكافر أسود منكوس فطاعة الله سبحانه بمخالفة الشهوات مصقلة للقلب ومعاصيه مسودات له فمن أقبل على المعاصى اسود قلبه ومن اتبع السيئة الحسنة ومحا أثرها لم يظلم قلبه ولكن ينقص نوره كالمرآة التى يتنفس فيها ثم تمسح ويتنفس ثم تمسح فانها لا تخلو عن كدورة وقد قال صلى الله عليه وسلم القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق وقلب مصفح فيه ايمان ونفاق فمثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فأى المادتين غلبت عليه حكم له بها وفى رواية ذهبت به قال الله تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون فاخبر أن جلاء القلب وابصاره يحصل بالذكر وأنه لا يتمكن منه الا الذين اتقوا فالتقوى باب الذكر والذكر باب الكشف والكشف باب الفوز الاكبر وهو الفوز بلقاء الله تعالى

* (بيان مثال القلب بالاضافة الى العلوم خاصة) *

اعلم أن محل العلم هو القلب أعنى اللطيفة المدبرة لجميع الجوارح وهى المطاعة المخدومة من جميع الاعضاء وهى بالاضافة الى حقائق المعلومات كالمرآة بالاضافة الى صور المتلونات فكما أن للمتلون صورة ومثال تلك الصورة ينطبع فى المرآة ويحصل بها كذلك لكل معلوم حقيقة ولتلك الحقيقة صورة تنطبع فى مرآة القلب وتتضح فيها وكما ان المرآة غير وصور الاشخاص غير وحصول مثالها فى المرآة غير فهى ثلاثة أمور فكذلك ههنا ثلاثة أمور القلب وحقائق الاشياء وحصول نفس الحقائق فى القلب وحضورها فيه فالعالم عبارة عن القلب الذى فيه يحل مثال حقائق الاشياء والمعلوم عبارة عن حقائق الاشياء والعلم عبارة عن حصول المثال فى المرآة وكما أن القبض مثلا يستدعى قابضا كاليد ومقبوضا كالسيف ووصولا بين السيف واليد بحصول السيف فى اليد ويسمى قبضا فكذلك وصول مثال المعلوم الى القلب يسمى علما وقد كانت الحقيقة موجودة والقلب موجودا ولم يكن العلم حاصلا لان العلم عبارة عن وصول الحقيقة الى القلب كما أن السيف موجود واليد موجودة ولم يكن اسم القبض والاخذ حاصلا لعدم وقوع السيف فى اليد نعم القبض عبارة عن حصول السيف بعينه فى اليد والمعلوم بعينه لا يحصل فى القلب فمن علم النار لم تحصل عين النار فى قلبه ولكن الحاصل حدها وحقيقتها المطابقة لصورتها فتمثيله بالمرآة أولى لان عين الانسان لا تحصل فى المرآة وانما يحصل مثال مطابق له وكذلك حصول مثال مطابق لحقيقة المعلوم فى القلب يسمى علما وكما أن المرآة لا تنكشف فيها الصور لخمسة أمور * أحدها نقصان صورتها كجوهر الحديد قبل أن يدور ويشكل ويصقل * والثانى لخبثه وصدئه وكدورته وان كان تام الشكل * والثالث لكونه معدولا به عن جهة الصورة الى غيرها كما اذا كانت الصورة وراء المرآة * والرابع لحجاب مرسل بين المرآة والصورة * والخامس للجهل بالجهة التى فيها الصورة المطلوبة حتى يتعذر بسببه أن يحاذى بها شطر الصورة وجهتها فكذلك القلب مرآة مستعدة لان يتجلى فيها حقيقة الحق فى الامور كلها وانما خلت القلوب عن العلوم

الكلمات واستبعادهم ان يجوز للعبد التظاهر بشئ من ذلك ولكن يجعل لكلام الصادقين وجه فى الصحة ويقال ان ذلك طفح عليهم فى سكر الحال وكلام السكارى يحمل فالمشايخ أرباب التمكين لما علموا فى النفوس هذا الداء الدفين بالغوا فى شرح التواضع الى حد ألحقوه بالضعة تداويا للمريدين والاعتدال فى التواضع ان يرضى الانسان بمنزلة دون ما يستحقه ولو أمن الشخص جموح النفس لاوقفها على حد يستحقه من غير زيادة ولا نقصان ولكن لما كان الجموح فى جبلة النفس لكونها مخلوقة من صلصال كالفخار فيها نسبة النارية وطلب الاستعلاء بطبعها الى مركز النار احتاجت للتداوى بالتواضع ويقفها دون ما تستحقه لئلا يتطارق اليها الكبر

التى

التي خلت عنها لهذه الاسباب الخمسة أولها نقصان في ذاته كقلب الصبي فانه لا يتجلى له المعلومات لنقصانه * والثاني لكدورة المعاصي والخبث الذي يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات فان ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وتراكمه واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود اليه أبدا اي تحصل في قلبه كدورة لا يزول أثرها اذ غايته أن يتبعه بحسنة يمحوه بها فلو جاء بالحسنة ولم تتقدم السيئة لازداد لا محالة اشراق القلب فلما تقدمت السيئة سقطت فائدة الحسنة لكن عاد القلب بها الى ما كان قبل السيئة ولم يزدد بها نورا فهذا خسران مبين ونقصان لا حيلة له فليست المرآة التي تتدنس ثم تمسح بالمصقلة كالتي تمسح بالمصقلة لزيادة جلائها من غير دنس سابق فالاقبال على طاعة الله والاعراض عن مقتضى الشهوات هو الذي يجلو القلب ويصفيه ولذلك قال الله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وقال صلى الله عليه وسلم من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم الثالث أن يكون معدولا به عن جهة الحقيقة المطلوبة فان قلب المطيع الصالح وان كان صافيا فانه ليس يتضح فيه جلية الحق لانه ليس يطلب الحق وليس محاذيا بمرآته شطر المطلوب بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية أو بتهيئة أسباب المعيشة ولا يصرف فكره الى التأمل في حضرة الربوبية والحقائق الخفية الالهية فلا ينكشف له الا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الاعمال وخفايا عيوب النفس ان كان متفكرا فيها أو مصالح المعيشة ان كان متفكرا فيها واذا كان تقييد الهم بالاعمال وتفصيل الطاعات مانعا عن انكشاف جلية الحق فما ظنك فيمن صرف الهم الى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلائقها فكيف لا يمنع عن الكشف الحقيقي * الرابع الحجاب فان المطيع القاهر لشهواته المتجرد الفكر في حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوبا عنه باعتقاد سبق اليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن فان ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق ويمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد وهذا أيضا حجاب عظيم به حجب أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب بل أكثر الصالحين المتفكرين في ملكوت السموات والارض لانهم محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت في نفوسهم ورسخت في قلوبهم وصارت حجابا بينهم وبين درك الحقائق * الخامس الجهل بالجهة التي يقع منها العثور على المطلوب فان طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول الا بالتذكر للعلوم التي تناسب مطلوبه حتى اذا تذكرها ورتبها في نفسه ترتيبا مخصوصا يعرفه العلماء بطرق الاعتبار فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب فتتجلى حقيقة المطلوب لقلبه فان العلوم المطلوبة التي ليست فطرية لا تقتنص الا بشبكة العلوم الحاصلة بل كل علم لا يحصل الا عن علمين سابقين يأتلفان ويزدوجان على وجه مخصوص فيحصل من ازدواجهما علم ثالث على مثال ما يحصل النتاج من ازدواج الفحل والانثى ثم كما أن من أراد أن يستنتج رمكة لم يمكنه ذلك من حمار وبعير وانسان بل من أصل مخصوص من الخيل الذكر والانثى وذلك اذا وقع بينهما ازدواج مخصوص فكذلك كل علم فله أصلان مخصوصان وبينهما طريق في الازدواج يحصل من ازدواجهما العلم المستفاد المطلوب فالجهل بتلك الاصول وبكيفية الازدواج هو المانع من العلم ومثاله ما ذكرناه من الجهل بالجهة التي الصورة فيها بل مثاله أن يريد الانسان أن يرى قفاه مثلا بالمرآة فانه اذا رفع المرآة بازاء وجهه لم يكن قد حاذى بها شطر القفا فلا يظهر فيها القفا وان رفعها وراء القفا وحاذاه كان قد عدل بالمرآة عن عينه فلا يرى المرآة ولا صورة القفا فيها فيحتاج الى مرآة أخرى ينصبها وراء القفا وهذه في مقابلتها بحيث يبصرها ويرعى مناسبة بين وضع المرآتين حتى تنطبع صورة القفا في المرآة المحاذية للقفا ثم تنطبع صورة هذه المرآة في المرآة الاخرى التي في مقابلة العين ثم تدرك العين صورة القفا فكذلك في اقتناص العلوم طرق عجيبة فيها ازورارات وتحريفات أعجب مما ذكرناه في المرآة يعز على بسيط الارض من يهتدي الى كيفية الحيلة في تلك الازورارات فهذه هي الاسباب المانعة للقلوب من معرفة حقائق الامور والا فكل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق لانه أمر رباني شريف فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف واليه الاشارة بقوله عز وجل انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان اشارة الى أن له خاصية تميز بها عن السموات والارض والجبال بها صار مطيقا لحمل أمانة الله تعالى وتلك الامانة هي المعرفة والتوحيد وقلب كل آدمي

فالكبر ظن الانسان انه أكبر من غيره والتكبر اظهاره ذلك وهذه صفة لا يستحقها الا الله تعالى ومن ادعاها من المخلوقين يكون كاذبا والكبر يتولد من الاعجاب والاعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن والجهل الانسلاخ من الانسانية حقيقة وقد عظم الله تعالى شأن الكبر بقوله تعالى انه لا يحب المستكبرين وقال تعالى أليس في جهنم مثوى للمتكبرين وقد ورد بقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة ازاري فمن نازعني واحدا منهما قصمته وفي رواية قذفته في نار جهنم وقال عز وجل ردا للانسان في طغيانه الى حده ولا تمش في الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا وقال تعالى فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق وأبلغ من

مستعد لحمل الامانة ومطيق لها في الاصل ولكن يثبطه عن النهوض بأعبائها والوصول الى تحقيقها الاسباب التي ذكرناها ولذلك قال صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة وانما أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السماء اشارة الى بعض هذه الاسباب التي هي الحجاب بين القلب وبين الملكوت واليه الاشارة بما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قيل لرسول الله يارسول الله أين الله في الارض أو في السماء قال في قلوب عباده المؤمنين وفي الخبر قال الله تعالى لم يسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع وفي الخبر أنه قيل يارسول الله من خير الناس فقال كل مؤمن مخموم القلب فقيل وما مخموم القلب فقال هو التقي النقي الذي لاغش فيه ولا بغي ولا غدر ولا غل ولا حسد ولذلك قال عمر رضي الله عنه رأى قلبي ربي اذ كان قد رفع الحجاب بالتقوى ومن ارتفع الحجاب بينه وبين الله تجلى صورة الملك والملكوت في قلبه فيرى جنة عرض بعضها السموات والارض أما جملتها فاكثر سعة من السموات والارض لان السموات والارض عبارة عن عالم الملك والشهادة وهو وان كان واسع الاطراف متباعد الاكناف فهو متناه على الجملة وأما عالم الملكوت وهي الاسرار الغائبة عن مشاهدة الابصار المخصوصة بادراك البصائر فلا نهاية له نعم الذي يلوح للقلب منه مقدار متناه ولكنه في نفسه وبالاضافة الى علم الله لانهاية له وجملة عالم الملك والملكوت اذا أخذت دفعة واحدة تسمى الحضرة الربوبية لان الحضرة الربوبية محيطة بكل الموجودات اذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله ومملكته وعبيده من أفعاله فما يتجلى من ذلك للقلب هي الجنة بعينها عند قوم وهو سبب استحقاق الجنة عند أهل الحق ويكون سعة ملكه في الجنة بحسب سعة معرفته وبمقدار ما تجلى له من الله وصفاته وأفعاله وانما مراد الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتزكيته وجلاؤه قد أفلح من زكاها ومراد تزكيته حصول أنوار الايمان فيه أعني اشراق نور المعرفة وهو المراد بقوله تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام وبقوله أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه نعم هذا التجلي وهذا الايمان له ثلاث مراتب (المرتبة الاولى) ايمان العوام وهو ايمان التقليد المحض (والثانية) ايمان المتكلمين وهو ممزوج بنوع استدلال ودرجته قريبة من درجة ايمان العوام (والثالثة) ايمان العارفين وهو المشاهد بنور اليقين ونبين لك هذه المراتب بمثال وهو أن تصديقك بكون زيد مثلا في الدار له ثلاث درجات (الاولى) أن يخبرك من جربته بالصدق ولم تعرفه بالكذب ولا اتهمته في القول فان قلبك يسكن اليه ويطمئن بخبره بمجرد السماع وهذا هو الايمان بمجرد التقليد وهو مثل ايمان العوام فانهم لما بلغوا سن التمييز سمعوا من آبائهم وأمهاتهم وجود الله تعالى وعلمه وارادته وقدرته وسائر صفاته وبعثة الرسل وصدقهم وما جاؤا به وكما سمعوا به قبلوه وثبتوا عليه واطمأنوا اليه ولم يخطر ببالهم خلاف ما قالوه لهم لحسن ظنهم بآبائهم وأمهاتهم ومعلميهم وهذا الايمان سبب النجاة في الآخرة وأهله من أوائل رتب أصحاب اليمين وليسوا من المقربين لانه ليس فيه كشف وبصيرة وانشراح صدر بنور اليقين اذ الخطأ ممكن فيما سمع من الآحاد بل من الاعداد فيما يتعلق بالاعتقادات فقلوب اليهود والنصارى أيضا مطمئنة بما يسمعونه من آبائهم وأمهاتهم الا أنهم اعتقدوا ما اعتقدوه خطأ لانهم ألقى اليهم الخطأ والمسلمون اعتقدوا الحق لا لاطلاعهم عليه ولكن ألقى اليهم كلمة الحق (الرتبة الثانية) أن تسمع كلام زيد وصوته من داخل الدار ولكن من وراء جدار فتستدل به على كونه في الدار فيكون ايمانك وتصديقك ويقينك بكونه في الدار أقوى من تصديقك بمجرد السماع فانك اذا قيل لك انه في الدار ثم سمعت صوته ازددت به يقينا لان الاصوات تدل على الشكل والصورة عند من يسمع الصوت في حال مشاهدة الصورة فيحكم قلبه بان هذا صوت ذلك الشخص وهذا ايمان ممزوج بدليل والخطأ أيضا ممكن أن يتطرق اليه اذ الصوت قد يشبه الصوت وقد يمكن التكلف بطريق المحاكاة الا أن ذلك قد لا يخطر ببال السامع لانه ليس يجعل للتهمة موضعا ولا يقدر في هذا التلبيس والمحاكاة غرضا (الرتبة الثالثة) أن تدخل الدار فتنظر اليه بعينك وتشاهده وهذه هي المعرفة الحقيقية والمشاهدة اليقينية وهي تشبه معرفة المقربين والصديقين لانهم يؤمنون عن مشاهدة فينطوي في ايمانهم ايمان العوام والمتكلمين ويتميزون بمزية بينة يستحيل معها امكان

هذا قوله تعالى قتل الانسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره وقد قال بعضهم لبعض المتكبرين أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت فيما بين ذلك حامل العذرة وقد نظم الشاعر هذا المعنى

كيف يزهو من رجيعه
أبد الدهر ضجيعه

واذا ارتحل التواضع من القلب وسكن الكبر انتشر أثره في بعض الجوارح ويرشح الاناء بما فيه فتارة يظهر أثره في العنق بالتمايل وتارة في الخد بالتصعير قال الله تعالى ولا تصعر خدك للناس وتارة يظهر في الرأس عند استعصاء النفس قال الله تعالى لووا رؤسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون وكما أن الكبر له انقسام على الجوارح والاعضاء تتشعب منه شعب فكذلك بعضها أكثف من البعض كالتيه والزهو والعزة وغير

الخطأ نعم وهم أيضا يتفاوتون بمقادير العلوم وبدرجات الكشف أما درجات العلوم فمثاله أن يبصر زيدا في الدار عن قرب وفي صحن الدار في وقت إشراق الشمس فيكمل له إدراكه والآخر يدركه في بيت أو من بعد أو في وقت عشية فيتمثل له في صورته ما يستيقن معه أنه هو ولكن لا يتمثل في نفسه الدقائق والخفايا من صورته ومثل هذا متصور في تفاوت المشاهدة للأمور الإلهية وأما مقادير العلوم فهو بأن يرى في الدار زيدا وعمرا وبكرا وغير ذلك وآخر لا يرى إلا زيدا فمعرفة ذلك تزيد بكثرة المعلومات لا محالة فهذا حال القلب بالإضافة إلى العلوم والله تعالى أعلم بالصواب

(بيان حال القلب بالإضافة إلى أقسام العلوم العقلية والدينية والدنيوية والأخروية)

اعلم أن القلب بغريزته مستعد لقبول حقائق المعلومات كما سبق ولكن العلوم التي تحل فيه تنقسم إلى عقلية وإلى شرعية والعقلية تنقسم إلى ضرورية ومكتسبة والمكتسبة إلى دنيوية وأخروية أما العقلية فنعني بها ما تقضي بها غريزة العقل ولا توجد بالتقليد والسماع وهي تنقسم إلى ضرورية لا يدرى من أين حصلت وكيف حصلت كعلم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين والشيء الواحد لا يكون حادثا قديما موجودا معدوما معا فإن هذه علوم يجد الإنسان نفسه منذ الصبا مفطورا عليها ولا يدري متى حصل له هذا العلم ولا من أين حصل له أعني أنه لا يدري له سببا قريبا ولا يخفى عليه أن الله هو الذي خلقه وهداه وإلى علوم مكتسبة وهي المستفادة بالتعلم والاستدلال وكلا القسمين قد يسمى عقلا قال علي رضي الله عنه

رأيت العقل عقلين * فمطبوع ومسموع * ولا ينفع مسموع

إذا لم يك مطبوع * كما لا تنفع الشمس * وضوء العين ممنوع

والأول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعلي ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل والثاني هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه إذا تقرب الناس إلى الله تعالى بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك إذ لا يمكن التقرب بالغريزة الفطرية ولا بالعلوم الضرورية بل بالمكتسبة ولكن مثل علي رضي الله عنه هو الذي يقدر على التقرب باستعمال العقل في اقتناص العلوم التي بها ينال القرب من رب العالمين فالقلب جار مجرى العين وغريزة العقل فيه جارية مجرى قوة البصر في العين وقوة الإبصار لطيفة تفقد في العمى وتوجد في البصر وإن كان قد غمض عينيه أو جن عليه الليل والعلم الحاصل منه في القلب جار مجرى قوة إدراك البصر في العين ورؤيته لأعيان الأشياء وتأخر العلوم عن عين العقل في مدة الصبا إلى أوان التمييز أو البلوغ يضاهي تأخر الرؤية عن البصر إلى أوان إشراق الشمس وفيضان نورها على المبصرات والقلم الذي سطر الله به العلوم على صفحات القلوب يجري مجرى قرص الشمس وإنما لم يحصل العلم في قلب الصبي قبل التمييز لأن لوح قلبه لم يتهيأ بعد لقبول نقش العلم والقلم عبارة عن خلق من خلق الله تعالى جعله سببا لحصول نقش العلوم في قلوب البشر قال الله تعالى الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم وقلم الله تعالى لا يشبه قلم خلقه كما لا يشبه وصفه وصف خلقه فليس قلمه من قصب ولا خشب كما أنه تعالى ليس من جوهر ولا عرض فالموازنة بين البصيرة الباطنة والبصر الظاهر صحيحة من هذه الوجوه إلا أنه لا مناسبة بينهما في الشرف فإن البصيرة الباطنة هي عين النفس التي هي اللطيفة المدركة وهي كالفارس والبدن كالفرس وعمى الفارس أضر على الفارس من عمى الفرس بل لا نسبة لأحد الضررين إلى الآخر ولموازنة البصيرة الباطنة للبصر الظاهر سماه الله تعالى باسمه فقال ما كذب الفؤاد ما رأى سمى إدراك الفؤاد رؤية وكذلك قوله تعالى وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وما أراد به الرؤية الظاهرة فإن ذلك غير مخصوص بإبراهيم عليه السلام حتى يعرض في معرض الامتنان ولذلك سمى ضد إدراكه عمى فقال تعالى فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور وقال تعالى ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا فهذا بيان العلم العقلي

* أما العلوم الدينية فهي المأخوذة بطريق التقليد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه وذلك يحصل بالتعلم لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفهم معانيهما بعد السماع وبه كمال صفة القلب وسلامته عن الأدواء والأمراض فالعلوم العقلية غير كافية في سلامة القلب وإن كان محتاجا إليها كما أن العقل غير كاف في استدامة صحة أسباب البدن بل يحتاج إلى معرفة خواص الأدوية والعقاقير بطريق التعلم من الأطباء إذ مجرد

ذلك إلا أن العزة تشتبه بالكبر من حيث الصورة وتختلف من حيث الحقيقة كاشتباه التواضع بالضعة والتواضع محمود والضعة مذمومة والكبر مذموم والعزة محمودة قال الله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين والعزة غير الكبر ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه وإكرامها أن لا يضعها لأغراض عاجلة دنيوية كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منزلتها (قال بعضهم) للحسن ما أعظمك في نفسك قال لست بعظيم ولكني عزيز ولما كانت العزة غير مذمومة وفيها مشاكلة بالكبر قال الله تعالى تستكبرون في الأرض بغير الحق فيه إشارة خفية لإثبات العزة بالحق فالوقوف على حد التواضع من غير انحراف إلى الضعة وقوف على صراط العزة المنصوب

العقل لا يهتدى اليه ولكن لا يمكن فهمه بعد سماعه الا بالعقل فلا غنى بالعقل عن السماع ولا غنى بالسماع عن العقل فالداعى الى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور فاياك أن تكون من أحد الفريقين وكن جامعا بين الاصلين فان العلوم العقلية كالاغذية والعلوم الشرعية كالادوية والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء فكذلك أمراض القلوب لا يمكن علاجها الا بالادوية المستفادة من الشريعة وهى وظائف العبادات والاعمال التى ركبها الانبياء صلوات الله عليهم لاصلاح القلوب فمن لا يداوى قلبه المريض بمعالجات العبادة الشرعية واكتفى بالعلوم العقلية استضر بها كما يستضر المريض بالغذاء وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن هو ظن صادر عن عمى فى عين البصيرة نعوذ بالله منه بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما فيظن أنه تناقض فى الدين فيتحير به فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين وانما ذلك لان عجزه فى نفسه خيل اليه نقصا فى الدين وهيهات وانما مثاله مثال الاعمى الذى دخل دار قوم فتعثر فيها باوانى الدار فقال لهم ما بال هذه الاوانى تركت على الطريق لم لا ترد الى مواضعها فقالوا له تلك الاوانى فى مواضعها وانما أنت لست تهتدى للطريق لعماك فالعجب منك أنك لا تحيل عثرتك على عماك وانما تحيلها على تقصير غيرك فهذه نسبة العلوم الدينية الى العلوم العقلية والعلوم العقلية تنقسم الى دنيوية وأخروية فالدنيوية كعلم الطب والحساب والهندسة والنجوم وسائر الحرف والصناعات والاخروية كعلم أحوال القلب وآفات الاعمال والعلم بالله تعالى و بصفاته وأفعاله كما فصلناه فى كتاب العلم وهما علمان متنافيان أعنى أن من صرف عنايته الى أحدهما حتى تعمق فيه قصرت بصيرته عن الآخر على الاكثر ولذلك ضرب على رضى الله عنه للدنيا والآخرة ثلاثة أمثلة فقال هما ككفتى الميزان وكالمشرق والمغرب وكالضرتين اذا أرضيت احداهما أسخطت الاخرى ولذلك ترى الاكياس فى أمور الدنيا وفى علم الطب والحساب والهندسة والفلسفة جهالا فى أمور الآخرة والاكياس فى دقائق علوم الآخرة جهالا فى أكثر علوم الدنيا لان قوة العقل لا تفى بالامرين جميعا فى الغالب فيكون أحدهما مانعا من الكمال فى الثانى ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ان أكثر أهل الجنة البله أى البله فى أمور الدنيا وقال الحسن فى بعض مواعظه لقد أدركنا أقواما لو رأيتموهم لقلتم مجانين ولو أدركوكم لقالوا شياطين فمهما سمعت أمرا غريبا من أمور الدين جحده أهل الكياسة فى سائر العلوم فلا يغرنك جحودهم عن قبوله اذ من المحال أن يظفر سالك طريق المشرق بما يوجد فى المغرب فكذلك يجرى أمر الدنيا والآخرة ولذلك قال تعالى ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها الآية وقال تعالى يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون وقال عز وجل فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم فالجمع بين كمال الاستبصار فى مصالح الدنيا والدين لا يكاد يتيسر الا لمن رسخه الله لتدبير عباده فى معاشهم ومعادهم وهم الانبياء المؤيدون بروح القدس المستمدون من القوة الالهية التى تتسع لجميع الامور ولا تضيق عنها فاما قلوب سائر الخلق فانها اذا استقلت بامر الدنيا انصرفت عن الآخرة وقصرت عن الاستكمال فيها

(بيان الفرق بين الالهام والتعلم والفرق بين طريق الصوفية فى
استكشاف الحق وطريق النظار)

اعلم أن العلوم التى ليست ضرورية وانما تحصل فى القلب فى بعض الاحوال تختلف الحال فى حصولها فتارة تهجم على القلب كانه ألقى فيه من حيث لا يدرى وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم فالذى يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى الهاما والذى يحصل بالاستدلال يسمى اعتبارا واستبصارا ثم الواقع فى القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم الى ما لا يدرى العبد أنه كيف حصل له ومن أين حصل والى ما يطلع معه على السبب الذى منه استفاد ذلك العلم وهو مشاهدة الملك الملقى فى القلب والاول يسمى الهاما ونفثا فى الروع والثانى يسمى وحيا وتختص به الانبياء والاول يختص به الاولياء والاصفياء والذى قبله وهو المكتسب بطريق الاستدلال يختص به العلماء وحقيقة القول فيه أن القلب مستعد لان تنجلى فيه حقيقة الحق فى الاشياء كلها وانما

على من نار الكبر ولا يزيد فى ذلك ولا يثبت عليه الا أقدام العلماء الراسخين والسادة المقربين ورؤساء الابدال والصديقين (قال بعضهم) من تكبر فقد أخبر عن نذالة نفسه ومن تواضع فقد أظهر كرم طبعه (وقال الترمذى) التواضع على ضربين الاول أن يتواضع العبد لامر الله ونهيه فان النفس لطلب الراحة تتباطأ عن أمره والشهوة التى فيها تهوى فى نهيه فاذا وضع نفسه لامره ونهيه فهو تواضع والثانى أن يضع نفسه لعظمة الله فان اشتهت نفسه شيأ مما أطلق له من كل نوع من الانواع منعها ذلك وجملة ذلك أن يترك مشيئته لمشيئة الله تعالى *واعلم ان العبد لا يبلغ حقيقة التواضع الا عند لمعان نور المشاهدة فى قلبه فعند ذلك تذوب النفس وفى ذوبانها صفاؤها من غش الكبر

حيل بينه وبينها بالاسباب الخمسة التي سبق ذكرها فهي كالحجاب المسدل الحائل بين مرآة القلب وبين اللوح المحفوظ الذي هو منقوش بجميع ما قضى الله به الى يوم القيامة وتجلي حقائق العلوم من مرآة اللوح في مرآة القلب يضاهي انطباع صورة من مرآة في مرآة تقابلها والحجاب بين المرآتين تارة يزال باليد وأخرى يزول بهبوب الرياح تحركه وكذلك تدتهب رياح الالطاف وتنكشف الحجب عن أعين القلوب فينجلي فيها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ ويكون ذلك تارة عند المنام فيعلم به ما يكون في المستقبل وتمام ارتفاع الحجاب بالموت فبه ينكشف الغطاء وينكشف أيضا في اليقظة حتى يرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى فيلمع في القلوب من وراء ستر الغيب شئ من غرائب العلم تارة كالبرق الخاطف وأخرى على التوالي الى حد ما ودوامه في غاية الندور فلم يفارق الالهام الاكتساب في نفس العلم ولا في محله ولا في سببه ولكن يفارقه من جهة زوال الحجاب فان ذلك ليس باختيار العبد ولم يفارق الوحي الالهام في شئ من ذلك بل في مشاهدة الملك المفيد للعلم فان العلم انما يحصل في قلوبنا بواسطة الملائكة واليه الاشارة بقوله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء فاذا عرفت هذا فاعلم أن ميل أهل التصوف الى العلوم الالهامية دون التعليمية فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون والبحث عن الاقاويل والادلة المذكورة بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بانوار العلم واذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الامور الالهية فليس على العبد الا الاستعداد بالتصفية المجردة واحضار الهمة مع الارادة الصادقة والتعطش التام والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعالى من الرحمة فالانبياء والاولياء انكشف لهم الامر وفاض على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب بل بالزهد في الدنيا والتبري من علائقها وتفريغ القلب من شواغلها والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى فمن كان لله كان الله له وزعموا أن الطريق في ذلك أولا بانقطاع علائق الدنيا بالكلية وتفريغ القلب منها وبقطع الهمة عن الاهل والمال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه بل يصير قلبه الى حالة يستوي فيها وجود كل شئ وعدمه ثم يخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ويجلس فارغ القلب مجموع الهم ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا بكتب حديث ولا غيره بل يجتهد أن لا يخطر بباله شئ سوى الله تعالى فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلا بلسانه الله الله على الدوام مع حضور القلب حتى ينتهي الى حالة يترك تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه ثم يصبر عليه الى أن يمحى أثره عن اللسان ويصادف قلبه مواظبا على الذكر ثم يواظب عليه الى أن يمحى عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ويبقى معنى الكلمة مجردا في قلبه حاضرا فيه كأنه لازم له لا يفارقه وله اختيار الى أن ينتهي الى هذا الحد واختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى بل هو بما فعله صار متعرضا لنفحات رحمة الله فلا يبقى الا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة كما فتحها على الانبياء والاولياء بهذه الطريق وعند ذلك اذا صدقت ارادته وصفت همته وحسنت مواظبته فلم تجاذبه شهواته ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا تلمع لوامع الحق في قلبه ويكون في ابتدائه كالبرق الخاطف لا يثبت ثم يعود وقد يتأخر وان عاد فقد يثبت وقد يكون مختطفا وان ثبت قد يطول ثباته وقد لا يطول وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق وقد يقتصر على فن واحد ومنازل أولياء الله تعالى فيه لا تحصر كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم وقد رجع هذا الطريق الى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء ثم استعداد وانتظار فقط وأما النظار وذوو الاعتبار فلم ينكروا وجود هذا الطريق وامكانه وافضاءه الى هذا المقصد على الندور فانه أكثر أحوال الانبياء والاولياء ولكن استوعروا هذا الطريق واستبطؤا ثمرته واستبعدوا اجتماع شروطه وزعموا أن محو العلائق الى ذلك الحد كالمتعذر وان حصل في حال فثباته أبعد منه اذ أدنى وسواس وخاطر يشوش القلب وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم القلب المؤمن أشد تقلبا من القدر في غليانها وقال عليه أفضل الصلاة والسلام

والعجب فتاين وتطيع للحق والخلق لمحو آثارها وسكون وهجها وغبارها * وكان الحظ الاوفر من التواضع لنبينا عليه السلام في أوطان القرب كما روي عن عائشة رضي الله عنها في الحديث الطويل قالت فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فاخذني ما يأخذ النساء من الغيرة ظنا مني أنه عند بعض أزواجه فطلبته في حجر نسائه فلم أجده فوجدته في المسجد ساجدا كالثوب الخلق وهو يقول في سجوده سجد لك سوادي وخيالي وآمن بك فؤادي وأقر بك لساني وها أنا ذا بين يديك يا عظيم يا غافر الذنب العظيم وقوله عليه السلام سجد لك سوادي وخيالي استقصاء في التواضع بمحو آثار الوجود حيث لم تتخلف ذرة منه عن السجود ظاهرا وباطنا

قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن واذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم نشبت بالقلب خيالات فاسدة تطمئن النفس اليها مدة طويلة الى أن تزول وينقضي العمر قبل النجاح فيها فكم من صوفي سلك هذا الطريق ثم بقي في خيال واحد عشرين سنة ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانفتح له وجه التباس ذلك الخيال في الحال فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب الى الغرض وزعموا أن ذلك يضاهي مالو ترك الانسان تعلم الفقه وزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتعلم ذلك وصار فقيها بالوحي والالهام من غير تكرير وتعليق فأنا أيضا ربما انتهت بي الرياضة والمواظبة اليه ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه وضيع عمره بل هو كمن يترك طريق الكسب والحراثة رجاء العثور على كنز من الكنوز فان ذلك ممكن ولكنه بعيد جدا فكذلك هذا وقالوا لابد أولا من تحصيل ما حصله العلماء وفهم ما قالوه ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء فعساه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة

(بيان الفرق بين المقامين بمثال محسوس)

اعلم أن عجائب القلب خارجة عن مدركات الحواس لان القلب أيضا خارج عن ادراك الحس وما ليس مدركا بالحواس تضعف الافهام عن دركه الا بمثال محسوس ونحن نقرب ذلك الى الافهام الضعيفة بمثالين * أحدهما أنه لو فرضنا حوضا محفورا في الارض احتمل أن يساق اليه الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب الى أن يقرب من مستقر الماء الصافي فينفجر الماء من أسفل الحوض ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم وقد يكون أغزر وأكثر فذلك القلب مثل الحوض والعلم مثل الماء وتكون الحواس الخمس مثل الانهار وقد يمكن أن تساق العلوم الى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار بالمشاهدات حتى يمتلئ علما ويمكن أن تسد هذه الانهار بالخلوة والعزلة وغض البصر ويعمد الى عمق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه حتى تتفجر ينابيع العلم من داخله فان قلت فكيف يتفجر العلم من ذات القلب وهو خال عنه فاعلم أن هذا من عجائب أسرار القلب ولا يسمح بذكره في علم المعاملة بل القدر الذي يمكن ذكره أن حقائق الاشياء مسطورة في اللوح المحفوظ بل في قلوب الملائكة المقربين فكما أن المهندس يصور أبنية الدار في بياض ثم يخرجها الى الوجود على وفق تلك النسخة فكذلك فاطر السموات والارض كتب نسخة العالم من أوله الى آخره في اللوح المحفوظ ثم أخرجه الى الوجود على وفق تلك النسخة والعالم الذي خرج الى الوجود بصورته تتأدى منه صورة أخرى الى الحس والخيال فان من ينظر الى السماء والارض ثم يغض بصره يرى صورة السماء والارض في خياله حتى كأنه ينظر اليها ولو انعدمت السماء والارض وبقي هو في نفسه لوجد صورة السماء والارض في نفسه كأنه يشاهدهما وينظر اليهما ثم يتأدى من خياله أثر الى القلب فيحصل فيه حقائق الاشياء التي دخلت في الحس والخيال والحاصل في القلب موافق للعالم الحاصل في الخيال والحاصل في الخيال موافق للعالم الموجود في نفسه خارجا من خيال الانسان وقلبه والعالم الموجود موافق للنسخة الموجودة في اللوح المحفوظ فكان للعالم أربع درجات في الوجود وجود في اللوح المحفوظ وهو سابق على وجوده الجسماني ويتبعه وجوده الحقيقي ويتبع وجوده الحقيقي وجوده الخيالي أعني وجود صورته في الخيال ويتبع وجوده الخيالي وجوده العقلي أعني وجود صورته في القلب وبعض هذه الوجودات روحانية وبعضها جسمانية والروحانية بعضها أشد روحانية من البعض وهذا اللطف من الحكمة الالهية اذ جعل حدقتك على صغر حجمها بحيث ينطبع فيها صورة العالم السموات والارض على اتساع أكنافها ثم يسري من وجودها في الحس وجود الى الخيال ثم منه وجود في القلب فانك أبدا لا تدرك الا ما هو واصل اليك فلو لم يجعل للعالم كله مثالا في ذاتك لما كان لك خبر مما يباين ذاتك فسبحان من دبر هذه العجائب في القلوب والابصار ثم أعمى عن دركها القلوب والابصار حتى صارت قلوب أكثر الخلق جاهلة بأنفسها وبعجائبها ولنرجع الى الغرض المقصود فنقول القلب قد يتصور أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورته تارة من الحواس وتارة من اللوح المحفوظ كما أن العين يتصور أن يحصل فيها صورة الشمس تارة من النظر اليها وتارة من النظر الى الماء الذي يقابل الشمس ويحكي صورتها فمهما ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ

ومتى لم يكن للصوفي حظ من التواضع الخاص على بساط القرب لا يتوفر حظه من التواضع للخلق وهذه سعادات ان أقبلت جاءت بكليتها والتواضع من أشرف أخلاق الصوفية (ومن أخلاق الصوفية) المداراة واحتمال الاذى من الخلق وبلغ من مداراة رسول الله صلى الله عليه وسلم انه وجد قتيلا من أصحابه بين اليهود فلم يحف عليهم ولم يزد على مر الحق بل وداه بمائة ناقة من قبله وان بأصحابه لحاجة الى بعير واحد يتقوون به * وكان من حسن مداراته ان لا يذم طعاما ولا ينهر خادما (أخبرنا) الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب ابن علي قال أنا أبو الفتح الكرخي قال أنا أبو نصر الترياقي قال أنا الجراحي قال أنا أبو العباس المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذي

رأى الاشياء فيه وتنفجر اليه العلم منه فاستغنى عن الاقتباس من داخل الحواس فيكون ذلك كتفجر الماء من عمق الارض ومهما أقبل على الخيالات الحاصلة من المحسوسات كان ذلك حجابا له عن مطالعة اللوح المحفوظ كما أن الماء اذا اجتمع فى الانهار منع ذلك من التفجر فى الارض وكما أن من نظر الى الماء الذى يحكى صورة الشمس لا يكون ناظرا الى نفس الشمس فاذا للقلب بابان باب مفتوح الى عالم الملكوت وهو اللوح المحفوظ وعالم الملائكة وباب مفتوح الى الحواس الخمس المتمسكة بعالم الملك والشهادة وعالم الشهادة والملك أيضا يحاكى عالم الملكوت نوعا من المحاكاة فاما انفتاح باب القلب الى الاقتباس من الحواس فلا يخفى عليك وأما انفتاح بابه الداخل الى عالم الملكوت ومطالعة اللوح المحفوظ فتعلمه علما يقينا بالتأمل فى عجائب الرؤيا واطلاع القلب فى النوم على ما سيكون فى المستقبل أو كان فى الماضى من غير اقتباس من جهة الحواس وانما ينفتح ذلك الباب لمن انفرد بذكر الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم سبق المفردون قيل ومن هم المفردون يا رسول الله قال المتنزهون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا ثم قال فى وصفهم اخبارا عن الله تعالى ثم أقبل بوجهى عليهم أترى من واجهته بوجهى يعلم أحد أى شئ أريد أن أعطيه ثم قال تعالى أول ما أعطيهم أن أقذف النور فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم ومدخل هذه الاخبار هو الباب الباطن فاذا الفرق بين علوم الاولياء والانبياء وبين علوم العلماء والحكماء هذا وهو أن علومهم تأتى من داخل القلب من الباب المنفتح الى عالم الملكوت وعلم الحكمة يأتى من أبواب الحواس المفتوحة الى عالم الملك وعجائب عالم القلب وتردده بين عالمى الشهادة والغيب لا يمكن أن يستقصى فى علم المعاملة فهذا مثال يعلمك الفرق بين مدخل العالمين * المثال الثانى يعرفك الفرق بين العملين أعنى عمل العلماء وعمل الاولياء فان العلماء يعملون فى اكتساب نفس العلوم واجتلابها الى القلب وأولياء الصوفية يعملون فى جلاء القلوب وتطهيرها وتصفيتها وتصقيلها فقط فقد حكى أن أهل الصين وأهل الروم تباهوا بين يدى بعض الملوك بحسن صناعة النقش والصور فاستقر رأى الملك على أن يسلم اليهم صفة لينقش أهل الصين منها جانبا وأهل الروم جانبا ويرخى بينهما حجاب يمنع اطلاع كل فريق عن الآخر ففعل ذلك فجمع أهل الروم من الاصباغ الغريبة مالا ينحصر ودخل أهل الصين من غير صبغ وأقبلوا يجلون جانبهم ويصقلونه فلما فرغ أهل الروم ادعى أهل الصين أنهم قد فرغوا أيضا فعجب الملك من قولهم وأنهم كيف فرغوا من النقش من غير صبغ فقيل وكيف فرغتم من غير صبغ فقالوا ما عليكم ارفعوا الحجاب فرفعوا واذا بجانبهم يتلألأ منه عجائب الصنائع الرومية مع زيادة اشراق وبريق اذ كان قد صار كالمرآة المجلوة لكثرة التصقيل فازداد حسن جانبهم بمزيد التصقيل فكذلك عناية الاولياء بتطهير القلب وجلائه وتزكيته وصفائه حتى يتلألأ فيه جلية الحق بنهاية الاشراق كفعل أهل الصين وعناية الحكماء والعلماء بالاكتساب ونقش العلوم وتحصيل نقشها فى القلب كفعل أهل الروم فكيفما كان الامر فقلب المؤمن لا يموت وعلمه عند الموت لا يمحى وصفاؤه لا يتكدر واليه أشار الحسن رحمة الله عليه بقوله التراب لا يأكل محل الايمان بل يكون وسيلة وقربة الى الله تعالى وأما ما حصله من نفس العلم وما حصله من الصفاء والاستعداد لقبول نفس العلم فلا غنى به عنه ولا سعادة لاحد الا بالعلم والمعرفة وبعض السعادات أشرف من بعض كما أنه لا غنى الا بالمال فصاحب الدرهم غنى وصاحب الخزائن المترعة غنى وتفاوت درجات السعداء بحسب تفاوت المعرفة والايمان كما تتفاوت درجات الاغنياء بحسب قلة المال وكثرته فالمعارف أنوار ولا يسعى المؤمنون الى لقاء الله تعالى الا بأنوارهم قال الله تعالى يسعى نورهم بين أيديهم وبايمانهم وقد روى فى الخبر ان بعضهم يعطى نورا مثل الجبل وبعضهم أصغر حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نورا على ابهام قدميه فيضىء مرة وينطفئ أخرى فاذا أضاء قدم قدمه فمشى واذا طفئ قام ومرورهم على الصراط على قدر نورهم فمنهم من يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كانقضاض الكواكب ومنهم من يمر كالفرس اذا اشتد فى ميدانه والذى أعطى نورا على ابهام قدمه يحبو حبوا على وجهه ويديه ورجليه يجر يدا ويعلق أخرى ويصيب جوانبه النار فلا يزال كذلك حتى يخلص الحديث فبهذا يظهر تفاوت الناس فى الايمان ولو وزن ايمان أبى بكر بايمان العالمين سوى النبيين والمرسلين لرجح فهذا أيضا يضاهى قول القائل لو وزن نور

قال حدثنا قتيبة قال ثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى أف قط وما قال لشئ صنعته لم صنعته ولا لشئ تركته لم تركته وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقا وما مسست خزا قط ولا حريرا ولا شيأ كان ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا شممت مسكا قط ولا عطرا كان أطيب من عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم فالمداراة مع كل أحد من الاهل والاولاد والجيران والاصحاب والخلق كافة من أخلاق الصوفية وباحتمال الاذى يظهر جوهر النفس وقد قيل لكل شئ جوهر وجوهر الانسان العقل وجوهر العقل الصبر (أخبرنا) أبو زرعة طاهر عن أبيه الحافظ المقدسى قال أنا أبو محمد

الشمس بنور السرج كلها الرج فاعمان آحاد العوام نوره مثل نور السراج وبعضهم نوره كنور الشمع واعمان الصديقين نوره كنور القمر والنجوم واعمان الانبياء كالشمس وكما ينكشف فى نور الشمس صورة الآفاق مع اتساع أقطارها ولا ينكشف فى نور السراج الازاوية ضيقة من البيت فكذلك تفاوت انشراح الصدر بالمعارف وانكشاف سعة الملكوت لقلوب العارفين ولذلك جاء فى الخبر أنه يقال يوم القيامة أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من ايمان ونصف مثقال وربع مثقال وشعيرة وذرة كل ذلك تنبيه على تفاوت درجات الايمان وان هذه المقادير من الايمان لاتمنع دخول النار وفى مفهومه ان من ايمانه يزيد على مثقال فانه لا يدخل النار اذ لو دخل لامر باخراجه أولا وأن من فى قلبه مثقال ذرة لا يستحق الخلود فى النار وان دخلها وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم ليس شئ خيرا من ألف مثله الا الانسان المؤمن اشارة الى تفضيل قلب العارف بالله تعالى الموقن فانه خير من ألف قلب من العوام وقد قال تعالى وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين تفضيلا للمؤمنين على المسلمين والمراد به المؤمن العارف دون المقلد وقال عز وجل يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات فاراد ههنا بالذين آمنوا الذين صدقوا من غير علم وميزهم عن الذين أوتوا العلم ويدل ذلك على ان اسم المؤمن يقع على المقلد وان لم يكن تصديقه عن بصيرة وكشف وفسر ابن عباس رضى الله عنهما قوله تعالى والذين أوتوا العلم درجات فقال يرفع الله العالم فوق المؤمن بسبعمائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والارض وقال صلى الله عليه وسلم أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوى الالباب وقال صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى وفى رواية كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب فبهذه الشواهد يتضح لك تفاوت درجات أهل الجنة بحسب تفاوت قلوبهم ومعارفهم ولهذا كان يوم القيامة يوم التغابن اذ المحروم من رحمة الله عظيم الغبن والخسران والمحروم يرى فوق درجته درجات عظيمة فيكون نظره اليها كنظر الغنى الذى يملك عشرة دراهم الى الغنى الذى يملك الارض من المشرق الى المغرب وكل واحد منهما غنى ولكن ما أعظم الفرق بينهما وما أعظم الغبن على من يخسر حظه من ذلك وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا

(بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف فى اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد)

اعلم أن من انكشف له شئ ولو الشئ اليسير بطريق الالهام والوقوع فى القلب من حيث لا يدرى فقد صار عارفا بصحة الطريق ومن لم يدرك ذلك من نفسه قط فينبغى أن يؤمن به فان درجة المعرفة فيه عزيزة جدا ويشهد لذلك شواهد الشرع والتجارب والحكايات أما الشواهد فقوله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فهو بطريق الكشف والالهام وقال صلى الله عليه وسلم من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم ووفقه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم ولم يوفق فيما يعمل حتى يستوجب النار وقال الله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا من الاشكالات والشبه ويرزقه من حيث لا يحتسب يعلمه علما من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا قيل نورا يفرق به بين الحق والباطل ويخرج به من الشبهات ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يكثر فى دعائه من سؤال النور فقال عليه الصلاة والسلام اللهم أعطنى نورا وزدنى نورا واجعل لى فى قلبى نورا وفى قبرى نورا وفى سمعى نورا وفى بصرى نورا حتى قال فى شعرى وفى بشرى وفى لحمى ودمى وعظامى وسئل صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ماهذا الشرح فقال هو التوسعة ان النور اذا قذف به فى القلب اتسع له الصدر وانشرح وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل وقال على رضى الله عنه ماعندنا شئ أسره النبى صلى الله عليه وسلم الينا الا أن يؤتى الله تعالى عبدا فهما فى كتابه وليس هذا بالتعلم وقيل فى تفسير قوله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء انه الفهم فى كتاب الله تعالى وقال تعالى ففهمناها سليمان خص ما انكشف باسم الفهم وكان أبو الدرداء يقول المؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق والله انه للحق يقذفه الله فى قلوبهم ويجريه على ألسنتهم وقال بعض السلف ظن المؤمن كهانة وقال صلى الله عليه وسلم اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله تعالى واليه يشير قوله تعالى ان فى ذلك لآيات للمتوسمين وقوله تعالى قد

الصريفينى قال أنا أبو القاسم عبيد الله بن حبابة قال أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال حدثنا على ابن الجعد قال أنا شعبة عن الاعمش عن يحيى بن وثاب عن شيخ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت من هو قال ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم (وفى الخبر) أيعجز أحدكم أن يكون كابى ضمضم قيل ماذا كان يصنع أبو ضمضم قال كان اذا أصبح قال اللهم انى تصدقت اليوم بعرضى على من ظلمنى فمن ضربنى لا أضربه ومن شتمنى لا أشتمه ومن ظلمنى لا أظلمه (وأخبرنا) ضياء الدين عبد الوهاب قال أنا أبو الفتح الهروى قال حدثنا الترياقى قال أنا الجراحى قال أنا

بينا الآيات لقوم يوقنون وروى الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال العلم علمان فعلم باطن في القلب فذلك هو العلم النافع وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ما هو فقال هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه الله تعالى في قلوب أحبابه لم يطلع عليه ملكا ولا بشرا وقد قال صلى الله عليه وسلم ان من أمتي محدثين ومعلمين ومكلمين وان عمر منهم وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث يعني الصديقين والمحدث هو الملهم والملهم هو الذي انكشف له في باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسوسات الخارجة والقرآن مصرح بأن التقوى مفتاح الهداية والكشف وذلك علم من غير تعلم وقال الله تعالى وما خلق الله في السموات والارض لآيات لقوم يتقون خصصها بهم وقال تعالى هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين وكان أبو يزيد وغيره يقول ليس العالم الذي يحفظ من كتاب فاذا نسي ما حفظه صار جاهلا انما العالم الذي يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء بلا حفظ ولا درس وهذا هو العلم الرباني واليه الاشارة بقوله تعالى وعلمناه من لدنا علما مع أن كل علم من لدنه ولكن بعضها بوسائط تعليم الخلق فلا يسمى ذلك علما لدنيا بل اللدني الذي ينفتح في سر القلب من غير سبب مألوف من خارج فهذه شواهد النقل ولو جمع كل ما ورد فيه من الآيات والاخبار والآثار لخرج عن الحصر * وأما مشاهدة ذلك بالتجارب فذلك أيضا خارج عن الحصر وظهر ذلك على الصحابة والتابعين ومن بعدهم وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لعائشة رضي الله عنها عند موته انما هما أخواك وأختاك وكانت زوجته حاملا فولدت بنتا فكان قد عرف قبل الولادة انها بنت وقال عمر رضي الله عنه في أثناء خطبته ياسارية الجبل الجبل اذ انكشف له ان العدو قد أشرف عليه فحذره لمعرفته ذلك ثم بلوغ صوته اليه من جملة الكرامات العظيمة وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال دخلت على عثمان رضي الله عنه وكنت قد لقيت امرأة في طريقي فنظرت اليها شزرا وتأملت محاسنها فقال عثمان رضي الله عنه لما دخلت يدخل علي أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه أما علمت أن زنا العينين النظر لتتوبن أو لأعزرنك فقلت أوحي بعد النبي فقال لا ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة * وعن أبي سعيد الخراز قال دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيرا عليه خرقتان فقلت في نفسي هذا وأشباهه كل على الناس فناداني وقال والله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه فاستغفرت الله في سري فناداني وقال وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ثم غاب عني ولم أره وقال زكريا بن داود دخل أبو العباس بن مسروق على أبي الفضل الهاشمي وهو عليل وكان ذا عيال ولم يعرف له سبب يعيش به قال فلما قمت قلت في نفسي من أين يأكل هذا الرجل قال فصاح بي يا أبا العباس رد هذه الهمة الدنية فان لله تعالى ألطافا خفية وقال أحمد النقيب دخلت على الشبلي فقال مفتونا يا أحمد فقلت ما الخبر قال كنت جالسا فجرى بخاطري انك بخيل فقلت ما أنا بخيل فعاد مني خاطري وقال بل أنت بخيل فقلت ما فتح اليوم علي بشيء الا دفعته الى أول فقير يلقاني قال فما استتم الخاطر حتى دخل علي صاحب لمؤنس الخادم ومعه خمسون دينارا فقال اجعلها في مصالحك قال وقمت فأخذتها وخرجت واذا بفقير مكفوف بين يدي مزين يحلق رأسه فتقدمت اليه وناولته الدنانير فقال اعطها المزين فقلت ان جملتها كذا وكذا قال أوليس قد قلنا لك انك بخيل قال فناولتها المزين فقال المزين قد عقدنا لما جلس هذا الفقير بين أيدينا أن لا نأخذ عليه أجرا قال فرميت بها في دجلة وقلت ما أعزك أحد الا أذله الله عز وجل وقال حمزة بن عبد الله العلوي دخلت على أبي الخير التيناني واعتقدت في نفسي أن أسلم عليه ولا آكل في داره طعاما فلما خرجت من عنده اذا به قد لحقني وقد حمل طبقا فيه طعام وقال يا فتى كل فقد خرجت الساعة من اعتقادك وكان أبو الخير التيناني هذا مشهورا بالكرامات وقال ابراهيم الرقي قصدته مسلما عليه فحضرت صلاة المغرب فلم يكد يقرأ الفاتحة مستويا فقلت في نفسي ضاعت سفرتي فلما سلم خرجت الى الطهارة فقصدني سبع فعدت الى أبي الخير وقلت قصدني سبع فخرج وصاح به وقال ألم أقل لك لا تتعرض لضيفاني فتنحى الاسد فتطهرت فلما رجعت قال لي اشتغلتم بتقويم الظاهر فخفتم الاسد واشتغلنا بتقويم البواطن فخافنا الاسد * وما حكي من تفرس المشايخ واخبارهم عن اعتقادات الناس وضمائرهم يخرج عن الحصر بل ما حكي عنهم من مشاهدة الخضر عليه السلام والسؤال منه ومن سماع صوت الهاتف ومن فنون الكرامات خارج عن الحصر والحكاية لا تنفع الجاحد ما لم يشاهد ذلك من نفسه ومن

المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذي قال ثنا ابن أبي عمر قال ثنا سفيان عن محمد بن المنكدر عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عنده فقال بئس ابن العشيرة وأخو العشيرة ثم أذن له فألان له القول فلما خرج قلت يا رسول الله قلت له ما قلت ثم ألنت له القول قال يا عائشة ان من شر الناس من يتركه الناس أو يدعه الناس اتقاء فحشه (وروى) أبو ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن فأشبه ما يستدل به على قوة عقل الشخص ووفور علمه وحلمه حسن المداراة والنفس لا تزال تشمئز ممن يعكس مرادها ويستفزها الغيظ والغضب وبالمداراة قطع

أنكر الاصل أنكر التفصيل * والدليل القاطع الذى لا يقدر أحد على جحده أمران * أحدهما عجائب الرؤيا الصادقة فانه ينكشف بها الغيب واذا جاز ذلك فى النوم فلا يستحيل أيضا فى اليقظة فلم يفارق النوم اليقظة الا فى ركود الحواس وعدم اشتغالها بالمحسوسات فكم من مستيقظ غائص لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله بنفسه * الثانى اخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيب وأمور فى المستقبل كما اشتمل عليه القرآن واذا جاز ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم جاز لغيره اذ النبى عبارة عن شخص كوشف بحقائق الامور وشغل باصلاح الخلق فلا يستحيل أن يكون فى الوجود شخص مكاشف بالحقائق ولا يشتغل باصلاح الخلق وهذا لا يسمى نبيا بل يسمى وليا فمن آمن بالانبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بان القلب له بابان باب الى خارج وهو الحواس وباب الى الملكوت من داخل القلب وهو باب الالهام والنفث فى الروع والوحى فاذا أقر بهما جميعا لم يمكنه أن يحصر العلوم فى التعلم ومباشرة الاسباب المألوفة بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيلا اليه فهذا مما ينبه على حقيقة ما ذكرناه من عجيب تردد القلب بين عالم الشهادة وعالم الملكوت وأما السبب فى انكشاف الامر فى المنام بالمثال المحوج الى التعبير وكذلك تمثل الملائكة للانبياء والاولياء بصور مختلفة فذلك أيضا من أسرار عجائب القلب ولا يليق ذلك الا بعلم المكاشفة فلنقتصر على ما ذكرناه فانه كاف للاستحثاث على المجاهدة وطلب الكشف منها فقد قال بعض المكاشفين ظهر لى الملك فسألنى أن أملى عليه شيأ من ذكرى الخفى عن مشاهدتى من التوحيد وقال ما نكتب لك عملا ونحن نحب أن نصعد لك بعمل نتقرب به الى الله عز وجل فقلت ألستما تكتبان الفرائض قالا بلى قلت فيكفيكما ذلك وهذه اشارة الى أن الكرام الكاتبين لا يطلعون على أسرار القلب وانما يطلعون على الاعمال الظاهرة وقال بعض العارفين سألت بعض الابدال عن مسألة من مشاهدة اليقين فالتفت الى شماله فقال ما تقول رحمك الله ثم التفت الى يمينه فقال ما تقول رحمك الله ثم أطرق الى صدره وقال ما تقول رحمك الله ثم أجاب بأغرب جواب سمعته فسألته عن التفاته فقال لم يكن عندى فى المسألة جواب عتيد فسألت صاحب الشمال فقال لا أدرى فسألت صاحب اليمين وهو أعلم منه فقال لا أدرى فنظرت الى قلبى وسألته فحدثنى بما أجبتك فاذا هو أعلم منهما وكان هذا هو معنى قوله عليه السلام ان فى أمتى محدثين وان عمر منهم وفى الاثر ان الله تعالى يقول أيما عبد اطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكرى توليت سياسته وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه وقال أبو سليمان الدارانى رحمة الله عليه القلب بمنزلة القبة المضروبة حولها أبواب مغلقة فاى باب فتح له عمل فيه فقد ظهر انفتاح باب من أبواب القلب الى جهة الملكوت والملأ الاعلى وينفتح ذلك الباب بالمجاهدة والورع والاعراض عن شهوات الدنيا ولذلك كتب عمر رضى الله عنه الى أمراء الاجناد احفظوا ما تسمعون من المطيعين فانهم يتجلى لهم أمور صادقة وقال بعض العلماء يد الله على أفواه الحكماء لا ينطقون الا بما هيأ الله لهم من الحق وقال آخر لو شئت لقلت ان الله تعالى يطلع الخاشعين على بعض سره

(بيان تسلط الشيطان على القلب بالوسواس ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها)

اعلم ان القلب كما ذكرناه فى مثال قبة مضروبة لها أبواب تنصب اليه الاحوال من كل باب ومثاله أيضا مثال هدف تنصب اليه السهام من الجوانب أو هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف الصور المختلفة فتتراءى فيها صورة بعد صورة ولا تخلو عنها أو مثال حوض تنصب فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة اليه وانما مداخل هذه الآثار المتجددة فى القلب فى كل حال أما من الظاهر فالحواس الخمس وأما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب والاخلاق المركبة من مزاج الانسان فانه اذا أدرك بالحواس شيأ حصل منه أثر فى القلب وكذلك اذا هاجت الشهوة مثلا بسبب كثرة الاكل وبسبب قوة فى المزاج حصل منها فى القلب أثر وان كف عن الاحساس فالخيالات الحاصلة فى النفس تبقى وينتقل الخيال من شئ الى شئ وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال الى حال آخر والمقصود أن القلب فى التغير والتأثر دائما من هذه الاسباب وأخص الآثار الحاصلة فى القلب هو الخواطر وأعنى بالخواطر ما يحصل فيه من الافكار والاذكار وأعنى به ادراكاته علوما اما على سبيل التجدد واما على سبيل التذكر فانها تسمى خواطر من حيث انها تخطر بعد أن كان القلب غافلا عنها والخواطر هى المحركات للارادات

حمة النفس وردطيشها ونفورها * وقد ورد من كظم غيظا وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤس الخلائق حتى يخيره فى أى الحور شاء (وروى جابر) رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا أخبركم على من تحرم النار على كل هين لين سهل قريب (وروى) أبو مسعود الانصارى رضى الله عنه قال أتى النبى عليه السلام برجل فكلمه فارعد فقال هون عليك فانى لست بملك انما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد (وعن بعضهم) فى معنى لين جانب الصوفية

هينون لينون ايسار بنو يسر
سواس مكرمة ابناء ايسار
لا ينطقون عن الفحشاء ان نطقوا
ولا يمارون ان ماروا باكثار

فان النية والعزم والارادة انما تكون بعد خطور المنوى بالبال لامحالة فمبدأ الافعال الخواطر ثم الخاطر يحرك
الرغبة والرغبة تحرك العزم والعزم يحرك النية والنية تحرك الاعضاء والخواطر المحركة للرغبة تنقسم الى
مايدعو الى الشر أعنى الى مايضر فى العاقبة والى مايدعو الى الخير أعنى الى ماينفع فى الدار الآخرة فهما خاطران
مختلفان فافتقرا الى اسمين مختلفين فالخاطر المحمود يسمى الهاما والخاطر المذموم أعنى الداعى الى الشر يسمى
وسواسا ثم انك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ثم ان كل حادث فلابد له من محدث ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك
على اختلاف الاسباب هذا ماعرف من سنة الله تعالى فى ترتيب المسببات على الاسباب فمهما استنارت حيطان
البيت بنور النار وأظلم سقفه واسود بالدخان علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة وكذلك لانوار القلب
وظلمته سببان مختلفان فسبب الخاطر الداعى الى الخير يسمى ملكا وسبب الخاطر الداعى الى الشر يسمى شيطانا
واللطف الذى يتهيأ به القلب لقبول الهام الخير يسمى توفيقا والذى به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى
اغواء وخذلانا فان المعانى المختلفة تفتقر الى أسامى مختلفة والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه افاضة الخير
وافادة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والامر بالمعروف وقد خلقه وسخره لذلك والشيطان عبارة عن خلق شأنه
ضد ذلك وهو الوعد بالشر والامر بالفحشاء والتخويف عند الهم بالخير بالفقر فالوسوسة فى مقابلة الالهام
والشيطان فى مقابلة الملك والتوفيق فى مقابلة الخذلان واليه الاشارة بقوله تعالى ومن كل شئ خلقنا زوجين
فان الموجودات كلها متقابلة مزدوجة الا الله تعالى فانه فرد لامقابل له بل هو الواحد الحق الخالق للازواج
كلها فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك وقد قال صلى الله عليه وسلم فى القلب لمتان لمة من الملك ايعاد بالخير
وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم انه من الله سبحانه وليحمد الله ولمة من العدو ايعاد بالشر وتكذيب
بالحق ونهى عن الخير فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ثم تلا قوله تعالى الشيطان يعدكم
الفقر ويأمركم بالفحشاء الآية وقال الحسن انما هما همان يجولان فى القلب هم من الله تعالى وهم من
العدو فرحم الله عبدا وقف عند همه فما كان من الله تعالى أمضاه وما كان من عدوه جاهده ولتجاذب القلب
بين هذين المسلطين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن فالله يتعالى عن
ان يكون له أصبع مركبة من لحم وعظم ودم وعصب منقسمة بالانامل ولكن روح الاصبع سرعة التقليب
والقدرة على التحريك والتغيير فانك لاتريد أصبعك لشخصه بل لفعله فى التقليب والترديد كما أنك تتعاطى
الافعال باصابعك والله تعالى يفعل مايفعل باستسخار الملك والشيطان وهما مسخران بقدرته فى تقليب
القلوب كما أن أصابعك مسخرة لك فى تقليب الاجسام مثلا والقلب باصل الفطرة صالح لقبول آثار الملك ولقبول
آثار الشيطان صلاحا متساويا ليس يترجح أحدهما على الآخر وانما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى
والاكباب على الشهوات أو الاعراض عنها ومخالفتها فان اتبع الانسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط
الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عش الشيطان ومعدنه لان الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه وان جاهد
الشهوات ولم يسلطها على نفسه وتشبه باخلاق الملائكة عليهم السلام صار قلبه مستقر الملائكة ومهبطهم ولما
كان لايخلو قلب عن شهوة وغضب وحرص وطمع وطول أمل الى غير ذلك من صفات البشرية المتشعبة عن
الهوى لاجرم لم يخل قلب عن ان يكون للشيطان فيه جولان بالوسوسة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم مامنكم
من أحد الا وله شيطان قالوا وأنت يارسول الله قال وأنا الا أن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمر الا بخير وانما كان
هذا لان الشيطان لايتصرف الا بواسطة الشهوة فمن أعانه الله على شهوته حتى صارت لاتنبسط الا حيث ينبغى
والى الحد الذى ينبغى فشهوته لاتدعو الى الشر فالشيطان المتدرع بها لايأمر الا بالخير ومهما غلب على القلب
ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى وجد الشيطان مجالا فوسوس ومهما انصرف القلب الى ذكر الله تعالى ارتحل
الشيطان وضاق مجاله وأقبل الملك وألهم والتطارد بين جندى الملائكة والشياطين فى معركة القلب دائم الى أن
ينفتح القلب لاحدهما فيستوطن ويستمكن ويكون اجتياز الثانى اختلاسا وأكثر القلوب قد فتحتها جنود
الشياطين وتملكتها فامتلأت بالوسواس الداعية الى ايثار العاجلة واطراح الآخرة ومبدأ استيلائها اتباع

من تلق منهم تقل لاقيت
سيدهم
مثل النجوم التى يسرى
بها السارى
(وروى) أبو الدرداء
عن النبي صلى الله عليه
وسلم قال من أعطى
حظه من الرفق فقد
أعطى حظه من الخير
ومن حرم حظه من الرفق
فقد حرم حظه من الخير
(حدثنا) شيخنا ضياء
الدين أبو النجيب املاء
قال ثنا أبو عبد الرحمن
محمد بن أبى عبد الله
المالينى قال أنا أبو
الحسين عبد الرحمن بن
أبى طلحة الداودى قال
أنا أبو محمد عبد الله
الحموى السرخسى قال
أنا أبو عمران عيسى بن
عمر السمرقندى قال أنا
عبد الله بن عبد الرحمن
الدارمى قال أنا محمد بن
أحمد بن أبى خلف قال
ثنا عبد الرحمن بن محمد
عن محمد بن اسحق قال
حدثنى عبد الله بن أبى
بكر عن رجل من العرب
قال زحمت رسول الله

الشهوات والهوى ولا يمكن فتحها بعد ذلك الا بتخلية القلب عن قوت الشيطان وهو الهوى والشهوات وعمارته
بذكر الله تعالى الذي هو مطرح أثر الملائكة وقال جابر بن عبيدة العدوي شكوت الى العلاء بن زياد ما أجد في
صدري من الوسوسة فقال انما مثل ذلك مثل البيت الذي يمر به اللصوص فان كان فيه شيء عالجوه والا مضوا
وتركوه يعني أن القلب الخالي عن الهوى لا يدخله الشيطان ولذلك قال الله تعالى ان عبادي ليس لك عليهم
سلطان فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله ولذلك سلط الله عليه الشيطان وقال تعالى أفرأيت
من اتخذ الهه هواه وهو اشارة الى أن من الهوى الهه ومعبوده فهو عبد الهوى لا عبد الله ولذلك قال عمرو بن
العاص للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله حال الشيطان بيني وبين صلاتي وقراءتي فقال ذلك شيطان يقال له
خنزب فاذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثا قال ففعلت ذلك فأذهبه الله عني وفي الخبر ان للوضوء
شيطانا يقال له الولهان فاستعيذوا بالله منه ولا يمحو وسوسة الشيطان من القلب الا ذكر ما سوى ما يوسوس
به لانه اذا خطر في القلب ذكر شيء انعدم منه ما كان فيه من قبل ولكن كل شيء سوى الله تعالى وسوى ما يتعلق به
فيجوز أيضا ان يكون مجالا للشيطان وذكر الله هو الذي يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال ولا يعالج
الشيء الا بضده وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبري عن الحول والقوة وهو معنى قولك
أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وذلك لا يقدر عليه الا المتقون الغالب عليهم
ذكر الله تعالى وانما الشيطان يطوف عليهم في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة قال الله تعالى ان الذين اتقوا اذا
مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون وقال مجاهد في معنى قول الله تعالى من شر الوسواس
الخناس قال هو منبسط على القلب فاذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض واذا غفل انبسط على قلبه فالتطارد بين
ذكر الله تعالى ووسوسة الشيطان كالتطارد بين النور والظلام وبين الليل والنهار ولتضادهما قال الله تعالى
استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الشيطان واضع
خرطومه على قلب ابن آدم فان هو ذكر الله تعالى خنس وان نسي الله تعالى التقم قلبه وقال ابن وضاح في حديث
ذكره اذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان وجهه بيده وقال بابي وجه من لا يفلح وكما ان الشهوات
ممتزجة بلحم ابن آدم ودمه فسلطنة الشيطان أيضا سارية في لحمه ودمه ومحيطة بالقلب من جوانبه ولذلك قال صلى
الله عليه وسلم ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع وذلك لان الجوع يكسر
الشهوة ومجرى الشيطان الشهوات ولاجل اكتناف الشهوات للقلب من جوانبه قال الله تعالى اخبارا عن
ابليس لاقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم وقال
صلى الله عليه وسلم ان الشيطان قعد لابن آدم بطرق فقعد له بطريق الاسلام فقال أتسلم وتترك دينك ودين آبائك
فعصاه وأسلم ثم قعد له بطريق الهجرة فقال أتهاجر أتدع أرضك وسماءك فعصاه وهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد
فقال أتجاهد وهو تلف النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح نساؤك ويقسم مالك فعصاه وجاهد وقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم فمن فعل ذلك فمات كان حقا على الله أن يدخله الجنة فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى
الوسوسة وهي هذه الخواطر التي تخطر للمجاهد أنه يقتل وتنكح نساؤه وغير ذلك مما يصرفه عن الجهاد وهذه
الخواطر معلومة فاذا الوسواس معلوم بالمشاهدة وكل خاطر فله سبب ويفتقر الى اسم يعرفه فاسم سببه الشيطان
ولا يتصور أن ينفك عنه آدمي وانما يختلفون بعصيانه ومتابعته ولذلك قال عليه السلام ما من أحد الا وله شيطان
فقد اتضح بهذا النوع من الاستبصار معنى الوسوسة والالهام والملك والشيطان والتوفيق والخذلان فبعد هذا
نظر من ينظر في ذات الشيطان انه جسم لطيف أو ليس بجسم وان كان جسما فكيف يدخل بدن الانسان
ما هو جسم فهذا الآن غير محتاج اليه في علم المعاملة بل مثال الباحث عن هذا مثال من دخلت في ثيابه حية وهو
محتاج الى ازالتها ودفع ضررها فاشتغل بالبحث عن لونها وشكلها وطولها وعرضها وذلك عين الجهل فمصادمة
الخواطر الباعثة على الشر قد علمت ودل ذلك على انه عن سبب لا محالة وعلم ان الداعي الى الشر المحذور في
المستقبل عدو فقد عرف العدو لا محالة فينبغي أن يشتغل بمجاهدته وقد عرف الله سبحانه عداوته في مواضع

صلى الله عليه وسلم يوم
حنين وفي رجلي نعل
كثيفة فوطئت بها على
رجل رسول الله صلى الله
عليه وسلم فنفحني نفحة
بسوط في يده وقال بسم
الله أوجعتني قال فبت
لنفسي لائما أقول
أوجعت رسول الله قال
فبت بليلة كما يعلم الله فلما
أصبحنا اذا رجل يقول
أين فلان قلت هذا والله
الذي كان مني بالامس
قال فانطلقت وأنا متخوف
فقال لي انك وطئت
بنعلك على رجلي بالامس
فأوجعتني فنفحتك نفحة
بالسوط فهذه ثمانون
نعجة فخذها * ومن
أخلاق الصوفية الايثار
والمواساة ويحملهم
على ذلك فرط الشفقة
والرحمة طبعا وقوة
اليقين شرعا يؤثرون
بالموجود ويصبرون على
المفقود * قال أبو يزيد
البسطامي ما غلبني أحد
ما غلبني شاب من أهل
بلخ قدم علينا حاجا فقال
لي يا أبا يزيد ما حد الزهد

كثير من كتابه ليؤمن به ويحترز عنه فقال تعالى ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير وقال تعالى ألم أعهد اليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين فينبغى للعبد أن يشتغل بدفع العدو عن نفسه لا بالسؤال عن أصله ونسبه ومسكنه نعم ينبغى أن يسأل عن سلاحه ليدفعه عن نفسه وسلاح الشيطان الهوى والشهوات وذلك كاف للعالمين فاما معرفة ذاته وصفاته وحقيقته نعوذ بالله منه وحقيقة الملائكة فذلك ميدان العارفين المتغلغلين فى علوم المكاشفات فلا يحتاج فى علم المعاملة الى معرفته نعم ينبغى أن يعلم أن الخواطر تنقسم الى ما يعلم قطعا أنه داع الى الشر فلا يخفى كونه وسوسة والى ما يعلم انه داع الى الخير فلا يشك فى كونه الهاما والى ما يتردد فيه فلا يدرى أنه من لمة الملك أو من لمة الشيطان فان من مكايد الشيطان أن يعرض الشر فى معرض الخير والتمييز فى ذلك غامض وأكثر العباد به يهلكون فان الشيطان لا يقدر على دعائهم الى الشر الصريح فيصور الشر بصورة الخير كما يقول للعالم بطريق الوعظ أما تنظر الى الخلق وهم موتى من الجهل هلكى من الغفلة قد أشرفوا على النار أما لك رحمة على عباد الله تنقذهم من المعاطب بنصحك ووعظك وقد أنعم الله عليك بقلب بصير ولسان ذلق ولهجة مقبولة فكيف تكفر نعمة الله تعالى وتتعرض لسخطه وتسكت عن اشاعة العلم ودعوة الخلق الى الصراط المستقيم ولا يزال يقرر ذلك فى نفسه ويستجره بلطيف الحيل الى أن يشتغل بوعظ الناس ثم يدعوه بعد ذلك الى أن يتزين لهم ويتصنع بتحسين اللفظ واظهار الخير ويقول له ان لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك من قلوبهم ولم يهتدوا الى الحق ولا يزال يقرر ذلك عنده وهو فى أثنائه يؤكد فيه شوائب الرياء وقبول الخلق ولذة الجاه والتعزز بكثرة الاتباع والعلم والنظر الى الخلق بعين الاحتقار فيستدرج المسكين بالنصح الى الهلاك فيتكلم وهو يظن ان قصده الخير وانما قصده الجاه والقبول فيهلك بسببه وهو يظن أنه عند الله بمكان وهو من الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ليؤيد هذا الدين بقوم لا خلاق لهم وان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ولذلك روى أن ابليس لعنه الله تمثل لعيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم فقال له قل لا اله الا الله فقال كلمة حق ولا أقولها بقولك لان له أيضا تحت الخير تلبيسات وتلبيسات الشيطان من هذا الجنس لا تتناهى وبها يهلك العلماء والعباد والزهاد والفقراء والاغنياء وأصناف الخلق ممن يكرهون ظاهر الشر ولا يرضون لانفسهم الخوض فى المعاصى المكشوفة وسنذكر جملة من مكايد الشيطان فى كتاب الغرور فى آخر هذا الربع ولعلنا ان أمهل الزمان صنفنا فيه كتابا على الخصوص نسميه تلبيس ابليس فانه قد انتشر الآن تلبيسه فى البلاد والعباد لاسيما فى المذاهب والاعتقادات حتى لم يبق من الخيرات الا رسمها كل ذلك اذعانا لتلبيسات الشيطان ومكايده فحق على العبد أن يقف عند كل هم يخطر له ليعلم انه من لمة الملك أو لمة الشيطان وأن يمعن النظر فيه بعين البصيرة لا بهوى من الطبع ولا يطلع عليه الا بنور التقوى والبصيرة وغزارة العلم كما قال تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا أى رجعوا الى نور العلم فاذا هم مبصرون أى ينكشف لهم الاشكال فاما من لم يرض نفسه بالتقوى فيميل طبعه الى الاذعان بتلبيسه بمتابعة الهوى فيكثر فيه غلطه ويتعجل فيه هلاكه وهو لا يشعر وفى مثلهم قال سبحانه وتعالى وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون قيل هى أعمال ظنوها حسنات فاذا هى سيئات وأغمض انواع علوم المعاملة الوقوف على خدع النفس ومكايد الشيطان وذلك فرض عين على كل عبد وقد أهمله الخلق واشتغلوا بعلوم تستجر اليهم الوسواس وتسلط عليهم الشيطان وتنسيهم عداوته وطريق الاحتراز عنه ولا ينجى من كثرة الوسواس الا سد أبواب الخواطر وأبوابها الحواس الخمس وأبوابها من داخل الشهوات وعلائق الدنيا والخلوة فى بيت مظلم تسد باب الحواس والتجرد عن الاهل والمال يقلل مداخل الوسواس من الباطن ويبقى مع ذلك مداخل باطنة فى التخيلات الجارية فى القلب وذلك لا يدفع الا بشغل القلب بذكر الله تعالى ثم انه لا يزال يجاذب القلب وينازعه ويلهيه عن ذكر الله تعالى فلا بد من مجاهدته وهذه مجاهدة لا آخر لها الا الموت اذ لا يتخلص أحد من الشيطان ما دام حيا نعم قد يقوى بحيث لا ينقاد له ويدفع عن نفسه شره بالجهاد ولكن لا يستغنى قط عن الجهاد والمدافعة ما دام الدم يجرى فى بدنه فانه ما دام حيا فابواب الشيطان مفتوحة الى قلبه لا تنغلق وهى الشهوة والغضب والحسد والطمع والشره وغيرها كما سيأتى

عندكم قلت اذا وجدنا أكلنا واذا فقدنا صبرنا فقال هكذا عندنا كلاب بلخ فقلت له وما حد الزهد عندكم قال اذا فقدنا شكرنا واذا وجدنا آثرنا (وقال ذو النون) من علامة الزاهد المشروح صدره ثلاث تفريق المجموع وترك طلب المفقود والايثار بالقوت (روى) عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النضير للانصار ان شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم فى هذه الغنيمة وان شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم نقسم لكم شيأ من الغنيمة فقالت الانصار بل نقسم لهم من أموالنا ودیارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها فانزل الله تعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (وروى) أبو هريرة رضى الله عنه

شرحها ومهما كان الباب مفتوحا والعدو غير غافل لم يدافع الا بالحراسة والمجاهدة قال رجل للحسن يا أبا سعيد
أينام الشيطان فتبسم وقال لو نام لاسترحنا فاذا لا خلاص للمؤمن منه نعم له سبيل الى دفعه وتضعيف قوته قال
صلى الله عليه وسلم ان المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في سفره وقال ابن مسعود شيطان المؤمن مهزول
وقال قيس بن الحجاج قال لي شيطاني دخلت فيك وأنا مثل الجزور وأنا الآن مثل العصفور قلت ولم ذاك قال
تذيبني بذكر الله تعالى فاهل التقوى لا يتعذر عليهم سد أبواب الشيطان وحفظها بالحراسة أعني الابواب الظاهرة
والطرق الجلية التي تفضي الى المعاصي الظاهرة وانما يتعثرون في طرقه الغامضة فانهم لا يهتدون اليها
فيحرسونها كما أشرنا اليه في غرور العلماء والوعاظ والمشكل ان الابواب المفتوحة الى القلب للشيطان كثيرة
وباب الملائكة باب واحد وقد التبس ذلك الباب الواحد بهذه الابواب الكثيرة فالعبد فيها كالمسافر الذي يبقى
في بادية كثيرة الطرق غامضة المسالك في ليلة مظلمة فلا يكاد يعلم الطريق الا بعين بصيرة وطلوع شمس مشرقة
والعين البصيرة ههنا هي القلب المصفى بالتقوى والشمس المشرقة هو العلم الغزير المستفاد من كتاب الله تعالى
وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم مما يهدي الى غوامض طرقه والا فطرقه كثيرة وغامضة * قال عبد الله بن مسعود
رضي الله عنه خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا وقال هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمين الخط وعن
شماله ثم قال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه ثم تلا وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا
السبل لتلك الخطوط فبين صلى الله عليه وسلم كثرة طرقه وقد ذكرنا مثالا للطريق الغامض من طرقه وهو الذي
يخدع به العلماء والعباد المالكين لشهواتهم الكافين عن المعاصي الظاهرة فلنذكر مثالا لطريقه الواضح الذي
لا يخفى الا أن يضطر الآدمي الى سلوكه وذلك كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كان راهب في بني
اسرائيل فعمد الشيطان الى جارية فخنقها وألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب فأتوا بها اليه فأبى أن
يقبلها فلم يزالوا به حتى قبلها فلما كانت عنده ليعالجها أتاه الشيطان فزين له مقاربتها ولم يزل به حتى واقعها
فحملت منه فوسوس اليه وقال الآن تفتضح يأتيك أهلها فاقتلها فان سألوك فقل ماتت فقتلها ودفنها فأتى
الشيطان أهلها فوسوس اليهم وألقى في قلوبهم انه أحبلها ثم قتلها ودفنها فأتاه أهلها فسألوه عنها فقال ماتت
فأخذوه ليقتلوه بها فأتاه الشيطان فقال أنا الذي خنقتها وأنا الذي ألقيت في قلوب أهلها فأطعني تنج وأخلصك
منهم قال بماذا قال اسجد لي سجدتين فسجد له سجدتين فقال له الشيطان اني بريء منك فهو الذي قال الله تعالى
فيه كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال اني بريء منك فانظر الآن الى حيله واضطراره الراهب
الى هذه الكبائر وكل ذلك لطاعته له في قبول الجارية للمعالجة وهو أمر هين وربما يظن صاحبه انه خير وحسنة
فيحسن ذلك في قلبه بخفي الهوى فيقدم عليه كالراغب في الخير فيخرج الامر بعد ذلك عن اختياره ويجره البعض
الى البعض بحيث لا يجد محيصا فنعوذ بالله من تضييع أوائل الامور واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم من
حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه

(بيان تفصيل مداخل الشيطان الى القلب)

اعلم أن مثال القلب مثال حصن والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولي عليه ولا يقدر على حفظ
الحصن من العدو الا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدري أبوابه
فحماية القلب من وسواس الشيطان واجبة وهو فرض عين على كل عبد مكلف وما لا يتوصل الى الواجب الا به
فهو أيضا واجب ولا يتوصل الى دفع الشيطان الا بمعرفة مداخله فصارت معرفة مداخله واجبة ومداخل الشيطان
وأبوابه صفات العبد وهي كثيرة ولكنا نشير الى الابواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التي لا تضيق عن كثرة
جنود الشيطان * فمن أبوابه العظيمة الغضب والشهوة فان الغضب هو غول العقل واذا ضعف جند العقل
هجم جند الشيطان ومهما غضب الانسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبي بالكرة فقد روي أن موسى
عليه السلام لقيه ابليس فقال له يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالته وكلمك تكليما وأنا خلق من خلق الله
أذنبت وأريد أن أتوب فاشفع لي الى ربي أن يتوب علي فقال موسى نعم فلما صعد موسى الجبل وكلم ربه عز وجل
وأراد النزول قال له ربه أد الامانة فقال موسى يا رب عبدك ابليس يريد أن تتوب عليه فأوحى الله تعالى الى موسى
يا موسى قد قضيت حاجتك مره أن يسجد لقبر آدم حتى يتاب عليه فلقي موسى ابليس فقال له قد قضيت حاجتك

قال جاء رجل الى رسول
الله صلى الله عليه وسلم
وقد أصابه جهد فقال
يا رسول الله اني جائع
فأطعمني فبعث النبي
صلى الله عليه وسلم الى
أزواجه هل عند كن شيء
فكلهن قلن والذي بعثك
بالحق نبيا ما عندنا الا
الماء فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم ما عندنا
ما نطعمك هذه الليلة ثم
قال من يضيف هذا هذه
الليلة رحمه الله فقام رجل
من الانصار فقال أنا
يا رسول الله فأتى به منزله
فقال لاهله هذا ضيف
رسول الله صلى الله عليه
وسلم فأكرميه ولا تدخري
عنه شيأ فقالت ما عندنا
الا قوت الصبية فقال
فقومي عليهم عن قوتهم
حتى يناموا ولا يطعمون
شيأ ثم اسرجي فاذا أخذ
الضيف ليأكل فقومي
كأنك تصلحين السراج
فأطفئيه وتعالي نمضغ
ألسنتنا لضيف رسول
الله حتى يشبع ضيف
رسول الله فقامت الى
الصبية فعللتهم حتى ناموا

أمرت أن تسجد لقبر آدم حتى يتاب عليك فغضب واستكبر وقال لم أسجد له حيا أأسجد له ميتا ثم قال ياموسى ان لك على حقا بما شفعت لى الى ربك فاذكرنى عند ثلاث لا أهلكك فيهن اذكرنى حين تغضب فان روحى فى قلبك وعينى فى عينك وأجرى منك مجرى الدم اذكرنى اذا غضبت فانه اذا غضب الانسان نفخت فى أنفه فما يدرى مايصنع واذكرنى حين تلقى الزحف فانى آتى ابن آدم حين يلقى الزحف فاذكره زوجته وولده وأهله حتى يولى واياك أن تجلس الى امرأة ليست بذات محرم فانى رسولها اليك ورسولك اليها فلا أزال حتى أفتنك بها وافتنها بك فقد أشار بهذا الى الشهوة والغضب والحرص فان الفرار من الزحف حرص على الدنيا وامتناعه من السجود لآدم ميتا هو الحسد وهو أعظم مداخله وقد ذكر أن بعض الاولياء قال لابليس أرنى كيف تغلب ابن آدم فقال آخذه عند الغضب وعند الهوى فقد حكى أن ابليس ظهر لراهب فقال له الراهب أى أخلاق بنى آدم أعون لك قال الحدة فان العبد اذا كان حديدا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة وقيل ان الشيطان يقول كيف يغلبنى ابن آدم واذا رضى جئت حتى أكون فى قلبه واذا غضب طرت حتى أكون فى رأسه ومن أبوابه العظيمة الحسد والحرص فمهما كان العبد حريصا على كل شئ أعماه حرصه وأصمه اذ قال صلى الله عليه وسلم حبك الشئ يعمى ويصم ونور البصيرة هو الذى يعرف مداخل الشيطان فاذا غطاه الحسد والحرص لم يبصر فحينئذ يجد الشيطان فرصة فيحسن عند الحريص كل مايوصله الى شهوته وان كان منكرا وفاحشا فقد روى ان نوحا عليه السلام لما ركب السفينة حمل فيها من كل زوجين اثنين كما أمره الله تعالى فرأى فى السفينة شيخا لم يعرفه فقال له نوح ما أدخلك فقال دخلت لاصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معى وأبدانهم معك فقال له نوح أخرج منها ياعدو الله فانك لعين فقال له ابليس خمس أهلك بهن الناس سأحدثك منهن بثلاث ولا أحدثك باثنتين فاوحى الله تعالى الى نوح انه لا حاجة لك بالثلاث فليحدثك بالاثنتين فقال له نوح ما الاثنتان فقال هما اللتان لا تكذبانى هما اللتان لا تخلفانى بهما أهلك الناس الحرص والحسد فبالحسد لعنت وجعلت شيطانا رجيما وأما الحرص فانه أبيح لآدم الجنة كلها الا الشجرة فاصبت حاجتى منه بالحرص * ومن أبوابه العظيمة الشبع من الطعام وان كان حلالا صافيا فان الشبع يقوى الشهوات والشهوات أسلحة الشيطان فقد روى أن ابليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام فرأى عليه معاليق من كل شئ فقال له يا ابليس ماهذه المعاليق قال هذه الشهوات التى أصبت بها ابن آدم فقال فهل لى فيها من شئ قال ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة وعن الذكر قال فهل غير ذلك قال لا قال لله على ان لا أملا بطنى من الطعام أبدا فقال له ابليس ولله على أن لا أنصح مسلما أبدا ويقال فى كثرة الاكل ست خصال مذمومة أولها ان يذهب خوف الله من قلبه الثانى أن يذهب رحمة الخلق من قلبه لانه يظن انهم كلهم شباع والثالث انه يثقل عن الطاعة والرابع انه اذا سمع كلام الحكمة لا يجد له رقة والخامس انه اذا تكلم بالموعظة والحكمة لا يقع فى قلوب الناس والسادس ان يهيج فيه الامراض * ومن أبوابه حب التزين من الاثاث والثياب والدار فان الشيطان اذا رأى ذلك غالبا على قلب الانسان باض فيه وفرخ فلا يزال يدعوه الى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها وتوسيع أبنيتها ويدعوه الى التزين بالثياب والدواب ويستسخره فيها طول عمره واذا أوقعه فى ذلك فقد استغنى ان يعود اليه ثانية فان بعض ذلك يجره الى البعض فلا يزال يؤديه من شئ الى شئ الى أن يساق اليه أجله فيموت وهو فى سبيل الشيطان واتباع الهوى ويخشى من ذلك سوء العاقبة بالكفر نعوذ بالله منه * ومن أبوابه العظيمة الطمع فى الناس لانه اذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشيطان يحبب اليه التصنع والتزين لمن طمع فيه بانواع الرياء والتلبيس حتى يصير المطموع فيه كأنه معبوده فلا يزال يتفكر فى حيلة التودد والتحبب اليه ويدخل كل مدخل للوصول الى ذلك وأقل أحواله الثناء عليه بما ليس فيه والمداهنة له بترك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فقد روى صفوان بن سليم أن ابليس تمثل لعبد الله بن حنظلة فقال له يا ابن حنظلة احفظ عنى شيأ أعلمك به فقال لا حاجة لى به قال انظر فان كان خيرا أخذت وان كان شرا رددت يا ابن حنظلة لا تسأل أحدا غير الله سؤال رغبة وانظر كيف تكون اذا غضبت فانى أملكك اذا غضبت * ومن أبوابه العظيمة العجلة وترك التثبت فى الامور وقال صلى الله عليه وسلم العجلة من الشيطان والتأنى

غن قوتهم ولم يطعموا شيأ ثم قامت فأثردت وأسرجت فلما أخذ الضيف ليأكل قامت كأنها تصلح السراج فأطفأته فجعلا يمضغان ألسنتهما الضيف رسول الله وظن الضيف انهما يأكلان معه حتى شبع الضيف وباتا طاويين فلما أصبحوا غدوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما نظر اليهما تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لقد عجب الله من فلان وفلانة هذه الليلة وأنزل الله تعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (وقال) أنس رضى الله عنه أهدى لبعض أصحابه رأس شاة مشوى وكان مجهودا فوجهه الى جاره فتداوله سبعة أنفس ثم عاد الى الاول فانزلت الآية لذلك وروى ان أبا الحسن الانطاكى اجتمع عنده نيف وثلاثون رجلا بقرية بقرب الرى وله

من الله تعالى وقال عز وجل خلق الانسان من عجل وقال تعالى وكان الانسان عجولا وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه وهذا لان الاعمال ينبغي أن تكون بعد التبصرة والمعرفة والتبصرة تحتاج الى تأمل وتمهل والعجلة تمنع من ذلك وعند الاستعجال يروج الشيطان شره على الانسان من حيث لا يدرى فقد روى انه لما ولد عيسى بن مريم عليه السلام أتت الشياطين ابليس فقالوا أصبحت الاصنام قد نكست رؤسها فقال هذا حادث قد حدث مكانكم فطار حتى أتى خافقي الارض فلم يجد شيأ ثم وجد عيسى عليه السلام قد ولد واذا الملائكة حافين به فرجع اليهم فقال ان نبيا قد ولد البارحة ما حملت أنثى قط ولا وضعت الا وأنا حاضرها الا هذا فايسوا من أن تعبد الاصنام بعد هذه الليلة ولكن ائتوا بنى آدم من قبل العجلة والخفة * ومن أبوابه العظيمة الدراهم والدنانير وسائر أصناف الاموال من العروض والدواب والعقار فان كل ما يزيد على قدر القوت والحاجة فهو مستقر الشيطان فان من معه قوته فهو فارغ القلب فلو وجد مائة دينار مثلا على طريق انبعث من قلبه عشر شهوات تحتاج كل شهوة منها الى مائة دينار أخرى فلا يكفيه ما وجد بل يحتاج الى تسعمائة أخرى وقد كان قبل وجود المائة مستغنيا فالآن لما وجد مائة ظن انه صار بها غنيا وقد صار محتاجا الى تسعمائة ليشترى دارا يعمرها وليشترى جارية وليشترى أثاث البيت ويشترى الثياب الفاخرة وكل شئ من ذلك يستدعى شيأ آخر يليق به وذلك لا آخر له فيقع في هاوية آخرها عمق جهنم فلا آخر لها سواه * قال ثابت البنانى لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابليس لشياطينه لقد حدث أمر فانظروا ما هو فانطلقوا حتى أعيوا ثم جاؤا وقالوا ما ندرى قال أنا آتيكم بالخبر فذهب ثم جاء وقال قد بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم قال فجعل يرسل شياطينه الى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فينصرفون خائبين ويقولون ما صحبنا قوما قط مثل هؤلاء نصيب منهم ثم يقومون الى صلاتهم فيمحى ذلك فقال لهم ابليس رويدا بهم عسى الله ان يفتح لهم الدنيا فنصيب منهم حاجتنا وروى ان عيسى عليه السلام توسد يوما حجرا فمر به ابليس فقال يا عيسى رغبت في الدنيا فأخذه عيسى صلى الله عليه وسلم فرمى به من تحت رأسه وقال هذا لك مع الدنيا وعلى الحقيقة من يملك حجرا يتوسد به عند النوم فقد ملك من الدنيا ما يمكن ان يكون عدة للشيطان عليه فان القائم بالليل مثلا للصلاة مهما كان بالقرب منه حجر يمكن ان يتوسده فلا يزال يدعوه الى النوم والى ان يتوسده ولو لم يكن ذلك لكان لا يخطر له ذلك ببال ولا تتحرك رغبته الى النوم هذا في حجر فكيف بمن يملك المخاد الميثرة والفرش الوطيئة والمتنزهات الطيبة فمتى ينشط لعبادة الله تعالى * ومن أبوابه العظيمة البخل وخوف الفقر فان ذلك هو الذى يمنع من الانفاق والتصدق ويدعو الى الادخار والكنز والعذاب الاليم وهو الموعود للمكاثرين كما نطق به القرآن العزيز قال خيثمة بن عبد الرحمن ان الشيطان يقول ما غلبنى ابن آدم غلبة فلن يغلبنى على ثلاث ان آمره أن يأخذ المال من غير حقه وانفاقه في غير حقه ومنعه من حقه وقال سفيان ليس للشيطان سلاح مثل خوف الفقر فاذا قبل ذلك منه أخذ في الباطل ومنع من الحق وتكلم بالهوى وظن بربه ظن السوء ومن آفات البخل الحرص على ملازمة الاسواق لجمع المال والاسواق هى معشش الشياطين وقال أبو أمامة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان ابليس لما نزل الى الارض قال يا رب أنزلتنى الى الارض وجعلتنى رجيما فاجعل لى بيتا قال الحمام قال اجعل لى مجلسا قال الاسواق ومجامع الطرق قال اجعل لى طعاما قال طعامك ما لم يذكر اسم الله عليه قال اجعل لى شرابا قال كل مسكر قال اجعل لى مؤذنا قال المزامير قال اجعل لى قرآنا قال الشعر قال اجعل لى كتابا قال الوشم قال اجعل لى حديثا قال الكذب قال اجعل لى مصايد قال النساء * ومن أبوابه العظيمة التعصب للمذاهب والاهواء والحقد على الخصوم والنظر اليهم بعين الازدراء والاستحقار وذلك مما يهلك العباد والفساق جميعا فان الطعن في الناس والاشتغال بذكر نقصهم صفة مجبولة في الطبع من الصفات السبعية فاذا خيل اليه الشيطان أن ذلك هو الحق وكان موافقا لطبعه غلبت حلاوته على قلبه فاشتغل به بكل همته وهو بذلك فرحان مسرور يظن أنه يسعى في الدين وهو ساع في اتباع الشياطين فترى الواحد منهم يتعصب لابى بكر الصديق رضى الله عنه وهو آكل الحرام ومطلق اللسان بالفضول والكذب ومتعاط لانواع الفساد ولو رآه أبو بكر لكان أول عدو له اذ موالى ابى بكر من أخذ سبيله وسار بسيرته وحفظ ما بين لحييه وكان

أرغفة معدودة لم تشبع خمسة منهم فكسروا الرغفان وأطفؤا السراج وجلسوا للطعام فلما رفعوا الطعام فاذا هو بحاله لم يأكل أحد منهم ايثارا منه على نفسه (وحكى) عن حذيفة العدوى قال انطلقت يوم اليرموك لطلب ابن عم لى ومعى شئ من ماء وأنا أقول ان كان به رمق سقيته ومسحت وجهه فاذا أنا به فقلت أسقيك فاشار الى نعم فاذا رجل يقول آه فقال ابن عمى انطلق به اليه فجئت اليه فاذا هو هشام بن العاص فقلت أسقيك فسمع هشام آخر يقول آه فقال انطلق به اليه فجئت اليه فاذا هو قد مات ثم رجعت الى هشام فاذا هو أيضا قد مات ثم رجعت الى ابن عمى فاذا هو أيضا قد مات (وسئل) أبو الحسن البوشنجي عن الفتوة فقال الفتوة عندى ما وصف الله تعالى به

من

من سيرته رضي الله عنه أن يضع حصاة في فيه ليكف لسانه عن الكلام فيما لا يعنيه فأني لهذا الفضولي أن يدعي ولاءه وحبه ولا يسير بسيرته ونرى فضوليا آخر يتعصب لعلي رضي الله عنه وكان من زهد علي وسيرته أنه لبس في خلافته ثوبا اشتراه بثلاثة دراهم وقطع رأس الكمين الى الرسغ ونرى الفاسق لابسا الثياب الحرير ومتجملا بأموال اكتسبها من حرام وهو يتعاطى حب علي رضي الله عنه ويدعيه وهو أول خصمائه يوم القيامة وليت شعري من أخذ ولدا عزيزا لانسان هو قرة عينه وحياة قلبه فأخذ يضربه ويمزقه وينتف شعره ويقطعه بالمقراض وهو مع ذلك يدعي حب أبيه وولاءه فكيف يكون حاله عنده ومعلوم أن الدين والشرع كان أحب الى أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة رضي الله عنهم من الاهل والولد بل من أنفسهم والمقتحمون لمعاصي الشرع هم الذين يمزقون الشرع ويقطعونه بمقاريض الشهوات ويتوددون به الى عدو الله ابليس وعدو أوليائه فترى كيف يكون حالهم يوم القيامة عند الصحابة وعند أولياء الله تعالى لا بل لو كشف الغطاء وعرف هؤلاء ما تحبه الصحابة في أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لاستحيوا أن يجروا على اللسان ذكرهم مع قبح أفعالهم ثم ان الشيطان يخيل اليهم أن من مات محبا لابي بكر وعمر فالنار لا تحوم حوله ويخيل الى الآخر أنه اذا مات محبا لعلي لم يكن عليه خوف وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لفاطمة رضي الله عنها وهي بضعة منه اعملي فاني لا أغني عنك من الله شيأ وهذا مثال أوردناه من جملة الاهواء وهكذا حكم المتعصبين للشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد وغيرهم من الائمة فكل من ادعى مذهب امام وهو ليس يسير بسيرته فذلك الامام هو خصمه يوم القيامة اذ يقول له كان مذهبي العمل دون الحديث باللسان وكان الحديث باللسان لاجل العمل لا لاجل الهذيان فما بالك خالفتني في العمل والسيرة التي هي مذهبي ومسلكي الذي سلكته وذهبت فيه الى الله تعالى ثم ادعيت مذهبي كاذبا وهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان قد أهلك به أكثر العالم وقد سلمت المدارس لاقوام قل من الله خوفهم وضعفت في الدين بصيرتهم وقويت في الدنيا رغبتهم واشتد على الاستتباع حرصهم ولم يتمكنوا من الاستتباع واقامة الجاه الا بالتعصب فحبسوا ذلك في صدورهم ولم ينبهوهم على مكايد الشيطان فيه بل نابوا عن الشيطان في تنفيذ مكيدته فاستمر الناس عليه ونسوا أمهات دينهم فقد هلكوا وأهلكوا فالله تعالى يتوب علينا وعليهم وقال الحسن بلغنا أن ابليس قال سولت لامة محمد صلى الله عليه وسلم المعاصي فقصموا ظهري بالاستغفار فسولت لهم ذنوبا لا يستغفرون الله تعالى منها وهي الاهواء وقد صدق الملعون فانهم لا يعلمون ان ذلك من الاسباب التي تجر الى المعاصي فكيف يستغفرون منها * ومن عظيم حيل الشيطان أن يشغل الانسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس في المذاهب والخصومات قال عبد الله بن مسعود جلس قوم يذكرون الله تعالى فأتاهم الشيطان ليقيمهم عن مجلسهم ويفرق بينهم فلم يستطع فأتى رفقة أخرى يتحدثون بحديث الدنيا فأفسد بينهم فقاموا يقتتلون وليس اياهم يريد فقام الذين يذكرون الله تعالى فاشتغلوا بهم يفصلون بينهم فتفرقوا عن مجلسهم وذلك مراد الشيطان منهم * ومن أبوابه حمل العوام الذين لم يمارسوا العلم ولم يتبحروا فيه على التفكر في ذات الله تعالى وصفاته وفي أمور لا يبلغها حد عقولهم حتى يشككهم في أصل الدين أو يخيل اليهم في الله تعالى خيالات يتعالى الله عنها يصير بها كافرا أو مبتدعا وهو به فرح مسرور مبتهج بما وقع في صدره يظن ذلك هو المعرفة والبصيرة وانه انكشف له ذلك بذكائه وزيادة عقله فأشد الناس حماقة أقواهم اعتقادا في عقل نفسه وأثبت الناس عقلا أشدهم اتهاما لنفسه وأكثرهم سؤالا من العلماء قالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلقك فيقول الله تبارك وتعالى فيقول فمن خلق الله فاذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله فان ذلك يذهب عنه والنبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر بالبحث في علاج هذا الوسواس فان هذا وسواس يجده عوام الناس دون العلماء وانما حق العوام أن يؤمنوا ويسلموا ويشتغلوا بعبادتهم ومعايشهم ويتركوا العلم للعلماء فالعامي لو يزني ويسرق كان خيرا له من أن يتكلم في العلم فانه من تكلم في الله وفي دينه من غير اتقان العلم وقع في الكفر من حيث لا يدري كمن يركب لجة البحر وهو لا يعرف السباحة ومكايد الشيطان فيما يتعلق بالعقائد والمذاهب لا تحصر وانما أردنا بما أوردناه المثال * ومن

الانصار في قوله والذين تبوؤا الدار والايمان قال ابن عطاء يؤثرون على أنفسهم جودا وكرما ولو كان بهم خصاصة يعني جوعا وفقرا (قال) أبو حفص الايثار هو أن يقدم حظوظ الاخوان على حظوظه في أمر الدنيا والآخرة (وقال) بعضهم الايثار لا يكون عن اختيار انما الايثار ان تقدم حقوق الخلق أجمع على حقك ولا تميز في ذلك بين أخ وصاحب وذي معرفة (وقال يوسف) بن الحسين من رأى لنفسه ملكا لا يصح منه الايثار لانه يرى نفسه أحق بالشئ برؤية ملكه انما الايثار ممن يرى الاشياء كلها للحق فمن وصل اليه فهو أحق به فاذا وصل شئ من ذلك اليه يرى نفسه ويده فيه يد أمانة يوصلها الى صاحبها أو يؤديها اليه وقال بعضهم حقيقة الايثار ان تؤثر بحظ

أبوابه سوء الظن بالمسلمين قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم فمن يحكم
بشر على غيره بالظن بعثه الشيطان على أن يطول فيه اللسان بالغيبة فيهلك أو يقصر في القيام بحقوقه أو يتوانى
في اكرامه وينظر اليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيرا منه وكل ذلك من المهلكات ولاجل ذلك منع الشرع
من التعرض للتهم فقال صلى الله عليه وسلم اتقوا مواضع التهم حتى احترز هو صلى الله عليه وسلم من ذلك روى
عن علي بن حسين أن صفية بنت حيي بن أخطب أخبرته أن النبي صلى الله عليه وسلم كان معتكفا في المسجد
قالت فأتيته فتحدثت عنده فلما أمسيت انصرفت فقام يمشي معي فمر به رجلان من الانصار فسلما ثم انصرفا
فناداهما وقال انها صفية بنت حيي فقالا يا رسول الله ما نظن بك الا خيرا فقال ان الشيطان يجري من ابن آدم
مجرى الدم من الجسد واني خشيت أن يدخل عليكما فانظر كيف أشفق صلى الله عليه وسلم على دينهما فحرسهما
وكيف أشفق على أمته فعلمهم طريق الاحتراز من التهمة حتى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدين في
أحواله فيقول مثلي لا يظن به الا الخير اعجابا منه بنفسه فان أورع الناس وأتقاهم وأعلمهم لا ينظر الناس كلهم
اليه بعين واحدة بل بعين الرضا بعضهم وبعين السخط بعضهم ولذلك قال الشاعر

وعين الرضا عن كل عيب كليلة * ولكن عين السخط تبدي المساويا

فيجب الاحتراز عن ظن السوء وعن تهمة الاشرار فان الاشرار لا يظنون بالناس كلهم الا الشر فمهما رأيت انسانا
يسيء الظن بالناس طالبا للعيوب فاعلم أنه خبيث في الباطن وان ذلك خبثه يترشح منه وانما رأى غيره من حيث
هو فان المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العيوب والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق فهذه بعض
مداخل الشيطان الى القلب ولو أردت استقصاء جميعها لم أقدر عليه وفي هذا القدر ما ينبه على غيره فليس في
الآدمي صفة مذمومة الا وهي سلاح الشيطان ومدخل من مداخله * فان قلت فما العلاج في دفع الشيطان وهل
يكفي في ذلك ذكر الله تعالى وقول الانسان لا حول ولا قوة الا بالله فاعلم أن علاج القلب في ذلك سد هذه المداخل
بتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة وذلك مما يطول ذكره وغرضنا في هذا الربع من الكتاب بيان
علاج الصفات المهلكات وتحتاج كل صفة الى كتاب منفرد على ما سيأتي شرحه نعم اذا قطعت من القلب أصول هذه
الصفات كان للشيطان بالقلب اجتيازات وخطرات ولم يكن له استقرار ويمنعه من الاجتياز ذكر الله تعالى لان
حقيقة الذكر لا تتمكن من القلب الا بعد عمارة القلب بالتقوى وتطهيره من الصفات المذمومة والا فيكون
الذكر حديث نفس لا سلطان له على القلب فلا يدفع سلطان الشيطان ولذلك قال الله تعالى ان الذين اتقوا اذا
مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون خصص بذلك المتقي فمثل الشيطان كمثل كلب جائع
يقرب منك فان لم يكن بين يديك خبز أو لحم فانه ينزجر بأن تقول له اخسأ فمجرد الصوت يدفعه فان كان بين
يديك لحم وهو جائع فانه يهجم على اللحم ولا يندفع بمجرد الكلام فالقلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه
بمجرد الذكر فأما الشهوة اذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذكر الى حواشي القلب فلم يتمكن من سويدائه
فيستقر الشيطان في سويداء القلب وأما قلوب المتقين الخالية من الهوى والصفات المذمومة فانه يطرقها
الشيطان لا للشهوات بل لخلوها بالغفلة عن الذكر فاذا عاد الى الذكر خنس الشيطان ودليل ذلك قوله تعالى
فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم وسائر الاخبار والآيات الواردة في الذكر قال أبو هريرة التقى شيطان
المؤمن وشيطان الكافر فاذا شيطان الكافر دهين سمين كاس وشيطان المؤمن مهزول أشعث أغبر عار فقال
شيطان الكافر لشيطان المؤمن مالك مهزول قال أنا مع رجل اذا أكل سمى الله فأظل جائعا واذا شرب سمى الله
فأظل عطشانا واذا لبس سمى الله فأظل عريانا واذا ادهن سمى الله فأظل شعثا فقال لكني مع رجل لا يفعل شيأ
من ذلك فأنا أشاركه في طعامه وشرابه ولباسه * وكان محمد بن واسع يقول كل يوم بعد صلاة الصبح اللهم انك
سلطت علينا عدوا بصيرا بعيوبنا يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم اللهم فآيسه منا كما آيسته من رحمتك وقنطه
منا كما قنطته من عفوك وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين رحمتك انك على كل شيء قدير قال فتمثل له ابليس
يوما في طريق المسجد فقال له يا ابن واسع هل تعرفني قال ومن أنت قال أنا ابليس فقال وما تريد قال أريد أن لا تعلم

آخرتك على اخوانك
ذي الدنيا أقل خطرا من
أن يكون لايثارها محل
أو ذكر ومن هذا المعنى
ما نقل ان بعضهم رأى
أخاه فلم يظهر البشر
الكثير في وجهه فأنكر
أخوه ذلك منه فقال
يا أخي سمعت أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم
قال اذا التقى المسلمان
ينزل عليهما مائة رحمة
تسعون لأكثرهما
بشرا وعشرة لأقلهما
بشرا فأردت أن أكون
أقل بشرا منك ليكون
لك الأكثر (أخبرنا)
الشيخ ضياء الدين أبو
النجيب اجازة قال أنا أبو
حفص عمر بن الصفار
النيسابوري قال أنا أبو
بكر أحمد بن خلف
الشيرازي قال أنا الشيخ
أبو عبد الرحمن السلمي
قال سمعت أبا القاسم
الرازي يقول سمعت أبا
بكر بن أبي سعدان
يقول من صحب الصوفية
فليصحبهم بلا نفس ولا
قلب ولا ملك فمن نظر

أحداً هذه الاستعاذة ولا أتعرض لك قال والله لا أمنعها من أرادها فاصنع ماشئت ❊ وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى
قال كان شيطان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بيده شعلة من نار فيقوم بين يديه وهو يصلي فيقرأ ويتعوذ فلا يذهب
فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال له قل أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما يلج في
الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ومن فتن الليل والنهار ومن طوارق الليل والنهار الا
طارقاً يطرق بخير يا رحمن فقال ذلك فطفئت شعلته وخر على وجهه وقال الحسن نبئت أن جبرائيل عليه السلام
أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان عفريتاً من الجن يكيدك فاذا أويت الى فراشك فاقرأ آية الكرسي وقال
صلى الله عليه وسلم لقد أتاني الشيطان فنازعني ثم نازعني فأخذت بحلقه فوالذي بعثني بالحق ما أرسلته حتى
وجدت برد ماء لسانه على يدي ولولا دعوة أخي سليمان عليه السلام لاصبح طريحاً في المسجد وقال صلى الله عليه
وسلم ما سلك عمر فجاً الا سلك الشيطان فجاً غير الذي سلكه عمر وهذا لان القلوب كانت مطهرة عن مرعى الشيطان
وقوته وهي الشهوات فمهما طمعت في أن يندفع الشيطان عنك بمجرد الذكر كما اندفع عن عمر رضي الله عنه كان
محالاً وكنت كمن يطمع أن يشرب دواء قبل الاحتماء والمعدة مشغولة بغليظ الاطعمة ويطمع أن ينفعه كما نفع
الذي شربه بعد الاحتماء وتخلية المعدة والذكر الدواء والتقوى احتماء وهي تخلي القلب عن الشهوات فاذا نزل
الذكر قلباً فارغاً عن غير الذكر اندفع الشيطان كما تندفع العلة بنزول الدواء في المعدة الخالية عن الاطعمة قال الله
تعالى ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب وقال تعالى كتب عليه أنه من تولاه فانه يضله ويهديه الى عذاب السعير ومن
ساعد الشيطان بعمله فهو مواليه وان ذكر الله بلسانه وان كنت تقول الحديث قد ورد مطلقاً بان الذكر يطرد
الشيطان ولم تفهم أن أكثر عمومات الشرع مخصوصة بشروط نقلها علماء الدين فانظر الى نفسك فليس الخبر
كالعيان وتأمل أن منتهى ذكرك وعبادتك الصلاة فراقب قلبك اذا كنت في صلاتك كيف يجاذبه الشيطان
الى الاسواق وحساب العاملين وجواب المعاندين وكيف يمر بك في أودية الدنيا ومهالكها حتى انك لا تذكر
ما قد نسيته من فضول الدنيا الا في صلاتك ولا يزدحم الشيطان على قلبك الا اذا صليت فالصلاة محك القلوب فبها
يظهر محاسنها ومساويها فالصلاة لا تقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا فلا جرم لا ينطرد عنك الشيطان بل
ربما يزيد عليك الوسواس كما ان الدواء قبل الاحتماء ربما يزيد عليك الضرر فان أردت الخلاص من الشيطان فقدم
الاحتماء بالتقوى ثم أردفه بدواء الذكر يفر الشيطان منك كما فر من عمر رضي الله عنه ولذلك قال وهب بن منبه اتق
الله ولا تسب الشيطان في العلانية وأنت صديقه في السر أي أنت مطيع له وقال بعضهم يا عجباً لمن يعصي المحسن
بعد معرفته باحسانه ويطيع اللعين بعد معرفته بطغيانه وكما ان الله تعالى قال ادعوني أستجب لكم وأنت تدعوه ولا
يستجيب لك فكذلك تذكر الله ولا يهرب الشيطان منك لفقد شروط الذكر والدعاء قيل لابراهيم بن أدهم ما بالنا
ندعو فلا يستجاب لنا وقد قال تعالى ادعوني أستجب لكم قال لان قلوبكم ميتة قيل وما الذي أماتها قال ثمان خصال
عرفتم حق الله ولم تقوموا بحقه وقرأتم القرآن ولم تعملوا بحدوده وقلتم نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم
تعملوا بسنته وقلتم نخشى الموت ولم تستعدوا له وقال تعالى ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً فواطأتموه على
المعاصي وقلتم نخاف النار وأرهقتم أبدانكم فيها وقلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها واذا قمتم من فرشكم رميتم عيوبكم
وراء ظهوركم وافترشتم عيوب الناس أمامكم فأسخطتم ربكم فكيف يستجيب لكم فان قلت فالداعي الى المعاصي
المختلفة شيطان واحد أو شياطين مختلفون فاعلم أنه لا حاجة لك الى معرفة ذلك في المعاملة فاشتغل بدفع العدو ولا
تسأل عن صفته كل البقل من حيث يؤتى ولا تسأل عن المبقلة ولكن الذي يتضح بنور الاستبصار في شواهد
الاخبار انهم جنود مجندة وان لكل نوع من المعاصي شيطاناً يخصه ويدعو اليه فاما طريق الاستبصار فذكره يطول
ويكفيك القدر الذي ذكرناه وهو ان اختلاف المسببات يدل على اختلاف الاسباب كما ذكرناه في نور النار وسواد
الدخان وأما الاخبار فقد قال مجاهد لابليس خمسة من الاولاد قد جعل كل واحد منهم على شيء من أمره ثبر والاعور
ومبسوط وداسم وزلنبور فاما ثبر فهو صاحب المصائب الذي يأمر بالثبور وشق الجيوب ولطم الخدود ودعوى
الجاهلية وأما الاعور فانه صاحب الزنا يأمر به ويزينه وأما مبسوط فهو صاحب الكذب وأما داسم فانه يدخل مع

الى شيء من أسبابه قطعه
ذلك عن بلوغ مقصده
(وقال سهل بن عبد الله)
الصوفي من يرى دمه
هدراً وملكه مباحاً وقال
رويم التصوف مبني على
ثلاث خصال التمسك
بالفقر والافتقار
والتحقق بالبذل
والايثار وترك التعرض
والاختيار (قيل) لما
سعي بالصوفية وتميز
الجنيد بالفقه وقبض
على الشحام والرقام
والنوري وبسط النطع
لضرب رقابهم تقدم
النوري فقيل له الى
ماذا تبادر فقال أوثر
اخواني بفضل حياة
ساعة وقيل دخل
الروذباري دار بعض
أصحابه فوجده غائباً
وباب بيته مغلق فقال
صوفي وله باب مغلق
اكسروا الباب
فكسروه وأمر بجميع
ما وجدوا في البيت أن
يباع فانفذوه الى
السوق واتخذوا رفقاً
من الثمن وقعدوا في
الدار فدخل صاحب
المنزل ولم يقل شيئاً

الرجل الى أهله يرميهم بالعيب عنده ويغضبه عليهم وأما زلنبور فهو صاحب السوق فبسببه لا يزالون متظالمين وشيطان الصلاة يسمى خنزب وشيطان الوضوء يسمى الولهان وقد ورد في ذلك أخبار كثيرة وكما أن الشياطين فيهم كثرة فكذلك في الملائكة كثرة وقد ذكرنا في كتاب الشكر السر في كثرة الملائكة واختصاص كل واحد منهم بعمل منفرد به وقد قال أبو أمامة الباهلي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل بالمؤمن مائة وستون ملكا يذبون عنه ما لم يقدر عليه من ذلك للبصر سبعة أملاك يذبون عنه كما يذب الذباب عن قصعة العسل في اليوم الصائف وما لو بدا لكم لرأيتموه على كل سهل وجبل كل باسط يده فاغر فاه ولو وكل العبد الى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين وقال أيوب بن يونس بن يزيد بلغنا أنه يولد مع أبناء الانس من أبناء الجن ثم ينشؤن معهم وروى جابر ابن عبد الله أن آدم عليه السلام لما أهبط الى الأرض قال يا رب هذا الذي جعلت بيني وبينه عداوة ان لم تعني عليه لا أقوى عليه قال لا يولد لك ولد الا وكل به ملك قال يا رب زدني قال أجزي بالسيئة سيئة وبالحسنة عشرا الى ما أريد قال رب زدني قال باب التوبة مفتوح ما دام في الجسد الروح قال ابليس يا رب هذا العبد الذي كرمته علي ان لا تعني عليه لا أقوى عليه قال لا يولد له ولد الا ولد لك ولد قال يا رب زدني قال تجري منهم مجرى الدم وتتخذون صدورهم بيوتا قال رب زدني قال أجلب عليهم بخيلك ورجلك الى قوله غرورا وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خلق الله الجن ثلاثة أصناف صنف حيات وعقارب وخشاش الأرض وصنف كالريح في الهواء وصنف عليهم الثواب والعقاب وخلق الله تعالى الانس ثلاثة أصناف صنف كالبهائم كما قال تعالى لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل وصنف أجسامهم أجسام بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين وصنف في ظل الله تعالى يوم القيامة يوم لا ظل الا ظله وقال وهيب بن الورد بلغنا أن ابليس تمثل ليحيى بن زكريا عليهما السلام وقال اني أريد أن أنصحك قال لا حاجة لي في نصحك ولكن أخبرني عن بني آدم قال هم عندنا ثلاثة أصناف أما صنف منهم وهم أشد الأصناف علينا نقبل على أحدهم حتى نفتنه ونتمكن منه فيفزع الى الاستغفار والتوبة فيفسد علينا كل شئ أدركنا منه ثم نعود عليه فيعود فلا نحن نيأس منه ولا نحن ندرك منه حاجتنا فنحن منه في عناء وأما الصنف الآخر فهم في أيدينا بمنزلة الكرة في أيدي صبيانكم نقلبهم كيف شئنا قد كفونا أنفسهم وأما الصنف الثالث فهم مثلك معصومون لا نقدر منهم على شئ فان قلت فكيف يتمثل الشيطان لبعض الناس دون البعض واذا رأى صورة فهل هي صورته الحقيقية أو هو مثال يتمثل له به فان كان على صورته الحقيقية فكيف يرى بصور مختلفة وكيف يرى في وقت واحد في مكانين وعلى صورتين حتى يراه شخصان بصورتين مختلفتين فاعلم أن الملك والشيطان لهما صورتان هي حقيقة صورتهما ولا تدرك حقيقة صورتهما بالمشاهدة الا بأنوار النبوة فما رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبرائيل عليه أفضل الصلاة والسلام في صورته الا مرتين وذلك أنه سأله أن يريه نفسه على صورته فواعده بالبقيع وظهر له بحراء فسد الأفق من المشرق الى المغرب ورآه مرة أخرى على صورته ليلة المعراج عند سدرة المنتهى وانما كان يراه في صورة الآدمي غالبا فكان يراه في صورة دحية الكلبي وكان رجلا حسن الوجه والأكثر انه يكاشف أهل المكاشفة من أرباب القلوب بمثال صورته فيتمثل الشيطان له في اليقظة فيراه بعينه ويسمع كلامه باذنه فيقوم ذلك مقام حقيقة صورته كما ينكشف في المنام لأكثر الصالحين وانما المكاشف في اليقظة هو الذي انتهى الى رتبة لا يمنعه اشتغال الحواس بالدنيا عن المكاشفة التي تكون في المنام فيرى في اليقظة ما يراه غيره في المنام كما روي عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أن رجلا سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم فرأى في النوم جسد رجل شبه البلور يرى داخله من خارجه ورأى الشيطان في صورة ضفدع قاعد على منكبه الأيسر بين منكبه وأذنه له خرطوم طويل دقيق قد أدخله من منكبه الأيسر الى قلبه يوسوس اليه فاذا ذكر الله تعالى خنس ومثل هذا قد يشاهد بعينه في اليقظة فقد رآه بعض المكاشفين في صورة كلب جاثم على جيفة يدعو الناس اليها وكانت الجيفة مثال الدنيا وهذا يجري مجرى مشاهدة صورته الحقيقية فان القلب لا بد وأن تظهر فيه حقيقة من الوجه الذي يقابل عالم الملكوت وعند ذلك يشرق أثره على وجهه الذي يقابل عالم الملك والشهادة لأن

ودخلت امرأته وعليها كساء فدخلت بيتا فرمت بالكساء وقالت هذا أيضا من بقية المتاع فبيعوه فقال الزوج لها لم تكلفت هذا باختيارك قالت اسكت مثل الشيخ يباسطنا ويحكم علينا ويبقى لنا شئ ندخره عنه (وقيل) مرض قيس بن سعد فاستبطأ اخوانه في عيادته فسأل عنهم فقالوا انهم يستحيون بما لك عليهم من الدين فقال أخزى الله مالا يمنع الاخوان عن الزيارة ثم أمر مناديا ينادي من كان لقيس عليه مال فهو منه في حل فكسرت عتبة داره بالعشي لكثرة عواده (وقيل) أتى رجل صديقا له ودق عليه الباب فلما خرج قال لماذا جئتني قال لأربعمائة درهم دين علي فدخل الدار ووزن أربعمائة درهم وأخرجها اليه ودخل الدار باكيا فقالت امرأته هلا تعللت حين شق عليك الاجابة

أحدهما متصل بالآخر وقد بينا أن القلب له وجهان وجه الى عالم الغيب وهو مدخل الالهام والوحي ووجه الى عالم الشهادة فالذي يظهر منه في الوجه الذي يلي جانب عالم الشهادة لا يكون الا صورة متخيلة لان عالم الشهادة كله متخيلات الا ان الخيال تارة يحصل من النظر الى ظاهر عالم الشهادة بالحس فيجوز أن لا تكون الصورة على وفق المعنى حتى يرى شخصا جميل الصورة وهو خبيث الباطن قبيح السر لان عالم الشهادة عالم كثير التلبيس اما الصورة التي تحصل في الخيال من اشراق عالم الملكوت على باطن سر القلوب فلا تكون الا محاكية للصفة وموافقة لها لان الصورة في عالم الملكوت تابعة للصفة وموافقة لها فلا جرم لا يرى المعنى القبيح الا بصورة قبيحة فيرى الشيطان في صورة كلب وضفدع وخنزير وغيرها ويرى الملك في صورة جميلة فتكون تلك الصورة عنوان المعاني ومحاكية لها بالصدق ولذلك يدل القرد والخنزير في النوم على مثال خبيث وتدل الشاة على انسان سليم الصدر وهكذا جميع أبواب الرؤيا والتعبير وهذه أسرار عجيبة وهي من أسرار عجائب القلب ولا يليق ذكرها بعلم المعاملة وانما المقصود أن تصدق بان الشيطان ينكشف لارباب القلوب وكذلك الملك تارة بطريق التمثيل والمحاكاة كما يكون ذلك في النوم وتارة بطريق الحقيقة والاكثر هو التمثيل بصورة محاكية للمعنى هو مثال المعنى لا عين المعنى الا أنه يشاهد بالعين مشاهدة محققة وينفرد بمشاهدته المكاشف دون من حوله كالنائم

(بيان ما يؤاخذ به العبد من وساوس القلوب وهمها وخواطرها وقصودها وما يعفى عنه ولا يؤاخذ به)

اعلم أن هذا أمر غامض وقد وردت فيه آيات وأخبار متعارضة يلتبس طريق الجمع بينها الا على سماسرة العلماء بالشرع فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال عفي عن أمتي ما حدثت به نفوسها ما لم تتكلم به أو تعمل به وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يقول للحفظة اذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها فان عملها فاكتبوها سيئة واذا هم بحسنة لم يعملها فاكتبوها حسنة فان عملها فاكتبوها عشرا وقد خرجه البخاري ومسلم في الصحيحين وهو دليل على العفو عن عمل القلب وهمه بالسيئة وفي لفظ آخر من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بحسنة فعملها كتبت له الى سبعمائة ضعف ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه وان عملها كتبت وفي لفظ آخر واذا تحدث بان يعمل سيئة فانا أغفرها له ما لم يعملها وكل ذلك يدل على العفو فاما ما يدل على المؤاخذة فقوله سبحانه ان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وقوله تعالى ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا فدل على ان عمل الفؤاد كعمل السمع والبصر فلا يعفى عنه وقوله تعالى ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه وقوله تعالى لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والحق عندنا في هذه المسألة لا يوقف عليه ما لم تقع الاحاطة بتفصيل أعمال القلوب من مبدأ ظهورها الى أن يظهر العمل على الجوارح فنقول أول ما يرد على القلب الخاطر كما لو خطر له مثلا صورة امرأة وأنها وراء ظهره في الطريق لو التفت اليها لرآها والثاني هيجان الرغبة الى النظر وهو حركة الشهوة التي في الطبع وهذا يتولد من الخاطر الاول ونسميه ميل الطبع ويسمى الاول حديث النفس والثالث حكم القلب بان هذا ينبغي أن يفعل أي ينبغي أن ينظر اليها فان الطبع اذا مال لم تنبعث الهمة والنية ما لم تندفع الصوارف فانه قد يمنعه حياء أو خوف من الالتفات وعدم هذه الصوارف ربما يكون بتأمل وهو على كل حال حكم من جهة العقل ويسمى هذا اعتقادا وهو يتبع الخاطر والميل الرابع تصميم العزم على الالتفات وجزم النية فيه وهذا نسميه هما بالفعل ونية وقصدا وهذا الهم قد يكون له مبدأ ضعيف ولكن اذا أصغى القلب الى الخاطر الاول حتى طالت مجاذبته للنفس تأكد هذا الهم وصار ارادة مجزومة فاذا انجزمت الارادة فربما يندم بعد الجزم فيترك العمل وربما يغفل بعارض فلا يعمل به ولا يلتفت اليه وربما يعوقه عائق فيتعذر عليه العمل فههنا أربع أحوال للقلب قبل العمل بالجارحة الخاطر وهو حديث النفس ثم الميل ثم الاعتقاد ثم الهم فنقول أما الخاطر فلا يؤاخذ به لانه لا يدخل تحت الاختيار وكذلك الميل وهيجان الشهوة لانهما لا يدخلان أيضا تحت الاختيار وهما المرادان بقوله صلى الله عليه وسلم عفي عن أمتي ما حدثت به نفوسها فحديث النفس عبارة عن الخواطر التي تهجس في النفس ولا يتبعها عزم على الفعل فاما الهم والعزم فلا يسمى حديث النفس بل حديث

فقال انما أبكي لاني لم أتفقدها له حتى احتاج أن يفاتحني به (وأخبرنا) الشيخ أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسي قال أنا محمد بن محمد امام جامع أصفهان قال ثنا أبو عبد الله الجرجاني قال أنا أبو طاهر محمد بن الحسن المحمداباذي قال ثنا أبو البختري قال ثنا أبو أسامة قال ثنا بريد بن أبي بردة عن أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الاشعريين اذا أرملوا في الغزو وقل طعام عيالهم جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموا في اناء واحد بالسوية فهم مني وأنا منهم (وحديث) جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه اذا أراد أن يغزو قال يا معشر المهاجرين والانصار ان من اخوانكم قوما ليس لهم مال ولا عدة فليضم أحدكم اليه الرجل والرجلين والثلاثة فما

النفس كما روى عن عثمان بن مظعون حيث قال للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله نفسي تحدثني أن أطلق خولة قال مهلا ان من سنتي النكاح قال نفسي تحدثني أن أجب نفسي قال مهلا خصاء أمتي دؤب الصيام قال نفسي تحدثني أن أترهب قال مهلا رهبانية أمتي الجهاد والحج قال نفسي تحدثني أن أترك اللحم قال مهلا فاني أحبه ولو أصبته لاكلته ولو سألت الله لاطعمنيه فهذه الخواطر التي ليس معها عزم على الفعل هي حديث النفس ولذلك شاور رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ لم يكن معه عزم وهم بالفعل وأما الثالث وهو الاعتقاد وحكم القلب بانه ينبغي أن يفعل فهذا تردد بين أن يكون اضطرارا أو اختيارا والاحوال تختلف فيه فالاختياري منه يؤاخذ به والاضطراري لا يؤاخذ به وأما الرابع وهو الهم بالفعل فانه مؤاخذ به الا انه ان لم يفعل نظر فان كان قد تركه خوفا من الله تعالى وندما على همه كتبت له حسنة لان همه سيئة وامتناعه ومجاهدته نفسه حسنة والهم على وفق الطبع مما يدل على تمام الغفلة عن الله تعالى والامتناع بالمجاهدة على خلاف الطبع يحتاج الى قوة عظيمة فجده في مخالفة الطبع هو العمل لله تعالى والعمل لله تعالى أشد من جده في موافقة الشيطان بموافقة الطبع فكتب له حسنة لانه رجح جهده في الامتناع وهمه به على همه بالفعل وان تعوق الفعل بعائق أو تركه بعذر لا خوفا من الله تعالى كتبت عليه سيئة فان همه فعل من القلب اختياري والدليل على هذا التفصيل ما روى في الصحيح مفصلا في لفظ الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت الملائكة عليهم السلام رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال ارقبوه فان هو عملها فاكتبوها له بمثلها وان تركها فاكتبوها له حسنة انما تركها من جرائي وحيث قال فان لم يعملها أراد به تركها لله فاما اذا عزم على فاحشة فتعذرت عليه بسبب أو غفلة فكيف تكتب له حسنة وقد قال صلى الله عليه وسلم انما يحشر الناس على نياتهم ونحن نعلم ان من عزم ليلا على أن يصبح ليقتل مسلما أو يزني بامرأة فمات تلك الليلة مات مصرا ويحشر على نيته وقد هم بسيئة ولم يعملها والدليل القاطع فيه ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار فقيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال لانه أراد قتل صاحبه وهذا نص في انه صار بمجرد الارادة من أهل النار مع أنه قتل مظلوما فكيف يظن أن الله لا يؤاخذ بالنية والهم بل كل هم دخل تحت اختيار العبد فهو مؤاخذ به الا أن يكفره بحسنة ونقض العزم بالندم حسنة فلذلك كتبت له حسنة فاما فوت المراد بعائق فليس بحسنة وأما الخواطر وحديث النفس وهيجان الرغبة فكل ذلك لا يدخل تحت اختيار فالمؤاخذة به تكليف ما لا يطاق ولذلك لما نزل قوله تعالى وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله جاء ناس من الصحابة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا كلفنا ما لا نطيق ان أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه ثم يحاسب بذلك فقال صلى الله عليه وسلم لعلكم تقولون كما قالت اليهود سمعنا وعصينا قولوا سمعنا وأطعنا فقالوا سمعنا وأطعنا فانزل الله الفرج بعد سنة بقوله لا يكلف الله نفسا الا وسعها فظهر به ان كل ما لا يدخل تحت الوسع من أعمال القلب هو الذي لا يؤاخذ به فهذا هو كشف الغطاء عن هذا الالتباس وكل من يظن أن كل ما يجري على القلب يسمى حديث النفس ولم يفرق بين هذه الاقسام الثلاثة فلا بد وان يغلط وكيف لا يؤاخذ باعمال القلب من الكبر والعجب والرياء والنفاق والحسد وجملة الخبائث من أعمال القلب بل السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا أي ما يدخل تحت الاختيار فلو وقع البصر بغير اختيار على غير ذي محرم لم يؤاخذ به فان أتبعها نظرة ثانية كان مؤاخذا به لانه مختار فكذا خواطر القلب تجري هذا المجرى بل القلب أولى بمؤاخذته لانه الاصل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التقوى ههنا وأشار الى القلب وقال الله تعالى لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم وقال صلى الله عليه وسلم الاثم حزاز القلوب وقال البر ما اطمأن اليه القلب وان أفتوك وأفتوك حتى انا نقول اذا حكم القلب المفتي بايجاب شئ وكان مخطئا فيه صار مثابا عليه بل من قد ظن أنه تطهر فعليه أن يصلي فان صلى ثم تذكر انه لم يتوضأ كان له ثواب بفعله فان تذكر ثم تركه كان معاقبا عليه ومن وجد على فراشه امرأة فظن انها زوجته لم يعص بوطئها وان كانت أجنبية فان ظن انها أجنبية ثم وطئها عصى بوطئها وان كانت زوجته وكل ذلك نظر الى القلب دون الجوارح

لاحدكم من ظهر بجمله الا عقبة كعقبة أحدهم قال فضممت الى اثنين أو ثلاثة ما لي الا عقبة كعقبة أحدهم من جمله (وروى) أنس قال لما قدم عبد الرحمن ابن عوف المدينة آخى النبي عليه السلام بينه وبين سعد بن الربيع فقال له أقاسمك مالي نصفين ولي امرأتان فاطلق احداهما فاذا انقضت عدتها فتزوجها فقال له عبد الرحمن بارك الله لك في أهلك ومالك فما حمل الصوفي على الايثار الا طهارة نفسه وشرف غريزته وما جعله الله تعالى صوفيا الا بعد أن سوى غريزته لذلك وكل من كانت غريزتها السخاء والسخي يوشك أن يصير صوفيا لان السخاء صفة الغريزة وفي مقابلته الشح والشح من لوازم صفة النفس قال الله تعالى ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون

*(بيان

(بيان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالكلية عند الذكر أم لا)

اعلم أن العلماء المراقبين للقلوب الناظرين في صفاتها وعجائبها اختلفوا في هذه المسئلة على خمس فرق *فقالت فرقة الوسوسة تنقطع بذكر الله عز وجل لأنه عليه السلام قال فاذا ذكر الله خنس والخنس هو السكوت فكأنه يسكت * وقالت فرقة لا ينعدم أصله ولكن يجري في القلب ولا يكون له أثر لأن القلب اذا صار مستوعبا بالذكر كان محجوبا عن التأثر بالوسوسة كالمشغول بهمه فانه قد يكلم ولا يفهم وان كان الصوت يمر على سمعه *وقالت فرقة لا تسقط الوسوسة ولا أثرها أيضا ولكن تسقط غلبتها للقلب فكأنه يوسوس من بعد وعلى ضعف *وقالت فرقة ينعدم عند الذكر في لحظة وينعدم الذكر في لحظة ويتعاقبان في أزمنة متقاربة يظن لتقاربها انها متساوقة وهي كالكرة التي عليها نقط متفرقة فانك اذا أدرتها بسرعة رأيت النقط دوائر بسرعة تواصلها بالحركة واستدل هؤلاء بأن الخنس قد ورد ونحن نشاهد الوسوسة مع الذكر ولا وجه له الا هذا *وقالت فرقة الوسوسة والذكر يتساوقان في الدوام على القلب تساوقا لا ينقطع وكما أن الانسان قد يرى بعينيه شيئين في حالة واحدة فكذلك القلب قد يكون مجرى لشيئين فقد قال صلى الله عليه وسلم ما من عبد الا وله أربعة أعين عينان في رأسه يبصر بهما أمر دنياه وعينان في قلبه يبصر بهما أمر دينه والى هذا ذهب المحاسبي والصحيح عندنا أن كل هذه المذاهب صحيحة ولكن كلها قاصرة عن الاحاطة بأصناف الوسواس وانما نظر كل واحد منهم الى صنف واحد من الوسواس فأخبر عنه *والوسواس أصناف (الاول) أن يكون من جهة التلبيس بالحق فان الشيطان قد يلبس بالحق فيقول للانسان تترك التنعم باللذات فان العمر طويل والصبر عن الشهوات طول العمر ألمه عظيم فعند هذا اذا ذكر العبد عظيم حق الله تعالى وعظيم ثوابه وعقابه وقال لنفسه الصبر عن الشهوات شديد ولكن الصبر على النار أشد منه ولا بد من أحدهما فاذا ذكر العبد وعد الله تعالى ووعيده وجدد ايمانه ويقينه خنس الشيطان وهرب اذ لا يستطيع أن يقول له النار أيسر من الصبر على المعاصي ولا يمكنه أن يقول المعصية لا تفضي الى النار فان ايمانه بكتاب الله عز وجل يدفعه عن ذلك فينقطع وسواسه وكذلك يوسوس اليه بالعجب بعمله فيقول أي عبد يعرف الله كما تعرفه ويعبده كما تعبده فما أعظم مكانك عند الله تعالى فيتذكر العبد حينئذ أن معرفته وقلبه وأعضاءه التي بها عمله وعلمه كل ذلك من خلق الله تعالى فمن أين يعجب به فيخنس الشيطان اذ لا يمكنه أن يقول ليس هذا من الله فان المعرفة والايمان يدفعه فهذا نوع من الوسواس ينقطع بالكلية عن العارفين المستبصرين بنور الايمان والمعرفة (الصنف الثاني) أن يكون وسواسه بتحريك الشهوة وهيجانها وهذا ينقسم الى ما يعلم العبد يقينا أنه معصية والى ما يظنه بغالب الظن فان علمه يقينا خنس الشيطان عن تهييج يؤثر في تحريك الشهوة ولم يخنس عن التهييج وان كان مظنونا فربما يبقى مؤثرا بحيث يحتاج الى مجاهدة في دفعه فتكون الوسوسة موجودة ولكنها مدفوعة غير غالبة (الصنف الثالث) أن تكون وسوسته بمجرد الخواطر وتذكر الاحوال الغائبة والتفكر في غير الصلاة مثلا فاذا أقبل على الذكر تصور أن يندفع ساعة ويعود ويندفع ويعود فيتعاقب الذكر والوسوسة ويتصور أن يتساوقا جميعا حتى يكون الفهم مشتملا على فهم معنى القراءة وعلى تلك الخواطر كأنهما في موضعين من القلب وبعيد جدا أن يندفع هذا الخنس بالكلية بحيث لا يخطر ولكنه ليس محالا اذ قال عليه السلام من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من أمر الدنيا غفر له ما تقدم من ذنبه فلولا أنه متصور لما ذكره الا أنه لا يتصور ذلك الا في قلب استولى عليه الحب حتى صار كالمستهتر فانا قد نرى المستوعب القلب بعدو تأذى به قد يتفكر بمقدار ركعتين وركعات في مجادلة عدوه بحيث لا يخطر بباله غير حديث عدوه وكذلك المستغرق في الحب قد يتفكر في محادثة محبوبه بقلبه ويغوص في فكره بحيث لا يخطر بباله غير حديث محبوبه ولو كلمه غيره لم يسمع ولو اجتاز بين يديه أحد لكان كأنه لا يراه واذا تصور هذا في خوف من عدو وعند الحرص على مال وجاه فكيف لا يتصور من خوف النار والحرص على الجنة ولكن ذلك عزيز لضعف الايمان بالله تعالى واليوم الآخر واذا تأملت جملة هذه الاقسام وأصناف الوسواس علمت أن لكل مذهب من المذاهب وجها ولكن في محل مخصوص وبالجملة فالخلاص من الشيطان في لحظة أو ساعة غير بعيد ولكن الخلاص منه عمرا طويلا بعيد جدا

حكم بالفلاح لمن وقي الشح وحكم بالفلاح لمن أنفق وبذل فقال ومما رزقناهم ينفقون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون والفلاح أجمع اسم لسعادة الدارين والنبي عليه السلام نبه بقوله ثلاث مهلكات وثلاث منجيات فجعل احدى المهلكات شحا مطاعا ولم يقل مجرد الشح يكون مهلكا بل يكون مهلكا اذا كان مطاعا فاما كونه موجودا في النفس غير مطاع فانه لا ينكر ذلك لانه من لوازم النفس مستمدا من أصل جبلتها الترابي وفي التراب قبض وامساك وليس ذلك بالعجب من الآدمي وهو جبلي فيه وانما العجب وجود السخاء في الغريزة وهو لنفوس الصوفية الداعي لهم الى البذل والايثار والسخاء أتم وأكمل من الجود

ومحال في الوجود ولو تخلص أحد من وساوس الشيطان بالخواطر وتهييج الرغبة لتخلص رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روى أنه نظر الى علم ثوبه في الصلاة فلما سلم رمى بذلك الثوب وقال شغلني عن الصلاة وقال اذهبوا به الى أبي جهم وائتوني بانبجانيته وكان في يده خاتم من ذهب فنظر اليه وهو على المنبر ثم رمى به وقال نظرة اليه ونظرة اليكم وكان ذلك لوسوسة الشيطان بتحريك لذة النظر الى خاتم الذهب وعلم الثوب وكان ذلك قبل تحريم الذهب فلذلك لبسه ثم رمى به فلا تنقطع وسوسة عروض الدنيا ونقدها الا بالرمي والمفارقة فما دام يملك شيأ وراء حاجته ولو دينارا واحدا لا يدعه الشيطان في صلاته من الوسوسة في الفكر في ديناره وانه كيف يحفظه وفيم اذا ينفقه وكيف يخفيه حتى لا يعلم به أحد أو كيف يظهره حتى يتباهى به الى غير ذلك من الوساوس فمن أنشب مخالبه في الدنيا وطمع في أن يتخلص من الشيطان كان كمن انغمس في العسل وظن أن الذباب لا يقع عليه فهو محال فالدنيا باب عظيم لوسوسة الشيطان وليس له باب واحد بل أبواب كثيرة قال حكيم من الحكماء الشيطان يأتي ابن آدم من قبل المعاصي فان امتنع أتاه من وجه النصيحة حتى يلقيه في بدعة فان أبى أمره بالتحرج والشدة حتى يحرم ما ليس بحرام فان أبى شككه في وضوئه وصلاته حتى يخرجه عن العلم فان أبى خفف عليه أعمال البر حتى يراه الناس صابرا عفيفا فتميل قلوبهم اليه فيعجب بنفسه وبه يهلكه وعند ذلك تشتد الحاجة فانها آخر درجة ويعلم أنه لو جاوزها أفلت منه الى الجنة

(بيان سرعة تقلب القلب وانقسام القلوب في التغير والثبات)

اعلم أن القلب كما ذكرناه تكتنفه الصفات التي ذكرناها وتنصب اليه الآثار والاحوال من الابواب التي وصفناها فكأنه هدف يصاب على الدوام من كل جانب فاذا أصابه شئ يتأثر به أصابه من جانب آخر ما يضاده فتتغير صفته فان نزل به الشيطان فدعاه الى الهوى نزل به الملك وصرفه عنه وان جذبه شيطان الى شر جذبه شيطان آخر الى غيره وان جذبه ملك الى خير جذبه آخر الى غيره فتارة يكون متنازعا بين ملكين وتارة بين شيطانين وتارة بين ملك وشيطان لا يكون قط مهملا واليه الاشارة بقوله تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ولاطلاع رسول الله صلى الله عليه وسلم على عجيب صنع الله تعالى في عجائب القلب وتقلبه كان يحلف به فيقول لا ومقلب القلوب وكان كثيرا ما يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قالوا أوتخاف يا رسول الله قال وما يؤمنني والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء وفي لفظ آخر ان شاء أن يقيمه أقامه وان شاء أن يزيغه أزاغه وضرب له صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثلة فقال مثل القلب مثل العصفور يتقلب في كل ساعة وقال عليه السلام مثل القلب في تقلبه كالقدر اذا استجمعت غليانا وقال مثل القلب كمثل ريشة في أرض فلاة تقلبها الرياح ظهرا لبطن وهذه التقلبات وعجائب صنع الله تعالى في تقلبها من حيث لا تهتدي اليه المعرفة لا يعرفها الا المراقبون والمراعون لاحوالهم مع الله تعالى * والقلوب في الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ثلاثة * قلب عمر بالتقوى وزكا بالرياضة وطهر عن خبائث الاخلاق تنقدح فيه خواطر الخير من خزائن الغيب ومداخل الملكوت فينصرف العقل الى التفكر فيما خطر له ليعرف دقائق الخير فيه ويطلع على أسرار فوائده فينكشف له بنور البصيرة وجهه فيحكم بأنه لا بد من فعله فيستحثه عليه ويدعوه الى العمل به وينظر الملك الى القلب فيجده طيبا في جوهره طاهرا بتقواه مستنيرا بضياء العقل معمورا بأنوار المعرفة فيراه صالحا لأن يكون له مستقرا ومهبطا فعند ذلك يمده بجنود لا ترى ويهديه الى خيرات أخرى حتى ينجر الخير الى الخير وكذلك على الدوام ولا يتناهى امداده بالترغيب بالخير وتيسير الامر عليه واليه الاشارة بقوله تعالى فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وفي مثل هذا القلب يشرق نور المصباح من مشكاة الربوبية حتى لا يخفى فيه الشرك الخفي الذي هو أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء فلا يخفى على هذا النور خافية ولا يروج عليه شئ من مكايد الشيطان بل يقف الشيطان ويوحي زخرف القول غرورا فلا يلتفت اليه وهذا القلب بعد طهارته من المهلكات يصير على القرب معمورا بالمنجيات التي سنذكرها من الشكر والصبر والخوف والرجاء والفقر والزهد والمحبة والرضا والشوق والتوكل والتفكر والمحاسبة وغير ذلك وهو القلب الذي أقبل الله عز وجل بوجهه عليه وهو القلب المطمئن المراد بقوله تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب وبقوله عز وجل يا أيتها النفس المطمئنة

في مقابلة الجود البخل وفي مقابلة السخاء الشح والجود والبخل يتطرق اليهما الاكتساب بطريق العادة بخلاف الشح والسخاء اذا كان من ضرورة الغريزة وكل سخي جواد وليس كل جواد سخيا والحق سبحانه وتعالى لا يوصف بالسخاء لان السخاء من نتيجة الغرائز والله تعالى منزه عن الغريزة والجود يتطرق اليه الرياء ويأتي به الانسان متطلعا الى عوض من الخلق أو الحق بمقابل ما من الثناء وغيره من الخلق والثواب من الله تعالى والسخاء لا يتطرق اليه الرياء لانه ينبع من النفس الزكية المرتفعة عن الاعواض دنيا وآخرة لان طلب العوض مشعر بالبخل لكونه معلولا بطلب العوض فما تمحض سخاء فالسخاء لاهل الصفاء والايثار لاهل الانوار ويجوز أن يكون قوله تعالى

(القلب الثانى) القلب المخذول المشحون بالهوى المدنس بالاخلاق المذمومة والخبائث المفتوح فيه أبواب الشياطين المسدود عنه أبواب الملائكة ومبدأ الشر فيه أن ينقدح فيه خاطر من الهوى ويهجس فيه فينظر القلب الى حاكم العقل ليستفتى منه ويستكشف وجه الصواب فيه فيكون العقل قد ألف خدمة الهوى وأنس به واستمر على استنباط الحيل له وعلى مساعدة الهوى فتستولى النفس وتساعد عليه فينشرح الصدر بالهوى وتنبسط فيه ظلماته لانحباس جند العقل عن مدافعته فيقوى سلطان الشيطان لاتساع مكانه بسبب انتشار الهوى فيقبل عليه بالتزين والغرور والامانى ويوحى بذلك زخرفا من القول غرورا فيضعف سلطان الايمان بالوعد والوعيد ويخبو نور اليقين لخوف الآخرة اذ يتصاعد عن الهوى دخان مظلم الى القلب يملأ جوانبه حتى تنطفئ أنواره فيصير العقل كالعين التى ملأ الدخان أجفانها فلا يقدر على أن ينظر وهكذا تفعل غلبة الشهوة بالقلب حتى لا يبقى للقلب امكان التوقف والاستبصار ولو بصره واعظ وأسمعه ما هو الحق فيه عمى عن الفهم وصم عن السمع وهاجت الشهوة فيه وسطا الشيطان وتحركت الجوارح على وفق الهوى فظهرت المعصية الى عالم الشهادة من عالم الغيب بقضاء من الله تعالى وقدره والى مثل هذا القلب الاشارة بقوله تعالى أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا وبقوله عز وجل لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون وبقوله تعالى سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ورب قلب هذا حاله بالاضافة الى بعض الشهوات كالذى يتورع عن بعض الاشياء ولكنه اذا رأى وجها حسنا لم يملك عينه وقلبه وطاش عقله وسقط امساك قلبه أو كالذى لا يملك نفسه فيما فيه الجاه والرياسة والكبر ولا يبقى معه مسكة للتثبت عند ظهور أسبابه أو كالذى لا يملك نفسه عند الغضب مهما استحقر وذكر عيب من عيوبه أو كالذى لا يملك نفسه عند القدرة على أخذ درهم أو دينار بل يتهالك عليه تهالك الواله المستهتر فينسى فيه المروءة والتقوى فكل ذلك لتصاعد دخان الهوى الى القلب حتى يظلم وتنطفئ منه أنواره فينطفئ نور الحياء والمروءة والايمان ويسعى فى تحصيل مراد الشيطان (القلب الثالث) قلب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه الى الشر فيلحقه خاطر الايمان فيدعوه الى الخير فتنبعث النفس بشهوتها الى نصرة خاطر الشر فتقوى الشهوة وتحسن التمتع والتنعم فينبعث العقل الى خاطر الخير ويدفع فى وجه الشهوة ويقبح فعلها وينسبها الى الجهل ويشبهها بالبهيمة والسبع فى تهجمها على الشر وقلة اكتراثها بالعواقب فتميل النفس الى نصح العقل فيحمل الشيطان حملة على العقل فيقوى داعى الهوى ويقول ما هذا التحرج البارد ولم تمتنع عن هواك فتؤذى نفسك وهل ترى أحدا من أهل عصرك يخالف هواه أو يترك غرضه أفتترك لهم ملاذ الدنيا يتمتعون بها وتحجر على نفسك حتى تبقى محروما شقيا متعوبا يضحك عليك أهل الزمان أفتريد أن يزيد منصبك على فلان وفلان وقد فعلوا مثل ما اشتهيت ولم يمتنعوا أما ترى العالم الفلانى ليس يحترز من مثل ذلك ولو كان ذلك شرا لامتنع منه فتميل النفس الى الشيطان وتنقلب اليه فيحمل الملك حملة على الشيطان ويقول هل هلك الا من اتبع لذة الحال ونسى العاقبة أفتقنع بلذة يسيرة وتترك لذة الجنة ونعيمها أبد الآباد أم تستثقل ألم الصبر عن شهوتك ولا تستثقل ألم النار أتغتر بغفلة الناس عن أنفسهم واتباعهم هواهم ومساعدتهم الشيطان مع أن عذاب النار لا يخففه عنك معصية غيرك أرأيت لو كنت فى يوم صائف شديد الحر ووقف الناس كلهم فى الشمس وكان لك بيت بارد أكنت تساعد الناس أو تطلب لنفسك الخلاص فكيف تخالف الناس خوفا من حر الشمس ولا تخالفهم خوفا من حر النار فعند ذلك تمتثل النفس الى قول الملك فلا يزال يتردد بين الجندين متجاذبا بين الحزبين الى أن يغلب على القلب ما هو أولى به فان كانت الصفات التى فى القلب الغالب عليها الصفات الشيطانية التى ذكرناها غلب الشيطان ومال القلب الى جنسه من أحزاب الشيطان معرضا عن حزب الله تعالى وأوليائه ومساعدا لحزب الشيطان وأعدائه وجرى على جوارحه بسابق القدر ما هو سبب بعده عن الله تعالى وان كان الاغلب على القلب الصفات الملكية لم يصغ القلب الى اغواء الشيطان وتحريضه اياه على العاجلة وتهوينه أمر الآخرة بل مال الى حزب الله تعالى وظهرت الطاعة بموجب ما سبق من القضاء على جوارحه فقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع

انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا انه نفى فى الآية الاطعام لطلب الاعواض حيث قال لا نريد بعد قوله لوجه الله فما كان لله لا يشعر بطلب العوض بل الغريزة لطهارتها تنجذب الى مراد الحق لا العوض وذلك أكمل السخاء من أطهر الغرائز روت أسماء بنت أبى بكر قالت قلت يا رسول الله ليس لى من شئ الا ما أدخل على الزبير فأعطى قال نعم لا توكى فيوكى عليك *ومن أخلاق الصوفية التجاوز والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة (قال) سفيان الاحسان أن تحسن الى من أساء اليك فان الاحسان الى المحسن متاجرة كنقد السوق خذ شيأ وهات شيأ وقال الحسن الاحسان أن تعم ولا تخص كالشمس والريح والغيث (وروى) أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

الرحمن أي بين تجاذب هذين الجندين وهو الغالب أعني التقلب والانتقال من حزب الى حزب أما الثبات على الدوام مع حزب الملائكة أو مع حزب الشيطان فنادر من الجانبين وهذه الطاعات والمعاصي تظهر من خزائن الغيب الى عالم الشهادة بواسطة خزانة القلب فانه من خزائن الملكوت وهي أيضا اذا ظهرت كانت علامات تعرف أرباب القلوب سابق القضاء فمن خلق للجنة يسرت له أسباب الطاعات ومن خلق للنار يسرت له أسباب المعاصي وسلط عليه أقران السوء وألقى في قلبه حكم الشيطان فانه بأنواع الحكم يغر الحمقى بقوله ان الله رحيم فلا تبال وان الناس كلهم ما يخافون الله فلا تخالفهم وان العمر طويل فاصبر حتى تتوب غدا يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا يعدهم التوبة ويمنيهم المغفرة فيهلكهم باذن الله تعالى بهذه الحيل وما يجري مجراها فيوسع قلبه لقبول الغرور ويضيقه عن قبول الحق وكل ذلك بقضاء من الله وقدر فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده فهو الهادي والمضل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه خلق الجنة وخلق لها أهلا فاستعملهم بالطاعة وخلق النار وخلق لها أهلا فاستعملهم بالمعاصي وعرف الخلق علامة أهل الجنة وأهل النار فقال ان الابرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم ثم قال تعالى فيما روي عن نبيه صلى الله عليه وسلم هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي فتعالى الله الملك الحق لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ولنقتصر على هذا القدر اليسير من ذكر عجائب القلب فان استقصاءه لا يليق بعلم المعاملة وانما ذكرنا منه ما يحتاج اليه لمعرفة أغوار علوم المعاملة وأسرارها لينتفع بها من لا يقنع بالظواهر ولا يجتزي بالقشر عن اللباب بل يتشوق الى معرفة دقائق حقائق الاسباب وفيما ذكرناه كفاية له ومقنع ان شاء الله تعالى والله ولي التوفيق

*تم كتاب عجائب القلب ولله الحمد والمنة ويتلوه كتاب رياضة النفس وتهذيب الاخلاق والحمد لله وحده وصلى الله على كل عبد مصطفى

(كتاب رياضة النفس وتهذيب الاخلاق ومعالجة أمراض القلب وهو الكتاب الثاني من ربع المهلكات)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي صرف الامور بتدبيره وعدل تركيب الخلق فأحسن في تصويره وزين صورة الانسان بحسن تقويمه وتقديره وحرسه من الزيادة والنقصان في شكله ومقاديره وفوض تحسين الاخلاق الى اجتهاد العبد وتشميره واستحثه على تهذيبها بتخويفه وتحذيره وسهل على خواص عباده تهذيب الاخلاق بتوفيقه وتيسيره وامتن عليهم بتسهيل صعبه وعسيره والصلاة والسلام على محمد عبد الله ونبيه وحبيبه وصفيه وبشيره ونذيره الذي كان يلوح أنوار النبوة من بين أساريره ويستشرف حقيقة الحق من مخايله وتباشيره وعلى آله وأصحابه الذين طهروا وجه الاسلام من ظلمة الكفر ودياجيره وحسموا مادة الباطل فلم يتدنسوا بقليله ولا بكثيره

(أما بعد) فالخلق الحسن صفة سيد المرسلين وأفضل أعمال الصديقين وهو على التحقيق شطر الدين وثمرة مجاهدة المتقين ورياضة المتعبدين والاخلاق السيئة هي السموم القاتلة والمهلكات الدامغة والمخازي الفاضحة والرذائل الواضحة والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين المنخرطة بصاحبها في سلك الشياطين وهي الابواب المفتوحة الى نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة كما أن الاخلاق الجميلة هي الابواب المفتوحة من القلب الى نعيم الجنان وجوار الرحمن والاخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس الا أنه مرض يفوت حياة الابد *وأين منه المرض الذي لا يفوت الا حياة الجسد *ومهما اشتدت عناية الاطباء بضبط قوانين العلاج للابدان وليس في مرضها الا فوت الحياة الفانية فالعناية بضبط قوانين العلاج لامراض القلوب وفي مرضها فوت حياة باقية أولى وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذي لب اذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكمت وترادفت العلل وتظاهرت فيحتاج العبد الى تأنق في معرفة عللها وأسبابها ثم الى تشمير في علاجها واصلاحها فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى قد أفلح من زكاها واهمالها هو المراد بقوله وقد خاب من دساها ونحن نشير في هذا الكتاب الى جمل من أمراض القلوب وكيفية القول في معالجتها على الجملة من غير تفصيل لعلاج خصوص

رأيت قصورا مشرفة على الجنة فقلت يا جبرائيل لمن هذه قال للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس (روى) أبو هريرة رضي الله عنه ان أبا بكر رضي الله عنه كان مع النبي صلى الله عليه وسلم في مجلس فجاء رجل فوقع في أبي بكر وهو ساكت والنبي عليه السلام يتبسم ثم رد أبو بكر عليه بعض الذي قال فغضب النبي وقام فلحقه أبو بكر فقال يا رسول الله شتمني وأنت تتبسم ثم رددت عليه بعض ما قال فغضبت وقمت فقال انك حيث كنت ساكتا كان معك ملك يرد عليه فلما تكلمت وقع الشيطان فلم أكن لاقعد في مقعد فيه الشيطان يا أبا بكر ثلاث كلهن حق ليس عبد يظلم بمظلمة فيعفو عنها الا أعز الله نصره وليس عبد يفتح باب مسئلة يريد بها كثرة الا زاده الله قلة وليس عبد يفتح باب

الامراض فان ذلك يأتي في بقية الكتب من هذا الربع وغرضنا الآن النظر الكلي في تهذيب الاخلاق وتمهيد مناهجها ونحن نذكر ذلك ونجعل علاج البدن مثالا له ليقرب من الافهام دركه ويتضح ذلك ببيان فضيلة حسن الخلق ثم بيان حقيقة حسن الخلق ثم بيان قبول الاخلاق للتغير بالرياضة ثم بيان السبب الذي به ينال حسن الخلق ثم بيان الطرق التي بها يعرف تفصيل الطرق الى تهذيب الاخلاق ورياضة النفوس ثم بيان العلامات التي بها يعرف مرض القلب ثم بيان الطرق التي بها يعرف الانسان عيوب نفسه ثم بيان شواهد النقل على ان طريق المعالجة للقلوب بترك الشهوات لاغير ثم بيان علامات حسن الخلق ثم بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول النشوء ثم بيان شروط الارادة ومقدمات المجاهدة فهي أحد عشر فصلا يجمع مقاصدها هذا الكتاب ان شاء الله تعالى

(بيان فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق)

قال الله تعالى لنبيه وحبيبه مثنيا عليه ومظهرا نعمته لديه وانك لعلى خلق عظيم وقالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقه القرآن وسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حسن الخلق فتلا قوله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ثم قال صلى الله عليه وسلم هو أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك وقال صلى الله عليه وسلم انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق وقال صلى الله عليه وسلم أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق وجاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين يديه فقال يا رسول الله ما الدين قال حسن الخلق فأتاه من قبل يمينه فقال يا رسول الله ما الدين قال حسن الخلق ثم أتاه من قبل شماله فقال ما الدين فقال حسن الخلق ثم أتاه من ورائه فقال يا رسول الله ما الدين فالتفت اليه وقال أما تفقه هو أن لا تغضب وقيل يا رسول الله ما الشؤم قال سوء الخلق وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني فقال اتق الله حيث كنت قال زدني قال أتبع السيئة الحسنة تمحها قال زدني قال خالق الناس بخلق حسن وسئل عليه السلام أي الاعمال أفضل قال خلق حسن وقال صلى الله عليه وسلم ما حسن الله خلق عبد وخلقه فيطعمه النار وقال الفضيل قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها قال لا خير فيها هي من أهل النار وقال أبو الدرداء سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أول ما يوضع في الميزان حسن الخلق والسخاء ولما خلق الله الايمان قال اللهم قوني فقواه بحسن الخلق والسخاء ولما خلق الله الكفر قال اللهم قوني فقواه بالبخل وسوء الخلق وقال صلى الله عليه وسلم ان الله استخلص هذا الدين لنفسه ولا يصلح لدينكم الا السخاء وحسن الخلق ألا فزينوا دينكم بهما وقال عليه السلام حسن الخلق خلق الله الاعظم وقيل يا رسول الله أي المؤمنين أفضل ايمانا قال أحسنهم خلقا وقال صلى الله عليه وسلم انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق وقال أيضا صلى الله عليه وسلم سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل وعن جرير بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انك امرؤ قد حسن الله خلقك فحسن خلقك وعن البراء بن عازب قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجها وأحسنهم خلقا وعن أبي سعيد الخدري قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه اللهم حسنت خلقي فحسن خلقي وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الدعاء فيقول اللهم اني أسألك الصحة والعافية وحسن الخلق وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كرم المؤمن دينه وحسبه حسن خلقه ومروءته عقله وعن أسامة بن شريك قال شهدت الاعاريب يسألون النبي صلى الله عليه وسلم يقولون ما خير ما أعطي العبد قال خلق حسن وقال صلى الله عليه وسلم ان أحبكم الي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث من لم تكن فيه أو واحدة منهن فلا تعتدوا بشيء من عمله تقوى تحجزه عن معاصي الله أو حلم يكف به السفيه أو خلق يعيش به بين الناس وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم في افتتاح الصلاة اللهم اهدني لأحسن الاخلاق لا يهدي لأحسنها الا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها الا أنت وقال أنس بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما اذ قال ان حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد وقال عليه السلام من سعادة المرء حسن الخلق وقال صلى الله عليه

عطية أو صلة يبتغي بها وجه الله الا زاده الله بها كثرة (أخبرنا) ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا الكروخي قال أنا الترياقي قال أنا الجراحي قال أنا المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذي قال ثنا أبو هشام الرفاعي قال ثنا محمد بن فضيل عن الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكونوا امعة تقولون ان أحسن الناس أحسنا وان ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم ان أحسن الناس أن تحسنوا وان أساؤا فلا تظلموا (وقال) بعض الصحابة يا رسول الله الرجل أمر به فلا يقريني ولا يضيفني فيمر بي أفأجزيه قال لا أقره وقال الفضيل الفتوة الصفح عن عثرات الاخوان وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس الواصل المكافئ ولكن الواصل

وسلم الا من حسن الخلق وقال عليه السلام لابي ذر يا أباذر لاعقل كالتدبير ولاحسب كحسن الخلق وعن أنس قال قالت أم حبيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت المرأة يكون لها زوجان في الدنيا فتموت ويموتان ويدخلون الجنة لايهما هي تكون قال لاحسنهما خلقا كان عندها في الدنيا يا أم حبيبة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة وقال صلى الله عليه وسلم ان المسلم المسدد ليدرك درجة الصائم القائم بحسن خلقه وكرم ضريبته وفي رواية درجة الظمآن في الهواجر وقال عبد الرحمن بن سمرة كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال انى رأيت البارحة عجبا رأيت رجلا من أمتي جاثيا على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب فجاء حسن خلقه فادخله على الله تعالى وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم ان العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وانه لضعيف في العبادة وروى ان عمر رضى الله عنه استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده نساء من نساء قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن على صوته فلما استأذن عمر رضى الله عنه تبادرن الحجاب فدخل عمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك فقال عمر رضى الله عنه مم تضحك بابى أنت وأمى يارسول الله فقال عجبت لهؤلاء اللاتى كن عندى لما سمعن صوتك تبادرن الحجاب فقال عمر أنت كنت أحق أن يهبنك يارسول الله ثم أقبل عليهن عمر فقال ياعدوات أنفسهن أتهبنني ولاتهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلن نعم أنت أغلظ وأفظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم ايها يا ابن الخطاب والذى نفسى بيده مالقيك الشيطان قط سالكا فجا الا سلك فجا غير فجك وقال صلى الله عليه وسلم سوء الخلق ذنب لا يغفر وسوء الظن خطيئة تفوح وقال عليه السلام ان العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم (الآثار) قال ابن لقمان الحكيم لابيه ياأبت أى الخصال من الانسان خير قال الدين قال فاذا كانت اثنتين قال الدين والمال قال فاذا كانت ثلاثا قال الدين والمال والحياء قال فاذا كانت أربعا قال الدين والمال والحياء وحسن الخلق قال فاذا كانت خمسا قال الدين والمال والحياء وحسن الخلق والسخاء قال فاذا كانت ستا قال يابنى اذا اجتمعت فيه الخمس خصال فهو نقى تقى ولله ولى ومن الشيطان برى وقال الحسن من ساء خلقه عذب نفسه وقال أنس بن مالك ان العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة في الجنة وهو غير عابد ويبلغ بسوء خلقه أسفل درك في جهنم وهو عابد وقال يحيى بن معاذ في سعة الاخلاق كنوز الارزاق وقال وهب بن منبه مثل السيء الخلق كمثل الفخارة المكسورة لاترقع ولاتعاد طينا وقال الفضيل لأن يصحبنى فاجر حسن الخلق أحب الى من أن يصحبنى عابد سيء الخلق* وصحب ابن المبارك رجل سيء الخلق في سفر فكان يحتمل منه ويداريه فلما فارقه بكى فقيل له في ذلك فقال بكيته رحمة له فارقته وخلقه معه لم يفارقه وقال الجنيد أربع ترفع العبد الى أعلى الدرجات وان قل عمله وعلمه الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق وهو كمال الايمان وقال الكتانى التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف وقال عمر رضى الله عنه خالطوا الناس بالاخلاق وزايلوهم بالاعمال وقال يحيى بن معاذ سوء الخلق سيئة لاتنفع معها كثرة الحسنات وحسن الخلق حسنة لاتضر معها كثرة السيئات وسئل ابن عباس ما الكرم فقال هو ما بين الله في كتابه العزيز ان أكرمكم عند الله أتقاكم قيل فما الحسب قال أحسنكم خلقا أفضلكم حسبا وقال لكل بنيان أساس وأساس الاسلام حسن الخلق وقال عطاء ما ارتفع من ارتفع الا بالخلق الحسن ولم ينل أحد كماله الا المصطفى صلى الله عليه وسلم فاقرب الخلق الى الله عز وجل السالكون آثاره بحسن الخلق

(بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق)

اعلم ان الناس قد تكلموا في حقيقة حسن الخلق وانه ماهو وما تعرضوا لحقيقته وانما تعرضوا لثمرته ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته بل ذكر كل واحد من ثمراته ماخطر له وما كان حاضرا في ذهنه ولم يصرفوا العناية الى ذكر حده وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته على التفصيل والاستيعاب وذلك كقول الحسن حسن الخلق بسط الوجه وبذل الندى وكف الاذى وقال الواسطى هو أن لايخاصم ولايخاصم من شدة معرفته بالله تعالى وقال شاه الكرمانى هو كف الاذى واحتمال المؤن وقال بعضهم هو أن يكون من الناس قريبا وفيما بينهم غريبا وقال الواسطى مرة هو ارضاء الخلق في السراء والضراء وقال أبو عثمان هو الرضا عن الله تعالى وسئل سهل التسترى

الذى اذا قطعت رحمه وصلها (وروى) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكارم الاخلاق أن تعفو عن ظلمك وتصل من قطعك وتعطى من حرمك* ومن أخلاق الصوفية البشر وطلاقة الوجه الصوفى بكاؤه في خلوته وبشره وطلاقة وجهه مع الناس فالبشر على وجهه من آثار أنوار قلبه وقد تنازل باطن الصوفى منازلات الهية ومواهب قدسية يرتوى منها القلب ويمتلئ فرحا وسرورا قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا والسرور اذا تمكن من القلب فاض على الوجه آثاره قال الله تعالى وجوه يومئذ مسفرة أى مضيئة مشرقة مستبشرة أى فرحة قيل أشرقت من طول مااغبرت في سبيل الله ومثال فيض النور على الوجه من القلب كفيضان نور السراج على الزجاج والمشكاة

عن حسن الخلق فقال أدناه الاحتمال وترك المكافاة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه وقال مرة أن لا يتهم الحق في الرزق ويثق به ويسكن الى الوفاء بما ضمن فيطيعه ولا يعصيه في جميع الامور فيما بينه وبينه وفيما بينه وبين الناس وقال على رضي الله عنه حسن الخلق في ثلاث خصال اجتناب المحارم وطلب الحلال والتوسعة على العيال وقال الحسين بن منصور هو أن لا يؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك للحق وقال أبو سعيد الخراز هو أن لا يكون لك هم غير الله تعالى فهذا وأمثاله كثير وهو تعرض لثمرات حسن الخلق لا لنفسه ثم ليس هو محيطا بجميع الثمرات أيضا وكشف الغطاء عن الحقيقة أولى من نقل الاقاويل المختلفة فنقول الخلق والخلق عبارتان مستعملتان معا يقال فلان حسن الخلق والخلق أي حسن الباطن والظاهر فيراد بالخلق الصورة الظاهرة ويراد بالخلق الصورة الباطنة وذلك لان الانسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة ولكل واحد منهما هيئة وصورة اما قبيحة واما جميلة فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدرا من الجسد المدرك بالبصر ولذلك عظم الله أمره باضافته اليه اذ قال تعالى اني خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فنبه على أن الجسد منسوب الى الطين والروح الى رب العالمين والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الافعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الافعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا وان كان الصادر عنها الافعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا وانما قلنا انها هيئة راسخة لان من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ وانما اشترطنا أن تصدر منه الافعال بسهولة من غير روية لان من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم فههنا أربعة أمور أحدها فعل الجميل والقبيح والثاني القدرة عليهما والثالث المعرفة بهما والرابع هيئة للنفس بها تميل الى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الامرين اما الحسن واما القبيح وليس الخلق عبارة عن الفعل فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل اما لفقد المال أو لمانع وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل اما لباعث أو لرياء وليس هو عبارة عن القوة لان نسبة القوة الى الامساك والاعطاء بل الى الضدين واحد وكل انسان خلق بالفطرة قادر على الاعطاء والامساك وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء وليس هو عبارة عن المعرفة فان المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعا على وجه واحد بل هو عبارة عن المعنى الرابع وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لان يصدر منها الامساك أو البذل فالخلق اذا عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقا لا يتم بحسن العينين دون الانف والفم والخد بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر فكذلك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق فاذا استوت الاركان الاربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو قوة العلم وقوة الغضب وقوة الشهوة وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث أما قوة العلم فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الاقوال وبين الحق والباطل في الاعتقادات وبين الجميل والقبيح في الافعال فاذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة والحكمة رأس الاخلاق الحسنة وهي التي قال الله فيها ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وأما قوة الغضب فحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت اشارة الحكمة أعني اشارة العقل والشرع وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت اشارة العقل والشرع فالعقل مثاله مثال الناصح المشير وقوة العدل هي القدرة ومثالها مثال المنفذ الممضي لاشارة العقل والغضب هو الذي تنفذ فيه الاشارة ومثاله مثال كلب الصيد فانه يحتاج الى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الاشارة لا بحسب هيجان شهوة النفس والشهوة مثالها مثال الفرس الذي يركب في طلب الصيد فانه تارة يكون مروضا مؤدبا وتارة يكون جموحا فمن استوت فيه هذه الخصال واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقا ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض فهو حسن الخلق بالاضافة الى ذلك المعنى خاصة كالذي يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض وحسن القوة الغضبية

فالوجه مشكاة والقلب زجاج والروح مصباح فاذا تنعم القلب بلذيذ المسامرة ظهر البشر على الوجه قال الله تعالى تعرف في وجوههم نضرة النعيم أي نضارته وبريقه يقال أنضر النبات اذا أزهر ونور وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة فلما نظرت نضرت فارباب المشاهدة من الصوفية تنورت بصائرهم بنور المشاهدة وانصقلت مرآة قلوبهم وانعكس فيها نور الجمال الازلي واذا اشرقت الشمس على المرآة المصقولة استنارت الجدران قال الله تعالى سيماهم في وجوههم من أثر السجود واذا تأثر الوجه بسجود الظلال وهي القوالب في قول الله تعالى وظلالهم بالغدو والآصال كيف لا يتأثر بشهود الجمال (أخبرنا) ضياء الدين عبد الوهاب ابن علي قال أنا الكروخي قال أنا الترياقي قال أنا

واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة وحسن قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة فان مالت قوة الغضب عن الاعتدال الى طرف الزيادة تسمى تهورا وان مالت الى الضعف والنقصان تسمى جبنا وخورا وان مالت قوة الشهوة الى طرف الزيادة تسمى شرها وان مالت الى النقصان تسمى جمودا والمحمود هو الوسط وهو الفضيلة والطرفان رذيلتان مذمومتان والعدل اذا فات فليس له طرفا زيادة ونقصان بل له ضد واحد ومقابل وهو الجور وأما الحكمة فيسمى افراطها عند الاستعمال فى الاغراض الفاسدة خبثا وجربزة ويسمى تفريطها بلها والوسط هو الذى يختص باسم الحكمة فاذا أمهات الاخلاق وأصولها أربعة الحكمة والشجاعة والعفة والعدل ونعنى بالحكمة حالة للنفس بها تدرك الصواب من الخطأ فى جميع الافعال الاختيارية ونعنى بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة وتضبطهما فى الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها ونعنى بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل فى اقدامها واحجامها ونعنى بالعفة تادب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع فمن اعتدال هذه الاصول الاربعة تصدر الاخلاق الجميلة كلها اذ من اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير وجودة الذهن وثقابة الرأى واصابة الظن والتفطن لدقائق الاعمال وخفايا آفات النفوس ومن افراطها تصدر الجربزة والمكر والخداع والدهاء ومن تفريطها يصدر البله والغمارة والحمق والجنون وأعنى بالغمارة قلة التجربة فى الامور مع سلامة التخيل فقد يكون الانسان غمرا فى شئ دون شئ والفرق بين الحمق والجنون أن الاحمق مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد فلا تكون له روية صحيحة فى سلوك الطريق الموصل الى الغرض وأما المجنون فانه يختار ما لا ينبغى أن يختار فيكون أصل اختياره وايثاره فاسدا وأما خلق الشجاعة فيصدر منه الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد وأمثالها وهى أخلاق محمودة وأما افراطها وهو التهور فيصدر منه الصلف والبذخ والاستشاطة والتكبر والعجب وأما تفريطها فيصدر منه المهانة والذلة والجزع والخساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الحق الواجب وأما خلق العفة فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع وأما ميلها الى الافراط أو التفريط فيحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلل للاغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك فامهات محاسن الاخلاق هذه الفضائل الاربعة وهى الحكمة والشجاعة والعفة والعدل والباقى فروعها ولم يبلغ كمال الاعتدال فى هذه الاربع الا رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس بعده متفاوتون فى القرب والبعد منه فكل من قرب منه فى هذه الاخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل من جمع كمال هذه الاخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكا مطاعا يرجع الخلق كلهم اليه ويقتدون به فى جميع الافعال ومن انفك عن هذه الاخلاق كلها واتصف باضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد فانه قد قرب من الشيطان اللعين المبعد فينبغى أن يبعد كما أن الاول قريب من الملك المقرب فينبغى أن يقتدى به ويتقرب اليه فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبعث الا ليتمم مكارم الاخلاق كما قال وقد أشار القرآن الى هذه الاخلاق فى أوصاف المؤمنين فقال تعالى انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا باموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون فالايمان بالله وبرسوله من غير ارتياب هى قوة اليقين وهى ثمرة العقل ومنتهى الحكمة والمجاهدة بالمال هو السخاء الذى يرجع الى ضبط قوة الشهوة والمجاهدة بالنفس هى الشجاعة التى ترجع الى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحد الاعتدال فقد وصف الله تعالى الصحابة فقال أشداء على الكفار رحماء بينهم اشارة الى ان للشدة موضعا وللرحمة موضعا فليس الكمال فى الشدة بكل حال ولا فى الرحمة بكل حال فهذا بيان معنى الخلق وحسنه وقبحه وبيان أركانه وثمراته وفروعه

(بيان قبول الاخلاق للتغيير بطريق الرياضة)

اعلم ان بعض من غلبت البطالة عليه استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الاخلاق فلم تسمح نفسه بان يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخلته فزعم ان الاخلاق لا يتصور تغييرها فان الطباع لا تتغير

الجراحى قال أنا المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال ثنا قتيبة قال ثنا المنكدر بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل معروف صدقة وان من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق وان تفرغ من دلوك فى اناء أخيك (وقال) سعد بن عبد الرحمن الزبيدى يعجبنى من القراء كل سهل طلق مضحاك فاما من تلقاه بالبشر ويلقاك بالعبوس كأنه يمن عليك فلا أكثر الله فى القراء مثله (ومن أخلاق الصوفية) السهولة ولين الجانب والنزول مع الناس الى أخلاقهم وطباعهم وترك التعسف والتكلف وقد روى فى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار وأخلاق الصوفية تحاكى أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقول عليه

واستدل فيه بأمرين أحدهما ان الخلق هو صورة الباطن كما ان الخلق هو صورة الظاهر فالخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلا ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرا ولا القبيح يقدر على تحسين صورته فكذلك القبح الباطن يجرى هذا المجرى والثانى انهم قالوا حسن الخلق بقمع الشهوة والغضب وقد جربنا ذلك بطول المجاهدة وعرفنا أن ذلك من مقتضى المزاج والطبع فانه قط لا ينقطع عن الآدمى فاشتغاله به تضييع زمان بغير فائدة فان المطلوب هو قطع التفات القلب الى الحظوظ العاجلة وذلك محال وجوده فنقول لو كانت الاخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حسنوا أخلاقكم وكيف ينكر هذا فى حق الآدمى وتغيير خلق البهيمة ممكن اذ ينقل البازى من الاستيحاش الى الانس والكلب من شره الاكل الى التأدب والامساك والتخلية والفرس من الجماح الى السلاسة والانقياد وكل ذلك تغيير للاخلاق والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول الموجودات منقسمة الى ما لا مدخل للآدمى واختياره فى أصله وتفصيله كالسماء والكواكب بل أعضاء البدن داخلا وخارجا وسائر أجزاء الحيوانات وبالجملة كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله والى ما وجد وجودا ناقصا وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد ان وجد شرطه وشرطه قد يرتبط باختيار العبد فان النواة ليست بتفاح ولا نخل الا انها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة اذا انضاف التربية اليها ولا تصير تفاحا أصلا ولا بالتربية فاذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الاحوال دون بعض فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلا ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا الى الله تعالى نعم الجبلات مختلفة بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول ولاختلافها سببان أحدهما قوة الغريزة فى أصل الجبلة وامتداد مدة الوجود فان قوة الشهوة والغضب والتكبر موجودة فى الانسان ولكن أصعبها أمرا وأعصاها على التغيير قوة الشهوة فانها أقدم وجودا اذ الصبى فى مبدأ الفطرة تخلق له الشهوة ثم بعد سبع سنين ربما يخلق له الغضب وبعد ذلك يخلق له قوة التمييز والسبب الثانى أن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له وباعتقاد كونه حسنا ومرضيا والناس فيه على أربع مراتب * الاولى وهو الانسان الغفل الذى لا يميز بين الحق والباطل والجميل والقبيح بل بقى كما فطر عليه خاليا عن جميع الاعتقادات ولم تستتم شهوته أيضا باتباع اللذات فهذا سريع القبول للعلاج جدا فلا يحتاج الا الى معلم ومرشد والى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه فى أقرب زمان * والثانية أن يكون قد عرف قبح القبيح ولكنه لم يتعود العمل الصالح بل زين له سوء عمله فتعاطاه انقيادا لشهواته واعراضا عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه ولكن علم تقصيره فى عمله فامره أصعب من الاول اذ قد تضاعفت الوظيفة عليه اذ عليه قلع ما رسخ فى نفسه أولا من كثرة الاعتياد للفساد والآخر أن يغرس فى نفسه صفة الاعتياد للصلاح ولكنه بالجملة محل قابل للرياضة ان انتهض لها بجد وتشمير وحزم * والثالثة أن يعتقد فى الاخلاق القبيحة انها الواجبة المستحسنة وانها حق وجميل وتربى عليها فهذا تكاد تمتنع معالجته ولا يرجى صلاحه الا على الندور وذلك لتضاعف أسباب الضلال * والرابعة أن يكون مع نشوه على الرأى الفاسد وتربيته على العمل به يرى الفضيلة فى كثرة الشر واستهلاك النفوس ويباهى به ويظن أن ذلك يرفع قدره وهذا هو أصعب المراتب وفى مثله قيل ومن العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذيب والاول من هؤلاء جاهل فقط والثانى جاهل وضال والثالث جاهل وضال وفاسق والرابع جاهل وضال وفاسق وشرير وأما الخيال الآخر الذى استدلوا به وهو قولهم ان الآدمى ما دام حيا فلا ينقطع عنه الشهوة والغضب وحب الدنيا وسائر هذه الاخلاق فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات فان الشهوة خلقت لفائدة وهى ضرورية فى الجبلة فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الانسان ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الانسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك ومهما بقى أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذى يوصله الى الشهوة حتى يحمله ذلك على امساك المال وليس المطلوب اماطة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها الى الاعتدال الذى هو وسط بين الافراط والتفريط

الصلاة والسلام انى لا أمزح ولا أقول الا حقا روى أن رجلا يقال له زاهر بن حرام وكان بدويا وكان لا يأتى الى رسول الله الا جاء بطرفة يهديها الى رسول الله فجاء يوما من الايام فوجده رسول الله فى سوق المدينة يبيع سلعة له ولم يكن أتاه ذلك اليوم فاحتضنه النبى عليه السلام من ورائه بكفيه فالتفت فابصر النبى عليه السلام فقبل كفيه فقال النبى عليه السلام من يشترى العبد فقال اذا تجدنى كاسدا يا رسول الله فقال ولكن عند الله ربيح ثم قال عليه السلام لكل أهل حضر بادية وبادية آل محمد زاهر بن حرام (وأخبرنا) أبو زرعة طاهر بن الحافظ المقدسى عن أبيه قال أنا المطهر بن محمد الفقيه قال أنا أبو الحسن قال أنا أبو عمرو ابن حكيم قال أنا أبو أمية قال ثنا عبيد بن

والمطلوب فى صفة الغضب حسن الحمية وذلك بان يخلو عن التهور وعن الجبن جميعا وبالجملة أن يكون فى نفسه قويا ومع قوته منقادا للعقل ولذلك قال الله تعالى أشداء على الكفار رحماء بينهم وصفهم بالشدة وانما تصدر الشدة عن الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية والانبياء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك اذ قال صلى الله عليه وسلم انما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر وكان اذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لا يقول الا حقا فكان عليه السلام لا يخرجه غضبه عن الحق وقال تعالى والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ولم يقل والفاقدين الغيظ فرد الغضب والشهوة الى حد الاعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما ممكن وهو المراد بتغيير الخلق فانه ربما تستولى الشهوة على الانسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها عن الانبساط الى الفواحش وبالرياضة تعود الى حد الاعتدال فدل أن ذلك ممكن والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها والذى يدل على أن المطلوب هو الوسط فى الاخلاق دون الطرفين ان السخاء خلق محمود شرعا وهو وسط بين طرفى التبذير والتقتير وقد أثنى الله تعالى عليه فقال والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما وقال تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط وكذلك المطلوب فى شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجود قال الله تعالى كلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين وقال فى الغضب أشداء على الكفار رحماء بينهم وقال صلى الله عليه وسلم خير الامور أوساطها وهذا له سر وتحقيق وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم قال الله تعالى الا من أتى الله بقلب سليم والبخل من عوارض الدنيا والتبذير أيضا من عوارض الدنيا وشرط القلب أن يكون سليما منهما أى لا يكون ملتفتا الى المال ولا يكون حريصا على انفاقه ولا على امساكه فان الحريص على الانفاق مصروف القلب الى الانفاق كما ان الحريص على الامساك مصروف القلب الى الامساك فكان كمال القلب أن يصفو عن الوصفين جميعا واذا لم يكن ذلك فى الدنيا طلبنا ما هو الاشبه لعدم الوصفين وأبعد عن الطرفين وهو الوسط فان الفاتر لا حار ولا بارد بل هو وسط بينهما فكأنه خال عن الوصفين فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير والشجاعة بين الجبن والتهور والعفة بين الشره والجود وكذلك سائر الاخلاق فكلا طرفى الامور ذميم هذا هو المطلوب وهو ممكن نعم يجب على الشيخ المرشد للمريد أن يقبح عنده الغضب رأسا ويذم امساك المال رأسا ولا يرخص له فى شئ منه لانه لو رخص له فى أدنى شئ اتخذ ذلك عذرا فى استبقاء بخله وغضبه وظن انه القدر المرخص فيه فاذا قصد قطع الاصل وبالغ فيه ولم يتيسر له الا كسر سورته بحيث يعود الى الاعتدال فالصواب له أن يقصد قلع الاصل حتى يتيسر له القدر المقصود فلا يكشف هذا السر للمريد فانه موضع غرور الحمقى اذ يظن بنفسه أن غضبه بحق وان امساكه بحق

(بيان السبب الذى به ينال حسن الخلق على الجملة)

قد عرفت أن حسن الخلق يرجع الى اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة والى اعتدال قوة الغضب والشهوة وكونها للعقل مطيعة وللشرع أيضا وهذا الاعتدال يحصل على وجهين * أحدهما بجود الهى وكمال فطرى بحيث يخلق الانسان ويولد كامل العقل حسن الخلق قد كفى سلطان الشهوة والغضب بل خلقتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع فيصير عالما بغير تعليم ومؤدبا بغير تأديب كعيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام وكذا سائر الانبياء صلوات الله عليهم أجمعين ولا يبعد أن يكون فى الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكتساب فرب صبى خلق صادق اللهجة سخيا جريئا وربما يخلق بخلافه فيحصل ذلك فيه بالاعتياد ومخالطة المتخلقين بهذه الاخلاق وربما يحصل بالتعلم والوجه الثانى اكتساب هذه الاخلاق بالمجاهدة والرياضة وأعنى به حمل النفس على الاعمال التى يقتضيها الخلق المطلوب فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطى فعل الجواد وهو بذل المال فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفا مجاهدا نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعا له ويتيسر عليه فيصير به جوادا وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف الى أن يصير ذلك خلقا له وطبعا فيتيسر عليه وجميع الاخلاق المحمودة شرعا تحصل بهذا الطريق وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذا فالسخى هو الذى يستلذ

اسحق العطار قال ثنا سنان بن هرون عن حميد عن أنس قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله احملنى على جمل فقال أحملك على ابن الناقة قال أقول لك احملنى على جمل وتقول أحملك على ابن الناقة فقال عليه السلام فالجمل ابن الناقة (وروى صهيب) فقال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين يديه تمر يأكل فقال أصب من هذا الطعام فجعلت آكل من التمر فقال أتأكل وأنت رمد فقلت اذا أمضغ من الجانب الآخر فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم (وروى) أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له ذات يوم يا ذا الاذنين (وسئلت) عائشة رضى الله عنها كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا خلا فى البيت قالت كان

بذل المال الذى يبذله دون الذى يبذله عن كراهة والمتواضع هو الذى يستلذ التواضع ولن ترسخ الاخلاق الدينية فى النفس مالم تتعود النفس جميع العادات الحسنة ولم تترك جميع الافعال السيئة ومالم تواظب عليها مواظبة من يشتاق الى الافعال الجميلة ويتنعم بها ويكره الافعال القبيحة ويتألم بها كما قال صلى الله عليه وسلم وجعلت قرة عينى فى الصلاة ومهما كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستثقال فهو النقصان ولا ينال كمال السعادة به نعم المواظبة عليها بالمجاهدة خير ولكن بالاضافة الى تركها لا بالاضافة الى فعلها عن طوع ولذلك قال الله تعالى وانها لكبيرة الا على الخاشعين وقال صلى الله عليه وسلم اعبد الله فى الرضا فان لم تستطع ففى الصبر على ما تكره خير كثير ثم لا يكفى فى نيل السعادة الموعودة على حسن الخلق استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية فى زمان دون زمان بل ينبغى أن يكون ذلك على الدوام وفى جملة العمر وكلما كان العمر أطول كانت الفضيلة أرسخ وأكمل ولذلك لما سئل صلى الله عليه وسلم عن السعادة فقال طول العمر فى طاعة الله تعالى ولذلك كره الانبياء والاولياء الموت فان الدنيا مزرعة الآخرة وكلما كانت العبادات أكثر بطول العمر كان الثواب أجزل والنفس أزكى وأطهر والاخلاق أقوى وأرسخ وانما مقصود العبادات تأثيرها فى القلب وانما يتأكد تأثيرها بكثرة المواظبة على العبادات وغاية هذه الاخلاق أن ينقطع عن النفس حب الدنيا ويرسخ فيها حب الله تعالى فلا يكون شئ أحب اليه من لقاء الله تعالى عز وجل فلا يستعمل جميع ماله الا على الوجه الذى يوصله اليه وغضبه وشهوته من المسخرات له فلا يستعملهما الا على الوجه الذى يوصله الى الله تعالى وذلك بأن يكون موزونا بميزان الشرع والعقل ثم يكون بعد ذلك فرحا به مستلذا له ولا ينبغى أن يستبعد مصير الصلاة الى حد تصير هى قرة العين ومصير العبادات لذيذة فان العادة تقتضى فى النفس عجائب أغرب من ذلك فانا قد نرى الملوك والمنعمين فى أحزان دائمة ونرى المقامر المفلس قد يغلب عليه من الفرح واللذة بقماره وما هو فيه ما يستثقل معه فرح الناس بغير قمار مع أن القمار ربما سلبه ماله وخرب بيته وتركه مفلسا ومع ذلك فهو يحبه ويلتذ به وذلك لطول الفه له وصرف نفسه اليه مدة وكذلك اللاعب بالحمام قد يقف طول النهار فى حر الشمس قائما على رجليه وهو لا يحس بألمها لفرحه بالطيور وحركاتها وطيرانها وتحليقها فى جو السماء بل نرى الفاجر العيار يفتخر بما يلقاه من الضرب والقطع والصبر على السياط وعلى أن يتقدم به للصلب وهو مع ذلك متبجح بنفسه وبقوته فى الصبر على ذلك حتى يرى ذلك فخرا لنفسه ويقطع الواحد منهم اربا اربا على أن يقر بما تعاطاه أو تعاطاه غيره فيصر على الانكار ولا يبالى بالعقوبات فرحا بما يعتقده كمالا وشجاعة ورجولية فقد صارت أحواله مع ما فيها من النكال قرة عينه وسبب افتخاره بل لا حالة أخس وأقبح من حال المخنث فى تشبهه بالاناث فى نتف الشعر ووشم الوجه ومخالطة النساء فترى المخنث فى فرح بحاله وافتخار بكماله فى تخنثه يتباهى به مع المخنثين حتى يجرى بين الحجامين والكناسين التفاخر والمباهاة كما يجرى بين الملوك والعلماء فكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدوام مدة مديدة ومشاهدة ذلك فى المخالطين والمعارف فاذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل اليه والى القبائح فكيف لا تستلذ الحق لو ردت اليه مدة والتزمت المواظبة عليه بل ميل النفس الى هذه الامور الشنيعة خارج عن الطبع يضاهى الميل الى أكل الطين فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة فأما ميله الى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته فهو كالميل الى الطعام والشراب فانه مقتضى طبع القلب فانه أمر ربانى وميله الى مقتضيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه وانما غذاء القلب الحكمة والمعرفة وحب الله عز وجل ولكن انصرف عن مقتضى طبعه لمرض قد حل به كما قد يحل المرض بالمعدة فلا تشتهى الطعام والشراب وهما سببان لحياتها فكل قلب مال الى حب شئ سوى الله تعالى فلا ينفك عن مرض بقدر ميله الا اذا كان أحب ذلك الشئ لكونه معينا له على حب الله تعالى وعلى دينه فعند ذلك لا يدل ذلك على المرض فاذا عرفت بهذا قطعا أن هذه الاخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة وهى تكلف الافعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعا انتهاء وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح أعنى النفس والبدن فان كل صفة تظهر فى القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك الا على وفقها لا محالة وكل فعل يجرى على الجوارح فانه قد يرتفع منه أثر الى القلب والامر فيه دور ويعرف ذلك بمثال وهو أن من أراد أن يصير الحذق فى الكتابة له

ألسن الناس بسنا ما ضحكا (وروت) أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقها فسبقته ثم سابقها بعد ذلك فسبقها فقال هذه بتلك (وأخبرنا) الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الحافظ الترمذى قال ثنا عبد الله بن الوضاح الكوفى قال ثنا عبد الله بن ادريس عن شعبة عن أبى التياح عن أنس رضى الله عنه قال ان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخالطنا حتى انه كان يقول لاخ لى صغير يا أبا عمير ما فعل النغير والنغير عصفور صغير (وروى) ان عمر سابق زبيرا رضى الله عنهما فسبقه الزبير فقال سبقتك ورب الكعبة ثم سابقه مرة أخرى

صفة نفسية حتى يصير كاتبا بالطبع فلا طريق له الا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق ويواظب عليه مدة طويلة يحاكي الخط الحسن فان فعل الكاتب هو الخط الحسن فيتشبه بالكاتب تكلفا ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة في نفسه فيصدر منه في الآخر الخط الحسن طبعا كما كان يصدر منه في الابتداء تكلفا فكان الخط الحسن هو الذي جعل خطه حسنا ولكن الاول بتكلف الا انه ارتفع منه أثر الى القلب ثم انخفض من القلب الى الجارحة فصار يكتب الخط الحسن بالطبع وكذلك من أراد أن يصير فقيه النفس فلا طريق له الا أن يتعاطى أفعال الفقهاء وهو التكرار للفقه حتى تنعطف منه على قلبه صفة الفقه فيصير فقيه النفس وكذلك من أراد أن يصير سخيا عفيف النفس حليما متواضعا فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاء تكلفا حتى يصير ذلك طبعا له فلا علاج له الا ذلك وكما أن طالب فقه النفس لا ييأس من نيل هذه الرتبة بتعطيل ليلة ولا ينالها بتكرار ليلة فكذلك طالب تزكية النفس وتكميلها وتحليتها بالاعمال الحسنة لا ينالها بعبادة يوم ولا يحرم عنها بعصيان يوم وهو معنى قولنا ان الكبيرة الواحدة لا توجب الشقاء المؤبد ولكن العطلة في يوم واحد تدعو الى مثلها ثم تتداعى قليلا قليلا حتى تأنس النفس بالكسل وتهجر التحصيل رأسا فيفوتها فضيلة الفقه وكذلك صغائر المعاصي يجر بعضها الى بعض حتى يفوت أصل السعادة بهدم أصل الايمان عند الخاتمة وكما أن تكرار ليلة لا يحس تأثيره في فقه النفس بل يظهر فقه النفس شيأ فشيأ على التدريج مثل نمو البدن وارتفاع القامة فكذلك الطاعة الواحدة لا يحس تأثيرها في تزكية النفس وتطهيرها في الحال ولكن لا ينبغي أن يستهان بقليل الطاعة فان الجملة الكثيرة منها مؤثرة وانما اجتمعت الجملة من الآحاد فلكل واحد منها تأثير فما من طاعة الا ولها أثر وان خفي فله ثواب لا محالة فان الثواب بازاء الاثر وكذلك المعصية وكم من فقيه يستهين بتعطيل يوم وليلة وهكذا على التوالي يسوف نفسه يوما فيوما الى أن يخرج طبعه عن قبول الفقه فكذا من يستهين بصغائر المعاصي ويسوف نفسه بالتوبة على التوالي الى أن يختطفه الموت بغتة أو تتراكم ظلمة الذنوب على قلبه وتتعذر عليه التوبة اذ القليل يدعو الى الكثير فيصير القلب مقيدا بسلاسل شهوات لا يمكن تخليصه من مخالبها وهو المعني بانسداد باب التوبة وهو المراد بقوله تعالى وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا الآية ولذلك قال علي رضي الله عنه ان الايمان ليبدو في القلب نكتة بيضاء كلما ازداد الايمان ازداد ذلك البياض فاذا استكمل العبد الايمان ابيض القلب كله وان النفاق ليبدو في القلب نكتة سوداء كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد فاذا استكمل النفاق اسود القلب كله فاذا عرفت أن الاخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة وتارة تكون باعتياد الافعال الجميلة وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم وهم قرناء الخير واخوان الصلاح اذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعا فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعا واعتيادا وتعلما فهو في غاية الفضيلة ومن كان رذلا بالطبع واتفق له قرناء السوء فتعلم منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو في غاية البعد من الله عز وجل وبين الرتبتين من اختلفت فيه هذه الجهات ولكل درجة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صفته وحالته فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون

(بيان تفصيل الطريق الى تهذيب الاخلاق)

قد عرفت من قبل ان الاعتدال في الاخلاق هو صحة النفس والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له والميل عن الاعتدال مرض فيه فلنتخذ البدن مثالا فنقول مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل والاخلاق الرديئة عنها وجلب الفضائل والاخلاق الجميلة اليها مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة له وجلبها اليه وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وانما تعتري المعدة المضرة بعوارض الاغذية والاهوية والاحوال فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة وانما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه أي بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملا وانما يكمل ويقوى بالنشو والتربية بالغذاء فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وانما تكمل بالتربية وتهذيب الاخلاق والتغذية بالعلم وكما أن البدن ان كان صحيحا فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة وان كان مريضا فشأنه

فسبقه عمر فقال عمر سبقتك ورب الكعبة وروى عبد الله بن عباس قال قال لي عمر تعال أنافسك في الماء أينا أطول نفسا ونحن محرمون (وروى) بكر بن عبد الله قال كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمازحون حتى يتبادحون بالبطيخ فاذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال يقال بدح يبدح اذا رمى أي يترامون بالبطيخ (وأخبرنا) أبو زرعة عن أبيه قال أنا الحسن بن أحمد الكرخي قال ثنا أبو طالب محمد بن محمد ابن ابراهيم قال ثنا أبو بكر محمد بن محمد بن عبد الله قال حدثني اسحق الحربي قال ثنا أبو سلمة قال ثنا حماد بن خالد قال أنا محمد بن عمرو ابن علقمة قال ثنا أبو الحسن بن محسن الليثي عن يحيى بن عبد الرحمن ابن حاطب بن أبي بلتعة

جلب الصحة اليه فكذلك النفس منك ان كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغى أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة اليها واكتساب زيادة صفائها وان كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغى أن تسعى لجلب ذلك اليها وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض لا تعالج الا بضدها فان كانت من حرارة فبالبرودة وان كانت من برودة فبالحرارة فكذلك الرذيلة التى هى مرض القلب علاجها بضدها فيعالج مرض الجهل بالتعلم ومرض البخل بالتسخى ومرض الكبر بالتواضع ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفا وكما انه لا بد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الابدان المريضة فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب بل أولى فان مرض البدن يخلص منه بالموت ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت أبد الآباد وكما أن كل مبرد لا يصلح لعلة سببها الحرارة الا اذا كان على حد مخصوص ويختلف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه وبالكثرة والقلة ولا بد له من معيار يعرف به مقدار النافع منه فانه ان لم يحفظ معياره زاد الفساد فكذلك النقائص التى تعالج بها الاخلاق لا بد لها من معيار وكما ان معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتى ان الطبيب لا يعالج مالم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة فان كانت من حرارة فيعرف درجتها أهى ضعيفة أم قوية فاذا عرف ذلك التفت الى أحوال البدن وأحوال الزمان وصناعة المريض وسنه وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها فكذلك الشيخ المتبوع الذى يطب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ينبغى أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف فى فن مخصوص وفى طريق مخصوص مالم يعرف أخلاقهم وأمراضهم وكما ان الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم بل ينبغى ان ينظر فى مرض المريد وفى حاله وسنه ومزاجه وما تحتمله بنيته من الرياضة ويبنى على ذلك رياضته فان كان المريد مبتدئا جاهلا بحدود الشرع فيعلمه أولا الطهارة والصلاة وظواهر العبادات وان كان مشغولا بمال حرام أو مقارفا لمعصية فيأمره أولا بتركها فاذا تزين ظاهره بالعبادات وطهر عن المعاصى الظاهرة جوارحه نظر بقرائن الاحوال الى باطنه ليتفطن لاخلاقه وأمراض قلبه فان رأى معه مالا فاضلا عن قدر ضرورته أخذه منه وصرفه الى الخيرات وفرغ قلبه منه حتى لا يلتفت اليه وان رأى الرعونة والكبر وعزة النفس غالبة عليه فيأمره ان يخرج الى الاسواق للكدية والسؤال فان عزة النفس والرياسة لا تنكسر الا بالذل ولا ذل أعظم من ذل السؤال فيكلفه المواظبة على ذلك مدة حتى ينكسر كبره وعز نفسه فان الكبر من الامراض المهلكة وكذلك الرعونة وان رأى الغالب عليه النظافة فى البدن والثياب ورأى قلبه مائلا الى ذلك فرحا به ملتفتا اليه استخدمه فى تعهد بيت الماء وتنظيفه وكنس المواضع القذرة وملازمة المطبخ ومواضع الدخان حتى تتشوش عليه رعونته فى النظافة فان الذين ينظفون ثيابهم ويزينونها ويطلبون المرقعات النظيفة والسجادات الملونة لا فرق بينهم وبين العروس التى تزين نفسها طول النهار فلا فرق بين ان يعبد الانسان نفسه أو يعبد صنما فمهما عبد غير الله تعالى فقد حجب عن الله ومن راعى فى ثوبه شيأ سوى كونه حلالا وطاهرا مراعاة يلتفت اليها قلبه فهو مشغول بنفسه ومن لطائف الرياضة اذا كان المريد لا يسخو بترك الرعونة رأسا أو بترك صفة أخرى ولم يسمح بضدها دفعة فينبغى ان ينقله من الخلق المذموم الى خلق مذموم آخر أخف منه كالذى يغسل الدم بالبول ثم يغسل البول بالماء اذا كان الماء لا يزيل الدم كما يرغب الصبى فى المكتب باللعب بالكرة والصولجان وما أشبهه ثم ينقل من اللعب الى الزينة وفاخر الثياب ثم ينقل من ذلك بالترغيب فى الرياسة وطلب الجاه ثم ينقل من الجاه بالترغيب فى الآخرة فكذلك من لم تسمح نفسه بترك الجاه دفعة فلينقل الى جاه أخف منه وكذلك سائر الصفات وكذلك اذا رأى شره الطعام غالبا عليه ألزمه الصوم وتقليل الطعام ثم يكلفه أن يهيئ الاطعمة اللذيذة ويقدمها الى غيره وهو لا يأكل منها حتى يقوى بذلك نفسه فيتعود الصبر وينكسر شرهه وكذلك اذا رآه شابا متشوقا الى النكاح وهو عاجز عن الطول فيأمره بالصوم وربما لا تسكن شهوته بذلك فيأمره أن يفطر ليلة على الماء دون الخبز وليلة على الخبز دون الماء ويمنعه اللحم والادم رأسا حتى تذل نفسه وتنكسر شهوته فلا علاج فى مبدأ الارادة أنفع من الجوع وان رأى الغضب غالبا عليه ألزمه الحلم والسكوت وسلط عليه من يصحبه ممن فيه سوء خلق ويلزمه خدمة من ساء خلقه

قال ان عائشة رضى الله عنها قالت أتيت النبى صلى الله عليه وسلم بحريرة طبختها له وقلت لسودة والنبى صلى الله عليه وسلم بينى وبينها كلى فأبت فقلت لها كلى فأبت فقلت لتأكلن أو لألطخن بها وجهك فأبت فوضعت يدى فى الحريرة فلطخت بها وجهها فضحك النبى صلى الله عليه وسلم فوضع فخذه وقال لسودة الطخى وجهها فلطخت بها وجهى فضحك النبى صلى الله عليه وسلم فمر عمر رضى الله عنه على الباب فنادى يا عبد الله يا عبد الله فظن النبى صلى الله عليه وسلم انه سيدخل فقال قوما فاغسلا وجهكما فقالت عائشة رضى الله عنها فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم اياه ووصف بعضهم ابن طاوس فقال كان مع الصبى صبيا ومع الكهل كهلا

حتى يمرن نفسه على الاحتمال معه كما حكى عن بعضهم انه كان يعود نفسه الحلم ويزيل عن نفسه شدة الغضب فكان يستأجر من يشتمه على ملا من الناس ويكلف نفسه الصبر ويكظم غيظه حتى صار الحلم عادة له بحيث كان يضرب به المثل وبعضهم كان يستشعر في نفسه الجبن وضعف القلب فاراد ان يحصل لنفسه خلق الشجاعة فكان يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الامواج وعباد الهند يعالجون الكسل عن العبادة بالقيام طول الليل على نصبة واحدة وبعض الشيوخ في ابتداء ارادته كان يكسل عن القيام فالزم نفسه القيام على رأسه طول الليل ليسمح بالقيام على الرجل عن طوع وعالج بعضهم حب المال بان باع جميع ماله ورمى به في البحر اذ خاف من تفرقته على الناس رعونة الجود والرياء بالبذل فهذه الامثلة تعرفك طريق معالجة القلوب وليس غرضنا ذكر دواء كل مرض فان ذلك سيأتي في بقية الكتب وانما غرضنا الآن التنبيه على ان الطريق الكلي فيه سلوك مسلك المضادة لكل ما تهواه النفس وتميل اليه وقد جمع الله ذلك كله في كتابه العزيز في كلمة واحدة فقال تعالى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى والاصل المهم في المجاهدة الوفاء بالعزم فاذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختبارا فينبغي ان يصبر ويستمر فانه ان عود نفسه ترك العزم ألفت ذلك ففسدت واذا اتفق منه نقض عزم فينبغي ان يلزم نفسه عقوبة عليه كما ذكرناه في معاقبة النفس في كتاب المحاسبة والمراقبة واذا لم يخوف النفس بعقوبة غلبته وحسنت عنده تناول الشهوة فتفسد بها الرياضة بالكلية

(بيان علامات أمراض القلوب وعلامات عودها الى الصحة)

اعلم ان كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به وانما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذي خلق له حتى لا يصدر منه أصلا أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش ومرض العين أن يتعذر عليها الابصار وكذلك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لاجله وهو العلم والحكمة والمعرفة وحب الله تعالى وعبادته والتلذذ بذكره وايثاره ذلك على كل شهوة سواه والاستعانة بجميع الشهوات والاعضاء عليه قال الله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ففي كل عضو فائدة وفائدة القلب الحكمة والمعرفة وخاصية النفس التي للآدمي ما يتميز بها عن البهائم فانه لم يتميز عنها بالقوة على الاكل والوقاع والابصار أو غيرها بل بمعرفة الاشياء على ما هي عليه وأصل الاشياء وموجدها ومخترعها هو الله عز وجل الذي جعلها أشياء فلو عرف كل شئ ولم يعرف الله عز وجل فكانه لم يعرف شيأ وعلامة المعرفة المحبة فمن عرف الله تعالى أحبه وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات كما قال الله تعالى قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم الى قوله أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بامره فمن عنده شئ أحب اليه من الله فقلبه مريض كما أن كل معدة صار الطين أحب اليها من الخبز والماء أو سقطت شهوتها عن الخبز والماء فهي مريضة فهذه علامات المرض وبهذا يعرف أن القلوب كلها مريضة الا ما شاء الله الا أن من الامراض ما لا يعرفها صاحبها ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه فلذلك يغفل عنه وان عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه فان دواءه مخالفة الشهوات وهو نزع الروح فان وجد من نفسه قوة الصبر عليه لم يجد طبيبا حاذقا يعالجه فان الاطباء هم العلماء وقد استولى عليهم المرض فالطبيب المريض قلما يلتفت الى علاجه فلهذا صار الداء عضالا والمرض مزمنا واندرس هذا العلم وأنكر بالكلية طب القلوب وأنكر مرضها وأقبل الخلق على حب الدنيا وعلى أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات ومراآت فهذه علامات أصول الامراض وأما علامات عودها الى الصحة بعد المعالجة فهو أن ينظر في العلة التي يعالجها فان كان يعالج داء البخل فهو المهلك المبعد عن الله عز وجل وانما علاجه ببذل المال وانفاقه ولكنه قد يبذل المال الى حد يصير به مبذرا فيكون التبذير أيضا داء فكان كمن يعالج البرودة بالحرارة حتى تغلب الحرارة فهو أيضا داء بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة والبرودة وكذلك المطلوب الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفي غاية البعد عن الطرفين فان أردت ان تعرف الوسط فانظر الى الفعل الذي يوجبه الخلق المحذور فان كان أسهل عليك وألذ من الذي يضاده فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب

وكان فيه مزاحة اذا خلا (وروى) معاوية ابن عبد الكريم قال كنا نتذاكر الشعر عند محمد بن سيرين وكان يقول ونحن عنده ويمازحنا وكنا نخرج من عنده ونحن نضحك وكنا اذا دخلنا على الحسن نخرج من عنده ونحن نكاد نبكي فهذه الاخبار والآثار دالة على حسن لين الجانب وصحة حال الصوفية وحسن أخلاقهم فيما يعتمدونه من المداعبة في الربط وينزلون مع الناس على حسب طباعهم لنظرهم الى سعة رحمة الله فاذا خلوا وقفوا موقف الرجال واكتسوا ملابس الاعمال والاحوال ولا يقف في هذا المعنى على حد الاعتدال الا صوفي قاهر للنفس عالم باخلاقها وطباعها سائس لها بوفور العلم حتى يقف في ذلك على صراط الاعتدال بين الافراط

له مثل أن يكون امساك المال وجمعه ألذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه فاعلم ان الغالب عليك خلق البخل فزد في المواظبة على البذل فان صار البذل على غير المستحق ألذ عندك وأخف عليك من الامساك بالحق فقد غلب عليك التبذير فارجع الى المواظبة على الامساك فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتيسير الافعال وتعسيرها حتى تنقطع علاقة قلبك عن الالتفات الى المال فلا تميل الى بذله ولا الى امساكه بل يصير عندك كالماء فلا تطلب فيه الا امساكه لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج ولا يترجح عندك البذل على الامساك فكل قلب صار كذلك فقد أتى الله سليما عن هذا المقام خاصة ويجب أن يكون سليما عن سائر الاخلاق حتى لا يكون له علاقة بشيء مما يتعلق بالدنيا حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها غير ملتفتة اليها ولا متشوفة الى أسبابها فعند ذلك ترجع الى ربها رجوع النفس المطمئنة راضية مرضية داخلة في زمرة عباد الله المقربين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا * ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض بل هو أدق من الشعر وأحد من السيف فلا جرم من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا جاز على مثل هذا الصراط في الآخرة وقلما ينفك العبد عن ميل عن الصراط المستقيم أعني الوسط حتى لا يميل الى أحد الجانبين فيكون قلبه متعلقا بالجانب الذي مال اليه ولذلك لا ينفك عن عذاب ما واجتياز على النار وان كان مثل البرق قال الله تعالى وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا أي الذين كان قربهم الى الصراط المستقيم أكثر من بعدهم عنه ولاجل عسر الاستقامة وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى في كل يوم سبع عشرة مرة في قوله اهدنا الصراط المستقيم اذ وجب قراءة الفاتحة في كل ركعة فقد روي أن بعضهم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال قد قلت يا رسول الله شيبتني هود فلم قلت ذلك فقال عليه السلام لقوله تعالى فاستقم كما أمرت فالاستقامة على سواء السبيل في غاية الغموض ولكن ينبغي أن يجتهد الانسان في القرب من الاستقامة ان لم يقدر على حقيقتها فكل من أراد النجاة فلا نجاة له الا بالعمل الصالح ولا تصدر الاعمال الصالحة الا عن الاخلاق الحسنة فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه وليعددها وليشتغل بعلاج واحد فيها على الترتيب فنسأل الله الكريم أن يجعلنا من المتقين

(بيان الطريق الذي يعرف به الانسان عيوب نفسه)

اعلم أن الله عز وجل اذا أراد بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه فاذا عرف العيوب أمكنه العلاج ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق (الاول) أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويحكمه في نفسه ويتبع اشارته في مجاهدته وهذا شأن المريد مع شيخه والتلميذ مع استاذه فيعرفه استاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه وهذا قد عز في هذا الزمان وجوده (الثاني) أن يطلب صديقا صدوقا بصيرا متدينا فينصبه رقيبا على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبهه عليه فهكذا كان يفعل الاكياس والاكابر من أئمة الدين كان عمر رضي الله عنه يقول رحم الله امرأ أهدى الي عيوبي وكان يسأل سلمان عن عيوبه فلما قدم عليه قال له ما الذي بلغك عني مما تكرهه فاستعفى فالح عليه فقال بلغني انك جمعت بين ادامين على مائدة وان لك حلتين حلة بالنهار وحلة بالليل قال وهل بلغك غير هذا قال لا فقال أما هذان فقد كفيتهما وكان يسأل حذيفة ويقول له أنت صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنافقين فهل ترى علي شيأ من آثار النفاق فهو على جلالة قدره وعلو منصبه هكذا كانت تهمته لنفسه رضي الله عنه فكل من كان أوفر عقلا وأعلى منصبا كان أقل اعجابا وأعظم اتهاما لنفسه الا ان هذا أيضا قد عز فقل في الاصدقاء من يترك المداهنة فيخبر بالعيب أو يترك الحسد فلا يزيد على قدر الواجب فلا تخلو في أصدقائك عن حسود أو صاحب غرض يرى ما ليس بعيب عيبا أو عن مداهن يخفي عنك بعض عيوبك ولهذا كان داود الطائي قد اعتزل الناس فقيل له لم لا تخالط الناس فقال وماذا أصنع باقوام يخفون عني عيوبي فكانت شهوة ذوي الدين ان يتنبهوا للعيوب بتنبيه غيرهم وقد آل الامر في أمثالنا الى أن أبغض الخلق الينا من ينصحنا ويعرفنا عيوبنا ويكاد هذا أن يكون مفصحا عن ضعف الايمان فان الاخلاق

والتفريط ولا يصلح الاكثار من ذلك للمريدين المبتدئين لقلة علمهم ومعرفتهم بالنفس وتعديهم حد الاعتدال فللنفس في هذه المواطن نهضات ووثبات تجر الى الفساد وتجنح الى العناد فالنزول الى طباع الناس يحسن بمن صعد عنهم وترقى لعلو حاله ومقامه فينزل اليهم والى طباعهم حين ينزل بالعلم فاما من لم يصعد بصفاء حاله عنهم وفيه بقية مزج من طباعهم ونفوسهم الجامحة الامارة بالسوء اذا دخلت في هذه المداخل أخذت النفس حظها واغتنمت مآربها واستروحت الى الرخصة والنزول الى الرخصة يحسن لمن يركب العزيمة غالب أوقاته وليس ذلك شأن المبتدئ فللصوفية العلماء فيما ذكرناه ترويح يعلمون حاجة القلب الى ذلك والشيء اذا وضع للحاجة يتقدر بقدر الحاجة

السيئة حيات وعقارب لداغة فلو نبهنا منبه على أن تحت ثوبنا عقربا لتقلدنا منه منة وفرحنا به واشتغلنا بازالة العقرب وابعادها وقتلها وانما نكايتها على البدن ويدوم ألمها يوما فما دونه ونكاية الاخلاق الرديئة على صميم القلب أخشى أن تدوم بعد الموت أبدا أو آلافا من السنين ثم انا لا نفرح بمن ينبهنا عليها ولا نشتغل بازالتها بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثل مقالته فنقول له وأنت أيضا تصنع كيت وكيت وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التى أثمرتها كثرة الذنوب وأصل كل ذلك ضعف الايمان فنسأل الله عز وجل أن يلهمنا رشدنا ويبصرنا بعيوبنا ويشغلنا بمداواتها ويوفقنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوينا بمنه وفضله (الطريق الثالث) أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه فان عين السخط تبدى المساويا ولعل انتفاع الانسان بعدو مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثنى عليه ويمدحه ويخفى عنه عيوبه الا ان الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل ما يقوله على الحسد ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول اعدائه فان مساويه لابد وان تنتشر على ألسنتهم (الطريق الرابع) أن يخالط الناس فكل ما رآه مذموما فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها اليه فان المؤمن مرآة المؤمن فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويعلم ان الطباع متقاربة فى اتباع الهوى فما يتصف به واحد من الاقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شئ منه فليتفقد نفسه ويطهرها من كل ما يذمه من غيره وناهيك بهذا تأديبا فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب * قيل لعيسى عليه السلام من أدبك قال ما أدبنى أحد رأيت جهل الجاهل شينا فاجتنبته وهذا كله حيل من فقد شيخا عارفا ذكيا بصيرا بعيوب النفس مشفقا ناصحا فى الدين فارغا من تهذيب نفسه مشتغلا بتهذيب عباد الله تعالى ناصحا لهم فمن وجد ذلك فقد وجد الطبيب فليلازمه فهو الذى يخلصه من مرضه وينجيه من الهلاك الذى هو بصدده

(بيان شواهد النقل من أرباب البصائر وشواهد الشرع على ان الطريق فى معالجة أمراض القلوب ترك الشهوات وان مادة أمراضها هى اتباع الشهوات)

اعلم ان ما ذكرناه ان تأملته بعين الاعتبار انفتحت بصيرتك وانكشفت لك علل القلوب وأمراضها وأدويتها بنور العلم واليقين فان عجزت عن ذلك فلا ينبغى أن يفوتك التصديق والايمان على سبيل التلقى والتقليد لمن يستحق التقليد فان للايمان درجة كما أن للعلم درجة والعلم يحصل بعد الايمان وهو وراءه قال الله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات فمن صدق بان مخالفة الشهوات هى الطريق الى الله عز وجل ولم يطلع على سببه وسره فهو من الذين آمنوا واذا اطلع على ما ذكرناه من أعوان الشهوات فهو من الذين أوتوا العلم وكلا وعد الله الحسنى والذى يقتضى الايمان بهذا الامر فى القرآن والسنة وأقاويل العلماء أكثر من أن يحصر قال الله تعالى ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى وقال تعالى أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى قيل نزع منها محبة الشهوات وقال صلى الله عليه وسلم المؤمن بين خمس شدائد مؤمن يحسده ومنافق يبغضه وكافر يقاتله وشيطان يضله ونفس تنازعه فبين أن النفس عدو منازع يجب عليه مجاهدتها ويروى ان الله تعالى أوحى الى داود عليه السلام يا داود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات فان القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عنى محجوبة وقال عيسى عليه السلام طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يره وقال نبينا صلى الله عليه وسلم لقوم قدموا من الجهاد مرحبا بكم قدمتم من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر قيل يا رسول الله وما الجهاد الاكبر قال جهاد النفس وقال صلى الله عليه وسلم المجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله عز وجل وقال صلى الله عليه وسلم كف أذاك عن نفسك ولا تتابع هواها فى معصية الله تعالى اذا تخاصمك يوم القيامة فيلعن بعضك بعضا الا أن يغفر الله تعالى ويستر وقال سفيان الثورى ما عالجت شيأ أشد على من نفسى مرة لى ومرة على وكان أبو العباس الموصلى يقول لنفسه يا نفس لا فى الدنيا مع أبناء الملوك تتنعمين ولا فى طلب الآخرة مع العباد تجتهدين كأنى بك بين الجنة والنار تحبسين يا نفس ألا تستحين وقال الحسن ما الدابة الجموح باحوج الى اللجام الشديد من نفسك وقال يحيى بن معاذ الرازى جاهد نفسك باسياف الرياضة والرياضة على أربعة أوجه القوت من الطعام

والغمض

ومعيار مقدار الحاجة فى ذلك علم غامض لا يسلم لكل أحد (قال) سعيد بن العاص لابنه اقتصد فى مزاحك فالافراط فيه يذهب بالبهاء ويجرئ عليك السفهاء وتركه يغيظ المؤانسين ويوحش المخالطين قال بعضهم المزاح مسلبة للبهاء مقطعة للاخاء وكما يصعب معرفة الاعتدال فى ذلك يصعب معرفة الاعتدال فى الضحك والضحك من خصائص الانسان وتميزه عن جنس الحيوان ولا يكون الضحك الا عن سابقة تعجب والتعجب يستدعى الفكر والفكر شرف الانسان وخاصيته ومعرفة الاعتدال فيه أيضا شأن من رسخ قدمه فى العلم ولهذا قيل اياك وكثرة الضحك فانه يميت القلب وقيل وكثرة الضحك من الرعونة (وروى) عن عيسى عليه السلام انه قال ان الله تعالى يبغض الضحاك

والغمض من المنام والحاجة من الكلام وحمل الأذى من جميع الانام فيتولد من قلة الطعام موت الشهوة ومن قلة المنام صفو الارادة ومن قلة الكلام السلامة من الآفات ومن احتمال الأذى البلوغ الى الغايات وليس على العبد شئ أشد من الحلم عند الجفاء والصبر على الأذى واذا تحركت من النفس ارادة الشهوات والآثام وهاجت منها حلاوة فضول الكلام جردت عليها سيوف قلة الطعام من غمد التهجد وقلة المنام وضربتها بأيدى الخمول وقلة الكلام حتى تنقطع عن الظلم والانتقام فتأمن من بوائقها من بين سائر الانام وتصفيها من ظلمة شهواتها فتنجو من غوائل آفاتها فتصير عند ذلك نظيفة ونورية خفيفة روحانية فتجول في ميدان الخيرات وتسير في مسالك الطاعات كالفرس الفاره في الميدان وكالملك المتنزه في البستان وقال أيضا أعداء الانسان ثلاثة دنياه وشيطانه ونفسه فاحترس من الدنيا بالزهد فيها ومن الشيطان بمخالفته ومن النفس بترك الشهوات وقال بعض الحكماء من استولت عليه النفس صار أسيرا في حب شهواتها محصورا في سجن هواها مقهورا مغلولا زمامه في يدها تجره حيث شاءت فتمنع قلبه من الفوائد وقال جعفر بن حميد أجمعت العلماء والحكماء على أن النعيم لا يدرك الا بترك النعيم وقال أبو يحيي الوراق من أرضى الجوارح بالشهوات فقد غرس في قلبه شجر الندامات وقال وهيب بن الورد ما زاد على الخبز فهو شهوة وقال أيضا من أحب شهوات الدنيا فليتهيأ للذل ويروى ان امرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام بعد أن ملك خزائن الارض وقعدت له على رابية الطريق في يوم موكبه وكان يركب في زهاء اثني عشر ألفا من عظماء مملكته سبحان من جعل الملوك عبيدا بالمعصية وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم له ان الحرص والشهوة صيرا الملوك عبيدا وذلك جزاء المفسدين وان الصبر والتقوى صيرا العبيد ملوكا فقال يوسف كما أخبر الله تعالى عنه انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين وقال الجنيد أرقت ليلة فقمت الى وردي فلم أجد الحلاوة التي كنت أجدها فاردت أن أنام فلم أقدر فجلست فلم أطق الجلوس فخرجت فاذا رجل ملتف في عباءة مطروح على الطريق فلما أحس بي قال يا أبا القاسم الى الساعة فقلت يا سيدي من غير موعد فقال بلى سألت الله عز وجل أن يحرك لي قلبك فقلت قد فعل فما حاجتك قال فمتى يصير داء النفس دواءها فقلت اذا خالفت النفس هواها فاقبل على نفسه فقال اسمعي فقد أجبتك بهذا سبع مرات فابيت أن تسمعيه الا من الجنيد ها قد سمعتيه ثم انصرف وما عرفته وقال يزيد الرقاشي اليكم عنى الماء البارد في الدنيا لعلي لا أحرمه في الآخرة وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى متى أتكلم قال اذا اشتهيت الصمت قال متى أصمت قال اذا اشتهيت الكلام وقال علي رضي الله عنه من اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات في الدنيا وكان مالك بن دينار يطوف في السوق فاذا رأى الشئ يشتهيه قال لنفسه اصبري فوالله ما أمنعك الا من كرامتك علي فاذا قد اتفق العلماء والحكماء على أن لا طريق الى سعادة الآخرة الا بنهي النفس عن الهوى ومخالفة الشهوات فالايمان بهذا واجب وأما علم تفصيل ما يترك من الشهوات وما لا يترك لا يدرك الا بما قدمناه وحاصل الرياضة وسرها ان لا تتمتع النفس بشئ مما لا يوجد في القبر الا بقدر الضرورة فيكون مقتصرا من الاكل والنكاح واللباس والمسكن وكل ما هو مضطر اليه على قدر الحاجة والضرورة فانه لو تمتع بشئ منه انس به وألفه فاذا مات تمنى الرجوع الى الدنيا بسببه ولا يتمنى الرجوع الى الدنيا الا من لا حظ له في الآخرة بحال ولا خلاص منه الا بان يكون القلب مشغولا بمعرفة الله وحبه والتفكر فيه والانقطاع اليه ولا قوة على ذلك الا بالله ويقتصر من الدنيا على ما يدفع عوائق الذكر والفكر فقط فمن لم يقدر على حقيقة ذلك فليقرب منه والناس فيه أربعة رجل مستغرق قلبه بذكر الله فلا يلتفت الى الدنيا الا في ضرورات المعيشة فهو من الصديقين ولا ينتهى الى هذه الرتبة الا بالرياضة الطويلة والصبر عن الشهوات مدة مديدة الثاني رجل استغرقت الدنيا قلبه ولم يبق لله تعالى ذكر في قلبه الا من حيث حديث النفس حيث يذكره باللسان لا بالقلب فهذا من الهالكين والثالث رجل اشتغل بالدنيا والدين ولكن الغالب على قلبه هو الدين فهذا لابد له من ورود النار الا أنه ينجو منها سريعا بقدر غلبة ذكر الله تعالى على قلبه والرابع رجل اشتغل بهما جميعا لكن الدنيا أغلب على قلبه فهذا يطول مقامه في النار لكن يخرج منها لا محالة لقوة ذكر الله تعالى في قلبه وتمكنه من صميم فؤاده وان كان ذكر الدنيا أغلب على قلبه اللهم انا نعوذ بك من خزيك فانك أنت

من غير تعب المشاء في غير ارب وذكر فرق بين المداعبة والمزاح فقيل المداعبة ما لا يغضب جده والمزاح ما يغضب جده وقد جعل أبو حنيفة رحمه الله القهقهة في الصلاة من الذنب وحكم ببطلان الوضوء بها وقال يقوم الاثم مقام خروج الخارج فالاعتدال في المزاح والضحك لا يتأتى الا اذا خلص وخرج من ضيق الخوف والقبض والهيبة فانه يتقوم بكل مضيق من هذه المضايق بعض التقويم فيعتدل الحال فيه ويستقيم فالبسط والرجاء ينشآن المزاح والضحك والخوف والقبض يحكمان فيه بالعدل * ومن أخلاق الصوفية ترك التكلف وذلك ان التكلف تصنع وتعمل وتمايل على النفس لاجل الناس وذلك يباين حال الصوفية وفي بعضه خفي منازعة للاقدار وعدم الرضا بما

المعاد وربما يقول القائل ان التنعم بالمباح مباح فكيف يكون التنعم سبب البعد من الله عز وجل وهذا خيال ضعيف بل حب الدنيا رأس كل خطيئة وسبب احباط كل حسنة والمباح الخارج عن قدر الحاجة أيضا من الدنيا وهو سبب البعد وسيأتي ذلك في كتاب ذم الدنيا وقد قال ابراهيم الخواص كنت مرة في جبل اللكام فرأيت رمانا فاشتهيته فأخذت منه واحدة فشققتها فوجدتها حامضة فمضيت وتركتها فرأيت رجلا مطروحا وقد اجتمعت عليه الزنابير فقلت السلام عليك فقال وعليك السلام يا ابراهيم فقلت كيف عرفتني فقال من عرف الله عز وجل لم يخف عليه شيء فقلت أرى لك حالا مع الله عز وجل فلو سألته أن يحميك من هذه الزنابير فقال وأرى لك حالا مع الله تعالى فلو سألته أن يحميك من شهوة الرمان فان لدغ الرمان يجد الانسان ألمه في الآخرة ولدغ الزنابير يجد ألمه في الدنيا فتركته ومضيت وقال السري أنا منذ أربعين سنة تطالبني نفسي ان أغمس خبزة في دبس فما أطعمتها فاذا لا يمكن اصلاح القلب لسلوك طريق الآخرة ما لم يمنع نفسه عن التنعم بالمباح فان النفس اذا لم تمنع بعض المباحات طمعت في المحظورات فمن أراد حفظ لسانه عن الغيبة والفضول فحقه ان يلزمه السكوت الا عن ذكر الله والا عن المهمات في الدين حتى تموت منه شهوة الكلام فلا يتكلم الا بحق فيكون سكوته عبادة وكلامه عبادة ومهما اعتادت العين رمي البصر الى كل شيء جميل لم تتحفظ عن النظر الى ما لا يحل وكذلك سائر الشهوات لان الذي يشتهي به الحلال هو بعينه الذي يشتهي به الحرام فالشهوة واحدة وقد وجب على العبد منعها من الحرام فان لم يعودها الاقتصار على قدر الضرورة من الشهوات غلبته فهذه احدى آفات المباحات ووراءها آفات عظيمة أعظم من هذه وهو أن النفس تفرح بالتنعم في الدنيا وتركن اليها وتطمئن اليها أشرا وبطرا حتى تصير ثملة كالسكران الذي لا يفيق من سكره وذلك الفرح بالدنيا سم قاتل يسري في العروق فيخرج من القلب الخوف والحزن وذكر الموت وأهوال يوم القيامة وهذا هو موت القلب قال الله تعالى ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها وقال تعالى وما الحياة الدنيا في الآخرة الا متاع وقال تعالى اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد الآية وكل ذلك ذم لها فنسأل الله السلامة فأولو الحزم من أرباب القلوب جربوا قلوبهم في حال الفرح بمؤاتاة الدنيا فوجدوها قاسية نفرة بعيدة التأثر عن ذكر الله واليوم الآخر وجربوها في حالة الحزن فوجدوها لينة رقيقة صافية قابلة لأثر الذكر فعلموا أن النجاة في الحزن الدائم والتباعد من أسباب الفرح والبطر ففطموها عن ملاذها وعودوها الصبر عن شهواتها حلالها وحرامها وعلموا أن حلالها حساب وحرامها عقاب ومتشابهها عتاب وهو نوع عذاب فمن نوقش الحساب في عرصات القيامة فقد عذب فخلصوا أنفسهم من عذابها وتوصلوا الى الحرية والملك الدائم في الدنيا والآخرة بالخلاص من أسر الشهوات ورقها والانس بذكر الله عز وجل والاشتغال بطاعته وفعلوا بها ما يفعل بالبازي اذا قصد تأديبه ونقله من التوثب والاستيحاش الى الانقياد والتأديب فانه يحبس أولا في بيت مظلم وتخاط عيناه حتى يحصل به الفطام عن الطيران في جو الهواء وينسى ما قد كان ألفه من طبع الاسترسال ثم يرفق به باللحم حتى يأنس بصاحبه ويألفه ألفا اذا دعاه أجابه ومهما سمع صوته رجع اليه فكذلك النفس لا تألف ربها ولا تأنس بذكره الا اذا فطمت عن عادتها بالخلوة والعزلة أولا ليحفظ السمع والبصر عن المألوفات ثم عودت الثناء والذكر والدعاء ثانيا في الخلوة حتى يغلب عليها الانس بذكر الله عز وجل عوضا عن الانس بالدنيا وسائر الشهوات وذلك يثقل على المريد في البداية ثم يتنعم به في النهاية كالصبي يفطم عن الثدي وهو شديد عليه اذ كان لا يصبر عنه ساعة فلذلك يشتد بكاؤه وجزعه عند الفطام ويشتد نفوره عن الطعام الذي يقدم اليه بدلا عن اللبن ولكنه اذا منع اللبن رأسا يوما فيوما وعظم تعبه في الصبر عليه وغلبه الجوع تناول الطعام تكلفا ثم يصير له طبعا فلو رد بعد ذلك الى الثدي لم يرجع اليه فيهجر الثدي ويعاف اللبن ويألف الطعام وكذلك الدابة في الابتداء تنفر عن السرج واللجام والركوب فتحمل على ذلك قهرا وتمنع عن السراح الذي ألفته بالسلاسل والقيود أولا ثم تأنس به بحيث تترك في موضعها فتقف فيه من غير قيد فكذلك تؤدب النفس كما يؤدب الطير والدواب وتأديبها بان تمنع من النظر والانس والفرح بنعيم الدنيا بل بكل ما يزايلها بالموت اذ قيل له أحبب ما أحببت فانك مفارقه فاذا علم ان من أحب شيئا يلزمه فراقه ويشقى لا محالة لفراقه شغل

قسم الجبار ويقال التصوف ترك التكلف ويقال التكلف تخلف وهو تخلف عن شأو السادقين (روى) أنس ابن مالك قال شهدت وليمة لرسول الله ما فيها خبز ولا لحم (وروى) عن جابر أنه أتاه ناس من أصحابه فأتاهم بخبز وخل وقال كلوا فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نعم الادام الخل وعن سفيان ابن سلمة قال دخلت على سلمان الفارسي فأخرج الى خبزا وملحا وقال كل لولا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا ان يتكلف أحد لاحد لتكلفت لكم والتكلف مذموم في جميع الاشياء كالتكلف بالملبوس للناس من غير نية فيه والتكلف في الكلام وزيادة التملق الذي صار دأب أهل الزمان فما يكاد يسلم من ذلك الا آحاد وأفراد وكم من متملق لا يعرف أنه

قلبه بحب ما لا يفارقه وهو ذكر الله تعالى فان ذلك يصحبه في القبر ولا يفارقه وكل ذلك يتم بالصبر أولا أياما قلائل فان العمر قليل بالاضافة الى مدة حياة الآخرة وما من عاقل الا وهو راض باحتمال المشقة في سفر وتعلم صناعة وغيرها شهرا ليتنعم به سنة أو دهرا وكل العمر بالاضافة الى الابد أقل من الشهر بالاضافة الى عمر الدنيا فلابد من الصبر والمجاهدة فعند الصباح يحمد القوم السرى وتذهب عنهم عمايات الكرى كما قاله على رضى الله عنه وطريق المجاهدة والرياضة لكل انسان تختلف بحسب اختلاف أحواله والاصل فيه أن يترك كل واحد ما به فرحه من أسباب الدنيا فالذى يفرح بالمال أو بالجاه أو بالقبول فى الوعظ أو بالعز فى القضاء والولاية أو بكثرة الاتباع فى التدريس والافادة فينبغى أن يترك أولا ما به فرحه فانه ان منع عن شئ من ذلك فقيل له ثوابك فى الآخرة لم ينقص بالمنع فكره ذلك وتألم به فهو ممن فرح بالحياة الدنيا واطمأن بها وذلك مهلك فى حقه ثم اذا ترك أسباب الفرح فليعتزل الناس ولينفرد بنفسه وليراقب قلبه حتى لا يشتغل الا بذكر الله تعالى والفكر فيه وليترصد لما يبدو فى نفسه من شهوة ووسواس حتى يقمع مادته مهما ظهر فان لكل وسوسة سببا ولا تزول الا بقطع ذلك السبب والعلاقة وليلازم ذلك بقية العمر فليس للجهاد آخر الا الموت

(بيان علامات حسن الخلق)

اعلم أن كل انسان جاهل بعيوب نفسه فاذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصى ربما يظن بنفسه أنه قد هذب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة فلابد من ايضاح علامة حسن الخلق فان حسن الخلق هو الايمان وسوء الخلق هو النفاق وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين فى كتابه وهى بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق * قال الله تعالى * قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون الى قوله أولئك هم الوارثون وقال عز وجل التائبون العابدون الحامدون الى قوله وبشر المؤمنين وقال عز وجل انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم الى قوله أولئك هم المؤمنون حقا وقال تعالى وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما الى آخر السورة فمن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق وفقد جميعها علامة سوء الخلق ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بتحصيل ما فقده وحفظ ما وجده وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن بصفات كثيرة وأشار بجميعها الى محاسن الاخلاق فقال المؤمن يحب لاخيه ما يحب لنفسه وقال عليه السلام من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه وقال صلى الله عليه وسلم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره وقال من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت وذكر أن صفات المؤمنين هى حسن الخلق فقال صلى الله عليه وسلم أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم أخلاقا وقال صلى الله عليه وسلم اذا رأيتم المؤمن صموتا وقورا فادنوا منه فانه يلقن الحكمة وقال من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن وقال لا يحل لمؤمن أن يشير الى أخيه بنظرة تؤذيه وقال عليه السلام لا يحل لمسلم أن يروع مسلما وقال صلى الله عليه وسلم انما يتجالس المتجالسان بامانة الله عز وجل فلا يحل لاحدهما أن يفشى على أخيه ما يكرهه وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال هو أن يكون كثير الحياء قليل الاذى كثير الصلاح صدوق اللسان قليل الكلام كثير العمل قليل الزلل قليل الفضول برا وصولا وقورا صبورا شكورا رضيا حليما رفيقا عفيفا شفيقا لا لعانا ولا سبابا ولا نماما ولا مغتابا ولا عجولا ولا حقودا ولا بخيلا ولا حسودا بشاشا هشاشا يحب فى الله ويبغض فى الله ويرضى فى الله ويغضب فى الله فهذا هو حسن الخلق - وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علامة المؤمن والمنافق فقال ان المؤمن همته فى الصلاة والصيام والعبادة والمنافق همته فى الطعام والشراب كالبهيمة وقال حاتم الاصم المؤمن مشغول بالفكر والعبر والمنافق مشغول بالحرص والامل والمؤمن آيس من كل أحد الا من الله والمنافق راج كل أحد الا الله والمؤمن آمن من كل أحد الا من الله والمنافق خائف من كل أحد الا من الله والمؤمن يقدم ماله دون دينه والمنافق يقدم دينه دون ماله والمؤمن يحسن ويبكى والمنافق يسىء ويضحك والمؤمن يحب الخلوة والوحدة والمنافق يحب الخلطة والملأ والمؤمن يزرع ويخشى الفساد والمنافق يقلع ويرجو الحصاد والمؤمن يأمر وينهى للسياسة فيصلح والمنافق يأمر وينهى للرياسة فيفسد وأولى

تملق ولا يفطن له فقد يتملق الشخص الى حد يخرجه الى صريح النفاق وهو مباين لحال الصوفى (أخبرنا) الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى ثنا أحمد بن منيع قال ثنا يزيد بن هرون عن محمد بن مطرف عن حسان بن عطية عن أبى امامة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال الحياء والعى شعبتان من الايمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق البذاء الفحش وأراد بالبيان ههنا كثرة الكلام والتكلف للناس بزيادة تملق وثناء عليهم واظهار التفصح وذلك ليس من شأن أهل الصدق (وحكى) عن أبى وائل قال مضيت مع صاحب

ما يمتحن به حسن الخلق الصبر على الاذى واحتمال الجفاء ومن شكا من سوء خلق غيره دل ذلك على سوء خلقه فان حسن الخلق احتمال الاذى فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوما يمشي ومعه انس فادركه اعرابي فجذبه جذبا شديدا وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية قال أنس رضي الله عنه حتى نظرت الى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جذبه فقال يا محمد هب لي من مال الله الذي عندك فالتفت اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك ثم أمر باعطائه ولما أكثرت قريش ايذاءه وضربه قال اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون قيل ان هذا يوم أحد فلذلك أنزل الله تعالى فيه وانك لعلى خلق عظيم ويحكى أن ابراهيم بن أدهم خرج يوما الى بعض البراري فاستقبله رجل جندي فقال أنت عبد قال نعم فقال له أين العمران فاشار الى المقبرة فقال الجندي انما أردت العمران فقال هو المقبرة فغاظه ذلك فضرب رأسه بالسوط فشجه ورده الى البلد فاستقبله أصحابه فقالوا ما الخبر فاخبرهم الجندي ما قال له فقالوا هذا ابراهيم بن أدهم فنزل الجندي عن فرسه وقبل يديه ورجليه وجعل يعتذر اليه فقيل بعد ذلك له لم قلت له أنا عبد فقال انه لم يسألني عبد من أنت بل قال أنت عبد فقلت نعم لاني عبد الله فلما ضرب رأسي سألت الله له الجنة قيل كيف وقد ظلمك فقال علمت أنني أوجر على ما نالني منه فلم أرد أن يكون نصيبي منه الخير ونصيبه مني الشر ودعي أبو عثمان الحيري الى دعوة وكان الداعي قد أراد تجربته فلما بلغ منزله قال له ليس لي وجه فرجع أبو عثمان فلما ذهب غير بعيد دعاه ثانيا فقال له يا استاذ ارجع فرجع أبو عثمان فقال له مثل مقالته الاولى فرجع ثم دعاه الثالثة وقال ارجع على ما يوجب الوقت فرجع فلما بلغ الباب قال له مثل مقالته الاولى فرجع أبو عثمان ثم جاءه الرابعة فرده حتى عامله بذلك مرات وأبو عثمان لا يتغير من ذلك فاكب على رجليه وقال يا أستاذ انما أردت أن أختبرك فما أحسن خلقك فقال ان الذي رأيت مني هو خلق الكلب ان الكلب اذا دعي أجاب واذا زجر انزجر وروى عنه أيضا أنه اجتاز يوما في سكة فطرحت عليه اجانة رماد فنزل عن دابته فسجد سجدة الشكر ثم جعل ينفض الرماد عن ثيابه ولم يقل شيأ فقيل ألا زبرتهم فقال ان من استحق النار فصولح على الرماد لم يجز له أن يغضب انتهى وروى أن علي بن موسى الرضا رحمة الله عليه كان لونه يميل الى السواد اذ كانت أمه سوداء وكان بنيسابور حمام على باب داره وكان اذا أراد دخول الحمام فرغه له الحامي فدخل ذات يوم فاغلق الحامي الباب ومضى في بعض حوائجه فتقدم رجل رستاقي الى باب الحمام ففتحه ودخل فنزع ثيابه ودخل فرأى علي بن موسى الرضا فظن أنه بعض خدام الحمام فقال له قم واحمل الى الماء فقام علي بن موسى وامتثل جميع ما كان يأمره به فرجع الحامي فرأى ثياب الرستاقي وسمع كلامه مع علي بن موسى الرضا فخاف وهرب وخلاهما فلما خرج علي بن موسى سأل عن الحامي فقيل له انه خاف مما جرى فهرب قال لا ينبغي له أن يهرب انما الذنب لمن وضع ماءه عند أمة سوداء وروى أن أبا عبد الله الخياط كان يجلس على دكانه وكان له حريف مجوسي يستعمله في الخياطة فكان اذا خاط له شيأ حمل اليه دراهم زائفة فكان أبو عبد الله يأخذها منه ولا يخبره بذلك ولا يردها عليه فاتفق يوما أن أبا عبد الله قام لبعض حاجته فأتى المجوسي فلم يجده فدفع الى تلميذه الاجرة واسترجع ما قد خاطه فكان درهما زائفا فلما نظر اليه التلميذ عرف أنه زائف فرده عليه فلما عاد أبو عبد الله أخبره بذلك فقال بئس ما عملت هذا المجوسي يعاملني بهذه المعاملة منذ سنة وأنا أصبر عليه وآخذ الدراهم منه وألقيها في البئر لئلا يغر بها مسلما وقال يوسف بن اسباط علامة حسن الخلق عشر خصال قلة الخلاف وحسن الانصاف وترك طلب العثرات وتحسين ما يبدو من السيئات والتماس المعذرة واحتمال الاذى والرجوع بالملامة على النفس والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره وطلاقة الوجه للصغير والكبير ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه * وسئل سهل عن حسن الخلق فقال أدناه احتمال الاذى وترك المكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه وقيل للاحنف بن قيس ممن تعلمت الحلم فقال من قيس بن عاصم قيل وما بلغ من حلمه قال بينما هو جالس في داره اذ أتته جارية له بسفود عليه شواء فسقط من يدها فوقع على ابن له صغير فمات فدهشت الجارية فقال لها لا روع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى وقيل ان أويسا القرني كان اذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة فكان يقول لهم يا اخوتاه ان كان ولا بد فارموني بالصغار حتى لا تدموا ساقي فتمنعوني عن الصلاة وشتم رجل الاحنف بن قيس وهو لا يجيبه وكان يتبعه فلما قرب من الحي وقف

وقال

لي نزور سلمان فقدم الينا خبز شعير وملحا جريشا فقال صاحبي لو كان في هذا الملح سعتر كان أطيب فخرج سلمان ورهن مطهرته وأخذ سعترا فلما أكلنا قال صاحبي الحمد لله الذي قنعنا بما رزقنا فقال سلمان لو قنعت بما رزقك لم تكن مطهرتي مرهونة وفي هذا من سلمان ترك التكلف قولا وفعلا وفي حديث يونس النبي عليه السلام انه زاره اخوانه فقدم اليهم كسرا من خبز شعير وجز لهم بقلا كان يزرعه ثم قال لولا ان الله لعن المتكلفين لتكلفت لكم قال بعضهم اذا قصدت للزيارة فقدم ما حضر واذا استزرت فلا تبق ولا تذر (وروى) الزبير ابن العوام قال نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما اللهم اغفر للذين يدعون لاموات أمتي ولا يتكلفون ألا اني

وقال ان كان قد بقي في نفسك شيء فقله كي لا يسمعك بعض سفهاء الحي فيؤذوك و روي أن عليا كرم الله وجهه دعا غلاما فلم يجبه فدعاه ثانيا وثالثا فلم يجبه فقام اليه فرآه مضطجعا فقال أما تسمع يا غلام قال بلى قال فما حملك على ترك اجابتي قال أمنت عقوبتك فتكاسلت فقال امض فأنت حر لوجه الله تعالى وقالت امرأة لمالك بن دينار رحمه الله يا مرائي فقال ياهذه وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة وكان ليحيى بن زياد الحارثي غلام سوء فقيل له لم تمسكه فقال لا تعلم الحلم عليه فهذه نفوس قد ذللت بالرياضة فاعتدلت أخلاقها ونقيت من الغش والغل والحقد بواطنها فأثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى وهو منتهى حسن الخلق فان من يكره فعل الله تعالى ولا يرضى به فهو غاية سوء خلقه فهؤلاء ظهرت العلامات على ظواهرهم كما ذكرناه فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات فلا ينبغي أن يغتر بنفسه فيظن بها حسن الخلق بل ينبغي ان يشتغل بالرياضة والمجاهدة الى أن يبلغ درجة حسن الخلق فانها درجة رفيعة لا ينالها الا المقربون والصديقون

(بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم)

اعلم ان الطريق في رياضة الصبيان من أهم الامور وأوكدها والصبي امانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما نقش ومائل الى كل ما يمال به اليه فان عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب وان عود الشر وأهمل اهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له وقد قال الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ومهما كان الاب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى وصيانته بان يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الاخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولا يعوده التنعم ولا يحبب اليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها اذا كبر فيهلك هلاك الابد بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل في حضانته وارضاعه الا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال فان اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه فاذا وقع عليه نشو الصبي انعجنت طينته من الخبث فيميل طبعه الى ما يناسب الخبائث ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته وأول ذلك ظهور أوائل الحياء فانه اذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الافعال فليس ذلك الا لاشراق نور العقل عليه حتى يرى بعض الاشياء قبيحا ومخالفا للبعض فصار يستحي من شيء دون شيء وهذه هدية من الله تعالى اليه وبشارة تدل على اعتدال الاخلاق وصفاء القلب وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي ان يؤدب فيه مثل ان لا يأخذ الطعام الا بيمينه وان يقول عليه بسم الله عند أخذه وان يأكل مما يليه وان لا يبادر الى الطعام قبل غيره وان لا يحدق النظر اليه ولا الى من يأكل وان لا يسرع في الاكل وان يجيد المضغ وان لا يوالي بين اللقم ولا يلطخ يده ولا ثوبه وان يعود الخبز القفار في بعض الاوقات حتى لا يصير بحيث يرى الادم حتما ويقبح عنده كثرة الاكل بان يشبه كل من يكثر الاكل بالبهائم وبان يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الاكل ويمدح عنده الصبي المتأدب القليل الاكل وان يحبب اليه الايثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن اي طعام كان وان يحبب اليه من الثياب البيض دون الملون والابريسم ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين وان الرجال يستنكفون منه ويكرر ذلك عليه ومهما رأى على صبي ثوبا من ابريسم أو ملون فينبغي أن يستنكره ويذمه ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة وعن مخالطة كل من يسمعه ما يرغبه فيه فان الصبي مهما أهمل في ابتداء نشوه خرج في الاغلب رديء الاخلاق كذابا حسودا سروقا نماما لحوحا ذا فضول وضحك وكياد ومجانة وانما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب ثم يشغل في المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الاخبار وحكايات الابرار وأحوالهم لينغرس في نفسه حب الصالحين ويحفظ من الاشعار التي فيها ذكر العشق وأهله ويحفظ من مخالطة الادباء الذين يزعمون ان ذلك من الظرف ورقة الطبع فان ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذر الفساد ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي ان يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس فان خالف ذلك في بعض الاحوال مرة واحدة فينبغي ان يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه ولا يظهر له

بريء من التكلف وصالحو أمتي وروي أن عمر رضي الله عنه قرأ قوله تعالى فانبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا ثم قال هذا كله قد عرفناه فما الاب قال وبيد عمر عصاه فضرب بها الارض ثم قال هذا لعمر الله هو التكلف فخذوا أيها الناس ما بين لكم منه فما عرفتم اعملوا به ومن لم تعرفوا فكلوا علمه الى الله * ومن أخلاق الصوفية الانفاق من غير اقتار وترك الادخار وذلك ان الصوفي يرى خزائن فضل الحق فهو بمثابة من هو مقيم على شاطئ بحر والمقيم على شاطئ البحر لا يدخر الماء في قربته وراويته (روى) أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من يوم الا له ملكان يناديان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا

أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة فعند ذلك إن عاد ثانيا فينبغي أن يعاتب سرا ويعظم الامر فيه ويقال له إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا وأن يطلع عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين فانه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه وليكن الاب حافظا هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحيانا والام تخوفه بالاب وتزجره عن القبائح وينبغي أن يمنع عن النوم نهارا فانه يورث الكسل ولا يمنع منه ليلا ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ولا يسمن بدنه فلا يصبر عن التنعم بل يعود الخشونة في المفرش والملبس والمطعم وينبغي أن يمنع من كل ما يفعله في خفية فانه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح فإذا ترك تعود فعل القبيح ويعود في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل ويعود أن لا يكشف أطرافه ولا يسرع المشي ولا يرخي يديه بل يضمهما إلى صدره ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والداه أو بشيء من مطاعمه وملابسه أو لوحه ودواته بل يعود التواضع والاكرام لكل من عاشره والتلطف في الكلام معهم ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيأ بداله حشمة إن كان من أولاد المحتشمين بل يعلم أن الرفعة في الاعطاء لا في الاخذ وأن الاخذ لؤم وخسة ودناءة وإن كان من أولاد الفقراء فيعلم أن الطمع والاخذ مهانة وذلة وأن ذلك من دأب الكلب فانه يبصبص في انتظار لقمة والطمع فيها وبالجملة يقبح إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب فان آفة حب الذهب والفضة والطمع فيهما أضر من آفة السموم على الصبيان بل على الاكابر أيضا وينبغي أن يعود أن لا يبصق في مجلسه ولا يتمخط ولا يتثاءب بحضرة غيره ولا يستدبر غيره ولا يضع رجلا على رجل ولا يضع كفه تحت ذقنه ولا يعمد رأسه بساعده فان ذلك دليل الكسل ويعلم كيفية الجلوس ويمنع كثرة الكلام ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة وأنه فعل أبناء اللئام ويمنع اليمين رأسا صادقا كان أو كاذبا حتى لا يعتاد ذلك في الصغر ويمنع أن يبتدئ بالكلام ويعود أن لا يتكلم إلا جوابا وبقدر السؤال وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنا وأن يقوم لمن فوقه ويوسع له المكان ويجلس بين يديه ويمنع من لغو الكلام وفحشه ومن اللعن والسب ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك فان ذلك يسري لا محالة من القرناء السوء وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء وينبغي إذا ضربه المعلم أن لا يكثر الصراخ والشغب ولا يستشفع بأحد بل يصبر ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعبا جميلا يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللعب فان منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائما يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسا وينبغي أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه وكل من هو أكبر منه سنا من قريب وأجنبي وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم وأن يترك اللعب بين أيديهم ومهما بلغ سن التمييز فينبغي أن لا يسامح في ترك الطهارة والصلاة ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان ويجنب لبس الديباج والحرير والذهب ويعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع ويخوف من السرقة وأكل الحرام ومن الخيانة والكذب والفحش وكل ما يغلب على الصبيان فإذا وقع نشوه كذلك في الصبا فمهما قارب البلوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الامور فيذكر له أن الاطعمة أدوية وإنما المقصود منها أن يقوى الانسان بها على طاعة الله عز وجل وأن الدنيا كلها لا أصل لها إذ لا بقاء لها وأن الموت يقطع نعيمها وأنها دار ممر لا دار مقر وأن الآخرة دار مقر لا دار ممر وأن الموت منتظر في كل ساعة وأن الكيس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة حتى تعظم درجته عند الله تعالى ويتسع نعيمه في الجنان فإذا كان النشو صالحا كان هذا الكلام عند البلوغ واقعا مؤثرا ناجعا يثبت في قلبه كما يثبت النقش في الحجر وإن وقع النشو بخلاف ذلك حتى ألف الصبي اللعب والفحش والوقاحة وشره الطعام واللباس والتزين والتفاخر نبا قلبه عن قبول الحق نبوة الحائط عن التراب اليابس فأوائل الامور هي التي ينبغي أن تراعى فان الصبي بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعا وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين قال صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة وإنما

تلفا وروى أنس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخر شيأ لغد وروى أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث طوائر فأطعم خادمه طيرا فلما كان الغد أتاه به فقال رسول الله ألم أنهك أن تخبأ شيأ لغد فان الله تعالى يأتي برزق كل غد وروى أبو هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على بلال وعنده صبرة من تمر فقال ما هذا يا بلال فقال أدخر يا رسول الله قال أما تخشى أنفق بلالا ولا تخش من ذي العرش اقلالا وروى ان عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم كان يأكل الشجر ويلبس الشعر ويبيت حيث أمسى ولم يكن له ولد يموت ولا بيت يخرب ولا يخبأ شيأ لغد فالصوفي كل خباياه في خزائن الله لصدق توكله وثقته بربه فالدنيا الصوفي

أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه قال سهل بن عبد الله التسترى كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل فأنظر الى صلاة خالى محمد بن سوار فقال لى يوما ألا تذكر الله الذى خلقك فقلت كيف أذكره قال قل بقلبك عند تقلبك فى ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك الله معى الله ناظر الى الله شاهدى فقلت ذلك ليالى ثم أعلمته فقال قل فى كل ليلة سبع مرات فقلت ذلك ثم أعلمته فقال قل ذلك كل ليلة احدى عشرة مرة فقلته فوقع فى قلبى حلاوته فلما كان بعد سنة قال لى خالى احفظ ما علمتك ودم عليه الى أن تدخل القبر فانه ينفعك فى الدنيا والآخرة فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لذلك حلاوة فى سرى ثم قال لى خالى يوما يا سهل من كان الله معه وناظرا اليه وشاهده أيعصيه اياك والمعصية فكنت أخلو بنفسى فبعثوا بى الى المكتب فقلت انى لاخشى أن يتفرق على همى ولكن شارطوا المعلم انى أذهب اليه ساعة فأتعلم ثم أرجع فمضيت الى الكتاب فتعلمت القرآن وحفظته وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين وكنت أصوم الدهر وقوتى من خبز الشعير اثنتى عشرة سنة فوقعت لى مسئلة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة فسألت أهلى أن يبعثونى الى أهل البصرة لأسأل عنها فأتيت البصرة فسألت علماءها فلم يشف أحد عنى شيأ فخرجت الى عبادان الى رجل يعرف بأبى حبيب حمزة بن أبى عبد الله العبادانى فسألته عنها فأجابنى فأقمت عنده مدة أنتفع بكلامه وأتأدب بآدابه ثم رجعت الى تستر فجعلت قوتى اقتصادا على أن يشترى لى بدرهم من الشعير الفرق فيطحن ويخبز لى فأفطر عند السحر على أوقية كل ليلة بحتا بغير ملح ولا أدم فكان يكفينى ذلك الدرهم سنة ثم عزمت على أن أطوى ثلاث ليال ثم أفطر ليلة ثم خمسا ثم سبعا ثم خمسا وعشرين ليلة فكنت على ذلك عشرين سنة ثم خرجت أسيح فى الارض سنين ثم رجعت الى تستر وكنت أقوم الليل كله ما شاء الله تعالى قال أحمد فما رأيته أكل الملح حتى لقى الله تعالى

(بيان شروط الارادة ومقدمات المجاهدة وتدريج المريد فى سلوك سبيل الرياضة)

واعلم أن من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين أصبح بالضرورة مريدا حرث الآخرة مشتاقا اليها سالكا سبيلها مستهينا بنعيم الدنيا ولذاتها فان من كانت عنده خرزة فرأى جوهرة نفيسة لم يبق له رغبة فى الخرزة وقويت ارادته فى بيعها بالجوهرة ومن ليس مريدا حرث الآخرة ولا طالبا لقاء الله تعالى فهو لعدم ايمانه بالله واليوم الآخر ولست أعنى بالايمان حديث النفس وحركة اللسان بكلمتى الشهادة من غير صدق واخلاص فان ذلك يضاهى قول من صدق بأن الجوهرة خير من الخرزة الا أنه لا يدرى من الجوهرة الا لفظها وأما حقيقتها فلا ومثل هذا المصدق اذا ألف الخرزة قد لا يتركها ولا يعظم اشتياقه الى الجوهرة فاذا المانع من الوصول عدم السلوك والمانع من السلوك عدم الارادة والمانع من الارادة عدم الايمان وسبب عدم الايمان عدم الهداة والمذكرين والعلماء بالله تعالى الهادين الى طريقه والمنبهين على حقارة الدنيا وانقراضها وعظم أمر الآخرة ودوامها فالخلق غافلون قد انهمكوا فى شهواتهم وغاصوا فى رقدتهم وليس فى علماء الدين من ينبههم فان تنبه منهم متنبه عجز عن سلوك الطريق لجهله فان طلب الطريق من العلماء وجدهم مائلين الى الهوى عادلين عن نهج الطريق فصار ضعف الارادة والجهل بالطريق ونطق العلماء بالهوى سببا لخلو طريق الله تعالى عن السالكين فيه ومهما كان المطلوب محجوبا والدليل مفقودا والهوى غالبا والطالب غافلا امتنع الوصول وتعطلت الطرق لا محالة فان تنبه متنبه من نفسه أو من تنبيه غيره وانبعث له ارادة فى حرث الآخرة وتجارتها فينبغى أن يعلم أن له شروطا لا بد من تقديمها فى بداية الارادة وله معتصم لا بد من التمسك به وله حصن لا بد من التحصن به ليأمن من الاعداء القطاع لطريقه وعليه وظائف لا بد من ملازمتها فى وقت سلوك الطريق * أما الشروط التى لا بد من تقديمها فى الارادة فهى رفع السد والحجاب الذى بينه وبين الحق فان حرمان الخلق عن الحق سببه تراكم الحجب ووقوع السد على الطريق قال الله تعالى وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون والسد بين المريد وبين الحق أربعة المال والجاه والتقليد والمعصية وانما يرفع حجاب المال بخروجه عن ملكه حتى لا يبقى له الا قدر الضرورة فما دام يبقى له درهم يلتفت اليه قلبه فهو مقيد به محجوب عن الله عز وجل وانما يرتفع حجاب الجاه بالبعد عن موضع الجاه بالتواضع وايثار الخمول والهرب من أسباب الذكر وتعاطى أعمال تنفر قلوب الخلق عنه وانما

كدار الغربة ليس له فيها ادخار ولا له منها استكثار قال عليه السلام لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا (أخبرنا) شيخنا ضياء الدين أبو النجيب قال أنا أبو عبد الرحمن محمد بن أبى عبد الله المالينى قال أنا أبو الحسن عبد الرحمن الداودى قال أنا أبو محمد عبد الله السرخسى قال أنا أبو عمران السمرقندى قال أنا عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى قال أنا محمد بن يوسف عن سفيان عن ابن المنكدر عن جابر قال ما سئل النبى صلى الله عليه وسلم شيأ قط فقال لا قال ابن عيينة اذا لم يكن عنده وعد وبالاسناد عن الدارمى قال أنا يعقوب ابن حميد قال أنا عبد العزيز بن محمد عن ابن أخى الزهرى قال أتى جبريل عليه السلام قال ما فى الارض أهل

يرتفع حجاب التقليد بان يترك التعصب للمذاهب وأن يصدق بمعنى قوله لا اله الا الله محمد رسول الله تصديق ايمان ويحرص فى تحقيق صدقه بان يرفع كل معبود له سوى الله تعالى وأعظم معبود له الهوى حتى اذا فعل ذلك انكشف له حقيقة الامر فى معنى اعتقاده الذى تلقفه تقليدا فينبغى أن يطلب كشف ذلك من المجاهدة لا من المجادلة فان غلب عليه التعصب لمعتقده ولم يبق فى نفسه متسع لغيره صار ذلك قيدا له وحجابا اذ ليس من شرط المريد الانتماء الى مذهب معين أصلا وأما المعصية فهى حجاب ولا يرفعها الا التوبة والخروج من المظالم وتصميم العزم على ترك العود وتحقيق الندم على ما مضى ورد المظالم وارضاء الخصوم فان من لم يصحح التوبة ولم يهجر المعاصى الظاهرة وأراد أن يقف على أسرار الدين بالمكاشفة كان كمن يريد أن يقف على أسرار القرآن وتفسيره وهو بعد لم يتعلم لغة العرب فان ترجمة عربية القرآن لا بد من تقديمها أولا ثم الترقى منها الى أسرار معانيه فكذلك لا بد من تصحيح ظاهر الشريعة أولا وآخرا ثم الترقى الى أغوارها وأسرارها فاذا قدم هذه الشروط الاربعة وتجرد عن المال والجاه كان كمن تطهر وتوضأ ورفع الحدث وصار صالحا للصلاة فيحتاج الى امام يقتدى به فكذلك المريد يحتاج الى شيخ وأستاذ يقتدى به لا محالة ليهديه الى سواء السبيل فان سبيل الدين غامض وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان الى طرقه لا محالة فمن سلك سبل البوادى المهلكة بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التى تنبت بنفسها فانها تجف على القرب وان بقيت مدة وأورقت لم تثمر فمعتصم المريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه فليتمسك به تمسك الاعمى على شاطئ النهر بالقائد بحيث يفوض أمره اليه بالكلية ولا يخالفه فى ورده ولا صدره ولا يبقى فى متابعته شيأ ولا يذر وليعلم أن نفعه فى خطأ شيخه لو أخطأ أكثر من نفعه فى صواب نفسه لو أصاب فاذا وجد مثل هذا المعتصم وجب على معتصمه أن يحميه ويعصمه بحصن حصين يدفع عنه قواطع الطريق وهو أربعة أمور * الخلوة والصمت والجوع والسهر وهذا تحصن من القواطع فان مقصود المريد اصلاح قلبه ليشاهد به ربه ويصلح لقربه وأما الجوع فانه ينقص دم القلب ويبيضه وفى بياضه نوره ويذيب شحم الفؤاد وفى ذوبانه رقته ورقته مفتاح المكاشفة كما ان قساوته سبب الحجاب ومهما نقص دم القلب ضاق مسلك العدو فان مجاريه العروق الممتلئة بالشهوات وقال عيسى عليه السلام يامعشر الحواريين جوعوا بطونكم لعل قلوبكم ترى ربكم وقال سهل بن عبد الله التسترى ما صار الابدال ابدالا الا بأربع خصال باخماص البطون والسهر والصمت والاعتزال عن الناس ففائدة الجوع فى تنوير القلب أمر ظاهر يشهد له التجربة وسيأتى بيان وجه التدريج فيه فى كتاب كسر الشهوتين وأما السهر فانه يجلو القلب ويصفيه وينوره فيضاف ذلك الى الصفاء الذى حصل من الجوع فيصير القلب كالكوكب الدرى والمرآة المجلوة فيلوح فيه جمال الحق ويشاهد فيه رفيع الدرجات فى الآخرة وحقارة الدنيا وآفاتها فتتم بذلك رغبته عن الدنيا واقباله على الآخرة والسهر أيضا نتيجة الجوع فان السهر مع الشبع غير ممكن والنوم يقسى القلب ويميته الا اذا كان بقدر الضرورة فيكون سبب المكاشفة لاسرار الغيب فقد قيل فى صفة الابدال ان أكلهم فاقة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة وقال ابراهيم الخواص رحمه الله أجمع رأى سبعين صديقا على ان كثرة النوم من كثرة شرب الماء * وأما الصمت فانه تسهله العزلة ولكن المعتزل لا يخلو عن مشاهدة من يقوم له بطعامه وشرابه وتدبير أمره فينبغى أن لا يتكلم الا بقدر الضرورة فان الكلام يشغل القلب وشره القلوب الى الكلام عظيم فانه يستروح اليه ويستثقل التجرد للذكر والفكر فيستريح اليه فالصمت يلقح العقل ويجلب الورع ويعلم التقوى وأما الخلوة ففائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر فانهما دهليز القلب والقلب فى حكم حوض تنصب اليه مياه كريهة كدرة قذرة من أنهار الحواس ومقصود الرياضة تفريغ الحوض من تلك المياه ومن الطين الحاصل منها ليتفجر أصل الحوض فيخرج منه الماء النظيف الطاهر وكيف يصح له أن ينزح الماء من الحوض والانهار مفتوحة اليه فيتجدد فى كل حال أكثر مما ينقص فلا بد من ضبط الحواس الا عن قدر الضرورة وليس يتم ذلك الا بالخلوة فى بيت مظلم وان لم يكن له مكان مظلم فليلف رأسه فى جيبه أو يتدثر بكساء أو ازار ففى مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق ويشاهد جلال الحضرة الربوبية أما ترى ان نداء رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه وهو على مثل هذه الصفة فقيل

عشيرة من أبيات الا قابلتهم فما وجدت أحدا أشد انفاقا لهذا المال من رسول الله صلى الله عليه وسلم * ومن أخلاق الصوفية القناعة باليسير من الدنيا (قال ذو النون المصرى) من قنع استراح من أهل زمانه واستطال على أقرانه وقال بشر بن الحرث لو لم يكن فى القناعة الا التمتع بالعز لكفى صاحبه وقال بنان الحمال

الحر عبد ما طمع
والعبد حر ما قنع

وقال بعضهم انتقم من حرصك بالقناعة كما تنتقم من عدوك بالقصاص وقال أبو بكر المراغى العاقل من دبر أمر الدنيا بالقناعة والتسويف ودبر أمر الآخرة بالحرص والتعجيل وقال يحيى بن معاذ من قنع بالرزق فقد ذهب بالآخرة وطاب عيشه (وقال) أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم

له يا أيها المزمل يا أيها المدثر فهذه الاربعة جنة وحصن بها تدفع عنه القواطع وتمنع العوارض القاطعة للطريق
فاذا فعل ذلك اشتغل بعده بسلوك الطريق وانما سلوكه بقطع العقبات ولا عقبة على طريق الله تعالى الا صفات
القلب التي سببها الالتفات الى الدنيا وبعض تلك العقبات أعظم من بعض والترتيب في قطعها أن يشتغل بالاسهل
فالاسهل وهي تلك الصفات أعني أسرار العلائق التي قطعها في أول الارادة وآثارها أعني المال والجاه وحب
الدنيا والالتفات الى الخلق والتشوف الى المعاصي فلابد أن يخلي الباطن عن آثارها كما أخلي الظاهر عن أسبابها
الظاهرة وفيه تطول المجاهدة ويختلف ذلك باختلاف الاحوال فرب شخص قد كفي أكثر الصفات فلا تطول
عليه المجاهدة وقد ذكرنا ان طريق المجاهدة مضادة الشهوات ومخالفة الهوى في كل صفة غالبة على نفس المريد
كما سبق ذكره فاذا كفي ذلك أو ضعف بالمجاهدة ولم يبق في قلبه علاقة تشغله بعد ذلك يلزم قلبه على الدوام ويمنعه
من تكثير الاوراد الظاهرة بل يقتصر على الفرائض والرواتب ويكون ورده وردا واحدا وهو لباب الاوراد
وثمرتها أعني ملازمة القلب لذكر الله تعالى بعد الخلو من ذكر غيره ولا يشغله به ما دام قلبه ملتفتا الى علائقه
قال الشبلي للحصري ان كان يخطر بقلبك من الجمعة التي تأتيني فيها الى الجمعة الاخرى شيء غير الله تعالى فحرام
عليك أن تأتيني وهذا التجرد لا يحصل الا مع صدق الارادة واستيلاء حب الله تعالى على القلب حتى يكون في
صورة العاشق المستهتر الذي ليس له الا هم واحد فاذا كان كذلك ألزمه الشيخ زاوية ينفرد بها ويوكل به من
يقوم له بقدر يسير من القوت الحلال فان أصل طريق الدين القوت الحلال وعند ذلك يلقنه ذكرا من الاذكار
حتى يشغل به لسانه وقلبه فيجلس ويقول مثلا الله الله أو سبحان الله سبحان الله أو ما يراه الشيخ من الكلمات فلا
يزال يواظب عليه حتى تسقط حركة اللسان وتكون الكلمة كأنها جارية على اللسان من غير تحريك ثم لا يزال
يواظب عليه حتى يسقط الاثر عن اللسان وتبقى صورة اللفظ في القلب ثم لا يزال كذلك حتى يمحى عن القلب
حروف اللفظ وصورته وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب حاضرة معه غالبة عليه قد فرغ عن كل ما سواه لان القلب
اذا شغل بشيء خلا عن غيره أي شيء كان فاذا اشتغل بذكر الله تعالى وهو المقصود خلا لا محالة عن غيره وعند ذلك
يلزمه أن يراقب وساوس القلب والخواطر التي تتعلق بالدنيا وما يتذكر فيه مما قد مضى من أحواله وأحوال غيره
فانه مهما اشتغل بشيء منه ولو في لحظة خلا قلبه عن الذكر في تلك اللحظة وكان أيضا نقصانا فليجتهد في دفع ذلك
ومهما دفع الوساوس كلها ورد النفس الى هذه الكلمة جاءته الوساوس من هذه الكلمة وأنها ما هي وما معنى
قولنا الله ولاي معنى كان الها وكان معبودا ويعتريه عند ذلك خواطر تفتح عليه باب الفكر وربما يرد عليه
من وساوس الشيطان ما هو كفر وبدعة ومهما كان كارها لذلك ومتشمرا لاماطته عن القلب لم يضره ذلك وهي
منقسمة الى ما يعلم قطعا ان الله تعالى منزه عنه ولكن الشيطان يلقي ذلك في قلبه ويجريه على خاطره فشرطه أن
لا يبالي به ويفزع الى ذكر الله تعالى ويبتهل اليه ليدفعه عنه كما قال تعالى وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ
بالله انه سميع عليم وقال تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون والى
ما يشك فيه فينبغي أن يعرض ذلك على شيخه بل كل ما يجد في قلبه من الاحوال من فترة أو نشاط أو التفات الى
علقة أو صدق في ارادة فينبغي ان يظهر ذلك لشيخه وان يستره عن غيره فلا يطلع عليه أحدا ثم ان شيخه ينظر في حاله
ويتأمل في ذكائه وكياسته فلو علم انه لو تركه وأمره بالفكر تنبه من نفسه على حقيقة الحق فينبغي أن يحيله على
الفكر ويأمره بملازمته حتى يقذف في قلبه من النور ما يكشف له حقيقته وان علم ان ذلك مما لا يقوى عليه مثله
رده الى الاعتقاد القاطع بما يحتمله قلبه من وعظ وذكر ودليل قريب من فهمه وينبغي أن يتأنق الشيخ ويتلطف
به فان هذه مهالك الطريق ومواضع أخطارها فكم من مريد اشتغل بالرياضة فغلب عليه خيال فاسد لم يقو على
كشفه فانقطع عليه طريقه فاشتغل بالبطالة وسلك طريق الاباحة وذلك هو الهلاك العظيم ومن تجرد للذكر
ودفع العلائق الشاغلة عن قلبه لم يخل عن أمثال هذه الافكار فانه قد ركب سفينة الخطر فان سلم كان من ملوك
الدين وان أخطأ كان من الهالكين ولذلك قال صلى الله عليه وسلم عليكم بدين العجائز وهو تلقي أصل الايمان
وظاهر الاعتقاد بطريق التقليد والاشتغال بأعمال الخير فان الخطر في العدول عن ذلك كثير ولذلك قيل يجب

الله وجهه القناعة سيف
لا ينبو (أخبرنا) أبو
زرعة عن أبيه أبي
الفضل قال أنا أبو
القاسم عبد الله بن
الحسن الخلال ببغداد
قال أنا أبو حفص عمر بن
ابراهيم قال حدثنا أبو
القاسم البغوي قال
حدثنا محمد بن عباد قال
حدثنا أبو سعيد عن
صدقة بن الربيع عن
عمارة بن غزية عن
عبد الرحمن بن أبي سعيد
عن أبيه قال سمعت
رسول الله صلى الله عليه
وسلم وهو على الأعواد
يقول ما قل وكفى خير
مما كثر وألهى
(وروى) عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم
انه قال قد أفلح من أسلم
وكان رزقه كفافا ثم
صبر عليه (وروى أبو
هريرة) رضي الله عنه
أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم دعا وقال اللهم
اجعل رزق آل محمد
قوتا (وروى جابر)
رضي الله عنه عن النبي
صلى الله عليه وسلم أنه

على الشيخ أن يتفرس في المريد فان لم يكن ذكيا فطنا متمكنا من اعتقاد الظاهر لم يشغله بالذكر والفكر بل يرده الى الاعمال الظاهرة والاوراد المتواترة أو يشغله بخدمة المتجردين للفكر لتشمله بركتهم فان العاجز عن الجهاد في صف القتال ينبغي أن يسقي القوم ويتعهد دوابهم ليحشر يوم القيامة في زمرتهم وتعمه بركتهم وان كان لا يبلغ درجتهم ثم المريد المتجرد للذكر والفكر قد يقطعه قواطع كثيرة من العجب والرياء والفرح بما ينكشف له من الاحوال وما يبدو من أوائل الكرامات ومهما التفت الى شيء من ذلك وشغلت به نفسه كان ذلك فتورا في طريقه ووقوفا بل ينبغي أن يلازم حاله جملة عمره ملازمة العطشان الذي لا ترويه البحار ولو أفيضت عليه ويدوم على ذلك ورأس ماله الانقطاع عن الخلق الى الحق والخلوة قال بعض السياحين قلت لبعض الابدال المنقطعين عن الخلق كيف الطريق الى التحقيق فقال ان تكون في الدنيا كأنك عابر طريق وقال مرة قلت له دلني على عمل أجد قلبي فيه مع الله تعالى على الدوام فقال لي لا تنظر الى الخلق فان النظر اليهم ظلمة قلت لا بد لي من ذلك قال فلا تسمع كلامهم فان كلامهم قسوة قلت لا بد لي من ذلك قال فلا تعاملهم فان معاملتهم وحشة قلت أنا بين أظهرهم لا بد لي من معاملتهم قال فلا تسكن اليهم فان السكون اليهم هلكة قال قلت هذه لعله قال يا هذا أتنظر الى الغافلين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل البطالين وتريد أن تجد قلبك مع الله تعالى على الدوام هذا ما لا يكون أبدا فاذا منتهى الرياضة ان يجد قلبه مع الله تعالى على الدوام ولا يمكن ذلك الا بان يخلو عن غيره ولا يخلو عن غيره الا بطول المجاهدة فاذا حصل قلبه مع الله تعالى انكشف له جلال الحضرة الربوبية وتجلى له الحق وظهر له من لطائف الله تعالى ما لا يجوز أن يوصف بل لا يحيط به الوصف أصلا واذا انكشف للمريد شيء من ذلك فاعظم القواطع عليه ان يتكلم به وعظا ونصحا ويتصدى للتذكير فتجد النفس فيه لذة ليس وراءها لذة فتدعوه تلك اللذة الى أن يتفكر في كيفية ايراد تلك المعاني وتحسين الالفاظ المعبرة عنها وترتيب ذكرها وتزيينها بالحكايات وشواهد القرآن والاخبار وتحسين صنعة الكلام لتميل اليه القلوب والاسماع فربما يخيل اليه الشيطان ان هذا احياء منك لقلوب الموتى الغافلين عن الله تعالى وانما أنت واسطة بين الله تعالى وبين الخلق تدعو عباده اليه ومالك فيه نصيب ولا لنفسك فيه لذة ويتضح كيد الشيطان بان يظهر في أقرانه من يكون أحسن كلاما منه وأجزل لفظا وأقدر على استجلاب قلوب العوام فانه يتحرك في باطنه عقرب الحسد لا محالة ان كان محركه كيد القبول وان كان محركه هو الحق حرصا على دعوة عباد الله تعالى الى صراطه المستقيم فيعظم به فرحه ويقول الحمد لله الذي عضدني وأيدني بمن وازرني على اصلاح عباده كالذي وجب عليه مثلا أن يحمل ميتا ليدفنه اذ وجده ضائعا وتعين عليه ذلك شرعا فجاء من أعانه عليه فانه يفرح به ولا يحسد من يعينه والغافلون موتى القلوب والوعاظ هم المنبهون والمحيون لهم ففي كثرتهم استرواح وتناصر فينبغي ان يعظم الفرح بذلك وهذا عزيز الوجود جدا فينبغي ان يكون المريد على حذر منه فانه أعظم حبائل الشيطان في قطع الطريق على من انفتحت له أوائل الطريق فان ايثار الحياة الدنيا طبع غالب على الانسان ولذلك قال الله تعالى بل تؤثرون الحياة الدنيا ثم بين ان الشر قديم في الطباع وان ذلك مذكور في الكتب السالفة فقال ان هذا لفي الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى فهذا منهاج رياضة المريد وتربيته في التدريج الى لقاء الله تعالى فأما تفصيل الرياضة في كل صفة فسيأتي فان أغلب الصفات على الانسان بطنه وفرجه ولسانه أعني به الشهوات المتعلقة بها ثم الغضب الذي هو كالجند لحماية الشهوات ثم مهما أحب الانسان شهوة البطن والفرج وأنس بهما أحب الدنيا ولم يتمكن منها الا بالمال والجاه واذا طلب المال والجاه حدث فيه الكبر والعجب والرياسة واذا ظهر ذلك لم تسمح نفسه بترك الدنيا رأسا وتمسك من الدين بما فيه الرياسة وغلب عليه الغرور فلهذا وجب علينا بعد تقديم هذين الكتابين أن نستكمل ربع المهلكات بثمانية كتب ان شاء الله تعالى كتاب في كسر شهوة البطن والفرج وكتاب في آفات اللسان وكتاب في كسر الغضب والحقد والحسد وكتاب في ذم الدنيا وتفصيل خدعها وكتاب في كسر حب المال وذم البخل وكتاب في ذم الرياء وحب الجاه وكتاب في ذم الكبر والعجب وكتاب في مواقع الغرور وبذكر هذه المهلكات وتعليم طرق المعالجة فيها يتم غرضنا من ربع المهلكات ان شاء الله تعالى فان ما ذكرناه في

الكتاب

قال القناعة مال لا ينفد (وروى) عن عمر رضي الله عنه أنه قال كونوا أوعية الكتاب وينابيع الحكمة وعدوا أنفسكم في الموتى واسألوا الله تعالى الرزق يوما بيوم ولا يضركم ان لا يكثر لكم (وأخبرنا) أبو زرعة طاهر عن أبي الفضل والده قال أنا أبو القاسم اسمعيل بن عبد الله الشاوي قال أنا أحمد ابن علي الحافظ قال أنا أبو عمرو بن حمدان قال حدثنا الحسن بن سفيان قال حدثنا عمرو بن مالك البصري قال حدثنا مروان بن معاوية قال حدثنا عبد الرحمن بن أبي سلمة الانصاري قال أخبرني سلمة بن عبيد الله ابن محصن عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصبح آمنا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا (وقيل) في تفسير قوله تعالى فلنحيينه حياة طيبة هي القناعة

الكتاب الاول هو شرح لصفات القلب الذى هو معدن المهلكات والمنجيات وما ذكرناه فى الكتاب الثانى هو اشارة كلية الى طريق تهذيب الاخلاق ومعالجة أمراض القلوب أما تفصيلها فانه يأتى فى هذه الكتب ان شاء الله تعالى ثم كتاب رياضة النفس وتهذيب الاخلاق بحمد الله وعونه وحسن توفيقه يتلوه ان شاء الله تعالى كتاب كسر الشهوتين والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الارض والسماء وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب

(كتاب كسر الشهوتين وهو الكتاب الثالث من ربع المهلكات)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله المنفرد بالجلال فى كبريائه وتعاليه المستحق للتحميد والتقديس والتسبيح والتنزيه القائم بالعدل فيما يبرمه ويقضيه المتطول بالفضل فيما ينعم به ويسديه المتكفل بحفظ عبده فى جميع موارده ومجاريه المنعم عليه بما يزيد على مهمات مقاصده بل بما يفى بامانيه فهو الذى يرشده ويهديه وهو الذى يميته ويحييه واذا مرض فهو يشفيه واذا ضعف فهو يقويه وهو الذى يوفقه للطاعة ويرتضيه وهو الذى يطعمه ويسقيه ويحفظه من الهلاك ويحميه ويحرسه بالطعام والشراب عما يهلكه ويرديه ويمكنه من القناعة بقليل القوت ويقربه حتى تضيق به مجارى الشيطان الذى يناويه ويكسر به شهوة النفس التى تعاديه فيدفع شرها ثم يعبد ربه ويتقيه هذا بعد أن يوسع عليه ما يلتذ به ويشتهيه ويكثر عليه ما يهيج بواعثه ويؤكد دواعيه كل ذلك يمتحنه به ويبتليه فينظر كيف يؤثره على ما يهواه وينتحيه وكيف يحفظ أوامره وينتهى عن نواهيه ويواظب على طاعته وينزجر عن معاصيه والصلاة على محمد عبده النبيه ورسوله الوجيه صلاة تزلفه وتحظيه وترفع منزلته وتعليه وعلى الابرار من عترته وأقربيه والاخيار من صحابته وتابعيه (أما بعد) فاعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن فبها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار الى دار الذل والافتقار اذ نهيا عن الشجرة فغلبتهما شهوتهما حتى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الادواء والآفات اذ يتبعها شهوة الفرج وشدة الشبق الى المنكوحات ثم تتبع شهوة الطعام والنكاح شدة الرغبة فى الجاه والمال اللذين هما وسيلة الى التوسع فى المنكوحات والمطعومات ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات ثم يتولد بينهما آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء ثم يتداعى ذلك الى الحقد والحسد والعداوة والبغضاء ثم يفضى ذلك بصاحبه الى اقتحام البغى والمنكر والفحشاء وكل ذلك ثمرة اهمال المعدة وما يتولد منها من بطر الشبع والامتلاء ولو ذلل العبد نفسه بالجوع وضيق به مجارى الشيطان لاذعنت لطاعة الله عز وجل ولم تسلك سبيل البطر والطغيان ولم يجر به ذلك الى الانهماك فى الدنيا وايثار العاجلة على العقبى ولم يتكالب كل هذا التكالب على الدنيا واذا عظمت آفة شهوة البطن الى هذا الحد وجب شرح غوائلها وآفاتها تحذيرا منها ووجب ايضاح طريق المجاهدة لها والتنبيه على فضلها ترغيبا فيها وكذلك شرح شهوة الفرج فانها تابعة لها ونحن نوضح ذلك بعون الله تعالى فى فصول يجمعها بيان فضيلة الجوع ثم فوائده ثم طريق الرياضة فى كسر شهوة البطن بالتقليل من الطعام والتأخير ثم بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته باختلاف أحوال الناس ثم بيان الرياضة فى ترك الشهوة ثم القول فى شهوة الفرج ثم بيان ما على المريد فى التزويج وفعله ثم بيان فضيلة من يخالف شهوة البطن والفرج والعين

(بيان فضيلة الجوع وذم الشبع)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فان الاجر فى ذلك كاجر المجاهد فى سبيل الله وانه ليس من عمل أحب الى الله من جوع وعطش وقال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم لا يدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه وقيل يا رسول الله أى الناس أفضل قال من قل مطعمه وضحكه ورضى بما يستر به عورته وقال النبى صلى الله عليه وسلم سيد الاعمال الجوع وذل النفس لباس الصوف وقال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم البسوا وكلوا واشربوا فى أنصاف البطون فانه جزء من النبوة وقال الحسن قال النبى صلى الله

فالصوفى قوام على نفسه بالقسط عالم بطبائع النفس وجدوى القناعة والتوصل الى استخراج ذلك من النفس لعلمه بدائها ودوائها (وقال أبو سليمان) الدارانى القناعة من الرضا كما ان الورع من الزهد *ومن أخلاق الصوفية ترك المراء والمجادلة والغضب الا بحق واعتماد الرفق والحلم وذلك ان النفوس تثب وتظهر فى الممارين والصوفى كلما رأى نفس صاحبه ظاهرة قابلها بالقلب واذا قوبلت النفس بالقلب ذهبت الوحشة وانطفأت الفتنة قال الله تعالى تعليما لعباده ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ولا ينزع المراء الا من نفوس زكية انتزع منها الغل ووجود الغل فى النفوس مراء الباطن واذا انتزع المراء من الباطن ذهب من الظاهر أيضا وقد

عليه وسلم الفكر نصف العبادة وقلة الطعام هي العبادة وقال الحسن أيضا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضلكم عند الله منزلة يوم القيامة أطولكم جوعا وتفكرا في الله سبحانه وأبغضكم عند الله عزوجل يوم القيامة كل نؤوم أكول شروب وفي الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجوع من غير عوز أي مختارا لذلك وقال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يباهي الملائكة بمن قل مطعمه ومشربه في الدنيا يقول الله تعالى انظروا الى عبدي ابتليته بالطعام والشراب في الدنيا فصبر وتركهما اشهدوا ياملائكتي مامن أكلة يدعها الا أبدلته بها درجات في الجنة وقال صلى الله عليه وسلم لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فان القلب كالزرع يموت اذا كثر عليه الماء وقال صلى الله عليه وسلم ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه وان كان لابد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه وفي حديث أسامة بن زيد وحديث أبي هريرة الطويل ذكر فضيلة الجوع اذ قال فيه ان أقرب الناس من الله عزوجل يوم القيامة من طال جوعه وعطشه وحزنه في الدنيا الاخفياء الاتقياء الذين ان شهدوا لم يعرفوا وان غابوا لم يفتقدوا تعرفهم بقاع الارض وتحف بهم ملائكة السماء نعم الناس بالدنيا ونعموا بطاعة الله عزوجل افترش الناس الفرش الوثيرة وافترشوا الجباه والركب ضيع الناس فعل النبيين وأخلاقهم وحفظوها هم تبكي الارض اذا فقدتهم ويسخط الجبار على كل بلدة ليس فيها منهم أحد لم يتكالبوا على الدنيا تكالب الكلاب على الجيف أكلوا العلق ولبسوا الخرق شعثا غبرا يراهم الناس فيظنون ان بهم داء وما بهم داء ويقال قد خولطوا فذهبت عقولهم وما ذهبت عقولهم ولكن نظر القوم بقلوبهم الى أمر الله الذي أذهب عنهم الدنيا فهم عند أهل الدنيا يمشون بلا عقول عقلوا حين ذهبت عقول الناس لهم الشرف في الآخرة يا أسامة اذا رأيتهم في بلدة فاعلم أنهم أمان لاهل تلك البلدة ولا يعذب الله قوما هم فيهم الارض بهم فرحة والجبار عنهم راض اتخذهم لنفسك اخوانا عسى أن تنجو بهم وان استطعت أن يأتيك الموت وبطنك جائع وكبدك ظمآن فافعل فانك تدرك بذلك شرف المنازل وتحل مع النبيين وتفرح بقدوم روحك الملائكة ويصلي عليك الجبار * روى الحسن عن أبي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال البسوا الصوف وشمروا وكلوا في أنصاف البطون تدخلوا في ملكوت السماء وقال عيسى عليه السلام يامعشر الحواريين أجيعوا أكبادكم وأعروا أجسادكم لعل قلوبكم ترى الله عزوجل وروى ذلك أيضا عن نبينا صلى الله عليه وسلم رواه طاوس وقيل مكتوب في التوراة ان الله ليبغض الحبر السمين لان السمن يدل على الغفلة وكثرة الاكل وذلك قبيح خصوصا بالحبر ولاجل ذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه ان الله تعالى يبغض القارئ السمين من الشبع وفي خبر مرسل ان الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش وفي الخبر ان الاكل على الشبع يورث البرص وقال صلى الله عليه وسلم المؤمن يأكل في معي واحد والمنافق يأكل في سبعة امعاء أي يأكل سبعة أضعاف ما يأكل المؤمن أو تكون شهوته سبعة أضعاف شهوته وذكر المعى كناية عن الشهوة لان الشهوة هي التي تقبل الطعام وتأخذه كما يأخذه المعى وليس المعنى زيادة عدد معى المنافق على معى المؤمن وروى الحسن عن عائشة رضي الله عنها انها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أديموا قرع باب الجنة يفتح لكم فقلت كيف نديم قرع باب الجنة قال بالجوع والظمأ وروى أن أبا جحيفة تجشأ في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له اقصر من جشائك فان أطول الناس جوعا يوم القيامة أكثرهم شبعا في الدنيا وكانت عائشة رضي الله عنها تقول ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعا وربما بكيت رحمة له مما أرى به من الجوع فامسح بطنه بيدي وأقول نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقويك ويمنعك من الجوع فيقول يا عائشة اخواني من أولي العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجدني أستحي ان ترفهت في معيشتي أن يقصر بي غدا دونهم فالصبر أياما يسيرة أحب الي من أن ينقص حظي غدا في الآخرة وما من شيء أحب الي من اللحوق بأصحابي واخواني قالت عائشة فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله اليه وعن أنس قال جاءت فاطمة رضوان الله عليها بكسرة خبز الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذه الكسرة قالت قرص خبزته ولم تطب نفسي حتى أتيتك منه بهذه الكسرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اما انه أول

طعام

يكون الغل في النفس مع من يشاكله ويماثله لوجود المنافسة ومن استقصى في تذويب النفس بنار الزهادة في الدنيا ينمحي الغل من باطنه ولا تبقى عنده منافسة دنيوية في حظوظ عاجلة من جاه ومال قال الله تعالى في وصف أهل الجنة المتقين ونزعنا ما في صدورهم من غل قال أبو حفص كيف يبقى الغل في قلوب ائتلفت بالله واتفقت على محبته واجتمعت على مودته وأنست بذكره فان تلك قلوب صافية من هواجس النفوس وظلمات الطبائع بل كحلت بنور التوفيق فصارت اخوانا فهكذا قلوب أهل التصوف والمجتمعين على الكلمة الواحدة ومن التازم بشروط الطريق والانكباب على الظفر بالتحقيق * والناس رجلان رجل طالب ما عند الله تعالى ويدعو الى ما عند الله نفسه وغيره فا

طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام وقال أبو هريرة ما أشبع النبي صلى الله عليه وسلم أهله ثلاثة أيام تباعا من خبز الحنطة حتى فارق الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم ان أهل الجوع في الدنيا هم أهل الشبع في الآخرة وان أبغض الناس الى الله المتخمون الملأى وما ترك عبد أكلة يشتهيها الا كانت له درجة في الجنة (وأما الآثار) فقد قال عمر رضي الله عنه اياكم والبطنة فانها ثقل في الحياة نتن في الممات وقال شقيق البلخي العبادة حرفة حانوتها الخلوة وآلاتها المجاعة وقال لقمان لابنه يا بني اذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الاعضاء عن العبادة وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه أي شيء تخافين أتخافين أن تجوعي لا تخافي ذلك أنت أهون على الله من ذلك انما يجوع محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وكان كهمس يقول الهي أجعتني وأعريتني وفي ظلم الليالي بلا مصباح أجلستني فبأي وسيلة بلغتني ما بلغتني وكان فتح الموصلي اذا اشتد مرضه وجوعه يقول الهي ابتليتني بالمرض والجوع وكذلك تفعل بأوليائك فبأي عمل أؤدي شكر ما أنعمت به علي وقال مالك بن دينار قلت لمحمد بن واسع يا أبا عبد الله طوبى لمن كانت له غليلة تقوته وتغنيه عن الناس فقال لي يا أبا يحيى طوبى لمن أمسى وأصبح جائعا وهو عن الله راض وكان الفضيل بن عياض يقول الهي أجعتني وأجعت عيالي وتركتني في ظلم الليالي بلا مصباح وانما تفعل ذلك بأوليائك فبأي منزلة نلت هذا منك وقال يحيى بن معاذ جوع الراغبين منبهة وجوع التائبين تجربة وجوع المجتهدين كرامة وجوع الصابرين سياسة وجوع الزاهدين حكمة وفي التوراة اتق الله واذا شبعت فاذكر الجياع وقال أبو سليمان لأن أترك لقمة من عشائي أحب الي من قيام ليلة الى الصبح وقال أيضا الجوع عند الله في خزائنه لا يعطيه الا من أحبه وكان سهل بن عبد الله التستري يطوي نيفا وعشرين يوما لا يأكل وكان يكفيه لطعامه في السنة درهم وكان يعظم الجوع ويبالغ فيه حتى قال لا يوافى القيامة عمل بر أفضل من ترك فضول الطعام اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في أكله وقال لم ير الاكياس شيأ أنفع من الجوع للدين والدنيا وقال لا أعلم شيأ أضر على طلاب الآخرة من الاكل وقال وضعت الحكمة والعلم في الجوع ووضعت المعصية والجهل في الشبع وقال ما عبد الله بشيء أفضل من مخالفة الهوى في ترك الحلال وقد جاء في الحديث ثلث للطعام فمن زاد عليه فانما يأكل من حسناته وسئل عن الزيادة فقال لا يجد الزيادة حتى يكون الترك أحب اليه من الاكل ويكون اذا جاع ليلة سأل الله أن يجعلها ليلتين فاذا كان ذلك وجد الزيادة وقال ما صار الابدال ابدالا الا باخماص البطون والسهر والصمت والخلوة وقال رأس كل بر نزل من السماء الى الارض الجوع ورأس كل فجور بينهما الشبع وقال من جوع نفسه انقطعت عنه الوساوس وقال اقبال الله عز وجل على العبد بالجوع والسقم والبلاء الا من شاء الله وقال اعلموا ان هذا زمان لا ينال أحد فيه النجاة الا بذبح نفسه وقتلها بالجوع والسهر والجهد وقال ما مر على وجه الارض أحد شرب من هذا الماء حتى روي فسلم من المعصية وان شكر الله تعالى فكيف الشبع من الطعام وسئل حكيم بأي قيد أقيد نفسي قال قيدها بالجوع والعطش وذللها باخمال الذكر وترك العز وصغرها بوضعها تحت أرجل أبناء الآخرة واكسرها بترك زي القراء عن ظاهرها وانج من آفاتها بدوام سوء الظن بها واصحبها بخلاف هواها وكان عبد الواحد بن زيد يقسم بالله تعالى أن الله تعالى ما صافى أحدا الا بالجوع ولا مشوا على الماء الا به ولا طويت لهم الارض الا بالجوع ولا تولاهم الله تعالى الا بالجوع وقال أبو طالب المكي مثل البطن مثل المزهر وهو العود المجوف ذو الاوتار انما حسن صوته لخفته ورقته ولانه أجوف غير ممتلئ وكذلك الجوف اذا خلا كان أعذب للتلاوة وأدوم للقيام وأقل للمنام وقال أبو بكر بن عبد الله المزني ثلاثة يحبهم الله تعالى رجل قليل النوم قليل الاكل قليل الراحة وروي أن عيسى عليه السلام مكث يناجي ربه ستين صباحا لم يأكل فخطر بباله الخبز فانقطع عن المناجاة فاذا رغيف موضوع بين يديه فجلس يبكي على فقد المناجاة واذا شيخ قد أظله فقال له عيسى بارك الله فيك يا ولي الله ادع الله تعالى لي فاني كنت في حالة فخطر ببالي الخبز فانقطعت عني فقال الشيخ اللهم ان كنت تعلم أن الخبز خطر ببالي منذ عرفتك فلا تغفر لي بل كان اذا حضرلي شيء أكلته من غير فكر وخاطر وروي أن موسى عليه السلام لما قربه الله عز وجل نجيا كان قد ترك الاكل أربعين يوما ثلاثين ثم عشرا على ما ورد به القرآن لانه أمسك بغير تبييت يوما فزيد عشرة لاجل ذلك

المحقق الصوفي مع هذا منافسة ومراء وغل فان هذا معه في طريق واحد ووجهة واحدة وأخوه ومعينه والمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا ورجل مفتتن بشيء من محبة الجاه والمال والرياسة ونظر الخلق فالصوفي مع هذا منافسة لانه زهد فيما فيه رغب فمن شأن الصوفي ان ينظر الى مثل هذا نظر رحمة وشفقة حيث يراه محجوبا مفتتنا فلا ينطوي له على غل ولا يمارى به في الظاهر على شيء لعلمه بظهور نفسه الامارة بالسوء في المراء والمجادلة (أخبرنا) الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا أبو الفتح الهروي قال أنا أبو نصر الترياقي قال أنا أبو محمد الجراحي قال أنا أبو العباس المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذي قال حدثنا زياد بن أيوب قال حدثنا المحاربي عن ليث عن عبد الملك عن عكرمة عن ابن عباس رضي

(بيان فوائد الجوع وآفات الشبع)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش فان الاجر في ذلك ولعلك تقول هذا الفضل العظيم للجوع ومن أين هو وما سببه وليس فيه الا ايلام المعدة ومقاساة الاذى فان كان كذلك فينبغي أن يعظم الاجر في كل ما يتأذى به الانسان من ضربه لنفسه وقطعه للحمه وتناوله الاشياء المكروهة وما يجري مجراه فاعلم أن هذا يضاهي قول من شرب دواء فانتفع به وظن ان منفعته لكراهة الدواء ومرارته فأخذ يتناول كل ما يكرهه من المذاق وهو غلط بل نفعه في خاصية الدواء وليس لكونه مرا وانما يقف على تلك الخاصية الاطباء فكذلك لا يقف على علة نفع الجوع الا سماسرة العلماء ومن جوّع نفسه مصدقا لما جاء في الشرع من مدح الجوع انتفع به وان لم يعرف علة المنفعة كما ان من شرب الدواء انتفع به وان لم يعلم وجه كونه نافعا ولكنا نشرح لك ذلك ان أردت ان ترتقي من درجة الايمان الى درجة العلم قال الله تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات فنقول في الجوع عشر فوائد (الفائدة الاولى) صفاء القلب وايقاد القريحة وانفاذ البصيرة فان الشبع يورث البلادة ويعمي القلب ويكثر البخار في الدماغ شبه السكر حتى يحتوي على معادن الفكر فيثقل القلب بسببه عن الجريان في الافكار وعن سرعة الادراك بل الصبي اذا أكثر الاكل بطل حفظه وفسد ذهنه وصار بطيء الفهم والادراك وقال أبو سليمان الداراني عليك بالجوع فانه مذلة للنفس ورقة للقلب وهو يورث العلم السماوي وقال صلى الله عليه وسلم أحيوا قلوبكم بقلة الضحك وقلة الشبع وطهروها بالجوع تصفو وترق ويقال مثل الجوع مثل الرعد ومثل القناعة مثل السحاب والحكمة كالمطر وقال النبي صلى الله عليه وسلم من أجاع بطنه عظمت فكرته وفطن قلبه وقال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم من شبع ونام قسا قلبه ثم قال لكل شيء زكاة وزكاة البدن الجوع وقال الشبلي ما جعت لله يوما الا رأيت في قلبي بابا مفتوحا من الحكمة والعبرة ما رأيته قط وليس يخفى ان غاية المقصود من العبادات الفكر الموصل الى المعرفة والاستبصار بحقائق الحق والشبع يمنع منه والجوع يفتح بابه والمعرفة باب من أبواب الجنة فبالحري أن تكون ملازمة الجوع قرعا لباب الجنة ولهذا قال لقمان لابنه يا بني اذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الاعضاء عن العبادة وقال أبو يزيد البسطامي الجوع سحاب فاذا جاع العبد أمطر القلب الحكمة وقال النبي صلى الله عليه وسلم نور الحكمة الجوع والتباعد من الله عز وجل الشبع والقربة الى الله عز وجل حب المساكين والدنو منهم لا تشبعوا فتطفئوا نور الحكمة من قلوبكم ومن بات في خفة من الطعام باتت الحور حوله حتى يصبح (الفائدة الثانية) رقة القلب وصفاؤه الذي به يتهيأ لادراك لذة المناجاة والتأثر بالذكر فكم من ذكر يجري على اللسان مع حضور القلب ولكن القلب لا يلتذ به ولا يتأثر حتى كأن بينه وبينه حجابا من قسوة القلب وقد يرق في بعض الاحوال فيعظم تأثره بالذكر وتلذذه بالمناجاة وخلو المعدة هو السبب الاظهر فيه وقال أبو سليمان الداراني أحلى ما تكون الى العبادة اذا التصق ظهري ببطني وقال الجنيد يجعل أحدهم بينه وبين صدره مخلاة من الطعام ويريد أن يجد حلاوة المناجاة وقال أبو سليمان اذا جاع القلب وعطش صفا ورق واذا شبع عمي وغلظ فاذا تأثر القلب بلذة المناجاة أمر وراء تيسير الفكر واقتناص المعرفة فهي فائدة ثانية (الفائدة الثالثة) الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والاشر الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى فلا تنكسر النفس ولا تذل بشيء كما تذل بالجوع فعنده تسكن لربها وتخشع له وتقف على عجزها وذلها اذ ضعفت منتها وضاقت حيلتها بلقيمة طعام فاتتها وأظلمت عليها الدنيا لشربة ماء تأخرت عنها وما لم يشاهد الانسان ذل نفسه وعجزه لا يرى عزة مولاه ولا قهره وانما سعادته في أن يكون دائما مشاهدا نفسه بعين الذل والعجز ومولاه بعين العز والقدرة والقهر فليكن دائما جائعا مضطرا الى مولاه مشاهدا للاضطرار بالذوق ولاجل ذلك لما عرضت الدنيا وخزائنها على النبي صلى الله عليه وسلم قال لا بل أجوع يوما وأشبع يوما فاذا جعت صبرت وتضرعت واذا شبعت شكرت أو كما قال فالبطن والفرج باب من أبواب النار وأصله الشبع والذل والانكسار باب من أبواب الجنة وأصله الجوع ومن أغلق بابا من أبواب النار فقد فتح بابا من أبواب الجنة بالضرورة لانهما متقابلان كالمشرق والمغرب فالقرب من أحدهما بعد من الآخر (الفائدة الرابعة) أن

الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تمار أخاك ولا تعده موعدا فتخلفه وفي الخبر من ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في ربض الجنة ومن ترك المراء وهو محق بني له في وسطها ومن حسن خلقه بني له في أعلاها (وأخبرنا) شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب قال أنا أبو عبد الرحمن السهروردي محمد بن أبي عبد الله الماليني قال أنا أبو الحسن عبد الرحمن الداودي قال أنا أبو محمد عبد الله بن أحمد الجوي قال أنا أبو عمران عيسى السمرقندي قال أنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي قال حدثنا يحيى بن بسطام عن يحيى بن حمزة قال حدثني النعمان بن مكحول عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يريد

لا ينسى بلاء الله وعذابه ولا ينسى أهل البلاء فان الشبعان ينسى الجائع وينسى الجوع والعبد الفطن لا يشاهد بلاء من غيره الا ويتذكر بلاء الآخرة فيذكر من عطشه عطش الخلق في عرصات القيامة ومن جوعه جوع أهل النار حتى انهم ليجوعون فيطعمون الضريع والزقوم ويسقون الغساق والمهل فلا ينبغي أن يغيب عن العبد عذاب الآخرة وآلامها فانه هو الذي يهيج الخوف فمن لم يكن في ذلة ولا علة ولا قلة ولا بلاء نسي عذاب الآخرة ولم يتمثل في نفسه ولم يغلب على قلبه فينبغي أن يكون العبد في مقاساة بلاء أو مشاهدة بلاء وأولى ما يقاسيه من البلاء الجوع فان فيه فوائد جمة سوى تذكر عذاب الآخرة وهذا أحد الاسباب الذي اقتضى اختصاص البلاء بالانبياء والاولياء والامثل فالامثل ولذلك قيل ليوسف عليه السلام لم تجوع وفي يديك خزائن الارض فقال أخاف أن أشبع فأنسى الجائع فذكر الجائعين والمحتاجين احدى فوائد الجوع فان ذلك يدعو الى الرحمة والاطعام والشفقة على خلق الله عز وجل والشبعان في غفلة عن ألم الجائع (الفائدة الخامسة) وهي من أكبر الفوائد كسر شهوات المعاصي كلها والاستيلاء على النفس الامارة بالسوء فان منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوى ومادة القوى والشهوات لا محالة الاطعمة فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة وانما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه والشقاوة في أن تملكه نفسه وكما انك لا تملك الدابة الجموح الا بضعف الجوع فاذا شبعت قويت وشردت وجمحت فكذلك النفس كما قيل لبعضهم ما بالك مع كبرك لا تتعهد بدنك وقد انهد فقال لانه سريع المرح فاحش الاشر فأخاف أن يجمح بي فيورطني فلأن أحمله على الشدائد أحب الي من أن يحملني على الفواحش وقال ذو النون ما شبعت قط الا عصيت أو هممت بمعصية وقالت عائشة رضي الله عنها أول بدعة حدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الشبع ان القوم لما شبعت بطونهم جمحت بهم نفوسهم الى هذه الدنيا وهذه ليست فائدة واحدة بل هي خزائن الفوائد ولذلك قيل الجوع خزانة من خزائن الله تعالى وأقل ما يندفع بالجوع شهوة الفرج وشهوة الكلام فان الجائع لا يتحرك عليه شهوة فضول الكلام فيتخلص به من آفات اللسان كالغيبة والفحش والكذب والنميمة وغيرها فيمنعه الجوع من كل ذلك واذا شبع افتقر الى فاكهة فيتفكه لا محالة بأعراض الناس ولا يكب الناس في النار على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم * وأما شهوة الفرج فلا تخفى غائلتها والجوع يكفي شرها واذا شبع الرجل لم يملك فرجه وان منعته التقوى فلا يملك عينه فالعين تزني كما أن الفرج يزني فان ملك عينه بغض الطرف فلا يملك فكره فيخطر له من الافكار الرديئة وحديث النفس بأسباب الشهوة ما يتشوش به مناجاته وربما عرض له ذلك في أثناء الصلاة وانما ذكرنا آفة اللسان والفرج مثالا والا فجميع معاصي الاعضاء السبعة سببها القوة الحاصلة بالشبع قال حكيم كل مريد صبر على السياسة فصبر على الخبز البحت سنة لا يخلط به شيأ من الشهوات ويأكل في نصف بطنه رفع الله عنه مؤنة النساء (الفائدة السادسة) دفع النوم ودوام السهر فان من شبع شرب كثيرا ومن كثر شربه كثر نومه ولاجل ذلك كان بعض الشيوخ يقول عند حضور الطعام معاشر المريدين لا تأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا فتخسروا كثيرا وأجمع رأي سبعين صديقا على أن كثرة النوم من كثرة الشرب وفي كثرة النوم ضياع العمر وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب والعمر أنفس الجواهر وهو رأس مال العبد فيه يتجر والنوم موت فتكثيره ينقص العمر ثم فضيلة التهجد لا تخفى وفي النوم فواتها ومهما غلب النوم فان تهجد لم يجد حلاوة العبادة ثم المتعزب اذا نام على الشبع احتلم ويمنعه ذلك أيضا من التهجد ويحوجه الى الغسل اما بالماء البارد فيتأذى به أو يحتاج الى الحمام وربما لا يقدر عليه بالليل فيفوته الوتر ان كان قد أخره الى التهجد ثم يحتاج الى مؤنة الحمام وربما تقع عينه على عورة في دخول الحمام فان فيه أخطارا ذكرناها في كتاب الطهارة وكل ذلك أثر الشبع وقد قال أبو سليمان الداراني الاحتلام عقوبة وانما قال ذلك لانه يمنع من عبادات كثيرة لتعذر الغسل في كل حال فالنوم منبع الآفات والشبع مجلبة له والجوع مقطعة له (الفائدة السابعة) تيسير المواظبة على العبادة فان الاكل يمنع من كثرة العبادات لانه يحتاج الى زمان يشتغل فيه بالاكل وربما يحتاج الى زمان في شراء الطعام وطبخه ثم يحتاج الى غسل اليد والخلال ثم يكثر تردداته الى بيت الماء لكثرة شربه والاوقات المصروفة الى هذا لو صرفها الى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لكثر ربحه

أن يقبل بوجوه الناس اليه أدخله الله تعالى جهنم انظر كيف جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم المماراة مع السفهاء سببا لدخول النار وذلك بظهور نفوسهم في طلب القهر والغلبة والقهر والغلبة من صفات الشيطنة في الآدمي (قال بعضهم) المجادل المماري يضع في نفسه عند الخوض في الجدال أن لا يقنع بشيء ومن لا يقنع الا أن لا يقنع فما الى قناعته سبيل فنفس الصوفي تبدلت صفاتها وذهب عنه صفة الشيطنة والسبعية وتبدل باللين والرفق والسهولة والطمأنينة (روي) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه انظر كيف جعل النبي صلى الله عليه وسلم من شرط الاسلام سلامة

قال السري رأيت مع علي الجرجاني سويقا يستف منه فقلت ما حملك على هذا قال اني حسبت ما بين المضغ الى الاستفاف سبعين تسبيحة فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة فانظر كيف أشفق على وقته ولم يضيعه في المضغ وكل نفس من العمر جوهرة نفيسة لا قيمة لها فينبغي أن يستوفي منه خزانة باقية في الآخرة لا آخر لها وذلك بصرفه الى ذكر الله وطاعته ومن جملة ما يتعذر بكثرة الاكل الدوام على الطهارة وملازمة المسجد فانه يحتاج الى الخروج لكثرة شرب الماء واراقته ومن جملته الصوم فانه يتيسر لمن تعود الجوع فالصوم ودوام الاعتكاف ودوام الطهارة وصرف أوقات شغله بالاكل وأسبابه الى العبادة أرباح كثيرة وانما يستحقرها الغافلون الذين لم يعرفوا قدر الدين لكن رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون وقد أشار أبو سليمان الداراني الى ست آفات من الشبع فقال من شبع دخل عليه ست آفات فقد حلاوة المناجاة وتعذر حفظ الحكمة وحرمان الشفقة على الخلق لانه اذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع وثقل العبادة وزيادة الشهوات وأن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد والشباع يدورون حول المزابل (الفائدة الثامنة) يستفيد من قلة الاكل صحة البدن ودفع الامراض فان سببها كثرة الاكل وحصول فضلة الاخلاط في المعدة والعروق ثم المرض يمنع من العبادات ويشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر وينغص العيش ويحوج الى الفصد والحجامة والدواء والطبيب وكل ذلك يحتاج الى مؤن ونفقات لا يخلو الانسان منها بعد التعب عن أنواع من المعاصي واقتحام الشهوات وفي الجوع ما يمنع ذلك كله حكي أن الرشيد جمع أربعة أطباء هندي ورومي وعراقي وسوادي وقال ليصف كل واحد منكم الدواء الذي لا داء فيه فقال الهندي الدواء الذي لا داء فيه عندي هو الهليلج الاسود وقال العراقي هو حب الرشاد الابيض وقال الرومي هو عندي الماء الحار وقال السوادي وكان أعلمهم الهليلج يعفص المعدة وهذا داء وحب الرشاد يزلق المعدة وهذا داء والماء الحار يرخي المعدة وهذا داء قالوا فما عندك فقال الداء الذي لا داء معه عندي أن لا تأكل الطعام حتى تشتهيه وان ترفع يدك عنه وأنت تشتهيه فقالوا صدقت وذكر لبعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قول النبي صلى الله عليه وسلم ثلث طعام وثلث شراب وثلث للنفس فتعجب منه وقال ما سمعت كلاما في قلة الطعام أحكم من هذا وانه لكلام حكيم وقال صلى الله عليه وسلم البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعودوا كل جسم ما اعتاد وأظن تعجب الطبيب جرى من هذا الخبر لا من ذاك وقال ابن سالم من أكل خبز الحنطة بحتا بادب لم يعتل الا علة الموت قيل وما الادب قال تأكل بعد الجوع وترفع قبل الشبع وقال بعض الافاضل الاطباء في ذم الاستكثار ان أنفع ما أدخل الرجل بطنه الرمان وأضر ما أدخل معدته المالح ولان يقلل من المالح خير له من أن يستكثر من الرمان وفي الحديث صوموا تصحوا ففي الصوم والجوع وتقليل الطعام صحة الاجسام من الاسقام وصحة القلوب من سقم الطغيان والبطر وغيرهما (الفائدة التاسعة) خفة المؤنة فان من تعود قلة الاكل كفاه من المال قدر يسير والذي تعود الشبع صار بطنه غريما ملازما له آخذا بخنقه في كل يوم فيقول ماذا تأكل اليوم فيحتاج الى أن يدخل المداخل فيكتسب من الحرام فيعصي أو من الحلال فيذل وربما يحتاج الى أن يمد أعين الطمع الى الناس وهو غاية الذل والقماءة والمؤمن خفيف المؤنة وقال بعض الحكماء اني لاقضي عامة حوائجي بالترك فيكون ذلك أروح لقلبي وقال آخر اذا أردت أن أستقرض من غيري لشهوة أو زيادة استقرضت من نفسي فتركت الشهوة فهي خير غريم لي وكان ابراهيم بن أدهم رحمه الله يسأل أصحابه عن سعر المأكولات فيقال انها غالية فيقول أرخصوها بالترك وقال سهل رحمه الله الاكول مذموم في ثلاثة أحوال ان كان من أهل العبادة فيكسل وان كان مكتسبا فلا يسلم من الآفات وان كان ممن يدخل عليه شيء فلا ينصف الله تعالى من نفسه وبالجملة سبب هلاك الناس حرصهم على الدنيا وسبب حرصهم على الدنيا البطن والفرج وسبب شهوة الفرج شهوة البطن وفي تقليل الاكل ما يحسم هذه الاحوال كلها وهي أبواب النار وفي حسمها فتح أبواب الجنة كما قال صلى الله عليه وسلم أديموا قرع باب الجنة بالجوع فمن قنع برغيف في كل يوم قنع في سائر الشهوات أيضا وصار حرا واستغنى عن الناس واستراح من التعب وتخلى لعبادة الله عز وجل وتجارة الآخرة فيكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر

القلب واللسان وروى عنه عليه السلام أنه مر بقوم وهم يحدون حجرا قال ما هذا قالوا هذا حجر الاشداء قال ألا أخبركم بأشد من هذا رجل كان بينه وبين أخيه غضب فأتاه فغلب شيطانه وشيطان أخيه فكلمه وروى أنه جاء غلام لابي ذر وقد كسر رجل شاة فقال أبو ذر من كسر رجل هذه الشاة فقال أنا قال ولم فعلت ذلك قال عمدا فعلت قال ولم قال أغيظك فتضربني فتأثم فقال أبو ذر لاغيظن من حضك على غيظي فأعتقه (وروى) الاصمعي عن اعرابي قال اذا أشكل عليك أمران لا تدري أيهما أرشد فخالف أقربهما الى هواك فان أكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى (أخبرنا) أبو زرعة عن أبيه أبي الفضل قال أنا أبو بكر محمد بن أحمد بن علي قال أنا خورشيد قال ثنا ابراهيم بن عبد الله قال

الله وانما لاتلهيهم لاستغنائهم عنها بالقناعة وأما المحتاج فتلهيه لامحالة (الفائدة العاشرة) ان يتمكن من الايثار والصدق بما فضل من الاطعمة على اليتامى والمساكين فيكون يوم القيامة فى ظل صدقته كما ورد به الخبر فما يأكله كان خزانته الكنيف وما يتصدق به كان خزانته فضل الله تعالى فليس للعبد من ماله الا ما تصدق فابقى أو أكل فافنى أو لبس فابلى فالتصدق بفضلات الطعام أولى من التخمة والشبع وكان الحسن رحمة الله عليه اذا تلا قوله تعالى انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فابين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا قال عرضها على السموات السبع الطباق والطرائق التى زينها بالنجوم وحملة العرش العظيم فقال لها سبحانه وتعالى هل تحملين الامانة بما فيها قالت وما فيها قال ان أحسنت جوزيت وان أسأت عوقبت فقالت لا ثم عرضها كذلك على الارض فابت ثم عرضها على الجبال الشم الشوامخ الصلاب الصعاب فقال لها هل تحملين الامانة بما فيها قالت وما فيها فذكر الجزاء والعقوبة فقالت لا ثم عرضها على الانسان فحملها انه كان ظلوما لنفسه جهولا بامر ربه فقد رأيناهم والله اشتروا الامانة باموالهم فاصابوا آلافا فماذا صنعوا فيها وسعوا بها دورهم وضيقوا بها قبورهم وأسمنوا براذينهم وأهزلوا دينهم وأتعبوا أنفسهم بالغدو والرواح الى باب السلطان يتعرضون للبلاء وهم من الله فى عافية يقول أحدهم تبيعنى أرض كذا وكذا وأزيدك كذا وكذا يتكئ على شماله ويأكل من غير ماله حديثه سخرة وماله حرام حتى اذا أخذته الكظة ونزلت به البطنة قال يا غلام ائتنى بشئ أهضم به طعامى يالكع اطعامك تهضم انما دينك تهضم أين الفقير أين الارملة أين المسكين أين اليتيم الذى أمرك الله تعالى بهم فهذه اشارة الى هذه الفائدة وهو صرف فاضل الطعام الى الفقير ليدخر به الاجر فذلك خير له من ان يأكله حتى يتضاعف الوزر عليه ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى رجل سمين البطن فاومأ الى بطنه باصبعه وقال لو كان هذا فى غير هذا لكان خيرا لك أى لو قدمته لآخرتك وآثرت به غيرك وعن الحسن قال والله لقد أدركت أقواما كان الرجل منهم يمسى وعنده من الطعام ما يكفيه ولو شاء لأكله فيقول والله لا أجعل هذا كله لبطنى حتى أجعل بعضه لله فهذه عشرة فوائد للجوع يتشعب من كل فائدة فوائد لا ينحصر عددها ولا تتناهى فوائدها فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة ولاجل هذا قال بعض السلف الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد والشبع مفتاح الدنيا وباب الرغبة بل ذلك صريح فى الاخبار التى رويناها وبالوقوف على تفصيل هذه الفوائد تدرك معانى تلك الاخبار ادراك علم وبصيرة فاذا لم تعرف هذا وصدقت بفضل الجوع كانت لك رتبة المقلدين فى الايمان والله أعلم بالصواب

(بيان طريق الرياضة فى كسر شهوة البطن)

اعلم أن على المريد فى بطنه ومأكوله أربع وظائف * الاولى أن لا يأكل الا حلالا فان العبادة مع أكل الحرام كالبناء على أمواج البحار وقد ذكرنا ما تجب مراعاته من درجات الورع فى كتاب الحلال والحرام وتبقى ثلاث وظائف خاصة بالاكل وهو تقدير قدر الطعام فى القلة والكثرة وتقدير وقته فى الابطاء والسرعة وتعيين الجنس المأكول فى تناول المشتهيات وتركها (أما الوظيفة الاولى) فى تقليل الطعام فسبيل الرياضة فيه التدريج فمن اعتاد الاكل الكثير وانتقل دفعة واحدة الى القليل لم يحتمله مزاجه وضعف وعظمت مشقته فينبغى أن يتدرج اليه قليلا قليلا وذلك بان ينقص قليلا قليلا من طعامه المعتاد فان كان يأكل رغيفين مثلا وأراد ان يرد نفسه الى رغيف واحد فينقص كل يوم ربع سبع رغيف وهو أن ينقص جزأ من ثمانية وعشرين جزأ أو جزأ من ثلاثين جزأ فيرجع الى رغيف فى شهر ولا يستضر به ولا يظهر أثره فان شاء فعل فى ذلك بالوزن وان شاء بالمشاهدة فيترك كل يوم مقدار لقمة وينقصه عما أكله بالامس ثم هذا فيه أربع درجات أقصاها أن يرد نفسه الى قدر القوام الذى لا يبقى دونه وهو عادة الصديقين وهو اختيار سهل التسترى رحمة الله عليه اذ قال ان الله استعبد الخلق بثلاث بالحياة والعقل والقوة فان خاف العبد على اثنين منها وهى الحياة والعقل أكل وأفطر ان كان صائما وتكلف الطلب ان كان فقيرا وان لم يخف عليهما بل على القوة قال فينبغى أن لا يبالى ولو ضعف حتى صلى قاعدا ورأى أن صلاته قاعدا مع ضعف الجوع أفضل من صلاته قائما مع كثرة الاكل وسئل سهل عن بدايته وما كان يقتات به فقال كان قوتى فى كل سنة ثلاثة دراهم كنت آخذ بدرهم دبسا وبدرهم دقيق الارز وبدرهم سمنا

ثنا أحمد بن محمد بن سليم قال ثنا الزبير بن بكار قال ثنا سعيد بن سعد عن أخيه عن جده عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثلاث منجيات وثلاث مهلكات فاما المنجيات فخشية الله فى السر والعلانية والحكم بالحق عند الغضب والرضا والاقتصاد عند الفقر والغنى وأما المهلكات فشح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه فالحكم بالحق عند الغضب والرضا لا يصح الا من عالم ربانى أمير على نفسه يصرفها بعقل حاضر وقلب يقظان ونظر الى الله بحسن الاحتساب (نقل) انهم كانوا يتوضؤن من ايذاء المسلم يقول بعضهم لان أتوضا من كلمة خبيثة أحب الى من أن أتوضا من طعام طيب (وقال) عبد الله بن عباس رضى الله عنهما الحدث

وأخلط الجميع وأسوى منه ثلثمائة وستين أكرة آخذ فى كل ليلة أكرة أفطر عليها فقيل له فالساعة كيف تاكل قال بغير حد ولا توقيت ويحكى عن الرهابين أنهم قد يردون أنفسهم الى مقدار درهم من الطعام * الدرجة الثانية أن يردنفسه بالرياضة فى اليوم والليلة الى نصف مد وهو رغيف وشئ مما يكون الاربعة منه منا ويشبه أن يكون هذا مقدار ثلث البطن فى حق الاكثرين كما ذكر النبى صلى الله عليه وسلم وهو فوق اللقيمات لان هذه الصيغة فى الجمع للقلة فهو لما دون العشرة وقد كان ذلك عادة عمر رضى الله عنه اذ كان يا كل سبع لقم أو تسع لقم * الدرجة الثالثة أن يردها الى مقدار المد وهو رغيفان ونصف وهذا يزيد على ثلث البطن فى حق الاكثرين ويكاد ينتهى الى ثلثى البطن ويبقى ثلث الشراب ولا يبقى شئ للذكر وفى بعض الالفاظ ثلث للذكر بدل قوله للنفس * الدرجة الرابعة أن يزيد على المد الى المن ويشبه أن يكون ماوراء المن اسرافا مخالفا لقوله تعالى ولا تسرفوا أعنى فى حق الاكثرين فان مقدار الحاجة الى الطعام يختلف بالسن والشخص والعمل الذى يشتغل به وههنا طريق خامس لا تقدير فيه ولكنه موضع غلط وهو أن يا كل اذا صدق جوعه ويقبض يده وهو على شهوة صادقة بعد ولكن الاغلب ان من لم يقدر لنفسه رغيفا أو رغيفين فلا يتبين له حد الجوع الصادق ويشتبه عليه ذلك بالشهوة الكاذبة وقد ذكر للجوع الصادق علامات احداها أن لا تطلب النفس الادم بل تا كل الخبز وحده بشهوة أى خبز كان فمهما طابت نفسه خبزا بعينه أو طلبت أدما فليس ذلك بالجوع الصادق وقد قيل من علامته أن يبصق فلا يقع الذباب عليه أى لم يبق فيه دهنية ولا دسومة فيدل ذلك على خلو المعدة ومعرفة ذلك غامض فالصواب للمريد ان يقدر مع نفسه القدر الذى لا يضعفه عن العبادة التى هو بصددها فاذا انتهى اليه وقف وان بقيت شهوته وعلى الجملة فتقدير الطعام لا يمكن لانه يختلف بالاحوال والاشخاص نعم قد كان قوت جماعة من الصحابة صاعا من حنطة فى كل جمعة فاذا أكلوا التمر اقتاتوا منه صاعا ونصفا وصاع الحنطة أربعة أمداد فيكون كل يوم قريبا من نصف مد وهو ماذكرنا أنه قدر ثلث البطن واحتيج فى التمر الى زيادة لسقوط النوى منه وقد كان أبو ذر رضى الله عنه يقول طعامى فى كل جمعة صاع من شعير على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لا أزيد عليه شيأ حتى ألقاه فانى سمعته يقول أقربكم منى مجلسا يوم القيامة وأحبكم الى من مات على ما هو عليه اليوم وكان يقول فى انكاره على بعض الصحابة قد غيرتم ينخل لكم الشعير ولم يكن ينخل وخبزتم المرقق وجمعتم بين ادامين واختلف عليكم بالوان الطعام وغدا أحدكم فى ثوب وراح فى آخر ولم تكونوا هكذا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان قوت أهل الصفة مدا من تمر بين اثنين فى كل يوم والمد رطل وثلث ويسقط منه النوى وكان الحسن رحمة الله عليه يقول المؤمن مثل العنيزة يكفيه الكف من الحشف والقبضة من السويق والجرعة من الماء والمنافق مثل السبع الضارى بلعا بلعا وسرطا سرطا لا يطوى بطنه لجاره ولا يؤثر أخاه بفضله وجهوا هذه الفضول أمامكم وقال سهل لو كانت الدنيا دما عبيطا لكان قوت المؤمن منها حلالا لان أكل المؤمن عند الضرورة بقدر القوام فقط (الوظيفة الثانية) فى وقت الاكل ومقدار تاخيره وفيه أيضا أربع درجات * الدرجة العليا أن يطوى ثلاثة أيام فما فوقها وفى المريدين من رد الرياضة الى الطى لا الى المقدار حتى انتهى بعضهم الى ثلاثين يوما وأربعين يوما وانتهى اليه جماعة من العلماء يكثر عددهم منهم محمد بن عمر والعرنى وعبد الرحمن بن ابراهيم دحيم وابراهيم التيمى وحجاج بن فرافصة وحفص العابد المصيصى والمسلم بن سعيد وزهير وسليمان الخواص وسهل بن عبد الله التسترى وابراهيم بن أحمد الخواص وقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يطوى ستة أيام وكان عبد الله بن الزبير يطوى سبعة أيام وكان أبو الجوزاء صاحب ابن عباس يطوى سبعا وروى أن الثورى وابراهيم بن أدهم كانا يطويان ثلاثا ثلاثا كل ذلك كانوا يستعينون بالجوع على طريق الآخرة قال بعض العلماء من طوى لله أربعين يوما ظهرت له قدرة من الملكوت أى كوشف ببعض الاسرار الالهية وقد حكى أن بعض أهل هذه الطائفة مر براهب فذاكره بحاله وطمع فى اسلامه وترك ما هو عليه من الغرور فكلمه فى ذلك كلاما كثيرا الى ان قال له الراهب ان المسيح كان يطوى أربعين يوما وان ذلك معجزة لا تكون الا لنبى أو صديق فقال له الصوفى فان طويت خمسين يوما تترك ما أنت عليه وتدخل فى دين الاسلام وتعلم انه حق وأنك على باطل

حدثان حدث من فوقك وحدث من دونك فلا يحل حبوة الوقار والحلم الا الغضب ويخرج عن حد العدل الى العدوان بتجاوز الحد فى الغضب يثور دم القلب فان كان الغضب على من فوقه مما يعجز عن انفاذ الغضب فيه ذهب الدم من ظاهر الجلد واجتمع فى القلب ويصير منه الهم والحزن والانكاد ولا ينطوى الصوفى على مثل هذا لانه يرى الحوادث والاغراض من الله تعالى فلا ينكمد ولا يغتم والصوفى صاحب الرضا صاحب الروح والراحة والنبى عليه السلام أخبر ان الهم والحزن فى الشك والسخط (سئل) عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن الغم والغضب قال مخرجهما واحد واللفظ يختلف فمن نازع من يقوى عليه أظهره غضبا ومن نازع من

قال نعم فجلس لا يبرح الا حيث يراه حتى طوى خمسين يوما ثم قال وأزيدك أيضا فطوى الى تمام الستين فتعجب
الراهب منه وقال ما كنت أظن أن أحدا يجاوز المسيح فكان ذلك سبب اسلامه وهذه درجة عظيمة قل من يبلغها
الا مكاشف محمول شغل بمشاهدة ما قطعه عن طبعه وعادته واستوفى نفسه فى لذته وأنساه جوعته وحاجته الدرجة
الثانية ان يطوى يومين الى ثلاثة وليس ذلك خارجا عن العادة بل هو قريب يمكن الوصول اليه بالجد والمجاهدة
* الدرجة الثالثة وهى أدناها ان يقتصر فى اليوم والليلة على أكلة واحدة وهذا هو الاقل وما جاوز ذلك اسراف
ومداومة للشبع حتى لا يكون له حالة جوع وذلك فعل المترفين وهو بعيد من السنة فقد روى أبو سعيد الخدرى
رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا تغدى لم يتعش واذا تعشى لم يتغد وكان السلف يأكلون فى كل
يوم أكلة وقال النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة اياك والسرف فان أكلتين فى يوم من السرف وأكلة واحدة فى كل
يومين اقتار وأكلة فى كل يوم قوام بين ذلك وهو المحمود فى كتاب الله عز وجل ومن اقتصر فى اليوم على أكلة واحدة
فيستحب له ان يأكلها سحرا قبل طلوع الفجر فيكون أكله بعد التهجد وقبل الصبح فيحصل له جوع النهار للصيام
وجوع الليل للقيام وخلو القلب لفراغ المعدة ورقة الفكر واجتماع الهم وسكون النفس الى المعلوم فلا تنازعه قبل
وقته وفى حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن أبى هريرة قال ما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم قيامكم هذا قط وان
كان ليقوم حتى تورم قدماه وما واصل وصالكم هذا قط غير انه قد أخر الفطر الى السحر وفى حديث عائشة رضى الله
عنها قالت كان النبى صلى الله عليه وسلم يواصل الى السحر فان كان يلتفت قلب الصائم بعد المغرب الى الطعام وكان
ذلك يشغله عن حضور القلب فى التهجد فالاولى أن يقسم طعامه نصفين فان كان رغيفين مثلا أكل رغيفا عند
الفطر ورغيفا عند السحر لتسكن نفسه ويخف بدنه عند التهجد ولا يشتد بالنهار جوعه لاجل التسحر فيستعين
بالرغيف الاول على التهجد وبالثانى على الصوم ومن كان يصوم يوما ويفطر يوما فلا بأس أن يأكل كل يوم فطره
وقت الظهر ويوم صومه وقت السحر فهذه الطرق فى مواقيت الاكل وتباعده وتقاربه (الوظيفة الثالثة) فى نوع
الطعام وترك الادام وأعلى الطعام مخ البر فان نخل فهو غاية الترفه واوسطه شعير منخول وادناه شعير لم ينخل وأعلى
الادم اللحم والحلاوة وأدناه الملح والخل وأوسطه المزورات بالادهان من غير لحم وعادة سالكى طريق الآخرة
الامتناع من الادام على الدوام بل الامتناع عن الشهوات فان كل لذيذ يشتهيه الانسان وأكله اقتضى ذلك بطرا فى
نفسه وقسوة فى قلبه وأنساله بلذات الدنيا حتى يألفها ويكره الموت ولقاء الله تعالى وتصير الدنيا جنة فى حقه
ويكون الموت سجناله واذا منع نفسه عن شهواتها وضيق عليها وحرمها لذاتها صارت الدنيا سجنا عليه ومضيقا له
فاشتهت نفسه الافلات منها فيكون الموت اطلاقها واليه الاشارة بقول يحيى بن معاذ حيث قال معاشر الصديقين
جوعوا أنفسكم لوليمة الفردوس فان شهوات الطعام على قدر تجويع النفس فكل ماذكرناه من آفات الشبع
فانه يجرى فى كل الشهوات وتناول اللذات فلا نطول باعادته فلذلك يعظم الثواب فى ترك الشهوات من المباحات
ويعظم الخطر فى تناولها حتى قال صلى الله عليه وسلم شرار أمتى الذين يأكلون مخ الحنطة وهذا ليس بتحريم بل هو
مباح على معنى ان من أكله مرة أو مرتين لم يعص ومن داوم عليه أيضا فلا يعصى بتناوله ولكن تتربى نفسه
بالنعيم فتأنس بالدنيا وتألف اللذات وتسعى فى طلبها فيجرها ذلك الى المعاصى فهم شرار الامة لان مخ الحنطة
يقودهم الى اقتحام أمور تلك الامور ومعاص وقال صلى الله عليه وسلم شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم ونبتت عليه
أجسامهم وانما همتهم ألوان الطعام وأنواع اللباس ويتشدقون فى الكلام وأوحى الله تعالى الى موسى عليه
السلام اذكر أنك ساكن القبر فان ذلك يمنعك من كثير الشهوات وقد اشتد خوف السلف من تناول لذيذ
الاطعمة وتمرين النفس عليها ورأوا أن ذلك علامة الشقاوة ورأوا منع الله تعالى منه غاية السعادة حتى روى أن
وهب بن منبه قال التقى ملكان فى السماء الرابعة فقال أحدهما للآخر من أين قال أمرت بسوق حوت من
البحر اشتهاه فلان اليهودى لعنه الله وقال الآخر أمرت باهراق زيت اشتهاه فلان العابد فهذا تنبيه على ان تيسير
أسباب الشهوات ليس من علامات الخير ولهذا امتنع عمر رضى الله عنه عن شربة ماء بارد بعسل وقال اعزلوا عنى
حسابها فلا عبادة لله تعالى أعظم من مخالفة النفس فى الشهوات وترك اللذات كما أوردناه فى كتاب رياضة النفس

لا يقوى عليه كتمه حزنا
والحزن غضب أيضا
ولكن يستعمل اذا قصد
المغضوب عليه وان كان
الغضب على من يشاكله
ويماثله ممن يتردد فى
الانتقام منه يتردد
القلب بين الانقباض
والانبساط فيتولد منه
الغل والحقد ولا يأوى
مثل هذا الى قلب الصوفى
قال الله تعالى ونزعنا
ما فى صدورهم من غل
وسلامة قلب الصوفى
وحاله يقذف زبد الغل
والحقد كما يقذف البحر
الزبد لما فيه من تلاطم
أمواج الانس والهيبة
وان كان الغضب على
من دونه ممن يقدر على
الانتقام منه ثار دم القلب
والقلب اذا ثار دمه
يحمر ويقسو ويتصلب
وتذهب عنه الرقة
والبياض ومنه تحمر
الوجنتان لان الدم فى
القلب ثار وطلب
الاستعلاء وانتفخت
منه العروق فظهر
عكسه وأثره على الخد

وقد روى نافع أن ابن عمر رضى الله عنهما كان مريضا فاشتهى سمكة طرية فالتمست له بالمدينة فلم توجد ثم وجدت بعد كذا وكذا فاشتريت له بدرهم ونصف فشويت وحملت اليه على رغيف فقام سائل على الباب فقال للغلام لفها برغيفها وادفعها اليه فقال له الغلام أصلحك الله قد اشتهيتها منذ كذا وكذا فلم نجدها فلما وجدتها اشتريتها بدرهم ونصف فنحن نعطيه ثمنها فقال لفها وادفعها اليه ثم قال الغلام للسائل هل لك أن تأخذ درهما وتتركها قال نعم فاعطاه درهما وأخذها وأتى بها فوضعها بين يديه وقال قد أعطيته درهما وأخذتها منه فقال لفها وادفعها اليه ولا تأخذ منه الدرهم فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أيما امرئ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر بها على نفسه غفر الله له وقال صلى الله عليه وسلم اذا اشتدت كلب الجوع برغيف وكوز من الماء القراح فعلى الدنيا وأهلها الدمار أشار الى أن المقصود رد ألم الجوع والعطش ودفع ضررهما دون التنعم بلذات الدنيا وبلغ عمر رضى الله عنه ان يزيد بن أبى سفيان يأكل أنواع الطعام فقال عمر لمولى له اذا علمت انه قد حضر عشاؤه فاعلمنى فاعلمه فدخل عليه فقرب عشاؤه فاتوه بثريد لحم فاكل معه عمر ثم قرب الشواء وبسط يزيد يده وكف عمر يده وقال الله الله يا يزيد بن أبى سفيان أطعام بعد طعام والذى نفس عمر بيده لئن خالفتم عن سنتهم ليخالفن بكم عن طريقهم وعن يسار بن عمير قال ما نخلت لعمر دقيقا قط الا وأنا له عاص وروى ان عتبة الغلام كان يعجن دقيقه ويجففه فى الشمس ثم يأكله ويقول كسرة وملح حتى يتهيأ فى الآخرة الشواء والطعام الطيب وكان يأخذ الكوز فيغرف به من خب كان فى الشمس نهاره فتقول مولاة له يا عتبة لو أعطيتنى دقيقك فخبزته لك وبردت لك الماء فيقول لها يا أم فلان قد شردت عنى كلب الجوع قال شقيق بن ابراهيم لقيت ابراهيم بن أدهم بمكة فى سوق الليل عند مولد النبى صلى الله عليه وسلم يبكى وهو جالس بناحية من الطريق فعدلت اليه وقعدت عنده وقلت ايش هذا البكاء يا أبا اسحق فقال خير فعاودته مرة واثنتين وثلاثا فقال يا شقيق استر على فقلت يا أخى قل ما شئت فقال لى اشتهت نفسى منذ ثلاثين سنة سكباجا فمنعتها جهدى حتى اذا كان البارحة كنت جالسا وقد غلبنى النعاس اذ أنا بفتى شاب بيده قدح أخضر يعلو منه بخار ورائحة سكباج قال فاجتمعت بهمتى عنه فقربه وقال يا ابراهيم كل فقلت ما آكل قد تركته لله عز وجل فقال له قد أطعمك الله كل فما كان لى جواب الا انى بكيت فقال لى كل رحمك الله فقلت قد أمرنا أن لا نطرح فى وعائنا الا من حيث نعلم فقال كل عافاك الله فانما أعطيته فقيل لى يا خضر اذهب بهذا وأطعمه نفس ابراهيم بن أدهم فقد رحمها الله من طول صبرها على ما يحملها من منعها اعلم يا ابراهيم انى سمعت الملائكة يقولون من أعطى فلم يأخذ طلب فلم يعط فقلت ان كان كذلك فها أنا بين يديك لاجل العقد مع الله تعالى ثم التفت فاذا أنا بفتى آخر ناوله شيئا وقال يا خضر لقمه أنت فلم يزل يلقمنى حتى نعست فانتبهت وحلاوته فى فى قال شقيق فقلت أرنى كفك فاخذت بكفه فقبلتها وقلت يا من يطعم الجياع الشهوات اذا صححوا المنع يا من يقدح فى الضمير اليقين يا من يشفى قلوبهم من محبته أترى لشقيق عندك حالا ثم رفعت يد ابراهيم الى السماء وقلت بقدر هذا الكف عندك وبقدر صاحبه وبالجود الذى وجد منك جد على عبدك الفقير الى فضلك واحسانك ورحمتك وان لم يستحق ذلك قال فقام ابراهيم ومشى حتى أدركنا البيت وروى عن مالك بن دينار انه بقى أربعين سنة يشتهى لبنا فلم يأكله وأهدى اليه يوما رطب فقال لاصحابه كلوا فما ذقته منذ أربعين سنة وقال أحمد بن أبى الحوارى اشتهى أبو سليمان الدارانى رغيفا حارا بملح فجئت به اليه فعض منه عضة ثم طرحه وأقبل يبكى وقال عجلت الى شهوتى بعد اطالة جهدى وشقوتى قد عزمت على التوبة فاقلنى قال أحمد فما رأيته أكل الملح حتى لقى الله تعالى وقال مالك بن ضيغم مررت بالبصرة فى السوق فنظرت الى البقل فقالت لى نفسى لو أطعمتنى الليلة من هذا فاقسمت أن لا أطعمها اياه أربعين ليلة ومكث مالك بن دينار بالبصرة خمسين سنة ما أكل رطبة لاهل البصرة ولا بسرة قط وقال يا أهل البصرة عشت فيكم خمسين سنة ما أكلت لكم رطبة ولا بسرة فما زاد فيكم ما نقص منى ولا نقص منى ما زاد فيكم وقال طلقت الدنيا منذ خمسين سنة اشتهت نفسى لبنا منذ أربعين سنة طعاما فوالله لا أطعمها حتى ألحق بالله تعالى وقال حماد ابن أبى حنيفة أتيت داود الطائى والباب مغلق عليه فسمعته يقول لنفسه اشتهيت جزرا فاطعمتك جزرا ثم اشتهيت تمرا فآليت أن لا تأكليه أبدا فسلمت ودخلت فاذا هو وحده ومر أبو حازم يوما فى السوق فرأى الفاكهة

فيتعدى الحدود حينئذ بالضرب والشتم ولا يكون هذا فى الصوفى الا عند هتك الحرمات والغضب لله تعالى فاما فى غير ذلك فينظر الصوفى عند الغضب الى الله تعالى ثم تقواه تحمله على أن يزن حركته وقوله بميزان الشرع والعدل ويتهم النفس بعدم الرضا بالقضاء (قيل) لبعضهم من أقهر الناس لنفسه قال أرضاهم بالمقدور وقال بعضهم أصبحت ومالى سرور الا مواقع القضاء واذا اتهم الصوفى النفس عند الغضب تداركه العلم واذا لاح علم العلم قوى القلب وسكنت النفس وعاد دم القلب الى موضعه ومقره واعتدل الحال وغاضت جمرة الحقد وبانت فضيلة العلم قال عليه السلام السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين

فاشتهاها

فاشتهاها فقال لابنه اشتر لنا من هذه الفاكهة المقطوعة الممنوعة لعلنا نذهب الى الفاكهة التى لا مقطوعة ولا ممنوعة فلما اشتراها وأتى بها اليه قال انفسه قد خدعتينى حتى نظرت واشتهيت وغلبتينى حتى اشتريت والله لاذقتيه فبعث بها الى يتامى من الفقراء * وعن موسى الاشج انه قال نفسى تشتهى ملحا جريشا منذ عشرين سنة وعن أحمد بن خليفة قال نفسى تشتهى منذ عشرين سنة ما طلبت منى الا الماء حتى تروى فما أرويتها وروى ان عتبة الغلام اشتهى لحما سبع سنين فلما كان بعد ذلك قال استحييت من نفسى ان أدافعها منذ سبع سنين سنة بعد سنة فاشتريت قطعة لحم على خبز وشويتها وتركتها على رغيف فلقيت صبيا فقلت ألست أنت ابن فلان وقد مات أبوك قال بلى فناولته اياها قالوا وأقبل يبكى ويقرأ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ثم لم يذقه بعد ذلك ومكث يشتهى تمرا سنين فلما كان ذات يوم اشترى تمرا بقيراط ورفعه الى الليل ليفطر عليه قال فهبت ريح شديدة حتى أظلمت الدنيا ففزع الناس فاقبل عتبة على نفسه يقول هذا الجراءتى عليك وشرائى التمر بالقيراط ثم قال لنفسه ما أظن أخذ الناس الا بذنبك على أن لا تذوقيه واشترى داود الطائى بنصف فلس بقلا وبفلس خلا وأقبل ليلته كلها يقول لنفسه ويلك يا داود ما أطول حسابك يوم القيامة ثم لم يأكل بعده الا قفارا وقال عتبة الغلام يوما لعبد الواحد بن زيدان فلانا يصف من نفسه منزلة ما أعرفها من نفسى فقال لانك تأكل مع خبزك تمرا وهو لا يزيد على الخبز شيأ قال فان أنا تركت أكل التمر عرفت تلك المنزلة قال نعم وغيرها فاخذ يبكى فقال له بعض أصحابه لا أبكى الله عينك أعلى التمر تبكى فقال عبد الواحد دعه فان نفسه قد عرفت صدق عزمه فى الترك وهو اذا ترك شيأ لم يعاوده وقال جعفر بن نصر أمرنى الجنيد ان أشترى له التين الوزيرى فلما اشتريته أخذ واحدة عند الفطور فوضعها فى فمه ثم ألقاها وجعل يبكى ثم قال احمله فقلت له فى ذلك فقال هتف بى هاتف أما تستحى تركته من أجلى ثم تعود اليه وقال صالح المرى قلت لعطاء السلمى انى متكلف لك شيأ فلا ترد على كرامتى فقال افعل ما تريد قال فبعثت اليه مع ابنى شربة من سويق قد لتته بسمن وعسل فقلت لا تبرح حتى يشربها فلما كان من الغد جعلت له نحوها فردها ولم يشربها فعاتبته ولمته على ذلك وقلت سبحان الله رددت على كرامتى فلما رأى وجدى لذلك قال لا يسوءك هذا انى قد شربتها أول مرة وقد راودت نفسى فى المرة الثانية على شربها فلم أقدر على ذلك كلما أردت ذلك ذكرت قوله تعالى يتجرعه ولا يكاد يسيغه الآية قال صالح فبكيت وقلت فى نفسى أنا فى واد وأنت فى واد آخر وقال السرى السقطى نفسى منذ ثلاثين سنة تطالبنى أن أغمس جزرة فى دبس فما أطعمتها وقال أبو بكر الجلاء أعرف رجلا تقول له نفسه أنا أصبر لك على طى عشرة أيام وأطعمنى بعد ذلك شهوة أشتهيها فيقول لها لا أريد أن تطوى عشرة أيام ولكن اترك هذه الشهوة وروى ان عابد ادعا بعض اخوانه فقرب اليه رغفانا فجعل أخوه يقلب الارغفة ليختار أجودها فقال له العابد مه أى شئ تصنع أما علمت ان فى الرغيف الذى رغبت عنه كذا وكذا حكمة وعمل فيه كذا وكذا صانع حتى استدار من السحاب الذى يحمل الماء والماء الذى يسقى الارض والرياح والارض والبهائم وبنى آدم حتى صار اليك ثم أنت بعد هذا تقلبه ولا ترضى به وفى الخبر لا يستدير الرغيف ويوضع بين يديك حتى يعمل فيه ثلثمائة وستون صانعا أولهم ميكائيل عليه السلام الذى يكيل الماء من خزائن الرحمة ثم الملائكة التى تزجى السحاب والشمس والقمر والافلاك وملائكة الهواء ودواب الارض وآخرهم الخباز وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وقال بعضهم أتيت قاسما الجزعى فسألته عن الزهد أى شئ هو فقال أى شئ سمعت فيه فعددت أقوالا فسكت فقلت وأى شئ تقول أنت فقال اعلم ان البطن دنيا العبد فبقدر ما يملك من بطنه يملك من الزهد وبقدر ما يملكه بطنه تملكه الدنيا وكان بشر بن الحرث قد اعتل مرة فاتى عبد الرحمن الطبيب يسأله عن شئ يوافقه من المأكولات فقال تسألنى فاذا وصفت لك لم تقبل منى قال صف لى حتى أسمع قال تشرب سكنجبينا وتمص سفرجلا وتأكل بعد ذلك اسفيذباجا فقال له بشر هل تعلم شيأ أقل من السكنجبين يقوم مقامه قال لا قال أنا أعرف قال ما هو قال الهندبا بالخل ثم قال أتعرف شيأ أقل من السفرجل يقوم مقامه قال لا قال أنا أعرف قال ما هو قال الخرنوب الشامى قال فتعرف شيأ أقل من الاسفيذباج يقوم مقامه قال لا قال أنا أعرف ماء الحمص بسمن البقر فى معناه فقال له عبد الرحمن أنت أعلم منى

جزأ من النبوة * وروى حارثة بن قدامة قال قلت يا رسول الله أوصنى واقلل لعلى أعيه قال لا تغضب فاعاد عليه كل ذلك يقول لا تغضب قال عليه السلام ان الغضب جمرة من النار ألم تنظروا حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه من وجد ذلك منكم فان كان قائما فليجلس وان كان جالسا فليضطجع (أخبرنا) ضياء الدين عبد الوهاب ابن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا الجراحى قال أنا المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا محمد بن عبد الله قال حدثنا بشر ابن المفضل عن قرة بن خالد عن أبى جمرة عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لاشج عبد القيس ان فيك خصلتين يحبهما الله تعالى الحلم والاناة * ومن

بالطاب فلم تسأل فقد عرفت بهذا ان هؤلاء امتنعوا من الشهوات ومن الشبع من الاقوات وكان امتناعهم للفوائد التي ذكرناها وفي بعض الاوقات لانهم كانوا لا يصفو لهم الحلال فلم يرخصوا لانفسهم الا في قدر الضرورة والشهوات ليست من الضرورات حتى قال أبو سليمان الملح شهوة لانه زيادة على الخبز وما وراء الخبز شهوة وهذا هو النهاية فمن لم يقدر على ذلك فينبغي أن لا يغفل عن نفسه ولا ينهمك في الشهوات فكفى بالمرء اسرافا أن يأكل كل ما يشتهيه ويفعل كل ما يهواه فينبغي أن لا يواظب على أكل اللحم وقال على كرم الله وجهه من ترك اللحم أربعين يوما ساء خلقه ومن داوم عليه أربعين يوما قسا قلبه وقيل ان المداومة على اللحم ضراوة كضراوة الخمر ومهما كان جائعا وتاقت نفسه الى الجماع فلا ينبغي أن يأكل ويجامع فيعطي نفسه شهوتين فتقوى عليه وربما طلبت النفس الاكل لينشط في الجماع ويستحب أن لا ينام على الشبع فيجمع بين غفلتين فيعتاد الفتور ويقسو قلبه لذلك ولكن ليصل أو يجلس فيذكر الله تعالى فانه أقرب الى الشكر وفي الحديث أذيبوا طعامكم بالذكر والصلاة ولا تناموا عليه فتقسو قلوبكم وأقل ذلك أن يصلي أربع ركعات أو يسبح مائة تسبيحة أو يقرأ جزأ من القرآن عقيب أكله فقد كان سفيان الثوري اذا شبع ليلة أحياها واذا شبع في يوم واصله بالصلاة والذكر وكان يقول أشبع الزنجي وكده ومرة يقول أشبع الحمار وكده ومهما اشتهى شيأ من الطعام وطيبات الفواكه فينبغي أن يترك الخبز ويأكلها بدلا منه لتكون قوتا ولا يكون تفكها لئلا يجمع للنفس بين عادة وشهوة * نظر سهل الى ابن سالم وفي يده خبز وتمر فقال له ابدأ بالتمر فان قامت كفايتك به والا أخذت من الخبز بقدر حاجتك ومهما وجد طعاما لطيفا وغليظا فليقدم اللطيف فانه لا يشتهي الغليظ بعده ولو قدم الغليظ لاكل اللطيف أيضا للطافته وكان بعضهم يقول لاصحابه لا تأكلوا الشهوات فان أكلتموها فلا تطلبوها فان طلبتموها فلا تحبوها وطلب بعض أنواع الخبز شهوة قال عبد الله بن عمر رحمة الله عليهما ما تأتينا من العراق فاكهة أحب الينا من الخبز فرأى ذلك الخبز فاكهة وعلى الجملة لا سبيل الى اهمال النفس في الشهوات في المباحات واتباعها بكل حال فبقدر ما يستوفي العبد من شهوته يخشى أن يقال له يوم القيامة أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها وبقدر ما يجاهد نفسه ويترك شهوته يتمتع في الدار الآخرة بشهواته قال بعض أهل البصرة نازعتني نفسي خبز أرز وسمكا فمنعتها فقويت مطالبتها واشتدت مجاهدتي لها عشرين سنة فلما مات قال بعضهم رأيته في المنام فقلت ماذا فعل الله بك قال لا أحسن ان أصف ما تلقاني به ربي من النعم والكرامات وكان أول شئ استقبلني به خبز أرز وسمكا وقال كل اليوم شهوتك هنيأ بغير حساب وقد قال تعالى كلوا واشربوا هنيأ بما أسلفتم في الايام الخالية وكانوا قد أسلفوا ترك الشهوات ولذلك قال أبو سليمان ترك شهوة من الشهوات أنفع للقلب من صيام سنة وقيامها وفقنا الله لما يرضيه

(بيان اختلاف حكم الجوع وفضيلته واختلاف أحوال الناس فيه)

اعلم أن المطلوب الاقصى في جميع الامور والاخلاق الوسط اذ خير الامور أوساطها وكلا طرفي قصد الامور ذميم وما أوردناه في فضائل الجوع ربما يومئ الى ان الافراط فيه مطلوب وهيهات لكن من أسرار حكمة الشريعة ان كل ما يطلب الطبع فيه الطرف الاقصى وكان فيه فساد جاء الشرع بالمبالغة في المنع منه على وجه يومئ عند الجاهل الى أن المطلوب مضادة ما يقتضيه الطبع بغاية الامكان والعالم يدرك ان المقصود الوسط لان الطبع اذا طلب غاية الشبع فالشرع ينبغي أن يمدح غاية الجوع حتى يكون الطبع باعثا والشرع مانعا فيتقاومان ويحصل الاعتدال فان من يقدر على قمع الطبع بالكلية بعيد فيعلم انه لا ينتهي الى الغاية فانه ان أسرف مسرف في مضادة الطبع كان في الشرع أيضا ما يدل على اساءته كما ان الشرع بالغ في الثناء على قيام الليل وصيام النهار ثم لما علم النبي صلى الله عليه وسلم من حال بعضهم انه يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله نهى عنه فاذا عرفت هذا فاعلم ان الافضل بالاضافة الى الطبع المعتدل أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ولا يحس بألم الجوع بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلا فان مقصود الاكل بقاء الحياة وقوة العبادة وثقل المعدة يمنع من العبادة وألم الجوع أيضا يشغل القلب ويمنع منها فالمقصود أن يأكل أكلا لا يبقى للمأكول فيه أثر ليكون متشبها

أخلاق الصوفية التودد والتألف والموافقة مع الاخوان وترك المخالفة قال الله تعالى في وصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشداء على الكفار رحماء بينهم وقال الله تعالى لو أنفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم والتودد والتألف من ائتلاف الارواح على ما ورد في الخبر الذي أوردناه فما تعارف منها ائتلف قال الله تعالى فأصبحتم بنعمته اخوانا وقال سبحانه وتعالى واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وقال عليه السلام المؤمن آلف مألوف لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وقال عليه السلام مثل المؤمنين اذا التقيا مثل اليدين تغسل احداهما الاخرى وما التقى مؤمنان الا استفاد أحدهما من صاحبه خيرا (وقال)

بالملائكة فانهم مقدسون عن ثقل الطعام وألم الجوع وغاية الانسان الاقتداء بهم واذا لم يكن للانسان خلاص من الشبع والجوع فابعد الاحوال عن الطرفين الوسط وهو الاعتدال ومثال طلب الآدمي البعد عن هذه الاطراف المتقابلة بالرجوع الى الوسط مثال نملة ألقيت في وسط حلقة محمية على النار مطروحة على الارض فان النملة تهرب من حرارة الحلقة وهي محيطة بها لا تقدر على الخروج منها فلا تزال تهرب حتى تستقر على المركز الذي هو الوسط فلو ماتت ماتت على الوسط لان الوسط هو أبعد المواضع عن الحرارة التي في الحلقة المحيطة فكذلك الشهوات محيطة بالانسان احاطة تلك الحلقة بالنملة والملائكة خارجون عن تلك الحلقة ولا مطمع للانسان في الخروج وهو يريد أن يتشبه بالملائكة في الخلاص فاشبه أحواله بهم البعد وأبعد المواضع عن الاطراف الوسط فصار الوسط مطلوبا في جميع هذه الاحوال المتقابلة وعنه عبر بقوله صلى الله عليه وسلم خير الامور أوساطها واليه الاشارة بقوله تعالى كلوا واشربوا ولا تسرفوا ومهما لم يحس الانسان بجوع ولا شبع تيسرت له العبادة والفكر وخف في نفسه وقوي على العمل مع خفته ولكن هذا بعد اعتدال الطبع اما في بداية الامر اذا كانت النفس جموحا متشوقة الى الشهوات مائلة الى الافراط فالاعتدال لا ينفعها بل لا بد من المبالغة في ايلامها بالجوع كما يبالغ في ايلام الدابة التي ليست مروضة بالجوع والضرب وغيره الى أن تعتدل فاذا ارتاضت واستوت ورجعت الى الاعتدال ترك تعذيبها وايلامها ولاجل هذا السر يامر الشيخ مريده بما لا يتعاطاه هو في نفسه فيأمره بالجوع وهو لا يجوع ويمنعه الفواكه والشهوات وقد لا يمتنع هو منها لانه قد فرغ من تاديب نفسه فاستغنى عن التعذيب ولما كان أغلب أحوال النفس الشره والشهوة والجماح والامتناع عن العبادة كان الاصلح لها الجوع الذي تحس بألمه في أكثر الاحوال لتنكسر نفسه والمقصود أن تنكسر حتى تعتدل فترد بعد ذلك في الغذاء أيضا الى الاعتدال وانما يمتنع من ملازمة الجوع من سالكي طريق الآخرة اما صديق واما مغرور أحمق أما الصديق فلاستقامة نفسه على الصراط المستقيم واستغنائه عن أن يساق بسياط الجوع الى الحق وأما المغرور فلظنه بنفسه انه الصديق المستغني عن تاديب نفسه الظان بها خيرا وهذا غرور عظيم وهو الاغلب فان النفس قلما تتأدب تادبا كاملا وكثيرا ما تغتر فتنظر الى الصديق ومسامحته نفسه في ذلك فيسامح نفسه كالمريض ينظر الى من قد صح من مرضه فيتناول ما يتناوله ويظن بنفسه الصحة فيهلك والذي يدل على أن تقدير الطعام بمقدار يسير في وقت مخصوص ونوع مخصوص ليس مقصودا في نفسه وانما هو مجاهدة نفس متنائية عن الحق غير بالغة رتبة الكمال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له تقدير وتوقيت لطعامه قالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم وكان يدخل على أهله فيقول هل عندكم من شيء فان قالوا نعم أكل وان قالوا لا قال اني اذا صائم وكان يقدم اليه الشيء فيقول أما اني قد كنت أردت الصوم ثم يأكل وخرج صلى الله عليه وسلم يوما وقال اني صائم فقالت له عائشة رضي الله عنها قد أهدي الينا حيس فقال كنت أردت الصوم ولكن قربيه ولذلك حكي عن سهل انه قيل له كيف كنت في بدايتك فاخبر بضروب من الرياضات منها انه كان يقتات ورق النبق مدة ومنها انه أكل دقاق التين مدة ثلاث سنين ثم ذكر انه اقتات بثلاثة دراهم في ثلاث سنين فقيل له فكيف أنت في وقتك هذا فقال آكل بلا حد ولا توقيت وليس المراد بقوله بلا حد ولا توقيت اني آكل كثيرا بل اني لا أقدر بمقدار واحد ما آكله وقد كان معروف الكرخي يهدى اليه طيبات الطعام فيأكل فقيل له ان أخاك بشرا لا يأكل مثل هذا فقال ان أخي بشرا قبضه الورع وأنا بسطتني المعرفة ثم قال انما أنا ضيف في دار مولاي فاذا أطعمني أكلت واذا جوعني صبرت ما لي والاعتراض والتمييز ودفع ابراهيم بن أدهم الى بعض اخوانه دراهم وقال خذ لنا بهذه الدراهم زبدا وعسلا وخبزا حواري فقيل يا أبا اسحق بهذا كله قال ويحك اذا وجدنا أكلنا أكل الرجال واذا عدمنا صبرنا صبر الرجال وأصلح ذات يوم طعاما كثيرا ودعا اليه نفرا يسيرا فيهم الاوزاعي والثوري فقال له الثوري يا أبا اسحق أما تخاف أن يكون هذا اسرافا فقال ليس في الطعام اسراف انما الاسراف في اللباس والاثاث فالذي أخذ العلم من السماع والنقل تقليدا يرى هذا من ابراهيم بن أدهم ويسمع عن مالك بن دينار انه قال ما دخل بيتي الملح منذ عشرين سنة وعن سري السقطي انه منذ أربعين سنة يشتهي أن

أبو ادريس الخولاني لمعاذ اني أحبك في الله فقال أبشر ثم أبشر فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ينصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة وجوههم كالقمر ليلة البدر يفزع الناس وهم لا يفزعون ويخاف الناس وهم لا يخافون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون قيل من هؤلاء يا رسول الله قال المتحابون في الله (وقيل) لو تحاب الناس وتعاطوا أسباب المحبة لاستغنوا بها عن العدالة وقيل العدالة خليفة المحبة تستعمل حيث لا توجد المحبة وقيل طاعة المحبة أفضل من طاعة الرهبة فان طاعة المحبة من داخل وطاعة الرهبة من خارج ولهذا المعنى كانت صحبة الصوفية مؤثرة من البعض في البعض لانهم لما تحابوا

بغمس جزرة فى دبس فما فعل فيراه متناقضا فيتحير أو يقطع بأن أحدهما مخطئ والبصير بأسرار القول يعلم أن كل ذلك حق ولكن بالاضافة الى اختلاف الاحوال ثم هذه الاحوال المختلفة يسمعها فطن محتاط أو غبي مغرور فيقول المحتاط ما أنا من جملة العارفين حتى أسامح نفسي فليس نفسي أطوع من نفس سري السقطي ومالك بن دينار وهؤلاء من الممتنعين عن الشهوات فيقتدي بهم والمغرور يقول ما نفسي بأعصى علي من نفس معروف الكرخي وابراهيم بن أدهم فاقتدي بهم وأرفع التقدير في ما كولي فأنا أيضا ضيف في دار مولاي فمالي وللاعتراض ثم انه لو قصر أحد في حقه وتوقيره أو في ماله وجاهه بطريقة واحدة قامت القيامة عليه واشتغل بالاعتراض وهذا مجال رحب للشيطان مع الحمقى بل رفع التقدير في الطعام والصيام وأكل الشهوات لا يسلم الا لمن ينظر من مشكاة الولاية والنبوة فيكون بينه وبين الله علامة في استرساله وانقباضه ولا يكون ذلك الا بعد خروج النفس عن طاعة الهوى والعادة بالكلية حتى يكون أكله اذا أكل على نية كما يكون امساكه بنية فيكون عاملا لله في أكله وافطاره فينبغي أن يتعلم الحزم من عمر رضي الله عنه فانه كان يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب العسل ويأكله ثم لم يقس نفسه عليه بل لما عرضت عليه شربة باردة ممزوجة بعسل جعل يدير الاناء في يده ويقول أشربها وتذهب حلاوتها وتبقى تبعتها اعزلوا عني حسابها وتركها وهذه الاسرار لا يجوز للشيخ أن يكاشف بها مريده بل يقتصر على مدح الجوع فقط ولا يدعوه الى الاعتدال فانه يقصر لا محالة عما يدعوه اليه فينبغي أن يدعوه الى غاية الجوع حتى يتيسر له الاعتدال ولا يذكر له أن العارف الكامل يستغني عن الرياضة فان الشيطان يجد متعلقا من قلبه فيلقي اليه كل ساعة انك عارف كامل وما الذي فاتك من المعرفة والكمال بل كان من عادة ابراهيم الخواص أن يخوض مع المريد في كل رياضة كان يأمره بها كي لا يخطر بباله أن الشيخ لم يأمره بما لم يفعل فينفره ذلك من رياضته والقوي اذا اشتغل بالرياضة واصلاح الغير لزمه النزول الى حد الضعفاء تشبها بهم وتلطفا في سياقتهم الى السعادة وهذا ابتلاء عظيم للانبياء والاولياء واذا كان حد الاعتدال خفيا في حق كل شخص فالحزم والاحتياط ينبغي أن لا يترك في كل حال ولذلك أدب عمر رضي الله عنه ولده عبد الله اذ دخل عليه فوجده يأكل لحما مأدوما بسمن فعلاه بالدرة وقال لا أم لك كل يوما خبزا ولحما ويوما خبزا ولبنا ويوما خبزا وسمنا ويوما خبزا وزيتا ويوما خبزا وملحا ويوما خبزا قفارا وهذا هو الاعتدال فأما المواظبة على اللحم والشهوات فافراط واسراف ومهاجرة اللحم بالكلية اقتار وهذا قوام بين ذلك والله تعالى أعلم

(بيان آفة الرياء المتطرق الى من ترك أكل الشهوات وقلل الطعام)

اعلم انه يدخل على تارك الشهوات آفتان عظيمتان هما أعظم من أكل الشهوات * احداهما أن لا تقدر النفس على ترك بعض الشهوات فتشتهيها ولكن لا يريد أن يعرف بأنه يشتهيها فيخفي الشهوة ويأكل في الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة وهذا هو الشرك الخفي سئل بعض العلماء عن بعض الزهاد فسكت عنه فقيل له هل تعلم به بأسا قال يأكل في الخلوة ما لا يأكل مع الجماعة وهذه آفة عظيمة بل حق العبد اذا ابتلي بشهوات وأحبها أن يظهرها فان هذا صدق الحال وهو بدل عن فوات المجاهدات بالاعمال فان اخفاء النقص واظهار ضده من الكمال هو نقصانان متضاعفان والكذب مع الاخفاء كذبان فيكون مستحقا لمقتين ولا يرضى منه الا بتوبتين صادقتين ولذلك شدد أمر المنافقين فقال تعالى ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار لان الكافر كفر وأظهر وهذا كفر وستر فكان ستره لكفره كفرا آخر لانه استخف بنظر الله سبحانه وتعالى الى قلبه وعظم نظر المخلوقين فمحا الكفر عن ظاهره والعارفون يبتلون بالشهوات بل بالمعاصي ولا يبتلون بالرياء والغش والاخفاء بل كمال العارف أن يترك الشهوات لله تعالى ويظهر من نفسه الشهوة اسقاطا لمنزلته من قلوب الخلق وكان بعضهم يشتري الشهوات ويعلقها في البيت وهو فيها من الزاهدين وانما يقصد به تلبيس حاله ليصرف عن نفسه قلوب الغافلين حتى لا يشوشون عليه حاله فنهاية الزهد الزهد في الزهد باظهار ضده وهذا عمل الصديقين فانه جمع بين صدقين كما أن الاول جمع بين كذبين وهذا قد حمل على النفس ثقلين وجرعها كاس الصبر مرتين مرة بشربه ومرة برميه فلا جرم أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا وهذا يضاهي طريق من يعطي جهرا فيأخذ ويرد سرا ليكسر نفسه

بالذل

في الله تواصوا بمحاسن الاخلاق ووقع القبول بينهم لوجود المحبة فانتفع لذلك المريد بالشيخ والاخ بالاخ ولهذا المعنى أمر الله تعالى باجتماع الناس في كل يوم خمس مرات في المساجد أهل كل درب وكل محلة وفي الجامع في الاسبوع مرة أهل كل بلد وانضمام أهل السواد الى البلدان في الاعياد في جميع السنة مرتين وأهل الاقطار من البلدان المتفرقة في العمر مرة للحج كل ذلك لحكم بالغة منها تأكيد الالفة والمودة بين المؤمنين وقال عليه السلام المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا (أخبرنا) أبو زرعة قال أنا والدي أبو الفضل قال أنا أبو نصر محمد بن سلمان العدل قال أنا أبو طاهر محمد بن محمد ابن محمش الزيادي قال أنا أبو العباس عبد الله بن يعقوب الكرماني قال

بالذل جهرا و بالفقر سرا فإن فاته هذا فلا ينبغي أن يفوته اظهار شهوته ونقصانه والصدق فيه ولا ينبغي أن يغره قول الشيطان انك اذا أظهرت اقتدى بك غيرك فاستره اصلاحا لغيرك فانه لو قصد اصلاح غيره لكان اصلاح نفسه أهم عليه من غيره فهذا انما يقصد الرياء المجرد ويروجه الشيطان عليه في معرض اصلاح غيره فلذلك ثقل عليه ظهور ذلك منه وان علم أن من اطلع عليه ليس يقتدي به في الفعل أو لا ينزجر باعتقاده أنه تارك للشهوات * الآفة الثانية أن يقدر على ترك الشهوات لكنه يفرح أن يعرف به فيشتهر بالتعفف عن الشهوات فقد خالف شهوة ضعيفة وهي شهوة الاكل وأطاع شهوة هي شر منها وهي شهوة الجاه وتلك هي الشهوة الخفية فهما أحس بذلك من نفسه فكسر هذه الشهوة آكد من كسر شهوة الطعام فليأكل فهو أولى له قال أبو سليمان اذا قدمت اليك شهوة وقد كنت تاركا لها فاصب منها شيئا يسيرا ولا تعط نفسك مناها فتكون قد أسقطت عن نفسك الشهوة وتكون قد نغصت عليها اذ لم تعطها شهوتها وقال جعفر بن محمد الصادق اذا قدمت الى شهوة نظرت الى نفسي فان هي أظهرت شهوتها أطعمتها منها وكان ذلك أفضل من منعها وان أخفت شهوتها وأظهرت العزوب عنها عاقبتها بالترك ولم أنلها منها شيئا وهذا طريق في عقوبة النفس على هذه الشهوة الخفية وبالجملة من ترك شهوة الطعام ووقع في شهوة الرياء كان كمن هرب من عقرب وفزع الى حية لان شهوة الرياء أضر كثيرا من شهوة الطعام والله ولي التوفيق

(القول في شهوة الفرج)

اعلم أن شهوة الوقاع سلطت على الانسان لفائدتين * احداهما أن يدرك لذته فيقيس به لذات الآخرة فان لذة الوقاع لو دامت لكانت أقوى لذات الاجساد كما أن النار وآلامها أعظم آلام الجسد والترغيب والترهيب يسوق الناس الى سعادتهم وليس ذلك الا بألم محسوس ولذة محسوسة مدركة فان ما لا يدرك بالذوق لا يعظم اليه الشوق * الفائدة الثانية بقاء النسل ودوام الوجود فهذه فائدتها ولكن فيها من الآفات ما يهلك الدين والدنيا ان لم تضبط ولم تقهر ولم ترد الى حد الاعتدال وقد قيل في تأويل قوله تعالى ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به معناه شدة الغلمة وعن ابن عباس في قوله تعالى ومن شر غاسق اذا وقب قال هو قيام الذكر وقد أسنده بعض الرواة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أنه قال في تفسيره الذكر اذا دخل وقد قيل اذا قام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله وكان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلبي وهني ومني وقال عليه السلام النساء حبائل الشيطان ولولا هذه الشهوة لما كان للنساء سلطنة على الرجال وروي ان موسى عليه السلام كان جالسا في بعض مجالسه اذ أقبل اليه ابليس وعليه برنس يتلون فيه ألوانا فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه ثم أتاه فقال السلام عليك يا موسى فقال له موسى من أنت فقال أنا ابليس فقال لا حياك الله ما جاء بك قال جئت لاسلم عليك لمنزلتك من الله ومكانتك منه قال فما الذي رأيت عليك قال برنس أختطف به قلوب بني آدم قال فما الذي اذا صنعه الانسان استحوذت عليه قال اذا أعجبته نفسه واستكثر عمله ونسي ذنوبه واحذرك ثلاثا لا تخل بامرأة لا تحل لك فانه ما خلا رجل بامرأة لا تحل له الا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أفتنه بها وأفتنها به ولا تعاهد الله عهدا الا وفيت به ولا تخرجن صدقة الا أمضيتها فانه ما أخرج رجل صدقة فلم يمضها الا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبين الوفاء بها ثم ولى وهو يقول يا ويلتاه علم موسى ما يحذر به بني آدم * وعن سعيد بن المسيب قال ما بعث الله نبيا فيما خلا الا لم ييأس ابليس ان يهلكه بالنساء ولا شيء أخوف عندي منهن وما بالمدينة بيت أدخله الا بيتي وبيت ابنتي اغتسل فيه يوم الجمعة ثم أروح وقال بعضهم ان الشيطان يقول للمرأة أنت نصف جندي وأنت سهمي الذي أرمي به فلا أخطئ وأنت موضع سري وأنت رسولي في حاجتي فنصف جنده الشهوة ونصف جنده الغضب وأعظم الشهوات شهوة النساء وهذه الشهوة أيضا لها افراط وتفريط واعتدال فالافراط ما يقهر العقل حتى يصرف همة الرجال الى الاستمتاع بالنساء والجواري فيحرم عن سلوك طريق الآخرة أو يقهر الدين حتى يجر الى اقتحام الفواحش وقد ينتهي افراطها بطائفة الى أمرين شنيعين * أحدهما ان يتناولوا ما يقوي شهواتهم على الاستكثار من الوقاع كما قد يتناول بعض الناس أدوية تقوي المعدة لتعظم شهوة الطعام وما مثال ذلك الا كمن ابتلي بسباع ضارية وحيات عادية فتنام عنه في بعض الاوقات فيحتال لاثارتها وتهييجها ثم يشتغل

حدثنا يحيى الكرماني قال حدثنا حماد بن زيد عن مجالد بن سعيد عن الشعبي عن النعمان ابن بشير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا ان مثل المؤمنين في توادهم وتحابهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى سائره بالسهر والحمى والتألف والتودد يؤكد أسباب الصحبة والصحبة مع الاخيار مؤثرة جدا (وقد قيل) لقاء الاخوان لقاح ولا شك ان البواطن تتلقح ويتقوى البعض بالبعض بل مجرد النظر الى أهل الصلاح يؤثر صلاحا والنظر في الصور يؤثر أخلاقا مناسبة لخلق المنظور اليه كدوام النظر الى المحزون يحزن ودوام النظر الى المسرور يسر (وقد قيل) من لا ينفعك لحظه لا ينفعك لفظه والجمل الشرود يصير ذلولا بمقارنة الجمل الذلول.

باصلاحها وعلاجها فان شهوة الطعام والوقاع على التحقيق آلام يريد الانسان الخلاص منها فيدرك لذة بسبب الخلاص فان قلت فقد روى فى غريب الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال شكوت الى جبرائيل ضعف الوقاع فامرنى باكل الهريسة فاعلم انه صلى الله عليه وسلم كان تحته تسع نسوة ووجب عليه تحصينهن بالامتاع وحرم على غيره نكاحهن وان طلقهن فكان طلبه القوة لهذا لا للتمتع * والامر الثانى أنه قد تنتهى هذه الشهوة ببعض الضلال الى العشق وهو غاية الجهل بما وضع له الوقاع وهو مجاوزة فى البهيمية لحد البهائم لان المتعشق ليس يقنع باراقة شهوة الوقاع وهى أقبح الشهوات وأجدرها أن يستحى منه حتى اعتقد أن الشهوة لا تنقضى الا من محل واحد والبهيمة تقضى الشهوة أين اتفق فتكتفى به وهذا لا يكتفى الا بشخص واحد معين حتى يزداد به ذلا الى ذل وعبودية الى عبودية وحتى يستسخر العقل لخدمة الشهوة وقد خلق ليكون مطاعا لا ليكون خادما للشهوة ومحتالا لاجلها وما العشق الا سعة افراط الشهوة وهو مرض قلب فارغ لا هم له وانما يجب الاحتراز من أوائله بترك معاودة النظر والفكر والا فاذا استحكم عسر دفعه فكذلك عشق المال والجاه والعقار والاولاد حتى حب اللعب بالطيور والنرد والشطرنج فان هذه الامور قد تستولى على طائفة بحيث تنغص عليهم الدين والدنيا ولا يصبرون عنها ألبتة ومثال من يكسر سورة العشق فى أول انبعاثه مثال من يصرف عنان الدابة عند توجهها الى باب لتدخله وما أهون منعها بصرف عنانها ومثال من يعالجها بعد استحكامها مثال من يترك الدابة حتى تدخل وتجاوز الباب ثم يأخذ بذنبها ويجرها الى ورائها وما أعظم التفاوت بين الامرين فى اليسر والعسر فليكن الاحتياط فى بدايات الامور فاما فى أواخرها فلا تقبل العلاج الا بجهد جهيد يكاد يؤدى الى نزع الروح فاذا افراط الشهوة أن يغلب العقل الى هذا الحد وهو مذموم جدا وتفريطها بالعنة أو بالضعف عن امتاع المنكوحة وهو أيضا مذموم وانما المحمود ان تكون معتدلة ومطيعة للعقل والشرع فى انقباضها وانبساطها ومهما افرطت فكسرها بالجوع والنكاح قال صلى الله عليه وسلم معاشر الشباب عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فالصوم له وجاء

(بيان ما على المريد فى ترك التزويج وفعله)

اعلم أن المريد فى ابتداء أمره ينبغى أن لا يشغل قلبه ونفسه بالتزويج فان ذلك شغل شاغل يمنعه من السلوك ويستجره الى الانس بالزوجة ومن أنس بغير الله تعالى شغل عن الله ولا يغرنه كثرة نكاح رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه كان لا يشغل قلبه جميع ما فى الدنيا عن الله تعالى فلا تقاس الملائكة بالحدادين ولذلك قال أبو سليمان الدارانى من تزوج فقد ركن الى الدنيا وقال ما رأيت مريدا تزوج فثبت على حاله الاول وقيل له مرة ما أحوجك الى امرأة تأنس بها فقال لا آنسنى الله بها أى ان الانس بها يمنع الانس بالله تعالى وقال أيضا كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشؤم فكيف يقاس غير رسول الله صلى الله عليه وسلم به وقد كان استغراقه بحب الله تعالى بحيث كان يجد احتراقه فيه الى حد كان يخشى منه فى بعض الاحوال أن يسرى ذلك الى قالبه فيهدمه فلذلك كان يضرب بيده على فخذ عائشة أحيانا و يقول كلمينى يا عائشة لتشغله بكلامها عن عظيم ما هو فيه لقصور طاقة قالبه عنه فقد كان طبعه الانس بالله عز وجل وكان أنسه بالخلق عارضا رفقا ببدنه ثم انه كان لا يطيق الصبر مع الخلق اذا جالسهم فاذا ضاق صدره قال أرحنا بها يا بلال حتى يعود الى ما هو قرة عينه فالضعيف اذا لاحظ أحواله فى مثل هذه الامور فهو مغرور لان الافهام تقصر عن الوقوف على أسرار أفعاله صلى الله عليه وسلم فشرط المريد العزبة فى الابتداء الى أن يقوى فى المعرفة هذا اذا لم تغلبه الشهوة فان غلبته الشهوة فليكسرها بالجوع الطويل والصوم الدائم فان لم تنقمع الشهوة بذلك وكان بحيث لا يقدر على حفظ العين مثلا وان قدر على حفظ الفرج فالنكاح له أولى لتسكن الشهوة والا فهما لم يحفظ عينه لم يحفظ عليه فكره ويتفرق عليه همه وربما وقع فى بلية لا يطيقها وزنا العين من كبار الصغائر وهو يؤدى على القرب الى الكبيرة الفاحشة وهى زنا الفرج ومن لم يقدر على غض بصره لم يقدر على حفظ فرجه قال عيسى عليه السلام اياكم والنظرة فانها تزرع فى القلب شهوة وكفى بها فتنة وقال سعيد بن جبير انما جاءت الفتنة لداود عليه السلام من قبل النظرة ولذلك قال لابنه عليه السلام يا بنى امش خلف الاسد والاسود ولا تمش خلف المرأة وقيل ليحيى عليه السلام ما بدء

الزنا

فالمقارنة لها تأثير فى الحيوان والنبات والجماد والماء والهواء يفسدان بمقارنة الجيف والزروع تنقى عن أنواع العروق فى الارض والنبات لموضع الافساد بالمقارنة واذا كانت المقارنة مؤثرة فى هذه الاشياء ففى النفوس الشريفة البشرية أكثر تأثيرا وسمى الانسان انسانا لانه يأنس بما يراه من خير وشر والتألف والتودد مستحب للمريد وانما العزلة والوحدة تحمد بالنسبة الى أراذل الناس وأهل الشر فاما أهل العلم والصفاء والوفاء والاخلاق الجيدة فيغتنم مقارنتهم والاستئناس بهم استئناس بالله تعالى كما ان محبتهم محبة الله والجامع معهم رابطة الحق ومع غيرهم رابطة الطبع فالصوفى مع غير الجنس كائن بائن ومع الجنس كائن معاين

الزنا فالنظر والتمنى وقال الفضيل يقول ابليس هو قوسى القديمة وسهمى الذى لا أخطى به يعنى النظر وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم النظرة سهم مسموم من سهام ابليس فمن تركها خوفا من الله تعالى أعطاه الله تعالى ايمانا يجد حلاوته فى قلبه وقال صلى الله عليه وسلم ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء وقال صلى الله عليه وسلم اتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء فان أول فتنة بنى اسرائيل كانت من قبل النساء وقال تعالى قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم الآية وقال عليه السلام لكل ابن آدم حظ من الزنا فالعينان تزنيان وزناهما النظر واليدان تزنيان وزناهما البطش والرجلان تزنيان وزناهما المشى والفم يزنى وزناه القبلة والقلب يهم أو يتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه * وقالت أم سلمة استأذن ابن أم مكتوم الاعمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا وميمونة جالستان فقال عليه السلام احتجبا فقلنا أوليس بأعمى لا يبصرنا فقال وأنتما لا تبصرانه وهذا يدل على انه لا يجوز للنساء مجالسة العميان كما جرت به العادة فى المآتم والولائم فيحرم على الاعمى الخلوة بالنساء ويحرم على المرأة مجالسة الاعمى وتحديق النظر اليه لغير حاجة وانما جوز للنساء محادثة الرجال والنظر اليهم لاجل عموم الحاجة وان قدر على حفظ عينه عن النساء ولم يقدر على حفظها عن الصبيان فالنكاح أولى به فان الشر فى الصبيان أكثر فانه لو مال قلبه الى امرأة أمكنه الوصول الى استباحتها بالنكاح والنظر الى وجه الصبى بالشهوة حرام بل كل من يتأثر قلبه بجمال صورة الامرد بحيث يدرك التفرقة بينه وبين الملتحى لم يحل له النظر اليه فان قلت كل ذى حس يدرك التفرقة بين الجميل والقبيح لا محالة ولم تزل وجوه الصبيان مكشوفة فانى لست أعنى تفرقة العين فقط بل ينبغى أن يكون ادراكه التفرقة كادراكه التفرقة بين شجرة خضراء وأخرى يابسة وبين ماء صاف وماء كدر وبين شجرة عليها أزهارها وأنوارها وشجرة تساقطت أوراقها فانه يميل الى احداهما بعينه وطبعه ولكن ميلا خاليا عن الشهوة ولاجل ذلك لا يشتهى ملامسة الازهار والانوار وتقبيلها ولا تقبيل الماء الصافى وكذلك الشيبة الحسنة قد تميل العين اليها وتدرك التفرقة بينها وبين الوجه القبيح ولكنها تفرقة لا شهوة فيها ويعرف ذلك بميل النفس الى القرب والملامسة ومهما وجد ذلك الميل فى قلبه وأدرك تفرقة بين الوجه الجميل وبين النبات الحسن والاثواب المنقشة والسقوف المذهبة فنظره نظر شهوة فهو حرام وهذا مما يتهاون به الناس ويجرهم ذلك الى المعاطب وهم لا يشعرون قال بعض التابعين ما أنا بأخوف من السبع الضارى على الشاب الناسك من غلام أمرد يجلس اليه * وقال سفيان لو أن رجلا عبث بغلام بين اصبعين من أصابع رجله يريد الشهوة لكان لوطا وعن بعض السلف قال سيكون فى هذه الامة ثلاثة أصناف لوطيون صنف ينظرون وصنف يصافحون وصنف يعملون فاذا آفة النظر الى الاحداث عظيمة فمهما عجز المريد عن غض بصره وضبط فكره فالصواب له ان يكسر شهوته بالنكاح فرب نفس لا يسكن توقانها بالجوع (وقال بعضهم) غلبت على شهوتى فى بدء ارادتى بما لم أطق فأكثرت الضجيج الى الله تعالى فرأيت شخصا فى المنام فقال مالك فشكوت اليه فقال تقدم الى فتقدمت اليه فوضع يده على صدرى فوجدت بردها فى فؤادى وجميع جسدى فأصبحت وقد زال ما بى فبقيت معافى سنة ثم عاودنى ذلك فأكثرت الاستغاثة فأتانى شخص فى المنام فقال لى أتحب أن يذهب ما تجده وأضرب عنقك قلت نعم فقال مد رقبتك فمددتها فجرد سيفا من نور فضرب به عنقى فأصبحت وقد زال ما بى فبقيت معافى سنة ثم عاودنى ذلك أو أشد منه فرأيت كأن شخصا فيما بين جنبى وصدرى يخاطبنى ويقول ويحك كم تسأل الله تعالى رفع ما لا يحب رفعه قال فتزوجت فانقطع ذلك عنى وولد لى ومهما احتاج المريد الى النكاح فلا ينبغى ان يترك شرط الارادة فى ابتداء النكاح ودوامه أما فى ابتدائه فبالنية الحسنة وفى دوامه بحسن الخلق وسداد السيرة والقيام بالحقوق الواجبة كما فصلنا جميع ذلك فى كتاب آداب النكاح فلا نطول باعادته وعلامة صدق ارادته ان ينكح فقيرة متدينة ولا يطلب الغنية (قال بعضهم) من تزوج غنية كان له منها خمس خصال مغالاة الصداق وتسويف الزفاف وفوت الخدمة وكثرة النفقة واذا أراد طلاقها لم يقدر خوفا على ذهاب مالها والفقيرة بخلاف ذلك وقال بعضهم ينبغى أن تكون المرأة دون الرجل بأربع والا استحقرته بالسن والطول والمال والحسب وان تكون فوقه بأربع بالجمال والادب والورع والخلق وعلامة صدق الارادة فى دوام النكاح الخلق * تزوج بعض المريدين

والمؤمن مرآة المؤمن اذا نظر الى أخيه يستشف من وراء أقواله وأعماله وأحواله تجليات الهية وتعريفات وتلويحات من الله الكريم خفية غابت عن الاغيار وأدركها أهل الانوار * ومن أخلاق الصوفية شكر المحسن على الاحسان والدعاء له وذلك منهم مع كمال توكلهم على ربهم وصفاء توحيدهم وقطعهم النظر الى الاغيار ورؤيتهم النعم من المنعم الجبار ولكن يفعلون ذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم على ما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فقال ما من الناس أحد أمن علينا فى صحبته وذات يده من ابن أبى قحافة ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا وقال ما نفعنى مال كمال أبى بكر فالخلق حجبوا عن الله بالخلق فى المنع

بامرأة فلم يزل يخدمها حتى استحيت المرأة وشكت ذلك الى أبيها وقالت قد تحيرت فى هذا الرجل أنا فى منزله منذ سنين ماذهبت الى الخلاء قط الا وحمل الماء قبلى اليه وتزوج بعضهم امرأة ذات جمال فلما قرب زفافها أصابها الجدرى فاشتد حزن أهلها لذلك خوفا من ان يستقبحها فأراهم الرجل انه قد أصابه رمد ثم أراهم ان بصره قد ذهب حتى زفت اليه فزال عنهم الحزن فبقيت عنده عشرين سنة ثم توفيت ففتح عينيه حين ذلك فقيل له فى ذلك فقال تعمدته لاجل أهلها حتى لايحزنوا فقيل له قد سبقت اخوانك بهذا الخلق * وتزوج بعض الصوفية امرأة سيئة الخلق فكان يصبر عليها فقيل له لم لاتطلقها فقال أخشى أن يتزوجها من لا يصبر عليها فيتأذى بها فان تزوج المريد فهكذا ينبغى أن يكون وان قدر على الترك فهو أولى له اذا لم يمكنه الجمع بين فضل النكاح وسلوك الطريق وعلم ان ذلك يشغله عن حاله كما روى ان محمد بن سليمان الهاشمى كان يملك من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم فى كل يوم فكتب الى أهل البصرة وعلمائها فى امرأة يتزوجها فاجمعوا كلهم على رابعة العدوية رحمها الله تعالى فكتب اليها بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فان الله تعالى قد ملكنى من غلة الدنيا ثمانين ألف درهم فى كل يوم وليس تمضى الايام والليالى حتى أتمها مائة ألف وأنا أصير لك مثلها ومثلها فاجيبينى فكتبت اليه بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فان الزهد فى الدنيا راحة القلب والبدن والرغبة فيها تورث الهم والحزن فاذا أتاك كتابى هذا فهيئ زادك وقدم لمعادك وكن وصى نفسك ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تراثك فصم الدهر وليكن فطرك الموت وأما أنا فلو أن الله تعالى خولنى أمثال الذى خولك وأضعافه ماسرنى أن أشتغل عن الله طرفة عين وهذه اشارة الى ان كل مايشغل عن الله تعالى فهو نقصان فلينظر المريد الى حاله وقلبه فان وجده فى العزوبة فهو الاقرب وان عجز عن ذلك فالنكاح أولى به ودواء هذه العلة ثلاثة أمور الجوع وغض البصر والاشتغال بشغل يستولى على القلب فان لم تنفع هذه الثلاثة فالنكاح هو الذى يستأصل مادتها فقط ولهذا كان السلف يبادرون الى النكاح والى تزويج البنات قال سعيد بن المسيب ما أيس ابليس من أحد الا وأتاه من قبل النساء وقال سعيد أيضا وهو ابن أربع وثمانين سنة وقد ذهبت احدى عينيه وهو يعشو بالاخرى ماشئ أخوف عندى من النساء وعن عبد الله بن أبى وداعة قال كنت أجالس سعيد بن المسيب فتفقدنى أياما فلما أتيته قال أين كنت قلت توفيت أهلى فاشتغلت بها فقال هلا أخبرتنا فشهدناها قال ثم أردت أن أقوم فقال هل استحدثت امرأة فقلت يرحمك الله تعالى ومن يزوجنى وما أملك الا درهمين أو ثلاثة فقال أنا فقلت وتفعل قال نعم فحمد الله تعالى وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم وزوجنى على درهمين أو قال ثلاثة قال فقمت وما أدرى ما أصنع من الفرح فصرت الى منزلى وجعلت أفكر ممن آخذ وممن أستدين فصليت المغرب وانصرفت الى منزلى فاسرجت وكنت صائما فقدمت عشائى لافطر وكان خبزا وزيتا واذا بابى يقرع فقلت من هذا قال سعيد قال فافكرت فى كل انسان اسمه سعيد الا سعيد ابن المسيب وذلك انه لم ير أربعين سنة الا بين داره والمسجد قال فخرجت اليه فاذا به سعيد بن المسيب فظننت انه قد بدا له فقلت يا أبا محمد لو أرسلت الى لاتيتك فقال لا أنت أحق أن تؤتى قلت فما تأمر قال انك كنت رجلا عزبا فتزوجت فكرهت أن أبيتك الليلة وحدك وهذه امرأتك واذا هى قائمة خلفه فى طوله ثم أخذ بيدها فدفعها فى الباب ورده فسقطت المرأة من الحياء فاستوثقت من الباب ثم تقدمت الى القصعة التى فيها الخبز والزيت فوضعتها فى ظل السراج لكيلا تراه ثم صعدت السطح فرميت الجيران فجاؤنى وقالوا ماشأنك قلت ويحكم زوجنى سعيد بن المسيب ابنته اليوم وقد جاء بها الليلة على غفلة فقالوا أوسعيد زوجك قلت نعم قالوا وهى فى الدار قلت نعم فنزلوا اليها وبلغ ذلك أمى فجاءت وقالت وجهى من وجهك حرام ان مسستها قبل أن أصلحها الى ثلاثة أيام قال فاقمت ثلاثا ثم دخلت بها فاذا هى من أجمل النساء وأحفظ الناس لكتاب الله تعالى وأعلمهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعرفهم بحق الزوج قال فمكثت شهرا لا يأتينى سعيد ولا آتيه فلما كان بعد الشهر أتيته وهو فى حلقته فسلمت عليه فرد على السلام ولم يكلمنى حتى تفرق الناس من المجلس فقال ما حال ذلك الانسان فقلت بخير يا أبا محمد على مايحب الصديق ويكره العدو قال ان رابك منه أمر فدونك والعصا فانصرفت الى منزلى فوجه الى بعشرين ألف درهم قال عبد الله بن سليمان وكانت بنت سعيد بن المسيب هذه قد خطبها منه عبد الملك

والعطاء فالصوفى فى الابتداء يغنى عن الخلق ويرى الاشياء من الله حيث طالع ناصيته التوحيد وخرق الحجاب الذى منع الخلق عن صرف التوحيد فلا يثبت للخلق منعا ولا عطاء ويحجبه الحق عن الخلق فاذا ارتقى الى ذروة التوحيد يشكر الخلق بعد شكر الحق ويثبت لهم وجودا فى المنع والعطاء بعد ان يرى المسبب أولا وذلك لسعة علمه وقوة معرفته يثبت الوسائط فلا يحجبه الخلق عن الحق كعامة المسلمين ولا يحجبه الحق عن الخلق كارباب الارادة والمبتدئين فيكون شكره للحق لانه المنعم والمعطى والمسبب ويشكر الخلق لانهم واسطة وسبب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أول مايدعى الى الجنة الحامدون الذين يحمدون الله تعالى فى السراء والضراء وقال عليه

ابن مروان لابنه الوليد حين ولاه العهد فأبى سعيد أن يزوجه فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد حتى ضربه مائة سوط في يوم بارد وصب عليه جرة ماء وألبسه جبة صوف فاستعجال سعيد في الزفاف تلك الليلة يعرفك غائلة الشهوة ووجوب المبادرة في الدين الى تطفئة نارها بالنكاح رضي الله عنه ورحمه

(بيان فضيلة من يخالف شهوة الفرج والعين)

اعلم أن هذه الشهوة هي أغلب الشهوات على الانسان وأعصاها عند الهيجان على العقل الا أن مقتضاها قبيح يستحيا منه ويخشى من اقتحامه وامتناع أكثر الناس عن مقتضاها اما لعجز أو لخوف أو لحياء أو لمحافظة على جسمه وليس في شيء من ذلك ثواب فانه ايثار حظ من حظوظ النفس على حظ آخر نعم من العصمة أن لا يقدر فقي هذه العوائق فائدة وهي دفع الاثم فان من ترك الزنا اندفع عنه اثمه بأي سبب كان تركه وانما الفضل والثواب الجزيل في تركه خوفا من الله تعالى مع القدرة وارتفاع الموانع وتيسر الاسباب لاسيما عند صدق الشهوة وهذه درجة الصديقين ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد وقال عليه السلام سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظل عرشه يوم لا ظل الا ظله وعد منهم رجلا دعته امرأة ذات جمال وحسب الى نفسها فقال اني أخاف الله رب العالمين وقصة يوسف عليه السلام وامتناعه من زليخا مع القدرة ومع رغبتها معروفة وقد أثنى الله تعالى عليه بذلك في كتابه العزيز وهو امام لكل من وفق لمجاهدة الشيطان في هذه الشهوة العظيمة وروي أن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجها فدخلت عليه امرأة فسألته نفسه فامتنع عليها وخرج هاربا من منزله وتركها فيه قال سليمان فرأيت تلك الليلة في المنام يوسف عليه السلام وكأني أقول له أنت يوسف قال نعم أنا يوسف الذي هممت وأنت سليمان الذي لم تهم أشار به الى قوله تعالى ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه وعنه أيضا ما هو أعجب من هذا وذلك انه خرج من المدينة حاجا ومعه رفيق له حتى نزلا بالابواء فقام رفيقه وأخذ السفرة وانطلق الى السوق ليبتاع شيأ وجلس سليمان في الخيمة وكان من أجمل الناس وجها فبصرت به اعرابية من قلة الجبل وانحدرت اليه حتى وقفت بين يديه وعليها البرقع والقفازان فاسفرت عن وجه لها كأنه فلقة قمر وقالت أهنئني فظن انها تريد طعاما فقام الى فضلة السفرة ليعطيها فقالت لست أريد هذا انما أريد ما يكون من الرجل الى أهله فقال جهزك الي ابليس ثم وضع رأسه بين ركبتيه وأخذ في النحيب فلم يزل يبكي فلما رأت منه ذلك سدلت البرقع على وجهها وانصرفت راجعة حتى بلغت أهلها وجاء رفيقه فرآه وقد انتفخت عيناه من البكاء وانقطع حلقه فقال ما يبكيك قال خير ذكرت صبيتي قال لا والله الا ان لك قصة انما عهدك بصبيتك منذ ثلاث أو نحوها فلم يزل به حتى أخبره خبر الاعرابية فوضع رفيقه السفرة وجعل يبكي بكاء شديدا فقال له سليمان وأنت ما يبكيك قال أنا أحق بالبكاء منك لاني أخشى ان لو كنت مكانك لما صبرت عنها فلم يزالا يبكيان فلما انتهى سليمان الى مكة فسعى وطاف ثم أتى الحجر فاحتبى بثوبه فأخذته عينه فنام واذا رجل وسيم طوال له شارة حسنة ورائحة طيبة فقال له سليمان رحمك الله من أنت قال له أنا يوسف قال يوسف الصديق قال نعم قال ان في شأنك وشأن امرأة العزيز لعجبا فقال له يوسف شأنك وشأن صاحبة الابواء أعجب وروي عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى أواهم المبيت الى غار فدخلوا فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا انه لا ينجيكم من هذه الصخرة الا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم فقال رجل منهم اللهم انك تعلم انه كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا فنأى بي طلب الشجر يوما فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا ومالا فلبثت والقدح في يدي أنتظر استيقاظهما حتى طلع الفجر والصبية يتضاغون حول قدمي فاستيقظا فشربا غبوقهما اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيأ لا يستطيعون الخروج منه وقال الآخر اللهم انك تعلم انه كان لي ابنة عم من أحب الناس الي فراودتها عن نفسها فامتنعت مني حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها مائة وعشرين دينارا على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت حتى اذا قدرت عليها قالت اتق الله ولا تفض الخاتم الا بحقه فتحرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهي من أحب الناس الي وتركت الذهب

السلام من عطس أو تجشأ فقال الحمد لله على كل حال دفع الله تعالى بها عنه سبعين داء أهونها الجذام (وروى) جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من عبد ينعم عليه بنعمة فحمد الله الا كان الحمد أفضل منها فقوله عليه السلام كان الحمد أفضل منها يحتمل أن يرضى الحق بها شكرا ويحتمل ان الحمد أفضل منها نعمة فتكون نعمة الحمد أفضل من النعمة التي حمد عليها فاذا شكروا المنعم الاول يشكرون الواسطة المنعم من الناس ويدعون له (روى) أنس رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أفطر عند قوم قال أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الابرار ونزلت عليكم السكينة (أخبرنا) أبو زرعة عن أبيه قال أنا أحمد بن محمد ابن أحمد البزار قال أنا أبو

الذى أعطيتها اللهم ان كنت فعلته ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة عنهم غير أنهم
لا يستطيعون الخروج منها وقال الثالث اللهم انى استأجرت أجراء وأعطيتهم أجورهم غير رجل واحد فانه ترك
الاجر الذى له وذهب فنميت له أجره حتى كثرت منه الاموال فجاءنى بعد حين فقال يا عبد الله أعطنى أجرى فقلت
كل ما ترى من أجرك من الابل والبقر والغنم والرقيق فقال يا عبد الله أتهزأ بى فقلت لا أستهزئ بك فخذه فاستاقه
وأخذه كله ولم يترك منه شيأ اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة
فخرجوا يمشون فهذا افضل من تمكن من قضاء هذه الشهوة فعف وقريب منه من تمكن من قضاء شهوة العين
فان العين مبدأ الزنا فحفظها مهم وهو عسر من حيث انه قد يستهان به ولا يعظم الخوف منه والآفات كلها منه
تنشأ والنظرة الاولى اذا لم تقصد لا يؤاخذ بها والمعاودة يؤاخذ بها قال صلى الله عليه وسلم لك الاولى وعليك الثانية
أى النظرة وقال العلاء بن زياد لا تتبع بصرك رداء المرأة فان النظر يزرع فى القلب شهوة وقلما يخلو الانسان
فى تردداه عن وقوع البصر على النساء والصبيان فهما تخايل اليه الحسن تقاضى الطبع المعاودة وعنده ينبغى أن
يقرر فى نفسه ان هذه المعاودة عين الجهل فانه ان حقق النظر فاستحسن ثارت الشهوة وعجز عن الوصول فلا يحصل
له الا التحسر وان استقبح لم يلتذ وتألم لانه قصد الالتذاذ فقد فعل ما آلمه فلا يخلو فى كلتا حالتيه عن معصية وعن
تألم وعن تحسر ومهما حفظ العين بهذا الطريق اندفع عن قلبه كثير من الآفات فان أخطأت عينه وحفظ
الفرج مع التمكن فذلك يستدعى غاية القوة ونهاية التوفيق فقد روى عن أبى بكر بن عبد الله المزنى أن قصابا
أولع بجارية لبعض جيرانه فارسلها أهلها فى حاجة لهم الى قرية أخرى فتبعها وراودها عن نفسها فقالت له لا تفعل
لانا أشد حبا لك منك لى ولكنى أخاف الله قال فانت تخافينه وأنا لا أخافه فرجع تائبا فاصابه العطش حتى كاد
يهلك فاذا هو برسول لبعض أنبياء بنى اسرائيل فسأله فقال مالك قال العطش قال تعال حتى ندعو الله بان تظلنا
سحابة حتى ندخل القرية قال مالى من عمل صالح فأدعو فادع أنت قال أنا أدعو وأمن أنت على دعائى فدعا الرسول
وأمن هو فاظلتهما سحابة حتى انتهيا الى القرية فاخذ القصاب الى مكانه فمالت السحابة معه فقال له الرسول زعمت
ان ليس لك عمل صالح وأنا الذى دعوت وأنت الذى أمنت فاظلتنا سحابة ثم تبعتك لتخبرنى بامرك فاخبره فقال
الرسول ان التائب عند الله تعالى بمكان ليس أحد من الناس بمكانه وعن أحمد بن سعيد العابد عن أبيه قال كان
عندنا بالكوفة شاب متعبد لازم المسجد الجامع لا يكاد يفارقه وكان حسن الوجه حسن القامة حسن السمت
فنظرت اليه امرأة ذات جمال وعقل فشغفت به وطال عليها ذلك فلما كان ذات يوم وقفت له على الطريق وهو
يريد المسجد فقالت له يا فتى اسمع منى كلمات أكلمك بها ثم اعمل ما شئت فمضى ولم يكلمها ثم وقفت له بعد ذلك
على طريقه وهو يريد منزله فقالت له يا فتى اسمع منى كلمات أكلمك بها فاطرق مليا وقال لها هذا موقف تهمة
وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعا فقالت له والله ما وقفت موقفى هذا جهالة منى بامرك ولكن معاذ الله أن
يتشوف العباد الى مثل هذا منى والذى حملنى على أن لقيتك فى مثل هذا الامر بنفسى لمعرفتى ان القليل من هذا
عند الناس كثير وأنتم معاشر العباد على مثال القوارير أدنى شئ يعيبها وجملة ما أقول لك ان جوارحى كلها
مشغولة بك فالله الله فى أمرى وأمرك قال فمضى الشاب الى منزله وأراد أن يصلى فلم يعقل كيف يصلى فاخذ
قرطاسا وكتب كتابا ثم خرج من منزله واذا بالمرأة واقفة فى موضعها فالقى الكتاب اليها ورجع الى منزله وكان
فيه بسم الله الرحمن الرحيم اعلمى أيتها المرأة ان الله عز وجل اذا عصاه العبد حلم فاذا عاد الى المعصية مرة أخرى
ستره فاذا لبس لها ملابسها غضب الله تعالى لنفسه غضبة تضيق منها السموات والارض والجبال والشجر
والدواب فمن ذا يطيق غضبه فان كان ما ذكرت باطلا فانى أذكرك يوما تكون السماء فيه كالمهل وتصير الجبال
كالعهن وتجثو الامم لصولة الجبار العظيم وانى والله قد ضعفت عن اصلاح نفسى فكيف باصلاح غيرى وان كان
ما ذكرت حقا فانى أدلك على طبيب هدى يداوى الكلوم الممرضة والاوجاع المرمضة ذلك الله رب العالمين
فاقصديه بصدق المسألة فانى مشغول عنك بقوله تعالى وأنذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين
ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور فاين المهرب من هذه الآية ثم جاءت بعد

حفص عمر بن ابراهيم
قال ثنا عبد الله بن محمد
البغوى قال أنا عمرو بن
زرارة قال ثنا عيينة بن
يونس عن موسى بن
عبيدة عن محمد بن ثابت
عن أبى هريرة رضى الله
عنه قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم من
قال لاخيه جزاك الله
خيرا فقد أبلغ فى الثناء
*ومن أخلاق الصوفية
بذل الجاه للاخوان
والمسلمين كافة فاذا كان
الرجل وافر العلم بصيرا
بعيوب النفس وآفاتها
وشهواتها فليتوصل الى
قضاء حوائج المسلمين
ببذل الجاه والمعاونة فى
اصلاح ذات البين وفى
هذا المعنى يحتاج الى
من يتعلم لانها أمور
تتعلق بالخلق ومخالطتهم
ومعاشرتهم ولا يصلح
ذلك الا لصوفى تام الحال
عالم ربانى (روى) عن زيد
ابن أسلم أنه قال كان نبى
من الانبياء يأخذ بركاب
الملك يتألفه بذلك لقضاء
حوائج الناس (وقال

ذلك

ذلك بايام فوقفت له على الطريق فلما رآها من بعيد أراد الرجوع لمنزله كيلا يراها فقالت يافتى لاترجع فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبدا الاغدا بين يدى الله تعالى ثم بكت بكاء شديدا وقالت أسأل الله الذى بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ماقد عسر من أمرك ثم انها تبعته وقالت امنن على بموعظة أحملها عنك وأوصنى بوصية أعمل عليها فقال لها أوصيك بحفظ نفسك من نفسك واذكرك قوله تعالى وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار قال فاطرقت وبكت بكاء شديدا أشد من بكائها الاول ثم انها أفاقت ولزمت بيتها وأخذت فى العبادة فلم تزل على ذلك حتى ماتت كمدا فكان الفتى يذكرها بعد موتها ثم يبكى فيقال له مم بكاؤك وأنت قد أيأستها من نفسك فيقول انى قد ذبحت طمعها فى أول أمرها وجعلت قطيعتها ذخيرة لى عند الله تعالى فانا أستحيى منه ان أسترد ذخيرة ادخرتها عنده تعالى * تم كتاب كسر الشهوتين بحمد الله تعالى وكرمه يتلوه ان شاء الله تعالى كتاب آفات اللسان والحمد لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا وصلاته على سيدنا محمد خير خلقه وعلى كل عبد مصطفى من أهل الارض والسماء وسلم تسليما كثيرا

(كتاب آفات اللسان وهو الكتاب الرابع من ربع المهلكات من كتاب احياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذى أحسن خلق الانسان وعدله وألهمه نور الايمان فزينه به وجمله وعلمه البيان فقدمه به وفضله وأفاض على قلبه خزائن العلوم فاكمله ثم أرسل عليه سترا من رحمته وأسبله ثم أمده بلسان يترجم به عما حواه القلب وعقله ويكشف عنه ستره الذى أرسله وأطلق بالحق مقوله وأفصح بالشكر عما أولاه وخوله من علم حصله ونطق سهله وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله الذى أكرمه وبجله ونبيه الذى أرسله بكتاب أنزله وأسمى فضله وبين سبله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن قبله ما كبر الله عبد وهلله (أما بعد) فان اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة فانه صغير جرمه عظيم طاعته وجرمه اذ لا يستبين الكفر والايمان الا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان ثم انه ما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق متخيل أو معلوم مظنون أو موهوم الا واللسان يتناوله ويتعرض له باثبات أو نفى فان كل ما يتناوله العلم يعرب عنه اللسان اما بحق أو باطل ولا شئ الا والعلم متناول له وهذه خاصية لا توجد فى سائر الاعضاء فان العين لا تصل الى غير الالوان والصور والآذان لا تصل الى غير الاصوات واليد لا تصل الى غير الاجسام وكذا سائر الاعضاء واللسان رحب الميدان ليس له مرد ولا لمجاله منتهى وحد له فى الخير مجال رحب وله فى الشر ذيل سحب فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخى العنان سلك به الشيطان فى كل ميدان وساقه الى شفا جرف هار الى أن يضطره الى البوار ولا يكب الناس فى النار على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم ولا ينجو من شر اللسان الا من قيده بلجام الشرع فلا يطلقه الا فيما ينفعه فى الدنيا والآخرة ويكفه عن كل ما يخشى غائلته فى عاجله وآجله وعلم ما يحمد فيه اطلاق اللسان أو يذم غامض عزيز والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل عسير واعصى الاعضاء على الانسان اللسان فانه لا تعب فى اطلاقه ولا مؤنة فى تحريكه وقد تساهل الخلق فى الاحتراز عن آفاته وغوائله والحذر من مصايده وحبائله وانه أعظم آلة الشيطان فى استغواء الانسان ونحن بتوفيق الله وحسن تدبيره نفصل مجامع آفات اللسان ونذكرها واحدة واحدة بحدودها وأسبابها وغوائلها ونعرف طريق الاحتراز عنها ونورد ما ورد من الاخبار والآثار فى ذمها فنذكر أولا فضل الصمت ونردفه بذكر آفة الكلام فيما لا يعنى ثم آفة فضول الكلام ثم آفة الخوض فى الباطل ثم آفة المراء والجدال ثم آفة الخصومة ثم آفة التقعر فى الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه وغير ذلك مما جرت به عادة المتفاصحين المدعين للخطابة ثم آفة الفحش والسب وبذاءة اللسان ثم آفة اللعن اما لحيوان أو جماد أو انسان ثم آفة الغناء بالشعر وقد ذكرنا فى كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل فلا نعيده ثم آفة المزاح ثم آفة السخرية والاستهزاء ثم آفة افشاء السر ثم آفة الوعد الكاذب ثم آفة الكذب فى القول واليمين ثم بيان التعاريض فى الكذب ثم آفة الغيبة ثم آفة النميمة ثم آفة ذى اللسانين الذى يتردد بين المتعادين فيكلم كل واحد

عطاء) لان يرانى الرجل سنين فيكتسب جاها يعيش فيه مؤمن أتم له له من أن يخلص العمل لنجاة نفسه وهذا باب غامض لايؤمن ان يفتتن به خلق من الجهال المدعين ولا يصلح هذا الا لعبد اطلع الله على باطنه فعلم منه ان لارغبة له فى شئ من الجاه والمال ولو أن ملوك الارض وقفوا فى خدمته ماطغى ولا استطال ولو دخل الى أتون يوقد ما ظهرت نفسه بصريح الانكار لهذا الحال وهذا لا يصلح الا لآحاد من الخلق وأفراد من الصادقين ينسلخون عن ارادتهم واختيارهم ويكاشفهم الله تعالى بمراده منهم فيدخلون فى الاشياء بمراد الله تعالى فاذا علموا أن الحق يريد منهم المخالطة وبذل الجاه يدخلون فى ذلك بغيبة صفات النفس وهذا الاقوام ما تواتم حشروا وأحكموا مقام الفناء ثم رقوا الى

بكلام يوافقه ثم آفة المدح ثم آفة الغفلة عن دقائق الخطا فى فحوى الكلام لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط باصول الدين ثم آفة سؤال العوام عن صفات الله عز وجل وعن كلامه وعن الحروف أهى قديمة أو محدثة وهى آخر الآفات وما يتعلق بذلك وجملتها عشرون آفة ونسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه

(بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت)

اعلم ان خطر اللسان عظيم ولا نجاة من خطره الا بالصمت فلذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه فقال صلى الله عليه وسلم من صمت نجا وقال عليه السلام الصمت حكم وقليل فاعله أى حكمة وحزم وروى عبد الله بن سفيان عن أبيه قال قلت يارسول الله أخبرنى عن الاسلام بامر لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم قال قلت فما أتقى فاومأ بيده الى لسانه وقال عقبة بن عامر قلت يارسول الله ما النجاة قال أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك وقال سهل بن سعد الساعدى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يتكفل لى بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة وقال صلى الله عليه وسلم من وقى شر قبقبه وذبذبه ولقلقه فقد وقى الشر كله القبقب هو البطن والذبذب الفرج واللقلق اللسان فهذه الشهوات الثلاث بها هلك أكثر الخلق ولذلك اشتغلنا بذكر آفات اللسان لما فرغنا من ذكر آفة الشهوتين البطن والفرج وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكبر ما يدخل الناس الجنة فقال تقوى الله وحسن الخلق وسئل عن أكبر ما يدخل النار فقال الاجوفان الفم والفرج فيحتمل أن يكون المراد بالفم آفات اللسان لانه محله ويحتمل أن يكون المراد به البطن لانه منفذه فقد قال معاذ ابن جبل قلت يارسول الله أنؤاخذ بما نقول فقال ثكلتك أمك يا ابن جبل وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم وقال عبد الله الثقفى قلت يارسول الله حدثنى بامر أعتصم به فقال قل ربى الله ثم استقم قلت يارسول الله ما أخوف ما تخاف على فاخذ بلسانه وقال هذا وروى ان معاذا قال يارسول الله أى الاعمال أفضل فاخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لسانه ثم وضع عليه أصبعه وقال أنس بن مالك قال صلى الله عليه وسلم لا يستقيم ايمان العبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ولا يدخل الجنة رجل لا يامن جاره بوائقه وقال صلى الله عليه وسلم من سره أن يسلم فليلزم الصمت وعن سعيد بن جبير مرفوعا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اذا أصبح ابن آدم أصبحت الاعضاء كلها تذكر اللسان أى تقول اتق الله فينا فانك ان استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا وروى ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى أبا بكر الصديق رضى الله عنه وهو يمد لسانه بيده فقال له ما تصنع ياخليفة رسول الله قال هذا أوردنى الموارد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس شئ من الجسد الا يشكو الى الله اللسان على حدته وعن ابن مسعود انه كان على الصفا يلبى ويقول يالسان قل خيرا تغنم واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم فقيل له يا أبا عبد الرحمن أهذا شئ تقوله أو شئ سمعته فقال لا بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان أكثر خطايا ابن آدم فى لسانه وقال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كف لسانه ستر الله عورته ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه ومن اعتذر الى الله قبل الله عذره وروى أن معاذ بن جبل قال يارسول الله أوصنى قال اعبد الله كأنك تراه وعد نفسك فى الموتى وان شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كله وأشار بيده الى لسانه وعن صفوان بن سليم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بايسر العبادة وأهونها على البدن الصمت وحسن الخلق وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت وقال الحسن ذكر لنا ان النبى صلى الله عليه وسلم قال رحم الله عبدا تكلم فغنم أو سكت فسلم وقيل لعيسى عليه السلام دلنا على عمل ندخل به الجنة قال لا تنطقوا أبدا قالوا لا نستطيع ذلك فقال فلا تنطقوا الا بخير وقال سليمان بن داود عليهما السلام ان كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب وعن البراء بن عازب قال جاء اعرابى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال دلنى على عمل يدخلنى الجنة قال أطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وانه عن المنكر فان لم تطق فكف لسانك الا من خير وقال صلى الله عليه وسلم اخزن لسانك الا من خير فانك بذلك تغلب الشيطان وقال صلى الله عليه وسلم ان الله عند لسان كل قائل فليتق الله امرؤ علم ما يقول وقال عليه السلام اذا رأيتم المؤمن صموتا

مقام البقاء فيكون لهم فى كل مدخل ومخرج برهان وبيان واذن من الله تعالى فهم على بصيرة من ربهم وهذا ليس فيهم ارتياب لصاحب قلب مكاشف بصريح المراد فى خفى الخطاب فيأخذ وقته أبدا من الاشياء ولم تأخذ الاشياء من وقته ولا يكون فى قطر من الاقطار الا واجد متحقق بهذا الحال (قال) أبو عثمان الحيرى لا يكمل الرجل حتى يستوى قلبه فى أربعة أشياء المنع والعطاء والعز والذل ولمثل هذا الرجل يصلح بذل الجاه والدخول فيما ذكرناه (قال) سهل بن عبد الله لا يستحق الانسان الرياسة حتى تجتمع فيه ثلاث خصال يصرف جهله عن الناس ويحتمل جهل الناس ويترك ما فى أيديهم ويبذل ما فى يده لهم وهذه الرياسة ليست عين

وقورا فادنوا منه فانه يلقن الحكمة وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس ثلاثة غانم وسالم وشاحب فالغانم الذى يذكر الله تعالى والسالم الساكت والشاحب الذى يخوض فى الباطل وقال عليه السلام ان لسان المؤمن وراء قلبه فاذا أراد أن يتكلم بشئ تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه وان لسان المنافق أمام قلبه فاذا هم بشئ أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه وقال عيسى عليه السلام العبادة عشرة أجزاء تسعة منها فى الصمت وجزء فى الفرار من الناس وقال نبينا صلى الله عليه وسلم من كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به (الآثار) كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يضع حصاة فى فيه يمنع بها نفسه عن الكلام وكان يشير الى لسانه و يقول هذا الذى أوردنى الموارد وقال عبد الله بن مسعود والله الذى لا اله الا هو ماشئ أحوج الى طول سجن من لسان وقال طاوس لسانى سبع ان أرسلته أكلنى وقال وهب بن منبه فى حكمة آل داود حق على العاقل أن يكون عارفا بزمانه حافظا للسانه مقبلا على شانه وقال الحسن ماعقل دينه من لم يحفظ لسانه وقال الاوزاعى كتب الينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله أما بعد فان من أكثر ذكر الموت رضى من الدنيا باليسير ومن عد كلامه من عمله قل كلامه الا فيما يعنيه وقال بعضهم الصمت يجمع للرجل فضيلتين السلامة فى دينه والفهم عن صاحبه وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار يا أبا يحيى حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم وقال يونس بن عبيد مامن الناس أحد يكون منه لسانه على بال الا رأيت صلاح ذلك فى سائر عمله وقال الحسن تكلم قوم عند معاوية رحمه الله والاحنف بن قيس ساكت فقال له مالك يا أبا بحر لا تتكلم فقال أخشى الله ان كذبت وأخشاك ان صدقت وقال أبو بكر بن عياش اجتمع أربعة ملوك ملك الهند وملك الصين وكسرى وقيصر فقال أحدهم أنا أندم على ماقلت ولا أندم على مالم أقل وقال الآخر انى اذا تكلمت بكلمة ملكتنى ولم أملكها واذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكنى وقال الثالث عجبت للمتكلم ان رجعت عليه الكلمة ضرته وان لم ترجع لم تنفعه وقال الرابع أنا على رد مالم أقل أقدر منى على رد ماقلت وقيل أقام المنصور بن المعتز لم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة وقيل ما تكلم الربيع بن خيثم بكلام الدنيا عشرين سنة وكان اذا أصبح وضع دواة وقرطاسا وقلما فكل ما تكلم به كتبه ثم يحاسب نفسه عند المساء فان قلت فهذا الفضل الكبير للصمت ماسببه فاعلم ان سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض فى الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وايذاء الخلق وهتك العورات فهذه آفات كثيرة وهى سباقة الى اللسان لا تثقل عليه ولها حلاوة فى القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب ويكفه عما لا يحب فان ذلك من غوامض العلم كما سيأتى تفصيله ففى الخوض خطر وفى الصمت سلامة فلذلك عظمت فضيلته هذا مع مافيه من جمع الهم ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول فى الدنيا ومن حسابه فى الآخرة فقد قال الله تعالى ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد و يدلك على فضل لزوم الصمت أمر وهو أن الكلام أربعة أقسام قسم هو ضرر محض وقسم هو نفع محض وقسم فيه ضرر ومنفعة وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة * أما الذى هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه وكذلك مافيه ضرر ومنفعة لاتفى بالضرر وأما مالا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران فلا يبقى الا القسم الرابع فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقى ربع وهذا الربع فيه خطر اذ يمتزج بما فيه اثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس وفضول الكلام امتزاجا يخفى دركه فيكون الانسان به مخاطرا ومن عرف دقائق آفات اللسان على ماسنذكره علم قطعا أن ماذكره صلى الله عليه وسلم هو فصل الخطاب حيث قال من صمت نجا فلقد أوتى والله جواهر الحكم قطعا وجوامع الكلم ولا يعرف ماتحت آحاد كلماته من بحار المعانى الا خواص العلماء وفيما سنذكره من الآفات وعسر الاحتراز عنها ما يعرفك حقيقة ذلك ان شاء الله تعالى ونحن الآن نعد آفات اللسان ونبتدئ بأخفها ونترقى الى الاغلظ قليلا ونؤخر الكلام فى الغيبة والنميمة والكذب فان النظر فيها أطول وهى عشرون آفة فاعلم ذلك ترشد بعون الله تعالى

الرياسة التى زهد فيها وتعين الزهد فيها لضرورة صدقه وسلوكه وانما هذه رياسة أقامها الحق لصلاح خلقه فهو فيها بالله يقوم بواجب حقها وشكر نعمتها الله تعالى

(الباب الحادى والثلاثون فى ذكر الادب ومكانه من التصوف)

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أدبنى ربى فاحسن تاديبى فالادب تهذيب الظاهر والباطن فاذا تهذب ظاهر العبد وباطنه صار صوفيا أديبا وانما سميت المأدبة مأدبة لاجتماعها على أشياء ولا يتكامل الادب فى العبد الا بتكامل مكارم الاخلاق ومكارم الاخلاق مجموعها من تحسين الخلق فالخلق صورة الانسان والخلق معناه فقال بعضهم الخلق لاسبيل الى تغييره كالخلق وقد ورد فرغ

(الآفة الاولى الكلام فيما لا يعنيك)

اعلم ان أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات التى ذكرناها من الغيبة والنميمة والكذب والمراء والجدال وغيرها وتتكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلا الا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك اليه فانك مضيع به زمانك ومحاسب على عمل لسانك وتستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير لانك لو صرفت زمان الكلام الى الفكر ربما كان ينفتح لك من نفحات رحمة الله عند الفكر ما يعظم جدواه ولو هللت الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيرا لك فكم من كلمة يبنى بها قصر فى الجنة ومن قدر على أن يأخذ كنزا من الكنوز فاخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها كان خاسرا خسرانا مبينا وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه فانه وان لم يأثم فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى فان المؤمن لا يكون صمته الا فكرا ونظره الا عبرة ونطقه الا ذكرا هكذا قال النبى صلى الله عليه وسلم بل رأس مال العبد أوقاته ومهما صرفها الى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثوابا فى الآخرة فقد ضيع رأس ماله ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه بل ورد ما هو أشد من هذا قال أنس استشهد غلام منا يوم أحد فوجدنا على بطنه حجرا مربوطا من الجوع فمسحت أمه عن وجهه التراب وقالت هنيئا لك الجنة يا بنى فقال صلى الله عليه وسلم وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع ما لا يضره وفى حديث آخر ان النبى صلى الله عليه وسلم فقد كعبا فسأل عنه فقالوا مريض فخرج يمشى حتى أتاه فلما دخل عليه قال أبشر يا كعب فقالت أمه هنيئا لك الجنة يا كعب فقال صلى الله عليه وسلم من هذه المتألية على الله قال هى أمى يا رسول الله قال وما يدريك يا أم كعب لعل كعبا قال ما لا يعنيه أو منع ما لا يغنيه ومعناه انه انما تتهيأ الجنة لمن لا يحاسب ومن تكلم فيما لا يعنيه حوسب عليه وان كان كلامه مباحا فلا تتهيأ الجنة له مع المناقشة فى الحساب فانه نوع من العذاب وعن محمد بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة فدخل عبد الله بن سلام فقام اليه ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبروه بذلك وقالوا أخبرنا باوثق عمل فى نفسك ترجو به فقال انى لضعيف وان أوثق ما أرجو به الله سلامة الصدر وترك ما لا يعنينى وقال أبو ذر قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل فى الميزان قلت بلى يا رسول الله قال هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يعنيك وقال مجاهد سمعت ابن عباس يقول خمس لهن أحب الى من الدهم الموقوفة لا تتكلم فيما لا يعنيك فانه فضل ولا آمن عليك الوزر ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعا فانه رب متكلم فى أمر يعنيه قد وضعه فى غير موضعه فعنت ولا تمار حليما ولا سفيها فان الحليم يقليك والسفيه يؤذيك واذكر أخاك اذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به واعفه مما تحب أن يعفيك منه وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالاحسان مأخوذ بالاجترام وقيل للقمان الحكيم ما حكمتك قال لا أسأل عما كفيت ولا أتكلف ما لا يعنينى وقال مورق العجلى أمر أنا فى طلبه منذ عشر سنين لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه قالوا وما هو قال السكوت عما لا يعنينى وقال عمر رضى الله عنه لا تتعرض لما لا يعنيك واعتزل عدوك واحذر صديقك من القوم الا الامين ولا أمين الا من خشى الله تعالى ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سرك واستشر فى أمرك الذين يخشون الله تعالى وحد الكلام فيما لا يعنيك أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم ولم تستضر به فى حال ولا مال مثاله أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار وما وقع لك من الوقائع وما استحسنته من الاطعمة والثياب وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر واذا بالغت فى الجهاد حتى لم يمتزج بحكايتك زيادة ولا نقصان ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الاحوال العظيمة ولا اغتياب لشخص ولا مذمة لشئ مما خلقه الله تعالى فانت مع ذلك كله مضيع زمانك وأنى تسلم من الآفات التى ذكرناها ومن جملتها أن تسأل غيرك عما لا يعنيك فانت بالسؤال مضيع وقتك وقد ألجأت صاحبك أيضا بالجواب الى التضييع هذا اذا كان الشئ مما لا يتطرق الى السؤال عنه آفة وأكثر الاسئلة فيها آفات فانك تسأل غيرك عن عبادته مثلا فتقول له هل أنت صائم فان قال نعم كان مظهر العبادته فيدخل عليه الرياء وان لم يدخل سقطت

ربكم من الخلق والخلق والرزق والاجل وقد قال تعالى لا تبديل لخلق الله والاصح ان تبديل الاخلاق ممكن مقدور عليه بخلاف الخلق وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال حسنوا أخلاقكم وذلك ان الله تعالى خلق الانسان وهيأه لقبول الصلاح والفساد وجعله أهلا للادب ومكارم الاخلاق ووجود الاهلية فيه كوجود النار فى الزناد ووجود النخل فى النوى ثم ان الله تعالى بقدرته ألهم الانسان ومكنه من اصلاحه بالتربية الى أن يصير النوى نخلا والزناد بالعلاج حتى يخرج منه نار وكما جعل فى نفس الانسان صلاحية الخير جعل فيها صلاحية الشر حال الاصلاح والافساد فقال سبحانه وتعالى ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها

عبادته من ديوان السر وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات وان قال لا كان كاذبا وان سكت كان مستحقرا لك وتاذيت به وان احتال لمدافعة الجواب افتقر الى جهد وتعب فيه فقد عرضته بالسؤال اما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعب فى حيلة الدفع وكذلك سؤالك عن سائر عباداته وكذلك سؤالك عن المعاصى وعن كل ما يخفيه ويستحى منه وسؤالك عما حدث به غيرك فتقول له ماذا تقول وفيم أنت وكذلك ترى انسانا فى الطريق فتقول من أين فربما يمنعه مانع من ذكره فان ذكره تاذى به واستحيا وان لم يصدق وقع فى الكذب وكنت السبب فيه وكذلك تسال عن مسالة لا حاجة بك اليها والمسؤل ربما لم تسمح نفسه بان يقول لا أدرى فيجيب عن غير بصيرة ولست أعنى بالتكلم فيما لا يعنى هذه الاجناس فان هذا يتطرق اليه اثم أوضرر وانما مثال ما لا يعنى ما روى ان لقمان الحكيم دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعا ولم يكن رآها قبل ذلك اليوم فجعل يتعجب مما رأى فاراد أن يساله عن ذلك فمنعته حكمته فامسك نفسه ولم يساله فلما فرغ قام داود ولبسه ثم قال نعم الدرع للحرب فقال لقمان الصمت حكم وقليل فاعله أى حصل العلم به من غير سؤال فاستغنى عن السؤال وقيل انه كان يتردد اليه سنة وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال فهذا وأمثاله من الاسئلة اذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر وتوريط فى رياء وكذب فهو مما لا يعنى وتركه من حسن الاسلام فهذا حده * وأما سببه الباعث عليه فالحرص على معرفة ما لا حاجة به اليه أو المباسطة بالكلام على سبيل التودد أو تزجية الاوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها وعلاج ذلك كله ان يعلم ان الموت بين يديه وانه مسؤل عن كل كلمة وان أنفاسه رأس ماله وان لسانه شبكة يقدر على أن يقتنص بها الحور العين فاهماله ذلك وتضييعه خسران مبين هذا علاجه من حيث العلم واما من حيث العمل فالعزلة أو أن يضع حصاة فى فيه وان يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه وضبط اللسان فى هذا على غير المعتزل شديد جدا

(الآفة الثانية فضول الكلام)

وهو أيضا مذموم وهذا يتناول الخوض فيما لا يعنى والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة فان من يعنيه أمر يمكنه ان يذكره بكلام مختصر ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره ومهما تادى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول أى فضل عن الحاجة وهو أيضا مذموم لما سبق وان لم يكن فيه اثم ولا ضرر قال عطاء بن أبى رباح ان من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر أو تنطق بحاجتك فى معيشتك التى لا بد لك منها أتنكرون ان عليكم حافظين كراما كاتبين عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد أما يستحى أحدكم اذا نشرت صحيفته التى أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه وعن بعض الصحابة قال ان الرجل ليكلمنى بالكلام لجوابه أشهى الى من الماء البارد الى الظمآن فاترك جوابه خيفة أن يكون فضولا وقال مطرف ليعظم جلال الله فى قلوبكم فلا تذكروه عند مثل قول أحدكم للكلب والحمار اللهم اخزه وما أشبه ذلك * واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر بل المهم محصور فى كتاب الله تعالى قال الله عز وجل لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس وقال صلى الله عليه وسلم طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله فانظر كيف قلب الناس الامر فى ذلك فامسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان وعن مطرف بن عبد الله عن أبيه قال قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رهط من بنى عامر فقالوا أنت والدنا وأنت سيدنا وأنت أفضلنا علينا فضلا وأنت أطولنا علينا طولا وأنت الجفنة الغراء وأنت وأنت فقال قولوا قولكم ولا يستهوينكم الشيطان اشارة الى أن اللسان اذا أطلق بالثناء ولو بالصدق فيخشى أن يستهويه الشيطان الى الزيادة المستغنى عنها وقال ابن مسعود أنذركم فضول كلامكم حسب امرئ من الكلام ما بلغ به حاجته وقال مجاهد ان الكلام ليكتب حتى ان الرجل ليسكت ابنه فيقول أبتاع لك كذا وكذا فيكتب كذابا وقال الحسن يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بها ملكان كريمان يكتبان أعمالك فاعمل ما شئت وأكثر أو أقلل وروى ان سليمان عليه السلام بعث بعض عفاريته وبعث نفرا ينظرون ما يقول ويخبرونه فاخبروه بانه مر

فتسويتها بصلاحيتها للشيئين جميعا ثم قال عز وجل قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها فاذا تزكت النفس تدبرت بالعقل واستقامت أحوالها الظاهرة والباطنة وتهذيب الاخلاق وتكوين الآداب فالادب استخراج ما فى القوة الى الفعل وهذا يكون لمن ركبت السجية الصالحة فيه والسجية فعل الحق لا قدرة للبشر على تكوينها كتكون النار فى الزناد اذ هو فعل الله المحض واستخراجه بكسب الآدمى فهكذا الآداب منبعها السجايا الصالحة والمنح الالهية ولما هيأ الله تعالى بواطن الصوفية بتكميل السجايا فيها توصلوا بحسن الممارسة والرياضة الى استخراج ما فى النفوس من كنوز خلق الله تعالى الى الفعل فصاروا مؤدبين مهذبين والآداب تقع

في السوق فرفع رأسه الى السماء ثم نظر الى الناس وهز رأسه فسأله سليمان عن ذلك فقال عجبت من الملائكة على رؤس الناس ما أسرع ما يكتبون ومن الذين أسفل منهم ما أسرع ما يملون وقال ابراهيم التيمي اذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر فان كان له تكلم والا أمسك والفاجر انما لسانه رسلا رسلا وقال الحسن من كثر كلامه كثر كذبه ومن كثر ماله كثرت ذنوبه ومن ساء خلقه عذب نفسه وقال عمرو بن دينار تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر فقال له صلى الله عليه وسلم كم دون لسانك من حجاب فقال شفتاي وأسناني قال أفما كان لك في ذلك ما يرد كلامك وفي رواية انه قال ذلك في رجل أثنى عليه فاستهتر في الكلام ثم قال ما أوتي رجل شرا من فضل في لسانه وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه انه ليمنعني من كثير من الكلام خوف المباهاة وقال بعض الحكماء اذا كان الرجل في مجلس فأعجبه الحديث فليسكت وان كان ساكتا فأعجبه السكوت فليتكلم وقال يزيد ابن أبي حبيب من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب اليه من الاستماع فان وجد من يكفيه فان في الاستماع سلامة وفي الكلام تزيين وزيادة ونقصان وقال ابن عمر ان أحق ما طهر الرجل لسانه ورأى أبو الدرداء امرأة سليطة فقال لو كانت هذه خرساء كان خيرا لها وقال ابراهيم يهلك الناس خلتان فضول المال وفضول الكلام فهذه مذمة فضول الكلام وكثرته وسببه الباعث عليه وعلاجه ما سبق في الكلام فيما لا يعني

(الآفة الثالثة الخوض في الباطل)

وهو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الاغنياء وتجبر الملوك ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة فان كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه وهو حرام وأما الكلام فيما لا يعني أو أكثر مما يعني فهو ترك الاولى ولا تحريم فيه نعم من يكثر الكلام فيما لا يعني لا يؤمن عليه الخوض في الباطل وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس أو الخوض في الباطل وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها فلذلك لا مخلص منها الا بالاقتصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها فقد قال بلال بن الحرث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله بها رضوانه الى يوم القيامة وان الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه الى يوم القيامة وكان علقمة يقول كم من كلام منعنيه حديث بلال بن الحرث وقال النبي صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوي بها أبعد من الثريا وقال أبو هريرة ان الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم وان الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالا يرفعه الله بها في أعلى الجنة وقال صلى الله عليه وسلم أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا في الباطل واليه الاشارة بقوله تعالى وكنا نخوض مع الخائضين وبقوله تعالى فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره انكم اذا مثلهم وقال سلمان أكثر الناس ذنوبا يوم القيامة أكثرهم كلاما في معصية الله وقال ابن سيرين كان رجل من الانصار يمر بمجلس لهم فيقول لهم توضؤوا فان بعض ما تقولون شر من الحدث فهذا هو الخوض في الباطل وهو وراء ما سيأتي من الغيبة والنميمة والفحش وغيرها بل هو الخوض في ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر للتوصل اليها من غير حاجة دينية الى ذكرها ويدخل فيه أيضا الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة وحكاية ما جرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن في بعضهم وكل ذلك باطل والخوض فيه خوض في الباطل نسأل الله حسن العون بلطفه وكرمه

(الآفة الرابعة المراء والجدال)

وذلك منهي عنه قال صلى الله عليه وسلم لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه وقال عليه السلام ذروا المراء فانه لا تفهم حكمته ولا تؤمن فتنته وقال صلى الله عليه وسلم من ترك المراء وهو محق بنى له بيت في أعلى الجنة ومن ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت في ربض الجنة وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أول ما عهد الي ربي ونهاني عنه بعد عبادة الاوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال وقال أيضا ما ضل قوم بعد أن هداهم الله الا أوتوا الجدل وقال أيضا لا يستكمل عبد حقيقة الايمان حتى يدع المراء وان كان محقا وقال أيضا

في حق بعض الاشخاص من غير زيادة ممارسة ورياضة لقوة ما أودع الله تعالى في غرائزهم كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أدبني ربي فأحسن تاديبي وفي بعض الناس من يحتاج الى طول الممارسة لنقصان قوى أصولها في الغريزة فلهذا احتاج المريدون الى صحبة المشايخ لتكون الصحبة والتعلم عونا على استخراج ما في الطبيعة الى الفعل قال الله تعالى قوا أنفسكم وأهليكم نارا قال ابن عباس رضي الله عنهما فقهوهم وأدبوهم وفي لفظ آخر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أدبني ربي فأحسن تاديبي ثم أمرني بمكارم الاخلاق فقال خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين * قال يوسف بن الحسين بالادب يفهم العلم وبالعلم يصح العمل وبالعمل تنال الحكمة وبالحكمة

ست من كن فيه بلغ حقيقة الايمان الصيام فى الصيف وضرب اعداء الله بالسيف وتعجيل الصلاة فى يوم الدجن والصبر على المصيبات واسباغ الوضوء على المكاره وترك المراء وهو صادق وقال الزبير لابنه لاتجادل الناس بالقرآن فانك لاتستطيعهم ولكن عليك بالسنة وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل وقال مسلم بن يسار اياكم والمراء فانه ساعة جهل العالم وعندها يبتغى الشيطان زلته وقيل ماضل قوم بعد اذ هداهم الله الا بالجدال وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه ليس هذا الجدال من الدين فى شئ وقال أيضا المراء يقسى القلوب ويورث الضغائن وقال لقمان لابنه يابنى لاتجادل العلماء فيمقتوك وقال بلال بن سعد اذا رأيت الرجل لجوجا ممار يا معجبا برأيه فقد تمت خسارته وقال سفيان لو خالفت أخى فى رمانة فقال حلوة وقلت حامضة لسعى بى الى السلطان وقال أيضا صاف من شئت ثم أغضبه بالمراء فليرمينك بداهية تمنعك العيش وقال ابن أبى ليلى لاأمارى صاحبى فاما أن أكذبه واما أن اغضبه وقال أبو الدرداء كفى بك اثما أن لاتزال ممار يا وقال صلى الله عليه وسلم تكفير كل لحاء ركعتان وقال عمر رضى الله عنه لاتتعلم العلم لثلاث ولاتتركه لثلاث لاتتعلمه لتمارى به ولالتباهى به ولالترائى به ولاتتركه حياء من طلبه ولازهادة فيه ولارضا بالجهل منه وقال عيسى عليه السلام من كثر كذبه ذهب جماله ومن لاحى الرجال سقطت مروءته ومن كثر همه سقم جسمه ومن ساء خلقه عذب نفسه وقيل لميمون بن مهران مالك لاتترك أخاك عن قلى قال لانى لاأشاريه ولاأماريه وماورد فى ذم المراء والجدال أكثر من أن يحصى وحد المراء هو كل اعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه اما فى اللفظ واما فى المعنى واما فى قصد المتكلم وترك المراء بترك الانكار والاعتراض فكل كلام سمعته فان كان حقا فصدق به وان كان باطلا أو كذبا ولم يكن متعلقا بامور الدين فاسكت عنه والطعن فى كلام الغير تارة يكون فى لفظه باظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة أو من جهة العربية أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير وذلك يكون تارة من قصور المعرفة وتارة يكون بطغيان اللسان وكيفما كان فلا وجه لاظهار خلله وأما فى المعنى فبان يقول ليس كما تقول وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا وأما فى قصده فمثل أن يقول هذا الكلام حق ولكن ليس قصدك منه الحق وانما أنت فيه صاحب غرض وما يجرى مجراه وهذا الجنس ان جرى فى مسألة علمية ربما خص باسم الجدل وهو أيضا مذموم بل الواجب السكوت أو السؤال فى معرض الاستفادة لاعلى وجه العناد والنكارة أو التلطف فى التعريف لافى معرض الطعن وأما المجادلة فعبارة عن قصد افحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح فى كلامه ونسبته الى القصور والجهل فيه وآية ذلك أن يكون تنبيهه للحق من جهة أخرى مكروها عند المجادل يحب أن يكون هو المظهر له خطاه ليبين به فضل نفسه ونقص صاحبه ولانجاة من هذا الا بالسكوت عن كل مالا يأثم به لو سكت عنه وأما الباعث على هذا فهو الترفع باظهار العلم والفضل والتهجم على الغير باظهار نقصه وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها أما اظهار الفضل فهو من قبيل تزكية النفس وهى من مقتضى مافى العبد من طغيان دعوى العلو والكبرياء وهى من صفات الربوبية وأما تنقيص الآخر فهو من مقتضى طبع السبعية فانه يقتضى أن يمزق غيره ويقصمه ويصدمه ويؤذيه وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان وانما قوتهما المراء والجدال فالمواظب على المراء والجدال مقولهذه الصفات المهلكة وهذا مجاوز حد الكراهة بل هو معصية مهما حصل فيه ايذاء الغير ولا تنفك المماراة عن الايذاء وتهييج الغضب وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ويقدح فى قائله بكل ما يتصور له فيثور الشجار بين المتمار يين كما يثور الهراش بين الكلبين يقصد كل واحد منهما ان يعض صاحبه بما هو أعظم نكاية وأقوى فى افحامه والجامه وأما علاجه فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على اظهار فضله والسبعية الباعثة له على تنقيص غيره كما سيأتى ذلك فى كتاب ذم الكبر والعجب وكتاب ذم الغضب فان علاج كل علة باماطة سببها وسبب المراء والجدال ماذكرناه ثم المواظبة عليه تجعله عادة وطبعا حتى يتمكن من النفس ويعسر الصبر عنه روى أن أبا حنيفة رحمة الله عليه قال لداود الطائى لم آثرت الانزواء قال لاجاهد نفسى بترك الجدال فقال احضر المجالس واستمع ما يقال ولاتتكلم قال ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشد على منها وهو كما قال لان من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه تعسر عليه الصبر عند

يقام الزهد وبالزهد تترك الدنيا وبترك الدنيا يرغب فى الآخرة وبالرغبة فى الآخرة تنال الرتبة عند الله تعالى (قيل) لما ورد أبو حفص العراق جاء اليه الجنيد فرأى أصحاب أبى حفص وقوفا على رأسه يأتمرون لامره لايخطئ أحد منهم فقال يا أبا حفص أدبت أصحابك أدب الملوك فقال لا يا أبا القاسم ولكن حسن الادب فى الظاهر عنوان الادب فى الباطن قال أبو الحسين النورى ليس لله فى عبده مقام ولاحال ولامعرفة تسقط معها آداب الشريعة وآداب الشريعة حلية الظاهر والله تعالى لايبيح تعطيل الجوارح من التحلى بمحاسن الآداب قال عبد الله بن المبارك أدب الخدمة أعز من الخدمة (حكى) عن أبى عبيد القاسم بن سلام قال دخلت مكة فكنت ربما أقعد بحذاء الكعبة وربما كنت أستلقى وأمد

ذلك جدا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتا فى أعلى الجنة لشدة ذلك على النفس وأكثر ما يغلب ذلك فى المذاهب والعقائد فان المراء طبع فاذا ظن ان له عليه ثوابا اشتد عليه حرصه وتعاون الطبع والشرع عليه وذلك خطأ محض بل ينبغى للانسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة واذا رأى مبتدعا تلطف فى نصحه فى خلوة لا بطريق الجدال فان الجدال يخيل اليه انها حيلة منه فى التلبيس وان ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها لو أرادوا فتستمر البدعة فى قلبه بالجدل وتتأكد فاذا عرف أن النصح لا ينفع اشتغل بنفسه وتركه وقال صلى الله عليه وسلم رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة الا باحسن ما يقدر عليه وقال هشام بن عروة كان عليه السلام يردد قوله هذا سبع مرات وكل من اعتاد المجادلة مدة وأثنى الناس عليه ووجد لنفسه بسببه عزا وقبولا قويت فيه هذه المهلكات ولا يستطيع عنها نزوعا اذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء وحب الجاه والتعزز بالفضل وآحاد هذه الصفات يشق مجاهدتها فكيف بمجموعها

(الآفة الخامسة الخصومة)

وهى أيضا مذمومة وهى وراء الجدال والمراء فالمراء طعن فى كلام الغير باظهار خلل فيه من غير ان يرتبط به غرض سوى تحقير الغير واظهار مزية الكياسة والجدال عبارة عن أمر يتعلق باظهار المذاهب وتقريرها والخصومة لجاج فى الكلام ليستوفى به مال أو حق مقصود وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضا والمراء لا يكون الا باعتراض على كلام سبق فقد قالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أبغض الرجال الى الله الالد الخصم وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من جادل فى خصومة بغير علم لم يزل فى سخط الله حتى ينزع وقال بعضهم اياك والخصومة فانها تمحق الدين ويقال ما خاصم ورع قط فى الدين وقال ابن قتيبة مر بى بشر بن عبد الله بن أبى بكرة فقال ما يجلسك ههنا قلت خصومة بينى وبين ابن عم لى فقال ان لابيك عندى يدا وانى أريد أن أجزيك بها وانى والله ما رأيت شيأ أذهب للدين ولا أنقص للمروءة ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة قال فقمت لانصرف فقال لى خصمى ما لك قلت لا أخاصمك قال انك عرفت ان الحق لى قلت لا ولكن أكرم نفسى عن هذا قال فانى لا أطلب منك شيأ هو لك فان قلت فاذا كان للانسان حق فلابد له من الخصومة فى طلبه أو فى حفظه مهما ظلمه ظالم فكيف يكون حكمه وكيف تذم خصومته فاعلم ان هذا الذم يتناول الذى يخاصم بالباطل والذى يخاصم بغير علم مثل وكيل القاضى فانه قبل أن يتعرف ان الحق فى أى جانب هو يتوكل فى الخصومة من أى جانب كان فيخاصم بغير علم ويتناول الذى يطلب حقه ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللدد فى الخصومة على قصد التسلط أو على قصد الايذاء ويتناول الذى يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج اليها فى نصرة الحجة واظهار الحق ويتناول الذى يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره مع انه قد يستحقر ذلك القدر من المال وفى الناس من يصرح به ويقول انما قصدى عناده وكسر عرضه وانى ان أخذت منه هذا المال ربما رميت به فى بئر ولا أبالى وهذا مقصوده اللدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جدا فاما المظلوم الذى ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد واسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وايذاء ففعله ليس بحرام ولكن الاولى تركه ما وجد اليه سبيلا فان ضبط اللسان فى الخصومة على حد الاعتدال متعذر والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب واذا هاج الغضب نسى المتنازع فيه وبقى الحقد بين المتخاصمين حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرته ويطلق اللسان فى عرضه فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات وأقل ما فيه تشويش خاطره حتى انه فى صلاته يشتغل بمحاجة خصمه فلا يبقى الامر على حد الواجب فالخصومة مبدأ كل شر وكذا المراء والجدال فينبغى أن لا يفتح بابه الا لضرورة وعند الضرورة ينبغى أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذر جدا فمن اقتصر على الواجب فى خصومته سلم من الاثم ولا تذم خصومته الا انه ان كان مستغنيا عن الخصومة فيما خاصم فيه لان عنده ما يكفيه فيكون تاركا للاولى ولا يكون آثما نعم أقل ما يفوته فى الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام وما ورد فيه من الثواب اذ أقل درجات طيب الكلام اظهار الموافقة ولا خشونة فى الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الذى حاصله اما تجهيل واما تكذيب

رجلى نفاء تنى عائشة المكية فقالت لى يا أبا عبيد يقال انك من أهل العلم اقبل منى كلمة لا تجالسه الا بادب والا فيمحى اسمك من ديوان القرب قال أبو عبيد وكانت من العارفات وقال ابن عطاء النفس مجبولة على سوء الادب والعبد مامور بملازمة الادب والنفس تجرى بطباعها فى ميدان المخالفة والعبد يردها بجهده الى حسن المطالبة فمن أعرض عن الجهد فقد أطلق عنان النفس وغفل عن الرعاية ومهما أعانها فهو شريكها وقال الجنيد من أعان نفسه على هواها فقد أشرك فى قتل نفسه لان العبودية ملازمة الادب والطغيان سوء الادب (أخبرنا) الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو النصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى

فان

فان من جادل غيره أو ماراه أو خاصمه فقد جهله أو كذبه فيفوت به طيب الكلام وقد قال صلى الله عليه وسلم يمكنكم من الجنة طيب الكلام واطعام الطعام وقد قال الله تعالى وقولوا للناس حسنا وقال ابن عباس رضى الله عنهما من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه السلام وان كان مجوسيا ان الله تعالى يقول واذا حييتم بتحية فحيوا باحسن منها أو ردوها وقال ابن عباس أيضا لو قال لى فرعون خيرا لرددت عليه وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فى الجنة لغرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام وروى أن عيسى عليه السلام مر به خنزير فقال مر بسلام فقيل يا روح الله أتقول هذا الخنزير فقال أكره أن أعود لسانى الشر وقال نبينا عليه السلام الكلمة الطيبة صدقة وقال اتقوا النار ولو بشق تمرة فان لم تجدوا فبكلمة طيبة وقال عمر رضى الله عنه البر شئ هين وجه طليق وكلام لين وقال بعض الحكماء الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة فى الجوارح وقال بعض الحكماء كل كلام لا يسخط ربك الا انك لا ترضى به جليسك فلا تكن به عليه بخيلا فانه لعله يعوضك منه ثواب المحسنين هذا كله فى فضل الكلام الطيب وتضاده الخصومة والمراء والجدال واللجاج فانه الكلام المستكره الموحش المؤذى للقلب المنغص للعيش المهيج للغضب الموغر للصدر نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه

(الآفة السادسة)

التقعر فى الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيبات والمقدمات وما جرت به عادة المتفاصحين المدعين للخطابة وكل ذلك من التصنع المذموم ومن التكلف الممقوت الذى قال فيه صلى الله عليه وسلم أنا وأتقياء أمتى برآء من التكلف وقال صلى الله عليه وسلم ان أبغضكم الى وأبعدكم منى مجالسا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون فى الكلام وقالت فاطمة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم يأكلون ألوان الطعام ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون فى الكلام وقال صلى الله عليه وسلم ألا هلك المتنطعون ثلاث مرات والتنطع هو التعمق والاستقصاء وقال عمر رضى الله عنه ان شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان وجاء عمرو بن سعد بن أبى وقاص الى أبيه سعد يسأله حاجة فتكلم بين يدى حاجته بكلام فقال له سعد ما كنت من حاجتك بابعد منك اليوم انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يأتى على الناس زمان يتخللون الكلام بالسنتهم كما تتخلل البقر الكلأ بالسنتها وكأنه أنكر عليه ما قدمه على الكلام من التشبيب والمقدمة المصنوعة المتكلفة وهذا أيضا من آفات اللسان ويدخل فيه كل سجع متكلف وكذلك التفاصح الخارج عن حد العادة وكذلك التكلف بالسجع فى المحاورات اذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بغرة فى الجنين فقال بعض قوم الجانى كيف ندى من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا استهل ومثل ذلك يطل فقال أسجعا كسجع الاعراب وأنكر ذلك لان أثر التكلف والتصنع بين عليه بل ينبغى أن يقتصر فى كل شئ على مقصوده ومقصود الكلام التفهيم للغرض وما وراء ذلك تصنع مذموم ولا يدخل فى هذه تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير افراط واغراب فان المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها فلرشاقة اللفظ تأثير فيه فهو لائق به فاما المحاورات التى تجرى لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجع والتشدق والاشتغال به من التكلف المذموم ولا باعث عليه الا الرياء واظهار الفصاحة والتميز بالبراعة وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ويزجر عنه

(الآفة السابعة الفحش والسب وبذاءة اللسان)

وهو مذموم ومنهى عنه ومصدره الخبث واللؤم قال صلى الله عليه وسلم اياكم والفحش فان الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن تسب قتلى بدر من المشركين فقال لا تسبوا هؤلاء فانه لا يخلص اليهم شئ مما تقولون وتؤذون الاحياء ألا ان البذاء لؤم وقال صلى الله عليه وسلم ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذى وقال صلى الله عليه وسلم الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها وقال صلى الله عليه وسلم أربعة يؤذون أهل النار فى النار على ما بهم من الاذى يسعون بين الحميم والجحيم يدعون بالويل والثبور رجل يسيل فوه قيحا ودما فيقال له ما بال الابعد قد آذانا على ما بنا من الاذى فيقول ان الابعد كان ينظر الى كل كلمة قذعة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة يا عائشة لو كان الفحش رجلا لكان

قال أنا أبو عيسى الترمذى قال ثنا قتيبة قال ثنا يحيى بن يعلى عن ناصح عن سماك عن جابر بن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لان يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدق بصاع (وروى) أيضا انه قال عليه السلام ما نحل والد ولدا من نحلة أفضل من أدب حسن (وروت) عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن موضعه ويحسن أدبه (وقال) أبو على الدقاق العبد يصل بطاعته الى الجنة وبادبه فى طاعته الى الله تعالى (قال) أبو القاسم القشيرى رحمه الله كان الاستاذ أبو على لا يستند الى شئ فكان يوما فى مجمع فاردت أن أضع وسادة خلف ظهره لانى رأيته غير مستند فتنحى عن الوسادة قليلا فتوهمت انه توقى

رجل سوء وقال صلى الله عليه وسلم البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق فيحتمل أن يراد بالبيان كشف مالا
يجوز كشفه ويحتمل أيضا المبالغة في الايضاح حتى ينتهي الى حد التكلف ويحتمل أيضا البيان في أمور الدين
وفي صفات الله تعالى فان القاء ذلك مجملا الى أسماع العوام أولى من المبالغة في بيانه اذ قد يثور من غاية البيان
فيه شكوك ووساوس فاذا أجملت بادرت القلوب الى القبول ولم تضطرب ولكن ذكره مقرونا بالبذاء يشبه أن
يكون المراد به المجاهرة بما يستحي الانسان من بيانه فان الاولى في مثله الاغماض والتغافل دون الكشف
والبيان وقال صلى الله عليه وسلم ان الله لا يحب الفاحش المتفحش الصياح في الاسواق وقال جابر بن سمرة كنت
جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم وأبي أمامي فقال صلى الله عليه وسلم ان الفحش والتفاحش ليسا من الاسلام
في شيء وان أحسن الناس اسلاما أحاسنهم أخلاقا وقال ابراهيم بن ميسرة يقال يؤتى بالفاحش المتفحش يوم
القيامة في صورة كلب أو في جوف كلب وقال الاحنف بن قيس ألا أخبركم بادوأ الداء اللسان البذي والخلق الدني
فهذه مذمة الفحش فاما حده وحقيقته فهو التعبير عن الامور المستقبحة بالعبارات الصريحة وأكثر ذلك يجري في
ألفاظ الوقاع وما يتعلق به فان لاهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه وأهل الصلاح يتحاشون
عنها بل يكنون عنها او يدلون عليها بالرموز فيذكرون ما يقاربها او يتعلق بها وقال ابن عباس ان الله حي كريم
يعفو ويكنو كنى باللمس عن الجماع فالمسيس واللمس والدخول والصحبة كنايات عن الوقاع وليست بفاحشة
وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويستعمل اكثرها في الشتم والتعيير وهذه العبارات متفاوتة في الفحش
وبعضها أفحش من بعض وربما اختلف ذلك بعادة البلاد وأوائلها مكروهة وأواخرها محظورة وبينهما درجات
يتردد فيها وليس يختص هذا بالوقاع بل الكناية بقضاء الحاجة عن البول والغائط أولى من لفظ التغوط والخراء
وغيرهما فان هذا أيضا مما يخفى وكل ما يخفى يستحيا منه فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فانه فحش وكذلك
يستحسن في العادة الكناية عن النساء فلا يقال قالت زوجتك كذا بل يقال قيل في الحجرة أو من وراء الستر أو
قالت أم الاولاد فالتلطف في هذه الالفاظ محمود والتصريح فيها يفضي الى الفحش وكذلك من به عيوب يستحيي
منها فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص والقرع والبواسير بل يقال العارض الذي يشكوه وما يجري
مجراه فالتصريح بذلك داخل في الفحش وجميع ذلك من آفات اللسان قال العلاء بن هرون كان عمر بن عبد
العزيز يتحفظ في منطقه فخرج تحت ابطه خراج فأتيناه نسأله لنرى ما يقول فقلنا من أين خرج فقال من باطن
اليد والباعث على الفحش اما قصد الايذاء واما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ومن
عادتهم السب وقال اعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني فقال عليك بتقوى الله وان امرؤ عيرك بشيء يعلمه
فيك فلا تعيره بشيء تعلمه فيه يكن وباله عليه وأجره لك ولا تسبن شيأ قال فما سببت شيأ بعده وقال عياض بن حمار
قلت يا رسول الله ان الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل علي من بأس ان انتصر منه فقال المتسابان شيطانان
يتعاويان ويتهارجان وقال صلى الله عليه وسلم سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر وقال صلى الله عليه وسلم المستبان
ما قالا فعلى البادئ منهما حتى يعتدي المظلوم وقال صلى الله عليه وسلم ملعون من سب والديه وفي رواية من أكبر
الكبائر ان يسب الرجل والديه قالوا يا رسول الله كيف يسب الرجل والديه قال يسب أبا الرجل فيسب الآخر أباه

(الآفة الثامنة اللعن)

اما لحيوان أو جماد أو انسان وكل ذلك مذموم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن ليس بلعان وقال صلى الله
عليه وسلم لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بجهنم وقال حذيفة ما تلاعن قوم قط الا حق عليهم القول وقال عمران
ابن حصين بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره اذا امرأة من الانصار على ناقة لها فضجرت منها
فلعنتها فقال صلى الله عليه وسلم خذوا ما عليها وأعروها فانها ملعونة قال فكأني أنظر الى تلك الناقة تمشي بين
الناس لا يتعرض لها أحد وقال أبو الدرداء ما لعن أحد الارض الا قالت لعن الله أعصانا لله وقالت عائشة رضي الله
عنها سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت اليه وقال يا أبا بكر أصديقين ولعانين
كلا ورب الكعبة مرتين أو ثلاثا فاعتق أبو بكر يومئذ رقيقه وأتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال لا أعود وقال

الوسادة لانه لم يكن عليها
خرقة أو سجادة فقال
لا أريد الاستناد فتأملت
بعد ذلك فعلمت انه
لا يستند الى شيء أبدا
(وقال) الجلالي البصري
التوحيد يوجب الايمان
فمن لا ايمان له لا توحيد
له والايمان يوجب
الشريعة فمن لا شريعة
له لا ايمان له ولا توحيد
له والشريعة توجب
الادب فمن لا أدب له
لا شريعة له ولا ايمان له
ولا توحيد (وقال) بعضهم
الزم الادب ظاهرا وباطنا
فما أساء أحد الادب
ظاهرا الا عوقب
ظاهرا وما أساء أحد
الادب باطنا الا عوقب
باطنا قال بعضهم هو
غلام الدقاق نظرت الى
غلام أمرد فنظر الى
الدقاق وأنا انظر اليه
فقال لتجدن غبها ولو بعد
سنين قال فوجدت غبها
بعد عشرين سنة ان
أنسيت القرآن (وقال)
سري صليت وردي ليلة
من الليالي ومددت رجلي

رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اللعانين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة وقال أنس كان رجل يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلعن بعيره فقال صلى الله عليه وسلم يا عبد الله لا تسر معنا على بعير ملعون وقال ذلك انكارا عليه واللعن عبارة عن الطرد والابعاد من الله تعالى وذلك غير جائز الا على من اتصف بصفة تبعده من الله عز وجل وهو الكفر والظلم بان يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين وينبغي أن يتبع فيه لفظ الشرع فان في اللعنة خطرا لانه حكم على الله عز وجل بانه قد أبعد الملعون وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى ويطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أطلعه الله عليه والصفات المقتضية للعن ثلاثة الكفر والبدعة والفسق وللعن في كل واحدة ثلاث مراتب الاولى اللعن بالوصف الاعم كقولك لعنة الله على الكافرين والمبتدعين والفسقة الثانية اللعن باوصاف أخص منه كقولك لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى القدرية والخوارج والروافض أو على الزناة والظلمة وآكلي الربا وكل ذلك جائز ولكن في لعن أوصاف المبتدعة خطر لان معرفة البدعة غامضة ولم يرد فيه لفظ مأثور فينبغي أن يمنع منه العوام لان ذلك يستدعي المعارضة بمثله ويثير نزاعا بين الناس وفسادا الثالثة اللعن للشخص المعين وهذا فيه خطر كقولك زيد لعنه الله وهو كافر أو فاسق أو مبتدع والتفصيل فيه ان كل شخص ثبتت لعنته شرعا فتجوز لعنته كقولك فرعون لعنه الله وأبو جهل لعنه الله لانه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعا أما شخص بعينه في زماننا كقولك زيد لعنه الله وهو يهودي مثلا فهذا فيه خطر فانه ربما يسلم فيموت مقربا عند الله فكيف يحكم بكونه ملعونا فان قلت يلعن لكونه كافرا في الحال كما يقال للمسلم رحمه الله لكونه مسلما في الحال وان كان يتصور أن يرتد فاعلم أن معنى قولنا رحمه الله أي ثبته الله على الاسلام الذي هو سبب الرحمة وعلى الطاعة ولا يمكن أن يقال ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة فان هذا سؤال للكفر وهو في نفسه كفر بل الجائز أن يقال لعنه الله ان مات على الكفر ولا لعنه الله ان مات على الاسلام وذلك غيب لا يدرى والمطلق متردد بين الجهتين ففيه خطر وليس في ترك اللعن خطر واذا عرفت هذا في الكافر فهو في زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى فلعن الاعيان فيه خطر لان الاعيان تتقلب في الاحوال الا من أعلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر ولذلك عين قوما باللعن فكان يقول في دعائه على قريش اللهم عليك بابي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وذكر جماعة قتلوا على الكفر ببدر حتى ان من لم يعلم عاقبته كان يلعنه فنهي عنه اذ روي انه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهرا فنزل قوله تعالى ليس لك من الامر شئ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون يعني انهم ربما يسلمون فمن أين تعلم انهم ملعونون وكذلك من بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه ان لم يكن فيه أذى على مسلم فان كان لم يجز كما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر رضي الله عنه عن قبر مر به وهو يريد الطائف فقال هذا قبر رجل كان عاتيا على الله و رسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه عمرو بن سعيد وقال يا رسول الله هذا قبر رجل كان أطعم للطعام وأضرب للهام من أبي قحافة فقال أبو بكر يكلمني هذا يا رسول الله بمثل هذا الكلام فقال صلى الله عليه وسلم اكفف عن أبي بكر فانصرف ثم أقبل على أبي بكر فقال يا أبا بكر اذا ذكرتم الكفار فعمموا فانكم اذا خصصتم غضب الابناء للآباء فكف الناس عن ذلك وشرب نعيمان الخمر فحد مرات في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به فقال صلى الله عليه وسلم لا تكن عونا للشيطان على أخيك وفي رواية لا تقل هذا فانه يحب الله و رسوله فنهاه عن ذلك وهذا يدل على أن لعن فاسق بعينه غير جائز وعلى الجملة ففي لعن الاشخاص خطر فليجتنب ولا خطر في السكوت عن لعن ابليس مثلا فضلا عن غيره فان قيل هل يجوز لعن يزيد لانه قاتل الحسين أو آمر به قلنا هذا لم يثبت أصلا فلا يجوز أن يقال انه قتله أو أمر به ما لم يثبت فضلا عن اللعنة لانه لا تجوز نسبة مسلم الى كبيرة من غير تحقيق نعم يجوز أن يقال قتل ابن ملجم عليا وقتل أبو لؤلؤة عمر رضي الله عنهم فان ذلك ثبت متواترا فلا يجوز أن يرمى مسلم بفسق وكفر من غير تحقيق قال صلى الله عليه وسلم لا يرمي رجل رجلا بالكفر ولا يرميه بالفسق الا ارتدت عليه ان لم يكن صاحبه كذلك وقال صلى الله عليه وسلم ما شهد رجل على رجل بالكفر الا باء به أحدهما ان كان كافرا فهو كما

في المحراب فنوديت ياسري هكذا تجالس الملوك فضممت رجلي ثم قلت وعزتك لا مددت رجلي أبدا وقال الجنيد فبقي ستين سنة ما مد رجله ليلا ولا نهارا (قال عبد الله) بن المبارك من تهاون بالادب عوقب بحرمان السنن ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة (وسئل السري) عن مسئلة في الصبر فجعل يتكلم فيها فدب على رجله عقرب فجعلت تضربه بابرتها فقيل له ألا تدفعها عن نفسك قال أستحي من الله أن أتكلم في حال ثم أخالف ما أعلم فيه وقيل من أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال زويت لي الارض فرأيت مشارقها ومغاربها ولم يقل رأيت (وقال) أنس بن مالك الادب في العمل علامة قبول

قال وان لم يكن كافرا فقد كفر بتكفيره اياه وهذا معناه أن يكفره وهو يعلم انه مسلم فان ظن انه كافر ببدعة أو غيرها كان مخطئا لا كافرا وقال معاذ قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهاك أن تشتم مسلما أو تعصى اماما عادلا والتعرض للاموات أشد قال مسروق دخلت على عائشة رضى الله عنها فقالت ما فعل فلان لعنه الله قلت توفى قالت رحمه الله قلت وكيف هذا قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسبوا الاموات فانهم قد أفضوا الى ما قدموا وقال عليه السلام لا تسبوا الاموات فتؤذوا به الاحياء وقال عليه السلام أيها الناس احفظونى فى أصحابى واخوانى وأصهارى ولا تسبوهم أيها الناس اذا مات الميت فاذكروا منه خيرا فان قيل فهل يجوز أن يقال قاتل الحسين لعنه الله أو الآمر بقتله لعنه الله قلنا الصواب أن يقال قاتل الحسين ان مات قبل التوبة لعنه الله لانه يحتمل أن يموت بعد التوبة فان وحشيا قاتل حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله وهو كافر ثم تاب عن الكفر والقتل جميعا ولا يجوز أن يلعن والقتل كبيرة ولا تنتهى الى رتبة الكفر فاذا لم يقيد بالتوبة وأطلق كان فيه خطر وليس فى السكوت خطر فهو أولى وانما أوردناه هذا لتهاون الناس باللعنة واطلاق اللسان بها والمؤمن ليس بلعان فلا ينبغى أن يطلق اللسان باللعنة الا على من مات على الكفر أو على الاجناس المعروفين باوصافهم دون الاشخاص المعينين فالاشتغال بذكر الله أولى فان لم يكن ففى السكوت سلامة قال مكى بن ابراهيم كنا عند ابن عون فذكروا بلال بن أبى بردة فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه وابن عون ساكت فقالوا يا ابن عون انما نذكره لما ارتكب منك فقال انما هما كلمتان تخرجان من صحيفتى يوم القيامة لا اله الا الله ولعن الله فلانا فلأن يخرج من صحيفتى لا اله الا الله أحب الى من أن يخرج منها لعن الله فلانا وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصنى فقال أوصيك أن لا تكون لعانا وقال ابن عمر ان أبغض الناس الى الله كل طعان لعان وقال بعضهم لعن المؤمن يعدل قتله وقال حماد بن زيد بعد أن روى هذا لو قلت انه مرفوع لم أبال وعن أبى قتادة قال كان يقال من لعن مؤمنا فهو مثل أن يقتله وقد نقل ذلك حديثا مرفوعا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقرب من اللعن الدعاء على الانسان بالشر حتى الدعاء على الظالم كقول الانسان مثلا لا صحح الله جسمه ولا سلمه الله وما يجرى مجراه فان ذلك مذموم وفى الخبر ان المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة

(الآفة التاسعة)

الغناء والشعر وقد ذكرنا فى كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل فلا نعيده وأما الشعر فكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح الا أن التجرد له مذموم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعرا وعن مسروق انه سئل عن بيت من الشعر فكرهه فقيل له فى ذلك فقال أنا أكره أن يوجد فى صحيفتى شعر وسئل بعضهم عن شئ من الشعر فقال اجعل مكان هذا ذكرا فان ذكر الله خير من الشعر وعلى الجملة فانشاد الشعر ونظمه ليس بحرام اذا لم يكن فيه كلام مستكره قال صلى الله عليه وسلم ان من الشعر لحكمة نعم مقصود الشعر المدح والذم والتشبيب وقد يدخله الكذب وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت الانصارى بهجاء الكفار والتوسع فى المدح فانه وان كان كذبا فانه لا يلتحق فى التحريم بالكذب كقول الشاعر

ولو لم يكن فى كفه غير روحه * لجاد بها فليتق الله سائله

فان هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء فان لم يكن صاحبه سخيا كان كاذبا وان كان سخيا فالمبالغة من صنعة الشعر فلا يقصد منه أن يعتقد صورته وقد أنشدت أبيات بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تتبعت لوجد فيها مثل ذلك فلم يمنع منه قالت عائشة رضى الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله وكنت جالسة أغزل فنظرت اليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نورا قالت فبهت فنظر الى فقال مالك بهت فقلت يا رسول الله نظرت اليك فجعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نورا ولو رآك أبو بكر الهذلى لعلم انك أحق بشعره قال وما يقول يا عائشة أبو بكر الهذلى قلت يقول هذين البيتين

ومبرأ من كل غبر حيضة * وفساد مرضعة وداء معضل

واذا نظرت الى أسرة وجهه * برقت كبرق العارض المتهلل

العمل (وقال) ابن عطاء الادب الوقوف مع المستحسنات قيل ما معناه قال أن تعامل الله سرا وعلنا بالادب فاذا كنت كذلك كنت أديبا وان كنت أعجميا ثم أنشد

اذا نطقت جاءت بكل ملاحة * وان سكتت جاءت بكل مليح

وقال الجريرى منذ عشرين سنة ما مددت رجلى فى الخلوة فان حسن الادب مع الله أحسن وأولى * وقال أبو على ترك الادب موجب للطرد فمن أساء الادب على البساط رد الى الباب ومن أساء الادب على الباب رد الى سياسة الدواب

(الباب الثانى والثلاثون فى آداب الحضرة الالهية لاهل القرب)*

كل الآداب تتلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه عليه السلام مجمع الآداب ظاهرا وباطنا وأخبر

قال

قال فوضع صلى الله عليه وسلم ما كان بيده وقام الى وقبل ما بين عيني وقال جزاك الله خيرا يا عائشة ما سررت مني كسروري منك ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم حنين أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص فاندفع يشكو في شعر له وفي آخره

وما كان بدر ولا حابس * يسودان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرئ منهما * ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عني لسانه فذهب به أبو بكر الصديق رضي الله عنه حتى اختار مائة من الابل ثم رجع وهو من أرضى الناس فقال له صلى الله عليه وسلم أتقول في الشعر فجعل يعتذر اليه ويقول بابي أنت وأمي اني لاجد للشعر دبيبا على لساني كدبيب النمل ثم يقرصني كما يقرص النمل فلا أجد بدا من قول الشعر فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال لا تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين

(الآفة العاشرة المزاح)

وأصله مذموم منهي عنه الا قدرا يسيرا يستثنى منه قال صلى الله عليه وسلم لا تمار أخاك ولا تمازحه فان قلت المماراة فيها ايذاء لان فيها تكذيبا للاخ والصديق أو تجهيلا له وأما المزاح فطايبة وفيه انبساط وطيب قلب فلم ينهى عنه فاعلم أن المنهي عنه الافراط فيه أو المداومة عليه أما المداومة فلانه اشتغال باللعب والهزل واللعب مباح ولكن المواظبة عليه مذمومة وأما الافراط فيه فانه يورث كثرة الضحك وكثرة الضحك تميت القلب وتورث الضغينة في بعض الاحوال وتسقط المهابة والوقار فما يخلو عن هذه الامور فلا يذم كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اني لامزح ولا أقول الاحقا الا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول الاحقا وأما غيره اذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوي بها في النار أبعد من الثريا وقال عمر رضي الله عنه من كثر ضحكه قلت هيبته ومن مزح استخف به ومن أكثر من شئ عرف به ومن كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه قل حياؤه ومن قل حياؤه قل ورعه ومن قل ورعه مات قلبه ولان الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة قال صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا وقال رجل لاخيه يا أخي هل أتاك أنك وارد النار قال نعم قال فهل أتاك أنك خارج منها قال لا قال ففيم الضحك قيل فما رؤي ضاحكا حتى مات وقال يوسف بن أسباط أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك وقيل أقام عطاء السلمي أربعين سنة لم يضحك ونظر وهيب بن الورد الى قوم يضحكون في عيد فطر فقال ان كان هؤلاء قد غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين وان كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين وكان عبد الله بن أبي يعلى يقول أتضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار وقال ابن عباس من أذنب ذنبا وهو يضحك دخل النار وهو يبكي وقال محمد بن واسع اذا رأيت في الجنة رجلا يبكي ألست تعجب من بكائه قيل بلى قال فالذي يضحك في الدنيا ولا يدري الى ماذا يصير هو أعجب منه فهذه آفة الضحك والمذموم منه أن يستغرق ضحكا والمحمود منه التبسم الذي ينكشف فيه السن ولا يسمع له صوت وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال القاسم مولى معاوية أقبل اعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم على قلوص له صعب فسلم فجعل كلما دنا من النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله يفر به فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون منه ففعل ذلك مرارا ثم وقصه فقتله فقيل يا رسول الله ان الاعرابي قد صرعه قلوصه وقد هلك فقال نعم وأفواهكم ملأى من دمه وأما أداء المزاح الى سقوط الوقار فقد قال عمر رضي الله عنه من مزح استخف به وقال محمد بن المنكدر قالت لي أمي يا بني لا تمازح الصبيان فتهون عندهم وقال سعيد بن العاص لابنه يا بني لا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا الدنيء فيجترئ عليك وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى اتقوا الله واياكم والمزاح فانه يورث الضغينة ويجر الى القبيح تحدثوا بالقرآن وتجالسوا به فان ثقل عليكم فحديث حسن من حديث الرجال وقال عمر رضي الله عنه أتدرون لم سمي المزاح مزاحا قالوا لا قال لانه أزاح صاحبه عن الحق وقيل لكل شئ بذر وبذر العداوة المزاح ويقال المزاح مسلبة للنهى مقطعة للاصدقاء فان قلت قد نقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكيف ينهى عنه

الله تعالى عن حسن أدبه في الحضرة بقوله تعالى ما زاغ البصر وما طغى وهذه غامضة من غوامض الآداب اختص بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر الله تعالى عن اعتدال قلبه المقدس في الاعراض والاقبال أعرض عما سوى الله وتوجه الى الله وترك وراء ظهره الارضين والدار العاجلة بحظوظها والسموات والدار الآخرة بحظوظها فما التفت الى ما أعرض عنه ولا لحقه الاسف على الغائب في اعراضه قال الله تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم فهذا الخطاب للعموم وما زاغ البصر اخبار عن حال النبي عليه السلام بوصف خاص من معنى ما خاطب به العموم فكان ما زاغ البصر حاله في طرف الاعراض وفي طرف الاقبال تلقى ما ورد عليه في مقام قاب قوسين بالروح والقلب

فاقول ان قدرت على ماقدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن تمزح ولا تقول الاحقا ولا تؤذى
قلبا ولا تفرط فيه وتقتصر عليه أحيانا على الندور فلا حرج عليك فيه ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الانسان
المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه ثم يتمسك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج
ينظر اليهم والى رقصهم ويتمسك بان رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لعائشة فى النظر الى رقص الزنوج
فى يوم عيد وهو خطأ اذ من الصغائر مايصير كبيرة بالاصرار ومن المباحات مايصير صغيرة بالاصرار فلا
ينبغى أن يغفل عن هذا نعم روى أبو هريرة انهم قالوا يارسول الله انك تداعبنا فقال انى وان داعبتكم لاأقول
الاحقا وقال عطاء ان رجلا سال ابن عباس أ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح فقال نعم قال فما كان
مزاحه قال كان مزاحه انه صلى الله عليه وسلم كسا ذات يوم امرأة من نسائه ثوبا واسعا فقال لها البسيه
واحمدى وجرى منه ذيلا كذيل العروس وقال أنس ان النبى صلى الله عليه وسلم كان من أفكه الناس مع
نسائه وروى أنه كان كثير التبسم وعن الحسن قال أتت عجوز الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال لها صلى الله
عليه وسلم لا يدخل الجنة عجوز فبكت فقال انك لست بعجوز يومئذ قال الله تعالى انا أنشأناهن انشاء فجعلناهن
أبكارا وقال زيد بن أسلم ان امرأة يقال لها أم أيمن جاءت الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت ان زوجى يدعوك
قال ومن هو أهو الذى بعينه بياض قالت والله ما بعينه بياض فقال بلى ان بعينه بياضا فقالت لا والله فقال
صلى الله عليه وسلم مامن أحد الا وبعينه بياض وأراد به البياض المحيط بالحدقة وجاءت امرأة أخرى فقالت
يارسول الله احملنى على بعير فقال بل نحملك على ابن البعير فقالت ما أصنع به انه لا يحملنى فقال صلى الله عليه
وسلم مامن بعير الا وهو ابن بعير فكان يمزح به وقال أنس كان لابى طلحة ابن يقال له أبو عمير وكان رسول الله
صلى الله عليه وسلم يأتيهم ويقول يا أبا عمير مافعل النغير لنغير كان يلعب به وهو فرخ العصفور وقالت عائشة
رضى الله عنها خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر فقال تعالى حتى أسابقك فشددت درعى على
بطنى ثم خططنا خطا فقمنا عليه واستبقنا فسبقنى وقال هذه مكان ذى المجاز وذلك انه جاء يوما ونحن بذى المجاز
وأنا جارية قد بعثنى أبى بشئ فقال اعطينيه فابيت وسعيت وسعى فى أثرى فلم يدركنى وقالت أيضا سابقنى رسول
الله صلى الله عليه وسلم فسبقته فلما حملت اللحم سابقنى فسبقنى وقال هذه بتلك وقالت أيضا رضى الله عنها كان
عندى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسودة بنت زمعة فصنعت خزيرا وجئت به فقلت لسودة كلى فقالت
لا أحبه فقلت والله لتأكلن أو لالطخن به وجهك فقالت ما أنا بذائقته فاخذت بيدى من الصحفة شيأ منه فلطخت
به وجهها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بينى وبينها فخفض لها رسول الله ركبتيه لتستقيد منى فتناولت
من الصحفة شيأ فمسحت به وجهى وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك وروى أن الضحاك بن سفيان
الكلابى كان رجلا دميما قبيحا فلما بايعه النبى صلى الله عليه وسلم قال ان عندى امرأتين أحسن من هذه
الحميراء وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب أفلا أنزل لك عن احداهما فتتزوجها وعائشة جالسة تسمع فقالت أهى
أحسن أم أنت فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سؤالها اياه لانه كان
دميما وروى علقمة عن أبى سلمة أنه كان صلى الله عليه وسلم يدلع لسانه للحسن بن على عليهما السلام فيرى
الصبى لسانه فيهش له فقال له عيينة بن بدر الفزارى والله ليكونن لى الابن قد تزوج وبقل وجهه وماقبلته قط فقال
صلى الله عليه وسلم ان من لا يرحم لا يرحم فاكثر هذه المطايبات منقولة مع النساء والصبيان وكان ذلك منه صلى
الله عليه وسلم معالجة لضعف قلوبهم من غير ميل الى هزل وقال صلى الله عليه وسلم مرة لصهيب وبه رمد وهو يأكل
تمرا أتأكل التمر وأنت رمد فقال انما آكل بالشق الآخر يارسول الله فتبسم صلى الله عليه وسلم قال بعض الرواة
حتى نظرت الى نواجذه وروى ان خوات بن جبير الانصارى كان جالسا الى نسوة من بنى كعب بطريق مكة فطلع
عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا عبد الله مالك مع النسوة فقال يفتلن ضفيرا لجمل لى شرود قال فمضى
رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته ثم عاد فقال يا أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد قال فسكت واستحييت
وكنت بعد ذلك أتفرر منه كلما رأيته حياء منه حتى قدمت المدينة وبعد ما قدمت المدينة قال فرآنى فى المسجد

ثم فر من الله تعالى حياء
منه وهيبة واجلالا
وطوى نفسه بقراره فى
مطاوى انكساره
وافتقاره لكيلا تنبسط
النفس فتطغى فان
الطغيان عند
الاستغناء وصف
النفس قال الله تعالى كلا
ان الانسان ليطغى أن
رآه استغنى والنفس
عند المواهب الواردة
على الروح والقلب تسترق
السمع ومتى نالت قسطا
من المنح استغنت وطغت
والطغيان يظهر منه
فرط البسط والافراط فى
البسط يسد باب المزيد
وطغيان النفس لضيق
وعائها عن المواهب
فموسى عليه السلام صح
له فى الحضرة أحد طرفى
مازاغ البصر وما التفت
الى مافاته وماطغى متاسفا
لحسن أدبه ولكن امتلا
من المنح واسترقت النفس
السمع وتطلعت الى
القسط والحظ فلما
حظيت النفس استغنت
وطفح غليانها وصل اليها
وضاق نطاقها فتجاوز

يوما أصلى فجلس الى فطوات فقال لا تطول فانى أنتظرك فلما سلمت قال يا أبا عبدالله أما ترك ذلك الجل الشراد بعد قال فسكت واستحييت فقام وكنت بعد ذلك أتفرر منه حتى لحقنى يوما وهو على حمار وقد جعل رجليه فى شق واحد فقال أبا عبدالله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد فقلت والذى بعثك بالحق ما شرد منذ أسلمت قال الله أكبر الله أكبر اللهم اهد أبا عبدالله قال فحسن اسلامه وهداه الله وكان نعيمان الانصارى رجلا مزاحا فكان يشرب الخمر فى المدينة فيؤتى به الى النبى صلى الله عليه وسلم فيضربه بنعله ويأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم فلما كثر ذلك منه قال له رجل من الصحابة لعنك الله فقال له النبى صلى الله عليه وسلم لا تفعل فانه يحب الله ورسوله وكان لا يدخل المدينة رسل ولا طرفة الا اشترى منها ثم أتى بها النبى صلى الله عليه وسلم فيقول يارسول الله هذا قد اشتريته لك وأهديته لك فاذا جاء صاحبها يتقاضاه بالثمن جاء به الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال يارسول الله أعطه ثمن متاعه فيقول له صلى الله عليه وسلم أولم تهده لنا فيقول يارسول الله انه لم يكن عندى ثمنه وأحببت أن تأكل منه فيضحك النبى صلى الله عليه وسلم ويأمر لصاحبه بثمنه فهذه مطايبات يباح مثلها على الندور لا على الدوام والمواظبة عليها هزل مذموم وسبب للضحك المميت للقلب

(الآفة الحادية عشرة)

السخرية والاستهزاء وهذا محرم مهما كان مؤذيا كما قال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول وقد يكون بالاشارة والايماء واذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة وفيه معنى الغيبة قالت عائشة رضى الله عنها حاكيت انسانا فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم والله ما أحب انى حاكيت انسانا ولى كذا وكذا وقال ابن عباس فى قوله تعالى يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ان الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن والكبيرة القهقهة بذلك وهذا اشارة الى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر وعن عبدالله بن زمعة أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فوعظهم فى ضحكهم من الضرطة فقال علام يضحك أحدكم مما يفعل وقال صلى الله عليه وسلم ان المستهزئين بالناس يفتح لاحدهم باب من الجنة فيقال هلم هلم فيجىء بكربه وغمه فاذا أتاه أغلق دونه ثم يفتح له باب آخر فيقال هلم هلم فيجىء بكربه وغمه فاذا أتاه أغلق دونه فما زال كذلك حتى ان الرجل ليفتح له الباب فيقال له هلم هلم فلا يأتيه وقال معاذ بن جبل قال النبى صلى الله عليه وسلم من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله وكل هذا يرجع الى استحقار الغير والضحك عليه استهانة به واستصغارا له وعليه نبه قوله تعالى عسى أن يكونوا خيرا منهم أى لا تستحقره استصغارا فلعله خير منك وهذا انما يحرم فى حق من يتأذى به فأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يسخر به كانت السخرية فى حقه من جملة المزاح وقد سبق ما يذم منه وما يمدح وانما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون وذلك تارة بان يضحك على كلامه اذا تخبط فيه ولم ينتظم أو على أفعاله اذا كانت مشوشة كالضحك على خطه وعلى صنعته أو على صورته وخلقته اذا كان قصيرا أو ناقصا لعيب من العيوب فالضحك من جميع ذلك داخل فى السخرية المنهى عنها

(الآفة الثانية عشرة)

افشاء السر وهو منهى عنه لما فيه من الايذاء والتهاون بحق المعارف والاصدقاء قال النبى صلى الله عليه وسلم اذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهى أمانة وقال مطلق الحديث بينكم أمانة وقال الحسن ان من الخيانة أن تحدث بسر أخيك ويروى أن معاوية رضى الله عنه أسر الى الوليد بن عتبة حديثا فقال لابيه يا أبت ان أمير المؤمنين أسر الى حديثا وما أراه يطوى عنك ما بسطه الى غيرك قال فلا تحدثنى به فان من كتم سره كان الخيار اليه ومن أفشاه كان الخيار عليه قال فقلت يا أبت وان هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنه فقال لا والله يا بنى ولكن أحب أن لا تذلل لسانك باحاديث السر قال فاتيت معاوية فاخبرته فقال يا وليد أعتقك أبوك من رق الخطأ فافشاء السر خيانة وهو حرام اذا كان فيه اضرار ولؤم ان لم يكن فيه اضرار وقد ذكرنا ما يتعلق بكتمان السر فى كتاب آداب الصحبة فاغنى عن الاعادة

(الآفة الثالثة عشرة)

الحد من فرط البسط وقال أرنى أنظر اليك فمنع ولم يطلق فى فضاء المزيد وظهر الفرق بين الحبيب والكليم عليهما السلام وهذه دقيقة لارباب القرب والاحوال السنية فكل قبض يوجد عقوبة لان كل قبض سد فى وجه باب الفتوح والعقوبة بالقبض أوجبت الافراط فى البسط ولو حصل الاعتدال فى البسط ما وجبت العقوبة بالقبض والاعتدال فى البسط بايقاف النازل من المنح على الروح والقلب والايقاف على الروح والقلب بما ذكرناه من حال النبى عليه السلام من تغييب النفس فى مطاوى الانكسار فذلك الفرار من الله الى الله وهو غاية الادب حظى به رسول الله عليه الصلاة والسلام فما تقى بل بالقبض فدام مزيده وكان قاب قوسين أو أدنى ويشاكل الشرح الذى شرحناه قول أبى

الوعد الكاذب فان اللسان سباق الى الوعد ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفا وذلك من أمارات النفاق قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود وقال صلى الله عليه وسلم العدة عطية وقال صلى الله عليه وسلم الوأى مثل الدين أو أفضل والوأى الوعد وقد أثنى الله تعالى على نبيه اسمعيل عليه السلام فى كتابه العزيز فقال انه كان صادق الوعد قيل انه واعد انسانا فى موضع فلم يرجع اليه ذلك الانسان بل نسى فبقى اسمعيل اثنين وعشرين يوما فى انتظاره ولما حضرت عبد الله بن عمر الوفاة قال انه كان خطب الى ابنتى رجل من قريش وقد كان منى اليه شبه الوعد فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق أشهدكم أنى قد زوجته ابنتى وعن عبد الله بن أبى الخنساء قال بايعت النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وبقيت له بقية فواعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك فنسيت يومى والغد فاتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه فقال يا فتى لقد شققت على أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك وقيل لابراهيم الرجل يواعد الرجل الميعاد فلا يجىء قال ينتظره الى أن يدخل وقت الصلاة التى تجىء وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا وعد وعدا قال عسى وكان ابن مسعود لا يعد وعدا الا و يقول ان شاء الله وهو الاولى ثم اذا فهم مع ذلك الجزم فى الوعد فلا بد من الوفاء الا أن يتعذر فان كان عند الوعد عازما على أن لا يفى فهذا هو النفاق وقال أبو هريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه فهو منافق وان صام وصلى و زعم انه مسلم اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع من كن فيه كان منافقا ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر وهذا ينزل على من وعد وهو على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر فاما من عزم على الوفاء فعن له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقا وان جرى عليه ما هو صورة النفاق ولكن ينبغى أن يحترز من صورة النفاق أيضا كما يحترز من حقيقته ولا ينبغى أن يجعل نفسه معذورا من غير ضرورة حاجزة فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما فاتى بثلاثة من السبى فاعطى اثنين وبقى واحد فاتت فاطمة رضى الله عنها تطلب منه خادما وتقول ألا ترى أثر الرحى بيدى فذكر موعده لابى الهيثم فجعل يقول كيف بوعدى لابى الهيثم فآثره به على فاطمة لما كان قد سبق من موعده له مع انها كانت تدير الرحى بيدها الضعيفة ولقد كان صلى الله عليه وسلم جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل من الناس فقال ان لى عندك موعدا يا رسول الله قال صدقت فاحتكم ما شئت فقال احتكم ثمانين ضائنة وراعيها قال هى لك وقال احتكمت يسيرا ولصاحبة موسى عليه السلام التى دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك وأجزل حكما منك حين حكمها موسى عليه السلام فقالت حكمى أن تردنى شابة وأدخل معك الجنة قيل فكان الناس يضعفون ما احتكم به حتى جعل مثلا فقيل أشح من صاحب الثمانين والراعى وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل وفى نيته أن يفى وفى لفظ آخر اذا وعد الرجل أخاه وفى نيته أن يفى فلم يجد فلا اثم عليه

(الآفة الرابعة عشرة)

الكذب فى القول واليمين وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب قال اسمعيل بن واسط سمعت أبا بكر الصديق رضى الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أول ثم بكى وقال اياكم والكذب فانه مع الفجور وهما فى النار وقال أبو أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الكذب باب من أبواب النفاق وقال الحسن كان يقال ان من النفاق اختلاف السر والعلانية والقول والعمل والمدخل والمخرج وان الاصل الذى بنى عليه النفاق الكذب وقال عليه السلام كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له به كاذب وقال ابن مسعود قال النبى صلى الله عليه وسلم لا يزال العبد يكذب و يتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجلين يتبايعان شاة و يتحالفان يقول أحدهما والله لا أنقصك من كذا وكذا و يقول الآخر والله لا أزيدك على كذا وكذا فمر بالشاة وقد اشتراها أحدهما فقال أوجب أحدهما بالاثم والكفارة وقال عليه السلام الكذب ينقص الرزق وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان التجار هم الفجار فقيل يا رسول الله أليس قد أحل الله البيع قال نعم ولكنهم

العباس ابن عطاء فى قوله تعالى ما زاغ البصر وما طغى قال لم يره بطغيان عمل بل رآه على شرط اعتدال القوى وقال سهل بن عبد الله التسترى لم يرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى شاهد نفسه ولا الى مشاهدتها وانما كان مشاهدا بكليته لربه يشاهد ما يظهر عليه من الصفات التى أوجبت الثبوت فى ذلك المحل وهذا الكلام لمن اعتبر موافق لما شرحناه يرمز فى ذلك عن سهل بن عبد الله ويؤيد ذلك أيضا ما أخبرنا به شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى اجازة قال أنا الشيخ العالم عصام الدين أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور الصفار النيسابورى قال أنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازى قال أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى قال سمعت أبا نصر بن عبد الله بن على السراج

يحلفون فيأثمون ويحدثون فيكذبون وقال صلى الله عليه وسلم ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر اليهم المنان بعطيته والمنفق سلعته بالحلف الفاجر والمسبل ازاره وقال صلى الله عليه وسلم ما حلف حالف بالله فادخل فيها مثل جناح بعوضة الا كانت نكتة فى قلبه الى يوم القيامة وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة يحبهم الله رجل كان فى فئة فنصب نحره حتى يقتل أو يفتح الله عليه وعلى أصحابه ورجل كان له جار سوء يؤذيه فصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظعن ورجل كان معه قوم فى سفر أو سرية فاطالوا السرى حتى أعجبهم أن يمسوا الارض فنزلوا فتنحى يصلى حتى يوقظ أصحابه للرحيل وثلاثة يشنأهم الله التاجر أو البياع الحلاف والفقير المختال والبخيل المنان وقال صلى الله عليه وسلم ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له وويل له وقال صلى الله عليه وسلم رأيت كأن رجلا جاءنى فقال لى قم فقمت معه فاذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس بيد القائم كلوب من حديد يلقمه فى شدق الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمده فاذا مده رجع الآخر كما كان فقلت للذى أقامنى ما هذا فقال هذا رجل كذاب يعذب فى قبره الى يوم القيامة وعن عبد الله بن جراد قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله هل يزنى المؤمن قال قد يكون ذلك قال يا نبى الله هل يكذب المؤمن قال لا ثم اتبعها صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وقال أبو سعيد الخدرى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول فى دعائه اللهم طهر قلبى من النفاق وفرجى من الزنا ولسانى من الكذب وقال صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم شيخ زان وملك كذاب وعائل مستكبر وقال عبد الله بن عامر جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيتنا وأنا صبى صغير فذهبت لالعب فقالت أمى يا عبد الله تعال حتى أعطيك فقال صلى الله عليه وسلم وما أردت أن تعطيه قالت تمرا فقال أما انك لو لم تفعلى لكتبت عليك كذبة وقال صلى الله عليه وسلم لو أفاء الله على نعما عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدونى بخيلا ولا كذابا ولا جبانا وقال صلى الله عليه وسلم وكان متكئا ألا أنبئكم باكبر الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين ثم قعد وقال ألا وقول الزور وقال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به وقال أنس قال النبى صلى الله عليه وسلم تقبلوا الى بست أتقبل لكم بالجنة قالوا وما هن قال اذا حدث أحدكم فلا يكذب واذا وعد فلا يخلف واذا ائتمن فلا يخن وغضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا أيديكم وقال صلى الله عليه وسلم ان للشيطان كحلا ولعوقا ونشوقا أما لعوقه فالكذب وأما نشوقه فالغضب وأما كحله فالنوم وخطب عمر رضى الله عنه يوما فقال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كقيامى هذا فيكم فقال أحسنوا الى أصحابى ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل على اليمين ولم يستحلف ويشهد ولم يستشهد وقال النبى صلى الله عليه وسلم من حدث عنى بحديث وهو يرى انه كذب فهو أحد الكذابين وقال صلى الله عليه وسلم من حلف على يمين باثم ليقتطع بها مال امرئ مسلم بغير حق لقى الله عز وجل وهو عليه غضبان وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه رد شهادة رجل فى كذبة كذبها وقال صلى الله عليه وسلم كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المسلم الا الخيانة والكذب وقالت عائشة رضى الله عنها ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل من أصحابه على الكذبة فما ينجلى من صدره حتى يعلم انه قد أحدث توبة لله عز وجل منها وقال موسى عليه السلام يا رب أى عبادك خير لك عملا قال من لا يكذب لسانه ولا يفجر قلبه ولا يزنى فرجه وقال لقمان لابنه يا بنى اياك والكذب فانه شهى كلحم العصفور عما قليل يقلاه صاحبه وقال عليه السلام فى مدح الصدق أربع اذا كن فيك فلا يضرك ما فاتك من الدنيا صدق الحديث وحفظ الامانة وحسن خلق وعفة طعمة وقال أبو بكر رضى الله عنه فى خطبة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل مقامى هذا عام أول ثم بكى وقال عليكم بالصدق فانه مع البر وهما فى الجنة وقال معاذ قال لى صلى الله عليه وسلم أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث وأداء الامانة والوفاء بالعهد وبذل السلام وخفض الجناح (وأما الآثار) فقد قال على رضى الله عنه أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب وشر الندامة ندامة يوم القيامة وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه

قال أنا أبو الطيب العكى عن أبى محمد الجريرى قال التسرع الى استدراك علم الانقطاع وسيلة والوقوف على حد الانحسار نجاة واللياذ بالهرب من علم الدنو صلة واستقباح ترك الجواب ذخيرة والاعتصام من قبول دواعى استماع الخطاب تكلف وخوف فوت علم ما انطوى من فصاحة الفهم فى حيز الاقبال مساءة والاصغاء الى تلقى ما ينفصل عن معدنه بعد والاستسلام عند التلاقى جراءة والانبساط فى محل الانس غرة وهذه الكلمات كلها من آداب الحضرة لاربابها وفى قوله تعالى ما زاغ البصر وما طغى وجه آخر ألطف مما سبق ما زاغ البصر حيث لم يتخلف عن البصيرة ولم يتقاصر وما طغى لم يسبق البصر البصيرة فيتجاوز حده ويتعدى مقامه بل استقام البصر مع البصيرة والظاهر مع

ما كذبت كذبة منذ شددت على ازارى وقال عمر رضى الله عنه أحبكم الينا ما لم نركم أحسنكم اسما فاذا رأيناكم فاحبكم الينا أحسنكم خلقا فاذا اختبرناكم فاحبكم الينا أصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة وعن ميمون بن أبى شبيب قال جلست أكتب كتابا فاتيت على حرف ان أنا كتبته زينت الكتاب وكنت قد كذبت فعزمت على تركه فنوديت من جانب البيت يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة وقال الشعبى ما أدرى أيهما أبعد غورا فى النار الكذاب أو البخيل وقال ابن السماك ما أرانى أوجر على ترك الكذب لانى انما أدعه انفة وقيل لخالد بن صبيح أيسمى الرجل كاذبا بكذبة واحدة قال نعم وقال مالك بن دينار قرأت فى بعض الكتب ما من خطيب الا وتعرض خطبته على عمله فان كان صادقا صدق وان كان كاذبا قرضت شفتاه بمقاريض من نار كلما قرضتا نبتتا وقال مالك بن دينار الصدق والكذب يعتركان فى القلب حتى يخرج أحدهما صاحبه وكلم عمر بن عبد العزيز الوليد بن عبد الملك فى شئ فقال له كذبت فقال عمر والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه

(بيان ما رخص فيه من الكذب)

اعلم أن الكذب ليس حراما لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره فان أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشئ على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلا وقد يتعلق به ضرر غيره ورب جهل فيه منفعة ومصلحة فالكذب محصل لذلك الجهل فيكون مأذونا فيه وربما كان واجبا قال ميمون بن مهران الكذب فى بعض المواطن خير من الصدق أرأيت لو أن رجلا سعى خلف انسان بالسيف ليقتله فدخل دارا فانتهى اليك فقال أرأيت فلانا ما كنت قائلا ألست تقول لم أره وما تصدق به وهذا الكذب واجب *فنقول الكلام وسيلة الى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن التوصل اليه بالصدق والكذب جميعا فالكذب فيه حرام وان أمكن التوصل اليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح ان كان تحصيل ذلك القصد مباحا وواجب ان كان المقصود واجبا كما ان عصمة دم المسلم واجبة فهما كان فى الصدق سفك دم امرئ مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب ومهما كان لا يتم مقصود الحرب أو اصلاح ذات البين أو استمالة قلب المجنى عليه الا بكذب فالكذب مباح الا أنه ينبغى أن يحترز منه ما أمكن لانه اذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى ان يتداعى الى ما يستغنى عنه والى ما لا يقتصر على حد الضرورة فيكون الكذب حراما فى الاصل الا لضرورة والذى يدل على الاستثناء ما روى عن أم كلثوم قالت ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص فى شئ من الكذب الا فى ثلاث الرجل يقول القول يريد به الاصلاح والرجل يقول القول فى الحرب والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها وقالت أيضا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نمى خيرا وقالت أسماء بنت يزيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل الكذب يكتب على ابن آدم الا رجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما وروى عن أبى كاهل قال وقع بين اثنين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كلام حتى تصارما فلقيت أحدهما فقلت مالك ولفلان فقد سمعته يحسن عليك الثناء ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتى اصطلحا ثم قلت أهلكت نفسى وأصلحت بين هذين فاخبرت النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا كاهل أصلح بين الناس ولو أى بالكذب وقال عطاء بن يسار قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم أكذب على أهلى قال لا خير فى الكذب قال أعدها وأقول لها قال لا جناح عليك وروى ان ابن أبى عذرة الدؤلى وكان فى خلافة عمر رضى الله عنه كان يخلع النساء اللاتى يتزوج بهن فطارت له فى الناس من ذلك أحدوثة يكرهها فلما علم بذلك أخذ بيد عبد الله بن الارقم حتى أتى به الى منزله ثم قال لامرأته أنشدك بالله هل تبغضينى قالت لا تنشدنى قال فانى أنشدك الله قالت نعم فقال لابن الارقم أتسمع ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضى الله عنه فقال انكم لتحدثون انى أظلم النساء وأخلعهن فاسأل ابن الارقم فسأله فاخبره فارسل الى امرأة ابن أبى عذرة فجاءت هى وعمتها فقال أنت التى تحدثين لزوجك انك تبغضينه فقالت انى أول من تاب وراجع أمر الله تعالى انه ناشدنى فتحرجت ان أكذب أفأكذب يا أمير المؤمنين قال نعم فاكذبى فان كانت احداكن لا تحب أحدنا فلا تحدثه بذلك فان أقل البيوت الذى يبنى على الحب ولكن الناس يتعاشرون بالاسلام والاحساب وعن النواس بن سمعان الكلابى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مالى أراكم تتهافتون فى الكذب تهافت

الباطن والقلب مع القالب والنظر مع القدم ففى تقدم النظر على القدم طغيان والمعنى بالنظر علم وبالقدم حال القالب فلم يتقدم النظر على القدم فيكون طغيانا ولم يتخلف القدم عن النظر فيكون تقصيرا فلما اعتدلت الاحوال وصار قلبه كقالبه وقالبه كقلبه وظاهره كباطنه وباطنه كظاهره وبصره كبصيرته وبصيرته كبصره فحيث انتهى نظره وعلمه قارنه قدمه وحاله ولهذا المعنى انعكس حكم معناه ونوره على ظاهره وأتى البراق ينتهى خطوه حيث ينتهى نظره لا يتخلف قدم البراق عن موضع نظره كما جاء فى حديث المعراج فكان البراق بقلبه مشاكلا لمعناه ومتصفا بصفته لقوة حاله ومعناه وأشار فى حديث المعراج الى مقامات الانبياء ورأى فى كل سماء بعض الانبياء اشارة الى

الفراش في النار كل الكذب يكتب على ابن آدم لا محالة الا أن يكذب الرجل في الحرب فان الحرب خدعة أو يكون بين الرجلين شحناء فيصلح بينهما أو يحدث امرأته يرضيها وقال ثوبان الكذب كله اثم الا ما نفع به مسلما أو دفع عنه ضررا وقال علي رضي الله عنه اذا حدثتكم عن النبي صلى الله عليه وسلم فلأن أخر من السماء أحب الي من أن أكذب عليه واذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فالحرب خدعة فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء وفي معناها ما عداها اذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره أما ماله فمثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله أن ينكره أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك فيقول ما زنيت وما سرقت وقال صلى الله عليه وسلم من ارتكب شيأ من هذه القاذورات فليستتر بستر الله وذلك ان اظهار الفاحشة فاحشة أخرى فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذي يؤخذ ظلما وعرضه بلسانه وان كان كاذبا وأما عرض غيره فبان يسأل عن سر أخيه فله أن ينكره وان يصلح بين اثنين وأن يصلح بين الضرات من نسائه بان يظهر لكل واحدة أنها أحب اليه وان كانت امرأته لا تطاوعه الا بوعد لا يقدر عليه فيعدها في الحال تطييبا لقلبها أو يعتذر الى انسان وكان لا يطيب قلبه الا بانكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس به ولكن الحد فيه أن الكذب محذور ولو صدق في هذه المواضع تولد منه محذور فينبغي أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط فاذا علم أن المحذور الذي يحصل بالصدق أشد وقعا في الشرع من الكذب فله الكذب وان كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق وقد يتقابل الامران بحيث يتردد فيهما وعند ذلك الميل الى الصدق أولى لان الكذب يباح لضرورة أو حاجة مهمة فان شك في كون الحاجة مهمة فالاصل التحريم فيرجع اليه ولاجل غموض ادراك مراتب المقاصد ينبغي أن يحترز الانسان من الكذب ما أمكنه وكذلك مهما كانت الحاجة فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب فأما اذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز المسامحة لحق الغير والاضرار به وأكثر كذب الناس انما هو لحظوظ أنفسهم ثم هو لزيادات المال والجاه ولامور ليس فواتها محذورا حتى أن المرأة لتحكي عن زوجها ما تفخر به وتكذب لاجل مراغمة الضرات وذلك حرام وقالت أسماء سمعت امرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت ان لي ضرة واني أتكثر من زوجي بما لم يفعل أضارها بذلك فهل علي شئ فيه فقال صلى الله عليه وسلم المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور وقال صلى الله عليه وسلم من تطعم بما لا يطعم أو قال لي وليس له أو أعطيت ولم يعط فهو كلابس ثوبي زور يوم القيامة ويدخل في هذا فتوى العالم بما لا يتحققه وروايته الحديث الذي لا يتثبته اذ غرضه أن يظهر فضل نفسه فهو لذلك يستنكف من أن يقول لا أدري وهذا حرام ومما يلتحق بالنساء الصبيان فان الصبي اذا كان لا يرغب في المكتب الا بوعد أو وعيد أو تخويف كاذب كان ذلك مباحا نعم روينا في الاخبار أن ذلك يكتب كذبا ولكن الكذب المباح أيضا قد يكتب ويحاسب عليه ويطالب بتصحيح قصده فيه ثم يعفى عنه لانه انما أبيح بقصد الاصلاح ويتطرق اليه غرور كبير فانه قد يكون الباعث له حظه وغرضه الذي هو مستغن عنه وانما يتعلل ظاهرا بالاصلاح فلهذا يكتب وكل من أتى بكذبة فقد وقع في خطر الاجتهاد ليعلم أن المقصود الذي كذب لاجله هل هو أهم في الشرع من الصدق أم لا وذلك غامض جدا والحزم تركه الا أن يصير واجبا بحيث لا يجوز تركه كما لو أدى الى سفك دم أو ارتكاب معصية كيف كان وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الاحاديث في فضائل الاعمال وفي التشديد في المعاصي وزعموا أن القصد منه صحيح وهو خطأ محض اذ قال صلى الله عليه وسلم من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار وهذا لا يرتكب الا لضرورة ولا ضرورة اذ في الصدق مندوحة عن الكذب ففيما ورد من الآيات والاخبار كفاية عن غيرها وقول القائل ان ذلك قد تكرر على الاسماع وسقط وقعه وما هو جديد فوقعه أعظم فهذا هوس اذ ليس هذا من الاغراض التي تقاوم محذور الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الله تعالى ويؤدي فتح بابه الى أمور تشوش الشريعة فلا يقاوم خير هذا شره أصلا والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر التي لا يقاومها شئ نسأل الله العفو عنا وعن جميع المسلمين

(بيان الحذر من الكذب بالمعاريض)

قد نقل عن السلف أن في المعاريض مندوحة عن الكذب قال عمر رضي الله عنه أما في المعاريض ما يكفي الرجل

تعويقهم وتخلفهم عن شأوه ودرجته ورأى موسى في بعض السموات فن هو في بعض السموات يكون قوله أرني أنظر اليك تجاوزا للنظر عن حد القدم وتخلفا للقدم عن النظر وهذا هو الاخلال باحد الوصفين من قوله تعالى ما زاغ البصر وما طغى فرسول الله جل قدره قدمه ونظره في حال الحياء والتواضع ناظر الى قدمه قادما على نظره ولو خرج عن حال الحياء والتواضع وتطاول بالنظر متعديا حد القدم تعوق في بعض السموات كتعوق غيره من الانبياء فلم يزل صلى الله عليه وسلم يستجلس حاله في خفارة أدب حاله حتى خرق حجب السموات فانصبت اليه أقسام القرب انصبابا وانقشعت عنه سحائب الحجب حجابا حجابا حتى استقام على صراط ما زاغ البصر وما

عن الكذب وروى ذلك عن ابن عباس وغيره وانما أرادوا بذلك اذا اضطر الانسان الى الكذب فاما اذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعا ولكن التعريض أهون ومثال التعريض ما روى أن مطرفا دخل على زياد فاستبطأه فتعلل بمرض وقال ما رفعت جنبي مذ فارقت الامير الا ما رفعني الله وقال ابراهيم اذا بلغ الرجل عنك شئ فكرهت أن تكذب فقل ان الله تعالى ليعلم ما قلت من ذلك من شئ فيكون قوله ما حرف نفي عند المستمع وعنده للابهام وكان معاذ بن جبل عاملا لعمر رضي الله عنه فلما رجع قالت له امرأته ما جئت به مما يأتي به العمال الى أهلهم وما كان قد أتاها بشئ فقال كان عندي ضاغط قالت كنت أمينا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند أبي بكر رضي الله عنه فبعث عمر معك ضاغطا وقامت بذلك بين نسائها واشتكت عمر فلما بلغه ذلك دعا معاذا وقال بعثت معك ضاغطا قال لم أجد ما أعتذر به اليها الا ذلك فضحك عمر رضي الله عنه وأعطاه شيأ فقال ارضها به ومعنى قوله ضاغطا يعني رقيبا وأراد به الله تعالى وكان النخعي لا يقول لابنته أشتري لك سكرا بل يقول أرأيت لو اشتريت لك سكرا فانه ربما لا يتفق له ذلك وكان ابراهيم اذا طلبه من يكره أن يخرج اليه وهو في الدار قال للجارية قولي له اطلبه في المسجد ولا تقولي ليس ههنا كيلا يكون كذبا وكان الشعبي اذا طلب في المنزل وهو يكرهه خط دائرة وقال للجارية ضعي الاصبع فيها وقولي ليس ههنا وهذا كله في موضع الحاجة فاما في غير موضع الحاجة فلا لان هذا تفهيم للكذب وان لم يكن اللفظ كذبا فهو مكروه على الجملة كما روى عن عبد الله بن عتبة قال دخلت مع أبي على عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فخرجت وعلي ثوب فجعل الناس يقولون هذا كساكه أمير المؤمنين فكنت أقول جزى الله أمير المؤمنين خيرا فقال لي أبي يا بني اتق الكذب وما أشبهه فنهاه عن ذلك لان فيه تقريرا لهم على ظن كاذب لاجل غرض المفاخرة وهذا غرض باطل لا فائدة فيه نعم المعاريض تباح بغرض خفيف كتطييب قلب الغير بالمزاح كقوله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة عجوز وقوله للاخرى الذي في عين زوجك بياض وللاخرى نحملك على ولد البعير وما أشبهه وأما الكذب الصريح كما فعله نعيمان الانصاري مع عثمان في قصة الضرير اذ قال له انه نعيمان وكما يعتاده الناس بملاعبة الحمقى بتغريرهم بان امرأة قد رغبت في تزويجك فان كان فيه ضرر يؤدي الى ايذاء قلب فهو حرام وان لم يكن الا لمطايبته فلا يوصف صاحبها بالفسق ولكن ينقص ذلك من درجة ايمانه قال صلى الله عليه وسلم لا يكمل للمرء الايمان حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه وحتى يجتنب الكذب في مزاحه وأما قوله عليه السلام ان الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها الناس يهوي بها في النار أبعد من الثريا أراد به ما فيه غيبة مسلم أو ايذاء قلب دون محض المزاح ومن الكذب الذي لا يوجب الفسق ما جرت به العادة في المبالغة كقوله طلبتك كذا وكذا مرة وقلت لك كذا مائة مرة فانه لا يريد به تفهيم المرات بعددها بل تفهيم المبالغة فان لم يكن طلبه الا مرة واحدة كان كاذبا وان كان طلبه مرات لا يعتاد مثلها في الكثرة لا يأثم وان لم تبلغ مائة وبينهما درجات يتعرض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب ومما يعتاد الكذب فيه ويتساهل به أن يقال كل الطعام فيقول لا أشتهيه وذلك منهي عنه وهو حرام ان لم يكن فيه غرض صحيح قال مجاهد قالت أسماء بنت عميس كنت صاحبة عائشة في الليلة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعي نسوة قالت فوالله ما وجدنا عنده قرى الا قدحا من لبن فشرب ثم ناوله عائشة قالت فاستحيت الجارية فقلت لا تردي يد رسول الله صلى الله عليه وسلم خذي منه قالت فأخذت منه على حياء فشربت منه ثم قال ناولي صواحبك فقلن لا نشتهيه فقال لا تجمعن جوعا وكذبا قالت فقلت يا رسول الله ان قالت احدانا لشئ تشتهيه لا أشتهيه أيعد ذلك كذبا قال ان الكذب ليكتب كذبا حتى تكتب الكذيبة كذيبة وقد كان أهل الورع يحترزون عن التسامح بمثل هذا الكذب قال الليث بن سعد كانت عينا سعيد بن المسيب ترمص حتى يبلغ الرمص خارج عينيه فيقال له لو مسحت عينيك فيقول وأين قول الطبيب لا تمس عينيك فأقول لا أفعل وهذه مراقبة أهل الورع ومن تركه انسل لسانه في الكذب عن حد اختياره فيكذب ولا يشعر وعن خوات التيمي قال جاءت أخت الربيع بن خثيم عائدة لابن له فانكبت عليه فقالت كيف أنت يا بني فجلس الربيع وقال أرضعتيه قالت لا قال ما عليك لو قلت يا ابن أخي فصدقت ومن العادة أن يقول يعلم الله فيما لا يعلمه قال عيسى عليه السلام ان من أعظم

طغى فر كالبرق الخاطف الى مخدع الوصل والالطائف وهذا غاية في الادب ونهاية في الارب (قال) أبو محمد بن رويم حين سئل عن أدب المسافر فقال لا يجاوز همه قدمه فحيث وقف قلبه يكون مقره (أخبرنا) شيخنا ضياء الدين أبو النجيب اجازة قال أنا عمر بن أحمد قال أنا أبو بكر بن خلف قال أنا عبد الرحمن السلمي قال ثنا القاضي أبو محمد يحيى بن منصور قال حدثنا أبو عبد الله محمد ابن علي الترمذي قال حدثنا ابن رزام الايلي قال حدثنا محمد بن عطاء الجهيمي قال حدثنا محمد بن نصير عن عطاء ابن أبي رباح عن ابن عباس قال تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية رب أرني أنظر اليك قال قال يا موسى انه لا يراني حي الا مات ولا يابس الا تدهده ولا رطب الا تفرق انما يراني أهل الجنة

الذنوب عند الله أن يقول العبد ان الله يعلم لما لا يعلم وربما يكذب فى حكاية المنام والاثم فيه عظيم اذ قال عليه
السلام ان من أعظم الفرية أن يدعى الرجل الى غير أبيه أو يرى عينيه فى المنام مالم ير أو يقول على مالم أقل
وقال عليه السلام من كذب فى حلم كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بعاقد بينهما أبدا

(الآفة الخامسة عشرة الغيبة والنظر فيها طويل)

فلنذكر أولا مذمة الغيبة وما ورد فيها من شواهد الشرع وقد نص الله سبحانه على ذمها فى كتابه وشبه صاحبها
بآكل لحم الميتة فقال تعالى ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه وقال
عليه السلام كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه والغيبة تتناول العرض وقد جمع الله بينه وبين المال
والدم وقال أبو برزة قال عليه السلام لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تناجشوا ولا تدابروا ولا يغتب بعضكم بعضا
وكونوا عباد الله اخوانا وعن جابر وأبى سعيد قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياكم والغيبة فان الغيبة أشد
من الزنا ان الرجل قد يزنى ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه وان صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه
وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مررت ليلة أسرى بى على أقوام يخمشون وجوههم بأظافيرهم
فقلت يا جبريل من هؤلاء قال هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون فى أعراضهم وقال سليمان بن جابر أتيت النبى
عليه الصلاة والسلام فقلت علمنى خيرا أنتفع به فقال لا تحقرن من المعروف شيأ ولو أن تصب من دلوك فى اناء
المستقى وأن تلقى أخاك ببشر حسن وان أدبر فلا تغتابنه وقال البراء خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمع
العواتق فى بيوتهن فقال يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فانه من
تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه فى جوف بيته وقيل أوحى الله الى موسى عليه
السلام من مات تائبا من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة ومن مات مصرا عليها فهو أول من يدخل النار وقال أنس
أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم يوم فقال لا يفطرن أحد حتى آذن له فصام الناس حتى اذا أمسوا
جعل الرجل يجىء فيقول يا رسول الله ظللت صائما فائذن لى لافطر فيأذن له والرجل يجىء حتى جاء رجل فقال
يا رسول الله فتاتان من أهلى ظلتا صائمتين وانهما يستحيان أن يأتياك فائذن لهما أن يفطرا فأعرض عنه صلى
الله عليه وسلم ثم عاوده فأعرض عنه ثم عاوده فقال انهما لم يصوما وكيف يصوم من ظل نهاره يأكل لحم الناس اذهب
فمرهما ان كانتا صائمتين أن تستقيا فرجع اليهما فأخبرهما فاستقاءتا فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم
فرجع الى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال والذى نفسى بيده لو بقيتا فى بطونهما لأكلتهما النار وفى رواية
أنه لما أعرض عنه جاء بعد ذلك وقال يا رسول الله والله انهما قد ماتتا أو كادتا أن تموتا فقال صلى الله عليه وسلم
ائتونى بهما فجاءتا فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح فقال لاحداهما قيئى فقاءت من قيح ودم وصديد حتى
ملأت القدح وقال للاخرى قيئى فقاءت كذلك فقال ان هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم
الله عليهما جلست احداهما الى الاخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس وقال أنس خطبنا رسول الله صلى الله
عليه وسلم فذكر الربا وعظم شأنه فقال ان الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله فى الخطيئة من ست
وثلاثين زنية يزنيها الرجل وأربى الربا عرض الرجل المسلم وقال جابر كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسير
فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال انهما يعذبان وما يعذبان فى كبير أما أحدهما فكان يغتاب الناس وأما
الآخر فكان لا يستنزه من بوله فدعا بجريدة رطبة أو بجريدتين فكسرهما ثم أمر بكل كسرة فغرست على قبر
وقال أما انه سيهون من عذابهما ما كانتا رطبتين أو ما لم ييبسا ولما رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعزا فى الزنا
قال رجل لصاحبه هذا أقعص كما يقعص الكلب فمر صلى الله عليه وسلم وهما معه بجيفة فقال انهشا منها فقالا
يا رسول الله ننهش جيفة فقال ما أصبتما من أخيكما أنتن من هذه وكان الصحابة رضى الله عنهم يتلاقون بالبشر ولا
يغتابون عند الغيبة ويرون ذلك أفضل الاعمال ويرون خلافه عادة المنافقين وقال أبو هريرة من أكل لحم أخيه
فى الدنيا قرب اليه لحمه فى الآخرة وقيل له كله ميتا كما أكلته حيا فيأكله فيضج ويكلح وروى مرفوعا كذلك
وروى أن رجلين كانا قاعدين عند باب من أبواب المسجد فمر بهما رجل كان مخنثا فترك ذلك فقالا لقد بقى فيه

الذين لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم ومن آداب الحضرة ما قال الشبلى الانبساط بالقول مع الحق ترك الادب وهذا يختص ببعض الاحوال والاشياء دون البعض وليس هو على الاطلاق لان الله تعالى أمر بالدعاء وانما الامساك عن القول كما أمسك موسى عن الانبساط فى طلب المآرب والحاجات الدنيوية حتى رفعه الحق مقاما فى القرب وأذن له فى الانبساط وقال اطلب منى ولو ملحا لعجينك فلما بسط انبسط وقال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير لانه كان يسأل حوائج الآخرة ويستعظم الحضرة أن يسأل حوائج الدنيا لحقارتها وهو فى حجاب الحشمة عن سؤال الحقرات ولهذا أمثال فى الشاهد فان الملك المعظم يسأل المعظمات ويحتشم فى طلب المحقرات فلما رفع بساط حجاب الحشمة

منه شئ وأقيمت الصلاة فدخلا فصليا مع الناس فخالف فى أنفسهما ماقالا فأتيا عطاء فسألاه فأمرهما أن يعيدا
الوضوء والصلاة وأمرهما أن يقضيا الصيام ان كانا صائمين وعن مجاهد أنه قال فى ويل لكل همزة لمزة الهمزة
الطعان فى الناس واللمزة الذى يأكل لحوم الناس وقال قتادة ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث ثلث من
الغيبة وثلث من النميمة وثلث من البول وقال الحسن والله الغيبة أسرع فى دين الرجل المؤمن من الاكلة فى الجسد
وقال بعضهم أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة فى الصوم ولا فى الصلاة ولكن فى الكف عن اعراض الناس
وقال ابن عباس اذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك وقال أبو هريرة يبصر أحدكم القذى فى
عين أخيه ولا يبصر الجذع فى عين نفسه وكان الحسن يقول ابن آدم انك لن تصيب حقيقة الايمان حتى لا تعيب
الناس بعيب هو فيك وحتى تبدأ باصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك فاذا فعلت ذلك كان شغلك فى خاصة
نفسك وأحب العباد الى الله من كان هكذا وقال مالك بن دينار مر عيسى عليه السلام ومعه الحواريون بجيفة
كلب فقال الحواريون ما أنتن ريح هذا الكلب فقال عليه الصلاة والسلام ما أشد بياض أسنانه كأنه صلى
الله عليه وسلم نهاهم عن غيبة الكلب ونبههم على انه لا يذكر شئ من خلق الله الا أحسنه وسمع على بن الحسين
رضى الله عنهما رجلا يغتاب آخر فقال له اياك والغيبة فانها ادام كلاب الناس وقال عمر رضى الله عنه عليكم
بذكر الله تعالى فانه شفاء واياكم وذكر الناس فانه داء نسأل الله حسن التوفيق لطاعته

(بيان معنى الغيبة وحدودها)

اعلم ان حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه سواء ذكرته بنقص فى بدنه أو نسبه أو فى خلقه أو فى فعله
أو فى قوله أو فى دينه أو فى دنياه حتى فى ثوبه وداره ودابته* اما البدن فكذكرك العمش والحول والقرع والقصر
والطول والسواد والصفرة وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان *وأما النسب فبأن تقول
أبوه نبطى أو هندى أو فاسق أو خسيس أو اسكاف أو زبال أو شئ مما يكرهه كيفما كان * وأما الخلق فبأن
تقول هو سيئ الخلق بخيل متكبر مراء شديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب متهور وما يجرى مجراه* وأما فى
أفعاله المتعلقة بالدين فكقولك هو سارق أو كذاب أو شارب خمر أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو
لا يحسن الركوع أو السجود أو لا يتحرز من النجاسات أو ليس بارا بوالديه أو لا يضع الزكاة موضعها أو لا يحسن
قسمتها أو لا يحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لاعراض الناس* وأما فعله المتعلق بالدنيا فكقولك انه
قليل الادب متهاون بالناس أو لا يرى لاحد على نفسه حقا أو يرى لنفسه الحق على الناس أو انه كثير الكلام
كثير الاكل نؤوم ينام فى غير وقت النوم ويجلس فى غير موضعه* وأما فى ثوبه فكقولك انه واسع الكم طويل الذيل
وسخ الثياب وقال قوم لا غيبة فى الدين لانه ذم ما ذمه الله تعالى فذكره بالمعاصى وذمه بها يجوز بدليل ما روى أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت له امرأة وكثرة صلاحها وصومها ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها فقال هى
فى النار وذكرت عنده امرأة أخرى بانها بخيلة فقال فما خيرها اذا فهذا فاسد لانهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم
الى تعرف الاحكام بالسؤال ولم يكن غرضهم التنقيص ولا يحتاج اليه فى غير مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم
والدليل عليه اجماع الامة على ان من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب لانه داخل فيما ذكره رسول الله صلى الله
عليه وسلم فى حد الغيبة وكل هذا وان كان صادقا فيه فهو به مغتاب عاص لربه وآكل لحم أخيه بدليل ما روى ان
النبى صلى الله عليه وسلم قال هل تدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكرهه قال أرأيت
ان كان فى أخى ما أقوله قال ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته وان لم يكن فيه فقد بهته وقال معاذ بن جبل ذكر رجل
عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما أعجزه فقال صلى الله عليه وسلم اغتبتم أخاكم قالوا يا رسول الله قلنا ما فيه
قال ان قلتم ما ليس فيه فقد بهتموه وعن حذيفة عن عائشة رضى الله عنها انها ذكرت عند رسول الله صلى الله عليه
وسلم امرأة فقالت انها قصيرة فقال صلى الله عليه وسلم اغتبتيها وقال الحسن ذكر الغير ثلاثة الغيبة والبهتان
والافك وكل فى كتاب الله عز وجل فالغيبة ان تقول ما فيه والبهتان أن تقول ما ليس فيه والافك أن تقول ما بلغك
وذكر ابن سيرين رجلا فقال ذاك الرجل الاسود ثم قال أستغفر الله انى أرانى قد اغتبته وذكر ابن سيرين

ابراهيم

صار فى مقام خاص من القرب يسال الحقير كما يسال الخطير قال ذو النون المصرى أدب العارف فوق كل أدب لان معروفه مؤدب قلبه* وقال بعضهم يقول الحق سبحانه وتعالى من ألزمته القيام مع أسمائى وصفاتى ألزمته الادب ومن كشفت له عن حقيقة ذاتى ألزمته العطب فاختر أيهما شئت الادب أو العطب وقول القائل هذا يشير الى أن الاسماء والصفات تستقل بوجود محتاج الى الادب لبقاء رسوم البشرية وحظوظ بالنفس ومع لمعان نور عظمة الذات تتلاشى الآثار بالانوار ويكون معنى العطب التحقق بالفناء وفى ذلك العطب نهاية الارب (وقال) أبو على الدقاق فى قوله تعالى وأيوب اذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين قال لم يقل ارحمنى لانه حفظ أدب الخطاب وقال عيسى

ابراهيم النخعي فوضع يده على عينه ولم يقل الاعور وقالت عائشة لا يغتابن أحدكم أحدا فاني قلت لامرأة مرة وأنا عند النبي صلى الله عليه وسلم ان هذه لطويلة الذيل فقال لي الفظي الفظي فلفظت مضغة لحم

(بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان)

اعلم أن الذكر باللسان انما حرم لان فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه فالتعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول والاشارة والايماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكل ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام فمن ذلك قول عائشة رضي الله عنها دخلت علينا امرأة فلما ولت أومأت بيدي انها قصيرة فقال عليه السلام اغتبتيها ومن ذلك المحاكاة كأن يمشي متعارجا أو كما يمشي فهو غيبة بل هو أشد من الغيبة لانه أعظم في التصوير والتفهيم ولما رأى صلى الله عليه وسلم عائشة حاكت امرأة قال ما يسرني أني حاكيت انسانا ولي كذا وكذا وكذلك الغيبة بالكتابة فان القلم أحد اللسانين وذكر المصنف شخصا معينا وتهجين كلامه في الكتاب غيبة الا أن يقترن به شئ من الاعذار المحوجة الى ذكره كما سيأتي بيانه وأما قوله قال قوم كذا فليس ذلك غيبة انما الغيبة التعرض لشخص معين اما حي واما ميت ومن الغيبة أن تقول بعض من مر بنا اليوم أو بعض من رأيناه اذا كان المخاطب يفهم منه شخصا معينا لان المحذور تفهيمه دون ما به التفهيم فأما اذا لم يفهم عينه جاز كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كره من انسان شيأ قال ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا فكان لا يعين وقولك بعض من قدم من السفر أو بعض من يدعي العلم ان كان معه قرينة تفهم عين الشخص فهي غيبة وأخبث أنواع الغيبة غيبة القراء المرائين فانهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويفهمون المقصود ولا يدرون بجهلهم انهم جمعوا بين فاحشتين الغيبة والرياء وذلك مثل أن يذكر عنده انسان فيقول الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل في طلب الحطام أو يقول نعوذ بالله من قلة الحياء نسأل الله أن يعصمنا منها وانما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول ما أحسن أحوال فلان ما كان يقصر في العبادات ولكن قد اعتراه فتور وابتلي بما يبتلى به كلنا وهو قلة الصبر فيذكر نفسه ومقصوده ان يذم غيره في ضمن ذلك ويمدح نفسه بالتشبه بالصالحين بان يذم نفسه فيكون مغتابا ومرائيا ومزكيا نفسه فيجمع بين ثلاث فواحش وهو بجهله يظن انه من الصالحين المتعففين عن الغيبة ولذلك يلعب الشيطان باهل الجهل اذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم فانه يتبعهم ويحبط بمكايده عملهم ويضحك عليهم ويسخر منهم ومن ذلك ان يذكر عيب انسان فلا يتنبه له بعض الحاضرين فيقول سبحان الله ما أعجب هذا حتى يصغي اليه ويعلم ما يقول فيذكر الله تعالى ويستعمل اسمه آلة له في تحقيق خبثه وهو يمتن على الله عز وجل بذكره جهلا منه وغرورا وكذلك يقول ساءني ما جرى على صديقنا من الاستخفاف به نسأل الله أن يروح نفسه فيكون كاذبا في دعوى الاغتمام وفي اظهار الدعاء له بل لو قصد الدعاء لاخفاه في خلوته عقيب صلاته ولو كان يغتم به لاغتم أيضا باظهار ما يكرهه وكذلك يقول ذلك المسكين قد بلي بآفة عظيمة تاب الله علينا وعليه فهو في كل ذلك يظهر الدعاء والله مطلع على خبث ضميره وخفي قصده وهو لجهله لا يدري انه قد تعرض لمقت أعظم مما تعرض له الجهال اذا جاهروا ومن ذلك الاصغاء الى الغيبة على سبيل التعجب فانه انما يظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب فيندفع فيها وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول عجبت ما علمت انه كذلك ما عرفته الى الآن الا بالخير وكنت أحسب فيه غير هذا عافانا الله من بلائه فان كل ذلك تصديق للمغتاب والتصديق بالغيبة غيبة بل الساكت شريك المغتاب قال صلى الله عليه وسلم المستمع أحد المغتابين وقد روي عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ان أحدهما قال لصاحبه ان فلانا النؤوم ثم انهما طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأكلا به الخبز فقال صلى الله عليه وسلم قد ائتدمتما فقالا ما نعلمه قال بلى انكما أكلتما من لحم أخيكما فانظر كيف جمعهما وكان القائل أحدهما والآخر مستمع وقال للرجلين اللذين قال أحدهما اقعص الرجل كما يقعص الكلب انهشا من هذه الجيفة فجمع بينهما فالمستمع لا يخرج من اثم الغيبة الا أن ينكر بلسانه أو بقلبه ان خاف وان قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه وان قال بلسانه اسكت وهو مشته لذلك بقلبه

عليه السلام ان كنت قلته فقد علمته ولم يقل لم أقل رعاية لادب الحضرة *وقال أبو نصر السراج أدب أهل الخصوصية من أهل الدين في طهارة القلوب ومراعاة الاسرار والوفاء بالعهود وحفظ الوقت وقلة الالتفات الى الخواطر والعوارض والبوادي والعوائق واستواء السر والعلانية وحسن الادب في موقف الطلب ومقامات القرب وأوقات الحضور والادب أدبان أدب قول وأدب فعل فمن تقرب الى الله تعالى بادب فعله منحه محبة القلوب (قال ابن المبارك) نحن الى قليل من الادب أحوج منا الى كثير من العلم وقال أيضا الادب للعارف بمنزلة التوبة للمستأنف *وقال النوري من لم يتأدب للوقت فوقته مقت وقال ذو النون اذا خرج المريد عن حد استعمال الادب فانه يرجع من حيث جاء وقال

فذلك نفاق ولا يخرجه من الاثم ما لم يكرهه بقلبه ولا يكفي في ذلك ان يشير باليد أي اسكت أو يشير بحاجبه وجبينه فان ذلك استحقار للمذكور بل ينبغي أن يعظم ذلك فيذب عنه صريحا وقال صلى الله عليه وسلم من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رؤس الخلائق وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة وقال أيضا من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار وقد ورد في نصرة المسلم في الغيبة وفي فضل ذلك أخبار كثيرة أوردناها في كتاب آداب الصحبة وحقوق المسلمين فلا نطول باعادتها

(بيان الاسباب الباعثة على الغيبة)

اعلم ان البواعث على الغيبة كثيرة ولكن يجمعها أحد عشر سببا ثمانية منها تطرد في حق العامة وثلاثة تختص باهل الدين والخاصة *(أما الثمانية)* فالاول أن يشفي الغيظ وذلك اذا جرى سبب غضب به عليه فانه اذا هاج غضبه يشتفي بذكر مساويه فيسبق اللسان اليه بالطبع ان لم يكن ثم دين وازع وقد يمتنع تشفي الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب في الباطن فيصير حقدا ثابتا فيكون سببا دائما لذكر المساوي فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة* الثاني موافقة الاقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام فانهم اذا كانوا يتفكهون بذكر الاعراض فيرى انه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ويظن أنه مجاملة في الصحبة وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج الى أن يغضب لغضبهم اظهارا للمساهمة في السراء والضراء فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوي * الثالث أن يستشعر من انسان انه سيقصده ويطول لسانه عليه أو يقبح حاله عند محتشم أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته أو يبتدئ بذكر ما فيه صادقا ليكذب عليه بعده فيروج كذبه بالصدق الاول ويستشهد به ويقول ما من عادتي الكذب فاني أخبرتكم بكذا وكذا من أحواله فكان كما قلت * الرابع أن ينسب الى شئ فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذي فعله وكان من حقه أن يبرئ نفسه ولا يذكر الذي فعل فلا ينسب غيره اليه أو يذكر غيره بانه كان مشاركا له في الفعل ليمهد بذلك عذر نفسه في فعله *الخامس ارادة التصنع والمباهاة وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره فيقول فلان جاهل وفهمه ركيك وكلامه ضعيف وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه ويريهم انه أعلم منه أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه فيقدح فيه لذلك* السادس الحسد وهو أنه ربما يحسد من يثني الناس عليه ويحبونه ويكرمونه فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلا اليه الا بالقدح فيه فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه لانه يثقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناءهم عليه واكرامهم له وهذا هو عين الحسد وهو غير الغضب والحقد فان ذلك يستدعي جناية من المغضوب عليه والحسد قد يكون مع الصديق المحسن والقريب الموافق * السابع اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ومنشؤه التكبر والتعجب* الثامن السخرية والاستهزاء استحقارا له فان ذلك قد يجري في الحضور ويجري أيضا في الغيبة ومنشؤه التكبر واستحقار المستهزأ به* وأما الاسباب الثلاثة التي هي في الخاصة فهي أغمضها وأدقها لانها شرور خبأها الشيطان في معرض الخيرات وفيها خير ولكن شاب الشيطان بها الشر* الاول أن تنبعث من الدين داعية التعجب في انكار المنكر والخطأ في الدين فيقول ما أعجب ما رأيت من فلان فانه قد يكون به صادقا ويكون تعجبه من المنكر ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه في اظهار تعجبه فصار به مغتابا وآثما من حيث لا يدري ومن ذلك قول الرجل تعجبت من فلان كيف يحب جاريته وهي قبيحة وكيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل* الثاني الرحمة وهو ان يغتم بسبب ما يبتلى به فيقول مسكين فلان قد غمني أمره وما ابتلي به فيكون صادقا في دعوى الاغتمام ويلهيه الغم عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتابا فيكون غمه ورحمته خيرا وكذا تعجبه ولكن ساقه الشيطان الى شر من حيث لا يدري والترحم والاغتمام ممكن من دون ذكر اسمه فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحمه* الثالث الغضب لله تعالى فانه قد يغضب على منكر قارفه انسان

ابن المبارك أيضا قد أكثر الناس في الادب ونحن نقول هو معرفة النفس وهذه اشارة منه الى أن النفس هي منبع الجهالات وترك الادب من مخامرة الجهل فاذا عرف النفس صادف نور العرفان على ما ورد من عرف نفسه فقد عرف ربه ولهذا النور لا تظهر النفس بجهالة الا ويقمعها بصريح العلم وحينئذ يتأدب ومن قام بآداب الحضرة فهو بغيرها أقوم وعليها أقدر

(الباب الثالث والثلاثون في آداب الطهارة ومقدماتها)

قال الله تعالى في وصف أصحاب الصفة فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين قيل في التفسير يحبون أن يتطهروا من الاحداث والجنابات والنجاسات بالماء قال الكلبي هو غسل الادبار بالماء وقال عطاء كانوا يستنجون بالماء ولا

اذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه وكان الواجب ان يظهر غضبه عليه بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا يظهره على غيره أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء فضلا عن العوام فانهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب اذا كان لله تعالى كان عذرا فى ذكر الاسم وهو خطأ بل المرخص فى الغيبة حاجات مخصوصة لا مندوحة فيها عن ذكر الاسم كما سيأتى ذكره روى عن عامر بن واثلة ان رجلا مر على قوم فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليهم فردوا عليه السلام فلما جاوزهم قال رجل منهم انى لابغض هذا فى الله تعالى فقال أهل المجلس لبئس ما قلت والله لننبئنه ثم قالوا يا فلان لرجل منهم قم فادركه وأخبره بما قال فادركه رسولهم فاخبره فاتى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكى له ما قال وسأله ان يدعوه له فدعاه وسأله فقال قد قلت ذلك فقال صلى الله عليه وسلم لم تبغضه فقال أنا جاره وأنا به خابر والله ما رأيته يصلى صلاة قط الا هذه المكتوبة قال فاسأله يا رسول الله هل رآنى أخرتها عن وقتها أو أسأت الوضوء لها أو الركوع أو السجود فيها فسأله فقال لا فقال والله ما رأيته يصوم شهرا قط الا هذا الشهر الذى يصومه البر والفاجر قال فاسأله يا رسول الله هل رآنى قط أفطرت فيه أو نقصت من حقه شيأ فسأله عنه فقال لا فقال والله ما رأيته يعطى سائلا ولا مسكينا قط ولا رأيته ينفق شيأ من ماله فى سبيل الله الا هذه الزكاة التى يؤديها البر والفاجر قال فاسأله هل رآنى نقصت منها أو ماكست فيها طالبها الذى يسألها فسأله فقال لا فقال صلى الله عليه وسلم للرجل قم فلعله خير منك

(بيان العلاج الذى به يمنع اللسان عن الغيبة)

اعلم أن مساوى الاخلاق كلها انما تعالج بمعجون العلم والعمل وانما علاج كل علة بمضادة سببها فلنفحص عن سببها وعلاج كف اللسان عن الغيبة على وجهين أحدهما على الجملة والآخر على التفصيل أما على الجملة فهو ان يعلم ان تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته بهذه الاخبار التى رويناها وان يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة فانها تنقل حسناته فى القيامة الى من اغتابه بدلا عما استباحه من عرضه فان لم تكن له حسنات نقل اليه من سيئات خصمه وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عز وجل ومشبه عنده بآكل الميتة بل العبد يدخل النار بان تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته وربما تنقل اليه سيئة واحدة ممن اغتابه فيحصل بها الرجحان ويدخل بها النار وانما أقل الدرجات ان تنقص من ثواب أعماله وذلك بعد المخاصمة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب قال صلى الله عليه وسلم ما النار فى اليبس باسرع من الغيبة فى حسنات العبد وروى ان رجلا قال للحسن بلغنى انك تغتابنى فقال ما بلغ من قدرك عندى انى أحكمك فى حسناتى فمهما آمن العبد بما ورد من الاخبار فى الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفا من ذلك وينفعه أيضا ان يتدبر فى نفسه فان وجد فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه وذكر قوله صلى الله عليه وسلم طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ومهما وجد عيبا فينبغى أن يستحيى من ان يترك ذم نفسه ويذم غيره بل ينبغى ان يتحقق ان عجز غيره عن نفسه فى التنزه عن ذلك العيب كعجزه وهذا ان كان ذلك عيبا يتعلق بفعله واختياره وان كان أمرا خلقيا فالذم له ذم للخالق فان من ذم صنعة فقد ذم صانعها * قال رجل لحكيم يا قبيح الوجه قال ما كان خلق وجهى الى فاحسنه واذا لم يجد العبد عيبا فى نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلوثن نفسه باعظم العيوب فان ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب بل لو أنصف لعلم ان ظنه بنفسه انه برىء من كل عيب جهل بنفسه وهو من أعظم العيوب وينفعه أن يعلم ان تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له فاذا كان لا يرضى لنفسه أن يغتاب فينبغى أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه فهذه معالجات جلية أما التفصيل فهو أن ينظر فى السبب الباعث له على الغيبة فان علاج العلة بقطع سببها وقد قدمنا الاسباب أما الغضب فيعالجه بما سيأتى فى كتاب آفات الغضب وهو أن يقول انى اذا أمضيت غضبى عليه فلعل الله تعالى يمضى غضبه على بسبب الغيبة اذ نهانى عنها فاجترأت على نهيه واستخففت بزجره وقد قال صلى الله عليه وسلم ان لجهنم بابا لا يدخل منه الا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم من اتقى ربه أمسك لسانه ولم يشف غيظه وقال صلى الله عليه وسلم من كظم غيظا وهو يقدر على ان يمضيه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤس الخلائق حتى يخيره فى أى الحور شاء وفى بعض الكتب المنزلة على بعض النبيين يا ابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا

ينامون بالليل على الجنابة روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاهل قباء لما نزلت هذه الآية ان الله تعالى قد أثنى عليكم فى الطهور فما هو قالوا انا نستنجى بالماء وكان قبل ذلك قال لهم رسول الله اذا أتى أحدكم الخلاء فليستنج بثلاثة أحجار وهكذا كان الاستنجاء فى الابتداء حتى نزلت الآية فى أهل قباء قيل لسلمان قد علمكم نبيكم كل شئ حتى الخراءة فقال سلمان أجل نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول أو نستنجى باليمين أو يستنجى أحدنا باقل من ثلاثة أحجار أو نستنجى برجيع أو عظم (حدثنا) شيخنا ضياء الدين أبو النجيب املاء قال أنا أبو منصور الحريمى قال أنا أبو بكر الخطيب قال أنا أبو عمرو الهاشمى قال أنا أبو على اللؤلؤى قال أنا أبو داود قال حدثنا عبد الله بن محمد

أحمقك فمن أحمق وأما الموافقة فبأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك اذا طلبت سخطه في رضا المخلوقين فكيف ترضى لنفسك أن توقر غيرك وتحقر مولاك فتترك رضاه لرضاهم الا أن يكون غضبك لله تعالى وذلك لا يوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء بل ينبغي أن تغضب لله أيضا على رفقائك اذا ذكروه بالسوء فانهم عصوا ربك بأفحش الذنوب وهي الغيبة وأما تنزيه النفس بنسبة الغير الى الخيانة حيث يستغني عن ذكر الغير فتعالجه بان تعرف ان التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوقين وأنت بالغيبة متعرض لسخط الله يقينا ولا تدري انك تتخلص من سخط الناس أم لا فتخلص نفسك في الدنيا بالتوهم وتهلك في الآخرة وتخسر حسناتك بالحقيقة ويحصل لك ذم الله تعالى نقدا وتنتظر دفع ذم الخلق نسيئة وهذا غاية الجهل والخذلان وأما عذرك كقولك ان أكلت الحرام ففلان يأكله وان قبلت مال السلطان ففلان يقبله فهذا جهل لانك تعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به فان من خالف أمر الله تعالى لا يقتدى به كائنا من كان ولو دخل غيرك النار وأنت تقدر على أن لا تدخلها لم توافقه ولو وافقته لسفه عقلك ففيما ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها الى ما اعتذرت عنه وسجلت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك وغباوتك وكنت كالشاة تنظر الى المعزى تردي نفسها من قلة الجبل فهي أيضا تردي نفسها ولو كان لها لسان ناطق بالعذر وصرحت بالعذر وقالت العنز أكيس مني وقد أهلكت نفسها فكذلك أنا أفعل لكنت تضحك من جهلها وحالك مثل حالها ثم لا تعجب ولا تضحك من نفسك وأما قصدك المباهاة وتزكية النفس بزيادة الفضل بان تقدح في غيرك فينبغي أن تعلم انك بما ذكرته أبطلت فضلك عند الله وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر وربما نقص اعتقادهم فيك اذا عرفوك بثلب الناس فتكون قد بعت ما عند الخالق يقينا بما عند المخلوقين وهما ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يغنون عنك من الله شيأ * وأما الغيبة لاجل الحسد فهو جمع بين عذابين لانك حسدته على نعمة الدنيا وكنت في الدنيا معذبا بالحسد فما قنعت بذلك حتى أضفت اليه عذاب الآخرة فكنت خاسرا نفسك في الدنيا فصرت أيضا خاسرا في الآخرة لتجمع بين النكالين فقد قصدت محسودك فاصبت نفسك وأهديت اليه حسناتك فاذا أنت صديقه وعدو نفسك اذ لا تضره غيبتك وتضرك وتنفعه اذ تنقل اليه حسناتك أو تنقل اليك سيآته فلا ينفعك وقد جمعت الى خبث الحسد جهل الحماقة وربما يكون حسدك وقدحك سبب انتشار فضل محسودك كما قيل

واذا أراد الله نشر فضيلة * طويت أتاح لها لسان حسود

وأما الاستهزاء فمقصودك منه اخزاء غيرك عند الناس باخزاء نفسك عند الله تعالى وعند الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام فلو تفكرت في حسرتك وجنايتك وخجلتك وخزيك يوم القيامة يوم تحمل سيآت من استهزأت به وتساق الى النار لادهشك ذلك عن اخزاء صاحبك ولو عرفت حالك لكنت أولى أن تضحك منك فانك سخرت به عند نفر قليل وعرضت نفسك لان يؤخذ يوم القيامة بيدك على ملا من الناس ويسوقك تحت سيآته كما يساق الحمار الى النار مستهزئا بك وفرحا بخزيك ومسرورا بنصرة الله تعالى اياه عليك وتسلطه على الانتقام منك وأما الرحمة له على اثمه فهو حسن ولكن حسدك ابليس فاضلك واستنطقك بما ينقل من حسناتك اليه ماهو أكثر من رحمتك فيكون جبر الاثم المرحوم فيخرج عن كونه مرحوما وتنقلب أنت مستحقا لان تكون مرحوما اذ حبط أجرك ونقصت من حسناتك وكذلك الغضب لله تعالى لا يوجب الغيبة وانما الشيطان حبب اليك الغيبة ليحبط أجر غضبك وتصير معرضا لمقت الله عز وجل بالغيبة وأما التعجب اذا أخرجك الى الغيبة فتعجب من نفسك أنت انك كيف أهلكت نفسك ودينك بدين غيرك أو بدنياه وأنت مع ذلك لا تأمن عقوبة الدنيا وهو أن يهتك الله سترك كما هتكت بالتعجب ستر أخيك فاذا علاج جميع ذلك المعرفة فقط والتحقق بهذه الامور التي هي من أبواب الايمان فمن قوي ايمانه بجميع ذلك انكف لسانه عن الغيبة لا محالة

(بيان تحريم الغيبة بالقلب)

اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوي الغير فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك ولست أعني به الا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء فاما الخواطر

قال حدثنا ابن المبارك عن ابن عجلان عن القعقاع عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال قال صلى الله عليه وسلم انما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم فاذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطيب بيمينه وكان يأمر بثلاثة أحجار وينهى عن الروث والرمة (والفرض) في الاستنجاء شيآن ازالة الخبث وطهارة المزيل وهو أن لا يكون رجيعا وهو الروث ولا مستعملا مرة أخرى ولا رمة وهي عظم الميتة والوتر في الاستنجاء سنة فاما ثلاثة أحجار أو خمس أو سبع واستعمال الماء بعد الحجر سنة وقد قيل في الآية يحبون أن يتطهروا ولما سئلوا عن ذلك قالوا كنا نتبع الماء الحجر والاستنجاء بالشمال سنة ومسح اليد بالتراب بعد الاستنجاء سنة وهكذا يكون في الصحراء اذا كانت أرضا

وحديث النفس فهو معفو عنه بل الشك أيضا معفو عنه ولكن المنهي عنه ان يظن والظن عبارة عما تركن اليه النفس ويميل اليه القلب فقد قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم وسبب تحريمه ان أسرار القلوب لا يعلمها الا علام الغيوب فليس لك ان تعتقد في غيرك سوأ الا اذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل فعند ذلك لا يمكنك الا أن تعتقد ما علمته وشاهدته وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه باذنك ثم وقع في قلبك فانما الشيطان يلقيه اليك فينبغي أن تكذبه فانه أفسق الفساق وقد قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فلا يجوز تصديق ابليس وان كان ثم مخيلة تدل على فساد واحتمل خلافه لم يجز أن تصدق به لان الفاسق يتصور ان يصدق في خبره ولكن لا يجوز لك ان تصدق به حتى ان من استنكه فوجد منه رائحة الخمر لا يجوز ان يحد اذ يقال يمكن أن يكون قد تمضمض بالخمر ومجها وما شربها أو حمل عليه قهرا فكل ذلك لا محالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب واساءة الظن بالمسلم بها وقد قال صلى الله عليه وسلم ان الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء فلا يستباح ظن السوء الا بما يستباح به المال وهو نفس مشاهدته أو بينة عادلة فاذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغي أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر فان قلت فبماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث فنقول امارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفورا ما ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقده واكرامه والاغتمام بسببه فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه وقد قال صلى الله عليه وسلم ثلاث في المؤمن وله منهن مخرج فمخرجه من سوء الظن أن لا يحققه أي لا يحققه في نفسه بعقد ولا فعل لا في القلب ولا في الجوارح أما في القلب فبتغيره الى النفرة والكراهة وأما في الجوارح فبالعمل بموجبه والشيطان قد يقرر على القلب بادنى مخيلة مساءة الناس ويلقي اليه أن هذا من فطنتك وسرعة فهمك وذكائك وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته وأما اذا أخبرك به عدل فمال ظنك الى تصديقه كنت معذورا لانك لو كذبته لكنت جانيا على هذا العدل اذ ظننت به الكذب وذلك أيضا من سوء الظن فلا ينبغي ان تحسن الظن بواحد وتسيء بالآخر نعم ينبغي ان تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعنت فتتطرق التهمة بسببه فقد رد الشرع شهادة الاب العدل للولد للتهمة ورد شهادة العدو فلك عند ذلك أن تتوقف وان كان عدلا فلا تصدقه ولا تكذبه ولكن تقول في نفسك المذكور حاله كان عندي في ستر الله تعالى وكان أمره محجوبا عني وقد بقي كما كان لم ينكشف لي شيء من أمره وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ولا محاسدة بينه وبين المذكور ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس وذكر مساويهم فهذا قد يظن انه عدل وليس بعدل فان المغتاب فاسق وان كان ذلك من عادته ردت شهادته الا ان الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا في أمر الغيبة ولم يكترثوا بتناول اعراض الخلق ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير فان ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك فلا يلقي اليك الخاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فانصحه في السر ولا يخدعنك الشيطان فيدعوك الى اغتيابه واذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه لينظر اليك بعين التعظيم وتنظر اليه بعين الاستحقار وتترفع عليه بايداء الوعظ وليكن قصدك تخليصه من الاثم وأنت حزين كما تحزن على نفسك اذا دخل عليك نقصان في دينك وينبغي أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحب اليك من تركه بالنصيحة فاذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر الغم بمصيبته وأجر الاعانة له على دينه ومن ثمرات سوء الظن التجسس فان القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وهو أيضا منهي عنه قال الله تعالى ولا تجسسوا فالغيبة وسوء الظن والتجسس منهي عنه في آية واحدة ومعنى التجسس ان لا يترك عباد الله تحت ستر الله فيتوصل الى الاطلاع وهتك الستر حتى ينكشف له ما لو كان مستورا عنه كان أسلم لقلبه ودينه وقد ذكرنا في كتاب الامر بالمعروف حكم التجسس وحقيقته

(بيان الاعذار المرخصة في الغيبة)

اعلم ان المرخص في ذكر مساوي الغير هو غرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصل اليه الا به فيدفع ذلك اثم الغيبة

طاهرة وترابا طاهرا * وكيفية الاستنجاء ان يأخذ الحجر بيساره ويضعه على مقدم المخرج قبل ملاقاة النجاسة ويمده بالمسح ويدير الحجر في مره حتى لا ينقل النجاسة من موضع الى موضع يفعل ذلك الى أن ينتهي الى مؤخر المخرج ويأخذ الثاني ويضعه على المؤخر كذلك ويمسح الى المقدمة ويأخذ الثالث ويديره حول المسربة وان استجمر بحجر ذي ثلاث شعب جاز وأما الاستبراء اذا انقطع البول فيمد ذكره من أصله ثلاثا الى الحشفة بالرفق لئلا يندفق ببقية البول ثم ينتره ثلاثا ويحتاط في الاستبراء بالاستنقاء وهو ان يتنحنح ثلاثا لان العروق ممتدة من الحلق الى الذكر وبالتنحنح تتحرك وتقذف ما في مجرى البول فان مشى خطوات وزاد في التنحنح فلا باس ولكن يراعي حد العلم ولا يجعل

وهي ستة أمور * الاول التظلم فان من ذكر قاضيا بالظلم والخيانة وأخذ الرشوة كان مغتابا عاصيا ان لم يكن مظلوما أما المظلوم من جهة القاضي فله أن يتظلم الى السلطان وينسبه الى الظلم اذ لا يمكنه استيفاء حقه الا به قال صلى الله عليه وسلم ان لصاحب الحق مقالا وقال عليه السلام مطل الغني ظلم وقال عليه السلام لي الواجد يحل عقوبته وعرضه الثاني الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي الى منهج الصلاح كما روى أن عمر رضي الله عنه مر على عثمان وقيل على طلحة رضي الله عنه فسلم عليه فلم يرد السلام فذهب الى أبي بكر رضي الله عنه فذكر له ذلك فجاء أبو بكر اليه ليصلح ذلك ولم يكن ذلك غيبة عندهم وكذلك لما بلغ عمر رضي الله عنه أن أبا جندل قد عاقر الخمر بالشام كتب اليه بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب الآية فتاب ولم ير ذلك عمر ممن أبلغه غيبة اذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك فينفعه نصحه ما لا ينفعه نصح غيره وانما اباحة هذا بالقصد الصحيح فان لم يكن ذلك هو المقصود كان حراما * الثالث الاستفتاء كما يقول للمفتي ظلمني أبي أو زوجتي أو أخي وكيف طريقي في الخلاص والاسلم التعريض بان يقول ما قولك في رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو زوجته ولكن التعيين مباح بهذا القدر لما روى عن هند بنت عتبة انها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم ان أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي أفآخذ من غير علمه فقال خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف فذكرت الشح والظلم لها ولولدها ولم يزجرها صلى الله عليه وسلم اذ كان قصدها الاستفتاء * الرابع تحذير المسلم من الشر فاذا رأيت فقيها يتردد الى مبتدع أو فاسق وخفت أن تتعدى اليه بدعته وفسقه فلك أن تكشف له بدعته وفسقه مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة والفسق لا غيره وذلك موضع الغرور اذ قد يكون الحسد هو الباعث ويلبس الشيطان ذلك باظهار الشفقة على الخلق وكذلك من اشترى مملوكا وقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالفسق أو بعيب آخر فلك أن تذكر ذلك فان في سكوتك ضرر المشتري وفي ذكرك ضرر العبد والمشتري أولى بمراعاة جانبه وكذلك المزكي اذا سئل عن الشاهد فله الطعن فيه ان علم مطعنا وكذلك المستشار في التزويج وايداع الامانة له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير لا على قصد الوقيعة فان علم انه يترك التزويج بمجرد قوله لا تصلح لك فهو الواجب وفيه الكفاية وان علم انه لا ينزجر الا بالتصريح بعينه فله أن يصرح به اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أترغبون عن ذكر الفاجر متى يعرفه الناس اذكروه بما فيه حتى يحذره الناس وكانوا يقولون ثلاثة لا غيبة لهم الامام الجائر والمبتدع والمجاهر بفسقه * الخامس أن يكون الانسان معروفا بلقب يعرب عن عيبه كالاعرج والاعمش فلا اثم على من يقول روى أبو الزناد عن الاعرج وسلمان عن الاعمش وما يجري مجراه فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف ولان ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد ان قد صار مشهورا به نعم ان وجد عنه معدلا وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى ولذلك يقال للاعمى البصير عدولا عن اسم النقص * السادس أن يكون مجاهرا بالفسق كالمخنث وصاحب الماخور والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس وكان ممن يتظاهر به بحيث لا يستنكف من أن يذكر له ولا يكره أن يذكر به فاذا ذكرت فيه ما يتظاهر به فلا اثم عليك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له وقال عمر رضي الله عنه ليس لفاجر حرمة وأراد به المجاهر بفسقه دون المستتر اذ المستتر لا بد من مراعاة حرمته وقال الصلت بن طريف قلت للحسن الرجل الفاسق المعلن بفجوره ذكري له بما فيه غيبة له قال لا ولا كرامة وقال الحسن ثلاثة لا غيبة لهم صاحب الهوى والفاسق المعلن بفسقه والامام الجائر فهؤلاء الثلاثة يجمعهم انهم يتظاهرون به وربما يتفاخرون به فكيف يكرهون ذلك وهم يقصدون اظهاره نعم لو ذكره بغير ما يتظاهر به اثم وقال عوف دخلت على ابن سيرين فتناولت عنده الحجاج فقال ان الله حكم عدل ينتقم للحجاج ممن اغتابه كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه وانك اذا لقيت الله تعالى غدا كان أصغر ذنب أصبته أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج

(بيان كفارة الغيبة)

اعلم ان الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج به من حق الله سبحانه ثم يستحل المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته وينبغي أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله اذ المرائي قد يستحل ليظهر

للشيطان عليه سبيلا بالوسوسة فيضيع الوقت ثم يمسح الذكر ثلاث مسحات أو أكثر الى ان لا يرى الرطوبة وشبه بعضهم الذكر بالضرع وقال لا يزال تظهر منه الرطوبة مادام يدر فيراعى الحد في ذلك ويراعى الوتر في ذلك أيضا والمسحات تكون على الارض الطاهرة أو حجر طاهر وان احتاج الى أخذ الحجر لصغره فليأخذ الحجر باليمين والذكر باليسار ويمسح على الحجر وتكون الحركة باليسار لا باليمين لئلا يكون مستنجيا باليمين واذا أراد استعمال الماء انتقل الى موضع آخر ويقنع الحجر مالم ينتشر البول على الحشفة وفي ترك الاستنقاء في الاستبراء وعيد ورد فيما رواه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبرين فقال انهما ليعذبان وما

من نفسه الورع وفي الباطن لا يكون نادما فيكون قد قارف معصية أخرى وقال الحسن يكفيه الاستغفار دون الاستحلال وربما استدل في ذلك بما روى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كفارة من اغتبته أن تستغفر له وقال مجاهد كفارة أكلك لحم أخيك أن تثني عليه وتدعو له بخير وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة قال أن تمشي الى صاحبك فتقول له كذبت فيما قلت وظلمتك وأسأت فان شئت أخذت بحقك وان شئت عفوت وهذا هو الاصح وقول القائل العرض لا عوض له فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال كلام ضعيف اذ قد وجب في العرض حد القذف وتثبت المطالبة به بل في الحديث الصحيح ما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال من كانت لاخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليستحللها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم انما يؤخذ من حسناته فان لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته وقالت عائشة رضي الله عنها لامرأة قالت لاخرى انها طويلة الذيل قد اغتبتيها فاستحليها فاذا لابد من الاستحلال ان قدر عليه فان كان غائبا أو ميتا فينبغي أن يكثر له الاستغفار والدعاء ويكثر من الحسنات فان قلت فالتحليل هل يجب فأقول لا لانه تبرع والتبرع فضل وليس بواجب ولكنه مستحسن وسبيل المعتذر أن يبالغ في الثناء عليه والتودد اليه ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه فان لم يطب قلبه كان اعتذاره وتودده حسنة محسوبة له يقابل بها سيئة الغيبة في القيامة وكان بعض السلف لا يحلل قال سعيد بن المسيب لا أحلل من ظلمني وقال ابن سيرين اني لم أحرمها عليه فاحللها له ان الله حرم الغيبة عليه وما كنت لاحلل ما حرم الله أبدا فان قلت فما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يستحلها وتحليل ما حرمه الله تعالى غير ممكن فنقول المراد به العفو عن المظلمة لا أن ينقلب الحرام حلالا وما قاله ابن سيرين حسن في التحليل قبل الغيبة فانه لا يجوز له أن يحلل لغيره الغيبة فان قلت فما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم كان اذا خرج من بيته قال اللهم اني قد تصدقت بعرضي على الناس فكيف يتصدق بالعرض ومن تصدق به فهل يباح تناوله فان كان لا تنفذ صدقته فما معنى الحث عليه فنقول معناه اني لا أطلب مظلمة في القيامة منه ولا أخاصمه والا فلا تصير الغيبة حلالا به ولا تسقط المظلمة عنه لانه عفو قبل الوجوب الا أنه وعد وله العزم على الوفاء بان لا يخاصم فان رجع وخاصم كان القياس كسائر الحقوق ان له ذلك بل صرح الفقهاء أن من أباح القذف لم يسقط حقه من حد القاذف ومظلمة الآخرة مثل مظلمة الدنيا وعلى الجملة فالعفو أفضل قال الحسن اذا جثت الامم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة نودوا ليقم من كان له أجر على الله فلا يقوم الا العافون عن الناس في الدنيا وقد قال الله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا جبريل ما هذا العفو فقال ان الله تعالى يامرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك وروى عن الحسن أن رجلا قال له ان فلانا قد اغتابك فبعث اليه رطبا على طبق وقال قد بلغني أنك أهديت الي من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها فاعذرني فاني لا أقدر أن أكافئك على التمام

(الآفة السادسة عشرة النميمة)

قال الله تعالى هماز مشاء بنميم ثم قال عتل بعد ذلك زنيم قال عبد الله بن المبارك الزنيم ولد الزنا الذي لا يكتم الحديث وأشار به الى ان كل من لم يكتم الحديث ومشى بالنميمة دل على انه ولد زنا استنباطا من قوله عز وجل عتل بعد ذلك زنيم والزنيم هو الدعي وقال تعالى ويل لكل همزة لمزة قيل الهمزة النمام وقال تعالى حمالة الحطب قيل انها كانت نمامة حمالة للحديث وقال تعالى فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيأ قيل كانت امرأة لوط تخبر بالضيفان وامرأة نوح تخبر أنه مجنون وقد قال صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة نمام وفي حديث آخر لا يدخل الجنة قتات والقتات هو النمام وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبكم الى الله أحاسنكم أخلاقا الموطؤن أكنافا الذين يألفون ويؤلفون وان أبغضكم الى الله المشاؤن بالنميمة المفرقون بين الاخوان الملتمسون للبرآء العثرات وقال صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بشراركم قالوا بلى قال المشاؤن بالنميمة المفسدون بين الاحبة الباغون للبرآء العيب وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشاع على مسلم بكلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها في النار يوم القيامة وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيما رجل أشاع على رجل

يعذبان في كبير أما هذا فكان لا يستبرئ أو لا يستنزه من البول وأما هذا فكان يمشي بالنميمة ثم دعا بعسيب رطب فشقه اثنين ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا وقال لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا والعسيب الجريد واذا كان في الصحراء يبعد عن العيون *روى جابر رضي الله عنه أن النبي عليه السلام كان اذا أراد البراز انطلق حتى لا يراه أحد وروى المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فاتى النبي عليه السلام حاجته فابعد في المذهب وروى ان النبي عليه السلام كان يتبوأ لحاجته كما يتبوأ الرجل المنزل وكان يستتر بحائط أو نشز من الارض أو كوم من الحجارة ويجوز أن يستتر الرجل براحلته في الصحراء أو بذيله اذا حفظ الثوب من الرشاش

كلمة وهو منها برىء ليشينه بها في الدنيا كان حقا على الله أن يذيبه بها يوم القيامة في النار وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من شهد على مسلم بشهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار ويقال ان ثلث عذاب القبر من النميمة وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله لما خلق الجنة قال لها تكلمي فقالت سعد من دخلني فقال الجبار جل جلاله وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس لا يسكنك مدمن خمر ولا مصر على الزنا ولا قتات وهو النمام ولا ديوث ولا شرطي ولا مخنث ولا قاطع رحم ولا الذي يقول علي عهد الله ان لم أفعل كذا وكذا ثم لم يف به وروى كعب الاحبار ان بني اسرائيل أصابهم قحط فاستسقى موسى عليه السلام مرات فما سقوا فاوحى الله تعالى اليه انى لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمام قد أصر على النميمة فقال موسى يا رب من هو دلني عليه حتى أخرجه من بيننا قال يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماما فتابوا جميعا فسقوا ويقال اتبع رجل حكيما سبعمائة فرسخ في سبع كلمات فلما قدم عليه قال انى جئتك للذى آتاك الله تعالى من العلم أخبرني عن السماء وما أثقل منها وعن الارض وما أوسع منها وعن الصخر وما أقسى منه وعن النار وما أحر منها وعن الزمهرير وما أبرد منه وعن البحر وما أغنى منه وعن اليتيم وما أذل منه فقال له الحكيم البهتان على البرىء أثقل من السموات والحق أوسع من الارض والقلب القانع أغنى من البحر والحرص والحسد أحر من النار والحاجة الى القريب اذا لم تنجح أبرد من الزمهرير وقلب الكافر أقسى من الحجر والنمام اذا بان أمره أذل من اليتيم

(بيان حد النميمة وما يجب في ردها)

اعلم أن اسم النميمة انما يطلق في الاكثر على من ينم قول الغير الى المقول فيه كما تقول فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا وليست النميمة مختصة به بل حدها كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول اليه أو كرهه ثالث وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالايماء وسواء كان المنقول من الاعمال أو من الاقوال وسواء كان ذلك عيبا ونقصا في المنقول عنه أو لم يكن بل حقيقة النميمة افشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه بل كل ما رآه الانسان من أحوال الناس مما يكره فينبغي أن يسكت عنه الا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية كما اذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له فاما اذا رآه يخفي مالا لنفسه فذكره فهو نميمة وافشاء للسر فان كان ما ينم به نقصا وعيبا في المحكي عنه كان قد جمع بين الغيبة والنميمة فالباعث على النميمة اما ارادة السوء للمحكي عنه أو اظهار الحب للمحكي له أو التفرج بالحديث والخوض في الفضول والباطل وكل من حملت اليه النميمة وقيل له ان فلانا قال فيك كذا أو فعل في حقك كذا أو هو يدبر في افساد أمرك أو في ممالاة عدوك أو تقبيح حالك أو ما يجرى مجراه فعليه ستة أمور *الاول أن لا يصدقه لان النمام فاسق وهو مردود الشهادة قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة *الثاني أن ينهاه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله قال الله تعالى وأمر بالمعروف وانه عن المنكر *الثالث أن يبغضه في الله تعالى فانه بغيض عند الله تعالى ويجب بغض من يبغضه الله تعالى *الرابع أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم *الخامس أن لا يحملك ما حكى لك على التجسس والبحث لتتحقق اتباعا لقوله تعالى ولا تجسسوا *السادس أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه ولا تحكي نميمته فتقول فلان قد حكى لي كذا وكذا فتكون به نماما ومغتابا وتكون قد أتيت ما عنه نهيت وقد روى عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه انه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيأ فقال له عمر ان شئت نظرنا في أمرك فان كنت كاذبا فانت من أهل هذه الآية ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا وان كنت صادقا فانت من أهل هذه الآية هماز مشاء بنميم وان شئت عفونا عنك فقال العفو يا أمير المؤمنين لا أعود اليه أبدا *وذكر ان حكيما من الحكماء زاره بعض اخوانه فاخبره بخبر عن بعض أصدقائه فقال له الحكيم قد أبطأت في الزيارة وأتيت بثلاث جنايات بغضت أخي الي وشغلت قلبي الفارغ واتهمت نفسك الامينة وروى أن سليمان بن عبد الملك كان جالسا وعنده الزهري فجاءه رجل فقال له سليمان بلغني انك وقعت في وقلت كذا وكذا فقال الرجل ما فعلت ولا قلت فقال سليمان ان الذي أخبرني صادق فقال له الزهري لا يكون النمام صادقا فقال سليمان صدقت ثم قال للرجل اذهب بسلام وقال الحسن من نم اليك نم عليك

ويستحب البول في أرض دمثة أو على تراب مهيل قال أبو موسى كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فاراد أن يبول فاتى دمثا في أصل جدار فبال ثم قال اذا أراد أحدكم أن يبول فليرتد لبوله وينبغي أن لا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستقبل الشمس والقمر ولا يكره استقبال القبلة في البنيان والاولى اجتنابه لذهاب بعض الفقهاء الى كراهية ذلك في البنيان أيضا ولا يرفع ثوبه حتى يدنو من الارض ويتجنب مهاب الرياح احترازا من الرشاش قال رجل لبعض الصحابة من الاعراب وقد خاصمه قال لا أحسبك تحسن الخراءة فقال بلى وأبيك اني بها لحاذق قال نصفها لي فقال أبعد البشر وأعد المدر وأستقبل الشيح وأستدبر الريح وأقعي اقعاء الظبي

وهذا اشارة الى ان النمام ينبغي أن يبغض ولا يوثق بقوله ولا بصداقته وكيف لا يبغض وهو لا ينفك عن الكذب والغيبة والغدر والخيانة والغل والحسد والنفاق والافساد بين الناس والخديعة وهو ممن يسعى في قطع ما أمر الله به أن يوصل و يفسدون في الارض وقال تعالى انما السبيل على الذين يظلمون الناس و يبغون في الارض بغير الحق والنمام منهم وقال صلى الله عليه وسلم ان من شرار الناس من اتقاه الناس لشره والنمام منهم وقال لا يدخل الجنة قاطع قيل وما القاطع قال قاطع بين الناس وهو النمام وقيل قاطع الرحم وروى عن علي رضي الله عنه أن رجلا سعى اليه برجل فقال له يا هذا نحن نسأل عما قلت فان كنت صادقا مقتناك وان كنت كاذبا عاقبناك وان شئت أن نقيلك أقلناك فقال أقلني يا أمير المؤمنين وقيل لمحمد بن كعب القرظي أي خصال المؤمن أوضع له فقال كثرة الكلام وافشاء السر وقبول قول كل أحد وقال رجل لعبد الله بن عامر وكان أميرا بلغني ان فلانا أعلم الامير أني ذكرته بسوء قال قد كان ذلك قال فاخبرني بما قال لك حتى أظهر كذبه عندك قال ما أحب أن أشتم نفسي بلساني وحسبي اني لم أصدقه فيما قال ولا أقطع عنك الوصال وذكرت السعاية عند بعض الصالحين فقال ما ظنكم بقوم يحمد الصدق من كل طائفة من الناس الا منهم وقال مصعب بن الزبير نحن نرى ان قبول السعاية شر من السعاية لان السعاية دلالة والقبول اجازة وليس من دل على شئ فاخبر به كمن قبله وأجازه فاتقوا الساعي فلو كان صادقا في قوله لكان لئيما في صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة والسعاية هي النميمة الا انها اذا كانت الى من يخاف جانبه سميت سعاية وقد قال صلى الله عليه وسلم الساعي بالناس الى الناس لغير رشدة يعني ليس بولد حلال ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك فاستأذنه في الكلام وقال اني مكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله وان كرهته فان وراءه ما تحب ان قبلته فقال قل فقال يا أمير المؤمنين انه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ورضاك بسخط ربهم خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ولا تصخ اليهم فيما استحفظك الله اياه فانهم لن يألوا في الامة خسفا وفي الامانة تضييعا والاعراض قطعا وانتهاكا أعلى قربهم البغي والنميمة وأجل وسائلهم الغيبة والوقيعة وأنت مسؤل عما أجرموا وليسوا المسؤلين عما أجرمت فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فان أعظم الناس غبنا من باع آخرته بدنيا غيره وسعى رجل بزياد الاعجم الى سليمان بن عبد الملك فجمع بينهما للموافقة فاقبل زياد على الرجل وقال

فانت امرؤ اما ائتمنتك خاليا * فخنت واما قلت قولا بلا علم

فانت من الامر الذي كان بيننا * بمنزلة بين الخيانة والاثم

وقال رجل لعمرو بن عبيد ان الاسواري ما زال يذكرك في قصصه بشر فقال له عمرو يا هذا ما رعيت حق مجالسة الرجل حيث نقلت الينا حديثه ولا أديت حقي حين أعلمتني عن أخي ما أكره ولكن أعلمه ان الموت يعمنا والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين * ورفع بعض السعاة الى الصاحب بن عباد رقعة نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرته فوقع على ظهرها السعاية قبيحة وان كانت صحيحة فان كنت أجريتها مجرى النصح فخسرانك فيها أفضل من الربح ومعاذ الله أن نقبل مهتوكا في مستور ولولا انك في خفارة شيبتك لقابلناك بما يقتضيه فعالك في مثلك فتوق يا ملعون العيب فان الله أعلم بالغيب الميت رحمه الله واليتيم جبره الله والمال ثمره الله والساعي لعنه الله وقال لقمان لابنه يا بني أوصيك بخلال ان تمسكت بهن لم تزل سيدا ابسط خلقك للقريب والبعيد وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم واحفظ اخوانك وصل أقاربك وآمنهم من قبول قول ساع أو سماع باغ يريد فسادك ويروم خداعك وليكن اخوانك من اذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك وقال بعضهم النميمة مبنية على الكذب والحسد والنفاق وهي اثافي الذل وقال بعضهم لو صح ما نقله النمام اليك لكان هو المجترئ بالشتم عليك والمنقول عنه أولى بحلمك لانه لم يقابلك بشتمك وعلى الجملة فشر النمام عظيم ينبغي أن يتوقى قال حماد بن سلمة باع رجل عبدا وقال للمشتري ما فيه عيب الا النميمة قال قد رضيت فاشتراه فمكث الغلام أياما ثم قال لزوجة مولاه ان سيدي لا يحبك وهو يريد أن يتسرى عليك فخذي الموسى واحلقي من شعر قفاه عند نومه شعرات حتى أسحره عليها فيحبك ثم قال للزوج ان امرأتك اتخذت خليلا وتريد أن تقتلك فتناوم لها حتى

وأجفل اجفال النعام يعني أستقبل أصول النبات من الشيح وغيره وأستدبر الريح احترازا من الرشاش والاقعاء ههنا أن يستوفز على صدور قدميه والاجفال أن يرفع عجزه * و يقول عند الفراغ من الاستنجاء اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وطهر قلبي من الرياء وحصن فرجي من الفواحش و يكره أن يبول الرجل في المغتسل روى عبد الله بن مغفل أن النبي عليه السلام نهى أن يبول الرجل في مستحمه وقال ان عامة الوسواس منه وقال ابن المبارك يوسع في البول في المستحم اذا جرى فيه الماء واذا كان في البنيان يقدم رجله اليسرى لدخول الخلاء و يقول قبل الدخول بسم الله أعوذ بالله من الخبث والخبائث * حدثنا شيخ شيخنا الاسلام أبو النجيب السهروردي قال أنا

تعرف ذلك فتناوم لها فجاءت المرأة بالموسى فظن انها تريد قتله فقام اليها فقتلها فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج ووقع القتال بين القبيلتين فنسأل الله حسن التوفيق

(الآفة السابعة عشرة)

كلام ذى اللسانين الذى يتردد بين المتعادين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه وقلما يخلو عنه من يشاهد متعادين وذلك عين النفاق قال عمار بن ياسر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث وفى لفظ آخر الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه وقال أبو هريرة لا ينبغى لذى الوجهين أن يكون أمينا عند الله وقال مالك بن دينار قرأت فى التوراة بطلت الامانة والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين يهلك الله تعالى يوم القيامة كل شفتين مختلفتين وقال صلى الله عليه وسلم أبغض خليقة الله الى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البغضاء لاخوانهم فى صدورهم فاذا لقوهم تملقوا لهم والذين اذا دعوا الى الله ورسوله كانوا بطاء واذا دعوا الى الشيطان وأمره كانوا سراعا وقال ابن مسعود لا يكونن أحدكم امعة قالوا وما الامعة قال الذى يجرى مع كل ريح واتفقوا على أن ملاقاة الاثنين بوجهين نفاق وللنفاق علامات كثيرة وهذه من جملتها وقد روى أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فلم يصل عليه حذيفة فقال له عمر أيموت رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تصل عليه فقال يا أمير المؤمنين انه منهم فقال نشدتك الله أنا منهم أم لا قال اللهم لا ولا أومن منها أحدا بعدك فان قلت بماذا يصير الرجل ذا لسانين وما حد ذلك فأقول اذا دخل على متعادين وجامل كل واحد منهما وكان صادقا فيه لم يكن ذا لسانين فان الواحد قد يصادق متعادين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهى الى حد الاخوة اذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الاعداء كما ذكرنا فى كتاب آداب الصحبة والاخوة نعم لو نقل كلام كل واحد منهما الى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من النميمة اذ يصير نماما بأن ينقل من أحد الجانبين فقط فاذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام وان لم ينقل كلاما ولكن حسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه فهذا ذو لسانين وكذلك اذا وعد كل واحد منهما بأن ينصره وكذلك اذا أثنى على كل واحد منهما فى معاداته وكذلك اذا أثنى على أحدهما وكان اذا خرج من عنده يذمه فهو ذو لسانين بل ينبغى أن يسكت أو يثنى على المحق من المتعادين ويثنى عليه فى غيبته وفى حضوره وبين يدى عدوه قيل لابن عمر رضى الله عنهما انا ندخل على أمرائنا فنقول القول فاذا خرجنا قلنا غيره فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا نفاق مهما كان مستغنيا عن الدخول على الامير وعن الثناء عليه فلو استغنى عن الدخول ولكن اذا دخل يخاف ان لم يثن فهو نفاق لانه الذى أحوج نفسه الى ذلك فان كان مستغنيا عن الدخول لو قنع بالقليل وترك المال والجاه فدخل لضرورة الجاه والغنى وأثنى فهو منافق وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم حب المال والجاه ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل لانه يحوج الى الامراء والى مراعاتهم ومراآتهم فأما اذا ابتلى به لضرورة وخاف ان لم يثن فهو معذور فان اتقاء الشر جائز قال أبو الدرداء رضى الله عنه انا لنكشر فى وجوه أقوام وان قلوبنا لتلعنهم وقالت عائشة رضى الله عنها استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو ثم لما دخل ألان له القول فلما خرج قلت يا رسول الله قلت فيه ما قلت ثم ألنت له القول فقال يا عائشة ان شر الناس الذى يكرم اتقاء شره ولكن هذا ورد فى الاقبال وفى الكشر والتبسم فأما الثناء فهو كذب صراح ولا يجوز الا لضرورة أو اكراه يباح الكذب بمثله كما ذكرناه فى آفة الكذب بل لا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس فى معرض التقرير على كل كلام باطل فان فعل ذلك فهو منافق بل ينبغى أن ينكر فان لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه

(الآفة الثامنة عشرة)

المدح وهو منهى عنه فى بعض المواضع أما الذم فهو الغيبة والوقيعة وقد ذكرنا حكمها والمدح يدخله ست آفات أربع فى المادح واثنتان فى الممدوح *(فأما المادح)* فالاولى أنه قد يفرط فينتهى به الى الكذب قال خالد بن معدان من مدح اماما أو أحدا بما ليس فيه على رؤس الاشهاد بعثه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه * الثانية انه قد

يدخله

أبو منصور المقرى قال أنا أبو بكر الخطيب قال أنا أبو عمر الهاشمى قال أنا أبو على اللؤلؤى قال أنا أبو داود قال ثنا عمر وهو ابن مرزوق البصرى قال ثنا شعبة عن قتادة عن النضر ابن أنس عن زيد بن أرقم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان هذه الحشوش محتضرة فاذا أتى أحدكم الخلاء فليقل أعوذ بالله من الخبث والخبائث وأراد بالحشوش الكنف وأصل الحش جماعة النخل الكثيف كانوا يقضون حوائجهم اليها قبل أن تتخذ الكنف فى البيوت وقوله محتضرة أى يحضرها الشياطين وفى الجلوس للحاجة يعتمد على الرجل اليسرى ولا يتولع بيده ولا يخط فى الارض بالحائط وقت قعوده ولا يكثر النظر الى عورته الا لحاجة الى ذلك ولا يتكلم فقد

يدخله الرياء فانه بالمدح مظهر للحب وقد لا يكون مضمراً له ولا معتقداً لجميع ما يقوله فيصير به مرائياً منافقاً *الثالثة انه قد يقول مالا يتحققه ولا سبيل له الى الاطلاع عليه روى أن رجلاً مدح رجلاً عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال له عليه السلام ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح ثم قال ان كان أحدكم لا بد مادحاً أخاه فليقل أحسب فلاناً ولا أزكى على الله أحداً حسيبه الله ان كان يرى أنه كذلك وهذه الآفة تتطرق الى المدح بالأوصاف المطلقة التي تعرف بالأدلة كقوله انه متق وورع وزاهد وخير وما يجرى مجراه فأما اذا قال رأيته يصلي بالليل ويتصدق ويحج فهذه أمور مستيقنة ومن ذلك قوله انه عدل رضا فان ذلك خفي فلا ينبغي ان يجزم القول فيه الا بعد خبرة باطنه سمع عمر رضي الله عنه رجلاً يثني على رجل فقال أسافرت معه قال لا قال أخالطته في المبايعة والمعاملة قال لا قال فأنت جاره صباحه ومساءه قال لا فقال والله الذي لا اله الا هو لا أراك تعرفه الرابعة انه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يغضب اذا مدح الفاسق وقال الحسن من دعا للظالم بطول البقاء فقد أحب ان يعصى الله تعالى في أرضه والظالم الفاسق ينبغي ان يذم ليغتم ولا يمدح ليفرح *(وأما الممدوح فيضره من وجهين)* أحدهما أنه يحدث فيه كبراً واعجاباً وهما مهلكان قال الحسن رضي الله عنه كان عمر رضي الله عنه جالساً ومعه الدرة والناس حوله اذ أقبل الجارود بن المنذر فقال رجل هذا سيد ربيعة فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود فلما دنا منه خفقه بالدرة فقال مالي ولك يا أمير المؤمنين قال مالي ولك أما لقد سمعتها قال سمعتها فمه قال خشيت أن يخالط قلبك منها شيء فأحببت أن أطأطئ منك الثاني هو أنه اذا أثني عليه بالخير فرح به وفتر ورضي عن نفسه ومن أعجب بنفسه قل تشمره وانما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصراً فأما اذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك ولهذا قال عليه السلام قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح وقال صلى الله عليه وسلم اذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى رميضاً وقال أيضاً لمن مدح رجلاً عقرت الرجل عقرك الله وقال مطرف ما سمعت قط ثناء ولا مدحة الا تصاغرت الى نفسي وقال زياد بن مسلم ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة الا تراءى له الشيطان ولكن المؤمن يراجع فقال ابن المبارك لقد صدق كلاهما أما ما ذكره زياد فذلك قلب العوام وأما ما ذكره مطرف فذلك قلب الخواص وقال صلى الله عليه وسلم لو مشى رجل الى رجل بسكين مرهف كان خيراً له من أن يثني عليه في وجهه وقال عمر رضي الله عنه المدح هو الذبح وذلك لان المذبوح هو الذي يفتر عن العمل والمدح يوجب الفتور أو لان المدح يورث العجب والكبر وهما مهلكان كالذبح فلذلك شبهه به فان سلم المدح من هذه الآفات في حق المادح والممدوح لم يكن به بأس بل ربما كان مندوباً اليه ولذلك أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصحابة فقال لو وزن ايمان أبي بكر بايمان العالم لرجح وقال في عمر لو لم أبعث لبعثت يا عمر وأي ثناء يزيد على هذا ولكنه صلى الله عليه وسلم قال عن صدق وبصيرة وكانوا رضي الله عنهم أجل رتبة من أن يورثهم ذلك كبراً وعجباً وفتوراً بل مدح الرجل نفسه قبيح لما فيه من الكبر والتفاخر اذ قال صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ولا فخر أي لست أقول هذا تفاخراً كما يقصده الناس بالثناء على أنفسهم وذلك لان افتخاره صلى الله عليه وسلم كان بالله وبالقرب من الله لا بولد آدم وتقدمه عليهم كما أن المقبول عند الملك قبولاً عظيماً انما يفتخر بقبوله اياه وبه يفرح لا بتقدمه على بعض رعاياه وبتفصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذم المدح وبين الحث عليه قال صلى الله عليه وسلم وجبت لما أثنوا على بعض الموتى وقال مجاهد ان لبني آدم جلساء من الملائكة فاذا ذكر الرجل المسلم أخاه المسلم بخير قالت الملائكة ولك بمثله واذا ذكره بسوء قالت الملائكة يا ابن آدم المستور عورتك أربع على نفسك واحمد الله الذي ستر عورتك فهذه آفات المدح

(بيان ما على الممدوح)

اعلم ان على الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور ولا ينجو منه الا بان يعرف نفسه ويتأمل ما في خطر الخاتمة ودقائق الرياء وآفات الاعمال فانه يعرف من نفسه مالا يعرفه المادح ولو انكشف له جميع أسراره وما يجري على خواطره لكف المادح عن مدحه وعليه أن يظهر كراهة المدح باذلال المادح قال صلى الله عليه وسلم احثوا التراب في وجوه المادحين وقال سفيان بن عيينة لا يضر مدح من عرف نفسه وأثنى على

ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يخرج الرجلان يضربان الغائط كاشفين عورتهما يتحدثان فان الله تعالى يمقت على ذلك ويقول عند خروجه غفرانك الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني وأبقى علي ما ينفعني ولا يستصحب معه شيأ عليه اسم الله من ذهب وخاتم وغيره ولا يدخل حاسر الرأس روت عائشة رضي الله عنها عن أبيها أبي بكر رضي الله عنه أنه قال استحيوا من الله فاني لادخل الكنيف فالزق ظهري وأغطي رأسي استحياء من ربي عز وجل

(الباب الرابع والثلاثون في آداب الوضوء وأسراره)

اذا أراد الوضوء يبتدئ بالسواك (حدثنا) شيخنا أبو النجيب قال أنا أبو عبد الله الطائي قال أنا الحافظ الفراء قال أنا عبد الواحد بن أحمد المليحي قال أنا أبو

رجل من الصالحين فقال اللهم ان هؤلاء لا يعرفوني وأنت تعرفني وقال آخر لما أثنى عليه اللهم ان عبدك هذا تقرب الى بمقتك وأنا أشهدك على مقته وقال على رضى الله عنه لما أثنى عليه اللهم اغفر لى مالا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون واجعلنى خيرا مما يظنون وأثنى رجل على عمر رضى الله عنه فقال أتهلكنى وتهلك نفسك وأثنى رجل على على كرم الله وجهه فى وجهه وكان قد بلغه انه يقع فيه فقال أنا دون ماقلت وفوق مافى نفسك

(الآفة التاسعة عشرة)

فى الغفلة عن دقائق الخطأ فى فحوى الكلام لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ويرتبط بامور الدين فلا يقدر على تقويم اللفظ فى أمور الدين الا العلماء الفصحاء فمن قصر فى علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن الزلل لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله مثاله ماقال حذيفة قال النبى صلى الله عليه وسلم لا يقل أحدكم ماشاء الله وشئت ولكن ليقل ماشاء الله ثم شئت وذلك لان فى العطف المطلق تشريكا وتسوية وهو على خلاف الاحترام وقال ابن عباس رضى الله عنهما جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمه فى بعض الامر فقال ماشاء الله وشئت فقال صلى الله عليه وسلم أجعلتنى لله عديلا بل ماشاء الله وحده وخطب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى فقال قل ومن يعص الله ورسوله فقد غوى فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله ومن يعصهما لانه تسوية وجمع وكان ابراهيم يكره أن يقول الرجل أعوذ بالله وبك ويجوز أن يقول أعوذ بالله ثم بك وأن يقول لولا الله ثم فلان ولا يقول لولا الله وفلان وكره بعضهم أن يقال اللهم أعتقنا من النار وكان يقول العتق يكون بعد الورود وكانوا يستجيرون من النار ويتعوذون من النار وقال رجل اللهم اجعلنى ممن تصيبه شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم فقال حذيفة ان الله يغنى المؤمنين عن شفاعة محمد وتكون شفاعته للمذنبين من المسلمين وقال ابراهيم اذا قال الرجل للرجل ياحمار ياخنزير قيل له يوم القيامة حمارا رأيتنى خلقته خنزيرا رأيتنى خلقته وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلبه فيقول لولاه لسرقنا الليلة وقال عمر رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت قال عمر رضى الله عنه فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها وقال صلى الله عليه وسلم لاتسموا العنب كرما انما الكرم الرجل المسلم وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقولن أحدكم عبدى ولا أمتى كلكم عبيد الله وكل نسائكم اماء الله وليقل غلامى وجاريتى وفتاى وفتاتى ولا يقول المملوك ربى ولا ربتى وليقل سيدى وسيدتى فكلكم عبيد الله والرب الله سبحانه وتعالى وقال صلى الله عليه وسلم لا تقولوا للفاسق سيدنا فانه ان يكن سيدكم فقد أسخطتم ربكم وقال صلى الله عليه وسلم من قال أنا برىء من الاسلام فان كان صادقا فهو كما قال وان كان كاذبا فلن يرجع الى الاسلام سالما فهذا وأمثاله مما يدخل فى الكلام ولا يمكن حصره ومن تامل جميع ما أوردناه من آفات اللسان علم انه اذا أطلق لسانه لم يسلم وعند ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم من صمت نجا لان هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب وهى على طريق المتكلم فان سكت سلم من الكل وان نطق وتكلم خاطر بنفسه الا أن يوافقه لسان فصيح وعلم غزير وورع حافظ ومراقبة لازمة ويقلل من الكلام فعساه يسلم عند ذلك وهو مع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر فان كنت لا تقدر على أن تكون ممن تكلم فغنم فكن ممن سكت فسلم فالسلامة احدى الغنيمتين

(الآفة العشرون)

سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه وعن الحروف وانها قديمة أو محدثة ومن حقهم الاشتغال بالعمل بما فى القرآن الا أن ذلك ثقيل على النفوس والفضول خفيف على القلب والعامى يفرح بالخوض فى العلم اذ الشيطان يخيل اليه انك من العلماء وأهل الفضل ولا يزال يحبب اليه ذلك حتى يتكلم فى العلم بما هو كفر وهو لا يدرى وكل كبيرة يرتكبها العامى فهى أسلم له من أن يتكلم فى العلم لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته وانما شأن العوام الاشتغال بالعبادات والايمان بما ورد به القرآن والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به المقت من الله عز وجل ويتعرضون لخطر الكفر وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو

منصور محمد بن أحمد قال أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار قال ثنا حميد بن زنجويه قال ثنا يعلى بن عبيد قال ثنا محمد بن اسحق عن محمد بن ابراهيم عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن زيد بن خالد الجهنى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا ان أشق على أمتى لاخرت العشاء الى ثلث الليل وأمرتهم بالسواك عند كل مكتوبة وروت عائشة رضى الله تعالى عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال السواك مطهرة للفم مرضاة للرب وعن حذيفة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك والشوص الدلك ويستحب السواك عند كل صلاة وعند كل وضوء وكلما تغير الفم من أزم وغيره واصل الازم امساك الاسنان بعضها

مذموم فانه بالاضافة اليه عامى ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ذرونى ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم وقال أنس سال الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فأكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر وقال سلونى ولا تسألونى عن شئ الا أنبأتكم به فقام اليه رجل فقال يا رسول الله من أبى فقال أبوك حذافة فقام اليه شابان أخوان فقالا يا رسول الله من أبونا فقال أبوكما الذى تدعيان اليه ثم قام اليه رجل آخر فقال يا رسول الله أفى الجنة أنا أم فى النار فقال لا بل فى النار فلما رأى الناس غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسكوا فقام اليه عمر رضى الله عنه فقال رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا فقال اجلس يا عمر رحمك الله انك ما علمت لموفق وفى الحديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال واضاعة المال وكثرة السؤال وقال صلى الله عليه وسلم يوشك الناس يتساءلون حتى يقولوا قد خلق الله الخلق فمن خلق الله فاذا قالوا ذلك فقولوا قل هو الله أحد الله الصمد حتى تختموا السورة ثم ليتفل أحدكم عن يساره ثلاثا وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم وقال جابر ما نزلت آية المتلاعنين الا لكثرة السؤال وفى قصة موسى والخضر عليهما السلام تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه اذ قال فان اتبعتنى فلا تسالنى عن شئ حتى أحدث لك منه ذكرا فلما سال عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا فلما لم يصبر حتى سال ثلاثا قال هذا فراق بينى وبينك وفارقه فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات وهو من المثيرات للفتن فيجب دفعهم ومنعهم من ذلك وخوضهم فى حروف القرآن يضاهى حال من كتب الملك اليه كتابا ورسم له فيه أمورا فلم يشتغل بشئ منها وضيع زمانه فى أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث فاستحق بذلك العقوبة لا محالة فكذلك تضييع العامى حدود القرآن واشتغاله بحروفه أهى قديمة أم حديثة وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى والله تعالى أعلم

(كتاب ذم الغضب والحقد والحسد وهو الكتاب الخامس من ربع المهلكات من كتب احياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذى لا يتكل على عفوه ورحمته الا الراجون * ولا يحذر سوء غضبه وسطوته الا الخائفون * الذى استدرج عباده من حيث لا يعلمون * وسلط عليهم الشهوات وأمرهم بترك ما يشتهون * وابتلاهم بالغضب وكلفهم كظم الغيظ فيما يغضبون * ثم حفهم بالمكاره واللذات وأملى لهم لينظر كيف يعملون * وامتحن به حبهم ليعلم صدقهم فيما يدعون * وعرفهم انه لا يخفى عليه شئ مما يسرون وما يعلنون * وحذرهم أن يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون * فقال ما ينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون * والصلاة على محمد رسوله الذى يسير تحت لوائه النبيون * وعلى آله وأصحابه الأئمة المهديون * والسادة المرضيون * صلاة يوازى عددها عدد ما كان من خلق الله وما سيكون * ويحظى ببركتها الاولون والآخرون وسلم تسليما كثيرا (أما بعد) فان الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التى تطلع على الافئدة * وانها لمستكنة فى طى الفؤاد * استكنان الجمر تحت الرماد * ويستخرجها الكبر الدفين فى قلب كل جبار عنيد كاستخراج الحجر النار من الحديد * وقد انكشف للناظرين بنور اليقين * أن الانسان ينزع منه عرق الى الشيطان اللعين * فمن استفزته نار الغضب فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال خلقتنى من نار وخلقته من طين * فان شأن الطين السكون والوقار وشأن النار التلظى والاستعار * والحركة والاضطراب ومن نتائج الغضب الحقد والحسد * وبهما هلك من هلك وفسد من فسد * ومفيضهما مضغة اذا صلحت صلح معها سائر الجسد واذا كان الحقد والحسد والغضب مما يسوق العبد الى مواطن العطب * فما أحوجه الى معرفة معاطبه ومساويه ليحذر ذلك ويتقيه * ويميطه عن القلب ان كان وينفيه * ويعالجه ان رسخ فى قلبه ويداويه * فان من لا يعرف الشر يقع فيه * ومن عرفه فالمعرفة لا تكفيه * ما لم يعرف الطريق الذى به يدفع الشر ويقصيه ونحن نذكر ذم الغضب وآفات الحقد والحسد فى هذا الكتاب ويجمعها بيان ذم الغضب ثم بيان حقيقة الغضب ثم بيان أن الغضب هل يمكن ازالة أصله بالرياضة أم لا ثم بيان الاسباب المهيجة للغضب ثم بيان علاج الغضب بعد

على بعض وقيل للسواك أزملان الاسنان تنطبق وبذلك يتغير الفم ويكره للصائم بعد الزوال ويستحب له قبل الزوال وأكثر استحبابه مع غسل الجمعة وعند القيام من الليل ويندى السواك اليابس بالماء ويستاك عرضا وطولا فان اقتصر فعرضا فاذا فرغ من السواك يغسله ويجلس للوضوء والاولى ان يكون مستقبل القبلة ويبتدئ بسم الله الرحمن الرحيم ويقول رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ويقول عند غسل اليد اللهم انى أسالك اليمن والبركة وأعوذ بك من الشؤم والهلكة ويقول عند المضمضة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأعنى على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك ويقول عند الاستنشاق اللهم صل على محمد وعلى

هيجانه ثم بيان فضيلة كظم الغيظ ثم بيان فضيلة الحلم ثم بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام ثم القول في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق ثم القول في ذم الحسد وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب في ازالته ثم بيان السبب في كثرة الحسد بين الامثال والاقران والاخوة وبني العم والاقارب وتأكده وقلته في غيرهم وضعفه ثم بيان الدواء الذي به ينفي مرض الحسد عن القلب ثم بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب وبالله التوفيق

(بيان ذم الغضب)

قال الله تعالى اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين الآية ذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل ومدح المؤمنين بما أنزل الله عليهم من السكينة وروى أبو هريرة أن رجلا قال يا رسول الله مرني بعمل وأقلل قال لا تغضب ثم أعاد عليه فقال لا تغضب وقال ابن عمر قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم قل لي قولا وأقلله لعلي أعقله فقال لا تغضب فأعدت عليه مرتين كل ذلك يرجع الي لا تغضب وعن عبد الله بن عمر أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذا ينقذني من غضب الله قال لا تغضب وقال ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم ما تعدون الصرعة فيكم قلنا الذي لا تصرعه الرجال قال ليس ذلك ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم ليس الشديد بالصرعة وانما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب وقال ابن عمر قال النبي صلى الله عليه وسلم من كف غضبه ستر الله عورته وقال سليمان بن داود عليهما السلام يا بني اياك وكثرة الغضب فان كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحليم وعن عكرمة في قوله تعالى وسيدا وحصورا قال السيد الذي لا يغلبه الغضب وقال أبو الدرداء قلت يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة قال لا تغضب وقال يحيى لعيسى عليهما السلام لا تغضب قال لا أستطيع أن لا أغضب انما أنا بشر قال لا تقتن مالا قال هذا عسى وقال صلى الله عليه وسلم الغضب يفسد الايمان كما يفسد الصبر العسل وقال صلى الله عليه وسلم ما غضب أحد الا أشفى على جهنم وقال له رجل أي شيء أشد قال غضب الله قال فما يبعدني من غضب الله قال لا تغضب (الآثار) قال الحسن يا ابن آدم كلما غضبت وثبت يوشك أن تثب وثبة فتقع في النار وعن ذي القرنين انه لقي ملكا من الملائكة فقال علمني علما أزداد به ايمانا ويقينا قال لا تغضب فان الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب فرد الغضب بالكظم وسكنه بالتؤدة واياك والعجلة فانك اذا عجلت أخطأت حظك وكن سهلا لينا للقريب والبعيد ولا تكن جبارا عنيدا وعن وهب بن منبه أن راهبا كان في صومعته فاراد الشيطان أن يضله فلم يستطع فجاءه حتى ناداه فقال له افتح فلم يجبه فقال افتح فاني ان ذهبت ندمت فلم يلتفت اليه فقال اني أنا المسيح قال الراهب وان كنت المسيح فما أصنع بك أليس قد أمرتنا بالعبادة والاجتهاد ووعدتنا القيامة فلو جئتنا اليوم بغيره لم نقبله منك فقال اني الشيطان وقد أردت أن أضلك فلم أستطع فجئتك لتسألني عما شئت فاخبرك فقال ما أريد أن أسألك عن شيء قال فولى مدبرا فقال الراهب ألا تسمع قال بلى قال أخبرني أي أخلاق بني آدم أعون لك عليهم قال الحدة ان الرجل اذا كان حديدا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة وقال خيثمة الشيطان يقول كيف يغلبني ابن آدم واذا رضي جئت حتى أكون في قلبه واذا غضب طرت حتى أكون في رأسه وقال جعفر بن محمد الغضب مفتاح كل شر وقال بعض الانصار رأس الحمق الحدة وقائده الغضب ومن رضي بالجهل استغنى عن الحلم والحلم زين ومنفعة والجهل شين ومضرة والسكوت عن جواب الاحمق جوابه وقال مجاهد قال ابليس ما أعجزني بنو آدم فلن يعجزوني في ثلاث اذا سكر أحدهم أخذنا بخزامته فقدناه حيث شئنا وعمل لنا بما أحببنا واذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم ونبخله بما في يديه ونمنيه بما لا يقدر عليه وقيل لحكيم ما أملك فلانا لنفسه قال اذا لا تذله الشهوة ولا يصرعه الهوى ولا يغلبه الغضب وقال بعضهم اياك والغضب فانه مصيرك الى ذلة الاعتذار وقيل اتقوا الغضب فانه يفسد الايمان كما يفسد الصبر العسل وقال عبد الله بن مسعود انظروا الى حلم الرجل عند غضبه وأمانته عند طمعه وما علمك بحلمه اذا لم يغضب وما علمك بامانته اذا لم يطمع وكتب عمر بن عبد العزيز الى عامله أن لا تعاقب عند غضبك واذا غضبت على رجل فاحبسه فاذا سكن غضبك فاخرجه فعاقبه على قدر ذنبه ولا تجاوز به خمسة عشر سوطا وقال علي بن زيد أغلظ رجل من قريش

آل محمد وأوجدني رائحة الجنة وأنت عني راض ويقول عند الاستنثار اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأعوذ بك من روائح النار وسوء الدار ويقول عند غسل الوجه اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبيض وجهي يوم تبيض وجوه أوليائك ولا تسود وجهي يوم تسود وجوه أعدائك وعند غسل اليمين اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وآتني كتابي بيميني وحاسبني حسابا يسيرا وعند غسل الشمال اللهم اني أعوذ بك أن تؤتيني كتابي بشمالي أو من وراء ظهري وعند مسح الرأس اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وغشني برحمتك وأنزل علي من بركاتك وأظلني تحت ظل عرشك يوم لا ظل الا ظل عرشك ويقول عند مسح الاذنين اللهم صل على محمد وعلى آل

لعمر بن عبد العزيز القول فأطرق عمر زمانا طويلا ثم قال أردت أن يستفزني الشيطان بعز السلطان فأنال منك اليوم ما تناله مني غدا وقال بعضهم لابنه يا بني لا يثبت العقل عند الغضب كما لا تثبت روح الحي في التنانير المسجورة فأقل الناس غضبا أعقلهم فان كان للدنيا كان دهاء ومكرا وان كان للآخرة كان حلما وعلما فقد قيل الغضب عدو العقل والغضب غول العقل وكان عمر رضي الله عنه اذا خطب قال في خطبته أفلح منكم من حفظ من الطمع والهوى والغضب وقال بعضهم من أطاع شهوته وغضبه قاداه الى النار وقال الحسن من علامات المسلم قوة في دين وحزم في لين وايمان في يقين وعلم في حلم وكيس في رفق واعطاء في حق وقصد في غنى وتجمل في فاقة واحسان في قدرة وتحمل في رفاقة وصبر في شدة لا يغلبه الغضب ولا تجمح به الحمية ولا تغلبه شهوة ولا تفضحه بطنه ولا يستخفه حرصه ولا تقصر به نيته فينصر المظلوم ويرحم الضعيف ولا يبخل ولا يبذر ولا يسرف ولا يقتر يغفر اذا ظلم ويعفو عن الجاهل نفسه منه في عناء والناس منه في رخاء وقيل لعبد الله بن المبارك أجمل لنا حسن الخلق في كلمة فقال ترك الغضب وقال نبي من الانبياء لمن تبعه من يتكفل لي أن لا يغضب فيكون معي في درجتي ويكون بعدي خليفتي فقال شاب من القوم أنا ثم أعاد عليه فقال الشاب أنا أوفي به فلما مات كان في منزلته بعده وهو ذو الكفل سمي به لانه تكفل بالغضب ووفى به وقال وهب بن منبه للكفر أربعة أركان الغضب والشهوة والخرق والطمع

(بيان حقيقة الغضب)

اعلم ان الله تعالى لما خلق الحيوان معرضا للفساد والموتان بأسباب في داخل بدنه وأسباب خارجة عنه أنعم عليه بما يحميه عن الفساد ويدفع عنه الهلاك الى أجل معلوم سماه في كتابه * أما السبب الداخل فهو أنه ركبه من الحرارة والرطوبة وجعل بين الحرارة والرطوبة عداوة ومضادة فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة وتجففها وتبخرها حتى تصير أجزاؤها بخارا يتصاعد منها فلو لم يتصل بالرطوبة مدد من الغذاء يجبر ما انحل وتبخر من أجزائها لفسد الحيوان فخلق الله الغذاء الموافق لبدن الحيوان وخلق في الحيوان شهوة تبعثه على تناول الغذاء كالموكل به في جبر ما انكسر وسد ما انثلم ليكون ذلك حافظا له من الهلاك بهذا السبب * وأما الاسباب الخارجة التي يتعرض لها الانسان فكالسيف والسنان وسائر المهلكات التي يقصد بها فافتقر الى قوة وحمية تثور من باطنه فتدفع المهلكات عنه فخلق الله طبيعة الغضب من النار وغرزها في الانسان وعجنها بطينته فمهما صد عن غرض من أغراضه ومقصود من مقاصده اشتعلت نار الغضب وثارت به ثورانا يغلي به دم القلب وينتشر في العروق ويرتفع الى أعالي البدن كما ترتفع النار وكما يرتفع الماء الذي يغلي في القدر فلذلك ينصب الى الوجه فيحمر الوجه والعين والبشرة لصفائها تحكي لون ما وراءها من حمرة الدم كما تحكي الزجاجة لون ما فيها وانما ينبسط الدم اذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه فان صدر الغضب على من فوقه وكان معه يأس من الانتقام تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد الى جوف القلب وصار حزنا ولذلك يصفر اللون وان كان الغضب على نظير يشك فيه تردد الدم بين انقباض وانبساط فيحمر ويصفر ويضطرب وبالجملة فقوة الغضب محلها القلب ومعناها غليان دم القلب بطلب الانتقام وانما تتوجه هذه القوة عند ثورانها الى دفع المؤذيات قبل وقوعها والى التشفي والانتقام بعد وقوعها والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها ولا تسكن الا به ثم ان الناس في هذه القوة على درجات ثلاث في أول الفطرة من التفريط والافراط والاعتدال * أما التفريط فبفقد هذه القوة أو ضعفها وذلك مذموم وهو الذي يقال فيه انه لا حمية له ولذلك قال الشافعي رحمه الله من استغضب فلم يغضب فهو حمار فمن فقد قوة الغضب والحمية أصلا فهو ناقص جدا وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالشدة والحمية فقال أشداء على الكفار رحماء بينهم وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم الآية وانما الغلظة والشدة من آثار قوة الحمية وهو الغضب * وأما الافراط فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار بل يصير في صورة المضطر وسبب غلبته أمور غريزية وأمور اعتيادية فرب انسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب حتى كأن صورته في الفطرة صورة غضبان ويعين على ذلك حرارة مزاج القلب لان الغضب من النار كما قال صلى الله عليه وسلم وانما برودة المزاج تطفئه

محمد واجعلني ممن يستمع القول فيتبع أحسنه اللهم أسمعني منادي الجنة مع الابرار ويقول في مسح العنق اللهم فك رقبتي من النار وأعوذ بك من السلاسل والاغلال ويقول عند غسل قدمه اليمنى اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وثبت قدمي على الصراط مع أقدام المؤمنين ويقول عند اليسرى اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأعوذ بك أن تزل قدمي عن الصراط يوم تزل فيه أقدام المنافقين واذا فرغ من الوضوء يرفع رأسه الى السماء ويقول أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله سبحانك اللهم وبحمدك لا اله الا أنت عملت سوأ وظلمت نفسي أستغفرك وأتوب اليك فاغفر لي وتب علي انك أنت التواب الرحيم اللهم صل على محمد وعلى

وتنكسر سورته * وأما الأسباب الاعتيادية فهو أن يخالط قوما يتبجحون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب ويسمون ذلك شجاعة ورجولية فيقول الواحد منهم أنا الذي لا أصبر على المكر والمحال ولا أحتمل من أحد أمرا ومعناه لا عقل في ولا حلم ثم يذكره في معرض الفخر بجهله فمن سمعه رسخ في نفسه حسن الغضب وحب التشبه بالقوم فيقوى به الغضب ومهما اشتدت نار الغضب وقوي اضطرامها أعمت صاحبها وأصمته عن كل موعظة فاذا وعظ لم يسمع بل زاده ذلك غضبا واذا استضاء بنور عقله وراجع نفسه لم يقدر اذ ينطفئ نور العقل وينمحي في الحال بدخان الغضب فان معدن الفكر الدماغ ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان مظلم الى الدماغ يستولي على معادن الفكر وربما يتعدى الى معادن الحس فتظلم عينه حتى لا يرى بعينه وتسود عليه الدنيا بأسرها ويكون دماغه على مثال كهف اضطرمت فيه نار فاسود جوه وحمي مستقره وامتلأ بالدخان جوانبه وكان فيه سراج ضعيف فانمحى أو انطفأ نوره فلا تثبت فيه قدم ولا يسمع فيه كلام ولا ترى فيه صورة ولا يقدر على اطفائه لا من داخل ولا من خارج بل ينبغي أن يصبر الى أن يحترق جميع ما يقبل الاحتراق فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدماغ وربما تقوى نار الغضب فتفني الرطوبة التي بها حياة القلب فيموت صاحبه غيظا كما تقوى النار في الكهف فينشق وتنهد أعاليه على أسفله وذلك لابطال النار ما في جوانبه من القوة الممسكة الجامعة لأجزائه فهكذا حال القلب عند الغضب وبالحقيقة فالسفينة في ملتطم الأمواج عند اضطراب الرياح في لجة البحر أحسن حالا وأرجى سلامة من النفس المضطربة غيظا اذ في السفينة من يحتال لتسكينها وتدبيرها وينظر لها ويسوسها وأما القلب فهو صاحب السفينة وقد سقطت حيلته اذ أعماه الغضب وأصمه ومن آثار هذا الغضب في الظاهر تغير اللون وشدة الرعدة في الأطراف وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والكلام حتى يظهر الزبد على الأشداق وتحمر الأحداق وتنقلب المناخر وتستحيل الخلقة ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره فان الظاهر عنوان الباطن وانما قبحت صورة الباطن أولا ثم انتشر قبحها الى الظاهر ثانيا فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن فقس الثمر بالمثمرة فهذا أثره في الجسد وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام الذي يستحيي منه ذو العقل ويستحيي منه قائله عند فتور الغضب وذلك مع تخبط النظم واضطراب اللفظ وأما أثره على الأعضاء فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة فان هرب منه المغضوب عليه أو فاته بسبب وعجز عن التشفي رجع الغضب على صاحبه فمزق ثوب نفسه ويلطم نفسه وقد يضرب بيده على الأرض ويعدو عدو الواله السكران والمدهوش المتحير وربما يسقط سريعا لا يطيق العدو والنهوض بسبب شدة الغضب ويعتريه مثل الغشية وربما يضرب الجمادات والحيوانات فيضرب القصعة مثلا على الأرض وقد يكسر المائدة اذا غضب عليها ويتعاطى أفعال المجانين فيشتم البهيمة والجمادات ويخاطبها ويقول الى متى منك هذا يا كيت وكيت كأنه يخاطب عاقلا حتى ربما رفسته دابة فيرفس الدابة ويقابلها بذلك وأما أثره في القلب مع المغضوب عليه فالحقد والحسد واضمار السوء والشماتة بالمساآت والحزن بالسرور والعزم على افشاء السر وهتك الستر والاستهزاء وغير ذلك من القبائح فهذه ثمرة الغضب المفرط وأما ثمرة الحمية الضعيفة فقلة الأنفة مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة والأمة واحتمال الذل من الأخساء وصغر النفس والقماءة وهو أيضا مذموم اذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرم وهو خنوثة قال صلى الله عليه وسلم ان سعدا لغيور وأنا أغير من سعد وان الله أغير مني وانما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب ولذلك قيل كل أمة وضعت الغيرة في رجالها وضعت الصيانة في نسائها ومن ضعف الغضب الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات وقد قال صلى الله عليه وسلم خير أمتي أحداؤها يعني في الدين وقال تعالى ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله بل من فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه اذ لا تتم الرياضة الا بتسليط الغضب على الشهوة حتى يغضب على نفسه عند الميل الى الشهوات الخسيسة ففقد الغضب مذموم وانما المحمود غضب ينتظر اشارة العقل والدين فينبعث حيث تجب الحمية وينطفئ حيث يحسن الحلم وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده وهو الوسط الذي

آل محمد واجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين واجعلني صبورا شكورا واجعلني أذكرك كثيرا وأسبحك بكرة وأصيلا * وفرائض الوضوء النية عند غسل الوجه وغسل الوجه وحد الوجه من مبتدأ تسطيح الوجه الى منتهى الذقن وما ظهر من اللحية وما استرسل منها ومن الأذن الى الأذن عرضا ويدخل في الغسل البياض الذي بين الأذنين واللحية وموضع الصلع وما انحسر عنه الشعر وهما النزعتان من الرأس ويستحب غسلهما مع الوجه ويوصل الماء الى شعر التحذيف وهو القدر الذي تزيله النساء من الوجه ويوصل الماء الى العنفقة والشارب والحاجب والعذار وما عدا ذلك لا يجب ثم اللحية ان كانت خفيفة يجب ايصال الماء الى البشرة وحد الخفيف أن ترى البشرة من تحته وان

وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال خير الامور أوساطها فمن مال غضبه الى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس فى احتمال الذل والضيم فى غير محله فينبغى أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه ومن مال غضبه الى الافراط حتى جره الى التهور واقتحام الفواحش فينبغى أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب و يقف على الوسط الحق بين الطرفين فهو الصراط المستقيم وهو أرق من الشعرة وأحد من السيف فان عجز عنه فليطلب القرب منه قال تعالى ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة فليس كل من عجز عن الاتيان بالخير كله ينبغى أن يأتى بالشر كله ولكن بعض الشر أهون من بعض و بعض الخير أرفع من بعض فهذه حقيقة الغضب ودرجاته نسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه انه على ما يشاء قدير

(بيان الغضب هل يمكن ازالة أصله بالرياضة أم لا)

اعلم انه ظن ظانون أنه يتصور محو الغضب بالكلية وزعموا أن الرياضة اليه تتوجه واياه تقصد وظن آخرون انه أصل لا يقبل العلاج وهذا رأى من يظن ان الخلق كالخلق وكلاهما لا يقبل التغيير وكلا الرأيين ضعيف بل الحق فيه ما نذكره وهو انه ما بقى الانسان يحب شيأ أو يكره شيأ فلا يخلو من الغيظ والغضب وما دام يوافقه شئ و يخالفه آخر فلا بد من أن يحب ما يوافقه و يكره ما يخالفه والغضب يتبع ذلك فانه مهما أخذ منه محبوبه غضب لا محالة واذا قصد بمكروه غضب لا محالة الا أن ما يحبه الانسان ينقسم الى ثلاثة أقسام * الاول ما هو ضرورة فى حق الكافة كالقوت والمسكن والملبس وصحة البدن فمن قصد بدنه بالضرب والجرح فلا بد وأن يغضب وكذلك اذا أخذ منه ثوبه الذى يستر عورته وكذلك اذا أخرج من داره التى هى مسكنه أو أريق ماؤه الذى لعطشه فهذه ضرورات لا يخلو الانسان من كراهة زوالها ومن غيظ على من يتعرض لها * القسم الثانى ما ليس ضروريا لاحد من الخلق كالجاه والمال الكثير والغلمان والدواب فان هذه الامور صارت محبوبة بالعادة والجهل بمقاصد الامور حتى صار الذهب والفضة محبوبين فى أنفسهما فيكنزان و يغضب على من يسرقهما وان كان مستغنيا عنهما فى القوت فهذا الجنس مما يتصور أن ينفك الانسان عن أصل الغيظ عليه فاذا كانت له دار زائدة على مسكنه فهدمها ظالم فيجوز أن لا يغضب اذ يجوز أن يكون بصيرا بامر الدنيا فيزهد فى الزيادة على الحاجة فلا يغضب بأخذها فانه لا يحب وجودها ولو أحب وجودها لغضب على الضرورة بأخذها وأكثر غضب الناس على ما هو غير ضرورى كالجاه والصيت والتصدر فى المجالس والمباهاة فى العلم فمن غلب هذا الحب عليه فلا محالة يغضب اذا زاحمه مزاحم على التصدر فى المحافل ومن لا يحب ذلك فلا يبالى ولو جلس فى صف النعال فلا يغضب اذا جلس غيره فوقه وهذه العادات الرديئة هى التى أكثرت محاب الانسان ومكارهه فأكثرت غضبه وكلما كانت الارادات والشهوات أكثر كان صاحبها أحط رتبة وأنقص لان الحاجة صفة نقص فهما كثرت كثر النقص والجاهل أبدا جهده فى أن يزيد فى حاجاته وفى شهواته وهو لا يدرى انه مستكثر من أسباب الغم والحزن حتى ينتهى بعض الجهال بالعادات الرديئة ومخالطة قرناء السوء الى ان يغضب لو قيل له انك لا تحسن اللعب بالطيور واللعب بالشطرنج ولا تقدر على شرب الخمر الكثير وتناول الطعام الكثير وما يجرى مجراه من الرذائل فالغضب على هذا الجنس ليس بضرورى لان حبه ليس بضرورى * القسم الثالث ما يكون ضروريا فى حق بعض الناس دون البعض كالكتاب مثلا فى حق العالم فانه مضطر اليه فيحبه فيغضب على من يحرقه و يغرقه وكذلك أدوات الصناعات فى حق المكتسب الذى لا يمكنه التوصل الى القوت الا بها فان ما هو وسيلة الى الضرورى والمحبوب يصير ضروريا ومحبوبا وهذا يختلف بالاشخاص وانما الحب الضرورى ما أشار اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله من أصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه وله قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ومن كان بصيرا بحقائق الامور وسلم له هذه الثلاثة يتصور أن لا يغضب فى غيرها فهذه ثلاثة أقسام فلنذكر غاية الرياضة فى كل واحد منها (أما القسم الاول) فليست الرياضة فيه لينعدم غيظ القلب ولكن لكى يقدر على أن لا يطيع الغضب ولا يستعمله فى الظاهر الا على حد يستحبه الشرع و يستحسنه العقل وذلك ممكن بالمجاهدة وتكلف الحلم والاحتمال مدة حتى يصير الحلم والاحتمال خلقا راسخا فاما قمع أصل الغيظ من القلب فذلك ليس مقتضى الطبع وهو غير ممكن نعم يمكن كسر سورته وتضعيفه

كانت كثيفة فلا يجب و يجتهد فى تنقية مجتمع الكحل من مقدم العين (الواجب الثالث) غسل اليدين الى المرفقين و يجب ادخال المرفقين فى الغسل و يستحب غسلهما الى انصاف العضدين وان طالت الاظافر حتى خرجت من رؤس الاصابع يجب غسل ما تحتها على الاصح (الواجب الرابع) مسح الرأس و يكفى ما يطلق عليه اسم المسح واستيعاب الرأس بالمسح سنة وهو أن يلصق رأس أصابع اليمنى باليسرى و يضعهما على مقدم الرأس و يمدهما الى القفا ثم يردهما الى الموضع الذى بدأ منه و ينصف بلل الكفين مستقبلا ومستدبرا * والواجب الخامس غسل القدمين و يجب ادخال الكعبين فى الغسل و يستحب غسلهما الى انصاف الساقين

حتى لا يشتد هيجان الغيظ فى الباطن و ينتهى ضعفه الى ان لا يظهر أثر فى الوجه ولكن ذلك شديد جدا وهذا حكم القسم الثالث أيضا لان ماصار ضروريا فى حق شخص فلا يمنعه من الغيظ استغناء غيره عنه فالرياضة فيه تمنع العمل به وتضعف هيجانه فى الباطن حتى لا يشتد التألم بالصبر عليه (وأما القسم الثانى) فيمكن التوصل بالرياضة الى الانفكاك عن الغضب عليه اذ يمكن اخراج حبه من القلب وذلك بان يعلم الانسان ان وطنه القبر ومستقره الآخرة وأن الدنيا معبر يعبر عليها و يتزود منها قدر الضرورة وما وراء ذلك عليه وبال فى وطنه ومستقره فيزهد فى الدنيا و يمحو حبها عن قلبه ولو كان للانسان كلب لا يحبه لا يغضب اذا ضربه غيره فالغضب تبع للحب فالرياضة فى هذا تنتهى الى قمع أصل الغضب وهو نادر جدا وقد تنتهى الى المنع من استعمال الغضب والعمل بموجبه وهو أهون فان قلت الضرورى من القسم الاول التألم بفوات المحتاج اليه دون الغضب فمن له شاة مثلا وهى قوته فماتت لا يغضب على أحد وان كان يحصل فيه كراهة وليس من ضرورة كل كراهة غضب فان الانسان يتألم بالفصد والحجامة ولا يغضب على الفصاد والحجام فمن غلب عليه التوحيد حتى يرى الاشياء كلها بيد الله ومنه فلا يغضب على أحد من خلقه اذ يراهم مسخرين فى قبضة قدرته كالقلم فى يد الكاتب ومن وقع ملك بضرب رقبته لم يغضب على القلم فلا يغضب على من يذبح شاته التى هى قوته كما لا يغضب على موتها اذ يرى الذبح والموت من الله عز وجل فيندفع الغضب بغلبة التوحيد و يندفع أيضا بحسن الظن بالله وهو أن يرى أن الكل من الله وان الله لا يقدر له الا ما فيه الخيرة و ربما تكون الخيرة فى مرضه وجوعه وجرحه وقتله فلا يغضب كما لا يغضب على الفصاد والحجام لانه يرى أن الخيرة فيه فنقول هذا على هذا الوجه غير محال ولكن غلبة التوحيد الى هذا الحد انما تكون كالبرق الخاطف تغلب فى أحوال مختطفة ولا تدوم و يرجع القلب الى الالتفات الى الوسائط رجوعا طبيعيا لا يندفع عنه ولو تصور ذلك على الدوام لبشر لتصور لرسول الله صلى الله عليه وسلم فانه كان يغضب حتى تحمر وجنتاه حتى قال اللهم أنا بشر أغضب كما يغضب البشر فايما مسلم سببته أو لعنته أو ضربته فاجعلها منى صلاة عليه وزكاة وقربة تقربه بها اليك يوم القيامة وقال عبد الله بن عمرو بن العاص يارسول الله أكتب عنك كل ماقلت فى الغضب والرضا فقال اكتب فوالذى بعثنى بالحق نبيا مايخرج منه الاحق وأشار الى لسانه فلم يقل انى لا أغضب ولكن قال ان الغضب لا يخرجنى عن الحق أى لا أعمل بموجب الغضب وغضبت عائشة رضى الله عنها مرة فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك جاءك شيطانك فقالت ومالك شيطان قال بلى ولكنى دعوت الله فاعانى عليه فاسلم فلا يامرنى الا بالخير ولم يقل لا شيطان لى وأراد شيطان الغضب لكن قال لا يحملنى على الشر وقال على رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يغضب للدنيا فاذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شئ حتى ينتصر له فكان يغضب على الحق وان كان غضبه لله فهو التفات الى الوسائط على الجملة بل كل من يغضب على من يأخذ ضروره قوته وحاجته التى لابد له فى دينه منها فانما غضب لله فلا يمكن الانفكاك عنه نعم قد يفقد أصل الغضب فيما هو ضرورى اذا كان القلب مشغولا بضرورى أهم منه فلا يكون فى القلب متسع للغضب لاشتغاله بغيره فان استغراق القلب ببعض المهمات يمنع الاحساس بما عداه وهذا كما ان سلمان لما شتم قال ان خفت موازينى فانا شر مما تقول وان ثقلت موازينى لم يضرنى ما تقول فقد كان همه مصروفا الى الآخرة فلم يتأثر قلبه بالشتم وكذلك شتم الربيع بن خيثم فقال ياهذا قد سمع الله كلامك وان دون الجنة عقبة ان قطعتها لم يضرنى ما تقول وان لم أقطعها فانا شر مما تقول وسب رجل أبا بكر رضى الله عنه فقال ماستر الله عنك أكثر فكأنه كان مشغولا بالنظر فى تقصير نفسه عن أن يتقى الله حق تقاته و يعرفه حق معرفته فلم يغضبه نسبة غيره اياه الى نقصان اذ كان ينظر الى نفسه بعين النقصان وذلك لجلالة قدره وقالت امرأة لمالك بن دينار يامرائى فقال ماعرفنى غيرك فكأنه كان مشغولا بان ينفى عن نفسه آفة الرياء ومنكرا على نفسه ما يلقيه الشيطان اليه فلم يغضب لما نسب اليه وسب رجل الشعبى فقال ان كنت صادقا فغفر الله لى وان كنت كاذبا فغفر الله لك فهذه الاقاويل دالة فى الظاهر على انهم لم يغضبوا لاشتغال قلوبهم بمهمات دينهم و يحتمل ان يكون ذلك قد أثر فى قلوبهم ولكنهم لم يشتغلوا به واشتغلوا بما كان هو الاغلب على قلوبهم فاذا اشتغال القلب ببعض المهمات لا يبعد أن يمنع هيجان الغضب عند فوات بعض المحاب

و يقنع غسل القدمين مع الكعبين و يجب تخليل الاصابع الملتفة فيخلل بخنصر يده اليسرى من باطن القدم و يبدأ بخنصر رجله اليمنى و يختم بخنصر اليسرى وان كان فى الرجل شقوق يجب ايصال الماء الى باطنها وان ترك فيها عجينا أو شحما يجب ازالة عين ذلك الشئ * الواجب السادس * الترتيب على النسق المذكور فى كلام الله تعالى * الواجب السابع التتابع فى القول القديم عند الشافعى رحمه الله تعالى وحد التفريق الذى يقطع التتابع نشاف العضو مع اعتدال الهواء

(وسنن الوضوء ثلاثة عشر)
التسمية فى أول الطهارة وغسل اليدين الى الكوعين والمضمضة والاستنشاق والمبالغة فيهما فيغرغر فى المضمضة حتى يرد الماء الى الغلصمة

فاذا يتصور فقد الغيظ اما باشتغال القلب بمهم أو بغلبة نظر التوحيد أو بسبب ثالث وهو أن يعلم ان الله يحب منه أن لا يغتاظ فيطفئ شدة حبه لله غيظه وذلك غير محال فى أحوال نادرة وقد عرفت بهذا أن الطريق للخلاص من نار الغضب محو حب الدنيا عن القلب وذلك بمعرفة آفات الدنيا وغوائلها كما سيأتى فى كتاب ذم الدنيا ومن أخرج حب المزايا عن القلب تخلص من أكثر أسباب الغضب وما لا يمكن محوه يمكن كسره وتضعيفه فيضعف الغضب بسببه و يهون دفعه نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه انه على كل شئ قدير والحمد لله وحده

(بيان الاسباب المهيجة للغضب)

قد عرفت أن علاج كل علة حسم مادتها وازالة أسبابها فلا بد من معرفة أسباب الغضب وقد قال يحيى لعيسى عليهما السلام أى شئ أشد قال غضب الله قال فما يقرب من غضب الله قال أن تغضب قال فما يبدى الغضب وما ينبته قال عيسى الكبر والفخر والتعزز والحمية والاسباب المهيجة للغضب هى الزهو والعجب والمزاح والهزل والهزء والتعيير والمماراة والمضادة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه وهى باجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعا ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الاسباب فلا بد من ازالة هذه الاسباب باضدادها فينبغى أن تميت الزهو بالتواضع وتميت العجب بمعرفتك بنفسك كما سيأتى بيانه فى كتاب الكبر والعجب وتزيل الفخر بانك من جنس عبدك اذ الناس يجمعهم فى الانتساب أب واحد وانما اختلفوا فى الفضل أشتاتا فبنو آدم جنس واحد وانما الفخر بالفضائل والفخر والعجب والكبر أكبر الرذائل وهى أصلها ورأسها فاذا لم تخل عنها فلا فضل لك على غيرك فلم تفتخر وأنت من جنس عبدك من حيث البنية والنسب والاعضاء الظاهرة والباطنة وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التى تستوعب العمر وتفضل عنه اذا عرفت ذلك وأما الهزل فتزيله بالجد فى طلب الفضائل والاخلاق الحسنة والعلوم الدينية التى تبلغك الى سعادة الآخرة وأما الهزء فتزيله بالتكرم عن ايذاء الناس وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك وأما التعيير فبالحذر عن القول القبيح وصيانة النفس عن مر الجواب وأما شدة الحرص على مزايا العيش فتزال بالقناعة بقدر الضرورة طلبا لعز الاستغناء وترفعا عن ذل الحاجة وكل خلق من هذه الاخلاق وصفة من هذه الصفات يفتقر فى علاجه الى رياضة وتحمل مشقة وحاصل رياضتها يرجع الى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفر عن قبحها ثم المواظبة على مباشرة اضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس فاذا انمحت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل وتخلصت أيضا عن الغضب الذى يتولد منها ومن أشد البواعث على الغضب عند أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة ورجولية وعزة نفس وكبر همة وتلقيبه بالالقاب المحمودة غباوة وجهلا حتى تميل النفس اليه وتستحسنه وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الاكابر فى معرض المدح بالشجاعة والنفوس مائلة الى التشبه بالاكابر فيهيج الغضب الى القلب بسببه وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة جهل بل هو مرض قلب ونقصان عقل وهو لضعف النفس ونقصانها وآية أنه لضعف النفس أن المريض أسرع غضبا من الصحيح والمرأة أسرع غضبا من الرجل والصبى أسرع غضبا من الرجل الكبير والشيخ الضعيف أسرع غضبا من الكهل وذو الخلق السيئ والرذائل القبيحة أسرع غضبا من صاحب الفضائل فالرذل يغضب لشهوته اذا فاتته اللقمة ولبخله اذا فاتته الحبة حتى انه يغضب على أهله وولده وأصحابه بل القوى من يملك نفسه عند الغضب كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس الشديد بالصرعة انما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب بل ينبغى أن يعالج هذا الجاهل بان تتلى عليه حكايات أهل الحلم والعفو وما استحسن منهم من كظم الغيظ فان ذلك منقول عن الانبياء والاولياء والحكماء والعلماء وأكابر الملوك الفضلاء وضد ذلك منقول عن الاكراد والاتراك والجهلة والاغبياء الذين لا عقول لهم ولا فضل فيهم

(بيان علاج الغضب بعد هيجانه)

ما ذكرناه هو حسم لمواد الغضب وقطع لاسبابه حتى لا يهيج فاذا جرى سبب هيجه فعنده يجب التثبت حتى لا يضطر صاحبه الى العمل به على الوجه المذموم وانما يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل * أما العلم فهو ستة أمور * الاول أن يتفكر فى الاخبار التى سنوردها فى فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال فيرغب فى ثوابه

ويستمد فى الاستنشاق الماء بالنفس الى الخياشيم ويرفق فى ذلك ان كان صائما وتخليل اللحية الكثة وتخليل الاصابع المنفرجة والبداءة بالميامن واطالة الغرة واستيعاب الرأس بالمسح ومسح الاذنين والتثليث وفى القول الجديد التتابع ويجتنب أن يزيد على الثلاث ولا ينفض اليد ولا يتكلم فى أثناء الوضوء ولا يلطم وجهه بالماء لطما وتجديد الوضوء مستحب بشرط أن يصلى بالوضوء ما تيسر والا فمكروه

(الباب الخامس والثلاثون فى آداب أهل الخصوص والصوفية فى الوضوء)

آداب الصوفية بعد القيام بمعرفة الاحكام * أدبهم فى الوضوء حضور القلب فى غسل الاعضاء سمعت بعض الصالحين يقول اذا حضر القلب فى الوضوء يحضر فى الصلاة واذا دخل

فيمنعه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التشفي والانتقام وينطفئ عنه غيظه قال مالك بن أوس بن الحدثان غضب عمر على رجل وأمر بضربه فقلت يا أمير المؤمنين خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين فكان عمر يقول خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين فكان يتأمل في الآية وكان وقافا عند كتاب الله مهما تلي عليه كثير التدبر فيه فتدبر فيه وخلى الرجل وأمر عمر بن عبد العزيز بضرب رجل ثم قرأ قوله تعالى والكاظمين الغيظ فقال لغلامه خل عنه * الثاني أن يخوف نفسه بعقاب الله وهو أن يقول قدرة الله علي أعظم من قدرتي على هذا الانسان فلو أمضيت غضبي عليه لم آمن أن يمضي الله غضبه علي يوم القيامة أحوج ما أكون الى العفو فقد قال تعالى في بعض الكتب القديمة يا ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيفا الى حاجة فابطأ عليه فلما جاء قال لولا القصاص لأوجعتك أي القصاص في القيامة وقيل ما كان في بني اسرائيل ملك الا ومعه حكيم اذا غضب أعطاه صحيفة فيها ارحم المسكين واخش الموت واذكر الآخرة فكان يقرؤها حتى يسكن غضبه * الثالث أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمر العدو لمقابلته والسعي في هدم أغراضه والشماتة بمصائبه وهو لا يخلو عن المصائب فيخوف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا ان كان لا يخاف من الآخرة وهذا يرجع الى تسليط شهوة على غضب وليس هذا من أعمال الآخرة ولا ثواب عليه لانه متردد على حظوظه العاجلة يقدم بعضها على بعض الا أن يكون محذوره أن تتشوش عليه في الدنيا فراغته للعلم والعمل وما يعينه على الآخرة فيكون مثابا عليه * الرابع أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب بان يتذكر صورة غيره في حالة الغضب ويتفكر في قبح الغضب في نفسه ومشابهة صاحبه للكلب الضاري والسبع العادي ومشابهة الحليم الهادي التارك للغضب للانبياء والاولياء والعلماء والحكماء ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس وبين أن يتشبه بالعلماء والانبياء في عادتهم لتميل نفسه الى حب الاقتداء بهؤلاء ان كان قد بقي معه مسكة من عقل * الخامس أن يتفكر في السبب الذي يدعوه الى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ ولا بد وان يكون له سبب مثل قول الشيطان له ان هذا يحمل منك على العجز وصغر النفس والذلة والمهانة وتصير حقيرا في أعين الناس فيقول لنفسه ما أعجبك تأنفين من الاحتمال الآن ولا تأنفين من خزي يوم القيامة والافتضاح اذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك وتحذرين من أن تصغري في أعين الناس ولا تحذرين من أن تصغري عند الله والملائكة والنبيين فهما كظم الغيظ فينبغي ان يكظمه لله وذلك يعظمه عند الله فماله وللناس وذل من ظلمه يوم القيامة أشد من ذله لو انتقم الآن أفلا يحب أن يكون هو القائم اذا نودي يوم القيامة ليقم من أجره على الله فلا يقوم الا من عفا فهذا وأمثاله من معارف الايمان ينبغي أن يقرره على قلبه * السادس ان يعلم ان غضبه من تعجبه من جريان الشئ على وفق مراد الله لا على وفق مراده فكيف يقول مرادي أولى من مراد الله ويوشك ان يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه * وأما العمل فان تقول بلسانك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يقال عند الغيظ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا غضبت عائشة أخذ بانفها وقال يا عويش قولي اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن فيستحب ان تقول ذلك فان لم يزل بذلك فاجلس ان كنت قائما واضطجع ان كنت جالسا واقرب من الارض التي منها خلقت لتعرف بذلك ذل نفسك واطلب بالجلوس والاضطجاع السكون فان سبب الغضب الحرارة وسبب الحرارة الحركة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الغضب جمرة توقد في القلب ألم تروا الى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه فاذا وجد أحدكم من ذلك شيأ فان كان قائما فليجلس وان كان جالسا فلينم فان لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل فان النار لا يطفئها الا الماء فقد قال صلى الله عليه وسلم اذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء فانما الغضب من النار وفي رواية ان الغضب من الشيطان وان الشيطان خلق من النار وانما تطفأ النار بالماء فاذا غضب أحدكم فليتوضأ وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا غضبت فاسكت وقال أبو هريرة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا غضب وهو قائم جلس واذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه وقال أبو سعيد الخدري قال النبي صلى الله عليه وسلم ألا ان الغضب جمرة في قلب ابن آدم ألا ترون الى حمرة عينيه

وانتفاخ

السهو فيسه دخلت الوسوسة في الصلاة ومن آدابهم استدامة الوضوء والوضوء سلاح المؤمن والجوارح اذا كانت في حماية الوضوء الذي هو أثر شرعي يقل طروق الشيطان عليها * قال عدي بن حاتم ما أقيمت صلاة منذ أسلمت الا وأنا على وضوء وقال أنس ابن مالك قدم النبي عليه الصلاة والسلام المدينة وأنا يومئذ ابن ثمان سنين فقال لي يا بني ان استطعت أن لا تزال على الطهارة فافعل فانه من أتاه الموت وهو على الوضوء أعطي الشهادة فشأن العاقل أن يكون أبدا مستعدا للموت ومن الاستعداد لزوم الطهارة (وحكي) عن البصري انه قال مهما أنتبه من الليل لا يحملني النوم الا بعد ما أقوم وأجدد الوضوء لئلا يعود الى النوم وأنا على غير طهارة وسمعت من يحيب الشيخ علي بن

وانتفاخ أوداجه فمن وجد من ذلك شيأ فليلصق خده بالارض وكأن هذا اشارة الى السجود وتمكين أعز الاعضاء من أذل المواضع وهو التراب لتستشعر به النفس الذل وتزايل به العزة والزهو الذى هو سبب الغضب وروى أن عمر غضب يوما فدعا بماء فاستنشق وقال ان الغضب من الشيطان وهذا يذهب الغضب وقال عروة بن محمد لما استعملت على اليمن قال لى أبى أوليت قلت نعم قال فاذا غضبت فانظر الى السماء فوقك والى الارض تحتك ثم عظم خالقهما وروى ان أباذر قال لرجل يا ابن الحمراء فى خصومة بينهما فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أباذر بلغنى انك اليوم عيرت أخاك بامه فقال نعم فانطلق أبو ذر ليرضى صاحبه فسبقه الرجل فسلم عليه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أباذر ارفع رأسك فانظر ثم اعلم انك لست بافضل من أحمر فيها ولا أسود الا أن تفضله بعمل ثم قال اذا غضبت فان كنت قائما فاقعد وان كنت قاعدا فاتكئ وان كنت متكئا فاضطجع وقال المعتمر بن سليمان كان رجل ممن كان قبلكم يغضب فيشتد غضبه فكتب ثلاث صحائف وأعطى كل صحيفة رجلا وقال للاول اذا غضبت فاعطنى هذه وقال للثانى اذا سكن بعض غضبى فاعطنى هذه وقال للثالث اذا ذهب غضبى فاعطنى هذه فاشتد غضبه يوما فاعطى الصحيفة الاولى فاذا فيها ما أنت وهذا الغضب انك لست باله انما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضا فسكن بعض غضبه فاعطى الثانية فاذا فيها ارحم من فى الارض يرحمك من فى السماء فاعطى الثالثة فاذا فيها خذ الناس بحق الله فانه لا يصلحهم الا ذلك أى لا تعطل الحدود * وغضب المهدى على رجل فقال شبيب لا تغضب لله باشد من غضبه لنفسه فقال خلوا سبيله

(فضيلة كظم الغيظ)

قال الله تعالى والكاظمين الغيظ وذكر ذلك فى معرض المدح وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كف غضبه كف الله عنه عذابه ومن اعتذر الى ربه قبل الله عذره ومن خزن لسانه ستر الله عورته وقال صلى الله عليه وسلم أشدكم من غلب نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند القدرة وقال صلى الله عليه وسلم من كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه لامضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا وفى رواية ملأ الله قلبه أمنا وايمانا وقال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جرع عبد جرعة أعظم أجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى وقال ابن عباس رضى الله عنهما قال صلى الله عليه وسلم ان لجهنم بابا لا يدخله الا من شفى غيظه بمعصية الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم ما من جرعة أحب الى الله تعالى من جرعة غيظ كظمها عبد وما كظمها عبد الا ملأ الله قلبه ايمانا وقال صلى الله عليه وسلم من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤس الخلائق ويخيره من أى الحور شاء (الآثار) قال عمر رضى الله عنه من اتقى الله لم يشف غيظه ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون وقال لقمان لابنه يا بنى لا تذهب ماء وجهك بالمسألة ولا تشف غيظك بفضيحتك واعرف قدرك تنفعك معيشتك وقال أيوب حلم ساعة يدفع شرا كثيرا واجتمع سفيان الثورى وأبو خزيمة اليربوعى والفضيل بن عياض فتذاكروا الزهد فاجمعوا على أن أفضل الاعمال الحلم عند الغضب والصبر عند الجزع وقال رجل لعمر رضى الله عنه والله ما تقضى بالعدل ولا تعطى الجزل فغضب عمر حتى عرف ذلك فى وجهه فقال له رجل يا أمير المؤمنين ألا تسمع أن الله تعالى يقول خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين فهذا من الجاهلين فقال عمر صدقت فكأنما كانت نارا فاطفئت وقال محمد بن كعب ثلاث من كن فيه استكمل الايمان بالله اذا رضى لم يدخله رضاه فى الباطل واذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق واذا قدر لم يتناول ما ليس له وجاء رجل الى سلمان فقال يا عبد الله أوصنى قال لا تغضب قال لا أقدر قال فان غضبت فامسك لسانك ويدك

(بيان فضيلة الحلم)

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ لان كظم الغيظ عبارة عن التحلم أى تكلف الحلم ولا يحتاج الى كظم الغيظ الا من هاج غيظه ويحتاج فيه الى مجاهدة شديدة ولكن اذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتيادا فلا يهيج الغيظ وان هاج فلا يكون فى كظمه تعب وهو الحلم الطبيعى وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ولكن ابتداؤه التحلم وكظم الغيظ تكلفا قال صلى الله عليه وسلم انما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم

الهيتمى انه كان يقعد الليل جميعه فان غلبه النوم يكون قاعدا كذلك وكلما انتبه يقول لأكون أسأت الادب فيقوم ويجدد الوضوء ويصلى ركعتين (وروى) أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال عند صلاة الفجر يا بلال حدثنى بارجى عمل عملته فى الاسلام فانى سمعت دف نعليك بين يدى فى الجنة قال ما عملت عملا فى الاسلام أرجى عندى أنى لم أتطهر طهرا فى ساعة ليل أو نهار الا صليت لربى عز وجل بذلك الطهور ما كتب لى أن أصلى ومن أدبهم فى الطهارة ترك الاسراف فى الماء والوقوف على حد العلم (أخبرنا) الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أخبرنا أبو محمد الجراحى قال أنا

ومن يتخير الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه وأشار بهذا الى أن اكتساب الحلم طريقه التحلم أولا وتكلفه كما أن اكتساب العلم طريقه التعلم وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم لينوا لمن تعلمون ولمن تتعلمون منه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم حلمكم أشار بهذا الى أن التكبر والتجبر هو الذى يهيج الغضب ويمنع من الحلم واللين وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم اللهم أغننى بالعلم وزيني بالحلم وأكرمني بالتقوى وجملني بالعافية وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم ابتغوا الرفعة عند الله قالوا وماهي يارسول الله قال تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتحلم عن جهل عليك وقال صلى الله عليه وسلم خمس من سنن المرسلين الحياء والحلم والحجامة والسواك والتعطر وقال على كرم الله وجهه قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم وانه ليكتب جبارا عنيدا وما يملك الا أهل بيته وقال أبو هريرة ان رجلا قال يارسول الله ان لى قرابة أصلهم ويقطعوني وأحسن اليهم ويسيئون الى ويجهلون على وأحلم عنهم قال ان كان كما تقول فكأنما تسفهم المل ولا يزال معك من الله ظهير مادمت على ذلك المل يعنى به الرمل وقال رجل من المسلمين اللهم ليس عندى صدقة أتصدق بها فأيما رجل أصاب من عرضى شيأ فهو عليه صدقة فاوحى الله تعالى الى النبي صلى الله عليه وسلم انى قد غفرت له وقال صلى الله عليه وسلم أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم قالوا وما أبو ضمضم قال رجل ممن كان قبلكم كان اذا أصبح يقول اللهم انى تصدقت اليوم بعرضى على من ظلمني وقيل فى قوله تعالى ربانيين أى حلماء علماء وعن الحسن فى قوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما قال حلماء ان جهل عليهم لم يجهلوا وقال عطاء بن أبى رباح يمشون على الارض هونا أى حلما وقال ابن أبى حبيب فى قوله عزوجل وكهلا قال الكهل منتهى الحلم وقال مجاهد واذا مروا باللغو مروا كراما أى اذا أوذوا صفحوا وروى ان ابن مسعود مر بلغو معرضا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبح ابن مسعود وأمسى كريما ثم تلا ابراهيم بن ميسرة وهو الراوى قوله تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما وقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم لا يدركني ولا أدركه زمان لا يتبعون فيه العليم ولا يستحيون فيه من الحليم قلوبهم قلوب العجم وألسنتهم ألسنة العرب وقال صلى الله عليه وسلم ليلينى منكم ذووا الاحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم واياكم وهيشات الاسواق وروى انه وفد على النبي صلى الله عليه وسلم الاشج فأناخ راحلته ثم عقلها وطرح عنه ثوبين كانا عليه وأخرج من العيبة ثوبين حسنين فلبسهما وذلك بعين رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى مايصنع ثم أقبل يمشى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام ان فيك يا أشج خلقين يحبهما الله ورسوله قال ماهما بابى أنت وأمى يارسول الله قال الحلم والاناة فقال خلتان تخلقتهما أو خلقان جبلت عليهما فقال بل خلقان جبلك الله عليهما فقال الحمد لله الذى جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله وقال صلى الله عليه وسلم ان الله يحب الحليم الحيى الغنى المتعفف أبا العيال التقى ويبغض الفاحش البذى السائل الملحف الغبى وقال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدوا بشئ من عمله تقوى تحجزه عن معاصى الله عزوجل وحلم يكف به السفيه وخلق يعيش به فى الناس وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جمع الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد أين أهل الفضل فيقوم ناس وهم يسير فينطلقون سراعا الى الجنة فتتلقاهم الملائكة فيقولون لهم انا نراكم سراعا الى الجنة فيقولون نحن أهل الفضل فيقولون لهم ما كان فضلكم فيقولون كنا اذا ظلمنا صبرنا واذا أسيء الينا عفونا واذا جهل علينا حلمنا فيقال لهم ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين (الآثار) قال عمر رضى الله عنه تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وقال على رضى الله عنه ليس الخير ان يكثر مالك وولدك ولكن الخير ان يكثر علمك ويعظم حلمك وان لا تباهى الناس بعبادة الله واذا أحسنت حمدت الله تعالى واذا أسأت استغفرت الله تعالى وقال الحسن اطلبوا العلم وزينوه بالوقار والحلم وقال أكثم بن صيفي دعامة العقل الحلم وجماع الامر الصبر وقال أبو الدرداء أدركت الناس ورقا لا شوك فيه فاصبحوا شوكا لا ورق فيه ان عرفتهم نقدوك وان تركتهم لم يتركوك قالوا كيف نصنع قال تقرضهم من عرضك ليوم فقرك وقال على رضى الله عنه ان أول ماعوض الحليم من حلمه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل وقال معاوية رحمه الله

تعالى

أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا أبو داود قال حدثنا خارجة بن مصعب عن يونس بن عبيد عن الحسن عن يحيى بن ضمرة السعدى عن أبى بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال للوضوء شيطان يقال له الولهان فاتقوا وساوس الماء قال أبو عبد الله الروذبارى ان الشيطان يجتهد أن يأخذ نصيبه من جميع أعمال بنى آدم فلا يبالى أن يأخذ نصيبه بان يزدادوا فيما أمروا به أو ينقصوا عنه (وحكى) عن ابن الكرنبى انه أصابته جنابة ليلة من الليالى وكانت عليه مرقعة ثخينة غليظة فجاء الى الدجلة وكان برد شديد فحرنت نفسه عن الدخول فى الماء لشدة البرد فطرح نفسه فى الماء مع المرقعة ثم خرج من الماء وقال عقدت

تعالى لا يبلغ العبد مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله وصبره شهوته ولا يبلغ ذلك الا بقوة العلم وقال معاوية لعمرو ابن الاهتم أي الرجال أشجع قال من رد جهله بحلمه قال أي الرجال أسخى قال من بذل دنياه لاصلاح دينه وقال أنس ابن مالك في قوله تعالى فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم الى قوله عظيم هو الرجل يشتمه أخوه فيقول ان كنت كاذبا فغفر الله لك وان كنت صادقا فغفر الله لي وقال بعضهم شتمت فلانا من أهل البصرة فلم على فاستعبدني بها زمانا وقال معاوية لعرابة بن أوس بم سدت قومك يا عرابة قال يا أمير المؤمنين كنت أحلم عن جاهلهم وأعطي سائلهم وأسعى في حوائجهم فمن فعل فعلي فهو مثلي ومن جاوزني فهو أفضل مني ومن قصر عني فانا خير منه وسب رجل ابن عباس رضي الله عنهما فلما فرغ قال يا عكرمة هل للرجل حاجة فنقضيها فنكس الرجل رأسه واستحى وقال رجل لعمر بن عبد العزيز أشهد انك من الفاسقين فقال ليس تقبل شهادتك وعن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم أنه سبه رجل فرمى اليه بخميصة كانت عليه وأمر له بألف درهم فقال بعضهم جمع له خمس خصال محمودة الحلم واسقاط الاذى وتخليص الرجل مما يبعده من الله عز وجل وحمله على الندم والتوبة ورجوعه الى المدح بعد الذم اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير وقال رجل لجعفر بن محمد انه قد وقع بيني وبين قوم منازعة في أمر واني أريد أن اتركه فأخشى أن يقال لي ان تركك له ذل فقال جعفر انما الذليل الظالم وقال الخليل بن أحمد كان يقال من أساء فأحسن اليه فقد جعل له حاجز من قلبه يردعه عن مثل اساءته وقال الاحنف بن قيس است بحليم ولكنني أتحلم وقال وهب بن منبه من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن يجهل يغلب ومن يعجل يخطئ ومن يحرص على الشر لا يسلم ومن لا يدع المراء يشتم ومن لا يكره الشر يأثم ومن يكره الشر يعصم ومن يتبع وصية الله يحفظ ومن يحذر الله يأمن ومن يتول الله يمنع ومن لا يسأل الله يفتقر ومن يأمن مكر الله يخذل ومن يستعن بالله يظفر وقال رجل لمالك بن دينار بلغني انك ذكرتني بسوء قال أنت اذا أكرم علي من نفسي اني اذا فعلت ذلك أهديت لك حسناتي وقال بعض العلماء الحلم ارفع من العقل لان الله تعالى تسمى به وقال رجل لبعض الحكماء والله لاسبنك سبا يدخل معك في قبرك فقال معك يدخل لا معي ومر المسيح ابن مريم عليه الصلاة والسلام بقوم من اليهود فقالوا له شرا فقال لهم خيرا فقيل له انهم يقولون شرا وأنت تقول خيرا فقال كل ينفق مما عنده وقال لقمان ثلاثة لا يعرفون الا عند ثلاثة لا يعرف الحليم الا عند الغضب ولا الشجاع الا عند الحرب ولا لاخ الا عند الحاجة اليه ودخل على بعض الحكماء صديق له فقدم اليه طعاما فخرجت امرأة الحكيم وكانت سيئة الخلق فرفعت المائدة وأقبلت على شتم الحكيم فخرج الصديق مغضبا فتبعه الحكيم وقال له تذكر يوم كنا في منزلك نطعم فسقطت دجاجة على المائدة فافسدت ما عليها فلم يغضب أحد منا قال نعم قال فاحسب أن هذه مثل تلك الدجاجة فسري عن الرجل غضبه وانصرف وقال صدق الحكيم الحلم شفاء من كل ألم وضرب رجل قدم حكيم فأوجعه فلم يغضب فقيل له في ذلك فقال أقمته مقام حجر تعثرت به فذبحت الغضب وقال محمود الوراق

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب * وان كثرت منه على الجرائم
وما الناس الا واحد من ثلاثة * شريف ومشروف ومثل مقاوم
فأما الذي فوقي فاعرف قدره * وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذي دوني فان قال صنت عن * اجابته عرضي وان لام لائم
وأما الذي مثلي فان زل أوهفا * تفضلت ان الفضل بالحلم حاكم

(بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام)

اعلم ان كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابلته بمثله فلا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ولا مقابلة التجسس بالتجسس ولا السب بالسب وكذلك سائر المعاصي وانما القصاص والغرامة على قدر ما ورد الشرع به وقد فصلناه في الفقه وأما السب فلا يقابل بمثله اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه وقال المستبان ما قالا فهو على البادئ مالم يعتد المظلوم وقال المستبان شيطانان يتهاتران وشتم رجل أبا بكر الصديق رضي الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ ينتصر منه قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر انك كنت ساكتا لما شتمني فلما

ان لا أنزعها من بدني حتى يجف علي فكنت عليه شهر الشتاء انها وغلظها أأدب بذلك نفسه لما حرنت عن الائتمار لامر الله تعالى (وقيل) ان سهل بن عبد الله كان يحث أصحابه على كثرة شرب الماء وقلة صبه على الارض وكان يرى ان في الاكثار من شرب الماء ضعف النفس وامانة الشهوات وكسر القوة ومن أفعال الصوفية الاحتياط في استبقاء الماء للوضوء (قيل) كان ابراهيم الخواص اذا دخل البادية لا يحمل معه الا ركوة من الماء وربما كان لا يشرب منها الا القليل يحفظ الماء للوضوء وقيل انه كان يخرج من مكة الى الكوفة ولا يحتاج الى التيمم يحفظ الماء للوضوء ويقنع بالقليل للشرب * وقيل اذا رأيت الصوفي ليس معه ركوة أو كوز فاعلم انه قد عزم على ترك الصلاة شاء أم

تكلمت قمت قال لان الملك كان يجيب عنك فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان فلم أكن لاجلس في مجلس فيه الشيطان وقال قوم تجوز المقابلة بما لا كذب فيه وانما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مقابلة التعيير بمثله نهي تنزيه والافضل تركه ولكنه لا يعصى به والذي يرخص فيه ان تقول من أنت وهل أنت الا من بني فلان كما قال سعد لابن مسعود وهل أنت الا من بني هذيل وقال ابن مسعود وهل أنت الا من بني أمية ومثل قوله يا أحمق قال مطرف كل الناس أحمق فيما بينه وبين ربه الا ان بعض الناس أقل حماقة من بعض وقال ابن عمر في حديث طويل حتى ترى الناس كلهم حمقى في ذات الله تعالى وكذلك قوله يا جاهل اذ ما من أحد الا وفيه جهل فقد آذاه بما ليس بكذب وكذلك قوله يا سيئ الخلق يا صفيق الوجه يا ثلابا للاعراض وكان ذلك فيه وكذلك قوله لو كان فيك حياء لما تكلمت وما أحقرك في عيني بما فعلت وأخزاك الله وانتقم منك فاما النميمة والغيبة والكذب وسب الوالدين فحرام بالاتفاق لما روي انه كان بين خالد بن الوليد وسعد كلام فذكر رجل خالدا عند سعد فقال سعد مه ان ما بيننا لم يبلغ ديننا يعني أن يأثم بعضنا في بعض فلم يسمع السوء فكيف يجوز له ان يقوله والدليل على جواز ما ليس بكذب ولا حرام كالنسبة الى الزنا والفحش والسب ما روت عائشة رضي الله عنها ان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أرسلن اليه فاطمة فجاءت فقالت يا رسول الله أرسلني اليك أزواجك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة والنبي صلى الله عليه وسلم نائم فقال يا بنية أتحبين ما أحب قالت نعم قال فاحبي هذه فرجعت اليهن فاخبرتهن بذلك فقلن ما أغنيت عنا شيأ فارسلن زينب ابنة جحش قالت وهي التي كانت تساميني في الحب فجاءت فقالت بنت أبي بكر وبنت أبي بكر فما زالت تذكرني وأنا ساكتة انتظر أن يأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجواب فاذن لي فسببتها حتى جف لساني فقال النبي صلى الله عليه وسلم كلا انها ابنة أبي بكر يعني انك لا تقاومينها في الكلام قط وقولها سببتها ليس المراد به الفحش بل هو الجواب عن كلامها بالحق ومقابلتها بالصدق وقال النبي صلى الله عليه وسلم المستبان على ما قالا فعلى البادئ منهما حتى يعتدي المظلوم فاثبت للمظلوم انتصارا الى أن يعتدي فهذا القدر هو الذي أباحه هؤلاء وهو رخصة في الايذاء جزاء على ايذائه السابق ولا تبعد الرخصة في هذا القدر ولكن الافضل تركه فانه يجره الى ما وراءه ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه والسكوت عن أصل الجواب لعله أيسر من الشروع في الجواب والوقوف على حد الشرع فيه ولكن من الناس من لا يقدر على ضبط نفسه في فورة الغضب ولكن يعود سريعا ومنهم من يكف نفسه في الابتداء ولكن يحقد على الدوام والناس في الغضب أربعة فبعضهم كالحلفاء سريع الوقود سريع الخمود وبعضهم كالغضا بطيء الوقود بطيء الخمود وبعضهم بطيء الوقود سريع الخمود وهو الاحمد ما لم ينته الى فتور الحمية والغيرة وبعضهم سريع الوقود بطيء الخمود وهذا هو شرهم وفي الخبر المؤمن سريع الغضب سريع الرضا فهذه بتلك وقال الشافعي رحمه الله من استغضب فلم يغضب فهو حمار ومن استرضي فلم يرض فهو شيطان وقد قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا ان بني آدم خلقوا على طبقات شتى فمنهم بطيء الغضب سريع الفيء ومنهم سريع الغضب سريع الفيء فتلك بتلك ومنهم سريع الغضب بطيء الفيء ألا وان خيرهم البطيء الغضب السريع الفيء وشرهم السريع الغضب البطيء الفيء ولما كان الغضب يهيج ويؤثر في كل انسان وجب على السلطان أن لا يعاقب أحدا في حال غضبه لانه ربما يتعدى الواجب ولانه ربما يكون متغيظا عليه فيكون متشفيا الغيظه ومريحا نفسه من ألم الغيظ فيكون صاحب حظ فينبغي أن يكون انتقامه وانتصاره لله تعالى لا لنفسه * ورأى عمر رضي الله عنه سكران فاراد أن يأخذه ويعزره فشتمه السكران فرجع عمر فقيل له يا أمير المؤمنين لما شتمك تركته قال لانه أغضبني ولو عزرته لكان ذلك لغضبي لنفسي ولم أحب أن أضرب مسلما حمية لنفسي وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لرجل أغضبه لولا أنك أغضبتني لعاقبتك

(القول في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق)

اعلم أن الغضب اذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال رجع الى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والنفار عنه وأن يدوم ذلك ويبقى وقد قال صلى الله عليه وسلم المؤمن ليس بحقود

أبي وحكي عن بعضهم انه أدب نفسه في الطهارة الى حد انه أقام بين ظهراني جماعة من النساك وهم مجتمعون في دار فما رآه أحد منهم أنه دخل الخلاء لانه كان يقضي حاجته اذا خلا الموضع في وقت يريد تأديب نفسه وقيل مات الخواص في جامع الري في وسط الماء وذلك انه كان به علة البطن وكلما قام دخل الماء وغسل نفسه فدخله مرة ومات فيه كل ذلك لحفظه على الوضوء والطهارة * وقيل كان ابراهيم بن أدهم به قيام فقام في ليلة واحدة نيفا وسبعين مرة كل مرة يجدد الوضوء ويصلي ركعتين وقيل ان بعضهم أدب نفسه حتى لا يخرج منه الريح الا في وقت البراز يراعي الادب في الخلوات واتخاذ المنديل بعد الوضوء كرهه قوم وقالوا ان الوضوء يوزن وأجازه بعضهم ودليلهم ما أخبرنا الشيخ

فالحقد ثمرة الغضب والحقد يثمر ثمانية أمور الاول الحسد وهو أن يحملك الحقد على ان تتمنى زوال النعمة عنه فتغتم بنعمة ان أصابها وتسر بمصيبة ان نزلت به وهذا من فعل المنافقين وسيأتى ذمه ان شاء الله تعالى * الثانى أن تزيد على اضمار الحسد فى الباطن وتشمت بما أصابه من البلاء * الثالث أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وان طلبك وأقبل عليك * الرابع وهو دونه أن تعرض عنه استصغارا له * الخامس أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وافشاء سر وهتك ستر وغيره * السادس أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه * السابع ايذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه * الثامن أن تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلمة وكل ذلك حرام وأقل درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة ولا تخرج بسبب الحقد الى ما تعصى الله به ولكن تستثقله فى الباطن ولا ينتهى قلبك عن بغضه حتى تمتنع عما كنت تطوع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته والمجالسة معه على ذكر الله تعالى والمعاونة على المنفعة له أو بترك الدعاء له والثناء عليه أو التحريض على بره ومواساته فهذا كله مما ينقص درجتك فى الدين ويحول بينك وبين فضل عظيم وثواب جزيل وان كان لا يعرضك لعقاب الله ولما حلف أبو بكر رضى الله عنه أن لا ينفق على مسطح وكان قريبه لكونه تكلم فى واقعة الافك نزل قوله تعالى ولا يأتل أولوا الفضل منكم الى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم فقال أبو بكر نعم نحب ذلك وعاد الى الانفاق عليه والاولى أن يبقى على ما كان عليه فان أمكنه أن يزيد فى الاحسان مجاهدة للنفس وارغاما للشيطان فذلك مقام الصديقين وهو من فضائل أعمال المقربين فللحقود ثلاثة أحوال عند القدرة أحدها ان يستوفى حقه الذى يستحقه من غير زيادة ونقصان وهو العدل * الثانى أن يحسن اليه بالعفو والصلة وذلك هو الفضل * الثالث أن يظلمه بما لا يستحقه وذلك هو الجور وهو اختيار الاراذل والثانى هو اختيار الصديقين والاول هو منتهى درجات الصالحين ولنذكر الآن فضيلة العفو والاحسان

(فضيلة العفو والاحسان)

اعلم ان معنى العفو أن يستحق حقا فيسقطه ويبرئ عنه من قصاص أو غرامة وهو غير الحلم وكظم الغيظ فلذلك أفردناه قال الله تعالى خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وقال الله تعالى وأن تعفوا أقرب للتقوى * وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث والذى نفسى بيده لو كنت حلافا لحلفت عليهن ما نقص مال من صدقة فتصدقوا ولا عفا رجل عن مظلمة يبتغى بها وجه الله الا زاده الله بها عزا يوم القيامة ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة الا فتح الله عليه باب فقر وقال صلى الله عليه وسلم التواضع لا يزيد العبد الا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله والعفو لا يزيد العبد الا عزا فاعفوا يعزكم الله والصدقة لا تزيد المال الا كثرة فتصدقوا يرحمكم الله وقالت عائشة رضى الله عنها ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط ما لم ينتهك من محارم الله فاذا انتهك من محارم الله شئ كان أشدهم فى ذلك غضبا وما خير بين أمرين الا اختار أيسرهما ما لم يكن اثما وقال عقبة لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فابتدرته فأخذت بيده أو بدرنى فأخذ بيدى فقال يا عقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك وقال صلى الله عليه وسلم قال موسى عليه السلام يا رب أى عبادك أعز عليك قال الذى اذا قدر عفا وكذلك سئل أبو الدرداء عن أعز الناس قال الذى يعفو اذا قدر فاعفوا يعزكم الله وجاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم يشكو مظلمة فأمره النبى صلى الله عليه وسلم ان يجلس وأراد أن يأخذ له بمظلمته فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ان المظلومين هم المفلحون يوم القيامة فأبى ان يأخذها حين سمع الحديث وقالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دعا على من ظلمه فقد انتصر وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا بعث الله الخلائق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثة أصوات يا معشر الموحدين ان الله قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتى الباب فقال ما تقولون وما تظنون فقالوا نقول أخ وابن عم حليم رحيم قالوا ذلك ثلاثا فقال صلى الله عليه وسلم أقول كما قال يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين قال فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا

العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر قال أنا أبو محمد قال أنا أبو العباس قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا سفيان بن وكيع قال حدثنا عبد الله بن وهب عن زيد بن حباب عن أبى معاذ عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم خرقة ينشف بها أعضاءه بعد الوضوء * وروى معاذ بن جبل قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا توضأ مسح وجهه بطرف ثوبه واستقصاء الصوفية فى تطهير البواطن من الصفات الرديئة والاخلاق المذمومة لا الاستقصاء فى طهارة الظاهر الى حد يخرج عن حد العلم وتوضأ عمر رضى الله عنه من جرة نصرانية مع كون النصارى لا يحترزون عن الخمر وأجرى الامر فتلى

في الاسلام وعن سهيل بن عمرو قال لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وضع يديه على باب الكعبة والناس حوله فقال لا اله الا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده ثم قال يا معشر قريش ما تقولون وما تظنون قال قلت يا رسول الله نقول خيرا ونظن خيرا أخ كريم وابن عم رحيم وقد قدرت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقول كما قال أخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا وقف العباد نادى مناد ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة قيل ومن ذا الذي له على الله أجر قال العافون عن الناس فيقوم كذا وكذا ألفا فيدخلونها بغير حساب وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغي لوالي أمر أن يؤتى بحد الا أقامه والله عفو يحب العفو ثم قرأ وليعفوا وليصفحوا الآية وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث من جاء بهن مع ايمان دخل من أي أبواب الجنة شاء وزوج من الحور العين حيث شاء من أدى دينا خفيا وقرأ في دبر كل صلاة قل هو الله أحد عشر مرات وعفا عن قاتله قال أبو بكر أو احداهن يا رسول الله قال أو احداهن (الآثار) قال ابراهيم التيمي ان الرجل ليظلمني فارحمه وهذا احسان وراء العفو لانه يشتغل قلبه بتعرضه لمعصية الله تعالى بالظلم وانه يطالب يوم القيامة فلا يكون له جواب وقال بعضهم اذا أراد الله ان يتحف عبدا قيض له من يظلمه ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فجعل يشكو اليه رجلا ظلمه ويقع فيه فقال له عمر انك أن تلقى الله ومظلمتك كما هي خير لك من أن تلقاه وقد اقتصصتها وقال يزيد ابن ميسرة ان ظللت تدعو على من ظلمك فان الله تعالى يقول ان آخر يدعو عليك بانك ظلمته فان شئت استجبنا لك وأجبنا عليك وان شئت أخرتكما الى يوم القيامة فيسعكما عفوي وقال مسلم بن يسار لرجل دعا على ظالمه كل الظالم الى ظلمه فانه أسرع اليه من دعائك عليه الا أن يتداركه بعمل وقمن أن لا يفعل وعن ابن عمر عن أبي بكر أنه قال بلغنا أن الله تعالى يأمر مناديا يوم القيامة فينادي من كان له عند الله شئ فليقم فيقوم أهل العفو فيكافئهم الله بما كان من عفوهم عن الناس وعن هشام بن محمد قال أتي النعمان بن المنذر برجلين قد أذنب أحدهما ذنبا عظيما فعفا عنه والآخر أذنب ذنبا خفيفا فعاقبه وقال

تعفو الملوك عن العظيم من الذنوب بفضلها ... ولقد تعاقب في اليسير وليس ذاك لجهلها

الا ليعرف حلمها * ويخاف شدة دخلها

وعن مبارك بن فضالة قال وفد سوار بن عبد الله في وفد من أهل البصرة الى أبي جعفر قال فكنت عنده اذ أتي برجل فامر بقتله فقلت يقتل رجل من المسلمين وأنا حاضر فقلت يا أمير المؤمنين ألا أحدثك حديثا سمعته من الحسن قال وما هو قلت سمعته يقول اذا كان يوم القيامة جمع الله عز وجل الناس في صعيد واحد حيث يسمعهم الداعي وينفذهم البصر فيقوم مناد فينادي من له عند الله يد فليقم فلا يقوم الا من عفا فقال والله لقد سمعته من الحسن فقلت والله لسمعته منه فقال خلينا عنه وقال معاوية عليكم بالحلم والاحتمال حتى تمكنكم الفرصة فاذا أمكنتكم فعليكم بالصفح والافضال وروى أن راهبا دخل على هشام بن عبد الملك فقال للراهب أرأيت ذا القرنين أكان نبيا فقال لا ولكنه انما أعطي ما أعطي بأربع خصال كن فيه كان اذا قدر عفا واذا وعد وفى واذا حدث صدق ولا يجمع شغل اليوم لغد وقال بعضهم ليس الحليم من ظلم فحلم حتى اذا قدر انتقم ولكن الحليم من ظلم فحلم حتى اذا قدر عفا وقال زياد القدرة تذهب الحفيظة يعني الحقد والغضب وأتي هشام برجل بلغه عنه أمر فلما أقيم بين يديه جعل يتكلم بحجته فقال له هشام وتتكلم أيضا فقال الرجل يا أمير المؤمنين قال الله عز وجل يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها أفنجادل الله تعالى ولا نتكلم بين يديك كلاما قال هشام بلى ويحك تكلم وروي أن سارقا دخل خباء عمار بن ياسر بصفين فقيل له اقطعه فانه من أعدائنا فقال بل أستر عليه لعل الله يستر علي يوم القيامة وجلس ابن مسعود في السوق يبتاع طعاما فابتاع ثم طلب الدراهم وكانت في عمامته فوجدها قد حلت فقال لقد جلست وانها لمعي فجعلوا يدعون على من أخذها ويقولون اللهم اقطع يد السارق الذي أخذها اللهم افعل به كذا فقال عبد الله اللهم ان كان حمله على أخذها حاجة فبارك له فيها وان كان حملته جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه وقال الفضيل ما رأيت أزهد من رجل من أهل خراسان جلس الي في المسجد الحرام ثم قام ليطوف فسرقت دنانير

الظاهر وأصل الطهارة وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلون على الارض من غير سجادة ويمشون حفاة في الطرق وقد كانوا لا يجعلون وقت النوم بينهم وبين التراب حائلا وقد كانوا يقتصرون على الحجر في الاستنجاء في بعض الاوقات وكان أمرهم في الطهارة الظاهرة على التساهل واستقصاؤهم في الطهارة الباطنة وهكذا شغل الصوفية وقد يكون بعض الاشخاص يشدد في الطهارة ويكون مستند ذلك رعونة النفس فلو اتسخ ثوبه تحرج ولا يبالي بما في باطنه من الغل والحقد والكبر والعجب والرياء والنفاق ولعله ينكر على الشخص لو داس الارض حافيا مع وجود رخصة الشرع ولا ينكر عليه أن يتكلم بكلمة غيبة يخرب بها دينه وكل ذلك من قلة العلم وترك

كانت معه فجعل يبكي فقلت أعلى الدنانير تبكي فقال لا ولكن مثلتني واياه بين يدي الله عز و جل فاشرف عقلي على ادحاض حجته فبكاني رحمة له وقال مالك بن دينار أتينا منزل الحكم بن أيوب ليلا وهو على البصرة أمير وجاء الحسن وهو خائف فدخلنا معه عليه فما كنا مع الحسن الا بمنزلة الفراريج فذكر الحسن قصة يوسف عليه السلام وما صنع به اخوته من بيعهم اياه وطرحهم له في الجب فقال باعوا أخاهم وأحزنوا أباهم وذكر مالقي من كيد النساء ومن الحبس ثم قال أيها الامير ماذا صنع الله به أداله منهم ورفع ذكره وأعلى كلمته وجعله على خزائن الارض فماذا صنع حين أكمل له أمره وجمع له أهله قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين يعرض للحكم بالعفو عن أصحابه قال الحكم فانا أقول لا تثريب عليكم اليوم ولو لم أجد الا ثوبي هذا لواريتكم تحته وكتب ابن المقفع الى صديق له يسأله العفو عن بعض اخوانه فلان هارب من زلته الى عفوك لائذ منك بك واعلم انه لن يزداد الذنب عظما الا ازداد العفو فضلا وأتى عبد الملك بن مروان بأسارى ابن الاشعث فقال لرجاء بن حيوة ماترى قال ان الله تعالى قد أعطاك ما تحب من الظفر فاعط الله ما يحب من العفو فعفا عنهم وروى أن زيادا أخذ رجلا من الخوارج فافلت منه فاخذ أخاله فقال له ان جئت بأخيك والا ضربت عنقك فقال أرأيت ان جئتك بكتاب من أمير المؤمنين تخلي سبيلي قال نعم قال فانا آتيك بكتاب من العزيز الحكيم وأقيم عليه شاهدين ابراهيم وموسى ثم تلا أم لم ينبأ بما في صحف موسى وابراهيم الذي وفى أن لا تزر وازرة وزر أخرى فقال زياد خلوا سبيله هذا رجل قد لقن حجته وقيل مكتوب في الانجيل من استغفر لمن ظلمه فقد هزم الشيطان *(فضيلة الرفق)*

اعلم أن الرفق محمود ويضاده العنف والحدة والعنف نتيجة الغضب والفظاظة والرفق واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة وقد يكون سبب الحدة الغضب وقد يكون سببها شدة الحرص واستيلاءه بحيث يدهش عن التفكر ويمنع من التثبت فالرفق في الامور ثمرة لا يثمرها الا حسن الخلق ولا يحسن الخلق الا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة وحفظهما على حد الاعتدال ولاجل هذا أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرفق وبالغ فيه فقال ياعائشة انه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من خير الدنيا والآخرة وقال صلى الله عليه وسلم اذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق وقال صلى الله عليه وسلم ان الله ليعطي على الرفق مالا يعطي على الخرق واذا أحب الله عبدا أعطاه الرفق وما من أهل بيت يحرمون الرفق الا حرموا محبة الله تعالى وقالت عائشة رضي الله عنها قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله رفيق يحب الرفق ويعطي عليه مالا يعطي على العنف وقال صلى الله عليه وسلم ياعائشة ارفقي فان الله اذا أراد باهل بيت كرامة دلهم على باب الرفق وقال صلى الله عليه وسلم من يحرم الرفق يحرم الخير كله وقال صلى الله عليه وسلم أيما وال ولي فرفق ولان رفق الله تعالى به يوم القيامة وقال صلى الله عليه وسلم تدرون من يحرم على النار يوم القيامة كل هين لين سهل قريب وقال صلى الله عليه وسلم الرفق يمن والخرق شؤم وقال صلى الله عليه وسلم التأني من الله والعجلة من الشيطان وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه رجل فقال يارسول الله ان الله قد بارك لجميع المسلمين فيك فاخصصني منك بخير فقال الحمد لله مرتين أو ثلاثا ثم أقبل عليه فقال هل أنت مستوص مرتين أو ثلاثا قال نعم قال اذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فان كان رشدا فامضه وان كان سوى ذلك فانته وعن عائشة رضي الله عنها انها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر على بعير صعب فجعلت تصرفه يمينا وشمالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياعائشة عليك بالرفق فانه لا يدخل في شيء الا زانه ولا ينزع من شيء الا شانه (الآثار) بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن جماعة من رعيته اشتكوا من عماله فامرهم أن يوافوه فلما أتوه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس أيتها الرعية ان لنا عليكم حقا النصيحة بالغيب والمعاونة على الخير أيتها الرعاة ان للرعية عليكم حقا فاعلموا أنه لا شيء أحب الى الله ولا أعز من حلم امام ورفقه وليس جهل أبغض الى الله ولا أعم من جهل امام وخرقه واعلموا انه من يأخذ بالعافية فيمن بين ظهريه يرزق العافية ممن هو دونه وقال وهب بن منبه الرفق ثنى الحلم وفي الخبر موقوفا ومرفوعا العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قيمه والرفق والده واللين أخوه والصبر أمير جنوده وقال بعضهم ما أحسن الايمان يزينه العلم وما أحسن العلم يزينه العمل وما أحسن العمل يزينه الرفق

التأدب بصحبة الصادقين من العلماء الراسخين وكانوا يكرهون كثرة الدلك في الاستبراء لانه ربما يسترخي العرق ولا يمسك البول ويتولد منه القطر المفرط (ومن حكايات) المتصوفة في الوضوء والطهارات أن أبا عمرو الزجاجي جاور بمكة ثلاثين سنة وكان لا يتغوط في الحرم ويخرج الى الحل وأقل ذلك فرسخ (وقيل) كان بعضهم على وجهه قرح لم يندمل اثنتي عشرة سنة لان الماء كان يضره وكان مع ذلك لا يدع تجديد الوضوء عند كل فريضة وبعضهم نزل في عينه الماء فحملوا اليه المداوي وبذلوا له مالا كثيرا ليداويه فقال المداوي تحتاج الى ترك الوضوء أياما ويكون مستلقيا على قفاه فلم يفعل ذلك واختار ذهاب بصره على ترك الوضوء *(الباب السادس والثلاثون في فضيلة

وما أضيف شئ الى شئ مثل حلم الى علم وقال عمرو بن العاص لابنه عبدالله ما الرفق قال أن تكون ذا اناة فتلاين الولاة قال فما الخرق قال معاداة امامك ومناواة من يقدر على ضررك وقال سفيان لاصحابه تدرون ما الرفق قالوا قل يا أبا محمد قال أن تضع الامور مواضعها الشدة فى موضعها واللين فى موضعه والسيف فى موضعه والسوط فى موضعه وهذه اشارة الى أنه لابد من مزج الغلاظة باللين والفظاظة بالرفق كما قيل

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا * مضر كوضع السيف فى موضع الندى

فالمحمود وسط بين العنف واللين كما فى سائر الاخلاق ولكن لما كانت الطباع الى العنف والحدة أميل كانت الحاجة الى ترغيبهم فى جانب الرفق أكثر فلذلك كثر ثناء الشرع على جانب الرفق دون العنف وان كان العنف فى محله حسنا كما أن الرفق فى محله حسن فاذا كان الواجب هو العنف فقد وافق الحق الهوى وهو ألذ من الزبد بالشهد وهكذا قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله وروى أن عمرو بن العاص كتب الى معاوية يعاتبه فى التأنى فكتب اليه معاوية أما بعد فان التفهم فى الخير زيادة رشد وان الرشيد من رشد عن العجلة وان الخائب من خاب عن الاناة وان المتثبت مصيب أو كاد أن يكون مصيبا وان العجل مخطئ أو كاد أن يكون مخطئا وان من لا ينفعه الرفق يضره الخرق ومن لا ينفعه التجارب لا يدرك المعالى وعن أبى عون الانصارى قال ما تكلم الناس بكلمة صعبة الا والى جانبها كلمة ألين منها تجرى مجراها وقال أبو حمزة الكوفى لا تتخذ من الخدم الا ما لابد منه فان مع كل انسان شيطانا واعلم انهم لا يعطونك بالشدة شيأ الا أعطوك باللين ما هو أفضل منه وقال الحسن المؤمن وقاف متأن وليس كحاطب ليل فهذا ثناء أهل العلم على الرفق وذلك لانه محمود ومفيد فى أكثر الاحوال وأغلب الامور والحاجة الى العنف قد تقع ولكن على الندور وانما الكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف فيعطى كل أمر حقه فان كان قاصر البصيرة أو أشكل عليه حكم واقعة من الوقائع فليكن ميله الى الرفق فان النجح معه فى الاكثر

(القول فى ذم الحسد وفى حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب فى ازالته)

(بيان ذم الحسد)

اعلم أن الحسد أيضا من نتائج الحقد والحقد من نتائج الغضب فهو فرع فرعه والغضب أصل أصله ثم ان للحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى وقد ورد فى ذم الحسد خاصة أخبار كثيرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وقال صلى الله عليه وسلم فى النهى عن الحسد وأسبابه وثمراته لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا وقال أنس كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة قال فطلع رجل من الانصار ينفض لحيته من وضوئه قد علق نعليه فى يده الشمال فسلم فلما كان الغد قال صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فطلع ذلك الرجل وقاله فى اليوم الثالث فطلع ذلك الرجل فلما قام النبى صلى الله عليه وسلم تبعه عبدالله بن عمرو بن العاص فقال له انى لاحيت أبى فاقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثا فان رأيت أن تؤوينى اليك حتى تمضى الثلاث فعلت فقال نعم فبات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيأ غير أنه اذا تقلب على فراشه ذكر الله تعالى ولم يقم حتى يقوم لصلاة الفجر قال غير أنى ما سمعته يقول الا خيرا فلما مضت الثلاث وكدت أن أحتقر عمله قلت يا عبدالله لم يكن بينى وبين والدى غضب ولا هجرة ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا فأردت أن أعرف عملك فلم أرك تعمل عملا كثيرا فما الذى بلغ بك ذلك فقال ما هو الا ما رأيت فلما وليت دعانى فقال ما هو الا ما رأيت غير أنى لا أجد على أحد من المسلمين فى نفسى غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله اياه قال عبدالله فقلت له هى التى بلغت بك وهى التى لا نطيق وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث لا ينجو منهن أحد الظن والطيرة والحسد وسأحدثكم بالمخرج من ذلك اذا ظننت فلا تحقق واذا تطيرت فامض واذا حسدت فلا تبغ وفى رواية ثلاثة لا ينجو منهن أحد وقل من ينجو منهن فاثبت فى هذه الرواية امكان النجاة وقال صلى الله عليه وسلم دب اليكم داء الامم قبلكم الحسد والبغضاء والبغضة هى الحالقة لا أقول حالقة الشعر ولكن حالقة الدين والذى نفس محمد بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا

الصلاة وكبر شأنها)* (روى) عن عبدالله ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله تعالى جنة عدن وخلق فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال لها تكلمى فقالت قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ثلاثا وشهد القرآن المجيد بالفلاح للمصلين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانى جبرائيل لدلوك الشمس حين زالت وصلى بى الظهر واشتقاق الصلاة قيل من الصلى وهو النار والخشبة المعوجة اذا أرادوا تقويمها تعرض على النار ثم تقوم وفى العبد اعوجاج لوجود نفسه الامارة بالسوء وسبحات وجه الله الكريم التى لو كشف حجابها أحرقت من أدركته يصيب بها المصلى من وهج السطوة

ولن تؤمنوا حتى تحابوا ألا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم أفشوا السلام بينكم وقال صلى الله عليه وسلم كاد الفقر أن يكون كفرا وكاد الحسد أن يغلب القدر وقال صلى الله عليه وسلم انه سيصيب أمتي داء الامم قالوا وما داء الامم قال الاشر والبطر والتكاثر والتنافس في الدنيا والتباعد والتحاسد حتى يكون البغي ثم الهرج وقال صلى الله عليه وسلم لا تظهر الشماتة لاخيك فيعافيه الله ويبتليك وروى ان موسى عليه السلام لما تعجل الى ربه تعالى رأى في ظل العرش رجلا فغبطه بمكانه فقال ان هذا الكريم على ربه فسأل ربه تعالى أن يخبره باسمه فلم يخبره وقال أحدثك من عمله بثلاث كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله وكان لا يعق والديه ولا يمشي بالنميمة وقال زكريا عليه السلام قال الله تعالى الحاسد عدو لنعمتي متسخط لقضائي غير راض بقسمتي التي قسمت بين عبادي وقال صلى الله عليه وسلم أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر فيهم المال فيتحاسدون ويقتتلون وقال صلى الله عليه وسلم استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فان كل ذي نعمة محسود وقال صلى الله عليه وسلم ان لنعم الله أعداء فقيل ومن هم فقال الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله وقال صلى الله عليه وسلم ستة يدخلون النار قبل الحساب بسنة قيل يا رسول الله من هم قال الامراء بالجور والعرب بالعصبية والدهاقين بالتكبر والتجار بالخيانة وأهل الرستاق بالجهالة والعلماء بالحسد (الآثار) قال بعض السلف أول خطيئة كانت هي الحسد حسد ابليس آدم عليه السلام على رتبته فأبى أن يسجد له فحمله الحسد على المعصية وحكى أن عون بن عبد الله دخل على الفضل بن المهلب وكان يومئذ على واسط فقال اني أريد أن أعظك بشئ فقال وما هو قال اياك والكبر فانه أول ذنب عصي الله به ثم قرأ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس الآية واياك والحرص فانه أخرج آدم من الجنة أمكنه الله سبحانه من جنة عرضها السموات والارض يأكل منها الا شجرة واحدة نهاه الله عنها فأكل منها فأخرجه الله تعالى منها ثم قرأ اهبطوا منها الى آخر الآية واياك والحسد فانما قتل ابن آدم أخاه حين حسده ثم قرأ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق الآيات واذا ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فامسك واذا ذكر القدر فاسكت واذا ذكرت النجوم فاسكت وقال بكر بن عبد الله كان رجل يغشى بعض الملوك فيقوم بحذاء الملك فيقول أحسن الى المحسن باحسانه فان المسيء سيكفيه اساءته فحسده رجل على ذلك المقام والكلام فسعى به الى الملك فقال ان هذا الذي يقوم بحذائك ويقول ما يقول زعم ان الملك أبخر فقال له الملك وكيف يصح ذلك عندي قال تدعوه اليك فانه اذا دنا منك وضع يده على أنفه لئلا يشم ريح البخر فقال له انصرف حتى أنظر فخرج من عند الملك فدعا الرجل الى منزله فأطعمه طعاما فيه ثوم فخرج الرجل من عنده وقام بحذاء الملك على عادته فقال أحسن الى المحسن باحسانه فان المسيء سيكفيه اساءته فقال له الملك ادن مني فدنا منه فوضع يده على فيه مخافة أن يشم الملك منه رائحة الثوم فقال الملك في نفسه ما أرى فلانا الا قد صدق قال وكان الملك لا يكتب بخطه الا بجائزة أو صلة فكتب له كتابا بخطه الى عامل من عماله اذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه واسلخه واحش جلده تبنا وابعث به الي فأخذ الكتاب وخرج فلقيه الرجل الذي سعى به فقال ما هذا الكتاب قال خط الملك لي بصلة فقال هبه لي فقال هو لك فأخذه ومضى به الى العامل فقال العامل في كتابك ان أذبحك وأسلخك قال ان الكتاب ليس هو لي فالله الله في أمري حتى تراجع الملك فقال ليس لكتاب الملك مراجعة فذبحه وسلخه وحشا جلده تبنا وبعث به ثم عاد الرجل الى الملك كعادته وقال مثل قوله فعجب الملك وقال ما فعل الكتاب فقال لقيني فلان فاستوهبه مني فوهبته له قال الملك انه ذكر لي انك تزعم اني أبخر قال ما قلت ذلك قال فلم وضعت يدك على فيك قال لانه أطعمني طعاما فيه ثوم فكرهت أن تشمه قال صدقت ارجع الى مكانك فقد كفاك المسيء اساءته وقال ابن سيرين رحمه الله ما حسدت أحدا على شئ من أمر الدنيا لانه ان كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة وان كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير الى النار وقال رجل للحسن هل يحسد المؤمن قال ما أنساك بني يعقوب نعم ولكن غمه في صدرك فانه لا يضرك ما لم تعد به يدا ولا لسانا وقال أبو الدرداء ما أكثر عبد ذكر الموت الا قل فرحه وقل حسده وقال معاوية كل الناس أقدر على رضاه الا حاسد نعمة فانه لا يرضيه الا زوالها ولذلك قيل

الالهية والعظمة الربانية ما تزول به اعوجاجه بل يتحقق به به معراجه فالمصلي كالمصطلي بالنار ومن اصطلى بنار الصلاة وزال بها اعوجاجه لا يعرض على نار جهنم الا تحلة القسم (أخبرنا) الشيخ العالم رضي الدين أحمد بن اسمعيل القزويني اجازة قال أنا أبو سعيد محمد بن أبي العباس بن محمد بن أبي العباس الخليلي قال أنا أبو سعيد الفرخزاذي قال أنا أبو اسحق أحمد ابن محمد قال أنا أبو القاسم الحسن بن محمد ابن الحسن قال أنا أبو زكريا يحيى بن محمد العنبري قال ثنا جعفر ابن أحمد بن الحافظ قال أنا أحمد بن نصير قال ثنا آدم بن أبي اياس عن ابن سمعان عن العلاء ابن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عز وجل

كل العداوة قد ترجى اماتتها * الا عداوة من عاداك من حسد

وقال بعض الحكماء الحسد جرح لا يبرأ وحسب الحسود ما يلقى وقال اعرابي ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد انه يرى النعمة عليك نقمة عليه وقال الحسن يا ابن آدم لم تحسد أخاك فان كان الذي أعطاه الله لكرامته عليه فلم تحسد من أكرمه الله وان كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره الى النار وقال بعضهم الحاسد لا ينال من المجالس الا مذمة وذلا ولا ينال من الملائكة الا لعنة وبغضا ولا ينال من الخلق الا جزعا وغما ولا ينال عند النزع الا شدة وهولا ولا ينال عند الموقف الا فضيحة ونكالا

(بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه)

اعلم انه لا حسد الا على نعمة فاذا أنعم الله على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان احداهما أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها وهذه الحالة تسمى حسدا فالحسد حده كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه الحالة الثانية ان لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها ولكن تشتهي لنفسك مثلها وهذه تسمى غبطة وقد تختص باسم المنافسة وقد تسمى المنافسة حسدا والحسد منافسة ويوضع أحد اللفظين موضع الآخر ولا حجر في الاسامي بعد فهم المعاني وقد قال صلى الله عليه وسلم ان المؤمن يغبط والمنافق يحسد فأما الاول فهو حرام بكل حال الا نعمة أصابها فاجر أو كافر وهو يستعين بها على تهييج الفتنة وافساد ذات البين وايذاء الخلق فلا يضرك كراهتك لها ومحبتك لزوالها فانك لا تحب زوالها من حيث هي نعمة بل من حيث هي آلة الفساد ولو أمنت فساده لم يغمك بنعمته ويدل على تحريم الحسد الاخبار التي نقلناها وأن هذه الكراهة تسخط لقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض وذلك لا عذر فيه ولا رخصة وأي معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرة والى هذا أشار القرآن بقوله ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها وهذا الفرح شماتة والحسد والشماتة يتلازمان وقال تعالى ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم فاخبر تعالى أن حبهم زوال نعمة الايمان حسد وقال عز وجل ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء وذكر الله تعالى حسد اخوة يوسف عليه السلام وعبر عما في قلوبهم بقوله تعالى اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة ان أبانا لفي ضلال مبين اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم فلما كرهوا حب أبيهم له وساءهم ذلك وأحبوا زواله عنه فغيبوه عنه وقال تعالى ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا أي لا تضيق صدورهم به ولا يغتمون فاثنى عليهم بعدم الحسد وقال تعالى في معرض الانكار أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله وقال تعالى كان الناس أمة واحدة الى قوله الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم قيل في التفسير حسدا وقال تعالى وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم فانزل الله العلم ليجمعهم ويؤلف بينهم على طاعته وأمرهم أن يتألفوا بالعلم فتحاسدوا واختلفوا اذ أراد كل واحد منهم أن ينفرد بالرياسة وقبول القول فرد بعضهم على بعض قال ابن عباس كانت اليهود قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم اذا قاتلوا قوما قالوا نسألك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله وبالكتاب الذي تنزله الا ما نصرتنا فكانوا ينصرون فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم من ولد اسمعيل عليه السلام عرفوه وكفروا به بعد معرفتهم اياه فقال تعالى وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به الى قوله أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أي حسدا وقالت صفية بنت حيي للنبي صلى الله عليه وسلم جاء أبي وعمي من عندك يوما فقال أبي لعمي ما تقول فيه قال أقول انه النبي الذي بشر به موسى قال فما ترى قال أرى معاداته أيام الحياة فهذا حكم الحسد في التحريم * وأما المنافسة فليست بحرام بل هي اما واجبة واما مندوبة واما مباحة وقد يستعمل لفظ الحسد بدل المنافسة والمنافسة بدل الحسد قال قثم بن العباس لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فيسألاه أن يؤمرهما على الصدقة قالا لعلي حين قال لهما لا تذهبا اليه فانه لا يؤمركما عليها فقالا له ما هذا منك الا نفاسة والله لقد زوجك ابنته فما نفسنا ذلك عليك أي هذا منك حسد وما حسدناك على تزويجه اياك فاطمة والمنافسة في اللغة مشتقة من النفاسة والذي يدل على اباحة المنافسة قوله تعالى وفي ذلك فليتنافس المتنافسون وقال تعالى سابقوا الى مغفرة من ربكم وانما المسابقة عند

خوف

قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فاذا قال العبد بسم الله الرحمن الرحيم قال الله عز وجل مجدني عبدي فاذا قال الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى حمدني عبدي فاذا قال الرحمن الرحيم قال الله تعالى أثنى علي عبدي فاذا قال مالك يوم الدين قال فوض الي عبدي فاذا قال اياك نعبد واياك نستعين قال هذا بيني وبين عبدي فاذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال الله تعالى هذا لعبدي ولعبدي ما سأل فالصلاة صلة بين الرب والعبد وما كان صلة بينه وبين الله فحق العبد أن يكون خاشعا لصولة الربوبية على العبودية وقد ورد ان الله تعالى اذا تجلى لشيء خضع له ومن يتحقق بالصلة في الصلاة تلمع له طوالع التجلي فيخشع والفلاح للذين هم في

خوف الفوت وهو كالعبدين يتسابقان الى خدمة مولاهما اذ يجزع كل واحد أن يسبقه صاحبه فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها فكيف وقد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال لا حسد الا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله علما فهو يعمل به ويعلمه الناس ثم فسر ذلك فى حديث أبى كبشة الانمارى فقال مثل هذه الامة مثل أربعة رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل بعلمه فى ماله ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فيقول رب لو أن لى مالا مثل مال فلان لكنت أعمل فيه بمثل عمله فهما فى الاجر سواء وهذا منه حب لان يكون له مثل ماله فيعمل مثل ما يعمل من غير حب زوال النعمة عنه قال ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو ينفقه فى معاصى الله ورجل لم يؤته علما ولم يؤته مالا فيقول لو أن لى مثل مال فلان لكنت أنفقه فى مثل ما أنفقه فيه من المعاصى فهما فى الوزر سواء فذمه رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة تمنيه المعصية لا من جهة حبه أن يكون له من النعمة مثل ماله فاذا لا حرج على من يغبط غيره فى نعمة ويشتهى لنفسه مثلها مهما لم يحب زوالها عنه ولم يكره دوامها له نعم ان كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة كالايمان والصلاة والزكاة فهذه المنافسة واجبة وهو أن يحب أن يكون مثله لانه اذا لم يكن يحب ذلك فيكون راضيا بالمعصية وذلك حرام وان كانت النعمة من الفضائل كانفاق الاموال فى المكارم والصدقات فالمنافسة فيها مندوب اليها وان كانت نعمة يتنعم بها على وجه مباح فالمنافسة فيها مباحة وكل ذلك يرجع الى ارادة مساواته واللحوق به فى النعمة وليس فيها كراهة النعمة وكان تحت هذه النعمة أمران أحدهما راحة المنعم عليه والآخر ظهور نقصان غيره وتخلفه عنه وهو يكره أحد الوجهين وهو تخلف نفسه ويحب مساواته له ولا حرج على من يكره تخلف نفسه ونقصانها فى المباحات نعم ذلك ينقص من الفضائل ويناقض الزهد والتوكل والرضا ويحجب عن المقامات الرفيعة ولكنه لا يوجب العصيان وههنا دقيقة غامضة وهو أنه اذا أيس من أن ينال مثل تلك النعمة وهو يكره تخلفه ونقصانه بلا محالة يحب زوال النقصان وانما يزول نقصانه اما بأن ينال مثل ذلك أو بأن تزول نعمة المحسود فاذا انسد أحد الطريقين فيكاد القلب لا ينفك عن شهوة الطريق الآخر حتى اذا زالت النعمة عن المحسود كان ذلك أشهى عنده من دوامها اذ بزوالها يزول تخلفه وتقدم غيره وهذا يكاد لا ينفك القلب عنه فان كان بحيث لو ألقى الامر اليه ورد الى اختياره لسعى فى ازالة النعمة عنه فهو حسود حسدا مذموما وان كان تدعه التقوى عن ازالة ذلك فيعفى عما يجده فى طبعه من الارتياح الى زوال النعمة عن محسوده مهما كان كارها لذلك من نفسه بعقله ودينه ولعله المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن الحسد والظن والطيرة ثم قال وله منهن مخرج اذا حسدت فلا تبغ أى ان وجدت فى قلبك شيأ فلا تعمل به وبعيد أن يكون الانسان مريدا للحاق باخيه فى النعمة فيعجز عنها ثم ينفك عن ميل الى زوال النعمة اذ يجد لا محالة ترجيحا له على دوامها فهذا الحد من المنافسة يزاحم الحسد الحرام فينبغى أن يحتاط فيه فانه موضع الخطر وما من انسان الا وهو يرى فوق نفسه جماعة من معارفه وأقرانه يحب مساواتهم ويكاد يجر ذلك الى الحسد المحظور ان لم يكن قوى الايمان رزين التقوى ومهما كان محركه خوف التفاوت وظهور نقصانه عن غيره جره ذلك الى الحسد المذموم والى ميل الطبع الى زوال النعمة عن أخيه حتى ينزل هو الى مساواته اذ لم يقدر هو أن يرتقى الى مساواته بادراك النعمة وذلك لا رخصة فيه أصلا بل هو حرام سواء كان فى مقاصد الدين أو مقاصد الدنيا ولكن يعفى عنه فى ذلك ما لم يعمل به ان شاء الله تعالى وتكون كراهته لذلك من نفسه كفارة له فهذه حقيقة الحسد وأحكامه * وأما مراتبه فأربع (الاولى) أن يحب زوال النعمة عنه وان كان ذلك لا ينتقل اليه وهذا غاية الخبث (الثانية) أن يحب زوال النعمة اليه لرغبته فى تلك النعمة مثل رغبته فى دار حسنة أو امرأة جميلة أو ولاية نافذة أو سعة نالها غيره وهو يحب أن تكون له ومطلوبه تلك النعمة لا زوالها عنه ومكروهه فقد النعمة لا تنعم غيره بها (الثالثة) أن لا يشتهى عينها لنفسه بل يشتهى مثلها فان عجز عن مثلها أحب زوالها كى لا يظهر التفاوت بينهما (الرابعة) أن يشتهى لنفسه مثلها فان لم تحصل فلا يحب زوالها عنه وهذا الاخير هو المعفو عنه ان كان فى الدنيا والمندوب اليه ان كان فى الدين والثالثة فيها مذموم وغير مذموم والثانية أخف من الثالثة والاولى مذموم محض وتسمية الرتبة الثانية حسدا فيه تجوز وتوسع

صلاتهم خاشعون وبانتفاء الخشوع ينتفى الفلاح وقال الله تعالى وأقم الصلاة لذكرى واذا كانت الصلاة للذكر كيف يقع فيها النسيان قال الله تعالى لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون فى قال ولا يعلم ما يقول كيف يصلى وقد نهاه الله عن ذلك فالسكران يقول الشئ لا بحضور عقل والغافل لا يصلى بحضور عقل فهو كالسكران وقيل فى غرائب التفسير فى قوله تعالى فاخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى قيل نعليك همك بامرأتك وغنمك فالاهتمام بغير الله تعالى سكر فى الصلاة وقيل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم الى السماء فى الصلاة وينظرون يمينا وشمالا فلما نزلت الذين هم فى صلاتهم خاشعون جعلوا وجوههم حيث يسجدون وما رؤى بعد ذلك أحد منهم ينظر

ولكنه مذموم لقوله تعالى ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض فتمنيه لمثل ذلك غير مذموم وأما تمنيه عين ذلك فهو مذموم

(بيان أسباب الحسد والمنافسة)

أما المنافسة فسببها حب ما فيه المنافسة فان كان ذلك أمرا دينيا فسببه حب الله تعالى وحب طاعته وان كان دنيويا فسببه حب مباحات الدنيا والتنعم فيها وانما نظرنا الآن في الحسد المذموم ومداخله كثيرة جدا ولكن يحصر جملتها سبعة أبواب العداوة والتعزز والكبر والتعجب والخوف من فوت المقاصد المحبوبة وحب الرياسة وخبث النفس وبخلها فانه انما يكره النعمة على غيره اما لانه عدوه فلا يريد له الخير وهذا لا يختص بالامثال بل يحسد الخسيس الملك بمعنى انه يحب زوال نعمته لكونه مبغضا له بسبب اساءته اليه أو الى من يحبه واما أن يكون من حيث يعلم انه يستكبر بالنعمة عليه وهو لا يطيق احتمال كبره وتفاخره لعزة نفسه وهو المراد بالتعزز واما أن يكون في طبعه أن يتكبر على المحسود ويمتنع ذلك عليه لنعمته وهو المراد بالتكبر واما أن تكون النعمة عظيمة والمنصب عظيما فيتعجب من فوز مثله بمثل تلك النعمة وهو المراد بالتعجب واما أن يخاف من فوات مقاصده بسبب نعمته بان يتوصل بها الى مزاحمته في أغراضه واما أن يكون يحب الرياسة التي تنبني على الاختصاص بنعمة لا يساوى فيها واما أن لا يكون بسبب من هذه الاسباب بل لخبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى ولابد من شرح هذه الاسباب (السبب الاول) العداوة والبغضاء وهذا أشد أسباب الحسد فان من آذاه شخص بسبب من الاسباب وخالفه في غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ في نفسه الحقد والحقد يقتضي التشفي والانتقام فان عجز المبغض عن أن يتشفى بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى فمهما أصابت عدوه بلية فرح بها وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه وانها لاجله ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك لانه ضد مراده وربما يخطر له انه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه بل أنعم عليه وبالجملة فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما وانما غاية التقي أن لا يبغي وأن يكره ذلك من نفسه فاما أن يبغض انسانا ثم يستوي عنده مسرته ومساءته فهذا غير ممكن وهذا مما وصف الله تعالى الكفار به أعني الحسد بالعداوة اذ قال تعالى واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور ان تمسسكم حسنة تسؤهم الآية وكذلك قال تعالى ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر والحسد بسبب البغض ربما يفضي الى التنازع والتقاتل واستغراق العمر في ازالة النعمة بالحيل والسعاية وهتك الستر وما يجري مجراه (السبب الثاني) التعزز وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره فاذا أصاب بعض أمثاله ولاية أو علما أو مالا خاف أن يتكبر عليه وهو لا يطيق تكبره ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتفاخره عليه وليس من غرضه أن يتكبر بل غرضه أن يدفع كبره فانه قد رضي بمساواته مثلا ولكن لا يرضى بالترفع عليه (السبب الثالث) الكبر وهو أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه ويستصغره ويستخدمه ويتوقع منه الانقياد له والمتابعة في أغراضه فاذا نال نعمة خاف أن لا يحتمل تكبره ويترفع عن متابعته أو ربما يتشوف الى مساواته أو الى أن يرتفع عليه فيعود متكبرا بعد أن كان متكبرا عليه ومن التكبر والتعزز كان حسد أكثر الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم اذ قالوا كيف يتقدم علينا غلام يتيم وكيف نطأطئ رؤسنا فقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أي كان لا يثقل علينا أن نتواضع له ونتبعه اذا كان عظيما وقال تعالى يصف قول قريش أهؤلاء من الله عليهم من بيننا كالاستحقار لهم والانفة منهم (السبب الرابع) التعجب كما أخبر الله تعالى عن الامم السالفة اذ قالوا ما أنتم الا بشر مثلنا وقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون فتعجبوا من أن يفوز برتبة الرسالة والوحي والقرب من الله تعالى بشر مثلهم فحسدوهم وأحبوا زوال النبوة عنهم جزعا أن يفضل عليهم من هو مثلهم في الخلقة لا عن قصد تكبر وطلب رياسة وتقدم عداوة أو سبب آخر من سائر الاسباب وقالوا متعجبين أبعث الله بشرا رسولا وقالوا لولا أنزل علينا الملائكة وقال تعالى أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم الآية (السبب الخامس) الخوف من فوت المقاصد وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد فان كل واحد يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عونا له في الانفراد بمقصوده ومن هذا

الا الى الارض وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان العبد اذا قام الى الصلاة فانه بين يدي الرحمن فاذا التفت قال له الرب الى من تلتفت الى من هو خير لك مني ابن آدم أقبل الي فانا خير لك ممن تلتفت اليه وأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يعبث بلحيته في الصلاة فقال لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا صليت فصل صلاة مودع فالمصلي سائر الى الله تعالى بقلبه يودع هواه ودنياه وكل شئ سواه والصلاة في اللغة هي الدعاء فكان المصلي يدعو الله تعالى بجميع جوارحه فصارت أعضاؤه كلها ألسنة يدعو بها ظاهرا وباطنا ويشارك الظاهر الباطن بالتضرع والتقلب في الهيآت تملقات متضرع سائل

الجنس تحاسد الضرات فى التزاحم على مقاصد الزوجية وتحاسد الاخوة فى التزاحم على نيل المنزلة فى قلب الابوين للتوصل به الى مقاصد الكرامة والمال وكذلك تحاسد التلميذين لاستاذ واحد على نيل المرتبة من قلب الاستاذ وتحاسد ندماء الملك وخواصه فى نيل المنزلة من قلبه للتوصل به الى المال والجاه وكذلك تحاسد الواعظين المتزاحمين على أهل بلدة واحدة اذا كان غرضهما نيل المال بالقبول عندهم وكذلك تحاسد العالمين المتزاحمين على طائفة من المتفقهة محصورين اذ يطلب كل واحد منزلة فى قلوبهم للتوصل بهم الى أغراض له (السبب السادس) حب الرياسة وطلب الجاه بنفسه من غير توصل به الى مقصود وذلك كالرجل الذى يريد أن يكون عديم النظير فى فن من الفنون اذا غلب عليه حب الثناء واستفزه الفرح بما يمدح به من أنه واحد الدهر وفريد العصر فى فنه وانه لا نظير له فانه لو سمع بنظير له فى أقصى العالم لساءه ذلك وأحب موته أو زوال النعمة عنه التى بها يشاركه فى المنزلة من شجاعة أو علم أو عبادة أو صناعة أو جمال أو ثروة أو غير ذلك مما يتفرد هو به ويفرح بسبب تفرده وليس السبب فى هذا عداوة ولا تعززا ولا تكبرا على المحسود ولا خوفا من فوات مقصود سوى محض الرياسة بدعوى الانفراد وهذا وراء ما بين آحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة فى قلوب الناس للتوصل الى مقاصد سوى الرياسة وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يؤمنون به خيفة من أن تبطل رياستهم واستتباعهم مهما نسخ علمهم (السبب السابع) خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى فانك تجد من لا يشتغل برياسة وتكبر ولا طلب مال اذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم الله به عليه يشق ذلك عليه واذا وصف له اضطراب أمور الناس وادبارهم وفوات مقاصدهم وتنغص عيشهم فرح به فهو أبدا يحب الادبار لغيره ويبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته ويقال البخيل من يبخل بمال نفسه والشحيح هو الذى يبخل بمال غيره فهذا يبخل بنعمة الله تعالى على عباده الذين ليس بينه وبينهم عداوة ولا رابطة وهذا ليس له سبب ظاهر الا الخبث فى النفس ورذالة فى الطبع عليه وقعت الجبلة ومعالجته شديدة لان الحسد الثابت بسائر الاسباب أسبابه عارضة يتصور زوالها فيطمع فى ازالتها وهذا خبث فى الجبلة لا عن سبب عارض فتعسر ازالته اذ يستحيل فى العادة ازالته فهذه هى أسباب الحسد وقد يجتمع بعض هذه الاسباب أو أكثرها أو جميعها فى شخص واحد فيعظم فيه الحسد بذلك ويقوى قوة لا يقدر معها على الاخفاء والمجاملة بل ينهتك حجاب المجاملة وتظهر العداوة بالمكاشفة وأكثر المحاسدات تجتمع فيها جملة من هذه الاسباب وقلما يتجرد سبب واحد منها

(بيان السبب فى كثرة الحسد بين الامثال والاقران والاخوة وبنى العم والاقارب وتأكده وقلته فى غيرهم وضعفه)

اعلم أن الحسد انما يكثر بين قوم تكثر بينهم الاسباب التى ذكرناها وانما يقوى بين قوم تجتمع جملة من هذه الاسباب فيهم وتتظاهر اذ الشخص الواحد يجوز أن يحسد لانه قد يمتنع عن قبول التكبر ولانه يتكبر ولانه عدو ولغير ذلك من الاسباب وهذه الاسباب انما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط يجتمعون بسببها فى مجالس المخاطبات ويتواردون على الاغراض فاذا خالف واحد منهم صاحبه فى غرض من الاغراض نفر طبعه عنه وأبغضه وثبت الحقد فى قلبه فعند ذلك يريد أن يستحقره ويتكبر عليه ويكافئه على مخالفته لغرضه ويكره تمكنه من النعمة التى توصله الى أغراضه وتترادف جملة من هذه الاسباب اذ لا رابطة بين شخصين فى بلدتين متنائيتين فلا يكون بينهما محاسدة وكذلك فى محلتين نعم اذا تجاور رافى مسكن أو سوق أو مدرسة أو مسجد تواردا على مقاصد تتناقض فيها أغراضهما فيثور من التناقض التنافر والتباغض ومنه تثور بقية أسباب الحسد ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد والعابد يحسد العابد دون العالم والتاجر يحسد التاجر بل الاسكاف يحسد الاسكاف ولا يحسد البزاز الا بسبب آخر سوى الاجتماع فى الحرفة ويحسد الرجل أخاه وابن عمه أكثر مما يحسد الاجانب والمرأة تحسد ضرتها وسرية زوجها أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته لان مقصد البزاز غير مقصد الاسكاف فلا يتزاحمون على المقاصد اذ مقصد البزاز الثروة ولا يحصلها الا بكثرة الزبون وانما ينازعه فيه بزاز آخر اذ حريف البزاز لا يطلبه الاسكاف بل البزاز ثم مزاحمة البزاز المجاور له أكثر من مزاحمة البعيد عنه الى طرف السوق فلا جرم يكون حسده

محتاج فاذا دعا بكليته أجابه مولاه لانه وعده فقال ادعونى أستجب لكم كان خالد الربعى يقول عجبت لهذه الآية ادعونى أستجب لكم أمرهم بالدعاء ووعدهم بالاجابة ليس بينهما شرط والاستجابة والاجابة هى نفوذ دعاء العبد فان الداعى الصادق العالم بمن يدعوه بنور يقينه فتخرق الحجب وتقف الدعوة بين يدى الله تعالى متقاضية للحاجة وخص الله تعالى هذه الامة بانزال فاتحة الكتاب وفيها تقديم الثناء على الدعاء ليكون أسرع الى الاجابة وهى تعليم الله تعالى عباده كيفية الدعاء وفاتحة الكتاب هى السبع المثانى والقرآن العظيم قيل سميت مثانى لانها نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بكل مرة

للعار أكثر وكذلك الشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد العالم لان مقصده أن يذكر بالشجاعة ويشتهر بها وينفرد
بهذه الخصلة ولا يزاحمه العالم على هذا الغرض وكذلك يحسد العالم العالم ولا يحسد الشجاع ثم حسد الواعظ
للواعظ أكثر من حسده للفقيه والطبيب لان التزاحم بينهما على مقصود واحد أخص فأصل هذه المحاسدات
العداوة وأصل العداوة التزاحم بينهما على غرض واحد والغرض الواحد لا يجمع متباعدين بل متناسبين
فلذلك يكثر الحسد بينهما نعم من اشتد حرصه على الجاه وأحب الصيت في جميع أطراف العالم بما هو فيه فانه
يحسد كل من هو في العالم وان بعد ممن يساهمه في الخصلة التي يتفاخر بها ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا فان الدنيا
هي التي تضيق على المتزاحمين أما الآخرة فلا ضيق فيها وانما مثال الآخرة نعمة العلم فلا جرم من يحب معرفة
الله تعالى ومعرفة صفاته وملائكته وأنبيائه وملكوت سمواته وأرضه لم يحسد غيره اذا عرف ذلك أيضا لان
المعرفة لا تضيق على العارفين بل المعلوم الواحد يعلمه ألف ألف عالم ويفرح بمعرفته ويلتذ به ولا تنقص لذة واحد
بسبب غيره بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الانس وثمرة الافادة والاستفادة فلذلك لا يكون بين علماء الدين
محاسدة لان مقصدهم معرفة الله تعالى وهي بحر واسع لا ضيق فيه وغرضهم المنزلة عند الله تعالى ولا ضيق أيضا
فيما عند الله تعالى لان أجل ما عند الله سبحانه من النعيم لذة لقائه وليس فيها ممانعة ومزاحمة ولا يضيق بعض
الناظرين على بعض بل يزيد الانس بكثرتهم نعم اذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا لان المال أعيان
وأجسام اذا وقعت في يد واحد خلت عنها يد الآخر ومعنى الجاه ملك القلوب ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم
عالم انصرف عن تعظيم الآخر أو نقص عنه لا محالة فيكون ذلك سببا للمحاسدة واذا امتلأ قلب بالفرح بمعرفة
الله تعالى لم يمنع ذلك أن يمتلئ قلب غيره بها وان يفرح بذلك والفرق بين العلم والمال أن المال لا يحل في يد ما لم
يرتحل عن اليد الأخرى والعلم في قلب العالم مستقر ويحل في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل من قلبه والمال
أجسام وأعيان ولها نهاية فلو ملك الانسان جميع ما في الارض لم يبق بعده مال يتملكه غيره والعلم لا نهاية له ولا
يتصور استيعابه فمن عود نفسه الفكر في جلال الله وعظمته وملكوت أرضه وسمائه صار ذلك ألذ عنده من كل
نعيم ولم يكن ممنوعا منه ولا مزاحما فيه فلا يكون في قلبه حسد لاحد من الخلق لان غيره أيضا لو عرف مثل معرفته لم
ينقص من لذته بل زادت لذته بمؤانسته فتكون لذة هؤلاء في مطالعة عجائب الملكوت على الدوام أعظم من لذة
من ينظر الى أشجار الجنة وبساتينها بالعين الظاهرة فان نعيم العارف وجنته معرفته التي هي صفة ذاته يأمن
زوالها وهو أبدا يجني ثمارها فهو بروحه وقلبه مغتذ بفاكهة علمه وهي فاكهة غير مقطوعة ولا ممنوعة بل قطوفها
دانية فهو وان غمض العين الظاهرة فروحه أبدا ترتع في جنة عالية ورياض زاهرة فان فرض كثرة في العارفين لم
يكونوا متحاسدين بل كانوا كما قال فيهم رب العالمين ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين فهذا
حالهم وهم بعد في الدنيا فماذا يظن بهم عند انكشاف الغطاء ومشاهدة المحبوب في العقبى فاذا لا يتصور أن يكون
في الجنة محاسدة ولا أن يكون بين أهل الجنة في الدنيا محاسدة لان الجنة لا مضايقة فيها ولا مزاحمة ولا تنال الا بمعرفة
الله تعالى التي لا مزاحمة فيها في الدنيا أيضا فأهل الجنة بالضرورة برآء من الحسد في الدنيا والآخرة جميعا بل
الحسد من صفات المبعدين عن سعة عليين الى مضيق سجين ولذلك وسم به الشيطان اللعين وذكر من صفاته انه
حسد آدم عليه السلام على ما خص به من الاجتباء ولما دعي الى السجود استكبر وأبى وتمرد وعصى فقد عرفت
انه لا حسد الا للتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل ولهذا لا ترى الناس يتحاسدون على النظر الى زينة
السماء ويتحاسدون على رؤية البساتين التي هي جزء يسير من جملة الارض وكل الارض لا وزن لها بالاضافة الى
السماء ولكن السماء لسعة الاقطار وافية بجميع الابصار فلم يكن فيها تزاحم ولا تحاسد أصلا فعليك ان كنت
بصيرا وعلى نفسك مشفقا أن تطلب نعمة لا زحمة فيها ولذة لا كدر لها ولا يوجد ذلك في الدنيا الا في معرفة الله
عز وجل ومعرفة صفاته وأفعاله وعجائب ملكوت السموات والارض ولا ينال ذلك في الآخرة الا بهذه المعرفة
أيضا فان كنت لا تشتاق الى معرفة الله تعالى ولم تجد لذتها وفتر عنك رأيك وضعفت فيها رغبتك فأنت في ذلك
معذور اذ العنين لا يشتاق الى لذة الوقاع والصبي لا يشتاق الى لذة الملك فان هذه لذات يختص بادراكها الرجال

نزلت منها فهم آخر بل
كان لرسول الله صلى الله
عليه وسلم بكل مرة
يقرؤها على الترداد
مع طول الزمان فهم
آخر وهكذا المصلون
المحققون من أمته
ينكشف لهم عجائب
أسرارها وتقذف لهم
كل مرة درر بحارها
وقيل سميت مثاني لانها
استثنيت من الرسل وهي
سبع آيات وروت أم
رومان قالت رآني أبو
بكر وأنا أتميل في الصلاة
فزجرني زجرا كدت أن
أنصرف عن صلاتي
ثم قال سمعت رسول
الله صلى الله عليه
وسلم يقول اذا قام
أحدكم الى الصلاة
فليسكن أطرافه لا يتميل
تميل اليهود فان سكون
الاطراف من تمام
الصلاة وقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم
تعوذوا بالله من خشوع
النفاق قيل وما خشوع
النفاق قال خشوع
البدن ونفاق القلب

ذون الصبيان والمخنثين فكذلك لذة المعرفة تختص بادراكها الرجال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ولا يشتاق الى هذه اللذة غيرهم لان الشوق بعد الذوق ومن لم يذق لم يعرف ومن لم يعرف لم يشتق ومن لم يشتق لم يطلب ومن لم يطلب لم يدرك ومن لم يدرك بقي مع المحرومين في أسفل السافلين ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين

(بيان الدواء الذي ينفي مرض الحسد عن القلب)

اعلم أن الحسد من الامراض العظيمة للقلوب ولا تداوى أمراض القلوب الا بالعلم والعمل والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقا أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين وانه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين بل ينتفع به فيهما ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك فارقت الحسد لا محالة أما كونه ضررا عليك في الدين فهو انك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكمته فاستنكرت ذلك واستبشعته وهذه جناية على حدقة التوحيد وقذى في عين الايمان وناهيك بهما جناية على الدين وقد انضاف الى ذلك انك غششت رجلا من المؤمنين وتركت نصيحته وفارقت أولياء الله وأنبياءه في حبهم الخير لعباده تعالى وشاركت ابليس وسائر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم وهذه خبائث في القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب وتمحوها كما يمحو الليل النهار وأما كونه ضررا عليك في الدنيا فهو انك تتألم بحسدك في الدنيا أو تتعذب به ولا تزال في كمد وغم اذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم فتبقى مغموما محروما متشعب القلب ضيق الصدر قد نزل بك ما يشتهيه الاعداء لك وتشتهيه لاعدائك فقد كنت تريد المحنة لعدوك فتنجزت في الحال محنتك وغمك نقدا ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضى الفطنة ان كنت عاقلا أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومساءته مع عدم النفع فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة فما أعجب من العاقل كيف يتعرض لسخط الله تعالى من غير نفع يناله بل مع ضرر يحتمله وألم يقاسيه فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة وأما انه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح لان النعمة لا تزول عنه بحسدك بل ما قدره الله تعالى من اقبال ونعمة فلابد أن يدوم الى أجل معلوم قدره الله سبحانه فلا حيلة في دفعه بل كل شيء عنده بمقدار ولكل أجل كتاب ولذلك شكا نبي من الانبياء من امرأة ظالمة مستولية على الخلق فاوحى الله اليه فر من قدامها حتى تنقضي أيامها أي ما قدرناه في الازل لا سبيل الى تغييره فاصبر حتى تنقضي المدة التي سبق القضاء بدوام اقبالها فيها ومهما لم تزل النعمة بالحسد لم يكن على المحسود ضرر في الدنيا ولا يكون عليه اثم في الآخرة ولعلك تقول ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدي وهذا غاية الجهل فانه بلاء تشتهيه أولا لنفسك فانك أيضا لا تخلو عن عدو يحسدك فلو كانت النعمة تزول بالحسد لم يبق لله تعالى عليك نعمة ولا على أحد من الخلق ولا نعمة الايمان أيضا لان الكفار يحسدون المؤمنين على الايمان قال الله تعالى ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم اذ ما يريده الحسود لا يكون نعم هو يضل بارادته الضلال لغيره فان ارادة الكفر كفر فمن اشتهى أن تزول النعمة عن المحسود بالحسد فكأنما يريد أن يسلب نعمة الايمان بحسد الكفار وكذا سائر النعم وان اشتهيت أن تزول النعمة عن الخلق بحسدك ولا تزول عنك بحسد غيرك فهذا غاية الجهل والغباوة فان كل واحد من حمقى الحساد أيضا يشتهي أن يخص بهذه الخاصية ولست باولى من غيرك فنعمة الله تعالى عليك في أن لم تزل النعمة بالحسد مما يجب عليك شكرها وأنت بجهلك تكرهها وأما ان المحسود ينتفع به في الدين والدنيا فواضح أما منفعته في الدين فهو انه مظلوم من جهتك لا سيما اذا أخرجك الحسد الى القول والفعل بالغيبة والقدح فيه وهتك ستره وذكر مساويه فهذه هدايا تهديها اليه أعني انك بذلك تهدي اليه حسناتك حتى تلقاه يوم القيامة مفلسا محروما عن النعمة كما حرمت في الدنيا عن النعمة فكأنك أردت زوال النعمة عنه فلم تزل نعم كان لله عليه نعمة اذ وفقك للحسنات فنقلتها اليه فاضفت اليه نعمة الى نعمة وأضفت الى نفسك شقاوة الى شقاوة وأما منفعته في الدنيا فهو أن أهم أغراض الخلق مساءة الاعداء وغمهم وشقاوتهم وكونهم معذبين

فاما غسيل اليهود قيل كان موسى يعامل بني اسرائيل على ظاهر الامور لقلة ما في باطنهم فكان يهيئ الامور ويعظمها ولهذا المعنى أوحى الله تعالى اليه ان يحلي التوراة بالذهب ووقع لي والله أعلم ان موسى كان يرد عليه الوارد في صلاته ومحال مناجاته فيموج به باطنه كبحر ساكن تهب عليه الريح فتتلاطم الامواج فكان تمايل موسى عليه السلام تلاطم أمواج بحر القلب اذا هب عليه نسمات الفضل وربما كانت الروح تتطلع الى الحضرة الالهية فتهم بالاستعلاء وللقالب بها تشبك وامتزاج فيضطرب القالب ويتمايل فرأى اليهود ظاهره فتمايلوا من غير حظ لبواطنهم من ذلك ولهذا المعنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انكارا على أهل الوسوسة

مغموبين ولاعذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد وغاية أماني أعدائك أن يكونوا في نعمة وأن تكون في غم وحسرة بسببهم وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم ولذلك يشتهي عدوك موتك بل يشتهي أن تطول حياتك ولكن في عذاب الحسد لتنظر الى نعمة الله عليه فينقطع قلبك حسدا ولذلك قيل

لامات أعداؤك بل خلدوا * حتى يروا فيك الذي يكمد
لازلت محسودا على نعمة * فانما الكامل من يحسد

ففرح عدوك بغمك وحسدك أعظم من فرحه بنعمته ولو علم خلاصك من ألم الحسد وعذابه لكان ذلك أعظم مصيبة وبلية عنده فما أنت فيما تلازمه من غم الحسد الا كما يشتهيه عدوك فاذا اذا تأملت هذا عرفت انك عدو نفسك وصديق عدوك اذ تعاطيت ما تضررت به في الدنيا والآخرة وانتفع به عدوك في الدنيا والآخرة وصرت مذموما عند الخالق والخلائق شقيا في الحال والمآل ونعمة المحسود دائمة شئت أم أبيت باقية ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوك حتى وصلت الى ادخال أعظم سرور على ابليس الذي هو أعدى أعدائك لانه لما رآك محروما من نعمة العلم والورع والجاه والمال الذي اختص به عدوك عنك خاف ان تحب ذلك له فتشاركه في الثواب بسبب المحبة لان من أحب الخير للمسلمين كان شريكا في الخير ومن فاته اللحاق بدرجة الاكابر في الدين لم يفته ثواب الحب لهم مهما أحب ذلك فخاف ابليس ان تحب ما أنعم الله به على عبده من صلاح دينه ودنياه فتفوز بثواب الحب فبغضه اليك حتى لا تلحقه بحبك كما لم تلحقه بعملك وقد قال اعرابي للنبي صلى الله عليه وسلم يارسول الله الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب وقام اعرابي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فقال يارسول الله متى الساعة فقال ما أعددت لها قال ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام الا أني أحب الله ورسوله فقال صلى الله عليه وسلم أنت مع من أحببت قال أنس فما فرح المسلمون بعد اسلامهم كفرحهم يومئذ اشارة الى ان أكبر بغيتهم كانت حب الله ورسوله قال أنس فنحن نحب رسول الله وأبا بكر وعمر ولا نعمل مثل عملهم ونرجو أن نكون معهم وقال أبو موسى قلت يارسول الله الرجل يحب المصلين ولا يصلي ويحب الصوام ولا يصوم حتى عد أشياء فقال النبي صلى الله عليه وسلم هو مع من أحب وقال رجل لعمر بن عبد العزيز انه كان يقال ان استطعت أن تكون عالما فكن عالما فان لم تستطع أن تكون عالما فكن متعلما فان لم تستطع أن تكون متعلما فأحبهم فان لم تستطع فلا تبغضهم فقال سبحان الله لقد جعل الله لنا مخرجا فانظر الآن كيف حسدك ابليس ففوت عليك ثواب الحب ثم لم يقنع به حتى بغض اليك أخاك وحملك على الكراهة حتى أثمت وكيف لا وعساك تحاسد رجلا من أهل العلم وتحب أن يخطئ في دين الله تعالى وينكشف خطؤه ليفتضح وتحب أن يخرس لسانه حتى لا يتكلم أو يمرض حتى لا يعلم ولا يتعلم وأي اثم يزيد على ذلك فليتك اذ فاتك اللحاق به ثم اغتممت بسببه سلمت من الاثم وعذاب الآخرة وقد جاء في الحديث أهل الجنة ثلاثة المحسن والمحب له والكاف عنه أي من يكف عنه الاذى والحسد والبغض والكراهة فانظر كيف أبعدك ابليس عن جميع المداخل الثلاثة حتى لا تكون من أهل واحد منها البتة فقد نفذ فيك حسد ابليس وما نفذ حسدك في عدوك بل على نفسك بل لو كشفت بحالك في يقظة أو منام لرأيت نفسك أيها الحاسد في صورة من يرمي سهما الى عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه بل يرجع الى حدقته اليمنى فيقلعها فيزيد غضبه فيعود ثانية فيرمي أشد من الاولى فيرجع الى عينه الاخرى فيعميها فيزداد غيظه فيعود ثالثة فيعود على رأسه فيشجه وعدوه سالم في كل حال وهو اليه راجع مرة بعد أخرى وأعداؤه حوله يفرحون به ويضحكون عليه وهذا حال الحسود وسخرية الشيطان منه بل حالك في الحسد أقبح من هذا لان الرمية العائدة لم تفوت الا العينين ولو بقيتا لفاتتا بالموت لامحالة والحسد يعود بالاثم والاثم لا يفوت بالموت ولعله يسوقه الى غضب الله والى النار فلأن تذهب عينه في الدنيا خير له من ان تبقى له عين يدخل بها النار فيقلعها لهيب النار فانظر كيف انتقم الله من الحاسد اذ أراد زوال النعمة عن المحسود فلم يزلها عنه ثم أزالها عن الحاسد اذ السلامة من الاثم نعمة والسلامة من الغم والكمد نعمة وقد زالتا عنه تصديقا لقوله تعالى ولا يحيق المكر السيء الا بأهله وربما يبتلى بعين ما يشتهيه لعدوه وقلما يشمت شامت بمساءة الا ويبتلى بمثلها حتى قالت عائشة رضي الله عنها

هكذا خرجت عظمة الله من قلوب بني اسرائيل حتى شهدت أبدانهم وغابت قلوبهم لا يقبل الله صلاة امرئ لا يشهد فيها قلبه كما يشهد بدنه وان الرجل على صلاته دائم ولا يكتب له عشرها اذا كان قلبه ساهيا لاهيا واعلم أن الله تعالى أوجب الصلوات الخمس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة عماد الدين فمن ترك الصلاة فقد كفر فبالصلاة تحقيق العبودية واداء حق الربوبية وسائر العبادات وسائل الى تحقيق سر الصلاة قال سهل بن عبد الله يحتاج العبد الى السنن الرواتب لتكميل الفرائض ويحتاج الى النوافل لتكميل السنن ويحتاج الى الآداب لتكميل النوافل ومن الادب ترك الدنيا والذي ذكره سهل هو معنى ما قال عمر على المنبر ان الرجل

ما تمنيت لعثمان شيأ الا نزل بى حتى لو تمنيت له القتل لقتلت فهذا اثم الحسد نفسه فكيف ما يجر اليه الحسد من الاختلاف وجحود الحق واطلاق اللسان واليد بالفواحش فى التشفى من الاعداء وهو الداء الذى فيه هلك الامم السالفة فهذه هى الادوية العلمية فهما تفكر الانسان فيها بذهن صاف وقلب حاضر انطفأت نار الحسد من قلبه وعلم انه مهلك نفسه ومفرح عدوه ومسخط ربه ومنغص عيشه * وأما العمل النافع فيه فهو أن يحكم الحسد فكل ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغى أن يكلف نفسه نقيضه فان بعثه الحسد على القدح فى محسوده كلف لسانه المدح له والثناء عليه وان حمله على التكبر عليه ألزم نفسه التواضع له والاعتذار اليه وان بعثه على كف الانعام عليه ألزم نفسه الزيادة فى الانعام عليه فهما فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسود طاب قلبه وأحبه ومهما ظهر حبه عاد الحاسد فاحبه وتولد من ذلك الموافقة التى تقطع مادة الحسد لأن التواضع والثناء والمدح واظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المنعم عليه ويسترقه ويستعطفه ويحمله على مقابلة ذلك بالاحسان ثم ذلك الاحسان يعود الى الاول فيطيب قلبه ويصير ما تكلفه أولا طبعا آخرا ولا يصدنه عن ذلك قول الشيطان له لو تواضعت وأثنيت عليه حملك العدو على العجز أو على النفاق أو الخوف وان ذلك مذلة ومهانة وذلك من خدع الشيطان ومكايده بل المجاملة تكلفا كانت أو طبعا تكسر سورة العداوة من الجانبين وتقل مرغوبها وتعود القلوب التآلف والتحاب وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباغض فهذه هى أدوية الحسد وهى نافعة جدا الا انها مرة على القلوب جدا ولكن النفع فى الدواء المر فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء وانما تهون مرارة هذا الدواء أعنى التواضع للاعداء والتقرب اليهم بالمدح والثناء بقوة العلم بالمعانى التى ذكرناها وقوة الرغبة فى ثواب الرضا بقضاء الله تعالى وحب ما أحبه وعزة النفس وترفعها عن أن يكون فى العالم شئ على خلاف مرادها جهل وعند ذلك يريد ما لا يكون اذ لا مطمع فى أن يكون ما يريد وفوات المراد ذل وخسة ولا طريق الى الخلاص من هذا الذل الا بأحد أمرين اما بأن يكون ما تريد أو بأن تريد ما يكون والاول ليس اليك ولا مدخل للتكلف والمجاهدة فيه وأما الثانى فللمجاهدة فيه مدخل وتحصيله بالرياضة ممكن فيجب تحصيله على كل عاقل هذا هو الدواء الكلى فاما الدواء المفصل فهو تتبع أسباب الحسد من الكبر وغيره وعزة النفس وشدة الحرص على ما لا يغنى وسيأتى تفصيل مداواة هذه الاسباب فى مواضعها ان شاء الله تعالى فانها مواد هذا المرض ولا ينقمع المرض الا بقمع المادة فان لم تقمع المادة لم يحصل بما ذكرناه الا تسكين وتطفئة ولا يزال يعود مرة بعد أخرى ويطول الجهد فى تسكينه مع بقاء مواده فانه ما دام محبا للجاه فلا بد وأن يحسد من استأثر بالجاه والمنزلة فى قلوب الناس دونه ويغمه ذلك لا محالة وانما غايته أن يهون الغم على نفسه ولا يظهر بلسانه ويده فاما الخلو عنه رأسا فلا يمكنه والله الموفق

(بيان القدر الواجب فى نفى الحسد عن القلب)

اعلم أن المؤذى ممقوت بالطبع ومن آذاك فلا يمكنك أن لا تبغضه غالبا فاذا تيسرت له نعمة فلا يمكنك أن لا تكرهها له حتى يستوى عندك حسن حال عدوك وسوء حاله بل لا تزال تدرك فى النفس بينهما تفرقة ولا يزال الشيطان ينازعك الى الحسد له ولكن ان قوى ذلك فيك حتى بعثك على اظهار الحسد بقول أو فعل بحيث يعرف ذلك من ظاهرك بافعالك الاختيارية فانت حسود عاص بحسدك وان كففت ظاهرك بالكلية الا انك بباطنك تحب زوال النعمة وليس فى نفسك كراهة لهذه الحالة فانت أيضا حسود عاص لان الحسد صفة القلب لا صفة الفعل قال الله تعالى ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا وقال عز وجل ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء وقال ان تمسسكم حسنة تسؤهم أما الفعل فهو غيبة وكذب وهو عمل صادر عن الحسد وليس هو عين الحسد بل محل الحسد القلب دون الجوارح نعم هذا الحسد ليس مظلمة يجب الاستحلال منها بل هو معصية بينك وبين الله تعالى وانما يجب الاستحلال من الاسباب الظاهرة على الجوارح فاما اذا كففت ظاهرك وألزمت مع ذلك قلبك كراهة ما يترشح منه بالطبع من حب زوال النعمة حتى كأنك تمقت نفسك على ما فى طبعها فتكون تلك الكراهة من جهة العقل فى مقابلة الميل من جهة الطبع فقد أديت الواجب عليك ولا يدخل تحت اختيارك فى أغلب الاحوال أكثر من هذا فاما تغيير الطبع ليستوى عنده المؤذى والمحسن ويكون فرحه أو غمه بما تيسر

ليشيب عارضاه فى الاسلام وما أكمل لله صلاة قيل وكيف ذلك قال لا يتم خشوعها وتواضعها واقباله على الله فيها وقد ورد فى الاخبار ان العبد اذا قام الى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه الكريم وقامت الملائكة من لدن منكبيه الى الهواء يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه وان المصلى لينتثر عليه البر من عنان السماء الى مفرق رأسه ويناديه مناد لو علم المصلى من يناجى ما التفت أو ما انفتل وقد جمع الله تعالى للمصلين فى كل ركعة ما فرق على أهل السموات فلله ملائكة فى الركوع منذ خلقهم الله لا يرفعون من الركوع الى يوم القيامة وهكذا فى السجود والقيام والقعود والعبد المتيقظ يتصف فى ركوعه بصفة

لهما من نعمة أو تنصب عليهما من بلية سواء فهذا مما لا يطاوع الطبع عليه ما دام ملتفتا الى حظوظ الدنيا الا أن يصير مستغرقا بحب الله تعالى مثل السكران الواله فقد ينتهي أمره الى أن لا يلتفت قلبه الى تفاصيل أحوال العباد بل ينظر الى الكل بعين واحدة وهي عين الرحمة ويرى الكل عباد الله وأفعالهم أفعالا لله ويراهم مسخرين وذلك ان كان فهو كالبرق الخاطف لا يدوم ثم يرجع القلب بعد ذلك الى طبعه ويعود العدو الى منازعته أعني الشيطان فانه ينازع بالوسوسة فهما قابل ذلك بكراهته وألزم قلبه هذه الحالة فقد أدى ما كلفه وقد ذهب ذاهبون الى أنه لا يأثم اذا لم يظهر الحسد على جوارحه لما روى عن الحسن انه سئل عن الحسد فقال غمه فانه لا يضرك مالم تبده وروى عنه موقوفا ومرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ثلاثة لا يخلو منهن المؤمن وله منهن مخرج فمخرجه من الحسد أن لا يبغي والاولى أن يحمل هذا على ماذكرناه من أن يكون فيه كراهة من جهة الدين والعقل في مقابلة حب الطبع لزوال نعمة العدو وتلك الكراهة تمنعه من البغي والايذاء فان جميع ماورد من الاخبار في ذم الحسد يدل ظاهره على أن كل حاسد آثم ثم الحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الافعال فكل من يحب اساءة مسلم فهو حاسد فاذا كونه آثما بمجرد حسد القلب من غير فعل هو في محل الاجتهاد والاظهر ماذكرنا من حيث ظواهر الآيات والاخبار ومن حيث المعنى اذ يبعد أن يعفى عن العبد في ارادته اساءة مسلم واشتماله بالقلب على ذلك من غير كراهة وقد عرفت من هذا أن لك في أعدائك ثلاثة أحوال أحدها أن تحب مساءتهم بطبعك وتكره حبك لذلك وميل قلبك اليه بعقلك وتمقت نفسك عليه وتود لو كانت لك حيلة في ازالة ذلك الميل منك وهذا معفو عنه قطعا لانه لا يدخل تحت الاختيار أكثر منه * الثاني أن تحب ذلك وتظهر الفرح بمساءته اما بلسانك أو بجوارحك فهذا هو الحسد المحظور قطعا * الثالث وهو بين الطرفين أن تحسد بالقلب من غير مقت لنفسك على حسدك ومن غير انكار منك على قلبك ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد في مقتضاه وهذا في محل الخلاف والظاهر أنه لا يخلو عن اثم بقدر قوة ذلك الحب وضعفه والله تعالى أعلم والحمد لله رب العالمين وحسبنا الله ونعم الوكيل

(كتاب ذم الدنيا وهو الكتاب السادس من ربع المهلكات من كتب احياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي عرف أولياءه غوائل الدنيا وآفاتها * وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها حتى نظروا في شواهدها وآياتها ووزنوا بحسناتها سيآتها فعلموا أنه يزيد منكرها على معروفها ولا يفي مرجوها بمخوفها ولا يسلم طلوعها من كسوفها ولكنها في صورة امرأة مليحة تستميل الناس بجمالها ولها أسرار سوء قبائح تهلك الراغبين في وصالها ثم هي فرارة عن طلابها شحيحة باقبالها واذا أقبلت لم يؤمن شرها ووبالها ان أحسنت ساعة أساءت سنة وان أساءت مرة جعلتها سنة فدوائر اقبالها على التقارب دائرة وتجارة بنيها خاسرة بائرة وآفاتها على التوالي لصدور طلابها راشقة ومجاري أحوالها بذل طالبيها ناطقة فكل مغرور بها الى الذل مصيره وكل متكبر بها الى التحسر مسيره شأنها الهرب من طالبها والطلب لهاربها ومن خدمها فاتته ومن أعرض عنها واتته لا يخلو صفوها عن شوائب الكدورات ولا ينفك سرورها عن المنغصات سلامتها تعقب السقم وشبابها يسوق الى الهرم ونعيمها لا يثمر الا الحسرة والندم فهي خداعة مكارة طيارة فرارة لا تزال تتزين لطلابها حتى اذا صاروا من أحبابها كشرت لهم عن أنيابها وشوشت عليهم مناظم أسبابها وكشفت لهم عن مكنون عجائبها فأذاقتهم قواتل سمامها ورشقتهم بصوائب سهامها بينما أصحابها منها في سرور وانعام اذ ولت عنهم كأنها أضغاث أحلام ثم عكرت عليهم بدواهيها فطحنتهم طحن الحصيد ووارتهم في أكفانهم تحت الصعيد ان ملكت واحدا منهم جميع ماطلعت عليه الشمس جعلته حصيدا كأن لم يغن بالامس تمنى أصحابها سرورا وتعدهم غرورا حتى يأملون كثيرا ويبنون قصورا فتصبح قصورهم قبورا وجمعهم بورا وسعيهم هباء منثورا ودعاؤهم ثبورا هذه صفتها وكان أمر الله قدرا مقدورا والصلاة على محمد عبده ورسوله المرسل الى العالمين بشيرا ونذيرا وسراجا منيرا وعلى من كان من أهله وأصحابه له في الدين ظهيرا وعلى الظالمين نصيرا وسلم تسليما كثيرا (أما بعد) فان الدنيا عدوة لله وعدوة لاولياء الله وعدوة لاعداء الله أما عداوتها لله فانها

الراكعين منهم وفي السجود بصفة الساجدين وفي كل هيئة هكذا يكون كالواحد منهم وبينهم وفي غير الفريضة ينبغي للمصلي أن يمكث في ركوعه متلذذا بالركوع غير مهتم بالرفع منه فان طرقته سآمة بحكم الجبلة استغفر منها واستديم تلك الهيئة ويتطلع أن يذوق الخشوع اللائق بهذه الهيئة ليصير قلبه بلون الهيئة وربما يتراءى للراكع المحق أنه ان سبق همه في حال الركوع أو السجود الى الرفع منه ما وفى الهيئة حقها فيكون همه الهيئة مستغرقا فيها مشغولا بها عن غيرها من الهيآت فبذلك يتوفر حظه من بركة كل هيئة فان السرعة التي يتقاضى بها الطبع تسد باب الفتوح ويقف في مهاب النفحات الالهية حتى يتكامل حظ العبد فتنمحي

قطعت الطريق على عباد الله ولذلك لم ينظر الله اليها منذ خلقها وأما عداوتها لاولياء الله عز وجل فانها تزينت
لهم بزينتها وعمتهم بزهرتها ونضارتها حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها وأما عداوتها لاعداء الله فانها
استدرجتهم بمكرها وكيدها فاقتنصتهم بشبكتها حتى وثقوا بها وعولوا عليها فخذلتهم أحوج ما كانوا اليها فاجتنوا
منها حسرة تتقطع دونها الاكباد ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد فهم على فراقها يتحسرون ومن مكايدها
يستغيثون ولا يغاثون بل يقال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة
فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون واذا عظمت غوائل الدنيا وشرورها فلا بد أولا من معرفة حقيقة
الدنيا وما هي وما الحكمة في خلقها مع عداوتها وما مدخل غرورها وشرورها فان من لا يعرف الشر لا يتقيه
ويوشك أن يقع فيه ونحن نذكر ذم الدنيا وأمثلتها وحقيقتها وتفصيل معانيها وأصناف الاشغال المتعلقة بها
ووجه الحاجة الى أصولها وسبب انصراف الخلق عن الله بسبب التشاغل بفضولها ان شاء الله تعالى وهو المعين
على ما يرتضيه

(بيان ذم الدنيا)

الآيات الواردة في ذم الدنيا وأمثلتها كثيرة وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ودعوتهم الى
الآخرة بل هو مقصود الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يبعثوا الا لذلك فلا حاجة الى الاستشهاد بآيات القرآن
لظهورها وانما نورد بعض الاخبار الواردة فيها فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على شاة ميتة فقال
أترون هذه الشاة هينة على أهلها قالوا من هوانها ألقوها قال والذى نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه
الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء وقال صلى الله عليه وسلم
الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا ملعونة ملعون ما فيها الا ما كان لله منها
وقال أبو موسى الاشعري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر
بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى وقال صلى الله عليه وسلم حب الدنيا رأس كل خطيئة وقال زيد بن أرقم كنا مع
أبي بكر الصديق رضي الله عنه فدعا بشراب فأتى بماء وعسل فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه وسكتوا وما
سكت ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لا يقدرون على مسألته قال ثم مسح عينيه فقالوا يا خليفة رسول الله ما أبكاك قال
كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيته يدفع عن نفسه شيأ ولم أر معه أحدا فقلت يا رسول الله ما الذى تدفع
عن نفسك قال هذه الدنيا مثلت لي فقلت لها اليك عني ثم رجعت فقالت انك ان أفلت مني لم يفلت مني من بعدك
وقال صلى الله عليه وسلم يا عجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور وروى أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم وقف على مزبلة فقال هلموا الى الدنيا وأخذ خرقا قد بليت على تلك المزبلة وعظاما قد نخرت فقال هذه
الدنيا وهذه اشارة الى أن زينة الدنيا ستخلق مثل تلك الخرق وأن الاجسام التى ترى بها ستصير عظاما بالية وقال
صلى الله عليه وسلم ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ان بني اسرائيل لما بسطت
لهم الدنيا ومهدت تاهوا في الحلية والنساء والطيب والثياب وقال عيسى عليه السلام لا تتخذوا الدنيا ربا فتتخذكم
عبيدا اكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه فان صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة وصاحب كنز الله لا يخاف عليه
الآفة وقال عليه أفضل الصلاة والسلام يا معشر الحواريين انى قد كببت لكم الدنيا على وجهها فلا تنعشوها
بعدى فان من خبث الدنيا أن عصى الله فيها وان من خبث الدنيا ان الآخرة لا تدرك الا بتركها الا فاعبروا الدنيا
ولا تعمروها واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا ورب شهوة ساعة أورثت أهلها حزنا طويلا وقال أيضا بطحت
لكم الدنيا وجلستم على ظهرها فلا ينازعنكم فيها الملوك والنساء فاما الملوك فلا تنازعوهم الدنيا فانهم لن يعرضوا
لكم ما تركتموهم ودنياهم وأما النساء فاتقوهن بالصوم والصلاة وقال أيضا الدنيا طالبة ومطلوبة فطالب
الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجيء الموت فيأخذ بعنقه وقال
موسى بن يسار قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل لم يخلق خلقا أبغض اليه من الدنيا وانه منذ خلقها لم
ينظر اليها وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام مر في موكبه والطير تظله والجن والانس عن يمينه وشماله قال
فمر بعابد من بني اسرائيل فقال والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكا عظيما قال فسمع سليمان وقال لتسبيحة في صحيفة

آثاره بحسن الاسترسال ويستقر في مقعد الوصال (وقيل) في الصلاة أربع هيآت وستة أذكار فالهيآت الاربع القيام والقعود والركوع والسجود والاذكار الستة التلاوة والتسبيح والحمد والاستغفار والدعاء والصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام فصارت عشرة كاملة تفرق هذه العشرة على عشر صفوف من الملائكة كل صف عشرة آلاف فيجتمع في الركعتين ما يفرق على مائة ألف من الملائكة

(الباب السابع والثلاثون في وصف صلاة أهل القرب)

ويذكر في هذا الفصل كيفية الصلاة بهيآتها وشروطها وآدابها الظاهرة والباطنة على الكمال بأقصى ما انتهى اليه فهمنا وعلمنا على الوجه مع الاعراض عن نقل الاقوال في كل

مؤمن خير مما أعطى ابن داود فان ما أعطى ابن داود يذهب والتسبيحة تبقى وقال صلى الله عليه وسلم ألهاكم التكاثر يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك الا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت وقال صلى الله عليه وسلم الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وعليها يعادى من لا علم له وعليها يحسد من لا فقه له ولها يسعى من لا يقين له وقال صلى الله عليه وسلم من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله فى شئ وألزم الله قلبه أربع خصال هما لا ينقطع عنه أبدا وشغلا لا يتفرغ منه أبدا وفقرا لا يبلغ غناه أبدا وأملا لا يبلغ منتهاه أبدا وقال أبو هريرة قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها فقلت بلى يا رسول الله فأخذ بيدى وأتى بى واديا من أودية المدينة فاذا مزبلة فيها رؤس أناس وعذرات وخرق وعظام ثم قال يا أبا هريرة هذه الرؤس كانت تحرص كحرصكم وتأمل كأملكم ثم هى اليوم عظام بلا جلد ثم هى صائرة رمادا وهذه العذرات هى ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قذفوها فى بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت والرياح تصفقها وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد فمن كان باكيا على الدنيا فليبك قال فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا * روى أن الله عز وجل لما أهبط آدم الى الارض قال له ابن للخراب ولد للفناء وقال داود بن هلال مكتوب فى صحف ابراهيم عليه السلام يا دنيا ما أهونك على الابرار الذين تصنعت وتزينت لهم انى قذفت فى قلوبهم بغضك والصدود عنك وما خلقت خلقا أهون على منك كل شأنك صغير والى الفناء يصير قضيت عليك يوم خلقتك ان لا تدومى لاحد ولا يدوم لك أحد وان بخل بك صاحبك وشح عليك طوبى للابرار الذين أطلعونى من قلوبهم على الرضا ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة طوبى لهم مالهم عندى من الجزاء اذا وفدوا الى من قبورهم الا النور يسعى أمامهم والملائكة حافون بهم حتى أبلغهم ما يرجون من رحمتى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا موقوفة بين السماء والارض منذ خلقها الله تعالى لم ينظر اليها وتقول يوم القيامة يارب اجعلنى لادنى أوليائك اليوم نصيبا فيقول اسكتى يا لاشئ انى لم أرضك لهم فى الدنيا أأرضاك لهم اليوم وروى فى أخبار آدم عليه السلام أنه لما أكل من الشجرة تحركت معدته لخروج الثفل ولم يكن ذلك مجعولا فى شئ من أطعمة الجنة الا فى هذه الشجرة فلذلك نهيا عن أكلها قال فجعل يدور فى الجنة فأمر الله تعالى ملكا يخاطبه فقال له قل له أى شئ تريد قال آدم أريد أن أضع ما فى بطنى من الاذى فقيل للملك قل له فى أى مكان تريد أن تضعه أعلى الفرش أم على السرر أم على الانهار أم تحت ظلال الاشجار هل ترى ههنا مكانا يصلح لذلك اهبط الى الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم الى النار قالوا يا رسول الله مصلين قال نعم كانوا يصلون ويصومون ويأخذون هنة من الليل فاذا عرض لهم شئ من الدنيا وثبوا عليه وقال صلى الله عليه وسلم فى بعض خطبه المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه فليتزود العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن حياته لموته ومن شبابه لهرمه فان الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة والذى نفسى بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار الا الجنة أو النار وقال عيسى عليه السلام لا يستقيم حب الدنيا والآخرة فى قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار فى اناء واحد وروى ان جبريل عليه السلام قال لنوح عليه السلام يا أطول الانبياء عمرا كيف وجدت الدنيا فقال كدار لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر وقيل لعيسى عليه السلام لو اتخذت بيتا يكنك قال يكفينا خلقان من كان قبلنا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم احذروا الدنيا فانها أسحر من هاروت وماروت وعن الحسن قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فقال هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيرا ألا انه من رغب فى الدنيا وطال أمله فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك ومن زهد فى الدنيا وقصر فيها أمله أعطاه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية ألا انه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم الملك الا بالقتل والتجبر ولا الغنى الا بالفخر والبخل ولا المحبة الا باتباع الهوى الا فمن أدرك ذلك الزمان منكم فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى وصبر على البغضاء وهو يقدر على المحبة وصبر على الذل وهو يقدر على العز لا يريد بذلك الا وجه الله تعالى أعطاه الله ثواب خمسين صديقا

شئ من ذلك اذ فى ذلك كثرة ويخرج عن حد الاختصار والايجاز المقصود فنقول وبالله التوفيق ينبغى للعبد أن يستعد للصلاة قبل دخول وقتها بالوضوء ولا يوقع الوضوء فى وقت الصلاة فذلك من المحافظة عليها ويحتاج فى معرفة الوقت الى الزوال وتفاوت الاقدام لطول النهار وقصره ويعتبر الزوال بأن الظل مادام فى الانتقاص فهو النصف الاول من النهار فاذا أخذ الظل فى الازدياد فهو النصف الآخر وقد زالت الشمس واذا عرف الزوال وان الشمس على كم قدم تزول يعرف أول الوقت وآخره ووقت العصر ويحتاج الى معرفة المنازل ليعلم طلوع الفجر ويعلم أوقات الليل وشرح ذلك يطول ويحتاج أن يفرد له باب فاذا دخل وقت الصلاة يقدم السنة الراتبة ففى ذلك سر وحكمة وذلك

وروى أن عيسى عليه السلام اشتد عليه المطر والرعد والبرق يوما فجعل يطلب شيأ يلجأ اليه فوقعت عينه على خيمة من بعيد فأتاها فاذا فيها امرأة فحاد عنها فاذا هو بكهف فى جبل فأتاه فاذا فيه أسد فوضع يده عليه وقال الهى جعلت لكل شئ مأوى ولم تجعل لى مأوى فأوحى الله تعالى اليه مأواك فى مستقر رحمتى لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء خلقتها بيدى ولأطعمن فى عرسك أربعة آلاف عام يوم منها كعمر الدنيا ولآمرن مناديا ينادى أين الزهاد فى الدنيا زوروا عرس الزاهد فى الدنيا عيسى بن مريم وقال عيسى بن مريم عليه السلام ويل لصاحب الدنيا كيف يموت ويتركها وما فيها وتغره ويأمنها ويثق بها وتخذله وويل للمغترين كيف أرتهم ما يكرهون وفارقهم ما يحبون وجاءهم ما يوعدون وويل لمن الدنيا همه والخطايا عمله كيف يفتضح غدا بذنبه وقيل أوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام ياموسى مالك ولدار الظالمين انها ليست لك بدار أخرج منها همك وفارقها بعقلك فبئست الدار هى الا لعامل يعمل فيها فنعمت الدار هى ياموسى انى مرصد للظالم حتى آخذ منه للمظلوم وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة بن الجراح فجاء بمال من البحرين فسمعت الانصار بقدوم أبى عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم ثم قال أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشئ قالوا أجل يارسول الله قال فأبشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم وقال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الارض فقيل ما بركات الارض قال زهرة الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا فنهى عن ذكرها فضلا عن اصابة عينها وقال عمار بن سعيد مر عيسى عليه السلام بقرية فاذا أهلها موتى فى الافنية والطرق فقال يامعشر الحواريين ان هؤلاء ماتوا عن سخطة ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا فقالوا ياروح الله وددنا أن لو علمنا خبرهم فسأل الله تعالى فأوحى اليه اذا كان الليل فنادهم يجيبوك فلما كان الليل أشرف على نشز ثم نادى يا أهل القرية فأجابه مجيب لبيك ياروح الله فقال ما حالكم وما قصتكم قال بتنا نحن فى عافية وأصبحنا فى الهاوية قال وكيف ذاك قال بحبنا الدنيا وطاعتنا أهل المعاصى قال وكيف كان حبكم للدنيا قال حب الصبى لامه اذا أقبلت فرحنا بها واذا أدبرت حزنا وبكينا عليها قال فما بال أصحابك لم يجيبونى قال لانهم ملجمون بلجم من نار بايدى ملائكة غلاظ شداد قال فكيف أجبتنى أنت من بينهم قال لانى كنت فيهم ولم أكن منهم فلما نزل بهم العذاب أصابنى معهم فأنا معلق على شفير جهنم لا أدرى أنجو منها أم أكبكب فيها فقال المسيح للحواريين لأكل خبز الشعير بالملح الجريش ولبس المسوح والنوم على المزابل كثير مع عافية الدنيا والآخرة وقال أنس كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العضباء لا تسبق فجاء اعرابى بناقة له فسبقها فشق ذلك على المسلمين فقال صلى الله عليه وسلم انه حق على الله ان لا يرفع شيأ من الدنيا الا وضعه وقال عيسى عليه السلام من الذى يبنى على موج البحر دارا تلكم الدنيا فلا تتخذوها قرارا وقيل لعيسى عليه السلام علمنا علما واحدا يحبنا الله عليه قال ابغضوا الدنيا يحببكم الله تعالى وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة ثم قال أبو الدرداء من قبل نفسه لو تعلمون ما أعلم لخرجتم الى الصعدات تجأرون وتبكون على أنفسكم ولتركتم أموالكم لا حارس لها ولا راجع اليها الا ما لابد لكم منه ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة وحضرها الامل فصارت الدنيا أملك بأعمالكم وصرتم كالذين لا يعلمون فبعضكم شر من البهائم التى لا تدع هواها مخافة مما فى عاقبته مالكم لا تحابون ولا تناصحون وأنتم اخوان على دين الله ما فرق بين أهوائكم الا خبث سرائركم ولو اجتمعتم على البر لتحاببتم مالكم تناصحون فى أمر الدنيا ولا تناصحون فى أمر الآخرة ولا يملك أحدكم النصيحة لمن يحبه ويعينه على أمر آخرته ما هذا الا من قلة الايمان فى قلوبكم لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرها كما توقنون بالدنيا لآثرتم طلب الآخرة لانها أملك لأموركم فان قلتم حب العاجلة غالب فانا نراكم تدعون العاجل من الدنيا للآجل منها تكدون أنفسكم بالمشقة والاحتراف فى طلب أمر لعلكم لا تدركونه

والله أعلم أن العبد تشعث باطنه وتفرق همه لما يلى به من المخالطة من الناس وقيامه بمهام المعاش أو سهو جرى بوضع الجبلة أو صرف هم الى أكل أو نوم بمقتضى العادة فاذا قدم السنة ينجذب باطنه الى الصلاة ويتهيأ للمناجاة ويذهب بالسنة الراتبة أثر الغفلة والكدورة من الباطن فينصلح الباطن ويصير مستعدا للفريضة فالسنة مقدمة صالحة يستنزل بها البركات وتطرق النفحات ثم يجدد التوبة مع الله تعالى عند الفريضة عن كل ذنب عمله ومن الذنوب عامة وخاصة فالعامة الكبائر والصغائر مما أومأ اليه الشرع ونطق به الكتاب والسنة والخاصة ذنوب حال الشخص فكل عبد على قدر صفاء حاله له ذنوب تلائم حاله ويعرفها صاحبها وقيل حسنات الابرار سيئات المقربين

فبئس القوم أنتم ما حققتم ايمانكم بما يعرف به الايمان البالغ فيكم فان كنتم في شك مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فائتونا لنبين لكم ولنريكم من النور ما تطمئن اليه قلوبكم والله ما أنتم بالمنقوصة عقولكم فنعذركم انكم تستبينون صواب الرأي في دنياكم وتأخذون بالحزم في أموركم ما لكم تفرحون باليسير من الدنيا تصيبونه وتحزنون على اليسير منها يفوتكم حتى يتبين ذلك في وجوهكم ويظهر على ألسنتكم وتسمونها المصائب وتقيمون فيها المآتم وعامتكم قد تركوا كثيرا من دينهم ثم لا يتبين ذلك في وجوهكم ولا يتغير حالكم اني لارى الله قد تبرأ منكم يلقى بعضكم بعضا بالسرور وكلكم يكره أن يستقبل صاحبه بما يكره مخافة أن يستقبله صاحبه بمثله فاصطحبتم على الغل ونبتت مراعيكم على الدمن وتصافيتم على رفض الاجل ولوددت ان الله تعالى أراحني منكم وألحقني بما أحب رؤيته ولو كان حيا لم يصابركم فان كان فيكم خير فقد أسمعتكم وان تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيرا وبالله أستعين على نفسي وعليكم وقال عيسى عليه السلام يا معشر الحواريين ارضوا بدنيء الدنيا مع سلامة الدين كما رضي أهل الدنيا بدنيء الدين مع سلامة الدنيا وفي معناه قيل

أرى رجالا بأدنى الدين قد قنعوا * وما أراهم رضوا في العيش بالدون

فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال عيسى عليه السلام يا طالب الدنيا لتبر تركك الدنيا أبر وقال نبينا صلى الله عليه وسلم لتأتينكم بعدي دنيا تأكل ايمانكم كما تأكل النار الحطب وأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام يا موسى لا تركنن الى حب الدنيا فلن تأتيني بكبيرة هي أشد منها ومر موسى عليه السلام برجل وهو يبكي ورجع وهو يبكي فقال موسى يا رب عبدك يبكي من مخافتك فقال يا ابن عمران لو سال دماغه مع دموع عينيه ورفع يديه حتى يسقطا لم أغفر له وهو يحب الدنيا (الآثار) قال علي رضي الله عنه من جمع فيه ست خصال لم يدع للجنة مطلبا ولا عن النار مهربا أولها من عرف الله فأطاعه وعرف الشيطان فعصاه وعرف الحق فاتبعه وعرف الباطل فاتقاه وعرف الدنيا فرفضها وعرف الآخرة فطلبها وقال الحسن رحمه الله رحم الله أقواما كانت الدنيا عندهم وديعة فأدوها الى من ائتمنهم عليها ثم راحوا خفافا وقال أيضا رحمه الله من نافسك في دينك فنافسه ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره وقال لقمان عليه السلام لابنه يا بني ان الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناس كثير فلتكن سفينتك فيها تقوى الله عز وجل وحشوها الايمان بالله تعالى وشراعها التوكل على الله عز وجل لعلك تنجو وما أراك ناجيا وقال الفضيل طالت فكرتي في هذه الآية انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا وانا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا وقال بعض الحكماء انك لن تصبح في شيء من الدنيا الا وقد كان له أهل قبلك وسيكون له أهل بعدك وليس لك من الدنيا الا عشاء ليلة وغداء يوم فلا تهلك في أكلة وصم عن الدنيا وأفطر على الآخرة وان رأس مال الدنيا الهوى وربحها النار وقيل لبعض الرهبان كيف ترى الدهر قال يخلق الابدان ويجدد الآمال ويقرب المنية ويبعد الامنية قيل فما حال أهله قال من ظفر به تعب ومن فاته نصب وفي ذلك قيل

ومن يحمد الدنيا لعيش يسره * فسوف لعمري عن قليل يلومها

اذا أدبرت كانت على المرء حسرة * وان أقبلت كانت كثيرا همومها

وقال بعض الحكماء كانت الدنيا ولم أكن فيها وتذهب الدنيا ولا أكون فيها فلا أسكن اليها فان عيشها نكد وصفوها كدر وأهلها منها على وجل اما بنعمة زائلة أو بلية نازلة أو منية قاضية وقال بعضهم من عيب الدنيا أنها لا تعطي أحدا ما يستحق لكنها اما أن تزيد واما أن تنقص وقال سفيان أما ترى النعم كأنها مغضوب عليها قد وضعت في غير أهلها وقال أبو سليمان الداراني من طلب الدنيا على المحبة لها لم يعط منها شيئا الا أراد أكثر ومن طلب الآخرة على المحبة لها لم يعط منها شيئا الا أراد أكثر وليس لهذا غاية ولا لهذا غاية وقال رجل لابي حازم أشكو اليك حب الدنيا وليست لي بدار فقال انظر ما آتاك الله عز وجل منها فلا تأخذه الا من حله ولا تضعه الا في حقه ولا يضرك حب الدنيا وانما قال هذا لانه لو آخذ نفسه بذلك لاتعبه حتى يتبرم بالدنيا ويطلب الخروج منها وقال يحيى بن معاذ الدنيا حانوت الشيطان فلا تسرق من حانوته شيئا فيجيء في طلبه فيأخذك وقال الفضيل لو كانت

*ثم لا يصلي الا جماعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تفضل صلاة الجماعة صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة ثم يستقبل القبلة بظاهره والحضرة الالهية بباطنه ويقرأ قل أعوذ برب الناس ويقرأ في نفسه آية التوجه وهذا التوجه قبل الصلاة والاستفتاح قبل الصلاة لوجهه الظاهر بانصرافه الى القبلة وتخصيص جهته بالتوجه دون جهة الصلاة ثم يرفع يديه حذو منكبيه بحيث تكون كفاه حذو منكبيه وابهاماه عند شحمة أذنيه ورؤس الاصابع مع الاذنين ويضم الاصابع وان نشرها جاز والضم أولى فانه قيل النشر نشر الكف لا نشر الاصابع ويكبر ولا يدخل بين باء أكبر ورائه ألفا ويجزم أكبر ويجعل المد في الله ولا يبالغ في ضم الهاء من الله ولا يبتدئ

الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لكان ينبغى لنا ان نختار خزفا يبقى على ذهب يفنى فكيف وقد اخترنا خزفا يفنى على ذهب يبقى وقال أبو حازم اياكم والدنيا فانه بلغنى انه يوقف العبد يوم القيامة اذا كان معظما للدنيا فيقال هذا عظم ما حقره الله وقال ابن مسعود ما أصبح أحد من الناس الا وهو ضيف وماله عارية فالضيف مرتحل والعارية مردودة وفى ذلك قيل

وما المال والاهلون الا ودائع * ولابد يوما أن ترد الودائع

وزار رابعة أصحابها فذكروا الدنيا فاقبلوا على ذمها فقالت اسكتوا عن ذكرها فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها ألا من أحب شيأ أكثر من ذكره وقيل لابراهيم بن أدهم كيف أنت فقال

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا * فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

فطوبى لعبد آثر الله ربه * وجاد بدنياه لما يتوقع

وقيل أيضا فى ذلك

أرى طالب الدنيا وان طال عمره * ونال من الدنيا سرورا وأنعما

كبان بنى بنيانه فاقامه * فلما استوى ما قد بناه تهدما

وقيل أيضا فى ذلك

هب الدنيا تساق اليك عفوا * أليس مصير ذاك الى انتقال

وما دنياك الا مثل فىء * أظلك ثم آذن بالزوال

وقال لقمان لابنه يابنى بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعا وقال مطرف ابن الشخير لا تنظر الى خفض عيش الملوك ولين رياشهم ولكن انظر الى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم وقال ابن عباس ان الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء جزء للمؤمن وجزء للمنافق وجزء للكافر فالمؤمن يتزود والمنافق يتزين والكافر يتمتع وقال بعضهم الدنيا جيفة فمن أراد منها شيأ فليصبر على معاشرة الكلاب وفى ذلك قيل

ياخاطب الدنيا الى نفسها * تنح عن خطبتها تسلم

ان التى تخطب غدارة * قريبة العرس من المأتم

وقال أبو الدرداء من هوان الدنيا على الله انه لا يعصى الا فيها ولا ينال ما عنده الا بتركها وفى ذلك قيل

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت * له عن عدو فى ثياب صديق

وقيل أيضا

يا راقد الليل مسرورا باوله * ان الحوادث قد يطرقن اسحارا

أفنى القرون التى كانت منعمة * كر الجديدين اقبالا وادبارا

كم قد أبادت صروف الدهر من ملك * قد كان فى الدهر نفاعا وضرارا

يامن يعانق دنيا لا بقاء لها * يمسى ويصبح فى دنياه سفارا

هلا تركت من الدنيا معانقة * حتى تعانق فى الفردوس أبكارا

ان كنت تبغى جنان الخلد تسكنها * فينبغى لك أن لا تأمن النارا

وقال أبو أمامة الباهلى رضى الله عنه لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم أتت ابليس جنوده فقالوا قد بعث نبى وأخرجت أمة قال يحبون الدنيا قالوا نعم قال لئن كانوا يحبون الدنيا ما أبالى أن لا يعبدوا الاوثان وانما أغدو عليهم وأروح بثلاث أخذ المال من غير حقه وانفاقه فى غير حقه وامساكه عن غير حقه والشر كله من هذا نبع وقال رجل لعلى كرم الله وجهه يا أمير المؤمنين صف لنا الدنيا قال وما أصف لك من دار من صح فيها سقم ومن أمن فيها ندم ومن افتقر فيها حزن ومن استغنى فيها افتتن فى حلالها الحساب وفى حرامها العقاب ومتشابهها العتاب وقيل له ذلك مرة أخرى فقال أطول أم أقصر فقيل قصر فقال حلالها حساب وحرامها عذاب وقال مالك بن دينار اتقوا السحارة فانها تسحر قلوب العلماء يعنى الدنيا وقال أبو سليمان الدارانى اذا كانت الآخرة فى القلب جاءت الدنيا تزاحمها فاذا كانت الدنيا فى القلب لم تزاحمها الآخرة لان الآخرة كريمة والدنيا لئيمة وهذا تشديد عظيم ونرجو أن يكون ما ذكره سيار بن الحكم أصح اذ قال الدنيا والآخرة يجتمعان فى القلب فايهما غلب كان الآخر تبعا له وقال مالك بن دينار بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك وبقدر ما تحزن للآخرة

بالتكبير الا اذا استقرتا اليدان حذو المنكبين ويرسلهما مع التكبير من غير نفض بالوقار اذا سكن القلب تشكلت به الجوارح وتأيدت بالاولى والاصوب ويجمع بين نية الصلاة والتكبير بحيث لا يغيب عن قلبه حالة التكبير أنه يصلى الصلاة بعينها (وحكى) عن الجنيد أنه قال لكل شئ صفوة وصفوة الصلاة التكبيرة الاولى وانما كانت التكبيرة صفوة لانها موضع النية وأول الصلاة * قال أبو نصر السراج سمعت ابن سالم يقول النية بالله لله ومن الله والآفات التى تدخل فى صلاة العبد بعد النية من العدو ونصيب العدو وان كثر لا يوازن بالنية التى هى لله بالله وان قل (وسئل) أبو سعيد الخراز كيف الدخول فى الصلاة فقال هو أن تقبل على الله تعالى اقبالك عليه يوم القيامة

يخرج هم الدنيا من قلبك وهذا اقتباس مما قاله على كرم الله وجهه حيث قال الدنيا والآخرة ضرتان فبقدر ما ترضى احداهما تسخط الاخرى وقال الحسن والله لقد أدركت أقواما كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذى تمشون عليه ما يبالون أشرقت الدنيا أم غربت ذهبت الى ذا أو ذهبت الى ذا وقال رجل للحسن ما تقول فى رجل آتاه الله مالا فهو يتصدق منه ويصل منه أيحسن له أن يتعيش فيه يعنى يتنعم فقال لا لو كانت له الدنيا كلها ما كان له منها الا الكفاف ويقدم ذلك ليوم فقره وقال الفضيل لو ان الدنيا بحذافيرها عرضت على حلالا لا أحاسب عليها فى الآخرة لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة اذا مر بها ان تصيب ثوبه وقيل لما قدم عمر رضى الله عنه الشام فاستقبله أبو عبيدة بن الجراح على ناقة مخطومة بحبل فسلم وسأله ثم أتى منزله فلم ير فيه الا سيفه وترسه ورحله فقال له عمر رضى الله عنه لو اتخذت متاعا فقال يا أمير المؤمنين ان هذا يبلغنا المقيل وقال سفيان خذ من الدنيا لبدنك وخذ من الآخرة لقلبك وقال الحسن والله لقد عبدت بنو اسرائيل الاصنام بعد عبادتهم الرحمن بحبهم للدنيا وقال وهب قرأت فى بعض الكتب الدنيا غنيمة الاكياس وغفلة الجهال لم يعرفوها حتى خرجوا منها فسألوا الرجعة فلم يرجعوا وقال لقمان لابنه يا بنى انك استدبرت الدنيا من يوم نزلتها واستقبلت الآخرة فانت الى دار تقرب منها أقرب من دار تباعد عنها وقال سعيد بن مسعود اذا رأيت العبد تزداد دنياه وتنقص آخرته وهو به راض فذلك المغبون الذى يلعب بوجهه وهو لا يشعر وقال عمرو بن العاص على المنبر والله ما رأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزهد فيه منكم والله ما مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث الا والذى عليه أكثر من الذى له وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى فلا تغرنكم الحياة الدنيا من قال ذا قاله من خلقها ومن هو أعلم بها اياكم وما شغل من الدنيا فان الدنيا كثيرة الاشغال لا يفتح رجل على نفسه باب شغل الا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب وقال أيضا مسكين ابن آدم رضى بدار حلالها حساب وحرامها عذاب ان أخذه من حله حوسب به وان أخذه من حرام عذب به ابن آدم يستقل ماله ولا يستقل عمله يفرح بمصيبته فى دينه ويجزع من مصيبته فى دنياه وكتب الحسن الى عمر بن عبد العزيز سلام عليك أما بعد فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات فاجابه عمر سلام عليك كأنك بالدنيا ولم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل وقال الفضيل بن عياض الدخول فى الدنيا هين ولكن الخروج منها شديد وقال بعضهم عجبا لمن يعرف أن الموت حق كيف يفرح وعجبا لمن يعرف أن النار حق كيف يضحك وعجبا لمن رأى تقلب الدنيا باهلها كيف يطمئن اليها وعجبا لمن يعلم أن القدر حق كيف ينصب وقدم على معاوية رضى الله عنه رجل من نجران عمره مائتا سنة فسأله عن الدنيا كيف وجدها فقال سنيات بلاء وسنيات رخاء يوم فيوم وليلة فليلة يولد ولد ويهلك هالك فلولا المولود لباد الخلق ولولا الهالك ضاقت الدنيا بمن فيها فقال له سل ما شئت قال عمر مضى فترده أو أجل حضر فتدفعه قال لا أملك ذلك قال لا حاجة لى اليك وقال داود الطائى رحمه الله يا ابن آدم فرحت ببلوغ أملك وانما بلغته بانقضاء أجلك ثم سوفت بعملك كأن منفعته لغيرك وقال بشر من سأل الله الدنيا فانما يسأله طول الوقوف بين يديه وقال أبو حازم ما فى الدنيا شئ يسرك الا وقد ألصق الله اليه شيأ يسوءك وقال الحسن لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا الا بحسرات ثلاث انه لم يشبع مما جمع ولم يدرك ما أمل ولم يحسن الزاد لما يقدم عليه وقيل لبعض العباد قد نلت الغنى فقال انما نال الغنى من عتق من رق الدنيا وقال أبو سليمان لا يصبر عن شهوات الدنيا الا من كان فى قلبه ما يشغله بالآخرة وقال مالك بن دينار اصطلحنا على حب الدنيا فلا يأمر بعضنا بعضا ولا ينهى بعضنا بعضا ولا يدعنا الله على هذا فليت شعرى أى عذاب الله ينزل علينا وقال أبو حازم يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة وقال الحسن أهينوا الدنيا فوالله ما هى لاحد بأهنأ منها لمن أهانها وقال أيضا اذا أراد الله بعبد خيرا أعطاه من الدنيا عطية ثم يمسك فاذا نفد أعاد عليه واذا هان عليه عبد بسط له الدنيا بسطا وكان بعضهم يقول فى دعائه يا ممسك السماء أن تقع على الارض الا باذنك أمسك الدنيا عنى وقال محمد بن المنكدر أرأيت لو أن رجلا صام الدهر لا يفطر وقام الليل لا ينام وتصدق بماله وجاهد فى سبيل الله واجتنب محارم الله غير انه يؤتى به يوم القيامة فيقال ان هذا عظم فى عينه ما صغره الله وصغر فى عينه ما عظمه الله كيف ترى يكون حاله فمن منا ليس هكذا الدنيا عظيمة عنده مع ما اقترفنا من الذنوب والخطايا وقال أبو حازم اشتدت مؤنة

ووقوفك بين يدى الله ليس بينك وبينه ترجمان وهو مقبل عليك وأنت تناجيه وتعلم بين يدى من أنت واقف فانه الملك العظيم (وقيل) لبعض العارفين كيف تكبر التكبيرة الاولى فقال ينبغى اذا قلت الله أكبر ان يكون مصحوبك فى الله التعظيم مع الالف والهيبة مع اللام والمراقبة والقرب مع الهاء واعلم ان من الناس من اذا قال الله أكبر غاب فى مطالعة العظمة والكبرياء وامتلأ باطنه نورا وصار الكون باسره فى فضاء شرح صدره كخردلة بارض فلاة ثم تلتقى الخردلة فما يخشى من الوسوسة وحديث النفس وما يتخايل فى الباطن من الكون الذى صار بمثابة الخردلة فالقيت فكيف تزاحم الوسوسة وحديث النفس مثل هذا العبد وقد تزاحم

الدنيا والآخرة فأما مؤنة الآخرة فانك لا تجد عليها أعوانا وأما مؤنة الدنيا فانك لا تضرب بيدك الى شئ منها الا وجدت فاجرا قد سبقك اليه وقال أبو هريرة الدنيا موقوفة بين السماء والارض كالشن البالى تنادى ربها منذ خلقها الى يوم يفنيها يارب يارب لم تبغضنى فيقول لها اسكتى يالاشئ وقال عبد الله بن المبارك حب الدنيا والذنوب فى القلب قد احتوشته فمتى يصل الخير اليه وقال وهب بن منبه من فرح قلبه بشئ من الدنيا فقد أخطأ الحكمة ومن جعل شهوته تحت قدميه فرق الشيطان من ظله ومن غلب علمه هواه فهو الغالب وقيل لبشر مات فلان فقال جمع الدنيا وذهب الى الآخرة ضيع نفسه قيل له انه كان يفعل ويفعل وذكروا أبوابا من البر فقال وما ينفع هذا وهو يجمع الدنيا وقال بعضهم الدنيا تبغض الينا نفسها ونحن نحبها فكيف لو تحببت الينا وقيل لحكيم الدنيا لمن هى قال لمن تركها فقيل الآخرة لمن هى قال لمن طلبها وقال حكيم الدنيا دار خراب وأخرب منها قلب من يعمرها والجنة دار عمران وأعمر منها قلب من يطلبها وقال الجنيد كان الشافعى رحمه الله من المريدين الناطقين بلسان الحق فى الدنيا وعظ أخاله فى الله وخوفه بالله فقال يا أخى ان الدنيا دحض مزلة ودار مذلة عمرانها الى الخراب صائر وساكنها الى القبور زائر شملها على الفرقة موقوف وغناها الى الفقر مصروف الاكثار فيها اعسار والاعسار فيها يسار فافزع الى الله وارض برزق الله لا تتسلف من دار فنائك الى دار بقائك فان عيشك فىء زائل وجدار مائل أكثر من عملك وأقصر من أملك وقال ابراهيم بن أدهم لرجل أدرهم فى المنام أحب اليك أم دينار فى اليقظة فقال دينار فى اليقظة فقال كذبت لان الذى تحبه فى الدنيا كأنك تحبه فى المنام والذى لا تحبه فى الآخرة كأنك لا تحبه فى اليقظة وعن اسمعيل بن عياش قال كان أصحابنا يسمون الدنيا خنزيرة فيقولون اليك عنا ياخنزيرة فلو وجدوا لها اسما أقبح من هذا لسموها به وقال كعب لتحببن اليكم الدنيا حتى تعبدوها وأهلها وقال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله العقلاء ثلاثة من ترك الدنيا قبل ان تتركه وبنى قبره قبل ان يدخله وأرضى خالقه قبل ان يلقاه وقال أيضا الدنيا بلغ من شؤمها ان تمنيك لها يلهيك عن طاعة الله فكيف الوقوع فيها وقال بكر بن عبد الله من أراد ان يستغنى عن الدنيا بالدنيا كان كمطفئ النار بالتبن وقال بندار اذا رأيت أبناء الدنيا يتكلمون فى الزهد فاعلم انهم فى سخرة الشيطان وقال أيضا من أقبل على الدنيا أحرقته نيرانها يعنى الحرص حتى يصير رمادا ومن أقبل على الآخرة صفته بنيرانها فصار سبيكة ذهب ينتفع به ومن أقبل على الله عز وجل أحرقته نيران التوحيد فصار جوهرا لا حد لقيمته وقال على كرم الله وجهه انما الدنيا ستة أشياء مطعوم ومشروب وملبوس ومركوب ومنكوح ومشموم فاشرف المطعومات العسل وهو مذقة ذباب وأشرف المشروبات الماء ويستوى فيه البر والفاجر وأشرف الملبوسات الحرير وهو نسج دودة وأشرف المركوبات الفرس وعليه يقتل الرجال وأشرف المنكوحات المرأة وهى مبال فى مبال وان المرأة لتزين أحسن شئ منها ويراد أقبح شئ منها وأشرف المشمومات المسك وهو دم

(بيان المواعظ فى ذم الدنيا وصفتها)

قال بعضهم يا أيها الناس اعملوا على مهل وكونوا من الله على وجل ولا تغتروا بالامل ونسيان الاجل ولا تركنوا الى الدنيا فانها غدارة خداعة قد تزخرفت لكم بغرورها وفتنتكم بامانيها وتزينت لخطابها فاصبحت كالعروس المجلية العيون اليها ناظرة والقلوب عليها عاكفة والنفوس لها عاشقة فكم من عاشق لها قتلت ومطمئن اليها خذلت فانظروا اليها بعين الحقيقة فانها دار كثير بوائقها وذمها خالقها جديدها يبلى وملكها يفنى وعزها يذل وكثيرها يقل ودها يموت وخيرها يفوت فاستيقظوا رحمكم الله من غفلتكم وانتبهوا من رقدتكم قبل أن يقال فلان عليل أو مدنف ثقيل فهل على الدواء من دليل أو هل الى الطبيب من سبيل فتدعى لك الاطباء ولا يرجى لك الشفاء ثم يقال فلان أوصى ولماله أحصى ثم يقال قد ثقل لسانه فما يكلم اخوانه ولا يعرف جيرانه وعرق عند ذلك جبينك وتتابع أنينك وثبت يقينك وطمحت جفونك وصدقت ظنونك وتلجلج لسانك وبكى اخوانك وقيل لك هذا ابنك فلان وهذا أخوك فلان ومنعت من الكلام فلا تنطق وختم على لسانك فلا ينطلق ثم حل بك القضاء وانتزعت نفسك من الاعضاء ثم عرج بها الى السماء فاجتمع عند ذلك اخوانك وأحضرت أكفانك فغسلوك وكفنوك فانقطع عوادك واستراح حسادك وانصرف أهلك

مطالعة العظمة والغيبوبة فى ذلك كون النية غير انه لغاية لطف الحال يختص الروح بمطالعة العظمة والقلب يتميز بالنية فتكون النية موجودة بالطف صفاتها مندرجة فى نور العظمة اندراج الكوكب فى ضوء الشمس ثم يقبض بيده اليمنى يده اليسرى ويجعلهما بين السرة والصدر واليمنى لكرامتها تجعل فوق اليسرى ويمد المسبحة والوسطى على الساعد ويقبض بالثلاثة البواقى اليسرى من الطرفين وقد فسر أمير المؤمنين على رضى الله عنه قوله تعالى فصل لربك وانحر قال انه وضع اليمنى على الشمال تحت الصدر وذلك ان تحت الصدر عرقا يقال له الناحر أى ضع يدك على الناحر وقال بعضهم وانحر أى استقبل القبلة بنحرك وفى ذلك سر خفى يكاشف به من وراء أستار الغيب

الى مالك وبقيت مرتهنا بأعمالك وقال بعضهم لبعض الملوك ان أحق الناس بذم الدنيا وقلاها من بسط له فيها وأعطى حاجته منها لانه يتوقع آفة تعدو على ماله فتجتاحه أو على جمعه فتفرقه أو تأتى سلطانه فتهدمه من القواعد أو تدب الى جسمه فتسقمه أو تفجعه بشئ هو ضنين به بين أحبابه فالدنيا أحق بالذم هى الآخذة ما تعطى الراجعة فيما تهب بيناهى تضحك صاحبها اذ أضحكت منه غيره وبيناهى تبكى له اذ أبكت عليه وبيناهى تبسط كفها بالاعطاء اذ بسطتها بالاسترداد فتعقد التاج على رأس صاحبها اليوم وتعفره بالتراب غدا سواء عليها ذهاب ما ذهب وبقاء ما بقى تجد فى الباقى من الذاهب خلفا وترضى بكل من كل بدلا * وكتب الحسن البصرى الى عمر بن عبد العزيز أما بعد فان الدنيا دار ظعن ليست بدار اقامة وانما أنزل آدم عليه السلام من الجنة اليها عقوبة فاحذرها يا أمير المؤمنين فان الزاد منها تركها والغنى منها فقرها لها فى كل حين قتيل تذل من أعزها وتفقر من جمعها هى كالسم يأكله من لا يعرفه وفيه حتفه فكن فيها كالمداوى جراحه يحتمى قليلا مخافة ما يكره طويلا ويصبر على شدة الدواء مخافة طول الداء فاحذر هذه الدار الغدارة الختالة الخداعة التى قد تزينت بخدعها وفتنت بغرورها وحلت بآمالها وسوفت بخطابها فأصبحت كالعروس المجلية العيون اليها ناظرة والقلوب عليها والهة والنفوس لها عاشقة وهى لازواجها كلهم قالية فلا الباقى بالماضى معتبر ولا الآخر بالاول مزدجر ولا العارف بالله عز وجل حين أخبره عنها مدكر فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسى المعاد فشغل فيها لبه حتى زلت به قدمه فعظمت ندامته وكثرت حسرته واجتمعت عليه سكرات الموت وتألمه وحسرات الفوت بغصته وراغب فيها لم يدرك منها ما طلب ولم يروح نفسه من التعب فخرج بغير زاد وقدم على غير مهاد فاحذرها يا أمير المؤمنين وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها فان صاحب الدنيا كلما اطمأن منها الى سرور أشخصته الى مكروه السار فى أهلها غار والنافع فيها غدا ضار وقد وصل الرخاء منها بالبلاء وجعل البقاء فيها الى فناء فسرورها مشوب بالاحزان لا يرجع منها ما ولى وأدبر ولا يدرى ما هو آت فينتظر أمانيها كاذبة وآمالها باطلة وصفوها كدر وعيشها نكد وابن آدم فيها على خطر ان عقل ونظر فهو من النعماء على خطر ومن البلاء على حذر فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبرا ولم يضرب لها مثلا لكانت الدنيا قد أيقظت النائم ونبهت الغافل فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر وفيها واعظ فما لها عند الله جل ثناؤه قدر وما نظر اليها منذ خلقها ولقد عرضت على نبيك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه ذلك عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها اذ كره أن يخالف على الله أمره أو يحب ما أبغضه خالقه أو يرفع ما وضع مليكه فزواها عن الصالحين اختيارا وبسطها لاعدائه اغترارا فيظن المغرور بها المقتدر عليها انه أكرم بها ونسى ما صنع الله عز وجل بمحمد صلى الله عليه وسلم حين شد الحجر على بطنه ولقد جاءت الرواية عنه عن ربه جل وعز انه قال لموسى عليه السلام اذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته واذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين وان شئت اقتديت بصاحب الروح والكلمة عيسى بن مريم عليه السلام فانه كان يقول ادامى الجوع وشعارى الخوف ولباسى الصوف وصلاتى فى الشتاء مشارق الشمس وسراجى القمر ودابتى رجلاى وطعامى وفاكهتى ما أنبتت الارض أبيت وليس لى شئ وأصبح وليس لى شئ وليس على الارض أحد أغنى منى وقال وهب بن منبه لما بعث الله عز وجل موسى وهرون عليهما السلام الى فرعون قال لا يروعنكما لباسه الذى لبس من الدنيا فان ناصيته بيدى ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس الا باذنى ولا يعجبنكما ما تمتع به منها فانما هى زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين فلو شئت ان أزينكما بزينة من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أن قدرته تعجز عما أوتيتما لفعلت ولكنى أرغب بكما عن ذلك فأزوى ذلك عنكما وكذلك أفعل بأوليائى انى لاذودهم عن نعيمها كما يذود الراعى الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة وانى لاجنبهم ملاذها كما يجنب الراعى الشفيق ابله عن منازل الغرة وما ذاك لهوانهم على ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالما موفرا انما يتزين لى أوليائى بالذل والخوف والخضوع والتقوى تنبت فى قلوبهم وتظهر على أجسادهم فهى ثيابهم التى يلبسون ودثارهم الذى يظهرون وضميرهم الذى يستشعرون ونجاتهم التى بها يفوزون ورجاؤهم الذى اياه يأملون ومجدهم الذى به يفخرون وسيماهم التى بها يعرفون فاذا لقيتهم فاخفض

لهم

وذلك ان الله تعالى بلطيف حكمته خلق الآدمى وشرفه وكرمه وجعله محل نظره ومورد وحيه ونخبة ما فى أرضه وسمائه روحانيا وجسمانيا أرضيا سماويا منتصب القامة مرتفع الهيئة فنصفه الاعلى من حد الفؤاد مستودع أسرار السموات ونصفه الاسفل مستودع أسرار الارض فمحل نفسه ومركزها النصف الاسفل ومحل روحه الروحانى والقلب النصف الاعلى فجواذب الروح مع جواذب النفس يتطاردان ويتحاربان وباعتبار تطاردهما وتغالبهما تكون لمة الملك ولمة الشيطان ووقت الصلاة يكثر التطارد لوجود التجاذب بين الايمان والطبع فيكاشف المصلى الذى صار قلبه سماويا مترددا بين الفناء والبقاء بجواذب النفس متصاعدة من مركزها والجوارح وتصرفها وتحركها مع

لهم جناحك وذلل لهم قلبك ولسانك واعلم انه من أخاف لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ثم أنا الثائر له يوم القيامة
وخطب على كرم الله وجهه يوما خطبة فقال فيها اعلموا أنكم ميتون ومبعوثون من بعد الموت وموقوفون على
أعمالكم ومجزيون بها فلا تغرنكم الحياة الدنيا فانها بالبلاء محفوفة وبالفناء معروفة وبالغدر موصوفة وكل
ما فيها الى زوال وهى بين أهلها دول وسجال لا تدوم أحوالها ولا يسلم من شرها نزالها بينا أهلها منها فى رخاء
وسرور واذاهم منها فى بلاء وغرور وأحوال مختلفة وتارات منصرفة العيش مذموم والرخاء فيها لا يدوم وانما
أهلها فيها أغراض مستهدفة ترميهم بسهامها وتقصيهم بحمامها وكل حتفه فيها مقدور وحظه فيها موفور واعلموا
عباد الله انكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى ممن كان أطول منكم أعمارا وأشد منكم بطشا
وأعمر ديارا وأبعد آثارا فأصبحت أصواتهم هامدة خامدة من بعد طول تقلبها وأجسادهم بالية وديارهم على
عروشها خاوية وآثارهم عافية واستبدلوا بالقصور المشيدة والسرر والنمارق الممهدة الصخور والاحجار
المسندة فى القبور اللاطئة الملحدة فمحلها مقترب وساكنها مغترب بين أهل عمارة موحشين وأهل محلة
متشاغلين لا يستأنسون بالعمران ولا يتواصلون تواصل الجيران والاخوان على ما بينهم من قرب المكان
والجوار ودنو الدار وكيف يكون بينهم تواصل وقد طحنهم بكلكله البلا وأكلتهم الجنادل والثرى وأصبحوا بعد
الحياة أمواتا وبعد نضارة العيش رفاتا فجع بهم الاحباب وسكنوا تحت التراب وظعنوا فليس لهم اياب
هيهات هيهات كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون فكأن قد صرتم الى ما صار واالیه من
البلا والوحدة فى دار المثوى وارتهنتم فى ذلك المضجع وضمكم ذلك المستودع فكيف بكم لو عاينتم الامور وبعثرت
القبور وحصل ما فى الصدور وأوقفتم للتحصيل بين يدى الملك الجليل فطارت القلوب لاشفاقها من سالف
الذنوب وهتكت عنكم الحجب والاستار وظهرت منكم العيوب والاسرار هنالك تجزى كل نفس بما كسبت
ان الله عز وجل يقول ليجزى الذين أساؤا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى وقال تعالى ووضع الكتاب
فترى المجرمين مشفقين مما فيه الآية جعلنا الله واياكم عاملين بكتابه متبعين لاوليائه حتى يحلنا واياكم دار
المقامة من فضله انه حميد مجيد * وقال بعض الحكماء الايام سهام والناس أغراض والدهر يرميك كل يوم
بسهامه ويخترمك بلياليه وأيامه حتى يستغرق جميع أجزائك فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الايام بك وسرعة
الليالى فى بدنك لو كشف لك عما أحدثت الايام فيك من النقص لاستوحشت من كل يوم يأتى عليك واستثقلت
ممر الساعة بك ولكن تدبير الله فوق تدبير الاعتبار وبالسلو عن غوائل الدنيا وجد طعم لذاتها وانها لأمر من العلقم
اذا عجنها الحكيم وقد أعيت الواصف لعيوبها بظاهر أفعالها وما تأتى به من العجائب أكثر مما يحيط به الواعظ
اللهم أرشدنا الى الصواب وقال بعض الحكماء وقد استوصف الدنيا وقدر بقائها فقال الدنيا وقتك الذى يرجع
اليك فيه طرفك لان ما مضى عنك فقد فاتك ادراكه وما لم يأت فلا علم لك به والدهر يوم مقبل تنعاه ليلته وتطويه
ساعاته وأحداثه تتوالى على الانسان بالتغيير والنقصان والدهر موكل بتشتيت الجماعات وانخرام الشمل وتنقل
الدول والامل طويل والعمر قصير والى الله تصير الامور وخطب عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فقال يا أيها
الناس انكم خلقتم لامر ان كنتم تصدقون به فانكم حمقى وان كنتم تكذبون به فانكم هلكى انما خلقتم للابد
ولكنكم من دار الى دار تنقلون عباد الله انكم فى دار لكم فيها من طعامكم غصص ومن شرابكم شرق لا تصفو لكم
نعمة تسرون بها الا بفراق أخرى تكرهون فراقها فاعملوا لما أنتم صائرون اليه خالدون فيه ثم غلبه البكاء ونزل
وقال على كرم الله وجهه فى خطبته أوصيكم بتقوى الله والترك للدنيا التاركة لكم وان كنتم لا تحبون تركها
المبلية أجسامكم وأنتم تريدون تجديدها فانما مثلكم ومثلها كمثل قوم فى سفر سلكوا طريقا وكأنهم قد قطعوه
وأفضوا الى علم فكأنهم بلغوه وكم عسى أن يجرى المجرى حتى ينتهى الى الغاية وكم عسى أن يبقى من له يوم فى
الدنيا وطالب حثيث يطلبه حتى يفارقها فلا تجزعوا لبؤسها وضرائها فانه الى انقطاع ولا تفرحوا بمتاعها ونعمائها
فانه الى زوال عجبت لطالب الدنيا والموت يطلبه وغافل وليس بمغفول عنه وقال محمد بن الحسين لما علم أهل الفضل
والعلم والمعرفة والادب أن الله عز وجل قد أهان الدنيا وانه لم يرضها لاوليائه وانها عنده حقيرة قليلة وأن رسول

معانى الباطن ارتباطا
وموازنة فبوضع اليمنى
على الشمال حصر النفس
ومنع من صعود جواذبها
وأثر ذلك يظهر بدفع
الوسوسة وزوال حديث
النفس فى الصلاة ثم اذا
استولت جواذب الروح
وتملكت من الفرق الى
القدم عند كمال الانس
وتحقق قرة العين
واستيلاء سلطان المشاهدة
تصير النفس مقهورة
ذليلة ويستنير مركزها
بنور الروح وتنقطع
حينئذ جواذب النفس
وعلى قدر استنارة مركز
النفس يزول كل العبادة
ويستغنى حينئذ عن
مقاومة النفس ومنع
جواذبها بوضع اليمين
على الشمال فيسبل
حينئذ ولعل لذلك والله
أعلم ما نقل عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم انه
صلى مسبلا وهو مذهب
مالك رحمه الله ثم يقرأ
وجهت وجهى الآية
وهذا التوجيه انقياد
لوجه قلبه والذى قيل

الله صلى الله عليه وسلم زهد فيها وحذر أصحابه من فتنتها أكلوا منها قصدا وقدموا فضلا وأخذوا منها ما يكفي وتركوا ما يلهي لبسوا من الثياب ما ستر العورة وأكلوا من الطعام أدناه مما سد الجوعة ونظروا الى الدنيا بعين أنها فانية والى الآخرة أنها باقية فتزودوا من الدنيا كزاد الراكب فخربوا الدنيا وعمروا بها الآخرة ونظروا الى الآخرة بقلوبهم فعلموا أنهم سينظرون اليها بأعينهم فارتحلوا اليها بقلوبهم لما علموا أنهم سيرتحلون اليها بأبدانهم تعبوا قليلا وتنعموا طويلا كل ذلك بتوفيق مولاهم الكريم أحبوا ما أحب لهم وكرهوا ما كره لهم ﴿بيان صفة الدنيا بالأمثلة﴾

اعلم ان الدنيا سريعة الفناء قريبة الانقضاء تعد بالبقاء ثم تخلف في الوفاء تنظر اليها فتراها ساكنة مستقرة وهي سائرة سيرا عنيفا ومرتحلة ارتحالا سريعا ولكن الناظر اليها قد لا يحس بحركتها فيطمئن اليها وانما يحس عند انقضائها ومثالها الظل فانه متحرك ساكن متحرك في الحقيقة ساكن في الظاهر لا تدرك حركته بالبصر الظاهر بل بالبصيرة الباطنة ولما ذكرت الدنيا عند الحسن البصري رحمه الله أنشد وقال

أحلام نوم أو كظل زائل ❋ ان اللبيب بمثلها لا يخدع

وكان الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يتمثل كثيرا ويقول

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها ❋ ان اغترارا بظل زائل حمق

وقيل ان هذا من قوله ويقال ان اعرابيا نزل بقوم فقدموا اليه طعاما فأكل ثم قام الى ظل خيمة لهم فنام هنالك فاقتلعوا الخيمة فأصابته الشمس فانتبه فقام وهو يقول

الا انما الدنيا كظل ثنية ❋ ولا بد يوما أن ظلك زائل

وكذلك قيل وان امرأ دنياه أكبر همه ❋ لمستمسك منها بحبل غرور

(مثال آخر للدنيا من حيث التغرير بخيالاتها ثم الافلاس منها بعد افلاتها) تشبه خيالات المنام وأضغاث الاحلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون وقال يونس بن عبيد ما شبهت نفسي في الدنيا الا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب فبينما هو كذلك اذا انتبه فكذلك الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا فاذا ليس بأيديهم شيء مما ركنوا اليه وفرحوا به وقيل لبعض الحكماء أي شيء أشبه بالدنيا قال أحلام النائم ﴿مثال آخر للدنيا في عداوتها لأهلها واهلاكها لبنيها﴾ اعلم أن طبع الدنيا التلطف في الاستدراج أولا والتوصل الى الاهلاك آخرا وهي كامرأة تتزين للخطاب حتى اذا نكحتهم ذبحتهم وقد روي أن عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا فرآها في صورة عجوز هتماء عليها من كل زينة فقال لها كم تزوجت قالت لا أحصيهم قال فكلهم مات عنك أم كلهم طلقك قالت بل كلهم قتلت فقال عيسى عليه السلام بؤسا لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين كيف تهلكينهم واحدا بعد واحد ولا يكونون منك على حذر (مثال آخر للدنيا في مخالفة ظاهرها الباطنها) اعلم ان الدنيا مزينة الظواهر قبيحة السرائر وهي شبه عجوز متزينة تخدع الناس بظاهرها فاذا وقفوا على باطنها وكشفوا القناع عن وجهها تمثل لهم قبائحها فندموا على اتباعها وخجلوا من ضعف عقولهم في الاغترار بظاهرها وقال العلاء بن زياد رأيت في المنام عجوزا كبيرة متعصبة الجلد عليها من كل زينة الدنيا والناس عكوف عليها معجبون ينظرون اليها فجئت ونظرت وتعجبت من نظرهم اليها واقبالهم عليها فقلت لها ويلك من أنت قالت أوما تعرفني قلت لا أدري من أنت قالت أنا الدنيا قلت أعوذ بالله من شرك قالت ان أحببت ان تعاذ من شري فابغض الدرهم وقال أبو بكر بن عياش رأيت الدنيا في النوم عجوزا مشوهة شمطاء تصفق بيديها وخلفها خلق يتبعونها يصفقون ويرقصون فلما كانت بحذائي أقبلت علي فقالت لو ظفرت بك لصنعت بك مثل ما صنعت بهؤلاء ثم بكى أبو بكر وقال رأيت هذا قبل ان أقدم الى بغداد وقال الفضيل بن عياض قال ابن عباس يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها بادية مشوه خلقها فتشرف على الخلائق فيقال لهم أتعرفون هذه فيقولون نعوذ بالله من معرفة هذه فيقال هذه الدنيا التي تناحرتم عليها بها قطعتم الارحام وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ثم يقذف بها في جهنم فتنادي أي رب أين أتباعي وأشياعي فيقول

الصلاة لوجهه قائلا ثم يقول سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا اله غيرك اللهم أنت الملك لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا انه لا يغفر الذنوب الا أنت واهدني لأحسن الاخلاق فانه لا يهدي لأحسنها الا أنت واصرف عني سيئها فانه لا يصرف عني سيئها الا أنت لبيك وسعديك فالخير كله بيديك تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب اليك ويطرق رأسه في قيامه ويكون نظره الى موضع السجود ويكمل القيام بانتصاب القامة ونزع بسير الانطواء عن الركبتين والخواطر ومعاطف البدن ويقف كأنه ناظر بجميع جسده الى الارض فهذا من خشوع سائر الاجزاء في سكون الجسد

فيقول الله عز وجل ألحقوا بها أتباعها وأشياعها وقال الفضيل بلغني ان رجلا عرج بروحه فاذا امرأة على قارعة الطريق عليها من كل زينة من الحلي والثياب واذا لا يمر بها أحد الا جرحته فاذا هي أدبرت كانت أحسن شيء رآه الناس واذا هي أقبلت كانت أقبح شيء رآه الناس عجوز شمطاء زرقاء عمشاء قال فقلت أعوذ بالله منك قالت لا والله لا يعيذك الله مني حتى تبغض الدرهم قال فقلت من أنت قالت أنا الدنيا *(مثال آخر للدنيا وعبور الانسان بها)* اعلم ان الاحوال ثلاثة حالة لم تكن فيها شيأ وهي ما قبل وجودك الى الازل وحالة لا تكون فيها مشاهدا للدنيا وهي ما بعد موتك الى الابد وحالة متوسطة بين الابد والازل وهي أيام حياتك في الدنيا فانظر الى مقدار طولها وانسبه الى طرفي الازل والابد حتى تعلم انه أقل من منزل قصير في سفر بعيد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم مالي وللدنيا وانما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب سار في يوم صائف فرفعت له شجرة فقال تحت ظلها ساعة ثم راح وتركها ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن اليها ولم يبال كيف انقضت أيامه في ضر وضيق أو في سعة ورفاهية بل لا يبني لبنة على لبنة توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما وضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ورأى بعض الصحابة يبني بيتا من جص فقال أرى الامر أعجل من هذا وأنكر ذلك والى هذا أشار عيسى عليه السلام حيث قال الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها وهو مثال واضح فان الحياة الدنيا معبر الى الآخرة والمهد هو الميل الاول على رأس القنطرة واللحد هو الميل الآخر وبينهما مسافة محدودة فمن الناس من قطع نصف القنطرة ومنهم من قطع ثلثها ومنهم من قطع ثلثيها ومنهم من لم يبق له الا خطوة واحدة وهو غافل عنها وكيفما كان فلا بد له من العبور والبناء على القنطرة وتزيينها باصناف الزينة وأنت عابر عليها غاية الجهل والخذلان *(مثال آخر للدنيا في لين موردها وخشونة مصدرها)* اعلم ان أوائل الدنيا تبدو هينة لينة يظن الخائض فيها أن حلاوة خفضها كحلاوة الخوض فيها وهيهات فان الخوض في الدنيا سهل والخروج منها مع السلامة شديد وقد كتب علي رضي الله عنه الى سلمان الفارسي بمثالها فقال مثل الدنيا مثل الحية لين مسها ويقتل سمها فاعرض عما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها وضع عنك همومها لما أيقنت من فراقها وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها فان صاحبها كلما اطمأن منها الى سرور أشخصه عنه مكروه والسلام *(مثال آخر للدنيا في تعذر الخلاص من تبعاتها بعد الخوض فيها)* قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما مثل صاحب الدنيا كالماشي في الماء هل يستطيع الذي يمشي في الماء ان لا تبتل قدماه وهذا يعرفك جهالة قوم ظنوا انهم يخوضون في نعيم الدنيا بابدانهم وقلوبهم منها مطهرة وعلائقها عن بواطنهم منقطعة وذلك مكيدة من الشيطان بل لو أخرجوا مما هم فيه لكانوا من أعظم المتفجعين بفراقها فكما أن المشي على الماء يقتضي بللا لا محالة يلتصق بالقدم فكذلك ملابسة الدنيا تقتضي علاقة وظلمة في القلب بل علاقة الدنيا مع القلب تمنع حلاوة العبادة قال عيسى عليه السلام بحق أقول لكم كما ينظر المريض الى الطعام فلا يلتذ به من شدة الوجع كذلك صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة ولا يجد حلاوتها مع ما يجد من حب الدنيا وبحق أقول لكم ان الدابة اذا لم تركب وتمتهن تصعب ويتغير خلقها كذلك القلوب اذا لم ترقق بذكر الموت ونصب العبادة تقسو وتغلظ وبحق أقول لكم ان الزق ما لم يتخرق أو يقحل يوشك أن يكون وعاء العسل كذلك القلوب ما لم تخرقها الشهوات أو يدنسها الطمع أو يقسها النعيم فسوف تكون أوعية الحكمة وقال النبي صلى الله عليه وسلم انما بقي من الدنيا بلاء وفتنة وانما مثل عمل أحدكم كمثل الوعاء اذا طاب أعلاه طاب أسفله واذا خبث أعلاه خبث أسفله *(مثال آخر لما بقي من الدنيا وقلته بالاضافة الى ما سبق)* قال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذه الدنيا مثل ثوب شق من أوله الى آخره فبقي متعلقا بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط ان ينقطع *(مثال آخر لتأدية علائق الدنيا بعضها الى بعض حتى الهلاك)* قال عيسى عليه السلام مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا حتى يقتله *(مثال آخر لمخالفة آخر الدنيا أولها ولنضارة أوائلها وخبث عواقبها)* اعلم ان شهوات الدنيا في القلب لذيذة كشهوات الاطعمة في المعدة وسيجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا في قلبه من الكراهة والنتن والقبح ما يجده للاطعمة اللذيذة اذا بلغت في المعدة غايتها وكما ان الطعام كلما كان ألذ طعما وأكثر دسما وأظهر حلاوة كان رجيعه أقذر وأشد نتنا فكذلك كل شهوة في القلب هي أشهى وألذ وأقوى

بتكون القلب من الخشوع ويراوح بين القدمين بعقدار أربعة أصابع فان ضم الكعبين هو الصفد المنهي عنه ولا يرفع احدى الرجلين فانه الصفن المنهي عنه نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصفن والصفد واذا كان الصفن منهيا عنه ففي زيادة الاعتماد على احدى الرجلين دون الاخرى معنى من الصفن فالاولى رعاية الاعتدال في الاعتماد على الرجلين جميعا ويكره اشتمال الصماء وهو أن يخرج يده من قبل صدره ويجتنب السدل وهو أن يرخي أطراف الثوب الى الارض ففيه معنى الخيلاء وقيل هو الذي يلتف بالثوب ويجعل يديه من داخل فيركع ويسجد كذلك وفي معناه ما اذا جعل يديه داخل القميص ويجتنب الكف وهو أن يرفع ثيابه بيديه عند السجود

فتنها وكراهتها والتأذي بها عند الموت أشد بل هي في الدنيا مشاهدة فان من نهبت داره وأخذ أهله وماله وولده
فتكون مصيبته وألمه وتفجعه في كل ما فقد بقدر لذته به وحبه له وحرصه عليه فكل ما كان عند الوجود أشهى
وألذ فهو عند الفقد أدهى وأمر ولا معنى للموت الا فقد ما في الدنيا وقد روي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال
للضحاك بن سفيان الكلابي ألست تؤتى بطعامك وقد ملح وقزح ثم تشرب عليه اللبن والماء قال بلى قال فالام
يصير قال الى ما قد علمت يا رسول الله قال فان الله عز وجل ضرب مثل الدنيا بما يصير اليه طعام ابن آدم وقال أبي بن
كعب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الدنيا ضربت مثلا لابن آدم فانظر الى ما يخرج من ابن آدم وان قزحه
وملحه الام يصير وقال صلى الله عليه وسلم ان الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلا وضرب مطعم ابن آدم للدنيا مثلا
وان قزحه وملحه وقال الحسن قد رأيتهم يطيبونه بالافاويه والطيب ثم يرمون به حيث رأيتم وقد قال الله عز وجل
فلينظر الانسان الى طعامه قال ابن عباس الى رجيعه وقال رجل لابن عمر انى أريد أن أسألك واستحيي قال فلا
تستحي واسأل قال اذا قضى أحدنا حاجته فقام ينظر الى ذلك منه قال نعم ان الملك يقول له انظر الى ما بخلت به انظر
الى ماذا صار وكان بشر بن كعب يقول انطلقوا حتى أريكم الدنيا فيذهب بهم الى مزبلة فيقول انظروا الى
ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم * (مثال آخر في نسبة الدنيا الى الآخرة) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ما الدنيا في الآخرة الا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر أحدكم بم يرجع اليه (مثال آخر للدنيا وأهلها
في اشتغالهم بنعيم الدنيا وغفلتهم عن الآخرة وخسرانهم العظيم بسببها) * اعلم ان أهل الدنيا مثلهم في غفلتهم
مثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم الى جزيرة فأمرهم الملاح بالخروج الى قضاء الحاجة وحذرهم المقام وخوفهم
مرور السفينة واستعجالها فتفرقوا في نواحي الجزيرة فقضى بعضهم حاجته وبادر الى السفينة فصادف المكان
خاليا فأخذ أوسع الاماكن وألينها وأوفقها لمراده وبعضهم توقف في الجزيرة ينظر الى أنوارها وأزهارها العجيبة
وغياضها الملتفة ونغمات طيورها الطيبة وألحانها الموزونة الغريبة وصار يلحظ من بريتها أحجارها وجواهرها
ومعادنها المختلفة الالوان والاشكال الحسنة المنظر العجيبة النقوش السالبة أعين الناظرين بحسن زبرجدها
وعجائب صورها ثم تنبه لخطر فوات السفينة فرجع اليها فلم يصادف الا مكانا ضيقا حرجا فاستقر فيه وبعضهم
أكب على تلك الاصداف والاحجار وأعجبه حسنها ولم تسمح نفسه باهمالها فاستصحب منها جملة فلم يجد في السفينة
الا مكانا ضيقا وزاده ما حمله من الحجارة ضيقا وصار ثقيلا عليه ووبالا فندم على أخذه ولم يقدر على رميه ولم يجد
مكانا لوضعه فحمله في السفينة على عنقه وهو متأسف على أخذه وليس ينفعه التأسف وبعضهم تولج الغياض
ونسي المركب وبعد في متفرجه ومتنزهه منه حتى لم يبلغه نداء الملاح لاشتغاله بأكل تلك الثمار واستشمام تلك
الانوار والتفرج بين تلك الاشجار وهو مع ذلك خائف على نفسه من السباع وغير خال من السقطات والنكبات
ولا منفك عن شوك ينشب بثيابه وغصن يجرح بدنه وشوكة تدخل في رجله وصوت هائل يفزع منه وعوسج
يخرق ثيابه ويهتك عورته ويمنعه عن الانصراف لو أراد فلما بلغه نداء أهل السفينة انصرف مثقلا بما معه ولم يجد
في المركب موضعا فبقي في الشط حتى مات جوعا وبعضهم لم يبلغه النداء وسارت السفينة فمنهم من افترسته السباع
ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك ومنهم من مات في الاوحال ومنهم من نهشته الحيات فتفرقوا كالجيف
المنتنة وأما من وصل الى المركب بثقل ما أخذه من الازهار والاحجار فقد استرقته وشغله الحزن بحفظها والخوف
من فوتها وقد ضيقت عليه مكانه فلم يلبث أن ذبلت تلك الازهار وكمدت تلك الالوان والاحجار فظهر نتن رائحتها
فصارت مع كونها مضيقة عليه مؤذية له بنتنها ووحشتها فلم يجد حيلة الا أن ألقاها في البحر هربا منها وقد أثر فيه
ما أكل منها فلم ينته الى الوطن الا بعد أن ظهرت عليه الاسقام بتلك الروائح فبلغ سقيما مدبرا ومن رجع قريبا
ما فاته الا سعة المحل فتأذى بضيق المكان مدة ولكن لما وصل الى الوطن استراح ومن رجع أولا وجد المكان
الاوسع ووصل الى الوطن سالما فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ونسيانهم موردهم
ومصدرهم وغفلتهم عن عاقبة أمورهم وما أقبح من يزعم انه بصير عاقل أن تغره أحجار الارض وهي الذهب والفضة
وهشيم النبات وهي زينة الدنيا وشيء من ذلك لا يصحبه عند الموت بل يصير كلا ووبالا عليه وهو في الحال شاغل له

بالحزن

ويكره الاختصار وهو أن يجعل يده على الخاصرة ويكره الصلب وهو وضع اليدين جميعا على الخصرين وتجافي العضدين فاذا وقف في الصلاة على الهيئة التي ذكرناها مجتنبا للمكاره فقد تم القيام وكمله فيقرأ آية التوجه والدعاء كما ذكرنا ثم يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ويقولها في كل ركعة أمام القراءة ويقرأ الفاتحة وما بعدها بحضور قلب وجمع هم ومواطأة بين القلب واللسان بحظ وافر من الوصلة والدنو والهيبة والخشوع والخشية والتعظيم والوقار والمشاهدة والمناجاة وان قرأ بين الفاتحة وما يقرأ بعدها اذا كان اماما في السكتة الثانية اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب ونقني من الخطايا كما ينقى الثوب الابيض من الدنس اللهم اغسل

بالحزن والخوف عليه وهذه حال الخلق كلهم الا من عصمه الله عز وجل *(مثال آخر لاغترار الخلق بالدنيا وضعف ايمانهم)* قال الحسن رحمه الله بلغني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه انما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء حتى اذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أو ما بقي أنفدوا الزاد وحسروا الظهر وبقوا بين ظهراني المفازة ولا زاد ولا حمولة فايقنوا بالهلكة فبينما هم كذلك اذ خرج عليهم رجل في حلة تقطر رأسه فقالوا هذا قريب عهد بريف وما جاءكم هذا الا من قريب فلما انتهى اليهم قال يا هؤلاء فقالوا يا هذا فقال علام أنتم فقالوا على ما ترى فقال أرأيتم ان هديتكم الى ماء رواء ورياض خضر ما تعملون قالوا لا نعصيك شيأ قال عهودكم ومواثيقكم بالله فاعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيأ قال فاوردهم ماء رواء ورياضا خضرا فمكث فيهم ما شاء الله ثم قال يا هؤلاء قالوا يا هذا قال الرحيل قالوا الى أين قال الى ماء ليس كمائكم والى رياض ليست كرياضكم فقال أكثرهم والله ما وجدنا هذا حتى ظننا انا لن نجده وما نصنع بعيش خير من هذا وقالت طائفة وهم أقلهم ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله أن لا تعصوه شيأ وقد صدقكم في أول حديثه فوالله ليصدقنكم في آخره فراح فيمن اتبعه وتخلف بقيتهم فبدرهم عدو فاصبحوا بين أسير وقتيل *(مثال آخر لتنعم الناس بالدنيا ثم تفجعهم على فراقها)* اعلم ان مثل الناس فيما أعطوا من الدنيا مثل رجل هيأ دارا وزينها وهو يدعو الى داره على الترتيب قوما واحدا بعد واحد فدخل واحد داره فقدم اليه طبق ذهب عليه بخور ورياحين ليشمه ويتركه لمن يلحقه لا ليتملكه ويأخذه فجهل رسمه وظن انه قد وهب ذلك منه فتعلق به قلبه لما ظن انه له فلما استرجع منه ضجر وتفجع ومن كان عالما برسمه انتفع به وشكره ورده بطيب قلب وانشراح صدر وكذلك من عرف سنة الله في الدنيا علم انها دار ضيافة سبلت على المجتازين لا على المقيمين ليتزودوا منها وينتفعوا بما فيها كما ينتفع المسافرون بالعواري ولا يصرفون اليها كل قلوبهم حتى تعظم مصيبتهم عند فراقها فهذه أمثلة الدنيا وآفاتها وغوائلها نسأل الله تعالى اللطيف الخبير حسن العون بكرمه وحلمه

(بيان حقيقة الدنيا وماهيتها في حق العبد)

اعلم أن معرفة ذم الدنيا لا تكفيك مالم تعرف الدنيا المذمومة ما هي وما الذي ينبغي أن يجتنب منها وما الذي لا يجتنب فلابد وأن نبين الدنيا المذمومة المأمور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله ما هي فنقول دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك فالقريب الداني منها يسمى دنيا وهو كل ما قبل الموت والمتراخي المتأخر يسمى آخرة وهو ما بعد الموت فكل مالك فيه حظ ونصيب وغرض وشهوة ولذة عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدنيا في حقك الا أن جميع مالك اليه ميل وفيه نصيب وحظ فليس بمذموم بل هو ثلاثة أقسام *(القسم الاول)* ما يصحبك في الآخرة وتبقى معك ثمرته بعد الموت وهو شيآن العلم والعمل فقط وأعني بالعلم العلم بالله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله وملكوت أرضه وسمائه والعلم بشريعة نبيه وأعني بالعمل العبادة الخالصة لوجه الله تعالى وقد يأنس العالم بالعلم حتى يصير ذلك ألذ الاشياء عنده فيهجر النوم والمطعم والمنكح في لذته لانه أشهى عنده من جميع ذلك فقد صار حظا عاجلا في الدنيا ولكنا اذا ذكرنا الدنيا المذمومة لم نعد هذا من الدنيا أصلا بل قلنا انه من الآخرة وكذلك العابد قد يأنس بعبادته فيستلذها بحيث لو منع عنها لكان ذلك أعظم العقوبات عليه حتى قال بعضهم ما أخاف من الموت الا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل وكان آخر يقول اللهم ارزقني قوة الصلاة والركوع والسجود في القبر فهذا قد صارت الصلاة من حظوظه العاجلة وكل حظ عاجل فاسم الدنيا ينطلق عليه من حيث الاشتقاق من الدنو ولكنا لسنا نعني بالدنيا المذمومة ذلك وقد قال صلى الله عليه وسلم حبب الي من دنياكم ثلاث النساء والطيب وقرة عيني في الصلاة فجعل الصلاة من جملة ملاذ الدنيا وكذلك كل ما يدخل في الحس والمشاهدة فهو من عالم الشهادة وهو من الدنيا والتلذذ بتحريك الجوارح بالركوع والسجود انما يكون في الدنيا فلذلك أضافها الى الدنيا الا أنا لسنا في هذا الكتاب نتعرض الا للدنيا المذمومة فنقول هذه ليست من الدنيا *(القسم الثاني)* وهو المقابل له على الطرف الاقصى كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له في الآخرة أصلا كالتلذذ بالمعاصي كلها والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات والضرورات الداخلة في جملة

خطاياي بالماء والثلج والبرد فحسن وان قالها في السكتة الاولى فحسن روي عن النبي عليه السلام أنه قال ذلك وان كان منفردا يقولها قبل القراءة ويعلم ان عبدان تلاوته نطق اللسان ومعناها نطق القلب وكل مخاطب لشخص يتكلم بلسانه ولسانه يعبر عما في قلبه ولو أمكن المتكلم افهام من يكلمه من غير لسان فعل ولكن حيث تعذر الافهام الا بالكلام جعل اللسان ترجمانا فاذا قال باللسان من غير مواطأة القلب فما اللسان ترجمانا ولا القارئ متكلما قاصدا اسماع الله حاجته ولا مستمعا الى الله فاهما عنه سبحانه ما يخاطبه وما عنده غير حركة اللسان بقلب غائب عن قصد ما يقول فينبغي أن يكون متكلما مناجيا أو مستمعا واعيا فاقل مراتب أهل الخصوص في الصلاة الجمع بين القلب واللسان

الرفاهية والرعونات كالتنعم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث والغلمان والجوارى والخيول والمواشى والقصور والدور ورفيع الثياب ولذائذ الاطعمة فحظ العبد من هذا كله هى الدنيا المذمومة وفيما يعد فضولا أو فى محل الحاجة نظر طويل اذ روى عن عمر رضى الله عنه انه استعمل أبا الدرداء على حمص فاتخذ كنيفا أنفق عليه درهمين فكتب اليه عمر من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى عويمر قد كان لك فى بناء فارس والروم ما تكتفى به عن عمران الدنيا حين أراد الله خرابها فاذا أتاك كتابى هذا فقد سيرتك الى دمشق أنت وأهلك فلم يزل بها حتى مات فهذا رآه فضولا من الدنيا فتأمل فيه *(القسم الثالث)* وهو متوسط بين الطرفين كل حظ فى العاجل معين على أعمال الآخرة كقدر القوت من الطعام والقميص الواحد الخشن وكل ما لابد منه ليتأتى للانسان البقاء والصحة التى بها يتوصل الى العلم والعمل وهذا ليس من الدنيا كالقسم الاول لانه معين على القسم الاول ووسيلة اليه فمهما تناوله العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل لم يكن به متناولا للدنيا ولم يصر به من أبناء الدنيا وان كان باعثه الحظ العاجل دون الاستعانة على التقوى التحق بالقسم الثانى وصار من جملة الدنيا ولا يبقى مع العبد عند الموت الا ثلاث صفات صفاء القلب أعنى طهارته عن الادناس وأنسه بذكر الله تعالى وحبه لله عز وجل وصفاء القلب وطهارته لا يحصلان الا بالكف عن شهوات الدنيا والانس لا يحصل الا بكثرة ذكر الله تعالى والمواظبة عليه والحب لا يحصل الا بالمعرفة ولا تحصل معرفة الله الا بدوام الفكر وهذه الصفات الثلاث هى المنجيات المسعدات بعد الموت* أما طهارة القلب عن شهوات الدنيا فهى من المنجيات اذ تكون جنة بين العبد وبين عذاب الله كما ورد فى الاخبار ان أعمال العبد تناضل عنه فاذا جاء العذاب من قبل رجليه جاء قيام الليل يدفع عنه واذا جاء من جهة يديه جاءت الصدقة تدفع عنه الحديث وأما الانس والحب فهما من المسعدات وهما موصلان العبد الى لذة اللقاء والمشاهدة وهذه السعادة تتعجل عقيب الموت الى أن يدخل أوان الرؤية فى الجنة فيصير القبر روضة من رياض الجنة وكيف لا يكون القبر عليه روضة من رياض الجنة ولم يكن له الا محبوب واحد وكانت العوائق تعوقه عن دوام الانس بدوام ذكره ومطالعة جماله فارتفعت العوائق وأفلت من السجن وخلى بينه وبين محبوبه فقدم عليه مسرورا سليما من الموانع آمنا من العوائق وكيف لا يكون محب الدنيا عند الموت معذبا ولم يكن له محبوب الا الدنيا وقد غصب منه وحيل بينه وبينه وسدت عليه طرق الحيلة فى الرجوع اليه ولذلك قيل

ما حال من كان له واحد * غيب عنه ذلك الواحد

وليس الموت عدما انما هو فراق لمحاب الدنيا وقدوم على الله تعالى فاذا سالك طريق الآخرة هو المواظب على أسباب هذه الصفات الثلاث وهى الذكر والفكر والعمل الذى يفطمه عن شهوات الدنيا ويبغض اليه ملاذها ويقطعه عنها وكل ذلك لا يمكن الا بصحة البدن وصحة البدن لا تنال الا بقوت وملبس ومسكن ويحتاج كل واحد الى أسباب فالقدر الذى لابد منه من هذه الثلاثة اذا أخذه العبد من الدنيا للآخرة لم يكن من أبناء الدنيا وكانت الدنيا فى حقه مزرعة للآخرة وان أخذ ذلك بحظ النفس وعلى قصد التنعم صار من أبناء الدنيا والراغبين فى حظوظها الا أن الرغبة فى حظوظ الدنيا تنقسم الى ما يعرض صاحبه لعذاب الآخرة ويسمى ذلك حراما والى ما يحول بينه وبين الدرجات العلا ويعرضه لطول الحساب ويسمى ذلك حلالا والبصير يعلم أن طول الموقف فى عرصات القيامة لاجل المحاسبة أيضا عذاب فمن نوقش الحساب عذب اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حلالها حساب وحرامها عذاب وقد قال أيضا حلالها عذاب الا أنه عذاب أخف من عذاب الحرام بل لو لم يكن الحساب لكان ما يفوت من الدرجات العلا فى الجنة وما يرد على القلب من التحسر على تفويتها لحظوظ حقيرة خسيسة لا بقاء لها هو أيضا عذاب وقس به حالك فى الدنيا اذا نظرت الى أقرانك وقد سبقوك بسعادات دنيوية كيف يتقطع قلبك عليها حسرات مع علمك بأنها سعادات منصرمة لا بقاء لها ومنغصة بكدورات لا صفاء لها فما حالك فى فوات سعادة لا يحيط الوصف بعظمتها وتنقطع الدهور دون غايتها فكل من تنعم فى الدنيا ولو بسماع صوت من طائر أو بالنظر الى خضرة أو شربة ماء بارد فانه ينقص من حظه فى الآخرة أضعافه وهو المعنى بقوله صلى الله عليه

وسلم

فى التلاوة ووراء ذلك أحوال للخواص يطول شرحها (قال بعضهم) ما دخلت فى صلاة قط فاهمنى فيها غير ما أقول *وقيل لعامر بن عبد الله هل تجد فى الصلاة شيأ من أمور الدنيا فقال لان تختلف على الاسنة أحب الى من أن أجد فى الصلاة ما تجدون *وقيل لبعضهم هل تحدث نفسك فى الصلاة بشئ من أمور الدنيا فقال لا فى الصلاة ولا فى غيرها ومن الناس من اذا أقبل على الله فى صلاته يتحقق بمعنى الانابة لان الله تعالى قدم الانابة وقال منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة فينيب الى الله تعالى ويتقى الله تعالى بالتبرى عما سواه ويقيم الصلاة بصدر منشرح بالاسلام وقلب منفتح بنور الانعام فتخرج الكلمة من القرآن من لسانه ويسمعها بقلبه فتقع الكلمة فى فضاء قلب

وسلم لعمر رضى الله عنه هذا من النعيم الذى تسئل عنه أشار به الى الماء البارد والتعرض لجواب السؤال فيه ذل وخوف وخطر ومشقة وانتظار وكل ذلك من نقصان الحظ ولذلك قال عمر رضى الله عنه اعزلوا عنى حسابها حين كان به عطش فعرض عليه ماء بارد بعسل فاداره فى كفه ثم امتنع عن شربه فالدنيا قليلها وكثيرها حرامها وحلالها ملعونة الا ما أعان على تقوى الله فان ذلك القدر ليس من الدنيا وكل من كانت معرفته أقوى وأتقن كان حذره من نعيم الدنيا أشد حتى ان عيسى عليه السلام وضع رأسه على حجر لما نام ثم رماه اذ تمثل له ابليس وقال رغبت فى الدنيا وحتى ان سليمان عليه السلام فى ملكه كان يطعم الناس لذائذ الاطعمة وهو يأكل خبز الشعير فجعل الملك على نفسه بهذا الطريق امتهانا وشدة فان الصبر عن لذائذ الاطعمة مع القدرة عليها ووجودها أشد ولهذا روى أن الله تعالى زوى الدنيا عن نبينا صلى الله عليه وسلم فكان يطوى أياما وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع ولهذا سلط الله البلاء والمحن على الانبياء والاولياء ثم الامثل فالامثل كل ذلك نظرا لهم وامتنانا عليهم ليتوفر من الآخرة حظهم كما يمنع الوالد الشفيق ولده لذة الفواكه ويلزمه ألم الفصد والحجامة شفقة عليه وحبا له لا بخلا عليه وقد عرفت بهذا أن كل ما ليس لله فهو من الدنيا وما هو لله فذلك ليس من الدنيا فان قلت فما الذى هو لله فأقول الاشياء ثلاثة أقسام منها ما لا يتصور أن يكون لله وهو الذى يعبر عنه بالمعاصى والمحظورات وأنواع التنعمات فى المباحات وهى الدنيا المحضة المذمومة فهى الدنيا صورة ومعنى ومنها ما صورته لله ويمكن أن يجعل لغير الله وهو ثلاثة الفكر والذكر والكف عن الشهوات فان هذه الثلاثة اذا جرت سرا ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر فهى لله وليست من الدنيا وان كان الغرض من الفكر طلب العلم للتشرف به وطلب القبول بين الخلق باظهار المعرفة أو كان الغرض من ترك الشهوة حفظ المال أو الحمية لصحة البدن والاشتهار بالزهد فقد صار هذا من الدنيا بالمعنى وان كان يظن بصورته أنه لله تعالى ومنها ما صورته لحظ النفس ويمكن أن يكون معناه لله وذلك كالاكل والنكاح وكل ما يرتبط به بقاؤه وبقاء ولده فان كان القصد حظ النفس فهو من الدنيا وان كان القصد الاستعانة به على التقوى فهو لله بمعناه وان كانت صورته صورة الدنيا قال صلى الله عليه وسلم من طلب الدنيا حلالا مكاثرا مفاخرا لقى الله وهو عليه غضبان ومن طلبها استعفافا عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر فانظر كيف اختلف ذلك بالقصد فاذا الدنيا حظ نفسك العاجل الذى لا حاجة اليه لامر الآخرة ويعبر عنه بالهوى واليه الاشارة بقوله تعالى ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى ومجامع الهوى خمسة أمور وهى ما جمعه الله تعالى فى قوله انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد والاعيان التى تحصل منها هذه الخمسة سبعة يجمعها قوله تعالى زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا فقد عرفت أن كل ما هو لله فليس من الدنيا وقدر ضرورة القوت وما لا بد منه من مسكن وملبس هو لله ان قصد به وجه الله والاستكثار منه تنعم وهو لغير الله وبين التنعم والضرورة درجة يعبر عنها بالحاجة ولها طرفان وواسطة طرف يقرب من حد الضرورة فلا يضر فان الاقتصار على حد الضرورة غير ممكن وطرف يزاحم جانب التنعم ويقرب منه وينبغى أن يحذر منه وبينهما وسائط متشابهة ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه والحزم فى الحذر والتقوى والتقرب من حد الضرورة ما أمكن اقتداء بالانبياء والاولياء عليهم السلام اذ كانوا يردون أنفسهم الى حد الضرورة حتى ان أويسا القرنى كان يظن أهله انه مجنون لشدة تضييقه على نفسه فبنوا له بيتا على باب دارهم فكان يأتى عليهم السنة والسنتان والثلاث لا يرون له وجها وكان يخرج أول الاذان ويأتى الى منزله بعد العشاء الآخرة وكان طعامه أن يلتقط النوى وكلما أصاب حشفة خبأها لافطاره وان لم يصب ما يقوته من الحشف باع النوى واشترى بثمنه ما يقوته وكان لباسه مما يلتقط من المزابل من قطع الاكسية فيغسلها فى الفرات ويلفق بعضها الى بعض ثم يلبسها فكان ذلك لباسه وكان ربما مر الصبيان فيرمونه ويظنون أنه مجنون فيقول لهم يا اخوتاه ان كنتم ولا بد أن ترمونى فارمونى باحجار صغار فانى أخاف أن تدموا عقبى فيحضر وقت الصلاة ولا أصيب الماء فهكذا كانت سيرته ولقد عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره فقال انى لاجد نفس

ليس فيه غيرها فيتملكها القلب بحسن الفهم ولذيذ نعمة الاصغاء ويتشربها بحلاوة الاستماع وكمال الوعى ويدرك لطيف معناها وشريف فحواها معانى تلطف عن تفصيل الذكر وتتشكل بخفى الفكر ويصير الظاهر من معانى القرآن قوت النفس فالنفس المطمئنة متعوضة بمعانى القرآن عن حديثها لكونها معانى ظاهرة متوجهة الى عالم الحكمة والشهادة تقرب مناسبتها من النفس المكونة لاقامة رسم الحكمة ومعانى القرآن الباطنة التى يكاشف بها من الملكوت قوت القلب وتخلص الروح المقدس الى أوائل سرادقات الجبروت بمطالعة عظمة المتكلم وبمثل هذه المطالعة يكون كمال الاستغراق فى لجج الاشواق كما نقل عن مسلم بن يسار انه صلى ذات يوم فى مسجد

الرحمن من جانب اليمن اشارة اليه رحمه الله ولما ولى الخلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال أيها الناس من كان منكم من العراق فليقم قال فقاموا فقال اجلسوا الا من كان من أهل الكوفة فجلسوا فقال اجلسوا الا من كان من مراد فجلسوا فقال اجلسوا الا من كان من قرن فجلسوا كلهم الا رجلا واحدا فقال له عمر أقرنى أنت فقال نعم فقال أتعرف أويس بن عامر القرنى فوصفه له فقال نعم وما ذاك تسأل عنه يا أمير المؤمنين والله ما فينا أحق منه ولا أجن منه ولا أوحش منه ولا أدنى منه فبكى عمر رضى الله عنه ثم قال ما قلت ما قلت الا انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يدخل فى شفاعته مثل ربيعة ومضر فقال هرم بن حيان لما سمعت هذا القول من عمر بن الخطاب قدمت الكوفة فلم يكن لى هم الا أن أطلب أويسا القرنى وأسأل عنه حتى سقطت عليه جالسا على شاطئ الفرات نصف النهار يتوضأ ويغسل ثوبه قال فعرفته بالنعت الذى نعت لى فاذا رجل لحيم شديد الادمة محلوق الرأس كث اللحية متغير جدا كريه الوجه متهيب المنظر قال فسلمت عليه فرد على السلام ونظر الى فقلت حياك الله من رجل ومددت يدى لاصافحه فأبى أن يصافحنى فقلت رحمك الله يا أويس وغفر لك كيف أنت رحمك الله ثم خنقتنى العبرة من حبى اياه ورقتى عليه اذ رأيت من حاله ما رأيت حتى بكيت وبكى فقال وأنت فحياك الله يا هرم بن حيان كيف أنت يا أخى ومن دلك على قال قلت الله قال لا اله الا الله سبحان الله ان كان وعد ربنا لمفعولا قال فعجبت حين عرفنى ولا والله ما رأيته قبل ذلك ولا رآنى فقلت من أين عرفت اسمى واسم أبى وما رأيتك قبل اليوم قال نبأنى العليم الخبير وعرفت روحى روحك حين كلمت نفسى نفسك ان الارواح لها أنفس كأنفس الاجساد وان المؤمنين ليعرف بعضهم بعضا ويتحابون بروح الله وان لم يلتقوا يتعارفون ويتكلمون وان نأت بهم الدار وتفرقت بهم المنازل قال قلت حدثنى رحمك الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث أسمعه منك قال انى لم أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تكن لى معه صحبة بأبى وأمى رسول الله ولكن رأيت رجالا قد صحبوه وبلغنى من حديثه كما بلغك ولست أحب أن أفتح على نفسى هذا الباب أن أكون محدثا أو مفتيا أو قاضيا فى نفسى شغل عن الناس يا هرم بن حيان فقلت يا أخى اقرأ على آية من القرآن أسمعها منك وادع لى بدعوات وأوصنى بوصية أحفظها عنك فانى أحبك فى الله حبا شديدا قال فقام وأخذ بيدى على شاطئ الفرات ثم قال أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثم بكى ثم قال قال ربى والحق قول ربى وأصدق الحديث حديثه وأصدق الكلام كلامه ثم قرأ وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون حتى انتهى الى قوله انه هو العزيز الرحيم فشهق شهقة ظننت انه قد غشى عليه ثم قال يا ابن حيان مات أبوك حيان ويوشك ان تموت فاما الى جنة واما الى نار ومات أبوك آدم وماتت أمك حواء ومات نوح ومات ابراهيم خليل الرحمن ومات موسى نجى الرحمن ومات داود خليفة الرحمن ومات محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم رسول رب العالمين ومات أبو بكر خليفة المسلمين ومات عمر بن الخطاب أخى وصفيى ثم قال يا عمراه يا عمراه قال فقلت رحمك الله ان عمر لم يمت قال فقد نعاه الى ربى ونعى الى نفسى ثم قال أنا وأنت فى الموتى كأنه قد كان ثم صلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم دعا بدعوات خفيات ثم قال هذه وصيتى اياك يا هرم بن حيان كتاب الله ونهج الصالحين المؤمنين فقد نعيت الى نفسى ونفسك عليك بذكر الموت لا يفارق قلبك طرفة عين ما بقيت وانذر قومك اذا رجعت اليهم وانصح للامة جميعا واياك ان تفارق الجماعة قيد شبر فتفارق دينك وأنت لا تعلم فتدخل النار يوم القيامة ادع لى ولنفسك ثم قال اللهم ان هذا يزعم أنه يحبنى فيك وزارنى من أجلك فعرفنى وجهه فى الجنة وأدخله على فى دارك دار السلام واحفظه ما دام فى الدنيا حيثما كان وضم عليه ضيعته وأرضه من الدنيا باليسير وما أعطيته من الدنيا فيسره له تيسيرا واجعله لما أعطيته من نعمائك من الشاكرين واجزه عنى خير الجزاء ثم قال استودعك الله يا هرم بن حيان والسلام عليك ورحمة الله وبركاته لا أراك بعد اليوم رحمك الله تطلبنى فانى أكره الشهرة والوحدة أحب الى انى كثير الهم شديد الغم مع هؤلاء الناس ما دمت حيا فلا تسأل عنى ولا تطلبنى واعلم انك منى على بال وان لم أرك ولم ترنى فاذكرنى وادع لى فانى سأذكرك وأدعو لك ان شاء الله انطلق أنت ههنا حتى أنطلق أنا ههنا فحرصت أن أمشى معه ساعة فأبى على وفارقته فبكى وأبكانى وجعلت أنظر فى قفاه حتى دخل بعض السكك ثم سألت عنه بعد

البصرة فوقعت اسطوانة تسامع بسقوطها أهل السوق وهو واقف فى الصلاة لم يعلم بذلك ثم اذا أراد الركوع ينفصل بين القراءة والركوع ثم يركع منطوى القامة والنصف الاسفل بحاله فى القيام من غير انطواء الركبتين ويجافى مرفقيه عن جنبيه ويمد عنقه مع ظهره ويضع راحتيه على ركبتيه منشورة الاصابع (روى) مصعب بن سعد قال صليت الى جنب سعد ابن مالك فجعلت يدى بين ركبتى وبين فخذى وطبقتهما فضرب بيدى وقال اضرب بكفيك على ركبتيك وقال يا بنى انا كنا نفعل ذلك فأمرنا أن نضرب بالاكف على الركب ويقول سبحان ربى العظيم ثلاثا وهو أدنى الكمال والكمال أن يقول احدى عشرة وما يأتى به من العدد يكون بعد التمكن من الركوع ومن غير أن

ذلك فما وجدت أحدا يخبرني عنه بشيء رحمه الله وغفر له فهكذا كانت سيرة أبناء الآخرة المعرضين عن الدنيا وقد عرفت مما سبق في بيان الدنيا ومن سيرة الانبياء والاولياء أن حد الدنيا كل ما أظلته الخضراء وأقلته الغبراء الا ما كان لله عز وجل من ذلك وضد الدنيا الآخرة وهو كل ما أريد به الله تعالى مما يؤخذ بقدر الضرورة من الدنيا لاجل قوة طاعة الله وذلك ليس من الدنيا ويتبين هذا بمثال وهو أن الحاج اذا حلف انه في طريق الحج لا يشتغل بغير الحج بل يتجرد له ثم اشتغل بحفظ الزاد وعلف الجمل وخرز الراوية وكل ما لابد للحج منه لم يحنث في يمينه ولم يكن مشغولا بغير الحج فكذلك البدن مركب النفس تقطع به مسافة العمر فتعهد البدن بما تبقى به قوته على سلوك الطريق بالعلم والعمل هو من الآخرة لا من الدنيا نعم اذا قصد تلذذ البدن وتنعمه بشيء من هذه الاسباب كان منحرفا عن الآخرة ويخشى على قلبه القسوة قال الطنافسي كنت على باب بني شيبة في المسجد الحرام سبعة أيام طاويا فسمعت في الليلة الثامنة مناديا وأنا بين اليقظة والنوم ألا من أخذ من الدنيا أكثر مما يحتاج اليه أعمى الله عين قلبه فهذا بيان حقيقة الدنيا في حقك فاعلم ذلك ترشد ان شاء الله تعالى

(بيان حقيقة الدنيا في نفسها وأشغالها التي استغرقت همم الخلق حتى أنستهم أنفسهم وخالقهم ومصدرهم ومو ردهم)

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة وللانسان فيها حظ وله في اصلاحها شغل فهذه ثلاثة أمور قد يظن أن الدنيا عبارة عن آحادها وليس كذلك أما الاعيان الموجودة التي الدنيا عبارة عنها فهي الارض وما عليها قال الله تعالى انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا فالارض فراش للآدميين ومهاد ومسكن ومستقر وما عليها لهم ملبس ومطعم ومشرب ومنكح ويجمع ما على الارض ثلاثة أقسام المعادن والنبات والحيوان أما النبات فيطلبه الآدمي للاقتيات والتداوي وأما المعادن فيطلبها للآلات والاواني كالنحاس والرصاص وللنقد كالذهب والفضة ولغير ذلك من المقاصد وأما الحيوان فينقسم الى الانسان والبهائم أما البهائم فيطلب منها لحومها للمآكل وظهورها للمركب والزينة وأما الانسان فقد يطلب الآدمي أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم ويستسخرهم كالغلمان أو ليتمتع بهم كالجواري والنسوان ويطلب قلوب الناس ليملكها بأن يغرس فيها التعظيم والاكرام وهو الذي يعبر عنه بالجاه اذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين فهذه هي الاعيان التي يعبر عنها بالدنيا وقد جمعها الله تعالى في قوله زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين وهذا من الانس والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة وهذا من الجواهر والمعادن وفيه تنبيه على غيرها من اللآلئ واليواقيت وغيرها والخيل المسومة والانعام وهي البهائم والحيوانات والحرث وهو النبات والزرع فهذه هي أعيان الدنيا الا أن لها مع العبد علاقتين علاقة مع القلب وهو حبه لها وحظه منها وانصراف همه اليها حتى يصير قلبه كالعبد أو المحب المستهتر بالدنيا ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المعلقة بالدنيا كالكبر والغل والحسد والرياء والسمعة وسوء الظن والمداهنة وحب الثناء وحب التكاثر والتفاخر وهذه هي الدنيا الباطنة وأما الظاهرة فهي الاعيان التي ذكرناها العلاقة الثانية مع البدن وهو اشتغاله باصلاح هذه الاعيان لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره وهي جملة الصناعات والحرف التي الخلق مشغولون بها والخلق انما نسوا أنفسهم ومآبهم ومنقلبهم بالدنيا لهاتين العلاقتين علاقة القلب بالحب وعلاقة البدن بالشغل ولو عرف نفسه وعرف ربه وعرف حكمة الدنيا وسرها علم أن هذه الاعيان التي سميناها دنيا لم تخلق الا لعلف الدابة التي يسير بها الى الله تعالى وأعني بالدابة البدن فانه لا يبقى الا بمطعم ومشرب وملبس ومسكن كما لا يبقى الجمل في طريق الحج الا بعلف وماء وجلال ومثال العبد في الدنيا في نسيانه نفسه ومقصده مثال الحاج الذي يقف في منازل الطريق ولا يزال يعلف الناقة ويتعهدها وينظفها ويكسوها ألوان الثياب ويحمل اليها أنواع الحشيش ويبرد لها الماء بالثلج حتى تفوته القافلة وهو غافل عن الحج وعن مرور القافلة وعن بقائه في البادية فريسة للسباع هو وناقته والحاج البصير لا يهمه من أمر الجمل الا القدر الذي يقوى به على المشي فيتعهده وقلبه الى الكعبة والحج وانما يلتفت الى الناقة بقدر الضرورة فكذلك البصير في سفر الآخرة لا يشتغل بتعهد البدن الا بالضرورة كما لا يدخل بيت الماء

يمزج آخر ذلك بالرفع ويرفع يديه للركوع وللرفع من الركوع ويكون في ركوعه ناظرا نحو قدميه فهو أقرب الى الخشوع من النظر الى موضع السجود وانما ينظر الى موضع سجوده في قيامه ويقول بعد التسبيح اللهم لك ركعت ولك خشعت وبك آمنت ولك أسلمت خشع لك سمعي وبصري وعظمي ومخي وعصبي ويكون قلبه في الركوع متصفا بمعنى الركوع من التواضع والاخبات ثم يرفع رأسه قائلا سمع الله لمن حمده عالما بقلبه ما يقول فاذا استوى قائما يحمد ويقول ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الارض وملء ما شئت من شيء بعد ثم يقول أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد فان أطال في

الاضرورة ولافرق بين ادخال الطعام في البطن وبين اخراجه من البطن في أن كل واحد منهما ضرورة البدن ومن همته ما يدخل بطنه فقيمته ما يخرج منها وأكثر ما شغل الناس عن الله تعالى هو البطن فان القوت ضروري وأمر المسكن والملبس أهون ولو عرفوا سبب الحاجة الى هذه الامور واقتصروا عليه لم تستغرقهم أشغال الدنيا وانما استغرقتهم لجهلهم بالدنيا وحكمتها وحظوظهم منها ولكنهم جهلوا وغفلوا وتتابعت أشغال الدنيا عليهم واتصل بعضها ببعض وتداعت الى غير نهاية محدودة فتاهوا في كثرة الاشغال ونسوا مقاصدها ونحن نذكر تفاصيل أشغال الدنيا وكيفية حدوث الحاجة اليها وكيفية غلط الناس في مقاصدها حتى تتضح لك أشغال الدنيا كيف صرفت الخلق عن الله تعالى وكيف أنستهم عاقبة أمورهم فنقول الاشغال الدنيوية هي الحرف والصناعات والاعمال التي ترى الخلق مكبين عليها وسبب كثرة الاشغال هو أن الانسان مضطر الى ثلاث القوت والمسكن والملبس فالقوت للغذاء والبقاء والملبس لدفع الحر والبرد والمسكن لدفع الحر والبرد ولدفع أسباب الهلاك عن الاهل والمال ولم يخلق الله القوت والمسكن والملبس مصلحا بحيث يستغني عن صنعة الانسان فيه نعم خلق ذلك للبهائم فان النبات يغذي الحيوان من غير طبخ والحر والبرد لا يؤثر في بدنه فيستغني عن البناء ويقنع بالصحراء ولباسها شعورها وجلودها فتستغني عن اللباس والانسان ليس كذلك فحدثت الحاجة لذلك الى خمس صناعات هي أصول الصناعات وأوائل الاشغال الدنيوية وهي الفلاحة والرعاية والاقتناص والحياكة والبناء أما البناء فللمسكن والحياكة وما يكتنفها من أمر الغزل والخياطة فللملبس والفلاحة للمطعم والرعاية للمواشي والخيل أيضا للمطعم والمركب والاقتناص نعني به تحصيل ما خلقه الله من صيد أو معدن أو حشيش أو حطب فالفلاح يحصل النبات والراعي يحفظ الحيوانات ويستنتجها والمقتنص يحصل ما نبت ونتج بنفسه من غير صنع آدمي وكذلك يأخذ من معادن الارض ما خلق فيها من غير صنعة آدمي ونعني بالاقتناص ذلك ويدخل تحته صناعات وأشغال عدة ثم هذه الصناعات تفتقر الى أدوات وآلات كالحياكة والفلاحة والبناء والاقتناص والآلات انما تؤخذ اما من النبات وهو الاخشاب أو من المعادن كالحديد والرصاص وغيرهما أو من جلود الحيوانات فحدثت الحاجة الى ثلاثة أنواع أخر من الصناعات النجارة والحدادة والخرز وهؤلاء هم عمال الآلات ونعني بالنجار كل عامل في الخشب كيفما كان وبالحداد كل عامل في الحديد وجواهر المعادن حتى النحاس والابري وغيرهما وغرضنا ذكر الاجناس فاما آحاد الحرف فكثيرة وأما الخراز فنعني به كل عامل في جلود الحيوانات وأجزائها فهذه أمهات الصناعات ثم ان الانسان خلق بحيث لا يعيش وحده بل يضطر الى الاجتماع مع غيره من جنسه وذلك لسببين أحدهما حاجته الى النسل لبقاء جنس الانسان ولا يكون ذلك الا باجتماع الذكر والانثى وعشرتهما والثاني التعاون على تهيئة أسباب المطعم والملبس ولتربية الولد فان الاجتماع يفضي الى الولد لا محالة والواحد لا يشتغل بحفظ الولد وتهيئة أسباب القوت ثم ليس يكفيه الاجتماع مع الاهل والولد في المنزل بل لا يمكنه أن يعيش كذلك ما لم تجتمع طائفة كثيرة ليتكفل كل واحد بصناعة فان الشخص الواحد كيف يتولى الفلاحة وحده وهو يحتاج الى آلاتها وتحتاج الآلة الى حداد ونجار ويحتاج الطعام الى طحان وخباز وكذلك كيف ينفرد بتحصيل الملبس وهو يفتقر الى حراسة القطن وآلات الحياكة والخياطة وآلات كثيرة فلذلك امتنع عيش الانسان وحده وحدثت الحاجة الى الاجتماع ثم لو اجتمعوا في صحراء مكشوفة لتأذوا بالحر والبرد والمطر واللصوص فافتقروا الى أبنية محكمة ومنازل ينفرد كل أهل بيت به وبما معه من الآلات والاثاث والمنازل تدفع الحر والبرد والمطر وتدفع أذى الجيران من اللصوصية وغيرها لكن المنازل قد تقصدها جماعة من اللصوص خارج المنازل فافتقر أهل المنازل الى التناصر والتعاون والتحصن بسور يحيط بجميع المنازل فحدثت البلاد لهذه الضرورة ثم مهما اجتمع الناس في المنازل والبلاد وتعاملوا تولدت بينهم خصومات اذ تحدث رياسة وولاية للزوج على الزوجة وولاية للابوين على الولد لانه ضعيف يحتاج الى قوام به ومهما حصلت الولاية على عاقل أفضى الى الخصومة بخلاف الولاية على البهائم اذ ليس لها قوة المخاصمة وان ظلمت فاما المرأة فتخاصم الزوج والولد يخاصم الابوين هذا في المنزل وأما أهل البلد أيضا فيتعاملون في الحاجات ويتنازعون فيها ولو تركوا كذلك

النافلة القيام بعد الرفع من الركوع فليقل لربي الحمد مكررا ذلك مهما شاء فاما في الفرض فلا يطول تطويلا يزيد على الحد زيادة بينة ويقنع في الرفع من الركوع بتمام الاعتدال باقامة الصلب (ورد) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لا ينظر الله الى من لا يقيم صلبه بين الركوع والسجود ثم يهوي ساجدا ويكون في هويه مكبرا مستيقظا حاضرا خاشعا عالما بما يهوي فيه واليه وله فمن الساجدين من يكاشف أنه يهوي الى تخوم الارضين متغيبا في أجزاء الملك لامتلاء قلبه من الحياء واستشعار روحه عظيم الكبرياء كما ورد أن جبرائيل عليه السلام تستر بخافية من جناحه حياء من الله تعالى ومن الساجدين من يكاشف أنه يطوي بسجوده بساط الكون والمكان ويسرح قلبه

لتقاتلوا وهلكوا وكذلك الرعاة وأرباب الفلاحة يتواردون على المراعي والاراضي والمياه وهي لا تفي بأغراضهم فيتنازعون لا محالة ثم قد يعجز بعضهم عن الفلاحة والصناعة بعمى أو مرض أو هرم وتعرض عوارض مختلفة ولو ترك ضائعا لهلك ولو وكل تفقده الى الجميع لتخاذلوا ولو خص واحد من غير سبب يخصه لكان لا يذعن له فحدث بالضرورة من هذه العوارض الحاصلة بالاجتماع صناعات أخرى فمنها صناعة المساحة التي بها تعرف مقادير الارض لتمكن القسمة بينهم بالعدل ومنها صناعة الجندية لحراسة البلد بالسيف ودفع اللصوص عنهم ومنها صناعة الحكم والتوصل لفصل الخصومة ومنها الحاجة الى الفقه وهو معرفة القانون الذي ينبغي أن يضبط به الخلق ويلزموا الوقوف على حدوده حتى لا يكثر النزاع وهو معرفة حدود الله تعالى في المعاملات وشروطها فهذه أمور سياسية لا بد منها ولا يشتغل بها الا مخصوصون بصفات مخصوصة من العلم والتمييز والهداية واذا اشتغلوا بها لم يتفرغوا لصناعة أخرى ويحتاجون الى المعاش ويحتاج أهل البلد اليهم اذ لو اشتغل اهل البلد بالحرب مع الاعداء مثلا تعطلت الصناعات ولو اشتغل أهل الحرب والسلاح بالصناعات لطلب القوت تعطلت البلاد عن الحراس واستضر الناس فمست الحاجة الى أن يصرف الى معايشهم وأرزاقهم الاموال الضائعة التي لا مالك لها ان كانت أو تصرف الغنائم اليهم ان كانت العداوة مع الكفار فان كانوا أهل ديانة وورع قنعوا بالقليل من أموال المصالح وان أرادوا التوسع فتمس الحاجة لا محالة الى أن يمدهم أهل البلد بأموالهم ليمدوهم بالحراسة فتحدث الحاجة الى الخراج ثم يتولد بسبب الحاجة الى الخراج الحاجة لصناعات أخر اذ يحتاج الى من يوظف الخراج بالعدل على الفلاحين وأرباب الاموال وهم العمال والى من يستوفي منهم بالرفق وهم الجباة والمستخرجون والى من يجمع عنده ليحفظه الى وقت التفرقة وهم الخزان والى من يفرق عليهم بالعدل وهو الفارض للعساكر وهذه الاعمال لو تولاها عدد لا تجمعهم رابطة انخرم النظام فتحدث منه الحاجة الى ملك يدبرهم وأمير مطاع يعين لكل عمل شخصا ويختار لكل واحد ما يليق به ويراعي النصفة في أخذ الخراج واعطائه واستعمال الجند في الحرب وتوزيع أسلحتهم وتعيين جهات الحرب ونصب الامير والقائد على كل طائفة منهم الى غير ذلك من صناعات الملك فيحدث من ذلك بعد الجند الذين هم أهل السلاح وبعد الملك الذي يراقبهم بالعين الكالئة ويدبرهم الحاجة الى الكتاب والخزان والحساب والجباة والعمال ثم هؤلاء أيضا يحتاجون الى معيشة ولا يمكنهم الاشتغال بالحرف فتحدث الحاجة الى مال الفرع مع مال الاصل وهو المسمى فرع الخراج وعند هذا يكون الناس في الصناعات ثلاث طوائف الفلاحون والرعاة والمحترفون والثانية الجندية الحماة بالسيوف والثالثة المترددون بين الطائفتين في الاخذ والعطاء وهم العمال والجباة وأمثالهم فانظر كيف ابتدأ الامر من حاجة القوت والملبس والمسكن والى ماذا انتهى وهكذا أمور الدنيا لا يفتح منها باب الا وينفتح بسببه أبواب أخر وهكذا تتناهى الى غير حد محصور وكأنها هاوية لا نهاية لعمقها من وقع في مهواة منها سقط منها الى أخرى وهكذا على التوالي فهذه هي الحرف والصناعات الا أنها لا تتم الا بالاموال والآلات والمال عبارة عن أعيان الارض وما عليها مما ينتفع به وأعلاها الاغذية ثم الامكنة التي يأوي الانسان اليها وهي الدور ثم الامكنة التي يسعى فيها للتعيش كالحوانيت والاسواق والمزارع ثم الكسوة ثم أثاث البيت وآلاته ثم آلات الآلات وقد يكون في الآلات ما هو حيوان كالكلب آلة الصيد والبقر آلة الحراثة والفرس آلة الركوب في الحرب ثم يحدث من ذلك حاجة البيع فان الفلاح ربما يسكن قرية ليس فيها آلة الفلاحة والحداد والنجار يسكنان قرية لا يمكن فيها الزراعة فبالضرورة يحتاج الفلاح اليهما ويحتاجان الى الفلاح فيحتاج أحدهما أن يبذل ما عنده للآخر حتى يأخذ منه غرضه وذلك بطريق المعاوضة الا أن النجار مثلا اذا طلب من الفلاح الغذاء بآلته ربما لا يحتاج الفلاح في ذلك الوقت الى آلته فلا يبيعه والفلاح اذا طلب الآلة من النجار بالطعام ربما كان عنده طعام في ذلك الوقت فلا يحتاج اليه فتتعوق الاغراض فاضطروا الى حانوت يجمع آلة كل صناعة ليترصد بها صاحبها أرباب الحاجات والى أبيات يجمع اليها ما يحمل الفلاحون فيشتريه منهم صاحب الابيات ليترصد به أرباب الحاجات فظهرت لذلك الاسواق والمخازن فيحمل الفلاح الحبوب فاذا لم يصادف محتاجا باعها بثمن رخيص من الباعة فيخزنونها في انتظار أرباب الحاجات

في فضاء الكشف والعيان فتهوي دون هويه اطباق السموات وتنمحي لقوة شهوده تماثيل الكائنات ويسجد على طرف رداء العظمة وذلك أقصى ما ينتهي اليه طائر الهمة البشرية وتفي بالوصول اليه القوى الانسانية ويتفاوت الانبياء والاولياء في مراتب العظمة واستشعار كنهها لكل منهم على قدره حظ من ذلك وفوق كل ذي علم عليم ومن الساجدين من يتسع وعاؤه وينتشر ضياؤه ويحظى بالصنفين ويبسط الجناحين فيتواضع بقلبه اجلالا ويرفع بوجهه اكراما وافضالا فيجتمع له الانس والهيبة والحضور والغيبة والفرار والقرار والاسرار والجهار فيكون في سجوده سابحا في بحر شهوده لم يتخلف

طمعا فى الربح وكذلك فى جميع الامتعة والاموال ثم يحدث لامحالة بين البلاد والقرى تردد فيتردد الناس يشترون من القرى الاطعمة ومن البلاد الآلات وينقلون ذلك ويتعيشون به لتنتظم أمور الناس فى البلاد بسببهم اذ كل بلد ربما لا توجد فيه كل آلة وكل قرية لا يوجد فيها كل طعام فالبعض يحتاج الى البعض فيحوج الى النقل فيحدث التجار المتكفلون بالنقل وباعثهم عليه حرص جمع المال لامحالة فيتعبون طول الليل والنهار فى الاسفار لغرض غيرهم ونصيبهم منها جمع المال الذى يأكله لامحالة غيرهم اما قاطع طريق واما سلطان ظالم ولكن جعل الله تعالى فى غفلتهم وجهلهم نظاما للبلاد ومصلحة للعباد بل جميع أمور الدنيا انتظمت بالغفلة وخسة الهمة ولو عقل الناس وارتفعت هممهم لزهدوا فى الدنيا ولو فعلوا ذلك لبطلت المعايش ولو بطلت لهلكوا ولهلك الزهاد أيضا ثم هذه الاموال التى تنقل لا يقدر الانسان على حملها فتحتاج الى دواب تحملها وصاحب المال قد لا تكون له دابة فتحدث معاملة بينه وبين مالك الدابة تسمى الاجارة ويصير الكراء نوعا من الاكتساب أيضا ثم يحدث بسبب البياعات الحاجة الى النقدين فان من يريد أن يشترى طعاما بثوب فمن أين يدرى المقدار الذى يساويه من الطعام كم هو والمعاملة تجرى فى أجناس مختلفة كما يباع ثوب بطعام وحيوان بثوب وهذه أمور لا تتناسب فلابد من حاكم عدل يتوسط بين المتبايعين يعدل أحدهما بالآخر فيطلب ذلك العدل من أعيان الاموال ثم يحتاج الى مال يطول بقاؤه لان الحاجة اليه تدوم وأبقى الاموال المعادن فاتخذت النقود من الذهب والفضة والنحاس ثم مست الحاجة الى الضرب والنقش والتقدير فمست الحاجة الى دار الضرب والصيارفة وهكذا تتداعى الاشغال والاعمال بعضها الى بعض حتى انتهت الى ما تراه فهذه أشغال الخلق وهى معاشهم وشئ من هذه الحرف لا يمكن مباشرته الا بنوع تعلم وتعب فى الابتداء وفى الناس من يغفل عن ذلك فى الصبا فلا يشتغل به أو يمنعه عنه مانع فيبقى عاجزا عن الاكتساب لعجزه عن الحرف فيحتاج الى أن يأكل مما يسعى فيه غيره فيحدث منه حرفتان خسيستان اللصوصية والكدية اذ يجمعهما أنهما يأكلان من سعى غيرهما ثم الناس يحترزون من اللصوص والمكدين ويحفظون عنهم أموالهم فافتقروا الى صرف عقولهم فى استنباط الحيل والتدابير * أما اللصوص فمنهم من يطلب أعوانا ويكون فى يديه شوكة وقوة فيجتمعون ويتكاثرون ويقطعون الطريق كالاعراب والاكراد * وأما الضعفاء منهم فيفزعون الى الحيل اما بالنقب أو التسلق عند انتهاز فرصة الغفلة واما بأن يكون طرارا أو سلالا الى غير ذلك من أنواع التلصص الحادثة بحسب ما تنتجه الافكار المصروفة الى استنباطها * وأما المكدى فانه اذا طلب ما سعى فيه غيره وقيل له اتعب واعمل كما عمل غيرك فما لك والبطالة فلا يعطى شيأ فافتقروا الى حيلة فى استخراج الاموال وتمهيد العذر لانفسهم فى البطالة فاحتالوا للتعلل بالعجز اما بالحقيقة كجماعة يعمون أولادهم وأنفسهم بالحيلة ليعذروا بالعمى فيعطون واما بالتعامى والتفالج والتجانن والتمارض واظهار ذلك بأنواع من الحيل مع بيان أن ذلك محنة أصابت من غير استحقاق ليكون ذلك سبب الرحمة وجماعة يلتمسون أقوالا وأفعالا يتعجب الناس منها حتى تنبسط قلوبهم عند مشاهدتها فيسخو برفع اليد عن قليل من المال فى حال التعجب ثم قد يندم بعد زوال التعجب ولا ينفع الندم وذلك قد يكون بالتمسخر والمحاكاة والشعبذة والافعال المضحكة وقد يكون بالاشعار الغريبة والكلام المنثور المسجع مع حسن الصوت والشعر الموزون أشد تأثيرا فى النفس لا سيما اذا كان فيه تعصب يتعلق بالمذاهب كأشعار مناقب الصحابة وفضائل أهل البيت أو الذى يحرك داعية العشق من أهل المجانة كصنعة الطبالين فى الاسواق وصنعة ما يشبه العوض وليس بعوض كبيع التعويذات والحشيش الذى يتخيل بائعه أنها أدوية فيخدع بذلك الصبيان والجهال وكأصحاب القرعة والفال من المنجمين ويدخل فى هذا الجنس الوعاظ والمكدون على رؤس المنابر اذا لم يكن وراءهم طائل علمى وكان غرضهم استمالة قلوب العوام وأخذ أموالهم بأنواع الكدية وأنواعها تزيد على ألف نوع وألفين وكل ذلك استنبط بدقيق الفكرة لاجل المعيشة فهذه هى أشغال الخلق وأعمالهم التى أكبوا عليها وجرهم الى ذلك كله الحاجة الى القوت والكسوة ولكنهم نسوا فى أثناء ذلك أنفسهم ومقصودهم ومنقلبهم ومآبهم فتاهوا وضلوا وسبق الى عقولهم الضعيفة بعد أن كدرتها زحمة الاشتغالات بالدنيا خيالات فاسدة فانقسمت مذاهبهم واختلفت آراؤهم على عدة أوجه * فطائفة غلبهم الجهل

منه عن السجود شعرة كما قال سيد البشر فى سجوده سجد لك سوادى وخيالى ولله يسجد من فى السموات والارض طوعا وكرها الطوع للروح والقلب لما فيهما من الاهلية والكره من النفس لما فيها من الاجنبية ويقول فى سجوده سبحان ربى الاعلى ثلاثا الى العشر الذى هو الكمال ويكون فى السجود مفتوح العينين لانهما يسجدان وفى الهوى يضع ركبتيه ثم يديه ثم جبهته وأنفه ويكون ناظرا نحو أرنبة أنفه فى السجود فهو أبلغ فى الخشوع للساجد ويباشر بكفيه المصلى ولا يلفهما فى الثوب ويكون رأسه بين كفيه ويداه حذو منكبيه غير متيامن ومتياسر بهما ويقول بعد التسبيح اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق

والغفلة فلم تنفتح أعينهم للنظر الى عاقبة أمورهم فقالوا المقصود أن نعيش أياما فى الدنيا فنجتهد حتى نكسب القوت ثم نأكل حتى نقوى على الكسب ثم نكسب حتى نأكل فيأكلون ليكسبوا ثم يكسبون ليأكلوا وهذا مذهب الفلاحين والمحترفين ومن ليس له تنعم فى الدنيا ولا قدم فى الدين فانه يتعب نهارا ليأكل ليلا ويأكل ليلا ليتعب نهارا وذلك كسير السوانى فهو سفر لا ينقطع الا بالموت * وطائفة أخرى زعموا أنهم تفطنوا الامر وهو أنه ليس المقصود أن يشقى الانسان بالعمل ولا يتنعم فى الدنيا بل السعادة فى ان يقضى وطره من شهوة الدنيا وهى شهوة البطن والفرج فهؤلاء نسوا أنفسهم وصرفوا هممهم الى اتباع النسوان وجمع لذائذ الاطعمة يأكلون كما تأكل الانعام ويظنون انهم اذا نالوا ذلك فقد أدركوا غاية السعادة فشغلهم ذلك عن الله تعالى وعن اليوم الآخر * وطائفة ظنوا ان السعادة فى كثرة المال والاستغناء بكثرة الكنوز فاسهروا ليلهم وأتعبوا نهارهم فى الجمع فهم يتعبون فى الاسفار طول الليل والنهار ويترددون فى الاعمال الشاقة ويكتسبون ويجمعون ولا يأكلون الا قدر الضرورة شحا وبخلا عليها أن تنقص وهذه لذتهم وفى ذلك دأبهم وحركتهم الى ان يدركهم الموت فيبقى تحت الارض أو يظفر به من يأكله فى الشهوات واللذات فيكون للجامع تعبه ووباله وللآكل لذته ثم الذين يجمعون ينظرون الى أمثال ذلك ولا يعتبرون * وطائفة ظنوا أن السعادة فى حسن الاسم وانطلاق الالسنة بالثناء والمدح بالتجمل والمروءة فهؤلاء يتعبون فى كسب المعاش ويضيقون على أنفسهم فى المطعم والمشرب ويصرفون جميع مالهم الى الملابس الحسنة والدواب النفيسة ويزخرفون أبواب الدور وما يقع عليها أبصار الناس حتى يقال انه غنى وانه ذو ثروة ويظنون أن ذلك هى السعادة فهمتهم فى نهارهم وليلهم فى تعهد موقع نظر الناس * وطائفة أخرى ظنوا أن السعادة فى الجاه والكرامة بين الناس وانقياد الخلق بالتواضع والتوقير فصرفوا هممهم الى استجرار الناس الى الطاعة بطلب الولايات وتقلد الاعمال السلطانية لينفذ أمرهم بها على طائفة من الناس ويرون أنهم اذا اتسعت ولايتهم وانقادت لهم رعاياهم فقد سعدوا سعادة عظيمة وأن ذلك غاية المطلب وهذا أغلب الشهوات على قلوب الغافلين من الناس فهؤلاء شغلهم حب تواضع الناس لهم عن التواضع لله وعن عبادته وعن التفكر فى آخرتهم ومعادهم * ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها تزيد على نيف وسبعين فرقة كلهم قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل وانما جرهم الى جميع ذلك حاجة المطعم والملبس والمسكن ونسوا ما تراد له هذه الامور الثلاثة والقدر الذى يكفى منها وانجرت بهم أوائل أسبابها الى أواخرها وتداعى بهم ذلك الى مهاو لم يمكنهم الرقى منها فمن عرف وجه الحاجة الى هذه الاسباب والاشغال وعرف غاية المقصود منها فلا يخوض فى شغل وحرفة وعمل الا وهو عالم بمقصوده وعالم بحظه ونصيبه منه وأن غاية مقصوده تعهد بدنه بالقوت والكسوة حتى لا يهلك وذلك ان سلك فيه سبيل التقليل اندفعت الاشغال عنه وفرغ القلب وغلب عليه ذكر الآخرة وانصرفت الهمة الى الاستعداد له وان تعدى به قدر الضرورة كثرت الاشغال وتداعى البعض الى البعض وتسلسل الى غير نهاية فتتشعب به الهموم ومن تشعبت به الهموم فى أودية الدنيا فلا يبالى الله فى أى واد أهلكه منها فهذا شأن المنهمكين فى أشغال الدنيا وتنبه لذلك طائفة فأعرضوا عن الدنيا فحسدهم الشيطان ولم يتركهم وأضلهم فى الاعراض أيضا حتى انقسموا الى طوائف فظنت طائفة أن الدنيا دار بلاء ومحنة والآخرة دار سعادة لكل من وصل اليها سواء تعبد فى الدنيا أو لم يتعبد فرأوا أن الصواب فى أن يقتلوا أنفسهم للخلاص من محنة الدنيا واليه ذهب طوائف من العباد من أهل الهند فهم يتهجمون على النار ويقتلون أنفسهم بالاحراق ويظنون أن ذلك خلاص لهم من محن الدنيا وظنت طائفة أخرى أن القتل لا يخلص بل لا بد أولا من اماتة الصفات البشرية وقطعها عن النفس بالكلية وأن السعادة فى قطع الشهوة والغضب ثم أقبلوا على المجاهدة وشددوا على أنفسهم حتى هلك بعضهم بشدة الرياضة وبعضهم فسد عقله وجن وبعضهم مرض وانسد عليه الطريق فى العبادة وبعضهم عجز عن قمع الصفات بالكلية فظن أن ما كلفه الشرع محال وأن الشرع تلبيس لا أصل له فوقع فى الالحاد وظهر لبعضهم ان هذا التعب كله لله وان الله تعالى مستغن عن عبادة العباد لا ينقصه عصيان عاص ولا تزيده عبادة متعبد فعادوا الى الشهوات وسلكوا مسلك الاباحة وطووا بساط الشرع

سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين وروى أمير المؤمنين على رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى سجوده ذلك وان قال سبوح قدوس رب الملائكة والروح فحسن روت عائشة رضى الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى سجوده ذلك ويجافى مرفقيه عن جنبيه ويوجه أصابعه فى السجود نحو القبلة ويضم أصابعه كفيه مع الابهام ولا يفرش ذراعيه على الارض ثم يرفع رأسه مكبرا ويجلس على رجله اليسرى وينصب اليمنى موجها بالاصابع الى القبلة ويضع اليدين على الفخذين من غير تكلف ضمهما وتفريجهما ويقول رب اغفر لى وارحمنى واهدنى واجبرنى وعافنى واعف عنى ولا يطيل هذه الجلسة فى الفريضة أما فى النافلة فلا بأس مهما أطال قائلا

والاحكام وزعموا أن ذلك من صفاء توحيدهم حيث اعتقدوا أن الله مستغن عن عبادة العباد وظن طائفة أن المقصود من العبادات المجاهدة حتى يصل العبد بها الى معرفة الله تعالى فاذا حصلت المعرفة فقد وصل وبعد الوصول يستغنى عن الوسيلة والحيلة فتركوا السعي والعبادة وزعموا انه ارتفع محلهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتهنوا بالتكاليف وانما التكليف على عوام الخلق ووراء هذا مذاهب باطلة وضلالات هائلة يطول احصاؤها الى ما يبلغ نيفا وسبعين فرقة وانما الناجي منها فرقة واحدة وهي السالكة ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن لا يترك الدنيا بالكلية ولا يقمع الشهوات بالكلية اما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد واما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل ولا يتبع كل شهوة ولا يترك كل شهوة بل يتبع العدل ولا يترك كل شئ من الدنيا ولا يطلب كل شئ من الدنيا بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ويحفظه على حد مقصوده فيأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة ومن المسكن ما يحفظ على اللصوص والحر والبرد ومن الكسوة كذلك حتى اذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله تعالى بكنه همته واشتغل بالذكر والفكر طول العمر وبقي ملازما لسياسة الشهوات ومراقبا لها حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى ولا يعلم تفصيل ذلك الا بالاقتداء بالفرقة الناجية وهم الصحابة فانه عليه السلام لما قال الناجي منها واحدة قالوا يا رسول الله ومن هم قال أهل السنة والجماعة فقيل ومن أهل السنة والجماعة قال ما أنا عليه وأصحابي وقد كانوا على النهج القصد وعلى السبيل الواضح الذي فصلناه من قبل فانهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية وما كان لهم في الامور تفريط ولا افراط بل كان أمرهم بين ذلك قواما وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين وهو أحب الامور الى الله تعالى كما سبق ذكره في مواضع والله أعلم تم كتاب ذم الدنيا والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

(كتاب ذم البخل وذم حب المال وهو الكتاب السابع من ربع المهلكات من كتب احياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله مستوجب الحمد برزقه المبسوط * وكاشف الضر بعد القنوط * الذي خلق الخلق * ووسع الرزق * وأفاض على العالمين أصناف الاموال * وابتلاهم فيها بتقلب الاحوال * ورددهم فيها بين العسر واليسر والغنى والفقر والطمع واليأس والثروة والافلاس والعجز والاستطاعة والحرص والقناعة والبخل والجود والفرح بالموجود والاسف على المفقود والايثار والانفاق والتوسع والاملاق والتبذير والتقتير والرضا بالقليل واستحقار الكثير كل ذلك ليبلوهم أيهم أحسن عملا وينظر أيهم آثر الدنيا على الآخرة بدلا وابتغى عن الآخرة عدولا وحولا واتخذ الدنيا ذخيرة وخولا والصلاة على محمد الذي نسخ بملته مللا وطوى بشرعه أديانا ونحلا وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا سبيل ربهم ذللا وسلم تسليما كثيرا (أما بعد) فان فتن الدنيا كثيرة الشعب والاطراف واسعة الارجاء والاكناف ولكن الاموال أعظم فتنها وأطم محنها وأعظم فتنة فيها أنه لا غنى لاحد عنها ثم اذا وجدت فلا سلامة منها فان فقد المال حصل منه الفقر الذي يكاد أن يكون كفرا وان وجد حصل منه الطغيان الذي لا تكون عاقبة أمره الا خسرا وبالجملة فهي لا تخلو من الفوائد والآفات وفوائدها من المنجيات وآفاتها من المهلكات وتمييز خيرها عن شرها من المعوصات التي لا يقوى عليها الا ذوو البصائر في الدين من العلماء الراسخين دون المترسمين المغترين وشرح ذلك مهم على الانفراد فان ما ذكرناه في كتاب ذم الدنيا لم يكن نظرا في المال خاصة بل في الدنيا عامة اذ الدنيا تتناول كل حظ عاجل والمال بعض أجزاء الدنيا والجاه بعضها واتباع شهوة البطن والفرج بعضها وتشفي الغيظ بحكم الغضب والحسد بعضها والكبر وطلب العلو بعضها ولها أبعاض كثيرة ويجمعها كل ما كان للانسان فيه حظ عاجل ونظرنا الآن في هذا الكتاب في المال وحده اذ فيه آفات وغوائل وللانسان من فقده صفة الفقر ومن وجوده وصف الغنى وهما حالتان يحصل بهما الاختبار والامتحان ثم للفاقد حالتان القناعة والحرص واحداهما مذمومة والاخرى محمودة وللحريص حالتان طمع فيما في أيدي الناس وتشمر للحرف والصناعات مع اليأس عن الخلق والطمع شر الحالتين وللواجد حالتان امساك بحكم

رب اغفر وارحم مكررا ذلك ثم يسجد السجدة الثانية مكبرا ويكره الاقعاء في القعود وهو ههنا أن يضع أليتيه على عقبيه ثم اذا أراد النهوض الى الركعة الثانية يجلس جلسة خفيفة للاستراحة ويفعل في بقية الركعات هكذا ثم يتشهد وفي الصلاة سر المعراج وهو معراج القلوب والتشهد مقر الوصول بعد قطع مسافات الهيآت على تدريج طبقات السموات والتحيات سلام على رب البريات فليذهن لما يقول ويتأدب مع من يقول ويدر كيف يقول ويسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ويمثله بين عيني قلبه ويسلم على عباد الله الصالحين فلا يبقى عبد في السماء ولا في الارض من عباد الله الا ويسلم عليه بالنسبة الروحية والخاصية القطرية ويضع يده اليمنى على فخذه اليمنى

البخل والشح والانفاق واحداهما مذمومة والاخرى محمودة وللمنفق حالتان تبذير واقتصاد والمحمود هو
الاقتصاد وهذه أمور متشابهة وكشف الغطاء عن الغموض فيها مهم ونحن نشرح ذلك في أربعة عشر فصلا
ان شاء الله تعالى وهو بيان ذم المال ثم مدحه ثم تفصيل فوائد المال وآفاته ثم ذم الحرص والطمع ثم علاج
الحرص والطمع ثم فضيلة السخاء ثم حكايات الاسخياء ثم ذم البخل ثم حكايات البخلاء ثم الايثار وفضله ثم حد
السخاء والبخل ثم علاج البخل ثم مجموع الوظائف في المال ثم ذم الغنى ومدح الفقر ان شاء الله تعالى

(بيان ذم المال وكراهة حبه)

قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون
وقال تعالى انما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم فمن اختار ماله وولده على ما عند الله فقد خسر وغبن
خسرانا عظيما وقال عز وجل من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها الآية وقال تعالى ان الانسان ليطغى أن رآه
استغنى فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وقال تعالى ألهاكم التكاثر * وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
حب المال والشرف ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل وقال صلى الله عليه وسلم ما ذئبان ضاريان أرسلا
في زريبة غنم بأكثر افسادا فيها من حب الشرف والمال والجاه في دين الرجل المسلم وقال صلى الله عليه وسلم هلك
المكثرون الا من قال به في عباد الله هكذا وهكذا وقليل ما هم وقيل يا رسول الله أي أمتك شر قال الاغنياء وقال
صلى الله عليه وسلم سيأتي بعدكم قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها ويركبون فره الخيل وألوانها وينكحون
أجمل النساء وألوانها ويلبسون أجمل الثياب وألوانها لهم بطون من القليل لا تشبع وأنفس بالكثير لا تقنع
عاكفين على الدنيا يغدون ويروحون اليها اتخذوها آلهة من دون الههم وربا دون ربهم الى أمرها ينتهون
ولهواهم يتبعون فعزيمة من محمد بن عبد الله لمن أدركه ذلك الزمان من عقب عقبكم وخلف خلفكم أن لا يسلم
عليهم ولا يعود مرضاهم ولا يتبع جنائزهم ولا يوقر كبيرهم فمن فعل ذلك فقد أعان على هدم الاسلام وقال صلى
الله عليه وسلم دعوا الدنيا لأهلها من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر وقال صلى الله عليه وسلم
يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك الا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت وقال رجل
يا رسول الله مالي لا أحب الموت فقال هل معك من مال قال نعم يا رسول الله قال قدم مالك فان قلب المؤمن مع ماله ان
قدمه أحب أن يلحقه وان خلفه أحب أن يتخلف معه وقال صلى الله عليه وسلم أخلاء ابن آدم ثلاثة واحد يتبعه الى
قبض روحه والثاني الى قبره والثالث الى محشره فالذي يتبعه الى قبض روحه فهو ماله والذي يتبعه الى قبره فهو
أهله والذي يتبعه الى محشره فهو عمله وقال الحواريون لعيسى عليه السلام مالك تمشي على الماء ولا نقدر على ذلك
فقال لهم ما منزلة الدينار والدرهم عندكم قالوا حسنة قال لكنهما والمدر عندي سواء وكتب سلمان الفارسي الى
أبي الدرداء رضي الله عنهما يا أخي اياك أن تجمع من الدنيا ما لا تؤدي شكره فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول يجاء بصاحب الدنيا الذي أطاع الله فيها وماله بين يديه كلما تكفأ به الصراط قال له ماله امض فقد
أديت حق الله في ثم يجاء بصاحب الدنيا الذي لم يطع الله فيها وماله بين كتفيه كلما تكفأ به الصراط قال له ماله
ويلك ألا أديت حق الله في فما يزال كذلك حتى يدعو بالويل والثبور وكل ما أوردناه في كتاب الزهد والفقر في
ذم الغنى ومدح الفقر يرجع جميعه الى ذم المال فلا نطول بتكريره وكذا كل ما ذكرناه في ذم الدنيا فيتناول ذم
المال بحكم العموم لأن المال أعظم أركان الدنيا وانما نذكر الآن ما ورد في المال خاصة قال صلى الله عليه وسلم
اذا مات العبد قالت الملائكة ما قدم وقال الناس ما خلف وقال صلى الله عليه وسلم لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا

(الآثار) روي ان رجلا نال من أبي الدرداء وأراه سوأ فقال اللهم من فعل بي سوأ فأصح جسمه وأطل عمره
وأكثر ماله فانظر كيف رأى كثرة المال غاية البلاء مع صحة الجسم وطول العمر لأنه لا بد وأن يفضي الى الطغيان
ووضع علي كرم الله وجهه درهما على كفه ثم قال أما انك ما لم تخرج عني لا تنفعني وروي أن عمر رضي الله عنه
أرسل الى زينب بنت جحش بعطائها فقالت ما هذا قالوا أرسل اليك عمر بن الخطاب قالت غفر الله له ثم حلت سترا
كان لها فقطعته وجعلته صررا وقسمته في أهل بيتها ورحمها وأيتامها ثم رفعت يديها وقالت اللهم لا يدركني عطاء

مقبوضة الاصابع الا
المسبحة ورفع المسبحة في
الشهادة في الا الله لا في
كلمة النفي ولا يرفعها
منتصبة بل مائلة رأسها
الى الفخذ منطوية فهذه
هيئة خشوع المسبحة
دليل سراية خشوع
القلب اليها ويدعو في
آخر صلاته لنفسه
وللمؤمنين وان كان اماما
ينبغي أن لا ينفرد بالدعاء
بل يدعو لنفسه ولمن
وراءه فان الامام المتيقظ
في الصلاة كحاجب دخل
على سلطان ووراءه
أصحاب الحوائج يسأل
لهم ويعرض حاجاتهم
والمؤمنون كالبنيان
يشد بعضه بعضا
وبهذا وصفهم الله تعالى
في كلامه بقوله سبحانه
كأنهم بنيان مرصوص
وفي وصف هذه الامة في
الكتب السالفة صفهم
في صلاتهم كصفهم في
قتالهم (حدثنا) بذلك
شيخنا ضياء الدين أبو
النجيب السهروردي
املاء قال أنا أبو عبد

عمر بعد عامى هذا فكانت أول نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوقا به وقال الحسن والله ما أعز الدرهم أحد الا أذله الله وقيل ان أول ما ضرب الدينار والدرهم رفعهما ابليس ثم وضعهما على جبهته ثم قبلهما وقال من أحبكما فهو عبدى حقا وقال سميط بن عجلان ان الدراهم والدنانير أزمة المنافقين يقادون بها الى النار وقال يحيى بن معاذ الدرهم عقرب فان لم تحسن رقيته فلا تأخذه فانه ان لدغك قتلك سمه قيل وما رقيته قال أخذه من حله ووضعه فى حقه وقال العلاء بن زياد تمثلت لى الدنيا وعليها من كل زينة فقلت أعوذ بالله من شرك فقالت ان سرك أن يعيذك الله منى فابغض الدرهم والدينار وذلك لان الدرهم والدينار هما الدنيا كلها اذ يتوصل بهما الى جميع أصنافها فمن صبر عنهما صبر عن الدنيا وفى ذلك قيل

انى وجدت فلا تظنوا غيره * أن التورع عند هذا الدرهم

فاذا قدرت عليه ثم تركته * فاعلم بان تقاك تقوى المسلم

وفى ذلك قيل أيضا

لا يغرنك من المر * ء قميص رقعه * أو ازار فوق عظم الســاق منه رفعه

أو جبين لاح فيه * أثر قد خلعه * أره الدرهم تعرف * حبه أو ورعه

و يروى عن مسلمة بن عبد الملك انه دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند موته فقال يا أمير المؤمنين صنعت صنيعا لم يصنعه أحد قبلك تركت ولدك ليس لهم درهم ولا دينار وكان له ثلاثة عشر من الولد فقال عمر أقعدونى فأقعدوه فقال أما قولك لم أدع لهم دينارا ولا درهما فانى لم أمنعهم حقا لهم ولم أعطهم حقا لغيرهم وانما ولدى أحد رجلين اما مطيع لله فالله كافيه والله يتولى الصالحين واما عاص لله فلا أبالى على ما وقع وروى أن محمد بن كعب القرظى أصاب مالا كثيرا فقيل له لو ادخرته لولدك من بعدك قال لا ولكنى أدخره لنفسى عند ربى وأدخر ربى لولدى ويروى أن رجلا قال لابى عبد ربه يا أخى لا تذهب بشر وتترك أولادك بخير فأخرج أبو عبد ربه من ماله مائة ألف درهم وقال يحيى بن معاذ مصيبتان لم يسمع الاولون والآخرون بمثلهما للعبد فى ماله عند موته قيل وما هما قال يؤخذ منه كله و يسئل عنه كله

(بيان مدح المال والجمع بينه و بين الذم)

اعلم أن الله تعالى قد سمى المال خيرا فى مواضع من كتابه العزيز فقال جل وعز ان ترك خيرا الآية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم المال الصالح للرجل الصالح وكل ما جاء فى ثواب الصدقة والحج فهو ثناء على المال اذ لا يمكن الوصول اليهما الا به وقال تعالى ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وقال تعالى ممتنا على عباده ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا وقال صلى الله عليه وسلم كاد الفقر أن يكون كفرا وهو ثناء على المال ولا تقف على وجه الجمع بعد الذم والمدح الا بان تعرف حكمة المال ومقصوده وآفاته وغوائله حتى ينكشف لك انه خير من وجه وشر من وجه وانه محمود من حيث هو خير ومذموم من حيث هو شر فانه ليس بخير محض ولا هو شر محض بل هو سبب للامرين جميعا وما هذا وصفه فيمدح لا محالة تارة و يذم أخرى ولكن البصير المميز يدرك أن المحمود منه غير المذموم وبيانه بالاستمداد مما ذكرناه فى كتاب الشكر من بيان الخيرات وتفصيل درجات النعم والقدر المقنع فيه هو أن مقصد الاكياس وأرباب البصائر سعادة الآخرة التى هى النعيم الدائم والملك المقيم والقصد الى هذا دأب الكرام والاكياس اذ قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس وأكيسهم فقال أكثرهم للموت ذكرا وأشدهم له استعدادا وهذه السعادة لا تنال الا بثلاث وسائل فى الدنيا وهى الفضائل النفسية كالعلم وحسن الخلق والفضائل البدنية كالصحة والسلامة والفضائل الخارجة عن البدن كالمال وسائر الاسباب وأعلاها النفسية ثم البدنية ثم الخارجة فالخارجة أخسها والمال من جملة الخارجات وأدناها الدراهم والدنانير فهما خادمان ولا خادم لهما ومرادان لغيرهما ولا يرادان لذاتهما اذ النفس هى الجوهر النفيس المطلوب سعادتها وانها تخدم العلم والمعرفة ومكارم الاخلاق لتحصلها صفة فى ذاتها والبدن يخدم النفس بواسطة الحواس والاعضاء والمطاعم والملابس تخدم البدن وقد سبق أن المقصود من المطاعم ابقاء البدن ومن المناكح ابقاء النسل ومن البدن تكميل النفس وتزكيتها وتزيينها بالعلم والخلق ومن عرف هذا الترتيب فقد عرف قدر

الرحمن محمد بن عيسى بن شعيب المالينى قال أنا أبو الحسن عبد الرحمن ابن محمد المظفر الواعظ قال أنا أبو محمد عبد الله ابن أحمد السرخسى قال أنا أبو عمران عيسى بن عمر بن العباس السمرقندى قال أنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى قال أنا مجاهد بن موسى قال ثنا معن هو ابن عيسى انه سأل كعب الاحبار كيف تجد نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة قال نجد محمد بن عبد الله يولد بمكة ويهاجر لطيبة ويكون ملكه بالشام وليس بفحاش ولا سخاب فى الاسواق ولا يكافئ بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر أمته الحامدون يحمدون الله فى كل سراء ويكبرون الله على كل نجد يوضئون أطرافهم ويأتزرون فى أوساطهم يصفون فى صلاتهم كما يصفون فى قتالهم دويهم فى

المال ووجه شرفه وانه من حيث هو ضرورة المطاعم والملابس التي هي ضرورة بقاء البدن الذي هو ضرورة كمال النفس الذي هو خير ومن عرف فائدة الشئ وغايته ومقصده واستعمله لتلك الغاية ملتفتا اليها غير ناس لها فقد أحسن وانتفع وكان ما حصل له الغرض محمودا في حقه فاذا المال آلة ووسيلة الى مقصود صحيح ويصلح أن يتخذ آلة ووسيلة الى مقاصد فاسدة وهي المقاصد الصادة عن سعادة الآخرة وتسد سبيل العلم والعمل فهو اذا محمود مذموم محمود بالاضافة الى المقصد المحمود ومذموم بالاضافة الى المقصد المذموم فمن أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر كما ورد به الخبر ولما كانت الطباع مائلة الى اتباع الشهوات القاطعة لسبيل الله وكان المال مسهلا لها وآلة اليها عظم الخطر فيما يزيد على قدر الكفاية فاستعاذ الانبياء من شره حتى قال نبينا عليه الصلاة والسلام اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا فلم يطلب من الدنيا الا ما يمحض خيره وقال اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين واستعاذ ابراهيم صلى الله عليه وسلم فقال واجنبني وبني أن نعبد الاصنام وعنى بهما هذين الحجرين الذهب والفضة اذ رتبة النبوة أجل من أن يخشى عليها أن تعتقد الالهية في شئ من هذه الحجارة اذ قد كفي قبل النبوة عبادتها مع الصغر وانما معنى عبادتهما حبهما والاغترار بهما والركون اليهما قال نبينا صلى الله عليه وسلم تعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم تعس ولا انتعش واذا شيك فلا انتقش فبين أن محبهما عابد لهما ومن عبد حجرا فهو عابد صنم بل كل من كان عبدا لغير الله فهو عابد صنم أي من قطعه ذلك عن الله تعالى وعن أداء حقه فهو كعابد صنم وهو شرك الا أن الشرك شركان شرك خفي لا يوجب الخلود في النار وقلما ينفك عنه المؤمنون فانه أخفى من دبيب النمل وشرك جلي يوجب الخلود في النار نعوذ بالله من الجميع

(بيان تفصيل آفات المال وفوائده)

اعلم أن المال مثل حية فيها سم وترياق ففوائده ترياقه وغوائله سمومه فمن عرف غوائله وفوائده أمكنه أن يحترز من شره ويستدر من خيره (أما الفوائد) فهي تنقسم الى دنيوية ودينية أما الدنيوية فلا حاجة الى ذكرها فان معرفتها مشهورة مشتركة بين أصناف الخلق ولولا ذلك لم يتهالكوا على طلبها وأما الدينية فتنحصر جميعها في ثلاثة أنواع (النوع الاول) أن ينفقه على نفسه اما في عبادة أو في الاستعانة على عبادة أما في العبادة فهو كالاستعانة به على الحج والجهاد فانه لا يتوصل اليهما الا بالمال وهما من أمهات القربات والفقير محروم من فضلهما وأما فيما يقويه على العبادة فذلك هو المطعم والملبس والمسكن والمنكح وضرورات المعيشة فان هذه الحاجات اذا لم تتيسر كان القلب مصروفا الى تدبيرها فلا يتفرغ للدين وما لا يتوصل الى العبادة الا به فهو عبادة فأخذ الكفاية من الدنيا لاجل الاستعانة على الدين من الفوائد الدينية ولا يدخل في هذا التنعم والزيادة على الحاجة فان ذلك من حظوظ الدنيا فقط (النوع الثاني) ما يصرفه الى الناس وهو أربعة أقسام الصدقة والمروءة ووقاية العرض وأجرة الاستخدام * أما الصدقة فلا يخفى ثوابها وانها لتطفئ غضب الرب تعالى وقد ذكرنا فضلها فيما تقدم * وأما المروءة فنعني بها صرف المال الى الاغنياء والاشراف في ضيافة وهدية واعانة وما يجري مجراها فان هذه لا تسمى صدقة بل الصدقة ما يسلم الى المحتاج الا أن هذا من الفوائد الدينية اذ به يكتسب العبد الاخوان والاصدقاء وبه يكتسب صفة السخاء ويلتحق بزمرة الاسخياء فلا يوصف بالجود الا من يصطنع المعروف ويسلك سبيل المروءة والفتوة وهذا أيضا مما يعظم الثواب فيه فقد وردت أخبار كثيرة في الهدايا والضيافات واطعام الطعام من غير اشتراط الفقر والفاقة في مصارفها * وأما وقاية العرض فنعني به بذل المال لدفع هجو الشعراء وثلب السفهاء وقطع ألسنتهم ودفع شرهم وهو أيضا مع تنجز فائدته في العاجلة من الحظوظ الدينية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما وقى به المرء عرضه كتب له به صدقة وكيف لا وفيه منع المغتاب عن معصية الغيبة واحتراز عما يثور من كلامه من العداوة التي تحمل في المكافأة والانتقام على مجاوزة حدود الشريعة * وأما الاستخدام فهو أن الاعمال التي يحتاج اليها الانسان لتهيئة أسبابه كثيرة ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته وتعذر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر والذكر الذي هو أعلى مقامات السالكين ومن لا مال له فيفتقر الى أن يتولى بنفسه خدمة نفسه من شراء الطعام وطحنه وكنس البيت حتى نسخ الكتاب الذي يحتاج اليه وكل ما يتصور

مساجدهم كدوي النحل يسمع مناديهم في جو السماء فالامام في الصلاة مقدمة الصف في محاربة الشيطان فهو أولى المصلين بالخشوع والاتيان بوظائف الادب ظاهرا وباطنا والمصلون المتيقظون كلما اجتمعت ظواهرهم تجتمع بواطنهم وتتناصر وتتعاضد وتسري من البعض الى البعض أنوار وبركات بل جميع المسلمين المصلين في أقطار الارض بينهم تعاضد وتناصر بحسب القلوب ونسب الاسلام ورابطة الايمان بل عدهم الله تعالى بالملائكة الكرام كما أمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة المسومين فاحتياجهم الى محاربة الشيطان أمس من حاجاتهم الى محاربة الكفار ولهذا كان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر فتتداركهم

أن يقوم به غيرك ويحصل به غرضك فأنت متعوب اذ اشتغلت به اذ عليك من العلم والعمل والذكر والفكر مالا يتصور أن يقوم به غيرك فتضييع الوقت في غيره خسران *(النوع الثالث)* مالا يصرفه الى انسان معين ولكن يحصل به خير عام كبناء المساجد والقناطر والرباطات ودور المرضى ونصب الحباب في الطريق وغير ذلك من الاوقاف المرصدة للخيرات وهي من الخيرات المؤبدة الدارة بعد الموت المستجلبة بركة أدعية الصالحين الى أوقات متمادية وناهيك بها خيرا فهذه جملة فوائد المال في الدين سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر والوصول الى العز والمجد بين الخلق وكثرة الاخوان والاعوان والاصدقاء والوقار والكرامة في القلوب فكل ذلك مما يقتضيه المال من الحظوظ الدنيوية *(وأما الآفات)* فدينية ودنيوية أما الدينية فثلاث (الاولى) أن تجر الى المعاصي فان الشهوات متفاضلة والعجز قد يحول بين المرء والمعصية ومن العصمة أن لا يجد ومهما كان الانسان آيسا عن نوع من المعصية لم تتحرك داعيته فاذا استشعر القدرة عليها انبعثت داعيته والمال نوع من القدرة يحرك داعية المعاصي وارتكاب الفجور فان اقتحم ما اشتهاه هلك وان صبر وقع في شدة اذ الصبر مع القدرة أشد وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء (الثانية) انه يجر الى التنعم في المباحات وهذا أول الدرجات فتى يقدر صاحب المال على أن يتناول خبز الشعير ويلبس الثوب الخشن ويترك لذائذ الاطعمة كما كان يقدر عليه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام في ملكه فأحسن أحواله أن يتنعم بالدنيا ويمرن عليها نفسه فيصير التنعم مألوفا عنده ومحبوبا لا يصبر عنه ويجره البعض منه الى البعض فاذا اشتد أنسه به ربما لا يقدر على التوصل اليه بالكسب الحلال فيقتحم الشبهات ويخوض في المراآة والمداهنة والكذب والنفاق وسائر الاخلاق الرديئة لينتظم له أمر دنياه ويتيسر له تنعمه فان من كثر ماله كثرت حاجته الى الناس ومن احتاج الى الناس فلابد وأن ينافقهم ويعصي الله في طلب رضاهم فان سلم الانسان من الآفة الاولى وهي مباشرة الحظوظ فلا يسلم عن هذه أصلا ومن الحاجة الى الخلق تثور العداوة والصداقة وينشأ عنها الحسد والحقد والرياء والكبر والكذب والنميمة والغيبة وسائر المعاصي التي تخص القلب واللسان ولا تخلو عن التعدي أيضا الى سائر الجوارح وكل ذلك يلزم من شؤم المال والحاجة الى حفظه واصلاحه (الثالثة) وهي التي لا ينفك عنها أحد وهو أنه يلهيه اصلاح ماله عن ذكر الله تعالى وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران ولذلك قال عيسى عليه الصلاة والسلام في المال ثلاث آفات أن يأخذه من غير حله فقيل ان أخذه من حله فقال يضعه في غير حقه فقيل ان وضعه في حقه فقال يشغله اصلاحه عن الله تعالى وهذا هو الداء العضال فان أصل العبادات ومخها وسرها ذكر الله والتفكر في جلاله وذلك يستدعي قلبا فارغا وصاحب الضيعة يمسي ويصبح متفكرا في خصومة الفلاح ومحاسبته وفي خصومة الشركاء ومنازعتهم في الماء والحدود وخصومة أعوان السلطان في الخراج وخصومة الاجراء على التقصير في العمارة وخصومة الفلاحين في خيانتهم وسرقتهم وصاحب التجارة يكون متفكرا في خيانة شريكه وانفراده بالربح وتقصيره في العمل وتضييعه المال وكذلك صاحب المواشي وهكذا سائر أصناف الاموال وأبعدها عن كثرة الشغل النقد المكنوز تحت الارض ولا يزال الفكر مترددا فيما يصرف اليه وفي كيفية حفظه وفي الخوف مما يعثر عليه وفي دفع أطماع الناس عنه وأودية أفكار الدنيا لا نهاية لها والذي معه قوت يومه في سلامة من جميع ذلك فهذه جملة الآفات الدنيوية سوى ما يقاسيه أرباب الاموال في الدنيا من الخوف والحزن والغم والهم والتعب في دفع الحساد وتجشم المصاعب في حفظ المال وكسبه فاذا ترياق المال أخذ القوت منه وصرف الباقي الى الخيرات وما عدا ذلك سموم وآفات نسأل الله تعالى السلامة وحسن العون بلطفه وكرمه انه على ذلك قدير

(بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس مما في أيدي الناس)

اعلم أن الفقر محمود كما أوردناه في كتاب الفقر ولكن ينبغي ان يكون الفقير قانعا منقطع الطمع عن الخلق غير ملتفت الى ما في أيديهم ولا حريصا على اكتساب المال كيف كان ولا يمكنه ذلك الا بان يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس والمسكن ويقتصر على أقله قدرا وأخسه نوعا ويرد أمله الى يومه أو الى شهره ولا يشغل قلبه بما بعد شهر فان تشوق الى الكثير أو طول أمله فاته عز القناعة وتدنس لا محالة بالطمع وذل الحرص وجره الحرص

الاملاك بل بانفاسهم الصادقة تماسك الافلاك * فاذا أراد الخروج من الصلاة يسلم عن يمينه وينوي مع التسليم الخروج من الصلاة والسلام على الملائكة والحاضرين من المؤمنين ومؤمني الجن ويجعل خده مبينا لمن على يمينه بالوراء عنقه ويفصل بين هذا السلام والسلام عن يساره فقد ورد النهي عن المواصلة والمواصلة خمس اثنتان تختص بالامام وهو ان لا يوصل القراءة بالتكبير والركوع بالقراءة واثنتان على المأموم وهو ان لا يوصل تكبيرة الاحرام بتكبيرة الامام ولا تسليمه بتسليمه وواحدة على الامام والمأمومين وهو ان لا يوصل تسليم الفرض بتسليم النفل ويجزم التسليم ولا يمد مدا ثم يدعو بعد التسليم بما شاء من أمر دينه ودنياه ويدعو

والطمع الى مساوى الاخلاق وارتكاب المنكرات الخارقة للمروآت وقد جبل الآدمى على الحرص والطمع وقلة القناعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب وعن أبي واقد الليثى قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أوحى اليه أتيناه يعلمنا مما أوحى اليه فجئته ذات يوم فقال ان الله عز وجل يقول انا أنزلنا المال لاقام الصلاة وايتاء الزكاة ولو كان لابن آدم واد من ذهب لاحب أن يكون له ثان ولو كان له الثانى لاحب أن يكون لهما ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب وقال أبو موسى الاشعرى نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها ان الله يؤيد هذا الدين باقوام لاخلاق لهم ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب وقال صلى الله عليه وسلم منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال وقال صلى الله عليه وسلم يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان الامل وحب المال أو كما قال ولما كانت هذه جبلة للآدمى مضلة وغريزة مهلكة أثنى الله تعالى ورسوله على القناعة فقال صلى الله عليه وسلم طوبى لمن هدى للاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به وقال صلى الله عليه وسلم مامن أحد فقير ولا غنى الا ود يوم القيامة أنه كان أوتى قوتا فى الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم ليس الغنى عن كثرة العرض انما الغنى غنى النفس ونهى عن شدة الحرص والمبالغة فى الطلب فقال ألا أيها الناس أجملوا فى الطلب فانه ليس لعبد الا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهى راغمة وروى أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى فقال أى عبادك أغنى قال أقنعهم بما أعطيته قال فأيهم أعدل قال من أنصف من نفسه وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان روح القدس نفث فى روعى ان نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب وقال أبو هريرة قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أباهريرة اذا اشتد بك الجوع فعليك برغيف وكوز من ماء وعلى الدنيا الدمار وقال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كن ورعا تكن أعبد الناس وكن قنعا تكن أشكر الناس وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطمع فيما رواه أبو أيوب الانصارى أن اعرابيا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله عظنى وأوجز فقال اذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه غدا واجمع اليأس مما فى أيدى الناس وقال عوف بن مالك الاشجعى كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال ألا تبايعون رسول الله قلنا أوليس قد بايعناك يارسول الله ثم قال ألا تبايعون رسول الله فبسطنا أيدينا فبايعناه فقال قائل منا قد بايعناك فعلى ماذا نبايعك قال أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيأ وتصلوا الخمس وان تسمعوا وتطيعوا وأسر كلمة خفية ولا تسألوا الناس شيأ قال فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه فلا يسأل أحدا أن يناوله اياه (الآثار) قال عمر رضى الله عنه ان الطمع فقر وان اليأس غنى وانه من ييأس عما فى أيدى الناس استغنى عنهم وقيل لبعض الحكماء ما الغنى قال قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك وفى ذلك قيل

العيش ساعات تمر * وخطوب أيام تكر * اقنع بعيشك ترضه
واترك هواك تعيش حر * فلرب حتف ساقه * ذهب وياقوت ودر

وكان محمد بن واسع يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول من قنع بهذا لم يحتج الى أحد وقال سفيان خير دنياكم مالم تبتلوا به وخير ما ابتليتم به ما خرج من أيديكم وقال ابن مسعود ما من يوم الا وملك ينادى يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك وقال سميط بن عجلان انما بطنك يا ابن آدم شبر فى شبر فلم يدخلك النار وقيل لحكيم ما مالك قال التجمل فى الظاهر والقصد فى الباطن واليأس مما فى أيدى الناس وروى ان الله عز وجل قال يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها الا القوت واذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا اليك محسن وقال ابن مسعود اذا طلب أحدكم الحاجة فليطلبها طلبا يسيرا ولا يأتى الرجل فيقول انك وانك فيقطع ظهره فانما يأتيه ما قسم له من الرزق أو ما رزق وكتب بعض بنى أمية الى أبى حازم يعزم عليه الا رفع اليه حوائجه فكتب اليه قد رفعت حوائجى الى مولاى فما أعطانى منها قبلت وما أمسك عنى قنعت وقيل لبعض

قبل التسليم أيضا فى عقاب الصلاة فانه يستجاب ومن أقام الصلوات الخمس فى جماعة فقد ملأ البر والبحر عبادة وكل المقامات والاحوال زبدتها الصلوات الخمس فى جماعة وهى سر الدين وكفارة المؤمن وتمحيص للخطايا على ما أخبرنا شيخنا شيخ الاسلام ضياء الدين أبو النجيب السهروردى رحمه الله اجازة قال أنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون قال أنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى اجازة قال أنا أبو عمر محمد بن العباس بن زكريا قال ثنا أبو محمد يحيى بن محمد ابن صاعد قال ثنا الحسين بن الحسن المروزى قال أنا عبد الله ابن المبارك قال أنا يحيى بن عبد الله قال سمعت أبى يقول سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

الحكماء أى شئ أسر للعاقل وأىما شئ أعون على دفع الحزن فقال أسرها اليه ماقدم من صالح العمل وأعونها له على دفع الحزن الرضا بمحتوم القضاء وقال بعض الحكماء وجدت أطول الناس غما الحسود وأهناهم عيشا القنوع وأصبرهم على الاذى الحريص اذا طمع وأخفضهم عيشا أرفضهم للدنيا وأعظمهم ندامة العالم المفرط وفى ذلك قيل أرفه ببال فتى أمسى على ثقة * أن الذى قسم الارزاق يرزقه * فالعرض منه مصون لا يدنسه والوجه منه جديد ليس يخلقه * ان القناعة من يحلل بساحتها * لم يلق فى دهره شيأ يؤرقه وقد قيل أيضا

حتى متى أنا فى حل وترحال * وطول سعى وادبار واقبال
ونازح الدار لا أنفك مغتربا * عن الاحبة لا يدرون ما حالى
بمشرق الارض طورا ثم مغربها * لا يخطر الموت من حرصى على بالى
ولو قنعت أتانى الرزق فى دعة * ان القنوع الغنى لا كثرة المال

وقال عمر رضى الله عنه ألا أخبركم بما أستحل من مال الله تعالى حلتان لشتائى وقيظى وما يسعنى من الظهر لحجى وعمرتى وقوتى بعد ذلك كقوت رجل من قريش لست بارفعهم ولا باوضعهم فوالله ما أدرى أيحل ذلك أم لا كأنه شك فى أن هذا القدر هل هو زيادة على الكفاية التى تجب القناعة بها وعاتب أعرابى أخاه على الحرص فقال يا أخى أنت طالب ومطلوب يطلبك من لا تفوته وتطلب أنت ما قد كفيته وكأن ما غاب عنك قد كشف لك وما أنت فيه قد نقلت عنه كأنك يا أخى لم تر حريصا محروما وزاهدا مرزوقا وفى ذلك قيل

أراك يزيدك الاثراء حرصا * على الدنيا كأنك لا تموت
فهل لك غاية ان صرت يوما * اليها قلت حسبى قد رضيت

وقال الشعبى حكى ان رجلا صاد قنبرة فقالت ما تريد أن تصنع بى قال أذبحك وآكلك قالت والله ما أشفى من قرم ولا أشبع من جوع ولكن أعلمك ثلاث خصال هى خير لك من أكلى أما واحدة فأعلمك وأنا فى يدك وأما الثانية فاذا صرت على الشجرة وأما الثالثة فاذا صرت على الجبل قال هات الاولى قالت لا تلهفن على ما فاتك فخلاها فلما صارت على الشجرة قال هات الثانية قالت لا تصدقن بما لا يكون انه يكون ثم طارت فصارت على الجبل فقالت يا شقى لو ذبحتنى لاخرجت من حوصلتى درتين زنة كل درة عشرون مثقالا قال فعض على شفته وتلهف وقال هات الثالثة قالت أنت قد نسيت اثنتين فكيف أخبرك بالثالثة ألم أقل لك لا تلهفن على ما فاتك ولا تصدقن بما لا يكون أنا لحمى ودمى وريشى لا يكون عشرين مثقالا فكيف يكون فى حوصلتى درتان فى كل واحدة عشرون مثقالا ثم طارت فذهبت وهذا مثال لفرط طمع الآدمى فانه يعميه عن درك الحق حتى يقدر ما لا يكون أنه يكون وقال ابن السماك ان الرجاء حبل فى قلبك وقيد فى رجلك فاخرج الرجاء من قلبك يخرج القيد من رجلك وقال أبو محمد اليزيدى دخلت على الرشيد فوجدته ينظر فى ورقة مكتوب فيها بالذهب فلما رآنى تبسم فقلت فائدة أصلح الله أمير المؤمنين قال نعم وجدت هذين البيتين فى بعض خزائن بنى أمية فاستحسنتهما وقد أضفت اليهما ثالثا وأنشدنى اذا سد باب عنك من دون حاجة * فدعه لاخرى ينفتح لك بابها

فان قراب البطن يكفيك ملؤه * ويكفيك سوآت الامور اجتنابها
ولا تك مبذالا لعرضك واجتنب * ركوب المعاصى يجتنبك عقابها

وقال عبد الله بن سلام لكعب ما يذهب العلوم من قلوب العلماء بعد اذ وعوها وعقلوها قال الطمع وشره النفس وطلب الحوائج وقال رجل للفضيل فسر لى قول كعب قال يطمع الرجل فى الشئ يطلبه فيذهب عليه دينه وأما الشره فشره النفس فى هذا وفى هذا حتى لا تحب ان يفوتها شئ ويكون لك الى هذا حاجة والى هذا حاجة فاذا قضاها لك خزم أنفك وقادك حيث شاء واستمكن منك وخضعت له فمن حبك للدنيا سلمت عليه اذا مررت به وعدته اذا مرض لم تسلم عليه لله عز وجل ولم تعده لله فلو لم يكن لك اليه حاجة كان خيرا لك ثم قال هذا خير لك من مائة حديث عن فلان عن فلان. قال بعض الحكماء من عجيب أمر الانسان انه لو نودى بدوام البقاء فى أيام الدنيا لم يكن فى قوى خلقته من الحرص على الجمع أكثر مما قد استعمله مع قصر مدة التمتع وتوقع الزوال وقال عبد الواحد

ابن

الصلوات الخمس كفارات للخطايا واقرؤا ان شئتم ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين

(الباب الثامن والثلاثون فى ذكر آداب الصلاة وأسرارها)

أحسن آداب المصلى أن لا يكون مشغول القلب بشئ قل أو كثر لان الاكياس لم يرفضوا الدنيا الا ليقيموا الصلاة كما أمروا لان الدنيا وأشغالها لما كانت شاغلة للقلب رفضوها غيرة على محل المناجاة ورغبة فى أوطان القربات واذعانا بالباطن لرب البريات لان حضور الصلاة بالظاهر اذعان الظاهر وفراغ القلب فى الصلاة عما سوى الله تعالى اذعان الباطن فلم يروا حضور الظاهر وتخلف الباطن حتى لا يختل اذعانهم فتنخرم عبوديتهم فيجتنب ان يكون باطنه مرتهنا بشئ ويدخل الصلاة (وقيل) من فقه الرجل

ابن زيد مررت براهب فقلت له من أين تأكل قال من بيدر اللطيف الخبير الذي خلق الرحا يأتيها بالطحين وأومأ بيده الى رحا أضراسه فسبحان القدير الخبير

(بيان علاج الحرص والطمع والدواء الذي يكتسب به صفة القناعة)

اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان الصبر والعلم والعمل ومجموع ذلك خمسة أمور * الاول وهو العمل الاقتصاد فى المعيشة والرفق فى الانفاق فمن أراد عز القناعة فينبغي أن يسد عن نفسه أبواب الخرج ما أمكنه و يرد نفسه الى ما لابد له منه فمن كثر خرجه واتسع انفاقه لم تمكنه القناعة بل ان كان وحده فينبغي أن يقنع بثوب واحد خشن و يقنع باى طعام كان و يقلل من الادام ما أمكنه و يوطن نفسه عليه وان كان له عيال فيرد كل واحد الى هذا القدر فان هذا القدر يتيسر بادنى جهد و يمكن معه الاجمال فى الطلب والاقتصاد فى المعيشة وهو الاصل فى القناعة ونعني به الرفق فى الانفاق وترك الخرق فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يحب الرفق فى الامر كله وقال صلى الله عليه وسلم ما عال من اقتصد وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث منجيات خشية الله فى السر والعلانية والقصد فى الغنى والفقر والعدل فى الرضا والغضب وروى أن رجلا أبصر أبا الدرداء يلتقط حبا من الارض وهو يقول ان من فقهك رفقك فى معيشتك وقال ابن عباس رضى الله عنهما قال النبي صلى الله عليه وسلم الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزأ من النبوة وفى الخبر التدبير نصف المعيشة وقال صلى الله عليه وسلم من اقتصد أغناه الله ومن بذر أفقره الله ومن ذكر الله عز وجل أحبه الله وقال صلى الله عليه وسلم اذا أردت أمرا فعليك بالتؤدة حتى يجعل الله لك فرجا ومخرجا والتؤدة فى الانفاق من أهم الامور * الثانى انه اذا تيسر له فى الحال ما يكفيه فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لاجل المستقبل و يعينه على ذلك قصر الامل والتحقق بان الرزق الذي قدر له لابد وأن يأتيه وان لم يشتد حرصه فان شدة الحرص ليست هى السبب لوصول الارزاق بل ينبغي أن يكون واثقا بوعد الله تعالى اذ قال عز وجل وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها وذلك لان الشيطان يعده الفقر و يأمره بالفحشاء و يقول ان لم تحرص على الجمع والادخار فربما تمرض وربما تعجز وتحتاج الى احتمال الذل فى السؤال فلا يزال طول العمر يتعبه فى الطلب خوفا من التعب و يضحك عليه فى احتماله التعب نقدا مع الغفلة عن الله لتوهم تعب فى ثانى الحال وربما لا يكون وفى مثله قيل

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله * مخافة فقر فالذي فعل الفقر

وقد دخل ابنا خالد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤسكما فان الانسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشر ثم يرزقه الله تعالى ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بابن مسعود وهو حزين فقال له لا تكثر همك ما يقدر يكن وما ترزق يأتك وقال صلى الله عليه وسلم ألا أيها الناس أجملوا فى الطلب فانه ليس لعبد الا ما كتب له ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا وهى راغمة ولا ينفك الانسان عن الحرص الا بحسن ثقته بتدبير الله تعالى فى تقدير أرزاق العباد وان ذلك يحصل لا محالة مع الاجمال فى الطلب بل ينبغي أن يعلم أن رزق الله للعبد من حيث لا يحتسب أكثر قال الله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا و يرزقه من حيث لا يحتسب فاذا انسد عليه باب كان ينتظر الرزق منه فلا ينبغي أن يضطرب قلبه لاجله وقال صلى الله عليه وسلم أبى الله أن يرزق عبده المؤمن الا من حيث لا يحتسب وقال سفيان اتق الله فما رأيت تقيا محتاجا أى لا يترك التقى فاقدا لضرورته بل يلقى الله فى قلوب المسلمين أن يوصلوا اليه رزقه وقال المفضل الضبى قلت لاعرابى من أين معاشك قال نذر الحاج قلت فاذا صدروا فبكى وقال لو لم نعش الا من حيث ندرى لم نعش وقال أبو حازم رضى الله عنه وجدت الدنيا شيئين شيأ منهما هو لى فلن أعجله قبل وقته ولو طلبته بقوة السموات والارض وشيأ منهما هو لغيرى فذلك لم أنله فيما مضى فلا أرجوه فيما بقى يمنع الذى لغيرى منى كما يمنع الذى لى من غيرى ففى أى هذين أفنى عمرى فهذا دواء من جهة المعرفة لابد منه لدفع تخويف الشيطان وانذاره بالفقر * الثالث أن يعرف ما فى القناعة من عز الاستغناء وما فى الحرص والطمع من الذل فاذا تحقق عنده ذلك انبعثت رغبته الى القناعة لانه فى الحرص لا يخلو من تعب وفى الطمع لا يخلو من ذل وليس فى القناعة الا ألم الصبر عن الشهوات والفضول وهذا ألم لا يطلع

أن يبدأ بقضاء حاجته قبل الصلاة ولهذا ورد اذا حضر العشاء والعشاء فقدموا العشاء على العشاء ولا يصلى وهو حاقن يطالبه البول ولا حازق يطالبه الغائط والحزق أيضا ضيق الخف ولا يصلى أيضا وخفه ضيق يشغل قلبه وقد قيل لا رأى لحاقن قيل الذى يكون معه ضيق وفى الجملة ليس من الادب أن يصلى وعنده ما يغير مزاج باطنه عن الاعتدال كهذه الاشياء التى ذكرناها والاهتمام المفرط والغضب (وفى الخبر) لا يدخل أحدكم فى الصلاة وهو مقطب ولا يصلين أحدكم وهو غضبان فلا ينبغي للعبد أن يتلبس بالصلاة الا وهو على أتم الهيآت وأحسن لبسة المصلى سكون الاطراف وعدم الالتفات والاطراق ووضع اليمين على الشمال فما أحسنها من هيئة

عليه أحد الا الله وفيه ثواب الآخرة وذلك مما يضاف اليه نظر الناس وفيه الوبال والمأثم ثم يفوته عز النفس والقدرة على متابعة الحق فان من كثر طمعه وحرصه كثرت حاجته الى الناس فلا يمكنه دعوتهم الى الحق ويلزمه المداهنة وذلك يهلك دينه ومن لا يؤثر عز النفس على شهوة البطن فهو ركيك العقل ناقص الايمان قال صلى الله عليه وسلم عز المؤمن استغناؤه عن الناس فني القناعة الحرية والعز ولذلك قيل استغن عمن شئت تكن نظيره واحتج الى من شئت تكن أسيره وأحسن الى من شئت تكن أميره * الرابع أن يكثر تأمله في تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى من الاكراد والاعراب الاجلاف ومن لا دين لهم ولا عقل ثم ينظر الى أحوال الانبياء والاولياء والى سمت الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين ويستمع أحاديثهم ويطالع أحوالهم ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة أراذل الناس أو على الاقتداء بمن هو أعز أصناف الخلق عند الله حتى يهون عليه بذلك الصبر على الضنك والقناعة باليسير فانه ان تنعم في البطن فالحمار أكثر أكلا منه وان تنعم في الوقاع فالخنزير أعلى رتبة منه وان تزين في الملبس والخيل ففي اليهود من هو أعلى زينة منه وان قنع بالقليل ورضي به لم يساهمه في رتبته الا الانبياء والاولياء * الخامس أن يفهم ما في جمع المال من الخطر كما ذكرنا في آفات المال وما فيه من خوف السرقة والنهب والضياع وما في خلو اليد من الامن والفراغ ويتأمل ما ذكرناه في آفات المال مع ما يفوته من المدافعة عن باب الجنة الى خمسمائة عام فانه اذا لم يقنع بما يكفيه ألحق بزمرة الاغنياء وأخرج من جريدة الفقراء ويتم ذلك بان ينظر أبدا الى من دونه في الدنيا لا الى من فوقه فان الشيطان أبدا يصرف نظره في الدنيا الا من فوقه فيقول لم تفتر عن الطلب وأرباب الاموال يتنعمون في المطاعم والملابس ويصرف نظره في الدين الى من دونه فيقول ولم تضيق على نفسك وتخاف الله وفلان أعلم منك وهو لا يخاف الله والناس كلهم مشغولون بالتنعم فلم تريد أن تتميز عنهم قال أبو ذر أوصاني خليلي صلوات الله عليه أن أنظر الى من هو دوني لا الى من هو فوقي أي في الدنيا وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نظر أحدكم الى من فضله الله عليه في المال والخلق فلينظر الى من هو أسفل منه ممن فضل عليه فبهذه الامور يقدر على اكتساب خلق القناعة وعماد الامر الصبر وقصر الامل وأن يعلم ان غاية صبره في الدنيا أيام قلائل للتمتع دهرا طويلا فيكون كالمريض الذي يصبر على مرارة الدواء لشدة طمعه في انتظار الشفاء

(بيان فضيلة السخاء)

اعلم ان المال ان كان مفقودا فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص وان كان موجودا فينبغي أن يكون حاله الايثار والسخاء واصطناع المعروف والتباعد عن الشح والبخل فان السخاء من أخلاق الانبياء عليهم السلام وهو أصل من أصول النجاة وعنه عبر النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدلية الى الارض فمن أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن الى الجنة وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال جبريل عليه السلام قال الله تعالى ان هذا دين ارتضيته لنفسي ولن يصلحه الا السخاء وحسن الخلق فاكرموه بهما ما استطعتم وفي رواية فاكرموه بهما ما صحبتموه وعن عائشة الصديقة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جبل الله تعالى وليا له الا على حسن الخلق والسخاء وعن جابر قال قيل يا رسول الله أي الاعمال أفضل قال الصبر والسماحة وقال عبد الله بن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقان يحبهما الله عز وجل وخلقان يبغضهما الله عز وجل فاما اللذان يحبهما الله تعالى فحسن الخلق والسخاء وأما اللذان يبغضهما الله فسوء الخلق والبخل واذا أراد الله بعبد خيرا استعمله في قضاء حوائج الناس وروى المقدام بن شريح عن أبيه عن جده قال قلت يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة قال ان من موجبات المغفرة بذل الطعام وافشاء السلام وحسن الكلام وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم السخاء شجرة في الجنة فمن كان سخيا أخذ بغصن منها فلم يتركه ذلك الغصن حتى يدخله الجنة والشح شجرة في النار فمن كان شحيحا أخذ بغصن من أغصانها فلم يتركه ذلك الغصن حتى يدخله النار وقال أبو سعيد الخدري قال النبي صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم فاني جعلت فيهم رحمتي ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فاني

عبد ذليل واقف بين يدي ملك عزيز وفي رخصة الشرع دون الثلاث حركات متواليات جائز وأرباب العزيمة يتركون الحركة في الصلاة جملة وقد حركت يدي في الصلاة وعندي شخص من الصالحين فلما انصرفت من الصلاة أنكر علي وقال عندنا ان العبد اذا وقف في الصلاة ينبغي أن يبقى جمادا مجمدا لا يتحرك منه شئ (وقد) جاء في الخبر سبعة أشياء في الصلاة من الشيطان الرعاف والنعاس والوسوسة والتثاؤب والحكاك والالتفات والعبث بالشئ من الشيطان أيضا وقيل السهو والشك (وقد روي) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال ان الخشوع في الصلاة أن لا يعرف المصلي من على يمينه وشماله (ونقل عن سفيان) أنه قال من لم يخشع فسدت

جعلت فيهم سخطى وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تجافوا عن ذنب السخى فان الله آخذ بيده كلما عثر وقال ابن مسعود قال صلى الله عليه وسلم الرزق الى مطعم الطعام أسرع من السكين الى ذروة البعير وان الله تعالى ليباهى بمطعم الطعام الملائكة عليهم السلام وقال صلى الله عليه وسلم ان الله جواد يحب الجواد ويحب مكارم الاخلاق ويكره سفسافها وقال أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسئل على الاسلام شيأ الا أعطاه وأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة فرجع الى قومه فقال يا قوم أسلموا فان محمدا يعطى عطاء من لا يخاف الفاقة وقال ابن عمر قال صلى الله عليه وسلم ان لله عبادا يختصهم بالنعم لمنافع العباد فمن بخل بتلك المنافع على العباد نقلها الله تعالى عنه وحولها الى غيره وعن الهلالى قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسرى من بنى العنبر فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلا فقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه يا رسول الله الرب واحد والدين واحد والذنب واحد فما بال هذا من بينهم فقال صلى الله عليه وسلم نزل على جبريل فقال اقتل هؤلاء واترك هذا فان الله تعالى شكر له سخاء فيه وقال صلى الله عليه وسلم ان لكل شئ ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح وعن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء وقال صلى الله عليه وسلم من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوال وقال عيسى عليه السلام استكثروا من شئ لا تأكله النار قيل وما هو قال المعروف وقالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة دار الاسخياء وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار وان البخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار وجاهل سخى أحب الى الله من عالم بخيل وأدوأ الداء البخل وقال صلى الله عليه وسلم اصنع المعروف الى من هو أهله والى من ليس بأهله فان أصبت أهله فقد أصبت أهله وان لم تصب أهله فأنت من أهله وقال صلى الله عليه وسلم ان بدلاء أمتى لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسخاء الانفس وسلامة الصدور والنصح للمسلمين وقال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل جعل للمعروف وجوها من خلقه حبب اليهم المعروف وحبب اليهم فعاله ووجه طلاب المعروف اليهم ويسر عليهم اعطاءه كما يسر الغيث الى البلدة الجدبة فيحييها ويحيى به أهلها وقال صلى الله عليه وسلم كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة وما وقى به الرجل عرضه فهو له صدقة وما أنفق الرجل من نفقة فعلى الله خلفها وقال صلى الله عليه وسلم كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب اغاثة اللهفان وقال صلى الله عليه وسلم كل معروف فعلته الى غنى أو فقير صدقة وروى أن الله تعالى أوحى الى موسى عليه السلام لا تقتل السامرى فانه سخى وقال جابر بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا عليهم قيس بن سعد بن عبادة فجهدوا فنحر لهم قيس تسع ركائب فحدثوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال صلى الله عليه وسلم ان الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت (الآثار) قال على كرم الله وجهه اذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها فانها لا تفنى واذا أدبرت عنك فأنفق منها فانها لا تبقى وأنشد

لا تبخلن بدنيا وهى مقبلة * فليس ينقصها التبذير والسرف
وان تولت فأحرى أن تجود بها * فالحمد منها اذا ما أدبرت خلف

وسأل معاوية الحسن بن على رضى الله عنهما عن المروءة والنجدة والكرم فقال أما المروءة فحفظ الرجل دينه وحذره نفسه وحسن قيامه بضيفه وحسن المنازعة والاقدام فى الكراهية وأما النجدة فالذب عن الجار والصبر فى المواطن وأما الكرم فالتبرع بالمعروف قبل السؤال والاطعام فى المحل والرأفة بالسائل مع بذل النائل ورفع رجل الى الحسن بن على رضى الله عنهما رقعة فقال حاجتك مقضية فقيل له يا ابن رسول الله لو نظرت فى رقعته ثم رددت الجواب على قدر ذلك فقال يسألنى الله عز وجل عن ذل مقامه بين يدى حتى أقرأ رقعته وقال ابن السماك عجبت لمن يشترى المماليك بماله ولا يشترى الاحرار بمعروفه وسئل بعض الاعراب من سيدكم فقال من احتمل شتمنا وأعطى سائلنا وأغضى عن جاهلنا وقال على بن الحسين رضى الله عنهما من وصف ببذل ماله لطلابه لم يكن سخيا وانما السخى من يبتدئ بحقوق الله تعالى فى أهل طاعته ولا تنازعه نفسه الى حب الشكر له اذا كان يقينه بثواب

صلاته وروى عن معاذ ابن جبل أشد من ذلك قال من عرف من عن يمينه وشماله فى الصلاة متعمدا فلا صلاة له وقال بعض العلماء من قرأ كلمة مكتوبة فى حائط أو بساط فى صلاته فصلاته باطلة قال بعضهم لان ذلك عدوه عملا وقيل فى تفسير قوله تعالى والذين هم على صلاتهم دائمون قيل هو سكون الاطراف والطمأنينة (قال) بعضهم اذا كبرت التكبيرة الاولى فاعلم ان الله ناظر الى شخصك عالم بما فى ضميرك ومثل فى صلاتك الجنة عن يمينك والنار عن شمالك وانما ذكرنا أن تمثل الجنة والنار لان القلب اذا شغل بذكر الآخرة ينقطع عنه الوسواس فيكون هذا التمثيل تداويا للقلب لدفع الوسوسة (أخبرنا) شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردى اجازة قال أنا عمر بن أحمد

الله تاما وقيل للحسن البصري ما السخاء فقال أن تجود بمالك في الله عز وجل قيل فما الحزم قال أن تمنع مالك فيه
قيل فما الاسراف قال الانفاق لحب الرياسة وقال جعفر الصادق رحمة الله عليه لا مال أعون من العقل ولا مصيبة
أعظم من الجهل ولا مظاهرة كالمشاورة ألا وان الله عز وجل يقول اني جواد كريم لا يجاورني لئيم واللؤم من
الكفر وأهل الكفر في النار والجود والكرم من الايمان وأهل الايمان في الجنة وقال حذيفة رضي الله عنه رب
فاجر في دينه أخرق في معيشته يدخل الجنة بسماحته وروى ان الاحنف بن قيس رأى رجلا في يده درهم فقال لمن
هذا الدرهم فقال لي فقال أما انه ليس لك حتى يخرج من يدك وفي معناه قيل

أنت للمال اذا أمسكته * فاذا أنفقته فالمال لك

وسمي واصل بن عطاء الغزال لانه كان يجلس الى الغزالين فاذا رأى امرأة ضعيفة أعطاها شيأ وقال الاصمعي كتب
الحسن بن علي الى الحسين بن علي رضوان الله عليهم يعتب عليه في اعطاء الشعراء فكتب اليه خير المال ما وقى به
العرض وقيل لسفيان بن عيينة ما السخاء قال السخاء البر بالاخوان والجود بالمال قال وورث أبي خمسين ألف
درهم فبعث بها صررا الى اخوانه وقال قد كنت أسأل الله تعالى لاخواني الجنة في صلاتي أفأبخل عليهم بالمال
وقال الحسن بذل المجهود في بذل الموجود منتهى الجود وقيل لبعض الحكماء من أحب الناس اليك قال من كثرت
أياديه عندي قيل فان لم يكن قال من كثرت أيادي عنده وقال عبد العزيز بن مروان اذا الرجل أمكنني من نفسه
حتى أضع معروفي عنده فيده عندي مثل يدي عنده وقال المهدي لشبيب بن شبة كيف رأيت الناس في داري
فقال يا أمير المؤمنين ان الرجل منهم ليدخل راجيا ويخرج راضيا وتمثل متمثل عند عبد الله بن جعفر فقال

ان الصنيعة لا تكون صنيعة * حتى يصاب بها طريق المصنع
فاذا اصطنعت صنيعة فاعمد بها * لله أو لذوي القرابة أودع

فقال عبد الله بن جعفر ان هذين البيتين ليبخلان الناس ولكن أمطر المعروف مطرا فان أصاب الكرام كانوا له
أهلا وان أصاب اللئام كنت له أهلا

(حكايات الاسخياء)

عن محمد بن المنكدر عن أم درة وكانت تخدم عائشة رضي الله عنها قالت ان معاوية بعث اليها بمال في غرارتين
ثمانين ومائة ألف درهم فدعت بطبق فجعلت تقسمه بين الناس فلما أمست قالت يا جارية هلمي فطوري فجاءتها
بخبز وزيت فقالت لها أم درة ما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحما نفطر عليه فقالت لو كنت
ذكرتني لفعلت * وعن أبان بن عثمان قال أراد رجل أن يضار عبيد الله بن عباس فأتى وجوه قريش فقال يقول
لكم عبيد الله تغدوا عندي اليوم فأتوه حتى ملؤا عليه الدار فقال ما هذا فأخبر الخبر فأمر عبيد الله بشراء فاكهة
وأمر قوما فطبخوا وخبزوا وقدمت الفاكهة اليهم فلم يفرغوا منها حتى وضعت الموائد فأكلوا حتى صدروا
فقال عبيد الله أوكلانه أموجود لنا هذا كل يوم قالوا نعم قال فليتغد عندنا هؤلاء في كل يوم وقال مصعب بن الزبير حج
معاوية فلما انصرف مر بالمدينة فقال الحسين بن علي لاخيه الحسن لا تلقه ولا تسلم عليه فلما خرج معاوية قال
الحسن ان علينا دينا فلا بد لنا من اتيانه فركب في أثره ولحقه فسلم عليه وأخبره بدينه فمروا عليه ببختي عليه ثمانون
ألف دينار وقد أعيا وتخلف عن الابل وقوم يسوقونه فقال معاوية ما هذا فذكر له فقال اصرفوه بما عليه الى أبي
محمد * وعن واقد بن محمد الواقدي قال حدثني أبي انه رفع رقعة الى المأمون يذكر فيها كثرة الدين وقلة صبره عليه
فوقع المأمون على ظهر رقعته انك رجل اجتمع فيك خصلتان السخاء والحياء فأما السخاء فهو الذي أطلق ما في
يديك وأما الحياء فهو الذي منعك عن تبليغنا ما أنت عليه وقد أمرت لك بمائة ألف درهم فان كنت قد أصبت فازدد
في بسط يدك وان لم أكن قد أصبت فجنايتك على نفسك وأنت حدثتني وكنت على قضاء الرشيد عن محمد بن
اسحق عن الزهري عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للزبير بن العوام يا زبير اعلم ان مفاتيح أرزاق العباد
بازاء العرش يبعث الله عز وجل الى كل عبد بقدر نفقته فمن كثر كثر له ومن قلل قلل له وأنت أعلم قال الواقدي
فوالله لمذاكرة المأمون اياي بالحديث أحب الي من الجائزة وهي مائة ألف درهم * وسأل رجل الحسن بن علي
رضي الله عنهما حاجة فقال له يا هذا حق سؤالك اياي يعظم لدي ومعرفتي بما يجب لك تكبر علي ويدي تعجز عن

الصغار قال أنا أبو بكر بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن قال سمعت أبا الحسين الفارسي يقول سمعت محمد بن الحسين يقول قال سهل من خلا قلبه عن ذكر الآخرة تعرض لوساوس الشيطان فاما من باشر باطنه صفو اليقين ونور المعرفة فيستغني بشاهده عن تمثيل مشاهدة قال أبو سعيد الخراز اذا ركع فالادب في ركوعه أن ينتصب ويدنو ويتدلى في ركوعه حتى لا يبقى منه مفصل الا وهو منتصب نحو العرش العظيم ثم يعظم الله تعالى حتى لا يكون في قلبه شئ أعظم من الله ويصغر في نفسه حتى يكون أقل من الهباء واذا رفع رأسه وحمد الله يعلم انه سبحانه وتعالى يسمع ذلك (وقال) أيضا ويكون معه من الخشية ما يكاد يذوب به (قال) السراج اذا أخذ العبد في التلاوة فالادب في ذلك

نيلك بما أنت أهله والكثير في ذات الله تعالى قليل ومافي ملكي وفاء لشكرك فان قبلت الميسور ورفعت عني مؤنة الاحتيال والاهتمام لما أتكلفه من واجب حقك فعلت فقال يا ابن رسول الله أقبل وأشكر العطية وأعذر على المنع فدعا الحسن بوكيله وجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها فقال هات الفاضل من الثلثمائة ألف درهم فاحضر خمسين ألفا قال فما فعلت بالخمسمائة دينار قال هي عندي قال أحضرها فاحضرها فدفع الدنانير والدراهم الى الرجل وقال هات من يحملها لك فاتاه بحمالين فدفع اليه الحسن رداءه لكراء الحمالين فقال له مواليه والله ماعندنا درهم فقال أرجو أن يكون لي عند الله أجر عظيم واجتمع قراء البصرة الى ابن عباس وهو عامل بالبصرة فقالوا لنا جار صوام قوام يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله وقد زوج بنته من ابن أخيه وهو فقير وليس عنده مايجهزها به فقام عبد الله بن عباس فاخذ بايديهم وأدخلهم داره وفتح صندوقا فاخرج منه ست بدر فقال احملوا فحملوا فقال ابن عباس ما انصفناه اعطيناه مايشغله عن قيامه وصيامه ارجعوا بنا نكن أعوانه على تجهيزها فليس للدنيا من القدر مايشغل مؤمنا عن عبادة ربه ومابنا من الكبر مالانخدم أولياء الله تعالى ففعل وفعلوا * وحكى انه لما أجدب الناس بمصر وعبد الحميد بن سعد أميرهم فقال والله لاعلمن الشيطان انى عدوه فعال محاويجهم الى أن رخصت الاسعار ثم عزل عنهم فرحل وللتجار عليه ألف ألف درهم فرهنهم بها حلى نسائه وقيمتها خمسمائة ألف ألف فلما تعذر عليه ارتجاعها كتب اليهم ببيعها ودفع الفاضل منها عن حقوقهم الى من لم تنله صلاته * وكان أبو طاهر بن كثير شيعيا فقال له رجل بحق علي بن أبي طالب الا وهبت لي نخلتك بموضع كذا وكذا فقال قد فعلت وحقه لاعطينك مايليها وكان ذلك أضعاف ماطلب الرجل وكان أبو مرثد أحد الكرماء فمدحه بعض الشعراء فقال للشاعر والله ماعندي ما أعطيك ولكن قدمني الى القاضي وادع علي بعشرة آلاف درهم حتى أقر لك بها ثم احبسني فان أهلي لا يتركوني محبوسا ففعل ذلك فلم يمس حتى دفع اليه عشرة آلاف درهم وأخرج أبو مرثد من الحبس * وكان معن بن زائدة عاملا على العراقين بالبصرة فحضر بابه شاعر فاقام مدة وأراد الدخول على معن فلم يتهيأ له فقال يوما لبعض خدام معن اذا دخل الامير البستان فعرفني فلما دخل الامير البستان أعلمه فكتب الشاعر بيتا على خشبة وألقاها في الماء الذي يدخل البستان وكان معن على رأس الماء فلما بصر بالخشبة أخذها وقرأها فاذا مكتوب عليها

أياجود معن ناج معنا بحاجتي * فمالي الى معن سواك شفيع

فقال من صاحب هذه فدعى بالرجل فقال له كيف قلت فقاله فامر له بعشر بدر فاخذها ووضع الامير الخشبة تحت بساطه فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط وقرأها ودعا بالرجل فدفع اليه مائة ألف درهم فلما أخذها الرجل تفكر وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج فلما كان في اليوم الثالث قرأ مافيها ودعا بالرجل فطلب فلم يوجد فقال معن حق علي ان أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار * وقال أبو الحسن المدائني خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر حجاجا ففاتهم اثقالهم فجاعوا وعطشوا فمروا بعجوز في خباء لها فقالوا هل من شراب فقالت نعم فاناخوا اليها وليس لها الا شويهة في كسر الخيمة فقالت احلبوها وامتذقوا لبنها ففعلوا ذلك ثم قالوا لها هل من طعام قالت لا الا هذه الشاة فليذبحها أحدكم حتى أهيئ لكم ما تأكلون فقام اليها أحدهم وذبحها وكشطها ثم هيأت لهم طعاما فاكلوا وأقاموا حتى أبردوا فلما ارتحلوا قالوا لها نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه فاذا رجعنا سالمين فالمي بنا فانا صانعون بك خيرا ثم ارتحلوا وأقبل زوجها فاخبرته بخبر القوم والشاة فغضب الرجل وقال ويلك تذبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم ثم تقولين نفر من قريش قال ثم بعد مدة ألجأتهما الحاجة الى دخول المدينة فدخلا وجعلا ينقلان البعر اليها ويبيعانه ويتعيشان بثمنه فمرت العجوز ببعض سكك المدينة فاذا الحسن بن علي جالس على باب داره فعرف العجوز وهي له منكرة فبعث غلامه فدعا بالعجوز وقال لها يا أمة الله أتعرفيني قالت لا قال أنا ضيفك يوم كذا وكذا فقالت العجوز بابي أنت وأمي أنت هو قال نعم ثم أمر الحسن فاشتروا لها من شياه الصدقة ألف شاة وأمر لها معها بألف دينار وبعث بها مع غلامه الى الحسين فقال لها الحسين بكم وصلك أخي قالت بالف شاة وألف دينار فامر لها الحسين أيضا بمثل ذلك ثم بعث بها مع غلامه الى عبد الله بن جعفر فقال لها بكم وصلك الحسن والحسين قالت بألفي شاة وألفي دينار

أن يشاهد ويسمع قلبه كانه يسمع من الله تعالى أو كانه يقرأ على الله تعالى وقال السراج أيضا من أدبهم قبل الصلاة المراقبة ومراعاة القلب من الخواطر والعوارض ونفي كل شئ غير الله تعالى فاذا قاموا الى الصلاة بحضور القلب فكانهم قاموا من الصلاة الى الصلاة فيكون مع النفس والعقل اللذين دخلوا في الصلاة بهما فاذا خرجوا من الصلاة رجعوا الى حالهم من حضور القلب فكانهم أبدا في الصلاة فهذا هو أدب الصلاة وقيل كان بعضهم لا يتهيأ له حفظ العدد من كمال استغراقه وكان يجلس واحد من أصحابه يعدد عليه كم ركعة صلى (وقيل) للصلاة أربع شعب حضور القلب في المحراب وشهود العقل عند الملك الوهاب وخشوع القلب بلا ارتياب

فامر لها عبد الله بالفي شاة وألفي دينار وقال لهالو بدأت بي لاتعبتهما فرجعت العجوز الى زوجها بأربعة آلاف شاة وأربعة آلاف دينار * وخرج عبد الله بن عامر بن كريز من المسجد يريد منزله وهو وحده فقام اليه غلام من ثقيف فمشى الى جانبه فقال له عبد الله ألك حاجة يا غلام قال صلاحك وفلاحك رأيتك تمشي وحدك فقلت أقيك بنفسي وأعوذ بالله ان طار بجنابك مكروه فاخذ عبد الله بيده ومشى معه الى منزله ثم دعا بالف دينار فدفعها الى الغلام وقال استنفق هذه فنعم ما أدبك أهلك وحكى ان قوما من العرب جاؤا الى قبر بعض أسخيائهم للزيارة فنزلوا عند قبره وباتوا عنده وقد كانوا جاؤا من سفر بعيد فرأى رجل منهم في النوم صاحب القبر وهو يقول له هل لك أن تبادل بعيرك بنجيبي وكان السخي الميت قد خلف نجيبا معروفا به ولهذا الرجل بعير سمين فقال له في النوم نعم فباعه في النوم بعيره بنجيبه فلما وقع بينهما العقد عمد هذا الرجل الى بعيره فنحره في النوم فانتبه الرجل من نومه فاذا الدم يثج من نحر بعيره فقام الرجل فنحره وقسم لحمه فطبخوه وقضوا حاجتهم منه ثم رحلوا وساروا فلما كان اليوم الثاني وهم في الطريق استقبلهم ركب فقال رجل منهم من فلان بن فلان منكم باسم ذلك الرجل فقال أنا فقال هل بعت من فلان بن فلان شيأ وذكر الميت صاحب القبر قال نعم بعت منه بعيري بنجيبه في النوم فقال خذ هذا نجيبه ثم قال هو أبي وقد رأيته في النوم وهو يقول ان كنت ابني فادفع نجيبي الى فلان بن فلان وسماه * وقدم رجل من قريش من السفر فمر برجل من الاعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر وأضر به المرض فقال يا هذا أعنا على الدهر فقال الرجل لغلامه ما بقي معك من النفقة فادفعه اليه فصب الغلام في حجر الاعرابي أربعة آلاف درهم فذهب لينهض فلم يقدر من الضعف فبكى فقال له الرجل ما يبكيك لعلك استقللت ما أعطيناك قال لا ولكن ذكرت ما تأكل الارض من كرمك فابكاني * واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره التي في السوق بتسعين ألف درهم فلما كان الليل سمع بكاء أهل خالد فقال لاهله ما لهؤلاء قالوا يبكون لدارهم فقال يا غلام ائتهم فاعلمهم ان المال والدار لهم جميعا وقيل بعث هرون الرشيد الى مالك بن أنس رحمه الله بخمسمائة دينار فبلغ ذلك الليث بن سعد فانفذ اليه ألف دينار فغضب هرون وقال اعطيته خمسمائة وتعطيه ألفا وأنت من رعيتي فقال يا أمير المؤمنين ان لي من غلتي كل يوم ألف دينار فاستحييت أن أعطي مثله أقل من دخل يوم وحكى انه لم تجب عليه الزكاة مع أن دخله كل يوم ألف دينار * وحكى ان امرأة سألت الليث بن سعد رحمة الله عليه شيأ من عسل فامر لها بزق من عسل فقيل له انها كانت تقنع بدون هذا فقال انها سألت على قدر حاجتها ونحن نعطيها على قدر النعمة علينا * وكان الليث بن سعد لا يتكلم كل يوم حتى يتصدق على ثلثمائة وستين مسكينا وقال الاعمش اشتكت شاة عندي فكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشي ويسألني هل استوفت علفها وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها وكان تحتي لبد أجلس عليه فاذا خرج قال خذ ما تحت اللبد حتى وصل الي في علة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره حتى تمنيت ان الشاة لم تبرأ وقال عبد الملك بن مروان لاسماء بن خارجة بلغني عنك خصال فحدثني بها فقال هي من غيري أحسن منها مني فقال عزمت عليك الا حدثتني بها فقال يا أمير المؤمنين ما مددت رجلي بين يدي جليس لي قط ولا صنعت طعاما قط فدعوت عليه قوما الا كانوا أمن علي مني عليهم ولا نصب لي رجل وجهه قط يسألني شيأ فاستكثرت شيأ اعطيته اياه ودخل سعيد بن خالد على سليمان بن عبد الملك وكان سعيد رجلا جوادا فاذا لم يجد شيأ كتب لمن سأله صكا على نفسه حتى يخرج عطاؤه فلما نظر اليه سليمان تمثل بهذا البيت فقال

انى سمعت مع الصباح مناديا * يا من يعين على الفتى المعوان

ثم قال ما حاجتك قال ديني قال وكم هو قال ثلاثون ألف دينار قال لك دينك ومثله وقيل مرض قيس بن سعد بن عبادة فاستبطأ اخوانه فقيل انهم يستحيون مما لك عليهم من الدين فقال أخزى الله مالا يمنع الاخوان من الزيارة ثم أمر مناديا فنادى من كان عليه لقيس بن سعد حق فهو منه بريء قال فانكسرت درجته بالعشي لكثرة من زاره وعاده * وعن أبي اسحق قال صليت الفجر في مسجد الاشعث بالكوفة أطلب غريما لي فلما صليت وضع بين يدي حلة ونعلان فقلت لست من أهل هذا المسجد فقالوا ان الاشعث بن قيس الكندي قدم البارحة من مكة فامر لكل من صلى في المسجد بحلة ونعلين وقال الشيخ أبو سعد الخركوشي النيسابوري رحمه الله سمعت محمد بن محمد الحافظ

وخضوع الاركان بلا ارتقاب لان عند حضور القلب رفع الحجاب وعند شهود العقل رفع العتاب وعند حضور النفس فتح الابواب وعند خضوع الاركان وجود الثواب فمن أتى الصلاة بلا حضور القلب فهو مصل لاه ومن أتاها بلا شهود العقل فهو مصل ساه ومن أتاها بلا خضوع النفس فهو مصل خاطئ ومن أتاها بلا خشوع الاركان فهو مصل جاف ومن أتاها كما وصف فهو مصل واف (وقد ورد) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام العبد الى الصلاة المكتوبة مقبلا على الله بقلبه وسمعه وبصره انصرف من صلاته وقد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وان الله ليغفر بغسل الوجه خطيئة أصابها وبغسل يديه خطيئة أصابها وبغسل رجليه خطيئة أصابها حتى يدخل في صلاته

يقول سمعت الشافعي المجاور بمكة يقول كان بمصر رجل عرف بان يجمع للفقراء شيأ فولد لبعضهم مولود قال فجئت اليه وقلت له ولد لي مولود وليس معي شئ فقام معي ودخل على جماعة فلم يفتح بشئ فجاء الى قبر رجل وجلس عنده وقال رحمك الله كنت تفعل وتصنع واني درت اليوم على جماعة فكلفتهم دفع شئ لمولود فلم يتفق لي شئ قال ثم قام وأخرج دينارا وقسمه نصفين وناولني نصفه وقال هذا دين عليك الى أن يفتح عليك بشئ قال فاخذته وانصرفت فاصلحت ما اتفق لي به قال فرأى ذلك المحتسب تلك الليلة ذلك الشخص في منامه فقال سمعت جميع ماقلت وليس لنا اذن في الجواب ولكن احضر منزلي وقل لاولادي يحفروا مكان الكانون ويخرجوا قرابة فيها خمسمائة دينار فاحملها الى هذا الرجل فلما كان من الغد تقدم الى منزل الميت وقص عليهم القصة فقالوا له اجلس وحفروا الموضع وأخرجوا الدنانير وجاؤا بها فوضعوها بين يديه فقال هذا مالكم وليس لرؤيا حكم فقالوا هو يتسخى ميتا ولا نتسخى نحن أحياء فلما ألحوا عليه حمل الدنانير الى الرجل صاحب المولود وذكر له القصة قال فاخذ منها دينارا فكسره نصفين فاعطاه النصف الذي أقرضه وحمل النصف الآخر وقال يكفيني هذا وتصدق به على الفقراء فقال أبو سعيد فلا أدرى أي هؤلاء أسخى * وروى أن الشافعي رحمه الله لما مرض مرض موته بمصر قال مروا فلانا يغسلني فلما توفي بلغه خبر وفاته فحضر وقال ائتوني بتذكرته فاتي بها فنظر فيها فاذا على الشافعي سبعون ألف درهم دين فكتبها على نفسه وقضاها عنه وقال هذا غسلي اياه أي أراد به هذا وقال أبو سعيد الواعظ الحركوشي لما قدمت مصر طلبت منزل ذلك الرجل فدلوني عليه فرأيت جماعة من أحفاده وزرتهم فرأيت فيهم سيما الخير وآثار الفضل فقلت بلغ أثره في الخير اليهم وظهرت بركته فيهم مستدلا بقوله تعالى وكان أبوهما صالحا وقال الشافعي رحمه الله لا أزال أحب حماد بن أبي سليمان لشئ بلغني عنه انه كان ذات يوم راكبا حماره فحركه فانقطع زره فمر على خياط فاراد أن ينزل اليه ليسوي زره فقال الخياط والله لا نزلت فقام الخياط اليه فسوى زره فاخرج اليه صرة فيها عشرة دنانير فسلمها الى الخياط واعتذر اليه من قلتها وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه

يالهف قلبي على مال أجود به * على المقلين من أهل المروآت

ان اعتذاري الى من جاء يسألني * ماليس عندي لمن احدى المصيبات

وعن الربيع بن سليمان قال أخذ رجل بركاب الشافعي رحمه الله فقال يا ربيع أعطه أربعة دنانير واعتذر اليه عني وقال الربيع سمعت الحميدي يقول قدم الشافعي من صنعاء الى مكة بعشرة آلاف دينار فضرب خباءه في موضع خارج عن مكة ونثرها على ثوب ثم أقبل على كل من دخل عليه يقبض له قبضة ويعطيه حتى صلى الظهر ونفض الثوب وليس عليه شئ * وعن أبي ثور قال أراد الشافعي الخروج الى مكة ومعه مال وكان قلما يمسك شيأ من سماحته فقلت له ينبغي أن تشتري بهذا المال ضيعة تكون لك ولولدك قال فخرج ثم قدم علينا فسألته عن ذلك المال فقال ما وجدت بمكة ضيعة يمكنني أن أشتريها لمعرفتي باصلها وقد وقف أكثرها ولكني بنيت بمنى مضربا يكون لاصحابنا اذا حجوا أن ينزلوا فيه وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه يقول

أرى نفسي تتوق الى أمور * يقصر دون مبلغهن مالي

فنفسي لا تطاوعني ببخل * ومالي لا يبلغني فعالي

وقال محمد بن عباد المهلبي دخل أبي على المأمون فوصله بمائة ألف درهم فلما قام من عنده تصدق بها فاخبر بذلك المأمون فلما عاد اليه عاتبه المأمون في ذلك فقال يا أمير المؤمنين منع الموجود سوء ظن بالمعبود فوصله بمائة ألف أخرى * وقام رجل الى سعيد بن العاص فسأله فامر له بمائة ألف درهم فبكى فقال له سعيد ما يبكيك قال أبكي على الارض أن تأكل مثلك فامر له بمائة ألف أخرى * ودخل أبو تمام على ابراهيم بن شكلة بابيات امتدحه بها فوجده عليلا فقبل منه المدحة وأمر حاجبه بنيله ما يصلحه وقال عسى أن أقوم من مرضي فاكافئه فاقام شهرين فاوحشه طول المقام فكتب اليه يقول

ان حراما قبول مدحتنا * وترك ما نرتجي من الصفد

كما الدراهم والدنانير في البيع حرام الا يدا بيد

وليس عليه وزر (وذكرت) السرقة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أي السرقة أقبح فقالوا الله ورسوله أعلم فقال ان أقبح السرقة أن يسرق الرجل من صلاته قالوا كيف يسرق الرجل من صلاته قال لا يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها ولا القراءة فيها (وروى) عن أبي عمرو بن العلاء انه قدم للامامة فقال لا أصلح فلما ألحوا عليه كبر فغشي عليه فقدموا اماما آخر فلما أفاق سئل فقال لما قلت استووا هتف بي هاتف هل استويت أنت مع الله قط (وقال عليه السلام) ان العبد اذا أحسن الوضوء وصلى الصلاة لوقتها وحافظ على ركوعها وسجودها ومواقيتها قالت حفظك الله كما حفظتني ثم صعدت ولها نور حتى تنتهي الى السماء وحتى تصل الى الله

فلما وصل البيتان الى ابراهيم قال لحاجبه كم أقام بالباب قال شهرين قال أعطه ثلاثين ألفا وجئني بدواة فكتب اليه

أعجلتنا فأتاك عاجل برنا * قلا ولو أمهلتنا لم نقلل
فخذ القليل وكن كأنك لم تقل * ونقول نحن كأننا لم نفعل

وروى انه كان لعثمان على طلحة رضي الله عنهما خمسون ألف درهم فخرج عثمان يوما الى المسجد فقال له طلحة قد تهيأ مالك فاقبضه فقال هو لك يا أبا محمد معونة لك على مروءتك * وقالت سعدى بنت عوف دخلت على طلحة فرأيت منه ثقلا فقلت له مالك فقال اجتمع عندي مال وقد غمني فقلت وما يغمك ادع قومك فقال يا غلام علي بقومي فقسمه فيهم فسألت الخادم كم كان قال أربعمائة ألف * وجاء اعرابي الى طلحة فسأله وتقرب اليه برحم فقال ان هذه الرحم ما سألني بها أحد قبلك ان لي أرضا قد أعطاني بها عثمان ثلثمائة ألف فان شئت فاقبضها وان شئت بعتها من عثمان ودفعت اليك الثمن فقال الثمن فباعها من عثمان ودفع اليه الثمن * وقيل بكى علي كرم الله وجهه يوما فقيل ما يبكيك فقال لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام أخاف أن يكون الله قد أهانني * وأتى رجل صديقا له فدق عليه الباب فقال ما جاء بك قال علي أربعمائة درهم دين فوزن أربعمائة درهم وأخرجها اليه وعاد يبكي فقالت امرأته لم أعطيته اذ شق عليك فقال انما أبكي لاني لم أتفقد حاله حتى احتاج الى مفاتحتي فرحم الله من هذه صفاتهم وغفر لهم أجمعين

(بيان ذم البخل)

قال الله تعالى ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون وقال تعالى ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة وقال تعالى الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وقال صلى الله عليه وسلم اياكم والشح فانه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم وقال صلى الله عليه وسلم اياكم والشح فانه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم وقال صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن ولا سيئ الملكة وفي رواية ولا جبار وفي رواية ولا منان وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه وقال صلى الله عليه وسلم ان الله يبغض ثلاثة الشيخ الزاني والبخيل المنان والمعيل المختال وقال صلى الله عليه وسلم مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من لدن ثديهما الى تراقيهما فاما المنفق فلا ينفق شيأ الا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانه وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيأ الا قلصت ولزمت كل حلقة مكانها حتى أخذت بتراقيه فهو يوسعها ولا تتسع وقال صلى الله عليه وسلم اللهم اني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد الى أرذل العمر وقال صلى الله عليه وسلم اياكم والظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة واياكم والفحش ان الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش واياكم والشح فانما أهلك من كان قبلكم الشح أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وقال صلى الله عليه وسلم شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع * وقتل شهيد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكته باكية فقالت واشهيداه فقال صلى الله عليه وسلم وما يدريك أنه شهيد فلعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه وقال جبير بن مطعم بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقفله من خيبر اذ علقت برسول الله صلى الله عليه وسلم الاعراب يسألونه حتى اضطروه الى سمرة فخطفت رداءه فوقف صلى الله عليه وسلم فقال أعطوني ردائي فوالذي نفسي بيده لو كان لي عدد هذه العضاه نعما لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا وقال عمر رضي الله عنه قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسما فقلت غير هؤلاء كانوا أحق به منهم فقال انهم خيروني بين ان يسألوني بالفحش أو يبخلوني ولست بباخل وقال أبو سعيد الخدري دخل رجلان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه ثمن بعير فأعطاهما دينارين فخرجا من عنده فلقيهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأثنيا وقالا معروفا وشكرا ما صنع بهما فدخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما قالا فقال صلى الله عليه وسلم لكن فلان أعطيته ما بين عشرة الى مائة ولم يقل ذلك ان أحدكم ليسألني فينطلق في مسألته متأبطها وهي نار فقال عمر فلم تعطيهم ما هو نار فقال يأبون الا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى

فتشفع لصاحبها واذا أضاعها قالت ضيعك الله كما ضيعتني ثم صعدت ولها ظلمة حتى تنتهي الى أبواب السماء فتغلق دونها ثم تلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها (وقال أبو سليمان الداراني) اذا وقف العبد في الصلاة يقول الله تعالى ارفعوا الحجب فيما بيني وبين عبدي فاذا التفت يقول الله ارخوها فيما بيني وبينه وخلوا عبدي وما اختار لنفسه (وقال أبو بكر الوراق) ربما أصلي ركعتين فانصرف منهما وأنا أستحي من الله حياء رجل انصرف من الزنا قوله هذا لعظيم الادب عنده ومعرفة كل انسان بأدب الصلاة على قدر حظه من القرب (وقيل) لموسى ابن جعفر ان الناس أفسدوا عليك الصلاة بمرهم بين يديك قال ان الذي أصلي له أقرب الي من الذي يمشي بين يدي (وقيل) كان زين

الله عليه وسلم الجود من جود الله تعالى فجودوا يجد الله لكم الا ان الله عز وجل خلق الجود فجعله في صورة رجل
وجعل رأسه راسخا في أصل شجرة طوبى وشد أغصانها بأغصان سدرة المنتهى ودلى بعض أغصانها الى الدنيا فمن
تعلق بغصن منها أدخله الجنة ألا ان السخاء من الايمان والايمان في الجنة وخلق البخل من مقته وجعل رأسه
راسخا في أصل شجرة الزقوم ودلى بعض أغصانها الى الدنيا فمن تعلق بغصن منها أدخله النار ألا ان البخل من
الكفر والكفر في النار وقال صلى الله عليه وسلم السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يلج الجنة الا سخي والبخل شجرة
تنبت في النار فلا يلج النار الا بخيل وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوفد بني لحيان من سيدكم
يا بني لحيان قالوا سيدنا جد بن قيس الا انه رجل فيه بخل فقال صلى الله عليه وسلم وأي داء أدوأ من البخل ولكن
سيدكم عمرو بن الجموح وفي رواية انهم قالوا سيدنا جد بن قيس فقال بم تسودونه قالوا انه أكثرنا مالا وانا على
ذلك لنرى منه البخل فقال عليه السلام وأي داء أدوأ من البخل ليس ذلك سيدكم قالوا فمن سيدنا يا رسول الله قال
سيدكم بشر بن البراء وقال علي رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يبغض البخيل في حياته
السخي عند موته وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم السخي الجهول أحب الى الله من العابد البخيل
وقال أيضا قال صلى الله عليه وسلم الشح والايمان لا يجتمعان في قلب عبد وقال أيضا خصلتان لا يجتمعان في مؤمن
البخل وسوء الخلق وقال صلى الله عليه وسلم لا ينبغي لمؤمن أن يكون بخيلا ولا جبانا وقال صلى الله عليه وسلم يقول
قائلكم الشحيح أعذر من الظالم وأي ظلم أظلم عند الله من الشح حلف الله تعالى بعزته وعظمته وجلاله لا يدخل
الجنة شحيح ولا بخيل وروي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطوف بالبيت فاذا رجل متعلق بأستار الكعبة
وهو يقول بحرمة هذا البيت الا غفرت لي ذنبي فقال صلى الله عليه وسلم وما ذنبك صفه لي فقال هو أعظم من أن
أصفه لك فقال ويحك ذنبك أعظم أم الارضون فقال بل ذنبي أعظم يا رسول الله قال فذنبك أعظم أم الجبال قال
بل ذنبي أعظم يا رسول الله قال فذنبك أعظم ام البحار قال بل ذنبي اعظم يا رسول الله قال فذنبك أعظم أم
السموات قال بل ذنبي أعظم يا رسول الله قال فذنبك أعظم أم العرش قال بل ذنبي أعظم يا رسول الله قال فذنبك
أعظم أم الله قال بل الله أعظم وأعلى قال ويحك فصف لي ذنبك قال يا رسول الله اني رجل ذو ثروة من المال وان
السائل ليأتيني يسألني فكأنما يستقبلني بشعلة من نار فقال صلى الله عليه وسلم اليك عني لا تحرقني بنارك فوالذي
بعثني بالهداية والكرامة لو قمت بين الركن والمقام ثم صليت ألفي ألف عام ثم بكيت حتى تجري من دموعك الانهار
وتسقي بها الاشجار ثم مت وأنت لئيم لأكبك الله في النار ويحك أما علمت ان البخل كفر وان الكفر في النار
ويحك أما علمت ان الله تعالى يقول ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون
(الآثار) قال ابن عباس رضي الله عنهما لما خلق الله جنة عدن قال لها تزيني فتزينت ثم قال لها اظهري أنهارك
فاظهرت عين السلسبيل وعين الكافور وعين التسنيم فتفجر منها في الجنان أنهار الخمر وأنهار العسل واللبن ثم
قال لها أظهري سررك وحجالك وكراسيك وحليك وحللك وحور عينك فاظهرت فنظر اليها فقال تكلمي
فقالت طوبى لمن دخلني فقال الله تعالى وعزتي لا أسكنك بخيلا وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز أف
للبخيل لو كان البخل قميصا ما لبسته ولو كان طريقا ما سلكته وقال طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه انا لنجد
بأموالنا ما يجد البخلاء لكننا نتصبر وقال محمد بن المنكدر كان يقال اذا أراد الله بقوم شرا أمر عليهم شرارهم وجعل
أرزاقهم بأيدي بخلائهم وقال علي كرم الله وجهه في خطبته انه سيأتي على الناس زمان عضوض يعض الموسر على
ما في يده ولم يؤمر بذلك قال الله تعالى ولا تنسوا الفضل بينكم وقال عبد الله بن عمرو الشح أشد من البخل لان
الشحيح هو الذي يشح على ما في يد غيره حتى يأخذه ويشح بما في يده فيحبسه والبخيل هو الذي يبخل بما في يده وقال
الشعبي لا أدري أيهما أبعد غورا في نار جهنم البخل أو الكذب وقيل ورد على أنوشروان حكيم الهند وفيلسوف
الروم فقال للهندي تكلم فقال خير الناس من ألفي سخيا وعند الغضب وقورا وفي القول متأنيا وفي الرفعة متواضعا
وعلى كل ذي رحم مشفقا وقام الرومي فقال من كان بخيلا ورث عدوه ماله ومن قل شكره لم ينل النجح وأهل الكذب
مذمومون وأهل النميمة يموتون فقراء ومن لم يرحم سلط عليه من لا يرحمه وقال الضحاك في قوله تعالى انا جعلنا في

العابدين علي بن الحسين
رضي الله عنهما اذا أراد
أن يخرج الى الصلاة
لا يعرف من تغير لونه
فيقال له في ذلك فيقول
أتدرون بين يدي من
أريد أن أقف (وروى)
عمار بن ياسر عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم
انه قال لا يكتب للعبد من
صلاته الا ما يعقل وقد
ورد في لفظ آخر منكم
من يصلي الصلاة كاملة
ومنكم من يصلي النصف
والثلث والربع والخمس
حتى يبلغ العشر (قال)
الخواص ينبغي للرجل
أن ينوي نوافله لنقصان
فرائضه فان لم ينوها لم
يحسب له منها شيء بلغنا
ان الله لا يقبل نافلة
حتى تؤدى فريضة
يقول الله تعالى مثلكم
كمثل العبد السوء بدأ
بالهدية قبل قضاء الدين
(وقال) أيضا انقطع
الخلق عن الله تعالى
بخصلتين احداهما
انهم طلبوا النوافل
وضيعوا الفرائض

أعناقهم أغلالا قال البخل أمسك الله تعالى أيديهم عن النفقة في سبيل الله فهم لا يبصرون الهدى وقال كعب ما من صباح الا وقد وكل به ملكان ينا ديان اللهم عجل لممسك تلفا وعجل لمنفق خلفا وقال الاصمعي سمعت اعرابيا وقد وصف رجلا فقال لقد صغر فلان في عيني لعظم الدنيا في عينه وكأنما يرى السائل ملك الموت اذا أتاه وقال أبو حنيفة رحمه الله لا أرى أن أعدل بخيلا لان البخل يحمله على الاستقصاء فيأخذ فوق حقه مخافة من أن يغبن فمن كان هكذا لا يكون مأمون الامانة وقال علي كرم الله وجهه والله ما استقصى كريم قط حقه قال الله تعالى عرف بعضه وأعرض عن بعض وقال الجاحظ ما بقي من اللذات الا ثلاث ذم البخلاء وأكل القديد وحك الجرب وقال بشر بن الحرث البخيل لا غيبة له قال النبي صلى الله عليه وسلم انك اذا لبخيل ومدحت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا صوامة قوامة الا أن فيها بخلا قال فما خيرها اذا وقال بشر النظر الى البخيل يقسي القلب ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين وقال يحيى بن معاذ ما في القلب للاسخياء الا حب ولو كانوا فجارا وللبخلاء الا بغض ولو كانوا أبرارا وقال ابن المعتز أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه ولقي يحيى بن زكريا عليهما السلام ابليس في صورته فقال له يا ابليس اخبرني باحب الناس اليك وأبغض الناس اليك قال أحب الناس الي المؤمن البخيل وأبغض الناس الي الفاسق السخي قال له لم قال لان البخيل قد كفاني بخله والفاسق السخي أتخوف أن يطلع الله عليه في سخائه فيقبله ثم ولى وهو يقول لولا أنك يحيى لما أخبرتك

(حكايات البخلاء)

قيل كان بالبصرة رجل موسر بخيل فدعاه بعض جيرانه وقدم اليه طباهجة ببيض فأكل منه فأكثر وجعل يشرب الماء فانتفخ بطنه ونزل به الكرب والموت فجعل يتلوى فلما جهده الامر وصف حاله للطبيب فقال لا بأس عليك تقيأ ما أكلت فقال هاه أتقيأ طباهجة ببيض الموت ولا ذلك* وقيل أقبل أعرابي يطلب رجلا وبين يديه تين فغطى التين بكسائه فجلس الاعرابي فقال له الرجل هل تحسن من القرآن شيأ قال نعم فقرأ والزيتون وطور سينين فقال وأين التين قال هو تحت كسائك* ودعا بعضهم أخاه ولم يطعمه شيأ فحبسه الى العصر حتى اشتد جوعه وأخذه مثل الجنون فأخذ صاحب البيت العود وقال له بحياتي أي صوت تشتهي أن أسمعك قال صوت المقلي ويحكى أن محمد بن يحيى بن خالد بن برمك كان قبيح البخل فسئل نسيب له كان يعرفه عنه فقال له قائل صف لي مائدته فقال هي فتر في فتر وصحافه منقورة من حب الخشخاش قيل فمن يحضرها قال الكرام الكاتبون قال فما يأكل معه أحد قال بلى الذباب فقال سوأتك بدت وأنت خاص به وثوبك مخرق قال أنا والله ما أقدر على ابرة أخيطه بها ولو ملك محمد بيتا من بغداد الى النوبة مملوأ ابرا ثم جاءه جبريل وميكائيل ومعهما يعقوب النبي عليه السلام يطلبون منه ابرة ويسألونه اعارتهم اياها ليخيط بها قميص يوسف الذي قد من دبر ما فعل* ويقال كان مروان بن أبي حفصة لا يأكل اللحم بخلا حتى يقرم اليه فاذا قرم اليه أرسل غلامه فاشترى له رأسا فأكله فقيل له نراك لا تأكل الا الرؤس في الصيف والشتاء فلم تختار ذلك قال نعم الرأس أعرف سعره فآمن خيانة الغلام ولا يستطيع أن يغبنني فيه وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه ان مس عينا أو أذنا أو خدا وقفت على ذلك وآكل منه ألوانا عينه لونا وأذنه لونا ولسانه لونا وغلصمته لونا ودماغه لونا وأكفى مؤنة طبخه فقد اجتمعت لي فيه مرافق وخرج يوما يريد الخليفة المهدي فقالت له امرأة من أهله ما لي عليك ان رجعت بالجائزة فقال ان أعطيت مائة ألف أعطيتك درهما فاعطي ستين ألفا فاعطاها أربعة دوانق واشترى مرة لحما بدرهم فدعاه صديق له فرد اللحم الى القصاب بنقصان دانق وقال أكره الاسراف* وكان للاعمش جار وكان لا يزال يعرض عليه المنزل ويقول لو دخلت فأكلت كسرة وملحا فيأبى عليه الاعمش فعرض عليه ذات يوم فوافق جوع الاعمش فقال سر بنا فدخل منزله فقرب اليه كسرة وملحا فجاء سائل فقال له رب المنزل بورك فيك فاعاد عليه المسئلة فقال له بورك فيك فلما سأل الثالثة قال له اذهب والا والله خرجت اليك بالعصا قال فناداه الاعمش فقال اذهب ويحك فلا والله ما رأيت أحدا أصدق مواعيد منه هو منذ مدة يدعوني على كسرة وملح فلا والله ما زادني عليهما *(بيان الايثار وفضله)*

اعلم ان السخاء والبخل كل منهما ينقسم الى درجات فارفع درجة السخاء الايثار وهو أن يجود بالمال مع الحاجة اليه

والثانية انهم عملوا أعمالا بالقلوب ولم يأخذوا أنفسهم بالصدق فيها والنصح لها وأبى الله تعالى أن يقبل من عامل عملا الا بالصدق واصابة الحق وفتح العين في الصلاة أولى من تغميض العين الا أن يتشتت همه بتفريق النظر فيغمض العين للاستعانة على الخشوع وان تثاءب في الصلاة يضم شفتيه بقدر الامكان ولا يلزق ذقنه بصدره ولا يزاحم في الصلاة غيره (قيل) ذهب المزحوم بصلاة المزاحم (وقيل) من ترك الصف الاول مخافة أن يضيق على أهله فقام في الثاني أعطاه الله مثل ثواب الصف الاول من غير أن ينقص من أجورهم شيء (وقيل) ان ابراهيم الخليل عليه السلام كان اذا قام الى الصلاة يسمع خفقان قلبه من ميل (وروت) عائشة رضي الله عنها أن رسول

وانما السخاء عبارة عن بذل ما يحتاج اليه لمحتاج أو لغير محتاج والبذل مع الحاجة أشد وكما ان السخاوة قد تنتهي
الى ان يسخو الانسان على غيره مع الحاجة فالبخل قد ينتهي الى ان يبخل على نفسه مع الحاجة فكم من بخيل
يمسك المال ويمرض فلا يتداوى ويشتهي الشهوة فلا يمنعه منها الا البخل بالثمن ولو وجدها مجانا لا كلها فهذا
بخيل على نفسه مع الحاجة وذلك يؤثر على نفسه غيره مع انه محتاج اليه فانظر ما بين الرجلين فان الاخلاق عطايا
يضعها الله حيث يشاء وليس بعد الايثار درجة في السخاء وقد أثنى الله على الصحابة رضي الله عنهم به فقال
ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة وقال النبي صلى الله عليه وسلم أيما امرئ اشتهى شهوة فرد شهوته
وآثر على نفسه غفر له وقالت عائشة رضي الله عنها ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متوالية حتى
فارق الدنيا ولو شئنا لشبعنا ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا ونزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عند أهله
شيأ فدخل عليه رجل من الانصار فذهب بالضيف الى أهله ثم وضع بين يديه الطعام وأمر امرأته باطفاء السراج
وجعل يمد يده الى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل حتى أكل الضيف الطعام فلما أصبح قال له رسول الله صلى الله عليه
وسلم لقد عجب الله من صنيعكم الليلة الى ضيفكم ونزلت ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة فالسخاء
خلق من أخلاق الله تعالى والايثار أعلى درجات السخاء وكان ذلك من دأب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى
سماه الله تعالى عظيما فقال تعالى وانك لعلى خلق عظيم وقال سهل بن عبد الله التستري قال موسى عليه السلام
يارب أرني بعض درجات محمد صلى الله عليه وسلم وأمته فقال ياموسى انك لن تطيق ذلك ولكن أريك منزلة من
منازله جليلة عظيمة فضلته بها عليك وعلى جميع خلقي قال فكشف له عن ملكوت السموات فنظر الى منزلة
كادت تتلف نفسه من أنوارها وقربها من الله تعالى فقال يارب بماذا بلغت به الى هذه الكرامة قال بخلق
اختصصته به من بينهم وهو الايثار ياموسى لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وقتا من عمره الا استحييت من محاسبته
وبوأته من جنتي حيث يشاء وقيل خرج عبد الله بن جعفر الى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيه غلام أسود يعمل
فيه اذ أتى الغلام بقوته فدخل الحائط كلب ودنا من الغلام فرمى اليه الغلام بقرص فأكله ثم رمى اليه الثاني
والثالث فأكله وعبد الله ينظر اليه فقال ياغلام كم قوتك كل يوم قال ما رأيت قال فلم آثرت به هذا الكلب قال
ما هي بأرض كلاب انه جاء من مسافة بعيدة جائعا فكرهت أن أشبع وهو جائع قال فما أنت صانع اليوم قال
أطوي يومي هذا فقال عبد الله بن جعفر ألام على السخاء ان هذا الغلام لأسخى مني فاشترى الحائط والغلام
وما فيه من الآلات فأعتق الغلام ووهبه منه وقال عمر رضي الله عنه أهدي الى رجل من أصحاب رسول الله صلى
الله عليه وسلم رأس شاة فقال ان أخي كان أحوج مني اليه فبعث به اليه فلم يزل كل واحد يبعث به الى آخر حتى
تداوله سبعة أبيات ورجع الى الاول وبات علي كرم الله وجهه على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوحى الله
تعالى الى جبريل وميكائيل عليهما السلام اني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فأيكما
يؤثر صاحبه بالحياة فاختارا كلاهما الحياة وأحباها فأوحى الله عز وجل اليهما أفلا كنتما مثل علي بن أبي
طالب آخيت بينه وبين نبيي محمد صلى الله عليه وسلم فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة اهبطا الى
الارض فاحفظاه من عدوه فكان جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجبريل عليه السلام يقول بخ بخ من
مثلك يا ابن أبي طالب والله تعالى يباهي بك الملائكة فأنزل الله تعالى ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء
مرضات الله والله رؤف بالعباد وعن أبي الحسن الانطاكي انه اجتمع عنده نيف وثلاثون نفسا وكانوا في قرية بقرب
الري ولهم أرغفة معدودة لم تشبع جميعهم فكسروا الرغفان وأطفؤا السراج وجلسوا للطعام فلما رفع فاذا
الطعام بحاله ولم يأكل أحد منه شيأ ايثارا لصاحبه على نفسه وروي ان شعبة جاءه سائل وليس عنده شيء فنزع
خشبة من سقف بيته فأعطاه ثم اعتذر اليه وقال حذيفة العدوي انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي ومعي
شيء من ماء وأنا أقول ان كان به رمق سقيته ومسحت به وجهه فاذا أنا به فقلت أسقيك فأشار الي أن نعم فاذا رجل
يقول آه فأشار ابن عمي الي أن انطلق به اليه قال فجئته فاذا هو هشام بن العاص فقلت أسقيك فسمع به آخر فقال
آه فأشار هشام انطلق به اليه فجئته فاذا هو قد مات فرجعت الى هشام فاذا هو قد مات فرجعت الى ابن عمي فاذا هو
قد مات رحمة الله عليهم أجمعين وقال عباس بن دهقان ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها الا بشر بن الحرث فانه أتاه

الله صلى الله عليه وسلم
كان يسمع من صدره
أزيز كأزيز المرجل
حتى كان يسمع في بعض
سكك المدينة (وسئل)
الجنيد ما فريضة
الصلاة قال قطع العلائق
وجمع الهم والحضور
بين يدي الله وقال
الحسن ماذا يعز عليك
من أمر دينك اذا
هانت عليك صلاتك
(وقيل) أوحى الله
تعالى الى بعض الانبياء
فقال اذا دخلت الصلاة
فهب لي من قلبك
الخشوع ومن بدنك
الخضوع ومن عينك
الدموع فاني قريب
(وقال) أبو الخير الاقطع
رأيت رسول الله صلى
الله عليه وسلم في المنام
فقلت يارسول الله
أوصني فقال يا أبا الخير
عليك بالصلاة فاني
استوصيت ربي فأوصاني
بالصلاة وقال لي ان
أقرب ما أكون منك
وأنت تصلي (وقال ابن
عباس) رضي الله عنهما
ركعتان في تفكر خير

رجل فى مرضه فشكا اليه الحاجة فنزع قميصه وأعطاه اياه واستعار ثوبا فمات فيه وعن بعض الصوفية قال كنا بطرسوس فاجتمعنا جماعة وخرجنا الى باب الجهاد فتبعنا كلب من البلد فلما بلغنا ظاهر الباب اذا نحن بدابة ميتة فصعدنا الى موضع عال وقعدنا فلما نظر الكلب الى الميتة رجع الى البلد ثم عاد بعد ساعة ومعه مقدار عشرين كلبا فجاء الى تلك الميتة وقعد ناحية ووقعت الكلاب فى الميتة فما زالت تأكلها وذلك الكلب قاعد ينظر اليها حتى أكلت الميتة وبقى العظم ورجعت الكلاب الى البلد فقام ذلك الكلب وجاء الى تلك العظام فأكل مما بقى عليها قليلا ثم انصرف وقد ذكرنا جملة من أخبار الايثار وأحوال الاولياء فى كتاب الفقر والزهد فلا حاجة الى الاعادة ههنا وبالله التوفيق وعليه التوكل فيما يرضيه عز وجل

(بيان حد السخاء والبخل وحقيقتهما)

لعلك تقول قد عرف بشواهد الشرع ان البخل من المهلكات ولكن ما حد البخل وبماذا يصير الانسان بخيلا وما من انسان الا وهو يرى نفسه سخيا وربما يراه غيره بخيلا وقد يصدر فعل من انسان فيختلف فيه الناس فيقول قوم هذا بخل ويقول آخرون ليس هذا من البخل وما من انسان الا ويجد من نفسه حب المال ولاجله يحفظ المال ويمسكه فان كان يصير بامساك المال بخيلا فاذا لا ينفك أحد عن البخل واذا كان الامساك مطلقا لا يوجب البخل ولا معنى للبخل الا الامساك فما البخل الذى يوجب الهلاك وما حد السخاء الذى يستحق به العبد صفة السخاوة وثوابها فنقول قد قال قائلون حد البخل منع الواجب فكل من أدى ما يجب عليه فليس ببخيل وهذا غير كاف فان من يرد اللحم مثلا الى القصاب والخبز الى الخباز بنقصان حبة أو نصف حبة فانه يعد بخيلا بالاتفاق وكذلك من يسلم الى عياله القدر الذى يفرضه القاضى ثم يضايقهم فى لقمة ازدادوها عليه أو تمرة أكلوها من ماله يعد بخيلا ومن كان بين يديه رغيف فحضر من يظن أنه يأكل معه فأخفاه عنه عد بخيلا وقال قائلون البخيل هو الذى يستصعب العطية وهو أيضا قاصر فانه ان أريد به انه يستصعب كل عطية فكم من بخيل لا يستصعب العطية القليلة كالحبة وما يقرب منها ويستصعب ما فوق ذلك وان أريد به انه يستصعب بعض العطايا فما من جواد الا وقد يستصعب بعض العطايا وهو ما يستغرق جميع ماله أو المال العظيم فهذا لا يوجب الحكم بالبخل وكذلك تكلموا فى الجود فقيل الجود عطاء بلا من واسعاف من غير روية وقيل الجود عطاء من غير مسألة على رؤية التقليل وقيل الجود السرور بالسائل والفرح بالعطاء لما أمكن وقيل الجود عطاء على رؤية ان المال لله تعالى والعبد لله عز وجل فيعطى عبد الله مال الله على غير رؤية الفقر وقيل من أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب سخاء ومن بذل الاكثر وأبقى لنفسه شيأ فهو صاحب جود ومن قاسى الضر وآثر غيره بالبلغة فهو صاحب ايثار ومن لم يبذل شيأ فهو صاحب بخل وجملة هذه الكلمات غير محيطة بحقيقة الجود والبخل بل نقول المال خلق لحكمة ومقصود وهو صلاحه لحاجات الخلق ويمكن امساكه عن الصرف الى ما خلق للصرف اليه ويمكن بذله بالصرف الى ما لا يحسن الصرف اليه ويمكن التصرف فيه بالعدل وهو ان يحفظ حيث يجب الحفظ ويبذل حيث يجب البذل فالامساك حيث يجب البذل بخل والبذل حيث يجب الامساك تبذير وبينهما وسط وهو المحمود وينبغى أن يكون السخاء والجود عبارة عنه اذ لم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الا بالسخاء وقد قيل له ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط وقال تعالى والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما فالجود وسط بين الاسراف والاقتار وبين البسط والقبض وهو ان يقدر بذله وامساكه بقدر الواجب ولا يكفى ان يفعل ذلك بجوارحه ما لم يكن قلبه طيبا به غير منازع له فيه فان بذل فى محل وجوب البذل ونفسه تنازعه وهو يصابرها فهو متسخ وليس بسخى بل ينبغى أن لا يكون لقلبه علاقة مع المال الا من حيث يراد المال له وهو صرفه الى ما يجب صرفه اليه فان قلت فقد صار هذا موقوفا على معرفة الواجب فما الذى يجب بذله فأقول ان الواجب قسمان واجب بالشرع وواجب بالمروءة والعادة والسخى هو الذى لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة فان منع واحدا منهما فهو بخيل ولكن الذى يمنع واجب الشرع أبخل كالذى يمنع أداء الزكاة ويمنع عياله وأهله النفقة أو يؤديها ولكنه يشق عليه فانه بخيل بالطبع وانما يتسخى بالتكلف أو الذى يتيمم الخبيث من ماله ولا يطيب قلبه أن يعطى من أطيب ماله أو من وسطه فهذا كله بخل * وأما واجب المروءة فهو ترك المضايقة والاستقصاء فى

من قيام ليلة (وقيل ان) محمد بن يوسف الفرغانى رأى حاتما الاصم واقفا يعظ الناس فقال له ياحاتم أراك تعظ الناس أفتحسن أن تصلى قال نعم قال كيف تصلى قال أقوم بالامر وأمشى بالخشية وأدخل بالهيبة وأكبر بالعظمة وأقرأ بالترتيل وأركع بالخشوع وأسجد بالتواضع وأقعد للتشهد بالتمام وأسلم على السنة وأسلمها الى ربى وأحفظها أيام حياتى وأرجع باللوم على نفسى وأخاف أن لا تقبل منى وأرجو ان تقبل منى وأنا بين الخوف والرجاء وأشكر من علمنى وأعلمها من سألنى وأحمد ربى اذ هدانى فقال محمد بن يوسف مثلك يصلح أن يكون واعظا وقوله تعالى لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى قيل من حب الدنيا وقيل من الاهتمام وقال عليه السلام من صلى ركعتين ولم يحدث نفسه بشئ من

المحقرات فان ذلك مستقبح واستقباح ذلك يختلف بالاحوال والاشخاص فمن كثر ماله استقبح منه مالا يستقبح من الفقير من المضايقة ويستقبح من الرجل المضايقة مع أهله وأقاربه ومماليكه مالا يستقبح مع الاجانب ويستقبح من الجار مالا يستقبح مع البعيد ويستقبح في الضيافة من المضايقة مالا يستقبح في المعاملة فيختلف ذلك بما فيه من المضايقة في ضيافة أو معاملة وبما به المضايقة من طعام أو ثوب اذ يستقبح في الاطعمة مالا يستقبح في غيرها ويستقبح في شراء الكفن مثلا أو شراء الاضحية أو شراء خبز الصدقة مالا يستقبح في غيره من المضايقة وكذلك بمن معه المضايقة من صديق أو أخ أو قريب أو زوجة أو ولد أو أجنبي وبمن منه المضايقة من صبي أو امرأة أو شيخ أو شاب أو عالم أو جاهل أو موسر أو فقير فالبخيل هو الذي يمنع حيث ينبغي أن لا يمنع اما بحكم الشرع واما بحكم المروءة وذلك لا يمكن التنصيص على مقداره ولعل حد البخل هو امساك المال عن غرض ذلك الغرض هو أهم من حفظ المال فان صيانة الدين أهم من حفظ المال فمانع الزكاة والنفقة بخيل وصيانة المروءة أهم من حفظ المال والمضايق في الدقائق مع من لا تحسن المضايقة معه هاتك ستر المروءة لحب المال فهو بخيل ثم تبقى درجة أخرى وهو أن يكون الرجل ممن يؤدي الواجب ويحفظ المروءة ولكن معه مال كثير قد جمعه ليس يصرفه الى الصدقات والى المحتاجين فقد تقابل غرض حفظ المال ليكون له عدة على نوائب الزمان وغرض الثواب ليكون رافعا لدرجاته في الآخرة وامساك المال عن هذا الغرض بخل عند الاكياس وليس ببخل عند عوام الخلق وذلك لان نظر العوام مقصور على حظوظ الدنيا فيرون امساكه لدفع نوائب الزمان مهما ويما يظهر عند العوام أيضا سمة البخل عليه ان كان في جواره محتاج فمنعه وقال قد أديت الزكاة الواجبة وليس علي غيرها ويختلف استقباح ذلك باختلاف مقدار ماله وباختلاف شدة حاجة المحتاج وصلاح دينه واستحقاقه فمن أدى واجب الشرع وواجب المروءة اللائقة به فقد تبرأ من البخل نعم لا يتصف بصفة الجود والسخاء ما لم يبذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة ونيل الدرجات فاذا اتسعت نفسه لبذل المال حيث لا يوجبه الشرع ولا تتوجه اليه الملامة في العادة فهو جواد بقدر ما تتسع له نفسه من قليل أو كثير ودرجات ذلك لا تحصر وبعض الناس أجود من بعض فاصطناع المعروف وراء ما توجبه العادة والمروءة هو الجود ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ولا يكون عن طمع ورجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثناء فان من طمع في الشكر والثناء فهو بياع وليس بجواد فانه يشتري المدح بماله والمدح لذيذ وهو مقصود في نفسه والجود هو بذل الشيء من غير عوض هذا هو الحقيقة ولا يتصور ذلك الا من الله تعالى وأما الآدمي فاسم الجود عليه مجاز اذ لا يبذل الشيء الا لغرض ولكنه اذا لم يكن غرضه الا الثواب في الآخرة أو اكتساب فضيلة الجود وتطهير النفس عن رذالة البخل فيسمى جوادا فان كان الباعث عليه الخوف من الهجاء مثلا أو من ملامة الخلق أو ما يتوقعه من نفع يناله من المنعم عليه فكل ذلك ليس من الجود لانه مضطر اليه بهذه البواعث وهي أعواض معجلة له عليه فهو معتاض لا جواد كما روي عن بعض المتعبدات انها وقفت على حبان بن هلال وهو جالس مع أصحابه فقالت هل فيكم من أسأله عن مسألة فقالوا لها سلي عما شئت وأشاروا الى حبان بن هلال فقالت ما السخاء عندكم قالوا العطاء والبذل والايثار قالت هذا السخاء في الدنيا فما السخاء في الدين قالوا أن نعبد الله سبحانه سخية بها أنفسنا غير مكرهة قالت فتريدون على ذلك أجرا قالوا نعم قالت ولم قالوا لان الله تعالى وعدنا بالحسنة عشر أمثالها قالت سبحان الله فاذا أعطيتم واحدة وأخذتم عشرة فبأي شيء تسخيتم عليه قالوا لها فما السخاء عندك يرحمك الله قالت السخاء عندي أن تعبدوا الله متنعمين متلذذين بطاعته غير كارهين لا تريدون على ذلك أجرا حتى يكون مولاكم يفعل بكم ما يشاء ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم فيعلم منها انكم تريدون شيأ بشيء ان هذا في الدنيا القبيح وقالت بعض المتعبدات أتحسبون أن السخاء في الدرهم والدينار فقط قيل ففيم قالت السخاء عندي في المهج وقال المحاسبي السخاء في الدين ان تسخو بنفسك تتلفها لله عز وجل ويسخو قلبك ببذل مهجتك واهراق دمك لله تعالى بسماحة من غير اكراه ولا تريد بذلك ثوابا عاجلا ولا آجلا وان كنت غير مستغن عن الثواب ولكن يغلب على ظنك حسن كمال السخاء بترك الاختيار على الله حتى يكون مولاك هو الذي يفعل لك ما لا تحسن أن تختاره لنفسك

(بيان علاج البخل)

الدنيا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وقال أيضا ان الصلاة تمسكن وتواضع وتضرع وتنادم وترفع يديك وتقول اللهم اللهم فمن لا يفعل ذلك فهي خداج أي ناقصة * وقد ورد أن المؤمن اذا توضأ للصلاة تباعد عنه الشيطان في أقطار الارض خوفا منه لانه تأهب للدخول على الملك فاذا كبر حجب عنه ابليس قيل يضرب بينه وبينه سرادق لا ينظر اليه وواجهه الجبار بوجهه فاذا قال الله أكبر اطلع الملك في قلبه فاذا لم يكن في قلبه أكبر من الله تعالى يقول صدقت الله في قلبك كما تقول وتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش ويكشف له بذلك النور ملكوت السموات والارض ويكتب له حشو ذلك النور حسنات وان الجاهل الغافل اذا قام الى الصلاة احتوشته

اعلم ان البخل سببه حب المال ولحب المال سببان * أحدهما حب الشهوات التي لا وصول اليها الا بالمال مع طول الامل فان الانسان لو علم أنه يموت بعد يوم ربما انه كان لا يبخل بماله اذ القدر الذي يحتاج اليه في يوم أو في شهر أو في سنة قريب وان كان قصير الامل ولكن كان له أولاد أقام الولد مقام طول الامل فانه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه فيمسك لاجلهم ولذلك قال عليه السلام الولد مبخلة مجبنة مجهلة فاذا انضاف الى ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بمجيء الرزق قوي البخل لا محالة * السبب الثاني أن يحب عين المال فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره اذا اقتصر على ما جرت به عادته بنفقته وتفضل آلاف وهو شيخ بلا ولد ومعه أموال كثيرة ولا تسمح نفسه باخراج الزكاة ولا بمداواة نفسه عند المرض بل صار محبا للدنانير عاشقا لها يلتذ بوجودها في يده وبقدرته عليها فيكنزها تحت الارض وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه ومع هذا فلا تسمح نفسه بان يأكل أو يتصدق منها بحبة واحدة وهذا مرض للقلب عظيم عسير العلاج لا سيما في كبر السن وهو مرض مزمن لا يرجى علاجه ومثال صاحبه مثال رجل عشق شخصا فاحب رسوله لنفسه ثم نسي محبوبه واشتغل برسوله فان الدنانير رسول يبلغ الى الحاجات فصارت محبوبة لذلك لان الموصل الى اللذيذ لذيذ ثم قد تنسى الحاجات ويصير الذهب عنده كانه محبوب في نفسه وهو غاية الضلال بل من رأى بينه وبين الحجر فرقا فهو جاهل الا من حيث قضاء حاجته به فالفاضل عن قدر حاجته والحجر بمثابة واحدة فهذه أسباب حب المال وانما علاج كل علة بمضادة سببها فتعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر وتعالج طول الامل بكثرة ذكر الموت والنظر في موت الاقران وطول تعبهم في جمع المال وضياعه بعدهم وتعالج التفات القلب الى الولد بان خالقه خلق معه رزقه وكم من ولد لم يرث من أبيه مالا وحاله أحسن ممن ورث وبان يعلم انه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير وينقلب هو الى شر وان ولده ان كان تقيا صالحا فالله كافيه وان كان فاسقا فيستعين بماله على المعصية وترجع مظلمته اليه ويعالج أيضا قلبه بكثرة التأمل في الاخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم ومن الادوية النافعة كثرة التأمل في أحوال البخلاء ونفرة الطبع عنهم واستقباحهم له فانه ما من بخيل الا ويستقبح البخل من غيره ويستثقل كل بخيل من أصحابه فيعلم انه مستثقل ومستقذر في قلوب الناس مثل سائر البخلاء في قلبه ويعالج أيضا قلبه بان يتفكر في مقاصد المال وانه لماذا خلق ولا يحفظ من المال الا بقدر حاجته اليه والباقي يدخره لنفسه في الآخرة بان يحصل له ثواب بذله فهذه الادوية من جهة المعرفة والعلم فاذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الامساك في الدنيا والآخرة هاجت رغبته في البذل ان كان عاقلا فان تحركت الشهوة فينبغي أن يجيب الخاطر الاول ولا يتوقف فان الشيطان يعده الفقر ويخوفه ويصده عنه * حكي أن أبا الحسن البوشنجي كان ذات يوم في الخلاء فدعا تلميذا له وقال انزع عني القميص وادفعه الى فلان فقال هلا صبرت حتى تخرج قال لم آمن على نفسي أن تتغير وكان قد خطر لي بذله ولا تزول صفة البخل الا بالبذل تكلفا كما لا يزول العشق الا بمفارقة المعشوق بالسفر عن مستقره حتى اذا سافر وفارق تكلفا وصبر عنه مدة تسلى عنه قلبه فكذلك الذي يريد علاج البخل ينبغي أن يفارق المال تكلفا بان يبذله بل لو رماه في الماء كان أولى به من امساكه اياه مع الحب له ومن لطائف الحيل فيه أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء فيبذل على قصد الرياء حتى تسمح نفسه بالبذل طمعا في حشمة الجود فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل واكتسب بها خبث الرياء ولكن يعطف بعد ذلك على الرياء ويزيله بعلاجه ويكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال كما قد يسلى الصبي عند الفطام عن الثدي باللعب بالعصافير وغيرها لا ليخلى واللعب ولكن لينفك عن الثدي اليه ثم ينقل عنه الى غيره فكذلك هذه الصفات الخبيثة ينبغي أن يسلط بعضها على بعض كما تسلط الشهوة على الغضب وتكسر سورته بها وتسلط الغضب على الشهوة وتكسر رعونتها به الا ان هذا مفيد في حق من كان البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء فيبدل الاقوى بالاضعف فان كان الجاه محبوبا عنده كالمال فلا فائدة فيه فانه يقلع من علة ويزيد في أخرى مثلها الا ان علامة ذلك أن لا يثقل عليه البذل لاجل الرياء فبذلك يتبين ان الرياء أغلب عليه فان كان البذل يشق عليه مع الرياء فينبغي أن يبذل فان ذلك يدل على ان مرض البخل أغلب على قلبه ومثال دفع هذه الصفات بعضها ببعض ما يقال ان الميت تستحيل

الشياطين كما يحتوش الذباب على نقطة العسل فاذا كبر اطلع الله على قلبه فاذا كان شيء في قلبه أكبر من الله تعالى عنده يقول له كذبت ليس الله تعالى أكبر في قلبك كما تقول فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان السماء فيكون حجابا لقلبه من الملكوت فيزداد ذلك الحجاب صلابة ويلتقم الشيطان قلبه فلا يزال ينفخ فيه وينفث ويوسوس اليه ويزين حتى ينصرف من صلاته ولا يعقل ما كان فيه * وفي الخبر لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السماء والقلوب الصافية التي كملت أدبها الكمال أدب قواليها تصير سماوية تدخل بالتكبير في السماء كما تدخل في الصلاة والله تعالى حرس السماء من تصرف الشياطين فالقلب السماوي لا سبيل للشيطان اليه فتبقى

جميع

جميع أجزائه دود اثم يأكل بعض الديدان البعض حتى يقل عددها ثم يأكل بعضها بعضا حتى ترجع الى اثنتين قويتين عظيمتين ثم لا تزالان تتقاتلان الى أن تغلب احداهما الاخرى فتأكلها وتسمن بها ثم لا تزال تبقى جائعة وحدها الى أن تموت فكذلك هذه الصفات الخبيثة يمكن أن يسلط بعضها على بعض حتى يقمعها و يجعل الاضعف قوتا للاقوى الى أن لا يبقى الا واحد ثم تقع العناية بمحوها واذابتها بالمجاهدة وهو منع القوت عنها ومنع القوت عن الصفات أن لا يعمل بمقتضاها فانها تقتضي لا محالة أعمالا واذا خولفت خمدت الصفات وماتت مثل البخل فانه يقتضي امساك المال فاذا منع مقتضاه و بذل المال مع الجهد مرة بعد أخرى ماتت صفة البخل وصار البذل طبعا وسقط التعب فيه فان علاج البخل بعلم وعمل فالعلم يرجع الى معرفة آفة البخل وفائدة الجود والعمل يرجع الى الجود والبذل على سبيل التكلف ولكن قد يقوى البخل بحيث يعمى و يصم فيمنع تحقق المعرفة فيه واذا لم تحقق المعرفة لم تحرك الرغبة فلم يتيسر العمل فتبقى العلة مزمنة كالمرض الذى يمنع معرفة الدواء وامكان استعماله فانه لا حيلة فيه الى الصبر الى الموت وكان من عادة بعض شيوخ الصوفية في معالجة علة البخل في المريدين أن يمنعهم من الاختصاص بزواياهم وكان اذا توهم في مريد فرحه بزاويته وما فيها نقله الى زاوية غيرها ونقل زاوية غيره اليه وأخرجه عن جميع ما ملكه واذا رآه يلتفت الى ثوب جديد يلبسه أو سجادة يفرح بها يأمره بتسليمها الى غيره و يلبسه ثوبا خلقا لا يميل اليه قلبه فبهذا يتجافى القلب عن متاع الدنيا فمن لم يسلك هذا السبيل أنس بالدنيا وأحبها فان كان له ألف متاع كان له ألف محبوب ولذلك اذا سرق كل واحد منه ألمت به مصيبة بقدر حبه له فاذا مات نزل به ألف مصيبة دفعة واحدة لانه كان يحب الكل وقد سلب عنه بل هو في حياته على خطر المصيبة بالفقد والهلاك * حمل الى بعض الملوك قدح من فيروزج مرصع بالجواهر لم ير له نظير ففرح الملك بذلك فرحا شديدا فقال لبعض الحكماء عنده كيف ترى هذا قال أراه مصيبة أو فقرا قال كيف قال ان كسر كان مصيبة لا جبر لها وان سرق صرت فقيرا اليه ولم تجد مثله وقد كنت قبل أن يحمل اليك في أمن من المصيبة والفقر ثم اتفق يوما أن كسر أو سرق وعظمت مصيبة الملك عليه فقال صدق الحكيم ليته لم يحمل الينا وهذا شأن جميع أسباب الدنيا فان الدنيا عدوة لاعداء الله اذ تسوقهم الى النار وعدوة أولياء الله اذ تغمهم بالصبر عنها وعدوة الله اذ تقطع طريقه على عباده وعدوة نفسها فانها تأكل نفسها فان المال لا يحفظ الا بالخزائن والحراس والخزائن والحراس لا يمكن تحصيلها الا بالمال وهو بذل الدراهم والدنانير فالمال يأكل نفسه و يضاد ذاته حتى يفنى ومن عرف آفة المال لم يأنس به ولم يفرح به ولم يأخذ منه الا بقدر حاجته ومن قنع بقدر الحاجة فلا يبخل لان ما أمسكه لحاجته فليس ببخل وما لا يحتاج اليه فلا يتعب نفسه بحفظه فيبذله بل هو كالماء على شط الدجلة اذ لا يبخل به أحد لقناعة الناس منه بمقدار الحاجة

(بيان مجموع الوظائف التي على العبد في ماله)

اعلم ان المال كما وصفناه خير من وجه وشر من وجه ومثاله مثال حية يأخذها الراقي و يستخرج منها الترياق و يأخذها الغافل فيقتله سمها من حيث لا يدري ولا يخلو أحد عن سم المال الا بالمحافظة على خمس وظائف (الاولى) أن يعرف مقصود المال وانه لماذا خلق وانه لم يحتاج اليه حتى يكتسب ولا يحفظ الا قدر الحاجة ولا يعطيه من همته فوق ما يستحقه (الثانية) أن يراعي جهة دخل المال فيجتنب الحرام المحض وما الغالب عليه الحرام كمال السلطان ويجتنب الجهات المكروهة القادحة في المروءة كالهدايا التي فيها شوائب الرشوة وكالسؤال الذي فيه الذلة وهتك المروءة وما يجري مجراه (الثالثة) في المقدار الذي يكتسبه فلا يستكثر منه ولا يستقل بل القدر الواجب ومعياره الحاجة والحاجة ملبس ومسكن ومطعم ولكل واحد ثلاث درجات أدنى وأوسط وأعلى ومادام مائلا الى جانب القلة ومتقربا من حد الضرورة كان محقا ويجيء من جملة المحقين وان جاوز ذلك وقع في هاوية لا آخر لعمقها وقد ذكرنا تفصيل هذه الدرجات في كتاب الزهد (الرابعة) أن يراعي جهة المخرج و يقتصد في الانفاق غير مبذر ولا مقتر كما ذكرناه فيضع ما اكتسبه من حله في حقه ولا يضعه في غير حقه فان الاثم في الاخذ من غير حقه والوضع في غير حقه سواء (الخامسة) أن يصلح نيته في الاخذ والترك والانفاق

هواجس نفسانية عند ذلك لانقطع بالتحصن بالسماء كانقطاع تصرف الشيطان والقلوب المرادة بالقرب تدرج بالتقريب وتعرج في طبقات السموات وفي كل طبقة من أطباق السماء يتخلف شيء من ظلمة النفس و بقدر ذلك يقل الهاجس الى أن يجاوز السموات ويقف امام العرش فعند ذلك يذهب بالكلية هاجس النفس بسواطع نور العرش وتندرج ظلمات النفس في نور القلب اندراج الليل في النهار وتتأدى حينئذ حقوق الآداب على وجه الصواب (وما ذكرنا) من أدب الصلاة يسير من كثير وشأن الصلاة أكبر من وصفنا وأكمل من ذكرنا وقد غلط أقوام وظنوا ان المقصود من الصلاة ذكر الله تعالى واذا حصل الذكر فلا حاجة الى الصلاة وسلكوا طرقا

ولا امساك فيأخذما يأخذ ليستعين به على العبادة ويترك ما يترك زهدا فيه واستحقارا له اذا فعل ذلك لم يضره وجود المال ولذلك قال على رضى الله عنه لو أن رجلا أخذ جميع ما فى الارض وأراد به وجه الله تعالى فهو زاهد ولو أنه ترك الجميع ولم يرد به وجه الله تعالى فليس بزاهد فلتكن جميع حركاتك وسكناتك لله مقصورة على عبادة أو ما يعين على العبادة فان أبعد الحركات عن العبادة الاكل وقضاء الحاجة وهما معينان على العبادة فاذا كان ذلك قصدك بهما صار ذلك عبادة فى حقك وكذلك ينبغى أن تكون نيتك فى كل ما يحفظك من قميص وازار وفراش وآنية لان كل ذلك مما يحتاج اليه فى الدين وما فضل من الحاجة ينبغى أن يقصد به أن ينتفع به عبد من عباد الله ولا يمنعه منه عند حاجته فمن فعل ذلك فهو الذى أخذ من حية المال جوهرها وترياقها واتقى سمها فلا تضره كثرة المال لكن لا يتأتى ذلك الا لمن رسخ فى الدين قدمه وعظم فيه علمه والعامى اذا تشبه بالعالم فى الاستكثار من المال وزعم انه يشبه أغنياء الصحابة شابه الصبى الذى يرى المعزم الحاذق يأخذ الحية ويتصرف فيها فيخرج ترياقها فيقتدى به ويظن أنه أخذها مستحسنا صورتها وشكلها ومستلينا جلدها فيأخذها اقتداء به فتقتله فى الحال الا ان قتيل الحية يدرى انه قتيل وقتيل المال قد لا يعرف وقد شبهت الدنيا بالحية فقيل

هى دنيا كحية تنفث السم وان كانت المجسة لانت

وكما يستحيل أن يتشبه الاعمى بالبصير فى تخطى قلل الجبال وأطراف البحار والطرق المشوكة فمحال أن يتشبه العامى بالعالم الكامل فى تناول المال

(بيان ذم الغنى ومدح الفقر)

اعلم أن الناس قد اختلفوا فى تفضيل الغنى الشاكر على الفقير الصابر وقد أوردنا ذلك فى كتاب الفقر والزهد وكشفنا عن تحقيق الحق فيه ولكنا فى هذا الكتاب ندل على أن الفقر أفضل وأعلى من الغنى على الجملة من غير التفات الى تفصيل الاحوال ونقتصر فيه على حكاية فصل ذكره الحرث المحاسبى رضى الله عنه فى بعض كتبه فى الرد على بعض العلماء من الاغنياء حيث احتج بأغنياء الصحابة وبكثرة مال عبد الرحمن بن عوف وشبه نفسه بهم والمحاسبى رحمه الله حبر الامة فى علم المعاملة وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الاعمال وأغوار العبادات وكلامه جدير بان يحكى على وجهه وقد قال بعد كلام له فى الرد على علماء السوء بلغنا ان عيسى ابن مريم عليه السلام قال يا علماء السوء تصومون وتصلون وتصدقون ولا تفعلون ما تؤمرون وتدرسون مالا تعملون فيا سوء ما تحكمون تتوبون بالقول والامانى وتعملون بالهوى وما يغنى عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة بحق أقول لكم لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب وتبقى فيه النخالة كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل فى صدوركم يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضى من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته بحق أقول لكم ان قلوبكم تبكى من أعمالكم جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم بحق أقول لكم أفسدتم آخرتكم فصلاح الدنيا أحب اليكم من صلاح الآخرة فاى الناس أخسر منكم لو تعلمون ويلكم حتام تصفون الطريق للمدلجين وتقيمون فى محل المتحيرين كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم مهلا مهلا ويلكم ماذا يغنى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم كذلك لا يغنى عنكم أن يكون نور العلم بافواهكم وأجوافكم منه وحشة معطلة يا عبيد الدنيا لا كعبيد أتقياء ولا كاحرار كرام توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ثم تكبكم على مناخركم ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ثم تدفعكم من خلفكم حتى تسلمكم الى الملك الديان عراة فرادى فيوقفكم على سوآتكم ثم يجزيكم بسوء أعمالكم ثم قال الحرث رحمه الله اخوانى فهؤلاء علماء السوء شياطين الانس وفتنة على الناس رغبوا فى عرض الدنيا ورفعتها وآثروها على الآخرة وأذلوا الدين للدنيا فهم فى العاجل عار وشين وفى الآخرة هم الخاسرون أو يعفو الكريم بفضله وبعد فانى رأيت الهالك المؤثر للدنيا سروره ممزوج بالتنغيص فيتفجر عنه أنواع الهموم وفنون المعاصى والى البوار والتلف مصيره فرح الهالك برجاء فلم تبق له دنياه ولم يسلم له دينه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين فيا لها من مصيبة ما أفظعها ورزية ما أجلها ألا فراقبوا الله اخوانى ولا يغرنكم الشيطان وأولياؤه من الآنسين بالحجج الداحضة عند الله

من الضلال وركنوا الى أباطيل الخيال ومحو الرسوم والاحكام ورفضوا الحلال والحرام وقوم آخرون سلكوا فى ذلك طريقا أدتهم الى نقصان الحال حيث سلموا من الضلال لانهم اعترفوا بالفرائض وانكروا فضل النوافل واغتروا بيسير روح الحال وأهملوا فضل الاعمال ولم يعلموا ان لله فى كل هيئة من الهيآت وكل حركة من الحركات أسرارا وحكما لا توجد فى شئ من الاذكار فالاحوال والاعمال روح وجسمان ومادام العبد فى دار الدنيا اعراضه عن الاعمال عين الطغيان فالاعمال تزكو بالاحوال والاحوال تنمو بالاعمال

(الباب التاسع والثلاثون فى فضل الصوم وحسن أثره)

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال الصبر نصف الايمان

فانهم

فانهم يتكالبون على الدنيا ثم يطلبون لانفسهم المعاذير والحجج ويزعمون أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لهم أموال فيتزين المغرورون بذكر الصحابة ليعذرهم الناس على جمع المال ولقد دهاهم الشيطان وما يشعرون ويحك أيها المفتون ان احتجاجك بمال عبد الرحمن بن عوف مكيدة من الشيطان ينطق بها على لسانك فتهلك لانك متى زعمت أن أخيار الصحابة أرادوا المال للتكاثر والشرف والزينة فقد اغتبت السادة ونسبتهم الى أمر عظيم ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه فقد أزريت محمدا والمرسلين ونسبتهم الى قلة الرغبة والزهد في هذا الخير الذي رغبت فيه أنت وأصحابك من جمع المال ونسبتهم الى الجهل اذلم يجمعوا المال كما جمعت ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى من تركه فقد زعمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينصح للامة اذ نهاهم عن جمع المال وقد علم أن جمع المال خير للامة فقد غشهم بزعمك حين نهاهم عن جمع المال كذبت ورب السماء على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقد كان للامة ناصحا وعليهم مشفقا وبهم رؤفا ومتى زعمت أن جمع المال أفضل فقد زعمت أن الله عز وجل لم ينظر لعباده حين نهاهم عن جمع المال وقد علم ان جمع المال خير لهم أو زعمت أن الله تعالى لم يعلم أن الفضل في الجمع فلذلك نهاهم عنه وأنت عليم بما في المال من الخير والفضل فلذلك رغبت في الاستكثار كأنك أعلم بموضع الخير والفضل من ربك تعالى الله عن جهلك أيها المفتون تدبر بعقلك ما دهاك به الشيطان حين زين لك الاحتجاج بمال الصحابة ويحك ما ينفعك الاحتجاج بمال عبد الرحمن ابن عوف وقد ود عبد الرحمن بن عوف في القيامة انه لم يؤت من الدنيا الا قوتا ولقد بلغني انه لما توفي عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انا نخاف على عبد الرحمن فيما ترك فقال كعب سبحان الله وما تخافون على عبد الرحمن كسب طيبا وأنفق طيبا وترك طيبا فبلغ ذلك أباذر فخرج مغضبا يريد كعبا فمر بعظم لحى بعير فأخذه بيده ثم انطلق يريد كعبا فقيل لكعب ان أباذر يطلبك فخرج هاربا حتى دخل على عثمان يستغيث به وأخبره الخبر وأقبل أبوذر يقص الاثر في طلب كعب حتى انتهى الى دار عثمان فلما دخل قام كعب فجلس خلف عثمان هاربا من أبي ذر فقال له أبوذر هيه يا ابن اليهودية تزعم أن لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف ولقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما نحو أحد وأنا معه فقال يا أباذر فقلت لبيك يارسول الله فقال الاكثرون هم الاقلون يوم القيامة الا من قال هكذا وهكذا عن يمينه وشماله وقدامه وخلفه وقليل ما هم ثم قال يا أباذر قلت نعم يارسول الله بأبي أنت وأمي قال ما يسرني أن لي مثل أحد أنفقه في سبيل الله أموت يوم أموت وأترك منه قيراطين قلت أو قنطارين يارسول الله قال بل قيراطان ثم قال يا أباذر أنت تريد الاكثر وأنا أريد الاقل فرسول الله يريد هذا وأنت تقول يا ابن اليهودية لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف كذبت وكذب من قال فلم يرد عليه خوفا حتى خرج * وبلغنا أن عبد الرحمن بن عوف قدمت عليه عير من اليمن فضجت المدينة ضجة واحدة فقالت عائشة رضي الله عنها ما هذا قيل عير قدمت لعبد الرحمن قالت صدق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فبلغ ذلك عبد الرحمن فسألها فقالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اني رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين يدخلون سعيا ولم أر أحدا من الاغنياء يدخلها معهم الا عبد الرحمن بن عوف رأيته يدخلها معهم حبوا فقال عبد الرحمن ان العير وما عليها في سبيل الله وان أرقاءها أحرار لعلي أن أدخلها معهم سعيا وبلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن عوف اما انك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتي وما كدت أن تدخلها الا حبوا * ويحك أيها المفتون فما احتجاجك بالمال وهذا عبد الرحمن في فضله وتقواه وصنائعه المعروف وبذله الاموال في سبيل الله مع صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبشراه بالجنة أيضا يوقف في عرصات القيامة وأهوالها بسبب مال كسبه من حلال للتعفف ولصنائع المعروف وأنفق منه قصدا وأعطى في سبيل الله سمحا منع من السعي الى الجنة مع الفقراء المهاجرين وصار يحبو في آثارهم حبوا فما ظنك بامثالنا الغرقى في فتن الدنيا وبعد فالعجب كل العجب لك يا مفتون تتمرغ في تخاليط الشبهات والسحت وتتكالب على أوساخ الناس وتتقلب في الشهوات والزينة والمباهاة وتتقلب في فتن الدنيا ثم تحتج بعبد الرحمن وتزعم انك ان جمعت المال فقد جمعه الصحابة كأنك أشبهت السلف وفعلهم ويحك ان هذا من قياس ابليس ومن فتياه لاوليائه وسأصف لك أحوالك

والصوم نصف الصبر وقيل ما في عمل ابن آدم شئ الا ويذهب برد المظالم الا الصوم فانه لا يدخله قصاص ويقول الله تعالى يوم القيامة هذا لي فلا يقتص أحد منه شيا (وفي الخبر) الصوم لي وأنا أجزي به قيل أضافه الى نفسه لان فيه خلقا من أخلاق الصمدية وأيضا لانه من أعمال السر من قبيل التروك لا يطلع عليه أحد الا الله وقيل في تفسير قوله تعالى السائحون الصائمون لانهم ساحوا الى الله تعالى بجوعهم وعطشهم وقيل في قوله تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب هم الصائمون لان الصبر اسم من أسماء الصوم ويفرغ للصائم افراغا ويجازف له مجازفة وقيل أحد الوجوه في قوله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون كان عملهم الصوم

وأحوال السلف لتعرف فضائحك وفضل الصحابة ولعمري لقد كان لبعض الصحابة أموال أرادوها للتعفف والبذل في سبيل الله فكسبوا حلالا وأكلوا طيبا وأنفقوا قصدا وقدموا فضلا ولم يمنعوا منها حقا ولم يبخلوا بها لكنهم جادوا لله بأكثرها وجاد بعضهم بجميعها وفي الشدة آثروا الله على أنفسهم كثيرا فبالله أكذلك أنت والله انك لبعيد الشبه بالقوم وبعد فان أخيار الصحابة كانوا للمسكنة محبين ومن خوف الفقر آمنين وبالله في أرزاقهم واثقين وبمقادير الله مسرورين وفي البلاء راضين وفي الرخاء شاكرين وفي الضراء صابرين وفي السراء حامدين وكانوا لله متواضعين وعن حب العلو والتكاثر ورعين لم ينالوا من الدنيا الا المباح لهم ورضوا بالبلغة منها وزجوا الدنيا وصبروا على مكارهها وتجرعوا مرارتها وزهدوا في نعيمها وزهراتها فبالله أكذلك أنت ولقد بلغنا أنهم كانوا اذا أقبلت الدنيا عليهم حزنوا وقالوا ذنب عجلت عقوبته من الله تعالى واذا رأوا الفقر مقبلا قالوا مرحبا بشعار الصالحين وبلغنا ان بعضهم كان اذا أصبح وعند عياله شئ أصبح كئيبا حزينا واذا لم يكن عندهم شئ أصبح فرحا مسرورا فقيل له ان الناس اذا لم يكن عندهم شئ حزنوا واذا كان عندهم شئ فرحوا وأنت لست كذلك قال اني اذا أصبحت وليس عند عيالي شئ فرحت اذ كان لي برسول الله صلى الله عليه وسلم اسوة واذا كان عند عيالي شئ اغتممت اذ لم يكن لي بآل محمد اسوة وبلغنا انهم كانوا اذا سلك بهم سبيل الرخاء حزنوا وأشفقوا وقالوا ما لنا وللدنيا وما يراد بها فكأنهم على جناح خوف واذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا واستبشروا وقالوا الآن تعاهدنا ربنا فهذه أحوال السلف ونعتهم وفيهم من الفضل أكثر مما وصفنا فبالله أكذلك أنت انك لبعيد الشبه بالقوم وسأصف لك أحوالك أيها المفتون ضد الاحوالهم وذلك انك تطغى عند الغنى وتبطر عند الرخاء وتمرح عند السراء وتغفل عن شكر ذي النعماء وتقنط عند الضراء وتسخط عند البلاء ولا ترضى بالقضاء نعم وتبغض الفقر وتأنف من المسكنة وذلك فخر المرسلين وأنت تأنف من فخرهم وأنت تدخر المال وتجمعه خوفا من الفقر وذلك من سوء الظن بالله عز وجل وقلة اليقين بضمانه وكفى به اثما وعساك تجمع المال لنعيم الدنيا وزهرتها وشهواتها ولذاتها ولقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم فربت عليه أجسامهم وبلغنا أن بعض أهل العلم قال ليجيء يوم القيامة قوم يطلبون حسنات لهم فيقال لهم أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها وأنت في غفلة قد حرمت نعيم الآخرة بسبب نعيم الدنيا فيالها حسرة ومصيبة نعم وعساك تجمع المال للتكاثر والعلو والفخر والزينة في الدنيا وقد بلغنا أنه من طلب الدنيا للتكاثر أو للتفاخر لقي الله وهو عليه غضبان وأنت غير مكترث بما حل بك من غضب ربك حين أردت التكاثر والعلو نعم وعساك المكث في الدنيا أحب اليك من النقلة الى جوار الله فأنت تكره لقاء الله والله للقائك أكره وأنت في غفلة وعساك تأسف على ما فاتك من عرض الدنيا وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أسف على دنيا فاتته اقترب من النار مسيرة شهر وقيل سنة وأنت تأسف على ما فاتك غير مكترث بقربك من عذاب الله نعم ولعلك تخرج من دينك احيانا لتوفير دنياك وتفرح باقبال الدنيا عليك وترتاح لذلك سرورا بها وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أحب الدنيا وسر بها ذهب خوف الآخرة من قلبه وبلغنا أن بعض أهل العلم قال انك تحاسب على التحزن على ما فاتك من الدنيا وتحاسب بفرحك في الدنيا اذا قدرت عليها وأنت فرح بدنياك وقد سلبت الخوف من الله تعالى وعساك تعنى بامور دنياك أضعاف ما تعنى بامور آخرتك وعساك ترى مصيبتك في معاصيك أهون من مصيبتك في انتقاص دنياك نعم وخوفك من ذهاب مالك أكثر من خوفك من الذنوب وعساك تبذل للناس ما جمعت من الاوساخ كلها للعلو والرفعة في الدنيا وعساك ترضى المخلوقين مساخطا لله تعالى كيما تكرم وتعظم ويحك فكان احتقار الله تعالى لك في القيامة أهون عليك من احتقار الناس اياك وعساك تخفي من المخلوقين مساويك ولا تكترث باطلاع الله عليك فيها فكان الفضيحة عند الله أهون عليك من الفضيحة عند الناس فكأن العبيد أعلى عندك قدرا من الله تعالى الله عن جهلك فكيف تنطق عند ذوي الالباب وهذه المثالب فيك أف لك متلوثا بالاقذار وتحتج بمال الابرار هيهات هيهات ما أبعدك عن السلف الاخيار والله لقد بلغني انهم كانوا فيما أحل لهم أزهد منكم فيما حرم عليكم ان الذي لا بأس به عندكم كان من

(وقال) يحيى بن معاذ اذا ابتلى المريد بكثرة الاكل بكت عليه الملائكة رحمة له ومن ابتلى بحرص الاكل فقد أحرق بنار الشهوة وفي نفس ابن آدم ألف عضو من الشر كلها في كف الشيطان متعلق بها فاذا جوع بطنه وأخذ حلقه وراض نفسه ييبس كل عضو واحترق بنار الجوع وفر الشيطان من ظله واذا أشبع بطنه وترك حلقه في لذائذ الشهوات فقد رطب أعضاءه وأمكن الشيطان والشبع نهر في النفس ترده الشياطين والجوع نهر في الروح ترده الملائكة وينهزم الشيطان من جائع نائم فكيف اذا كان قائما ويعانق الشيطان شبعانا قائما فكيف اذا كان نائما فقلب المريد الصادق يصرخ الى الله تعالى من طلب النفس الطعام والشراب * دخل رجل الى الطيالسي وهو يأكل خبزا يابسا

الموبقات عندهم وكانوا الزلة الصغيرة أشد استعظاما منكم لكبائر المعاصي فليت أطيب مالك وأحله مثل شبهات أموالهم وليتك أشفقت من سيئاتك كما أشفقوا على حسناتهم ان لا تقبل ليت صومك على مثال افطارهم وليت اجتهادك في العبادة على مثل فتورهم ونومهم وليت جميع حسناتك مثل واحدة من سيئاتهم وقد بلغني عن بعض الصحابة أنه قال غنيمة الصديقين ما فاتهم من الدنيا ونهمتهم ما زوى عنهم منها فمن لم يكن كذلك فليس معهم في الدنيا ولا معهم في الآخرة فسبحان الله كم بين الفريقين من التفاوت فريق خيار الصحابة في العلو عند الله وفريق أمثالكم في السفالة أو بعفو الله الكريم بفضله وبعد فانك ان زعمت انك متاس بالصحابة بجمع المال للتعفف والبذل في سبيل الله فتدبر أمرك ويحك هل تجد من الحلال في دهرك كما وجدوا في دهرهم أو تحسب انك محتاط في طلب الحلال كما احتاطوا لقد بلغني أن بعض الصحابة قال كنا ندع سبعين بابا من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام أفتطمع من نفسك في مثل هذا الاحتياط لا ورب الكعبة ما احسبك كذلك ويحك كن على يقين ان جمع المال لاعمال البر مكر من الشيطان ليوقعك بسبب البر في اكتساب الشبهات الممزوجة بالسحت والحرام وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من اجترأ على الشبهات أوشك أن يقع في الحرام أيها المغرور أما علمت أن خوفك من اقتحام الشبهات أعلى وأفضل وأعظم لقدرك عند الله من اكتساب الشبهات وبذلها في سبيل الله وسبيل البر بلغنا ذلك عن بعض أهل العلم قال لان تدع درهما واحدا مخافة أن لا يكون حلالا خير لك من أن تتصدق بالف دينار من شبهة لا تدري أيحل لك أم لا فان زعمت أنك أتقى وأورع من أن تتلبس بالشبهات وانما تجمع المال بزعمك من الحلال للبذل في سبيل الله ويحك ان كنت كما زعمت بالغا في الورع فلا تتعرض للحساب فان خيار الصحابة خافوا المسألة وبلغنا أن بعض الصحابة قال ما سرني أن أكتسب كل يوم ألف دينار من حلال وأنفقها في طاعة الله ولم يشغلني الكسب عن صلاة الجماعة قالوا ولم ذاك رحمك الله قال لاني غني عن مقام يوم القيامة فيقول عبدي من أين اكتسبت وفي أي شيء أنفقت فهؤلاء المتقون كانوا في جدة الاسلام والحلال موجود لديهم تركوا المال وجلا من الحساب مخافة أن لا يقوم خير المال بشره وأنت بغاية الامن والحلال في دهرك مفقود تتكالب على الاوساخ ثم تزعم انك تجمع المال من الحلال ويحك أين الحلال فتجمعه وبعد فلو كان الحلال موجودا لديك أما تخاف أن يتغير عند الغنى قلبك وقد بلغنا أن بعض الصحابة كان يرث المال الحلال فيتركه مخافة أن يفسد قلبه أفتطمع ان يكون قلبك أتقى من قلوب الصحابة فلا يزول عن شيء من الحق في أمرك وأحوالك لئن ظننت ذلك لقد أحسنت الظن بنفسك الامارة بالسوء ويحك اني لك ناصح أرى لك أن تقنع بالبلغة ولا تجمع المال لاعمال البر ولا تتعرض للحساب فانه بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال من نوقش الحساب عذب وقال عليه السلام يؤتى برجل يوم القيامة وقد جمع مالا من حرام وأنفقه في حرام فيقال اذهبوا به الى النار ويؤتى برجل قد جمع مالا من حلال وأنفقه في حرام فيقال اذهبوا به الى النار ويؤتى برجل قد جمع مالا من حرام وأنفقه في حلال فيقال اذهبوا به الى النار ويؤتى برجل قد جمع مالا من حلال وأنفقه في حلال فيقال له قف لعلك قصرت في طلب هذا بشيء مما فرضت عليك من صلاة لم تصلها لوقتها وفرطت في شيء من ركوعها وسجودها ووضوئها فيقول لا يا رب كسبت من حلال وأنفقت في حلال ولم اضيع شيأ مما فرضت علي فيقال لعلك اختلت في هذا المال في شيء من مركب او ثوب باهيت به فيقول لا يا رب لم اختل ولم اباه في شيء فيقال لعلك منعت حق أحد أمرتك ان تعطيه من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل فيقول لا يا رب كسبت من حلال وانفقت في حلال ولم اضيع شيأ مما فرضت علي ولم اختل ولم اباه ولم اضيع حق احد امرتني ان اعطيه قال فيجيء اولئك فيخاصمونه فيقولون يا رب اعطيته واغنيته وجعلته بين اظهرنا وامرته ان يعطينا فان كان اعطاهم وما ضيع مع ذلك شيأ من الفرائض ولم يختل في شيء فيقال قف الآن هات شكر كل نعمة أنعمتها عليك من أكلة او شربة أو لذة فلا يزال يسئل ويحك فمن ذا الذي يتعرض لهذه المسألة التي كانت لهذا الرجل الذي تقلب في الحلال وقام بالحقوق كلها وأدى الفرائض بحدودها حوسب هذه المحاسبة فكيف ترى يكون حال أمثالنا الغرقى في فتن الدنيا وتخاليطها وشبهاتها وشهواتها وزينتها ويحك لاجل هذه المسائل يخاف المتقون ان يتلبسوا

قبد بله بالماء مع ملح جريش فقال له كيف تشتهي هذا قال أدعه حتى اشتهيه (وقيل) من أسرف في مطعمه ومشربه يجعل الصغار والذل اليه في دنياه قبل آخرته (وقال) بعضهم الباب العظيم الذي يدخل منه الى الله تعالى قطع الغذاء (وقال بشر) ان الجوع يصفي الفؤاد ويميت الهوى ويورث العلم الدقيق وقال ذو النون ما أكلت حتى شبعت ولا شربت حتى رويت الا عصيت الله او هممت بمعصية وروى القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها قالت كان يأتي علينا الشهر ونصف شهر ما تدخل بيتنا نار لا لمصباح ولا لغيره قال قلت سبحان الله فبأي شيء كنتم تعيشون قالت بالتمر والماء وكان لنا جيران من الانصار جزاهم الله خيرا كانت لهم منائح فربما واسونا بشيء

بالدنيا فرضوا بالكفاف منها وعملوا بانواع البر من كسب المال فلك ويحك بهؤلاء الاخيار اسوة فان أبيت ذلك وزعمت انك بالغ فى الورع والتقوى ولم تجمع المال الا من حلال بزعمك للتعفف والبذل فى سبيل الله ولم تنفق شيا من الحلال الا بحق ولم يتغير بسبب المال قلبك عما يحب الله ولم تسخط الله فى شئ من سرائرك وعلانيتك ويحك فان كنت كذلك ولست كذلك فقد ينبغى لك أن ترضى بالبلغة وتعتزل ذوى الاموال اذا وقفوا للسؤال وتستبق مع الرعيل الاول فى زمرة المصطفى لا حبس عليك للمسألة والحساب فاما سلامة واما عطب فانه بلغنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يدخل صعاليك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمسمائة عام وقال عليه السلام يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيأكلون ويتمتعون والآخرون جثاة على ركبهم فيقول قبلكم طلبتى أنتم حكام الناس وملوكهم فاروني ماذا صنعتم فيما أعطيتكم وبلغنا أن بعض أهل العلم قال ماسرنى ان لى حمر النعم ولا أكون فى الرعيل الاول مع محمد عليه السلام وحزبه ياقوم فاستبقوا السباق مع المخفين فى زمرة المرسلين عليهم السلام وكونوا وجلين من التخلف والانقطاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجل المتقين لقد بلغنى أن بعض الصحابة وهو أبو بكر رضى الله عنه عطش فاستسقى فاتى بشربة من ماء وعسل فلما ذاقه خنقته العبرة ثم بكى وأبكى ثم مسح الدموع عن وجهه وذهب ليتكلم فعاد فى البكاء فلما أكثر البكاء قيل له أكل هذا من أجل هذه الشربة قال نعم بينا أنا ذات يوم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وما معه أحد فى البيت غيرى فجعل يدفع عن نفسه وهو يقول اليك عنى فقلت له فداك أبى وأمى ما أرى بين يديك أحدا فمن تخاطب فقال هذه الدنيا تطاولت الى بعنقها ورأسها فقالت لى يا محمد خذنى فقلت اليك عنى فقالت ان تنج منى يا محمد فانه لا ينجو منى من بعدك فاخاف أن تكون هذه قد لحقتنى تقطعنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ياقوم فهؤلاء الاخيار بكوا وجلا أن تقطعهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شربة من حلال ويحك أنت فى أنواع من النعم والشهوات من مكاسب السحت والشبهات لا تخشى الانقطاع أف لك ما أعظم جهلك ويحك فان تخلفت فى القيامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد المصطفى لتنظرن الى أهوال جزعت منها الملائكة والانبياء ولئن قصرت عن السباق فليطولن عليك اللحاق ولئن أردت الكثرة لتصيرن الى حساب عسير ولئن لم تقنع بالقليل لتصيرن الى وقوف طويل وصراخ وعويل ولئن رضيت باحوال المتخلفين لتقطعن عن أصحاب اليمين وعن رسول رب العالمين ولتبطئن عن نعيم المتنعمين ولئن خالفت أحوال المتقين لتكونن من المحتبسين فى أهوال يوم الدين فتدبر ويحك ما سمعت وبعد فان زعمت انك فى مثال خيار السلف قنع بالقليل زاهد فى الحلال بذول لمالك مؤثر على نفسك لا تخشى الفقر ولا تدخر شيأ لغدك مبغض للتكاثر والغنى راض بالفقر والبلا فرح بالقلة والمسكنة مسرور بالذل والضعة كاره للعلو والرفعة قوى فى أمرك لا يتغير عن الرشد قلبك قد حاسبت نفسك فى الله وأحكمت أمورك كلها على ما وافق رضوان الله وان توقف فى المسألة ولن يحاسب مثلك من المتقين وانما تجمع المال الحلال للبذل فى سبيل الله ويحك أيها المغرور فتدبر الامر وأمعن النظر أما علمت أن ترك الاشتغال بالمال وفراغ القلب للذكر والتذكر والتذكار والفكر والاعتبار أسلم للدين وأيسر للحساب واخف للمسألة وآمن من روعات القيامة وأجزل للثواب وأعلى لقدرك عند الله اضعافا بلغنا عن بعض الصحابة انه قال لو أن رجلا فى حجره دنانير يعطيها والآخر يذكر الله لكان الذاكر أفضل * وسئل بعض أهل العلم عن الرجل يجمع المال لاعمال البر قال تركه أبر به وبلغنا أن بعض خيار التابعين سئل عن رجلين أحدهما طلب الدنيا حلالا فاصابها فوصل بها رحمه وقدم لنفسه وأما الآخر فانه جانبها فلم يطلبها ولم يتناولها فايهما أفضل قال بعيد والله ما بينهما الذى جانبها أفضل كما بين مشارق الارض ومغاربها ويحك فهذا الفضل لك بترك الدنيا على من طلبها ولك فى العاجل ان تركت الاشتغال بالمال أن ذلك أروح لبدنك وأقل لتعبك وأنعم لعيشك وأرضى لبالك وأقل لهمومك فما عذرك فى جمع المال وأنت بترك المال أفضل ممن طلب المال لاعمال البر نعم وشغلك بذكر الله أفضل من بذل المال فى سبيل الله فاجتمع لك راحة العاجل مع السلامة والفضل فى الآجل * وبعد فلو كان فى جمع المال فضل عظيم لوجب عليك فى مكارم الاخلاق ان تتأسى بنبيك اذ هداك الله به وترضى ما اختاره لنفسه من مجانبة الدنيا ويحك

(وروى) أن حفصة بنت عمر رضى الله عنهما قالت لابيها ان الله قد أوسع الرزق فلو أكلت طعاما أكثر من طعامك ولبست ثيابا ألين من ثيابك فقال انى أخاصمك الى نفسك ألم يكن من أمر رسول الله كذا يقول مرارا فبكت فقال قد أخبرتك والله لاشاركنه فى عيشه الشديد لعلى أصيب عيشة الرخاء وقال بعضهم ما تخلف لعمر دقيقا الا وأناله عاص (وقالت) عائشة رضى الله عنها ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام من خبز بر حتى مضى لسبيله وقالت عائشة رضى الله عنها أديموا قرع باب الملكوت يفتح لكم قالوا كيف نديم قالت بالجوع والعطش والظمأ (وقيل) ظهر ابليس ليحيى بن زكريا عليهما السلام وعليه معاليق فقال ماهذه قال الشهوات

تدبر ما سمعت وكن على يقين ان السعادة والفوز فى مجانبة الدنيا فسر مع لواء المصطفى سابقا الى جنة المأوى فانه بلغنا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سادات المؤمنين فى الجنة من اذا تغدى لم يجد عشاء واذا استقرض لم يجد قرضا وليس له فضل كسوة الاما يوارى به ولم يقدر على أن يكتسب ما يغنيه يمسى مع ذلك ويصبح راضيا عن ربه فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ألا يا أخى متى جمعت هذا المال بعد هذا البيان فانك مبطل فيما ادعيت أنك للبر والفضل تجمعه لا ولكنك خوفا من الفقر تجمعه وللتنعم والزينة والتكاثر والفخر والعلو والرياء والسمعة والتعظم والتكرمة تجمعه ثم تزعم انك لاعمال البر تجمع المال ويحك راقب الله واستحى من دعواك أيها المغرور ويحك ان كنت مفتونا بحب المال والدنيا فكن مقرا أن الفضل والخير فى الرضا بالبلغة ومجانبة الفضول نعم وكن عند جمع المال مزريا على نفسك معترفا باساءتك وجلا من الحساب فذلك أنجى لك وأقرب الى الفضل من طلب الحجج لجمع المال* اخوانى اعلموا أن دهر الصحابة كان الحلال فيه موجودا وكانوا مع ذلك من أورع الناس وأزهدهم فى المباح لهم ونحن فى دهر الحلال فيه مفقود وكيف لنا من الحلال مبلغ القوت وستر العورة فاما جمع المال فى دهرنا فاعاذنا الله واياكم منه وبعد فاين لنا بمثل تقوى الصحابة وورعهم ومثل زهدهم واحتياطهم وأين لنا مثل ضمائرهم وحسن نياتهم دهينا ورب السماء بادواء النفوس واهوائها وعن قريب يكون الورود فيا سعادة المخفين يوم النشور وحزن طويل لاهل التكاثر والتخاليط وقد نصحت لكم ان قبلتم والقابلون لهذا قليل وفقنا الله واياكم لكل خير برحمته آمين* هذا آخر كلامه وفيه كفاية فى اظهار فضل الفقر على الغنى ولا مزيد عليه ويشهد لذلك جميع الاخبار التى أوردناها فى كتاب ذم الدنيا وفى كتاب الفقر والزهد ويشهد له أيضا ماروى عن أبى امامة الباهلى ان ثعلبة بن حاطب قال يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا قال يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه قال يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا قال يا ثعلبة أما لك فى أسوة أما ترضى أن تكون مثل نبى الله تعالى أما والذى نفسى بيده لو شئت أن تسير معى الجبال ذهبا وفضة لسارت قال والذى بعثك بالحق نبيا لئن دعوت الله أن يرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه ولافعلن ولافعلن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ارزق ثعلبة مالا فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل واديا من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى الجماعة ويدع ما سواهما ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الجماعة الا الجمعة وهى تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة وطفق يلقى الركبان يوم الجمعة فيسألهم عن الاخبار فى المدينة وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال ما فعل ثعلبة ابن حاطب فقيل يارسول الله اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة وأخبر بامره كله فقال ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة قال وأنزل الله تعالى خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم وأنزل الله تعالى فرائض الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من جهينة ورجلا من بنى سليم على الصدقة وكتب لهما كتابا باخذ الصدقة وأمرهما أن يخرجا فيأخذا الصدقة من المسلمين وقال مرا بثعلبة بن حاطب وبفلان رجل من بنى سليم وخذا صدقاتهما فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذه الا جزية ما هذه الا أخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا الى فانطلقا نحو السلمى فسمع بهما فقام الى خيار أسنان ابله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأوها قالوا لا يجب عليك ذلك وما نريد نأخذ هذا منك قال بلى خذوها نفسى بها طيبة وانما هى لتأخذوها فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرا بثعلبة فسألاه الصدقة فقال أرونى كتابكما فنظر فيه فقال هذه أخت الجزية انطلقا حتى أرى رأيى فانطلقا حتى أتيا النبى صلى الله عليه وسلم فلما رآهما قال ياويح ثعلبة قبل أن يكلماه ودعا للسلمى فاخبراه بالذى صنع ثعلبة وبالذى صنع السلمى فانزل الله تعالى فى ثعلبة ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فاعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة فسمع ما أنزل الله فيه فخرج حتى أتى ثعلبة فقال لا أم لك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبى صلى الله عليه

التى أصيب بها ابن آدم قال هل تجد لى فيها شهوة قال لا غير انك شبعت ليلة فثقلناك عن الصلاة والذكر فقال لا جرم انى لا أشبع أبدا قال ابليس لا جرم انى لا أنصح أحدا أبدا (وقال) شقيق العبادة حرفة وحانوتها الخلوة وآلاتها الجوع وقال لقمان لابنه اذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الاعضاء عن العبادة (وقال) الحسن لا تجمعوا بين الادمين فانه من طعام المنافقين وقال بعضهم أعوذ بالله من زاهد قد أفسدت معدته ألوان الاغذية فيكره للمريد أن يوالى فى الافطار أكثر من أربعة أيام فان النفس عند ذلك تركن الى العادة وتتسع بالشهوة (وقيل) الدنيا بطنك فعلى قدر زهدك فى بطنك زهدك فى الدنيا وقال عليه السلام ما ملأ

وسلم فسأله أن يقبل منه صدقته فقال ان الله منعني أن أقبل منك صدقتك فجعل يحثو التراب على رأسه فقال
له رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا عملك أمرتك فلم تطعني فلما أبى أن يقبل منه شيأ رجع الى منزله فلما قبض
رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بها الى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فأبى أن يقبلها منه وجاء بها الى عمر بن
الخطاب رضي الله عنه فأبى أن يقبلها منه وتوفي ثعلبة بعد في خلافة عثمان فهذا طغيان المال وشؤمه وقد عرفته
من هذا الحديث ولاجل بركة الفقر وشؤم الغنى آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقر لنفسه ولاهل بيته
حتى روي عن عمران بن حصين رضي الله عنه أنه قال كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه فقال
يا عمران ان لك عندنا منزلة وجاها فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت نعم بأبي أنت
وأمي يا رسول الله فقام وقمت معه حتى وقفت بباب منزل فاطمة فقرع الباب وقال السلام عليكم أأدخل فقالت
ادخل يا رسول الله قال أنا ومن معي قالت ومن معك يا رسول الله فقال عمران بن حصين فقالت والذي بعثك بالحق
نبيا ما علي الا عباءة فقال اصنعي بها هكذا وهكذا وأشار بيده فقالت هذا جسدي فقد واريته فكيف برأسي
فالقى اليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال شدي بها على رأسك ثم أذنت له فدخل فقال السلام عليك يا بنتاه كيف
أصبحت قالت أصبحت والله وجعة وزادني وجعا على ما بي اني لست أقدر على طعام آكله فقد أجهدني الجوع
فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لا تجزعي يا بنتاه فوالله ماذقت طعاما منذ ثلاث واني لأكرم على الله منك
ولو سألت ربي لأطعمني ولكن آثرت الآخرة على الدنيا ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها ابشري فوالله انك
لسيدة نساء أهل الجنة فقالت فأين آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران فقال آسية سيدة نساء عالمها ومريم سيدة
نساء عالمها وخديجة سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء عالمك انكن في بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب ثم قال
لها اقنعي بابن عمك فوالله لقد زوجتك سيدا في الدنيا سيدا في الآخرة فانظر الآن الى حال فاطمة رضي الله عنها
وهي بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف آثرت الفقر وتركت المال ومن راقب أحوال الانبياء والاولياء
وأقوالهم وما ورد من أخبارهم وآثارهم لم يشك في ان فقد المال أفضل من وجوده وان صرف الى الخيرات اذ أقل
ما فيه مع أداء الحقوق والتوقي من الشبهات والصرف الى الخيرات اشتغال الهم باصلاحه وانصرافه عن ذكر الله
اذ لا ذكر الا مع الفراغ ولا فراغ مع شغل المال وقد روي عن جرير عن ليث قال صحب رجل عيسى ابن مريم عليه
السلام فقال أكون معك وأصحبك فانطلقا فانتهيا الى شط نهر فجلسا يتغديان ومعهما ثلاثة أرغفة فأكلا رغيفين
وبقي رغيف ثالث فقام عيسى عليه السلام الى النهر فشرب ثم رجع فلم يجد الرغيف فقال للرجل من أخذ الرغيف
فقال لا أدري قال فانطلق ومعه صاحبه فرأى ظبية ومعها خشفان لها قال فدعا أحدهما فأتاه فذبحه فاشتوى منه
فأكل هو وذلك الرجل ثم قال للخشف قم باذن الله فقام فذهب فقال للرجل أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ
الرغيف فقال لا أدري ثم انتهيا الى وادي ماء فأخذ عيسى بيد الرجل فمشيا على الماء فلما جاوزا قال له أسألك بالذي
أراك هذه الآية من أخذ الرغيف فقال لا أدري فانتهيا الى مفازة فجلسا فأخذ عيسى عليه السلام يجمع ترابا وكثيبا
ثم قال كن ذهبا باذن الله تعالى فصار ذهبا فقسمه ثلاث أثلاث ثم قال ثلث لي وثلث لك وثلث لمن أخذ الرغيف فقال
أنا الذي أخذت الرغيف فقال كله لك وفارقه عيسى عليه السلام فانتهى اليه رجلان في المفازة ومعه المال فأرادا
أن يأخذاه منه ويقتلاه فقال هو بيننا أثلاثا فابعثوا أحدكم الى القرية حتى يشتري لنا طعاما نأكله قال فبعثوا
أحدهم فقال الذي بعث لاي شيء أقاسم هؤلاء هذا المال لكني أضع في هذا الطعام سما فأقتلهما وآخذ المال
وحدي قال ففعل وقال ذانك الرجلان لاي شيء نجعل لهذا ثلث المال ولكن اذا رجع قتلناه واقتسمنا المال
بيننا قال فلما رجع اليهما قتلاه وأكلا الطعام فماتا فبقي ذلك المال في المفازة وأولئك الثلاثة عنده قتلى فمر بهم
عيسى عليه السلام على تلك الحالة فقال لاصحابه هذه الدنيا فاحذروها* وحكي ان ذا القرنين أتى على أمة من
الامم ليس بأيديهم شيء مما يستمتع به الناس من دنياهم قد احتفروا قبورا فاذا أصبحوا تعهدوا تلك القبور
وكنسوها وصلوا عندها ورعوا البقل كما ترعى البهائم وقد قيض لهم في ذلك معايش من نبات الارض وأرسل ذو
القرنين الى ملكهم فقال له أجب ذا القرنين فقال مالي اليه حاجة فان كان له حاجة فليأتني فقال ذو القرنين صدق

آدمي وعاء شرا من بطن
حسب ابن آدم لقيمات
يقمن صلبه فان كان
لا محالة فثلث لطعامه
وثلث لشرابه وثلث
لنفسه وقال فتح الموصلي
صحبت ثلاثين شيخا كل
يوصيني عند مفارقتي اياه
بترك عشرة الاحداث
وقلة الاكل

(الباب الاربعون في اختلاف أحوال الصوفية بالصوم والافطار)

جمع من المشايخ الصوفية
كانوا يديمون الصوم في
السفر والحضر على
الدوام حتى لحقوا بالله
تعالى (وكان) أبو عبد الله
ابن جابار قد صام نيفا
وخمسين سنة لا يفطر في
السفر والحضر فجهد به
أصحابه يوما فافطر فاعتل
من ذلك أياما فاذا رأى
المريد صلاح قلبه في دوام
الصوم فليصم دائما
ويدع الافطار جانبا
فهو عون حسن له على
ما يريد (روى) أبو موسى
الاشعري قال قال رسول

فاقبل اليه ذو القرنين وقال له أرسلت اليك لتأتيني فابيت فها أنا قد جئت فقال لو كان لي اليك حاجة لاتيتك فقال له ذو القرنين مالي أراكم على حالة لم أر أحدا من الامم عليها قال وما ذاك قال ليس لكم دنيا ولا شئ أفلا اتخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بهما قالوا انما كرهناهما لان أحدا لم يعط منهما شيأ الا تاقت نفسه ودعته الى ما هو أفضل منه فقال ما بالكم قد احتفرتم قبورا فاذا أصبحتم تعاهدتموها فكنستموها وصليتم عندها قالوا أردنا اذا نظرنا اليها وأملنا الدنيا منعتنا قبورنا من الامل قال وأراكم لا طعام لكم الا البقل من الارض أفلا اتخذتم البهائم من الانعام فاحتلبتموها وركبتموها فاستمتعتم بها قالوا كرهنا أن نجعل بطوننا قبورا لها ورأينا في نبات الارض بلاغا وانما يكفي ابن آدم أدنى العيش من الطعام وأي ما جاوز الحنك من الطعام لم نجد له طعما كائنا ما كان من الطعام ثم بسط ملك تلك الارض يده خلف ذي القرنين فتناول جمجمة فقال يا ذا القرنين أتدري من هذا قال لا ومن هو قال ملك من ملوك الارض أعطاه الله سلطانا على أهل الارض فغشم وظلم وعتا فلما رأى الله سبحانه ذلك منه حسمه بالموت فصار كالحجر الملقى وقد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به في آخرته ثم تناول جمجمة أخرى بالية فقال يا ذا القرنين هل تدري من هذا قال لا أدري ومن هو قال هذا ملك ملكه الله بعده قد كان يرى ما يصنع الذي قبله بالناس من الغشم والظلم والتجبر فتواضع وخشع لله عز وجل وأمر بالعدل في أهل مملكته فصار كما ترى قد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به في آخرته ثم أهوى الى جمجمة ذي القرنين فقال وهذه الجمجمة قد كانت كهذين فانظر يا ذا القرنين ما أنت صانع فقال له ذو القرنين هل لك في صحبتي فأتخذك أخا ووزيرا وشريكا فيما آتاني الله من هذا المال قال ما أصلح أنا وأنت في مكان ولا أن نكون جميعا قال ذو القرنين ولم قال من أجل ان الناس كلهم لك عدو ولي صديق قال ولم قال يعادونك لما في يديك من الملك والمال والدنيا ولا أجد أحدا يعاديني لرفضي لذلك ولما عندي من الحاجة وقلة الشئ قال فانصرف عنه ذو القرنين متعجبا منه ومتعظا به فهذه الحكايات تدلك على آفات الغنى مع ما قدمناه من قبل وبالله التوفيق تم كتاب ذم المال والبخل بحمد الله تعالى وعونه ويليه كتاب ذم الجاه والرياء

(كتاب ذم الجاه والرياء وهو الكتاب الثامن من ربع المهلكات من كتاب احياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله علام الغيوب المطلع على سرائر القلوب المتجاوز عن كبائر الذنوب العالم بما تجنه الضمائر من خفايا العيوب البصير بسرائر النيات وخفايا الطويات الذي لا يقبل من الاعمال الا ما كمل ووفى وخلص عن شوائب الرياء والشرك وصفا فانه المنفرد بالملكوت والملك فهو أغنى الاغنياء عن الشرك والصلاة والسلام على محمد وآله وأصحابه المبرئين من الخيانة والافك وسلم تسليما كثيرا (أما بعد) فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أخوف ما أخاف على أمتي الرياء والشهوة الخفية والرياء من الشهوة الخفية التي هي أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ولذلك عجز عن الوقوف على غوائلها سماسرة العلماء فضلا عن عامة العباد والاتقياء وهو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها وانما يبتلى به العلماء والعباد المشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة فانهم مهما قهروا أنفسهم وجاهدوها وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح وطلبت الاستراحة الى التظاهر بالخير واظهار العمل والعلم فوجدت مخلصا من مشقة المجاهدة الى لذة القبول عند الخلق ونظرهم اليه بعين الوقار والتعظيم فسارعت الى اظهار الطاعة وتوصلت الى اطلاع الخلق ولم تقنع باطلاع الخالق وفرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله وحده وعلمت انهم اذا عرفوا تركه الشهوات وتوقيه الشبهات وتحمله مشاق العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء وبالغوا في التقريظ والاطراء ونظروا اليه بعين التوقير والاحترام وتبركوا بمشاهدته ولقائه ورغبوا في بركة دعائه وحرصوا على اتباع رأيه وفاتحوه بالخدمة والسلام وأكرموه في المحافل غاية الاكرام وسامحوه في البيع والمعاملات وقدموه في المجالس وآثروه بالمطاعم والملابس وتصاغروا له متواضعين وانقادوا له في أغراضه موقرين فأصابت النفس في ذلك لذة هي أعظم اللذات وشهوة

الله صلى الله عليه وسلم من صام الدهر ضيقت عليه جهنم هكذا وعقد تسعين أي لم يكن له فيها موضع وكره قوم صوم الدهر وقد ورد في ذلك ما رواه أبو قتادة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف بمن صام الدهر قال لا صام ولا أفطر وأول قوم ان صوم الدهر هو أن لا يفطر العيدين وايام التشريق فهو الذي يكره واذا أفطر هذه الايام فليس هو الصوم الذي كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم من كان يصوم يوما ويفطر يوما وقد ورد أفضل الصيام صوم أخي داود عليه السلام كان يصوم يوما ويفطر يوما واستحسن ذلك قوم من الصالحين ليكون بين حال الصبر وحال الشكر * ومنهم من كان يصوم يومين ويفطر يوما أو يصوم يوما ويفطر يومين ومنهم

هى أغلب الشهوات فاستقرت فيه ترك المعاصى والهفوات واستلانت خشونة المواظبة على العبادات لادراكها فى الباطن لذة اللذات وشهوة الشهوات فهو يظن أن حياته بالله و بعبادته المرضية وانما حياته بهذه الشهوة الخفية التى تعمى عن دركها العقول النافذة القوية و يرى أنه مخلص فى طاعة الله ومجتنب لمحارم الله والنفس قد أبطنت هذه الشهوة تزيينا للعباد وتصنعا للخلق وفرحا بما نالت من المنزلة والوقار وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجور الاعمال وقد أثبتت اسمه فى جريدة المنافقين وهو يظن انه عند الله من المقربين وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها الا الصديقون ومهواة لا يرقى منها الا المقربون ولذلك قيل آخر ما يخرج من رؤس الصديقين حب الرياسة واذا كان الرياء هو الداء الدفين الذى هو أعظم شبكة للشياطين وجب شرح القول فى سببه وحقيقته ودرجاته وأقسامه وطرق معالجته والحذر منه و يتضح الغرض منه فى ترتيب الكتاب على شطرين (الشطر الاول) * فى حب الجاه والشهرة وفيه بيان ذم الشهرة و بيان فضيلة الخمول وبيان ذم الجاه وبيان معنى الجاه وحقيقته وبيان السبب فى كونه محبوبا أشد من حب المال و بيان أن الجاه كمال وهمى وليس بكمال حقيقى و بيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم و بيان السبب فى حب المدح والثناء وكراهية الذم و بيان العلاج فى حب الجاه و بيان علاج حب المدح وبيان علاج حب كراهة الذم وبيان اختلاف أحوال الناس فى المدح والذم فهى اثنا عشر فصلا منها تنشأ معانى الرياء فلابد من تقديمها والله الموفق للصواب بلطفه ومنه وكرمه

(بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت)

اعلم أصلحك الله ان أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار وهو مذموم بل المحمود الخمول الا من شهره الله تعالى لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه قال أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حسب امرئ من الشر أن يشير الناس اليه بالاصابع فى دينه ودنياه الا من عصمه الله وقال جابر بن عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بحسب المرء من الشر الا من عصمه الله من السوء أن يشير الناس اليه بالاصابع فى دينه ودنياه ان الله لا ينظر الى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم ولقد ذكر الحسن رحمه الله للحديث تاويلا لا بأس به اذ روى هذا الحديث فقيل له يا أبا سعيد ان الناس اذا رأوك أشاروا اليك بالاصابع فقال انه لم يعن هذا وانما عنى به المبتدع فى دينه والفاسق فى دنياه وقال على كرم الله وجهه تبذل ولا تشتهر ولا ترفع شخصك لتذكر وتعلم واكتم واصمت تسلم تسر الابرار وتغيظ الفجار وقال ابراهيم بن أدهم رحمه الله ما صدق الله من أحب الشهرة وقال أيوب السختيانى والله ما صدق الله عبد الا سره أن لا يشعر بمكانه وعن خالد بن معدان انه كان اذا كثرت حلقته قام مخافة الشهرة وعن أبى العاليه انه كان اذا جلس اليه أكثر من ثلاثة قام ورأى طلحة قوما يمشون معه نحوا من عشرة فقال ذباب طمع وفراش نار وقال سليم بن حنظلة بينا نحن حول أبى بن كعب نمشى خلفه اذ رآه عمر فعلاه بالدرة فقال انظر يا أمير المؤمنين ما تصنع فقال ان هذه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع وعن الحسن قال خرج ابن مسعود يوما من منزله فاتبعه ناس فالتفت اليهم فقال علام تتبعونى فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابى ما اتبعنى منكم رجلان وقال الحسن ان خفق النعال حول الرجال قلما تلبث عليه قلوب الحمقى وخرج الحسن ذات يوم فاتبعه قوم فقال هل لكم من حاجة والا فما عسى أن يبقى هذا من قلب المؤمن وروى أن رجلا صحب ابن محيريز فى سفر فلما فارقه قال أوصنى فقال ان استطعت أن تعرف ولا تعرف وتمشى ولا يمشى اليك وتسأل ولا تسئل فافعل وخرج أيوب فى سفر فشيعه ناس كثيرون فقال لولا انى أعلم ان الله يعلم من قلبى انى لهذا كاره لخشيت المقت من الله عز وجل وقال معمر عاتبت أيوب على طول قميصه فقال ان الشهرة فيما مضى كانت فى طوله وهى اليوم فى تشميره وقال بعضهم كنت مع أبى قلابة اذ دخل عليه رجل عليه أكسية فقال اياكم وهذا الحمار الناهق يشير به الى طلب الشهرة وقال الثورى كانوا يكرهون الشهرة من الثياب الجيدة والثياب الرديئة اذ الابصار تمتد اليهما جميعا وقال رجل لبشر بن الحرث أوصنى فقال أخمل ذكرك وطيب مطعمك وكان حوشب يبكى و يقول بلغ اسمى مسجد الجامع وقال بشر ما أعرف رجلا أحب أن يعرف الا ذهب دينه وافتضح وقال أيضا لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس رحمة الله عليه وعليهم أجمعين

من كان يصوم يوم الاثنين والخميس والجمعة (وقيل) كان سهل بن عبد الله يأكل فى كل خمسة عشر يوما مرة وفى رمضان يأكل أكلة واحدة وكان يفطر بالماء القراح للسنة (وحكى) عن الجنيد انه كان يصوم على الدوام فاذا دخل عليه اخوانه أفطر معهم و يقول ليس فضل المساعدة مع الاخوان بأقل من فضل الصوم غير أن هذا الافطار يحتاج الى علم فقد يكون الداعى الى ذلك شره النفس لا نية الموافقة وتخليص النية لمحض الموافقة مع وجود شره النفس صعب وسمعت شيخنا يقول لى سنين ما أكلت شيأ بشهوة نفس ابتداء واستدعاء بل يقدم الى الشئ فاراه من فضل الله ونعمته وفعله فاوافق الحق فى فعله (وذكر) انه فى ذات يوم اشتهى الطعام ولم يحضر ومن عادته تقديم

(بيان فضيلة الخمول)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لابره منهم البراء بن مالك وقال ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لابره لو قال اللهم انى أسألك الجنة لاعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيأ وقال صلى الله عليه وسلم ألا أدلكم على أهل الجنة كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لابره وأهل النار كل متكبر مستكبر جواظ وقال أبو هريرة قال صلى الله عليه وسلم ان أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له الذين اذا استأذنوا على الامراء لم يؤذن لهم واذا خطبوا النساء لم ينكحوا واذا قالوا لم ينصت لقولهم حوائج أحدهم تتلجلج في صدره لو قسم نوره يوم القيامة على الناس لوسعهم وقال صلى الله عليه وسلم ان من أمتي من لو أتى أحدكم يسأله دينارا لم يعطه اياه ولو سأله درهما لم يعطه اياه ولو سأله فلسا لم يعطه اياه ولو سأل الله تعالى الجنة لاعطاه اياها ولو سأله الدنيا لم يعطه اياها وما منعها اياه الا لهوانها عليه رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لابره وروى أن عمر رضي الله عنه دخل المسجد فرأى معاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما يبكيك فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان اليسير من الرياء شرك وان الله يحب الاتقياء الاخفياء الذين ان غابوا لم يفتقدوا وان حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة وقال محمد بن سويد قحط أهل المدينة وكان بها رجل صالح لا يؤبه له لازم لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم فبينما هم في دعائهم اذ جاءهم رجل عليه طمران خلقان فصلى ركعتين أوجز فيهما ثم بسط يديه فقال يارب أقسمت عليك الا أمطرت علينا الساعة فلم يرد يديه ولم يقطع دعاءه حتى تغشت السماء بالغمام وأمطروا حتى صاح أهل المدينة من مخافة الغرق فقال يارب ان كنت تعلم انهم قد اكتفوا فارفع عنهم فسكن وتبع الرجل صاحبه الذي استسقى حتى عرف منزله ثم بكر عليه فخرج اليه فقال انى أتيتك في حاجة فقال ما هي قال تخصني بدعوة قال سبحان الله أنت أنت وتسألني أن أخصك بدعوة ثم قال ما الذي بلغك ما رأيت قال أطعت الله فيما أمرني ونهاني فسألت الله فأعطاني وقال ابن مسعود كونوا ينابيع العلم مصابيح الهدى أحلاس البيوت سرج الليل جدد القلوب خلقان الثياب تعرفون في أهل السماء وتخفون في أهل الارض وقال أبو امامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى ان أغبط أوليائي عبد مؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه وأطاعه في السر وكان غامضا في الناس لا يشار اليه بالاصابع ثم صبر على ذلك قال ثم نقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فقال عجلت منيته وقل تراثه وقلت بواكيه وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أحب عباد الله الى الله الغرباء قيل ومن الغرباء قال الفارون بدينهم يجتمعون يوم القيامة الى المسيح عليه السلام وقال الفضيل بن عياض بلغني أن الله تعالى يقول في بعض ما يمن به على عبده ألم أنعم عليك ألم أسترك ألم أخمل ذكرك وكان الخليل بن أحمد يقول اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك واجعلني عند نفسي من أوضع خلقك واجعلني عند الناس من أوسط خلقك وقال الثوري وجدت قلبي يصلح بمكة والمدينة مع قوم غرباء أصحاب قوت وعناء وقال ابراهيم بن أدهم ما قرت عيني يوما في الدنيا قط الا مرة بت ليلة في بعض مساجد قرى الشام وكان بي البطن فجرني المؤذن برجلي حتى أخرجني من المسجد وقال الفضيل ان قدرت على أن لا تعرف فافعل وما عليك أن لا تعرف وما عليك أن لا يثنى عليك وما عليك أن تكون مذموما عند الناس اذا كنت محمودا عند الله تعالى فهذه الآثار والاخبار تعرفك مذمة الشهرة وفضيلة الخمول وانما المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة في القلوب وحب الجاه هو منشأ كل فساد فان قلت فاى شهرة تزيد على شهرة الانبياء والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء فكيف فاتهم فضيلة الخمول فاعلم ان المذموم طلب الشهرة فاما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم نعم فيه فتنة على الضعفاء دون الاقوياء وهم كالغريق الضعيف اذا كان معه جماعة من الغرقى فالاولى به أن لا يعرفه أحد منهم فانهم يتعلقون به فيضعف عنهم فيهلك معهم واما القوى فالاولى أن يعرف الغرقى ليتعلقوا به فينجيهم ويثاب على ذلك

(بيان ذم حب الجاه)

قال الله تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا جمع بين ارادة الفساد والعلو

الطعام اليه قال ففتحت باب البيت الذي فيه الطعام وأخذت رمانة لآكلها فدخلت السنور وأخذت دجاجة كانت هنالك فقلت هذا عقوبة لي على تصرفي في أخذ الرمانة (ورأيت) الشيخ أبا السعود رحمه الله يتناول الطعام في اليوم مرات أي وقت أحضر الطعام أكل منه ويرى أن تناوله للطعام موافقة الحق لان حاله مع الله كان ترك الاختيار في مأكوله وملبوسه وجميع تصاريفه وكان حاله الوقوف مع فعل الحق وقد كان له في ذلك بداية يعز مثلها حتى نقل انه كان يبقى أياما لا يأكل ولا يعلم أحد بحاله ولا يتصرف هو لنفسه ولا يتسبب الى تناول شيء وينتظر فعل الحق لسياقه الرزق اليه ولم يشعر أحد بحاله مدة من الزمان ثم ان الله تعالى أظهر حاله وأقام له الاصحاب والتلامذة

وبين ان الدار الآخرة للخالى عن الارادتين جميعا وقال عزوجل من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون وهذا أيضا متناول بعمومه لحب الجاه فانه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا وأكثر زينة من زينتها وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حب المال والجاه ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل وقال صلى الله عليه وسلم ما ذئبان ضاريان أرسلا فى زريبة غنم باسرع افسادا من حب الشرف والمال فى دين الرجل المسلم وقال صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه انما هلاك الناس باتباع الهوى وحب الثناء نسأل الله العفو والعافية بمنه وكرمه

(بيان معنى الجاه وحقيقته)

اعلم ان الجاه والمال هما ركنا الدنيا ومعنى المال ملك الاعيان المنتفع بها ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها وكما ان الغنى هو الذى يملك الدراهم والدنانير أى يقدر عليهما ليتوصل بهما الى الاغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس فكذلك ذو الجاه هو الذى يملك قلوب الناس أى يقدر على أن يتصرف فيها ليستعمل بواسطتها أربابها فى أغراضه ومآربه وكما انه يكتسب الاموال بانواع من الحرف والصناعات فكذلك يكتسب قلوب الخلق بانواع من المعاملات ولا تصير القلوب مسخرة الا بالمعارف والاعتقادات فكل من اعتقد القلب فيه وصفا من أوصاف الكمال انقاد له وتسخر له بحسب قوة اعتقاد القلب وبحسب درجة ذلك الكمال عنده وليس يشترط أن يكون الوصف كمالا فى نفسه بل يكفى أن يكون كمالا عنده وفى اعتقاده وقد يعتقد ما ليس كمالا كمالا ويذعن قلبه للموصوف به انقيادا ضروريا بحسب اعتقاده فان انقياد القلب حال للقلب وأحوال القلوب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيلاتها وكما ان محب المال يطلب ملك الارقاء والعبيد فطالب الجاه يطلب أن يسترق الاحرار ويستعبدهم ويملك رقابهم بملك قلوبهم بل الرق الذى يطلبه صاحب الجاه أعظم لان المالك يملك العبد قهرا والعبد متأب بطبعه ولو خلى ورأيه انسل عن الطاعة وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعا ويبغى أن تكون له الاحرار عبيدا بالطبع والطوع مع الفرح بالعبودية والطاعة له فما يطلبه فوق ما يطلبه مالك الرق بكثير فاذا معنى الجاه قيام المنزلة فى قلوب الناس أى اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه فبقدر ما يعتقدون من كماله تذعن له قلوبهم وبقدر اذعان القلوب تكون قدرته على القلوب وبقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحبه للجاه فهذا هو معنى الجاه وحقيقته وله ثمرات كالمدح والاطراء فان المعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعتقده فيثنى عليه وكالخدمة والاعانة فانه لا يبخل ببذل نفسه فى طاعته بقدر اعتقاده فيكون سخرة له مثل العبد فى أغراضه وكالايثار وترك المنازعة والتعظيم والتوقير بالمفاتحة بالسلام وتسليم الصدر فى المحافل والتقديم فى جميع المقاصد فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه فى القلب ومعنى قيام الجاه فى القلب اشتمال القلوب على اعتقاد صفات الكمال فى الشخص اما بعلم أو عبادة أو حسن خلق أو نسب أو ولاية أو جمال فى صورة أو قوة فى بدن أو شئ مما يعتقده الناس كمالا فان هذه الاوصاف كلها تعظم محله فى القلوب فتكون سببا لقيام الجاه والله تعالى أعلم

(بيان سبب كون الجاه محبوبا بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب الا بشديد المجاهدة)

اعلم أن السبب الذى يقتضى كون الذهب والفضة وسائر أنواع الاموال محبوبا هو بعينه يقتضى كون الجاه محبوبا بل يقتضى أن يكون أحب من المال كما يقتضى أن يكون الذهب أحب من الفضة مهما تساويا فى المقدار وهو أنك تعلم أن الدراهم والدنانير لا غرض فى أعيانهما اذ لا تصلح لمطعم ولا مشرب ولا منكح ولا ملبس وانما هى والحصباء بمثابة واحدة ولكنهما محبوبان لانهما وسيلة الى جميع المحاب وذريعة الى قضاء الشهوات فكذلك الجاه لان معنى الجاه ملك القلوب وكما أن ملك الذهب والفضة يفيد قدرة يتوصل الانسان بها الى سائر أغراضه فكذلك ملك قلوب الاحرار والقدرة على استسخارها يفيد قدرة على التوصل الى جميع الاغراض فالاشتراك فى السبب اقتضى الاشتراك فى المحبة وترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحب من المال ولملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه * الاول أن التوصل بالجاه الى المال أيسر من التوصل بالمال الى الجاه فالعالم والزاهد الذى تقرر له جاه فى القلوب لو قصد اكتساب المال تيسر له فان أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب ومبذولة لمن

وكانوا يتكلفون الاطعمة ويأتون بها اليه وهو يرى فى ذلك فضل الحق والموافقة سمعته يقول أصبح كل يوم وأحب ما الى الصوم وينقض الحق على محبتى الصوم بفعله فاوافق الحق فى فعله (وحكى) عن بعض الصادقين من أهل واسط انه صام سنين كثيرة وكان يفطر كل يوم قبل غروب الشمس الا فى رمضان (وقال) أبو نصر السراج أنكر قوم هذه المخالفة وان كان الصوم تطوعا واستحسنه آخرون لان صاحبه كان يريد بذلك تاديب النفس بالجوع وأن لا يتمتع برؤية الصوم ووقع لى ان هذا ان قصد أن لا يتمتع برؤية الصوم فقد تمتع برؤيته عدم التمتع برؤية الصوم وهذا يتسلسل والاليق بموافقة العلم امضاء الصوم قال الله تعالى ولا تبطلوا أعمالكم

اعتقد فيه الكمال وأما الرجل الخسيس الذي لا يتصف بصفة كمال اذا وجد كنزا ولم يكن له جاه يحفظ ماله وأراد أن يتوصل بالمال الى الجاه لم يتيسر له فاذا الجاه آلة ووسيلة الى المال فمن ملك الجاه فقد ملك المال ومن ملك المال لم يملك الجاه بكل حال فلذلك صار الجاه أحب * الثاني هو أن المال معرض للبلوى والتلف بأن يسرق ويغصب ويطمع فيه الملوك والظلمة ويحتاج فيه الى الحفظة والحراس والخزائن ويتطرق اليه أخطار كثيرة وأما القلوب اذا ملكت فلا تتعرض لهذه الآفات فهي على التحقيق خزائن عتيدة لا يقدر عليها السراق ولا تتناولها أيدي النهاب والغصاب وأثبت الاموال العقار ولا يؤمن فيه الغصب والظلم ولا يستغني عن المراقبة والحفظ وأما خزائن القلوب فهي محفوظة محروسة بأنفسها وذو الجاه في أمن وأمان من الغصب والسرقة فيها نعم انما تغصب القلوب بالتصريف وتقبيح الحال وتغيير الاعتقاد فيما صدق به من أوصاف الكمال وذلك مما يهون دفعه ولا يتيسر على محاوله فعله الثالث أن ملك القلوب يسري وينمي ويتزايد من غير حاجة الى تعب ومقاساة فان القلوب اذا أذعنت لشخص واعتقدت كماله بعلم أو عمل أو غيره أفصحت الالسنة لا محالة بما فيها فيصف ما يعتقده لغيره ويقتنص ذلك القلب أيضا له ولهذا المعنى يحب الطبع الصيت وانتشار الذكر لان ذلك اذا استطار في الاقطار اقتنص القلوب ودعاها الى الاذعان والتعظيم فلا يزال يسري من واحد الى واحد ويتزايد وليس له مرد معين وأما المال فمن ملك منه شيأ فهو مالكه ولا يقدر على استنمائه الا بتعب ومقاساة والجاه أبدا في النماء بنفسه ولا مرد لموقعه والمال واقف ولهذا اذا عظم الجاه وانتشر الصيت وانطلقت الالسنة بالثناء استحقرت الاموال في مقابلته فهذه مجامع ترجيحات الجاه على المال واذا فصلت كثرت وجوه الترجيح * فان قلت فالاشكال قائم في المال والجاه جميعا فلا ينبغي أن يحب الانسان المال والجاه نعم القدر الذي يتوصل به الى جلب الملاذ ودفع المضار معلوم كالمحتاج الى الملبس والمسكن والمطعم أو كالمبتلى بمرض أو بعقوبة اذا كان لا يتوصل الى دفع العقوبة عن نفسه الا بمال أو جاه فحبه للمال والجاه معلوم اذ كل ما لا يتوصل الى المحبوب الا به فهو محبوب وفي الطباع أمر عجيب وراء هذا وهو حب جمع الاموال وكنز الكنوز وادخار الذخائر واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات حتى لو كان للعبد واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا وكذلك يحب الانسان اتساع الجاه وانتشار الصيت الى أقاصي البلاد التي يعلم قطعا أنه لا يطؤها ولا يشاهد أصحابها ليعظموه أو ليبروه بمال أو ليعينوه على غرض من أغراضه ومع اليأس من ذلك فانه يلتذ به غاية الالتذاذ وحب ذلك ثابت في الطبع ويكاد يظن أن ذلك جهل فانه حب لما لا فائدة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة فنقول نعم هذا الحب لا تنفك عنه القلوب وله سببان أحدهما جلي تدركه الكافة والآخر خفي وهو أعظم السببين ولكنه أدقهما وأخفاهما وأبعدهما عن افهام الاذكياء فضلا عن الاغبياء وذلك لاستمداده من عرق خفي في النفس وطبيعة مستكنة في الطبع لا يكاد يقف عليه الا الغواصون فأما السبب الاول فهو دفع ألم الخوف لان الشفيق بسوء الظن مولع والانسان وان كان مكفيا في الحال فانه طويل الامل ويخطر بباله أن المال الذي فيه كفايته ربما يتلف فيحتاج الى غيره فاذا خطر ذلك بباله هاج الخوف من قلبه ولا يدفع ألم الخوف الا الامن الحاصل بوجود مال آخر يفزع اليه ان أصابت هذا المال جائحة فهو أبدا لشفقته على نفسه وحبه للحياة يقدر طول الحياة ويقدر هجوم الحاجات ويقدر امكان تطرق الآفات الى الاموال ويستشعر الخوف من ذلك فيطلب ما يدفع خوفه وهو كثرة المال حتى ان أصيب بطائفة من ماله استغنى بالآخر وهذا خوف لا يوقف له على مقدار مخصوص من المال فلذلك لم يكن لمثله موقف الى أن يملك جميع ما في الدنيا ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال ومثل هذه العلة تطرد في حبه قيام المنزلة والجاه في قلوب الاباعد عن وطنه وبلده فانه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه عن الوطن أو يزعج أولئك عن أوطانهم الى وطنه ويحتاج الى الاستعانة بهم ومهما كان ذلك ممكنا ولم يكن احتياجه اليهم مستحيلا احالة ظاهرة كان للنفس فرح ولذة بقيام الجاه في قلوبهم لما فيه من الامن من هذا الخوف * وأما السبب الثاني وهو الاقوى أن الروح أمر رباني به وصفه الله تعالى اذ قال سبحانه ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ومعنى كونه ربانيا أنه من أسرار علوم المكاشفة ولا رخصة في اظهاره اذ لم يظهره رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنك قبل معرفة ذلك تعلم أن القلب

ولكن أهل الصدق لهم نيات فيما يفعلون فلا يعارضون والصدق محمود لعينه كيف كان والصادق في خفارة صدقه كيف تقلب وقال بعضهم اذا رأيت الصوفي يصوم صوم التطوع فاتهمه فانه قد اجتمع معه شيء من الدنيا وقيل اذا كان جماعة متوافقين اشكالا وفيهم مريد يحثونه على الصيام فان لم يساعدوه يهتموا لافطاره ويتكلفوا له رفقا به ولا يحملوا حاله على حالهم وان كانوا جماعة مع شيخ يصومون لصومه ويفطرون لافطاره الا من يأمره الشيخ بغير ذلك * وقيل ان بعضهم صام سنين بسبب شاب كان يصحبه حتى ينظر الشاب اليه فيتأدب به ويصوم بصيامه وحكي عن أبي الحسن المكي انه كان يصوم الدهر وكان مقيما بالبصرة وكان لا يأكل الخبز الا ليلة الجمعة وكان قوته في كل شهر أربع

ميلا الى صفات بهيمية كالاكل والوقاع والى صفات سبعية كالقتل والضرب والايذاء والى صفات شيطانية كالمكر والخديعة والاغواء والى صفات ربوبية كالكبر والعز والتجبر وطلب الاستعلاء وذلك لانه مركب من أصول مختلفة يطول شرحها وتفصيلها فهو لما فيه من الامر الرباني يحب الربوبية بالطبع ومعنى الربوبية التوحد بالكمال والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال فصار الكمال من صفات الالهية فصار محبوبا بالطبع للانسان والكمال بالتفرد بالوجود فان المشاركة في الوجود نقص لا محالة فكمال الشمس في انها موجودة وحدها فلو كان معها شمس أخرى لكان ذلك نقصا في حقها اذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية والمنفرد بالوجود هو الله تعالى اذ ليس معه موجود سواه فان ما سواه أثر من آثار قدرته لا قوام له بذاته بل هو قائم به فلم يكن موجودا معه لان المعية توجب المساواة في الرتبة والمساواة في الرتبة نقصان في الكمال بل الكامل من لا نظير له في رتبته وكما أن اشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصانا في الشمس بل هو من جملة كمالها وانما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها في الرتبة مع الاستغناء عنها فكذلك وجود كل ما في العالم يرجع الى اشراق أنوار القدرة فيكون تابعا ولا يكون متبعا فاذا معنى الربوبية التفرد بالوجود وهو الكمال وكل انسان فانه بطبعه محب لان يكون هو المنفرد بالكمال ولذلك قال بعض مشايخ الصوفية ما من انسان الا وفي باطنه ما صرح به فرعون من قوله أنا ربكم الاعلى ولكنه ليس يجد له مجالا وهو كما قال فان العبودية قهر على النفس والربوبية محبوبة بالطبع وذلك للنسبة الربانية التي أومأ اليها قوله تعالى قل الروح من أمر ربي ولكن لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال لم تسقط شهوتها للكمال فهي محبة للكمال ومشتهية له وملتذة به لذاته لا لمعنى آخر وراء الكمال وكل موجود فهو محب لذاته ولكمال ذاته ومبغض للهلاك الذي هو عدم ذاته أو عدم صفات الكمال من ذاته وانما الكمال بعد ان يسلم التفرد بالوجود في الاستيلاء على كل الموجودات فان أكمل الكمال أن يكون وجود غيرك منك فان لم يكن منك فان تكون مستوليا عليه فصار الاستيلاء على الكل محبوبا بالطبع لانه نوع كمال وكل موجود يعرف ذاته فانه يحب ذاته ويحب كمال ذاته ويلتذ به الا أن الاستيلاء على الشئ بالقدرة على التأثير فيه وعلى تغييره بحسب الارادة وكونه مسخرا لك تردده كيف تشاء فاحب الانسان أن يكون له استيلاء على كل الاشياء الموجودة معه الا ان الموجودات منقسمة الى ما لا يقبل التغيير في نفسه كذات الله تعالى وصفاته والى ما يقبل التغيير ولكن لا يستولي عليه قدرة الخلق كالافلاك والكواكب وملكوت السموات ونفوس الملائكة والجن والشياطين وكالجبال والبحار وما تحت الجبال والبحار والى ما يقبل التغيير بقدرة العبد كالارض وأجزائها وما عليها من المعادن والنبات والحيوان ومن جملتها قلوب الناس فانها قابلة للتأثير والتغيير مثل أجسادهم وأجساد الحيوانات فاذا انقسمت الموجودات الى ما يقدر الانسان على التصرف فيه كالارضيات والى ما لا يقدر عليه كذات الله تعالى والملائكة والسموات أحب الانسان أن يستولي على السموات بالعلم والاحاطة والاطلاع على أسرارها فان ذلك نوع استيلاء اذ المعلوم المحاط به كالداخل تحت العلم والعالم كالمستولي عليه فلذلك أحب أن يعرف الله تعالى والملائكة والافلاك والكواكب وجميع عجائب السموات وجميع عجائب البحار والجبال وغيرها لان ذلك نوع استيلاء عليها والاستيلاء نوع كمال وهذا يضاهي اشتياق من عجز عن صنعة عجيبة الى معرفة طريق الصنعة فيها كمن يعجز عن وضع الشطرنج فانه قد يشتهي ان يعرف اللعب به وانه كيف وضع وكمن يرى صنعة عجيبة في الهندسة أو الشعبذة أو جر الثقيل أو غيره وهو مستشعر في نفسه بعض العجز والقصور عنه ولكنه يشتاق الى معرفة كيفيته فهو متألم ببعض العجز متلذذ بكمال العلم ان علمه وأما القسم الثاني وهو الارضيات التي يقدر الانسان عليها فانه يحب بالطبع ان يستولي عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف يريد وهي قسمان أجساد وأرواح أما الاجساد فهي الدراهم والدنانير والامتعة فيجب أن يكون قادرا عليها يفعل فيها ما يشاء من الرفع والوضع والتسليم والمنع فان ذلك قدرة والقدرة كمال والكمال من صفات الربوبية والربوبية محبوبة بالطبع فلذلك أحب الاموال وان كان لا يحتاج اليها في ملبسه ومطعمه وفي شهوة نفسه وكذلك طلب استرقاق العبيد واستعباد الاشخاص الاحرار ولو بالقهر والغلبة حتى يتصرف في أجسادهم وأشخاصهم بالاستسخار وان لم يملك قلوبهم فانها ربما لم تعتقد كماله حتى يصير محبوبا لها ويقوم القهر

دوانيق يعمل بيده حبال الليف ويبيعها وكان الشيخ أبو الحسن بن سالم يقول لا أسلم عليه الا أن يفطر ويأكل وكان ابن سالم اتهمه بشهوة خفية له في ذلك لانه كان مشهورا بين الناس وقال بعضهم ما أخلص لله عبد قط الا أحب ان يكون في جب لا يعرف ومن أكل فضلا من الطعام أخرج فضلا من الكلام وقيل أقام أبو الحسن التنيسي بالحرم مع أصحابه سبعة أيام لم يأكلوا فخرج بعض أصحابه ليتطهر فرأى قشر بطيخ فأخذه وأكله فرآه انسان فاتبع أثره وجاء برفق فوضعه بين يدي القوم فقال الشيخ من جنى منكم هذه الجناية فقال الرجل أنا وجدت قشر بطيخ فأكلته فقال كن أنت مع جنايتك وفاقتك فقال أنا تائب من جنايتي فقال لا كلام بعد التوبة وكانوا

منزلته فيهافان الحشمة القهرية أيضا لذيذة لما فيهامن القدرة * القسم الثانى نفوس الآدميين وقلوبهم وهى أنفس ما على وجه الارض فهو يحب أن يكون له استيلاء وقدرة عليها لتكون مسخرة له متصرفة تحت اشارته وارادته لما فيه من كمال الاستيلاء والتشبه بصفات الربوبية والقلوب انما تتسخر بالحب ولا تحب الا باعتقاد الكمال فان كل كمال محبوب لان الكمال من الصفات الالهية والصفات الالهية كلها محبوبة بالطبع للمعنى الربانى من جملة معانى الانسان وهو الذى لا يبليه الموت فيعدمه ولا يتسلط عليه التراب فيأكله فانه محل الايمان والمعرفة وهو الواصل الى لقاء الله تعالى والساعى اليه فاذا معنى الجاه تسخر القلوب ومن تسخرت له القلوب كانت له قدرة واستيلاء عليها والقدرة والاستيلاء كمال وهو من أوصاف الربوبية فاذا محبوب القلب بطبعه الكمال بالعلم والقدرة والمال والجاه من أسباب القدرة ولا نهاية للمعلومات ولا نهاية للمقدورات ومادام يبقى معلوم أو مقدور فالشوق لا يسكن والنقصان لا يزول ولذلك قال صلى الله عليه وسلم منهومان لا يشبعان فاذا مطلوب القلوب الكمال والكمال بالعلم والقدرة وتفاوت الدرجات فيه غير محصور فسرور كل انسان ولذته بقدر ما يدركه من الكمال فهذا هو السبب فى كون العلم والمال والجاه محبوبا وهو أمر وراء كونه محبوبا لاجل التوصل الى قضاء الشهوات فان هذه العلة قد تبقى مع سقوط الشهوات بل يحب الانسان من العلوم ما لا يصلح للتوصل به الى الاغراض بل ربما يفوت عليه جملة من الاغراض والشهوات ولكن الطبع يتقاضى طلب العلم فى جميع العجائب والمشكلات لان فى العلم استيلاء على المعلوم وهو نوع من الكمال الذى هو من صفات الربوبية فكان محبوبا بالطبع الا أن فى حب كمال العلم والقدرة أغاليط لا بد من بيانها ان شاء الله تعالى

(بيان الكمال الحقيقى والكمال الوهمى الذى لا حقيقة له)

قد عرفت انه لا كمال بعد فوات التفرد بالوجود الا فى العلم والقدرة ولكن الكمال الحقيقى فيه ملتبس بالكمال الوهمى وبيانه أن كمال العلم لله تعالى وذلك من ثلاثة أوجه * أحدها من حيث كثرة المعلومات وسعتها فانه محيط بجميع المعلومات فلذلك كلما كانت علوم العبد أكثر كان أقرب الى الله تعالى * الثانى من حيث تعلق العلم بالمعلوم على ما هو به وكون المعلوم مكشوفا به كشفا تاما فان المعلومات مكشوفة لله تعالى باتم أنواع الكشف على ما هى عليه فلذلك مهما كان علم العبد أوضح وأيقن وأصدق وأوفق للمعلوم فى تفاصيل صفات المعلوم كان أقرب الى الله تعالى * الثالث من حيث بقاء العلم أبد الآباد بحيث لا يتغير ولا يزول فان علم الله تعالى باق لا يتصور أن يتغير فكذلك مهما كان علم العبد بمعلومات لا يقبل التغير والانقلاب كان أقرب الى الله تعالى والمعلومات قسمان متغيرات وأزليات (أما المتغيرات) فمثالها العلم بكون زيد فى الدار فانه علم له معلوم ولكنه يتصور أن يخرج زيد من الدار ويبقى اعتقاد كونه فى الدار كما كان فينقلب جهلا فيكون نقصانا لا كمالا فكلما اعتقدت اعتقادا موافقا وتصور أن ينقلب المعتقد فيه عما اعتقدته كنت بصدد أن ينقلب كمالك نقصا ويعود علمك جهلا ويلتحق بهذا المثال جميع متغيرات العالم كعلمك مثلا بارتفاع جبل ومساحة أرض وبعدد البلاد وتباعد ما بينها من الاميال والفراسخ وسائر ما يذكر فى المسالك والممالك وكذلك العلم باللغات التى هى اصطلاحات تتغير بتغير الاعصار والامم والعادات فهذه علوم معلوماتها مثل الزئبق تتغير من حال الى حال فليس فيه كمال الا فى الحال ولا يبقى كمالا فى القلب *(القسم الثانى)* هو المعلومات الازلية وهو جواز الجائزات ووجوب الواجبات واستحالة المستحيلات فان هذه معلومات أزلية أبدية اذ لا يستحيل الواجب قط جائزا ولا الجائز محالا ولا المحال واجبا فكل هذه الاقسام داخلة فى معرفة الله وما يجب له وما يستحيل فى صفاته ويجوز فى أفعاله فالعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وحكمته فى ملكوت السموات والارض وترتيب الدنيا والآخرة وما يتعلق به هو الكمال الحقيقى الذى يقرب من تتصف به من الله تعالى ويبقى كمالا للنفس بعد الموت وتكون هذه المعرفة نورا للعارفين بعد الموت يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا أى تكون هذه المعرفة رأس مال يوصل الى كشف ما لم ينكشف فى الدنيا كما أن من معه سراج خفى فانه يجوز أن يصير ذلك سببا لزيادة النور بسراج آخر يقتبس منه فيكمل النور بذلك النور الخفى على سبيل الاستتمام ومن ليس معه أصل السراج فلا مطمع له فى ذلك فمن ليس معه أصل معرفة

يستحبون صيام أيام البيض وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر روى ان آدم عليه السلام لما أهبط الى الارض اسود جسده من أثر المعصية فلما تاب الله عليه أمره ان يصوم أيام البيض فابيض ثلث جسده بكل يوم صامه حتى ابيض جميع جسده بصيام أيام البيض ويستحبون صوم النصف الاول من شعبان وافطار نصفه الاخير وان واصل بين شعبان ورمضان فلا بأس به ولكن ان لم يكن صام فلا يستقبل رمضان بيوم أو يومين وكان يكره بعضهم ان يصام رجب جميعه كراهة المضاهاة برمضان ويستحب صوم العشر من ذى الحجة والعشر من المحرم ويستحب الخميس والجمعة والسبت أن يصام من الاشهر الحرم وورد فى الخبر من صام ثلاثة أيام من شهر حرام

الله تعالى لم يكن له مطمع في هذا النور فيبقى كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها بل كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض فاذا السعادة الا في معرفة الله تعالى وأما ما عدا ذلك من المعارف ففيها ما لا فائدة له أصلا كمعرفة الشعر وأنساب العرب وغيرهما ومنها ماله منفعة في الاعانة على معرفة الله تعالى كمعرفة لغة العرب والتفسير والفقه والاخبار فان معرفة لغة العرب تعين على معرفة تفسير القرآن ومعرفة التفسير تعين على معرفة ما في القرآن من كيفية العبادات والاعمال التي تفيد تزكية النفس ومعرفة طريق تزكية النفس تفيد استعداد النفس لقبول الهداية الى معرفة الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى قد أفلح من زكاها وقال عز وجل والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل الى تحقيق معرفة الله تعالى وانما الكمال في معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله وينطوي فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات اذ الموجودات كلها من أفعاله فمن عرفها من حيث هي فعل الله تعالى ومن حيث ارتباطها بالقدرة والارادة والحكمة فهي من تكملة معرفة الله تعالى هذا حكم كمال العلم ذكرناه وان لم يكن لائقا بأحكام الجاه والرياء ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال * وأما القدرة فليس فيها كمال حقيقي للعبد بل للعبد علم حقيقي وليس له قدرة حقيقية وانما القدرة الحقيقية لله وما يحدث من الاشياء عقيب ارادة العبد وقدرته وحركته فهي حادثة باحداث الله كما قررناه في كتاب الصبر والشكر وكتاب التوكل وفي مواضع شتى من ربع المنجيات فكمال العلم يبقى معه بعد الموت ويوصله الى الله تعالى فاما كمال القدرة فلا نعم له كمال من جهة القدرة بالاضافة الى الحال وهي وسيلة له الى كمال العلم كسلامة أطرافه وقوة يده للبطش ورجله للمشي وحواسه للادراك فان هذه القوى آلة للوصول بها الى حقيقة كمال العلم وقد يحتاج في استيفاء هذه القوى الى القدرة بالمال والجاه للتوصل به الى المطعم والمشرب والملبس والمسكن وذلك الى قدر معلوم فان لم يستعمله للوصول به الى معرفة جلال الله فلا خير فيه البتة الا من حيث اللذة الحالية التي تنقضي على القرب ومن ظن ذلك كمالا فقد جهل فالخلق أكثرهم هالكون في غمرة هذا الجهل فانهم يظنون أن القدرة على الاجساد بقهر الحشمة وعلى أعيان الاموال بسعة الغنى وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه كمال فلما اعتقدوا ذلك أحبوه ولما أحبوه طلبوه ولما طلبوه شغلوا به وتهالكوا عليه فنسوا الكمال الحقيقي الذي يوجب القرب من الله تعالى ومن ملائكته وهو العلم والحرية أما العلم فما ذكرناه من معرفة الله تعالى وأما الحرية فالخلاص من أسر الشهوات وغموم الدنيا والاستيلاء عليها بالقهر تشبها بالملائكة الذين لا تستفزهم الشهوة ولا يستهويهم الغضب فان دفع آثار الشهوة والغضب عن النفس من الكمال الذي هو من صفات الملائكة ومن صفات الكمال لله تعالى استحالة التغير والتأثر عليه فمن كان عن التغير والتأثر بالعوارض أبعد كان الى الله تعالى أقرب وبالملائكة أشبه ومنزلته عند الله أعظم وهذا كمال ثالث سوى كمال العلم والقدرة وانما لم نورده في أقسام الكمال لان حقيقته ترجع الى عدم ونقصان فان التغير نقصان اذ هو عبارة عن عدم صفة كائنة وهلاكها والهلاك نقص في الذات وفي صفات الكمال فاذا الكمالات ثلاثة ان عددنا عدم التغير بالشهوات وعدم الانقياد لها كمالا ككمال العلم وكمال الحرية وأعني به عدم العبودية للشهوات وارادة الاسباب الدنيوية وكمال القدرة للعبد طريق الى اكتساب كمال العلم وكمال الحرية ولا طريق له الى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته اذ قدرته على أعيان الاموال وعلى استسخار القلوب والابدان تنقطع بالموت ومعرفته وحريته لا ينعدمان بالموت بل يبقيان كمالا فيه ووسيلة الى القرب من الله تعالى فانظر كيف انقلب الجاهلون وانكبوا على وجوههم انكباب العميان فاقبلوا على طلب كمال القدرة بالجاه والمال وهو الكمال الذي لا يسلم وان سلم فلا بقاء له وأعرضوا عن كمال الحرية والعلم الذي اذا حصل كان أبديا لا انقطاع له وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا جرم لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا فالعلم والحرية هي الباقيات الصالحات التي تبقى كمالا في النفس والمال والجاه هو الذي ينقضي على القرب وهو كما مثله الله تعالى حيث قال انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض الآية وقال تعالى واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء الى قوله فأصبح

هشيما

الخميس والجمعة والسبت بعد من النار سبعمائة عام

(الباب الحادي والاربعون في آداب الصوم ومهامه)

آداب الصوفية في الصوم ضبط الظاهر والباطن وكف الجوارح عن الآثام كمنع النفس عن الطعام ثم كف النفس عن الاهتمام بالاقسام (سمعت) ان بعض الصالحين بالعراق كان طريقه وطريق أصحابه انهم كانوا يصومون وكلما فتح عليهم قبل وقت الافطار يخرجونه ولا يفطرون الا على ما فتح لهم وقت الافطار وليس من الادب ان يمسك المريد عن المباح ويفطر على الحرام (قال) أبو الدرداء يا حبذا نوم الاكياس وفطرهم كيف يغبنون قيام الحمقى وصيامهم ولذرة من ذي يقين وتقوى

هشيما تذروه الرياح وكل ماتذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا وكل مالا يقطعه الموت فهو الباقيات الصالحات فقد عرفت بهذا أن كمال القدرة بالمال والجاه كمال ظني لا أصل له وأن من قصر الوقت على طلبه وظنه مقصودا فهو جاهل واليه أشار أبو الطيب بقوله

ومن ينفق الساعات في جمع ماله * مخافة فقر فالذي فعل الفقر

الاقدر البالغة منهما الى الكمال الحقيقي اللهم اجعلنا ممن وفقته للخير وهديته بلطفك

(بيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم)

مهما عرفت أن معنى الجاه ملك القلوب والقدرة عليها فحكمه حكم ملك الاموال فانه عرض من أعراض الحياة الدنيا وينقطع بالموت كالمال والدنيا مزرعة الآخرة فكل ما خلق في الدنيا فيمكن أن يتزود منه للآخرة وكما انه لابد من أدنى مال لضرورة المطعم والمشرب والملبس فلابد من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق والانسان كما لا يستغني عن طعام يتناوله فيجوز أن يحب الطعام أو المال الذي يبتاع به الطعام فكذلك لا يخلو عن الحاجة الى خادم يخدمه ورفيق يعينه واستاذ يرشده وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الاشرار فحبه لان يكون له في قلب خادمه من المحل ما يدعوه الى الخدمة ليس بمذموم وحبه لان يكون له في قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم وحبه لان يكون له في قلب استاذه من المحل ما يحسن به ارشاده وتعليمه والعناية به ليس بمذموم وحبه لان يكون له من المحل في قلب سلطانه ما يحثه ذلك على دفع الشر عنه ليس بمذموم فان الجاه وسيلة الى الاغراض كالمال فلا فرق بينهما الا أن التحقيق في هذا ينضي الى أن لا يكون المال والجاه بأعيانهما محبوبين له بل ينزل ذلك منزلة حب الانسان أن يكون له في داره بيت ماء لانه مضطر اليه لقضاء حاجته ويود أن لو استغنى عن قضاء الحاجة حتى يستغني عن بيت الماء فهذا على التحقيق ليس محبا لبيت الماء فكل ما يراد للتوصل به الى محبوب فالمحبوب هو المقصود المتوصل اليه وتدرك التفرقة بمثال آخر وهو أن الرجل قد يحب زوجته من حيث انه يدفع بها فضلة الشهوة كما يدفع ببيت الماء فضلة الطعام ولو كفي مؤنة الشهوة لكان يهجر زوجته كما أنه لو كفي قضاء الحاجة لكان لا يدخل بيت الماء ولا يدور به وقد يحب الانسان زوجته لذاتها حب العشاق ولو كفي الشهوة لبقي مستصحبا لنكاحها فهذا هو الحب دون الاول وكذلك الجاه والمال قد يحب كل واحد منهما على هذين الوجهين فحبهما لاجل التوصل بهما الى مهمات البدن غير مذموم وحبهما لاعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان ما لم يحمله الحب على مباشرة معصية وما لم يتوصل الى اكتسابه بكذب وخداع وارتكاب محظور وما لم يتوصل الى اكتسابه بعبادة فان التوصل الى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدين وهو حرام واليه يرجع معنى الرياء المحظور كما سيأتي فان قلت طلبه المنزلة والجاه في قلب استاذه وخادمه ورفيقه وسلطانه ومن يرتبط به أمره مباح على الاطلاق كيفما كان أو يباح الى حد مخصوص على وجه مخصوص فأقول يطلب ذلك على ثلاثة أوجه وجهان منه مباحان ووجه محظور أما الوجه المحظور فهو أن يطلب قيام المنزلة في قلوبهم باعتقادهم فيه صفة هو منفك عنها مثل العلم والورع والنسب فيظهر لهم أنه علوي أو عالم أو ورع وهو لا يكون كذلك فهذا حرام لانه كذب وتلبيس اما بالقول أو بالمعاملة * وأما أحد المباحين فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها كقول يوسف صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه الرب تعالى اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم فانه طلب المنزلة في قلبه بكونه حفيظا عليما وكان محتاجا اليه وكان صادقا فيه * والثاني أن يطلب اخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه حتى لا يعلم فلا تزول منزلته به فهذا أيضا مباح لان حفظ الستر على القبائح جائز ولا يجوز هتك الستر واظهار القبيح وهذا ليس فيه تلبيس بل هو سد لطريق العلم بما لا فائدة في العلم به كالذي يخفي عن السلطان أنه يشرب الخمر ولا يلقي اليه أنه ورع فان قوله اني ورع تلبيس وعدم اقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع بل يمنع العلم بالشرب ومن جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده فان ذلك رياء وهو ملبس اذ يخيل اليه أنه من المخلصين الخاشعين لله وهو مراء بما يفعله فكيف يكون مخلصا فطلب الجاه بهذا الطريق حرام وكذا بكل معصية وذلك يجري مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق وكما لا يجوز له أن يتملك مال غيره بتلبيس في عوض أو في غيره فلا يجوز له أن يتملك قلبه

أفضل من أمثال الجبال من أعمال المغترين ومن فضيلة الصوم وأدبه أن يقلل الطعام عن الحد الذي كان يأكله وهو مفطر والا فاذا جمع الاكلات باكلة واحدة فقد أدرك بها مافوت ومقصود القوم من الصوم قهر النفس ومنعها عن الاتساع وأخذهم من الطعام قدر الضرورة لعلمهم أن الاقتصار على الضرورة يجذب النفس من سائر الافعال والاقوال الى الضرورة والنفس من طبعها أنها اذا قهرت لله تعالى في شئ واحد على الضرورة تأدى ذلك الى سائر أحوالها فيصير الاكل النوم ضرورة والقول والفعل ضرورة وهذا باب كبير من أبواب الخير لاهل الله تعالى يجب رعايته وافتقاده ولا يخص بعلم الضرورة وفائدتها وطلبها الا عبد يريد الله تعالى أن يقربه

بتزوير وخداع فان ملك القلوب أعظم من ملك الاموال

(بيان السبب في حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع اليه وبغضها الذم ونفرتها منه)

اعلم أن لحب المدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب *(السبب الاول)* وهو الاقوى شعور النفس بالكمال فانا بينا أن الكمال محبوب وكل محبوب فادراكه لذيذ فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت واهتزت وتلذذت والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها فان الوصف الذي به مدح لا يخلو اما أن يكون جليا ظاهرا أو يكون مشكوكا فيه فان كان جليا ظاهرا محسوسا كانت اللذة به أقل ولكنه لا يخلو عن لذة كثنائه عليه بانه طويل القامة أبيض اللون فان هذا نوع كمال ولكن النفس تغفل عنه فتخلو عن لذته فاذا استشعرته لم يخل حدوث الشعور عن حدوث لذة وان كان ذلك الوصف مما يتطرق اليه الشك فاللذة فيه أعظم كالثناء عليه بكمال العلم وكمال الورع أو بالحسن المطلق فان الانسان ربما يكون شاكا في كمال حسنه وفي كمال علمه وكمال ورعه ويكون مشتاقا الى زوال هذا الشك بان يصير مستيقنا لكونه عديم النظير في هذه الامور اذ تطمئن نفسه اليه فاذا ذكره غيره أورث ذلك طمأنينة وثقة باستشعار ذلك الكمال فتعظم لذته وانما تعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات خبير بها لا يجازف في القول الا عن تحقيق وذلك كفرح التلميذ بثناء استاذه عليه بالكياسة والذكاء وغزارة الفضل فانه في غاية اللذة وان صدر ممن يجازف في الكلام أو لا يكون بصيرا بذلك الوصف ضعفت اللذة وبهذه العلة يبغض الذم أيضا ويكرهه لانه يشعره بنقصان نفسه والنقصان ضد الكمال المحبوب فهو ممقوت والشعور به مؤلم ولذلك يعظم الالم اذا صدر الذم من بصير موثوق به كما ذكرناه في المدح *(السبب الثاني)* ان المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح وانه مريد له ومعتقد فيه ومسخر تحت مشيئته وملك القلوب محبوب والشعور بحصوله لذيذ وبهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء ممن تتسع قدرته وينتفع باقتناص قلبه كالملوك والاكابر ويضعف مهما كان المادح ممن لا يؤبه له ولا يقدر على شيء فان القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير فلا يدل المدح الا على قدرة قاصرة وبهذه العلة أيضا يكره الذم ويتألم به القلب واذا كان من الاكابر كانت نكايته أعظم لان الفائت به أعظم *(السبب الثالث)* أن ثناء المثني ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه لاسيما اذا كان ذلك ممن يلتفت الى قوله ويعتد بثنائه وهذا يختص بثناء يقع على الملا فلا جرم كلما كان الجمع أكثر والمثني أجدر بان يلتفت الى قوله كان المدح ألذ والذم أشد على النفس *(السبب الرابع)* أن المدح يدل على حشمة الممدوح واضطرار المادح الى اطلاق اللسان بالثناء على الممدوح اما عن طوع واما عن قهر فان الحشمة أيضا لذيذة لما فيها من القهر والقدرة وهذه اللذة تحصل وان كان المادح لا يعتقد في الباطن ما مدح به ولكن كونه مضطرا الى ذكره نوع قهر واستيلاء عليه فلا جرم تكون لذته بقدر تمنع المادح وقوته فتكون لذة ثناء القوي الممتنع عن التواضع بالثناء أشد فهذه الاسباب الاربعة قد تجتمع في مدح مادح واحد فيعظم بها الالتذاذ وقد تفترق فتنقص اللذة بها أما العلة الاولى وهي استشعار الكمال فتندفع بأن يعلم الممدوح أنه غير صادق في قوله كما اذا مدح بانه نسيب أو سخي أو عالم بعلم أو متورع عن المحظورات وهو يعلم من نفسه ضد ذلك فتزول اللذة التي سببها استشعار الكمال وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقية اللذات فان كان يعلم ان المادح ليس يعتقد ما يقوله ويعلم خلوه عن هذه الصفة بطلت اللذة الثانية وهو استيلاؤه على قلبه وتبقى لذة الاستيلاء والحشمة على اضطرار لسانه الى النطق بالثناء فان لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللعب بطلت اللذات كلها فلم يكن فيه أصلا لذة لفوات الاسباب الثلاثة فهذا ما يكشف الغطاء عن علة التذاذ النفس بالمدح وتألمها بسبب الذم وانما ذكرنا ذلك ليعرف طريق العلاج لحب الجاه وحب المحمدة وخوف المذمة فان ما لا يعرف سببه لا يمكن معالجته اذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض والله الموفق بكرمه ولطفه وصلى الله على كل عبد مصطفى

(بيان علاج حب الجاه)

اعلم ان من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق مشغوفا بالتودد اليهم والمراآة لاجلهم ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتا الى ما يعظم منزلته عندهم وذلك بذر النفاق وأصل الفساد ويجر ذلك لا محالة الى التساهل في العبادات والمراآة بها والى اقتحام المحظورات للتوصل الى اقتناص القلوب ولذلك شبه رسول الله

ويدنيه ويصطفيه ويزيده ويتنعم في صومه من ملاعبة الاهل بالملامسة فان ذلك أنزه للصوم ويتسحر استعمالا للسنة وهو أدعى الى امضاء الصوم لمعنيين أحدهما عود بركة السنة عليه والثاني التقوية بالطعام على الصيام (روى) أنس ابن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تسحروا فان في السحور بركة ويعجل الفطر الا بالسنة فان لم يرد تناول الطعام الا بعد العشاء ويريد احياء ما بين العشاءين يفطر بالماء أو على أعداد من الزبيب أو التمر أو يأكل لقيمات ان كانت النفس تنازع لمصغوله الوقت بين العشاءين فاحياء ذلك له فضل كثير والا فيقتصر على الماء لاجل السنة (أخبرنا) الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب ابن علي قال أنا أبو الفتح الهروي قال أنا أبو نصر

صلى الله عليه وسلم حب الشرف والمال وافسادهما الدين بذئبين ضاريين وقال عليه السلام انه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل اذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس فيضطر الى النفاق معهم والى التظاهر بخصال حميدة هو خال عنها وذلك هو عين النفاق فحب الجاه اذن من المهلكات فيجب علاجه وازالته عن القلب فانه طبع جبل عليه القلب كما جبل على حب المال وعلاجه مركب من علم وعمل أما العلم فهو أن يعلم السبب الذي لاجله أحب الجاه وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم وقد بينا ان ذلك ان صفا وسلم فآخره الموت فليس هو من الباقيات الصالحات بل لو سجد لك كل من على بسيط الارض من المشرق الى المغرب فالى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له ويكون حالك كحال من مات قبلك من ذوي الجاه مع المتواضعين له فهذا لا ينبغي أن يترك به الدين الذي هو الحياة الابدية التي لا انقطاع لها ومن فهم الكمال الحقيقي والكمال الوهمي كما سبق صغر الجاه في عينه الا ان ذلك انما يصغر في عين من ينظر الى الآخرة كأنه يشاهدها ويستحقر العاجلة ويكون الموت كالحاصل عنده ويكون حاله كحال الحسن البصري حين كتب الى عمر بن عبد العزيز أما بعد فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات فانظر كيف مد نظره نحو المستقبل وقدره كائنا وكذلك حال عمر بن عبد العزيز حين كتب في جوابه أما بعد فكأنك بالدنيا لم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل فهؤلاء كان التفاتهم الى العاقبة فكان عملهم لها بالتقوى اذ علموا أن العاقبة للمتقين فاستحقروا الجاه والمال في الدنيا وأبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة لا يمتد نورها الى مشاهدة العواقب ولذلك قال تعالى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى وقال عز وجل كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة فمن هذا حده فينبغي أن يعالج قلبه من حب الجاه بالعلم بالآفات العاجلة وهو أن يتفكر في الاخطار التي تستهدف لها أرباب الجاه في الدنيا فان كل ذي جاه محسود ومقصود بالايذاء وخائف على الدوام على جاهه ومحترز من أن تتغير منزلته في القلوب والقلوب أشد تغيرا من القدر في غليانها وهي مترددة بين الاقبال والاعراض فكل ما يبنى على قلوب الخلق يضاهي ما يبنى على أمواج البحر فانه لا ثبات له والاشتغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحساد ومنع أذى الاعداء كل ذلك غموم عاجلة ومكدرة للذة الجاه فلا يفي في الدنيا مرجوها بمخوفها فضلا عما يفوت في الآخرة فبهذا ينبغي أن تعالج البصيرة الضعيفة وأما من نفذت بصيرته وقوي ايمانه فلا يلتفت الى الدنيا فهذا هو العلاج من حيث العلم * وأما من حيث العمل فاسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة أفعال يلام عليها حتى يسقط من أعين الخلق وتفارقه لذة القبول ويأنس بالخمول ويرد الخلق ويقنع بالقبول من الخالق وهذا هو مذهب الملامتية اذ اقتحموا الفواحش في صورتها ليسقطوا أنفسهم من أعين الناس فيسلموا من آفة الجاه وهذا غير جائز لمن يقتدى به فانه يوهن الدين في قلوب المسلمين وأما الذي لا يقتدى به فلا يجوز له أن يقدم على محظور لاجل ذلك بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس كما روي أن بعض الملوك قصد بعض الزهاد فلما علم بقربه منه استدعى طعاما وبقلا وأخذ يأكل بشره ويعظم اللقمة فلما نظر اليه الملك سقط من عينه وانصرف فقال الزاهد الحمد لله الذي صرفك عني ومنهم من شرب شرابا حلالا في قدح لونه لون الخمر حتى يظن به انه يشرب الخمر فيسقط عن أعين الناس وهذا في جوازه نظر من حيث الفقه الا ان أرباب الاحوال ربما يعالجون أنفسهم بما لا يفتي به الفقيه مهما رأوا اصلاح قلوبهم فيه ثم يتداركون ما فرط منهم فيه من صورة التقصير كما فعل بعضهم فانه عرف بالزهد وأقبل الناس عليه فدخل حماما ولبس ثياب غيره وخرج فوقف في الطريق حتى عرفوه فأخذوه وضربوه واستردوا منه الثياب وقالوا انه طرار وهجروه وأقوى الطرق في قطع الجاه الاعتزال عن الناس والهجرة الى موضع الخمول فان المعتزل في بيته في البلد الذي هو به مشهور لا يخلو عن حب المنزلة التي ترسخ له في القلوب بسبب عزلته فانه ربما يظن انه ليس محبا لذلك الجاه وهو مغرور وانما سكنت نفسه لانها قد ظفرت بمقصودها ولو تغير الناس عما اعتقدوه فيه فذموه أو نسبوه الى أمر غير لائق به جزعت نفسه وتألمت وربما توصلت الى الاعتذار عن ذلك واماطة ذلك الغبار عن قلوبهم وربما يحتاج في ازالة ذلك عن قلوبهم الى كذب وتلبيس ولا يبالي به وبه يتبين بعد أنه محب للجاه والمنزلة ومن أحب الجاه والمنزلة فهو كمن أحب

الترياقي قال أنا أبو محمد الجراحي قال أنا أبو العباس المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذي قال ثنا اسحق بن موسى الانصاري قال ثنا الوليد بن مسلم عن الاوزاعي عن قرة عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه قال الله عز وجل أحب عبادي الى أعجلهم فطرا وقال عليه السلام لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر * والافطار قبل الصلاة سنة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفطر على جرعة من ماء أو مذقة من لبن أو تمرات (وفي الخبر) كم من صائم حظه من صيامه الجوع والعطش قيل هو الذي يجوع بالنهار ويفطر على الحرام وقيل هو الذي يصوم عن الحلال من الطعام ويفطر على لحوم الناس بالغيبة (قال) سفيان من اغتاب فسد

المال بل هو شر منه فان فتنة الجاه أعظم ولا يمكنه أن لا يحب المنزلة فى قلوب الناس مادام يطمع فى الناس فاذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى وقطع طمعه عن الناس رأسا أضحى الناس كلهم عنده كالارذال فلا يبالى أكان له منزلة فى قلوبهم أم لم يكن كما لا يبالى بما فى قلوب الذين هم منه فى أقصى المشرق لانه لا يراهم ولا يطمع فيهم ولا يقطع الطمع عن الناس الا بالقناعة فمن قنع استغنى عن الناس واذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس ولم يكن لقيام منزلته فى القلوب عنده وزن ولا يتم ترك الجاه الا بالقناعة وقطع الطمع و يستعين على جميع ذلك بالاخبار الواردة فى ذم الجاه ومدح الخمول والذل مثل قولهم المؤمن لا يخلو من ذلة أو قلة أو علة و ينظر فى أحوال السلف وايثارهم الذل على العز ورغبتهم فى ثواب الآخرة رضى الله عنهم أجمعين

(بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم)

اعلم ان أكثر الناس انما هلكوا بخوف مذمة الناس وحب مدحهم فصارت حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس رجاء للمدح وخوفا من الذم وذلك من المهلكات فيجب معالجته وطريقه ملاحظة الاسباب التى لاجلها يحب المدح و يكره الذم *(أما السبب الاول)* فهو استشعار الكمال بسبب قول المادح فطريقك فيه أن ترجع الى عقلك وتقول لنفسك هذه الصفة التى يمدحك بها أنت متصف بها أم لا فان كنت متصفا بها فهى اما صفة تستحق بها المدح كالعلم والورع واما صفة لا تستحق المدح كالثروة والجاه والاعراض الدنيوية فان كانت من الاعراض الدنيوية فالفرح بها كالفرح بنبات الارض الذى يصير على القرب هشيما تذروه الرياح وهذا من قلة العقل بل العاقل يقول كما قال المتنبى

أشد الغم عندى فى سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

فلا ينبغى أن يفرح الانسان بعروض الدنيا وان فرح فلا ينبغى أن يفرح بمدح المادح بها بل بوجودها والمدح ليس هو سبب وجودها وان كانت الصفة مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع فينبغى أن لا يفرح بها لان الخاتمة غير معلومة وهذا انما يقتضى الفرح لانه يقرب عند الله زلفى وخطر الخاتمة باق ففى الخوف من سوء الخاتمة شغل عن الفرح بكل ما فى الدنيا بل الدنيا دار أحزان وغموم لا دار فرح وسرور ثم ان كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة فينبغى أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح المادح فان اللذة فى استشعار الكمال والكمال موجود من فضل الله لا من المدح والمدح تابع له فلا ينبغى أن تفرح بالمدح والمدح لا يزيدك فضلا وان كانت الصفة التى مدحت بها أنت خال عنها ففرحك بالمدح غاية الجنون ومثالك مثال من يهزأ به انسان ويقول سبحان الله ما أكثر العطر الذى فى أحشائه وما أطيب الروائح التى تفوح منه اذا قضى حاجته وهو يعلم ما تشتمل عليه أمعاؤه من الاقذار والانتان ثم يفرح بذلك فكذلك اذا أثنوا عليك بالصلاح والورع ففرحت به والله مطلع على خبائث باطنك وغوائل سريرتك واقذار صفاتك كان ذلك من غاية الجهل فاذا المادح ان صدق فليكن فرحك بصفتك التى هى من فضل الله عليك وان كذب فينبغى أن يغمك ذلك ولا تفرح به (وأما السبب الثانى) وهو دلالة المدح على تسخير قلب المادح وكونه سببا لتسخير قلب آخر فهذا يرجع الى حب الجاه والمنزلة فى القلوب وقد سبق وجه معالجته وذلك بقطع الطمع عن الناس وطلب المنزلة عند الله و بان تعلم أن طلبك المنزلة فى قلوب الناس وفرحك به يسقط منزلتك عند الله فكيف تفرح به *(وأما السبب الثالث)* وهو الحشمة التى اضطرت المادح الى المدح فهو أيضا يرجع الى قدرة عارضة لا ثبات لها ولا تستحق الفرح بل ينبغى أن يغمك مدح المادح وتكرهه وتغضب به كما نقل ذلك عن السلف لان آفة المدح على الممدوح عظيمة كما ذكرناه فى كتاب آفات اللسان قال بعض السلف من فرح بمدح فقد مكن الشيطان من أن يدخل فى بطنه وقال بعضهم اذا قيل لك نعم الرجل أنت فكان أحب اليك من أن يقال لك بئس الرجل أنت فانت والله بئس الرجل وروى فى بعض الاخبار فان صح فهو قاصم للظهور أن رجلا أثنى على رجل خيرا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لو كان صاحبك حاضرا فرضى الذى قلت فمات على ذلك دخل النار وقال صلى الله عليه وسلم مرة للمادح ويحك قصمت ظهره لو سمعك ما أفلح الى يوم القيامة وقال عليه السلام ألا لا تمادحوا واذا رأيتم المادحين فاحثوا فى وجوههم

صومه * وعن مجاهد خصلتان تفسدان الصوم الغيبة والكذب قال الشيخ أبو طالب المكى قرن الله الاستماع الى الباطل والقول بالاثم باكل الحرام فقال سماعون للكذب أكالون للسحت (وورد) فى الخبر ان امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادتا أن تهلكا فبعثتا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تستأذنانه فى الافطار فارسل اليهما قدحا وقال قولوا لهما قيئا فيه ما أكلتما فقاءت احداهما نصفه دما عبيطا ولحما غريضا وقاءت الاخرى مثل ذلك حتى ملأتاه فعجب الناس من ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هاتان صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما وقال عليه الصلاة

التراب فلهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على وجل عظيم من المدح وفتنته وما يدخل على القلب من السرور العظيم به حتى ان بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلا عن شئ فقال أنت يا أمير المؤمنين خير مني وأعلم فغضب وقال انى لم آمرك بان تزكيني وقيل لبعض الصحابة لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله فغضب وقال انى لاحسبك عراقيا وقال بعضهم لما مدح اللهم ان عبدك تقرب الى بمقتك فاشهدك على مقته وانما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق وهم ممقوتون عند الخالق فكان اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله يبغض اليهم مدح الخلق لان الممدوح هو المقرب عند الله والمذموم بالحقيقة هو المبعد من الله الملقى فى النار مع الاشرار فهذا الممدوح ان كان عند الله من أهل النار فما أعظم جهله اذا فرح بمدح غيره وان كان من أهل الجنة فلا ينبغي أن يفرح الا بفضل الله تعالى وثنائه عليه اذ ليس أمره بيد الخلق ومهما علم أن الارزاق والآجال بيد الله تعالى قل التفاته الى مدح الخلق وذمهم وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهمه من أمر دينه والله الموفق للصواب برحمته

(بيان علاج كراهة الذم)

قد سبق ان العلة فى كراهة الذم هو ضد العلة فى حب المدح فعلاجه أيضا يفهم منه والقول الوجيز فيه أن من ذمك لا يخلو من ثلاثة أحوال اما أن يكون قد صدق فيما قال وقصد به النصح والشفقة واما أن يكون صادقا ولكن قصده الايذاء والتعنت واما أن يكون كاذبا فان كان صادقا وقصده النصح فلا ينبغي أن تذمه وتغضب عليه وتحقد بسببه بل ينبغي أن تتقلد منته فان من أهدى اليك عيوبك فقد أرشدك الى المهلك حتى تتقيه فينبغي أن تفرح به وتشتغل بازالة الصفة المذمومة عن نفسك ان قدرت عليها فاما اغتمامك بسببه وكراهتك له وذمك اياه فانه غاية الجهل وان كان قصده التعنت فانت قد انتفعت بقوله اذ أرشدك الى عيبك ان كنت جاهلا أو ذكرك عيبك ان كنت غافلا عنه أو قبحه فى عينك لينبعث حرصك على ازالته ان كنت قد استحسنته وكل ذلك أسباب سعادتك وقد استفدته منه فاشتغل بطلب السعادة فقد أتيح لك أسبابها بسبب ما سمعته من المذمة فمهما قصدت الدخول على ملك وثوبك ملوث بالعذرة وأنت لا تدرى ولو دخلت عليه كذلك لخفت أن يحز رقبتك لتلويثك مجلسه بالعذرة فقال لك قائل أيها الملوث بالعذرة طهر نفسك فينبغي أن تفرح به لان تنبيهك بقوله غنيمة وجميع مساوى الاخلاق مهلكة فى الآخرة والانسان انما يعرفها من قول أعدائه فينبغي أن تغتنمه وأما قصد العدو التعنت فجناية منه على دين نفسه وهو نعمة منه عليك فلم تغضب عليه بقول انتفعت به أنت وتضرر هو به * الحالة الثالثة أن يفترى عليك بما أنت برئ منه عند الله تعالى فينبغي أن لا تكره ذلك ولا تشتغل بذمه بل تتفكر فى ثلاثة أمور أحدها انك ان خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه وما ستره الله من عيوبك أكثر فاشكر الله تعالى اذ لم يطلعه على عيوبك ودفعه عنك بذكر ما أنت برئ عنه والثانى ان ذلك كفارات لبقية مساويك وذنوبك فكأنه رماك بعيب أنت برئ منه وطهرك من ذنوب أنت ملوث بها وكل من اغتابك فقد أهدى اليك حسناته وكل من مدحك فقد قطع ظهرك فما بالك تفرح بقطع الظهر وتحزن لهدايا الحسنات التى تقربك الى الله تعالى وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله وأما الثالث فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله وأهلك نفسه بافترائه وتعرض لعقابه الاليم فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله عليه فتشمت به الشيطان وتقول اللهم أهلكه بل ينبغي أن تقول اللهم أصلحه اللهم تب عليه اللهم ارحمه كما قال صلى الله عليه وسلم اللهم اغفر لقومى اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون لما أن كسروا ثنيته وشجوا وجهه وقتلوا عمه حمزة يوم أحد ودعا ابراهيم بن أدهم لمن شج رأسه بالمغفرة فقيل له فى ذلك فقال علمت انى مأجور بسببه وما نالنى منه الا خير فلا أرضى أن يكون هو معاقبا بسببى ومما يهون عليك كراهة المذموم قطع الطمع فان من استغنيت عنه مهما ذمك لم يعظم أثر ذلك فى قلبك وأصل الدين القناعة وبها ينقطع الطمع عن المال والجاه وما دام الطمع قائما كان حب الجاه والمدح فى قلب من طمعت فيه غالبا وكانت همتك الى تحصيل المنزلة فى قلبه مصروفة ولا ينال ذلك الا بهدم الدين فلا ينبغي أن يطمع طالب المال والجاه ومحب المدح ومبغض الذم فى سلامة دينه فان ذلك بعيد جدا

(بيان اختلاف أحوال الناس فى المدح والذم)

والسلام اذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل فان امرؤ شاتمه فليقل انى صائم (وفى الخبر) ان الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته (والصوفى) الذى لا يرجع الى معلوم ولا يدرى متى يساق اليه الرزق فاذا ساق الله اليه الرزق تناوله بالادب وهو دائم المراقبة لوقته وهو فى افطاره أفضل من الذى له معلوم معد فان كان مع ذلك يصوم فقد أكمل الفضل (حكى) عن رويم قال اجتزت فى الهاجرة ببعض سكك بغداد فعطشت فتقدمت الى باب دار فاستسقيت فاذا جارية قد خرجت ومعها كوز جديد ملآن من الماء المبرد فلما أردت أن أتناول من يدها قالت صوفى ويشرب بالنهار وضربت بالكوز على الارض وانصرفت قال رويم فاستحييت من ذلك ونذرت أن لا أفطر أبدا * والجماعة الذين كرهوا

اعلم ان الناس أربعة أحوال بالاضافة الى الذام والمادح * الحالة الاولى أن يفرح بالمدح ويشكر المادح ويغضب من الذم ويحقد على الذام ويكافئه أو يحب مكافأته وهذا حال أكثر الخلق وهو غاية درجات المعصية في هذا الباب * الحالة الثانية أن يمتعض في الباطن على الذام ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته ويفرح باطنه ويرتاح للمادح ولكن يحفظ ظاهره عن اظهار السرور وهذا من النقصان الا انه بالاضافة الى ما قبله كمال * الحالة الثالثة وهي أول درجات الكمال أن يستوي عنده ذامه ومادحه فلا تغمه المذمة ولا تسره المدحة وهذا قد يظنه بعض العباد بنفسه ويكون مغرورا ان لم يمتحن نفسه بعلاماته وعلاماته أن لا يجد في نفسه استثقالا للذام عند تطويله الجلوس عنده أكثر مما يجده في المادح وأن لا يجد في نفسه زيادة هزة ونشاط في قضاء حوائج المادح فوق ما يجده في قضاء حاجة الذام وأن لا يكون انقطاع الذام عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المادح وأن لا يكون موت المادح المطري له أشد نكاية في قلبه من موت الذام وأن لا يكون غمه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه أكثر مما يكون بمصيبة الذام وأن لا تكون زلة المادح أخف على قلبه وفي عينه من زلة الذام فمهما خف الذام على قلبه كما خف المادح واستويا من كل وجه فقد نال هذه الرتبة وما أبعد ذلك وما أشده على القلوب وأكثر العباد فرحهم بمدح الناس لهم مستبطن في قلوبهم وهم لا يشعرون حيث لا يمتحنون أنفسهم بهذه العلامات وربما شعر العابد بميل قلبه الى المادح دون الذام والشيطان يحسن له ذلك ويقول الذام قد عصى الله بمذمتك والمادح قد أطاع الله بمدحك فكيف تسوي بينهما وانما استثقالك للذام من الدين المحض وهذا محض التلبيس فان العابد لو تفكر علم أن في الناس من ارتكب من كبائر المعاصي أكثر مما ارتكب الذام في مذمته ثم انه لا يستثقلهم ولا ينفر عنهم ويعلم ان المادح الذي مدحه لا يخلو عن مذمة غيره ولا يجد في نفسه نفرة عنه بمذمة غيره كما يجد لمذمة نفسه والمذمة من حيث انها معصية لا تختلف بأن يكون هو المذموم أو غيره فاذا العابد المغرور لنفسه يغضب ولهواه يمتعض ثم ان الشيطان يخيل اليه أنه من الدين حتى يعتقد على الله بهواه فيزيده ذلك بعدا من الله ومن لم يطلع على مكايد الشيطان وآفات النفوس فأكثر عباداته تعب ضائع يفوت عليه الدنيا ويخسره في الآخرة وفيهم قال الله تعالى قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا * الحالة الرابعة وهي الصدق في العبادة أن يكره المدح ويمقت المادح اذ يعلم انه فتنة عليه قاصمة للظهر مضرة له في الدين ويحب الذام اذ يعلم أنه مهد اليه عيبه ومرشد له الى مهمه ومهد اليه حسناته فقد قال صلى الله عليه وسلم رأس التواضع أن تكره أن تذكر بالبر والتقوى وقد روي في بعض الاخبار ما هو قاصم لظهور أمثالنا ان صح اذ روي أنه صلى الله عليه وسلم قال ويل للصائم وويل للقائم وويل لصاحب الصوف الا من فقيل يا رسول الله الا من فقال الا من تنزهت نفسه عن الدنيا وأبغض المدحة واستحب المذمة وهذا شديد جدا وغاية أمثالنا الطمع في الحالة الثانية وهو أن يضمر الفرح والكراهة على الذام والمادح ولا يظهر ذلك بالقول والعمل فأما الحالة الثالثة وهي التسوية بين المادح والذام فلسنا نطمع فيها ثم ان طالبنا أنفسنا بعلامة الحالة الثانية فانها لا تفي بها لانها لابد وأن تتسارع الى اكرام المادح وقضاء حاجاته وتتثاقل على اكرام الذام والثناء عليه وقضاء حوائجه ولا نقدر على أن نسوي بينهما في الفعل الظاهر كما لا نقدر عليه في سريرة القلب ومن قدر على التسوية بين المادح والذام في ظاهر الفعل فهو جدير بأن يتخذ قدوة في هذا الزمان ان وجد فانه الكبريت الاحمر يتحدث الناس به ولا يرى فكيف بما بعده من المرتبتين وكل واحدة من هذه الرتب أيضا فيها درجات أما الدرجات في المدح فهو أن من الناس من يتمنى المدحة والثناء وانتشار الصيت فيتوصل الى نيل ذلك بكل ما يمكن حتى يرائي بالعبادات ولا يبالي بمقارفة المحظورات لاستمالة قلوب الناس واستنطاق ألسنتهم بالمدح وهذا من الهالكين ومنهم من يريد ذلك ويطلبه بالمباحات ولا يطلبه بالعبادات ولا يباشر المحظورات وهذا على شفا جرف هار فان حدود الكلام الذي يستميل به القلوب وحدود الاعمال لا يمكنه أن يضبطها فيوشك أن يقع فيما لا يحل لنيل الحمد فهو قريب من الهالكين جدا ومنهم من لا يريد المدحة ولا يسعى لطلبها ولكن اذا مدح سبق السرور الى قلبه فان لم يقابل ذلك بالمجاهدة ولم يتكلف الكراهية فهو قريب من أن يستجره فرط السرور الى الرتبة التي قبلها وان جاهد نفسه في ذلك وكان

دوام الصوم كرهوه لمكان ان النفس اذا ألفت الصوم وتعودته اشتد عليها الافطار وهكذا بتعودها الافطار تكره الصوم فيرون الفضل في أن لا تركن النفس الى عادة ورأوا ان افطار يوم وصوم يوم أشد على النفس * ومن أدب الفقراء ان الواحد اذا كان بين جمع وفي صحبة جماعة لا يصوم الا باذنهم وانما كان ذلك لان قلوب الجمع متعلقة بفطوره وهم على غير معلوم فان صام باذن الجمع وفتح عليهم بشئ لا يلزمهم ادخاره للصائم مع العلم بان الجمع المفطرين يحتاجون الى ذلك فان الله تعالى يأتي للصائم برزقه الا أن يكون الصائم يحتاج الى الرفق لضعف حاله أو ضعف بنيته لشيخوخة أو غير ذلك وهكذا الصائم لا يليق أن يأخذ نصيبه فيدخره لان ذلك من ضعف الحال فان

قلبه الكراهية و بغض السر و واليه بالتفكر فى آفات المدح فهو فى خطر المجاهدة فتارة تكون اليد له و تارة تكون عليه ومنهم من اذا سمع المدح لم يسر به ولم يغتم به ولم يؤثر فيه وهذا على خير وان كان قد بقى عليه بقية من الاخلاص ومنهم من يكره المدح اذا سمعه ولكن لا ينتهى به الى أن يغضب على المادح و ينكر عليه وأقصى درجاته ان يكره و يغضب و يظهر الغضب وهو صادق فيه لا ان يظهر الغضب وقلبه محب له فان ذلك عين النفاق لانه يريد ان يظهر من نفسه الاخلاص والصدق وهو مفلس عنه وكذلك بالضد من هذا تتفاوت الاحوال فى حق الذام وأول درجاته اظهار الغضب وآخرها اظهار الفرح ولا يكون الفرح واظهاره الا ممن فى قلبه حنق وحقد على نفسه لتمردها عليه وكثرة عيوبها ومواعيدها الكاذبة وتلبيسها الخبيثة فيبغضها بغض العدو والانسان يفرح بمن يذم عدوه وهذا شخص عدوه نفسه فيفرح اذا سمع ذمها و يشكر الذام على ذلك و يعتقد فطنته وذكاءه لما وقف على عيوبها فيكون ذلك كالتشفى له من نفسه ويكون غنيمة عنده اذا صار بالمذمة أوضع فى أعين الناس حتى لا يبتلى بفتنة الناس واذا سيقت اليه حسنات لم ينصب فيها فعساه يكون خيرا لعيوبه التى هو عاجز عن اماطتها ولو جاهد المريد نفسه طول عمره فى هذه الخصلة الواحدة وهو أن يستوى عنده ذامه ومادحه لكان له شغل شاغل فيه لا يتفرغ معه لغيره وبينه وبين السعادة عقبات كثيرة هذه احداها ولا يقطع شيأ منها الا بالمجاهدة الشديدة فى العمر الطويل

(الشطر الثانى من الكتاب فى طلب الجاه والمنزلة بالعبادات)

وهو الرياء وفيه بيان ذم الرياء و بيان حقيقة الرياء وما يرائى به و بيان درجات الرياء و بيان الرياء الخفى وبيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط وبيان دواء الرياء وعلاجه وبيان الرخصة فى اظهار الطاعات وبيان الرخصة فى كتمان الذنوب و بيان ترك الطاعات خوفا من الرياء والآفات و بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادات بسبب رؤية الخلق و بيان ما يجب على المريد أن يلزمه قلبه قبل الطاعة و بعدها وهى عشرة فصول و بالله التوفيق

(بيان ذم الرياء)

اعلم ان الرياء حرام والمرائى عند الله ممقوت وقد شهدت لذلك الآيات والاخبار والآثار *(اما الآيات) فقوله تعالى فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤن وقوله عز وجل والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور وقال مجاهد هم أهل الرياء وقال تعالى انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا فمدح المخلصين بنفى كل ارادة سوى وجه الله والرياء ضده وقال تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا نزل ذلك فيمن يطلب الاجر والحمد بعباداته وأعماله *(وأما الاخبار) فقد قال صلى الله عليه وسلم حين سأله رجل فقال يا رسول الله فيم النجاة فقال ان لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس وقال أبو هريرة فى حديث الثلاثة المقتول فى سبيل الله والمتصدق بماله والقارئ لكتاب الله كما أوردناه فى كتاب الاخلاص وان الله عز وجل يقول لكل واحد منهم كذبت بل أردت ان يقال فلان جواد كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع كذبت بل أردت ان يقال فلان قارئ فاخبر صلى الله عليه وسلم انهم لم يثابوا وان رياءهم هو الذى أحبط أعمالهم وقال ابن عمر رضى الله عنهما قال النبى صلى الله عليه وسلم من راءى راءى الله به ومن سمع سمع الله به وفى حديث آخر طويل ان الله تعالى يقول للملائكة ان هذا لم يردنى بعمله فاجعلوه فى سجين وقال صلى الله عليه وسلم ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا وما الشرك الاصغر يا رسول الله قال الرياء يقول الله عز وجل يوم القيامة اذا جازى العباد بأعمالهم اذهبوا الى الذين كنتم تراؤن فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء وقال صلى الله عليه وسلم استعيذوا بالله عز وجل من جب الحزن قيل وما هو يا رسول الله قال واد فى جهنم أعد للقراء المرائين وقال صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل من عمل عملا أشرك فيه غيرى فهو له وأنا منه برىء وأنا أغنى الاغنياء عن الشرك وقال عيسى المسيح صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه لئلا يرى الناس أنه صائم واذا أعطى بيمينه فليخف عن شماله واذا صلى فليرخ ستر بابه فان الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق وقال نبينا صلى الله عليه وسلم لا يقبل الله عز وجل عملا فيه مثقال ذرة من رياء وقال عمر لمعاذ بن جبل حين رآه يبكى ما يبكيك قال حديث سمعته من صاحب هذا القبر يعنى النبى صلى

كان ضعيفا يعترف بحاله وضعفه فيدخره والذى ذكرناه لاقوام هم على غير معلوم فاما الصوفية المقيمون فى رباط على معلوم فالاليق بحالهم الصيام ولا يلزمهم موافقة الجمع فى الافطار وهذا يظهر فى جمع منهم لهم معلوم يقدم لهم بالنهار فاما اذا كانوا على غير معلوم فقد قيل مساعدة الصوام للمفطرين أحسن من استدعاء الموافقة من المفطرين للصوام وأمر القوم مبناه على الصدق ومن الصدق افتقاد النية وأحوال النفس فكل ما صحت النية فيه من الصوم والافطار والموافقة وترك الموافقة فهو الافضل فاما من حيث السنة فمن يوافق له وجه اذا كان صائما وأفطر للموافقة وان صام ولم يوافق فله وجه *فاما وجه من يفطر و يوافق فهو ما أخبرنا به أبو زرعة طاهر عن

الله عليه وسلم يقول ان أدنى الرياء شرك وقال صلى الله عليه وسلم أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية
وهى أيضا ترجع الى خطايا الرياء ودقائقه وقال صلى الله عليه وسلم ان فى ظل العرش يوم لا ظل الا ظله رجلا
تصدق بيمينه فكان يخفيها عن شماله ولذلك ورد ان فضل عمل السر على عمل الجهر بسبعين ضعفا وقال صلى الله
عليه وسلم ان المرائى ينادى عليه يوم القيامة يا فاجر يا غادر يا مرائى ضل عملك وحبط أجرك اذهب فخذ أجرك ممن
كنت تعمل له وقال شداد بن أوس رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يبكى فقلت ما يبكيك يا رسول الله قال انى تخوفت
على أمتى الشرك أما انهم لا يعبدون صنما ولا شمسا ولا قمرا ولا حجرا ولكنهم يراؤن بأعمالهم وقال صلى الله عليه
وسلم لما خلق الله الارض مادت بأهلها فخلق الجبال فصيرها أوتادا للارض فقالت الملائكة ما خلق ربنا خلقا هو
أشد من الجبال فخلق الله الحديد فقطع الجبال ثم خلق النار فأذابت الحديد ثم أمر الله الماء باطفاء النار وأمر
الريح فكدرت الماء فاختلفت الملائكة فقالت نسأل الله تعالى قالوا يا رب ما أشد ما خلقت من خلقك قال الله
تعالى لم أخلق خلقا هو أشد على من قلب ابن آدم حين يتصدق بصدقة بيمينه فيخفيها عن شماله فهذا أشد خلق
خلقته وروى عبد الله بن المبارك باسناده عن رجل أنه قال لمعاذ بن جبل حدثنى حديثا سمعته من رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال فبكى معاذ حتى ظننت أنه لا يسكت ثم سكت ثم قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم قال لى يا معاذ
قلت لبيك بأبى أنت وأمى يا رسول الله قال انى محدثك حديثا ان أنت حفظته نفعك وان أنت ضيعته ولم تحفظه
انقطعت حجتك عند الله يوم القيامة يا معاذ ان الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والارض ثم
خلق السموات فجعل لكل سماء من السبعة ملكا بوابا عليها قد جللها عظما فتصعد الحفظة بعمل العبد من
حين أصبح الى حين أمسى له نور كنور الشمس حتى اذا صعدت به الى السماء الدنيا زكته فكثرته فيقول الملك
للحفظة اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا صاحب الغيبة أمرنى ربى أن لا أدع عمل من اغتاب الناس يجاوزنى
الى غيرى قال ثم تأتى الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد فتمر به فتزكيه وتكثره حتى تبلغ به الى السماء الثانية
فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه انه أراد بعمله هذا عرض الدنيا أمرنى ربى
أن لا أدع عمله يجاوزنى الى غيرى انه كان يفتخر به على الناس فى مجالسهم قال وتصعد الحفظة بعمل العبد يبتهج
نورا من صدقة وصيام وصلاة قد أعجب الحفظة فيجاوزون به الى السماء الثالثة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا
واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا ملك الكبر أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى الى غيرى انه كان يتكبر على
الناس فى مجالسهم قال وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهر كما يزهر الكوكب الدرى له دوى من تسبيح وصلاة وحج
وعمرة حتى يجاوزوا به السماء الرابعة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه اضربوا
به ظهره وبطنه أنا صاحب العجب أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى الى غيرى انه كان اذا عمل عملا أدخل العجب
فى عمله قال وتصعد الحفظة بعمل العبد حتى يجاوزوا به السماء الخامسة كأنه العروس المزفوفة الى أهلها فيقول
لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه على عاتقه أنا ملك الحسد انه كان يحسد الناس
من يتعلم ويعمل بمثل عمله وكل من كان يأخذ فضلا من العبادة يحسدهم ويقع فيهم أمرنى ربى أن لا أدع عمله
يجاوزنى الى غيرى قال وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وحج وعمرة وصيام فيجاوزون به الى السماء
السادسة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه انه كان لا يرحم انسانا قط من عباد الله
أصابه بلاء أو ضر أضر به بل كان يشمت به أنا ملك الرحمة أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى الى غيرى قال وتصعد
الحفظة بعمل العبد الى السماء السابعة من صوم وصلاة ونفقة وزكاة واجتهاد وورع له دوى كدوى الرعد وضوء
كضوء الشمس معه ثلاثة آلاف ملك فيجاوزون به الى السماء السابعة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا
بهذا العمل وجه صاحبه واضربوا به جوارحه اقفلوا به على قلبه انى أحجب عن ربى كل عمل لم يرد به وجه ربى انه
أراد بعمله غير الله تعالى انه أراد به رفعة عند الفقهاء وذكرا عند العلماء وصيتا فى المدائن أمرنى ربى أن لا أدع
عمله يجاوزنى الى غيرى وكل عمل لم يكن لله خالصا فهو رياء ولا يقبل الله عمل المرائى قال وتصعد الحفظة بعمل العبد
من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر لله تعالى وتشيعه ملائكة السموات حتى يقطعوا به

أبيه أبى الفضل الحافظ
المقدسى قال أنا أبو
الفضل محمد بن عبد الله
قال أنا السيد أبو الحسن
محمد بن الحسين العلوى
قال أنا أبو بكر محمد بن
حمدويه قال ثنا عبد
الله بن حماد قال ثنا عبد
الله بن صالح قال حدثنى
عطاء بن خالد عن حماد
ابن حميد عن محمد بن
المنكدر عن أبى سعيد
الخدرى قال اصطنعت
لرسول الله صلى الله
عليه وسلم وأصحابه
طعاما فلما قدم اليهم
قال رجل من القوم
انى صائم فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم
دعاكم أخوكم وتكلف
لكم ثم تقول انى صائم
افطر واقض يوما مكانه
* وأما وجه من لا يوافق
فقد ورد أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم
وأصحابه أكلوا وبلال
صائم فقال رسول الله
نأكل رزقنا ورزق بلال
فى الجنة فاذا علم أن
هنالك قلبا يتأذى أو

الحجب كلها الى الله عز وجل فيقفون بين يديه ويشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله قال فيقول الله لهم أنتم الحفظة على عمل عبدى وأنا الرقيب على نفسه انه لم يردنى بهذا العمل وأراد به غيرى فعليه لعنتى فتقول الملائكة كلهم عليه لعنتك ولعنتنا وتقول السموات كلها عليه لعنة الله ولعنتنا وتلعنه السموات السبع والارض ومن فيهن قال معاذ قلت يارسول الله أنت رسول الله وأنا معاذ قال اقتد بى وان كان فى عملك نقص يامعاذ حافظ على لسانك من الوقيعة فى اخوانك من حملة القرآن واحمل ذنوبك عليك ولا تحملها عليهم ولا تزك نفسك بذمهم ولا ترفع نفسك عليهم ولا تدخل عمل الدنيا فى عمل الآخرة ولا تتكبر فى مجلسك لكى يحذر الناس من سوء خلقك ولا تناج رجلا وعندك آخر ولا تتعظم على الناس فينقطع عنك خير الدنيا ولا تمزق الناس فتمزقك كلاب النار يوم القيامة فى النار قال تعالى والناشطات نشطا أتدرى من هن يامعاذ قلت ماهن بابى أنت وأمى يارسول الله قال كلاب فى النار تنشط اللحم والعظم قلت بابى أنت وأمى يارسول الله فن يطيق هذه الخصال ومن ينجو منها قال يامعاذ انه ليسير على من يسره الله عليه قال فما رأيت أكثر تلاوة للقرآن من معاذ للحذر مما فى هذا الحديث (وأما الآثار) فيروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى رجلا يطأطئ رقبته فقال ياصاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع فى الرقاب انما الخشوع فى القلوب ورأى أبو امامة الباهلى رجلا فى المسجد يبكى فى سجوده فقال أنت أنت لو كان هذا فى بيتك وقال على كرم الله وجهه للمرائى ثلاث علامات يكسل اذا كان وحده وينشط اذا كان فى الناس ويزيد فى العمل اذا أثنى عليه وينقص اذا ذم وقال رجل لعبادة بن الصامت أقاتل بسيفى فى سبيل الله أريد به وجه الله تعالى ومحمدة الناس قال لاشئ لك فسأله ثلاث مرات كل ذلك يقول لاشئ لك ثم قال فى الثالثة ان الله يقول أنا أغنى الاغنياء عن الشرك الحديث وسأل رجل سعيد بن المسيب فقال ان أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يحمد ويؤجر فقال له أتحب أن تمقت قال لا قال فاذا عملت لله عملا فاخلصه وقال الضحاك لا يقولن أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك ولا يقولن هذا لله وللرحم فان الله تعالى لا شريك له وضرب عمر رجلا بالدرة ثم قال له اقتص منى فقال لا بل أدعها لله ولك فقال له عمر ما صنعت شيأ اما أن تدعها لى فاعرف ذلك أو تدعها لله وحده فقال ودعتها لله وحده فقال فنعم اذن وقال الحسن لقد صحبت أقواما ان كان أحدهم لتعرض له الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه وما يمنعه منها الا مخافة الشهرة وان كان أحدهم ليمر فيرى الاذى فى الطريق فما يمنعه ان ينحيه الا مخافة الشهرة ويقال ان المرائى ينادى يوم القيامة باربعة أسماء يامرائى ياغادر ياخاسر يافاجر اذهب فخذ أجرك ممن عملت له فلا أجر لك عندنا وقال الفضيل بن عياض كانوا يراؤن بما يعملون وصاروا اليوم يراؤن بما لا يعملون وقال عكرمة ان الله يعطى العبد على نيته مالا يعطيه على عمله لان النية لا رياء فيها وقال الحسن رضى الله عنه المرائى يريد أن يغلب قدر الله تعالى وهو رجل سوء يريد أن يقول الناس هو رجل صالح وكيف يقولون وقد حل من ربه محل الاردياء فلا بد لقلوب المؤمنين أن تعرفه وقال قتادة اذا راءى العبد يقول الله تعالى انظروا الى عبدى يستهزئ بى وقال مالك بن دينار القراء ثلاثة قراء الرحمن وقراء الدنيا وقراء الملوك وان محمد بن واسع من قراء الرحمن وقال الفضيل من أراد أن ينظر الى مراء فلينظر الى وقال محمد بن المبارك الصورى أظهر السمت بالليل فانه أشرف من سمتك بالنهار لان السمت بالنهار للمخلوقين وسمت الليل لرب العالمين وقال أبو سليمان التوقى عن العمل أشد من العمل وقال ابن المبارك ان كان الرجل ليطوف بالبيت وهو بخراسان فقيل له وكيف ذاك قال يحب أن يذكر أنه مجاور بمكة وقال ابراهيم بن أدهم ما صدق الله من أراد أن يشتهر

(بيان حقيقة الرياء وما يراءى به)

اعلم ان الرياء مشتق من الرؤية والسمعة مشتقة من السماع وانما الرياء أصله طلب المنزلة فى قلوب الناس بارائهم خصال الخير الا أن الجاه والمنزلة تطلب فى القلب باعمال سوى العبادات وتطلب بالعبادات واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة فى القلوب بالعبادات واظهارها فحد الرياء هو ارادة العباد بطاعة الله فالمرائى هو العابد والمراءى هو الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة فى قلوبهم والمراءى به هو الخصال التى قصد المرائى اظهارها والرياء هو قصده اظهار ذلك والمراءى به كثير وتجمعه خمسة أقسام وهى مجامع ما يتزين به العبد للناس وهو البدن والزى والقول والعمل والاتباع والاشياء الخارجة وكذلك أهل الدنيا يراؤن بهذه الاسباب الخمسة الا

فضلا يرجى من موافقة من يغتنم موافقته يفطر بحسن النية لا بحكم الطبع وتقاضيه فان لم يجد هذا المعنى لا ينبغى أن يتلبس عليه الشره وداعية النفس بالنية فليتم صومه وقد تكون الاجابة لداعية النفس لا لقضاء حق أخيه * ومن أحسن آداب الفقير الطالب انه اذا أفطر وتناول الطعام ربما يجد باطنه متغيرا عن هيئته ونفسه متبسطة عن أداء وظائف العبادة فيعالج مزاج القلب المتغير باذهاب التغير عنه ويذيب الطعام بركعات يصليها أو بآيات يتلوها أو باذكار واستغفار يأتى به فقد ورد فى الخبر أذيبوا طعامكم بالذكر * ومن مهام آداب الصوم كتمانه مهما أمكن الا أن يكون متمكنا من الاخلاص فلا يبالى ظهر أم بطن

أن طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات أهون من الرياء بالطاعات *(القسم الاول الرياء فى الدين بالبدن)* وذلك باظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الآخرة وليدل بالنحول على قلة الاكل وبالصفار على سهر الليل وكثرة الاجتهاد وعظم الحزن على الدين وكذلك يرائى بتشعيث الشعر ليدل به على استغراق الهم بالدين وعدم التفرغ لتسريح الشعر وهذه الاسباب مهما ظهرت استدل الناس بها على هذه الامور فارتاحت النفس لمعرفتهم فلذلك تدعوه النفس الى اظهارها لنيل تلك الراحة ويقرب من هذا خفض الصوت واغارة العينين وذبول الشفتين ليستدل بذلك على انه مواظب على الصوم وان وقار الشرع هو الذى خفض من صوته أو ضعف الجوع هو الذى ضعف من قوته وعن هذا قال المسيح عليه السلام اذا صام أحدكم فليدهن رأسه ويرجل شعره ويكحل عينيه وكذلك روى عن أبي هريرة وذلك كله لما يخاف عليه من نزغ الشيطان بالرياء ولذلك قال ابن مسعود أصبحوا صياما مدهنين فهذه مراآة أهل الدين بالبدن فاما أهل الدنيا فيراؤن باظهار السمن وصفاء اللون واعتدال القامة وحسن الوجه ونظافة البدن وقوة الاعضاء وتناسبها *(الثانى الرياء بالهيئة والزى)* أما الهيئة فبتشعيث شعر الرأس وحلق الشارب واطراق الرأس فى المشى والهدء فى الحركة وابقاء أثر السجود على الوجه وغلظ الثياب ولبس الصوف وتشميرها الى قريب من الساق وتقصير الاكمام وترك تنظيف الثوب وتركه مخرقا كل ذلك يرائى به ليظهر من نفسه أنه متبع للسنة فيه ومقتد فيه بعباد الله الصالحين ومن ذلك لبس المرقعة والصلاة على السجادة ولبس الثياب الزرق تشبها بالصوفية مع الافلاس من حقائق التصوف فى الباطن ومنه التقنع بالازار فوق العمامة واسبال الرداء على العينين ليرى به انه قد انتهى تقشفه الى الحذر من غبار الطريق ولتنصرف اليه الاعين بسبب تميزه بتلك العلامة ومنه الدراعة والطيلسان يلبسه من هو خال عن العلم ليوهم انه من أهل العلم والمراؤن بالزى على طبقات فمنهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح باظهار الزهد فيلبس الثياب المخرقة الوسخة القصيرة الغليظة ليرائى بغلظها ووسخها وقصرها وتخرقها انه غير مكترث بالدنيا ولو كلف ان يلبس ثوبا وسطا نظيفا مما كان السلف يلبسه لكان عنده بمنزلة الذبح وذلك لخوفه أن يقول الناس قد بدا له من الزهد ورجع عن تلك الطريقة ورغب فى الدنيا وطبقة أخرى يطلبون القبول عند أهل الصلاح وعند أهل الدنيا من الملوك والوزراء والتجار ولو لبسوا الثياب الفاخرة ردهم القراء ولو لبسوا الثياب المخرقة البذلة ازدرتهم أعين الملوك والاغنياء فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا فلذلك يطلبون الاصواف الدقيقة والاكسية الرقيقة والمرقعات المصبوغة والفوط الرفيعة فيلبسونها ولعل قيمة ثوب أحدهم قيمة ثوب أحد الاغنياء ولونه وهيئته لون ثياب الصلحاء فيلتمسون القبول عند الفريقين وهؤلاء ان كلفوا لبس ثوب خشن أو وسخ لكان عندهم كالذبح خوفا من السقوط من أعين الملوك والاغنياء ولو كلفوا لبس الديبقى والكتان الدقيق الابيض والمقصب المعلم وان كانت قيمته دون قيمة ثيابهم لعظم ذلك عليهم خوفا من ان يقول أهل الصلاح قد رغبوا فى زى أهل الدنيا وكل طبقة منهم رأى منزلته فى زى مخصوص فيثقل عليه الانتقال الى ما دونه أو الى ما فوقه وان كان مباحا خيفة من المذمة وأما أهل الدنيا فمراآتهم بالثياب النفيسة والمراكب الرفيعة وأنواع التوسع والتجمل فى الملبس والمسكن وأثاث البيت وفره الخيول وبالثياب المصبغة والطيالسة النفيسة وذلك ظاهر بين الناس فانهم يلبسون فى بيوتهم الثياب الخشنة ويشتد عليهم لو برزوا للناس على تلك الهيئة ما لم يبالغوا فى الزينة *(الثالث الرياء بالقول)* ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الاخبار والآثار لاجل الاستعمال فى المحاورة واظهارا لغزارة العلم ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالحين وتحريك الشفتين بالذكر فى محضر الناس والامر بالمعروف والنهى عن المنكر بمشهد الخلق واظهار الغضب للمنكرات واظهار الاسف على مقارفة الناس للمعاصى وتضعيف الصوت فى الكلام وترقيق الصوت بقراءة القرآن ليدل بذلك على الخوف والحزن وادعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ والدق على من يروى الحديث ببيان خلل فى لفظه ليعرف انه بصير بالاحاديث والمبادرة الى أن الحديث صحيح أو غير صحيح لاظهار الفضل فيه والمجادلة على قصد افحام الخصم ليظهر للناس قوته فى علم الدين والرياء بالقول

كثير

(الباب الثانى والاربعون فى ذكر الطعام وما فيه من المصلحة والمفسدة) الصوفى بحسن نيته وصحة مقصده ووفور علمه واتيانه بآدابه تصير عاداته عبادة والصوفى موهوب وقته لله ويريد حياته لله كما قال الله تعالى لنبيه آمرا له قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين فتدخل على الصوفى أمور العادة لوضع حاجته وضرورة بشريته ويحف بعاداته نور يقظته وحسن نيته فتتنور العادات وتتشكل بالعبادات ولهذا ورد نوم العالم عبادة ونفسه تسبيح هذا مع كون النوم عين الغفلة ولكن كل ما يستعان به على العبادة يكون عبادة فتناول الطعام أصل كبير يحتاج الى علوم كثيرة لاشتماله على المصالح الدينية والدنيوية وتعلق أثره بالقلب والقالب وبه قوام البدن باجراء سنة

كثير وأنواعه لا تنحصر وأما أهل الدنيا فمرا آتهم بالقول بحفظ الاشعار والامثال والتفاصح في العبارات وحفظ النحو الغريب للاغراب على أهل الفضل واظهار التودد الى الناس لاستمالة القلوب *(الرابع الرياء بالعمل) كمراآة المصلي بطول القيام ومد الظهر وطول السجود والركوع واطراق الرأس وترك الالتفات واظهار الهدء والسكون وتسوية القدمين واليدين وكذلك بالصوم والغزو والحج وبالصدقة وباطعام الطعام وبالاخبات في المشي عند اللقاء كارخاء الجفون وتنكيس الرأس والوقار في الكلام حتى ان المرائي قد يسرع في المشي الى حاجته فاذا طلع عليه أحد من أهل الدين رجع الى الوقار واطراق الرأس خوفا من أن ينسبه الى العجلة وقلة الوقار فان غاب الرجل عاد الى عجلته فاذا رآه عاد الى خشوعه ولم يحضره ذكر الله حتى يكون يجدد الخشوع له بل هو لاطلاع انسان عليه يخشى أن لا يعتقد فيه انه من العباد والصلحاء ومنهم من اذا سمع هذا استحيا من أن تخالف مشيته في الخلوة مشيته بمرأى الناس فيكلف نفسه المشية الحسنة في الخلوة حتى اذا رآه الناس لم يفتقر الى التغيير ويظن أنه يتخلص به عن الرياء وقد تضاعف به رياؤه فانه صار في خلوته أيضا مرائيا فانه انما يحسن مشيته في الخلوة ليكون كذلك في الملأ لا لخوف من الله وحياء منه وأما أهل الدنيا فمرا آتهم بالتبختر والاختيال وتحريك اليدين وتقريب الخطا والاخذ باطراف الذيل وادارة العطفين ليدلوا بذلك على الجاه والحشمة *(الخامس المراآة بالاصحاب والزائرين والمخالطين)* كالذي يتكلف أن يستزير عالما من العلماء ليقال ان فلانا قد زار فلانا أو عابدا من العباد ليقال ان أهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون اليه أو ملكا من الملوك أو عاملا من عمال السلطان ليقال انهم يتبركون به لعظم رتبته في الدين وكالذي يكثر ذكر الشيوخ ليرى انه لقي شيوخا كثيرة واستفاد منهم فيباهي بشيوخه ومباهاته ومراآته تترشح منه عند مخاصمته فيقول لغيره ومن لقيت من الشيوخ وأنا قد لقيت فلانا وفلانا ودرت البلاد وخدمت الشيوخ وما يجري مجراه فهذه مجامع ما يرائي به المراؤن وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد ومنهم من يقنع بحسن الاعتقادات فيه فكم من راهب انزوى الى ديره سنين كثيرة وكم من عابد اعتزل الى قلة جبل مدة مديدة وانما خبأته من حيث علمه بقيام جاهه في قلوب الخلق ولو عرف انهم نسبوه الى جريمة في ديره أو صومعته لتشوش قلبه ولم يقنع بعلم الله ببراءة ساحته بل يشتد لذلك غمه ويسعى بكل حيلة في ازالة ذلك من قلوبهم مع انه قد قطع طمعه من أموالهم ولكنه يحب مجرد الجاه فانه لذيذ كما ذكرناه في أسبابه فانه نوع قدرة وكمال في الحال وان كان سريع الزوال لا يغتر به الا الجهال ولكن أكثر الناس جهال ومن المرائين من لا يقنع بقيام منزلته بل يلتمس مع ذلك اطلاق اللسان بالثناء والحمد ومنهم من يريد انتشار الصيت في البلاد لتكثر الرحلة اليه ومنهم من يريد الاشتهار عند الملوك لتقبل شفاعته وتنجز الحوائج على يده فيقوم له بذلك جاه عند العامة ومنهم من يقصد التوصل بذلك الى جمع حطام وكسب مال ولو من الاوقاف وأموال اليتامى وغير ذلك من الحرام وهؤلاء شر طبقات المرائين الذين يراؤن بالاسباب التي ذكرناها فهذه حقيقة الرياء وما به يقع الرياء فان قلت فالرياء حرام أو مكروه أو مباح أو فيه تفصيل فاقول فيه تفصيل فان الرياء هو طلب الجاه وهو اما ان يكون بالعبادات أو بغير العبادات فان كان بغير العبادات فهو كطلب المال فلا يحرم من حيث انه طلب منزلة في قلوب العباد ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب محظورات فكذلك الجاه وكما أن كسب قليل من المال وهو ما يحتاج اليه الانسان محمود فكسب قليل من الجاه وهو ما يسلم به عن الآفات أيضا محمود وهو الذي طلبه يوسف عليه السلام حيث قال اني حفيظ عليم وكما أن المال فيه سم ناقع ودرياق نافع فكذلك الجاه وكما أن كثير المال يلهي ويطغي وينسي ذكر الله والدار الآخرة فكذلك كثير الجاه بل أشد وفتنة الجاه أعظم من فتنة المال وكما انا لا نقول تملك المال الكثير حرام فلا نقول أيضا تملك القلوب الكثيرة حرام الا اذا حملته كثرة المال وكثرة الجاه على مباشرة ما لا يجوز نعم انصراف الهم الى سعة الجاه مبدأ الشرور كانصراف الهم الى كثرة المال ولا يقدر محب الجاه والمال على ترك معاصي القلب واللسان وغيرها وأما سعة الجاه من غير حرص منك على طلبه ومن غير اغتمام بزواله ان زال فلا ضرر فيه فلا جاه أوسع من جاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاه الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من علماء الدين ولكن انصراف الهم الى طلب الجاه نقصان في الدين ولا يوصف بالتحريم

الله تعالى بذلك والقالب مركب القلب وبهما عمارة الدنيا والآخرة (وقد ورد) أرض الجنة قيعان نباتها التسبيح والتقديس والقالب بمفرده على طبيعة الحيوانات يستعان به على عمارة الدنيا والروح والقلب على طبيعة الملائكة يستعان بهما على عمارة الآخرة وباجتماعهما صلحا لعمارة الدارين والله تعالى ركب الآدمي بلطيف حكمته من أخص جواهر الجسمانيات والروحانيات وجعله مستودع خلاصة الارضين السموات وجعل عالم الشهادة وما فيهما من النبات والحيوان لقوام بدن الآدمي قال الله تعالى خلق لكم ما في الارض جميعا فكون الطبائع وهي الحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة وكون بواسطتها النبات وجعل النبات قواما للحيوانات

فعلى هذا نقول تحسين الثوب الذي يلبسه الانسان عند الخروج الى الناس مرا آة وهو ليس بحرام لانه ليس رياء بالعبادة بل بالدنيا وقس على هذا كل تجمل للناس وتزين لهم والدليل عليه ماروى عن عائشة رضى الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يخرج يوما الى الصحابة فكان ينظر فى حب الماء ويسوى عمامته وشعره فقالت أو تفعل ذلك يارسول الله قال نعم ان الله تعالى يحب من العبد أن يتزين لاخوانه اذا خرج اليهم نعم هذا كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عبادة لانه كان مأمورا بدعوة الخلق وترغيبهم فى الاتباع واستمالة قلوبهم ولو سقط من أعينهم لم يرغبوا فى اتباعه فكان يجب عليه أن يظهر لهم محاسن أحواله لئلا تزدريه أعينهم فان أعين عوام الخلق تمتد الى الظواهر دون السرائر فكان ذلك قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن لو قصد قاصد به أن يحسن نفسه فى أعينهم حذرا من ذمهم ولومهم واسترواحا الى توقيرهم واحترامهم كان قد قصد أمرا مباحا اذ للانسان أن يحترز من ألم المذمة ويطلب راحة الانس بالاخوان ومهما استثقلوه واستقذروه لم يأنس بهم فاذا المراآة بما ليس من العبادات قد تكون مباحة وقد تكون طاعة وقد تكون مذمومة وذلك بحسب الغرض المطلوب بها ولذلك نقول الرجل اذا أنفق ماله على جماعة من الاغنياء لافى معرض العبادة والصدقة ولكن ليعتقد الناس أنه سخى فهذا مراآة وليس بحرام وكذلك أمثاله أما العبادات كالصدقة والصلاة والصيام والغزو والحج فللمرائى فيه حالتان احداهما أن لا يكون له قصد الا الرياء المحض دون الاجر وهذا يبطل عبادته لان الاعمال بالنيات وهذا ليس يقصد العبادة ثم لا يقتصر على احباط عبادته حتى نقول صار كما كان قبل العبادة بل يعصى بذلك ويأثم كما دلت عليه الاخبار والآيات والمعنى فيه أمران أحدهما يتعلق بالعباد وهو التلبيس والمكر لانه خيل اليهم انه مخلص مطيع لله وانه من أهل الدين وليس كذلك والتلبيس فى أمر الدنيا حرام أيضا حتى لو قضى دين جماعة وخيل للناس انه متبرع عليهم ليعتقدوا سخاوته أثم به لما فيه من التلبيس وتملك القلوب بالخداع والمكر * والثانى يتعلق بالله وهو انه مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله فهو مستهزئ بالله ولذلك قال قتادة اذا راءى العبد قال الله للائكته انظروا اليه كيف يستهزئ بى ومثاله أن يتمثل بين يدى ملك من الملوك طول النهار كما جرت عادة الخدم وانما وقوفه لملاحظة جارية من جوارى الملك أو غلام من غلمانه فان هذا استهزاء بالملك اذ لم يقصد التقرب الى الملك بخدمته بل قصد بذلك عبدا من عبيده فأى استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراآة عبد ضعيف لا يملك له ضرا ولا نفعا وهل ذلك الا لانه يظن ان ذلك العبد أقدر على تحصيل اغراضه من الله وانه أولى بالتقرب اليه من الله اذ آثره على ملك الملوك فجعله مقصود عبادته وأى استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى فهذا من كبائر المهلكات ولهذا سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك الاصغر نعم بعض درجات الرياء أشد من بعض كما سيأتى بيانه فى درجات الرياء ان شاء الله تعالى ولا يخلو شئ منه عن اثم غليظ أو خفيف بحسب ما به المراآة ولو لم يكن فى الرياء الا أنه يسجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية فانه وان لم يقصد التقرب الى الله فقد قصد غير الله ولعمرى لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفرا جليا الا أن الرياء هو الكفر الخفى لان المرائى عظم فى قلبه الناس فاقتضت تلك العظمة أن يسجد ويركع فكان الناس هم المعظمون بالسجود من وجه ومهما زال قصد تعظيم الله بالسجود وبقى تعظيم الخلق كان ذلك قريبا من الشرك الا انه ان قصد تعظيم نفسه فى قلب من عظم عنده باظهاره من نفسه صورة التعظيم لله فعن هذا كان شركا خفيا لا شركا جليا وذلك غاية الجهل ولا يقدم عليه الا من خدعه الشيطان وأوهم عنده أن العباد يملكون من ضره ونفعه ورزقه وأجله ومصالح حاله ومآله أكثر مما يملكه الله تعالى فلذلك عدل بوجهه عن الله اليهم وأقبل بقلبه عليهم ليستميل بذلك قلوبهم ولو وكله الله تعالى اليهم فى الدنيا والآخرة لكان ذلك أقل مكافأة له على صنيعه فان العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا فكيف يملكون لغيرهم هذا فى الدنيا فكيف فى يوم لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيأ بل تقول الانبياء فيه نفسى نفسى فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ونيل القرب عند الله ما يرتقبه بطمعه الكاذب فى الدنيا من الناس فلا ينبغى أن نشك فى أن المرائى بطاعة الله فى سخط الله من حيث النقل والقياس جميعا هذا اذا لم يقصد الاجر فأما اذا قصد الاجر والحمد جميعا فى صدقته أو صلاته فهو

وجعل الحيوانات مسخرة للآدمى يستعين بها على أمر معاشه لقوام بدنه فالطعام يصل الى المعدة وفى المعدة طباع أربع وفى الطعام طباع أربع فاذا أراد الله اعتدال مزاج البدن أخذ كل طبع من طباع المعدة ضده من الطعام فتأخذ الحرارة البرودة والرطوبة اليبوسة فيعتدل المزاج ويأمن الاعوجاج واذا أراد الله تعالى افناء قالب وتخريب بنيته أخذت كل طبيعة جنسها من المأكول فتميل الطبائع ويضطرب المزاج ويسقم البدن ذلك تقدير العزيز العليم (روى) عن وهب بن منبه قال وجدت فى التوراة صفة آدم عليه السلام انى خلقت آدم وركبت جسده من أربعة أشياء من رطب ويابس وبارد وسخن وذلك لانى خلقته من التراب وهو يابس ورطوبته من الماء

الشرك الذي يناقض الاخلاص وقد ذكرنا حكمه في كتاب الاخلاص ويدل على مانقلناه من الآثار قول سعيد ابن المسيب وعبادة بن الصامت انه لا أجر له فيه أصلا

(بيان درجات الرياء)

اعلم أن بعض أبواب الرياء أشد وأغلظ من بعض واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدرجات فيه وأركانه ثلاثة المراءى به والمراءى لاجله ونفس قصد الرياء *(الركن الاول)* نفس قصد الرياء وذلك لا يخلو إما أن يكون مجردا دون ارادة عبادة الله تعالى والثواب وإما أن يكون مع ارادة الثواب فان كان كذلك فلا يخلو إما أن تكون ارادة الثواب أقوى وأغلب أو أضعف أو مساوية لارادة العبادة فتكون الدرجات أربعا *الاولى وهي أغلظها أن لا يكون مراده الثواب أصلا كالذي يصلي بين أظهر الناس ولو انفرد لكان لا يصلي بل ربما يصلي من غير طهارة مع الناس فهذا جرد قصده الى الرياء فهو الممقوت عند الله تعالى وكذلك من يخرج الصدقة خوفا من مذمة الناس وهو لا يقصد الثواب ولو خلا بنفسه لما أداها فهذه الدرجة العليا من الرياء *الثانية أن يكون له قصد الثواب أيضا ولكن قصدا ضعيفا بحيث لو كان في الخلوة لكان لا يفعله ولا يحمله ذلك القصد على العمل ولو لم يكن قصد الثواب لكان الرياء يحمله على العمل فهذا قريب مما قبله وما فيه من شائبة قصد ثواب لا يستقل بحمله على العمل لا ينفي عنه المقت والاثم *الثالثة أن يكون له قصد الثواب وقصد الرياء متساويين بحيث لو كان كل واحد منهما خاليا عن الآخر لم يبعثه على العمل فلما اجتمعا انبعثت الرغبة أو كان كل واحد منهما لو انفرد لاستقل بحمله على العمل فهذا قد أفسد مثل ما أصلح فنرجو أن يسلم رأسا برأس لا له ولا عليه أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب وظواهر الاخبار تدل على انه لا يسلم وقد تكلمنا عليه في كتاب الاخلاص *الرابعة أن يكون اطلاع الناس مرجحا ومقويا لنشاطه ولو لم يكن لكان لا يترك العبادة ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم عليه فالذي نظنه والعلم عند الله أنه لا يحبط أصل الثواب ولكنه ينقص منه أو يعاقب على مقدار قصد الرياء ويثاب على مقدار قصد الثواب وأما قوله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى أنا أغنى الاغنياء عن الشرك فهو محمول على ما اذا تساوى القصدان أو كان قصد الرياء أرجح *(الركن الثاني)* المراءى به وهو الطاعات وذلك ينقسم الى الرياء بأصول العبادات والى الرياء بأوصافها *القسم الاول وهو الاغلظ الرياء بالاصول وهو على ثلاث درجات *الاولى الرياء بأصل الايمان وهذا أغلظ أبواب الرياء وصاحبه مخلد في النار وهو الذي يظهر كلمتي الشهادة وباطنه مشحون بالتكذيب ولكنه يرائي بظاهر الاسلام وهو الذي ذكره الله تعالى في كتابه في مواضع شتى كقوله عز وجل اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون أي في دلالتهم بقولهم على ضمائرهم وقال تعالى ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها الآية وقال تعالى واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ وقال تعالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله الا قليلا مذبذبين بين ذلك والآيات فيهم كثيرة وكان النفاق يكثر في ابتداء الاسلام ممن يدخل في ظاهر الاسلام ابتداء لغرض وذلك مما يقل في زماننا ولكن يكثر نفاق من ينسل عن الدين باطنا فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة ميلا الى قول الملحدة أو يعتقد طي بساط الشرع والاحكام ميلا الى أهل الاباحة أو يعتقد كفرا أو بدعة وهو يظهر خلافه فهؤلاء من المنافقين المرائين المخلدين في النار وليس وراء هذا الرياء رياء وحال هؤلاء أشد حالا من الكفار المجاهرين لانهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر *الثانية الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين وهذا أيضا عظيم عند الله ولكنه دون الاول بكثير ومثاله أن يكون مال الرجل في يد غيره فيأمره باخراج الزكاة خوفا من ذمه والله يعلم منه انه لو كان في يده لما أخرجها أو يدخل وقت الصلاة وهو في جمع وعادته ترك الصلاة في الخلوة وكذلك يصوم رمضان وهو يشتهي خلوة من الخلق ليفطر وكذلك يحضر الجمعة ولولا خوف المذمة لكان لا يحضرها أو يصل رحمه أو يبر والديه لا عن رغبة ولكن خوفا من الناس أو يغزو أو يحج كذلك فهذا مراء معه أصل الايمان بالله يعتقد انه لا معبود سواه ولو كلف ان يعبد غير الله أو يسجد لغيره لم يفعل ولكنه يترك العبادات للكسل وينشط عند اطلاع الناس فتكون منزلته عند الخلق أحب اليه من منزلته عند الخالق وخوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله

وحرارته من قبل النفس وبرودته من قبل الروح وخلقت في الجسد بعد هذا الخلق الاول أربعة أنواع من الخلق هن ملاك الجسم باذني وبهن قوامه فلا يقوم الجسم الا بهن ولا تقوم منهن واحدة الا بالاخرى منهن المرة السوداء والمرة الصفراء والدم والبلغم ثم أسكنت بعض هذا الخلق في بعض فجعلت مسكن اليبوسة في المرة السوداء ومسكن الرطوبة في المرة الصفراء ومسكن الحرارة في الدم ومسكن البرودة في البلغم فأيما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الاربع التي جعلتها ملاكه وقوامه فكانت كل واحدة منهن ربعا لا تزيد ولا ينقص كملت صحته واعتدلت بنيته فان زادت منهن واحدة عليهن هزمتهن ومالت بهن ودخل عليه السقم من ناحيتها بقدر غلبتها حتى يضعف عن طاقتهن

ورغبته في محمدتهم أشد من رغبته في ثواب الله وهذا غاية الجهل وما أجدر صاحبه بالمقت وان كان غير منسل عن
أصل الايمان من حيث الاعتقاد * الثالثة أن لا يرائي بالايمان ولا بالفرائض ولكنه يرائي بالنوافل والسنن التي
لو تركها لا يعصي ولكنه يكسل عنها في الخلوة لفتور رغبته في ثوابها ولايثار لذة الكسل على ما يرجى من الثواب
ثم يبعثه الرياء على فعلها وذلك كحضور الجماعة في الصلاة وعيادة المريض واتباع الجنازة وغسل الميت وكالتهجد
بالليل وصيام يوم عرفة وعاشوراء ويوم الاثنين والخميس فقد يفعل المرائي جملة ذلك خوفا من المذمة وطلبا
للمحمدة ويعلم الله تعالى منه انه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض فهذا أيضا عظيم ولكنه دون ما قبله فان
الذي قبله آثر حمد الخلق على حمد الخالق وهذا أيضا قد فعل ذلك واتقى ذم الخلق دون ذم الخالق فكان ذم الخلق
أعظم عنده من عقاب الله وأما هذا فلم يفعل ذلك لانه لم يخف عقابا على ترك النافلة لو تركها وكأنه على الشطر
من الاول وعقابه نصف عقابه فهذا هو الرياء بأصول العبادات * القسم الثاني الرياء بأوصاف العبادات
لا بأصولها وهو أيضا على ثلاث درجات * الاولى أن يرائي بفعل ما في تركه نقصان العبادة كالذي غرضه أن
يخفف الركوع والسجود ولا يطول القراءة فاذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وترك الالتفات وتمم
القعود بين السجدتين وقد قال ابن مسعود من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بها ربه عز وجل أي انه ليس يبالي
باطلاع الله عليه في الخلوة فاذا اطلع عليه آدمي أحسن الصلاة ومن جلس بين يدي انسان متربعا أو متكئا فدخل
غلامه فاستوى وأحسن الجلسة كان ذلك منه تقديما للغلام على السيد واستهانة بالسيد لامحالة وهذا حال
المرائي بتحسين الصلاة في الملا دون الخلوة وكذلك الذي يعتاد اخراج الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحب
الردىء فاذا اطلع عليه غيره اخرجها من الجيد خوفا من مذمته وكذلك الصائم يصون صومه عن الغيبة والرفث
لاجل الخلق لا كمالا لعبادة الصوم خوفا من المذمة فهذا أيضا من الرياء المحظور لان فيه تقديما للمخلوقين على
الخالق ولكنه دون الرياء بأصول التطوعات فان قال المرائي انما فعلت ذلك صيانة لالسنتهم عن الغيبة فانهم اذا
رأوا تخفيف الركوع والسجود وكثرة الالتفات أطلقوا اللسان بالذم والغيبة وانما قصدت صيانتهم عن هذه
المعصية فيقال له هذه مكيدة للشيطان عندك وتلبيس وليس الامر كذلك فان ضررك من نقصان صلاتك وهي
خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك بغيبة غيرك فلو كان باعثك الدين لكان شفقتك على نفسك أكثر وما أنت
في هذا الا كمن يهدي وصيفة الى ملك لينال منه فضلا وولاية يتقلدها فيهديها اليه وهي عوراء قبيحة مقطوعة
الاطراف ولا يبالي به اذا كان الملك وحده واذا كان عنده بعض غلمانه امتنع خوفا من مذمة غلمانه وذلك محال
بل من يراعي جانب غلام الملك ينبغي أن تكون مراقبته للملك أكثر نعم للمرائي فيه حالتان احداهما أن يطلب
بذلك المنزلة والمحمدة عند الناس وذلك حرام قطعا والثانية أن يقول ليس يحضرني الاخلاص في تحسين الركوع
والسجود ولو خففت كانت صلاتي عند الله ناقصة وآذاني الناس بذمهم وغيبتهم فاستفيد بتحسين الهيئة دفع
مذمتهم ولا أرجو عليه ثوابا فهو خير من ان أترك تحسين الصلاة فيفوت الثواب وتحصل المذمة فهذا فيه أدنى
نظر والصحيح ان الواجب عليه أن يحسن ويخلص فان لم تحضره النية فينبغي أن يستمر على عادته في الخلوة فليس له
أن يدفع الذم بالمراآة بطاعة الله فان ذلك استهزاء كما سبق * الدرجة الثانية أن يرائي بفعل ما لا نقصان في تركه
ولكن فعله في حكم التكملة والتتمة لعبادته كالتطويل في الركوع والسجود ومد القيام وتحسين الهيئة ورفع
اليدين والمبادرة الى التكبيرة الاولى وتحسين الاعتدال والزيادة في القراءة على السورة المعتادة وكذلك كثرة
الخلوة في صوم رمضان وطول الصمت وكاختيار الاجود على الجيد في الزكاة واعتاق الرقبة الغالية في الكفارة
وكل ذلك مما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه * الثالثة أن يرائي بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضا كحضوره
الجماعة قبل القوم وقصده للصف الاول وتوجهه الى يمين الامام وما يجري مجراه وكل ذلك مما يعلم الله منه أنه لو خلا
بنفسه لكان لا يبالي أين وقف ومتى يحرم بالصلاة فهذه درجات الرياء بالاضافة الى ما يرائي به وبعضه أشد من بعض
والكل مذموم * (الركن الثالث) * المراءى لاجله فان للمرائي مقصودا لامحالة وانما يرائي لادراك مال أو جاه أو
غرض من الاغراض لا محالة وله أيضا ثلاث درجات * الاولى وهي أشدها وأعظمها أن يكون مقصوده التمكن من

ويعجز عن مقدارهن فأهم الامور في الطعام أن يكون حلالا وكل ما لا يذمه الشرع حلال رخصة ورحمة من الله لعباده ولولا رخصة الشرع لكبر الامر وأتعب طلب الحلال * ومن أدب الصوفية رؤية المنعم على النعمة وأن يبتدئ بغسل اليد قبل الطعام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر وانما كان موجبا لنفي الفقر لان غسل اليد قبل الطعام استقبال النعمة بالادب وذلك من شكر النعمة والشكر يستوجب المزيد فصار غسل اليد مستجلبا للنعمة مذهبا للفقر وقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من أحب أن يكثر خير بيته فليتوضأ اذا حضر غداؤه ثم يسمي الله تعالى فقوله تعالى ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه

معصية كالذي يرائي بعباداته ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل والامتناع عن أكل الشبهات وغرضه أن يعرف بالامانة فيولى القضاء أو الاوقاف أو الوصايا أو مال الايتام فيأخذها أو يسلم اليه تفرقة الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها أو يودع الودائع فيأخذها ويجحدها أو تسلم اليه الاموال التي تنفق في طريق الحج فيختزل بعضها أو كلها أو يتوصل بها الى استتباع الحجيج ويتوصل بقوتهم الى مقاصده الفاسدة في المعاصي وقد يظهر بعضهم زي التصوف وهيئة الخشوع وكلام الحكمة على سبيل الوعظ والتذكير وانما قصده التحبب الى امرأة أو غلام لاجل الفجور وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وحلق القرآن يظهرون الرغبة في سماع العلم والقرآن وغرضهم ملاحظة النساء والصبيان أو يخرج الى الحج ومقصوده الظفر بمن في الرفقة من امرأة أو غلام وهؤلاء أبغض المرائين الى الله تعالى لانهم جعلوا طاعة ربهم سلما الى معصيته واتخذوها آلة ومتجرا وبضاعة لهم في فسقهم ويقرب من هؤلاء وان كان دونهم من هو مقترف جريمة اتهم بها وهو مصر عليها ويريد أن ينفي التهمة عن نفسه فيظهر التقوى لنفي التهمة كالذي جحد وديعة واتهمه الناس بها فيتصدق بالمال ليقال انه يتصدق بمال نفسه فكيف يستحل مال غيره وكذلك من ينسب الى الفجور بامرأة أو غلام فيدفع التهمة عن نفسه بالخشوع واظهار التقوى الثانية أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة كالذي يظهر الحزن والبكاء ويشتغل بالوعظ والتذكير لتبذل له الاموال ويرغب في نكاحه النساء فيقصد اما امرأة بعينها لينكحها أو امرأة شريفة على الجملة وكالذي يرغب في أن يتزوج بنت عالم عابد فيظهر له العلم والعبادة ليرغب في تزويجه ابنته فهذا رياء محظور لانه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الاول فان المطلوب به مذا مباح في نفسه * الثالثة أن لا يقصد نيل حظ وادراك مال أو نكاح ولكن يظهر عبادته خوفا من أن ينظر اليه بعين النقص ولا يعد من الخاصة والزهاد ويعتقد انه من جملة العامة كالذي يمشي مستعجلا فيطلع عليه الناس فيحسن المشي ويترك العجلة كيلا يقال انه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار وكذلك ان سبق الى الضحك أو بدا منه المزاح فيخاف أن ينظر اليه بعين الاحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء واظهار الحزن ويقول ما أعظم غفلة الآدمي عن نفسه والله يعلم منه انه لو كان في خلوة لما كان يثقل عليه ذلك وانما يخاف أن ينظر اليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير وكالذي يرى جماعة يصلون التراويح أو يتهجدون أو يصومون الخميس والاثنين أو يتصدقون فيوافقهم خيفة أن ينسب الى الكسل ويلحق بالعوام ولو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيأ من ذلك وكالذي يعطش يوم عرفة أو عاشوراء أو في الاشهر الحرم فلا يشرب خوفا من أن يعلم الناس انه غير صائم فاذا ظنوا به الصوم امتنع عن الاكل لاجله أو يدعى الى طعام فيمتنع ليظن انه صائم وقد لا يصرح باني صائم ولكن يقول لي عذر وهو جمع بين خبيثين فانه يرى أنه صائم ثم يرى أنه مخلص ليس بمراء وانه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرائيا فيريد أن يقال انه ساتر لعبادته ثم ان اضطر الى شرب لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذرا تصريحا أو تعريضا بأن يتعلل بمرض يقتضي فرط العطش ويمنع من الصوم أو يقول أفطرت تطييبا لقلب فلان ثم قد لا يذكر ذلك متصلا بشربه كي لا يظن به أنه يعتذر رياء ولكنه يصبر ثم يذكر عذره في معرض حكاية عرضا مثل أن يقول ان فلانا محب للاخوان شديد الرغبة في أن يأكل الانسان من طعامه وقد ألح علي اليوم ولم أجد بدا من تطييب قلبه ومثل أن يقول ان أمي ضعيفة القلب مشفقة علي تظن أني لو صمت يوما مرضت فلا تدعني أصوم فهذا وما يجري مجراه من آفات الرياء فلا يسبق الى اللسان الا لرسوخ عرق الرياء في الباطن أما المخلص فانه لا يبالي كيف نظر الخلق اليه فان لم يكن له رغبة في الصوم وقد علم الله ذلك منه فلا يريد أن يعتقد غيره ما يخالف علم الله فيكون ملبسا وان كان له رغبة في الصوم لله قنع بعلم الله تعالى ولم يشرك فيه غيره وقد يخطر له أن في اظهاره اقتداء غيره به وتحريك رغبة الناس فيه وفيه مكيدة وغرور وسيأتي شرح ذلك وشروطه فهذه درجات الرياء ومراتب أصناف المرائين وجميعهم تحت مقت الله وغضبه وهو من أشد المهلكات وان من شدته أن فيه شوائب هي أخفى من دبيب النمل كما ورد به الخبر يزل فيه فحول العلماء فضلا عن العباد الجهلاء بآفات النفوس وغوائل القلوب والله أعلم

(بيان الرياء الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل)

تفسيره تسمية الله تعالى عند ذبح الحيوان واختلاف الشافعي وأبو حنيفة رحمهما الله في وجوب ذلك وفهم الصوفي من ذلك بعد القيام بظاهر التفسير أن لا يأكل الطعام الا مقرونا بالذكر فقرنه فريضة وقته وأدبه ويرى أن تناول الطعام والماء ينتج من اقامة النفس ومتابعة هواها ويرى ذكر الله تعالى دواءه وترياقه (روت) عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل الطعام في ستة نفر من أصحابه فجاء اعرابي فأكله بلقمتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما انه لو كان يسمي الله لكفاكم فاذا أكل أحدكم طعاما فليقل بسم الله فان نسي أن يقول بسم الله فليقل بسم الله أوله وآخره ويستحب أن يقول في أول لقمة بسم الله وفي الثانية بسم الله الرحمن

اعلم ان الرياء جلي وخفي فالجلي هو الذي يبعث على العمل ويحمل عليه ولو قصد الثواب وهو أجلاه وأخفى منه
قليلا هو ما لا يحمل على العمل بمجرده الا أنه يخفف العمل الذي يريد به وجه الله كالذي يعتاد التهجد كل ليلة
ويثقل عليه فاذا نزل عنده ضيف تنشط له وخف عليه وعلم انه لولا رجاء الثواب لكان لا يصلي لمجرد رياء الضيفان
وأخفى من ذلك ما لا يؤثر في العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضا ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب ومهما لم
يؤثر في الدعاء الى العمل لم يمكن أن يعرف الا بالعلامات وأجلى علاماته أن يسر باطلاع الناس على طاعته فرب
عبد يخلص في عمله ولا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده ويتمم العمل كذلك ولكن اذا اطلع عليه الناس سره ذلك
وارتاح له وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة وهذا السرور يدل على رياء خفي منه يرشح السرور ولولا التفات
القلب الى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس فلقد كان الرياء مستكنا في القلب استكنان النار في الحجر
فاظهر منه اطلاع الخلق أثر الفرح والسرور ثم اذا استشعر لذة السرور بالاطلاع ولم يقابل ذلك بكراهية
فيصير ذلك قوتا وغذاء للعرق الخفي من الرياء حتى يتحرك على نفسه حركة خفية فيتقاضى تقاضيا خفيا أن
يتكلف سببا يطلع عليه بالتعريض والقاء الكلام عرضا وان كان لا يدعو الى التصريح وقد يخفى فلا يدعو الى
الاظهار بالنطق تعريضا وتصريحا ولكن بالشمائل كاظهار النحول والصفار وخفض الصوت ويبس الشفتين
وجفاف الريق وآثار الدموع وغلبة النعاس الدال على طول التهجد وأخفى من ذلك أن يختفي بحيث لا يريد
الاطلاع ولا يسر بظهور طاعته ولكنه مع ذلك اذا رأى الناس أحب أن يبدؤه بالسلام وأن يقابلوه بالبشاشة
والتوقير وأن يثنوا عليه وأن ينشطوا في قضاء حوائجه وأن يسامحوه في البيع والشراء وأن يوسعوا له في المكان
فان قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه ووجد لذلك استبعادا في نفسه كأنه يتقاضى الاحترام مع الطاعة التي
أخفاها مع انه لم يطلع عليه ولو لم يكن قد سبق منه تلك الطاعة لما كان يستبعد تقصير الناس في حقه ومهما لم يكن
وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله ولم يكن خاليا عن شوب خفي من الرياء أخفى
من دبيب النمل وكل ذلك يوشك أن يحبط الاجر ولا يسلم منه الا الصديقون وقد روي عن علي كرم الله وجهه انه
قال ان الله عز وجل يقول للقراء يوم القيامة ألم يكن يرخص عليكم السعر ألم تكونوا تبتدؤن بالسلام ألم تكونوا
تقضى لكم الحوائج وفي الحديث لا أجر لكم قد استوفيتم أجوركم وقال عبد الله بن المبارك روي عن وهب بن
منبه انه قال ان رجلا من السواح قال لاصحابه انا انما فارقنا الاموال والاولاد مخافة الطغيان فنخاف أن نكون قد
دخل علينا في أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الاموال في أموالهم ان أحدنا اذا لقي أحب أن يعظم
لمكان دينه وان سأل حاجة أحب أن تقضى له لمكان دينه وان اشترى شيأ أحب أن يرخص عليه لمكان دينه فبلغ
ذلك ملكهم فركب في موكب من الناس فاذا السهل والجبل قد امتلأ بالناس فقال السائح ما هذا قيل هذا الملك
قد أظلك فقال للغلام ائتني بطعام فأتاه ببقل وزيت وقلوب الشجر فجعل يحشو شدقه ويأكل أكلا عنيفا فقال
الملك أين صاحبكم فقالوا هذا قال كيف أنت قال كالناس وفي حديث آخر بخير فقال الملك ما عند هذا من خير
فانصرف عنه فقال السائح الحمد لله الذي صرفك عني وأنت لي ذام فلم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي
يجتهدون لذلك في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة يحرصون على اخفائها أعظم مما يحرص الناس على اخفاء
فواحشهم كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة فيجازيهم الله في القيامة باخلاصهم على ملا من الخلق اذ علموا
ان الله لا يقبل في القيامة الا الخالص وعلموا شدة حاجتهم وفاقتهم في القيامة وانه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون
ولا يجزي والد عن ولده ويشتغل الصديقون بانفسهم فيقول كل واحد نفسي نفسي فضلا عن غيرهم فكانوا
كزوار بيت الله اذا توجهوا الى مكة فانهم يستصحبون مع أنفسهم الذهب المغربي الخالص لعلمهم بان أرباب
البوادي لا يروج عندهم الزائف والنبهرج والحاجة تشتد في البادية ولا وطن يفزع اليه ولا حميم يتمسك به فلا
ينجي الا الخالص من النقد فكذا يشاهد أرباب القلوب يوم القيامة والزاد الذي يتزودونه له من التقوى فاذا
شوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر ومهما أدرك من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته انسان أو بهيمة ففيه
شعبة من الرياء فانه لما قطع طمعه عن البهائم لم يبال حضره البهائم أو الصبيان الرضع أم غابوا اطلعوا على حركته

وفي الثالثة يتم ويشرب الماء بثلاثة أنفاس يقول في أول نفس الحمد لله اذا شرب وفي الثانية الحمد لله رب العالمين وفي الثالثة الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم وكان للمعدة طباعا تتقدر كما ذكرناه بموافقة طباع الطعام فللقلب أيضا مزاج وطباع لارباب التفقد والرعاية واليقظة يعرف انحراف مزاج القلب من اللقمة المتناولة تارة تحدث من اللقمة حرارة الطيش بالنهوض الى الفضول وتارة تحدث في القلب برودة الكسل بالتقاعد عن وظيفة الوقت وتارة تحدث رطوبة السهو والغفلة وتارة يبوسة الهم والحزن بسبب الحظوظ العاجلة فهذه كلها عوارض يتفطن لها المتيقظ ويرى تغير القالب بهذه العوارض تغير مزاج القلب عن الاعتدال والاعتدال كما هو مهم طلبه للقالب

أم لم يطلعوا فلو كان مخلصا قانعا بعلم الله لاستحقر عقلاء العباد كما استحقر صبيانهم ومجانينهم وعلم أن العقلاء لا يقدرون له على رزق ولا أجل ولا زيادة ثواب ونقصان عقاب كما لا يقدر عليه البهائم والصبيان والمجانين فاذا لم يجد ذلك ففيه شوب خفي ولكن ليس كل شوب محبطا للاجر مفسدا للعمل بل فيه تفصيل فان قلت فانرى أحدا ينفك عن السرور اذا عرفت طاعاته فالسرور مذموم كله أو بعضه محمود وبعضه مذموم فنقول أولا كل سرور فليس بمذموم بل السرور منقسم الى محمود والى مذموم فاما المحمود فاربعة أقسام الاول أن يكون قصده اخفاء الطاعة والاخلاص لله ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله فيستدل به على حسن صنع الله به ونظره له ولطفه به فانه يستر الطاعة والمعصية ثم الله يستر عليه المعصية ويظهر الطاعة ولا لطف أعظم من ستر القبيح واظهار الجميل فيكون فرحه بجميل نظر الله له لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم وقد قال تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا فكأنه ظهر له انه عند الله مقبول ففرح به * الثاني أن يستدل باظهار الله الجميل وستره القبيح عليه في الدنيا انه كذلك يفعله في الآخرة اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماستر الله على عبد ذنبا في الدنيا الاستره عليه في الآخرة فيكون الاول فرحا بالقبول في الحال من غير ملاحظة المستقبل وهذا التفات الى المستقبل * الثالث أن يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره فيكون له أجر العلانية بما أظهر آخرا وأجر السر بما قصده أولا ومن اقتدى به في طاعة فله مثل أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شيء وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور فان ظهور مخايل الربح لذيذ وموجب للسرور لا محالة * الرابع أن يحمده المطلعون على طاعته فيفرح بطاعتهم لله في مدحهم وبحبهم للمطيع وبميل قلوبهم الى الطاعة اذ من أهل الايمان من يرى أهل الطاعة فيمقته ويحسده أو يذمه ويهزأ به أو ينسبه الى الرياء ولا يحمده عليه فهذا فرح بحسن ايمان عباد الله وعلامة الاخلاص في هذا النوع أن يكون فرحه بحمدهم غيره مثل فرحه بحمدهم اياه * وأما المذموم وهو الخامس فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بقضاء حوائجه ويقابلوه بالاكرام في مصادره وموارده فهذا مكروه والله تعالى أعلم

(بيان ما يحبط العمل من الرياء الخفي والجلي وما لا يحبط)

فنقول فيه اذا عقد العبد العبادة على الاخلاص ثم ورد عليه وارد الرياء فلا يخلو اما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل أو قبل الفراغ فان ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير اظهار فهذا لا يفسد العمل اذ العمل قد تم على نعت الاخلاص سالما عن الرياء فما يطرأ بعده فنرجو أن لا ينعطف عليه أثره لاسيما اذا لم يتكلف هو اظهاره والتحدث به ولم يتمن اظهاره وذكره ولكن اتفق ظهوره باظهار الله ولم يكن منه الا مادخل من السرور والارتياح على قلبه نعم لو تم العمل على الاخلاص من غير عقد رياء ولكن ظهرت له بعده رغبة في الاظهار فتحدث به وأظهره فهذا مخوف وفي الآثار والاخبار ما يدل على أنه يحبط فقد روي عن ابن مسعود أنه سمع رجلا يقول قرأت البارحة البقرة فقال ذلك حظه منها وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لرجل قال له صمت الدهر يارسول الله فقال له ماصمت ولا أفطرت فقال بعضهم انما قال ذلك لانه أظهره وقيل هو اشارة الى كراهة صوم الدهر وكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ابن مسعود استدلالا على أن قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد الرياء وقصده له لما أن ظهر منه التحدث به اذ يبعد أن يكون ما يطرأ بعد العمل مبطلا لثواب العمل بل الاقيس أن يقال انه مثاب على عمله الذي مضى ومعاقب على مراآته بطاعة الله بعد الفراغ منها بخلاف مالو تغير عقده الى الرياء قبل الفراغ من الصلاة فان ذلك قد يبطل الصلاة ويحبط العمل وأما اذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلا وكان قد عقد على الاخلاص ولكن ورد في أثنائها وارد الرياء فلا يخلو اما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر في العمل واما أن يكون رياء باعثا على العمل فان كان باعثا على العمل وختم العبادة به حبط أجره ومثاله أن يكون في تطوع فتجددت له نظارة أو حضر ملك من الملوك وهو يشتهي أن ينظر اليه أو يذكر شيأ نسيه من ماله وهو يريد أن يطلبه ولولا الناس لقطع الصلاة فاستتمها خوفا من مذمة الناس فقد حبط أجره وعليه الاعادة ان كان في فريضة وقد قال صلى الله عليه وسلم العمل كالوعاء اذا طاب آخره طاب أوله أي النظر

فالقلب أهم وأولى وتطرق الانحراف الى القلب أسرع منه الى القالب ومن الانحراف ما يسقم به القلب فيموت لموت القالب واسم الله تعالى دواء نافع مجرب يقي الاسواء ويذهب الداء ويجلب الشفاء * حكى أن الشيخ محمدا الغزالي لما رجع الى طوس وصف له في بعض القرى عبد صالح فقصده زائرا فصادفه وهو في صحراء له يبذر الحنطة في الارض فلما رأى الشيخ محمدا جاء اليه وأقبل عليه فجاء رجل من أصحابه وطلب منه البذر لينوب عن الشيخ في ذلك وقت اشتغاله بالغزالي فامتنع ولم يعطه البذر فسأله الغزالي عن سبب امتناعه فقال لاني أبذر هذا البذر بقلب حاضر ولسان ذاكر أرجو البركة فيه لكل من يتناول منه شيأ فلا أحب أن أسلمه الى هذا فيبذره بلسان غير ذاكر وقلب

الى خاتمته وروى أنه من راءى بعمله ساعة حبط عمله الذى كان قبله وهذا منزل على الصلاة فى هذه الصورة لاعلى الصدقة ولا على القراءة فان كل جزء من ذلك مفرد فما يطرأ يفسد الباقى دون الماضى والصوم والحج من قبيل الصلاة وأما اذا كان وارد الرياء بحيث لا يمنعه من قصد الاتمام لاجل الثواب كما لو حضر جماعة فى أثناء الصلاة ففرح بحضورهم وعقد الرياء وقصد تحسين الصلاة لاجل نظرهم وكان لولا حضورهم لكان يتمها أيضا فهذا رياء قد أثر فى العمل وانتهض باعثا على الحركات فان غلب حتى انمحق معه الاحساس بقصد العبادة والثواب وصار قصد العبادة مغمورا فهذا أيضا ينبغى أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه لانا نكتفى بالنية السابقة عند الاحرام بشرط أن لا يطرأ عليها ما يغلبها ويغمرها ويحتمل أن يقال لا يفسد العبادة نظرا الى حالة العقد والى بقاء قصد أصل الثواب وان ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه ولقد ذهب الحرث المحاسبى رحمه الله تعالى الى الاحباط فى أمر هو أهون من هذا وقال اذا لم يرد الا مجرد السرور باطلاع الناس يعنى سرورا هو حب المنزلة والجاه قال قد اختلف الناس فى هذا فصارت فرقة الى أنه محبط لانه نقض العزم الاول وركن الى حمد المخلوقين ولم يختم عمله بالاخلاص وانما يتم العمل بخاتمته ثم قال ولا أقطع عليه بالحبط وان لم يتزيد فى العمل ولا آمن عليه وقد كنت أقف فيه لاختلاف الناس والاغلب على قلبى أنه يحبط اذا ختم عمله بالرياء ثم قال فان قيل قد قال الحسن رحمه الله تعالى انهما حالتان فاذا كانت الاولى لله لم تضره الثانية وقد روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يارسول الله أسر العمل لا أحب أن يطلع عليه فيطلع عليه فيسرنى قال لك أجران أجر السر وأجر العلانية ثم تكلم على الخبر والاثر فقال أما الحسن فانه أراد بقوله لا يضره أى لا يدع العمل ولا تضره الخطرة وهو يريد الله ولم يقل اذا عقد الرياء بعد عقد الاخلاص لم يضره وأما الحديث فتكلم عليه بكلام طويل يرجع حاصله الى ثلاثة أوجه * أحدها أنه يحتمل انه أراد ظهور عمله بعد الفراغ وليس فى الحديث انه قبل الفراغ * والثانى انه أراد أن يسر به للاقتداء به أو لسرور آخر محمود مما ذكرناه قبل لا سرورا بسبب حب المحمدة والمنزلة بدليل انه جعل له به أجرا ولا ذاهب من الامة الى أن السرور بالمحمدة أجرا وغايته أن يعفى عنه فكيف يكون للمخلص أجر وللمرائى أجران * والثالث أنه قال أكثر من روى الحديث يرويه غير متصل الى أبى هريرة بل أكثرهم يوقفه على أبى صالح ومنهم من يرفعه فالحكم بالعمومات الواردة فى الرياء أولى هذا ما ذكره ولم يقطع به بل أظهر ميلا الى الاحباط والاقيس عندنا ان هذا القدر اذا لم يظهر أثره فى العمل بل بقى العمل صادرا عن باعث الدين وانما انضاف اليه السرور بالاطلاع فلا يفسد العمل لانه لم ينعدم به أصل نيته وبقيت تلك النية باعثة على العمل وحاملة على الاتمام وأما الاخبار التى وردت فى الرياء فهى محمولة على ما اذا لم يرد به الا الخلق وأما ما ورد فى الشركة فهو محمول على ما اذا كان قصد الرياء مساويا لقصد الثواب أو أغلب منه أما اذا كان ضعيفا بالاضافة اليه فلا يحبط بالكلية ثواب الصدقة وسائر الاعمال ولا ينبغى أن يفسد الصلاة ولا يبعد أيضا أن يقال ان الذى أوجب عليه صلاة خالصة لوجه الله والخالص ما لا يشوبه شئ فلا يكون مؤديا للواجب مع هذا الشوب والعلم عند الله فيه وقد ذكرنا فى كتاب الاخلاص كلاما أوفى مما أوردناه الآن فليرجع اليه فهذا حكم الرياء الطارئ بعد عقد العبادة اما قبل الفراغ أو بعد الفراغ (القسم الثالث) الذى يقارن حال العقد بان يبتدئ الصلاة على قصد الرياء فان استمر عليه حتى سلم فلا خلاف فى انه يقضى ولا يعتد بصلاته وان ندم عليه فى أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل التمام ففيما يلزمه ثلاثة أوجه قالت فرقة لم تنعقد صلاته مع قصد الرياء فليستأنف وقالت فرقة تلزمه اعادة الافعال كالركوع والسجود وتفسد أفعاله دون تحريمة الصلاة لان التحريم عقد والرياء خاطر فى قلبه لا يخرج التحريم عن كونه عقدا وقالت فرقة لا يلزمه اعادة شئ بل يستغفر الله بقلبه ويتم العبادة على الاخلاص والنظر الى خاتمة العبادة كما لو ابتدأ بالاخلاص وختم بالرياء لكان يفسد عمله وشبهوا ذلك بثوب أبيض لطخ بنجاسة عارضة فاذا أزيل العارض عاد الى الاصل فقالوا ان الصلاة والركوع والسجود لا تكون الا لله ولو سجد لغير الله لكان كافرا ولكن اقترن به عارض الرياء ثم زال بالندم والتوبة وصار الى حالة لا يبالى بحمد الناس وذمهم فتصح صلاته ومذهب الفريقين الآخرين خارج عن قياس الفقه جدا خصوصا من قال يلزمه اعادة الركوع

والسجود

غير حاضر (وكان) بعض الفقراء عند الاكل يشرع فى تلاوة سورة من القرآن يحضر الوقت بذلك حتى تنغمر أجزاء الطعام بأنوار الذكر ولا يعقب الطعام مكروه ويتغير مزاج القلب وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردى يقول أنا آكل وأنا أصلى يشير الى حضور القلب فى الطعام وربما كان يوقف من يمنع عنه الشواغل وقت أكله لئلا يتفرق همه وقت الاكل ويرى للذكر وحضور القلب فى الاكل أثرا كبيرا لا يسعه الاهمال له ومن الذكر عند الاكل الفكر فيما هيأ الله تعالى من الاسنان المعينة على الاكل فمنها الكاسرة ومنها القاطعة ومنها الطاحنة وما يجعل الله تعالى من الماء الحلو فى الفم حتى لا يتغير الذوق كما جعل

والسجود دون الافتتاح لان الركوع والسجود ان لم يصح صارت افعالا زائدة في الصلاة فتفسد الصلاة وكذلك قول من يقول لو ختم بالاخلاص صح نظرا الى الآخر فهو أيضا ضعيف لان الرياء يقدح في النية وأولى الاوقات بمراعاة أحكام النية حالة الافتتاح فالذي يستقيم على قياس الفقه وان يقال ان كان باعثه مجرد الرياء في ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتثال الامر لم ينعقد افتتاحه ولم يصح ما بعده وذلك فيمن اذا خلا بنفسه لم يصل ولما رأى الناس تحرم بالصلاة وكان بحيث لو كان ثوبه نجسا أيضا كان يصلي لاجل الناس فهذه صلاة لا نية فيها اذ النية عبارة عن اجابة باعث الدين وههنا لا باعث ولا اجابة فاما اذا كان بحيث لولا الناس أيضا لكان يصلي الا انه ظهر له الرغبة في المحمدة أيضا فاجتمع الباعثان فهذا اما أن يكون في صدقة وقراءة وما ليس فيه تحليل وتحريم أو في عقد صلاة وحج فان كان في صدقة فقد عصى باجابة باعث الرياء وأطاع باجابة باعث الثواب فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره فله ثواب بقدر قصده الصحيح وعقاب بقدر قصده الفاسد ولا يحبط أحدهما الآخر وان كان في صلاة تقبل الفساد بتطرق خلل الى النية فلا يخلو اما ان تكون فرضا أو نفلا فان كانت نفلا فحكمها أيضا حكم الصدقة فقد عصى من وجه وأطاع من وجه اذ اجتمع في قلبه الباعثان ولا يمكن أن يقال صلاته فاسدة والاقتداء به باطل حتى ان من صلى التراويح وتبين من قرائن حاله ان قصده الرياء باظهار حسن القراءة ولولا اجتماع الناس خلفه وخلا في بيت وحده لما صلى لا يصح الاقتداء به فان المصير الى هذا بعيد جدا بل يظن بالمسلم انه يقصد الثواب أيضا بتطوعه فتصح باعتبار ذلك القصد صلاته ويصح الاقتداء به وان اقترن به قصد آخر وهو به عاص فاما اذا كان في فرض واجتمع الباعثان وكان كل واحد لا يستقل وانما يحصل الانبعاث بمجموعهما فهذا لا يسقط الواجب عنه لان الايجاب لم ينتهض باعثا في حقه بمجرده واستقلاله وان كان كل باعث مستقلا حتى لو لم يكن باعث الرياء لادى الفرائض ولو لم يكن باعث الفرض لانشأ صلاة تطوعا لاجل الرياء فهذا محل النظر وهو محتمل جدا فيحتمل أن يقال ان الواجب صلاة خالصة لوجه الله ولم يؤد الواجب الخالص ويحتمل أن يقال الواجب امتثال الامر بباعث مستقل بنفسه وقد وجد فاقتران غيره به لا يمنع سقوط الفرض عنه كما لو صلى في دار مغصوبة فانه وان كان عاصيا بايقاع الصلاة في الدار المغصوبة فانه مطيع بأصل الصلاة ومسقط للفرض عن نفسه وتعارض الاحتمال في تعارض البواعث في أصل الصلاة أما اذا كان الرياء في المبادرة مثلا دون أصل الصلاة مثل من بادر الى الصلاة في أول الوقت لحضور جماعة ولو خلا لاخر الى وسط الوقت ولولا الفرض لكان لا يبتدئ صلاة لاجل الرياء فهذا مما يقطع بصحة صلاته وسقوط الفرض به لان باعث أصل الصلاة من حيث انها صلاة لم يعارضه غيره بل من حيث تعيين الوقت فهذا أبعد عن القدح في النية هذا في رياء يكون باعثا على العمل وحاملا عليه وأما مجرد السرور باطلاع الناس عليه اذا لم يبلغ أثره الى حيث يؤثر في العمل فبعيد أن يفسد الصلاة فهذا ما نراه لائقا بقانون الفقه والمسألة غامضة من حيث ان الفقهاء لم يتعرضوا لها في فن الفقه والذين خاضوا فيها وتصرفوا لم يلاحظوا قوانين الفقه ومقتضى فتاوى الفقهاء في صحة الصلاة وفسادها بل حملهم الحرص على تصفية القلوب وطلب الاخلاص على افساد العبادات بادنى الخواطر وما ذكرناه هو الاقصد فيما نراه والعلم عند الله عز وجل فيه وهو عالم الغيب والشهادة وهو الرحمن الرحيم

(بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه)

قد عرفت مما سبق أن الرياء محبط للاعمال وسبب للمقت عند الله تعالى وانه من كبائر المهلكات وما هذا وصفه فجدير بالتشمير عن ساق الجد في ازالته ولو بالمجاهدة وتحمل المشاق فلا شفاء الا في شرب الادوية المرة البشعة وهذه مجاهدة يضطر اليها العباد كلهم اذ الصبي يخلق ضعيف العقل والتمييز ممتد العين الى الخلق كثير الطمع فيهم فيرى الناس يتصنع بعضهم لبعض فيغلب عليه حب التصنع بالضرورة ويرسخ ذلك في نفسه وانما يشعر بكونه مهلكا بعد كمال عقله وقد انغرس الرياء في قلبه وترسخ فيه فلا يقدر على قمعه الا بمجاهدة شديدة ومكابدة لقوة الشهوات فلا ينفك أحد عن الحاجة الى هذه المجاهدة ولكنها تشق أولا وتخف آخرا وفي علاجه مقامان أحدهما قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه والثاني دفع ما يخطر منه في الحال (المقام الاول) في قلع عروقه واستئصال أصوله

ماء العين مالحا لما كان شحما حتى لا يفسد وكيف جعل الندواة تنبع من أرجاء اللسان والفم ليعين ذلك على المضغ والسوغ وكيف جعل القوة الهاضمة مسلطة على الطعام تفصله وتجزئه متعلقا مددها بالكبد والكبد بمثابة النار والمعدة بمثابة القدر وعلى قدر فساد الكبد تقل الهاضمة ويفسد الطعام ولا ينفصل ولا يصل الى كل عضو نصيبه وهكذا تأثير الاعضاء كلها من الكبد والطحال والكليتين ويطول شرح ذلك فمن أراد الاعتبار فليطالع تشريح الاعضاء ليرى العجب من قدرة الله تعالى من تعاضد الاعضاء وتعاونها وتعلق بعضها بالبعض في اصلاح الغذاء واستجذاب القوة منه للاعضاء وانقسامه الى الدم والثفل واللبن

وأصله حب المنزلة والجاه واذا فصل رجع الى ثلاثة أصول وهى لذة الحمدة والفرار من ألم الذم والطمع فيما فى أيدى الناس ويشهد للرياء بهذه الاسباب وانها الباعثة للمرائى ماروى أبو موسى أن اعرابيا سأل النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله الرجل يقاتل حمية ومعناه انه يأنف أن يقهر أو يذم بانه مقهور ومغلوب وقال والرجل يقاتل ليرى مكانه وهذا هو طلب لذة الجاه والقدر فى القلوب والرجل يقاتل للذكر وهذا هو الحمد باللسان فقال صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله وقال ابن مسعود اذا التقى الصفان نزلت الملائكة فكتبوا الناس على مراتبهم فلان يقاتل للذكر وفلان يقاتل للملك والقتال للملك اشارة الى الطمع فى الدنيا وقال عمر رضى الله عنه يقولون فلان شهيد ولعله يكون قد ملأ دفتى راحلته ورقا وقال صلى الله عليه وسلم من غزا لا يبغى الا عقالا فله ما نوى فهذا اشارة الى الطمع وقد لا يشتهى الحمد ولا يطمع فيه ولكن يحذر من ألم الذم كالبخيل بين الاسخياء وهم يتصدقون بالمال الكثير فانه يتصدق بالقليل كى لا يبخل وهو ليس يطمع فى الحمد وقد سبقه غيره وكالجبان بين الشجعان لا يفر من الزحف خوفا من الذم وهو لا يطمع فى الحمد وقد هجم غيره على صف القتال ولكن اذا أيس من الحمد كره الذم وكالرجل بين قوم يصلون جميع الليل فيصلى ركعات معدودة حتى لا يذم بالكسل وهو لا يطمع فى الحمد وقد يقدر الانسان على الصبر عن لذة الحمد ولا يقدر على الصبر على ألم الذم ولذلك قد يترك السؤال عن علم هو محتاج اليه خيفة من أن يذم بالجهل ويفتى بغير علم ويدعى العلم بالحديث وهو به جاهل كل ذلك حذرا من الذم فهذه الامور الثلاثة هى التى تحرك المرائى الى الرياء وعلاجه ما ذكرناه فى الشطر الاول من الكتاب على الجملة ولكنا نذكر الآن ما يخص الرياء وليس يخفى أن الانسان انما يقصد الشئ ويرغب فيه لظنه انه خير له ونافع ولذيذ اما فى الحال واما فى المآل فان علم أنه لذيذ فى الحال ولكنه ضار فى المآل سهل عليه قطع الرغبة عنه كان يعلم أن العسل لذيذ ولكن اذا بان له أن فيه سما أعرض عنه فكذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم ما فيه من المضرة ومهما عرف العبد مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم عنه فى الحال من التوفيق وفى الآخرة من المنزلة عند الله وما يتعرض له من العقاب العظيم والمقت الشديد والخزى الظاهر حيث ينادى على رؤس الخلائق يا فاجر يا غادر يا مرائى أما استحييت اذ اشتريت بطاعة الله عرض الدنيا وراقبت قلوب العباد واستهزأت بطاعة الله وتحببت الى العباد بالتبغض الى الله وتزينت لهم بالشين عند الله وتقربت اليهم بالبعد من الله وتحمدت اليهم بالتذمم عند الله وطلبت رضاهم بالتعرض لسخط الله أما كان أحد أهون عليك من الله فمهما تفكر العبد فى هذا الخزى وقابل ما يحصل له من العباد والتزين لهم فى الدنيا بما يفوته فى الآخرة وبما يحبط عليه من ثواب الاعمال مع أن العمل الواحد ربما كان يترجح به ميزان حسناته لو خلص فاذا فسد بالرياء حول الى كفة السيئات فترجح به ويهوى الى النار فلو لم يكن فى الرياء الا احباط عبادة واحدة لكان ذلك كافيا فى معرفة ضرره وان كان مع ذلك سائر حسناته راجحة فقد كان ينال بهذه الحسنة علو الرتبة عند الله فى زمرة النبيين والصديقين وقد حط عنهم بسبب الرياء ورد الى صف النعال من مراتب الاولياء هذا مع ما يتعرض له فى الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق فان رضا الناس غاية لا تدرك فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق ورضا بعضهم فى سخط بعضهم ومن طلب رضاهم فى سخط الله سخط الله عليه وأسخطهم أيضا عليه ثم أى غرض له فى مدحهم وايثار ذم الله لاجل حمدهم ولا يزيده حمدهم رزقا ولا أجلا ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة وأما الطمع فيما فى أيديهم فبان يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والاعطاء وأن الخلق مضطرون فيه ولا رازق الا الله ومن طمع فى الخلق لم يخل من الذل والخيبة وان وصل الى المراد لم يخل عن المنة والمهانة فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد قد يصيب وقد يخطئ واذا أصاب فلا تفى لذته بألم منته ومذلته وأما ذمهم فلم يحذر منه ولا يزيده ذمهم شيأ ما لم يكتبه عليه الله ولا يعجل أجله ولا يؤخر رزقه ولا يجعله من أهل النار ان كان من أهل الجنة ولا يبغضه الى الله ان كان محمودا عند الله ولا يزيده مقتا ان كان ممقوتا عند الله فالعباد كلهم عجزة لا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا فاذا قرر فى قلبه آفة هذه الاسباب وضررها فترت رغبته وأقبل على الله قلبه فان العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه ويكفيه أن الناس لو علموا ما فى باطنه من قصد الرياء

لتغذية المولود من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين فتبارك الله أحسن الخالقين فالفكر فى ذلك وقت الطعام وتعرف لطيف الحكم والقدرة فيه من الذكر ومما يذهب داء الطعام المغير لمزاج القلب ان يبدأ فى أول الطعام ويسأل الله تعالى ان يجعله عونا على الطاعة ويكون من دعائه اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وما رزقتنا مما نحب اجعله عونا لنا على ما تحب وما زويت عنا مما نحب اجعله فراغا لنا فيما تحب

(الباب الثالث والاربعون فى آداب الاكل)

فمن ذلك أن يبتدئ بالملح ويختم به روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لعلى رضى الله عنه يا على ابدأ طعامك بالملح واختم بالملح فان الملح شفاء من سبعين داء منها الجنون والجذام والبرص ووجع البطن

واظهار الاخلاص لمقته وسيكشف الله عن سره حتى يبغضه الى الناس و يعرفهم أنه مراء وممقوت عند الله ولو أخلص لله لكشف الله لهم اخلاصه وحببه اليهم وسخرهم له وأطلق ألسنتهم بالمدح والثناء عليه مع أنه لا كمال في مدحهم ولا نقصان في ذمهم كما قال شاعر من بني تميم ان مدحي زين وان ذمي شين فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم كذبت ذاك الله الذي لا اله الا هو اذ لا زين الا في مدحه ولا شين الا في ذمه فاى خير لك في مدح الناس وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار وأى شر لك من ذم الناس وأنت عند الله محمود في زمرة المقربين فمن أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد والمنازل الرفيعة عند الله استحقر ما يتعلق بالخلق أيام الحياة مع ما فيه من الكدورات والمنغصات واجتمع همه وانصرف الى الله قلبه وتخلص من مذلة الرياء ومقاساة قلوب الخلق وانعطف من اخلاصه أنوار على قلبه ينشرح بها صدره وينفتح بها له من لطائف المكاشفات ما يزيد به أنسه بالله ووحشته من الخلق واستحقاره للدنيا واستعظامه للآخرة وسقط محل الخلق من قلبه وانحل عنه داعية الرياء وتذلل له منهج الاخلاص فهذا وما قدمناه في الشطر الاول هي الادوية العلمية القالعة مغارس الرياء (وأما الدواء العملي) فهو أن يعود نفسه اخفاء العبادات واغلاق الابواب دونها كما تغلق الابواب دون الفواحش حتى يقنع قلبه بعلم الله واطلاعه على عباداته ولا تنازعه النفس الى طلب علم غير الله به وقد روى أن بعض أصحاب أبي حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها فقال أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه لا تجالسنا بعد هذا فلم يرخص في اظهار هذا القدر لان في ضمن ذم الدنيا دعوى الزهد فيها فلا دواء للرياء مثل الاخفاء وذلك يشق في بداية المجاهدة واذا صبر عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك بتواصل ألطاف الله وما يمد به عباده من حسن التوفيق والتأييد والتسديد ولكن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية ومن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب والله لا يضيع أجر المحسنين وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما * (المقام الثاني) * في دفع العارض منه في أثناء العبادة وذلك لا بد من تعلمه أيضا فان من جاهد نفسه وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وقطع الطمع واسقاط نفسه من أعين المخلوقين واستحقار مدح المخلوقين وذمهم فالشيطان لا يتركه في أثناء العبادات بل يعارضه بخطرات الرياء ولا تنقطع عنه نزغاته وهوى النفس وميلها لا ينمحي بالكلية فلا بد وان يتشمر لدفع ما يعرض من خاطر الرياء وخواطر الرياء ثلاثة قد تخطر دفعة واحدة كالخاطر الواحد وقد تترادف على التدريج فالاول العلم باطلاع الخلق ورجاء اطلاعهم ثم يتلوه هيجان الرغبة من النفس في حمدهم وحصول المنزلة عندهم ثم يتلوه هيجان الرغبة في قبول النفس له والركون اليه وعقد الضمير على تحقيقه فالاول معرفة والثاني حالة تسمى الشهوة والرغبة والثالث فعل يسمى العزم وتصميم العقد وانما كمال القوة في دفع الخاطر الاول ورده قبل أن يتلوه الثاني فاذا خطر له معرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم دفع ذلك بأن قال مالك وللخلق علموا أو لم يعلموا والله عالم بحالك فاى فائدة في علم غيره فان هاجت الرغبة الى لذة الحمد تذكر ما رسخ في قلبه من قبل من آفة الرياء وتعرضه للمقت عند الله في القيامة وخيبته في أحوج أوقاته الى أعماله فكما أن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ورغبة في الرياء فمعرفة آفة الرياء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة اذ يتفكر في تعرضه لمقت الله وعقابه الاليم والشهوة تدعوه الى القبول والكراهة تدعوه الى الاباء والنفس تطاوع لا محالة أقواهما وأغلبهما فاذا لا بد في رد الرياء من ثلاثة أمور المعرفة والكراهة والاباء وقد يشرع العبد في العبادة على عزم الاخلاص ثم يرد خاطر الرياء فيقبله ولا تحضره المعرفة ولا الكراهة التي كان الضمير منطويا عليها وانما سبب ذلك امتلاء القلب بخوف الذم وحب الحمد واستيلاء الحرص عليه بحيث لا يبقى في القلب متسع لغيره فيعزب عن القلب المعرفة السابقة بآفات الرياء وشؤم عاقبته اذ لم يبق موضع في القلب خال عن شهوة الحمد أو خوف الذم وهو كالذي يحدث نفسه بالحلم وذم الغضب ويعزم على التحلم عند جريان سبب الغضب ثم يجري من الاسباب ما يشتد به غضبه فينسى سابقة عزمه ويمتلئ قلبه غيظا يمنع من تذكر آفة الغضب ويشغل قلبه عنه فكذلك حلاوة الشهوة تملأ القلب وتدفع نور المعرفة مثل مرارة الغضب واليه اشار جابر بقوله بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت فأنسيناها يوم حنين حتى نودي يا أصحاب الشجرة فرجعوا وذلك لان القلوب امتلأت بالخوف فنسيت

و وجع الاضراس وروت عائشة رضي الله عنها قالت لدغ رسول الله صلى الله عليه وسلم في ابهامه من رجله اليسرى لدغة فقال علي بذلك الابيض الذي يكون في العجين فجئنا بملح فوضعه في كفه ثم لعق منه ثلاث لعقات ثم وضع بقيته على اللدغة فسكنت عنه ويستحب الاجتماع على الطعام وهو سنة الصوفية في الربط وغيرها (روى جابر) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال من أحب الطعام الى الله تعالى ما كثرت عليه الايدي وروى انه قيل يا رسول الله انا نأكل ولا نشبع قال لعلكم تفترقون على طعامكم اجتمعوا واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه ومن عادة الصوفية الاكل على السفر وهو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم (أخبرنا) الشيخ أبو زرعة عن المقوى

العهد السابق حتى ذكروا أكثر الشهوات التى تهجم فجأة هكذا تكون اذ تنسى معرفة مضرته الداخلة فى عقد
الايمان ومهما نسى المعرفة لم تظهر الكراهة فان الكراهة ثمرة المعرفة وقد يتذكر الانسان فيعلم أن الخاطر الذى
خطر له هو خاطر الرياء الذى يعرضه لسخط الله ولكن يستمر عليه لشدة شهوته فيغلب هواه عقله ولا يقدر على
ترك لذة الحال فيسوف بالتوبة أو يتشاغل عن التفكر فى ذلك لشدة الشهوة فكم من عالم يحضره كلام لا يدعوه الى
فعله الا رياء الخلق وهو يعلم ذلك ولكنه يستمر فتكون الحجة عليه أوكد اذ قبل داعى الرياء مع علمه بغائلته وكونه
مذموما عند الله ولا تنفعه معرفته اذا خلت المعرفة عن الكراهة وقد تحضر المعرفة والكراهة ولكن مع ذلك يقبل
داعى الرياء ويعمل به لكون الكراهة ضعيفة بالاضافة الى قوة الشهوة وهذا أيضا لا ينتفع بكراهيته اذ الغرض
من الكراهة أن تصرف عن الفعل فاذا لا فائدة الا فى اجتماع الثلاث وهى المعرفة والكراهة والاباء فالاباء ثمرة
الكراهة والكراهة ثمرة المعرفة وقوة المعرفة بحسب قوة الايمان ونور العلم وضعف المعرفة بحسب الغفلة وحب
الدنيا ونسيان الآخرة وقلة التفكر فيما عند الله وقلة التأمل فى آفات الحياة الدنيا وعظيم نعيم الآخرة وبعض
ذلك ينتج بعضا ويثمره وأصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات فهو رأس كل خطيئة ومنبع كل ذنب لان
حلاوة حب الجاه والمنزلة ونعيم الدنيا هى التى تغضب القلب وتسلبه وتحول بينه وبين التفكر فى العاقبة
والاستضاءة بنور الكتاب والسنة وأنوار العلوم فان قلت فمن صادف من نفسه كراهة الرياء وحملته الكراهة
على الاباء ولكنه مع ذلك غير خال عن ميل الطبع اليه وحبه له ومنازعته اياه الا أنه كاره لحبه ولميله اليه وغير
مجيب اليه فهل يكون فى زمرة المرائين فاعلم أن الله لم يكلف العباد الا ما تطيق وليس فى طاقة العبد منع الشيطان
عن نزغاته ولا قمع الطبع حتى لا يميل الى الشهوات ولا ينزع اليها وانما غايته أن يقابل شهوته بكراهة استثارها من
معرفة العواقب وعلم الدين وأصول الايمان بالله واليوم الآخر فاذا فعل ذلك فهو الغاية فى أداء ما كلف به ويدل
على ذلك من الأخبار ما روى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شكوا اليه وقالوا تعرض لقلوبنا أشياء لأن
نخر من السماء فتخطفنا الطير أو تهوى بنا الريح فى مكان سحيق أحب الينا من أن نتكلم بها فقال عليه السلام
أو قد وجدتموه قالوا نعم قال ذلك صريح الايمان ولم يجدوا الا الوسواس والكراهة له ولا يمكن أن يقال أراد
بصريح الايمان الوسوسة فلم يبق الا حمله على الكراهة المساوقة للوسوسة والرياء وان كان عظيما فهو دون
الوسوسة فى حق الله تعالى فاذا اندفع ضرر الاعظم بالكراهة فبأن يندفع بها ضرر الاصغر أولى وكذلك روى عن
النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن عباس أنه قال الحمد لله الذى رد كيد الشيطان الى الوسوسة وقال أبو حازم
ما كان من نفسك وكرهته نفسك لنفسك فلا يضرك ماهو من عدوك وما كان من نفسك فرضيته نفسك
لنفسك فعاتبها عليه فاذا وسوسة الشيطان ومنازعة النفس لا تضرك مهما رددت مرادهما بالاباء والكراهة
والخواطر التى هى العلوم والتذكرات والتخيلات للاسباب المهيجة للرياء هى من الشيطان والرغبة والميل بعد
تلك الخواطر من النفس والكراهة من الايمان ومن آثار العقل الا أن للشيطان ههنا مكيدة وهى أنه اذا عجز
عن حمله على قبول الرياء خيل اليه أن صلاح قلبه فى الاشتغال بمجادلة الشيطان ومطاولته فى الرد والجدال حتى
يسلبه ثواب الاخلاص وحضور القلب لان الاشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعته انصراف عن سر المناجاة مع الله
فيوجب ذلك نقصانا فى منزلته عند الله * والمتخلصون عن الرياء فى دفع خواطر الرياء على أربع مراتب * الاولى
أن يرده على الشيطان فيكذبه ولا يقتصر عليه بل يشتغل بمجادلته ويطيل الجدال معه لظنه أن ذلك أسلم لقلبه
وهو على التحقيق نقصان لانه اشتغل عن مناجاة الله وعن الخير الذى هو بصدده وانصرف الى قتال قطاع الطريق
والتعريج على قتال قطاع الطريق نقصان فى السلوك * الثانية أن يعرف أن الجدال والقتال نقصان فى السلوك
فيقتصر على تكذيبه ودفعه ولا يشتغل بمجادلته * الثالثة أن لا يشتغل بتكذيبه أيضا لان ذلك وقفة وان قلت
بل يكون قد قرر فى عقد ضميره كراهة الرياء وكذب الشيطان فيستمر على ما كان عليه مستصحبا للكراهة غير
مشتغل بالتكذيب ولا بالمخاصمة * الرابعة أن يكون قد علم أن الشيطان سيحسده عند جريان أسباب الرياء
فيكون قد عزم على أنه مهما نزغ الشيطان زاد فيما هو فيه من الاخلاص والاشتغال بالله واخفاء الصدقة

باسناده الى ابن ماجه
الحافظ القزوينى قال
أنا محمد بن المثنى قال ثنا
معاذ بن هشام قال ثنا
أبى عن يونس بن الفرات
عن قتادة عن أنس بن
مالك قال ما أكل رسول
الله صلى الله عليه وسلم
على خوان ولا فى سكرجة
قال فعلام كانوا يأكلون
قال على السفر ويصغر
اللقمة ويجود الاكل
بالمضغ وينظر بين يديه
ولا يطالع وجوه الآكلين
ويقعد على رجله
اليسرى وينصب اليمنى
ويجلس جلسة التواضع
غير متكئ ولا متعزز
نهى رسول الله صلى
الله عليه وسلم أن يأكل
الرجل متكئا (وروى)
أنه أهدى لرسول الله
صلى الله عليه وسلم شاة
فجثا رسول الله صلى الله
عليه وسلم على ركبتيه
يأكل فقال اعرابى ما هذه
الجلسة يا رسول الله فقال
رسول الله صلى الله عليه
وسلم ان الله خلقنى
عبدا ولم يجعلنى جبارا

والعبادة غيظ الشيطان وذلك هو الذى يغيظ الشيطان ويقمعه ويوجب يأسه وقنوطه حتى لا يرجع * يروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له ان فلانا يذكرك فقال والله لاغيظن من أمره قيل ومن أمره قال الشيطان اللهم اغفرله أى لاغيظنه بان أطيع الله فيه ومهما عرف الشيطان من عبد هذه العادة كف عنه خيفة من أن يزيد فى حسناته * وقال ابراهيم التيمى ان الشيطان ليدعو العبد الى الباب من الاثم فلا يطيعه وليحدث عند ذلك خيرا فاذا رآه كذلك تركه وقال أيضا اذا رآك الشيطان مترددا طمع فيك واذا رآك مداوما ملك وقلاك وضرب الحرث المحاسبى رحمه الله لهذه الاربعة مثالا أحسن فيه فقال مثالهم كاربعة قصدوا مجلسا من العلم والحديث لينالوا به فائدة وفضلا وهداية ورشدا فحسدهم على ذلك ضال مبتدع وخاف أن يعرفوا الحق فتقدم الى واحد فمنعه وصرفه عن ذلك ودعاه الى مجلس ضلال فابى فلما عرف اباءه شغله بالمجادلة فاشتغل معه ليرد ضلاله وهو يظن أن ذلك مصلحة له وهو غرض الضال ليفوت عليه بقدر تاخره فلما مر الثانى عليه نهاه واستوقفه فوقف فدفع فى نحر الضال ولم يشتغل بالقتال واستعجل ففرح منه الضال بقدر توقفه للدفع فيه ومر به الثالث فلم يلتفت اليه ولم يشتغل بدفعه ولا بقتاله بل استمر على ما كان فخاب منه رجاؤه بالكلية فمر الرابع فلم يتوقف له وأراد أن يغيظه فزاد فى عجلته وترك التأنى فى المشى فيوشك ان عادوا ومروا عليه مرة أخرى أن يعاود الجميع الا هذا الاخير فانه لا يعاوده خيفة من أن يزداد فائدة باستعجاله فان قلت فاذا كان الشيطان لا تؤمن نزغاته فهل يجب الترصد له قبل حضوره للحذر منه انتظارا لوروده أم يجب التوكل على الله ليكون هو الدافع له أو يجب الاشتغال بالعبادة والغفلة عنه قلنا اختلف الناس فيه على ثلاثة أوجه فذهبت فرقة من أهل البصرة الى أن الاقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان لانهم انقطعوا الى الله واشتغلوا بحبه فاعتزلهم الشيطان وأيس منهم وخنس عنهم كما أيس من ضعفاء العباد فى الدعوة الى الخمر والزنا فصارت ملاذ الدنيا عندهم وان كانت مباحة كالخمر والخنزير فارتحلوا من حبها بالكلية فلم يبق للشيطان اليهم سبيل فلا حاجة بهم الى الحذر وذهبت فرقة من أهل الشام الى أن الترصد للحذر منه انما يحتاج اليه من قل يقينه ونقص توكله فمن أيقن بان لا شريك لله فى تدبيره فلا يحذر غيره ويعلم ان الشيطان ذليل مخلوق ليس له أمر ولا يكون الا ما أراده الله فهو الضار والنافع والعارف يستحى منه ان يحذر غيره فاليقين بالوحدانية يغنيه عن الحذر وقالت فرقة من أهل العلم لا بد من الحذر من الشيطان وما ذكره البصريون من أن الاقوياء قد استغنوا عن الحذر وخلت قلوبهم عن حب الدنيا بالكلية فهو وسيلة الشيطان يكاد يكون غرورا اذ الانبياء عليهم السلام لم يتخلصوا من وسواس الشيطان ونزغاته فكيف يتخلص غيرهم وليس كل وسواس الشيطان من الشهوات وحب الدنيا بل فى صفات الله تعالى وأسمائه وفى تحسين البدع والضلال وغير ذلك ولا ينجو أحد من الخطر فيه ولذلك قال تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته وقال النبى صلى الله عليه وسلم انه ليغان على قلبى مع أن شيطانه قد أسلم ولا يأمره الا بخير فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الانبياء عليهم السلام فهو مغرور ولم يؤمنهم ذلك من كيد الشيطان ولذلك لم يسلم منه آدم وحواء فى الجنة التى هى دار الامن والسرور بعد أن قال الله لهما ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ومع انه لم ينه الا عن شجرة واحدة وأطلق له وراء ذلك ما أراد فاذا لم يأمن نبى من الانبياء وهو فى الجنة دار الامن والسعادة من كيد الشيطان فكيف يجوز لغيره أن يأمن فى دار الدنيا وهى منبع المحن والفتن ومعدن الملاذ والشهوات المنهى عنها وقال موسى عليه السلام فيما أخبر عنه تعالى هذا من عمل الشيطان ولذلك حذر الله منه جميع الخلق فقال تعالى يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة وقال عز وجل انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم والقرآن من أوله الى آخره تحذير من الشيطان فكيف يدعى الامن منه وأخذ الحذر من حيث أمر الله به لا ينافى الاشتغال بحب الله فان من الحب له امتثال أمره وقد أمر بالحذر من العدو كما أمر بالحذر من الكفار فقال تعالى وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم وقال تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل فاذا ألزمك بامر الله الحذر من

عنيدا * ولا يبتدئ بالطعام حتى يبدأ المقدم أو الشيخ روى حذيفة قال كنا اذا حضرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما لم يضع أحدنا يده حتى يبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأكل باليمين روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ليأكل أحدكم بيمينه وليشرب بيمينه وليأخذ بيمينه وليعط بيمينه فان الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله ويأخذ بشماله ويعطى بشماله وان كان المأكول تمرا أو ماله عجم لا يجمع من ذلك ما يرمى وما يؤكل على الطبق ولا فى كفه بل يضع ذلك على ظهر كفه من فيه ويرميه ولا يأكل من ذروة الثريد روى عبد الله بن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا وضع الطعام فخذوا من حاشيته وذروا وسطه فان البركة

العدو الكافر وأنت تراه فبأن يلزمك الحذر من عدو يراك ولا تراه أولى ولذلك قال ابن محيريز صيد تراه ولا يراك يوشك أن تظفر به وصيد يراك ولا تراه يوشك أن يظفر بك فأشار الى الشيطان فكيف وليس في الغفلة عن عداوة الكافر الا القتل هو شهادة وفي اهمال الحذر من الشيطان التعرض للنار والعقاب الاليم فليس من الاشتغال بالله الاعراض عما حذر الله وبه يبطل مذهب الفرقة الثانية في ظنهم أن ذلك قادح في التوكل فان أخذ الترس والسلاح وجمع الجنود وحفر الخندق لم يقدح في توكل رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يقدح في التوكل الخوف مما خوف الله به والحذر مما أمر بالحذر منه وقد ذكرنا في كتاب التوكل ما يبين غلط من زعم أن معنى التوكل النزوع عن الاسباب بالكلية وقوله تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل لا يناقض امتثال التوكل مهما اعتقد القلب أن الضار والنافع والمحيي والمميت هو الله تعالى فكذلك يحذر الشيطان ويعتقد أن الهادي والمضل هو الله ويرى الاسباب وسائط مسخرة كما ذكرناه في التوكل وهذا ما اختاره الحرث المحاسبي رحمه الله وهو الصحيح الذي يشهد له نور العلم وما قبله يشبه أن يكون من كلام العباد الذين لم يغزر علمهم ويظنون أن ما يهجم عليهم من الاحوال في بعض الاوقات من الاستغراق بالله يستمر على الدوام وهو بعيد ثم اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه في كيفية الحذر فقال قوم اذا حذرنا الله تعالى العدو فلا ينبغي أن يكون شئ أغلب على قلوبنا من ذكره والحذر منه والترصد له فانا ان غفلنا عنه لحظة فيوشك أن يهلكنا وقال قوم ان ذلك يؤدي الى خلو القلب عن ذكر الله واشتغال الهم كله بالشيطان وذلك مراد الشيطان منا بل نشتغل بالعبادة وبذكر الله ولا ننسى الشيطان وعداوته والحاجة الى الحذر منه فنجمع بين الامرين فانا ان نسيناه ربما عرض من حيث لا نحتسب وان تجردنا لذكره كنا قد أهملنا ذكر الله فالجمع أولى وقال العلماء المحققون غلط الفريقان أما الاول فقد تجرد لذكر الشيطان ونسي ذكر الله فلا يخفى غلطه وانما أمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدنا عن الذكر فكيف نجعل ذكره أغلب الاشياء على قلوبنا وهو منتهى ضرر العدو ثم يؤدي ذلك الى خلو القلب عن نور ذكر الله تعالى فاذا قصد الشيطان مثل هذا القلب وليس فيه نور ذكر الله تعالى وقوة الاشتغال به فيوشك أن يظفر به ولا يقوى على دفعه فلم يأمرنا بانتظار الشيطان ولا بادمان ذكره وأما الفرقة الثانية فقد شاركت الاولى اذ جمعت في القلب بين ذكر الله والشيطان وبقدر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله وقد أمر الله الخلق بذكره ونسيان ما عداه ابليس وغيره فالحق أن يلزم العبد قلبه الحذر من الشيطان ويقرر على نفسه عداوته فاذا اعتقد ذلك وصدق به وسكن الحذر فيه فيشتغل بذكر الله ويكب عليه بكل الهمة ولا يخطر بباله أمر الشيطان فانه اذا اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته ثم خطر الشيطان له تنبه له وعند التنبه يشتغل بدفعه والاشتغال بذكر الله لا يمنع من التيقظ عند نزغة الشيطان بل الرجل ينام وهو خائف من أن يفوته مهم عند طلوع الصبح فيلزم نفسه الحذر وينام على أن يتنبه في ذلك الوقت فيتنبه في الليل مرات قبل أوانه لما أسكن في قلبه من الحذر مع أنه بالنوم غافل عنه فاشتغاله بذكر الله كيف يمنع تنبهه ومثل هذا القلب هو الذي يقوى على دفع العدو اذا كان اشتغاله بمجرد ذكر الله تعالى قد أمات منه الهوى وأحيا فيه نور العقل والعلم وأماط عنه ظلمة الشهوات فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان وترصده وألزموها الحذر ثم لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله ودفعوا بالذكر شر العدو واستضاؤا بنور الذكر حتى صرفوا خواطر العدو فمثال القلب مثال بئر أريد تطهيرها من الماء القذر ليتفجر منها الماء الصافي فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر والذي جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله قد نزح الماء القذر من جانب ولكنه تركه جاريا اليها من جانب آخر فيطول تعبه ولا تجف البئر من الماء القذر والبصير هو الذي جعل لمجرى الماء القذر سدا وملأها بالماء الصافي فاذا جاء الماء القذر دفعه بالسكر والسد من غير كلفة ومؤنة وزيادة تعب

(بيان الرخصة في قصد اظهار الطاعات)

اعلم أن في الاسرار للاعمال فائدة الاخلاص والنجاة من الرياء وفي الاظهار فائدة الاقتداء وترغيب الناس في الخير ولكن فيه آفة الرياء قال الحسن قد علم المسلمون أن السر أحرز العملين ولكن في الاظهار أيضا فائدة ولذلك أثنى الله تعالى على السر والعلانية فقال ان تبدوا الصدقات فنعما هي وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو

تنزل في وسطه * ولا يعيب الطعام روى أبو هريرة رضي الله عنه قال ما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما قط ان اشتهاه أكله والا تركه واذا سقطت اللقمة فليأكلها فقد روى أنس ابن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا سقطت لقمة أحدكم فليمط عنها الاذى وليأكلها ولا يدعها للشيطان ويلعق أصابعه فقد روى جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا أكل أحدكم الطعام فليمص أصابعه فانه لا يدري في أي طعامه تكون البركة وهكذا أمر عليه السلام باسلات القصعة وهو مسحها من الطعام قال أنس رضي الله عنه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم باسلات القصعة ولا ينفخ في الطعام فقد روت عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال النفخ في الطعام

خير لكم والاظهار قسمان أحدهما فى نفس العمل والآخر بالتحدث بما عمل *(القسم الاول)* اظهار نفس العمل كالصدقة فى الملا لترغيب الناس فيها كما روى عن الانصارى الذى جاء بالصرة فتتابع الناس بالعطية لما رأوه فقال النبى صلى الله عليه وسلم من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه وتجرى سائر الاعمال هذا المجرى من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيرها ولكن الاقتداء فى الصدقة على الطباع أغلب نعم الغازى اذا هم بالخروج فاستعد وشد الرحل قبل القوم تحريضا لهم على الحركة فذلك أفضل له لان الغزو فى أصله من أعمال العلانية لا يمكن اسراره فالمبادرة اليه ليست من الاعلان بل هو تحريض مجرد وكذلك الرجل قد يرفع صوته فى الصلاة بالليل لينبه جيرانه وأهله فيقتدى به فكل عمل لا يمكن اسراره كالحج والجهاد والجمعة فالافضل المبادرة اليه واظهار الرغبة فيه للتحريض بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء وأما ما يمكن اسراره كالصدقة والصلاة فان كان اظهار الصدقة يؤذى المتصدق عليه ويرغب الناس فى الصدقة فالسر أفضل لان الايذاء حرام فان لم يكن فيه ايذاء فقد اختلف الناس فى الافضل فقال قوم السر أفضل من العلانية وان كان فى العلانية قدوة وقال قوم السر أفضل من علانية لا قدوة فيها أما العلانية للقدوة فافضل من السر ويدل على ذلك أن الله عز وجل أمر الانبياء باظهار العمل للاقتداء وخصهم بمنصب النبوة ولا يجوز أن يظن بهم أنهم حرموا أفضل العملين ويدل عليه قوله عليه السلام له أجرها وأجر من عمل بها وقد روى فى الحديث ان عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفا ويضاعف عمل العلانية اذا استن بعامله على عمل السر سبعين ضعفا وهذا الاوجه للخلاف فيه فانه مهما انفك القلب عن شوائب الرياء وتم الاخلاص على وجه واحد فى الحالتين فما يقتدى به أفضل لا محالة وانما يخاف من ظهور الرياء ومهما حصلت شائبة الرياء لم ينفعه اقتداء غيره وهلك به فلا خلاف فى أن السر أفضل منه ولكن على من يظهر العمل وظيفتان احداهما أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدى به أو يظن ذلك ظنا ورب رجل يقتدى به أهله دون جيرانه وربما يقتدى به جيرانه دون أهل السوق وربما يقتدى به أهل محلته وانما العالم المعروف هو الذى يقتدى به الناس كافة فغير العالم اذا أظهر بعض الطاعات ربما نسب الى الرياء والنفاق وذموه ولم يقتدوا به فليس له الاظهار من غير فائدة وانما يصح الاظهار بنية القدوة ممن هو فى محل القدوة على من هو فى محل الاقتداء به والثانية أن يراقب قلبه فانه ربما يكون فيه حب الرياء الخفى فيدعوه الى الاظهار بعذر الاقتداء وانما شهوته التجمل بالعمل وبكونه يقتدى به وهذا حال كل من يظهر أعماله الا الاقوياء المخلصين وقليل ما هم فلا ينبغى أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر فان الضعيف مثاله مثال الغريق الذى يحسن سباحة ضعيفة فنظر الى جماعة من الغرقى فرحمهم فاقبل عليهم حتى تشبثوا به فهلكوا وهلك والغرق بالماء فى الدنيا ألمه ساعة وليت كان الهلاك بالرياء مثله لا بل عذابه دائم مدة مديدة وهذه مزلة أقدام العباد والعلماء فانهم يتشبهون بالاقوياء فى الاظهار ولا تقوى قلوبهم على الاخلاص فتحبط أجورهم بالرياء والتفطن لذلك غامض ومحك ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو قيل له أخف العمل حتى يقتدى الناس بعابد آخر من أقرانك ويكون لك فى السر مثل أجر الاعلام فان مال قلبه الى أن يكون هو المقتدى به وهو المظهر للعمل فباعثه الرياء دون طلب الاجر واقتداء الناس به ورغبتهم فى الخير فانهم قد رغبوا فى الخير بالنظر الى غيره وأجره قد توفر عليه مع اسراره فما بال قلبه يميل الى الاظهار لولا ملاحظته لاعين الخلق ومراآتهم فليحذر العبد خدع النفس فان النفس خدوع والشيطان مترصد وحب الجاه على القلب غالب وقلما تسلم الاعمال الظاهرة عن الآفات فلا ينبغى أن يعدل بالسلامة شيأ والسلامة فى الاخفاء وفى الاظهار من الاخطار ما لا يقوى عليه أمثالنا فالحذر من الاظهار أولى بنا وبجميع الضعفاء *(القسم الثانى)* أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ وحكمه حكم اظهار العمل نفسه والخطر فى هذا أشد لان مؤنة النطق خفيفة على اللسان وقد تجرى فى الحكايات زيادة ومبالغة وللنفس لذة فى اظهار الدعاوى عظيمة الا أنه لو تطرق اليه الرياء لم يؤثر فى افساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها فهو من هذا الوجه أهون والحكم فيه أن من قوى قلبه وتم اخلاصه وصغر نفسه فى عينه واستوى عنده مدحهم وذمهم وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به والرغبة فى الخير بسببه فهو جائز بل هو مندوب اليه ان صفت النية وسلمت

يذهب بالبركة وروى عبد الله بن عباس أنه قال لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفخ فى طعام ولا فى شراب ولا يتنفس فى الاناء فليس من الادب ذلك والخل والبقل على السفرة من السنة قيل ان الملائكة تحضر المائدة اذا كان عليها بقل وروت أم سعد رضى الله عنها قالت دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة رضى الله عنها وأنا عندها فقال هل من غداء فقالت عندنا خبز وتمر وخل فقال عليه السلام نعم الادام الخل اللهم بارك فى الخل فانه كان ادام الانبياء قبلى ولم يفتقر بيت فيه خل ولا يصمت على الطعام فهو من سيرة الاعاجم ولا يقطع اللحم والخبز بالسكين ففيه نهى ولا يكف يده عن الطعام حتى يفرغ الجميع فقد ورد عن ابن عمر رضى الله عنهما أن

من جميع الآفات لانه ترغيب في الخير والترغيب في الخير خير وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الاقوياء
قال سعد بن معاذ ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي بغيرها ولا تبعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي
قائلة وما هو مقول لها وما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول قولا قط الا علمت أنه حق وقال عمر رضي الله عنه ما
أبالي أصبحت على عسر أو يسر لاني لا أدري أيهما خير لي وقال ابن مسعود ما أصبحت على حال فتمنيت أن أكون
على غيرها وقال عثمان رضي الله عنه ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري بيميني منذ بايعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم وقال شداد بن أوس ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت حتى أزمها وأخطمها غير هذه وكان قد قال لغلامه
ائتنا بالسفرة لنعبث بها حتى ندرك الغداء وقال أبو سفيان لاهله حين حضره الموت لا تبكوا علي فاني ما أحدثت
ذنبا منذ أسلمت وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى ما قضى الله في بقضاء قط فسرني أن يكون قضى
لي بغيره وما أصبح لي هوى الا في مواقع قدر الله فهذا كله اظهار لاحوال شريفة وفيها غاية المراآة اذا صدرت
ممن يرائي بها وفيها غاية الترغيب اذا صدرت ممن يقتدى به فذلك على قصد الاقتداء جائز للاقوياء بالشروط التي
ذكرناها فلا ينبغي أن يسد باب الاظهار والطباع مجبولة على حب التشبه والاقتداء بل اظهار المرائي
للعبادة اذا لم يعلم الناس أنه رياء فيه خير كثير للناس ولكنه شر للمرائي فكم من مخلص كان سبب اخلاصه الاقتداء
بمن هو مراء عند الله وقد روي أنه كان يجتاز الانسان في سكك البصرة عند الصبح فيسمع أصوات المصلين بالقرآن
من البيوت فصنف بعضهم كتابا في دقائق الرياء فتركوا ذلك وترك الناس الرغبة فيه فكانوا يقولون ليت ذلك
الكتاب لم يصنف فاظهار المرائي فيه خير كثير لغيره اذا لم يعرف رياؤه وان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر
وبأقوام لا خلاق لهم كما ورد في الاخبار وبعض المرائين ممن يقتدى به منهم والله تعالى أعلم

(بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس عليه وكراهة ذمهم له)

اعلم أن الاصل في الاخلاص استواء السريرة والعلانية كما قال عمر رضي الله عنه لرجل عليك بعمل العلانية قال
يا أمير المؤمنين وما عمل العلانية قال ما اذا اطلع عليك لم تستحي منه وقال أبو مسلم الخولاني ما عملت عملا أبالي أن
يطلع الناس عليه الا اتياني أهلي والبول والغائط الا أن هذه درجة عظيمة لا ينالها كل أحد ولا يخلو الانسان
عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه وهو يخفيها ويكره اطلاع الناس عليها لا سيما ما تختلج به الخواطر في الشهوات
والاماني والله مطلع على جميع ذلك فارادة العبد لاخفائها عن العبيد ربما يظن أنه رياء محظور وليس كذلك بل
المحظور أنه يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى مع أنه ليس كذلك فهذا هو ستر المرائي وأما
الصادق الذي لا يرائي فله ستر المعاصي ويصح قصده فيه ويصح اغتمامه باطلاع الناس عليه من ثمانية أوجه
*(الاول) أن يفرح بستر الله عليه واذا افتضح اغتم بهتك الله ستره وخاف أن يهتك ستره في القيامة اذ ورد في
الخبر أن من ستر الله عليه في الدنيا ذنبا ستره الله عليه في الآخرة وهذا غم ينشأ من قوة الايمان *(الثاني)* انه
قد علم أن الله تعالى يكره ظهور المعاصي ويحب سترها كما قال صلى الله عليه وسلم من ارتكب شيأ من هذه
القاذورات فليستتر بستر الله فهو وان عصى الله بالذنب فلم يخل قلبه عن محبة ما أحبه الله وهذا ينشأ من قوة
الايمان بكراهة الله ظهور المعاصي وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضا ويغتم بسببه
(الثالث) أن يكره ذم الناس له به من حيث ان ذلك يغمه ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى فان الطبع
يتأذى بالذم وينازع العقل ويشتغل عن الطاعة وبهذه العلة أيضا ينبغي أن يكره الحمد الذي يشغله عن ذكر الله
تعالى ويستغرق قلبه ويصرفه عن الذكر وهذا أيضا من قوة الايمان اذ صدق الرغبة في فراغ القلب لاجل
الطاعة من الايمان *(الرابع)* أن يكون ستره ورغبته فيه لكراهته لذم الناس من حيث يتأذى طبعه فان
الذم مؤلم للقلب كما أن الضرب مؤلم للبدن وخوف تألم القلب بالذم ليس بحرام ولا الانسان به عاص وانما يعصي
اذا جزعت نفسه من ذم الناس ودعته الى ما لا يجوز حذرا من ذمهم وليس يجب على الانسان أن لا يغتم بذم الخلق
ولا يتألم به نعم كمال الصدق في أن تزول عنه رؤية الخلق فيستوي عنده ذامه ومادحه لعلمه أن الضار والنافع هو
الله وان العباد كلهم عاجزون وذلك قليل جدا وأكثر الطباع تتألم بالذم لما فيه من الشعور بالنقصان ورب تألم

بالذم

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا وضعت المائدة فلا يقوم رجل حتى ترفع المائدة ولا يرفع يده وان شبع حتى يفرغ القوم وليتعلل فان الرجل يخجل جليسه فيقبض يده وعسى أن يكون له في الطعام حاجة *واذا وضع الخبز لا ينتظر غيره فقد روى أبو موسى الاشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرموا الخبز فان الله تعالى سخر لكم بركات السماء والارض والحديد والبقر وابن آدم ومن أحسن الادب وأهمه أن لا يأكل الا بعد الجوع ويمسك عن الطعام قبل الشبع فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه ومن عادة الصوفية أن يلقم الخادم اذا لم يجلس مع القوم وهو سنة روى أبو هريرة رضي الله عنه قال قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم اذا جاء

بالذم محمود اذا كان الذام من أهل البصيرة فى الدين فانهم شهداء الله وذمهم يدل على ذم الله تعالى وعلى نقصان فى الدين فكيف لايغتم به نعم الغم المذموم هو أن يغتم لفوات الحمد بالورع كأنه يحب أن يحمد بالورع ولا يجوز أن يحب أن يحمد بطاعة الله فيكون قد طلب بطاعة الله ثوابا من غيره فان وجد ذلك فى نفسه وجب عليه أن يقابله بالكراهة والرد وأما كراهة الذم بالمعصية من حيث الطبع فليس بمذموم فله الستر حذرا من ذلك ويتصور أن يكون العبد بحيث لايحب الحمد ولكن يكره الذم وانما مراده أن يتركه الناس حمدا وذما فكم من صابر عن لذة الحمد لايصبر على ألم الذم اذ الحمد يطلب اللذة وعدم اللذة لا يؤلم وأما الذم فانه مؤلم فحب الحمد على الطاعة طلب ثواب على الطاعة فى الحال وأما كراهة الذم على المعصية فلا محذور فيه الا أمر واحد وهو أن يشغله غمه باطلاع الناس على ذنبه عن اطلاع الله فان ذلك غاية النقصان فى الدين بل ينبغى أن يكون غمه باطلاع الله وذمه له أكثر *(الخامس)* أن يكره الذم من حيث ان الذام قد عصى الله تعالى به وهذا من الايمان وعلامته أن يكره ذمه لغيره أيضا فهذا التوجع لا يفرق بينه وبين غيره بخلاف التوجع من جهة الطبع *(السادس)* أن يستر ذلك كيلا يقصد بشر اذا عرف ذنبه وهذا وراء ألم الذم فان الذم مؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه وخسته وان كان ممن يؤمن شره وقد يخاف شر من يطلع على ذنبه بسبب من الاسباب فله أن يستر ذلك حذرا منه *(السابع)* مجرد الحياء فانه نوع ألم وراء ألم الذم والقصد بالشر وهو خلق كريم يحدث فى أول الصبا مهما أشرق عليه نور العقل فيستحى من القبائح اذا شوهدت منه وهو وصف محمود اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياء خير كله وقال صلى الله عليه وسلم الحياء شعبة من الايمان وقال صلى الله عليه وسلم الحياء لا يأتى الا بخير وقال صلى الله عليه وسلم ان الله يحب الحيى الحليم فالذى يفسق ولا يبالى أن يظهر فسقه للناس جمع الى الفسق التهتك والوقاحة وفقد الحياء فهو أشد حالا ممن يستتر ويستحى الا أن الحياء ممتزج بالرياء ومشتبه به اشتباها عظيما قل من يتفطن له ويدعى كل مراء انه مستحى وان سبب تحسينه العبادات هو الحياء من الناس وذلك كذب بل الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم وتهيج عقيبه داعية الرياء وداعية الاخلاص ويتصور أن يخلص معه ويتصور أن يرائى معه وبيانه ان الرجل يطلب من صديق له قرضا ونفسه لاتسخو باقراضه الا أنه يستحى من رده وعلم انه لو راسله على لسان غيره لكان لا يستحى ولا يقرض رياء ولا لطلب الثواب فله عند ذلك أحوال احداها أن يشافهه بالرد الصريح ولا يبالى فينسب الى قلة الحياء وهذا فعل من لا حياء له فان المستحى اما أن يتعلل أو يقرض فان أعطى فيتصور له ثلاثة أحوال أحدها أن يمزج الرياء بالحياء بان يهيج الحياء فيقبح عنده الرد فيهيج خاطر الرياء ويقول ينبغى أن تعطى حتى يثنى عليك ويحمدك وينشر اسمك بالسخاء أو ينبغى أن تعطى حتى لا يذمك ولا ينسبك الى البخل فاذا أعطى فقد أعطى بالرياء وكان المحرك للرياء هو هيجان الحياء* الثانى أن يتعذر عليه الرد بالحياء ويبقى فى نفسه البخل فيتعذر الاعطاء فيهيج داعى الاخلاص ويقول له ان الصدقة بواحدة والقرض بثمان عشرة ففيه أجر عظيم وادخال سرور على قلب صديق وذلك محمود عند الله تعالى فتسخو النفس بالاعطاء لذلك فهذا مخلص هيج الحياء اخلاصه* الثالث أن لا يكون له رغبة فى الثواب ولا خوف من مذمته ولا حب لمحمدته لانه لو طلبه مراسلة لكان لا يعطيه فأعطاه بمحض الحياء وهو ما يجده فى قلبه من ألم الحياء ولولا الحياء لرده ولو جاءه من لا يستحى منه من الاجانب والاراذل لكان يرده وان كثر الحمد والثواب فيه فهذا مجرد الحياء ولا يكون هذا الا فى القبائح كالبخل ومقارفة الذنوب والمرائى يستحى من المباحات أيضا حتى انه يرى مستعجلا فى المشى فيعود الى الهدو أو ضاحكا فيرجع الى الانقباض ويزعم أن ذلك حياء وهو عين الرياء وقد قيل ان بعض الحياء ضعف وهو صحيح والمراد به الحياء مما ليس بقبيح كالحياء من وعظ الناس وامامة الناس فى الصلاة وهو فى الصبيان والنساء محمود وفى العقلاء غير محمود وقد تشاهد معصية من شيخ فتستحى من شيبته أن تنكر عليه لان من اجلال الله اجلال ذى الشيبة المسلم وهذا الحياء حسن وأحسن منه أن تستحى من الله فلا تضيع الامر بالمعروف فالقوى يؤثر الحياء من الله على الحياء من الناس والضعيف قد لا يقدر عليه فهذه هى الاسباب التى يجوز لاجلها ستر القبائح والذنوب (الثامن) أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجرئ عليه غيره ويقتدى به وهذه العلة الواحدة فقط هى الجارية فى اظهار

أحدكم خادمه بطعام فان لم يجلسه معه فليناوله أكلة أو أكلتين فانه ولى حره ودخانه واذا فرغ من الطعام يحمد الله تعالى روى أبو سعيد قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أكل طعاما قال الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من أكل طعاما فقال الحمد لله الذى أطعمنى هذا ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه ويتخلل فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تخللوا فانه نظافة والنظافة تدعو الى الايمان والايمان مع صاحبه فى الجنة ويغسل يده فقد روى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من بات وفى يده غمر لم يغسل فاصابه شئ فلا يلومن الا نفسه ومن السنة غسل الايدى فى

الطاعة وهو القدوة ويختص ذلك بالائمة أو بمن يقتدى به وبهذه العلة ينبغى أيضا أن يخفى العاصى أيضا معصيته من أهله وولده لانهم يتعلمون منه ففى ستر الذنوب هذه الاعذار الثمانية وليس فى اظهار الطاعة عذر الا هذا العذر الواحد ومهما قصد بستر المعصية أن يخيل الى الناس أنه ورع كان مرائيا كما اذا قصد ذلك باظهار الطاعة فان قلت فهل يجوز للعبد أن يحب حمد الناس له بالصلاح وحبهم اياه بسببه وقد قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم دلنى على ما يحبنى الله عليه ويحبنى الناس قال ازهد فى الدنيا يحبك الله وانبذ اليهم هذا الحطام يحبوك فنقول حبك لحب الناس لك قد يكون مباحا وقد يكون محمودا وقد يكون مذموما فالمحمود أن تحب ذلك لتعرف به حب الله لك فانه تعالى اذا أحب عبدا حببه فى قلوب عباده والمذموم أن تحب حبهم وحمدهم على حجك وغزوك وصلاتك وعلى طاعة بعينها فان ذلك طلب عوض على طاعة الله عاجل سوى ثواب الله والمباح أن تحب أن يحبوك لصفات محمودة سوى الطاعات المحمودة المعينة فحبك ذلك كحب المال لان ملك القلوب وسيلة الى الاغراض كملك الاموال فلا فرق بينهما

(بيان ترك الطاعات خوفا من الرياء ودخول الآفات)

اعلم ان من الناس من يترك العمل خوفا من أن يكون مرائيا به وذلك غلط وموافقة للشيطان بل الحق فيما يترك من الاعمال وما لا يترك لخوف الآفات ما نذكره وهو أن الطاعات تنقسم الى ما لا لذة فى عينه كالصلاة والصوم والحج والغزو فانها مقاساة ومجاهدات انما تصير لذيذة من حيث انها توصل الى حمد الناس وحمد الناس لذيذ وذلك عند اطلاع الناس عليه والى ما هو لذيذ وهو أكثر ما لا يقتصر على البدن بل يتعلق بالخلق كالخلافة والقضاء والولايات والحسبة وامامة الصلاة والتذكير والتدريس وانفاق المال على الخلق وغير ذلك مما تعظم الآفة فيه لتعلقه بالخلق ولما فيه من اللذة (القسم) الاول الطاعات اللازمة للبدن التى لا تتعلق بالغير ولا لذة فى عينها كالصوم والصلاة والحج فخطرات الرياء فيها ثلاث احداها ما يدخل قبل العمل فيبعث على الابتداء لرؤية الناس وليس معه باعث الدين فهذا مما ينبغى أن يترك لانه معصية لا طاعة فيه فانه تدرع بصورة الطاعة الى طلب المنزلة فان قدر الانسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرياء ويقول لها ألا تستحيين من مولاك لا تسخين بالعمل لاجله وتسخين بالعمل لاجل عباده حتى يندفع باعث الرياء وتسخو النفس بالعمل لله عقوبة للنفس على خاطر الرياء وكفارة له فليشتغل بالعمل الثانية أن ينبعث لاجل الله ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأولها فلا ينبغى أن يترك العمل لانه وجد باعثا دينيا فليشرع فى العمل وليجاهد نفسه فى دفع الرياء وتحسين الاخلاص بالمعالجات التى ذكرناها من الزام النفس كراهة الرياء والاباء عن القبول الثالثة أن يعقد على الاخلاص ثم يطرأ الرياء ودواعيه فينبغى أن يجاهد فى الدفع ولا يترك العمل لكى يرجع الى عقد الاخلاص ويرد نفسه اليه قهرا حتى يتمم العمل لان الشيطان يدعوك أولا الى ترك العمل فاذا لم تجب واشتغلت فيدعوك الى الرياء فاذا لم تجب ودفعت بقى يقول لك هذا العمل ليس بخالص وأنت مراء وتعبك ضائع فأى فائدة لك فى عمل لا اخلاص فيه حتى يحملك بذلك على ترك العمل فاذا تركته فقد حصلت غرضه ومثال من يترك العمل لخوفه أن يكون مرائيا كمن سلم اليه مولاه حنطة فيها زوان وقال خلصها من الزوان ونقها منه تنقية بالغة فيترك أصل العمل ويقول أخاف ان اشتغلت به لم تخلص خلاصا صافيا نقيا فترك العمل من أجله هو ترك الاخلاص مع أصل العمل فلا معنى له ومن هذا القبيل أن يترك العمل خوفا على الناس أن يقولوا انه مراء فيعصون الله به فهذا من مكايد الشيطان لانه أولا أساء الظن بالمسلمين وما كان من حقه أن يظن بهم ذلك ثم ان كان فلا يضره قولهم ويفوته ثواب العبادة وترك العمل خوفا من قولهم انه مراء هو عين الرياء فلولا حبه لحمدتهم وخوفه من ذمهم فماله ولقولهم قالوا انه مراء أو قالوا انه مخلص وأى فرق بين أن يترك العمل خوفا من أن يقال انه مراء وبين أن يحسن العمل خوفا من أن يقال انه غافل مقصر بل ترك العمل أشد من ذلك فهذه كلها مكايد الشيطان على العباد الجهال ثم كيف يطمع فى أن يتخلص من الشيطان بان يترك العمل والشيطان لا يخليه بل يقول له الآن يقول الناس انك تركت العمل ليقال انه مخلص لا يشتهى الشهرة فيضطرك بذلك الى أن تهرب فان هربت ودخلت سربا تحت الارض ألقى فى قلبك حلاوة معرفة الناس لتزهدك وهربك منهم وتعظيمهم لك بقلوبهم على ذلك فكيف تتخلص منه بل لا نجاة منه الا بان

تلزم

طست واحد روى ابن عمر رضى الله عنهما انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أترعوا الطسوس وخالفوا المجوس ويستحب مسح العين ببلل اليد (روى) أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا توضأتم فأشربوا أعينكم الماء ولا تنفضوا أيديكم فانها مراوح الشيطان قيل لابى هريرة فى الوضوء وغيره قال نعم فى الوضوء وغيره وفى غسل اليد يأخذ الاسنان باليمين وفى الخلال لا يزدرد ما يخرج بالخلال من الاسنان وأما ما يلوكه باللسان فلا بأس به ويجتنب التصنع فى أكل الطعام ويكون أكله بين الجمع كأكله منفردا فآفات الرياء يدخل على العبد فى كل شئ وصف لبعض العلماء بعض العباد فلم يثن عليه قيل له تعلم به بأسا قال نعم رأيته يتصنع فى الاكل ومن

تلزم قلبك معرفة آفة الرياء وهو انه ضرر فى الآخرة ولا نفع فيه فى الدنيا لتلزم الكراهة والاباء قلبك وتستمر مع ذلك على العمل ولا تبالى وان نزغ العدو ونازع الطبع فان ذلك لا ينقطع وترك العمل لاجل ذلك يجر الى البطالة وترك الخيرات فما دمت تجد باعثا دينيا على العمل فلا تترك العمل وجاهد خاطر الرياء وألزم قلبك الحياء من الله اذا دعتك نفسك الى ان تستبدل بحمده حمد المخلوقين وهو مطلع على قلبك ولو اطلع الخلق على قلبك وانك تريد حمدهم لمقتوك بل ان قدرت على ان تزيد فى العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل فان قال لك الشيطان أنت مراء فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف فى قلبك من كراهة الرياء وابائه وخوفك منه وحيائك من الله تعالى وان لم تجد فى قلبك له كراهية ومنه خوفا ولم يبق باعث دينى بل تجرد باعث الرياء فاترك العمل عند ذلك وهو بعيد فمن شرع فى العمل لله فلابد أن يبقى معه أصل قصد الثواب فان قلت فقد نقل عن أقوام ترك العمل مخافة الشهرة روى ان ابراهيم النخعى دخل عليه انسان وهو يقرأ فاطبق المصحف وترك القراءة وقال لا يرى هذا انا نقرأ كل ساعة وقال ابراهيم التيمى اذا أعجبك الكلام فاسكت واذا أعجبك السكوت فتكلم وقال الحسن ان كان أحدهم ليمر بالاذى ما يمنعه من دفعه الا كراهة الشهرة وكان أحدهم يأتيه البكاء فيصرفه الى الضحك مخافة الشهرة وقد ورد فى ذلك آثار كثيرة قلنا هذا يعارضه ما ورد من اظهار الطاعات ممن لا يحصى واظهار الحسن البصرى هذا الكلام فى معرض الوعظ أقرب الى خوف الشهرة من البكاء واماطة الاذى عن الطريق ثم لم يتركه وبالجملة ترك النوافل جائز والكلام فى الافضل والافضل انما يقدر عليه الاقوياء دون الضعفاء فالافضل أن يتم العمل ويجتهد فى الاخلاص ولا يتركه وأرباب الاعمال قد يعالجون أنفسهم بخلاف الافضل لشدة الخوف فالاقتداء ينبغى أن يكون بالاقوياء واما اطباق ابراهيم النخعى المصحف فيمكن ان يكون لعلمه بانه سيحتاج الى ترك القراءة عند دخوله واستئنافه بعد خروجه للاشتغال بمكالمته فرأى ان لا يراه فى القراءة أبعد عن الرياء وهو عازم على الترك للاشتغال به حتى يعود اليه بعد ذلك واما ترك دفع الاذى فذلك ممن يخاف على نفسه آفة الشهرة واقبال الناس عليه وشغلهم اياه عن عبادات هى أكبر من رفع خشبة من الطريق فيكون ترك ذلك للمحافظة على عبادات هى أكبر منها لا بمجرد خوف الرياء واما قول التيمى اذا أعجبك الكلام فاسكت يجوز أن يكون قد أراد به مباحات الكلام كالفصاحة فى الحكايات وغيرها فان ذلك يورث العجب وكذلك العجب بالسكوت المباح محذور فهو عدول عن مباح الى مباح حذرا من العجب فاما الكلام الحق المندوب اليه فلم ينص عليه على ان الآفة مما تعظم فى الكلام فهو واقع فى القسم الثانى وانما كلامنا فى العبادات الخاصة ببدن العبد مما لا يتعلق بالناس ولا تعظم فيه الآفات ثم كلام الحسن فى تركهم البكاء واماطة الاذى لخوف الشهرة ربما كان حكاية أحوال الضعفاء الذين لا يعرفون الافضل ولا يدركون هذه الدقائق وانما ذكره تخويفا للناس من آفة الشهرة وزجرا عن طلبها (القسم الثانى) ما يتعلق بالخلق وتعظم فيه الآفات والاخطار وأعظمها الخلافة ثم القضاء ثم التذكير والتدريس والفتوى ثم انفاق المال أما الخلافة والامارة فهى من أفضل العبادات اذا كان ذلك مع العدل والاخلاص وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم ليوم من امام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاما فاعظم بعبادة يوازى يوم منها عبادة ستين سنة وقال صلى الله عليه وسلم أول من يدخل الجنة ثلاثة الامام المقسط أحدهم وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل أحدهم وقال صلى الله عليه وسلم أقرب الناس منى مجلسا يوم القيامة امام عادل رواه أبو سعيد الخدرى فالامارة والخلافة من أعظم العبادات ولم يزل المتقون يتركونها ويحترزون منها ويهربون من تقلدها وذلك لما فيها من عظيم الخطر اذ تتحرك بها الصفات الباطنة ويغلب على النفس حب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الامر وهو أعظم ملاذ الدنيا فاذا صارت الولاية محبوبة كان الوالى ساعيا فى حظ نفسه ويوشك ان يتبع هواه فيمتنع من كل ما يقدح فى جاهه وولايته وان كان حقا ويقدم على ما يزيد فى مكانته وان كان باطلا وعند ذلك يهلك ويكون يوم من سلطان جائر شرا من فسق ستين سنة بمفهوم الحديث الذى ذكرناه ولهذا الخطر العظيم كان عمر رضى الله عنه يقول من يأخذها بما فيها وكيف لا وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم ما من والى عشيرة الا جاء يوم القيامة مغلولة يده الى عنقه أطلقه عدله أو أوبقه جوره رواه معقل بن

تصنع فى الاكل لا يؤمن عليه التصنع فى العمل وان كان الطعام حلالا فليقل الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وتنزل البركات اللهم صل على محمد وعلى آل محمد اللهم أطعمنا طيبا واستعملنا صالحا وان كان شبهة يقول الحمد لله على كل حال اللهم صل على محمد ولا تجعله عونا على معصيتك وليكثر الاستغفار والحزن ويبكى على أكل الشبهة ولا يضحك فليس من يأكل وهو يبكى كمن يأكل وهو يضحك ويقرأ بعد الطعام قل هو الله أحد ولايلاف قريش ويجتنب الدخول على قوم فى وقت أكلهم فقد ورد من مشى الى طعام لم يدع اليه مشى فاسقا وأكل حراما وسمعنا الفظا آخر دخل سارقا وخرج مغيرا الا أن يتفق دخوله على قوم يعلم منهم فرحهم بموافقته ويستحب أن يخرج الرجل مع

يسار وولاه عمر ولاية فقال يا أمير المؤمنين أشر على قال اجلس واكتم على وروى الحسن أن رجلا ولاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال للنبي خر لي قال اجلس وكذلك حديث عبد الرحمن بن سمرة اذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم يا عبد الرحمن لا تسأل الامارة فانك ان أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها وان أوتيتها عن مسألة وكلت اليها وقال أبو بكر رضي الله عنه لرافع بن عمر لا تأمر على اثنين ثم ولي هو الخلافة فقام بها فقال له رافع ألم تقل لي لا تأمر على اثنين وأنت قد وليت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال بلى وأنا أقول لك ذلك فمن لم يعدل فيها فعليه لعنة الله ولعل القليل البصيرة يرى ما ورد من فضل الامارة مع ما ورد من النهي عنها متناقضا وليس كذلك بل الحق فيه ان الخواص الاقوياء في الدين لا ينبغي أن يمتنعوا من تقلد الولايات وأن الضعفاء لا ينبغي أن يدوروا بها فيهلكوا وأعني بالقوي الذي لا تميله الدنيا ولا يستفزه الطمع ولا تأخذه في الله لومة لائم وهم الذين سقط الخلق عن أعينهم وزهدوا في الدنيا وتبرموا بها وبمخالطة الخلق وقهروا أنفسهم وملكوها وقمعوا الشيطان فأيس منهم فهؤلاء لا يحركهم الا الحق ولا يسكنهم الا الحق ولو زهقت فيه أرواحهم فهم أهل نيل الفضل في الامارة والخلافة ومن علم انه ليس بهذه الصفة فيحرم عليه الخوض في الولايات ومن جرب نفسه فرآها صابرة على الحق كافة عن الشهوات في غير الولايات ولكن خاف عليها أن تتغير اذا ذاقت لذة الولاية وان تستحلي الجاه وتستلذ نفاذ الامر فتكره العزل فيداهن خيفة من العزل فهذا قد اختلف العلماء في انه هل يلزمه الهرب من تقلد الولاية فقال قائلون لا يجب لان هذا خوف أمر في المستقبل وهو في الحال لم يعهد نفسه الا قوية في ملازمة الحق وترك لذات النفس والصحيح ان عليه الاحتراز لان النفس خداعة مدعية للحق واعدة بالخير فلو وعدت بالخير جزما لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية فكيف اذا أظهرت التردد والامتناع عن قبول الولاية أهون من العزل بعد الشروع فالعزل مؤلم وهو كما قيل العزل طلاق الرجال فاذا شرع لا تسمح نفسه بالعزل وتميل نفسه الى المداهنة واهمال الحق وتهوي به في قعر جهنم ولا يستطيع النزوع منه الى الموت الا أن يعزل قهرا وكان فيه عذاب عاجل على كل محب للولاية ومهما مالت النفس الى طلب الولاية وحملت على السؤال والطلب فهو امارة الشر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم انا لا نولي أمرنا من سألنا فاذا فهمت اختلاف حكم القوي والضعيف علمت أن نهي أبي بكر رافعا عن الولاية ثم تقلده لها ليس بمتناقض * وأما القضاء فهو وان كان دون الخلافة والامارة فهو في معناهما فان كل ذي ولاية أمير أي له أمر نافذ والامارة محبوبة بالطبع والثواب في القضاء عظيم مع اتباع الحق والعقاب فيه أيضا عظيم مع العدول عن الحق وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم القضاة ثلاثة قاضيان في النار وقاض في الجنة وقال عليه السلام من استقضي فقد ذبح بغير سكين فحكمه حكم الامارة ينبغي أن يتركه الضعفاء وكل من للدنيا ولذاتها وزن في عينه وليتقلده الاقوياء الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم ومهما كان السلاطين ظلمة ولم يقدر القاضي على القضاء الا بمداهنتهم واهمال بعض الحقوق لاجلهم ولاجل المتعلقين بهم اذ يعلم انه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه أو لم يطيعوه فليس له أن يتقلد القضاء وان تقلده فعليه أن يطالبهم بالحقوق ولا يكون خوف العزل عذرا مرخصا له في الاهمال أصلا بل اذا عزل سقطت العهدة عنه فينبغي أن يفرح بالعزل ان كان يقضي لله فان لم تسمح نفسه بذلك فهو اذا يقضي لاتباع الهوى والشيطان فكيف يرتقب عليه ثوابا وهو مع الظلمة في الدرك الاسفل من النار * وأما الوعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث وجمع الاسانيد العالية وكل ما يتسع بسببه الجاه ويعظم به القدر فآفته أيضا عظيمة مثل آفة الولايات وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا اليه سبيلا وكانوا يقولون حدثنا باب من أبواب الدنيا ومن قال حدثنا فقد قال أوسعوا لي ودفن بشر كذا كذا قمطرة من الحديث وقال يمنعني من الحديث أني أشتهي أن أحدث ولو اشتهيت أن لا أحدث لحدثت والواعظ يجد في وعظه وتأثر قلوب الناس به وتلاحق بكائهم وزعقاتهم واقبالهم عليه لذة لا توازيها لذة فاذا غلب ذلك على قلبه مال طبعه الى كل كلام مزخرف يروج عند العوام وان كان باطلا ويفر عن كل كلام يستثقله العوام وان كان حقا ويصير مصروف الهمة بالكلية الى ما يحرك قلوب العوام ويعظم منزلته في قلوبهم فلا يسمع حديثا وحكمة الا ويكون فرحه به من حيث انه يصلح لان يذكره على رأس المنبر وكان ينبغي أن يكون فرحه به من حيث انه عرف

ضيفه الى باب الدار ولا يخرج الضيف بغير اذن صاحب الدار ويجتنب المضيف التكلف الا أن يكون له نية فيه من كثرة الانفاق ولا يفعل ذلك حياء وتكلفا واذا أكل عند قوم طعاما فليقل عند فراغه ان كان بعد المغرب أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الابرار وصلت عليكم الملائكة (وروى) أيضا عليكم صلاة قوم أبرار ليسوا بآثمين ولا فجار يصلون بالليل ويصومون بالنهار كان بعض الصحابة يقول ذلك * ومن الادب أن لا يستحقر ما يقدم له من طعام وكان بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما ندري أيهم أعظم وزرا الذي يحتقر ما يقدم اليه أو الذي يحتقر ما عنده ان يقدمه * ويكره أكل طعام المباهاة وما تكلف للاعراس والتعازي فما عمل للنوائح لا يؤكل

طريق السعادة وطريق سلوك سبيل الدين ليعمل به أولا ثم يقول اذا أنعم الله على بهذه النعمه ونفعنى بهذه الحكمة فاقصها ليشاركنى فى نفعها اخوانى المسلمون فهذا أيضا مما يعظم فيه الخوف والفتنة فحكمه حكم الولايات فمن لاباعث له الا طلب الجاه والمنزلة والاكل بالدين والتفاخر والتكاثر فينبغى أن يتركه ويخالف الهوى فيه الى أن ترتاض نفسه وتقوى فى الدين همته ويأمن على نفسه الفتنة فعند ذلك يعود اليه فان قلت مهما حكم بذلك على أهل العلم تعطلت العلوم واندرست وعم الجهل كافة الخلق فنقول قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طلب الامارة وتوعد عليها حتى قال انكم تحرصون على الامارة وانها حسرة وندامة يوم القيامة الا من أخذها بحقها وقال نعمت المرضعة وبئست الفاطمة ومعلوم أن السلطنة والامارة لو تعطلت لبطل الدين والدنيا جميعا وثار القتال بين الخلق وزال الامن وخربت البلاد وتعطلت المعايش فلم نهى عنها مع ذلك وضرب عمر رضى الله عنه أبى بن كعب حين رأى قوما يتبعونه وهو فى ذلك يقول أبى سيد المسلمين وكان يقرأ عليه القرآن فمنع من أن يتبعوه وقال ذلك فتنة على المتبوع ومذلة على التابع وعمر كان بنفسه يخطب ويعظ ولا يمتنع منه واستأذن رجل عمر أن يعظ الناس اذا فرغ من صلاة الصبح فمنعه فقال أتمنعنى من نصح الناس فقال أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا اذ رأى فيه مخايل الرغبة فى جاه الوعظ وقبول الخلق والقضاء والخلافة مما يحتاج الناس اليه فى دينهم كالوعظ والتدريس والفتوى وفى كل واحد منهما فتنة ولذة فلا فرق بينهما فاما قول القائل نهيك عن ذلك يؤدى الى اندراس العلم فهو غلط اذ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القضاء لم يؤد الى تعطل القضاء بل الرياسة وحبها يضطر الخلق الى طلبها وكذلك حب الرياسة لا يترك العلوم تندرس بل لو حبس الخلق وقيدوا بالسلاسل والاغلال عن طلب العلوم التى فيها القبول والرياسة لافلتوا من الحبس وقطعوا السلاسل وطلبوها وقد وعد الله أن يؤيد هذا الدين باقوام لاخلاق لهم فلا تشغل قلبك بامر الناس فان الله لا يضيعهم وانظر لنفسك ثم انى أقول مع هذا اذا كان فى البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلا فليس فى النهى عنه الامتناع بعضهم والا فيعلم أن كلهم لا يمتنعون ولا يتركون لذة الرياسة فان لم يكن فى البلد الا واحد وكان وعظه نافعا للناس من حيث حسن كلامه وحسن سمته فى الظاهر وتخيله الى العوام انه انما يريد الله بوعظه وانه تارك للدنيا ومعرض عنها فلا نمنعه منه ونقول له اشتغل وجاهد نفسك فان قال لست أقدر على نفسى فنقول اشتغل وجاهد لانا نعلم انه لو ترك ذلك لهلك الناس كلهم اذ لا قائم به غيره ولو واظب وغرضه الجاه فهو الهالك وحده وسلامة دين الجميع أحب عندنا من سلامة دينه وحده فنجعله فداء للقوم ونقول لعل هذا هو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يؤيد هذا الدين باقوام لاخلاق لهم ثم الواعظ هو الذى يرغب فى الآخرة ويزهد فى الدنيا بكلامه وبظاهر سيرته فاما ما أحدثه الوعاظ فى هذه الاعصار من الكلمات المزخرفة والالفاظ المسجعة المقرونة بالاشعار مما ليس فيه تعظيم لامر الدين وتخويف المسلمين بل فيه الترجية والتجرئة على المعاصى بطيارات النكت فيجب اخلاء البلاد منهم فانهم نواب الدجال وخلفاء الشيطان وانما كلامنا فى واعظ حسن الوعظ جميل الظاهر يبطن فى نفسه حب القبول ولا يقصد غيره وفيما أوردناه فى كتاب العلم من الوعيد الوارد فى حق علماء السوء ما يبين لزوم الحذر من فتن العلم وغوائله ولهذا قال المسيح عليه السلام يا علماء السوء تصومون وتصلون وتتصدقون ولا تفعلون ما تؤمرون وتدرسون ما لا تعملون فيا سوء ما تحكمون تتوبون بالقول والامانى وتعملون بالهوى وما يغنى عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة بحق أقول لكم لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويبقى فيه النخالة كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل فى صدوركم يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضى من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته بحق أقول لكم ان قلوبكم تبكى من أعمالكم جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم بحق أقول لكم أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم فصلاح الدنيا أحب اليكم من صلاح الآخرة فاى ناس أخس منكم لو تعلمون ويلكم حتى متى تصفون الطريق للمدلجين وتقيمون فى محلة المتحيرين كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم مهلا مهلا ويلكم ماذا يغنى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم كذلك لا يغنى عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطلة يا عبيد الدنيا لا كعبيد أتقياء ولا كأحرار كرام توشك الدنيا ان تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ثم

وما عمل لاهل العزاء لا بأس به وما يجرى مجراه واذا علم الرجل من حال أخيه انه يفرح بالانبساط اليه فى التصرف فى شئ من طعامه فلا حرج ان يأكل من طعامه بغير اذنه قال الله تعالى أو صديقكم (قيل) دخل قوم على سفيان الثورى فلم يجدوه ففتحوا الباب وأنزلوا السفرة وأكلوا فدخل سفيان ففرح وقال ذكرتمونى أخلاق السلف هكذا كانوا ومن دعى الى طعام فالاجابة من السنة وأوكد ذلك الوليمة وقد يتخلف بعض الناس عن الدعوة تكبرا وذلك خطأ وان عمل ذلك تصنعا ورياء فهو أقل من التكبر (روى) أن الحسن بن على امر بقوم من المساكين الذين يسألون الناس على الطرق وقد نثروا كسرا على الارض وهو على بغلته فلما مر بهم سلم عليهم فردوا عليه السلام وقالوا هلم

تكبكم على مناخركم ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ثم يدفعكم العلم من خلفكم ثم يسلمكم الى الملك الديان حفاة عراة فرادى فيوقفكم على سوآتكم ثم يجزيكم بسوء أعمالكم وقد روى الحرث المحاسبي هذا الحديث فى بعض كتبه ثم قال هؤلاء علماء السوء شياطين الانس وفتنة على الناس رغبوا فى عرض الدنيا ورفعتها وآثروها على الآخرة وأذلوا الدين للدنيا فهم فى العاجل عار وشين وفى الآخرة هم الخاسرون فان قلت فهذه الآفات ظاهرة ولكن وردفى العلم والوعظ رغائب كثيرة حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن يهدى الله بك رجلا خيرلك من الدنيا ومافيها وقال صلى الله عليه وسلم أيما داع دعا الى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه الى غير ذلك من فضائل العلم فينبغى أن يقال للعالم اشتغل بالعلم واترك مراآة الخلق كما يقال لمن خالجه الرياء فى الصلاة لاتترك العمل ولكن أتم العمل وجاهد نفسك فاعلم ان فضل العلم كبير وخطره عظيم كفضل الخلافة والامارة ولانقول لاحد من عباد الله اترك العلم اذليس فى نفس العلم آفة وانما الآفة فى اظهاره بالتصدى للوعظ والتدريس ورواية الحديث ولانقول له أيضا اتركه مادام يجد فى نفسه باعثا دينيا ممزوجا بباعث الرياء فاذا لم يحركه الا الرياء فترك الاظهار أنفع له واسلم وكذلك نوافل الصلوات اذا تجرد فيها باعث الرياء وجب تركها أما اذا خطر له وساوس الرياء فى أثناء الصلاة وهولها كاره فلايترك الصلاة لان آفة الرياء فى العبادات ضعيفة وانما تعظم فى الولايات وفى التصدى للمناصب الكبيرة فى العلم وبالجملة فللمراتب ثلاث * الاولى الولايات والآفات فيها عظيمة وقد تركها جماعة من السلف خوفا من الآفة * الثانية الصوم والصلاة والحج والغزو وقد تعرض لها أقوياء السلف وضعفاؤهم ولم يؤثر عنهم الترك لخوف الآفة وذلك لضعف الآفات الداخلة فيها والقدرة على نفيها مع اتمام العمل لله بادنى قوة * الثالثة وهى متوسطة بين الرتبتين وهو التصدى لمنصب الوعظ والفتوى والرواية والتدريس والآفات فيها أقل مما فى الولايات وأكثر مما فى الصلاة فالصلاة ينبغى أن لا يتركها الضعيف والقوى ولكن يدفع خاطر الرياء والولايات ينبغى أن يتركها أسا الضعفاء دون الاقوياء ومناصب العلم بينهما ومن جرب آفات منصب العلم علم انه بالولاة أشبه وان الحذر منه فى حق الضعيف أسلم والله أعلم وههنا رتبة رابعة وهى جمع المال وأخذه للتفرقة على المستحقين فان فى الانفاق واظهار السخاء استجلابا للثناء وفى ادخال السرور على قلوب الناس لذة للنفس والآفات فيها أيضا كثيرة ولذلك سئل الحسن عن رجل طلب القوت ثم أمسك وآخر طلب فوق قوته ثم تصدق به فقال القاعد أفضل لما يعرفون من قلة السلامة فى الدنيا وان من الزهد تركها قربة الى الله تعالى وقال أبو الدرداء مايسرنى انى أقمت على درج مسجد دمشق أصيب كل يوم خمسين دينارا أتصدق بها أما انى لاأحرم البيع والشراء ولكنى أريد أن أكون من الذين لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وقد اختلف العلماء فقال قوم اذا طلب الدنيا من الحلال وسلم منها وتصدق بها فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل وقال قوم الجلوس فى دوام ذكر الله أفضل والاخذ والاعطاء يشغل عن الله وقد قال المسيح عليه السلام ياطالب الدنيا ليتبربها تركك لها أبر وقال أقل مافيه أن يشغله اصلاحه عن ذكر الله وذكر الله أكبر وأفضل وهذا فيمن سلم من الآفات فامامن يتعرض لآفة الرياء فتركه لها أبر والاشتغال بالذكر لاخلاف فى انه أفضل وبالجملة مايتعلق بالخلق وللنفس فيه لذة فهو مثار الآفات والاحب أن يعمل ويدفع الآفات فان عجز فلينظر وليجتهد وليستفت قلبه وليزن مافيه من الخير بمافيه من الشر وليفعل مايدل عليه نور العلم دون مايميل اليه الطبع وبالجملة مايجده أخف على قلبه فهو فى الاكثر أضر عليه لان النفس لاتشير الا بالشر وقلما تستلذ الخير وتميل اليه وان كان لايبعد ذلك أيضا فى بعض الاحوال وهذه الامور لايمكن الحكم على تفاصيلها بنفى واثبات فهو موكول الى اجتهاد القلب لينظر فيه لدينه ويدع مايريبه الى مالايريبه ثم قد يقع مماذكرناه غرور للجاهل فيمسك المال ولاينفقه خيفة من الآفة وهو عين البخل ولاخلاف فى أن تفرقة المال فى المباحات فضلا عن الصدقات أفضل من امساكه وانما الخلاف فيمن يحتاج الى الكسب أن الافضل الكسب والانفاق أو التجرد للذكر وذلك لما فى الكسب من الآفات فاما المال الحاصل من الحلال فتفرقته أفضل من امساكه بكل حال فان قلت فبأى علامة تعرف العالم والواعظ انه صادق مخلص فى وعظه غير مريد رياء الناس فاعلم أن لذلك علامات احداها أنه لوظهر من هو أحسن

منه

الغداء يابن رسول الله فقال نعم ان الله لايحب المتكبرين ثم ثنى وركه فنزل عن دابته وقعد معهم على الارض وأقبل يأكل ثم سلم عليهم وركب وكان يقال الاكل مع الاخوان أفضل من الاكل مع العيال (روى) ان هرون الرشيد دعا أبا معاوية الضرير وأمر أن يقدم له طعام فلما أكل صب الرشيد على يده فى الطست فلما فرغ قال يا أبا معاوية تدرى من صب على يدك قال لا قال أمير المؤمنين قال يا أمير المؤمنين انما أكرمت العلم وأجللته فاجلك الله تعالى وأكرمك كما أكرمت العلم

(الباب الرابع والاربعون فى ذكر أدبهم فى اللباس ونياتهم ومقاصدهم فيه)

اللباس من حاجات النفس وضرورتها لدفع الحر والبرد كما ان الطعام من حاجات النفس لدفع

منه وعظا أو أغزر منه علما والناس له أشد قبولا فرح به ولم يحسده نعم لا بأس بالغبطة وهو أن يتمنى لنفسه مثل علمه والأخرى أن الأكابر إذا حضروا مجلسه لم يتغير كلامه بل يبقى كما كان عليه فينظر إلى الخلق بعين واحدة والأخرى أن لا يحب اتباع الناس له في الطريق والمشي خلفه في الأسواق ولذلك علامات كثيرة يطول احصاؤها وقد روى عن سعيد بن أبي مروان قال كنت جالسا إلى جنب الحسن إذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس وهو على برذون أصفر فدخل المسجد على برذونه فجعل يلتفت في المسجد فلم ير حلقة أحفل من حلقة الحسن فتوجه نحوها حتى بلغ قريبا منها ثم ثنى وركه فنزل ومشى نحو الحسن فلما رآه الحسن متوجها إليه تجافى له عن ناحية مجلسه قال سعيد وتجافيت له أيضا عن ناحية مجلسي حتى صار بيني وبين الحسن فرجة ومجلس للحجاج فجاء الحجاج حتى جلس بيني وبينه والحسن يتكلم بكلام له يتكلم به في كل يوم فما قطع الحسن كلامه قال سعيد فقلت في نفسي لأبلون الحسن اليوم ولأنظرن هل يحمل الحسن جلوس الحجاج إليه أن يزيد في كلامه يتقرب إليه أو يحمل الحسن هيبة الحجاج أن ينقص من كلامه فتكلم الحسن كلاما واحدا نحوا مما كان يتكلم به في كل يوم حتى انتهى إلى آخر كلامه فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكترث به رفع الحجاج يده فضرب بها على منكب الحسن ثم قال صدق الشيخ وبر فعليكم بهذه المجالس وأشباهها فاتخذوها حلقا وعادة فإنه بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مجالس الذكر رياض الجنة ولولا ما حملنا من أمر الناس ما غلبتمونا على هذه المجالس لمعرفتنا بفضلها قال ثم افتر الحجاج فتكلم حتى عجب الحسن ومن حضر من بلاغته فلما فرغ طفق فقام فجاء رجل من أهل الشام إلى مجلس الحسن حيث قام الحجاج فقال عباد الله المسلمين ألا تعجبون أني رجل شيخ كبير وأني أغزو فأكلف فرسا وبغلا وأكلف فسطاطا وإن لي ثلثمائة درهم من العطاء وإن لي سبع بنات من العيال فشكا من حاله حتى رق الحسن له وأصحابه والحسن مكب فلما فرغ الرجل من كلامه رفع الحسن رأسه فقال ما لهم قاتلهم الله اتخذوا عباد الله خولا ومال الله دولا وقتلوا الناس على الدينار والدرهم فإذا غزا عدو الله غزا في الفساطيط الهبابة وعلى البغال السباقة وإذا أغزى أخاه أغزاه طاويا راجلا فما فتر الحسن حتى ذكرهم بأقبح العيب وأشده فقام رجل من أهل الشام كان جالسا إلى الحسن فسعى به إلى الحجاج وحكى له كلامه فلم يلبث الحسن أن أتته رسل الحجاج فقالوا أجب الأمير فقام الحسن وأشفقنا عليه من شدة كلامه الذي تكلم به فلم يلبث الحسن أن رجع إلى مجلسه وهو يتبسم وقلما رأيته فاغرا فاه يضحك إنما كان يتبسم فأقبل حتى قعد في مجلسه فعظم الأمانة وقال إنما تجالسون بالأمانة كأنكم تظنون أن الخيانة ليست إلا في الدينار والدرهم إن الخيانة أشد الخيانة أن يجالسنا الرجل فنطمئن إلى جانبه ثم ينطلق فيسعى بنا إلى شرارة من نار إني أتيت هذا الرجل فقال أقصر عليك من لسانك وقولك إذا غزا عدو الله كذا وكذا وإذا أغزى أخاه أغزاه كذا لا أبا لك تحرض علينا الناس أما إنا على ذلك لا نتهم نصيحتك فأقصر عليك من لسانك قال فدفعه الله عني وركب الحسن حمارا يريد المنزل فبينما هو يسير إذ التفت فرأى قوما يتبعونه فوقف فقال هل لكم من حاجة أو تسألون عن شيء وإلا فارجعوا فما يبقى هذا من قلب العبد فبهذه العلامات وأمثالها تتبين سريرة الباطن ومهما رأيت العلماء يتغايرون ويتحاسدون ولا يتوانسون ولا يتعاونون فاعلم أنهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون اللهم ارحمنا بلطفك يا أرحم الراحمين

(بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح)

اعلم أن الرجل قد يبيت مع القوم في موضع فيقومون للتهجد أو يقوم بعضهم فيصلون الليل كله أو بعضه وهو ممن يقوم في بيته ساعة قريبة فإذا رآهم انبعث نشاطه للموافقة حتى يزيد على ما كان يعتاده أو يصلي مع أنه كان لا يعتاد الصلاة بالليل أصلا وكذلك قد يقع في موضع يصوم فيه أهل الموضع فينبعث له نشاط في الصوم ولولاهم لما انبعث هذا النشاط فهذا ربما يظن أنه رياء وأن الواجب ترك الموافقة وليس كذلك على الإطلاق بل له تفصيل لأن كل مؤمن راغب في عبادة الله تعالى وفي قيام الليل وصيام النهار ولكن قد تعوقه العوائق ويمنعه الاشتغال ويغلبه التمكن من الشهوات أو تستهويه الغفلة فربما تكون مشاهدة الغير سببا لزوال الغفلة أو تندفع العوائق والأشغال في بعض المواضع فينبعث له النشاط فقد يكون الرجل في منزله فتقطعه الأسباب عن التهجد

الجوع وكان النفس غير قانعة بقدر الحاجة من الطعام بل تطلب الزيادات والشهوات فهكذا في اللباس تتفنن فيه ولها فيه أهوية متنوعة ومآرب مختلفة فالصوفي يرد النفس في اللباس إلى متابعة صريح العلم (قيل) لبعض الصوفية ثوبك ممزق قال ولكنه من وجه حلال وقيل له وهو وسخ قال ولكنه طاهر فنظر الصادق في ثوبه أن يكون من وجه حلال لأنه ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من اشترى ثوبا بعشرة دراهم وفي ثمنه درهم من حرام لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا أي لا فريضة ولا نافلة ثم بعد ذلك نظره فيه أن يكون طاهرا لأن طهارة الثوب شرط في صحة الصلاة وما عدا هذين النظرين فنظره في كونه يدفع الحر والبرد لأن ذلك مصلحة النفس و بعد ذلك ما تدعو

مثل تمكنه من النوم على فراش وثير أو تمكنه من التمتع بزوجته أو المحادثة مع أهله وأقاربه أو الاشتغال بأولاده أو مطالعة حساب له مع معامليه فاذا وقع فى منزل غريب اندفعت عنه هذه الشواغل التى تفتر رغبته عن الخير وحصلت له أسباب باعثة على الخير كمشاهدته اياهم وقد أقبلوا على الله وأعرضوا عن الدنيا فانه ينظر اليهم فينافسهم و يشق عليه ان يسبقوه بطاعة الله فتتحرك داعيته للدين لا للرياء أو ربما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع أو سبب آخر فيغتنم زوال النوم وفى منزله ربما يغلبه النوم وربما ينضاف اليه انه فى منزله على الدوام والنفس لا تسمح بالتهجد دائما وتسمح بالتهجد وقتا قليلا فيكون ذلك سبب هذا النشاط مع اندفاع سائر العوائق وقد يعسر عليه الصوم فى منزله ومعه أطايب الاطعمة و يشق عليه الصبر عنها فاذا أعوزته تلك الاطعمة لم يشق عليه فتنبعث داعية الدين للصوم فان الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تغلب باعث الدين فاذا سلم منها قوى الباعث فهذا وأمثاله من الاسباب يتصور وقوعه ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم والشيطان مع ذلك ربما يصد عن العمل و يقول لا تعمل فانك تكون مرائيا اذ كنت لا تعمل فى بيتك ولا تزد على صلاتك المعتادة وقد تكون رغبته فى الزيادة لاجل رؤيتهم وخوفا من ذمهم ونسبتهم اياه الى الكسل لاسيما اذا كانوا يظنون به انه يقوم الليل فان نفسه لا تسمح بان يسقط من أعينهم فيريد أن يحفظ منزلته وعند ذلك قد يقول الشيطان صل فانك مخلص ولست تصلى لاجلهم بل لله وانما كنت لا تصلى كل ليلة لكثرة العوائق وانما داعيتك لزوال العوائق لا لاطلاعهم وهذا أمر مشتبه الا على ذوى البصائر فاذا عرف ان المحرك هو الرياء فلا ينبغي أن يزيد على ما كان يعتاده ولا ركعة واحدة لانه يعصى الله بطلب محمدة الناس بطاعة الله وان كان انبعاثه لدفع العوائق وتحرك الغبطة والمنافسة بسبب عبادتهم فليوافق وعلامة ذلك ان يعرض على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يصلون من حيث لا يرونه بل من وراء حجاب وهو فى ذلك الموضع بعينه هل كانت نفسه تسخو بالصلاة وهم لا يرونه فان سخت نفسه فليصل فان باعثه الحق وان كان ذلك يثقل على نفسه لو غاب عن أعينهم فليترك فان باعثه الرياء وكذلك قد يحضر الانسان يوم الجمعة فى الجامع من نشاط الصلاة ما لا يحضره كل يوم و يمكن أن يكون ذلك لحب حمدهم و يمكن أن يكون نشاطه بسبب نشاطهم وزوال الغفلة بسبب اقبالهم على الله تعالى وقد يتحرك بذلك باعث الدين و يقارنه نزوع النفس الى حب الحمد فمهما علم ان الغالب على قلبه ارادة الدين فلا ينبغي أن يترك العمل بما يجده من حب الحمد بل ينبغي أن يرد ذلك على نفسه بالكراهة ويشتغل بالعبادة وكذلك قد يبكى جماعة فينظر اليهم فيحضره البكاء خوفا من الله تعالى لا من الرياء ولو سمع ذلك الكلام وحده لما بكى ولكن بكاء الناس يؤثر فى ترقيق القلب وقد لا يحضره البكاء فيتباكى تارة رياء وتارة مع الصدق اذ يخشى على نفسه قساوة القلب حين يبكون ولا تدمع عينه فيتباكى تكلفا وذلك محمود وعلامة الصدق فيه ان يعرض على نفسه انه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه هل كان يخاف على نفسه القساوة فيتباكى أم لا فان لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم فانما خوفه من ان يقال انه قاسى القلب فينبغي ان يترك التباكى قال لقمان عليه السلام لابنه لا ترى الناس أنك تخشى الله ليكرموك وقلبك فاجر وكذلك الصيحة والتنفس والانين عند القرآن أو الذكر أو بعض مجارى الاحوال تارة تكون من الصدق والحزن والخوف والندم والتأسف وتارة تكون لمشاهدته حزن غيره وقساوة قلبه فيتكلف التنفس والانين و يتحازن وذلك محمود وقد تقترن به الرغبة فيه لدلالته على أنه كثير الحزن ليعرف بذلك فان تجردت هذه الداعية فهى الرياء وان اقترنت بداعية الحزن فان أباها ولم يقبلها وكرهها سلم بكاؤه وتباكيه وان قبل ذلك وركن اليه بقلبه حبط أجره وضاع سعيه وتعرض لسخط الله به وقد يكون أصل الانين عن الحزن ولكن يمده و يزيد فى رفع الصوت فتلك الزيادة رياء وهو محظور لانها فى حكم الابتداء لمجرد الرياء فقد يهيج من الخوف ما لا يملك العبد معه نفسه ولكن يسبقه خاطر الرياء فيقبله فيدعو الى زيادة تحزين للصوت أو رفع له أو حفظ الدمعة على الوجه حتى تبصر بعد أن استرسلت لخشية الله ولكن يحفظ أثرها على الوجه لاجل الرياء وكذلك قد يسمع الذكر فتضعف قواه من الخوف فيسقط ثم يستحى أن يقال له انه سقط من غير زوال عقل وحالة شديدة فيزعق و يتواجد تكلفا ليرى انه سقط لكونه مغشيا عليه وقد كان ابتداء السقطة عن صدق وقد

النفس اليه فكله فضول وزيادة ونظر الى الخلق والصادق لا ينبغي ان يلبس الثوب الا لله وهو ستر العورة أو لنفسه لدفع الحر والبرد (وحكى) ان سفيان الثورى رضى الله عنه خرج ذات يوم وعليه ثوب قد لبسه مقلوبا فقيل له ولم يعلم بذلك فهم أن يخلعه ويغيره ثم تركه وقال حيث لبسته نويت أنى ألبسه لله والآن فلا أغيره الا لنظر الخلق فلا أنقص النية الاولى بهذه والصوفية تحصوا بطهارة الاخلاق وما رزقوا طهارة الاخلاق الا بالصلاحية والاهلية والاستعداد الذى هيأه الله تعالى لنفوسهم وفى طهارة الاخلاق وتعاضدها تناسب واقع لوجود تناسب هيئة النفس وتناسب هيئة النفس هو المشار اليه بقوله تعالى فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فالتناسب هو التسوية

يزول عقله فيسقط ولكن يفيق سريعا فتجزع نفسه أن يقال حالته غير ثابتة وانما هى كبرق خاطف فيستديم الزعقة والرقص ليرى دوام حاله وكذلك قد يفيق بعد الضعف ولكن يزول ضعفه سريعا فيجزع أن يقال لم تكن غشيته صحيحة ولو كان لدام ضعفه فيستديم اظهار الضعف والانين فيتكئ على غيره يرى انه يضعف عن القيام و يتمايل فى المشى و يقرب الخطا ليظهر انه ضعيف عن سرعة المشى فهذه كلها مكايد الشيطان ونزعات النفس فاذا خطرت فعلاجها أن يتذكر ان الناس لو عرفوا نفاقه فى الباطن واطلعوا على ضميره لمقتوه وان الله مطلع على ضميره وهو له أشد مقتا كما روى عن ذى النون رحمه الله انه قام وزعق فقام معه شيخ آخر رأى فيه أثر التكلف فقال يا شيخ الذى يراك حين تقوم فجلس الشيخ وكل ذلك من أعمال المنافقين وقد جاء فى الخبر نعوذ بالله من خشوع المنافقين وانما خشوع النفاق ان تخشع الجوارح والقلب غير خاشع ومن ذلك الاستغفار والاستعاذة بالله من عذابه وغضبه فان ذلك قد يكون لخاطر خوف وتذكر ذنب وتندم عليه وقد يكون للمراآة فهذه خواطر ترد على القلب متضادة مترادفة متقاربة وهى مع تقاربها متشابهة فراقب قلبك فى كل ما يخطر لك وانظر ما هو ومن أين هو فان كان لله فامضه واحذر مع ذلك أن يكون قد خفى عليك شئ من الرياء الذى هو كدبيب النمل وكن على وجل من عبادتك أهى مقبولة ام لا لخوفك على الاخلاص فيها واحذر أن يتجدد لك خاطر الركون الى حمدهم بعد الشروع بالاخلاص فان ذلك مما يكثر جدا فاذا خطر لك فتفكر فى اطلاع الله عليك ومقته لك وتذكر ما قاله أحد الثلاثة الذين حاجوا أيوب عليه السلام اذ قال يا أيوب اما علمت أن العبد تضل عنه علانيته التى كان يخادع بها عن نفسه ويجزى بسريرته وقول بعضهم أعوذ بك أن يرى الناس انى اخشاك وأنت لى ماقت وكان من دعاء على بن الحسين رضى الله عنهما اللهم انى أعوذ بك ان تحسن فى لامعة العيون علانيتى وتقبح لك فيما اخلو سريرتى محافظا على رياء الناس من نفسى ومضيعا لما أنت مطلع عليه منى أبدى للناس احسن أمرى وأفضى اليك بأسوأ عملى تقربا الى الناس بحسناتى وفرارا منهم اليك بسيآتى فيحل بى مقتك ويجب على غضبك أعذنى من ذلك يارب العالمين وقد قال أحد الثلاثة نفر لايوب عليه السلام يا أيوب ألم تعلم ان الذين حفظوا علانيتهم وأضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات الى الرحمن تسود وجوههم فهذه جمل آفات الرياء فليراقب العبد قلبه ليقف عليها ففى الخبران للرياء سبعين بابا وقد عرفت ان بعضه أغمض من بعض حتى ان بعضه مثل دبيب النمل وبعضه أخفى من دبيب النمل وكيف يدرك ما هو أخفى من دبيب النمل الا بشدة التفقد والمراقبة وليته أدرك بعد بذل المجهود فكيف يطمع فى ادراكه من غير تفقد للقلب وامتحان للنفس وتفتيش عن خدعها نسأل الله تعالى العافية بمنه وكرمه واحسانه

(بيان ما ينبغى للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل و بعده وفيه)

اعلم ان أولى ما يلزم المريد قلبه فى سائر أوقاته القناعة بعلم الله فى جميع طاعاته ولا يقنع بعلم الله الا من لا يخاف الا الله ولا يرجو الا الله فاما من خاف غيره وارتجاه اشتهى اطلاعه على محاسن أحواله فان كان فى هذه الرتبة فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقل والايمان لما فيه من خطر التعرض للمقت وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة التى لا يقدر عليها غيره فان النفس عند ذلك تكاد تغلى حرصا على الافشاء وتقول مثل هذا العمل العظيم أو الخوف العظيم أو البكاء العظيم لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك فما فى الخلق من يقدر على مثله فكيف ترضى باخفائه فيجهل الناس محلك وينكرون قدرك ويحرمون الاقتداء بك ففى مثل هذا الامر ينبغى ان يثبت قدمه ويتذكر فى مقابلة عظم عمله عظم ملك الآخرة ونعيم الجنة ودوامه أبد الآباد وعظم غضب الله ومقته على من طلب بطاعته ثوابا من عباده ويعلم ان اظهاره لغيره محبب اليه وسقوط عند الله واحباط للعمل العظيم فيقول وكيف أتبع مثل هذا العمل بحمد الخلق وهم عاجزون لا يقدرون لى على رزق ولا أجل فيلزم ذلك قلبه ولا ينبغى أن ييأس عنه فيقول انما يقدر على الاخلاص الاقوياء فاما المخلطون فليس ذلك من شأنهم فيترك المجاهدة فى الاخلاص لان المخلط الى ذلك أحوج من المتقى لان المتقى ان فسدت نوافله بقيت فرائضه كاملة تامة والمخلط لا تخلو فرائضه عن النقصان والحاجة الى الجبران بالنوافل فان لم تسلم صار ماخوذا بالفرائض وهلك به فالمخلط الى الاخلاص أحوج * وقد روى تميم الدارى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يحاسب العبد يوم القيامة فان

فمن المناسب أن تكون لباسهم مشاكلا لطعامهم وطعامهم مشاكلا لكلامهم وكلامهم مشاكلا لمنامهم لان التناسب الواقع فى النفس مقيد بالعلم والتشابه والتماثل فى الاحوال يحكم به العلم ومتصوفة الزمان ملتزمون بشئ من التناسب مع مزج الهوى وما عندهم من التطلع الى التناسب رشح حال سلفهم فى وجود التناسب قال أبو سليمان الدارانى يلبس أحدهم عباءة بثلاثة دراهم وشهوته فى بطنه بخمسة دراهم أنكر ذلك لعدم التناسب فمن خشن ثوبه ينبغى أن يكون ماكوله من جنسه واذا اختلف الثوب والمأكول يدل على وجود انحراف لوجود هوى كامن فى أحد الطرفين اما فى طرف الثوب لموضع نظر الخلق واما فى طرف المأكول لفرط الشره وكلا الوصفين مرض

نقص فرضه قيل انظروا هل له من تطوع فان كان له تطوع أكمل به فرضه وان لم يكن له تطوع أخذ بطرفيه فالقى فى النار فيأتى المخلط يوم القيامة وفرضه ناقص وعليه ذنوب كثيرة فاجتهاده فى جبر الفرائض وتكفير السيئات ولا يمكن ذلك الا بخلوص النوافل وأما المتقى فجهده فى زيادة الدرجات فان حبط تطوعه بقى من حسناته ما يترجح على السيئات فيدخل الجنة فاذا ينبغى ان يلزم قلبه خوف اطلاع غير الله عليه لتصح نوافله ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتى لا يظهره ولا يتحدث به واذا فعل جميع ذلك فينبغى أن يكون وجلا من عمله خائفا أنه ربما داخله من الرياء الخفى ما لم يقف عليه فيكون شاكا فى قبوله ورده مجوزا أن يكون الله قد أحصى عليه من نيته الخفية ما مقته بها ورد عمله بسببها ويكون هذا الشك والخوف فى دوام عمله وبعده الا فى ابتداء العقد بل ينبغى أن يكون متيقنا فى الابتداء أنه مخلص ما يريد بعمله الا الله حتى يصح عمله فاذا شرع ومضت لحظة يمكن فيها الغفلة والنسيان كان الخوف من الغفلة عن شائبة خفية أحبطت عمله من رياء أو عجب أولى به ولكن يكون رجاؤه أغلب من خوفه لانه استيقن انه دخل بالاخلاص وشك فى أنه هل أفسده برياء فيكون رجاء القبول أغلب وبذلك تعظم لذته فى المناجاة والطاعات فالاخلاص يقين والرياء شك وخوفه لذلك الشك جدير بان يكفر خاطر الرياء ان كان قد سبق وهو غافل عنه والذى يتقرب الى الله بالسعى فى حوائج الناس وافادة العلم ينبغى أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط ورجاء الثواب على عمل المتعلم بعلمه فقط دون شكر ومكافأة وحمد وثناء من المتعلم والمنعم عليه فان ذلك يحبط الاجر فهما توقع من المتعلم مساعدة فى شغل وخدمة أو مرافقة فى المشى فى الطريق ليستكثر باستتباعه أو ترددا منه فى حاجة فقد أخذ أجره فلا ثواب له غيره نعم ان لم يتوقع هو ولم يقصد الا الثواب على عمله بعلمه ليكون له مثل أجره ولكن خدمه التلميذ بنفسه فقبل خدمته فنرجو منه أن لا يحبط ذلك أجره اذا كان لا ينتظره ولا يريده منه ولا يستبعده لو قطعه ومع هذا فقد كان العلماء يحذرون هذا حتى ان بعضهم وقع فى بئر فجاء قوم فأدلوا حبلا ليرفعوه فحلف عليهم أن لا يقف معهم من قرأ عليه آية من القرآن أو سمع منه حديثا خيفة أن يحبط أجره وقال شقيق البلخى أهديت لسفيان الثورى ثوبا فرده على فقلت له يا أبا عبد الله لست أنا ممن يسمع الحديث حتى ترده على قال علمت ذلك ولكن أخوك يسمع منى الحديث فأخاف ان يلين قلبى لاخيك أكثر مما يلين لغيره وجاء رجل الى سفيان ببدرة أو بدرتين وكان أبوه صديقا لسفيان وكان سفيان يأتيه كثيرا فقال له يا أبا عبد الله فى نفسك من أبى شئ فقال يرحم الله أباك كان وكان وأثنى عليه فقال يا أبا عبد الله قد عرفت كيف صار هذا المال الى فاحب ان تأخذ هذه تستعين بها على عيالك قال فقبل سفيان ذلك قال فلما خرج قال لولده يا مبارك الحقه فرده على فرجع فقال أحب أن تأخذ مالك فلم يزل به حتى رده عليه وكأنه كانت اخوته مع أبيه فى الله تعالى فكره أن يأخذ ذلك قال ولده فلما خرج لم أملك نفسى أن جئت اليه فقلت ويلك أى شئ قلبك هذا حجارة عد أنه ليس لك عيال أما ترحمنى أما ترحم اخوتك أما ترحم عيالنا فأكثرت عليه فقال الله يا مبارك تأكلها أنت هنيأ مريأ وأسئل عنها أنا فاذا يجب على العالم ان يلزم قلبه طلب الثواب من الله فى اهتداء الناس به فقط ويجب على المتعلم أن يلزم قلبه حمد الله وطلب ثوابه ونيل المنزلة عنده لا عند المعلم وعند الخلق وربما يظن أن له أن يرائى بطاعته لينال عند المعلم رتبة فيتعلم منه وهو خطأ لان ارادته بطاعته غير الله خسران فى الحال والعلم ربما يفيد وربما لا يفيد فكيف يخسر فى الحال عملا نقدا على توهم علم وذلك غير جائز بل ينبغى أن يتعلم لله ويعبد لله ويخدم المعلم لله لا ليكون له فى قلبه منزلة ان كان يريد ان يكون تعلمه طاعة فان العباد أمروا أن لا يعبدوا الا الله ولا يريدوا بطاعتهم غيره وكذلك من يخدم أبويه لا ينبغى أن يخدمهما لطلب المنزلة عندهما الا من حيث ان رضا الله عنه فى رضا الوالدين ولا يجوز له أن يرائى بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين فان ذلك معصية فى الحال وسيكشف الله عن ريائه وتسقط منزلته من قلوب الوالدين أيضا وأما الزاهد المعتزل عن الناس فينبغى له أن يلزم قلبه ذكر الله والقناعة بعلمه ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده واستعظامهم محله فان ذلك يغرس الرياء فى صدره حتى تتيسر عليه العبادات فى خلوته به وانما سكونه لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم لمحله وهو لا يدرى انه المخفف للعمل عليه قال ابراهيم بن أدهم رحمه الله تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان دخلت عليه فى صومعته فقلت

يحتاج الى المداواة ليعود الى حد الاعتدال لبس أبو سليمان الدارانى ثوبا غسيلا فقال له أحمد لو لبست ثوبا أجود من هذا فقال ليت قلبى فى القلوب مثل قميصى فى الثياب فكان الفقراء يلبسون المرقع وربما كانوا يأخذون الخرق من المزابل ويرقعون بها ثوبهم وقد فعل ذلك طائفة من أهل الصلاح وهؤلاء ما كان لهم معلوم يرجعون اليه فكما كانت رقاعهم من المزابل كانت لقمهم من الابواب (وكان) أبو عبد الله الرفاعى مثابرا على الفقر والتوكل ثلاثين سنة وكان اذا حضر للفقراء طعام لا يأكل معهم فيقال له فى ذلك فيقول أنتم تأكلون بحق التوكل وأنا آكل بحق المسكنة ثم يخرج بين العشاءين ويطلب الكسر من الابواب وهذا شأن من لا يرجع الى معلوم ولا يدخل تحت منة (حكى) ان جماعة من

ياسمعان منذ كم أنت فى صومعتك قال منذ سبعين سنة قلت فما طعامك قال يا حنيفى وما دعاك الى هذا قلت أحببت أن أعلم قال فى كل ليلة حمصة قلت فما الذى يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة قال ترى الدير الذى بحذائك قلت نعم قال انهم يأتونى فى كل سنة يوما واحدا فيزينون صومعتى ويطوفون حولها ويعظمونى فكلما تثاقلت نفسى عن العبادة ذكرتها عز تلك الساعة فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة فاحتمل يا حنيفى جهد ساعة لعز الابد فوقر فى قلبى المعرفة فقال حسبك أو أزيدك قلت بلى قال انزل عن الصومعة فنزلت فأدلى لى ركوة فيها عشرون حمصة فقال لى ادخل الدير فقد رأوا ما أدليت اليك فلما دخلت الدير اجتمع على النصارى فقالوا يا حنيفى ما الذى أدلى اليك الشيخ قلت من قوته قالوا فما تصنع به ونحن أحق به ثم قالوا ساوم قلت عشرون دينارا فأعطونى عشرين دينارا فرجعت الى الشيخ فقال يا حنيفى ما الذى صنعت قلت بعته منهم قال بكم قلت بعشرين دينارا قال أخطأت لو ساومتهم بعشرين ألف دينار لاعطوك هذا عز من لا تعبده فانظر كيف يكون عز من تعبده يا حنيفى أقبل على ربك ودع الذهاب والجيئة والمقصود ان استشعار النفس عز العظمة فى القلوب يكون باعثا فى الخلوة وقد لا يشعر العبد به فينبغى أن يلزم نفسه الحذر منه وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة فلو تغيروا عن اعتقادهم له لم يجزع ولم يضق به ذرعا الا كراهة ضعيفة ان وجدها فى قلبه فيردها فى الحال بعقله وايمانه فانه لو كان فى عبادة واطلع الناس كلهم عليه لم يزده ذلك خشوعا ولم يداخله سرور بسبب اطلاعهم عليه فان دخل سرور يسير فهو دليل ضعفه ولكن اذا قدر على رده بكراهة العقل والايمان وبادر الى ذلك ولم يقبل ذلك السرور بالركون اليه فيرجى له أن لا يخيب سعيه الا أن يزيد عند مشاهدتهم فى الخشوع والانقباض كى لا ينبسطوا اليه فذلك لا بأس به ولكن فيه غرور اذ النفس قد تكون شهوتها الخفية اظهار الخشوع وتتعلل بطلب الانقباض فيطالبها فى دعواها قصد الانقباض بموثق من الله غليظ وهو أنه لو علم أن انقباضهم عنه انما حصل بان يعدو كثيرا أو يضحك كثيرا أو يأكل كثيرا فتسمح نفسه بذلك فاذا لم تسمح وسمحت بالعبادة فيشبه أن يكون مرادها المنزلة عندهم ولا ينجو من ذلك الا من تقرر فى قلبه انه ليس فى الوجود أحد سوى الله فيعمل عمل من لو كان على وجه الارض وحده لكان يعمله فلا يلتفت قلبه الى الخلق الا خطرات ضعيفة لا يشق عليه ازالتها فاذا كان كذلك لم يتغير بمشاهدة الخلق ومن علامة الصدق فيه انه لو كان له صاحبان أحدهما غنى والآخر فقير فلا يجد عند اقبال الغنى زيادة هزة فى نفسه لاكرامه الا اذا كان فى الغنى زيادة علم أو زيادة ورع فيكون مكرما له بذلك الوصف لا بالغنى فمن كان استرواحه الى مشاهدة الاغنياء أكثر فهو مراء أو طماع والا فالنظر الى الفقراء يزيد فى الرغبة الى الآخرة ويحبب الى القلب المسكنة والنظر الى الاغنياء بخلافه فكيف استروح بالنظر الى الغنى أكثر مما يستروح الى الفقير وقد حكى أنه لم ير الاغنياء فى مجلس أذل منهم فى مجلس سفيان الثورى كان يجلسهم وراء الصف ويقدم الفقراء حتى كانوا يتمنون أنهم فقراء فى مجلسه نعم لك زيادة اكرام للغنى اذا كان أقرب اليك أو كان بينك وبينه حق وصداقة سابقة ولكن يكون بحيث لو وجدت تلك العلاقة فى فقير لكنت لا تقدم الغنى عليه فى اكرام وتوقير البتة فان الفقير أكرم على الله من الغنى فايثارك له لا يكون الا طمعا فى غناه ورياء له ثم اذا سويت بينهما فى المجالسة فيخشى عليك أن تظهر الحكمة والخشوع للغنى أكثر مما تظهره للفقير وانما ذلك رياء خفى أو طمع خفى كما قال ابن السماك لجارية له مالى اذا أتيت بغداد فتحت لى الحكمة فقالت الطمع يشحذ لسانك وقد صدقت فان اللسان ينطلق عند الغنى بما لا ينطلق به عند الفقير وكذلك يحضر من الخشوع عنده ما لا يحضر عند الفقير ومكايد النفس وخفاياها فى هذا الفن لا تنحصر ولا ينجيك منها الا أن تخرج ما سوى الله من قلبك وتتجرد بالشفقة على نفسك بقية عمرك ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغصة فى أيام متقاربة وتكون فى الدنيا كملك من ملوك الدنيا قد أمكنته الشهوات وساعدته اللذات ولكن فى بدنه سقم وهو يخاف الهلاك على نفسه فى كل ساعة لو اتسع فى الشهوات وعلم أنه لو احتمى وجاهد شهوته عاش ودام ملكه فلما عرف ذلك جالس الاطباء وحارف الصيادلة وعود نفسه شرب الادوية المرة وصبر على بشاعتها وهجر جميع اللذات وصبر على مفارقتها فبدنه كل يوم يزداد نحولا لقلة أكله ولكن سقمه يزداد كل يوم نقصانا لشدة احتمائه فهما نازعته نفسه

أصحاب المرقعات دخلوا على بشر بن الحرث فقال لهم يا قوم اتقوا الله ولا تظهروا هذا الزى فانكم تعرفون به وتكرمون له فسكتوا كلهم فقال له غلام منهم الحمد لله الذى جعلنا ممن يعرف به ويكرم له والله ليظهرن هذا الزى حتى يكون الدين كله لله فقال له بشر أحسنت يا غلام مثلك من يلبس المرقعة فكان أحدهم يبقى زمانه لا يطوى غير ثوبه الذى عليه (وروى) أن أمير المؤمنين عليا رضى الله عنه لبس قميصا اشتراه بثلاثة دراهم ثم قطع كمه من رؤس أصابعه وروى عنه أنه قال لعمر بن الخطاب ان أردت أن تلقى صاحبيك فرقع قميصك واخصف نعلك وقصر أملك وكل دون الشبع (وحكى) عن الجريرى قال كان فى جامع بغداد رجل لا تكاد تجده الا فى ثوب واحد فى الشتاء

الى شهوة تفكر فى توالى الاوجاع والآلام عليه وأداء ذلك الى الموت المفرق بينه و بين مملكته الموجب لشماتة
الاعداء ومهما اشتد عليه شرب دواء تفكر فيما يستفيده منه من الشفاء الذى هو سبب التمتع بملكه ونعمه فى
عيش هنى و بدن صحيح وقلب رخى وأمر نافذ فيخف عليه مهاجرة اللذات ومصابرة المكره وهكذا المؤمن
المريد لملك الآخرة احتمى عن كل مهلك له فى آخرته وهى لذات الدنيا وزهرتها فاجتزى منها بالقليل واختار
النحول والذبول والوحشة والحزن والخوف وترك المؤانسة بالخلق خوفا من أن يحل عليه غضب من الله فيهلك
ورجاء أن ينجو من عذابه فخف ذلك كله عليه عند شدة يقينه وايمانه بعاقبة أمره وبما أعد له من النعيم المقيم فى
رضوان الله أبد الآباد ثم علم أن الله كريم رحيم لم يزل لعباده المريدين لمرضاته عونا وبهم رؤفا وعليهم عطوفا
ولو شاء لأغناهم عن التعب والنصب ولكن أراد أن يبلوهم و يعرف صدق ارادتهم حكمة منه وعدلا ثم اذا تحمل
التعب فى بدايته أقبل الله عليه بالمعونة والتيسير وحط عنه الاعباء وسهل عليه الصبر وحبب اليه الطاعة ورزقه
فيها من لذة المناجاة ما يلهيه عن سائر اللذات ويقويه على اماتة الشهوات و يتولى سياسته وتقويته وأمده
بمعونته فان الكريم لا يضيع سعى الراجى ولا يخيب أمل المحب وهو الذى يقول من تقرب الى شبرا تقربت اليه
ذراعا و يقول تعالى لقد طال شوق الابرار الى لقائى وانى الى لقائهم أشد شوقا فليظهر العبد فى البداية جده
وصدقه واخلاصه فلا يعوزه من الله تعالى على القرب ما هو اللائق بجوده وكرمه ورأفته و رحمته تم كتاب ذم
الجاه والرياء والحمد لله وحده

(كتاب ذم الكبر والعجب وهو الكتاب التاسع من ربع المهلكات من كتب احياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الخالق البارئ المصور العزيز الجبار المتكبر العلى الذى لا يضعه عن مجده واضع الجبار الذى كل جبار
له ذليل خاضع وكل متكبر فى جناب عزه مسكين متواضع فهو القهار الذى لا يدفعه عن مراده دافع الغنى
الذى ليس له شريك ولا منازع القادر الذى بهر أبصار الخلائق جلاله وبهاؤه وقهر العرش المجيد استواؤه
واستعلاؤه واستيلاؤه وحصر ألسن الانبياء وصفه وثناؤه وارتفع عن حد قدرتهم احصاؤه واستقصاؤه
فاعترف بالعجز عن وصف كنه جلاله ملائكته وأنبياؤه وكسر ظهور الاكاسرة عزه وعلاؤه وقصر أيدى
القياصرة عظمته وكبرياؤه فالعظمة ازاره والكبرياء رداؤه ومن نازعه فيهما قصمه بداء الموت فاعجزه دواؤه
جل جلاله وتقدست أسماؤه والصلاة على محمد الذى أنزل عليه النور المنتشر ضياؤه حتى أشرقت بنوره
أكناف العالم وأرجاؤه وعلى آله وأصحابه الذين هم أحباء الله وأولياؤه وخيرته وأصفياؤه وسلم تسليما كثيرا
(أما بعد) فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى فيهما
قصمته وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه فالكبر والعجب داآن
مهلكان والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان وهما عند الله ممقوتان بغيضان واذا كان القصد فى هذا الربع
من كتاب احياء علوم الدين شرح المهلكات وجب ايضاح الكبر والعجب فانهما من قبائح المرديات ونحن نستقصى
بيانهما من الكتاب فى شطرين شطر فى الكبر وشطر فى العجب *(الشطر الاول)* من الكتاب فى الكبر وفيه بيان
ذم الكبر و بيان ذم الاختيال و بيان فضيلة التواضع و بيان حقيقة التكبر وآفته و بيان من يتكبر عليه
ودرجات التكبر و بيان ما به التكبر و بيان البواعث على التكبر و بيان أخلاق المتواضعين وما فيه يظهر
التكبر و بيان علاج الكبر و بيان امتحان النفس فى خلق الكبر و بيان المحمود من خلق التواضع والمذموم
منه

(بيان ذم الكبر)

قد ذم الله الكبر فى مواضع من كتابه وذم كل جبار متكبر فقال تعالى سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض
بغير الحق وقال عز وجل كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار وقال تعالى واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد
وقال تعالى انه لا يحب المستكبرين وقال تعالى لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا وقال تعالى ان الذين
يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين وذم الكبر فى القرآن كثير وقد قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم

والصيف فسئل عن ذلك
فقال قد كنت ولعت
بكثرة لبس الثياب
فرأيت ليلة فيما يرى
النائم كأنى دخلت
الجنة فرأيت جماعة
من أصحابنا من الفقراء
على مائدة فاردت أن
أجلس معهم فاذا
بجماعة من الملائكة
أخذوا بيدى وأقامونى
وقالوا الى هؤلاء أصحاب
ثوب واحد وأنت لك
قميصان فلا تجلس معهم
فانتبهت ونذرت أن
لا ألبس الا ثوبا واحدا
الى أن ألقى الله تعالى
(وقيل) مات أبو يزيد
ولم يترك الا قميصه الذى
كان عليه وكان عارية
فردوه الى صاحبه
(وحكى) لنا عن الشيخ
حماد شيخ شيخنا انه بقى
زمانا لا يلبس الثوب
الا مستأجرا حتى انه لم
يلبس على ملك نفسه
شيأ (وقال أبو حفص
الحداد) اذا رأيت
وضاءة الفقير فى ثوبه
فلا ترج خيره وقيل
مات ابن الكرنبى

وسلم لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولايدخل النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان وقال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى جهنم ولا أبالى وعن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال التقى عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر على الصفا فتواقفا فمضى ابن عمرو وأقام ابن عمر يبكى فقالوا ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن فقال هذا يعنى عبد الله بن عمرو زعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله فى النار على وجهه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب فى الجبارين فيصيبه ما أصابهم من العذاب وقال سليمان بن داود عليهما السلام يوما للطير والانس والجن والبهائم أخرجوا فخرجوا فى مائتى ألف من الانس ومائتى ألف من الجن فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح فى السموات ثم خفض حتى مست أقدامه البحر فسمع صوتا لو كان فى قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسفت به أبعد مما رفعته وقال صلى الله عليه وسلم يخرج من النار عنق له أذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق يقول وكلت بثلاثة بكل جبار عنيد وبكل من دعا مع الله الها آخر وبالمصورين وقال صلى الله عليه وسلم لايدخل الجنة بخيل ولا جبار ولا سيئ الملكة وقال صلى الله عليه وسلم تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة مالى لا يدخلنى الا ضعفاء الناس وسقاطهم وعجزتهم فقال الله للجنة انما أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى وقال للنار انما أنت عذابى أعذب بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها وقال صلى الله عليه وسلم بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسى الجبار الاعلى بئس العبد عبد تجبر واختال ونسى الكبير المتعال بئس العبد عبد غفل وسها ونسى المقابر والبلى بئس العبد عبد عتا وبغى ونسى المبدأ والمنتهى وعن ثابت أنه قال بلغنا انه قيل يا رسول الله ما أعظم كبر فلان فقال أليس بعده الموت وقال عبد الله بن عمرو ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال انى آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين أنهاكما عن الشرك والكبر وآمركما بلا اله الا الله فان السموات والارضين وما فيهن لو وضعت فى كفة الميزان ووضعت لا اله الا الله فى الكفة الاخرى كانت أرجح منهما ولو أن السموات والارضين وما فيهن كانتا حلقة فوضعت لا اله الا الله عليها لقصمتها وآمركما بسبحان الله وبحمده فانها صلاة كل شئ وبها يرزق كل شئ وقال المسيح عليه السلام طوبى لمن علمه الله كتابه ثم لم يمت جبارا وقال صلى الله عليه وسلم أهل النار كل جعظرى جواظ مستكبر جماع مناع وأهل الجنة الضعفاء المقلون وقال صلى الله عليه وسلم ان أحبكم الينا وأقربكم منا فى الآخرة أحاسنكم أخلاقا وان أبغضكم الينا وأبعدكم منا الثرثارون المتشدقون المتفيهقون قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون قال المتكبرون وقال صلى الله عليه وسلم يحشر المتكبرون يوم القيامة فى مثل صور الذر تطؤهم الناس ذرا فى مثل صور الرجال يعلوهم كل شئ من الصغار ثم يساقون الى سجن فى جهنم يقال له بولس يعلوهم نار الانيار يسقون من طين الخبال عصارة أهل النار وقال أبو هريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة فى صور الذر تطؤهم الناس لهوانهم على الله تعالى وعن محمد بن واسع قال دخلت على بلال ابن أبى بردة فقلت له يا بلال ان أباك حدثنى عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان فى جهنم واديا يقال له هبهب حق على الله أن يسكنه كل جبار فاياك يا بلال أن تكون ممن يسكنه وقال صلى الله عليه وسلم ان فى النار قصرا يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم وقال صلى الله عليه وسلم اللهم انى أعوذ بك من نفخة الكبرياء وقال من فارق روحه جسده وهو برئ من ثلاث دخل الجنة الكبر والدين والغلول *(الآثار)* قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لا يحقرن أحد أحدا من المسلمين فان صغير المسلمين عند الله كبير وقال وهب لما خلق الله جنة عدن نظر اليها فقال أنت حرام على كل متكبر وكان الاحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره فجاء يوما ومصعب ماد رجليه فلم يقبضهما وقعد الاحنف فزحمه بعض الزحمة فرأى أثر ذلك فى وجهه فقال عجبا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين وقال الحسن العجب من ابن آدم يغسل الخرء بيده كل يوم مرة أو مرتين ثم يعارض جبار السموات وقد قيل فى وفى أنفسكم أفلا تبصرون هو سبيل الغائط والبول وقال محمد بن الحسين

وكان أستاذ الجنيد وعليه مرقعته قيل كان وزن فرد كم له وتخاريصه ثلاثة عشر رطلا فقد يكون جمع من الصالحين على هذا الزى والتخشن وقد يكون جمع من الصالحين يتكلفون لبس غير المرقع وزى الفقراء ويكون نيتهم فى ذلك ستر الحال أو خوف عدم النهوض بواجب حق المرقعة (وقيل) كان أبو حفص الحداد يلبس الناعم وله بيت فرش فيه الرمل لعله كان ينام عليه بلا وطاء وقد كان قوم من أصحاب الصفة يكرهون أن يجعلوا بينهم وبين التراب حائلا ويكون لبس أبى حفص الناعم بعلم ونية يلقى الله تعالى بصحتها وهكذا الصادقون ان لبسوا غير الخشن من الثوب لنية تكون لهم فى ذلك فلا يعترض عليهم غير أن لبس الخشن والمرقع يصلح لسائر الفقراء بنية التقلل من

ابن على مادخل قلب امرئ شئ من الكبر قط الا نقص من عقله بقدر مادخل من ذلك قل أو كثر وسئل سلمان عن السيئة التى لا تنفع معها حسنة فقال الكبر وقال النعمان بن بشير على المنبر ان للشيطان مصالى وفخوخا وان من مصالى الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله والفخر باعطاء الله والكبر على عباد الله واتباع الهوى فى غير ذات الله نسأل الله تعالى العفو والعافية فى الدنيا والآخرة بمنه وكرمه

(بيان ذم الاختيال واظهار آثار الكبر فى المشى وجر الثياب)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينظر الله الى رجل يجر ازاره بطرا وقال صلى الله عليه وسلم بينما رجل يتبختر فى بردته اذ أعجبته نفسه فخسف الله به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة وقال صلى الله عليه وسلم من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله اليه يوم القيامة وقال زيد بن أسلم دخلت على ابن عمر فمر به عبد الله بن واقد وعليه ثوب جديد فسمعته يقول أى بنى ارفع ازارك فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا ينظر الله الى من جر ازاره خيلاء وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليه وقال يقول الله تعالى ابن آدم أتعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى اذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللارض منك وئيد جمعت ومنعت حتى اذا بلغت التراقى قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة وقال صلى الله عليه وسلم اذا مشت أمتى المطيطاء وخدمتهم فارس والروم سلط الله بعضهم على بعض قال ابن الاعرابى هى مشية فيها اختيال وقال صلى الله عليه وسلم من تعظم فى نفسه واختال فى مشيته لقى الله وهو عليه غضبان (الآثار) عن أبى بكر الهذلى قال بينما نحن مع الحسن اذ مر علينا ابن الاهتم يريد المقصورة وعليه جباب خز قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه وانفرج عنها قباؤه وهو يمشى يتبختر اذ نظر اليه الحسن نظرة فقال أف أف شامخ بانفه ثانى عطفه مصعر خده ينظر فى عطفيه أى حميق أنت تنظر فى عطفيك فى نعم غير مشكورة ولا مذكورة غير المأخوذ بامر الله فيها ولا المؤدى حق الله منها والله ان يمشى أحد طبيعته يتخلج تخلج المجنون فى كل عضو من أعضائه لله نعمة وللشيطان به لعنة فسمع ابن الاهتم فرجع يعتذر اليه فقال لا تعتذر الى وتب الى ربك أما سمعت قول الله تعالى ولا تمش فى الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا ومر بالحسن شاب عليه بزة له حسنة فدعاه فقال له ابن آدم معجب بشبابه محب لشمائله كأن القبر قد وارى بدنك وكأنك قد لاقيت عملك ويحك داو قلبك فان حاجة الله الى العباد صلاح قلوبهم * وروى أن عمر بن عبد العزيز حج قبل أن يستخلف فنظر اليه طاوس وهو يختال فى مشيته فغمز جنبه باصبعه ثم قال ليست هذه مشية من فى بطنه خرء فقال عمر كالمعتذر يا عم لقد ضرب كل عضو منى على هذه المشية حتى تعلمتها ورأى محمد بن واسع ولده يختال فدعاه وقال أتدرى من أنت أما أمك فاشتريتها بمائتى درهم وأما أبوك فلا أكثر الله فى المسلمين مثله ورأى ابن عمر رجلا يجر ازاره فقال ان للشيطان اخوانا كررها مرتين أو ثلاثا ويروى أن مطرف بن عبد الله بن الشخير رأى المهلب وهو يتبختر فى جبة خز فقال يا عبد الله هذه مشية يبغضها الله ورسوله فقال له المهلب أما تعرفنى فقال بلى أعرفك أولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وأنت بين ذلك تحمل العذرة فمضى المهلب وترك مشيته تلك وقال مجاهد فى قوله تعالى ثم ذهب الى أهله يتمطى أى يتبختر واذ قد ذكرنا ذم الكبر والاختيال فلنذكر فضيلة التواضع والله تعالى أعلم

(بيان فضيلة التواضع)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مازاد الله عبدا بعفو الا عزا وما تواضع أحد لله الا رفعه الله وقال صلى الله عليه وسلم مامن أحد الا ومعه ملكان وعليه حكمة يمسكانه بها فان هو رفع نفسه جبذاها ثم قالا اللهم ضعه وان وضع نفسه قالا اللهم ارفعه وقال صلى الله عليه وسلم طوبى لمن تواضع فى غير مسكنة وأنفق مالا جمعه فى غير معصية ورحم أهل الذل والمسكنة وخالط أهل الفقه والحكمة وعن أبى سلمة المدينى عن أبيه عن جده قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا بقباء وكان صائما فأتيناه عند افطاره بقدح من لبن وجعلنا فيه شيأ من عسل فلما رفعه وذاقه وجد حلاوة العسل فقال ماهذا قلنا يارسول الله جعلنا فيه شيأ من عسل فوضعه وقال أما انى لا أحرمه ومن تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن اقتصد أغناه الله ومن بذر أفقره الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى نفر من أصحابه فى بيته يأكلون فقام سائل على الباب وبه زمانة يتكره منها فاذن له فلما

دخل

الدنيا وزهرتها وبهجتها وقد ورد من ترك ثوب جمال وهو قادر على لبسه ألبسه الله تعالى من حلل الجنة وأما لبس الناعم فلا يصلح الا لعالم بحاله بصير بصفات نفسه متفقد لخفى شهوات النفس يلقى الله تعالى بحسن النية فى ذلك فلحسن النية فى ذلك وجوه متعددة يطول شرحها ومن الناس من لا يقصد لبس ثوب بعينه لا لخشونته ولا لنعومته بل يلبس ما يدخله الحق عليه فيكون بحكم الوقت وهذا حسن وأحسن من ذلك انه يتفقد نفسه فيه فان رأى للنفس شرها وشهوة خفية أو جلية فى الثوب الذى أدخله الله عليه يخرجه الا أن يكون حاله مع الله ترك الاختيار فعند ذلك لا يسعه الا أن يلبس الثوب الذى ساقه الله اليه وقد كان شيخنا أبو النجيب السهروردى رحمه الله لا يتقيد بهيئة

دخل أجلسه رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذه ثم قال له اطعم فكأن رجلا من قريش اشمأز منه وتكرهه فما مات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها وقال صلى الله عليه وسلم خيرني ربي بين أمرين أن أكون عبدا رسولا أو ملكا نبيا فلم أدر أيهما أختار وكان صفيي من الملائكة جبريل فرفعت رأسي اليه فقال تواضع لربك فقلت عبدا رسولا وأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام انما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعاظم على خلقي وألزم قلبه خوفي وقطع نهاره بذكري وكف نفسه عن الشهوات من أجلي وقال صلى الله عليه وسلم الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى وقال المسيح عليه السلام طوبى للمتواضعين في الدنيا هم أصحاب المنابر يوم القيامة طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون الى الله تعالى يوم القيامة وقال بعضهم بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا هدى الله عبدا للاسلام وحسن صورته وجعله في موضع غير شائن له ورزقه مع ذلك تواضعا فذلك من صفوة الله وقال صلى الله عليه وسلم اربع لا يعطيهن الله الا من أحب الصمت وهو أول العبادة والتوكل على الله والتواضع والزهد في الدنيا وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا تواضع العبد رفعه الله الى السماء السابعة وقال صلى الله عليه وسلم التواضع لا يزيد العبد الا رفعة فتواضعوا يرحمكم الله وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطعم فجاء رجل أسود به جدري قد تقشر فجعل لا يجلس الى أحد الا قام من جنبه فاجلسه النبي صلى الله عليه وسلم الى جنبه وقال صلى الله عليه وسلم انه ليعجبني أن يحمل الرجل الشئ في يده يكون مهنة لاهله يدفع به الكبر عن نفسه وقال النبي صلى الله عليه وسلم لاصحابه يوما مالي لا أرى عليكم حلاوة العبادة قالوا وما حلاوة العبادة قال التواضع وقال صلى الله عليه وسلم اذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم واذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فان ذلك مذلة لهم وصغار (الآثار) قال عمر رضي الله عنه ان العبد اذا تواضع لله رفع الله حكمته وقال انتعش رفعك الله واذا تكبر وعدى طوره رهصه الله في الارض وقال اخسأ أخسأك الله فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس حقير حتى انه لاحقر عندهم من الخنزير وقال جرير بن عبد الله انتهيت مرة الى شجرة تحتها رجل نائم قد استظل بنطع له وقد جاوزت الشمس النطع فسويته عليه ثم ان الرجل استيقظ فاذا هو سلمان الفارسي فذكرت له ما صنعت فقال لي يا جرير تواضع لله في الدنيا فانه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة يا جرير أتدري ما ظلمة النار يوم القيامة قلت لا قال انه ظلم الناس بعضهم بعضا في الدنيا وقالت عائشة رضي الله عنها انكم لتغفلون عن أفضل العبادات التواضع وقال يوسف بن اسباط يجزى قليل الورع من كثير العمل ويجزى قليل التواضع من كثير الاجتهاد وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع ما هو فقال أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبي قبلته ولو سمعته من أجهل الناس قبلته وقال ابن المبارك رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه انه ليس له بدنياه عليك فضل وقال قتادة من أعطى مالا أو جمالا أو ثيابا أو علما ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالا يوم القيامة وقيل أوحى الله تعالى الى عيسى عليه السلام اذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتممها عليك وقال كعب ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله الا أعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع له بها درجة في الآخرة وما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها لله الا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقا من النار يعذبه ان شاء أو يتجاوز عنه وقيل لعبد الملك بن مروان أي الرجال أفضل قال من تواضع عن قدرة وزهد عن رغبة وترك النصرة عن قوة ودخل ابن السماك على هرون فقال يا أمير المؤمنين ان تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك فقال ما أحسن ما قلت فقال يا أمير المؤمنين ان امرأ آتاه الله جمالا في خلقته وموضعا في حسبه وبسط له في ذات يده فعف في جماله وواسى من ماله وتواضع في حسبه كتب في ديوان الله من خالص أولياء الله فدعا هرون بدواة وقرطاس وكتبه بيده وكان سليمان بن داود عليهما السلام اذا أصبح تصفح وجوه الاغنياء والاشراف حتى يجيء الى المساكين فيقعد معهم ويقول مسكين مع مساكين وقال بعضهم كما تكره أن يراك الاغنياء في الثياب الدون فكذلك فاكره ان يراك الفقراء في الثياب المرتفعة وروى انه خرج يونس وأيوب والحسن يتذاكرون التواضع فقال لهم الحسن

من الملبوس بل كان يلبس ما يتفق من غير تعمد تكلف واختيار وقد كان يلبس العمامة بعشرة دنانير ويلبس العمامة بدانق وقد كان الشيخ عبد القادر رحمه الله يلبس هيئة مخصوصة ويتطيلس وكان الشيخ على بن الهيتي يلبس لبس فقراء السواد وكان أبو بكر الفراء بزنجان يلبس فروا خشنا كآحاد العوام ولكل في لبسه وهيئته نية صالحة وشرح تفاوت الاقدام في ذلك يطول (وكان) الشيخ أبو السعود رحمه الله حاله مع الله ترك الاختيار وقد يساق اليه الثوب الناعم فيلبسه وكان يقال له ربما يسبق الى بواطن بعض الناس الانكار عليك في لبسك هذا الثوب فيقول لا تليق الا أحسد زجلين رجل يطالبنا بظاهر حكم الشرع فنقول له هل ترى ان

أتدرون ما التواضع التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلما الا رأيت له عليك فضلا وقال مجاهد ان الله تعالى لما أغرق قوم نوح عليه السلام شمخت الجبال وتطاولت وتواضع الجودي فرفعه الله فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه وقال أبو سليمان ان الله عز وجل اطلع على قلوب الآدميين فلم يجد قلبا أشد تواضعا من قلب موسى عليه السلام فخصه من بينهم بالكلام وقال يونس بن عبيد وقد انصرف من عرفات لم أشك في الرحمة لولا أني كنت معهم اني أخشى انهم حرموا بسببي ويقال أرفع ما يكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه وأوضع ما يكون عند الله أرفع ما يكون عند نفسه وقال زياد النميري الزاهد بغير تواضع كالشجرة التي لا تثمر وقال مالك بن دينار لو ان مناديا ينادي بباب المسجد ليخرج شركم رجلا والله ما كان أحد يسبقني الى الباب الا رجل بفضل قوة أو سعي قال فلما بلغ ابن المبارك قوله قال بهذا صار مالك مالكا وقال الفضيل من أحب الرياسة لم يفلح أبدا وقال موسى ابن القاسم كانت عندنا زلزلة وريح حمراء فذهبت الى محمد بن مقاتل فقلت يا أبا عبد الله أنت امامنا فادع الله عز وجل لنا فبكى ثم قال ليتني لم أكن سبب هلاككم قال فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقال ان الله عز وجل رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل وجاء رجل الى الشبلي رحمه الله فقال له ما أنت وكان هذا دأبه وعادته فقال أنا النقطة التي تحت الباء فقال له الشبلي أباداك الله شاهدك أو تجعل لنفسك موضعا وقال الشبلي في بعض كلامه ذلي عطل ذل اليهود ويقال من يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب وعن أبي الفتح بن شخرف قال رأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه في المنام فقلت له يا أبا الحسن عظني فقال لي ما أحسن التواضع بالاغنياء في مجالس الفقراء رغبة منهم في ثواب الله وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الاغنياء ثقة منهم بالله عز وجل وقال أبو سليمان لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه وقال أبو يزيد ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر فقيل له فمتى يكون متواضعا قال اذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا وتواضع كل انسان على قدر معرفته بربه عز وجل ومعرفته بنفسه وقال أبو سليمان لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي ما قدروا عليه وقال عروة بن الورد التواضع أحد مصايد الشرف وكل نعمة محسود عليها صاحبها الا التواضع وقال يحيى بن خالد البرمكي الشريف اذا تنسك تواضع والسفيه اذا تنسك تعاظم وقال يحيى بن معاذ التكبر على ذي التكبر عليك بماله تواضع ويقال التواضع في الخلق كلهم حسن وفي الاغنياء أحسن والتكبر في الخلق كلهم قبيح وفي الفقراء أقبح ويقال لا عز الا لمن تذلل لله عز وجل ولا رفعة الا لمن تواضع لله عز وجل ولا أمن الا لمن خاف الله عز وجل ولا ربح الا لمن ابتاع نفسه من الله عز وجل وقال أبو علي الجوزجاني النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة واذا أراد الله تعالى به خيرا لطف به في ذلك فاذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع مع نصرة الله تعالى واذا هاجت نار الحسد في نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عز وجل واذا هاجت في نفسه نار الحرص أدركتها القناعة مع عون الله عز وجل * وعن الجنيد رحمه الله انه كان يقول يوم الجمعة في مجلسه لولا أنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يكون في آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم ما تكلمت عليكم وقال الجنيد أيضا التواضع عند أهل التوحيد تكبر ولعل مراده أن المتواضع يثبت نفسه ثم يضعها والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيأ حتى يضعها أو يرفعها وعن عمر بن شبة قال كنت بمكة بين الصفا والمروة فرأيت رجلا راكبا بغلة وبين يديه غلمان واذا هم يعنفون الناس قال ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنت على الجسر فاذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر قال فجعلت أنظر اليه وأتأمله فقال لي مالك تنظر الي فقلت له شبهتك برجل رأيته بمكة ووصفت له الصفة فقال له أنا ذلك الرجل فقلت ما فعل الله بك فقال اني ترفعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني الله حيث يترفع الناس وقال المغيرة كنا نهاب ابراهيم النخعي هيبة الامير وكان يقول ان زمانا صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء وكان عطاء السلمي اذا سمع صوت الرعد قام وقعد وأخذه بطنه كأنه امرأة ماخض وقال هذا من أجلي يصيبكم لو مات عطاء لاستراح الناس وكان بشر الحافي يقول سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم ودعا رجل لعبد الله بن المبارك فقال أعطاك الله ما ترجوه فقال ان الرجاء يكون بعد المعرفة فأين المعرفة وتفاخرت قريش عند سلمان الفارسي رضي الله عنه يوما فقال سلمان لكنني

ثوبا يكرهه الشرع أو يحرمه فيقول لا ورجل يطالبنا بحقائق القوم من أرباب العزيمة فنقول له هل ترى لنا فيما لبسنا اختيارا أو ترى عندنا فيه شهوة فيقول لا وقد يكون من الناس من يقدر على لبس الناعم ولبس الخشن ولكن يحب أن يختار الله له هيئة مخصوصة فيكثر اللجأ الى الله والافتقار اليه ويسأله أن يريه أحب الزي الى الله تعالى وأصلحه لدينه ودنياه لكونه غير صاحب غرض وهوى في زي بعينه فالله تعالى يفتح عليه ويعرفه زيا مخصوصا فيلتزم بذلك الزي فيكون لبسه بالله ويكون هذا أتم وأكمل ممن يكون لبسه لله ومن الناس من يتوفر حظه من العلم وينبسط بما بسطه الله فيلبس الثوب عن علم وايقان ولا يبالي بما لبسه ناعما لبس أو خشنا

خلقت من نطفة قذرة ثم أعود جيفة منتنة ثم آتي الميزان فان ثقل فانا كريم وان خف فانا لئيم وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وجدنا الكرم في التقوى والغنى في اليقين والشرف في التواضع نسأل الله الكريم حسن التوفيق

(بيان حقيقة الكبر وآفته)

اعلم أن الكبر ينقسم الى باطن وظاهر فالباطن هو خلق في النفس والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح واسم الكبر بالخلق الباطن أحق وأما الاعمال فانها ثمرات لذلك الخلق وخلق الكبر موجب للاعمال ولذلك اذا ظهر على الجوارح يقال تكبر واذا لم يظهر يقال في نفسه كبر فالاصل هو الخلق الذي في النفس وهو الاسترواح والركون الى رؤية النفس فوق المتكبر عليه فان الكبر يستدعي متكبرا عليه ومتكبرا به وبه ينفصل الكبر عن العجب كما سيأتي فان العجب لا يستدعي غير المعجب بل لو لم يخلق الانسان الا وحده تصور أن يكون معجبا ولا يتصور أن يكون متكبرا الا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال فعند ذلك يكون متكبرا ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبرا فانه قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه ولا يكفي أن يستحقر غيره فانه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر ولو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر بل ينبغي ان يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر لا أن هذه الرؤية تنفي الكبر بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه فيحصل في قلبه اعتداد وهزة وفرح وركون الى ما اعتقده وعز في نفسه بسبب ذلك فتلك العزة والهزة والركون الى العقيدة هو خلق الكبر ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم أعوذ بك من نفخة الكبرياء وكذلك قال عمر أخشى ان تنتفخ حتى تبلغ الثريا للذي استأذنه ان يعظ بعد صلاة الصبح فكأن الانسان مهما رأى نفسه بهذه العين وهو الاستعظام كبر وانتفخ وتعزز فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات وتسمى أيضا عزة وتعظما ولذلك قال ابن عباس في قوله تعالى ان في صدورهم الا كبر ما هم ببالغيه قال عظمة لم يبلغوها ففسر الكبر بتلك العظمة ثم هذه العزة تقتضي أعمالا في الظاهر والباطن هي ثمرات ويسمى ذلك تكبرا فانه مهما عظم عنده قدره بالاضافة الى غيره حقر من دونه وازدراه وأقصاه عن نفسه وأبعده وترفع عن مجالسته ومؤاكلته ورأى ان حقه ان يقوم ماثلا بين يديه ان اشتد كبره فان كان أشد من ذلك استنكف عن استخدامه ولم يجعله أهلا للقيام بين يديه ولا لخدمة عتبته فان كان دون ذلك فيأنف من مساواته وتقدم عليه في مضايق الطرق وارتفع عليه في المحافل وانتظر ان يبدأه بالسلام واستبعد تقصيره في قضاء حوائجه وتعجب منه وان حاج أو ناظر أنف ان يرد عليه وان وعظ استنكف من القبول وان وعظ عنف في النصح وان رد عليه شيء من قوله غضب وان علم لم يرفق بالمتعلمين واستذلهم وانتهرهم وامتن عليهم واستخدمهم وينظر الى العامة كانه ينظر الى الحمير استجهالا لهم واستحقارا والاعمال الصادرة عن خلق الكبر كثيرة وهي أكثر من أن تحصى فلا حاجة الى تعدادها فانها مشهورة فهذا هو الكبر وآفته عظيمة وغائلته هائلة وفيه يهلك الخواص من الخلق وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلا عن عوام الخلق وكيف لا تعظم آفته وقد قال صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر وانما صار حجابا دون الجنة لانه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها وتلك الاخلاق هي أبواب الجنة والكبر وعزة النفس يغلق تلك الابواب كلها لانه لا يقدر على ان يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز ولا يقدر ان يدوم على الصدق وفيه العز ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز ولا يسلم من الازراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العز ولا معنى للتطويل فما من خلق ذميم الا وصاحب العز والكبر مضطر اليه ليحفظ به عزه وما من خلق محمود الا وهو عاجز عنه خوفا من أن يفوته عزه فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه والاخلاق الذميمة متلازمة والبعض منها داع الى البعض لا محالة وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والمتكبرين قال الله تعالى والملائكة باسطوا أيديهم الى قوله وكنتم عن آياته

ورب لابس ناعما ولنفسه فيه اختيار وحظ وذلك الحظ فيه يكون مكفرا له مردودا عليه وهو موهوب له يوافقه الله تعالى في ارادة نفسه ويكون هذا الشخص تام التزكية تام الطهارة محبوبا مرادا يسارع الله تعالى الى مراده ومحابه غير ان ههنا مزلة قدم لكثير من المدعين (حكي) عن يحيى بن معاذ الرازي انه كان يلبس الصوف والخلقان في ابتداء أمره ثم صار في آخر عمره يلبس الناعم فقيل لابي يزيد ذلك فقال مسكين يحيى لم يصبر على الدون فكيف يصبر على التحف ومن الناس من يسبق اليه علم ما سوف يدخل عليه من الملبوس فيلبسه محمودا فيه وكل أحوال الصادقين على اختلاف تنوعها مستحسنة قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى

تستكبرون ثم قال ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ثم أخبر ان أشد أهل النار عذابا أشدهم عتيا على الله تعالى فقال ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا وقال تعالى فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون وقال عز وجل يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين وقال تعالى ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين وقال تعالى سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق قيل في التفسير سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم وفي بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن الملكوت وقال ابن جريج سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها ولذلك قال المسيح عليه السلام ان الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا كذلك الحكمة تعمل في قلب المتواضع ولا تعمل في قلب المتكبر ألا ترون أن من شمخ برأسه الى السقف شجه ومن طأطأ أظله وأكنه فهذا مثل ضربه للمتكبرين وأنهم كيف يحرمون الحكمة ولذلك ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم جحود الحق في حد الكبر والكشف عن حقيقته وقال من سفه الحق وغمص الناس

(بيان المتكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه)

اعلم أن المتكبر عليه هو الله تعالى أو رسله أو سائر خلقه وقد خلق الانسان ظلوما جهولا فتارة يتكبر على الخلق وتارة يتكبر على الخالق فاذا التكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام * الاول التكبر على الله وذلك هو أفحش أنواع الكبر ولا مثار له الا الجهل المحض والطغيان مثل ما كان من نمرود فانه كان يحدث نفسه بأن يقاتل رب السماء وكما يحكى عن جماعة من الجهلة بل ما يحكى عن كل من ادعى الربوبية مثل فرعون وغيره فانه لتكبره قال أنا ربكم الاعلى اذ استنكف أن يكون عبدا لله ولذلك قال تعالى ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين وقال تعالى لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون الآية وقال تعالى واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا * القسم الثاني التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد وهو ظان انه محق فيه وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل كما حكى الله عن قولهم أنؤمن لبشرين مثلنا وقولهم ان أنتم الا بشر مثلنا ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا وقالوا لولا أنزل عليه ملك وقال فرعون فيما أخبر الله عنه أو جاء معه الملائكة مقترنين وقال الله تعالى واستكبر هو وجنوده في الارض بغير الحق فتكبر هو على الله وعلى رسله جميعا قال وهب قال له موسى عليه السلام آمن ولك ملكك قال حتى أشاور هامان فشاور هامان فقال هامان بينما أنت رب تعبد اذ صرت عبدا تعبد فاستنكف عن عبودية الله وعن اتباع موسى عليه السلام وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم قال قتادة عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي طلبوا من هو أعظم رياسة من النبي صلى الله عليه وسلم اذ قالوا غلام يتيم كيف بعثه الله الينا فقال تعالى أهم يقسمون رحمة ربك وقال الله تعالى ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أي استحقارا لهم واستبعادا لتقدمهم وقالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف نجلس اليك وعندك هؤلاء أشاروا الى فقراء المسلمين فازدروهم بأعينهم لفقرهم وتكبروا عن مجالستهم فأنزل الله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي الى قوله ما عليك من حسابهم وقال تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحيوة الدنيا ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم اذ لم يروا الذين ازدروهم فقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار قيل يعنون عمارا وبلالا وصهيبا والمقداد رضي الله عنهم ثم كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والمعرفة فجهل كونه صلى الله عليه وسلم محقا ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف قال الله تعالى مخبرا عنهم فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وقال وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا وهذا الكبر قريب من التكبر على الله عز وجل وان كان دونه ولكنه تكبر على قبول أمر الله والتواضع لرسوله * القسم الثالث التكبر على العباد وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره فتأبى نفسه عن الانقياد لهم وتدعوه

الى

سبيلا وليس الخشن من الثياب هو الاحب والاولى والاسلم للعبد والابعد من الآفات (قال مسلمة بن عبد الملك) دخلت على عمر ابن عبد العزيز أعوده في مرضه فرأيت قميصه وسخا فقلت لامرأته فاطمة اغسلوا ثياب أمير المؤمنين فقالت نفعل ان شاء الله قال ثم عدته فاذا القميص على حاله فقلت يا فاطمة ألم آمركم أن تغسلوه قالت والله ماله قميص غير هذا (وقال) سالم كان عمر بن عبد العزيز من ألين الناس لباسا من قبل ان يسلم اليه الخلافة فلما سلم اليه الخلافة ضرب رأسه بين ركبتيه وبكى ثم دعا بأطمار له رثة فلبسها (وقيل) لما مات أبو الدرداء وجد في ثوبه أربعون رقعة وكان عطاؤه أربعة آلاف (وقال يزيد بن وهب) لبس علي بن أبي طالب

الى الترفع عليهم فيزدريهم و يستصغرهم و يأنف من مساواتهم وهذا وان كان دون الاول والثانى فهو أيضا عظيم من وجهين * أحدهما ان الكبر والعز والعظمة والعلاء لا يليق الا بالملك القادر فاما العبد المملوك الضعيف العاجز الذى لا يقدر على شئ فمن أين يليق بحاله الكبر فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى فى صفة لا تليق الا بجلاله ومثاله أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك فيضعها على رأسه و يجلس على سريره فما أعظم استحقاقه للمقت وما أعظم تهدفه للخزى والنكال وما أشد استجراءه على مولاه وما أقبح ما تعاطاه والى هذا المعنى الاشارة بقوله تعالى العظمة ازارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى فيهما قصمته أى انه خاص صفتى ولا يليق الا بى والمنازع فيه منازع فى صفة من صفاتى واذا كان الكبر على عباده لا يليق الا به فمن تكبر على عباده فقد جنى عليه اذ الذى يسترذل خواص غلمان الملك و يستخدمهم و يترفع عليهم و يستأثر بما حق الملك أن يستأثر به منهم فهو منازع له فى بعض أمره وان لم تبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره والاستبداد بملكه فالخلق كلهم عباد الله وله العظمة والكبرياء عليهم فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله فى حقه نعم الفرق بين هذه المنازعة و بين منازعة نمرود وفرعون ماهو الفرق بين منازعة الملك فى استصغار بعض عبيده واستخدامهم و بين منازعته فى أصل الملك * الوجه الثانى الذى تعظم به رذيلة الكبر أنه يدعو الى مخالفة الله تعالى فى أوامره لان المتكبر اذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله و تشمر لجحده ولذلك ترى المناظرين فى مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين ثم انهم يتجاحدون تجاحد المتكبرين ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله و تشمر لجحده واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين اذ وصفهم الله تعالى فقال وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون فكل من يناظر للغلبة والافحام لا ليغتنم الحق اذا ظفر به فقد شاركهم فى هذا الخلق وكذلك يحمل ذلك على الانفة من قبول الوعظ كما قال الله تعالى واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قرأها فقال انا لله وانا اليه راجعون قام رجل يأمر بالمعروف فقتل فقام آخر فقال تقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فقتل المتكبر الذى خالفه والذى أمره كبرا وقال ابن مسعود كفى بالرجل اثما اذا قيل له اتق الله قال عليك نفسك وقال صلى الله عليه وسلم لرجل كل بيمينك قال لا أستطيع فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا استطعت فما منعه الا كبره قال فما رفعها بعد ذلك أى اعتلت يده فاذا تكبره على الخلق عظيم لانه سيدعوه الى التكبر على أمر الله وانما ضرب ابليس مثلا لهذا وما حكاه من أحواله الا ليعتبر به فانه قال أنا خير منه وهذا الكبر بالنسب لانه قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين فحمله ذلك على أن يمتنع من السجود الذى أمره الله تعالى به وكان مبدؤه الكبر على آدم والحسد له فجره ذلك الى التكبر على أمر الله تعالى فكان ذلك سبب هلاكه أبد الآباد فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الآفتين اذ سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال يارسول الله انى امرؤ قد حبب الى من الجمال ما ترى أفمن الكبر هو فقال صلى الله عليه وسلم لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس وفى حديث آخر من سفه الحق وقوله وغمص الناس أى ازدراهم واستحقرهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه وهذه الآفة الاولى وسفه الحق هو رده وهى الآفة الثانية فكل من رأى انه خير من أخيه واحتقر أخاه وازدراه ونظر اليه بعين الاستصغار أورد الحق وهو يعرفه فقد تكبر فيما بينه و بين الخلق ومن أنف من أن يخضع لله تعالى و يتواضع لله بطاعته واتباع رسله فقد تكبر فيما بينه و بين الله تعالى ورسله

(بيان ما به التكبر)

اعلم أنه لا يتكبر الا من استعظم نفسه ولا يستعظمها الا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال وجماع ذلك يرجع الى كمال دينى أو دنيوى فالدينى هو العلم والعمل والدنيوى هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الانصار فهذه سبعة أسباب *(الاول)* العلم وما أسرع الكبر الى العلماء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم آفة العلم الخيلاء فلا يلبث العالم أن يتعزز بعز العلم و يستشعر فى نفسه جمال العلم وكماله و يستعظم نفسه و يستحقر الناس و ينظر اليهم نظره الى البهائم و يستجهلهم و يتوقع أن يبدؤه بالسلام فان بدأ واحدا منهم بالسلام أو رد عليه ببشر أو قام

قميصا رازيا وكان اذا مد كمه بلغ أطراف أصابعه فعابه الخوارج بذلك فقال أتعيبونى على لباس هو أبعد من الكبر وأجدر ان يقتدى بى المسلم (وقيل) كان عمر رضى الله عنه اذا رأى على رجل ثوبين رقيقين علاه بالدرة وقال دعوا هذه البراقات للنساء (وروى) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال نوروا قلوبكم بلباس الصوف فانه مذلة فى الدنيا ونور فى الآخرة واياكم ان تفسدوا دينكم بحمد الناس وثنائهم وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم احتذى نعلين فلما نظر اليهما أعجبه حسنهما فسجد لله تعالى فقيل له فى ذلك فقال خشيت ان يعرض عنى ربى فتواضعت له لا جرم لا يبيتان فى منزلى لما تخوفت المقت من الله تعالى من أجلهما فاخرجهما فدفعهما

له أو أجابه دعوة رأى ذلك صنيعة عنده و يدا عليه يلزمه شكرها واعتقد انه أكرمهم وفعل بهم مالا يستحقون من مثله وانه ينبغي ان يرقوا له و يخدموه شكرا له على صنيعه بل الغالب أنهم يبرونه فلا يبرهم و يزورونه فلا يزورهم و يعودونه فلا يعودهم و يستخدم من خالطه منهم و يستسخره في حوائجه فان قصر فيه استنكره كأنهم عبيده أو اجراؤه وكأن تعليمه العلم صنيعة منه اليهم ومعروف لديهم واستحقاق حق عليهم هذا فيما يتعلق بالدنيا أما في أمر الآخرة فتكبره عليهم بان يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه و يرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم وهذا بان يسمى جاهلا أولى من أن يسمى عالما بل العلم الحقيقي هو الذي يعرف الانسان به نفسه و ربه وخطر الخاتمة وحجة الله على العلماء وعظم خطر العلم فيه كما سيأتي في طريق معالجة الكبر بالعلم وهذا العلم يزيد خوفا وتواضعا وتخشعا ويقتضي أن يرى كل الناس خيرا منه لعظم حجة الله عليه بالعلم و تقصيره في القيام بشكر نعمة العلم ولهذا قال أبو الدرداء من ازداد علما ازداد وجعا وهو كما قال * فان قلت فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبرا وأمنا فاعلم ان لذلك سببين * أحدهما أن يكون اشتغاله بما يسمى علما وليس علما حقيقيا وانما العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه وخطر أمره في لقاء الله والحجاب منه وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر والامن قال الله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء فاما ما وراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرق المجادلات فاذا تجرد الانسان لها حتى امتلأ منها امتلأ بها كبرا ونفاقا وهذه بان تسمى صناعات أولى من أن تسمى علوما بل العلم هو معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة وهذه تورث التواضع غالبا * السبب الثاني أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة رديء النفس سيء الاخلاق فانه لم يشتغل أولا بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بانواع المجاهدات ولم يرض نفسه في عبادة ربه فبقي خبيث الجوهر فاذا خاض في العلم أي علم كان صادف العلم من قلبه منزلا خبيثا فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره وقد ضرب وهب لهذا مثلا فقال العلم كالغيث ينزل من السماء حلوا صافيا فتشربه الاشجار بعروقها فتحوله على قدر طعومها فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدر هممها وأهوائها فيزيد المتكبر كبرا والمتواضع تواضعا وهذا لان من كانت همته الكبر وهو جاهل فاذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبرا واذا كان الرجل خائفا مع جهله فازداد علما علم ان الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفا واشفاقا وذلا وتواضعا فالعلم من أعظم ما يتكبر به ولذلك قال تعالى لنبيه عليه السلام واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين وقال عز وجل ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك و وصف أولياءه فقال أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين وكذلك قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه العباس رضي الله عنه يكون قوم يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا ومن أعلم منا ثم التفت الى أصحابه وقال أولئك منكم أيها الامة أولئك هم وقود النار ولذلك قال عمر رضي الله عنه لا تكونوا جبابرة العلماء فلا يفي علمكم بجهلكم ولذلك استأذن تميم الداري عمر رضي الله عنه في القصص فأبى أن يأذن له وقال له انه الذبح واستأذنه رجل كان امام قوم أنه اذا سلم من صلاته ذكرهم فقال اني أخاف أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا وصلى حذيفة بقوم فلما سلم من صلاته قال لتلتمسن اماما غيري أو لتصلن وحدانا فاني رأيت في نفسي انه ليس في القوم أفضل مني فاذا كان مثل حذيفة لا يسلم فكيف يسلم الضعفاء من متأخري هذه الامة فما أعز على بسيط الارض عالما يستحق أن يقال له عالم ثم انه لا يحركه عز العلم وخيلاؤه فان وجد ذلك فهو صديق زمانه فلا ينبغي أن يفارق بل يكون النظر اليه عبادة فضلا عن الاستفادة من أنفاسه وأحواله ولو عرفنا ذلك ولو في أقصى الصين لسعينا اليه رجاء أن تشملنا بركته وتسري الينا سيرته وسجيته وهيهات فاني يسمح آخر الزمان بمثلهم فهم أرباب الاقبال وأصحاب الدول قد انقرضوا في القرن الاول ومن يليهم بل يعز في زماننا عالم يختلج في نفسه الاسف والحزن على فوات هذه الخصلة فذلك أيضا اما معدوم واما عزيز ولولا بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله سيأتي على الناس زمان من تمسك فيه بعشر ما أنتم عليه نجا لكان جديرا بنا أن نقتحم والعياذ بالله تعالى ورطة اليأس والقنوط مع ما نحن عليه من سوء أعمالنا ومن لنا أيضا بالتمسك بعشر ما كانوا عليه وليتنا تمسكنا بعشر عشره فنسأل الله تعالى أن يعاملنا بما هو أهله و يستر علينا قبائح أعمالنا كما

الى أول مسكين لقيه ثم أمر فاشترى له نعلان مخصوفتان و روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس الصوف واحتذى المخصوف وأكل مع العبيد واذا كانت النفس محل الآفات فالوقوف على دسائسها وخفي شهواتها وكامن هواها عسر جدا فالاليق والاجدر والاولى الاخذ بالاحوط وترك ما يريب الى ما لا يريب ولا يجوز للعبد النزول في السعة الا بعد اتقان علم السعة وكمال تزكية النفس وذلك اذا غابت النفس بغيبة هواها المتبع وتخلصت النية وتسدد التصرف بعلم صريح واضح وللعزيمة أقوام يركبونها و يراعونها لا يرون النزول الى الرخص خوفا من فوت فضيلة الزهد في الدنيا واللباس الناعم من الدنيا (وقد قيل) من رق ثوبه رق

يقتضيه كرمه وفضله *(الثانى)* العمل والعبادة وليس يخلو عن رذيلة العز والكبر واستمالة قلوب الناس الزهاد والعباد ويترشح الكبر منهم فى الدين والدنيا أما فى الدنيا فهو انهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم والتوسع لهم فى المجالس وذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس فى الحظوظ الى جميع ماذكرناه فى حق العلماء وكانهم يرون عبادتهم منة على الخلق وأما فى الدين فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجيا وهو الهالك تحقيقا مهما رأى ذلك قال صلى الله عليه وسلم اذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم وانما قال ذلك لان هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله مغتر بالله آمن من مكره غير خائف من سطوته وكيف لا يخاف ويكفيه شرا احتقاره لغيره قال صلى الله عليه وسلم كفى بالمرء شرا أن يحقر أخاه المسلم وكم من الفرق بينه وبين من يحبه لله ويعظمه لعبادته ويستعظمه ويرجوله مالا يرجوه لنفسه فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم اياه لله فهم يتقربون الى الله تعالى بالدنومنه وهو يتمقت الى الله بالتنزه والتباعد منهم كانه مترفع عن مجالستهم فما أجدرهم اذا أحبوه لصلاحه أن ينقلهم الله الى درجته فى العمل وما أجدره اذا ازدراهم بعينه أن ينقله الله الى حد الاهمال كما روى أن رجلا فى بنى اسرائيل كان يقال له خليع بنى اسرائيل لكثرة فساده مر برجل آخر يقال له عابد بنى اسرائيل وكان على رأس العابد غمامة تظله فلما مر الخليع به فقال الخليع فى نفسه أنا خليع بنى اسرائيل وهذا عابد بنى اسرائيل فلو جلست اليه لعل الله يرحمنى فجلس اليه فقال العابد أنا عابد بنى اسرائيل وهذا خليع بنى اسرائيل فكيف يجلس الىّ فانف منه وقال له قم عنى فأوحى الله الى نبى ذلك الزمان مرهما فليستأنفا العمل فقد غفرت للخليع وأحبطت عمل العابد وفى رواية أخرى فتحولت الغمامة الى رأس الخليع وهذا يعرفك ان الله تعالى انما يريد من العبيد قلوبهم فالجاهل العاصى اذا تواضع هيبة لله وذل خوفا منه فقد أطاع الله بقلبه فهو أطوع لله من العالم المتكبر والعابد المعجب وكذلك روى أن رجلا فى بنى اسرائيل اتى عابدا من بنى اسرائيل فوطئ على رقبته وهو ساجد فقال ارفع فوالله لا يغفر الله لك فاوحى الله اليه أيها المتألى على بل أنت لا يغفر الله لك وكذلك قال الحسن وحتى أن صاحب الصوف أشد كبرا من صاحب المطرز الخز أى ان صاحب الخز يذل لصاحب الصوف ويرى الفضل له وصاحب الصوف يرى الفضل لنفسه وهذه الآفة أيضا قلما ينفك عنها كثير من العباد وهو انه لو استخف به مستخف أو آذاه موذ استبعد أن يغفر الله له ولا يشك فى أنه صار ممقوتا عند الله ولو آذى مسلما آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهو جهل وجمع بين الكبر والعجب والاغترار بالله وقد ينتهى الحمق والغباوة ببعضهم الى أن يتحدى ويقول سترون مايجرى عليه واذا أصيب بنكبة زعم ان ذلك من كراماته وأن الله ماأراد به الاشفاء غليله والانتقام له منه مع انه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله وعرف جماعة آذوا الانبياء صلوات الله عليهم فمنهم من قتلهم ومنهم من ضربهم ثم ان الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم فى الدنيا بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه فى الدنيا ولا فى الآخرة ثم الجاهل المغرور يظن أنه أكرم على الله من أنبيائه وانه قد انتقم له بمالا ينتقم لانبيائه به ولعله فى مقت الله باعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه فهذه عقيدة المغترين وأما الاكياس من العباد فيقولون ما كان يقوله عطاء السلمى حين كان تهب ريح أو تقع صاعقة مايصيب الناس مايصيبهم الا بسببى ولو مات عطاء لتخلصوا وما قاله الآخر بعد انصرافه من عرفات كنت أرجو الرحمة لجميعهم لولا كونى فيهم فانظر الى الفرق بين الرجلين هذا يتقى الله ظاهرا وباطنا وهو وجل على نفسه مزدر لعمله وسعيه وذاك ربما يضمر من الرياء والكبر والحسد والغل ماهو ضحكة للشيطان به ثم انه يمتن على الله بعمله ومن اعتقد جزما انه فوق أحد من عباد الله فقد أحبط بجهله جميع عمله فان الجهل أفحش المعاصى وأعظم شئ يبعد العبد عن الله وحكمه لنفسه بانه خير من غيره جهل محض وأمن من مكر الله ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون ولذلك روى ان رجلا ذكر بخير للنبى صلى الله عليه وسلم فاقبل ذات يوم فقالوا يارسول الله هذا الذى ذكرناه لك فقال انى أرى فى وجهه سفعة من الشيطان فسلم ووقف على النبى صلى الله عليه وسلم فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أسألك بالله حدثتك نفسك انه ليس فى القوم أفضل منك قال اللهم نعم فرأى رسول الله صلى

دينه وقد يرخص فى ذلك لمن لا يلتزم بالزهد ويقف على رخصة الشرع (روى) علقمة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من الكبر فقال رجل ان الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا فقال النبى عليه السلام ان الله جميل يحب الجمال فتكون هذه الرخصة فى حق من يلبسه لا يهوى نفسه فى ذلك غير مفتخر به ومختال فامامن لبس الثوب للتفاخر بالدنيا والتكاثر بها فقد ورد فيه وعيد (روى) أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ازرة المؤمن الى نصف الساق فيما بينه وبين الكعبين وما كان أسفل من الكعبين فهو فى النار من جر ازاره بطرا لم ينظر الله اليه يوم القيامة فبينما

الله عليه وسلم بنور النبوة ما استكن فى قلبه سفعة فى وجهه وهذه آفة لا ينفك عنها أحد من العباد الا من عصمه الله لكن العلماء والعباد فى آفة الكبر على ثلاث درجات * الدرجة الاولى أن يكون الكبر مستقرا فى قلبه يرى نفسه خيرا من غيره الا انه يجتهد و يتواضع و يفعل فعل من يرى غيره خيرا من نفسه وهذا قد رسخ فى قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها بالكلية * الثانية أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع فى المجالس والتقدم على الاقران واظهار الانكار على من يقصر فى حقه وأدنى ذلك فى العالم أن يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم وفى العابدان يعبس وجهه و يقطب جبينه كانه متنزه عن الناس مستقذر لهم أو غضبان عليهم وليس يعلم المسكين ان الورع ليس فى الجبهة حتى تقطب ولا فى الوجه حتى يعبس ولا فى الخد حتى يصعر ولا فى الرقبة حتى تطأطأ ولا فى الذيل حتى يضم انما الورع فى القلوب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التقوى ههنا وأشار الى صدره فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرم الخلق وأتقاهم وكان أوسعهم خلقا وأكثرهم بشرا وتبسما وانبساطا ولذلك قال الحرث بن جزء الزبيدى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبنى من القراء كل طليق مضحاك فأما الذى تلقاه ببشر و يلقاك بعبوس يمن عليك بعلمه فلا أكثر الله فى المسلمين مثله ولو كان الله سبحانه وتعالى يرضى ذلك لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر على شمائلهم فأحوالهم أخف حالا ممن هو فى الرتبة الثالثة وهو الذى يظهر الكبر على لسانه حتى يدعوه الى الدعوى والمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس وحكايات الاحوال والمقامات والتشمر لغلبة الغير فى العلم والعمل أما العابد فانه يقول فى معرض التفاخر لغيره من العباد من هو وما عمله ومن أين زهده فيطول اللسان فيهم بالتنقص ثم يثنى على نفسه و يقول انى لم أفطر منذ كذا وكذا ولا أنام الليل وأختم القرآن فى كل يوم وفلان ينام سحرا ولا يكثر القراءة وما يجرى مجراه وقد يزكى نفسه ضمنا فيقول قصدنى فلان بسوء فهلك ولده وأخذ ماله أو مرض أو ما يجرى مجراه يدعى الكرامة لنفسه وأما مباهاته فهو انه لو وقع مع قوم يصلون بالليل قام وصلى أكثر مما كان يصلى وان كانوا يصبرون على الجوع فيكلف نفسه الصبر ليغلبهم و يظهر لهم قوته وعجزهم وكذلك يشتد فى العبادة خوفا من ان يقال غيره أعبد منه أو أقوى منه فى دين الله وأما العالم فانه يتفاخر و يقول أنا متفنن فى العلوم ومطلع على الحقائق ورأيت من الشيوخ فلانا وفلانا ومن أنت وما فضلك ومن لقيت وما الذى سمعت من الحديث كل ذلك ليصغره و يعظم نفسه وأما مباهاته فهو انه يجتهد فى المناظرة أن يغلب ولا يغلب و يسهر طول الليل والنهار فى تحصيل علوم يتجمل بها فى المحافل كالمناظرة والجدل وتحسين العبارة وتسجيع الالفاظ وحفظ العلوم الغريبة ليغرب بها على الاقران و يتعظم عليهم ويحفظ الاحاديث ألفاظها وأسانيدها حتى يرد على من أخطأ فيها فيظهر فضله ونقصان أقرانه و يفرح مهما أخطأ واحد منهم ليرد عليه و يسوءه اذا أصاب وأحسن خيفة من أن يرى انه أعظم منه فهذا كله اخلاق الكبر وآثاره التى يثمرها التعزز بالعلم والعمل وأين من يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه فليت شعرى من الذى عرف هذه الاخلاق من نفسه وسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر كيف يستعظم نفسه و يتكبر على غيره ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انه من أهل النار وانما العظيم من خلا عن هذا ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظم وتكبر والعالم هو الذى فهم أن الله تعالى قال له ان لك عندنا قدرا ما لم تر لنفسك قدرا فان رأيت لها قدرا فلا قدر لك عندنا ومن لم يعلم هذا من الدين فاسم العالم عليه كذب ومن علمه لزمه أن لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدرا فهذا هو التكبر بالعلم والعمل (الثالث) التكبر بالحسب والنسب فالذى له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وان كان أرفع منه عملا وعلما وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له موال وعبيد ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم وثمرته على اللسان التفاخر به فيقول لغيره يا نبطى ويا هندى و يا أرمنى من أنت ومن أبوك فأنا فلان بن فلان وأين لمثلك أن يكلمنى أو ينظر الى ومع مثلى تتكلم وما يجرى مجراه وذلك عرق دفين فى النفس لا ينفك عنه نسيب وان كان صالحا وعاقلا الا أنه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الاحوال فان غلبه غضب أطفأ ذلك نور بصيرته وترشح منه كما روى عن أبى ذر أنه قال قاولت رجلا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقلت له يا ابن السوداء فقال النبى صلى الله عليه وسلم يا أبا ذر

رجل ممن كان قبلكم يتبختر فى ردائه أعجبه رداؤه فخسف الله به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة والاحوال تختلف ومن صح حاله بصحة علمه صحت نيته فى ما كوله وملبوسه وسائر تصاريفه وفى كل الاحوال يستقيم و يتسدد باستقامة الباطن مع الله تعالى و بقدر ذلك تستقيم تصاريف العبد كلها بحسن توفيق الله تعالى

(الباب الخامس والاربعون فى ذكر فضل قيام الليل)

قال الله تعالى اذ يغشيكم النعاس أمنة منه و ينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به و يذهب عنكم رجز الشيطان نزلت هذه الآية فى المسلمين يوم بدر حيث نزلوا على كثيب من الرمل تسوخ فيه الاقدام وحوافر الدواب وسبقهم المشركون الى ماء بدر العظمى وغلبوهم عليها

طف الصاع طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل فقال أبو ذر رحمه الله فاضطجعت وقلت للرجل قم فطأ على خدى فانظر كيف نبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى لنفسه فضلا بكونه ابن بيضاء وان ذلك خطأ وجهل وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر بأخمص قدم من تكبر عليه اذ عرف أن العز لا يقمعه الا الذل ومن ذلك ما روى أن رجلين تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما للآخر أنا فلان بن فلان فمن أنت لا أم لك فقال النبي صلى الله عليه وسلم افتخر رجلان عند موسى عليه السلام فقال أحدهما أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة فأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام قل للذى افتخر بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحما فى جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التى تدوف بآنافها القذر * (الرابع) * التفاخر بالجمال وذلك أكثر ما يجرى بين النساء ويدعو ذلك الى التنقص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس ومن ذلك ما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت دخلت امرأة على النبى صلى الله عليه وسلم فقلت بيدى هكذا أى انها قصيرة فقال النبى صلى الله عليه وسلم قد اغتبتها وهذا منشؤه خفاء الكبر لانها لو كانت أيضا قصيرة لما ذكرتها بالصغر فكأنها أعجبت بقامتها واستقصرت المرأة فى جنب نفسها فقالت ما قالت (الخامس) الكبر بالمال وذلك يجرى بين الملوك فى خزائنهم وبين التجار فى بضائعهم وبين الدهاقين فى أراضيهم وبين المتجملين فى لباسهم وخيولهم ومراكبهم فيستحقر الغنى الفقير ويتكبر عليه ويقول له أنت مكد ومسكين وأنا لو أردت لاشتريت مثلك واستخدمت من هو فوقك ومن أنت وما معك وأثاث بيتى يساوى أكثر من جميع مالك وأنا أنفق فى اليوم ما لا تأكله فى سنة وكل ذلك لاستعظامه للغنى واستحقاره للفقر وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى واليه الاشارة بقوله تعالى فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا حتى أجابه فقال ان ترنى أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربى أن يؤتينى خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا وكان ذلك منه تكبرا بالمال والولد ثم بين الله عاقبة أمره بقوله يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا ومن ذلك تكبر قارون اذ قال تعالى اخبارا عن تكبره فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم (السادس) الكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على أهل الضعف (السابع) التكبر بالاتباع والانصار والتلامذة والغلمان وبالعشيرة والاقارب والبنين ويجرى ذلك بين الملوك فى المكاثرة بالجنود وبين العلماء فى المكاثرة بالمستفيدين وبالجملة فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالا وان لم يكن فى نفسه كمالا أمكن أن يتكبر به حتى ان المخنث ليتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته فى صنعة المخنثين لانه يرى ذلك كمالا فيفتخر به وان لم يكن فعله الا نكالا وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب وكثرة الفجور بالنسوان والغلمان ويتكبر به لظنه ان ذلك كمال وان كان مخطئا فيه فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض فيتكبر من يدلى بشئ منه على من لا يدلى به أو على من يدلى بما هو دونه فى اعتقاده وربما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى كالعالم الذى يتكبر بعلمه على من هو أعلم منه لظنه انه هو الاعلم ولحسن اعتقاده فى نفسه نسأل الله العون بلطفه ورحمته انه على كل شئ قدير

* (بيان البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له) *

اعلم أن الكبر خلق باطن وأما ما يظهر من الاخلاق والافعال فهى ثمرة ونتيجة وينبغى أن تسمى تكبرا ويخص اسم الكبر بالمعنى الباطن الذى هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب الذى يتعلق بالمتكبر كما سيأتى معناه فانه اذا أعجب بنفسه وبعلمه وبعمله أو بشئ من أسبابه استعظم نفسه وتكبر وأما الكبر الظاهر فأسبابه ثلاثة سبب فى المتكبر وسبب فى المتكبر عليه وسبب فيما يتعلق بغيرهما أما السبب الذى فى المتكبر فهو العجب والذى يتعلق بالمتكبر عليه هو الحقد والحسد والذى يتعلق بغيرهما هو الرياء فتصير الاسباب بهذا الاعتبار أربعة العجب والحقد والحسد والرياء * أما العجب فقد ذكرنا انه يورث الكبر الباطن والكبر الباطن يثمر التكبر الظاهر فى الاعمال والاقوال والاحوال * وأما الحقد فانه قد يحمل على

وأصبح المسلمون بين محدث وجنب وأصابهم الظمأ فوسوس اليهم الشيطان انكم تزعمون انكم على الحق وفيكم نبى الله وقد غلب المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين ومجنبين فكيف ترجون الظفر عليهم فأنزل الله تعالى مطرا من السماء سال منه الوادى فشرب المسلمون منه واغتسلوا وتوضؤا وسقوا الدواب وملؤا الاسقية ولبد الارض حتى ثبتت به الاقدام قال الله تعالى ويثبت به الاقدام اذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم أمدهم الله تعالى بالملائكة حتى غلبوا المشركين ولكل آية من القرآن ظهر وبطن وحد ومطلع والله تعالى كما جعل النعاس رحمة وأمنة للصحابة خاصة فى تلك الواقعة والحادثة فهو رحمة لعم المؤمنين والنعاس قسم صالح من الاقسام

التكبر من غير عجب كالذى يتكبر على من يرى انه مثله أو فوقه ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه فاورثه الغضب حقدا ورسخ فى قلبه بغضه فهو لذلك لا تطاوعه نفسه أن يتواضع له وان كان عنده مستحقا للتواضع فكم من رذل لا تطاوعه نفسه على التواضع لواحد من الاكابر لحقده عليه أو بغضه له ويحمله ذلك على رد الحق اذا جاء من جهته وعلى الانفة من قبول نصحه وعلى أن يجتهد فى التقدم عليه وان علم انه لا يستحق ذلك وعلى أن لا يستحله وان ظلمه فلا يعتذر اليه وان جنى عليه ولا يسأله عما هو جاهل به وأما الحسد فانه أيضا يوجب البغض للمحسود وان لم يكن من جهته ايذاء وسبب يقتضى الغضب والحقد ويدعو الحسد أيضا الى جحد الحق حتى يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم فكم من جاهل يشتاق الى العلم وقد بقى فى رذيلة الجهل لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه حسدا او بغيا عليه فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بانه يستحق التواضع بفضل علمه ولكن الحسد يبعثه على أن يعامله باخلاق المتكبرين وان كان فى باطنه ليس يرى نفسه فوقه *وأما الرياء فهو أيضا يدعو الى أخلاق المتكبرين حتى ان الرجل ليناظر من يعلم انه أفضل منه وليس بينه وبينه معرفة ولا محاسدة ولا حقد ولكن يمتنع من قبول الحق منه ولا يتواضع له فى الاستفادة خيفة من أن يقول الناس انه أفضل منه فيكون باعثه على التكبر عليه الرياء المجرد ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه وأما الذى يتكبر بالعجب أو الحسد أو الحقد فانه يتكبر أيضا عند الخلوة به مهما لم يكن معهما ثالث وكذلك قد ينتمى الى نسب شريف كاذبا وهو يعلم انه كاذب ثم يتكبر به على من ليس ينتسب الى ذلك النسب ويترفع عليه فى المجالس ويتقدم عليه فى الطرق ولا يرضى بمساواته فى الكرامة والتوقير وهو عالم باطنا بانه لا يستحق ذلك ولا كبر فى باطنه لمعرفته بانه كاذب فى دعوى النسب ولكن يحمله الرياء على أفعال المتكبرين وكأن اسم المتكبر انما يطلق فى الاكثر على من يفعل هذه الافعال عن كبر فى الباطن صادر عن العجب والنظر الى الغير بعين الاحتقار وهو ان سمى متكبرا فلاجل التشبه بافعال الكبر نسأل الله حسن التوفيق والله تعالى أعلم

*(بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر)

اعلم ان التكبر يظهر فى شمائل الرجل كصعر فى وجهه ونظره شزرا واطراقه رأسه وجلوسه متربعا أو متكئا وفى أقواله حتى فى صوته ونغمته وصيغته فى الايراد ويظهر فى مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته وفى تعاطيه لافعاله وفى سائر تقلباته فى أحواله وأقواله وأعماله فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ومنهم من يتكبر فى بعض ويتواضع فى بعض فمنها التكبر بان يحب قيام الناس له أو بين يديه وقد قال على كرم الله وجهه من أراد أن ينظر الى رجل من أهل النار فلينظر الى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام وقال أنس لم يكن شخص أحب اليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا اذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك *ومنها أن لا يمشى الا ومعه غيره يمشى خلفه قال أبو الدرداء لا يزال العبد يزداد من الله بعدا ما مشى خلفه وكان عبد الرحمن بن عوف لا يعرف من عبيده اذ كان لا يتميز عنهم فى صورة ظاهرة ومشى قوم خلف الحسن البصرى فمنعهم وقال ما يبقى هذا من قلب العبد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض الاوقات يمشى مع بعض الاصحاب فيأمرهم بالتقدم ويمشى فى غمارهم اما لتعليم غيره أو لينفى عن نفسه وسواس الشيطان بالكبر والعجب كما أخرج الثوب الجديد فى الصلاة وأبدله بالخليع لاحد هذين المعنيين *ومنها أن لا يزور غيره وان كان يحصل من زيارته خير لغيره فى الدين وهو ضد التواضع روى أن سفيان الثورى قدم الرملة فبعث اليه ابراهيم بن أدهم أن تعال فحدثنا فجاء سفيان فقيل له يا أبا اسحق تبعث اليه بمثل هذا فقال أردت أن أنظر كيف تواضعه ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه الا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه قال ابن وهب جلست الى عبد العزيز بن أبى رواد فمس فخذى فخذه فنحيت نفسى عنه فاخذ ثيابى فجرنى الى نفسه وقال لى لم تفعلون بى ما تفعلون بالجبابرة وانى لا أعرف رجلا منكم شرا منى وقال أنس كانت الوليدة من ولائد المدينة تاخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث شاءت ومنها أن يتوقى من مجالسة المرضى والمعلولين ويتحاشى عنهم وهو من الكبر دخل رجل وعليه جدرى قد تقشر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ناس من أصحابه يأكلون فما جلس الى أحد

العاجلة للمريدين وهو أمنية لقلوبهم عن منازعات النفس لان النفس بالنوم تستريح ولا تشكو الكلال والتعب اذ فى شكايتها وتعبها تكدير القلب وباستراحتها بالنوم بشرط العلم والاعتدال راحة القلب لما بين القلب والنفس من المواطأة عند طمأنينتها للمريدين السالكين فقد قيل ينبغى أن يكون ثلث الليل والنهار نوما حتى لا يضطرب الجسد فيكون ثمان ساعات للنوم ساعتين من ذلك يجعلهما المريد بالنهار وست ساعات بالليل ويزيد فى أحدهما وينقص من الآخر على قدر طول الليل وقصره فى الشتاء والصيف وقد يكون بحسن الارادة وصدق الطلب ينقص النوم عن قدر الثلث ولا يضر ذلك اذا صار بالتدريج عادة وقد يحمل ثقل السهر وقلة النوم وجود الروح

الاقام من جنبه فاجلسه النبي صلى الله عليه وسلم الى جنبه وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لا يحبس عن طعامه مجذوما ولا أبرص ولا مبتلى الا أقعدهم على مائدته * ومنها ان لا يتعاطى بيده شغلا في بيته والتواضع خلافه روي ان عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ فقال الضيف أقوم الى المصباح فاصلحه فقال ليس من كرم الرجل ان يستخدم ضيفه قال أفأنبه الغلام فقال هي أول نومة نامها فقام وأخذ البطة وملأ المصباح زيتا فقال الضيف قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين فقال ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ما نقص مني شئ وخير الناس من كان عند الله متواضعا * ومنها أن لا يأخذ متاعه ويحمله الى بيته وهو خلاف عادة المتواضعين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك وقال علي كرم الله وجهه لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شئ الى عياله وكان أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير يحمل سطلا له من خشب الى الحمام وقال ثابت بن أبي مالك رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة لمروان فقال أوسع الطريق للامير يا ابن أبي مالك وعن الاصبغ بن نباتة قال كأني أنظر الى عمر رضي الله عنه معلقا لحما في يده اليسرى وفي يده اليمنى الدرة يدور في الاسواق حتى دخل رحله وقال بعضهم رأيت عليا رضي الله عنه قد اشترى لحما بدرهم فحمله في ملحفته فقلت له أحمل عنك يا أمير المؤمنين فقال لا أبو العيال أحق أن يحمل ومنها اللباس اذ يظهر به التكبر والتواضع وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم البذاذة من الايمان فقال هرون سألت معنا عن البذاذة فقال هو الدون من اللباس وقال زيد بن وهب رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج الى السوق وبيده الدرة وعليه ازار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من أدم وعوتب علي كرم الله وجهه في ازار مرقوع فقال يقتدي به المؤمن ويخشع له القلب وقال عيسى عليه السلام جودة الثياب خيلاء في القلب وقال طاوس اني لاغسل ثوبي هذين فانكر قلبي ما داما نقيين وروي أن عمر بن العزيز رحمه الله كان قبل أن يستخلف تشترى له الحلة بالف دينار فيقول ما أجودها لولا خشونة فيها فلما استخلف كان يشترى له الثوب بخمسة دراهم فيقول ما أجوده لولا لينه فقيل له أين لباسك ومركبك وعطرك يا أمير المؤمنين فقال ان لي نفسا ذواقة تواقة وانها لم تذق من الدنيا طبقة الا تاقت الى الطبقة التي فوقها حتى اذا ذاقت الخلافة وهي أرفع الطباق تاقت الى ما عند الله عز وجل وقال سعيد بن سويد صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه فقال له رجل يا أمير المؤمنين ان الله قد أعطاك فلو لبست فنكس رأسه مليا ثم رفع رأسه فقال ان أفضل القصد عند الجدة وان أفضل العفو عند القدرة وقال صلى الله عليه وسلم من ترك زينة لله ووضع ثيابا حسنة تواضعا لله وابتغاء لمرضاته كان حقا على الله أن يدخره عبقري الجنة فان قلت فقد قال عيسى عليه السلام جودة الثياب خيلاء القلب وقد سئل نبينا صلى الله عليه وسلم عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر فقال لا ولكن من سفه الحق وغمص الناس فكيف طريق الجمع بينهما فاعلم ان الثوب الجيد ليس من ضرورته ان يكون من التكبر في حق كل أحد في كل حال وهو الذي أشار اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي عرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم من حال ثابت بن قيس اذ قال اني امرؤ حبب الي من الجمال ما ترى فعرف ان ميله الى النظافة وجودة الثياب لا ليتكبر على غيره فانه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر وقد يكون ذلك من الكبر كما ان الرضا بالثوب الدون قد يكون من التواضع وعلامة المتكبر ان يطلب التجمل اذا رآه الناس ولا يبالي اذا انفرد بنفسه كيف كان وعلامة طالب الجمال ان يحب الجمال في كل شئ ولو في خلوته وحتى في ستور داره فذلك ليس من التكبر فاذا انقسمت الاحوال نزل قول عيسى عليه السلام على بعض الاحوال على ان قوله خيلاء القلب يعني قد تورث خيلاء في القلب وقول نبينا صلى الله عليه وسلم انه ليس من الكبر يعني ان الكبر لا يوجبه ويجوز ان لا يوجبه الكبر ثم يكون هو مورثا للكبر وبالجملة فالاحوال تختلف في مثل هذا والمحبوب الوسط من اللباس الذي لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة وقد قال صلى الله عليه وسلم كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير سرف ولا مخيلة ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده وقال بكر بن عبد الله المزني البسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية وانما خاطب بهذا قوما يطلبون التكبر بثياب أهل الصلاح وقد قال عيسى عليه السلام ما لكم تأتوني وعليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب

والانس فان النوم طبيعة بارد رطب ينفع الجسد والدماغ ويسكن من الحرارة واليبس الحادث في المزاج فان نقص عن الثلث يضر بالدماغ ويخشى منه اضطراب الجسم فاذا ناب عن النوم روح القلب وأنسه لا يضر نقصانه لان طبيعة الروح والانس باردة رطبة كطبيعة النوم وقد تقصر مدة طول الليل بوجود الروح فتصير بالروح أوقات الليل الطويلة كالقصيرة كما يقال سنة الوصل سنة وسنة الهجر سنة فيقصر الليل لاهل الروح (نقل) عن علي بن بكار أنه قال منذ أربعين سنة ما أحزنني الا طلوع الفجر وقيل لبعضهم كيف أنت والليل قال ما راعيته قط يريني وجهه ثم ينصرف وما تأملته قال أبو سليمان الداراني أهل الليل في ليلهم أشد لذة من أهل اللهو في لهوهم وقال بعضهم ليس في الدنيا شئ

الاثياب الضوارى البشو اثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية ومنها ان يتواضع بالاحتمال اذا سب وأوذى وأخذ حقه فذلك هو الاصل وقد أوردنا ما نقل عن السلف من احتمال الاذى فى كتاب الغضب والحسد وبالجملة فمجامع حسن الاخلاق والتواضع سيرة النبى صلى الله عليه وسلم فيه فينبغى ان يقتدى به ومنه ينبغى ان يتعلم . وقد قال أبو سلمة قلت لابى سعيد الخدرى ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم فقال يا ابن أخى كل لله واشرب لله والبس لله وكل شئ من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف وعالج فى بيتك من الخدمة ما كان يعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته كان يعلف الناضح ويعقل البعير ويقم البيت ويحلب الشاة ويخصف النعل ويرقع الثوب ويأكل مع خادمه ويطحن عنه اذا أعيا ويشترى الشئ من السوق ولا يمنعه الحياء ان يعلقه بيده أو يجعله فى طرف ثوبه وينقلب الى أهله يصافح الغنى والفقير والكبير والصغير ويسلم مبتدئا على كل من استقبله من صغير أو كبير أسود أو أحمر حر أو عبد من أهل الصلاة ليست له حلة لمدخله وحلة لمخرجه لا يستحى من أن يجيب اذا دعى وكان أشعث أغبر ولا يحقر ما دعى اليه وان لم يجد الا حشف الدقل لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء هين المؤنة لين الخلق كريم الطبيعة جميل المعاشرة طليق الوجه بسام من غير ضحك محزون من غير عبوس شديد فى غير عنف متواضع فى غير مذلة جواد من غير سرف رحيم لكل ذى قربى ومسلم رقيق القلب دائم الاطراق لم يبشم قط من شبع ولم يمد يده من طمع قال أبو سلمة فدخلت على عائشة رضى الله عنها فحدثتها بما قال أبو سعيد فى زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ما أخطأ منه حرفا ولقد قصر اذ ما أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعا ولم يبث الى أحد شكوى وان كانت الفاقة لاحب اليه من اليسار والغنى وان كان ليظل جائعا يلتوى ليلته حتى يصبح فما يمنعه ذلك عن صيام يومه ولو شاء ان يسأل ربه فيؤتى بكنوز الارض وثمارها ورغد عيشها من مشارق الارض ومغاربها لفعل وربما بكيت رحمة له مما أوتى من الجوع فامسح بطنه بيدى وأقول نفسى لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع فيقول يا عائشة اخوانى من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم وقدموا على ربهم فأكرم مآبهم وأجزل ثوابهم فأجدنى استحى ان ترفهت فى معيشتى ان يقصر بى دونهم فاصبر أياما يسيرة أحب الى من أن ينقص حظى غدا فى الآخرة وما من شئ أحب الى من اللحوق باخوانى واخلائى قالت عائشة رضى الله عنها فوالله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عز وجل فما نقل من أحواله صلى الله عليه وسلم يجمع جملة اخلاق المتواضعين فمن طلب التواضع فليقتد به ومن رأى نفسه فوق محله صلى الله عليه وسلم ولم يرض لنفسه بما رضى هو به فما أشد جهله فلقد كان أعظم خلق الله منصبا فى الدنيا والدين فلا عز ولا رفعة الا فى الاقتداء به ولذلك قال عمر رضى الله عنه انا قوم أعزنا الله بالاسلام فلا نطلب العز فى غيره لما عوتب فى بذاذة هيئته عند دخوله الشام وقال أبو الدرداء اعلم أن لله عبادا يقال لهم الابدال خلف من الانبياء هم أوتاد الارض فلما انقضت النبوة أبدل الله مكانهم قوما من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية ولكن بصدق الورع وحسن النية وسلامة الصدر لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر من غير تجبن وتواضع فى غير مذلة وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه وهم أربعون صديقا أو ثلاثون رجلا قلوبهم على مثل يقين ابراهيم خليل الرحمن عليه السلام لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه واعلم يا أخى أنهم لا يلعنون شيأ ولا يؤذونه ولا يحقرونه ولا يتطاولون عليه ولا يحسدون أحدا ولا يحرصون على الدنيا هم أطيب الناس خبرا وألينهم عريكة وأسخاهم نفسا علامتهم السخاء وسجيتهم البشاشة وصفتهم السلامة ليسوا اليوم فى خشية وغدا فى غفلة ولكن مداومين على حالهم الظاهر وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تدركهم الرياح العواصف ولا الخيل المجراة قلوبهم تصعد ارتياحا الى الله واشتياقا اليه وقدما فى استباق الخيرات أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون قال الراوى فقلت يا أبا الدرداء ما سمعت بصفة أشد على من تلك الصفة وكيف لى ان أبلغها فقال ما بينك وبين أن تكون فى أوسعها الا أن تكون تبغض الدنيا فانك اذا أبغضت الدنيا أقبلت على حب الآخرة وبقدر حبك للآخرة تزهد فى الدنيا وبقدر ذلك تبصر ما ينفعك واذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد

يشبه نعيم أهل الجنة الا ما يجده أهل التملق فى قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة فحلاوة المناجاة ثواب عاجل لاهل الليل (وقال) بعض العارفين ان الله تعالى يطلع على قلوب المستيقظين فى الاسحار فيملؤها نورا فترد الفوائد على قلوبهم فتستنير ثم تنتشر من قلوبهم الفوائد الى قلوب الغافلين وقد ورد ان الله تعالى أوحى فى بعض ما أوحى الى بعض أنبيائه ان لى عبادا يحبونى وأحبهم ويشتاقون الى وأشتاق اليهم ويذكرونى وأذكرهم وينظرون الى وأنظر اليهم فان حذوت طريقهم أحببتك وان عدلت عن ذلك مقتك قال يا رب وما علامتهم قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى غنمه ويحنون الى غروب الشمس كما تحن الطير الى أوكارها فاذا جنهم الليل واختلط الظلام وخلا كل حبيب

وا كتنفه بالعصمة واعلم يا ابن أخي ان ذلك في كتاب الله تعالى المنزل ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون
قال يحيى بن كثير فنظرنا في ذلك فما تلذذ المتلذذون بمثل حب الله وطلب مرضاته اللهم اجعلنا من محبي المحبين لك
يارب العالمين فانه لا يصلح لحبك الا من ارتضيته وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع له)

اعلم ان الكبر من المهلكات ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه وازالته فرض عين ولا يزول بمجرد التمني بل
بالمعالجة واستعمال الادوية القامعة له وفي معالجته مقامان أحدهما استئصال أصله من سنخه وقلع شجرته من
مغرسها في القلب الثاني دفع العارض منه بالاسباب الخاصة التي بها يتكبر الانسان على غيره (المقام الاول) في
استئصال أصله وعلاجه علمي وعملي ولا يتم الشفاء الا بمجموعهما أما العلمي فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه
تعالى ويكفيه ذلك في ازالة الكبر فانه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم انه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل وانه
لا يليق به الا التواضع والذلة والمهانة واذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء الا بالله أما معرفته ربه
وعظمته ومجده فالقول فيه يطول وهو منتهى علم المكاشفة وأما معرفته نفسه فهو أيضا يطول ولكنا نذكر من
ذلك ما ينفع في اثارة التواضع والمذلة ويكفيه ان يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله فان في القرآن علم الاولين
والآخرين لمن فتحت بصيرته وقد قال تعالى قتل الانسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم
السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم اذا شاء أنشره فقد أشارت الآية الى أول خلق الانسان والى آخر أمره والى وسطه
فلينظر الانسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية اما أول الانسان فهو انه لم يكن شيأ مذكورا وقد كان في حيز العدم
دهورا بل لم يكن لعدمه أول وأي شيء أخس وأقل من المحو والعدم وقد كان كذلك في القدم ثم خلقه الله من أرذل
الاشياء ثم من أقذرها اذ قد خلقه من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم جعله عظاما ثم كسا العظم لحما
فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان شيأ مذكورا فما صار شيأ مذكورا الا وهو على أخس الاوصاف والنعوت
اذ لم يخلق في ابتدائه كاملا بل خلقه جمادا ميتا لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك
ولا يعلم فبدأ بموته قبل حياته وبضعفه قبل قوته وبجهله قبل علمه وبعماه قبل بصره وبصممه قبل سمعه وبكمه
قبل نطقه وبضلالته قبل هداه وبفقره قبل غناه وبعجزه قبل قدرته فهذا معنى قوله من أي شيء خلقه من نطفة
خلقه فقدره ومعنى قوله هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيأ مذكورا انا خلقنا الانسان من نطفة
أمشاج نبتليه كذلك خلقه أولا ثم امتن عليه فقال ثم السبيل يسره وهذا اشارة الى ما تيسر له في مدة حياته الى
الموت وكذلك قال من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا ومعناه
انه أحياه بعد ان كان جمادا ميتا ترابا أولا ونطفة ثانيا وأسمعه بعدما كان أصم وبصره بعدما كان فاقدا للبصر
وقواه بعد الضعف وعلمه بعد الجهل وخلق له الاعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها وأغناه بعد
الفقر وأشبعه بعد الجوع وكساه بعد العري وهداه بعد الضلال فانظر كيف دبره وصوره والى السبيل كيف
يسره والى طغيان الانسان ما أكفره والى جهل الانسان كيف أظهره فقال أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة
فاذا هو خصيم مبين ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون فانظر الى نعمة الله عليه كيف نقله من
تلك الذلة والقلة والخسة والقذارة الى هذه الرفعة والكرامة فصار موجودا بعد العدم وحيا بعد الموت وناطقا
بعد البكم وبصيرا بعد العمى وقويا بعد الضعف وعالما بعد الجهل ومهديا بعد الضلال وقادرا بعد العجز وغنيا بعد
الفقر فكان في ذاته لاشيء وأي شيء أخس من لاشيء وأي قلة أقل من العدم المحض ثم صار بالله شيأ وانما خلقه من
التراب الذليل الذي يوطأ بالاقدام والنطفة القذرة بعد العدم المحض أيضا ليعرفه خسة ذاته فيعرف به نفسه
وانما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه ويعلم بها عظمته وجلاله وانه لا يليق الكبرياء الا به جل وعلا ولذلك امتن
عليه فقال ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين وعرف خسته أولا فقال ألم يك نطفة من مني يمنى ثم
كان علقة ثم ذكر منته عليه فقال فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى ليدوم وجوده بالتناسل كما حصل
وجوده أولا بالاختراع فمن كان هذا بدأه وهذه أحواله فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء وهو على

بحبيبه تصبوا الى أقدامهم
وافترشوا الى وجوههم
وناجوني بكلامي
وتملقوا الى بانعامي
فبين صارخ وبالٍ
وبين متأوه وشاكٍ بعيني
ما يتحملون من أجلي
وبسمعي ما يشكون من
حبي أول ما أعطيهم
أن أقذف من نوري في
قلوبهم فيخبرون عني كما
أخبر عنهم والثاني لو
كانت السموات السبع
والارضون وما فيهما في
موازينهم لاستقللتها لهم
والثالث أقبل بوجهي
عليهم أفترى من أقبلت
بوجهي عليه أيعلم
أحدا ما أريد ان أعطيه
فالصادق المريد اذا خلا
في ليلة بمناجاة ربه
انتشرت أنوار ليلة على
جميع أجزاء نهاره ويصير
نهاره في حماية ليله وذلك
لامتلاء قلبه بالانوار
فتكون حركاته
وتصاريفه بالنهار تصدر
من منبع الانوار المجتمعة
من الليل ويصير قالبه في
قبة من قباب الحق
مسدد الحركات موفرة

التحقيق أخس الاخساء وأضعف الضعفاء ولكن هذه عادة الخسيس اذا رفع من خسته شمخ بأنفه وتعظم وذلك لدلالة خسة أوله ولا حول ولا قوة الا بالله نعم لو أكمله وفوض اليه أمره وأدام له الوجود باختياره لجاز أن يطغى وينسى المبدأ والمنتهى ولكنه سلط عليه فى دوام وجوده الامراض الهائلة والاسقام العظيمة والآفات المختلفة والطباع المتضادة من المرة والبلغم والريح والدم يهدم البعض من أجزائه البعض شاء أم أبى رضى أم سخط فيجوع كرها ويعطش كرها ويمرض كرها ويموت كرها لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا خيرا ولا شرا يريد أن يعلم الشئ فيجهله ويريد أن يذكر الشئ فينساه ويريد أن ينسى الشئ ويغفل عنه فلا يغفل عنه ويريد أن يصرف قلبه الى ما يهمه فيجول فى أودية الوساوس والافكار بالاضطرار فلا يملك قلبه قلبه ولا نفسه نفسه ويشتهى الشئ وربما يكون هلاكه فيه ويكره الشئ وربما تكون حياته فيه يستلذ الاطعمة وتهلكه وترديه ويستبشع الادوية وهى تنفعه وتحييه ولا يأمن فى لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وتفلج أعضاؤه ويختلس عقله ويختطف روحه ويسلب جميع ما يهواه فى دنياه فهو مضطر ذليل ان ترك بقى وان اختطف فنى عبد مملوك لا يقدر على شئ من نفسه ولا شئ من غيره فاى شئ أذل منه لو عرف نفسه وأنى يليق الكبر به لولا جهله فهذا أوسط أحواله فليتأمله وأما آخره ومورده فهو الموت المشار اليه بقوله تعالى ثم أماته فاقبره ثم اذا شاء أنشره ومعناه انه يسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وحسه وادراكه وحركته فيعود جمادا كما كان أول مرة لا يبقى الا شكل أعضائه وصورته لا حس فيه ولا حركة ثم يوضع فى التراب فيصير جيفة منتنة قذرة كما كان فى الاول نطفة مذرة ثم تبلى أعضاؤه وتتفتت أجزاؤه وتنخر عظامه ويصير رميما رفاتا ويأكل الدود أجزاءه فيبتدئ بحدقتيه فيقلعهما وبخديه فيقطعهما وبسائر أجزائه فيصير روثا فى أجواف الديدان ويكون جيفة يهرب منها الحيوان ويستقذره كل انسان ويهرب منه لشدة الانتان وأحسن أحواله ان يعود الى ما كان فيصير ترابا يعمل منه الكيزان ويعمر منه البنيان فيصير مفقودا بعدما كان موجودا وصار كأن لم يغن بالامس حصيدا كما كان فى أول أمره أمدا مديدا وليته بقى كذلك فما أحسنه لو ترك ترابا لا بل يحييه بعد طول البلى ليقاسى شديد البلاء فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة ويخرج الى أهوال القيامة فينظر الى قيامة قائمة وسماء مشققة ممزقة وأرض مبدلة وجبال مسيرة ونجوم منكدرة وشمس منكسفة وأحوال مظلمة وملائكة غلاظ شداد وجهنم تزفر وجنة ينظر اليها المجرم فيتحسر ويرى صحائف منشورة فيقال له اقرأ كتابك فيقول وما هو فيقال كان قد وكل بك فى حياتك التى كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها وتفتخر بأسبابها ملكان رقيبان يكتبان عليك ما كنت تنطق به أو تعمله من قليل وكثير ونقير وقطمير وأكل وشرب وقيام وقعود قد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك فهلم الى الحساب واستعد للجواب أو تساق الى دار العذاب فينقطع قلبه فزعا من هول هذا الخطاب قبل ان تنتشر الصحيفة ويشاهد ما فيها من مخازيه فاذا شاهده قال يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها فهذا آخر أمره وهو معنى قوله تعالى ثم اذا شاء أنشره فما لمن هذا حاله والتكبر والتعظم بل ما له وللفرح فى لحظة واحدة فضلا عن البطر والاشر فقد ظهر له أول حاله ووسطه ولو ظهر آخره والعياذ بالله تعالى ربما اختار ان يكون كلبا أو خنزيرا ليصير مع البهائم ترابا ولا يكون انسانا يسمع خطابا أو يلقى عذابا وان كان عند الله مستحقا للنار فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع اذ أوله التراب وآخره التراب وهو بمعزل عن الحساب والعذاب والكلب والخنزير لا يهرب منه الخلق ولو رأى أهل الدنيا العبد المذنب فى النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه ولو وقعت قطرة من شرابه الذى يسقى منه فى بحار الدنيا لصارت أنتن من الجيفة فمن هذا حاله فى العاقبة الا أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو كيف يفرح ويبطر وكيف يتكبر ويتجبر وكيف يرى نفسه شيأ حتى يعتقد له فضلا وأى عبد لم يذنب ذنبا استحق به العقوبة الا أن يعفو الله الكريم بفضله ويجبر الكسر بمنه والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظن به ولا قوة الا بالله أرأيت من جنى على بعض الملوك فاستحق بجنايته ضرب ألف سوط فحبس فى السجن وهو ينتظر أن يخرج الى العرض وتقام عليه العقوبة على ملا من الخلق وليس يدرى أيعفى عنه أم لا كيف يكون ذله فى السجن أفترى أنه يتكبر على من فى السجن وما من عبد مذنب الا والدنيا سجنه وقد استحق العقوبة من الله تعالى ولا يدرى كيف يكون آخر أمره

سكناته * وقد ورد من صلى بالليل حسن وجهه بالنهار ويجوز أن يكون لمعنيين أحدهما ان المشكاة تستنير بالمصباح فاذا صار سراج اليقين فى القلب يزهر بكثرة زيت العمل بالليل فيزداد المصباح اشراقا وتكتسب مشكاة القالب نورا وضياء كان يقول سهل ابن عبد الله اليقين نار والاقرار فتيلة والعمل زيت وقد قال الله تعالى سيماهم فى وجوههم من أثر السجود وقال تعالى مثل نوره كمشكاة فيها مصباح فنور اليقين من نور الله فى زجاجة القلب يزداد ضياء بزيت العمل فتبقى زجاجة القلب كالكوكب الدرى وتنعكس انوار الزجاجة على مشكاة القالب وأيضا يلين القلب بنار النور ويسرى لينه الى القالب فيلين القالب للين القلب فيتشابهان لوجود اللين الذى عمهما قال الله تعالى ثم تلين

فكيف

فيكفيه ذلك حزنا وخوفا واشفاقا ومهانة وذلا فهذا هو العلاج العلمي القامع لاصل الكبر وأما العلاج العملي فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين كما وصفناه وحكيناه من أحوال الصالحين ومن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنه كان يأكل على الارض ويقول انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وقيل لسلمان لم لا تلبس ثوبا جديدا فقال انما أنا عبد فاذا أعتقت يوما لبست جديدا أشار به الى العتق في الآخرة ولا يتم التواضع بعد المعرفة الا بالعمل ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالايمان وبالصلاة جميعا وقيل الصلاة عماد الدين وفي الصلاة أسرار لاجلها كانت عمادا ومن جملتها ما فيها من التواضع بالمثول قائما وبالركوع والسجود وقد كانت العرب قديما يأنفون من الانحناء فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحني لاخذه وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لاصلاحه حتى قال حكيم بن حزام بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا أخر الا قائما فبايعه النبي صلى الله عليه وسلم ثم فقه وكمل ايمانه بعد ذلك فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعة أمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم ويزول كبرهم ويستقر التواضع في قلوبهم وبه أمر سائر الخلق فان الركوع والسجود والمثول قائما هو العمل الذي يقتضيه التواضع فكذلك من عرف نفسه فلينظر كل ما يتقاضاه الكبر من الافعال فليواظب على نقيضه حتى يصير التواضع له خلقا فان القلوب لا تتخلق بالاخلاق المحمودة الا بالعلم والعمل جميعا وذلك لخفاء العلاقة بين القلب والجوارح وسر الارتباط الذي بين عالم الملك وعالم الملكوت والقلب من عالم الملكوت * (المقام الثاني) * فيما يعرض من التكبر بالاسباب السبعة المذكورة وقد ذكرنا في كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل فاما ما عداه مما يفنى بالموت فكمال وهمي فمن هذا يعسر على العالم أن لا يتكبر ولكنا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل في جميع الاسباب السبعة * الاول النسب فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين أحدهما أن هذا جهل من حيث انه تعزز بكمال غيره ولذلك قيل

لئن فخرت بآباء ذوي شرف * لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

فالمتكبر بالنسب ان كان خسيسا في صفات ذاته فمن أين يجبر خسته بكمال غيره بل لو كان الذي ينسب اليه حيا لكان له أن يقول الفضل لي ومن أنت وانما أنت دودة خلقت من بولي أفترى أن الدودة التي خلقت من بول انسان أشرف من الدودة التي من بول فرس هيهات بل هما متساويان والشرف للانسان لا للدودة * الثاني أن يعرف نسبه الحقيقي فيعرف أباه وجده فان أباه القريب نطفة قذرة وجده البعيد تراب ذليل وقد عرفه الله تعالى نسبه فقال الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين فمن أصله التراب المهين الذي يداس بالاقدام ثم خمر طينه حتى صار حمأ مسنونا كيف يتكبر وأخس الاشياء ما اليه انتسابه اذ يقال يا أذل من التراب ويا أنتن من الحمأة ويا أقذر من المضغة فان كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب فنقول افتخر بالقريب دون البعيد فالنطفة والمضغة أقرب اليه من الاب فليحتقر نفسه بذلك ثم ان كان ذلك يوجب رفعة لقربه فالاب الاعلى من التراب فمن أين رفعته واذا لم يكن له رفعة فمن أين جاءت الرفعة لولده فاذا أصله من التراب وفصله من النطفة فلا أصل له ولا فصل وهذه غاية خسة النسب فالاصل يوطأ بالاقدام والفصل تغسل منه الابدان فهذا هو النسب الحقيقي للانسان ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ويكون مثله بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله كرجل لم يزل عند نفسه من بني هاشم وقد أخبره بذلك والداه فلم يزل فيه نخوة الشرف فبينما هو كذلك اذ أخبره عدول لا يشك في قولهم انه ابن هندي حجام يتعاطى القاذورات وكشفوا له وجه التلبيس عليه فلم يبق له شك في صدقهم أفترى أن ذلك يبقى شيأ من كبره لا بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم فهو من استشعار الخزي لخسته في شغل عن أن يتكبر على غيره فهذا حال البصير اذا تفكر في أصله وعلم أنه من النطفة والمضغة والتراب اذ لو كان أبوه ممن يتعاطى نقل التراب أو يتعاطى الدم بالحجامة أو غيرها لكان يعلم به خسة نفسه لمماسة أعضاء أبيه للتراب والدم فكيف اذا عرف أنه في نفسه من التراب والدم والاشياء القذرة التي يتنزه عنها هو في نفسه * السبب الثاني التكبر بالجمال ودواؤه أن ينظر الى باطنه نظر العقلاء ولا ينظر الى الظاهر نظر البهائم ومهما نظر الى باطنه رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بالجمال فانه وكل به الاقذار في جميع أجزائه الرجيع في

جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله وصف الجلود باللين كما وصف القلوب باللين فاذا امتلأ القلب بالنور ولان القالب بما يسري فيه من الانس والسرور يندرج الزمان والمكان في نور القلب ويندرج فيه الكلم والآيات والسور وتشرق الارض أرض القالب بنور ربها اذ يصير القلب سماء والقالب أرضا ولذة تلاوة كلام الله في محل المناجاة تستر كون الكائنات والكلام المجيد بكونه ينوب عن سائر الوجود في مزاحمة صفو الشهود فلا يبقى حينئذ للنفس حديث ولا يسمع للهاجس حسيس وفي مثل هذه الحالة يتصور تلاوة القرآن من فاتحته الى خاتمته من غير وسوسة وحديث نفس وذلك هو الفضل العظيم * الوجه الثاني لقوله عليه السلام من صلى بالليل حسن وجهه

أمعائه والبول فى مثانته والمخاط فى أنفه والبزاق فى فيه والوسخ فى أذنيه والدم فى عروقه والصديد تحت بشرته والصنان تحت ابطه يغسل الغائط بيده كل يوم دفعة أو دفعتين ويتردد كل يوم الى الخلاء مرة أو مرتين ليخرج من باطنه مالو رآه بعينه لاستقذره فضلا عن أن يمسه أو يشمه كل ذلك ليعرف قذارته وذله هذا فى حال توسطه وفى أول أمره خلق من الاقذار الشنيعة الصور من النطفة ودم الحيض وأخرج من مجرى الاقذار اذ خرج من الصلب ثم من الذكر مجرى البول ثم من الرحم مفيض دم الحيض ثم خرج من مجرى القذر قال أنس رحمه الله كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يخطبنا فيقذر الينا أنفسنا ويقول خرج أحدكم من مجرى البول مرتين وكذلك قال طاوس لعمر بن عبد العزيز ماهذه مشية من فى بطنه خرء اذ رآه يتبختر وكان ذلك قبل خلافته وهذا أوله ووسطه ولو ترك نفسه فى حياته يوما لم يتعهدها بالتنظيف والغسل لثارت منه الانتان والاقذار وصار أنتن وأقذر من الدواب المهملة التى لا تتعهد نفسها قط فاذا نظر أنه خلق من أقذار وأسكن فى أقذار وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الاقذار لم يفتخر بجماله الذى هو كخضراء الدمن وكلون الازهار فى البوادى فبينما هو كذلك اذ صار هشيما تذروه الرياح كيف ولو كان جماله باقيا وعن هذه القبائح خاليا لكان يجب أن لا يتكبر به على القبيح اذ لم يكن قبح القبيح اليه فينفيه ولا كان جمال الجميل اليه حتى يحمد عليه كيف ولا بقاء له بل هو فى كل حين يتصور أن يزول بمرض أو جدرى أو قرحة أو سبب من الاسباب فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الاسباب فمعرفة هذه الامور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها السبب الثالث التكبر بالقوة والايدى ويمنعه من ذلك أن يعلم ماسلط عليه من العلل والامراض وأنه لو توجع عرق واحد فى يده لصار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل وأنه لو سلبه الذباب شيأ لم يستنقذه منه وان بقة لو دخلت فى أنفه أو نملة دخلت فى أذنه لقتلته وان شوكة لو دخلت فى رجله لأعجزته وان حمى يوم تحلل من قوته مالا ينجبر فى مدة فمن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقة ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه ذبابة فلا ينبغى أن يفتخر بقوته ثم ان قوى الانسان فلا يكون أقوى من حمار أو بقرة أو فيل أو جمل وأى افتخار فى صفة يسبقك فيها البهائم * السبب الرابع والخامس الغنى وكثرة المال وفى معناه كثرة الاتباع والانصار والتكبر بولاية السلاطين والتمكن من جهتهم وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الانسان لا كالجمال والقوة والعلم وهذا أقبح أنواع الكبر فان المتكبر بماله كانه متكبر بفرسه وداره ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلا والمتكبر بتمكين السلطان وولايته لا بصفة فى نفسه بنى أمره على قلب هو أشد غليانا من القدر فان تغير عليه كان أذل الخلق وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل كيف والمتكبر بالغنى لو تأمل لرأى فى اليهود من يزيد عليه فى الغنى والثروة والتجمل فاف لشرف يسبقك به اليهودى وأف لشرف يأخذه السارق فى لحظة واحدة فيعود صاحبه ذليلا مفلسا فهذه أسباب ليست فى ذاته وما هو فى ذاته ليس اليه دوام وجوده وهو فى الآخرة وبال ونكال فالتفاخر به غاية الجهل وكل ماليس اليك فليس لك وشئ من هذه الامور ليس اليك بل الى واهبه ان أبقاه بقى لك وان استرجعه زال عنك وما أنت الا عبد مملوك لا تقدر على شئ ومن عرف ذلك لابد وأن يزول كبره ومثاله أن يفتخر الغافل بقوته وجماله وماله وحريته واستقلاله وسعة منازله وكثرة خيوله وغلمانه اذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف بأنه رقيق لفلان وان أبويه كانا مملوكين له فعلم ذلك وحكم به الحاكم فجاء مالكه فأخذه وأخذ جميع مافى يده وهو مع ذلك يخشى أن يعاقبه وينكل به لتفريطه فى أمواله وتقصيره فى طلب مالكه ليعرف أن له مالكا ثم نظر العبد فرأى نفسه محبوسا فى منزل قد أحدقت به الحيات والعقارب والهوام وهو فى كل حال على وجل من كل واحدة منها وقد بقى لا يملك نفسه ولا ماله ولا يعرف طريقا فى الخلاص البتة أفترى من هذا حاله هل يفخر بقدرته وثروته وقوته وكماله أم تذل نفسه ويخضع وهذا حال كل عاقل بصير فانه يرى نفسه كذلك فلا يملك رقبته وبدنه وأعضاءه وماله وهو مع ذلك بين آفات وشهوات وأمراض وأسقام هى كالعقارب والحيات يخاف منها الهلاك فمن هذا حاله لا يتكبر بقوته وقدرته اذ يعلم أنه لا قدرة له ولا قوة فهذا طريق علاج التكبر بالاسباب الخارجة وهو أهون من علاج التكبر بالعلم والعمل فانهما كمالان فى النفس جديران بأن يفرح بهما ولكن

بالنهار معناه أن وجوه أموره التى يتوجه اليها تحسن وتتداركه المعونة من الله الكريم فى تصاريفه ويكون معاناً فى مصدره ومورده فيحسن وجه مقاصده وأفعاله وينتظم فى سلك السداد مسددا أقواله لان الاقوال تستقيم باستقامة القلب

*(الباب السادس والاربعون فى ذكر الاسباب المعينة على قيام الليل وأدب النوم)

فمن ذلك أن العبد يستقبل الليل عند غروب الشمس بتجديد الوضوء ويقعد مستقبل القبلة منتظرا مجئ الليل وصلاة المغرب مقيما فى ذلك على أنواع الاذكار ومن أولاها التسبيح والاستغفار قال الله تعالى لنبيه واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار ومن ذلك أن يواصل بين العشاءين بالصلاة أو بالتلاوة أو

التكبر بهما أيضا نوع من الجهل خفي كما سنذكره * السبب السادس التكبر بالعلم وهو أعظم الآفات وأغلب الأدواء وأبعدها عن قبول العلاج الا بشدة شديدة وجهد جهيد وذلك لان قدر العلم عظيم عند الله عظيم عند الناس وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما بل لا قدر لهما أصلا الا اذا كان معهما علم وعمل ولذلك قال كعب الاحبار ان للعلم طغيانا كطغيان المال وكذلك قال عمر رضي الله عنه العالم اذا زل زل بزلته عالم فيعجز العالم عن أن لا يستعظم نفسه بالاضافة الى الجاهل لكثرة ما نطق الشرع بفضائل العلم ولن يقدر العالم على دفع الكبر الا بمعرفة أمرين أحدهما أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم آكد وانه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عشره من العالم فان من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش اذ لم يقض حق نعمة الله عليه في العلم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحا فيطيف به أهل النار فيقولون مالك فيقول كنت آمر بالخير ولا آتيه وأنهى عن الشر وآتيه وقد مثل الله سبحانه وتعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال عز وجل مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا اراد به علماء اليهود وقال في بلعم بن باعوراء واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها حتى بلغ فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث قال ابن عباس رضي الله عنهما أوتي بلعم كتابا فأخلد الى شهوات الارض أي سكن حبه اليها فمثله بالكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث أي سواء آتيته الحكمة أو لم أوته لا يدع شهوته ويكفي العالم هذا الخطر فأي عالم لم يتبع شهوته وأي عالم لم يأمر بالخير الذي لا يأتيه فمهما خطر للعالم عظم قدره بالاضافة الى الجاهل فليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده فان خطره أعظم من خطر غيره كما أن قدره أعظم من قدر غيره فهذا بذا وهو كالملك المخاطر بروحه في ملكه لكثرة أعدائه فانه اذا أخذ وقهر اشتهى أن يكون قد كان فقيرا فكم من عالم يشتهي في الآخرة سلامة الجهال والعياذ بالله منه فهذا الخطر يمنع من التكبر فانه ان كان من أهل النار فالخنزير أفضل منه فكيف يتكبر من هذا حاله فلا ينبغي أن يكون العالم أكبر عند نفسه من الصحابة رضوان الله عليهم وقد كان بعضهم يقول يا ليتني لم تلدني أمي ويأخذ الآخر تبنة من الارض ويقول يا ليتني كنت هذه التبنة ويقول الآخر ليتني كنت طيرا أوكل ويقول الآخر ليتني لم أك شيئا مذكورا كل ذلك خوفا من خطر العاقبة فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالا من الطير ومن التراب ومهما أطال فكره في الخطر الذي هو بصدده زال بالكلية كبره ورأى نفسه كأنه شر الخلق ومثاله مثال عبد أمره سيده بأمور فشرع فيها فترك بعضها وأدخل النقصان في بعضها وشك في بعضها أنه هل أداها على ما يرتضيه سيده أم لا فأخبره مخبر أن سيده أرسل اليه رسولا يخرجه من كل ما هو فيه عريانا ذليلا ويلقيه على بابه في الحر والشمس زمانا طويلا حتى اذا ضاق عليه الامر وبلغ به المجهود أمر برفع حسابه وفتش عن جميع أعماله قليلها وكثيرها ثم أمر به الى سجن ضيق وعذاب دائم لا يروح عنه ساعة وقد علم أن سيده قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك وعفا عن بعضهم وهو لا يدري من أي الفريقين يكون فاذا تفكر في ذلك انكسرت نفسه وذل وبطل عزه وكبره وظهر حزنه وخوفه ولم يتكبر على أحد من الخلق بل تواضع رجاء أن يكون هو من شفعائه عند نزول العذاب فكذلك العالم اذا تفكر فيما ضيعه من أوامر ربه بجنايات على جوارحه وبذنوب في باطنه من الرياء والحقد والحسد والعجب والنفاق وغيره وعلم ما هو بصدده من الخطر العظيم فارقه كبره لا محالة * الامر الثاني أن العالم يعرف أن الكبر لا يليق الا بالله عز وجل وحده وأنه اذا تكبر صار ممقوتا عند الله بغيضا وقد أحب الله منه أن يتواضع وقال له ان لك عندي قدرا ما لم تر لنفسك قدرا فان رأيت لنفسك قدرا فلا قدر لك عندي فلا بد وان يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه وهذا يزيل التكبر عن قلبه وان كان يستيقن أنه لا ذنب له مثلا أو تصور ذلك وبهذا زال التكبر عن الانبياء عليهم السلام اذ علموا أن من نازع الله تعالى في رداء الكبرياء قصمه وقد أمرهم الله بان يصغروا أنفسهم حتى يعظم عند الله محلهم فهذا أيضا مما يبعثه على التواضع لا محالة فان قلت فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق وللمبتدع وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد وكيف يجهل فضل العلم والعبادة عند الله وكيف يغنيه ان يخطر

بالذكر وأفضل ذلك الصلاة فانه اذا وصل بين العشاءين يغسل عن باطنه آثار الكدورة الحادثة في أوقات النهار من رؤية الخلق ومخالطتهم وسماع كلامهم فان ذلك كله له أثر وخدش في القلوب حتى النظر اليهم يعقب كدرا في القلب يدركه من رزق صفاء القلب فيكون أثر النظر الى الخلق بالبصيرة كالقذى في العين للبصر وبالمواصلة بين العشاءين يرجى ذهاب ذلك الأثر ومن ذلك ترك الحديث بعد العشاء الآخرة فان الحديث في ذلك الوقت يذهب طراوة النور الحادث في القلب من مواصلة العشاءين ويقيد عن قيام الليل سيما اذا كان عريا عن يقظة القلب ثم تجديد الوضوء بعد العشاء الآخرة أيضا معين على قيام الليل * حكى لي بعض الفقراء عن شيخ له بخراسان أنه كان

بباله خطر العلم وهو يعلم ان خطر الفاسق والمبتدع أكثر فاعلم ان ذلك انما يمكن بالتفكر فى خطر الخاتمة بل لو نظر الى كافر لم يمكنه ان يتكبر عليه اذ يتصور ان يسلم الكافر فيختم له بالايمان و يضل هذا العالم فيختم له بالكفر والكبير من هو كبير عند الله فى الآخرة والكلب والخنزير أعلى رتبة ممن هو عند الله من أهل النار وهو لا يدرى ذلك فكم من مسلم نظر الى عمر رضى الله عنه قبل اسلامه فاستحقره وازدراه لكفره وقد رزقه الله الاسلام وفاق جميع المسلمين الا أبا بكر وحده فالعواقب مطوية عن العباد ولا ينظر العاقل الا الى العاقبة وجميع الفضائل فى الدنيا تراد للعاقبة فاذا من حق العبد ان لا يتكبر على أحد بل ان نظر الى جاهل قال هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم فهو أعذر منى وان نظر الى عالم قال هذا قد علم ما لم أعلم فكيف أكون مثله وان نظر الى كبير هو أكبر منه سنا قال هذا قد أطاع الله قبلى فكيف أكون مثله وان نظر الى صغير قال انى عصيت الله قبله فكيف أكون مثله وان نظر الى مبتدع أو كافر قال ما يدرينى لعله يختم له بالاسلام ويختم لى بما هو عليه الآن فليس دوام الهداية الى كما لم يكن ابتداؤها الى فبملاحظة الخاتمة يقدر على ان ينفى الكبر عن نفسه وكل ذلك بان يعلم ان الكمال فى سعادة الآخرة والقرب من الله لا فيما يظهر فى الدنيا مما لا بقاء له ولعمرى هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه ولكن حق على كل واحد أن يكون مصروف الهمة الى نفسه مشغول القلب بخوفه لعاقبته لا ان يشتغل بخوف غيره فان الشفيق بسوء الظن مولع وشفقة كل انسان على نفسه فاذا حبس جماعة فى جناية ووعدوا بان تضرب رقابهم لم يتفرغوا للتكبر بعضهم على بعض وان عمهم الخطر اذ شغل كل واحد هم نفسه عن الالتفات الى هم غيره حتى كأن كل واحد هو وحده فى مصيبته وخطره فان قلت فكيف أبغض المبتدع فى الله وأبغض الفاسق وقد أمرت ببغضهما ثم مع ذلك أتواضع لهما والجمع بينهما متناقض فاعلم ان هذا أمر مشتبه يلتبس على أكثر الخلق اذ يمتزج غضبك لله فى انكار البدعة والفسق بكبر النفس والادلال بالعلم والورع فكم من عابد جاهل وعالم مغرور اذا رأى فاسقا جلس بجنبه أزعجه من عنده وتنزه عنه بكبر باطن فى نفسه وهو ظان أنه قد غضب لله كما وقع لعابد بنى اسرائيل مع خليعهم وذلك لان الكبر على المطيع ظاهر كونه شرا والحذر منه ممكن والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله وهو خير فان الغضبان أيضا يتكبر على من غضب عليه والمتكبر يغضب وأحدهما يثمر الآخر ويوجبه وهما ممتزجان ملتبسان لا يميز بينهما الا الموفقون والذى يخلصك من هذا أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق أو عند أمرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر ثلاثة أمور أحدها التفاتك الى ما سبق من ذنوبك وخطاياك ليصغر عند ذلك قدرك فى عينك والثانى أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم واعتقاد الحق والعمل الصالح من حيث انها نعمة من الله تعالى عليك فله المنة فيه لا لك فترى ذلك منه حتى لا تعجب بنفسك واذا لم تعجب لم تتكبر والثالث ملاحظة ابهام عاقبتك وعاقبته أنه ربما يختم لك بالسوء ويختم له بالحسنى حتى يشغلك الخوف عن التكبر عليه فان قلت فكيف أغضب مع هذه الاحوال فاقول تغضب لمولاك وسيدك اذ أمرك أن تغضب له لا لنفسك وأنت فى غضبك لا ترى نفسك ناجيا وصاحبك هالكا بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة وأعرفك ذلك بمثال لتعلم انه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره فاقول اذا كان للملك غلام وولد هو قرة عينه وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه وأمره أن يضربه مهما أساء أدبه واشتغل بما لا يليق به ويغضب عليه فان كان الغلام محبا مطيعا لمولاه فلا يجد بدا من أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الادب وانما يغضب عليه لمولاه ولانه أمره به ولانه يريد التقرب بامتثال أمره اليه ولانه جرى من ولده ما يكرهه مولاه فيضرب ولده ويغضب عليه من غير تكبر عليه بل هو متواضع له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه لان الولد أعز لا محالة من الغلام فاذن ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع فكذلك يمكنك ان تنظر الى المبتدع والفاسق وتظن أنه ربما كان قدرهما فى الآخرة عند الله أعظم لما سبق لهما من الحسنى فى الازل ولما سبق لك من سوء القضاء فى الازل وأنت غافل عنه ومع ذلك فتغضب بحكم الامر محبة لمولاك اذ جرى ما يكرهه مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك فى الآخرة فهكذا يكون بغض العلماء الاكياس فينضم اليه الخوف والتواضع وأما المغرور فانه

يتكبر

يغتسل فى الليل ثلاث مرات مرة بعد العشاء الآخرة ومرة فى أثناء الليل بعد الانتباه من النوم ومرة قبل الصبح للوضوء والغسل بعد العشاء الآخرة أثر ظاهر فى تيسير قيام الليل ومن ذلك التعود على الذكر أو القيام بالصلاة خيفة غلبة النوم فان التعود على ذلك يعين على سرعة الانتباه الآن يكون وانقاض نفسه وعادته فيتعمل النوم ويستجلبه ليقوم فى وقته المعهود والا فالنوم عن الغلبة هو الذى يصلح للمريدين والطالبين وبهذا وصف المحبون قيل نومهم نوم الغرقى وأكلهم أكل المرضى وكلامهم ضرورة فمن نام عن غلبة بهم يجتمع متعلق بقيام الليل يوفق لقيام الليل وانما النفس اذا أطمعت وطنت على النوم استرسلت فيه واذا أزعجت بصدق العزيمة

يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره مع جهله بالعاقبة وذلك غاية الغرور فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبته بحكم الامر *(السبب السابع)* التكبر بالورع والعبادة وذلك أيضا فتنة عظيمة على العباد وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيفما كان لما عرفه من فضيلة العلم وقد قال تعالى هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون وقال صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي الى غير ذلك مما ورد في فضل العلم فان قال العابد ذلك لعالم عامل بعلمه وهذا عالم فاجر فيقال له أما عرفت أن الحسنات يذهبن السيئات وكما أن العلم يمكن أن يكون حجة على العالم فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه وكل واحد منهما ممكن وقد وردت الاخبار بما يشهد لذلك واذا كان هذا الامر غائبا عنه لم يجز له أن يحتقر عالما بل يجب عليه التواضع له فان قلت فان صح هذا فينبغي أن يكون للعالم أن يرى نفسه فوق العابد لقوله عليه السلام فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي فاعلم ان ذلك كان ممكنا لو علم العالم عاقبة أمره وخاتمة الامر مشكوك فيها فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق لذنب واحد كان يحسبه هينا وهو عند الله عظيم وقد مقته به واذا كان هذا ممكنا كان على نفسه خائفا فاذا كان كل واحد من العابد والعالم خائفا على نفسه وقد كلف أمر نفسه لا أمر غيره فينبغي أن يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف وفي حق غيره الرجاء وذلك يمنعه من التكبر بكل حال فهذا حال العابد مع العالم فاما مع غير العالم فهم منقسمون في حقه الى مستورين والى مكشوفين فينبغي أن لا يتكبر على المستور فلعله أقل منه ذنوبا وأكثر منه عبادة وأشد منه حبا لله وأما المكشوف حاله ان لم يظهر لك من الذنوب الا ما تزيد عليه ذنوبك في طول عمرك فلا ينبغي أن تتكبر عليه ولا يمكن أن تقول هو أكثر مني ذنبا لان عدد ذنوبك في طول عمرك وذنوب غيرك في طول العمر لا تقدر على احصائها حتى تعلم الكثرة نعم يمكن أن تعلم ان ذنوبه أشد كما لو رأيت منه القتل والشرب والزنا ومع ذلك فلا ينبغي أن تتكبر عليه اذ ذنوب القلوب من الكبر والحسد والرياء والغل واعتقاد الباطل والوسوسة في صفات الله تعالى وتخيل الخطا في ذلك كل ذلك شديد عند الله فربما جرى عليك في باطنك من خفايا الذنوب ما صرت به عند الله ممقوتا وقد جرى الفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب الله واخلاص وخوف وتعظيم ما أنت خال عنه وقد كفر الله بذلك عنه سيئاته فينكشف الغطاء يوم القيامة فتراه فوق نفسك بدرجات فهذا ممكن والامكان البعيد فيما عليك ينبغي أن يكون قريبا عندك ان كنت مشفقا على نفسك فلا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك بل فيما هو مخوف في حقك فانه لا تزر وازرة وزر أخرى وعذاب غيرك لا يخفف شيأ من عذابك فاذا تفكرت في هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن التكبر وعن أن ترى نفسك فوق غيرك وقد قال وهب بن منبه ما تم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال فعد تسعة حتى بلغ العاشر فقال العاشرة وما العاشرة بها ساد مجده وبها علا ذكره أن يرى الناس كلهم خيرا منه وانما الناس عنده فرقتان فرقة هي أفضل منه وأرفع وفرقة هي شر منه وأدنى فهو يتواضع للفرقتين جميعا بقلبه ان رأى من هو خير منه سره ذلك وتمنى أن يلحق به وان رأى من هو شر منه قال لعل هذا ينجو وأهلك أنا فلا تراه الا خائفا من العاقبة ويقول لعل بر هذا باطن فذلك خير له ولا أدري لعل فيه خلقا كريما بينه وبين الله فيرحمه الله ويتوب عليه ويختم له باحسن الاعمال وبري ظاهر فذلك شر لي فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فاحبطتها ثم قال فحينئذ كمل عقله وساد أهل زمانه فهذا كلامه وبالجملة فمن جوز أن يكون عند الله شقيا وقد سبق القضاء في الازل بشقوته فماله سبيل الى أن يتكبر بحال من الاحوال نعم اذا غلب عليه الخوف رأى كل أحد خيرا من نفسه وذلك هو الفضيلة كما روى ان عابدا أوى الى جبل فقيل له في النوم ائت فلانا الاسكاف فسله أن يدعو لك فأتاه فسأله عن عمله فاخبره انه يصوم النهار ويكتسب فيتصدق ببعضه ويطعم عياله ببعضه فرجع وهو يقول ان هذا لحسن ولكن ليس هذا كالتفرغ لطاعة الله فأتى في النوم ثانيا فقيل له ائت فلانا الاسكاف فقل له ما هذا الصفار الذي بوجهك فأتاه فسأله فقال له ما رأيت أحدا من الناس الا وقع لي أنه سينجو وأهلك أنا فقال العابد بهذه والذي يدل على فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون أي انهم يؤتون

لا تسترسل في الاستقرار وهذا الانزعاج في النفس بصدق العزيمة هو التجافي الذي قال الله تعالى تتجافى جنوبهم عن المضاجع لان الهم بقيام الليل وصدق العزيمة يجعل بين الجنب والمضجع نبوا وتجافيا وقد قيل للنفس نظران نظر الى تحت لاستيفاء الاقسام البدنية ونظر الى فوق لاستيفاء الاقسام العلوية الروحانية فارباب العزيمة تجافت جنوبهم عن المضاجع لنظرهم الى فوق الى الاقسام العلوية الروحانية فاعطوا النفوس حقها من النوم ومنعوها حظها فالنفس بما فيها مركوز من الترابية والجمادية ترسب وتستحلس وتستلذ النوم قال الله تعالى هو الذي خلقكم من تراب وللآدمي بكل أصل من أصول خلقته طبيعة لازمة له والرسوب صفة التراب والكسل والتقاعد والتقاعس

الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها وقال تعالى ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون وقال تعالى انا كنا قبل في أهلنا مشفقين وقد وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام مع تقدسهم عن الذنوب ومواظبتهم على العبادات على الدؤب بالاشفاق فقال تعالى مخبرا عنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهم من خشيته مشفقون فمتى زال الاشفاق والحذر عما سبق به القضاء في الازل وينكشف عند خاتمة الاجل غلب الامن من مكر الله وذلك يوجب الكبر وهو سبب الهلاك فالكبر دليل الامن والامن مهلك والتواضع دليل الخوف وهو مسعد فاذن ما يفسده العابد باضمار الكبر واحتقار الخلق والنظر اليهم بعين الاستصغار أكثر مما يصلحه بظاهر الاعمال فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب لا غير الا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع وتدعي البراءة من الكبر وهي كاذبة فاذا وقعت الواقعة عادت الى طبعها ونسيت وعدها فعن هذا لا ينبغي أن يكتفي في المداواة بمجرد المعرفة بل ينبغي أن تكمل بالعمل وتجرب بافعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر من النفس وبيانه أن يمتحن النفس بخمس امتحانات هي أدلة على استخراج ما في الباطن وان كانت الامتحانات كثيرة * الامتحان الاول أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه فان ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والاعتراف به والشكر له على تنبيهه وتعريفه واخراجه الحق فذلك يدل على ان فيه كبرا دفينا فليتق الله فيه ويشتغل بعلاجه أما من حيث العلم فبأن يذكر نفسه خسة نفسه وخطر عاقبته وان الكبر لا يليق الا بالله تعالى وأما العمل فبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء ويقر على نفسه بالعجز ويشكره على الاستفادة ويقول ما أحسن ما فطنت له وقد كنت غافلا عنه فجزاك الله خيرا كما نبهتني له فالحكمة ضالة المؤمن فاذا وجدها ينبغي أن يشكر من دله عليها فاذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبعا وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر فان كان ذلك لا يثقل عليه في الخلوة ويثقل عليه في الملا فليس فيه كبر وانما فيه رياء فليعالج الرياء بما ذكرناه من قطع الطمع عن الناس ويذكر القلب بان منفعته في كماله في ذاته وعند الله لا عند الخلق الى غير ذلك من أدوية الرياء وان ثقل عليه في الخلوة والملا جميعا ففيه الكبر والرياء جميعا ولا ينفعه الخلاص من أحدهما ما لم يتخلص من الثاني فليعالج كلا الداءين فانهما جميعا مهلكان * الامتحان الثاني أن يجتمع مع الاقران والامثال في المحافل ويقدمهم على نفسه ويمشي خلفهم ويجلس في الصدور تحتهم فان ثقل عليه ذلك فهو متكبر فليواظب عليه تكلفا حتى يسقط عنه ثقله فبذلك يزايله الكبر وههنا للشيطان مكيدة وهو أن يجلس في صف النعال أو يجعل بينه وبين الاقران بعض الارذال فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر فان ذلك يخف على نفوس المتكبرين اذ يوهمون انهم تركوا امكانهم بالاستحقاق والتفضل فيكون قد تكبر وتكبر باظهار التواضع أيضا بل ينبغي أن يقدم أقرانه ويجلس بينهم بجنبهم ولا ينحط عنهم الى صف النعال فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن * الامتحان الثالث أن يجيب دعوة الفقير ويمر الى السوق في حاجة الرفقاء والاقارب فان ثقل ذلك عليه فهو كبر فان هذه الافعال من مكارم الاخلاق والثواب عليها جزيل فنفور النفس عنها ليس الا لخبث في الباطن فليشتغل بازالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبر * الامتحان الرابع أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق الى البيت فان أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء فان كان يثقل ذلك عليه مع خلو الطريق فهو كبر وان كان لا يثقل عليه الا مع مشاهدة الناس فهو رياء وكل ذلك من أمراض القلب وعلله المهلكة له ان لم تتدارك وقد أهمل الناس طب القلوب واشتغلوا بطب الاجساد مع أن الاجساد قد كتب عليها الموت لا محالة والقلوب لا تدرك السعادة الا بسلامتها اذ قال تعالى الا من أتى الله بقلب سليم ويروى عن عبد الله ابن سلام انه حمل حزمة حطب فقيل له يا أبا يوسف قد كان في غلمانك وبنيك ما يكفيك قال أجل ولكن أردت أن أجرب نفسي هل تنكر ذلك فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الانفة حتى جربها أهي صادقة أم كاذبة وفي الخبر من حمل الفاكهة أو الشيء فقد برئ من الكبر * الامتحان الخامس أن يلبس ثيابا بذلة فان نفور النفس عن ذلك في الملا رياء وفي الخلوة كبر وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه له مسح يلبسه بالليل وقد قال صلى الله

بسبب ذلك طبيعة في الانسان فارباب الهمة أهل العلم الذين حكم الله تعالى لهم بالعلم في قوله تعالى أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما حتى قال قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون حكم لهؤلاء الذين قاموا بالليل بالعلم فهم لموضع علمهم أزعجوا النفوس عن مقار طبيعتها ورقوها بالنظر الى اللذات الروحانية الى ذرا حقيقتها فتجافت جنوبهم عن المضاجع وخرجوا من صفة الغافل الهاجع (ومن ذلك) أن يغير العادة فان كان ذا وسادة يترك الوسادة وان كان ذا وطاء يترك الوطاء وقد كان بعضهم يقول لأن أرى في بيتي شيطانا أحب الي من أن أرى وسادة فانها تدعو الى النوم ولتغيير العادة في الوساد والغطاء والوطاء تأثير في ذلك ومن ترك شيأ من

عليه وسلم من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برئ من الكبر وقال عليه السلام انما أنا عبد آكل بالارض وألبس الصوف وأعقل البعير وألعق اصابعي وأجيب دعوة المملوك فمن رغب عن سنتي فليس مني وروى ان أبا موسى الاشعري قيل له ان أقواما يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم فلبس عباءة فصلى فيها بالناس وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر فما يختص بالملا فهو الرياء وما يكون في الخلوة فهو الكبر فاعرف فان من لا يعرف الشر لا يتقيه ومن لا يدرك المرض لا يداويه

(بيان غاية الرياضة في خلق التواضع)

اعلم أن هذا الخلق كسائر الاخلاق له طرفان وواسطة فطرفه الذي يميل الى الزيادة يسمى تكبرا وطرفه الذي يميل الى النقصان يسمى تخاسسا ومذلة والوسط يسمى تواضعا والمحمود أن يتواضع في غير مذلة ومن غير تخاسس فان كلا طرفي الامور ذميم وأحب الامور الى الله تعالى أوساطها فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ومن يتأخر عنهم فهو متواضع أي وضع شيأ من قدره الذي يستحقه والعالم اذا دخل عليه اسكاف فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسوى له نعله وغدا الى باب الدار خلفه فقد تخاسس وتذلل وهذا أيضا غير محمود بل المحمود عند الله العدل وهو أن يعطي كل ذي حق حقه فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لاقرانه ومن يقرب من درجته فاما تواضعه للسوقي فبالقيام والبشر في الكلام والرفق في السؤال واجابة دعوته والسعي في حاجته وأمثال ذلك وأن لا يرى نفسه خيرا منه بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره فلا يحتقره ولا يستصغره وهو لا يعرف خاتمة أمره فاذا سبيله في اكتساب التواضع أن يتواضع للاقران ولمن دونهم حتى يخف عليه التواضع المحمود في محاسن العادات ليزول به الكبر عنه فان خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع وان كان يثقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكلف لا متواضع بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ومن غير روية فان خف ذلك وصار بحيث يثقل عليه رعاية قدره حتى أحب التملق والتخاسس فقد خرج الى طرف النقصان فليرفع نفسه اذ ليس للمؤمن أن يذل نفسه الى أن يعود الى الوسط الذي هو الصراط المستقيم وذلك غامض في هذا الخلق وفي سائر الاخلاق والميل عن الوسط الى طرف النقصان وهو التملق أهون من الميل الى طرف الزيادة بالتكبر كما أن الميل الى طرف التبذير في المال أحمد عند الناس من الميل الى طرف البخل فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان وأحدهما أفحش وكذلك نهاية التكبر ونهاية التنقص والتذلل مذمومان وأحدهما أقبح من الآخر والمحمود المطلق هو العدل ووضع الامور مواضعها كما يجب وعلى ما يجب كما يعرف ذلك بالشرع والعادة ولنقتصر على هذا القدر من بيان أخلاق الكبر والتواضع

(الشطر الثاني من الكتاب) في العجب وفيه بيان ذم العجب وآفاته وبيان حقيقة العجب والادلال وحدهما وبيان علاج العجب على الجملة وبيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه

(بيان ذم العجب وآفاته)

اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيأ ذكر ذلك في معرض الانكار وقال عز وجل وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا فرد على الكفار في اعجابهم بحصونهم وشوكتهم وقال تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وهذا أيضا يرجع الى العجب بالعمل وقد يعجب الانسان بعمل هو مخطئ فيه كما يعجب بعمل هو مصيب فيه وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه وقال لابي ثعلبة حيث ذكر آخر هذه الامة فقال اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا واعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك وقال ابن مسعود الهلاك في اثنتين القنوط والعجب وانما جمع بينهما لان السعادة لا تنال الا بالسعي والطلب والجد والتشمر والقانط لا يسعى ولا يطلب والمعجب يعتقد انه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى فالموجود لا يطلب والمحال لا يطلب والسعادة موجودة في اعتقاد المعجب حاصلة له ومستحيلة في اعتقاد القانط فمن ههنا جمع بينهما وقد قال تعالى فلا تزكوا أنفسكم قال ابن جريج معناه اذا عملت خيرا فلا تقل عملت وقال زيد بن أسلم لا تبروها أي لا تعتقدوا

ذلك والله عالم بنيته وعزمته بنيه على ذلك بتيسير ما رام (ومن ذلك) خفة المعدة من الطعام ثم تناول ما يأكل من الطعام اذا اقترن بذكر الله ويقظة الباطن أعان على قيام الليل لان بالذكر يذهب داؤه فان وجد للطعام ثقلا على المعدة ينبغي أن يعلم أن ثقله على القلب أكثر فلا ينام حتى يذيب الطعام بالذكر والتلاوة والاستغفار (قال) بعضهم لان أنقص من عشائي لقمة أحب الي من أن أقوم ليلة والاحوط أن يوتر قبل النوم فانه لا يدري ماذا يحدث وبعد طهوره وسواكه عنده ولا يدخل النوم الا وهو على الطهارة (قال) رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نام العبد وهو على الطهارة عرج بروحه الى العرش فكانت رؤياه صادقة

أنها بارة وهو معنى العجب ووقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد بنفسه فأكب عليه حتى أصيبت كفه فكأنه أعجبه فعله العظيم اذ فداه بروحه حتى جرح فتفرس ذلك عمر فيه فقال ما زال يعرف في طلحة بأو منذ أصيبت أصبعه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والبأو وهو العجب في اللغة الا أنه لم ينقل فيه انه أظهره واحتقر مسلما ولما كان وقت الشورى قال له ابن عباس اين أنت من طلحة قال ذلك رجل فيه نخوة فاذا كان لا يتخلص من العجب أمثالهم فكيف يتخلص الضعفاء ان لم يأخذوا حذرهم وقال مطرف لان أبيت نائما وأصبح نادما أحب الى من أن أبيت قائما وأصبح معجبا وقال صلى الله عليه وسلم لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجب فجعل العجب أكبر الذنوب وكان بشر بن منصور من الذين اذا رؤا ذكر الله تعالى والدار الآخرة لمواظبته على العبادة فأطال الصلاة يوما ورجل خلفه ينظر ففطن له بشر فلما انصرف عن الصلاة قال له لا يعجبنك ما رأيت مني فان ابليس لعنه الله قد عبد الله تعالى مع الملائكة مدة طويلة ثم صار الى ما صار اليه وقيل لعائشة رضي الله عنها متى يكون الرجل مسيئا قالت اذا ظن انه محسن وقد قال تعالى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى والمن نتيجة استعظام الصدقة واستعظام العمل هو العجب فظهر بهذا ان العجب مذموم جدا

(بيان آفة العجب)

اعلم ان آفات العجب كثيرة فان العجب يدعو الى الكبر لانه أحد أسبابه كما ذكرناه فيتولد من العجب الكبر ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى هذا مع العباد وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو الى نسيان الذنوب واهمالها فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدها لظنه انه مستغن عن تفقدها فينساها وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه فلا يجتهد في تداركه وتلافيه بل يظن أنه يغفر له وأما العبادات والاعمال فانه يستعظمها ويتبجح بها ويمن على الله بفعلها وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها ثم اذا أعجب بها عمي عن آفاتها ومن لم يتفقد آفات الاعمال كان أكثر سعيه ضائعا فان الاعمال الظاهرة اذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع وانما يتفقد من يغلب عليه الاشفاق والخوف دون العجب والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه ويظن انه عند الله بمكان وأن له عند الله منة وحقا بأعماله التي هي نعمة من نعمه وعطية من عطاياه ويخرجه العجب الى ان يثني على نفسه ويحمدها ويزكيها وان أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره ولا يفرح بخواطر غيره فيصر عليه ولا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ بل ينظر الى غيره بعين الاستجهال ويصر على خطئه فان كان رأيه في أمر دنيوي فيحقق فيه وان كان في أمر ديني لا سيما فيما يتعلق بأصول العقائد فيهلك به ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وواظب على مدارسة العلم وتابع سؤال أهل البصيرة لكان ذلك يوصله الى الحق فهذا وأمثاله من آفات العجب فلذلك كان من المهلكات ومن أعظم آفاته ان يفتر في السعي لظنه انه قد فاز وانه قد استغنى وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه نسأل الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته

(بيان حقيقة العجب والادلال وحدهما)

اعلم ان العجب انما يكون بوصف هو كمال لا محالة وللعالم بكمال نفسه في علم وعمل ومال وغيره حالتان احداهما ان يكون خائفا على زواله ومشفقا على تكدره أو سلبه من أصله فهذا ليس بمعجب والاخرى ان لا يكون خائفا من زواله لكن يكون فرحا به من حيث انه نعمة من الله تعالى عليه لا من حيث اضافته الى نفسه وهذا أيضا ليس بمعجب وله حالة ثالثة هي العجب وهي ان يكون غير خائف عليه بل يكون فرحا به مطمئنا اليه ويكون فرحه به من حيث انه كمال ونعمة وخير ورفعة لا من حيث انه عطية من الله تعالى ونعمة منه فيكون فرحه به من حيث انه صفته ومنسوب اليه بانه له لا من حيث انه منسوب الى الله تعالى بأنه منه فمهما غلب على قلبه انه نعمة من الله مهما شاء سلبها عنه زال العجب بذلك عن نفسه فاذا العجب هو استعظام النعمة والركون اليها مع نسيان اضافتها الى المنعم فان انضاف الى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقا وأنه منه بمكان حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا

وان لم ينم على الطهارة قصرت روحه عن البلوغ فتكون المنامات أضغاث أحلام لا تصدق والمريد المتأهل اذا نام في الفراش مع الزوجة ينتقض وضوءه باللمس ولا يفوته بذلك فائدة النوم على الطهارة ما لم يسترسل في التذاذ النفس باللمس ولا يعدم يقظة القلب فاما اذا استرسل في الالتذاذ وغفل فتحجب الروح أيضا لمكان ملاقته ومن الطهارة التي تثمر صدق الرؤيا طهارة الباطن عن خدش الهوى وكدورة محبة الدنيا والتنزه عن انجاس الغل والحقد والحسد وقد ورد من آوى الى فراشه لا ينوي ظلم أحد ولا يحقد على أحد غفر له ما اجترم واذا طهرت النفس عن الرذائل انجلت مرآة القلب وقابل اللوح المحفوظ في النوم وانتقشت فيه عجائب

واستبعد أنه يجرى عليه مكروه استبعادا يزيد على استبعاده ما يجرى على الفساق سمى هذا ادلالا بالعمل فكأنه يرى لنفسه على الله دالة وكذلك قد يعطى غيره شيأ فيستعظمه ويمن عليه فيكون معجبا فان استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلا عليه وقال قتادة فى قوله تعالى ولا تمنن تستكثر أى لا تدل بعملك وفى الخبر ان صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه ولان تضحك وأنت معترف بذنبك خير من ان تبكى وأنت مدل بعملك والادلال وراء العجب فلا مدل الا وهو معجب ورب معجب لا يدل اذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه والادلال لا يتم الا مع توقع جزاء فان توقع اجابة دعوته واستنكر ردها بباطنه وتعجب منه كان مدلا بعمله لانه لا يتعجب من رد دعاء الفاسق ويتعجب من رد دعاء نفسه لذلك فهذا هو العجب والادلال وهو من مقدمات الكبر وأسبابه والله تعالى أعلم

(بيان علاج العجب على الجملة)

اعلم ان علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده وعلة العجب الجهل المحض فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة والغزو وسياسة الخلق واصلاحهم فان العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوة والنسب وما لا يدخل تحت اختياره ولا يراه من نفسه فنقول الورع والتقوى والعبادة والعمل الذى به يعجب انما يعجب به من حيث انه فيه فهو محله ومجراه أو من حيث انه منه وبسببه وبقدرته وقوته فان كان يعجب به من حيث انه فيه وهو محله ومجراه يجرى فيه وعليه من جهة غيره فهذا جهل لان المحل مسخر ومجرى لا مدخل له فى الايجاد والتحصيل فكيف يعجب بما ليس اليه وان كان يعجب به من حيث انه هو منه واليه وباختياره حصل وبقدرته تم فينبغى أن يتأمل فى قدرته وارادته واعضائه وسائر الاسباب التى بها يتم عمله انها من أين كانت له فان كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حق سبق له ومن غير وسيلة يدلى بها فينبغى أن يكون اعجابه بجود الله وكرمه وفضله اذ أفاض عليه ما لا يستحق وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة فهما برز الملك لغلمانه ونظر اليهم وخلع من جملتهم على واحد منهم لا لصفة فيه ولا لوسيلة ولا لجمال ولا لخدمة فينبغى أن يتعجب المنعم عليه من فضل الملك وحكمه وايثاره من غير استحقاق واعجابه بنفسه من أين وما سببه ولم ينبغى ان يعجب هو بنفسه نعم يجوز أن يعجب العبد فيقول الملك حكيم عدل لا يظلم ولا يتقدم ولا يؤخر الا لسبب فلولا أنه تفطن فى صفة من الصفات المحمودة الباطنة لما اقتضى الايثار بالخلعة ولما آثرنى بها فيقال تلك الصفة أيضا هى من خلعة الملك وعطيته التى خصصك بها من غيرك من غير وسيلة أو هى عطية غيره فان كانت من عطية الملك أيضا لم يكن لك أن تعجب بها بل كان كما لو أعطاك فرسا فلم تعجب به فأعطاك غلاما فصرت تعجب به وتقول انما أعطانى غلاما لانى صاحب فرس فاما غيرى فلا فرس له فيقال وهو الذى أعطاك الفرس فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والغلام معا أو يعطيك أحدهما بعد الآخر فاذا كان الكل منه فينبغى أن يعجبك جوده وفضله لا نفسك واما ان كانت تلك الصفة من غيره فلا يبعد ان تعجب بتلك الصفة وهذا يتصور فى حق الملوك ولا يتصور فى حق الجبار القاهر ملك الملوك المنفرد باختراع الجميع المنفرد بايجاد الموصوف والصفة فانك ان عجبت بعبادتك وقلت وفقنى للعبادة لحبى له فيقال ومن خلق الحب فى قلبك فستقول هو فيقال فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك اذ لا وسيلة لك ولا علاقة فيكون الاعجاب بجوده اذ أنعم بوجودك ووجود صفاتك وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك فاذا لا معنى لعجب العابد بعبادته وعجب العالم بعلمه وعجب الجميل بجماله وعجب الغنى بغناه لان كل ذلك من فضل الله وانما هو محل لفيضان فضل الله تعالى وجوده والمحل أيضا من فضله وجوده فان قلت لا يمكننى أن أجهل أعمالى وانى أنا عملتها فانى أنتظر عليها ثوابا ولولا انها عملى لما انتظرت ثوابا فان كانت الاعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن أين لى الثواب وان كانت الاعمال منى وبقدرتى فكيف لا أعجب بها فاعلم ان جوابك من وجهين أحدهما وهو صريح الحق والآخر فيه مسامحة أما صريح الحق فهو أنك وقدرتك وارادتك وحركتك وجميع

الغيب وغرائب الانباء فى الصدق يقين من يكون له فى منامه مكالمة ومحادثة فيأمره الله تعالى وينهاه ويفهمه فى المنام ويعرفه ويكون موضع ما يقع له فى نومه من الامر والنهى كالامر والنهى الظاهر يعصى الله تعالى ان أخل بهما بل تكون هذه الاوامر آكد وأعظم وقعا لان المخالفات الظاهرة تمحوها التوبة والتائب من الذنب كمن لا ذنب له وهذه أوامر خاصة تتعلق بحاله فيما بينه وبين الله تعالى فاذا أخل بها يخشى ان ينقطع عليه طريق الارادة ويكون فى ذلك الرجوع عن الله واستجلاب مقام المقت فان ابتلى العبد فى بعض الاحايين بكسل وفتور وعزيمة يمنع من تجديد الطهارة عند النوم بعد الحدث يمسح أعضاءه بالماء مسحا حتى يخرج بهذا القدر عن زمرة

ذلك من خلق الله واختراعه فما اعملت اذ عملت وما صليت اذ صليت وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى فهذا هو الحق الذي انكشف لارباب القلوب بمشاهدة أوضح من ابصار العين بل خالقك وخلق أعضائك وخلق فيها القوة والقدرة والصحة وخالق لك العقل والعلم وخالق لك الارادة ولو أردت ان تنفي شيأ من هذا عن نفسك لم تقدر عليه ثم خلق الحركات في أعضائك مستبدا باختراعها من غير مشاركة من جهتك معه في الاختراع الا انه خلقه على ترتيب فلم يخلق الحركة ما لم يخلق في العضو قوة وفي القلب ارادة ولم يخلق ارادة ما لم يخلق علما بالمراد ولم يخلق علما ما لم يخلق القلب الذي هو محل العلم فتدريجه في الخلق شيأ بعد شيء هو الذي خيل لك انك أوجدت عملك وقد غلطت وايضاح ذلك وكيفية الثواب على عمل هو من خلق الله سيأتي تقريره في كتاب الشكر فانه أليق به فارجع اليه ونحن الآن نزيل اشكالك بالجواب الثاني الذي فيه مساحة ما وهو ان تحسب ان العمل حصل بقدرتك فمن أين قدرتك ولا يتصور العمل الا بوجودك ووجود عملك وارادتك وقدرتك وسائر أسباب عملك وكل ذلك من الله تعالى لا منك فان كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه وهذا المفتاح بيد الله ومهما لم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل فالعبادات خزائن بها يتوصل الى السعادات ومفاتيحها القدرة والارادة والعلم وهي بيد الله لا محالة أرأيت لو رأيت خزائن الدنيا مجموعة في قلعة حصينة ومفتاحها بيد خازن ولو جلست على بابها وحول حيطانها ألف سنة لم يمكنك ان تنظر الى دينار مما فيها ولو أعطاك المفتاح لاخذته من قريب بان تبسط يدك اليه فتأخذه فقط فاذا أعطاك الخازن المفاتيح وسلطك عليها ومكنك منها فمددت يدك وأخذتها كان اعجابك باعطاء الخازن المفاتيح أو بما اليك من مد اليد وأخذها فلا تشك في انك ترى ذلك نعمة من الخازن لان المؤنة في تحريك اليد باخذ المال قريبة وانما الشأن كله في تسليم المفاتيح فكذلك مهما خلقت القدرة وسلطت الارادة الجازمة وحركت الدواعي والبواعث وصرف عنك الموانع والصوارف حتى لم يبق صارف الا دفع ولا باعث الا وكل بك فالعمل هين عليك وتحريك البواعث وصرف العوائق وتهيئة الاسباب كلها من الله ليس شيء منها اليك فمن العجائب ان تعجب بنفسك ولا تعجب بمن اليه الامر كله ولا تعجب بجوده وفضله وكرمه في ايثاره اياك على الفساق من عباده اذ سلط دواعي الفساد على الفساق وصرفها عنك وسلط أخدان السوء ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك ومكنهم من أسباب الشهوات واللذات وزواها عنك وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه وسلطها عليك حتى تيسر لك الخير وتيسر لهم الشر فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك ولا جريمة سابقة من الفاسق العاصي بل آثرك وقدمك واصطفاك بفضله وأبعد العاصي وأشقاه بعدله فما أعجب اعجابك بنفسك اذا عرفت ذلك فاذا لا تنصرف قدرتك الى المقدور الا بتسليط الله عليك داعية لا تجد سبيلا الى مخالفتها فكأنه الذي اضطرك الى الفعل ان كنت فاعلا تحقيقا فله الشكر والمنة لا لك وسيأتي في كتاب التوحيد والتوكل من بيان تسلسل الاسباب والمسببات ما تستبين به انه لا فاعل الا الله ولا خالق سواه والعجب ممن يتعجب اذا رزقه الله عقلا وأفقره ممن أفاض عليه المال من غير علم فيقول كيف منعني قوت يومي وأنا العاقل الفاضل وأفاض على هذا نعيم الدنيا وهو الغافل الجاهل حتى يكاد يرى هذا ظلما ولا يدري المغرور انه لو جمع له بين العقل والمال جميعا لكان ذلك بالظلم أشبه في ظاهر الحال اذ يقول الجاهل الفقير يا رب لم جمعت له بين العقل والغنى وحرمتني منهما فهلا جمعتهما لي أوهلا رزقتني أحدهما والى هذا أشار علي رضي الله عنه حيث قيل له ما بال العقلاء فقراء فقال ان عقل الرجل محسوب عليه من رزقه والعجب أن العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغني أحسن حالا من نفسه ولو قيل له هل تؤثر جهله وغناه عوضا عن عقلك وفقرك لامتنع عنه فاذا ذلك يدل على أن نعمة الله عليه أكبر فلم يتعجب من ذلك والمرأة الحسناء الفقيرة ترى الحلي والجواهر على الدميمة القبيحة فتتعجب وتقول كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزينة ويخصص مثل ذلك القبح ولا تدري المغرورة أن الجمال محسوب عليها من رزقها وانها لو خيرت بين الجمال وبين القبح مع الغنى لآثرت الجمال فاذن نعمة الله عليها أكبر وقول الحكيم الفقير العاقل بقلبه يا رب لم حرمتني الدنيا وأعطيتها الجهال كقول من أعطاه الملك فرسا فيقول أيها الملك لم لا تعطيني الغلام وأنا صاحب فرس فيقول

الغافلين حيث تقاعد عن فعل المتيقظين وهكذا اذا كسل عن القيام عقيب الانتباه يجتهد ان يستاك و يمسح أعضاءه بالماء مسحا حتى يخرج في تقلباته وانتباهاته عن زمرة الغافلين ففي ذلك فضل كثير لمن كثر نومه وقل قيامه (روي) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستاك في كل ليلة مرارا عند كل نوم وعند الانتباه منه ويستقبل القبلة في نومه وهو على نوعين واما على جنبه الايمن كالملحود واما على ظهره مستقبلا للقبلة كالميت المسجى و يقول باسمك اللهم وضعت جنبي و بك أرفعه اللهم ان أمسكت نفسي فاغفر لها وان أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين اللهم اني أسلمت نفسي اليك ووجهت وجهي اليك وفوضت أمري اليك وألجأت ظهري اليك رهبة منك ورغبة

كنت

كنت لا تتعجب من هذا لو لم أعطك الفرس فهب انى ما أعطيتك فرسا أصارت نعمتى عليك وسيلة لك وحجة تطالب بها نعمة أخرى فهذه أوهام لا تخلوا الجهال عنها ومنشأ جميع ذلك الجهل و يزال ذلك بالعلم المحقق بان العبد وعمله وأوصافه كل ذلك من عند الله تعالى نعمة ابتدأه بها قبل الاستحقاق وهذا ينفي العجب والادلال و يورث الخضوع والشكر والخوف من زوال النعمة ومن عرف هذا لم يتصور أن يعجب بعلمه وعمله اذ يعلم ان ذلك من الله تعالى ولذلك قال داود عليه السلام يارب ما تأتى ليلة الا وانسان من آل داود قائم ولا يأتى يوم الا وانسان من آل داود صائم وفى رواية ما تمر ساعة من ليل أو نهار الا وعابد من آل داود يعبدك اما يصلى واما يصوم واما يذكرك فأوحى الله تعالى اليه يا داود ومن أين لهم ذلك ان ذلك لم يكن الا بى ولولا عونى اياك ما قويت وسأكلك الى نفسك قال ابن عباس انما أصاب داود ما أصاب من الذنب بعجبه بعمله اذ أضافه الى آل داود مدلا به حتى وكل الى نفسه فأذنب ذنبا أورثه الحزن والندم وقال داود يارب ان بنى اسرائيل يسألونك بابراهيم واسحق ويعقوب فقال انى ابتليتهم فصبروا فقال يارب وأنا ان ابتليتنى صبرت فأدل بالعمل قبل وقته فقال الله تعالى فانى لم أخبرهم باى شئ أبتليهم ولا فى أى شهر ولا فى أى يوم وأنا مخبرك فى سنتك هذه وشهرك هذا أبتليك غدا بامرأة فاحذر نفسك فوقع فيما وقع فيه وكذلك لما اتكل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين على قوتهم وكثرتهم ونسوا فضل الله تعالى عليهم وقالوا لا نغلب اليوم من قلة وكلوا الى أنفسهم فقال تعالى ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين* وروى ابن عيينة أن أيوب عليه السلام قال الهى انك ابتليتنى بهذا البلاء وما ورد على أمر الا آثرت هواك على هواى فنودى من غمامة بعشرة آلاف صوت يا أيوب انى لك ذلك أى من أين لك ذلك قال فأخذ رمادا ووضعه على رأسه وقال منك يارب منك يارب فرجع من نسيانه الى اضافة ذلك الى الله تعالى ولهذا قال الله تعالى ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا وقال النبى صلى الله عليه وسلم لاصحابه وهم خير الناس ما منكم من أحد ينجيه عمله قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا الا أن يتغمدنى الله برحمته ولقد كان أصحابه من بعده يتمنون أن يكونوا ترابا وتبنا وطيرا مع صفاء أعمالهم وقلوبهم فكيف يكون لذى بصيرة أن يعجب بعمله أو يدل به ولا يخاف على نفسه فاذا هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب ومهما غلب ذلك على القلب شغله خوف سلب هذه النعمة عن الاعجاب بها بل هو ينظر الى الكفار والفساق وقد سلبوا نعمة الايمان والطاعة بغير ذنب أذنبوه من قبل فيخاف من ذلك فيقول ان من لا يبالى أن يحرم من غير جناية ويعطى من غير وسيلة لا يبالى أن يعود ويسترجع ما وهب فكم من مؤمن قد ارتد ومطيع قد فسق وختم له بسوء وهذا لا يبقى معه عجب بحال والله تعالى أعلم

(بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه)

اعلم أن العجب بالاسباب التى بها يتكبر كما ذكرناه وقد يعجب بما لا يتكبر به كعجبه بالرأى الخطأ الذى يزين له بجهله فما به العجب ثمانية أقسام* الاول أن يعجب ببدنه فى جماله وهيئته وصحته وقوته وتناسب أشكاله وحسن صورته وحسن صوته وبالجملة تفصيل خلقته فيلتفت الى جمال نفسه و ينسى انه نعمة من الله تعالى وهو بعرضة الزوال فى كل حال وعلاجه ما ذكرناه فى الكبر بالجمال وهو التفكر فى أقذار باطنه وفى أول أمره وفى آخره وفى الوجوه الجميلة والابدان الناعمة انها كيف تمزقت فى التراب وأنتنت فى القبور حتى استقذرتها الطباع* الثانى البطش والقوة كما حكى عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم من أشد منا قوة وكما اتكل عوج على قوته وأعجب بها فاقتلع جبلا ليطبقه على عسكر موسى عليه السلام فثقب الله تعالى تلك القطعة من الجبل بنقر هدهد ضعيف المنقار حتى صارت فى عنقه وقد يتكل المؤمن أيضا على قوته كما روى عن سليمان عليه السلام أنه قال لاطوفن الليلة على مائة امرأة ولم يقل ان شاء الله تعالى فحرم ما أراد من الولد وكذلك قول داود عليه السلام ان ابتليتنى صبرت وكان اعجابا منه بالقوة فلما ابتلى بالمرأة لم يصبر و يورث العجب بالقوة الهجوم فى الحروب والقاء النفس فى التهلكة والمبادرة الى الضرب والقتل لكل من قصده بالسوء وعلاجه ما ذكرناه وهو أن يعلم أن حمى يوم تضعف قوته وانه اذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بادنى آفة يسلطها عليه* الثالث العجب بالعقل والكياسة

اليك لا ملجأ ولا منجى منك الا اليك آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك الحمد لله الذى حكم فقهر الحمد لله الذى بطن فخبر الحمد لله الذى ملك فقدر الحمد لله الذى هو يحيى الموتى وهو على كل شئ قدير اللهم انى أعوذ بك من غضبك وسوء عقابك وشر عبادك وشر الشيطان وشركه و يقرأ خمس آيات من البقرة الاربع من الاول والآية الخامسة ان فى خلق السموات والارض وآية الكرسى وآمن الرسول وان ربكم الله وقل ادعوا الله وأول سورة الحديد وآخر سورة الحشر وقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد والمعوذتين وينفث بهن فى يديه و يمسح بهما وجهه وجسده وان أضاف الى ما قرأ عشرا من أول الكهف وعشرا من

والتفطن لدقائق الامور من مصالح الدين والدنيا وثمرته الاستبداد بالرأي وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه ويخرج الى قلة الاصغاء الى أهل العلم اعراضا عنهم بالاستغناء بالرأي والعقل واستحقارا لهم واهانة وعلاجه أن يشكر الله تعالى على مارزق من العقل ويتفكر انه بادنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن بحيث يضحك منه فلا يأمن أن يسلب عقله ان أعجب به ولم يقم بشكره وليستقصر عقله وعلمه وليعلم انه ما أوتي من العلم الا قليلا وان اتسع علمه وان ماجهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه فكيف بمالم يعرفه الناس من علم الله تعالى وان يتهم عقله وينظر الى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري فان القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لامن نفسه ومن أعدائه لامن أصدقائه فان من يداهنه يثني عليه فيزيده عجبا وهو لا يظن بنفسه الا الخير ولا يفطن لجهل نفسه فيزداد به عجبا *الرابع العجب بالنسب الشريف كعجب الهاشمية حتى يظن بعضهم انه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه وانه مغفور له ويتخيل بعضهم ان جميع الخلق له موال وعبيد وعلاجه ان يعلم انه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم وظن انه ملحق بهم فقد جهل وان اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف والازراء على النفس واستعظام الخلق ومذمة النفس ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب فليتشرف بما شرفوا وقد ساواهم في النسب وشاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله واليوم الآخر وكانوا عند الله شرا من الكلاب وأخس من الخنازير ولذلك قال تعالى يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى أي لا تفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد ثم ذكر فائدة النسب فقال وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ثم بين ان الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال ان أكرمكم عند الله أتقاكم ولما قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس من أكيس الناس لم يقل من ينتمي الى نسبي ولكن قال أكرمهم أكثرهم للموت ذكرا وأشدهم له استعدادا وانما نزلت هذه الآية حين أذن بلال يوم الفتح على الكعبة فقال الحرث بن هشام وسهيل بن عمرو وخالد بن أسيد هذا العبد الاسود يؤذن فقال تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم وقال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية أي كبرها كلكم بنو آدم وآدم من تراب وقال النبي صلى الله عليه وسلم يا معشر قريش لا تأتي الناس بالاعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا محمد يا محمد فأقول هكذا أي أعرض عنكم فبين انهم ان مالوا الى الدنيا لم ينفعهم نسب قريش ولما نزل قوله تعالى وأنذر عشيرتك الاقربين ناداهم بطنا بعد بطن حتى قال يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم اعملا لانفسكما فاني لا أغني عنكما من الله شيأ فمن عرف هذه الامور وعلم ان شرفه بقدر تقواه وقد كان من عادة آبائه التواضع اقتدى بهم في التقوى والتواضع والا كان طاعنا في نسب نفسه بلسان حاله مهما انتمى اليهم ولم يشبههم في التواضع والتقوى والخوف والاشفاق فان قلت فقد قال صلى الله عليه وسلم بعد قوله لفاطمة وصفية اني لا أغني عنكما من الله شيأ الا أن لكما رحما سأبلها ببلالها وقال عليه الصلاة والسلام أترجو سليم شفاعتي ولا يرجوها بنو عبد المطلب فذلك يدل على انه سيخص قرابته بالشفاعة فاعلم ان كل مسلم فهو منتظر شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والنسيب أيضا جدير بأن يرجوها لكن بشرط أن يتقي الله أن يغضب عليه فانه ان يغضب عليه فلا يأذن لاحد في شفاعته لان الذنوب منقسمة الى ما يوجب المقت فلا يؤذن في الشفاعة له والى ما يعفى عنه بسبب الشفاعة كالذنوب عند ملوك الدنيا فان كل ذي مكانة عند الملك لا يقدر على الشفاعة فيما اشتد عليه غضب الملك فمن الذنوب مالا تنجي منه الشفاعة وعنه العبارة بقوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى وبقوله من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه وبقوله ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له وبقوله فما تنفعهم شفاعة الشافعين واذا انقسمت الذنوب الى ما يشفع فيه والى مالا يشفع فيه وجب الخوف والاشفاق لا محالة ولو كان كل ذنب تقبل فيه الشفاعة لما أمر قريشا بالطاعة ولما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة رضي الله عنها عن المعصية ولكان يأذن لها في اتباع الشهوات لتكمل لذاتها في الدنيا ثم يشفع لها في الآخرة لتكمل لذاتها في الآخرة فالانهماك في الذنوب وترك التقوى اتكالا على رجاء الشفاعة يضاهي انهماك المريض في شهواته اعتمادا على طبيب حاذق قريب مشفق

آخرها خمس ويقول اللهم أيقظني في أحب الساعات اليك واستعملني بأحب الاعمال اليك التي تقربني اليك زلفى وتبعدني من سخطك بعدا اسألك فتعطيني وأستغفرك فتغفر لي وأدعوك فتستجيب لي اللهم لا تؤمني مكرك ولا توليني غيرك ولا ترفع عني سترك ولا تنسني ذكرك ولا تجعلني من الغافلين (ورد) أن من قال هذه الكلمات بعث الله تعالى اليه ثلاثة أملاك يوقظونه للصلاة فان صلى ودعا أمنوا على دعائه وان لم يقم تعبدت الاملاك في الهواء وكتب له ثواب عبادتهم ويسبح ويحمد ويكبر كل واحد ثلاثا وثلاثين ويتم المائة بلا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

*(الباب السابع والاربعون في أدب

من أب أو أخ أو غيره وذلك جهل لان سعي الطبيب وهمته وحذقه تنفع في ازالة بعض الامراض لا في كلها فلا يجوز ترك الحمية مطلقا اعتمادا على مجرد الطب بل للطبيب أثر على الجملة ولكن في الامراض الخفيفة وعند غلبة اعتدال المزاج فهكذا ينبغي أن تفهم عناية الشفعاء من الانبياء والصلحاء للاقارب والاجانب فانه كذلك قطعا وذلك لا يزيل الخوف والحذر وكيف يزيل وخير الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه وقد كانوا يتمنون أن يكونوا بهائم من خوف الآخرة مع كمال تقواهم وحسن أعمالهم وصفاء قلوبهم وما سمعوه من وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اياهم بالجنة خاصة وسائر المسلمين بالشفاعة عامة ولم يتكلوا عليه ولم يفارق الخوف والخشوع قلوبهم فكيف يعجب بنفسه ويتكل على الشفاعة من ليس له مثل صحبتهم وسابقتهم * الخامس العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم دون نسب الدين والعلم وهذا غاية الجهل وعلاجه أن يتفكر في مخازيهم وما جرى لهم من الظلم على عباد الله والفساد في دين الله وانهم الممقوتون عند الله تعالى ولو نظر الى صورهم في النار وأنتانهم واقذارهم لاستنكف منهم ولتبرأ من الانتساب اليهم ولانكر على من نسبه اليهم استقذارا واستحقارا لهم ولو انكشف له ذلهم في القيامة وقد تعلق الخصماء بهم والملائكة آخذون بنواصيهم يجرونهم على وجوههم الى جهنم في مظالم العباد لتبرأ الى الله منهم ولكان انتسابه الى الكلب والخنزير أحب اليه من الانتساب اليهم فحق أولاد الظلمة ان عصمهم الله من ظلمهم أن يشكروا الله تعالى على سلامة دينهم ويستغفروا لآبائهم ان كانوا مسلمين فاما العجب بنسبهم فجهل محض * السادس العجب بكثرة العدد من الاولاد والخدم والغلمان والعشيرة والاقارب والانصار والاتباع كما قال الكفار نحن أكثر أموالا وأولادا وكما قال المؤمنون يوم حنين لا نغلب اليوم من قلة وعلاجه ماذكرناه في الكبر وهو أن يتفكر في ضعفه وضعفهم وان كلهم عبيد عجزة لا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ثم كيف يعجب بهم وانهم سيفترقون عنه اذا مات فيدفن في قبره ذليلا مهينا وحده لا يرافقه أهل ولا ولد ولا قريب ولا حميم ولا عشير فيسلمونه الى البلى والحيات والعقارب والديدان ولا يغنون عنه شيئا وهو في أحوج أوقاته اليهم وكذلك يهربون منه يوم القيامة يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه الآية فأي خير فيمن يفارقك في أشد أحوالك ويهرب منك وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر والقيامة وعلى الصراط الا عملك وفضل الله تعالى فكيف تتكل على من لا ينفعك وتنسى نعم من يملك نفعك وضرك وموتك وحياتك * السابع العجب بالمال كما قال تعالى اخبارا عن صاحب الجنتين اذ قال أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا غنيا جلس بجنبه فقير فانقبض عنه وجمع ثيابه فقال عليه السلام أخشيت أن يعدو اليك فقره وذلك للعجب بالغنى وعلاجه أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه وعظم غوائله وينظر الى فضيلة الفقراء وسبقهم الى الجنة في القيامة والى ان المال غاد ورائح ولا أصل له والى أن في اليهود من يزيد عليه في المال والى قوله عليه الصلاة والسلام بينما رجل يتبختر في حلة له قد أعجبته نفسه اذ أمر الله الارض فاخذته فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة أشار به الى عقوبة اعجابه بماله ونفسه وقال أبو ذر كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فقال لي يا أبا ذر ارفع رأسك فرفعت رأسي فاذا رجل عليه ثياب جياد ثم قال ارفع رأسك فرفعت رأسي فاذا رجل عليه ثياب خلقة فقال لي يا أبا ذر هذا عند الله خير من قراب الارض مثل هذا وجميع ماذكرناه في كتاب الزهد وكتاب ذم الدنيا وكتاب ذم المال يبين حقارة الاغنياء وشرف الفقراء عند الله تعالى فكيف يتصور من المؤمن أن يعجب بثروته بل لا يخلو المؤمن عن خوف من تقصيره في القيام بحقوق المال في أخذه من حله ووضعه في حقه ومن لا يفعل ذلك فصيره الى الخزي والبوار فكيف يعجب بماله * الثامن العجب بالرأي الخطأ قال الله تعالى أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا وقال تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ذلك يغلب على آخر هذه الامة وبذلك هلكت الامم السالفة اذ افترقت فرقا فكل معجب برأيه وكل حزب بما لديهم فرحون وجميع أهل البدع والضلال انما أصروا عليها لعجبهم بآرائهم والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق اليه الهوى والشهوة مع ظن كونه

الانتباه من النوم والعمل بالليل) * اذا فرغ المؤذن من أذان المغرب يصلي ركعتين خفيفتين بين الاذان والاقامة وكان العلماء يصلون هاتين الركعتين في البيت يعجلون بهما قبل الخروج الى الجماعة كيلا يظن الناس أنهما سنة مرتبة فيقتدى بهم ظنا منهم أنهما سنة واذا صلى المغرب يصلي ركعتي السنة بعد المغرب يعجل بهما فانهما يرفعان مع الفريضة يقرأ فيهما بقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ثم يسلم على ملائكة الليل والكرام الكاتبين فيقول مرحبا بملائكة الليل مرحبا بالملكين الكريمين الكاتبين أكتبا في صحيفتي أني أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وأشهد أن الجنة حق والنار حق والحوض حق والشفاعة حق

حقا وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره لان صاحب الرأى المخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه ولا يعالج الداء الذى لا يعرف والجهل داء لا يعرف فتعسر مداواته جدا لان العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله و يزيله عنه الا اذا كان معجبا برأيه وجهله فانه لا يصغى الى العارف و يتهمه فقد سلط الله عليه بلية تهلكه وهو يظنها نعمة فكيف يمكن علاجه وكيف يطلب الهرب مما هو سبب سعادته فى اعتقاده وانما علاجه على الجملة أن يكون متهما لرأيه أبدا لا يغتر به الا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقلى صحيح جامع لشروط الادلة ولن يعرف الانسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط فيها الا بقريحة تامة وعقل ثاقب وجد وتشمر فى الطلب وممارسة للكتاب والسنة ومجالسة لاهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط فى بعض الامور والصواب لمن لم يتفرغ لاستغراق عمره فى العلم أن لا يخوض فى المذاهب ولا يصغى اليها ولا يسمعها ولكن يعتقد أن الله تعالى واحد لا شريك له وأنه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير وأن رسوله صادق فيما أخبر به و يتبع سنة السلف و يؤمن بجملة ما جاء به الكتاب والسنة من غير بحث وتنقير وسؤال عن تفصيل بل يقول آمنا وصدقنا و يشتغل بالتقوى واجتناب المعاصى وأداء الطاعات والشفقة على المسلمين وسائر الاعمال فان خاض فى المذاهب والبدع والتعصب فى العقائد هلك من حيث لا يشعر هذا حق كل من عزم على أن يشتغل فى عمره بشئ غير العلم فاما الذى عزم على التجرد للعلم فاول مهم له معرفة الدليل وشروطه وذلك مما يطول الامر فيه والوصول الى اليقين والمعرفة فى أكثر المطالب شديد لا يقدر عليه الا الاقوياء المؤيدون بنور الله تعالى وهو عزيز الوجود جدا فنسأل الله تعالى العصمة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال تم كتاب ذم الكبر والعجب والحمد لله وحده وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(كتاب ذم الغرور وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات من كتب احياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذى بيده مقاليد الامور وبقدرته مفاتيح الخيرات والشرور مخرج أوليائه من الظلمات الى النور ومورد أعدائه ورطات الغرور والصلاة على محمد مخرج الخلائق من الديجور * وعلى آله وأصحابه الذين لم تغرهم الحياة الدنيا ولم يغرهم بالله الغرور صلاة تتوالى على ممر الدهور ومكر الساعات والشهور (أما بعد) فمفتاح السعادة التيقظ والفطنة ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة فلا نعمة لله على عباده أعظم من الايمان والمعرفة ولا وسيلة اليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية ولا داعى اليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة فالاكياس وأرباب البصائر قلوبهم كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار نور على نور والمغترون قلوبهم كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور فالاكياس هم الذين أراد الله أن يهديهم فشرح صدورهم للاسلام والهدى والمغترون هم الذين أراد الله أن يضلهم فجعل صدرهم ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء والمغرور هو الذى لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلا وبقى فى العمى فاتخذ الهوى قائدا والشيطان دليلا ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا واذا عرف أن الغرور هو أم الشقاوات ومنبع المهلكات فلا بد من شرح مداخله ومجاريه وتفصيل ما يكثر وقوع الغرور فيه ليحذره المريد بعد معرفته فيتقيه فالموفق من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد فأخذ منها حذره وبنى على الحزم والبصيرة أمره ونحن نشرح أجناس مجارى الغرور وأصناف المغترين من القضاة والعلماء والصالحين الذين اغتروا بمبادى الامور الجميلة ظواهرها القبيحة سرائرها ونشير الى وجه اغترارهم بها وغفلتهم عنها فان ذلك وان كان أكثر مما يحصى ولكن يمكن التنبيه على أمثلة تغنى عن الاستقصا وفرق المغترين كثيرة ولكن يجمعهم أربعة أصناف الصنف الاول من العلماء الصنف الثانى من العباد الصنف الثالث من المتصوفة الصنف الرابع من أرباب الاموال

والمغتر

والصراط والميزان حق وأشهد أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور اللهم أودعك هذه الشهادة ليوم حاجتى اليها اللهم احطط بها وزرى واغفر بها ذنبى وثقل بها ميزانى وأوجب لى بها أمانى وتجاوز عنى يا أرحم الراحمين فان واصل بين العشاءين فى مسجد جماعته يكون جامعا بين الاعتكاف ومواصلة العشاءين وان رأى انصرافه الى منزله وأن المواصلة بين العشاءين فى بيته أسلم لدينه وأقرب الى الاخلاص وأجمع للهم فليفعل * وسئل رسول الله عليه السلام عن قوله تعالى تتجافى جنوبهم عن المضاجع فقال هى الصلاة بين العشاءين وقال عليه السلام عليكم بالصلاة بين العشاءين فانها تذهب بملاغاة النهار وتذهب آخره وتجعل

والمغترمن كل صنف فرق كثيرة وجهات غرورهم مختلفة فمنهم من رأى المنكر معروفا كالذى يتخذ المساجد ويزخرفها من المال الحرام ومنهم من لم يميز بين ما يسعى فيه لنفسه و بين ما يسعى فيه لله تعالى كالواعظ الذى غرضه القبول والجاه ومنهم من يترك الاهم و يشتغل بغيره ومنهم من يترك الفرض و يشتغل بالنافلة ومنهم من يترك اللباب و يشتغل بالقشر كالذى يكون همه فى الصلاة مقصورا على تصحيح مخارج الحروف الى غير ذلك من مداخل لا تتضح الا بتفصيل الفرق وضرب الامثلة ولنبدأ أولا بذكر غرور العلماء ولكن بعد بيان ذم الغرور و بيان حقيقته وحده

(بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثلته)

اعلم ان قوله تعالى فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور وقوله تعالى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الامانى" الآية كاف فى ذم الغرور وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حبذا نوم الاكياس وفطرهم كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم ولمثقال ذرة من صاحب تقوى و يقين أفضل من ملء الارض من المغترين وقال صلى الله عليه وسلم الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله وكل ما ورد فى فضل العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور لان الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل اذ الجهل هو ان يعتقد الشئ و يراه على خلاف ما هو به والغرور هو جهل الا ان كل جهل ليس بغرور بل يستدعى الغرور مغرورا فيه مخصوصا ومغرورا به وهو الذى يغره فمهما كان المجهول المعتقد شيأ يوافق الهوى وكان السبب الموجب للجهل شبهة ومخيلة فاسدة يظن انها دليل ولا تكون دليلا سمى الجهل الحاصل به غرورا فالغرور هو سكون النفس الى ما يوافق الهوى و يميل اليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان فمن اعتقد أنه على خير اما فى العاجل أو فى الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور وأكثر الناس يظنون بانفسهم الخير وهم مخطئون فيه فاكثر الناس اذا مغرورون وان اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض وأظهرها وأشدها غرور الكفار وغرور العصاة والفساق فنورد لهما أمثلة لحقيقة الغرور

(المثال الاول) غرور الكفار فمنهم من غرته الحياة الدنيا ومنهم من غره بالله الغرور فأما الذين غرتهم الحياة الدنيا فهم الذين قالوا النقد خير من النسيئة والدنيا نقد والآخرة نسيئة فهى اذا خير فلا بد من ايثارها وقالوا اليقين خير من الشك ولذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك فلا نترك اليقين بالشك وهذه أقيسة فاسدة تشبه قياس ابليس حيث قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين والى هؤلاء الاشارة بقوله تعالى أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون وعلاج هذا الغرور اما بتصديق الايمان واما بالبرهان أما التصديق بمجرد الايمان فهو ان يصدق الله تعالى فى قوله ما عندكم ينفد وما عند الله باق وفى قوله عزوجل وما عند الله خير وقوله والآخرة خير وأبقى وقوله وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور وقوله فلا تغرنكم الحياة الدنيا وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك طوائف من الكفار فقلدوه وصدقوه وآمنوا به ولم يطالبوه بالبرهان ومنهم من قال نشدتك الله أبعثك الله رسولا فكان يقول نعم فيصدق وهذا ايمان العامة وهو يخرج من الغرور و ينزل هذا منزلة تصديق الصبى والده فى ان حضور المكتب خير من حضور الملعب مع انه لا يدرى وجه كونه خيرا وأما المعرفة بالبيان والبرهان فهو ان يعرف وجه فساد هذا القياس الذى نظمه فى قلبه الشيطان فان كل مغرور فلغروره سبب وذلك السبب هو دليل وكل دليل فهو نوع قياس يقع فى النفس و يورث السكون اليه وان كان صاحبه لا يشعر به ولا يقدر على نظمه بالفاظ العلماء فالقياس الذى نظمه الشيطان فيه أصلان أحدهما أن الدنيا نقد والآخرة نسيئة وهذا صحيح والآخر قوله ان النقد خير من النسيئة وهذا محل التلبيس فليس الامر كذلك بل ان كان النقد مثل النسيئة فى المقدار والمقصود فهو خير وان كان أقل منها فالنسيئة خير فان الكافر المغرور يبذل فى تجارته درهما ليأخذ عشرة نسيئة ولا يقول النقد خير من النسيئة فلا أتركه واذا حذره الطبيب الفواكه ولذائذ الاطعمة ترك ذلك فى الحال خوفا من ألم المرض فى المستقبل فقد ترك النقد ورضى بالنسيئة والتجار كلهم يركبون البحار و يتعبون فى الاسفار نقدا لاجل الراحة والربح نسيئة فان كان عشرة فى ثانى الحال خيرا من واحد فى الحال فانسب لذة الدنيا من حيث مدتها الى مدة الآخرة فان أقصى عمر الانسان

من الصلاة بين العشاءين ركعتين بسورة البروج والطارق ثم ركعتين بعد ركعتين يقرأ فى الاولى عشر آيات من أول سورة البقرة الآيتين والهكم اله واحد الى آخر الآيتين وخمس عشرة مرة قل هو الله أحد وفى الثانية آية الكرسى وآمن الرسول وخمس عشرة مرة قل هو الله أحد و يقرأ فى الركعتين الاخيرتين من سورة الزمر والواقعة و يصلى بعد ذلك ما شاء فان أراد أن يقرأ شيأ من حزبه فى هذا الوقت فى الصلاة أو غيرها وان شاء صلى عشرين ركعة خفيفة بسورة الاخلاص والفاتحة ولو واصل بين العشاءين بركعتين يطيلهما لحسن وفى هاتين الركعتين يطيل القيام تاليا القرآن حزبه أو مكررا آية فيها الدعاء والتلاوة مثل أن يقرأ أو مكررا ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك

مائة سنة وليس هو عشر عشير من جزء من ألف ألف جزء من الآخرة فكأنه ترك واحدا ليأخذ ألف ألف بل ليأخذ ما لا نهاية له ولا حد وان نظر من حيث النوع رأى لذات الدنيا مكدرة مشوبة بأنواع المنغصات ولذات الآخرة صافية غير مكدرة فاذا قد غلط فى قوله النقد خير من النسيئة فهذا غرور منشؤه قبول لفظ عام مشهور اطلق وأريد به خاص فغفل به المغرور عن خصوص معناه فان من قال النقد خير من النسيئة أراد به خيرا من نسيئة هى مثله وان لم يصرح به وعند هذا يفزع الشيطان الى القياس الآخر وهو ان اليقين خير من الشك والآخرة شك وهذا القياس أكثر فسادا من الاول لان كلا أصليه باطل اذ اليقين خير من الشك اذا كان مثله والا فالتاجر فى تعبه على يقين وفى ربحه على شك والمتفقه فى اجتهاده على يقين وفى ادراكه رتبة العلم على شك والصياد فى تردده فى المقتنص على يقين وفى الظفر بالصيد على شك وكذا الحزم دأب العقلاء بالاتفاق وكل ذلك ترك لليقين بالشك ولكن التاجر يقول ان لم أتجر بقيت جائعا وعظم ضررى وان اتجرت كان تعبى قليلا وربحى كثيرا وكذلك المريض يشرب الدواء البشع الكريه وهو من الشفاء على شك ومن مرارة الدواء على يقين ولكن يقول ضرر مرارة الدواء قليل بالاضافة الى ما أخافه من المرض والموت فكذلك من شك فى الآخرة فواجب عليه بحكم الحزم ان يقول أيام الصبر قلائل وهو منتهى العمر بالاضافة الى ما يقال من أمر الآخرة فان كان ما قيل فيه كذبا فما يفوتنى الا التنعم أيام حياتى وقد كنت فى العدم من الازل الى الآن لا أتنعم فاحسب انى بقيت فى العدم وان كان ما قيل صدقا فأبقى فى النار أبد الآباد وهذا لا يطاق ولهذا قال على كرم الله وجهه لبعض الملحدين ان كان ما قلته حقا فقد تخلصت وتخلصنا وان كان ما قلناه حقا فقد تخلصنا وهلكت وما قال هذا عن شك منه فى الآخرة ولكن كلم الملحد على قدر عقله وبين له أنه وان لم يكن متيقنا فهو مغرور

* وأما الاصل الثانى من كلامه وهو ان الآخرة شك فهو أيضا خطأ بل ذلك يقين عند المؤمنين وليقينه مدركان أحدهما الايمان والتصديق تقليدا للانبياء والعلماء وذلك أيضا يزيل الغرور وهو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص ومثالهم مثال مريض لا يعرف دواء علته وقد اتفق الاطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه النبت الفلانى فانه تطمئن نفس المريض الى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية بل يثق بقولهم ويعمل به ولو بقى سوادى أو معتوه يكذبهم فى ذلك وهو يعلم بالتواتر وقرائن الاحوال انهم أكثر منه عددا وأغزر منه فضلا وأعلم منه بالطب بل لا علم له بالطب فيعلم كذبه بقولهم ولا يعتقد كذبهم بقوله ولا يغتر فى علمه بسببه ولو اعتمد قوله وترك قول الاطباء كان معتوها مغرورا فكذلك من نظر الى المقرين بالآخرة والمخبرين عنها والقائلين بان التقوى هو الدواء النافع فى الوصول الى سعادتها وجدهم خير خلق الله وأعلاهم رتبة فى البصيرة والمعرفة والعقل وهم الانبياء والاولياء والحكماء والعلماء واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم وشذ منهم آحاد من البطالين غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم الى التمتع فعظم عليهم ترك الشهوات وعظم عليهم الاعتراف بانهم من أهل النار فجحدوا الآخرة وكذبوا الانبياء فكما أن قول الصبى وقول السوادى لا يزيل طمأنينة القلب الى ما اتفق عليه الاطباء فكذلك قول هذا الغبى الذى استرقته الشهوات لا يشكك فى صحة أقوال الانبياء والاولياء والعلماء وهذا القدر من الايمان كاف لجملة الخلق وهو يقين جازم يستحث على العمل لا محالة والغرور يزول به وأما المدرك الثانى لمعرفة الآخرة فهو الوحى للانبياء والالهام للاولياء ولا تظنن ان معرفة النبى عليه السلام لامر الآخرة ولامور الدين تقليد لجبريل عليه السلام بالسماع منه كما أن معرفتك تقليد للنبى صلى الله عليه وسلم حتى تكون معرفتك مثل معرفته وانما يختلف المقلد فقط وهيهات فان التقليد ليس بمعرفة بل هو اعتقاد صحيح والانبياء عارفون ومعنى معرفتهم أنه كشف لهم حقيقة الاشياء كما هى عليها فشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد وذلك بان يكشف لهم عن حقيقة الروح وانه من أمر الله تعالى وليس المراد بكونه من أمر الله الامر الذى يقابل النهى لان ذلك الامر كلام والروح ليس بكلام وليس المراد بالامر الشأن حتى يكون المراد به انه من خلق الله فقط لان ذلك عام فى جميع المخلوقات بل العالم عالمان عالم الامر وعالم الخلق ولله الخلق والامر فالاجسام ذوات الكمية

المصير أو آية أخرى فى معناها فيكون جامعا بين التلاوة والصلاة والدعاء ففى ذلك جمع لاهم وظفر بالفضل ثم يصلى قبل العشاء أربعا وبعدها ركعتين ثم ينصرف الى منزله أو موضع خلوته فيصلى أربعا أخرى وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فى بيته أول ما يدخل قبل أن يجلس أربعا ويقرأ فى هذه الاربع سورة لقمان ويس وحم الدخان وتبارك الملك وان أراد أن يخفف فيقرأ فيها آية الكرسى وآمن الرسول وأول سورة الحديد وآخر سورة الحشر ويصلى بعد الاربع احدى عشرة ركعة يقرأ فيها ثلثمائة آية من القرآن من والسماء والطارق الى آخر القرآن ثلثمائة آية هكذا ذكر الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله وان أراد قرأ هذا القدر

والمقادير من عالم الخلق اذ الخلق عبارة عن التقدير في وضع اللسان وكل موجود منزه عن الكمية والمقدار فانه من عالم الامر وشرح ذلك سر الروح ولا رخصة في ذكره لاستضرار أكثر الخلق بسماعه كسر القدرة الذى منع من افشائه فمن عرف سر الروح فقد عرف نفسه واذا عرف نفسه فقد عرف ربه واذا عرف نفسه وربه عرف أنه أمر رباني بطبعه وفطرته وانه في العالم الجسماني غريب وأن هبوطه اليه لم يكن بمقتضى طبعه في ذاته بل بأمر عارض غريب من ذاته وذلك العارض الغريب ورد على آدم صلى الله عليه وسلم وعبر عنه بالمعصية وهي التي حطته عن الجنة التي هي أليق به بمقتضى ذاته فانها في جوار الرب تعالى وانه أمر رباني وحنينه الى جوار الرب تعالى له طبعي ذاتي الا أن يصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته فينسي عند ذلك نفسه وربه ومهما فعل ذلك فقد ظلم نفسه اذ قيل له ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون أي الخارجون عن مقتضى طبعهم ومظنة استحقاقهم يقال فسقت الرطبة عن كمامها اذا خرجت عن معدنها الفطري وهذه اشارة الى أسرار يهتز لاستنشاق روائحها العارفون وتشمئز من سماع ألفاظها القاصرون فانها تضربهم كما تضر رياح الورد بالجعل وتبهر أعينهم الضعيفة كما تبهر الشمس أبصار الخفافيش وانفتاح هذا الباب من سر القلب الى عالم الملكوت يسمى معرفة وولاية ويسمى صاحبه وليا وعارفا وهي مبادى مقامات الانبياء وآخر مقامات الاولياء أول مقامات الانبياء * ولنرجع الى الغرض المطلوب فالمقصود أن غرور الشيطان بأن الآخرة شك يدفع اما بيقين تقليدى واما ببصيرة ومشاهدة من جهة الباطن والمؤمنون بألسنتهم وبعقائدهم اذا ضيعوا أوامر الله تعالى وهجروا الاعمال الصالحة ولابسوا الشهوات والمعاصي فهم مشاركون للكفار في هذا الغرور لانهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة نعم أمرهم أخف لان أصل الايمان يعصمهم عن عقاب الابد فيخرجون من النار ولو بعد حين ولكنهم أيضا من المغرورين فانهم اعترفوا بأن الآخرة خير من الدنيا ولكنهم مالوا الى الدنيا وآثروها ومجرد الايمان لا يكفي للفوز قال تعالى وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى وقال تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه وقال تعالى والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر فوعد المغفرة في جميع كتاب الله تعالى منوط بالايمان والعمل الصالح جميعا لا بالايمان وحده فهؤلاء أيضا مغرورون أعني المطمئنين الى الدنيا الفرحين بها المترفين بنعيمها المحبين لها الكارهين للموت خيفة فوات لذات الدنيا دون الكارهين له خيفة لما بعده فهذا مثال الغرور بالدنيا من الكفار والمؤمنين جميعا * ولنذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين فأما غرور الكفار بالله فمثاله قول بعضهم في أنفسهم وبألسنتهم انه لو كان لله من معاد فنحن أحق به من غيرنا ونحن أوفر حظا فيه وأسعد حالا كما أخبر الله تعالى عنه من قول الرجلين المتحاورين اذ قال وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا وجملة أمرهما كما نقل في التفسير أن الكافر منهما بني قصرا بألف دينار واشترى بستانا بألف دينار وخدما بألف دينار وتزوج امرأة على ألف دينار وفي ذلك كله يعظه المؤمن ويقول اشتريت قصرا يفنى ويخرب ألا اشتريت قصرا في الجنة لا يفنى واشتريت بستانا يخرب ويفنى ألا اشتريت بستانا في الجنة لا يفنى وخدما لا يفنون ولا يموتون وزوجة من الحور العين لا تموت وفي كل ذلك يرد عليه الكافر ويقول ما هناك شيء وما قيل من ذلك فهو أكاذيب وان كان فليكونن لي في الجنة خير من هذا وكذلك وصف الله تعالى قول العاص بن وائل اذ يقول لأوتين مالا وولدا فقال الله تعالى ردا عليه أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا كلا وروى عن خباب بن الارت أنه قال كان لي على العاص ابن وائل دين فجئت أتقاضاه فلم يقض لي فقلت انى آخذه في الآخرة فقال لي اذا صرت الى الآخرة فان لي هناك مالا وولدا أقضيك منه فأنزل الله تعالى قوله أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا وقال الله تعالى ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت الى ربي ان لي عنده للحسنى وهذا كله من الغرور بالله وسببه قياس من أقيسة ابليس نعوذ بالله منه وذلك أنهم ينظرون مرة الى

في أقل من هذا العدد من الركعات وان قرأ من سورة الملك الى آخر القرآن وهو ألف آية فهو خير عظيم كثير وان لم يحفظ القرآن يقرأ في كل ركعة خمس مرات قل هو الله أحد الى عشر مرات الى أكثر ولا يؤخر الوتر الى آخر التهجد الا أن يكون واثقا من نفسه في عادته بالانتباه للتهجد فيكون تأخير الوتر الى آخر التهجد حينئذ أفضل (وقد كان بعض العلماء) اذا أوتر قبل النوم ثم قام يتهجد يصلي ركعة يشفع بها وتره ثم يتنفل ما شاء ويوتر في آخر ذلك واذا كان الوتر من أول الليل يصلي بعد الوتر ركعتين جالسا يقرأ فيهما باذا زلزلت وألهاكم وقيل فعل الركعتين قاعدا بمنزلة الركعة قائما يشفع لم الوتر حتى اذا أراد التهجد يأتي به ويوتر في آخر تهجده وينوي بهاتين الركعتين نية النفل

نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة وينظرون مرة الى تأخير العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة كما قال تعالى ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول فقال تعالى جوابا لقولهم حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ومرة ينظرون الى المؤمنين وهم فقراء شعث غبر فيزدرونهم ويستحقرونهم فيقولون أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ويقولون لو كان خيرا ما سبقونا اليه وترتيب القياس الذي نظمه في قلوبهم أنهم يقولون قد أحسن الله الينا بنعيم الدنيا وكل محسن فهو محب وكل محب فانه يحسن أيضا في المستقبل كما قال الشاعر

لقد أحسن الله فيما مضى * كذلك يحسن فيما بقي

وانما يقيس المستقبل على الماضي بواسطة الكرامة والحب اذ يقول لولا أني كريم عند الله ومحبوب لما أحسن الى والتلبيس تحت ظنه ان كل محسن محب لا بل تحت ظنه ان انعامه عليه في الدنيا احسان فقد اغتر بالله اذ ظن انه كريم عنده بدليل لا يدل على الكرامة بل عند ذوي البصائر يدل على الهوان ومثاله أن يكون للرجل عبدان صغيران يبغض أحدهما ويحب الآخر فالذي يحبه يمنعه من اللعب ويلزمه المكتب ويحبسه فيه ليعلمه الأدب ويمنعه من الفواكه وملاذ الاطعمة التي تضره ويسقيه الادوية التي تنفعه والذي يبغضه يهمله ليعيش كيف يريد فيلعب ولا يدخل المكتب ويأكل كل ما يشتهي فيظن هذا العبد المهمل انه عند سيده محبوب كريم لانه مكنه من شهواته ولذاته وساعده على جميع أغراضه فلم يمنعه ولم يحجر عليه وذلك محض الغرور وهكذا نعيم الدنيا ولذاتها فانها مهلكات ومبعدات من الله فان الله يحمي عبده من الدنيا وهو يحبه كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام والشراب وهو يحبه هكذا ورد في الخبر عن سيد البشر وكان ارباب البصائر اذا اقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا ذنب عجلت عقوبته ورأوا ذلك علامة المقت والاهمال واذا أقبل عليهم الفقر قالوا مرحبا بشعار الصالحين والمغرور اذا أقبلت عليه الدنيا ظن انها كرامة من الله واذا صرفت عنه ظن أنها هوان كما أخبر الله تعالى عنه اذ قال فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن فأجاب الله عن ذلك كلا أي ليس كما قال انما هو ابتلاء نعوذ بالله من شر البلاء ونسأل الله التثبيت فبين ان ذلك غرور قال الحسن كذبهما جميعا بقوله كلا يقول ليس هذا باكرامي ولا هذا بهواني ولكن الكريم من أكرمته بطاعتي غنيا كان أو فقيرا والمهان من أهنته بمعصيتي غنيا كان أو فقيرا وهذا الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والهوان اما بالبصيرة أو بالتقليد أما البصيرة فبأن يعرف وجه كون الالتفات الى شهوات الدنيا مبعدا عن الله ووجه كون التباعد عنها مقربا الى الله ويدرك ذلك بالالهام في منازل العارفين والاولياء وشرحه من جملة علوم المكاشفة ولا يليق بعلم المعاملة وأما معرفته بطريق التقليد والتصديق فهو أن يؤمن بكتاب الله تعالى ويصدق رسوله وقد قال تعالى أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون وقال تعالى سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وقال تعالى فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون وفي تفسير قوله تعالى سنستدرجهم من حيث لا يعلمون انهم كلما أحدثوا ذنبا أحدثنا لهم نعمة ليزيد غرورهم وقال تعالى انما نملي لهم ليزدادوا اثما وقال تعالى ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار الى غير ذلك مما ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله فمن آمن به تخلص من هذا الغرور فان منشأ هذا الغرور الجهل بالله وبصفاته فان من عرفه لا يأمن مكره ولا يغتر بامثال هذه الخيالات الفاسدة وينظر الى فرعون وهامان وقارون والى ملوك الارض وما جرى لهم كيف أحسن الله اليهم ابتداء ثم دمرهم تدميرا فقال تعالى هل تحس منهم من أحد الآية وقد حذر الله تعالى من مكره واستدراجه فقال فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون وقال تعالى ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون وقال عز وجل ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين وقال تعالى انهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا فكما لا يجوز للعبد المهمل أن يستدل باهمال السيد اياه وتمكينه من النعم على حب السيد بل ينبغي أن يحذر أن يكون ذلك مكرا منه وكيدا مع ان السيد لم يحذره مكر نفسه فبأن يجب ذلك في حق الله تعالى مع تحذيره استدراجه أولى فاذا من أمن مكر الله فهو مغتر ومنشأ هذا الغرور انه استدل بنعم الدنيا على انه كريم عند ذلك المنعم واحتمل أن يكون ذلك دليل

لا غير ذلك وكثيرا ما رأيت الناس يتفاوضون في كيفية نبهتهما وان قرأ في كل ليلة المسبحات وأضاف اليها سورة الاعلى فتصير ستا فقد كان العلماء يقرؤن هذه السورة ويترقبون بركتها فاذا استيقظ من النوم فمن أحسن الادب عند الانتباه أن يذهب بباطنه الى الله ويصرف فكره الى أمر الله قبل أن يجول الفكر في شيء سوى الله ويشغل اللسان بالذكر فالصادق كالطفل الكلف بالشيء اذا نام ينام على محبة الشيء واذا انتبه يطلب ذلك الشيء الذي كان كلفا به وعلى حسب هذا الكلف والشغل يكون الموت والقيام الى الحشر فلينظر وليعتبر عند انتباهه من النوم ما همه فانه هكذا يكون عند القيام من القبر ان كان همه الله فهمه هو والا فهمه غير الله والعبد اذا انتبه من النوم فباطنه

الهوان ولكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى فالشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب الى ما يوافقه وهو التصديق بدلالته على الكرامة وهذا هو حد الغرور (المثال الثانى) غرور العصاة من المؤمنين بقولهم ان الله كريم وانا نرجو عفوه واتكالهم على ذلك واهمالهم الاعمال وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم رجاء وظنهم أن الرجاء مقام محمود فى الدين وان نعمة الله واسعة ورحمته شاملة وكرمه عميم وأين معاصى العباد فى بحار رحمته وانا موحدون ومؤمنون فنرجوه بوسيلة الايمان وربما كان مستند رجائهم التمسك بصلاح الآباء وعلو رتبتهم كاغترار العلوية بنسبهم ومخالفة سيرة آبائهم فى الخوف والتقوى والورع وظنهم أنهم أكرم على الله من آبائهم اذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى فقياس الشيطان للعلوية ان من أحب انسانا أحب أولاده وان الله قد أحب آباءكم فيحبكم فلا تحتاجون الى الطاعة وينسى المغرور ان نوحا عليه السلام أراد ان يستصحب ولده معه فى السفينة فلم يرد فكان من المغرقين فقال رب ان ابنى من أهلى فقال تعالى يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح وأن ابراهيم عليه السلام استغفر لابيه فلم ينفعه وأن نبينا صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى استأذن ربه فى أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فاذن له فى الزيارة ولم يؤذن له فى الاستغفار فجلس يبكى على قبر أمه لرقته لها بسبب القرابة حتى أبكى من حوله فهذا أيضا اغترار بالله تعالى وهذا لان الله تعالى يحب المطيع ويبغض العاصى فكما أنه لا يبغض الاب المطيع ببغضه للولد العاصى فكذلك لا يحب الولد العاصى بحبه للاب المطيع ولو كان الحب يسرى من الاب الى الولد لاوشك ان يسرى البغض أيضا بل الحق أن لا تزر وازرة وزر أخرى ومن ظن انه ينجو بتقوى أبيه كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه ويروى بشرب أبيه ويصير عالما بتعلم أبيه ويصل الى الكعبة ويراها بمشى أبيه فالتقوى فرض عين فلا يجزى فيه والد عن ولده شيأ وكذا العكس وعند الله جزاء التقوى يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه الا على سبيل الشفاعة لمن لم يشتد غضب الله عليه فيأذن فى الشفاعة له كما سبق فى كتاب الكبر والعجب فان قلت فاين الغلط فى قول العصاة والفجار ان الله كريم وانا نرجو رحمته ومغفرته وقد قال أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى خيرا فما هذا الا كلام صحيح مقبول الظاهر فى القلوب فاعلم أن الشيطان لا يغوى الانسان الا بكلام مقبول الظاهر مردود الباطن ولولا حسن ظاهره لما انخدعت به القلوب ولكن النبى صلى الله عليه وسلم كشف عن ذلك فقال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله وهذا هو التمنى على الله تعالى غير الشيطان اسمه فسماه رجاء حتى خدع به الجهال وقد شرح الله الرجاء فقال ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله يعنى ان الرجاء بهم أليق وهذا لانه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الاعمال قال الله تعالى جزاء بما كانوا يعملون وقال تعالى وانما توفون أجوركم يوم القيامة أفترى ان من استؤجر على اصلاح أوان وشرط له أجرة عليها وكان الشارط كريما يفى بالوعد مهما وعد ولا يخلف بل يزيد فجاء الاجير وكسر الاوانى وأفسد جميعها ثم جلس ينتظر الاجر ويزعم أن المستأجر كريم أفتراه العقلاء فى انتظاره متمنيا مغرورا أو راجيا وهذا للجهل بالفرق بين الرجاء والغرة قيل للحسن قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل فقال هيهات هيهات تلك أمانيهم يترجحون فيها من رجا شيأ طلبه ومن خاف شيأ هرب منه وقال مسلم بن يسار لقد سجدت البارحة حتى سقطت ثنيتاى فقال له رجل انا لنرجو الله فقال مسلم هيهات هيهات من رجا شيأ طلبه ومن خاف شيأ هرب منه وكما أن الذى يرجو فى الدنيا ولدا وهو بعد لم ينكح أو نكح ولم يجامع أو جامع ولم ينزل فهو معتوه فكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن أو آمن ولم يعمل صالحا أو عمل ولم يترك المعاصى فهو مغرور فكما انه اذا نكح ووطئ وأنزل بقى مترددا فى الولد يخاف ويرجو فضل الله فى خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الام الى أن يتم فهو كيس فكذلك اذا آمن وعمل الصالحات وترك السيئات وبقى مترددا بين الخوف والرجاء يخاف أن لا يقبل منه وأن لا يدوم عليه وأن يختم له بالسوء ويرجو من الله تعالى أن يثبته بالقول الثابت ويحفظ دينه من صواعق سكرات الموت حتى يموت على التوحيد ويحرس قلبه عن الميل

عائد الى طهارة الفطرة فلا يدع الباطن يتغير بغير ذكر الله تعالى حتى لا يذهب عنه نور الفطرة الذى انتبه عليه ويكون فارا الى ربه بباطنه خوفا من ذكر الاغيار ومهما وفى الباطن بهذا المعيار فقد انتقى طريق الانوار وطرق النفحات الالهية فقدير ان تنصب اليه أقسام الليل انصبابا ويصير جناب القرب له موئلا ومآبا ويقول باللسان الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور ويقرأ العشر الاواخر من سورة آل عمران ثم يقصد الماء الطهور قال الله تعالى وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به وقال عز وجل أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما الماء القرآن والاودية القلوب فسالت بقدرها واحتملت ما وسعت

الى الشهوات بقية عمره حتى لا يميل الى المعاصي فهو كيس ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ولتعلمن نبأه بعد حين وعند ذلك يقولون كما أخبر الله عنهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون أي علمنا أنه كما لا يولد ولد الا بوقاع ونكاح ولا ينبت زرع الا بحراثة وبث بذر فكذلك لا يحصل في الآخرة ثواب وأجر الا بعمل صالح فارجعنا نعمل صالحا فقد علمنا الآن صدقك في قولك وأن ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى وكلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير أي ألم نسمعكم سنة الله في عباده وانه توفى كل نفس ما كسبت وان كل نفس بما كسبت رهينة فما الذي غركم بالله بعد أن سمعتم وعقلتم قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقا لاصحاب السعير فان قلت فاين مظنة الرجاء وموضعه المحمود فاعلم انه محمود في موضعين احدهما في حق العاصي المنهمك اذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان واني تقبل توبتك فيقنطه من رحمة الله تعالى فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء ويتذكر ان الله يغفر الذنوب جميعا وان الله كريم يقبل التوبة عن عباده وان التوبة طاعة تكفر الذنوب قال الله تعالى قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم وأنيبوا الى ربكم أمرهم بالانابة وقال تعالى واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى فاذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج وان توقع المغفرة مع الاصرار فهو مغرور كما أن من ضاق عليه وقت الجمعة وهو في السوق فخطر له أن يسعى الى الجمعة فقال له الشيطان انك لا تدرك الجمعة فاقم على موضعك فكذب الشيطان ومر يعدو وهو يرجو أن يدرك الجمعة فهو راج وان استمر على التجارة وأخذ يرجو تأخير الامام للصلاة لاجله الى وسط الوقت أو لاجل غيره أو لسبب من الاسباب التي لا يعرفها فهو مغرور والثاني أن تفتر نفسه عن فضائل الاعمال ويقتصر على الفرائض فيرجي نفسه نعيم الله تعالى وما وعد به الصالحين حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة فيقبل على الفضائل ويتذكر قوله تعالى قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون الى قوله أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون فالرجاء الاول يقمع القنوط المانع من التوبة والرجاء الثاني يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمر فكل توقع حث على توبة أو على تشمر في العبادة فهو رجاء وكل رجاء أوجب فتورا في العبادة وركونا الى البطالة فهو غرة كما اذا خطر له أن يترك الذنب ويشتغل بالعمل فيقول له الشيطان مالك ولايذاء نفسك وتعذيبها ولك رب كريم غفور رحيم فيفتر بذلك عن التوبة والعبادة فهو غرة وعند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ويقول انه مع انه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب وانه مع انه كريم خلد الكفار في النار أبد الآباد مع انه لم يضره كفرهم بل سلط العذاب والمحن والامراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده في الدنيا وهو قادر على ازالتها فمن هذه سنته في عباده وقد خوفني عقابه فكيف لا أخافه وكيف اغتر به فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان الناس على العمل فما لا يبعث على العمل فهو تمن وغرور ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب اقبالهم على الدنيا وسبب اعراضهم عن الله تعالى واهمالهم السعي للآخرة فذلك غرور فقد أخبر صلى الله عليه وسلم وذكر ان الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الامة وقد كان ما وعد به صلى الله عليه وسلم فقد كان الناس في الاعصار الاول يواظبون على العبادات ويؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون يخافون على أنفسهم وهم طول الليل والنهار في طاعة الله يبالغون في التقوى والحذر من الشبهات والشهوات ويبكون على أنفسهم في الخلوات وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين مع اكبابهم على المعاصي وانهماكهم في الدنيا واعراضهم عن الله تعالى زاعمين انهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله راجون لعفوه ومغفرته كأنهم يزعمون انهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الانبياء والصحابة والسلف الصالحون فان كان هذا الامر يدرك بالمنى وينال بالهوينى فعلام اذا كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم وقد ذكرنا تحقيق هذه الامور في كتاب الخوف والرجاء وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه معقل بن يسار يأتي على الناس زمان يخلق فيه القرآن في قلوب الرجال كما تخلق الثياب على الابدان أمرهم كله يكون طمعا لا خوف معه ان أحسن أحدهم

والماء مطهر والقرآن مطهر والقرآن بالتطهير أجدر فالماء يقوم غيره مقامه والقرآن والعلم لا يقوم غيره مقامه ولا يسد مسده فالماء الطهور يطهر الظاهر والعلم والقرآن يطهران الباطن ويذهبان رجز الشيطان فالنوم غفلة وهو من آثار الطبع وجدير أن يكون من رجز الشيطان لما فيه من الغفلة عن الله تعالى وذلك ان الله تعالى أمر بقبض القبضة من التراب من وجه الارض فكانت القبضة جلدة الارض والجلدة ظاهرها بشرة وباطنها أدمة قال الله تعالى اني خالق بشرا من طين فالبشرة والبشر عبارة عن ظاهره وصورته والادمة عبارة عن باطنه وآدميته والآدمية تجمع الاخلاق الجيدة وكان التراب موطئ أقدام ابليس ومن ذلك اكتسب ظلمة وصارت تلك الظلمة

قال يتقبل منى وان أساء قال يغفر لى فاخبر انهم يضعون الطمع موضع الخوف لجهلهم بتخويفات القرآن وما فيه و بذلك أخبر عن النصارى اذ قال تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى و يقولون سيغفر لنا ومعناه انهم ورثوا الكتاب أى هم علماء و يأخذون عرض هذا الادنى أى شهواتهم من الدنيا حراما كان أو حلالا وقد قال تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد والقرآن من أوله الى آخره تحذير وتخويف لا يتفكر فيه متفكر الا و يطول حزنه و يعظم خوفه ان كان مؤمنا بما فيه وترى الناس يهذونه هذا يخرجون الحروف من مخارجها و يتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها وكأنهم يقرؤن شعرا من أشعار العرب لا يهمهم الالتفات الى معانيه والعمل بما فيه وهل فى العالم غرور يزيد على هذا فهذه أمثلة الغرور بالله و بيان الفرق بين الرجاء والغرور ويقرب منه غرور طوائف لهم طاعات ومعاص الا ان معاصيهم أكثر وهم يتوقعون المغفرة و يظنون أنهم تترجح كفة حسناتهم مع أن ما فى كفة السيئات أكثر وهذا غاية الجهل فترى الواحد يتصدق بدراهم معدودة من الحلال والحرام و يكون ما يتناول من أموال المسلمين والشبهات أضعافه ولعل ما تصدق به هو من أموال المسلمين وهو يتكل عليه و يظن ان أكل ألف درهم حرام يقاومه التصدق بعشرة من الحرام أو الحلال وما هو الا كمن وضع عشرة دراهم فى كفة ميزان وفى الكفة الاخرى ألفا وأراد أن يرفع الكفة الثقيلة بالكفة الخفيفة وذلك غاية جهله نعم ومنهم من يظن ان طاعاته أكثر من معاصيه لانه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه واذا عمل طاعة حفظها واعتد بها كالذى يستغفر الله بلسانه أو يسبح الله فى اليوم مائة مرة ثم يغتاب المسلمين و يمزق أعراضهم و يتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد و يكون نظره الى عدد سبحته انه استغفر الله مائة مرة وغفل عن هذيانه طول نهاره الذى لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة أو ألف مرة وقد كتبه الكرام الكاتبون وقد أوعده الله بالعقاب على كل كلمة فقال ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد فهذا أبدا يتأمل فى فضائل التسبيحات والتهليلات ولا يلتفت الى ما ورد من عقوبة المغتابين والكذابين والنمامين والمنافقين يظهرون من الكلام ما لا يضمرونه الى غير ذلك من آفات اللسان وذلك محض الغرور ولعمرى لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجرة النسخ لما يكتبونه من هذيانه الذى زاد على تسبيحه لكان عند ذلك يكف لسانه حتى عن جملة من مهماته وما نطق به فى فتراته كان يعده و يحسبه و يوازنه بتسبيحاته حتى لا يفضل عليه أجرة نسخه فيا عجبا لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفا على قيراط يفوته فى الاجرة على النسخ ولا يحتاط خوفا من فوت الفردوس الاعلى ونعيمه ما هذه الا مصيبة عظيمة لمن تفكر فيها فقد دفعنا الى أمر ان شككنا فيه كنا من الكفرة الجاحدين وان صدقنا به كنا من الحمقى المغرورين فما هذه أعمال من يصدق بما جاء به القرآن وانا نبرأ الى الله أن نكون من أهل الكفران فسبحان من صدنا عن التنبه واليقين مع هذا البيان وما أجدر من يقدر على تسليط مثل هذه الغفلة والغرور على القلوب أن يخشى و يتقى ولا يغتر به اتكالا على أباطيل المنى وتعاليل الشيطان والهوى والله أعلم

(بيان أصناف المغترين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أصناف)

(الصنف الاول) أهل العلم والمغترون منهم فرق (ففرقة) أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها واشتغلوا بها وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصى والزامها الطاعات واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله مثلهم بل يقبل فى الخلق شفاعتهم وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله وهم مغرورون فانهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أن العلم علمان علم معاملة وعلم مكاشفة وهو العلم بالله وبصفاته المسمى بالعادة علم المعرفة فأما العلم بالمعاملة كمعرفة الحلال والحرام ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها فهى علوم لا تراد الا للعمل ولولا الحاجة الى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل فمثال هذا كمريض به علة لا يزيلها الا دواء مركب من أخلاط كثيرة لا يعرفها الا حذاق الاطباء فيسعى فى طلب الطبيب بعد أن هاجر عن وطنه حتى عثر على طبيب حاذق فعلمه الدواء وفصل له الاخلاط وأنواعها ومقاديرها ومعادنها التى منها تجتلب وعلمه كيفية دق كل

مجبولة فى طينة الآدمى ومنها الصفات المذمومة والاخلاق الرديئة ومنها الغفلة والسهو فاذا استعمل الماء وقرأ القرآن أتى بالطهرين جميعا و يذهب عنه رجز الشيطان وأثر وطأته ويحكم له بالعلم والخروج من حيز الجهل فاستعمال الطهور أمر شرعى له تأثير فى تنوير القلب بازاء النوم الذى هو الحكم الطبيعى الذى له تأثير فى تكدير القلب فيذهب نور هذا بظلمة ذلك ولهذا رأى بعض العلماء الوضوء مما مست النار وحكم أبو حنيفة رحمه الله بالوضوء من القهقهة فى الصلاة حيث رآها حكما طبيعيا جالبا للاثم والاثم رجز من الشيطان والماء يذهب رجز الشيطان حتى كان بعضهم يتوضأ من الغيبة والكذب وعند الغضب لظهور النفس وتصرف الشيطان فى هذه المواطن ولو ان

واحد منها وكيف خلطه وعجنه فتعلم ذلك وكتب منه نسخة حسنة بخط حسن ورجع الى بيته وهو يكررها ويعلمها المرضى ولم يشتغل بشربها واستعمالها أفترى أن ذلك يغني عنه من مرضه شيأ هيهات هيهات ولو كتب منه ألف نسخة وعلمه ألف مريض حتى شفي جميعهم وكرره كل ليلة ألف مرة لم يغنه ذلك من مرضه شيأ الا أن يزن الذهب ويشترى الدواء ويخلطه كما تعلم ويشربه ويصبر على مرارته ويكون شربه فى وقته وبعد تقديم الاحتماء وجميع شروطه واذا فعل جميع ذلك فهو على خطر من شفائه فكيف اذا لم يشربه أصلا فمهما ظن أن ذلك يكفيه ويشفيه فقد ظهر غروره وهكذا الفقيه الذى أحكم علم الطاعات ولم يعملها وأحكم علم المعاصى ولم يجتنبها وأحكم علم الاخلاق المذمومة وما زكى نفسه منها وأحكم علم الاخلاق المحمودة ولم يتصف بها فهو مغرور اذ قال تعالى قد أفلح من زكاها ولم يقل قد أفلح من تعلم كيفية تزكيتها وكتب علم ذلك وعلمه الناس وعند هذا يقول له الشيطان لا يغرنك هذا المثال فان العلم بالدواء لا يزيل المرض وانما مطلبك القرب من الله وثوابه والعلم يجلب الثواب ويتلو عليه الاخبار الواردة فى فضل العلم فان كان المسكين معتوها مغرورا وافق ذلك مراده وهواه فاطمأن اليه وأهمل العمل وان كان كيسا فيقول للشيطان أتذكرنى فضائل العلم وتنسينى ما ورد فى العالم الفاجر الذى لا يعمل بعلمه كقوله تعالى فمثله كمثل الكلب وكقوله تعالى مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا فأى خزى أعظم من التمثيل بالكلب والحمار وقد قال صلى الله عليه وسلم من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله الا بعدا وقال أيضا يلقى العالم فى النار فتندلق أقتابه فيدور بها فى النار كما يدور الحمار فى الرحى وكقوله عليه الصلاة والسلام شر الناس العلماء السوء وقول أبى الدرداء ويل للذى لا يعلم مرة ولو شاء الله لعلمه وويل للذى يعلم ولا يعمل سبع مرات أى ان العلم حجة عليه اذ يقال له ماذا عملت فيما علمت وكيف قضيت شكر الله قال صلى الله عليه وسلم أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه فهذا وأمثاله مما أوردناه فى كتاب العلم فى باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يحصى الا أن هذا فيما لا يوافق هوى العالم الفاجر وما ورد فى فضل العلم يوافقه فيميل الشيطان قلبه الى ما يهواه وذلك عين الغرور فانه ان نظر بالبصيرة فمثاله ما ذكرناه وان نظر بعين الايمان فالذى أخبره بفضيلة العلم هو الذى أخبره بذم العلماء السوء وان حالهم عند الله أشد من حال الجهال فبعد ذلك اعتقاده انه على خير مع تأكد حجة الله عليه غاية الغرور وأما الذى يدعى علوم المكاشفة كالعلم بالله وبصفاته وأسمائه وهو مع ذلك يهمل العمل ويضيع أمر الله وحدوده فغروره أشد ومثاله مثال من أراد خدمة ملك فعرف الملك وعرف أخلاقه وأوصافه ولونه وشكله وطوله وعرضه وعادته ومجلسه ولم يتعرف ما يحبه ويكرهه وما يغضب عليه وما يرضى به أو عرف ذلك الا انه قصد خدمته وهو ملابس لجميع ما يغضب به وعليه وعاطل عن جميع ما يحبه من زى وهيئة وكلام وحركة وسكون فورد على الملك وهو يريد التقرب منه والاختصاص به متلطخا بجميع ما يكرهه الملك عاطلا عن جميع ما يحبه متوسلا اليه بمعرفته له ولنسبه واسمه وبلده وصورته وشكله وعادته فى سياسة غلمانه ومعاملة رعيته فهذا مغرور جدا اذ لو ترك جميع ما عرفه واشتغل بمعرفته فقط ومعرفة ما يكرهه ويحبه لكان ذلك أقرب الى نيله المراد من قربه والاختصاص به بل تقصيره فى التقوى واتباعه للشهوات يدل على أنه لم ينكشف له من معرفة الله الا الاسامى دون المعانى اذ لو عرف الله حق معرفته لخشيه واتقاه فلا يتصور أن يعرف الاسد عاقل ثم لا يتقيه ولا يخافه وقد أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام خفنى كما تخاف السبع الضارى نعم من يعرف من الاسد لونه وشكله واسمه قد لا يخافه وكأنه ما عرف الاسد فمن عرف الله تعالى عرف من صفاته انه يهلك العالمين ولا يبالى ويعلم انه مسخر فى قدرة من لو أهلك مثله آلافا مؤلفة وأبد عليهم العذاب أبد الآباد لم يؤثر ذلك فيه أثرا ولم تأخذه عليه رقة ولا اعتراه عليه جزع ولذلك قال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وفاتحة الزبور رأس الحكمة خشية الله وقال ابن مسعود كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا واستفتى الحسن عن مسألة فأجاب فقيل له ان فقهاءنا لا يقولون ذلك فقال وهل رأيت فقيها قط الفقيه القائم ليله الصائم نهاره الزاهد فى الدنيا وقال مرة الفقيه لا يدارى ولا يمارى ينشر حكمة الله فان قبلت منه حمد الله وان ردت عليه حمد الله فاذا الفقيه من فقه عن

الله

المتحفظ المراعى المراقب المحاسب كلما انطلقت النفس فى مباح من كلام أو مساكنة الى مخالطة الناس أو غير ذلك مما هو بعرضة تحليل عقد العزيمة كالخوض فيما لا يعنى قولا وفعلا عقب ذلك بتجديد الوضوء اثبت القلب على طهارته ونزاهته ولكان الوضوء لصفاء البصيرة بمثابة الجفن الذى لا يزال بخفة حركته يجلو البصر وما يعقلها الا العالمون فتفكر فيما انبهتك عليه تجد بركته وأثره ولو اغتسل عند هذه المتجددات والعوارض والانتباه من النوم لكان أزيد فى تنوير قلبه ولكان الاجدر أن العبد يغتسل لكل فريضة باذلا مجهوده فى الاستعداد لمناجاة الله ويجدد غسل الباطن بصدق الانابة وقد قال الله تعالى منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة قدم الانابة للدخول فى

الله أمره ونهيه وعلم من صفاته ما أحبه وما كرهه وهو العالم ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين واذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين (وفرقة أخرى) أحكموا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصى الا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات المذمومة عند الله من الكبر والحسد والرياء وطلب الرياسة والعلاء وارادة السوء للاقران والنظراء وطلب الشهرة فى البلاد والعباد وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم فهو مكب عليها غير متحرز عنها ولا يلتفت الى قوله صلى الله عليه وسلم أدنى الرياء شرك والى قوله عليه السلام لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر والى قوله عليه الصلاة والسلام الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب والى قوله عليه الصلاة والسلام حب الشرف والمال ينبتان النفاق كما ينبت الماء البقل الى غير ذلك من الاخبار التى أوردناها فى جميع ربع المهلكات فى الاخلاق المذمومة فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى أموالكم وانما ينظر الى قلوبكم وأعمالكم فتعهدوا الاعمال وما تعهدوا القلوب والقلب هو الاصل اذ لا ينجو الا من أتى الله بقلب سليم ومثال هؤلاء كبئر الحش ظاهرها جص وباطنها نتن أو كقبور الموتى ظاهرها مزين وباطنها جيفة أو كبيت مظلم باطنه وضع سراج على سطحه فاستنار ظاهره وباطنه مظلم أو كرجل قصد الملك ضيافته الى داره فجصص باب داره وترك المزابل فى صدر داره ولا يخفى أن ذلك غرور بل أقرب مثال اليه رجل زرع زرعا فنبت ونبت معه حشيش يفسده فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه من أصله فأخذ يجز رؤسه وأطرافه فلا تزال تقوى أصوله فتنبت لان مغارس المعاصى هى الاخلاق الذميمة فى القلب فمن لا يطهر القلب منها لا تتم له الطاعات الظاهرة الا مع الآفات الكثيرة بل هو كمريض ظهر به الجرب وقد أمر بالطلاء وشرب الدواء فالطلاء ليزيل ما على ظاهره والدواء ليقطع مادته من باطنه فقنع بالطلاء وترك الدواء وبقى يتناول ما يزيد فى المادة فلا يزال يطلى الظاهر والجرب دائم به يتفجر من المادة التى فى الباطن (وفرقة أخرى) علموا أن هذه الاخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع الا أنهم لعجبهم بانفسهم يظنون انهم منفكون عنها وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك وانما يبتلى به العوام دون من بلغ مبلغهم فى العلم فاما هم فاعظم عند الله من أن يبتليهم ثم اذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة وطلب العلو والشرف قالوا ما هذا كبر وانما هو طلب عز الدين واظهار شرف العلم ونصرة دين الله وارغام أنف المخالفين من المبتدعين وانى لو لبست الدون من الثياب وجلست فى الدون من المجالس لشمت بى أعداء الدين وفرحوا بذلك وكان ذلى ذلا على الاسلام ونسى المغرور أن عدوه الذى حذره منه مولاه هو الشيطان وانه يفرح بما يفعله ويسخر به وينسى ان النبى صلى الله عليه وسلم بماذا نصر الدين وبماذا أرغم الكافرين ونسى ما روى عن الصحابة من التواضع والتبذل والقناعة بالفقر والمسكنة حتى عوتب عمر رضى الله عنه فى بذاذة زيه عند قدومه الى الشام فقال انا قوم أعزنا الله بالاسلام فلا نطلب العز فى غيره ثم هذا المغرور يطلب عز الدين بالثياب الرقيقة من القصب والديبقى والابريسم المحرم والخيول والمراكب ويزعم أنه يطلب به عز العلم وشرف الدين وكذلك مهما أطلق اللسان بالحسد فى أقرانه أو فيمن رد عليه شيأ من كلامه لم يظن بنفسه أن ذلك حسد ولكن قال انما هذا غضب للحق ورد على المبطل فى عدوانه وظلمه ولم يظن بنفسه الحسد حتى يعتقد انه لو طعن فى غيره من أهل العلم أو منع غيره من رياسة وزوحم فيها هل كان غضبه وعداوته مثل غضبه الآن فيكون غضبه لله أم لا يغضب مهما طعن فى عالم آخر ومنع بل ربما يفرح به فيكون غضبه لنفسه وحسده لاقرانه من خبث باطنه وهكذا يرائى باعماله وعلومه واذا خطر له خاطر الرياء قال هيهات انما غرضى من اظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بى ليهتدوا الى دين الله تعالى فيتخلصوا من عقاب الله تعالى ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الخلق بغيره كما يفرح باقتدائهم به فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان كمن له عبيد مرضى يريد معالجتهم فانه لا يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيب آخر وربما يذكر هذا له فلا يخليه الشيطان أيضا ويقول انما ذلك لانه اذا اهتدوا بى كان الاجر لى والثواب لى فانما فرحى بثواب الله لا بقبول الخلق قولى هذا ما يظنه بنفسه والله مطلع من ضميره على انه لو أخبره نبى بان ثوابه فى الخمول واخفاء العلم أكثر من ثوابه

الصلاة ولكن من رحمة الله تعالى وحكم الحنيفية السهلة السمحة أن رفع الحرج وعوض بالوضوء عن الغسل وجوز أداء مفترضات بوضوء واحد دفعا للحرج عن عامة الامة والخواص وأهل العزة مطالبات من بواطنهم تحكم عليهم بالاولى وتلجئهم الى سلوك طريق الاعلى فاذا قام الى الصلاة وأراد استفتاح التهجد يقول الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا ويقول سبحان الله والحمد لله الكلمات عشر مرات ويقول الله أكبر ذو الملك والملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة والجلال والقدرة اللهم لك الحمد أنت نور السموات والارض ولك الحمد أنت بهاء السموات والارض ولك الحمد أنت قيوم السموات والارض ولك الحمد أنت رب السموات والارض ومن فيهن ومن

فى الاظهار وحبس مع ذلك فى سجن وقيد بالسلاسل لاحتال فى هدم السجن وحل السلاسل حتى يرجع الى موضعه الذى به تظهر رياسته من تدريس أو وعظ أو غيره وكذلك يدخل على السلطان ويتودد اليه ويثنى عليه ويتواضع له واذا خطر له ان التواضع للسلاطين الظلمة حرام قال له الشيطان هيهات انما ذلك عند الطمع فى مالهم فاما أنت فغرضك أن تشفع للمسلمين وتدفع الضرر عنهم وتدفع شر أعدائك عن نفسك والله يعلم من باطنه انه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان فصار يشفعه فى كل مسلم حتى دفع الضرر عن جميع المسلمين ثقل ذلك عليه ولو قدر على أن يقبح حاله عند السلطان بالطعن فيه والكذب عليه لفعل وكذلك قد ينتهى غرور بعضهم الى أن يأخذ من مالهم واذا خطر له انه حرام قال له الشيطان هذا مال لا مالك له وهو لمصالح المسلمين وأنت امام المسلمين وعالمهم وبك قوام الدين أفلا يحل لك أن تأخذ قدر حاجتك فيغتر بهذا التلبيس فى ثلاثة أمور أحدها فى أنه مال لا مالك له فانه يعرف أنه يأخذ الخراج من المسلمين وأهل السواد والذين أخذ منهم أحياء وأولادهم وورثتهم أحياء وغاية الامر وقوع الخلط فى أموالهم ومن غصب مائة دينار من عشرة أنفس وخلطها فلا خلاف فى انه مال حرام ولا يقال هو مال لا مالك له ويجب ان يقسم بين العشرة ويرد الى كل واحد عشرة وان كان مال كل واحد قد اختلط بالآخر الثانى فى قوله انك من مصالح المسلمين وبك قوام الدين ولعل الذين فسد دينهم واستحلوا أموال السلاطين ورغبوا فى طلب الدنيا والاقبال على الرياسة والاعراض عن الآخرة بسببه أكثر من الذين زهدوا فى الدنيا ورفضوها وأقبلوا على الله فهو على التحقيق دجال الدين وقوام مذهب الشياطين لا امام الدين اذ الامام هو الذى يقتدى به فى الاعراض عن الدنيا والاقبال على الله كالانبياء عليهم السلام والصحابة وعلماء السلف والدجال هو الذى يقتدى به فى الاعراض عن الله والاقبال على الدنيا فلعل موت هذا أنفع للمسلمين من حياته وهو يزعم أنه قوام الدين ومثله كما قال المسيح عليه السلام للعالم السوء انه كصخرة وقعت فى فم الوادى فلا هى تشرب الماء ولا هى تترك الماء يخلص الى الزرع وأصناف غرور أهل العلم فى هذه الاعصار المتأخرة خارجة عن الحصر وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير (وفرقة أخرى) احكموا العلم وطهروا الجوارح وزينوها بالطاعات واجتنبوا ظواهر المعاصى وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والحقد والكبر وطلب العلو وجاهدوا أنفسهم فى التبرى منها وقلعوا من القلوب منابتها الجلية القوية ولكنهم بعد مغرورون اذ بقيت فى زوايا القلب من خفايا مكايد الشيطان وخبايا خداع النفس مادق وغمض مدركه فلم يفطنوا لها وأهملوها وانما مثاله من يريد تنقية الزرع من الحشيش فدار عليه وفتش عن كل حشيش رآه فقلعه الا انه لم يفتش على مالم يخرج رأسه بعد من تحت الارض وظن ان الكل قد ظهر وبرز وكان قد نبت من أصول الحشيش شعب لطاف فانبسطت تحت التراب فاهملها وهو يظن انه قد قلعها فاذا هو بها فى غفلته وقد نبتت وقويت وأفسدت أصول الزرع من حيث لا يدرى فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك ويذهل عن المراقبة للخفايا والتفقد للدفائن فتراه يسهر ليله ونهاره فى جمع العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها وجمع التصانيف فيها وهو يرى ان باعثه الحرص على اظهار دين الله ونشر شريعته ولعل باعثه الخفى هو طلب الذكر وانتشار الصيت فى الاطراف وكثرة الرحلة اليه من الآفاق وانطلاق الالسنة عليه بالثناء والمدح بالزهد والورع والعلم والتقديم له فى المهمات وايثاره فى الاعراض والاجتماع حوله للاستفادة والتلذذ بحسن الاصغاء عند حسن اللفظ والايراد والتمتع بتحريك الرؤس الى كلامه والبكاء عليه والتعجب منه والفرح بكثرة الاصحاب والاتباع والمستفيدين والسرور بالتخصص بهذه الخاصية من بين سائر الاقران والاشكال للجمع بين العلم والورع وظاهر الزهد والتمكن به من اطلاق لسان الطعن فى الكافة المقبلين على الدنيا لا عن تفجع بمصيبة الدين ولكن عن ادلال بالتمييز واعتداد بالتخصيص ولعل هذا المسكين المغرور حياته فى الباطن بما ينتظم له من أمر وامارة وعز وانقياد وتوقير وحسن ثناء فلو تغيرت عليه القلوب واعتقدوا فيه خلاف الزهد بما يظهر من أعماله فعساه يتشوش عليه قلبه ويختلط أوراده ووظائفه وعساه يعتذر بكل حيلة لنفسه وربما يحتاج الى أن يكذب فى تغطية عيبه

عليهن أنت الحق ومنك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد عليه السلام حق اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وبك خاصمت واليك حاكمت فاغفر لى ماقدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر لا اله الا أنت اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها اللهم اهدنى لاحسن الاخلاق لا يهدى لاحسنها الا أنت واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها الا أنت أسألك مسئلة البائس المسكين وادعوك دعاء الفقير الذليل فلا تجعلنى بدعائك رب شقيا وكن بى رؤفا رحيما يا خير المسؤلين ويا أكرم المعطين ثم يصلى ركعتين تحية الطهارة يقرأ فى الاولى بعد الفاتحة ولو أنهم اذ

وعساه

وعساه يؤثر بالكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزهد والورع وان كان قد اعتقد فيه فوق قدره و ينبو قلبه عمن عرف حد فضله وورعه وان كان ذلك على وفق حاله وعساه يؤثر بعض أصحابه على بعض وهو يرى أنه يؤثره لتقدمه في الفضل والورع وانما ذلك لانه أطوع له وأتبع لمراده وأكثر ثناء عليه وأشد اصغاء اليه وأحرص على خدمته ولعلهم يستفيدون منه و يرغبون في العلم وهو يظن أن قبولهم له لاخلاصه وصدقه وقيامه بحق علمه فيحمد الله تعالى على ما يسر على لسانه من منافع خلقه و يرى أن ذلك مكفر لذنوبه ولم يتفقد مع نفسه تصحيح النية فيه وعساه لو وعد بمثل ذلك الثواب في ايثاره الخمول والعزلة واخفاء العلم لم يرغب فيه لفقده في العزلة والاختفاء لذة القبول وعزة الرياسة ولعل مثل هذا هو المراد بقول الشيطان من زعم من بني آدم انه بعلمه امتنع مني فبجهله وقع في حبائلي وعساه يصنف و يجتهد فيه ظانا انه يجمع علم الله لينتفع به وانما يريد به استطارة اسمه بحسن التصنيف فلو ادعى مدع تصنيفه ومحا عنه اسمه ونسبه الى نفسه ثقل عليه ذلك مع علمه بأن ثواب الاستفادة من التصنيف انما يرجع الى المصنف والله يعلم بأنه هو المصنف لا من ادعاه ولعله في تصنيفه لا يخلو من الثناء على نفسه اما صريحا بالدعاوى الطويلة العريضة واما ضمنا بالطعن في غيره ليستبين من طعنه في غيره انه أفضل ممن طعن فيه وأعظم منه علما ولقد كان في غنية عن الطعن فيه ولعله يحكي من الكلام المزيف ما يريد تزييفه فيعزيه الى قائله وما يستحسنه فلعله لا يعزيه اليه ليظن أنه من كلامه فينقله بعينه كالسارق له أو يغيره أدنى تغيير كالذي يسرق قميصا فيتخذه قباء حتى لا يعرف أنه مسروق ولعله يجتهد في تزيين ألفاظه وتسجيعه وتحسين نظمه كيلا ينسب الى الركاكة و يرى أن غرضه ترويج الحكمة وتحسينها وتزيينها ليكون أقرب الى نفع الناس وعساه غافلا عما روي أن بعض الحكماء وضع ثلثمائة مصحف في الحكمة فأوحى الله الى نبي زمانه قل له قد ملأت الارض نفاقا واني لا أقبل من نفاقك شيأ ولعل جماعة من هذا الصنف من المغترين اذا اجتمعوا ظن كل واحد بنفسه السلامة عن عيوب القلب وخفاياه فاذا افترقوا واتبع كل واحد منهم فرقة من أصحابه نظر كل واحد الى كثرة من يتبعه وانه أكثر تبعا أو غيره فيفرح ان كان أتباعه أكثر وان علم أن غيره أحق بكثرة الاتباع منه ثم اذا تفرقوا واشتغلوا بالافادة تغايروا وتحاسدوا ولعل من يختلف الى واحد منهم اذا انقطع عنه الى غيره ثقل على قلبه و وجد في نفسه نفرة منه فبعد ذلك لا يهتز باطنه لاكرامه ولا يتشمر لقضاء حوائجه كما كان يتشمر من قبل ولا يحرص على الثناء عليه كما أثنى مع علمه بانه مشغول بالاستفادة ولعل التحيز منه الى فئة أخرى كان أنفع له في دينه لآفة من الآفات كانت تلحقه في هذه الفئة وسلامته عنها في تلك الفئة ومع ذلك لا تزول النفرة عن قلبه ولعل واحدا منهم اذا تحركت فيه مبادي الحسد لم يقدر على اظهاره فيتعلل بالطعن في دينه وفي ورعه ليحمل غضبه على ذلك و يقول انما غضبت لدين الله لا لنفسي ومهما ذكرت عيوبه بين يديه ربما فرح له وان أثني عليه ربما ساءه وكرهه وربما قطب وجهه اذا ذكرت عيوبه يظهر أنه كاره لغيبة المسلمين وسر قلبه راض به ومريد له والله مطلع عليه في ذلك فهذا وأمثاله من خفايا القلوب لا يفطن له الا الاكياس ولا يتنزه عنه الا الاقوياء ولا مطمع فيه لامثالنا من الضعفاء الا أن أقل الدرجات أن يعرف الانسان عيوب نفسه ويسوءه ذلك و يكرهه و يحرص على اصلاحه فاذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مرجو الحال وأمره أقرب من المغرور المزكي لنفسه الممتن على الله بعمله وعلمه الظان أنه من خيار خلقه فنعوذ بالله من الغفلة والاغترار ومن المعرفة بخفايا العيوب مع الاهمال هذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ولكن قصروا في العمل بالعلم ولنذكر الآن غرور الذين قنعوا من العلوم بما لم يهمهم وتركوا المهم وهم به مغترون اما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم واما لاقتصارهم عليه (فمنهم فرقة) اقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد وخصصوا اسم الفقه بها وسموه الفقه وعلم المذهب وربما ضيعوا مع ذلك الاعمال الظاهرة والباطنة فلم يتفقدوا الجوارح ولم يحرسوا اللسان عن الغيبة ولا البطن عن الحرام ولا الرجل عن المشي الى السلاطين وكذا بسائر الجوارح ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر المهلكات فهؤلاء مغرورون من وجهين أحدهما

ظلموا أنفسهم الآية وفي الثانية ومن يعمل سوأ أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما و يستغفر بعد الركعتين مرات ثم يستفتح الصلاة بركعتين خفيفتين ان أراد يقرأ فيهما بآية الكرسي وآمن الرسول وان أراد غير ذلك ثم يصلي ركعتين طويلتين هكذا روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يتهجد هكذا ثم يصلي ركعتين طويلتين أقصر من الاوليين وهكذا يتدرج الى أن يصلي اثنتي عشرة ركعة أو ثمان ركعات أو يزيد على ذلك فان في ذلك فضلا كثيرا والله أعلم

(الباب الثامن والاربعون في تقسيم قيام الليل)

قال الله تعالى والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما وقيل في تفسير قوله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا

من حيث العمل والآخر من حيث العلم أما العمل فقد ذكرنا وجه الغرور فيه وان مثالهم مثال المريض اذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه لابل مثالهم مثال من به علة البواسير والبرسام وهو مشرف على الهلاك ويحتاج الى تعلم الدواء واستعماله فاشتغل بتعلم دواء الاستحاضة وبتكرار ذلك ليلا ونهارا مع علمه بانه رجل لا يحيض ولا يستحاض ولكن يقول ربما تقع علة الاستحاضة لامرأة وتسألني عن ذلك وذلك غاية الغرور فكذلك المتفقه المسكين قد يسلط عليه حب الدنيا واتباع الشهوات والحسد والكبر والرياء وسائر المهلكات الباطنة وربما يختطفه الموت قبل التوبة والتلافي فيلقى الله وهو عليه غضبان فترك ذلك كله واشتغل بعلم السلم والاجارة والظهار واللعان والجراحات والديات والدعاوى والبينات وبكتاب الحيض وهو لا يحتاج الى شئ من ذلك قط في عمره لنفسه واذا احتاج غيره كان في المفتين كثرة فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه من الجاه والرياسة والمال وقد دهاه الشيطان وما يشعر اذ يظن المغرور بنفسه أنه مشغول بفرض دينه وليس يدرى ان الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين معصية هذا لو كانت نيته صحيحة كما قال وقد كان قصد بالفقه وجه الله تعالى فانه وان قصد وجه الله فهو باشتغاله به معرض عن فرض عينه في جوارحه وقلبه فهذا غروره من حيث العمل وأما غروره من حيث العلم فحيث اقتصر على علم الفتاوى وظن أنه علم الدين وترك علم كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وربما طعن في المحدثين وقال انهم نقلة أخبار وحملة أسفار لا يفقهون وترك أيضا علم تهذيب الاخلاق وترك الفقه عن الله تعالى بادراك جلاله وعظمته وهو العلم الذى يورث الخوف والهيبة والخشوع ويحمل على التقوى فتراه آمنا من الله مغترا به متكلا على أنه لابد وأن يرحمه فانه قوام دينه وانه لو لم يشتغل بالفتاوى لتعطل الحلال والحرام فقد ترك العلوم التى هى أهم وهو غافل مغرور وسبب غروره ما سمع في الشرع من تعظيم الفقه ولم يدر ان ذلك الفقه هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى اذ قال تعالى فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون والذى يحصل به الانذار غير هذا العلم فان مقصود هذا العلم حفظ الاموال بشروط المعاملات وحفظ الابدان بالاموال وبدفع القتل والجراحات والمال في طريق الله آلة والبدن مركب وانما العلم المهم هو معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات القلب التى هى الصفات المذمومة فهى الحجاب بين العبد وبين الله تعالى واذا مات ملوثا بتلك الصفات كان محجوبا عن الله فمثاله في الاقتصار على علم الفقه مثال من اقتصر من سلوك طريق الحج على علم خرز الراوية والخف ولاشك أنه لو لم يكن لتعطل الحج ولكن المقتصر عليه ليس من الحج في شئ ولا بسبيله وقد ذكرنا شرح ذلك في كتاب العلم ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيات ولم يهمه الا تعلم طريق المجادلة والالزام وافحام الخصوم ودفع الحق لاجل الغلبة والمباهاة فهو طول الليل والنهار في التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب والتفقد لعيوب الاقران والتلقف لانواع التسبيبات المؤذية وهؤلاء هم سباع الانس طبعهم الايذاء وهمهم السفه ولا يقصدون العلم الا لضرورة ما يلزمهم لمباهاة الاقران فكل علم لا يحتاجون اليه في المباهاة كعلم القلب وعلوم سلوك الطريق الى الله تعالى بمحو الصفات المذمومة وتبديلها بالمحمودة فانهم يستحقرونه ويسمونه التزويق وكلام الوعاظ وانما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العربدة التى تجرى بين المتصارعين في الجدل وهؤلاء قد جمعوا ما جمعه الذين من قبلهم في علم الفتاوى لكن زادوا اذا اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضا بل جميع دقائق الجدل في الفقه بدعة لم يعرفها السلف وأما أدلة الاحكام فيشتمل عليها علم المذهب وهو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفهم معانيهما وأما حيل الجدل من الكسر والقلب وفساد الوضع والتركيب والتعدية فانما أبدعت لاظهار الغلبة والافحام واقامة سوق الجدل بها فغرور هؤلاء أشد كثيرا وأقبح من غرور من قبلهم (وفرقة أخرى) اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الاهواء والرد على المخالفين وتتبع مناقضاتهم واستكثروا من معرفة المقالات المختلفة واشتغلوا بتعلم الطرق في مناظرة أولئك وافحامهم وافترقوا في ذلك فرقا كثيرة واعتقدوا أنه لا يكون لعبد عمل الا بايمان ولا يصح ايمان الا بان يتعلم جدلهم وما سموه أدلة عقائدهم وظنوا أنه لا أحد أعرف بالله وبصفاته منهم وانه لا ايمان لمن لم يعتقد مذهبهم

يعملون كان عملهم قيام الليل وقيل في تفسير قوله تعالى استعينوا بالصبر والصلاة استعينوا بصلاة الليل على مجاهدة النفس ومصابرة العدو (وفي الخبر) عليكم بقيام الليل فانه مرضاة لربكم وهو دأب الصالحين قبلكم ومنهاة عن الاثم وملغاة للوزر ومذهب كيد الشيطان ومطردة الداء عن الجسد (وقد كان) جمع من الصالحين يقومون الليل كله حتى نقل ذلك عن أربعين من التابعين كانوا يصلون الغداة بوضوء العشاء منهم سعيد بن المسيب وفضيل ابن عياض ووهيب بن الورد وأبو سليمان الداراني وعلى بن بكار وحبيب العجمي وكهمس بن المنهال وأبو حازم ومحمد بن المنكدر وأبو حنيفة رحمه الله وغيرهم عدهم وسماهم بأسمائهم الشيخ أبو طالب المكي في كتابه قوت القلوب فمن عجز عن

ولم يتعلم علمهم ودعت كل فرقة منهم الى نفسها ثم هم فرقتان ضالة ومحقة فالضالة هي التي تدعو الى غير السنة والمحقة هي التي تدعو الى السنة والغرور شامل لجميعهم * أما الضالة فلغفلتها عن ضلالها وظنها بنفسها النجاة وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضا وانما أتيت من حيث انها لم تتهم رأيها ولم تحكم أولا شروط الادلة ومنهاجها فرأى أحدهم الشبهة دليلا والدليل شبهة * وأما الفرقة المحقة فانما اغترارها من حيث انها ظنت بالجدل انه أهم الامور وأفضل القربات في دين الله وزعمت أنه لا يتم لاحد دينه مالم يفحص ويبحث وأن من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس بمؤمن أو ليس بكامل الايمان ولا مقرب عند الله فلهذا الظن الفاسد قطعت أعمارها في تعلم الجدل والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعة ومناقضاتهم وأهملوا أنفسهم وقلوبهم حتى عميت عليهم ذنوبهم وخطاياهم الظاهرة والباطنة وأحدهم يظن ان اشتغاله بالجدل أولى وأقرب عند الله وأفضل ولكنه لالتذاذه بالغلبة والافحام ولذة الرياسة وعز الانتماء الى الذب عن دين الله تعالى عميت بصيرته فلم يلتفت الى القرن الاول فان النبي صلى الله عليه وسلم شهد لهم بانهم خير الخلق وأنهم قد أدركوا كثيرا من أهل البدع والهوى فما جعلوا أعمارهم ودينهم غرضا للخصومات والمجادلات وما اشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم وأحوالهم بل لم يتكلموا فيه الا من حيث رأوا حاجة وتوسموا مخايل قبول فذكروا بقدر الحاجة ما يدل الضال على ضلالته واذا رأوا مصرا على ضلالة هجروه وأعرضوا عنه وأبغضوه في الله ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر بل قالوا ان الحق هو الدعوة الى السنة ومن السنة ترك الجدل في الدعوة الى السنة اذ روى أبو امامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما ضل قوم قط بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدل وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما على أصحابه وهم يتجادلون ويختصمون فغضب عليهم حتى كأنه فقئ في وجهه حب الرمان حمرة من الغضب فقال ألهذا بعثتم أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض انظروا الى ما أمرتم به فاعملوا وما نهيتم عنه فانتهوا فقد زجرهم عن ذلك وكانوا أولى خلق الله بالحجاج والجدال ثم انهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بعث الى كافة أهل الملل فلم يقعد معهم في مجلس مجادلة لالزام وافحام وتحقيق حجة ودفع سؤال وايراد الزام فما جادلهم الا بتلاوة القرآن المنزل عليهم ولم يزد في المجادلة عليه لان ذلك يشوش القلوب ويستخرج منها الاشكالات والشبه ثم لا يقدر على محوها من قلوبهم وما كان يعجز عن مجادلتهم بالتقسيمات ودقائق الاقيسة وأن يعلم أصحابه كيفية الجدل والالزام ولكن الاكياس وأهل الحزم لم يغتروا بهذا وقالوا لو نجا أهل الارض وهلكنا لم تنفعنا نجاتهم ولو نجونا وهلكوا لم يضرنا هلاكهم وليس علينا في المجادلة أكثر مما كان على الصحابة مع اليهود والنصارى وأهل الملل وما ضيعوا العمر بتحرير مجادلاتهم فما لنا نضيع العمر ولا نصرفه الى ما ينفعنا في يوم فقرنا وفاقتنا ولم نخوض فيما لا نامن على أنفسنا الخطأ في تفاصيله ثم نرى ان المبتدع ليس يترك بدعته بجداله بل يزيده التعب والخصومة تشددا في بدعته فاشتغالي بمخاصمة نفسي ومجادلتها ومجاهدتها لتترك الدنيا للآخرة أولى هذا لو كنت لم أنه عن الجدل والخصومة فكيف وقد نهيت عنه وكيف أدعو الى السنة بترك السنة فالاولى أن أتفقد نفسي وأنظر من صفاتها ما يبغضه الله تعالى وما يحبه لا تنزه عما يبغضه وأتمسك بما يحبه (وفرقة أخرى) اشتغلوا بالوعظ والتذكير وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والاخلاص والصدق ونظائره وهم مغرورون يظنون بانفسهم أنهم اذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق اليها فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات وهم منفكون عنها عند الله الا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين وغرور هؤلاء أشد الغرور لانهم يعجبون بانفسهم غاية الاعجاب ويظنون أنهم ما تبحروا في علم المحبة الا وهم محبون لله وما قدروا على تحقيق دقائق الاخلاص الا وهم مخلصون وما وقفوا على خفايا عيوب النفس الا وهم عنها منزهون ولولا أنه مقرب عند الله لما عرفه معنى القرب والبعد وعلم السلوك الى الله وكيفية قطع المنازل في طريق الله فالمسكين بهذه الظنون يرى أنه من الخائفين وهو آمن من الله تعالى ويرى أنه من الراجين وهو من المغترين المضيعين ويرى أنه من الراضين بقضاء الله وهو من الساخطين ويرى أنه من المتوكلين على الله وهو من المتكلين على العز والجاه والمال والاسباب ويرى

ذلك يستحب له قيام ثلثيه أو ثلثه وأقل الاستحباب سدس الليل فاما أن ينام ثلث الليل الاول ويقوم نصفه وينام سدسه الآخر أو ينام النصف الاول ويقوم ثلثه وينام السدس (روى) ان داود عليه السلام قال يارب انى أحب أن أتعبد لك فاى وقت أقوم فاوحى الله تعالى اليه ياداود لا تقم أول الليل ولا آخره فانه من قام أوله نام آخره ومن قام آخره نام أوله ولكن قم وسط الليل حتى تخلو بي وأخلو بك وارفع الى حوائجك ويكون القيام بين نومتين والا فيغالب النفس من أول الليل ويتنفل فاذا غلبه النوم ينام فاذا انتبه يتوضأ فيكون له قومتان ونومتان ويكون ذلك من أفضل ما يفعله ولا يصلي وعنده نوم يشغله عن الصلاة والتلاوة حتى يعقل ما يقول (وقد ورد) لا تكابدوا الليل (وقيل)

انه من المخلصين وهو من المرائين بل يصف الاخلاص فيترك الاخلاص فى الوصف و يصف الرياء ويذكره وهو
مراءى بذكره ليعتقد فيه انه لولا انه مخلص لما اهتدى الى دقائق الرياء ويصف الزهد فى الدنيا لشدة حرصه على
الدنيا وقوة رغبته فيها فهو يظهر الدعاء الى الله وهو منه فار ويخوف بالله تعالى وهو منه آمن ويذكر بالله تعالى
وهو له ناس و يقرب الى الله تعالى وهو منه متباعد و يحث على الاخلاص وهو غير مخلص و يذم الصفات المذمومة
وهو بها متصف و يصرف الناس عن الخلق وهو على الخلق أشد حرصا لو منع عن مجلسه الذى يدعو الناس فيه الى
الله لضاقت عليه الارض بما رحبت و يزعم أن غرضه اصلاح الخلق ولو ظهر من أقرانه من أقبل الخلق عليه وصلحوا
على يديه لمات غما وحسدا ولو أثنى أحد من المترددين اليه على بعض أقرانه لكان أبغض خلق الله اليه فهؤلاء
أعظم الناس غرة وأبعدهم عن التنبه والرجوع الى السداد لان المرغب فى الاخلاق المحمودة والمنفر عن
المذمومة هو العلم بغوائلها وفوائدها وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه وشغله حب دعوة الخلق عن العمل به فبعد ذلك
بماذا يعالج وكيف سبيل تخويفه وانما المخوف ما يتلوه على عباد الله فيخافون وهو ليس بخائف نعم ان ظن بنفسه
انه موصوف بهذه الصفات المحمودة يمكن ان يدل على طريق الامتحان والتجربة وهو أن يدعى مثلا حب الله فما
الذى تركه من محاب نفسه لاجله ويدعى الخوف فما الذى امتنع منه بالخوف ويدعى الزهد فما الذى تركه مع
القدرة عليه لوجه الله تعالى ويدعى الانس بالله فمتى طابت له الخلوة ومتى استوحش من مشاهدة الخلق لا بل يرى
قلبه يمتلئ بالحلاوة اذا أحدق به المريدون وتراه يستوحش اذا خلا بالله تعالى فهل رأيت محبا يستوحش من
محبوبه ويستروح منه الى غيره فالاكياس يمتحنون أنفسهم بهذه الصفات ويطالبونها بالحقيقة ولا يقنعون منها
بالتزويق بل بموثق من الله غليظ والمغترون يحسنون بانفسهم الظنون واذا كشف الغطاء عنهم فى الآخرة
يفتضحون بل يطرحون فى النار فتندلق أقتابهم فيدور بها أحدهم كما يدور الحمار بالرحى كما ورد به الخبر لانهم
يأمرون بالخير ولا يأتونه و ينهون عن الشر و يأتونه وانما وقع الغرور لهؤلاء من حيث انهم يصادفون فى قلوبهم
شيأ ضعيفا من أصول هذه المعانى وهو حب الله والخوف منه والرضا بفعله ثم قدروا مع ذلك على وصف المنازل
العالية فى هذه المعانى فظنوا انهم ما قدروا على وصف ذلك وما رزقهم الله علمه وما نفع الناس بكلامهم فيها الا
لاتصافهم بها وذهب عليهم ان القبول للكلام والكلام للمعرفة وجريان اللسان والمعرفة للعلم وان كل ذلك غير
الاتصاف بالصفة فلم يفارق آحاد المسلمين فى الاتصاف بصفة الحب والخوف بل فى القدرة على الوصف بل ربما زاد
أمنه وقل خوفه وظهر الى الخلق ميله وضعف فى قلبه حب الله تعالى وانما مثاله مثال مريض يصف المرض ويصف
دواءه بفصاحته ويصف الصحة والشفاء وغيره من المرضى لا يقدر على وصف الصحة والشفاء وأسبابه ودرجاته
وأصنافه فهو لا يفارقهم فى صفة المرض والاتصاف به وانما يفارقهم فى الوصف والعلم بالطب فظنه عند علمه بحقيقة
الصحة أنه صحيح غاية الجهل فكذلك العلم بالخوف والحب والتوكل والزهد وسائر هذه الصفات غير الاتصاف
بحقائقها ومن التبس عليه وصف الحقائق بالاتصاف بالحقائق فهو مغرور فهذه حالة الوعاظ الذين لا عيب فى
كلامهم بل منهاج وعظهم منهاج وعظ القرآن والاخبار ووعظ الحسن البصرى وأمثاله رحمة الله عليهم (وفرقة
أخرى) منهم عدلوا عن المنهاج الواجب فى الوعظ وهم وعاظ أهل هذا الزمان كافة الا من عصمه الله على الندور فى
بعض أطراف البلاد ان كان ولسنا نعرفه فاشتغلوا بالطامات والشطح وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع
والعقل طلبا للاغراب وطائفة شغفوا بطيارات النكت وتسجيع الالفاظ وتلفيقها فاكثر همهم بالاسجاع
والاستشهاد باشعار الوصال والفراق وغرضهم أن تكثر فى مجالسهم الزعقات والتواجد ولو على أغراض فاسدة
فهؤلاء شياطين الانس ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل فان الاولين وان لم يصلحوا أنفسهم فقد أصلحوا غيرهم
وصححوا كلامهم و وعظهم وأما هؤلاء فانهم يصدون عن سبيل الله ويجرون الخلق الى الغرور بالله بلفظ الرجاء
فيزيدهم كلامهم جراءة على المعاصى ورغبة فى الدنيا لاسيما اذا كان الواعظ متزينا بالثياب والخيل والمراكب فانه
تشهد هيئته من فرقه الى قدمه بشدة حرصه على الدنيا فما يفسده هذا المغرور أكثر مما يصلحه بل لا يصلح أصلا
و يضل خلقا كثيرا ولا يخفى وجه كونه مغرورا (وفرقة أخرى) منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم فى ذم

لرسول الله صلى الله عليه
وسلم ان فلانة تصلى من
الليل فاذا غلبها النوم
تعلقت بحبل فنهى
رسول الله صلى الله عليه
وسلم عن ذلك وقال
ليصل أحدكم من الليل
ما تيسر فاذا غلبه النوم
فلينم (وقال عليه
السلام) لا تشادوا
هذا الدين فانه متين
فمن يشاده يغلبه
ولا تبغض الى نفسك
عبادة الله ولا يليق
بالطالب ولا ينبغى له
أن يطلع الفجر وهو
نائم الا أن يكون قد
سبق له فى الليل قيام
طويل فيعذر فى ذلك
على انه اذا استيقظ قبل
الفجر بساعة مع قيام
قليل سبق فى الليل
يكون أفضل من قيام
طويل ثم النوم الى
بعد طلوع الفجر فاذا
استيقظ قبل الفجر
يكثر الاستغفار
والتسبيح ويغتنم تلك
الساعة وكلما يصلى
بالليل يجلس قليلا بعد
كل ركعتين و يسبح
ويستغفر و يصلى
على رسول الله

الدنيا فهم يحفظون الكلمات على وجهها ويؤدونها من غير احاطة بمعانيها فبعضهم يفعل ذلك على المنابر وبعضهم
في المحاريب وبعضهم في الاسواق مع الجلساء وكل منهم يظن انه اذا تميز بهذا القدر عن السوقة والجندية اذ حفظ
كلام الزهاد وأهل الدين دونهم فقد أفلح ونال الغرض وصار مغفورا له وأمن عقاب الله من غير أن يحفظ ظاهره
وباطنه عن الآثام ولكنه يظن ان حفظه لكلام أهل الدين يكفيه وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم
(وفرقة أخرى) استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث أعني في سماعه وجمع الروايات الكثيرة منه وطلب الاسانيد
الغريبة العالية فهمة أحدهم أن يدور في البلاد ويرى الشيوخ ليقول أنا أروي عن فلان ولقد رأيت
فلانا ومعي من الاسناد ما ليس مع غيري وغرورهم من وجوه منها أنهم كحملة الاسفار فانهم لا يصرفون العناية
الى فهم معاني السنة فعلمهم قاصر وليس معهم الا النقل ويظنون أن ذلك يكفيهم ومنها أنهم اذا لم يفهموا
معانيها لا يعملون بها وقد يفهمون بعضها أيضا ولا يعملون به ومنها انهم يتركون العلم الذي هو فرض عين
وهو معرفة علاج القلب ويشتغلون بتكثير الاسانيد وطلب العالي منها ولا حاجة بهم الى شيء من ذلك ومنها
وهو الذي أكب عليه أهل الزمان أنهم أيضا لا يقومون بشرط السماع فان السماع بمجرده وان لم تكن
له فائدة ولكنه مهم في نفسه للوصول الى اثبات الحديث اذ التفهم بعد الاثبات والعمل بعد التفهم فالاول
السماع ثم التفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر وهؤلاء اقتصروا من الجملة على السماع ثم تركوا حقيقة السماع
فترى الصبي يحضر في مجلس الشيخ والحديث يقرأ والشيخ ينام والصبي يلعب ثم يكتب اسم الصبي في السماع
فاذا كبر تصدى ليسمع منه والبالغ الذي يحضر ربما يغفل ولا يسمع ولا يصغي ولا يضبط وربما يشتغل بحديث
أو نسخ والشيخ الذي يقرأ عليه لو صحف وغير ما يقرأ عليه لم يشعر به ولم يعرفه وكل ذلك جهل وغرور اذ الاصل في
الحديث أن يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحفظه كما سمعه ويرويه كما حفظه فتكون الرواية عن الحفظ
والحفظ عن السماع فان عجزت عن سماعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته من الصحابة أو التابعين وصار
سماعك عن الراوي كسماع من سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أن تصغي لتسمع فتحفظ وتروي كما
حفظت وتحفظ كما سمعت بحيث لا تغير منه حرفا ولو غير غيرك منه حرفا وأخطأ علمت خطأه ولحفظك طريقان
* أحدهما أن تحفظ بالقلب وتستديمه بالذكر والتكرار كما تحفظ ما جرى على سمعك في مجاري الاحوال
* والثاني أن تكتب كما تسمع وتصحح المكتوب وتحفظه حتى لا تصل اليه يد من يغيره ويكون حفظك للكتاب
معك وفي خزانتك فانه لو امتدت اليه يد غيرك ربما غيره فاذا لم تحفظه لم تشعر بتغييره فيكون محفوظا بقلبك
أو بكتابك فيكون كتابك مذكرا لما سمعته وتأمن فيه من التغيير والتحريف فاذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب
وجرى على سمعك صوت غفل وفارقت المجلس ثم رأيت نسخة لذلك الشيخ وجوزت أن يكون ما فيه مغيرا
أو يفارق حرف منه للنسخة التي سمعتها لم يجز لك أن تقول سمعت هذا الكتاب فانك لا تدري لعلك لم تسمع ما فيه
بل سمعت شيأ يخالف ما فيه ولو في كلمة فاذا لم يكن معك حفظ بقلبك ولا نسخة صحيحة استوثقت عليها التقابل بها
فمن أين تعلم أنك سمعت ذلك وقد قال الله تعالى ولا تقف ما ليس لك به علم وقول الشيوخ كلهم في هذا الزمان أنا
سمعنا ما في هذا الكتاب اذا لم يوجد الشرط الذي ذكرناه فهو كذب صريح وأقل شروط السماع ان يجري الجميع
على السمع مع نوع من الحفظ يشعر معه بالتغيير ولو جاز ان يكتب سماع الصبي والغافل والنائم والذي ينسخ
لجاز ان يكتب سماع المجنون والصبي في المهد ثم اذا بلغ الصبي وأفاق المجنون يسمع عليه ولا خلاف في عدم جوازه
ولو جاز ذلك لجاز أن يكتب سماع الجنين في البطن فان كان لا يكتب سماع الصبي في المهد لانه لا يفهم ولا يحفظ
فالصبي الذي يلعب والغافل والمشغول بالنسخ عن السماع ليس يفهم ولا يحفظ وان استجرأ جاهل فقال يكتب
سماع الصبي في المهد فليكتب سماع الجنين في البطن فان فرق بينهما بان الجنين لا يسمع الصوت وهذا يسمع الصوت
فما ينفع هذا وهو انما ينقل الحديث دون الصوت فليقتصر اذا صار شيخا على أن يقول سمعت بعد بلوغي اني في
صباي حضرت مجلسا روي فيه حديث كان يقرع سمعي صوته ولا أدري ما هو فلا خلاف في ان الرواية كذلك لا تصح
وما زاد عليه فهو كذب صريح ولو جاز اثبات سماع التركي الذي لا يفهم العربية لانه سمع صوتا غفلا لجاز اثبات

صلى الله عليه وسلم فانه يجد بذلك ترويحا وقوة على القيام وقد كان بعض الصالحين يقول هي أول نومة فان انتبهت ثم عدت الى نومة أخرى فلا أنام الله عيني (وحكى) لي بعض الفقراء عن شيخ له انه كان يأمر الاصحاب بنومة واحدة بالليل وأكلة واحدة لليوم والليلة (وقد جاء) في الخبر قم من الليل ولو قدر حلب شاة وقيل يكون ذلك قدر أربع ركعات وقدر ركعتين (وقيل) في تفسير قوله تعالى تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء هو قيام الليل ومن حرم قيام الليل كسلا وفتورا في العزيمة أو تهاونا به لقلة الاعتداد بذلك أو اغترارا بحاله فليبك عليه فقد قطع عليه طريق كبير من الخير وقد يكون من أرباب الاحوال من يكون له ايواء الى القرب

سماع صبي في المهد وذلك غاية الجهل ومن أين يؤخذ هذا وهل للسماع مستند الا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فاداها كما سمعها وكيف يؤدي كما سمع من لا يدري ما سمع فهذا أفحش أنواع الغرور وقد بلي بهذا أهل الزمان ولو احتاط أهل الزمان لم يجدوا شيوخا الا الذين سمعوه في الصبا على هذا الوجه مع الغفلة الا أن للمحدثين في ذلك جاها وقبولا فخافوا أن يندرس ذلك الجاه فيقل من يجتمع لذلك في حلقهم فينقص جاههم وتقل أيضا أحاديثهم التي قد سمعوها بهذا الشرط بل ربما عدموا ذلك واقتضحوا فاصطلحوا على أنه ليس يشترط الا أن يقرع سمعه دمدمة وان كان لا يدري ما يجري وصحة السماع لا تعرف من قول المحدثين لانه ليس من علمهم بل من علم علماء الاصول بالفقه وما ذكرناه مقطوع به في قوانين أصول الفقه فهذا غرور هؤلاء ولو سمعوا على الشرط لكانوا أيضا مغرورين في اقتصارهم على النقل وفي افناء أعمارهم في جمع الروايات والاسانيد واعراضهم عن مهمات الدين ومعرفة معاني الاخبار بل الذي يقصد من الحديث سلوك طريق الآخرة ربما يكفيه الحديث الواحد عمره كما روي عن بعض الشيوخ انه حضر مجلس السماع فكان أول حديث روي قوله عليه الصلاة والسلام من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه فقام وقال يكفيني هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره فهكذا يكون سماع الاكياس الذين يحذرون الغرور (وفرقة أخرى) اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغتروا به وزعموا أنهم قد غفر لهم وأنهم من علماء الامة اذ قوام الدين بالكتاب والسنة وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو فافنى هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو وفي صناعة الشعر وفي غريب اللغة ومثالهم كمن يفنى جميع العمر في تعلم الخط وتصحيح الحروف وتحسينها ويزعم أن العلوم لا يمكن حفظها الا بالكتابة فلابد من تعلمها وتصحيحها ولو عقل لعلم أنه يكفيه أن يتعلم أصل الخط بحيث يمكن أن يقرأ كيفما كان والباقي زيادة على الكفاية وكذلك الاديب لو عقل لعرف ان لغة العرب كلغة الترك والمضيع عمره في معرفة لغة العرب كالمضيع له في معرفة لغة الترك والهند وانما فارقتها لغة العرب لاجل ورود الشريعة بها فيكفي من اللغة علم الغريبين في الاحاديث والكتاب ومن النحو ما يتعلق بالحديث والكتاب فاما التعمق فيه الى درجات لا تتناهى فهو فضول مستغنى عنه ثم لو اقتصر عليه وأعرض عن معرفة معاني الشريعة والعمل بها فهذا أيضا مغرور بل مثاله مثال من ضيع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه وهو غرور اذ المقصود من الحروف المعاني وانما الحروف ظروف وأدوات ومن احتاج الى أن يشرب السكنجبين ليزول ما به من الصفراء وضيع أوقاته في تحسين القدح الذي يشرب فيه السكنجبين فهو من الجهال المغرورين فكذلك غرور أهل النحو واللغة والادب والقرآآت والتدقيق في مخارج الحروف مهما تعمقوا فيها وتجردوا لها وعرجوا عليها أكثر مما يحتاج اليه في تعلم العلوم التي هي فرض عين فاللب الاقصى هو العمل والذي فوقه هو معرفة العمل وهو كالقشر للعمل وكاللب بالاضافة الى ما فوقه وما فوقه هو سماع الالفاظ وحفظها بطريق الرواية وهو قشر بطريق الاضافة الى المعرفة ولب بالاضافة الى ما فوقه وما فوقه هو العلم باللغة والنحو وفوق ذلك وهو القشر الاعلى العلم بمخارج الحروف والقانعون بهذه الدرجات كلهم مغترون الا من اتخذ هذه الدرجات منازل فلم يعرج عليها الا بقدر حاجته فتجاوز الى ما وراء ذلك حتى وصل الى لباب العمل فطالب بحقيقة العمل قلبه وجوارحه وزجى عمره في حمل النفس عليه وتصحيح الاعمال وتصفيتها عن الشوائب والآفات فهذا هو المقصود المخدوم من جملة علوم الشرع وسائر العلوم خدم له ووسائل اليه وقشور له ومنازل بالاضافة اليه وكل من لم يبلغ المقصد فقد خاب سواء كان في المنزل القريب أو في المنزل البعيد وهذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع اغتر بها أربابها فاما علم الطب والحساب والصناعات وما يعلم انه ليس من علوم الشرع فلا يعتقد أصحابها أنهم ينالون المغفرة بها من حيث انها علوم فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع لان العلوم الشرعية مشتركة في أنها محمودة كما يشارك القشر اللب في كونه محمودا ولكن المحمود منه لعينه هو المنتهى والثاني محمود للوصول به الى المقصود الاقصى فمن اتخذ القشر مقصودا وعرج عليه فقد اغتر به (وفرقة أخرى) عظم غرورهم في فن الفقه فظنوا ان حكم العبد

ويجد من دعة القرب ما يفتر عليه داعية الشوق ويرى ان القيام وقوف في مقام الشوق وهذا يغلط فيه ويهلك به خلق من المدعين والذي له ذلك ينبغي أن يعلم أن استمرار هذه الحالة متعذر والانسان متعرض للقصور والتخلف والشبهة ولاحالة أجل من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما استغنى عن قيام الليل وقام حتى تورمت قدماه وقد يقول بعض من يحتاج في ذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك تشريعا فنقول ما بالنا لا نتبع تشريعه وهذه دقيقة فتعلم ان رؤية الفضيلة في ترك القيام وادعاء الاوا الى جناب القرب واستواء النوم واليقظة امتلاء واتلاء حالي وهو تقيد بالحال وتحكيم الحال وتحكم من الحال في العبد والاقوياء

بينه وبين الله يتبع حكمه في مجلس القضاء فوضعوا الحيل في دفع الحقوق وأساؤا تأويل الالفاظ المبهمة واغتروا بالظواهر وأخطؤا فيها وهذا من قبيل الخطأ في الفتوى والغرور فيه والخطأ في الفتوى مما يكثر ولكن هذا نوع عم الكافة الا الاكياس منهم فنشير الى أمثلة فمن ذلك فتواهم بان المرأة متى أبرأت من الصداق برئ الزوج بينه وبين الله تعالى وذلك خطأ بل الزوج قد يسيء الى الزوجة بحيث يضيق عليها الامور بسوء الخلق فتضطر الى طلب الخلاص فتبرئ الزوج لتتخلص منه فهو ابراء لاعن طيبة نفس وقد قال تعالى فان طبن لكم عن شئ منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا وطيبة النفس غير طيبة القلب فقد يريد الانسان بقلبه ما لا تطيب به نفسه فانه يريد الحجامة بقلبه ولكن تكرهها نفسه وانما طيبة النفس أن تسمح نفسها بالابراء لا عن ضرورة تقابله حتى اذا رددت بين ضررين اختارت أهونهما فهذه مصادرة على التحقيق باكراه الباطن نعم القاضي في الدنيا لا يطلع على القلوب والاغراض فينظر الى الابراء الظاهر وأنها لم تكره بسبب ظاهر والاكراه الباطن ليس يطلع الخلق عليه ولكن مهما تصدى القاضي الاكبر في صعيد القيامة للقضاء لم يكن هذا محسوبا ولا مفيدا في تحصيل الابراء ولذلك لا يحل أن يؤخذ مال انسان الا بطيب نفس منه فلو طلب من الانسان مالا على ملأ من الناس فاستحيا من الناس أن لا يعطيه وكان يود أن يكون سؤاله في خلوة حتى لا يعطيه ولكن خاف ألم مذمة الناس وخاف ألم تسليم المال وردد نفسه بينهما فاختار أهون الالمين وهو ألم التسليم فسلمه فلا فرق بين هذا وبين المصادرة اذ معنى المصادرة ايلام البدن بالصوت حتى يصير ذلك أقوى من ألم القلب ببذل المال فيختار أهون الالمين والسؤال في مظنة الحياء والرياء ضرب للقلب بالسوط ولا فرق بين ضرب الباطن وضرب الظاهر عند الله تعالى فان الباطن عند الله تعالى ظاهر وانما حاكم الدنيا هو الذي يحكم بالملك بظاهر قوله وهبت لانه لا يمكنه الوقوف على ما في القلب وكذلك من يعطى اتقاء لشر لسانه أو لشر سعايته فهو حرام عليه وكذلك كل مال يؤخذ على هذا الوجه فهو حرام ألا ترى ما جاء في قصة داود عليه السلام حيث قال بعد أن غفر له يارب كيف لي بخصمي فأمر بالاستحلال منه وكان ميتا فامر بندائه في صخرة بيت المقدس فنادى يا أوريا فاجابه لبيك يا نبي الله أخرجتني من الجنة فماذا تريد فقال اني أسأت اليك في أمر فهبه لي قال قد فعلت ذلك يا نبي الله فانصرف وقد ركن الى ذلك فقال له جبريل عليه السلام هل ذكرت له ما فعلت قال لا قال فارجع فبين له فرجع فناداه فقال لبيك يا نبي الله فقال اني أذنبت اليك ذنبا قال ألم أهبه لك قال ألا تسألني ما ذلك الذنب قال ما هو يا نبي الله قال كذا وكذا وذكر شأن المرأة فانقطع الجواب فقال يا أوريا ألا تجيبني قال يا نبي الله ما هكذا يفعل الانبياء حتى أقف معك بين يدي الله فاستقبل داود البكاء والصراخ من الرأس حتى وعده الله أن يستوهبه منه في الآخرة فهذا ينبهك أن الهبة من غير طيبة قلب لا تفيد وان طيبة القلب لا تحصل الا بالمعرفة فكذلك طيبة القلب لا تكون في الابراء والهبة وغيرهما الا اذا خلي الانسان واختياره حتى تنبعث الدواعي من ذات نفسه لا أن تضطر بواعثه الى الحركة بالحيل والالزام ومن ذلك هبة الرجل مال الزكاة في آخر الحول من زوجته واتهابه مالها لاسقاط الزكاة فالفقيه يقول سقطت الزكاة فان أراد به ان مطالبة السلطان والساعي سقطت عنه فقد صدق فان مطمح نظرهم ظاهر الملك وقد زال وان ظن انه يسلم في القيامة ويكون كمن لم يملك المال أو كمن باع لحاجته الى البيع لا على هذا القصد فما أعظم جهله بفقه الدين وسر الزكاة فان سر الزكاة تطهير القلب عن رذيلة البخل فان البخل مهلك قال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وانما صار شحه مطاعا بما فعله وقبله لم يكن مطاعا فقد تم هلاكه بما يظن ان فيه خلاصه فان الله مطلع على قلبه وحبه للمال وحرصه عليه وانه بلغ من حرصه على المال أن استنبط الحيل حتى يسد على نفسه طريق الخلاص من البخل بالجهل والغرور ومن ذلك اباحة الله مال المصالح للفقيه وغيره بقدر الحاجة والفقهاء المغرورون لا يميزون بين الاماني والفضول والشهوات وبين الحاجات بل كل ما لا تتم رعونتهم الا به يرونه حاجة وهو محض الغرور بل الدنيا خلقت لحاجة العباد اليها في العبادة وسلوك طريق الآخرة فكل ما تناوله العبد للاستعانة به على الدين والعبادة فهو حاجته وما عدا ذلك فهو فضوله وشهوته ولو ذهبنا نصف غرور الفقهاء في امثال هذا لملأنا فيه مجلدات والغرض من ذلك التنبيه على امثلة تعرف الاجناس دون الاستيعاب فان ذلك يطول

لا يتحكم فيهم الحال ويصرفون الحال في صور الاعمال فهم متصرفون في الحال لا الحال متصرف فيه فليعلم ذلك فانا رأينا من الاصحاب من كان في ذلك ثم انكشف لنا بتأييد الله تعالى ان

(الصنف الثانى) أرباب العبادة والعمل والمغرورون منهم فرق كثيرة فمنهم من غروره فى الصلاة ومنهم من غروره فى تلاوة القرآن ومنهم فى الحج ومنهم فى الغزو ومنهم فى الزهد وكذلك كل مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس خاليا عن غرور الا الاكياس وقليل ما هم (فمنهم فرقة) أهملوا الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل وربما تعمقوا فى الفضائل حتى خرجوا الى العدوان والسرف كالذى تغلب عليه الوسوسة فى الوضوء فيبالغ فيه ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته فى فتوى الشرع و يقدر الاحتمالات البعيدة قريبة فى النجاسة واذا آل الامر الى أكل الحلال قدر الاحتمالات القريبة بعيدة وربما أكل الحرام المحض ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء الى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة اذ توضأ عمر رضى الله عنه بماء فى جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة وكان مع هذا يدع أبوابا من الحلال مخافة من الوقوع فى الحرام ثم من هؤلاء من يخرج الى الاسراف فى صب الماء وذلك منهى عنه وقد يطول الامر حتى يضيع الصلاة ويخرجها عن وقتها وان لم يخرجها أيضا عن وقتها فهو مغرور لما فاته من فضيلة أول الوقت وان لم يفته فهو مغرور لاسرافه فى الماء وان لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الذى هو أعز الاشياء فيما له مندوحة عنه الا أن الشيطان يصد الخلق عن الله بطريق سنى ولا يقدر على صد العباد الا بما يخيل اليهم أنه عبادة فيبعدهم عن الله بمثل ذلك (وفرقة أخرى) غلب عليها الوسوسة فى نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة ويخرج الصلاة عن الوقت وان تم تكبيره فيكون فى قلبه بعد تردد فى صحة نيته وقد يوسوسون فى التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط فيه يفعلون ذلك فى أول الصلاة ثم يغفلون فى جميع الصلاة فلا يحضرون قلوبهم و يغترون بذلك و يظنون أنهم اذا أتعبوا أنفسهم فى تصحيح النية فى أول الصلاة وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط فهم على خير عند ربهم (وفرقة أخرى) تغلب عليهم الوسوسة فى اخراج حروف الفاتحة وسائر الاذكار من مخارجها فلا يزال يحتاط فى التشديدات والفرق بين الضاد والظاء وتصحيح مخارج الحروف فى جميع صلاته لا يهمه غيره ولا يتفكر فيما سواه ذاهلا عن معنى القرآن والاتعاظ به وصرف الفهم الى أسراره وهذا من أقبح أنواع الغرور فانه لم يكلف الخلق فى تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف الا بما جرت به عادتهم فى الكلام ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة الى مجلس سلطان وأمر أن يؤديها على وجهها فأخذ يؤدى الرسالة و يتأنق فى مخارج الحروف و يكررها و يعيدها مرة بعد أخرى وهو فى ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس فما أحراه بان تقام عليه السياسة و يرد الى دار المجانين ويحكم عليه بفقد العقل (وفرقة أخرى) اغتروا بقراءة القرآن فيهذونه هذا وربما يختمونه فى اليوم والليلة مرة ولسان أحدهم يجرى به وقلبه يتردد فى أودية الامانى اذ لا يتفكر فى معانى القرآن لينزجر بزواجره و يتعظ بمواعظه ويقف عند أوامره ونواهيه ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه الى غير ذلك مما ذكرناه فى كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة فهو مغرور يظن أن المقصود من انزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه ومثاله مثال عبد كتب اليه مولاه ومالكه كتابا وأشار عليه فيه بالاوامر والنواهى فلم يصرف عنايته الى فهمه والعمل به ولكن اقتصر على حفظه فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاه الا أنه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يوم مائة مرة فهو مستحق للعقوبة ومهما ظن ان ذلك هو المراد منه فهو مغرور نعم تلاوته انما تراد لكيلا ينسى بل لحفظه وحفظه يراد لمعناه ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه و يلتذبه و يغتر باستلذاذه ويظن ان ذلك لذة مناجاة الله تعالى وسماع كلامه وانما هى لذته فى صوته ولو ردد ألحانه بشعر أو كلام آخر لالتذبه ذلك الالتذاذ فهو مغرور اذ لم يتفقد قلبه فيعرفه ان لذته بكلام الله تعالى من حيث حسن نظمه ومعانيه أو بصوته (وفرقة أخرى) اغتروا بالصوم وربما صاموا الدهر أو صاموا الايام الشريفة وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة وخواطرهم عن الرياء و بطونهم عن الحرام عند الافطار وألسنتهم عن الهذيان بانواع الفضول طول النهار وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير فيهمل الفرائض و يطلب النفل ثم لا يقوم بحقه وذلك غاية الغرور (وفرقة أخرى) اغتروا بالحج فيخرجون الى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الاسلام و يضيعون فى الطريق الصلاة والفرائض و يعجزون عن طهارة

ذلك وقوف وقصور (قيل) للحسن يا أبا سعيد انى أبيت معافى وأحب قيام الليل وأعد طهورى فما بالى لا أقوم قال ذنوبك قيدتك فليحذر العبد العبد فى نهاره ذنوبا تقيده فى ليله (وقال

الثوب والبدن ويتعرضون لمكس الظلمة حتى يؤخذ منهم ولا يحذرون فى الطريق من الرفث والخصام وربما جمع بعضهم الحرام وأنفقه على الرفقاء فى الطريق وهو يطلب به السمعة والرياء فيعصى الله تعالى فى كسب الحرام أولا وفى انفاقه بالرياء ثانيا فلا هو أخذه من حله ولا هو وضعه فى حقه ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الاخلاق وذميم الصفات لم يقدم تطهيره على حضوره وهو مع ذلك يظن انه على خير من ربه فهو مغرور (وفرقة أخرى) أخذت فى طريق الحسبة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ينكر على الناس ويأمرهم بالخير وينسى نفسه واذا أمرهم بالخير عنف وطلب الرياسة والعزة واذا باشر منكرا ورد عليه غضب وقال أنا المحتسب فكيف تنكر على وقد يجمع الناس الى مسجده ومن تأخر عنه أغلظ القول عليه وانما غرضه الرياء والرياسة ولو قام بتعهد المسجد غيره لحرد عليه بل منهم من يؤذن ويظن انه يؤذن لله ولو جاء غيره وأذن فى وقت غيبته قامت عليه القيامة وقال لم آخذ حقى وزوحمت على مرتبتى وكذلك قد يتقلد امامة مسجد ويظن أنه على خير وانما غرضه أن يقال انه امام المسجد فلو تقدم غيره وان كان أورع وأعلم منه ثقل عليه (وفرقة أخرى) جاوروا بمكة أو المدينة واغتروا بمكة ولم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا ظاهرهم وباطنهم فقلوبهم معلقة ببلادهم ملتفتة الى قول من يعرفه ان فلانا مجاور بمكة وتراه يتحدى ويقول قد جاورت بمكة كذا كذا سنة واذا سمع ان ذلك قبيح ترك صريح التحدى وأحب أن يعرفه الناس بذلك ثم انه قد يجاور ويمد عين طمعه الى أوساخ أموال الناس واذا جمع من ذلك شيأ شح به وأمسكه ولم تسمح نفسه بلقمة يتصدق بها على فقير فيظهر فيه الرياء والبخل والطمع وجملة من المهلكات كان عنها بمعزل لو ترك المجاورة ولكن حب المحمدة وأن يقال انه من المجاورين ألزمه المجاورة مع التضمخ بهذه الرذائل فهو أيضا مغرور ومامن عمل من الاعمال وعبادة من العبادات الا وفيها آفات فمن لم يعرف مداخل آفاتها واعتمد عليها فهو مغرور ولا يعرف شرح ذلك الا من جملة كتب احياء علوم الدين فيعرف مداخل الغرور فى الصلاة من كتاب الصلاة وفى الحج من كتاب الحج والزكاة والتلاوة وسائر القربات من الكتب التى رتبناها فيها وانما الغرض الآن الاشارة الى مجامع ماسبق فى الكتب (وفرقة أخرى) زهدت فى المال وقنعت من اللباس والطعام بالدون ومن المسكن بالمساجد وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد وهو مع ذلك راغب فى الرياسة والجاه اما بالعلم أو بالوعظ أو بمجرد الزهد فقد ترك أهون الامرين وباء بأعظم المهلكين فان الجاه أعظم من المال ولو ترك الجاه وأخذ المال كان الى السلامة أقرب فهذا مغرور اذ ظن انه من الزهاد فى الدنيا وهو لم يفهم معنى الدنيا ولم يدر أن منتهى لذاتها الرياسة وأن الراغب فيها لابد وأن يكون منافقا وحسودا ومتكبرا ومرائيا ومتصفا بجميع خبائث الاخلاق نعم وقد يترك الرياسة ويؤثر الخلوة والعزلة وهو مع ذلك مغرور اذ يتطاول بذلك على الاغنياء ويخشن معهم الكلام وينظر اليهم بعين الاستحقار ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم ويعجب بعمله ويتصف بجملة من خبائث القلوب وهو لا يدرى وربما يعطى المال فلا يأخذه خيفة من أن يقال بطل زهده ولو قيل له انه حلال فخذه فى الظاهر ورده فى الخفية لم تسمح به نفسه خوفا من ذم الناس فهو راغب فى حمد الناس وهو من ألذ أبواب الدنيا ويرى نفسه انه زاهد فى الدنيا وهو مغرور ومع ذلك فربما لا يخلو من توقير الاغنياء وتقديمهم على الفقراء والميل الى المريدين له والمثنين عليه والنفرة عن المائلين الى غيره من الزهاد وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان نعوذ بالله منه وفى العباد من يشدد على نفسه فى أعمال الجوارح حتى ربما يصلى فى اليوم والليلة مثلا ألف ركعة ويختم القرآن وهو فى جميع ذلك لا يخطر له مراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرياء والكبر والعجب وسائر المهلكات فلا يدرى أن ذلك مهلك وان علم فلا يظن بنفسه وان ظن بنفسه ذلك توهم أنه مغفور له لعمله الظاهر وانه غير مؤاخذ بأحوال القلب وان توهم فيظن أن العبادات الظاهرة تترجح بها كفة حسناته وهيهات وذرة من ذى تقوى وخلق واحد من أخلاق الاكياس أفضل من أمثال الجبال عملا بالجوارح ثم لا يخلو هذا المغرور مع سوء خلقه مع الناس وخشونته وتلوث باطنه عن الرياء وحب الثناء فاذا قيل له أنت من أوتاد الارض وأولياء الله وأحبابه فرح المغرور بذلك وصدق به وزاده ذلك غرورا وظن أن تزكية الناس له دليل على كونه مرضيا عند الله ولا يدرى أن ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه (وفرقة أخرى) حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها

النورى) رحمه الله حرمت قيام الليل سبعة أشهر بذنب أذنبته فقيل له ما كان الذنب قال رأيت رجلا بكاه فقلت فى نفسى هذا مراء (وقال بعضهم) دخلت على كرز بن وبرة

بالفرائض ترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وبصلاة الليل وأمثال هذه النوافل ولا يجد للفريضة لذة ولا يشتد
حرصه على المبادرة بها في أول الوقت وينسى قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه ما تقرب المتقربون الى
بمثل أداء ما افترضت عليهم وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور بل قد يتعين على الانسان فرضان أحدهما
يفوت والآخر لا يفوت أو فضلان أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته فان لم يحفظ الترتيب فيه كان مغرورا
ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى فان المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة وانما الغامض تقديم بعض الطاعات على
بعض كتقديم الفرائض كلها على النوافل وتقديم فروض الاعيان على فروض الكفايات وتقديم فرض كفاية
لا قائم به على ما قام به غيره وتقديم الاهم من فروض الاعيان على ما دونه وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت وهذا كما
يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد اذ سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له من أبر يا رسول الله قال أمك
قال ثم من قال أمك قال ثم من قال أمك قال ثم من قال أباك قال ثم من قال أدناك فأدناك فينبغي أن يبدأ في الصلة
بالاقرب فان استويا فبالاحوج فان استويا فبالاتقى والاورع وكذلك من لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحج فربما
يحج وهو مغرور بل ينبغي أن يقدم حقهما على الحج وهذا من تقديم فرض أهم على فرض هو دونه وكذلك اذا
كان على العبد ميعاد ودخل وقت الجمعة تفوت فالجمعة والاشتغال بالوفاء بالوعد معصية وان كان هو طاعة في نفسه
وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة فيغلظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلك فالنجاسة محذورة وايذاؤهما محذور
والحذر من الايذاء أهم من الحذر من النجاسة وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر ومن ترك الترتيب
في جميع ذلك فهو مغرور وهذا غرور في غاية الغموض لان المغرور فيه في طاعة الا انه لا يفطن لصيرورة الطاعة
معصية حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهم منها ومن جملته الاشتغال بالمذهب والخلاف من الفقه في حق من بقي
عليه شغل من الطاعات والمعاصي الظاهرة والباطنة المتعلقة بالجوارح والمتعلقة بالقلب لان مقصود الفقه
معرفة ما يحتاج اليه غيره في حوائجه فمعرفة ما يحتاج هو اليه في قلبه أولى به الا أن حب الرياسة والجاه ولذة المباهاة
وقهر الاقران والتقدم عليهم يعمي عليه حتى يغتر به مع نفسه ويظن انه مشغول بهم دينه * (الصنف الثالث) *
المتصوفة وما أغلب الغرور عليهم والمغترون منهم فرق كثيرة (ففرقة منهم) وهم متصوفة أهل الزمان الا من
عصمه الله اغتروا بالزي والهيئة والمنطق فساعدوا الصادقين من الصوفية في زيهم وهيئتهم وفي ألفاظهم وفي
آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم وفي أحوالهم الظاهرة في السماع والرقص والطهارة والصلاة والجلوس على
السجادات مع اطراق الرأس وادخاله في الجيب كالمتفكر وفي تنفس الصعداء وفي خفض الصوت في الحديث الى
غير ذلك من الشمائل والهيئات فلما تكلفوا هذه الامور وتشبهوا بهم فيها ظنوا أنهم أيضا صوفية ولم يتعبوا
أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية وكل ذلك
من أوائل منازل التصوف ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم في الصوفية كيف ولم يحوموا قط
حولها ولم يسوموا أنفسهم شيأ منها بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ويتنافسون في الرغيف
والفلس والحبة ويتحاسدون على النقير والقطمير ويمزق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه في شيء من غرضه
وهؤلاء غرورهم ظاهر ومثالهم مثال امرأة عجوز سمعت ان الشجعان والابطال من المقاتلين تثبت أسماؤهم
في الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من أقطار المملكة فتاقت نفسها الى أن يقطع لها مملكة فلبست درعا
ووضعت على رأسها مغفرا وتعلمت من رجز الابطال أبياتا وتعودت ايراد تلك الابيات بنغماتهم حتى تيسرت عليها
وتعلمت كيفية تبخترهم في الميدان وكيفية تحريكهم الايدي وتلقفت جميع شمائلهم في الزي والمنطق والحركات
والسكنات ثم توجهت الى المعسكر ليثبت اسمها في ديوان الشجعان فلما وصلت الى المعسكر أنفذت الى ديوان
العرض وأمر بأن تجرد عن المغفر والدرع وينظر ما تحته وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر عنائها
في الشجاعة فلما جردت عن المغفر والدرع فاذا هي عجوز ضعيفة زمنة لا تطيق حمل الدرع والمغفر فقيل لها جئت
للاستهزاء بالملك وللاستخفاف بأهل حضرته والتلبيس عليهم خذوها فألقوها قدام الفيل لسخفها فألقيت الى
الفيل فهكذا يكون حال المدعين للتصوف في القيامة اذا كشف عنهم الغطاء وعرضوا على القاضي الاكبر الذي

وهو يبكي فقلت ما بالك
أتاك نعي بعض أهلك
فقال أشد فقلت وجع
يؤلمك قال أشد فقلت
وما ذاك قال بابي مغلق
وستري مسبل ولم أقرأ
حزبي البارحة وما ذاك
الا بذنب أحدثته (وقال

لا

لا ينظر الى الزى والمرقع بل الى سر القلب (وفرقة أخرى) زادت على هؤلاء فى الغرور اذشق عليها الاقتداء بهم فى بذاذة الثياب والرضا بالدون فارادت أن تتظاهر بالتصوف ولم تجد بدا من التزين بزيهم فتركوا الحرير والابريسم وطلبوا المرقعات النفيسة والفوط الرقيقة والسجادات المصبغة ولبسوا من الثياب ما هو أرفع قيمة من الحرير والابريسم وظن أحدهم مع ذلك انه متصوف بمجرد لون الثوب وكونه مرقعا ونسى انهم انما لونوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلها كل ساعة لازالة الوسخ وانما لبسوا المرقعات اذ كانت ثيابهم مخرقة فكانوا يرقعونها ولا يلبسون الجديد فأما تقطيع الفوط الرقيقة قطعة قطعة وخياطة المرقعات منها فمن أين يشبه ما اعتادوه فهؤلاء أظهر حماقة من كافة المغرورين فانهم يتنعمون بنفيس الثياب ولذيذ الاطعمة ويطلبون رغد العيش ويأكلون أموال السلاطين ولا يجتنبون المعاصى الظاهرة فضلا عن الباطنة وهم مع ذلك يظنون بانفسهم الخير وشر هؤلاء مما يتعدى الى الخلق اذ يهلك من يقتدى بهم ومن لا يقتدى بهم تفسد عقيدته فى أهل التصوف كافة ويظن أن جميعهم كانوا من جنسه فيطول اللسان فى الصادقين منهم وكل ذلك من شؤم المتشبهين وشرهم (وفرقة أخرى) ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والاحوال والملازمة فى عين الشهود والوصول الى القرب ولا يعرف هذه الامور الا بالاسامى والالفاظ لانه تلقف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يرددها ويظن أن ذلك أعلى من علم الاولين والآخرين فهو ينظر الى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازراء فضلا عن العوام حتى ان الفلاح ليترك فلاحته والحائك يترك حياكته ويلازمهم أياما معدودة ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة فيرددها كأنه يتكلم عن الوحى ويخبر عن سر الاسرار ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء فيقول فى العباد انهم اجراء متعبون ويقول فى العلماء انهم بالحديث عن الله محجوبون ويدعى لنفسه انه الواصل الى الحق وانه من المقربين وهو عند الله من الفجار المنافقين وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين لم يحكم قط علما ولم يهذب خلقا ولم يرتب عملا ولم يراقب قلبا سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان وحفظه (وفرقة أخرى) وقعت فى الاباحة وطووا بساط الشرع ورفضوا الاحكام وسووا بين الحلال والحرام فبعضهم يزعم ان الله مستغن عن عملى فلم أتعب نفسى وبعضهم يقول قد كلف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا وذلك محال فقد كلفوا ما لا يمكن وانما يغتر به من لم يجرب وأما نحن فقد جربنا وأدركنا ان ذلك محال ولا يعلم الاحمق ان الناس لم يكلفوا قلع الشهوة والغضب من أصلهما بل انما كلفوا قلع مادتهما بحيث ينقاد كل واحد منهما لحكم العقل والشرع وبعضهم يقول الاعمال بالجوارح لا وزن لها وانما النظر الى القلوب وقلوبنا والهة بحب الله وواصلة الى معرفة الله وانما نخوض فى الدنيا بابداننا وقلوبنا عاكفة فى الحضرة الربوبية فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب ويزعمون انهم قد ترقوا عن رتبة العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالاعمال البدنية وان الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها ويرفعون درجة أنفسهم على درجة الانبياء عليهم السلام اذ كانت تصدهم عن طريق الله خطيئة واحدة حتى كانوا يبكون عليها وينوحون سنين متوالية وأصناف غرور أهل الاباحة من المتشبهين بالصوفية لا تحصى وكل ذلك بناء على أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل احكام العلم ومن غير اقتداء بشيخ متقن فى الدين والعلم صالح للاقتداء به واحصاء أصنافهم يطول (وفرقة أخرى) جاوزت حد هؤلاء واجتنبت الاعمال وطلبت الحلال واشتغلت بتفقد القلب وصار أحدهم يدعى المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها فمنهم من يدعى الوجد والحب لله تعالى ويزعم انه واله بالله ولعله قد تخيل فى الله خيالات هى بدعة أو كفر فيدعى حب الله قبل معرفته ثم انه لا يخلو عن مقارفة ما يكره الله عز وجل وعن ايثار هوى نفسه على أمر الله وعن ترك بعض الامور حياء من الخلق ولو خلا لما تركه حياء من الله تعالى وليس يدرى ان كل ذلك يناقض الحب وبعضهم ربما يميل الى القناعة والتوكل فيخوض البوادى من غير زاد ليصحح دعوى التوكل وليس يدرى أن ذلك بدعة لم تنقل عن السلف والصحابة وقد كانوا أعرف بالتوكل منه فما فهموا أن التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله تعالى لا على الزاد وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الاسباب واثق به وما من مقام من المقامات

بعضهم) الاحتلام عقوبة وهذا صحيح لان المراعى المتحفظ بحسن تحفظه وعلمه بحاله يقدر ويتمكن من سد باب الاحتلام ولا يتطرق الاحتلام الا على جاهل بحاله أو مهمل حكم وقته

المنجيات الا وفيه غرور وقد اغتر به قوم وقد ذكرنا مداخل الآفات في ربع المنجيات من الكتاب فلا يمكن اعادتها (وفرقة أخرى) ضيقت على نفسها في أمر القوت حتى طلبت منه الحلال الخالص وأهملوا تفقد القلب والجوارح في غير هذه الخصلة الواحدة ومنهم من أهمل الحلال في مطعمه وملبسه ومسكنه وأخذ يتعمق في غير ذلك وليس يدري المسكين أن الله تعالى لم يرض من عبده بطلب الحلال فقط ولا يرضى بسائر الاعمال دون طلب الحلال بل لا يرضيه الا تفقد جميع الطاعات والمعاصي فمن ظن أن بعض هذه الامور يكفيه وينجيه فهو مغرور (وفرقة أخرى) ادعوا حسن الخلق والتواضع والسماحة فتصدوا لخدمة الصوفية فجمعوا قوما وتكلفوا بخدمتهم واتخذوا ذلك شبكة للرياسة وجمع المال وانما غرضهم التكبر وهم يظهرون الخدمة والتواضع وغرضهم الارتفاع وهم يظهرون أن غرضهم الارفاق وغرضهم الاستتباع وهم يظهرون أن غرضهم الخدمة والتبعية ثم انهم يجمعون من الحرام والشبهات وينفقون عليهم لتكثر أتباعهم وينشر بالخدمة اسمهم وبعضهم يأخذ أموال السلاطين ينفق عليهم وبعضهم يأخذها لينفق في طريق الحج على الصوفية ويزعم أن غرضه البر والانفاق وباعث جميعهم الرياء والسمعة وآية ذلك اهمالهم لجميع أوامر الله تعالى عليهم ظاهرا وباطنا ورضاهم بأخذ الحرام والانفاق منه ومثال من ينفق الحرام في طريق الحج لارادة الخير كمن يعمر مساجد الله فيطينها بالعذرة ويزعم أن قصده العمارة (وفرقة أخرى) اشتغلوا بالمجاهدة وتهذيب الاخلاق وتطهير النفس من عيوبها وصاروا يتعمقون فيها فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علما وحرفة فهم في جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس واستنباط دقيق الكلام في آفاتها فيقولون هذا في النفس عيب والغفلة عن كونه عيبا عيب والالتفات الى كونه عيبا عيب ويشغفون فيه بكلمات مسلسلة تضيع الاوقات في تلفيقها ومن جعل طول عمره في التفتيش عن العيوب وتحرير علم علاجها كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج وآفاته ولم يسلك طريق الحج فذلك لا يغنيه (وفرقة أخرى) جاوزوا هذه الرتبة وابتدؤا سلوك الطريق وانفتح لهم أبواب المعرفة فكلما تشمموا من مبادي المعرفة رائحة تعجبوا منها وفرحوا بها وأعجبتهم غرابتها فتقيدت قلوبهم بالالتفات اليها والتفكر فيها وفي كيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده على غيرهم وكل ذلك غرور لان عجائب طريق الله ليس لها نهاية ولو وقف مع كل أعجوبة وتقيد بها قصرت خطاه وحرم الوصول الى المقصد وكان مثاله مثال من قصد ملكا فرأى على باب ميدانه روضة فيها أزهار وأنوار لم يكن قد رأى قبل ذلك مثلها فوقف ينظر اليها ويتعجب حتى فاته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك (وفرقة أخرى) جاوزوا هؤلاء ولم يلتفتوا الى ما يفيض عليهم من الانوار في الطريق ولا الى ما تيسر لهم من العطايا الجزيلة ولم يعرجوا على الفرح بها والالتفات اليها جادين في السير حتى قاربوا فوصلوا الى حد القربة الى الله تعالى فظنوا أنهم قد وصلوا الى الله فوقفوا وغلطوا فان لله تعالى سبعين حجابا من نور لا يصل السالك الى حجاب من تلك الحجب في الطريق الا ويظن أنه قد وصل واليه الاشارة بقول ابراهيم عليه السلام اذ قال الله تعالى اخبارا عنه فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي وليس المعني به هذه الاجسام المضيئة فانه كان يراها في الصغر ويعلم انها ليست آلهة وهي كثيرة وليست واحدا والجهال يعلمون أن الكوكب ليس باله فمثل ابراهيم عليه السلام لا يغره الكوكب الذي لا يغر السوادية ولكن المراد به أنه نور من الانوار التي هي من حجب الله عز وجل وهي على طريق السالكين ولا يتصور الوصول الى الله تعالى الا بالوصول الى هذه الحجب وهي حجب من نور بعضها أكبر من بعض وأصغر النيرات الكوكب فاستعير له لفظه وأعظمها الشمس وبينهما رتبة القمر فلم يزل ابراهيم عليه السلام لما رأى ملكوت السموات حيث قال تعالى وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض يصل الى نور بعد نور ويتخيل اليه في أول ما كان يلقاه انه قد وصل ثم كان يكشف له أن وراءه أمرا فيترقى اليه ويقول قد وصلت فيكشف له ما وراءه حتى وصل الى الحجاب الاقرب الذي لا وصول الا بعده فقال هذا أكبر فلما ظهر له أنه مع عظمه غير خال عن الهوي في حضيض النقص والانحطاط عن ذروة الكمال قال لا أحب الآفلين اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض وسالك هذه الطريق قد يغتر في الوقوف على بعض

هذه

وأدب حاله ومن كمل تحفظه ورعايته وقيامه بأدب حاله قد يكون من ذنبه الموجب للاحتلام ووضع الرأس على الوسادة اذا كان ذا عزيمة في ترك الوسادة وقد يتمهد للنوم ووضع الرأس على

هذه الحجب وقد يغتر بالحجاب الاول وأولا الحجب بين الله و بين العبد هو نفسه فانه أيضا أمر رباني وهو نور من أنوار الله تعالى أعني سر القلب الذي تتجلى فيه حقيقة الحق كله حتى انه ليتسع لجملة العالم ويحيط به و تتجلى فيه صورة الكل وعند ذلك يشرق نوره اشراقا عظيما اذ يظهر فيه الوجود كله على ماهو عليه وهو في أول الامر محجوب بمشكاة هي كالساتر له فاذا تجلى نوره وانكشف جمال القلب بعد اشراق نور الله عليه ربما التفت صاحب القلب الى القلب فيرى من جماله الفائق مايدهشه وربما يسبق لسانه في هذه الدهشة فيقول أنا الحق فان لم يتضح له ماوراء ذلك اغتر به و وقف عليه وهلك وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الالهية ولم يصل بعد الى القمر فضلا عن الشمس فهو مغرور وهذا محل الالتباس اذ المتجلي يلتبس بالمتجلى فيه كما يلتبس لون ما يتراءى في المرآة بالمرآة فيظن أنه لون المرآة وكما يلتبس ما في الزجاج بالزجاج كما قيل

رق الزجاج و رقت الخمر * فتشابها فتشاكل الامر فكأنما خمر ولا قدح * وكأنما قدح ولا خمر

وبهذه العين نظر النصارى الى المسيح فرأوا اشراق نور الله قد تلألأ فيه فغلطوا فيه كمن يرى كوكبا في مرآة أو في ماء فيظن أن الكوكب في المرآة أو في الماء فيمد يده اليه ليأخذه وهو مغرور وأنواع الغرور في طريق السلوك الى الله تعالى لا تحصى في مجلدات ولا تستقصى الا بعد شرح جميع علوم المكاشفة وذلك مما لا رخصة في ذكره ولعل القدر الذي ذكرناه أيضا كان الاولى تركه اذ السالك لهذا الطريق لا يحتاج الى أن يسمعه من غيره والذي لم يسلكه لا ينتفع بسماعه بل ربما يستضر به اذ يورثه ذلك دهشة من حيث يسمع مالا يفهم ولكن فيه فائدة وهو اخراجه من الغرور الذي هو فيه بل ربما يصدق بان الامر أعظم مما يظنه ومما يتخيله بذهنه المختصر وخياله القاصر وجدله المزخرف و يصدق أيضا بما يحكى له من المكاشفات التي أخبر عنها أولياء الله ومن عظم غروره ربما أصر مكذبا بما يسمعه الآن كما يكذب بما سمعه من قبل *(الصنف الرابع)* أرباب الاموال والمغترون منهم فرق (ففرقة منهم) يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس كافة و يكتبون أساميهم بالآجر عليها ليتخلد ذكرهم و يبقى بعد الموت أثرهم وهم يظنون انهم قد استحقوا المغفرة بذلك وقد اغتروا فيه من وجهين *أحدهما انهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والنهب والرشا والجهات المحظورة فهم قد تعرضوا لسخط الله في كسبها وتعرضوا لسخطه في انفاقها وكان الواجب عليهم الامتناع من كسبها فاذا قد عصوا الله بكسبها فالواجب عليهم التوبة والرجوع الى الله تعالى وردها الى ملاكها اما باعيانها واما برد بدلها عند العجز فان عجزوا عن الملاك كان الواجب ردها الى الورثة فان لم يبق للمظلوم وارث فالواجب صرفها الى أهم المصالح وربما يكون الاهم التفرقة على المساكين وهم لا يفعلون ذلك خيفة من أن لا يظهر ذلك للناس فيبنون الابنية بالآجر وغرضهم من بنائها الرياء وجلب الثناء وحرصهم على بقائها لبقاء أسمائهم المكتوبة فيها لا لبقاء الخير *والوجه الثاني انهم يظنون بانفسهم الاخلاص وقصد الخير في الانفاق على الابنية ولو كلف واحد منهم أن ينفق دينارا ولا يكتب اسمه على الموضع الذي أنفق عليه لشق عليه ذلك ولم تسمح به نفسه والله مطلع عليه كتب اسمه أو لم يكتب ولولا انه يريد به وجه الناس لا وجه الله لما افتقر الى ذلك (وفرقة أخرى) ربما اكتسبت المال من الحلال وأنفقت على المساجد وهي أيضا مغرورة من وجهين *أحدهما الرياء وطلب الثناء فانه ربما يكون في جواره أو بلده فقراء وصرف المال اليهم أهم وأفضل وأولى من الصرف الى بناء المساجد وزينتها وانما يخف عليهم الصرف الى المساجد ليظهر ذلك بين الناس * والثاني انه يصرف الى زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش التي هي منهي عنها وشاغلة قلوب المصلين ومختطفة أبصارهم والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب وذلك يفسد قلوب المصلين و يحبط ثوابهم بذلك و بال ذلك كله يرجع اليه وهو مع ذلك يغتر به و يرى أنه من الخيرات و يعد ذلك وسيلة الى الله تعالى وهو مع ذلك قد تعرض لسخط الله تعالى وهو يظن أنه مطيع له وممتثل لامره وقد شوش قلوب عباد الله بما زخرفه من المسجد وربما شوقهم به الى زخارف الدنيا فيشتهون مثل ذلك في بيوتهم و يشتغلون بطلبه و بال ذلك كله في رقبته اذ المسجد للتواضع ولحضور القلب مع الله تعالى قال مالك بن دينار أتى رجلان مسجدا فوقف أحدهما على الباب وقال

الوسادة بحسن النية من لا يكون ذلك ذنبه وله فيه نية العون على القيام وقد يكون ذلك ذنبا بالنسبة الى بعض الناس فاذا كان هذا القدر يصلح أن يكون ذنبا جالبا للاحتلام فقس على هذا

مثلي لا يدخل بيت الله فكتبه الملكان عند الله صديقا فهكذا ينبغي أن تعظم المساجد وهو أن يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جناية على المسجد لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام أو بزخرف الدنيا منة على الله تعالى وقال الحواريون للمسيح عليه السلام انظر الى هذا المسجد ما أحسنه فقال أمتي أمتي بحق أقول لكم لا يترك الله من هذا المسجد حجرا قائما على حجر الا أهلكه بذنوب أهله ان الله لا يعبأ بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التي تعجبكم شيأ وان أحب الاشياء الى الله تعالى القلوب الصالحة بها يعمر الله الارض وبها يخرب اذا كانت على غير ذلك وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم وقال الحسن ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يبني مسجد المدينة أتاه جبريل عليه السلام فقال له ابنه سبعة أذرع طولا في السماء لا تزخرفه ولا تنقشه فغرور هذا من حيث انه رأى المنكر معروفا واتكل عليه (وفرقة أخرى) ينفقون الاموال في الصدقات على الفقراء والمساكين ويطلبون به المحافل الجامعة ومن الفقراء من عادته الشكر والافشاء للمعروف ويكرهون التصدق في السر ويرون اخفاء الفقير لما يأخذه منهم جناية عليهم وكفرانا وربما يحرصون على انفاق المال في الحج فيحجون مرة بعد أخرى وربما تركوا جيرانهم جياعا ولذلك قال ابن مسعود في آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب يهون عليهم السفر ويبسط لهم في الرزق ويرجعون محرومين مسلوبين يهوي بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار وجاره مأسور الى جنبه لا يواسيه وقال أبو نصر التمار ان رجلا جاء يودع بشر بن الحرث وقال قد عزمت على الحج فتأمرني بشئ فقال له كم أعددت للنفقة فقال ألفي درهم قال بشر فأي شئ تبتغي بحجك تزهدا أو اشتياقا الى البيت أو ابتغاء مرضاة الله قال ابتغاء مرضاة الله قال فان أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى أتفعل ذلك قال نعم قال اذهب فأعطها عشرة أنفس مديون يقضي دينه وفقير يرم شعثه ومعيل يغني عياله ومربي يتيم يفرحه وان قوي قلبك تعطيها واحدا فافعل فان ادخالك السرور على قلب المسلم واغاثة اللهفان وكشف الضر واعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الاسلام قم فأخرجها كما أمرناك والا فقل لنا ما في قلبك فقال يا أبا نصر سفري أقوى في قلبي فتبسم بشر رحمه الله تعالى وأقبل عليه وقال له المال اذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضي به وطرا فأظهرت الاعمال الصالحات وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل الا عمل المتقين (وفرقة أخرى) من أرباب الاموال اشتغلوا بها يحفظون الاموال ويمسكونها بحكم البخل ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها الى نفقة كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن وهم مغرورون لان البخل المهلك قد استولى على بواطنهم فهو يحتاج الى قمعه باخراج المال فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها ومثاله مثال من دخل في ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن به الصفراء ومن قتلته الحية متى يحتاج الى السكنجبين ولذلك قيل لبشر ان فلانا الغني كثير الصوم والصلاة فقال المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره وانما حال هذا اطعام الطعام للجياع والانفاق على المساكين فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدنيا ومنعه للفقراء (وفرقة أخرى) غلبهم البخل فلا تسمح نفوسهم الا بأداء الزكاة فقط ثم انهم يخرجون من المال الخبيث الردىء الذي يرغبون عنه ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد في حاجاتهم أو من يحتاجون اليه في المستقبل للاستسخار في خدمة أو من لهم فيه على الجملة غرض أو يسلمون ذلك الى من يعينه واحد من الاكابر ممن يستظهر بحشمه لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجاته وكل ذلك مفسدات للنية ومحبطات للعمل وصاحبه مغرور ويظن أنه مطيع لله تعالى وهو فاجر اذ طلب بعبادة الله عوضا من غيره فهذا وأمثاله من غرور أصحاب الاموال أيضا لا يحصى وانما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور (وفرقة أخرى) من عوام الخلق وأرباب الاموال والفقراء اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم واتخذوا ذلك عادة ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاظ أجرا وهم مغرورون لان فضل مجلس الذكر لكونه مرغبا في الخير فان لم يهيج الرغبة فلا خير فيه والرغبة محمودة لانها تبعث على العمل فان ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها وما يراد لغيره فاذا قصر عن الاداء الى

ذنوب الاموال فانها تختص بأربابها ويعرفها اصحابها وقد يتفق بأنواع الرفق من الفراش الوطىء والوسادة ولا يعاقب بالاحتلام وغيره على فعله اذا كان عالما ذاتية يعرف مداخل

ذلك الغير فلا قيمة له وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس وفضل البكاء وربما تدخله رقة كرقة النساء فيبكي ولا عزم وربما يسمع كلاما مخوفا فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول يا سلام سلم أو نعوذ بالله أو سبحان الله ويظن انه قد أتى بالخير كله وهو مغرور وانما مثاله مثال المريض الذي يحضر مجالس الاطباء فيسمع ما يجري أو الجائع الذي يحضر عنده من يصف له الاطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف وذلك لا يغني عنه من مرضه وجوعه شيأ فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لا يغني من الله شيأ فكل وعظ لم يغير منك صفة تغييرا يغير أفعالك حتى تقبل على الله تعالى اقبالا قويا أو ضعيفا وتعرض عن الدنيا فذلك الوعظ زيادة حجة عليك فاذا رأيته وسيلة لك كنت مغرورا فان قلت فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يتخلص منه أحد ولا يمكن الاحتراز منه وهذا يوجب اليأس اذ لا يقوى أحد من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات فأقول الانسان اذا فترت همته في شيء أظهر اليأس منه واستعظم الامر واستوعر الطريق واذا صح منه الهوى اهتدى الى الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول الى الغرض حتى ان الانسان اذا أراد أن يستنزل الطير المحلق في جو السماء مع بعده منه استنزله واذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحار استخرجه واذا أراد أن يستخرج الذهب أو الفضة من تحت الجبال استخرجه واذا أراد أن يقتنص الوحوش المطلقة في البراري والصحاري اقتنصها واذا أراد أن يستسخر السباع والفيلة وعظيم الحيوانات استسخرها واذا أراد أن يأخذ الحيات والافاعي ويعبث بها أخذها واستخرج الدرياق من أجوافها واذا أراد أن يتخذ الديباج الملون المنقش من ورق التوت اتخذه واذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها استخرج بدقيق الهندسة ذلك وهو مستقر على الارض وكل ذلك باستنباط الحيل واعداد الآلات فسخر الفرس للركوب والكلب للصيد وسخر البازي لاقتناص الطيور وهيأ الشبكة لاصطياد السمك الى غير ذلك من دقائق حيل الآدمي كل ذلك لان همه أمر دنياه وذلك معين له على دنياه فلو أهمه أمر آخرته فليس عليه الا شغل واحد وهو تقويم قلبه فعجز عن تقويم قلبه وتخاذل وقال هذا محال ومن الذي يقدر عليه وليس ذلك بمحال لو أصبح وهمه هذا الهم الواحد بل هو كما يقال

* لو صح منك الهوى أرشدت للحيل *

فهذا شيء لم يعجز عنه السلف الصالحون ومن اتبعهم باحسان فلا يعجز عنه أيضا من صدقت ارادته وقويت همته بل لا يحتاج الى عشر تعب الخلق في استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها فان قلت قد قربت الامر فيه مع انك أكثرت في ذكر مداخل الغرور فبم ينجو العبد من الغرور فاعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور بالعقل والعلم والمعرفة فهذه ثلاثة أمور لا بد منها * اما العقل فأعني به الفطرة الغريزية والنور الاصلي الذي به يدرك الانسان حقائق الاشياء فالفطنة والكيس فطرة والحمق والبلادة فطرة والبليد لا يقدر على التحفظ عن الغرور فصفاء العقل وذكاء الفهم لا بد منه في أصل الفطرة فهذا ان لم يفطر عليه الانسان فاكتسابه غير ممكن نعم اذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة فأساس السعادات كلها العقل والكياسة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تبارك الله الذي قسم العقل بين عباده أشتاتا ان الرجلين ليستوي عملهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان في العقل كالذرة في جنب أحد وما قسم الله لخلقه حظا هو أفضل من العقل واليقين وعن أبي الدرداء أنه قيل يا رسول الله أرأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ويحج ويعتمر ويتصدق ويغزو في سبيل الله ويعود المريض ويشيع الجنائز ويعين الضعيف ولا يعلم منزلته عند الله يوم القيامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما يجزى على قدر عقله وقال أنس أثنى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف عقله قالوا يا رسول الله نقول من عبادته وفضله وخلقه فقال كيف عقله فان الاحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر وانما يقرب الناس يوم القيامة على قدر عقولهم وقال أبو الدرداء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله فاذا قالوا حسن قال أرجوه وان قالوا غير ذلك قال لن يبلغ وذكر له شدة عبادة رجل فقال كيف عقله قالوا ليس بشيء قال لم يبلغ صاحبكم حيث تظنون فالذكاء وصحيح غريزة العقل نعمة من الله تعالى في أصل الفطرة فان فاتت ببلادة وحماقة فلا تدارك لها الثاني المعرفة وأعني بالمعرفة أن يعرف أربعة أمور يعرف نفسه ويعرف ربه ويعرف الدنيا ويعرف الآخرة فيعرف

الامور ومخارجها وكم من نائم يسبق القائم لوفور عقله وحسن نيته (وفي الخبر) اذا نام العبد عقد الشيطان على رأسه ثلاث عقد فقعد وذكر الله تعالى

نفسه بالعبودية والذل وبكونه غريبا فى هذا العالم وأجنبيا من هذه الشهوات البهيمية وانما الموافق له طبعا هو معرفة الله تعالى والنظر الى وجهه فقط فلا يتصور أن يعرف هذا ما لم يعرف نفسه ولم يعرف ربه فليستعن على هذا بما ذكرناه فى كتاب المحبة وفى كتاب شرح عجائب القلب وكتاب التفكر وكتاب الشكر اذ فيها اشارات الى وصف النفس والى وصف جلال الله ويحصل به التنبه على الجملة وكمال المعرفة وراءه فان هذا من علوم المكاشفة ولم نطنب فى هذا الكتاب الا فى علوم المعاملة وأما معرفة الدنيا والآخرة فيستعين عليها بما ذكرناه فى كتاب ذم الدنيا وكتاب ذكر الموت ليتبين له أن لا نسبة للدنيا الى الآخرة فاذا عرف نفسه وربه وعرف الدنيا والآخرة ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها ويصير أهم أموره ما يوصله الى الله تعالى وينفعه فى الآخرة واذا غلبت هذه الارادة على قلبه صحت نيته فى الامور كلها فان أكل مثلا أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة وصحت نيته واندفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الاغراض والنزوع الى الدنيا والجاه والمال فان ذلك هو المفسد للنية وما دامت الدنيا أحب اليه من الآخرة وهوى نفسه أحب اليه من رضا الله تعالى فلا يمكنه الخلاص من الغرور فاذا غلب حب الله على قلبه بمعرفته بالله وبنفسه الصادرة عن كمال عقله فيحتاج الى المعنى الثالث وهو العلم أعنى العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق الى الله والعلم بما يقربه من الله وما يبعده عنه والعلم بآفات الطريق وعقباته وغوائله وجميع ذلك قد أودعناه كتب احياء علوم الدين فيعرف من ربع العبادات شروطها فيراعيها وآفاتها فيتقيها ومن ربع العادات أسرار المعايش وما هو مضطر اليه فيأخذه بادب الشرع وما هو مستغن عنه فيعرض عنه ومن ربع المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة فى طريق الله فان المانع من الله الصفات المذمومة فى الخلق فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه ويعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة التى لا بد وان توضع خلفا عن المذمومة بعد محوها فاذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الانواع التى أشرنا اليها من الغرور وأصل ذلك كله أن يغلب حب الله على القلب ويسقط حب الدنيا منه حتى تقوى به الارادة وتصح به النية ولا يحصل ذلك الا بالمعرفة التى ذكرناها فان قلت فاذا فعل جميع ذلك فما الذى يخاف عليه فأقول يخاف عليه أن يخدعه الشيطان ويدعوه الى نصح الخلق ونشر العلم ودعوة الناس الى ما عرفه من دين الله فان المريد المخلص اذا فرغ من تهذيب نفسه وأخلاقه وراقب القلب حتى صفاه من جميع المكدرات واستوى على الصراط المستقيم وصغرت الدنيا فى عينه فتركها وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت اليهم ولم يبق له الا هم واحد وهو الله تعالى والتلذذ بذكره ومناجاته والشوق الى لقائه وقد عجز الشيطان عن اغوائه اذ يأتيه من جهة الدنيا وشهوات النفس فلا يطيعه فيأتيه من جهة الدين ويدعوه الى الرحمة على خلق الله والشفقة على دينهم والنصح لهم والدعاء الى الله فينظر العبد برحمته الى العبيد فيراهم حيارى فى أمرهم سكارى فى دينهم صما عميا قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون وفقدوا الطبيب وأشرفوا على العطب فغلب على قلبه الرحمة لهم وقد كان عنده حقيقة المعرفة بما يهديهم ويبين لهم ضلالهم ويرشدهم الى سعادتهم وهو يقدر على ذكرها من غير تعب ومؤنة ولزوم غرامة فكان مثله كمثل رجل كان به داء عظيم لا يطاق ألمه وقد كان لذلك يسهر ليله ويقلق نهاره لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك ولا يتصرف لشدة ضربان الالم فوجد له دواء عفوا صفوا من غير ثمن ولا تعب ولا مرارة فى تناوله فاستعمله فبرئ وصح فطاب نومه بالليل بعد طول سهره وهدأ بالنهار بعد شدة القلق وطاب عيشه بعد نهاية الكدر وأصاب لذة العافية بعد طول السقام ثم نظر الى عدد كثير من المسلمين واذا بهم تلك العلة بعينها وقد طال سهرهم واشتد قلقهم وارتفع الى السماء أنينهم فتذكر أن دواءهم هو الذى يعرفه ويقدر على شفائهم باسهل ما يكون وفى أرجى زمان فأخذته الرحمة والرأفة ولم يجد فسحة من نفسه فى التراخى عن الاشتغال بعلاجهم فكذلك العبد المخلص بعد أن اهتدى الى الطريق وشفى من أمراض القلوب شاهد الخلق وقد مرضت قلوبهم وأعضل داؤهم وقرب هلاكهم واشفاؤهم وسهل عليه دواؤهم فانبعث من ذات نفسه عزم جازم فى الاشتغال بنصحهم وحرضه الشيطان على ذلك رجاء أن يجد مجالا للفتنة فلما اشتغل بذلك وجد الشيطان مجالا للفتنة فدعاه الى الرياسة دعاء خفيا أخفى من دبيب النمل لا يشعر به المريد فلم يزل ذلك الدبيب

انحلت عقدة وان توضأ انحلت عقدة أخرى وان صلى ركعتين انحلت العقد كلها فأصبح نشيطا طيب النفس والا أصبح كسلان خبيث النفس (وفى خبر آخر) ان من

في

في قلبه حتى دعاه الى التصنع والتزين للخلق بتحسين الالفاظ والنغمات والحركات والتصنع في الزي والهيئة فاقبل الناس اليه يعظمونه ويبجلونه ويوقرونه توقيرا يزيد على توقير الملوك اذ رأوه شافيا لادوائهم بمحض الشفقة والرحمة من غير طمع فصار أحب اليهم من آبائهم وامهاتهم وأقاربهم فآثروه بابدانهم وأموالهم وصاروا له خولا كالعبيد والخدم فخدموه وقدموه في المحافل وحكموه على الملوك والسلاطين فعند ذلك انتشر الطبع وارتاحت النفس وذاقت لذة يا لها من لذة أصابت من الدنيا شهوة يستحقر معها كل شهوة فكان قد ترك الدنيا فوقع في أعظم لذاتها فعند ذلك وجد الشيطان فرصة وامتدت الى قلبه يده فهو يستعمله في كل ما يحفظ عليه تلك اللذة وأمارة انتشار الطبع وركون النفس الى الشيطان أنه لو أخطأ فرد عليه بين يدي الخلق غضب فاذا أنكر على نفسه ما وجده من الغضب بادر الشيطان فخيل اليه أن ذلك غضب لله لانه اذا لم يحسن اعتقاد المريدين فيه انقطعوا عن طريق الله فوقع في الغرور وربما أخرجه ذلك الى الوقيعة فيمن رد عليه فوقع في الغيبة المحظورة بعد تركه الحلال المتسع ووقع في الكبر الذي هو تمرد عن قبول الحق والشكر عليه بعد أن كان يحذر من طوارق الخطرات وكذلك اذا سبقه الضحك أو فتر عن بعض الاوراد جزعت النفس أن يطلع عليه فيسقط قبوله فاتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء وربما زاد في الاعمال والاوراد لاجل ذلك والشيطان يخيل اليه انك انما تفعل ذلك كيلا يفتر رأيهم عن طريق الله فيتركون الطريق بتركه وانما ذلك خدعة وغرور بل هو جزع من النفس خيفة فوت الرياسة ولذلك لا تجزع نفسه من اطلاع الناس على مثل ذلك من أقرانه بل ربما يحب ذلك ويستبشر به ولو ظهر من أقرانه من مالت القلوب الى قبوله وزاد أثر كلامه في القبول على كلامه شق ذلك عليه ولولا أن النفس قد استبشرت واستلذت الرياسة لكان يغتنم ذلك اذ مثاله أن يرى الرجل جماعة من اخوانه قد وقعوا في بئر وتغطى رأس البئر بحجر كبير فعجز واعن الرقي من البئر بسببه فرق قلبه لاخوانه فجاء ليرفع الحجر من رأس البئر فشق عليه فجاء من أعانه على ذلك حتى تيسر عليه أو كفاه ذلك ونحاه بنفسه فيعظم بذلك فرحه لا محالة اذ غرضه خلاص اخوانه من البئر فان كان غرض الناصح خلاص اخوانه المسلمين من النار فاذا ظهر من أعانه أو كفاه ذلك لم يثقل عليه أرأيت لو اهتدوا جميعهم من أنفسهم أكان ينبغي أنه يثقل ذلك عليه ان كان غرضه هدايتهم فاذا اهتدوا بغيره فلم يثقل عليه ومهما وجد ذلك في نفسه دعاه الشيطان الى جميع كبائر القلوب وفواحش الجوارح وأهلكه فنعوذ بالله من زيغ القلوب بعد الهدى ومن اعوجاج النفس بعد الاستواء فان قلت فمتى يصح له أن يشتغل بنصح الناس فاقول اذا لم يكن له قصد الا هدايتهم لله تعالى وكان يود لو وجد من يعينه أو لو اهتدوا بانفسهم وانقطع بالكلية طمعه عن ثنائهم وعن أموالهم فاستوى عنده حمدهم وذمهم فلم يبال بذمهم اذا كان الله يحمده ولم يفرح بحمدهم اذا لم يقترن به حمد الله تعالى ونظر اليهم كما ينظر الى السادات والى البهائم أما الى السادات فمن حيث انه لا يتكبر عليهم ويرى كلهم خيرا منه لجهله بالخاتمة واما الى البهائم فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة في قلوبهم فانه لا يبالي كيف تراه البهائم فلا يتزين لها ولا يتصنع بل راعي الماشية انما غرضه رعاية الماشية ودفع الذئب عنها دون نظر الماشية اليه فما لم ير سائر الناس كالماشية التي لا يلتفت الى نظرها ولا يبالي بها لا يسلم من الاشتغال باصلاحهم نعم ربما يصلحهم ولكن يفسد نفسه باصلاحهم فيكون كالسراج يضيء لغيره ويحترق في نفسه فان قلت فلو ترك الوعاظ الوعظ الا عند نيل هذه الدرجة لخلت الدنيا عن الوعظ وخربت القلوب فاقول قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حب الدنيا رأس كل خطيئة ولو لم يحب الناس الدنيا لهلك العالم وبطلت المعايش وهلكت القلوب والابدان جميعا الا انه صلى الله عليه وسلم علم ان حب الدنيا مهلك وان ذكر كونه مهلكا لا ينزع الحب من قلوب الاكثر بل الاقلين الذين لا تخرب الدنيا بتركهم فلم يترك النصح وذكر ما في حب الدنيا من الخطر ولم يترك ذكره خوفا من ان يترك نفسه بالشهوات المهلكة التي سلطها الله على عباده ليسوقهم بها الى جهنم تصديقا لقوله تعالى ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين فكذلك لا تزال ألسنة الوعاظ مطلقة لحب الرياسة ولا يدعونها بقول من يقول ان الوعظ لحب الرياسة حرام كما لا يدع الخلق الشرب والزنا والسرقة والرياء والظلم وسائر المعاصي بقول الله تعالى ورسوله ان ذلك حرام فانظر

نام حتى يصبح بال الشيطان في أذنه والذي يخل بقيام الليل كثرة الاهتمام بامور الدنيا وكثرة أشغال الدنيا واتعاب الجوارح

لنفسك وكن فارغ القلب من حديث الناس فان الله تعالى يصلح خلقا كثيرا بافساد شخص واحد وأشخاص ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض وان الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم فانما يخشى أن تنسد طريق الاتعاظ فاما أن تخرس ألسنة الوعاظ ووراءهم باعث الرياسة وحب الدنيا فلا يكون ذلك أبدا فان قلت فان علم المريد هذه المكيدة من الشيطان فاشتغل بنفسه وترك النصح أو نصح وراعى شرط الصدق والاخلاص فيه فما الذي يخاف عليه وما الذي بقي بين يديه من الاخطار وحبائل الاغترار فاعلم أنه بقي عليه أعظمه وهو أن الشيطان يقول له قد أعجزتني وأفلت مني بذكائك وكمال عقلك وقد قدرت على جملة من الاولياء والكبراء وماقدرت عليك فما أصبرك وما أعظم عند الله قدرك ومحلك اذ قواك على قهري ومكنك من التفطن لجميع مداخل غروري فيصغي اليه ويصدقه ويعجب بنفسه في فراره من الغرور كله فيكون اعجابه بنفسه غاية الغرور وهو المهلك الاكبر فالعجب أعظم من كل ذنب ولذلك قال الشيطان يا ابن آدم اذا ظننت أنك بعلمك تخلصت مني فبجهلك قد وقعت في حبائلي فان قلت فلو لم يعجب بنفسه اذ علم أن ذلك من الله تعالى لا منه وان مثله لا يقوى على دفع الشيطان الا بتوفيق الله ومعونته ومن عرف ضعف نفسه وعجزه عن أقل القليل فاذا قدر على مثل هذا الامر العظيم علم أنه لم يقو عليه بنفسه بل بالله تعالى فما الذي يخاف عليه بعد نفي العجب فاقول يخاف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه والامن من مكره حتى يظن انه يبقى على هذه الوتيرة في المستقبل ولا يخاف من الفترة والانقلاب فيكون حاله الاتكال على فضل الله فقط دون أن يقارنه الخوف من مكره ومن أمن مكر الله فهو خاسر جدا بل سبيله أن يكون مشاهدا جملة ذلك من فضل الله ثم خائفا على نفسه أن يكون قد سدت عليه صفة من صفات قلبه من حب دنيا ورياء وسوء خلق والتفات الى عز وهو غافل عنه ويكون خائفا أن يسلب حاله في كل طرفة عين غير آمن من مكر الله ولا غافل عن خطر الخاتمة وهذا خطر لا محيص عنه وخوف لا نجاة منه الا بعد مجاوزة الصراط ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الاولياء في وقت النزع وكان قد بقي له نفس فقال أفلت مني يا فلان فقال لا بعد ولذلك قيل الناس كلهم هلكى الا العالمون والعالمون كلهم هلكى الا العاملون والعاملون كلهم هلكى الا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم فاذا المغرور هالك والمخلص الفار من الغرور على خطر فلذلك لا يفارق الخوف والحذر قلوب أولياء الله أبدا فنسأل الله تعالى العون والتوفيق وحسن الخاتمة فان الامور بخواتيمها تم كتاب ذم الغرور وبه تم ربع المهلكات ويتلوه في أول ربع المنجيات كتاب التوبة والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده وهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

والامتلاء من الطعام وكثرة الحديث واللغو واللغط واهمال القيلولة والموفق من يغتنم وقته ويعرف داءه ودواءه ولا يهمل فيهمل

(تم طبع الجزء الثالث من احياء علوم الدين ويليه الجزء الرابع بعون الله تعالى وتوفيقه)

(فهرست الجزء الثالث وهو الربع الثالث من كتاب احياء علوم الدين لحجة الاسلام الغزالي)

(تمت)

(فهرست الجزء الرابع وهو الربع الرابع من كتاب احياء علوم الدين لحجة الاسلام الغزالي)

(تمت)



الجزء الرابع

من كتاب احياء علوم الدين تأليف الامام العالم
العلامة المحقق المدقق حجة الاسلام
أبى حامد محمد بن محمد بن محمد
الغزالى قدس الله روحه
ونور ضريحه
آمين

(وبهامشه باقى كتاب عوارف المعارف للعارف بالله تعالى
الامام السهروردى نفعنا الله بهم آمين)

(ترجمة الامام السهروردى)

هو أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمويه واسمه عبد الله البكرى الملقب شهاب الدين بن سعد بن الحسين بن القاسم ابن النضر بن القاسم بن النضر بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد ابن أبى بكر الصديق رضى الله عنه * كان فقيها شافعى المذهب تخرج عليه خلق كثير من الصوفية فى المجاهدة والخلوة وصحب عمه أبا النجيب والشيخ أبا محمد عبد القادر بن أبى صالح الجيلى وكان شيخ الشيوخ ببغداد وله تآليف حسنة منها كتاب عوارف المعارف وله أشعار كثيرة فى كلام القوم * مولده بسهرورد فى أواخر رجب سنة تسع وثلاثين وخمسمائة * وتوفى فى المحرم * سنة ٦٣٢ ببغداد كذا فى ابن خلكان وسهرورد بضم السين وسكون الهاء وفتح الراء والواو وسكون الراء الثانية وفى آخره دال مهملة وهى بلدة عند زنجان من عراق العجم اهـ

(طبع بالمطبعة الميمنية)
(على نفقة أصحابها (مصطفى البابى الحلبى وأخويه بكرى وعيسى بمصر)



الحمد لله الذى بتحميده يستفتح كل كتاب * وبذكره يصدر كل خطاب * وبحمده يتنعم أهل النعيم فى دار الثواب وباسمه يتسلى الاشقياء وان أرخى دونهم الحجاب * وضرب بينهم وبين السعداء بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب * ونتوب اليه توبة من يوقن انه رب الارباب ومسبب الاسباب * ونرجوه رجاء من يعلم انه الملك الرحيم الغفور التواب * ونمزج الخوف برجائنا مزج من لا يرتاب * انه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب * ونصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه صلاة تنقذنا من هول المطلع يوم العرض والحساب * وتمهد لنا عند الله زلفى وحسن مآب ﴿أما بعد﴾ فان التوبة عن الذنوب * بالرجوع الى ستار العيوب وعلام الغيوب * مبدأ طريق السالكين * ورأس مال الفائزين * وأول أقدام المريدين * ومفتاح استقامة المائلين * ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين * ولابينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الانبياء أجمعين * وما أجدر بالاولاد * الاقتداء بالآباء والاجداد * فلا غرو ان أذنب الآدمى واجترم * فهى شنشنة يعرفها من أخزم * ومن أشبه أباه فما ظلم * ولكن الاب اذا جبر بعد ما كسر وعمر بعد ان هدم * فليكن النزوع اليه فى كل طرفى النفى والاثبات والوجود والعدم * ولقد قرع آدم سن الندم * وتندم على ما سبق منه وتقدم فمن اتخذه قدوة فى الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم * بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين * والتجرد للشر دون التلافى سجية الشياطين * والرجوع الى الخير بعد الوقوع فى الشر ضرورة الآدميين * فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان * والمتجرد للشر شيطان * والمتلافى للشر بالرجوع الى الخير بالحقيقة انسان * فقد ازدوج فى طينة الانسان شائبتان * واصطحب فيه سجيتان * وكل عبد مصحح نسبه اما الى الملك أو الى آدم أو الى الشيطان * فالتائب قد أقام البرهان * على صحة نسبه الى آدم بملازمة حد الانسان * والمصر على الطغيان * مسجل على نفسه بنسب الشيطان * فاما تصحيح النسب بالتجرد لمحض الخير الى الملائكة فخارج عن حيز الامكان * فان الشر معجون مع الخير فى طينة آدم عجنا محكما لا يخلصه الا احدى النارين * نار الندم أو نار جهنم فالاحراق

﴿الباب التاسع والاربعون فى استقبال النهار والادب فيه والعمل﴾
قال الله تعالى وأقم الصلاة طرفى النهار أجمع المفسرون على ان أحد الطرفين أراد به الفجر وأمر بصلاة الفجر واختلفوا فى الطرف الآخر فقال قوم أراد به المغرب وقال آخرون صلاة العشاء وقال قوم صلاة الفجر والظهر طرف وصلاة العصر والمغرب طرف وزلفا من الليل صلاة العشاء ثم ان الله تعالى أخبر عن عظيم بركة الصلاة وشرف فائدتها وثمرتها وقال ان الحسنات يذهبن السيئات أى الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات (وروى) ان أبا اليسر كعب بن عمرو الانصارى كان يبيع التمر فاتت امرأة تبتاع تمرا فقال لها ان هذا التمر ليس بجيد وفى البيت أجود منه

بالنار ضروري في تخليص جوهر الانسان من خبائث الشيطان واليك الآن اختيار أهون النارين * والمبادرة
الى أخف الشرين * قبل أن يطوى بساط الاختيار * و يساق الى دار الاضطرار * اما الى الجنة واما الى النار
* واذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع وجب تقديمها في صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها
وشروطها وسببها وعلامتها وثمرتها والآفات المانعة منها والادوية الميسرة لها و يتضح ذلك بذكر أربعة أركان
(الركن الاول) في نفس التوبة وبيان حدها وحقيقتها وانها واجبة على الفور وعلى جميع الاشخاص وفي
جميع الاحوال وانها اذا صحت كانت مقبولة (الركن الثاني) فيما عنه التوبة وهو الذنوب وبيان انقسامها الى
صغائر وكبائر وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله تعالى وبيان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات
والسيئات وبيان الاسباب التي بها تعظم الصغائر (الركن الثالث) في بيان شروط التوبة ودوامها وكيفية
تدارك ما مضى من المظالم وكيفية تكفير الذنوب وبيان أقسام التائبين في دوام التوبة (الركن الرابع) في
السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج في حل عقدة الاصرار من المذنبين و يتم المقصود بهذه الاركان
الاربعة ان شاء الله عز وجل (الركن الاول) في نفس التوبة

((بيان حقيقة التوبة وحدها))

اعلم ان التوبة عبارة عن معنى ينتظم و يلتئم من ثلاثة أمور مرتبة علم وحال وفعل فالعلم الاول والحال الثاني
والفعل الثالث والاول موجب للثاني والثاني موجب للثالث ايجابا اقتضاه اطراد سنة الله في الملك والملكوت
(أما العلم) فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب فاذا عرف ذلك معرفة
محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب فان القلب مهما شعر بفوات
محبوب تألم فان كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندما فاذا غلب
هذا الالم على القلب واستولى انبعث من هذا الالم في القلب حالة أخرى تسمى ارادة وقصدا الى فعل له تعلق بالحال
و بالماضي و بالاستقبال اما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذي كان ملابسا وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك
الذنب المفوت للمحبوب الى آخر العمر وأما بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء ان كان قابلا للجبر فالعلم هو
الاول وهو مطلع هذه الخيرات وأعني بهذا العلم الايمان واليقين فان الايمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب
سموم مهلكة واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيثمر نور هذا
الايمان مهما أشرق على القلب نار الندم فيتألم بها القلب حيث يبصر باشراق نور الايمان انه صار محجوبا عن
محبوبه كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب فرأى
محبوبه وقد أشرف على الهلاك فتشتعل نيران الحب في قلبه وتنبعث تلك النيران بارادته للانتهاض للتدارك
فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول
فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده و يجعل العلم كالسابق
والمقدمة والترك كالثمرة والتابع المتأخر و بهذا الاعتبار قال عليه السلام الندم توبة اذ لا يخلو الندم عن علم
أوجبه وأثمره وعن عزم يتبعه و يتلوه فيكون الندم محفوفا بطرفيه أعني ثمرته ومثمره و بهذا الاعتبار قيل في حد
التوبة انه ذوبان الحشا لما سبق من الخطا فان هذا يعرض لمجرد الالم ولذلك قيل هو نار في القلب تلتهب وصدع في
الكبد لا ينشعب و باعتبار معنى الترك قيل في حد التوبة انه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء وقال سهل بن
عبد الله التستري التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة ولا يتم ذلك الا بالخلوة والصمت وأكل
الحلال وكأنه أشار الى المعنى الثالث من التوبة والاقاويل في حدود التوبة لا تنحصر واذا فهمت هذه المعاني
الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت ان جميع ما قيل في حدودها قاصر عن الاحاطة بجميع معانيها وطلب العلم
بحقائق الامور أهم من طلب الالفاظ المجردة

((بيان وجوب التوبة وفضلها))

اعلم ان وجوب التوبة ظاهر بالاخبار والآيات وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله
بنور الايمان صدره حتى اقتدر على ان يسعى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل مستغنيا عن قائد يقوده في
كل خطوة فالسالك اما أعمى لا يستغني عن القائد في خطوة واما بصير يهدى الى أول الطريق ثم يهتدي بنفسه

فهل لك فيه رغبة قالت
نعم فذهب بها الى بيته
فضمها الى نفسه وقبلها
فقالت له اتق الله فتركها
وندم ثم أتى النبي عليه
السلام وقال يا رسول
الله ما تقول في رجل
راود امرأة عن نفسها
ولم يبق شئ مما يفعل
الرجال بالنساء الا ركبه
غير انه لم يجامعها قال
عمر بن الخطاب لقد ستر
الله عليك لو سترت على
نفسك ولم يرد رسول الله
صلى الله عليه وسلم عليه
شيأ وقال أنتظر أمر ربي
وحضرت صلاة العصر
وصلى النبي عليه
الصلاة والسلام العصر
فلما فرغ أتاه جبريل
بهذه الآية فقال النبي
عليه السلام أين أبو
اليسر فقال ها أنا ذا
يا رسول الله قال شهدت
معنا هذه الصلاة قال نعم
قال اذهب فانها كفارة
لما عملت فقال عمر
يا رسول الله هذا له خاصة
أو لنا عامة فقال بل
للناس عامة * فيستعذ

وكذلك الناس فى طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد فى خطوه فيفتقر الى أن يسمع فى كل قدم نصا من كتاب الله أو سنة رسوله وربما يعوزه ذلك فيتحير فسيرهذا وان طال عمره وعظم جده مختصر وخطاه قاصرة ومن سعيد شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فيتنبه بادنى اشارة لسلوك طريق معوصة وقطع عقبات متعبة ويشرق فى قلبه نور القرآن ونور الايمان وهو لشدة نور باطنه يجتزئ بادنى بيان فكأنه يكاد زيته يضىء ولو لم تمسسه نار فاذا مسته نار فهو نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء وهذا لا يحتاج الى نص منقول فى كل واقعة فمن هذا حاله اذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أولا بنور البصيرة الى التوبة ماهى ثم الى الوجوب مامعناه ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك فى ثبوته لها وذلك بان يعلم بان معنى الواجب ماهو واجب فى الوصول الى سعادة الابد والنجاة من هلاك الابد فانه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشئ وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجبا معنى وقول القائل صار واجبا بالايجاب حديث محض فان مالا غرض لنا آجلا وعاجلا فى فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به أوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه فاذا عرف معنى الوجوب وانه الوسيلة الى سعادة الابد وعلم أن لا سعادة فى دار البقاء الا فى لقاء الله تعالى وان كل محجوب عنه يشقى لا محالة محول بينه وبين مايشتهى محترق بنار الفراق ونار الجحيم وعلم انه لا مبعد عن لقاء الله الا اتباع الشهوات والانس بهذا العالم الفانى والاكباب على حب مالا بد من فراقه قطعا وعلم انه لا مقرب من لقاء الله الا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والاقبال بالكلية على الله طلبا للانس به بدوام ذكره وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته وعلم ان الذنوب التى هى اعراض عن الله واتباع لمحاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته سبب كونه محجوبا مبعدا عن الله تعالى فلا يشك فى ان الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول الى القرب وانما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم فانه مالم يعلم ان الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجع بسبب سلوكه فى طريق البعد ومالم يتوجع فلا يرجع ومعنى الرجوع الترك والعزم فلا يشك فى ان المعانى الثلاثة ضرورية فى الوصول الى المحبوب وهكذا يكون الايمان الحاصل عن نور البصيرة وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أكثر الخلق ففى التقليد والاتباع له مجال رحب يتوصل به الى النجاة من الهلاك فليلاحظ قول الله وقول رسوله وقول السلف الصالحين فقد قال الله تعالى وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون وهذا أمر على العموم وقال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا الآية ومعنى النصوح الخالص لله تعالى خاليا عن الشوائب مأخوذ من النصح ويدل على فضل التوبة قوله تعالى ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وقال عليه السلام التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل فى أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى اذا اشتد عليه الحر والعطش أو ماشاء الله قال أرجع الى مكانى الذى كنت فيه فانام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فاذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه فالله تعالى أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وفى بعض الالفاظ قال من شدة فرحه اذا أراد شكر الله أنا ربك وأنت عبدى ويروى عن الحسن قال لما تاب الله عز وجل على آدم عليه السلام هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقالا يا آدم قرت عينك بتوبة الله عليك فقال آدم عليه السلام يا جبريل فان كان بعد هذه التوبة سؤال فاين مقامى فاوحى الله اليه يا آدم ورثت ذريتك التعب والنصب وورثتهم التوبة فمن دعانى منهم لبيته كما لبيتك ومن سألنى المغفرة لم أبخل عليه لانى قريب مجيب يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب والاخبار والآثار فى ذلك لا تحصى والاجماع منعقد من الامة على وجوبها اذ معناه العلم بان الذنوب والمعاصى مهلكات ومبعدات من الله تعالى وهذا داخل فى وجوب الايمان ولكن قد تدهش الغفلة عنه فمعنى هذا العلم ازالة هذه الغفلة ولا خلاف فى وجوبها ومن معانيها ترك المعاصى فى الحال والعزم على تركها فى الاستقبال وتدارك ماسبق من التقصير فى سابق الاحوال وذلك لا يشك فى وجوبه وأما التندم على ماسبق والتحزن عليه فواجب وهو روح التوبة وبه تمام التلافى فكيف

العبد لصلاة الفجر باستكمال الطهارة قبل طلوع الفجر ويستقبل الفجر بتجديد الشهادة كما ذكرنا فى أول الليل ثم يؤذن ان لم يكن أجاب المؤذن ثم يصلى ركعتى الفجر يقرأ فى الاولى بعد الفاتحة قل يا أيها الكافرون وفى الثانية قل هو الله أحد وان أراد قرأ فى الاولى قولوا آمنا بالله وما أنزل الآية فى سورة البقرة وفى الاخرى ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول ثم يستغفر الله ويسبح الله تعالى بما يتيسر له من العددوان اقتصر على كلمة أستغفر الله لذنبى سبحان الله بحمد ربى أتى بالمقصود من التسبيح والاستغفار (ثم يقول) اللهم صل على محمد وعلى آل محمد اللهم انى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى وتجمع بها شملى وتلم بها شعثى وترد بها الفتن عنى وتصلح بها دينى وتحفظ

لا

لا يكون واجبا بل هو نوع ألم يحصل لامحالة عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع في سخط الله فان قلت تألم القلب أمر ضروري لا يدخل تحت الاختيار فكيف يوصف بالوجوب فاعلم أن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل الى تحصيل سببه وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب لا بمعنى أن العلم يخلقه العبد ويحدثه في نفسه فان ذلك محال بل العلم والندم والفعل والارادة والقدرة والقادر الكل من خلق الله وفعله والله خلقكم وما تعملون هذا هو الحق عند ذوي الابصار وما سوى هذا ضلال فان قلت أفليس للعبد اختيار في الفعل والترك قلنا نعم وذلك لا يناقض قولنا ان الكل من خلق الله تعالى بل الاختيار أيضا من خلق الله والعبد مضطر في الاختيار الذي له فان الله اذا خلق اليد الصحيحة وخلق الطعام اللذيذ وخلق الشهوة للطعام في المعدة وخلق العلم في القلب بان هذا الطعام يسكن الشهوة وخلق الخواطر المتعارضة في أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا ثم خلق العلم بانه لا مانع ثم عند اجتماع هذه الاسباب تنجزم الارادة الباعثة على التناول فانجزام الارادة بعد تردد الخواطر المتعارضة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارا ولا بد من حصوله عند تمام أسبابه فاذا حصل انجزام الارادة بخلق الله تعالى اياها تحركت اليد الصحيحة الى جهة الطعام لامحالة اذ بعد تمام الارادة والقدرة يكون حصول الفعل ضروريا فتحصل الحركة فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزام الارادة وهما أيضا من خلق الله وانجزام الارادة يحصل بعد صدق الشهوة والعلم بعدم الموانع وهما أيضا من خلق الله تعالى ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيبا جرت به سنة الله تعالى في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة ما لم يخلق فيها صفة تسمى قدرة وما لم يخلق فيها حياة وما لم يخلق ارادة مجزومة ولا يخلق الارادة المجزومة ما لم يخلق شهوة وميلا في النفس ولا ينبعث هذا الميل انبعاثا تاما ما لم يخلق علما بانه موافق للنفس اما في الحال أو في المآل ولا يخلق العلم أيضا الا باسباب أخر ترجع الى حركة وارادة وعلم فالعلم والميل الطبيعي أبدا يستتبع الارادة الجازمة والقدرة والارادة أبدا تستردف الحركة وهكذا الترتيب في كل فعل والكل من اختراع الله تعالى ولكن بعض مخلوقاته شرط البعض فلذلك يجب تقدم البعض وتأخر البعض كما لا تخلق الارادة الا بعد العلم ولا يخلق العلم الا بعد الحياة ولا تخلق الحياة الا بعد الجسم فيكون خلق الجسم شرطا لحدوث الحياة لان الحياة تتولد من الجسم ويكون خلق الحياة شرطا لخلق العلم لا أن العلم يتولد من الحياة ولكن لا يستعد المحل لقبول العلم الا اذا كان حيا ويكون خلق العلم شرطا لجزم الارادة لا أن العلم يولد الارادة ولكن لا يقبل الارادة الا جسم حي عالم ولا يدخل في الوجود الا ممكن وللامكان ترتيب لا يقبل التغيير لان تغييره محال فمهما وجد شرط الوصف استعد المحل به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف من الجود الالهي والقدرة الازلية عند حصول الاستعداد ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب والعبد مجرى هذه الحوادث المرتبة وهي مرتبة في قضاء الله تعالى الذي هو واحد كلمح البصر ترتيبا كليا لا يتغير وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعداها وعنه العبارة بقوله تعالى انا كل شئ خلقناه بقدر وعن القضاء الكلي الازلي العبارة بقوله تعالى وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر وأما العباد فانهم مسخرون تحت مجاري القضاء والقدر ومن جملة القدر خلق حركة في يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة وبعد خلق ميل قوي جازم في نفسه يسمى القصد وبعد علم بما اليه ميله يسمى الادراك والمعرفة فاذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الامور الاربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت وقالوا يا أيها الرجل قد تحركت ورميت وكتبت ونودي من وراء حجاب الغيب وسرادقات الملكوت وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى وما قتلت اذ قتلت ولكن قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم وعند هذا تتحير عقول القاعدين في بحبوحة عالم الشهادة فمن قائل انه جبر محض ومن قائل انه اختراع صرف ومن متوسط مائل الى أنه كسب ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا الى عالم الغيب والملكوت لظهر لهم أن كل واحد صادق من وجه وان القصور شامل لجميعهم فلم يدرك واحد منهم كنه هذا الامر ولم يحط علمه بجوانبه وتمام علمه ينال باشراق النور من كوة نافذة الى عالم الغيب وانه تعالى عالم الغيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحدا

بها غائبي وترفع بها شاهدي وتزكي بها عملي وتبيض بها وجهي وتلقني بها رشدي وتعصمني بها من كل سوء اللهم أعطني ايمانا صادقا ويقينا ليس بعده كفر ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة اللهم اني أسألك الفوز عند القضاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء والنصر على الاعداء ومرافقة الانبياء اللهم اني أنزل بك حاجتي وان قصر رأيي وضعف عملي وافتقرت الى رحمتك وأسألك يا قاضي الامور ويا شافي الصدور كما تجير بين البحور أن تجيرني من عذاب السعير ومن دعوة الثبور ومن فتنة القبور اللهم ما قصر عنه رأيي وضعف فيه عملي ولم تبلغه نيتي وأمنيتي من خير وعدته أحدا من عبادك أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك فأنا راغب اليك فيه وأسألك اياه يا رب العالمين

الامن ارتضى من رسول وقد يطلع على الشهادة من لم يدخل فى حيز الارتضاء ومن حرك سلسلة الاسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناط سلسلتها بمسبب الاسباب انكشف له سر القدر وعلم علما يقينا أن لاخالق الا الله ولا مبدع سواه فان قلت قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب أنه صادق من وجه وهو مع صدقه قاصر وهذا تناقض فكيف يمكن فهم ذلك وهل يمكن ايصال ذلك الى الافهام بمثال فاعلم أن جماعة من العميان قد سمعوا أنه حمل الى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه فقالوا لا بد لنا من مشاهدته ومعرفته باللمس الذى نقدر عليه فطلبوه فلما وصلوا اليه لمسوه فوقع يد بعض العميان على رجله ووقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على أذنه فقالوا قد عرفناه فلما انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلفت أجوبتهم فقال الذى لمس الرجل ان الفيل ما هو الا مثل اسطوانة خشنة الظاهر الا أنه ألين منها وقال الذى لمس الناب ليس كما يقول بل هو صلب لا لين فيه وأملس لا خشونة فيه وليس فى غلظ الاسطوانة أصلا بل هو مثل عمود وقال الذى لمس الاذن لعمرى هو لين وفيه خشونة فصدق أحدهما فيه ولكن قال ما هو مثل عمود ولا هو مثل اسطوانة وانما هو مثل جلد عريض غليظ فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه اذ أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل ولم يخرج واحد فى خبره عن وصف الفيل ولكنهم بجملتهم قصروا عن الاحاطة بكنه صورة الفيل فاستبصر بهذا المثال واعتبر به فانه مثال أكثر ما اختلفت الناس فيه وان كان هذا كلاما يناطح علوم المكاشفة ويحرك أمواجها وليس ذلك من غرضنا فلنرجع الى ما كنا بصدده وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة العلم والندم والترك وان الندم داخل فى الوجوب لكونه واقعا فى جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد وارادته وقدرته المتخللة بينهما وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمله

(بيان أن وجوب التوبة على الفور)

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه اذ معرفة كون المعاصى مهلكات من نفس الايمان وهو واجب على الفور والمتفصى عن وجوبه هو الذى عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه فان هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التى لا تتعلق بعمل بل هى من علوم المعاملة وكل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلا يقطع التفصى عن عهدته ما لم يصر باعثا عليه فالعلم بضرر الذنوب انما أريد ليكون باعثا على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الايمان وهو المراد بقوله عليه السلام لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن وما أراد به نفى الايمان الذى يرجع الى علوم المكاشفة كالعلم بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله فان ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصى وانما أراد به نفى الايمان لكون الزنا مبعدا عن الله تعالى موجبا للمقت كما اذا قال الطبيب هذا سم فلا تتناوله فاذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيبا وغير مصدق به بل المراد أنه غير مصدق بقوله انه سم مهلك فان العالم بالسم لا يتناوله أصلا فالعاصى بالضرورة ناقص الايمان وليس الايمان بابا واحدا بل هو نيف وسبعون بابا أعلاها شهادة أن لا اله الا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق ومثاله قول القائل ليس الانسان موجودا واحدا بل هو نيف وسبعون موجودا أعلاها القلب والروح وأدناها اماطة الاذى عن البشرة بان يكون مقصوص الشارب مقلوم الاظفار نقى البشرة عن الخبث حتى يتميز عن البهائم المرسلة الملوثة بأرواثها المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظلافها وهذا مثال مطابق فالايمان كالانسان وفقد شهادة التوحيد يوجب البطلان بالكلية كفقد الروح والذى ليس له الا شهادة التوحيد والرسالة هو كانسان مقطوع الاطراف مفقوء العينين فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لا أصل الروح وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التى تخلف عنها الاعضاء التى تمدها وتقويها فكذلك من ليس له الا أصل الايمان وهو مقصر فى الاعمال قريب من أن تقتلع شجرة ايمانه اذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للايمان فى مقدمة قدوم ملك الموت ووروده فكل ايمان لم يثبت فى اليقين أصله ولم تنتشر فى الاعمال فروعه لم يثبت على عواصف الاهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة الا ما يسقى بالطاعات على توالى الايام والساعات حتى رسخ وثبت وقول العاصى للمطيع انى مؤمن كما أنك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر أنا شجرة وأنت شجرة

اللهم اجعلنا هادين مهديين غير ضالين ولا مضلين حربا لاعدائك وسلما لاوليائك نحب بحبك الناس ونعادى بعداوتك من خالفك من خلقك اللهم هذا الدعاء منى ومنك الاجابة وهذا الجهد وعليك التكلان انا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ذى الحبل الشديد والامر الرشيد أسألك الامن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركع السجود والموفين بالعهود انك رحيم ودود وأنت تفعل ما تريد سبحان من تعطف بالعز وقال به سبحان من لبس المجد وتكرم به سبحان الذى لا ينبغى التسبيح الا له سبحان ذى الفضل والنعم سبحان ذى الجود والكرم سبحان الذى أحصى كل شئ بعلمه اللهم اجعل لى نورا فى قلبى ونورا فى قبرى ونورا فى سمعى ونورا فى بصرى

وما أحسن جواب شجرة الصنوبر اذا قالت ستعرفين اغترارك بشمول الاسم اذا عصفت رياح الخريف فعند ذلك تنقطع أصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة فى اسم الشجر مع الغفلة عن أسباب ثبوت الاشجار

وسوف ترى اذا انجلى الغبار * أفرس تحتك أم حمار

وهذا أمر يظهر عند الخاتمة وانما انقطع نياط العارفين خوفا من دواعى الموت ومقدماته الهائلة التى لا يثبت عليها الا الاقلون فالعاصى اذا كان لا يخاف الخلود فى النار بسبب معصيته كالصحيح المنهمك فى الشهوات المضرة اذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته وان الموت غالبا لا يقع بغأة فيقال له الصحيح يخاف المرض ثم اذا مرض خاف الموت وكذلك العاصى يخاف سوء الخاتمة ثم اذا ختم له بالسوء والعياذ بالله وجب الخلود فى النار فالمعاصى للايمان كالمأكولات المضرة للابدان فلا تزال تجتمع فى الباطن حتى تغير مزاج الاخلاط وهو لا يشعر بها الى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة فكذلك المعاصى فاذا كان الخائف من الهلاك فى هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات فى كل حال وعلى الفور فالخائف من هلاك الابد أولى بان يجب عليه ذلك واذا كان متناول السم اذا ندم يجب عليه ان يتقيأ ويرجع عن تناوله بابطاله واخراجه عن المعدة على سبيل الفور والمبادرة تلافيا لبدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه الا هذه الدنيا الفانية فمتناول سموم الدين وهى الذنوب أولى بان يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن مادام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر فان المخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية التى فيها النعيم المقيم والملك العظيم وفى فواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الذى تتصرم أضعاف أعمار الدنيا دون عشر عشير مدته اذ ليس لمدته آخر ألبتة فالبدار البدار الى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الايمان عملا يجاوز الامر فيه الاطباء واختيارهم ولا ينفع بعده الاحتماء فلا ينجع بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بانه من الهالكين ويدخل تحت عموم قوله تعالى انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى الى الاذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ولا يغرنك لفظ الايمان فتقول المراد بالآية الكافر اذ بين لك ان الايمان بضع وسبعون بابا وان الزانى لا يزنى حين يزنى وهو مؤمن فالمحجوب عن الايمان الذى هو شعب وفروع سيحجب فى الخاتمة عن الايمان الذى هو أصل كما ان الشخص الفاقد لجميع الاطراف التى هى حروف وفروع سيساق الى الموت المعدم للروح التى هى أصل فلا بقاء للاصل دون الفرع ولا وجود للفرع دون الاصل ولا فرق بين الاصل والفرع الا فى شئ واحد وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعا يستدعى وجود الاصل وأما وجود الاصل فلا يستدعى وجود الفرع فبقاء الاصل بالفرع ووجود الفرع بالاصل فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والاصل فلا يستغنى أحدهما عن الآخر وان كان أحدهما فى رتبة الاصل والآخر فى رتبة التابع وعلوم المعاملة اذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها فان هى لم تعمل عملها الذى تراد له قامت مؤيدة للحجة على صاحبها ولذلك يزاد فى عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر كما أوردنا من الاخبار فى كتاب العلم

(بيان أن وجوب التوبة عام فى الاشخاص والاحوال فلا ينفك عنه أحد ألبتة)

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا اذ قال تعالى وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون فعمم الخطاب ونور البصيرة أيضا يرشد اليه اذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب الى الشيطان ولا يتصور ذلك الا من عاقل ولا تكمل غريزة العقل الا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التى هى وسائل الشيطان الى اغواء الانسان اذ كمال العقل انما يكون عند مقاربة الاربعين وأصله انما يتم عند مراهقة البلوغ ومباديه تظهر بعد سبع سنين والشهوات جنود الشيطان والعقول جنود الملائكة فاذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة اذ لا يثبت أحدهما للآخر لانهما ضدان فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة واذا كانت الشهوات تكمل فى الصبا والشباب قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان واستولى على المكان ووقع للقلب به أنس وألف لا محالة مقتضيات الشهوات بالعادة وغلب ذلك عليه ويعسر عليه النزوع عنه ثم يلوح العقل الذى هو حزب الله وجنده ومنقذ

ونورا فى شعرى ونورا فى بشرى ونورا فى لحمى ونورا فى دمى ونورا فى عظامى ونورا من بين يدى ونورا من خلفى ونورا عن يمينى ونورا عن شمالى ونورا من فوقى ونورا من تحتى اللهم زدنى نورا وأعطنى نورا واجعل لى نورا ولهذا الدعاء أثر كثير وما رأيت أحدا حافظ عليه الا وعنده خير ظاهر وبركة وهو من وصية الصادقين بعضهم بعضا بحفظه والمحافظة عليه منقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يقرؤه بين الفريضة والسنة من صلاة الفجر ثم يقصد المسجد للصلاة فى الجماعة ويقول عند خروجه من منزله وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ويقول فى الطريق اللهم انى أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا اليك لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة خرجت

أوليائه من أيدي أعدائه شيأ فشيأ على التدريج فان لم يقو ولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان وأنجز اللعين موعوده حيث قال لاحتنكن ذريته الا قليلا وان كمل العقل وقوى كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات ورد الطبع على سبيل القهر الى العبادات ولا معنى للتوبة الا هذا وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيره الشيطان الى طريق الله تعالى وليس في الوجود آدمي الا وشهوته سابقة على عقله وغريزته التي هي عدة الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدة الملائكة فكان الرجوع عما سبق اليه على مساعدة الشهوات ضروريا في حق كل انسان نبيا كان أو غبيا فلا تظنن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام وقد قيل

فلا تحسبن هندا لها الغدر وحدها * سجية نفس كل غانية هند

بل هو حكم أزلي مكتوب على جنس الانس لا يمكن فرض خلافه ما لم تتبدل السنة الالهية التي لا مطمع في تبديلها فاذا كل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من جهله وكفره فاذا بلغ مسلما تبعا لابويه غافلا عن حقيقة اسلامه فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الاسلام فانه لا يغني عنه اسلام أبويه شيأ ما لم يسلم بنفسه فان فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وألفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع الى قالب حدود الله في المنع والاطلاق والانفكاك والاسترسال وهو من أشق أبواب التوبة وفيه هلك الاكثرون اذ عجزوا عنه وكل هذا رجوع وتوبة فدل ان التوبة فرض عين في حق كل شخص لا يتصور ان يستغني عنها أحد من البشر كما لم يستغن آدم فخلقة الولد لا تتسع لما لم يتسع له خلقة الوالد أصلا وأما بيان وجوبها على الدوام وفي كل حال فهو ان كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه اذ لم يخل عنه الانبياء كما ورد في القرآن والاخبار من خطايا الانبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم فان خلا في بعض الاحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب فان خلا في بعض الاحوال عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله فان خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله وكل ذلك نقص وله أسباب وترك أسبابه بالتشاغل باضدادها رجوع عن طريق الى ضده والمراد بالتوبة الرجوع ولا يتصور الخلو في حق الآدمي عن هذا النقص وانما يتفاوتون في المقادير فأما الاصل فلا بد منه ولهذا قال عليه السلام انه ليغان على قلبي حتى استغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة الحديث ولذلك أكرمه الله تعالى بان قال ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر واذا كان هذا حاله فكيف حال غيره فان قلت لا يخفى ان ما يطرأ على القلب من الهموم والخواطر نقص وان الكمال في الخلو عنه وان القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص وانه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال وان الانتقال الى الكمال من أسباب النقصان رجوع والرجوع توبة ولكن هذه فضائل لا فرائض وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال والتوبة عن هذه الامور ليست بواجبة اذ ادراك الكمال غير واجب في الشرع فما المراد بقولك التوبة واجبة في كل حال فاعلم انه قد سبق أن الانسان لا يخلو في مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلا وليس معنى التوبة تركها فقط بل تمام التوبة بتدارك ما مضى وكل شهوة اتبعها الانسان ارتفع منها ظلمة الى قلبه كما يرتفع عن نفس الانسان ظلمة الى وجه المرآة الصقيلة فان تراكمت ظلمة الشهوات صار رينا كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثا كما قال تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون فاذا تراكم الرين صار طبعا فيطبع على قلبه كالخبث على وجه المرآة اذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده وصار لا يقبل الصقل بعده وصار كالمطبوع من الخبث ولا يكفي في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل بل لا بد من محو تلك الارين التي انطبعت في القلب كما لا يكفي في ظهور الصور في المرآة قطع الانفاس والبخارات المسودة لوجهها في المستقبل ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الارين وكما يرتفع الى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فيرتفع اليه نور من الطاعات وترك الشهوات فتنمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة واليه الاشارة بقوله عليه السلام أتبع السيئة الحسنة تمحها فاذا لا يستغني العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات هذا في قلب حصل أولا صفاؤه وجلاؤه ثم أظلم باسباب عارضة فاما التصقيل الاول ففيه يطول الصقل اذ ليس شغل الصقل في ازالة الصدأ عن المرآة كشغله في عمل أصل المرآة فهذه أشغال طويلة

اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك أسألك أن تنقذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي انه لا يغفر الذنوب الا أنت (وروى) أبو سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قال ذلك اذا خرج الى الصلاة وكل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له وأقبل الله تعالى عليه بوجهه الكريم حتى يقضي صلاته واذا دخل المسجد أو دخل سجادته للصلاة يقول بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك ويقدم رجله اليمنى في الدخول واليسرى في الخروج من المسجد أو السجادة فسجادة الصوفي بمنزلة البيت والمسجد ثم يصلي صلاة الصبح في جماعة فاذا سلم يقول لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو

لا ينقطع أصلا وكل ذلك يرجع الى التوبة فأما قولك ان هذا لا يسمى واجبا بل هو فضل وطلب كمال فاعلم ان
الواجب له معنيان أحدهما ما يدخل في فتوى الشرع ويشترك فيه كافة الخلق وهو القدر الذي لو اشتغل به كافة
الخلق لم يخرب العالم فلو كلف الناس كلهم ان يتقوا الله حق تقاته لتركوا المعايش ورفضوا الدنيا بالكلية ثم
يؤدي ذلك الى بطلان التقوى بالكلية فانه مهما فسدت المعايش لم يتفرغ أحد للتقوى بل شغل الحياكة
والحراثة والخبز يستغرق جميع العمر من كل واحد فيما يحتاج اليه فجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا
الاعتبار والواجب الثاني هو الذي لا بد منه للوصول به الى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين
الصديقين والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول اليه كما يقال الطهارة واجبة في صلاة التطوع أي لمن
يريدها فانه لا يتوصل اليها الا بها فأما من رضي بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوع فالطهارة ليست
واجبة عليه لاجلها كما يقال العين والاذن واليد والرجل شرط في وجود الانسان يعني انه شرط لمن يريد أن يكون
انسانا كاملا ينتفع بانسانيته ويتوصل بها الى درجات العلا في الدنيا فأما من قنع بأصل الحياة ورضي أن يكون
كلحم على وضم وكخرقة مطروحة فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين ويد ورجل فأصل الواجبات الداخلة في
فتوى العامة لا يوصل الا الى أصل النجاة وأصل النجاة كأصل الحياة وما وراء أصل النجاة من السعادات التي بها
تنتهي الحياة يجري مجرى الاعضاء والآلات التي بها تتهيأ الحياة وفيه سعي الانبياء والاولياء والعلماء والامثل
فالامثل وعليه كان حرصهم وحواليه كان تطوافهم ولاجله كان رفضهم لملاذ الدنيا بالكلية حتى انتهى عيسى
عليه السلام الى أن توسد حجرا في منامه فجاء اليه الشيطان وقال أما كنت تركت الدنيا للآخرة فقال نعم وما
الذي حدث فقال توسدك لهذا الحجر تنعم في الدنيا فلم لا تضع رأسك على الارض فرمى عيسى عليه السلام بالحجر
ووضع رأسه على الارض وكان رميه للحجر توبة عن ذلك التنعم أفترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع
الرأس على الارض لا يسمى واجبا في فتاوى العامة أفترى أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم لما شغله الثوب الذي
كان عليه علم في صلاته حتى نزعه وشغله شراك نعله الذي جدده حتى أعاد الشراك الخلق لم يعلم أن ذلك ليس
واجبا في شرعه الذي شرعه لكافة عباده فاذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه وهل كان ذلك الا لانه رآه مؤثرا في قلبه
أثرا يمنعه عن بلوغ المقام المحمود الذي قد وعد به أفترى ان الصديق رضي الله عنه بعد أن شرب اللبن وعلم أنه
على غير وجهه ادخل أصبعه في حلقه ليخرجه حتى كاد يخرج معه روحه ما علم من الفقه هذا القدر وهو أن
ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ولا يجب في فتوى الفقه اخراجه فلم تاب عن شربه بالتدارك على حسب امكانه
بتخلية المعدة عنه وهل كان ذلك الا لسر وقر في صدره عرفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر وان خطر
طريق الآخرة لا يعرفه الا الصديقون فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله وبطريق الله وبمكر
الله وبمكامن الغرور بالله واياك مرة واحدة أن تغرك الحياة الدنيا واياك ثم اياك ألف ألف مرة ان يغرك بالله
الغرور فهذه أسرار من استنشق مبادي روائحها علم ان لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك في طريق الله
تعالى في كل نفس من أنفاسه ولو عمر عمر نوح وان ذلك واجب على الفور من غير مهلة ولقد صدق أبو سليمان
الداراني حيث قال لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره الا على تفويت ما مضى منه في غير الطاعة لكان خليقا أن
يحزنه ذلك الى الممات فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله وانما قال هذا لان العاقل اذا ملك
جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لا محالة وان ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه
منها أشد وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها فانها صالحة لان توصلك الى
سعادة الابد وتنقذك من شقاوة الابد وأي جوهر أنفس من هذا فاذا ضيعتها في الغفلة فقد خسرت خسرانا مبينا
وان صرفتها الى معصية فقد هلكت هلاكا فاحشا فان كنت لا تبكي على هذه المصيبة فذلك لجهلك ومصيبتك بجهلك
أعظم من كل مصيبة لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها انه صاحب مصيبة فان نوم الغفلة يحول بينه وبين
معرفته والناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا فعند ذلك ينكشف لكل مفلس افلاسه ولكل مصاب مصيبته وقد رفع الناس
عن التدارك قال بعض العارفين ان ملك الموت عليه السلام اذا ظهر للعبد أعلمه انه قد بقي من عمرك ساعة وانك

حي لا يموت بيده الخير
وهو على كل شئ قدير
لا اله الا الله وحده صدق
وعده ونصر عبده وأعز
جنده وهزم الاحزاب
وحده لا اله الا الله أهل
النعمة والفضل والثناء
الحسن لا اله الا الله ولا
نعبد الا اياه مخلصين له
الدين ولو كره الكافرون
ويقرأ هو الله الذي
لا اله الا هو الرحمن
الرحيم التسعة والتسعين
اسما الى آخرها فاذا
فرغ منها يقول اللهم
صل على محمد عبدك
ونبيك ورسولك النبي
الامي وعلى آل محمد
صلاة تكون لك رضاء
ولحقه أداء وأعطه
الوسيلة والمقام المحمود
الذي وعدته واجزه عنا
ما هو أهله واجزه عنا
أفضل ما جازيت نبيا
عن أمته وصل على
جميع اخوانه من النبيين
والصديقين والشهداء
والصالحين اللهم صل
على محمد في الاولين وصل
على محمد في الآخرين
وصل على محمد الى يوم

لا نستأخرعنها طرفة عين فيبدو للعبد من الاسف والحسرة مالو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها على أن يضم الى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعتب فيها و يتدارك تفريطه فلا يجد اليه سبيلا وهو أول ما يظهر من معانى قوله تعالى وحيل بينهم وبين ما يشتهون واليه الاشارة بقوله تعالى من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها فقيل الاجل القريب الذى يطلبه معناه انه يقول عند كشف الغطاء للعبد يا ملك الموت أخرنى يوما أعتذر فيه الى ربى وأتوب وأتزود صالحا لنفسى فيقول فنيت الايام فلا يوم فيقول فأخرنى ساعة فيقول فنيت الساعات فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبة فيتغرغر بروحه وتتردد أنفاسه فى شراسيفه و يتجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر فيضطرب أصل ايمانه فى صدمات تلك الاحوال فاذا زهقت نفسه فان كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة وان سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة ولمثل هذا يقول وليست التوبة للذين يعملون السيآت حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن وقوله انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندم عليها و يمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أتبع السيئة الحسنة تمحها ولذلك قال لقمان لابنه يا بنى لا تؤخر التوبة فان الموت يأتى بغتة ومن ترك المبادرة الى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين أحدهما ان تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى حتى يصير رينا وطبعا فلا يقبل المحو الثانى ان يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ولذلك ورد فى الخبر أن أكثر صياح أهل النار من التسويف فما هلك من هلك الا بالتسويف فيكون تسويده القلب نقدا وجلاؤه بالطاعة نسيئة الى ان يختطفه الموت فيأتى الله بقلب غير سليم ولا ينجو الا من أتى الله بقلب سليم فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده والعمر أمانة الله عنده وكذا سائر أسباب الطاعة فمن خان فى الامانة ولم يتدارك خيانته فأمره مخطر قال بعض العارفين ان لله تعالى الى عبده سرين يسرهما اليه على سبيل الالهام أحدهما اذا خرج من بطن أمه يقول له عبدى قد أخرجتك الى الدنيا طاهرا نظيفا واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الامانة وانظر الى كيف تلقانى والثانى عند خروج روحه يقول عبدى ماذا صنعت فى أمانتى عندك هل حفظتها حتى تلقانى على العهد فالقاك على الوفاء أو أضعتها فالقاك بالمطالبة والعقاب واليه الاشارة بقوله تعالى أوفوا بعهدى أوف بعهدكم وبقوله تعالى والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون

﴿ بيان التوبة اذا استجمعت شرائطها فهى مقبولة لامحالة ﴾

اعلم انك اذا فهمت معنى القبول لم تشك فى ان كل توبة صحيحة فهى مقبولة فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا ان كل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم فى الآخرة فى جوار الله تعالى ومستعد لان ينظر بعينه الباقية الى وجه الله تعالى وعلموا أن القلب خلق سليما فى الاصل وكل مولود يولد على الفطرة وانما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة وان نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة وانه لا طاقة لظلام المعاصى مع نور الحسنات كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لان يكون لباسه فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لان يكون فى جواره وكما أن استعمال الثوب فى الاعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لامحالة فاستعمال القلب فى الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه و يطهره و يزكيه وكل قلب زكى طاهر فهو مقبول كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول فانما عليك التزكية والتطهير وأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الازلى الذى لا مرد له وهو المسمى فلاحا فى قوله قد أفلح من زكاها ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر ان القلب يتأثر بالمعاصى والطاعات تأثرا متضادا يستعار لاحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل و يستعار للآخر لفظ النور كما يستعار للعلم وأن بين النور والظلمة تضادا ضروريا لا يتصور الجمع بينهما فكأنه لم يبق من الدين الا قشوره ولم يعلق به الا أسماؤه وقلبه

الدين اللهم صل على روح محمد فى الارواح وصل على جسد محمد فى الاجساد واجعل شرائف صلواتك ونوامى بركاتك ورأفتك ورحمتك وتحيتك ورضوانك على محمد عبدك ونبيك ورسولك اللهم أنت السلام ومنك السلام واليك يعود السلام حينا ربنا بالسلام وأدخلنا دار السلام تباركت ياذا الجلال والاكرام اللهم انى أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو وأصبح الامر بيد غيرى وأصبحت مرتهنا بعملى فلا فقير أفقر منى اللهم لا تشمت بى عدوى ولا تسئ بى صديقى ولا تجعل مصيبتى فى دينى ولا تجعل الدنيا أكبر همى ولا تسلط على من لا يرحمنى اللهم هذا خلق جديد فافتحه على بطاعتك واختمه لى بمغفرتك ورضوانك وارزقنى فيه حسنة تقبلها منى وزكها وضعفها وما

في غطاء كثيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأعني به قلبه اذ بقلبه يعرف غير قلبه فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول الا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلاله فلا يقوى الصابون على قلعه فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعا ورينا على القلب فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب نعم قد يقول باللسان تبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لا ينظف أصلا ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن به فهذا حال امتناع أصل التوبة وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكلية فهذا البيان كاف عند ذوي البصائر في قبول التوبة ولكنا نعضد جناحه بنقل الآيات والاخبار والآثار فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به وقد قال تعالى وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات وقال تعالى غافر الذنب وقابل التوب الى غير ذلك من الآيات وقال صلى الله عليه وسلم لله أفرح بتوبة أحدكم الحديث والفرح وراء القبول فهو دليل على القبول وزيادة وقال صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل الى النهار ولمسيء النهار الى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها وبسط اليد كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل فرب قابل ليس بطالب ولا طالب الا وهو قابل وقال صلى الله عليه وسلم لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم وقال أيضا ان العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة فقيل كيف ذلك يا رسول الله قال يكون نصب عينه تائبا منه فارا حتى يدخل الجنة وقال صلى الله عليه وسلم كفارة الذنب الندامة وقال صلى الله عليه وسلم التائب من الذنب كمن لا ذنب له وروي ان حبشيا قال يا رسول الله اني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة قال نعم فولى ثم رجع فقال يا رسول الله أكان يراني وأنا أعملها قال نعم فصاح الحبشي صيحة خرجت فيها روحه وروي ان الله عز وجل لما لعن ابليس سأله النظرة فأنظره الى يوم القيامة فقال وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح فقال الله تعالى وعزتي وجلالي لا حجبت عنه التوبة ما دام الروح فيه وقال صلى الله عليه وسلم ان الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ والاخبار في هذا لا تحصى (وأما الآثار) فقد قال سعيد بن المسيب أنزل قوله تعالى انه كان للأوابين غفورا في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب وقال الفضيل قال الله تعالى بشر المذنبين بأنهم ان تابوا قبلت منهم وحذر الصديقين اني ان وضعت عليهم عدلي عذبتهم وقال طلق بن حبيب ان حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين وقال عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه محيت عنه في أم الكتاب وروي ان نبيا من أنبياء بني اسرائيل أذنب فأوحى الله تعالى اليه وعزتي لئن عدت لأعذبنك فقال يا رب أنت أنت وأنا أنا وعزتك ان لم تعصمني لأعودن فعصمه الله تعالى وقال ان العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادما حتى يدخل الجنة فيقول ابليس ليتني لم أوقعه في الذنب وقال حبيب بن ثابت تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول أما اني قد كنت مشفقا منه قال فيغفر له وروي ان رجلا سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به هل له من توبة فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت اليه فرأى عينيه تذرفان فقال له ان للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق الا باب التوبة فان عليه ملكا موكلا به لا يغلق فاعمل ولا تيأس وقال عبد الرحمن بن أبي القاسم تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر وقول الله تعالى ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف فقال اني لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالا ولقد بلغني أن توبة المسلم كاسلام بعد اسلام وقال عبد الله بن سلام لا أحدثكم الا عن نبي مرسل أو كتاب منزل ان العبد اذا عمل ذنبا ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفة عين وقال عمر رضي الله عنه اجلسوا الى التوابين فانهم أرق أفئدة وقال بعضهم أنا أعلم متى يغفر الله لي قيل ومتى قال اذا تاب علي وقال آخر أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم المغفرة أي المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة وروي انه كان في بني اسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ثم نظر في المرآة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك فقال الهي أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة فان رجعت اليك أتقبلني فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصا أحببتنا فأحببناك وتركتنا

عملت فيه من سيئة فاغفر لي انك غفور رحيم ودود رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا اللهم اني أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأعوذ بك من شره وشر ما فيه وأعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار ومن بغتات الامور وفجآت الاقدار ومن شر كل طارق يطرق الا طارقا يطرق منك بخير يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما وأعوذ بك ان أزل أو أزل أو أضل أو أضل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل علي عز جارك وجل ثناؤك وتقدست أسماؤك وعظمت نعماؤك أعوذ بك من شر ما يلج في الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها أعوذ بك من حدة الحرص وشدة الطمع وسورة الغضب وسنة الغفلة وتعاطي الكلفة اللهم اني أعوذ بك من

فتركناك وعصيتنا فأمهلناك وان رجعت الينا قبلناك وقال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى ان لله عبادا نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندما وحزنا فجنوا من غير جنون وتبلدوا من غير عى ولا بكم وانهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء ثم تولهت قلوبهم فى الملكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت واستظلوا تحت رواق الندم وقرؤا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا الى علو الزهد بسلم الورع فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا واستلانوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة وسرحت أرواحهم فى العلا حتى أناخوا فى رياض النعيم وخاضوا فى بحر الحياة وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة وأقلعوا بريح النجاة فى بحر السلامة حتى وصلوا الى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة فهذا القدر كاف فى بيان أن كل توبة صحيحة فمقبولة لا محالة فان قلت أفتقول ما قالته المعتزلة من أن قبول التوبة واجب على الله فأقول لا أعنى بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله الا ما يريده القائل بقوله ان الثوب اذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ وان العطشان اذا شرب الماء وجب زوال العطش وانه اذا منع الماء مدة وجب العطش وانه اذا دام العطش وجب الموت وليس فى شئ من ذلك ما يريده المعتزلة بالايجاب على الله تعالى بل أقول خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية والحسنة ماحية للسيئة كما خلق الماء مزيلا للعطش والقدرة متسعة لخلافه لو سبقت به المشيئة فلا واجب على الله تعالى ولكن ما سبقت به ارادته الازلية فواجب كونه لا محالة فان قلت فما من تائب الا وهو شاك فى قبول توبته والشارب للماء لا يشك فى زوال عطشه فلم يشك فيه فأقول شكه فى القبول كشكه فى وجود شرائط الصحة فان للتوبة أركانا وشروطا دقيقة كما سيأتى وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذى يشك فى دواء شربه للاسهال فى أنه هل يسهل وذلك لشكه فى حصول شروط الاسهال فى الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وأدويته فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة وموجب للشك فى قبولها لا محالة على ما سيأتى فى شروطها ان شاء الله تعالى

﴿الركن الثانى فيما عنه التوبة وهى الذنوب صغائرها وكبائرها﴾

اعلم أن التوبة ترك الذنب ولا يمكن ترك الشئ الا بعد معرفته واذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يتوصل اليها الا به واجبا فمعرفة الذنوب اذا واجبة والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لامر الله تعالى فى ترك أو فعل وتفصيل ذلك يستدعى شرح التكليفات من أولها الى آخرها وليس ذلك من غرضنا ولكنا نشير الى مجامعها وروابط أقسامها والله الموفق للصواب برحمته

﴿بيان أقسام الذنوب بالاضافة الى صفات العبد﴾

اعلم أن للانسان أوصافا وأخلاقا كثيرة على ما عرف شرحه فى كتاب عجائب القلب وغوائله ولكن تنحصر مثارات الذنوب فى أربع صفات صفات ربوبية وصفات شيطانية وصفات بهيمية وصفات سبعية وذلك لان طينة الانسان عجنت من أخلاط مختلفة فاقتضى كل واحد من الاخلاط فى المعجون منه أثرا من الآثار كما يقتضى السكر والخل والزعفران فى السكنجبين آثارا مختلفة * فأما ما يقتضى النزوع الى الصفات الربوبية فمثل الكبر والفخر والجبرية وحب المدح والثناء والعز والغنى وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول أنا ربكم الاعلى وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوبا وهى المهلكات العظيمة التى هى كالامهات لاكثر المعاصى كما استقصيناه فى ربع المهلكات * الثانية هى الصفة الشيطانية التى منها يتشعب الحسد والبغى والحيلة والخداع والامر بالفساد والمنكر وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة الى البدع والضلال * الثالثة الصفة البهيمية ومنها يتشعب الشره والكلب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ومنه يتشعب الزنا واللواط والسرقة وأكل مال الايتام وجمع الحطام لاجل الشهوات * الرابعة الصفة السبعية ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الاموال ويتفرع عنها جمل من الذنوب وهذه الصفات لها تدريج فى الفطرة فالصفة البهيمية هى التى تغلب أولا ثم تتلوها الصفة السبعية ثانيا ثم اذا اجتمعا استعملا العقل فى الخداع والمكر والحيلة وهى الصفة الشيطانية ثم بالآخرة تغلب

مباهاة المكثرين والازراء على المقلين وان أنصر ظالما أو أخذل مظلوما وأن أقول فى العلم بغير علم أو أعمل فى الدين بغير يقين أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك اللهم أنت ربى لا اله الا أنت خلقتنى وأنا عبدك وابن عبديك وعلى عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء بنعمتك على وأبوء بذنبى فاغفر لى انه لا يغفر الذنوب الا أنت اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا وآخره نجاحا وأوسطه فلاحا اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكرمة أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والكبرياء لله والجبروت والسلطان

الصفات الربوبية وهي الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق فهذه أمهات الذنوب ومنابعها ثم تنفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح فبعضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق واضمار السوء للناس وبعضها على العين والسمع وبعضها على اللسان وبعضها على البطن والفرج وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن ولا حاجة الى بيان تفصيل ذلك فانه واضح ﴿قسمة ثانية﴾ اعلم أن الذنوب تنقسم الى ما بين العبد وبين الله تعالى والى ما يتعلق بحقوق العباد فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به وما يتعلق بحقوق العباد كتركه الزكاة وقتله النفس وغصبه الاموال وشتمه الاعراض وكل متناول من حق الغير فاما نفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه وتناول الدين بالاغواء والدعاء الى البدعة والترغيب في المعاصي وتهييج أسباب الجراءة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف وما يتعلق بالعباد فالامر فيه أغلظ وما بين العبد وبين الله تعالى اذا لم يكن شركا فالعفو فيه أرجى وأقرب وقد جاء في الخبر الدواوين ثلاثة ديوان يغفر وديوان لا يغفر وديوان لا يترك فالديوان الذي يغفر ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى وأما الديوان الذي لا يغفر فالشرك بالله تعالى وأما الديوان الذي لا يترك فمظالم العباد أي لا بد وأن يطالب بها حتى يعفى عنها ﴿قسمة ثالثة﴾ اعلم أن الذنوب تنقسم الى صغائر وكبائر وقد كثر اختلاف الناس فيها فقال قائلون لا صغيرة ولا كبيرة بل كل مخالفة لله فهي كبيرة وهذا ضعيف اذ قال تعالى ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم وندخلكم مدخلا كريما وقال تعالى الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم وقال صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة يكفرن ما بينهن ان اجتنبت الكبائر وفي لفظ آخر كفارات لما بينهن الا الكبائر وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس واختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر من أربع الى سبع الى تسع الى احدى عشرة فما فوق ذلك فقال ابن مسعود هن أربع وقال ابن عمر هن سبع وقال عبد الله بن عمرو هن تسع وكان ابن عباس اذا بلغه قول ابن عمر الكبائر سبع يقول هن الى سبعين أقرب منها الى سبع وقال مرة كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة وقال غيره كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر وقال بعض السلف كل ما أوجب عليه الحد في الدنيا فهو كبيرة وقيل انها مبهمة لا يعرف عددها كليلة القدر وساعة يوم الجمعة وقال ابن مسعود لما سئل عنها اقرأ من أول سورة النساء الى رأس ثلاثين آية منها عند قوله ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه فكل ما نهى الله عنه في هذه السورة الى هنا فهو كبيرة وقال أبو طالب المكي الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الاخبار وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم أربعة في القلب وهي الشرك بالله والاصرار على معصيته والقنوط من رحمته والامن من مكره * وأربع في اللسان وهي شهادة الزور وقذف المحصن واليمين الغموس وهي التي يحق بها باطلا أو يبطل بها حقا وقيل هي التي يقتطع بها مال امرئ مسلم باطلا ولو سواكا من أراك وسميت غموسا لانها تغمس صاحبها في النار والسحر وهو كل كلام يغير الانسان وسائر الاجسام عن موضوعات الخلقة وثلاث في البطن وهي شرب الخمر والمسكر من كل شراب وأكل مال اليتيم ظلما وأكل الربا وهو يعلم * واثنتان في الفرج وهما الزنا واللواط * واثنتان في اليدين وهما القتل والسرقة * وواحدة في الرجلين وهو الفرار من الزحف الواحد من اثنين والعشرة من العشرين وواحدة في جميع الجسد وهو عقوق الوالدين قال وجملة عقوقهما أن يقسما عليه في حق فلا يبر قسمهما وان سألاه حاجة فلا يعطيهما وان يسباه فيضربهما أو يجوعان فلا يطعمهما هذا ما قاله وهو قريب ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء اذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه فانه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر وهي جناية على الاموال ولم يذكر في كبائر النفوس الا القتل فاما فقء العين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب فلم يتعرض له وضرب اليتيم وتعذيبه وقطع أطرافه فلا شك في أنه أكبر من أكل ماله كيف وفي الخبر من الكبائر السبتان بالسبة ومن الكبائر استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم وهذا زائد على قذف المحصن وقال أبو سعيد الخدري وغيره من الصحابة انكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا

لله والليل والنهار وما سكن فيهما لله الواحد القهار أصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أبينا ابراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين اللهم انا نسألك بأن لك الحمد لا اله الا أنت الحنان المنان بديع السموات والارض ذو الجلال والاكرام أنت الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد يا حي يا قيوم يا حي حين لا حي في ديمومة ملكه وبقائه يا حي محيي الموتى يا حي مميت الاحياء ووارث الارض والسماء اللهم اني أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم وباسمك الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم اللهم اني أسألك باسمك الاعظم الاجل الاعز الاكرم الذي اذا دعيت به أجبت واذا سئلت به أعطيت

نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر وقالت طائفة كل عمد كبيرة وكل مانهى الله عنه فهو كبيرة وكشف الغطاء عن هذا ان نظر الناظر فى السرقة أهى كبيرة أم لا لايصح مالم يفهم معنى الكبيرة والمراد بها كقول القائل السرقة حرام أم لا لامطمع فى تعريفه الا بعد تقرير معنى الحرام أولا ثم البحث عن وجوده فى السرقة فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص فى اللغة ولا فى الشرع وذلك لان الكبير والصغير من المضافات ومامن ذنب الا وهو كبير بالاضافة الى مادونه وصغير بالاضافة الى مافوقه فالمضاجعة مع الاجنبية كبيرة بالاضافة الى النظرة صغيرة بالاضافة الى الزنا وقطع يد المسلم كبيرة بالاضافة الى ضربه صغيرة بالاضافة الى قتله نعم للانسان أن يطلق على ماتوعد بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة ونعنى بوصفه بالكبيرة ان العقوبة بالنار عظيمة وله أن يطلق على ماأوجب الحد عليه مصيرا الى أن ماعجل عليه فى الدنيا عقوبة واجبة عظيم وله أن يطلق على ماورد فى نص الكتاب النهى عنه فيقول تخصيصه بالذكر فى القرآن يدل على عظمه ثم يكون عظيما وكبيرة لامحالة بالاضافة اذ منصوصات القرآن أيضا تتفاوت درجاتها فهذه الاطلاقات لاحرج فيها ومانقل من ألفاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات ولا يبعد تنزيلها على شئ من هذه الاحتمالات نعم من المهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلوات كفارات لما بينهن الا الكبائر فان هذا اثبات حكم الكبائر والحق فى ذلك ان الذنوب منقسمة فى نظر الشرع الى مايعلم استعظامه اياها والى مايعلم انها معدودة فى الصغائر والى مايشك فيه فلا يدرى حكمه فالطمع فى معرفة حد حاصر أو عدد جامع مانع طلب لما لايمكن فان ذلك لايمكن الا بالسماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بان يقول انى أردت بالكبائر عشرا أو خمسا ويفصلها فان لم يرد هذا بل ورد فى بعض الالفاظ ثلاث من الكبائر وفى بعضها سبع من الكبائر ثم ورد ان السبتين بالسبة الواحدة من الكبائر وهو خارج عن السبع والثلاث علم انه لم يقصد به العدد بما يحصر فكيف يطمع فى عدد مالم يعده الشرع وربما قصد الشرع ابهامه ليكون العباد منه على وجل كما أبهم ليلة القدر ليعظم جد الناس فى طلبها نعم لنا سبيل كلى يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق وأما أعيانها فنعرفها بالظن والتقريب ونعرف أيضا أكبر الكبائر فاما أصغر الصغائر فلا سبيل الى معرفته وبيانه انا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعا ان مقصود الشرائع كلها سياقة الخلق الى جوار الله تعالى وسعادة لقائه وأنه لاوصول لهم الى ذلك الا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله واليه الاشارة بقوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون أى ليكونوا عبيدا لى ولا يكون العبد عبدا مالم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية ولابد أن يعرف نفسه وربه فهذا هو المقصود الاقصى ببعثة الانبياء ولكن لايتم هذا الا فى الحياة الدنيا وهو المعنى بقوله عليه السلام الدنيا مزرعة الآخرة فصار حفظ الدنيا أيضا مقصودا تابعا للدين لانه وسيلة اليه والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيآن النفوس والاموال فكل مايسد باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر ويليه مايسد باب حياة النفوس ويليه مايسد باب المعايش التى بها حياة النفوس فهذه ثلاث مراتب فحفظ المعرفة على القلوب والحياة على الابدان والاموال على الاشخاص ضرورى فى مقصود الشرائع كلها وهذه ثلاثة أمور لايتصور أن تختلف فيها الملل فلا يجوز ان الله تعالى يبعث نبيا يريد ببعثه اصلاح الخلق فى دينهم ودنياهم ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله أو يأمرهم باهلاك النفوس واهلاك الاموال فحصل من هذا ان الكبائر على ثلاث مراتب * الاولى مايمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله وهو الكفر فلا كبيرة فوق الكفر اذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل والوسيلة المقربة له اليه هو العلم والمعرفة وقربه بقدر معرفته وبعده بقدر جهله ويتلوا الجهل الذى يسمى كفرا الامن من مكر الله والقنوط من رحمته فان هذا ايضا عين الجهل فمن عرف الله لم يتصور أن يكون آمنا ولا أن يكون آيسا ويتلو هذه الرتبة البدع كلها المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله وبعضها أشد من بعض وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه وبأفعاله وشرائعه وباوامره ونواهيه ومراتب ذلك لاتنحصر وهى تنقسم الى مايعلم انها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة فى القرآن والى مايعلم انه لايدخل والى مايشك فيه وطلب دفع الشك فى القسم المتوسط طمع فى غير مطمع * المرتبة

يانور النور يامدبر
الامور ياعالم مافى الصدور
ياسميع ياقريب يامجيب
الدعاء يالطيفا لما يشاء
يارؤف يارحيم ياكبير
ياعظيم ياالله يارحمن ياذا
الجلال والاكرام الم
الله لااله الاهو الحى
القيوم وعنت الوجوه
للحى القيوم ياالهى
واله كل شئ الها واحدا
لااله الاأنت اللهم انى
أسألك باسمك ياألله
الله الله الله الذى
لااله الاهو رب العرش
العظيم فتعالى الله الملك
الحق لااله الاهو رب
العرش الكريم أنت
الاول والآخر والظاهر
والباطن وسعت كل
شئ رحمة وعلما كهيعص
حم عسق الرحمن
ياواحد ياقهار ياعزيز
ياجبار ياأحد ياصمد
ياودود ياغفور هوالله
الذى لااله الاهو عالم
الغيب والشهادة هو
الرحمن الرحيم لااله الا
أنت سبحانك انى كنت
من الظالمين اللهم انى

الثانية النفوس اذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة بالله فقتل النفس لا محالة من الكبائر وان كان
دون الكفر لأن ذلك يصدم عين المقصود وهذا يصدم وسيلة المقصود اذ حياة الدنيا لا تراد الا للآخرة والتوصل
اليها بمعرفة الله تعالى ويتلو هذه الكبيرة قطع الاطراف وكل ما يفضي الى الهلاك حتى الضرب وبعضها أكبر من
بعض ويقع في هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط لانه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور في قضاء الشهوات
انقطع النسل ودفع الموجود قريب من قطع الوجود وأما الزنا فانه لا يفوت أصل الوجود ولكن يشوش الانساب
ويبطل التوارث والتناصر وجملة من الامور التي لا ينتظم العيش الا بها بل كيف يتم النظام مع اباحة الزنا ولا
ينتظم أمور البهائم ما لم يتميز الفحل منها باناث يختص بها عن سائر الفحول ولذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحا في
أصل شرع قصد به الاصلاح وينبغي أن يكون الزنا في الرتبة دون القتل لانه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع أصله
ولكنه يفوت تمييز الانساب ويحرك من الاسباب ما يكاد يفضي الى التقاتل وينبغي أن يكون أشد من اللواط لان
الشهوة داعية اليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم أثر الضرر بكثرته * المرتبة الثالثة الاموال فانها معايش
الخلق فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاؤا حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما بل ينبغي أن تحفظ لتبقى
ببقائها النفوس الا أن الاموال اذا أخذت أمكن استردادها وان أكلت أمكن تغريمها فليس يعظم الامر فيها
نعم اذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له فينبغي أن يكون ذلك من الكبائر وذلك بأربع طرق أحدها
الخفية وهي السرقة فانه اذا لم يطلع عليه غالبا كيف يتدارك الثاني أكل مال اليتيم وهذا أيضا من الخفيات وأعني
به في حق الولي والقيم فانه مؤتمن فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير لا يعرفه فتعظيم الامر فيه واجب
بخلاف الغصب فانه ظاهر يعرف وبخلاف الخيانة في الوديعة فان المودع خصم فيه ينتصف لنفسه الثالث
تفويتها بشهادة الزور الرابع أخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس فان هذه طريق لا يمكن فيها التدارك ولا يجوز
أن تختلف الشرائع في تحريمها أصلا وبعضها أشد من بعض وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس وهذه
الاربعة جديرة بأن تكون مرادة بالكبائر وان لم يوجب الشرع الحد في بعضها ولكن أكثر الوعيد عليها وعظم
في مصالح الدنيا تأثيرها وأما أكل الربا فليس فيه الا أكل مال الغير بالتراضي مع الاخلال بشرط وضعه الشرع ولا
يبعد أن تختلف الشرائع في مثله واذا لم يجعل الغصب الذي هو أكل مال الغير بغير رضاه وبغير رضا الشرع من
الكبائر فأكل الربا أكل برضا المالك ولكن دون رضا الشرع وان عظم الشرع الربا بالزجر عنه فقد عظم أيضا
الظلم بالغصب وغيره وعظم الخيانة والمصير الى أن أكل دانق بالخيانة أو الغصب من الكبائر فيه نظر وذلك واقع
في مظنة الشك وأكثر ميل الظن الى أنه غير داخل تحت الكبائر بل ينبغي أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف
الشرع فيه ليكون ضروريا في الدين فيبقى مما ذكره أبو طالب المكي القذف والشرب والسحر والفرار من
الزحف وعقوق الوالدين * أما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر وقد دل عليه تشديدات
الشرع وطريق النظر أيضا لان العقل محفوظ كما أن النفس محفوظة بل لا خير في النفس دون العقل فازالة العقل
من الكبائر ولكن هذا لا يجري في قطرة من الخمر فلا شك في أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة وانما هو
شرب ماء نجس والقطرة وحدها في محل الشك وايجاب الشرع الحد به يدل على تعظيم أمره فيعد ذلك من الكبائر
بالشرع وليس في قوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع فان ثبت اجماع في أنه كبيرة وجب الاتباع والا
فللتوقف فيه مجال * وأما القذف فليس فيه الا تناول الاعراض والاعراض دون الاموال في الرتبة ولتناولها
مراتب وأعظمها التناول بالقذف بالاضافة الى فاحشة الزنا وقد عظم الشرع أمره وأظن ظنا غالبا أن الصحابة
كانوا يعدون كل ما يجب به الحد كبيرة فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس وهو الذي نريده بالكبيرة
الآن ولكن من حيث انه يجوز أن تختلف فيه الشرائع فالقياس بمجرده لا يدل على كبره وعظمته بل كان يجوز
أن يرد الشرع بأن العدل الواحد اذا رأى انسانا يزني فله أن يشهد ويجلد المشهود عليه بمجرد شهادته فان لم تقبل
شهادته فحده ليس ضروريا في مصالح الدنيا وان كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات فاذا
هذا أيضا يلحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع فأما من ظن أن له أن يشهد وحده أو ظن أنه يساعده على

أعوذ باسمك المكنون
المخزون المنزل السلام
الطهر الطاهر القدوس
المقدس يا دهر يا ديهور
يا ديهار يا أبديا أزل يا من
لم يزل ولا يزال ولا يزول
هو يا هو لا اله الا هو
يا من لا هو الا هو يا من
لا يعلم ما هو الا هو يا كان
يا كينان يا روح
يا كائن قبل كل كون
يا كائن بعد كل كون
يا مكونا لكل كون
أهيا أشراهيا أدوناى
أصبؤت يا مجلي عظائم
الامور فان تولوا فقل
حسبي الله لا اله الا هو
عليه توكلت وهو رب
العرش العظيم ليس كمثله
شيء وهو السميع البصير
اللهم صل على محمد وعلى
آل محمد كما صليت على
ابراهيم وآل ابراهيم
وبارك على محمد وعلى
آل محمد كما باركت على
ابراهيم وآل ابراهيم
انك حميد مجيد اللهم
اني أعوذ بك من علم
لا ينفع وقلب لا يخشع
ودعاء لا يسمع اللهم اني

الشهادة غيره فلا ينبغي أن يجعل في حقه من الكبائر* وأما السحر فان كان فيه كفر فكبيرة والا فعظمته بحسب الضرر الذي يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضا ينبغي أن يكون من حيث القياس في محل التوقف واذا قطع بان سب الناس بكل شئ سوى الزنا وضربهم والظلم لهم بغصب أموالهم واخراجهم من مساكنهم وبلادهم واجلائهم من أوطانهم ليس من الكبائر اذلم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة وهو أكبر ما قيل فيه فالتوقف في هذا أيضا غير بعيد ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليلحق بالكبائر فاذا رجع حاصل الامر الى أنا نعني بالكبيرة مالا تكفره الصلوات الخمس بحكم الشرع وذلك مما انقسم الى ما علم أنه لا تكفره قطعا والى ما ينبغي أن تكفره والى ما يتوقف فيه والمتوقف فيه بعضه مظنون النفي والاثبات وبعضه مشكوك فيه وهو شك لا يزيله الا نص كتاب أو سنة واذا لا مطمع فيه فطلب رفع الشك فيه محال فان قلت فهذا اقامة برهان على استحالة معرفة حدها فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده فاعلم أن كل مالا يتعلق به حكم في الدنيا فيجوز أن يتطرق اليه الابهام لان دار التكليف هي دار الدنيا والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدنيا من حيث انها كبيرة بل كل موجبات الحدود معلومة باسمائها كالسرقة والزنا وغيرهما وانما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها وهذا أمر يتعلق بالآخرة والابهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر فلا يتجرؤن على الصغائر اعتمادا على الصلوات الخمس وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى أن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ولكن اجتناب الكبيرة انما يكفر الصغيرة اذا اجتنبها مع القدرة والارادة كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فيكف نفسه عن الوقاع فيقتصر على نظر أو لمس فان مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع أشد تأثيرا في تنوير قلبه من اقدامه على النظر في اظلامه فهذا معنى تكفيره فان كان عنينا أو لم يكن امتناعه الا بالضرورة للعجز أو كان قادرا ولكن امتنع لخوف أمر آخر فهذا لا يصلح للتكفير أصلا وكل من لا يشتهي الخمر بطبعه ولو أبيح له لما شرب به فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي من مقدماته كسماع الملاهي والاوتار نعم من يشتهي الخمر وسماع الاوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ويطلقها في السماع فمجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت اليه من معصية السماع فكل هذه أحكام أخروية ويجوز أن يبقى بعضها في محل الشك وتكون من المتشابهات فلا يعرف تفصيلها الا بالنص ولم يرد النص بعد ولا حد جامع بل ورد بالفاظ مختلفات فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة الى الصلاة كفارة ورمضان الى رمضان كفارة الا من ثلاث اشراك بالله وترك السنة ونكث الصفقة قيل ما ترك السنة قيل الخروج عن الجماعة ونكث الصفقة ان يبايع رجلا ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله فهذا وأمثاله من الالفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حد جامع فيبقى لا محالة مبهما فان قلت الشهادة لا تقبل الا ممن يجتنب الكبائر والورع عن الصغائر ليس شرطا في قبول الشهادة وهذا من أحكام الدنيا فاعلم انا لا نخصص رد الشهادة بالكبائر فلا خلاف أن من يسمع الملاهي ويلبس الديباج ويتختم بخاتم الذهب ويشرب في أواني الذهب والفضة لا تقبل شهادته ولم يذهب أحد الى أن هذه الامور من الكبائر وقال الشافعي رضي الله عنه اذا شرب الحنفي النبيذ حددته ولم أرد شهادته فقد جعله كبيرة بايجاب الحد ولم يرد به الشهادة فدل على أن الشهادة نفيا واثباتا لا تدور على الصغائر والكبائر بل كل الذنوب تقدح في العدالة الا ما لا يخلو الانسان عنه غالبا بضرورة مجاري العادات كالغيبة والتجسس وسوء الظن والكذب في بعض الاقوال وسماع الغيبة وترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وأكل الشبهات وسب الولد والغلام وضربهما بحكم الغضب زائدا على حد المصلحة واكرام السلاطين الظلمة ومصادقة الفجار والتكاسل عن تعليم الاهل والولد جميع ما يحتاجون اليه من أمر الدين فهذه ذنوب لا يتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها الا بان يعتزل الناس ويتجرد لامور الآخرة ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمته مع المخالطة بعد ذلك ولو لم يقبل الا قول مثله لعز وجوده وبطلت الاحكام والشهادات وليس لبس الحرير وسماع الملاهي واللعب بالنرد ومجالسة أهل الشرب في وقت الشرب والخلوة بالاجنبيات وأمثال هذه الصغائر من هذا القبيل فالى مثل هذا المنهاج ينبغي أن ينظر في قبول الشهادة وردها لا الى الكبيرة

أعوذ بك من فتنة الدجال وعذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات اللهم انى أعوذ بك من شر ما علمت وشر ما لم أعلم وأعوذ بك من شر سمعي وبصري ولساني وقلبي اللهم انى أعوذ بك من القسوة والغفلة والذل والمسكنة وأعوذ بك من الفقر والكفر والفسوق والشقاق والنفاق وسوء الاخلاق وضيق الارزاق والسمعة والرياء وأعوذ بك من الصمم والبكم والجنون والجذام والبرص وسائر الاسقام اللهم انى أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحويل عافيتك ومن فجأة نقمتك ومن جميع سخطك اللهم انى أسألك الصلاة على محمد وعلى آله وأسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأسألك الجنة وما قرب اليها من قول

والصغيرة ثم آحاد هذه الصغائر التي لا ترد الشهادة بها لو واظب عليها لاثر في رد الشهادة كمن اتخذ الغيبة وثلب الناس عادة وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم والصغيرة تكبر بالمواظبة كما ان المباح يصير صغيرة بالمواظبة كاللعب بالشطرنج والترنم بالغناء على الدوام وغيره فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر

(بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا)

اعلم ان الدنيا من عالم الملك والشهادة والآخرة من عالم الغيب والملكوت وأعني بالدنيا حالتك قبل الموت وبالآخرة حالتك بعد الموت فدنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك يسمى القريب الداني منها دنيا والمتأخر آخرة ونحن الآن نتكلم من الدنيا في الآخرة فانا الآن نتكلم في الدنيا وهو عالم الملك وغرضنا شرح الآخرة وهي عالم الملكوت ولا يتصور شرح عالم الملكوت في عالم الملك الا بضرب الامثال ولذلك قال تعالى وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون وهذا لان عالم الملك نوم بالاضافة الى عالم الملكوت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا وما سيكون في اليقظة لا يتبين لك في النوم الا بضرب الامثال المحوجة الى التعبير فكذلك ما سيكون في يقظة الآخرة لا يتبين في نوم الدنيا الا في كسوة الامثال وأعني بكسوة الامثال ما تعرفه من علم التعبير ويكفيك منه ان كنت فطنا ثلاثة أمثلة فقد جاء رجل الى ابن سيرين فقال رأيت كان في يدي خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال انك مؤذن تؤذن في رمضان قبل طلوع الفجر قال صدقت وجاء رجل آخر فقال رأيت كأني أصب الزيت في الزيتون فقال ان كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها فانها أمك سبيت في صغرك لان الزيتون أصل الزيت فهو يرد الى الاصل فنظر فاذا جاريته كانت أمه وقد سبيت في صغره وقال له آخر رأيت كأني أقلد الدر في أعناق الخنازير فقال انك تعلم الحكمة غير أهلها فكان كما قال والتعبير من أوله الى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الامثال وانما نعني بالمثل أداء المعنى في صورة ان نظر الى معناه وجده صادقا وان نظر الى صورته وجده كاذبا فالمؤذن ان نظر الى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذبا فانه لم يختم به قط وان نظر الى معناه وجده صادقا اذ صدر منه روح الختم ومعناه وهو المنع الذي يراد الختم له وليس للانبياء ان يتكلموا مع الخلق الا بضرب الامثال لانهم كلفوا ان يكلموا الناس على قدر عقولهم وقدر عقولهم انهم في النوم والنائم لا يكشف له عن شيء الا بمثل فاذا ماتوا انتبهوا وعرفوا ان المثل صادق ولذلك قال صلى الله عليه وسلم قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وهو من المثال الذي لا يعقله الا العالمون فاما الجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثال لجهله بالتفسير الذي يسمى تأويلا كما يسمى تفسير ما يرى من الامثلة في النوم تعبيرا فيثبت لله تعالى يدا وأصبعا تعالى الله عن قوله علوا كبيرا وكذلك في قوله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق آدم على صورته فانه لا يفهم من الصورة الا اللون والشكل والهيئة فيثبت لله تعالى مثل ذلك تعالى الله من قوله علوا كبيرا ومن ههنا زل من زل في صفات الالهية حتى في الكلام وجعلوه صوتا وحرفا الى غير ذلك من الصفات والقول فيه يطول وكذلك قد يرد في أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها الملحد بجمود نظره على ظاهر المثال وتناقضه عنده كقوله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح فيثور الملحد الاحمق ويكذب ويستدل به على كذب الانبياء ويقول يا سبحان الله الموت عرض والكبش جسم فكيف ينقلب العرض جسما وهل هذا الا محال ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحمقى عن معرفة أسراره فقال وما يعقلها الا العالمون ولا يدري المسكين أن من قال رأيت في منامي أنه جيء بكبش وقيل هذا هو الوباء الذي في البلد وذبح فقال المعبر صدقت والامر كما رأيت وهذا يدل على ان هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط لان المذبوح وقع اليأس منه فاذن المعبر صادق في تصديقه وهو صادق في رؤيته وترجع حقيقة ذلك الى أن الموكل بالرؤيا وهو الذي يطلع الارواح عند النوم على ما في اللوح المحفوظ عرفه بما في اللوح المحفوظ بمثال ضربه له لان النائم انما يحتمل المثال فكان مثاله صادقا وكان معناه صحيحا فالرسل أيضا انما يكلمون الناس في الدنيا وهي بالاضافة الى الآخرة نوم فيوصلون المعاني الى أفهامهم بالامثلة حكمة من الله ولطفا بعباده وتيسيرا لادراك ما يعجزون عن ادراكه دون ضرب المثل فقوله يؤتى بالموت في صورة كبش أملح مثال ضربه ليوصل الى الافهام حصول اليأس من الموت وقد جبلت القلوب على التأثر بالامثلة

وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل وأسألك ما سألك عبدك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم وأسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل عاقبته رشدا برحمتك يا أرحم الراحمين يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث لا تكلني الى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله يا نور السموات والارض يا جمال السموات والارض يا عماد السموات والارض يا بديع السموات والارض يا ذا الجلال والاكرام يا صريخ المستصرخين يا غوث المستغيثين يا منتهى رغبة الراغبين والمفرج عن المكروبين والمروح عن المغمومين ومجيب دعوة المضطرين وكاشف السوء وأرحم الراحمين واله العالمين منزول بك كل حاجة يا أرحم

وثبوت المعاني فيها واستطها ولذلك عبر القرآن بقوله كن فيكون عن نهاية القدرة وعبر صلى الله عليه وسلم بقوله قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن عن سرعة التقليب وقد أشرنا الى حكمة ذلك في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات فلنرجع الآن الى الغرض فالمقصود أن تعرف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيآت ولا يمكن الا بضرب المثال فلتفهم من المثل الذي نضربه معناه لا صورته فنقول الناس في الآخرة ينقسمون أصنافا وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتا لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتوا في سعادة الدنيا وشقاوتها ولا تفارق الآخرة الدنيا في هذا المعنى أصلا البتة فان مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له وسنته الصادرة عن ارادته الازلية مطردة لا تبديل لها الا أنا ان عجزنا عن احصاء آحاد الدرجات فلا نعجز عن احصاء الاجناس فنقول الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة الى أربعة أقسام هالكين ومعذبين وناجين وفائزين ومثاله في الدنيا أن يستولي ملك من الملوك على اقليم فيقتل بعضهم فهم الهالكون ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون ويخلي بعضهم فهم الناجون ويخلع على بعضهم فهم الفائزون فان كان الملك عادلا لم يقسمهم كذلك الا باستحقاق فلا يقتل الا جاحدا لاستحقاق الملك معاندا له في أصل الدولة ولا يعذب الا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته ولا يخلي الا معترفا له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه ولا يخلع الا على من أبلى عمره في الخدمة والنصرة ثم ينبغي أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة واهلاك الهالكين اما تحقيقا بحز الرقبة أو تنكيلا بالمثلة بحسب درجاتهم في المعاندة وتعذيب المعذبين في الخفة والشدة وطول المدة وقصرها واتحاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم فتنقسم كل رتبة من هذه الرتب الى درجات لا تحصى ولا تنحصر فكذلك فافهم أن الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون فمن هالك ومن معذب مدة ومن ناج يحل في دار السلامة ومن فائز والفائزون ينقسمون الى من يحلون في جنات عدن أو جنات المأوى أو جنات الفردوس والمعذبون ينقسمون الى من يعذب قليلا والى من يعذب ألف سنة الى سبعة آلاف سنة وذلك آخر من يخرج من النار كما ورد في الخبر وكذلك الهالكون الآيسون من رحمة الله تتفاوت دركاتهم وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي فلنذكر كيفية توزعها عليها (الرتبة الاولى) وهي رتبة الهالكين ونعني بالهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى اذ الذي قتله الملك في المثال الذي ضربناه آيس من رضا الملك واكرامه فلا تغفل عن معاني المثال وهذه الدرجة لا تكون الا للجاحدين والمعرضين المتجردين للدنيا المكذبين بالله ورسله وكتبه فان السعادة الاخروية في القرب من الله والنظر الى وجهه وذلك لا ينال أصلا الا بالمعرفة التي يعبر عنها بالايمان والتصديق والجاحدون هم المنكرون والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباد وهم الذين يكذبون برب العالمين وبانبيائه المرسلين انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا محالة وكل محجوب عن محبوبه فمحول بينه وبين ما يشتهيه لا محالة فهو لا محالة يكون محترقا مع نار جهنم بنار الفراق ولذلك قال العارفون ليس خوفنا من نار جهنم ولا رجاؤنا الحور العين وانما مطلبنا اللقاء ومهربنا من الحجاب فقط وقالوا من يعبد الله بعوض فهو لئيم كأن يعبده لطلب جنته أو لخوف ناره بل العارف يعبده لذاته فلا يطلب الا ذاته فقط فأما الحور العين والفواكه فقد لا يشتهيها وأما النار فقد لا يتقيها اذ نار الفراق اذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للاجسام فان نار الفراق نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة ونار جهنم لا شغل لها الا مع الاجسام وألم الاجسام يستحقر مع ألم الفؤاد ولذلك قيل

وفي فؤاد المحب نار جوى * أحر نار الجحيم أبردها

ولا ينبغي أن تنكر هذا في عالم الآخرة اذ له نظير مشاهد في عالم الدنيا فقد رؤي من غلب عليه الوجد فغدا على النار وعلى أصول القصب الجارحة للقدم وهو لا يحس به لفرط غلبة ما في قلبه وترى الغضبان يستولي عليه الغضب في القتال فتصيبه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال لان الغضب نار في القلب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الغضب قطعة من النار واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الاجساد والاشد يبطل الاحساس بالاضعف كما تراه فليس الهلاك من النار والسيف الا من حيث انه يفرق بين جزأين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن في الاجسام فالذي يفرق بين القلب وبين محبوبه الذي يرتبط به برابطة تأليف أشد احكاما من تأليف

الراجين اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي وأقلني عثراتي اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بك أن اغتال من تحتي اللهم اني ضعيف فقوني في رضاك ضعفي وخذ الى الخير بناصيتي واجعل الاسلام منتهى رضاي اللهم اني ضعيف فقوني اللهم اني ذليل فاعزني اللهم اني فقير فاغنني برحمتك يا أرحم الراحمين اللهم انك تعلم سري وعلانيتي فاقبل معذرتي وتعلم حاجتي فاعطني سؤلي وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنوبي اللهم اني أسألك ايمانا يباشر قلبي ويقينا صادقا حتى أعلم انه لن يصيبني الا ما كتبت لي والرضا بما قسمت لي يا ذا الجلال والاكرام اللهم يا هادي المضلين ويا راحم المذنبين ومقيل عثرة العاثرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم

الاجسام

الاجسام فهو أشد ايلاما ان كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب ولا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدة هذا الالم ويستحقره بالاضافة الى ألم الجسم فالصبي لو خير بين ألم الحرمان عن الكرة والصولجان وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلا ولم يعد ذلك ألما وقال العدو في الميدان مع الصولجان أحب الى من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه بل من تغلبه شهوة البطن لو خير بين الهريسة والحلواء وبين فعل جميل يقهر به الاعداء ويفرح به الاصدقاء لآثر الهريسة والحلواء وهذا كله لفقد المعنى الذي بوجوده يصير الجاه محبوبا ووجود المعنى الذي بوجوده يصير الطعام لذيذا وذلك لمن استرقته صفات البهائم والسباع ولم تظهر فيه صفات الملائكة التي لا يناسبها ولا يلذها الا القرب من رب العالمين ولا يؤلمها الا البعد والحجاب وكما لا يكون الذوق الا في اللسان والسمع الا في الآذان فلا تكون هذه الصفة الا في القلب فمن لا قلب له ليس له هذا الحس كمن لا سمع له ولا بصر ليس له لذة الالحان وحسن الصور والالوان وليس لكل انسان قلب ولو كان لما صح قوله تعالى ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب فجعل من لم يتذكر بالقرآن مفلسا من القلب ولست أعني بالقلب هذا الذي تكتنفه عظام الصدر بل أعني به السر الذي هو من عالم الامر وهو العلم الذي هو من عالم الخلق عرشه والصدر كرسيه وسائر الاعضاء عالمه ومملكته ولله الخلق والامر جميعا ولكن ذلك السر الذي قال الله تعالى فيه قل الروح من أمر ربي هو الامير والملك لان بين عالم الامر وعالم الخلق ترتيبا وعالم الامر أمير على عالم الخلق وهو اللطيفة التي اذا صلحت صلح لها سائر الجسد من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه وعند ذلك يشم العبد مبادي روائح المعنى المطوي تحت قوله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق آدم على صورته وتنظر بعين الرحمة الى الحاملين له على ظاهر لفظه والى المتعسفين في طريق تأويله وان كانت رحمته للحاملين على اللفظ أكثر من رحمته للمتعسفين في التأويل لان الرحمة على قدر المصيبة ومصيبة أولئك أكثر وان اشتركوا في مصيبة الحرمان من حقيقة الامر فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وهي حكمته يختص بها من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ولنعد الى الغرض فقد أرخينا الطول وطولنا النفس في أمر هو أعلى من علوم المعاملات التي نقصدها في هذا الكتاب فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليس الا للجهال المكذبين وشهادة ذلك من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا تدخل تحت الحصر فلذلك لم نوردها *(الرتبة الثانية)* رتبة المعذبين وهذه رتبة من تحلى بأصل الايمان ولكن قصر في الوفاء بمقتضاه فان رأس الايمان هو التوحيد وهو أن لا يعبد الا الله ومن اتبع هواه فقد اتخذ الهه هواه فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة بل معنى قولك لا اله الا الله معنى قوله تعالى قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون وهو ان تذر بالكلية غير الله ومعنى قوله تعالى الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ولما كان الصراط المستقيم الذي لا يكمل التوحيد الا بالاستقامة عليه أدق من الشعر وأحد من السيف مثل الصراط الموصوف في الآخرة فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير اذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل وذلك قادح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم فذلك يقتضي لا محالة نقصانا في درجات القرب ومع كل نقصان ناران نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان ونار جهنم كما وصفها القرآن فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبا مرتين من وجهين ولكن شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدة انما يكون بسبب أمرين أحدهما قوة الايمان وضعفه والثاني كثرة اتباع الهوى وقلته واذ لا يخلو بشر في غالب الامر عن واحد من الامرين قال الله تعالى وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ولذلك قال الخائفون من السلف انما خوفنا لانا تيقنا أنا على النار واردون وشككنا في النجاة ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادي يا حنان يا منان قال الحسن ياليتني كنت ذلك الرجل واعلم ان في الاخبار ما يدل على أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة وأن الاختلاف في المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة حتى قد يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ولا يكون له فيها لبث وبين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والاسبوع والشهر وسائر المدد وان الاختلاف بالشدة لا نهاية لاعلاه وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب كما أن الملك قد يعذب بعض

أجمعين واجعلنا مع الاحباء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين اللهم عالم الخفيات رفيع الدرجات تلقي الروح بامرك على من تشاء من عبادك غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذا الطول لا اله الا هو أنت الوكيل واليك المصير يامن لا يشغله شأن عن شان ولا يشغله سمع عن سمع ولا تشتبه عليه الاصوات ويامن لا تغلطه المسائل ولا تختلف عليه اللغات ويامن لا يتبرم بالحاح الملحين أذقني برد عفوك وحلاوة رحمتك اللهم اني أسألك قلبا سليما ولسانا صادقا وعملا متقبلا أسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك لما تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم اني أسألك ايمانا لا يرتد

المقصرين فى الاعمال بالمناقشة فى الحساب ثم يعفو وقد يضرب بالسياط وقد يعذب بنوع آخر من العذاب
و يتطرق الى العذاب اختلاف ثالث فى غير المدة والشدة وهو اختلاف الانواع اذ ليس من يعذب بمصادرة المال
فقط كمن يعذب بأخذ المال وقتل الولد واستباحة الحريم وتعذيب الاقارب والضرب وقطع اللسان واليد والانف
والاذن وغيره فهذه الاختلافات ثابتة فى عذاب الآخرة دل عليها قواطع الشرع وهى بحسب اختلاف قوة
الايمان وضعفه وكثرة الطاعات وقلتها وكثرة السيئات وقلتها اما شدة العذاب فبشدة قبح السيئات وكثرتها وأما
كثرته فبكثرتها وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات وقد انكشف هذا لارباب القلوب مع شواهد
القرآن بنور الايمان وهو المعنى بقوله تعالى وما ربك بظلام للعبيد وبقوله تعالى اليوم تجزى كل نفس بما
كسبت وبقوله تعالى وأن ليس للانسان الا ما سعى وبقوله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال
ذرة شرا يره الى غير ذلك مما ورد فى الكتاب والسنة من كون العقاب والثواب جزاء على الاعمال وكل ذلك بعدل
لا ظلم فيه وجانب العفو والرحمة أرجح اذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم سبقت رحمتى غضبى وقال
تعالى وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما فاذا هذه الامور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات
بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة فاما التفصيل فلا يعرف الا ظنا ومستنده ظواهر
الاخبار ونوع حدس يستمد من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار فنقول كل من أحكم أصل الايمان واجتنب جميع
الكبائر وأحسن جميع الفرائض أعنى الاركان الخمسة ولم يكن منه الا صغائر متفرقة لم يصر عليها فيشبه أن يكون
عذابه المناقشة فى الحساب فقط فانه اذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته اذ ورد فى الاخبار أن الصلوات الخمس
والجمعة وصوم رمضان كفارات لما بينهن وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفر للصغائر وأقل درجات
التكفير ان يدفع العذاب ان لم يدفع الحساب وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه فينبغى أن يكون بعد ظهور
الرجحان فى الميزان وبعد الفراغ من الحساب فى عيشة راضية نعم التحاقه بأصحاب اليمين أو بالمقربين ونزوله فى
جنات عدن أو فى الفردوس الاعلى فكذلك يتبع أصناف الايمان لان الايمان ايمانان تقليدى كايمان العوام
يصدقون بما يسمعون ويستمرون عليه وايمان كشفى يحصل بانشراح الصدر بنور الله حتى ينكشف فيه الوجود
كله على ما هو عليه فيتضح أن الكل الى الله مرجعه ومصيره اذ ليس فى الوجود الا الله تعالى وصفاته وأفعاله فهذا
الصنف هم المقربون النازلون فى الفردوس الاعلى وهم على غاية القرب من الملا الاعلى وهم أيضا على أصناف
فمنهم السابقون ومنهم من دونهم وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى ودرجات العارفين فى المعرفة بالله
تعالى لا تنحصر اذ الاحاطة بكنه جلال الله غير ممكنة وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق وانما يغوص فيه الغواصون
بقدر قواهم وبقدر ما سبق لهم من الله تعالى فى الازل فالطريق الى الله تعالى لا نهاية لمنازله فالسالكون سبيل
الله لا نهاية لدرجاتهم وأما المؤمن ايمانا تقليديا فهو من أصحاب اليمين ودرجته دون درجة المقربين وهم أيضا
على درجات فالاعلى من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الادنى من درجات المقربين هذا حال من اجتنب
كل الكبائر وأدى الفرائض كلها أعنى الاركان الخمسة التى هى النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلاة
والزكاة والصوم والحج فاما من ارتكب كبيرة أو كبائر أو أهمل بعض أركان الاسلام فان تاب توبة نصوحا قبل
قرب الاجل التحق بمن لم يرتكب لان التائب من الذنب كمن لا ذنب له والثوب المغسول كالذى لم يتوسخ
أصلا وان مات قبل التوبة فهذا أمر مخطر عند الموت اذ ربما يكون موته على الاصرار سببا لتزلزل ايمانه فيختم له
بسوء الخاتمة لا سيما اذا كان ايمانه تقليديا فان التقليد وان كان جزما فهو قابل للانحلال بادنى شك وخيال
والعارف البصير أبعد ان يخاف عليه سوء الخاتمة وكلاهما ان ماتا على الايمان يعذبان الا ان يعفو الله عذابا
يزيد على عذاب المناقشة فى الحساب وتكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الاصرار ومن حيث
الشدة بحسب قبح الكبائر ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات وعند انقضاء مدة
العذاب ينزل البله المقلدون فى درجات أصحاب اليمين والعارفون المستبصرون فى أعلى عليين ففى الخبر آخر من
يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف فلا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لاطراف

ونعيما لا ينفد وقرة عين الابد ومرافقة نبيك محمد وأسألك حبك وحب من أحبك وحب عمل يقرب الى حبك اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على خلقك أحينى ما كانت الحياة خيرا لى وتوفنى ما كانت الوفاة خيرا لى أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة وكلمة العدل فى الرضا والغضب والقصد فى الغنى والفقر ولذة النظر الى وجهك والشوق الى لقائك وأعوذ بك من ضراء مضرة وفتنة مضلة اللهم اقسم لى من خشيتك ما تحول به بينى وبين معصيتك ومن طاعتك ما يبلغنى جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا اللهم ارزقنا حزن خوف الوعيد وسرور رجاء الموعود حتى نجد لذة ما نطلب وخوف ما منه نهرب اللهم ألبس وجوهنا منك الحياء واملأ قلوبنا بك فرحا وأسكن

الاجسام كأن يقابل فرسخ بفرسخين أو عشرة بعشرين فان هذا جهل بطريق ضرب الامثال بل هذا كقول القائل أخذ منه جملا وأعطاه عشرة أمثاله وكان الجمل يساوى عشرة دنانير فاعطاه مائة دينار فان لم يفهم من المثل الا المثل فى الوزن والثقل فلا تكون مائة دينار لو وضعت فى كفة الميزان والجمل فى الكفة الاخرى عشر عشيره بل هو موازنة معانى الاجسام وأرواحها دون أشخاصها وهياكلها فان الجمل لا يقصد لثقله وطوله وعرضه ومساحته بل لماليته فروحه المالية وجسمه اللحم والدم ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية لا بالموازنة الجسمانية وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب والفضة بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار وقال أعطيته عشرة أمثاله كان صادقا ولكن لا يدرك صدقه الا الجوهريون فان روح الجوهرية لا تدرك بمجرد البصر بل بفطنة أخرى وراء البصر فلذلك يكذب به الصبى بل القروى والبدوى ويقول ماهذه الجوهرة الا حجر وزنه مثقال ووزن الجمل ألف ألف مثقال فقد كذب فى قوله انى أعطيته عشرة أمثاله والكاذب بالتحقيق هو الصبى ولكن لا سبيل الى تحقيق ذلك عنده الا بان ينتظر به البلوغ والكمال وان يحصل فى قلبه النور الذى يدرك به أرواح الجواهر وسائر الاموال فعند ذلك ينكشف له الصدق والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الموازنة اذ يقول صلى الله عليه وسلم الجنة فى السموات كما ورد فى الاخبار والسموات من الدنيا فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا فى الدنيا وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبى تلك الموازنة وكذلك تفهيم البدوى وكما أن الجوهرى مرحوم اذا بلى بالبدوى والقروى فى تفهيم تلك الموازنة فالعارف مرحوم اذا بلى بالبليد الابله فى تفهيم هذه الموازنة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ارحموا ثلاثة عالما بين الجهال وغنى قوم افتقر وعزيز قوم ذل والانبياء مرحومون بين الامة بهذا السبب ومقاساتهم لقصور عقول الامة فتنة لهم وامتحان وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الازلى وهو المعنى بقوله عليه السلام البلاء موكل بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل فلا تظنن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام وهو الذى ينزل بالبدن فان بلاء نوح عليه السلام أيضا من البلاء العظيم اذ بلى بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه الى الله الا فرارا ولذلك لما تأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام بعض الناس قال رحم الله أخى موسى لقد أوذى باكثر من هذا فصبر فاذا لا تخلو الانبياء عن الابتلاء بالجاحدين ولا تخلو الاولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين ولذلك قلما ينفك الاولياء عن ضروب من الايذاء وأنواع البلاء بالاخراج من البلاد والسعاية بهم الى السلاطين والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين كما يجب أن يكون المعتاض عن الجمل الكبير جوهرة صغيرة عند الجاهلين من المبذرين المضيعين فاذا عرفت هذه الدقائق فآمن بقوله عليه السلام انه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات واياك أن تقتصر بتصديقك على مايدركه البصر والحواس فقط فيكون حمارا برجلين لان الحمار يشاركك فى الحواس الخمس وانما أنت مفارق للحمار بسر الهى عرض على السموات والارض والجبال فابين أن يحملنه وأشفقن منه فادراك مايخرج عن عالم الحواس الخمس لا يصادف الا فى عالم ذلك السر الذى فارقت به الحمار وسائر البهائم فمن ذهل عن ذلك وعطله وأهمله وقنع بدرجة البهائم ولم يجاوز المحسوسات فهو الذى أهلك نفسه بتعطيلها ونسيها بالاعراض عنها فلا تكونوا كالذين نسوا الله فانساهم أنفسهم فكل من لم يعرف الا المدرك بالحواس فقد نسى الله اذ ليس ذات الله مدركا فى هذا العالم بالحواس الخمس وكل من نسى الله أنساه الله لا محالة نفسه ونزل الى رتبة البهائم وترك الترقى الى الافق الاعلى وخان فى الامانة التى أودعه الله تعالى وأنعم عليه كافرا لانعمه ومتعرضا لنقمته الا أنه أسوأ حالا من البهيمة فان البهيمة تتخلص بالموت وأما هذا فعنده أمانة سترجع لا محالة الى مودعها فاليه مرجع الامانة ومصيرها وتلك الامانة كالشمس الزاهرة وانما هبطت الى هذا القالب الفانى وغربت فيه وستطلع الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها وتعود الى بارئها وخالقها اما مظلمة منكسفة واما زاهرة مشرقة والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية والمظلمة أيضا راجعة الى الحضرة اذ المرجع والمصير للكل اليه الا انها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين الى جهة أسفل سافلين ولذلك قال تعالى ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤسهم عند ربهم فبين انهم عند ربهم الا

فى نفوسنا من عظمتك مهابة وذلل جوارحنا لخدمتك واجعلك أحب الينا مما سواك واجعلنا أخشى لك ممن سواك نسألك تمام النعمة بتمام التوبة ودوام العافية بدوام العصمة وأداء الشكر بحسن العبادة اللهم انى أسألك بركة الحياة وخير الحياة وأعوذ بك من شر الحياة وشر الوفاة وأسألك خير ما بينهما احينى حياة السعداء حياة من تحب بقاءه وتوفنى وفاة الشهداء وفاة من تحب لقاءه ياخير الرازقين وأحسن التوابين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ورب العالمين اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارحم ما خلقت واغفر ما قدرت وطيب مارزقت وتمم ما أنعمت وتقبل ما استعملت واحفظ ما استحفظت ولا تهتك ما سترت فانه لا اله الا أنت أستغفرك من كل

أنهم منكوسون قد انقلبت وجوههم الى أقفيتهم وانتكست رؤسهم عن جهة فوق الى جهة أسفل وذلك حكم
الله فيمن حرمه توفيقه ولم يهده طريقه فنعوذ بالله من الضلال والنزول الى منازل الجهال فهذا حكم انقسام من
يخرج من النار ويعطى مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر ولا يخرج من النار الا موحد ولست أعني بالتوحيد ان
يقول بلسانه لا اله الا الله فان اللسان من عالم الملك والشهادة فلا ينفع الا في عالم الملك فيدفع السيف عن رقبته
وأيدي الغانمين عن ماله ومدة الرقبة والمال مدة الحياة فحيث لا تبقى رقبة ولا مال لا ينفع القول باللسان وانما
ينفع الصدق في التوحيد وكمال التوحيد ان لا يرى الامور كلها الا من الله وعلامته أن لا يغضب على أحد من
الخلق بما يجري عليه اذ لا يرى الوسائط وانما يرى مسبب الاسباب كما سيأتي تحقيقه في التوكل وهذا التوحيد
متفاوت فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال ومنهم من له مثقال ومنهم من له مقدار خردلة وذرة فمن في قلبه
مثقال دينار من ايمان فهو أول من يخرج من النار وفي الخبر يقال أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار
من ايمان وآخر من يخرج من في قلبه مثقال ذرة من ايمان وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم
يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل كما ذكرنا في الموازنة
بين أعيان الاموال وبين النقود وأكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد فديوان العباد هو الديوان الذي
لا يترك فاما بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير اليها ففي الآثار ان العبد ليوقف بين يدي الله تعالى وله من
الحسنات أمثال الجبال لو سلمت له لكان من أهل الجنة فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سب عرض هذا وأخذ مال
هذا وضرب هذا فيقضى من حسناته حتى لا تبقى له حسنة فتقول الملائكة يا ربنا هذا قد فنيت حسناته وبقي
طالبون كثير فيقول الله تعالى ألقوا من سيئاتهم على سيئاته وصكوا له صكا الى النار وكما يهلك هو بسيئة غيره
بطريق القصاص فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم اذ ينقل اليه عوضا عما ظلم به وقد حكي عن ابن الجلاء أن
بعض اخوانه اغتابه ثم أرسل اليه يستحله فقال لا أفعل ليس في صحيفتي حسنة أفضل منها فكيف امحوها وقال
هو وغيره ذنوب اخواني من حسنات أريد أن أزين بها صحيفتي فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد في المعاد
في درجات السعادة والشقاوة وكل ذلك حكم بظاهر أسباب يضاهي حكم الطبيب على مريض بانه يموت لا محالة
ولا يقبل العلاج وعلى مريض آخر بان عارضه خفيف وعلاجه هين فان ذلك ظن يصيب في أكثر الاحوال ولكن
قد تتوق الى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب وقد يساق الى ذي العارض الخفيف أجله من
حيث لا يطلع عليه وذلك من أسرار الله تعالى الخفية في أرواح الاحياء وغموض الاسباب التي رتبها مسبب
الاسباب بقدر معلوم اذ ليس في قوة البشر الوقوف على كنهها فكذلك النجاة والفوز في الآخرة لهما أسباب خفية
ليس في قوة البشر الاطلاع عليها يعبر عن ذلك السبب الخفي المفضي الى النجاة بالعفو والرضا وعما يفضي الى
الهلاك بالغضب والانتقام ووراء ذلك سر المشيئة الالهية الازلية التي لا يطلع الخلق عليها فلذلك يجب علينا أن
نجوز العفو عن العاصي وان كثرت سيئاته الظاهرة والغضب على المطيع وان كثرت طاعاته الظاهرة فان
الاعتماد على التقوى والتقوى في القلب وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره ولكن قد انكشف
لارباب القلوب انه لا عفو عن عبد الا بسبب خفي فيه يقتضي العفو ولا غضب الا بسبب باطن يقتضي البعد عن الله
تعالى ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الاعمال والاوصاف ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلا ولو لم يكن عدلا لم
يصح قوله تعالى وما ربك بظلام للعبيد ولا قوله تعالى ان الله لا يظلم مثقال ذرة وكل ذلك صحيح فليس للانسان الا
ما سعى وسعيه هو الذي يرى وكل نفس بما كسبت رهينة ولما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ولما غيروا ما بانفسهم غير
الله ما بهم تحقيقا لقوله تعالى ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم وهذا كله قد انكشف لارباب القلوب
انكشافا أوضح من المشاهدة بالبصر اذ البصر يمكن الغلط فيه اذ قد يرى البعيد قريبا والكبير صغيرا ومشاهدة
القلب لا يمكن الغلط فيها وانما الشأن في انفتاح بصيرة القلب والا فما يرى بها بعد الانفتاح فلا يتصور فيه
الكذب واليه الاشارة بقوله تعالى ما كذب الفؤاد ما رأى (الرتبة الثالثة) رتبة الناجين وأعني بالنجاة السلامة
فقط دون السعادة والفوز وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ولم يقصروا فيعذبوا ويشبه أن يكون هذا حال المجانين

لذة بغير ذكرك ومن كل
راحة بغير خدمتك ومن
كل سرور بغير قربك
ومن كل فرح بغير
مجالستك ومن كل
شغل بغير معاملتك
اللهم اني أستغفرك من
كل ذنب تبت اليك منه
ثم عدت فيه اللهم اني
أستغفرك من كل عقد
عقدته ثم لم أوف به اللهم
اني أستغفرك من كل
نعمة أنعمت بها علي
فقويت بها على معصيتك
اللهم اني أستغفرك
من كل عمل عملته لك
فخالطه ما ليس لك
اللهم اني أسألك أن
تصلي على محمد وعلى
آل محمد وأسألك جوامع
الخير وفواتحه وخواتمه
وأعوذ بك من جوامع
الشر وفواتحه وخواتمه
اللهم احفظنا فيما أمرتنا
واحفظنا عما نهيتنا
واحفظ لنا ما أعطيتنا
يا حافظ الحافظين
ويا ذاكر الذاكرين
ويا شاكر الشاكرين
بذكرك ذكروا وبفضلك
شكروا ويا غياث يا مغيث

والصبيان

والصبيان من الكفار والمعتوهين والذين لم تبلغهم الدعوة فى أطراف البلاد وعاشوا على البله وعدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم فما هم من أهل الجنة ولا من أهل النار بل ينزلون فى منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبر الشرع عنه بالاعراف وحلول طائفة من الخلق فيه معلوم يقينا من الآيات والاخبار ومن أنوار الاعتبار فأما الحكم على العين كالحكم مثلا بان الصبيان منهم فهذا مظنون وليس بمستيقن والاطلاع عليه تحقيقا فى عالم النبوة ويبعد أن ترتقى اليه رتبة الاولياء والعلماء والاخبار فى حق الصبيان أيضا متعارضة حتى قالت عائشة رضى الله عنها لما مات بعض الصبيان عصفور من عصافير الجنة فانكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال وما يدريك فاذا الاشكال والاشتباه أغلب فى هذا المقام

(الرتبة الرابعة) رتبة الفائزين وهم العارفون دون المقلدين وهم المقربون السابقون فان المقلد وان كان له فوز على الجملة بمقام فى الجنة فهو من أصحاب اليمين وهؤلاء هم المقربون وما يلقى هؤلاء يجاوز حد البيان والقدر الممكن ذكره ما فصله القرآن فليس بعد بيان الله بيان والذى لا يمكن التعبير عنه فى هذا العالم فهو الذى أجمله قوله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وقوله عز وجل أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر والعارفون مطلبهم تلك الحالة التى لا يتصور أن تخطر على قلب بشر فى هذا العالم وأما الحور والقصور والفاكهة واللبن والعسل والخمر والحلى والاساور فانهم لا يحرصون عليها ولو أعطوها لم يقنعوا بها ولا يطلبون الا لذة النظر الى وجه الله تعالى الكريم فهى غاية السعادات ونهاية اللذات ولذلك قيل لرابعة العدوية رحمة الله عليها كيف رغبتك فى الجنة فقالت الجار ثم الدار فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها بل عن كل شئ سواه حتى عن أنفسهم ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه المستوفى همه بالنظر الى وجهه والفكر فيه فانه فى حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يحس بما يصيبه فى بدنه ويعبر عن هذه الحالة بانه فنى عن نفسه ومعناه انه صار مستغرقا بغيره وصارت همومه هما واحدا وهو محبوبه ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت اليه لا نفسه ولا غير نفسه وهذه الحالة هى التى توصل فى الآخرة الى قرة عين لا يتصور ان تخطر فى هذا العالم على قلب بشر كما لا يتصور أن تخطر صورة الالوان والالحان على قلب الاصم والاكمه الا أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره فعند ذلك يدرك حاله ويعلم قطعا انه لم يتصور أن تخطر بباله قبل ذلك صورته فالدنيا حجاب على التحقيق وبرفعه ينكشف الغطاء فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون فهذا القدر كاف فى بيان توزع الدرجات على الحسنات والله الموفق بلطفه

(بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب)

اعلم ان الصغيرة تكبر باسباب * منها الاصرار والمواظبة ولذلك قيل لا صغيرة مع اصرار ولا كبيرة مع استغفار فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الاعمال أدومها وان قل والاشياء تستبان باضدادها وان كان النافع من العمل هو الدائم وان قل فالكثير المنصرم قليل النفع فى تنوير القلب وتطهيره فكذلك القليل من السيئات اذا دام عظم تاثيره فى اظلام القلب الا ان الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر فقلما يزنى الزانى بغتة من غير مراودة ومقدمات وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق اليها عود ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الانسان عليها عمره * ومنها ان يستصغر الذنب فان الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى وكلما استصغره كبر عند الله تعالى لان استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له وذلك النفور يمنع من شدة تاثره به واستصغاره يصدر عن الالف به وذلك يوجب شدة الاثر فى القلب والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات ولذلك لا يؤاخذ بما يجرى عليه فى الغفلة فان القلب لا يتأثر بما يجرى فى الغفلة وقد جاء فى الخبر المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف ان يقع عليه والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره وقال بعضهم الذنب الذى لا يغفر قول العبد ليت كل ذنب عملته مثل هذا وانما يعظم الذنب

يا مستغاث يا غياث المستغيثين لا تكلنى الى نفسى طرفة عين فاهلك ولا الى أحد من خلقك فاضيع اكلأنى كلاءة الوليد ولا تخل عنى وتولنى بما تتولى به عبادك الصالحين أنا عبدك وابن عبدك ناصيتى بيدك جار فى حكمك عدل فى قضاؤك نافذ فى مشيئتك ان تعذب فاهل ذلك أنا وان ترحم فاهل ذلك أنت فافعل اللهم يا مولاى يا ألله يا رب ما أنت له أهل ولا تفعل اللهم يا رب يا ألله ما أنا له أهل انك أهل التقوى وأهل المغفرة يا من لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة هب لى ما لا يضرك وأعطنى ما لا ينقصك يا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا

فى قلب المؤمن لعلمه بجلال الله فاذا نظر الى عظم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة وقد أوحى الله تعالى الى بعض أنبيائه لا تنظر الى قلة الهدية وانظر الى عظم مهديها ولا تنظر الى صغر الخطيئة وانظر الى كبرياء من واجهته بها وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين لا صغيرة بل كل مخالفة فهى كبيرة وكذلك قال بعض الصحابة رضى الله عنهم للتابعين انكم لتعملون أعمالا هى فى أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات اذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم فكانت الصغائر عندهم بالاضافة الى جلال الله تعالى من الكبائر وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ويتجاوز عن العامى فى أمور لا يتجاوز فى أمثالها عن العارف لان الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف * ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب الشقاوة فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها فى تسويد قلبه حتى ان من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدة فرحه بمقارفته اياه كما يقول أما رأيتنى كيف مزقت عرضه ويقول المناظر فى مناظرته أما رأيتنى كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى خجلته وكيف استخففت به وكيف لبست عليه ويقول المعامل فى التجارة أما رأيت كيف روجت عليه الزائف وكيف خدعته وكيف غبنته فى ماله وكيف استحمقته فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فان الذنوب مهلكات واذا دفع العبد اليها وظفر الشيطان به فى الحمل عليها فينبغى أن يكون فى مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه وبسبب بعده من الله تعالى فالمريض الذى يفرح بان ينكسر اناؤه الذى فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه * ومنها ان يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وامهاله اياه ولا يدرى انه انما يمهل مقتا ليزداد بالامهال اثما فيظن أن تمكنه من المعاصى عناية من الله تعالى به فيكون ذلك لامنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله كما قال تعالى ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ومنها أن يأتى الذنب ويظهره بان يذكره بعد اتيانه أو يأتيه فى مشهد غيره فان ذلك جناية منه على ستر الله الذى سدله عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله فهما جنايتان انضمتا الى جنايته فغلظت به فان انضاف الى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الاسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الامر وفى الخبر كل الناس معافى الا المجاهرين يبيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه وهذا لان من صفات الله ونعمه انه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر فالاظهار كفران لهذه النعمة وقال بعضهم لا تذنب فان كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين ولذلك قال تعالى المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف وقال بعض السلف ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من ان يساعده على معصية ثم يهونها عليه * ومنها أن يكون المذنب عالما يقتدى به فاذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الابريسم وركوبه مراكب الذهب وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين ودخوله على السلاطين وتردده عليهم ومساعدته اياهم بترك الانكار عليهم واطلاق اللسان فى الاعراض وتعديه باللسان فى المناظرة وقصده الاستخفاف واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه الا الجاه كالعلم بالجدل والمناظرة فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيرا فى العالم آمادا متطاولة فطوبى لمن اذا مات ماتت ذنوبه معه وفى الخبر من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيأ قال تعالى ونكتب ما قدموا وآثارهم والآثار ما يلحق من الاعمال بعد انقضاء العمل والعامل وقال ابن عباس ويل للعالم من الاتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها فى الآفاق وقال بعضهم مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها وفى الاسرائيليات ان عالما كان يضل الناس بالبدعة ثم أدركته توبة فعمل فى الاصلاح دهرا فأوحى الله تعالى الى نبيهم قل له ان ذنبك لو كان فيما بينى وبينك لغفرته لك ولكن كيف بمن أضللت من عبادى فادخلتهم النار فبهذا يتضح ان أمر العلماء مخطر فعليهم وظيفتان احداهما ترك الذنب والاخرى اخفاؤه وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات اذا اتبعوا فاذا ترك التجمل والميل الى الدنيا وقنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيتبع عليه ويقتدى به العلماء والعوام فيكون له مثل

ثوابهم

والميك المصير ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارزقنا العون على الطاعة والعصمة من المعصية وافراغ الصبر فى الخدمة وايزاع الشكر فى النعمة وأسألك حسن الخاتمة وأسألك اليقين وحسن المعرفة بك وأسألك المحبة وحسن التوكل عليك وأسألك الرضا وحسن الثقة بك وأسألك حسن المنقلب اليك اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأصلح أمة محمد اللهم ارحم أمة محمد اللهم فرج عن أمة محمد فرجا عاجلا ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا

ثوابهم وان مال الى التجمل مالت طباع من دونه الى التشبه به ولا يقدرون على التجمل الا بخدمة السلاطين وجمع الحطام من الحرام ويكون هو السبب في جميع ذلك فحركات العلماء في طوري الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها اما بالربح واما بالخسران وهذا القدر كاف في تفاصيل الذنوب التي التوبة توبة عنها

(الركن الثالث في تمام التوبة وشروطها ودوامها الى آخر العمر)

قد ذكرنا ان التوبة عبارة عن ندم يورث عزما وقصدا وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصي حائلا بينه وبين محبوبه ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام ولتمامها علامة ولدوامها شروط فلا بد من بيانها (أما العلم) فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتي (وأما الندم) فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء والفكر فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته طال عليه مصيبته وبكاؤه وأي عزيز أعز عليه من نفسه وأي عقوبة أشد من النار وأي شئ أدل على نزول العقوبة من المعاصي وأي مخبر أصدق من الله ورسوله ولو حدثه انسان واحد يسمى طبيبا ان مرض ولده المريض لا يبرأ وانه سيموت منه لطال في الحال حزنه فليس ولده بأعز من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ولا الموت بأشد من النار ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض بها للنار فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع وفي الخبر جالسوا التوابين فانهم أرق أفئدة ومن علامته ان تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلا عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية وبالرغبة نفرة وفي الاسرائيليات ان الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه وقد سأله قبول توبة عبد بعد ان اجتهد سنين في العبادة ولم ير قبول توبته فقال وعزتي وجلالي لو شفع فيه أهل السموات والارض ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذي تاب منه في قلبه فان قلت فالذنوب هي أعمال مشتهاة بالطبع فكيف يجد مرارتها فأقول من تناول عسلا كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلذه ثم مرض وطال مرضه وألمه وتناثر شعره وفلجت أعضاؤه فاذا قدم اليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا فان قلت لا فهو جحد للمشاهدة والضرورة بل ربما تنفر عن العسل الذي ليس فيه سم أيضا لشبهه به فوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعلمه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم ولا تصح التوبة ولا تصدق الا بمثل هذا الايمان ولما عز مثل هذا الايمان عزت التوبة والتائبون فلا ترى الا معرضا عن الله تعالى متهاونا بالذنوب مصرا عليها فهذا شرط تمام الندم وينبغي أن يدوم الى الموت وينبغي أن يجد هذه المرارة في جميع الذنوب وان لم يكن قد ارتكبها من قبل كما يجد متناول السم في العسل النفرة من الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السم اذ لم يكن ضرره من العسل بل مما فيه ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من حيث انه سرقة وزنا بل حيث انه من مخالفة أمر الله تعالى وذلك جار في كل ذنب (وأما القصد الذي ينبعث منه) وهو ارادة التدارك فله تعلق بالحال وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال وله تعلق بالماضي وهو تدارك ما فرط وبالمستقبل وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية الى الموت * وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضي أن يرد فكره الى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهرا شهرا ويوما يوما ونفسا نفسا وينظر الى الطاعات ما الذي قصر فيه منها والى المعاصي ما الذي قارفه منها فان كان قد ترك صلاة أو صلاها في ثوب نجس أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية فيقضيها عن آخرها فان شك في عدد ما فاته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذي يستيقن أنه أداه ويقضي الباقي وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل اليه على سبيل التحري والاجتهاد وأما الصوم فان كان قد تركه في سفر ولم يقضه أو أفطر عمدا أو نسي النية بالليل ولم يقض فيتعرف مجموع ذلك بالتحري والاجتهاد ويشتغل بقضائه وأما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أول ملكه لا من زمان البلوغ فان الزكاة واجبة في مال الصبي فيؤدي ما علم بغالب الظن انه في ذمته فان أداه لا على وجه يوافق مذهبه بأن لم يصرف الى الاصناف الثمانية أو أخرج البدل وهو على مذهب الشافعي رحمه الله تعالى فيقضي جميع ذلك فان ذلك لا يجزيه أصلا وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول ويحتاج فيه الى تأمل

للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم اللهم اغفر لي ولوالدي ولمن توالدا وارحمهما كما ربياني صغيرا واغفر لاعمامنا وعماتنا وأخوالنا وخالاتنا وأزواجنا وذرياتنا ولجميع المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الاحياء منهم والاموات يا أرحم الراحمين يا خير الغافرين (ولما كان) الدعاء مخ العبادة أحببنا ان نستوفي من ذلك قسما صالحا نرجو بركته وهذه الادعية استخرجها الشيخ أبو طالب المكي رحمه الله في كتابه قوت القلوب وعلى نقله كل الاعتماد وفيه البركة فليدع بهذه الدعوات منفردا أو في الجماعة اماما أو مأموما ويختصر منها ما يشاء

(الباب الخامس في ذكر العمل في جميع النهار وتوزيع الاوقات) فمن ذلك ان يلازم موضعه الذي صلى هو فيه

شاف ويلزمه ان يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء وأما الحج فان كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له الخروج والآن قد أفلس فعليه الخروج فان لم يقدر مع الافلاس فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد فان لم يكن له كسب ولا مال فعليه أن يسأل الناس ليصرف اليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به فانه ان مات قبل الحج مات عاصيا قال عليه السلام من مات ولم يحج فليمت ان شاء يهوديا وان شاء نصرانيا والعجز الطارئ بعد القدرة لا يسقط عنه الحج فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها وأما المعاصي فيجب ان يفتش من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها ثم ينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد كنظر الى غير محرم وقعود في مسجد مع الجنابة ومس مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر وسماع ملاه وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها وبان يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذا من قوله صلى الله عليه وسلم اتق الله حيث كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها بل من قوله تعالى ان الحسنات يذهبن السيئات فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وبمجالس الذكر ويكفر القعود في المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة ويكفر مس المصحف محدثا باكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة تقبيله وبان يكتب مصحفا ويجعله وقفا ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب اليه وعد جميع المعاصي غير ممكن وانما المقصود سلوك الطريق المضادة فان المرض يعالج بضده فكل ظلمة ارتفعت الى القلوب بمعصية فلا يمحوها الا نور يرتفع اليها بحسنة تضادها والمتضادات هي المتناسبات فلذلك ينبغي أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها فان البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق المحو فالرجاء فيه أصدق والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وان كان ذلك أيضا مؤثرا في المحو فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى ويدل على أن الشيء يكفر بضده ان حب الدنيا رأس كل خطيئة وأثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها والحنين اليها فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له اذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم قال صلى الله عليه وسلم من الذنوب ذنوب لا يكفرها الا الهموم وفي لفظ آخر الا الهم بطلب المعيشة وفي حديث عائشة رضي الله عنها اذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها أدخل الله تعالى عليه الهموم فتكون كفارة لذنوبه ويقال ان الهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرفه هو ظلمة الذنوب والهم بها وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع فان قلت هم الانسان غالبا بماله وولده وجاهه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة فاعلم أن الحب له خطيئة والحرمان عنه كفارة ولو تمتع به لتمت الخطيئة فقد روي أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فقال له كيف تركت الشيخ الكئيب فقال قد حزن عليك حزن مائة ثكلى قال فما له عند الله قال أجر مائة شهيد فاذن الهموم أيضا مكفرات حقوق الله فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى وأما مظالم العباد ففيها أيضا معصية وجناية على حق الله تعالى فان الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضا فما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر وترك مثله في المستقبل والاتيان بالحسنات التي هي أضدادها فيقابل ايذاءه الناس بالاحسان اليهم ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين واظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله ويكفر قتل النفوس باعتاق الرقاب لان ذلك احياء اذ العبد مفقود لنفسه موجود لسيده والاعتاق ايجاد لا يقدر الانسان على أكثر منه فيقابل الاعدام بالايجاد وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع حيث كفر القتل باعتاق رقبة ثم اذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد ومظالم العباد اما في النفوس أو الاموال أو الاعراض أو القلوب أعني به الايذاء المحض أما النفوس فان جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية ووصولها الى المستحق اما منه أو من عاقلته وهو في عهدة ذلك قبل الوصول وان كان عمدا موجبا للقصاص فبالقصاص فان لم يعرف فيجب عليه ان يتعرف عند ولي الدم ويحكمه في روحه فان شاء عفا

مستقبل القبلة الآن يرى انتقاله الى زاوية أسلم لدينه لئلا يحتاج الى حديث أو التفات الى شيء فان السكوت في هذا الوقت وترك الكلام له أثر ظاهر بين تجده أهل المعاملة وأرباب القلوب وقد ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ذلك ثم يقرأ الفاتحة وأول سورة البقرة الى المفلحون والآيتين والهكم اله واحد وآية الكرسي والآيتين بعدها وآمن الرسول والآية قبلها وشهد الله وقل اللهم مالك الملك وان ربكم الله الذي خلق السموات والارض الى المحسنين ولقد جاءكم رسول الى الآخر وقل ادعوا الله الآيتين وآخر الكهف من ان الذين آمنوا وذا النون اذ ذهب مغاضبا الى خير الوارثين فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وسبحان ربك الى آخر السورة

عنه وان شاء قتله ولا تسقط عهدته الا بهذا ولا يجوز له الاخفاء وليس هذا كما لو زنى أو شرب أو سرق أو قطع الطريق أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى فانه لا يلزمه في التوبة ان يفضح نفسه ويهتك ستره ويلتمس من الوالي استيفاء حق الله تعالى بل عليه ان يتستر بستر الله تعالى ويقيم حد الله على نفسه بانواع المجاهدة والتعذيب فالعفو في محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين فان رفع أمر هذه الى الوالي حتى أقام عليه الحد وقع موقعه وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل ما روى ان ماعز بن مالك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني قد ظلمت نفسي وزنيت واني أريد ان تطهرني فرده فلما كان من الغد أتاه فقال يا رسول الله اني قد زنيت فرده الثانية فلما كان في الثالثة أمر به فحفر له حفرة ثم أمر به فرجم فكان الناس فيه فريقين فقائل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته وقائل يقول ما توبة أصدق من توبته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم وجاءت الغامدية فقالت يا رسول الله اني قد زنيت فطهرني فردها فلما كان من الغد قالت يا رسول الله لم تردني لعلك تريد ان تردني كما رددت ماعزا فوالله اني لحبلى فقال صلى الله عليه وسلم اما الآن فاذهبي حتى تضعي فلما ولدت أتت بالصبي في خرقة فقالت هذا قد ولدته قال اذهبي فارضعيه حتى تفطميه فلما فطمته أتت بالصبي وفي يده كسرة خبز فقالت يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبي الى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها الى صدرها فأمر الناس فرجموها فاقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجهه فسبها فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه اياها فقال مهلا يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت (وأما القصاص وحد القذف) فلابد من تحليل صاحبه المستحق فيه وان كان المتناول مالا تناوله بغصب أو خيانة أو غبن في معاملة بنوع تلبيس كترويج زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص أجرة أجير أو منع أجرته فكل ذلك يجب ان يفتش عنه لا من حد بلوغه بل من أول مدة وجوده فان ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي اخراجه بعد البلوغ ان كان الولي قد قصر فيه فان لم يفعل كان ظالما مطالبا به اذ يستوي في الحقوق المالية الصبي والبالغ وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق من أول يوم حياته الى يوم توبته قبل ان يحاسب في القيامة وليناقش قبل ان يناقش فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه فاذا حصل مجموع ما عليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد ممكن فليكتبه وليكتب أسامي أصحاب المظالم واحدا واحدا وليطف في نواحي العالم وليطلبهم وليستحلهم أو ليؤد حقوقهم وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار فانهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلهم ولا على طلب ورثتهم ولكن على كل واحد منهم ان يفعل منه ما يقدر عليه فان عجز فلا يبقى له طريق الا أن يكثر من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم ولتكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فانه ان لم تف بها حسناته حمل من سيئات أرباب المظالم فيهلك بسيئات غيره فهذا طريق كل تائب في رد المظالم وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم فكيف وذلك مما لا يعرف وربما يكون الاجل قريبا فينبغي أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشد من تشميره الذي كان في المعاصي في متسع الاوقات هذا حكم المظالم الثابتة في ذمته اما أمواله الحاضرة فليرد الى المالك ما يعرف له مالكا معينا وما لا يعرف له مالكا فعليه ان يتصدق به فان اختلط الحلال بالحرام فعليه ان يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام (وأما الجناية) على القلوب بمشافهة الناس بما يسوءهم أو يعيبهم في الغيبة فليطلب كل من تعرض له بلسانه أو آذى قلبه بفعل من أفعاله وليستحل واحدا واحدا منهم ومن مات أو غاب فقد فات أمره ولا يتدارك الا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضا في القيامة وأما من وجده وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته وعليه ان يعرفه قدر جنايته وتعرضه له فالاستحلال المبهم لا يكفي وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالاحلال وادخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمله من سيئاته فان كان في جملة جنايته على الغير ما لو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته كزناه بجاريته أو أهله أو نسبته باللسان الى عيب من خفايا عيوبه يعظم اذاه مهما شوفه به فقد انسد عليه طريق الاستحلال فليس له الا ان يستحل منها ثم تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة

ولقد صدق الله وأول سورة الحديد الى بذات الصدور وآخر سورة الحشر من لو أنزلنا ثم يسبح ثلاثا وثلاثين وهكذا يحمد مثله ويكبر مثله ويتمها مائة بلا اله الا الله وحده لا شريك له فاذا فرغ من ذلك يشتغل بتلاوة القرآن حفظا أو من المصحف أو يشتغل بانواع الاذكار ولا يزال كذلك من غير فتور وفتور ونعاس فان النوم في هذا الوقت مكروه جدا فان غلبه النوم فليقم في مصلاه قائما مستقبل القبلة فان لم يذهب النوم بالقيام يخط خطوات نحو القبلة ويتأخر بالخطوات كذلك ولا يستدبر القبلة في ادامة استقبال القبلة وترك الكلام والنوم ودوام الذكر في هذا الوقت أثر كبير وبركة غير قليلة وجدنا ذلك بحمد الله ونوصي به الطالبين وأثر ذلك في حق مسن

الميت والغائب وأما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها ومهما ذكر جنايته وعرفه المجنى عليه فلم تسمح نفسه بالاستحلال بقيت المظلمة عليه فان هذا حقه فعليه ان يتلطف به و يسعى فى مهماته وأغراضه ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه فان الانسان عبد الاحسان وكل من نفر بسيئة مال بحسنة فاذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه سمحت نفسه بالاحلال فان أبى الا الاصرار فيكون تلطفه به واعتذاره اليه من جملة حسناته التى يمكن أن يجبر بها فى القيامة جنايته وليكن قدر سعيه فى فرحه وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه فى أذاه حتى اذا قاوم أحدهما الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك منه عوضا فى القيامة بحكم الله به عليه كمن أتلف فى الدنيا مالا فجاء بمثله فامتنع من له المال من القبول وعن الابراء فان الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبى وكذلك يحكم فى صعيد القيامة أحكم الحاكمين وأعدل المقسطين وفى المتفق عليه من الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الارض فدل على راهب فأتاه فقال انه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة قال لا فقتله فكمل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الارض فدل على رجل عالم فقال له انه قتل مائة نفس فهل له من توبة قال نعم ومن يحول بينه و بين التوبة انطلق الى أرض كذا وكذا فان بها أناسا يعبدون الله عز و جل فاعبد الله معهم ولا ترجع الى أرضك فانها أرض سوء فانطلق حتى اذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة و ملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائبا مقبلا بقلبه الى الله وقالت ملائكة العذاب انه لم يعمل خيرا قط فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه حكما بينهم فقال قيسوا ما بين الارضين فالى أيتهما كان أدنى فهو له فقاسوا فوجدوه أدنى الى الارض التى أراد فقبضته ملائكة الرحمة وفى رواية فكان الى القرية الصالحة أقرب منها بشبر فجعل من أهلها وفى رواية فأوحى الله تعالى الى هذه أن تباعدى والى هذه أن تقربى وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه الى هذه أقرب بشبر فغفر له فبهذا تعرف انه لا خلاص الا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال ذرة فلا بد للتائب من تكثير الحسنات هذا حكم القصد المتعلق بالماضى وأما العزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعقد مع الله عقدا مؤكدا و يعاهده بعهد وثيق أن لا يعود الى تلك الذنوب ولا الى أمثالها كالذى يعلم فى مرضه أن الفاكهة تضره مثلا فيعزم عزما جزما أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه فان هذا العزم يتأكد فى الحال وان كان يتصور أن تغلبه الشهوة فى ثانى الحال ولكن لا يكون تائبا ما لم يتأكد عزمه فى الحال ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب فى أول أمره الا بالعزلة والصمت وقلة الاكل والنوم واحراز قوت حلال فان كان له مال موروث حلال أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه فان رأس المعاصى أكل الحرام فكيف يكون تائبا مع الاصرار عليه ولا يكتفى بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات فى المأكولات والملبوسات وقد قال بعضهم من صدق فى ترك شهوة و جاهد نفسه لله سبع مرار لم يبتل بها وقال آخر من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد اليه أبدا ومن مهمات التائب اذا لم يكن عالما أن يتعلم ما يجب عليه فى المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة وان لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة الا أن يتوب عن بعض الذنوب كالذى يتوب عن الشرب والزنا والغصب مثلا وليست هذه توبة مطلقة وقد قال بعض الناس ان هذه التوبة لا تصح وقال قائلون تصح ولفظ الصحة فى هذا المقام مجمل بل نقول لمن قال لا تصح ان عنيت به ان تركه بعض الذنوب لا يفيد أصلا بل وجوده كعدمه فما أعظم خطأك فانا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقلتها سبب لقلته ونقول لمن قال تصح ان أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولا يوصل الى النجاة أو الفوز فهذا أيضا خطأ بل النجاة والفوز بترك الجميع هذا حكم الظاهر ولسنا نتكلم فى خفايا أسرار عفو الله فان قال من ذهب الى أنها لا تصح انى أردت به أن التوبة عبارة عن الندم وانما يندم على السرقة مثلا لكونها معصية لا لكونها سرقة و يستحيل أن يندم عليها دون الزنا ان كان توجعه لاجل المعصية فان العلة شاملة لهما اذ من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين لان توجعه بفوات محبوبه سواء كان بالسيف أو بالسكين فكذلك توجع العبد بفوات محبوبه وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزنا فكيف يتوجع على البعض دون البعض فالندم حالة توجبها العلم

يجمع فى الاذكار بين القلب واللسان أكثر وأظهر وهذا الوقت أول النهار والنهار مظنة الآفات فاذا أحكم أوله بهذه الرعاية فقد أحكم بنيته وتبتنى أوقات النهار جميعا على هذا البناء فاذا قارب طلوع الشمس يبتدئ بقراءة المسبعات العشر وهى من تعليم الخضر عليه السلام علمها ابراهيم التيمى وذكر انه تعلمها من رسول الله صلى الله عليه وسلم وينال بالمداومة عليها جميع المتفرق فى الاذكار والدعوات وهى عشرة أشياء سبعة سبعة الفاتحة والمعوذتان وقل هو الله أحد وقل يا أيها الكافرون وآية الكرسى وسبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر والصلاة على النبى وآله ويستغفر لنفسه ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات ويقول سبعا اللهم افعل بى وبهم

يكون المعصية مفوتة للمحبوب من حيث انها معصية فلا يتصور أن يكون على بعض المعاصي دون البعض ولو جاز هذا الجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدنين دون الآخر فان استحال ذلك من حيث ان المعصية في الخمرين واحد وانما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية والمعصية من حيث مخالفة الامر واحدة فاذا معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة وتلك الرتبة لا تنال الا بالندم ولا يتصور الندم على بعض المماثلات فهو كالملك المرتب على الايجاب والقبول فانه اذا لم يتم الايجاب والقبول نقول ان العقد لا يصح أي لم تترتب عليه الثمرة وهو الملك وتحقيق هذا أن ثمرة مجرد الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه وثمرة الندم تكفير ما سبق فترك السرقة لا يكفر السرقة بل الندم عليها ولا يتصور الندم الا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصي وهو كلام مفهوم واقع يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء فنقول التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو اما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر أو عن الصغائر دون الكبائر أو عن كبيرة دون كبيرة أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فامر ممكن لانه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخط الله ومقته والصغائر أقرب الى تطرق العفو اليها فلا يستحيل أن يتوب عن الاعظم ويندم عليه كالذي يجني على أهل الملك وحرمه ويجني على دابته فيكون خائفا من الجناية على الاهل مستحقرا للجناية على الدابة والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعدا عن الله تعالى وهذا ممكن وجوده في الشرع فقد كثر التائبون في الاعصار الخالية ولم يكن أحد منهم معصوما فلا تستدعي التوبة العصمة والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيرا شديدا ويحذره السكر تحذيرا أخف منه على وجه يشعر معه انه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلا فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده وان أكلهما جميعا بحكم شهوته ندم على أكل العسل دون السكر * الثاني أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضا ممكن لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله كالذي يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعلمه أن ديوان العباد لا يترك وما بينه وبين الله يتسارع العفو اليه فهذا أيضا ممكن كما في تفاوت الكبائر والصغائر لان الكبائر أيضا متفاوتة في أنفسها وفي اعتقاد مرتكبها ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لا تتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلا اذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور وانه اذا زال عقله ارتكب جميع المعاصي وهو لا يدري فبحسب ترجح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركا في المستقبل وندما على الماضي * الثالث أن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصر على كبيرة يعلم انها كبيرة كالذي يتوب عن الغيبة أو عن النظر الى غير المحرم أو ما يجري مجراه وهو مصر على شرب الخمر فهو أيضا ممكن ووجه امكانه انه ما من مؤمن الا وهو خائف من معاصيه ونادم على فعله ندما اما ضعيفا واما قويا ولكن تكون لذة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها لاسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة وأسباب توجب قوة الشهوة فيكون الندم موجودا ولكن لا يكون مليا بتحريك العزم ولا قويا عليه فان سلم عن شهوة أقوى منه بان لم يعارضه الا ما هو أضعف قهر الخوف الشهوة وغلبها وأوجب ذلك ترك المعصية وقد تشتد ضراوة الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر عنه وتكون له ضراوة اما بالغيبة وثلب الناس والنظر الى غير المحرم وخوفه من الله قد بلغ مبلغا يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك بل يقول هذا الفاسق في نفسه ان قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي فلا ينبغي ان أخلع العذار وأرخي العنان بالكلية بل أجاهده في بعض المعاصي فعساني أغلبه فيكون قهري له في البعض كفارة لبعض ذنوبي ولو لم يتصور هذا لما تصور من الفاسق أن يصلي ويصوم ولقيل له ان كانت صلاتك لغير الله فلا تصح وان كانت لله فاترك الفسق لله فان أمر الله فيه واحد فلا يتصور أن تقصد بصلاتك التقرب الى الله تعالى ما لم تتقرب بترك الفسق وهذا محال بان يقول لله تعالى على أمران ولي على المخالفة فيهما عقوبتان وأنا ملي في أحدهما بقهر الشيطان عاجز عنه في الآخر فانا أقهره فيما أقدر عليه وأرجو بمجاهدتي فيه أن يكفر عني بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتي فكيف لا يتصور هذا وهو حال كل مسلم اذ لا مسلم الا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ولا سبب له الا هذا واذا فهم هذا فهم ان غلبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب ممكن وجودها والخوف اذا كان من فعل ماض أورث الندم والندم

عاجلا وآجلا في الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل ولا تفعل بنا يا مولانا ما نحن له أهل انك غفور حليم جواد كريم رؤف رحيم (وروى) ان ابراهيم التيمي لما قرأ هذه بعد ان تعلمها من الخضر رأى في المنام انه دخل الجنة ورأى الملائكة والانبياء عليهم السلام وأكل من طعام الجنة وقيل انه مكث أربعة أشهر لم يطعم وقيل لعله كان ذلك لكونه أكل من طعام الجنة فاذا فرغ من المسبعات أقبل على التسبيح والاستغفار والتلاوة الى ان تطلع الشمس قدر رمح (روى) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لان أقعد في مجلس أذكر الله فيه من صلاة الغداة الى طلوع الشمس أحب الي من أن أعتق أربع رقاب ثم يصلي ركعتين قبل أن ينصرف من مجلسه فقد نقل عن

يورث العزم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم الندم توبة ولم يشترط الندم على كل ذنب وقال التائب من الذنب كمن لا ذنب له ولم يقل التائب من الذنوب كلها وبهذه المعاني تبين سقوط قول القائل ان التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة لانها متماثلة في حق الشهوة وفي حق التعرض الى سخط الله تعالى نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون النبيذ لتفاوتهما في اقتضاء السخط ويتوب عن الكثير دون القليل لان لكثرة الذنوب تأثيرا في كثرة العقوبة فيساعد الشهوة بالقدر الذي يعجز عنه ويترك بعض شهوته لله تعالى كالمريض الذي حذره الطبيب الفاكهة فانه قد يتناول قليلها ولكن لا يستكثر منها فقد حصل من هذا انه لا يمكن أن يتوب عن شئ ولا يتوب عن مثله بل لابد وان يكون ما تاب عنه مخالفا لما بقي عليه اما في شدة المعصية واما في غلبة الشهوة واذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب تصور اختلاف حاله في الخوف والندم فيتصور اختلاف حاله في الترك فندمه على ذلك الذنب ووفاؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب وان لم يكن قد أطاع الله في جميع الاوامر والنواهي فان قلت هل تصح توبة العنين من الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة فاقول لا لان التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه اياه ولكني أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذي قارفه وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الوقاع به باقية لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها فاني أرجو أن يكون ذلك مكفرا لذنبه وماحيا عنه سيئته اذ لا خلاف في انه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين وان لم يطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتتيسر أسباب قضاء الشهوة ولكنه تائب باعتبار ان ندمه بلغ مبلغا أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده فاذا لا يستحيل ان تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ الا انه لا يعرفه من نفسه فان كل من لا يشتهي شيأ يقدر نفسه قادرا على تركه بادنى خوف والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فعساه يقبله منه بل الظاهر انه يقبله والحقيقة في هذا كله ترجع الى ان ظلمة المعصية تنمحي عن القلب بشيئين أحدهما حرقة الندم والآخر شدة المجاهدة بالترك في المستقبل وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالا ان يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة ولولا هذا لقلنا ان التوبة لا تقبل ما لم يعش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلا فان قلت اذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن النزوع الى الذنب والآخر بقي في نفسه نزوع اليه وهو يجاهدها ويمنعها فايهما أفضل فاعلم ان هذا مما اختلف العلماء فيه فقال أحمد بن أبي الحواري وأصحاب أبي سليمان الداراني ان المجاهد أفضل لان له مع التوبة فضل الجهاد وقال علماء البصرة ذلك الآخر أفضل لانه لو فتر في توبته كان أقرب الى السلامة من المجاهد الذي هو في عرضة الفتور عن المجاهدة وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة والحق فيه ان الذي انقطع نزوع نفسه له حالتان * احداهما أن يكون انقطاع نزوعه اليها بفتور في نفس الشهوة فقط فالمجاهد أفضل من هذا اذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه واستيلاء دينه على شهوته فهو دليل قاطع على قوة اليقين وعلى قوة الدين وأعني بقوة الدين قوة الارادة التي تنبعث باشارة اليقين وتقمع الشهوة المنبعثة باشارة الشياطين فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعا وقول القائل ان هذا أسلم اذ لو فتر لا يعود الى الذنب فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ الافضل فيه خطأ وهو كقول القائل العنين أفضل من الفحل لانه في أمن من خطر الشهوة والصبي أفضل من البالغ لانه أسلم والمفلس أفضل من الملك القاهر القامع لاعدائه لان المفلس لا عدو له والملك ربما يغلب مرة وان غلب مرات وهذا كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر غير عالم بان العز في الاخطار وأن العلو شرطه اقتحام الاغرار بل هو كقول القائل الصياد الذي ليس له فرس ولا كلب أفضل في صناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس لانه آمن من أن يجمح به فرسه فتنكسر أعضاؤه عند السقوط على الارض وآمن من أن يعضه الكلب ويتعدى عليه وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب اذا كان قويا عالما بطريق تأديبهما أعلى رتبة وأحرى بدرك سعادة الصيد (الحالة الثانية) ان يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة اذ بلغ مبلغا قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت

رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يصلي الركعتين وبهاتين الركعتين تتبين فائدة رعاية هذا الوقت واذا صلى الركعتين بجمع هم وحضور فهم وحسن تدبر لما يقرأ يجد في باطنه أنوارا ونورا وروحا وأنسا اذا كان صادقا والذي يجده من البركة ثواب معجل له على عمله هذا وأحب أن يقرأ في هاتين الركعتين في الاولى آية الكرسي وفي الاخرى آمن الرسول والله نور السموات والارض الى آخر الآية وتكون نيته فيهما الشكر لله على نعمه في يومه وليلته ثم يصلي ركعتين أخريين يقرأ المعوذتين فيهما في كل ركعة سورة ويكون صلاته هذه ليستعيذ بالله تعالى من شر يومه وليلته ويذكر بعد هاتين الركعتين كلمات الاستعاذة فيقول أعوذ بأسمائك وكلماتك التامة من شر السامة والهامة وأعوذ

بادب الشرع فلا تهيج الا بالاشارة من الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسى لهيجان الشهوة وقمعها وقول القائل ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الاحاطة بمقصود الجهاد فان الجهاد ليس مقصودا لعينه بل المقصود قطع ضراوة العدو حتى لا يستجرك الى شهواته وان عجز عن استجرارك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين فاذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت ومادمت فى المجاهدة فانت بعد فى طلب الظفر ومثاله كمثال من قهر العدو واسترقه بالاضافة الى من هو مشغول بالجهاد فى صف القتال ولا يدرى كيف يسلم ومثاله أيضا مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس فهما انا غمان عنده بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجماح بالاضافة الى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد ولقد زل فى هذا فريق فظنوا أن الجهاد هو المقصود الاقصى ولم يعلموا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق وظن آخرون أن قمع الشهوات واماطتها بالكلية مقصود حتى جرب بعضهم نفسه فعجز عنه فقال هذا محال فكذب بالشرع وسلك سبيل الاباحة واسترسل فى اتباع الشهوات وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك فى كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات فان قلت فما قولك فى تائبين أحدهما نسى الذنب ولم يشتغل بالتفكر فيه والآخر جعله نصب عينه ولا يزال يتفكر فيه و يحترق ندما عليه فايهما أفضل فاعلم أن هذا أيضا قد اختلفوا فيه فقال بعضهم حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك وقال آخر حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك وكل واحد من المذهبين عندنا حق ولكن بالاضافة الى حالين وكلام المتصوفة أبدا يكون قاصرا فان عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ولا يهمه حال غيره فتختلف الاجوبة لاختلاف الاحوال وهذا نقصان بالاضافة الى الهمة والارادة والجد حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لا يهمه أمر غيره اذ طريقه الى الله نفسه ومنازلة أحواله وقد يكون طريق العبد الى الله العلم فالطرق الى الله تعالى كثيرة وان كانت مختلفة فى القرب والبعد والله أعلم بمن هو أهدى سبيلا مع الاشتراك فى أصل الهداية فاقول تصور الذنب وذكره والتفجع عليه كمال فى حق المبتدئ لانه اذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى ارادته وانبعاثه لسلوك الطريق ولان ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع الى مثله فهو بالاضافة الى الغافل كمال ولكنه بالاضافة الى سالك الطريق نقصان فانه شغل مانع عن سلوك الطريق بل سالك الطريق ينبغى أن لا يعرج على غير السلوك فان ظهر له مبادى الوصول وانكشفت له أنوار المعرفة ولوامع الغيب استغرقه ذلك ولم يبق فيه متسع للالتفات الى ما سبق من أحواله وهو الكمال بل لو عاق المسافر عن الطريق الى بلد من البلاد نهر حاجز طال تعب المسافر فى عبوره مدة من حيث انه كان قد خرب جسره من قبل فلو جلس على شاطئ النهر بعد عبوره يبكى متأسفا على تخريبه الجسر كان هذا مانعا آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المانع نعم ان لم يكن الوقت وقت الرحيل بان كان ليلا فتعذر السلوك أو كان على طريقه أنهار وهو يخاف على نفسه أن عربها فليطل بالليل بكاؤه وحزنه على تخريب الجسر ليتأكد بطول الحزن عزمه على أن لا يعود الى مثله فان حصل له من التنبيه ما وثق بنفسه أنه لا يعود الى مثله فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه وهذا لا يعرفه الا من عرف الطريق والمقصد والعائق وطريق السلوك وقد أشرنا الى تلويحات منه فى كتاب العلم وفى ربع المهلكات بل نقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر فى النعيم فى الآخرة لتزيد رغبته ولكن ان كان شابا فلا ينبغى أن يطيل فكره فى كل ماله نظير فى الدنيا كالحور والقصور فان ذلك الفكر ربما يحرك رغبته فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة بل ينبغى أن يتفكر فى لذة النظر الى وجه الله تعالى فقط فذلك لا نظير له فى الدنيا فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركا للشهوة فالمبتدى أيضا قد يستضر به فيكون النسيان أفضل له عند ذلك ولا يصدنك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام فان قياسك نفسك على الانبياء قياس فى غاية الاعوجاج لانهم قد ينزلون فى أقوالهم وأفعالهم الى الدرجات اللائقة باممهم فانهم ما بعثوا الا لارشادهم فعليهم التلبس بما تنتفع أممهم بمشاهدته وان كان ذلك نازلا عن ذروة مقامهم فلقد كان فى الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة الا ويخوض معه فيها وقد كان مستغنيا عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس تسهيلا للامر على المريد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أما انى لا أنسى ولكنى أنسى لاشرع وفى لفظ انما

باسمك وكلمتك التامة من شر عذابك وشر عبادك وأعوذ باسمك وكلمتك التامة من شر ما يجرى به الليل والنهار ان ربى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ويقول بعد الركعتين الاوليين اللهم انى أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو وأصبحت مرتهنا بعملى وأصبح أمرى بيد غيرى فلا فقير أفقر منى اللهم لا تشمت بى عدوى ولا تسئ بى صديقى ولا تجعل مصيبتى فى دينى ولا تجعل الدنيا أكبر همى ولا مبلغ علمى ولا تسلط على من لا يرحمنى اللهم انى أعوذ بك من الذنوب التى تزيل النعم وأعوذ بك من الذنوب التى توجب النقم ثم يصلى ركعتين أخريين بنية الاستخارة لكل عمل يعمله فى يومه وليلته وهذه الاستخارة تكون بمعنى الدعاء على الاطلاق والا فالاستخارة التى وردت

أسهو لا سن ولا تعجب من هذا فان الام في كنف شفقة الانبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء وكالمواشي في كنف الرعاة أما ترى الاب اذا أراد أن يستنطق ولده الصبي كيف ينزل الى درجة نطق الصبي كما قال صلى الله عليه وسلم للحسن كخ كخ لما أخذ تمرة من تمر الصدقة و وضعها في فيه وما كانت فصاحته تقصر عن ان يقول ارم هذه التمرة فانها حرام ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقه ترك الفصاحة ونزل الى لكنته بل الذي يعلم شاة أو طائرا يصوت به رغاء أو صفيرا تشبها بالبهيمة والطائر تلطفا في تعليمه فاياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق فانها مزلة أقدام العارفين فضلا عن الغافلين نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

(بيان أقسام العباد في دوام التوبة)

اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات * الطبقة الاولى ان يتوب العاصي ويستقيم على التوبة الى آخر عمره فيتدارك مافرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود الى ذنوبه الا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوة فهذا هو الاستقامة على التوبة وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة التوبة النصوح واسم هذه النفس الساكنة النفس المطمئنة التي ترجع الى ربها راضية مرضية وهؤلاء هم الذين اليهم الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم سبق المفردون المستهترون بذكر الله تعالى وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا فان فيه اشارة الى انهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع الى الشهوات فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ولم يشغله عن السلوك صراعها والى مالا ينفك عن منازعة النفس ولكنه مليء بمجاهدتها وردها ثم تتفاوت درجات النزاع أيضا بالكثرة والقلة و باختلاف المدة و باختلاف الانواع وكذلك يختلفون من حيث طول العمر فمن مختطف يموت قريبا من توبته يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة ومن ممهل طال جهاده وصبره وتمادت استقامته وكثرت حسناته وحال هذا أعلى وأفضل اذ كل سيئة فانما تمحوها حسنة حتى قال بعض العلماء انما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي أن يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه و يكسر شهوته خوفا من الله تعالى واشتراط هذا بعيد وان كان لا ينكر عظم أثره لو فرض ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق فتهيج الشهوة وتحضر الاسباب حتى يتمكن ثم يطمع في الانكفاف فانه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن اختياره فيقدم على المعصية و ينقض توبته بل طريقه الفرار من ابتداء أسبابه الميسرة له حتى يسد طرقها على نفسه و يسعى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه فبه تسلم توبته في الابتداء (الطبقة الثانية) تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها الا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتجريد قصد ولكن يبتلى بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزما على الاقدام عليها ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التي تعرضه لها وهذه النفس جديرة بان تكون هي النفس اللوامة اذ تلوم صاحبها على ماتستهدف له من الاحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وتخمين رأي وقصد وهذه أيضا رتبة عالية وان كانت نازلة عن الطبقة الاولى وهي أغلب أحوال التائبين لان الشر معجون بطينة الآدمي فقلما ينفك عنه وانما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الحسنات فاما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك في غاية البعد وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى اذ قال تعالى الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ان ربك واسع المغفرة فكل المام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بان يكون من اللمم المعفو عنه قال تعالى والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم فأثنى عليهم مع ظلمهم لانفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه والى مثل هذه الرتبة الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه علي كرم الله وجهه خياركم كل مفتن تواب وفي خبر آخر المؤمن كالسنبلة يفيء أحيانا ويميل أحيانا وفي الخبر لابد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة أي الحين بعد الحين فكل ذلك أدلة قاطعة على ان هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذي يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه

والاطعمة

بهم الاخبار هي التي يصليها الامام كل أمر يريده ويقرأ في هاتين الركعتين قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ويقرأ دعاء الاستخارة كما سبق ذكره في غير هذا الباب ويقول فيه كل قول وعمل أريده في هذا اليوم اجعل فيه الخيرة ثم يصلي ركعتين أخريين يقرأ في الاولى سورة الواقعة وفي الاخرى سورة الاعلى ويقول بعدها اللهم صل على محمد وعلى آل محمد واجعل حبك أحب الاشياء الي وخشيتك أخوف الاشياء عندي واقطع عني حاجات الدنيا بالشوق الى لقائك واذا أقررت أعين أهل الدنيا بدنياهم فأقرر عيني بعبادتك واجعل طاعتك في كل شيء مني يا أرحم الراحمين ثم يصلي بعد ذلك ركعتين يقرأ فيهما شيئا من حزبه من القرآن ثم

والاطعمة الحارة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار وكالفقيه الذى يؤيس المتفقه على نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق فى أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه بل الفقيه فى الدين هو الذى لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيآت المختطفات قال النبى صلى الله عليه وسلم كل بنى آدم خطاؤن وخير الخطائين التوابون المستغفرون وقال أيضا المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعة أى واه بالذنوب راقع بالتوبة والندم وقال تعالى أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة فما وصفهم بعدم السيئة أصلا (الطبقة الاولى) أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوة فى بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة الا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القصدرة والشهوة وانما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرها هذا أمنيته فى حال قضاء الشهوة وعند الفراغ يتندم ويقول ليتنى لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسى فى قهرها لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوما بعد يوم فهذه النفس هى التى تسمى النفس المسولة وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجو فعسى الله أن يتوب عليه وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره فربما يختطف قبل التوبة ويقع أمره فى المشيئة فان تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين وان غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه فى الخاتمة ما سبق عليه من القول فى الازل لانه مهما تعذر على المتفقه مثلا الاحتراز عن شواغل التعلم دل تعذره على أنه سبق له فى الازل أن يكون من الجاهلين فيضعف الرجاء فى حقه واذا يسرله أسباب المواظبة على التحصيل دل على انه سبق له فى الازل أن يكون من جملة العالمين فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيآت بحكم تقدير مسبب الاسباب كارتباط المرض والصحة بتناول الاغذية والادوية وارتباط حصول فقه النفس الذى به تستحق المناصب العلية فى الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تفقيه النفس فكما لا يصلح لمنصب الرياسة والقضاء والتقدم بالعلم الا نفس صارت فقيهة بطول التفقيه فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ولا للقرب من رب العالمين الا قلب سليم صار طاهرا بطول التزكية والتطهير هكذا سبق فى الازل بتدبير رب الارباب ولذلك قال تعالى ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها فهما وقع العبد فى ذنب فصار الذنب نقدا والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان قال صلى الله عليه وسلم ان العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس انه من أهلها ولا يبقى بينه وبين الجنة الا شبر فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها فاذا الخوف من الخاتمة قبل التوبة وكل نفس فهو خاتمة ما قبله اذ يمكن أن يكون الموت متصلا به فليراقب الانفاس والا وقع فى المحذور ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسر (الطبقة الرابعة) أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ثم يعود الى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله بل ينهمك انهماك الغافل فى اتباع شهواته فهذا من جملة المصرين وهذه النفس هى النفس الامارة بالسوء الفرارة من الخير ويخاف على هذا سوء الخاتمة وأمره فى مشيئة الله فان ختم له بالسوء شقى شقاوة لا آخر لها وان ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفى لا نطلع عليه كما لا يستحيل أن يدخل الانسان خربا ليجد كنزا فيتفق أن يجده وأن يجلس فى البيت ليجعله الله عالما بالعلوم من غير تعلم كما كان الانبياء صلوات الله عليهم فطلب المغفرة بالطاعات كطالب العلم بالجهد والتكرار وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الاعمال كطالب الكنوز فى المواضع الخربة وطالب العلوم من تعليم الملائكة وليت من اجتهد تعلم وليت من اتجر استغنى وليت من صام وصلى غفر له فالناس كلهم محرومون الا العالمون والعالمون كلهم محرومون الا العاملون والعاملون كلهم محرومون الا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم فكما أن من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعا يزعم أنه ينتظر فضل الله بان يرزقه كنزا يجده تحت

بعد ذلك ان كان متفرغا ليس له شغل فى الدنيا يتنقل فى أنواع العمل فى الصلاة والتلاوة والذكر الى وقت الضحى وان كان ممن له فى الدنيا شغل اما لنفسه أو لعياله فليمض لحاجته ومهامه بعد أن يصلى ركعتين لخروجه من المنزل وهكذا ينبغى أن يفعل أبدا لا يخرج من البيت الى جهة الا بعد أن يصلى ركعتين ليقيه الله سوء المخرج ولا يدخل البيت الا ويصلى ركعتين ليقيه الله سوء المدخل بعد أن يسلم على من فى المنزل من الزوجة وغيرها وان لم يكن فى البيت أحد يسلم أيضا ويقول السلام على عباد الله الصالحين المؤمنين وان كان متفرغا فأحسن أشغاله فى هذا الوقت الى صلاة الضحى الصلاة فان كان عليه قضاء صلى صلاة يوم أو يومين أو أكثر والا يصل ركعات يطولها ويقرأ فيها

الارض فى بيته الخرب بعد عند ذوى البصائر من الحمقى والمغرورين وان كان ما ينتظره غير مستحيل فى قدرة الله تعالى وفضله فكذلك من ينتظر المغفرة من الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة مصر على الذنوب غير سالك سبيل المغفرة يعد عند أرباب القلوب من المعتوهين والعجب من عقل هذا المعتوه وترويجه حماقته فى صيغة حسنة اذ يقول ان الله كريم وجنته ليست تضيق على مثلى ومعصيتى ليست تضره ثم تراه يركب البحار ويقتحم الاوعار فى طلب الدينار واذا قيل له ان الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر عن فقرك وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس فى بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تحتسب فيستحمق قائل هذا الكلام ويستهزئ به ويقول ما هذا الهوس السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة وانما ينال ذلك بالكسب هكذا قدره مسبب الاسباب وأجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله ولا يعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وان سنته لا تبديل لها فيهما جميعا وانه قد أخبر اذ قال وان ليس للانسان الا ما سعى فكيف يعتقد أنه كريم فى الآخرة وليس بكريم فى الدنيا وكيف يقول ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ومقتضاه الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم وان ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير جهد فى الآخرة وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد فى غالب الامر فى الدنيا وينسى قوله تعالى وفى السماء رزقكم وما توعدون فنعوذ بالله من العمى والضلال فما هذا الا انتكاس على الرأس وانغماس فى ظلمات الجهل وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلا تحت قوله تعالى ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا أى أبصرنا انك صدقت اذ قلت وأن ليس للانسان الا ما سعى فارجعنا نسعى وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ويحق عليه العذاب فنعوذ بالله من دواعى الجهل والشك والارتياب السائق بالضرورة الى سوء المنقلب والمآب

﴿ بيان ما ينبغى أن يبادر اليه التائب ان جرى عليه ذنب اما عن قصد وشهوة غالبة أو عن المام بحكم الاتفاق ﴾

اعلم أن الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضادها كما ذكرنا طريقه فان لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغى أن يترك الواجب الثانى وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليمحوها فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا فالحسنات المكفرة للسيآت اما بالقلب واما باللسان واما بالجوارح ولتكن الحسنة فى محل السيئة وفيما يتعلق باسبابها فأما بالقلب فليكفره بالتضرع الى الله تعالى فى سؤال المغفرة والعفو ويتذلل تذلل العبد الآبق ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات * وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول رب ظلمت نفسى وعملت سوأ فاغفر لى ذنوبى وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار كما أوردناه فى كتاب الدعوات والاذكار * وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات وفى الآثار ما يدل على أن الذنب اذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوا أربعة من أعمال القلوب وهى التوبة أو العزم على التوبة وحب الاقلاع عن الذنب وتخوف العقاب عليه ورجاء المغفرة له وأربعة من أعمال الجوارح وهو أن تصلى عقيب الذنب ركعتين ثم تستغفر الله تعالى بعدهما سبعين مرة وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ثم تتصدق بصدقة ثم تصوم يوما وفى بعض الآثار تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلى ركعتين وفى بعض الاخبار تصلى أربع ركعات وفى الخبر اذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية ولذلك قيل صدقة السر تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار وفى الخبر الصحيح ان رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انى عالجت امرأة فأصبت منها كل شئ الا المسيس فاقض على بحكم الله تعالى فقال صلى الله عليه وسلم أوما صليت معنا صلاة الغداة قال بلى فقال صلى الله عليه وسلم ان الحسنات يذهبن السيآت وهذا يدل على أن ما دون الزنا من معالجة النساء صغيرة اذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس كفارات لما بينهن الا الكبائر فعلى الاحوال كلها ينبغى أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيآته ويجتهد فى دفعها بالحسنات فان قلت فكيف يكون الاستغفار نافعا من غير حل عقدة الاصرار وفى الخبر المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله وكان بعضهم يقول أستغفر الله من

قوله

القرآن فقد كان من الصالحين من يختم القرآن فى الصلاة بين اليوم والليلة والافليصل أعدادا من الركعات خفيفة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد وبالآيات التى فى القرآن وفيها الدعاء مثل قوله تعالى ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير وأمثال هذه الآية يقرأ فى كل ركعة آية منها اما مرة أو يكررها مهما شاء ويقدر الطالب أن يصلى بين الصلاة التى ذكرناها بعد طلوع الشمس وبين صلاة الضحى مائة ركعة خفيفة وقد كان فى الصالحين من ورده بين اليوم والليلة مائة ركعة الى مائتين الى خمسمائة الى ألف ركعة ومن ليس له فى الدنيا شغل وقد ترك الدنيا على أهلها فما باله يبطل ولا يتنعم بخدمة الله تعالى ﴿ قال سهل ابن عبد الله التسترى ﴾ لا يكمل شغل

قولي أستغفر الله وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين وقالت رابعة العدوية استغفارنا يحتاج الى استغفار كثير فاعلم انه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر ذكرناها في كتاب الاذكار والدعوات حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون فكان بعض الصحابة يقول كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا وبقي الاستغفار معنا فان ذهب هلكنا فنقول الاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة كما يقول الانسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة أستغفر الله وكما يقول اذا سمع صفة النار نعوذ بالله منها من غير أن يتأثر به قلبه وهذا يرجع الى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له فاما اذا انضاف اليه تضرع القلب الى الله تعالى وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق ارادة وخلوص نية ورغبة فهذه حسنة في نفسها فتصلح لان تدفع بها السيئة وعلى هذا تحمل الاخبار الواردة في فضل الاستغفار حتى قال صلى الله عليه وسلم ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب وللتوبة والاستغفار درجات وأوائلها لا تخلو عن الفائدة وان لم تنته الى أواخرها ولذلك قال سهل لا بد للعبد في كل حال من مولاه فاحسن أحواله أن يرجع اليه في كل شيء فان عصى قال يارب استر علي فاذا فرغ من المعصية قال يارب تب علي فاذا تاب قال يارب ارزقني العصمة واذا عمل قال يارب تقبل مني وسئل أيضا عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال أول الاستغفار الاستجابة ثم الانابة ثم التوبة فالاستجابة أعمال الجوارح والانابة أعمال القلوب والتوبة اقباله على مولاه بان يترك الخلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذي هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ثم التنقل الى الانفراد ثم الثبات ثم البيان ثم الفكر ثم المعرفة ثم المناجاة ثم المصافاة ثم الموالاة ثم محادثة السر وهو الخلة ولا يستقر هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه والذكر قوامه والرضا زاده والتوكل صاحبه ثم ينظر الله اليه فيرفعه الى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش وسئل أيضا عن قوله صلى الله عليه وسلم التائب حبيب الله فقال انما يكون حبيبا اذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى التائبون العابدون الآية وقال الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه والمقصود أن للتوبة ثمرتين احداهما تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له والثانية نيل الدرجات حتى يصير حبيبا وللتكفير أيضا درجات فبعضه محو لاصل الذنب بالكلية وبعضه تخفيف له ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة فالاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وان خلا عن حل عقدة الاصرار من أوائل الدرجات فليس يخلو عن الفائدة أصلا فلا ينبغي أن تظن ان وجودها كعدمها بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها ان قول الله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره صدق وانه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر ولو خلت الشعيرة الاولى عن أثر لكانت الثانية مثلها ولكان لا يرجح الميزان بأحمال الذرات وذلك بالضرورة محال بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير الى أن يثقل فترفع كفة السيئات فاياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها وذرات المعاصي فلا تنفيها كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعللا بانها لا تقدر في كل ساعة الا على خيط واحد وتقول أي غناء يحصل بخيط وما وقع ذلك في الثياب ولا تدري المعتوهة ان ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا وان أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة فاذا التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا بل أقول الاستغفار باللسان أيضا حسنة اذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام بل هو خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالاضافة الى السكوت عنه وانما يكون نقصانا بالاضافة الى عمل القلب ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان المغربي ان لساني في بعض الاحوال يجري بالذكر والقرآن وقلبي غافل فقال اشكر الله اذ استعمل جارحة من جوارحك في الخير وعوده الذكر ولم يستعمله في الشر ولم يعوده الفضول وما ذكره حق فان تعود الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصي فمن تعود لسانه الاستغفار اذا سمع من غيره كذبا سبق لسانه الى ما تعوده فقال أستغفر الله ومن تعود الفضول سبق لسانه الى قوله ما أحمقك وما أقبح كذبك ومن تعود الاستعاذة اذا حدث بظهور مبادي الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان نعوذ بالله واذا تعود الفضول قال لعنه الله فيعصي

قلب عبد بالله الكريم وله في الدنيا حاجة فاذا ارتفعت الشمس وتنصف الوقت من صلاة الصبح الى الظهر كما يتنصف العصر بين الظهر والمغرب يصلي الضحى فهذا الوقت أفضل الاوقات لصلاة الضحى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الضحى اذا رمضت الفصال وهو أن ينام الفصيل في ظل أمه عند حر الشمس وقيل الضحى اذا ضحيت الاقدام بحر الشمس وأقل صلاة الضحى ركعتان وأكثرها اثنتا عشرة ركعة ويجعل لنفسه دعاء بعد كل ركعتين ويسبح ويستغفر ثم بعد ذلك ان كان هناك حق يقضي مما ندب اليه من زيارة أو عيادة يمضي فيه والا فيديم العمل لله تعالى من غير فتور ظاهرا وباطنا وقلبا وقالبا والا فباطنا وترتيب ذلك انه يصلي مادام منشرحا ونفسه

فى احدى الكلمتين ويسلم فى الاخرى وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معانى قوله تعالى ان الله لا يضيع أجر المحسنين ومعانى قوله تعالى وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما فانظر كيف ضاعفها اذ جعل الاستغفار فى الغفلة عادة اللسان حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول هذا تضعيف فى الدنيا الادنى الطاعات وتضعيف الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون فاياك وأن تلمح فى الطاعات مجرد الآفات فتفتر رغبتك عن العبادات فان هذه مكيدة روجها الشيطان بلعنته على المغرورين وخيل اليهم انهم أرباب البصائر وأهل التفطن للخفايا والسرائر فأى خير فى ذكرنا باللسان مع غفلة القلب فانقسم الخلق فى هذه المكيدة الى ثلاثة أقسام ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات * أما السابق فقال صدقت يا ملعون ولكن هى كلمة حق أردت بها باطلا فلا جرم اعذبك مرتين وأرغم أنفك من وجهين فاضيف الى حركة اللسان حركة القلب فكان كالذى داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه * وأما الظالم المغرور فاستشعر فى نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة ثم عجز عن الاخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر فاسعف الشيطان وتدلى بحبل غروره فتمت بينهما المشاركة والموافقة كما قيل وافق شن طبقه وافقه فاعتنقه * وأما المقتصد فلم يقدر على ارغامه باشراك القلب فى العمل وتفطن لنقصان حركة اللسان بالاضافة الى القلب ولكن اهتدى الى كماله بالاضافة الى السكوت والفضول فاستمر عليه وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان فى اعتياد الخير فكان السابق كالحائك الذى ذمت حياكته فتركها وأصبح كاتبا والظالم المتخلف كالذى ترك الحياكة أصلا وأصبح كناسا والمقتصد كالذى عجز عن الكتابة فقال لا أنكر مذمة الحياكة ولكن الحائك مذموم بالاضافة الى الكاتب لا بالاضافة الى الكناس فاذا عجزت عن الكتابة فلا أترك الحياكة ولذلك قالت رابعة العدوية استغفارنا يحتاج الى استغفار كثير فلا تظن أنها تذم حركة اللسان من حيث انه ذكر الله بل تذم غفلة القلب فهو محتاج الى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه فان سكت عن الاستغفار باللسان أيضا احتاج الى استغفارين لا الى استغفار واحد فهكذا ينبغى أن تفهم ذم ما يذم وحمد ما يحمد والا جهلت معنى ما قال القائل الصادق حسنات الابرار سيئات المقربين فان هذه أمور تثبت بالاضافة فلا ينبغى أن تؤخذ من غير اضافة بل ينبغى أن لا تستحقر ذرات الطاعات والمعاصى ولذلك قال جعفر الصادق ان الله تعالى خبأ ثلاثا فى ثلاث رضاه فى طاعته فلا تحقروا منها شيأ فلعل رضاه فيه وغضبه فى معاصيه فلا تحقروا منها شيأ فلعل غضبه فيه وخبأ ولايته فى عباده فلا تحقروا منهم أحدا فلعله ولى الله تعالى وزاد وخبأ اجابته فى دعائه فلا تتركوا الدعاء فربما كانت الاجابة فيه

(الركن الرابع فى دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الاصرار)

اعلم ان الناس قسمان * شاب لا صبوة له نشأ على الخير واجتناب الشر وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجب ربك من شاب ليست له صبوة وهذا عزيز نادر * والقسم الثانى هو الذى لا يخلو عن مقارفة الذنوب ثم هم ينقسمون الى مصرين والى تائبين وغرضنا أن نبين العلاج فى حل عقدة الاصرار ونذكر الدواء فيه فاعلم ان شفاء التوبة لا يحصل الا بالدواء ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء اذ لا معنى للدواء الا مناقضة أسباب الداء فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ورفعه وابطاله ولا يبطل الشئ الا بضده ولا سبب للاصرار الا الغفلة والشهوة ولا يضاد الغفلة الا العلم ولا يضاد الشهوة الا الصبر على قطع الاسباب المحركة للشهوة والغفلة رأس الخطايا قال تعالى وأولئك هم الغافلون لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون فلا دواء اذا للتوبة الا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر وكما يجمع السكنجبين بين حلاوة السكر وحموضة الخل ويقصد بكل منهما غرض آخر فى العلاج بمجموعهما فيقمع الاسباب المهيجة للصفراء فهكذا ينبغى أن تفهم علاج القلب مما به من مرض الاصرار فاذا لهذا الدواء أصلان أحدهما العلم والآخر الصبر ولا بد من بيانهما فان قلت أينفع كل علم لحل الاصرار أم لا بد من علم مخصوص فاعلم ان العلوم بجملتها أدوية لامراض القلوب ولكن لكل مرض علم يخصه كما أن علم الطب نافع فى علاج الامراض بالجملة ولكن يخص كل علة علم مخصوص فكذلك دواء الاصرار فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الابدان ليكون أقرب الى الفهم فنقول يحتاج المريض الى التصديق بامور

عجيبة فان سئم نزل من الصلاة الى التلاوة فان مجرد التلاوة أخف على النفس من الصلاة فان سئم التلاوة أيضا يذكر الله بالقلب واللسان فهو أخف من القراءة فان سئم الذكر يدع ذكر اللسان ويلازم بقلبه المراقبة والمراقبة علم القلب بنظر الله تعالى اليه فما دام هذا العلم ملازما لقلبه فهو مراقب والمراقبة عين الذكر وأفضله فان عجز عن ذلك أيضا وتملكته الوساوس وتزاحم فى باطنه حديث النفس فلينم ففى النوم السلامة والا فكثرة حديث النفس تقسى القلب ككثرة الكلام لانه كلام من غير لسان فيحترز من ذلك قال سهل بن عبد الله أسوأ المعاصى حديث النفس والطالب يريد أن يعتبر باطنه كما يعتبر ظاهره فانه بحديث النفس وما يتخايل له من ذكر ما مضى ورأى وسمع

(الاول) أن يصدق على الجملة بان للمرض والصحة أسبابا يتوصل اليها بالاختيار على مارتبه مسبب الاسباب وهذا هو الايمان باصل الطب فان من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ويحق عليه الهلاك وهذا وزانه مما نحن فيه الايمان باصل الشرع وهو أن للسعادة فى الآخرة سببا هو الطاعة وللشقاوة سببا هو المعصية وهذا هو الايمان باصل الشرائع وهذا لا بد من حصوله اما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الايمان (الثانى) أنه لا بد أن يعتقد المريض فى طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر عنه لا يلبس ولا يكذب فان ايمانه باصل الطب لا ينفعه بمجرده دون هذا الايمان ووزانه مما نحن فيه العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم والايمان بان كل ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف (الثالث) أنه لا بد أن يصغى الى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والاسباب المضرة على الجملة حتى يغلب عليه الخوف فى ترك الاحتماء فتكون شدة الخوف باعثة له على الاحتماء ووزانه من الدين الاصغاء الى الآيات والاخبار المشتملة على الترغيب فى التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى والتصديق بجميع ما يلقى الى سمعه من ذلك من غير شك واسترابة حتى ينبعث به الخوف المقوى على الصبر الذى هو الركن الآخر فى العلاج (الرابع) أن يصغى الى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه فى نفسه الاحتماء عنه ليعرفه أولا تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله ومأكوله ومشروبه فليس على كل مريض الاحتماء عن كل شئ ولا ينفعه كل دواء بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص ووزانه من الدين أن كل عبد فليس يبتلى بكل شهوة وارتكاب كل ذنب بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة وانما حاجته فى الحال مرهقة الى العلم بانها ذنوب ثم الى العلم بآفاتها وقدر ضررها ثم الى العلم بكيفية التوصل الى الصبر عنها ثم الى العلم بكيفية تكفير ما سبق منها فهذه علوم يختص بها أطباء الدين وهم العلماء الذين هم ورثة الانبياء فالعاصى ان علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم وان كان لا يدرى أن ما يرتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرفه ذلك وذلك بان يتكفل كل عالم باقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد أو مشهد فيعلم أهله دينهم ويميز ما يضرهم عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسعدهم ولا ينبغى أن يصبر الى أن يسئل عنه بل ينبغى أن يتصدى لدعوة الناس الى نفسه فانهم ورثة الانبياء والانبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم فى مجامعهم ويدورون على أبواب دورهم فى الابتداء ويطلبون واحدا واحدا فيرشدونهم فان مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم كما أن الذى ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف برصه ما لم يعرفه غيره وهذا فرض عين على العلماء كافة وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا فى كل قرية وفى كل محلة فقيها متدينا يعلم الناس دينهم فان الخلق لا يولدون الا جهالا فلا بد من تبليغ الدعوة اليهم فى الاصل والفرع والدنيا دار المرضى اذ ليس فى بطن الارض الا ميت ولا على ظهرها الا سقيم ومرضى القلوب أكثر من مرضى الابدان والعلماء أطباء والسلاطين قوام دار المرضى فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم الى السلطان ليكف شره كما يسلم الطبيب المريض الذى لا يحتمى أو الذى غلب عليه الجنون الى القيم ليقيده بالسلاسل والاغلال ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس وانما صار مرض القلوب أكثر من مرض الابدان لثلاث علل احداها أن المريض به لا يدرى أنه مريض والثانية أن عاقبته غير مشاهدة فى هذا العالم بخلاف مرض البدن فان عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه وما بعد الموت غير مشاهد وعاقبة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد فى هذا العالم فقلت النفرة عن الذنوب وان علمها مرتكبها فلذلك تراه يتكل على فضل الله فى مرض القلب ويجتهد فى علاج مرض البدن من غير اتكال والثالثة وهو الداء العضال فقد الطبيب فان الاطباء هم العلماء وقد مرضوا فى هذه الاعصار مرضا شديدا عجزوا عن علاجه وصارت لهم سلوة فى عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم فاضطروا الى اغواء الخلق والاشارة عليهم بما يزيدهم مرضا لان الداء المهلك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الاطباء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استنكافا من أن يقال لهم فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم فبهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء وانقطع الدواء وهلك الخلق لفقد الاطباء بل اشتغل الاطباء بفنون الاغواء فليتهم ان لم ينصحوا لم يغشوا وان لم يصلحوا لم يفسدوا وليتهم سكتوا وما نطقوا فانهم اذا تكلموا لم يهمهم فى مواعظهم الا ما يرغب العوام ويستميل قلوبهم ولا يتوصلون الى

كشخص آخر فى باطنه فيقيد الباطن بالمراقبة والرعاية كما يقيد الظاهر بالعمل وأنواع الذكر ويمكن للطالب الجد أن يصلى من صلاة الضحى الى الاستواء مائة ركعة أخرى وأقل من ذلك عشرون ركعة يصليها خفيفة أو يقرأ فى كل ركعتين جزأ من القرآن أو أقل أو أكثر والنوم بعد الفراغ من صلاة الضحى وبعد الفراغ من أعداد أخر من الركعات حسن (قال سفيان) كان يعجبهم اذا فرغوا أن يناموا طلبا للسلامة وهذا النوم فيه فوائد منها أنه يعين على قيام الليل ومنها أن النفس تستريح ويصفو القلب لبقية النهار والعمل فيه والنفس اذا استراحت عادت جديدة فبعد الانتباه من نوم النهار تجد فى الباطن نشاطا آخر وشغفا آخر كما كان فى أول النهار فيكون للصادق فى النهار نهاران يغتنمهما

ذلك الا بالارجاء وتغليب أسباب الرجاء وذكر دلائل الرحمة لان ذلك ألذ فى الاسماع وأخف على الطباع فتنصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جراءة على المعاصى ومزيد ثقة بفضل الله ومهما كان الطبيب جاهلا أو خائنا أهلك بالدواء حيث يضعه فى غير موضعه فالرجاء والخوف دواآن ولكن لشخصين متضادى العلة أما الذى غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية وكلف نفسه ما لا تطيق وضيق العيش على نفسه بالكلية فتكسر سورة اسرافه فى الخوف بذكر أسباب الرجاء ليعود الى الاعتدال وكذلك المصر على الذنوب المشتهى للتوبة الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاما للذنوب التى سبقت يعالج أيضا بأسباب الرجاء حتى يطمع فى قبول التوبة فيتوب فأما معالجة المغرور المسترسل فى المعاصى بذكر أسباب الرجاء فيضاهى معالجة المحرور بالعسل طلبا للشفاء وذلك من دأب الجهال والاغبياء فاذا فساد الاطباء هى المعضلة الزباء التى لا تقبل الدواء أصلا فان قلت فاذكر الطريق الذى ينبغى أن يسلكه الواعظ فى طريق الوعظ مع الخلق فاعلم أن ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه نعم نشير الى الانواع النافعة فى حل عقد الاصرار وحمل الناس على ترك الذنوب وهى أربعة أنواع الاول أن يذكر ما فى القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين وكذلك ما ورد من الاخبار والآثار مثل قوله صلى الله عليه وسلم ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها الا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات يقول أحدهما ياليت هذا الخلق لم يخلقوا ويقول الآخر ياليتهم اذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فيقول الآخر ياليتهم اذ لم يعلموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا وفى بعض الروايات ليتهم تجالسوا فتذاكروا ما علموا ويقول الآخر ياليتهم اذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا وقال بعض السلف اذا أذنب العبد أمر صاحب اليمين صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات فان تاب واستغفر لم يكتبها عليه وان لم يستغفر كتبها وقال بعض السلف ما من عبد يعصى الا استأذن مكانه من الارض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفا فيقول الله تعالى للارض والسماء كفا عن عبدى وأمهلاه فانكما لم تخلقاه ولو خلقتماه لرحمتماه ولعله يتوب الى فأغفر له ولعله يستبدل صالحا فأبدله له حسنات فذلك معنى قوله تعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده وفى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه الطابع معلق بقائمة العرش فاذا انتهكت الحرمات واستحلت المحارم أرسل الله الطابع فيطبع على القلوب بما فيها وفى حديث مجاهد القلب مثل الكف المفتوحة كلما أذنب العبد ذنبا انقبضت أصبع حتى تنقبض الاصابع كلها فيسد على القلب فذلك هو الطبع وقال الحسن ان بين العبد وبين الله حدا من المعاصى معلوما اذا بلغه العبد طبع الله على قلبه فلم يوفقه بعدها لخير والاخبار والآثار فى ذم المعاصى ومدح التائبين لا تحصى فينبغى أن يستكثر الواعظ منها ان كان وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه ما خلف دينارا ولا درهما انما خلف العلم والحكمة وورثه كل عالم بقدر ما أصابه (النوع الثانى) حكايات الانبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع فى قلوب الخلق مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم فى عصيانه وما لقيه من الاخراج من الجنة حتى روى انه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته فاستحيا التاج والاكليل من وجهه أن يرتفعا عنه فجاءه جبريل عليه السلام فأخذ التاج عن رأسه وحل الاكليل عن جبينه ونودى من فوق العرش اهبطا من جوارى فانه لا يجاورنى من عصانى قال فالتفت آدم الى حواء باكيا وقال هذا أول شؤم المعصية أخرجنا من جوار الحبيب وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام لما عوقب على خطيئته لاجل التمثال الذى عبد فى داره أربعين يوما وقيل لان المرأة سألته أن يكون الحكم لابيها فقال نعم ولم يفعل وقيل بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لابيها على خصمه لمكانها منه فسلب ملكه أربعين يوما فهرب تائها على وجهه فكان يسأل بكفه فلا يطعم فاذا قال أطعمونى فانى سليمان بن داود شج وطرد وضرب وحكى أنه استطعم من بيت لامرأة فطردته وبصقت فى وجهه وفى رواية أخرجت عجوز جرة فيها بول فصبته على رأسه الى أن أخرج الله الخاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الاربعين أيام العقوبة قال فجاءت الطيور فعكفت على رأسه وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله فاعتذر اليه بعض من كان جنى عليه فقال لا ألومكم فيما فعلتم من قبل ولا أحمدكم فى عذركم الآن ان هذا أمر كان من السماء ولا بد منه

بخدمة الله تعالى والدؤب فى العمل وينبغى أن يكون انتباهه من نوم النهار قبل الزوال بساعة حتى يتمكن من الوضوء والطهارة قبل الاستواء بحيث يكون وقت الاستواء مستقبل القبلة ذاكرا أو مسبحا أو تاليا قال الله تعالى وأقم الصلاة طرفى النهار وقال فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها قيل قبل طلوع الشمس صلاة الصبح وقبل غروبها صلاة العصر ومن آناء الليل فسبح أراد العشاء الاخيرة وأطراف النهار أراد الظهر والمغرب لان الظهر صلاة فى آخر الطرف الاول من النهار وآخر الطرف الآخر غروب الشمس وفيها صلاة المغرب فصار الظهر آخر الطرف الاول والمغرب آخر الطرف الآخر فيستقبل الطرف الآخر باليقظة والذكر كما استقبل الطرف الاول وقد عاد

وروى في الاسرائيليات ان رجلا تزوج امرأة من بلدة أخرى فارسل عبده ليحملها اليه فراودته نفسه وطالبته بها فجاهدها واستعصم قال فنبأه الله ببركة تقواه فكان نبيا في بني اسرائيل وفي قصص موسى عليه السلام انه قال للخضر عليه السلام بم أطلعك الله على علم الغيب قال بتركي المعاصي لاجل الله تعالى وروى ان الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام فنظر الى قميصه نظرة وكان جديدا فكأنه أعجبه قال فوضعته الريح فقال لم فعلت هذا ولم آمرك قالت انما نطيعك اذا أطعت الله وروى ان الله تعالى أوحى الى يعقوب عليه السلام أتدري لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف قال لا قال لقولك لاخوته أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت عليه الذئب ولم ترجني ولم نظرت الى غفلة اخوته ولم تنظر الى حفظي له وتدري لم رددته عليك قال لا قال لانك رجوتني وقلت عسى الله أن يأتيني بهم جميعا وبما قلت اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك اذكرني عند ربك قال الله تعالى فانساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن والاخبار ورود الاسمار بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار لتعلم أن الانبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار نعم كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا الى الآخرة والاشقياء يمهلون ليزدادوا اثما ولان عذاب الآخرة أشد وأكبر فهذا أيضا مما ينبغي أن يكثر جنسه على أسماع المصرين فانه نافع في تحريك دواعي التوبة (النوع الثالث) أن يقرر عندهم ان تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله فينبغي أن يخوف به فان الذنوب كلها يتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الامر كما حكي في قصة داود وسليمان عليهما السلام حتى انه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولي عليه أعداؤه قال صلى الله عليه وسلم ان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وقال ابن مسعود اني لاحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه وهو معنى قوله عليه السلام من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود اليه أبدا وقال بعض السلف ليست اللعنة سوادا في الوجه ونقصانا في المال انما اللعنة أن لا تخرج من ذنب الا وقعت في مثله أو شر منه وهو كما قال لان اللعنة هي الطرد والابعاد فاذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد أبعد والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان وكل ذنب فانه يدعو الى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب ومن مجالسة الصالحين بل يمقته الله تعالى ليمقته الصالحون وحكي عن بعض العارفين انه كان يمشي في وسط الوحل جامعا ثيابه محترزا عن زلقة رجله حتى زلقت رجله وسقط فقام وهو يمشي في وسط الوحل ويبكي ويقول هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع في ذنب وذنبين فعندها يخوض في الذنوب خوضا وهو اشارة الى أن الذنب تتعجل عقوبته بالانجرار الى ذنب آخر ولذلك قال الفضيل ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الاخوان فذنوبك ورثتك ذلك وقال بعضهم اني لاعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حماري وقال آخر أعرف العقوبة حتى في فأر بيتي وقال بعض الصوفية بالشام نظرت الى غلام نصراني حسن الوجه فوقفت أنظر اليه فمر بي ابن الجلاء الدمشقي فاخذ بيدي فاستحييت منه فقلت يا أبا عبد الله سبحان الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحكمة كيف خلقت للنار فغمز يدي وقال لتجدن عقوبتها بعد حين قال فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة وقال أبو سليمان الداراني الاحتلام عقوبة وقال لا يفوت أحدا صلاة جماعة الا بذنب يذنبه وفي الخبر ما أنكرتم من زمانكم فبما غيرتم من أعمالكم وفي الخبر يقول الله تعالى ان أدنى ما أصنع بالعبد اذا آثر شهوته على طاعتي ان أحرمه لذيذ مناجاتي وحكي عن أبي عمرو بن علوان في قصة يطول ذكرها قال فيها كنت قائما ذات يوم أصلي فخامر قلبي هوى طاولته بفكرتي حتى تولد منه شهوة الرجال فوقعت الى الارض واسود جسدي كله فاستترت في البيت فلم أخرج ثلاثة أيام وكنت أعالج غسله في الحمام بالصابون فلا يزداد الا سوادا حتى انكشف بعد ثلاث فلقيت الجنيد وكان قد وجه الي فاشخصني من الرقة فلما أتيته قال لي أما استحييت من الله تعالى كنت قائما بين يديه فساررت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقة وأخرجتك من بين يدي الله تعالى فلولا اني دعوت الله لك وتبت اليه عنك للقيت الله بذلك

بنوم النهار جديدا كما كان بنوم الليل ويصلي في أول الزوال قبل السنة والفرض أربع ركعات بتسليمة واحدة كان يصليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه صلاة الزوال قبل الظهر في أول أوقاتها ويحتاج ان يراعي لهذه الصلاة أول الوقت بحيث يفطن للوقت قبل المؤذنين حين يذهب وقت الكراهة بالاستواء فيشرع في صلاة الزوال ويسمع الاذان وقد توسط هذه الصلاة ثم يستعد لصلاة الظهر فان وجد في باطنه كدرا من مخالطة أو مجالسة اتفقت يستغفر الله تعالى ويتضرع اليه ولا يشرع في صلاة الظهر الا بعد أن يجد الباطن عائدا الى حاله من الصفاء والذائقون حلاوة المناجاة لا بد أن يجدوا صفو الانس في الصلاة ويتكدرون بيسير من الاسترسال في المباح ويصير على بواطنهم من ذلك عقد وكدر وقد

اللون قال فعجبت كيف علم بذلك وهو ببغداد وأنا بالرقة واعلم انه لا يذنب العبد ذنبا الا ويسود وجه قلبه فان كان سعيدا أظهر السواد على ظاهره لينزجر وان كان شقيا أخفى عنه حتى ينهمك ويستوجب النار والاخبار كثيرة فى آفات الذنوب فى الدنيا من الفقر والمرض وغيره بل من شؤم الذنب فى الدنيا على الجملة أن يكسب ما بعده صفته فان ابتلى بشئ كان عقوبة له ويحرم جميل الرزق حتى يتضاعف شقاؤه وان أصابته نعمة كانت استدراجا له ويحرم جميل الشكر حتى يعاقب على كفرانه وأما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة فى حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة فى درجاته (النوع الرابع) ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقة والقتل والغيبة والكبر والحسد وكل ذلك مما لا يمكن حصره وذكره مع غير أهله وضع الدواء فى غير موضعه بل ينبغى أن يكون العالم كالطبيب الحاذق فيستدل أولا بالنبض والسحنة ووجود الحركات على العلل الباطنة ويشتغل بعلاجها فيستدل بقرائن الاحوال على خفايا الصفات وليتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال له واحد أوصنى يا رسول الله ولا تكثر على قال لا تغضب وقال له آخر أوصنى يا رسول الله فقال عليه السلام عليك باليأس مما فى أيدى الناس فان ذلك هو الغنى واياك والطمع فانه الفقر الحاضر وصل صلاة مودع واياك وما يعتذر منه وقال رجل لمحمد بن واسع أوصنى فقال أوصيك أن تكون ملكا فى الدنيا والآخرة قال وكيف لى بذلك قال الزم الزهد فى الدنيا فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم فى السائل الاول مخايل الغضب فنهاه عنه وفى السائل الآخر مخايل الطمع فى الناس وطول الامل وتخيل محمد بن واسع فى السائل مخايل الحرص على الدنيا وقال رجل لمعاذ أوصنى فقال كن رحيما أكن لك بالجنة زعيما فكأنه تفرس فيه آثار الفظاظة والغلظة وقال رجل لابراهيم بن أدهم أوصنى فقال اياك والناس وعليك بالناس ولا بد من الناس فان الناس هم الناس وليس كل الناس بالناس ذهب الناس وبقى النسناس وما أراهم بالناس بل غمسوا فى ماء اليأس فكأنه تفرس فيه آفة المخالطة وأخبر عما كان هو الغالب على حاله فى وقته وكان الغالب أذاه بالناس والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل وكتب معاوية رحمه الله الى عائشة رضى الله عنها أن اكتبى لى كتابا توصينى فيه ولا تكثرى فكتبت اليه من عائشة الى معاوية سلام عليك أما بعد فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ومن التمس سخط الله برضا الناس وكله الله الى الناس والسلام عليك فانظر الى فقهها كيف تعرضت للآفة التى تكون الولاة بصددها وهى مراعاة الناس وطلب مرضاتهم وكتبت اليه مرة أخرى أما بعد فاتق الله فانك اذا اتقيت الله كفاك الناس واذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيأ والسلام فاذا على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة الى تفرس الصفات الخفية وتوسم الاحوال اللائقة ليكون اشتغاله بالمهم فان حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن الوعظ فيه تضييع زمان فان قلت فان كان الواعظ يتكلم فى جمع أو سأله من لا يدرى باطن حاله أن يعظه فكيف يفعل فاعلم أن طريقه فى ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق فى الحاجة اليه اما على العموم واما على الاكثر فان فى علوم الشرع أغذية وأدوية فالاغذية للكافة والادوية لارباب العلل ومثاله ما روى ان رجلا قال لابى سعيد الخدرى أوصنى قال عليك بتقوى الله عز وجل فانها رأس كل خير وعليك بالجهاد فانه رهبانية الإسلام وعليك بالقرآن فانه نور لك فى أهل الارض وذكر لك فى أهل السماء وعليك بالصمت الا من خير فانك بذلك تغلب الشيطان * وقال رجل للحسن أوصنى فقال أعز أمر الله يعزك الله وقال لقمان لابنه يا بنى زاحم العلماء بركبتيك ولا تجادلهم فيمقتوك وخذ من الدنيا بلاغك وأنفق فضول كسبك لآخرتك ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا وعلى أعناق الرجال كلا وصم صوما يكسر شهوتك ولا تصم صوما يضر بصلاتك فان الصلاة أفضل من الصوم ولا تجالس السفيه ولا تخالط ذا الوجهين * وقال أيضا لابنه يا بنى لا تضحك من غير عجب ولا تمش فى غير أرب ولا تسأل عما لا يعنيك ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك فان مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت يا بنى انه من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن يقل الخير يغنم ومن يقل الشر يأثم ومن لا يملك لسانه يندم وقال رجل لابى حازم أوصنى فقال كل

يكون ذلك بمجرد المخالطة والمجالسة مع الاهل والولد مع كون ذلك عبادة ولكن حسنات الابرار سيآت المقربين فلا يدخل الصلاة الا بعد حل العقد واذهاب الكدر وحل العقد بصدق الانابة والاستغفار والتضرع الى الله تعالى ودواء ما يحدث من الكدر بمجالسة الاهل والولدان أن يكون فى مجالسته غير راكن اليهم كل الركون بل يسترق القلب فى ذلك نظرات الى الله تعالى فتكون تلك النظرات كفارة تلك المجالسة الا أن يكون قوى الحال لا يحجبه الخلق عن الحق فلا ينعقد على باطنه عقدة فهو كما يدخل فى الصلاة لا بعدها ويجد باطنه وقلبه لانه حيث استروحت نفس هذا الى المجالسة كان استرواح نفسه منغمرا بروح قلبه لانه يجالس ويخالط وعين ظاهره ناظرة الى الخلق وعين قلبه مطالعة

مالو جاءك الموت عليه فرأيته غنيمة فالزمه وكل مالو جاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه * وقال موسى للخضر عليهما السلام أوصني فقال كن بساما ولا تكن غضابا وكن نفاعا ولا تكن ضرارا وانزع عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة ولا تضحك من غير عجب ولا تعير الخطائين بخطاياهم وابك على خطيئتك يا ابن عمران وقال رجل لمحمد ابن كرام أوصني فقال اجتهد في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك وقال رجل لحامد اللفاف أوصني فقال اجعل لدينك غلافا كغلاف المصحف أن تدنسه الآفات قال وما غلاف الدين قال ترك طلب الدنيا الا مالا بد منه وترك كثرة الكلام الا فيما لا بد منه وترك مخالطة الناس الا فيما لا بد منه وكتب الحسن الى عمر بن عبد العزيز رحمهم الله تعالى أما بعد فخف مما خوفك الله واحذر مما حذرك الله وخذ مما في يديك لما بين يديك فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام وكتب عمر بن عبد العزيز الى الحسن يسأله ان يعظه فكتب اليه أما بعد فان الهول الاعظم والامور المفظعات أمامك ولا بد لك من مشاهدة ذلك اما بالنجاة واما بالعطب واعلم انه من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر ومن نظر في العواقب نجا ومن أطاع هواه ضل ومن حلم غنم ومن خاف أمن ومن أمن اعتبر ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن فهم علم فاذا زللت فارجع واذا ندمت فاقلع واذا جهلت فاسأل واذا غضبت فامسك * وكتب مطرف بن عبد الله الى عمر بن عبد العزيز رحمه الله أما بعد فان الدنيا دار عقوبة ولها يجمع من لا عقل له وبها يغتر من لا علم عنده فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جرحه يصبر على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الى عدي بن ارطاة أما بعد فان الدنيا عدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله فاما أولياؤه فغمتهم وأما أعداؤه فغرتهم وكتب أيضا الى بعض عماله أما بعد فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد فاذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك واعلم انك لا تأتي الى الناس شيأ الا كان زائلا عنهم باقيا عليك واعلم ان الله عز وجل آخذ للمظلومين من الظالمين والسلام فهكذا ينبغي أن يكون وعظ العامة ووعظ من لا يدري خصوص واقعته فهذه المواعظ مثل الاغذية التي يشترك الكافة في الانتفاع بها ولاجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ انحسم باب الاتعاظ وغلبت المعاصي واستسرى الفساد وبلي الخلق بوعاظ يزخرفون اسجاعا وينشدون أبياتا ويتكلفون ذكر ما ليس في سعة علمهم ويتشبهون بحال غيرهم فسقط عن قلوب العامة وقارهم ولم يكن كلامهم صادرا من القلب ليصل الى القلب بل القائل متصلف والمستمع متكلف وكل واحد منهما مدبر ومتخلف فاذن كان طلب الطبيب أول علاج المرضى وطلب العلماء أول علاج العاصين فهذا أحد أركان العلاج وأصوله

(الاصل الثاني الصبر) ووجه الحاجة اليه ان المريض انما يطول مرضه لتناوله ما يضره وانما يتناول ذلك اما لغفلته عن مضرته واما لشدة غلبة شهوته فله سببان فما ذكرناه هو علاج الغفلة فيبقى علاج الشهوة وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس وحاصله ان المريض اذا اشتدت ضراوته بمأكول مضر فطريقه ان يستشعر عظم ضرره ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ثم يتسلى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره ثم يصبر بقوة الخوف على الالم الذي يناله في تركه فلا بد على كل حال من مرارة الصبر فكذلك يعالج الشهوة في المعاصي كالشاب مثلا اذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته فينبغي ان يستشعر ضرر ذنبه بان يستقري المخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فاذا اشتد خوفه تباعد من الاسباب المهيجة لشهوته ومهيج الشهوة من خارج هو حضور المشتهى والنظر اليه وعلاجه الهرب والعزلة ومن داخل تناول لذائذ الاطعمة وعلاجه الجوع والصوم الدائم وكل ذلك لا يتم الا بصبر ولا يصبر الا عن خوف ولا يخاف الا عن علم ولا يعلم الا عن بصيرة وافتكار أو عن سماع وتقليد فاول الامر حضور مجالس الذكر ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل مصروف الى السماع ثم التفكر فيه لتمام الفهم وينبعث من تمامه لا محالة خوفه واذا قوي الخوف تيسر بمعونته الصبر وانبعثت الدواعي لطلب العلاج وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك فمن أعطى من قلبه حسن الاصغاء واستشعر الخوف فاتقى وانتظر الثواب وصدق بالحسنى فسييسره الله تعالى لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسييسره الله للعسرى فلا يغني عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى وما على الانبياء الا شرح طرق الهدى وانما لله الآخرة

للحضرة الالهية فلا ينعقد على باطنه عقدة وصلاة الزوال التي ذكرناها تحل العقد وتهيئ الباطن لصلاة الظهر فيقرأ في صلاة الزوال بقدار سورة البقرة في النهار الطويل وفي القصير ما يتيسر من ذلك قال الله تعالى وعشيا وحين تظهرون وهذا هو الاظهار فان انتظر بعد السنة حضور الجماعة للفرض وقرأ الدعاء الذي بين الفريضة والسنة من صلاة الفجر فحسن وكذلك ما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا به الى صلاة الفجر ثم اذا فرغ من صلاة الظهر يقرأ الفاتحة وآية الكرسي ويسبح ويحمد ويكبر ثلاثا وثلاثين كما وصفنا ولو قدر على الآيات كلها التي ذكرناها بعد صلاة الصبح وعلى الادعية أيضا كان ذلك خيرا كثيرا وفضلا عظيما ومن له همة ناهضة وعزيمة صادقة لاستكثر

والاولى فان قلت فقد رجع الامر كله الى الايمان لان ترك الذنب لا يمكن الا بالصبر عنه والصبر لا يمكن الا بمعرفة الخوف والخوف لا يكون الا بالعلم والعلم لا يحصل الا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الايمان فكان من أصر على الذنب لم يصر الا لانه غير مؤمن * فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الايمان بل يكون لضعف الايمان اذ كل مؤمن مصدق بان المعصية سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب في الآخرة ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور * أحدها ان العقاب الموعود غيب ليس بحاضر والنفس جبلت متأثرة بالحاضر فتأثرها بالموعود ضعيف بالاضافة الى تأثرها بالحاضر * الثاني أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وهي في الحال آخذة بالمخنق وقد قوي ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والالف والعادة طبيعة خامسة والنزوع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النفس ولذلك قال تعالى كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة وقال عز وجل بل تؤثرون الحياة الدنيا وقد عبر عن شدة الامر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وقوله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى خلق النار فقال لجبريل عليه السلام اذهب فانظر اليها فنظر اليها فقال وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها فحفها بالشهوات ثم قال اذهب فانظر اليها فنظر فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد الا دخلها وخلق الجنة فقال لجبريل عليه السلام اذهب فانظر اليها فنظر فقال وعزتك لا يسمع بها أحد الا دخلها فحفها بالمكاره ثم قال اذهب فانظر اليها فنظر اليها فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد فاذا كون الشهوة مرهقة في الحال وكون العقاب متأخرا الى المآل سببان ظاهران في الاسترسال مع حصول أصل الايمان فليس كل من يشرب في مرضه ماء الثلج لشدة عطشه مكذبا باصل الطب ولا مكذبا بان ذلك مضر في حقه ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز فيهون عليه الالم المنتظر * الثالث انه ما من مذنب مؤمن الا وهو في الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات وقد وعد بان ذلك يجبره الا ان طول الامل غالب على الطباع فلا يزال يسوف التوبة والتكفير فمن حيث رجاؤه التوفيق للتوبة يقدم عليه مع الايمان * الرابع انه ما من مؤمن موقن الا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة ايجابا لا يمكن العفو عنها فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالا على فضل الله تعالى فهذه أسباب أربعة موجبة للاصرار على الذنب مع بقاء أصل الايمان نعم قد يقدم المذنب بسبب خامس يقدح في أصل ايمانه وهو كونه شاكا في صدق الرسل وهذا هو الكفر كالذي يحذره الطبيب عن تناول ما يضره في المرض فان كان المحذر ممن لا يعتقد فيه انه عالم بالطب فيكذبه أو يشك فيه فلا يبالي به فهذا هو الكفر فان قلت فما علاج الاسباب الخمسة فاقول هو الفكر وذلك بان يقرر على نفسه في السبب الاول وهو تأخر العقاب أن كل ما هو آت آت وان غدا للناظر قريب وان الموت أقرب الى كل أحد من شراك نعله فما يدريه لعل الساعة قريب والمتأخر اذا وقع صار ناجزا ويذكر نفسه انه أبدا في دنياه يتعب في الحال لخوف أمر في الاستقبال اذ يركب البحار ويقاسي الاسفار لاجل الربح الذي يظن أنه قد يحتاج اليه في ثاني الحال بل لو مرض فأخبره طبيب نصراني بان شرب الماء البارد يضره ويسوقه الى الموت وكان الماء البارد ألذ الاشياء عنده تركه مع ان الموت ألمه لحظة اذا لم يخف ما بعده ومفارقته للدنيا لابد منها فكم نسبة وجوده في الدنيا الى عدمه أزلا وأبدا فلينظر كيف يبادر الى ترك ملاذه بقول ذمي لم تقم معجزة على طبه فيقول كيف يليق بعقلي ان يكون قول الانبياء المؤيدين بالمعجزات عندي دون قول نصراني يدعي الطب لنفسه بلا معجزة على طبه ولا يشهد له الاعوام الخلق وكيف يكون عذاب النار عندي أخف من عذاب المرض وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا وبهذا التفكر بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه ويكلف نفسه تركها ويقول اذا كنت لا أقدر على ترك لذاتي أيام العمر وهي أيام قلائل فكيف أقدر على ذلك أبد الآباد واذا كنت لا أطيق ألم الصبر فكيف أطيق ألم النار واذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتنغصها وامتزاج صفوها بكدرها فكيف أصبر عن نعيم الآخرة وأما تسويف التوبة فيعالجه بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف لان المسوف يبني الامر على ما ليس اليه وهو البقاء فلعله لا يبقى وان بقي فلا يقدر على الترك غدا كما لا يقدر عليه اليوم فليت شعري هل عجز في الحال الا لغلبة الشهوة والشهوة ليست تفارقه غدا بل تتضاعف اذ تتأكد بالاعتياد فليست الشهوة

شاء الله تعالى ثم يحيى بين الظهر والعصر كما يحيى بين العشاءين على الترتيب الذي ذكرناه من الصلاة والتلاوة والذكر والمراقبة ومن دام سهره ينام نومة خفيفة في النهار الطويل بين الظهر والعصر ولو أحيا بين الظهر والعصر بركعتين يقرأ فيهما ربع القرآن أو يقرأ ذلك في أربع ركعات فهو خير كثير وان أراد ان يحيى هذا الوقت بمائة ركعة في النهار الطويل أمكن ذلك أو بعشرين ركعة يقرأ فيها قل هو الله أحد ألف مرة في كل ركعة خمسين * ويستاك قبل الزوال اذا كان صائما وان لم يكن صائما فأي وقت تغير فيه الفم وفي الحديث السواك مطهرة للفم مرضاة للرب وعند القيام الى الفرائض يستحب (قيل) ان الصلاة بالسواك تفضل على الصلاة بغير سواك سبعين ضعفا وقيل هو

التى أكدها الانسان بالعادة كالتى لم يؤكدها وعن هذا هلك المسوفون لانهم يظنون الفرق بين المتماثلين ولا يظنون أن الايام متشابهة فى أن ترك الشهوات فيها أبدا شاق ومامثال المسوف الامثال من احتاج الى قلع شجرة فرآها قوية لاتنقلع الابمشقة شديدة فقال أؤخرها سنة ثم أعود اليها وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه فلاحماقة فى الدنيا أعظم من حماقته اذعجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الغلبة عليه اذا ضعف هو فى نفسه وقوى الضعيف وأما المعنى الرابع وهو انتظار عفو الله تعالى فعلاجه ماسبق وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء منتظرا من فضل الله تعالى ان يرزقه العثور على كنز فى أرض خربة فان امكان العفو عن الذنب مثل هذا الامكان وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة فى بلده وترك ذخائر أمواله فى صحن داره وقدر على دفنها واخفائها فلم يفعل وقال انتظر من فضل الله تعالى ان يسلط غفلة أو عقوبة على الظالم الناهب حتى لايتفرغ الى دارى أو اذا انتهى الى دارى مات على باب الدار فان الموت ممكن والغفلة ممكنة وقد حكى فى الاسمار ان مثل ذلك وقع فانا أنتظر من فضل الله مثله فمنتظر هذا منتظر أمر ممكن ولكنه فى غاية الحماقة والجهل اذ قد لا يمكن ولا يكون وأما الخامس وهو الشك فهذا كفر وعلاجه الاسباب التى تعرفه صدق الرسل وذلك يطول ولكن يمكن ان يعالج بعلم قريب يليق بحد عقله فيقال له ماقاله الانبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن أو تقول أعلم انه محال كما أعلم استحالة كون شخص واحد فى مكانين فى حالة واحدة فان قال أعلم استحالته كذلك فهو أخرق معتوه وكأنه لاوجود لمثل هذا فى العقلاء وان قال أنا شاك فيه فيقال لو أخبرك شخص واحد مجهول عند تركك طعامك فى البيت لحظة انه ولغت فيه حية وألقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تاكله أو تتركه وان كان ألذ الاطعمة فيقول أتركه لامحالة لانى أقول ان كذب فلا يفوتنى الاهذا الطعام والصبر عنه وان كان شديدا فهو قريب وان صدق فتفوتنى الحياة والموت بالاضافة الى ألم الصبر عن الطعام واضاعته شديد فيقال له ياسبحان الله كيف تؤخر صدق الانبياء كلهم مع ماظهر لهم من المعجزات وصدق كافة الاولياء والعلماء والحكماء بل جميع أصناف العقلاء ولست أعنى بهم جهال العوام بل ذوى الالباب عن صدق رجل واحد مجهول لعل له غرضا فيما يقول فليس فى العقلاء الا من صدق باليوم الآخر وأثبت ثوابا وعقابا وان اختلفوا فى كيفيته فان صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد وان كذبوا فلا يفوتك الا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدرة فلا يبقى له توقف ان كان عاقلا مع هذا الفكر اذ لانسبة لمدة العمر الى أبد الآباد بل لو قدرنا الدنيا مملوأة بالذرة وقدرنا طائرا يلتقط فى كل ألف ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت الذرة ولم ينقص أبد الآباد شيأ فكيف يفتر رأى العاقل فى الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا لاجل سعادة تبقى أبد الآباد ولذلك قال أبو العلاء أحمد بن سليمان التنوخى المعرى

قال المنجم والطبيب كلاهما * لا تبعث الاموات قلت اليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر * أو صح قولى فالخسار عليكما

ولذلك قال على رضى الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الامور وكان شاكا ان صح ماقلت فقد تخلصنا جميعا والا فقد تخلصت وهلكت أى العاقل يسلك طريق الامن فى جميع الاحوال فان قلت هذه الامور جلية ولكنها ليست تنال الا بالفكر فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستثقلته وما علاج القلوب لردها الى الفكر لاسيما من آمن باصل الشرع وتفصيله فاعلم ان المانع من الفكر أمران أحدهما أن الفكر النافع هو الفكر فى عقاب الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين فى الحرمان عن النعيم المقيم وهذا فكر لداغ مؤلم للقلب فينفر القلب عنه ويتلذذ بالفكر فى أمور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة والثانى أن الفكر شغل فى الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات ومامن انسان الا وله فى كل حالة من أحواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واسترقته فصار عقله مسخر الشهوته فهو مشغول بتدبير حيلته وصارت لذته فى طلب الحيلة فيه أو فى مباشرة قضاء الشهوة والفكر يمنعه من ذلك وأما علاج هذين المانعين فهو أن يقول لقلبه ماأشد غباوتك فى الاحتراز من الفكر فى الموت ومابعده تألما بذكره مع استحقار ألم مواقعته فكيف تصبر على مقاساته اذا وقع وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت ومابعده ومتألم به وأما الثانى وهو كون الفكر مفوتا لالذات الدنيا فهو أن يتحقق فوات

خبر وان أراد أن يقرأ بين الصلاتين فى صلاته فى عشرين ركعة فى كل ركعة آية أو بعض آية يقرأ فى الركعة الاولى ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار (ثم) فى الثانية ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين (ثم) ربنا لاتؤاخذنا الى آخر السورة (ثم) ربنا لاتزغ قلوبنا الآية (ثم) ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان الآية (ثم) ربنا آمنا بما أنزلت (ثم) أنت ولينا فاغفر لنا (ثم) فاطر السموات والارض أنت وليى (ثم) ربنا انك تعلم مانخفى وما نعلن الآية (ثم) وقل رب زدنى علما (ثم) لااله الا أنت سبحانك (ثم) رب لاتذرنى فردا (ثم) وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين (ثم) ربنا هب لنا من أزواجنا

لذات الآخرة أشد وأعظم فانه لا آخر لها ولا كدورة فيها ولذات الدنيا سريعة الدثور وهي مشوبة بالمكدرات فما فيها لذة صافية عن كدر وكيف وفي التوبة عن المعاصي والاقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى واستراحة بمعرفته وطاعته وطول الانس به ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله الا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الانس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافيا فكيف بما ينضاف اليه من نعيم الآخرة نعم هذه اللذة لا تكون في ابتداء التوبة ولكنها بعد ما يصبر عليها مدة مديدة وقد صار الخير ديدنا كما كان الشر ديدنا فالنفس قابلة ما عودتها تتعود والخير عادة والشر لجاجة فاذا هذه الافكار هي المهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن اللذات ومهيج هذه الافكار وعظ الوعاظ وتنبيهات تقع للقلب باسباب تتفق لا تدخل في الحصر فيصير الفكر موافقا للطبع فيميل القلب اليه ويعبر عن السبب الذي أوقع الموافقة بين الطبع والفكر الذي هو سبب الخير بالتوفيق اذ التوفيق هو التأليف بين الارادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة وقد روي في حديث طويل انه قام عمار بن ياسر فقال لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ماذا بني فقال علي رضي الله عنه بني على أربع دعائم على الجفاء والعمى والغفلة والشك فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء ومن عمي نسي الذكر ومن غفل حاد عن الرشد ومن شك غرته الاماني فأخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكر وهذا القدر في التوبة كاف واذا كان الصبر ركنا من أركان دوام التوبة فلابد من بيان الصبر فنذكره في كتاب مفرد ان شاء الله تعالى

(كتاب الصبر والشكر وهو الكتاب الثاني من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله أهل الحمد والثناء المنفرد برداء الكبرياء المتوحد بصفات المجد والعلاء المؤيد صفوة الاولياء بقوة الصبر على السراء والضراء والشكر على البلاء والنعماء والصلاة على محمد سيد الانبياء وعلى أصحابه سادة الاصفياء وعلى آله قادة البررة الاتقياء صلاة محروسة بالدوام عن الفناء ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانقضاء (أما بعد) فان الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر كما وردت به الآثار وشهدت له الاخبار وهما أيضا وصفان من أوصاف الله تعالى واسمان من أسمائه الحسنى اذ سمى نفسه صبورا وشكورا فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الايمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن ولا سبيل الى الوصول الى القرب من الله تعالى الا بالايمان وكيف يتصور سلوك سبيل الايمان دون معرفة ما به الايمان ومن به الايمان والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الايمان وعن ادراك ما به الايمان فما أحوج كلا الشطرين الى الايضاح والبيان ونحن نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر ان شاء الله تعالى

(الشطر الاول) في الصبر وفيه بيان فضيلة الصبر وبيان حده وحقيقته وبيان كونه نصف الايمان وبيان اختلاف أساميه باختلاف متعلقاته وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف وبيان مظان الحاجة الى الصبر وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه فهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده ان شاء الله تعالى

(بيان فضيلة الصبر)

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعا وأضاف أكثر الدرجات والخيرات الى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وقال تعالى وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا وقال تعالى ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون وقال تعالى أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا وقال تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب فما من قربة الا وأجرها بتقدير وحساب الا الصبر ولاجل كون الصوم من الصبر وانه نصف الصبر قال الله تعالى الصوم لي وأنا أجزي به فاضافه الى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى واصبروا ان الله مع الصابرين وعلق النصرة على الصبر فقال تعالى بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى أولئك عليهم صلوات من

(ثم) رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين (ثم) يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور (ثم) رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي الآية من سورة الاحقاف (ثم) ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين الآية (ثم) ربنا عليك توكلنا (ثم) ربنا اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين الا تبارا مهما يصل فليقرأ بهذه الآيات وبالمحافظة على هذه الآيات في الصلاة مواطئا القلب واللسان يوشك أن يرقى الى مقام الاحسان ولو ردد فرد آية من هذه في ركعتين من الظهر أو العصر كان في جميع الوقت مناجيا لمولاه وداعيا وتاليا ومصليا والدؤوب في العمل

ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول (وأما الاخبار) فقد قال صلى الله عليه وسلم الصبر نصف الايمان على ما سيأتي وجه كونه نصفا وقال صلى الله عليه وسلم من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب الي من أن يوافيني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدي فينكر بعضكم بعضا وينكركم أهل السماء عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه ثم قرأ قوله تعالى ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم الآية وروى جابر انه سئل صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقال الصبر والسماحة وقال أيضا الصبر كنز من كنوز الجنة وسئل مرة ما الايمان فقال الصبر وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وسلم الحج عرفة معناه معظم الحج عرفة وقال أيضا صلى الله عليه وسلم أفضل الاعمال ما أكرهت عليه النفوس وقيل أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام تخلق بأخلاقي وان من أخلاقي اني أنا الصبور وفي حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الانصار فقال أمؤمنون أنتم فسكتوا فقال عمر نعم يا رسول الله قال وما علامة ايمانكم قالوا نشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب الكعبة وقال صلى الله عليه وسلم في الصبر على ما تكره خير كثير وقال المسيح عليه السلام انكم لا تدركون ما تحبون الا بصبركم على ما تكرهون وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان الصبر رجلا لكان كريما والله يحب الصابرين والاخبار في هذا لا تحصى (وأما الآثار) فقد وجد في رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى أبي موسى الاشعري عليك بالصبر واعلم ان الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر الصبر في المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى واعلم أن الصبر ملاك الايمان وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر وقال علي كرم الله وجهه بني الايمان على أربع دعائم اليقين والصبر والجهاد والعدل وقال أيضا الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ولا ايمان لمن لا صبر له وكان عمر رضي الله عنه يقول نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين يعني بالعدلين الصلاة والرحمة وبالعلاوة الهدى والعلاوة ما يحمل فوق العدلين على البعير وأشار به الى قوله تعالى أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون وكان حبيب بن أبي حبيب اذا قرأ هذه الآية انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب بكى وقال واعجباه أعطى وأثنى أي هو المعطي للصبر وهو المثني وقال أبو الدرداء ذروة الايمان الصبر للحكم والرضا بالقدر هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل وأما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه الا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه اذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته ومعناه وبالله التوفيق

(بيان حقيقة الصبر ومعناه)

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين وجميع مقامات الدين انما تنتظم من ثلاثة أمور معارف وأحوال وأعمال فالمعارف هي الاصول وهي تورث الاحوال والاحوال تثمر الاعمال فالمعارف كالاشجار والاحوال كالاغصان والاعمال كالثمار وهذا مطرد في جميع منازل السالكين الى الله تعالى واسم الايمان تارة يختص بالمعارف وتارة يطلق على الكل كما ذكرناه في اختلاف اسم الايمان والاسلام في كتاب قواعد العقائد وكذلك الصبر لا يتم الا بمعرفة سابقة وبحالة قائمة فالصبر على التحقيق عبارة عنها والعمل هو كالثمرة يصدر عنها ولا يعرف هذا الا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة والانس والبهائم فان الصبر خاصية الانس ولا يتصور ذلك في البهائم والملائكة أما في البهائم فلنقصانها وأما في الملائكة فلكمالها وبيانه أن البهائم سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون الا الشهوة وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صبرا وأما الملائكة عليهم السلام فانهم جردوا للشوق الى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى تحتاج الى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف وأما الانسان فانه خلق في ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة لم يخلق فيه الا شهوة الغذاء الذي هو محتاج اليه ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ثم شهوة النكاح على

واستيعاب أجزاء النهار بلذاذة وحلاوة من غير سآمة لا يصح الا لعبد تزكت نفسه بكمال التقوى والاستقصاء في الزهد في الدنيا وانتزع منه متابعة الهوى ومتى بقي على الشخص من التقوى والزهد والهوى بقية لا يدوم روحه في العمل بل ينشط وقتا ويسأم وقتا يتناوب النشاط والكسل فيه لبقاء متابعة شيء من الهوى بنقصان تقوى أو محبة دنيا واذا صح في الزهد والتقوى فان ترك العمل بالجوارح لا يفتر عن العمل بالقلب فمن رام دوام الروح واستحلاء الذوق في العمل فعليه بحسم مادة الهوى والهوى روح النفس لا يزول ولكن تزول متابعته والنبي عليه السلام ما استعاذ من وجود الهوى ولكن استعاذ من متابعته فقال أعوذ

الترتيب وليس له قوة الصبر البتة اذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما وليس في الصبي الا جند الهوى كما في البهائم ولكن الله تعالى بفضله وسعة جوده أكرم بني آدم ورفع درجتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين أحدهما يهديه والآخر يقويه فتميز بمعونة الملكين عن البهائم واختص بصفتين احداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذى اليه الهداية والتعريف فالبهيمة لا معرفة لها ولا هداية الى مصلحة العواقب بل الى مقتضى شهواتها في الحال فقط فلذلك لا تطلب الا اللذيذ وأما الدواء النافع مع كونه مضرا في الحال فلا تطلبه ولا تعرفه فصار الانسان بنور الهداية يعرف ان اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر فكم من مضر يعرفه الانسان كالمرض النازل به مثلا ولكن لا قدرة له على دفعه فافتقر الى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه فوكل الله تعالى به ملكا آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى وذلك بحسب امداد الله تعالى عبده بالتأييد كما ان نور الهداية أيضا يختلف في الخلق اختلافا لا ينحصر فلنسم هذه الصفة التي بها فارق الانسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها باعثا دينيا ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى والحرب بينهما سجال ومعركة هذا القتال قلب العبد ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لاعداء الله تعالى فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة فان ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين وان تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق باتباع الشياطين فاذن ترك الافعال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى الصبر وهو ثبات باعث الدين الذى هو في مقابلة باعث الشهوة وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادتها لاسباب السعادات في الدنيا والآخرة فاذا قوى يقينه أعني المعرفة التي تسمى ايمانا وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى قوى ثبات باعث الدين واذا قوى ثباته تمت الافعال على خلاف ما تتقاضاه الشهوة فلا يتم ترك الشهوة الا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة وقوة المعرفة والايمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها وهذان الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين باذن الله تعالى وتسخيره اياهما وهما من الكرام الكاتبين وهما الملكان الموكلان بكل شخص من الآدميين واذا عرفت أن رتبة الملك الهادي أعلى من رتبة الملك المقوي لم يخف عليك أن جانب اليمين الذى هو أشرف الجانبين من جنبتي الدست ينبغي أن يكون مسلما له فهو اذا صاحب اليمين والآخر صاحب الشمال وللعبد طوران في الغفلة والفكر وفي الاسترسال والمجاهدة فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسيء اليه فيكتب أعراضه سيئة وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيكتب اقباله له حسنة وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسيء اليه فيثبت عليه سيئة وبالمجاهدة مستمد من جنوده فيثبت له به حسنة وانما ثبتت هذه الحسنات والسيآت باثباتهما فلذلك سميا كراما كاتبين أما الكرام فلانتفاع العبد بكرمهما ولان الملائكة كلهم كرام بررة وأما الكاتبين فلاثباتهما الحسنات والسيآت وانما يكتبان في صحائف مطوية في سر القلب ومطوية عن سر القلب حتى لا يطلع عليه في هذا العالم فانهما وكتبتهما وخطهما وصحائفهما وجملة ما تعلق بهما من جملة عالم الغيب والملكوت لا من عالم الشهادة وكل شيء من عالم الملكوت لا تدركه الابصار في هذا العالم ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين مرة في القيامة الصغرى ومرة في القيامة الكبرى وأعني بالقيامة الصغرى حالة الموت اذ قال صلى الله عليه وسلم من مات فقد قامت قيامته وفي هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وفيها يقال كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا أما في القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق فلا يكون وحده بل ربما يحاسب على ملا من الخلق وفيها يساق المتقون الى الجنة والمجرمون الى النار زمرا لا آحادا والهول الاول هو هول القيامة الصغرى ولجميع

بك من هوى متبع ولم يستعذ من وجود الشح فانه طبيعة النفس ولكن استعاذ من طاعته فقال وشح مطاع ودقائق متابعة الهوى تتبين على قدر صفاء القلب وعلو الحال فقد يكون متبعا للهوى باستحلاء مجالسة الخلق ومكالمتهم أو النظر اليهم وقد يتبع الهوى بتجاوز الاعتدال في النوم والاكل وغير ذلك من أقسام الهوى المتبع وهذا شغل من ليس له شغل الا في الدنيا * ثم يصلي العبد قبل العصر أربع ركعات فان أمكنه تجديد الوضوء لكل فريضة كان أكمل وأتم ولو اغتسل كان أفضل فكل ذلك له أثر ظاهر في تنوير الباطن وتكميل الصلاة ويقرأ في الاربع قبل العصر اذا زلزلت والعاديات والقارعة وألهاكم ويصلي العصر ويجعل

أهوال القيامة الكبرى نظير في القيامة الصغرى مثل زلزلة الارض مثلا فان أرضك الخاصة بك تزلزل في الموت فانك تعلم أن الزلزلة اذا نزلت ببلدة صدق أن يقال قد زلزلت أرضهم وان لم تزلزل البلاد المحيطة بها بل لو زلزل مسكن الانسان وحده فقد حصلت الزلزلة في حقه لانه انما يتضرر عند زلزلة جميع الارض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره فحصته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان واعلم انك أرضي مخلوق من التراب وحظك الخاص من التراب بدنك فقط فأما بدن غيرك فليس بحظك والارض التي أنت جالس عليها بالاضافة الى بدنك ظرف ومكان وانما تخاف من تزلزله أن يتزلزل بدنك بسببه والا فالهواء أبدا متزلزل وأنت لا تخشاه اذ ليس يتزلزل به بدنك فحظك من زلزلة الارض كلها زلزلة بدنك فقط فهي أرضك وترابك الخاص بك وعظامك جبال أرضك ورأسك سماء أرضك وقلبك شمس أرضك وسمعك وبصرك وسائر حواسك نجوم سمائك ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك وشعورك نبات أرضك وأطرافك أشجار أرضك وهكذا الى جميع أجزائك فاذا انهدم بالموت أركان بدنك فقد زلزلت الارض زلزالها فاذا انفصلت العظام من اللحوم فقد حملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة فاذا رمت العظام فقد نسفت الجبال نسفا فاذا أظلم قلبك عند الموت فقد كورت الشمس تكويرا فاذا أبطل سمعك وبصرك وسائر حواسك فقد انكدرت النجوم انكدارا فاذا انشق دماغك فقد انشقت السماء انشقاقا فاذا انفجر من هول الموت عرق جبينك فقد فجرت البحار تفجيرا فاذا التفت احدى ساقيك بالاخرى وهما مطيتاك فقد عطلت العشار تعطيلا فاذا فارقت الروح الجسد فقد حملت الارض فمدت حتى ألقت ما فيها وتخلت ولست أطول بجميع موازنة الاحوال والاهوال ولكني أقول بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ولا يفوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخصك بل ما يخص غيرك فان بقاء الكواكب في حق غيرك ماذا ينفعك وقد انتثرت حواسك التي بها تنتفع بالنظر الى الكواكب والاعمى يستوي عنده الليل والنهار وكسوف الشمس وانجلاؤها لانها قد كسفت في حقه دفعة واحدة وهو حصته منها فالانجلاء بعد ذلك حصة غيره ومن انشق رأسه فقد انشقت سماؤه اذ السماء عبارة عما يلي جهة الرأس فمن لا رأس له لا سماء له فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره فهذه هي القيامة الصغرى والخوف بعد أسفل والهول بعد مؤخر وذلك اذا جاءت الطامة الكبرى وارتفع الخصوص وبطلت السموات والارض ونسفت الجبال وتمت الاهوال واعلم أن هذه الصغرى وان طولنا في وصفها فانا لم نذكر عشر عشير أوصافها وهي بالنسبة الى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة الى الولادة الكبرى فان للانسان ولادتين احداهما الخروج من الصلب والترائب الى مستودع الارحام فهو في الرحم في قرار مكين الى قدر معلوم وله في سلوكه الى الكمال منازل وأطوار من نطفة وعلقة ومضغة وغيرها الى أن يخرج من مضيق الرحم الى فضاء العالم فنسبة عموم القيامة الكبرى الى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم الى سعة فضاء الرحم ونسبة سعة العالم الذي يقدم عليه العبد بالموت الى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضا الى الرحم بل أوسع وأعظم فقس الآخرة بالاولى فما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة وما النشأة الثانية الاعلى قياس النشأة الاولى بل أعداد النشآت ليست محصورة في اثنتين واليه الاشارة بقوله تعالى وننشئكم فيما لا تعلمون فالمقر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة وموقن بالملك والملكوت والمقر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء الى أحد العالمين وذلك هو الجهل والضلال والاقتداء بالاعور الدجال فما أعظم غفلتك يا مسكين وكلنا ذلك المسكين وبين يديك هذه الاهوال فان كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى أوما سمعت قول سيد الانبياء كفى بالموت واعظا أوما سمعت بكربه عليه السلام عند الموت حتى قال صلى الله عليه وسلم اللهم هون على محمد سكرات الموت أوما تستحي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين الذين لا ينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون فيأتيهم المرض نذيرا من الموت فلا ينزجرون ويأتيهم الشيب رسولا منه فما يعتبرون فيا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن أفيظنون انهم في الدنيا خالدون أولم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم اليهم لا يرجعون أم يحسبون أن الموتى سافروا من عندهم فهم معدومون

من قراءته في بعض الايام والسماء ذات البروج وسمعت ان قراءة سورة البروج في صلاة العصر أمان من الدماميل ويقرأ بعد العصر ما ذكرنا من الآيات والدعاء وما يتيسر له من ذلك فاذا صلى العصر ذهب وقت التنفل بالصلاة وبقي وقت الاذكار والتلاوة وأفضل من ذلك مجالسة من يزهده في الدنيا ويسدد كلامه عرا التقوى من العلماء الزاهدين المتكلمين بما يقوي عزائم المريدين فاذا صحت نية القائل والمستمع فهذه المجالسة أفضل من الانفراد والمداومة على الاذكار وان عدمت هذه المجالسة وتعذرت فليترقح بالتنقل في أنواع الاذكار وان كان خروجه لحوائجه وأمر معاشه في هذا الوقت يكون أفضل وأولى من خروجه في أول النهار ولا يخرج

كلا ان كل لما جميع لدينا محضرون ولكن ما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين وذلك لانا جعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ولنرجع الى الغرض فان هذه تلويحات تشير الى أمور هي أعلى من علوم المعاملة فنقول قد ظهر ان الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى وهذه المقاومة من خاصية الآدميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين ولا يكتبان شيأ على الصبيان والمجانين اذ قد ذكرنا ان الحسنة في الاقبال على الاستفادة منهما والسيئة في الاعراض عنهما وما للصبيان والمجانين سبيل الى الاستفادة فلا يتصور منهما اقبال واعراض وهما لا يكتبان الا الاقبال والاعراض من القادرين على الاقبال والاعراض ولعمرى انه قد تظهر مبادى اشراق نور الهداية عند سن التمييز وتنمو على التدريج الى سن البلوغ كما يبدو نور الصبح الى أن يطلع قرص الشمس ولكنها هداية قاصرة لا ترشد الى مضار الآخرة بل الى مضار الدنيا فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا ولا يعاقب على تركها في الآخرة ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة بل على القيم العدل والولى البر الشفيق ان كان من الابرار وكان على سمت الكرام الكاتبين البررة الاخيار أن يكتب على الصبي سيئته وحسنته على صحيفة قلبه فيكتبه عليه بالحفظ ثم ينشره عليه بالتعريف ثم يعذبه عليه بالضرب فكل ولى هذا سمته في حق الصبي فقد ورث أخلاق الملائكة واستعملها في حق الصبي فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة فيكون مع النبيين والمقربين والصديقين واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة وأشار الى أصبعيه الكريمتين صلى الله عليه وسلم

(بيان كون الصبر نصف الايمان)

اعلم ان الايمان تارة يختص في اطلاقه بالتصديقات بأصول الدين وتارة يخص بالاعمال الصالحة الصادرة منها وتارة يطلق عليهما جميعا وللمعارف أبواب وللاعمال أبواب ولاشتمال لفظ الايمان على جميعها كان الايمان نيفا وسبعين بابا واختلاف هذه الاطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات ولكن الصبر نصف الايمان باعتبارين وعلى مقتضى اطلاقين (أحدهما) أن يطلق على التصديقات والاعمال جميعا فيكون للايمان ركنان أحدهما اليقين والآخر الصبر والمراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده الى أصول الدين والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين اذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة الا بالصبر وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل فيكون الصبر نصف الايمان بهذا الاعتبار ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر الحديث الى آخره * الاعتبار الثاني أن يطلق على الاحوال المثمرة للاعمال لا على المعارف وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد الى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره فيهما وله بالاضافة الى ما يضره حال الصبر وبالاضافة الى ما ينفعه حال الشكر فيكون الشكر أحد شطرى الايمان بهذا الاعتبار كما أن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الاول وبهذا النظر قال ابن مسعود رضى الله عنه الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر وقد يرفع أيضا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين وكان باعث الهوى قسمين باعث من جهة الشهوة وباعث من جهة الغضب فالشهوة لطلب اللذيذ والغضب للهرب من المؤلم وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار الصوم نصف الصبر لان كمال الصبر بالصبر عن دواعى الشهوة ودواعى الغضب جميعا فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الايمان فهكذا ينبغي أن تفهم تقديرات الشرع بحدود الاعمال والاحوال ونسبتها الى الايمان والاصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الايمان فان اسم الايمان يطلق على وجوه مختلفة

(بيان الاسامى التى تتجدد للصبر بالاضافة الى ما عنه الصبر)

اعلم ان الصبر ضربان أحدهما ضرب بدنى كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها وهو اما بالفعل كتعاطى الاعمال الشاقة اما من العبادات أو من غيرها واما بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة وذلك قد يكون محمودا اذا وافق الشرع ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر وهو الصبر

من المنزل الا وهو على الوضوء وكره جمع من العلماء تحية الطهارة بعد صلاة العصر وأجازه المشايخ والصالحون ويقول كلما خرج من منزله بسم الله ما شاء الله حسبي الله لا قوة الا بالله اللهم اليك خرجت وأنت أخرجتني وليقرأ الفاتحة والمعوذتين ولا يدع ان يتصدق كل يوم بما يتيسر له ولو بتمرة أو لقمة فان القليل بحسن النية كثير وروى ان عائشة رضى الله عنها أعطت السائل عنبة واحدة وقالت ان فيها لمثاقيل ذر كثير * وجاء في الخبر كل امرئ يوم القيامة تحت ظل صدقته ويكون من ذكره من العصر الى المغرب مائة مرة لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من قال ذلك كل يوم مائة

النفس عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى ثم هذا الضرب ان كان صبرا عن شهوة البطن والفرج سمى عفة وان كان عن احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر فان كان فى مصيبة اقتصر على اسم الصبر وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع وهو اطلاق داعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها وان كان فى احتمال الغنى سمى ضبط النفس وتضاده حالة تسمى البطر وان كان فى حرب ومقاتلة سمى شجاعة ويضاده الجبن وان كان فى كظم الغيظ والغضب سمى حلما ويضاده التذمر وان كان فى نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمى سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر وان كان فى اخفاء كلام سمى كتمان السر وسمى صاحبه كتوما وان كان عن فضول العيش سمى زهدا ويضاده الحرص وان كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمى قناعة ويضاده الشره فأكثر أخلاق الايمان داخل فى الصبر ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الايمان قال هو الصبر لانه أكثر أعماله وأعزها كما قال الحج عرفة وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبرا فقال تعالى والصابرين فى البأساء أى المصيبة والضراء أى الفقر وحين البأس أى المحاربة أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون فاذا هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ومن يأخذ المعانى من الاسامى يظن أن هذه الاحوال مختلفة فى ذواتها وحقائقها من حيث رأى الاسامى مختلفة والذى يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله يلحظ المعانى أولا فيطلع على حقائقها ثم يلاحظ الاسامى فانها وضعت دالة على المعانى فالمعانى هى الاصول والالفاظ هى التوابع ومن يطلب الاصول من التوابع لا بد وأن يزل والى الفريقين الاشارة بقوله تعالى أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم فان الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه الا بمثل هذه الانعكاسات نسأل الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه

﴿ بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف ﴾

اعلم ان باعث الدين بالاضافة الى باعث الهوى له ثلاثة أحوال (أحدها) ان يقهر داعى الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة ويتوصل اليه بدوام الصبر وعند هذا يقال من صبر ظفر والواصلون الى هذه الرتبة هم الاقلون فلا جرم هم الصديقون المقربون الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم واستووا على الصراط القويم واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين واياهم ينادى المنادى يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية * الحالة الثانية أن تغلب دواعى الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه الى جند الشياطين ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة وهؤلاء هم الغافلون وهم الاكثرون وهم الذين استرقتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم فحكموا أعداء الله فى قلوبهم التى هى سر من أسرار الله تعالى وأمر من أمور الله واليهم الاشارة بقوله تعالى ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم وقيل لمن قصد ارشادهم فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالامانى وهو غاية الحمق كما قال صلى الله عليه وسلم الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله وصاحب هذه الحالة اذا وعظ قال أنا مشتاق الى التوبة ولكنها قد تعذرت على فلست أطمع فيها أو لم يكن مشتاقا الى التوبة ولكن قال ان الله غفور رحيم كريم فلا حاجة به الى توبتى وهذا المسكين قد صار عقله رقيقا لشهوته فلا يستعمل عقله الا فى استنباط دقائق الحيل التى بها يتوصل الى قضاء شهوته فقد صار عقله فى يد شهواته كمسلم أسير فى أيدى الكفار فهم يستسخرونه فى رعاية الخنازير وحفظ الخمور وحملها ومحله عند الله تعالى محل من يقهر مسلما ويسلمه الى الكفار ويجعله أسيرا عندهم لانه بفاحش جنايته يشبه أنه سخر ما كان حقه أن يستسخر وسلط ما حقه أن يتسلط عليه وانما استحق المسلم أن يكون متسلطا لما فيه من معرفة الله وباعث الدين وانما استحق الكافر أن يكون مسلطا عليه لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشياطين وحق المسلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه فمهما سخر المعنى الشريف الذى هو من حزب الله وجند الملائكة للمعنى الخسيس الذى هو من حزب الشياطين المبعدين عن الله تعالى كان كمن أرق مسلما لكافر بل هو كمن

مرة كان له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به الا أحد عمل أكثر من ذلك ومائتا مرة لا اله الا الله الملك الحق المبين فقد ورد ان من قال فى يومه مائتى مرة لا اله الا الله الملك الحق المبين لم يعمل أحد فى يومه أفضل من عمله ويقول مائة مرة سبحان الله والحمد لله الكلمات ومائة مرة سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وبحمده أستغفر الله ومائة مرة لا اله الا الله الملك الحق المبين ومائة مرة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ومائة مرة أستغفر الله العظيم الذى لا اله الا هو الحى القيوم وأسأله التوبة ومائة مرة ما شاء الله لا قوة الا بالله ورأيت بعض الفقراء من المغرب بمكة وله سبحة فيها ألف

قصد الملك المنعم عليه فأخذ أعز أولاده وسلمه الى أبغض أعدائه فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستجابه لنقمته لان الهوى أبغض اله عبد فى الارض عند الله تعالى والعقل أعز موجود خلق على وجه الارض * الحالة الثالثة أن يكون الحرب سجالا بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه وهذا من المجاهدين يعد مثله لا من الظافرين وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيأ عسى الله أن يتوب عليهم هذا باعتبار القوة والضعف ويتطرق اليه أيضا ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه فانه اما أن يغلب جميع الشهوات أو لا يغلب شيأ منها أو يغلب بعضها دون بعض وتنزيل قوله تعالى خلطوا عملا صالحا وآخر سيأ على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقا يشبهون بالانعام بل هم أضل سبيلا اذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التى بها تجاهد مقتضى الشهوات وهذا قد خلق ذلك له وعطله فهو الناقص حقا المدبر يقينا ولذلك قيل

ولم أر فى عيوب الناس عيبا * كنقص القادرين على التمام

وينقسم الصبر أيضا باعتبار اليسر والعسر الى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه الا بجهد جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبرا والى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بادنى تحامل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر واذا دامت التقوى وقوى التصديق بما فى العاقبة من الحسنى تيسر الصبر ولذلك قال تعالى فاما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره فان الرجل القوى يقدر على أن يصرع الضعيف بادنى حملة وأيسر قوة بحيث لا يلقاه فى مصارعته اعياء ولا لغوب ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينبهر ولا يقوى على أن يصرع الشديد الا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وباعث الهوى فانه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين ومهما اذعنت الشهوات وانقمعت وتسلط باعث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول المواظبة أورث ذلك مقام الرضا كما سيأتى فى كتاب الرضا فالرضا أعلى من الصبر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اعبد الله على الرضا فان لم تستطع ففى الصبر على ما تكره خير كثير وقال بعض العارفين أهل الصبر على ثلاثة مقامات * أولها ترك الشهوة وهذه درجة التائبين * وثانيها الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين * وثالثها المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين وسنبين فى كتاب المحبة أن مقام المحبة أعلى من مقام الرضا كما أن مقام الرضا أعلى من مقام الصبر وكان هذا الانقسام يجرى فى صبر خاص وهو الصبر على المصائب والبلايا * واعلم ان الصبر أيضا ينقسم باعتبار حكمه الى فرض ونفل ومكروه ومحرم * فالصبر عن المحظورات فرض وعلى المكاره نفل والصبر على الاذى المحظور محظور كمن تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكتا وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن اظهار الغيرة ويسكت على ما يجرى على أهله فهذا الصبر محرم والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة فى الشرع فليكن الشرع محك الصبر فكون الصبر نصف الايمان لا ينبغى أن يخيل اليك أن جميعه محمود بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة

(بيان مظان الحاجة الى الصبر وأن العبد لا يستغنى عنه فى حال من الاحوال)

اعلم أن جميع ما يلقى العبد فى هذه الحياة لا يخلو من نوعين أحدهما هو الذى يوافق هواه والآخر هو الذى لا يوافقه بل يكرهه وهو محتاج الى الصبر فى كل واحد منهما وهو فى جميع الاحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما فهو اذا لا يستغنى قط عن الصبر (النوع الاول) ما يوافق الهوى وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الاسباب وكثرة الاتباع والانصار وجميع ملاذ الدنيا وما أحوج العبد الى الصبر على هذه الامور فانه ان لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون اليها والانهماك فى ملاذها المباحة منها أخرجه ذلك الى البطر والطغيان فان الانسان ليطغى أن رآه استغنى حتى قال بعض العارفين البلاء يصبر عليه المؤمن والعوافى لا يصبر عليها الا صديق وقال سهل الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضى الله عنهم قالوا ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله وقال عز وجل ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وقال صلى الله عليه وسلم الولد مبخلة مجبنة محزنة ولما نظر عليه السلام

شبة فى كيس له ذكر أن ورده أن يديرها كل يوم اثنتى عشرة مرة بانواع الذكر (ونقل) عن بعض الصحابة ان ذلك كان ورده بين اليوم والليلة ونقل عن بعض التابعين كان ورده من التسبيح ثلاثين ألفا بين اليوم والليلة وليقل مائة مرة بين اليوم والليلة هذا التسبيح سبحان الله العلى الديان سبحان الله شديد الاركان سبحان من يذهب بالليل ويأتى بالنهار سبحان من لا يشغله شان عن شان سبحان الله الحنان المنان سبحان الله المسبح فى كل مكان (روى) ان بعض الابدال بات على شاطئ البحر فسمع فى هذه الليل هذا التسبيح فقال من الذى أسمع صوته ولا أرى شخصه فقال أنا ملك من الملائكة موكل بهذا البحر أسبح الله تعالى بهذا التسبيح منذ خلقت فقلت ما اسمك فقال مهلهيائيل فقلت

الى ولده الحسن رضى الله عنه يتعثر فى قيصه نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال صدق الله انما أموالكم وأولادكم فتنة انى لما رأيت ابنى يتعثر لم أملك نفسى أن أخذته ففى ذلك عبرة لاولى الابصار فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ومعنى الصبر عليها أن لا يركن اليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده وعسى أن يسترجع على القرب وأن لا يرسل نفسه فى الفرح بها ولا ينهمك فى التنعم واللذة واللهو واللعب وأن يرعى حقوق الله فى ماله بالانفاق وفى بدنه ببذل المعونة للخلق وفى لسانه ببذل الصدق وكذلك فى سائر ما أنعم الله به عليه وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم الا بالقيام بحق الشكر كما سيأتى وانما كان الصبر على السراء أشد لانه مقرون بالقدرة ومن العصمة أن لا تقدر والصبر على الحجامة والفصد اذا تولاه غيرك أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه اذا حضرته الاطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها فلهذا عظمت فتنة السراء ﴿النوع الثانى﴾ ما لا يوافق الهوى والطبع وذلك لا يخلو اما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصى أو لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار فى ازالته كالتشفى من المؤذى بالانتقام منه فهذه ثلاثة أقسام (القسم الاول) ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله التى توصف بكونها طاعة أو معصية وهما ضربان (الضرب الاول) الطاعة والعبد يحتاج الى الصبر عليها فالصبر على الطاعة شديد لان النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهى الربوبية ولذلك قال بعض العارفين ما من نفس الا وهى مضمرة ما أظهره فرعون من قوله أنا ربكم الاعلى ولكن فرعون وجد له مجالا وقبولا فأظهره اذ استخف قومه فأطاعوه وما من أحد الا وهو يدعى ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته وان كان ممتنعا من اظهاره فان استشاطته وغيظه عند تقصيرهم فى خدمته واستبعاده ذلك ليس يصدر الا عن اضمار الكبر ومنازعة الربوبية فى رداء الكبرياء فاذا العبودية شاقة على النفس مطلقا ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة ومنها ما يكره بسببهما جميعا كالحج والجهاد فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد ويحتاج المطيع الى الصبر على طاعته فى ثلاث أحوال الاولى قبل الطاعة وذلك فى تصحيح النية والاخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعى الآفات وعقد العزم على الاخلاص والوفاء وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والاخلاص وآفات الرياء ومكايد النفس وقد نبه عليه صلوات الله عليه اذ قال انما الاعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى وقال تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى الا الذين صبروا وعملوا الصالحات * الحالة الثانية حالة العمل كى لا يغفل عن الله فى أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ويدوم على شرط الادب الى آخر العمل الاخير فيلازم الصبر عن دواعى الفتور الى الفراغ وهذا أيضا من شدائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى نعم أجر العاملين الذين صبروا أى صبروا الى تمام العمل * الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل اذ يحتاج الى الصبر عن افشائه والتظاهر به للسمعة والرياء والصبر عن النظر اليه بعين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره كما قال تعالى ولا تبطلوا أعمالكم وكما قال تعالى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والاذى فقد أبطل عمله والطاعات تنقسم الى فرض ونفل وهو محتاج الى الصبر عليهما جميعا وقد جمعهما الله تعالى فى قوله ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى فالعدل هو الفرض والاحسان هو النفل وايتاء ذى القربى هو المروءة وصلة الرحم وكل ذلك يحتاج الى صبر (الضرب الثانى) المعاصى فما أحوج العبد الى الصبر عنها وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصى فى قوله تعالى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى وقال صلى الله عليه وسلم المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه والمعاصى مقتضى باعث الهوى وأشد أنواع الصبر عن المعاصى الصبر عن المعاصى التى صارت مألوفة بالعادة فان العادة طبيعة خامسة فاذا انضافت العادة الى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعهما ثم ان كان ذلك الفعل مما يتيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس كالصبر عن معاصى اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضا وتصريحا وأنواع المزح المؤذى للقلوب وضروب الكلمات التى يقصد بها الازراء والاستحقار وذكر الموتى والقدح فيهم وفى علومهم وسيرهم ومناصبهم فان ذلك فى ظاهره

ما ثواب هذا التسبيح قال من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له (وروى) ان عثمان رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى له مقاليد السموات والارض فقال سألتنى عن شئ عظيم ما سألنى غيرك هو لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله عز وجل وأستغفر الله الاول الآخر الظاهر الباطن له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شئ قدير من قالها عشرا حين يصبح وحين يمسى أعطى ست خصال فأول خصلة ان يحرس من ابليس وجنوده الثانية ان يعطى قنطارا من الاجر الثالثة يرفع له درجة فى الجنة الرابعة يزوجه الله من الحور العين الخامسة اثنا عشر ملكا يستغفرون له السادسة يكون له من الاجر كمن حج واعتمر

غيبة وفي باطنه ثناء على النفس فللنفس فيه شهوتان احداهما نفي الغير والاخرى اثبات نفسه وبها تتم له الربوبية التي هي في طبعه وهي ضد ما أمر به من العبودية ولاجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معتادا في المحاورات يعسر الصبر عنها وهي أكبر الموبقات حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكررها وعموم الانس بها فترى الانسان يلبس حريرا مثلا فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ولا يستنكر ذلك مع ما ورد في الخبر من ان الغيبة أشد من الزنا ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر على ذلك فيجب عليه العزلة والانفراد فلا ينجيه غيره فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاج الوساوس فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة ولا يمكن الصبر عنه أصلا الا بان يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرقه كمن أصبح وهمومه هم واحد والا فان لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه *(القسم الثاني)* ما لا يرتبط هجومه باختياره وله اختيار في دفعه كما لو أوذي بفعل أو قول وجنى عليه في نفسه أو ماله فالصبر على ذلك بترك المكافاة تارة يكون واجبا وتارة يكون فضيلة قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم ما كنا نعد ايمان الرجل ايمانا اذا لم يصبر على الاذى وقال تعالى ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالا فقال بعض الاعراب من المسلمين هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فاخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحمرت وجنتاه ثم قال يرحم الله أخي موسى لقد أوذي باكثر من هذا فصبر وقال تعالى ودع أذاهم وتوكل على الله وقال تعالى واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا وقال تعالى ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك الآية وقال تعالى ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور أي تصبروا عن المكافاة ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وقال صلى الله عليه وسلم صل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك ورأيت في الانجيل قال عيسى بن مريم عليه السلام لقد قيل لكم من قبل ان السن بالسن والانف بالانف وأنا أقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك الايمن فحول اليه الخد الايسر ومن أخذ رداءك فاعطه ازارك ومن سخرك لتسير معه ميلا فسر معه ميلين وكل ذلك امر بالصبر على الاذى فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر لانه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعا *(القسم الثالث)* ما لا يدخل تحت حصر الاختيار أوله وآخره كالمصائب مثل موت الاعزة وهلاك الاموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العين وفساد الاعضاء وبالجملة سائر أنواع البلاء فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر قال ابن عباس رضي الله عنهما الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه صبر على اداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة وصبر على المصيبة عند الصدمة الاولى فله تسعمائة درجة وانما فضلت هذه الرتبة مع انها من الفضائل على ما قبلها وهي من الفرائض لان كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم فاما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه الا الانبياء لانه بضاعة الصديقين فان ذلك شديد على النفس ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اسألك من اليقين ما تهون على به مصائب الدنيا فهذا صبر مستنده حسن اليقين وقال أبو سليمان والله ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على ما نكره وقال النبي صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل اذا وجهت الى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن انصب له ميزانا أو انشر له ديوانا وقال صلى الله عليه وسلم انتظار الفرج بالصبر عبادة وقال صلى الله عليه وسلم ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى انا لله وانا اليه راجعون اللهم اجرني في مصيبتي وأعقبني خيرا منها الا فعل الله به ذلك وقال أنس حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل قال يا جبريل ما جزاء من سلبت كريمتيه قال سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا قال تعالى جزاؤه الخلود في داري والنظر الى وجهي وقال صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل اذا ابتليت عبدي ببلاء فصبر ولم يشكني الى عواده أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا

ويقول أيضا في هذا الوقت وفي أول النهار اللهم أنت خلقتني وأنت هديتني وأنت تطعمني وأنت تسقيني وأنت تميتني وأنت تحييني أنت ربي لا رب لي سواك ولا اله الا أنت وحدك لا شريك لك ويقول ما شاء الله لا قوة الا بالله ما شاء الله كل نعمة من الله ما شاء الله الخير كله بيد الله ما شاء الله لا يصرف السوء الا الله ويقول حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ثم يستعد لاستقبال الليل بالوضوء والطهارة ويقرأ المسبعات قبل الغروب ويديم التسبيح والاستغفار بحيث تغيب الشمس وهو في التسبيح والاستغفار ويقرأ عند الغروب أيضا والشمس والليل والمعوذتين ويستقبل الليل كما استقبل النهار قال الله تعالى وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو

من دمه فاذا أبرأته أبرأته ولاذنب له وان توفيته فالى رحمتي وقال داود عليه السلام يارب ماجزاء الحزين الذي يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك قال جزاؤه أن ألبسه لباس الايمان فلا انزعه عنه أبدا وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله في خطبته ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه منها الصبر الا كان ماعوضه منها أفضل مما انتزع منه وقرأ انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وسئل فضيل عن الصبر فقال هو الرضا بقضاء الله قيل وكيف ذلك قال الراضي لا يتمنى فوق منزلته وقيل حبس الشبلي رحمه الله في المارستان فدخل عليه جماعة فقال من أنتم قالوا احباؤك جاؤك زائرين فأخذ يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون فقال لو كنتم احبائي لصبرتم على بلائي وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة ويطالعها وكان فيها فاصبر لحكم ربك فانك بأعيننا ويقال ان امرأة فتح الموصلي عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها أما تجدين الوجع فقالت ان لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه وقال داود لسليمان عليهما السلام يستدل على تقوى المؤمن بثلاث حسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضا فيما قد نال وحسن الصبر فيما قد فات وقال نبينا صلى الله عليه وسلم من اجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك ويروى عن بعض الصالحين انه خرج يوما وفي كمه صرة فافتقدها فاذا هي قد أخذت من كمه فقال بارك الله فيها لعله أحوج اليها مني وروى عن بعضهم انه قال مررت على سالم مولى أبي حذيفة في القتلى وبه رمق فقلت له أسقيك ماء فقال جرني قليلا الى العدو واجعل الماء في الترس فاني صائم فان عشت الى الليل شربته فهكذا كان صبر سالكي طريق الآخرة على بلاء الله تعالى فان قلت فبماذا تنال درجة الصبر في المصائب وليس الامر الى اختياره فهو مضطر شاء أم أبى فان كان المراد به ان لا تكون في نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل في الاختيار فاعلم انه انما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الخدود والمبالغة في الشكوى واظهار الكآبة وتغيير العادة في الملبس والمفرش والمطعم وهذه الامور داخلة تحت اختياره فينبغي أن يجتنب جميعها ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ويبقى مستمرا على عادته ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت كما روى عن الرميصاء أم سليم رحمها الله انها قالت توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقمت فسجيته في ناحية البيت فقدم أبو طلحة فقمت فهيأت له افطاره فجعل يأكل فقال كيف الصبي فقلت بأحسن حال بحمد الله ومنه فانه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة ثم تصنعت له أحسن ما كنت اصنع له قبل ذلك حتى أصاب مني حاجته ثم قلت ألا تعجب من جيراننا قال مالهم قلت أعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا فقال بئس ماصنعوا فقلت هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وان الله قد قبضه اليه فحمد الله واسترجع ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبره فقال اللهم بارك لهما في ليلتهما قال الراوي فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلهم قد قرؤا القرآن وروى جابر أنه عليه السلام قال رأيتني دخلت الجنة فاذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة وقد قيل الصبر الجميل هو أن لا يعرف صاحب المصيبة من غيره ولا يخرجه عن حد الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع اذ يكون من جميع الحاضرين لاجل الموت سواء ولان البكاء توجع القلب على الميت فان ذلك مقتضى البشرية ولا يفارق الانسان الى الموت ولذلك لما مات ابراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه فقيل له أما نهيتنا عن هذا فقال ان هذه رحمة وانما يرحم الله من عباده الرحماء بل ذلك أيضا لا يخرج عن مقام الرضا فالمقدم على الحجامة والفصد راض به وهو متألم بسببه لامحالة وقد تفيض عيناه اذا عظم ألمه وسيأتي ذلك في كتاب الرضا ان شاء الله تعالى وكتب ابن أبي نجيح يعزي بعض الخلفاء ان أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيما أبقاه له واعلم ان الماضي قبلك هو الباقي لك والباقي بعدك هو المأجور فيك واعلم ان أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه فاذا مهما دفع الكراهة بالتفكر في نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصابرين نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب وقد قيل من كنوز البر كتمان المصائب والاوجاع والصدقة فقد ظهر لك بهذه التقسيمات ان وجوب الصبر عام في جميع الاحوال والافعال فان الذي كفي الشهوات كلها واعتزل وحده لا يستغني عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهرا وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا فان اختلاج الخواطر لا يسكن وأكثر جولان الخواطر انما

أراد شكورا فكان الليل يعقب النهار والنهار يعقب الليل ينبغي ان يكون العبد بين الذكر والشكر يعقب أحدهما الآخر ولا يتخللهما شئ كما لا يتخلل بين الليل والنهار شئ والذكر جميعه أعمال القلب والشكر أعمال الجوارح قال الله تعالى اعملوا آل داود شكرا والله الموفق والمعين

(الباب الحادي والخمسون في آداب المريد مع الشيخ)

آداب المريدين مع الشيوخ عند الصوفية من مهام الآداب والقوم في ذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقد قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله ان الله سميع عليم * روى عن عبد الله بن الزبير قال قدم وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم من بني تميم فقال أبو

يكون فى فائت لا تدارك له أو فى مستقبل لا بد وان يحصل منه ماهو مقدر فهو كيفما كان تضييع زمان وآلة العبد
قلبه و بضاعته عمره فاذا غفل القلب فى نفس واحد عن ذكر يستفيد به انسا بالله تعالى أو عن فكر يستفيد به
معرفة بالله تعالى ليستفيد بالمعرفة محبة الله تعالى فهو مغبون هذا ان كان فكره و وسواسه فى المباحات مقصورا
عليه ولا يكون ذلك غالبا بل يتفكر فى وجوه الحيل لقضاء الشهوات اذ لا يزال ينازع كل من تحرك على خلاف
غرضه فى جميع عمره أو من يتوهم انه ينازعه و يخالف أمره أو غرضه بظهور أمارة له منه بل يقدر المخالفة من
أخلص الناس فى حبه حتى فى أهله و ولده و يتوهم مخالفتهم له ثم يتفكر فى كيفية زجرهم و كيفية قهرهم
وجوابهم عما يتعللون به فى مخالفته ولا يزال فى شغل دائم فللشيطان جندان جند يطير و جند يسير والوسواس
عبارة عن حركة جنده الطيار والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار وهذا لان الشيطان خلق من النار وخلق
الانسان من صلصال كالفخار والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين والطين طبيعته السكون والنار طبيعتها الحركة
فلا يتصور نار مشتعلة لا تتحرك بل لا تزال تتحرك بطبعها وقد كلف الملعون المخلوق من النار أن يطمئن عن حركته
ساجدا لما خلق الله من الطين فأبى واستكبر واستعصى وعبر عن سبب استعصائه بان قال خلقتنى من نار وخلقته
من طين فاذا حيث لم يسجد الملعون لابينا آدم صلوات الله عليه وسلامه فلا ينبغى أن يطمع فى سجوده لاولاده
ومهما كف عن القلب وسواسه وعدوانه وطيرانه و جولانه فقد اظهر انقياده واذعانه وانقياده بالاذعان سجود
منه فهو روح السجود وانما وضع الجبهة على الارض قالبه وعلامته الدالة عليه بالاصطلاح ولو جعل وضع الجبهة
على الارض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصور ذلك كما أن الانبطاح بين يدى المعظم المحترم يرى استخفافا بالعادة
فلا ينبغى أن يدهشك صدق الجوهر عن الجوهر وقالب الروح عن الروح وقشر اللب عن اللب فتكون ممن
قيده عالم الشهادة بالكلية عن عالم الغيب وتحقق أن الشيطان من المنظرين فلا يتواضع لك بالكف عن
الوسواس الى يوم الدين الا أن تصبح وهمومك هم واحد فتشغل قلبك بالله وحده فلا يجد الملعون مجالا فيك فعند
ذلك تكون من عباد الله المخلصين الداخلين فى الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين ولا تظن انه يخلو عنه قلب فارغ بل
هو سيال يجرى من ابن آدم مجرى الدم وسيلانه مثل الهواء فى القدح فانك ان أردت أن يخلو القدح عن الهواء
من غير أن تشغله بالماء أو بغيره فقد طمعت فى غير مطمع بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لا محالة
فكذلك القلب المشغول بفكر مهم فى الدين يخلو عن جولان الشيطان والا فمن غفل عن الله تعالى ولو فى لحظة
فليس له فى تلك اللحظة قرين الا الشيطان ولذلك قال تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له
قرين وقال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يبغض الشاب الفارغ وهذا لان الشاب اذا تعطل عن عمل يشغل
باطنه بمباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغا ولم يبق قلبه فارغا بل يعشش فيه الشيطان ويبيض و يفرخ ثم
تزدوج أفراخه أيضا وتبيض مرة أخرى وتفرخ وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالدا أسرع من توالد سائر
الحيوانات لان طبعه من النار واذا وجد الحلفاء اليابسة كثر توالده فلا تزال تتوالد النار من النار ولا تنقطع
البتة بل تسرى شيأ فشيأ على الاتصال فالشهوة فى نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار وكما لا تبقى النار
اذا لم يبق لها قوت وهو الحطب فلا يبقى للشيطان مجال اذا لم تكن شهوة فاذا تأملت علمت أن أعدى عدولك
شهوتك وهى صفة نفسك ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج حين كان يصلب وقد سئل عن التصوف ماهو
فقال هى نفسك ان لم تشغلها اشغلتك فاذا حقيقة الصبر وكماله الصبر عن كل حركة مذمومة وحركة الباطن
أولى بالصبر عن ذلك وهذا صبر دائم لا يقطعه الا الموت نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه

(بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه)

اعلم أن الذى أنزل الداء أنزل الدواء و وعد الشفاء فالصبر وان كان شاقا أو ممتنعا فتحصيله ممكن بمعجون العلم
والعمل فالعلم والعمل هما الاخلاط التى منها تركب الادوية لامراض القلوب كلها ولكن يحتاج كل مرض
الى علم آخر وعمل آخر وكما كانت أقسام الصبر مختلفة فاقسام العلل المانعة منه مختلفة واذا اختلفت العلل اختلف
العلاج اذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها واستيفاء ذلك مما يطول ولكنا نعرف الطريق فى بعض الامثلة فنقول

بكر أمر القعقاع بن
معبد وقال عمر بل أمر
الاقرع بن حابس فقال
أبو بكر ما أردت الا خلافى
وقال عمر ما أردت خلافك
فتماريا حتى ارتفعت
أصواتهما فانزل الله
تعالى يا أيها الذين
آمنوا الآية قال ابن
عباس رضى الله عنهما
لا تقدموا لا تتكلموا
بين يدى كلامه وقال
جابر كان ناس يضحون
قبل رسول الله فنهوا
عن تقديم الاضحية على
رسول الله صلى الله
عليه وسلم وقيل كان
قوم يقولون لو أنزل فى
كذا وكذا فكره الله
ذلك وقالت عائشة
رضى الله عنها أى
لا تصوموا قبل أن
يصوم نبيكم وقال
الكلبى لا تسبقوا رسول
الله بقول ولا فعل حتى
يكون هو الذى يأمركم
به وهكذا أدب المريد
مع الشيخ أن يكون
مسلوب الاختيار
لا يتصرف فى نفسه
وماله الا بمراجعة الشيخ

اذا افتقر الى الصبر عن شهوة الوقاع مثلا وقد غلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها فرجه أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه اذ لا تزال تحدثه بمقتضيات الشهوات وتصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والاعمال الصالحة فنقول قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه الا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة فأما باعث الشهوة فسبيل تضعيفه ثلاثة أمور أحدها أن ننظر الى مادة قوتها وهي الاغذية الطيبة المحركة للشهوة من حيث نوعها ومن حيث كثرتها فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الافطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه فيحترز عن اللحم والاطعمة المهيجة للشهوة الثاني قطع أسبابه المهيجة له في الحال فانه انما يهيج بالنظر الى مظان الشهوة اذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة والفرار منها بالكلية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم النظر سهم مسموم من سهام ابليس وهو سهم يسدده الملعون ولا ترس يمنع منه الا تغميض الاجفان أو الهرب من صوب رميه فانه انما يرمي هذا السهم عن قوس الصور فاذا انقلبت عن صوب الصور لم يصبك سهمه الثالث تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشتهيه وذلك بالنكاح فان كل ما يشتهيه الطبع ففي المباحات من جنسه ما يغني عن المحظورات منه وهذا هو العلاج الانفع في حق الاكثر فان قطع الغذاء يضعف عن سائر الاعمال ثم قد لا يقمع الشهوة في حق أكثر الرجال ولذلك قال صلى الله عليه وسلم عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فان الصوم له وجاء فهذه ثلاثة أسباب فالعلاج الاول وهو قطع الطعام يضاهي قطع العلف عن البهيمة الجموح وعن الكلب الضاري ليضعف فتسقط قوته والثاني يضاهي تغييب اللحم عن الكلب وتغييب الشعير عن البهيمة حتى لا تتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها والثالث يضاهي تسليتها بشيء قليل مما يميل اليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ما تصبر به على التأديب وأما تقوية باعث الدين فانما تكون بطريقين أحدهما اطماعه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا وذلك بأن يكثر فكره في الاخبار التي أوردناها في فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة وفي الاثر ان ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات وانه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة اذ فاته ما لا يبقى معه الا مدة الحياة وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر ومن أسلم خسيسا في نفيس فلا ينبغي أن يحزن لفوات الخسيس في الحال وهذا من باب المعارف وهو من الايمان فتارة يضعف وتارة يقوى فان قوي قوي باعث الدين وهيجه تهييجا شديدا وان ضعف ضعفه وانما قوة الايمان يعبر عنها باليقين وهو المحرك لعزيمة الصبر وأقل ما أوتي الناس الصبر وعزيمة اليقين والثاني ان يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجا قليلا قليلا حتى يدرك لذة الظفر بها فيستجرئ عليها وتقوى منته في مصارعتها فان الاعتياد والممارسة للاعمال الشاقة تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الاعمال ولذلك تزيد قوة الحمالين والفلاحين والمقاتلين وبالجملة فقوة الممارسين للاعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين والعطارين والفقهاء والصالحين وذلك لان قواهم لم تتأكد بالممارسة فالعلاج الاول يضاهي اطماع المصارع بالخلعة عند الغلبة ووعده بانواع الكرامة كما وعد فرعون سحرته عند اغرائه اياهم بموسى حيث قال وانكم اذا لمن المقربين والثاني يضاهي تعويد الصبي الذي يراد منه المصارعة والمقاتلة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به ويستجرئ عليه وتقوى فيه منته فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين ولا يقوى على الشهوة وان ضعفت ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفاؤه وانما أشدها كف الباطن عن حديث النفس وانما يشتد ذلك على من تفرغ له بان قمع الشهوات الظاهرة وآثر العزلة وجلس للمراقبة والذكر والفكر فان الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب الى جانب وهذا لا علاج له البتة الا قطع العلائق كلها ظاهرا وباطنا بالفرار عن الاهل والولد والمال والجاه والرفقاء والاصدقاء ثم الاعتزال الى زاوية بعد احراز قدر يسير من القوت وبعد القناعة به ثم كل ذلك لا يكفي ما لم تصر الهموم هما واحدا وهو الله تعالى ثم اذا غلب ذلك على القلب فلا يكفي ذلك ما لم يكن له مجال في الفكر وسير بالباطن في

وأمره وقد استوفينا هذا المعنى في باب المشيخة وقيل لا تقدموا الا تمشوا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى أبو الدرداء قال كنت أمشي أمام أبي بكر فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم تمشي امام من هو خير منك في الدنيا والآخرة وقيل نزلت في أقوام كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا سئل الرسول عليه السلام عن شيء خاضوا فيه وتقدموا بالقول والفتوى فنهوا عن ذلك وهكذا أدب المريد في مجلس الشيخ ينبغي أن يلزم السكوت ولا يقول شيأ بحضرته من كلام حسن الا اذا استأمر الشيخ ووجد من الشيخ فسحة له في ذلك وشأن المريد في حضرة الشيخ كمن هو قاعد على ساحل بحر ينتظر رزقا يساق اليه فتطلعه الى الاستماع وما يرزق

ملكوت السموات والارض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى حتى اذا استولى ذلك على قلبه
دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه وان لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه الا الاوراد المتواصلة المترتبة
فى كل لحظة من القراءة والاذكار والصلوات ويحتاج مع ذلك الى تكليف القلب الحضور فان الفكر بالباطن
هو الذى يستغرق القلب دون الاوراد الظاهرة ثم اذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الاوقات الا بعضها اذ لا يخلو فى
جميع أوقاته عن حوادث تتجدد فتشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وايذاء من انسان وطغيان من
يخالطه اذ لا يستغنى عن مخالطة من يعينه فى بعض أسباب المعيشة فهذا أحد الانواع الشاغلة * وأما النوع الثانى
فهو ضرورى أشد ضرورة من الاول وهو اشتغاله بالمطعم والملبس وأسباب المعاش فان تهيئة ذلك أيضا تحوج الى
شغل ان تولاه بنفسه وان تولاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب بمن يتولاه ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم له أكثر
الاوقات ان لم تهجم به ملمة أو واقعة وفى تلك الاوقات يصفو القلب ويتيسر له الفكر وينكشف فيه من أسرار
الله تعالى فى ملكوت السموات والارض ما لا يقدر على عشر عشيره فى زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق
والانتهاء الى هذا هو أقصى المقامات التى يمكن أن تنال بالاكتساب والجهد فاما مقادير ما ينكشف ومبالغ ما يرد
من لطف الله تعالى فى الاحوال والاعمال فذلك يجرى مجرى الصيد وهو بحسب الرزق فقد يقل الجهد ويجل
الصيد وقد يطول الجهد ويقل الحظ والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن فانها توازى أعمال
الثقلين وليس ذلك باختيار العبد نعم اختيار العبد فى أن يتعرض لتلك الجذبة بان يقطع عن قلبه جواذب الدنيا
فان المجذوب الى أسفل سافلين لا ينجذب الى أعلى عليين وكل مهموم بالدنيا فهو منجذب اليها فقطع العلائق
الجاذبة هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم ان لربكم فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها وذلك لان تلك النفحات
والجذبات لها أسباب سماوية اذ قال الله تعالى وفى السماء رزقكم وما توعدون وهذا من أعلى أنواع الرزق
والامور السماوية غائبة عنا فلا ندرى متى ييسر الله تعالى أسباب الرزق فما علينا الا تفريغ المحل والانتظار
لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذى يصلح الارض وينقيها من الحشيش ويبث البذر فيها وكل ذلك لا ينفعه
الا بمطر ولا يدرى متى يقدر الله أسباب المطر الا أنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته انه لا يخلى سنة عن مطر فكذلك
قلما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات فينبغى أن يكون العبد قد طهر القلب عن
حشيش الشهوات وبذر فيه بذر الارادة والاخلاص وعرضه لمهاب رياح الرحمة وكما يقوى انتظار الامطار فى أوقات
الربيع وعند ظهور الغيم فيقوى انتظار تلك النفحات فى الاوقات الشريفة وعند اجتماع الهمم وتساعد القلوب
كما فى يوم عرفة ويوم الجمعة وأيام رمضان فان الهمم والانفاس أسباب بحكم تقدير الله تعالى لاستدرار رحمته حتى
تستدر بها الامطار فى أوقات الاستسقاء وهى لاستدرار أمطار المكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت
أشد مناسبة منها لاستدرار قطرات الماء واستجرار الغيوم من أقطار الجبال والبحار بل الاحوال والمكاشفات
حاضرة معك فى قلبك وانما أنت مشغول عنها بعلائقك وشهواتك فصار ذلك حجابا بينك وبينها فلا تحتاج الا الى
أن تنكسر الشهوة ويرفع الحجاب فتشرق أنوار المعارف من باطن القلب واظهار ماء الارض بحفر القنى أسهل
وأقرب من استنزال الماء اليها من مكان بعيد منخفض عنها ولكونه حاضرا فى القلب ومنسيا بالشغل عنه سمى الله
تعالى جميع معارف الايمان تذكرا فقال تعالى انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون وقال تعالى وليتذكر أولو
الالباب وقال تعالى ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر فهذا هو علاج الصبر عن الوساوس والشواغل وهو
آخر درجات الصبر وانما الصبر عن العلائق كلها مقدم على الصبر عن الخواطر قال الجنيد رحمه الله السير من الدنيا
الى الآخرة سهل على المؤمن وهجران الخلق فى حب الحق شديد والسير من النفس الى الله تعالى صعب شديد
والصبر مع الله أشد فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ثم شدة هجران الخلق وأشد العلائق على النفس علاقة
الخلق وحب الجاه فان لذة الرياسة والغلبة والاستعلاء والاستتباع أغلب اللذات فى الدنيا على نفوس العقلاء
وكيف لا تكون أغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهى الربوبية والربوبية محبوبة ومطلوبة
بالطبع للقلب لما فيه من المناسبة لامور الربوبية وعنه العبارة بقوله تعالى قل الروح من أمر ربى وليس القلب

من طريق كلام الشيخ
بتحقيق مقام ارادته
وطلبه واستزادته من
فضل الله وتطلعه الى
القول برده عن مقام
الطالب والاستزادة الى
مقام اثبات شئ لنفسه
وذلك جناية المريد
وينبغى أن يكون تطلعه
الى مهم من حاله
يستكشف عنه
بالسؤال من الشيخ على
أن الصادق لا يحتاج
الى السؤال باللسان فى
حضرة الشيخ بل يبادئه
بما يريد لان الشيخ
يكون مستنطقا نطقه
بالحق وهو عند حضور
الصادقين يرفع قلبه الى
الله ويستمطر ويستسقى
لهم فيكون لسانه وقلبه
فى القول والنطق
مأخوذين الى مهم الوقت
من أحوال الطالبين
المحتاجين الى ما يفتح به
عليه لان الشيخ يعلم
تطلع الطالب الى قوله
واعتداده بقوله والقول
كالبذر يقع فى الارض
فاذا كان البذر فاسدا

مذموما على حب ذلك واغا هو مذموم على غلط وقع له بسبب تغرير الشيطان اللعين المبعد عن عالم الامر اذ حسده على كونه من عالم الامر فاضله وأغواه وكيف يكون مذموما عليه وهو يطلب سعادة الآخرة فليس يطلب الابقاء لافناء فيه وعز الاذل فيه وأمنا لاخوف فيه وغنى لافقر فيه وكمالا لانقصان فيه وهذه كلها من أوصاف الربوبية وليس مذموما على طلب ذلك بل حق كل عبد أن يطلب ملكا عظيما لا آخر له وطالب الملك طالب للعلو والعز والكمال لا محالة ولكن الملك ملكان ملك مشوب بانواع الآلام وملحوق بسرعة الانصرام ولكنه عاجل وهو في الدنيا وملك مخلد دائم لا يشوبه كدر ولا ألم ولا يقطعه قاطع ولكنه آجل وقد خلق الانسان عجولا راغبا في العاجلة فجاء الشيطان وتوسل اليه بواسطة العجلة التي في طبعه فاستغواه بالعاجلة وزين له الحاضرة وتوسل اليه بواسطة الحمق فوعده بالغرور في الآخرة ومناه مع ملك الدنيا ملك الآخرة كما قال صلى الله عليه وسلم والاحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الامانى فانخدع المخذول بغروره واشتغل بطلب عز الدنيا وملكها على قدر امكانه ولم يتدل الموفق بحبل غروره اذ علم مداخل مكره فاعرض عن العاجلة فعبر عن المخذولين بقوله تعالى كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة وقال تعالى ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا وقال تعالى فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ولما استطار مكر الشيطان في كافة الخلق أرسل الله الملائكة الى الرسل وأوحوا اليهم ما تم على الخلق من اهلاك العدو واغوائه فاشتغلوا بدعوة الخلق الى الملك الحقيقي عن الملك المجازي لا أصل له ان سلم ولا دوام له أصلا فنادوا فيهم يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل فالتوراة والانجيل والزبور والفرقان وصحف موسى وابراهيم وكل كتاب منزل ما انزل الا لدعوة الخلق الى الملك الدائم المخلد والمراد منهم أن يكونوا ملوكا في الدنيا ملوكا في الآخرة اما ملك الدنيا فالزهد فيها والقناعة باليسير منها وأما ملك الآخرة فبالقرب من الله تعالى يدرك بقاء لا فناء فيه وعز الاذل فيه وقرة عين أخفيت في هذا العالم لا تعلمها نفس من النفوس والشيطان يدعوهم الى ملك الدنيا لعلمه بان ملك الآخرة يفوت به اذ الدنيا والآخرة ضرتان ولعلمه بان الدنيا لا تسلم له أيضا ولو كانت تسلم له لكان يحسده أيضا ولكن ملك الدنيا لا يخلو عن المنازعات والمكدرات وطول الهموم في التدبيرات وكذا سائر أسباب الجاه ثم مهما تسلم وتتم الاسباب ينقضي العمر حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس فضرب الله تعالى لها مثلا فقال تعالى واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فاصبح هشيما تذروه الرياح والزهد في الدنيا لما أن كان ملكا حاضرا حسده الشيطان عليه فصده عنه ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين واشارة الايمان وهذا ملك بالاستحقاق اذ به يصير صاحبه حرا وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبدا الفرجه وبطنه وسائر أغراضه فيكون مسخرا مثل البهيمة مملوكا يستسخره زمام الشهوة آخذا بمخنقه الى حيث يريد ويهوى فما أعظم اغترار الانسان اذ ظن انه ينال الملك بان يصير مملوكا وينال الربوبية بأن يصير عبدا ومثل هذا هل يكون الا معكوسا في الدنيا منكوسا في الآخرة ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد هل من حاجة قال كيف أطلب منك حاجة وملكي أعظم من ملكك فقال كيف قال من أنت عبده فهو عبد لي فقال كيف ذلك قال أنت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك وقد ملكت هؤلاء كلهم فهم عبيد لي فهذا اذا هو الملك في الدنيا وهو الذي يسوق الى الملك في الآخرة فالمخدوعون بغرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعا والذين وفقوا للاستداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعا فاذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية ومدخل الغلط في ذلك وكيفية الشيطان وتلبيسه يسهل عليك النزوع عن الملك والجاه والاعراض عنه والصبر عند فواته اذ تصير بتركه ملكا في الحال وترجو به ملكا في الآخرة ومن كوشف بهذه الامور بعد ان ألف الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه فلا يكفيه في العلاج مجرد العلم والكشف بل لابد وأن يضيف اليه العمل وعمله في ثلاثة أمور * أحدها أن يهرب عن موضع الجاه كي لا يشاهد أسبابه فيعسر عليه الصبر مع الاسباب كما

لا يثبت وفساد الكلمة بدخول الهوى فيها فالشيخ ينقي بذر الكلام عن شوب الهوى ويسلمه الى الله ويسأل الله المعونة والسداد ثم يقول فيكون كلامه بالحق من الحق للحق فالشيخ للامر بدين أمين الالهام كما أن جبريل أمين الوحي فكما لا يخون جبريل في الوحي لا يخون الشيخ في الالهام وكما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى فالشيخ مقتد برسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا لا يتكلم بهوى النفس وهوى النفس في القول بشيئين أحدهما طلب استجلاب القلوب وصرف الوجوه اليه ومع هذا من شأن الشيوخ والثاني ظهور النفس باستحلاء الكلام والعجب وذلك خيانة عند المحققين والشيخ فيما يجري على لسانه راقد النفس تشغله مطالعة نعم الحق

يهرب من غلبته الشهوة عن مشاهدة الصور المحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله في سعة الارض اذ قال تعالى ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها * الثاني ان يكلف نفسه في أعماله أفعالا تخالف ما اعتاده فيبدل التكلف بالتبذل وزي الحشمة بزي التواضع وكذلك كل هيئة وحال وفعل في مسكن وملبس ومطعم وقيام وقعود كان يعتاده وفاء بمقتضى جاهه فينبغي ان يبدلها بنقائضها حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياد ضده فلا معنى للمعالجة الا المضادة * الثالث ان يرعى في ذلك التلطف والتدريج فلا ينتقل دفعة واحدة الى الطرف الاقصى من التبذل فان الطبع نفور ولا يمكن نقله عن اخلاقه الا بالتدريج فيترك البعض ويسلي نفسه بالبعض ثم اذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض الى ان يقنع بالبقية وهكذا يفعل شيأ فشيأ الى ان يقمع تلك الصفات التي رسخت فيه والى هذا التدريج الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم ان هذا الدين متين فاوغل فيه برفق ولا تبغض الى نفسك عبادة الله فان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى واليه الاشارة بقوله عليه السلام لا تشادوا هذا الدين فان من يشاده يغلبه فاذا ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه أضفه الى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات فاتخذه دستورا لتتعرف به علاج الصبر في جميع الاقسام التي فصلناها من قبل فان تفصيل الآحاد يطول ومن راعى التدريج ترقى به الصبر الى حال يشق عليه الصبر دونه كما كان يشق عليه الصبر معه فتنعكس أموره فيصير ما كان محبوبا عنده ممقوتا وما كان مكروها عنده مشربا هنيأ لا يصبر عنه وهذا لا يعرف الا بالتجربة والذوق وله نظير في العادات فان الصبي يحمل على التعلم في الابتداء قهرا فيشق عليه الصبر عن اللعب والصبر مع العلم حتى اذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم انقلب الامر فصار يشق عليه الصبر عن العلم والصبر على اللعب والى هذا يشير ما حكي عن بعض العارفين انه سأل الشبلي عن الصبر أيه أشد فقال الصبر في الله تعالى فقال لا فقال الصبر لله فقال لا فقال الصبر مع الله فقال لا فقال فايش قال الصبر عن الله فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف وقد قيل في معنى قوله تعالى اصبروا وصابروا ورابطوا اصبروا في الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله وقيل الصبر لله غناء والصبر بالله بقاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء وقد قيل في معناه

والصبر عنك فمذموم عواقبه * والصبر في سائر الاشياء محمود

وقيل أيضا

الصبر يجمل في المواطن كلها * الا عليك فانه لا يجمل

هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسراره

(الشطر الثاني) من الكتاب في الشكر وله ثلاثة أركان (الاول) في فضيلة الشكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه (الثاني) في حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعامة (الثالث) في بيان الافضل من الشكر والصبر

﴿ الركن الاول في نفس الشكر ﴾

﴿ بيان فضيلة الشكر ﴾

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر في كتابه مع أنه قال ولذكر الله أكبر فقال تعالى فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون وقال تعالى ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وقال تعالى وسنجزي الشاكرين وقال عز وجل اخبارا عن ابليس اللعين لاقعدن لهم صراطك المستقيم قيل هو طريق الشكر ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق فقال ولا تجد أكثرهم شاكرين وقال تعالى وقليل من عبادي الشكور وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى لئن شكرتم لازيدنكم واستثنى في خمسة أشياء في الاغناء والاجابة والرزق والمغفرة والتوبة فقال تعالى فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء وقال فيكشف ما تدعون اليه ان شاء وقال ويرزق من يشاء بغير حساب وقال ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقال ويتوب الله على من يشاء وهو خلق من أخلاق الربوبية اذ قال تعالى والله شكور حليم وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وقال وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين (وأما الاخبار) فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر وروى عن عطاء انه قال دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت أخبرينا

في ذلك فاقد الحظ من فوائد ظهور النفس بالاستعلاء والعجب فيكون الشيخ لما يجري به الحق سبحانه وتعالى عليه مستمعا كأحد المستمعين (وكان) الشيخ أبو السعود رحمه الله يتكلم مع الاصحاب بما يلقى اليه وكان يقول أنا في هذا الكلام مستمع كأحدكم فاشكل ذلك على بعض الحاضرين وقال اذا كان القائل هو يعلم ما يقول كيف يكون كمستمع لا يعلم حتى يسمع منه فرجع الى منزله فرأى ليلته في المنام كان قائلا يقول له أليس الغواص يغوص في البحر لطلب الدر ويجمع الصدف في مخلاته والدر قد حصل معه ولكن لا يراه الا اذا خرج من البحر ويشاركه في رؤية الدر من هو على الساحل ففهم بالمنام اشارة الشيخ في ذلك فاحسن أدب المريد مع الشيخ

باعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكيت وقالت وأى شأنه لم يكن عجبا أتانى ليلة فدخل معى فى فراشى أو قالت فى لحافى حتى مس جلدى جلده ثم قال يا ابنة أبى بكر ذرينى أتعبد لربى قالت قلت انى أحب قربك لكنى أوثر هواك فأذنت له فقام الى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء ثم قام يصلى فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك يبكى حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة فقلت يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا ولم لا أفعل ذلك وقد أنزل الله تعالى على ان فى خلق السموات والارض الآية وهذا يدل على ان البكاء ينبغى أن لا ينقطع أبدا والى هذا السر يشير ما روى انه مر بعض الانبياء بحجر صغير يخرج منه ماء كثير فتعجب منه فأنطقه الله تعالى فقال منذ سمعت قوله تعالى وقودها الناس والحجارة فأنا أبكى من خوفه فسأله أن يجيره من النار فأجاره ثم رآه بعد مدة على مثل ذلك فقال لم تبكى الآن فقال ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور وقلب العبد كالحجارة أو أشد قسوة ولا تزول قسوته الا بالبكاء فى حال الخوف والشكر جميعا وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال ينادى يوم القيامة ليقم الحمادون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة قيل ومن الحمادون قال الذين يشكرون الله تعالى على كل حال وفى لفظ آخر الذين يشكرون الله على السراء والضراء وقال صلى الله عليه وسلم الحمد رداء الرحمن وأوحى الله تعالى الى أيوب عليه السلام انى رضيت بالشكر مكافأة من أوليائى فى كلام طويل وأوحى الله تعالى اليه أيضا فى صفة الصابرين ان دارهم دار السلام اذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام وعند الشكر أستزيدهم وبالنظر الى أزيدهم ولما نزل فى الكنوز ما نزل قال عمر رضى الله عنه أى المال نتخذ فقال عليه السلام ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلا عن المال وقال ابن مسعود الشكر نصف الايمان

(بيان حد الشكر وحقيقته)

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين وهو أيضا ينتظم من علم وحال وعمل فالعلم هو الاصل فيورث الحال والحال يورث العمل فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم والحال هو الفرح الحاصل بانعامه والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الاحاطة بحقيقة الشكر فان كل ما قيل فى حد الشكر قاصر عن الاحاطة بكمال معانيه (فالاصل الاول) العلم وهو علم بثلاثة أمور بعين النعمة ووجه كونها نعمة فى حقه وبذات المنعم ووجود صفاته التى بها يتم الانعام ويصدر الانعام منه عليه فانه لا بد من نعمة ومنعم ومنعم عليه تصل اليه النعمة من المنعم بقصد وارادة فهذه الامور لا بد من معرفتها هذا فى حق غير الله تعالى فأما فى حق الله تعالى فلا يتم الا بان يعرف ان النعم كلها من الله وهو المنعم والوسائط مسخرون من جهته وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس اذ دخل التقديس والتوحيد فيها بل الرتبة الاولى فى معارف الايمان التقديس ثم اذا عرف ذاتا مقدسة فيعرف انه لا مقدس الا واحد وما عداه غير مقدس وهو التوحيد ثم يعلم ان كل ما فى العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط فالكل نعمة منه فتقع هذه المعرفة فى الرتبة الثالثة اذ ينطوى فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والانفراد بالفعل وعن هذا عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال من قال سبحان الله فله عشر حسنات ومن قال لا اله الا الله فله عشرون حسنة ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة وقال صلى الله عليه وسلم أفضل الذكر لا اله الا الله وأفضل الدعاء الحمد لله وقال ليس شئ من الاذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله ولا تظنن أن هذه الحسنات بازاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها فى القلب فسبحان الله كلمة تدل على التقديس ولا اله الا الله كلمة تدل على التوحيد والحمد لله كلمة تدل على معرفة النعمة من الواحد الحق فالحسنات بازاء هذه المعارف التى هى من أبواب الايمان واليقين واعلم أن تمام هذه المعرفة ينفى الشرك فى الافعال فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشئ فان رأى لوزيره أو وكيله دخلا فى تيسير ذلك وايصاله اليه فهو اشراك به فى النعمة فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه بل منه بوجه ومن غيره بوجه فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون موحدا فى حق الملك نعم لا يغض من توحيده فى حق الملك وكمال شكره أن يرى النعمة الواصلة اليه بتوقيعه الذى كتبه بقلمه وبالكاغد الذى كتبه عليه فانه لا يفرح بالقلم

السكون والجود والجود حتى يبادئه الشيخ بما فيه من الصلاح قولا وفعلا (وقيل أيضا) فى قوله تعالى لا تقدموا بين يدى الله ورسوله لا تطلبوا منزلة وراء منزلته وهذا من محاسن الآداب وأعزها وينبغى للمريد أن لا يحدث نفسه بطلب منزلة فوق منزلة الشيخ بل يحب للشيخ كل منزلة عالية ويتمنى للشيخ عزيز المنح وغرائب المواهب وبهذا يظهر جوهر المريد فى حسن الارادة وهذا يعز فى المريدين فارادته للشيخ تعطيه فوق ما يتمنى لنفسه ويكون قائما بأدب الارادة قال السرى رحمه الله حسن الادب ترجمان العقل وقال أبو عبد الله بن خفيف قال لى رويم يا بنى اجعل عملك ملحا وأدبك دقيقا * وقيل التصوف كله أدب لكل وقت أدب ولكل حال أدب ولكل

والكاغد ولا يشكرهما لانه لا يثبت لهما دخلا من حيث هما موجودان بانفسهما بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك وقد يعلم أن الوكيل الموصل والخازن أيضا مضطران من جهة الملك فى الايصال وانه لو رد الامر اليه ولم يكن من جهة الملك ارهاق وأمر جزم يخاف عاقبته لما سلم اليه شيأ فاذا عرف ذلك كان نظره الى الخازن الموصل كنظره الى القلم والكاغد فلا يورث ذلك شركا فى توحيده من اضافة النعمة الى الملك وكذلك من عرف الله تعالى وعرف أفعاله علم أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره كالقلم مثلا فى يد الكاتب وأن الحيوانات التى لها اختيار مسخرات فى نفس اختيارها فان الله تعالى هو المسلط للدواعى عليها لتفعل شاءت أم أبت كالخازن المضطر الذى لا يجد سبيلا الى مخالفة الملك ولو خلى ونفسه لما أعطاك ذرة مما فى يده فكل من وصل اليك نعمة من الله تعالى على يده فهو مضطر اذ سلط الله عليه الارادة وهيج عليه الدواعى وألقى فى نفسه أن خيره فى الدنيا والآخرة فى أن يعطيك ما أعطاك وأن غرضه المقصود عنده فى الحال والمآل لا يحصل الا به وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد لا يجد سبيلا الى تركه فهو اذا انما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك ولو لم يكن غرضه فى العطاء لما أعطاك ولو لم يعلم أن منفعته فى منفعتك لما نفعك فهو اذا انما يطلب نفع نفسه بنفعك فليس منعما عليك بل اتخذك وسيلة الى نعمة أخرى هو يرجوها وانما الذى أنعم عليك هو الذى سخره لك وألقى فى قلبه من الاعتقادات والارادات ما صار به مضطرا الى الايصال اليك فان عرفت الامور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله وكنت موحدا وقدرت على شكره بل كنت بهذه المعرفة بمجردها شاكرا ولذلك قال موسى عليه السلام فى مناجاته الهى خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك فقال الله عز وجل علم أن كل ذلك منى فكانت معرفته شكرا فاذا لا تشكر الا بان تعرف أن الكل منه فان خالجك ريب فى هذا لم تكن عارفا لا بالنعمة ولا بالمنعم فلا تفرح بالمنعم وحده بل وبغيره فبنقصان معرفتك ينقص حالك فى الفرح وبنقصان فرحك ينقص عملك فهذا بيان هذا الاصل (الاصل الثانى) الحال المستمدة من أصل المعرفة وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع وهو أيضا فى نفسه شكر على تجرده كما أن المعرفة شكر ولكن انما يكون شكرا اذا كان حاويا شرطه وشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالانعام ولعل هذا مما يتعذر عليك فهمه فنضرب لك مثلا فنقول الملك الذى يريد الخروج الى سفر فانعم بفرس على انسان يتصور أن يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه أحدها أن يفرح بالفرس من حيث انه فرس وانه مال ينتفع به ومركوب يوافق غرضه وانه جواد نفيس وهذا فرح من لاحظ له فى الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجده فى صحراء فاخذه لكان فى فرحه مثل ذلك الفرح الوجه الثانى أن يفرح به لا من حيث انه فرس بل من حيث يستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه واهتمامه بجانبه حتى لو وجد هذا الفرس فى صحراء أو أعطاه غير الملك لكان لا يفرح به أصلا لاستغنائه عن الفرس أصلا أو استحقاره له بالاضافة الى مطلوبه من نيل المحل فى قلب الملك الوجه الثالث أن يفرح به ليركبه فيخرج فى خدمة الملك ويتحمل مشقة السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه وربما يرتقى الى درجة الوزارة من حيث انه ليس يقنع بان يكون محله فى قلب الملك أن يعطيه فرسا ويعتنى به هذا القدر من العناية بل هو طالب لان لا ينعم الملك بشئ من ماله على أحد الا بواسطته ثم أنه ليس يريد من الوزارة الوزارة أيضا بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب فهذه ثلاث درجات فالاولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلا لان نظر صاحبها مقصور على الفرس ففرحه بالفرس لا بالمعطى وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث انها لذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر والثانية داخلة فى معنى الشكر من حيث انه فرح بالمنعم ولكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التى تستحثه على الانعام فى المستقبل وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفا من عقابه ورجاء لثوابه وانما الشكر التام فى الفرح الثالث وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث انه يقدر بها على التوصل الى القرب منه تعالى والنزول فى جواره والنظر الى وجهه على الدوام فهذا هو الرتبة العليا وأمارته أن لا يفرح من الدنيا الا بما هو مزرعة للآخرة ويعينه عليها ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصده عن سبيله لانه ليس يريد النعمة لانها لذيذة كما لم

مقام أدب فمن يلزم الادب يبلغ مبلغ الرجال ومن حرم الادب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يرجو القبول ومن تأديب الله تعالى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى كان ثابت بن قيس بن شماس فى أذنه وقر وكان جهورى الصوت فكان اذا كلم انسانا جهر بصوته وربما كان يكلم النبى صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته فانزل الله تعالى الآية تأديبا له ولغيره (أخبرنا) ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال ثنا محمد بن المثنى قال ثنا مؤمل بن اسمعيل قال ثنا نافع بن عمر بن

بر دصاحب الفرس الفرس لانه جواد ومهملج بل من حيث انه يحمله فى صحبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه ولذلك قال الشبلى رحمه الله الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة وقال الخواص رحمه الله شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب وشكر الخاصة على واردات القلوب وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات فى البطن والفرج ومدركات الحواس من الالوان والاصوات وخلا عن لذة القلب فان القلب لا يلتذ فى حال الصحة الا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه وانما يلتذ بغيره اذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس باكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى الاشياء الحلوة ويستحلى الاشياء المرة كما قيل

ومن يك ذا فم مر مريض * يجد مرا به الماء الزلالا

فاذا هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى فان لم تكن ابل فمعزى فان لم يكن هذا فالدرجة الثانية أما الاولى فخارجة عن كل حساب فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه وبين من يريد نعم الله ليصل بها اليه ﴿الاصل الثالث﴾ العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح أما بالقلب فقصد الخير واضماره لكافة الخلق وأما باللسان فاظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه وأما بالجوارح فاستعمال نعم الله تعالى فى طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصيته حتى ان شكر العينين ان تستر كل عيب تراه لمسلم وشكر الاذنين أن تستر كل عيب تسمعه فيه فيدخل هذا فى جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الاعضاء والشكر باللسان لاظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به فقد قال صلى الله عليه وسلم لرجل كيف أصبحت قال بخير فاعاد صلى الله عليه وسلم السؤال حتى قال فى الثالثة بخير أحمد الله وأشكره فقال صلى الله عليه وسلم هذا الذى أردت منك وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر مطيعا والمستنطق له به مطيعا وما كان قصدهم الرياء باظهار الشوق وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك وبيده كل شئ الى عبد مملوك لا يقدر على شئ فالاحرى بالعبد ان لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف الى الشكوى ان تكون شكواه الى الله تعالى فهو المبلى والقادر على ازالة البلاء وذل العبد لمولاه عز والشكوى الى غيره ذل واظهار الذل للعبد مع كونه عبدا مثله ذل قبيح قال الله تعالى ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له وقال تعالى ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فالشكر باللسان من جملة الشكر وقد روى أن وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقام شاب ليتكلم فقال عمر الكبر الكبر فقال يا أمير المؤمنين لو كان الامر بالسن لكان فى المسلمين من هو أسن منك فقال تكلم فقال لسنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة أما الرغبة فقد أوصلها الينا فضلك وأما الرهبة فقد آمننا منها عدلك وانما نحن وفد الشكر جئناك نشكرك باللسان وننصرف فهذه هى أصول معانى الشكر المحيطة بمجموع حقيقته فاما قول من قال ان الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع فهو نظر الى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب وقول من قال ان الشكر هو الثناء على المحسن بذكر احسانه نظر الى مجرد عمل اللسان وقول القائل ان الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بادامة حفظ الحرمة جامع لاكثر معانى الشكر لا يشذ منه الا عمل اللسان وقول حمدون القصار شكر النعمة أن ترى نفسك فى الشكر طفيليا اشارة الى أن معنى المعرفة من معانى الشكر فقط وقول الجنيد الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة اشارة الى حالة من أحوال القلب على الخصوص وهؤلاء أقوالهم تعرب عن أحوالهم فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق ثم قد يختلف جواب كل واحد فى حالتين لانهم لا يتكلمون الا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم اشتغالا بما يهمهم عما لا يهمهم أو يتكلمون بما يرونه لائقا بحال السائل اقتصارا على ذكر القدر الذى يحتاج اليه واعراضا عما لا يحتاج اليه فلا ينبغى أن تظن أن ما ذكرناه طعن عليهم وانه لو عرض عليهم جميع المعانى التى شرحناها كانوا ينكرونها بل لا يظن ذلك بعاقل أصلا الا ان تعرض منازعة من حيث اللفظ فى ان اسم الشكر فى وضع اللسان هل يشمل جميع المعانى أم يتناول بعضها مقصودا وبقية المعانى تكون من توابعه

جميل الجمحى قال حدثنى ابن أبى مليكة قال حدثنى عبد الله بن الزبير أن الاقرع بن حابس قدم على النبى صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر استعمله على قومه فقال عمر لا تستعمله يا رسول الله فتكلما عند النبى صلى الله عليه وسلم حتى علت أصواتهما فقال أبو بكر لعمر ما أردت الا خلافى وقال عمر ما أردت خلافك فانزل الله تعالى الآية فكان عمر بعد ذلك اذا تكلم عند النبى صلى الله عليه وسلم لا يسمع كلامه حتى يستفهم وقيل لما نزلت الآية آلى أبو بكر أن لا يتكلم عند النبى الا كأخى السرار فهكذا ينبغى أن يكون المريد مع الشيخ لا ينبسط برفع الصوت وكثرة الضحك وكثرة الكلام الا اذا بسطه الشيخ فرفع الصوت يحبط جلباب الوقار والوقار اذا سكن القلب عقل اللسان ما يقول وقد نزل

ولوازمه ولسنا نقصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة في شيء والله الموفق برحمته

(بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى)

لعلك يخطر ببالك أن الشكر إنما يعقل في حق منعم هو صاحب حظ في الشكر فإنا نشكر الملوك إما بالثناء ليزيد محلهم في القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم وجاههم أو بالخدمة التي هي إعانة لهم على بعض أغراضهم أو بالمثول بين أيديهم في صورة الخدم وذلك تكثير لسوادهم وسبب لزيادة جاههم فلا يكونون شاكرين لهم إلا بشيء من ذلك وهذا محال في حق الله تعالى من وجهين أحدهما أن الله تعالى منزه عن الحظوظ والأغراض مقدس عن الحاجة إلى الخدمة والإعانة وعن نشر الجاه والحشمة بالثناء والإطراء وعن تكثير سواد الخدم بالمثول بين يديه ركعا وسجدا فشكرنا إياه بما لا حظ له فيه يضاهي شكرنا الملك المنعم علينا بأن ننام في بيوتنا أو نسجد أو نركع إذ لا حظ للملك فيه وهو غائب لا علم له ولا حظ لله تعالى في أفعالنا كلها * الوجه الثاني أن كل ما نتعاطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وداعيتنا وسائر الأمور التي هي أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته فكيف نشكر نعمة بنعمة ولو أعطانا الملك مركوبا فأخذنا مركوبا آخر له وركبناه أو أعطانا الملك مركوبا آخر لم يكن الثاني شكرا للأول منا بل كان الثاني يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأول ثم لا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدي إلى أن يكون الشكر محالا في حق الله تعالى من هذين الوجهين ولسنا نشك في الأمرين جميعا والشرع قد ورد به فكيف السبيل إلى الجمع فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام وكذلك لموسى عليه السلام فقال يا رب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك وفي لفظ آخر وشكري لك نعمة أخرى منك توجب علي الشكر لك فأوحى الله تعالى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتني وفي خبر آخر إذا عرفت أن النعم مني رضيت منك بذلك شكرا فإن قلت فقد فهمت السؤال وفهمي قاصر عن إدراك معنى ما أوحي إليهم فإني أعلم استحالة الشكر لله تعالى فأما كون العلم باستحالة الشكر شكرا فلا أفهمه فإن هذا العلم أيضا نعمة منه فكيف صار شكرا وكأن الحاصل يرجع إلى أن من لم يشكر فقد شكر وأن قبول الخلعة الثانية من الملك شكر للخلعة الأولى والفهم قاصر عن درك السر فيه فإن أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم في نفسه فاعلم أن هذا قرع باب من المعارف وهي أعلى من علوم المعاملة ولكنا نشير منها إلى ملامح فنقول ههنا نظران نظر بعين التوحيد المحض وهذا النظر يعرفك قطعا أنه الشاكر وأنه المشكور وأنه المحب وأنه المحبوب وهذا نظر من عرف أنه ليس في الوجود غيره وأن كل شيء هالك إلا وجهه وأن ذلك صدق في كل حال أزلا وأبدا لأن الغير هو الذي يتصور أن يكون له بنفسه قوام ومثل هذا الغير لا وجود له بل هو محال أن يوجد إذ الموجود المحقق هو القائم بنفسه وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موجود لغيره فإن اعتبر ذاته ولم يلتفت إلى غيره لم يكن له وجود البتة وإنما الموجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذي لو قدر عدم غيره بقي موجودا فإن كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ولا قيوم إلا الواحد ولا يتصور أن يكون غير ذلك فإذا ليس في الوجود غير الحي القيوم وهو الواحد الصمد فإن نظرت من هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدره وإليه مرجعه فهو الشاكر وهو المشكور وهو المحب وهو المحبوب ومن ههنا نظر حبيب بن أبي حبيب حيث قرأ إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب فقال واعجباه أعطى وأثنى إشارة إلى أنه إذا أثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى فهو المثني وهو المثنى عليه ومن ههنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهني حيث قرئ بين يديه يحبهم ويحبونه فقال لعمري يحبهم ودعه يحبهم فبحق يحبهم لأنه إنما يحب نفسه أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب وهذه رتبة عالية لا تفهمها إلا بمثال على حد عقلك فلا يخفى عليك أن المصنف إذا أحب تصنيفه فقد أحب نفسه والصانع إذا أحب صنعته فقد أحب نفسه والوالد إذا أحب ولده من حيث إنه ولده فقد أحب نفسه وكل ما في الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وصنعته فإن أحبه فما أحب إلا نفسه وإذا لم يحب إلا نفسه فبحق أحب ما أحب وهذا كله نظر بعين التوحيد وتعبر الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس أي فني عن نفسه وعن غير الله فلم ير إلا الله تعالى فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول كيف فني

ويطول

باطن بعض المريدين من الحرمة والوقار من الشيخ ما لا يستطيع المريد أن يشبع النظر إلى الشيخ وقد كنت أحم قبل دخول عمي وشيخي أبو النجيب السهروردي رحمه الله فيترشح جسدي عرقا وكنت أتقي العرق لخفة الحمى فكنت أجد ذلك عند دخول الشيخ علي ويكون في قدومه بركة وشفاء وكنت ذات يوم في البيت خاليا وهناك منديل وهبه لي الشيخ وكان يتعمم به فوقع قدمي على المنديل اتفاقا فتألم باطني من ذلك وهالني الوطء بالقدم على منديل الشيخ وانبعث من باطني من الاحترام ما أرجو بركته (قال ابن عطاء) في قوله تعالى لا ترفعوا أصواتكم زجر عن الأدنى لئلا يتخطى أحد إلى ما فوقه من ترك الحرمة وقال سهل في ذلك لا تخاطبوه إلا مستفهمين (وقال) أبو بكر بن طاهر

وطول ظله أربعة أذرع ولعله دأ كل فى كل يوم ارطالا من الخبز فيضحك عليهم الجهال لجهلهم بمعانى كلامهم وضرورة قول العارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين واليه الاشارة بقوله تعالى ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فاكهين واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين ثم بين ان ضحك العارفين عليهم غدا أعظم اذ قال تعالى فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الارائك ينظرون وكذلك أمة نوح عليه السلام كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة فقال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فهذا أحد النظرين * النظر الثانى نظر من لم يبلغ الى مقام الفناء عن نفسه وهؤلاء قسمان قسم لم يثبتوا الا وجود أنفسهم وأنكروا أن يكون لهم رب يعبد وهؤلاء هم العميان المنكوسون وعماهم فى كلتا العينين لانهم نفوا ما هو الثابت تحقيقا وهو القيوم الذى هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم فقائم به ولم يقتصروا على هذا حتى أثبتوا أنفسهم ولو عرفوا لعلموا أنهم من حيث هم هم لا ثبات لهم ولا وجود لهم وانما وجودهم من حيث أوجدوا لا من حيث وجدوا وفرق بين الموجود وبين الموجد وليس فى الوجود الا موجود واحد وموجد فالموجود حق والموجد باطل من حيث هو هو والموجود قائم وقيوم والموجد هالك وفان واذا كان كل من عليها فان فلا يبقى الا وجه ربك ذو الجلال والاكرام * الفريق الثانى ليس بهم عمى ولكن بهم عور لانهم يبصرون باحدى العينين وجود الموجود الحق فلا ينكرونه والعين الاخرى ان تم عماها لم يبصر بها فناء غير الموجود الحق فاثبت موجودا آخر مع الله تعالى وهذا مشرك تحقيقا كما ان الذى قبله جاحد تحقيقا فان جاوز حد العمى الى العمش أدرك تفاوتا بين الموجودين فاثبت عبدا وربا فبهذا القدر من اثبات التفاوت والبعض من الموجود الآخر دخل فى حد التوحيد ثم ان كحل بصره بما يزيد فى أنواره فيقل عمشه وبقدر ما يزيد فى بصره يظهر له نقصان ما أثبته سوى الله تعالى فان بقى فى سلوكه كذلك فلا يزال يفضى به النقصان الى المحو فينمحى عن رؤية ما سوى الله فلا يرى الا الله فيكون قد بلغ كمال التوحيد وحيث أدرك نقصان وجود ما سوى الله تعالى دخل فى أوائل التوحيد وبينهما درجات لا تحصى فبهذا تتفاوت درجات الموحدين وكتب الله المنزلة على ألسنة رسله هى الكحل الذى به يحصل أنوار الابصار والانبياء هم الكحالون وقد جاؤا داعين الى التوحيد المحض وترجمته قول لا اله الا الله ومعناه أن لا يرى الا الواحد الحق والواصلون الى كمال التوحيد هم الاقلون والجاحدون والمشركون أيضا قليلون وهم على الطرف الاقصى المقابل لطرف التوحيد اذ عبدة الاوثان قالوا ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى فكانوا داخلين فى أوائل أبواب التوحيد دخولا ضعيفا والمتوسطون هم الاكثرون وفيهم من تنفتح بصيرته فى بعض الاحوال فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زمانا ولكن لا يدوم والدوام فيه عزيز

لكل الى شأو العلا حركات * ولكن عزيز فى الرجال ثبات

ولما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب القرب فقيل له واسجد واقترب قال فى سجوده أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك فقوله صلى الله عليه وسلم أعوذ بعفوك من عقابك كلام عن مشاهدة فعل الله فقط فكأنه لم ير الا الله وأفعاله فاستعاذ بفعله من فعله ثم اقترب ففنى عن مشاهدة الافعال وترقى الى مصادر الافعال وهى الصفات فقال أعوذ برضاك من سخطك وهما صفتان ثم رأى ذلك نقصانا فى التوحيد فاقترب ورقى من مقام مشاهدة الصفات الى مشاهدة الذات فقال وأعوذ بك منك وهذا فرار منه اليه من غير رؤية فعل وصفة ولكنه رأى نفسه فارا منه اليه ومستعيذا ومثنيا ففنى عن مشاهدة نفسه اذ رأى ذلك نقصانا واقترب فقال لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك فقوله صلى الله عليه وسلم لا أحصى خبر عن فناء نفسه وخروج عن مشاهدتها وقوله أنت كما أثنيت على نفسك بيان انه المثنى والمثنى عليه وان الكل منه بدا واليه يعود وأن كل شئ هالك الا وجهه فكان أول مقاماته نهاية مقامات الموحدين وهو أن لا يرى الا الله تعالى وأفعاله فيستعيذ بفعل من فعل فانظر الى ماذا انتهت نهايته اذ انتهى الى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق ولقد كان صلى الله عليه وسلم لا يرقى من رتبة الى

لا تبدؤه بالخطاب ولا تجيبوه الا على حدود الحرمة ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أى لا تغلظوا له فى الخطاب ولا تنادوه باسمه يا محمد يا أحمد كما ينادى بعضكم بعضا ولكن فخموه واحترموه وقولوا له يا نبى الله يا رسول الله ومن هذا القبيل يكون خطاب المريد مع الشيخ واذا سكن الوقار القلب علم اللسان كيفية الخطاب ولما كلفت النفوس بصحبة الاولاد والازواج وتمكنت أهوية النفوس والطباع استخرجت من اللسان عبارات غريبة وهى تحت وقتها صاغها كلف النفس وهواها فاذا امتلأ القلب حرمة ووقارا يعلم اللسان العبارة (وروى) لما نزلت هذه الآية قعد ثابت بن قيس فى الطريق يبكى فمر به عاصم بن عدى فقال ما يبكيك يا ثابت قال هذه الآية أتخوف ان تكون نزلت فى أن

أخرى الاو يرى الاولى بعدا بالاضافة الى الثانية فكان يستغفر الله من الاولى ويرى ذلك نقصانا في سلوكه وتقصيرا في مقامه واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم انه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة فكان ذلك لترقيه الى سبعين مقاما بعضها فوق البعض أولها وان كان مجاوزا أقصى غايات الخلق ولكن كان نقصانا بالاضافة الى آخرها فكان استغفاره لذلك ولما قالت عائشة رضي الله عنها أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء في السجود وما هذا الجهد الشديد قال أفلا أكون عبدا شكورا ومعناه أفلا أكون طالبا للمزيد في المقامات فان الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى لئن شكرتم لأزيدنكم واذا تغلغلنا في بحار المكاشفة فلنقبض العنان ولنرجع الى ما يليق بعلوم المعاملة فنقول الانبياء عليهم السلام بعثوا لدعوة الخلق الى كمال التوحيد الذي وصفناه ولكن بينهم وبين الوصول اليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة وانما الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر فيظهر في ذلك المقام بالاضافة الى تلك المشاهدة الشكر والشاكر والمشكور ولا يعرف ذلك الا بمثال فأقول يمكنك أن تفهم ان ملكا من الملوك أرسل الى عبد قد بعد منه مركوبا وملبوسا ونقدا لاجل زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك ثم يكون له حالتان احداهما أن يكون قصده من وصول العبد الى حضرته أن يقوم ببعض مهماته ويكون له عناية في خدمته والثانية أن لا يكون للملك حظ في العبد ولا حاجة به اليه بل حضوره ولا يزيد في ملكه لانه لا يقوى على القيام بخدمة تغني فيه غناء وغيبته لا تنقص من ملكه فيكون قصده من الانعام عليه بالمركوب والزاد أن يحظى العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته لينتفع هو في نفسه لا لينتفع الملك به فتنزل العباد من الله تعالى في المنزلة الثانية لا في المنزلة الاولى فان الاولى محال على الله تعالى والثانية غير محال ثم اعلم ان العبد لا يكون شاكرا في الحالة الاولى بمجرد الركوب والوصول الى حضرته ما لم يقم بخدمته التي أرادها الملك منه وأما في الحالة الثانية فلا يحتاج الى الخدمة أصلا ومع ذلك يتصور أن يكون شاكرا أو كافرا ويكون شكره بأن يستعمل ما أنفذه اليه مولاه فيما أحبه لاجله لا لاجل نفسه وكفره أن لا يستعمل ذلك فيه بأن يعطله أو يستعمله فيما يزيد في بعده منه فمهما لبس العبد الثوب وركب الفرس ولم ينفق الزاد الا في الطريق فقد شكر مولاه اذا استعمل نعمته في محبته أي فيما أحبه لعبده لا لنفسه وان ركبه واستدبر حضرته وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته أي استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لا لنفسه وان جلس ولم يركب لا في طلب القرب ولا في طلب البعد فقد كفر أيضا نعمته اذ أهملها وعطلها وان كان هذا دون ما لو بعد منه فكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم في ابتداء فطرتهم يحتاجون الى استعمال الشهوات لتكمل بها أبدانهم فيبعدون بها عن حضرته وانما سعادتهم في القرب منه فأعد لهم من النعم ما يقدرون على استعماله في نيل درجة القرب وعن بعدهم وقربهم عبر الله تعالى اذ قال لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا الآية فاذا نعم الله تعالى آلات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين خلقها الله تعالى لاجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب والله تعالى غني عنه قرب أم بعد والعبد فيها بين أن يستعملها في الطاعة فيكون قد شكر لموافقة محبة مولاه وبين أن يستعملها في معصيته فقد كفر لاقتحامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له فان الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية وان عطلها ولم يستعملها في طاعة ولا معصية فهو أيضا كفران للنعمة بالتضييع وكل ما خلق في الدنيا انما خلق آلة للعبد ليتوصل به الى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله في الاسباب التي استعملها في الطاعة وكل كسلان ترك الاستعمال أو عاص استعملها في طريق البعد فهو كافر جار في غير محبة الله تعالى فالمعصية والطاعة تشملهما المشيئة ولكن لا تشملهما المحبة والكراهة بل رب مراد محبوب ورب مراد مكروه ووراء بيان هذه الدقيقة سر القدر الذي منع من افشائه وقد انحل بهذا الاشكال الاول وهو انه اذا لم يكن للمشكور حظ فكيف يكون الشكر وبهذا أيضا ينحل الثاني فانا لم نعن بالشكر الا انصراف نعمة الله في جهة محبة الله فاذا انصرفت النعمة في جهة المحبة بفعل الله فقد حصل المراد وفعلك عطاء من الله تعالى ومن حيث أنت محله فقد أثني عليك وثناؤه نعمة أخرى منه اليك فهو الذي

أعطى

تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون وأنا رفيع الصوت على النبي صلى الله عليه وسلم أخاف أن يحبط عملي وأكون من أهل النار فمضى عاصم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلب ثابتا البكاء فأتى امرأته جميلة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول فقال لها اذا دخلت بيت فرسي فسدي على الضبة بمسمار فضربته بمسمار حتى اذا خرجت عطفته وقال لا أخرج حتى يتوفاني الله أو يرضى عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أتى عاصم النبي وأخبره بخبره فقال اذهب فادعه فجاء عاصم الى المكان الذي رآه فيه فلم يجده فجاء الى أهله فوجده في بيت الفرس فقال له ان رسول الله يدعوك فقال اكسر الضبة فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

أعطى وهو الذى أثنى وصار أحد فعليه سببا لانصراف فعله الثانى الى جهة محبته فله الشكر على كل حال وأنت موصوف بانك شاكر بمعنى انك محل المعنى الذى الشكر عبارة عنه لا بمعنى انك موجد له كما انك موصوف بانك عارف وعالم لا بمعنى أنك خالق للعلم وموجده ولكن بمعنى انك محل له وقد وجد بالقدرة الازلية فيك فوصفك بانك شاكر اثبات شيئية لك وأنت شئ اذ جعلك خالق الاشياء شيأ وانما أنت لاشئ اذ كنت أنت ظانا لنفسك شيأ من ذاتك فاما باعتبار النظر الى الذى جعل الاشياء أشياء فانت شئ اذ جعلك شيأ فان قطع النظر عن جعله كنت لاشئ تحقيقا والى هذا أشار صلى الله عليه وسلم حيث قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له لما قيل له يا رسول الله ففيم العمل اذا كانت الاشياء قد فرغ منها من قبل فتبين ان الخلق مجارى قدرة الله تعالى ومحل أفعاله وان كانوا هم أيضا من أفعاله ولكن بعض أفعاله محل للبعض وقوله اعملوا وان كان جاريا على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم فهو فعل من أفعاله وهو سبب لعلم الخلق أن العمل نافع وعلمهم فعل من أفعال الله تعالى والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة الى الحركة والطاعة وانبعاث الداعية أيضا من أفعال الله تعالى وهو سبب لحركة الاعضاء وهى أيضا من أفعال الله تعالى ولكن بعض أفعاله سبب للبعض أى الاول شرط للثانى كما كان خلق الجسم سببا لخلق العرض اذ لا يخلق العرض قبله وخلق الحياة شرط لخلق العلم وخلق العلم شرط لخلق الارادة والكل من أفعال الله تعالى وبعضها سبب للبعض أى هو شرط ومعنى كونه شرطا انه لا يستعد لقبول فعل الحياة الا جوهر ولا يستعد لقبول العلم الا ذو حياة ولا لقبول الارادة الا ذو علم فيكون بعض أفعاله سببا للبعض بهذا المعنى لا بمعنى ان بعض أفعاله موجد لغيره بل يمهد شرط الحصول لغيره وهذا اذا حقق ارتقى الى درجة التوحيد الذى ذكرناه فان قلت فلم قال الله تعالى اعملوا والا فانتم معاقبون مذمومون على العصيان وما الينا شئ فكيف نذم وانما الكل الى الله تعالى فاعلم أن هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقاد فينا والاعتقاد سبب لهيجان الخوف وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافى عن دار الغرور وذلك سبب للوصول الى جوار الله والله تعالى مسبب الاسباب ومرتبها فمن سبق له فى الازل السعادة يسر له هذه الاسباب حتى يقوده بسلسلتها الى الجنة ويعبر عن مثله بان كلا ميسر لما خلق له ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن سماع كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام العلماء فاذا لم يسمع لم يعلم واذا لم يعلم لم يخف واذا لم يخف لم يترك الركون الى الدنيا واذا لم يترك الركون الى الدنيا بقى فى حزب الشيطان وان جهنم لموعدهم أجمعين فاذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل فما من أحد الا وهو مقود الى الجنة بسلاسل الاسباب وهو تسليط العلم والخوف عليه وما من مخذول الا وهو مقود الى النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة والامن والغرور عليه فالمتقون يساقون الى الجنة قهرا والمجرمون يقادون الى النار قهرا ولا قاهر الا الله الواحد القهار ولا قادر الا الملك الجبار واذا انكشف الغطاء عن أعين الغافلين فشاهدوا الامر كذلك سمعوا عند ذلك نداء المنادى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم لا ذلك اليوم على الخصوص ولكن الغافلين لا يسمعون هذا النداء الا ذلك اليوم فهو نبأ عما يتجدد للغافلين من كشف الاحوال حيث لا ينفعهم الكشف فنعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى فانه أصل أسباب الهلاك

﴿ بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه ﴾

اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم الا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه اذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى فى محابه ومعنى الكفر نقيض ذلك اما بترك الاستعمال أو باستعمالها فى مكارهه ولتمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه مدركان أحدهما السمع ومستنده الآيات والاخبار الثانى بصيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار وهذا الاخير عسير وهو لاجل ذلك عزيز فلذلك أرسل الله تعالى الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق ومعرفة ذلك تنبنى على معرفة جميع أحكام الشرع فى أفعال العباد فمن لا يطلع على أحكام الشرع فى جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلا وأما الثانى وهو النظر بعين الاعتبار فهو ادراك حكمة الله تعالى فى كل موجود خلقه اذ ما خلق شيأ فى العالم الا وفيه حكمة وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب وتلك الحكمة منقسمة الى جلية وخفية أما الجلية فكالعلم بان الحكمة فى خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار فيكون النهار معاشا

ما يبكيك يا ثابت فقال أنا صيت وأخاف ان تكون هذه الآية نزلت فى فقال له رسول الله أما ترضى أن تعيش سعيدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة فقال قد رضيت ببشرى الله تعالى ورسوله ولا أرفع صوتى أبدا على رسول الله فانزل الله تعالى ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله قال أنس كنا ننظر الى رجل من أهل الجنة يمشى بين أيدينا فلما كان يوم اليمامة فى حرب مسيلمة رأى ثابت من المسلمين بعض الانكسار وانهزمت طائفة منهم فقال أف لهؤلاء وما يصنعون ثم قال ثابت لسالم بن حذيفة ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا ثم ثبتا ولم يزالا يقاتلان حتى قتل واستشهد ثابت كما وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه درع فرآه رجل من

والليل لباساً فتيسر الحركة عند الابصار والسكون عند الاستتار فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم فيها بل
فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الامطار وذلك لانشقاق الارض بأنواع
النبات مطعماً للخلق ومرعى للانعام وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجلية التي تحملها أفهام الخلق
دون الدقيق الذي يقصرون عن فهمه اذ قال تعالى انا صببنا الماء صباً ثم شققنا الارض شقاً فانبتنا فيها حباً وعنباً
الآية وأما الحكمة في سائر الكواكب السيارة منها والثوابت فخفية لا يطلع عليها كافة الخلق والقدر الذي
يحتمله فهم الخلق انها زينة للسماء لتستلذ العين بالنظر اليها وأشار اليه قوله تعالى انا زينا السماء الدنيا بزينة
الكواكب فجميع أجزاء العالم سماؤه وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء
حيواناته لا تخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة من حكمة واحدة الى عشرة الى ألف الى عشرة آلاف وكذا أعضاء
الحيوان تنقسم الى ما يعرف حكمتها كالعلم بان العين للابصار لا للبطش واليد للبطش لا للمشي والرجل للمشي
لا للشم فاما الاعضاء الباطنة من الامعاء والمرارة والكبد والكلية وآحاد العروق والاعصاب والعضلات وما فيها من
التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظ وسائر الصفات فلا يعرف الحكمة فيها سائر الناس
والذين يعرفونها لا يعرفون منها الا قدراً يسيراً بالاضافة الى ما في علم الله تعالى وما أوتيتم من العلم الا قليلاً فاذا كل
من استعمل شيأ في جهة غير الجهة التي خلق لها ولا على الوجه الذي أريد به فقد كفر فيه نعمة الله تعالى فمن ضرب
غيره بيده فقد كفر نعمة اليد اذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لا ليهلك بها غيره ومن
نظر الى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس اذ الابصار يتم بهما وانما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه
في دينه ودنياه ويتقي بهما ما يضره فيهما فقد استعملهما في غير ما أريدتا به وهذا لان المراد من خلق الخلق وخلق
الدنيا وأسبابها أن يستعين الخلق بها على الوصول الى الله تعالى ولا وصول اليه الا بمحبته والانس به في الدنيا
والتجافي عن غرور الدنيا ولا أنس الا بدوام الذكر ولا محبة الا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ولا يمكن الدوام على
الذكر والفكر الا بدوام البدن ولا يبقى البدن الا بالغذاء ولا يتم الغذاء الا بالارض والماء والهواء ولا يتم ذلك
الا بخلق السماء والارض وخلق سائر الاعضاء ظاهراً وباطناً فكل ذلك لاجل البدن والبدن مطية النفس
والراجع الى الله تعالى هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة فلذلك قال تعالى وما خلقت الجن والانس
الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق الآية فكل من استعمل شيأ في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع
الاسباب التي لا بد منها لاقدامه على تلك المعصية ولنذكر مثالاً واحداً للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء
حتى تعتبر بها وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم فنقول من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير وبهما
قوام الدنيا وهما حجران لا منفعة في أعيانهما ولكن يضطر الخلق اليهما من حيث ان كل انسان محتاج الى
أعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وسائر حاجاته وقد يعجز عما يحتاج اليه ويملك ما يستغني عنه كمن يملك الزعفران
مثلاً وهو محتاج الى جمل يركبه ومن يملك الجمل ربما يستغني عنه ويحتاج الى الزعفران فلا بد بينهما من معاوضة
ولا بد في مقدار العوض من تقدير اذ لا يبذل صاحب الجمل جمله بكل مقدار من الزعفران ولا مناسبة بين الزعفران
والجمل حتى يقال يعطى منه مثله في الوزن أو الصورة وكذا من يشتري داراً بثياب أو عبداً بخف أو دقيقاً بحمار
فهذه الاشياء لا تناسب فيها فلا يدري ان الجمل كم يسوي بالزعفران فتتعذر المعاملات جداً فافتقرت هذه
الاعيان المتنافرة المتباعدة الى متوسط بينهما يحكم فيهما بحكم عدل فيعرف من كل واحد رتبته ومنزلته
حتى اذا تقررت المنازل وترتبت الرتب علم بعد ذلك المساوي من غير المساوي فخلق الله تعالى الدنانير والدراهم
حاكمين ومتوسطين بين سائر الاموال حتى تقدر الاموال بهما فيقال هذا الجمل يسوي مائة دينار وهذا القدر
من الزعفران يسوي مائة فهما من حيث انهما مساويان بشيء واحد اذاً متساويان وانما أمكن التعديل
بالنقدين اذ لا غرض في أعيانهما ولو كان في أعيانهما غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب
الغرض ترجيحاً ولم يقتض ذلك في حق من لا غرض له فلا ينتظم الامر فاذاً خلقهما الله تعالى
لتتداولهما الايدي ويكونا حاكمين بين الاموال بالعدل ولحكمة أخرى وهي التوسل بهما الى سائر الاشياء

الصحابة بعد موته في
المنام فقال له اعلم ان
فلاناً رجلاً من المسلمين
نزع درعي فذهب بها
وهو في ناحية من
العسكر وعنده فرس
يستن في طيله وقد وضع
على درعي برمة فأت
خالد بن الوليد فأخبره
حتى يسترد درعي وأت
أبا بكر خليفة رسول
الله عليه السلام فقل له
ان علي ديناً حتى يقضي
عني وفلان من عبيدي
عتيق فأخبر الرجل
خالداً فوجد الدرع
والفرس على ما وصفه
فاسترد الدرع وأخبر
خالد أبا بكر بتلك الرؤيا
فأجاز أبو بكر وصيته قال
مالك بن أنس رضي الله
عنه لا أعلم وصية
أجيزت بعد موت
صاحبها الا هذه فهذه
كرامة ظهرت لثابت
بحسن تقواه وأدبه مع
رسول الله صلى الله عليه
وسلم فليعتبر المريد
الصادق وليعلم ان الشيخ
عنده تذكرة من الله
ورسوله وان الذي يعتمد

لانهما

لانهما عزيزان فى أنفسهما ولاغرض فى أعيانهما ونسبتهما الى سائر الاموال نسبة واحدة فمن ملكهما فكأنه
ملك كل شئ لا كمن ملك ثوبا فانه لم يملك الا الثوب فلو احتاج الى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام فى الثوب لان
غرضه فى دابة مثلا فاحتيج الى شئ هو فى صورته كأنه ليس بشئ وهو فى معناه كأنه كل الاشياء والشئ انما
تستوى نسبته الى المختلفات اذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها كالمرآة لا لون لها وتحكى كل لون
فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة الى كل غرض وكالحرف لا معنى له فى نفسه وتظهر به المعانى فى غيره فهذه
هى الحكمة الثانية وفيهما أيضا حكم يطول ذكرها فكل من عمل فيهما عملا لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض
المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما فاذا من كنزهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما وكان كمن
حبس حاكم المسلمين فى سجن يمتنع عليه الحكم بسببه لانه اذا كنز فقد ضيع الحكم ولا يحصل الغرض المقصود به
وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة اذ لا غرض للآحاد فى أعيانهما فانهما حجران وانما
خلقا لتتداولهما الايدى فيكونا حاكمين بين الناس وعلامة معرفة المقادير مقومة للمراتب فأخبر الله تعالى الذين
يعجزون عن قراءة الاسطر الالهية المكتوبة على صفحات الموجودات بخط الهى لا حرف فيه ولا صوت الذى
لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة أخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى
وصل اليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الذى عجزوا عن ادراكه فقال تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة
ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير آنية من ذهب أو فضة فقد كفر
النعمة وكان أسوأ حالا ممن كنز لان مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد فى الحياكة والمكس والاعمال التى
يقوم بها أخساء الناس والحبس أهون منه وذلك أن الخزف والحديد والرصاص والنحاس تنوب مناب الذهب
والفضة فى حفظ المائعات عن أن تتبدد وانما الاوانى لحفظ المائعات ولا يكفى الخزف والحديد فى المقصود الذى
أريد به النقود فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الالهية وقيل له من شرب فى آنية من ذهب أو فضة
فكأنما يجرجر فى بطنه نار جهنم وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم لانهما
خلقا لغيرهما لا لنفسهما اذ لا غرض فى عينهما فاذا اتجر فى عينهما فقد اتخذهما مقصودا على خلاف وضع
الحكمة اذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر على أن يشترى به طعاما ودابة اذ
ربما لا يباع الطعام والدابة بالثوب فهو معذور فى بيعه بنقد آخر ليحصل النقد فيتوصل به الى مقصوده فانهما
وسيلتان الى الغير لا غرض فى أعيانهما وموقعهما فى الاموال كموقع الحرف من الكلام كما قال النحويون ان
الحرف هو الذى جاء لمعنى فى غيره وكموقع المرآة من الالوان فاما من معه نقد فلو جاز له أن يبيعه بالنقد فيتخذ
التعامل على النقد غاية عمله فيبقى النقد متقيدا عنده وينزل منزلة المكنوز وتقييد الحاكم والبريد الموصل الى
الغير ظلم كما أن حبسه ظلم فلا معنى لبيع النقد بالنقد الا اتخاذ النقد مقصودا للادخار وهو ظلم (فان قلت) فلم
جاز بيع أحد النقدين بالآخر ولم جاز بيع الدرهم بمثله فاعلم أن أحد النقدين يخالف الآخر فى مقصود
التوسل اذ قد يتيسر التوصل بأحدهما من حيث كثرته كالدراهم تتفرق فى الحاجات قليلا قليلا ففى المنع منه
ما يشوش المقصود الخاص به وهو تيسر التوسل به الى غيره وأما بيع الدرهم بدرهم يماثله فجائز من حيث ان
ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساويا ولا يشتغل به تاجر فانه عبث يجرى مجرى وضع الدرهم على الارض وأخذه
بعينه ونحن لا نخاف على العقلاء أن يصرفوا أوقاتهم الى وضع الدرهم على الارض وأخذه بعينه فلا نمنع مما
لا تتشوق النفوس اليه الا أن يكون أحدهما أجود من الآخر وذلك أيضا لا يتصور جريانه اذ صاحب الجيد
لا يرضى بمثله من الردىء فلا ينتظم العقد وان طلب زيادة فى الردىء فذلك مما قد يقصده فلا جرم نمنعه منه ونحكم
بان جيدها ورديئها سواء لان الجودة والرداءة ينبغى أن ينظر اليهما فيما يقصد فى عينه وما لا غرض فى عينه فلا
ينبغى أن ينظر الى مضافات دقيقة فى صفاته وانما الذى ظلم هو الذى ضرب النقود مختلفة فى الجودة والرداءة حتى
صارت مقصودة فى أعيانها وحقها أن لا تقصد واما اذا باع درهما بدرهم مثله نسيئة فانما لم يجز ذلك لانه لا يقدم
على هذا الا مسامح قاصد للاحسان فى القرض وهو مكرمة مندوحة عنه لتبقى صورة المسامحة فيكون له حمد وأجر

مع الشيخ عوض ما لو كان
فى زمن رسول الله صلى
الله عليه وسلم واعتمده
مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم فلما قام القوم
بواجب الادب أخبر
الحق عن حالهم وأثنى
عليهم فقال أولئك الذين
امتحن الله قلوبهم
للتقوى أى اختبر قلوبهم
وأخلصها كما يمتحن
الذهب بالنار فيخرج
خالصه وكما ان اللسان
ترجمان القلب وتهذيب
اللفظ لتأدب القلب
فهكذا ينبغى أن يكون
المريد مع الشيخ (قال
أبو عثمان) الادب عند
الاكابر وفى مجالسة
السادات من الاولياء
يبلغ بصاحبه الى الدرجات
العلا والخير فى الاولى
والعقبى الا ترى الى قول
الله تعالى ولو أنهم صبروا
حتى تخرج اليهم لكان
خيرا لهم ومما علمهم الله
تعالى قوله سبحانه ان
الذين ينادونك من
وراء الحجرات أكثرهم
لا يعقلون وكان هذا

والمعاوضة لاجد فيها ولا أجر فهو أيضا ظالم لانه اضاعة تخصوص المسامحة واخراجها في معرض المعاوضة وكذلك الاطعمة خلقت ليتغذى بها أو يتداوى بها فلا ينبغي أن تصرف عن جهتها فان فتح باب المعاملة فيها يوجب تقييدها في الايدي ويؤخر عنها الاكل الذي أريدت له فما خلق الله الطعام الا ليؤكل والحاجة الى الاطعمة شديدة فينبغي أن تخرج عن يد المستغنى عنها الى المحتاج ولا يعامل على الاطعمة الا مستغن عنها اذ من معه طعام فلم لا يأكله ان كان محتاجا ولم يجعله بضاعة تجارة وان جعله بضاعة تجارة فليبعه ممن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجا اليه فأما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضا مستغن عنه ولهذا ورد في الشرع لعن المحتكر وورد فيه من التشديدات ما ذكرناه في كتاب آداب الكسب نعم بائع البر بالتمر معذور واذ أحدهما لا يسد مسد الآخر في الغرض وبائع صاع من البر بصاع منه غير معذور ولكنه عابث فلا يحتاج الى منع لان النفوس لا تسمح به الا عند التفاوت في الجودة ومقابلة الجيد بمثله من الردىء لا يرضى بها صاحب الجيد وأما جيد برديئين فقد يقصد ولكن لما كانت الاطعمة من الضروريات والجيد يساوي الرديء في أصل الفائدة ويخالفه في وجوه التنعم أسقط الشرع غرض التنعم فيما هو القوام فهذه حكمة الشرع في تحريم الربا وقد انكشف لنا هذا بعد الاعراض عن فن الفقه فلنلحق هذا بفن الفقهيات فانه أقوى من جميع ما أوردناه في الخلافيات وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعي رحمه الله في التخصيص بالاطعمة دون المكيلات اذ لو دخل الجص فيه لكانت الثياب والدواب أولى بالدخول ولولا الملح لكان مذهب مالك رحمه الله أقوم المذاهب فيه اذ خصصه بالاقوات ولكن كل معنى يرعاه الشرع فلا بد أن يضبط بحد وتحديد هذا كان ممكنا بالقوت وكان ممكنا بالمطعوم فرأى الشرع التحديد بجنس المطعوم أحرى لكل ما هو ضرورة البقاء وتحديدات الشرع قد تحيط بأطراف لا يقوى فيها أصل المعنى الباعث على الحكم ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة ولو لم يحد لتحير الخلق في اتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالاحوال والاشخاص فعين المعنى بكمال قوته يختلف باختلاف الاحوال والاشخاص فيكون الحد ضروريا فلذلك قال تعالى ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ولان أصول هذه المعاني لا تختلف فيها الشرائع وانما تختلف في وجوه التحديد كما يحد شرع عيسى بن مريم عليه السلام تحريم الخمر بالسكر وقد حده شرعنا بكونه من جنس المسكر لان قليله يدعو الى كثيره والداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم الجنس كما دخل أصل المعنى بالجملة الاصلية فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم النقدين فينبغي أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال فكل ما خلق لحكمة فلا ينبغي أن يصرف عنها ولا يعرف هذا الا من قد عرف الحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ولكن لا تصادف جواهر الحكم في قلوب هي مزابل الشهوات وملاعب الشياطين بل لا يتذكر الا أولو الالباب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السماء واذا عرفت هذا المثال فقس عليه حركتك وسكونك ونطقك وسكوتك وكل فعل صادر منك فانه اما شكر واما كفر اذ لا يتصور ان ينفك عنهما وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الذي تنا طق به عوام الناس بالكراهة وبعضه بالحظر وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالحظر فأقول مثلا لو استنجيت باليمنى فقد كفرت نعمة اليدين اذ خلق الله لك اليدين وجعل احداهما أقوى من الاخرى فاستحق الاقوى بمزيد رجحانه في الغالب التشريف والتفضيل وتفضيل الناقص عدول عن العدل والله لا يأمر الا بالعدل ثم أحوجك من أعطاك اليدين الى أعمال بعضها شريف كأخذ المصحف وبعضها خسيس كازالة النجاسة فاذا أخذت المصحف باليسار وأزلت النجاسة باليمين فقد خصصت الشريف بما هو خسيس فغضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل وكذلك اذا بصقت مثلا في جهة القبلة أو استقبلتها في قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله تعالى في خلق الجهات وخلق سعة العالم لانه خلق الجهات لتكون متسعك في حركتك وقسم الجهات الى ما لم يشرفها والى ما شرفها بأن وضع فيها بيتا أضافه الى نفسه استمالة لقلبك اليه ليتقيد به قلبك فيتقيد بسببه بدنك في تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار اذا عبدت ربك وكذلك انقسمت أفعالك الى ما هي شريفة كالطاعات والى ما هي خسيسة كقضاء الحاجة ورمي البصاق فاذا رميت بصاقك الى جهة القبلة فقد ظلمتها وكفرت نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة التي بوضعها كمال

الحال من وقد بني تميم جاؤا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادوا يا محمد اخرج الينا فان مدحنا زين وذمنا شين قال فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج اليهم وهو يقول انما ذلكم الله الذي ذمه شين ومدحه زين في قصة طويلة وكانوا أتوا بشاعرهم وخطيبهم فغلبهم حسان بن ثابت وشبان المهاجرين والانصار بالخطبة وفي هذا أدب للمريد في الدخول على الشيخ والاقدام عليه وتركه الاستعجال وصبره الى أن يخرج الشيخ من موضع خلوته * سمعت ان الشيخ عبد القادر رحمه الله كان اذا جاء اليه فقير زائر يخبر بالفقير فيخرج ويفتح جانب الباب ويصافح الفقير ويسلم عليه ولا يجلس معه ويرجع الى خلوته واذا جاء أحد ممن ليس من زمرة

عبادتك وكذلك اذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت لان الخف وقاية للرجل فللرجل فيه حظ والبداءة في الحظوظ ينبغي أن تكون بالاشرف فهو العدل والوفاء بالحكمة ونقيضه ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل وهذا عند العارفين كبيرة وان سماه الفقيه مكروها حتى ان بعضهم كان قد جمع اكرارا من الحنطة وكان يتصدق بها فسئل عن سببه فقال لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهوا فاريد ان أكفره بالصدقة نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الامر في هذه الامور لانه مسكين بلي باصلاح العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الانعام وهم مغموسون في ظلمات أطم وأعظم من ان تظهر أمثال هذه الظلمات بالاضافة اليها فقبيح أن يقال الذي شرب الخمر وأخذ القدح بيساره فقد تعدى من وجهين أحدهما الشرب والآخر الاخذ باليسار ومن باع خمرا في وقت النداء يوم الجمعة فقبيح أن يقال خان من وجهين أحدهما بيع الخمر والآخر البيع في وقت النداء ومن قضى حاجته في محراب المسجد مستدبر القبلة فقبيح ان يذكر تركه الادب في قضاء الحاجة من حيث انه لم يجعل القبلة عن يمينه فالمعاصي كلها ظلمات وبعضها فوق بعض فينمحق بعضها في جنب البعض فالسيد قد يعاقب عبده اذا استعمل سكينه بغير اذنه ولكن لو قتل بتلك السكين أعز أولاده لم يبق لاستعمال السكين بغير اذنه حكم ونكاية في نفسه فكل ما راعاه الانبياء والاولياء من الآداب وتسامحنا فيه في الفقه مع العوام فسببه هذه الضرورة والا فكل هذه المكاره عدول عن العدل وكفران للنعمة ونقصان عن الدرجة المبلغة للعبد الى درجات القرب نعم بعضها يؤثر في العبد بنقصان القرب وانحطاط المنزلة وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب الى عالم البعد الذي هو مستقر الشياطين وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ومن غير غرض صحيح فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الاشجار وخلق اليد أما اليد فانها لم تخلق للعبث بل للطاعة والاعمال المعينة على الطاعة وأما الشجر فانما خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق اليه الماء وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدل فان كان له غرض صحيح فله ذلك اذ الشجر والحيوان جعلا فداء لاغراض الانسان فانهما جميعا فانيان هالكان فافناء الاخس في بقاء الاشرف مدة ما أقرب الى العدل من تضييعهما جميعا واليه الاشارة بقوله تعالى وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعا منه نعم اذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضا وان كان محتاجا لان كل شجرة بعينها لا تفي بحاجات عباد الله كلهم بل تفي بحاجة واحدة ولو خصص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظلما فصاحب الاختصاص هو الذي حصل البذر ووضعه في الارض وساق اليه الماء وقام بالتعهد فهو أولى به من غيره فيرجح جانبه بذلك فان نبت ذلك في موات الارض لا بسعي آدمي اختص بغرسه أو بغرسه فلابد من طلب اختصاص آخر وهو السبق الى أخذه فللسابق خاصية السبق فالعدل هو أن يكون أولى به وعبر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك وهو مجاز محض اذ لا ملك الا لملك الملوك الذي له ما في السموات والارض وكيف يكون العبد مالكا وهو في نفسه ليس يملك نفسه بل هو ملك غيره نعم الخلق عباد الله والارض مائدة الله وقد أذن لهم في الاكل من مائدته بقدر حاجتهم كالملك ينصب مائدة لعبيده فمن أخذ لقمة بيمينه واحتوت عليها براجمه فجاء عبد آخر وأراد انتزاعها من يده لم يمكن منه لا لان اللقمة صارت ملكا له بالاخذ باليد فان اليد وصاحب اليد أيضا مملوك ولكن اذا كانت كل لقمة بعينها لا تفي بحاجة كل العبيد فالعدل في التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص والاخذ اختصاص ينفرد به العبد فمنع من لا يدلي بذلك الاختصاص عن مزاحمته فهكذا ينبغي ان تفهم أمر الله في عباده ولذلك نقول من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكنزه وأمسكه وفي عباد الله من يحتاج اليه فهو ظالم وهو من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله وانما سبيل الله طاعته وزاد الخلق في طاعته أموال الدنيا اذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم نعم لا يدخل هذا في حد فتاوى الفقه لان مقادير الحاجات خفية والنفوس في استشعار الفقر في الاستقبال مختلفة وأواخر الاعمار غير معلومة فتكليف العوام ذلك يجري مجرى تكليف الصبيان الوقار والتؤدة والسكوت عن كل كلام غير مهم وهو بحكم نقصانهم لا يطيقونه فتركنا الاعتراض عليهم في اللعب واللهو واباحتنا ذلك اياهم لا يدل على

الفقراء يخرج ويجالس معه فخطر لبعض الفقراء نوع انكار لتركه الخروج الى الفقير وخروجه لغير الفقير فانتهى ما خطر للفقير الى الشيخ فقال الفقير رابطتنا معه رابطة قلبية وهو أهل وليس عنده أجنبية فنكتفي معه بموافقة القلوب ونقنع بها عن ملاقاة الظاهر بهذا القدر وأما من هو من غير جنس الفقراء فهو واقف مع العادات والظاهر فمتى لم يوف حقه من الظاهر استوحش فحق المريد عمارة الظاهر والباطن بالادب مع الشيخ (قيل) لابي منصور المغربي كم صحبت أبا عثمان قال خدمته لا صحبته فالصحبة مع الاخوان والاقران ومع المشايخ الخدمة وينبغي للمريد انه كلما أشكل عليه شيء من حال الشيخ يذكر قصة موسى مع الخضر عليهما

أن اللهو واللعب حق فكذلك اباحتنا للعوام حفظ الاموال والاقتصار في الانفاق على قدر الزكاة لضرورة ماجبلوا عليه من البخل ليدل على انه غاية الحق وقد أشار القرآن اليه اذ قال تعالى ان يسئلكموها فيحفكم تبخلوا بل الحق الذي لا كدورة فيه والعدل الذي لا ظلم فيه أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله الا بقدر زاد الراكب فكل عباد الله ركاب لمطايا الابدان الى حضرة الملك الديان فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن راكب آخر محتاج اليه فهو ظالم تارك للعدل وخارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الاسباب التي بها عرف أن ما سوى زاد الراكب وبال عليه في الدنيا والآخرة فمن فهم حكمة الله تعالى في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر واستقصاء ذلك يحتاج الى مجلدات ثم لا تفي الا بالقليل وانما أوردنا هذا القدر ليعلم علة الصدق في قوله تعالى وقليل من عبادي الشكور وفرح ابليس لعنه الله بقوله ولا تجد أكثرهم شاكرين فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله وأمورا أخر وراء ذلك تنقضي الاعمار دون استقصاء مباديها فأما تفسير الآية ومعنى لفظها فيعرفه كل من يعرف اللغة وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير فان قلت فقد رجع حاصل هذا الكلام الى أن لله تعالى حكمة في كل شئ وانه جعل بعض أفعال العباد سببا لتمام تلك الحكمة وبلوغها غاية المراد منها وجعل بعض أفعالهم مانعا من تمام الحكمة فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انساقت الحكمة الى غايتها فهو شكر وكل ما خالف ومنع الاسباب من أن تنساق الى الغاية المرادة بها فهو كفران وهذا كله مفهوم ولكن الاشكال باق وهو أن فعل العبد المنقسم الى ما يتمم الحكمة والى ما يرفعها هو أيضا من فعل الله تعالى فأين العبد في البين حتى يكون شاكرا مرة وكافرا أخرى فاعلم أن تمام التحقيق في هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات وقد رمزنا فيما سبق الى تلويحات بمباديها ونحن الآن نعبر بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها يفهمها من علم منطق الطير ويجحدها من عجز عن الايضاح في السير فضلا عن أن يجول في جو الملكوت جولان الطير فنقول ان لله عز وجل في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها فلم يكن لها في العالم عبارة لعلو شأنها وانحطاط رتبة واضعي اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم الى مبادي اشراقها فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس لا لغموض في نور الشمس ولكن لضعف في أبصار الخفافيش فاضطر الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها الى أن يستعيروا من حضيض عالم المتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادي حقائقها شيأ ضعيفا جدا فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا لله تعالى صفة هي القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع ثم الخلق ينقسم في الوجود الى أقسام وخصوص صفات ومصدر انقسام هذه الاقسام واختصاصها بخصوص صفاتها صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التي سبقت عبارة المشيئة فهي توهم منها أمرا مجملا عند المتناطقين باللغات التي هي حروف وأصوات للمتفاهمين بها وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كقصور لفظ القدرة ثم انقسمت الافعال الصادرة من القدرة الى ما ينساق الى المنتهى الذي هو غاية حكمتها والى ما يقف دون الغاية وكان لكل واحد نسبة الى صفة المشيئة لرجوعها الى الاختصاصات التي بها تتم القسمة والاختلافات فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبة واستعير لنسبة الواقف دون غايته عبارة الكراهة وقيل انهما جميعا داخلان في وصف المشيئة ولكن لكل واحد خاصية أخرى في النسبة يوهم لفظ المحبة والكراهة منهما أمرا مجملا عند طالبي الفهم من الالفاظ واللغات ثم انقسم عباده الذين هم أيضا من خلقه واختراعه الى من سبقت له المشيئة الازلية أن يستعمله لاستيقاف حكمته دون غايتها ويكون ذلك قهرا في حقهم بتسليط الدواعي والبواعث عليهم والى من سبقت لهم في الازل أن يستعملهم لسياقة حكمته الى غايتها في بعض الامور فكان لكل واحد من الفريقين نسبة الى المشيئة خاصة فاستعير لنسبة المستعملين في اتمام الحكمة بهم عبارة الرضا واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب فظهر على من غضب عليه في الازل فعل وقفت الحكمة به دون غايتها فاستعير له الكفران وأردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة في النكال وظهر على

السلام كيف كان الخضر يفعل أشياء ينكرها موسى واذا أخبره الخضر بسرها رجع موسى عن انكاره فما ينكره المريد لقلة علمه بحقيقة ما يوجد من الشيخ فللشيخ في كل شئ عذر بلسان العلم والحكمة (سأل) بعض أصحاب الجنيد مسألة من الجنيد فاجابه الجنيد فعارضه في ذلك فقال الجنيد فان لم تؤمنوا لي فاعتزلون وقال بعض المشايخ من لم يعظم حرمة من تأدب به حرم بركة ذلك الادب وقيل من قال لاستاذه لا لا يفلح أبدا (أخبرنا) شيخنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا أبو الفتح الهروي قال أنا أبو نصر الترياقي قال أنا أبو محمد الجراحي قال أنا أبو العباس المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذي قال حدثنا هناد عن أبي معاوية عن الاعمش عن أبي صالح عن أبي

من ارتضاه فى الازل فعل انساقت بسببه الحكمة الى غايتها فاستعير له عبارة الشكر وأردف بخلعة الثناء والاطراء زيادة فى الرضا والقبول والاقبال فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثنى وأعطى النكال ثم قبح وأردى وكان مثاله ان ينظف الملك عبده الوسخ عن أوساخه ثم يلبسه من محاسن ثيابه فاذا تمم زينته قال يا جميل ما أجملك وأجمل ثيابك وأنظف وجهك فيكون بالحقيقة هو المجمل وهو المثنى على الجمال فهو المثنى عليه بكل حال وكأنه لم يثن من حيث المعنى الاعلى نفسه وانما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة فهكذا كانت الامور فى الازل وهكذا تتسلسل الاسباب والمسببات بتقدير رب الارباب ومسبب الاسباب ولم يكن ذلك عن اتفاق وبحث بل عن ارادة وحكمة وحكم حق وأمر جزم استعير له لفظ القضاء وقيل انه كلمح بالبصر أو هو أقرب ففاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بما سبق به التقدير فاستعير لترتب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء بازاء الامر الواحد الكلى ولفظ القدر بازاء التفصيل المتمادى الى غير نهاية وقيل ان شيأ من ذلك ليس خارجا عن القضاء والقدر فخطر لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل وكان بعضهم لقصوره لا يطيق ملاحظة كنه هذا الامر والاحتواء على مجامعه فالجموا عن الخوض فيه وقيل لهم اسكتوا فما لهذا خلقتم لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وامتلأت مشكاة بعضهم نورا مقتبسا من نور الله تعالى فى السموات والارض وكان زيتهم أولا صافيا يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار فمسته نار فاشتعل نورا على نور فاشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم بنور ربهم فادركوا الامور كلها كما هى عليه فقيل لهم تأدبوا بآداب الله تعالى واسكتوا واذا ذكر القدر فامسكوا فان للحيطان آذانا وحواليكم ضعفاء الابصار فسيروا بسير أضعفكم ولا تكشفوا حجاب الشمس لابصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم فتخلقوا بأخلاق الله تعالى وانزلوا الى سماء الدنيا من منتهى علوكم ليأنس بكم الضعفاء ويقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب فى جنح الليل فيحيا به حياة يحتملها شخصه وحاله وان كان لا يحيا به حياة المترددين فى كمال نور الشمس وكونوا كمن قيل فيهم

شربنا شرابا طيبا عند طيب * كذاك شراب الطيبين يطيب

شربنا وأهرقنا على الارض فضلة * وللارض من كاس الكرام نصيب

فهكذا كان أول هذا الامر وآخره ولا تفهمه الا اذا كنت أهلا له واذا كنت أهلا له فتحت العين وأبصرت فلا تحتاج الى قائد يقودك والاعمى يمكن أن يقاد ولكن الى حد ما فاذا ضاق الطريق وصار أحد من السيف وأرق من الشعر قدر الطائر على أن يطير عليه ولم يقدر على أن يستجر وراءه أعمى واذا دق المجال والطف لطف الماء مثلا ولم يمكن العبور الا بالسباحة فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة أن يعبر بنفسه وربما لم يقدر على أن يستجر وراءه آخر فهذه أمور نسبة السير عليها الى السير على ما هو مجال جماهير الخلق كنسبة المشى على الماء الى المشى على الارض والسباحة يمكن أن تتعلم فاما المشى على الماء فلا يكتسب بالتعليم بل ينال بقوة اليقين ولذلك قيل للنبى صلى الله عليه وسلم ان عيسى عليه السلام يقال انه مشى على الماء فقال صلى الله عليه وسلم لو ازداد يقينا لمشى على الهواء فهذه رموز واشارات الى معنى الكراهة والمحبة والرضا والغضب والشكر والكفران لا يليق بعلم المعاملة أكثر منها وقد ضرب الله تعالى مثلا لذلك تقريبا الى افهام الخلق اذ عرف انه ما خلق الجن والانس الا ليعبدون فكانت عبادتهم غاية الحكمة فى حقهم ثم أخبر أن له عبدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والامين وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين ويبغض الآخر واسمه ابليس وهو اللعين المنظر الى يوم الدين ثم أحال الارشاد الى جبريل فقال تعالى قل نزله روح القدس من ربك بالحق وقال تعالى يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده وأحال الاغواء على ابليس فقال تعالى ليضلهم عن سبيله والاغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة فانظر كيف نسبه الى العبد الذى غضب عليه والارشاد سياقة لهم الى الغاية فانظر كيف نسبه الى العبد الذى أحبه وعندك فى العادة له مثال فالملك اذا كان محتاجا الى من يسقيه الشراب والى من يحجمه وينظف فناء منزله عن القاذورات وكان له عبدان فلا يعين للحجامة والتنظيف الا أقبحهما وأخسهما ولا يفوض حمل

هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتركونى ما تركتكم واذا حدثتكم فخذوا عنى فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم (قال الجنيد) رحمه الله رأيت مع أبى حفص النيسابورى انسانا كثير الصمت لا يتكلم فقلت لاصحابه من هذا فقيل لى هذا انسان يصحب أبا حفص ويخدمنا وقد أنفق عليه مائة ألف درهم كانت له واستدان مائة ألف أخرى أنفقها عليه ما سوغ له أبو حفص أن يتكلم بكلمة واحدة وقال أبو يزيد البسطامى صحبت أبا على السندى فكنت ألقنه ما يقيم به فرضه وكان يعلمنى التوحيد والحقائق صرفا (وقال أبو عثمان) صحبت أبا حفص وأنا غلام حدث فطردنى وقال لا تجلس عندى فلم أجعل مكافأتى له على كلامه ان أولى

الشراب الطيب الا الى أحسنهما وأكملهما وأحبهما اليه ولا ينبغي أن تقول هذا فعلي ولم يكون فعله دون فعلي فانك أخطأت اذ أضفت ذلك الى نفسك بل هو الذي صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه والفعل المحبوب بالشخص المحبوب اتماما للعدل فان عدله تارة يتم بأمور لا مدخل لك فيها وتارة يتم فيك فانك أيضا من أفعاله فداعيتك وقدرتك وعلمك وعملك وسائر أسباب حركاتك في التعيين هو فعله الذي رتبه بالعدل ترتيبا تصدر منه الافعال المعتدلة الا أنك لا ترى الا نفسك فتظن أن ما يظهر عليك في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت فلذلك تضيفه الى نفسك وانما أنت مثل الصبي الذي ينظر ليلا الى لعب المشعبذ الذي يخرج صورا من وراء حجاب ترقص وتزعق وتقوم وتقعد وهي مؤلفة من خرق لا تتحرك بأنفسها وانما تحركها خيوط شعرية دقيقة لا تظهر في ظلام الليل ورؤسها في يد المشعبذ وهو محتجب عن أبصار الصبيان فيفرحون ويتعجبون لظنهم أن تلك الخرق ترقص وتلعب وتقوم وتقعد وأما العقلاء فانهم يعلمون أن ذلك تحريك وليس بتحرك ولكنهم ربما لا يعلمون كيف تفصيله والذي يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه المشعبذ الذي الامر اليه والجاذبة بيده فكذلك صبيان أهل الدنيا والخلق كلهم صبيان بالنسبة الى العلماء ينظرون الى هذه الاشخاص فيظنون انها المتحركة فيحيلون عليها والعلماء يعلمون انهم محركون الا انهم لا يعرفون كيفية التحريك وهم الاكثرون الا العارفون والعلماء الراسخون فانهم أدركوا بحدة أبصارهم خيوطا دقيقة عنكبوتية بل أدق منها بكثير معلقة من السماء متشبثة الاطراف بأشخاص أهل الارض لا تدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الابصار الظاهرة ثم شاهدوا رؤس تلك الخيوط في مناطات لها هي معلقة بها وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هي في أيدي الملائكة المحركين للسموات وشاهدوا أيضا ملائكة السموات مصروفة الى حملة العرش ينتظرون منهم ما ينزل عليهم من الامر من حضرة الربوبية كي لا يعصوا الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وعبر عن هذه المشاهدات في القرآن فقيل وفي السماء رزقكم وما توعدون وعبر عن انتظار ملائكة السموات لما ينزل اليهم من القدر والامر فقيل خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا أن الله على كل شئ قدير وأن الله قد أحاط بكل شئ علما وهذه أمور لا يعلم تأويلها الا الله والراسخون في العلم وعبر ابن عباس رضي الله عنهما عن اختصاص الراسخين في العلم بعلوم لا تحتملها أفهام الخلق حيث قرأ قوله تعالى يتنزل الامر بينهن فقال لو ذكرت ما أعرفه من معنى هذه الآية لرجمتموني وفي لفظ آخر لقلتم انه كافر ولنقتصر على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم المعاملة ما ليس منه فلنرجع الى مقاصد الشكر فنقول اذا رجع حقيقة الشكر الى كون العبد مستعملا في اتمام حكمة الله تعالى فأشكر العباد أحبهم الى الله وأقربهم اليه وأقربهم الى الله الملائكة ولهم أيضا ترتيب وما منهم الا وله مقام معلوم وأعلاهم في رتبة القرب ملك اسمه اسرافيل عليه السلام وانما علو درجتهم لانهم في أنفسهم كرام بررة وقد أصلح الله تعالى بهم الانبياء عليهم السلام وهم أشرف مخلوق على وجه الارض ويلي درجتهم درجة الانبياء فانهم في أنفسهم أخيار وقد هدى الله بهم سائر الخلق وتمم بهم حكمته وأعلاهم رتبة نبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم اذ أكمل الله به الدين وختم به النبيين ويليهم العلماء الذين هم ورثة الانبياء فانهم في أنفسهم صالحون وقد أصلح الله بهم سائر الخلق ودرجة كل واحد منهم بقدر ما أصلح من نفسه ومن غيره ثم يليهم السلاطين بالعدل لانهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم ولاجل اجتماع الدين والملك والسلطنة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان أفضل من سائر الانبياء فانه أكمل الله به صلاح دينهم ودنياهم ولم يكن السيف والملك لغيره من الانبياء ثم يلي العلماء والسلاطين الصالحون الذين أصلحوا دينهم ونفوسهم فقط فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم ومن عدا هؤلاء فهمج رعاع * واعلم أن السلطان به قوام الدين فلا ينبغي أن يستحقر وان كان ظالما فاسقا قال عمرو ابن العاص رحمه الله امام غشوم خير من فتنة تدوم وقال النبي صلى الله عليه وسلم سيكون عليكم امراء تعرفون منهم وتنكرون ويفسدون وما يصلح الله بهم أكثر فان أحسنوا فلهم الاجر وعليكم الشكر وان أساؤا فعليهم الوزر وعليكم الصبر * وقال سهل من أنكر امامة السلطان فهو زنديق ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل وسئل أي الناس خير فقال السلطان فقيل كنا نرى ان شر الناس السلطان

ظهري اليه فانصرفت أمشي الى خلف ووجهي مقابل له حتى غبت عنه واعتقدت ان أحفر لنفسي بئرا على بابه وأنزل وأقعد فيه ولا أخرج منه الا باذنه فلما رأى ذلك مني قربني وقبلني وصيرني من خواص أصحابه الى ان مات رحمه الله ومن آدابهم الظاهرة ان المريد لا يبسط سجادته مع وجود الشيخ الا لوقت الصلاة فان المريد من شأنه التبتل للخدمة وفي السجادة ايماء الى الاستراحة والتعزز ولا يتحرك في السماع مع وجود الشيخ الا ان يخرج عن حد التمييز وهيبة الشيخ تملك المريد عن الاسترسال في السماع وتقيده واستغراقه في الشيخ بالنظر اليه ومطالعة موارد فضل الحق عليه أنجع له من الاصغاء الى السماع ومن الادب أن لا يكتم

فقال مهلا ان الله تعالى كل يوم نظرتين نظرة الى سلامة أموال المسلمين ونظرة الى سلامة أبدانهم فيطلع فى صحيفته فيغفر له جميع ذنبه وكان يقول الخشبات السود المعلقة على أبوابهم خير من سبعين قاصا يقصون

(الركن الثانى من أركان الشكر ما عليه الشكر) وهو النعمة فلنذكر فيه حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها ومجامعها فيما يخص ويعم فان احصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فنقدم أمورا كلية تجرى مجرى القوانين فى معرفة النعم ثم نشتغل بذكر الآحاد والله الموفق للصواب

(بيان حقيقة النعمة وأقسامها)

اعلم ان كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فانه يسمى نعمة ولكن النعمة بالحقيقة هى السعادة الاخروية وتسمية ما سواها نعمة وسعادة اما غلط واما مجاز كتسمية السعادة الدنيوية التى لا تعين على الآخرة نعمة فان ذلك غلط محض وقد يكون اسم النعمة للشئ صدقا ولكن يكون اطلاقه على السعادة الاخروية أصدق فكل سبب يوصل الى سعادة الآخرة ويعين عليها اما بواسطة واحدة أو بوسائط فان تسميته نعمة صحيحة وصدق لاجل انه يفضى الى النعمة الحقيقية والاسباب المعينة واللذات المسماة نعمة نشرحها بتقسيمات (القسمة الاولى) ان الامور كلها بالاضافة الينا تنقسم الى ما هو نافع فى الدنيا والآخرة جميعا كالعلم وحسن الخلق والى ما هو ضار فيهما جميعا كالجهل وسوء الخلق والى ما ينفع فى الحال ويضر فى المآل كالتلذذ باتباع الشهوات والى ما يضر فى الحال ويؤلم ولكن ينفع فى المآل كقمع الشهوات ومخالفة النفس فالنافع فى الحال والمآل هو النعمة تحقيقا كالعلم وحسن الخلق والضار فيهما هو البلاء تحقيقا وهو ضدهما والنافع فى الحال المضر فى المآل بلاء محض عند ذوى البصائر وتظنه الجهال نعمة ومثاله الجائع اذا وجد عسلا فيه سم فانه يعده نعمة ان كان جاهلا واذا علمه علم أن ذلك بلاء سيق اليه والضار فى الحال النافع فى المآل نعمة عند ذوى الالباب بلاء عند الجهال ومثاله الدواء البشع فى الحال مذاقه الا انه شاف من الامراض والاسقام وجالب للصحة والسلامة فالصبى الجاهل اذا كلف شربه ظنه بلاء والعاقل يعده نعمة ويتقلد المنة ممن يهديه اليه ويقربه منه ويهيئ له أسبابه فلذلك تمنع الام ولدها من الحجامة والاب يدعوه اليها فان الاب لكمال عقله يلمح العاقبة والام لفرط حبها وقصورها تلحظ الحال والصبى لجهله يتقلد منة من أمه دون أبيه ويأنس اليها والى شفقتها ويقدر الاب عدوا له ولو عقل لعلم أن الام عدو باطنا فى صورة صديق لان منعها اياه من الحجامة يسوقه الى أمراض وآلام أشد من الحجامة ولكن الصديق الجاهل شر من العدو العاقل وكل انسان فانه صديق نفسه ولكنه صديق جاهل فلذلك تعمل به ما لا يعمل به العدو (قسمة ثانية) اعلم ان الاسباب الدنيوية مختلطة قد امتزج خيرها بشرها فقلما يصفو خيرها كالمال والاهل والولد والاقارب والجاه وسائر الاسباب ولكن تنقسم الى ما نفعه أكثر من ضره كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الاسباب والى ما ضره أكثر من نفعه فى حق أكثر الاشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع والى ما يكافئ ضرره نفعه وهذه أمور تختلف بالاشخاص فرب انسان صالح ينتفع بالمال الصالح وان كثر فينفقه فى سبيل الله ويصرفه الى الخيرات فهو مع هذا التوفيق نعمة فى حقه ورب انسان يستضر بالقليل أيضا اذ لا يزال مستصغرا له شاكيا من ربه طالبا للزيادة عليه فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء فى حقه (قسمة ثالثة) اعلم ان الخيرات باعتبار آخر تنقسم الى ما هو مؤثر لذاته لا لغيره والى مؤثر لغيره والى مؤثر لذاته ولغيره * فالاول ما يؤثر لذاته لا لغيره كلذة النظر الى وجه الله تعالى وسعادة لقائه وبالجملة سعادة الاخرى التى لا انقضاء لها فانها لا تطلب ليتوصل بها الى غاية أخرى مقصودة وراءها بل تطلب لذاتها * الثانى ما يقصد لغيره ولا غرض أصلا فى ذاته كالدراهم والدنانير فان الحاجة لو كانت لا تنقضى بها لكانت هى والحصباء بمثابة واحدة ولكن لما كانت وسيلة الى اللذات سريعة الايصال اليها صارت عند الجهال محبوبة فى نفسها حتى يجمعوها ويكنزوها ويتصارفوا عليها بالربا ويظنون أنها مقصودة ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصا فيحب بسببه رسوله الذى يجمع بينه وبينه ثم ينسى فى محبة الرسول محبة الاصل فيعرض عنه طول عمره ولا يزال مشغولا بتعهد الرسول ومراعاته وتفقده وهو غاية الجهل والضلال الثالث ما يقصد لذاته ولغيره كالصحة والسلامة فانها تقصد ليقدر بسببها على الذكر والفكر الموصلين الى لقاء الله تعالى

عن الشيخ شيا من حاله ومواهب الحق عنده وما يظهر له من كرامة واجابة ويكشف للشيخ من حاله ما يعلم الله تعالى منه وما يستحى من كشفه يذكره اجمالا وتعريضا فان المريد متى انطوى ضميره على شئ لا يكشف للشيخ تصريحا أو تعريضا يصير على باطنه منه عقدة فى الطريق وبالقول مع الشيخ تنحل العقدة وتزول ومن الادب أن لا يدخل فى صحبة الشيخ الا بعد علمه بان الشيخ قيم بتأديبه وتهذيبه وانه أقوم بالتأديب من غيره ومتى كان عند المريد تطلع الى شيخ آخر لا تصفو صحبته ولا ينفذ القول فيه ولا يستعد باطنه لسراية حال الشيخ اليه فان المريد كلما أيقن تفرد الشيخ بالمشيخة عرف فضله وقويت محبته والمحبة والتالف هو الواسطة بين المريد والشيخ وعلى قدر قوة المحبة تكون

أوليتوصل بها الى استيفاء لذات الدنيا وتقصد أيضا لذاتها فان الانسان وان استغنى عن الشئ الذى تراد سلامة الرجل لاجله فيريد أيضا سلامة الرجل من حيث انها سلامة فاذا المؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقا وما يؤثر لذاته ولغيره أيضا فهو نعمة ولكن دون الاول فاما مالا يؤثر الا لغيره كالنقدين فلا يوصفان فى أنفسهما من حيث انهما جوهران بانهما نعمة بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة فى حق من يقصد أمرا ليس يمكنه أن يتوصل اليه الا بهما فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية التى هى ضرورة حياته استوى عنده الذهب والمدر فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة فيكونان بلاء فى حقه ولا يكونان نعمة ﴿ قسمة رابعة ﴾ اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم الى نافع ولذيذ وجميل فاللذيذ هو الذى تدرك راحته فى الحال والنافع هو الذى يفيد فى المآل والجميل هو الذى يستحسن فى سائر الاحوال والشرور أيضا تنقسم الى ضار وقبيح ومؤلم وكل واحد من القسمين ضربان مطلق ومقيد * فالمطلق هو الذى اجتمع فيه الاوصاف الثلاثة أما فى الخير فكالعلم والحكمة فانها نافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة وأما فى الشر فكالجهل فانه ضار وقبيح ومؤلم وانما يحس الجاهل بألم جهله اذا عرف انه جاهل وذلك بأن يرى غيره عالما ويرى نفسه جاهلا فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة ثم قد يمنعه الحسد والكبر والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادان فيعظم ألمه فانه ان ترك التعلم تألم بالجهل ودرك النقصان وان اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات أو بترك الكبر وذل التعلم ومثل هذا الشخص لا يزال فى عذاب دائم لا محالة * والضرب الثانى المقيد وهو الذى جمع بعض هذه الاوصاف دون بعض فرب نافع مؤلم كقطع الاصبع المتأكلة والسلعة الخارجة من البدن ورب نافع قبيح كالحمق فانه بالاضافة الى بعض الاحوال نافع فقد قيل استراح من لا عقل له فانه لا يهتم بالعاقبة فيستريح فى الحال الى أن يحين وقت هلاكه ورب نافع من وجه ضار من وجه كالقاء المال فى البحر عند خوف الغرق فانه ضار للمال نافع للنفس فى نجاتها والنافع قسمان ضرورى كالايمان وحسن الخلق فى الايصال الى سعادة الآخرة وأعنى بهما العلم والعمل اذ لا يقوم مقامهما البتة غيرهما والى ما لا يكون ضروريا كالسكنجبين مثلا فى تسكين الصفراء فانه قد يمكن تسكينها أيضا بما يقوم مقامه ﴿ قسمة خامسة ﴾ اعلم أن النعمة يعبر بها عن كل لذيذ واللذات بالاضافة الى الانسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع عقلية وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات أما العقلية فكلذة العلم والحكمة اذ ليس يستلذها السمع والبصر والشم والذوق ولا البطن ولا الفرج وانما يستلذها القلب لاختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل وهذه أقل اللذات وجودا وهى أشرفها أما قلتها فلان العلم لا يستلذه الا عالم والحكمة لا يستلذها الا حكيم وما أقل أهل العلم والحكمة وما أكثر المتسمين باسمهم والمترسمين برسومهم وأما شرفها فلانها لازمة لا تزول أبدا لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ودائمة لا تمل فالطعام يشبع منه فيمل وشهوة الوقاع يفرغ منها فتستثقل والعلم والحكمة قط لا يتصور أن تمل وتستثقل ومن قدر على الشريف الباقى أبد الآباد اذا رضى بالخسيس الفانى فى أقرب الآماد فهو مصاب فى عقله محروم لشقاوته وادباره وأقل أمر فيه ان العلم والعقل لا يحتاج الى أعوان وحفظة بخلاف المال اذ العلم يحرسك وأنت تحرس المال والعلم يزيد بالانفاق والمال ينقص بالانفاق والمال يسرق والولاية يعزل عنها والعلم لا تمتد اليه أيدى السراق بالاخذ ولا أيدى السلاطين بالعزل فيكون صاحبه فى روح الامن أبدا وصاحب المال والجاه فى كرب الخوف أبدا ثم العلم نافع ولذيذ وجميل فى كل حال أبدا والمال تارة يجذب الى الهلاك وتارة يجذب الى النجاة ولذلك ذم الله تعالى المال فى القرآن فى مواضع وان سماه خيرا فى مواضع وأما قصور أكثر الخلق عن ادراك لذة العلم فاما لعدم الذوق فمن لم يذق لم يعرف ولم يشتق اذ الشوق تبع الذوق واما لفساد أمزجتهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات كالمريض الذى لا يدرك حلاوة العسل ويراه مرا واما لقصور فطنتهم اذ لم تخلق لهم بعد الصفة التى بها يستلذ العلم كالطفل الرضيع الذى لا يدرك لذة العسل والطيور والسمان ولا يستلذ الا اللبن وذلك لا يدل على انها ليست لذيذة ولا استطابته للبن تدل على أنه ألذ الاشياء فالقاصرون عن درك لذة العلم والحكمة ثلاثة اما من لم يحى باطنه كالطفل واما من مات بعد الحياة باتباع الشهوات واما من مرض بسبب اتباع

شراية الحال لان المحبة علامة التعارف والتعارف علامة الجنسية والجنسية بمثابة للمريد بحال الشيخ أو بعض حاله (أخبرنا) الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن سليمان قال أنا أبو الفضل حميد قال أنا الحافظ أبو نعيم قال ثنا سليمان بن أحمد قال ثنا أنس بن أسلم قال ثنا عتبة بن رزين عن أبى امامة الباهلى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من علم عبدا آية من كتاب الله فهو مولاه ينبغى له أن لا يخذله ولا يستأثر عليه فمن فعل ذلك فقد فصم عروة من عرى الاسلام ومن الادب ان يراعى خطرات الشيخ فى جزئيات الامور وكلياتها ولا يستحقر كراهة الشيخ ليسير حركاته معتمدا على حسن خلق الشيخ وكمال حلمه ومداراته (قال ابراهيم ابن شيبان) كنا نصحب أبا عبد الله المغربى ونحن

الشهوات وقوله تعالى في قلوبهم مرض اشارة الى مرض العقول وقوله عز وجل لينذر من كان حيا اشارة الى من لم يحى حياة باطنة وكل حى بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى وان كان عند الجهال من الاحياء ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وان كانوا موتى بالابدان * الثانية لذة يشارك الانسان فيها بعض الحيوانات كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء وذلك موجود فى الاسد والنمر وبعض الحيوانات * الثالثة ما يشارك فيها سائر الحيوانات كلذة البطن والفرج وهذه أكثرها وجودا وهى أخسها ولذلك اشترك فيها كل ما دب ودرج حتى الديدان والحشرات ومن جاوز هذه الرتبة تشبثت به لذة الغلبة وهو أشدها التصاقا بالمتغافلين فان جاوز ذلك ارتقى الى الثالثة فصار أغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة لا سيما لذة معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله وهذه رتبة الصديقين ولا ينال تمامها الا بخروج استيلاء حب الرياسة من القلب وآخر ما يخرج من رؤس الصديقين حب الرياسة وأما شره البطن والفرج فكسره مما يقوى عليه الصالحون وشهوة الرياسة لا يقوى على كسرها الا الصديقون فاما قمعها بالكلية حتى لا يقع بها الاحساس على الدوام وفى اختلاف الاحوال فيشبه أن يكون خارجا عن مقدور البشر نعم تغلب لذة معرفة الله تعالى فى أحوال لا يقع معها الاحساس بلذة الرياسة والغلبة ولكن ذلك لا يدوم طول العمر بل تعتريه الفترات فتعود اليه الصفات البشرية فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدل وعند هذا تنقسم القلوب الى أربعة أقسام قلب لا يحب الا الله تعالى ولا يستريح الا بزيادة المعرفة به والفكر فيه وقلب لا يدرى ما لذة المعرفة وما معنى الانس بالله وانما لذته بالجاه والرياسة والمال وسائر الشهوات البدنية وقلب أغلب أحواله الانس بالله سبحانه والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ولكن قد يعتريه فى بعض الاحوال الرجوع الى أوصاف البشرية وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشرية ويعتريه فى بعض الاحوال التلذذ بالعلم والمعرفة أما الاول فان كان ممكنا فى الوجود فهو فى غاية البعد وأما الثانى فالدنيا طافحة به وأما الثالث والرابع فموجود ولكن على غاية الندور ولا يتصور أن يكون ذلك الا نادرا شاذا وهو مع الندور يتفاوت فى القلة والكثرة وانما تكون كثرته فى الاعصار القريبة من اعصار الانبياء عليهم السلام فلا يزال يزداد العهد طولا وتزداد مثل هذه القلوب قلة الى أن تقرب الساعة ويقضى الله أمرا كان مفعولا وانما وجب أن يكون هذا نادرا لانه مبادى ملك الآخرة والملك عزيز والملوك لا يكثرون فكما لا يكون الفائق فى الملك والجمال الا نادرا وأكثر الناس من دونهم فكذا فى ملك الآخرة فان الدنيا مرآة الآخرة فانها عبارة عن عالم الشهادة والآخرة عبارة عن عالم الغيب وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب كما أن الصورة فى المرآة تابعة لصورة الناظر فى المرآة والصورة فى المرآة وان كانت هى الثانية فى رتبة الوجود فانها أولى فى حق رؤيتك فانك لا ترى نفسك وترى صورتك فى المرآة أولا فتعرف بها صورتك التى هى قائمة بك ثانيا على سبيل المحاكاة فانقلب التابع فى الوجود متبوعا فى حق المعرفة وانقلب المتأخر متقدما وهذا نوع من الانعكاس ولكن الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم فكذلك عالم الملك والشهادة محاك لعالم الغيب والملكوت فمن الناس من يسر له نظر الاعتبار فلا ينظر فى شئ من عالم الملك الا ويعبر به الى عالم الملكوت فيسمى عبوره عبرة وقد أمر الحق به فقال فاعتبروا يا أولى الابصار ومنهم من عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس فى عالم الملك والشهادة وسينفتح الى حبسه أبواب جهنم وهذا الحبس مملوء نارا من شأنها أن تطلع على الافئدة الا أن بينه وبين ادراك ألمها حجابا فاذا رفع ذلك الحجاب بالموت أدرك وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق فقالوا الجنة والنار مخلوقتان ولكن الجحيم تدرك مرة بادراك يسمى علم اليقين ومرة بادراك آخر يسمى عين اليقين وعين اليقين لا يكون الا فى الآخرة وعلم اليقين قد يكون فى الدنيا ولكن للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين فلذلك قال الله تعالى كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم أى فى الدنيا ثم لترونها عين اليقين أى فى الآخرة فاذا قد ظهر أن القلب الصالح لملك الآخرة لا يكون الا عزيزا كالشخص الصالح لملك الدنيا (قسمة سادسة) حاوية لمجامع النعم اعلم أن النعم تنقسم الى ما هى غاية مطلوبة لذاتها والى ما هى مطلوبة لاجل الغاية أما الغاية فانها سعادة الآخرة ويرجع حاصلها الى أربعة أمور بقاء لا فناء له وسرور لا غم فيه وعلم لا جهل معه وغنى

شبان ويسافر بنا فى البرارى والفلوات وكان معه شيخ اسمه حسن وقد صحبه سبعين سنة فكان اذا جرى من أحدنا خطأ أو تغير عليه حال الشيخ نتشفع اليه بهذا الشيخ حتى يرجع لنا الى ما كان ومن أدب المريد مع الشيخ أن لا يستقل بوقائعه وكشفه دون مراجعة الشيخ فان الشيخ علمه أوسع وبابه المفتوح الى الله أكبر فان كان واقعة المريد من الله تعالى يوافقه الشيخ ويمضيها له وما كان من عند الله لا يختلف وان كان فيه شبهة تزول شبهة الواقعة بطريق الشيخ ويكتسب المريد علما بصحة الوقائع والكشوف فالمريد لعله فى واقعته يخامره كون ارادة فى النفس فيتشبك كون الارادة بالواقعة مناما كان ذلك أو يقظة ولهذا سر عجيب ولا يقوم المريد باستئصال شأفة الكامن فى النفس واذا

لافقر بعده وهى النعمة الحقيقية ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاعيش الاعيش الآخرة وقال ذلك مرة فى الشدة تسلية للنفس وذلك فى وقت حفر الخندق فى شدة الضر وقال ذلك مرة فى السرور منعا للنفس من الركون الى سرور الدنيا وذلك عند احداق الناس به فى حجة الوداع وقال رجل اللهم انى أسألك تمام النعمة فقال النبى صلى الله عليه وسلم وهل تعلم ما تمام النعمة قال لا قال تمام النعمة دخول الجنة وأما الوسائل فتنقسم الى الاقرب الاخص كفضائل النفس والى ما يليه فى القرب كفضائل البدن وهو الثانى والى ما يليه فى القرب ويجاوز الى غير البدن كالاسباب المطيفة بالبدن من المال والاهل والعشيرة والى ما يجمع بين هذه الاسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية فهى اذا أربعة أنواع ﴿النوع الاول وهو الاخص﴾ الفضائل النفسية ويرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها الى الايمان وحسن الخلق وينقسم الايمان الى علم المكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله والى علوم المعاملة وحسن الخلق ينقسم الى قسمين ترك مقتضى الشهوات والغضب واسمه العفة ومراعاة العدل فى الكف عن مقتضى الشهوات والاقدام حتى لا يمتنع أصلا ولا يقدم كيف شاء بل يكون اقدامه واحجامه بالميزان العدل الذى أنزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم اذ قال تعالى أن لا تطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان فمن خصى نفسه ليزيل شهوة النكاح أو ترك النكاح مع القدرة والامن من الآفات أو ترك الاكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والفكر فقد أخسر الميزان ومن انهمك فى شهوة البطن والفرج فقد طغى فى الميزان وانما العدل أن يخلو وزنه وتقديره عن الطغيان والخسران فتعتدل به كفتا الميزان فاذا الفضائل الخاصة بالنفس المقربة الى الله تعالى أربعة علم مكاشفة وعلم معاملة وعفة وعدالة ولا يتم هذا فى غالب الامر الا بالنوع الثانى وهو الفضائل البدنية وهى أربعة الصحة والقوة والجمال وطول العمر ولا تتهيأ هذه الامور الاربعة الا بالنوع الثالث وهى النعم الخارجة المطيفة بالبدن وهى أربعة المال والاهل والجاه وكرم العشيرة ولا ينتفع بشئ من هذه الاسباب الخارجة والبدنية الا بالنوع الرابع وهى الاسباب التى تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة وهى أربعة هداية الله ورشده وتسديده وتأييده فمجموع هذه النعم ستة عشر اذ قسمناها الى أربعة وقسمنا كل واحدة من الاربعة الى أربعة وهذه الجملة يحتاج البعض منها الى البعض اما حاجة ضرورية أو نافعة أما الحاجة الضرورية فكحاجة سعادة الآخرة الى الايمان وحسن الخلق اذ لا سبيل الى الوصول الى سعادة الآخرة البتة الا بهما فليس للانسان الا ما سعى وليس لاحد فى الآخرة الا ما تزود من الدنيا فكذلك حاجة الفضائل النفسية تكسب هذه العلوم وتهذيب الاخلاق الى صحة البدن ضرورة وأما الحاجة النافعة على الجملة فكحاجة هذه النعم النفسية والبدنية الى النعم الخارجة مثل المال والعز والاهل فان ذلك لو عدم ربما تطرق الخلل الى بعض النعم الداخلة (فان قلت) فما وجه الحاجة لطريق الآخرة الى النعم الخارجة من المال والاهل والجاه والعشيرة فاعلم أن هذه الاسباب جارية مجرى الجناح المبلغ والآلة المسهلة للمقصود أما المال فالفقير فى طلب العلم والكمال وليس له كفاية كساع الى الهيجا بغير سلاح وكبازى يروم الصيد بلا جناح ولذلك قال صلى الله عليه وسلم نعم المال الصالح للرجل الصالح وقال صلى الله عليه وسلم نعم العون على تقوى الله المال وكيف لا ومن عدم المال صار مستغرق الاوقات فى طلب الاقوات وفى تهيئة اللباس والمسكن وضرورات المعيشة ثم يتعرض لانواع من الاذى تشغله عن الذكر والفكر ولا تندفع الا بسلاح المال ثم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج والزكاة والصدقات وافاضة الخيرات وقال بعض الحكماء وقد قيل له ما النعيم فقال الغنى فانى رأيت الفقير لا عيش له قيل زدنا قال الامن فانى رأيت الخائف لا عيش له قيل زدنا قال العافية فانى رأيت المريض لا عيش له قيل زدنا قال الشباب فانى رأيت الهرم لا عيش له وكان ما ذكره اشارة الى نعيم الدنيا ولكن من حيث انه معين على الآخرة فهو نعمة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من أصبح معافى فى بدنه آمنا فى سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها وأما الاهل والولد الصالح فلا يخفى وجه الحاجة اليهما اذ قال صلى الله عليه وسلم نعم العون على الدين المرأة الصالحة وقال صلى الله عليه وسلم فى الولد اذا مات العبد انقطع عمله الا من ثلاث ولد صالح

ذكره الشيخ فما فى المريد من كون ارادة النفس مفقود فى حق الشيخ فان كان من الحق يتبرهن بطريق الشيخ وان كان ينزع واقعته الى كون هوى النفس تزول وتبرأ ساحة المريد ويتحمل الشيخ ثقل ذلك لقوة حاله وصحة ابوانه الى جناب الحق وكمال معرفته ومن الادب مع الشيخ ان المريد اذا كان له كلام مع الشيخ فى شئ من أمر دينه أو أمر دنياه لا يستعجل بالاقدام على مكالمة الشيخ والهجوم عليه حتى يتبين له من حال الشيخ أنه مستعد له ولسماع كلامه وقوله متفرغ فكما ان للدعاء أوقاتا وادابا وشروطا لانه مخاطبة الله تعالى فالقول مع الشيخ أيضا آداب وشروط لانه من معاملة الله تعالى ويسأل الله تعالى قبل الكلام مع الشيخ التوفيق لما يحب من الادب وقد نبه الحق

يدعوله الحديث وقد ذكرنا فوائد الاهل والولد فى كتاب النكاح * وأما الاقارب فهما كثر أولاد الرجل وأقاربه كانواله مثل الاعين والايدى فيتيسرله بسببهم من الامور الدنيوية المهمة فى دينه مالوانفرد به لطال شغله وكل مايفرغ قلبك عن ضرورات الدنيا فهومعين لك على الدين فهواذا نعمة * وأما العز والجاه فبه يدفع الانسان عن نفسه الذل والضيم ولا يستغنى عنه مسلم فانه لا ينفك عن عدو يؤذيه وظالم يشوش عليه علمه وعمله وفراغه ويشغل قلبه وقلبه رأس ماله وانما تندفع هذه الشواغل بالعز والجاه ولذلك قيل الدين والسلطان توأمان قال تعالى ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولا معنى للجاه الاملك القلوب كما لامعنى للغنى الاملك الدراهم ومن ملك الدراهم تسخرت له أرباب القلوب لدفع الاذى عنه فكما يحتاج الانسان الى سقف يدفع عنه المطر وجبة تدفع عنه البرد وكلب يدفع الذئب عن ماشيته فيحتاج أيضا الى من يدفع الشر به عن نفسه وعلى هذا القصد كان الانبياء الذين لاملك لهم ولاسلطنة يراعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاه وكذلك علماء الدين لا على قصد التناول من خزائنهم أو الاستئثار والاستكثار فى الدنيا بمتابعتهم ولا تظنن أن نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث نصره وأكمل دينه وأظهره على جميع أعدائه ومكن فى القلوب حبه حتى اتسع به عزه وجاهه كانت أقل من نعمته عليه حيث كان يؤذى ويضرب حتى افتقر الى الهرب والهجرة (فان قلت) كرم العشيرة وشرف الاهل هو من النعم أم لا (فأقول) نعم ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الائمة من قريش ولذلك كان صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس أرومة فى نسب آدم عليه السلام وقال صلى الله عليه وسلم تخيروا لنطفكم الاكفاء وقال صلى الله عليه وسلم اياكم وخضراء الدمن فقيل وما خضراء الدمن قال المرأة الحسناء فى المنبت السوء فهذا أيضا من النعم ولست أعنى به الانتساب الى الظلمة وأرباب الدنيا بل الانتساب الى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم والى أئمة العلماء والى الصالحين والابرار المتوسمين بالعلم والعمل (فان قلت) فما معنى الفضائل البدنية فأقول لاخفاء بشدة الحاجة الى الصحة والقوة والى طول العمر اذ لا يتم علم وعمل الا بهما ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أفضل السعادات طول العمر فى طاعة الله تعالى وانما يستحقر من جملته أمر الجمال فيقال يكفى أن يكون البدن سليما من الامراض الشاغلة عن تحرى الخيرات ولعمرى الجمال قليل الغناء ولكنه من الخيرات أيضا أما فى الدنيا فلا يخفى نفعه فيها وأما فى الآخرة فمن وجهين أحدهما أن القبيح مذموم والطباع عنه نافرة وحاجات الجميل الى الاجابة أقرب وجاهه فى الصدور أوسع فكأنه من هذا الوجه جناح مبلغ كالمال والجاه اذ هو نوع قدرة اذ يقدر الجميل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح وكل معين على قضاء حاجات الدنيا فمعين على الآخرة بواسطتها والثانى أن الجمال فى الاكثر يدل على فضيلة النفس لان نور النفس اذا تم اشراقه تأدى الى البدن فالمنظر والمخبر كثيرا ما يتلازمان ولذلك عول أصحاب الفراسة فى معرفة مكارم النفس على هيآت البدن فقالوا الوجه والعين مرآة الباطن ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسرور والغم ولذلك قيل طلاقة الوجه عنوان ما فى النفس وقيل ما فى الارض قبيح الا ووجهه أحسن ما فيه واستعرض المأمون جيشا فعرض عليه رجل قبيح فاستنطقه فاذا هو ألكن فاسقط اسمه من الديوان وقال الروح اذا أشرقت على الظاهر فصباحة أو على الباطن ففصاحة وهذا ليس له ظاهر ولا باطن وقد قال صلى الله عليه وسلم اطلبوا الخير عند صباح الوجوه وقال عمر رضى الله تعالى عنه اذا بعثتم رسولا فاطلبوا حسن الوجه حسن الاسم وقال الفقهاء اذا تساوت درجات المصلين فأحسنهم وجها أولاهم بالامامة وقال تعالى ممتنا بذلك وزاده بسطة فى العلم والجسم ولسنا نعنى بالجمال ما يحرك الشهوة فان ذلك أنوثة وانما نعنى به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال فى اللحم وتناسب الاعضاء وتناصف خلقة الوجه بحيث لا تنبو الطباع عن النظر اليه (فان قلت) فقد أدخلت المال والجاه والنسب والاهل والولد فى حيز النعم وقد ذم الله تعالى المال والجاه وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذا العلماء قال تعالى ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وقال عز وجل انما أموالكم وأولادكم فتنة وقال على كرم الله وجهه فى ذم النسب الناس أبناء ما يحسنون وقيمة كل امرئ ما يحسنه وقيل المرء بنفسه لا بأبيه فما معنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعا * فاعلم أن من يأخذ العلوم من الالفاظ المنقولة المؤولة والعمومات المخصصة كان

سبحانه وتعالى على ذلك فيما أمر به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مخاطبته فقال يا أيها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة يعنى امام مناجاتكم قال عبد الله بن عباس سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكثروا حتى شقوا عليه وأحفوه بالمسئلة فادبهم الله تعالى وفطمهم عن ذلك وأمرهم أن لا يناجوه حتى يقدموا صدقة وقيل كان الاغنياء يأتون النبى عليه السلام ويغلبون الفقراء على المجالس حتى كره النبى عليه السلام طول حديثهم ومناجاتهم فامر الله تعالى بالصدقة عند المناجاة فلما رأوا ذلك انتهوا عن مناجاته فاما أهل العسرة فلانهم لم يجدوا شيأ وأما أهل اليسرة فبخلوا ومنعوا فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه

الضلال عليه أغلب مالم يهتد بنور الله تعالى الى ادراك العلوم على ماهى عليه ثم ينزل النقل على وفق ماظهر له منها بالتأويل مرة وبالتخصيص أخرى فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لاسبيل الى جحدها الا أن فيها فتنا ومخاوف فمثال المال مثال الحية التى فيها ترياق نافع وسم ناقع فان أصابها المعزم الذى يعرف وجه الاحتراز عن سمها وطريق استخراج ترياقها النافع كانت نعمة وان أصابها السوادى الغر فهى عليه بلاء وهلاك وهو مثل البحر الذى تحته أصناف الجواهر واللآلئ فمن ظفر بالبحر فان كان عالما بالسباحة وطريق الغوص وطريق الاحتراز عن مهلكات البحر فقد ظفر بنعمه وان خاضه جاهلا بذلك فقد هلك فلذلك مدح الله تعالى المال وسماه خيرا ومدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال نعم العون على تقوى الله تعالى المال وكذلك مدح الجاه والعز اذ من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بان أظهره على الدين كله وحببه فى قلوب الخلق وهو المعنى بالجاه ولكن المنقول فى مدحهما قليل والمنقول فى ذم المال والجاه كثير وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه اذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب ومعنى الجاه ملك القلوب وانما كثر هذا وقل ذاك لان الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحية المال وطريق الغوص فى بحر الجاه فوجب تحذيرهم فانهم يهلكون بسم المال قبل الوصول الى ترياقه ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره ولو كانا فى أعيانهما مذمومين بالاضافة الى كل أحد لما تصور أن ينضاف الى النبوة الملك كما كان لرسولنا صلى الله عليه وسلم ولا أن ينضاف اليها الغنى كما كان لسليمان عليه السلام فالناس كلهم صبيان والاموال حيات والانبياء والعارفون معزمون فقد يضر الصبى مالا يضر المعزم نعم المعزم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه وقد وجد حية وعلم أنه لو أخذها لاجل ترياقها لاقتدى به ولده وأخذ الحية اذا رآها ليلعب بها فيهلك فله غرض فى الترياق وله غرض فى حفظ الولد فواجب عليه أن يزن غرضه فى الترياق بغرضه فى حفظ الولد فاذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستضر به ضررا كثيرا ولو أخذها لاخذها الصبى ويعظم ضرره بهلاكه فواجب عليه ان يهرب عن الحية اذا رآها ويشير على الصبى بالهرب ويقبح صورتها فى عينه ويعرفه ان فيها سما قاتلا لا ينجو منه أحد ولا يحدثه أصلا بما فيها من نفع الترياق فان ذلك ربما يغره فيقدم عليه من غير تمام المعرفة وكذلك الغواص اذا علم انه لو غاص فى البحر بمرأى من ولده لاتبعه وهلك فواجب عليه أن يحذر الصبى ساحل البحر والنهر فان كان لا ينزجر الصبى بمجرد الزجر مهما رأى والده يحوم حول الساحل فواجب عليه ان يبعد من الساحل مع الصبى ولا يقرب منه بين يديه فكذلك الامة فى حجر الانبياء عليهم السلام كالصبيان الاغبياء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم انما أنا لكم مثل الوالد لولده وقال صلى الله عليه وسلم انكم تتهافتون على النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم وحظهم الاوفر فى حفظ أولادهم عن المهالك فانهم لم يبعثوا الا لذلك وليس لهم فى المال حظ الا بقدر القوت فلا جرم اقتصروا على قدر القوت وما فضل فلم يمسكوه بل أنفقوه فان الانفاق فيه الترياق وفى الامساك السم ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه لمالوا الى سم الامساك ورغبوا عن ترياق الانفاق فلذلك قبحت الاموال والمعنى به تقبيح امساكها والحرص عليها للاستكثار منها والتوسع فى نعيمها بما يوجب الركون الى الدنيا ولذاتها فاما أخذها بقدر الكفاية وصرف الفاضل الى الخيرات فليس بمذموم وحق كل مسافر أن لا يحمل الا بقدر زاده فى السفر اذا صمم العزم على أن يختص بما يحمله فاما اذا سمحت نفسه باطعام الطعام وتوسيع الزاد على الرفقاء فلا بأس بالاستكثار وقوله عليه السلام ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب معناه لانفسكم خاصة والا فقد كان فيمن يروى هذا الحديث ويعمل به من يأخذ مائة ألف درهم فى موضع واحد ويفرقها فى موضعه ولا يمسك منها حبة ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الاغنياء يدخلون الجنة بشدة استأذنه عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فى أن يخرج عن جميع ما يملكه فاذن له فنزل جبريل عليه السلام وقال مره بأن يطعم المسكين ويكسو العارى ويقرى الضيف الحديث فاذا النعم الدنيوية مشوبة قد امتزج دواؤها بدائها ومرجوها بمخوفها ونفعها بضرها فمن وثق ببصيرته وكمال معرفته فله ان يقرب منها متقيا داءها ومستخرجا دواءها ومن لا يثق بها فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظان الاخطار فلا تعدل بالسلامة شيأ فى حق هؤلاء وهم الخلق كلهم الا من عصمه الله تعالى وهداه لطريقه * فان قلت

وسلم ونزلت الرخصة وقال تعالى أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات وقيل لما أمر الله تعالى بالصدقة لم يناج رسول الله صلى الله عليه وسلم الا على ابن أبى طالب فقدم دينارا فتصدق به وقال على فى كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى وروى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت الآية دعا عليا وقال ماترى فى الصدقة كم تكون دينارا قال على لا يطيقونه قال كم قال على تكون حبة أوشعيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انك لزهيد ثم نزلت الرخصة ونسخت الآية وما نبه الحق عليه بالامر بالصدقة وما فيه من حسن الادب وتقييد اللفظ والاحترام ما نسخ والفائدة باقية (أخبرنا) الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن سلمان قال أنا أبو الفضل أحمد قال أنا الحافظ أبو نعيم

فـامعنى النعم التوفيقية الراجعة الى الهداية والرشد والتأييد والتسديد فاعلم ان التوفيق لا يستغنى عنه أحـد وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين ارادة العبد وبين قضاء الله وقدره وهذا يشمل الخير والشر وماهو سعادة وماهو شقاوة ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره كما أن الالحاد عبارة عن الميل فخصص بمن مال الى الباطل عن الحق وكذا الارتداد ولاخفاء بالحاجة الى التوفيق ولذلك قيل

اذا لم يكن عون من الله للفتى * فاكثر ما يجنى عليه اجتهاده

فاما الهداية فلاسبيل لاحـد الى طلب السعادة الابها لان داعية الانسان قد تكون مائلة الى مافيه صلاح آخرته ولكن اذا لم يعلم مافيـه صـلاح آخرته حتى يظن الفساد صـلاحا فمن أين ينفعه مجرد الارادة فلافائدة فى الارادة والقدرة والاسباب الا بعد الهداية ولذلك قال تعالى ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى وقال تعالى ولولا فضل الله عليكم ورحمته ماز كامنكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء وقال صلى الله عليه وسلم مامن أحد يدخل الجنة الا برحمة الله تعالى أى بهدايته فقيل ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا * وللهداية ثلاث منازل الاولى معرفة طريق الخير والشر المشار اليه بقوله تعالى وهديناه النجدين وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده بعضه بالعقل وبعضه على لسان الرسـل ولذلك قال تعالى وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فاسباب الهدى هى الكتب والرسل وبصائر العقول وهى مبذولة ولا يمنع منها الا الحسد والكبر وحب الدنيا والاسباب التى تعمى القلوب وان كانت لا تعمى الابصار قال تعالى فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ومن جملة المعميات الالف والعادة وحب استصحابهما وعنه العبارة بقوله تعالى انا وجدنا آباءنا على أمة الآية وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى وقالوا لولا نزل هـذا القرآن على رجـل من القريتين عظيم وقوله تعالى أبشرا منا واحدا نتبعه فهذه المعميات هى التى منعت الاهتداء والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة وهى التى يمد الله تعالى بها العبد حالا بعد حال وهى ثمرة المجاهدة حيث قال تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وهو المراد بقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى والهداية الثالثة وراء الثانية وهو النور الذى يشرق فى عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة فيهتدى بهـا الى مالا يهتدى اليه بالعقل الذى يحصل به التكليف وامكان تعلم العلوم وهو الهدى المطلق وماعداه حجاب له ومقدمات وهو الذى شرفه الله تعالى بتخصيص الاضافة اليـه وان كان الكل من جهته تعالى فقال تعالى قل ان هدى الله هو الهدى وهو المسمى حياة فى قوله تعالى أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس والمعنى بقوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه * وأما الرشد فنعنى به العناية الالهية التى تعين الانسان عند توجهه الى مقاصده فتقويه على مافيه صـلاحه وتفتره عما فيه فساده ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين فالرشد عبارة عن هداية باعثة الى جهة السعادة محركة اليها فالصبى اذا بلغ خبيرا بحفظ المال وطرق التجارة والاستنماء ولكنه مع ذلك يبذر ولا يريد الاستنماء لا يسمى رشيدا لالعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته فكم من شخص يقدم على مايعلم انه يضره فقد أعطى الهداية وميز بها عن الجاهل الذى لا يدرى أنه يضره ولكن ما أعطى الرشـد فالرشـد بهذا الاعتبار أكمل من مجرد الهداية الى وجوه الاعمال وهى نعمة عظيمة * وأما التسديد فهو توجيه حركاته الى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليشتد فى صوب الصواب فى أسرع وقت فان الهـداية بمجردها لا تكفى بل لابد من هداية محركة للداعية وهى الرشد والرشـد لا يكفى بل لابد من تيسر الحركات بمساعدة الاعضاء والآلات حتى يتم المراد مما انبعثت الداعية اليه فالهداية محض التعريف والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرك والتسديد اعانة ونصرة بتحريك الاعضاء فى صوب السـداد وأما التأييد فكأنه جامع للكل وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الاسباب من خارج وهو المراد بقوله عز وجل اذ أيدتك بروح القدس وتقرب منه العصمة وهى عبارة عن جود الهى يسبح فى الباطن يقوى به الانسان على تحرى الخير وتجنب الشر حتى يصير كمانع من باطنه غير محسوس واياه عنى بقوله تعالى ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه فهـذه هى مجامع النعم ولن تثبت الا بما يخوله الله من الفـهم الصافى الثاقب والسمع الواعى والقلب البصير

قال ثنا سليمان بن أحمد قال ثنا مطلب بن شعيب قال ثنا عبـد الله بن صالح قال ثنا ابن لهيعة عن أبى قبيل عن عبادة ابن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليس منا من لم يجـل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه فاحترام العلماء توفيق وهداية واهمال ذلك خذلان وعقوق

(الباب الثانى والخمسون فى آداب الشـيخ وما يعتمـده مع الاصحاب والتلامذة)

أهـم الآداب أن لا يتعـرض الصادق للتقـدم على قوم ولا يتعرض لاستجـلاب بواطنهم بلطف الرفق وحسن الـكلام محبة للاسـتتباع فاذا رأى ان الله تعالى يبعث اليه المريدين والمسترشدين بحسن الظن وصـدق الارادة يحذر أن يكون ذلك ابتلاء وامتحانا من الله تعالى والنفـوس

المتواضع المراعي والمعلم الناصح والمال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته والعز الذي يصونه عن سفه السفهاء وظلم الاعداء ويستدعي كل واحد من هذه الاسباب الستة عشر أسبابا وتستدعي تلك الاسباب أسبابا الى أن تنتهي بالآخرة الى دليل المتحيرين وملجأ المضطرين وذلك رب الارباب ومسبب الاسباب واذا كانت تلك الاسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها فلنذكر منها أنموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وبالله التوفيق

﴿ بيان وجه الانموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والاحصاء ﴾

اعلم أنا جمعنا النعم في ستة عشر ضربا وجعلنا صحة البدن نعمة من النعم الواقعة في الرتبة المتأخرة فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصي الاسباب التي بها تمت هذه النعمة لم نقدر عليها ولكن الاكل أحد أسباب الصحة فلنذكر نبذة من جملة الاسباب التي بها تتم نعمة الاكل فلا يخفى أن الاكل فعل وكل فعل من هذا النوع فهو حركة وكل حركة لا بد لها من جسم متحرك هو آلتها ولا بد لها من قدرة على الحركة ولا بد من ارادة للحركة ولا بد من علم بالمراد وادراك له ولا بد للاكل من مأكول ولا بد للمأكول من أصل منه يحصل ولا بد له من صانع يصلحه فلنذكر أسباب الادراك ثم أسباب الارادات ثم أسباب القدرة ثم أسباب المأكول على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء

﴿ الطرف الاول في نعم الله تعالى في خلق أسباب الادراك ﴾

اعلم أن الله تعالى خلق النبات وهو أكمل وجودا من الحجر والمدر والحديد والنحاس وسائر الجواهر التي لا تنمى ولا تغتذي فان النبات خلق فيه قوة بها يجتذب الغذاء الى نفسه من جهة أصله وعروقه التي في الارض وهي له آلات فيها يجتذب الغذاء وهي العروق الدقيقة التي تراها في كل ورقة ثم تغلظ أصولها ثم تتشعب ولا تزال تستدق وتتشعب الى عروق شعرية تنبسط في أجزاء الورقة حتى تغيب عن البصر الا أن النبات مع هذا الكمال ناقص فانه اذا أعوزه غذاء يساق اليه ويماس أصله جف ويبس ولم يمكنه طلب الغذاء من موضع آخر فان الطلب انما يكون بمعرفة المطلوب وبالانتقال اليه والنبات عاجز عن ذلك فمن نعمة الله تعالى عليك أن خلق لك آلات الاحساس وآلة الحركة في طلب الغذاء فانظر الى ترتيب حكمة الله تعالى في خلق الحواس الخمس التي هي آلة الادراك فأولها حاسة اللمس وانما خلقت لك حتى اذا مستك نار محرقة أو سيف جارح تحس به فتهرب منه وهذا أول حس يخلق للحيوان ولا يتصور حيوان الا ويكون له هذا الحس لانه ان لم يحس أصلا فليس بحيوان وأنقص درجات الحس أن يحس بما يلاصقه ويماسه فان الاحساس بما يبعد منه احساس أتم لا محالة وهذا الحس موجود لكل حيوان حتى الدودة التي في الطين فانها اذا غرز فيها ابرة انقبضت للهرب لا كالنبات فان النبات يقطع فلا ينقبض اذ لا يحس بالقطع الا انك لو لم يخلق لك الا هذا الحس لكنت ناقصا كالدودة لا تقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنك بل ما يمس بدنك فتحس به فتجذبه الى نفسك فقط فافتقرت الى حس تدرك به ما بعد عنك فخلق لك الشم الا انك تدرك به الرائحة ولا تدري انها جاءت من أي ناحية فتحتاج الى أن تطوف كثيرا من الجوانب فربما تعثر على الغذاء الذي شممت ريحه وربما لم تعثر فتكون في غاية النقصان لو لم يخلق لك الا هذا فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك وتدرك جهته فتقصد تلك الجهة بعينها الا انه لو لم يخلق لك الا هذا لكنت ناقصا اذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدوا لا حجاب بينك وبينه وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره وقد لا ينكشف الحجاب الا بعد قرب العدو فتعجز عن الهرب فخلق لك السمع حتى تدرك به الاصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات لانك لا تدرك بالبصر الا شيأ حاضرا وأما الغائب فلا يمكنك معرفته الا بكلام ينتظم من حروف وأصوات تدرك بحس السمع فاشتدت اليه حاجتك فخلق لك ذلك وميزت بفهم الكلام عن سائر الحيوانات وكل ذلك ما كان يغنيك لو لم يكن لك حس الذوق اذ يصل الغذاء اليك فلا تدرك انه موافق لك أو مخالف فتأكله فتهلك كالشجرة يصب في أصلها كل مائع ولا ذوق لها فتجذبه وربما يكون ذلك سبب جفافها ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم يخلق في مقدمة دماغك ادراك آخر يسمى حسا مشتركا تتأدى اليه هذه المحسوسات الخمس وتجتمع فيه ولولاه لطال الامر عليك فانك اذا أكلت شيأ أصفر مثلا فوجدته مرا مخالفا لك فتركته فاذا رأيته مرة

مجبولة على محبة اقبال الخلق والشهرة وفي الخمول السلامة فاذا بلغ الكتاب أجله وتمكن العبد من حاله وعلم بتعريف الله اياه انه مراد بالارشاد والتعليم للمريدين فيكلمهم حينئذ كلام الناصح المشفق الوالد لولده بما ينفعه في دينه ودنياه وكل مريد ومسترشد ساقه الله تعالى اليه يراجع الله تعالى في معناه ويكثر اللجأ اليه أن يتولاه فيه وفي القول معه ولا يتكلم مع المريد بالكلمة الا وقلبه ناظر الى الله مستعين به في الهداية للصواب من القول سمعت شيخنا أبا النجيب السهروردي رحمه الله يوصي بعض أصحابه ويقول لا تكلم أحدا من الفقراء الا في أصفى أوقاتك وهذه وصية نافعة لان الكلمة تقع في سمع المريد الصادق كالحبة تقع في الارض وقد

أخرى فلا تعرف أنه مضر ما لم تذقه ثانيا ولولا الحس المشترك اذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة فكيف تمتنع عنه والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة فلا بد من حاكم تجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعا حتى اذا أدرك الصفرة حكم بأنه مر فتمتنع عن تناوله ثانيا وهذا كله تشاركك فيه الحيوانات اذ للشاة هذه الحواس كلها فلو لم يكن لك الا هذا لكنت ناقصا فان البهيمة يحتال عليها فتؤخذ فلا تدرى كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف تتخلص اذا قيدت وقد تلقى نفسها فى بئر ولا تدرى أن ذلك يهلكها ولذلك قد تأكل البهيمة ما تستلذه فى الحال ويضرها فى ثانى الحال فتمرض وتموت اذ ليس لها الا الاحساس بالحاضر فأما ادراك العواقب فلا فميزك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى هى أشرف من الكل وهو العقل فبه تدرك مضرة الاطعمة ومنفعتها فى الحال والمآل وبه تدرك كيفية طبخ الاطعمة وتأليفها واعداد أسبابها فتنتفع بعقلك فى الاكل الذى هو سبب صحتك وهو أخس فوائد العقل وأقل الحكم فيه بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله ومعرفة الحكمة فى عالمه وعند ذلك تنقلب فائدة الحواس الخمس فى حقك فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الاخبار الموكلين بنواحى المملكة وقد وكلت كل واحدة منها بأمر تختص به فواحدة منها بأخبار الالوان والاخرى بأخبار الاصوات والاخرى بأخبار الروائح والاخرى بأخبار الطعوم والاخرى بأخبار الحر والبرد والخشونة والملاسة واللين والصلابة وغيرها وهذه البرد والجواسيس يقتنصون الاخبار من أقطار المملكة ويسلمونها الى الحس المشترك والحس المشترك قاعد فى مقدمة الدماغ مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحى العالم فيأخذها وهى مختومة ويسلمها اذ ليس له الا أخذها وجمعها وحفظها فأما معرفة حقائق ما فيها فلا ولكن اذا صادف القلب العاقل الذى هو الامير والملك سلم الانهاآت اليه مختومة فيفتشها الملك ويطلع منها على أسرار المملكة ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها فى هذا المقام وبحسب ما يلوح له من الاحكام والمصالح يحرك الجنود وهى الاعضاء مرة فى الطلب ومرة فى الهرب ومرة فى اتمام التدبيرات التى تعن له فهذه سياقة نعمة الله عليك فى الادراكات ولا تظنن أنا استوفيناها فان الحواس الظاهرة هى بعض الادراكات والبصر واحد من جملة الحواس والعين آلة واحدة له وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات وبعضها أغشية وبعض الاغشية كأنها نسج العنكبوت وبعضها كالمشيمة وبعض تلك الرطوبات كأنه بياض البيض وبعضها كأنه الجمد ولكل واحدة من هذه الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض وتدوير وتركيب لو اختلت طبقة واحدة من جملة العشر أو صفة واحدة من صفات كل طبقة لاختل البصر وعجز عنه الاطباء والكحالون كلهم فهذا فى حس واحد فقس به حاسة السمع وسائر الحواس بل لا يمكن أن تستوفى حكم الله تعالى وأنواع نعمه فى جسم البصر وطبقاته فى مجلدات كثيرة مع أن جملته لا تزيد على جوزة صغيرة فكيف ظنك بجميع البدن وسائر أعضائه وعجائبه فهذه مرامز الى نعم الله تعالى بخلق الادراكات

﴿الطرف الثانى فى أصناف النعم فى خلق الارادات﴾

اعلم انه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ولم يخلق لك ميل فى الطبع وشوق اليه وشهوة له تستحثك على الحركة لكان البصر معطلا فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الاشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناوله فيبقى البصر والادراك معطلا فى حقه فاضطررت الى أن يكون لك ميل الى ما يوافقك يسمى شهوة ونفرة عما يخالفك تسمى كراهة لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام وسلطها عليك ووكلها بك كالمتقاضى الذى يضطرك الى التناول حتى تتناول وتغتذى فتبقى بالغذاء وهذا مما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات ثم هذه الشهوة لو لم تسكن اذا أخذت مقدار الحاجة أسرفت وأهلكت نفسك فخلق الله لك الكراهة عند الشبع لتترك الاكل بها لا كالزرع فانه لا يزال يجتذب الماء اذا انصب فى أسفله حتى يفسد فيحتاج الى آدمي يقدر غذاءه بقدر الحاجة فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك خلق لك شهوة الوقاع حتى تجامع فيبقى به نسلك ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى فى خلق الرحم وخلق دم الحيض وتأليف الجنين من المنى ودم الحيض وكيفية خلق الانثيين والعروق السالكة اليهما من الفقار الذى

ذكرنا ان الحبة الفاسدة تهلك وتضيع وفساد حبة الكلام بالهوى وقطرة من الهوى تكدر بحرا من العلم فعند الكلام مع أهل الصدق والارادة ينبغى أن يستمد القلب من الله تعالى كما يستمد اللسان من الجنان وكما ان اللسان ترجمان القلب يكون قلبه ترجمان الحق عند العبد فيكون ناظرا الى الله مصغيا اليه مستلقيا ما يرد عليه مؤديا للامانة فيه ثم ينبغى للشيخ أن يعتبر حال المريد ويتفرس فيه بنور الايمان وقوة العلم والمعرفة ما يتأتى منه ومن صلاحيته واستعداده فمن المريدين من يصلح للتعبد المحض وأعمال القوالب وطريق الابرار ومن المريدين من يكون مستعدا صالحا للقرب وسلوك طريق المقربين بين المرادين بمعاملة القلوب والمعاملات السنية ولكل من الابرار

هو مستقر النطفة وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق وكيفية انقسام مقعر الرحم الى قوالب تقع النطفة في بعضها فتتشكل بشكل الذكور وتقع في بعضها فتتشكل بشكل الاناث وكيفية ادارتها في اطوار خلقها مضغة وعلقة ثم عظما ولحما ودما وكيفية قسمة أجزائها الى رأس ويد ورجل وبطن وظهر وسائر الاعضاء لقضيت من أنواع نعم الله تعالى عليك في مبدأ خلقك كل العجب فضلا عما تراه الآن ولكنا نريد أن نتعرض الا لنعم الله تعالى في الاكل وحده كي لا يطول الكلام فاذا شهوة الطعام أحد ضروب الارادات وذلك لا يكفيك فانه تأتيك المهلكات من الجوانب فلو لم يخلق فيك الغضب الذي به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك لبقيت عرضة للآفات ولاخذ منك كل ما حصلته من الغذاء فان كل واحد يشتهي ما في يديك فتحتاج الى داعية في دفعه ومقاتلته وهي داعية الغضب الذي به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك ثم هذا لا يكفيك اذ الشهوة والغضب لا يدعوان الا الى ما يضر وينفع في الحال وأما في المآل فلا يكفي فيه هذه الارادة فخلق الله تعالى لك ارادة أخرى مسخرة تحت اشارة العقل المعرف للعواقب كما خلق الشهوة والغضب مسخرة تحت ادراك الحس المدرك للحالة الحاضرة فتم بها انتفاعك بالعقل اذ كان مجرد المعرفة بان هذه الشهوة مثلا تضرك لا يغنيك في الاحتراز عنها ما لم يكن لك ميل الى العمل بموجب المعرفة وهذه الارادة أفردت بها عن البهائم اكراما لبني آدم كما أفردت بمعرفة العواقب وقد سميناها هذه الارادة باعثا دينيا وفصلناه في كتاب الصبر تفصيلا أوفى من هذا ((الطرف الثالث في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلة الحركة)) اعلم ان الحس لا يفيد الا الادراك والارادة لا معنى لها الا الميل الى الطلب والهرب وهذا لا كفاية فيه ما لم تكن فيك آلة الطلب والهرب فكم من مريض مشتاق الى شئ بعيد عنه مدرك له ولكنه لا يمكنه ان يمشي اليه لفقد رجله أو لا يمكنه ان يتناوله لفقد يده أو لفلج وخدر فيهما فلا بد من آلات للحركة وقدرة في تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلبا وبمقتضى الكراهية هربا فلذلك خلق الله تعالى لك الاعضاء التي تنظر الى ظاهرها ولا تعرف أسرارها فمنها ما هو للطلب والهرب كالرجل للانسان والجناح للطير والقوائم للدواب ومنها ما هو للدفع كالاسلحة للانسان والقرون للحيوان وفي هذا تختلف الحيوانات اختلافا كثيرا فمنها ما يكثر أعداؤه ويبعد غذاؤه فيحتاج الى سرعة الحركة فخلق له الجناح ليطير بسرعة ومنها ما خلق له أربع قوائم ومنها ما له رجلان ومنها ما يدب وذكر ذلك يطول فلنذكر الاعضاء التي بها يتم الاكل فقط ليقاس عليها غيرها فنقول رؤيتك الطعام من بعد وحركتك اليه لا تكفي ما لم تتمكن من ان تأخذه فافتقرت الى آلة باطشة فانعم الله تعالى عليك بخلق اليدين وهما طويلتان ممتدتان الى الاشياء ومشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات فتمتد وتنثني اليك فلا تكون كخشبة منصوبة ثم جعل رأس اليد عريضا بخلق الكف ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام هي الاصابع وجعلها في صفين بحيث يكون الابهام في جانب ويدور على الاربعة الباقية ولو كانت مجتمعة أو متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك فوضعها وضعا ان بسطتها كانت لك مجرفة وان ضممتها كانت لك مغرفة وان جمعتها كانت لك آلة للضرب وان نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة في القبض ثم خلق لها أظفارا وأسند اليها رؤس الاصابع حتى لا تتفتت وحتى تلتقط بها الاشياء الدقيقة التي لا تحويها الاصابع فتأخذها برؤس أظفارك ثم هب انك أخذت الطعام باليدين فمن أين يكفيك هذا ما لم يصل الى المعدة وهي في الباطن فلا بد وان يكون من الظاهر دهليز اليها حتى يدخل الطعام منه فجعل الفم منفذا الى المعدة مع ما فيه من الحكم الكثيرة سوى كونه منفذا للطعام الى المعدة ثم ان وضعت الطعام في الفم وهو قطعة واحدة فلا يتيسر ابتلاعه فتحتاج الى طاحونة تطحن بها الطعام فخلق لك اللحيين من عظمين وركب فيهما الاسنان وطبق الاضراس من العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحنا ثم الطعام تارة يحتاج الى الكسر وتارة الى القطع ثم يحتاج الى طحن بعد ذلك فقسم الاسنان الى عريضة طواحين كالاضراس والى حادة قواطع كالرباعيات والى ما يصلح للكسر كالانياب ثم جعل مفصل اللحيين متخلخلا بحيث يتقدم الفك الاسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الاعلى دوران الرحى ولولا ذلك لما تيسر الا ضرب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلا وبذلك لا يتم الطحن فجعل اللحي الاسفل متحركا حركة دورية واللحي الاعلى ثابتا لا يتحرك فانظر الى عجيب

والمقربين مبادونهايات فيكون الشيخ صاحب الاشراف على البواطن يعرف كل شخص وما يصلح له والعجب أن الصحراوي يعلم الاراضي والغروس ويعلم كل غرس وأرضه وكل صاحب صنعة يعلم منافع صنعته ومضارها حتى المرأة تعلم قطنها وما يتأتى منه من الغزل ودقته وغلظه ويعلم الشيخ حال المريد وما يصلح له وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلم الناس على قدر عقولهم ويأمر كل شخص بما يصلح له فمنهم من كان يأمره بالانفاق ومنهم من أمره بالامساك ومنهم من أمره بالكسب ومنهم من قرره على ترك الكسب كاصحاب الصفة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف أوضاع الناس وما يصلح لكل واحد فاما في رتبة الدعوة فقد كان يعمم الدعوة لانه مبعوث لاثبات

صنع الله تعالى فان كل رحى صنعه الخلق فيثبت منه الحجر الاسفل و يدور الاعلى الاهـذا الرحى الذى صنعه الله
تعالى اذ يدور منه الاسفل على الاعلى فسبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه وأتم برهانه وأوسع امتنانه ثم هب انك
وضعت الطعام فى فضاء الفم فكيف يتحرك الطعام الى ما تحت الاسنان أو كيف تستجره الاسنان الى نفسها أو
كيف يتصرف باليد فى داخل الفم فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان فانه يطوف فى جوانب الفم و يرد
الطعام من الوسط الى الاسنان بحسب الحاجة كالمجرفة التى ترد الطعام الى الرحى هذا مع ما فيه من فائدة الذوق
وعجائب قوة النطق والحكم التى لسنا نطنب بذكرها ثم هب انك قطعت الطعام وطحنته وهو يابس فلا تقدر على
الابتلاع الا بان ينزلق الى الحلق بنوع رطوبة فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينا يفيض اللعاب منها
و ينصب بقدر الحاجة حتى ينعجن به الطعام فانظر كيف سخرها لهذا الامر فانك ترى الطعام من بعد فيثور
الحنكان للخدمة و ينصب اللعاب حتى تتحلب أشداقك والطعام بعد بعيد عنك ثم هذا الطعام المطحون المنعجن
من يوصله الى المعدة وهو فى الفم ولا تقدر على أن تدفعه باليد ولا يد فى المعدة حتى تمتد فتجذب الطعام فانظر كيف
هيأ الله تعالى المرىء والحنجرة وجعل على رأسها طبقات تنفتح لاخذ الطعام ثم تنطبق و تنضغط حتى يتقلب
الطعام بضغطه فيهوى الى المعدة فى دهليز المرىء فاذا ورد الطعام على المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة فلا يصلح
لان يصير لحما وعظما ودما على هذه الهيئة بل لا بد وان يطبخ طبخا تاما حتى تتشابه أجزاؤه فخلق الله تعالى المعدة على
هيئة قدر فيقع فيها الطعام فتحتوى عليه وتغلق عليه الابواب فلا يزال لابثا فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة
التى تحيط بالمعدة من الاعضاء الباطنة اذ من جانبها الايمن الكبد ومن الايسر الطحال ومن قدام الترائب ومن
خلف لحم الصلب فتتعدى الحرارة اليها من تسخين هذه الاعضاء من الجوانب حتى ينطبخ الطعام و يصير مائعا
متشابها يصلح للنفوذ فى تجاويف العروق وعند ذلك يشبه ماء الشعير فى تشابه أجزائه ورقته وهو بعد لا يصلح
للتغذية فخلق الله تعالى بينها و بين الكبد مجارى من العروق و جعل لها افواهات كثيرة حتى ينصب الطعام فيها
فينتهى الى الكبد والكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة فى أجزاء
الكبد فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها و ينتشر فى أجزائها حتى تستولى عليه قوة الكبد فتصبغه بلون الدم
فيستقر فيها ريثما يحصل له نضج آخر ويحصل له هيئة الدم الصافى الصالح لغذاء الاعضاء الا أن حرارة الكبد هى
التى تنضج هذا الدم فيتولد من هذا الدم فضلتان كما يتولد فى جميع ما يطبخ احداهما شبيهة بالدردى والعكر وهو
الخلط السوداوى والاخرى شبيهة بالرغوة وهى الصفراء ولو لم تفصل عنها الفضلتان فسد مزاج الاعضاء فخلق
الله تعالى المرارة والطحال و جعل لكل واحد منهما عنقا ممدودا الى الكبد داخلا فى تجويفه فتجذب المرارة
الفضلة الصفراوية و يجذب الطحال العكر السوداوى فيبقى الدم صافيا ليس فيه الا زيادة رقة ورطوبة لما فيه من
المائية ولولاها لما انتشر فى تلك العروق الشعرية ولا خرج منها متصاعدا الى الاعضاء فخلق الله سبحانه الكليتين
وأخرج من كل واحدة منهما عنقا طويلا الى الكبد ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقهما ليس داخلا فى
تجويف الكبد بل متصل بالعروق الطالعة من حدبة الكبد حتى يجذب ما يليها بعد الطلوع من العروق
الدقيقة التى فى الكبد اذ لو اجتذب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من العروق فاذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم
صافيا من الفضلات الثلاث نقيا من كل ما يفسد الغذاء ثم ان الله تعالى أطلع من الكبد عروقا ثم قسمها بعد
الطلوع أقساما وشعب كل قسم بشعب وانتشر ذلك فى البدن كله من الفرق الى القدم ظاهرا وباطنا فيجري الدم
الصافى فيها و يصل الى سائر الاعضاء حتى تصير العروق المنقسمة شعرية كعروق الاوراق والاشجار بحيث
لا تدرك بالابصار فيصل منها الغذاء بالرشح الى سائر الاعضاء ولو حلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية
فسد الدم وحصل منه الامراض الصفراوية كاليرقان والبثور والحمرة وان حلت بالطحال آفة فلم يجذب الخلط
السوداوى حدثت الامراض السوداوية كالبهق والجذام والماليخوليا وغيرها وان لم تندفع المائية نحو
الكلا حدث منه الاستسقاء وغيره ثم انظر الى حكمة الفاطر الحكيم كيف رتب المنافع على هذه الفضلات
الثلاث الخسيسة أما المرارة فانها تجذب بأحد عنقيها وتقذف بالعنق الآخر الى الامعاء ليحصل له فى نقل الطعام

الحجة وايضاح المحجة يدعو
على الاطلاق ولا يخصص
بالدعوة من يتفرس فيه
الهداية دون غيره
* ومن أدب الشيخ أن
يكون له خلوة خاصة
ووقت خاص لا يسعه فيه
معاناة الخلق حتى يفيض
على جلوته فائدة خلوته
ولا تدعى نفسه قوة ظنا
منها ان استدامة المخالطة
مع الخلق والكلام
معهم لا يضره ولا يأخذ
منه وانه غير محتاج الى
الخلوة فان رسول الله
صلى الله عليه وسلم مع
كمال حاله كان له قيام
الليل وصلوات يصليها
و يدوم عليها وأوقات
يخلو فيها فطبع البشر
لا يستغنى عن السياسة
قل ذلك أو كثر لطف
ذلك أو كثف وكم من
مغرور قانع باليسير من
طيبة القلب اتخذ ذلك
رأس ماله واغتر بطيبة
قلبه واسترسل فى
الممازجة والمخالطة
وجعل نفسه مناخا
للبطالين بلقمة تؤكل

رطوبة مزلقة ويحدث في الامعاء الذع يحركها للدفع فتنضغط حتى يندفع الثفل وينزلق وتكون صفرته لذلك وأما الطحال فانه يحيل تلك الفضلة احالة يحصل بها فيه حموضة وقبض ثم يرسل منها في كل يوم شيأ الى فم المعدة فيحرك الشهوة بحموضته وينبهها ويثيرها ويخرج الباقي مع الثفل وأما الكلية فانها تغتذى بما في تلك المائية من دم وترسل الباقي الى المثانة ولنقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى في الاسباب التي أعدت للاكل ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد الى القلب والدماغ واحتياج كل واحد من هذه الاعضاء الرئيسة الى صاحبه وكيفية انشعاب العروق الضوارب من القلب الى سائر البدن وبواسطتها يصل الحس وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد الى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء ثم كيفية تركب الاعضاء وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها وأوتارها وأوردتها وباطنها وغضاريفها ورطوباتها لطال الكلام وكل ذلك محتاج اليه للاكل ولامور أخر سواه بل في الآدمي آلاف من العضلات والعروق والاعصاب مختلفة بالصغر والكبر والدقة والغلظ وكثرة الانقسام وقلته ولا شئ منها الا وفيه حكمة أو اثنتان أو ثلاث أو أربع الى عشر وزيادة وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك لو سكن من جملتها عرق متحرك أو تحرك عرق ساكن لهلكت يا مسكين فانظر الى نعمة الله تعالى عليك أولا لتقوى بعدها على الشكر فانك لا تعرف من نعمة الله سبحانه الا الاكل وهو أخسها ثم لا تعرف منها الا انك تجوع فتأكل والحمار أيضا يعلم انه يجوع فيأكل ويتعب فينام ويشتهى فيجامع ويستنهض فينهض ويرمح فاذا لم تعرف أنت من نفسك الا ما يعرفه الحمار فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك وهذا الذى رمزنا اليه على الايجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط فقس على الاجمال ما أهملناه من الجملة ما عرفناه حذرا من التطويل وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالاضافة الى ما لم يعرفوه من نعم الله تعالى أقل من قطرة من بحر الا أن من علم شيأ من هذا أدرك شمة من معانى قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الاعضاء وقوام منافعها وادراكاتها وقواها ببخار لطيف يتصاعد من الاخلاط الاربعة ومستقره القلب ويسرى في جميع البدن بواسطة العروق الضوارب فلا ينتهى الى جزء من أجزاء البدن الا ويحدث عند وصوله في تلك الاجزاء ما يحتاج اليه من قوة حس وادراك وقوة حركة وغيرها كالسراج الذى يدار في أطراف البيت فلا يصل الى جزء الا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت من خلق الله تعالى واختراعه ولكنه جعل السراج سببا له بحكمته وهذا البخار اللطيف هو الذى تسميه الاطباء الروح ومحله القلب ومثاله جرم نار السراج والقلب له كالمسرجة والدم الاسود الذى في باطن القلب له كالفتيلة والغذاء له كالزيت والحياة الظاهرة في سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج في جملة البيت وكما أن السراج اذا انقطع زيته انطفأ فسراج الروح أيضا ينطفئ مهما انقطع غذاؤه وكما أن الفتيلة قد تحترق فتصير رمادا بحيث لا تقبل الزيت فينطفئ السراج مع كثرة الزيت فكذلك الدم الذى تشبث به هذا البخار في القلب قد يحترق بفرط حرارة القلب فينطفئ مع وجود الغذاء فانه لا يقبل الغذاء الذى يبقى به الروح كما لا يقبل الرماد الزيت قبولا تتشبث النار به وكما أن السراج تارة ينطفئ بسبب من داخل كما ذكرناه وتارة بسبب من خارج كريح عاصف فكذلك الروح تارة تنطفئ بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج وهو القتل وكما أن انطفاء السراج بفناء الزيت أو بفساد الفتيلة أو بريح عاصف أو باطفاء انسان لا يكون الا باسباب مقدرة في علم الله مرتبة ويكون كل ذلك بقدر فكذلك انطفاء الروح وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك أجله الذى أجل له في أم الكتاب فكذلك انطفاء الروح وكما أن السراج اذا انطفأ أظلم البيت كله فالروح اذا انطفأ أظلم البدن كله وفارقته أنواره التى كان يستفيدها من الروح وهى أنوار الاحساسات والقدر والارادات وسائر ما يجمعها معنى لفظ الحياة فهذا أيضا رمز وجيز الى عالم آخر من عوالم نعم الله تعالى وعجائب صنعه وحكمته ليعلم انه لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى عز وجل فتعسا لمن كفر بالله تعسا وسحقا لمن كفر نعمته سحقا فان قلت فقد وصفت الروح ومثلته ورسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الروح فلم يزد عن أن قال قل الروح من أمر ربى فلم يصفه لهم على هذا الوجه فاعلم أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع في لفظ الروح فان الروح يطلق لمعان كثيرة لا نطول بذكرها ونحن انما وصفنا من

عنده ويرفق بوجده منه فيقصده من ايش قصده الدين ولا بغيته سلوك طريق المتقين فافتتن وأفتن وبقي في خطة القصور ووقع في دائرة الفتور فما يستغني الشيخ عن الاستمداد من الله تعالى والتضرع بين يدي الله بقلبه ان لم يكن بقالبه وقلبه فيكون له في كل كلمة الى الله رجوع وفي كل حركة بين يدي الله خضوع وانما دخلت الفتنة على المغرورين المدعين للقوة والاسترسال في الكلام والمخالطة لقلة معرفتهم بصفات النفس واغترارهم بيسير من الموهبة وقلة تأدبهم بالشيوخ كان الجنيد رحمه الله يقول لاصحابه لو علمت ان صلاة ركعتين لي أفضل من جلوسي معكم ما جلست عندكم فاذا رأى الفضل في الخلوة يخلو واذا رأى الفضل في الجلوة يجلس مع الاصحاب فتكون

جملتها

جانها جسم لطيف اتسميه الاطباء روحا وقد عرفوا صفته ووجوده وكيفية سريانه فى الاعضاء وكيفية حصول الاحساس والقوى فى الاعضاء به حتى اذا خدر بعض الاعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدة فى مجرى هذا الروح فلا يعالجون موضع الخدر بل منابت الاعصاب ومواقع السدة فيها ويعالجونها بما يفتح السدة فأن هذا الجسم بلطفه ينفذ فى شباك العصب وبواسطته يتأدى من القلب الى سائر الاعضاء وما يرتقى اليه معرفة الاطباء فأمره سهل نازل وأما الروح التى هى الاصل وهى التى اذا فسدت فسد لها سائر البدن فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه ولا رخصة فى وصفه الا بان يقال هو أمر ربانى كما قال تعالى قل الروح من أمر ربى والامور الربانية لا تحتمل العقول وصفها بل تتحير فيها عقول أكثر الخلق وأما الاوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن ادراك الاصوات وتتزلزل فى ذكر مبادى وصفها معاقد العقول المقيدة بالجوهر والعرض المحبوسة فى مضيقها فلا يدرك بالعقل شئ من وصفه بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل يشرق ذلك النور فى عالم النبوة والولاية نسبته الى العقل نسبة العقل الى الوهم والخيال وقد خلق الله تعالى الخلق أطوارا فكما يدرك الصبى المحسوسات ولا يدرك المعقولات لان ذلك طور لم يبلغه بعد فكذلك يدرك البالغ المعقولات ولا يدرك ماوراءها لان ذلك طور لم يبلغه بعد وانه لمقام شريف ومشرب عذب ورتبة عالية فيها يلحظ جناب الحق بنور الايمان واليقين وذلك المشرب أعز من أن يكون شريعة لكل وارد بل لا يطلع عليه الا واحد بعد واحد ولجناب الحق صدر وفى مقدمة الصدر مجال وميدان رحب وعلى أول الميدان عتبة هى مستقر ذلك الامر الربانى فمن لم يكن له على هذه العتبة جواز ولا لحافظ العتبة مشاهدة استحال أن يصل الميدان فكيف بالانتهاء الى ماوراءه من المشاهدات العالية ولذلك قيل من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه وأنى يصادف هذا فى خزانة الاطباء ومن أين للطبيب أن يلاحظه بل المعنى المسمى روحا عند الطبيب بالاضافة الى هذا الامر الربانى كالكرة التى يحركها صولجان الملك بالاضافة الى الملك فمن عرف الروح الطبى فظن انه أدرك الامر الربانى كان كمن رأى الكرة التى يحركها صولجان الملك فظن انه رأى الملك ولا يشك فى أن خطأه فاحش وهذا الخطأ أفحش منه جدا ولما كانت العقول التى بها يحصل التكليف وبها تدرك مصالح الدنيا عقولا قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الامر لم يأذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدث عنه بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم ولم يذكر الله تعالى فى كتابه من حقيقة هذا الامر شيأ لكن ذكر نسبته وفعله ولم يذكر ذاته أما نسبته ففى قوله تعالى من أمر ربى وأما فعله فقد ذكر فى قوله تعالى يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ولنرجع الآن الى الغرض فان المقصود ذكر نعم الله تعالى فى الاكل فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى فى آلات الاكل (الطرف الرابع فى نعم الله تعالى فى الاصول التى يحصل عنها الاطعمة وتصير صالحة لان يصلحها الآدمى بعد ذلك بصنعته) اعلم ان الاطعمة كثيرة ولله تعالى فى خلقها عجائب كثيرة لا تحصى وأسباب متوالية لا تتناهى وذكر ذلك فى كل طعام مما يطول فان الاطعمة اما أدوية واما فواكه واما أغذية فلنأخذ الاغذية فانها الاصل ولنأخذ من جملتها حبة من البر ولندع سائر الاغذية فنقول اذا وجدت حبة أو حبات فلو أكلتها فنيت وبقيت جائعا فما أحوجك الى أن تنمو الحبة فى نفسها وتزيد وتتضاعف حتى تفى بتمام حاجتك فخلق الله تعالى فى حبة الحنطة من القوى ما يغتذى به كما خلق فيك فان النبات انما يفارقك فى الحس والحركة ولا يخالفك فى الاغتذاء لانه يغتذى بالماء ويجتذب الى باطنه بواسطة العروق كما تغتذى أنت وتجتذب ولسنا نطنب فى ذكر آلات النبات فى اجتذاب الغذاء الى نفسه ولكن نشير الى غذائه فنقول كما أن الخشب والتراب لا يغذيك بل تحتاج الى طعام مخصوص فكذلك الحبة لا تغتذى بكل شئ بل تحتاج الى شئ مخصوص بدليل أنك لو تركتها فى البيت لم تزد لانه ليس يحيط بها الا الهواء ومجرد الهواء لا يصلح لغذائها ولو تركتها فى الماء لم تزد ولو تركتها فى أرض لا ماء فيها لم تزد بل لا بد من أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالارض فيصير طينا واليه الاشارة بقوله تعالى فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ثم لا يكفى الماء والتراب اذ لو تركت فى أرض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء فيحتاج الى تركها فى أرض رخوة متخلخلة يتغلغل الهواء اليها ثم الهواء لا يتحرك

خلوته فى حماية جلوته
وجلوته مزيد الخلوته
وفى هذا سر وذلك ان
الآدمى ذو تركيب
مختلف فيه تضاد وتغاير
على ما أسلفنا من كونه
مترددا بين السفلى
والعلوى ولما فيه من
التغاير له حظ من
الفتور عن الصبر على
صرف الحق ولهذا
كان لكل عامل فترة
والفترة قد تكون تارة
فى صورة العمل وتارة
فى عدم الروح فى العمل
وان لم تكن فى صورة
العمل ففى وقت الفترة
للمريدين والسالكين
تضييع واستروح للنفس
وركون الى البطالة فمن
بلغ رتبة المشيخة انصرف
قسم فترته الى الخلق
فافلح الخلق بقسم فترته
وما ضاع قسم فترته
كضياعه فى حق المريدين
فالمريد يعود من الفترة
بقوة الشدة وحدة
الطلب الى الاقبال على
الله والشيخ يكتسب
الفضيلة من نفع الخلق
بقسم فترته ويعود الى

اليها بنفسه فيحتاج الى ريح تحرك الهواء وتضربه بقهر وعنف على الارض حتى ينفذ فيها واليه الاشارة بقوله تعالى وأرسلنا الرياح لواقح وانما القاحها في ايقاع الازدواج بين الهواء والماء والارض ثم كل ذلك لا يغنيك لو كان في برد مفرط وشتاء شات فتحتاج الى حرارة الربيع والصيف فقد بان احتياج غذائه الى هذه الاربعة فانظر الى ماذا يحتاج كل واحد اذ يحتاج الماء لينساق الى أرض الزراعة من البحار والعيون والانهار والسواقي فانظر كيف خلق الله البحار وفجر العيون وأجرى منها الانهار ثم الارض ربما تكون مرتفعة والمياه لا ترتفع اليها فانظر كيف خلق الله تعالى الغيوم وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها باذنه الى أقطار الارض وهي سحب ثقال حوامل بالماء ثم انظر كيف يرسله مدرارا على الاراضي في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تتفجر منها العيون تدريجا فلو خرجت دفعة لغرقت البلاد وهلك الزرع والمواشي ونعم الله في الجبال والسحاب والبحار والامطار لا يمكن احصاؤها وأما الحرارة فانها لا تحصل بين الماء والارض وكلاهما باردان فانظر كيف سخر الشمس وكيف خلقها مع بعدها عن الارض مسخنة للارض في وقت دون وقت ليحصل البرد عند الحاجة الى البرد والحر عند الحاجة الى الحر فهذه احدى حكم الشمس والحكم فيها أكثر من أن تحصى ثم النبات اذا ارتفع عن الارض كان في الفواكه انعقاد وصلابة فتفتقر الى رطوبة تنضجها فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب كما جعل من خاصية الشمس التسخين فهو ينضج الفواكه ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم ولذلك لو كانت الاشجار في ظل يمنع شروق الشمس والقمر وسائر الكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة حتى ان الشجرة الصغيرة تفسد اذا أظلتها شجرة كبيرة وتعرف ترطيب القمر بان تكشف رأسك له بالليل فتغلب على رأسك الرطوبة التي يعبر عنها بالزكام فكما يرطب رأسك يرطب الفاكهة أيضا ولا نطول فيما لا مطمع في استقصائه بل نقول كل كوكب في السماء فقد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للترطيب فلا يخلو واحد منها عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر باحصائها ولو لم يكن كذلك لكان خلقها عبثا وباطلا ولم يصح قوله تعالى ربنا ما خلقت هذا باطلا وقوله عز وجل وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين وكما انه ليس في أعضاء بدنك عضو الا لفائدة فليس في أعضاء بدن العالم عضو الا لفائدة والعالم كله كشخص واحد وآحاد أجسامه كالاعضاء له وهي متعاونة تعاون أعضاء بدنك في جملة بدنك وشرح ذلك يطول ولا ينبغي أن تظن أن الايمان بان النجوم والشمس والقمر مسخرات بامر الله سبحانه في أمور جعلت أسبابا لها بحكم الحكمة مخالف للشرع لما ورد فيه من النهي عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم بل المنهي عنه في النجوم أمران أحدهما ان تصدق بانها فاعلة لآثارها مستقلة بها وانها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها وهذا كفر * والثاني تصديق المنجمين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك كافة الخلق في دركها لانهم يقولون ذلك عن جهل فان علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الانبياء عليهم السلام ثم اندرس ذلك العلم فلم يبق الا ما هو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطأ فاعتقاد كون الكواكب أسبابا لآثار تحصل بخلق الله تعالى في الارض وفي النبات وفي الحيوان ليس قادحا في الدين بل هو حق ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قادح في الدين ولذلك اذا كان معك ثوب غسلته وتريد تجفيفه فقال لك غيرك أخرج الثوب وابسطه فان الشمس قد طلعت وحمي النهار والهواء لا يلزمك تكذيبه ولا يلزمك الانكار عليه بحوالة تحمي الهواء على طلوع الشمس واذا سألت عن تغير وجه الانسان فقال قرعتني الشمس في الطريق فاسود وجهي لم يلزمك تكذيبه بذلك وقس بهذا سائر الآثار الا أن الآثار بعضها معلوم وبعضها مجهول فالمجهول لا يجوز دعوى العلم فيه والمعلوم بعضه معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس وبعضه لبعض الناس كحصول الزكام بشروق القمر فاذا الكواكب ما خلقت عبثا بل فيها حكم كثيرة لا تحصى ولهذا نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السماء وقرأ قوله تعالى ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ثم قال صلى الله عليه وسلم ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته ومعناه أن يقرأ ويترك التأمل ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك مما تعرفه البهائم أيضا فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو

أوطان خلوته وخاص حاله بنفس مشرئبة أكثر من عود الفقير بعدة ارادته من فترته فيعود من الخلق الى الخلوة منتزع الفتور بقلب متعطش وافر النور وروح متقاصة عن مضيق مطالعة الاغيار قادمة بجدة شغفها الى دار القرار * ومن وظيفة الشيخ حسن خلقه مع أهل الارادة والطلب والنزول من حقه فيما يجب من التبجيل والتعظيم للمشايخ واستعماله التواضع (حكى) الرقي قال كنت بمصر وكنا في المسجد جماعة من الفقراء جلوسا فدخل الزقاق فقام عند اسطوانة يركع فقلنا يفرغ الشيخ من صلاته ونقوم نسلم عليه فلما فرغ جاء الينا وسلم علينا فقلنا نحن كنا أولى بهذا من الشيخ فقال ما عذب الله قلبي بهذا قط يعني ما تقيدت

الذى مسح بهاسـبلته فلله تعالى فى ملكوت السموات والآفات والانفس والحيوانات عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى فان من أحب عالما فلا يزال مشغولا بطلب تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حباله فكذلك الامر فى عجائب صنع الله تعالى فان العالم كله من تصنيفه بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذى صنفه بواسطة قلوب عباده فان تعجبت من تصنيف فلا تتعجب من المصنف بل من الذى سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه كما اذا رأيت لعب المشعوذ ترقص وتتحرك حركات موزونة متناسبة فلا تعجب من اللعب فانها خرق محركة لا متحركة ولكن تعجب من حذق المشعوذ المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الابصار فاذا المقصود أن غذاء النبات لا يتم الا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب ولا يتم ذلك الا بالافلاك التى هى مركوزة فيها ولا تتم الافلاك الا بحركاتها ولا تتم حركاتها الا بملائكة سماوية يحركونها وكذلك يتمادى ذلك الى أسباب بعيدة تركنا ذكرها تنبيها بما ذكرناه على ما أهملناه ولنقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات

(الطرف الخامس فى نعم الله تعالى فى الاسباب الموصلة للاطعمة اليك) اعلم ان هذه الاطعمة كلها لا توجد فى كل مكان بل لها شروط مخصوصة لاجلها توجد فى بعض الاماكن دون بعض والناس منتشرون على وجه الارض وقد تبعد عنهم الاطعمة ويحول بينهم وبينها البحار والبرارى فانظر كيف سخر الله تعالى التجار وسلط عليهم حرص حب المال وشهوة الربح مع انهم لا يغنيهم فى غالب الامر شئ بل يجمعون فاما أن تغرق بها السفن أو تنهبها قطاع الطريق أو يموتوا فى بعض البلاد فيأخذها السلاطين وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم وهم أشد أعدائهم لو عرفوا فانظر كيف سلط الله الجهل والغفلة عليهم حتى يقاسوا الشدائد فى طلب الربح ويركبوا الاخطار ويغرروا بالارواح فى ركوب البحر فيحملون الاطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب اليك وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن وكيفية الركوب فيها وانظر كيف خلق الحيوانات وسخرها للركوب والحمل فى البرارى وانظر الى الابل كيف خلقت والى الفرس كيف أمدت بسرعة الحركة والى الحمار كيف جعل صبورا على التعب والى الجمال كيف تقطع البرارى وتطوى المراحل تحت الاعباء الثقيلة على الجوع والعطش وانظر كيف سيرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات فى البر والبحر ليحملوا اليك الاطعمة وسائر الحوائج وتأمل ما يحتاج اليه الحيوانات من أسبابها وأدواتها وعلفها وما تحتاج اليه السفن فقد خلق الله تعالى جميع ذلك الى حد الحاجة وفوق الحاجة واحصاء ذلك غير ممكن ويتمادى ذلك الى أمور خارجة عن الحصر نرى تركها طلبا للايجاز (الطرف السادس فى اصلاح الاطعمة) اعلم أن الذى ينبت فى الارض من النبات وما يخلق من الحيوانات لا يمكن أن يقضم ويؤكل وهو كذلك بل لابد فى كل واحد من اصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف بالقاء البعض وابقاء البعض الى أمور أخر لا تحصى واستقصاء ذلك فى كل طعام يطول فلنعين رغيفا واحدا ولننظر الى ما يحتاج اليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للاكل من بعد القاء البذر فى الارض فاول ما يحتاج اليه الحراث ليزرع ويصلح الارض ثم الثور والذى يثير الارض والفدان وجميع أسبابه ثم بعد ذلك التعهد بسقى الماء مدة ثم تنقية الارض من الحشيش ثم الحصاد ثم الفرك والتنقية ثم الطحن ثم العجن ثم الخبز فتأمل عدد هذه الافعال التى ذكرناها ومالم نذكره وعدد الاشخاص القائمين بها وعدد الآلات التى يحتاج اليها من الحديد والخشب والحجر وغيره وانظر الى أعمال الصناع فى اصلاح آلات الحراثة والطحن والخبز من نجار وحداد وغيرهما وانظر الى حاجة الحداد الى الحديد والرصاص والنحاس وانظر كيف خلق الله تعالى الجبال والاحجار والمعادن وكيف جعل الارض قطعا متجاورات مختلفة فان فتشت علمت أن رغيفا واحدا لا يستدير بحيث يصلح لاكلك يا مسكين مالم يعمل عليه أكثر من ألف صانع فابتدئ من الملك الذى يزجى السحاب لينزل الماء الى آخر الاعمال من جهة الملائكة حتى تنتهى النوبة الى عمل الانسان فاذا استدار طلبه قريب من سبعة آلاف صانع كل صانع أصل من أصول الصنائع التى بها تتم مصلحة الخلق ثم تأمل كثرة أعمال الانسان فى تلك الآلات حتى ان الابرة التى هى آلة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذى يمنع البرد عنك لا تكمل صورتها من حديدة تصلح للابرة الا بعد أن تمر على يد الابرى خمسا وعشرين مرة ويتعاطى فى كل مرة منها عملا فلو لم يجمع الله تعالى البلاد ولم يسخر العباد وافتقرت

بان أحترم وأنفذ *ومن آداب الشيوخ النزول الى حال المريدين من الرفق بهم وبسطهم (قال بعضهم) اذا رأيت الفقير القه بالرفق ولا تلقه بالعلم فان الرفق يؤنسه والعلم يوحشه فاذا فعل الشيخ هذا المعنى من الرفق يتدرج المريد ببركة ذلك الى الانتفاع بالعلم فيعامل حينئذ بصريح العلم *ومن آداب الشيوخ التعطف على الاصحاب وقضاء حقوقهم فى الصحة والمرض ولا يترك حقوقهم اعتمادا على ارادتهم وصدقهم قال بعضهم لا تضيع حق أخيك بما بينك وبينه من المودة (وحكى) عن الحريرى قال وافيت من الحج فابتدأت بالجنيد وسلمت عليه وقلت حتى لا يتعنى ثم أتيت منزلى فلما صليت الغداة التفت واذا بالجنيد خلفى فقلت يا سيدى انما ابتدأت بالسلام عليك لكيلا تتعنى الى ههنا فقال لى

الى عمل المنجل الذى تحصد به البر مثلا بعد نباته لتنفد عمرك وعجزت عنه أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذى خلقه من نطفة قذرة لان يعمل هذه الاعمال العجيبة والصنائع الغريبة فانظر الى المقراض مثلا وهما جلمان متطابقان ينطبق أحدهما على الآخر فيتناولان الشئ معا و يقطعانه بسرعة ولولم يكشف الله تعالى طريق اتخاذه بفضله وكرمه لمن قبلنا وافتقرنا الى استنباط الطريق فيه بفكرنا ثم الى استخراج الحديد من الحجر والى تحصيل الآلات التى بها يعمل المقراض وعمر الواحد منا عمر نوح وأوتى أكمل العقول لقصر عمره عن استنباط الطريق فى اصلاح هذه الآلة وحدها فضلا عن غيرها فسبحان من ألحق ذوى الابصار بالعميان وسبحان من منع التبيين مع هذا البيان فانظر الآن لو خلا بلدك عن الطحان مثلا أو عن الحداد أو عن الحجام الذى هو أخس الاعمال أو عن الحائك أو عن واحد من جملة الصناع ماذا يصيبك من الاذى وكيف تضطرب عليك أمورك كلها فسبحان من سخر بعض العباد لبعض حتى نفذت به مشيئته وتمت به حكمته ولنوجز القول فى هذه الطبقة أيضا فان الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء

(الطرف السابع فى اصلاح المصلحين)

اعلم أن هؤلاء الصناع المصلحين للاطعمة وغيرها لو تفرقت آراؤهم وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحش لتبددوا وتباعدوا ولم ينتفع بعضهم ببعض بل كانوا كالوحوش لا يحويهم مكان واحد ولا يجمعهم غرض واحد فانظر كيف ألف الله تعالى بين قلوبهم وسلط الانس والمحبة عليهم ولو أنفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم فلاجل الالف وتعارف الارواح اجتمعوا وائتلفوا وبنوا المدن والبلاد ورتبوا المساكن والدور متقاربة متجاورة ورتبوا الاسواق والخانات وسائر أصناف البقاع مما يطول احصاؤه ثم هذه المحبة تزول باغراض يتزاحمون عليها ويتنافسون فيها ففى جبلة الانسان الغيظ والحسد والمنافسة وذلك مما يؤدى الى التقاتل والتنافر فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين وأمدهم بالقوة والعدة والاسباب وألقى رعبهم فى قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعا وكرها وكيف هدى السلاطين الى طريق اصلاح البلاد حتى رتبوا أجزاء البلد كأنها أجزاء شخص واحد تتعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها بالبعض فرتبوا الرؤساء والقضاة والسجن وزعماء الاسواق واضطروا الخلق الى قانون العدل وألزموهم التساعد والتعاون حتى صار الحداد ينتفع بالقصاب والخباز وسائر أهل البلد وكلهم ينتفعون بالحداد وصار الحجام ينتفع بالحراث والحراث بالحجام وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه كما يتعاون جميع أعضاء البدن وينتفع بعضها ببعض وانظر كيف بعث الانبياء عليهم السلام حتى أصلحوا السلاطين المصلحين للرعايا وعرفوهم قوانين الشرع فى حفظ العدل بين الخلق وقوانين السياسة فى ضبطهم وكشفوا من أحكام الامامة والسلطنة وأحكام الفقه ما اهتدوا به الى اصلاح الدنيا فضلا عما أرشدوهم اليه من اصلاح الدين وانظر كيف أصلح الله تعالى الانبياء بالملائكة وكيف أصلح الملائكة بعضهم ببعض الى أن ينتهى الى الملك المقرب الذى لا واسطة بينه وبين الله تعالى فالخباز يخبز العجين والطحان يصلح الحب بالطحن والحراث يصلحه بالحصاد والحداد يصلح آلات الحراثة والنجار يصلح آلات الحداد وكذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الاطعمة والسلطان يصلح الصناع والانبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم والعلماء يصلحون السلاطين والملائكة يصلحون الانبياء الى أن ينتهى الى حضرة الربوبية التى هى ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف وكل ذلك نعم من رب الارباب ومسبب الاسباب ولولا فضله وكرمه اذ قال تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا لما اهتدينا الى معرفة هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى ولولا عزله ايانا عن أن نطمع بعين الطمع الى الاحاطة بكنه نعمه لتشوفنا الى طلب الاحاطة والاستقصاء ولكنه تعالى عزلنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فان تكلمنا فباذنه انبسطنا وان سكتنا فبقهره انقبضنا اذ لا معطى لما منع ولا مانع لما أعطى لانا فى كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار لمن الملك اليوم لله الواحد القهار فالحمد لله الذى ميزنا عن الكفار واسمعنا هذا النداء قبل انقضاء الاعمار

يا أبا محمد هذا حقك وذاك فضلك * ومن آداب الشيوخ انهم اذا علموا من بعض المسترشدين ضعفا فى مراغمة النفس وقهرها واعتماد صدق العزيمة أن يرفقوا به ويوقفوه على حد الرخصة ففى ذلك خير كثير وما دام العبد لا يتخطى حريم الرخصة فهو حرىّ ثم اذا ثبت وخالط الفقراء وتدرب فى لزوم الرخصة يدرج بالرفق الى أوطان العزيمة (قال أبو سعيد بن الاعرابى) كان شاب يعرف بابراهيم الصائغ وكان لابيه نعمة فانقطع الى الصوفية وصحب أبا أحمد القلانسى فربما كان يقع بيد أبى أحمد شئ من الدراهم فكان يشترى له الرقاق والشواء والحلواء ويؤثره عليه ويقول هذا خرج من الدنيا وقد تعود النعمة فيجب أن نرفق به ونؤثره على غيره * ومن آداب الشيوخ التنزه عن مال المريد وخدمته

(الطرف الثامن في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام)

ليس يخفى عليك ما سبق من نعمة الله في خلق الملائكة باصلاح الانبياء عليهم السلام وهدايتهم وتبليغ الوحي اليهم ولا تظنن انهم مقتصرون في أفعالهم على ذلك القدر بل طبقات الملائكة مع كثرتهم وترتيب مراتبهم تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات الملائكة الارضية والسماوية وحملة العرش فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع الى الاكل والغذاء الذي ذكرناه دون ما يجاوز ذلك من الهداية والارشاد وغيرهما واعلم أن كل جزء من أجزاء بدنك بل من أجزاء النبات لا يغتذى الا بان يوكل به سبعة من الملائكة هو أقله الى عشرة الى مائة الى ما وراء ذلك وبيانه أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف وذلك الغذاء يصير دما في آخر الامر ثم يصير لحما وعظما واذا صار لحما وعظما تم اغتذاؤك والدم واللحم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار فهي لا تتحرك بانفسها ولا تتغير بانفسها ومجرد الطبع لا يكفي في ترددها في أطوارها كما أن البر بنفسه لا يصير طحينا ثم عجينا ثم خبزا مستديرا مخبوزا الا بصناع فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحما وعظما وعروقا وعصبا الا بصناع والصناع في الباطن هم الملائكة كما أن الصناع في الظاهر هم أهل البلد وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغي أن تغفل عن نعمه الباطنة فاقول لابد من ملك يجذب الغذاء الى جوار اللحم والعظم فان الغذاء لا يتحرك بنفسه ولابد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره ولابد من ثالث يخلع عنه صورة الدم ولابد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم ولابد من خامس يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذاء ولابد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتى لا يكون منفصلا ولابد من سابع يرعى المقادير في الالصاق فيلحق بالمستدير ما لا يبطل استدارته وبالعريض ما لا يزيل عرضه وبالمجوف ما لا يبطل تجويفه ويحفظ على كل واحد قدر حاجته فانه لو جمع مثلا من الغذاء على أنف الصبي ما يجمع على فخذه لكبر أنفه وبطل تجويفه وتشوهت صورته وخلقته بل ينبغي أن يسوق الى الاجفان مع رقتها والى الحدقة مع صفائها والى الافخاذ مع غلظها والى العظم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل والا بطلت الصورة وربا بعض المواضع وضعف بعض المواضع بل لو لم يراع هذا الملك العدل في القسمة والتقسيط فساق الى رأس الصبي وسائر بدنه من الغذاء ما ينمو به الى احدى الرجلين مثلا لبقيت تلك الرجل كما كانت في حد الصغر وكبر جميع البدن فكنت ترى شخصا في ضخامة رجل وله رجل واحدة كأنها رجل صبي فلا ينتفع بنفسه البتة فمراعاة هذه الهندسة في هذه القسمة مفوضة الى ملك من الملائكة ولا تظنن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه فان محيل هذه الامور على الطبع جاهل لا يدري ما يقول فهذه هي الملائكة الارضية وقد شغلوا بك وأنت في النوم تستريح وفي الغفلة تتردد وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولا خبر لك منهم وذلك في كل جزء من أجزائك الذي لا يتجزأ حتى يفتقر بعض الاجزاء كالعين والقلب الى أكثر من مائة ملك تركنا تفصيل ذلك للايجاز والملائكة الارضية مددهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم لا يحيط بكنهه الا الله تعالى ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش والمنعم على جملتهم بالتأييد والهداية والتسديد المهيمن القدوس المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت جبار السموات والارض مالك الملك ذو الجلال والاكرام والاخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والارض واجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب الى جانب أكثر من أن تحصى فلذلك تركنا الاستشهاد به فان قلت فهلا فوضت هذه الافعال الى ملك واحد ولم افتقر الى سبعة أملاك والحنطة أيضا تحتاج الى من يطحن أولا ثم الى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانيا ثم الى من يصب الماء عليه ثالثا ثم الى من يعجن رابعا ثم الى من يقطعه كرات مدورة خامسا ثم الى من يرقها رغفانا عريضة سادسا ثم الى من يلصقها بالتنور سابعا ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد ويستقل به فهلا كانت أعمال الملائكة باطنا كأعمال الانس ظاهرا فاعلم أن خلقة الملائكة تخالف خلقة الانس وما من واحد منهم الا وهو وحداني الصفة ليس فيه خلط وتركيب البتة فلا يكون لكل واحد منهم الا فعل واحد واليه الاشارة بقوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل بل مثالهم في تعين مرتبة كل واحد منهم وفعله مثال الحواس

والارتفاق من جانبه بوجه من الوجوه لانه جاه الله تعالى فيجعل نفعه وارشاده خالصا لوجه الله تعالى فما يسدي الشيخ للمريد من أفضل الصدقات (وقد ورد) ما تصدق متصدق بصدقة أفضل من علم يبثه في الناس وقد قال الله تعالى تنبيها على خلوص ما لله وحراسته من الشوائب انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا فلا ينبغي للشيخ ان يطلب على صدقته جزاء الا أن يظهر له في شئ من ذلك علم يرد عليه من الله تعالى في قبول الرفق منه أو صلاح يتراءى للشيخ في حق المريد بذلك فيكون التلبس بماله والارتفاق بخدمته لمصلحة تعود على المريد بما مونة الغائلة من جانب الشيخ قال الله تعالى يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج

الحس فان البصر لا يزاحم السمع فى ادراك الاصوات ولا الشم يزاحمهما ولاهما ينازعان الشم وليس كاليد والرجل فانك قد تبطش بأصابع الرجل بطشا ضعيفا فتزاحم بها اليد وقد تضرب غيرك برأسك فتزاحم اليد التى هى آلة الضرب ولا كالانسان الواحد الذى يتولى بنفسه الطحن والعجن والخبز فان هذا نوع من الاعوجاج والعدول عن العدل سببه اختلاف صفات الانسان واختلاف دواعيه فانه ليس وحدانى الصفة فلم يكن وحدانى الفعل ولذلك ترى الانسان يطيع الله مرة ويعصيه أخرى لاختلاف دواعيه وصفاته وذلك غير ممكن فى طباع الملائكة بل هم مجبولون على الطاعة لا مجال للمعصية فى حقهم فلا جرم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ويسبحون الليل والنهار لا يفترون والراكع منهم راكع أبدا والساجد منهم ساجد أبدا والقائم قائم أبدا لا اختلاف فى أفعالهم ولا فتور ولكل واحد مقام معلوم لا يتعداه وطاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال للمخالفة فيهم يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك فانك مهما جزمت الارادة بفتح الاجفان لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف فى طاعتك مرة ومعصيتك أخرى بل كانه منتظر لامرك ونهيك ينفتح وينطبق متصلا باشارتك فهذا يشبهه من وجه لكن يخالفه من وجه اذ الجفن لا علم له بما يصدر منه من الحركة فتحا وطبقا والملائكة احياء عالمون بما يعملون فاذا هذه نعمة الله عليك فى الملائكة الارضية والسماوية وحاجتك اليهما فى غرض الاكل فقط دون ما عداها من الحركات والحاجات كلها فانا لم نطول بذكرها فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم ومجامع الطبقات لا يمكن احصاؤها فكيف آحاد ما يدخل تحت مجامع الطبقات فاذا قد أسبغ الله تعالى نعمه عليك ظاهرة وباطنة ثم قال وذروا ظاهر الاثم وباطنه فترك باطن الاثم مما لا يعرفه الخلق من الحسد وسوء الظن والبدعة واضمار الشر للناس الى غير ذلك من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة وترك الاثم الظاهر بالجوارح شكر للنعمة الظاهرة بل أقول كل من عصى الله تعالى ولو فى تطريفة واحدة بان فتح جفنه مثلا حيث يجب غض البصر فقد كفر كل نعمة لله تعالى عليه فى السموات والارض وما بينهما فان كل ما خلقه الله تعالى حتى الملائكة والسموات والارض والحيوانات والنبات بجملته نعمة على كل واحد من العباد قد تم به انتفاعه وان انتفع غيره أيضا به فان لله تعالى فى كل تطريفة بالجفن نعمتين فى نفس الجفن اذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ بها يتم انخفاض الجفن الاعلى وارتفاع الجفن الاسفل وعلى كل جفن شعور سود ونعمة الله تعالى فى سوادها انها تجمع ضوء العين اذ البياض يفرق الضوء والسواد يجمعه ونعمة الله فى ترتيبها صفا واحدا أن يكون مانعا للهوام من الدبيب الى باطن العين ومتشبثا للاقذاء التى تتناثر فى الهواء وله فى كل شعرة منها نعمتان من حيث لين أصلها ومع اللين قوام نصبها وله فى اشتباك الاهداب نعمة أعظم من الكل وهو أن غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ولو طبق لم يبصر فيجمع الاجفان مقدار ما تتشابك الاهداب فينظر من وراء شباك الشعر فيكون شباك الشعر مانعا من وصول القذى من خارج وغير مانع من امتداد البصر من داخل ثم ان أصاب الحدقة غبار فقد خلق أطراف الاجفان حادة منطبقة على الحدقة كالمصقلة للمرآة فيطبقها مرة أو مرتين وقد انصقلت الحدقة من الغبار وخرجت الاقذاء الى زوايا العين والاجفان والذباب لما لم يكن لحدقته جفن خلق له يدين فتراه على الدوام يمسح بهما حدقتيه ليصقلهما من الغبار واذا تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لافتقاره الى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب ولعلنا نستأنف له كتابا مقصودا فيه ان أمهل الزمان وساعد التوفيق نسميه عجائب صنع الله تعالى فلنرجع الى غرضنا فنقول من نظر الى غير محرم فقد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى فى الاجفان ولا تقوم الاجفان الا بعين ولا العين الا برأس ولا الرأس الا بجميع البدن ولا البدن الا بالغذاء ولا الغذاء الا بالماء والارض والهواء والمطر والغيم والشمس والقمر ولا يقوم شئ من ذلك الا بالسموات ولا السموات الا بالملائكة فان الكل كالشئ الواحد يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض فاذا قد كفر كل نعمة فى الوجود من منتهى الثريا الى منتهى الثرى فلم يبق فلك ولا ملك ولا حيوان ولا نبات ولا جماد الا ويلعنه ولذلك ورد فى الاخبار أن البقعة التى يجتمع فيها الناس اما أن تلعنهم اذا تفرقوا أو تستغفر لهم وكذلك ورد ان العالم يستغفر له كل شئ حتى الحوت فى البحر وأن الملائكة يلعنون العصاة فى ألفاظ كثيرة لا يمكن احصاؤها وكل

ذلك

أضغانكم معنى يحفكم أى يجهدكم ويلح عليكم قال قتادة علم الله تعالى أن فى خروج المال اخراج الاضغان وهذا تاديب من الله الكريم والادب أدب الله * قال جعفر الخلدى جاء رجل الى الجنيد وأراد أن يخرج عن ماله كله ويجلس معهم على الفقر فقال له الجنيد لا تخرج من مالك كله احبس منه مقدار ما يكفيك وأخرج الفضل وتقوت بما حبست واجتهد فى طلب الحلال لا تخرج كل ما عندك فلست آمن عليك أن تطالبك نفسك * وكان النبى عليه السلام اذا أراد أن يعمل عملا تثبت وقد يكون الشيخ يعلم من حال المريد انه اذا خرج من الشئ يكسبه من الحال ما لا يتطلع به الى المال فحينئذ يجوز له أن يفسح للمريد فى الخروج من المال كما فسح رسول الله صلى الله عليه وسلم لابى بكر وقبل

ذلك اشارة الى أن العاصى بتطريفة واحدة جنى على جميع ما فى الملك والملكوت وقد أهلك نفسه الا أن يتبع السيئة بحسنة تمحوها فيتبدل اللعن بالاستغفار فعسى الله أن يتوب عليه ويتجاوز عنه وأوحى الله تعالى الى أيوب عليه السلام يا أيوب ما من عبد لى من الآدميين الا ومعه ملكان فاذا شكرنى على نعمائى قال الملكان اللهم زده نعما على نعم فانك أهل الحمد والشكر فكن من الشاكرين قريبا فكفى بالشاكرين علو رتبة عندى أنى أشكر شكرهم وملائكتى يدعون لهم والبقاع تحبهم والآثار تبكى عليهم وكما عرفت أن فى كل طرفة عين نعما كثيرة فاعلم أن فى كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين اذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ولو لم يخرج لهلك وبانقباضه يجمع روح الهواء الى القلب ولو سد متنفسه لاحترق قلبه بانقطاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك بل اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة وفى كل ساعة قريب من ألف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات فعليك فى كل لحظة آلاف آلاف نعمة فى كل جزء من أجزاء بدنك بل فى كل جزء من أجزاء العالم فانظر هل يتصور احصاء ذلك أم لا ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها قال الهى كيف أشكرك ولك فى كل شعرة من جسدى نعمتان أن لينت أصلها وان طمست رأسها وكذا ورد فى الاثر أن من لم يعرف نعم الله الا فى مطعمه ومشربه فقد قل علمه وحضر عذابه وجميع ما ذكرناه يرجع الى المطعم والمشرب فاعتبر ما سواه من النعم به فان البصير لا تقع عينه فى العالم على شئ ولا يلم خاطره بموجود الا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليه فلنترك الاستقصاء والتفصيل فانه طمع فى غير مطمع

(بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر)

اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة الا الجهل والغفلة فانهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم ولا يتصور شكر النعمة الا بعد معرفتها ثم انهم ان عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه الحمد لله الشكر لله ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة فى اتمام الحكمة التى أريدت بها وهى طاعة الله عز وجل فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين الا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان أما الغفلة عن النعم فلها أسباب وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق ويسلم لهم فى جميع أحوالهم نعمة فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم لانها عامة للخلق مبذولة لهم فى جميع أحوالهم فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصا به فلا يعده نعمة ولا تراهم يشكرون الله على روح الهواء ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ولو حبسوا فى بيت حمام فيه هواء حار أو فى بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ماتوا غما فان ابتلى واحد منهم بشئ من ذلك ثم نجا ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليها وهذا غاية الجهل اذ صار شكرهم موقوفا على أن تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم فى بعض الاحوال والنعمة فى جميع الاحوال أولى بان تشكر فى بعضها فلا ترى البصير يشكر صحة بصره الا أن تعمى عينه فعند ذلك لو أعيد عليه بصره أحس به وشكره وعده نعمة ولما كانت رحمة الله واسعة عم الخلق وبذلها لهم فى جميع الاحوال فلم يعده الجاهل نعمة وهذا الجاهل مثل العبد السوء حقه أن يضرب دائما حتى اذا ترك ضربه ساعة تقلد به منة فان ترك ضربه على الدوام غلبه البطر وترك الشكر فصار الناس لا يشكرون الا المال الذى يتطرق الاختصاص اليه من حيث الكثرة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم كما شكا بعضهم فقره الى بعض أرباب البصائر وأظهر شدة اغتمامه به فقال له أيسرك انك أعمى ولك عشرة آلاف درهم فقال لا فقال أيسرك انك أخرس ولك عشرة آلاف درهم فقال لا فقال أيسرك انك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفا فقال لا فقال أيسرك انك مجنون ولك عشرة آلاف درهم فقال لا فقال أما تستحى ان تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا وحكى ان بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعا فرأى فى المنام كأن قائلا يقول له تود أنا أنسيناك من القرآن سورة الانعام وان لك ألف دينار قال لا قال فسورة هود قال لا قال فسورة يوسف قال لا فعدد عليه سورا ثم قال فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو فاصبح وقد سرى عنه ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء وبيده كوز ماء يشربه فقال له عظنى فقال لو لم تعط هذه الشربة الا ببذل جميع أموالك والا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه قال نعم فقال لو لم تعط الا بملكك كله فهل كنت

منه جميع ماله (ومن آداب الشيخ اذا رأى من بعض المريدين مكروها أو علم من حاله اعوجاجا أو أحس منه بدعوى أو رأى انه داخله عجب أن لا يصرح له بالمكروه بل يتكلم مع الاصحاب ويشير الى المكروه الذى يعلم ويكشف عن وجه المذمة مجملا فتحصل بذلك الفائدة للكل فهذا أقرب الى المداراة وأكثر أثرا فى تألف القلوب واذا رأى من المريد تقصيرا فى خدمة ندبه اليها يحمل تقصيره ويعفو عنه ويحرضه على الخدمة بالرفق واللين والى ذلك ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب ابن على قال أنا أبو الفتح الكروخى قراءة عليه قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى أنا أبو عيسى

تتركه قال نعم قال فلا تفرح بملك لا يساوى شربة ماء فبهذا تبين ان نعمة الله تعالى على العبد فى شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الارض كلها واذا كانت الطباع مائلة الى اعتداد النعمة الخاصة نعمة دون العامة وقد ذكرنا النعم العامة فلنذكر اشارة وجيزة الى النعم الخاصة فنقول ما من عبد الا ولو أمعن النظر فى أحواله رأى من الله نعمة أو نعما كثيرة تخصه لا يشاركه فيها الناس كافة بل يشاركه عدد يسير من الناس وربما لا يشاركه فيها أحد وذلك يعترف به كل عبد فى ثلاثة أمور فى العقل والخلق والعلم أما العقل فما من عبد لله تعالى الا وهو راض عن الله فى عقله يعتقد انه أعقل الناس وقل من يسأل الله العقل وان من شرف العقل ان يفرح به الخالى عنه كما يفرح به المتصف به فاذا كان اعتقاده انه أعقل الناس فواجب عليه ان يشكره لانه ان كان كذلك فالشكر واجب عليه وان لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة فى حقه فمن وضع كنزا تحت الارض فهو يفرح به ويشكر عليه فان أخذ الكنز من حيث لا يدرى فيبقى فرحه بحسب اعتقاده ويبقى شكره لانه فى حقه كالباقى وأما الخلق فما من عبد الا ويرى من غيره عيوبا يكرهها واخلاقا يذمها وانما يذمها من حيث يرى نفسه بريأ عنها فاذا لم يشتغل بذم الغير فينبغى أن يشتغل بشكر الله تعالى اذ حسن خلقه وابتلى غيره بالخلق السيئ وأما العلم فما من أحد الا ويعرف من بواطن أمور نفسه وخفايا أفكاره ما هو منفرد به ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح فكيف لو اطلع الناس كافة فاذن لكل عبد علم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله فلم لا يشكر ستر الله الجميل الذى أرسله على وجه مساويه فاظهر الجميل وستر القبيح وأخفى ذلك عن أعين الناس وخصص علمه به حتى لا يطلع عليه أحد فهذه ثلاثة من النعم خاصة يعترف بها كل عبد اما مطلقا واما فى بعض الامور فلننزل عن هذه الطبقة الى طبقة أخرى أعم منها قليلا فنقول ما من عبد الا وقد رزقه الله تعالى فى صورته أو شخصه أو اخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو أقاربه أو عزه أو جاهه أو فى سائر محابه أمورا لو سلب ذلك منه وأعطى ما خصص به غيره لكان لا يرضى به وذلك مثل ان جعله مؤمنا لا كافرا وحيا لا جمادا وانسانا لا بهيمة وذكرا لا أنثى وصحيحا لا مريضا وسليما لا معيبا فان كل هذه خصائص وان كان فيها عموم أيضا فان هذه الاحوال لو بدلت باضدادها لم يرض بها بل له أمور لا يبدلها باحوال الآدميين أيضا وذلك اما أن يكون بحيث لا يبدله بما خص به أحد من الخلق أو لا يبدله بما خص به الاكثر فاذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فاذا حاله أحسن من حال غيره واذا كان لا يعرف شخصا يرتضى لنفسه حاله بدلا عن حال نفسه اما على الجملة واما فى أمر خاص فاذا لله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواه وان كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر الى عدد المغبوطين عنده فانه لا محالة يراهم أقل بالاضافة الى غيرهم فيكون من دونه فى الحال أكثر بكثير مما هو فوقه فما باله ينظر الى من فوقه ليزدرى نعم الله تعالى على نفسه ولا ينظر الى من دونه ليستعظم نعم الله عليه وما باله لا يسوى دنياه بدينه أليس اذا لامته نفسه على سيئة يقارفها يعتذر اليها بان فى الفساق كثرة فينظر أبدا فى الدين الى من دونه لا الى من فوقه فلم لا يكون نظره فى الدنيا كذلك فاذا كان حال أكثر الخلق فى الدين خيرا منه وحاله فى الدنيا خير من حال أكثر الخلق فكيف لا يلزمه الشكر ولهذا قال صلى الله عليه وسلم من نظر فى الدنيا الى من هو دونه ونظر فى الدين الى من هو فوقه كتبه الله صابرا وشاكرا ومن نظر فى الدنيا الى من هو فوقه وفى الدين الى من هو دونه لم يكتبه الله صابرا ولا شاكرا فاذا كل من اعتبر حال نفسه وفتش عما خص به وجد لله تعالى على نفسه نعما كثيرة لا سيما من خص بالسنة والايمان والعلم والقرآن ثم الفراغ والصحة والامن وغير ذلك ولذلك قيل

من شاء عيشا رحيبا يستطيل به ﴿﴾ فى دينه ثم فى دنياه اقبالا
فلينظرن الى من فوقه ورعا ﴿﴾ ولينظرن الى من دونه مالا

وقال صلى الله عليه وسلم من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله وهذا اشارة الى نعمة العلم وقال عليه السلام ان القرآن هو الغنى الذى لا غنى بعده ولا فقر معه وقال عليه السلام من آتاه الله القرآن فظن ان أحدا أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله وقال صلى الله عليه وسلم ليس منا من لم يتغن بالقرآن وقال عليه السلام كفى باليقين غنى وقال بعض السلف يقول الله تعالى فى بعض الكتب المنزلة ان عبدا أغنيته عن ثلاثة لقد أتممت عليه نعمتى عن سلطان يأتيه وطبيب يداويه وعما فى يد أخيه وعبر الشاعر عن هذا فقال

الترمذى قال ثنا قتيبة قال ثنا رشدين بن سعد عن أبى هلال الخولانى عن ابن عباس بن جليد الحجرى عن عبد الله بن عمر قال جاء رجل الى النبى عليه السلام فقال يا رسول الله كم أعفو عن الخادم قال كل يوم سبعين مرة * وأخلاق المشايخ مهذبة بحسن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أحق الناس باحياء سنته فى كل ما أمر وندب وأنكر وأوجب (ومن جملة مهام الآداب) حفظ أسرار المريدين فيما يكاشفون به ويمنحون من أنواع المنح فسر المريد لا يتعدى ربه وشيخه ثم يحقر الشيخ فى نفس المريد ما يجده فى خلوته من كشف أو سماع خطاب أو شئ من خوارق العادات ويعرفه أن الوقوف مع شئ من هذا يشغل عن الله ويسد باب المزيد بل يعرفه ان هذه نعمة تشكر

اذا ما القوت يأتيك * كذا الصحة والامن   وأصبحت أخا حزن * فلا فارقك الحزن

بل أرشق العبارات وأفصح الكلمات كلام أفصح من نطق بالضاد حيث عبر صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى فقال من أصبح آمنا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ومهما تأملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث مع انها وبال عليهم ولا يشكرون نعمة الله في هذه الثلاث ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الايمان الذي به وصولهم الى النعيم المقيم والملك العظيم بل البصير ينبغي أن لا يفرح الا بالمعرفة واليقين والايمان بل نحن نعلم من العلماء من لو سلم اليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الارض من المشرق الى المغرب من أموال واتباع وانصار وقيل له خذها عوضا عن علمك بل عن عشر عشير علمك لم يأخذه وذلك لرجائه ان نعمة العلم تفضي به الى قرب الله تعالى في الآخرة بل لو قيل له لك في الآخرة ما ترجوه بكماله فخذ هذه اللذات في الدنيا بدلا عن التذاذك بالعلم في الدنيا وفرحك به لكان لا يأخذه لعلمه بان لذة العلم دائمة لا تنقطع وباقية لا تسرق ولا تغصب ولا ينافس فيها وانها صافية لا كدورة فيها ولذات الدنيا كلها ناقصة مكدرة مشوشة لا يفي مرجوها بمخوفها ولا لذتها بألمها ولا فرحها بغمها هكذا كانت الى الآن وهكذا تكون ما بقي الزمان اذ ما خلقت لذات الدنيا الا لتجلب بها العقول الناقصة وتخدع حتى اذا انخدعت وتقيدت بها ابت عليها واستعصت كالمرأة الجميل ظاهرها تتزين للشاب الشبق الغني حتى اذا تقيد بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه فلا يزال معها في تعب قائم وعناء دائم وكل ذلك باغتراره بلذة النظر اليها في لحظة ولو عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره فهكذا وقعت أرباب الدنيا في شباك الدنيا وحبائلها ولا ينبغي أن تقول ان المعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها فان المقبل عليها أيضا متألم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها وتألم المعرض يفضي الى لذة في الآخرة وتألم المقبل يفضي الى الالم في الآخرة فليقرأ المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى ولا تهنوا في ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون فاذا انسد طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة فان قلت فما علاج هذه القلوب الغافلة حتى تشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر فأقول أما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل فيما رمزنا اليه من أصناف نعم الله تعالى العامة وأما القلوب البليدة التي لا تعد النعمة نعمة الا اذا خصتها أو شعرت بالبلاء معها فسبيلها أن ينظر أبدا الى من دونه ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية اذ كان يحضر كل يوم دار المرضى والمقابر والمواضع التي تقام فيها الحدود فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ثم يتأمل في صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الامراض ويشكر الله تعالى ويشاهد الجناة الذين يقتلون وتقطع أطرافهم ويعذبون بانواع العذاب ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنايات ومن تلك العقوبات ويشكر الله تعالى على نعمة الامن ويحضر المقابر فيعلم ان أحب الاشياء الى الموتى أن يردوا الى الدنيا ولو يوما واحدا أما من عصى الله فليتدارك وأما من أطاع فليزد في طاعته فان يوم القيامة يوم التغابن فالمطيع مغبون اذ يرى جزاء طاعته فيقول كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات فما أعظم غبني اذ ضيعت بعض الاوقات في المباحات وأما العاصي فغبنه ظاهر فاذا شاهد المقابر وعلم ان أحب الاشياء اليهم ان يكون قد بقي لهم من العمر ما بقي له فيصرف بقية العمر الى ما يشتهي أهل القبور والعود لاجله ليكون ذلك معرفه لنعم الله تعالى في بقية العمر بل الامهال في كل نفس من الانفاس واذا عرف تلك النعمة شكر بان يصرف العمر الى ما خلق العمر لاجله وهو التزود من الدنيا للآخرة فهذا علاج هذه القلوب الغافلة تشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر وقد كان الربيع بن خيثم مع تمام استبصاره يستعين بهذه الطريق تأكيدا للمعرفة فكان قد حفر في داره قبرا فكان يضع غلا في عنقه وينام في لحده ثم يقول رب ارجعون لعلي أعمل صالحا ثم يقوم ويقول يا ربيع قد أعطيت ما سألت فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد ومما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن تعرف أن النعمة اذا لم تشكر زالت ولم تعد ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول عليكم بملازمة الشكر على النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت اليهم وقال بعض السلف النعم وحشية فقيدوها بالشكر وفي الخبر ما عظمت

ومن وراء النعم لا تحصى ويعرفه ان شان المريد طلب المنعم لا النعمة حتى يبقى سره محفوظا عند نفسه وعند شيخه ولا يذيع سره فاذاعة الاسرار من ضيق الصدر وضيق الصدر الموجب لاذاعة السر يوصف به النسوان وضعفاء العقول من الرجال وسبب اذاعة السر ان للانسان قوتين آخذة ومعطية وكلتاهما تتشوف الى الفعل المختص بها ولولا ان الله تعالى وكل المعطية باظهار ما عندها ما ظهرت الاسرار فكامل العقل كلما طلبت القوة الفعل قيدها ووزنها بالعقل حتى يضعها في مواضعها فيحل حال الشيوخ عن اذاعة الاسرار لرزانة عقولهم وينبغي للمريد أن يحفظ سره من شيخه في ذلك صحته وسلامته ونأ ييد الله سبحانه وتعالى يتدارك المريدين الصادقين في ورودهم ومصدرهم

نعمة الله تعالى على عبد الا كثرت حوائج الناس اليه فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال وقال الله سبحانه ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فهذا تمام هذا الركن

﴿الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر﴾

﴿بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شئ واحد﴾

لعلك تقول ما ذكرته في النعم اشارة الى ان لله تعالى في كل موجود نعمة وهذا يشير الى ان البلاء لا وجود له أصلا فما معنى الصبر اذا وان كان البلاء موجودا فما معنى الشكر على البلاء وقد ادعى مدعون انا نشكر على البلاء فضلا عن الشكر على النعمة فكيف يتصور الشكر على البلاء وكيف يشكر على ما يصبر عليه والصبر على البلاء يستدعي ألما والشكر يستدعي فرحا وهما يتضادان وما معنى ما ذكرتموه من أن لله تعالى في كل ما أوجده نعمة على عباده فاعلم ان البلاء موجود كما ان النعمة موجودة والقول باثبات النعمة يوجب القول باثبات البلاء لانهما متضادان ففقد البلاء نعمة وفقد النعمة بلاء ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم الى نعمة مطلقة من كل وجه أما في الآخرة فكسعادة العبد بالنزول في جوار الله تعالى وأما في الدنيا فكالايمان وحسن الخلق وما يعين عليهما والى نعمة مقيدة من وجه دون وجه كالمال الذي يصلح الدين من وجه ويفسده من وجه فكذلك البلاء ينقسم الى مطلق ومقيد أما المطلق في الآخرة فالبعد من الله تعالى اما مدة واما أبدا وأما في الدنيا فالكفر والمعصية وسوء الخلق وهي التي تفضي الى البلاء المطلق وأما المقيد فكالفقر والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التي لا تكون بلاء في الدين بل في الدنيا فالشكر المطلق للنعمة المطلقة أما البلاء المطلق في الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه لان الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه وكذا المعصية بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصي نعم الكافر قد لا يعرف انه كافر فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بسبب غشية أو غيرها فلا صبر عليه والعاصي يعرف انه عاص فعليه ترك المعصية بل كل بلاء يقدر الانسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه فلو ترك الانسان الماء مع طول العطش حتى عظم تألمه فلا يؤمر بالصبر عليه بل يؤمر بازالة الالم وانما الصبر على ألم ليس الى العبد ازالته فاذا يرجع الصبر في الدنيا الى ما ليس ببلاء مطلق بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر فان الغنى مثلا يجوز أن يكون سببا لهلاك الانسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل وتقتل أولاده والصحة أيضا كذلك فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية الا ويجوز أن تصير بلاء ولكن بالاضافة اليه فكذلك ما من بلاء الا ويجوز أن يصير نعمة ولكن بالاضافة الى حاله فرب عبد تكون الخيرة له في الفقر والمرض ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبغى قال الله تعالى ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض وقال تعالى كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى وقال صلى الله عليه وسلم ان الله ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما يحمي أحدكم مريضه وكذلك الزوجة والولد والقريب وكل ما ذكرناه في الاقسام الستة عشر من النعم سوى الايمان وحسن الخلق فانها يتصور أن تكون بلاء في حق بعض الناس فتكون اضدادها اذا نعما في حقهم اذ قد سبق أن المعرفة كمال ونعمة فانها صفة من صفات الله تعالى ولكن قد تكون على العبد في بعض الامور بلاء ويكون فقدها نعمة مثاله جهل الانسان بأجله فانه نعمة عليه اذ لو عرفه ربما تنغص عليه العيش وطال بذلك غمه وكذلك جهله بما يضمره الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه اذ لو رفع الستر واطلع عليه لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه اذ لو عرفها أبغضه وآذاه وكان ذلك وبالا عليه في الدنيا والآخرة بل جهله بالخصال المحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه فانه ربما يكون وليا لله تعالى وهو يضطر الى ايذائه واهانته ولو عرف ذلك وآذى كان اثمه لا محالة أعظم فليس من آذى نبيا أو وليا وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف ومنها ابهام الله تعالى أمر القيامة وابهامه ليلة القدر وساعة يوم الجمعة وابهامه بعض الكبائر فكل ذلك نعمة لان هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل فكيف في العلم وحيث قلنا ان لله تعالى في كل موجود نعمة فهو حق وذلك مطرد في حق كل أحد ولا يستثنى عنه بالظن الا الآلام التي يخلقها في بعض الناس وهي أيضا قد تكون نعمة في حق المتألم بها فان لم تكن

(الباب الثالث والخمسون في حقيقة الصحبة وما فيها من الخير والشر) المقتضى للصحبة وجود الجنسية وقد يدعو اليها أعم الاوصاف وقد يدعو اليها أخص الاوصاف فالدعاء بأعم الاوصاف كميل جنس البشر بعضهم الى بعض والدعاء بأخص الاوصاف كميل أهل كل ملة بعضهم الى بعض ثم أخص من ذلك كميل أهل الطاعة بعضهم الى بعض وكميل أهل المعصية بعضهم الى بعض فاذا علم هذا الاصل وان الجاذب الى الصحبة وجود الجنسية بالاعم تارة وبالاخص أخرى فليتفقد الانسان نفسه عند الميل الى صحبة شخص وينظر ما الذي يميل به الى صحبته ويزن أحوال من يميل اليه بميزان الشرع فان رأى أحواله مسددة فليبشر نفسه بحسن الحال فقد جعل الله تعالى مرآته مجلوة يلوح له في مرآة

نعمة فى حقه كالالم الحاصل من المعصية كقطعه يد نفسه ووشمه بشرته فانه يتألم به وهو عاص به وألم الكفار فى النار فهو أيضا نعمة ولكن فى حق غيرهم من العباد لا فى حقهم لان مصائب قوم عند قوم فوائد ولولا أن الله تعالى خلق العذاب وعذب به طائفة لما عرف المتنعمون قدر نعمه ولا كثر فرحهم بها ففرح أهل الجنة انما يتضاعف اذا تفكروا فى آلام أهل النار أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم اليها من حيث انها عامة مبذولة ولا يشتد فرحهم بالنظر الى زينة السماء وهى أحسن من كل بستان لهم فى الارض يجتهدون فى عمارته ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها فاذا قد صح ما ذكرناه من ان الله تعالى لم يخلق شيأ الا وفيه حكمة ولا خلق شيأ الا وفيه نعمة اما على جميع عباده أو على بعضهم فاذا فى خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضا اما على المبتلى أو على غير المبتلى فاذا كل حالة لا توصف بانها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على العبد وظيفتان الصبر والشكر جميعا فان قلت فهما متضادان فكيف يجتمعان اذ لا صبر الا على غم ولا شكر الا على فرح فاعلم أن الشئ الواحد قد يغتم به من وجه ويفرح به من وجه آخر فيكون الصبر من حيث الاغتمام والشكر من حيث الفرح وفى كل فقر ومرض وخوف وبلاء فى الدنيا خمسة أمور ينبغى أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها * أحدها أن كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها اذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى فلو ضعفها الله تعالى وزادها ماذا كان يرده ويحجزه فليشكر اذ لم تكن أعظم منها فى الدنيا * الثانى انه كان يمكن أن تكون مصيبته فى دينه قال رجل لسهل رضى الله تعالى عنه دخل اللص بيتى وأخذ متاعى فقال اشكر الله تعالى لو دخل الشيطان قلبك فافسد التوحيد ماذا كنت تصنع ولذلك استعاذ عيسى عليه الصلاة والسلام فى دعائه اذ قال اللهم لا تجعل مصيبتى فى دينى وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ما ابتليت ببلاء الا كان لله تعالى على فيه أربع نعم اذ لم يكن فى دينى واذ لم يكن أعظم منه واذ لم أحرم الرضا به واذ أرجو الثواب عليه وكان لبعض أرباب القلوب صديق فحبسه السلطان فأرسل اليه يعلمه ويشكو اليه فقال له اشكر الله فضربه فارسل اليه يعلمه ويشكو اليه فقال اشكر الله فجئ بمجوسى فحبس عنده وكان مبطونا فقيد وجعل حلقة من قيده فى رجله وحلقة فى رجل المجوسى فارسل اليه فقال اشكر الله فكان المجوسى يحتاج الى أن يقوم مرات وهو يحتاج أن يقوم معه ويقف على رأسه حتى يقضى حاجته فكتب اليه بذلك فقال اشكر الله فقال الى متى هذا وأى بلاء أعظم من هذا فقال لو جعل الزنار الذى فى وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع فاذا ما من انسان قد أصيب ببلاء الا ولو تأمل حق التأمل فى سوء أدبه ظاهرا وباطنا فى حق مولاه لكان يرى انه يستحق أكثر مما أصيب به عاجلا وآجلا ومن استحق عليك ان يضربك مائة سوط فاقتصر على عشرة فهو مستحق للشكر ومن استحق عليك أن يقطع يديك فترك احداهما فهو مستحق للشكر ولذلك مر بعض الشيوخ فى شارع فصب على رأسه طشت من رماد فسجد لله تعالى سجدة الشكر فقيل له ما هذه السجدة فقال كنت أنتظر أن تصب على النار فالاقتصار على الرماد نعمة وقيل لبعضهم ألا تخرج الى الاستسقاء فقد احتبست الامطار فقال أنتم تستبطئون المطر وأنا أستبطئ الحجر فان قلت كيف أفرح وأرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتى ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار فاعلم أن الكافر قد خبئ له ما هو أكثر وانما أمهل حتى يستكثر من الاثم ويطول عليه العقاب كما قال تعالى انما نملى لهم ليزدادوا اثما وأما العاصى فن أين تعلم ان فى العالم من هو أعصى منه ورب خاطر بسوء أدب فى حق الله تعالى وفى صفاته أعظم وأطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصى بالجوارح ولذلك قال تعالى فى مثله وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم فن أين تعلم ان غيرك أعصى منك ثم لعله قد أخرت عقوبته الى الآخرة وعجلت عقوبتك فى الدنيا فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك وهذا هو الوجه الثالث فى الشكر وهو انه ما من عقوبة الا وكان يتصور ان تؤخر الى الآخرة ومصائب الدنيا يتسلى عنها باسباب أخر تهون المصيبة فيخف وقعها ومصيبة الآخرة تدوم وان لم تدم فلا سبيل الى تخفيفها بالتسلى اذ أسباب التسلى مقطوعة بالكلية فى الآخرة عن المعذبين ومن عجلت عقوبته فى الدنيا فلا يعاقب ثانيا اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان العبد اذا أذنب ذنبا فاصابته شدة أو بلاء فى الدنيا فالله أكرم من ان يعذبه ثانيا * الرابع ان هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه فى أم الكتاب وكان لا بد من وصولها اليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو

أخيه بجمال حسن الحال وان رأى أفعاله غير مسددة فيرجع الى نفسه باللائمة والاتهام فقد لاح له فى مرآة أخيه سوء حاله فبالجدير أن يفر منه كفراره من الاسد فانهما اذا اصطحبا ازدادا ظلمة واعوجاجا ثم اذا علم من صاحبه الذى مال اليه حسن الحال وحكم لنفسه بحسن الحال طالع ذلك فى مرآة أخيه فليعلم أن الميل بالوصف الاعم مركوز فى جبلته والميل بطريقه واقع وله بحسبه أحكام وللنفس بسببه سكون وركون فيسلب الميل بالوصف الاعم جدوى الميل بالوصف الاخص ويصير بين المتصاحبين استرواحات طبيعية وتلذذات جبلية لا يفرق بينها وبين خلوص الصحبة لله الا العلماء الزاهدون وقد يفسد المريد الصادق باهل الصلاح أكثر مما

من جميعها فهذه نعمة * الخامس أن ثوابها أكثر منها فان مصائب الدنيا طرق الى الآخرة من وجهين أحدهما الوجه الذى يكون به الدواء الكريه نعمة فى حق المريض ويكون المنع من أسباب اللعب نعمة فى حق الصبى فانه لو خلى واللعب كان يمنعه ذلك عن العلم والادب فكان يخسر جميع عمره فكذلك المال والاهل والاقارب والاعضاء حتى العين التى هى أعز الاشياء قد تكون سببا لهلاك الانسان فى بعض الاحوال بل العقل الذى هو أعز الامور قد يكون سببا لهلاكه فالملحدة غدا يتمنون لو كانوا مجانين أو صبيانا ولم يتصرفوا بعقولهم فى دين الله تعالى فما من شئ من هذه الاسباب يوجد من العبد الا ويتصور أن يكون له فيه خيرة دينية فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويقدر فيه الخيرة ويشكره عليه فان حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد وغدا يشكره العباد على البلايا اذا رأوا ثواب الله على البلايا كما يشكر الصبى بعد العقل والبلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه اذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب والبلاء من الله تعالى تاديب وعنايته بعباده أتم وأوفر من عناية الآباء بالاولاد فقد روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصنى قال لا تتهم الله فى شئ قضاه عليك ونظر صلى الله عليه وسلم الى السماء فضحك فسئل فقال عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن ان قضى له بالسراء رضى وكان خيرا له وان قضى له بالضراء رضى وكان خيرا له * الوجه الثانى ان رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا ورأس أسباب النجاة التجافى بالقلب عن دار الغرور ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب الى الدنيا وأسبابها وأنسه بها حتى تصير كالجنة فى حقه فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته واذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يسكن اليها ولم يأنس بها وصارت سجنا عليه وكانت نجاته منها غاية اللذة كالخلاص من السجن ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد الا الحياة الدنيا ورضى بها واطمأن اليها والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا شديد الحنين الى الخروج منها والكفر بعضه ظاهر وبعضه خفى وبقدر حب الدنيا فى القلب يسرى فيه الشرك الخفى بل الموحد المطلق هو الذى لا يحب الا الواحد الحق فاذا فى البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به وأما التألم فهو ضرورى وذلك يضاهى فرحك عند الحاجة الى الحجامة بمن يتولى حجامتك مجانا أو يسقيك دواء نافعا بشعا مجانا فانك تتألم وتفرح فتصبر على الالم وتشكره على سبب الفرح فكل بلاء فى الامور الدنيوية مثاله الدواء الذى يؤلم فى الحال وينفع فى المآل بل من دخل دار ملك للنظارة وعلم انه يخرج منها لا محالة فرأى وجها حسنا لا يخرج معه من الدار كان ذلك وبالا وبلاء عليه لانه يورثه الانس بمنزل لا يمكنه المقام فيه ولو كان عليه فى المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه فاصابه ما يكره حتى نفره عن المقام كان ذلك نعمة عليه والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرحم وهم خارجون عنها من باب اللحد فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة فمن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلايا ومن لم يعرف هذه النعم فى البلاء لم يتصور منه الشكر لان الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة ومن لا يؤمن بان ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة وحكى ان اعرابيا عزى ابن عباس على أبيه فقال

اصبر نكن بك صابرين فانما * صبر الرعية بعد صبر الراس

خير من العباس أجرك بعده * والله خير منك للعباس

فقال ابن عباس ما عزانى أحد أحسن من تعزيته والاخبار الواردة فى الصبر على المصائب كثيرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيرا يصب منه وقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى اذا وجهت الى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا وقال عليه السلام ما من عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله تعالى انا لله وانا اليه راجعون اللهم آجرنى فى مصيبتى وأعقبنى خيرا منها الا فعل الله ذلك به وقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى من سلبت كريمتيه فجزاؤه الخلود فى دارى والنظر الى وجهى وروى أن رجلا قال يا رسول الله ذهب مالى وسقم جسمى فقال صلى الله عليه وسلم لا خير فى عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه ان الله اذا أحب عبدا ابتلاه واذا ابتلاه صبره وقال رسول

يفسد باهل الفساد ووجه ذلك أن أهل الفساد علم فساد طريقهم فاخذ حذره وأهل الصلاح غره صلاحهم فمال اليهم بجنسية الصلاحية ثم حصل بينهم استرواحات طبيعية جبلية حالت بينهم وبين حقيقة الصحبة لله فاكتسب من طريقهم الفتور فى الطلب والتخلف عن بلوغ الارب فليتنبه الصادق لهذه الدقيقة ويأخذ من الصحبة أصفى الاقسام ويذر منها ما يسد فى وجهه المرام قال بعضهم هل رأيت شرا قط الا ممن تعرف ولهذا المعنى أنكر طائفة من السلف الصحبة ورأوا الفضيلة فى العزلة والوحدة كابراهيم بن أدهم وداود الطائى وفضيل ابن عياض وسليمان الخواص وحكى عنه أنه قيل له جاء ابراهيم بن أدهم أما تلقاه قال لان ألقى

الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل لتكون له الدرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك وعن خباب بن الارت قال أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة فشكونا اليه فقلنا يا رسول الله ألا تدعو الله تستنصره لنا فجلس محمرا لونه ثم قال ان من كان قبلكم ليؤتى بالرجل فيحفر له في الارض حفيرة ويجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه وعن على كرم الله وجهه قال أيما رجل حبسه السلطان ظلما فمات فهو شهيد وان ضربه فمات فهو شهيد وقال عليه السلام من اجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك وقال أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه تولدون للموت وتعمرون للخراب وتحرصون على ما يفنى وتذرون ما يبقى ألا حبذا المكروهات الثلاث الفقر والمرض والموت وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله بعبد خيرا وأراد أن يصافيه صب عليه البلاء صبا وثجه عليه ثجا فاذا دعاه قالت الملائكة صوت معروف وان دعاه ثانيا فقال يا رب قال الله تعالى لبيك عبدي وسعديك لا تسألني شيأ الا أعطيتك أو دفعت عنك ما هو خير وادخرت لك عندي ما هو أفضل منه فاذا كان يوم القيامة جئ بأهل الاعمال فوفوا أعمالهم بالميزان أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان يصب عليهم الاجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء صبا فيود أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب فذلك قوله تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال شكا نبي من الانبياء عليهم السلام الى ربه فقال يا رب العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوى عنه الدنيا وتعرض له البلاء ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويجترئ عليك وعلى معاصيك تزوى عنه البلاء وتبسط له الدنيا فأوحى الله تعالى اليه ان العباد لي والبلاء لي وكل يسبح بحمدي فيكون المؤمن عليه من الذنوب فأزوى عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقاني فأجزيه بحسناته ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له في الرزق وأزوى عنه البلاء فأجزيه بحسناته في الدنيا حتى يلقاني فأجزيه بسيآته وروى انه لما نزل قوله تعالى من يعمل سوأ يجز به قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض ألست يصيبك الاذى ألست تحزن فهذا مما تجزون به يعني أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك وعن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج ثم قرأ قوله تعالى فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ يعني لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخير حتى اذا فرحوا بما أوتوا أي بما أعطوا من الخير أخذناهم بغتة وعن الحسن البصري رحمه الله أن رجلا من الصحابة رضى الله عنهم رأى امرأة كان يعرفها في الجاهلية فكلمها ثم تركها فجعل الرجل يلتفت اليها وهو يمشي فصدمه حائط فأثر في وجهه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبة ذنبه في الدنيا وقال على كرم الله وجهه ألا أخبركم بأرجى آية في القرآن قالوا بلى فقرأ عليهم وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير فالمصائب في الدنيا بكسب الاوزار فاذا عاقبه الله في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا وان عفا عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة وعن أنس رضى الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما تجرع عبد قط جرعتين أحب الى الله من جرعة غيظ ردها بحلم وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها ولا قطرت قطرة أحب الى الله من قطرة دم اهريقت في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه الا الله وما خطا عبد خطوتين أحب الى الله تعالى من خطوة الى صلاة الفريضة وخطوة الى صلة الرحم وعن أبي الدرداء قال توفى ابن لسليمان بن داود عليهما السلام فوجد عليه وجدا شديدا فأتاه ملكان فجثيا بين يديه في زي الخصوم فقال أحدهما بذرت بذرا فلما استحصد مر به هذا فأفسده فقال للآخر ما تقول فقال أخذت الجادة فأتيت على زرع فنظرت يمينا وشمالا فاذا الطريق عليه فقال سليمان عليه السلام ولم بذرت على الطريق أما علمت أن لا بد للناس من الطريق قال فلم تحزن على ولدك أما علمت أن الموت سبيل الآخرة فتاب سليمان الى ربه ولم يجزع على ولد بعد ذلك ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض فقال يا بني لأن تكون في

سبعا ضاريا أحب الى من ان ألقى ابراهيم بن أدهم قال لانى اذا رأيته أحسن له كلامى وأظهر نفسى باظهار أحسن أحوالها وفى ذلك الفتنة وهذا كلام عالم بنفسه واخلاقها وهذا واقع بين المتصاحبين الا من عصمه الله تعالى أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقى اجازة قال أنا الحافظ أبو بكر محمد بن أحمد قال أنا أبو القاسم اسمعيل بن مسعدة قال أنا أبو عمرو محمد بن عبد الله بن أحمد قال أنا أبو سليمان أحمد بن محمد الخطابى قال أنا محمد بن بكر بن عبد الرزاق قال ثنا سليمان بن الاشعث قال ثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن عبد الرحمن بن أبي صعصعة عن أبيه عن أبي سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوشك ان يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها

ميزانى أحب الى من أن أكون فى ميزانك فقال يا أبت لأن يكون ما تحب أحب الى من أن يكون ما أحب وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه نعى اليه ابنة له فاسترجع وقال عورة سترها الله تعالى ومؤنة كفاها الله وأجر ساقه الله ثم نزل فصلى ركعتين ثم قال قد صنعنا ما أمر الله تعالى قال تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة وعن ابن المبارك انه مات له ابن فعزاه مجوسى يعرفه فقال له ينبغى للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام فقال ابن المبارك اكتبوا عنه هذه وقال بعض العلماء ان الله ليبتلى العبد بالبلاء بعد البلاء حتى يمشى على الارض وماله ذنب وقال الفضيل ان الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير وقال حاتم الاصم ان الله عز وجل يحتج يوم القيامة على الخلق باربعة أنفس على أربعة أجناس على الاغنياء بسليمان وعلى الفقراء بالمسيح وعلى العبيد بيوسف وعلى المرضى بايوب صلوات الله عليهم وروى ان زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بنى اسرائيل واختفى فى الشجرة فعرفوا ذلك فجىء بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار الى رأس زكريا فأن منه أنة فاوحى الله تعالى اليه يا زكريا لئن صعدت منك أنة ثانية لامحونك من ديوان النبوة فعض زكريا عليه السلام على الصبر حتى قطع شطرين وقال أبو مسعود البلخى من أصيب بمصيبة فمزق ثوبا أو ضرب صدرا فكأنما أخذ رمحا يريد أن يقاتل به ربه عز وجل وقال لقمان رحمه الله لابنه يا بنى ان الذهب يجرب بالنار والعبد الصالح يجرب بالبلاء فاذا أحب الله قوما ابتلاهم فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط وقال الاحنف بن قيس أصبحت يوما أشتكى ضرسى فقلت لعمى ما نمت البارحة من وجع الضرس حتى قلتها ثلاثا فقال لقد أكثرت من ضرسك فى ليلة واحدة وقد ذهبت عينى هذه منذ ثلاثين سنة ما علم بها أحد وأوحى الله تعالى الى عزير عليه السلام اذا نزلت بك بلية فلا تشكنى الى خلقى واشك الى كما لا أشكوك الى ملائكتى اذا صعدت مساويك وفضائحك نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجميل فى الدنيا والآخرة

﴿ بيان فضل النعمة على البلاء ﴾

لعلك تقول هذه الاخبار تدل على أن البلاء خير فى الدنيا من النعم فهل لنا أن نسأل الله البلاء فاقول لا وجه لذلك لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يستعيذ فى دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة وكان يقول هو والانبياء عليهم السلام ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وكانوا يستعيذون من شماتة الاعداء وغيرها وقال على كرم الله وجهه اللهم انى أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم لقد سألت الله البلاء فاسأله العافية وروى الصديق رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال سلوا الله العافية فما أعطى أحد أفضل من العافية الا اليقين وأشار باليقين الى عافية القلب عن مرض الجهل والشك فعافية القلب أعلى من عافية البدن وقال الحسن رحمه الله الخير الذى لا شر فيه العافية مع الشكر فكم من منعم عليه غير شاكر وقال مطرف بن عبد الله لان أعافى فأشكر أحب الى من أن ابتلى فاصبر وقال صلى الله عليه وسلم فى دعائه وعافيتك أحب الى وهذا أظهر من أن يحتاج فيه الى دليل واستشهاد وهذا لان البلاء صار نعمة باعتبارين أحدهما بالاضافة الى ما هو أكثر منه اما فى الدنيا أو فى الدين والآخر بالاضافة الى ما يرجى من الثواب فينبغى أن نسأل الله تمام النعمة فى الدنيا ودفع ما فوقه من البلاء ونسأله الثواب فى الآخرة على الشكر على نعمته فانه قادر على أن يعطى على الشكر ما لا يعطيه على الصبر فان قلت فقد قال بعضهم أود أن أكون جسرا على النار يعبر على الخلق كلهم فينجون وأكون أنا فى النار وقال سمنون رحمه الله تعالى

وليس لى فى سواك حظ * فكيفما شئت فاختبرنى

فهذا من هؤلاء سؤال للبلاء فاعلم انه حكى عن سمنون المحب رحمه الله انه بلى بعد هذا البيت بعلة الحصر فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان ادعوا لعمكم الكذاب وأما محبة الانسان ليكون هو فى النار دون سائر الخلق فغير ممكنة ولكن قد تغلب المحبة على القلب حتى يظن المحب بنفسه حبا مثل ذلك فمن شرب كأس المحبة سكر ومن سكر توسع فى الكلام ولو زايله سكره علم ان ما غلب عليه كان حالة لا حقيقة لها فما سمعته من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين أفرط حبهم وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يعول عليه كما حكى ان فاختة كان

شعاب الجبال ومواقع القطر يفر بدينه عن الفتن قال الله تعالى اخبارا عن خليله ابراهيم وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى استظهر بالعزلة على قومه (قيل) العزلة نوعان فريضة وفضيلة فالفريضة العزلة عن الشر وأهله والفضيلة عزلة الفضول وأهله ويجوز أن يقال الخلوة غير العزلة فالخلوة من الاغيار والعزلة من النفس وما تدعو اليه وما يشغل عن الله فالخلوة كثيرة الوجود والعزلة قليلة الوجود قال أبو بكر الوراق ما ظهرت الفتنة الا بالخلطة من لدن آدم عليه السلام الى يومنا هذا وما سلم الا من جانب الخلطة وقيل السلامة عشرة أجزاء تسعة فى الصمت وواحد فى العزلة وقيل الخلوة أصل والخلطة عارض فليلزم الاصل ولا يخالط الا بقدر الحاجة واذا خالط

يراودها زوجها فتمنعه فقال ما الذي يمنعك عني ولو أردت أن أقلب لك الكونين مع ملك سليمان ظهرا لبطن لفعلته لاجلك فسمعه سليمان عليه السلام فاستدعاه وعاتبه فقال يا نبي الله كلام العشاق لا يحكى وهو كما قال وقال الشاعر

أريد وصاله ويريد هجري * فأترك ما أريد لما يريد

وهو أيضا محال ومعناه انى أريد ما لا يريد لانه من أراد الوصال ما أراد الهجر فكيف أراد الهجر الذي لم يرده بل لا يصدق هذا الكلام الا بتأويلين أحدهما أن يكون ذلك في بعض الاحوال حتى يكتسب به رضاه الذي يتوصل به الى مراد الوصال في الاستقبال فيكون الهجران وسيلة الى الرضا والرضا وسيلة الى وصال المحبوب والوسيلة الى المحبوب محبوبة فيكون مثاله مثال محب المال اذا أسلم درهما في درهمين فهو يحب الدرهمين بترك الدرهم في الحال * الثاني أن يصير رضاه عنده مطلوبا من حيث انه رضاه فقط ويكون له لذة في استشعاره رضا محبوبه منه تزيد تلك اللذة على لذته في مشاهدته مع كراهته فعند ذلك يتصور أن يريد ما فيه الرضا فلذلك قد انتهى حال بعض المحبين الى أن صارت لذتهم في البلاء مع استشعارهم رضا الله عنهم أكثر من لذتهم في العافية من غير شعور الرضا فهؤلاء اذا قدروا رضاه في البلاء صار البلاء أحب اليهم من العافية وهذه حالة لا يبعد وقوعها في غلبان الحب ولكنها لا تثبت وان ثبتت مثلا فهل هي حالة صحيحة أم حالة اقتضتها حالة أخرى وردت على القلب فمالت به عن الاعتدال هذا فيه نظر وذكر تحقيقه لا يليق بما نحن فيه وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء فنسأل الله تعالى المنان بفضله على جميع خلقه العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين

(بيان الافضل من الصبر والشكر)

اعلم ان الناس اختلفوا في ذلك فقال قائلون الصبر أفضل من الشكر وقال آخرون الشكر أفضل وقال آخرون هما سيان وقال آخرون يختلف ذلك باختلاف الاحوال واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل فلا معنى للتطويل بالنقل بل المبادرة الى اظهار الحق أولى فنقول في بيان ذلك مقامان (المقام الاول) البيان على سبيل التساهل وهو ان ينظر الى ظاهر الامر ولا يطلب بالتفتيش حقيقته وهو البيان الذي ينبغي أن يخاطب به عوام الخلق لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة وهذا الفن من الكلام هو الذي ينبغي أن يعتمده الوعاظ اذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام اصلاحهم والظئر المشفقة لا ينبغي أن تصلح الصبي الطفل بالطيور والسمان وضروب الحلاوات بل باللبن اللطيف وعليها أن تؤخر عنه أطايب الاطعمة الى أن يصير محتملا لها بقوته ويفارق الضعف الذي هو عليه في بنيته فنقول هذا المقام في البيان يأبى البحث والتفصيل ومقتضاه النظر الى الظاهر المفهوم من موارد الشرع وذلك يقتضي تفضيل الصبر فان الشكر وان وردت أخبار كثيرة في فضله فاذا أضيف اليه ما ورد في فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر بل فيه ألفاظ صريحة في التفضيل كقوله صلى الله عليه وسلم من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر وفي الخبر يؤتى بأشكر أهل الارض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الارض فيقال له اما ترضى ان نجزيك كما جزينا هذا الشاكر فيقول نعم يارب فيقول الله تعالى كلا أنعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت لاضعفن لك الاجر عليه فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين وقد قال الله تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب وأما قوله الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر فهو دليل على ان الفضيلة في الصبر اذ ذكر ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر فالحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته ولولا انه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان الحاق الشكر به مبالغة في الشكر وهو كقوله صلى الله عليه وسلم الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل وكقوله صلى الله عليه وسلم شارب الخمر كعابد الوثن وأبدا المشبه به ينبغي أن يكون أعلى رتبة فكذلك قوله صلى الله عليه وسلم الصبر نصف الايمان لا يدل على أن الشكر مثله وهو كقوله عليه السلام الصوم نصف الصبر فان كل ما ينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفا وان كان بينهما تفاوت كما يقال الايمان هو العلم والعمل فالعمل هو نصف الايمان فلا يدل ذلك على ان العمل يساوي العلم وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم آخر الانبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه وفي خبر آخر يدخل سليمان بعد

لا يخالط الاعجمية واذا خالط يلازم الصمت فانه أصل والكلام عارض ولا يتكلم الاعجمية لخطر الصحبة كثير يحتاج العبد فيه الى مزيد علم والاخبار والآثار في التحذير عن الخلطة والصحبة كثيرة والكتب بها مشحونة واجمع الاخبار في ذلك ما أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح باسناده السابق الى أبي سليمان قال حدثنا أحمد ابن سلمان النجاد قال ثنا محمد بن يونس الكريمي قال ثنا محمد بن منصور الجشمي قال ثنا مسلم بن سالم قال ثنا السري بن يحيى عن الحسن عن أبي الاحوص عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأتين على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه الا من فر بدينه من قرية الى قرية ومن شاهق الى شاهق ومن حجر الى حجر كالثعلب الذي يروغ قالوا ومتى

الانبياء بأربعين خريفا وفى الخبر أبواب الجنة كلها مصراعان الاباب الصبر فانه مصراع واحد وأول من يدخله أهل البلاء أمامهم أيوب عليه السلام وكل ما ورد فى فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر لان الصبر حال الفقير والشكر حال الغنى فهذا هو المقام الذى يقنع العوام ويكفيهم فى الوعظ اللائق بهم والتعريف لما فيه صلاح دينهم

(المقام الثانى)* هو البيان الذى نقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الامور بطريق الكشف والايضاح فنقول فيه كل أمرين مبهمين لا تمكن الموازنة بينهما مع الابهام مالم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما وكل مكشوف يشتمل على أقسام لا تمكن الموازنة بين الجملة والجملة بل يجب أن تفرد الآحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة فلا يتبين حكمهما فى الرجحان والنقصان مع الاجمال فنقول قد ذكرنا ان هذه المقامات تنتظم من أمور ثلاثة علوم وأحوال وأعمال والشكر والصبر وسائر المقامات هى كذلك وهذه الثلاثة اذا وزن البعض منها بالبعض لاح للناظرين فى الظواهر ان العلوم تراد للاحوال والاحوال تراد للاعمال والاعمال هى الافضل وأما أرباب البصائر فالامر عندهم بالعكس من ذلك فان الاعمال تراد للاحوال والاحوال تراد للعلوم فالافضل العلوم ثم الاحوال ثم الاعمال لان كل مراد لغيره فذلك الغير لا محالة أفضل منه وأما آحاد هذه الثلاثة فالاعمال قد تتساوى وقد تتفاوت اذا أضيف بعضها الى بعض وكذا آحاد الاحوال اذا أضيف بعضها الى بعض وكذا آحاد المعارف وأفضل المعارف علوم المكاشفة وهى أرفع من علوم المعاملة بل علوم المعاملة دون المعاملة لانها تراد للمعاملة ففائدتها اصلاح العمل وانما فضل العالم بالمعاملة على العابد اذا كان علمه مما يعم نفعه فيكون بالاضافة الى عمل خاص أفضل والا فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر فنقول فائدة اصلاح العمل اصلاح حال القلب وفائدة اصلاح حال القلب أن ينكشف له جلال الله تعالى فى ذاته وصفاته وأفعاله فأرفع علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه وهى الغاية التى تطلب لذاتها فان السعادة تنال بها بل هى عين السعادة ولكن قد لا يشعر القلب فى الدنيا بأنها عين السعادة وانما يشعر بها فى الآخرة فهى المعرفة الحرة التى لاقيد عليها فلا تتقيد بغيرها وكل ما عداها من المعارف عبيد وخدم بالاضافة اليها فانها انما تراد لاجلها ولما كانت مرادة لاجلها كان تفاوتها بحسب نفعها فى الافضاء الى معرفة الله تعالى فان بعض المعارف يفضى الى بعض اما بواسطة أو بوسائط كثيرة فكلما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى أقل فهى أفضل وأما الاحوال فنعنى بها أحوال القلب فى تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق حتى اذا طهر وصفا اتضح له حقيقة الحق فاذا فضائل الاحوال بقدر تأثيرها فى اصلاح القلب وتطهيره واعداده لان تحصل له علوم المكاشفة وكما ان تصقيل المرآة يحتاج الى أن يتقدم على تمامه أحوال للمرآة بعضها أقرب الى الصقالة من بعض فكذلك أحوال القلب فالحالة القريبة أو المقربة من صفاء القلب هى أفضل مما دونها لا محالة بسبب القرب من المقصود وهكذا ترتيب الاعمال فان تأثيرها فى تأكيد صفاء القلب وجلب الاحوال اليه وكل عمل اما ان يجلب اليه حالة مانعة من المكاشفة موجبة لظلمة القلب جاذبة الى زخارف الدنيا واما ان يجلب اليه حالة مهيئة للمكاشفة موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه واسم الاول المعصية واسم الثانى الطاعة والمعاصى من حيث التأثير فى ظلمة القلب وقساوته متفاوتة وكذا الطاعات فى تنوير القلب وتصفيته فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها وذلك يختلف باختلاف الاحوال وذلك انا بالقول المطلق ربما نقول الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة وان الحج أفضل من الصدقة وان قيام الليل أفضل من غيره ولكن التحقيق فيه ان الغنى الذى معه مال وقد غلبه البخل وحب المال على امساكه فاخراج الدرهم له أفضل من قيام ليال وصيام أيام لان الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها أو منعه الشبع عن صفاء الفكر من علوم المكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع فأما هذا المدبر اذا لم تكن حاله هذه الحال فليس يستضر بشهوة بطنه ولا هو مشتغل بنوع فكر يمنعه الشبع منه فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله الى حال غيره وهو كالمريض الذى يشكو وجع البطن اذا استعمل دواء الصداع لم ينتفع به بل حقه أن ينظر فى المهلك الذى استولى عليه والشح المطاع من جملة المهلكات ولا يزيل صيام مائة سنة وقيام ألف ليلة منه ذرة بل لا يزيله الا اخراج المال فعليه أن يتصدق بما معه وتفصيل هذا ما ذكرناه فى ربع المهلكات فليرجع اليه

ذلك يارسول الله قال اذا لم تنل المعيشة الا بمعاصى الله فاذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة قالوا وكيف ذلك يارسول الله وقد أمرتنا بالتزوج قال انه اذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه فان لم يكن له أبوان فعلى يد زوجته وولده فان لم يكن له زوجة ولا ولد فعلى يد قرابته قالوا وكيف ذلك يارسول الله قال يعيرونه بضيق المعيشة فيتكلف مالا يطيق حتى يوردوه موارد الهلكة * وقد رغب جمع من السلف فى الصحبة والاخوة فى الله ورأوا ان الله تعالى من على أهل الايمان حيث جعلهم اخوانا فقال سبحانه وتعالى واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وقال تعالى هو الذى أيدك بنصره

فاذا

فاذا باعتبار هذه الاحوال يختلف وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب المطلق فيه خطأ اذ لو قال لنا قائل الخبز أفضل أم الماء لم يكن فيه جواب حق الا أن الخبز للجائع أفضل والماء للعطشان أفضل فان اجتمعا فلينظر الى الاغلب فان كان العطش هو الاغلب فالماء أفضل وان كان الجوع أغلب فالخبز أفضل فان تساويا فهما متساويان وكذا اذا قيل السكنجبين أفضل أم شراب النيلوفر لم يصح الجواب عنه مطلقا أصلا نعم لو قيل انما السكنجبين أفضل أم عدم الصفراء فنقول عدم الصفراء لان السكنجبين مراد له وما يراد لغيره فذلك الغير أفضل منه لا محالة فاذا في بذل المال عمل وهو الانفاق ويحصل به حال وهو زوال البخل وخروج حب الدنيا من القلب ويتهيأ القلب بسبب خروج حب الدنيا منه لمعرفة الله تعالى وحبه فالافضل المعرفة ودونها الحال ودونها العمل فان قلت فقد حث الشرع على الاعمال وبالغ في ذكر فضلها حتى طلب الصدقات بقوله من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا وقال تعالى ويأخذ الصدقات فكيف لا يكون الفعل والانفاق هو الافضل فاعلم ان الطبيب اذا أثنى على الدواء لم يدل على ان الدواء مراد لعينه أو على انه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به ولكن الاعمال علاج لمرض القلوب ومرض القلوب مما لا يشعر به غالبا فهو كبرص على وجه من لا مرآة معه فانه لا يشعر به ولو ذكر له لا يصدق به والسبيل معه المبالغة في الثناء على غسل الوجه بماء الورد مثلا ان كان ماء الورد يزيل البرص حتى يستحثه فرط الثناء على المواظبة عليه فيزول مرضه فانه لو ذكر له أن المقصود زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لا عيب فيه ولنضرب مثلا أقرب من هذا فنقول من له ولد علمه العلم والقرآن وأراد أن يثبت ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه وعلم انه لو أمره بالتكرار والدراسة ليبقى له محفوظا لقال انه محفوظ ولا حاجة بي الى تكرار ودراسة لانه يظن ان ما يحفظه في الحال يبقى كذلك أبدا وكان له عبيد فأمر الولد بتعليم العبيد ووعده على ذلك بالجميل لتتوفر داعيته على كثرة التكرار بالتعليم فربما يظن الصبي المسكين ان المقصود تعليم العبيد القرآن وانه قد استخدم لتعليمهم فيشكل عليه الامر فيقول ما بالي قد استخدمت لاجل العبيد وأنا أجل منهم وأعز عند الوالد وأعلم أن أبي لو أراد تعليم العبيد لقدر عليه دون تكليفي به واعلم أنه لا نقصان لابي بفقد هؤلاء العبيد فضلا عن عدم علمهم بالقرآن فربما يتكاسل هذا المسكين فيترك تعليمهم اعتمادا على استغناء أبيه وعلى كرمه في العفو عنه فينسى العلم والقرآن ويبقى مدبرا محروما من حيث لا يدري وقد انخدع بمثل هذا الخيال طائفة وسلكوا طريق الاباحة وقالوا ان الله تعالى غني عن عباده وعن أن يستقرض منا فأي معنى لقوله من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ولو شاء الله اطعام المساكين لاطعمهم فلا حاجة بنا الى صرف أموالنا اليهم كما قال تعالى حكاية عن الكفار واذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه وقالوا أيضا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم وكيف هلكوا بصدقهم فسبحان من اذا شاء أهلك بالصدق واذا شاء أسعد بالجهل يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا فهؤلاء لما ظنوا انهم استخدموا لاجل المساكين والفقراء أو لاجل الله تعالى ثم قالوا لا حظ لنا في المساكين ولا حظ لله فينا وفي أموالنا سواء أنفقنا أو أمسكنا هلكوا كما هلك الصبي لما ظن أن مقصود الوالد استخدامه لاجل العبيد ولم يشعر بانه كان المقصود ثبات صفة العلم في نفسه وتأكده في قلبه حتى يكون ذلك سبب سعادته في الدنيا وانما كان ذلك من الوالد تلطفا به في استجراره الى ما فيه سعادته فهذا المثال يبين لك ضلال من ضل من هذا الطريق فاذا المسكين الآخذ لمالك يستوفي بواسطة المال خبث البخل وحب الدنيا من باطنك فانه مهلك لك فهو كالحجام يستخرج الدم منك ليخرج بخروج الدم العلة المهلكة من باطنك فالحجام خادم لك لا أنت خادم للحجام ولا يخرج الحجام عن كونه خادما بأن يكون له غرض في أن يصنع شيأ بالدم ولما كانت الصدقات مطهرة للبواطن ومزكية لها عن خبائث الصفات امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذها وانتهى عنها كما نهى عن كسب الحجام وسماها أوساخ أموال الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها والمقصود ان الاعمال مؤثرات في القلب كما سبق في ربع المهلكات والقلب بحسب تأثيرها مستعد لقبول الهداية ونور المعرفة فهذا هو القول الكلي والقانون الاصلي الذي ينبغي أن يرجع اليه في معرفة فضائل الاعمال والاحوال والمعارف ولنرجع الآن الى خصوص ما نحن فيه من الصبر والشكر فنقول في كل

وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم * وقد اختار الصحبة والاخوة في الله تعالى سعيد بن المسيب وعبد الله بن المبارك وغيرهما وفائدة الصحبة انها تفتح مسام الباطن ويكتسب الانسان بها علم الحوادث والعوارض (قيل) أعلم الناس بالآفات أكثرهم آفات ويتصلب الباطن برزين العلم ويتمكن الصدق بطروق هبوب الآفات ثم التخلص منها بالايمان ويقع بطريق الصحبة والاخوة التعاضد والتعاون وتتقوى جنود القلب وتستروح الارواح بالتشام وتتفق في التوجه الى الرفيق الاعلى ويصير مثالها في الشاهد كالاصوات اذا اجتمعت خرقت الاجرام واذا تفردت قصرت عن بلوغ المرام

واحد منهما معرفة وحال وعمل فلا يجوز أن تقابل المعرفة في أحدهما بالحال أو العمل في الآخر بل يقابل كل واحد منها بنظيره حتى يظهر التناسب وبعد التناسب يظهر الفضل ومهما قوبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا الى معرفة واحدة اذ معرفة الشاكر أن يرى نعمة العينين مثلا من الله تعالى ومعرفة الصابر أن يرى العمى من الله وهما معرفتان متلازمتان متساويتان هذا ان اعتبرتا في البلاء والمصائب وقد بينا ان الصبر قد يكون على الطاعة وعن المعصية وفيهما يتحد الصبر والشكر لان الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة لان الشكر يرجع الى صرف نعمة الله تعالى الى ما هو المقصود منها بالحكمة والصبر يرجع الى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين فثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى صبرا بالاضافة الى باعث الهوى ويسمى شكرا بالاضافة الى باعث الدين اذ باعث الدين انما خلق لهذه الحكمة وهو أن يصرع به باعث الشهوة فقد صرفه الى مقصود الحكمة فهما عبارتان عن معنى واحد فكيف يفضل الشئ على نفسه فاذا مجارى الصبر ثلاثة الطاعة والمعصية والبلاء وقد ظهر حكمهما في الطاعة والمعصية وأما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة والنعمة اما أن تقع ضرورية كالعينين مثلا واما أن تقع في محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال أما العينان فصبر الاعمى عنهما بأن لا يظهر الشكوى ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ولا يترخص بسبب العمى في بعض المعاصي وشكر البصير عليهما من حيث العمل بأمرين أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية والآخر أن يستعملهما في الطاعة وكل واحد من الامرين لا يخلو عن الصبر فان الاعمى كفي الصبر عن الصور الجميلة لانه لا يراها والبصير اذا وقع بصره على جميل فصبر كان شاكرا نعمة العينين وان اتبع النظر كفر نعمة العينين فقد دخل الصبر في شكره وكذا اذا استعان بالعينين على الطاعة فلا بد أيضا فيه من صبر على الطاعة ثم قد يشكرها بالنظر الى عجائب صنع الله تعالى ليتوصل به الى معرفة الله سبحانه وتعالى فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلا وقد كان ضريرا من الانبياء فوق رتبة موسى عليهما السلام وغيره من الانبياء لانه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم يصبر مثلا ولكان الكمال في أن يسلب الانسان الاطراف كلها ويترك كلحم على وضم وذلك محال جدا لان كل واحد من هذه الاعضاء آلة في الدين يفوت بفوتها ذلك الركن من الدين وشكرها باستعمالها فيما هي آلة فيه من الدين وذلك لا يكون الا بصبر وأما ما يقع في محل الحاجة كالزيادة على الكفاية من المال فانه اذا لم يؤت الا قدر الضرورة وهو محتاج الى ما وراءه ففي الصبر عنه مجاهدة وهو جهاد الفقر ووجود الزيادة نعمة وشكرها أن تصرف الى الخيرات أو أن لا تستعمل في المعصية فان أضيف الصبر الى الشكر الذي هو صرف الى الطاعة فالشكر أفضل لانه تضمن الصبر أيضا وفيه فرح بنعمة الله تعالى وفيه احتمال ألم في صرفه الى الفقراء وترك صرفه الى التنعم المباح وكان الحاصل يرجع الى أن شيئين أفضل من شئ واحد وان الجملة أعلى رتبة من البعض وهذا فيه خلل اذ لا تصح الموازنة بين الجملة وبين أبعاضها وأما اذا كان شكره بأن لا يستعين به على معصية بل يصرفه الى التنعم المباح فالصبر ههنا أفضل من الشكر والفقير الصابر أفضل من الغني الممسك ماله الصارف اياه الى المباحات لا من الغني الصارف ماله الى الخيرات لان الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى وهذه الحالة تستدعي لا محالة قوة والغني اتبع نهمته وأطاع شهوته ولكنه اقتصر على المباح والمباح فيه مندوحة عن الحرام ولكن لابد من قوة في الصبر عن الحرام أيضا الا أن القوة التي عنها يصدر صبر الفقير أعلى وأتم من هذه القوة التي يصدر عنها الاقتصار في التنعم على المباح والشرف لتلك القوة التي يدل العمل عليها فان الاعمال لا تراد الا لاحوال القلوب وتلك القوة حالة للقلب تختلف بحسب قوة اليقين والايمان فما دل على زيادة قوة في الايمان فهو أفضل لا محالة وجميع ما ورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر في الآيات والاخبار انما أريد به هذه الرتبة على الخصوص لان السابق الى افهام الناس من النعمة الاموال والغنى بها والسابق الى الافهام من الشكر أن يقول الانسان الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على المعصية لا أن يصرفها الى الطاعة فاذا الصبر أفضل من الشكر أي الصبر الذي تفهمه العامة أفضل من الشكر الذي تفهمه العامة والى هذا المعنى على الخصوص أشار الجنيد رحمه الله

* ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن كثير بأخيه وقال الله تعالى مخبرا عمن لا صديق له فما لنا من شافعين ولا صديق حميم والحميم في الاصل الهميم الا انه أبدلت الهاء بالحاء لقرب مخرجهما اذ هما من حروف الحلق والهميم مأخوذ من الاهتمام أي يهتم بأمر أخيه فالاهتمام يهم الصديق حقيقة الصداقة وقال عمر اذا رأى أحدكم ودا من أخيه فليتمسك به فقلما يصيب ذلك وقد قال القائل

واذا صفا لك من زمانك واحد

فهو المراد وأين ذاك الواحد

وأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام قال يا داود مالي أراك منتبذا وحدك قال الهي قليت الخلق من أجلك فأوحى الله اليه يا داود كن يقظانا مرتادا لنفسك اخوانا وكل خدن

حيث سئل عن الصبر والشكر أيهما أفضل فقال ليس مدح الغنى بالوجود ولا مدح الفقير بالعدم وانما المدح في الاثنين قيامهما بشروط ما عليهما فشرط الغنى يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتمتعها وتلذذها والفقير يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتقبضها وتزعجها فاذا كان الاثنان قائمين لله تعالى بشرط ما عليهما كان الذى آلم صفته وأزعجها أتم حالا ممن متع صفته ونعمها والامر على ما قاله وهو صحيح من جملة أقسام الصبر والشكر في القسم الاخير الذى ذكرناه وهو لم يرد سواه ويقال كان أبو العباس بن عطاء قد خالفه في ذلك وقال الغنى الشاكر أفضل من الفقير الصابر فدعا عليه الجنيد فاصابه ما أصابه من البلاء من قتل أولاده واتلاف أمواله وزوال عقله أربع عشرة سنة فكان يقول دعوة الجنيد أصابتني ورجع الى تفضيل الفقير الصابر على الغنى الشاكر ومهما لاحظت المعانى التى ذكرناها علمت ان لكل واحد من القولين وجها فى بعض الاحوال فرب فقير صابر أفضل من غنى شاكر كما سبق ورب غنى شاكر أفضل من فقير صابر وذلك هو الغنى الذى يرى نفسه مثل الفقير اذ لا يمسك لنفسه من المال الا قدر الضرورة والباقى يصرفه الى الخيرات أو يمسكه على اعتقاد انه خازن للمحتاجين والمساكين وانما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف اليها ثم اذا صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت ولا لتقليد منة بل أداء لحق الله تعالى فى تفقد عباده فهذا أفضل من الفقير الصابر فان قلت فهذا لا يثقل على النفس والفقير يثقل عليه الفقر لان هذا يستشعر لذة القدرة وذاك يستشعر ألم الصبر فان كان متألما بفراق المال فيجبر ذلك بلذته فى القدرة على الانفاق فاعلم ان الذى نراه ان من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس أكمل حالا ممن ينفقه وهو بخيل به وانما يقتطعه عن نفسه قهرا وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة فايلام النفس ليس مطلوبا لعينه بل لتأديبها وذلك يضاهى ضرب كلب الصيد والكلب المتأدب أكمل من الكلب المحتاج الى الضرب وان كان صابرا على الضرب ولذلك يحتاج الى الايلام والمجاهدة فى البداية ولا يحتاج اليهما فى النهاية بل النهاية أن يصير ما كان مؤلما فى حقه لذيذا عنده كما يصير التعلم عند الصبى العاقل لذيذا وقد كان مؤلما له أولا ولكن لما كان الناس كلهم الا الاقلين فى البداية بل قبل البداية بكثير كالصبيان أطلق الجنيد القول بان الذى يؤلم صفته أفضل وهو كما قال صحيح فيما أراده من عموم الخلق فاذا اذا كنت لا تفصل الجواب وتطلقه لارادة الاكثر فاطلق القول بان الصبر أفضل من الشكر فانه صحيح بالمعنى السابق الى الافهام فاذا أردت التحقيق ففصل فان للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية ووراءها الرضا وهو مقام وراء الصبر ووراءه الشكر على البلاء وهو وراء الرضا اذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح والشكر لا يمكن الا على محبوب مفروح به وكذلك الشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها ويدخل فى جملتها أمور دونها فان حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر والاعتذار من قلة الشكر شكر والمعرفة بعظيم حلم الله وكنف ستره شكر والاعتراف بان النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر والعلم بان الشكر أيضا نعمة من نعم الله وموهبة منه شكر وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر وشكر الوسائط شكر اذ قال عليه السلام من لم يشكر الناس لم يشكر الله وقد ذكرنا حقيقة ذلك فى كتاب أسرار الزكاة وقلة الاعتراض وحسن الادب بين يدى المنعم شكر وتلقى النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر وما يندرج من الاعمال والاحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر آحادها وهى درجات مختلفة فكيف يمكن اجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر الا على سبيل ارادة الخصوص باللفظ العام كما ورد فى الاخبار والآثار وقد روى عن بعضهم أنه قال رأيت فى بعض الاسفار شيخا كبيرا قد طعن فى السن فسألته عن حاله فقال انى كنت فى ابتداء عمرى أهوى ابنة عم لى وهى كذلك كانت تهوانى فاتفق انها زوجت منى فليلة زفافها قلت تعالى حتى نحيى هذه الليلة شكرا لله تعالى على ما جمعنا فصلينا تلك الليلة ولم يتفرغ أحدنا الى صاحبه فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك فصلينا طول الليل فمنذ سبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة أليس كذلك يا فلانة قالت العجوز هو كما يقول الشيخ فانظر اليهما لو صبرا على بلاء الفرقة أن لو لم يجمع الله بينهما وانسب صبر الفرقة الى شكر الوصال على هذا الوجه فلا يخفى عليك أن

لا يوافقك على مسرتى فلا تصحبه فانه عدو يقسى قلبك ويباعدك منى وقد ورد فى الخبر ان أحبكم الى الله الذين يألفون ويؤلفون فالمؤمن آلف مألوف وفى هذا دقيقة وهى انه ليس من اختار العزلة والوحدة لله يذهب عنه هذا الوصف فلا يكون آلفا مألوفا فان هذه الاشارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الخلق الجبلى وهذا الخلق يكمل فى كل من كان أتم معرفة ويقينا وأرزن عقلا وأتم أهلية واستعدادا وكان أوفر الناس حظا فى هذا الوصف الانبياء ثم الاولياء وأتم الجميع فى هذا نبينا صلوات الله عليه وكل من كان من الانبياء أتم ألفة كان أكثر تبعا ونبينا صلى الله عليه وسلم كان أكثرهم ألفة وأكثرهم تبعا وقال تناكحوا تكثروا فانى مكاثر بكم الامم يوم القيامة وقد نبه الله تعالى على هذا

هذا الشكر أفضل فاذا الوقوف على حقائق المفصلات الا بتفصيل كما سبق والله أعلم

(كتاب الخوف والرجاء وهو الكتاب الثالث من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله المرجو لطفه وثوابه المخوف مكره وعقابه الذى عمر قلوب أوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بلطائف آلائه الى النزول بفنائه والعدول عن دار بلائه التى هى مستقر أعدائه وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه المعرضين عن حضرته الى دار ثوابه وكرامته وصدهم عن التعرض للائمته والتهدف لسخطه ونقمته قودا لاصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف وأزمة الرفق واللطف الى جنته والصلاة على محمد سيد أنبيائه وخير خليقته وعلى آله وأصحابه وعترته (أما بعد) فان الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون الى كل مقام محمود ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤد فلا يقود الى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الارجاء ثقيل الاعباء محفوفا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والاعضاء الا أزمة الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الاليم مع كونه محفوفا بلطائف الشهوات وعجائب اللذات الا سياط التخويف وسطوات التعنيف فلا بد اذا من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسبيل التوصل الى الجمع بينهما مع تضادهما وتعاندهما ونحن نجمع ذكرهما فى كتاب واحد يشتمل على شطرين الشطر الاول فى الرجاء والشطر الثانى فى الخوف (أما الشطر الاول) فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء وبيان فضيلة الرجاء وبيان دواء الرجاء والطريق الذى يجتلب به الرجاء

(بيان حقيقة الرجاء)

اعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين وانما يسمى الوصف مقاما اذا ثبت وأقام وانما يسمى حالا اذا كان عارضا سريع الزوال وكما أن الصفرة تنقسم الى ثابتة كصفرة الذهب والى سريعة الزوال كصفرة الوجل والى ماهو بينهما كصفرة المريض فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الاقسام فالذى هو غير ثابت يسمى حالا لانه يحول على القرب وهذا جار فى كل وصف من أوصاف القلب وغرضنا الآن حقيقة الرجاء فالرجاء أيضا يتم من حال وعلم وعمل فالعلم سبب يثمر الحال والحال يقتضى العمل وكان الرجاء اسم الحال من جملة الثلاثة وبيانه أن كل ما يلاقيك من مكروه ومحبوب فينقسم الى موجود فى الحال والى موجود فيما مضى والى منتظر فى الاستقبال فاذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمى ذكرا وتذكرا وان كان ما خطر بقلبك موجودا فى الحال سمى وجدا وذوقا وادراكا وانما سمى وجدا لانها حالة تجدها من نفسك وان كان قد خطر ببالك وجود شئ فى الاستقبال وغلب ذلك على قلبك سمى انتظارا وتوقعا فان كان المنتظر مكروها حصل منه ألم فى القلب سمى خوفا واشفاقا وان كان محبوبا حصل من انتظاره وتعلق القلب به واخطار وجوده بالبال لذة فى القلب وارتياح سمى ذلك الارتياح رجاء فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بد وان يكون له سبب فان كان انتظاره لاجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق وان كان ذلك انتظارا مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء وان لم تكن الاسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمنى أصدق على انتظاره لانه انتظار من غير سبب وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف الا على ما يتردد فيه أما ما يقطع به فلا اذ لا يقال أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غروبها وقت الغروب لان ذلك مقطوع به نعم يقال أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالارض والايمان كالبذر فيه والطاعات جارية مجرى تقليب الارض وتطهيرها ومجرى حفر الانهار وسياقة الماء اليها والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالارض السبخة التى لا ينمو فيها البذر ويوم القيامة يوم الحصاد ولا يحصد أحد الا ما زرع ولا ينمو زرع الا من بذر الايمان وقلما ينفع ايمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه كما لا ينمو بذر فى أرض سبخة فينبغى أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع فكل من طلب أرضا طيبة وألقى فيها بذرا جيدا غير عفن ولا مسوس ثم أمده بما يحتاج اليه وهو سوق الماء اليه فى

الوصف من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك وانما طلب العزلة مع وجود هذا الوصف ومن كان هذا الوصف فيه أقوى وأتم كان طلب العزلة فيه أكثر فى الابتداء ولهذا المعنى حبب الى رسول الله الخلوة فى أول أمره وكان يخلو فى غار حرا ويتحنث الليالى ذوات العدد وطلب العزلة لا يسلب وصف كونه آلفا مألوفا وقد غلط فى هذا قوم ظنوا ان العزلة تسلب هذا الوصف فتركوا العزلة طلبا لهذه الفضيلة وهذا خطأ وسر طلب العزلة ان هذا الوصف فيه أتم من الانبياء ثم الامثل فالامثل ما أسلفنا فى أول الباب ان فى الانسان ميلا الى الجنس بالوصف الاعم فلما علم الحذاق ذلك ألهمهم الله تعالى محبة الخلوة والعزلة لتصفية

أوقاته ثم نقى الشوك عن الارض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة الى أن يتم الزرع ويبلغ غايته سمى انتظاره رجاء وان بث البذر فى أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب اليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلا ثم انتظر الحصاد منه سمى انتظاره حمقا وغرورا لا رجاء وان بث البذر فى أرض طيبة لكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الامطار حيث لا تغلب الامطار ولا تمتنع أيضا سمى انتظاره تمنيا لا رجاء فاذا اسم الرجاء انما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق الا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات فالعبد اذا بث بذر الايمان وسقاه بماء الطاعات وطهر القلب عن شوك الاخلاق الرديئة وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك الى الموت وحسن الخاتمة المفضية الى المغفرة كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا فى نفسه باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الايمان فى اتمام أسباب المغفرة الى الموت وان قطع عن بذر الايمان تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحونا برذائل الاخلاق وانهمك فى طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة فانتظاره حمق وغرور قال صلى الله عليه وسلم الاحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة وقال تعالى فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا وقال تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا * وذم الله تعالى صاحب البستان اذ دخل جنته وقال ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربى لاجدن خيرا منها منقلبا فاذا العبد المجتهد فى الطاعات المجتنب للمعاصى حقيق بان ينتظر من فضل الله تمام النعمة وما تمام النعمة الا بدخول الجنة وأما العاصى فاذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير فحقيق بان يرجو قبول التوبة وأما قبول التوبة اذا كان كارها للمعصية تسوءه السيئة وتسره الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهى التوبة ويشتاق اليها فحقيق بان يرجو من الله التوفيق للتوبة لان كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجرى مجرى السبب الذى قد يفضى الى التوبة وانما الرجاء بعد تأكد الاسباب ولذلك قال تعالى ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لان غيرهم أيضا قد يرجو ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع فرجاؤه المغفرة حمق كرجاء من بث البذر فى أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهده بسقى ولا تنقية * قال يحيى بن معاذ من أعظم الاغترار عندى التمادى فى الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة وانتظار زرع الجنة ببذر النار وطلب دار المطيعين بالمعاصى وانتظار الجزاء بغير عمل والتمنى على الله عز وجل مع الافراط

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها * ان السفينة لا تجرى على اليبس

فاذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته فقد علمت انها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الاسباب وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الاسباب على حسب الامكان فان من حسن بذره وطابت أرضه وغزر ماؤه صدق رجاؤه فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الارض وتعهدها وتنحية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتر عن تعهدها أصلا الى وقت الحصاد وهذا لان الرجاء يضاده اليأس واليأس يمنع من التعهد فمن عرف أن الارض سبخة وأن الماء معوز وان البذر لا ينبت فيترك لا محالة تفقد الارض والتعب فى تعهدها والرجاء محمود لانه باعث واليأس مذموم وهو ضده لانه صارف عن العمل والخوف ليس بضد للرجاء بل هو رفيق له كما سيأتى بيانه بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما ان الرجاء باعث بطريق الرغبة فاذا حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالاعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الاحوال ومن آثاره التلذذ بدوام الاقبال على الله تعالى والتنعم بمناجاته والتلطف فى التملق له فان هذه الاحوال لا بد وان تظهر على كل من يرجو ملكا من الملوك أو شخصا من الاشخاص فكيف لا يظهر ذلك فى حق الله تعالى فان كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول فى حضيض الغرور والتمنى فهذا هو البيان لحال الرجاء ولما أثمره من العلم ولما استثمر منه من العمل ويدل على اثماره لهذه الاعمال حديث زيد الخيل اذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم جئت لاسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد فقال

النفس عن الميل بالوصف الاعم لترقى الهمم العالية عن ميل الطباع الى تألف الارواح فاذا وفوا التصفية حقها اشرأبت الارواح الى جنسها بالتألف الاصلى الاولى وأعادها الله تعالى الى الخلق ومخالطتهم مصفاة واستنارت النفوس الطاهرة بانوار الارواح وظهرت صفة الجبلة من الالفة المكملة آلفة مألوفة فصارت العزلة من أهم الامور عند من يألف فيؤلف ومن أدل الدليل على ان الذى اعتزل آلف مألوف حتى يذهب الغلط عن الذى غلط فى ذلك وذم العزلة على الاطلاق من غير علم بحقيقة الصحبة وحقيقة العزلة فصارت العزلة مرغوبا فيها فى وقتها والصحبة مرغوبا فيها فى وقتها قال محمد بن الحنفية رحمه الله ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد

فكيف أصبحت قال أصبحت أحب الخير وأهله واذا قدرت على شئ منه سارعت اليه وأيقنت بثوابه واذا فاتني منه شئ حزنت عليه وحننت اليه فقال هذه علامة الله فيمن يريد ولو أرادك للاخرى هيأك لها ثم لا يبالي في أي أوديتها هلكت فقد ذكر صلى الله عليه وسلم علامة من أريد به الخير فمن ارتجى أن يكون مرادا بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور

﴿بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه﴾

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف لان أقرب العباد الى الله تعالى أحبهم له والحب يغلب بالرجاء واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفا من عقابه والآخر رجاء ثوابه ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب لاسيما في وقت الموت قال تعالى لا تقنطوا من رحمة الله فحرم أصل اليأس وفي أخبار يعقوب عليه السلام ان الله تعالى أوحى اليه أتدري لم فرقت بينك وبين يوسف لانك قلت أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت الذئب ولم ترجني ولم نظرت الى غفلة اخوته ولم تنظر الى حفظي له وقال صلى الله عليه وسلم لا يموتن أحدكم الا وهو يحسن الظن بالله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في النزع فقال كيف تجدك فقال أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي فقال صلى الله عليه وسلم ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن الا أعطاه الله ما رجا وأمنه مما يخاف وقال علي رضي الله عنه لرجل أخرجه الخوف الى القنوط لكثرة ذنوبه يا هذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك وقال سفيان من أذنب ذنبا فعلم ان الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه غفر الله ذنبه قال لان الله عز وجل عير قوما فقال وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم وقال تعالى وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا وقال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ما منعك اذ رأيت المنكر أن تنكره فان لقنه الله حجته قال رب رجوتك وخفت الناس قال فيقول الله تعالى قد غفرته لك وفي الخبر الصحيح أن رجلا كان يداين الناس فيسامح الغني ويتجاوز عن المعسر فلقي الله ولم يعمل خيرا قط فقال الله عز وجل من أحق بذلك منا فعفا عنه لحسن ظنه ورجائه أن يعفو عنه مع افلاسه عن الطاعات وقال تعالى ان الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ولما قال صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم الى الصعدات تلدمون صدوركم وتجأرون الى ربكم فهبط جبريل عليه السلام فقال ان ربك يقول لك لم تقنط عبادي فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم وفي الخبر ان الله تعالى أوحى الى داود عليه السلام أحبني وأحب من يحبني وحببني الى خلقي فقال يا رب كيف أحببك الى خلقك قال اذكرني بالحسن الجميل واذكر آلائي واحساني وذكرهم ذلك فانهم لا يعرفون مني الا الجميل ورؤي أبان بن أبي عياش في النوم وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء فقال أوقفني الله تعالى بين يديه فقال ما الذي حملك على ذلك فقلت أردت أن أحببك الى خلقك فقال قد غفرت لك ورؤي يحيى بن أكثم بعد موته في النوم فقيل له ما فعل الله بك فقال أوقفني الله بين يديه وقال يا شيخ السوء فعلت وفعلت قال فأخذني من الرعب ما يعلم الله ثم قلت يا رب ما هكذا حدثت عنك فقال وما حدثت عني فقلت حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن أنس عن نبيك صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام انك قلت أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء وكنت أظنك أن لا تعذبني فقال الله عز وجل صدق جبريل وصدق نبيي وصدق أنس وصدق الزهري وصدق معمر وصدق عبد الرزاق وصدقت قال فألبست ومشى بين يدي الولدان الى الجنة فقلت يا لها من فرحة * وفي الخبر أن رجلا من بني اسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم قال فيقول الله تعالى يوم القيامة اليوم أويسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها وقال صلى الله عليه وسلم ان رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي يا حنان يا منان فيقول الله تعالى لجبريل اذهب فأتني بعبدي قال فيجيء به فيوقفه على ربه فيقول الله تعالى كيف وجدت مكانك فيقول شر مكان قال فيقول ردوه الى مكانه قال فيمشي ويلتفت الى ورائه فيقول الله عز وجل الى أي شئ تلتفت فيقول لقد رجوت أن لا تعيدني اليها بعد اذ أخرجتني منها فيقول الله تعالى اذهبوا به الى الجنة فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

﴿بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب﴾

اعلم

من معاشرته بداحتى يجعل الله له منه فرجا وكان بشر بن الحرث يقول اذا قصر العبد في طاعة الله سلبه الله تعالى من يؤنسه فالانيس يهيئه الله للصادقين وفقا من الله تعالى وثوابا للعبد معجلا والانيس قد يكون مفيدا كالمشايخ وقد يكون مستفيدا كالمريدين فصحيح الخلوة والعزلة لا يترك من غير أنيس فان كان قاصرا يؤنسه الله بمن يتم حاله به وان كان غير قاصر يقيض الله تعالى له من يؤنسه من المريدين وهذا الانس ليس فيه ميل بالوصف الاعم بل هو بالله ومن الله وفي الله (روى) عبد الله ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المتحابون في الله على عمود من ياقوتة حمراء في رأس العمود سبعون ألف غرفة مشرفون على أهل الجنة يضيء حسنهم لاهل الجنة كما

اعلم أن هذا الدواء يحتاج اليه أحد رجلين اما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة واما رجل غلب عليه الخوف فاسرف في المواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال الى طرفي الافراط والتفريط فيحتاجان الى علاج يردهما الى الاعتدال فاما العاصي المغرور المتمني على الله مع الاعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فادوية الرجاء تنقلب سموما مهلكة في حقه وتنزل منزلة العسل الذي هو شفاء لمن غلب عليه البرد وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة بل المغرور لا يستعمل في حقه الا أدوية الخوف والاسباب المهيجة له فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفا ناظرا الى مواقع العلل معالجا لكل علة بما يضادها لا بما يزيد فيها فان المطلوب هو العدل والقصد في الصفات والاخلاق كلها وخير الامور أوسطها فاذا جاوز الوسط الى أحد الطرفين عولج بما يرده الى الوسط لا بما يزيد في ميله عن الوسط وهذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء بل المبالغة في التخويف أيضا تكاد أن لا تردهم الى جادة الحق وسنن الصواب فاما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم و يرديهم بالكلية ولكنها لما كانت أخف على القلوب وألذ عند النفوس ولم يكن غرض الوعاظ الا استمالة القلوب واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا مالوا الى الرجاء حتى ازداد الفساد فسادا وازداد المنهمكون في طغيانهم تماديا قال علي كرم الله وجهه انما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم من مكر الله ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل في حق الآيس أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فانهما مشتملان على الخوف والرجاء جميعا لانهما جامعان لاسباب الشفاء في حق أصناف المرضى ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الانبياء بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق لا استعمال الاخرق الذي يظن أن كل شيء من الادوية صالح لكل مريض كيفما كان * وحال الرجاء يغلب بشيئين أحدهما الاعتبار والآخر استقراء الآيات والاخبار والآثار * أما الاعتبار فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه في أصناف النعم من كتاب الشكر حتى اذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده في الدنيا وعجائب حكمه التي راعاها في فطرة الانسان حتى أعد له في الدنيا كل ما هو ضروري له في دوام الوجود كآلات الغذاء وما هو محتاج اليه كالاصابع والاظفار وما هو زينة له كاستقواس الحاجبين واختلاف ألوان العينين وحمرة الشفتين وغير ذلك مما كان لا ينثلم بفقده غرض مقصود وانما كان يفوت به مزية جمال فالعناية الالهية اذا لم تقصر عن عباده في أمثال هذه الدقائق حتى لم يرض لعباده أن تفوتهم المزايد والمزايا في الزينة والحاجة كيف يرضى بسياقهم الى الهلاك المؤبد بل اذا نظر الانسان نظرا شافيا علم أن أكثر الخلق قد هيئ له أسباب السعادة في الدنيا حتى انه يكره الانتقال من الدنيا بالموت وان أخبر بانه لا يعذب بعد الموت أبدا مثلا أو لا يحشر أصلا فليست كراهتهم للعدم الا لان أسباب النعم أغلب لا محالة وانما الذي يتمنى الموت نادر ثم لا يتمناه الا في حال نادرة وواقعة هاجة غريبة فاذا كان حال أكثر الخلق في الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة وسنة الله لا تجد لها تبديلا فالغالب ان أمر الآخرة هكذا يكون لان مدبر الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم فهذا اذا تؤمل حق التأمل قوي به أسباب الرجاء ومن الاعتبار أيضا النظر في حكمة الشريعة وسنتها في مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها حتى كان بعض العارفين يرى آية المداينة في البقرة من أقوى أسباب الرجاء فقيل له وما فيها من الرجاء فقال الدنيا كلها قليل ورزق الانسان منها قليل والدين قليل من رزقه فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ليهدي عبده الى طريق الاحتياط في حفظ دينه فكيف لا يحفظ دينه الذي لا عوض له منه

(الفن الثاني استقراء الآيات والاخبار) فما ورد في الرجاء خارج عن الحصر أما الآيات فقد قال تعالى قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يبالي انه هو الغفور الرحيم وقال تعالى والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الارض وأخبر تعالى ان النار أعدها لاعدائه وانما خوف بها أولياءه فقال لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده وقال تعالى واتقوا النار التي أعدت للكافرين وقال تعالى فانذرتكم نارا تلظى لا يصلاها الا الاشقى الذي كذب وتولى وقال عز وجل وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم

تضيء الشمس لاهل الدنيا فيقول أهل الجنة انطلقوا بنا ننظر الى المتحابين في الله عز وجل فاذا أشرفوا عليهم اضاء حسنهم لاهل الجنة كما تضيء الشمس لاهل الدنيا عليهم ثياب سندس خضر مكتوب على جباههم هؤلاء المتحابون في الله عز وجل وقال أبو ادريس الخولاني لمعاذ اني احبك في الله فقال له ابشر ثم ابشر فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ينصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة وجوههم كالقمر ليلة البدر يفزع الناس ولا يفزعون ويخاف الناس ولا يخافون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فقيل من هؤلاء يا رسول الله قال هم المتحابون في الله عز وجل (وروى) عبادة بن الصامت عن رسول الله صلى الله عليه

ويقال ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل فى أمته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزلت عليك هذه الآية وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وفى تفسير قوله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى قال لا يرضى محمد و واحد من أمته فى النار وكان أبو جعفر محمد بن على يقول أنتم أهل العراق تقولون أرجى آية فى كتاب الله عز وجل قوله قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الآية ونحن أهل البيت نقول ارجى آية فى كتاب الله تعالى قوله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى * وأما الاخبار فقد روى أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال أمتى أمة مرحومة لا عذاب عليها فى الآخرة عجل الله عقابها فى الدنيا الزلازل والفتن فاذا كان يوم القيامة دفع الى كل رجل من أمتى رجل من أهل الكتاب فقيل هذا فداؤك من النار وفى لفظ آخر يأتى كل رجل من هذه الامة بيهودى أو نصرانى الى جهنم فيقول هذا فدائى من النار فيلقى فيها وقال صلى الله عليه وسلم الحمى من فيح جهنم وهى حظ المؤمن من النار وروى فى تفسير قوله تعالى يوم لا يخزى الله النبي والذين آمنوا معه ان الله تعالى أوحى الى نبيه عليه الصلاة والسلام انى أجعل حساب أمتك اليك قال لا يا رب أنت أرحم بهم منى فقال اذا لا نخزيك فيهم وروى عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه فى ذنوب أمته فقال يا رب اجعل حسابهم الى لئلا يطلع على مساويهم غيرى فأوحى الله تعالى اليه هم أمتك وهم عبادى وأنا أرحم بهم منك لا أجعل حسابهم الى غيرى لئلا تنظر الى مساويهم أنت ولا غيرك وقال صلى الله عليه وسلم حياتى خير لكم وموتى خير لكم أما حياتى فاسن لكم السنن وأشرع لكم الشرائع وأما موتى فان أعمالكم تعرض على فما رأيت منها حسنا حمدت الله عليه وما رأيت منها سيأ استغفرت الله تعالى لكم وقال صلى الله عليه وسلم يوما يا كريم العفو فقال جبريل عليه السلام أتدرى ما تفسير يا كريم العفو هو ان عفا عن السيئات برحمته بدلها حسنات بكرمه وسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يقول اللهم انى أسألك تمام النعمة فقال هل تدرى ما تمام النعمة قال لا قال دخول الجنة قال العلماء قد أتم الله علينا نعمته برضاه الاسلام لنا اذ قال تعالى وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا وفى الخبر اذا أذنب العبد ذنبا فاستغفر الله يقول الله عز وجل لملائكته انظروا الى عبدى أذنب ذنبا فعلم ان له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب أشهدكم انى قد غفرت له وفى الخبر لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها له لو استغفرنى ورجانى وفى الخبر لو لقينى عبدى بقراب الارض ذنوبا لقيته بقراب الارض مغفرة وفى الحديث ان الملك ليرفع القلم عن العبد اذا أذنب ست ساعات فان تاب واستغفر لم يكتبه عليه والا كتبها سيئة وفى لفظ آخر فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو أمير عليه ألق هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة تضعيف العشر وأرفع له تسع حسنات فتلقى عنه السيئة وروى أنس فى حديث انه عليه الصلاة والسلام قال اذا أذنب العبد ذنبا كتب عليه فقال اعرابى وان تاب عنه قال محى عنه قال فان عاد قال النبي صلى الله عليه وسلم يكتب عليه قال الاعرابى فان تاب قال محى من صحيفته قال الى متى قال الى أن يستغفر ويتوب الى الله عز وجل ان الله لا يمل من المغفرة حتى يمل العبد من الاستغفار فاذا هم العبد بحسنة كتبها صاحب اليمين حسنة قبل ان يعملها فان عملها كتبت عشر حسنات ثم يضاعفها الله سبحانه وتعالى الى سبعمائة ضعف واذا هم بخطيئة لم تكتب عليه فاذا عملها كتبت خطيئة واحدة ووراءها حسن عفو الله عز وجل وجاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انى لا أصوم الا الشهر لا أزيد عليه ولا أصلى الا الخمس لا أزيد عليها وليس لله فى مالى صدقة ولا حج ولا تطوع أين أنا اذا مت فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال نعم معى اذا حفظت قلبك من اثنتين الغل والحسد ولسانك من اثنتين الغيبة والكذب وعينيك من اثنتين النظر الى ما حرم الله وأن تزدرى بهما مسلما دخلت معى الجنة على راحتى هاتين وفى الحديث الطويل لانس ان الاعرابى قال يا رسول الله من يلى حساب الخلق فقال الله تبارك وتعالى قال هو بنفسه قال نعم فتبسم الاعرابى فقال صلى الله عليه وسلم مم ضحكت يا اعرابى فقال ان الكريم اذا قدر عفا واذا حاسب سامح فقال النبي صلى الله عليه وسلم صدق الاعرابى ألا لا كريم أكرم من الله تعالى هو أكرم الاكرمين ثم قال فقه الاعرابى وفيه أيضا ان الله تعالى شرف الكعبة وعظمها ولو أن عبدا هدمها حجرا حجرا ثم أحرقها ما بلغ جرم من استخف بولى من أولياء الله تعالى قال الاعرابى ومن أولياء الله تعالى قال

وسلم قال يقول الله عز وجل حقت محبتى للمتحابين فى والمتزاورين فى والمتباذلين فى والمتصادقين فى (أخبرنا) الشيخ أبو الفتح محمد بن عبد الباقى اجازة قال أنا أحمد بن الحسين بن خيرون قال أنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الله المحاملى قال أنا أبو القاسم عمر بن جعفر ابن محمد بن سلام قال أنا أبو اسحق ابراهيم ابن اسحق الحربى قال حدثنا حماد عن يحيى ابن سعيد عن سعيد بن المسيب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة قالوا وما هو قال اصلاح ذات البين واياكم والبغضة فانها هى الحالقة وباسناد ابراهيم الحربى عن عبيد الله بن عمر عن أبى أسامة عن عبد الله ابن الوليد عن عمران ابن رباح قال سمعت أبا مسلم يقول سمعت أبا

المؤمنون كلهم أولياء الله تعالى فاسمعت قول الله عز وجل الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور
وفي بعض الاخبار المؤمن أفضل من الكعبة والمؤمن طيب طاهر والمؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة
وفي الخبر خلق الله تعالى جهنم من فضل رحمته سوطا يسوق الله به عباده الى الجنة وفي خبر آخر يقول الله عز وجل
انما خلقت الخلق ليربحوا علي ولم أخلقهم لاربح عليهم وفي حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم ما خلق الله تعالى شيأ الا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه وفي الخبر المشهور ان الله تعالى كتب
على نفسه الرحمة قبل أن يخلق الخلق ان رحمتي تغلب غضبي وعن معاذ بن جبل وأنس بن مالك أنه صلى الله عليه
وسلم قال من قال لا اله الا الله دخل الجنة ومن كان آخر كلامه لا اله الا الله لم تمسه النار ومن لقي الله لا يشرك به شيأ
حرمت عليه النار ولا يدخلها من في قلبه مثقال ذرة من ايمان وفي خبر آخر لو علم الكافر سعة رحمة الله ما أيس من
جنته أحد ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ان زلزلة الساعة شيء عظيم قال أتدرون أي يوم هذا
هذا يوم يقال لآدم عليه الصلاة والسلام قم فابعث بعث النار من ذريتك فيقول كم فيقال من كل ألف تسعمائة
وتسعة وتسعون الى النار وواحد الى الجنة قال فابلس القوم وجعلوا يبكون وتعطلوا يومهم عن الاشتغال
والعمل فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ما لكم لا تعملون فقالوا ومن يشتغل بعمل بعد ما حدثتنا
بهذا فقال كم أنتم في الامم أين تاويل وثاريس ومنسك ويأجوج ومأجوج أمم لا يحصيها الا الله تعالى انما أنتم
في سائر الامم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الاسود وكالرقمة في ذراع الدابة فانظر كيف كان يسوق الخلق بسياط
الخوف ويقودهم بازمة الرجاء الى الله تعالى اذ ساقهم بسياط الخوف أولا فلما خرج ذلك بهم عن حد الاعتدال
الى افراط اليأس داواهم بدواء الرجاء وردهم الى الاعتدال والقصد والآخر لم يكن مناقضا للاول ولكن ذكر
في الاول ما رآه سببا للشفاء واقتصر عليه فلما احتاجوا الى المعالجة بالرجاء ذكر تمام الامر فعلى الواعظ أن يقتدي
بسيد الوعاظ فيتلطف في استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة بعد ملاحظة العلل الباطنة وان لم يراع
ذلك كان ما يفسد بوعظه أكثر مما يصلحه وفي الخبر لو لم تذنبوا لخلق الله خلقا يذنبون فيغفر لهم وفي لفظ آخر
لذهب بكم وجاء بخلق آخر يذنبون فيغفر لهم انه هو الغفور الرحيم وفي الخبر لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو شر
من الذنوب قيل وما هو قال العجب وقال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة
الشفيقة بولدها وفي الخبر ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت على قلب أحد حتى ان ابليس ليتطاول
لها رجاء أن تصيبه وفي الخبر ان لله تعالى مائة رحمة ادخر منها عنده تسعا وتسعين رحمة وأظهر منها في الدنيا رحمة
واحدة فبها يتراحم الخلق فتحن الوالدة على ولدها وتعطف البهيمة على ولدها فاذا كان يوم القيامة ضم هذه
الرحمة الى التسع والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه وكل رحمة منها طباق السموات والارض قال فلا يهلك على
الله يومئذ الا هالك وفي الخبر ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة ولا ينجيه من النار قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا
أنا الا أن يتغمدني الله برحمته وقال عليه أفضل الصلاة والسلام اعملوا وابشروا واعلموا ان أحدا لم ينجه عمله وقال
صلى الله عليه وسلم اني اختبأت شفاعتي لاهل الكبائر من أمتي أترونها للمطيعين المتقين بل هي للمتلوثين
المخلطين وقال عليه الصلاة والسلام بعثت بالحنيفية السمحة السهلة وقال صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد
مصطفى أحب ان يعلم أهل الكتابين ان في ديننا سماحة ويدل على معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين في قولهم
ولا تحمل علينا اصرا وقال تعالى ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم وروى محمد بن الحنفية عن علي
رضي الله تعالى عنهما انه قال لما نزل قوله تعالى فاصفح الصفح الجميل قال يا جبريل وما الصفح الجميل قال عليه السلام
اذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه فقال يا جبريل فالله تعالى أكرم من ان يعاتب من عفا عنه فبكى جبريل وبكى
النبي صلى الله عليه وسلم فبعث الله تعالى اليهما ميكائيل عليه السلام وقال ان ربكما يقرئكما السلام ويقول
كيف أعاتب من عفوت عنه هذا ما لا يشبه كرمي * والاخبار الواردة في أسباب الرجاء أكثر من ان تحصى (وأما
الآثار) فقد قال علي كرم الله وجهه من أذنب ذنبا فستره الله عليه في الدنيا فالله أكرم أن يكشف ستره في
الآخرة ومن أذنب ذنبا فعوقب عليه في الدنيا فالله تعالى أعدل من أن يثني عقوبته على عبده في الآخرة وقال

هريرة يقول الخبر وفي الخبر تحذير عن البغضة وهو ان يجفو الخلق الناس مقتالهم وسوء ظن بهم وهذا خطأ وانما يريد ان يخلو مقتا لنفسه وعلما بما في نفسه من الآفات وحذرا على نفسه من نفسه وعلى الخلق أن يعود عليهم من شره فمن كانت خلوته بهذا الوصف لا يدخل تحت هذا الوعيد والاشارة بالحالقة يعني ان البغضة حالقة للدين لانه نظر الى المؤمنين والمسلمين بعين المقت (وأخبرنا) الشيخ أبو الفتح باسناده الى ابراهيم الحربي قال حدثنا يعقوب بن ابراهيم قال حدثنا أبو عاصم عن ثور عن خالد بن معدان قال ان لله تعالى ملكا نصفه من نار ونصفه من ثلج وان من دعائه اللهم فكما ألفت بين هذا الثلج وهذه النار فلا الثلج يطفئ النار ولا النار تذيب الثلج ألف

الثوري ما أحب أن يجعل حسابي الى أبوي لاني أعلم ان الله تعالى أرحم بي منهما وقال بعض السلف المؤمن اذا
عصى الله تعالى ستره عن أبصار الملائكة كيلا تراه فتشهد عليه وكتب محمد بن مصعب الى أسود بن سالم بخطه ان
العبد اذا كان مسرفا على نفسه فرفع يديه يدعو ويقول يا ربي حجبت الملائكة صوته وكذا الثانية والثالثة حتى
اذا قال الرابعة يا ربي قال الله تعالى حتى متى تحجبون عني صوت عبدي قد علم عبدي انه ليس له رب يغفر الذنوب
غيري اشهدكم اني قد غفرت له وقال ابراهيم بن أدهم رحمة الله عليه خلا لي الطواف ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة
فوقفت في الملتزم عند الباب فقلت يا ربي اعصمني حتى لا أعصيك أبدا فهتف بي هاتف من البيت يا ابراهيم أنت
تسألني العصمة وكل عبادي المؤمنين يطلبون ذلك فاذا عصمتهم فعلى من أتفضل ولمن أغفر وكان الحسن يقول
لو لم يذنب المؤمن لكان يطير في ملكوت السموات ولكن الله تعالى قمعه بالذنوب وقال الجنيد رحمه الله تعالى ان
بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين بالمحسنين ولقي مالك بن دينار أبانا فقال له الى كم تحدث الناس بالرخص
فقال يا أبا يحيى اني لارجو أن ترى من عفو الله يوم القيامة ما تخرق له كساءك هذا من الفرح وفي حديث ربعي
ابن حراش عن أخيه وكان من خيار التابعين وهو ممن تكلم بعد الموت قال لما مات أخي سجي بثوبه وألقيناه
على نعشه فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدا وقال اني لقيت ربي عز وجل فحياني بروح وريحان وربي
غير غضبان واني رأيت الامر أيسر مما تظنون فلا تغتروا وان محمدا صلى الله عليه وسلم ينتظرني وأصحابه حتى
أرجع اليهم قال ثم طرح نفسه فكأنها كانت حصاة وقعت في طشت فحملناه ودفناه وفي الحديث أن رجلين
من بني اسرائيل تواخيا في الله تعالى فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابدا وكان يعظه ويزجره
فكان يقول دعني وربي أبعثت علي رقيبا حتى رآه ذات يوم على كبيرة فغضب فقال لا يغفر الله لك قال فيقول
الله تعالى يوم القيامة أيستطيع أحد أن يحظر رحمتي على عبادي اذهب أنت فقد غفرت لك ثم يقول للعابد وأنت
فقد أوجبت لك النار قال فوالذي نفسي بيده لقد تكلم بكلمة أهلكت دنياه وآخرته وروي أيضا ان لصا
كان يقطع الطريق في بني اسرائيل أربعين سنة فمر عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابد من عباد بني اسرائيل من
الحواريين فقال اللص في نفسه هذا نبي الله يمر والى جنبه حواريه لو نزلت فكنت معهما ثالثا قال فنزل فجعل يريد
ان يدنو من الحواري ويزدري نفسه تعظيما للحواري ويقول في نفسه مثلي لا يمشي الى جنب هذا العابد قال
وأحس الحواري به فقال في نفسه هذا يمشي الى جانبي فضم نفسه ومشى الى عيسى عليه الصلاة والسلام فمشى
بجنبه فبقي اللص خلفه فأوحى الله تعالى الى عيسى عليه الصلاة والسلام قل لهما ليستأنفا العمل فقد أحبطت
ما سلف من أعمالهما أما الحواري فقد أحبطت حسناته لعجبه بنفسه وأما الآخر فقد أحبطت سيآته بما
ازدرى على نفسه فأخبرهما بذلك وضم اللص اليه في سياحته وجعله من حوارييه وروي عن مسروق ان نبيا
من الانبياء كان ساجدا فوطئ عنقه بعض العصاة حتى ألزق الحصى بجبهته قال فرفع النبي عليه الصلاة والسلام
رأسه مغضبا فقال اذهب فلن يغفر الله لك فأوحى الله تعالى اليه تتألى علي في عبادي اني قد غفرت له ويقرب من
هذا ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقنت على المشركين
ويلعنهم في صلاته فنزل عليه قوله تعالى ليس لك من الامر شيء الآية فترك الدعاء عليهم وهدى الله تعالى عامة
أولئك للاسلام وروي في الاثر أن رجلين كانا من العابدين متساويين في العبادة قال فاذا أدخلا الجنة رفع
أحدهما في الدرجات العلى على صاحبه فيقول يا رب ما كان هذا في الدنيا بأكثر مني عبادة فرفعته علي في عليين
فيقول الله سبحانه انه كان يسألني في الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألني النجاة من النار فأعطيت كل عبد
سؤله وهذا يدل على ان العبادة على الرجاء أفضل لان المحبة أغلب على الراجي منها على الخائف فكم من فرق في
الملوك بين من يخدم اتقاء لعقابه وبين من يخدم ارتجاء لانعامه واكرامه ولذلك أمر الله تعالى بحسن الظن
ولذلك قال صلى الله عليه وسلم سلوا الله الدرجات العلى فانما تسألون كريما وقال اذا سألتم الله فأعظموا الرغبة
واسألوا الفردوس الاعلى فان الله تعالى لا يتعاظمه شيء وقال بكر بن سليم الصواف دخلنا على مالك بن أنس في
العشية التي قبض فيها فقلنا يا أبا عبد الله كيف تجدك قال لا أدري ما أقول لكم الا انكم ستعاينون من عفو الله

بين قلوب عبادك الصالحين وكيف لا تتألف قلوب الصالحين وقد وجدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقته العزيز بقاب قوسين في وقت لا يسعه فيه شيء لطف حال الصالحين وجدهم في ذلك المقام العزيز وقال السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فهم مجتمعون وان كانوا متفرقين وصحبتهم لازمة وعزمتهم في التواصل في الدنيا والآخرة جازمة * وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لو ان رجلا صام النهار وقام الليل وتصدق وجاهد ولم يحب في الله ولم يبغض فيه ما نفعه ذلك (أخبرنا) رضي الدين أحمد بن اسمعيل بن يوسف اجازة ان لم يكن سماعا قال أنا أبو المظفر عن والده أبي القاسم القشيري قال سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول سمعت عبد الله

مالم يكن لكم فى حساب ثم ما برحنا حتى أغمضناه وقال يحيى بن معاذ فى مناجاته يكاد رجائى لك مع الذنوب يغلب رجائى اياك مع الاعمال لانى أعتمد فى الاعمال على الاخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف وأجدنى فى الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف وقيل ان مجوسيا استضاف ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال ان أسلمت أضفتك فمر المجوسى فأوحى الله تعالى اليه يا ابراهيم لم تطعمه الا بتغيير دينه ونحن من سبعين سنة نطعمه على كفره فلو أضفته ليلة ماذا كان عليك فمر ابراهيم يسعى خلف المجوسى فرده وأضافه فقال له المجوسى ما السبب فيما بدا لك فذكر له فقال له المجوسى أهكذا يعاملنى ثم قال أعرض على الاسلام فاسلم ورأى الاستاذ أبو سهل الصعلوكى أبا سهل الزجاجى فى المنام وكان يقول بوعيد الابد فقال له كيف حالك فقال وجدنا الامر أهون مما توهمنا ورأى بعضهم أبا سهل الصعلوكى فى المنام على هيئة حسنة لا توصف فقال له يا أستاذ بم نلت هذا فقال بحسن ظنى بربى وحكى ان أبا العباس بن سريج رحمه الله تعالى رأى فى مرض موته فى منامه كان القيامة قد قامت واذا الجبار سبحانه يقول أين العلماء قال فجاؤا ثم قال ماذا عملتم فيما علمتم قال فقلنا يا رب قصرنا وأسأنا قال فاعاد السؤال كأنه لم يرض بالجواب وأراد جوابا غيره فقلت اما أنا فليس فى صحيفتى الشرك وقد وعدت ان تغفر ما دونه فقال اذهبوا به فقد غفرت لكم ومات بعد ذلك بثلاث ليال وقيل كان رجل شريب جمع قوما من ندمائه ودفع الى غلامه أربعة دراهم وأمره أن يشترى شيأ من الفواكه للمجلس فمر الغلام بباب مجلس منصور بن عمار وهو يسأل الفقير شيأ ويقول من دفع اليه أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات قال فدفع الغلام اليه الدراهم فقال منصور ما الذى تريد أن أدعو لك فقال لى سيد أريد أن أتخلص منه فدعا منصور وقال الاخرى فقال أن يخلف الله على دراهمى فدعا ثم قال الاخرى قال أن يتوب الله على سيدى فدعا ثم قال الاخرى فقال أن يغفر الله لى ولسيدى ولك وللقوم فدعا منصور فرجع الغلام فقال له سيده لم أبطأت فقص عليه القصة قال وبم دعا فقال سألت لنفسى العتق فقال له اذهب فأنت حر قال وايش الثانى قال ان يخلف الله على الدراهم قال لك أربعة آلاف درهم وايش الثالث قال أن يتوب الله عليك قال تبت الى الله تعالى قال وايش الرابع قال أن يغفر الله لى ولك وللقوم وللمذكر قال هذا الواحد ليس الى فلما بات تلك الليلة رأى فى المنام كأن قائلا يقول له أنت فعلت ما كان اليك افترى أنى لا أفعل ما الى قد غفرت لك وللغلام ولمنصور بن عمار وللقوم الحاضرين أجمعين وروى عن عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفى قال رأيت ثلاثة من الرجال وامرأة يحملون جنازة قال فأخذت مكان المرأة وذهبنا الى المقبرة وصلينا عليها ودفنا الميت فقلت للمرأة من كان هذا الميت منك قالت ابنى قلت ولم يكن لكم جيران قالت بلى ولكن صغروا أمره قلت وايش كان هذا قالت مخنثا قال فرحمتها وذهبت بها الى منزلى وأعطيتها دراهم وحنطة وثيابا قال فرأيت تلك الليلة كأنه أتانى آت كأنه القمر ليلة البدر وعليه ثياب بيض فجعل يتشكرنى فقلت من أنت فقال المخنث الذى دفنتمونى اليوم رحمنى ربى باحتقار الناس اياى وقال ابراهيم الاطروش كنا قعودا ببغداد مع معروف الكرخى على دجلة اذ مر أحداث فى زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون فقالوا لمعروف أما تراهم يعصون الله مجاهرين ادع الله عليهم فرفع يديه وقال الهى كما فرحتهم فى الدنيا ففرحهم فى الآخرة فقال القوم انما سألناك أن تدعو عليهم فقال اذا فرحهم فى الآخرة تاب عليهم وكان بعض السلف يقول فى دعائه يا رب وأى أهل دهر لم يعصوك ثم كانت نعمتك عليهم سابغة ورزقك عليهم دارا سبحانك ما أحلمك وعزتك انك لتعصى ثم تسبغ النعمة وتدر الرزق حتى كأنك يا ربنا لا تغضب فهذه هى الاسباب التى بها يجلب روح الرجاء الى قلوب الخائفين والآيسين فاما الحمقى المغرورون فلا ينبغى أن يسمعوا شيأ من ذلك بل يسمعون ما سنورده فى أسباب الخوف فان أكثر الناس لا يصلح الا على الخوف كالعبد السوء والصبى العرم لا يستقيم الا بالسوط والعصا واظهار الخشونة فى الكلام وأما ضد ذلك فيسد عليهم باب الصلاح فى الدين والدنيا (الشطر الثانى من الكتاب فى الخوف) وفيه بيان حقيقة الخوف وبيان درجاته وبيان أقسام المخاوف وبيان فضيلة الخوف وبيان الافضل من الخوف والرجاء وبيان دواء الخوف وبيان معنى سوء الخاتمة وبيان أحوال الخائفين من الانبياء صلوات الله عليهم والصالحين رحمة الله عليهم ونسأل الله حسن التوفيق

ابن المعلم يقول سمعت أبا بكر التلمسانى يقول اصحبوا مع الله فان لم تطيقوا فاصحبوا مع من يصحب مع الله لتوصلكم بركة صحبتهم الى صحبة الله (وأخبرنا) شيخنا ضياء الدين أبو النجيب اجازة قال أنا عمر بن أحمد الصفار النيسابورى اجازة قال أنا أبو بكر أحمد ابن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن السلمى قال سمعت أبا نصر الاصفهانى يقول سمعت أبا جعفر الحدادى يقول سمعت على بن سهل يقول الانس بالله تعالى ان تستوحش من الخلق الا من أهل ولاية الله فان الانس بأهل ولاية الله هو الانس بالله (وقد نبه القائل) نظما على حقيقة جامعة لمعانى الصحبة والخلوة وفائدتهما وما يحذر فيهما بقوله

وحدة الانسان خير من جليس السوء عنده
وجليس الخير خير من قعود المرء وحده

(بيان حقيقة الخوف)

اعلم ان الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء ومن أنس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام لم يبق له التفات الى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء فانهما زمامان يمنعان النفس عن الخروج الى رعوناتها والى هذا أشار الواسطي حيث قال الخوف حجاب بين الله وبين العبد وقال أيضا اذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف وبالجملة فالمحب اذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصانا في الشهود ودوام الشهود غاية المقامات ولكنا الآن انما نتكلم في أوائل المقامات فنقول حال الخوف ينتظم أيضا من علم وحال وعمل أما العلم فهو العلم بالسبب المفضي الى المكروه وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع في يده فيخاف القتل مثلا ويجوز العفو والافلات ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالاسباب المفضية الى قتله وهو تفاحش جنايته وكون الملك في نفسه حقودا غضوبا منتقما وكونه محفوفا بمن يحثه على الانتقام خاليا عمن يتشفع اليه في حقه وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك فالعلم بتظاهر هذه الاسباب سبب لقوة الخوف وشدة تألم القلب وبحسب ضعف هذه الاسباب يضعف الخوف وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية قارفها الخائف بل عن صفة المخوف كالذي وقع في مخالب سبع فانه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي حرصه وسطوته على الافتراس غالبا وان كان افتراسه بالاختيار وقد يكون من صفة جبلية للمخوف منه كخوف من وقع في مجرى سيل أو جوار حريق فان الماء يخاف لانه بطبعه مجبول على السيلان والاغراق وكذا النار على الاحراق فالعلم باسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لاحراق القلب وتألمه وذلك الاحراق هو الخوف فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وانه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي وتارة يكون بهما جميعا وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائه وانه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون تكون قوة خوفه فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أنا أخوفكم لله وكذلك قال الله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء ثم اذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات أما في البدن فبالنحول والصفار والغشية والزعقة والبكاء وقد تنشق به المرارة فيفضي الى الموت أو يصعد الى الدماغ فيفسد العقل أو يقوى فيورث القنوط واليأس وأما في الجوارح فبكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافيا لما فرط واستعدادا للمستقبل ولذلك قيل ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه وقال أبو القاسم الحكيم من خاف شيأ هرب منه ومن خاف الله هرب اليه وقيل لذي النون متى يكون العبد خائفا قال اذا نزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمي مخافة طول السقام وأما في الصفات فبأن يقمع الشهوات ويكدر اللذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه اذا عرف أن فيه سما فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة ويفارقه الكبر والحقد والحسد بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته فلا يتفرغ لغيره ولا يكون له شغل الا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالانفاس واللحظات ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات ويكون حاله حال من وقع في مخالب سبع ضار لا يدري انه يغفل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلك فيكون ظاهره وباطنه مشغولا بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين وقوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحتراقه وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وأفعاله وبعيوب النفس وما بين يديها من الاخطار والاهوال وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الاعمال أن يمنع عن المحظورات ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعا فان زادت قوته كف عما يتطرق اليه امكان التحريم فيكف أيضا عما لا يتيقن تحريمه ويسمى ذلك تقوى اذ التقوى أن يترك ما يريبه الى ما لا يريبه

وقد

(الباب الرابع والخمسون في أداء حقوق الصحبة والاخوة في الله تعالى) قال الله تعالى وتعاونوا على البر والتقوى وقال تعالى وتواصوا بالحق وتواصوا بالمرحمة وقال في وصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشداء على الكفار رحماء بينهم وكل هذه الآيات تنبيه من الله تعالى للعباد على آداب حقوق الصحبة فمن اختار صحبة أو اخوة فأدبه في أول ذلك ان يسلم نفسه وصاحبه الى الله تعالى بالمسئلة والدعاء والتضرع ويسأل البركة في الصحبة فانه يفتح على نفسه بذلك اما بابا من أبواب الجنة واما بابا من أبواب النار فان كان الله تعالى يفتح بينهما خيرا فهو باب من أبواب الجنة قال الله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وقيل ان أحد الاخوين في الله تعالى يقال له

وقد يحمله على أن يترك مالا باس به مخافة مابه باس وهو الصدق فى التقوى فاذا انضم اليه التجرد للخدمة فصار لا يبنى مالا يسكنه ولا يجمع مالا يأكله ولا يلتفت الى دنيا يعلم انها تفارقه ولا يصرف الى غير الله تعالى نفسا من أنفاسه فهو الصدق وصاحبه جدير بان يسمى صديقا ويدخل فى الصدق التقوى ويدخل فى التقوى الورع ويدخل فى الورع العفة فانها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة فاذا الخوف يؤثر فى الجوارح بالكف والاقدام ويتجدد له بسبب الكف اسم العفة وهو كف عن مقتضى الشهوة وأعلى منه الورع فانه أعم لانه كف عن كل محظور وأعلى منه التقوى فانه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعا وو راءه اسم الصديق والمقرب وتجرى الرتبة الآخرة مما قبلها مجرى الاخص من الاعم فاذا ذكرت الاخص فقد ذكرت الكل كما انك تقول الانسان اما عربى واما عجمى والعربى اما قرشى أو غيره والقرشى اما هاشمى أو غيره والهاشمى اما علوى أو غيره والعلوى اما حسنى أو حسينى فاذا ذكرت انه حسنى مثلا فقد وصفته بالجميع وان وصفته بانه علوى وصفته بما هو فوقه مما هو أعم منه فكذلك اذا قلت صديق فقد قلت انه تقى وورع وعفيف فلا ينبغى أن تظن ان كثرة هذه الاسامى تدل على معان كثيرة متباينة فيختلط عليك كما اختلط على من طلب المعانى من الالفاظ ولم يتبع الالفاظ المعانى فهذه اشارة الى مجامع معانى الخوف وما يكتنفه من جانب العلو كالمعرفة الموجبة له ومن جانب السفل كالاعمال الصادرة منه كفا واقداما

(بيان درجات الخوف واختلافه فى القوة والضعف)

اعلم ان الخوف محمود وربما يظن أن كل ما هو خوف محمود فكلما كان أقوى وأكثر كان أحمد وهو غلط بل الخوف سوط الله يسوق به عباده الى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى والاصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط وكذا الصبى ولكن ذلك لا يدل على أن المبالغة فى الضرب محمودة وكذلك الخوف له قصور وله افراط وله اعتدال والمحمود هو الاعتدال والوسط فاما القاصر منه فهو الذى يجرى مجرى رقة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع وكذلك عند مشاهدة سبب هائل فاذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب الى الغفلة فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضيب الضعيف الذى تضرب به دابة قوية لا يؤلمها ألما مبرحا فلا يسوقها الى المقصد ولا يصلح لرياضتها وهكذا خوف الناس كلهم الا العارفين والعلماء ولست أعنى بالعلماء المترسمين برسوم العلماء والمتسمين باسمائهم فانهم أبعد الناس عن الخوف بل أعنى العلماء بالله وبأيامه وأفعاله وذلك مما قد عز وجوده الآن ولذلك قال الفضيل بن عياض اذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت فانك ان قلت لا كفرت وان قلت نعم كذبت وأشار به الى أن الخوف هو الذى يكف الجوارح عن المعاصى ويقيدها بالطاعات وما لم يؤثر فى الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفا وأما المفرط فانه الذى يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج الى اليأس والقنوط وهو مذموم أيضا لانه يمنع من العمل وقد يخرج الخوف أيضا الى المرض والضعف والى الوله والدهشة وزوال العقل فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط وهو الحمل على العمل ولولاه لما كان الخوف كمالا لانه بالحقيقة نقصان لان منشأه الجهل والعجز أما الجهل فانه ليس يدرى عاقبة أمره ولو عرف لم يكن خائفا لان المخوف هو الذى يتردد فيه وأما العجز فهو أنه متعرض لمحذور لا يقدر على دفعه فاذا هو محمود بالاضافة الى نقص الآدمى وانما المحمود فى نفسه وذاته هو العلم والقدرة وكل ما يجوز أن يوصف الله تعالى به وما لا يجوز وصف الله به فليس بكمال فى ذاته وانما يصير محمودا بالاضافة الى نقص هو أعظم منه كما يكون احتمال ألم الدواء محمودا لانه أهون من ألم المرض والموت فما يخرج الى القنوط فهو مذموم وقد يخرج الخوف أيضا الى المرض والضعف والى الوله والدهشة وزوال العقل وقد يخرج الى الموت وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذى يقتل الصبى والسوط الذى يهلك الدابة أو يمرضها أو يكسر عضوا من أعضائها وانما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أسباب الرجاء وأكثر منها ليعالج به صدمة الخوف المفرط المفضى الى القنوط أو أحد هذه الامور فكل ما يراد لامر فالمحمود منه ما يفضى الى المراد المقصود منه وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم وفائدة الخوف الحذر والورع والتقوى

أدخل الجنة فيسأل عن منزل أخيه فان كان دونه لم يدخل الجنة حتى يعطى أخوه مثل منزله فان قيل له لم يكن يعمل مثل عملك فيقول انى كنت أعمل لى وله فيعطى جميع ما يسأل لاخيه ويرفع أخوه الى درجته وان فتح الله تعالى عليهما بالصحبة شرا فهو باب من أبواب النار قال الله تعالى ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا وان كانت الآية وردت فى قصة مشهورة ولكن الله تعالى نبه بذلك عباده على الحذر من كل خليل يقطع عن الله واختار الصحبة والاخوة اتفاقا من غير نية فى ذلك وتثبت فى أول الامر شان أرباب الغفلة الجاهلين بالنيات والمقاصد والمنافع والمضار وقد قال عبد الله بن عباس رضى الله

والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الاسباب الموصلة الى الله تعالى وكل ذلك يستدعى الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل فكل ما يقدح فى هذه الاسباب فهو مذموم فان قلت من خاف فمات من خوفه فهو شهيد فكيف يكون حاله مذموما فاعلم أن معنى كونه شهيدا أن له رتبة بسبب موته من الخوف كان لا ينالها لومات فى ذلك الوقت لا بسبب الخوف فهو بالاضافة اليه فضيلة فأما بالاضافة الى تقدير بقائه وطول عمره فى طاعة الله وسلوك سبله فليس بفضيلة بل للسالك الى الله تعالى بطريق الفكر والمجاهدة والترقى فى درجات المعارف فى كل لحظة رتبة شهيد وشهداء ولولا هذا لكانت رتبة صبى يقتل أو مجنون يفترسه سبع أعلى من رتبة نبى أو ولى يموت حتف أنفه وهو محال فلا ينبغى أن يظن هذا بل أفضل السعادات طول العمر فى طاعة الله تعالى فكل ما أبطل العمر أو العقل أو الصحة التى يتعطل العمر بتعطيلها فهو خسران ونقصان بالاضافة الى أمور وان كان بعض أقسامها فضيلة بالاضافة الى أمور أخر كما كانت الشهادة فضيلة بالاضافة الى ما دونها لا بالاضافة الى درجة المتقين والصديقين فاذن الخوف ان لم يؤثر فى العمل فوجوده كعدمه مثل السوط الذى لا يزيد فى حركة الدابة وان أثر فله درجات بحسب ظهور أثره فان لم يحمل الا على العفة وهى الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة فاذا أثمر الورع فهو أعلى وأقصى درجاته ان يثمر درجات الصديقين وهو ان يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى حتى لا يبقى لغير الله تعالى فيه متسع فهذا أقصى ما يحمد منه وذلك مع بقاء الصحة والعقل فان جاوز هذا الى ازالة العقل والصحة فهو مرض يجب علاجه ان قدر عليه ولو كان محمودا لما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتى يزول ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للمريدين الملازمين للجوع أياما كثيرة احفظوا عقولكم فانه لم يكن لله تعالى ولى ناقص العقل

﴿ بيان أقسام الخوف بالاضافة الى ما يخاف منه ﴾

اعلم ان الخوف لا يتحقق الا بانتظار مكروه والمكروه اما أن يكون مكروها فى ذاته كالنار واما أن يكون مكروها لانه يفضى الى المكروه كما تكره المعاصى لادائها الى مكروه فى الآخرة كما يكره المريض الفواكه المضرة لادائها الى الموت فلا بد لكل خائف من ان يتمثل فى نفسه مكروه من أحد القسمين ويقوى انتظاره فى قلبه حتى يحترق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه ومقام الخائفين يختلف فيما يغلب على قلوبهم من المكروه هات المحذورة فالذين يغلب على قلوبهم ما ليس مكروها لذاته بل لغيره كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة أو خوف نقض التوبة ونكث العهد أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى أو خوف زوال رقة القلب وتبدلها بالقساوة أو خوف الميل عن الاستقامة أو خوف استيلاء العادة فى اتباع الشهوات المألوفة أو خوف أن يكله الله تعالى الى حسناته التى اتكل عليها وتعزز بها فى عباد الله أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله أو خوف الاستدراج بتواتر النعم أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب أو خوف تبعات الناس عنده فى الغيبة والخيانة والغش واضمار السوء أو خوف ما لا يدرى انه يحدث فى بقية عمره أو خوف تعجيل العقوبة فى الدنيا والافتضاح قبل الموت أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا أو خوف اطلاع الله على سريرته فى حال غفلته عنه أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء أو خوف السابقة التى سبقت له فى الازل فهذه كلها مخاوف العارفين ولكل واحد خصوص فائدة وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضى الى الخوف فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب على الفطام عن العادة والذى يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس وهكذا الى بقية الاقسام وأغلب هذه المخاوف على المتقين خوف الخاتمة فان الامر فيه خطر وأعلى الاقسام وأدلها على كمال المعرفة خوف السابقة لان الخاتمة تتبع السابقة وفرع يتفرع عنها بعد تخلل أسباب كثيرة فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء فى أم الكتاب والخائف من الخاتمة بالاضافة الى الخائف من السابقة كرجلين وقع الملك فى حقهما بتوقيع يحتمل أن يكون فيه حز الرقبة ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة اليه ولم يصل التوقيع اليهما بعد فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره وانه عماذا يظهر ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك وكيفيته وانه ما الذى خطر له فى حال التوقيع من رحمة أو غضب وهذا التفات الى السبب فهو أعلى من الالتفات الى ما هو فرع فكذلك الالتفات الى القضاء الازلى الذى جرى بتوقيعه

عنهما فى كلام له وهل يفسد الناس الا الناس فالفساد بالصحبة متوقع والصلاح متوقع وما هذا سبيله كيف لا يحذر فى أوله ويحكم الامر فيه بكثرة الدعاء الى الله تعالى وصدق الاختيار وسؤال البركة والخيرة فى ذلك وتقديم صلاة الاستخارة ثم ان اختيار الصحبة والاخوة عمل وكل عمل يحتاج الى النية والى حسن الخاتمة وقد قال عليه الصلاة والسلام فى الخبر الطويل سبعة يظلهم الله تعالى فذكر منهم اثنان تحابا فى الله فعاشا على ذلك وماتا عليه اشارة الى ان الاخوة والصحبة من شرطهما حسن الخاتمة حتى يكتب لهما ثواب المؤاخاة ومتى أفسد المؤاخاة بتضييع الحقوق فيها فسد العمل من الاول (قيل) ما حسد الشيطان متعاونين على بر حسده متآخيين فى الله متحابين فيه فانه يجتهد نفسه ويجث

القلم اعلى من الالتفات الى ما يظهر فى الابد واليه اشارة النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان على المنبر فقبض كفه
اليمنى ثم قال هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة باسمائهم وأسماء آبائهم لا يزاد فيهم ولا ينقص ثم قبض كفه اليسرى
وقال هذا كتاب الله كتب فيه أهل النار باسمائهم وأسماء ابائهم لا يزاد فيهم ولا ينقص وليعملن أهل السعادة
بعمل أهل الشقاوة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم ثم يستنقذهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة وليعملن أهل
الشقاوة بعمل أهل السعادة حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم ثم يستخرجهم الله قبل الموت ولو بفواق ناقة السعيد
من سعد بقضاء الله والشقى من شقى بقضاء الله والاعمال بالخواتيم وهذا كانقسام الخائفين الى من يخاف معصيته
وجنايته والى من يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله وأوصافه التى تقتضى الهيبة لا محالة فهذا أعلى رتبة
ولذلك يبقى خوفه وان كان فى طاعة الصديقين وأما الآخر فهو فى عرضة الغرور والامن ان واظب على الطاعات
فالخوف من المعصية خوف الصالحين والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى
وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ماهو جدير بان يخاف من غير جناية بل العاصى لو عرف الله حق
المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته ولولا أنه مخوف فى نفسه لما سخره للمعصية ويسر له سبيلها ومهد له أسبابها فان
تيسير أسباب المعصية ابعاد ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها ان يسخر للمعصية وتجرى عليه
أسبابها ولا سبق قبل الطاعة وسيلة توسل بها من يسرت له الطاعات ومهد له سبيل القربات فالعاصى قد قضى عليه
بالمعصية شاء أم أبى وكذا المطيع فالذى يرفع محمدا صلى الله عليه وسلم الى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل
وجوده ويضع أبا جهل فى أسفل سافلين من غير جناية سبقت منه قبل وجوده جدير بان يخاف منه لصفة جلاله
فان من أطاع الله أطاع بان سلط عليه ارادة الطاعة وآتاه القدرة وبعد خلق الارادة الجازمة والقدرة التامة
يصير الفعل ضروريا والذى عصى عصى لانه سلط عليه ارادة قوية جازمة وآتاه الاسباب والقدرة فكان الفعل
بعد الارادة والقدرة ضروريا فليت شعرى ما الذى أوجب اكرام هذا وتخصيصه بتسليط ارادة الطاعات عليه
وما الذى أوجب اهانة الآخر وابعاده بتسليط دواعى المعصية عليه وكيف يحال ذلك على العبد واذا كانت
الحوالة ترجع الى القضاء الازلى من غير جناية ولا وسيلة فالخوف ممن يقضى بما يشاء ويحكم بما يريد حزم عند كل
عاقل ووراء هذا المعنى سر القدر الذى لا يجوز افشاؤه ولا يمكن تفهيم الخوف منه فى صفاته جل جلاله الا بمثال
لولا اذن الشرع لم يستجرئ على ذكره ذو بصيرة فقد جاء فى الخبر ان الله تعالى أوحى الى داود عليه السلام يا داود
خفنى كما تخاف السبع الضارى فهذا المثال يفهمك حاصل المعنى وان كان لا يقفك على سببه فان الوقوف على
سببه وقوف على سر القدر ولا يكشف ذلك الا لاهله والحاصل أن السبع يخاف لا لجناية سبقت اليه منك بل
لصفته وبطشه وسطوته وكبره وهيبته ولانه يفعل ما يفعل ولا يبالى فان قتلك لم يرق قلبه ولم يتألم بقتلك وان خلاك
لم يخلك شفقة عليك وابقاء على روحك بل أنت عنده أخس من أن يلتفت اليك حيا كنت أو ميتا بل اهلاك
ألف مثلك واهلاك نملة عنده على وتيرة واحدة اذ لا يقدح ذلك فى عالم سبعيته وما هو موصوف به من قدرته
وسطوته ولله المثل الاعلى ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التى هى أقوى وأوثق وأجلى من المشاهدة
الظاهرة انه صادق فى قوله هؤلاء الى الجنة ولا أبالى وهؤلاء الى النار ولا أبالى ويكفيك من موجبات الهيبة
والخوف المعرفة بالاستغناء وعدم المبالاة *(الطبقة الثانية من الخائفين)* أن يتمثل فى أنفسهم ما هو المكروه
وذلك مثل سكرات الموت وشدته أو سؤال منكر ونكير أو عذاب القبر أو هول المطلع أو هيبة الموقف بين يدى الله
تعالى والحياء من كشف الستر والسؤال عن النقير والقطمير أو الخوف من الصراط وحدته وكيفية العبور
عليه أو الخوف من النار واغلالها وأهوالها أو الخوف من الحرمان عن الجنة دار النعيم والملك المقيم وعن نقصان
الدرجات أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى وكل هذه الاسباب مكروهة فى نفسها فهى لا محالة مخوفة وتختلف
أحوال الخائفين فيها وأعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين وما قبل ذلك
خوف العاملين والصالحين والزاهدين وكافة العالمين ومن لم تكمل معرفته ولم تنفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال
ولا بألم البعد والفراق واذا ذكر له أن العارف لا يخاف النار وانما يخاف الحجاب وجد ذلك فى باطنه منكرا وتعجب

قبيله على افساد ما بينهما (وكان) الفضيل يقول اذا وقعت الغيبة ارتفعت الاخوة والاخوة فى الله تعالى مواجهة قال الله تعالى اخوانا على سرر متقابلين ومتى أضمر أحدهما للآخر سوأ أو كره منه شيأ ولم ينبهه عليه حتى يزيله أو يتسبب الى ازالته منه فما واجهه بل استدبره (قال الجنيد) رحمه الله ما تواخى اثنان فى الله واستوحش أحدهما من صاحبه الا لعلة فى أحدهما فالمؤاخاة فى الله أصفى من الماء الزلال وما كان لله فالله مطالب بالصفاء فيه وكل ما صفا دام والاصل فى دوام صفائه عدم المخالفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه (قال أبو سعيد الخراز) صحبت الصوفية خمسين سنة ما وقع بينى وبينهم خلاف فقيل له وكيف

منه في نفسه وربما أسكره لذة النظر الى وجه الله الكريم لولا منع الشرع اياه من انكاره فيكون اعترافه به باللسان
عن ضرورة التقليد والا فباطنه لا يصدق به لانه لا يعرف الا لذة البطن والفرج والعين بالنظر الى الالوان
والوجوه الحسان وبالجملة كل لذة تشاركه فيها البهائم فاما لذة العارفين فلا يدركها غيرهم وتفصيل ذلك وشرحه
حرام مع من ليس أهلا له ومن كان أهلا له استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره فالى هذه الاقسام
يرجع خوف الخائفين نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه

(بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه)

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار وتارة بالآيات والاخبار * أما الاعتبار فسبيله أن فضيلة
الشئ بقدر غنائه في الافضاء الى سعادة لقاء الله تعالى في الآخرة اذ لا مقصود سوى السعادة ولا سعادة للعبد الا في
لقاء مولاه والقرب منه فكل ما أعان عليه فله فضيلة وفضيلته بقدر غايته وقد ظهر انه لا وصول الى سعادة لقاء الله
في الآخرة الا بتحصيل محبته والانس به في الدنيا ولا تحصل المحبة الا بالمعرفة ولا تحصل المعرفة الا بدوام الفكر ولا
يحصل الانس الا بالمحبة ودوام الذكر ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر الا بانقطاع حب الدنيا من القلب ولا
ينقطع ذلك الا بترك لذات الدنيا وشهواتها ولا يمكن ترك المشتهيات الا بقمع الشهوات ولا تنقمع الشهوة بشئ كما
تنقمع بنار الخوف فالخوف هو النار المحرقة للشهوات فاذن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوة وبقدر ما يكف عن
المعاصي ويحث على الطاعات ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة
وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الاعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب الى الله زلفى * وأما
بطريق الاقتباس من الآيات والاخبار فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر وناهيك دلالة على فضيلته
جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهي مجامع مقامات أهل الجنان قال الله تعالى وهدى
ورحمة للذين هم لربهم يرهبون وقال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وصفهم بالعلم لخشيتهم وقال عز وجل رضي
الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف لان الخوف ثمرة العلم
ولذلك جاء في خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام وأما الخائفون فان لهم الرفيق الاعلى لا يشاركون فيه فانظر
كيف أفردهم بمرافقة الرفيق الاعلى وذلك لانهم العلماء والعلماء لهم رتبة مرافقة الانبياء لانهم ورثة الانبياء
ومرافقة الرفيق الاعلى للانبياء ومن يلحق بهم ولذلك لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض موته بين
البقاء في الدنيا وبين القدوم على الله تعالى كان يقول أسألك الرفيق الاعلى فاذن ان نظر الى مثمره فهو العلم وان
نظر الى ثمرته فالورع والتقوى ولا يخفى ما ورد في فضائلهما حتى ان العاقبة صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها
كما صار الحمد مخصوصا بالله تعالى والصلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقال الحمد لله رب العالمين والعاقبة
للمتقين والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله أجمعين وقد خصص الله تعالى التقوى بالاضافة الى نفسه
فقال تعالى لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم وانما التقوى عبارة عن كف بمقتضى
الخوف كما سبق ولذلك قال تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم ولذلك أوصى الله تعالى الاولين والآخرين
بالتقوى فقال تعالى ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله وقال عز وجل وخافون ان
كنتم مؤمنين فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه في الايمان فلذلك لا يتصور ان ينفك مؤمن عن خوف وان ضعف
ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وايمانه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضيلة التقوى اذا
جمع الله الاولين والآخرين لميقات يوم معلوم فاذاهم بصوت يسمع أقصاهم كما يسمع أدناهم فيقول يا أيها
الناس اني قد أنصت لكم منذ خلقتكم الى يومكم هذا فانصتوا الى اليوم انما هي أعمالكم ترد عليكم أيها الناس
اني قد جعلت نسبا وجعلتم نسبا فوضعتم نسبي ورفعتم نسبكم قلت ان أكرمكم عند الله أتقاكم وأبيتم الا أن
تقولوا فلان بن فلان وفلان أغنى من فلان فاليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي أين المتقون فيرفع للقوم لواء
فيتبع القوم لواءهم الى منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب وقال عليه الصلاة والسلام رأس الحكمة مخافة
الله وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود ان أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدي وقال الفضيل
من خاف الله دله الخوف على كل خير وقال الشبلي رحمه الله ما خفت الله يوما الا رأيت له بابا من الحكمة والعبرة

ذلك قال لاني كنت
معهم على نفسي
(أخبرنا) شيخنا أبو
النجيب السهروردي
اجازة قال أنا عمر بن
أحمد الصفار قال أنا أبو
بكر أحمد بن خلف قال
أنا أبو عبد الرحمن السلمي
قال سمعت عبد الله
الداراني قال سمعت أبا
عمرو الدمشقي الرازي
يقول سمعت أبا عبد الله
ابن الجلاء يقول وقد
سأله رجل على أي شرط
أصحب الخلق فقال ان
لم تبرهم فلا تؤذهم وان
لم تسرهم فلا تسوءهم
(وبهذا الاسناد) قال
أبو عبد الله لا تضيع حق
أخيك بما بينك وبينه
من المودة والصداقة
فان الله تعالى فرض
لكل مؤمن حقوقا لم
يضيعها الا من لم يراع
حقوق الله عليه ومن
حقوق الصحبة انه اذا
وقع فرقة ومباينة
لا يذكر أخاه الا بخير
(قيل) كان لبعضهم
زوجة وكان يعلم منها

ما رأيته قط وقال يحيى بن معاذ ما من مؤمن يعمل سيئة الا ويلحقها حسنتان خوف العقاب ورجاء العفو كثعلب بين أسدين وفى خبره وسى عليه الصلاة والسلام وأما الورعون فانه لا يبقى أحد الا ناقشته الحساب وفتشت عما فى يديه الا الورعين فانى أستحيي منهم وأجلهم ان أوقفهم للحساب والورع والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف فان خلت عن الخوف لم تسم بهذه الاسامى وكذلك ما ورد فى فضائل الذكر لا يخفى وقد جعله الله تعالى مخصوصا بالخائفين فقال سيذكر من يخشى وقال تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان وقال صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل وعزتى لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين فان أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة واذا خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة وقال صلى الله عليه وسلم من خاف الله تعالى خافه كل شئ ومن خاف غير الله خوفه الله من كل شئ وقال صلى الله عليه وسلم أتمكم عقلا أشدكم خوفا لله تعالى وأحسنكم فيما أمر الله تعالى به ونهى عنه نظرا وقال يحيى بن معاذ رحمه الله عليه مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة وقال ذو النون رحمه الله تعالى من خاف الله تعالى ذاب قلبه واشتد لله حبه وصح له لبه وقال ذو النون أيضا ينبغى أن يكون الخوف أبلغ من الرجاء فاذا غلب الرجاء تشوش القلب وكان أبو الحسين الضرير يقول علامة السعادة خوف الشقاوة لان الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده فاذا انقطع زمامه هلك مع الهالكين وقيل ليحيى بن معاذ من آمن الخلق غدا فقال أشدهم خوفا اليوم وقال سهل رحمه الله لا تجد الخوف حتى تأكل الحلال وقيل للحسن يا أبا سعيد كيف نصنع نجالس أقواما يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير فقال والله انك أن تخالط أقواما يخوفونك حتى يدركك أمن خير لك من أن تصحب قوما يؤمنونك حتى يدركك الخوف وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله ما فارق الخوف قلبا الا خرب وقالت عائشة رضى الله عنها قلت يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الرجل يسرق ويزنى قال لا بل الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه والتشديدات الواردة فى الامن من مكر الله وعذابه لا تنحصر وكل ذلك ثناء على الخوف لان مذمة الشئ ثناء على ضده الذى ينفيه وضد الخوف الامن كما أن ضد الرجاء اليأس وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء فكذلك تدل مذمة الامن على فضيلة الخوف المضاد له بل نقول كل ما ورد فى فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف لانهما متلازمان فان كل من رجا محبوبا فلا بد وأن يخاف فوته فان كان لا يخاف فوته فهو اذا لا يحبه فلا يكون بانتظاره راجيا فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما يجتمعان ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت الى الآخر فى الحال لغفلته عنه وهذا لان من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه اذ المعلوم لا يرجى ولا يخاف فاذا المحبوب الذى يجوز وجوده يجوز عدمه لا محالة فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف والتقديران يتقابلان لا محالة اذا كان ذلك الامر المنتظر مشكوكا فيه نعم أحد طرفى الشك قد يترجح على الآخر بحضور بعض الاسباب ويسمى ذلك ظنا فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر فاذا غلب على الظن وجود المحبوب قوى الرجاء وخفى الخوف بالاضافة اليه وكذا بالعكس وعلى كل حال فهما متلازمان ولذلك قال تعالى ويدعوننا رغبا ورهبا وقال عز وجل يدعون ربهم خوفا وطمعا ولذلك عبر العرب عن الخوف بالرجاء فقال تعالى ما لكم لا ترجون لله وقارا أى لا تخافون وكثيرا ما ورد فى القرآن الرجاء بمعنى الخوف وذلك لتلازمهما اذ عادة العرب التعبير عن الشئ بما يلازمه بل أقول كل ما ورد فى فضل البكاء من خشية الله فهو اظهار لفضيلة الخشية فان البكاء ثمرة الخشية فقد قال تعالى فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا وقال تعالى يبكون ويزيدهم خشوعا وقال عز وجل أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون وقال صلى الله عليه وسلم ما من عبد مؤمن تخرج من عينيه دمعة وان كانت مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى ثم تصيب شيأ من حر وجهه الا حرمه الله على النار وقال صلى الله عليه وسلم اذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات من الشجرة ورقها وقال صلى الله عليه وسلم لا يلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن فى الضرع وقال عقبة بن عامر ما النجاة يا رسول الله قال أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك وقالت عائشة رضى الله عنها

ما يكره فكان يقال له استخبارا عن حالها فيقول لا ينبغى للرجل ان يقول فى أهله الا خيرا ففارقها وطلقها فاستخبر عن ذلك فقال امرأة بعدت عنى وانبت منى فى شئ كيف أذكرها وهذا من التخلق بأخلاق الله تعالى انه سبحانه يظهر الجميل ويستر القبيح واذا وجد من أحدهما ما يوجب التقاطع فهل يبغضه أو لا اختلف القول فى ذلك كان أبو ذر يقول اذا انقلب عما كان عليه أبغضه من حيث أحببته وقال غيره لا يبغض الاخ بعد الصحبة ولكن يبغض عمله قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون ولم يقل انى برىء منكم (وقيل) كان شاب يلازم مجالس أبى الدرداء وكان أبو الدرداء يميزه على غيره فابتلى الشاب بكبيرة من الكبائر

قلت يارسول الله أيدخل أحد من أمتك الجنة بغير حساب قال نعم من ذكر ذنوبه فبكى وقال صلى الله عليه وسلم
ما من قطرة أحب الى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله تعالى أو قطرة دم اهريقت فى سبيل الله سبحانه وقال
صلى الله عليه وسلم اللهم ارزقنى عينين هطالتين ٢ تشفيان بذروف الدمع قبل أن تصير الدموع دما والاضراس
جمرا وقال صلى الله عليه وسلم سبعة يظلهم الله يوم لا ظل الا ظله وذكر منهم رجلا ذكر الله خاليا ففاضت عيناه وقال
أبو بكر الصديق رضى الله عنه من استطاع أن يبكى فليبك ومن لم يستطع فليتباك وكان محمد بن المنكدر رحمه الله
اذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول بلغنى أن النار لا تأكل موضعا مسته الدموع وقال عبد الله بن عمرو
ابن العاص رضى الله عنهما ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا فوالذى نفسى بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع
صوته وصلى حتى ينكسر صلبه وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله ما تغرغرت عين بمائها الا لم يرهق وجه صاحبها
قتر ولا ذلة يوم القيامة فان سالت دموعه أطفأ الله بأول قطرة منها بحارا من النيران ولو أن رجلا بكى فى أمة
ما عذبت تلك الامة وقال أبو سليمان البكاء من الخوف والرجاء والطرب من الشوق وقال كعب الاحبار رضى
الله عنه والذى نفسى بيده لان أبكى من خشية الله حتى تسيل دموعى على وجنتى أحب الى من أن أتصدق
بجبل من ذهب وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لان أدمع دمعة من خشية الله أحب الى من أن أتصدق بالف
دينار وروى عن حنظلة قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا موعظة رقت لها القلوب وذرفت
منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت الى أهلى فدنت منى المرأة وجرى بيننا من حديث الدنيا فنسيت ما كنا عليه
عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذنا فى الدنيا ثم تذكرت ما كنا فيه فقلت فى نفسى قد نافقت حيث تحول عنى
ما كنت فيه من الخوف والرقة فخرجت وجعلت أنادى نافق حنظلة فاستقبلنى أبو بكر الصديق رضى الله عنه
فقال كلا لم ينافق حنظلة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول نافق حنظلة فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم كلا لم ينافق حنظلة فقلت يا رسول الله كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت
منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت الى أهلى فأخذنا فى حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك عليه فقال صلى الله
عليه وسلم يا حنظلة لو أنكم كنتم أبدا على تلك الحالة لصافحتكم الملائكة فى الطرق وعلى فراشكم ولكن يا حنظلة
ساعة وساعة فاذا كل ما ورد فى فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومذمة الامن فهو دلالة
على فضل الخوف لان جملة ذلك متعلقة به اما تعلق السبب أو تعلق المسبب

(بيان أن الافضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما)

اعلم أن الاخبار فى فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر اليهما فيعتريه شك فى أن الافضل أيهما
وقول القائل الخوف أفضل أم الرجاء سؤال فاسد يضاهى قول القائل الخبز أفضل أم الماء وجوابه أن يقال
الخبز أفضل للجائع والماء أفضل للعطشان فان اجتمعا نظر الى الاغلب فان كان الجوع أغلب فالخبز أفضل وان
كان العطش أغلب فالماء أفضل وان استويا فهما متساويان وهذا لان كل ما يراد لمقصود ففضله يظهر بالاضافة
الى مقصوده لا الى نفسه والخوف والرجاء دواآن يداوى بهما القلوب ففضلهما بحسب الداء الموجود فان كان
الغالب على القلب داء الامن من مكر الله تعالى والاغترار به فالخوف أفضل وان كان الاغلب هو اليأس
والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل وكذلك ان كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل ويجوز أن يقال
مطلقا الخوف أفضل على التأويل الذى يقال فيه الخبز أفضل من السكنجبين اذ يعالج بالخبز مرض الجوع
وبالسكنجبين مرض الصفراء ومرض الجوع أغلب وأكثر فالحاجة الى الخبز أكثر فهو أفضل فبهذا الاعتبار
غلبة الخوف أفضل لان المعاصى والاغترار على الخلق أغلب وان نظر الى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لانه
مستقى من بحر الرحمة ومستقى الخوف من بحر الغضب ومن لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضى اللطف والرحمة
كانت المحبة عليه أغلب وليس وراء المحبة مقام وأما الخوف فمستنده الالتفات الى الصفات التى تقتضى العنف فلا
تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغى أن يستعمل فيه لفظ الاصلح لا لفظ الافضل فنقول
أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء وذلك لاجل غلبة المعاصى فأما التقى الذى ترك ظاهر الاثم وباطنه

وخفيه

وانتهى الى أبى الدرداء ما كان منه فقيل له لو أبعدته وهجرته فقال سبحان الله لا يترك الصاحب بشئ كان منه (قيل) الصداقة لحمة كلحمة النسب (وقيل) لحكيم مرة أيما أحب اليك أخوك أو صديقك فقال انما أحب أخى اذا كان صديقى وهذا الخلاف فى المفارقة ظاهرا وباطنا وأما الملازمة باطنا اذا وقعت المباينة ظاهرا فتختلف باختلاف الاشخاص ولا يطلق القول فيه اطلاقا من غير تفصيل فمن الناس من كان تغيره رجوعا عن الله وظهور حكم سوء السابقة فيجب بغضه وموافقة الحق فيه ومن الناس من كان تغيره عثرة حدثت وفترة وقعت

٢ قوله تشفيان بذروف الدمع الذى فى الجامع الصغير تشفيان القلب بذروف الدمع من خشيتك اه

وخفيه وجليه فالاصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه ولذلك قيل لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا وروى أن
عليا كرم الله وجهه قال لبعض ولده يابني خف الله خوفا ترى انك لو أتيته بحسنات أهل الارض لم يتقبلها منك
وارج الله رجاء ترى انك لو أتيته بسيئات أهل الارض غفرها لك ولذلك قال عمر رضي الله عنه لو نودي ليدخل
النار كل الناس الا رجلا واحدا لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس الا رجلا
واحدا لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء
ولكن على سبيل التقاوم والتساوي فمثل عمر رضي الله عنه ينبغي أن يستوي خوفه ورجاؤه فاما العاصي اذا ظن
أنه الرجل الذي استثني من الذين أمروا بدخول النار كان ذلك دليلا على اغتراره فان قلت مثل عمر رضي الله عنه
لا ينبغي أن يتساوى خوفه ورجاؤه بل ينبغي أن يغلب رجاؤه كما سبق في أول كتاب الرجاء وان قوته ينبغي أن
تكون بحسب قوة أسبابه كما مثل بالزرع والبذر ومعلوم أن من بث البذر الصحيح في أرض نقية وواظب على
تعهدها وجاء بشروط الزراعة جميعها غلب على قلبه رجاء الادراك ولم يكن خوفه مساويا لرجائه فهكذا ينبغي أن
تكون أحوال المتقين فاعلم أن من يأخذ المعارف من الالفاظ والامثلة يكثر زلله وذلك وان أوردناه مثالا فليس
يضاهي ما نحن فيه من كل وجه لان سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة اذ علم بالتجربة صحة الارض ونقاؤها
وصحة البذر وصحة الهواء وقلة الصواعق المهلكة في تلك البقاع وغيرها وانما مثال مسألتنا بذر لم يجرب جنسه
وقد بث في أرض غريبة لم يعهدها الزارع ولم يختبرها وهي في بلاد ليس يدري أتكثر الصواعق فيها أم لا فمثل هذا
الزارع وان أدى كنه مجهوده وجاء بكل مقدوره فلا يغلب رجاؤه على خوفه والبذر في مسألتنا هو الايمان وشروط
صحته دقيقة والارض القلب وخفايا خبثه وصفاته من الشرك الخفي والنفاق والرياء وخفايا الاخلاق فيه غامضة
والآفات هي الشهوات وزخارف الدنيا والتفات القلب اليها في مستقبل الزمان وان سلم في الحال وذلك مما
لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة اذ قد يعرض من الاسباب ما لا يطاق مخالفته ولم يجرب بمثله والصواعق هي أهوال
سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده وذلك مما لم يجرب مثله ثم الحصاد والادراك عند المنصرف من القيامة الى
الجنة وذلك لم يجرب فمن عرف حقائق هذه الامور فان كان ضعيف القلب جبانا في نفسه غلب خوفه على رجائه
لا محالة كما سيحكى في أحوال الخائفين من الصحابة والتابعين وان كان قوي القلب ثابت الجاش تام المعرفة استوى
خوفه ورجاؤه فاما ان يغلب رجاؤه فلا ولقد كان عمر رضي الله عنه يبالغ في تفتيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة
رضي الله عنه انه هل يعرف به من آثار النفاق شيأ اذ كان قد خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم المنافقين فمن
ذا الذي يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفي وان اعتقد نقاء قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله
تعالى بتلبيس حاله عليه واخفاء عيبه عنه وان وثق به فمن أين يثق ببقائه على ذلك الى تمام حسن الخاتمة وقد قال
صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة الا شبر وفي رواية الا
قدر فواق ناقة فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار وقدر فواق الناقة لا يحتمل عملا بالجوارح انما هو
بمقدار خاطر يختلج في القلب عند الموت فيقتضي خاتمة السوء فكيف يؤمن ذلك فاذن أقصى غايات المؤمن أن
يعتدل خوفه ورجاؤه وغلبة الرجاء في غالب الناس تكون مستندة للاغترار وقلة المعرفة ولذلك جمع الله تعالى
بينهما في وصف من أثنى عليهم فقال تعالى يدعون ربهم خوفا وطمعا وقال عز وجل ويدعوننا رغبا ورهبا وأين
مثل عمر رضي الله عنه فالخلق الموجودون في هذا الزمان كلهم الاصلح لهم غلبة الخوف بشرط أن لا يخرجهم الى
اليأس وترك العمل وقطع الطمع من المغفرة فيكون ذلك سببا للتكاسل عن العمل وداعيا الى الانهماك في
المعاصي فان ذلك قنوط وليس بخوف انما الخوف هو الذي يحث على العمل ويكدر جميع الشهوات ويزعج
القلب عن الركون الى الدنيا ويدعوه الى التجافي عن دار الغرور فهو الخوف المحمود دون حديث النفس الذي
لا يؤثر في الكف والحث ودون اليأس الموجب للقنوط وقد قال يحيى بن معاذ من عبد الله تعالى بمحض الخوف
غرق في بحار الافكار ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاغترار ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محجة
الاذكار وقال مكحول الدمشقي من عبد الله بالخوف فهو حروري ومن عبده بالرجاء فهو مرجئ ومن عبده بالمحبة

يرجى عوده فلا ينبغي
ان يبغض ولكن
يبغض عمله في الحالة
الحاضرة ويلحظ بعين
الود منتظرا له الفرج
والعود الى أوطان
الصلح فقد ورد أن النبي
عليه الصلاة والسلام
لما شتم القوم الرجل
الذي أتى بفاحشة قال
مه وزجرهم بقوله ولا
تكونوا عونا للشيطان
على أخيكم (وقال)
ابراهيم النخعي لا تقطع
أخاك ولا تهجره عند
الذنب بذنبه فانه يركبه
اليوم ويتركه غدا
(وفي الخبر) اتقوا زلة
العالم ولا تقطعوه
وانتظروا فيئته
(وروى) أن عمر رضي
الله عنه سأل عن أخ له
كان آخاه فخرج الى
الشام فسأل عنه بعض
من قدم عليه فقال
ما فعل أخي فقال له ذاك
أخو الشيطان قال له
مه قال له انه قارف
الكبائر حتى وقع في الخمر
فقال اذا أردت الخروج
فآذني قال فكتب اليه
حم تنزيل الكتاب من

فهو زنديق ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد فاذا لابد من الجمع بين هذه الامور وغلبة الخوف هو الاصلح ولكن قبل الاشراف على الموت أما عند الموت فالاصلح غلبة الرجاء وحسن الظن لان الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق أسباب الخوف فان ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تعجيل موته وأما روح الرجاء فانه يقوى قلبه ويحبب اليه ربه الذى اليه رجاؤه ولا ينبغى أن يفارق أحد الدنيا الا محبا لله تعالى ليكون محبا للقاء الله تعالى فان من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه والرجاء تقارنه المحبة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب والمقصود من العلوم والاعمال كلها معرفة الله تعالى حتى تثمر المعرفة المحبة فان المصير اليه والقدوم بالموت عليه ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته ومن فارق محبوبه اشتدت محنته وعذابه فهما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الاهل والولد والمال والمسكن والعقار والرفقاء والاصحاب فهذا رجل محابه كلها فى الدنيا فالدنيا جنته اذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب فموته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهيه ولا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهيه فاذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه والدنيا وعلائقها شاغلة له عن المحبوب فالدنيا اذا سجنه لان السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاسترواح الى محابه فموته قدوم على محبوبه وخلاص من السجن ولا يخفى حال من أفلت من السجن وخلى بينه وبين محبوبه بلا مانع ولا مكدر فهذا أول ما يلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب فضلا عما أعده الله لعباده الصالحين مما لم تره عين ولم تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر وفضلا عما أعده الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها واطمأنوا اليها من الانكال والسلاسل والاغلال وضروب الخزى والنكال فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين ولا مطمع فى اجابة هذا الدعاء الا باكتساب حب الله تعالى ولا سبيل اليه الا باخراج حب غيره من القلب وقطع العلائق عن كل ما سوى الله تعالى من جاه ومال ووطن فالاولى أن ندعو بما دعا به نبينا صلى الله عليه وسلم اذ قال اللهم ارزقنى حبك وحب من أحبك وحب ما يقربنى الى حبك واجعل حبك أحب الى من الماء البارد والغرض أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح لانه أجلب للمحبة وغلبة الخوف قبل الموت أصلح لانه أحرق لنار الشهوات وأقمع لمحبة الدنيا عن القلب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لا يموتن أحدكم الا وهو يحسن الظن بربه وقال تعالى أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء ولما حضرت سليمان التيمى الوفاة قال لابنه يا بنى حدثنى بالرخص واذكر لى الرجاء حتى ألقى الله على حسن الظن به وكذلك لما حضرت الثورى الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله يرجونه وقال أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه لابنه عند الموت اذكر لى الاخبار التى فيها الرجاء وحسن الظن والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى الى نفسه ولذلك أوحى الله تعالى الى داود عليه الصلاة والسلام أن حببنى الى عبادى فقال بماذا قال بان تذكر لهم آلائى ونعمائى فاذا غاية السعادة ان يموت محبا لله تعالى وانما تحصل المحبة بالمعرفة وباخراج حب الدنيا من القلب حتى تصير الدنيا كلها كالسجن المانع من المحبوب ولذلك رأى بعض الصالحين أبا سليمان الدارانى فى المنام وهو يطير فسأله فقال الآن أفلت فلما أصبح سأل عن حاله فقيل له انه مات البارحة

﴿ بيان الدواء الذى به يستجلب حال الخوف ﴾

اعلم ان ما ذكرناه فى دواء الصبر وشرحناه فى كتاب الصبر والشكر هو كاف فى هذا الغرض لان الصبر لا يمكن الا بعد حصول الخوف والرجاء لان أول مقامات الدين اليقين الذى هو عبارة عن قوة الايمان بالله تعالى وباليوم الآخر والجنة والنار وهذا اليقين بالضرورة يهيج الخوف من النار والرجاء للجنة والرجاء والخوف يقويان على الصبر فان الجنة قد حفت بالمكاره فلا يصبر على تحملها الا بقوة الرجاء والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها الا بقوة الخوف ولذلك قال على كرم الله وجهه من اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ثم يؤدى مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء الى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام ويؤدى دوام الذكر الى الانس ودوام الفكر الى كمال المعرفة ويؤدى كمال المعرفة والانس الى المحبة ويتبعها مقام الرضا والتوكل وسائر المقامات فهذا هو الترتيب فى سلوك منازل الدين وليس بعد أصل

الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ثم عاتبه تحت ذلك وعذله فلما قرأ الكتاب بكى فقال صدق الله تعالى ونصح عمر فتاب ورجع وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ابن عمر يلتفت يمينا وشمالا فسأله فقال يا رسول الله آخيت رجلا فانا أطلبه ولا أراه فقال يا عبد الله اذا آخيت أحدا فاسأله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله فان كان مريضا عدته وان كان مشغولا اعنته وكان يقول ابن عباس رضى الله عنهما اما اختلف رجل الى مجلسى ثلاثا من غير حاجة تكون له فعلمت ما مكافأته فى الدنيا وكان يقول سعيد بن العاص لجليسى على ثلاث اذا دنا رحبت به واذا حدث أقبلت عليه واذا جلس أوسعت له وعلامة خلوص المحبة لله تعالى أن لا يكون فيها شائبة حظ عاجل من رفق أو

اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ولا بعدهما مقام سوى الصبر وبه المجاهدة والتجرد لله ظاهرا وباطنا ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح له الطريق إلا الهداية والمعرفة ولا مقام بعد المعرفة إلا المحبة والانس ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته وهو التوكل فاذا فيما ذكرناه في علاج الصبر كفاية ولكنا نفرد الخوف بكلام جلي فنقول الخوف يحصل بطريقين مختلفين أحدهما أعلى من الآخر ومثاله ان الصبي اذا كان في بيت فدخل عليه سبع أو حية ربما كان لا يخاف وربما مد اليد الى الحية ليأخذها ويلعب بها ولكن اذا كان معه أبوه وهو عاقل خاف من الحية وهرب منها فاذا نظر الصبي الى أبيه وهو ترتعد فرائصه ويحتال في الهرب منها قام معه وغلب عليه الخوف ووافقه في الهرب فخوف الاب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية وسمها وخاصيتها وسطوة السبع وبطشه وقلة مبالاته وأما خوف الابن فايمان بمجرد التقليد لانه يحسن الظن بابيه ويعلم انه لا يخاف الا من سبب مخوف في نفسه فيعلم ان السبع مخوف ولا يعرف وجهه واذا عرفت هذا المثال فاعلم ان الخوف من الله تعالى على مقامين أحدهما الخوف من عذابه والثاني الخوف منه فاما الخوف منه فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سر قوله تعالى ويحذركم الله نفسه وقوله عز وجل اتقوا الله حق تقاته وأما الاول فهو خوف عموم الخلق وهو حاصل باصل الايمان بالجنة والنار وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الايمان وانما تزول الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر في أهوال يوم القيامة وأصناف العذاب في الآخرة وتزول أيضا بالنظر الى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم فان فاتت المشاهدة فالسماع لا يخلو عن تأثير وأما الثاني وهو الاعلى فان يكون الله هو المخوف أعني أن يخاف البعد والحجاب عنه ويرجو القرب منه * قال ذو النون رحمه الله تعالى خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في بحر لجي وهذه خشية العلماء حيث قال الله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء ولعموم المؤمنين أيضا حظ من هذه الخشية ولكن هو بمجرد التقليد يضاهي خوف الصبي من الحية تقليدا لابيه وذلك لا يستند الى بصيرة فلا جرم يضعف ويزول على قرب حتى ان الصبي ربما يرى المعزم يقدم على أخذ الحية فينظر اليه ويغتر به فيتجرأ على أخذها تقليدا له كما احترز من أخذها تقليدا لابيه والعقائد التقليدية ضعيفة في الغالب الا اذا قويت بمشاهدة أسبابها المؤكدة لها على الدوام وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات واجتناب المعاصي مدة طويلة على الاستمرار فاذا من ارتقى الى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة فلا يحتاج الى علاج لجلب الخوف كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقعا في مخالبه لا يحتاج الى علاج لجلب الخوف الى قلبه بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى ولذلك أوحى الله تعالى الى داود عليه الصلاة والسلام خفني كما تخاف السبع الضاري ولا حيلة في جلب الخوف من السبع الضاري الا معرفة السبع ومعرفة الوقوع في مخالبه فلا يحتاج الى حيلة سواه فمن عرف الله تعالى عرف انه يفعل ما يشاء ولا يبالي ويحكم ما يريد ولا يخاف قرب الملائكة من غير وسيلة سابقة وأبعد ابليس من غير جريمة سالفة بل صفته ما ترجمه قوله تعالى هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي وان خطر ببالك أنه لا يعاقب الا على معصية ولا يثيب الا على طاعة فتأمل انه لم يمد المطيع بأسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبى ولم يمد العاصي بدواعي المعصية حتى يعصي شاء أم أبى فانه مهما خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعا بها بالضرورة فان كان أبعده لانه عصاه فلم حمله على المعصية هل ذلك لمعصية سابقة حتى يتسلسل الى غير نهاية أو يقف لا محالة على أول لا علة له من جهة العبد بل قضى عليه في الازل وعن هذا المعنى عبر صلى الله عليه وسلم اذ قال احتج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام عند ربهما فحج آدم موسى عليه السلام قال موسى أنت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك الى الارض فقال آدم أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه وأعطاك الالواح فيها تبيان كل شئ وقربك نجيا فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق قال موسى بأربعين عاما قال آدم فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال نعم قال افتلومني على أن عملت عملا كتبه الله على قبل أن أعمله وقبل أن يخلقني بأربعين سنة قال صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى فمن عرف السبب في هذا الامر معرفة صادرة عن نور

احسان فان ما كان معلولا يزول بزوال علته ومن لا يستند في خلته الى علة يحكم بدوام خلته ومن شرط الحب في الله ايثار الاخ بكل ما يقدر عليه من أمر الدين والدنيا قال الله تعالى يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة فقوله تعالى لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا أي لا يحسدون اخوانهم على ما لهم وهذان الوصفان بهما يكمل صفو المحبة أحدهما انتزاع الحسد على شئ من أمر الدين والدنيا والثاني الايثار بالمقدور (وفي الخبر) عن سيد البشر عليه الصلاة والسلام المرء على دين خليله ولا خير لك في صحبة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه (وكان) يقول أبو معاوية الاسود اخواني كلهم

الهداية فهو من خصوص العارفين المطلعين على سر القدر ومن سمع هذا فآمن به وصدق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف فان كل عبد فهو واقع في قبضة القدرة وقوع الصبي الضعيف في مخالب السبع والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه وقد يهجم عليه فيفترسه وذلك بحسب ما يتفق ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم لكن اذا أضيف الى من لا يعرفه سمي اتفاقا وان أضيف الى علم الله لم يجز أن يسمى اتفاقا والواقع في مخالب السبع لو كملت معرفته لكان لا يخاف السبع لان السبع مسخر ان سلط عليه الجوع افترس وان سلط عليه الغفلة خلى وترك فانما يخاف خالق السبع وخالق صفاته فلست أقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع بل اذا كشف الغطاء علم أن الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى لان المهلك بواسطة السبع هو الله فاعلم أن سباع الآخرة مثل سباع الدنيا وان الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب وخلق لكل واحد أهلا يسوقه القدر المتفرع عن القضاء الجزم الازلي الى ما خلق له فخلق الجنة وخلق لها أهلا سخر والاسبابها شاؤا أم أبوا وخلق النار وخلق لها أهلا سخر والاسبابها شاؤا أم أبوا فلا يرى أحد نفسه في ملتطم أمواج القدر الا غلبه الخوف بالضرورة فهذه مخاوف العارفين بسر القدر فمن قعد به القصور عن الارتفاع الى مقام الاستبصار فسبيله ان يعالج نفسه بسماع الاخبار والآثار فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم وينسب عقولهم ومناصبهم الى مناصب الراجين المغرورين فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى لانهم الانبياء والاولياء والعلماء وأما الآمنون فهم الفراعنة والجهال والاغبياء أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو سيد الاولين والآخرين وكان أشد الناس خوفا حتى روي انه كان يصلي على طفل ففي رواية انه سمع في دعائه يقول اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار وفي رواية ثانية انه سمع قائلا يقول هنيأ لك عصفور من عصافير الجنة فغضب وقال ما يدريك انه كذلك والله اني رسول الله وما أدري ما يصنع بي ان الله خلق الجنة وخلق لها أهلا لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضا على جنازة عثمان ابن مظعون وكان من المهاجرين الاولين لما قالت أم سلمة هنيأ لك الجنة فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك والله لا أزكي أحدا بعد عثمان وقال محمد بن خولة الحنفية والله لا أزكي أحدا غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبي الذي ولدني قال فثارت الشيعة عليه فأخذ يذكر من فضائل علي ومناقبه وروي في حديث آخر عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيأ لك عصفور من عصافير الجنة هاجرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم وما يدريك لعله كان يتكلم بما لا ينفعه ويمنع ما لا يضره وفي حديث آخر انه دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيأ لك الجنة فقال صلى الله عليه وسلم من هذه المتألية على الله تعالى فقال المريض هي أمي يا رسول الله فقال وما يدريك لعل فلانا كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا يغنيه وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم وهو صلى الله عليه وسلم يقول شيبتني هود وأخواتها سورة الواقعة واذا الشمس كورت وعم يتساءلون فقال العلماء لعل ذلك لما في سورة هود من الابعاد كقوله تعالى ألا بعدا لعاد قوم هود ألا بعدا لثمود ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود مع علمه صلى الله عليه وسلم بانه لو شاء الله ما أشركوا اذ لو شاء لآتى كل نفس هداها وفي سورة الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة أي جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة اما خافضة قوما كانوا مرفوعين في الدنيا واما رافعة قوما كانوا مخفوضين في الدنيا وفي سورة التكوير أهوال يوم القيامة وانكشاف الخاتمة وهو قوله تعالى واذا الجحيم سعرت واذا الجنة أزلفت علمت نفس ما أحضرت وفي عم يتساءلون يوم ينظر المرء ما قدمت يداه الآية وقوله تعالى لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا والقرآن من أوله الى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ولو لم يكن فيه الا قوله تعالى واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى لكان كافيا اذ علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها وأشد منه قوله تعالى فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين وقوله تعالى ليسأل الصادقين عن صدقهم وقوله تعالى سنفرغ لكم أيه الثقلان وقوله عز وجل أفأمنوا مكر الله الآية وقوله وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد وقوله تعالى يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا الآيتين وقوله تعالى وان منكم الا

واردها

خير مني قيل وكيف ذلك قال كلهم يرى له الفضل عليه ومن فضلني على نفسه فهو خير مني ولبعضهم نظما

تذلل لمن ان تذللت له ... يرى ذاك للفضل لا للبله
وجانب صداقة من لم يزل ... على الاصدقاء يرى الفضل له

(الباب الخامس والخمسون في آداب الصحبة والاخوة)

سئل أبو حفص عن أدب الفقراء في الصحبة فقال حفظ حرمات المشايخ وحسن العشرة مع الاخوان والنصيحة للاصاغر وترك صحبة من ليس في طبقتهم وملازمة الايثار ومجانبة الادخار والمعاونة في أمر الدين والدنيا فمن أدبهم التغافل عن زلل الاخوان والنصح فيما يجب فيه النصيحة وكتم عيب صاحبه واطلاعه على عيب يعلم منه قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه رحم الله امرأ

واردها الآية وقوله اعملوا ماشئتم الآية وقوله من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه الآية وقوله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره الآيتين وقوله تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل الآية وكذلك قوله تعالى والعصر ان الانسان لفي خسر الى آخر السورة فهذه أربعة شروط الخلاص من الخسران وانما كان خوف الانبياء مع ما فاض عليهم من النعم لانهم لم يامنوا مكر الله تعالى ولا يامن مكر الله الا القوم الخاسرون حتى روى ان النبي وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفا من الله تعالى فاوحى الله اليهما لم تبكيان وقد أمنتكما فقالا ومن يامن مكرك وكانهما اذ علما أن الله هو علام الغيوب وانه لا وقوف لهما على غاية الامور لم يامنا ان يكون قوله قد امنتكما ابتلاء وامتحانا لهما ومكرا بهما حتى ان سكن خوفهما ظهر انهما قد أمنا من المكر وما وفيا بقولهما كما ان ابراهيم صلى الله عليه وسلم لما وضع في المنجنيق قال حسبي الله وكانت هذه من الدعاوى العظام فامتحن وعورض بجبريل في الهواء حتى قال ألك حاجة فقال أما اليك فلا فكان ذلك وفاء بحقيقة قوله حسبي الله فاخبر الله تعالى عنه فقال وابراهيم الذي وفى أي بموجب قوله حسبي الله وبمثل هذا أخبر عن موسى صلى الله عليه وسلم حيث قال اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا انني معكما أسمع وأرى ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى في نفسه خيفة اذ لم يامن مكر الله والتبس الامر عليه حتى جدد عليه الامن وقيل له لا تخف انك أنت الاعلى ولما ضعفت شوكة المسلمين يوم بدر قال صلى الله عليه وسلم اللهم ان تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الارض أحد يعبدك فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه دع عنك مناشدتك ربك فانه واف لك بما وعدك فكان مقام الصديق رضي الله عنه مقام الثقة بوعد الله وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله وهو أتم لانه لا يصدر الا عن كمال المعرفة باسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ومعاني صفاته التي يعبر عن بعض ما يصدر عنها بالمكر وما لاحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى ومن عرف حقيقة المعرفة وقصور معرفته عن الاحاطة بكنه الامور عظم خوفه لا محالة ولذلك قال المسيح صلى الله عليه وسلم لما قيل له أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك وقال ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم الآية فوض الامر الى المشيئة وأخرج نفسه بالكلية من البين لعلمه بانه ليس له من الامر شيء وان الامور مرتبطة بالمشيئة ارتباطا يخرج عن حد المعقولات والمألوفات فلا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حدس ولا حسبان فضلا عن التحقيق والاستيقان وهذا هو الذي قطع قلوب العارفين اذ الطامة الكبرى هي ارتباط أمرك بمشيئة من لا يبالي بك ان أهلكك فقد أهلك أمثالك ممن لا يحصى ولم يزل في الدنيا يعذبهم بانواع الآلام والامراض ويمرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق ثم يخلد العقاب عليهم أبد الآباد ثم يخبر عنه ويقول ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين وقال تعالى وتمت كلمة ربك لاملأن جهنم الآية فكيف لا يخاف ما حق من القول في الازل ولا يطمع في تداركه ولو كان الامر أنفا لكانت الاطماع تمتد الى حيلة فيه ولكن ليس الا التسليم فيه واستقراء خفي السابقة من جلي الاسباب الظاهرة على القلب والجوارح فمن يسرت له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته من الدنيا فكانه كشف له على التحقيق سر السابقة التي سبقت له بالشقاوة اذ كل ميسر لما خلق له وان كانت الخيرات كلها ميسرة والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعا وبظاهره وباطنه على الله مقبلا كان هذا يقتضي تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثوقا به ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات تزيد نيران الخوف اشتعالا ولا تمكنها من الانطفاء وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وان القلب أشد تقلبا من القدر في غليانها وقد قال مقلب القلوب عز وجل ان عذاب ربهم غير مأمون فاجهل الناس من أمنه وهو ينادي بالتحذير من الامن ولولا ان الله لطف بعباده العارفين اذ روح قلوبهم بروح الرجاء لاحترقت قلوبهم من نار الخوف فاسباب الرجاء رحمة لخواص الله وأسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه اذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب من خوف مقلب القلوب قال بعض العارفين لو حالت بيني وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة اسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد لاني لا أدري ما ظهر له من التقلب

أهدى الى عيوبي وهذا فيه مصلحة كاملة تكون للشخص ممن ينبهه على عيوبه قال جعفر بن برقان قال لي ميمون بن مهران قل لي في وجهي ما أكره فان الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكرهه قال الصادق يجب من يصدقه والكاذب لا يحب الناصح قال الله تعالى ولكن لا تحبون الناصحين والنصيحة ما كانت في السر * ومن آداب الصوفية القيام بخدمة الاخوان واحتمال الاذى منهم فبذلك يظهر جوهر الفقير روى ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر بقلع ميزاب كان في دار العباس بن عبد المطلب الى الطريق بين الصفا والمروة فقال له العباس قلعت ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعه بيده فقال اذا لا يرده الى مكانه غير يدك ولا يكون لك سلم

وقال بعضهم لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الاسلام عند باب الحجرة لاخترت الموت على الاسلام لانى لا أدرى ما يعرض لقلبى بين باب الحجرة وباب الدار وكان أبو الدرداء يحلف بالله ما أحد أمن على ايمانه أن يسلبه عند الموت الا سلبه وكان سهل يقول خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة وهم الذين وصفهم الله تعالى اذ قال وقلوبهم وجلة ولما احتضر سفيان جعل يبكى ويجزع فقيل له يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فان عفو الله أعظم من ذنوبك فقال أوعلى ذنوبى أبكى لو علمت أنى أموت على التوحيد لم أبال بان ألقى الله بامثال الجبال من الخطايا وحكى عن بعض الخائفين أنه أوصى بعض اخوانه فقال اذا احضرتنى الوفاة فاقعد عند رأسى فان رأيتنى مت على التوحيد فخذ جميع ما أملكه فاشتر به لوزا وسكرا وانثره على صبيان أهل البلد وقل هذا عرس المنفلت وان مت على غير التوحيد فاعلم الناس بذلك حتى لا يغتروا بشهود جنازتى ليحضر جنازتى من أحب على بصيرة لئلا يلحقنى الرياء بعد الوفاة قال وبم أعلم ذلك فذكر له علامة فرأى علامة التوحيد عند موته فاشترى السكر واللوز وفرقه وكان سهل يقول المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصى والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر وكان أبو يزيد يقول اذا توجهت الى المسجد كأن فى وسطى زنارا أخاف أن يذهب بى الى البيعة وبيت النار حتى أدخل المسجد فينقطع عنى الزنار فهذا لى فى كل يوم خمس مرات وروى عن المسيح عليه الصلاة والسلام أنه قال يا معشر الحواريين أنتم تخافون المعاصى ونحن معاشر الانبياء نخاف الكفر وروى فى اخبار الانبياء ان نبيا شكا الى الله تعالى الجوع والقمل والعرى سنين وكان لباسه الصوف فاوحى الله تعالى اليه عبدى أما رضيت أن عصمت قلبك أن تكفر بى حتى تسألنى الدنيا فاخذ التراب فوضعه على رأسه وقال بلى قد رضيت يارب فاعصمنى من الكفر فاذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوة ايمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخافه الضعفاء ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت مثل البدعة والنفاق والكبر وجملة من الصفات المذمومة ولذلك اشتد خوف الصحابة من النفاق حتى قال الحسن لو أعلم انى برىء من النفاق كان أحب الى مما طلعت عليه الشمس وما عنوا به النفاق الذى هو ضد أصل الايمان بل المراد به ما يجتمع مع أصل الايمان فيكون مسلما منافقا وله علامات كثيرة قال صلى الله عليه وسلم أربع من كن فيه فهو منافق خالص وان صلى وصام وزعم انه مسلم وان كانت فيه خصلة منهن ففيه شعبة من النفاق حتى يدعها من اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان واذا خاصم فجر وفى لفظ آخر واذا عاهد غدر وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لا يخلو عن شئ منه الا صديق اذ قال الحسن ان من النفاق اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب واختلاف المدخل والمخرج ومن الذى يخلو عن هذه المعانى بل صارت هذه الامور مألوفة بين الناس معتادة ونسى كونها منكرا بالكلية بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوة فكيف الظن بزماننا حتى قال حذيفة رضى الله تعالى عنه ان كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها منافقا انى لاسمعها من أحدكم فى اليوم عشر مرات وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون انكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر وقال بعضهم علامة النفاق أن تكره من الناس ما تأتى مثله وان تحب على شئ من الجور وان تبغض على شئ من الحق وقيل من النفاق انه اذا مدح بشئ ليس فيه أعجبه ذلك وقال رجل لابن عمر رحمه الله انا ندخل على هؤلاء الامراء فنصدقهم فيما يقولون فاذا خرجنا تكلمنا فيهم فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى أنه سمع رجلا يذم الحجاج ويقع فيه فقال أرأيت لو كان الحجاج حاضرا أكنت تتكلم بما تكلمت به قال لا قال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشد من ذلك ما روى أن نفرا قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون فى شئ من شأنه فلما خرج عليهم سكتوا احياء منه فقال تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا حذيفة كان قد خص بعلم المنافقين وأسباب النفاق وكان يقول انه يأتى على القلب ساعة يمتلئ بالايمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز ابرة ويأتى عليه ساعة يمتلئ بالنفاق حتى لا يكون للايمان فيه مغرز ابرة فقد عرفت بهذا أن خوف العارفين من سوء الخاتمة وأن سببه أمور تتقدمه

غير عاتق عمر فاقامه على عاتقه ورده الى موضعه ومن ادبهم ان لا يرون لنفسهم ملكا يختصون به قال ابراهيم بن شيبان كنا لا نصحب من يقول نعلى (أخبرنا) بذلك رضى الدين عن أبى المظفر عن والده أبى القاسم القشيرى قال سمعت أبا حاتم الصوفى قال سمعت أبا نصر السراج يقول ذلك وقال أحمد ابن القلانسى دخلت على قوم من الفقراء يوما بالبصرة فاكرمونى وبجلونى فقلت يوما لبعضهم أين ازارى فسقطت من أعينهم (وكان) ابراهيم بن أدهم اذا صحبه انسان شارطه على ثلاثة أشياء ان تكون الخدمة والاذان له وان تكون يده فى جميع ما يفتح الله عليهم من الدنيا كيده فقال رجل من أصحابه أنا لا أقدر على هذا فقال أعجبنى صدقك (وكان) ابراهيم

منها البدع ومنها المعاصى ومنها النفاق ومتى يخلو العبد عن شئ من جملة ذلك وان ظن انه قد خلا عنه فهو النفاق اذ قيل من أمن النفاق فهو منافق وقال بعضهم لبعض العارفين انى أخاف على نفسى النفاق فقال لو كنت منافقا لما خفت النفاق فلا يزال العارف بين الالتفات الى السابقة والخاتمة خائفا منهما ولذلك قال صلى الله عليه وسلم العبد المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه فو الذى نفسى بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار الا الجنة أو النار والله المستعان

(بيان معنى سوء الخاتمة)

فان قلت ان أكثر هؤلاء يرجع خوفهم الى سوء الخاتمة فما معنى سوء الخاتمة فاعلم أن سوء الخاتمة على رتبتين احداهما أعظم من الاخرى فأما الرتبة العظيمة الهائلة فان يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله اما الشك واما الجحود فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجابا بينه وبين الله تعالى أبدا وذلك يقتضى البعد الدائم والعذاب المخلد والثانية وهى دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها فيتمثل ذلك فى قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى فى تلك الحالة متسع لغيره فيتفق قبض روحه فى تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكسا رأسه الى الدنيا وصارفا وجهه اليها ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب ومهما حصل الحجاب نزل العذاب اذ نار الله الموقدة لا تأخذ الا المحجوبين عنه فأما المؤمن السليم قلبه عن حب الدنيا المصروف همه الى الله تعالى فتقول له النار جز يا مؤمن فان نورك قد أطفأ لهبى فمهما اتفق قبض الروح فى حالة غلبة حب الدنيا فالامر مخطر لان المرء يموت على ما عاش عليه ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه اذ لا تصرف فى القلوب الا بأعمال الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الاعمال فلا مطمع فى عمل ولا مطمع فى رجوع الى الدنيا ليتداركه وعند ذلك تعظم الحسرة الا أن أصل الايمان وحب الله تعالى اذا كان قد رسخ فى القلب مدة طويلة وتأكد ذلك بالاعمال الصالحة فانه يمحو عن القلب هذه الحالة التى عرضت له عند الموت فان كان ايمانه فى القوة الى حد مثقال أخرجه من النار فى زمان أقرب وان كان أقل من ذلك طال مكثه فى النار ولو لم يكن الا مثقال حبة فلا بد وأن يخرجه من النار ولو بعد آلاف سنين فان قلت فما ذكرته يقتضى أن تسرع النار اليه عقيب موته فما باله يؤخر الى يوم القيامة ويمهل طول هذه المدة فاعلم أن كل من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى وعن نور القرآن ونور الايمان بل الصحيح عند ذوى الابصار ما صحت به الاخبار وهو أن القبر اما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة وانه قد يفتح الى قبر المعذب سبعون بابا من الجحيم كما وردت به الاخبار فلا تفارقه روح الا وقد نزل به البلاء ان كان قد شقى بسوء الخاتمة وانما تختلف أصناف العذاب باختلاف الاوقات فيكون سؤال منكر ونكير عند الوضع فى القبر والتعذيب بعده ثم المناقشة فى الحساب والافتضاح على ملا من الاشهاد فى القيامة ثم بعد ذلك خطر الصراط وهول الزبانية الى آخر ما وردت به الاخبار فلا يزال الشقى مترددا فى جميع أحواله بين أصناف العذاب وهو فى جملة الاحوال معذب الا أن يتغمده الله برحمته ولا تظنن أن محل الايمان يأكله التراب بل التراب يأكل جميع الجوارح ويبددها الى أن يبلغ الكتاب أجله فتجتمع الاجزاء المتفرقة وتعاد اليها الروح التى هى محل الايمان وقد كانت من وقت الموت الى الاعادة اما فى حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش ان كانت سعيدة واما على حالة تضادها ان كانت والعياذ بالله شقية فان قلت فما السبب الذى يفضى الى سوء الخاتمة فاعلم ان أسباب هذه الامور لا يمكن احصاؤها على التفصيل ولكن يمكن الاشارة الى مجامعها أما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه فى شيئين أحدهما يتصور مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح فى الاعمال كالمبتدع الزاهد فان عاقبته مخطرة جدا وان كانت أعماله صالحة ولست أعنى مذهبا فأقول انه بدعة فان بيان ذلك يطول القول فيه بل أعنى بالبدعة أن يعتقد الرجل فى ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقده على خلاف ما هو عليه اما برأيه ومعقوله ونظره الذى به يجادل الخصم وعليه يعول وبه يغتر واما أخذا بالتقليد ممن هذا حاله فاذا قرب الموت وظهرت له ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه ربما ينكشف له فى حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده

ابن أدهم ينظار البساتين
ويعمل فى الحصاد
وينفق على أصحابه
(وكان) من أخلاق
السلف ان كل من
احتاج الى شئ من مال
أخيه استعمله من غير
مؤامرة قال الله تعالى
وأمرهم شورى بينهم
أى مشاع هم فيه سواء
ومن أدبهم انهم اذا
استثقلوا صاحبا
يتهمون أنفسهم
ويتسببون فى ازالة
ذلك من بواطنهم لان
انطواء الضمير على
مثل ذلك للصاحب
ولصحبة * قال
أبو بكر الكتانى صحبنى
رجل وكان على قلبى
ثقيلا فوهبت له شيأ
بنية أن يزول ثقله من
قلبى فلم يزل فخلوت به
يوما وقلت له ضع رجلك
على خدى فأبى فقلت له
لا بد من ذلك ففعل ذلك
فزال ما كنت أجده فى
باطنى قال الرقى قصدت
من الشام الى الحجاز
حتى سألت الكتانى عن
هذه الحكاية * ومن
أدبهم تقديم من يعرفون

جهلا اذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادي سكراته منه فقد ينكشف به بعض الامور فهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعا به متيقنا له عند نفسه لم يظن بنفسه انه أخطأ في هذا الاعتقاد خاصة لا لتحائه فيه الى رأيه الفاسد وعقله الناقص بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له اذ لم يكن عنده فرق بين ايمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سببا لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكه فيها فان اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن يثبت ويعود الى أصل الايمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعياذ بالله منه فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وبقوله عز وجل قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا وكما أنه قد ينكشف في النوم ما سيكون في المستقبل وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن القلب فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الامور اذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي المانعة للقلب من أن ينظر الى الملكوت فيطالع ما في اللوح المحفوظ لتنكشف له الامور على ما هي عليه فيكون مثل هذه الحال سببا للكشف ويكون الكشف سبب الشك في بقية الاعتقادات وكل من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيأ على خلاف ما هو به اما تقليدا واما نظرا بالرأي والمعقول فهو في هذا الخطر والزهد والصلاح لا يكفي لدفع هذا الخطر بل لا ينجي منه الا الاعتقاد الحق والبله بمعزل عن هذا الخطر أعني الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر ايمانا مجملا راسخا كالاعراب والسوادية وسائر العوام الذين لم يخوضوا في البحث والنظر ولم يشرعوا في الكلام استقلالا ولا صغوا الى أصناف المتكلمين في تقليد أقاويلهم المختلفة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أكثر أهل الجنة البله ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض في الكلام والتفتيش عن هذه الامور وأمروا الخلق ان يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله عز وجل جميعا وبكل ما جاء من الظواهر مع اعتقاده نفي التشبيه ومنعوهم عن الخوض في التأويل لان الخطر في البحث عن الصفات عظيم وعقباته كؤدة ومسالكه وعرة والعقول عن درك جلال الله تعالى قاصرة وهداية الله تعالى بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا محجوبة وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض والقلوب لما ألقي اليها في مبدأ النشأة آلفة وبه متعلقة والتعصبات الثائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقائد الموروثة أو المأخوذة بحسن الظن من المعلمين في أول الامر ثم الطباع بحب الدنيا مشغوفة وعليها مقبلة وشهوات الدنيا بمخنقها آخذة وعن تمام الفكر صارفة فاذا فتح باب الكلام في الله وفي صفاته بالرأي والمعقول مع تفاوت الناس في قرائحهم واختلافهم في طباعهم وحرص كل جاهل منهم على أن يدعي الكمال أو الاحاطة بكنه الحق انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد منهم وتعلق ذلك بقلوب المصغين اليهم وتأكد ذلك بطول الالف فيهم فانسد بالكلية طريق الخلاص عليهم فكانت سلامة الخلق في أن يشتغلوا بالاعمال الصالحة ولا يتعرضوا لما هو خارج عن حد طاقتهم ولكن الآن قد استرخى العنان وفشا الهذيان ونزل كل جاهل على ما وافق طبعه بظن وحسبان وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان وانه صفو الايمان ويظن أن ما وقع به من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين ولتعلمن نبأه بعد حين وينبغي أن ينشد في هؤلاء عند كشف الغطاء

أحسنت ظنك بالايام اذ حسنت * ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها * وعند صفو الليالي يحدث الكدر

واعلم يقينا ان كل من فارق الايمان الساذج بالله ورسوله وكتبه وخاض في البحث فقد تعرض لهذا الخطر ومثاله مثال من انكسرت سفينته وهو في ملتطم الامواج يرميه موج الى موج فربما يتفق أن يلقيه الى الساحل وذلك بعيد والهلاك عليه أغلب وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين ببضاعة عقولهم اما مع الادلة التي حرروها في تعصباتهم أو دون الادلة فانه ان كان شاكا فيه فهو فاسد الدين وان كان واثقا به فهو آمن من مكر الله مغتر بعقله الناقص وكل خائض في البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين الا اذا جاوز حدود المعقول الى نور المكاشفة الذي هو مشرق في عالم الولاية والنبوة وذلك هو الكبريت الاحمر وأنى يتيسر وانما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام

فضله والتوسعة له في المجلس والايثار بالموضع روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا في صفة ضيقة فجاء قوم من البدريين فلم يجدوا موضعا يجلسون فيه فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يكن من أهل بدر فجلسوا أماكنهم فاشتد ذلك عليهم فأنزل الله تعالى واذا قيل انشزوا فانشزوا الآية (وحكى) ان علي بن بندار الصوفي دخل على أبي عبد الله بن خفيف زائرا فمشيا فقال له أبو عبد الله تقدم فقال بأي عذر فقال بأنك لقيت الجنيد وما لقيته ومن أدبهم ترك صحبة من همه شيء من فضول الدنيا قال الله تعالى فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ومن أدبهم بذل الانصاف للاخوان وترك مطالبة الانصاف قال أبو عثمان الحيري حق الصحبة أن توسع على

أ والذين شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يخوضوا فى هـذا الفضول فهذا أحد الاسباب المخطرة فى سوء الخاتمة
*وأما السبب الثانى فهو ضعف الايمان فى الاصل ثم استيلاء حب الدنيا على القلب ومهما ضعف الايمان ضعف
حب الله تعالى وقوى حب الدنيا فيصير بحيث لا يبقى فى القلب موضع لحب الله تعالى الا من حيث حديث النفس
ولا يظهر له أثر فى مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان فيورث ذلك الانهماك فى اتباع الشهوات حتى
يظلم القلب ويقسو ويسود وتتراكم ظلمة النفوس على القلب فلا يزال يطفئ ما فيه من نور الايمان على ضعفه
حتى يصير طبعا ورينا فاذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب أعنى حب الله ضعفا لما يبدو من استشعار فراق
الدنيا وهى المحبوب الغالب على القلب فيتألم القلب باستشعار فـراق الدنيا ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره
بانكار ما قدر عليه من الموت وكراهة ذلك من حيث انه من الله فيخشى أن يثور فى باطنه بغض الله تعالى بدل الحب
كما ان الذى يحب ولده حبا ضعيفا اذا أخـذ ولده أمواله التى هى أحب اليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحب
الضعيف بغضا فاذا اتفق زهوق روحه فى تلك اللحظـة التى خطرت فيها هذه الخطرة فقـد ختم له بالسوء وهلك
هلاكا مؤبدا والسبب الذى يفضى الى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون اليها والفرح بأسبابها
مع ضعف الايمان الموجب لضعف حب الله تعالى فمن وجد فى قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا وان كان يحب
الدنيا أيضا فهو أبعد عن هذا الخطر وحب الدنيا رأس كل خطيئة وهو الداء العضال وقد عم أصناف الخلق وذلك
كله لقلة المعرفة بالله تعالى اذ لا يحبه الا من عرفه ولهذا قال تعالى قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم
وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد
فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره الآية فاذا كل من فارقته روحه فى حالة خطرة الانكار على الله تعالى بباله
وظهور بغض فعل الله بقلبه فى تفريقه بينه وبين أهله وماله وسائر محابه فيكون موته قدوما على ما أبغضه وفراقا
لما أحبه فيقـدم على الله قدوم العبد المبغض الآبق اذا قدم به على مولاه قهرا فلا يخفى ما يستحقـه من الخزى
والنكال وأما الذى يتوفى على الحب فانه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشـتاق الى مولاه الذى تحمل
مشاق الاعمال ووعثاء الاسفار طمعا فى لقائه فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القـدوم فضلا عما
يستحقه من لطائف الاكرام وبدائع الانعام (وأما الخاتمة الثانية) التى هى دون الاولى وليست مقتضية للخلود
فى النار فلها أيضا سببان أحـدهما كثرة المعاصى وان قوى الايمان والآخر ضعف الايمان وان قلت المعاصى
وذلك لان مقارفة المعاصى سببها غلبة الشهوات ورسوخها فى القلب بكثرة الالف والعادة وجميع ما ألفه
الانسان فى عمره يعود ذكره الى قلبه عند ميله فان كان ميله الاكثر الى الطاعات كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة
الله وان كان ميله الاكثر الى المعاصى غلب ذكرها على قلبه عند الموت فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من
شهوات الدنيا ومعصية من المعاصى فيتقيد بها قلبه ويصير محجوبا عن الله تعالى فالذى لا يقارف الذنب الا الفينة
بعد الفينة فهو أبعد عن هذا الخطر والذى لم يقارف ذنبا أصلا فهو بعيد جدا عن هذا الخطر والذى غلبت عليه
المعاصى وكانت أكثر من طاعاته وقلبه بها أفرح منه بالطاعات فهذا الخطر عظيم فى حقه جدا ونعرف هذا بمثال
وهو انه لا يخفى عليك ان الانسان يرى فى منامه جملة من الاحوال التى عهدها طول عمره حتى انه لا يرى الا ما يماثل
مشاهداته فى اليقظة وحتى ان المراهق الذى يحتلم لا يرى صورة الوقاع اذا لم يكن قد واقع فى اليقظة ولو بقى كذلك
مدة لما رأى عند الاحتلام صورة الوقاع ثم لا يخفى أن الذى قضى عمره فى الفقه يرى من الاحوال المتعلقـة بالعلم
والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذى قضى عمره فى التجارة والتاجر يرى من الاحوال المتعلقـة بالتجارة وأسبابها
أكثر مما يراه الطبيب والفقيه لانه انما يظهر فى حالة النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الالف أو بسبب
آخر من الاسباب والموت شبيه النوم ولكنه فوقه ولكن سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية قريب من النوم
فيقتضى ذلك تذكر المألوف وعوده الى القلب وأحـد الاسباب المرجحة لحصول ذكره فى القلب طول الالف
فطول الالف بالمعاصى والطاعات أيضا مرجح وكذلك تخالف أيضا منامات الصالحين منامات الفساق فتكون
غلبة الالف سببا لان تتمثل صورة فاحشـة فى قلبه وتميل اليها نفسه فربما تقبض عليها روحه فيكون ذلك سبب

أخيـك من مالك ولا
تطـمع فى ماله وتنصفه
من نفسـك ولا تطلب
منه الانصاف وتكون
تبعا له ولا تطـمع أن
يكون تبعا لك وتستكثر
ما يصـل اليك منـه
وتستقل ما يصـل اليه
منك * ومن أدبهم فى
الصحبـة لين الجانب
وترك ظهـور النفس
بالصولة قال أبو عـلى
الروذبارى الصولة على
من فوقك قحة وعـلى
مـن مثلك سوء أدب
وعـلى من دونك عجز
*ومن أدبهم ان لا يجرى
فى كلامهم لو كان كذا لم
يكن كـذا وليت كان
كذا وعسى أن يكون
كذا فانهم يرون هذه
التقديرات عليه اعتراضا
*ومن أدبهم فى الصحبة
حذر المفارقة والحرص
على الملازمة (قيـل)
صحب رجل رجلا ثم أراد
المفارقـة فاستأذن
صاحبـه فقال بشرط
أن لا تصحب أحـدا الا
اذا كان فوقنا وان كان
فوقنا أيضا فلا تصحبـه
لانك صحبتنا أولا فقال
الرجل زال عن قلبى نية

سوء خاتمته وان كان أصل الايمان باقيا بحيث يرجى له الخلاص منها وكما أن ما يخطر في اليقظة انما يخطر بسبب
خاص يعلمه الله تعالى فكذلك آحاد المنامات لها أسباب عند الله تعالى نعرف بعضها ولا نعرف بعضها كما أنا نعلم
أن الخاطر ينتقل من الشئ الى ما يناسبه اما بالمشابهة واما بالمضادة واما بالمقارنة بان يكون قد ورد على الحس
منه أما بالمشابهة فبان ينظر الى جميل فيتذكر جميلا آخر وأما بالمضادة فبان ينظر الى جميل فيتذكر قبيحا
ويتأمل في شدة التفاوت بينهما واما بالمقارنة فبان ينظر الى فرس قد رآه من قبل مع انسان فيتذكر ذلك الانسان
وقد ينتقل الخاطر من شئ الى شئ ولا يدرى وجه مناسبته له وانما يكون ذلك بواسطة وواسطتين مثل ان ينتقل
من شئ الى شئ ثان ومنه الى شئ ثالث ثم ينسى الثاني ولا يكون بين الثالث والاول مناسبة ولكن يكون بينه وبين
الثاني مناسبة وبين الثاني والاول مناسبة فكذلك لانتقالات الخواطر في المنامات أسباب من هذا الجنس
وكذلك عند سكرات الموت فعلى هذا والعلم عند الله من كانت الخياطة أكثر أشغاله فانك تراه يومئ الى رأسه كأنه
يأخذ ابرته ليخيط بها او يبل أصبعه التي لها عادة بالكستبان ويأخذ الازار من فوقه ويقدره ويشبره كأنه يتعاطى
تفصيله ثم يمد يده الى المقراض ومن أراد أن يكف خاطره عن الانتقال عن المعاصي والشهوات فلا طريق له الا
المجاهدة طول العمر في فطامة نفسه عنها وفي قمع الشهوات عن القلب فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار
ويكون طول المواظبة على الخير وتخلية الفكر عن الشر عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت فانه يموت المرء على
ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه ولذلك نقل عن بقال انه كان يلقن عند الموت كلمتي الشهادة فيقول خمسة
ستة أربعة فكان مشغول النفس بالحساب الذي طال الفه له قبل الموت وقال بعض العارفين من السلف العرش
جوهرة تتلألأ نورا فلا يكون العبد على حال الا انطبع مثاله في العرش على الصورة التي كان عليها فاذا كان في
سكرات الموت كشف له صورته من العرش فربما يرى نفسه على صورة معصية وكذلك يكشف له يوم القيامة
فيرى أحوال نفسه فيأخذه من الحياء والخوف ما يجل عن الوصف وما ذكره صحيح وسبب الرؤيا الصادقة قريب
من ذلك فان النائم يدرك ما يكون في المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ وهي جزء من أجزاء النبوة فاذا رجع
سوء الخاتمة الى أحوال القلب واختلاج الخواطر ومقلب القلوب هو الله والاتفاقات المقتضية لسوء الخواطر
غير داخلة تحت الاختيار دخولا كليا وان كان لطول الالف فيه تأثير فبهذا عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة
لانه لو أراد الانسان أن لا يرى في المنام الا أحوال الصالحين وأحوال الطاعات والعبادات عسر عليه ذلك وان
كانت كثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه ولكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية تحت الضبط وان
كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة حتى سمعت الشيخ أبا علي الفارمذي رحمة الله عليه يصف
لي وجوب حسن أدب المريد لشيخه وان لا يكون في قلبه انكار لكل ما يقوله ولا في لسانه مجادلة عليه فقال حكيت
لشيخي أبي القاسم الكرماني مناما لي وقلت رأيتك قلت لي كذا فقلت لم ذاك قال فهجرني شهرا ولم يكلمني وقال
لولا أنه كان في باطنك تجويز المطالبة وانكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في النوم وهو كما قال اذ قلما يرى
الانسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه فهذا هو القدر الذي نسمح بذكره في علم المعاملة من أسرار
أمر الخاتمة وما وراء ذلك فهو داخل في علم المكاشفة وقد ظهر لك بهذا أن الامن من سوء الخاتمة بان ترى الاشياء
كما هي عليه من غير جهل وتزجي جميع العمر في طاعة الله من غير معصية فان كنت تعلم أن ذلك محال أو عسير فلا
بد وان يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين حتى يطول بسببه بكاؤك ونياحتك ويدوم به حزنك وقلقك
كما سنحكيه من أحوال الانبياء والسلف الصالحين ليكون ذلك أحد الاسباب المهيجة لنار الخوف من قلبك وقد
عرفت بهذا ان أعمال العمر كلها ضائعة ان لم تسلم في النفس الاخير الذي عليه خروج الروح وان سلامته مع
اضطراب أمواج الخواطر مشكلة جدا ولذلك كان مطرف بن عبد الله يقول اني لا أعجب ممن هلك كيف هلك
ولكن أعجب ممن نجا كيف نجا ولذلك قال حامد اللفاف اذا صعدت الملائكة بروح العبد المؤمن وقد مات على
الخير والاسلام تعجبت الملائكة منه وقالوا كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا وكان الثوري يوما يبكي فقيل
له علام تبكي فقال بكينا على الذنوب زمانا فالآن نبكي على الاسلام وبالجملة من وقعت سفينته في لجة البحر وهجمت

المفارقة * ومن أدبهم
التعطف على الاصاغر
(قيل) كان ابراهيم
ابن أدهم يعمل في
الحصاد ويطعم الاصحاب
وكانوا يجتمعون بالليل
وهم صيام وربما كان
يتأخر في بعض الايام في
العمل فقالوا ليلة تعالوا
نأكل فطورنا دونه حتى
يعود بعد هذا يسرع
فافطروا وناموا فرجع
ابراهيم فوجدهم نياما
فقال مساكين لعلهم
لم يكن لهم طعام فعمد
الى شئ من الدقيق
فعجنه فانتبهوا وهو
ينفخ في النار واضعا
محاسنه على التراب
فقالوا له في ذلك فقال
قلت لعلكم لم تجدوا
فطورا فنمتم فقالوا انظروا
بأي شئ عاملناه وباي
شئ يعاملنا * ومن
أدبهم ان لا يقولوا عند
الدعاء الى أين ولم وباي
سبب قال بعض العلماء
اذا قال الرجل لصاحبه
قم بنا فقال الى أين فلا

عليه الرياح العاصفة واضطربت الامواج كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك وقلب المؤمن أشد اضطرابا من السفينة وأمواج الخواطر أعظم التطاما من أمواج البحر وانما المخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة الا فواق ناقة فيختم له بما سبق به الكتاب ولا يتسع فواق الناقة لاعمال توجب الشقاوة بل هي الخواطر التي تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف وقال سهل رأيت كأني أدخلت الجنة فرأيت ثلثمائة نبي فسألتهم ما أخوف ما كنتم تخافون في الدنيا قالوا سوء الخاتمة ولاجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطا عليها وكان موت الفجأة مكروها أما الموت فجأة فلانه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب والقلب لا يخلو عن أمثاله الا أن يدفع بالكراهة أو بنور المعرفة وأما الشهادة فلانها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله تعالى وخرج حب الدنيا والاهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب اذ لا يهجم على صف القتال موطنا نفسه على الموت الا حبا لله وطلبا لمرضاته وبائعا دنياه بآخرته وراضيا بالبيع الذي بايعه الله به اذ قال تعالى ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة والبائع راغب عن المبيع لا محالة ومخرج حبه عن القلب ومجرد حب العوض المطلوب في قلبه ومثل هذه الحالة قد يغلب على القلب في بعض الاحوال ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها فصف القتال سبب لزهوق الروح على مثل هذه الحالة هذا فيمن ليس يقصد الغلبة والغنيمة وحسن الصيت بالشجاعة فان من هذا حاله وان قتل في المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلت عليه الاخبار واذ بان لك معنى سوء الخاتمة وما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها فواظب على ذكر الله تعالى وأخرج من قلبك حب الدنيا واحرس عن فعل المعاصي جوارحك وعن الفكر فيها قلبك واحترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة أهلها جهدك فان ذلك أيضا يؤثر في قلبك ويصرف اليه فكرك وخواطرك واياك أن تسوف وتقول سأستعد لها اذا جاءت الخاتمة فان كل نفس من أنفاسك خاتمتك اذ يمكن ان تختطف فيه روحك فراقب قلبك في كل تطريفة واياك أن تهمله لحظة فلعل تلك اللحظة خاتمتك اذ يمكن أن تختطف فيها روحك هذا ما دمت في يقظتك وأما اذا نمت فاياك ان تنام الا على طهارة الظاهر والباطن وان يغلبك النوم الا بعد غلبة ذكر الله على قلبك لست أقول على لسانك فان حركة اللسان بمجردها ضعيفة الاثر واعلم قطعا انه لا يغلب عند النوم على قلبك الا ما كان قبل النوم غالبا عليه وانه لا يغلب في النوم الا ما كان غالبا قبل النوم ولا ينبعث عن نومك الا ما غلب على قلبك في نومك والموت والبعث شبيه النوم واليقظة فكما لا ينام العبد الا على ما غلب في يقظته ولا يستيقظ الا على ما كان عليه في نومه فكذلك لا يموت المرء الا على ما عاش عليه ولا يحشر الا على ما مات عليه وتحقق قطعا ويقينا ان الموت والبعث حالتان من أحوالك كما ان النوم واليقظة حالتان من أحوالك وآمن بهذا تصديقا باعتقاد القلب ان لم تكن أهلا لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة وراقب أنفاسك ولحظاتك واياك ان تغفل عن الله طرفة عين فانك اذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر عظيم فكيف اذا لم تفعل والناس كلهم هلكى الا العالمون والعالمون كلهم هلكى الا العاملون والعاملون كلهم هلكى الا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم واعلم أن ذلك لا يتيسر لك ما لم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك وضرورتك مطعم وملبس ومسكن والباقي كله فضول والضرورة من المطعم ما يقيم صلبك ويسد رمقك فينبغي أن يكون تناولك تناول مضطر كاره له ولا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك في قضاء حاجتك اذ لا فرق بين ادخال الطعام في البطن واخراجه فهما ضرورتان في الجبلة وكما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي يشتغل بها قلبك فلا ينبغي أن يكون تناول الطعام من همتك واعلم انه ان كان همتك ما يدخل بطنك فقيمتك ما يخرج من بطنك واذا لم يكن قصدك من الطعام الا التقوى على عبادة الله تعالى كقصدك من قضاء حاجتك فعلامة ذلك تظهر في ثلاثة أمور من مأكولك في وقته وقدره وجنسه أما الوقت فأقله أن يكتفي في اليوم والليلة بمرة واحدة فيواظب على الصوم وأما قدره فبأن لا يزيد على ثلث البطن وأما جنسه فأن لا يطلب لذائذ الاطعمة بل يقنع بما يتفق فان قدرت على هذه الثلاث وسقطت عنك مؤنة الشهوات اللذائذ قدرت بعد ذلك على الشبهات وأمكنك أن لا تأكل الا من

تصحبه * وقال آخر من قال لاخيه أعطني من مالك فقال كم تريد ما قام بحق الاخاء وقد قال الشاعر

لا يسألون أخاهم حين يندبهم
للنائبات على ما قال برهانا

ومن أدبهم أن لا يتكلفون للاخوان قيل لما ورد أبو حفص العراق تكلف له الجنيد أنواعا من الاطعمة فأنكر ذلك أبو حفص وقال صير أصحابي مثل المخانيث يقدم لهم الالوان والفتوة عندنا ترك التكلف واحضار ما حضر فان بالتكلف ربما يؤثر مفارقة الضيف وبترك التكلف يستوي مقامه وذهابه ومن أدبهم في الصحبة المداراة وترك المداهنة وتشبه المداراة بالمداهنة والفرق بينهما أن المداراة ما أردت به صلاح أخيك فداريته لرجاء صلاحه واحتملت منه ما تكره والمداهنة

حله فان الحلال يعز ولا يفي بجميع الشهوات وأما ملبسك فليكن غرضك منه دفع الحر والبرد وستر العورة فكل ما دفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة بدانق فطلبك غيره فضول منك يضيع فيه زمانك ويلزمك الشغل الدائم والعناء القائم في تحصيله بالكسب مرة والطمع أخرى من الحرام والشبهة وقس بهذا ما تدفع به الحر والبرد عن بدنك فكل ما حصل مقصود اللباس ان لم تكتف به في خساسة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومرد بعده بل كنت ممن لا علاء بطنه الا التراب وكذلك المسكن ان اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقفا والارض مستقرا فان غلبك حر أو برد فعليك بالمساجد فان طلبت مسكنا خاصا طال عليك وانصرف اليه أكثر عمرك وعمرك هو بضاعتك ثم ان تيسر لك فقصدت من الحائط سوى كونه حائلا بينك وبين الابصار ومن السقف سوى كونه دافعا للامطار فأخذت ترفع الحيطان وتزين السقوف فقد تورطت في مهواة يبعد رقيك منها وهكذا جميع ضرورات أمورك ان اقتصرت عليها تفرغت لله وقدرت على التزود لآخرتك والاستعداد لخاتمتك وان جاوزت حد الضرورة الى أودية الاماني تشعبت همومك ولم يبال الله في أي واد أهلكك فاقبل هذه النصيحة ممن هو أحوج الى النصيحة منك واعلم ان متسع التدبير والتزود والاحتياط هذا العمر القصير فاذا دفعته يوما بيوم في تسويفك أو غفلتك اختطفت فجأة في غير وقت ارادتك ولم تفارقك حسرتك وندامتك فان كنت لا تقدر على ملازمة ما أرشدت اليه بضعف خوفك اذ لم يكن فيما وصفناه من أمر الخاتمة كفاية في تخويفك فانا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة عن قلبك فانك تحقق ان عقل الانبياء والاولياء والعلماء وعلمهم ومكانهم عند الله تعالى لم يكن دون عقلك وعملك ومكانك فتأمل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك في أحوالهم لم اشتد بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصعق وبعضهم يدهش وبعضهم يسقط مغشيا عليه وبعضهم يخر ميتا الى الارض ولا غرو ان كان ذلك لا يؤثر في قلبك فان قلوب الغافلين مثل الحجارة أو أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون

﴿ بيان أحوال الانبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف ﴾

روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم ويتردد في الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفا من عذاب الله وقرأ صلى الله عليه وسلم آية في سورة الواقعة فصعق وقال تعالى وخر موسى صعقا ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة جبريل عليه السلام بالابطح فصعق وروي أنه عليه السلام كان اذا دخل في الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل وقال صلى الله عليه وسلم ما جاءني جبريل قط الا وهو يرتعد فرقا من الجبار وقيل لما ظهر على ابليس ما ظهر طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان فأوحى الله اليهما ما لكما تبكيان كل هذا البكاء فقالا يارب ما نأمن مكرك فقال الله تعالى هكذا كونا لا تأمنا مكري وعن محمد بن المنكدر قال لما خلقت النار طارت أفئدة الملائكة من أماكنها فلما خلق بنو آدم عادت وعن أنس أنه عليه السلام سأل جبريل مالي لا أرى ميكائيل يضحك فقال جبريل ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار ويقال ان لله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار مخافة أن يغضب الله عليهم فيعذبهم بها وقال ابن عمر رضي الله عنهما خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الانصار فجعل يلتقط من الثمر ويأكل فقال يا ابن عمر مالك لا تأكل فقلت يا رسول الله لا أشتهيه فقال لكني أشتهيه وهذا صبح رابعة لم أذق طعاما ولم أجده ولو سألت ربي لأعطاني ملك قيصر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر اذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين في قلوبهم قال فوالله ما برحنا ولا قمنا حتى نزلت وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم وهو السميع العليم قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله لم يأمرني بكنز المال ولا باتباع الشهوات من كنز دنانير يريد بها حياة فانية فان الحياة بيد الله ألا واني لا أكنز دينارا ولا درهما ولا أخبأ رزقا لغد * وقال أبو الدرداء كان يسمع أزيز قلب ابراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم اذا قام في الصلاة من مسيرة ميل خوفا من ربه وقال مجاهد بكى داود عليه السلام أربعين يوما ساجدا لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموعه وحتى غطى رأسه فنودي يا داود أجائع أنت فتطعم أم ظمآن فتسقى أم عار فتكسى فنحب نحبة هاج العود فاحترق من حر خوفه ثم

ما قصدت به شيأ من الهوى من طلب حظ أو اقامة جاه * ومن أدبهم في الصحبة رعاية الاعتدال بين الانقباض والانبساط نقل عن الشافعي رحمه الله انه قال الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم والانبساط اليهم مجلبة لقرناء السوء فكن بين المنقبض والمنبسط * ومن أدبهم ستر عورات الاخوان قال عيسى عليه السلام لاصحابه كيف تصنعون اذا رأيتم أخاكم نائما فكشف الريح عنه ثوبه قالوا نستره ونغطيه فقال بل تكشفون عورته قالوا سبحان الله من يفعل هذا قال أحدكم يسمع في أخيه بالكلمة فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها * ومن أدبهم الاستغفار للاخوان بظهر الغيب والاهتمام لهم مع الله تعالى في دفع المكاره عنهم (حكي) أن أخوين ابتلي أحدهما بهوى فاظهر عليه أخاه

أنزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة فقال يارب اجعل خطيئتي في كفي فصارت خطيئته في كفه مكتوبة فكان لا يبسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيره الا رآها فابكته قال وكان يؤتى بالقدح ثلثاه فاذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه ويروى عنه عليه السلام انه ما رفع رأسه الى السماء حتى مات حياء من الله عز وجل وكان يقول في مناجاته الهي اذا ذكرت خطيئتي ضاقت على الارض برحبها واذا ذكرت رحمتك ارتدت الى روحي سبحانك الهي أتيت أطباء عبادك ليداووا خطيئتي فكلهم عليك يدلني فبؤسا للقانطين من رحمتك * وقال الفضيل بلغني أن داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم فوثب صارخا واضعا يده على رأسه حتى لحق بالجبال فاجتمعت اليه السباع فقال ارجعوا لا أريدكم انما أريد كل بكاء على خطيئته فلا يستقبلني الا بالبكاء ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطاء وكان يعاتب في كثرة البكاء فيقول دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء قبل تخريق العظام واشتعال الحشا وقبل أن يؤمر بي ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وقال عبد العزيز بن عمر لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته فقال الهي بح صوتي في صفاء أصوات الصديقين وروى انه عليه السلام لما طال بكاؤه ولم ينفعه ذلك ضاق ذرعه واشتد غمه فقال يارب أما ترحم بكائي فاوحى الله تعالى اليه يا داود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك فقال الهي وسيدي كيف أنسى ذنبي وكنت اذا تلوت الزبور كف الماء الجاري عن جريه وسكن هبوب الريح وأظلني الطير على رأسي وأنست الوحوش الى محرابي الهي وسيدي فما هذه الوحشة التي بيني وبينك فأوحى الله تعالى اليه يا داود ذلك أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية يا داود آدم خلق من خلقي خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي وأسجدت له ملائكتي وألبسته ثوب كرامتي وتوجته بتاج وقاري وشكا الى الوحدة فزوجته حواء أمتي وأسكنته جنتي عصاني فطردته عن جواري عريانا ذليلا يا داود اسمع مني والحق أقول أطعتنا فأطعناك وسألتنا فأعطيناك وعصيتنا فأمهلناك وان عدت الينا على ما كان منك قبلناك * وقال يحيى بن أبي كثير بلغنا أن داود عليه السلام كان اذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء فاذا كان قبل ذلك بيوم أخرج له المنبر الى البرية فأمر سليمان أن ينادي بصوت يستقري البلاد وما حولها من الغياض والآكام والجبال والبراري والصوامع والبيع فينادي فيها ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت قال فتأتي الوحوش من البراري والآكام وتأتي السباع من الغياض وتأتي الهوام من الجبال وتأتي الطير من الاوكار وتأتي العذارى من خدورهن وتجتمع الناس لذلك اليوم ويأتي داود حتى يرقى المنبر ويحيط به بنو اسرائيل وكل صنف على حدته محيطون به وسليمان عليه السلام قائم على رأسه فيأخذ في الثناء على ربه فيضجون بالبكاء والصراخ ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فتموت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع والناس ثم يأخذ في أهوال القيامة وفي النياحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة فاذا رأى سليمان كثرة الموتى قال يا أبتاه قد مزقت المستمعين كل ممزق وماتت طوائف من بني اسرائيل ومن الوحوش والهوام فيأخذ في الدعاء فبينما هو كذلك اذ ناداه بعض عباد بني اسرائيل يا داود عجلت بطلب الجزاء على ربك قال فيخر داود مغشيا عليه فاذا نظر سليمان الى ما أصابه أتى بسرير فحمله عليه ثم أمر مناديا ينادي ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فليحمله فان الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار فكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول يا من قتله ذكر النار يا من قتله خوف الله ثم اذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأغلق بابه ويقول يا اله داود أغضبان أنت على داود ولا يزال يناجي ربه فيأتي سليمان ويقعد على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه قرص من شعير فيقول يا أبتاه تقوّ بهذا على ما تريد فيأكل من ذلك القرص ما شاء الله ثم يخرج الى بني اسرائيل فيكون بينهم * وقال يزيد الرقاشي خرج داود ذات يوم بالناس يعظهم ويخوفهم فخرج في أربعين ألفا فمات منهم ثلاثون ألفا وما رجع الا في عشرة آلاف قال وكان له جاريتان اتخذهما حتى اذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب قعدتا على صدره وعلى رجليه مخافة أن تتفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت * وقال ابن عمر رضي الله عنهما دخل يحيى بن زكريا عليهما السلام بيت المقدس وهو ابن ثمان حجج فنظر الى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر

فقال انى ابتليت بهوى فان شئت أن لا تعقد على محبتى لله فافعل فقال ما كنت لاحل عقد اخائك لاجل خطيئتك وعقد بينه وبين الله عقدا ان لا يأكل ولا يشرب حتى يعافيه الله تعالى من هواه وطوى أربعين يوما كلما يسأله عن هواه يقول ما زال فبعد الاربعين اخبره ان الهوى قد زال فأكل وشرب * ومن أدبهم أن لا يحوجوا أصحابهم الى المداراة ولا يلجؤه الى الاعتذار ولا يتكلفوا للصاحب ما يشق عليه بل يكونوا للصاحب من حيث هو مؤثرين مراد الصاحب على مراد أنفسهم * قال على بن ابي طالب كرم الله وجهه شر الاصدقاء من أحوجك الى مداراة وألجأك الى اعتذار وتكلفت له (وقال) جعفر الصادق أثقل اخواني على من يتكلف لى وأتحفظ منه وأخفهم على قلبي من أكون

والصوف ونظر الى مجتهديهم قد خرقوا التراقى وسلكوا فيها السلاسل وشدوا أنفسهم الى أطراف بيت المقدس فهاله ذلك فرجع الى أبويه فمر بصبيان يلعبون فقالوا له يا يحيى هلم بنا نلعب فقال انى لم أخلق للعب قال فأتى أبويه فسألهما ان يدرعاه الشعر ففعلا فرجع الى بيت المقدس وكان يخدمه نهارا ويصبح فيه ليلا حتى أتت عليه خمس عشرة سنة فخرج ولزم أطواد الارض وغيران الشعاب فخرج أبواه فى طلبه فادركاه على بحيرة الاردن وقد أنقع رجليه فى الماء حتى كاد العطش يذبحه وهو يقول وعزتك وجلالك لا أذوق بارد الشراب حتى أعلم أين مكانى منك فسأله أبواه ان يفطر على قرص كان معهما من شعير ويشرب من ذلك الماء ففعل وكفر عن يمينه فمدح بالبر فرده أبواه الى بيت المقدس فكان اذا قام يصلى بكى حتى يبكى معه الشجر والمدر ويبكى زكريا عليه السلام لبكائه حتى يغمى عليه فلم يزل يبكى حتى خرقت دموعه لحم خديه وبدت أضراسه للناظرين فقالت له أمه يابنى لو أذنت لى ان اتخذ لك شيأ توارى به أضراسك عن الناظرين فاذن لها فعمدت الى قطعتى لبود فالصقتهما على خديه فكان اذا قام يصلى بكى فاذا استنقعت دموعه فى القطعتين أتت اليه أمه فعصرتهما فاذا رأى دموعه تسيل على ذراعى أمه قال اللهم هذه دموعى وهذه أمى وأنا عبدك وأنت أرحم الراحمين فقال له زكريا يوما يابنى انما سألت ربى أن يهبك لى لتقر عيناى بك فقال يحيى يا أبت ان جبريل عليه السلام أخبرنى أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها الا كل بكاء فقال زكريا عليه السلام يابنى فابك * وقال المسيح عليه السلام معاشر الحواريين خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ويباعدان من الدنيا بحق أقول لكم ان أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب فى طلب الفردوس قليل * وقيل كان الخليل صلوات الله عليه وسلامه اذا ذكر خطيئته يغشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلا فى ميل فيأتيه جبريل فيقول له ربك يقرئك السلام ويقول هل رأيت خليلا يخاف خليله فيقول يا جبريل انى اذا ذكرت خطيئتى نسيت خلتى فهذه أحوال الانبياء عليهم السلام فدونك والتامل فيها فانهم اعرف خلق الله بالله وصفاته صلوات الله عليهم أجمعين وعلى كل عباد الله المقربين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

(بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف الصالحين فى شدة الخوف)

روى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال لطائر ليتنى مثلك يا طائر ولم أخلق بشرا وقال أبو ذر رضى الله عنه وددت لو أنى شجرة تعضد وكذلك قال طلحة وقال عثمان رضى الله عنه وددت أنى اذا مت لم أبعث وقالت عائشة رضى الله عنها وددت أنى كنت نسيا منسيا وروى أن عمر رضى الله عنه كان يسقط من الخوف اذا سمع آية من القرآن مغشيا عليه فكان يعاد أياما وأخذ يوما تبنة من الارض فقال يا ليتنى كنت هذه التبنة يا ليتنى لم أك شيأ مذكورا يا ليتنى كنت نسيا منسيا يا ليتنى لم تلدنى أمى وكان فى وجه عمر رضى الله عنه خطان أسودان من الدموع وقال رضى الله عنه من خاف الله لم يشف غيظه ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون ولما قرأ عمر رضى الله عنه اذا الشمس كورت وانتهى الى قوله تعالى واذا الصحف نشرت خر مغشيا عليه ومر يوما بدار انسان وهو يصلى ويقرأ سورة والطور فوقف يستمع فلما بلغ قوله تعالى ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع نزل عن حماره واستند الى حائط ومكث زمانا ورجع الى منزله فمرض شهرا يعوده الناس ولا يدرون ما مرضه وقال على كرم الله وجهه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلب يده لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فلم أر اليوم شيأ يشبههم لقد كانوا يصبحون شعثا صفرا غبرا بين أعينهم أمثال ركب المعزى قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم فاذا أصبحوا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم والله فكأنى بالقوم باتوا غافلين ثم قام فما رؤى بعد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن ملجم وقال عمران بن حصين وددت أنى كنت رمادا تنسفنى الرياح فى يوم عاصف وقال أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه وددت أنى كبش فيذبحنى أهلى فيأكلون لحمى ويحسون مرقى وكان على بن الحسين رضى الله عنه اذا توضأ اصفر لونه فيقول له أهله ما هذا الذى يعتادك عند الوضوء فيقول أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم وقال موسى بن مسعود كنا اذا جلسنا الى الثورى كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه وقرأ مضر

معه كما أكون وحدى فآداب الصحبة وحقوق الاخوة كثيرة والحكايات فى ذلك يطول نقلها وقد رأيت فى كتاب الشيخ أبى طالب المكى رحمه الله من الحكايات فى هذا المعنى شيأ كثيرا فقد أودع كتابه كل شئ حسن من ذلك وحاصل الجميع ان العبد ينبغى له أن يكون لمولاه ويريد كل ما يريد لمولاه لا لنفسه واذا صاحب شخصا تكون صحبته اياه لله تعالى واذا صحبه لله تعالى يجتهد له فى كل شئ يزيده عند الله زلفى وكل من قام بحقوق الله تعالى يرزقه الله تعالى علما بمعرفة النفس وعيوبها ويعرفه محاسن الاخلاق ومحاسن الآداب ويوقفه من أداء الحقوق على بصيرة ويفقهه فى ذلك كله ولا يفوته شئ مما يحتاج اليه فيما يرجع الى حقوق الحق وفيما يرجع الى حقوق الخلق فيكل تقصير

القارئ يوماهذا كتابنا ينطق عليكم بالحق الآية فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشى عليه فلما أفاق قال وعزتك
لاعصينك جهدى أبدا فأعنى بتوفيقك على طاعتك وكان المسور بن مخرمة لا يقوى أن يسمع شيأ من القرآن
لشدة خوفه ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصيح الصيحة فما يعقل أياما حتى أتى عليه رجل من خثعم فقرأ
عليه يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين الى جهنم وردا فقال أنا من المجرمين ولست من المتقين
أعد على القول أيها القارئ فأعادها عليه فشهق شهقة فلحق بالآخرة وقرئ عند يحيى البكاء ولو ترى اذ وقفوا على
ربهم فصاح صيحة مكث منها مريضا أربعة أشهر يعاد من أطراف البصرة وقال مالك بن دينار بينما أنا أطوف
بالبيت اذا أنا بعجوز متعبدة متعلقة بأستار الكعبة وهى تقول يارب كم شهوة ذهبت لذاتها وبقيت تبعاتها
يارب أما كان لك أدب وعقوبة الا النار وتبكى فما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر قال مالك فلما رأيت ذلك
وضعت يدى على رأسى صارخا أقول ثكلت مالكا أمه وروى أن الفضيل رؤى يوم عرفة والناس يدعون وهو
يبكى بكاء الثكلى المحترقة حتى اذا كانت الشمس تغرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه الى السماء وقال واسوأتاه
منك وان غفرت ثم انقلب مع الناس وسئل ابن عباس رضى الله عنهما عن الخائفين فقال قلوبهم بالخوف
قرحة وأعينهم باكية يقولون كيف نفرح والموت من ورائنا والقبر امامنا والقيامة موعدنا وعلى جهنم طريقنا
وبين يدى الله ربنا موقفنا ومر الحسن بشاب وهو مستغرق فى ضحكه وهو جالس مع قوم فى مجلس فقال له الحسن
يافتى هل مررت بالصراط قال لا قال فهل تدرى الى الجنة تصير أم الى النار قال لا قال فما هذا الضحك قال فما رؤى
ذلك الفتى بعدها ضاحكا وكان حماد بن عبد ربه اذا جلس جلس مستوفزا على قدميه فيقال له لو اطمأننت فيقول
تلك جلسة الامن وأنا غير آمن اذ عصيت الله تعالى وقال عمر بن عبد العزيز انما جعل الله هذه الغفلة فى قلوب العباد
رحمة كى لا يموتوا من خشية الله تعالى وقال مالك بن دينار لقد هممت اذا أنا مت آمرهم أن يقيدونى ويغلونى ثم
ينطلقوا بى الى ربى كما ينطلق بالعبد الآبق الى سيده وقال حاتم الاصم لا تغتر بموضع صالح فلا مكان أصلح من الجنة
وقد لقى آدم عليه السلام فيها مالقى ولا تغتر بكثرة العبادة فان ابليس بعد طول تعبده لقى مالقى ولا تغتر بكثرة
العلم فان بلعام كان يحسن اسم الله الاعظم فانظر ماذا لقى ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص أكبر منزلة عند الله
من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه وقال السرى انى لانظر الى أنفى كل يوم مرات
مخافة أن يكون قد اسود وجهى وقال أبو حفص منذ أربعين سنة اعتقادى فى نفسى ان الله ينظر الى نظر السخط
وأعمالى تدل على ذلك وخرج ابن المبارك يوما على أصحابه فقال انى اجترأت البارحة على الله سألته الجنة وقالت
أم محمد بن كعب القرظى لابنها يابنى انى أعرفك صغيرا طيبا وكبيرا طيبا وكأنك أحدثت حدثا موبقا لما أراك
تصنع فى ليلك ونهارك فقال ياأماه ما يؤمننى أن يكون الله تعالى قد اطلع على وأنا على بعض ذنوبى فمقتنى وقال
وعزتى وجلالى لا غفرت لك وقال الفضيل انى لا أغبط نبيا مرسلا ولا ملكا مقربا ولا عبدا صالحا أليس هؤلاء
يعاينون يوم القيامة انما أغبط من لم يخلق وروى ان فتى من الانصار دخلته خشية النار فكان يبكى حتى حبسه
ذلك فى البيت فجاء النبى صلى الله عليه وسلم فدخل عليه واعتنقه فخر ميتا فقال صلى الله عليه وسلم جهزوا صاحبكم
فان الفرق من النار فتت كبده وروى عن ابن أبى ميسرة انه كان اذا أوى الى فراشه يقول ياليت أمى لم تلدنى
فقالت له أمه ياميسرة ان الله تعالى قد أحسن اليك هداك الى الاسلام قال أجل ولكن الله قد بين لنا أنا واردو
النار ولم يبين لنا انا صادرون عنها وقيل لفرقد السبخى أخبرنا بأعجب شئ بلغك عن بنى اسرائيل فقال بلغنى انه
دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء لباسهن الصوف والمسوح فتذاكرن ثواب الله وعقابه فمتن جميعا فى يوم واحد
وكان عطاء السلمى من الخائفين ولم يكن يسأل الله الجنة أبدا انما كان يسأل الله العفو وقيل له فى مرضه ألا
تشتهى شيأ فقال ان خوف جهنم لم يدع فى قلبى موضعا للشهوة ويقال انه ما رفع رأسه الى السماء ولا ضحك
أربعين سنة وانه رفع رأسه يوما ففزع فسقط فانفتق فى بطنه فتق وكان يمس جسده فى بعض الليل مخافة أن يكون
قد مسخ وكان اذا أصابتهم ريح أو برق أو غلاء طعام قال هذا من أجلى يصيبهم لو مات عطاء لاستراح الناس وقال
عطاء خرجنا مع عتبة الغلام وفينا كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بطهور العشاء قد تورمت أقدامهم من

يوجد من خبث النفس
وعدم تزكيتها وبقاء
صفاتها عليه فان صحبت
ظلمت بالافراط تارة
وبالتفريط أخرى
وتعدت الواجب فيما
يرجع الى الحق والخلق
والحكايات والمواعظ
والآداب وسماعها
لا يعمل فى النفس زيادة
تأثير ويكون كبستر
يقلب فيه الماء من
فوق فلا يمكث فيه ولا
ينتفع به واذا أخذت
بالتقوى والزهد فى
الدنيا نبع منها ماء الحياة
وتفقهت وعلمت وأدت
الحقوق وقامت بواجب
الآداب بتوفيق الله
سبحانه وتعالى

(الباب السادس والستون فى معرفة الانسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك)

حدثنا شيخنا أبو النجيب
السهروردى قال أنا
الشريف نور الهدى
أبو طالب الزينبى قال
أنا كريمة المروزية

طول القيام وغارت أعينهم في رؤسهم ولصقت جلودهم على عظامهم وبقيت العروق كأنها الاوتار يصبحون كأن جلودهم قشور البطيخ وكأنهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف أكرم الله المطيعين وكيف أهان العاصين فبينما هم يمشون اذ مر أحدهم بمكان فخر مغشيا عليه فجلس أصحابه حوله يبكون في يوم شديد البرد وجبينه يرشح عرقا فجاؤا بماء فمسحوا وجهه فافاق وسألوه عن أمره فقال اني ذكرت اني كنت عصيت الله في ذلك المكان وقال صالح المري قرأت على رجل من المتعبدين يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا فصعق ثم أفاق فقال زدني ياصالح فاني أجد غما فقرأت كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها فخر ميتا وروى ان زرارة بن أبي أوفى صلى بالناس الغداة فلما قرأ فاذا نقر في الناقور خر مغشيا عليه فحمل ميتا * ودخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز فقال عظني يا يزيد فقال يا أمير المؤمنين اعلم انك لست أول خليفة يموت فبكى ثم قال زدني قال يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين آدم أب الا ميت فبكى ثم قال زدني يا يزيد فقال يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين الجنة والنار منزل فخر مغشيا عليه وقال ميمون بن مهران لما نزلت هذه الآية وان جهنم لموعدهم أجمعين صاح سلمان الفارسي ووضع يده على رأسه وخرج هاربا ثلاثة أيام لا يقدرون عليه ورأى داود الطائي امرأة تبكي على رأس قبر ولدها وهي تقول يا ابناه ليت شعري أي خديك بدأ به الدود أولا فصعق داود وسقط مكانه وقيل مرض سفيان الثوري فعرض دليله على طبيب ذمي فقال هذا رجل قطع الخوف كبده ثم جاء وجس عروقه ثم قال ما علمت أن في الملة الحنيفية مثله وقال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه سألت الله عز وجل أن يفتح علي بابا من الخوف ففتح فخفت على عقلي فقلت يارب على قدر ما أطيق فسكن قلبي وقال عبد الله بن عمرو بن العاص ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه وكأنه أشار الى معنى قوله صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وقال العنبري اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض فاطلع عليهم من كوة وهو يبكي ولحيته ترجف فقال عليكم بالقرآن عليكم بالصلاة ويحكم ليس هذا زمان حديث انما هذا زمان بكاء وتضرع واستكانة ودعاء كدعاء الغريق انما هذا زمان احفظ لسانك واخف مكانك وعالج قلبك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر ورؤي الفضيل يوما وهو يمشي فقيل له الى أين قال لا أدري وكان يمشي والهامن الخوف وقال ذر بن عمر لابيه عمر بن ذر ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي أحد فاذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب فقال يابني ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة وحكي ان قوما وقفوا بعابد وهو يبكي فقالوا ما الذي يبكيك يرحمك الله قال قرحة يجدها الخائفون في قلوبهم قالوا وما هي قال روعة النداء بالعرض على الله عز وجل وكان الخواص يبكي ويقول في مناجاته قد كبرت وضعف جسمي عن خدمتك فاعتقني وقال صالح المري قدم علينا ابن السماك مرة فقال أرني شيأ من بعض عجائب عبادكم فذهبت به الى رجل في بعض الاحياء في خص له فاستأذنا عليه فاذا رجل يعمل خوصا فقرأت عليه اذ الاغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون فشهق الرجل شهقة وخر مغشيا عليه فخرجنا من عنده وتركناه على حاله وذهبنا الى آخر فدخلنا عليه فقرأت هذه الآية فشهق شهقة وخر مغشيا عليه فذهبنا واستأذنا على ثالث فقال ادخلوا ان لم تشغلونا عن ربنا فقرأت ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد فشهق شهقة فبدا الدم من منخريه وجعل يتشحط في دمه حتى يبس فتركناه على حاله وخرجنا فادرته على ستة أنفس كل نخرج من عنده ونتركه مغشيا عليه ثم أتيت به الى السابع فاستأذنا فاذا امرأة من داخل الخص تقول ادخلوا فدخلنا فاذا شيخ فان جالس في مصلاه فسلمنا عليه فلم يشعر بسلامنا فقلت بصوت عال الا ان للخلق غدا مقاما فقال الشيخ بين يدي من ويحك ثم بقي مبهوتا فاتحا فاه شاخصا بصره يصيح بصوت له ضعيف أوه أوه حتى انقطع ذلك الصوت فقالت امرأته اخرجوا فانكم لا تنتفعون به الساعة فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم فاذا ثلاثة قد أفاقوا وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى وأما الشيخ فانه مكث ثلاثة أيام على حاله مبهوتا متحيرا لا يؤدي فرضا فلما كان بعد ثلاث عقل وكان يزيد بن الاسود يرى انه من الابدال وكان قد حلف انه لا يضحك أبدا ولا ينام مضطجعا ولا يأكل سمينا أبدا فما رؤي ضاحكا ولا مضطجعا ولا أكل سمينا حتى مات رحمه الله وقال الحجاج لسعيد بن

قالت أخبرنا أبو الهيثم الكشميهني قال أخبرنا أبو عبد الله الفربري قال أنا أبو عبد الله البخاري قال ثنا عمر بن حفص قال ثنا أبي قال ثنا الاعمش قال ثنا زيد ابن وهب قال ثنا عبد الله قال ثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال ان أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله تعالى اليه ملكا بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أم سعيد ثم ينفخ فيه الروح وان الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة وان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه

جبير بلغني انك لم تضحك قط فقال كيف أضحك وجهنم قد سعرت والاغلال قد نصبت والزبانية قد أعدت وقال رجل للحسن يا أبا سعيد كيف أصبحت قال بخير قال كيف حالك فتبسم الحسن وقال تسألني عن حالي ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فتعلق كل انسان منهم بخشبة على أي حال يكون قال الرجل على حال شديدة قال الحسن حالي أشد من حالهم * ودخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز عليه فسلمت عليه ثم قامت الى مسجد في بيته فصلت فيه ركعتين وغلبتها عيناها فرقدت فاستبكت في منامها ثم انتبهت فقالت يا أمير المؤمنين اني والله رأيت عجبا قال وما ذاك قالت رأيت النار وهي تزفر على أهلها ثم جيء بالصراط فوضع على متنها فقال هيه قالت فجيء بعبد الملك بن مروان فحمل عليه فما مضى عليه الا يسيرا حتى انكفأ به الصراط فهوى الى جهنم فقال عمر هيه قالت ثم جيء بالوليد بن عبد الملك فحمل عليه فما مضى الا يسيرا حتى انكفأ به الصراط فهوى الى جهنم فقال عمر هيه قالت ثم جيء بسليمان بن عبد الملك فما مضى عليه الا يسيرا حتى انكفأ به الصراط فهوى كذلك فقال عمر هيه قالت ثم جيء بك والله يا أمير المؤمنين فصاح عمر رحمة الله عليه صيحة فخر مغشيا عليه فقامت اليه فجعلت تنادي في أذنه يا أمير المؤمنين اني رأيتك والله قد نجوت اني رأيتك والله قد نجوت قال وهي تنادي وهو يصيح ويفحص برجليه ويحكى ان أويسا القرني رحمه الله كان يحضر عند القاص فيبكي من كلامه فاذا ذكر النار صرخ أويس ثم يقوم منطلقا فيتبعه الناس فيقولون مجنون مجنون وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه ان المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه وكان طاوس يفرش له الفراش فيضطجع ويتقلى كما تتقلى الحبة في المقلى ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول طير ذكر جهنم نوم الخائفين * وقال الحسن البصري رحمه الله يخرج من النار رجل بعد ألف عام ياليتني كنت ذلك الرجل وانما قال ذلك لخوفه من الخلود وسوء الخاتمة وروي انه ما ضحك أربعين سنة قال وكنت اذا رأيته قاعدا كأنه أسير قد قدم لتضرب عنقه واذا تكلم كأنه يعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها فاذا سكت كأن النار تسعر بين عينيه وعوتب في شدة حزنه وخوفه فقال ما يؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع في على بعض ما يكره فمقتني فقال اذهب فلا غفرت لك فانا أعمل في غير معتمل * وعن ابن السماك قال وعظت يوما في مجلس فقام شاب من القوم فقال يا أبا العباس لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا نبالي أن لا نسمع غيرها قلت وما هي رحمك الله قال قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلود اما في الجنة أو في النار ثم غاب عني ففقدته في المجلس الآخر فلم أره فسألت عنه فأخبرت انه مريض يعاد فأتيته أعوده فقلت يا أخي ما الذي أرى بك فقال يا أبا العباس ذلك من قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلود اما في الجنة أو في النار قال ثم مات رحمه الله فرأيته في المنام فقلت يا أخي ما فعل الله بك قال غفر لي ورحمني وأدخلني الجنة قلت بماذا قال بالكلمة فهذه مخاوف الانبياء والاولياء والعلماء والصالحين ونحن أجدر بالخوف منهم لكن ليس الخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكمال المعرفة والافليس أمننا لقلة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا بل قادتنا شهوتنا وغلبت علينا شقوتنا وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا فلا قرب الرحيل ينبهنا ولا كثرة الذنوب تحركنا ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا ولا خطر الخاتمة يزعجنا فنسأل الله تعالى أن يتدارك بفضله وجوده أحوالنا فيصلحنا ان كان تحريك اللسان بمجرد السؤال دون الاستعداد ينفعنا ومن العجائب انا اذا أردنا المال في الدنيا زرعنا وغرسنا واتجرنا وركبنا البحار والبراري وخاطرنا وان أردنا طلب رتبة العلم تفقهنا وتعبنا في حفظه وتكراره وسهرنا ونجتهد في طلب أرزاقنا ولا نثق بضمان الله لنا ولا نجلس في بيوتنا فنقول اللهم ارزقنا اذا طمحت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم قنعنا بان نقول بألسنتنا اللهم اغفر لنا وارحمنا والذي اليه رجاؤنا وبه اعتزازنا ينادينا ويقول وأن ليس للانسان الا ما سعى ولا يغرنكم بالله الغرور ويا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم ثم كل ذلك لا ينبهنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا فما هذه الا محنة هائلة ان لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتداركنا بها ويجبرنا فنسأل الله تعالى ان يتوب علينا بل نسأله ان يشوق الى التوبة سرائر قلوبنا وان لا يجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا فنكون ممن يقول ولا يعمل ويسمع ولا يقبل اذا سمعنا الوعظ بكينا واذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا فلا علامة للخذلان أعظم من هذا فنسأل الله تعالى ان يمن علينا

الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار وقال تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين أي حرز لاستقرارها فيه الى بلوغ أمدها ثم قال بعد ذكر تقلباته ثم أنشأناه خلقا آخر قيل هذا الانشاء نفخ الروح فيه واعلم ان الكلام في الروح صعب المرام والامساك عن ذلك سبيل ذوي الاحلام وقد عظم الله تعالى شان الروح واسجل على الخلق بقلة العلم حيث قال وما أوتيتم من العلم الا قليلا وقد أخبر الله تعالى في كلامه عن اكرامه بني آدم فقال ولقد كرمنا بني آدم وروي انه لما خلق الله تعالى آدم وذريته قالت الملائكة يارب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة فقال وعزتي وجلالي لا اجعل ذرية

بالتوفيق والرشد بمنه وفضله ولنقتصر من حكاية أحوال الخائفين على ما أوردناه فان القليل من هذا يصادف القلب القابل فيكفي والكثير منه وان أفيض على القلب الغافل فلا يغني * ولقد صدق الراهب الذي حكى عنه عيسى بن مالك الخولاني وكان من خيار العباد انه رآه على باب بيت المقدس واقفا كهيئة المحزون من شدة الوله ما يكاد يرقأ دمعه من كثرة البكاء فقال عيسى لما رأيته هالني منظره فقلت أيها الراهب أوصني بوصية احفظها عنك فقال يا أخي بماذا أوصيك ان استطعت ان تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام فهو خائف حذر يخاف ان يغفل فتفترسه السباع أو يسهو فتنهشه الهوام فهو مذعور القلب وجل فهو في المخافة ليله وان أمن المغترون وفي الحزن نهاره وان فرح البطالون ثم ولى وتركني فقال لو زدتني شيأ عسى ينفعني فقال الظمآن يجزيه من الماء ايسره وقد صدق فان القلب الصافي يحركه أدنى مخافة والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ وما ذكره من تقديره انه احتوشته السباع والهوام فلا ينبغي أن يظن انه تقدير بل هو تحقيق فانك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيته مشحونا باصناف السباع وأنواع الهوام مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغيرها وهي التي لا تزال تفترسك وتنهشك ان غفلت عنها لحظة الا انك محجوب العين عن مشاهدتها فاذا انكشف الغطاء ووضعت في قبرك عاينتها وقد تمثلت لك بصورها وأشكالها الموافقة لمعانيها فترى بعينك العقارب والحيات وقد أحدقت بك في قبرك وانما هي صفاتك الحاضرة الآن قد انكشفت لك صورها فان أردت أن تقتلها وتقهرها وأنت قادر عليها قبل الموت فافعل والا فوطن نفسك على لدغها ونهشها لصميم قلبك فضلا عن ظاهر بشرتك والسلام

(كتاب الفقر والزهد وهو الكتاب الرابع من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم) الحمد لله الذي تسبح له الرمال وتسجد له الظلال وتندك من هيبته الجبال خلق الانسان من الطين اللازب والصلصال وزين صورته باحسن تقويم وأتم اعتدال وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال واذن له في قرع باب الخدمة بالغدو والآصال ثم كحل بصيرة المخلص في خدمته بنور العبرة حتى لاحظ بضيائه حضرة الجلال فلاح له من البهجة والبهاء والكمال ما استقبح دون مبادي اشراقه كل حسن وجمال واستثقل كل ما صرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستثقال وتمثل له ظاهر الدنيا في صورة امرأة جميلة تميس وتختال وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء تجنت من طينة الخزي وضربت في قالب النكال وهي متلففة بجلبابها الخفي قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال وقد نصبت حبائلها في مدارج الرجال فهي تقتنصهم بضروب المكر والاغتيال ثم لا تجتزئ معهم بالخلف في مواعيد الوصال بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والاغلال وتبليهم بانواع البلايا والانكال فلما انكشف للعارفين منها قبائح الاسرار والافعال زهدوا فيها زهد المبغض لها فتركوها وتركوا التفاخر والتكاثر بالاموال وأقبلوا بكنه هممهم على حضرة الجلال واثقين منها بوصال ليس دونه انفصال ومشاهدة أبدية لا يعتريها فناء ولا زوال والصلاة على سيدنا محمد سيد الانبياء وعلى آله خير آل (أما بعد) فان الدنيا عدوة لله عز وجل بغرورها ضل من ضل وبمكرها زل من زل فحبها رأس الخطايا والسيئات وبغضها أم الطاعات وأس القربات وقد استقصينا ما يتعلق بوصفها وذم الحب لها في كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فانه رأس المنجيات فلا مطمع في النجاة الا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها لكن مقاطعتها اما ان تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقرا واما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدا ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات وحظ في الاعانة على الفوز والنجاة ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد ودرجاتهما وأقسامهما وشروطهما وأحكامهما ونذكر الفقر في شطر من الكتاب والزهد في شطر آخر منه ونبدأ بذكر الفقر

(الشطر الاول من الكتاب في الفقر) وفيه بيان حقيقة الفقر وبيان فضيلة الفقر مطلقا وبيان خصوص فضيلة الفقراء وبيان فضيلة الفقير على الغني وبيان أدب الفقير في فقره وبيان أدبه في قبوله العطاء وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة وبيان مقدار الغنى المحرم للسؤال وبيان أحوال السائلين والله الموفق للصواب بلطفه وكرمه

من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان فمع هذه الكرامة واختياره سبحانه وتعالى اياهم على الملائكة لما أخبر عن الروح أخبر عنهم بقلة العلم وقال ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي الخ قال ابن عباس قالت اليهود للنبي عليه السلام أخبرنا ما الروح وكيف تعذب الروح التي في الجسد وانما الروح من أمر الله ولم يكن نزل اليه فيه شئ فلم يجبهم فاتاه جبرائيل بهذه الآية وحيث أمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاخبار عن الروح وماهيته باذن الله تعالى ووحيه وهو صلوات الله عليه معدن العلم وينبوع الحكمة فكيف يسوغ لغيره الخوض فيه والاشارة اليه لا جرم لما تقاضت الانفس الانسانية المتطلعة الى الفضول المتشوفة الى العقول المتحركة بوضعها

﴿ بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميه ﴾

اعلم ان الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج اليه أما فقد ما لا حاجة اليه فلا يسمى فقرا وان كان المحتاج اليه موجودا مقدورا عليه لم يكن المحتاج فقيرا واذا فهمت هذا لم تشك فى ان كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لانه محتاج الى دوام الوجود فى ثانى الحال ودوام وجوده مستفاد من فضل الله تعالى وجوده فان كان فى الوجود موجود ليس وجوده مستفادا له من غيره فهو الغنى المطلق ولا يتصور أن يكون مثل هذا الموجود الا واحدا فليس فى الوجود الا غنى واحد وكل من عداه فانهم محتاجون اليه ليمد وجودهم بالدوام والى هذا الحصر الاشارة بقوله تعالى والله الغنى وأنتم الفقراء هذا معنى الفقر مطلقا ولكنا لسنا نقصد بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص والا ففقر العبد بالاضافة الى أصناف حاجاته لا ينحصر لان حاجاته لا حصر لها ومن جملة حاجاته ما يتوصل اليه بالمال وهو الذى نريد الآن بيانه فقط فنقول كل فاقد للمال فانا نسميه فقيرا بالاضافة الى المال الذى فقده اذا كان ذلك المفقود محتاجا اليه فى حقه ثم يتصور ان يكون له خمسة أحوال عند الفقر ونحن نميزها ونخصص كل حال باسم لنتوصل بالتمييز الى ذكر أحكامها *(الحالة الاولى)* وهى العليا أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضا له ومحترزا من شره وشغله وهو الزهد واسم صاحبه الزاهد *(الثانية)* أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه لو أتاه وصاحب هذه الحالة يسمى راضيا *(الثالثة)* ان يكون وجود المال أحب اليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته ان ينهض لطلبه بل ان أتاه صفوا عفوا أخذه وفرح به وان افتقر الى تعب فى طلبه لم يشتغل به وصاحب هذه الحالة نسميه قانعا اذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع ما فيه من الرغبة الضعيفة *(الرابعة)* ان يكون تركه الطلب لعجزه والا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا الى طلبه ولو بالتعب لطلبه أو هو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص *(الخامسة)* ان يكون ما فقده من المال مضطرا اليه كالجائع الفاقد للخبز والعارى الفاقد للثوب ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرا كيفما كانت رغبته فى الطلب اما ضعيفة واما قوية وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة فهذه خمسة أحوال أعلاها الزهد والاضطرار ان انضم اليه الزهد وتصور ذلك فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتى بيانه ووراء هذه الاحوال الخمسة حالة هى أعلى من الزهد وهى ان يستوى عنده وجود المال وفقده فان وجده لم يفرح به ولم يتأذ وان فقده فكذلك بل حاله كما كان حال عائشة رضى الله تعالى عنها اذ أتاها مائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفرقتها من يومها فقالت خادمتها ما استطعت فيما فرقت اليوم ان تشترى لنا بدرهم لحما نفطر عليه فقالت لو ذكرتينى لفعلت فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها فى يده وخزائنه لم تضره اذ هو يرى الاموال فى خزانة الله تعالى لا فى يد نفسه فلا يفرق بين أن تكون فى يده أو فى يد غيره وينبغى ان يسمى صاحب هذه الحالة المستغنى لانه غنى عن فقد المال ووجوده جميعا وليفهم من هذا الاسم معنى يفارق اسم الغنى المطلق على الله تعالى وعلى من كثر ماله من العباد فان من كثر ماله من العباد وهو يفرح به فهو فقير الى بقاء المال فى يده وانما هو غنى عن دخول المال فى يده لا عن بقائه فهو اذا فقير من وجه وأما هذا الشخص فهو غنى عن دخول المال فى يده وعن بقائه فى يده وعن خروجه من يده أيضا فانه ليس يتأذى به ليحتاج الى اخراجه وليس يفرح به ليحتاج الى بقائه وليس فاقدا له ليحتاج الى الدخول فى يده فغناه الى العموم أميل فهو الى الغنى الذى هو وصف الله تعالى أقرب وانما قرب العبد من الله تعالى بقرب الصفات لا بقرب المكان ولكنا لا نسمى صاحب هذه الحالة غنيا بل مستغنيا ليبقى الغنى اسما لمن له الغنى المطلق عن كل شئ وأما هذا العبد فان استغنى عن المال وجودا أو عدما فلم يستغن عن أشياء أخر سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبقى استغناؤه الذى زين الله به قلبه فان القلب المقيد بحب المال رقيق والمستغنى عنه حر والله تعالى هو الذى أعتقه من هذا الرق فهو محتاج الى دوام هذا العتق والقلوب متقلبة بين الرق والحرية فى أوقات متقاربة لانها بين أصبعين من أصابع الرحمن فلذلك لم يكن اسم الغنى مطلقا عليه مع هذا الكمال الا مجازا واعلم أن الزهد درجة هى كمال الابرار وصاحب هذه الحالة من المقربين فلا جرم صار الزهد فى حقه نقصانا اذ حسنات الابرار سيئات المقربين وهذا لان الكاره للدنيا مشغول

الى كل ما أمرت بالسكون فيه والمتسورة بحرصها الى كل تحقيق وكل تمويه وأطلقت عنان النظر فى مسارح الفكر وخاضت غمرات معرفة ماهية الروح تاهت فى التيه وتنوعت آراؤها فيه ولم يوجد الاختلاف بين أرباب النقل والعقل فى شئ كالاختلاف فى ماهية الروح ولو لزمت النفوس حدها معترفة بعجزها كان ذلك أجدر بها وأولى فاما أقاويل من ليس متمسكا بالشرائع فننزه الكتاب عن ذكرها لانها أقوال أبرزتها العقول التى ضلت عن الرشاد وطبعت على الفساد ولم يصبها نور الاهتداء ببركة متابعة الانبياء فهم كما قال الله تعالى كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن

بالدنيا كما أن الراغب فيها مشغول بها والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى اذ لا بعد بينك و بين الله تعالى حتى يكون البعد حجابا فانه أقرب اليك من حبل الوريد وليس هو في مكان حتى تكون السموات والارض حجابا بينك و بينه فلا حجاب بينك و بينه الا شغلك بغيره وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره وأنت لا تزال مشغولا بنفسك و بشهوات نفسك فكذلك لا تزال محجوبا عنه فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى والمشغول ببغض نفسه أيضا مشغول عن الله تعالى بل كل ما سوى الله مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمعشوق فان التفت قلب العاشق الى الرقيب والى بغضه واستثقاله وكراهة حضوره فهو في حال اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه ولو استغرقه العشق لغفل عن غير المعشوق ولم يلتفت اليه فكما أن النظر الى غير المعشوق لحبه عند حضور المعشوق شرك في العشق ونقص فيه فكذا النظر الى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص ولكن أحدهما أخف من الآخر بل الكمال في أن لا يلتفت القلب الى غير المحبوب بغضا وحبا فانه كما لا يجتمع في القلب حبان في حالة واحدة فلا يجتمع أيضا بغض وحب في حالة واحدة فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كالمشغول بحبها الا ان المشغول بحبها غافل وهو في غفلته سالك في طريق البعد والمشغول ببغضها غافل وهو في غفلته سالك في طريق القرب اذ يرجى له أن ينتهي حاله الى أن تزول هذه الغفلة وتتبدل بالشهود فالكمال له مترقب لان بغض الدنيا مطية توصل الى الله تعالى فالمحب والمبغض كرجلين في طريق الحج مشغولين بركوب الناقة وعلفها وتسييرها ولكن أحدهما مستقبل الكعبة والآخر مستدبر لها فهما سيان بالاضافة الى الحال في أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها ولكن حال المستقبل محمود بالاضافة الى المستدبر اذ يرجى له الوصول اليها وليس محمودا بالاضافة الى المعتكف في الكعبة الملازم لها الذي لا يخرج منها حتى يفتقر الى الاشتغال بالدابة في الوصول اليها فلا ينبغي أن تظن ان بغض الدنيا مقصود في عينه بل الدنيا عائق عن الله تعالى ولا وصول اليه الا بدفع العائق ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله من زهد في الدنيا واقتصر عليه فقد استعجل الراحة بل ينبغي أن يشتغل بالآخرة فبين ان سلوك طريق الآخرة وراء الزهد كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق عن الحج فاذا قد ظهر أن الزهد في الدنيا ان أريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها فهو غاية الكمال وان أريد به الرغبة في عدمها فهو كمال بالاضافة الى درجة الراضي والقانع والحريص ونقصان بالاضافة الى درجة المستغني بل الكمال في حق المال أن يستوي عندك المال والماء وكثرة الماء في جوارك لا تؤذيك بان تكون على شاطئ البحر ولا قلته تؤذيك الا في قدر الضرورة مع أن المال محتاج اليه كما أن الماء محتاج اليه فلا يكون قلبك مشغولا بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا ببغض الماء الكثير بل تقول أشرب منه بقدر الحاجة وأسقي منه عباد الله بقدر الحاجة ولا أبخل به على أحد فهكذا ينبغي أن يكون المال لان الخبز والماء واحد في الحاجة وانما الفرق بينهما في قلة أحدهما وكثرة الآخر واذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره الذي دبر به العالم علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لا محالة مادمت حيا كما يأتيك قدر حاجتك من الماء على ما سيأتي بيانه في كتاب التوكل ان شاء الله تعالى قال أحمد بن أبي الحواري قلت لابي سليمان الداراني قال مالك بن دينار للمغيرة اذهب الى البيت فخذ الركوة التي أهديتها فان العدو يوسوس لي أن اللص قد أخذها قال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية قد زهد في الدنيا ما عليه من أخذها فبين أن كراهية كون الركوة في بيته التفات اليها سببه الضعف والنقصان فان قلت فما بال الانبياء والاولياء هربوا من المال ونفروا منه كل النفار فاقول كما هربوا من الماء على معنى انهم ما شربوا أكثر من حاجتهم فقروا عما وراءه ولم يجمعوه في القرب والروايا يديرونه مع أنفسهم بل تركوه في الانهار والآبار والبراري للمحتاجين اليه لا أنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بغضه وقد حملت خزائن الارض الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فاخذوها ووضعوها في مواضعها وما هربوا منها اذ كان يستوي عندهم المال والماء والذهب والحجر وما نقل عنهم من امتناع فاما أن ينقل عمن خاف أن لو أخذه ان يخدعه المال ويقيد قلبه فيدعوه الى الشهوات وهذا حال الضعفاء فلا جرم البغض للمال والهرب منه في حقهم كمال وهذا حكم جميع الخلق لان كلهم ضعفاء الا الانبياء والاولياء واما ان ينقل عن قوي بلغ الكمال ولكن أظهر

بيننا و بينك حجاب فلما حجبوا عن الانبياء لم يسمعوا وحيث لم يسمعوا لم يهتدوا واقتصروا على الجهالات وحجبوا بالمعقول عن المأمول والعقل حجة الله تعالى يهدي به قوما و يضل به قوما آخرين فلم ننقل أقوالهم في الروح واختلافهم فيه وأما المتمسكون بالشرائع الذين تكلموا في الروح فقوم منهم بطريق الاستدلال والنظر وقوم منهم بلسان الذوق والوجد لا باستعمال الفكر حتى تكلم في ذلك مشايخ الصوفية أيضا وكان الاولى الامساك عن ذلك والتأدب بادب النبي عليه السلام *وقد قال الجنيد الروح شيء استأثر الله بعلمه ولا تجوز العبارة عنه باكثر من موجود ولكن نجعل للصادقين مجملا لا قوالهم وأفعالهم ويجوز أن يكون كلامهم في ذلك

الفرار والنفار نزولا الى درجة الضعفاء ليقتدوا به فى الترك اذ لو اقتدوا به فى الاخذ لهلكوا كما يفر الرجل المعزم بين يدى أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها ولكن لعلمه انه لو أخذها أخذها أولاده اذا رأوها فيهلكون والسير بسير الضعفاء ضرورة الانبياء والاولياء والعلماء فقد عرفت اذا أن المراتب ست وأعلاها رتبة المستغنى ثم الزاهد ثم الراضى ثم القانع ثم الحريص وأما المضطر فيتصور فى حقه أيضا الزهد والرضا والقناعة ودرجته تختلف بحسب اختلاف هذه الاحوال واسم الفقير يطلق على هذه الخمسة أما تسمية المستغنى فقيرا فلا وجه لها بهذا المعنى بل ان سمى فقيرا فبمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجا الى الله تعالى فى جميع أموره عامة وفى بقاء استغنائه عن المال خاصة فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقر بها فانه أحق باسم العبد من الغافلين وان كان اسم العبد عاما للخلق فكذلك اسم الفقير عام ومن عرف نفسه بالفقر الى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين واذا عرفت هذا الاشتراك فهمت أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أعوذ بك من الفقر وقوله عليه السلام كاد الفقر أن يكون كفرا لا يناقض قوله أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا اذ فقر المضطر هو الذى استعاذ منه والفقر الذى هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار الى الله تعالى هو الذى سأله فى دعائه صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء

(بيان فضيلة الفقر مطلقا)

أما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم الآية وقال تعالى للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الارض ساق الكلام فى معرض المدح ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والاحصار وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر (وأما الاخبار) فى مدح الفقر فأكثر من أن تحصى روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه أى الناس خير فقالوا موسر من المال يعطى حق الله فى نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس يا رسول الله قال فقير يعطى جهده وقال صلى الله عليه وسلم لبلال الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا وقال صلى الله عليه وسلم ان الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال وفى الخبر المشهور يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام وفى حديث آخر بأربعين خريفا أى أربعين سنة فيكون المراد به تقدير تقدم الفقير الحريص على الغنى الحريص والتقدير بخمسمائة عام تقدير تقدم الفقير الزاهد على الغنى الراغب وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرفك بالضرورة تفاوتا بين الفقراء فى درجاتهم وكان الفقير الحريص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد اذ هذه نسبة الاربعين الى خمسمائة ولا تظنن ان تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجرى على لسانه جزافا وبالاتفاق بل لا يستنطق صلى الله عليه وسلم الا بحقيقة الحق فانه لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة فانه تقدير تحقيق لا محالة ولكن ليس فى قوة غيره ان يعرف علة تلك النسبة الا بتخمين فأما بالتحقيق فلا اذ يعلم ان النبوة عبارة عما يختص به النبى ويفارق به غيره وهو يختص بأنواع من الخواص أحدها انه يعرف حقائق الامور المتعلقة بالله وصفاته والملائكة والدار الآخرة لا كما يعلمه غيره بل مخالفا له بكثرة المعلومات وبزيادة اليقين والتحقيق والكشف والثانى أن له فى نفسه صفة بها تتم له الافعال الخارقة للعادات كما أن لنا صفة بها تتم الحركات المقرونة بارادتنا وباختيارنا وهى القدرة وان كانت القدرة والمقدور جميعا من فعل الله تعالى والثالث أن له صفة بها يبصر الملائكة ويشاهدهم كما أن للبصير صفة بها يفارق الاعمى حتى يدرك بها المبصرات والرابع أن له صفة بها يدرك ما سيكون فى الغيب اما فى اليقظة أو فى المنام اذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب فهذه كمالات وصفات يعلم ثبوتها للانبياء ويعلم انقسام كل واحد منها الى أقسام وربما يمكننا أن نقسمها الى أربعين والى خمسين والى ستين ويمكننا أيضا أن نتكلف تقسيمها الى ستة وأربعين بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزأ واحدا من جملتها ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن الا بظن وتخمين فلا ندرى تحقيقا أنه الذى أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا وانما المعلوم مجامع الصفات التى بها تتم النبوة وأصل انقسامها وذلك لا يرشدنا الى معرفة علة

بمثابة التأويل لكلام الله تعالى والآيات المنزلة حيث حرم تفسيره وجوز تأويله اذ لا يسع القول فى التفسير الا نقل وأما التأويل فيمتد العقول اليه بالباع الطويل وهو ذكر ما تحتمل الآية من المعنى من غير القطع بذلك واذا كان الامر كذلك فالقول فيه وجه ومحمل قال أبو عبد الله النباجى الروح جسم يلطف عن الحس ويكبر عن اللمس ولا يعبر عنه بأكثر من موجود وهو وان منع عن العبارة فقد حكم بأنه جسم فكأنه عبر عنه وقال ابن عطاء خلق الله الارواح قبل الاجساد لقوله تعالى ولقد خلقناكم يعنى الارواح ثم صورناكم يعنى الاجساد وقال بعضهم الروح لطيف قائم فى كثيف كالبصر جوهر لطيف قائم فى كثيف وفى هذا القول نظر وقال بعضهم الروح

التقدير فكذلك نعلم أن الفقراء لهم درجات كما سبق فاما لم كان هذا الفقير الحريص مثلا على نصف سدس درجة الفقير الزاهد حتى لم يبق له التقدم باكثر من أربعين سنة الى الجنة واقتضى ذلك التقدم بخمسمائة عام فليس في قوة البشر غير الانبياء الوقوف على ذلك الا بنوع من التخمين ولا وثوق به والغرض التنبيه على منهاج التقدير في أمثال هذه الامور فان الضعيف الايمان قد يظن أن ذلك يجري من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا بسبيل الاتفاق وحاشا منصب النبوة عن ذلك * ولنرجع الى نقل الاخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم أيضا خير هذه الامة فقراؤها وأسرعها تضجعا في الجنة ضعفاؤها وقال صلى الله عليه وسلم ان لي حرفتين اثنتين فمن أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني الفقر والجهاد وروى ان جبريل عليه السلام نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد ان الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا وتكون معك أينما كنت فاطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم قال يا جبريل ان الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له فقال له جبريل يا محمد ثبتك الله بالقول الثابت وروى ان المسيح صلى الله عليه وسلم مر في سياحته برجل نائم ملتف في عباءة فايقظه وقال يا نائم قم فاذكر الله تعالى فقال ما تريد مني اني قد تركت الدنيا لاهلها فقال له فنم اذا يا حبيبي ومر موسى صلى الله عليه وسلم برجل نائم على التراب وتحت رأسه لبنة ووجهه ولحيته في التراب وهو متزر بعباءة فقال يا رب عبدك هذا في الدنيا ضائع فأوحى الله تعالى اليه يا موسى أما علمت اني اذا نظرت الى عبد بوجهي كله زويت عنه الدنيا كلها وعن أبي رافع أنه قال ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه فارسلني الى رجل من يهود خيبر وقال قل له يقول لك محمد أسلفني أو بعني دقيقا الى هلال رجب قال فأتيته فقال لا والله الا برهن فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال أما والله اني لامين في أهل السماء أمين في أهل الارض ولو باعني أو أسلفني لاديت اليه اذهب بدرعي هذا اليه فارهنه فلما خرجت نزلت هذه الآية ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا الآية وهذه الآية تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس وقال صلى الله عليه وسلم من أصبح منكم معافى في جسمه آمنا في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها وقال كعب الاحبار قال الله تعالى لموسى عليه السلام يا موسى اذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين وقال عطاء الخراساني مر نبي من الانبياء بساحل فاذا هو برجل يصطاد حيتانا فقال بسم الله وألقى الشبكة فلم يخرج فيها شئ ثم مر بآخر فقال باسم الشيطان وألقى شبكته فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا رب ما هذا وقد علمت أن كل ذلك بيدك فقال الله تعالى للملائكة اكشفوا لعبدي عن منزلتيهما فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من الكرامة ولذاك من الهوان قال رضيت يا رب وقال نبينا صلى الله عليه وسلم اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها الاغنياء والنساء وفي لفظ آخر فقلت أين الاغنياء فقيل حبسهم الجد وفي حديث آخر فرأيت أكثر أهل النار النساء فقلت ما شأنهن فقيل شغلهن الاحمران الذهب والزعفران وقال صلى الله عليه وسلم تحفة المؤمن في الدنيا الفقر وفي الخبر آخر الانبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لاجل غناه وفي حديث آخر رأيته دخل الجنة زحفا وقال المسيح صلى الله عليه وسلم بشدة يدخل الغني الجنة وفي خبر آخر عن أهل البيت رضي الله عنهم انه صلى الله عليه وسلم قال اذا أحب الله عبدا ابتلاه فاذا أحبه الحب البالغ اقتناه قيل وما اقتناه قال لم يترك له أهلا ولا مالا وفي الخبر اذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين واذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته وقال موسى عليه السلام يا رب من احباؤك من خلقك حتى أحبهم لاجلك فقال كل فقير فقير فيمكن ان يكون الثاني للتوكيد ويمكن ان يراد به الشديد الضر وقال المسيح صلوات الله عليه وسلامه اني لاحب المسكنة وأبغض النعماء وكان أحب الاسامي اليه صلوات الله عليه ان يقال له يا مسكين ولما قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما يجيؤن اليك ولا نجيء ونجيء اليك ولا يجيؤن يعنون بذلك الفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب وأبي ذر وخباب بن الارت وعمار بن ياسر وأبي

عبارة والقائم بالاشياء هو الحق وهذا فيه نظر أيضا الا أن يحمل على معنى الاحياء فقد قال بعضهم الاحياء صفة المحيي كالتخليق صفة الخالق وقال قل الروح من أمر ربي وأمره كلامه وكلامه ليس بمخلوق أي صار الحي حيا بقوله كن حيا وعلى هذا لا يكون الروح معنى في الجسد فمن الاقوال ما يدل على أن قائله يعتقد قدم الروح ومن الاقوال ما يدل على أنه يعتقد حدوثه ثم ان الناس مختلفون في الروح الذي سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فقال قوم هو جبرائيل ونقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه انه قال هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه ولكل وجه منه سبعون ألف لسان ولكل لسان منه سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بتلك اللغات

هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء رضي الله عنهم أجمعين أجابهم النبي صلى الله عليه وسلم الى ذلك وذلك لانهم شكوا اليه التأذي برائحتهم وكان لباس القوم الصوف في شدة الحر فاذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم فاشتد ذلك على الاغنياء منهم الاقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري وعباس بن مرداس السلمي وغيرهم فاجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لا يجمعهم واياهم مجلس واحد فنزل عليه قوله تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم يعني الفقراء تريد زينة الحيوة الدنيا يعني الاغنياء ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا يعني الاغنياء وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر الآية واستأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فانزل الله تعالى عبس وتولى أن جاءه الاعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى يعني ابن أم مكتوم أما من استغنى فانت له تصدى يعني هذا الشريف وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله تعالى اليه كما يعتذر الرجل للرجل في الدنيا فيقول وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوانك علي ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة اخرج يا عبدي الى هذه الصفوف فمن أطعمك في أو كساك في تريد بذلك وجهي فخذ بيده فهو لك والناس يومئذ قد ألجمهم العرق فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فيأخذ بيده ويدخله الجنة وقال عليه السلام أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الايادي فان لهم دولة قالوا يا رسول الله وما دولتهم قال اذا كان يوم القيامة قيل لهم انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوبا فخذوا بيده ثم امضوا به الى الجنة وقال صلى الله عليه وسلم دخلت الجنة فسمعت حركة أمامي فنظرت فاذا بلال ونظرت في أعلاها فاذا فقراء أمتي وأولادهم ونظرت في أسفلها فاذا فيه من الاغنياء والنساء قليل فقلت يا رب ما شأنهم قال أما النساء فاضر بهن الاحمران الذهب والحرير وأما الاغنياء فاشتغلوا بطول الحساب وتفقدت أصحابي فلم أر عبد الرحمن بن عوف ثم جاءني بعد ذلك وهو يبكي فقلت ما خلفك عني قال يا رسول الله والله ما وصلت اليك حتى لقيت المشيبات وظننت اني لا أراك فقلت ولم قال كنت أحاسب عن مالي فانظر الى هذا وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من العشرة المخصوصين بانهم من أهل الجنة وهو من الاغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الا من قال بالمال هكذا وهكذا ومع هذا فقد استضر بالغنى الى هذا الحد ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل فقير فلم ير له شيأ فقال لو قسم نور هذا على أهل الارض لوسعهم وقال صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بملوك أهل الجنة قالوا بلى يا رسول الله قال كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لابره وقال عمران بن حصين كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه فقال يا عمران ان لك عندنا منزلة وجاها فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت نعم بابي أنت وأمي يا رسول الله فقام وقمت معه حتى وقف بباب فاطمة فقرع الباب وقال السلام عليكم أأدخل فقالت ادخل يا رسول الله قال أنا ومن معي قالت ومن معك يا رسول الله قال عمران فقالت فاطمة والذي بعثك بالحق نبيا ما علي الا عباءة قال اصنعي بها هكذا وهكذا وأشار بيده فقالت هذا جسدي قد واريته فكيف برأسي فالقى اليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال شدي بها على رأسك ثم أذنت له فدخل فقال السلام عليكم يا ابنتاه كيف أصبحت قالت أصبحت والله وجعة وزادني وجعا على ما بي اني لست أقدر على طعام آكله فقد أضر بي الجوع فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لا تجزعي يا ابنتاه فوالله ما ذقت طعاما منذ ثلاث واني لاكرم على الله منك ولو سألت ربي لاطعمني ولكني آثرت الآخرة على الدنيا ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها أبشري فوالله انك لسيدة نساء أهل الجنة قالت فاين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران قال آسية سيدة نساء عالمها ومريم سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء عالمك انكن في بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب ولا نصب ثم قال لها اقنعي يا بنت عمك فوالله لقد زوجتك سيدا في الدنيا سيدا في الآخرة وروي عن علي كرم الله وجهه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا أبغض الناس فقراءهم واظهروا عمارة الدنيا وتكالبوا على جمع الدراهم رماهم الله باربع خصال بالقحط من الزمان والجور من السلطان والخيانة من ولاة الاحكام والشوكة من الاعداء (وأما

كلها ويخلق من كل تسبيحة ملكا يطير مع الملائكة الى يوم القيامة وروي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ان الروح خلق من خلق الله صورهم على صورة بني آدم وما نزل من السماء ملك الا ومعه واحد من الروح وقال أبو صالح والروح كهيئة الانسان وليسوا بناس وقال مجاهد الروح على صورة بني آدم لهم أيد وأرجل ورؤس يأكلون الطعام وليسوا بملائكة وقال سعيد بن جبير لم يخلق الله خلقا أعظم من الروح غير العرش ولو شاء ان يبلع السموات والارضين السبع في لقمة لفعل صورة خلقه على صورة الملائكة وصورة وجهه على صورة الآدميين يقوم يوم القيامة عن يمين العرش والملائكة معه في صف واحد وهو ممن يشفع لاهل التوحيد ولولا أن بينه وبين الملائكة سترا من نور

الآثار) فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه ذو الدرهمين أشد حبسا أو قال أشد حسابا من ذي الدرهم وأرسل
عمر رضي الله عنه الى سعيد بن عامر بألف دينار فجاء حزينا كئيبا فقالت امرأته أحدث أمر قال أشد من ذلك ثم
قال أريني درعك الخلق فشقه وجعله صررا وفرقه ثم قام يصلي ويبكي الى الغداة ثم قال سمعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الاغنياء بخمسمائة عام حتى ان الرجل من الاغنياء يدخل في
غمارهم فيؤخذ بيده فيستخرج وقال أبو هريرة ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم
يكن له خلق يلبسه ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين ورجل دعا بشراب فلا يقال له أيها تريد وقيل جاء فقير
الى مجلس الثوري رحمه الله فقال له تخط لو كنت غنيا ما قربتك وكان الاغنياء من أصحابه يودون انهم فقراء
لكثرة تقريبه للفقراء واعراضه عن الاغنياء وقال المؤمل ما رأيت الغني أذل منه في مجلس الثوري ولا رأيت
الفقير أعز منه في مجلس الثوري رحمه وقال بعض الحكماء مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر
لنجا منهما جميعا ولو رغب في الجنة كما رغب في الغنى لفاز بهما جميعا ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في
الظاهر لسعد في الدارين جميعا وقال ابن عباس ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر وقال لقمان عليه السلام
لابنه لا تحقرن أحدا لخلقان ثيابه فان ربك وربه واحد وقال يحيى بن معاذ حبك الفقراء من أخلاق المرسلين
وايثارك مجالستهم من علامة الصالحين وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين وفي الاخبار عن الكتب السالفة
ان الله تعالى أوحى الى بعض أنبيائه عليهم السلام احذر أن أمقتك فتسقط من عيني فأصب عليك الدنيا صبا
ولقد كانت عائشة رضي الله تعالى عنها تفرق مائة ألف درهم في يوم واحد وجهها اليها معاوية وابن عامر
وغيرهما وان درعها لمرقوع وتقول لها الجارية لو اشتريت لك بدرهم لحما تفطرين عليه وكانت صائمة فقالت
لو ذكرتيني لفعلت وكان قد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان أردت اللحوق بي فعليك بعيش الفقراء
واياك ومجالسة الاغنياء ولا تنزعي درعك حتى ترقعيه وجاء رجل الى ابراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فأبى
عليه أن يقبلها فألح عليه الرجل فقال له ابراهيم أتريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم
لا أفعل ذلك أبدا رضي الله عنه

(بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم طوبى لمن هدي الى الاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به وقال صلى الله عليه وسلم
يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم والا فلا فالاول القانع وهذا الراضي ويكاد
يشعر هذا بمفهومه ان الحريص لا ثواب له على فقره ولكن العمومات الواردة في فضل الفقر تدل على أن له ثوابا
كما سيأتي تحقيقه فلعل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله في حبس الدنيا عنه ورب راغب في المال لا يخطر
بقلبه انكار على الله تعالى ولا كراهة في فعله فتلك الكراهة هي التي تحبط ثواب الفقر وروي عن عمر بن الخطاب
رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان لكل شئ مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء
لصبرهم هم جلساء الله تعالى يوم القيامة وروي عن علي كرم الله وجهه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال
أحب العباد الى الله تعالى الفقير القانع برزقه الراضي عن الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم اللهم اجعل قوت آل
محمد كفافا وقال ما من أحد غني ولا فقير الا ود يوم القيامة أنه كان أوتي قوتا في الدنيا وأوحى الله تعالى الى اسمعيل
عليه السلام اطلبني عند المنكسرة قلوبهم قال ومن هم قال الفقراء الصادقون وقال صلى الله عليه وسلم لا أحد
أفضل من الفقير اذا كان راضيا وقال صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى يوم القيامة أين صفوتي من خلقي فتقول
الملائكة ومن هم يا ربنا فيقول فقراء المسلمين القانعون بعطائي الراضون بقدري أدخلوهم الجنة فيدخلونها
ويأكلون ويشربون والناس في الحساب يترددون فهذا في القانع والراضي وأما الزاهد فسنذكر فضله في الشطر
الثاني من الكتاب ان شاء الله تعالى (وأما الآثار) في الرضا والقناعة فكثيرة ولا يخفى ان القناعة يضادها الطمع
وقد قال عمر رضي الله تعالى عنه ان الطمع فقر واليأس غنى وانه من يئس عما في أيدي الناس وقنع استغنى عنهم
وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ما من يوم الا وملك ينادي من تحت العرش يا ابن آدم قليل يكفيك خير من

كثير

أحرق أهل السموات
من نوره فهذه الاقاويل
لا تكون الا نقلا وسماعا
بلغهم عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم ذلك
واذا كان الروح المسؤل
عنه شيأ من هذا المنقول
فهو غير الروح الذي في
الجسد فعلى هذا يسوغ
القول في هذا الروح
ولا يكون الكلام فيه
ممنوعا وقال بعضهم
الروح لطيفة تسري
من الله الى أماكن
معروفة لا يعبر عنه
بأكثر من موجود
بايجاد غيره وقال بعضهم
الروح لم يخرج من كن
لانه لو خرج من كن كان
عليه الذل قيل فمن أي
شئ خرج قال من بين
جماله وجلاله سبحانه
وتعالى بملاحظة الاشارة
خصها بسلامه وحياها
بكلامه فهي معتقة من
ذل كن (وسئل) أبو
سعيد الخراز عن الروح
مخلوقة هي قال نعم ولولا
ذلك ما أقرت بالربوبية
حيث قالت بلى والروح

كثير يطغيك وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه مامن أحد الاوفي عقله نقص وذلك انه اذا أتته الدنيا بالزيادة ظل فرحا مسرورا والليل والنهار دائبان في هدم عمره ثم لا يحزنه ذلك ويح ابن آدم ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص وقيل لبعض الحكماء ما الغنى قال قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك وقيل كان ابراهيم بن أدهم من أهل النعم بخراسان فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم اذ نظر الى رجل في فناء القصر وفي يده رغيف يأكله فلما أكل نام فقال لبعض غلمانه اذا قام فجئني به فلما قام جاء به اليه فقال ابراهيم أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع قال نعم قال فشبعت قال نعم قال ثم نمت طيبا قال نعم فقال ابراهيم في نفسه فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر ومر رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحا وبقلا فقال له يا عبد الله أرضيت من الدنيا بهذا فقال ألا أدلك على من رضي بشر من هذا قال بلى قال من رضي بالدنيا عوضا عن الآخرة وكان محمد بن واسع رحمة الله عليه يخرج خبزا يابسا فيبله بالماء ويأكله بالملح ويقول من رضي من الدنيا بهذا لم يحتج الى أحد وقال الحسن رحمه الله لعن الله أقواما أقسم لهم الله تعالى ثم لم يصدقوه ثم قرأ وفي السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والارض انه لحق الآية وكان أبو ذر رضي الله عنه يوما جالسا في الناس فأتته امرأته فقالت له أتجلس بين هؤلاء والله ما في البيت هفة ولا سفة فقال يا هذه ان بين أيدينا عقبة كؤدا لا ينجو منها الا كل مخف فرجعت وهي راضية وقال ذو النون رحمه الله أقرب الناس الى الكفر ذو فاقة لا صبر له وقيل لبعض الحكماء ما مالك فقال التجمل في الظاهر والقصد في الباطن واليأس مما في أيدي الناس ويروى ان الله عز وجل قال في بعض الكتب السالفة المنزلة يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها الا القوت فاذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا محسن اليك وقد قيل في القناعة

اضرع الى الله لا تضرع الى الناس * واقنع بيأس فان العز في الياس

واستغن عن كل ذي قربى وذي رحم * ان الغني من استغنى عن الناس

وقد قيل في هذا المعنى أيضا

يا جامعا مانعا والدهر يرمقه * مقدرا أي باب منه يغلقه

مفكرا كيف تأتيه منيته * أغاديا أم بها يسري فتطرقه

جمعت مالا فقل لي هل جمعت له * يا جامع المال أياما تفرقه

المال عندك مخزون لوارثه * ما المال مالك الا يوم تنفقه

أرفه ببال فتى يغدو على ثقة * ان الذي قسم الارزاق يرزقه

فالعرض منه مصون ما يدنسه * والوجه منه جديد ليس يخلقه

ان القناعة من يحلل بساحتها * لم يبق في ظلها هما يؤرقه

(بيان فضيلة الفقر على الغنى)

اعلم أن الناس قد اختلفوا في هذا فذهب الجنيد والخواص والاكثرون الى تفضيل الفقر وقال ابن عطاء الغني الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر ويقال ان الجنيد دعا على ابن عطاء لمخالفته اياه في هذا فأصابته محنة وقد ذكرنا ذلك في كتاب الصبر ووجه التفاوت بين الصبر والشكر ومهدنا سبيل طلب الفضيلة في الاعمال والاحوال وان ذلك لا يمكن الا بتفصيل فأما الفقر والغنى اذا أخذ مطلقا لم يسترب من قرأ الاخبار والآثار في تفضيل الفقر ولا بد فيه من تفصيل فنقول انما يتصور الشك في مقامين أحدهما فقير صابر ليس بحريص على الطلب بل هو قانع أو راض بالاضافة الى غني منفق ماله في الخيرات ليس حريصا على امساك المال والثاني فقير حريص مع غني حريص اذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغني الحريص الممسك وأن الغني المنفق ماله في الخيرات أفضل من الفقير الحريص أما الاول فربما يظن أن الغني أفضل من الفقير لانهما تساويا في ضعف الحرص على المال والغني متقرب بالصدقات والخيرات والفقير عاجز عنه وهذا هو الذي ظنه ابن عطاء فيما نحسبه فأما الغني المتمتع بالمال وان كان في مباح فلا يتصور أن يفضل على الفقير القانع وقد يشهد له ما روي في الخبر ان الفقراء شكوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الاغنياء بالخيرات والصدقات والحج والجهاد فعلمهم كلمات في التسبيح وذكر لهم انهم ينالون بها فوق ما ناله الاغنياء فتعلم الاغنياء ذلك فكانوا يقولونه فعاد الفقراء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال عليه السلام ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وقد استشهد ابن عطاء أيضا لما

هي التي قام بها البدن واستحق بها اسم الحياة وبالروح ثبت العقل وبالروح قامت الحجة ولو لم يكن الروح كان العقل معطلا لا حجة عليه ولا له وقيل انها جوهر مخلوق ولكنها ألطف المخلوقات وأصفى الجواهر وأنورها وبها تتراءى المغيبات وبها يكون الكشف لاهل الحقائق واذا حجبت الروح عن مراعاة السير أساءت الجوارح الادب ولذلك صارت الروح بين تجل واستتار وقابض ونازع وقيل الدنيا والآخرة عند الارواح سواء وقيل الارواح أقسام أرواح تجول في البرزخ وتبصر أحوال الدنيا والملائكة وتسمع ما تحدث به في السماء عن أحوال الآدميين وأرواح تحت العرش وأرواح طيارة الى الجنان والى حيث شاءت على اقدارها من السعي الى الله أيام الحياة وروى سعيد بن المسيب عن

سئل عن ذلك فقال الغنى أفضل لانه وصف الحق أما دليله الاول ففيه نظر لان الخبر قد ورد مفصلا تفصيلا يدل على خلاف ذلك وهو أن ثواب الفقير فى التسبيح يزيد على ثواب الغنى وان فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء فقد روى زيد بن أسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال بعث الفقراء رسولا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انى رسول الفقراء اليك فقال مرحبا بك وبمن جئت من عندهم قوم أحبهم قال قالوا يا رسول الله ان الاغنياء ذهبوا بالخير يحجون ولا نقدر عليه ويعتمرون ولا نقدر عليه واذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم بلغ عنى الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للاغنياء أما خصلة واحدة فان فى الجنة غرفا ينظر اليها أهل الجنة كما ينظر أهل الارض الى نجوم السماء لا يدخلها الا نبى فقير أو شهيد فقير أو مؤمن فقير والثانية يدخل الفقراء الجنة قبل الاغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام والثالثة اذا قال الغنى سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغنى بالفقير ولو أنفق فيها عشرة آلاف درهم وكذلك أعمال البر كلها فرجع اليهم فاخبرهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا رضينا رضينا فهذا يدل على ان قوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء أى مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم وأما قوله ان الغنى وصف الحق فقد اجابه بعض الشيوخ فقال أترى ان الله تعالى غنى بالاسباب والاعراض فانقطع ولم ينطق واجاب آخرون فقالوا ان التكبر من صفات الحق فينبغى أن يكون أفضل من التواضع ثم قالوا بل هذا يدل على ان الفقر افضل لان صفات العبودية أفضل للعبد كالخوف والرجاء وصفات الربوبية لا ينبغى أن ينازع فيها ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما قصمته وقال سهل حب العز والبقاء شرك فى الربوبية ومنازعة فيها لانهما من صفات الرب تعالى فمن هذا الجنس تكلموا فى تفضيل الغنى والفقر وحاصل ذلك تعلق بعمومات تقبل التأويلات وبكلمات قاصرة لا تبعد مناقضتها اذ كما يناقض قول من فضل الغنى بانه صفة الحق بالتكبر فكذلك يناقض قول من ذم الغنى لانه وصف العبد بالعلم والمعرفة فانه وصف الرب تعالى والجهل والغفلة وصف العبد وليس لاحد أن يفضل الغفلة على العلم فكشف الغطاء عن هذا هو ما ذكرناه فى كتاب الصبر وهو ان ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره فينبغى أن يضاف الى مقصوده اذ به يظهر فضله والدنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها عائقة عن الوصول الى الله تعالى ولا الفقر مطلوبا لعينه لكن لان فيه فقد العائق عن الله تعالى وعدم الشاغل عنه وكم من غنى لم يشغله الغنى عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما وكم من فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد وغاية المقصد فى الدنيا هو حب الله تعالى والانس به ولا يكون ذلك الا بعد معرفته وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن والفقر قد يكون من الشواغل كما ان الغنى قد يكون من الشواغل وانما الشاغل على التحقيق حب الدنيا اذ لا يجتمع معه حب الله فى القلب والمحب للشئ مشغول به سواء كان فى فراقه أو فى وصاله وربما يكون شغله فى الفراق أكثر وربما يكون شغله فى الوصال أكثر والدنيا معشوقة الغافلين المحروم منها مشغول بطلبها والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها فاذا ان فرضت فارغين عن حب المال بحيث صار المال فى حقهما كالماء استوى الفاقد والواجد اذ كل واحد غير متمتع الا بقدر الحاجة ووجود قدر الحاجة أفضل من فقده اذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة وان أخذت الامر باعتبار الاكثر فالفقير عن الخطر أبعد اذ فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ومن العصمة ان لا يقدر ولذلك قال الصحابة رضى الله عنهم بلينا بفتنة الضراء فصبرنا وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر وهذه خلقة الآدميين كلهم الا الشاذ الفذ الذى لا يوجد فى الاعصار الكثيرة الا نادرا ولما كان خطاب الشرع مع الكل لا مع ذلك النادر والضراء أصلح للكل دون ذلك النادر زجر الشرع عن الغنى وذمه وفضل الفقر ومدحه حتى قال المسيح عليه السلام لا تنظروا الى أموال أهل الدنيا فان بريق أموالهم يذهب بنور ايمانكم وقال بعض العلماء تقليب الاموال يمص حلاوة الايمان وفى الخبر ان لكل أمة عجلا وعجل هذه الامة الدينار والدرهم وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضا واستواء المال والماء والذهب والحجر انما يتصور للانبياء عليهم السلام والاولياء ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة اذ كان النبى صلى الله

سلمان قال أرواح المؤمنين تذهب فى برزخ من الارض حيث شاءت بين السماء والارض حتى يردها الى جسدها وقيل اذا ورد على الارواح ميت من الاحياء التقوا وتحدثوا وتساءلوا ووكل الله بها ملائكة تعرض عليها أعمال الاحياء حتى اذا عرض على الاموات ما يعاقب به الاحياء فى الدنيا من أجل الذنوب قالوا نعتذر الى الله ظاهرا عنه فانه لا أحد أحب اليه العذر من الله تعالى وقد ورد فى الخبر عن النبى تعرض الاعمال يوم الاثنين والخميس على الله وتعرض على الانبياء والآباء والامهات يوم الجمعة فيفرحون بحسناتهم وتزداد وجوههم بياضا واشراقا فاتقوا الله تعالى ولا تؤذوا موتاكم وفى خبر آخر ان أعمالكم تعرض على عشائركم وأقاربكم من الموتى فان

عليه وسلم يقول للدنيا اليك عني اذ كانت تتمثل له بزينتها وكان علي كرم الله وجهه يقول يا صفراء غري غيري ويا بيضاء غري غيري وذلك لاستشعاره في نفسه ظهور مبادي الاغترار بها لولا أن رأى برهان ربه وذلك هو الغنى المطلق اذ قال عليه الصلاة والسلام ليس الغنى عن كثرة العرض انما الغنى غنى النفس واذا كان ذلك بعيدا فاذا الاصلح لكافة الخلق فقد المال وان تصدقوا به وصرفوه الى الخيرات لانهم لا ينفكون في القدرة على المال عن أنس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستشعار راحة في بذلها وكل ذلك يورث الانس بهذا العالم وبقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة وبقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبه ومهما انقطعت أسباب الانس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها والقلب اذا تجافى عما سوى الله تعالى وكان مؤمنا بالله انصرف لا محالة الى الله اذ لا يتصور قلب فارغ وليس في الوجود الا الله تعالى وغيره فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ومن أقبل عليه تجافى عن غيره ويكون اقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر ومثلهما مثل المشرق والمغرب فانهما جهتان فالمتردد بينهما بقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى فينبغي أن يكون مطمح نظر العارف قلبه في عزوبه عن الدنيا وانسه بها فاذا فضل الفقير والغني بحسب قلبهما بالمال فقط فان تساويا فيه تساوت درجتهما الا ان هذا مزلة قدم وموضع غرور فان الغني ربما يظن انه منقطع القلب عن المال ويكون حبه دفينا في باطنه وهو لا يشعر به وانما يشعر به اذا فقده فليجرب نفسه بتفريقه أو اذا سرق منه فان وجد لقلبه اليه التفاتا فليعلم انه كان مغرورا فكم من رجل باع سرية له ظانا انه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه النار التي كانت مستكنة فيه فتحقق اذ ذاك أنه كان مغرورا وأن العشق كان مستكنا في الفؤاد استكنان النار تحت الرماد وهذا حال كل الاغنياء الا الانبياء والاولياء واذا كان ذلك محالا أو بعيدا فلنطلق القول بان الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل لان علاقة الفقير وأنسه بالدنيا أضعف وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته وعباداته فان حركات اللسان ليست مرادة لاعيانها بل ليتأكد بها الانس بالمذكور ولا يكون تأثيرها في اثارة الانس في قلب فارغ من غير المذكور كتأثيرها في قلب مشغول ولذلك قال بعض السلف مثل من تعبد وهو في طلب الدنيا مثل من يطفئ النار بالحلفاء ومثل من يغسل يده من الغمر بالسمك وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها أفضل من عبادة غني ألف عام وعن الضحاك قال من دخل السوق فرأى شيأ يشتهيه فصبر واحتسب كان خيرا له من ألف دينار ينفقها كلها في سبيل الله تعالى وقال رجل لبشر بن الحرث رحمه الله أدع الله لي فقد أضر بي العيال فقال اذا قال لك العيال ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع الله لي في ذلك الوقت فان دعاءك أفضل من دعائي وكان يقول مثل الغني المتعبد مثل روضة على مزبلة ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر في جيد الحسناء وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الاغنياء وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه اللهم اني أسألك الذل عند النصف من نفسي والزهد فيما جاوز الكفاف واذا كان مثل الصديق رضي الله عنه في كمال حاله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك في أن فقد المال أصلح من وجوده هذا مع أن أحسن أحوال الغني أن يأخذ حلالا وينفق طيبا ومع ذلك فيطول حسابه في عرصات القيامة ويطول انتظاره ومن نوقش الحساب فقد عذب ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن الجنة اذ كان مشغولا بالحساب كما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه ما أحب أن لي حانوتا على باب المسجد ولا تخطئني فيه صلاة وذكر وأربح كل يوم خمسين دينارا وأتصدق بها في سبيل الله تعالى قيل وما تكره قال سوء الحساب ولذلك قال سفيان رحمه الله اختار الفقراء ثلاثة أشياء واختار الاغنياء ثلاثة أشياء اختار الفقراء راحة النفس وفراغ القلب وخفة الحساب واختار الاغنياء تعب النفس وشغل القلب وشدة الحساب وما ذكره ابن عطاء من ان الغنى وصف الحق فهو بذلك أفضل فهو صحيح ولكن اذا كان العبد غنيا عن وجود المال وعدمه جميعا بان يستوي عنده كلاهما فأما اذا كان غنيا بوجوده ومفتقرا الى بقائه فلا يضاهي غناه غنى الله تعالى لان الله تعالى غني بذاته لا بما يتصور زواله والمال

كان حسنا استبشروا وان كان غيرذلك قالوا اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا وهذه الاخبار والاقوال تدل على انها أعيان في الجسد وليست بمعان وأعراض (سئل) الواسطي لاي علة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم احلم الخلق قال لانه خلق روحه أولا فوقع له صحبة التمكين والاستقرار ألا تراه يقول كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد أي لم يكن روحا ولا جسدا وقال بعضهم الروح خلق من نور العزة وابليس من نار العزة ولهذا قال خلقتني من نار وخلقته من طين ولم يدر أن النور خير من النار فقال بعضهم قرن الله تعالى العلم بالروح فهي للطافتها تنمو بالعلم كما تنمو البدن بالغذاء وهذا في علم الله لان علم الخلق قليل لا يبلغ ذلك والمختار عند أكثر متكلمي الاسلام ان

يتصور زواله بان يسرق وماذكر من الرد عليه بان الله ليس غنيا بالاعراض والاسباب صحيح فى ذم غنى يريد بقاء المال وماذكر من ان صفات الحق لا تليق بالعبد غير صحيح بل العلم من صفاته وهو أفضل شئ للعبد بل منتهى العبد أن يتخلق باخلاق الله تعالى وقد سمعت بعض المشايخ يقول ان سالك الطريق الى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الاسماء التسعة والتسعون أوصافا له أى يكون له من كل واحد نصيب وأما التكبر فلا يليق بالعبد فان التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى وأما التكبر على من يستحقه كتكبر المؤمن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصى فيليق به نعم قد يراد بالتكبر الزهو والصلف والايذاء وليس ذلك من وصف الله تعالى وانما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شئ وأنه يعلم انه كذلك والعبد مامور بانه يطلب أعلى المراتب ان قدر عليه ولكن بالاستحقاق كما هو حقه لا بالباطل والتلبيس فعلى العبد أن يعلم أن المؤمن أكبر من الكافر والمطيع أكبر من العاصى والعالم أكبر من الجاهل والانسان أكبر من البهيمة والجماد والنبات وأقرب الى الله تعالى منها فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محققة لا شك فيها لكانت صفة التكبر حاصلة له ولائقة به وفضيلة فى حقه الا أنه لا سبيل له الى معرفته فان ذلك موقوف على الخاتمة وليس يدرى الخاتمة كيف تكون وكيف تتفق فلجهله بذلك وجب أن لا يعتقد لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر اذ ربما يختم للكافر بالايمان وقد يختم له بالكفر فلم يكن ذلك لائقا به لقصور علمه عن معرفة العاقبة ولما تصور أن يعلم الشئ على ما هو به كان العلم كمالا فى حقه لانه من صفات الله تعالى ولما كانت معرفة بعض الاشياء قد تضره صار ذلك العلم نقصانا فى حقه اذ ليس من أوصاف الله تعالى علم يضره فمعرفة الامور التى لا ضرر فيها هى التى تتصور فى العبد من صفات الله تعالى فلا جرم هو منتهى الفضيلة وبه فضل الانبياء والاولياء والعلماء فاذا استوى عنده وجود المال وعدمه فهذا نوع من الغنى يضاهى بوجه من الوجوه الغنى الذى يوصف به الله سبحانه فهو فضيلة اما الغنى بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلا فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع الى حال الغنى الشاكر *(المقام الثانى فى نسبة حال الفقير الحريص الى حال الغنى الحريص)* ولنفرض هذا فى شخص واحد هو طالب للمال وساع فيه وفاقد له ثم وجده فله حالة الفقد وحالة الوجود فاى حالتيه أفضل فنقول ننظر فان كان مطلوبه ما لا بد منه فى المعيشة وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه فحال الوجود أفضل لان الفقر يشغله بالطلب وطالب القوت لا يقدر على الفكر والذكر الا قدرة مدخولة بشغل والمكفى هو القادر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا وقال كاد الفقر أن يكون كفرا أى الفقر مع الاضطرار فيما لا بد منه وان كان المطلوب فوق الحاجة أو كان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين فحالة الفقر أفضل وأصلح لانهما استويا فى الحرص وحب المال واستويا فى أن كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق الدين واستويا فى أن كل واحد منهما ليس يتعرض لمعصية بسبب الفقر والغنى ولكن افترقا فى أن الواجد يأنس بما وجده فيتأكد حبه فى قلبه ويطمئن الى الدنيا والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا وتكون الدنيا عنده كالسجن الذى يبغى الخلاص منه ومهما استوت الامور كلها وخرج من الدنيا رجلان أحدهما أشد ركونا الى الدنيا فحاله أشد لا محالة اذ يلتفت قلبه الى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تأكد أنسه بالدنيا وقد قال صلى الله عليه وسلم ان روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فانك مفارقه وهذا تنبيه على ان فراق المحبوب شديد فينبغى أن تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى ولا تحب ما يفارقك وهو الدنيا فانك اذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه وفراقك لما تحبه وكل من فارق محبوبا فيكون أذاه فى فراقه بقدر حبه وقدر أنسه به وأنس الواجد للدنيا القادر عليها أكثر من أنس الفاقد لها وان كان حريصا عليها فاذا قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الاشرف والافضل والاصلح لكافة الخلق الا فى موضعين أحدهما غنى مثل غنى عائشة رضى الله عنها يستوى عنده الوجود والعدم فيكون الوجود مزيدا له اذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع هممهم والثانى الفقر عن مقدار الضرورة فان ذلك يكاد أن يكون كفرا ولا خير فيه بوجه من الوجوه الا اذا كان وجوده يبقى حياته ثم يستعين بقوته وحياته على الكفر والمعاصى ولو مات جوعا لكانت معاصيه أقل فالاصلح له أن يموت جوعا

الانسانية والحوانية عرضان خلقا فى الانسان والموت بعدهما وان الروح هى الحياة بعينها صار البدن بوجودها حيا وبالاعادة اليه فى القيامة يصير حيا وذهب بعض متكلمى الاسلام الى انه جسم لطيف مشتبك بالاجسام الكثيفة اشتباك الماء بالعود الاخضر وهو اختيار أبى المعالى الجوينى وكثير منهم مال الى انه عرض الا انه ردهم عن ذلك الاخبار الدالة على انه جسم لما ورد فيه من العروج والهبوط والتردد فى البرزخ فحيث وصف باوصاف دل على انه جسم لان العرض لا يوصف باوصاف اذ الوصف معنى والمعنى لا يقوم بالمعنى واختار بعضهم انه عرض (سئل) ابن عباس رضى الله عنهما قيل أين تذهب الارواح عند مفارقة الابدان فقال أين يذهب ضوء المصباح

ولا يجد ما يضطر اليه أيضا فهذا تفصيل القول فى الغنى والفقر ويبقى النظر فى فقير حريص متكالب على طلب المال ليس له هم سواه وفى غنى دونه فى الحرص على حفظ المال ولم يكن تفجعه بفقد المال لو فقده كتفجع الفقير بفقره فهذا فى محل النظر والاظهر أن بعدهما عن الله تعالى بقدر قوة تفجعهما لفقد المال وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقده والعلم عند الله تعالى فيه

(بيان آداب الفقير فى فقره)

اعلم أن للفقير آدابا فى باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغى أن يراعيها فأما أدب باطنه فان لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر أعنى انه لا يكون كارها فعل الله تعالى من حيث انه فعله وان كان كارها للفقر كالمحجوم يكون كارها للحجامة لتألمه بها ولا يكون كارها فعل الحجام ولا كارها للحجام بل ربما يتقلد منه منة فهذا أقل درجاته وهو واجب ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر وهو معنى قوله عليه السلام يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم والا فلا وارفع من هذا أن لا يكون كارها للفقر بل يكون راضيا به وارفع منه أن يكون طالبا له وفرحا به لعلمه بغوائل الغنى ويكون متوكلا فى باطنه على الله تعالى واثقا به فى قدر ضرورته انه يأتيه لا محالة ويكون كارها للزيادة على الكفاف وقد قال على كرم الله وجهه ان لله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر فمن علامات الفقر اذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع به ربه ولا يشكو حاله ويشكر الله تعالى على فقره ومن علاماته اذا كان عقوبة أن يسوء عليه خلقه ويعصى ربه بترك طاعته ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء وهذا يدل على أن كل فقير فليس بمحمود بل الذى لا يتسخط ويرضى أو يفرح بالفقر ويرضى لعلمه بثمرته اذ قيل ما أعطى عبد شيأ من الدنيا الا قيل له خذه على ثلاثة أثلاث شغل وهم وطول حساب وأما أدب ظاهره فأن يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر بل يستر فقره ويستر انه يستره ففى الحديث ان الله تعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال وقال تعالى يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف وقال سفيان فضل الاعمال التجمل عند المحنة وقال بعضهم ستر الفقر من كنوز البر وأما فى أعماله فأدبه ان لا يتواضع لغنى لاجل غناه بل يتكبر عليه قال على كرم الله وجهه ما أحسن تواضع الغنى للفقير رغبة فى ثواب الله تعالى وأحسن منه تيه الفقير على الغنى ثقة بالله عز وجل فهذه رتبة وأقل منها ان لا يخالط الاغنياء ولا يرغب فى مجالستهم لان ذلك من مبادى الطمع قال الثورى رحمه الله اذا خالط الفقير الاغنياء فاعلم انه مراء واذا خالط السلطان فاعلم انه لص وقال بعض العارفين اذا خالط الفقير الاغنياء انحلت عروته فاذا طمع فيهم انقطعت عصمته فاذا سكن اليهم ضل وينبغى أن لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للاغنياء وطمعا فى العطاء وأما أدبه فى افعاله فان لا يفتر بسبب الفقر عن عبادة ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه فان ذلك جهد المقل وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى روى زيد بن أسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم قيل وكيف ذلك يا رسول الله قال أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف درهم فتصدق بها وأخرج رجل درهما من درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب المائة ألف وينبغى أن لا يدخر مالا بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقى وفى الادخار ثلاث درجات احداها ان لا يدخر الا ليومه وليلته وهى درجة الصديقين والثانية ان يدخر لاربعين يوما فان ما زاد عليه داخل فى طول الامل وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام ففهم منه الرخصة فى أمل الحياة أربعين يوما وهذه درجة المتقين والثالثة ان يدخر لسنته وهى أقصى المراتب وهى رتبة الصالحين ومن زاد فى الادخار على هذا فهو واقع فى غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية فغنى الصالح الضعيف فى طمأنينة قلبه فى قوت سنته وغنى الخصوص فى أربعين يوما وغنى خصوص الخصوص فى يوم وليلة وقد قسم النبى صلى الله عليه وسلم نساءه على مثل هذه الاقسام فبعضهن كان يعطيها قوت سنة عند حصول ما يحصل وبعضهن قوت أربعين يوما وبعضهن يوما وليلة وهو قسم عائشة وحفصة

(بيان آداب الفقير فى قبول العطاء اذا جاءه بغير سؤال)

ينبغى أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور نفس المال وغرض المعطى وغرضه فى الاخذ أما نفس المال فينبغى أن يكون حلالا خاليا عن الشبهات كلها فان كان فيه شبهة فليحترز من أخذه وقد ذكرنا فى كتاب الحلال والحرام

عند فناء الادهان قيل له فاين تذهب الجسوم اذا بليت قال فاين يذهب لحمها اذا مرضت وقال بعض من يتهم بالعلوم المردودة المذمومة وينسب الى الاسلام الروح تنفصل من البدن فى جسم لطيف وقال بعضهم انها اذا فارقت البدن تحل معها القوة الوهمية بتوسط النطقية فتكون حينئذ مطالعة للمعانى والمحسوسات لان تجردها من هيآت البدن عند المفارقة غير ممكن وهى عند الموت شاعرة بالموت وبعد الموت متخلية بنفسها مقبورة وتتصور جميع ما كانت تعتقده حال الحياة وتحس بالثواب والعقاب فى القبر وقال بعضهم أسلم المقالات أن يقال الروح شئ مخلوق أجرى الله تعالى العادة أن يحيى البدن مادام متصلا به وانه أشرف من الجسد يذوق الموت بمفارقة الجسد

درجات الشبهة وما يجب اجتنابه وما يستحب وأما غرض المعطى فلا يخلو اما أن يكون غرضه تطييب قلبه وطلب محبته وهو الهدية أو الثواب وهو الصدقة والزكاة أو الذكر والرياء والسمعة اما على التجرد واما ممزوجا ببقية الاغراض أما الاول وهو الهدية فلا بأس بقبولها فان قبولها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منة فان كان فيها منة فالاولى تركها فان علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض فقد أهدى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم سمن وأقط وكبش فقبل السمن والاقط ورد الكبش وكان صلى الله عليه وسلم يقبل من بعض الناس ويرد على بعض وقال لقد هممت أن لا أتهب الا من قرشي أو ثقفي أو انصاري أو دوسي وفعل هذا جماعة من التابعين وجاءت الى فتح الموصلي صرة فيها خمسون درهما فقال حدثنا عطاء عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من أتاه رزق من غير مسألة فرده فانما يرده على الله ثم فتح الصرة فاخذ منها درهما ورد سائرها وكان الحسن يروي هذا الحديث أيضا ولكن حمل اليه رجل كيسا ورزمة من رقيق ثياب خراسان فرد ذلك وقال من جلس مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق وهذا يدل على أن أمر العالم والواعظ أشد في قبول العطاء وقد كان الحسن يقبل من أصحابه وكان ابراهيم التيمي يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ويعرض عليه غيرهم المئين فلا يأخذها وكان بعضهم اذا أعطاه صديقه شيأ يقول اتركه عندك وانظر ان كنت بعد قبوله في قلبك أفضل مني قبل القبول فاخبرني حتى آخذه والا فلا وأمارة هذا أن يشق عليه الرد لو رده ويفرح بالقبول ويرى المنة على نفسه في قبول صديقه هديته فان علم انه يمازجه منة فاخذه مباح ولكنه مكروه عند الفقراء الصادقين وقال بشر ما سألت أحدا قط شيأ الا سريا السقطي لانه قد صح عندي زهده في الدنيا فهو يفرح بخروج الشئ من يده ويتبرم ببقائه عنده فاكون عونا له على ما يحب وجاء خراساني الى الجنيد رحمه الله بمال وسأله أن يأكله فقال أفرقه على الفقراء فقال ما أريد هذا قال ومتى أعيش حتى آكل هذا قال ما أريد أن تنفقه في الخل والبقل بل في الحلاوات والطيبات فقبل ذلك منه فقال الخراساني ما أجد في بغداد أمن علي منك فقال الجنيد ولا ينبغي أن يقبل الا من مثلك * الثاني أن يكون للثواب المجرد وذلك صدقة أو زكاة فعليه أن ينظر في صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة فان اشتبه عليه فهو محل شبهة وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب أسرار الزكاة وان كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فلينظر الى باطنه فان كان مقارفا لمعصية في السر يعلم أن المعطي لو علم ذلك لنفر طبعه ولما تقرب الى الله بالتصدق عليه فهذا حرام أخذه كما لو أعطاه لظنه انه عالم أو علوي ولم يكن فان أخذه حرام محض لا شبهة فيه * الثالث أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله اذ يكون معينا له على غرضه الفاسد وكان سفيان الثوري يرد ما يعطى ويقول لو علمت انهم لا يذكرون ذلك افتخارا به لاخذت وعوتب بعضهم في رد ما كان يأتيه من صلة فقال انما أرد صلتهم اشفاقا عليهم ونصحا لهم لانهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط أجورهم * وأما غرضه في الاخذ فينبغي أن ينظر أهو محتاج اليه فيما لا بد له منه أو هو مستغن عنه فان كان محتاجا اليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطي فالافضل له الاخذ قال النبي صلى الله عليه وسلم ما المعطي من سعة باعظم أجرا من الآخذ اذا كان محتاجا وقال صلى الله عليه وسلم من أتاه شئ من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فانما هو رزق ساقه الله اليه وفي لفظ آخر فلا يرده وقال بعض العلماء من أعطي ولم يأخذ سأل ولم يعط وقد كان سري السقطي يوصل الى أحمد بن حنبل رحمة الله عليهما شيأ فرده مرة فقال له السري يا أحمد احذر آفة الرد فانها أشد من آفة الاخذ فقال له أحمد أعد علي ما قلت فاعاده فقال أحمد ما رددت عليك الا لان عندي قوت شهر فاحبسه لي عندك فاذا كان بعد شهر فانفذه الي وقد قال بعض العلماء يخاف في الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول في شبهة أو غيره فاما اذا كان ما أتاه زائدا على حاجته فلا يخلو اما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه والتكفل بامور الفقراء والانفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء فان كان مشغولا بنفسه فلا وجه لاخذه وامساكه ان كان طالبا طريق الآخرة فان ذلك محض اتباع الهوى وكل عمل ليس لله فهو في سبيل الشيطان أو داع اليه ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ثم له مقامان أحدهما ان يأخذ في العلانية ويرد في السر أو يأخذ في العلانية

كما ان الجسد بمفارقته يذوق الموت فان الكيفية والماهية يتعاشى العقل فيهما كما يتعاشى البصر في شعاع الشمس واما رأى المتكلمون انه يقال لهم الموجودات محصورة قديم وجسم وجوهر وعرض فالروح من أي هؤلاء فاختار قوم منهم انه عرض وقوم منهم انه جسم لطيف كما ذكرنا واختار قوم انه قديم لانه أمر والامر كلام والكلام قديم فما أحسن الامساك عن القول فيما هذا سبيله وكلام الشيخ أبي طالب المكي في كتابه يدل على انه يميل الى أن الارواح أعيان في الجسد وهكذا النفوس لانه يذكران الروح تتحرك للخير ومن حركتها يظهر نور في القلب يراه الملك فيلهم الخير عند ذلك وتتحرك للشر ومن حركتها تظهر ظلمة في القلب فيرى الشيطان الظلمة فيقبل بالاغواء

ويفرق

و يفرق فى السر وهذا مقام الصديقين وهو شاق على النفس لا يطيقه الا من اطمأنت نفسه بالرياضة والثانى ان يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه الى من هو أحوج منه أو يأخذ و يوصل الى من هو أحوج منه فيفعل كليهما فى السر أو كليهما فى العلانية وقد ذكرنا هل الافضل اظهار الاخذ أو اخفاؤه فى كتاب أسرار الزكاة مع جملة من أحكام الفقر فليطلب من موضعه وأما امتناع أحمد بن حنبل عن قبول عطاء سرى السقطى رحمهما الله فانما كان لاستغنائه عنه اذ كان عنده قوت شهر ولم يرض لنفسه ان يشتغل بأخذه وصرفه الى غيره فان فى ذلك آفات واخطارا والورع يكون حذرا من مظان الآفات اذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه وقال بعض المجاورين بمكة كانت عندى دراهم أعددتها للانفاق فى سبيل الله فسمعت فقيرا قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفى أنا جائع كما ترى عريان كما ترى فما ترى فيما ترى يامن يرى ولا يرى فنظرت فاذا عليه خلقان لا تكاد توارية فقلت فى نفسى لا أجد لدراهمى موضعا أحسن من هذا فحملتها اليه فنظر اليها ثم أخذ منها خمسة دراهم وقال أربعة ثمن مئزرين ودرهم أنفقه ثلاثا فلا حاجة بى الى الباقى فرده قال فرأيته الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان فهجس فى نفسى منه شئ فالتفت الى فأخذ بيدى فأطافنى معه أسبوعا كل شوط منها على جوهر من معادن الارض يتخشخش تحت أقدامنا الى الكعبين منها ذهب وفضة و ياقوت ولؤلؤ وجوهر ولم يظهر ذلك للناس فقال هذا كله قد أعطانيه فزهدت فيه وآخذ من أيدى الخلق لان هذه أثقال وفتنة وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة والمقصود من هذا ان الزيادة على قدر الحاجة انما تأتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله اليك ماذا تعمل فيه وقدر الحاجة يأتيك رفقا بك فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء قال الله تعالى انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا وقد قال صلى الله عليه وسلم لاحق لابن آدم الا فى ثلاث طعام يقيم صلبه وثوب يوارى عورته وبيت يكنه فما زاد فهو حساب فاذا أنت فى أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب وفيما زاد عليه ان لم تعص الله متعرض للحساب وان عصيت الله فانت متعرض للعقاب ومن الاختبار أيضا ان تعزم على ترك لذة من اللذات تقربا الى الله تعالى وكسرا لصفة النفس فتأتيك عفوا صفوا لتمتحن بها قوة عقلك فالاولى الامتناع عنها فان النفس اذا رخص لها فى نقض العزم ألفت نقض العهد وعادت لعادتها ولا يمكن قهرها فرد ذلك مهم وهو الزهد فان أخذته وصرفته الى محتاج فهو غاية الزهد ولا يقدر عليه الا الصديقون وأما اذا كان حالك السخاء والبذل والتكفل بحقوق الفقراء وتعهد جماعة من الصلحاء فخذ ما زاد على حاجتك فانه غير زائد على حاجة الفقراء و بادر به الى الصرف اليهم ولا تدخره فان امساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار فربما يحلو فى قلبك فتمسكه فيكون فتنة عليك * وقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة الى التوسع فى المال والتنعم فى المطعم والمشرب وذلك هو الهلاك ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب به فله أن يستقرض على حسن الظن بالله لا على اعتماد السلاطين الظلمة فان رزقه الله من حلال قضاه وان مات قبل القضاء قضاه الله تعالى عنه وأرضى غرماءه وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يغر المقرض ولا يخدعه بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على اقراضه على بصيرة ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ومن الزكاة وقد قال تعالى ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله قيل معناه ليبع أحد ثوبيه وقيل معناه فليستقرض بجاهه فذلك مما آتاه الله وقال بعضهم ان لله تعالى عبادا ينفقون على قدر بضائعهم ولله عباد ينفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى ومات بعضهم فأوصى بماله لثلاث طوائف الاقوياء والاسخياء والاغنياء فقيل من هؤلاء فقال أما الاقوياء فهم أهل التوكل على الله تعالى وأما الاسخياء فهم أهل حسن الظن بالله تعالى وأما الاغنياء فهم أهل الانقطاع الى الله تعالى فاذا مهما وجدت هذه الشروط فيه وفى المال وفى المعطى فليأخذه و ينبغى أن يرى ما يأخذه من الله لا من المعطى لان المعطى واسطة قد سخر للعطاء وهو مضطر اليه بما سلط عليه من الدواعى والارادات والاعتقادات * وقد حكى ان بعض الناس دعا شقيقا فى خمسين من أصحابه فوضع الرجل مائدة حسنة فلما قعد قال لاصحابه ان هذا الرجل يقول من لم يرنى صنعت هذا الطعام وقدمته فطعامى عليه حرام فقاموا كلهم وخرجوا الا شابا منهم كان دونهم فى الدرجة فقال صاحب المنزل لشقيق ما قصدت بهذا قال أردت أن أختبر توحيد أصحابى كلهم وقال موسى عليه

وحيث وجدت أقوال المشايخ تشير الى الروح (أقول) ماعندى فى ذلك على معنى ماذكرت من التاويل دون أن أقطع به اذ ميلى فى ذلك الى السكوت والامساك فاقول والله أعلم الروح الانسانى العلوى السماوى من عالم الامر والروح الحيوانى البشرى من عالم الخلق والروح الحيوانى البشرى محل الروح العلوى ومورده والروح الحيوانى جسمانى لطيف حامل لقوة الحس والحركة ينبعث من القلب أعنى بالقلب ههنا المضغة اللحمية المعروفة الشكل المودعة فى الجانب الايسر من الجسد و ينتشر فى تجاويف العروق الضوارب وهذه الروح لسائر الحيوانات ومنه تفيض قوى الحواس وهو الذى قوامه باجراء سنة الله بالغذاء غالبا و يتصرف بعلم الطب فيه باعتدال مزاج الاخلاط ولورود

السلام يارب جعلت رزقي هكذا على أيدي بني اسرائيل يغدبني هذا يوما ويعشيني هذا ليلة فأوحى الله تعالى اليه هكذا أصنع بأوليائي اجري أرزاقهم على أيدي البطالين من عبادي ليؤجروا فيهم فلا ينبغي أن يرى المعطى الا من حيث انه مسخر مأجور من الله تعالى نسأل الله حسن التوفيق لما يرضاه

(بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطر فيه)

اعلم انه قد وردت مناه كثيرة في السؤال وتشديدات وورد فيه أيضا ما يدل على الرخصة اذ قال صلى الله عليه وسلم للسائل حق ولو جاء على فرس وفي الحديث ردوا السائل ولو بظلف محرق ولو كان السؤال حراما مطلقا لما جاز اعانة المتعدي على عدوانه والاعطاء اعانة فالكاشف للغطاء فيه ان السؤال حرام في الاصل وانما يباح بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة فان كان عنها بد فهو حرام وانما قلنا ان الاصل فيه التحريم لانه لا ينفك عن ثلاثة أمور محرمة * الاول اظهار الشكوى من الله تعالى اذ السؤال اظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنه وهو عين الشكوى وكما أن العبد المملوك لو سأل لكان سؤاله تشنيعا على سيده فكذلك سؤال العباد تشنيع على الله تعالى وهذا ينبغي أن يحرم ولا يحل الا لضرورة كما تحل الميتة * الثاني أن فيه اذلال السائل نفسه لغير الله تعالى وليس للمؤمن ان يذل نفسه لغير الله بل عليه ان يذل نفسه لمولاه فان فيه عزه فاما سائر الخلق فانهم عباد أمثاله فلا ينبغي أن يذل لهم الا لضرورة وفي السؤال ذل السائل بالاضافة الى المسؤل * الثالث انه لا ينفك عن ايذاء المسؤل غالبا لانه ربما لا تسمح نفسه بالبذل عن طيب قلب منه فان بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ وان منع ربما استحيا وتأذى في نفسه بالمنع اذ يرى نفسه في صورة البخلاء ففي البذل نقصان ماله وفي المنع نقصان جاهه وكلاهما مؤذيان والسائل هو السبب في الايذاء والايذاء حرام الا بضرورة ومهما فهمت هذه المحذورات الثلاث فقد فهمت قوله صلى الله عليه وسلم مسألة الناس من الفواحش ما أحل من الفواحش غيرها فانظر كيف سماها فاحشة ولا يخفى أن الفاحشة انما تباح لضرورة كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيره وقال صلى الله عليه وسلم من سأل عن غنى فانما يستكثر من جمر جهنم ومن سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ووجهه عظم يتقعقع وليس عليه لحم وفي لفظ آخر كانت مسألته خدوشا وكدوحا في وجهه وهذه الالفاظ صريحة في التحريم والتشديد وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما على الاسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفيفة ولا تسألوا الناس شيأ وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كثيرا بالتعفف عن السؤال ويقول من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله وقال من لم يسألنا فهو أحب الينا وقال صلى الله عليه وسلم استعفوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير قالوا ومنك يارسول الله قال ومني وسمع عمر رضي الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب فقال لواحد من قومه عش الرجل فعشاه ثم سمعه ثانيا يسأل فقال ألم أقل لك عش الرجل قال قد عشيته فنظر عمر فاذا تحت يده مخلاة مملوأة خبزا فقال لست سائلا ولكنك تاجر ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدي ابل الصدقة وضربه بالدرة وقال لا تعد ولولا أن سؤاله كان حراما لما ضربه ولا أخذ مخلاته ولعل الفقيه الضعيف المنة الضيق الحوصلة يستبعد هذا من فعل عمر ويقول أما ضربه فهو تأديب وقد ورد الشرع بالتعزير وأما أخذ ماله فهو مصادرة والشرع لم يرد بالعقوبة بأخذ المال فكيف استجازه وهو استبعاد مصدره القصور في الفقه فاين يظهر فقه الفقهاء كلهم في حوصلة عمر بن الخطاب رضي الله عنه واطلاعه على أسرار دين الله ومصالح عباده أفترى انه لم يعلم أن المصادرة بالمال غير جائزة أو علم ذلك ولكن اقدم عليه غضبا في معصية الله وحاشاه أو أراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعها نبي الله وهيهات فان ذلك أيضا معصية بل الفقه الذي لاح له فيه انه رآه مستغنيا عن السؤال وعلم ان من أعطاه شيأ فانما أعطاه على اعتقاد أنه محتاج وقد كان كاذبا فلم يدخل في ملكه بأخذه مع التلبيس وعسر تمييز ذلك ورده الى اصحابه اذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم فبقي مالا لا مالك له فوجب صرفه الى المصالح وابل الصدقة وعلفها من المصالح ويتنزل أخذ السائل مع اظهار الحاجة كاذبا كأخذ العلوي بقوله اني علوي وهو كاذب فانه لا يملك ما يأخذه وكأخذ الصوفي الصالح الذي يعطى لصلاحه وهو في الباطن مقارف لمعصية لو عرفها المعطي لما أعطاه وقد ذكرنا في مواضع ان ما أخذوه على هذا الوجه لا يملكونه وهو حرام عليهم ويجب عليهم الرد الى مالكه فاستدل بفعل عمر رضي الله عنه على صحة هذا المعنى الذي يغفل عنه كثير من الفقهاء وقد قررناه في مواضع ولا تستدل بغفلتك عن

الروح الانساني العلوي على هذا الروح تجنس الروح الحيواني وباين أرواح الحيوانات واكتسب صفة أخرى فصار نفسا محلا للنطق والالهام قال الله تعالى ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها فتسويتها بورود الروح الانساني عليها وانقطاعها عن جنس أرواح الحيوانات فتكونت النفس بتكوين الله تعالى من الروح العلوي وصار تكون النفس التي هي الروح الحيواني من الآدمي من الروح العلوي في عالم الامر كتكون حواء من آدم في عالم الخلق وصار بينهما من التآلف والتعاشق كما بين آدم وحواء وصار كل واحد منهما يذوق الموت بمفارقة صاحبه قال الله تعالى وجعل منها زوجها ليسكن اليها فسكن آدم الى حواء وسكن الروح الانساني العلوي الى الروح

هذا الفقه على بطلان فعل عمر فاذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة فاعلم ان الشئ اما أن يكون مضطرا اليه أو محتاجا اليه حاجة مهمة أو حاجة خفيفة أو مستغنى عنه فهذه أربعة أحوال أما المضطر اليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتا أو مرضا وسؤال العارى وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط فى المسؤل بكونه مباحا والمسؤل منه بكونه راضيا فى الباطن وفى السائل بكونه عاجزا عن الكسب فان القادر على الكسب وهو بطال ليس له السؤال الا اذا استغرق طلب العلم أوقاته وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة وأما المستغنى فهو الذى يطلب شيأ وعنده مثله وأمثاله فسؤاله حرام قطعا وهذان طرفان واضحان وأما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض الذى يحتاج الى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكن لا يخلو عن خوف وكمن له جبة لا قميص تحتها فى الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذيا لا ينتهى الى حد الضرورة وكذلك من يسأل لاجل الكراء وهو قادر على المشى بمشقة فهذا أيضا ينبغى أن تسترسل عليه الاباحة لانها أيضا حاجة محققة ولكن الصبر عنه أولى وهو بالسؤال تارك للاولى ولا يسمى سؤاله مكروها مهما صدق فى السؤال وقال ليس تحت جبتى قميص والبرد يؤذينى أذى أطيقه ولكن يشق على فاذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله ان شاء الله تعالى وأما الحاجة الخفيفة فمثل سؤاله قميصا ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستر الخروق من ثيابه عن أعين الناس وكمن يسأل لاجل الادم وهو واجد للخبز وكمن يسأل الكراء لفرس فى الطريق وهو واجد كراء الحمار أو يسأل كراء المحمل وهو قادر على الراحلة فهذا ونحوه ان كان فيه تلبيس حال باظهار حاجة غير هذه فهو حرام وان لم يكن وكان فيه شئ من المحذورات الثلاثة من الشكوى والذل وايذاء المسؤل فهو حرام لان مثل هذه الحاجة لا تصلح لان تباح بها هذه المحذورات وان لم يكن فيها شئ من ذلك فهو مباح مع الكراهة فان قلت فكيف يمكن اخلاء السؤال عن هذه المحذورات فاعلم أن الشكوى تندفع بان يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ولا يسأل سؤال محتاج ولكن يقول أنا مستغن بما أملكه ولكن تطالبنى رعونة النفس بثوب فوق ثيابى وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس فيخرج به عن حد الشكوى وأما الذل فبان يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذى يعلم انه لا ينقصه ذلك فى عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله أو الرجل السخى الذى قد أعد ماله لمثل هذه المكارم فيفرح بوجود مثله ويتقلد منه منة بقبوله فيسقط عنه الذل بذلك فان الذل لازم للمنة لا محالة وأما الايذاء فسبيل الخلاص عنه أن لا يعين شخصا بالسؤال بعينه بل يلقى الكلام عرضا بحيث لا يقدم على البذل الا متبرع بصدق الرغبة وان كان فى القوم شخص مرموق لو لم يبذل لكان يلام فهذا ايذاء فانه ربما يبذل كرها خوفا من الملامة ويكون الاحب اليه فى الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير الملامة وأما اذا كان يسأل شخصا معينا فينبغى ان لا يصرح بل يعرض تعريضا يبقى له سبيلا الى التغافل ان أراد فاذا لم يتغافل مع القدرة عليه فذلك لرغبته وانه غير متأذ به وينبغى أن يسأل من لا يستحيى منه لو رده أو تغافل عنه فان الحياء من السائل يؤذى كما ان الرياء مع غير السائل يؤذى فان قلت فاذا أخذ مع العلم بان باعث المعطى هو الحياء منه أو من الحاضرين ولولاه لما ابتدأه به فهل هو حلال أو شبهة فاقول ذلك حرام محض لا خلاف فيه بين الامة وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والمصادرة اذ لا فرق بين أن يضرب ظاهر جلده بسياط الخشب أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف الملام وضرب الباطن أشد نكاية فى قلوب العقلاء ولا يجوز أن يقال هو فى الظاهر قد رضى به وقد قال صلى الله عليه وسلم انما أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر فان هذه ضرورة القضاة فى فصل الخصومات اذ لا يمكن ردهم الى البواطن وقرائن الاحوال فاضطروا الى الحكم بظاهر القول باللسان مع انه ترجمان كثير الكذب ولكن الضرورة دعت اليه وهذا سؤال عما بين العبد وبين الله تعالى والحاكم فيه أحكم الحاكمين والقلوب عنده كالالسنة عند سائر الحكام فلا تنظر فى مثل هذا الا الى قلبك وان أفتوك وأفتوك فان المفتى معلم للقاضى والسلطان ليحكموا فى عالم الشهادة ومفتى القلوب هم علماء الآخرة وبفتواهم النجاة من سطوة سلطان الآخرة كما ان بفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا فاذا ما أخذه مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ويجب عليه رده الى صاحبه فان كان يستحيى من أن يسترده ولم يسترده فعليه أن يثيبه على ذلك بما يساوى قيمته فى معرض الهدية والمقابلة ليتفصى

الحيوانى وصيره نفسا وتكون من سكون الروح الى النفس القلب وأعنى بهذا القلب اللطيفة التى محلها المضغة اللحمية فالمضغة اللحمية من عالم الخلق وهذه اللطيفة من عالم الامر وكان تكون القلب من الروح والنفس فى عالم الامر كتكون الذرية من آدم وحواء فى عالم الخلق ولولا المساكنة بين الزوجين اللذين أحدهما النفس ما تكون القلب فمن القلوب قلب متطلع الى الاب الذى هو الروح العلوى ميال اليه وهو القلب المؤيد الذى ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه حذيفة رضى الله عنه قال القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب مربوط على غلافه

عن عهدته فان لم يقبل هديته فعليه ان يرد ذلك الى ورثته فان تلف في يده فهو مضمون عليه بينه و بين الله تعالى وهو عاص بالتصرف فيه و بالسؤال الذى حصل به الاذى فان قلت فهذا أمر باطن يعسر الاطلاع عليه فكيف السبيل الى الخلاص منه فربما يظن السائل انه راض ولا يكون هو فى الباطن راضيا فاقول لهذا ترك المتقون السؤال رأسا فما كانوا يأخذون من أحد شيأ أصلا فكان بشر لا يأخذ من أحد أصلا الا من السرى رحمة الله عليهما وقال لانى علمت أنه يفرح بخروج المال من يده فانا أعينه على ما يحب وانما عظم النكير فى السؤال وتأكد الامر بالتعفف لهذا لان الاذى انما يحل بضرورة وهو ان يكون السائل مشرفا على الهلاك ولم يبق له سبيل الى الخلاص ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى فيباح له ذلك كما يباح له أكل لحم الخنزير وأكل لحم الميتة فكان الامتناع طريق الورعين ومن أرباب القلوب من كان واثقا ببصيرته فى الاطلاع على قرائن الاحوال فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض ومنهم من كان لا يأخذ الا من أصدقائه ومنهم من كان يأخذ مما يعطى بعضا ويرد بعضا كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الكبش والسمن والاقط وكان هذا فيما يأتيهم من غير سؤال فان ذلك لا يكون الا عن رغبة ولكن قد تكون رغبته طمعا فى جاه أو طلبا للرياء والسمعة فكانوا يحترزون من ذلك فاما السؤال فقد امتنعوا عنه رأسا الا فى موضعين أحدهما الضرورة فقد سال ثلاثة من الانبياء فى موضع الضرورة سليمان وموسى والخضر عليهم السلام ولا شك فى انهم ما سالوا الا من علموا انه يرغب فى اعطائهم والثانى السؤال من الاصدقاء والاخوان فقد كانوا يأخذون مالهم بغير سؤال واستئذان لان أرباب القلوب علموا ان المطلوب رضا القلب لا نطق اللسان وكانوا قد وثقوا باخوانهم انهم كانوا يفرحون بمباسطتهم فاذا كانوا يسالون الاخوان عند شكهم فى اقتدار اخوانهم على ما يريدونه والا فكانوا يستغنون عن السؤال وحد اباحة السؤال ان تعلم أن المسؤل بصفة لو علم ما بك من الحاجة لابتدأك دون السؤال فلا يكون لسؤالك تأثير الا فى تعريف حاجتك فاما فى تحريكه بالحياء واثارة داعيته بالحيل فلا ويتصدى للسائل حالة لا يشك فيها فى الرضا بالباطن وحالة لا يشك فى الكراهة ويعلم ذلك بقرينة الاحوال فالاخذ فى الحالة الاولى حلال طلق وفى الثانية حرام سحت ويتردد بين الحالتين أحوال يشك فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب فانه الاثم وليدع ما يريبه الى ما لا يريبه وادراك ذلك بقرائن الاحوال سهل على من قويت فطنته وضعف حرصه وشهوته فان قوى الحرص وضعفت الفطنة تراءى له ما يوافق غرضه فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة وبهذه الدقائق يطلع على سر قوله صلى الله عليه وسلم ان أطيب ما أكل الرجل من كسبه وقد أوتى جوامع الكلم لان من لا كسب له ولا مال ورثه من كسب أبيه أو أحد قرابته فيأكل من أيدى الناس وان أعطى بغير سؤال فانما يعطى بدينه ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بدينه فيكون ما يأخذه حراما وان أعطى بسؤال فاين من يطيب قلبه بالعطاء اذا سئل وأين من يقتصر فى السؤال على حد الضرورة فاذا فتشت أحوال من يأكل من أيدى الناس علمت ان جميع ما يأكله أو أكثره سحت وان الطيب هو الكسب الذى اكتسبته حلالا أنت أو مورثك فاذا بعيد أن يجتمع الورع مع الاكل من أيدى الناس فنسال الله تعالى ان يقطع طمعنا عن غيره وان يغنينا بحلاله عن حرامه وبفضله عمن سواه بمنه وسعة جوده فانه على ما يشاء قدير

﴿ بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال ﴾

اعلم ان قوله صلى الله عليه وسلم من سال عن ظهر غنى فانما يسال جمرا فليستقل منه أو ليستكثر صريح فى التحريم ولكن حد الغنى مشكل وتقديره عسير وليس الينا وضع المقادير بل يستدرك ذلك بالتوقيف وقد ورد فى الحديث استغنوا بغنى الله تعالى عن غيره قالوا وما هو قال غداء يوم وعشاء ليلة وفى حديث آخر من سال وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب فقد سال الحافا وورد فى لفظ آخر أربعون درهما ومهما اختلفت التقديرات وصحت الاخبار فينبغى ان يقطع بورودها على أحوال مختلفة فان الحق فى نفسه لا يكون الا واحدا والتقدير ممتنع وغاية الممكن فيه تقريب ولا يتم ذلك الا بتقسيم محيط باحوال المحتاجين فنقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا حق لابن آدم الا فى ثلاث طعام يقيم صلبه وثوب يوارى به عورته وبيت يكنه فما زاد فهو حساب فلنجعل هذه الثلاث أصلا فى الحاجات لبيان أجناسها والنظر فى الاجناس والمقادير والاوقات فاما الاجناس فهى هذه الثلاث ويلحق بها ما فى

فذلك قلب المنافق وقلب مصفح فيه ايمان ونفاق فمثل الايمان فيه مثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فاى المادتين غلبت عليه حكم له بها والقلب المنكوس ميال الى الام التى هى النفس الامارة بالسوء ومن القلوب قلب متردد فى ميله اليها وبحسب غلبة ميل القلب يكون حكمه من السعادة والشقاوة والعقل جوهر الروح العلوى ولسانه والدال عليه وتدبيره للقلب المؤيد والنفس الزكية المطمئنة تدبير الوالد للولد البار والزوج للزوجة الصالحة وتدبيره للقلب المنكوس والنفس الامارة بالسوء تدبير الوالد للولد العاق والزوج للزوجة السيئة فمنكوس من وجه ومنجذب الى تدبيرهما من وجه اذ

معناها حتى يلحق بها الكراء للمسافر اذا كان لا يقدر على المشي وكذلك ما يجري مجراه من المهمات ويلحق بنفسه عياله وولده وكل من تحت كفالته كالدابة أيضا وأما المقادير فالثوب يراعى فيه ما يليق بذوي الدين وهو ثوب واحد وقميص ومنديل وسراويل ومداس وأما الثاني من كل جنس فهو مستغن عنه وليقس على هذا اثاث البيت جميعا ولا ينبغي ان يطلب رقة الثياب وكون الاواني من النحاس والصفر فيما يكفي فيه الخزف فان ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد ومن النوع على أخس أجناسه ما لم يكن في غاية البعد عن العادة وأما الطعام فقدره في اليوم مد وهو ما قدره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير والادم على الدوام فضله وقطعه بالكلية اضرار ففي طلبه في بعض الاحوال رخصة وأما المسكن فاقله ما يجزئ من حيث المقدار وذلك من غير زينة فاما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى وأما بالاضافة الى الاوقات فما يحتاج اليه في الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه ومأوى يكنه فلا شك فيه فاما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات احداها ما يحتاج اليه في غد والثانية ما يحتاج اليه في أربعين يوما أو خمسين يوما والثالثة ما يحتاج اليه في السنة ولنقطع بان من معه ما يكفيه له ولعياله ان كان له عيال لسنة فسؤاله حرام فان ذلك غاية الغنى وعليه ينزل التقدير بخمسين درهما في الحديث فان خمسة دنانير تكفي المنفرد في السنة اذا اقتصد أما المعيل فربما لا يكفيه ذلك وان كان يحتاج اليه قبل السنة فان كان قادرا على السؤال ولا تفوته فرصته فلا يحل له السؤال لانه مستغن في الحال وربما لا يعيش الى الغد فيكون قد سأل ما لا يحتاج فيكفيه غداء يوم وعشاء ليلة وعليه ينزل الخبر الذي ورد في التقدير بهذا القدر وان كان يفوته فرصة السؤال ولا يجد من يعطيه لو أخر فيباح له السؤال لان أمل البقاء سنة غير بعيد فهو بتأخير السؤال خائف ان يبقى مضطرا عاجزا عما يعينه فان كان خوف العجز عن السؤال في المستقبل ضعيفا وكان ما لاجله السؤال خارجا عن محل الضرورة لم يخل سؤاله عن كراهية وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطرار وخوف الفوت وتراخي المدة التي فيها يحتاج الى السؤال وكل ذلك لا يقبل الضبط وهو منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى فيستفتي فيه قلبه ويعمل به ان كان سالكا طريق الآخرة وكل من كان يقينه أقوى وثقته بمجيء الرزق في المستقبل أتم وقناعته بقوت الوقت أظهر فدرجته عند الله تعالى أعلى فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك ولعيالك الا من ضعف اليقين والاصغاء الى تخويف الشيطان وقد قال تعالى فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين وقال عز وجل الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والسؤال من الفحشاء التي أبيحت بالضرورة وحال من يسأل لحاجة متراخية عن يومه وان كان مما يحتاج اليه في السنة أشد من حال من ملك مالا موروثا وادخره لحاجة وراء السنة وكلاهما مباحان في الفتوى الظاهرة ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطول الامل وعدم الثقة بفضل الله وهذه الخصلة من أمهات المهلكات نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

﴿ بيان أحوال السائلين ﴾

كان بشر رحمه الله يقول الفقراء ثلاثة فقير لا يسأل وان أعطى لا يأخذ فهذا مع الروحانيين في عليين وفقير لا يسأل وان أعطى أخذ فهذا مع المقربين في جنات الفردوس وفقير يسأل عند الحاجة فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين فاذا قد اتفق كلهم على ذم السؤال وعلى انه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة قال شقيق البلخي لابراهيم بن أدهم حين قدم عليه من خراسان كيف تركت الفقراء من أصحابك قال تركتهم ان أعطوا شكروا وان منعوا صبروا وظن انه لما وصفهم بترك السؤال قد أثنى عليهم غاية الثناء فقال شقيق هكذا تركت كلاب بلخ عندنا فقال له ابراهيم فكيف الفقراء عندك يا أبا اسحق فقال الفقراء عندنا ان منعوا شكروا وان أعطوا آثروا فقبل رأسه وقال صدقت يا أستاذ فاذا درجات أرباب الاحوال في الرضا والصبر والشكر والسؤال كثيرة فلا بد لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها فانه اذا لم يعلم لم يقدر على الرقي من حضيضها الى قلاعها ومن أسفل سافلين الى أعلى عليين وقد خلق الانسان في أحسن تقويم ثم رد الى أسفل سافلين ثم أمر أن يترقى الى أعلى عليين ومن لا يميز بين السفل والعلو لا يقدر على الرقي قطعا وانما الشك فيمن عرف ذلك فانه ربما لا يقدر عليه وأرباب الاحوال قد تغلبهم حالة تقتضي أن يكون السؤال مزيدا لهم في درجاتهم

لابدله منهما وقول القائلين واختلافهم في محل العقل فمن قائل ان محله الدماغ ومن قائل ان محله القلب كلام القاصرين عن درك حقيقة ذلك واختلافهم في ذلك لعدم استقرار العقل على نسق واحد وانجذابه الى البار تارة والى العاق أخرى والقلب والدماغ نسبة الى البار والعاق فاذا رؤي في تدبير العاق قيل مسكنه الدماغ واذا رؤي في تدبير البار قيل مسكنه القلب فالروح العلوي يهم بالارتفاع الى مولاه شوقا وحنوا وتنزها عن الاكوان ومن الاكوان القلب والنفس فاذا ارتقى الروح يحنو القلب اليه حنو الولد الحنين البار الى الوالد وتحن النفس الى القلب الذي هو الولد حنين الوالدة الحنينة الى ولدها واذا حنت النفس ارتفعت من الارض وانزوت عروقها

ولكن بالاضافة الى حالهم فان مثل هذه الاعمال بالنيات وذلك كما روى أن بعضهم رأى أبا اسحق النورى رحمه الله يمد يده و يسأل الناس فى بعض المواضع قال فاستعظمت ذلك واستقبحته له فاتيت الجنيد رحمه الله فاخبرته بذلك فقال لا يعظم هذا عليك فان النورى لم يسأل الناس الا ليعطيهم وانما سألهم ليثيبهم فى الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضرهم وكأنه أشار به الى قوله صلى الله عليه وسلم يد المعطى هى العليا فقال بعضهم يد المعطى هى يد الآخذ للمال لانه يعطى الثواب والقدر له لا لما يأخذه ثم قال الجنيد هات الميزان فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فالقاها على المائة ثم قال احملها اليه فقلت فى نفسى انما يوزن الشئ ليعرف مقداره فكيف خلط به مجهولا وهو رجل حكيم واستحييت ان أسأله فذهبت بالصرة الى النورى فقال هات الميزان فوزن مائة درهم وقال ردها عليه وقل له أنا لا أقبل منك أنت شيأ وأخذ ما زاد على المائة قال فزاد تعجبى فسألته فقال الجنيد رجل حكيم يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه وزن المائة لنفسه طلبا لثواب الآخرة وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عز وجل فاخذت ما كان لله تبارك وتعالى ورددت ما جعله لنفسه قال فرددتها الى الجنيد فبكى وقال أخذ ماله ورد ما لنا الله المستعان فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم وكيف خلصت لله أعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير مناطقة باللسان ولكن بتشاهد القلوب وتناجى الاسرار وذلك نتيجة أكل الحلال وخلو القلب عن حب الدنيا والاقبال على الله تعالى بكنه الهمة فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل كمن ينكر مثلا كون الدواء مسهلا قبل شربه ومن أنكره بعد ان طال اجتهاده حتى بذل كنه مجهوده ولم يصل فانكر ذلك لغيره كان كمن شرب المسهل فلم يؤثر فى حقه لخاصة لعلة فى باطنه فاخذ ينكر كون الدواء مسهلا وهذا وان كان فى الجهل دون الاول ولكنه ليس خاليا عن حظ واف من الجهل بل البصير أحد رجلين اما رجل سلك الطريق فظهر له مثل ما ظهر لهم فهو صاحب الذوق والمعرفة وقد وصل الى عين اليقين واما رجل لم يسلك الطريق أو سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به فهو صاحب علم اليقين وان لم يكن واصلا الى عين اليقين ولعلم اليقين أيضا رتبة وان كان دون عين اليقين ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين ويحشر يوم القيامة فى زمرة الجاحدين المستكبرين الذين هم قتلى القلوب الضعيفة واتباع الشياطين فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراسخين فى العلم القائلين آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولوا الالباب

﴿الشطر الثانى من الكتاب فى الزهد﴾ وفيه بيان حقيقة الزهد وبيان فضيلة الزهد وبيان درجات الزهد وأقسامه وبيان تفصيل الزهد فى المطعم والملبس والمسكن والاثاث وضروب المعيشة وبيان علامة الزهد

﴿بيان حقيقة الزهد﴾

اعلم أن الزهد فى الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات لان أبواب الايمان كلها كما قال السلف ترجع الى عقد وقول وعمل وكأن القول لظهوره أقيم مقام الحال اذ به يظهر الحال الباطن والافليس القول مرادا لعينه وان لم يكن صادرا عن حال سمى اسلاما ولم يسم ايمانا والعلم هو السبب فى الحال يجرى مجرى المثمر والعمل يجرى فى الحال مجرى الثمرة فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل * أما الحال فنعنى بها ما يسمى زهدا وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشئ الى ما هو خير منه فكل من عدل عن شئ الى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فانما عدل عنه لرغبته عنه وانما عدل الى غيره لرغبته فى غيره فحاله بالاضافة الى المعدول عنه يسمى زهدا وبالاضافة الى المعدول اليه يسمى رغبة وحبا فاذا يستدعى حال الزهد مرغوبا عنه ومرغوبا فيه هو خير من المرغوب عنه وشرط المرغوب عنه ان يكون هو أيضا مرغوبا فيه بوجه من الوجوه فمن رغب عما ليس مطلوبا فى نفسه لا يسمى زاهدا اذ تارك الحجر والتراب وما أشبهه لا يسمى زاهدا وانما يسمى زاهدا من ترك الدراهم والدنانير لان التراب والحجر ليسا فى مظنة الرغبة وشرط المرغوب فيه ان يكون عنده خيرا من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة فالبائع لا يقدم على البيع الا والمشترى عنده خير من المبيع فيكون حاله بالاضافة الى المبيع زهدا فيه وبالاضافة الى العوض عنه رغبة فيه وحبا ولذلك قال الله تعالى وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين معناه باعوه فقد يطلق الشراء بمعنى البيع ووصف اخوة يوسف بالزهد

الضاربة فى العالم السفلى وانطوى هواها وانحسمت مادته وزهدت فى الدنيا وتجافت عن دار الغرور وانابت الى دار الخلود وقد تخلد النفس التى هى الام الى الارض بوضعها الجبلى لتكونها من الروح الحيوانى الجنس ومستنده فى ركونها الى الطبائع التى هى أركان العالم السفلى قال الله تعالى ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه فاذا سكنت النفس التى هى الام الى الارض انجذب اليها القلب المنكوس انجذاب الولد الميال الى الوالدة المعوجة الناقصة دون الوالد الكامل المستقيم وتجذب الروح الى الولد الذى هو القلب لما جبل عليه من انجذاب الوالد الى ولده فعند ذلك يتخلف عن حقيقة القيام بحق مولاه وفى هذين الانجذابين يظهر حكم

فيه اذ طمعوا أن يخلولهم وجه أبيهم وكان ذلك عندهم أحب اليهم من يوسف فباعوه طمعا فى العوض فاذا كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد فى الدنيا وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضا زاهد ولكن فى الآخرة ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد فى الدنيا كما خصص اسم الالحاد بمن يميل الى الباطل خاصة وان كان هو للميل فى وضع اللسان ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصور الا بالعدول الى شئ هو أحب منه والا فترك المحبوب بغير الاحب محال والذى يرغب عن كل ماسوى الله تعالى حتى الفراديس ولا يحب الا الله تعالى فهو الزاهد المطلق والذى يرغب عن كل حظ ينال فى الدنيا ولم يزهد فى مثل تلك الحظوظ فى الآخرة بل طمع فى الحور والقصور والانهار والفواكه فهو أيضا زاهد ولكنه دون الاول والذى يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذى يترك المال دون الجاه أو يترك التوسع فى الاكل ولا يترك التجمل فى الزينة فلا يستحق اسم الزاهد مطلقا ودرجته فى الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصى فى التائبين وهو زهد صحيح كما أن التوبة عن بعض المعاصى صحيحة فان التوبة عبارة عن ترك المحظورات والزهد عبارة عن ترك المباحات التى هى حظ النفس ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك فى المحظورات والمقتصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهدا وان كان قد زهد فى المحظور وانصرف عنه ولكن العادة تخصص هذا الاسم بترك المباحات فاذا الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولا الى الآخرة أو عن غير الله تعالى عدولا الى الله تعالى وهى الدرجة العليا وكما يشترط فى المرغوب فيه أن يكون خيرا عنده فيشترط فى المرغوب عنه أن يكون مقدورا عليه فان ترك مالا يقدر عليه محال وبالترك يتبين زوال الرغبة ولذلك قيل لابن المبارك يازاهد فقال الزاهد عمر بن عبد العزيز اذ جاءته الدنيا راغمة فتركها وأما أنا ففيما ذا زهدت * وأما العلم الذى هو مثمر لهذه الحال فهو العلم بكون المتروك حقيرا بالاضافة الى المأخوذ كعلم التاجر بان العوض خير من المبيع فيرغب فيه ومالم يتحقق هذا العلم لم يتصور أن تزول الرغبة عن المبيع فكذلك من عرف أن ماعند الله باق وأن الآخرة خير وأبقى أى انها خير فى أنفسها وأبقى كما تكون الجواهر خيرا وأبقى من الثلج مثلا ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر واللآلى فهكذا مثال الدنيا والآخرة فالدنيا كالثلج الموضوع فى الشمس لا يزال فى الذوبان الى الانقراض والآخرة كالجوهر الذى لا فناء له فبقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة فى البيع والمعاملة حتى ان من قوى يقينه يبيع نفسه وماله كما قال الله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالى فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به فليس يحتاج من العلم فى الزهد الا الى هذا القدر وهو أن الآخرة خير وأبقى وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا اما لضعف علمه ويقينه واما لاستيلاء الشهوة فى الحال عليه وكونه مقهورا فى يد الشيطان واما لاغتراره بمواعيد الشيطان فى التسويف يوما بعد يوم الى أن يختطفه الموت ولا يبقى معه الا الحسرة بعد الفوت والى تعريف خساسة الدنيا الاشارة بقوله تعالى قل متاع الدنيا قليل والى تعريف نفاسة الآخرة الاشارة بقوله عز وجل وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير فنبه على أن العلم بنفاسة الجوهر هو المرغب عن عوضه ولما لم يتصور الزهد الا بمعاوضة ورغبة عن المحبوب فى أحب منه قال رجل فى دعائه اللهم أرنى الدنيا كما تراها فقال له النبى صلى الله عليه وسلم لا تقل هكذا ولكن قل أرنى الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك وهذا لان الله تعالى يراها حقيرة كما هى وكل مخلوق فهو بالاضافة الى جلاله حقير والعبد يراها حقيرة فى حق نفسه بالاضافة الى ماهو خير له ولا يتصور أن يرى بائع الفرس وان رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الارض مثلا لانه مستغن عن الحشرات أصلا وليس مستغنيا عن الفرس والله تعالى غنى بذاته عن كل ماسواه فيرى الكل فى درجة واحدة بالاضافة الى جلاله ويراه متفاوتا بالاضافة الى غيره والزاهد هو الذى يرى تفاوته بالاضافة الى نفسه لا الى غيره * وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لانه بيع ومعاملة واستبدال للذى هو خير بالذى هو أدنى فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع واخراجه من اليد وأخذ العوض فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية وهى الدنيا باسرها مع أسبابها ومقدماتها وعلائقها فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب ويوظف

السعادة والشقاوة ذلك تقدير العزيز العليم (وقد ورد) فى أخبار داود عليه السلام أنه سأل ابنه سليمان أين موضع العقل منك قال القلب لانه قالب الروح والروح قالب الحياة (وقال) أبو سعيد القرشى الروح روحان روح الحياة وروح الممات فاذا اجتمعا عقل الجسم وروح الممات هى التى اذا خرجت من الجسد يصير الحى ميتا وروح الحياة ما به مجارى الانفاس وقوة الاكل والشرب وغيرهما (وقال) بعضهم الروح نسيم طيب يكون به الحياة والنفس ريح حارة تكون منها الحركات المذمومة والشهوات ويقال فلان حاز الرأس وفى الفصل الذى ذكرناه يقع التنبيه بماهية النفس واشارة المشايخ بماهية النفس الى ما ظهر من آثارها من الافعال المذمومة والاخلاق

على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات والا كان كمن سلم المبيع ولم يأخذ الثمن فاذا وفى بشرط الجانبين فى الاخذ والترك فليستبشر ببيعه الذى بايع به فان الذى بايعه بهذا البيع وفى بالعهد فمن سلم حاضرا فى غائب وسلم الحاضر وأخذ يسعى فى طلب الغائب سلم اليه الغائب حين فراغه من سعيه ان كان العاقد ممن يوثق بصدقه وقدرته ووفائه بالعهد ومادام ممسكا للدنيا لا يصح زهده أصلا ولذلك لم يصف الله تعالى اخوة يوسف بالزهد فى بنيامين وان كانوا قد قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا وعزموا على ابعاده كما عزموا على يوسف حتى تشفع فيه أحدهم فترك ولا وصفهم أيضا بالزهد فى يوسف عند العزم على اخراجه بل عند التسليم والبيع فعلامة الرغبة الامساك وعلامة الزهد الاخراج فان أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فانت زاهد فيما أخرجت فقط واست زاهدا مطلقا وان لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد لان ما لا يقدر عليه لا يقدر على تركه وربما استهويك الشيطان بغروره ويخيل اليك أن الدنيا وان لم تأتك فانت زاهد فيها فلا ينبغى أن تتدلى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله فانك اذا لم تجرب حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها فكم من ظان بنفسه كراهة المعاصى عند تعذرها فلما تيسرت له أسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق وقع فيها واذا كان هذا غرور النفس فى المحظورات فاياك أن تثق بوعدها فى المباحات والموثق الغليظ الذى تأخذه عليها أن تجربها مرة بعد مرة فى حال القدرة فاذا وفت بما وعدت مع انتفاء الصوارف والاعذار ظاهرا وباطنا فلا بأس أن تثق بها وثوقا ما ولكن تكون من تغيرها أيضا على حذر فانها سريعة النقض للعهد قريبة الرجوع الى مقتضى الطبع وبالجملة فلا أمان منها الا عند الترك بالاضافة الى ما ترك فقط وذلك عند القدرة قال ابن أبى ليلى لابن شبرمة ألا ترى الى ابن الحائك هذا لا نفتى فى مسألة الا رد علينا يعنى أبا حنيفة فقال ابن شبرمة لا أدرى أهو ابن الحائك أم ما هو لكن اعلم أن الدنيا غدت اليه فهرب منها وهربت منا فطلبناها وكذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم انا نحب ربنا ولو علمنا فى أى شئ محبته لفعلناه حتى نزل قوله تعالى ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم قال ابن مسعود رحمه الله قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت منهم يعنى من القليل قال وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة واعلم انه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل استمالة القلوب وعلى سبيل الطمع فذلك كله من محاسن العادات ولكن لا مدخل لشئ منه فى العبادات وانما الزهد أن تترك الدنيا للعلمك بحقارتها بالاضافة الى نفاسة الآخرة فاما كل نوع من الترك فانه يتصور ممن لا يؤمن بالآخرة فذلك قد يكون مروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق ولكن لا يكون زهدا اذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهى ألذ وأهنى من المال وكما ان ترك المال على سبيل السلم طمعا فى العوض ليس من الزهد فكذلك تركه طمعا فى الذكر والثناء والاشتهار بالفتوة والسخاء واستثقالا له لما فى حفظ المال من المشقة والعناء والحاجة الى التذلل للسلاطين والاغنياء ليس من الزهد أصلا بل هو استعجال حظ آخر للنفس بل الزاهد من أتته الدنيا راغمة صفوا عفوا وهو قادر على التنعم بها من غير نقصان جاه وقبح اسم ولا فوات حظ للنفس فتركها خوفا من أن يأنس بها فيكون آنسا بغير الله ومحبا لما سوى الله ويكون مشركا فى حب الله تعالى غيره أو تركها طمعا فى ثواب الله فى الآخرة فترك التمتع باشربة الدنيا طمعا فى أشربة الجنة وترك التمتع بالسرارى والنسوان طمعا فى الحور العين وترك التفرج فى البساتين طمعا فى بساتين الجنة وأشجارها وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعا فى زينة الجنة وترك المطاعم اللذيذة طمعا فى فواكه الجنة وخوفا من أن يقال له أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا فآثر فى جميع ذلك ما وعد به فى الجنة على ما تيسر له فى الدنيا عفوا صفوا لعلمه بان ما فى الآخرة خير وأبقى وان ما سوى هذا فمعاملات دنيوية لا جدوى لها فى الآخرة أصلا

(بيان فضيلة الزهد)

قال الله تعالى فخرج على قومه فى زينته الى قوله تعالى وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن فنسب

المذمومة وهى التى تعالج بحسن الرياضة ازالتها وتبديلها والافعال الرديئة تزال والاخلاق الرديئة تبدل (أخبرنا) الشيخ العالم رضى الدين أحمد بن اسمعيل القزوينى قال أنا اجازة أبو سعيد محمد بن أبى العباس الخليلى قال أنا القاضى محمد بن سعيد الفرخزادى قال أنا أبو اسحق أحمد بن محمد بن ابراهيم قال أنا الحسين ابن محمد بن عبد الله السفيانى قال حدثنا محمد ابن الحسن اليقطينى قال حدثنا أحمد بن عبد الله بن يزيد العقيلى قال حدثنا صفوان بن صالح قال حدثنا الوليد بن مسلم عن ابن لهيعة عن خالد بن يزيد عن سعيد ابن أبى هلال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا قرأ هذه الآية قد أفلح من زكاها وقف ثم قال اللهم آت نفسى تقواها أنت وليها ومولاها وزكها أنت

الزهد الى العلماء ووصف أهله بالعلم وهو غاية الثناء وقال تعالى أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا وجاء في التفسير على الزهد في الدنيا وقال عز وجل انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا قيل معناه أيهم أزهد فيها فوصف الزهد بانه من أحسن الاعمال وقال تعالى من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب وقال تعالى ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحيوة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى وقال تعالى الذين يستحبون الحيوة الدنيا على الآخرة فوصف الكفار بذلك فمفهومه أن المؤمن هو الذي يتصف بنقيضه وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا (وأما الاخبار) فما ورد منها في ذم الدنيا كثير وقد أوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات اذ حب الدنيا من المهلكات ونحن الآن نقتصر على فضيلة بغض الدنيا فانه من المنجيات وهو المعنى بالزهد وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره وفرق عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة وقال صلى الله عليه وسلم اذا رأيتم العبد وقد أعطي صمتا وزهدا في الدنيا فاقتربوا منه فانه يلقى الحكمة وقال تعالى ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ولذلك قيل من زهد في الدنيا أربعين يوما أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه وعن بعض الصحابة أنه قال قلنا يا رسول الله أي الناس خير قال كل مؤمن مخموم القلب صدوق اللسان قلنا يا رسول الله وما مخموم القلب قال التقي النقي الذي لا غل فيه ولا غش ولا بغي ولا حسد قلنا يا رسول الله فمن على أثره قال الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة ومفهوم هذا أن شر الناس الذي يحب الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم ان أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا فجعل الزهد سببا للمحبة فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات ومفهومه أيضا أن محب الدنيا متعرض لبغض الله تعالى وفي خبر من طريق أهل البيت الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة فان صادفا قلبا فيه الايمان والحياء أقاما فيه والا ارتحلا ولما قال حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنا مؤمن حقا قال وما حقيقة ايمانك قال عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها وكأني بالجنة والنار وكأني بعرش ربي بارزا فقال صلى الله عليه وسلم عرفت فالزم عبد نور الله قلبه بالايمان فانظر كيف بدأ في اظهار حقيقة الايمان بعزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين وكيف زكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ قال عبد نور الله قلبه بالايمان ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الشرح في قوله تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام وقيل له ما هذا الشرح قال ان النور اذا دخل في القلب انشرح له الصدر وانفسح قيل يا رسول الله وهل لذلك من علامة قال نعم التجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله فانظر كيف جعل الزهد شرطا للاسلام وهو التجافي عن دار الغرور وقال صلى الله عليه وسلم استحيوا من الله حق الحياء قالوا انا لنستحيي منه تعالى فقال ليس كذلك تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا انا مؤمنون قال وما علامة ايمانكم فذكروا الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمواقع القضاء وترك الشماتة بالمصيبة اذا نزلت بالاعداء فقال عليه الصلاة والسلام ان كنتم كذلك فلا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبنوا ما لا تسكنون ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون فجعل الزهد تكملة لايمانهم وقال جابر رضي الله عنه خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من جاء بلا اله الا الله لا يخلط بها غيرها وجبت له الجنة فقام اليه علي كرم الله وجهه فقال بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما لا يخلط بها غيرها صفه لنا فسره لنا فقال حب الدنيا طلبا لها واتباعا لها وقوم يقولون قول الانبياء ويعملون عمل الجبابرة فمن جاء بلا اله الا الله ليس فيها شيء من هذا وجبت له الجنة وفي الخبر السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن والبخل من الشك ولا يدخل الجنة من شك وقال أيضا السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا والسخاء ثمرة الزهد والثناء على الثمرة ثناء على المثمر لا محالة وروي عن ابن المسيب عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه فأنطق بها

خير من زكاها (وقيل) النفس لطيفة مودعة في القالب منها الاخلاق والصفات المذمومة كما أن الروح لطيفة مودعة في القلب منها الاخلاق والصفات المحمودة كما أن العين محل الرؤية والاذن محل السمع والانف محل الشم والفم محل الذوق وهكذا النفس محل الاوصاف المذمومة والروح محل الاوصاف المحمودة وجميع أخلاق النفس وصفاتها من أصلين أحدهما الطيش والثاني الشره وطيشها من جهلها وشرهها من حرصها وشبهت النفس في طيشها بكرة مستديرة على مكان أملس مصوب لا تزال متحركة بجبلتها ووضعها وشبهت في حرصها بالفراش الذي يلقي نفسه على ضوء المصباح ولا يقنع بالضوء اليسير دون الهجوم على جرم الضوء الذي فيه هلاكه فمن الطيش

لسانه وعرفه داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالما الى دار السلام وروى انه صلى الله عليه وسلم مر في أصحابه
بعشار من النوق حفل وهي الحوامل وكانت من احب أموالهم اليهم وأنفسها عندهم لانها تجمع الظهر واللحم
واللبن والوبر ولعظمها في قلوبهم قال الله تعالى واذا العشار عطلت قال فاعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم
وغض بصره فقيل له يارسول الله هذه أنفس أموالنا لم لا تنظر اليها فقال قد نهاني الله عن ذلك ثم تلا قوله تعالى
ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به الآية وروى مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت قلت يارسول الله ألا تستطعم
الله فيطعمك قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع فقال ياعائشة والذي نفسي بيده لو سألت ربي أن يجري معي
جبال الدنيا ذهبا لاجراها حيث شئت من الارض ولكني اخترت جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها
وحزن الدنيا على فرحها ياعائشة ان الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد ياعائشة ان الله لم يرض لاولي العزم من
الرسل الا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها ثم لم يرض لي الا أن يكلفني ما كلفهم فقال فاصبر كما صبر أولو
العزم من الرسل والله مالي بد من طاعته واني والله لاصبرن كما صبروا بجهدي ولا قوة الا بالله وروى عن عمر رضي
الله عنه انه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضي الله عنها البس ألين الثياب اذا وفدت عليك الوفود
من الآفاق ومر بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر فقال عمر ياحفصة ألست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل
أهل بيته فقالت بلى قال ناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم
يشبع هو ولا أهل بيته غدوة الا جاعوا عشية ولا شبعوا عشية الا جاعوا غدوة وناشدتك الله هل تعلمين أن النبي
صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر وناشدتك
الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قربتم اليه يوما طعاما على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى
تغير لونه ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الارض وناشدتك الله هل تعلمين أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عباءة مثنية فثنيت له ليلة أربع طاقات فنام عليها فلما استيقظ قال
منعتموني قيام الليلة بهذه العباءة اثنوها باثنتين كما كنتم تثنونها وناشدتك الله هل تعلمين ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم كان يضع ثيابه لتغسل فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوبا يخرج به الى الصلاة حتى تجف ثيابه
فيخرج بها الى الصلاة وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعت له امرأة من بني ظفر
كساءين ازارا ورداء وبعثت اليه باحدهما قبل أن يبلغ الآخر فخرج الى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره
قد عقد طرفيه الى عنقه فصلى كذلك فمازال يقول حتى أبكاها وبكى عمر رضي الله عنه وانتحب حتى ظننا أن نفسه
ستخرج وفي بعض الروايات زيادة من قول عمر وهو أنه قال كان لي صاحبان سلكا طريقا فان سلكت غير
طريقهما سلك بي طريق غير طريقهما واني والله سأصبر على عيشهما الشديد لعلي أدرك معهما عيشهما الرغيد
وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لقد كان الانبياء قبلي يبتلى أحدهم بالفقر فلا يلبس
الا العباءة وان كان أحدهم ليبتلى بالقمل حتى يقتله القمل وكان ذلك أحب اليهم من العطاء اليكم وعن ابن
عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما ورد موسى عليه السلام ماء مدين كانت خضرة البقل ترى في بطنه من
الهزال فهذا ما كان قد اختاره أنبياء الله ورسله وهم أعرف خلق الله بالله وبطريق الفوز في الآخرة وفي
حديث عمر رضي الله عنه انه قال لما نزل قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله قال
صلى الله عليه وسلم تبا للدنيا تبا للدينار والدرهم فقلنا يارسول الله نهانا الله عن كنز الذهب والفضة فاي شئ ندخر
فقال صلى الله عليه وسلم ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة صالحة تعينه على أمر آخرته وفي حديث
حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث هما لا يفارق
قلبه أبدا وفقرا لا يستغني أبدا وحرصا لا يشبع أبدا وقال النبي صلى الله عليه وسلم لا يستكمل العبد الايمان حتى
يكون أن لا يعرف أحب اليه من أن يعرف وحتى يكون قلة الشئ أحب اليه من كثرته وقال المسيح صلى الله عليه
وسلم الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها وقيل له يانبي الله لو أمرتنا أن نبني بيتا نعبد الله فيه قال اذهبوا فابنوا
بيتا على الماء فقالوا كيف يستقيم بنيان على الماء قال وكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا وقال نبينا صلى الله

توجد العجلة وقلة الصبر
والصبر جوهر العقل
والطيش صفة النفس
وهواها وروحها الا يغلبه
الا الصبر اذ العقل يقمع
الهوى ومن الشره
يظهر الطمع والحرص
وهما اللذان ظهرا في
آدم حيث طمع في
الخلود فحرص على
أكل الشجرة وصفات
النفس لها أصول من
أصل تكونها لانها
مخلوقة من تراب ولها
بحسبه وصف وقيل
وصف الضعف في الآدمي
من التراب ووصف
البخل فيه من الطين
ووصف الشهوة فيه
من الحمأ المسنون ووصف
الجهل فيه من الصلصال
وقيل قوله كالفخار
فهذا الوصف فيه شئ
من الشيطنة لدخول
النار في الفخار فمن ذلك
الخداع والحيل والحسد
فمن عرف أصول النفس
وجبلاتها عرف أن
لا قدرة له عليها الا
بالاستعانة ببارئها

عليه وسلم ان ربي عز وجل عرض على أن يجعل لى بطحاء مكة ذهبا فقلت لا يارب ولكن أجوع يوما وأشبع يوما فاما اليوم الذى أجوع فيه فاتضرع اليك وأدعوك وأما اليوم الذى أشبع فيه فاحمدك وأثنى عليك وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يمشى وجبريل معه فصعد على الصفا فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ياجبريل والذى بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد كف سويق ولا سفة دقيق فلم يكن كلامه باسرع من ان سمع هدة من السماء أفظعته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الله القيامة أن تقوم قال لا ولكن هذا اسرافيل عليه السلام قد نزل اليك حين سمع كلامك فاتاه اسرافيل فقال ان الله عز وجل سمع ماذكرت فبعثنى بمفاتيح الارض وأمرنى أن أعرض عليك ان أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمرذا وياقوتا وذهبا وفضة فعلت وان شئت نبيا ملكا وان شئت نبيا عبدا فأومأ اليه جبريل أن تواضع لله فقال نبيا عبدا ثلاثا وقال صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله بعبد خيرا زهده في الدنيا ورغبه فى الآخرة وبصره بعيوب نفسه وقال صلى الله عليه وسلم لرجل ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس وقال صلوات الله عليه من أراد أن يؤتيه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد فى الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم من اشتاق الى الجنة سارع الى الخيرات ومن خاف من النار لها عن الشهوات ومن ترقب الموت ترك اللذات ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات ويروى عن نبينا وعن المسيح عليهما السلام أربع لا يدركن الا بتعب الصمت وهو أول العبادة والتواضع وكثرة الذكر وقلة الشئ وايراد جميع الاخبار الواردة فى مدح بغض الدنيا وذم حبها لا يمكن فان الانبياء ما بعثوا الا لصرف الناس عن الدنيا الى الآخرة واليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق وفيما أوردناه كفاية والله المستعان (وأما الآثار) فقد جاء فى الاثر لا تزال لا اله الا الله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل مالم يسألوا ما نقص من دنياهم وفى لفظ آخر مالم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم فاذا فعلوا ذلك وقالوا لا اله الا الله قال الله تعالى كذبتم لستم بها صادقين وعن بعض الصحابة رضى الله عنهم انه قال تابعنا الاعمال كلها فلم نر فى أمر الآخرة أبلغ من زهد فى الدنيا وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا خيرا منكم قيل ولم ذلك قال كانوا أزهد فى الدنيا منكم وقال عمر رضى الله عنه الزهادة فى الدنيا راحة القلب والجسد وقال بلال بن سعد كفى به ذنبا ان الله تعالى يزهدنا فى الدنيا ونحن نرغب فيها وقال رجل لسفيان أشتهى أن أرى عالما زاهدا فقال ويحك تلك ضالة لا توجد وقال وهب بن منبه ان للجنة ثمانية أبواب فاذا صار أهل الجنة اليها جعل البوابون يقولون وعزة ربنا لا يدخلها أحد قبل الزاهدين فى الدنيا العاشقين للجنة وقال يوسف بن اسباط رحمه الله انى لاشتهى من الله ثلاث خصال أن أموت حين أموت وليس فى ملكى درهم ولا يكون على دين ولا على عظمى لحم فاعطى ذلك كله وروى أن بعض الخلفاء أرسل الى الفقهاء بجوائز فقبلوها وأرسل الى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها فقال له بنوه قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه فبكى الفضيل وقال أتدرون ما مثلى ومثلكم كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها فلما هرمت ذبحوها لاجل ان ينتفعوا بجلدها وكذلك أنتم أردتم ذبحى على كبر سنى موتوا يا أهلى جوعا خير لكم من ان تذبحوا فضيلا *وقال عبيد بن عمير كان المسيح بن مريم عليه السلام يلبس الشعر ويأكل الشجر وليس له ولد يموت ولا بيت يخرب ولا يدخر لغد أينما أدركه المساء نام وقالت امرأة أبى حازم لابى حازم هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بد لنا من الطعام والثياب والحطب فقال لها أبو حازم من هذا كله بد ولكن لا بد لنا من الموت ثم البعث ثم الوقوف بين يدى الله تعالى ثم الجنة أو النار وقيل للحسن لم لا تغسل ثيابك قال الامر أعجل من ذلك وقال ابراهيم بن أدهم قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب الفرح بالموجود والحزن على المفقود والسرور بالمدح فاذا فرحت بالموجود فانت حريص واذا حزنت على المفقود فانت ساخط والساخط معذب واذا سررت بالمدح فانت معجب والعجب يحبط العمل وقال ابن مسعود رضى الله عنه ركعتان من زاهد قلبه خير له وأحب الى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين الى آخر الدهر أبدا سرمدا وقال بعض السلف نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف الينا وكأنه التفت الى معنى قوله صلى الله عليه وسلم ان الله يحمى عبده

وفاطرها فلا يتحقق العبد بالانسانية الا بعد أن يدبر دواعى الحيوانية فيه بالعلم والعدل وهو رعاية طرفى الافراط والتفريط ثم بذلك تتقوى انسانيته ومعناه ويدرك صفات الشيطنة فيه والاخلاق المذمومة وكمال انسانيته ويتقاضاه أن لا يرضى لنفسه بذلك ثم تنكشف له الاخلاق التى تنازع بها الربوبية من الكبر والعز ورؤية النفس والعجب وغير ذلك فيرى ان صرف العبودية فى ترك المنازعة للربوبية والله تعالى ذكر النفس فى كلامه القديم بثلاثة أوصاف بالطمأنينة قال يا أيتها النفس المطمئنة وسماها لوامة قال لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة وسماها أمارة فقال ان النفس لامارة بالسوء وهى نفس واحدة ولها صفات متغايرة فاذا امتلأ القلب سكينة

المؤمن الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه فاذا فهم هذا علم ان النعمة في المنع المؤدى الى الصحة أكبر منها في الاعطاء المؤدى الى السقم وكان الثوري يقول الدنيا دار التواء لا دار استواء ودار ترح لا دار فرح من عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن على شقاء وقال سهل لا يخلص العمل للمتعبد حتى لا يفزع من أربعة أشياء الجوع والعري والفقر والذل وقال الحسن البصري أدركت أقواما وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشئ من الدنيا أقبل ولا يأسفون على شئ منها أدبر ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطوله ثوب ولم ينصب له قدر ولم يجعل بينه وبين الارض شيأ ولا أمر من في بيته بصنعة طعام قط فاذا كان الليل فقيام على أقدامهم يفترشون وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكاك رقابهم كانوا اذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها وسألوا الله أن يقبلها واذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله ان يغفرها لهم فلم يزالوا على ذلك ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا الا بالمغفرة رحمة الله عليهم ورضوانه

(بيان درجات الزهد وأقسامه بالاضافة الى نفسه والى المرغوب عنه والى المرغوب فيه)

اعلم ان الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث * الدرجة الاولى وهي السفلى منها ان يزهد في الدنيا وهو لها مشته وقلبه اليها مائل ونفسه اليها ملتفتة ولكنه يجاهدها ويكفها وهذا يسمى المتزهد وهو مبدأ الزهد في حق من يصل الى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد والمتزهد يذيب أولا نفسه ثم كيسه والزاهد أولا يذيب كيسه ثم يذيب نفسه في الطاعات لا في الصبر على ما فارقه والمتزهد على خطر فانه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود الى الدنيا والى الاستراحة بها في قليل أو كثير * الدرجة الثانية الذي يترك الدنيا طوعا لاستحقاره اياها بالاضافة الى ما طمع فيه كالذي يترك درهما لاجل درهمين فانه لا يشق عليه ذلك وان كان يحتاج الى انتظار قليل ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده ويلتفت اليه كما يرى البائع المبيع ويلتفت اليه فيكاد يكون معجبا بنفسه وبزهده ويظن في نفسه انه ترك شيأ له قدر لما هو أعظم قدرا منه وهذا أيضا نقصان * الدرجة الثالثة وهي العليا أن يزهد طوعا ويزهد في زهده فلا يرى زهده اذ لا يرى انه ترك شيأ اذ عرف أن الدنيا لا شئ فيكون كمن ترك خزفة وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ولا يرى نفسه تاركا شيأ والدنيا بالاضافة الى الله تعالى ونعيم الآخرة أخس من خزفة بالاضافة الى جوهرة فهذا هو الكمال في الزهد وسببه كمال المعرفة ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات الى الدنيا كما أن تارك الخزفة بالجوهرة آمن من طلب الاقالة في البيع قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لابي موسى عبد الرحيم في أي شئ تتكلم قال في الزهد قال في أي شئ قال في الدنيا فنفض يده وقال ظننت انه يتكلم في شئ الدنيا لا شئ ايش يزهد فيها ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه فالقى اليه لقمة من خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى أنفذ أمره في جميع مملكته أفترى انه يرى لنفسه يدا عند الملك بلقمة خبز ألقاها الى كلبه في مقابلة ما قد ناله فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز ان أكلت فلذتها في حال المضغ وتنقضي على القرب بالابتلاع ثم يبقى ثقلها في المعدة ثم تنتهي الى النتن والقذر ثم يحتاج بعد ذلك الى اخراج ذلك الثقل فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت اليها ونسبة الدنيا كلها أعني ما يسلم لكل شخص منها وان عمر مائة سنة بالاضافة الى نعيم الآخرة أقل من لقمة بالاضافة الى ملك الدنيا اذ لا نسبة للمتناهي الى ما لا نهاية له والدنيا متناهية على القرب ولو كانت تتمادى ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لا نسبة لها الى نعيم الابد فكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدرة غير صافية فاي نسبة لها الى نعيم الابد فاذا الا يلتفت الزاهد الى زهده الا اذا التفت الى ما زهد فيه ولا يلتفت الى ما زهد فيه الا لانه يراه شيأ معتدا به ولا يراه شيأ معتدا به الا لقصور معرفته فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة فهذا تفاوت درجات الزهد وكل درجة من هذه أيضا لها درجات اذ تصبر المتزهد يختلف ويتفاوت أيضا باختلاف قدر المشقة في الصبر وكذلك درجة المعجب بزهده بقدر التفاته الى زهده * وأما انقسام الزهد بالاضافة الى المرغوب فيه فهو أيضا على ثلاث درجات * الدرجة السفلى أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب

خلع على النفس خلع الطمأنينة لان السكينة مزيد الايمان وفيها ارتقاء القلب الى مقام الروح لما منح من حظ اليقين وعند توجه القلب الى محل الروح تتوجه النفس الى محل القلب وفي ذلك طمأنينتها واذا انزعجت من مقار جبلاتها ودواعي طبيعتها متطلعة الى مقار الطمأنينة فهي لوامة لانها تعود باللائمة على نفسها لنظرها وعلمها بمحل الطمأنينة ثم انجذابها الى محلها التي كانت فيه أمارة بالسوء واذا أقامت في محلها الا بغشاها نور العلم والمعرفة فهي على ظلمتها أمارة بالسوء فالنفس والروح يتطاردان فتارة علك القلب دواعي الروح وتارة علكه دواعي النفس وأما السر فقد أشار القوم اليه ووجدت في كلام القوم أن منهم من جعله

القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدي العبد من الاهوال كما وردت به الاخبار اذ فيها ان الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء فهذا هو زهد الخائفين وكأنهم رضوا بالعدم لو أعدموا فان الخلاص من الالم يحصل بمجرد العدم * الدرجة الثانية أن يزهد رغبة في ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة في جنته من الحور والقصور وغيرها وهذا زهد الراجين فان هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الالم بل طمعوا في وجود دائم ونعيم سرمد لا آخر له * الدرجة الثالثة وهي العليا أن لا يكون له رغبة الا في الله وفي لقائه فلا يلتفت قلبه الى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا الى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها بل هو مستغرق الهم بالله تعالى وهو الذي أصبح وهمومه هم واحد وهو الموحد الحقيقي الذي لا يطلب غير الله تعالى لان من طلب غير الله فقد عبده وكل مطلوب معبود وكل طالب عبد بالاضافة الى مطلبه وطلب غير الله من الشرك الخفي وهذا زهد المحبين وهم العارفون لانه لا يحب الله تعالى خاصة الا من عرفه وكما أن من عرف الدينار والدرهم وعلم انه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحب الا الدينار فكذلك من عرف الله وعرف لذة النظر الى وجهه الكريم وعرف أن الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التنعم بالحور العين والنظر الى نقش القصور وخضرة الاشجار غير ممكن فلا يحب الا لذة النظر ولا يؤثر غيره ولا تظن أن أهل الجنة عند النظر الى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع في قلوبهم بل تلك اللذة بالاضافة الى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الارض ورقاب الخلق بالاضافة الى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب اللعب بالعصفور التارك لذة الملك وذلك لقصوره عن ادراك لذة الملك لا لان اللعب بالعصفور في نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق * وأما انقسامه بالاضافة الى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الاقاويل ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول فلا نشتغل بنقل الاقاويل ولكن نشير الى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح أن أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الاحاطة بالكل فنقول المرغوب عنه بالزهد له اجمال وتفصيل ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الاقسام وبعضها أجمل للجمل * أما الاجمال في الدرجة الاولى فهو كل ما سوى الله فينبغي أن يزهد فيه حتى يزهد في نفسه أيضا والاجمال في الدرجة الثانية أن يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها وفي الدرجة الثالثة أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما اذ اليهما ترجع جميع حظوظ النفس وفي الدرجة الرابعة أن يزهد في العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه اذ الاموال وان كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم والجاه وان كثرت أسبابه فيرجع الى العلم والقدرة وأعني به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب اذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها كما أن معنى المال ملك الاعيان والقدرة عليها فان جاوزت هذا التفصيل الى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها فقال زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحيوة الدنيا ثم رده في آية أخرى الى خمسة فقال عز وجل اعلموا انما الحيوة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد ثم رده تعالى في موضع آخر الى اثنين فقال تعالى انما الحيوة الدنيا لعب ولهو ثم رد الكل الى واحد في موضع آخر فقال ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا فينبغي أن يكون الزهد فيه واذا فهمت طريق الاجمال والتفصيل عرفت أن البعض من هذه لا يخالف البعض وانما يفارقه في الشرح مرة والاجمال أخرى فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا فقصر أمله لا محالة لانه انما يريد البقاء ليتمتع ويريد التمتع الدائم بارادة البقاء فان من أراد شيأ أراد دوامه ولا معنى لحب الحياة الا حب دوام ما هو موجود أو ممكن في هذه الحياة فاذا رغب عنها لم يردها ولذلك لما كتب عليهم القتال قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب فقال تعالى قل متاع الدنيا قليل أي لستم تريدون البقاء الا لمتاع الدنيا فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف

بعد القلب وقبل الروح ومنهم من جعله بعد الروح وأعلى منها وألطف وقالوا السر محل المشاهدة والروح محل المحبة والقلب محل المعرفة والسر الذي وقعت اشارة القوم اليه غير مذكور في كتاب الله وانما المذكور في كلام الله الروح والنفس وتنوع صفاتها والقلب والفؤاد والعقل وحيث لم نجد في كلام الله تعالى ذكر السر بالمعنى المشار اليه ورأينا الاختلاف في القول فيه وأشار قوم الى أنه دون الروح وقوم الى انه ألطف من الروح فنقول والله أعلم الذي سموه سرا ليس هو بشيء مستقل بنفسه له وجود وذات كالروح والنفس وانما لما صفت النفس وتزكت انطلق الروح من وثاق ظلمة النفس فأخذ في العروج الى أوطان القرب وانتزح القلب

حال المنافقين أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص وانتظروا احدى الحسنيين وكانوا اذا دعوا الى القتال يستنشقون رائحة الجنة ويبادرون اليه مبادرة الظمآن الى الماء البارد حرصا على نصرة دين الله أو نيل رتبة الشهادة وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة حتى أن خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول كم غررت بروحي وهجمت على الصفوف طمعا في الشهادة وأنا الآن أموت موت العجائز فلما مات عد على جسده ثمانمائة ثقب من آثار الجراحات هكذا كان حال الصادقين في الايمان رضي الله تعالى عنهم أجمعين وأما المنافقون ففروا من الزحف خوفا من الموت فقيل لهم ان الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم فايثارهم البقاء على الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير فأولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين وأما المخلصون فان الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة فلما رأوا أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلا أو ثلاثين سنة بتمتع الابد استبشروا ببيعهم الذي بايعوا به فهذا بيان المزهود فيه واذا فهمت هذا علمت أن ما ذكره المتكلمون في حد الزهد لم يشيروا به الا الى بعض أقسامه فذكر كل واحد منهم ما رآه غالبا على نفسه أو على من كان يخاطبه فقال بشر رحمه الله تعالى الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس وهذا اشارة الى الزهد في الجاه خاصة وقال قاسم الجوعي الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف فبقدر ما تملك من بطنك كذلك تملك من الزهد وهذا اشارة الى الزهد في شهوة واحدة ولعمري هي أغلب الشهوات على الاكثر وهي المهيجة لاكثر الشهوات وقال الفضيل الزهد في الدنيا هو القناعة وهذا اشارة الى المال خاصة وقال الثوري الزهد هو قصر الامل وهو جامع لجميع الشهوات فان من يميل الى الشهوات يحدث نفسه بالبقاء فيطول أمله ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهوات كلها وقال أويس اذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه وما قصد بهذا حد الزهد ولكن جعل التوكل شرطا في الزهد وقال أويس أيضا الزهد هو ترك الطلب للمضمون وهو اشارة الى الرزق وقال أهل الحديث الدنيا هو العمل بالرأي والمعقول والزهد انما هو اتباع العلم ولزوم السنة وهذا ان أريد به الرأي الفاسد والمعقول الذي يطلب به الجاه في الدنيا فهو صحيح ولكنه اشارة الى بعض أسباب الجاه خاصة أو الى بعض ما هو من فضول الشهوات فان من العلوم ما لا فائدة فيه في الآخرة وقد طولوها حتى ينقضي عمر الانسان في الاشتغال بواحد منها فشرط الزاهد أن يكون الفضول أول مرغوب عنه عنده وقال الحسن الزاهد الذي اذا رأى أحدا قال هذا أفضل مني فذهب الى أن الزهد هو التواضع وهذا اشارة الى نفي الجاه والعجب وهو بعض أقسام الزهد وقال بعضهم الزهد هو طلب الحلال وأين هذا ممن يقول الزهد هو ترك الطلب كما قال أويس ولا شك في أنه أراد به ترك طلب الحلال وقد كان يوسف بن أسباط يقول من صبر على الاذى وترك الشهوات وأكل الخبز من الحلال فقد أخذ بأصل الزهد وفي الزهد أقاويل وراء ما نقلناه فلم نر في نقلها فائدة فان من طلب كشف حقائق الامور من أقاويل الناس رآها مختلفة فلا يستفيد الا الحيرة وأما من انكشف له الحق في نفسه وأدركه بمشاهدة من قلبه لا بتلقف من سمعه فقد وثق بالحق واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته وهؤلاء كلهم اقتصروا لا للقصور في البصيرة لكنهم ذكروا ما ذكروه عند الحاجة فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف وقد يكون سبب الاقتصار الاخبار عن الحالة الراهنة التي هي مقام العبد في نفسه والاحوال تختلف فلا جرم الاقوال المخبرة عنها تختلف وأما الحق في نفسه فلا يكون الا واحدا ولا يتصور أن يختلف وانما الجامع من هذه الاقاويل الكامل في نفسه وان لم يكن فيه تفصيل ما قاله أبو سليمان الداراني اذ قال سمعنا في الزهد كلاما كثيرا والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجل وقد فصل مرة وقال من تزوج أو سافر في طلب المعيشة أو كتب الحديث فقد ركن الى الدنيا فجعل جميع ذلك ضدا للزهد وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى الا من أتى الله بقلب سليم فقال هو القلب الذي ليس فيه غير الله تعالى وقال انما زهدوا في الدنيا لتتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة فهذا بيان انقسام الزهد بالاضافة الى أصناف المزهود فيه فأما بالاضافة الى أحكامه فينقسم الى فرض ونفل وسلامة كما قاله ابراهيم بن ادهم فالفرض هو الزهد في الحرام والنفل هو الزهد في الحلال والسلامة هو الزهد في الشبهات وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع

عند ذلك عن مستقره متطلعا الى الروح فاكتسب وصفا زائدا على وصفه فانحجم على الواجدين ذلك الوصف حيث رأوه أصفى من القلب فسموه سرا ولما صار للقلب وصف زائد على وصفه بتطلعه الى الروح اكتسب الروح وصفا زائدا في عروجه وانحجم على الواجدين فسموه سرا والذي زعموا أنه ألطف من الروح روح متصفة بوصف أخص مما عهدوه والذي سموه قبل الروح سرا هو قلب اتصف بوصف زائد غير ما عهدوه وفي مثل هذا السر ترقى من الروح والقلب تترقى النفس الى محل القلب وتنخلع من وصفها فتصير نفسا مطمئنة تريد كثيرا من مرادات القلب من قبل اذ صار القلب يريد ما يريد مولاه متبرئا عن الحول والقوة والارادة والاختيار وعندها

في كتاب الحلال والحرام وذلك من الزهد اذ قيل لمالك بن أنس ما الزهد قال التقوى وأما بالاضافة الى خفايا ما يترك فلا نهاية للزهد فيه اذلا نهاية لما تتمتع به النفس في الخطرات واللحظات وسائر الحالات لاسيما خفايا الرياء فان ذلك لا يطلع عليه الا سماسرة العلماء بل الاموال الظاهرة أيضا درجات الزهد فيها لا تتناهى فمن أقصى درجاته زهد عيسى عليه السلام اذ توسد حجرا في نومه فقال له الشيطان أما كنت تركت الدنيا فما الذي بدا لك قال وما الذي تجدد قال توسدك الحجر أي تنعمت برفع رأسك عن الارض في النوم فرمى الحجر وقال خذه مع ما تركته لك وروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه لبس المسوح حتى ثقب جلده تركا للتنعم بلين اللباس واستراحة حس اللمس فسألته أمه أن يلبس مكان المسح جبة من صوف ففعل فاوحى الله تعالى اليه يا يحيى آثرت على الدنيا فبكى ونزع الصوف وعاد الى ما كان عليه وقال أحمد رحمه الله الزهد زهد أويس بلغ من العرى أن جلس في قوصرة وجلس عيسى عليه السلام في ظل حائط انسان فاقامه صاحب الحائط فقال ما أقمتني أنت انما أقامني الذي لم يرض لي أن أتنعم بظل الحائط فاذا درجات الزهد ظاهرا وباطنا لا حصر لها وأقل درجاته الزهد في كل شبهة ومحظور وقال قوم الزهد هو الزهد في الحلال لا في الشبهة والمحظور فليس ذلك من درجاته في شئ ثم رأوا انه لم يبق حلال في أموال الدنيا فلا يتصور الزهد الآن فان قلت مهما كان الصحيح هو ان الزهد ترك ما سوى الله فكيف يتصور ذلك مع الاكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالمتهم وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى فاعلم أن معنى الانصراف عن الدنيا الى الله تعالى هو الاقبال بكل القلب عليه ذكرا وفكرا ولا يتصور ذلك الا مع البقاء ولا بقاء الا بضرورات النفس فمهما اقتصرت من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلا بغير الله فان ما لا يتوصل الى الشئ الا به فهو منه فالمشتغل بعلف الناقة وبسقيها في طريق الحج ليس معرضا عن الحج ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحج ولا غرض لك في تنعم ناقتك باللذات بل غرضك مقصور على دفع المهلكات عنها حتى تسير بك الى مقصدك فكذلك ينبغي ان تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالاكل والشرب وعن الحر والبرد المهلك باللباس والمسكن فتقتصر على قدر الضرورة ولا تقصد التلذذ بل التقوى على طاعة الله تعالى فذلك لا يناقض الزهد بل هو شرط الزهد وان قلت فلا بد وأن أتلذذ بالاكل عند الجوع فاعلم أن ذلك لا يضرك اذا لم يكن قصدك التلذذ فان شارب الماء البارد قد يستلذ الشرب ويرجع حاصله الى زوال ألم العطش ومن يقضي حاجته قد يستريح بذلك ولكن لا يكون ذلك مقصودا عنده ومطلوبا بالقصد فلا يكون القلب منصرفا اليه فالانسان قد يستريح في قيام الليل بتنسم الاسحار وصوت الاطيار ولكن اذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة فما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره ولقد كان في الخائفين من طلب موضعا لا يصيبه فيه نسيم الاسحار خيفة من الاستراحة به وأنس القلب معه فيكون فيه أنس بالدنيا ونقصان في الانس بالله بقدر وقوع الانس بغير الله ولذلك كان داود الطائي له حب مكشوف فيه ماؤه فكان لا يرفعه من الشمس ويشرب الماء الحار ويقول من وجد لذة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا فهذه مخاوف المحتاطين والحزم في جميع ذلك الاحتياط فانه وان كان شاقا فمدته قريبة والاحتماء مدة يسيرة للتنعم على التأبيد لا يثقل على أهل المعرفة القاهرين لانفسهم بسياسة الشرع المعتصمين بعروة اليقين في معرفة المضادة التي بين الدنيا والدين رضي الله تعالى عنهم أجمعين

(بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة)

اعلم أن ما الناس منهمكون فيه ينقسم الى فضول والى مهم فالفضول كالخيل المسومة مثلا اذ غالب الناس انما يقتنها للترفه بركوبها وهو قادر على المشي والمهم كالاكل والشرب ولسنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول فان ذلك لا ينحصر وانما ينحصر المهم الضروري والمهم أيضا يتطرق اليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته فلا بد من بيان وجه الزهد فيه والمهمات ستة أمور المطعم والملبس والمسكن وأثاثه والمنكح والمال والجاه يطلب لاغراض وهذه الستة من جملتها وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق له وكيفية الاحتراز منه في كتاب الرياء من ربع المهلكات ونحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمات الستة (الاول المطعم) ولا بد للانسان من قوت حلال يقيم

ذاق طعم صرف العبودية حيث صار حرا عن ارادته واختياراته وأما العقل فهو لسان الروح وترجمان البصيرة والبصيرة للروح بمثابة القلب والعقل بمثابة اللسان وقد ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فاقبل ثم قال له أدبر فادبر ثم قال له اقعد فقعد ثم قال له انطق فنطق ثم قال له اصمت فصمت فقال وعزتي وجلالي وعظمتي وكبريائي وسلطاني وجبروتي ما خلقت خلقا أحب الي منك ولا أكرم علي منك بك أعرف وبك أحمد وبك أطاع وبك آخذ وبك أعطي واياك أعاتب ولك الثواب وعليك العقاب وما أكرمتك بشئ أفضل من الصبر * وقال عليه السلام لا يعجبنكم

صلبه ولكن له طول وعرض فلابد من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد فأما طوله فبالاضافة الى جملة العمر فان من ملك طعام يومه فلا يقنع به وأما عرضه ففي مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله اما طوله فلا يقصر الا بقصر الامل وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدة الجوع وخوف المرض ومن هذا حاله فاذا استقل بما تناوله لم يدخر من غدائه لعشائه وهذه هي الدرجة العليا * الدرجة الثانية أن يدخر لشهر أو أربعين يوما * الدرجة الثالثة أن يدخر لسنة فقط وهذه رتبة ضعفاء الزهاد ومن ادخر لاكثر من ذلك فتسميته زاهدا محال لان من أمل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الامل جدا فلا يتم منه الزهد الا اذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الاخذ من أيدي الناس كداود الطائي فانه ورث عشرين دينارا فامسكها وانفقها في عشرين سنة فهذا لا يضاد أصل الزهد الا عند من جعل التوكل شرط الزهد وأما عرضه فبالاضافة الى المقدار وأقل درجاته في اليوم والليلة نصف رطل وأوسطه رطل وأعلاه مد واحد وهو ما قدره الله تعالى في اطعام المسكين في الكفارة وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به ومن لم يقدر على الاقتصار على مد لم يكن له من الزهد في البطن نصيب واما بالاضافة الى الجنس فاقله كل ما يقوت ولو الخبز من النخالة وأوسطه خبز الشعير والذرة وأعلاه خبز البر غير منخول فاذا ميز من النخالة وصار حوارى فقد دخل في التنعم وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلا عن أوائله وأما الادم فاقله الملح أو البقل والخل وأوسطه الزيت أو يسير من الادهان أي دهن كان وأعلاه اللحم أي لحم كان وذلك في الاسبوع مرة أو مرتين فان صار دائما أو أكثر من مرتين في الاسبوع خرج عن آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهدا في البطن أصلا وأما بالاضافة الى الوقت فاقله في اليوم والليلة مرة وهو أن يكون صائما وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل ويأكل ليلة ولا يشرب وأعلاه أن ينتهي الى أن يطوى ثلاثة أيام أو أسبوعا وما زاد عليه وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه في ربع المهلكات ولينظر الى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم في كيفية زهدهم في المطاعم وتركهم الادم قالت عائشة رضي الله تعالى عنها كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما أوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار قيل لها فبم كنتم تعيشون قالت بالاسودين التمر والماء وهذا ترك اللحم والمرقة والادم وقال الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ويلبس الصوف وينتعل المخصوف ويلعق أصابعه ويأكل على الارض ويقول انما أنا عبد آكل كما تأكل العبيد وأجلس كما تجلس العبيد وقال المسيح عليه السلام بحق أقول لكم انه من طلب الفردوس فخبز الشعير له والنوم على المزابل مع الكلاب كثير وقال الفضيل ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر وكان المسيح صلى الله عليه وسلم يقول يا بني اسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البري وخبز الشعير واياكم وخبز البر فانكم لن تقوموا بشكره وقد ذكرنا سيرة الانبياء والسلف في المطعم والمشرب في ربع المهلكات فلا نعيده ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم أهل قباء أتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل فوضع القدح من يده وقال أما اني لست أحرمه ولكن أتركه تواضعا لله تعالى وأتي عمر رضي الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف فقال اعزلوا عني حسابها وقد قال يحيى بن معاذ الرازي الزاهد الصادق قوته ما وجد ولباسه ما ستر ومسكنه حيث أدرك الدنيا سجنه والقبر مضجعه والخلوة مجلسه والاعتبار فكرته والقرآن حديثه والرب أنيسه والذكر رفيقه والزهد قرينه والحزن شأنه والحياء شعاره والجوع ادامه والحكمة كلامه والتراب فرشه والتقوى زاده والصمت غنيمته والصبر معتمده والتوكل حسبه والعقل دليله والعبادة حرفته والجنة مبلغه ان شاء الله تعالى (المهم الثاني الملبس) وأقل درجته ما يدفع الحر والبرد ويستر العورة وهو كساء يتغطى به وأوسطه قميص وقلنسوة ونعلان وأعلاه أن يكون معه منديل وسراويل وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حد الزهد وشرط الزاهد أن لا يكون له ثوب يلبسه اذا غسل ثوبه بل يلزمه القعود في البيت فاذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع أبواب الزهد من حيث المقدار أما الجنس فاقله المسوح الخشنة وأوسطه الصوف الخشن وأعلاه القطن الغليظ وأما من حيث الوقت فاقصاه ما يستر سنة وأقله ما يبقى يوما حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وان كان يتسارع الجفاف اليه وأوسطه ما يتماسك عليه شهرا وما يقاربه فطلب ما يبقى أكثر من سنة خروج الى

طول

اسلام رجل حتى تعلموا ماعقده عقله وسألت عائشة رضي الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم قالت قلت يارسول الله بأي شئ يتفاضل الناس قال بالعقل في الدنيا والآخرة قالت قلت أليس يجزى الناس بأعمالهم قال ياعائشة وهل يعمل بطاعة الله الا من قد عقل فبقدر عقولهم يعملون وعلى قدر مايعملون يجزون وقال عليه السلام ان الرجل لينطلق الى المسجد فيصلي وصلاته لاتعدل جناح بعوضة وان الرجل ليأتي المسجد فيصلي وصلاته تعدل جبل أحد اذا كان أحسنهما عقلا قيل وكيف يكون أحسنهما عقلا قال أورعهما عن محارم الله وأحرصهما على أسباب الخير وان كان دونه في العمل والتطوع (وقال) عليه الصلاة والسلام ان الله تعالى قسم العقل بين

طول الامل وهو مضاد للزهد الا اذا كان المطلوب خشونته ثم قد يتبع ذلك قوته ودوامه فمن وجد زيادة من ذلك فينبغي أن يتصدق به فان أمسكه لم يكن زاهدا بل كان محبا للدنيا ولينظر فيه الى أحوال الانبياء والصحابة كيف تركوا الملابس قال أبو بردة أخرجت لنا عائشة رضي الله تعالى عنها كساء ملبدا وازارا غليظا فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين وقال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يحب المتبذل الذي لا يبالي ما لبس وقال عمرو ابن الاسود العنسي لا ألبس مشهورا أبدا ولا أنام بليل على دثار أبدا ولا أركب على مأثور أبدا ولا أملأ جوفي من طعام أبدا فقال عمر من سره أن ينظر الى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر الى عمرو بن الاسود وفي الخبر ما من عبد لبس ثوب شهرة الا أعرض الله عنه حتى ينزعه وان كان عنده حبيبا واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم وكانت قيمة ثوبيه عشرة وكان ازاره أربعة أذرع ونصفا واشترى سراويل بثلاثة دراهم وكان يلبس شملتين بيضاوين من صوف وكانت تسمى حلة لانهما ثوبان من جنس واحد وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ وفي الخبر كان قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قميص زيات ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما واحدا ثوبا سيراء من سندس قيمته مائتا درهم فكان أصحابه يلمسونه ويقولون يا رسول الله أنزل عليك هذا من الجنة تعجبا وكان قد أهداه اليه المقوقس ملك الاسكندرية فأراد أن يكرمه بلبسه ثم نزعه وأرسل به الى رجل من المشركين وصله به ثم حرم لبس الحرير والديباج وكأنه انما لبسه أولا تأكيدا للتحريم كما لبس خاتما من ذهب يوما ثم نزعه فحرم لبسه على الرجال وكما قال لعائشة في شأن بريرة اشترطي لاهلها الولاء فلما اشترطته صعد عليه السلام المنبر فحرمه وكما أباح المتعة ثلاثا ثم حرمها لتأكيد أمر النكاح وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خميصة لها علم فلما سلم قال شغلني النظر الى هذه اذهبوا بها الى أبي جهم وائتوني بانبجانيته يعني كساءه فاختار لبس الكساء على الثوب الناعم وكان شراك نعله قد أخلق فأبدل بسير جديد فصلى فيه فلما سلم قال أعيدوا الشراك الخلق وانزعوا هذا الجديد فاني نظرت اليه في الصلاة ولبس خاتما من ذهب ونظر اليه على المنبر نظرة فرمى به فقال شغلني هذا عنكم نظرة اليه ونظرة اليكم وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى مرة نعلين جديدين فأعجبه حسنهما فخر ساجدا وقال أعجبني حسنهما فتواضعت لربي خشية أن يمقتني ثم خرج بهما فدفعهما الى أول مسكين رآه وعن سنان بن سعد قال حيكت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف أنمار وجعلت حاشيتها سوداء فلما لبسها قال انظروا ما أحسنها ما ألينها قال فقام اليه اعرابي فقال يا رسول الله هبها لي وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سئل شيأ لم يبخل به قال فدفعها اليه وأمر أن يحاك له واحدة أخرى فمات صلى الله عليه وسلم وهي في المحاكة وعن جابر قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضي الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحا وعليها كساء من وبر الابل فلما نظر اليها بكى وقال يا فاطمة تجرعي مرارة الدنيا لنعيم الابد فأنزل عليه ولسوف يعطيك ربك فترضى وقال صلى الله عليه وسلم ان من خيار أمتي فيما أنبأني الملأ الاعلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله تعالى ويبكون سرا من خوف عذابه مؤنتهم على الناس خفيفة وعلى أنفسهم ثقيلة يلبسون الخلقان ويتبعون الرهبان أجسامهم في الارض وأفئدتهم عند العرش فهذه كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الملابس وقد أوصى أمته عامة باتباعه اذ قال من أحبني فليستن بسنتي وقال عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وقال تعالى قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها خاصة وقال ان أردت اللحوق بي فاياك ومجالسة الاغنياء ولا تنزعي ثوبا حتى ترقعيه وعد على قميص عمر رضي الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من أدم واشترى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثوبا بثلاثة دراهم ولبسه وهو في الخلافة وقطع كميه من الرسغين وقال الحمد لله الذي كساني هذا من رياشه وقال الثوري وغيره البس من الثياب ما لا يشهرك عند العلماء ولا يحقرك عند الجهال وكان يقول ان الفقير ليمر بي وأنا أصلي فأدعه يجوز ويمر بي واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البزة فأمقته ولا أدعه يجوز وقال بعضهم قومت ثوبي سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دوانق وقال ابن شبرمة خير ثيابي ما خدمني وشرها ما خدمته وقال بعض السلف البس من الثياب ما يخلطك بالسوقة ولا تلبس منها ما يشهرك فينظر اليك وقال أبو سليمان

عباده أشتانا فان الرجلين يستوي علمهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان في العقل كالذرة في جنب أحد (وروى) عن وهب بن منبه انه قال اني أجد في سبعين كتابا أن جميع ما أعطى الناس من بدء الدنيا الى انقطاعها من العقل في جنب عقل رسول الله صلى الله عليه وسلم كهيئة رملة وقعت من بين جميع رمال الدنيا واختلف الناس في ماهية العقل والكلام في ذلك يكثر ولا نؤثر نقل الاقاويل وليس ذلك من غرضنا فقال قوم العقل من العلوم فان الخالي من جميع العلوم لا يوصف بالعقل وليس العقل جميع العلوم فان الخالي عن معظم العلوم يوصف بالعقل وقالوا ليس من العلوم النظرية فان من شرط ابتداء النظر تقدم كمال العقل فهو اذا من العلوم

الدارانى الثياب ثلاثة ثوب لله وهو ما يستر العورة وثوب للنفس وهو ما يطلب لينه وثوب للناس وهو ما يطلب جوهره وحسنه وقال بعضهم من رق ثوبه رق دينه وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم ما بين العشرين الى الثلاثين درهما وكان الخواص لا يلبس أكثر من قطعتين قميص ومئزر تحته وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه وقال بعض السلف أول النسك الزى وفى الخبر البذاذة من الايمان وفى الخبر من ترك ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعا لله تعالى وابتغاء لوجهه كان حقا على الله أن يدخر له من عبقرى الجنة فى تخات الياقوت وأوحى الله تعالى الى بعض أنبيائه قل لاوليائى لا يلبسوا ملابس أعدائى ولا يدخلوا مداخل أعدائى فيكونوا أعدائى كما هم أعدائى ونظر رافع بن خديج الى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ فقال انظروا الى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق وكان عليه ثياب رقاق وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة الى أبى ذر فى بزته فجعل يتكلم فى الزهد فوضع أبو ذر راحته على فيه وجعل يضرط به فغضب ابن عامر فشكاه الى عمر فقال أنت صنعت بنفسك تتكلم فى الزهد بين يديه بهذه البزة وقال على كرم الله وجهه ان الله تعالى أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا فى مثل أدنى أحوال الناس ليقتدى بهم الغنى ولا يزرى بالفقير فقره ولما عوتب فى خشونة لباسه قال هو أقرب الى التواضع وأجدر أن يقتدى به المسلم ونهى صلى الله عليه وسلم عن التنعم وقال ان لله تعالى عبادا ليسوا بالمتنعمين وروى فضالة بن عبيد وهو والى مصر أشعث حافيا فقيل له أنت الامير وتفعل هذا فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الارفاه وأمرنا أن نحتفى احيانا وقال على لعمر رضى الله عنهما ان أردت أن تلحق بصاحبيك فارقع القميص ونكس الازار واخصف النعل وكل دون الشبع وقال عمر اخشوشنوا واياكم وزى العجم كسرى وقيصر وقال على كرم الله وجهه من تزيا بزى قوم فهو منهم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب ويتشدقون فى الكلام وقال صلى الله عليه وسلم أزرة المؤمن الى أنصاف ساقيه ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين وما أسفل من ذلك ففى النار ولا ينظر الله يوم القيامة الى من جر ازاره بطرا وقال أبو سليمان الدارانى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلبس الشعر من أمتى الا مراء أو أحمق وقال الاوزاعى لباس الصوف فى السفر سنة وفى الحضر بدعة ودخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم وعليه جبة صوف فقال له قتيبة ما دعاك الى مدرعة الصوف فسكت فقال أكلمك ولا تجيبنى فقال أكره أن أقول زهدا فأزكى نفسى أو فقرا فأشكو ربى وقال أبو سليمان لما اتخذ الله ابراهيم خليلا أوحى اليه أن وار عورتك من الارض وكان لا يتخذ من كل شئ الا واحدا سوى السراويل فانه كان يتخذ سراويلين فاذا غسل أحدهما لبس الآخر حتى لا يأتى عليه حال الا وعورته مستورة وقيل لسلمان الفارسى رضى الله عنه مالك لا تلبس الجيد من الثياب فقال وما للعبد والثوب الحسن فاذا اعتق فله والله ثياب لا تبلى أبدا ويروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله انه كان له جبة شعر وكساء شعر يلبسهما من الليل اذا قام يصلى وقال الحسن لفرقد السبخى تحسب ان لك فضلا على الناس بكسائك بلغنى ان أكثر أصحاب النار أصحاب الاكسية نفاقا وقال يحيى بن معين رأيت أبا معاوية الاسود وهو يلتقط الخرق من المزابل ويغسلها ويلفقها ويلبسها فقلت انك تكسى خيرا من هذا فقال ما ضرهم ما أصابهم فى الدنيا جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة فجعل يحيى بن معين يحدث بها ويبكى *(المهم الثالث المسكن)* وللزهد فيه أيضا ثلاث درجات *اعلاها أن لا يطلب موضعا خاصا لنفسه فيقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة وأوسطها أن يطلب موضعا خاصا لنفسه مثل كوخ مبنى من سعف أو خص أو ما يشبهه وأدناها أن يطلب حجرة مبنية اما بشراء أو اجارة فان كان قدر سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة ولم يكن فيه زينة لم يخرجه هذا القدر عن آخر درجات الزهد فان طلب التشييد والتجصيص والسعة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالكلية حد الزهد فى المسكن فاختلاف جنس البناء بان يكون من الجص أو القصب أو بالطين أو بالآجر واختلاف قدره بالسعة والضيق واختلاف طوله بالاضافة الى الاوقات بان يكون مملوكا أو مستأجرا أو مستعارا وللزهد مدخل فى جميع ذلك وبالجملة كل ما يراد للضرورة فلا ينبغى أن يجاوز حد الضرورة وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين والغرض

الضرورية وليس هو جميعها فان صاحب الحواس المختلة عاقل وقد عدم بعض مدارك العلوم الضرورية وقال بعضهم العقل ليس من أقسام العلوم لانه لو كان منها لوجب الحكم بان الذاهل عن ذكر الاستحالة والجواز لا يتصف بكونه عاقلا ونحن نرى العاقل فى كثير من أوقاته ذاهلا وقالوا هذا العقل صفة يتهيأ بها درك العلوم (ونقل عن الحرث ابن اسد المحاسبى وهو من أجل المشايخ أنه قال العقل غريزة يتهيأ بها درك العلوم وعلى هذا يتقرر ما ذكرناه فى أول ذكر العقل انه لسان الروح لان الروح من أمر الله وهى المتحملة للامانة التى أبت السموات والارضون أن يحملنها ومنها يفيض نور العقل وفى نور العقل تتشكل العلوم فالعقل للعلوم بمثابة اللوح المكتوب

من المسكن دفع المطر والبرد ودفع الاعين والاذى وأقل الدرجات فيه معلوم وما زاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا وطالب الفضول والساعي له بعيد من الزهد جدا وقد قيل أول شئ ظهر من طول الامل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم التدرز والتشييد يعني بالتدرز كف دروز الثياب فانها كانت تشل شلا والتشييد هو البنيان بالجص والآجر وانما كانوا يبنون بالسعف والجريد وقد جاء في الخبر يأتي على الناس زمان يوشون ثيابهم كما توشى البرود اليمانية وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس أن يهدم علية كان قد علاها ومر عليه السلام بجنبذة معلاة فقال لمن هذه قالوا لفلان فلما جاءه الرجل أعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسأل الرجل أصحابه عن تغير وجهه صلى الله عليه وسلم فاخبر فذهب فهدمها فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموضع فلم يرها فاخبر بانه هدمها فدعا له بخير وقال الحسن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وقال النبي صلى الله عليه وسلم اذا أراد الله بعبد شرا أهلك ماله في الماء والطين وقال عبد الله بن عمر مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خصا فقال ما هذا قلنا خص لنا قد وهي فقال أرى الامر أعجل من ذلك واتخذ نوح عليه السلام بيتا من قصب فقيل له لو بنيت فقال هذا كثير لمن يموت وقال الحسن دخلنا على صفوان بن محيرز وهو في بيت من قصب قد مال عليه فقيل له لو أصلحته فقال كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله وقال النبي صلى الله عليه وسلم من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة وفي الخبر كل نفقة للعبد يؤجر عليها الا ما أنفقه في الماء والطين وفي قوله تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا انه الرياسة والتطاول في البنيان وقال صلى الله عليه وسلم كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة الا ما أكن من حر وبرد وقال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي شكا اليه ضيق منزله اتسع في السماء أي في الجنة ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام الى صرح قد بني بجص وآجر فكبر وقال ما كنت أظن أن يكون في هذه الامة من يبني بنيان هامان لفرعون يعني قول فرعون فأوقد لي يا هامان على الطين يعني به الآجر ويقال ان فرعون هو أول من بني له بالجص والآجر وأول من عمله هامان ثم تبعهما الجبابرة وهذا هو الزخرف ورأى بعض السلف جامعا في بعض الامصار فقال أدركت هذا المسجد مبنيا من الجريد والسعف ثم رأيته مبنيا من رهص ثم رأيته الآن مبنيا باللبن فكان أصحاب السعف خيرا من أصحاب الرهص وكان أصحاب الرهص خيرا من أصحاب اللبن وكان في السلف من يبني داره مرارا في مدة عمره لضعف بنائه وقصر أمله وزهده في احكام البنيان وكان منهم من اذا حج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه فاذا رجع أعاده وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود وهي عادة العرب الآن ببلاد اليمن وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة قال الحسن كنت اذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت بيدي الى السقف وقال عمرو بن دينار اذا على العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه ملك الى أين يا أفسق الفاسقين وقد نهى سفيان عن النظر الى بناء مشيد وقال لولا نظر الناس لما شيدوا فالنظر اليه معين عليه وقال الفضيل اني لا أعجب ممن بنى وترك ولكني أعجب ممن نظر اليه ولم يعتبر وقال ابن مسعود رضي الله عنه يأتي قوم يرفعون الطين ويضعون الدين ويستعملون البراذين يصلون الى قبلتكم ويموتون على غير دينكم (المهم الرابع أثاث البيت) وللزهد فيه أيضا درجات أعلاها حال عيسى المسيح صلوات الله عليه وسلامه وعلى كل عبد مصطفى اذ كان لا يصحبه الا مشط وكوز فرأى انسانا يمشط لحيته باصابعه فرمى بالمشط ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز وهذا حكم كل أثاث فانه انما يراد لمقصود فاذا استغني عنه فهو وبال في الدنيا والآخرة وما لا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات وهو الخزف في كل ما يكفي فيه الخزف ولا يبالي بان يكون مكسور الطرف اذا كان المقصود يحصل به وأوسطها أن يكون له أثاث بقدر الحاجة صحيح في نفسه ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد كالذي معه قصعة يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ المتاع فيها وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة في أشياء للتخفيف وأعلاها أن يكون له بعدد كل حاجة آلة من الجنس النازل الخسيس فان زاد في العدد أو في نفاسة الجنس خرج عن جميع أبواب الزهد وركن الى طلب الفضول ولينظر الى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فقد قالت عائشة رضي الله عنها كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم

وهو بصفته منكوس متطلع الى النفس تارة ومنتصب مستقيم تارة فمن كان العقل فيه منكوسا الى النفس فرقه في أجزاء الكون وعدم حسن الاعتدال بذلك وأخطأ طريق الاهتداء ومن انتصب العقل فيه واستقام تأيد العقل بالبصيرة التي هي للروح بمثابة القلب واهتدى الى المكون ثم عرف الكون بالمكون مستوفيا أقسام المعرفة بالمكون والكون فيكون هذا العقل عقل الهداية فكما أحب الله اقباله في أمر دله على اقباله عليه وما كرهه الله في أمر دله على الادبار عنه فلا يزال يتبع محاب الله تعالى ويجتنب مساخطه وكلما اشتقام العقل وتأيد بالبصيرة كانت دلالته على الرشد ونهيه عن البغي (قال) بعضهم العقل على ضربين ضرب يبصر به أمر دنياه

الذي ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف وقال الفضيل ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الا عباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط فجلس فرأى أثر الشريط في جنبه عليه السلام فدمعت عينا عمر فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما الذي أبكاك يا ابن الخطاب قال ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من الملك وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط فقال صلى الله عليه وسلم اما ترضى يا عمر أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة قال بلى يا رسول الله قال فذلك كذلك ودخل رجل على أبي ذر فجعل يقلب بصره في بيته فقال يا أباذر ما أرى في بيتك متاعا ولا غير ذلك من الاثاث فقال ان لنا بيتا نوجه اليه صالح متاعنا فقال انه لا بد لك من متاع مادمت ههنا فقال ان صاحب المنزل لا يدعنا فيه ولما قدم عمير بن سعيد أمير حمص على عمر رضي الله عنهما قال له ما معك من الدنيا فقال معي عصاي أتوكأ عليها وأقتل بها حية ان لقيتها ومعي جرابي أحمل فيه طعامي ومعي قصعتي آكل فيها وأغسل فيها رأسي وثوبي ومعي مطهرتي أحمل فيها شرابي وطهوري للصلاة فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي فقال عمر صدقت رحمك الله وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فدخل على فاطمة رضي الله عنها فرأى على باب منزلها سترا وفي يديها قلبين من فضة فرجع فدخل عليها أبو رافع وهي تبكي فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أبو رافع فقال من أجل الستر والسوارين فأرسلت بهما بلالا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت قد تصدقت بهما فضعهما حيث ترى فقال اذهب فبعه وادفعه الى أهل الصفة فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدق بهما عليهم فدخل عليها صلى الله عليه وسلم فقال بأبي أنت قد أحسنت ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب عائشة سترا فهتكه وقال كلما رأيته ذكرت الدنيا أرسلي به الى آل فلان وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشا جديدا وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عباءة مثنية فما زال يتقلب ليلته فلما أصبح قال لها اعيدي العباءة الخلقة ونحي هذا الفراش عني قد أسهرني الليلة وكذلك أتته دنانير خمسة أو ستة ليلا فبيتها فسهر ليلته حتى أخرجها من آخر الليل قالت عائشة رضي الله عنها فنام حينئذ حتى سمعت غطيطه ثم قال ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده وقال الحسن أدركت سبعين من الاخيار ما لأحدهم الا ثوبه وما وضع أحدهم بينه وبين الارض ثوبا قط كان اذا أراد النوم باشر الارض بجسمه وجعل ثوبه فوقه (المهم الخامس المنكح) وقد قال قائلون لا معنى للزهد في أصل النكاح ولا في كثرته واليه ذهب سهل ابن عبد الله وقال قد حبب الى سيد الزاهدين النساء فكيف نزهد فيهن ووافقه على هذا القول ابن عيينة وقال كان أزهد الصحابة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان له أربع نسوة وبضع عشرة سرية والصحيح ما قاله أبو سليمان الداراني رحمه الله اذ قال كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشؤم والمرأة قد تكون شاغلا عن الله وكشف الحق فيه انه قد تكون العزوبة أفضل في بعض الاحوال كما سبق في كتاب النكاح فيكون ترك النكاح من الزهد وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب فكيف يكون تركه من الزهد وان لم يكن عليه آفة في تركه ولا فعله ولكن ترك النكاح احترازا عن ميل القلب اليهن والانس بهن بحيث يشتغل عن ذكر الله فترك ذلك من الزهد فان علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازا من لذة النظار والمضاجعة والمواقعة فليس هذا من الزهد أصلا فان الولد مقصود لبقاء نسله وتكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم من القربات واللذة التي تلحق الانسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تضره اذ لم تكن هي المقصد والمطلب وهذا كمن ترك أكل الخبز وشرب الماء احترازا من لذة الاكل والشرب وليس ذلك من الزهد في شيء لان في ترك ذلك فوات بدنه فكذلك في ترك النكاح انقطاع نسله فلا يجوز أن يترك النكاح زهدا في لذته من غير خوف آفة أخرى وهذا ما عناه سهل لا محالة ولاجله نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم واذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله صلى الله عليه وسلم في انه لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب باصلاحهن والانفاق عليهن فلا معنى لزهده فيهن حذرا من مجرد لذة الوقاع والنظر ولكن أنى يتصور ذلك لغير الانبياء والاولياء فأكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان فينبغي أن يترك الاصل ان كان يشغله وان لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن

وضرب يبصر به أمر آخر نه (وذكر) أن العقل الاول من نور الروح والعقل الثاني من نور الهداية فالعقل الاول موجود في عامة ولد آدم والعقل الثاني موجود في الموحدين مفقود من المشركين (وقيل) انما سمي العقل عقلا لان الجهل ظلمة فاذا غلب النور بصره في تلك الظلمة زالت الظلمة فابصر فصار عقالا للجهل (وقيل) عقل الايمان مسكنه في القلب ومتعلقه في الصدر بين عيني الفؤاد والذي ذكرناه من كون العقل لسان الروح وهو عقل واحد ليس هو على ضربين ولكنه اذا انتصب واستقام تأيد بالبصيرة واعتدل ووضع الاشياء في مواضعها وهذا العقل هو العقل المستضيء بنور الشرع لان انتصابه واعتداله هداه الى الاستضاءة بنور الشرع لكون الشرع

أو جمال المرأة فلينكح واحدة غير جميلة وليراع قلبه في ذلك قال أبو سليمان الزهد في النساء ان يختار المرأة الدون أو اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة وقال الجنيد رحمه الله أحب للمريد المبتدى أن لا يشغل قلبه بثلاث والا تغير حاله التكسب وطلب الحديث والتزوج وقال أحب للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ لانه أجمع لهمه فاذا ظهر أن لذة النكاح كلذة الاكل فما شغل عن الله فهو محذور فيهما جميعا (المهم السادس ما يكون وسيلة الى هذه الجملة وهو المال والجاه) أما الجاه فمعناه ملك القلوب بطلب محل فيها ليتوصل به الى الاستعانة في الاغراض والاعمال وكل من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجاته وافتقر الى من يخدمه افتقر الى جاه لا محالة في قلب خادمه لانه ان لم يكن له عنده محل وقدر لم يقم بخدمته وقيام القدر والمحل في القلوب هو الجاه وهذا له أول قريب ولكن يتمادى به الى هاوية لا عمق لها ومن حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه وانما يحتاج الى المحل في القلوب اما لجلب نفع أو لدفع ضر أو لخلاص من ظلم فاما النفع فيغني عنه المال فان من يخدم باجرة يخدم وان لم يكن عنده للمستأجر قدر وانما يحتاج الى الجاه في قلب من يخدم بغير أجرة وأما دفع الضر فيحتاج لاجله الى الجاه في بلد لا يكمل فيه العدل أو يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم الا بمحل له في قلوبهم أو محل له عند السلطان وقدر الحاجة فيه لا ينضبط لا سيما اذا انضم اليه الخوف وسوء الظن بالعواقب والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك بل حق الزاهد ان لا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلا فان اشتغاله بالدين والعبادة يمهد له من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الاذى ولو كان بين الكفار فكيف بين المسلمين فاما التوهمات والتقديرات التي تحوج الى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهي أوهام كاذبة اذ من طلب الجاه أيضا لم يخل عن أذى في بعض الاحوال فعلاج ذلك بالاحتمال والصبر أولى من علاجه بطلب الجاه فاذا طلب المحل في القلوب لا رخصة فيه أصلا واليسير منه داع الى الكثير وضراوته أشد من ضراوة الخمر فليحترز من قليله وكثيره * وأما المال فهو ضروري في المعيشة أعني القليل منه فان كان كسوبا فاذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب كان بعضهم اذا اكتسب حبتين رفع سفطه وقام هذا شرط الزهد فان جاوز ذلك الى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حد ضعفاء الزهاد وأقويائهم جميعا وان كانت له ضيعة ولم يكن له قوة يقين في التوكل فامسك منها مقدار ما يكفي ريعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط ان يتصدق بكل ما يفضل عن كفاية سنته ولكن يكون من ضعفاء الزهاد فان شرط التوكل في الزهد كما شرطه أويس القرني رحمه الله فلا يكون هذا من الزهاد وقولنا انه خرج من حد الزهاد نعني به ان ما وعد للزاهدين في الدار الآخرة من المقامات المحمودة لا يناله والا فاسم الزهد قد لا يفارقه بالاضافة الى ما زهد فيه من الفضول والكثرة وأمر المنفرد في جميع ذلك أخف من أمر المعيل وقد قال أبو سليمان لا ينبغي أن يرهق الرجل أهله الى الزهد بل يدعوهم اليه فان أجابوا والا تركهم وفعل بنفسه ما شاء معناه أن التضييق المشروط على الزاهد يخصه ولا يلزمه كل ذلك في عياله نعم لا ينبغي أن يجيبهم أيضا فيما يخرج عن حد الاعتدال وليتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين لان ذلك من الزينة لا من الحاجة فاذا ما اضطر الانسان اليه من جاه ومال ليس بمحذور بل الزائد على الحاجة سم قاتل والمقتصر على الضرورة دواء نافع وما بينهما درجات متشابهة فما يقرب من الزيادة وان لم يكن سما قاتلا فهو مضر وما يقرب من الضرورة فهو وان لم يكن دواء نافعا لكنه قليل الضرر والسم محظور شربه والدواء فرض تناوله وما بينهما مشتبه أمره فمن احتاط فانما يحتاط لنفسه ومن تساهل فانما يتساهل على نفسه ومن استبرأ لدينه وترك ما يريبه الى ما لا يريبه ورد نفسه الى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم وهو من الفرقة الناجية لا محالة والمقتصر على قدر الضرورة والمهم لا يجوز أن ينسب الى الدنيا بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لانه شرط الدين والشرط من جملة المشروط ويدل عليه ما روى ان ابراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب الى صديق له يستقرضه شيأ فلم يقرضه فرجع مهموما فاوحى الله تعالى اليه لو سألت خليلك لاعطاك فقال يارب عرفت مقتك للدنيا فخفت أن أسألك منها شيأ فاوحى الله تعالى اليه ليس الحاجة من الدنيا فاذا قدر الحاجة من الدين وما وراء ذلك وبال في الآخرة وهو في الدنيا أيضا كذلك يعرفه من يخبر أحوال الاغنياء وما عليهم من المحنة في كسب المال وجمعه وحفظه واحتمال

ورد على لسان النبي المرسل وذلك لقرب روحه من الحضرة الالهية ومكاشفة بصيرته التي هي للروح بمثابة القلب بقدرة الله وآياته واستقامة عقله بتأييد البصيرة فالبصيرة تحيط بالعلوم التي يستوعبها العقل والتي يضيق عنها نطاق العقل لانها تستمد من كلمات الله التي ينفد البحر دون نفادها والعقل ترجمان تؤدي البصيرة اليه من ذلك شطرا كما يؤدي القلب الى اللسان بعض ما فيه ويستأثر ببعضه دون اللسان ولهذا المعنى من جد على تجرد العقل من غير الاستضاءة بنور الشرع حظي بعلوم الكائنات التي هي من الملك والملك ظاهر الكائنات ومن استضاء عقله بنور الشرع تايد بالبصيرة فاطلع على الملكوت والملكوت باطن الكائنات اختص بمكاشفته أرباب البصائر

الذل فيه وغاية سعادته به أن يسلم لورثته فيأكلونه وربما يكونون أعداءه وقد يستعينون به على المعصية فيكون هو معينا لهم عليها ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز لا يزال ينسج على نفسه حيا ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصا فيموت ويهلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فانما يحكم على قلبه بسلاسل تقيده بما يشتهيه حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال والجاه والاهل والولد وشماتة الاعداء ومراآة الاصدقاء وسائر حظوظ الدنيا فلو خطر له انه قد أخطأ فيه فقصد الخروج من الدنيا لم يقدر عليه ورأى قلبه مقيدا بسلاسل وأغلال لا يقدر على قطعها ولو ترك محبوبا من محابه باختياره كاد أن يكون قاتلا لنفسه وساعيا في هلاكه الى ان يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها دفعة واحدة فتبقى السلاسل في قلبه معلقة بالدنيا التي فاتته وخلفها فهي تجاذبه الى الدنيا ومخالب ملك الموت قد علقت بعروق قلبه تجذبه الى الآخرة فيكون أهون أحواله عند الموت ان يكون كشخص ينشر بالمنشار ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة من الجانبين والذي ينشر بالمنشار انما ينزل المؤلم ببدنه ويألم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث أثره فما ظنك بألم يتمكن أولا من صميم القلب مخصوصا به لا بطريق السراية اليه من غيره فهذا أول عذاب يلقاه قبل ما يراه من حسرة فوت النزول في أعلى عليين وجوار رب العالمين فبالنزوع الى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى وعند الحجاب تتسلط عليه نار جهنم اذ النار غير مسلطة الا على محجوب قال الله تعالى كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم فرتب العذاب بالنار على ألم الحجاب وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار فكيف اذا أضيفت العلاوة اليه فنسأل الله تعالى ان يقرر في اسماعنا ما نفث في روع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قيل له أحبب من أحببت فانك مفارقه وفي معنى ما ذكرناه من المثال قول الشاعر

كدود كدود القز ينسج دائما * ويهلك غما وسط ما هو ناسجه

ولما انكشف لاولياء الله تعالى ان العبد مهلك نفسه باعماله واتباعه هوى نفسه اهلاك دود القز نفسه رفضوا الدنيا بالكلية حتى قال الحسن رأيت سبعين بدريا كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم وفي لفظ آخر كانوا بالبلاء أشد فرحا منكم بالخصب والرخاء لو رأيتموهم قلتم مجانين ولو رأوا أخياركم قالوا ما لهؤلاء من خلاق ولو رأوا اشراركم قالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب وكان أحدهم يعرض له المال الحلال فلا يأخذه ويقول أخاف أن يفسد علي قلبي فمن كان له قلب فهو لا محالة يخاف من فساده والذين أمات حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم اذ قال تعالى ورضوا بالحيوة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون وقال عز وجل ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا وقال تعالى فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحيوة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم فاحال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام احملني معك في سياحتك فقال أخرج مالك والحقني فقال لا أستطيع فقال عيسى عليه السلام بعجب يدخل الغني الجنة أو قال بشدة وقال بعضهم ما من يوم ذر شارقه الا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات ملكان بالمشرق وملكان بالمغرب يقول أحدهما بالمشرق يا باغي الخير هلم يا باغي الشر اقصر ويقول الآخر اللهم أعط منفقا خلفا وأعط ممسكا تلفا ويقول اللذان بالمغرب أحدهما لدوا للموت وابنوا للخراب ويقول الآخر كلوا وتمتعوا لطول الحساب

(بيان علامة الزهد)

اعلم انه قد يظن ان تارك المال زاهد وليس كذلك فان ترك المال واظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد فكم من الرهابين من ردوا أنفسهم كل يوم الى قدر يسير من الطعام ولازموا ديرا لا باب له وانما مسرة أحدهم معرفة الناس حاله ونظرهم اليه ومدحهم له فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطعة بل لا بد من الزهد في المال والجاه جميعا حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا بل قد يدعي جماعة الزهد مع لبس الاصواف الفاخرة والثياب الرفيعة كما قال الخواص في وصف المدعين اذ قال وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يموهون بذلك على الناس ليهدى اليهم مثل لباسهم لئلا ينظر اليهم بالعين التي ينظر بها الى الفقراء فيحتقروا فيعطوا كما تعطى المساكين ويحتجون لنفوسهم باتباع العلم وانهم على السنة وان الاشياء داخلة اليهم وهم خارجون منها وانما

والعقول دون الجامدين على مجرد العقول دون البصائر وقد قال بعضهم ان العقل عقلان عقل للهداية مسكنه في القلب وذلك للمؤمنين الموقنين ومتعمله في الصدر بين عيني الفؤاد والعقل الآخر مسكنه في الدماغ ومتعمله في الصدر بين عيني الفؤاد فبالاول يدبر أمر الآخرة وبالثاني يدبر أمر الدنيا والذي ذكرناه انه عقل واحد اذا تايد بالبصيرة دبر الامرين واذا تفرد دبر أمرا واحدا وهو أوضح وأبين وقد ذكرنا في أول الباب من تدبيرة للنفس المطمئنة والامارة ما ينتبه الانسان به على كونه عقلا واحدا مؤيدا بالبصيرة تارة ومنفردا بوصفه تارة والله الملهم للصواب

(الباب السابع والخمسون في معرفة الخواطر وتفصيلها وتمييزها)*

(أخبرنا) شيخنا أبو

يأخذون بعلة غيرهم هذا اذا طولبوا بالحقائق وألجؤا الى المضايق وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين لم يعنوا
بتصفية أسرارهم ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادعوها حالا لهم فهم مائلون الى
الدنيا متبعون للهوى فهذا كله كلام الخواص رحمه الله فاذا معرفة الزهد أمر مشكل بل حال الزاهد على الزاهد
مشكل و ينبغي أن يعول فى باطنه على ثلاث علامات *(العلامة الاولى)* أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على
مفقود كما قال تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم بل ينبغي أن يكون بالضد من ذلك وهو أن
يحزن بوجود المال و يفرح بفقده *(العلامة الثانية)* أن يستوى عنده ذامه ومادحه فالاول علامة الزهد
فى المال والثانى علامة الزهد فى الجاه *(العلامة الثالثة)* أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة
الطاعة اذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة اما محبة الدنيا واما محبة الله وهما فى القلب كالماء والهواء فى القدح فالماء
اذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان وكل من انس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره ولذلك قيل لبعضهم الى ماذا
أفضى بهم الزهد فقال الى الانس بالله فاما الانس بالدنيا وبالله فلا يجتمعان وقد قال أهل المعرفة اذا تعلق الايمان
بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعا وعمل لهما واذا بطن الايمان فى سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا
فلم ينظر اليها ولم يعمل لها ولهذا ورد فى دعاء آدم عليه السلام اللهم انى أسألك ايمانا يباشر قلبى وقال أبو سليمان
من شغل بنفسه شغل عن الناس وهذا مقام العاملين ومن شغل بربه شغل عن نفسه وهذا مقام العارفين والزاهد
لابد وأن يكون فى أحد هذين المقامين ومقامه الاول أن يشغل نفسه بنفسه وعند ذلك يستوى عنده المدح والذم
والوجود والعدم ولا يستدل بامساكه قليلا من المال على فقد زهده أصلا قال ابن أبى الحوارى قلت لابى سليمان
أكان داود الطائى زاهدا قال نعم قلت قد بلغنى أنه ورث عن أبيه عشرين دينارا فانفقها فى عشرين سنة فكيف
كان زاهدا وهو يمسك الدنانير فقال أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد وأراد بالحقيقة الغاية فان الزهد ليس له غاية
لكثرة صفات النفس ولا يتم الزهد الا بالزهد فى جميعها فكل من ترك من الدنيا شيأ مع القدرة عليه خوفا على قلبه
وعلى دينه فله مدخل فى الزهد بقدر ما تركه وآخره أن يترك كل ما سوى الله حتى لا يتوسد حجرا كما فعله المسيح
عليه السلام فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مباديه نصيبا وان قل فان أمثالنا لا يستجرئ على الطمع فى غاياته وان
كان قطع الرجاء عن فضل الله غير مأذون فيه واذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علمنا أن الله تعالى لا يتعاظمه
شئ فلا بعد فى ان نعظم السؤال اعتمادا على الجود المجاوز لكل كمال فاذا علامة الزهد استواء الفقر والغنى
والعز والذل والمدح والذم وذلك لغلبة الانس بالله و يتفرع عن هذه العلامات علامات أخر لا محالة مثل ان يترك
الدنيا ولا يبالى من أخذها وقيل علامته ان يترك الدنيا كما هى فلا يقول أبنى رباطا أو أعمر مسجدا وقال يحيى بن
معاذ علامة الزهد السخاء بالموجود وقال ابن خفيف علامته وجود الراحة فى الخروج من الملك وقال أيضا
الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف وقال أبو سليمان الصوف علم من أعلام الزهد فلا ينبغى أن يلبس
صوفا بثلاثة دراهم وفى قلبه رغبة خمسة دراهم وقال أحمد بن حنبل وسفيان رحمهما الله علامة الزهد قصر الامل
وقال سرى لا يطيب عيش الزاهد اذا اشتغل عن نفسه ولا يطيب عيش العارف اذا اشتغل بنفسه وقال
النصراباذى الزاهد غريب فى الدنيا والعارف غريب فى الآخرة وقال يحيى بن معاذ علامة الزهد ثلاث عمل بلا
علاقة وقول بلا طمع وعز بلا رياسة وقال أيضا الزاهد يسعطك الخل والخردل والعارف يشمك المسك والعنبر
وقال له رجل متى أدخل حانوت التوكل وألبس رداء الزهد وأقعد مع الزاهدين فقال اذا صرت من رياضتك
لنفسك فى السر الى حد لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف فى نفسك فاما ما لم تبلغ هذه الدرجة فجلوسك
على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح وقال أيضا الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها والزاهد
فيها يسخم وجهها و ينتف شعرها و يخرق ثوبها والعارف يشتغل بالله تعالى ولا يلتفت اليها وقال السرى
مارست كل شئ من أمر الزهد فنلت منه ما أريد الا الزهد فى الناس فانى لم أبلغه ولم أطقه وقال الفضيل رحمه الله
جعل الله الشر كله فى بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا وجعل الخير كله فى بيت وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا فهذا
ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه واذا كان الزهد لا يتم الا بالتوكل فلنشرع فى بيانه ان شاء الله تعالى

النجيب السهروردى
قال أخبرنا أبو الفتح
الهروى قال أنا أبو نصر
الترياقى قال أنا أبو
محمد الجراحى قال أنا أبو
العباس المحبوبى قال
أنا أبو عيسى الترمذى
قال أنا هناد قال أنا أبو
الاحوص عن عطاء بن
السائب عن مرة
الهمدانى عن عبد الله
ابن مسعود رضى الله
عنه قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ان
للشيطان لمة بابن آدم
وللملك لمة فاما لمة
الشيطان فايعاد بالشر
وتكذيب بالحق وأما
لمة الملك فايعاد بالخير
وتصديق بالحق فمن
وجد ذلك فليعلم انه من
الله فليحمد الله ومن
وجد الاخرى فليتعوذ
بالله من الشيطان ثم قرأ
الشيطان يعدكم الفقر
ويأمركم بالفحشاء وانما
يتطلع الى معرفة اللمتين
وتمييز الخواطر طالب
مريد يتشوف الى ذلك
تشوف العطشان الى

(كتاب التوحيد والتوكل وهو الكتاب الخامس من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله مدبر الملك والملكوت المنفرد بالعزة والجبروت الرافع للسماء بغير عماد المقدر فيها أرزاق العباد الذى صرف أعين ذوى القلوب والالباب عن ملاحظة الوسائط والاسباب الى مسبب الاسباب ورفع هممهم عن الالتفات الى ماعداه والاعتماد على مدبر سواه فلم يعبدوا الا اياه علما بأنه الواحد الفرد الصمد الاله وتحقيقا بان جميع أصناف الخلق عباد أمثالهم لا يبتغى عندهم الرزق وأنه مامن ذرة الا الى الله خلقها ومامن دابة الا على الله رزقها فلما تحققوا أنه لرزق عباده ضامن وبه كفيل توكلوا عليه فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل والصلاة على محمد قامع الاباطيل الهادى الى سواء السبيل وعلى آله وسلم تسليما كثيرا *(أما بعد)* فان التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين بل هو من معالى درجات المقربين وهو فى نفسه غامض من حيث العلم ثم هو شاق من حيث العمل ووجه غموضه من حيث الفهم أن ملاحظة الاسباب والاعتماد عليها شرك فى التوحيد والتثاقل عنها بالكلية طعن فى السنة وقدح فى الشرع والاعتماد على الاسباب من غير أن ترى أسبابا تغيير فى وجه العقل وانغماس فى غمرة الجهل وتحقيق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد والنقل والشرع فى غاية الغموض والعسر ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الخفاء الا سماسرة العلماء الذين اكتحلوا من فضل الله تعالى بانوار الحقائق فابصروا وتحققوا ثم نطقوا بالاعراب عما شاهدوه من حيث استنطقوا ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقدمة ثم نردفه بالتوحيد فى الشطر الاول من الكتاب ونذكر حال التوكل وعمله فى الشطر الثانى

(بيان فضيلة التوكل)

(أما من الآيات) فقد قال تعالى وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين وقال عز وجل وعلى الله فليتوكل المتوكلون وقال تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه وقال سبحانه وتعالى ان الله يحب المتوكلين وأعظم بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبه ومضمون بكفاية الله تعالى ملابسه فمن الله تعالى حسبه وكافيه ومحبه ومراعيه فقد فاز الفوز العظيم فان المحبوب لا يعذب ولا يبعد ولا يحجب وقال تعالى أليس الله بكاف عبده فطالب الكفاية من غيره هو التارك للتوكل وهو المكذب لهذه الآية فانه سؤال فى معرض استنطاق بالحق كقوله تعالى هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيأ مذكورا وقال عز وجل ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم أى عزيز لا يذل من استجار به ولا يضيع من لاذ بجنابه والتجأ الى ذمامه وحماه وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره وقال تعالى ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم بين أن كل ماسوى الله تعالى عبد مسخر حاجته مثل حاجتكم فكيف يتوكل عليه وقال تعالى ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه وقال عز وجل ولله خزائن السموات والارض ولكن المنافقين لا يفقهون وقال عز وجل يدبر الامر مامن شفيع الا من بعد اذنه وكل ماذكر فى القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الاغيار والتوكل على الواحد القهار *(وأما الاخبار)* فقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن مسعود رأيت الامم فى الموسم فرأيت أمتى قد ملؤا السهل والجبل فاعجبتنى كثرتهم وهيأتهم فقيل لى أرضيت قلت نعم قيل ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب قيل من هم يارسول الله قال الذين لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة وقال يارسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اجعله منهم فقام آخر فقال يارسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم فقال صلى الله عليه وسلم سبقك بها عكاشة وقال صلى الله عليه وسلم لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا وقال صلى الله عليه وسلم من انقطع الى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع الى الدنيا وكله الله اليها وقال صلى الله عليه وسلم من سره ان يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما فى يديه ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان اذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا الى الصلاة ويقول

الماء لما يعلم من وقع ذلك وخطره وفلاحه وصلاحه وفساده ويكون ذلك عبدا مرادا بالحظوة بصفو اليقين ومنح الموقنين وأكثر التشوف الى ذلك المقربين ومن أخذ به فى طريقهم ومن أخذ فى طريق الابرار قد يتشوف الى ذلك بعض التشوف لان التشوف اليه يكون على قدر الهمة والطلب والارادة والحظ من الله الكريم ومن هو فى مقام عامة المؤمنين والمسلمين لا يتطلع الى معرفة المتين ولا يهتم بتمييز الخواطر (ومن الخواطر) ماهى رسل الله تعالى الى العبد كما قال بعضهم لى قلب ان عصيته عصيت الله وهذا حال عبد استقام قلبه واستقامة القلب لطمأنينة النفس وفى طمأنينة النفس يأس الشيطان لان النفس كلما تحركت كدرت صفو القلب واذا

بهذا أمرني ربي عزوجل قال عزوجل وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها الآية وقال صلى الله عليه وسلم لم يتوكل من استرقى واكتوى وروى انه لما قال جبريل لابراهيم عليهما السلام وقد رمى الى النار بالمنجنيق ألك حاجة قال أما اليك فلا وفاء بقوله حسبي الله ونعم الوكيل اذ قال ذلك حين أخذ ليرمى فانزل الله تعالى وابراهيم الذى وفى وأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام ياداود مامن عبد يعتصم بى دون خلقى فتكيده السموات والارض الاجعلت له مخرجا *(وأما الآثار)* فقد قال سعيد بن جبير لدغتنى عقرب فاقسمت على أمى لتسترقين فناولت الراقى يدى التى لم تلدغ وقرأ الخواص قوله تعالى وتوكل على الحى الذى لايموت الى آخرها فقال ماينبغى للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ الى أحد غير الله تعالى وقيل لبعض العلماء فى منامه من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته وقال بعض العلماء لايشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل فتضيع أمر آخرتك ولا تنال من الدنيا الا ماقد كتب الله لك وقال يحيى بن معاذ فى وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على ان الرزق مامور بطلب العبد وقال ابراهيم بن أدهم سألت بعض الرهبان من أين تأكل فقال لى ليس هذا العلم عندى ولكن سل ربى من أين يطعمنى وقال هرم بن حيان لاويس القرنى أين تامرنى أن أكون فاوما الى الشام قال هرم كيف المعيشة قال أويس اف لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة وقال بعضهم متى رضيت بالله وكيلا وجدت الى كل خير سبيلا نسأل الله تعالى حسن الادب

(بيان حقيقة التوحيد الذى هو أصل التوكل)

اعلم أن التوكل من أبواب الايمان وجميع أبواب الايمان لاتنتظم الابعلم وحال وعمل والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الاصل وعمل هو الثمرة وحال هو المراد باسم التوكل * فلنبدأ ببيان العلم الذى هو الاصل وهو المسمى ايمانا فى أصل اللسان اذ الايمان هو التصديق وكل تصديق بالقلب فهو علم واذا قوى سمى يقينا ولكن أبواب اليقين كثيرة ونحن انما نحتاج منها الى ماننبنى عليه التوكل وهو التوحيد الذى يترجمه قولك لااله الا الله وحده لاشريك له والايمان بالقدرة التى يترجم عنها قولك له الملك والايمان بالجود والحكمة الذى يدل عليه قولك وله الحمد فمن قال لااله الا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير تم له الايمان الذى هو أصل التوكل أعنى أن يصير معنى هذا القول وصفا لازما لقلبه غالبا عليه فاما التوحيد فهو الاصل والقول فيه يطول وهو من علم المكاشفة ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالاعمال بواسطة الاحوال ولا يتم علم المعاملة الابها فاذا لانتعرض الا للقدر الذى يتعلق بالمعاملة والافالتوحيد هو البحر الخضم الذى لاساحل له فنقول للتوحيد أربع مراتب وهو ينقسم الى لب والى لب اللب والى قشر والى قشر القشر ولنمثل ذلك تقريبا الى الافهام الضعيفة بالجوز فى قشرته العليا فان له قشرتين وله لب وللب دهن هو لب اللب فالرتبة الاولى من التوحيد هى أن يقول الانسان بلسانه لااله الا الله وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين والثانية أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام والثالثة أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين وذلك بان يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار والرابعة أن لايرى فى الوجود الا واحدا وهى مشاهدة الصديقين وتسميه الصوفية الفناء فى التوحيد لانه من حيث لايرى الا واحدا فلا يرى نفسه أيضا واذا لم ير نفسه لكونه مستغرقا بالتوحيد كان فانيا عن نفسه فى توحيده بمعنى انه فنى عن رؤية نفسه والخلق فالاول موحد بمجرد اللسان ويعصم ذلك صاحبه فى الدنيا عن السيف والسنان والثانى موحد بمعنى انه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب فى الآخرة ان توفى عليه ولم تضعف بالمعاصى عقدته ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله تسمى بدعة وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصد بها أيضا احكام هذه العقدة وشدها على القلب وتسمى كلاما والعارف به يسمى متكلما وهو فى مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام وقد يخص المتكلم باسم الموحد من حيث انه يحمى بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لاتنحل عقدته والثالث موحد بمعنى انه لم يشاهد الافاعلا واحدا اذ انكشف له

تكدر وطمع الشيطان وقرب منه لان صفاء القلب محفوف بالتذكر والرعاية والذكر نور يتقيه الشيطان كاتقاء أحدنا النار (وقد ورد) فى الخبر ان الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فاذا ذكر الله تعالى تولى وخنس واذا غفل التقم قلبه فحدثه ومناه وقال الله تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وقال الله تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذاهم مبصرون فبالتقوى وجود خالص الذكر وبه ينفتح بابه ولا يزال العبد يتقى حتى يحمى الجوارح من المكاره ثم يحميها من الفضول وما لا يعنيه فتصير أقواله وأفعاله ضرورة ثم تنتقل تقواه الى باطنه ويطهر الباطن ويقيده عن المكاره ثم من الفضول حتى يتقى حديث النفس (قال

الحق كما هو عليه ولا يرى فاعلا بالحقيقة الا واحدا وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه لا انه كلف قلبه أن يعقد
على مفهوم لفظ الحقيقة فان تلك رتبة العوام والمتكلمين اذ لم يفارق المتكلم العامي في الاعتقاد بل في صنعة تلفيق
الكلام الذي به يدفع حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة والرابع موحد بمعنى انه لم يحضر في شهوده غير الواحد
فلا يرى الكل من حيث انه كثير بل من حيث انه واحد وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد فالاول كالقشرة
العليا من الجوز والثاني كالقشرة السفلى والثالث كاللب والرابع كالدهن المستخرج من اللب وكما أن القشرة
العليا من الجوز لا خير فيها بل ان أكل فهو مر المذاق وان نظر الى باطنه فهو كريه المنظر وان اتخذ حطبا اطفأ
النار وأكثر الدخان وان ترك في البيت ضيق المكان فلا يصلح الا أن يترك مدة على الجوز للصون ثم يرمى به عنه
فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن لكنه
ينفع مدة في حفظ القشرة السفلى الى وقت الموت والقشرة السفلى هي القلب والبدن وتوحيد المنافق يصون
بدنه عن سيف الغزاة فانهم لم يؤمروا بشق القلوب والسيف انما يصيب جسم البدن وهو القشرة وانما يتجرد
عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالاضافة الى القشرة العليا فانها
تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار واذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطبا لكنها نازلة القدر بالاضافة
الى اللب وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالاضافة الى مجرد نطق اللسان ناقص القدر بالاضافة الى
الكشف والمشاهدة التي تحصل بانشراح الصدر وانفساحه واشراق نور الحق فيه اذ ذلك الشرح هو المراد بقوله
تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام وبقوله عز وجل أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من
ربه وكما أن اللب نفيس في نفسه بالاضافة الى القشر وكله المقصود ولكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالاضافة الى
الدهن المستخرج منه فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات
الى الكثرة بالاضافة الى من لا يشاهد سوى الواحد الحق فان قلت كيف يتصور أن لا يشاهد الا واحدا وهو
يشاهد السماء والارض وسائر الاجسام المحسوسة وهي كثيرة فكيف يكون الكثير واحدا فاعلم أن هذه غاية
علوم المكاشفات وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب فقد قال العارفون افشاء سر الربوبية كفر ثم
هو غير متعلق بعلم المعاملة نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك ممكن وهو أن الشيء قد يكون كثيرا بنوع
مشاهدة واعتبار ويكون واحدا بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار وهذا كما أن الانسان كثير ان التفت الى
روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد اذ نقول انه
انسان واحد فهو بالاضافة الى الانسانية واحد وكم من شخص يشاهد انسانا ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه
وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه والفرق بينهما انه في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد
ليس فيه تفريق وكأنه في عين الجمع والملتفت الى الكثرة في تفرقة فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق
له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد وباعتبارات أخر سواه كثير
وبعضها أشد كثرة من بعض ومثال الانسان وان كان لا يطابق الغرض ولكنه ينبه في الجملة على كيفية مصير
الكثرة في حكم المشاهدة واحدا ويستبين بهذا الكلام ترك الانكار والجحود لمقام لم تبلغه وتؤمن به ايمان
تصديق فيكون لك من حيث انك مؤمن بهذا التوحيد نصيب وان لم يكن ما آمنت به صفتك كما أنك اذا آمنت
بالنبوة وان لم تكن نبيا كان لك نصيب منه بقدر قوة ايمانك وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها الا الواحد الحق تارة
تدوم وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو الاكثر والدوام نادر عزيز والى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج
حيث رأى الخواص يدور في الاسفار فقال فيماذا أنت فقال أدور في الاسفار لاصحح حالتي في التوكل وقد كان من
المتوكلين فقال الحسين قد أفنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد فكأن الخواص كان في تصحيح
المقام الثالث في التوحيد فطالبه بالمقام الرابع فهذه مقامات الموحدين في التوحيد على سبيل الاجمال فان قلت
فلا بد لهذا من شرح بقدر ما يفهم كيفية ابتناء التوكل عليه فأقول أما الرابع فلا يجوز الخوض في بيانه وليس
التوكل أيضا مبنيا عليه بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث وأما الاول وهو النفاق فواضح وأما الثاني وهو

سهل بن عبد الله) أسوأ
المعاصي حديث النفس
و يرى الاصغاء الى
ما تحدث به النفس ذنبا
فيتقيه و يتقد القلب
عند هذا الاتقاء بالذكر
اتقاد الكواكب في كبد
السماء و يصير القلب
سماء محفوظا بزينة
كواكب الذكر فاذا
صار كذلك بعد الشيطان
ومثل هذا العبد يبتلى
في حقه بالخواطر
الشيطانية ولماته ويكون
له خواطر النفس
ويحتاج الى أن يتقيها
أو يميزها بالعلم لان منها
خواطر لا يضر امضاؤها
كمطالبات النفس
بحاجاتها وحاجاتها تنقسم
الى الحقوق والحظوظ
ويتعين التمييز عند ذلك
والتمام النفس بمطالبات
الحظوظ قال الله تعالى
يا أيها الذين آمنوا ان
جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا
أي فتثبتوا (وسبب
نزول الآية في الوليد بن
عقبة حيث بعثه رسول

الاعتقاد فهو موجود في عموم المسلمين وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل المبتدعة فيه مذكور في علم الكلام وقد ذكرنا في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر المهم منه وأما الثالث فهو الذي ينبني عليه التوكل اذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لا يورث حال التوكل فلنذكر منه القدر الذي يرتبط التوكل به دون تفصيله الذي لا يحتمله أمثال هذا الكتاب وحاصله أن ينكشف لك أن لا فاعل الا الله تعالى وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر الى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم فالمنفرد بابداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه واذا انكشف لك هذا لم تنظر الى غيره بل كان منه خوفك واليه رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك فانه الفاعل على الانفراد دون غيره وما سواه مسخرون لا استقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والارض واذا انفتحت لك أبواب المكاشفة اتضح لك هذا اتضاحا أتم من المشاهدة بالبصر وانما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد في مقام يبتغي به أن يطرق الى قلبك شائبة الشرك بسببين أحدهما الالتفات الى اختيار الحيوانات والثاني الالتفات الى الجمادات أما الالتفات الى الجمادات فكاعتمادك على المطر في خروج الزرع ونباته ونمائه وعلى الغيم في نزول المطر وعلى البرد في اجتماع الغيم وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها وهذا كله شرك في التوحيد وجهل بحقائق الامور ولذلك قال تعالى فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون قيل معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجونا ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه علم أن الريح هو الهواء والهواء لا يتحرك بنفسه ما لم يحركه محرك وكذلك محركه وهكذا الى أن ينتهي الى المحرك الاول الذي لا محرك له ولا هو متحرك في نفسه عز وجل فالتفات العبد في النجاة الى الريح يضاهي التفات من أخذ لتحز رقبته فكتب الملك توقيعا بالعفو عنه وتخليته فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذي به كتب التوقيع يقول لولا القلم لما تخلصت فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم وهو غاية الجهل ومن علم أن القلم لا حكم له في نفسه وانما هو مسخر في يد الكاتب لم يلتفت اليه ولم يشكر الا الكاتب بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يخطر بباله القلم والحبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم والارض وكل حيوان وجماد مسخرات في قبضة القدرة كتسخير القلم في يد الكاتب بل هذا تمثيل في حقك لاعتقادك أن الملك الموقع هو كاتب التوقيع والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى فاذا انكشف لك أن جميع ما في السموات والارض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائبا وأيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك فأتاك في المهلكة الثانية وهي الالتفات الى اختيار الحيوانات في الافعال الاختيارية ويقول كيف ترى الكل من الله وهذا الانسان يعطيك رزقك باختياره فان شاء أعطاك وان شاء قطع عنك وهذا الشخص هو الذي يحز رقبتك بسيفه وهو قادر عليك ان شاء حز رقبتك وان شاء عفا عنك فكيف لا تخافه وكيف لا ترجوه وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ويقول له أيضا نعم ان كنت لا ترى القلم لانه مسخر فكيف لا ترى الكاتب بالقلم وهو المسخر له وعند هذا زل أقدام الاكثرين الا عباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخرا مضطرا كما شاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخرا وعرفوا أن غلط الضعفاء في ذلك كغلط النملة مثلا لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسود الكاغد ولم يمتد بصرها الى اليد والاصابع فضلا عن صاحب اليد فغلطت وظنت أن القلم هو المسود للبياض وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها فكذلك من لم يشرح بنور الله تعالى صدره للاسلام قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والارض ومشاهدة كونه قاهرا وراء الكل فوقف في الطريق على الكاتب وهو جهل محض بل أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعالى في حقهم كل ذرة في السموات والارض بقدرته التي بها انطق كل شئ حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله تعالى وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق تتكلم بلا حرف ولا صوت لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون ولست أعني به السمع الظاهر الذي لا يجاوز الاصوات فان الحمار شريك فيه ولا قدر لما يشارك فيه البهائم وانما أريد به سمعا يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربي ولا عجمي فان قلت فهذه أعجوبة لا يقبلها العقل فصف لي كيفية نطقها وانها كيف نطقت وبماذا

الله صلى الله عليه وسلم الى بني المصطلق فكذب عليهم ونسبهم الى الكفر والعصيان حتى هم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتالهم ثم بعث خالدا اليهم فسمع أذان المغرب والعشاء ورأى ما يدل على كذب الوليد ابن عقبة فأنزل الله تعالى الآية في ذلك فظاهر الآية وسبب نزولها ظاهر وصار ذلك تنبيها من الله عباده على التثبت في الامور (قال سهل) في هذه الآية الفاسق الكذاب والكذب صفة النفس لانها تملي أشياء وتسول أشياء على غير حقائقها فتعين التثبت عند خاطرها والقائها فيجعل العبد خاطر النفس نبأ يوجب التثبت ولا يستفزه الطبع ولا يستعجله الهوى فقد قال بعضهم أدنى الادب أن تقف عند الجهل وآخر الادب أن تقف عند الشبهة ومن الادب عند الاشتباه انزاله

نطقت وكيف سجدت وقدست وكيف شهدت على نفسها بالعجز فاعلم أن لكل ذرة فى السموات والارض مع أرباب
القلوب مناجاة فى السر وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى فانها كلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذى لا نهاية له قل
لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر الآية ثم انها تتناجى باسرار الملك والملكوت وافشاء السر لؤم بل صدور
الاحرار قبور الاسرار وهل رأيت قط أمينا على أسرار الملك قد نوجى بخفاياه فنادى بسره على ملا من الخلق ولو
جاز افشاء كل سر لنا لما قال صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا بل كان يذكر ذلك لهم
حتى يبكون ولا يضحكون ولما نهى عن افشاء سر القدر ولما قال اذا ذكر النجوم فامسكوا واذا ذكر القدر
فامسكوا واذا ذكر أصحابى فامسكوا ولما خص حذيفة رضى الله عنه ببعض الاسرار فاذا عن حكايات مناجاة ذرات
الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدات مانعان أحدهما استحالة افشاء السر والثانى خروج كلماتها عن الحصر
والنهاية ولكنا فى المثال الذى كنا فيه وهى حركة القلم نحكى من مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الاجمال كيفية
ابتناء التوكل عليه ونرد كلماتها الى الحروف والاصوات وان لم تكن هى حروفا وأصواتا ولكن هى ضرورة
التفهيم فنقول قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد وقد رآه اسود وجهه بالحبر ما بال وجهك
كان أبيض مشرقا والآن قد ظهر عليه السواد فلم سودت وجهك وما السبب فيه فقال الكاغد ما أنصفتنى
فى هذه المقالة فانى ما سودت وجهى بنفسى ولكن سل الحبر فانه كان مجموعا فى المحبرة التى هى مستقره ووطنه
فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهى ظلما وعدوانا فقال صدقت فسأل الحبر عن ذلك فقال ما أنصفتنى فانى
كنت فى المحبرة وادعا ساكنا عازما على أن لا أبرح منها فاعتدى على القلم بطمعه الفاسد واختطفنى من وطنى
وأجلانى عن بلادى وفرق جمعى وبددنى كما ترى على ساحة بيضاء فالسؤال عليه لا على فقال صدقت ثم سأل القلم
عن السبب فى ظلمه وعدوانه واخراج الحبر من أوطانه فقال سل اليد والاصابع فانى كنت قصبا نابتا على شط
الانهار متنزها بين خضرة الاشجار فجاءتنى اليد بسكين فنحتت عنى قشرى ومزقت عنى ثيابى واقتلعتنى من أصلى
وفصلت بين أنابيبى ثم برتنى وشقت رأسى ثم غمستنى فى سواد الحبر ومرارته وهى تستخدمنى وتمشينى على قمة
رأسى ولقد نثرت الملح على جرحى بسؤالك وعتابك فتنح عنى وسل من قهرنى فقال صدقت ثم سأل اليد عن ظلمها
وعدوانها على القلم واستخدامها له فقالت اليد ما أنا الا لحم وعظم ودم وهل رأيت لحما يظلم أو جسما يتحرك بنفسه
وانما أنا مركب مسخر ركبنى فارس يقال له القدرة والعزة فهى التى ترددنى وتجول بى فى نواحى الارض أما ترى
المدر والحجر والشجر لا يتعدى شئ منها مكانه ولا يتحرك بنفسه اذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوى القاهر أما
ترى أيدى الموتى تساوينى فى صورة اللحم والعظم والدم ثم لا معاملة بينها وبين القلم فأنا أيضا من حيث أنا لا معاملة
بينى وبين القلم فسل القدرة عن شأنى فانى مركب أزعجنى من ركبنى فقال صدقت ثم سأل القدرة عن شأنها فى
استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدها فقالت دع عنك لومى ومعاتبتى فكم من لائم ملوم وكم من ملوم لا ذنب
له وكيف خفى عليك أمرى وكيف ظننت أنى ظلمت اليد لما ركبتها وقد كنت لها راكبة قبل التحريك وما كنت
أحركها ولا أستسخرها بل كنت نائمة ساكنة نوما ظن الظانون بى أنى ميتة أو معدومة لانى ما كنت أتحرك ولا
أحرك حتى جاءنى موكل أزعجنى وأرهقنى الى ما تراه منى فكانت لى قوة على مساعدته ولم تكن لى قوة على مخالفته
وهذا الموكل يسمى الارادة ولا أعرفه الا باسمه وهجومه وصياله اذ أزعجنى من غمرة النوم وأرهقنى الى ما كان لى
مندوحة عنه لو خلانى ورأيى فقال صدقت ثم سأل الارادة ما الذى جرأك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة حتى
صرفتها الى التحريك وأرهقتها اليه ارهاقا لم تجد عنه مخلصا ولا مناصا فقالت الارادة لا تعجل على فلعل لنا عذرا
وأنت تلوم فانى ما انتهضت بنفسى ولكن أنهضت وما انبعثت ولكنى بعثت بحكم قاهر وأمر جازم وقد كنت
ساكنة قبل مجيئه ولكن ورد على من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالاشخاص للقدرة فأشخصتها
باضطرار فانى مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ولا أدرى بأى جرم وقفت عليه وسخرت له وألزمت طاعته
لكنى أدرى انى فى دعة وسكون ما لم يرد على هذا الوارد القاهر وهذا الحاكم العادل أو الظالم وقد وقفت عليه
وقفا وألزمت طاعته الزاما بل لا يبقى لى معه مهما انجزم حكمه طاقة على المخالفة لعمرى ما دام هو فى التردد مع نفسه

الخاطر بحرك النفس وخالقها وبارئها وفاطرها واظهار الفقر والفاقة اليه والاعتراف بالجهل وطلب المعرفة والمعونة منه فانه اذا أتى بهذا الادب يغاث ويعان ويتبين له هل الخاطر لطلب حظ أو طلب حق فان كان للحق امضاه وان كان للحظ نفاه وهذا التوقف اذا لم يتبين له الخاطر بظاهر العلم لان الافتقار الى باطن العلم عند فقد الدليل فى ظاهر العلم ثم من الناس من لا يسعه فى صحته الا الوقوف على الحق دون الحظ وان أمضى خاطر الحظ يصير ذلك ذنب حاله فيستغفر منه كما يستغفر من الذنوب ومن الناس من يدخل فى تناول الحظ ويمضى خاطره بمزيد علم لديه من الله وهو علم السعة لعبد مأذون له فى السعة عالم بالاذن فيمضى خاطر الحظ والمراد بذلك على بصيرة من أمره بحسن

والتحير

والتحير في حكمه فانا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه فاذا انجزم حكمه أزعجت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه فسل العلم عن شأني ودع عني عتابك فاني كما قال القائل

متى ترحلت عن قوم وقد قدروا * أن لا تفارقهم فالراحلون هم

فقال صدقت واقبل على العلم والعقل والقلب مطالبا لهم ومعاتبا اياهم على استنهاض الارادة وتسخيرها لاشخاص القدرة فقال العقل أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسي ولكن أشعلت وقال القلب أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكن بسطت وقال العلم أما أنا فنقش نقشت في بياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل وما انخططت بنفسي فكم كان هذا اللوح قبل خاليا عني فسل القلم عني لان الخط لا يكون الا بالقلم فعند ذلك تتعتع السائل ولم يقنعه جواب وقال قد طال تعبي في هذا الطريق وكثرت منازلي ولا يزال يحيلني من طمعت به في معرفة هذا الامر منه على غيره ولكني كنت أطيب نفسا بكثرة الترداد لما كنت أسمع كلاما مقبولا في الفؤاد وعذرا ظاهرا في دفع السؤال فاما قولك اني خط ونقش وانما خطني قلم فلست أفهمه فاني لا أعلم قلما الا من القصب ولا لوحا الا من الحديد أو الخشب ولا خطا الا بالحبر ولا سراجا الا من النار واني لا سمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولا أشاهد من ذلك شيئا أسمع جعجعة ولا أرى طحنا فقال له العلم ان صدقت فيما قلت فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف واعلم ان المهالك في الطريق التي توجهت اليها كثيرة فالصواب لك ان تنصرف وتدع ما أنت فيه فما هذا بعشك فادرج عنه فكل ميسر لما خلق له وان كنت راغبا في استتمام الطريق الى المقصد فالق سمعك وأنت شهيد واعلم ان العوالم في طريقك هذا ثلاثة عالم الملك والشهادة أولها ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة والثاني عالم الملكوت وهو ورائي فاذا جاوزتني انتهيت الى منازله وفيه المهامه الفيح والجبال الشاهقة والبحار المغرقة ولا أدري كيف تسلم فيها والثالث وهو عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت ولقد قطعت منها ثلاث منازل في أوائلها منزل القدرة والارادة والعلم وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت لان عالم الملك أسهل منه طريقا وعالم الملكوت أوعر منه منهجا وانما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي هي في الحركة بين الارض والماء فلا هي في حد اضطراب الماء ولا هي في حد سكون الارض وثباتها وكل من يمشي على الارض يمشي في عالم الملك والشهادة فان جاوزت قوته الى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشي في عالم الجبروت فان انتهى الى أن يمشي على الماء من غير سفينة مشى في عالم الملكوت من غير تتعتع فان كنت لا تقدر على المشي على الماء فانصرف فقد جاوزت الارض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك الا الماء الصافي وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذي يكتب به العلم في لوح القلب وحصول اليقين الذي يمشي به على الماء أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيسى عليه السلام لو ازداد يقينا لمشى على الهواء لما قيل له انه كان يمشي على الماء فقال السالك السائل قد تحيرت في أمري واستشعر قلبي خوفا مما وصفته من خطر الطريق ولست أدري أطيق قطع هذه المهامه التي وصفتها أم لا فهل لذلك من علامة قال نعم افتح بصرك واجمع ضوء عينيك وحدقه نحوي فان ظهر لك القلم الذي به أكتب في لوح القلب فيشبه ان تكون أهلا لهذا الطريق فان كل من جاوز عالم الجبروت وقرع بابا من أبواب الملكوت كوشف بالقلم أما ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم في أول أمره كوشف بالقلم اذ أنزل عليه اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم فقال السالك لقد فتحت بصري وحدقته فوالله ما أرى قصبا ولا خشبا ولا أعلم قلما الا كذلك فقال العلم لقد أبعدت النجعة أما سمعت ان متاع البيت يشبه رب البيت أما علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات فكذلك لا تشبه يده الايدي ولا قلمه الاقلام ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط وهذه أمور الهية من عالم الملكوت فليس الله تعالى في ذاته بجسم ولا هو في مكان بخلاف غيره ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الايدي ولا قلمه من قصب ولا لوحه من خشب ولا كلامه بصوت وحرف ولا خطه رقم ورسم ولا حبره زاج وعفص فان كنت لا تشاهد هذا هكذا فما أراك الا مخنثا بين فحولة التنزيه وأنوثة التشبيه مذبذبا بين هذا وذا لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء فكيف نزهت ذاته وصفاته تعالى عن الاجسام وصفاتها ونزهت كلامه عن

به ذلك ويليق به عالم بزيادته ونقصانه عالم بحاله محكم لعلم الحال وعلم القيام لا يقاس على حاله ولا يدخل فيه بالتقليد لانه أمر خاص لعبد خاص واذا كان شأن العبد تمييز خواطر النفس في مقام تخلصه من لمات الشيطان تكثر لديه خواطر الحق وخواطر الملك وتصير الخواطر الاربعة في حقه ثلاثا ويسقط خاطر الشيطان الا نادر الضيق مكانه من النفس لان الشيطان يدخل بطريق اتساع النفس واتساع النفس باتباع الهوى والاخلاد الى الارض ومن ضايق النفس على التمييز بين الحق والحظ ضاقت نفسه وسقط محل الشيطان الا نادرا لدخول الابتلاء عليه ثم من المرادين المتعلقين بمقام المقربين من اذا صار قلبه سماء مزينا بزينة كوكب الذكر يصير قلبه سماويا يترقى

معانى الحروف والاصوات وأخذت تتوقف فى يده وقلمه ولوحه وخطه فان كنت قد فهمت من قوله صلى الله عليه
وسلم ان الله خلق آدم على صورته الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكن مشبها مطلقا كما يقال كن يهوديا صرفا
والا فلا تلعب بالتوراة وان فهمت منه الصورة الباطنة التى تدرك بالبصائر لا بالابصار فكن منزها صرفا ومقدسا
فحلا واطو الطريق فانك بالواد المقدس طوى واستمع بسر قلبك لما يوحى فلعلك تجد على النار هدى ولعلك من
سرادقات العرش تنادى بما نودى به موسى انى أنا ربك فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه وانه
مخنث بين التشبيه والتنزيه فاشتعل قلبه نارا من حدة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص ولقد كان زيته الذى
فى مشكاة قلبه يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار فلما نفخ فيه العلم بحدته اشتعل زيته فاصبح نورا على نور فقال له العلم اغتنم
الآن هذه الفرصة وافتح بصرك لعلك تجد على النار هدى ففتح بصره فانكشف له القلم الالهى فاذا هو كما وصفه
العلم فى التنزيه ماهو من خشب ولا قصب ولا له رأس ولا ذنب وهو يكتب على الدوام فى قلوب البشر كلهم أصناف
العلوم وكأن له فى كل قلب رأسا ولا رأس له فقضى منه العجب وقال نعم الرفيق العلم فجزاه الله تعالى عنى خيرا اذ
الآن ظهر لى صدق انبائه عن أوصاف القلم فانى أراه قلما لا كالاقلام فعند هذا ودع العلم وشكره وقال قد طال
مقامى عندك ومرادتى لك وأنا عازم على أن أسافر الى حضرة القلم وأسأله عن شأنه فسافر اليه وقال له ما بالك أيها
القلم تخط على الدوام فى القلوب من العلوم ما تبعث به الارادات الى اشخاص القدر وصرفها الى المقدورات فقال
أوقد نسيت ما رأيت فى عالم الملك والشهادة وسمعت من جواب القلم اذ سألته فاحالك على اليد قال لم أنس ذلك قال
فجوابى مثل جوابه قال كيف وأنت لا تشبهه قال القلم أما سمعت أن الله تعالى خلق آدم على صورته قال نعم قال
فسل عن شأنى الملقب بيمين الملك فانى فى قبضته وهو الذى يرددنى وأنا مقهور مسخر فلا فرق بين القلم الالهى وقلم
الآدمى فى معنى التسخير وانما الفرق فى ظاهر الصورة فقال فمن يمين الملك فقال القلم أما سمعت قوله تعالى
والسموات مطويات بيمينه قال نعم قال والاقلام أيضا فى قبضة يمينه هو الذى يرددها فسافر السالك من عنده الى
اليمين حتى شاهده ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم ولا يجوز وصف شئ من ذلك ولا شرحه بل لا تحوى
مجلدات كثيرة عشر عشير وصفه والجملة فيه انه يمين لا كالايمان ويد لا كالايدى واصبع لا كالاصابع فرأى القلم
محركا فى قبضته فظهر له عذر القلم فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم فقال جوابى مثل ما سمعته من اليمين التى
رأيتها فى عالم الشهادة وهى الحوالة على القدرة اذ اليد لا حكم لها فى نفسها وانما محركها القدرة لا محالة فسافر
السالك الى عالم القدرة ورأى فيه من العجائب ما استحقر عندها ما قبله وسألها عن تحريك اليمين فقالت انما أنا
صفة فاسأل القادر اذ العمدة على الموصوفات لا على الصفات وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجراءة لسان
السؤال فثبت بالقول الثابت ونودى من وراء حجاب سرادقات الحضرة لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فغشيته
هيبة الحضرة فخر صعقا يضطرب فى غشيته فلما أفاق قال سبحانك ما أعظم شأنك تبت اليك وتوكلت عليك وآمنت
بانك الملك الجبار الواحد القهار فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ الا بعفوك من عقابك وبرضاك من
سخطك ومالى الا أن أسألك وأتضرع اليك وأبتهل بين يديك فأقول اشرح لى صدرى لأعرفك واحلل عقدة من
لسانى لاثنى عليك فنودى من وراء الحجاب اياك ان تطمع فى الثناء وتزيد على سيد الانبياء بل ارجع اليه فما أتاك
فخذه وما نهاك عنه فانته عنه وما قاله لك فقله فانه ما زاد فى هذه الحضرة على أن قال سبحانك لا أحصى ثناء عليك
أنت كما أثنيت على نفسك فقال الهى ان لم يكن للسان جراءة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع فى معرفتك
فنودى اياك أن تتخطى رقاب الصديقين فارجع الى الصديق الاكبر فاقتد به فان أصحاب سيد الانبياء كالنجوم
بأيهم اقتديتم اهتديتم أما سمعته يقول العجز عن درك الادراك ادراك فيكفيك نصيبا من حضرتنا ان تعرف انك
محروم عن حضرتنا عاجز عن ملاحظة جمالنا وجلالنا فعند هذا رجع السالك واعتذر عن أسئلته ومعاتباته وقال
لليمين والقلم والعلم والارادة والقدرة وما بعدها اقبلوا عذرى فانى كنت غريبا حديث العهد بالدخول فى هذه
البلاد ولكل داخل دهشة فما كان انكارى عليكم الا عن قصور وجهل والآن قد صح عندى عذركم وانكشف لى
أن المنفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار فما أنتم الا مسخرون تحت قهره وقدرته مرددون

ويعرج بباطنه ومعناه
وحقيقته فى طبقات
السموات وكلما ترقى
تتضاءل النفس المطمئنة
وتبعد عنه خواطرها
حتى يجاوز السموات
بعروج باطنه كما كان
ذلك لرسول الله صلى
الله عليه وسلم بظاهره
وقالبه فاذا استكمل
العروج تنقطع عنه
خواطر النفس لتستره
بأنوار القرب وبعد
النفس عنه وعند ذلك
تنقطع عنه خواطر
الحق أيضا لان الخاطر
رسول والرسالة الى من
بعد وهذا قريب وهذا
الذى وصفناه نازل
يستنزل به ولا يدوم بل
يعود فى هبوطه الى
منازل مطالبات النفس
وخواطره فتعود اليه
خواطر الحق وخواطر
الملك وذلك ان الخواطر
تستدعى وجودا وما
أشرنا اليه حال
الفناء ولا خاطر فيه
وخاطر الحق اتنفى
لمكان القرب وخاطر

فى قبضته وهو الاول والآخر والظاهر والباطن فلما ذكر ذلك فى عالم الشهادة استبعد منه ذلك وقيل له كيف يكون هو الاول والآخر وهما وصفان متناقضان وكيف يكون هو الظاهر والباطن فالاول ليس بآخر والظاهر ليس بباطن فقال هو الاول بالاضافة الى الموجودات اذ صدر منه الكل على ترتيبه واحدا بعد واحد وهو الآخر بالاضافة الى سير السائرين اليه فانهم لا يزالون مترقين من منزل الى منزل الى أن يقع الانتهاء الى تلك الحضرة فيكون ذلك آخر السفر فهو آخر فى المشاهدة أول فى الوجود وهو باطن بالاضافة الى العاكفين فى عالم الشهادة الطالبين لادراكه بالحواس الخمس ظاهر بالاضافة الى من يطلبه فى السراج الذى اشتعل فى قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة فى عالم الملكوت فهكذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد فى الفعل أعنى من انكشف له أن الفاعل واحد فان قلت فقد انتهى هذا التوحيد الى أنه يبتنى على الايمان بعالم الملكوت فمن لم يفهم ذلك أو يجحده فما طريقه فاقول أما الجاحد فلا علاج له الا أن يقال له انكارك لعالم الملكوت كانكار السمنية لعالم الجبروت وهم الذين حصروا العلوم فى الحواس الخمس فانكروا القدرة والارادة والعلم لانها لا تدرك بالحواس الخمس فلازموا حضيض عالم الشهادة بالحواس الخمس فان قال وأنا منهم فانى لا أهتدى الا الى عالم الشهادة بالحواس الخمس ولا أعلم شيأ سواه فيقال انكارك لما شاهدناه مما وراء الحواس الخمس كانكار السوفسطائية للحواس الخمس فانهم قالوا ما نراه لا نثق به فلعلنا نراه فى المنام فان قال وأنا من جملتهم فانى شاك أيضا فى المحسوسات فيقال هذا شخص فسد مزاجه وامتنع علاجه فيترك أياما قلائل وما كل مريض يقوى على علاجه الاطباء هذا حكم الجاحد وأما الذى لا يجحد ولكن لا يفهم فطريق السالكين معه أن ينظروا الى عينه التى يشاهد بها عالم الملكوت فان وجدوها صحيحة فى الاصل وقد نزل فيها ماء أسود يقبل الازالة والتنقية اشتغلوا بتنقيته اشتغال الكحال بالابصار الظاهرة فاذا استوى بصره أرشد الى الطريق ليسلكها كما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم بخواص أصحابه فان كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذى ذكرناه فى التوحيد ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرات الملك والملكوت بشهادة التوحيد كلموه بحرف وصوت ونزلوا من ذروة التوحيد الى حضيض فهمه فان فى عالم الشهادة أيضا توحيدا اذ يعلم كل أحد أن المنزل يفسد بصاحبين والبلد يفسد بأميرين فيقال له على حد عقله اله العالم واحد والمدبر واحد اذ لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فيكون ذلك على ذوق ما رآه فى عالم الشهادة فينغرس اعتقاد التوحيد فى قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله وقد كلف الله الانبياء أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ولذلك نزل القرآن بلسان العرب على حد عادتهم فى المحاورة فان قلت فمثل هذا التوحيد الاعتقادى هل يصلح أن يكون عمادا للتوكل وأصلا فيه فاقول نعم فان الاعتقاد اذا قوى عمل عمل الكشف فى اثارة الاحوال الا أنه فى الغالب يضعف ويتسارع اليه الاضطراب والتزلزل غالبا ولذلك يحتاج صاحبه الى متكلم يحرسه بكلامه أو الى أن يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التى تلقفها من أستاذه أو من أبويه أو من أهل بلده وأما الذى شاهد الطريق وسلكه بنفسه فلا يخاف عليه شئ من ذلك بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقينا وان كان يزداد وضوحا كما أن الذى يرى انسانا فى وقت الاسفار لا يزداد يقينا عند طلوع الشمس بأنه انسان ولكن يزداد وضوحا فى تفصيل خلقته وما مثال المكاشفين والمعتقدين الا كسحرة فرعون مع أصحاب السامرى فان سحرة فرعون لما كانوا مطلعين على منتهى تأثير السحر لطول مشاهدتهم وتجربتهم رأوا من موسى عليه السلام ما جاوز حدود السحر وانكشف لهم حقيقة الامر فلم يكترثوا بقول فرعون لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف بل قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا فان البيان والكشف يمنع التغيير وأما أصحاب السامرى لما كان ايمانهم عن النظر الى ظاهر الثعبان فلما نظروا الى عجل السامرى وسمعوا خواره تغيروا وسمعوا قوله هذا الهكم واله موسى ونسوا أنه لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا فكل من آمن بالنظر الى ثعبان يكفر لا محالة اذا نظر الى عجل لان كليهما من عالم الشهادة والاختلاف والتضاد فى عالم الشهادة كثير وأما عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى فلذلك لا تجد فيه اختلافا وتضادا أصلا فان قلت ما ذكرته من التوحيد ظاهر مهما ثبت أن الوسائط والاسباب مسخرات وكل ذلك ظاهر الا فى حركات الانسان فانه يتحرك ان شاء ويسكن

النفس بعد عنه لبعد النفس وخاطر الملك تخلف عنه كتخلف جبريل فى ليلة المعراج عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال لو دنوت انملة لاحترقت * قال محمد بن على الترمذى المحدث والمكلم اذا تحقق فى درجتهما لم يخافا من حديث النفس (فكما) ان النبوة محفوظة من القاء الشيطان كذلك محل المكالمة والمحادثة محفوظ من القاء النفس وفتنتها ومحروس بالحق والسكينة لان السكينة تجاب المكلم والمحدث مع نفسه (وسمعت) الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصرى بالبصرة يقول الخواطر أربعة خاطر من النفس وخاطر من الحق وخاطر من الشيطان وخاطر من الملك فاما الذى من النفس فيحس به من أرض القلب والذى

ان شاء فكيف يكون مسخرا فاعلم انه لو كان مع هذا يشاء ان أراد أن يشاء ولا يشاء ان لم يرد أن يشاء لكان هذا مزلة القدم وموقع الغلط ولكن علم انه يفعل ما يشاء اذا شاء ان يشأ أم لم يشأ فليست المشيئة اليه اذ لو كانت اليه لافتقرت الى مشيئة أخرى وتسلسل الى غير نهاية واذا لم تكن اليه المشيئة فمهما وجدت المشيئة التى تصرف القدرة الى مقدورها انصرفت القدرة لامحالة ولم يكن لها سبيل الى المخالفة فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة والقدرة متحركة ضرورة عند انجزام المشيئة والمشيئة تحدث ضرورة فى القلب فهذه ضرورات ترتب بعضها على بعض وليس للعبد أن يدفع وجود المشيئة ولا انصراف القدرة الى المقدور بعدها ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة فهو مضطر فى الجميع فان قلت فهذا جبر محض والجبر يناقض الاختيار وأنت لا تنكر الاختيار فكيف يكون مجبورا مختارا فاقول لو انكشف الغطاء لعرفت انه فى عين الاختيار مجبور فهو اذا مجبور على الاختيار فكيف يفهم هذا من لا يفهم الاختيار فلنشرح الاختيار بلسان المتكلمين شرحا وجيزا يليق بما ذكر متطفلا وتابعا فان هذا الكتاب لم نقصد به الا علم المعاملة ولكنى أقول لفظ الفعل فى الانسان يطلق على ثلاثة أوجه اذ يقال الانسان يكتب بالاصابع ويتنفس بالرئة والحنجرة ويخرق الماء اذا وقف عليه بجسمه فينسب اليه الخرق فى الماء والتنفس والكتابة وهذه الثلاثة فى حقيقة الاضطرار والجبر واحد ولكنها تختلف وراء ذلك فى أمور فاعرب لك عنها بثلاث عبارات فنسمى خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فعلا طبيعيا ونسمى تنفسه فعلا اراديا ونسمى كتابته فعلا اختياريا والجبر ظاهر فى الفعل الطبيعى لانه مهما وقف على وجه الماء أو تخطى من السطح للهواء انخرق الهواء لامحالة فيكون الخرق بعد التخطى ضروريا والتنفس فى معناه فان نسبة حركة الحنجرة الى ارادة التنفس كنسبة انخراق الماء الى ثقل البدن فمهما كان الثقل موجودا وجد الانخراق بعده وليس الثقل اليه وكذلك الارادة ليست اليه ولذلك لو قصد عين الانسان بابرة طبق الاجفان اضطرارا ولو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر مع أن تغميض الاجفان اضطرارا فعل ارادى ولكنه اذا تمثل صورة الابرة فى مشاهدته بالادراك حدثت الارادة بالتغميض ضرورة وحدثت الحركة بها ولو اراد أن يترك ذلك لم يقدر عليه مع انه فعل بالقدرة والارادة فقد التحق هذا بالفعل الطبيعى فى كونه ضروريا وأما الثالث وهو الاختيارى فهو مظنة الالتباس كالكتابة والنطق وهو الذى يقال فيه ان شاء فعل وان شاء لم يفعل وتارة يشاء وتارة لا يشاء فيظن من هذا ان الامر اليه وهذا الجهل بمعنى الاختيار فلنكشف عنه وبيانه أن الارادة تبع للعلم الذى يحكم بان الشئ موافق لك والاشياء تنقسم الى ما تحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بانه يوافقك من غير تحير وتردد والى ما قد يتردد العقل فيه فالذى تقطع به من غير تردد أن يقصد عينك مثلا بابرة أو بدنك بسيف فلا يكون فى علمك تردد فى ان دفع ذلك خير لك وموافق فلا جرم تنبعث الارادة بالعلم والقدرة بالارادة وتحصل حركة الاجفان بالدفع وحركة اليد بدفع السيف ولكن من غير روية وفكرة ويكون ذلك بالارادة ومن الاشياء ما يتوقف التمييز والعقل فيه فلا يدرى انه موافق أم لا فيحتاج الى روية وفكر حتى يتميز أن الخير فى الفعل أو الترك فاذا حصل بالفكر والروية العلم بان أحدهما خير التحق ذلك بالذى يقطع به من غير روية وفكر فانبعثت الارادة ههنا كما تنبعث لدفع السيف والسنان فاذا انبعثت لفعل ما ظهر للعقل انه خير سميت هذه الارادة اختيارا مشتقا من الخير أى هو انبعاث الى ما ظهر للعقل انه خير وهو عين تلك الارادة ولم ينتظر فى انبعاثها الى ما انتظرت تلك الارادة وهو ظهور خيرية الفعل فى حقه الا ان الخيرية فى دفع السيف ظهرت من غير روية بل على البديهة وهذا افتقر الى الروية فالاختيار عبارة عن ارادة خاصة وهى التى انبعثت باشارة العقل فيما له فى ادراكه توقف وعن هذا قيل ان العقل يحتاج اليه للتمييز بين خير الخيرين وشر الشرين ولا يتصور أن تنبعث الارادة الا بحكم الحس والتخييل أو بحكم جزم من العقل ولذلك لو أراد الانسان ان يحز رقبة نفسه مثلا لم يمكنه لا لعدم القدرة فى اليد ولا لعدم السكين ولكن لفقد الارادة الداعية المشخصة للقدرة وانما فقدت الارادة لانها تنبعث بحكم العقل أو الحس بكون الفعل موافقا وقتله نفسه ليس موافقا له فلا يمكنه مع قوة الاعضاء ان يقتل نفسه الا اذا كان فى عقوبة مؤلمة لا تطاق فان العقل هنا يتوقف فى الحكم ويتردد لانه تردد بين شر الشرين فان ترجح له بعد الروية

ان

من الحق من فوق القلب والذى من الملك عن يمين القلب والذى من الشيطان عن يسار القلب والذى ذكره انما يصح لعبد أذاب نفسه بالتقوى والزهد وتصفى وجوده واستقام ظاهره وباطنه فيكون قلبه كالمرآة المجلوة لا يأتيه الشيطان من ناحية الا ويبصره فاذا اسود القلب وعلاه الرين لا يبصر الشيطان (روى) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان العبد اذا أذنب نكتت فى قلبه نكتة سوداء فان هو نزع واستغفر وتاب صقل وان عاد زيد فيه حتى تعلو قلبه قال الله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون سمعت بعض العارفين يقول كلاما دقيقا كوشف به فقال الحديث فى باطن الانسان والخيال الذى تراآى لباطنه وتخيل بين القلب وصفاء الذكر هو

ان ترك القتل أقل شرا لم يمكنه قتل نفسه وان حكم بان القتل أقل شرا وكان حكمه جزما لاميل فيه ولا صارف منه انبعثت الارادة والقدرة وأهلك نفسه كالذى يتبع بالسيف للقتل فانه يرمى بنفسه من السطح مثلا وان كان مهلكا ولا يبالى ولا يمكنه أن لا يرمى نفسه فان كان يتبع بضرب خفيف فان انتهى الى طرف السطح حكم العقل بان الضرب أهون من الرمى فوقفت أعضاؤه فلا يمكنه أن يرمى نفسه ولا تنبعث له داعية البتة لان داعية الارادة مسخرة بحكم العقل والحس والقدرة مسخرة للداعية والحركة مسخرة للقدرة والكل مقدر بالضرورة فيه من حيث لا يدرى فانما هو محل ومجرى لهذه الامور فاما ان يكون منه فكلا ولا فاذا معنى كونه مجبورا ان جميع ذلك حاصل فيه من غيره لا منه ومعنى كونه مختارا انه محل لارادة حدثت فيه جبرا بعد حكم العقل بكون الفعل خيرا محضا موافقا وحدث الحكم أيضا جبرا فاذا هو مجبور على الاختيار ففعل النار فى الاحراق مثلا جبر محض وفعل الله تعالى اختيار محض وفعل الانسان على منزلة بين المنزلتين فانه جبر على الاختيار فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة لانه لما كان فنا ثالثا واتبعوا فيه بكتاب الله تعالى فسموه كسبا وليس مناقضا للجبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه وفعل الله تعالى يسمى اختيارا بشرط أن لا يفهم من الاختيار ارادة بعد تحير وتردد فان ذلك فى حقه محال وجميع الالفاظ المذكورة فى اللغات لا يمكن أن تستعمل فى حق الله تعالى الا على نوع من الاستعارة والتجوز وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم ويطول القول فيه فان قلت فهل تقول ان العلم ولد الارادة والارادة ولدت القدرة والقدرة ولدت الحركة وان كل متأخر حدث من المتقدم فان قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شئ لا من قدرة الله تعالى وان أبيت ذلك فما معنى ترتب البعض من هذا على البعض فاعلم أن القول بان بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض سواء عبر عنه بالتولد أو بغيره بل حوالة جميع ذلك على المعنى الذى يعبر عنه بالقدرة الازلية وهو الاصل الذى لم يقف كافة الخلق عليه الا الراسخون فى العلم فانهم وقفوا على كنه معناه والكافة وقفوا على مجرد لفظه مع نوع تشبيه بقدرتنا وهو بعيد عن الحق وبيان ذلك يطول ولكن بعض المقدورات مترتب على البعض فى الحدوث ترتب المشروط على الشرط فلا تصدر من القدرة الازلية ارادة الا بعد علم ولا علم الا بعد حياة ولا حياة الا بعد محل الحياة وكما لا يجوز أن يقال الحياة تحصل من الجسم الذى هو شرط الحياة فكذلك فى سائر درجات الترتيب ولكن بعض الشروط ربما ظهرت للعامة وبعضها لم يظهر الا للخواص المكاشفين بنور الحق والا فلا يتقدم متقدم ولا يتأخر متأخر الا بالحق واللزوم وكذلك جميع أفعال الله تعالى ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثا يضاهى فعل المجانين تعالى الله عن قول الجاهلين علوا كبيرا والى هذا أشار قوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وقوله تعالى وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما الا بالحق فكل ما بين السماء والارض حادث على ترتيب واجب وحق لازم لا يتصور أن يكون الا كما حدث وعلى هذا الترتيب الذى وجد فما تأخر متأخر الا لانتظار شرطه والمشروط قبل الشرط محال والمحال لا يوصف بكونه مقدورا فلا يتأخر العلم عن النطفة الا لفقد شرط الحياة ولا تتأخر عنها الارادة بعد العلم الا لفقد شرط العلم وكل ذلك منهاج الواجب وترتيب الحق ليس فى شئ من ذلك لعب واتفاق بل كل ذلك بحكمة وتدبير وتفهيم ذلك عسير ولكنا نضرب لتوقف المقدور مع وجود القدرة على وجود الشرط مثالا يقرب مبادى الحق من الافهام الضعيفة وذلك بان تقدر انسانا محدثا قد انغمس فى الماء الى رقبته فالحدث لا يرتفع عن أعضائه وان كان الماء هو الرافع وهو ملاق له فقدر القدرة الازلية حاضرة ملاقية للمقدورات متعلقة بها ملاقاة الماء للاعضاء ولكن لا يحصل بها المقدور كما لا يحصل رفع الحدث بالماء انتظارا للشرط وهو غسل الوجه فاذا وضع الواقف فى الماء وجهه على الماء عمل الماء فى سائر أعضائه وارتفع الحدث فربما يظن الجاهل ان الحدث ارتفع عن اليدين برفعه عن الوجه لانه حدث عقيبه اذ يقول كان الماء ملاقيا ولم يكن رافعا والماء لم يتغير عما كان فكيف حصل منه ما لم يحصل من قبل بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند غسل الوجه فاذا غسل الوجه هو الرافع للحدث عن اليدين وهو جهل يضاهى ظن من يظن ان الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالارادة والارادة بالعلم وكل ذلك خطأ بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء الملاقى لها لا بغسل الوجه والماء لم يتغير واليد لم تتغير ولم

من القلب وليس هو من النفس وهذا بخلاف ما تقرر فسألته عن ذلك فذكر ان بين القلب والنفس منازعات ومحادثات وتألفا وتوددا وكلما انطلقت النفس فى شئ بهواها من القول والفعل تأثر القلب بذلك وتكدر فاذا عاد العبد من مواطن مطالبات النفس واقبل على ذكره ومحل مناجاته وخدمته لله تعالى اقبل القلب بالمعاتبة للنفس وذكر النفس شيأ شيأ من فعلها وقولها كاللائم للنفس والمعاتب لها على ذلك فاذا كان الخاطر أول الفعل ومفتتحه فعرفته من أهم شان العبد لان الافعال من الخواطر تنشأ حتى ذهب بعض العلماء الى ان العلم المفترض طلبه بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم هو علم الخواطر قال لانها أول الفعل

يحدث فيهما شئ ولكن حدث وجود الشرط فظهر أثر العلة فهكذا ينبغي أن تفهم صدور المقدرات عن القدرة الأزلية مع أن القدرة قديمة والمقدورات حادثة وهذا قرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكاشفات فلنترك جميع ذلك فإن مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد في الفعل فإن الفاعل بالحقيقة واحد فهو المخوف والمرجو وعليه التوكل والاعتماد ولم نقدر على أن نذكر من بحار التوحيد إلا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد واستيفاء ذلك في عمر نوح محال كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه وكل ذلك ينطوي تحت قول لا إله إلا الله وما أخف مؤنته على اللسان وما أسهل اعتقاد مفهوم لفظه على القلب وما أعز حقيقته ولبه عند العلماء الراسخين في العلم فكيف عند غيرهم فإن قلت فكيف الجمع بين التوحيد والشرع ومعنى التوحيد أن لا فاعل إلا الله تعالى ومعنى الشرع إثبات الأفعال للعباد فإن كان العبد فاعلا فكيف يكون الله تعالى فاعلا وإن كان الله تعالى فاعلا فكيف يكون العبد فاعلا ومفعول بين فاعلين غير مفهوم فأقول نعم ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنى واحد وإن كان له معنيان ويكون الاسم مجملا مرددا بينهما لم يتناقض كما يقال قتل الأمير فلانا ويقال قتله الجلاد ولكن الأمير قاتل بمعنى والجلاد قاتل بمعنى آخر فكذلك العبد فاعل بمعنى والله عز وجل فاعل بمعنى آخر فمعنى كون الله تعالى فاعلا أنه المخترع الموجد ومعنى كون العبد فاعلا أنه المحل الذي خلق فيه القدرة بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم فارتبطت القدرة بالإرادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط وارتبط بقدرة الله ارتباط المعلول بالعلة وارتباط المخترع بالمخترع وكل ما له ارتباط بقدرة فإن محل القدرة يسمى فاعلا له كيفما كان الارتباط كما يسمى الجلاد قاتلا والأمير قاتلا لأن القتل ارتبط بقدرتهما ولكن على وجهين مختلفين فلذلك سمي فعلا لهما فكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الأفعال في القرآن مرة إلى الملائكة ومرة إلى العباد ونسبها بعينها مرة أخرى إلى نفسه فقال تعالى في الموت قل يتوفاكم ملك الموت ثم قال عز وجل الله يتوفى الأنفس حين موتها وقال تعالى أفرأيتم ما تحرثون أضاف إلينا ثم قال تعالى أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقال عز وجل فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا ثم قال تعالى فنفخنا فيه من روحنا وكان النافخ جبريل عليه السلام وكما قال تعالى فإذا قرأناه فاتبع قرآنه قيل في التفسير معناه إذا قرأه عليك جبريل وقال تعالى قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه والتعذيب هو عين القتل بل صرح وقال تعالى فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وقال تعالى وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وهو جمع بين النفي والإثبات ظاهرا ولكن معناه وما رميت بالمعنى الذي يكون الرب به راميا إذ رميت بالمعنى الذي يكون العبد به راميا إذ هما معنيان مختلفان وقال الله تعالى الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ثم قال الرحمن علم القرآن وقال علمه البيان وقال إن علينا بيانه وقال أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف ملك الأرحام إنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة في يده ثم يصورها جسدا فيقول يا رب أذكر أم أنثى أسوي أم معوج فيقول الله تعالى ما شاء ويخلق الملك وفي لفظ آخر ويصور الملك ثم ينفخ فيه الروح بالسعادة أو بالشقاوة وقد قال بعض السلف إن الملك الذي يقال له الروح هو الذي يولج الأرواح في الأجساد وإنه يتنفس بوصفه فيكون كل نفس من أنفاسه روحا يلج في جسم ولذلك سمي روحا وما ذكره في مثل هذا الملك وصفته فهو حق شاهده أرباب القلوب ببصائرهم فأما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم إلا بالنقل والحكم به دون النقل تخمين مجرد وكذلك ذكر الله تعالى في القرآن من الأدلة والآيات في الأرض والسموات ثم قال أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد وقال شهد الله أنه لا إله إلا هو فبين أنه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضا بل طرق الاستدلال مختلفة فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى كما قال بعضهم عرفت ربي بربي ولولا ربي لما عرفت ربي وهو معنى قوله تعالى أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه المحيي والمميت ثم فوض الموت والحياة إلى ملكين ففي الخبر أن ملكي الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت أنا أميت الأحياء وقال ملك الحياة أنا أحيي الموتى فأوحى الله تعالى إليهما كونا على عملكما وما سخرتكما له من الصنع وأنا المميت والمحيي لا يميت ولا يحيي سواي فإذا الفعل يستعمل

على

وبفسادها فساد الفعل وهذا العمري لا يتوجه لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوجب ذلك على كل مسلم وليس كل المسلمين عندهم من القريحة والمعرفة ما يعرفون به ذلك ولكن يعلم الطالب أن الخواطر بمثابة البذر فمنها ما هو بذر السعادة ومنها ما هو بذر الشقاوة (وسبب) اشتباه الخواطر أحد أربعة أشياء لا خامس لها إما ضعف اليقين أو قلة العلم بمعرفة صفات النفس وأخلاقها أو متابعة الهوى بخرم قواعد التقوى أو محبة الدنيا جاهها ومالها وطلب الرفعة والمنزلة عند الناس فمن عصم عن هذه الأربعة يفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان ومن ابتلي بها لا يعلمها ولا يطلبها وانكشاف بعض الخواطر دون البعض لوجود بعض هذه الأربعة دون البعض

على وجوه مختلفة فلا تناقض هذه المعانى اذا فهمت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للذى ناوله التمرة خذها ولو لم تأتها لاتتك أضاف الاتيان اليه والى التمرة ومعلوم ان التمرة لا تاتى على الوجه الذى ياتى الانسان اليها وكذلك لما قال التائب أتوب الى الله تعالى ولا أتوب الى محمد فقال صلى الله عليه وسلم عرف الحق لاهله فكل من أضاف الكل الى الله تعالى فهو المحقق الذى عرف الحق والحقيقة ومن أضافه الى غيره فهو المتجوز والمستعير فى كلامه وللتجوز وجه كما أن للحقيقة وجها واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع ولكن ظن أن الانسان مخترع بقدرته فسماه فاعلا بحركته وظن انه تحقيق وتوهم أن نسبته الى الله تعالى على سبيل المجاز مثل نسبة القتل الى الامير فانه مجاز بالاضافة الى نسبته الى الجلاد فلما انكشف الحق لاهله عرفوا أن الامر بالعكس وقالوا ان الفاعل قد وضعته أيها اللغوى للمخترع فلا فاعل الا الله فالاسم له بالحقيقة ولغيره بالمجاز أى تجوز به عما وضعه اللغوى له ولما جرى حقيقة المعنى على لسان بعض الاعراب قصدا أو اتفاقا صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصدق بيت قاله الشاعر قول لبيد * ألا كل شئ ما خلا الله باطل * أى كل مالا قوام له بنفسه وانما قوامه بغيره فهو باعتبار نفسه باطل وانما حقيته وحقيقته بغيره لا بنفسه فاذا لا حق بالحقيقة الا الحى القيوم الذى ليس كمثله شئ فانه قائم بذاته وكل ماسواه قائم بقدرته فهو الحق وماسواه باطل ولذلك قال سهل يامسكين كان ولم تكن ويكون ولا تكون فلما كنت اليوم صرت تقول أنا وأنا كن الآن كما لم تكن فانه اليوم كما كان فان قلت فقد ظهر الآن أن الكل جبر فما معنى الثواب والعقاب والغضب والرضا وكيف غضبه على فعل نفسه فاعلم أن معنى ذلك قد أشرنا اليه فى كتاب الشكر فلا نطول باعادته فهذا هو القدر الذى رأينا الرمز اليه من التوحيد الذى يورث حال التوكل ولا يتم هذا الا بالايمان بالرحمة والحكمة فان التوحيد يورث النظر الى مسبب الاسباب والايمان بالرحمة وسعتها هو الذى يورث الثقة بمسبب الاسباب ولا يتم حال التوكل كما سيأتى الا بالثقة بالوكيل وطمأنينة القلب الى حسن نظر الكفيل وهذا الايمان أيضا باب عظيم من أبواب الايمان وحكاية طريق المكاشفين فيه تطول فلنذكر حاصله ليعتقده الطالب لمقام التوكل اعتقادا قاطعا لا يستريب فيه وهو أن يصدق تصديقا يقينيا لاضعف فيه ولا ريب أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم وخلق لهم من العلم ماتحتمله نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة مالا منتهى لوصفها ثم زاد مثل عدد جميعهم علما وحكمة وعقلا ثم كشف لهم عن عواقب الامور وأطلعهم على أسرار الملكوت وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضر ثم أمرهم ان يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزاد فيما دبر الله سبحانه الخلق به فى الدنيا والآخرة جناح بعوضة ولا ان ينقص منها جناح بعوضة ولا ان يرفع منها ذرة ولا ان يخفض منها ذرة ولا ان يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضر عمن بلى به ولا أن يزال صحة أو كمال أو غنى أو نفع عمن أنعم الله به عليه بل كل ماخلقه الله تعالى من السموات والارض ان رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر مارأوا فيها من تفاوت ولا فطور وكل ماقسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وعجز وقدرة وايمان وكفر وطاعة ومعصية فكله عدل محض لاجور فيه وحق صرف لاظلم فيه بل هو على الترتيب الواجب الحق على ماينبغى وكما ينبغى وبالقدر الذى ينبغى وليس فى الامكان أصلا أحسن منه ولا أتم ولا أكمل ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفعله لكان بخلا يناقض الجود وظلما يناقض العدل ولو لم يكن قادرا لكان عجزا يناقض الالهية بل كل فقر وضر فى الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة فى الآخرة وكل نقص فى الآخرة بالاضافة الى شخص فهو نعيم بالاضافة الى غيره اذ لولا الليل لما عرف قدر النهار ولولا المرض لما تنعم الاصحاء بالصحة ولولا النار لم عرف أهل الجنة قدر النعمة وكما أن فداء أرواح الانس بارواح البهائم وتسليطهم على ذبحها ليس بظلم بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران وفداء أهل الايمان باهل الكفران عين العدل ومالم يخلق الناقص لايعرف الكامل ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الانس فان الكمال والنقص يظهر بالاضافة فمقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعا وكما أن قطع اليد اذا كانت ابقاء على الروح عدل لانه

وأقوم الناس بتمييز الخواطر أقومهم بمعرفة النفس ومعرفتها صعبة المنال لاتكاد تتيسر الا بعد الاستقصاء فى الزهد والتقوى (واتفق) المشايخ على ان من كان أكله من الحرام لايفرق بين الالهام والوسوسة * وقال أبو على الدقاق من كان قوته معلوما لايفرق بين الالهام والوسوسة وهذا لايصح على الاطلاق الا بقيد وذلك ان من المعلوم مايقسمه الحق سبحانه وتعالى لعبد باذن يسبق اليه فى الاخذ منه والتقوت به ومثل هذا المعلوم لايحجب عن تمييز الخواطر انما ذلك يقال فى حق من دخل فى معلوم باختياره منه وايثار لانه يحجب لموضع اختياره والذى أشرنا اليه منسلخ من أرادته فلا يحجبه المعلوم وفرقوا بين هواجس النفس ووسوسة الشيطان

فداء كامل بناقص فكذلك الامر فى التفاوت الذى بين الخلق فى القسمة فى الدنيا والآخرة فكل ذلك عدل لا جور فيه وحق لا لعب فيه وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق واسع الاطراف مضطرب الامواج قريب فى السعة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين ولم يعلموا ان ذلك غامض لا يعقله الا العالمون ووراء هذا البحر سر القدر الذى تحير فيه الاكثرون ومنع من افشاء سره المكاشفون والحاصل ان الخير والشر مقضى به وقد كان ما قضى به واجب الحصول بعد سبق المشيئة فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ولنقتصر على هذه الرموز من علوم المكاشفة التى هى أصول مقام التوكل ولنرجع الى علم المعاملة ان شاء الله تعالى وحسبنا الله ونعم الوكيل (الشطر الثانى من الكتاب) فى أحوال التوكل وأعماله وفيه بيان حال التوكل وبيان ما قاله الشيوخ فى حد التوكل وبيان التوكل فى الكسب للمنفرد والمعيل وبيان التوكل بترك الادخار وبيان التوكل فى دفع المضار وبيان التوكل فى ازالة الضرر بالتداوى وغيره والله الموفق برحمته

(بيان حال التوكل)

قد ذكرنا ان مقام التوكل ينتظم من علم وحال وعمل وذكرنا العلم * فأما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه وانما العلم أصله والعمل ثمرته وقد أكثر الخائضون فى بيان حد التوكل واختلفت عباراتهم وتكلم كل واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حده كما جرت عادة أهل التصوف به ولا فائدة فى النقل والاكثار فلنكشف الغطاء عنه ونقول التوكل مشتق من الوكالة يقال وكل أمره الى فلان أى فوضه اليه واعتمد عليه فيه ويسمى الموكول اليه وكيلا ويسمى المفوض اليه متكلا عليه ومتوكلا عليه مهما اطمأنت اليه نفسه ووثق به ولم يتهمه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزا وقصورا فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده ولنضرب للوكيل فى الخصومة مثلا فنقول من ادعى عليه دعوى باطلة بتلبيس فوكل للخصومة من يكشف ذلك التلبيس لم يكن متوكلا عليه ولا واثقا به ولا مطمئن النفس بتوكيله الا اذا اعتقد فيه أربعة أمور منتهى الهداية ومنتهى القوة ومنتهى الفصاحة ومنتهى الشفقة أما الهداية فليعرف بها مواقع التلبيس حتى لا يخفى عليه من غوامض الحيل شئ أصلا وأما القدرة والقوة فليستجرئ على التصريح بالحق فلا يداهن ولا يخاف ولا يستحى ولا يجبن فانه ربما يطلع على وجه تلبيس خصمه فيمنعه الخوف أو الجبن أو الحياء أو صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به وأما الفصاحة فهى أيضا من القدرة الا انها قدرة فى اللسان على الافصاح عن كل ما استجرأ القلب عليه وأشار اليه فلا كل عالم بمواقع التلبيس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبيس وأما منتهى الشفقة فيكون باعثا له على بذل كل ما يقدر عليه فى حقه من المجهود فان قدرته لا تغنى دون العناية به اذا كان لا يهمه أمره ولا يبالى به ظفر خصمه أو لم يظفر هلك به حقه أو لم يهلك فان كان شاكا فى هذه الاربعة أو فى واحدة منها أو جوز أن يكون خصمه فى هذه الاربعة أكمل منه لم تطمئن نفسه الى وكيله بل بقى منزعج القلب مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع ما يحذره من قصور وكيله وسطوة خصمه ويكون تفاوت درجة أحواله فى شدة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الخصال فيه والاعتقادات والظنون فى القوة والضعف تتفاوت تفاوتا لا ينحصر فلا جرم تتفاوت أحوال المتوكلين فى قوة الطمأنينة والثقة تفاوتا لا ينحصر الى أن ينتهى الى اليقين الذى لا ضعف فيه كما لو كان الوكيل والد الموكل وهو الذى يسعى لجمع الحلال والحرام لاجله فانه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية فتصير خصلة واحدة من الخصال الاربعة قطعية وكذلك سائر الخصال يتصور أن يحصل القطع به وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الاخبار بانه أفصح الناس لسانا وأقواهم بيانا وأقدرهم على نصرة الحق بل على تصوير الحق بالباطل والباطل بالحق فاذا عرفت التوكل فى هذا المثال فقس عليه التوكل على الله تعالى فان ثبت فى نفسك بكشف أو باعتقاد جازم انه لا فاعل الا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة اتكل لا محالة قلبك عليه

وحده

وقالوا ان النفس تطالب وتلح فلا تزال كذلك حتى تصل الى مرادها والشيطان اذا دعا الى زلة ولم يجب يوسوس بأخرى اذ لا غرض له فى تخصيص بل مراده الاغواء كيفما أمكنه وتكلم الشيوخ فى الخاطرين اذا كانا من الحق أيهما يتبع قال الجنيد الخاطر الاول لانه اذا بقى رجع صاحبه الى التأمل وهذا شرط العلم وقال ابن عطاء الثانى أقوى لانه ازداد قوة بالاول (وقال) أبو عبد الله بن خفيف هما سواء لانهما من الحق فلا مزية لاحدهما على الآخر قالوا الواردات أعم من الخواطر لان الخواطر تختص بنوع خطاب أو مطالبة والواردات تكون تارة خواطر وتارة تكون وارد سرور ووارد حزن ووارد قبض ووارد بسط (وقيل) بنور التوحيد يقبل

وحده ولم يلتفت الى غيره بوجه ولا الى نفسه وحوله وقوته فانه لا حول ولا قوة الا بالله كما سبق فى التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة فان الحول عبارة عن الحركة والقوة عبارة عن القدرة فان كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسببه أحد أمرين اما ضعف اليقين باحدى هذه الخصال الاربعة واما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الاوهام الغالبة عليه فان القلب قد ينزعج تبعا للوهم وطاعة له عن غير نقصان فى اليقين فان من يتناول عسلا فشبه بين يديه بالعذرة ربما نفر طبعه وتعذر عليه تناوله ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت فى قبر أو فراش أو بيت نفر طبعه عن ذلك وان كان متيقنا بكونه ميتا وانه جماد فى الحال وأن سنة الله تعالى مطردة بانه لا يحشره الآن ولا يحييه وان كان قادرا عليه كما انها مطردة بان لا يقلب القلم الذى فى يده حية ولا يقلب السنور أسدا وان كان قادرا عليه ومع انه لا يشك فى هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعة الميت فى فراش أو الميت معه فى البيت ولا ينفر عن سائر الجمادات وذلك جبن فى القلب وهو نوع ضعف قلما يخلو الانسان عن شئ منه وان قل وقد يقوى فيصير مرضا حتى يخاف أن يبيت فى البيت وحده مع اغلاق الباب واحكامه فاذا لا يتم التوكل الا بقوة القلب وقوة اليقين جميعا اذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته فالسكون فى القلب شئ واليقين شئ آخر فكم من يقين لا طمأنينة معه كما قال تعالى لابراهيم عليه السلام أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى فالتمس أن يكون مشاهدا احياء الميت بعينه ليثبت فى خياله فان النفس تتبع الخيال وتطمئن به ولا تطمئن باليقين فى ابتداء أمرها الى أن تبلغ فى الآخرة الى درجة النفس المطمئنة وذلك لا يكون فى البداية أصلا وكم من مطمئن لا يقين له كسائر أرباب الملل والمذاهب فان اليهودى مطمئن القلب الى تهوده وكذا النصرانى ولا يقين لهم أصلا وانما يتبعون الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى وهو سبب اليقين الا أنهم معرضون عنه فاذا الجبن والجراءة غرائز ولا ينفع اليقين معهما فهى أحد الاسباب التى تضاد حال التوكل كما أن ضعف اليقين بالخصال الاربعة أحد الاسباب واذا اجتمعت هذه الاسباب حصلت الثقة بالله تعالى وقد قيل مكتوب فى التوراة ملعون من ثقته انسان مثله وقد قال صلى الله عليه وسلم من استعز بالعبيد أذله الله تعالى واذا انكشف لك معنى التوكل وعلمت الحالة التى سميت توكلا فاعلم أن تلك الحالة لها فى القوة والضعف ثلاث درجات *(الدرجة الاولى)* ماذكرناه وهو أن يكون حاله فى حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته كحاله فى الثقة بالوكيل *(الثانية)* وهى أقوى أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فانه لا يعرف غيرها ولا يفزع الى أحد سواها ولا يعتمد الا اياها فاذا رآها تعلق فى كل حال بذيلها ولم يخلها وان نابه أمر فى غيبتها كان أول سابق الى لسانه ياأماه وأول خاطر يخطر على قلبه أمه فانها مفزعه فانه قد وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع ادراك بالتمييز الذى له ويظن انه طبع من حيث ان الصبى لو طولب بتفصيل هذه الخصال لم يقدر على تلقين لفظه ولا على احضاره مفصلا فى ذهنه ولكن كل ذلك وراء الادراك فمن كان باله الى الله عز وجل ونظره اليه واعتماده عليه كلف به كما يكلف الصبى بامه فيكون متوكلا حقا فان الطفل متوكل على أمه والفرق بين هذا وبين الاول ان هذا متوكل وقد فنى فى توكله عن توكله اذ ليس يلتفت قلبه الى التوكل وحقيقته بل الى المتوكل عليه فقط فلا مجال فى قلبه لغير المتوكل عليه وأما الاول فيتوكل بالتكلف والكسب وليس فانيا عن توكله لان له التفاتا الى توكله وشعورا به وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده والى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل ما أدناه قال ترك الامانى قيل وأوسطه قال ترك الاختيار وهو اشارة الى الدرجة الثانية وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال لا يعرفه الا من بلغ أوسطه *(الثالثة)* وهى أعلاها أن يكون بين يدى الله تعالى فى حركاته وسكناته مثل الميت بين يدى الغاسل لا يفارقه الا فى انه يرى نفسه ميتا تحركه القدرة الازلية كما تحرك يد الغاسل الميت وهو الذى قوى يقينه بانه مجرى للحركة والقدرة والارادة والعلم وسائر الصفات وان كلا يحدث جبرا فيكون بائنا عن الانتظار لما يجرى عليه ويفارق الصبى فان الصبى يفزع الى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها ويعدو خلفها بل هو مثل صبى علم أنه وان لم يزعق بامه فالام تطلبه وانه وان لم يتعلق بذيل أمه فالام تحمله وان لم يسألها اللبن فالام تفاتحه وتسقيه وهذا المقام فى التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته

الخاطر من الله تعالى وبنور المعرفة يقبل من الملك وبنور الايمان ينهى النفس وبنور الاسلام يرد على العدو * ومن قصر عن درك حقائق الزهد وتطلع الى تمييز الخواطر يزن الخاطر أولا بميزان الشرع فما كان من ذلك نفلا أو فرضا يمضيه وما كان من ذلك محرما أو مكروها ينفيه فان استوى الخاطران فى نظر العلم ينفذ أقربهما الى مخالفة هوى النفس فان النفس قد يكون لها هوى كامن فى أحدهما والغالب من شأن النفس الاعوجاج والركون الى الدون وقد يلم الخاطر بنشاط النفس والعبد يظن انه بنهوض القلب وقد يكون من القلب نفاق بسكونه الى النفس يقول بعضهم منذ عشرين سنة ما سكن قلبى الى نفسى ساعة فيظهر من سكون

وانه يعطى ابتداء أفضل مما يسئل فكم من نعمة ابتدأها قبل السؤال والدعاء وبغير الاستحقاق والمقام الثانى لا يقتضى ترك الدعاء والسؤال منه وانما يقتضى ترك السؤال من غيره فقط فان قلت فهذه الاحوال هل يتصور وجودها فاعلم ان ذلك ليس بمحال ولكنه عزيز نادر والمقام الثانى والثالث أعزها والاول أقرب الى الامكان ثم اذا وجد الثالث والثانى فدوامه أبعد منه بل يكاد لا يكون المقام الثالث فى دوامه الا كصفرة الوجل فان انبساط القلب الى ملاحظة الحول والقوة والاسباب طبع وانقباضه عارض كما أن انبساط الدم الى جميع الاطراف طبع وانقباضه عارض والوجل عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة الى الباطن حتى تنمحى عن ظاهر البشرة الحمرة التى كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة فان البشرة ستر رقيق تتراءى من ورائه حمرة الدم وانقباضه يوجب الصفرة وذلك لا يدوم وكذا انقباض القلب بالكلية عن ملاحظة الحول والقوة وسائر الاسباب الظاهرة لا يدوم وأما المقام الثانى فيشبه صفرة المحموم فانه قد يدوم يوما ويومين والاول يشبه صفرة مريض استحكم مرضه فلا يبعد أن يدوم ولا يبعد أن يزول فان قلت فهل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالاسباب فى هذه الاحوال فاعلم أن المقام الثالث ينفى التدبير رأسا مادامت الحالة باقية بل يكون صاحبها كالمبهوت والمقام الثانى ينفى كل تدبير الا من حيث الفزع الى الله بالدعاء والابتهال كتدبير الطفل فى التعلق بامه فقط والمقام الاول لا ينفى أصل التدبير والاختيار ولكن ينفى بعض التدبيرات كالمتوكل على وكيله فى الخصومة فانه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ولكن لا يترك التدبير الذى أشار اليه وكيله به أو التدبير الذى عرفه من عادته وسنته دون صريح اشارته فاما الذى يعرفه باشارته بان يقول له لست أتكلم الا فى حضورك فيشتغل لامحالة بالتدبير للحضور ولا يكون هذا مناقضا لتوكله عليه اذ ليس هو فزعا منه الى حول نفسه وقوته فى اظهار الحجة ولا الى حول غيره بل من تمام توكله عليه أن يفعل مارسمه له اذ لو لم يكن متوكلا عليه ولا معتمدا له فى قوله لما حضر بقوله وأما المعلوم من عادته واطراد سنته فهو ان يعلم من عادته انه لا يحاج الخصم الا من السجل فتمام توكله ان كان متوكلا عليه أن يكون معولا على سنته وعادته ووافيا بمقتضاها وهو أن يحمل السجل مع نفسه اليه عند مخاصمته فاذا لا يستغنى عن التدبير فى الحضور وعن التدبير فى احضار السجل ولو ترك شيأ من ذلك كان نقصانا فى توكله فكيف يكون فعله نقصانا فيه نعم بعد أن حضر وفاء باشارته وأحضر السجل وفاء بسنته وعادته وقعد ناظرا الى محاجته فقد ينتهى الى المقام الثانى والثالث فى حضوره حتى يبقى كالمبهوت المنتظر لا يفزع الى حوله وقوته اذ لم يبق له حول ولا قوة وقد كان فزعه الى حوله وقوته فى الحضور واحضار السجل باشارة الوكيل وسنته وقد انتهى نهايته فلم يبق الا طمأنينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما يجرى واذا تأملت هذا اندفع عنك كل اشكال فى التوكل وفهمت انه ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل وأن كل تدبير وعمل لا يجوز أيضا مع التوكل بل هو على الانقسام وسيأتى تفصيله فى الاعمال فاذا فزع المتوكل الى حوله وقوته فى الحضور والاحضار لا يناقض التوكل لانه يعلم انه لولا الوكيل لكان حضوره واحضاره باطلا وتعبا محضا بلا جدوى فاذا لا يصير مفيدا من حيث انه حوله وقوته بل من حيث ان الوكيل جعله معتمدا لمحاجته وعرفه ذلك باشارته وسنته فاذا لا حول ولا قوة الا بالوكيل الا أن هذه الكلمة لا يكمل معناها فى حق الوكيل لانه ليس خالقا حوله وقوته بل هو جاعل لهما مفيدين فى أنفسهما ولم يكونا مفيدين لولا فعله وانما يصدق ذلك فى حق الوكيل الحق وهو الله تعالى اذ هو خالق الحول والقوة كما سبق فى التوحيد وهو الذى جعلهما مفيدين اذ جعلهما شرطا لما سيخلقه من بعدهما من الفوائد والمقاصد فاذا لا حول ولا قوة الا بالله حقا وصدقا فمن شاهد هذا كله كان له الثواب العظيم الذى وردت به الاخبار فيمن يقول لا حول ولا قوة الا بالله وذلك قد يستبعد فيقال كيف يعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان وسهولة اعتقاد القلب بمفهوم لفظها وهيهات فانما ذلك جزاء على هذه المشاهدة التى ذكرناها فى التوحيد ونسبة هذه الكلمة وثوابها الى كلمة لا اله الا الله وثوابها كنسبة معنى احداهما الى الاخرى اذ فى هذه الكلمة اضافة شيئين الى الله تعالى فقط وهما الحول والقوة وأما كلمة لا اله الا الله فهو نسبة الكل اليه فانظر الى التفاوت بين الكل وبين شيئين لتعرف به ثواب لا اله الا الله بالاضافة الى

القلب الى النفس خواطر تشبه بخواطر الحق على من يكون ضعيف العلم فلا يدرك نفاق القلب والخواطر المتولدة منه الا العلماء الراسخون وأكثر ماتدخل الآفات على أرباب القلوب والآخذين من اليقين واليقظة والحال بسهم من هذا القبيل وذلك لقلة العلم بالنفس والقلب وبقاء نصيب الهوى فيهم وينبغى ان يعلم العبد قطعا انه مهما بقى عليه أثر من الهوى وان دق وقل يبقى عليه بحسبه بقية من اشتباه الخواطر ثم قد يغلط فى تمييز الخواطر من هو قليل العلم ولا يؤاخذ بذلك مالم يكن عليه من الشرع مطالبة وقد لا يسامح بذلك بعض الغالطين لما كوشفوا به من دقيق الخفاء فى التمييز ثم استعجالهم مع علمهم وقلة التثبت (وذكر) بعض العلماء

هذا وكما ذكرنا من قبل أن للتوحيد قشرين ولبين فكذلك لهذه الكلمة ولسائر الكلمات وأكثر الخلق قيدوا بالقشرين وما طرقوا الى اللبين والى اللبين الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم من قال لا اله الا الله صادقا من قلبه مخلصا وجبت له الجنة وحيث أطلق من غير ذكر الصدق والاخلاص أراد بالمطلق هذا المقيد كما أضاف المغفرة الى الايمان والعمل الصالح فى بعض المواضع وأضافها الى مجرد الايمان فى بعض المواضع والمراد به المقيد بالعمل الصالح فالملك لا يقال بالحديث وحركة اللسان حديث وعقد القلب أيضا حديث ولكنه حديث نفس وانما الصدق والاخلاص وراءهما ولا ينصب سرير الملك الا للمقربين وهم المخلصون نعم لمن يقرب منهم فى الرتبة من أصحاب اليمين أيضا درجات عند الله تعالى وان كانت لا تنتهى الى الملك أما ترى أن الله سبحانه لما ذكر فى سورة الواقعة المقربين السابقين تعرض لسرير الملك فقال على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين ولما انتهى الى أصحاب اليمين ما زاد على ذكر الماء والظل والفواكه والاشجار والحور العين وكل ذلك من لذات المنظور والمشروب والمأكول والمنكوح ويتصور ذلك للبهائم على الدوام وأين لذات البهائم من لذة الملك والنزول فى أعلى عليين فى جوار رب العالمين ولو كان لهذه اللذات قدر لما وسعت على البهائم ولما رفعت عليها درجة الملائكة أفترى أن أحوال البهائم وهى مسيبة فى الرياض متنعمة بالماء والاشجار وأصناف المأكولات متمتعة بالنزوان والسفاد أعلى وألذ وأشرف وأجدر بان تكون عند ذوى الكمال مغبوطة من أحوال الملائكة فى سرورهم بالقرب من جوار رب العالمين فى أعلى عليين هيهات هيهات ما أبعد عن التحصيل من اذا خير بين أن يكون حمارا أو يكون فى درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام وليس يخفى أن شبه كل شئ منجذب اليه وان النفس التى نزوعها الى صنعة الاساكفة أكثر من نزوعها الى صنعة الكتابة فهو بالاساكفة أشبه فى جوهره منه بالكتاب وكذلك من نزوع نفسه الى نيل لذات البهائم أكثر من نزوعها الى نيل لذات الملائكة فهو بالبهائم أشبه منه بالملائكة لا محالة وهؤلاء هم الذين يقال فيهم أولئك كالانعام بل هم أضل وانما كانوا أضل لان الانعام ليس فى قوتها طلب درجة الملائكة فتركها الطلب للعجز وأما الانسان ففى قوته ذلك والقادر على نيل الكمال أحرى بالذم وأجدر بالنسبة الى الضلال مهما تقاعد عن طلب الكمال واذا كان هذا كلاما معترضا فلنرجع الى المقصود فقد بينا معنى قول لا اله الا الله ومعنى قول لا حول ولا قوة الا بالله وأن من ليس قائلا بهما عن مشاهدة فلا يتصور منه حال التوكل فان قلت ليس فى قولك لا حول ولا قوة الا بالله الا نسبة شيئين الى الله فلو قال قائل السماء والارض خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه فأقول لا لان الثواب على قدر درجة المثاب عليه ولا مساواة بين الدرجتين ولا ينظر الى عظم السماء والارض وصغر الحول والقوة ان جاز وصفهما بالصغر تجوزا فليست الامور بعظم الاشخاص بل كل عامى يفهم أن الارض والسماء ليستا من جهة الآدميين بل هما من خلق الله تعالى فاما الحول والقوة فقد أشكل أمرهما على المعتزلة والفلاسفة وطوائف كثيرة ممن يدعى انه يدقق النظر فى الرأى والمعقول حتى يشق الشعر بحدة نظره فهى مهلكة مخطرة ومزلة عظيمة هلك فيها الغافلون اذ أثبتوا لانفسهم أمرا وهو شرك فى التوحيد واثبات خالق سوى الله تعالى فمن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله اياه فقد علت رتبته وعظمت درجته فهو الذى يصدق قوله لا حول ولا قوة الا بالله وقد ذكرنا أنه ليس فى التوحيد الا عقبتان احداهما النظر الى السماء والارض والشمس والقمر والنجوم والغيم والمطر وسائر الجمادات والثانية النظر الى اختيار الحيوانات وهى أعظم العقبتين وأخطرهما وبقطعهما كمال سر التوحيد فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة أعنى ثواب المشاهدة التى هذه الكلمة ترجمتها فاذا رجع حال التوكل الى التبرى من الحول والقوة والتوكل على الواحد الحق وسيتضح ذلك عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل ان شاء الله تعالى

(بيان ما قاله الشيوخ فى أحوال التوكل)

لنتبين أن شيأ منها لا يخرج عما ذكرناه ولكن كل واحد يشير الى بعض الاحوال فقد قال أبو موسى الديلى قلت لابى يزيد ما التوكل فقال ما تقول أنت قلت ان أصحابنا يقولون لو أن السباع والافاعى عن يمينك ويسارك ما تحرك لذلك سرك فقال أبو يزيد نعم هذا قريب ولكن لو ان أهل الجنة فى الجنة يتنعمون وأهل النار فى النار يعذبون ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل فما ذكره أبو موسى فهو خبر عن أجل أحوال التوكل وهو المقام

أن لمة الملك ولمة الشيطان وجدتا لحركة النفس والروح وان النفس اذا تحركت انقدح من جوهرها ظلمة تنكت فى القلب همة سوء فينظر الشيطان الى القلب فيقبل بالاغواء والوسوسة (وذكر) أن حركة النفس تكون اما هوى وهو عاجل حظ النفس أو أمنية وهى عن الجهل الغريزى أو دعوى حركة أو سكون وهى آفة العقل ومحنة القلب ولا ترد هذه الثلاثة الا باحد ثلاثة بجهل أو غفلة أو طلب فضول ثم يكون من هذه الثلاثة ما يجب نفيه فانها ترد بخلاف مأمور أو على وفق منهى ومنها ما يكون نفيها فضيلة اذ وردت بمباحات (وذكر) أن الروح اذا تحركت انقدح من جوهرها نور ساطع يظهر من ذلك النور فى القلب همة عالية باحدى معان ثلاثة اما بفرض أمر به

الثالث وماذكره أبو يزيد عبارة عن أعز أنواع العلم الذى هو من اصول التوكل وهو العلم بالحكمة وان مافعله الله تعالى فعله بالواجب فلا تمييز بين أهل النار وأهل الجنة بالاضافة الى أصل العدل والحكمة وهذا أغمض أنواع العلم ووراءه سر القدر وأبو يزيد قلما يتكلم الا عن أعلى المقامات وأقصى الدرجات وليس ترك الاحتراز عن الحيات شرطا فى المقام الاول من التوكل فقد احترز أبو بكر رضى الله عنه فى الغار اذ سد منافذ الحيات الا أن يقال فعل ذلك برجله ولم يتغير بسببه سره أو يقال انما فعل ذلك شفقة فى حق رسول الله صلى الله عليه وسلم لا فى حق نفسه وانما يزول التوكل بتحرك سره وتغيره لامر يرجع الى نفسه وللنظر فى هذا مجال ولكن سيأتى بيان أن أمثال ذلك وأكثر منه لا يناقض التوكل فان حركة السر من الحيات هو الخوف وحق المتوكل أن يخاف مسلط الحيات اذ لا حول للحيات ولا قوة لها الا بالله فان احترز لم يكن اتكاله على تدبيره وحوله وقوته فى الاحتراز بل على خالق الحول والقوة والتدبير وسئل ذو النون المصرى عن التوكل فقال خلع الارباب وقطع الاسباب فخلع الارباب اشارة الى علم التوحيد وقطع الاسباب اشارة الى الاعمال وليس فيه تعرض صريح للحال وان كان اللفظ يتضمنه فقيل له زدنا فقال القاء النفس فى العبودية واخراجها من الربوبية وهذا اشارة الى التبرى من الحول والقوة فقط وسئل حمدون القصار عن التوكل فقال ان كان لك عشرة آلاف درهم وعليك دانق دين لم تأمن أن تموت ويبقى دينك فى عنقك ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاء لا تيأس من الله تعالى أن يقضيها عنك وهذا اشارة الى مجرد الايمان بسعة القدرة وان فى المقدورات أسبابا خفية سوى هذه الاسباب الظاهرة وسئل أبو عبد الله القرشى عن التوكل فقال التعلق بالله تعالى فى كل حال فقال السائل زدنى فقال ترك كل سبب يوصل الى سبب حتى يكون الحق هو المتولى لذلك فالاول عام للمقامات الثلاث والثانى اشارة الى المقام الثالث خاصة وهو مثل توكل ابراهيم صلى الله عليه وسلم اذ قال له جبريل عليه السلام ألك حاجة فقال أما اليك فلا اذ كان سؤاله سببا يفضى الى سبب وهو حفظ جبريل له فترك ذلك ثقة بان الله تعالى ان أراد سخر جبريل لذلك فيكون هو المتولى لذلك وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى فلم ير معه غيره وهو حال عزيز فى نفسه ودوامه ان وجد أبعد منه وأعز وقال أبو سعيد الخراز التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب ولعله يشير الى المقام الثانى فسكونه بلا اضطراب اشارة الى سكون القلب الى الوكيل وثقته به واضطراب بلا سكون اشارة الى فزعه اليه وابتهاله وتضرعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه الى أمه وسكون قلبه الى تمام شفقتها وقال أبو على الدقاق التوكل ثلاث درجات التوكل ثم التسليم ثم التفويض فالمتوكل يسكن الى وعده والمسلم يكتفى بعلمه وصاحب التفويض يرضى بحكمه وهذا اشارة الى تفاوت درجات نظره بالاضافة الى المنظور اليه فان العلم هو الاصل والوعد يتبعه والحكم يتبع الوعد ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شئ من ذلك وللشيوخ فى التوكل أقاويل سوى ماذكرناه فلا نطول بها فان الكشف أنفع من الرواية والنقل فهذا ما يتعلق بحال التوكل والله الموفق برحمته ولطفه

(بيان أعمال المتوكلين)

اعلم أن العلم يورث الحال والحال يثمر الاعمال وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الارض كالخرقة الملقاة وكاللحم على الوضم وهذا ظن الجهال فان ذلك حرام فى الشرع والشرع قد اثنى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين بل نكشف الغطاء عنه ونقول انما يظهر تأثير التوكل فى حركة العبد وسعيه بعلمه الى مقاصده وسعى العبد باختياره اما أن يكون لاجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع أو لازالة ضار قد نزل به كالتداوى من المرض فمقصود حركات العبد لا تعدو هذه الفنون الاربعة وهو جلب النافع أو حفظه أو دفع الضار أو قطعه فلنذكر شروط التوكل ودرجاته فى كل واحد منها مقرونا بشواهد الشرع *(الفن الاول)* فى جلب النافع فنقول فيه الاسباب التى بها يجلب النافع على ثلاث درجات مقطوع به ومظنون ظنا يوثق به وموهوم وهما لا تثق النفس به ثقة تامة ولا تطمئن اليه *الدرجة الاولى المقطوع به وذلك مثل الاسباب التى ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطا مطردا لا يختلف كما أن

أو بفضل ندب اليه واما بمباح يعود صلاحه اليه (وهذا) الكلام يدل على أن حركتى الروح والنفس هما الموجبتان للمتين (وعندى والله أعلم) أن اللمتين تتقدمان على حركة الروح والنفس فحركة الروح من لمة الملك والهمة العالية من حركة الروح وهذه الحركة من الروح ببركة لمة الملك وحركة النفس من لمة الشيطان ومن حركة النفس الهمة الدنيئة وهى من شؤم لمة الشيطان فاذا وردت اللمتان ظهرت الحركتان وظهر سر العطاء والابتلاء من معط كريم ومبتل حكيم وقد تكون هاتان اللمتان متداركتين وينمحى أثر احداهما بالاخرى والمتفطن المتيقظ ينفتح عليه بمطالعة وجود هذه الآثار فى ذاته باب أنس ويبقى أبدا متفقدا حاله مطالعا آثار اللمتين (وذكر) خاطر خامس

الطعام اذا كان موضوعا بين يديك وأنت جائع محتاج ولكنك لست تمد اليد اليه وتقول أنا متوكل وشرط التوكل ترك السعي ومد اليد اليه سعي وحركة وكذلك مضغه بالاسنان وابتلاعه باطباق اعالي الحنك على أسافله فهذا جنون محض وليس من التوكل في شيء فانك ان انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شبعا دون الخبز أو يخلق في الخبز حركة اليك أو يسخر ملكا ليمضغه لك ويوصله الى معدتك فقد جهلت سنة الله تعالى وكذلك لو لم تزرع الارض وطمعت في أن يخلق الله تعالى نباتا من غير بذر أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم عليها السلام فكل ذلك جنون وأمثال هذا مما يكثر ولا يمكن احصاؤه فليس التوكل في هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم أما العلم فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام واليد والاسنان وقوة الحركة وانه الذي يطعمك ويسقيك واما الحال فهو أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فعل الله تعالى لا على اليد والطعام وكيف تعتمد على صحة يدك وربما تجف في الحال وتفلج وكيف تعول على قدرتك وربما يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقلك ويبطل قوة حركتك وكيف تعول على حضور الطعام وربما يسلط الله تعالى من يغلبك عليه أو يبعث حية تزعجك عن مكانك وتفرق بينك وبين طعامك واذا احتمل امثال ذلك ولم يكن لها علاج الا بفضل الله تعالى فبذلك فلتفرح وعليه فلتعول فاذا كان هذا حاله وعلمه فليمد اليد فانه متوكل * الدرجة الثانية الاسباب التي ليست متيقنة ولكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها وكان احتمال حصولها دونها بعيدا كالذي يفارق الامصار والقوافل ويسافر في البوادي التي لا يطرقها الناس الا نادرا ويكون سفره من غير استصحاب زاد فهذا ليس شرطا في التوكل بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الاولين ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لا على الزاد كما سبق ولكن فعل ذلك جائز وهو من أعلى مقامات التوكل ولذلك كان يفعله الخواص فان قلت فهذا سعي في الهلاك والقاء النفس في التهلكة فاعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين أحدهما أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدها وسواها على الصبر عن الطعام أسبوعا وما يقاربه بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشوش خاطر وتعذر في ذكر الله تعالى والثاني أن يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش وما يتفق من الاشياء الخسيسة فبعد هذين الشرطين لا يخلو في غالب الامر في البوادي في كل أسبوع عن أن يلقاه آدمي أو ينتهي الى محلة أو قرية أو الى حشيش يجتزي به فحياته بمجاهدة نفسه والمجاهدة عماد التوكل وعلى هذا كان يعول الخواص ونظراؤه من المتوكلين والدليل عليه أن الخواص كان لا تفارقه الابرة والمقراض والحبل والركوة ويقول هذا لا يقدح في التوكل وسببه انه علم ان البوادي لا يكون الماء فيها على وجه الارض وما جرت سنة الله تعالى بصعود الماء من البئر بغير دلو ولا حبل ولا يغلب وجود الحبل والدلو في البوادي كما يغلب وجود الحشيش والماء يحتاج اليه لوضوئه كل يوم مرات ولعطشه في كل يوم أو يومين مرة فان المسافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وان صبر عن الطعام وكذلك يكون له ثوب واحد وربما يتخرق فتنكشف عورته ولا يوجد المقراض والابرة في البوادي غالبا عند كل صلاة ولا يقوم مقامهما في الخياطة والقطع شيء مما يوجد في البوادي فكل ما في معنى هذه الاربعة أيضا يلتحق بالدرجة الثانية لانه مظنون ظنا ليس مقطوعا به لانه يحتمل أن لا يتخرق الثوب أو يعطيه انسان ثوبا أو يجد على رأس البئر من يسقيه ولا يحتمل أن يتحرك الطعام ممضوغا الى فيه فبين الدرجتين فرقان ولكن الثاني في معنى الاول ولهذا نقول لو انحاز الى شعب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرقه طارق فيه وجلس متوكلا فهو آثم به ساع في هلاك نفسه كما روي أن زاهدا من الزهاد فارق الامصار وأقام في سفح جبل سبعا وقال لا اسأل أحدا شيأ حتى يأتيني ربي برزقي فقعد سبعا فكاد يموت ولم يأته رزق فقال يارب ان أحييتني فائتني برزقي الذي قسمت لي والا فاقبضني اليك فأوحى الله جل ذكره اليه وعزتي لا رزقتك حتى تدخل الامصار وتقعد بين الناس فدخل المصر وقعد فجاءه هذا بطعام وهذا بشراب فاكل وشرب وأوجس في نفسه من ذلك فأوحى الله تعالى اليه أردت ان تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا أما علمت أني أن أرزق عبدي بايدي عبادي أحب الي من أن ارزقه بيد قدرتي فاذا التباعد عن الاسباب كلها مراغمة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى والعمل بموجب سنة الله تعالى مع الاتكال على الله عز وجل دون الاسباب لا يناقض التوكل كما ضربناه مثلا في الوكيل بالخصومة من

وهو خاطر العقل متوسط بين الخواطر الاربعة يكون مع النفس والعدو لوجود التمييز واثبات الحجة على العبد ليدخل العبد في الشيء بوجود عقل اذ لو فقد العقل سقط العقاب والعتاب وقد يكون مع الملك والروح ليوقع الفعل مختارا ويستوجب به الثواب (وذكر) خاطر سادس وهو خاطر اليقين وهو روح الايمان ومزيد العلم ولا يبعد أن يقال الخاطر السادس وهو خاطر اليقين حاصله راجع الى ما ورد من خاطر الحق وخاطر العقل أصله تارة من خاطر الملك وتارة من خاطر النفس وليس من العقل خاطر على الاستقلال لان العقل كما ذكرنا غريزة يتهيأ بها ادراك العلوم ويتهيأ بها الانجذاب الى دواعي النفس تارة والى دواعي الملك تارة والى دواعي الروح تارة

قبل ولكن الاسباب تنقسم الى ظاهرة والى خفية فمعنى التوكل الاكتفاء بالاسباب الخفية عن الاسباب الظاهرة مع سكون النفس الى مسبب السبب لا الى السبب فان قلت فما قولك فى القعود فى البلد بغير كسب أهو حرام أو مباح أو مندوب فاعلم أن ذلك ليس بحرام لان صاحب السياحة فى البادية اذا لم يكن مهلكا نفسه فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه والصبر ممكن الى أن يتفق ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لاحد اليه ففعله ذلك حرام وان فتح باب البيت وهو بطال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له ولكن ليس فعله حراما الا أن يشرف على الموت فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب وان كان مشغول القلب بالله غير مستشرف الى الناس ولا متطلع الى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه بل تطلعه الى فضل الله تعالى واشتغاله بالله فهو أفضل وهو من مقامات التوكل وهو أن يشتغل بالله تعالى ولا يهتم برزقه فان الرزق يأتيه لا محالة وعند هذا يصح ما قاله بعض العلماء وهو أن العبد لو هرب من رزقه لطلبه كما لو هرب من الموت لادركه وأنه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استجاب له وكان عاصيا ولقال له يا جاهل كيف أخلقك ولا أرزقك ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما اختلف الناس فى كل شئ الا فى الرزق والاجل فانهم أجمعوا على أن لا رازق ولا مميت الا الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا ولزالت بدعائكم الجبال وقال عيسى عليه السلام أنظروا الى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر والله تعالى يرزقها يوما بيوم فان قلتم نحن أكبر بطونا فانظروا الى الانعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الخلق للرزق وقال أبو يعقوب السوسى المتوكلون تجرى أرزاقهم على أيدى العباد بلا تعب منهم وغيرهم مشغولون مكدودون وقال بعضهم العبيد كلهم فى رزق الله تعالى لكن بعضهم يأكل بذل كالسؤال وبعضهم بتعب وانتظار كالتجار وبعضهم بامتهان كالصناع وبعضهم بعز كالصوفية يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة * الدرجة الثالثة ملابسة الاسباب التى يتوهم افضاؤها الى المسببات من غير ثقة ظاهرة كالذى يستقصى فى التدبيرات الدقيقة فى تفصيل الاكتساب ووجوهه وذلك يخرج بالكلية عن درجات التوكل كلها وهو الذى فيه الناس كلهم أعنى من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتسابا مباحا لمال مباح فاما أخذ الشبهة أو اكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والاتكال على الاسباب فلا يخفى أن ذلك يبطل التوكل وهذا مثل الاسباب التى نسبتها الى جلب النافع مثل نسبة الرقية والطيرة والكى بالاضافة الى ازالة الضار فان النبى صلى الله عليه وسلم وصف المتوكلين بذلك ولم يصفهم بانهم لا يكتسبون ولا يسكنون الامصار ولا يأخذون من أحد شيأ بل وصفهم بانهم يتعاطون هذه الاسباب وأمثال هذه الاسباب التى يوثق بها فى المسببات مما يكثر فلا يمكن احصاؤها وقال سهل فى التوكل انه ترك التدبير وقال ان الله خلق الخلق ولم يحجبهم عن نفسه وانما حجابهم بتدبيرهم ولعله أراد به استنباط الاسباب البعيدة بالفكر فهى التى تحتاج الى التدبير دون الاسباب الجلية فاذا قد ظهر أن الاسباب منقسمة الى ما يخرج التعلق بها عن التوكل والى ما لا يخرج وأن الذى يخرج ينقسم الى مقطوع به والى مظنون وأن المقطوع به لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه وهو الاتكال على مسبب الاسباب فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل وأما المظنونات فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعا والمتوكلون فى ملابسة هذه الاسباب على ثلاثة مقامات (الاول) مقام الخواص ونظرائه وهو الذى يدور فى البوادى بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه فى تقويته على الصبر أسبوعا وما فوقه أو تيسير حشيش له أو قوت أو تثبيته على الرضا بالموت ان لم يتيسر شئ من ذلك فان الذى يحمل الزاد قد يفقد زاده أو يضل بعيره ويموت جوعا فذلك ممكن مع الزاد كما أنه ممكن مع فقده * (المقام الثانى) * أن يقعد فى بيته أو فى مسجد ولكنه فى القرى والامصار وهذا أضعف من الاول ولكنه أيضا متوكل لانه تارك للكسب والاسباب الظاهرة معول على فضل الله تعالى فى تدبير أمره من جهة الاسباب الخفية ولكنه بالقعود فى الامصار متعرض لاسباب الرزق فان ذلك من الاسباب الجالبة الا ان ذلك لا يبطل توكله اذا كان نظره الى الذى يسخر له سكان البلد لايصال رزقه اليه لا الى سكان البلد اذ يتصور أن يغفل جميعهم عنه ويضيعوه لولا فضل

والى دواعى الشيطان تارة فعلى هذا لا تزيد الخواطر على أربعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يذكر غير اللمتين وهاتان اللمتان هما الاصل والخاطران الآخران فرع عليهما لان لمة الملك اذا حركت الروح واهتزت الروح بالهمة الصالحة قربت أن تهتز بالهمة الصالحة الى حظائر القرب فورد عليه عند ذلك خواطر من الحق واذا تحقق بالقرب يتحقق بالفناء فتثبت الخواطر الربانية عند ذلك كما ذكرناه قبل لموضع قربه فيكون أصل خواطر الحق لمة الملك ولمة الشيطان اذا حركت النفس هوت بجبلتها الى مركزها من الغريزة والطبع فظهر منها بحركتها خواطر ملائمة لغريزتها وطبيعتها وهواها فصارت خواطر النفس نتيجة لمة الشيطان فاصلها اللمتان وينتجان أخريين وخاطر اليقين

الله تعالى بتعريفهم وتحريك دواعيهم *(المقام الثالث)* أن يخرج ويكتسب اكتسابا على الوجه الذى ذكرناه في الباب الثالث والرابع من كتاب آداب الكسب وهذا السعى لا يخرجه أيضا عن مقامات التوكل اذا لم يكن طمأنينة نفسه الى كفايته وقوته وجاهه وبضاعته فان ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه فى لحظة بل يكون نظره الى الكفيل الحق بحفظ جميع ذلك وتيسير أسبابه له بل يرى كسبه وبضاعته وكفايته بالاضافة الى قدرة الله تعالى كما يرى القلم فى يد الملك الموقع فلا يكون نظره الى القلم بل الى قلب الملك انه بماذا يتحرك والى ماذا يميل وبم يحكم ثم ان كان هذا المكتسب مكتسبا لعياله أو ليفرق على المساكين فهو ببدنه مكتسب وبقلبه عنه منقطع فحال هذا أشرف من حال القاعد فى بيته والدليل على ان الكسب لا ينافى حال التوكل اذا روعيت فيه الشروط وانضاف اليه الحال والمعرفة كما سبق ان الصديق رضى الله عنه لما بويع بالخلافة أصبح آخذا الأثواب تحت حضنه والذراع بيده ودخل السوق ينادى حتى كرهه المسلمون وقالوا كيف تفعل ذلك وقد أقمت لخلافة النبوة فقال لا تشغلونى عن عيالى فانى ان أضعتهم كنت لما سواهم أضيع حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم وتطييب قلوبهم واستغراق الوقت بمصالح المسلمين أولى ويستحيل أن يقال لم يكن الصديق فى مقام التوكل فمن أولى بهذا المقام منه فدل على أنه كان متوكلا لا باعتبار ترك الكسب والسعى بل باعتبار قطع الالتفات الى قوته وكفايته والعلم بأن الله هو ميسر الاكتساب ومدبر الاسباب وبشروط كان يراعيها فى طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادخار ومن غير أن يكون درهمه أحب اليه من درهم غيره فمن دخل السوق ودرهمه أحب اليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها ولا يصح التوكل الا مع الزهد فى الدنيا نعم يصح الزهد دون التوكل فان التوكل مقام وراء الزهد وقال أبو جعفر الحداد وهو شيخ الجنيد رحمة الله عليهما وكان من المتوكلين أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق كنت أكتسب فى كل يوم دينارا ولا أبيت منه دانقا ولا استريح منه الى قيراط أدخل به الحمام بل أخرجه كله قبل الليل وكان الجنيد لا يتكلم فى التوكل بحضرته وكان يقول أستحى أن أتكلم فى مقامه وهو حاضر عندى واعلم ان الجلوس فى رباطات الصوفية مع معلوم بعيد من التوكل فان لم يكن معلوم ووقف وأمروا الخادم بالخروج للطلب لم يصح معه التوكل الا على ضعف ولكن يقوى بالحال والعلم كتوكل المكتسب وان لم يسألوا بل قنعوا بما يحمل اليهم فهذا أقوى فى توكلهم لكنه بعد اشتهار القوم بذلك فقد صار لهم سوقا فهو كدخول السوق ولا يكون داخل السوق متوكلا الا بشروط كثيرة كما سبق فان قلت فما الافضل أن يقعد فى بيته أو يخرج ويكتسب فاعلم انه ان كان يتفرغ بترك الكسب لفكر وذكر واخلاص واستغراق وقت بالعبادة وكان الكسب يشوش عليه ذلك وهو مع هذا لا تستشرف نفسه الى الناس فى انتظار من يدخل عليه فيحمل اليه شيأ بل يكون قوى القلب فى الصبر والاتكال على الله تعالى فالقعود له أولى وان كان يضطرب قلبه فى البيت ويستشرف الى الناس فالكسب أولى لان استشراف القلب الى الناس سؤال بالقلب وتركه أهم من ترك الكسب وما كان المتوكلون يأخذون ما تستشرف اليه نفوسهم كان أحمد بن حنبل قد أمر أبا بكر المروزى أن يعطى بعض الفقراء شيأ فضلا عما كان استأجره عليه فرده فلما ولى قال له أجد الحقه وأعطه فانه يقبل فلحقه وأعطاه فأخذه فسأل أحمد عن ذلك فقال كان قد استشرفت نفسه فرد فلما خرج انقطع طمعه وأيس فأخذ وكان الخواص رحمه الله اذا نظر الى عبد فى العطاء أو خاف اعتياد النفس لذلك لم يقبل منه شيأ وقال الخواص بعد أن سئل عن أعجب ما رآه فى أسفاره رأيت الخضر ورضى بصحبتى ولكنى فارقته خيفة أن تسكن نفسى اليه فيكون نقصانا فى توكلى فاذا المكتسب اذا راعى آداب الكسب وشروطه ونيته كما سبق فى كتاب الكسب وهو أن لا يقصد به الاستكثار ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته كان متوكلا فان قلت فما علامة عدم اتكاله على البضاعة والكفاية فأقول علامته أنه ان سرقت بضاعته أو خسرت تجارته أو تعوق أمر من أموره كان راضيا به ولم تبطل طمأنينته ولم يضطرب قلبه بل كان حال قلبه فى السكون قبله وبعده واحدا فان من لم يسكن الى شئ لم يضطرب لفقده ومن اضطرب لفقد شئ فقد سكن اليه وكان بشر يعمل المغازل فتركها وذلك لان البغدادى كاتبه قال بلغنى انك استعنت على رزقك بالمغازل أرأيت ان أخذ الله سمعك وبصرك الرزق على من

والعقل مندرج فيهما والله أعلم

(الباب الثامن والخمسون فى شرح الحال والمقام والفرق بينهما)

قد كثر الاشتباه بين الحال والمقام واختلفت اشارات الشيوخ فى ذلك ووجود الاشتباه لمكان تشابههما فى نفسهما وتداخلهما فتراءى للبعض الشئ حالا وتراءى للبعض مقاما وكلا الرؤيتين صحيح لوجود تداخلهما ولا بد من ذكر ضابط يفرق بينهما على ان اللفظ والعبارة عنهما مشعر بالفرق فالحال سمى حالا لتحوله والمقام مقاما لثبوته واستقراره (وقد) يكون الشئ بعينه حالا ثم يصير مقاما مثل ان ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ثم تزول الداعية بغلبة صفات النفس ثم تعود ثم تزول فلا يزال العبد حال المحاسبة يتعاهد الحال ثم يحول

فوقع ذلك فى قلبه فاخرج آلة المغازل من يده وتركها وقيل تركها المأ نوهت باسمه وقصد لاجلها وقيل فعل ذلك لما مات عياله كما كان لسفيان خمسون دينارا يتجر فيها فلما مات عياله فرقها فان قلت فكيف يتصور أن يكون له بضاعة ولا يسكن اليها وهو يعلم ان الكسب بغير بضاعة لا يمكن فاقول بان يعلم ان الذين يرزقهم الله تعالى بغير بضاعة فيهم كثرة وان الذين كثرت بضاعتهم فسرقت وهلكت فيهم كثرة وان يوطن نفسه على ان الله لا يفعل به الا مافيه صلاحه فان أهلك بضاعته فهو خير له فلعله لو تركه كان سببا لفساد دينه وقد لطف الله تعالى به وغايته أن يموت جوعا فينبغى أن يعتقد ان الموت جوعا خير له فى الآخرة مهما اقضى الله تعالى عليه بذلك من غير تقصير من جهته فاذا اعتقد جميع ذلك استوى عنده وجود البضاعة وعدمها ففى الخبران العبد ليهم من الليل بامر من امور التجارة مما لو فعله لكان فيه هلاكه فينظر الله تعالى اليه من فوق عرشه فيصرفه عنه فيصبح كئيبا حزينا يتطير بجاره وابن عمه من سبقنى من دهانى وماهى الارحمة رحمه الله بها ولذلك قال عمر رضى الله عنه لا أبالى أصبحت غنيا أو فقيرا فانى لا أدرى أيهما خير لى ومن لم يتكامل يقينه بهذه الامور لم يتصور منه التوكل ولذلك قال أبو سليمان الدارانى لاحمد بن أبى الحوارى لى من كل مقام نصيب الا من هذا التوكل المبارك فانى ماشممت منه رائحة هذا كلامه مع علو قدره ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة ولكنه قال ما أدركته ولعله أراد ادراك أقصاه ومالم يكمل الايمان بان لافاعل الا الله ولا رازق سواه وان كل ما يقدره على العبد من فقر وغنى وموت وحياة فهو خير له مما يتمناه العبد لم يكمل حال التوكل فبناء التوكل على قوة الايمان بهذه الامور كما سبق وكذا سائر مقامات الدين من الاقوال والاعمال تنبنى على أصولها من الايمان وبالجملة التوكل مقام مفهوم ولكن يستدعى قوة القلب وقوة اليقين ولذلك قال سهل من طعن على التكسب فقد طعن على السنة ومن طعن على ترك التكسب فقد طعن على التوحيد فان قلت فهل من دواء ينتفع به فى صرف القلب عن الركون الى الاسباب الظاهرة وحسن الظن بالله تعالى فى تيسير الاسباب الخفية فاقول نعم هو أن تعرف أن سوء الظن تلقين الشيطان وحسن الظن تلقين الله تعالى قال الله تعالى الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا فان الانسان بطبعه مشغوف بسماع تخويف الشيطان ولذلك قيل الشفيق بسوء الظن مولع واذا انضم اليه الجبن وضعف القلب ومشاهدة المتكلين على الاسباب الظاهرة والباعثين عليها غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكلية بل رؤية الرزق من الاسباب الخفية أيضا تبطل التوكل فقد حكى عن عابد أنه عكف فى مسجد ولم يكن له معلوم فقال له الامام لو اكتسبت لكان أفضل لك فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثا فقال فى الرابعة يهودى فى جوار المسجد قد ضمن لى كل يوم رغيفين فقال ان كان صادقا فى ضمانه فعكوفك فى المسجد خير لك فقال ياهذا لو لم تكن اماما تقف بين يدى الله وبين العباد مع هذا النقص فى التوحيد كان خيرا لك اذ فضلت وعد يهودى على ضمان الله تعالى بالرزق وقال امام المسجد لبعض المصلين من أين تأكل فقال ياشيخ اصبر حتى أعيد الصلاة التى صليتها خلفك ثم أجيبك وينفع فى حسن الظن بمجىء الرزق من فضل الله تعالى بواسطة الاسباب الخفية أن تسمع الحكايات التى فيها عجائب صنع الله تعالى فى وصول الرزق الى صاحبه وفيها عجائب قهر الله تعالى فى اهلاك أموال التجار والاغنياء وقتلهم جوعا كما روى عن حذيفة المرعشى وقد كان خدم ابراهيم بن أدهم فقيل له ما أعجب ما رأيت منه فقال بقينا فى طريق مكة أياما لم نجد طعاما ثم دخلنا الكوفة فأوينا الى مسجد خراب فنظر الى ابراهيم وقال ياحذيفة أرى بك الجوع فقلت هو ما رأى الشيخ فقال على بدواة وقرطاس فجئت به فكتب بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود اليه بكل حال والمشار اليه بكل معنى وكتب شعرا

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر * أنا جائع أنا ضائع أنا عارى

هى ستة وأنا الضمين لنصفها * فكن الضمين لنصفها يا بارى

مدحى لغيرك لهب نار خضتها * فاجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع الى الرقعة فقال اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى وادفع الرقعة الى أول من يلقاك فخرجت فاول من لقينى كان رجلا على بغلة فناولته الرقعة فاخذها فلما وقف عليها بكى وقال ما فعل صاحب هذه الرقعة فقلت هو

الحال بظهور صفات النفس الى أن تتداركه المعونة من الله الكريم ويغلب حال المحاسبة وتنقهر النفس وتنضبط وتملكها المحاسبة فتصير المحاسبة وطنه ومستقره ومقامه فيصير فى مقام المحاسبة بعد أن كان له حال المحاسبة (ثم) ينازله حال المراقبة فمن كانت المحاسبة مقامه يصير له من المراقبة حال (ثم) يحول حال المراقبة لتناوب السهو والغفلة فى باطن العبد الى أن ينقشع ضباب السهو والغفلة ويتدارك الله عبده بالمعونة فتصير المراقبة مقاما بعد أن كانت حالا ولا يستقر مقام المحاسبة قراره الا بنازل حال المراقبة ولا يستقر مقام المراقبة قراره الا بنازل حال المشاهدة فاذا منح العبد بنازل حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقامه ونازل المشاهدة أيضا يكون حالا يحول بالاستتار

في المسجد الفلاني فادفع اليه صرة فيها ستمائة دينار ثم لقيت رجلا آخر فسألته عن راكب البغلة فقال هذا
نصراني فجئت الى ابراهيم وأخبرته بالقصة فقال لا تمسها فانه يجيء الساعة فلما كان بعد ساعة دخل النصراني
وأكب على رأس ابراهيم يقبله وأسلم * وقال أبو يعقوب الاقطع البصري جعت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت
ضعفا فحدثتني نفسي بالخروج فخرجت الى الوادي لعلي أجد شيئا يسكن ضعفي فرأيت سلجمة مطروحة فأخذتها
فوجدت في قلبي منها وحشة وكأن قائلا يقول لي جعت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متغيرة فرميت
بها ودخلت المسجد وقعدت فاذا أنا برجل أعجمي قد أقبل حتى جلس بين يدي ووضع قطرة وقال هذه لك فقلت
كيف خصصتني بها قال اعلم أنا كنا في البحر منذ عشرة أيام وأشرفت السفينة على الغرق فنذرت ان خلصني الله
تعالى ان أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصري من المجاورين وأنت أول من لقيته فقلت افتحها ففتحها فاذا
فيها سميد مصري ولوز مقشور وسكر كعاب فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقلت رد الباقي الى أصحابك هدية
مني اليكم وقد قبلتها ثم قلت في نفسي رزقك يسير اليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادي * وقال ممشاد
الدينوري كان علي دين فاشتغل قلبي بسببه فرأيت في النوم كأن قائلا يقول يا بخيل أخذت علينا هذا المقدار
من الدين خذ عليك الاخذ وعلينا العطاء فما حاسبت بعد ذلك بقالا ولا قصابا ولا غيرهما وحكى عن بنان الحمال
قال كنت في طريق مكة أجيء من مصر ومعي زاد فجاءتني امرأة وقالت لي يا بنان أنت حمال تحمل على ظهرك
الزاد وتتوهم انه لا يرزقك قال فرميت زادي ثم أتى علي ثلاث لم آكل فوجدت خلخالا في الطريق فقلت في
نفسي أحمله حتى يجيء صاحبه فربما يعطيني شيئا فأرده عليه فاذا أنا بتلك المرأة فقالت لي أنت تاجر تقول عسى
يجيء صاحبه فآخذ منه شيئا ثم رمت لي شيئا من الدراهم وقالت أنفقها فاكتفيت بها الى قريب من مكة
وحكى أن بنانا احتاج الى جارية تخدمه فانبسط الى اخوانه فجمعوا له ثمنها وقالوا هو ذا يجيء النفير فنشتري
ما يوافق فلما ورد النفير اجتمع رأيهم على واحدة وقالوا انها تصلح له فقالوا لصاحبها بكم هذه فقال انها ليست
للبيع فألحوا عليه فقال انها لبنان الحمال أهدتها اليه امرأة من سمرقند فحملت الى بنان وذكرت له القصة
وقيل كان في الزمان الاول رجل في سفر ومعه قرص فقال ان أكلته مت فوكل الله عز وجل به ملكا وقال ان
أكله فارزقه وان لم يأكله فلا تعطه غيره فلم يزل القرص معه الى أن مات ولم يأكله وبقي القرص عنده وقال أبو
سعيد الخراز دخلت البادية بغير زاد فأصابتني فاقة فرأيت المرحلة من بعيد فسررت بأن وصلت ثم فكرت في
نفسي أني سكنت واتكلت على غيره وآليت أن لا أدخل المرحلة الا أن أحمل اليها فحفرت لنفسي في الرمل حفرة
وواريت جسدي فيها الى صدري فسمعت صوتا في نصف الليل عاليا يا أهل المرحلة ان لله تعالى وليا حبس نفسه
في هذا الرمل فالحقوه فجاء جماعة فأخرجوني وحملوني الى القرية * وروى أن رجلا لازم باب عمر رضي الله عنه
فاذا هو بقائل يقول يا هذا هاجرت الى عمر أو الى الله تعالى اذهب فتعلم القرآن فانه سيغنيك عن باب عمر فذهب
الرجل وغاب حتى افتقده عمر فاذا هو قد اعتزل واشتغل بالعبادة فجاءه عمر فقال له اني قد اشتقت اليك فما الذي
شغلك عني فقال اني قرأت القرآن فأغناني عن عمر وآل عمر فقال عمر رحمك الله فما الذي وجدت فيه فقال وجدت
فيه وفي السماء رزقكم وما توعدون فقلت رزقي في السماء وأنا أطلبه في الارض فبكى عمر وقال صدقت فكان
عمر بعد ذلك يأتيه ويجلس اليه وقال أبو حمزة الخراساني حججت سنة من السنين فبينا أنا أمشي في الطريق
اذ وقعت في بئر فنازعتني نفسي أن أستغيث فقلت لا والله لا أستغيث فما استتممت هذا الخاطر حتى مر برأس
البئر رجلان فقال أحدهما للآخر تعال حتى نسد رأس هذا البئر لئلا يقع فيه أحد فأتوا بقصب وبارية وطموا
رأس البئر فهممت أن أصيح فقلت في نفسي الى من أصيح هو أقرب منهما وسكنت فبينا أنا بعد ساعة اذا أنا بشيء
جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله وكأنه يقول تعلق بي في همهمة له كنت أعرف ذلك فتعلقت به فأخرجني
فاذا هو سبع فمر وهتف بي هاتف يا أبا حمزة أليس هذا أحسن نجيناك من التلف بالتلف فمشيت وأنا أقول

نهاني حيائي منك أن أكشف الهوى * وأغنيتني بالفهم منك عن الكشف
تلطفت في أمري فأبديت شاهدي * الى غائبي واللطف يدرك باللطف

ويظهر بالتجلي ثم يصير مقاما وتخلص شمسه عن كسوف الاستتار ثم مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال الى حال أعلى منه كالتحقق بالفناء والتخلص الى البقاء والترقي من عين اليقين الى حق اليقين وحق اليقين نازل يحرق شغاف القلب وذلك أعلى فروع المشاهدة (وقد) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اني أسألك ايمانا يباشر قلبي (قال) سهل بن عبد الله للقلب تجويفان أحدهما باطن وفيه السمع والبصر وهو قلب القلب وهو بداوة والتجويف الثاني ظاهر القلب وفيه العقل ومثل العقل في القلب مثل النظر في العين وهو صقال لموضع مخصوص فيه بمنزلة الصقال الذي في سواد العين ومنه تنبعث الاشعة المحيطة بالمرئيات فهكذا تنبعث من نظر العقل

تراءيت لي بالغيب حتى كأنما * تبشرني بالغيب أنك في الكف

أراني وبي من هيبتي لك وحشة * فتؤنسني باللطف منك وبالعطف

وتحيي محباً أنت في الحب حتفه * وذا عجب كون الحياة مع الحتف

وأمثال هذه الوقائع مما يكثر واذا قوي الايمان به وانضم اليه القدرة على الجوع قدر أسبوع من غير ضيق صدر وقوي الايمان بأنه ان لم يسق اليه رزقه في أسبوع فالموت خير له عند الله عز وجل ولذلك حبسه عنه تم التوكل بهذه الاحوال والمشاهدات والا فلا يتم أصلا

(بيان توكل المعيل)

اعلم أن من له عيال فحكمه يفارق المنفرد لان المنفرد لا يصح توكله الا بأمرين أحدهما قدرته على الجوع أسبوعا من غير استشراف وضيق نفس والآخر أبواب من الايمان ذكرناها من جملتها ان يطيب نفسا بالموت ان لم يأته رزقه علما بأن رزقه الموت والجوع وهو وان كان نقصانا في الدنيا فهو زيادة في الآخرة فيرى انه سيق اليه خير الرزقين له وهو رزق الآخرة وان هذا هو المرض الذي به يموت ويكون راضيا بذلك وانه كذا قضي وقدر له فهذا يتم التوكل للمنفرد ولا يجوز تكليف العيال الصبر على الجوع ولا يمكن أن يقرر عندهم الايمان بالتوحيد وأن الموت على الجوع رزق مغبوط عليه في نفسه ان اتفق ذلك نادرا وكذا سائر أبواب الايمان فاذا لا يمكنه في حقهم الا توكل المكتسب وهو المقام الثالث كتوكل أبي بكر الصديق رضي الله عنه اذ خرج للكسب فأما دخول البوادي وترك العيال توكلا في حقهم أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكلا في حقهم فهذا حرام وقد يفضي الى هلاكهم ويكون هو مؤاخذا بهم بل التحقيق أنه لا فرق بينه وبين عياله فانه ان ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقا وغنيمة في الآخرة فله أن يتوكل في حقهم ونفسه أيضا عيال عنده ولا يجوز له أن يضيعها الا أن تساعده على الصبر على الجوع مدة فان كان لا يطيقه ويضطرب عليه قلبه وتتشوش عليه عبادته لم يجز له التوكل ولذلك روي أن أبا تراب النخشبي نظر الى صوفي مد يده الى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام فقال له لا يصلح لك التصوف الزم السوق أي لا تصوف الا مع التوكل ولا يصح التوكل الا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام وقال أبو علي الروذباري اذا قال الفقير بعد خمسة أيام أنا جائع فالزموه السوق ومروه بالعمل والكسب فاذا بدنه عياله وتوكله فيما يضر ببدنه كتوكله في عياله وانما يفارقهم في شئ واحد وهو أن له تكليف نفسه الصبر على الجوع وليس له ذلك في عياله وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعا عن الاسباب بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة والرضا بالموت ان تأخر الرزق نادرا وملازمة البلاد والامصار أو ملازمة البوادي التي لا تخلو عن حشيش وما يجري مجراه فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الاذى اذ لا يمكن الاستمرار عليه الا بالصبر والتوكل في الامصار أقرب الى الاسباب من التوكل في البوادي وكل ذلك من الاسباب الا أن الناس عدلوا الى أسباب أظهر منها فلم يعدوا تلك أسبابا وذلك لضعف ايمانهم وشدة حرصهم وقلة صبرهم على الاذى في الدنيا لاجل الآخرة واستيلاء الجبن على قلوبهم باساءة الظن وطول الامل ومن نظر في ملكوت السموات والارض انكشف له تحقيقا ان الله تعالى دبر الملك والملكوت تدبيرا لا يجاوز العبد رزقه وان ترك الاضطراب فان العاجز عن الاضطراب لم يجاوزه رزقه أما ترى الجنين في بطن أمه لما ان كان عاجزا عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى تنتهي اليه فضلات غذاء الام بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجنين ثم لما انفصل سلط الحب والشفقة على الام لتتكفل به شاءت أم أبت اضطرارا من الله تعالى اليه بما أشعل في قلبها من نار الحب ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج الى المضغ ولانه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فادر له اللبن اللطيف في ثدي الام عند انفصاله على حسب حاجته أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الام فاذا صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف أنبت له أسنانا قواطع وطواحين لاجل المضغ فاذا كبر واستقل يسر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الآخرة فجبنه بعد البلوغ جهل محض لانه ما نقصت أسباب معيشته ببلوغه بل زادت فانه لم يكن قادرا على الاكتساب فالآن قد قدر فزادت قدرته نعم كان المشفق عليه شخصا

واحدا

أشعة العلوم المحيطة بالمعلومات وهذه الحالة التي خرقت شغاف القلب ووصلت الى سويدائه وهي حق اليقين هي أسنى العطايا وأعز الاحوال وأشرفها ونسبة هذه الحال من المشاهدة كنسبة الآجر من التراب اذ يكون ترابا ثم طينا ثم لبنا ثم آجرا فالمشاهدة هي الاول والاصل يكون منها الفناء كالطين ثم البقاء كاللبن ثم هذه الحالة وهي آخر الفروع ولما كان الاصل في الاحوال هذه الحالة وهي أشرف الاحوال وهي محض موهبة لا تكتسب سميت كل المواهب من النوازل بالعبد أحوالا لانها غير مقدورة للعبد بكسبه فاطلقوا القول وتداولت ألسنة الشيوخ أن المقامات مكاسب والاحوال مواهب وعلى الترتيب الذي درجنا عليه كلها مواهب

واحدا وهى الام أو الاب وكانت شفقته مفرطة جدا فكان يطعمه ويسقيه فى اليوم مرة أو مرتين وكان اطعامه بتسليط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه فكذلك قد سلط الله الشفقة والمودّة والرقة والرحمة على قلوب المسلمين بل أهل البلد كافة حتى ان كل واحد منهم اذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعثت له داعية الى ازالة حاجته فقد كان المشفق عليه واحدا والآن المشفق عليه ألف وزيادة وقد كانوا لا يشفقون عليه لانهم رأوه فى كفالة الام والاب وهو مشفق خاص فلما رأوه يتيما سلط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين أو على جماعة حتى يأخذونه ويكفلونه فما رؤى الى الآن فى سنى الخصب يتيم قد مات جوعا مع أنه عاجز عن الاضطراب وليس له كافل خاص والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التى خلقها فى قلوب عباده فلماذا ينبغى أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل فى الصبا وقد كان المشفق واحدا والمشفق الآن ألف نعم كانت شفقة الام أقوى وأحظى ولكنها واحدة وشفقة آحاد الناس وان ضعفت فيخرج من مجموعها ما يفيد الغرض فكم من يتيم قد يسر الله تعالى له حالا هو أحسن من حال من له أب وأم فينجبر ضعف شفقة الآحاد بكثرة المشفقين وبترك التنعم والاقتصار على قدر الضرورة ولقد أحسن الشاعر حيث يقول

جرى قلم القضاء بما يكون * فسيان التحرك والسكون

جنون منك أن تسعى لرزق * ويرزق فى غشاوته الجنين

فان قلت الناس يكفلون اليتيم لانهم يرونه عاجزا بصباه وأما هذا فبالغ قادر على الكسب فلا يلتفتون اليه ويقولون هو مثلنا فليجتهد لنفسه فأقول ان كان هذا القادر بطالا فقد صدقوا فعليه الكسب ولا معنى للتوكل فى حقه فان التوكل مقام من مقامات الدين يستعان به على التفرغ لله تعالى فما للبطال والتوكل وان كان مشتغلا بالله ملازما لمسجد أو بيت وهو مواظب على العلم والعبادة فالناس لا يلومونه فى ترك الكسب ولا يكلفونه ذلك بل اشتغاله بالله تعالى يقرر حبه فى قلوب الناس حتى يحملون اليه فوق كفايته وانما عليه أن لا يغلق الباب ولا يهرب الى جبل من بين الناس وما رؤى الى الآن عالم أو عابد استغرق الاوقات بالله تعالى وهو فى الامصار فمات جوعا ولا يرى قط بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقدر عليه فان من كان لله تعالى كان الله عز وجل له ومن اشتغل بالله عز وجل ألقى الله حبه فى قلوب الناس وسخر له القلوب كما سخر قلب الام لولدها فقد دبر الله تعالى الملك والملكوت تدبيرا كافيا لاهل الملك والملكوت فمن شاهد هذا التدبير وثق بالمدبر واشتغل به وآمن ونظر الى مدبر الاسباب لا الى الاسباب نعم ما دبره تدبيرا يصل الى المشتغل به الحلو والطيور السمان والثياب الرقيقة والخيول النفيسة على الدوام لا محالة وقد يقع ذلك أيضا فى بعض الاحوال لكن دبره تدبيرا يصل الى كل مشتغل بعبادة الله تعالى فى كل أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناوله لا محالة والغالب أنه يصل أكثر منه بل يصل ما يزيد على قدر الحاجة والكفاية فلا سبب لترك التوكل الا رغبة النفس فى التنعم على الدوام ولبس الثياب الناعمة وتناول الاغذية اللطيفة وليس ذلك من طريق الآخرة وذلك قد لا يحصل بغير اضطراب وهو فى الغالب أيضا ليس يحصل مع الاضطراب وانما يحصل نادرا وفى النادر أيضا قد يحصل بغير اضطراب فاثر الاضطراب ضعيف عند من انفتحت بصيرته فلذلك لا يطمئن الى اضطرابه بل الى مدبر الملك والملكوت تدبير الايجاد وزعيم من عباده رزقه وان سكن الا نادرا اندر اعظم ما يتصور مثله فى حق المضطرب فاذا انكشفت هذه الامور وكان معه قوة فى القلب وشجاعة فى النفس أثمر ما قاله الحسن البصرى رحمه الله اذ قال وددت ان أهل البصرة فى عيالى وان حبة بدينار وقال وهيب بن الورد لو كانت السماء نحاسا والارض رصاصا واهتممت برزقى لظننت أنى مشرك فاذا فهمت هذه الامور فهمت أن التوكل مقام مفهوم فى نفسه ويمكن الوصول اليه لمن قهر نفسه وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وامكانه أنكره عن جهل فاياك أن تجمع بين الافلاسين الافلاس عن وجود المقام ذوقا والافلاس عن الايمان به علما فاذا عليك بالقناعة بالنذر القليل والرضا بالقوت فانه يأتيك لا محالة وان فررت منه وعند ذلك على الله أن يبعث اليك رزقك على يدى من لا تحتسب فان اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث

اذ المكاسب محفوفة بالمواهب والمواهب محفوفة بالمكاسب فالاحوال مواجيد والمقامات طرق المواجيد ولكن فى المقامات ظهر الكسب وبطنت المواهب وفى الاحوال بطن الكسب وظهرت المواهب فالاحوال مواهب علوية سماوية والمقامات طرقها وقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه سلونى عن طرق السموات فانى أعرف بها من طرق الارض اشارة الى المقامات والاحوال فطرق السموات التوبة والزهد وغير ذلك من المقامات فان السالك لهذه الطرق يصير قلبه سماويا وهى طرق السموات ومنزل البركات وهذه الاحوال لا يتحقق بها الا ذو قلب سماوى (قال بعضهم) الحال هو الذكر الخفى وهذا اشارة الى شئ مما

لايحتسب الا آية الا أنه لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذائذ الاطعمة فما ضمن الا الرزق الذى تدوم به حياته وهذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالضامن واطمأن الى ضمانه فان الذى أحاط به تدبير الله من الاسباب الخفية للرزق أعظم مما ظهر للخلق بل مداخل الرزق لاتحصى ومجاريه لايهتدى اليها وذلك لان ظهوره على الارض وسببه فى السماء قال تعالى وفى السماء رزقكم وما توعدون وأسرار السماء لايطلع عليها ولهذا دخل جماعة على الجنيد فقال ماذا تطلبون قالوا نطلب الرزق فقال ان علمتم أى موضع هو فاطلبوه قالوا نسأل الله قال ان علمتم أنه ينساكم فذكروه فقالوا ندخل البيت ونتوكل وننظر ما يكون فقال التوكل على التجربة شك قالوا فما الحيلة قال ترك الحيلة وقال أحمد بن عيسى الخراز كنت فى البادية فنالنى جوع شديد فغلبتنى نفسى أن أسأل الله تعالى طعاما فقلت ليس هذا من أفعال المتوكلين فطالبتنى أن أسأل الله صبرا فلما هممت بذلك سمعت هاتفا يهتف بى ويقول

و يزعم أنه منا قريب * وأنا لا نضيع من أتانا
و يسألنا على الاقتار جهدا * كأنا لا نراه ولا يرانا

فقد فهمت أن من انكسرت نفسه وقوى قلبه ولم يضعف بالجبن باطنه وقوى ايمانه بتدبير الله تعالى كان مطمئن النفس أبدا واثقا بالله عز وجل فان أسوأ حاله أن يموت ولا بد أن يأتيه الموت كما يأتى من ليس مطمئنا فاذا تمام التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب والذى ضمن رزق القانعين بهذه الاسباب التى دبرها صادق فاقنع وجرب تشاهد صدق الوعد تحقيقا بما يرد عليك من الارزاق العجيبة التى لم تكن فى ظنك وحسابك ولا تكن فى توكلك منتظرا للاسباب بل لمسبب الاسباب كما لا تكون منتظرا القلم الكاتب بل لقلب الكاتب فانه أصل حركة القلم والمحرك الاول واحد فلا ينبغى أن يكون النظر الا اليه وهذا شرط توكل من يخوض البوادى بلا زاد أو يقعد فى الامصار وهو خامل وأما الذى له ذكر بالعبادة والعلم فاذا قنع فى اليوم والليلة بالطعام مرة واحدة كيف كان وان لم يكن من اللذائذ وثوب خشن يليق باهل الدين فهذا يأتيه من حيث يحتسب ولا يحتسب على الدوام بل يأتيه اضعافه فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور فان اشتهاره بسبب ظاهر يجلب الرزق اليه أقوى من دخول الامصار فى حق الخامل مع الاكتساب فالاهتمام بالرزق قبيح بذوى الدين وهو بالعلماء أقبح لان شرطهم القناعة والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة وان كانوا معه الا اذا أراد أن لا يأخذ من أيدى الناس ويأكل من كسبه فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذى سلوكه بظاهر العلم والعمل ولم يكن له سير بالباطن فان الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن فاشتغاله بالسلوك مع الاخذ من يد من يتقرب الى الله تعالى بما يعطيه أولى لانه تفرغ لله عز وجل واعانة للمعطى على نيل الثواب ومن نظر الى مجارى سنة الله تعالى علم أن الرزق ليس على قدر الاسباب ولذلك سأل بعض الاكاسرة حكيما عن الاحمق المرزوق والعاقل المحروم فقال أراد الصانع أن يدل على نفسه اذ لو رزق كل عاقل وحرم كل أحمق لظن أن العقل رزق صاحبه فلما رأوا خلافه علموا أن الرازق غيرهم ولا ثقة بالاسباب الظاهرة لهم قال الشاعر

ولو كانت الارزاق تجرى على الحجا * هلكن اذا من جهلهن البهائم

(بيان أحوال المتوكلين فى التعلق بالاسباب بضرب مثال)

اعلم أن مثال الخلق مع الله تعالى مثل طائفة من السؤال وقفوا فى ميدان على باب قصر الملك وهم محتاجون الى الطعام فاخرج اليهم غلمانا كثيرة ومعهم أرغفة من الخبز وأمرهم أن يعطوا بعضهم رغيفين رغيفين وبعضهم رغيفا رغيفا ويجتهدوا فى أن لا يغفلوا عن واحد منهم وأمر مناديا حتى نادى فيهم أن اسكنوا ولا تتعلقوا بغلمانى اذا خرجوا اليكم بل ينبغى أن يطمئن كل واحد منكم فى موضعه فان الغلمان مسخرون وهم مأمورون بان يوصلوا اليكم طعامكم فمن تعلق بالغلمان وآذاهم وأخذ رغيفين فاذا فتح باب الميدان وخرج اتبعته بغلام يكون موكلا به الى أن أتقدم لعقوبته فى ميعاد معلوم عندى ولكن أخفيه ومن لم يؤذ الغلمان وقنع برغيف واحد أتاه من يد الغلام وهو ساكن فانى اختصه بخلعة سنية فى الميعاد المذكور لعقوبة الآخر ومن ثبت فى مكانه

ذكرناه (وسمعت المشايخ بالعراق) يقولون الحال ما من الله فكل ما كان من طريق الاكتساب والاعمال يقولون هذا من العبد فاذا لاح للمريد شئ من المواهب والمواجيد قالوا هذا من الله وسموه حالا اشارة منهم الى أن الحال موهبة (وقال) بعض مشايخ خراسان الاحوال مواريث الاعمال (وقال بعضهم) الاحوال كالبروق فان بقى فحديث النفس وهذا لا يكاد يستقيم على الاطلاق وانما يكون ذلك فى بعض الاحوال فانها تطرق ثم تستلبها النفس فاما على الاطلاق فلا والاحوال لاتمتزج بالنفس كالدهن لا يمتزج بالماء (وذهب) بعضهم الى أن الاحوال لا تكون الا اذا دامت فاما اذا لم تدم فهى لوائح وطوالع وبوادر وهى مقدمات الاحوال وليست باحوال

ولكنه

ولكنه أخذ رغيفين فلاعقوبة عليه ولاخلعة له ومن أخطاه غلماني فما أوصلوا اليه شيأ فبات الليلة جائعا غير متسخط للغلمان ولاقائلا ليته أوصل الى رغيفا فاني غدا أستوزره وأفوض ملكي اليه فانقسم السؤال الى أربعة أقسام قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يلتفتوا الى العقوبة الموعودة وقالوا من اليوم الى غد فرج ونحن الآن جائعون فبادروا الى الغلمان فآذوهم وأخذوا الرغيفين فسبقت العقوبة اليهم في الميعاد المذكور فندموا ولم ينفعهم الندم وقسم تركوا التعلق بالغلمان خوف العقوبة ولكن أخذوا رغيفين لغلبة الجوع فسلموا من العقوبة وما فازوا بالخلعة وقسم قالوا انا نجلس بمرأى من الغلمان حتى لايخطؤنا ولكن ناخذ اذا أعطونا رغيفا واحدا ونقنع به فلعلنا نفوز بالخلعة ففازوا بالخلعة وقسم رابع اختفوا في زوايا الميدان وانحرفوا عن مرأى أعين الغلمان وقالوا ان اتبعونا وأعطونا قنعنا برغيف واحد وان أخطؤنا قاسينا شدة الجوع الليلة فلعلنا نقوى على ترك التسخط فننال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند الملك فما نفعهم ذلك اذ تبعهم الغلمان في كل زاوية وأعطوا كل واحد رغيفا واحدا وجرى مثل ذلك أياما حتى اتفق على الندور ان اختفى ثلاثة في زاوية ولم تقع عليهم أبصار الغلمان وشغلهم شغل صارف عن طول التفتيش فباتوا في جوع شديد فقال اثنان منهم ليتنا تعرضنا للغلمان وأخذنا طعامنا فلسنا نطيق الصبر وسكت الثالث الى الصباح فنال درجة القرب والوزارة فهذا مثال الخلق والميدان وهو الحياة في الدنيا وباب الميدان الموت والميعاد المجهول يوم القيامة والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة للمتوكل اذا مات جائعا راضيا من غير تأخير ذلك الى ميعاد القيامة لان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون والمتعلق بالغلمان هو المعتدي في الاسباب والغلمان المسخرون هم الاسباب والجالس في ظهر الميدان بمرأى الغلمان هم المقيمون في الامصار في الرباطات والمساجد على هيئة السكون والمختفون في الزوايا هم السائحون في البوادي على هيئة التوكل والاسباب تتبعهم والرزق يأتيهم الا على سبيل الندور فان مات واحد منهم جائعا راضيا فله الشهادة والقرب من الله تعالى وقد انقسم الخلق الى هذه الاقسام الاربعة ولعل من كل مائة تعلق بالاسباب تسعون وأقام سبعة من العشرة الباقية في الامصار متعرضين للسبب بمجرد حضورهم واشتهارهم وساح في البوادي ثلاثة وتسخط منهم اثنان وفاز بالقرب واحد ولعله كان كذلك في الاعصار السالفة وأما الآن فالتارك للاسباب لا ينتهي الى واحد من عشرة آلاف (الفن الثاني في التعرض لاسباب الادخار) فمن حصل له مال بارث أو كسب أو سؤال أو سبب من الاسباب فله في الادخار ثلاثة أحوال الاولى أن ياخذ قدر حاجته في الوقت فيأكل ان كان جائعا ويلبس ان كان عاريا ويشتري مسكنا مختصرا ان كان محتاجا ويفرق الباقي في الحال ولا ياخذه ولا يدخره الا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج اليه فيدخره على هذه النية فهذا هو الوفي بموجب التوكل تحقيقا وهي الدرجة العليا * الحالة الثانية المقابلة لهذه المخرجة له عن حدود التوكل أن يدخر السنة فما فوقها فهذا ليس من المتوكلين أصلا وقد قيل لايدخر من الحيوانات الا ثلاثة الفأرة والنملة وابن آدم * الحالة الثالثة أن يدخر لاربعين يوما فما دونها فهذا هل يوجب حرمانه من المقام المحمود الموعود في الآخرة للمتوكلين اختلفوا فيه فذهب سهل الى أنه يخرج عن حد التوكل وذهب الخواص الى أنه لايخرج بأربعين يوما ويخرج بما يزيد على الاربعين وقال أبو طالب المكي لايخرج عن حد التوكل بالزيادة على الاربعين أيضا وهذا اختلاف لامعنى له بعد تجويز أصل الادخار نعم يجوز أن يظن ظان ان أصل الادخار يناقض التوكل فاما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له وكل ثواب موعود على رتبة فانه يتوزع على تلك الرتبة وتلك الرتبة لها بداية ونهاية ويسمى أصحاب النهايات السابقين وأصحاب البدايات أصحاب اليمين ثم أصحاب اليمين أيضا على درجات وكذلك السابقون وأعالي درجات أصحاب اليمين تلاصق أسافل درجات السابقين فلا معنى للتقدير في مثل هذا بل التحقيق أن التوكل بترك الادخار لا يتم الا بقصر الامل وأما عدم آمال البقاء فيبعد اشتراطه ولو في نفس فان ذلك كالممتنع وجوده أما الناس فيتفاوتون في طول الامل وقصره وأقل درجات الامل يوم وليلة فما دونه من الساعات وأقصاه ما يتصور أن يكون عمر الانسان وبينهما درجات لاحصر لها فمن لم يؤمل أكثر من شهر أقرب الى المقصود ممن يؤمل سنة وتقييده بأربعين لاجل ميعاد موسى عليه السلام بعيد فان تلك الواقعة ماقصد بها بيان مقدار مارخص الامل فيه ولكن استحقاق موسى لنيل الموعود كان لا يتم الا بعد

(واختلاف المشايخ) في أن العبد هل يجوز له أن ينتقل الى مقام غير مقامه الذي هو فيه قبل احكام حكم مقامه (قال بعضهم) لا ينبغي أن ينتقل عن الذي هو فيه دون أن يحكم حكم مقامه وقال بعضهم لايكمل المقام الذي هو فيه الا بعد ترقيه الى مقام فوقه فينظر من مقامه العالي الى مادونه من المقام فيحكم أمر مقامه والاولى أن يقال والله أعلم الشخص في مقامه يعطى حالا من مقامه الاعلى الذي سوف يرتقي اليه فبوجدان ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذي هو فيه ويتصرف الحق فيه كذلك ولا يضاف الشئ الى العبد أنه يرتقي أولا يرتقي فان العبد بالاحوال يرتقي الى المقامات والاحوال مواهب ترقى الى المقامات التي يمتزج فيها الكسب بالموهبة ولا يلوح للعبد حال من مقام أعلى مما هو فيه الا وقد

أربعين يوما السر حوت به وبامثاله سنة الله تعالى في تدريج الامور كما قال عليه السلام ان الله خمر طينة آدم بيده
أربعين صباحا لان استحقاق تلك الطينة التخمر كان موقوفا على مدة مبلغها ما ذكر فاذا ما وراء السنة لا يدخره الا
بحكم ضعف القلب والركون الى ظاهر الاسباب فهو خارج عن مقام التوكل غير واثق باحاطة التدبير من الوكيل
الحق بخفايا الاسباب فان أسباب الدخل في الارتفاعات والزكوات تتكرر بتكرر السنين غالبا ومن ادخر لاقل
من سنة فله درجة بحسب قصر أمله ومن كان أمله شهرين لم تكن درجته كدرجة من أمل شهرا ولا درجة من أمل
ثلاثة أشهر بل هو بينهما في الرتبة ولا يمنع من الادخار الا قصر الامل فالافضل أن لا يدخر أصلا وان ضعف قلبه
فكلما قل ادخاره كان فضله أكثر وقد روي في الفقير الذي أمر صلى الله عليه وسلم عليا كرم الله وجهه واسامة
أن يغسلاه فغسلاه وكفناه ببردته فلما دفنه قال لاصحابه انه يبعث يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ولولا خصلة
كانت فيه لبعث ووجهه كالشمس الضاحية قلنا وما هي يارسول الله قال كان صواما قواما كثير الذكر لله تعالى
غير أنه كان اذا جاء الشتاء ادخر حلة الصيف لصيفه واذا جاء الصيف ادخر حلة الشتاء لشتائه ثم قال صلى الله عليه
وسلم بل أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر الحديث وليس الكوز والشفرة وما يحتاج اليه على الدوام في معنى
ذلك فان ادخاره لا ينقص الدرجة وأما ثوب الشتاء فلا يحتاج اليه في الصيف وهذا في حق من لا ينزعج قلبه بترك
الادخار ولا تستشرف نفسه الى أيدي الخلق بل لا يلتفت قلبه الا الى الوكيل الحق فان كان يستشعر في نفسه
اضطرابا يشغل قلبه عن العبادة والذكر والفكر فالادخار له أولى بل لو أمسك ضيعة يكون دخلها وافيا بقدر
كفايته وكان لا يتفرغ قلبه الا به فذلك أولى لان المقصود اصلاح القلب ليتجرد لذكر الله ورب شخص يشغله
وجود المال ورب شخص يشغله عدمه والمحذور ما يشغل عن الله عز وجل والا فالدنيا في عينها غير محذورة
لا وجودها ولا عدمها ولذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون وأهل
الحرف والصناعات فلم يامر التاجر بترك تجارته ولا المحترف بترك حرفته ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما بل دعا
الكل الى الله تعالى وارشدهم الى أن فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا الى الله تعالى وعمدة الاشتغال
بالله عز وجل القلب فصواب الضعيف ادخار قدر حاجته كما أن صواب القوي ترك الادخار وهذا كله حكم المنفرد
فاما المعيل فلا يخرج عن حد التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبرا لضعفهم وتسكينا لقلوبهم وادخار أكثر من ذلك
مبطل للتوكل لان الاسباب تتكرر عند تكرر السنين فادخاره ما يزيد عليه سببه ضعف قلبه وذلك يناقض قوة التوكل
فالمتوكل عبارة عن موحد قوي القلب مطمئن النفس الى فضل الله تعالى واثق بتدبيره دون وجود الاسباب
الظاهرة وقد ادخر رسول الله صلى الله عليه وسلم لعياله قوت سنة ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر له شيأ لغد ونهى
بلالا عن الادخار في كسرة خبز ادخرها ليفطر عليها فقال صلى الله عليه وسلم أنفق بلالا ولا تخش من ذي العرش
اقلالا وقال صلى الله عليه وسلم اذا سئلت فلا تمنع واذا أعطيت فلا تخبأ اقتداء بسيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم
وقد كان قصر أمله بحيث كان اذا بال تيمم مع قرب الماء ويقول ما يدريني لعلي لا أبلغه وقد كان صلى الله عليه وسلم
لو ادخر لم ينقص ذلك من توكله اذ كان لا يثق بما ادخره ولكن عليه السلام ترك ذلك تعليما للاقوياء من أمته فان
أقوياء أمته ضعفاء بالاضافة الى قوته وادخر عليه السلام لعياله سنة لا لضعف قلب فيه وفي عياله ولكن ليسن ذلك
للضعفاء من أمته بل أخبر أن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه تطييبا لقلوب الضعفاء حتى لا
ينتهي بهم الضعف الى اليأس والقنوط فيتركون الميسور من الخير عليهم بعجزهم عن منتهى الدرجات فما أرسل
رسول الله صلى الله عليه وسلم الا رحمة للعالمين كلهم على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم واذا فهمت هذا علمت أن
الادخار قد يضر بعض الناس وقد لا يضر ويدل عليه ما روى أبو أمامة الباهلي أن بعض أصحاب الصفة توفي فما وجد
له كفن فقال صلى الله عليه وسلم فتشوا ثوبه فوجدوا فيه دينارين في داخل ازاره فقال صلى الله عليه وسلم كيتان
وقد كان غيره من المسلمين يموت ويخلف أموالا ولا يقول ذلك في حقه وهذا يحتمل وجهين لان حاله يحتمل حالين
أحدهما أنه أراد كيتين من النار كما قال تعالى تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم وذلك اذا كان حاله اظهار
الزهد والفقر والتوكل مع الافلاس عنه فهو نوع تلبيس والثاني أن لا يكون ذلك عن تلبيس فيكون المعنى به

النقصان

قرب ترقيه اليه فلا يزال
العبد يرقى الى المقامات
بزائد الاحوال فعلى
ما ذكرناه يتضح تداخل
المقامات والاحوال حتى
التوبة ولا تعرف فضيلة
الا فيها حال ومقام وفي
الزهد حال ومقام وفي
التوكل حال ومقام وفي
الرضا حال ومقام قال أبو
عثمان الحيري منذ أربعين
سنة ما أقامني الله في حال
فكرهته أشار الى الرضا
ويكون منه حالا ثم يصير
مقاما والمحبة حال ومقام
ولا يزال العبد يتوب
بطروق حال التوبة
حتى يتوب وطروق حال
التوبة بالانزجار أولا
(قال) بعضهم الزجر
هجان في القلب لا يسكنه
الا الانتباه من الغفلة
فيرده الى اليقظة فاذا
تيقظ أبصر الصواب
من الخطأ وقال بعضهم
الزجر ضياء في القلب
يبصر به خطأ قصده
والزجر في مقدمة التوبة
على ثلاثة أوجه زجر من
طريق العلم وزجر من
طريق العقل وزجر

النقصان عن درجة كماله كما ينقص من جمال الوجه أثر كيتين في الوجه وذلك لا يكون عن تلبيس فان كل ما يخلفه الرجل فهو نقصان عن درجته في الآخرة اذ لا يؤتى أحد من الدنيا شيأ الا نقص بقدره من الآخرة وأما بيان أن الادخار مع فراغ القلب عن المدخر ليس من ضرورته بطلان التوكل فيشهد له ما روي عن بشر قال الحسين المغازلي من أصحابه كنت عنده ضحوة من النهار فدخل عليه رجل كهل أسمر خفيف العارضين فقام اليه بشر قال وما رأيته قام لاحد غيره قال ودفع الى كفا من دراهم وقال اشتر لنا من أطيب ما تقدر عليه من الطعام الطيب وما قال لي قط مثل ذلك قال فجئت بالطعام فوضعته فاكل معه وما رأيته أكل مع غيره قال فاكلنا حاجتنا وبقي من الطعام شيء كثير فاخذه الرجل وجمعه في ثوبه وحمله معه وانصرف فعجبت من ذلك وكرهته له فقال لي بشر لعلك أنكرت فعله قلت نعم أخذ بقية الطعام من غير اذن فقال ذاك أخونا فتح الموصلي زارنا اليوم من الموصل فانما أراد أن يعلمنا أن التوكل اذا صح لم يضر معه الادخار (الفن الثالث في مباشرة الاسباب الدافعة للضرر المعرض للخوف) اعلم أن الضرر قد يعرض للخوف في نفس أو مال وليس من شروط التوكل ترك الاسباب الدافعة رأسا أما في النفس فكالنوم في الارض المسبعة أو في مجاري السيل من الوادي أو تحت الجدار المائل والسقف المنكسر فكل ذلك منهي عنه وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فائدة نعم تنقسم هذه الاسباب الى مقطوع بها أو مظنونة والى موهومة فترك الموهوم منها من شرط التوكل وهي التي نسبتها الى دفع الضرر نسبة الكي والرقية فان الكي والرقية قد يقدم به على المحذور دفعا لما يتوقع وقد يستعمل بعد نزول المحذور للازالة ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصف المتوكلين الا بترك الكي والرقية والطيرة ولم يصفهم بانهم اذا خرجوا الى موضع بارد لم يلبسوا جبة والجبة تلبس دفعا للبرد المتوقع وكذلك كل ما في معناها من الاسباب نعم الاستظهار باكل الثوم مثلا عند الخروج الى السفر في الشتاء تهييجا للقوة الحرارة من الباطن ربما يكون من قبيل التعمق في الاسباب والتعويل عليها فيكاد يقرب من الكي بخلاف الجبة ولترك الاسباب الدافعة وان كانت مقطوعة وجه اذا ناله الضرر من انسان فانه اذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشفي فشرط التوكل الاحتمال والصبر قال الله تعالى فاتخذه وكيلا واصبر على ما يقولون وقال تعالى ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون وقال عز وجل ودع أذاهم وتوكل على الله وقال سبحانه وتعالى فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل وقال تعالى نعم أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون وهذا في أذى الناس وأما الصبر على أذى الحيات والسباع والعقارب فترك دفعها ليس من التوكل في شيء اذ لا فائدة فيه ولا يراد السعي ولا يترك السعي لعينه بل لاعانته على الدين وترتب الاسباب ههنا كترتبها في الكسب وجلب المنافع فلا نطول بالاعادة وكذلك في الاسباب الدافعة عن المال فلا ينقص التوكل باغلاق باب البيت عند الخروج ولا بان يعقل البعير لان هذه أسباب عرفت بسنة الله تعالى اما قطعا واما ظنا ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للاعرابي لما أن أهمل البعير وقال توكلت على الله اعقلها وتوكل وقال تعالى خذوا حذركم وقال في كيفية صلاة الخوف وليأخذوا أسلحتهم وقال سبحانه وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل وقال تعالى لموسى عليه السلام فأسر بعبادي ليلا والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الاعداء ونوع تسبب واختفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار اختفاء عن أعين الاعداء دفعا للضرر وأخذ السلاح في الصلاة ليس دافعا قطعا كقتل الحية والعقرب فانه دافع قطعا ولكن أخذ السلاح سبب مظنون وقد بينا ان المظنون كالمقطوع وانما الموهوم هو الذي يقتضي التوكل تركه فان قلت فقد حكي عن جماعة ان منهم من وضع الاسد يده على كتفه ولم يتحرك فأقول وقد حكي عن جماعة انهم ركبوا الاسد وسخروه فلا ينبغي ان يغرك ذلك المقام فانه وان كان صحيحا في نفسه فلا يصلح للاقتداء بطريق التعلم من الغير بل ذلك مقام رفيع في الكرامات وليس ذلك شرطا في التوكل وفيه أسرار لا يقف عليها من لم ينته اليها فان قلت وهل من علامة أعلم بها اني قد وصلت اليها فأقول الواصل لا يحتاج الى طلب العلامات ولكن من العلامات على ذلك المقام السابقة عليه أن يسخر لك كلب هو معك في اهابك يسمى الغضب فلا يزال يعضك ويعض غيرك فان سخر لك هذا الكلب بحيث اذا هيج واشلي لم يستشل الا باشارتك وكان مسخرا لك فربما ترتفع درجتك الى أن يسخر لك الاسد الذي هو ملك السباع وكلب دارك أولى بان يكون مسخرا لك من كلب

من طريق الايمان فينازل التائب حال الزجر وهي موهبة من الله تعالى تقوده الى التوبة ولا يزال بالعبد ظهور هوى النفس يمحوه آثار حال التوبة والزجر حتى تستقر وتصير مقاما وهكذا في الزهد لا يزال يتزهد بنازلة حال تريه لذة ترك الاشتغال بالدنيا وتقبح له الاقبال عليها فتمحو أثر حاله بدلالة شره النفس وحرصها على الدنيا ورؤية العاجلة حتى تتداركه المعونة من الله الكريم فيزهد ويستقر زهده ويصير الزهد مقامه ولا تزال نازلة حال التوكل تقرع باب قلبه حتى يتوكل وهكذا حال الرضا حتى يطمئن على الرضا ويصير ذلك مقامه وههنا لطيفة وذلك ان مقام الرضا والتوكل يثبت ويحكم ببقائه مع وجود داعية الطبع ولا يحكم ببقاء حال الرضا مع وجود

البوادي وكلب اهابك أولى بأن يتسخر من كلب دارك فاذا لم يسخر لك الكلب الباطن فلا تطمع في استسخار الكلب الظاهر فان قلت فاذا أخذ المتوكل سلاحه حذرا من العدو وأغلق بابه حذرا من اللص وعقل بعيره حذرا من أن ينطلق فبأي اعتبار يكون متوكلا فاقول يكون متوكلا بالعلم والحال * فاما العلم فهو أن يعلم أن اللص ان اندفع لم يندفع بكفايته في اغلاق الباب بل لم يندفع الا بدفع الله تعالى اياه فكم من باب يغلق ولا ينفع وكم من بعير يعقل ويموت أو يفلت وكم من آخذ سلاحه يقتل أو يغلب فلا تتكل على هذه الاسباب أصلا بل على مسبب الاسباب كما ضربنا المثل في الوكيل في الخصومة فانه ان حضر وأحضر السجل فلا يتكل على نفسه وسجله بل على كفاية الوكيل وقوته * وأما الحال فهو أن يكون راضيا بما يقضي الله تعالى به في بيته ونفسه ويقول اللهم ان سلطت على ما في البيت من يأخذه فهو في سبيلك وانا راض بحكمك فاني لا أدري أن ما أعطيتني هبة فلا تسترجعها أو عارية ووديعة فتستردها ولا أدري انه رزقي أو سبقت مشيئتك في الازل بانه رزق غيري وكيفما قضيت فانا راض به وما أغلقت الباب تحصنا من قضائك وتسخطا له بل جريا على مقتضى سنتك في ترتيب الاسباب فلا ثقة الا بك يا مسبب الاسباب فاذا كان هذا حاله وذلك الذي ذكرناه علمه لم يخرج عن حدود التوكل بعقل البعير وأخذ السلاح واغلاق الباب ثم اذا عاد فوجد متاعه في البيت فينبغي أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله تعالى وان لم يجده بل وجده مسروقا فانظر الى قلبه فان وجده راضيا أو فرحا بذلك عالما انه ما أخذ الله تعالى ذلك منه الا ليزيد رزقه في الآخرة فقد صح مقامه في التوكل وظهر له صدقه وان تألم قلبه به ووجد قوة الصبر فقد بان له انه ما كان صادقا في دعوى التوكل لان التوكل مقام بعد الزهد ولا يصح الزهد الا ممن لا يتأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتي بل يكون على العكس منه فكيف يصح له التوكل نعم قد يصح له مقام الصبر ان اخفاه ولم يظهر شكواه ولم يكثر سعيه في الطلب والتجسس وان لم يقدر على ذلك حتى تأذى بقلبه وأظهر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب ببدنه فقد كانت السرقة مزيدا له في ذنبه من حيث انه ظهر له قصوره عن جميع المقامات وكذبه في جميع الدعاوي فبعد هذا ينبغي أن يجتهد حتى لا يصدق نفسه في دعاويها ولا يتدلى بحبل غرورها فانها خداعة أمارة بالسوء مدعية للخير فان قلت فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ فاقول المتوكل لا يخلو بيته عن متاع كقصعة يأكل فيها وكوز يشرب منه واناء يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده وعصا يدفع بها عدوه وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت وقد يدخل في يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجا فيصرفه اليه فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلا لتوكله وليس من شرط التوكل اخراج الكوز الذي يشرب منه والجراب الذي فيه زاده وانما ذلك في المأكول وفي كل مال زائد على قدر الضرورة لان سنة الله جارية بوصول الخير الى الفقراء المتوكلين في زوايا المساجد وما جرت السنة بتفرقة الكيزان والامتعة في كل يوم ولا في كل أسبوع والخروج عن سنة الله عز وجل ليس شرطا في التوكل ولذلك كان الخواص يأخذ في السفر الحبل والركوة والمقراض والابرة دون الزاد لان سنة الله تعالى جارية بالفرق بين الامرين فان قلت فكيف يتصور أن لا يحزن اذا أخذ متاعه الذي هو محتاج اليه ولا يتأسف عليه فان كان لا يشتهيه فلم أمسكه وأغلق الباب عليه وان كان أمسكه لانه يشتهيه لحاجته اليه فكيف لا يتأذى قلبه ولا يحزن وقد حيل بينه وبين ما يشتهيه فاقول انما كان يحفظه ليستعين به على دينه اذ كان يظن أن الخيرة له في أن يكون ذلك المتاع له ولولا أن الخيرة له فيه لما رزقه الله تعالى ولما أعطاه اياه فاستدل على ذلك بتيسير الله عز وجل وحسن الظن بالله تعالى مع ظنه أن ذلك معين له على أسباب دينه ولم يكن ذلك عنده مقطوعا به اذ يحتمل أن تكون خيرته في أن يبتلى بفقده ذلك حتى ينصب في تحصيل غرضه ويكون ثوابه في النصب والتعب أكثر فلما أخذه الله تعالى منه بتسليط اللص تغير ظنه لانه في جميع الاحوال واثق بالله حسن الظن به فيقول لولا أن الله عز وجل علم أن الخيرة كانت لي في وجودها الى الآن والخيرة لي الآن في عدمها لما أخذها مني فبمثل هذا الظن يتصور أن يندفع عنه الحزن اذ به يخرج عن أن يكون فرحه بالاسباب من حيث انها أسباب بل من حيث انه يسرها مسبب الاسباب عناية وتلطفا وهو كالمريض بين يدي الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله فان قدم اليه الغذاء فرح وقال لولا أنه يعرف أن الغذاء ينفعني وقد قويت على احتماله لما قربه الي وان أخر عنه الغذاء بعد ذلك أيضا فرح وقال لولا أن

داعية الطبع وذلك مثل كراهة يجدها الراضي بحكم الطبع ولكن علمه بمقام الرضا يغمر حكم الطبع وظهور حكم الطبع في وجود الكراهية المغمورة بالعلم لا يخرجه عن مقام الرضا ولكن يفسد حال الرضا لان الحال لما تجردت موهبة أحرقت داعية الطبع فيقال كيف يكون صاحب مقام في الرضا ولا يكون صاحب حال فيه والحال مقدمة المقام والمقام أثبت نقول لان المقام لما كان مشوبا بكسب العبد احتمل وجود الطبع فيه والحال لما كانت موهبة من الله نزهت عن مزج الطبع فحال الرضا أصلف ومقام الرضا أمكن ولا بد للمقامات من زائد الاحوال فلا مقام الا بعد سابقة حال ولا تفرد المقامات دون سابقة الاحوال (واما

الغذاء يضرني و يسوقني الى الموت لما حال بيني وبينه وكل من لا يعتقد في لطف الله تعالى ما يعتقده المريض في الوالد المشفق الحاذق بعلم الطب فلا يصح منه التوكل أصلا ومن عرف الله تعالى وعرف أفعاله وعرف سنته في اصلاح عباده لم يكن فرحه بالاسباب فانه لا يدري أي الاسباب خير له كما قال عمر رضي الله عنه لا أبالي أصبحت غنيا أو فقيرا فاني لا أدري أيهما خير لي فكذلك ينبغي أن لا يبالي المتوكل يسرق متاعه أو لا يسرق فانه لا يدري أيهما خير له في الدنيا أو في الآخرة فكم من متاع في الدنيا يكون سبب هلاك الانسان وكم من غني يبتلى بواقعة لاجل غناه يقول يا ليتني كنت فقيرا *(بيان آداب المتوكلين اذا سرق متاعهم)*

للمتوكل آداب في متاع بيته اذا خرج عنه *(الاول)* أن يغلق الباب ولا يستقصي في أسباب الحفظ كالتماسه من الجيران الحفظ مع الغلق وكجمعه أغلاقا كثيرة فقد كان مالك بن دينار لا يغلق بابه ولكن يشده بشريط ويقول لولا الكلاب ما شددته أيضا *(الثاني)* أن لا يترك في البيت متاعا يحرص عليه السراق فيكون هو سبب معصيتهم أو امساكه يكون سبب هيجان رغبتهم ولذلك لما أهدى المغيرة الى مالك بن دينار ركوة قال خذها لا حاجة لي اليها قال لم قال يوسوس الى العدو أن اللص أخذها فكأنه احترز من أن يعصي السارق ومن شغل قلبه بوسواس الشيطان بسرقتها ولذلك قال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية هذا قد زهد في الدنيا فما عليه من أخذها *(الثالث)* أن ما يضطر الى تركه في البيت ينبغي أن ينوي عند خروجه الرضا بما يقضي الله فيه من تسليط سارق عليه ويقول ما يأخذه السارق فهو منه في حل أو هو في سبيل الله تعالى وان كان فقيرا فهو عليه صدقة وان لم يشترط الفقر فهو أولى فيكون له نيتان لو أخذه غني أو فقير احداهما أن يكون ماله مانعا له من المعصية فانه ربما استغنى به فيتوانى عن السرقة بعده وقد زال عصيانه بأكل الحرام لما أن جعله في حل والثانية أن لا يظلم مسلما آخر فيكون ماله فداء لمال مسلم آخر ومهما ينوي حراسة مال غيره بمال نفسه أو ينوي دفع المعصية عن السارق أو تخفيفها عليه فقد نصح للمسلمين وامتثل قوله صلى الله عليه وسلم انصر أخاك ظالما أو مظلوما ونصر الظالم أن تمنعه من الظلم وعفوه عنه اعدام للظلم ومنع له وليتحقق أن هذه النية لا تضره بوجه من الوجوه اذ ليس فيها ما يسلط السارق ويغير القضاء الازلي ولكن يتحقق بالزهد نيته فان أخذ ماله كان له بكل درهم سبعمائة درهم لانه نواه وقصده وان لم يؤخذ حصل له الاجر أيضا كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن ترك العزل فاقر النطفة قرارها ان له أجر غلام ولد له من ذلك الجماع وعاش فقتل في سبيل الله تعالى وان لم يولد له لانه ليس أمر الولد الا الوقاع فاما الخلق والحياة والرزق والبقاء فليس اليه فلو خلق لكان ثوابه على فعله وفعله لم ينعدم فكذلك أمر السرقة *(الرابع)* انه اذا وجد المال مسروقا فينبغي أن لا يحزن بل يفرح ان أمكنه ويقول لولا ان الخيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى ثم ان لم يكن قد جعله في سبيل الله عز وجل فلا يبالغ في طلبه وفي اساءة الظن بالمسلمين وان كان قد جعله في سبيل الله فيترك طلبه فانه قد قدمه ذخيرة لنفسه الى الآخرة فان أعيد عليه فالاولى ان لا يقبله بعد أن كان قد جعله في سبيل الله عز وجل وان قبله فهو في ملكه في ظاهر العلم لان الملك لا يزول بمجرد تلك النية ولكنه غير محبوب عند المتوكلين وقد روي ان ابن عمر سرقت ناقته فطلبها حتى أعيا ثم قال في سبيل الله تعالى فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين فجاءه رجل فقال يا أبا عبد الرحمن ان ناقتك في مكان كذا فلبس نعله وقام ثم قال استغفر الله وجلس فقيل له ألا تذهب فتأخذها فقال اني كنت قلت في سبيل الله وقال بعض الشيوخ رأيت بعض اخواني في النوم بعد موته فقلت ما فعل الله بك قال غفر لي وأدخلني الجنة وعرض علي منازلي فيها فرأيتها قال وهو مع ذلك كئيب حزين فقلت قد غفر لك ودخلت الجنة وأنت حزين فتنفس الصعداء ثم قال نعم اني لا أزال حزينا الى يوم القيامة قلت ولم قال اني لما رأيت منازلي في الجنة رفعت لي مقامات في عليين ما رأيت مثلها فيما رأيت ففرحت بها فلما هممت بدخولها نادى مناد من فوقها اصرفوه عنها فليست هذه له انما هي لمن أمضى السبيل فقلت وما امضاء السبيل فقيل لي كنت تقول للشيء انه في سبيل الله ثم ترجع فيه فلو كنت أمضيت السبيل لامضينا لك وحكي عن بعض العباد بمكة أنه كان نائما الى جنب رجل معه هميان فانتبه الرجل ففقد هميانه فاتهمه به فقال له كم كان في هميانك فذكر له فحمله الى البيت ووزنه من عنده ثم بعد ذلك أعلمه أصحابه انهم كانوا أخذوا الهميان

الاحوال) فمنها ما يصير مقاما ومنها ما لا يصير مقاما والسر فيه ما ذكرناه ان الكسب في المقام ظهر والموهبة بطنت وفي الحال ظهرت الموهبة والكسب بطن فلما كان في الاحوال الموهبة غالبة لم تتقيد وصارت الاحوال الى ما لا نهاية لها ولطف تنشى الاحوال ان يصير مقاما ومقدورات الحق غير متناهية ومواهبه غير متناهية ولهذا قال بعضهم لو أعطيت روحانية عيسى ومكالمة موسى وخلة ابراهيم عليه السلام لطلبت ما وراء ذلك لان مواهب الله لا تنحصر وهذه أحوال الانبيا ولا تعطى الاولياء ولكن هذه اشارة من القائل الى دوام تطلع العبد وتطلبه وعدم قناعته بما هو فيه من أمر الحق تعالى لان سيد الرسل صلوات الله عليه وسلامه نبه على

مزحا معه فجاء هو وأصحابه معه وزدوا الذهب فأبى وقال نخذه حلالا طيبا فما كنت لأعود في مال اخرجته في سبيل الله عز وجل فلم يقبل فالحوا عليه فدعا ابناله وجعل يصره صررا ويبعث بها الى الفقراء حتى لم يبق منه شئ فهكذا كانت أخلاق السلف وكذلك من أخذ رغيفا ليعطيه فقيرا فغاب عنه كان يكره رده الى البيت بعد اخراجه فيعطيه فقيرا آخر وكذلك يفعل في الدراهم والدنانير وسائر الصدقات *(الخامس)* وهو أقل الدرجات أن لا يدعو على السارق الذى ظلمه بالاخذ فان فعل بطل توكله ودل ذلك على كراهته وتأسفه على مافات وبطل زهده ولو بالغ فيه بطل أجره أيضا فيما أصيب به ففي الخبر من دعا على ظالمه فقد انتصر وحكى أن الربيع بن خيثم سرق فرس له وكان قيمته عشرين ألفا وكان قائما يصلى فلم يقطع صلاته ولم ينزعج لطلبه فجاءه قوم يعزونه فقال أما انى قد كنت رأيته وهو يحله قيل وما منعك أن تزجره قال كنت فيما هو أحب الى من ذلك يعنى الصلاة فجعلوا يدعون عليه فقال لا تفعلوا وقولوا خيرا فانى قد جعلتها صدقة عليه وقيل لبعضهم فى شئ قد كان سرق له ألا تدعو على ظالمك قال ما أحب أن أكون عونا للشيطان عليه قيل أرأيت لو رد عليك قال لا آخذه ولا أنظر اليه لانى كنت قد أحللته له وقيل لآخر ادع الله على ظالمك فقال ما ظلمنى أحد ثم قال انما ظلم نفسه ألا يكفيه المسكين ظلم نفسه حتى أزيده شرا وأكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف فى ظلمه فقال لا تغرق فى شتمه فان الله تعالى ينتصف للحجاج ممن انتهك عرضه كما ينتصف منه لمن أخذ ماله ودمه وفى الخبر ان العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة بما زاد عليه يقتص له من المظلوم (السادس) أن يغتم لاجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله تعالى ويشكر الله تعالى اذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما وجعل ذلك نقصا فى دنياه لا نقصا فى دينه فقد شكا بعض الناس الى عالم انه قطع عليه الطريق وأخذ ماله فقال ان لم يكن لك غم انه قد صار فى المسلمين من يستحل هذا أكثر من غمك بمالك فما نصحت للمسلمين وسرق من على بن الفضيل دنانير وهو يطوف بالبيت فرآه أبوه وهو يبكى ويحزن فقال أعلى الدنانير تبكى فقال لا والله ولكن على المسكين أن يسئل يوم القيامة ولا تكون له حجة وقيل لبعضهم ادع على من ظلمك فقال انى مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه فهذه أخلاق السلف رضى الله عنهم أجمعين *(الفن الرابع فى السعى فى ازالة الضرر كمداواة المرض وأمثاله)* اعلم أن الاسباب المزيلة للمرض أيضا تنقسم الى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع والى مظنون كالفصد والحجامة وشرب الدواء المسهل وسائر أبواب الطب أعنى معالجة البرودة بالحرارة والحرارة بالبرودة وهى الاسباب الظاهرة فى الطب والى موهوم كالكى والرقية أما المقطوع فليس من التوكل تركه بل تركه حرام عند خوف الموت وأما الموهوم فشرط التوكل تركه اذ به وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المتوكلين وأقواها الكى ويليه الرقية والطيرة آخر درجاتها والاعتماد عليها والاتكال اليها غاية التعمق فى ملاحظة الاسباب وأما الدرجة المتوسطة وهى المظنونة كالمداواة بالاسباب الظاهرة عند الاطباء ففعله ليس مناقضا للتوكل بخلاف الموهوم وتركه ليس محظورا بخلاف المقطوع بل قد يكون أفضل من فعله فى بعض الاحوال وفى بعض الاشخاص فهى على درجة بين الدرجتين ويدل على أن التداوى غير مناقض للتوكل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله وأمره به أما قوله فقد قال صلى الله عليه وسلم ما من داء الا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله الا السام يعنى الموت وقال عليه السلام تداووا عباد الله فان الله خلق الداء والدواء وسئل عن الدواء والرقى هل ترد من قدر الله شيأ قال هى من قدر الله وفى الخبر المشهور ما مررت بملا من الملائكة الا قالوا مر أمتك بالحجامة وفى الحديث أنه أمر بها وقال احتجموا لسبع عشرة وتسع عشرة واحدى وعشرين لا يتبيغ بكم الدم فيقتلكم فذكر أن تبيغ الدم سبب الموت وانه قاتل باذن الله تعالى وبين أن اخراج الدم خلاص منه اذ لا فرق بين اخراج الدم المهلك من الاهاب وبين اخراج العقرب من تحت الثياب واخراج الحية من البيت وليس من شرط التوكل ترك ذلك بل هو كصب الماء على النار لاطفائها ودفع ضررها عند وقوعها فى البيت وليس من التوكل الخروج عن سنة الوكيل أصلا وفى خبر مقطوع من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة وأما أمره صلى الله عليه وسلم فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوى

وبالحمية

عدم القناعة وقرع باب الطلب واستنزال بركة المزيد بقوله عليه السلام كل يوم لم أزدد فيه علما فلا بورك لى فى صبيحة ذلك اليوم وفى دعائه صلى الله عليه وسلم اللهم ما قصر عنه رأيى وضعف فيه عملى ولم تبلغه نيتى وامنيتى من خير وعدته أحدا من عبادك أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك فانا أرغب اليك وأسالك اياه فاعلم ان مواهب الحق لا تنحصر والاحوال مواهب وهى متصلة بكلمات الله التى ينفد البحر دون نفادها وتنفد اعداد الرمال دون أعدادها والله المنعم المعطى

(الباب التاسع والخمسون فى الاشارات الى المقامات على الاختصار والايجاز)

أخبرنا شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب السهروردى رحمه الله قال أنا أبو منصور بن خيرون اجازة قال أنا أبو محمد الحسن بن على بن

و بالحمية وقطع لسعد بن معاذ عرقا أى فصده وكوى سعد بن زرارة وقال لعلى رضى الله تعالى عنه وكان رمد العين لا تأكل من هذا يعنى الرطب وكل من هذا فانه أوفق لك يعنى سلقا قد طبخ بدقيق شعير وقال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين تأكل تمرا وأنت أرمد فقال انى آكل من الجانب الآخر فتبسم صلى الله عليه وسلم وأما فعله عليه الصلاة والسلام فقد روى فى حديث من طريق أهل البيت انه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة قيل السنا المكى وتداوى صلى الله عليه وسلم غير مرة من العقرب وغيرها وروى أنه كان اذا نزل اليه الوحى صدع رأسه فكان يغلفه بالحناء وفى خبر انه كان اذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء وقد جعل على قرحة خرجت به ترابا ومار وى فى تداويه وأمره بذلك كثير خارج عن الحصر وقد صنف فى ذلك كتاب وسمى طب النبى صلى الله عليه وسلم وذكر بعض العلماء فى الاسرائيليات ان موسى عليه السلام اعتل بعلة فدخل عليه بنو اسرائيل فعرفوا علته فقالوا له لو تداويت بكذا لبرئت فقال لا أتداوى حتى يعافينى هو من غير دواء فطالت علته فقالوا له ان دواء هذه العلة معروف مجرب وانا نتداوى به فنبرأ فقال لا أتداوى وأقامت علته فأوحى الله تعالى اليه وعزتى وجلالى لا أبرأتك حتى تتداوى بما ذكروه لك فقال لهم داوونى بما ذكرتم فداووه فبرأ فأوجس فى نفسه من ذلك فأوحى الله تعالى اليه أردت أن تبطل حكمتى بتوكلك على من أودع العقاقير منافع الاشياء غيرى وروى فى خبر آخر ان نبيا من الانبياء عليهم السلام شكا علة يجدها فأوحى الله تعالى اليه كل البيض وشكا نبى آخر الضعف فأوحى الله تعالى اليه كل اللحم باللبن فان فيهما القوة قيل هو الضعف عن الجماع وقد روى ان قوما شكوا الى نبيهم قبح أولادهم فأوحى الله تعالى اليه مرهم أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل فانه يحسن الولد و يفعل ذلك فى الشهر الثالث والرابع اذ فيه يصور الله تعالى الولد وقد كانوا يطعمون الحبلى السفرجل والنفساء الرطب فهذا تبين ان مسبب الاسباب أجرى سنته بربط المسببات بالاسباب اظهارا للحكمة والادوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الاسباب فكما ان الخبز دواء الجوع والماء دواء العطش فالسكنجبين دواء الصفراء والسقمونيا دواء الاسهال لا يفارقه الا فى أحد أمرين أحدهما ان معالجة الجوع والعطش بالماء والخبز جلى واضح يدركه كافة الناس ومعالجة الصفراء بالسكنجبين يدركه بعض الخواص فمن أدرك ذلك بالتجربة التحق فى حقه بالاول والثانى ان الدواء يسهل والسكنجبين يسكن الصفراء بشروط أخر فى الباطن وأسباب فى المزاج ربما يتعذر الوقوف على جميع شروطها وربما يفوت بعض الشروط فيتقاعد الدواء عن الاسهال وأما زوال العطش فلا يستدعى سوى الماء شروطا كثيرة وقد يتفق من العوارض ما يوجب دوام العطش مع كثرة شرب الماء ولكنه نادر واختلال الاسباب أبدا ينحصر فى هذين الشيئين والا فالمسبب يتلو السبب لا محالة مهما تمت شروط السبب وكل ذلك بتدبير مسبب الاسباب وتسخيره وترتيبه بحكم حكمته وكمال قدرته فلا يضر المتوكل استعماله مع النظر الى مسبب الاسباب دون الطبيب والدواء فقد روى عن موسى صلى الله عليه وسلم انه قال يا رب ممن الداء والدواء فقال تعالى منى قال فما يصنع الاطباء قال يأكلون أرزاقهم و يطيبون نفوس عبادى حتى يأتى شفائى أو قضائى فاذا معنى التوكل مع التداوى التوكل بالعلم والحال كما سبق فى فنون الاعمال الدافعة للضر والجالبة للنفع فأما ترك التداوى رأسا فليس شرطا فيه فان قلت فالكى أيضا من الاسباب الظاهرة النفع فأقول ليس كذلك اذ الاسباب الظاهرة مثل الفصد والحجامة وشرب المسهل وسقى المبردات للمحرور وأما الكى فلو كان مثلها فى الظهور لما خلت البلاد الكثيرة عنه وقلما يعتاد الكى فى أكثر البلاد وانما ذلك عادة بعض الاتراك والاعراب فهذا من الاسباب الموهومة كالرقى الا انه يتميز عنها بأمر وهو أنه احتراق بالنار فى الحال مع الاستغناء عنه فانه ما من وجع يعالج بالكى الا وله دواء يغنى عنه ليس فيه احراق فالاحراق بالنار جرح مخرب للبنية محذور السراية مع الاستغناء عنه بخلاف الفصد والحجامة فان سرايتهما بعيدة ولا يسد مسدهما غيرهما ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكى دون الرقى وكل واحد منهما بعيد عن التوكل وروى ان عمران ابن الحصين اعتل فأشاروا عليه بالكى فامتنع فلم يزالوا به وعزم عليه الامير حتى اكتوى فكان يقول كنت أرى نورا وأسمع صوتا وتسلم على الملائكة فلما اكتويت انقطع ذلك عنى وكان يقول اكتوينا كيات فوالله ما أفلحت

محمد الجوهرى اجازة قال أنا أبو عمرو محمد بن العباس بن محمد قال أنا أبو محمد يحيى بن صاعد قال أنا الحسين بن الحسن المروزى قال أنا عبد الله ابن المبارك قال أنا الهيثم ابن جميل قال أنا كثير ابن سليم المدائنى قال سمعت أنس بن مالك رضى الله عنه قال أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل فقال يا رسول الله انى رجل ذرب اللسان وأكثر ذلك على أهلى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أين أنت من الاستغفار فانى أستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة (وروى) أبو هريرة رضى الله عنه فى حديث آخر فانى لاستغفر الله وأتوب اليه فى كل يوم مائة مرة (وروى) أبو بردة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انه ليغان على قلبى فاستغفر الله فى اليوم مائة مرة وقال الله تعالى وتوبوا الى الله جميعا أيها

ولا أتحدث ثم تاب من ذلك وأناب الى الله تعالى فرد الله تعالى عليه ما كان يجد من أمر الملائكة وقال لمطرف بن عبد الله ألم تر الى الملائكة التى كان أكرمنى الله بها فقد ردها الله تعالى على بعد ان كان أخبره بفقدها فاذا الكى وما يجرى مجراه هو الذى لا يليق بالمتوكل لانه يحتاج فى استنباطه الى تدبير ثم هو مذموم و يدل ذلك على شدة ملاحظة الاسباب وعلى التعمق فيها والله أعلم

(بيان ان ترك التداوى قد يحمد فى بعض الاحوال ويدل على قوة التوكل وان ذلك لا يناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم)

اعلم ان الذين تداووا من السلف لا يحصرون ولكن قد ترك التداوى أيضا جماعة من الاكابر فربما يظن ان ذلك نقصان لانه لو كان كمالا لتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ لا يكون حال غيره فى التوكل أكمل من حاله وقد روى عن أبى بكر رضى الله عنه انه قيل له لو دعونا لك طبيبا فقال الطبيب قد نظر الى وقال انى فعال لما أريد وقيل لابى الدرداء فى مرضه ما تشتكى قال ذنوبى قيل فما تشتهى قال مغفرة ربى قالوا ألا ندعو لك طبيبا قال الطبيب أمرضنى وقيل لابى ذر وقد رمدت عيناه لو داويتهما قال انى عنهما مشغول فقيل له لو سألت الله تعالى أن يعافيك فقال اسأله فيما هو أهم على منهما وكان الربيع بن خيثم أصابه فالج فقيل له لو تداويت فقال قد هممت ثم ذكرت عادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وكان فيهم الاطباء فهلك المداوى والمداوى ولم تغن الرقى شيأ وكان أحمد بن حنبل يقول أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوى من شرب الدواء وغيره وكان به علل فلا يخبر المتطبب بها أيضا اذا سأله وقيل لسهل متى يصح للعبد التوكل قال اذا دخل عليه الضرر فى جسمه والنقص فى ماله فلم يلتفت اليه شغلا بحاله و ينظر الى قيام الله تعالى عليه فاذا منهم من ترك التداوى ورآه ومنهم من كرهه ولا يتضح وجه الجمع بين فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعالهم الا بحصر الصوارف عن التداوى فنقول ان لترك التداوى أسبابا (السبب الاول) أن يكون المريض من المكاشفين وقد كوشف بانه انتهى أجله وان الدواء لا ينفعه و يكون ذلك معلوما عنده تارة برؤيا صادقة وتارة بحدس وظن وتارة بكشف محقق ويشبه أن يكون ترك الصديق رضى الله عنه التداوى من هذا السبب فانه كان من المكاشفين فانه قال لعائشة رضى الله عنها فى أمر الميراث انما هن أختاك وانما كان لها أخت واحدة ولكن كانت امرأته حاملا فولدت أنثى فعلم انه كان قد كوشف بانها حامل بانثى فلا يبعد أن يكون قد كوشف أيضا بانتهاء أجله والا فلا يظن به انكار التداوى وقد شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تداوى وأمر به *(السبب الثانى)* أن يكون المريض مشغولا بحاله وبخوف عاقبته واطلاع الله تعالى عليه فينسيه ذلك ألم المرض فلا يتفرغ قلبه للتداوى شغلا بحاله وعليه يدل كلام أبى ذر اذ قال انى عنهما مشغول وكلام أبى الدرداء اذ قال انما أشتكى ذنوبى فكان تألم قلبه خوفا من ذنوبه أكثر من تألم بدنه بالمرض و يكون هذا كالمصاب بموت عزيز من أعزته أو كالخائف الذى يحمل الى ملك من الملوك ليقتل اذا قيل له ألا تأكل وأنت جائع فيقول أنا مشغول عن ألم الجوع فلا يكون ذلك انكارا لكون الاكل نافعا من الجوع ولا طعنا فيمن أكل و يقرب من هذا اشتغال سهل حيث قيل له ما القوت فقال هو ذكر الحى القيوم فقيل انما سألناك عن القوام فقال القوام هو العلم قيل سألناك عن الغذاء قال الغذاء هو الذكر قيل سألناك عن طعمة الجسد قال مالك وللجسد دع من تولاه أولا يتولاه آخرا اذا دخل عليه علة فرده الى صانعه اما رأيت الصنعة اذا عيبت ردوها الى صانعها حتى يصلحها *(السبب الثالث)* ان تكون العلة مزمنة والدواء الذى يؤمر به بالاضافة الى علته موهوم النفع جار مجرى الكى والرقية فيتركه المتوكل واليه يشير قول الربيع بن خيثم اذ قال ذكرت عادا وثمود وفيهم الاطباء فهلك المداوى والمداوى أى ان الدواء غير موثوق به وهذا قد يكون كذلك فى نفسه وقد يكون عند المريض كذلك لقلة ممارسته للطب وقلة تجربته له فلا يغلب على ظنه كونه نافعا ولا شك فى ان الطبيب المجرب أشد اعتقادا فى الادوية من غيره فتكون الثقة والظن بحسب الاعتقاد والاعتقاد بحسب التجربة وأكثر من ترك التداوى من العباد والزهاد هذا مستندهم لانه يبقى الدواء عنده شيأ موهوما لا أصل له وذلك صحيح فى بعض الادوية عند من عرف صناعة الطب غير صحيح فى البعض ولكن غير الطبيب

قد

المؤمنون لعلكم تفلحون وقال الله عز وجل ان الله يحب التوابين وقال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا *التوبة أصل كل مقام وقوام كل مقام ومفتاح كل حال وهى أول المقامات وهى بمثابة الارض للبناء فمن لا أرض له لا بناء له ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام له وانى بمبلغ علمى وقدر وسعى وجهدى اعتبرت المقامات والاحوال وثمراتها فرأيتها يجمعها ثلاثة أشياء بعد صحة الايمان وعقوده وشروطه فصارت مع الايمان أربعة ثم رأيتها فى افادة الولادة المعنوية الحقيقية بمثابة الطبائع الاربع التى جعلها الله تعالى باجراء سنته مفيدة للولادة الطبيعية ومن تحقق بحقائق هذه الاربع يلج ملكوت السموات و يكاشف بالقدر والآيات ويصير له ذوق وفهم لكلمات

قد ينظر الى الكل نظرا واحدا فيرى التداوى تعمقا فى الاسباب كالكى والرقى فيتركه توكلا *(السبب الرابع)* أن يقصد العبد بترك التداوى استبقاء المرض لينال ثواب المرض بحسن الصبر على بلاء الله تعالى أو ليجرب نفسه فى القدرة على الصبر فقد ورد فى ثواب المرض ما يكثر ذكره فقد قال صلى الله عليه وسلم نحن معاشر الانبياء أشد الناس بلاء ثم الامثل فالامثل يبتلى العبد على قدر ايمانه فان كان صلب الايمان شدد عليه البلاء وان كان فى ايمانه ضعف خفف عنه البلاء وفى الخبر ان الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار فمنهم من يخرج كالذهب الابريز لا يزيد ومنهم دون ذلك ومنهم من يخرج أسود محترقا وفى حديث من طريق أهل البيت ان الله تعالى اذا أحب عبدا ابتلاه فان صبر اجتباه فان رضى اصطفاه وقال صلى الله عليه وسلم تحبون أن تكونوا كالحمر الضالة لا تمرضون ولا تسقمون وقال ابن مسعود رضى الله عنه تجد المؤمن أصح شئ قلبا وأمرضه جسما وتجد المنافق أصح شئ جسما وأمرضه قلبا فلما عظم الثناء على المرض والبلاء أحب قوم المرض واغتنموه لينالوا ثواب الصبر عليه فكان منهم من له علة يخفيها ولا يذكرها للطبيب ويقاسى العلة ويرضى بحكم الله تعالى ويعلم ان الحق أغلب على قلبه من أن يشغله المرض عنه وانما يمنع المرض جوارحه وعلموا ان صلاتهم قعودا مع الصبر على قضاء الله تعالى أفضل من الصلاة قياما مع العافية والصحة ففى الخبر ان الله تعالى يقول للملائكة اكتبوا لعبدى صالح ما كان يعمله فانه فى وثاقى ان أطلقته أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه وان توفيته توفيته الى رحمتى وقال صلى الله عليه وسلم أفضل الاعمال ما أكرهت عليه النفوس فقيل معناه ما دخل عليه من الامراض والمصائب واليه الاشارة بقوله تعالى وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم وكان سهل يقول ترك التداوى وان ضعف عن الطاعات وقصر عن الفرائض أفضل من التداوى لاجل الطاعات وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوى منها وكان يداوى الناس منها وكان اذا رأى العبد يصلى من قعود ولا يستطيع أعمال البر من الامراض فيتداوى للقيام الى الصلاة والنهوض الى الطاعات يعجب من ذلك ويقول صلاته من قعود مع الرضا بحاله أفضل من التداوى للقوة والصلاة قائما وسئل عن شرب الدواء فقال كل من دخل فى شئ من الدواء فانما هو سعة من الله تعالى لاهل الضعف ومن لم يدخل فى شئ منه فهو أفضل لانه ان أخذ شيأ من الدواء ولو كان هو الماء البارد يسئل عنه لم أخذه ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه وكان مذهبه ومذهب البصريين تضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات لعلمهم بان ذرة من أعمال القلوب مثل الصبر والرضا والتوكل أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح والمرض لا يمنع من أعمال القلوب الا اذا كان ألمه غالبا مدهشا وقال سهل رحمه الله علل الاجسام رحمة وعلل القلوب عقوبة *(السبب الخامس)* أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها عاجز عن تكفيرها فيرى المرض اذا طال تكفيرا فيترك التداوى خوفا من أن يسرع زوال المرض فقد قال صلى الله عليه وسلم لا تزال الحمى والمليلة بالعبد حتى يمشى على الارض كالبردة ما عليه ذنب ولا خطيئة وفى الخبر حمى يوم كفارة سنة فقيل لانها تهد قوة سنة وقيل للانسان ثلثمائة وستون مفصلا فتدخل الحمى فى جميعها ويجد من كل واحد ألما فيكون كل ألم كفارة يوم ولما ذكر صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت ربه عز وجل أن لا يزال محموما فلم تكن الحمى تفارقه حتى مات رحمه الله وسأل ذلك طائفة من الانصار فكانت الحمى لا تزايلهم ولما قال صلى الله عليه وسلم من أذهب الله كريمتيه لم يرض له ثوابا دون الجنة قال فلقد كان من الانصار من يتمنى العمى وقال عيسى عليه السلام لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والامراض على جسده وماله لما يرجو فى ذلك من كفارة خطاياه وروى ان موسى عليه السلام نظر الى عبد عظيم البلاء فقال يا رب ارحمه فقال تعالى كيف أرحمه فيما به أرحمه أى أكفر ذنوبه وأزيد فى درجاته (السبب السادس) أن يستشعر العبد فى نفسه مبادى البطر والطغيان بطول مدة الصحة فيترك التداوى خوفا من أن يعاجله زوال المرض فتعاوده الغفلة والبطر والطغيان أو طول الامل والتسويف فى تدارك الفائت وتأخير الخيرات فان الصحة عبارة عن قوة الصفات وبها ينبعث الهوى وتتحرك الشهوات وتدعو الى المعاصى وأقلها أن تدعو الى التنعم فى المباحات وهو تضييع الاوقات واهمال للربح العظيم فى مخالفة النفس وملازمة الطاعات واذا

الله تعالى المنزلات ويحظى بجميع الاحوال والمقامات فكلها من هذه الاربع ظهرت وبها تهيأت وتأكدت فاحد الثلاث بعد الايمان التوبة النصوح والثانى الزهد فى الدنيا والثالث تحقيق مقام العبودية بدوام العمل لله تعالى ظاهرا وباطنا من الاعمال القلبية والقالبية من غير فتور وقصور ثم يستعان على اتمام هذه الاربعة باربعة أخرى بها تمامها وقوامها وهى قلة الكلام وقلة الطعام وقلة المنام والاعتزال عن الناس واتفق العلماء الزاهدون والمشايخ على أن هذه الاربع بها تستقر المقامات وتستقيم الاحوال وبها صار الابدال أبدالا بتأييد الله تعالى وحسن توفيقه ونبين بالبيان الواضح ان سائر المقامات تندرج فى صحة هذه ومن ظفر بها فقد ظفر بالمقامات كلها

أراد الله بعبد خيرا لم يخله عن التنبه بالامراض والمصائب ولذلك قيل لا يخلو المؤمن من علة أو قلة أو زلة وقد روى ان الله تعالى يقول الفقر سجنى والمرض قيدى أحبس به من أحب من خلقى فاذا كان فى المرض حبس عن الطغيان وركوب المعاصى فأى خير يزيد عليه ولم ينبغ أن يشتغل بعلاجه من يخاف ذلك على نفسه فالعافية فى ترك المعاصى فقد قال بعض العارفين لانسان كيف كنت بعدى قال فى عافية قال ان كنت لم تعص الله عز وجل فانت فى عافية وان كنت قد عصيته فأى داء أدوأ من المعصية ما عوفى من عصى الله وقال على كرم الله وجهه لما رأى زينة النبط بالعراق فى يوم عيد ما هذا الذى أظهروه قالوا يا أمير المؤمنين هذا يوم عيد لهم فقال كل يوم لا يعصى الله عز وجل فيه فهو لنا عيد وقال تعالى من بعد ما أراكم ما تحبون قيل العوافى ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى وكذلك اذا استغنى بالعافية وقال بعضهم انما قال فرعون أنا ربكم الاعلى لطول العافية لانه لبث أربعمائة سنة لم يصدع له رأس ولم يحم له جسم ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية لعنه الله ولو أخذته الشقيقة يوما لشغلته عن الفضول فضلا عن دعوى الربوبية وقال صلى الله عليه وسلم أكثروا من ذكر هاذم اللذات وقيل الحمى رائد الموت فهو مذكر له ودافع للتسويف وقال تعالى أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون قيل يفتنون بامراض يختبرون بها ويقال ان العبد اذا مرض مرضتين ثم لم يتب قال له ملك الموت يا غافل جاءك منى رسول بعد رسول فلم تجب وقد كان السلف لذلك يستوحشون اذا خرج عام لم يصابوا فيه بنقص فى نفس أو مال وقال لا يخلو المؤمن فى كل أربعين يوما أن يروع روعة أو يصاب ببلية حتى روى ان عمار بن ياسر تزوج امرأة فلم تكن تمرض فطلقها وان النبى صلى الله عليه وسلم عرض عليه امرأة فحكى من وصفها حتى هم ان يتزوجها فقيل وانها ما مرضت قط فقال لا حاجة لى فيها وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الامراض والاوجاع كالصداع وغيره فقال رجل وما الصداع ما أعرفه فقال صلى الله عليه وسلم اليك عنى من أراد أن ينظر الى رجل من أهل النار فلينظر الى هذا وهذا لانه ورد فى الخبر الحمى حظ كل مؤمن من النار وفى حديث أنس وعائشة رضى الله عنهما قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم فقال نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة وفى لفظ آخر الذى يذكر ذنوبه فتحزنه ولا شك فى أن ذكر الموت على المريض أغلب فلما أن كثرت فوائد المرض رأى جماعة ترك الحيلة فى زوالها اذ رأوا لانفسهم مزيدا فيها لا من حيث رأوا التداوى نقصانا وكيف يكون نقصانا وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم

(بيان الرد على من قال ترك التداوى أفضل بكل حال)

فلو قال قائل انما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسن لغيره والا فهو حال الضعفاء ودرجة الاقوياء توجب التوكل بترك الدواء فيقال ينبغى أن يكون من شرط التوكل ترك الحجامة والفصد عند تبيغ الدم فان قيل ان ذلك أيضا شرط فليكن من شرطه أن تلدغه العقرب أو الحية فلا ينحيها عن نفسه اذ الدم يلدغ الباطن والعقرب تلدغ الظاهر فأى فرق بينهما فان قال وذلك أيضا شرط التوكل فيقال ينبغى أن لا يزيل لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ولدغ البرد بالجبة وهذا لا قائل به ولا فرق بين هذه الدرجات فان جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الاسباب سبحانه وتعالى وأجرى بها سنته ويدل على ان ذلك ليس من شرط التوكل ما روى عن عمر رضى الله عنه وعن الصحابة فى قصة الطاعون فانهم لما قصدوا الشام وانتهوا الى الجابية بلغهم الخبر بان به موتا عظيما ووباء ذريعا فافترق الناس فرقتين فقال بعضهم لا ندخل على الوباء فنلقى بايدينا الى التهلكة وقالت طائفة أخرى بل ندخل ونتوكل ولا نهرب من قدر الله تعالى ولا نفر من الموت فنكون كمن قال الله تعالى فيهم ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فرجعوا الى عمر فسألوه عن رأيه فقال نرجع ولا ندخل على الوباء فقال له المخالفون فى رأيه أنفر من قدر الله تعالى قال عمر نعم نفر من قدر الله الى قدر الله ثم ضرب لهم مثلا فقال أرأيتم لو كان لاحدكم غنم فهبط واديا له شعبتان احداهما مخصبة والاخرى مجدبة أليس ان رعى المخصبة رعاها بقدر الله تعالى وان رعى المجدبة رعاها بقدر الله تعالى فقالوا نعم ثم طلب عبد الرحمن بن عوف ليسأله عن رأيه وكان غائبا فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك فقال عندى فيه يا أمير المؤمنين شئ سمعته من رسول الله صلى الله عليه

وسلم

أولها بعد الايمان التوبة وهى فى مبدأ صحتها تفتقر الى أحوال واذا صحت تشتمل على مقامات وأحوال ولا بد فى ابتدائها من وجود زاجر ووجدان الزاجر حال لانه موهبة من الله تعالى على ما تقرر ان الاحوال مواهب وحال الزجر مفتاح التوبة ومبدؤها قال رجل لبشر الحافى مالى أراك مهموما قال لانى ضال ومطلوب ضللت الطريق والمقصد وأنا مطلوب به ولو تبينت كيف الطريق الى المقصد لطلبت ولكن سنة الغفلة أدركتنى وليس لى منها خلاص الآن أزجر فانزجر وقال الاصمعى رأيت أعرابيا بالبصرة يشتكى عينيه وهما يسيل منهما الماء فقلت له ألا تمسح عينيك فقال لا لان الطبيب زجرنى ولا خير فيمن لا ينزجر فالزاجر فى الباطن خاطر بهما الله تعالى ولا بد من وجوده للتائب ثم بعد الانزجار يحصد

وسلم فقال عمر الله أكبر فقال عبد الرحمن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه واذا وقع في أرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ففرح عمر رضي الله عنه بذلك وحمد الله تعالى اذ وافق رأيه ورجع من الجابية بالناس فاذا كيف اتفق الصحابة كلهم على ترك التوكل وهو من أعلى المقامات ان كان أمثال هذا من شروط التوكل فان قلت فلم نهى عن الخروج من البلد الذي فيه الوباء وسبب الوباء في الطب الهواء وأظهر طرق التداوي الفرار من المضر والهواء هو المضر فلم لم يرخص فيه فاعلم أنه لا خلاف في أن الفرار عن المضر غير منهي عنه اذ الحجامة والفصد فرار من المضر وترك التوكل في أمثال هذا مباح وهذا لا يدل على المقصود ولكن الذي ينقدح فيه والعلم عند الله تعالى أن الهواء لا يضر من حيث انه يلاقي ظاهر البدن بل من حيث دوام الاستنشاق له فانه اذا كان فيه عفونة ووصل الى الرئة والقلب وباطن الاحشاء أثر فيها بطول الاستنشاق فلا يظهر الوباء على الظاهر الا بعد طول التأثير في الباطن فالخروج من البلد لا يخلص غالبا من الاثر الذي استحكم من قبل ولكن يتوهم الخلاص فيصير هذا من جنس الموهومات كالرقى والطيرة وغيرهما ولو تجرد هذا المعنى لكان مناقضا للتوكل ولم يكن منهيا عنه ولكن صار منهيا عنه لانه انضاف اليه أمر آخر وهو أنه لو رخص للاصحاء في الخروج لما بقي في البلد الا المرضى الذين أقعدهم الطاعون فانكسرت قلوبهم وفقدوا المتعهدين ولم يبق في البلد من يسقيهم الماء ويطعمهم الطعام وهم يعجزون عن مباشرتهما بانفسهم فيكون ذلك سعيا في اهلاكهم تحقيقا وخلاصهم منتظر كما أن خلاص الاصحاء منتظر فلو أقاموا لم تكن الاقامة قاطعة بالموت ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعا بالخلاص وهو قاطع في اهلاك الباقين والمسلمون كالبنيان يشد بعضه بعضا والمؤمنون كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى اليه سائر أعضائه فهذا هو الذي ينقدح عندنا في تعليل النهي وينعكس هذا فيمن لم يقدم بعد على البلد فانه لم يؤثر الهواء في باطنهم ولا باهل البلد حاجة اليهم نعم لو لم يبق بالبلد الا المطعونون وافتقروا الى المتعهدين وقدم عليهم قوم فربما كان ينقدح استحباب الدخول ههنا لاجل الاعانة ولا ينهى عن الدخول لانه تعرض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن بقية المسلمين وبهذا اشبه الفرار من الطاعون في بعض الاخبار بالفرار من الزحف لان فيه كسر القلوب بقية المسلمين وسعيا في اهلاكهم فهذه أمور دقيقة فمن لا يلاحظها وينظر الى ظواهر الاخبار والآثار يتناقض عنده أكثر ما سمعه وغلط العباد والزهاد في مثل هذا كثير وانما شرف العلم وفضيلته لاجل ذلك فان قلت ففي ترك التداوي فضل كما ذكرت فلم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم التداوي لينال الفضل فنقول فيه فضل بالاضافة الى من كثرت ذنوبه ليكفرها أو خاف على نفسه طغيان العافية وغلبة الشهوات أو احتاج الى ما يذكره الموت لغلبة الغفلة أو احتاج الى نيل ثواب الصابرين لقصوره عن مقامات الراضين والمتوكلين أو قصرت بصيرته عن الاطلاع على ما أودع الله تعالى في الادوية من اللطائف المنافع حتى صار في حقه موهوما كالرقى أو كان شغله بحاله يمنعه عن التداوي وكان التداوي يشغله عن حاله لضعفه عن الجمع فالى هذه المعاني رجعت الصوارف في ترك التداوي وكل ذلك كمالات بالاضافة الى بعض الخلق ونقصان بالاضافة الى درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم بل كان مقامه أعلى من هذه المقامات كلها اذ كان حاله يقتضي أن تكون مشاهدته على وتيرة واحدة عند وجود الاسباب وفقدها فانه لم يكن له نظر في الاحوال الا الى مسبب الاسباب ومن كان هذا مقامه لم تضره الاسباب كما أن الرغبة في المال نقص والرغبة عن المال كراهية له وان كانت كمالا فهي أيضا نقص بالاضافة الى من يستوي عنده وجود المال وعدمه فاستواء الحجر والذهب أكمل من الهرب من الذهب دون الحجر وكان حاله صلى الله عليه وسلم استواء المدر والذهب عنده وكان لا يمسكه لتعليم الخلق مقام الزهد فانه منتهى قوتهم لا لخوف على نفسه من امساكه فانه كان أعلى رتبة من أن تغره الدنيا وقد عرضت عليه خزائن الارض فابى أن يقبلها فكذلك يستوي عنده مباشرة الاسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة وانما لم يترك استعمال الدواء جريا على سنة الله تعالى وترخيصا لامته فيما تمس اليه حاجتهم مع انه لا ضرر فيه بخلاف ادخار الاموال فان ذلك يعظم ضرره نعم التداوي لا يضر الا من حيث رؤية الدواء نافعا دون خالق الدواء وهذا قد نهي عنه ومن حيث انه يقصد به الصحة ليستعان بها على المعاصي وذلك منهي عنه والمؤمن في

العبد حال الانتباه قال بعضهم من لزم مطالعة الطوارق انتبه (وقال) أبو يزيد علامة الانتباه خمس اذا ذكر نفسه افتقر واذا ذكر ذنبه استغفر واذا ذكر الدنيا اعتبر واذا ذكر الآخرة استبشر واذا ذكر المولى اقشعر (وقال) بعضهم الانتباه أوائل دلالات الخير اذا انتبه العبد من رقدة غفلته أداه ذلك الانتباه الى التيقظ فاذا تيقظ ألزمه تيقظه الطلب لطريق الرشد فيطلب واذا طلب عرف انه على غير سبيل الحق فيطلب الحق ويرجع الى باب توبته ثم يعطى بانتباهه حال التيقظ (قال) فارس أوفى الاحوال التيقظ والاعتبار (وقيل) التيقظ تبيان خط المسالك بعد مشاهدة سبيل النجاة (وقيل) اذا صحت اليقظة كان صاحبها في أوائل طريق التوبة (وقيل) اليقظة خردة من جهة المولى لقلوب

غالب الامر لا يقصد ذلك وأحد من المؤمنين لا يرى الدواء نافعا بنفسه بل من حيث انه جعله الله تعالى سببا للنفع كالا يرى الماء مرويا ولا الخبز مشبعا فحكم التداوى فى مقصوده كحكم الكسب فانه ان اكتسب للاستعانة على الطاعة أو على المعصية كان له حكمها وان اكتسب للتنعم المباح فله حكمه فقد ظهر بالمعانى التى أوردناها أن ترك التداوى قد يكون أفضل فى بعض الاحوال وأن التداوى قد يكون أفضل فى بعض وأن ذلك يختلف باختلاف الاحوال والاشخاص والنيات وان واحدا من الفعل والترك ليس شرطا فى التوكل الاترك الموهومات كالكى والرقى فان ذلك تعمق فى التدبير لا يليق بالمتوكلين

(بيان أحوال المتوكلين فى اظهار المرض وكتمانه)

اعلم ان كتمان المرض واخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البر وهو من أعلى المقامات لان الرضا بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه وبين الله عز وجل فكتمانه أسلم عن الآفات ومع هذا فالاظهار لا بأس به اذا صحت فيه النية والمقصود ومقاصد الاظهار ثلاثة *(الاول)* أن يكون غرضه التداوى فيحتاج الى ذكره للطبيب فيذكره لا فى معرض الشكاية بل فى معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى فقد كان بشر يصف لعبد الرحمن المتطبب أوجاعه وكان أحمد بن حنبل يخبر بامراض يجدها ويقول انما أصف قدرة الله تعالى فى *(الثانى)* أن يصف لغير الطبيب وكان ممن يقتدى به وكان مكينا فى المعرفة فاراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر فى المرض بل حسن الشكر بان يظهر أنه يرى ان المرض نعمة فيشكر عليها فيتحدث به كما يتحدث بالنعم قال الحسن البصرى اذا حمد المريض الله تعالى وشكره ثم ذكر أوجاعه لم يكن ذلك شكوى *(الثالث)* أن يظهر بذلك عجزه وافتقاره الى الله تعالى وذلك يحسن ممن تليق به القوة والشجاعة ويستبعد منه العجز كما روى انه قيل لعلى فى مرضه رضى الله عنه كيف أنت قال بشر فنظر بعضهم الى بعض كأنهم كرهوا ذلك وظنوا أنه شكاية فقال أتجلد على الله فاحب أن يظهر عجزه وافتقاره مع ما علم به من القوة والضراوة وتأدب فيه بادب النبى صلى الله عليه وسلم اياه حيث مرض على كرم الله وجهه فسمعه عليه السلام وهو يقول اللهم صبرنى على البلاء فقال له صلى الله عليه وسلم لقد سألت الله تعالى البلاء فسل الله العافية فهذه النيات ترخص فى ذكر المرض وانما يشترط ذلك لان ذكره شكاية والشكوى من الله تعالى حرام كما ذكرته فى تحريم السؤال على الفقراء الا بضرورة ويصير الاظهار شكاية بقرينة السخط واظهار الكراهة لفعل الله تعالى فان خلا عن قرينة السخط وعن النيات التى ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بان الاولى تركه لانه ربما يوهم الشكاية ولانه ربما يكون فيه تصنع ومزيد فى الوصف على الموجود من العلة ومن ترك التداوى توكلا فلا وجه فى حقه الا الاظهار لان الاستراحة الى الدواء أفضل من الاستراحة الى الافشاء وقد قال بعضهم من بث لم يصبر وقيل فى معنى قوله فصبر جميل لا شكوى فيه وقيل ليعقوب عليه السلام ما الذى أذهب بصرك قال مر الزمان وطول الاحزان فاوحى الله تعالى اليه تفرغت لشكواى الى عبادى فقال يارب أتوب اليك وروى عن طاوس ومجاهد انهما قالا يكتب على المريض أنينه فى مرضه وكانوا يكرهون أنين المريض لانه اظهار معنى يقتضى الشكوى حتى قيل ما أصاب ابليس لعنه الله من أيوب عليه السلام الا أنينه فى مرضه فجعل الانين حظه منه وفى الخبر اذا مرض العبد أوحى الله تعالى الى الملكين انظرا ما يقول لعواده فان حمد الله وأثنى بخير دعوا له وان شكا وذكر شرا قالا كذلك تكون وانما كره بعض العباد العيادة خشية الشكاية وخوف الزيادة فى الكلام فكان بعضهم اذا مرض أغلق بابه فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج اليهم منهم فضيل ووهيب وبشر وكان فضيل يقول أشتهى أن أمرض بلا عواد وقال لا أكره العلة الا لاجل العواد رضى الله عنه وعنهم أجمعين كمل كتاب التوحيد والتوكل بعون الله وحسن توفيقه يتلوه ان شاء الله تعالى كتاب المحبة والشوق والانس والرضا والله سبحانه وتعالى الموفق

(كتاب المحبة والشوق والانس والرضا وهو الكتاب السادس من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين)

بسم

الخائفين تدلهم على طلب التوبة فاذا تمت يقظته نقل بذلك الى مقام التوبة فهذه أحوال ثلاثة تتقدم التوبة ثم التوبة فى استقامتها تحتاج الى المحاسبة ولا تستقيم التوبة الا بالمحاسبة (نقل) عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنه قال حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتزينوا للعرض الاكبر على الله يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية فالمحاسبة بحفظ الانفاس وضبط الحواس ورعاية الاوقات وايثار المهمات ويعلم العبد ان الله تعالى أوجب عليه هذه الصلوات الخمس فى اليوم والليلة رحمة منه لعلمه سبحانه بعبده واستيلاء الغفلة عليه كى لا يستعبده الهوى وتسترقه الدنيا فالصلوات الخمس سلسلة تجذب النفوس الى مواطن العبودية لاداء الحق

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات الى زخرف الدنيا ونضرته وصفى أسرارهم من ملاحظة غير حضرته ثم استخلصها للعكوف على بساط عزته ثم تجلى لهم بأسمائه وصفاته حتى أشرقت بأنوار معرفته ثم كشف لهم عن سبحات وجهه حتى احترقت بنار محبته ثم احتجب عنها بكنه جلاله حتى تاهت في بيداء كبريائه وعظمته فكلما اهتزت لملاحظة كنه الجلال غشيها من الدهش ما اغبر في وجه العقل وبصيرته وكلما همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبرا أيها الآيس عن نيل الحق بجهله وعجلته * فبقيت بين الرد والقبول والصد والوصول غرقى في بحر معرفته ومحترقة بنار محبته والصلاة على محمد خاتم الانبياء بكمال نبوته وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمته وقادة الحق وأزمته وسلم كثيرا *(أما بعد)* فان المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات فما بعد ادراك المحبة مقام الا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والانس والرضا وأخواتها ولا قبل المحبة مقام الا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها وسائر المقامات ان عز وجودها فلم تخل القلوب عن الايمان بامكانها وأما محبة الله تعالى فقد عز الايمان بها حتى أنكر بعض العلماء امكانها وقال لا معنى لها الا المواظبة على طاعة الله تعالى وأما حقيقة المحبة فمحال الا مع الجنس والمثال ولما أنكروا المحبة أنكروا الانس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الامر ونحن نذكر في هذا الكتاب بيان شواهد الشرع في المحبة ثم بيان حقيقتها وأسبابها ثم بيان أن لا مستحق للمحبة الا الله تعالى ثم بيان ان أعظم اللذات لذة النظر الى وجه الله تعالى ثم بيان سبب زيادة لذة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا ثم بيان الاسباب المقوية لحب الله تعالى ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب ثم بيان السبب في قصور الافهام عن معرفة الله تعالى ثم بيان معنى الشوق ثم بيان محبة الله تعالى للعبد ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالى ثم بيان معنى الانس بالله تعالى ثم بيان معنى الانبساط في الانس ثم القول في معنى الرضا وبيان فضيلته ثم بيان حقيقته ثم بيان أن الدعاء وكراهة المعاصي لا تناقضه وكذا الفرار من المعاصي ثم بيان حكايات وكلمات للمحبين متفرقة فهذه جميع بيانات هذا الكتاب

(بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى)

اعلم أن الامة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسول الله صلى الله عليه وسلم فرض وكيف يفرض ما لا وجود له وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته فلا بد وأن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب ويدل على اثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل يحبهم ويحبونه وقوله تعالى والذين آمنوا أشد حبا لله وهو دليل على اثبات الحب واثبات التفاوت فيه وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الايمان في أخبار كثيرة اذ قال أبو رزين العقيلي يا رسول الله ما الايمان قال أن يكون الله ورسوله أحب اليك مما سواهما وفي حديث آخر لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما وفي حديث آخر لا يؤمن العبد حتى أكون أحب اليه من أهله وماله والناس أجمعين وفي رواية ومن نفسه كيف وقد قال تعالى قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم الآية وانما أجرى ذلك في معرض التهديد والانكار وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمحبة فقال أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله اياي ويروى أن رجلا قال يا رسول الله اني أحبك فقال صلى الله عليه وسلم استعد للفقر فقال اني أحب الله تعالى فقال استعد للبلاء وعن عمر رضي الله عنه قال نظر النبي صلى الله عليه وسلم الى مصعب بن عمير مقبلا وعليه اهاب كبش قد تنطق به فقال النبي صلى الله عليه وسلم انظروا الى هذا الرجل الذي نور الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله ورسوله الى ما ترون وفي الخبر المشهور أن ابراهيم عليه السلام قال لملك الموت اذ جاءه لقبض روحه هل رأيت خليلا يميت خليله فأوحى الله تعالى اليه هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه فقال يا ملك الموت الآن فاقبض وهذا لا يجده الا عبد يحب الله بكل قلبه فاذا علم ان الموت سبب اللقاء انزعج قلبه اليه ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت اليه وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم في دعائه اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني الى حبك

الربوبية ويراقب العبد نفسه بحسن المحاسبة من كل صلاة الى صلاة أخرى ويسد مداخل الشيطان بحسن المحاسبة والرعاية ولا يدخل في الصلاة الا بعد حل العقد عن القلب بحسن التوبة والاستغفار لان كل كلمة وحركة على خلاف الشرع تنكت في القلب نكتة سوداء وتعقد عليه عقدة والمتفقد المحاسب يهيئ الباطن للصلاة بضبط الجوارح ويحقق مقام المحاسبة فيكون عند ذلك لصلاته نور يشرق على أجزاء وقته الى الصلاة الأخرى فلا تزال صلاته منورة تامة بنور وقته ووقته منورا معمورا بنور صلاته وكان بعض المحاسبين يكتب الصلوات في قرطاس ويدع بين كل صلاتين بياضا وكلما ارتكب خطيئة من كلمة غيبة أو أمر آخر خط خطا وكلما تكلم أو تحرك فيما لا يعنيه

واجعل حبك أحب الى من الماء البارد وجاء اعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله متى الساعة قال ما أعددت لها فقال ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام الا أني أحب الله ورسوله فقال له رسول صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب قال أنس فما رأيت المسلمين فرحوا بشئ بعد الاسلام فرحهم بذلك وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر وقال الحسن من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها والمؤمن لا يلهو حتى يغفل فاذا تفكر حزن وقال أبو سليمان الداراني ان من خلق الله خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون عنه بالدنيا ويروى ان عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم فقال ما الذي بلغ بكم ما أرى فقالوا الخوف من النار فقال حق على الله ان يؤمن الخائف ثم جاوزهم الى ثلاثة آخرين فاذا هم أشد نحولا وتغيرا فقال ما الذي بلغ بكم ما أرى قالوا الشوق الى الجنة فقال حق على الله أن يعطيكم ما ترجون ثم جاوزهم الى ثلاثة آخرين فاذا هم أشد نحولا وتغيرا كأن على وجوههم المرائي من النور فقال ما الذي بلغ بكم ما أرى قالوا نحب الله عز وجل فقال أنتم المقربون أنتم المقربون أنتم المقربون وقال عبد الواحد بن زيد مررت برجل قائم في الثلج فقلت أما تجد البرد فقال من شغله حب الله لم يجد البرد وعن سري السقطي قال تدعى الامم يوم القيامة بانبيائها عليهم السلام فيقال ياأمة موسى ويا أمة عيسى ويا أمة محمد غير المحبين لله تعالى فانهم ينادون يا أولياء الله هلموا الى الله سبحانه فتكاد قلوبهم تنخلع فرحا وقال هرم بن حيان المؤمن اذا عرف ربه عز وجل أحبه واذا أحبه أقبل اليه واذا وجد حلاوة الاقبال اليه لم ينظر الى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر الى الآخرة بعين الفترة وهي تحسره في الدنيا وتروحه في الآخرة وقال يحيى بن معاذ عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه وحبه يدهش العقول فكيف وده ووده ينسي مادونه فكيف لطفه وفي بعض الكتب عبدي أنا وحقك لك محب فبحقي عليك كن لي محبا وقال يحيى بن معاذ مثقال خردلة من الحب أحب الى من عبادة سبعين سنة بلا حب وقال يحيى بن معاذ الهي اني مقيم بفنائك مشغول بثنائك صغيرا أخذتني اليك وسربلتني بمعرفتك وأمكنتني من لطفك ونقلتني في الاحوال وقلبتني في الاعمال سترا وتوبة وزهدا وشوقا ورضا وحبا تسقيني من حياضك وتهملني في رياضك ملازما لامرك ومشغوفا بقولك ولما طر شاربي ولاح طائري فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرا وقد اعتدت هذا منك صغيرا فلي ما بقيت حولك دندنة وبالضراعة اليك همهمة لاني محب وكل محب بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف وقد ورد في حب الله تعالى من الاخبار والآثار ما لا يدخل في حصر حاصر وذلك أمر ظاهر وانما الغموض في تحقيق معناه فلنشتغل به

(بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى)

اعلم ان المطلب من هذا الفصل لا ينكشف الا بمعرفة حقيقة المحبة في نفسها ثم معرفة شروطها وأسبابها ثم النظر بعد ذلك في تحقيق معناها في حق الله تعالى * فاول ما ينبغي أن يتحقق انه لا يتصور محبة الا بعد معرفة وادراك اذ لا يحب الانسان الا ما يعرفه ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جماد بل هو من خاصية الحي المدرك ثم المدركات في انقسامها تنقسم الى ما يوافق طبع المدرك ويلائمه ويلذه والى ما ينافيه وينافره ويؤلمه والى ما لا يؤثر فيه بايلام والذاذ فكل ما في ادراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك وما في ادراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة فلا يوصف بكونه محبوبا ولا مكروها فاذا كل لذيذ محبوب عند الملتذ به ومعنى كونه محبوبا ان في الطبع ميلا اليه ومعنى كونه مبغوضا أن في الطبع نفرة عنه فالحب عبارة عن ميل الطبع الى الشئ الملذ فان تأكد ذلك الميل وقوي سمي عشقا والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب فاذا قوي سمي مقتا فهذا أصل في حقيقة معنى الحب لا بد من معرفته *(الاصل الثاني)* ان الحب لما كان تابعا للادراك والمعرفة انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات والحواس فلكل حاسة ادراك لنوع من المدركات ولكل واحد منها لذة في بعض المدركات وللطبع بسبب تلك اللذة ميل اليها فكانت محبوبات عند الطبع السليم فلذة العين في الابصار وادراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة المستلذة ولذة الاذن في النغمات الطيبة الموزونة ولذة الشم في الروائح

نقط نقطة ليعتبر ذنوبه وحركاته فيما لا يعنيه لتضييق المحاسبة مجاري الشيطان والنفس الامارة بالسوء لوضع صدقه في حسن الاعتقاد وحرصه على تحقيق مقام العباد وهذا مقام المحاسبة والرعاية يقع من ضرورة صحة التوبة (قال) الجنيد من حسنت رعايته دامت ولايته * وسئل الواسطي أي الاعمال أفضل قال مراعاة السر والمحاسبة في الظاهر والمراقبة في الباطن ويكمل أحدهما بالآخر وبهما تستقيم التوبة والمراقبة والرعاية حالان شريفان ويصيران مقامين شريفين بصحتهما بصحة مقام التوبة وتستقيم التوبة على الكمال بهما فصارت المحاسبة والمراقبة والرعاية من ضرورة مقام التوبة (أخبرنا) أبو زرعة اجازة عن ابن خلف أبي بكر الشيرازي قال سمعت أبا عبد الرحمن

الطيبة ولذة الذوق فى الطعوم ولذة اللمس فى اللين والنعومة ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملذة كانت محبوبة أى كان للطبع السليم ميل اليها حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حبب الى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعل قرة عينى فى الصلاة فسمى الطيب محبوبا ومعلوم انه لاحظ للعين والسمع فيه بل للشم فقط وسمى النساء محبوبات ولاحظ فيهن الا للبصر واللمس دون الشم والذوق والسمع وسمى الصلاة قرة عين وجعلها أبلغ المحبوبات ومعلوم انه ليس تحظى بها الحواس الخمس بل حس سادس مظنته القلب لا يدركه الا من كان له قلب ولذات الحواس الخمس تشاركه فيها البهائم الانسان فان كان الحب مقصورا على مدركات الحواس الخمس حتى يقال ان الله تعالى لا يدرك بالحواس ولا يتمثل فى الخيال فلا يحب فاذا قد بطلت خاصية الانسان وما تميز به من الحس السادس الذى يعبر عنه اما بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو بما شئت من العبارات فلا مشاحة فيه وهيهات فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر والقلب أشد ادراكا من العين وجمال المعانى المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للابصار فتكون لا محالة لذة القلب بما يدركه من الامور الشريفة الالهية التى تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح اليه أقوى ولا معنى للحب الا الميل الى ما فى ادراكه لذة كما سيأتى تفصيله فلا ينكر اذا حب الله تعالى الا من قعد به القصور فى درجة البهائم فلم يجاوز ادراك الحواس أصلا *(الاصل الثالث)* أن الانسان لا يخفى انه يحب نفسه ولا يخفى انه قد يحب غيره لاجل نفسه وهل يتصور أن يحب غيره لذاته لا لاجل نفسه هذا مما قد يشكل على الضعفاء حتى يظنون انه لا يتصور أن يحب الانسان غيره لذاته ما لم يرجع منه حظ الى المحب سوى ادراك ذاته والحق أن ذلك متصور وموجود فلنبين أسباب المحبة وأقسامها وبيانه أن المحبوب الاول عند كل حى نفسه وذاته ومعنى حبه لنفسه أن فى طبعه ميلا الى دوام وجوده ونفرة عن عدمه وهلاكه لان المحبوب بالطبع هو الملائم للمحب وأى شئ أتم ملاءمة من نفسه ودوام وجوده وأى شئ أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه فلذلك يحب الانسان دوام الوجود ويكره الموت والقتل لا لمجرد ما يخافه بعد الموت ولا لمجرد الحذر من سكرات الموت بل لو اختطف من غير ألم وأميت من غير ثواب ولا عقاب لم يرض به وكان كارها لذلك ولا يحب الموت والعدم المحض الا لمقاساة ألم فى الحياة ومهما كان مبتلى ببلاء فمحبوبه زوال البلاء فان أحب العدم لم يحبه لانه عدم بل لان فيه زوال البلاء فالهلاك والعدم ممقوت ودوام الوجود محبوب وكما أن دوام الوجود محبوب فكمال الوجود أيضا محبوب لان الناقص فاقد للكمال والنقص عدم بالاضافة الى القدر المفقود وهو هلاك بالنسبة اليه والهلاك والعدم ممقوت فى الصفات وكمال الوجود كما أنه ممقوت فى أصل الذات ووجود صفات الكمال محبوب كما أن دوام أصل الوجود محبوب وهذه غريزة فى الطباع بحكم سنة الله تعالى ولن تجد لسنة الله تبديلا فاذا المحبوب الاول للانسان ذاته ثم سلامة أعضائه ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقاؤه فالاعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة لان كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها والمال محبوب لانه أيضا آلة فى دوام الوجود وكماله وكذا سائر الاسباب *فالانسان يحب هذه الاشياء لا لاعيانها بل لارتباط حظه فى دوام الوجود وكماله بها حتى انه ليحب ولده وان كان لا يناله منه حظ بل يتحمل المشاق لاجله لانه يخلفه فى الوجود بعد عدمه فيكون فى بقاء نسله نوع بقاء له فلفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه لما عجز عن الطمع فى بقاء نفسه أبدا نعم لو خير بين قتله وقتل ولده وكان طبعه باقيا على اعتداله آثر بقاء نفسه على بقاء ولده لان بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاءه المحقق وكذلك حبه لاقاربه وعشيرته يرجع الى حبه لكمال نفسه فانه يرى نفسه كثيرا بهم قويا بسببهم متجملا بكمالهم فان العشيرة والمال والاسباب الخارجة كالجناح المكمل للانسان وكمال الوجود ودوامه محبوب بالطبع لا محالة فاذا المحبوب الاول عند كل حى ذاته وكمال ذاته ودوام ذلك كله والمكروه عنده ضد ذلك فهذا هو أول الاسباب * السبب الثانى الاحسان فان الانسان عبد الاحسان وقد جبلت القلوب على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم لا تجعل لفاجر على يدا فيحبه قلبى اشارة الى أن حب القلب للمحسن اضطرار لا يستطاع دفعه وهو جبلة وفطرة لا سبيل الى تغييرها وبهذا السبب قد يحب الانسان الاجنبى الذى لا قرابة بينه

السلمى يقول سمعت الحسن الفارسى يقول سمعت الجريرى يقول أمرنا هذا مبنى على فصلين وهو أن تلزم نفسك المراقبة لله تعالى ويكون العلم على ظاهرك قائما (وقال) المرتعش المراقبة مراعاة السر لملاحظة الحق فى كل لحظة ولفظة قال الله تعالى أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وهذا هو علم القيام وبذلك يتم علم الحال ومعرفة الزيادة والنقصان وهو أن يعلم معيار حاله فيما بينه وبين الله وكل هذا ملازم لصحة التوبة وصحة التوبة ملازمة لها لان الخواطر مقدمات العزائم والعزائم مقدمات الاعمال لان الخواطر تحقق ارادة القلب والقلب أمير الجوارح ولا تتحرك الا بتحرك القلب بالارادة وبالمراقبة حسم مواد الخواطر الرديئة فصار من تمام المراقبة تمام

وبينه ولا علاقة وهذا اذا حقق رجع الى السبب الاول فان المحسن من أمد بالمال والمعونة وسائر الاسباب الموصلة الى دوام الوجود وكمال الوجود وحصول الحظوظ التى بها يتهيأ الوجود الا ان الفرق ان أعضاء الانسان محبوبة لان بها كمال وجوده وهى عين الكمال المطلوب فاما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سببا له كالطبيب الذى يكون سببا فى دوام صحة الاعضاء ففرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذى هو سبب الصحة اذ الصحة مطلوبة لذاتها والطبيب محبوب لا لذاته بل لانه سبب للصحة وكذلك العلم محبوب والاستاذ محبوب ولكن العلم محبوب لذاته والاستاذ محبوب لكونه سبب العلم المحبوب وكذلك الطعام والشراب محبوب والدنانير محبوبة لكن الطعام محبوب لذاته والدنانير محبوبة لانها وسيلة الى الطعام فاذا يرجع الفرق الى تفاوت الرتبة والا فكل واحد يرجع الى محبة الانسان نفسه فكل من أحب المحسن لاحسانه فما أحب ذاته تحقيقا بل أحب احسانه وهو فعل من أفعاله لو زال لزال الحب مع بقاء ذاته تحقيقا ولو نقص نقص الحب ولو زاد زاد ويتطرق اليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الاحسان ونقصانه * السبب الثالث أن يحب الشئ لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته بل تكون ذاته عين حظه وهذا هو الحب الحقيقى البالغ الذى يوثق بدوامه وذلك كحب الجمال والحسن فان كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك لعين الجمال لان ادراك الجمال فيه عين اللذة واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها ولا تظنن ان حب الصور الجميلة لا يتصور الا لاجل قضاء الشهوة فان قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لاجلها وادراك نفس الجمال أيضا لذيذ فيجوز أن يكون محبوبا لذاته وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجارى محبوب لا ليشرب الماء وتؤكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الخضرة والماء الجارى والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر الى الانوار والازهار والاطيار المليحة الالوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل حتى ان الانسان لتنفرج عنه الغموم والهموم بالنظر اليها لا لطلب حظ وراء النظر فهذه الاسباب ملذة وكل لذيذ محبوب وكل حسن وجمال فلا يخلو ادراكه عن لذة ولا أحد ينكر كون الجمال محبوبا بالطبع فان ثبت ان الله جميل كان لا محالة محبوبا عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله جميل يحب الجمال (الاصل الرابع فى بيان معنى الحسن والجمال) اعلم أن المحبوس فى مضيق الخيالات والمحسوسات ربما يظن انه لا معنى للحسن والجمال الا تناسب الخلقة والشكل وحسن اللون وكون البياض مشربا بالحمرة وامتداد القامة الى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الانسان فان الحسن الاغلب على الخلق حسن الابصار وأكثر التفاتهم الى صور الاشخاص فيظن أن ما ليس مبصرا ولا متخيلا ولا متشكلا ولا متلونا مقدرا فلا يتصور حسنه واذا لم يتصور حسنه لم يكن فى ادراكه لذة فلم يكن محبوبا وهذا خطأ ظاهر فان الحسن ليس مقصورا على مدركات البصر ولا على تناسب الخلقة وامتزاج البياض بالحمرة فانا نقول هذا خط حسن وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن بل نقول هذا ثوب حسن وهذا اناء حسن فاى معنى لحسن الصوت والخط وسائر الاشياء ان لم يكن الحسن الا فى الصورة ومعلوم أن العين تستلذ بالنظر الى الخط الحسن والاذن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة وما من شئ من المدركات الا وهو منقسم الى حسن وقبيح فما معنى الحسن الذى تشترك فيه هذه الاشياء فلا بد من البحث عنه وهذا البحث يطول ولا يليق بعلم المعاملة الاطناب فيه فنصرح بالحق ونقول كل شئ فجماله وحسنه فى أن يحضر كماله اللائق به الممكن له فاذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو فى غاية الجمال وان كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر فالفرس الحسن هو الذى جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كر وفر عليه والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها ولكل شئ كمال يليق به وقد يليق بغيره ضده فحسن كل شئ فى كماله الذى يليق به فلا يحسن الانسان بما يحسن به الفرس ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت ولا تحسن الاوانى بما تحسن به الثياب وكذلك سائر الاشياء فان قلت فهذه الاشياء وان لم تدرك جميعها بحس البصر مثل الاصوات والطعوم فانها لا تنفك عن ادراك الحواس لها فهى محسوسات وليس ينكر الحسن والجمال للمحسوسات ولا ينكر حصول اللذة بادراك حسنها وانما ينكر ذلك فى غير المدرك بالحواس فاعلم أن

التوبة لان من حصر الخواطر كفى مؤنة الجوارح لان بالمراقبة اصطلام عروق ارادة المكاره من القلب وبالمحاسبة استدراك ما انفات من المراقبة (أخبرنا) أبو زرعة عن ابن خلف عن السلمى قال سمعت أبا عثمان المغربى يقول أفضل ما يلزم الانسان فى هذا الطريق المحاسبة والمراقبة وسياسة العمل بالعلم واذا صحت التوبة صحت الانابة قال ابراهيم ابن أدهم اذا صدق العبد فى توبته صار منيبا لان الانابة ثانى درجة التوبة (وقال) أبو سعيد القرشى المنيب الراجع عن كل شئ يشغله عن الله الى الله وقال بعضهم الانابة الرجوع منه اليه لا من شئ غيره فمن رجع من غيره اليه ضيع أحد طرفى الانابة والمنيب على الحقيقة من لم يكن له مرجع سواه فيرجع اليه من رجوعه

الحسن والجمال موجود فى غير المحسوسات اذ يقال هذا خلق حسن وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق
جميلة وانما الاخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى والكرم والمروءة وسائر خلال الخير
وشئ من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الخمس بل يدرك بنور البصيرة الباطنة وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة
والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته وآية ذلك وأن الامر كذلك أن الطباع مجبولة على حب
الانبياء صلوات الله عليهم وعلى حب الصحابة رضى الله تعالى عنهم مع انهم لم يشاهدوا بل على حب أرباب المذاهب
مثل الشافعى وأبى حنيفة ومالك وغيرهم حتى ان الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حد العشق فيحمله ذلك
على أن ينفق جميع ماله فى نصرة مذهبه والذب عنه ويخاطر بروحه فى قتال من يطعن فى امامه ومتبوعه فكم من
دم أريق فى نصرة أرباب المذاهب وليت شعرى من يحب الشافعى مثلا فلم يحبه ولم يشاهد قط صورته ولو شاهده
ربما لم يستحسن صورته فاستحسانه الذى حمله على افراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة فان
صورته الظاهرة قد انقلبت ترابا مع التراب وانما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والاحاطة
بمدارك الدين وانتهاضه لافادة علم الشرع ولنشره هذه الخيرات فى العالم وهذه أمور جميلة لا يدرك جمالها الا بنور
البصيرة فاما الحواس فقاصرة عنها وكذلك من يحب أبا بكر الصديق رضى الله عنه ويفضله على غيره أو يحب عليا
رضى الله تعالى عنه ويفضله ويتعصب له فلا يحبهم الا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم والدين والتقوى
والشجاعة والكرم وغيره فمعلوم أن من يحب الصديق رضى الله تعالى عنه مثلا ليس يحب عظمه ولحمه وجلده
واطرافه وشكله اذ كل ذلك زال وتبدل وانعدم ولكن بقى ما كان الصديق به صديقا وهى الصفات المحمودة التى
هى مصادر السير الجميلة فكان الحب باقيا ببقاء تلك الصفات مع زوال جميع الصور وتلك الصفات ترجع جملتها
الى العلم والقدرة اذ علم حقائق الامور وقدر على حمل نفسه عليها بقهر شهواته فجميع خلال الخير يتشعب على
هذين الوصفين وهما غير مدركين بالحس ومحلهما من جملة البدن جزء لا يتجزأ فهو المحبوب بالحقيقة وليس للجزء
الذى لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوبا لاجله فاذا الجمال موجود فى السير ولو صدرت
السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حبا فالمحبوب مصدر السيرة الجميلة وهى الاخلاق الحميدة والفضائل
الشريفة وترجع جملتها الى كمال العلم والقدرة وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس حتى ان الصبى المخلى
وطبعه اذا أردنا أن نحبب اليه غائبا أو حاضرا حيا أو ميتا لم يكن لنا سبيل الا بالاطناب فى وصفه بالشجاعة والكرم
والعلم وسائر الخصال الحميدة فمهما اعتقد ذلك لم يتمالك فى نفسه ولم يقدر أن لا يحبه فهل غلب حب الصحابة رضى
الله تعالى عنهم وبغض أبى جهل وبغض ابليس لعنه الله الا بالاطناب فى وصف المحاسن والمقابح التى لا تدرك
بالحواس بل لما وصف الناس حاتما بالسخاء ووصفوا خالدا بالشجاعة احبتهم القلوب حبا ضروريا وليس ذلك
عن نظر الى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله المحب منهم بل اذا حكى من سيرة بعض الملوك فى بعض اقطار الارض
العدل والاحسان وافاضة الخير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار احسانه الى المحبين لبعد المزار ونأى
الديار فاذا ليس حب الانسان مقصورا على من أحسن اليه بل المحسن فى نفسه محبوب وان كان لا ينتهى قط
احسانه الى المحب لان كل جمال وحسن فهو محبوب والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما وتدرك
الصور الظاهرة بالبصر الظاهر والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذ بها
ولا يحبها ولا يميل اليها ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعانى الباطنة
أكثر من حبه للمعانى الظاهرة فشتان بين من يحب نقشا مصورا على الحائط لجمال صورته الظاهرة وبين من يحب
نبيا من الانبياء لجمال صورته الباطنة (السبب الخامس) المناسبة الخفية بين المحب والمحبوب اذ رب شخصين
تتأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حظ ولكن بمجرد تناسب الارواح كما قال صلى الله عليه وسلم فما تعارف منها
ائتلف وما تناكر منها اختلف وقد حققنا ذلك فى كتاب آداب الصحبة عند ذكر الحب فى الله فليطلب منه لانه أيضا
من عجائب أسباب الحب فاذا ترجع أقسام الحب الى خمسة أسباب وهو حب الانسان وجود نفسه وكماله وبقائه
وحبه من أحسن اليه فيما يرجع الى دوام وجوده ويعين على بقائه ودفع المهلكات عنه وحبه من كان محسنا فى

ثم يرجع من رجوع
رجوعه فيبقى شيئا
لا وصف له قائما بين يدى
الحق مستغرقا فى أعين
الجمع ومخالفة النفس
ورؤية عيوب الافعال
والمجاهدة تحقق بتحقيق
الرعاية والمراقبة * قال
أبو سليمان ما استحسنت
من نفسى عملا فاحتسبه
(وقال) أبو عبد الله
السجزى من استحسن
شيأ من أحواله فى حال
ارادته فسدت عليه
ارادته الا أن يرجع الى
ابتدائه فيروض نفسه
ثانيا ومن لم يزن نفسه
بميزان الصدق فيما له
وعليه لا يبلغ مبلغ الرجال
ورؤية عيوب الافعال
من ضرورة صحة الانابة
وهو فى تحقيق مقام
التوبة ولا تستقيم
التوبة الا بصدق
المجاهدة ولا يصدق العبد
فى المجاهدة الا بوجود
الصبر (وروى) فضالة
ابن عبيد قال سمعت
رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول المجاهد من

نفسه الى الناس وان لم يكن محسنا اليه وحبه لكل ما هو جميل فى ذاته سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة وحبه لمن بينه و بينه مناسبة خفية فى الباطن فلو اجتمعت هذه الاسباب فى شخص واحد تضاعف الحب لامحالة كما لو كان للانسان ولد جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن الى الخلق ومحسن الى الوالد كان محبوبا بالامحالة غاية الحب و تكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال فى نفسها فان كانت هذه الصفات فى أقصى درجات الكمال كان الحب لامحالة فى أعلى الدرجات فلنبين الآن أن هذه الاسباب كلها لا يتصور كمالها واجتماعها الافى حق الله تعالى فلا يستحق المحبة بالحقيقة الا الله سبحانه وتعالى

(بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده)

وان من أحب غير الله لا من حيث نسبته الى الله فذلك لجهله وقصوره فى معرفة الله تعالى وحب الرسول صلى الله عليه وسلم محمود لانه عين حب الله تعالى وكذلك حب العلماء والاتقياء لان محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب ومحب المحبوب محبوب وكل ذلك يرجع الى حب الاصل فلا يتجاوزه الى غيره فلا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر الا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه وايضاحه بان نرجع الى الاسباب الخمسة التى ذكرناها ونبين انها مجتمعة فى حق الله تعالى بجملتها ولا يوجد فى غيره الا آحادها وانها حقيقة فى حق الله تعالى ووجودها فى حق غيره وهم وتخيل وهو مجاز محض لا حقيقة له ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذى بصيرة ضد ما تخيله ضعفاء العقول والقلوب من استحالة حب الله تعالى تحقيقا وبان أن التحقيق يقتضى أن لا تحب أحدا غير الله تعالى *فاما السبب الاول وهو حب الانسان نفسه وبقاءه وكماله ودوام وجوده وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كماله فهذه جبلة كل حى ولا يتصور أن ينفك عنها وهذا يقتضى غاية المحبة لله تعالى فان من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعا انه لا وجود له من ذاته وانما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من الله والى الله وبالله فهو المخترع الموجد له وهو المبقى له وهو المكمل لوجوده بخلق صفات الكمال وخلق الاسباب الموصلة اليه وخلق الهداية الى استعمال الاسباب والا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته بل هو محو محض وعدم صرف لولا فضل الله تعالى عليه بالايجاد وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالابقاء وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل لخلقته وبالجملة فليس فى الوجود شئ له بنفسه قوام الا القيوم الحى الذى هو قائم بذاته وكل ما سواه قائم به فان أحب العارف ذاته ووجود ذاته مستفاد من غيره فبالضرورة يحب المفيد لوجوده والمديم له ان عرفه خالقا موجدا ومخترعا مبقيا وقيوما بنفسه ومقوما لغيره فان كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وبربه والمحبة ثمرة المعرفة فتنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوتها ولذلك قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها وكيف يتصور ان يحب الانسان نفسه ولا يحب ربه الذى به قوام نفسه ومعلوم ان المبتلى بحر الشمس لما كان يحب الظل فيحب بالضرورة الاشجار التى بها قوام الظل وكل ما فى الوجود بالاضافة الى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالاضافة الى الشجر والنور بالاضافة الى الشمس فان الكل من آثار قدرته ووجود الكل تابع لوجوده كما أن وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشجر بل هذا المثال صحيح بالاضافة الى أوهام العوام اذ تخيلوا أن النور أثر الشمس وفائض منها وموجود بها وهو خطأ محض اذ انكشف لارباب القلوب انكشافا أظهر من مشاهدة الابصار أن النور حاصل من قدرة الله تعالى اختراعا عند وقوع المقابلة بين الشمس والاجسام الكثيفة كما أن نور الشمس وعينها وشكلها وصورتها أيضا حاصل من قدرة الله تعالى ولكن الغرض من الامثلة التفهيم فلا يطلب فيها الحقائق فاذا ان كان حب الانسان نفسه ضروريا فحبه لمن به قوامه أولا ودوامه ثانيا فى اصله وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه أيضا ضرورى ان عرف ذلك كذلك ومن خلا عن هذا الحب فلانه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته وهو عالم الشهادة الذى يشاركه البهائم فى التنعم به والاتساع فيه دون عالم الملكوت الذى لا يطأ أرضه الا من يقرب الى شبه من الملائكة فينظر فيه بقدر قربه فى الصفات من الملائكة ويقصر عنه بقدر انحطاطه الى حضيض عالم البهائم وأما السبب الثانى وهو حبه من أحسن اليه فواساه بماله ولاطفه بكلامه وأمده بمعونته وانتدب لنصرته وقمع

يجاهد نفسه ولا يتم ذلك الا بالصبر وأفضل الصبر الصبر على الله بعكوف الهم عليه وصدق المراقبة له بالقلب وحسم مواد الخواطر والصبر ينقسم الى فرض وفضل فالفضل كالصبر على اداء المفترضات والصبر عن المحرمات ومن الصبر الذى هو فضل الصبر على الفقر والصبر عند الصدمة الاولى وكتمان المصائب والاوجاع وترك الشكوى والصبر على اخفاء الفقر والصبر على كتم المنح والكرامات ورؤية العبر والآيات ووجوه الصبر فرضا وفضلا كثيرة وكثير من الناس من يقوم بهذه الاقسام من الصبر ويضيق عن الصبر على الله بلزوم صحة المراقبة والرعاية ونفى الخواطر فاذا حقيقة الصبر كائنة فى التوبة كينونة المراقبة فى التوبة والصبر من أعز مقامات الموقنين وهو داخل

أعدائه وقام بدفع شر الاشرار عنه وانتهض وسيلة الى جميع حظوظه وأغراضه فى نفسه وأولاده وأقاربه فانه محبوب بلامحالة عنده وهذا بعينه يقتضى ان لا يحب الا الله تعالى فانه لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن اليه هو الله تعالى فقط فاما أنواع احسانه الى كل عبيده فلست أعدها اذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وقد أشرنا الى طرف منه فى كتاب الشكر ولكنا نقتصر الآن على بيان أن الاحسان من الناس غير متصور الا بالمجاز وانما المحسن هو الله تعالى ولنفرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع خزائنه ومكنك منها لتتصرف فيها كيف تشاء فانك تظن أن هذا الاحسان منه وهو غلط فانه انما تم احسانه به وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة على صرف المال اليك فمن الذى أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق قدرته وخلق ارادته وداعيته ومن الذى حببك اليه وصرف وجهه اليك وألقى فى نفسه أن صلاح دينه أو دنياه فى الاحسان اليك ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله ومهما سلط الله عليه الدواعى وقرر فى نفسه أن صلاح دينه أو دنياه فى أن يسلم اليك ماله كان مقهورا مضطرا فى التسليم لا يستطيع مخالفته فالمحسن هو الذى اضطره لك وسخره وسلط عليه الدواعى الباعثة المرهقة الى الفعل وأما يده فواسطة يصل بها احسان الله اليك وصاحب اليد مضطر فى ذلك اضطرار مجرى الماء فى جريان الماء فيه فان اعتقدته محسنا أو شكرته من حيث هو بنفسه محسن لا من حيث هو واسطة كنت جاهلا بحقيقة الامر فانه لا يتصور الاحسان من الانسان الا الى نفسه أما الاحسان الى غيره فمحال من المخلوقين لانه لا يبذل ماله الا لغرض له فى البذل اما آجل وهو الثواب واما عاجل وهو المنة والاستسخار أو الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم أو جذب قلوب الخلق الى الطاعة والمحبة وكما أن الانسان لا يلقى ماله فى البحر اذ لا غرض له فيه فلا يلقيه فى يد انسان الا لغرض له فيه وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده وأما أنت فلست مقصودا بل يدك آلة له فى القبض حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب بسبب قبضك المال فقد استسخرك فى القبض للتوصل الى غرض نفسه فهو اذا محسن الى نفسه ومعتاض عما بذله من ماله عوضا هو أرجح عنده من ماله ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لاجلك أصلا البتة فاذا هو غير مستحق للشكر والحب من وجهين أحدهما انه مضطر بتسليط الله الدواعى عليه فلا قدرة له على المخالفة فهو جار مجرى خازن الامير فانه لا يرى محسنا بتسليم خلعة الامير الى من خلع عليه لانه من جهة الامير مضطر الى الطاعة والامتثال لما يرسمه ولا يقدر على مخالفته ولو خلاه الامير ونفسه لما سلم ذلك فكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه لم يبذل حبة من ماله حتى سلط الله الدواعى عليه وألقى فى نفسه أن حظه دينا ودنيا فى بذله فبذله لذلك والثانى أنه معتاض عما بذله حظا هو أوفى عنده وأحب مما بذله فكما لا يعد البائع محسنا لانه بذل بعوض هو أحب عنده مما بذله فكذلك الواهب اعتاض الثواب أو الحمد والثناء أو عوضا آخر وليس من شرط العوض أن يكون عينا متمولا بل الحظوظ كلها أعواض تستحقر الاموال والاعيان بالاضافة اليها فالاحسان فى الجود والجود هو بذل المال من غير عوض وحظ يرجع الى الباذل وذلك محال من غير الله سبحانه فهو الذى أنعم على العالمين احسانا اليهم ولاجلهم لا لحظ وغرض يرجع اليه فانه يتعالى عن الاغراض فلفظ الجود والاحسان فى حق غيره كذب أو مجاز ومعناه فى حق غيره محال وممتنع امتناع الجمع بين السواد والبياض فهو المنفرد بالجود والاحسان والطول والامتنان فان كان فى الطبع حب المحسن فينبغى أن لا يحب العارف الا الله تعالى اذ الاحسان من غيره محال فهو المستحق لهذه المحبة وحده وأما غيره فيستحق المحبة على الاحسان بشرط الجهل بمعنى الاحسان وحقيقته * وأما السبب الثالث وهو حبك المحسن فى نفسه وان لم يصل اليك احسانه وهذا أيضا موجود فى الطباع فانه اذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو فى قطر من أقطار الارض بعيد عنك وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق متهتك شرير وهو أيضا بعيد عنك فانك تجد فى قلبك تفرقة بينهما اذ تجد فى القلب ميلا الى الاول وهو الحب ونفرة عن الثانى وهو البغض مع أنك آيس من خير الاول وآمن من شر الثانى لانقطاع طمعك عن التوغل الى بلادهما فهذا حب المحسن من حيث انه محسن فقط لا من حيث انه محسن اليك وهذا أيضا يقتضى حب الله تعالى بل يقتضى أن لا يحب غيره أصلا الا من حيث يتعلق منه بسبب فان الله هو

فى حقيقة التوبة (قال بعض العلماء) أى شئ أفضل من الصبر وقد ذكره الله تعالى فى كلامه فى نيف وتسعين موضعا وما ذكر شيأ بهذا العدد وصحة التوبة تحتوى على مقام الصبر مع شرفه ومن الصبر الصبر على النعمة وهو أنه لا يصرفها فى معصية الله تعالى وهذا أيضا داخل فى صحة التوبة * وكان سهل بن عبد الله يقول الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء (وروى) عن بعض الصحابة بلينا بالضراء فصبرنا وبلينا بالسراء فلم نصبر ومن الصبر رعاية الاقتصاد فى الرضا والغضب والصبر عن محمدة الناس والصبر على الخمول والتواضع والذل داخل فى الزهد وان لم يكن داخلا فى التوبة وكل مافات من مقام التوبة من المقامات السنية والاحوال الوجد

الحسن الى الكافة والمتفضل على جميع أصناف الخلائق أولا بايجادهم وثانيا بتكميلهم بالاعضاء والاسباب التى
هى من ضروراتهم وثالثا بترفيههم وتنعيمهم بخلق الاسباب التى هى فى مظان حاجاتهم وان لم تكن فى مظان
الضرورة ورابعا بتجميلهم بالمزايا والزوائد التى هى فى مظنة زينتهم وهى خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم ومثال
الضرورى من الاعضاء الرأس والقلب والكبد ومثال المحتاج اليه العين واليد والرجل ومثال الزينة استقواس
الحاجبين وحمرة الشفتين وتلون العينين الى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة ومثال الضرورى من
النعم الخارجة عن بدن الانسان الماء والغذاء ومثال الحاجة الدواء واللحم والفواكه ومثال المزايا والزوائد
خضرة الاشجار وحسن أشكال الانوار والازهار ولذائذ الفواكه والاطعمة التى لا تنخرم بعدمها حاجة ولا
ضرورة وهذه الاقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان بل لكل نبات بل لكل صنف من أصناف الخلق من ذروة
العرش الى منتهى الفرش فاذا هو المحسن فكيف يكون غيره محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته فانه
خالق الحسن وخالق المحسن وخالق الاحسان وخالق أسباب الاحسان فالحب بهذه العلة لغيره أيضا جهل محض
ومن عرف ذلك لم يحب بهذه العلة الا الله تعالى * وأما السبب الرابع وهو حب كل جميل لذات الجمال لا لحظ ينال
منه وراء ادراك الجمال فقد بينا أن ذلك مجبول فى الطباع وأن الجمال ينقسم الى جمال الصورة الظاهرة المدركة
بعين الرأس والى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة والاول يدركه الصبيان والبهائم والثانى
يختص بدركه أرباب القلوب ولا يشاركهم فيه من لا يعلم الا ظاهرا من الحياة الدنيا وكل جمال فهو محبوب عند
مدرك الجمال فان كان مدركا بالقلب فهو محبوب القلب ومثال هذا فى المشاهدة حب الانبياء والعلماء وذوى
المكارم السنية والاخلاق المرضية فان ذلك متصور مع تشوش صورة الوجه وسائر الاعضاء وهو المراد بحسن
الصورة الباطنة والحس لا يدركه نعم يدرك بحسن آثاره الصادرة منه الدالة عليه حتى اذا دل القلب عليه مال
القلب اليه فاحبه فمن يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الصديق رضى الله تعالى عنه أو الشافعى رحمة الله عليه
فلا يحبهم الا لحسن ما ظهر له منهم وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم بل دل حسن أفعالهم على حسن
الصفات التى هى مصدر الافعال اذ الافعال آثار صادرة عنها ودالة عليها فمن رأى حسن تصنيف المصنف وحسن
شعر الشاعر بل حسن نقش النقاش وبناء البناء انكشف له من هذه الافعال صفاتها الجميلة الباطنة التى يرجع
حاصلها عند البحث الى العلم والقدرة ثم كلما كان المعلوم أشرف وأتم جمالا وعظمة كان العلم أشرف وأجل وكذا
المقدور وكلما كان أعظم رتبة وأجل منزلة كانت القدرة عليه أجل رتبة وأشرف قدرا وأجل المعلومات هو الله
تعالى فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى وكذلك ما يقاربه ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به فاذا
جمال صفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعا ترجع الى ثلاثة أمور أحدها علمهم بالله وملائكته وكتبه
ورسله وشرائع انبيائه والثانى قدرتهم على اصلاح أنفسهم واصلاح عباد الله بالارشاد والسياسة والثالث تنزههم
عن الرذائل والخبائث والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير الجاذبة الى طريق الشر وبمثل هذا يحب الانبياء
والعلماء والخلفاء والملوك الذين هم أهل العدل والكرم فانسب هذه الصفات الى صفات الله تعالى (أما العلم)
فاين علم الاولين والآخرين من علم الله تعالى الذى يحيط بالكل احاطة خارجة عن النهاية حتى لا يعزب عنه مثقال
ذرة فى السموات ولا فى الارض وقد خاطب الخلق كلهم فقال عز وجل وما أوتيتم من العلم الا قليلا بل لو اجتمع أهل
الارض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكمته فى تفصيل خلق نملة أو بعوضة لم يطلعوا على عشر عشير ذلك ولا
يحيطون بشئ من علمه الا بما شاء والقدر اليسير الذى علمه الخلائق كلهم فبتعليمه علموه كما قال تعالى خلق الانسان
علمه البيان فان كان جمال العلم وشرفه أمرا محبوبا وكان هو فى نفسه زينة وكمالا للموصوف به فلا ينبغى أن يحب
بهذا السبب الا الله تعالى فعلوم العلماء جهل بالاضافة الى علمه بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه
استحال أن يحب بسبب العلم الاجهل ويترك الاعلم وان كان الاجهل لا يخلو عن علم ما يتقاضاه معيشته والتفاوت
بين علم الله وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم لان الاعلم لا يفضل الاجهل الا
بعلوم معدودة متناهية يتصور فى الامكان أن ينالها الاجهل بالكسب والاجتهاد وفضل علم الله تعالى على علوم

فى الزهد وهو ثالث
الاربعة التى ذكرنا
وحقيقة الصبر تظهر
من طمأنينة النفس
وطمأنينتها من تزكيتها
وتزكيتها بالتوبة
فالنفس اذا تزكت
بالتوبة النصوح زالت
عنها الشراسة الطبيعية
وقلة الصبر من وجود
الشراسة للنفس واباتها
واستعصائها والتوبة
النصوح تلين النفس
وتخرجها من طبيعتها
وشراستها الى اللين لان
النفس بالمحاسبة
والمراقبة تصفو وتنطفئ
نيرانها المتأججة بمتابعة
الهوى وتبلغ بطمأنينتها
محل الرضا ومقامه
وتطمئن فى مجارى
الاقدار (قال أبو عبد الله)
النباجى لله عباد يستحيون
من الصبر ويتلقفون
مواقع اقداره
بالرضا تلقفا (وكان)
عمر بن عبد العزيز
يقول أصبحت ومالى
سرور الا مواقع القضاء
قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم لابن

الخلائق كلهم خارج عن النهاية اذ معلوماته لانهاية لها ومعلومات الخلق متناهية (وأما صفة القدرة) فهى أيضا كمال والعجز نقص فكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فانه محبوب وادراكه لذيذ حتى ان الانسان ليسمع فى الحكاية شجاعة على وخالد رضى الله تعالى عنهما وغيرهما من الشجعان وقدرتهما واستيلاءهما على الاقران فيصادف فى قلبه اهتزازا وفرحا وارتياحا ضروريا بمجرد لذة السماع فضلا عن المشاهدة ويورث ذلك حبا فى القلب ضروريا للمتصف به فانه نوع كمال فانسب الآن قدرة الخلق كلهم الى قدرة الله تعالى فاعظم الاشخاص قوة وأوسعهم ملكا وأقواهم بطشا وأقهرهم للشهوات وأقمعهم لخبائث النفس وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره ما منتهى قدرته وانما غايته ان يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الانس فى بعض الامور وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتا ولا حياة ولا نشورا ولا ضرا ولا نفعا بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ولسانه من الخرس وأذنه من الصمم وبدنه من المرض ولا يحتاج الى عد ما يعجز عنه فى نفسه وغيره مما هو على الجملة متعلق قدرته فضلا عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات وأفلاكها وكواكبها والارض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها فلا قدرة له على ذرة منها وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبنفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك ولو سلط بعوضا على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لاهلكه فليس للعبد قدرة الا بتمكين مولاه كما قال فى أعظم ملوك الارض ذى القرنين اذ قال انا مكنا له فى الارض فلم يكن جميع ملكه وسلطنته الا بتمكين الله تعالى اياه فى جزء من الارض والارض كلها مدرة بالاضافة الى أجسام العالم وجميع الولايات التى يحظى بها الناس من الارض غبرة من تلك المدرة ثم تلك الغبرة أيضا من فضل الله تعالى وتمكينه فيستحيل ان يحب عبدا من عباد الله تعالى لقدرته وسياسته وتمكينه واستيلائه وكمال قوته ولا يحب الله تعالى لذلك ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم فهو الجبار القاهر والعليم القادر السموات مطويات بيمينه والارض وملكها وما عليها فى قبضته وناصية جميع المخلوقات فى قبضة قدرته ان أهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة وان خلق أمثالهم ألف مرة لم يعى بخلقها ولا يمسه لغوب ولا فتور فى اختراعها فلا قدرة ولا قادر الا وهو أثر من آثار قدرته فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء فان كان يتصور ان يحب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواه أصلا (وأما) صفة التنزه عن العيوب والنقائص والتقدس عن الرذائل والخبائث فهو أحد موجبات الحب ومقتضيات الحسن والجمال فى الصور الباطنة والانبياء والصديقون وان كانوا منزهين عن العيوب والخبائث فلا يتصور كمال التقدس والتنزه الا للواحد الحق الملك القدوس ذى الجلال والاكرام وأما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزا مخلوقا مسخرا مضطرا هو عين العيب والنقص فالكمال لله وحده وليس لغيره كمال الا بقدر ما أعطاه الله وليس فى المقدور ان ينعم بمنتهى الكمال على غيره فان منتهى الكمال أقل درجاته ان لا يكون عبدا مسخرا لغيره قائما بغيره وذلك محال فى حق غيره فهو المنفرد بالكمال المنزه عن النقص المقدس عن العيوب وشرح وجوه التقدس والتنزه فى حقه عن النقائص يطول وهو من أسرار علوم المكاشفات فلا نطول بذكره فهذا الوصف أيضا ان كان كمالا وجمالا محبوبا فلا تتم حقيقته الا له وكمال غيره وتنزهه لا يكون مطلقا بل بالاضافة الى ما هو أشد منه نقصانا كما ان للفرس كمالا بالاضافة الى الحمار وللانسان كمالا بالاضافة الى الفرس وأصل النقص شامل للكل وانما يتفاوتون فى درجات النقصان فاذا الجميل محبوب والجميل المطلق هو الواحد الذى لا ند له الفرد الذى لا ضد له الصمد الذى لا منازع له الغنى الذى لا حاجة له القادر الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه العالم الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والارض القاهر الذى لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة الازلى الذى لا أول لوجوده الابدى الذى لا آخر لبقائه الضرورى الوجود الذى لا يحوم امكان العدم حول حضرته القيوم الذى يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به جبار السموات والارض خالق الجماد والحيوان والنبات المنفرد بالعزة والجبروت المتوحد بالملك والملكوت ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال الذى

عباس حين وصاه اعمل لله باليقين فى الرضا فان لم يكن فان فى الصبر خيرا كثيرا (وفى الخبر) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من خير ما أعطى الرجل الرضا بما قسم الله تعالى له فالاخبار والآثار والحكايات فى فضيلة الرضا وشرفه أكثر من أن تحصى والرضا ثمرة التوبة النصوح وما تخلف عبد عن الرضا الا بتخلفه عن التوبة النصوح فاذن تجمع التوبة النصوح حال الصبر ومقام الصبر وحال الرضا ومقام الرضا والخوف والرجاء مقامان شريفان من مقامات أهل اليقين وهما كائنان فى صلب التوبة النصوح لان خوفه حمله على التوبة ولولا خوفه ما تاب ولولا رجاؤه ما خاف فالرجاء والخوف يتلازمان فى قلب المؤمن ويعتدل الخوف والرجاء للتائب المستقيم فى التوبة دخل رسول الله صلى

تقصير في معرفة جلاله العقول وتخرس في وصفه الالسنة الذى كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ومنتهى نبوة الانبياء الاقرار بالقصور عن وصفه كما قال سيد الانبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك وقال سيد الصديقين رضى الله تعالى عنه العجز عن درك الادراك ادراك سبحان من لم يجعل للخلق طريقا الى معرفته الا بالعجز عن معرفته فليت شعرى من ينكر امكان حب الله تعالى تحقيقا ويجعله مجازا أينكر ان هذه الاوصاف من أوصاف الجمال والمحامد ونعوت الكمال والمحاسن أو ينكر كون الله تعالى موصوفا بها أو ينكر كون الكمال والجمال والبهاء والعظمة محبوبا بالطبع عند من أدركه فسبحان من احتجب عن بصائر العميان غيرة على جماله وجلاله أن يطلع عليه الا من سبقت له منه الحسنى الذين هم عن نار الحجاب مبعدون وترك الخاسرين فى ظلمات العمى يتيهون وفى مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يترددون يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون والحب بهذا السبب أقوى من الحب بالاحسان لان الاحسان يزيد وينقص ولذلك أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام ان أود الاوداء الى من عبدنى بغير نوال لكن ليعطى الربوبية حقها وفى الزبور من أظلم ممن عبدنى لجنة أو نار لو لم أخلق جنة ولا نارا ألم أكن أهلا أن أطاع ومر عيسى عليه السلام على طائفة من العباد قد نحلوا فقالوا نخاف النار ونرجوا الجنة فقال لهم مخلوقا خفتم ومخلوقا رجوتم ومر بقوم آخرين كذلك فقالوا نعبده حبا له وتعظيما لجلاله فقال أنتم أولياء الله حقا معكم أمرت أن أقيم وقال أبو حازم انى لاستحى أن أعبده للثواب والعقاب فأكون كالعبد السوء ان لم يخف لم يعمل وكالاجير السوء ان لم يعط لم يعمل وفى الخبر لا يكونن أحدكم كالاجير السوء ان لم يعط أجرا لم يعمل ولا كالعبد السوء ان لم يخف لم يعمل (وأما) السبب الخامس للحب فهو المناسبة والمشاكلة لان شبه الشئ منجذب اليه والشكل الى الشكل أميل ولذلك ترى الصبى يألف الصبى والكبير يألف الكبير ويألف الطير نوعه وينفر من غير نوعه وأنس العالم بالعالم أكثر منه بالمحترف وأنس النجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلاح وهذا أمر تشهد به التجربة وتشهد له الاخبار والآثار كما استقصيناه فى باب الاخوة فى الله من كتاب آداب الصحبة فليطلب منه واذا كانت المناسبة سبب التحاب فالمناسبة قد تكون فى معنى ظاهر كمناسبة الصبى الصبى فى معنى الصبا وقد يكون خفيا حتى لا يطلع عليه كما ترى من الاتحاد الذى يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال أو طمع فى مال أو غيره كما أشار اليه النبى صلى الله عليه وسلم اذ قال الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف فالتعارف هو التناسب والتناكر هو التباين وهذا السبب أيضا يقتضى حب الله تعالى لمناسبة باطنة لا ترجع الى المشابهة فى الصور والاشكال بل الى معان باطنة يجوز أن يذكر بعضها فى الكتب وبعضها لا يجوز أن يسطر بل يترك تحت غطاء الغيرة حتى يعثر عليه السالكون للطريق اذا استكملوا شرط السلوك فالذى يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل فى الصفات التى أمر فيها بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله وذلك فى اكتساب محامد الصفات التى هى من صفات الالهية من العلم والبر والاحسان واللطف وافاضة الخير والرحمة على الخلق والنصيحة لهم وارشادهم الى الحق ومنعهم من الباطل الى غير ذلك من مكارم الشريعة فكل ذلك يقرب الى الله سبحانه وتعالى لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات وأما ما لا يجوز أن يسطر فى الكتب من المناسبة الخاصة التى اختص بها الآدمى فهى التى يومئ اليها قوله تعالى ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى اذ بين انه أمر ربانى خارج عن حد عقول الخلق وأوضح من ذلك قوله تعالى فاذا سويته ونفخت فيه من روحى ولذلك أسجد له ملائكته ويشير اليه قوله تعالى انا جعلناك خليفة فى الارض اذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى الا بتلك المناسبة واليه يرمز قوله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق آدم على صورته حتى ظن القاصرون أن لا صورة الا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس فشبهوا وجسموا وصوروا تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علوا كبيرا واليه الاشارة بقوله تعالى لموسى عليه السلام مرضت فلم تعدنى فقال يارب وكيف ذلك قال مرض عبدى فلان فلم تعده ولو عدته وجدتنى عنده وهذه المناسبة لا تظهر الا بالمواظبة على النوافل بعد احكام الفرائض كما قال الله تعالى لا يزال يتقرب العبد الى بالنوافل حتى

أحبه

الله عليه وسلم على رجل وهو فى سياق الموت فقال كيف تجدك قال أجدنى أخاف ذنوبى وأرجو رحمة ربى فقال ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن الا أعطاه الله ما رجا وآمنه مما يخاف وجاء فى تفسير قوله تعالى ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة هو العبد يذنب الكبائر ثم يقول قد هلكت لا ينفعنى عمل فالتائب خاف فتاب ورجا المغفرة ولا يكون التائب تائبا الا وهو راج خائف ثم ان التائب حيث قيد الجوارح عن المكاره واستعان بنعم الله على طاعة الله فقد شكر النعم لان كل جارحة من الجوارح نعمة وشكرها قيدها عن المعصية واستعمالها فى الطاعة وأى شاكر للنعمة أكبر من التائب المستقيم فاذا جمع مقام التوبة هذه المقامات كلها فقد جمع مقام التوبة حال الزجر وحال الانتباه وحال

أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ولسانه الذى ينطق به وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه فقد تحزب الناس فيه الى قاصرين مالوا الى التشبيه الظاهر والى غالين مسرفين جاوزوا حد المناسبة الى الاتحاد وقالوا بالحلول حتى قال بعضهم أنا الحق وضل النصارى فى عيسى عليه السلام فقالوا هو الاله وقال آخرون منهم تدرع الناسوت باللاهوت وقال آخرون اتحد به وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل واستحالة الاتحاد والحلول واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر فهم الاقلون ولعل أبا الحسن النورى عن هذا المقام كان ينظر اذ غلبه الوجد فى قول القائل

لازلت أنزل من ودادك منزلا * تتحير الالباب عند نزوله

فلم يزل يعدو فى وجده على أجمة قد قطع قصبها وبقى أصوله حتى تشققت قدماه وتورمتا ومات من ذلك وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها وهو أعزها وأبعدها وأقلها وجودا فهذه هى المعلومة من أسباب الحب وجملة ذلك متظاهرة فى حق الله تعالى تحقيقا لا مجازا وفى أعلى الدرجات لا فى أدناها فكان المعقول المقبول عند ذوى البصائر حب الله تعالى فقط كما أن المعقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط ثم كل من يحب من الخلق بسبب من هذه الاسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته اياه فى السبب والشركة نقصان فى الحب وغض من كماله ولا ينفرد أحد بوصف محبوب الا وقد يوجد له شريك فيه فان لم يوجد فيمكن أن يوجد الا الله تعالى فانه موصوف بهذه الصفات التى هى نهاية الجلال والكمال ولا شريك له فى ذلك وجودا ولا يتصور أن يكون ذلك امكانا فلا جرم لا يكون فى حبه شركة فلا يتطرق النقصان الى حبه كما لا تتطرق الشركة الى صفاته فهو المستحق اذ الاصل المحبة ولكمال المحبة استحقاقا لا يساهم فيه أصلا

(بيان ان أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر الى وجهه الكريم وانه لا يتصور أن يؤثر عليها لذة أخرى الا من حرم هذه اللذة)

اعلم أن اللذات تابعة للادراكات والانسان جامع لجملة من القوى والغرائز ولكل قوة وغريزة لذة ولذتها فى نيلها لمقتضى طبعها الذى خلقت له فان هذه الغرائز ما ركبت فى الانسان عبثا بل ركبت كل قوة وغريزة لامر من الامور وهو مقتضاها بالطبع فغريزة الغضب خلقت للتشفى والانتقام فلا جرم لذتها فى الغلبة والانتقام الذى هو مقتضى طبعها وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت لتحصيل الغذاء الذى به القوام فلا جرم لذتها فى نيل هذا الغذاء الذى هو مقتضى طبعها وكذلك لذة السمع والبصر والشم فى الابصار والاستماع والشم فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذة بالاضافة الى مدركاتها فكذلك فى القلب غريزة تسمى النور الالهى لقوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الايمان واليقين ولا معنى للاشتغال بالاسامى فان الاصطلاحات مختلفة والضعيف يظن أن الاختلاف واقع فى المعانى لان الضعيف يطلب المعانى من الالفاظ وهو عكس الواجب فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعانى التى ليست متخيلة ولا محسوسة كادراكه خلق العالم أو افتقاره الى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات الهية ولنسم تلك الغريزة عقلا بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذمه بعض الصوفية والا فالصفة التى فارق الانسان بها البهائم وبها يدرك معرفة الله تعالى أعز الصفات فلا ينبغى أن تذم وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الامور كلها فمقتضى طبعها المعرفة والعلم وهى لذتها كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذتها وليس يخفى أن فى العلم والمعرفة لذة حتى ان الذى ينسب الى العلم والمعرفة ولو فى شئ خسيس يفرح به والذى ينسب الى الجهل ولو فى شئ حقير يغتم به وحتى ان الانسان لا يكاد يصبر عن التحدى بالعلم والتمدح به فى الاشياء الحقيرة فالعالم باللعب بالشطرنج على خسته لا يطيق السكوت فيه عن التعليم وينطلق لسانه بذكر ما يعلمه وكل ذلك لفرط لذة العلم وما يستشعره من كمال ذاته به فان العلم من أخص صفات الربوبية وهى منتهى الكمال ولذلك يرتاح الطبع اذا أثنى عليه بالذكاء وغزارة العلم لانه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذ به ثم ليست لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة

التيقظ ومخالفة النفس والتقوى والمجاهدة ورؤية عيوب الافعال والانابة والصبر والرضا والمحاسبة والمراقبة والرعاية والشكر والخوف والرجاء واذا صحت التوبة النصوح وتزكت النفس انجلت مرآة القلب وبان قبح الدنيا فيها فيحصل الزهد والزاهد يتحقق فيه التوكل لانه لا يزهد فى الموجود الا لاعتماده على الموجود والسكون الى وعد الله تعالى هو عين التوكل وكلما بقى على العبد بقية فى تحقق المقامات كلها بعد توبته يستدركه بزهده فى الدنيا وهو ثالث الاربعة (أخبرنا) شيخنا قال أنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون قال أنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى اجازة قال أنا أبو عمرو محمد ابن العباس قال أنا أبو محمد يحيى بن ساعدة قال حدثنا الحسين بن

الملك وتدبير أمر الخلق ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملكوت السموات
والارض بل لذة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف المعلوم حتى ان الذى يعلم بواطن أحوال الناس
ويخبر بذلك يجد له لذة وان جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه فان علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تدبيره
فى رياسته كان ذلك ألذ عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك فان اطلع على أسرار الوزير وتدبيره وما
هو عازم عليه فى أمور الوزارة فهو أشهى عنده وألذ من علمه بأسرار الرئيس فان كان خبيرا بباطن أحوال الملك
والسلطان الذى هو المستولى على الوزير كان ذلك أطيب عنده وألذ من علمه بباطن أسرار الوزير وكان تمدحه
بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشد وحبه له أكثر لان لذته فيه أعظم فبهذا استبان ان ألذ المعارف أشرفها
وشرفها بحسب شرف المعلوم فان كان فى المعلومات ما هو الاجل والاكمل والاشرف والاعظم فالعلم به ألذ العلوم
لا محالة وأشرفها وأطيبها وليت شعرى هل فى الوجود شئ أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الاشياء
كلها ومكملها ومزينها ومبدئها ومعيدها ومدبرها ومرتبها وهل يتصور أن تكون حضرة فى الملك والكمال
والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التى لا يحيط بمبادى جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين
فان كنت لا تشك فى ذلك فلا ينبغى أن تشك فى أن الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتب الامور الالهية المحيطة
بكل الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها وأحرى ما تستشعر النفوس
عند الاتصاف به كمالها وجمالها وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار وبهذا تبين أن العلم لذيذ وأن ألذ
العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وتدبيره فى مملكته من منتهى عرشه الى تخوم الارضين فينبغى أن يعلم أن
لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات أعنى لذة الشهوة والغضب ولذة سائر الحواس الخمس فان اللذات مختلفة بالنوع
أولا كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع ولذة المعرفة للذة الرياسة وهى مختلفة بالضعف والقوة كمخالفة لذة
الشبق المغتلم من الجماع للذة الفاتر الشهوة وكمخالفة لذة النظر الى الوجه الجميل الفائق الجمال للذة النظر الى
ما دونه فى الجمال وانما تعرف أقوى اللذات بان تكون مؤثرة على غيرها فان المخير بين النظر الى صورة جميلة والتمتع
بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة اذا اختار النظر الى الصورة الجميلة علم أنها ألذ عنده من الروائح الطيبة
وكذلك اذا حضر الطعام وقت الاكل واستمر اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الاكل فيعلم به أن لذة الغلبة فى
الشطرنج أقوى عنده من لذة الاكل فهذا معيار صادق فى الكشف عن ترجيح اللذات فنعود ونقول اللذات
تنقسم الى ظاهرة كلذة الحواس الخمس والى باطنة كلذة الرياسة والغلبة والكرامة والعلم وغيرها اذ ليست هذه
اللذة للعين ولا للانف ولا للاذن ولا للمس ولا للذوق والمعانى الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة
فلو خير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج وبين لذة الرياسة وقهر الاعداء ونيل درجة الاستيلاء فان كان
المخير خسيس الهمة ميت القلب شديد النهمة اختار اللحم والحلاوة وان كان على الهمة كامل العقل اختار
الرياسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أياما كثيرة فاختياره للرياسة يدل على أنها ألذ عنده من
المطعومات الطيبة نعم الناقص الذى لم تكمل معانيه الباطنة بعد كالصبى أو كالذى ماتت قواه الباطنة كالمعتوه
لا يبعد أن يؤثر لذة المطعومات على لذة الرياسة وكما أن لذة الرياسة والكرامة أغلب اللذات على من جاوز نقصان
الصبا والعته فلذة معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر الى أسرار الامور الالهية ألذ من الرياسة
التى هى أعلى اللذات الغالبة على الخلق وغاية العبارة عنه ان يقال فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وانه أعد
لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهذا الآن لا يعرفه الا من ذاق اللذتين جميعا فانه لا محالة
يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر وينغمس فى بحار المعرفة ويترك الرياسة ويستحقر الخلق الذين يرأسهم
لعلمه بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته وكونه مشوبا بالكدورات التى لا يتصور الخلو عنها وكونه مقطوعا
بالموت الذى لا بد من اتيانه مهما أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فيستعظم
بالاضافة اليها لذة معرفة الله تعالى ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام مملكته من أعلى عليين الى أسفل السافلين فانها
خالية عن المزاحمات والمكدرات متسعة للمتواردين عليها لا تضيق عنهم بكبرها وانما عرضها من حيث التقدير

الحسن المروزى قال
حدثنا عبد الله بن المبارك
قال حدثنا الهيثم بن
جميل قال أنا محمد بن
سليمان عن عبد الله بن
بريدة قال قدم رسول
الله صلى الله عليه وسلم
من سفر فبدأ بفاطمة
رضى الله عنها فرآها قد
أحدثت فى البيت سترا
وزوائد فى يديها فلما رأى
ذلك رجع ولم يدخل
ثم جلس فجعل ينكت
فى الارض ويقول مالى
وللدنيا مالى وللدنيا
فرأت فاطمة أنه انما
رجع من أجل ذلك
الستر فأخذت الستر
والزوائد وأرسلت بهما
مع بلال وقالت له اذهب
الى النبى صلى الله عليه
وسلم فقل له قد تصدقت
به فضعه حيث شئت فاتى
بلال الى النبى صلى الله
عليه وسلم فقال قالت
فاطمة قد تصدقت به
فضعه حيث شئت فقال
النبى صلى الله عليه وسلم
بابى وأمى قد فعلت بابى
وأمى قد فعلت اذهب فبعه

السموات والارض واذا خرج النظر عن المقدرات فلا نهاية لعرضها فلا يزال العارف بمطالعتها فى جنة عرضها السموات والارض يرتع فى رياضها ويقطف من ثمارها ويكرع من حياضها وهو آمن من انقطاعها اذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة ثم هى أبدية سرمدية لا يقطعها الموت اذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى ومحلها الروح الذى هو أمر ربانى سماوى وانما الموت يغير أحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من حبسها فاما أن يعدمها فلا ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الآية ولا تظنن أن هذا مخصوص بالمقتول فى المعركة فان للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد وفى الخبر ان الشهيد يتمنى فى الآخرة ان يرد الى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم ما يراه من ثواب الشهادة وان الشهداء يتمنون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء فاذا جميع أقطار ملكوت السموات والارض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة الى أن يتحرك اليها بجسمه وشخصه فهو من مطالعة جمال الملكوت فى جنة عرضها السموات والارض وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلا الا أنهم يتفاوتون فى سعة منتزهاتهم بقدر تفاوتهم فى اتساع نظرهم وسعة معارفهم وهم درجات عند الله ولا يدخل فى الحصر تفاوت درجاتهم فقد ظهر أن لذة الرياسة وهى باطنة أقوى فى ذوى الكمال من لذات الحواس كلها وان هذه اللذة لا تكون لبهيمة ولا لصبى ولا لمعتوه وان لذة المحسوسات والشهوات تكون لذوى الكمال مع لذة الرياسة ولكن يؤثرون الرياسة فاما معنى كون معرفة الله وصفاته وأفعاله وملكوت سمواته وأسرار ملكه أعظم لذة من الرياسة فهذا يختص بمعرفته من نال رتبة المعرفة وذاقها ولا يمكن اثبات ذلك عند من لا قلب له لان القلب معدن هذه القوة كما أنه لا يمكن اثبات رجحان لذة الوقاع على لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان ولا رجحانه على لذة شم البنفسج عند العنين لانه فقد الصفة التى بها تدرك هذه اللذة ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين وعند هذا لا يبقى الا أن يقال من ذاق عرف ولعمرى طلاب العلوم وان لم يشتغلوا بطلب معرفة الامور الالهية فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التى قوى حرصهم على طلبها فانها أيضا معارف وعلوم وان كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الالهية فاما من طال فكره فى معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشئ اليسير فانه يصادف فى قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به ويتعجب من نفسه فى ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره وهذا مما لا يدرك الا بالذوق والحكاية فيه قليلة الجدوى فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله سبحانه ألذ الاشياء وأنه لا لذة فوقها ولهذا قال أبو سليمان الدارانى ان لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ولذلك قال بعض اخوان معروف الكرخى له أخبرنى يا أبا محفوظ أى شئ هاجك الى العبادة والانقطاع عن الخلق فسكت فقال ذكر الموت فقال وأى شئ الموت فقال ذكر القبر والبرزخ فقال وأى شئ القبر فقال خوف النار ورجاء الجنة فقال وأى شئ هذا ان ملكا هذا كله بيده ان أحببته أنساك جميع ذلك وان كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا وفى أخبار عيسى عليه السلام اذا رأيت الفتى مشغوفا بطلب الرب تعالى فقد ألهاه ذلك عما سواه ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحرث فى النوم فقال ما فعل أبو نصر التمار وعبد الوهاب الوراق فقال تركتهما الساعة بين يدى الله تعالى يأكلان ويشربان قلت فأنت قال علم الله قلة رغبتى فى الاكل والشرب فأعطانى النظر اليه وعن على بن الموفق قال رأيت فى النوم كأنى أدخلت الجنة فرأيت رجلا قاعدا على مائدة وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات وهو يأكل ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بعضا ويرد بعضا قال ثم جاوزتهما الى حظيرة القدس فرأيت فى سرادق العرش رجلا قد شخص ببصره ينظر الى الله تعالى لا يطرف فقلت لرضوان من هذا فقال معروف الكرخى عبد الله لا خوفا من ناره ولا شوقا الى جنته بل حبا له فأباحه النظر اليه الى يوم القيامة وذكر ان الآخرين بشر بن الحرث وأحمد بن حنبل ولذلك قال أبو سليمان من كان اليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه وقال الثورى لرابعة ما حقيقة ايمانك

(وقيل) فى قوله تعالى انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا قيل الزهد فى الدنيا * سئل أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه عن الزهد فقال هو أن لا تبالى بمن أكل الدنيا مؤمن أو كافر (وسئل) الشبلى عن الزهد فقال ويلكم أى مقدار لجناح بعوضة ان تزهد فيها * وقال أبو بكر الواسطى الى متى تصول بترك كنيف والى متى تصول باعراضك عما لا يزن عند الله جناح بعوضة فاذا صح زهد العبد صح توكله أيضا لان صدق توكله مكنه من زهده فى الموجود فمن استقام فى التوبة وزهد فى الدنيا وحقق هذين المقامين استوفى سائر المقامات وتكون فيها وتحققها ولترتيب التوبة مع المراقبة وارتباط احداهما بالاخرى ان يتوب العبد

قالت ماعبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته فأكون كالاجير السوء بل عبدته حباله وشوقا اليه وقالت فى معنى المحبة نظما

احبك حبين حب الهوى * وحبا لانك أهل لذا كا
فاما الذى هو حب الهوى * فشغلى بذكرك عمن سوا كا
وأما الذى أنت أهل له * فكشفك لى الحجب حتى أرا كا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى * ولكن لك الحمد فى ذا وذا كا

ولعلها ارادت بحب الهوى حب الله لاحسانه اليها وانعامه عليها بحظوظ العاجلة وبحبه لما هو أهل له الحب لجماله وجلاله الذى انكشف لها وهو أعلى الحبين وأقواهما ولذة مطالعة جمال الربوبية هى التى عبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال حاكيا عن ربه تعالى أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقد تعجل بعض هذه اللذات فى الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه الى الغاية ولذلك قال بعضهم انى أقول يارب يا الله فاجد ذلك على قلبي أثقل من الجبال لان النداء يكون من وراء حجاب وهل رأيت جليسا ينادى جليسه وقال اذا بلغ الرجل فى هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة أن يخرج كلامه عن حد عقولهم فيرون مايقوله جنونا أو كفرا فقصد العارفين كلهم وصله ولقاؤه فقط فهى قرة العين التى لا تعلم نفس ما أخفى لهم منها واذا حصلت انمحقت الهموم والشهوات كلها وصار القلب مستغرقا بنعيمها فلو ألقى فى النار لم يحس بها لاستغراقه ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت اليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التى ليس فوقها غاية وليت شعرى من لم يفهم الاحب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر الى وجه الله تعالى وماله صورة ولا شكل وأى معنى لوعد الله تعالى به عباده وذكره انه أعظم النعم بل من عرف الله عرف ان اللذات المفرقة بالشهوات المختلفة كلها تنطوى تحت هذه اللذة كما قال بعضهم

كانت لقلبى اهواء مفرقة * فاستجمعت مذ رأتك العين اهوائى
فصار يحسدنى من كنت احسده * وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى
تركت للناس دنياهم ودينهم * شغلا بذكرك يادينى ودنيائى

ولذلك قال بعضهم

وهجره أعظم من ناره * ووصله أطيب من جنته *

وما أرادوا بهذا الا ايثار لذة القلب فى معرفة الله تعالى على لذة الاكل والشرب والنكاح فان الجنة معدن تمتع الحواس فاما القلب فلذته فى لقاء الله فقط ومثال أطوار الخلق فى لذاتهم ماذكرناه وهو ان الصبى فى أول حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو حتى يكون ذلك عنده ألذ من سائر الاشياء ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب فيستحقر معها لذة اللعب ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ماقبلها فى الوصول اليها ثم تظهر لذة الرياسة والعلو والتكاثر وهى آخر لذات الدنيا وأعلاها وأقواها كما قال تعالى اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر الآية ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها لذة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله فيستحقر معها جميع ماقبلها فكل متأخر فهو أقوى وهذا هو الاخير اذ يظهر حب اللعب فى سن التمييز وحب النساء والزينة فى سن البلوغ وحب الرياسة بعد العشرين وحب العلوم بقرب الاربعين وهى الغاية العليا وكما أن الصبى يضحك على من يترك اللعب ويشتغل بملاعبة النساء وطلب الرياسة فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياسة ويشتغل بمعرفة الله تعالى والعارفون يقولون ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون

(بيان السبب فى زيادة النظر فى لذة الآخرة على المعرفة فى الدنيا)

اعلم ان المدركات تنقسم الى مايدخل فى الخيال كالصور المتخيلة والاجسام المتلونة والمتشكلة من أشخاص الحيوان والنبات والى مالا يدخل فى الخيال كذات الله تعالى وكل ماليس بجسم كالعلم والقدرة والارادة وغيرها ومن رأى انسانا ثم غض بصره وجد صورته حاضرة فى خياله كأنه ينظر اليها ولكن اذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما ولا ترجع التفرقة الى اختلاف بين الصورتين لان الصورة المرئية تكون موافقة للمتخيلة وانما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف فان صورة المرئى صارت بالرؤية أتم انكشافا ووضوحا وهو كشخص يرى

ثم يستقيم فى التوبة حتى لايكتب عليه صاحب الشمال شيأ ثم يرتقى من تطهير الجوارح عن المعاصى الى تطهير الجوارح عما لا يعنى فلا يسمع بكلمة فضول ولا حركة فضول ثم ينتقل للرعاية والمحاسبة من الظاهر الى الباطن وتستولى المراقبة على الباطن وهو التحقق بعلم القيام بمحو خواطر المعصية عن باطنه ثم خواطر الفضول فاذا تمكن من رعاية الخطرات عصم عن مخالفة الاركان والجوارح وتستقيم توبته قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فاستقم كما أمرت ومن تاب معك أمره الله تعالى بالاستقامة فى التوبة أمراله ولاتباعه وأمته (وقيل) لايكون المريد مريدا حتى لايكتب عليه صاحب الشمال شيأ عشرين سنة ولا يلزم من هذا

فى وقت الاسفار قبل انتشار ضوء النهار ثم رؤى عند تمام الضوء فانه لا تفارق احدى الحالتين الاخرى الا فى مزيد الانكشاف فاذا الخيال أول الادراك والرؤية هو الاستكمال لادراك الخيال وهو غاية الكشف وسمى ذلك رؤية لانه غاية الكشف لا لانه فى العين بل لو خلق الله هذا الادراك الكامل المكشوف فى الجبهة أو الصدر مثلا استحق أن يسمى رؤية واذا فهمت هذا فى المتخيلات فاعلم ان المعلومات التى لا تتشكل أيضا فى الخيال لمعرفتها وادراكها درجتان احداهما أولى والثانية استكمال لها وبين الاولى والثانية من التفاوت فى مزيد الكشف والايضاح ما بين المتخيل والمرئى فيسمى الثانى أيضا بالاضافة الى الاول مشاهدة ولقاء ورؤية وهذه التسمية حق لان الرؤية سميت رؤية لانها غاية الكشف وكما ان سنة الله تعالى جارية بان تطبيق الاجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ويكون حجابا بين البصر والمرئى ولا بد من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية وما لم ترتفع كان الادراك الحاصل مجرد التخيل فكذلك مقتضى سنة الله تعالى ان النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات وما غلب عليها من الصفات البشرية فانها لا تنتهى الى المشاهدة واللقاء فى المعلومات الخارجة عن الخيال بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الاجفان عن رؤية الابصار والقول فى سبب كونه حجابا يطول ولا يليق بهذا العلم ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام لن ترانى وقال تعالى لا تدركه الابصار أى فى الدنيا والصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأى الله تعالى ليلة المعراج فاذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا غير منفكة عنها بالكلية وان كانت متفاوتة فمنها ما تراكم عليه الخبث والصدأ فصار كالمرآة التى فسد بطول تراكم الخبث جوهرها فلا تقبل الاصلاح والتصقيل وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد نعوذ بالله من ذلك ومنها ما لم ينته الى حد الرين والطبع ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل فيعرض على النار عرضا يقمع منه الخبث الذى هو متدنس به ويكون العرض على النار بقدر الحاجة الى التزكية وأقلها لحظة خفيفة وأقصاها فى حق المؤمنين كما وردت به الاخبار سبعة آلاف سنة ولن ترتحل نفس عن هذا العالم الا ويصحبها غبرة وكدورة ما وان قلت ولذلك قال الله تعالى وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا فكل نفس مستيقنة للورود على النار وغير مستيقنة للصدور عنها فاذا أكمل الله تطهيرها وتزكيتها وبلغ الكتاب أجله ووقع الفراغ عن جملة ما وعد به الشرع من الحساب والعرض وغيره ووافى استحقاق الجنة وذلك وقت مبهم لم يطلع الله عليه أحدا من خلقه فانه واقع بعد القيامة ووقت القيامة مجهول فعند ذلك يشتغل بصفائه ونقائه عن الكدورات حيث لا يرهق وجهه غبرة ولا قترة لان فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى فيتجلى له تجليا يكون انكشاف تجليه بالاضافة الى ما علمه كانكشاف تجلى المرآة بالاضافة الى ما تخيله وهذه المشاهدة والتجلى هى التى تسمى رؤية فاذا الرؤية حق بشرط أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال فى متخيل متصور مخصوص بجهة ومكان فان ذلك مما يتعالى عنه رب الارباب علوا كبيرا بل كما عرفته فى الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصور وتقدير شكل وصورة فتراه فى الآخرة كذلك بل أقول المعرفة الحاصلة فى الدنيا بعينها هى التى تستكمل فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة ولا يكون بين المشاهدة فى الآخرة والمعلوم فى الدنيا اختلاف الا من حيث زيادة الكشف والوضوح كما ضربنا من المثال فى استكمال الخيال بالرؤية فاذا لم يكن فى معرفة الله تعالى اثبات صورة وجهة فلا يكون فى استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيها فى الوضوح الى غاية الكشف أيضا جهة وصورة لانها هى بعينها لا تفترق منها الا فى زيادة الكشف كما ان الصورة المرئية هى المتخيلة بعينها الا فى زيادة الكشف واليها الاشارة بقوله تعالى يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا اذ تمام النور لا يؤثر الا فى زيادة الكشف ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية الا العارفون فى الدنيا لان المعرفة هى البذر الذى ينقلب فى الآخرة مشاهدة كما تنقلب النواة شجرة والحب زرعا ومن لا نواة فى أرضه كيف يحصل له نخل ومن لم يزرع الحب فكيف يحصد الزرع فكذلك من لم يعرف الله تعالى فى الدنيا فكيف يراه فى الآخرة ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلى أيضا على درجات متفاوتة فاختلاف التجلى بالاضافة الى اختلاف المعارف كاختلاف

وجود العصمة ولكن الصادق التائب فى النادر اذا ابتلى بذنب ينمحى أثر الذنب من باطنه فى ألطف ساعة لوجود الندم فى باطنه على ذلك والندم توبة فلا يكتب عليه صاحب الشمال شيأ فاذا تاب توبة نصوحا ثم زهد فى الدنيا حتى لا يهتم فى غدائه لعشائه ولا فى عشائه لغدائه ولا يرى الادخار ولا يكون له تعلق هم بغد فقد جمع فى هذا الزهد الفقر والزهد أفضل من الفقر وهو فقر وزيادة لان الفقير عادم للشئ اضطرارا والزاهد تارك للشئ اختيارا وزهده يحقق توكله وتوكله يحقق رضاه ورضاه يحقق الصبر وصبره يحقق حبس النفس وصدق المجاهدة وحبس النفس لله يحقق خوفه وخوفه يحقق رجاءه ويجمع بالتوبة والزهد كل المقامات والزهد والتوبة اذا اجتمعا مع صحة الايمان وعقوده

النبات بالاضافة الى اختلاف البذر اذتختلف لامحالة بكثرتها وقلتها وحسنها وقوتها وضعفها ولذلك قال النبي
عليه الصلاة والسلام ان الله يتجلى للناس عامة ولابى بكر خاصة فلا ينبغي أن يظن ان غير أبي بكر ممن هو دونه يجد
من لذة النظر والمشاهدات ما يجده أبو بكر بل لا يجد الا عشر عشيره ان كانت معرفته فى الدنيا عشر عشيره ولما
فضل الناس بسر وقر فى صدره فضل لامحالة بتجل انفرد به وكما انك ترى فى الدنيا من يؤثر لذة الرياسة على المطعوم
والمنكوح وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والارض وسائر الامور الالهية على
الرياسة وعلى المنكوح والمطعوم والمشروب جميعا فكذلك يكون فى الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر الى وجه الله
تعالى على نعيم الجنة اذ يرجع نعيمها الى المطعوم والمنكوح وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم فى الدنيا ما وصفناه من
ايثار لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح والمطعوم والمشروب وسائر الخلق
مشغولون به ولذلك لما قيل لرابعة ما تقولين فى الجنة فقالت الجار ثم الدار فبينت انه ليس فى قلبها التفات الى الجنة
بل الى رب الجنة وكل من لم يعرف الله فى الدنيا فلا يراه فى الآخرة وكل من لم يجد لذة المعرفة فى الدنيا فلا يجد لذة
النظر فى الآخرة اذ ليس يستأنف لاحد فى الآخرة ما لم يصحبه من الدنيا ولا يحصد أحد الا ما زرع ولا يحشر المرء
الا على ما مات عليه ولا يموت الا على ما عاش عليه فما صحبه من المعرفة هو الذى يتنعم به بعينه فقط الا انه ينقلب
مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللذة به كما تتضاعف لذة العاشق اذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية
صورته فان ذلك منتهى لذته وانما طيبة الجنة أن لكل أحد فيها ما يشتهى فمن لا يشتهى الا لقاء الله تعالى فلا
لذة له فى غيره بل ربما يتأذى به فاذا نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى وحب الله تعالى بقدر معرفته فاصل السعادات
هى المعرفة التى عبر الشرع عنها بالايمان فان قلت فلذة الرؤية ان كان لها نسبة الى لذة المعرفة فهى قليلة وان
كان اضعافها لان لذة المعرفة فى الدنيا ضعيفة فتضاعفها الى حد قريب لا ينتهى فى القوة الى أن يستحقر سائر لذات
الجنة فيها فاعلم ان هذا الاستحقار للذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها
وان انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا فكيف يدرك لذتها فالعارفون فى معرفتهم وفكرتهم
ومناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت عليهم الجنة فى الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة ثم هذه اللذة مع كمالها
لا نسبة لها أصلا الى لذة اللقاء والمشاهدة كما لا نسبة للذة خيال المعشوق الى رؤيته ولا للذة استنشاق روائح الاطعمة
الشهية الى ذوقها ولا للذة اللمس باليد الى لذة الوقاع واظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن الا بضرب مثال فنقول
لذة النظر الى وجه المعشوق فى الدنيا تتفاوت باسباب أحدها كمال جمال المعشوق ونقصانه فان اللذة فى النظر الى
الاجمل أكمل لامحالة والثانى كمال قوة الحب والشهوة والعشق فليس التذاذ من اشتد عشقه كالتذاذ من ضعفت
شهوته وحبه والثالث كمال الادراك فليس التذاذه برؤية المعشوق فى ظلمة أو من وراء ستر رقيق أو من بعد
كالتذاذه بادراكه على قرب من غير ستر وعند كمال الضوء ولا ادراك لذة المضاجعة مع ثوب حائل كادراكها مع
التجرد والرابع اندفاع العوائق المشوشة والآلام الشاغلة للقلب فليس التذاذ الصحيح الفارغ المتجرد للنظر الى
المعشوق كالتذاذ الخائف المذعور أو المريض المتألم أو المشغول قلبه بهم من المهمات فقدر عاشقا ضعيف العشق
ينظر الى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته فى حالة اجتمع عليه
عقارب وزنابير تؤذيه وتلدغه وتشغل قلبه فهو فى هذه الحالة لا يخلو عن لذة ما من مشاهدة معشوقه فلو طرأت
على الفجأة حالة انهتك بها الستر وأشرق بها الضوء واندفع عنه المؤذيات وبقى سليما فارغا وهجمت عليه الشهوة
القوية والعشق المفرط حتى بلغ أقصى الغايات فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للاولى اليها نسبة يعتد
بها فكذلك فافهم نسبة لذة النظر الى لذة المعرفة فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال به والعقارب والزنابير
مثال الشهوات المتسلطة على الانسان من الجوع والعطش والغضب والغم والحزن وضعف الشهوة والحب
مثال لقصور النفس فى الدنيا ونقصانها عن الشوق الى الملأ الاعلى والتفاتها الى أسفل السافلين وهو مثل
قصور الصبى عن ملاحظة لذة الرياسة والتفاته الى اللعب بالعصفور والعارف وان قويت فى الدنيا معرفته
فلا يخلو عن هذه المشوشات ولا يتصور أن يخلو عنها البتة نعم قد تضعف هذه العوائق فى بعض الاحوال ولا تدوم

وشروطه يعوزهذه
الثلاثة رابع به تمامها
وهو دوام العمل لان
الاحوال السنية ينكشف
بعضها بهذه الثلاثة
وتيسير بعضها متوقف
على وجود الرابع وهو
دوام العمل وكثير من
الزهاد المتحققين بالزهد
المستقيمين فى التوبة
تخلفوا عن كثير من سنى
الاحوال لتخلفهم عن
هذا الرابع ولا يراد
الزهد فى الدنيا الا لكمال
الفراغ المستعان به على
ادامة العمل لله تعالى
والعمل لله أن يكون
العبد لا يزال ذاكرا أو
تاليا أو مصليا أو مراقبا
لا يشغله عن هذه الا
واجب شرعى أو مهم
لابد منه طبيعى فاذا
استولى العمل القلبى
على القلب مع وجود
الشغل الذى أداه اليه
حكم الشرع لا يفتر
باطنه عن العمل فاذا
كان مع الزهد والتقوى
متمسكا بدوام العمل
فقد أكمل الفضل وما

فلاجرم يلوح من جمال المعرفة ما يبهت العقل وتعظم لذته بحيث يكاد القلب ينفطر لعظمته ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف وقلما يدوم بل يعرض من الشواغل والافكار والخواطر ما يشوشه وينغصه وهذه ضرورة دائمة في هذه الحياة الفانية فلا تزال هذه اللذة منغصة الى الموت وانما الحياة الطيبة بعد الموت وانما العيش عيش الآخرة وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون وكل من انتهى الى هذه الرتبة فانه يحب لقاء الله تعالى فيحب الموت ولا يكرهه الا من حيث ينتظر زيادة استكمال في المعرفة فان المعرفة كالبذر وبحر المعرفة لا ساحل له فالاحاطة بكنه جلال الله محال فكلما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله وباسرار مملكته وقويت كثر النعيم في الآخرة وعظم كما انه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن ولا يمكن تحصيل هذا البذر الا في الدنيا ولا يزرع الا في صعيد القلب ولا حصاد الا في الآخرة ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله لان المعرفة انما تكمل وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمداومة الفكر والمواظبة على المجاهدة والانقطاع عن علائق الدنيا والتجرد للطلب ويستدعى ذلك زمانا لا محالة فمن أحب الموت أحبه لانه رأى نفسه واقفا في المعرفة بالغا الى منتهى ما يسر له ومن كره الموت كرهه لانه كان يؤمل مزيد معرفة تحصل له بطول العمر ورأى نفسه مقصرا عما تحتمله قوته لو عمر فهذا سبب كراهة الموت وحبه عند أهل المعرفة وأما سائر الخلق فنظرهم مقصور على شهوات الدنيا ان اتسعت أحبوا البقاء وان ضاقت تمنوا الموت وكل ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة فالجهل والغفلة مغرس كل شقاوة والعلم والمعرفة أساس كل سعادة فقد عرفت بما ذكرناه معنى المحبة ومعنى العشق فانه المحبة المفرطة القوية ومعنى لذة المعرفة ومعنى الرؤية ومعنى لذة الرؤية ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند ذوي العقول والكمال وان لم تكن كذلك عند ذوي النقصان كما لم تكن الرياسة ألذ من المطعومات عند الصبيان فان قلت فهذه الرؤية محلها القلب أو العين في الآخرة فاعلم أن الناس قد اختلفوا في ذلك وأرباب البصائر لا يلتفتون الى هذا الخلاف ولا ينظرون فيه بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المبقلة ومن يشتهي رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت الى أن رؤيته تخلق في عينه أو في جبهته بل يقصد الرؤية ولذتها سواء كان ذلك بالعين أو غيرها فان العين محل وظرف لا نظر اليه ولا حكم له والحق فيه أن القدرة الازلية واسعة فلا يجوز أن نحكم عليها بالقصور عن أحد الامرين هذا في حكم الجواز فاما الواقع في الآخرة من الجائزين فلا يدرك الا بالسمع والحق ما ظهر لاهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يخلق في العين ليكون لفظ الرؤية والنظر وسائر الالفاظ الواردة في الشرع مجرى على ظاهره اذ لا يجوز ازالة الظواهر الا لضرورة والله تعالى أعلم

(بيان الاسباب المقوية لحب الله تعالى)

اعلم ان أسعد الخلق حالا في الآخرة أقواهم حبا لله تعالى فان الآخرة معناها القدوم على الله تعالى ودرك سعادة لقائه وما أعظم نعيم المحب اذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه وتمكن من دوام مشاهدته أبد الآباد من غير منغص ومكدر ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع الا أن هذا النعيم على قدر قوة الحب فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة وانما يكتسب العبد حب الله تعالى في الدنيا وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن لانه لا ينفك عن أصل المعرفة وأما قوة الحب واستيلاؤه حتى ينتهي الى الاستهتار الذي يسمى عشقا فذلك ينفك عنه الاكثرون وانما يحصل ذلك بسببين * أحدهما قطع علائق الدنيا واخراج حب غير الله من القلب فان القلب مثل الاناء الذي لا يتسع للخل مثلا ما لم يخرج منه الماء وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وكمال الحب في ان يحب الله عز وجل بكل قلبه وما دام يلتفت الى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره فبقدر ما يشغل بغير الله ينقص منه حب الله وبقدر ما يبقى من الماء في الاناء ينقص من الخل المصبوب فيه والى هذا التفريد والتجريد الاشارة بقوله تعالى قل الله ثم ذرهم في خوضهم وبقوله تعالى ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا بل هو معنى قولك لا اله الا الله أي لا معبود ولا محبوب سواه فكل محبوب فانه معبود فان العبد هو المقيد والمعبود هو المقيد به وكل محب فهو مقيد بما يحبه ولذلك قال الله تعالى أرأيت من اتخذ الهه هواه وقال صلى الله عليه وسلم أبغض اله عبد في الارض الهوى ولذلك قال عليه السلام من قال لا اله الا الله مخلصا دخل الجنة ومعنى الاخلاص أن يخلص قلبه لله

الى جهدا في العبودية (قال أبو بكر الوراق) من خرج من قالب العبودية صنع به ما يصنع بالآبق (وسئل) سهل ابن عبد الله التستري أي منزلة اذا قام العبد بها قام مقام العبودية قال اذا ترك التدبير والاختيار فاذا تحقق العبد بالتوبة والزهد ودوام العمل لله يشغله وقته الحاضر عن وقته الآتي ويصل الى مقام ترك التدبير والاختيار ثم يصل الى ان يملك الاختيار فيكون اختياره من اختيار الله تعالى لزوال هواه ووفور علمه وانقطاع مادة الجهل عن باطنه (قال) يحيى بن معاذ الرازي ما دام العبد يتعرف يقال له لا تختر ولا تكن مع اختيارك حتى تعرف فاذا عرف وصار عارفا يقال له ان شئت اختر وان شئت لا تختر لانك ان اخترت فباختيارنا اخترت وان تركت الاختيار

فلا يبقى فيه شرك لغير الله فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط ومن هذا حاله فالدنيا سجنه لانها مانعة له من مشاهدة محبوبه وموته خلاص من السجن وقدوم على المحبوب فما حال من ليس له الا محبوب واحد وقد طال اليه شوقه وتمادى عنه حبسه فخلا من السجن ومكن من المحبوب وروح بالأمن أبد الآباد فأحد أسباب ضعف حب الله فى القلوب قوة حب الدنيا ومنه حب الاهل والمال والولد والاقارب والعقار والدواب والبساتين والمنتزهات حتى ان المتفرح بطيب أصوات الطيور وروح نسيم الاسحار ملتفت الى نعيم الدنيا ومتعرض لنقصان حب الله تعالى بسببه فبقدر ما أنس بالدنيا فينقص أنسه بالله ولا يؤتى أحد من الدنيا شيأ الا وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة كما أنه لا يقرب الانسان من المشرق الا و يبعد بالضرورة من المغرب بقدره ولا يطيب قلب امرأته الا و يضيق به قلب ضرتها فالدنيا والآخرة ضرتان وهما كالمشرق والمغرب وقد انكشف ذلك لذوى القلوب انكشافا أوضح من الابصار بالعين وسبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد وملازمة الصبر والانقياد اليهما بزمام الخوف والرجاء فما ذكرناه من المقامات كالتوبة والصبر والزهد والخوف والرجاء هى مقدمات ليكتسب بها أحد ركنى المحبة وهو تخلية القلب عن غير الله وأوله الايمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار ثم يتشعب منه الخوف والرجاء و يتشعب منهما التوبة والصبر عليهما ثم ينجر ذلك الى الزهد فى الدنيا وفى المال والجاه وكل حظوظ الدنيا حتى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله فقط حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله وحبه فيه فكل ذلك مقدمات تطهير القلب وهو أحد ركنى المحبة واليه الاشارة بقوله عليه السلام الطهور شطر الايمان كما ذكرناه فى أول كتاب الطهارة * السبب الثانى لقوة المحبة قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلاؤها على القلب وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها يجرى مجرى وضع البذر فى الارض بعد تنقيتها من الحشيش وهو الشطر الثانى ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة وهى الكلمة الطيبة التى ضرب الله بها مثلا حيث قال ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء واليها الاشارة بقوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب أى المعرفة والعمل الصالح يرفعه فالعمل الصالح كالجمال لهذه المعرفة وكالخادم وانما العمل الصالح كله فى تطهير القلب أولا من الدنيا ثم ادامة طهارته فلا يراد العمل الا لهذه المعرفة وأما العلم بكيفية العمل فيراد للعمل فالعلم هو الاول وهو الآخر وانما الاول علم المعاملة وغرضه العمل وغرض المعاملة صفاء القلب وطهارته ليتضح فيه جلية الحق و يتزين بعلم المعرفة وهو علم المكاشفة ومهما حصلت هذه المعرفة تبعتها المحبة بالضرورة كما أن من كان معتدل المزاج اذا أبصر الجميل وأدركه بالعين الظاهرة أحبه ومال اليه ومهما أحبه حصلت اللذة فاللذة تبع المحبة بالضرورة والمحبة تبع المعرفة بالضرورة ولا يوصل الى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب الا بالفكر الصافى والذكر الدائم والجد البالغ فى الطلب والنظر المستمر فى الله تعالى وفى صفاته وفى ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته والواصلون الى هذه الرتبة ينقسمون الى الاقوياء ويكون أول معرفتهم لله تعالى ثم به يعرفون غيره والى الضعفاء و يكون أول معرفتهم بالافعال ثم يترقون منها الى الفاعل والى الاول الاشارة بقوله تعالى أولم يكف بربك انه على كل شئ شهيد و بقوله تعالى شهد الله أنه لا اله الا هو ومنه نظر بعضهم حيث قيل له بم عرفت ربك قال عرفت ربى بربى ولولا ربى لما عرفت ربى والى الثانى الاشارة بقوله تعالى سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق الآية وبقوله عز وجل أولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وبقوله تعالى قل انظروا ماذا فى السموات والارض و بقوله تعالى الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير وهذا الطريق هو الاسهل على الاكثرين وهو الاوسع على السالكين واليه أكثر دعوة القرآن عند الامر بالتدبر والتفكر والاعتبار والنظر فى آيات خارجة عن الحصر فان قلت كلا الطريقين مشكل فاوضح لنا منهما ما يستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به الى المحبة فاعلم أن الطريق الاعلى هو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق فهو غامض والكلام فيه خارج عن حد فهم أكثر الخلق فلا فائدة فى ايراده فى الكتب وأما الطريق الاسهل الادنى فاكثره غير خارج عن حد الافهام

فبا ختيارنا تركت الاختيار فانك بنافى الاختيار وفى ترك الاختيار والعبد لا يتحقق بهذا المقام العالى والحال العزيز الذى هو الغاية والنهاية وهو أن علك الاختيار بعد ترك التدبير والخروج من الاختيار الا باحكامه هذه الاربعة التى ذكرناها لان ترك التدبير فناء وتمليك التدبير والاختيار من الله تعالى لعبده ورده الى الاختيار تصرف بالحق وهو مقام البقاء وهو الانسلاخ عن وجود كان بالعبد الى وجود يصير بالحق وهذا العبد ما بقى عليه من الاعوجاج ذرة واستقام ظاهره و باطنه فى العبودية وعمر العلم والعمل ظاهره و باطنه وتوطن حضرة القرب بنفس بين يدى الله عز وجل متمسكة بالاستكانة والافتقار متحققة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكلنى الى نفسى طرفة

واغا

وانما قصرت الافهام عنه لاعراضها عن التدبر واشتغالها بشهوات الدنيا وحظوظ النفس والمانع من ذكر هذا اتساعه وكثرته وانشعاب أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية اذ ما من ذرة من أعلى السموات الى تخوم الارضين الا وفيها عجائب آيات تدل على كال قدرة الله تعالى وكال حكمته ومنتهى جلاله وعظمته وذلك مما لا يتناهى بل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي فالخوض فيه انغماس في بحار علوم المكاشفة ولا يمكن ان يتطفل به على علوم المعاملة ولكن يمكن الرمز الى مثال واحد على الايجاز ليقع التنبيه لجنسه فنقول أسهل الطريقين النظر الى الافعال فلنتكلم فيها ولنترك الاعلى ثم الافعال الالهية كثيرة فلنطلب أقلها وأحقرها وأصغرها ولننظر في عجائبها فاقل المخلوقات هو الارض وما عليها أعني بالاضافة الى الملائكة وملكوت السموات فانك ان نظرت فيها من حيث الجسم والعظم في الشخص فالشمس على ما ترى من صغر حجمها هي مثل الارض مائة ونيفا وستين مرة فانظر الى صغر الارض بالاضافة اليها ثم انظر الى صغر الشمس بالاضافة الى فلكها الذي هي مركوزة فيه فانه لا نسبة لها اليه وهي في السماء الرابعة وهي صغيرة بالاضافة الى ما فوقها من السموات السبع ثم السموات السبع في الكرسي كحلقة في فلاة والكرسي في العرش كذلك فهذا نظر الى ظاهر الاشخاص من حيث المقادير وما أحقر الارض كلها بالاضافة اليها بل ما أصغر الارض بالاضافة الى البحار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الارض في البحر كالاصطبل في الارض ومصداق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة وعلم ان المكشوف من الارض عن الماء كجزيرة صغيرة بالاضافة الى كل الارض ثم انظر الى الآدمي المخلوق من التراب الذي هو جزء من الارض والى سائر الحيوانات والى صغره بالاضافة الى الارض ودع عنك جميع ذلك فاصغر ما نعرفه من الحيوانات البعوض والنحل وما يجري مجراه فانظر في البعوض على قدر صغر قدره وتأمله بعقل حاضر وفكر صاف فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات اذ خلق له خرطوما مثل خرطومه وخلق له على شكله الصغير سائر الاعضاء كما خلقه للفيل بزيادة جناحين وانظر كيف قسم أعضاءه الظاهرة فانبت جناحه وأخرج يده ورجله وشق سمعه وبصره ودبر في باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته ما دبره في سائر الحيوانات وركب فيها من القوى الغاذية والجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة ما ركب في سائر الحيوانات هذا في شكله وصفاته ثم انظر الى هدايته كيف هداه الله تعالى الى غذائه وعرفه أن غذاءه دم الانسان ثم انظر كيف أنبت له آلة الطيران الى الانسان وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو محدد الرأس وكيف هداه الى مسام بشرة الانسان حتى يضع خرطومه في واحد منها ثم كيف قواه حتى يغرز فيه الخرطوم وكيف علمه المص والتجرع للدم وكيف خلق الخرطوم مع دقته مجوفا حتى يجري فيه الدم الرقيق وينتهي الى باطنه وينتشر في سائر أجزائه ويغذيه ثم كيف عرفه أن الانسان يقصده بيده فعلمه حيلة الهرب واستعداد آلته وخلق له السمع الذي يسمع به خفيف حركة اليد وهي بعد بعيدة منه فيترك المص ويهرب ثم اذا سكنت اليد يعود ثم انظر كيف خلق له حدقتين حتى يبصر موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه وانظر الى أن حدقة كل حيوان صغير لما لم تحتمل حدقته الاجفان لصغره وكانت الاجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والغبار خلق للبعوض والذباب يدين فتنظر الى الذباب فتراه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه وأما الانسان والحيوان الكبير فخلق لحدقتيه الاجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر وأطرافها حادة فيجمع الغبار الذي يلحق الحدقة ويرميه الى أطراف الاهداب وخلق الاهداب السود لتجمع ضوء العين وتعين على الابصار وتحسن صورة العين وتشبكها عند هيجان الغبار فينظر من وراء شباك الاهداب واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الابصار وأما البعوض فخلق لها حدقتين مصقلتين من غير أجفان وعلمها كيفية التصقيل باليدين ولاجل ضعف أبصارها تراها تتهافت على السراج لان بصرها ضعيف فهي تطلب ضوء النهار فاذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل ظن انه في بيت مظلم وأن السراج كوة من البيت المظلم الى الموضع المضيء فلا يزال يطلب الضوء ويرمي بنفسه اليه فاذا جاوزه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السداد فيعود اليه مرة أخرى الى أن يحترق ولعلك تظن ان هذا لنقصانها وجهلها فاعلم ان جهل الانسان أعظم من جهلها بل صورة الآدمي في الاكباب على شهوات الدنيا صورة

عين فاهلك ولا الى أحد من خلقك فاضيع اكلأني كلاءة الوليد ولا تخل عني

(الباب الستون في ذكر اشارات المشايخ في المقامات على الترتيب)

(قولهم في التوبة) قال رويم معنى التوبة ان يتوب من التوبة قيل معناه قول رابعة أستغفر الله العظيم من قلة صدقي في قولي أستغفر الله (وسئل) الحسن المغازلي عن التوبة فقال تسألني عن توبة الانابة أو عن توبة الاستجابة فقال السائل ما توبة الانابة فقال أن تخاف من الله عز وجل من أجل قدرته عليك قال فما توبة الاستجابة قال أن تستحي من الله لقربه منك وهذا الذي ذكره من توبة الاستجابة اذا تحقق العبد بها ربما تاب في صلاته من كل خاطر يلم به سوى الله تعالى ويستغفر الله منه وهذه توبة الاستجابة

الفراش في التهافت على النار اذ تلوح للآدمي أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ولا يدري أن تحتها السم الناقع القاتل فلا يزال يرمي نفسه عليها الى أن ينغمس فيها ويتقيد بها ويهلك هلاكا مؤبدا فليت كان جهل الآدمي كجهل الفراش فانها باغترارها بظاهر الضوء ان احترقت تخلصت في الحال والآدمي يبقى في النار أبد الآباد أو مدة مديدة ولذلك كان ينادي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول اني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تتهافتون فيها تهافت الفراش فهذه لمعة عجيبة من عجائب صنع الله تعالى في أصغر الحيوانات وفيها من العجائب ما لو اجتمع الاولون والآخرون على الاحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته ولم يطلعوا على أمور جلية من ظاهر صورته فاما خفايا معاني ذلك فلا يطلع عليها الا الله تعالى ثم في كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لا يشاركه فيها غيره فانظر الى النحل وعجائبها وكيف أوحى الله تعالى اليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل وجعل أحدهما ضياء وجعل الآخر شفاء ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الازهار والانوار واحترازها عن النجاسات والاقذار وطاعتها لواحد من جملتها هو أكبرها شخصا وهو أميرها ثم ما سخر الله تعالى له أميرها من العدل والانصاف بينها حتى انه ليقتل على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة لقضيت منها عجبا آخر العجب ان كنت بصيرا في نفسك وفارغا من هم بطنك وفرجك وشهوات نفسك في معاداة أقرانك وموالاة اخوانك ثم دع عنك جميع ذلك وانظر الى بنائها بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الاشكال الشكل المسدس فلا تبني بيتا مستديرا ولا مربعا ولا مخمسا بل مسدسا لخاصية في الشكل المسدس يقصر فهم المهندسين عن دركها وهو أن أوسع الاشكال وأحواها المستديرة وما يقرب منها فان المربع يخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فتبقى فارغة ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فان الاشكال المستديرة اذا جمعت لم تجتمع متراصة ولا شكل في الاشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة الا المسدس وهذه خاصية هذا الشكل فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر جرمه ولطافة قده لطفا به وعناية بوجوده وما هو محتاج اليه ليتهنأ بعيشه فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محقرات الحيوانات ودع عنك عجائب ملكوت الارض والسموات فان القدر الذي بلغه فهمنا القاصر منه تنقضي الاعمار دون ايضاحه ولا نسبة لما أحاط به علمنا الى ما أحاط به العلماء والانبياء ولا نسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم الى ما استأثر الله تعالى بعلمه بل كل ما عرفه الخلق لا يستحق أن يسمى علما في جنب علم الله تعالى فبالنظر في هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطرق يقينا وبزيادة المعرفة تزداد المحبة فان كنت طالبا سعادة لقاء الله تعالى فانبذ الدنيا وراء ظهرك واستغرق العمر في الذكر الدائم والفكر اللازم فعساك تحظى منها بقدر يسير ولكن تنال بذلك اليسير ملكا عظيما لا آخر له

(بيان السبب في تفاوت الناس في الحب)

اعلم ان المؤمنين مشتركون في أصل الحب لاشتراكهم في أصل المحبة ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم في المعرفة وفي حب الدنيا اذ الاشياء انما تتفاوت بتفاوت أسبابها وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى الا الصفات والاسماء التي قرعت سمعهم فتلقنوها وحفظوها وربما تخيلوا لها معاني يتعالى عنها رب الارباب وربما لم يطلعوا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسدا بل آمنوا بها ايمان تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين والمتخيلون هم الضالون والعارفون بالحقائق هم المقربون وقد ذكر الله حال الاصناف الثلاثة في قوله تعالى فاما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم الآية فان كنت لا تفهم الامور الا بالامثلة فلنضرب لتفاوت الحب مثالا فنقول أصحاب الشافعي مثلا يشتركون في حب الشافعي رحمه الله الفقهاء منهم والعوام لانهم مشتركون في معرفة فضله ودينه وحسن سيرته ومحامد خصاله ولكن العامي يعرف علمه مجملا والفقيه يعرفه مفصلا فتكون معرفة الفقيه به أتم واعجابه به وحبه له أشد فان من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لا محالة ومال اليه قلبه فان رأى تصنيفا آخر أحسن منه وأعجب تضاعف لا محالة

لازمة لبواطن أهل القرب كما قيل وجودك ذنب لا يقاس به ذنب (قال) ذو النون توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة وتوبة الانبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ ما ناله غيرهم (سئل) أبو محمد سهل عن الرجل يتوب من الشئ ويتركه ثم يخطر ذلك الشئ بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوته فقال الحلاوة طبع البشرية ولابد من الطبع وليس له حيلة الا ان يرفع قلبه الى مولاه بالشكوى وينكره بقلبه ويلزم نفسه الانكار ولا يفارقه ويدعو الله ان ينسيه ذلك ويشغله بغيره من ذكره وطاعته قال وان غفل عن الانكار طرفة عين أخاف عليه أن لا يسلم وتعمل الحلاوة في قلبه ولكن مع وجدان الحلاوة يلزم قلبه الانكار ويحزن فانه لا يضره (وهذا) الذي

حبه لانه تضاعفت معرفته بعلمه وكذلك يعتقد الرجل فى الشاعر انه حسن الشعر فيحبه فاذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذقه وصنعته ازداد به معرفة وازداد له حبا وكذا سائر الصناعات والفضائل والعامى قد يسمع أن فلانا مصنف وانه حسن التصنيف ولكن لا يدرى ما فى التصنيف فيكون له معرفة مجملة و يكون له بحسبه ميل مجمل والبصير اذا فتش عن التصانيف واطلع على ما فيها من العجائب تضاعف حبه لا محالة لان عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف والعالم بجملته صنع الله تعالى وتصنيفه والعامى يعلم ذلك و يعتقده وأما البصير فانه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه حتى يرى فى البعوض مثلا من عجائب صنعه ما ينبهر به عقله و يتحير فيه لبه و يزداد بسببه لا محالة عظمة الله وجلاله وكمال صفاته فى قلبه فيزداد له حبا وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعا استدل بذلك على عظمة الله الصانع و جلاله وازداد به معرفة وله حبا و بحر هذه المعرفة أعنى معرفة عجائب صنع الله تعالى بحر لا ساحل له فلا جرم تفاوت أهل المعرفة فى الحب لا حصر له ومما يتفاوت بسببه الحب اختلاف الاسباب الخمسة التى ذكرناها للحب فان من يحب الله مثلا لكونه محسنا اليه منعما عليه ولم يحبه لذاته ضعفت محبته اذ تتغير بتغير الاحسان فلا يكون حبه فى حالة البلاء كحبه فى حالة الرضا والنعماء وأما من يحبه لذاته ولانه مستحق للحب بسبب كماله وجماله و مجده وعظمته فانه لا يتفاوت حبه بتفاوت الاحسان اليه فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس فى المحبة والتفاوت فى المحبة هو السبب للتفاوت فى سعادة الآخرة ولذلك قال تعالى وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا

(بيان السبب فى قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه)

اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى وكان هذا يقتضى أن تكون معرفته أول المعارف واسبقها الى الافهام واسهلها على العقول وترى الامر بالضد من ذلك فلا بد من بيان السبب فيه وانما قلنا انه أظهر الموجودات وأجلاها لمعنى لا تفهمه الا بمثال وهو انا اذا رأينا انسانا يكتب أو يخيط مثلا كان كونه حيا عندنا من أظهر الموجودات فحياته وعلمه وقدرته وارادته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة اذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه وكل ذلك لا نعرفه وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها و بعضها نشك فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته أما حياته وقدرته وارادته وعلمه وكونه حيوانا فانه جلى عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وارادته فان هذه الصفات لا تحس بشئ من الحواس الخمس ثم لا يمكن أن تعرف حياته وقدرته وارادته الا بخياطته وحركته فلو نظرنا الى كل ما فى العالم سواه لم نعرف به صفته فما عليه الا دليل واحد وهو مع ذلك جلى واضح ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وأرض وكوكب وبر وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض بل أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا وحركاتنا وسكناتنا وأظهر الاشياء فى علمنا أنفسنا ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد وجميع ما فى العالم شواهد ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته والموجودات المدركة لا حصر لها فان كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس يشهد لها الا شاهد واحد وهو ما احسسنا به من حركة يده فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور فى الوجود شئ داخل نفوسنا وخارجها الا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله اذ كل ذرة فانها تنادى بلسان حالها انه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها وانها تحتاج الى موجد ومحرك لها يشهد بذلك أولا تركيب أعضائنا وائتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة فانا نعلم انها لم تأتلف بانفسها كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ولكن لما لم يبق فى الوجود شئ مدرك ومحسوس ومعقول وحاضر وغائب الا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره فانبهرت العقول ودهشت عن ادراكه فان ما تقصر عن فهمه عقولنا فله سببان أحدهما خفاؤه فى نفسه وغموضه وذلك لا يخفى مثاله* والآخر ما يتناهى

قاله سهل كاف بالغ لكل طالب صادق يريد صحة توبته (والعارف) القوى الحال يمكن من ازالة الحلاوة عن باطنه و يسهل عليه ذلك وأسباب سهولة ذلك متنوعة للعارف ومن تمكن من قلبه حلاوة حب الله الخاص عن صفاء مشاهدة وصرف يقين فأى حلاوة تبقى فى قلبه وانما حلاوة الهوى لعدم حلاوة حب الله (وسئل) السوسى عن التوبة فقال التوبة من كل شئ ذمه العلم الى ما مدحه العلم وهذا وصف يعم الظاهر والباطن لمن كوشف بصريح العلم لانه لا بقاء للجهل مع العلم كلا بقاء لليل مع طلوع الشمس وهذا يستوعب جميع أقسام التوبة بالوصف الخاص والعام وهذا العلم يكون علم الظاهر والباطن بتطهير الظاهر والباطن باخص أوصاف التوبة

وضوحه وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار لا لخفاء النهار واستتاره لكن لشدة ظهوره فان بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس اذا أشرقت فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع ابصاره فلا يرى شيأ الا اذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الالهية في نهاية الاشراق والاستنارة وفي غاية الاستغراق والشمول حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والارض فصار ظهوره سبب خفائه فسبحان من احتجب باشراق نوره واختفى عن البصائر والابصار بظهوره ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور فان الاشياء تستبان باضدادها وما عم وجوده حتى أنه لا ضد له عسر ادراكه فلو اختلفت الاشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد أشكل الامر ومثاله نور الشمس المشرق على الارض فانا نعلم أنه عرض من الاعراض يحدث في الارض ويزول عند غيبة الشمس فلو كانت الشمس دائمة الاشراق لا غروب لها لكنا نظن أنه لا هيئة في الاجسام الا ألوانها وهي السواد والبياض وغيرهما فانا لا نشاهد في الاسود الا السواد وفي الابيض الا البياض فاما الضوء فلا ندركه وحده ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالين فعلمنا أن الاجسام كانت قد استضاءت بضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب فعرفنا وجود النور بعدمه وما كنا نطلع عليه ولا عدمه الا بعسر شديد وذلك لمشاهدتنا الاجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور هذا مع أن النور أظهر المحسوسات اذ به تدرك سائر المحسوسات فما هو ظاهر في نفسه وهو يظهر لغيره انظر كيف تصور استبهام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده فالله تعالى هو أظهر الامور وبه ظهرت الاشياء كلها ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدت السموات والارض وبطل الملك والملكوت ولادرك بذلك التفرقة بين الحالين ولو كان بعض الاشياء موجودا به وبعضها موجودا بغيره لادركت التفرقة بين الشيئين في الدلالة ولكن دلالته عامة في الاشياء على نسق واحد ووجوده دائم في الاحوال يستحيل خلافه فلا جرم أورثت شدة الظهور خفاء فهذا هو السبب في قصور الافهام وأما من قويت بصيرته ولم تضعف منته فانه في حال اعتدال أمره لا يرى الا الله تعالى ولا يعرف غيره يعلم أنه ليس في الوجود الا الله وأفعاله أثر من آثار قدرته فهي تابعة له فلا وجود لها بالحقيقة دونه وانما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الافعال كلها ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الافعال الا ويرى فيه الفاعل ويذهل عن الفعل من حيث انه سماء وأرض وحيوان وشجر بل ينظر فيه من حيث انه صنع الواحد الحق فلا يكون نظره مجاوزا له الى غيره كمن نظر في شعر انسان أو خطه أو تصنيفه ورأى فيه الشاعر والمصنف ورأى آثاره من حيث أنه آثره لا من حيث أنه حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض فلا يكون قد نظر الى غير المصنف وكل العالم تصنيف الله تعالى فمن نظر اليه من حيث انه فعل الله وعرفه من حيث انه فعل الله وأحبه من حيث أنه فعل الله لم يكن ناظرا الا في الله ولا عارفا الا بالله ولا محبا الا له وكان هو الموحد الحق الذي لا يرى الا الله بل لا ينظر الى نفسه من حيث نفسه بل من حيث أنه عبد الله فهذا الذي يقال فيه انه فني في التوحيد وانه فني عن نفسه واليه الاشارة بقول من قال كنا بنا ففنينا عنا فبقينا بلا نحن فهذه أمور معلومة عند ذوي الابصار أشكلت لضعف الافهام عن دركها وقصور قدرة العلماء بها عن ايضاحها وبيانها بعبارة مفهمة موصلة للغرض الى الافهام وباشتغالهم بانفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لا يعنيهم فهذا هو السبب في قصور الافهام عن معرفة الله تعالى وانضم اليه أن المدركات كلها التي هي شاهدة على الله انما يدركها الانسان في الصبا عند فقد العقل ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق الهم بشهواته وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وألفها فسقط وقعها عن قلبه بطول الانس ولذلك اذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا غريبا أو نباتا غريبا أو فعلا من أفعال الله تعالى خارقا للعادة عجيبا انطلق لسانه بالمعرفة طبعا فقال سبحان الله وهو يرى طول النهار نفسه وأعضاءه وسائر الحيوانات المألوفة وكلها شواهد قاطعة لا يحس بشهادتها لطول الانس بها ولو فرض أكمه بلغ عاقلا ثم انقشعت غشاوة عينه فامتد بصره الى السماء والارض والاشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة لخيف على عقله أن ينبهر لعظم تعجبه من شهادة هذه العجائب لخالقها فهذا وأمثاله من الاسباب مع الانهماك في الشهوات هو الذي سد على

الخلق

وأعم أوصافها (وقال) أبو الحسن النوري التوبة أن تتوب عن كل شيء سوى الله تعالى (قولهم) في الورع قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ملاك دينكم الورع (أخبرنا) أبو زرعة اجازة عن أبي بكر ابن خلف عن أبي عبد الرحمن السلمي اجازة قال أنا أبو سعيد الخلال قال حدثني ابن قتيبة قال ثنا عمر بن عثمان قال حدثنا بقية عن أبي بكر ابن أبي مريم عن حبيب ابن عبيد عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ على نهر فلما فرغ من وضوئه أفرغ فضله في النهر وقال يبلغه الله عز وجل قوما ينفعهم (قال) عمر بن الخطاب لا ينبغي لمن أخذ بالتقوى ووزن بالورع أن يذل لصاحب دنيا قال معروف الكرخي احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم (نقل) عن الحرث

الخلق سبيل الاستضاءة بانوار المعرفة والسباحة فى بحارها الواسعة فالناس فى طلبهم معرفة الله كالمدهوش الذى يضرب به المثل اذا كان راكبا لحماره وهو يطلب حماره والجليات اذا صارت مطلوبة صارت معتاصة فهذا سر هذا الامر فليحقق ولذلك قيل

لقد ظهرت فما تخفى على أحد * الا على أكمه لا يعرف القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجبا * فكيف يعرف من بالعرف قد سترا

(بيان معنى الشوق الى الله تعالى)

اعلم أن من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلابد وأن ينكر حقيقة الشوق اذ لا يتصور الشوق الا الى محبوب ونحن نثبت وجوب الشوق الى الله تعالى وكون العارف مضطرا اليه بطريق الاعتبار والنظر بانوار البصائر وبطريق الاخبار والآثار أما الاعتبار فيكفى فى اثباته ماسبق فى اثبات الحب فكل محبوب يشتاق اليه فى غيبته لا محالة فاما الحاصل الحاضر فلا يشتاق اليه فان الشوق طلب وتشوف الى أمر والموجود لا يطلب ولكن بيانه أن الشوق لا يتصور الا الى شئ أدرك من وجه ولم يدرك من وجه فاما مالا يدرك أصلا فلا يشتاق اليه فان لم ير شخصا ولم يسمع وصفه لا يتصور أن يشتاق اليه وما أدرك بكماله لا يشتاق اليه وكمال الادراك بالرؤية فمن كان فى مشاهدة محبوبه مداوما للنظر اليه لا يتصور أن يكون له شوق ولكن الشوق انما يتعلق بما أدرك من وجه ولم يدرك من وجه وهو من وجهين لا ينكشف الا بمثال من المشاهدات فنقول مثلا من غاب عنه معشوقه وبقى فى قلبه خياله فيشتاق الى استكمال خياله بالرؤية فلو انمحى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يتصور أن يشتاق اليه ولو رآه لم يتصور أن يشتاق فى وقت الرؤية فمعنى شوقه تشوق نفسه الى استكمال خياله فكذلك قد يراه فى ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته فيشتاق الى استكمال رؤيته وتمام الانكشاف فى صورته باشراق الضوء عليه (والثانى) أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره مثلا ولا سائر محاسنه فيشتاق لرؤيته وان لم يرها قط ولم يثبت فى نفسه خيال صادر عن الرؤية ولكنه يعلم أن له عضوا وأعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية فيشتاق الى أن ينكشف له مالم يراه قط والوجهان جميعا متصوران فى حق الله تعالى بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين فان ما اتضح للعارفين من الامور الالهية وان كان فى غاية الوضوح فكأنه من وراء ستر رقيق فلا يكون متضحا غاية الاتضاح بل يكون مشوبا بشوائب التخيلات فان الخيالات لا تفتر فى هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات وهى مكدرات للمعارف ومنغصات وكذلك ينضاف اليها شواغل الدنيا فانما كمال الوضوح بالمشاهدة وتمام اشراق التجلى ولا يكون ذلك الا فى الآخرة وذلك بالضرورة يوجب الشوق فانه منتهى محبوب العارفين فهذا أحد نوعى الشوق وهو استكمال الوضوح فيما اتضح اتضاحا ما الثانى ان الامور الالهية لانهاية لها وانما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها وتبقى أمور لانهاية لها غامضة والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله تعالى ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر فلا يزال متشوقا الى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقى من المعلومات التى لم يعرفها أصلا لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة والشوق الاول ينتهى فى الدار الآخرة بالمعنى الذى يسمى رؤية ولقاء ومشاهدة ولا يتصور أن يسكن فى الدنيا وقد كان ابراهيم بن أدهم من المشتاقين فقال قلت ذات يوم يارب ان أعطيت أحدا من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فاعطنى ذلك فقد أضر بى القلق قال فرأيت فى النوم أنه أوقفنى بين يديه وقال يا ابراهيم أما استحييت منى أن تسألنى أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائى وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه فقلت يارب تهت فى حبك فلم أدر ما أقول فاغفر لى وعلمنى ما أقول فقال قل اللهم رضنى بقضائك وصبرنى على بلائك وأوزعنى شكر نعمائك فان هذا الشوق يسكن فى الآخرة * وأما الشوق الثانى فيشبه أن لا يكون له نهاية لا فى الدنيا ولا فى الآخرة اذ نهايته أن ينكشف للعبد فى الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ما هو معلوم لله تعالى وهو محال لان ذلك لانهاية له ولا يزال العبد عالما بانه بقى من الجمال والجلال مالم يتضح له فلا يسكن قط شوقه لا سيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة الا أنه تشوق الى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال فهو يجد لذلك شوقا لذيذا لا يظهر فيه ألم ولا يبعد أن تكون

بن أسد المحاسبى انه كان على طرف أصبعه الوسطى عرق اذا مد يده الى طعام فيه شبهة ضرب عليه ذلك العرق (سئل الشبلى) عن الورع فقال الورع ان تتورع أن يتشتت قلبك عن الله طرفة عين (وقال) أبو سليمان الدارانى الورع أول الزهد كما أن القناعة طرف من الرضا (وقال) يحيى بن معاذ الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل (سئل) الخواص عن الورع فقال أن لا يتكلم العبد الا بالحق غضب أو رضى وان يكون اهتمامه بما يرضى الله تعالى (أخبرنا) أبو زرعة اجازة عن أبى بكر بن خلف اجازة عن السلمى قال سمعت الحسن بن أحمد بن جعفر يقول سمعت محمد بن داود الدينورى يقول سمعت ابن الجلاء يقول أعرف من أقام بمكة ثلاثين سنة ولم يشرب من ماء زمزم

ألطاف الكشف والنظر متوالية الى غير نهاية فلا يزال النعيم واللذة متزايدا أبد الآباد وتكون لذة ما يتجدد من لطائف النعيم شاغلة عن الاحساس بالشوق الى مالم يحصل وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف فى الدنيا أصلا فان كان ذلك غير مبذول فيكون النعيم واقفا على حد لا يتضاعف ولكن يكون مستمرا على الدوام وقوله سبحانه وتعالى نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا يحتمل لهذا المعنى وهو أن ينعم عليه باتمام النور مهما تزود من الدنيا أصل النور ويحتمل أن يكون المراد به اتمام النور فى غير ما استنار فى الدنيا استنارة محتاجة الى مزيد الاستكمال والاشراق فيكون هو المراد بتمامه وقوله تعالى انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا يدل على ان الانوار لابد وأن يتزود أصلها فى الدنيا ثم يزداد فى الآخرة اشراقا فاما أن يتجدد نور فلا والحكم فى هذا برجم الظنون مخطر ولم ينكشف لنا فيه بعد ما نوثق به فنسأل الله تعالى أن يزيدنا علما ورشدا ويرينا الحق حقا فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه * وأما شواهد الاخبار والآثار فاكثر من أن تحصى فمما اشتهر من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يقول اللهم انى أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر الى وجهك الكريم والشوق الى لقائك وقال أبو الدرداء لكعب أخبرنى عن أخص آية يعنى فى التوراة فقال يقول الله تعالى طال شوق الابرار الى لقائى وانى الى لقائهم لاشد شوقا قال ومكتوب الى جانبها من طلبنى وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى فقال أبو الدرداء أشهد انى لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا وفى أخبار داود عليه السلام أن الله تعالى قال يا داود أبلغ أهل ارضى انى حبيب لمن أحبنى وجليس لمن جالسنى ومؤنس لمن أنس بذكرى وصاحب لمن صاحبنى ومختار لمن اختارنى ومطيع لمن أطاعنى ما أحبنى عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه الا قبلته لنفسى وأحببته حبا لا يتقدمه أحد من خلقى من طلبنى بالحق وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى فارفضوا يا أهل الارض ما أنتم عليه من غرورها وهلموا الى كرامتى ومصاحبتى ومجالستى وائنسوا بى أؤانسكم وأسارع الى محبتكم فانى خلقت طينة أحبائى من طينة ابراهيم خليلى وموسى نجيى ومحمد صفيى وخلقت قلوب المشتاقين من نورى ونعمتها بجلالى وروى عن بعض السلف ان الله تعالى أوحى الى بعض الصديقين ان لى عبادا من عبادى يحبونى وأحبهم ويشتاقون الى وأشتاق اليهم ويذكرونى وأذكرهم وينظرون الى وأنظر اليهم فان حذوت طريقهم أحببتك وان عدلت عنهم مقتك قال يا رب وما علامتهم قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشفيق غنمه ويحنون الى غروب الشمس كما يحن الطائر الى وكره عند الغروب فاذا جنهم الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الاسرة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا الى أقدامهم وافترشوا الى وجوههم وناجونى بكلامى وتملقوا الى بانعامى فبين صارخ وباك وبين متأوه وشاك وبين قائم وقاعد وبين راكع وساجد بعينى ما يتحملون من أجلى وبسمعى ما يشتكون من حبى أول ما أعطيهم ثلاث أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم والثانية لو كانت السموات والارض وما فيها فى موازينهم لاستقللتها لهم والثالثة أقبل بوجهى عليهم فترى من أقبلت بوجهى عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه وفى أخبار داود عليه السلام ان الله تعالى أوحى اليه يا داود الى كم تذكر الجنة ولا تسألنى الشوق الى قال يا رب من المشتاقون اليك قال ان المشتاقين الى الذين صفيتهم من كل كدر ونبهتهم بالحذر وخرقت من قلوبهم الى خرقا ينظرون الى وانى لاحمل قلوبهم بيدى فاضعها على سمائى ثم ادعو نجباء ملائكتى فاذا اجتمعوا سجدوا لى فأقول انى لم أدعكم لتسجدوا لى ولكنى دعوتكم لاعرض عليكم قلوب المشتاقين الى وأباهى بكم أهل الشوق الى فان قلوبهم لتضىء فى سمائى لملائكتى كما تضىء الشمس لاهل الارض يا داود انى خلقت قلوب المشتاقين من رضوانى ونعمتها بنور وجهى فاتخذتهم لنفسى محدثى وجعلت أبدانهم موضع نظرى الى الارض وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به الى يزدادون فى كل يوم شوقا قال داود يا رب أرنى أهل محبتك فقال يا داود ائت جبل لبنان فان فيه أربعة عشر نفسا فيهم شبان وفيهم شيوخ وفيهم كهول فاذا أتيتهم فاقرئهم منى السلام وقل لهم ان ربكم يقرئكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة فانكم أحبائى وأصفيائى

واوليائى

الامن ماء استقاه بركوته ورشائه ولم يتناول من طعام جاب من مصر شيأ (وقال) الخواص الورع دليل الخوف والخوف دليل المعرفة والمعرفة دليل القربة

(قولهم فى الزهد)

قال الجنيد الزهد خلو الايدى من الاملاك والقلوب من التتبع (وسئل) الشبلى عن الزهد فقال لا زهد فى الحقيقة لانه اما أن يزهد فيما ليس له فليس ذلك بزهد أو يزهد فيما هو له فكيف يزهد فيه وهو معه وعنده فليس الا ظلف النفس وبذل مواسات يشير الى الاقسام التى سبقت بها الاقلام وهذا لو اطرد هدم قاعدة الاجتهاد والكسب ولكن مقصود الشبلى أن يقال الزهد فى عين المعتد بالزهد لئلا يغتر به (قال) رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا رأيتم الرجل قد أوتى زهدا فى الدنيا ومنطقا فاقربوا

وأوليائى أفرح لفرحكم وأسارع الى محبتكم فأتاهم داود عليه السلام فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون في عظمة الله عز وجل فلما نظروا الى داود عليه السلام نهضوا ليتفرقوا عنه فقال داود انى رسول الله اليكم جئتكم لابلغكم رسالة ربكم فأقبلوا نحوه وألقوا أسماعهم نحو قوله وألقوا أبصارهم الى الارض فقال داود انى رسول الله اليكم يقرئكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة ألا تنادونى أسمع صوتكم وكلامكم فانكم أحبائى وأصفيائى وأوليائى أفرح لفرحكم وأسارع الى محبتكم وأنظر اليكم فى كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة قال فجرت الدموع على خدودهم فقال شيخهم سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من أعمارنا وقال الآخر سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامنن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك وقال الآخر سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك أفنجترئ على الدعاء وقد علمت انه لا حاجة لنا فى شئ من أمورنا فادم لنا لزوم الطريق اليك وأتمم بذلك المنة علينا وقال الآخر نحن مقصرون فى طلب رضاك فأعنا عليه بجودك وقال الآخر من نطفة خلقتنا ومننت علينا بالتفكر فى عظمتك أفيجترئ على الكلام من هو مشتغل بعظمتك متفكر فى جلالك وطلبتنا الدنو من نورك وقال الآخر كلت ألسنتنا عن دعائك لعظم شانك وقربك من أوليائك وكثرة منتك على أهل محبتك وقال الآخر أنت هديت قلوبنا لذكرك وفرغتنا للاشتغال بك فاغفر لنا تقصيرنا فى شكرك وقال الآخر قد عرفت حاجتنا انما هى النظر الى وجهك وقال الآخر كيف يجترئ العبد على سيده اذ أمرتنا بالدعاء بجودك فهب لنا نورا نهتدى به فى الظلمات من أطباق السموات وقال الآخر ندعوك أن تقبل علينا وتديمه عندنا وقال الآخر نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا وقال الآخر لا حاجة لنا فى شئ من خلقك فامنن علينا بالنظر الى جمال وجهك وقال الآخر أسالك من بينهم أن تعمى عينى عن النظر الى الدنيا وأهلها وقلبى عن الاشتغال بالآخرة وقال الآخر قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أولياءك فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شئ دونك فأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام قل لهم قد سمعت كلامكم وأجبتكم الى ما أحببتم فليفارق كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سربا فانى كاشف الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا الى نورى وجلالى فقال داود يارب بم نالوا هذا منك قال بحسن الظن والكف عن الدنيا وأهلها والخلوات بى ومناجاتهم لى وان هذا منزل لا يناله الا من رفض الدنيا وأهلها ولم يشتغل بشئ من ذكرها وفرغ قلبه لى واختارنى على جميع خلقى فعند ذلك أعطف عليه وأفرغ نفسه وأكشف الحجاب فيما بينى وبينه حتى ينظر الى نظر الناظر بعينه الى الشئ وأريه كرامتى فى كل ساعة وأقربه من نور وجهى ان مرض مرضته كما تمرض الوالدة الشفيقة ولدها وان عطش أرويته وأذيقه طعم ذكرى فاذا فعلت ذلك به يا داود عميت نفسه عن الدنيا وأهلها ولم أحببها اليه لا يفتر عن الاشتغال بى يستعجلنى القدوم وأنا أكره أن أميته لانه موضع نظرى من بين خلقى لا يرى غيرى ولا أرى غيره فلو رأيته يا داود وقد ذابت نفسه ونحل جسمه وتهشمت أعضاؤه وانخلع قلبه اذا سمع بذكرى أباهى به ملائكتى وأهل سمواتى يزداد خوفا وعبادة وعزتى وجلالى يا داود لاقعدنه فى الفردوس ولاشفين صدره من النظر الىّ حتى يرضى وفوق الرضا وفى أخبار داود أيضا قل لعبادى المتوجهين الى محبتى ما ضركم اذا احتجبت عن خلقى ورفعت الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا الىّ بعيون قلوبكم وما ضركم ما زويت عنكم من الدنيا اذا بسطت دينى لكم وما ضركم مسخطة الخلق اذا التمستم رضائى وفى أخبار داود أيضا ان الله تعالى أوحى اليه تزعم انك تحبنى فان كنت تحبنى فأخرج حب الدنيا من قلبك فان حبى وحبها لا يجتمعان فى قلب يا داود خالص حبيبى مخالصة وخالط أهل الدنيا مخالطة ودينك فقلدنيه ولا تقلد دينك الرجال اما ما استبان لك مما وافق محبتى فتمسك به وأما ما أشكل عليك فقلدنيه حقا على أنى أسارع الى سياستك وتقويمك وأكون قائدك ودليلك أعطيك من غير ان تسالنى وأعينك على الشدائد وانى قد حلفت على نفسى انى لا أثيب الا عبدا قد عرفت من طلبته وارادته القاء كنفه بين يدى وانه لا غنى به عنى فاذا كنت كذلك نزعت الذلة والوحشة عنك واسكن الغنى قلبك فانى قد حلفت على نفسى انه لا يطمئن عبد لى الى نفسه ينظر الى فعالها الا وكلته اليها أضف الاشياء الىّ لا تضاد عملك فتكون متعنيا ولا ينتفع بك من يصحبك ولا تجعل لمعرفتى حدا فليس لها غاية ومتى طلبت

منه فانه يلقى الحكمة وقد سمى الله عز وجل الزاهدين علماء فى قصة قارون فقال تعالى وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير قيل هم الزاهدون (وقال) سهل ابن عبد الله للعقل ألف اسم ولكل اسم منه ألف اسم وأول كل اسم منه ترك الدنيا (وقيل) فى قوله تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بامرنا لما صبروا قيل عن الدنيا (وفى الخبر) العلماء أمناء الرسل ما لم يدخلوا فى الدنيا فاذا دخلوا فى الدنيا فاحذروهم على دينكم (وجاء) فى الاثر لا تزال لا اله الا الله تدفع عن العباد سخط الله ما لم يبالوا ما نقص من دنياهم فاذا فعلوا ذلك وقالوا لا اله الا الله قال الله تعالى كذبتم لستم بها صادقين (وقال) سهل أعمال البر كلها فى موازين الزهاد وثواب زهدهم زيادة لهم (وقيل) من سمى باسم

منى الزيادة أعطك ولا تجد الزيادة منى حسدا ثم أعلم بنى اسرائيل انه ليس بينى و بين أحد من خلقى نسب فلتعظم رغبتهم وارادتهم عندى أبح لهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ضعنى بين عينيك وانظر الى ببصر قلبك ولا تنظر بعينك التى فى رأسك الى الذين حجبت عقولهم عنى فاحرجوها وسخت باذ قطاع ثوابى عنها فانى حلفت بعزتى وجلالى لا أفتح ثوابى لعبد دخل فى طاعتى للتجربة والتسويف تواضع لمن تعلمه ولا تطاول على المريدين فلو علم أهل محبتى منزلة المريدين عندى لكانوا لهم أرضا يمشون عليها ياداود لأن تخرج مريدا من سكرة هو فيها تستنقذه فاكتبك عندى جهيدا ومن كتبته عندى جهيدا لا تكون عليه وحشة ولا فاقة الى المخلوقين ياداود تمسك بكلامى وخذ من نفسك لنفسك لا تؤتين منها فاحجب عنك محبتى لا تؤيس عبادى من رحمتى أقطع شهوتك لى فانما أبحت الشهوات لضعفة خلقى ما بال الاقوياء أن ينالوا الشهوات فانها تنقص حلاوة مناجاتى وانما عقوبة الاقوياء عندى فى موضع التناول أدنى ما يصل اليهم ان أحجب عقولهم عنى فانى لم أرض الدنيا لحبيبى ونزهته عنها ياداود لا تجعل بينى و بينك عالما يحجبك بسكره عن محبتى أولئك قطاع الطريق على عبادى المريدين استعن على ترك الشهوات بادمان الصوم واياك والتجربة فى الافطار فان محبتى للصوم ادمانه ياداود تحبب الى بمعاداة نفسك امنعها الشهوات انظر اليك وترى الحجب بينى و بينك مرفوعة انما اداريك مداراة لتقوى على ثوابى اذا مننت عليك به وانى أحبسه عنك وأنت متمسك بطاعتى وأوحى الله تعالى الى داود ياداود لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم ورفقى بهم وشوقى الى ترك معاصيهم لماتوا شوقا الى وتقطعت أوصالهم من محبتى ياداود وهذه ارادتى فى المدبرين عنى فكيف ارادتى فى المقبلين على ياداود احوج ما يكون العبد الى اذا استغنى عنى وأرحم ما أكون بعبدى اذا أدبر عنى وأجل ما يكون عندى اذا رجع الى فهذه الاخبار ونظائرها مما لا يحصى تدل على اثبات المحبة والشوق والانس وانما تحقيق معناها ينكشف بما سبق

(بيان محبة الله للعبد ومعناها)

اعلم أن شواهد القرآن متظاهرة على أن الله تعالى يحب عبده فلابد من معرفة معنى ذلك ولنقدم الشواهد على محبته فقد قال الله تعالى يحبهم ويحبونه وقال تعالى ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا وقال تعالى ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ولذلك رد سبحانه على من ادعى أنه حبيب الله فقال قل فلم يعذبكم بذنوبكم وقد روى أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا أحب الله تعالى عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ثم تلا ان الله يحب التوابين ومعناه انه اذا أحبه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وان كثرت كما لا يضر الكفر الماضى بعد الاسلام وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الايمان الا من يحب وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر خفضه الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله وقال عليه السلام قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به و بصره الذى يبصر به الحديث وقال زيد بن أسلم ان الله ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول اعمل ما شئت فقد غفرت لك وما ورد من ألفاظ المحبة خارج عن الحصر وقد ذكرنا ان محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز اذ المحبة فى وضع اللسان عبارة عن ميل النفس الى الشئ الموافق والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط وقد بينا ان الاحسان موافق للنفس والجمال موافق أيضا وان الجمال والاحسان تارة يدرك بالبصر وتارة يدرك بالبصيرة والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلا بل الاسامى كلها اذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطلق عليهما بمعنى واحد أصلا حتى ان اسم الوجود الذى هو أعم الاسماء اشتراكا لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد بل كل ما سوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى فالوجود التابع لا يكون مساويا للوجود المتبوع وانما الاستواء فى اطلاق الاسم نظيره اشتراك الفرس والشجر فى اسم الجسم اذ معنى الجسمية وحقيقتها متشابه فيهما من غير استحقاق أحدهما لان يكون فيه أصلا فليست الجسمية لاحدهما مستفادة من

الزهد فى الدنيا فقد سمى بالف اسم محمود ومن سمى باسم الرغبة فى الدنيا فقد سمى بالف اسم مذموم (وقال) السرى الزهد ترك حظوظ النفس من جميع ما فى الدنيا و يجمع هذا الحظوظ المالية والجاهية وحب المنزلة عند الناس وحب المحمدة والثناء (وسئل) الشبلى عن الزهد فقال الزهد غفلة لان الدنيا لاشئ والزهد لاشئ غفلة (وقال) بعضهم لما رأوا حقارة الدنيا زهدوا فى زهدهم فى الدنيا لهوانها عندهم (وعندى) ان الزهد فى الزهد غير هذا وانما الزهد فى الزهد بالخروج من الاختيار فى الزهد لان الزاهد اختار الزهد وارادته وارادته تستند الى علمه وعلمه قاصر فاذا أقيم فى مقام ترك الارادة وانسلخ من اختياره كاشفه الله تعالى بمراده فيترك الدنيا بمراد

الآخر وليس كذلك اسم الوجود لله ولا لخلقه وهذا التباعد في سائر الاسامي أظهر كالعلم والارادة والقدرة وغيرها فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق الخلق وواضع اللغة انما وضع هذه الاسامي أولا للخلق فان الخلق أسبق الى العقول والافهام من الخالق فكان استعمالها في حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوز والنقل والمحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس الى موافق ملائم وهذا انما يتصور في نفس ناقصة فاتها ما وافقها فتستفيد بنيله كمالا فتلتذ بنيله وهذا محال على الله تعالى فان كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن في حق الالهية فهو حاضر وحاصل وواجب الحصول أبدا وأزلا ولا يتصور تجدده ولا زواله فلا يكون له الى غيره نظر من حيث انه غيره بل نظره الى ذاته وأفعاله فقط وليس في الوجود الا ذاته وأفعاله ولذلك قال الشيخ أبو سعيد الميهني رحمه الله تعالى لما قرئ عليه قوله تعالى يحبهم ويحبونه فقال بحق يحبهم فانه ليس يحب الا نفسه على معنى انه الكل وأن ليس في الوجود غيره فمن لا يحب الا نفسه وأفعال نفسه وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته فهو اذا لا يحب الا نفسه وما ورد من الالفاظ في حبه لعباده فهو مؤول ويرجع معناه الى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه والى تمكينه اياه من القرب منه والى ارادته ذلك به في الازل فحبه لمن أحبه أزلي مهما أضيف الى الارادة الازلية التي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب واذا أضيف الى فعله الذي يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب المقتضي له كما قال تعالى لا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله في درجة القرب من ربه فكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به فهو معنى حبه ولا يفهم هذا الا بمثال وهو أن الملك قد يقرب عبده من نفسه ويأذن له في كل وقت في حضور بساطه لميل الملك اليه اما لينصره بقوته أو ليستريح بمشاهدته أو ليستشيره في رأيه أو ليهيئ أسباب طعامه وشرابه فيقال ان الملك يحبه ويكون معناه ميله اليه لما فيه من المعنى الموافق الملائم له وقد يقرب عبدا ولا يمنعه من الدخول عليه لا للانتفاع به ولا للاستنجاد ولكن لكون العبد في نفسه موصوفا من الاخلاق الرضية والخصال الحميدة بما يليق به أن يكون قريبا من حضرة الملك وافر الحظ من قربه مع أن الملك لا غرض له فيه أصلا فاذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه يقال قد أحبه واذا اكتسب من الخصال الحميدة ما اقتضى رفع الحجاب يقال قد توصل وحبب نفسه الى الملك فحب الله للعبد انما يكون بالمعنى الثاني لا بالمعنى الاول وانما يصح تمثيله بالمعنى الثاني بشرط أن لا يسبق الى فهمك دخول تغير عليه عند تجدد القرب فان الحبيب هو القريب من الله تعالى والقرب من الله في البعد من صفات البهائم والسباع والشياطين والتخلق بمكارم الاخلاق التي هي الاخلاق الالهية فهو قرب بالصفة لا بالمكان ومن لم يكن قريبا فصار قريبا فقد تغير فربما يظن بهذا أن القرب لما تجدد فقد تغير وصف العبد والرب جميعا اذ صار قريبا بعد أن لم يكن وهو محال في حق الله تعالى اذ التغير عليه محال بل لا يزال في نعوت الكمال والجلال على ما كان عليه في أزل الآزال ولا ينكشف هذا الا بمثال في القرب بين الاشخاص فان الشخصين قد يتقاربان بتحركهما جميعا وقد يكون أحدهما ثابتا فيتحرك الآخر فيحصل القرب بتغير في أحدهما من غير تغير في الآخر بل القرب في الصفات أيضا كذلك فان التلميذ يطلب القرب من درجة أستاذه في كمال العلم وجماله والاستاذ واقف في كمال علمه غير متحرك بالنزول الى درجة تلميذه والتلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل الى ارتفاع العلم فلا يزال دائبا في التغير والترقي الى أن يقرب من أستاذه والاستاذ ثابت غير متغير فكذلك ينبغي أن يفهم ترقي العبد في درجات القرب فكلما صار أكمل صفة وأتم علما واحاطة بحقائق الامور وأثبت قوة في قهر الشيطان وقمع الشهوات وأظهر نزاهة عن الرذائل صار أقرب من درجة الكمال ومنتهى الكمال لله وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله نعم قد يقدر التلميذ على القرب من الاستاذ وعلى مساواته وعلى مجاوزته وذلك في حق الله محال فانه لا نهاية لكماله وسلوك العبد في درجات الكمال متناه ولا ينتهي الا الى حد محدود فلا مطمع له في المساواة ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتا لا نهاية له أيضا لاجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال فاذا محبة الله للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصي عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه وأما محبة العبد لله فهو ميله الى درك هذا الكمال الذي هو

الحق لا لمراد نفسه فيكون زهده بالله تعالى حينئذ أو يعلم أن مراد الله منه التلبس بشئ من الدنيا فما يدخل بالله في شئ من الدنيا لا ينقص عليه زهده فيكون دخوله في الشئ من الدنيا بالله وباذن منه زهدا في الزهد والزاهد في الزهد استوى عنده وجود الدنيا وعدمها ان تركها تركها بالله وان أخذها أخذها بالله وهذا هو الزهد في الزهد وقد رأينا من العارفين من أقيم في هذا المقام (وفوق) هذا مقام آخر في الزهد وهو ان يرد الحق اليه اختياره لسعة علمه وطهارة نفسه في مقام البقاء فيزهد زهدا ثالثا ويترك الدنيا بعد ان مكن من ناصيتها وأعيدت عليه موهوبة ويكون تركه الدنيا في هذا المقام باختياره واختياره من اختيار الحق فقد يختار تركها احيانا تأسيا بالانبياء

مفلس عنه فاقد له فلا جرم يشتاق الى ما فاته واذا أدرك منه شيأ يلتذ به والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى فان قلت محبة الله للعبد أمر ملتبس فبم يعرف العبد انه حبيب الله فأقول يستدل عليه بعلاماته وقد قال صلى الله عليه وسلم اذا أحب الله عبدا ابتلاه فاذا أحبه الحب البالغ اقتناه قيل وما اقتناه قال لم يترك له أهلا ولا مالا فعلامة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره قيل لعيسى عليه السلام لم لا تشترى حمارا تركبه فقال أنا أعز على الله تعالى من أن يشغلنى عن نفسه بحمار وفى الخبر اذا أحب الله عبدا ابتلاه فان صبر اجتباه فان رضى اصطفاه وقال بعض العلماء اذا رأيتك تحبه ورأيته يبتليك فاعلم أنه يريد يصافيك وقال بعض المريدين لاستاذه قد طولعت بشئ من المحبة فقال يا بنى هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرت عليه اياه قال لا قال فلا تطمع فى المحبة فانه لا يعطيها عبدا حتى يبلوه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أحب الله عبدا جعل له واعظا من نفسه وزاجرا من قلبه يأمره وينهاه وقد قال اذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه فأخص علاماته حبه لله فان ذلك يدل على حب الله وأما الفعل الدال على كونه محبوبا فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه سره وجهره فيكون هو المشير عليه والمدبر لامره والمزين لاخلاقه والمستعمل لجوارحه والمسدد لظاهره وباطنه والجاعل همومه هما واحدا والمبغض للدنيا فى قلبه والموحش له من غيره والمؤنس له بلذة المناجاة فى خلواته والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد فلنذكر الآن علامات محبة العبد لله فانها أيضا علامات حب الله للعبد

(القول فى علامات محبة العبد لله تعالى)

اعلم أن المحبة يدعيها كل أحد وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى فلا ينبغى أن يغتر الانسان بتلبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى ما لم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والادلة والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء وثمارها تظهر فى القلب واللسان والجوارح وتدل تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ودلالة الثمار على الاشجار وهى كثيرة فمنها حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة فى دار السلام فلا يتصور أن يحب القلب محبوبا الا ويحب مشاهدته ولقاءه واذا علم أنه لا وصول الا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت فينبغى أن يكون محبا للموت غير فار منه فان المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه الى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول الى المشاهدة قال صلى الله عليه وسلم من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه وقال حذيفة عند الموت حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم وقال بعض السلف ما من خصلة أحب الى الله أن تكون فى العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود فقدم حب لقاء الله على السجود وقد شرط الله سبحانه لحقيقة الصدق فى الحب القتل فى سبيل الله حيث قالوا انا نحب الله فجعل القتل فى سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا وقال عز وجل يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وفى وصية أبى بكر لعمر رضى الله تعالى عنهما الحق ثقيل وهو مع ثقله مرئ والباطل خفيف وهو مع خفته وبئ فان حفظت وصيتى لم يكن غائب أحب اليك من الموت وهو مدركك وان ضيعت وصيتى لم يكن غائب أبغض اليك من الموت ولن تعجزه ويروى عن اسحق بن سعد بن أبى وقاص قال حدثنى أبى ان عبد الله بن جحش قال له يوم أحد ألا ندعو الله فخلوا فى ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال يا رب انى أقسمت عليك اذا لقيت العدو غدا فلقنى رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك ويقاتلنى ثم يأخذنى فيجدع أنفى وأذنى ويبقر بطنى فاذا لقيتك غدا قلت يا عبد الله من جدع أنفك وأذنك فأقول فيك يا رب وفى رسولك فتقول صدقت قال سعد فلقد رأيته آخر النهار وان أنفه وأذنه لمعلقتان فى خيط قال سعيد بن المسيب أرجو أن يبر الله آخر قسمه كما بر أوله وقد كان الثورى وبشر الحافى يقولان لا يكره الموت الا مريب لان الحبيب على كل حال لا يكره لقاء حبيبه وقال البويطى لبعض الزهاد أتحب الموت فكأنه توقف فقال لو كنت صادقا لاحببته وتلا قوله تعالى فتمنوا الموت ان كنتم صادقين فقال الرجل فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لا يتمنين أحدكم الموت فقال انما قاله لضر نزل به لان الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه فان قلت فمن لا يحب الموت فهل يتصور أن يكون محبا لله فأقول كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الاهل والمال والولد وهذا ينافى كمال حب الله تعالى لان

والصالحين ويرى ان أخذها فى مقام الزهد رفق أدخل عليه او وضع ضعفه عن درك شأو والاقوياء من الانبياء والصديقين فيترك الرفق من الحق بالحق للحق وقد يتناوله باختياره رفقا بالنفس بتدبير يسوسه فيه صريح العلم (وهذا) مقام التصرف لاقوياء العارفين زهدوا ثالثا بالله كما رغبوا ثانيا بالله كما زهدوا أولا لله

(قولهم فى الصبر) قال سهل الصبر انتظار الفرج من الله وهو أفضل الخدمة وأعلاها وقال بعضهم الصبر أن تصبر فى الصبر أى لا تطالع فيه الفرج (قال) الله تعالى والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون (وقيل) لكل شئ جوهر وجوهر الانسان العقل وجوهر العقل الصبر فالصبر عرك

الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب ولكن لا يبعد أن يكون له مع حب الاهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة فان الناس متفاوتون في الحب ويدل على التفاوت ما روي أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش في ذلك وقالوا أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى فقال والله لقد أنكحته اياها واني لأعلم أنه خير منها فكان قوله ذلك أشد عليهم من فعله فقالوا وكيف وهي أختك وهو مولاك فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من أراد أن ينظر الى رجل يحب الله بكل قلبه فلينظر الى سالم فهذا يدل على أن من الناس من لا يحب الله بكل قلبه فيحبه ويحب أيضا غيره فلا جرم يكون نعيمه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه وعذابه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها (وأما السبب الثاني للكراهة) فهو ان يكون العبد في ابتداء مقام المحبة وليس يكره الموت وانما يكره عجلته قبل أن يستعد للقاء الله فذلك لا يدل على ضعف الحب وهو كالمحب الذي وصله الخبر بقدوم حبيبه عليه فاحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيئ له داره ويعد له أسبابه فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل خفيف الظهر عن العوائق فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال الحب أصلا وعلامته الدؤب في العمل واستغراق الهم في الاستعداد ومنها أن يكون مؤثرا ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه فيلزم مشاق العمل ويجتنب اتباع الهوى ويعرض عن دعة الكسل ولا يزال مواظبا على طاعة الله ومتقربا اليه بالنوافل وطالبا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب في قلب محبوبه وقد وصف الله المحبين بالايثار فقال يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن بقي مستمرا على متابعة الهوى فمحبوبه ما يهواه بل يترك المحب هوى نفسه لهوى محبوبه كما قيل

أريد وصاله ويريد هجري * فاترك ما أريد لما يريد

بل الحب اذا غلب قمع الهوى فلم يبق له تنعم بغير المحبوب كما روي ان زليخا لما آمنت وتزوج بها يوسف عليه السلام انفردت عنه وتخلت للعبادة وانقطعت الى الله تعالى فكان يدعوها الى فراشه نهارا فتدافعه الى الليل فاذا دعاها ليلا سوفت به الى النهار وقالت يا يوسف انما كنت أحبك قبل أن أعرفه فاما اذ عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه وما أريد به بدلا حتى قال لها ان الله جل ذكره أمرني بذلك وأخبرني انه مخرج منك ولدين وجاعلهما نبيين فقالت اما اذا كان الله تعالى أمرك بذلك وجعلني طريقا اليه فطاعة لامر الله تعالى فعندها سكنت اليه فاذا من أحب الله لا يعصيه ولذلك قال ابن المبارك فيه

تعصي الاله وأنت تظهر حبه * هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لاطعته * ان المحب لمن يحب مطيع

(وفي هذا المعنى قيل أيضا)

وأترك ما أهوى لما قد هويته * فارضى بما ترضى وان سخطت نفسي

وقال سهل رحمه الله تعالى علامة الحب ايثاره على نفسك وليس كل من عمل بطاعة الله عز وجل صار حبيبا وانما الحبيب من اجتنب المناهي وهو كما قال لان محبته لله تعالى سبب محبة الله له كما قال تعالى يحبهم ويحبونه واذا أحبه الله تولاه ونصره على أعدائه وانما عدوه نفسه وشهواته فلا يخذله الله ولا يكله الى هواه وشهواته ولذلك قال تعالى والله أعلم باعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا فان قلت فالعصيان هل يضاد أصل المحبة فاقول انه يضاد كمالها ولا يضاد أصلها فكم من انسان يحب نفسه وهو مريض ويحب الصحة ويأكل ما يضره مع العلم بانه يضره وذلك لا يدل على عدم حبه لنفسه ولكن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة ويدل عليه ما روي أن نعيمان كان يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل قليل فيحده في معصية يرتكبها الى أن أتي به يوما فحده فلعنه رجل وقال ما أكثر ما يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم لا تلعنه فانه يحب الله ورسوله فلم يخرجه بالمعصية عن المحبة نعم تخرجه المعصية عن كمال الحب وقد قال بعض العارفين اذا كان الايمان في ظاهر القلب أحب الله تعالى حبا متوسطا فاذا دخل سويداء القلب أحبه الحب البالغ وترك المعاصي وبالجملة في دعوى المحبة خطر ولذلك قال الفضيل اذا قيل لك أتحب الله تعالى فاسكت فانك ان قلت لا كفرت وان قلت نعم

النفس وبالعرك تلين والصبر جار في الصابر مجرى الانفاس لانه يحتاج الى الصبر عن كل منهي ومكروه ومذموم ظاهرا وباطنا والعلم يدل والصبر يقبل ولا تنفع دلالة العلم بغير قبول الصبر ومن كان العلم سائسه في الظاهر والباطن لا يتم ذلك له الا اذا كان الصبر مستقره ومسكنه والعلم والصبر متلازمان كالروح والجسد لا يستقل أحدهما بدون الآخر ومصدرهما الغريزة العقلية وهما متقاربان لاتحاد مصدرهما وبالصبر يتحامل على النفس وبالعلم يترقى الروح وهما البرزخ والفرقان بين الروح والنفس ليستقر كل واحد منهما في مستقره وفي ذلك صريح العدل وصحة الاعتدال وبانفصال أحدهما عن الآخر أعني العلم والصبر يميل أحدهما على الآخر

فلبس وصفك وصف المحبين فاحذر المقت ولقد قال بعض العلماء ليس فى الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ولا فى جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشيء من ذلك ومنها أن يكون مستهترا بذكر الله تعالى لا يفتر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه فمن أحب شيأ أكثر بالضرورة من ذكره وذكر ما يتعلق به فعلامة حب الله حب ذكره وحب القرآن الذى هو كلامه وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب كل من ينسب اليه فان من يحب انسانا يحب كلب محلته فالمحبة اذا قويت تعدت من المحبوب الى كل ما يكتنف بالمحبوب ويحيط به ويتعلق باسبابه وذلك ليس شركة فى الحب فان من أحب رسول المحبوب لانه رسوله وكلامه لانه كلامه فلم يجاوز حبه الى غيره بل هو دليل على كمال حبه ومن غلب على حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله لانهم خلقه فكيف لا يحب القرآن والرسول وعباد الله الصالحين وقد ذكرنا تحقيق هذا فى كتاب الاخوة والصحبة ولذلك قال تعالى قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبونى لله تعالى وقال سفيان من أحب من يحب الله تعالى فانما أحب الله ومن أكرم من يكرم الله تعالى فانما يكرم الله تعالى وحكى عن بعض المريدين قال كنت قد وجدت حلاوة المناجاة فى سن الارادة فادمنت قراءة القرآن ليلا ونهارا ثم لحقنى فترة فانقطعت عن التلاوة قال فسمعت قائلا يقول فى المنام ان كنت تزعم انك تحبنى فلم جفوت كتابى أما تدبرت ما فيه من لطيف عتابى قال فانتبهت وقد أشرب فى قلبى محبة القرآن فعاودت الى حالى وقال ابن مسعود لا ينبغى أن يسأل أحدكم عن نفسه الا القرآن فان كان يحب القرآن فهو يحب الله عز وجل وان لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله وقال سهل رحمة الله تعالى عليه علامة حب الله حب القرآن وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبى صلى الله عليه وسلم وعلامة حب النبى صلى الله عليه وسلم حب السنة وعلامة حب السنة حب الآخرة وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها الا زادا وبلغة الى الآخرة ومنها أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه فيواظب على التهجد ويغتنم هدء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق وأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب والتنعم بمناجاته فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذ عنده وأطيب من مناجاة الله كيف تصح محبته قيل لابراهيم بن أدهم وقد نزل من الجبل من أين أقبلت فقال من الانس بالله وفى أخبار داود عليه السلام لا تستانس الى أحد من خلقى فانى انما أقطع عنى رجلين رجلا استبطأ ثوابى فانقطع ورجلا نسينى فرضى بحاله وعلامة ذلك أن أكله الى نفسه وأن أدعه فى الدنيا حيران ومهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشا من الله تعالى ساقطا عن درجة محبته وفى قصة برخ وهو العبد الاسود الذى استسقى به موسى عليه السلام ان الله تعالى قال لموسى عليه السلام ان برخا نعم العبد هو لى الا أن فيه عيبا قال يا رب وما عيبه قال يعجبه نسيم الاسحار فيسكن اليه ومن أحبنى لم يسكن الى شيء وروى أن عابدا عبد الله تعالى فى غيضة دهرا طويلا فنظر الى طائر وقد عشش فى شجرة يأوى اليها ويصفر عندها فقال لو حولت مسجدى الى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت هذا الطائر قال ففعل فاوحى الله تعالى الى نبى ذلك الزمان قل لفلان العابد استأنست بمخلوق لاحطنك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبدا فاذا علامة المحبة كمال الانس بمناجاة المحبوب وكمال التنعم بالخلوة به وكمال الاستيحاش من كل ما ينغص عليه الخلوة ويعوق عن لذة المناجاة وعلامة الانس مصير العقل والفهم كله مستغرقا بلذة المناجاة كالذى يخاطب معشوقه ويناجيه وقد انتهت هذه اللذة ببعضهم حتى كان فى صلاته ووقع الحريق فى داره فلم يشعر به وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو فى الصلاة فلم يشعر به ومهما غلب عليه الحب والانس صارت الخلوة والمناجاة قرة عينه يدفع بها جميع الهموم بل يستغرق الانس والحب قلبه حتى لا يفهم أمور الدنيا ما لم تكرر على سمعه مرارا مثل العاشق الولهان فانه يكلم الناس بلسانه وأنسه فى الباطن بذكر حبيبه فالمحب من لا يطمئن الا بمحبوبه وقال قتادة فى قوله تعالى الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب قال هشت اليه واستأنست به وقال الصديق رضى الله تعالى عنه من ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر وقال مطرف بن أبى بكر المحب لا يسأم من حديث حبيبه وأوحى الله تعالى الى داود عليه

أعنى النفس والروح وبيان ذلك يدق وناهيك بشرف الصبر قوله تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب كل أجير أجره بحساب وأجر الصابرين بغير حساب (وقال) الله تعالى لنبيه واصبر وما صبرك الا بالله أضاف الصبر الى نفسه لشرف مكانه وتكمل النعمة به * وقيل وقف رجل على الشبلى فقال أى صبر أشد على الصابرين فقال الصبر فى الله فقال لا فقال الصبر لله فقال لا فقال الصبر مع الله فقال لا فغضب الشبلى وقال ويحك أى شيء هو فقال الرجل الصبر عن الله قال فصرخ الشبلى صرخة كاد أن تتلف روحه (وعندى) فى معنى الصبر عن الله وجه ولكونه من أشد الصبر على الصابرين وجه وذلك أن الصبر عن الله يكون فى أخص مقامات المشاهدة يرجع العبد

السلام قد كذب من ادعى محبتي اذا جنه الليل نام عني أليس كل محب يحب لقاء حبيبه فها أنا ذا موجود لمن طلبني وقال موسى عليه السلام يارب أين أنت فاقصدك فقال اذا قصدت فقد وصلت وقال يحيى بن معاذ من أحب الله أبغض نفسه وقال أيضا من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق والعبادة على خدمة الخلق ومنها أن لا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عز وجل ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والاستعتاب والتوبة قال بعض العارفين ان لله عبادا أحبوه واطمأنوا اليه فذهب عنهم التأسف على الفائت فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم اذ كان ملك مليكهم تاما وما شاء كان فما كان لهم فهو واصل اليهم وما فاتهم فبحسن تدبيره لهم وحق المحب اذا رجع من غفلته في لحظته أن يقبل على محبوبه ويشتغل بالعتاب ويسأله ويقول رب بأي ذنب قطعت برك عني وأبعدتني عن حضرتك وشغلتني بنفسي وبمتابعة الشيطان فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب يكفر عنه ما سبق من الغفلة وتكون هفوته سببا لتجدد ذكره وصفاء قلبه ومهما لم ير المحب الا المحبوب ولم ير شيأ الا منه لم يتأسف ولم يشك واستقبل الكل بالرضا وعلم أن المحبوب لم يقدر له الا ما فيه خيرته ويذكر قوله وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم ومنها أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها ويسقط عنه تعبها كما قال بعضهم كابدت الليل عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة وقال الجنيد علامة المحبة دوام النشاط والدؤب بشهوة تفتر بدنه ولا تفتر قلبه وقال بعضهم العمل على المحبة لا يدخله الفتور وقال بعض العلماء والله ما اشتفى محب لله من طاعته ولو حل بعظيم الوسائل فكل هذا وأمثاله موجود في المشاهدات فان العاشق لا يستثقل السعي في هوى معشوقه ويستلذ خدمته بقلبه وان كان شاقا على بدنه ومهما عجز بدنه كان أحب الاشياء اليه أن تعاوده القدرة وان يفارقه العجز حتى يشتغل به فهكذا يكون حب الله تعالى فان كل حب صار غالبا قهر لا محالة ما هو دونه فمن كان محبوبه أحب اليه من الكسل ترك الكسل في خدمته وان كان أحب اليه من المال ترك المال في حبه وقيل لبعض المحبين وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شيء ما كان سبب حالك هذه في المحبة فقال سمعت يوما محبا وقد خلا بمحبوبه وهو يقول أنا والله أحبك بقلبي كله وأنت معرض عني بوجهك كله فقال له المحبوب ان كنت تحبني فايش تنفق علي قال ياسيدي أملكك ما أملك ثم أنفق عليك روحي حتى تهلك فقلت هذا خلق لخلق وعبد لعبد فكيف بعبد لمعبود فكل هذا بسببه ومنها ان يكون مشفقا على جميع عباد الله رحيما بهم شديدا على جميع أعداء الله وعلى كل من يقارف شيأ مما يكرهه كما قال الله تعالى أشداء على الكفار رحماء بينهم ولا تأخذه لومة لائم ولا يصرفه عن الغضب لله صارف وبه وصف الله أولياءه اذ قال الذين يكلفون بحبي كما يكلف الصبي بالشيء ويأوون الى ذكري كما يأوي النسر الى وكره ويغضبون لمحارمي كما يغضب النمر اذا حرد فانه لا يبالي قل الناس أو كثروا فانظر الى هذا المثال فان الصبي اذا كلف بالشيء لم يفارقه أصلا وان أخذ منه لم يكن له شغل الا البكاء والصياح حتى يرد اليه فان نام أخذه معه في ثيابه فاذا انتبه عاد وتمسك به ومهما فارقه بكى ومهما وجده ضحك ومن نازعه فيه أبغضه ومن أعطاه أحبه وأما النمر فانه لا يملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يهلك نفسه فهذه علامات المحبة فمن تمت فيه هذه العلامات فقد تمت محبته وخلص حبه فصفا في الآخرة شرابه وعذب مشربه ومن امتزج بحبه حب غير الله تنعم في الآخرة بقدر حبه اذ يمزج شرابه بقدر من شراب المقربين كما قال تعالى في الابرار ان الابرار لفي نعيم ثم قال يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون فانما طاب شراب الابرار لشوب الشراب الصرف الذي هو للمقربين والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان كما ان الكتاب عبر به عن جميع الاعمال فقال ان كتاب الابرار لفي عليين ثم قال يشهده المقربون فكان امارة علو كتابهم انه ارتفع الى حيث يشهده المقربون وكما ان الابرار يجدون المزيد في حالهم ومعرفتهم بقربهم من المقربين ومشاهدتهم لهم فكذلك يكون حالهم في الآخرة ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة كما بدأنا أول خلق نعيده وكما قال تعالى جزاء وفاقا أي وافق الجزاء أعمالهم فقوبل الخالص بالصرف من الشراب وقوبل المشوب بالمشوب وشوب كل شراب على قدر ما سبق من الشوب في حبه وأعماله فمن يعمل مثقال

عن الله استحياء واجلالا وتنطبق بصيرته خجلا وذوبانا ويتغيب في مغاوز استكانته وتخفيه لاحساسه بعظيم أمر التجلي وهذا من أشد الصبر لانه يود استدامة هذا الحال تأدية لحق الجلال والروح تود أن تكتحل بصيرتها باستطلاع نور الجمال وكما أن النفس منازعة لعموم حال الصبر فالروح في هذا الصبر منازعة فاشتد الصبر عن الله تعالى لذلك (وقال) أبو الحسن بن سالم هم ثلاثة متصبر وصابر وصبار فالمتصبر من صبر في الله فمرة يصبر ومرة يجزع والصابر من يصبر في الله ولله ولا يجزع ولكن تتوقع منه الشكوى وقد يمكن منه الجزع وأما الصبار فذاك الذي صبره في الله ولله وبالله فهذا لو وقع عليه جميع البلايا لا يجزع ولا يتغير من جهة الوجود والحقيقة لا من جهة

ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين فمن كان حبه في الدنيا رجاء لنعيم الجنة والحور العين والقصور مكن من الجنة ليتبوأ منها حيث يشاء فيلعب مع الولدان ويتمتع بالنسوان فهنالك تنتهي لذته في الآخرة لانه انما يعطى كل انسان في المحبة ما تشتهيه نفسه وتلذ عينه ومن كان مقصده رب الدار ومالك الملك ولم يغلب عليه الا حبه بالاخلاص والصدق أنزل في مقعد صدق عند مليك مقتدر فالابرار يرتعون في البساتين ويتنعمون في الجنان مع الحور العين والولدان والمقربون ملازمون للحضرة عاكفون بطرفهم عليها يستحقرون نعيم الجنان بالاضافة الى ذرة منها فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون وللمجالسة أقوام آخرون ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر أهل الجنة البله وعليون لذوي الالباب ولما قصرت الافهام عن درك معنى عليين عظم أمره فقال وما أدراك ما عليون كما قال تعالى القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة ومنها ان يكون في حبه خائفا متضائلا تحت الهيبة والتعظيم وقد يظن أن الخوف يضاد الحب وليس كذلك بل ادراك العظمة يوجب الهيبة كما ان ادراك الجمال يوجب الحب ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم وبعض مخاوفهم أشد من بعض فاولها خوف الاعراض وأشد منه خوف الحجاب وأشد منه خوف الابعاد وهذا المعنى من سورة هود هو الذي شيب سيد المحبين اذ سمع قوله تعالى ألا بعدا لثمود ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود وانما تعظم هيبة البعد وخوفه في قلب من ألف القرب وذاقه وتنعم به فحديث البعد في حق المبعدين يشيب سماعه أهل القرب في القرب ولا يحن الى القرب من ألف البعد ولا يبكي لخوف البعد من لم يمكن من بساط القرب ثم خوف الوقوف وسلب المزيد فانا قدمنا ان درجات القرب لا نهاية لها وحق العبد ان يجتهد في كل نفس حتى يزداد فيه قربا ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون وكذلك قال عليه السلام انه ليغان على قلبي في اليوم والليلة حتى أستغفر الله سبعين مرة وانما كان استغفاره من القدم الاول فانه كان بعدا بالاضافة الى القدم الثاني ويكون ذلك عقوبة لهم على الفتور في الطريق والالتفات الى غير المحبوب كما روي ان الله تعالى يقول ان أدنى ما أصنع بالعالم اذا آثر شهوات الدنيا على طاعتي ان أسلبه لذيذ مناجاتي فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة للعموم فاما الخصوص فحجبهم عن المزيد بمجرد الدعوى والعجب والركون الى ما ظهر من مبادي اللطف وذلك هو المكر الخفي الذي لا يقدر على الاحتراز منه الا ذو والاقدام الراسخة ثم خوف فوت ما لا يدرك بعد فوته سمع ابراهيم بن أدهم قائلا يقول وهو في سياحته وكان على جبل

كل شئ منك مغفو * ر سوى الاعراض عنا
قد وهبنا لك ما فا * ت فهب ما فات منا

فاضطرب وغشي عليه فلم يفق يوما وليلة وطرأت عليه أحوال ثم قال سمعت النداء من الجبل يا ابراهيم كن عبدا فكنت عبدا واسترحت ثم خوف السلو عنه فان المحب يلازمه الشوق والطلب الحثيث فلا يفتر عن طلب المزيد ولا يتسلى الا بلطف جديد فان تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه أو سبب رجعته والسلو يدخل عليه من حيث لا يشعر كما قد يدخل عليه الحب من حيث لا يشعر فان هذه التقلبات لها أسباب خفية سماوية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها فاذا أراد الله المكر به واستدراجه أخفى عنه ما ورد عليه من السلو فيقف مع الرجاء ويغتر بحسن النظر أو بغلبة الغفلة أو الهوى أو النسيان فكل ذلك من جنود الشيطان التي تغلب جنود الملائكة من العلم والعقل والذكر والبيان وكما ان من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضي هيجان الحب وهي أوصاف اللطف والرحمة والحكمة فمن أوصافه ما يلوح فيورث السلو كأوصاف الجبرية والعزة والاستغناء وذلك من مقدمات المكر والشقاء والحرمان ثم خوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبه الى حب غيره وذلك هو المقت والسلو عنه مقدمة هذا المقام والاعراض والحجاب مقدمة السلو وضيق الصدر بالبر وانقباضه عن دوام الذكر وملاله لوظائف الاوراد أسباب هذه المعاني ومقدماتها وظهور هذه الاسباب دليل على النقل عن مقام الحب الى مقام المقت نعوذ بالله منه وملازمة الخوف لهذه الامور وشدة الحذر منها بصفاء المراقبة دليل صدق الحب فان من أحب شيأ خاف

الرسم والخلقة واشارته في هذا ظهور حكم العلم فيه مع ظهور صفة الطبيعة (وكان) الشبلي يتمثل بهذين البيتين

ان صوت المحب من ألم الشو * ق وخوف الفراق يورث ضرا
صابر الصبر فاستغاث به الصب * ر فصاح المحب بالصبر صبرا

(قال) جعفر الصادق رحمه الله أمر الله تعالى أنبياءه بالصبر وجعل الحظ الاعلى للرسول صلى الله عليه وسلم حيث جعل صبره بالله لا بنفسه فقال وما صبرك الا بالله (وسئل) السري عن الصبر فتكلم فيه فدب على رجله عقرب فجعل يضربه بابرته فقيل له لم لا تدفعه قال أستحي من الله تعالى ان أتكلم في حال ثم أخالف ما أتكلم فيه (أخبرنا) أبو زرعة اجازة عن أبي بكر بن خلف اجازة عن أبي

لامحالة فقده فلايخلوالمحب عن خوف اذا كان المحبوب مما يمكن فواته وقد قال بعض العارفين من عبد الله تعالى بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والادلال ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ومن عبده من طريق المحبة والخوف أحبه الله تعالى فقربه ومكنه وعلمه فالمحب لايخلو عن خوف والخائف لايخلو عن محبة ولكن الذى غلبت عليه المحبة حتى اتسع فيها ولم يكن له من الخوف الا يسير يقال هو فى مقام المحبة ويعد من المحبين وكان شوب الخوف يسكن قليلا من سكر الحب فلو غلب الحب واستولت المعرفة لم تثبت لذلك طاقة البشر فانما الخوف يعدله ويخفف وقعه على القلب فقد روى فى بعض الاخبار ان بعض الصديقين سأله بعض الابدال ان يسأل الله تعالى ان يرزقه ذرة من معرفته ففعل ذلك فهام فى الجبال وحار عقله ووله قلبه وبقى شاخصا سبعة أيام لاينتفع بشئ ولا ينتفع به شئ فسأل له الصديق ربه تعالى فقال يارب انقصه من الذرة بعضها فاوحى الله تعالى اليه انما أعطيناه جزأ من مائة ألف جزء من ذرة من المعرفة وذلك ان مائة ألف عبد سألونى شيأ من المحبة فى الوقت الذى سألنى هذا فأخرت اجابتهم الى ان شفعت أنت لهذا فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما أعطيته فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد فهذا ما أصابه من ذلك فقال سبحانك يا أحكم الحاكمين انقصه مما أعطيته فاذهب الله عنه جملة الجزء وبقى معه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه وسكن وصار كسائر العارفين وقد قيل فى وصف حال العارف

قريب الوجد ذو مرمى بعيد * عن الاحرار منهم والعبيد * غريب الوصف ذو علم غريب
كأن فؤاده زبر الحديد * لقد عزت معانيه وجلت * عن الابصار الا للشهيد
يرى الاعياد فى الاوقات تجرى * له فى كل يوم ألف عيد
وللاحباب أفراح بعيد * ولايجد السرور له بعيد

وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد أبياتا يشير بها الى أسرار أحوال العارفين وان كان ذلك لايجوز اظهاره وهى هذه الابيات

سرت بأناس فى الغيوب قلوبهم * فحلوا بقرب الماجد المتفضل
عراصا بقرب الله فى ظل قدسه * تجول بها أرواحهم وتنقل
مواردهم فيها على العز والنهى * ومصدرهم عنها لما هو أكمل
تروح بعز مفرد من صفاته * وفى حلل التوحيد تمشى وترفل
ومن بعد هذا ما تدق صفاته * وما كتمه أولى لديه وأعدل
سأكتم من علمى به ما يصونه * وأبذل منه ما أرى الحق يبذل
وأعطى عباد الله منه حقوقهم * وأمنع منه ما أرى المنع يفضل
على أن للرحمن سرا يصونه * الى أهله فى السر والصون أجمل

وأمثال هذه المعارف التى اليها الاشارة لايجوز ان يشترك الناس فيها ولايجوز ان يظهرها من انكشف له شئ من ذلك لمن لم ينكشف له بل لو اشترك الناس فيها لخربت الدنيا فالحكمة تقتضى شمول الغفلة لعمارة الدنيا بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوما لخربت الدنيا لزهدهم فيها وبطلت الاسواق والمعايش بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بانفسهم ولوقفت الالسنة والاقلام عن كثير مما انتشر من العلوم ولكن لله تعالى فيما هو شر فى الظاهر أسرار وحكم كما ان له فى الخير أسرارا وحكما ولا منتهى لحكمته كما لاغاية لقدرته * ومنها كتمان الحب واجتناب الدعوى والتوقى من اظهار الوجد والمحبة تعظيما للمحبوب واجلالا له وهيبة منه وغيرة على سره فان الحب سر من أسرار الحبيب ولانه قد يدخل فى الدعوى ما يتجاوز حد المعنى ويزيد عليه فيكون ذلك من الافتراء وتعظم العقوبة عليه فى العقبى وتتعجل عليه البلوى فى الدنيا نعم قد يكون للمحب سكرة فى حبه حتى يدهش فيه وتضطرب أحواله فيظهر عليه حبه فان وقع ذلك عن غير تعمل أو اكتساب فهو معذور لانه مقهور وربما تشتعل من الحب نيرانه فلا يطاق سلطانه وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه فالقادر على الكتمان يقول

وقالوا قريب قلت ما أنا صانع * بقرب شعاع الشمس لو كان فى حجرى

عبد الرحمن قال سمعت محمد بن خالد يقول سمعت الفرغانى يقول سمعت الجنيد رحمه الله يقول ان الله تعالى أكرم المؤمنين بالايمان وأكرم الايمان بالعقل وأكرم العقل بالصبر فالايمان زين المؤمن والعقل زين الايمان والصبر زين العقل وانشد عن ابراهيم الخواص رحمه الله

صبرت على بعض الاذى خوف كله
ودافعت عن نفسى لنفسى فعزت
وجرعتها المكروه حتى تدربت
ولو لم أجرعها اذا لاشمأزت
ألارب ذل ساق للنفس عزة
ويارب نفس بالتذلل عزت
اذا ما مددت الكف ألتمس الغنى
الى غير من قال اسألونى فشلت
سأصبر جهدى ان فى الصبر عزة
وأرضى بدنياى وان هى قلت

تعالى منه غير ذكر بخاطر * يهيج نار الحب والشوق فى صدرى

والعاجز عنه يقول يخفى فيبدى الدمع أسراره * و يظهر الوجد عليه النفس

و يقول أيضا ومن قلبه مع غيره كيف حاله * ومن سره فى جفنه كيف يكتم

وقد قال بعض العارفين أكثر الناس من الله بعدا أكثرهم اشارة به كأنه أراد من يكثر التعريض به فى كل شئ و يظهر التصنع بذكره عند كل أحد فهو ممقوت عند المحبين والعلماء بالله عز وجل ودخل ذو النون المصرى على بعض اخوانه ممن كان يذكر المحبة فرآه مبتلى ببلاء فقال لا يحبه من وجد ألم ضره فقال الرجل لكنى أقول لا يحبه من لم يتنعم بضره فقال ذو النون ولكنى أقول لا يحبه من شهر نفسه بحبه فقال الرجل أستغفر الله وأتوب اليه فان قلت المحبة منتهى المقامات واظهارها اظهار للخير فلماذا يستنكر فاعلم ان المحبة محمودة وظهورها محمود أيضا وانما المذموم التظاهر بها لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار وحق المحب ان ينم على حبه الخفى أفعاله وأحواله دون أقواله وأفعاله و ينبغى أن يظهر حبه من غير قصد منه الى اظهار الحب ولا الى اظهار الفعل الدال على الحب بل ينبغى أن يكون قصد المحب اطلاع الحبيب فقط فاما ارادته اطلاع غيره فشرك فى الحب وقادح فيه كما ورد فى الانجيل اذا تصدقت فتصدق بحيث لا تعلم شمالك ما صنعت يمينك فالذى يرى الخفيات يجزيك علانية واذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك لئلا يعلم بذلك غير ربك فاظهار القول والفعل كله مذموم الا اذا غلب سكر الحب فانطلق اللسان واضطربت الاعضاء فلا يلام فيه صاحبه * حكى ان رجلا رأى من بعض المجانين ما استجهله فيه فاخبر بذلك معروفا الكرخى رحمه الله فتبسم ثم قال يا أخى له محبون صغار وكبار وعقلاء ومجانين فهذا الذى رأيته من مجانينهم ومما يكره التظاهر بالحب بسببه أن المحب ان كان عارفا وعرف أحوال الملائكة فى حبهم الدائم وشوقهم اللازم الذى به يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون لاستنكف من نفسه ومن اظهار حبه وعلم قطعا انه من أخس المحبين فى مملكته وان حبه أنقص من حب كل محب لله قال بعض المكاشفين من المحبين عبدت الله تعالى ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح على بذل المجهود واستفراغ الطاقة حتى ظننت ان لى عند الله شيأ فذكر أشياء من مكاشفات آيات السموات فى قصة طويلة قال فى آخرها فبلغت صفا من الملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شئ فقلت من أنتم فقالوا نحن المحبون لله عز وجل نعبده ههنا منذ ثلثمائة ألف سنة ما خطر على قلوبنا قط سواه ولا ذكرنا غيره قال فاستحييت من أعمالى فوهبتها لمن حق عليه الوعيد تخفيفا عنه فى جهنم فاذا من عرف نفسه وعرف ربه واستحيا منه حق الحياء خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى نعم يشهد على حبه حركاته وسكناته واقدامه واحجامه وترددانه كما حكى عن الجنيد انه قال مرض استاذنا السرى رحمه الله فلم نعرف لعلته دواء ولا عرفنا لها سببا فوصف لنا طبيب حاذق فاخذنا قارورة مائه فنظر اليها الطبيب وجعل ينظر اليه مليا ثم قال لى أراه بول عاشق قال الجنيد فصعقت وغشى على ووقعت القارورة من يدى ثم رجعت الى السرى فاخبرته فتبسم ثم قال قاتله الله ما أبصره قلت يا أستاذ وتبين المحبة فى البول قال نعم وقد قال السرى مرة لو شئت أقول ما أيبس جلدى على عظمى ولا سل جسمى الا حبه ثم غشى عليه وتدل الغشية على انه أفصح فى غلبة الوجد ومقدمات الغشية فهذه مجامع علامات الحب وثمراته * ومنها الانس والرضا كما سيأتى وبالجملة جميع محاسن الدين ومكارم الاخلاق ثمرة الحب وما لا يثمره الحب فهو اتباع الهوى وهو من رذائل الاخلاق نعم قد يحب الله لاحسانه اليه وقد يحبه لجلاله وجماله وان لم يحسن اليه والمحبون لا يخرجون عن هذين القسمين ولذلك قال الجنيد الناس فى محبة الله تعالى عام وخاص فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم فى دوام احسانه وكثرة نعمه فلم يتمالكوا أن أرضوه الا انهم تقل محبتهم وتكثر على قدر النعم والاحسان فاما الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرد بالملك ولما عرفوا صفاته الكاملة وأسماءه الحسنى لم يمتنعوا أن أحبوه اذ استحق عندهم المحبة بذلك لانه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النعم نعم من الناس من يحب هواه وعدو الله ابليس وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الغرور والجهل فيظن انه محب لله عز وجل وهو الذى فقدت فيه هذه العلامات أو يلبس بها نفاقا ورياء وسمعة وغرضه عاجل حظ الدنيا وهو يظهر من نفسه خلاف ذلك كعلماء السوء وقراء

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله ما أنعم الله على عبد من نعمة ثم انتزعها فعاضه مما انتزع منه الصبر الا كان ما عاضه خيرا مما انتزعه منه وأنشد ابن سمنون

تجرعت من حاليه نعمى وأبؤسا * زمانا اذا أجرى عزاليه احتسى

فكم غمرة قد جرعتنى كؤسها * فجرعتها من بحر صبرى أكؤسا

تدرعت صبرى والتحفت صروفه * وقلت لنفسى الصبر أو فاهلكى أسى

خطوب لو ان الشم زاحمن خطبها * لساخت ولم تدرك لها الكف ملمسا

(قولهم فى الفقر)

قال ابن الجلاء الفقر أن لا يكون لك فاذا كان لك لا يكون لك حتى تؤثر (وقال) الكتانى اذا صح الافتقار الى الله تعالى صح الغنى

السوء أولئك بغضاء الله في أرضه وكان سهل اذا تكلم مع انسان قال يادوست أي ياحبيب فقيل له قد لا يكون حبيبا فكيف تقول هذا فقال في اذن القائل سرا لا يخلوا ما أن يكون مؤمنا أو منافقا فان كان مؤمنا فهو حبيب الله عز وجل وان كان منافقا فهو حبيب ابليس وقد قال أبو تراب النخشبي في علامات المحبة أبياتا

لاتخدعن فللحبيب دلائل * ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمر بلائه * وسروره في كل ماهو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة * والفقر اكرام وبر عاجل
ومن الدلائل أن ترى من عزمه * طوع الحبيب وان ألح العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبسما * والقلب فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلائل أن يرى متفهما * لكلام من يحظى لديه السائل
ومن الدلائل أن يرى متقشفا * متحفظا من كل ماهو قائل
ومن الدلائل أن تراه مشمرا * في خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه * جوف الظلام فماله من عاذل
ومن الدلائل أن تراه مسافرا * نحو الجهاد وكل فعل فاضل
ومن الدلائل زهده فيما يرى * من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل أن تراه باكيا * أن قد رآه على قبيح فعائل
ومن الدلائل أن تراه مسلما * كل الامور الى المليك العادل
ومن الدلائل أن تراه راضيا * بمليكه في كل حكم نازل
ومن الدلائل ضحكه بين الورى * والقلب محزون كقلب الثاكل

وقال يحيى بن معاذ

(بيان معنى الانس بالله تعالى)

قد ذكرنا ان الانس والخوف والشوق من آثار المحبة الا أن هذه آثار مختلفة تختلف على المحب بحسب نظره وما يغلب عليه في وقته فاذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب الى منتهى الجمال واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال انبعث القلب الى الطلب وانزعج له وهاج اليه وتسمى هذه الحالة في الانزعاج شوقا وهو بالاضافة الى أمر غائب واذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت الى مالم يدركه بعد استبشر القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره انسا وان كان نظره الى صفات العز والاستغناء وعدم المبالاة وخطر امكان الزوال والبعد تألم القلب بهذا الاستشعار فيسمى تألمه خوفا وهذه الاحوال تابعة لهذه الملاحظات والملاحظات تابعة لاسباب تقتضيها لا يمكن حصرها فالانس معناه استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال حتى انه اذا غلب وتجرد عن ملاحظة ماغاب عنه وما يتطرق اليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له أنت مشتاق فقال لا انما الشوق الى غائب فاذا كان الغائب حاضرا فالى من يشتاق وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله غير ملتفت الى مابقي في الامكان من مزايا الالطاف ومن غلب عليه حال الانس لم تكن شهوته الا في الانفراد والخلوة كما حكى ان ابراهيم بن أدهم نزل من الجبل فقيل له من اين اقبلت فقال من الانس بالله وذلك لان الانس بالله يلازمه التوحش من غير الله بل كل مايعوق عن الخلوة فيكون من أثقل الاشياء على القلب كما روى ان موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهرا لا يسمع كلام أحد من الناس الا أخذه الغشيان لان الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ما سواه ولذلك قال بعض الحكماء في دعائه يامن آنسني بذكره وأوحشني من خلقه وقال الله عز وجل لداود عليه السلام كن لي مشتاقا وبي مستأنسا ومن سواي مستوحشا وقيل لرابعة بم نلت هذه المنزلة قالت بتركي مالا يعنيني وأنسي بمن لم يزل وقال عبد الواحد بن زيد مررت براهب فقلت له يا راهب لقد أعجبتك الوحدة فقال ياهذا لوذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت اليها من نفسك الوحدة رأس العبادة فقلت يا راهب

بالله تعالى لانهما حالان لايتم أحدهما الا بالآخر (وقال) النوري نعت الفقراء السكون عند العدم والبذل عند الوجود وقال غيره والاضطراب عند الموجود وقال الدارج فتشت كنف أستاذي أريد مكحلة فوجدت فيها قطعة فتحيرت فلما جاء قلت له اني وجدت في كنفك هذه القطعة قال قد رأيتها ردها ثم قال خذها واشتر بها شيأ فقلت ماكان أمر هذه القطعة بحق معبودك فقال مارزقني الله تعالى من الدنيا صفراء ولا بيضاء غيرها فاردت أن أوصي ان تشد في كفني فاردها الى الله (وقال) ابراهيم الخواص الفقر رداء الشرف ولباس المرسلين وجلباب الصالحين (وسئل) سهل ابن عبد الله عن الفقير الصادق فقال لايسأل ولا يرد ولا يحبس (وقال) أبو علي الروذباري رحمه الله

ما أقل ما تجده في الوحدة قال الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرهم قلت يا راهب متى يذوق العبد حلاوة الانس بالله تعالى قال اذا صفا الود وخلصت المعاملة قلت ومتى يصفو الود قال اذا اجتمع الهم فصار هما واحدا في الطاعة وقال بعض الحكماء عجبا للخلائق كيف أرادوا بك بدلا عجبا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك * فان قلت فما علامة الانس فاعلم ان علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشرة الخلق والتبرم بهم واستهتاره بعذوبة الذكر فان خالط فهو كمنفرد في جماعة ومجتمع في خلوة وغريب في حضر وحاضر في سفر وشاهد في غيبة وغائب في حضور مخالط بالبدن منفرد بالقلب مستغرق بعذوبة الذكر كما قال علي كرم الله وجهه في وصفهم هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الامر فباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعر المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بابدان أرواحها معلقة بالمحل الاعلى أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة الى دينه فهذا معنى الانس بالله وهذه علامته وهذه شواهده وقد ذهب بعض المتكلمين الى انكار الانس والشوق والحب لظنه ان ذلك يدل على التشبيه وجهله بان جمال المدركات بالبصائر أكمل من جمال المبصرات ولذة معرفتها أغلب على ذوي القلوب ومنهم أحمد بن غالب يعرف بغلام الخليل أنكر على الجنيد وعلى أبي الحسن النوري والجماعة حديث الحب والشوق والعشق حتى أنكر بعضهم مقام الرضا وقال ليس الا الصبر فاما الرضا فغير متصور وهذا كله كلام ناقص قاصر لم يطلع من مقامات الدين الا على القشور فظن أنه لا وجود الا للقشر فان المحسوسات وكل ما يدخل في الخيال من طريق الدين قشر مجرد وراءه اللب المطلوب فمن لم يصل من الجوز الا الى قشره يظن أن الجوز خشب كله ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة وهو معذور ولكن عذره غير مقبول وقد قيل

الانس بالله لا يحويه بطال * وليس يدركه بالحول محتال
والآنسون رجال كلهم نجب * وكلهم صفوة لله عمال

(بيان معنى الانبساط والادلال الذي تثمره غلبة الانس)

اعلم أن الانس اذا دام وغلب واستحكم ولم يشوشه قلق الشوق ولم ينغصه خوف التغير والحجاب فانه يثمر نوعا من الانبساط في الاقوال والافعال والمناجاة مع الله تعالى وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة ولكنه محتمل ممن أقيم في مقام الانس ومن لم يقم في ذلك المقام ويتشبه بهم في الفعل والكلام هلك به وأشرف على الكفر ومثاله مناجاة برخ الاسود الذي أمر الله تعالى كليمه موسى عليه السلام ان يسأله ليستسقي لبني اسرائيل بعد أن قحطوا سبع سنين وخرج موسى عليه السلام ليستسقي لهم في سبعين ألفا فاوحى الله عز وجل اليه كيف استجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم سرائرهم خبيثة يدعونني على غير يقين ويأمنون مكري ارجع الى عبد من عبادي يقال له برخ فقل له يخرج حتى استجيب له فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف فبينما موسى ذات يوم يمشي في طريق اذا بعبد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من أثر السجود في شملة قد عقدها على عنقه فعرفه موسى عليه السلام بنور الله عز وجل فسلم عليه وقال له ما اسمك فقال اسمي برخ قال فانت طلبتنا منذ حين أخرج فاستسق لنا فخرج فقال في كلامه ما هذا من فعالك ولا هذا من حلمك وما الذي بدا لك أنقصت عليك عيونك أم عاندت الرياح عن طاعتك أم نفد ما عندك أم اشتد غضبك على المذنبين ألست كنت غفارا قبل خلق الخطائين خلقت الرحمة وأمرت بالعطف أم ترينا انك ممتنع أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة قال فما برح حتى اخضلت بنو اسرائيل بالقطر وأنبت الله تعالى العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب قال فرجع برخ فاستقبله موسى عليه السلام فقال كيف رأيت حين خاصمت ربي كيف أنصفني فهم موسى عليه السلام به فاوحى الله تعالى اليه ان برخا يضحكني كل يوم ثلاث مرات * وعن الحسن قال احترقت اخصاص بالبصرة فبقي في وسطها خص لم يحترق وأبو موسى يومئذ أمير البصرة فاخبر بذلك فبعث الى صاحب الخص قال فاتي بشيخ فقال يا شيخ ما بال خصك لم يحترق قال اني أقسمت على ربي عز وجل أن لا يحرقه فقال أبو موسى رضي الله عنه اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يكون في أمتي قوم شعثة رؤسهم دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لابرهم قال ووقع حريق بالبصرة فجاء أبو عبيدة الخواص فجعل يتخطى النار فقال له أمير البصرة انظر لا تحترق بالنار فقال اني

سألني الزقاق فقال يا أبا علي لم ترك الفقراء أخذ البلغة في وقت الحاجة قال قلت لانهم مستغنون بالمعطي عن العطايا فقال نعم ولكن وقع لي شيء آخر فقلت هات أفدني ما وقع لك قال لانهم قوم لا ينفعهم الوجود اذ الله فاقتهم ولا تضرهم الفاقة اذ الله وجودهم قال بعضهم الفقر وقوف الحاجة على القلب ومحوها عما سوى الرب وقال المسوحي الفقير الذي لا تغنيه النعم ولا تفقره المحن (وقال) يحيى ابن معاذ حقيقة الفقر أن لا يستغني الا بالله ورسمه عدم الاسباب كلها وقال أبو بكر الطوسي بقيت مدة أسأل عن معنى اختيار أصحابنا لهذا الفقر على سائر الاشياء فلم يجبني أحد بجواب يقنعني حتى سألت نصر بن الحمامي فقال لي لانه أول منزل من منازل التوحيد فقنعت بذلك (وسئل)

أقسمت على ربى عز وجل أن لا يحرقنى بالنار قال فاعزم على النار أن تطفأ قال فعزم عليها فطفئت وكان أبو حفص يمشى ذات يوم فاستقبله رستاقى مدهوش فقال له أبو حفص ما أصابك فقال ضل حمارى ولا أملك غيره قال فوقف أبو حفص وقال وعزتك لا أخطو خطوة مالم ترد عليه حماره قال فظهر حماره فى الوقت ومر أبو حفص رحمه الله * فهذا وأمثاله يجرى لذوى الانس وليس لغيرهم أن يتشبه بهم قال الجنيد رحمه الله أهل الانس يقولون فى كلامهم ومناجاتهم فى خلواتهم أشياء هى كفر عند العامة وقال مرة لو سمعها العموم لكفروهم وهم يجدون المزيد فى أحوالهم بذلك وذلك يحتمل منهم ويليق بهم واليه أشار القائل

قوم تخالجهم زهو بسيدهم * والعبد يزهو على مقدار مولاه
تاهوا برؤيته عما سواه له * ياحسن رؤيتهم فى عز ما تاهوا

ولا تستبعدن رضاه عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلف مقامهما ففى القرآن تنبيهات على هذه المعانى لو فطنت وفهمت فجميع قصص القرآن تنبيهات لاولى البصائر والابصار حتى ينظروا اليها بعين الاعتبار فانما هى عند ذوى الاغترار من الاسمار فاول القصص قصة آدم عليه السلام وابليس أما تراهما كيف اشتركا فى اسم المعصية والمخالفة ثم تباينا فى الاجتباء والعصمة أما ابليس فابلس عن رحمته وقيل انه من المبعدين وأما آدم عليه السلام فقيل فيه وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى وقد عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى الاعراض عن عبد والاقبال على عبد وهما فى العبودية سيان ولكن فى الحال مختلفان فقال وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فانت عنه تلهى وقال فى الآخر أما من استغنى فانت له تصدى وكذلك أمره بالقعود مع طائفة فقال عز وجل واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم وأمره بالاعراض عن غيرهم فقال واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فاعرض عنهم حتى قال فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين وقال تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى فكذا الانبساط والادلال يحتمل من بعض العباد دون بعض فمن انبساط الانس قول موسى عليه السلام ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء وقوله فى التعلل والاعتذار لما قيل له اذهب الى فرعون فقال ولهم على ذنب وقوله انى أخاف ان يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى وقوله اننا نخاف ان يفرط علينا أو ان يطغى وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الادب لان الذى أقيم مقام الانس يلاطف ويحتمل ولم يحتمل ليونس عليه السلام مادون هذا لما أقيم مقام القبض والهيبة فعوقب بالسجن فى بطن الحوت فى ظلمات ثلاث ونودى عليه الى يوم القيامة لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم * قال الحسن العراء هو القيامة ونهى نبينا صلى الله عليه وسلم ان يقتدى به وقيل له فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الاحوال والمقامات وبعضها لما سبق فى الازل من التفاضل والتفاوت فى القسمة بين العباد وقد قال تعالى ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وقال منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات فكان عيسى عليه السلام من المفضلين ولادلاله سلم على نفسه فقال والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف فى مقام الانس وأما يحيى بن زكريا عليهما السلام فانه أقيم مقام الهيبة والحياء فلم ينطق حتى أثنى عليه خالقه فقال وسلام عليه وانظر كيف احتمل لاخوة يوسف ما فعلوه بيوسف وقد قال بعض العلماء قد عددت من أول قوله تعالى اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا الى رأس العشرين من اخباره تعالى عن زهدهم فيه نيفا وأربعين خطيئة بعضها أكبر من بعض وقد يجتمع فى الكلمة الواحدة الثلاث والاربع فغفر لهم وعفا عنهم ولم يحتمل العزير فى مسألة واحدة سأل عنها فى القدر حتى قيل يمحى من ديوان النبوة وكذلك كان بلعام ابن باعوراء من أكابر العلماء فأكل الدنيا بالدين فلم يحتمل له ذلك وكان آصف من المسرفين وكانت معصيته فى الجوارح فعفا عنه فقد روى أن الله تعالى أوحى الى سليمان عليه السلام يا رأس العابدين ويا ابن محجة الزاهدين الى كم يعصينى ابن خالتك آصف وأنا أحلم عليه مرة بعد مرة فوعزتى وجلالى لئن أخذته عصفة من عصفاتى عليه لاتركنه مثلة لمن معه ونكالا لمن بعده فلما دخل آصف على سليمان عليه السلام أخبره بما أوحى الله تعالى اليه

ابن الجلاء عن الفقر فسكت حتى صلى ثم ذهب ورجع ثم قال انى لم أسكت الا لدرهم كان عندى فذهبت فاخرجته واستحييت من الله تعالى أن أتكلم فى الفقر وعندى ذلك ثم جلس وتكلم (قال) أبو بكر ابن طاهر من حكم الفقير أن لا يكون له رغبة فان كان ولا بد لا تجاوز رغبته كفايته (قال) فارس قلت لبعض الفقراء مرة وعليه أثر الجوع والضر لم لا تسال فيطعموك فقال انى أخاف أن أسالهم فيمنعونى فلا يفلحون وأنشد لبعضهم

قالوا غدا العيد ماذا أنت لابسه
فقلت خلعة ساق عبده الجرعا
فقر وصبر هما ثوبان تحتهما
قلب يرى ربه الاعياد والجمعا
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به
يوم التزاور فى الثوب الذى خلعا

نفر حتى علا كثيبا من رمل ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء وقال الهي وسيدي أنت أنت وأنا أنا فكيف أتوب
ان لم تتب علي وكيف أستعصم ان لم تعصمني لأعودن فأوحى الله تعالى اليه صدقت يا آصف أنت أنت وأنا أنا
استقبل التوبة فقد تبت عليك وأنا التواب الرحيم وهذا كلام مدل به عليه وهارب منه اليه وناظر به اليه وفي الخبر
ان الله تعالى أوحى الى عبد تداركه بعد ان كان أشفى على الهلكة كم من ذنب واجهتني به غفرته لك قد أهلكت
في دونه أمة من الامم فهذه سنة الله تعالى في عباده بالتفضيل والتقديم والتأخير على ما سبقت به المشيئة الازلية
وهذه القصص وردت في القرآن لتعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل فما في القرآن شيء الا وهو هدى
ونور وتعرف من الله تعالى الى خلقه فتارة يتعرف اليهم بالتقديس فيقول قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد
ولم يكن له كفوا أحد وتارة يتعرف اليهم بصفات جلاله فيقول الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز
الجبار المتكبر وتارة يتعرف اليهم في أفعاله المخوفة المرجوة فيتلو عليهم سنته في أعدائه وفي أنبيائه فيقول ألم تر
كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ولا يعدو القرآن هذه الاقسام الثلاثة
وهي الارشاد الى معرفة ذات الله وتقديسه أو معرفة صفاته وأسمائه أو معرفة أفعاله وسنته مع عباده ولما
اشتملت سورة الاخلاص على أحد هذه الاقسام الثلاثة وهو التقديس وازنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلث
القرآن فقال من قرأ سورة الاخلاص فقد قرأ ثلث القرآن لان منتهى التقديس أن يكون واحدا في ثلاثة أمور
لا يكون حاصلا منه من هو نظيره وشبهه ودل عليه قوله لم يلد ولا يكون حاصلا ممن هو نظيره وشبهه ودل عليه قوله ولم
يولد ولا يكون في درجته وان لم يكن أصلا له ولا فرعا من هو مثله ودل عليه قوله ولم يكن له كفوا أحد ويجمع جميع
ذلك قوله تعالى قل هو الله أحد وجملته تفصيل قول لا اله الا الله فهذه أسرار القرآن ولا تتناهى أمثال هذه الاسرار
في القرآن ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه ثوروا القرآن والتمسوا
غرائبه ففيه علم الاولين والآخرين وهو كما قال ولا يعرفه الا من طال في آحاد كلماته فكره وصفا له فهمه حتى
تشهد له كل كلمة منه بأنه كلام جبار قاهر مليك قادر وانه خارج عن حد استطاعة البشر وأكثر أسرار القرآن
مخبأة في طي القصص والاخبار فكن حريصا على استنباطها لينكشف لك فيه من العجائب ما تستحقر معه العلوم
المزخرفة الخارجة عنه فهذا ما أردنا ذكره من معنى الانس والانبساط الذي هو ثمرته وبيان تفاوت عباد الله فيه
والله سبحانه وتعالى أعلم

(القول في معنى الرضا بقضاء الله تعالى وحقيقته وما ورد في فضيلته)

اعلم ان الرضا ثمرة من ثمار المحبة وهو من أعلى مقامات المقربين وحقيقته غامضة على الاكثرين وما يدخل عليه
من التشابه والايهام غير منكشف الا لمن علمه الله تعالى التأويل وفهمه وفقهه في الدين فقد أنكر منكرون
تصور الرضا بما يخالف الهوى ثم قالوا ان أمكن الرضا بكل شيء لانه فعل الله فينبغي أن يرضى بالكفر والمعاصي
وانخدع بذلك قوم فرأوا الرضا بالفجور والفسوق وترك الاعتراض والانكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى
ولو انكشفت هذه الاسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس
حيث قال اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل فلنبدأ ببيان فضيلة الرضا ثم بحكايات أحوال الراضين ثم نذكر حقيقة
الرضا وكيفية تصوره فيما يخالف الهوى ثم نذكر ما يظن انه من تمام الرضا وليس منه كترك الدعاء والسكوت
على المعاصي

(بيان فضيلة الرضا)

(أما من الآيات) فقوله تعالى رضي الله عنهم ورضوا عنه وقد قال تعالى هل جزاء الاحسان الا الاحسان
ومنتهى الاحسان رضا الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى وقال تعالى ومساكن طيبة في جنات عدن
ورضوان من الله أكبر فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال ان الصلاة تنهى
عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر فكما ان مشاهدة المذكور في الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة
أعلى من الجنة بل هو غاية مطلب سكان الجنان وفي الحديث ان الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون
رضاك فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل وأما رضا العبد فسنذكر حقيقته وأما رضوان الله تعالى عن
العبد فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه في حب الله للعبد ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته اذ تقصر افهام الخلق

الدهر لي مأتم ان غبت يا أملي
والعيد ما دمت لي مرأى ومستمعا
(قولهم في الشكر) قال بعضهم الشكر هو الغيبة عن النعمة برؤية المنعم (وقال) يحيى بن معاذ الرازي لست بشاكر ما دمت تشكر وغاية الشكر التحير وذلك ان الشكر نعمة من الله يجب الشكر عليها * وفي أخبار داود عليه السلام الهي كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك الا بنعمة ثانية من نعمك فأوحى الله اليه اذا عرفت هذا فقد شكرتني ومعنى الشكر في اللغة هو الكشف والاظهار يقال شكر وكشر اذا كشف عن ثغره وأظهره فنشر النعم وذكرها وتعدادها باللسان من الشكر وباطن الشكر ان تستعين بالنعم على الطاعة ولا تستعين بها على المعصية فهو شكر النعمة وسمعت شيخنا

عن دركه ومن يقوى عليه فيستقل بادراكه من نفسه وعلى الجملة فلا رتبة فوق النظر اليه فانما سألوا الرضا لانه
سبب دوام النظر فكانهم رأوه غاية الغايات وأقصى الامانى لما ظفروا بنعيم النظر فلما أمروا بالسؤال لم يسألوا
الا دوامه وعلموا ان الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب وقال الله تعالى ولدينا مزيد قال بعض المفسرين فيه يأتى أهل
الجنة فى وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين احداها هدية من عند الله تعالى ليس عندهم فى الجنان
مثلها فذلك قوله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين والثانية السلام عليهم من ربهم فيزيد ذلك على
الهدية فضلا وهو قوله تعالى سلام قولا من رب رحيم والثالثة يقول الله تعالى انى عنكم راض فيكون ذلك أفضل
من الهدية والتسليم فذلك قوله تعالى ورضوان من الله أكبر أى من النعيم الذى هم فيه فهذا افضل رضا الله
تعالى وهو ثمرة رضا العبد * وأما من الاخبار فقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل طائفة من أصحابه ما أنتم
فقالوا مؤمنون فقال ما علامة ايمانكم فقالوا نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء فقال
مؤمنون ورب الكعبة وفى خبر آخر أنه قال حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء وفى الخبر طوبى لمن
هدى للاسلام وكان رزقه كفافا ورضى به وقال صلى الله عليه وسلم من رضى من الله تعالى بالقليل من الرزق رضى
الله تعالى منه بالقليل من العمل وقال أيضا اذا أحب الله تعالى عبدا ابتلاه فان صبر اجتباه فان رضى اصطفاه
وقال ايضا اذا كان يوم القيامة انبت الله تعالى لطائفة من امتى أجنحة فيطيرون من قبورهم الى الجنان يسرحون
فيها ويتنعمون فيها كيف شاؤا فتقول لهم الملائكة هل رأيتم الحساب فيقولون ما رأينا حسابا فتقول لهم
هل جزتم الصراط فيقولون ما رأينا صراطا فتقول لهم هل رأيتم جهنم فيقولون ما رأينا شيأ فتقول الملائكة من
أمة من أنتم فيقولون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فتقول نشدناكم الله حدثونا ما كانت أعمالكم فى الدنيا فيقولون
خصلتان كانتا فينا فبلغنا هذه المنزلة بفضل رحمة الله فيقولون وما هما فيقولون كنا اذا خلونا نستحى أن نعصيه
ونرضى باليسير مما قسم لنا فتقول الملائكة يحق لكم هذا وقال صلى الله عليه وسلم يا معشر الفقراء أعطوا الله
الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم والا فلا وفى أخبار موسى عليه السلام أن بنى اسرائيل قالوا له سل لنا ربك
أمرا اذا نحن فعلناه يرضى به عنا فقال موسى عليه السلام الهى قد سمعت ما قالوا فقال يا موسى قل لهم يرضون
عنى حتى ارضى عنهم ويشهد لهذا ما روى عن نبينا صلى الله عليه وسلم انه قال من أحب ان يعلم ماله عند الله عز
وجل فلينظر ما لله عز وجل عنده فان الله تبارك وتعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه وفى أخبار داود
عليه السلام ما لاوليائى والهم بالدنيا ان الهم يذهب حلاوة مناجاتى من قلوبهم يا داود ان محبتى من أوليائى أن
يكونوا روحانيين لا يغتمون وروى أن موسى عليه السلام قال يا رب دلنى على أمر فيه رضاك حتى أعمله فاوحى الله
تعالى اليه ان رضاى فى كرهك وأنت لا تصبر على ما تكره قال يا رب دلنى عليه قال فان رضاى فى رضاك بقضائى وفى
مناجاة موسى عليه السلام أى رب أى خلقك أحب اليك قال من اذا أخذت منه المحبوب سالمنى قال فأى خلقك
أنت عليه ساخط قال من يستخيرنى فى الامر فاذا قضيت له سخط قضائى وقد روى ما هو أشد من ذلك وهو ان الله
تعالى قال أنا الله لا اله الا أنا من لم يصبر على بلائى ولم يشكر نعمائى ولم يرض بقضائى فليتخذ ربا سوائى ومثله فى
الشدة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم انه قال قال الله تعالى قدرت المقادير ودبرت التدبير
وأحكمت الصنع فمن رضى فله الرضا منى حتى يلقانى ومن سخط فله السخط منى حتى يلقانى وفى الخبر المشهور
يقول الله تعالى خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه وويل لمن خلقته للشر
وأجريت الشر على يديه وويل ثم ويل لمن قال لم وكيف وفى الاخبار السالفة ان نبيا من الانبياء شكا الى الله عز
وجل الجوع والفقر والقمل عشر سنين فما أجيب الى ما أراد ثم أوحى الله تعالى اليه كم تشكو هكذا كان بدؤك
عندى فى أم الكتاب قبل أن أخلق السموات والارض وهكذا سبق لك منى وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق
الدنيا أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك أم تريد أن أبدل ما قدرته عليك فيكون ما تحب فوق ما أحب
ويكون ما تريد فوق ما أريد وعزتى وجلالى لئن تلجلج هذا فى صدرك مرة أخرى لامحونك من ديوان النبوة
وروى أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون يجعل أحدهم رجله على أضلاعه
كهيئة الدرج فيصعد الى رأسه ثم ينزل على أضلاعه كذلك وهو مطرق الى الارض لا ينطق ولا يرفع رأسه فقال له

رحمه الله ينشد عن بعضهم
أوليتنى نعما أبوح بشكرها
وكفيتنى كل الامور بأسرها
فلاشكرنك ما حييت وان أمت
فلتشكرنك أعظمى فى قبرها
(قال) رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من يدعى الى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء
(وقال) رسول الله صلى الله عليه وسلم من ابتلى فصبر وأعطى فشكر وظلم فغفر وظلم فاستغفر قيل فما باله قال أولئك لهم الامن وهم مهتدون
(قال) الجنيد فرض الشكر الاعتراف بالنعم بالقلب واللسان
(وفى) الحديث أفضل الذكر لا اله الا الله وأفضل الدعاء الحمد لله
(وقال) بعضهم فى قوله تعالى وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة قال الظاهرة العوافى والغنى والباطنة

بعض ولده يا أبت أما ترى ما يصنع هذا بك لو نهيته عن هذا فقال يا بني اني رأيت ما لم تروا وعلمت ما لم تعلموا اني تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة الى دار الهوان ومن دار النعيم الى دار الشقاء فأخاف أن أتحرك أخرى فيصيبني ما لا أعلم وقال أنس بن مالك رضي الله عنه خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي لشيء فعلته لم فعلته ولا لشيء لم أفعله لم لا فعلته ولا قال في شيء كان ليته لم يكن ولا في شيء لم يكن ليته كان وكان اذا خاصمني مخاصم من أهله يقول دعوه لو قضي شيء لكان ويروى أن الله تعالى أوحى الى داود عليه السلام يا داود انك تريد وأريد وانما يكون ما أريد فان سلمت لما أريد كفيتك ما تريد وان لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون الا ما أريد *(وأما الآثار)* فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما أول من يدعى الى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله تعالى على كل حال وقال عمر بن عبد العزيز ما بقي لي سرور الا في مواقع القدر وقيل له ما تشتهي فقال ما يقضي الله تعالى وقال ميمون بن مهران من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء وقال الفضيل ان لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك وقال عبد العزيز بن أبي رواد ليس الشأن في أكل خبز الشعير والخل ولا في لبس الصوف والشعر ولكن الشأن في الرضا عن الله عز وجل وقال عبد الله بن مسعود لأن ألحس جمرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحب الي من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن أو لشيء لم يكن ليته كان ونظر رجل الى قرحة في رجل محمد بن واسع فقال اني لارحمك من هذه القرحة فقال اني لاشكرها منذ خرجت اذ لم تخرج في عيني وروى في الاسرائيليات أن عابدا عبد الله دهرا طويلا فأرى في المنام فلانة الراعية رفيقتك في الجنة فسأل عنها الى أن وجدها فاستضافها ثلاثا لينظر الى عملها فكان يبيت قائما وتبيت نائمة ويظل صائما وتظل مفطرة فقال أما لك عمل غير ما رأيت فقالت ما هو والله الا ما رأيت لا أعرف غيره فلم يزل يقول تذكري حتى قالت خصيلة واحدة هي في ان كنت في شدة لم أتمن أن أكون في رخاء وان كنت في مرض لم أتمن أن أكون في صحة وان كنت في الشمس لم أتمن أن أكون في الظل فوضع العابد يده على رأسه وقال أهذه خصيلة هذه والله خصلة عظيمة يعجز عنها العباد وعن بعض السلف ان الله تعالى اذا قضى في السماء قضاء أحب من أهل الارض ان يرضوا بقضائه وقال أبو الدرداء ذروة الايمان الصبر للحكم والرضا بالقدر وقال عمر رضي الله عنه ما أبالي على أي حال أصبحت وأمسيت من شدة أو رخاء وقال الثوري يوما عند رابعة اللهم ارض عنا فقالت أما تستحي من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض فقال استغفر الله فقال جعفر بن سليمان الضبعي فمتى يكون العبد راضيا عن الله تعالى قالت اذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة وكان الفضيل يقول اذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضي عن الله تعالى وقال أحمد بن أبي الحواري قال أبو سليمان الداراني ان الله عز وجل من كرمه قد رضي من عبيده بما رضي العبيد من مواليهم قلت وكيف ذاك قال أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه قلت نعم قال فان محبة الله من عبيده ان يرضوا عنه وقال سهل حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عز وجل وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل بحكمه وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين وجعل الغم والحزن في الشك والسخط

(بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى)

اعلم أن من قال ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء الا الصبر فأما الرضا فلا يتصور فانما أتي من ناحية انكار المحبة فأما اذا ثبت تصور الحب لله تعالى واستغراق الهم به فلا يخفى ان الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب ويكون ذلك من وجهين * أحدهما ان يبطل الاحساس بالالم حتى يجري عليه المؤلم ولا يحس وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها ومثاله الرجل المحارب فانه في حال غضبه أو في حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها حتى اذا رأى الدم استدل به على الجراحة بل الذي يغدو في شغل قريب قد تصيبه شوكة في قدمه ولا يحس بألم ذلك لشغل قلبه بل الذي يحجم أو يحلق رأسه بحديدة كالة يتألم به فان كان مشغول القلب بمهم من مهماته فرغ المزين والحجام وهو لا يشعر به وكل ذلك لان القلب اذا صار مستغرقا بأمر من الامور مستوفى به لم يدرك ما عداه فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم له لولا عشقه ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء

البلاوي والفقر فان هذه نعم أخروية لما يستوجب بها من الجزاء (وحقيقة) الشكر أن يرى جميع المقضي له به نعما غير ما يضره في دينه لان الله تعالى لا يقضي للعبد المؤمن شيأ الا وهو نعمة في حقه فاما عاجلة يعرفها ويفهمها واما آجلة بما يقضي له من المكاره فاما أن تكون درجة له أو تمحيصا أو تكفيرا فاذا علم أن مولاه أنصح له من نفسه واعلم بمصالحه وأن كل ما منه نعم فقد شكر *(قولهم في الخوف)* قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس الحكمة مخافة الله (وروي) عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال كان داود النبي عليه السلام يعوده الناس يظنون أن به مرضا وما به مرض الا خوف الله تعالى والحياء منه (قال) أبو عمر الدمشقي الخائف من يخاف من نفسه

الحب على قلبه هذا اذا أصابه من غير حبيبه فكيف اذا أصابه من حبيبه وشغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل واذا تصور هذا فى ألم يسير بسبب حب خفيف تصور فى الالم العظيم بالحب العظيم فان الحب أيضا يتصور تضاعفه فى القوة كما يتصور تضاعف الالم وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال فمن ينكشف له شئ منه فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه فلا يحس بما يجرى عليه فقد روى ان امرأة فتح الموصلى عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها أما تجدين الوجع فقالت ان لذة ثوابه أزالت عن قلبى مرارة وجعه وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه فقيل له فى ذلك فقال يا دوست ضرب الحبيب لا يوجع * وأما الوجه الثانى فهو أن يحس به ويدرك ألمه ولكن يكون راضيا به بل راغبا فيه مريدا له أعنى بعقله وان كان كارها بطبعه كالذى يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة فانه يدرك ألم ذلك الا أنه راض به وراغب فيه ومتقلد من الفصاد به منة بفعله فهذا حال الراضى بما يجرى عليه من الالم وكذلك كل من يسافر فى طلب الربح يدرك مشقة السفر ولكن حبه لثمرة سفره طيب عنده مشقة السفر وجعله راضيا بها ومهما أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين بان ثوابه الذى ادخر له فوق ما فاته رضى به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه هذا ان كان يلاحظ الثواب والاحسان الذى يجازى به عليه ويجوز ان يغلب الحب بحيث يكون حظ المحب فى مراد محبوبه ورضاه لا لمعنى آخر وراءه فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده ومطلوبا وكل ذلك موجود فى المشاهدات فى حب الخلق وقد تواصفها المتواصفون فى نظمهم ونثرهم ولا معنى له الا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر فان نظر الى الجمال فما هو الا جلد ولحم ودم مشحون بالاقذار والاخباث بدايته من نطفة مذرة ونهايته جيفة قذرة وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة وان نظر الى المدرك للجمال فهى العين الخسيسة التى تغلط فيما ترى كثيرا فترى الصغير كبيرا والكبير صغيرا والبعيد قريبا والقبيح جميلا فاذا تصور استيلاء هذا الحب فمن أين يستحيل ذلك فى حب الجمال الازلى الابدى الذى لا منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التى لا يعتريها الغلط ولا يدور بها الموت بل تبقى بعد الموت حية عند الله فرحة برزق الله تعالى مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار ويشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المحبين وأقوالهم فقد قال شقيق البلخى من يرى ثواب الشدة لا يشتهى المخرج منها وقال الجنيد سألت سريا السقطى هل يجد المحب ألم البلاء قال لا قلت وان ضرب بالسيف قال نعم وان ضرب بالسيف سبعين ضربة ضربة على ضربة وقال بعضهم أحببت كل شئ بحبه حتى لو أحب النار أحببت دخول النار وقال بشر بن الحرث مررت برجل وقد ضرب ألف سوط فى شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل الى الحبس فتبعته فقلت له لم ضربت فقال لانى عاشق فقلت له ولم سكت قال لان معشوقى كان بحذائى ينظر الى فقلت فلو نظرت الى المعشوق الاكبر قال فزعق زعقة خر ميتا وقال يحيى ابن معاذ الرازى رحمه الله تعالى اذا نظر أهل الجنة الى الله تعالى ذهبت عيونهم فى قلوبهم من لذة النظر الى الله تعالى ثمانمائة سنة لا ترجع اليهم فما ظنك بقلوب وقعت بين جماله وجلاله اذا لاحظت جلاله هابت واذا لاحظت جماله تاهت وقال بشر قصدت عبادان فى بدايتى فاذا برجل أعمى مجذوم مجنون قد صرع والنمل يأكل لحمه فرفعت رأسه فوضعته فى حجرى وأنا أردد الكلام فلما أفاق قال من هذا الفضولى الذى يدخل بينى وبين ربى لو قطعنى اربا اربا ما ازددت له الا حبا قال بشر فما رأيت بعد ذلك نقمة بين عبد وبين ربه فانكرتها وقال أبو عمرو محمد بن الاشعث ان أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء الا النظر الى وجه يوسف الصديق عليه السلام كانوا اذا جاعوا نظروا الى وجهه فشغلهم جماله عن الاحساس بالم الجوع بل فى القرآن ما هو أبلغ من ذلك وهو قطع النسوة أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله حتى ما أحسسن بذلك وقال سعيد بن يحيى رأيت بالبصرة فى خان عطاء ابن مسلم شابا وفى يده مدية وهو ينادى باعلى صوته والناس حوله وهو يقول

يوم الفراق من يوم القيامة أطول * والموت من ألم التفرق أجمل

قالوا الرحيل فقلت لست براحل * لكن مهجتى التى تترحل

أكثر مما يخاف من الشيطان (وقال) بعضهم ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه ولكن الخائف التارك لما يخاف أن يعذب عليه (وقيل) الخائف الذى لا يخاف غير الله قيل أى لا يخاف لنفسه انما يخاف اجلالا له والخوف للنفس خوف العقوبة (وقال) سهل الخوف ذكر والرجاء أنثى أى منهما تتولد حقائق الايمان (قال) الله تعالى ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم واياكم أن اتقوا الله (قيل) هذه الآية قطب القرآن لان مدار الامر كله على هذا (وقيل) ان الله تعالى جمع للخائفين ما فرقه على المؤمنين وهو الهدى والرحمة والعلم والرضوان فقال تعالى هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون وقال انما يخشى الله من عباده العلماء وقال رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه

ثم يقر بالمدينة بطنه وخر ميتا فسألت عنه وعن أمره فقيل لى انه كان يهوى فتى لبعض الملوك حجب عنه يوما واحدا
ويروى ان يونس عليه السلام قال لجبريل دلنى على أعبد أهل الارض فدله على رجل قد قطع الجذام يديه
ورجليه وذهب ببصره فسمعه وهو يقول الهى متعتنى بهما ماشئت أنت وسلبتنى ماشئت أنت وأبقيت لى فيك
الامل يابر ياوصول ويروى عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه اشتكى له ابن فاشتد وجده عليه حتى
قال بعض القوم لقد خشينا على هذا الشيخ ان حدث بهذا الغلام حدث فمات الغلام فخرج ابن عمر فى جنازته
وما رجل أشد سرورا أبدا منه فقيل له فى ذلك فقال ابن عمر انما كان حزنى رحمة له فلما وقع أمر الله رضينا به وقال
مسروق كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك فالديك يوقظهم للصلاة والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم
خباءهم والكلب يحرسهم قال فجاء الثعلب فاخذ الديك فحزنوا له وكان الرجل صالحا فقال عسى أن يكون خيرا
ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله فحزنوا عليه فقال الرجل عسى أن يكون خيرا ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال
عسى أن يكون خيرا ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فاذا قد سبى من حولهم وبقوا هم قال وانما أخذوا أولئك لما
كان عندهم من أصوات الكلاب والحمير والديكة فكانت الخيرة لهؤلاء فى هلاك هذه الحيوانات كما قدره الله
تعالى فاذا من عرف خفى لطف الله تعالى رضى بفعله على كل حال * ويروى ان عيسى عليه السلام مر برجل أعمى
أبرص مقعد مضروب الجنبين بفالج وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيرا من
خلقه فقال له عيسى ياهذا أى شئ من البلاء أراه مصروفا عنك فقال ياروح الله أنا خير ممن لم يجعل الله فى قلبه
ما جعل فى قلبى من معرفته فقال له صدقت هات يدك فناوله يده فاذا هو أحسن الناس وجها وأفضلهم هيئة وقد
أذهب الله عنه ما كان به فصحب عيسى عليه السلام وتعبد معه وقطع عروة بن الزبير رجله من ركبته من أكلة
خرجت بها ثم قال الحمد لله الذى أخذ منى واحدة وايمك لئن كنت أخذت لقد أبقيت ولئن كنت ابتليت لقد
عافيت ثم لم يدع ورده تلك الليلة وكان ابن مسعود يقول الفقر والغنى مطيتان ما أبالى أيتهما ركبت ان كان
الفقر فان فيه الصبر وان كان الغنى فان فيه البذل وقال أبو سليمان الدارانى قد نلت من كل مقام حالا الا الرضا فمالى
منه الا مشام الريح وعلى ذلك لو أدخل الخلائق كلهم الجنة وأدخلنى النار كنت بذلك راضيا وقيل لعارف آخر هل
نلت غاية الرضا عنه فقال أما الغاية فلا ولكن مقام الرضا قد نلته لو جعلنى جسرا على جهنم يعبر الخلائق على الى
الجنة ثم ملأ بى جهنم تحلة لقسمه وبدلا من خليقته لاحببت ذلك من حكمه ورضيت به من قسمه وهذا كلام من علم
ان الحب قد استغرق همه حتى منعه الاحساس بألم النار فان بقى احساس فيغمره ما يحصل من لذته فى استشعار
حصول رضا محبوبه بالقائه اياه فى النار واستيلاء هذه الحالة غير محال فى نفسه وان كان بعيدا من أحوالنا
الضعيفة ولكن لا ينبغى أن يستنكر الضعيف المحروم أحوال الاقوياء ويظن أن ماهو عاجز عنه يعجز عنه الاولياء
وقال الروذبارى قلت لابى عبد الله بن الجلاء الدمشقى قول فلان وددت أن جسدى قرض بالمقاريض وان هذا
الخلق أطاعوه ما معناه فقال ياهذا ان كان هذا من طريق التعظيم والاجلال فلا أعرف وان كان هذا من طريق
الاشفاق والنصح للخلق فاعرف قال ثم غشى عليه وقد كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه فبقى ملقى على ظهره
ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد قد نقب له فى سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته فدخل عليه مطرف
وأخوه العلاء فجعل يبكى لما يراه من حاله فقال لم تبكى قال لانى أراك على هذه الحالة العظيمة قال لا تبك فان أحبه
الى الله تعالى أحبه الى ثم قال أحدثك شيأ لعل الله ان ينفعك به واكتم على حتى أموت ان الملائكة تزورنى فآنس
بها وتسلم على فأسمع تسليمها فاعلم بذلك ان هذا البلاء ليس بعقوبة اذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة فمن يشاهد
هذا فى بلائه كيف لا يكون راضيا به قال ودخلنا على سويد بن متعبة نعوده فرأينا ثوبا ملقى فما ظننا ان تحته شيأ
حتى كشف فقالت له امرأته أهلى فداؤك ما نطعمك ما نسقيك فقال طالت الضجعة ودبرت الحراقيف وأصبحت
نضوا لا أطعم طعاما ولا أسيغ شرابا منذ كذا فذكر أياما وما يسرنى انى نقصت من هذا قلامة ظفر * ولما قدم
سعد بن أبى وقاص الى مكة وقد كان كف بصره جاءه الناس يهرعون اليه كل واحد يسأله أن يدعو له فيدعو
لهذا ولهذا وكان مجاب الدعوة قال عبد الله بن السائب فأتيته وأنا غلام فتعرفت اليه فعرفنى وقال أنت قارئ

(وقال) سهل كمال الايمان بالعلم وكمال العلم بالخوف (وقال) أيضا العلم كسب الايمان والخوف كسب المعرفة (وقال) ذو النون لا يسقى المحب كأس المحبة الا من بعد أن ينضج الخوف قلبه (وقال) فضيل بن عياض اذا قيل لك تخاف الله اسكت فانك ان قلت لا كفرت وان قلت نعم كذبت فليس وصفك وصف من يخاف

(قولهم فى الرجاء)

(قال) رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان ثم يقول وعزتى وجلالى لا أجعل من آمن بى فى ساعة من ليل أو نهار كمن لم يؤمن بى (قيل) جاء اعرابى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من يلى حساب الخلق فقال الله تبارك وتعالى

اهل

أهل مكة قالت نعم فذكر قصة قال في آخرها فقلت له يا عم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك فتبسم وقال يا بني قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصري وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة أيام لم يعرف له خبر فقيل له لو سألت الله تعالى أن يرده عليك فقال اعتراضي عليه فيما قضى أشد علي من ذهاب ولدي وعن بعض العباد أنه قال اني أذنبت ذنبا عظيما فانا أبكي عليه منذ ستين سنة وكان قد اجتهد في العبادة لاجل التوبة من ذلك الذنب فقيل له وما هو قال قلت مرة لشيء كان ليته لم يكن وقال بعض السلف لو قرض جسمي بالمقاريض لكان أحب الي من أن أقول لشيء قضاه الله سبحانه ليته لم يقضه وقيل لعبد الواحد بن زيد ههنا رجل قد تعبد خمسين سنة فقصده فقال له يا حبيبي أخبرني عنك هل قنعت به قال لا قال أنست به قال لا قال فهل رضيت عنه قال لا قال فانما مزيدك منه الصوم والصلاة قال نعم قال لولا اني استحي منك لاخبرتك بأن معاملتك خمسين سنة مدخولة ومعناه بانك لم يفتح لك باب القلب فتترقى الى درجات القرب بأعمال القلب وانما أنت تعد في طبقات أصحاب اليمين لان مزيدك منه في أعمال الجوارح التي هي مزيد أهل العموم * ودخل جماعة من الناس على الشبلي رحمه الله تعالى في مارستان قد حبس فيه وقد جمع بين يديه حجارة فقال من أنتم فقالوا محبوك فاقبل عليهم يرميهم بالحجارة فتهاربوا فقال ما بالكم ادعيتم محبتي ان صدقتم فاصبروا على بلائي وللشبلي رحمه الله تعالى

ان المحبة للرحمن أسكرني * وهل رأيت محبا غير سكران

وقال بعض عباد أهل الشام كلكم يلقى الله عز وجل مصدقا ولعله قد كذبه وذلك ان أحدكم لو كان له أصبع من ذهب ظل يشير بها ولو كان بها شلل ظل يواريها يعني بذلك ان الذهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به والبلاء زينة أهل الآخرة وهم يستنكفون منه * وقيل انه وقع الحريق في السوق فقيل للسري احترق السوق وما احترق دكانك فقال الحمد لله ثم قال كيف قلت الحمد لله على سلامتي دون المسلمين فتاب من التجارة وترك الحانوت بقية عمره توبة واستغفارا من قوله الحمد لله فاذا تأملت هذه الحكايات عرفت قطعا ان الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلا بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين ومهما كان ذلك ممكنا في حب الخلق وحظوظهم كان ممكنا في حق حب الله تعالى وحظوظ الآخرة قطعا وامكانه من وجهين أحدهما الرضا بالالم لما يتوقع من الثواب المرجو كالرضا بالفصد والحجامة وشرب الدواء انتظارا للشفاء والثاني الرضا به لا لحظ وراءه بل لكونه مراد المحبوب ورضا له فقد يغلب الحب بحيث ينغمر مراد المحب في مراد المحبوب فيكون ألذ الاشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاه ونفوذ ارادته ولو في هلاك روحه كما قيل فما لجرح اذا أرضاكم ألم * وهذا ممكن مع الاحساس بالالم وقد يستولي الحب بحيث يدهش عن ادراك الالم فالقياس والتجربة والمشاهدة دالة على وجوده فلا ينبغي أن ينكره من فقده من نفسه لانه انما فقده لفقد سببه وهو فرط حبه ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه فللمحبين عجائب اعظم مما وصفناه * وقد روي عن عمرو بن الحرث الرافعي قال كنت في مجلس بالرقة عند صديق لي وكان معنا فتى يتعشق جارية مغنية وكانت معنا في المجلس فضربت بالقضيب وغنت

علامة ذل الهوى * على العاشقين البكى
ولاسيما عاشق * اذا لم يجد مشتكى

فقال لها الفتى أحسنت والله يا سيدتي أفتأذنين لي أن أموت فقالت مت راشدا قال فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فمه وغمض عينيه فحركناه فاذا هو ميت وقال الجنيد رأيت رجلا متعلقا بكم صبي وهو يتضرع اليه ويظهر له المحبة فالتفت اليه الصبي وقال له الى متى ذا النفاق الذي تظهر لي فقال قد علم الله اني صادق فيما أورده حتى لو قلت لي مت لمت فقال ان كنت صادقا فمت قال فتنحى الرجل وغمض عينيه فوجد ميتا * وقال سمنون المحب كان في جيراننا رجل وله جارية يحبها غاية الحب فاعتلت الجارية فجلس الرجل ليصلح لها حيسا فبينا هو يحرك القدر اذ قالت الجارية آه قال فدهش الرجل وسقطت الملعقة من يده وجعل يحرك ما في القدر بيده حتى سقطت أصابعه فقالت الجارية ما هذا قال هذا مكان قولك آه * وحكي عن محمد بن عبد الله البغدادي قال رأيت بالبصرة شابا على سطح مرتفع وقد أشرف على الناس وهو يقول

من مات عشقا فليمت هكذا * لا خير في عشق بلا موت

قال هو بنفسه قال نعم فتبسم الاعرابي فقال النبي صلى الله عليه وسلم مما ضحكت يا اعرابي فقال ان الكريم اذا قدر عفا واذا حاسب سامح (وقال) شاه الكرماني علامة الرجاء حسن الطاعة (وقيل) الرجاء رؤية الجلال بعين الجمال (وقيل) قرب القلب من ملاطفة الرب قال أبو علي الروذباري الخوف والرجاء كجناحي الطائر اذا استويا استوى الطائر وتم في طيرانه (قال) أبو عبد الله بن خفيف الرجاء ارتياح القلوب لرؤية كرم المرجو (قال) مطرف لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا والخوف والرجاء للايمان كالجناحين ولا يكون خائفا الا وهو راج ولا راجيا الا وهو خائف لان موجب الخوف الايمان وبالايمان رجاء وموجب الرجاء الايمان ومن الايمان خوف ولهذا المعنى روى

ثم رمى نفسه الى الارض فحملوه ميتا فهذا وأمثاله قد يصدق به فى حب المخلوق والتصديق به فى حب الخالق أولى لان البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر وجمال الحضرة الربانية أوفى من كل جمال بل كل جمال فى العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال نعم الذى فقد البصر ينكر جمال الصور والذى فقد السمع ينكر لذة الالحان والنغمات الموزونة فالذى فقد القلب لا بد وأن ينكر أيضا هذه اللذات التى لا مظنة لها سوى القلب

(بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا)

ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا وكذلك كراهة المعاصى ومقت أهلها ومقت أسبابها والسعى فى ازالتها بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يناقضه أيضا وقد غلط فى ذلك بعض البطالين المغترين وزعم أن المعاصى والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عز وجل فيجب الرضا به وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع فأما الدعاء فقد تعبدنا به وكثرة دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الانبياء عليهم السلام على ما نقلناه فى كتاب الدعوات تدل عليه ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أعلى المقامات من الرضا وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله يدعوننا رغبا ورهبا وأما انكار المعاصى وكراهتها وعدم الرضا بها فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا به فقال ورضوا بالحيوة الدنيا واطمأنوا بها وقال تعالى رضوا بان يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم وفى الخبر المشهور من شهد منكرا فرضى به فكأنه قد فعله وفى الحديث الدال على الشر كفاعله وعن ابن مسعود ان العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه قيل وكيف ذلك قال يبلغه فيرضى به وفى الخبر لو أن عبدا قتل بالمشرق ورضى بقتله آخر بالمغرب كان شريكا فى قتله وقد أمر الله تعالى بالحسد والمنافسة فى الخيرات وتوقى الشرور فقال تعالى وفى ذلك فليتنافس المتنافسون وقال النبى صلى الله عليه وسلم لا حسد الا فى اثنين رجل آتاه الله حكمة فهو يبثها فى الناس ويعلمها ورجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق وفى لفظ آخر ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار فيقول الرجل لو آتانى الله مثل ما آتى هذا لفعلت مثل ما يفعل وأما بغض الكفار والفجار والانكار عليهم ومقتهم فما ورد فيه من شواهد القرآن والاخبار لا يحصى مثل قوله تعالى لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء وقال تعالى وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا وفى الخبر ان الله تعالى أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق وعلى كل منافق أن يبغض كل مؤمن وقال عليه السلام المرء مع من أحب وقال من أحب قوما ووالاهم حشر معهم يوم القيامة وقال عليه السلام أوثق عرى الايمان الحب فى الله والبغض فى الله وشواهد هذا قد ذكرناها فى بيان الحب والبغض فى الله تعالى من كتاب آداب الصحبة وفى كتاب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فلا نعيده فان قلت فقد وردت الآيات والاخبار بالرضا بقضاء الله تعالى فان كانت المعاصى بغير قضاء الله تعالى فهو محال وهو قادح فى التوحيد وان كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى وكيف السبيل الى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة فى شئ واحد فاعلم ان هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكرات مقاما من مقامات الرضا وسموه حسن خلق وهو جهل محض بل نقول الرضا والكراهة يتضادان اذا تواردا على شئ واحد من جهة واحدة على وجه واحد فليس من التضاد فى شئ واحد أن يكره من وجه ويرضى به من وجه اذ قد يموت عدوك الذى هو أيضا عدو بعض أعدائك وساع فى اهلاكه فتكره موته من حيث انه مات عدو عدوك وترضاه من حيث انه مات عدوك وكذلك المعصية لها وجهان وجه الى الله تعالى من حيث انه فعله واختياره وارادته فيرضى به من هذا الوجه تسليما للملك الى مالك الملك ورضا بما يفعله فيه ووجه الى العبد من حيث انه كسبه ووصفه وعلامة كونه ممقوتا عند الله وبغيضا عنده حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت فهو من هذا الوجه منكر ومذموم ولا ينكشف هذا الا بمثال فلنفرض محبوبا من الخلق قال بين يدى محبيه انى أريد أن أميز بين من يحبنى ويبغضنى وأنصب فيه معيارا صادقا وميزانا ناطقا وهو أنى أقصد الى فلان فأوذيه وأضربه ضربا يضطره ذلك الى الشتم لى حتى اذا شتمنى أبغضته واتخذته عدوا لى فكل من أحبه أعلم

عن لقمان انه قال لابنه خف الله تعالى خوفا لا تأمن فيه مكره وارجه أشد من خوفك قال فكيف أستطيع ذلك وانما لى قلب واحد قال أما علمت ان المؤمن لذو قلبين يخاف باحدهما ويرجو بالآخر وهذا لانهما من حكم الايمان

(قولهم فى التوكل) قال السرى التوكل الانخلاع من الحول والقوة (وقال) الجنيد التوكل أن تكون لله كما لم تكن فيكون الله لك كما لم يزل (وقال) سهل كل المقامات لها وجه وقفا غير التوكل فانه وجه بلا قفا (قال) بعضهم يريد توكل العناية لا توكل الكفاية والله تعالى جعل التوكل مقرونا بالايمان فقال وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين وقال وعلى الله فليتوكل المؤمنون وقال لنبيه وتوكل على الحى الذى لا يموت (وقال) ذوالنون

أيضا أنه عدوي وكل من أبغضه أعلم أنه صديقي ومحبي ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض وحصل البغض الذي هو سبب العداوة فحق على كل من هو صادق في محبته وعالم بشروط المحبة أن يقول أما تدبيرك في ايذاء هذا الشخص وضربه وابعاده وتعريضك اياه للبغض والعداوة فانا محب له وراض به فانه رأيك وتدبيرك وفعلك وارادتك وأما شتمه اياك فانه عدوان من جهته اذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم ولكنه كان مرادك منه فانك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت فهو من حيث انه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذي دبرته فانا راض به ولو لم يحصل لكان ذلك نقصانا في تدبيرك وتعويقا في مرادك وأنا كاره لفوات مرادك ولكنه من حيث انه وصف لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف ما يقتضيه جمالك اذ كان ذلك يقتضي أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم فانا كاره له من حيث نسبته اليه ومن حيث هو وصف له لا من حيث هو مرادك ومقتضى تدبيرك وأما بغضك له بسبب شتمك فانا راض به ومحب له لانه مرادك وأنا على موافقتك أيضا مبغض له لان شرط المحب أن يكون لحبيب المحبوب حبيبا ولعدوه عدوا وأما بغضه لك فاني أرضاه من حيث انك أردت أن يبغضك اذ أبعدته عن نفسك وسلطت عليه دواعي البغض ولكني أبغضه من حيث انه وصف ذلك المبغض وكسبه وفعله وأمقته لذلك فهو ممقوت عندي لمقته اياك وبغضه ومقته لك أيضا عندي مكروه من حيث انه وصفه وكل ذلك من حيث انه مرادك فهو مرضي وانما التناقض أن يقول هو من حيث انه مرادك مرضي ومن حيث انه مرادك مكروه وأما اذا كان مكروها لا من حيث انه فعله ومراده بل من حيث انه وصف غيره وكسبه فهذا لا تناقض فيه ويشهد لذلك كل ما يكره من وجه ويرضى به من وجه ونظائر ذلك لا تحصى فاذا تسليط الله دواعي الشهوة والمعصية عليه حتى يجره ذلك الى حب المعصية ويجره الحب الى فعل المعصية يضاهي ضرب المحبوب للشخص الذي ضربناه مثلا ليجره الضرب الى الغضب والغضب الى الشتم ومقت الله تعالى لمن عصاه وان كانت معصيته بتدبيره يشبه بغض المشتوم لمن شتمه وان كان شتمه انما يحصل بتدبيره واختياره لاسبابه وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبيده أعني تسليط دواعي المعصية عليه يدل على انه سبقت مشيئته بابعاده ومقته فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله ويمقت من مقته الله ويعادي من أبعده الله عن حضرته وان اضطره بقهره وقدرته الى معاداته ومخالفته فانه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة وان كان بعيدا بابعاده قهرا ومطرودا بطرده واضطراره والمبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون مقيتا بغيضا الى جميع المحبين موافقة للمحبوب باظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بابعاده وبهذا يتقرر جميع ما وردت به الاخبار من البغض في الله والحب في الله والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم والمبالغة في مقتهم مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث انه قضاء الله عز وجل وهذا كله يستمد من سر القدر الذي لا رخصة في افشائه وهو ان الشر والخير كلاهما داخلان في المشيئة والارادة ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضي به فمن قال ليس الشر من الله فهو جاهل وكذا من قال انهما جميعا منه من غير افتراق في الرضا والكراهة فهو أيضا مقصر وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه فالاولى السكوت والتأدب بادب الشرع فقد قال صلى الله عليه وسلم القدر سر الله فلا تفشوه وذلك يتعلق بعلم المكاشفة وغرضنا الآن بيان الامكان فيما تعبد به الخلق من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ومقت المعاصي مع انها من قضاء الله تعالى وقد ظهر الغرض من غير حاجة الى كشف السر فيه وبهذا يعرف أيضا ان الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصي وسائر الاسباب المعينة على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى فان الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحا للكشف وسببا لتواتر مزايا اللطف كما أن حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضا للرضا بقضاء الله تعالى في العطش وشرب الماء طلبا لازالة العطش مباشرة سبب رتبه مسبب الاسباب فكذلك الدعاء سبب رتبه الله تعالى وأمر به وقد ذكرنا ان التمسك بالاسباب جريا على سنة الله تعالى لا يناقض التوكل واستقصيناه في كتاب التوكل فهو أيضا لا يناقض الرضا لان الرضا مقام ملاصق للتوكل ويتصل به نعم اظهار البلاء في معرض الشكوى وانكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا واظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى

التوكل ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة (وقال) أبو بكر الزقاق التوكل رد العيش الى يوم واحد واسقاط هم غد (وقال) أبو بكر الواسطي أصل التوكل صدق الفاقة والافتقار وأن لا يفارق التوكل في أمانيه ولا يلتفت بسره الى توكله لحظة في عمره (وقال) بعضهم من أراد أن يقوم بحق التوكل فليحفر لنفسه قبرا يدفنها فيه وينس الدنيا وأهلها لان حقيقة التوكل لا يقوم له أحد من الخلق على كماله (وقال) سهل أول مقامات التوكل أن يكون العبد بين يدي الله تعالى كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف أراد ولا يكون له حركة ولا تدبير (وقال) حمدون القصار التوكل هو الاعتصام بالله (وقال) سهل أيضا العلم كله باب من التعبد والتعبد كله باب من الورع والورع

لا يناقض وقد قال بعض السلف من حسن الرضا بقضاء الله تعالى أن لا يقول هذا يوم حار أي في معرض الشكاية وذلك في الصيف فأما في الشتاء فهو شكر والشكوى تناقض الرضا بكل حال وذم الأطعمة وعيبها يناقض الرضا بقضاء الله تعالى لأن مذمة الصنعة مذمة للصانع والكل من صنع الله تعالى وقول القائل الفقر بلاء ومحنة والعيال هم وتعب والاحتراف كد ومشقة كل ذلك قادح في الرضا بل ينبغي أن يسلم التدبير لمدبره والمملكة لمالكها ويقول ما قاله عمر رضي الله عنه لا أبالي أصبحت غنياً أو فقيراً فاني لا أدري أيهما خير لي

(بيان أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ومذمتها لا يقدح في الرضا)

اعلم أن الضعيف قد يظن أن نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون يدل على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى وذلك محال بل العلة في النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون انه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الأصحاء وبقي فيه المرضى مهملين لا متعهد لهم فيهلكون هزلا وضرا ولذلك شبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الاخبار بالفرار من الزحف ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلدة في الانصراف وقد ذكرنا حكم ذلك في كتاب التوكل واذا عرف المعنى ظهر أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ليس فرارا من القضاء بل من القضاء الفرار مما لابد من الفرار منه وكذلك مذمة المواضع التي تدعو الى المعاصي والاسباب التي تدعو اليها لأجل التنفير عن المعصية ليست مذمومة فما زال السلف الصالح يعتادون ذلك حتى اتفق جماعة على ذم بغداد واظهارهم ذلك وطلب الفرار منها فقال ابن المبارك قد طفت الشرق والغرب فما رأيت بلدا شرا من بغداد قيل وكيف قال هو بلد تزدرى فيه نعمة الله وتستصغر فيه معصية الله ولما قدم خراسان قيل له كيف رأيت بغداد قال ما رأيت بها الا شرطيا غضبان أو تاجرا لهفان أو قارئا حيران ولا ينبغي أن تظن ان ذلك من الغيبة لانه لم يتعرض لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به وانما قصد بذلك تحذير الناس وكان يخرج الى مكة وقد كان مقامه ببغداد يرقب استعداد القافلة ستة عشر يوما فكان يتصدق بستة عشر دينارا لكل يوم دينار كفارة لمقامه وقد ذم العراق جماعة كعمر بن عبد العزيز وكعب الاحبار وقال ابن عمر رضي الله عنهما لمولى له أين تسكن فقال العراق قال فما تصنع به بلغني أنه ما من أحد يسكن العراق الا قيض الله له قرينا من البلاء وذكر كعب الاحبار يوما العراق فقال فيه تسعة أعشار الشر وفيه الداء العضال وقد قيل قسم الخير عشرة أجزاء فتسعة أعشاره بالشام وعشره بالعراق وقسم الشر عشرة أجزاء على العكس من ذلك وقال بعض أصحاب الحديث كنا يوما عند الفضيل بن عياض فجاءه صوفي متدرع بعباءة فأجلسه الى جانبه وأقبل عليه ثم قال أين تسكن فقال بغداد فأعرض عنه وقال يأتينا أحدهم في زي الرهبان فاذا سألناه أين تسكن قال في عش الظلمة وكان بشر بن الحرث يقول مثال المتعبد ببغداد مثال المتعبد في الحش وكان يقول لا تقتدوا بي في المقام بها من أراد أن يخرج فليخرج وكان أحمد بن حنبل يقول لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد آثر في نفسي قيل وأين تختار السكنى قال بالثغور وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بغداد زاهدهم زاهد وشريرهم شرير فهذا يدل على ان من بلي ببلدة تكثر فيها المعاصي ويقل فيها الخير فلا عذر له في المقام بها بل ينبغي أن يهاجر قال الله تعالى ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فان منعه عن ذلك عيال أو علاقة فلا ينبغي أن يكون راضيا بحاله مطمئن النفس اليه بل ينبغي أن يكون منزعج القلب منها قائلا على الدوام ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها وذلك لان الظلم اذا عم نزل البلاء ودمر الجميع وشمل المطيعين قال الله تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة فاذا ليس في شيء من أسباب نقص الدين البتة رضا مطلق الا من حيث اضافتها الى فعل الله تعالى فأما هي في نفسها فلا وجه للرضا بها بحال وقد اختلف العلماء في الافضل من أهل المقامات الثلاث رجل يحب الموت شوقا الى لقاء الله تعالى ورجل يحب البقاء لخدمة المولى ورجل قال لا اختار شيأ بل ارضى بما اختاره الله تعالى ورفعت هذه المسألة الى بعض العارفين فقال صاحب الرضا أفضلهم لانه أقلهم فضولا واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن اسباط فقال الثوري كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم واليوم وددت أني مت فقال له

كله باب من الزهد والزهد كله باب من التوكل (وقال) التقوى واليقين مثل كفتي الميزان والتوكل لسانه به تعرف الزيادة والنقصان ويقع لي أن التوكل على قدر العلم بالوكيل فكل من كان أتم معرفة كان أتم توكلا ومن كمل توكله غاب في رؤية الوكيل عن رؤية توكله ثم ان قوة المعرفة تفيد صرف العلم بالعدل في القسمة وان الاقسام نصبت بازاء المقسوم لهم عدلا وموازنة فان النظار الى غير الله لوجود الجهل في النفس وكل ما أحس بشيء يقدح في توكله يراه من منبع النفس فنقصان التوكل يظهر بظهور النفس وكماله يثبت بغيبة النفس وليس للاقوياء اعتداد بتصحيح توكلهم وانما شغلهم في تغييب النفس بتقوية مواد القلب فاذا غابت النفس انحسمت مادة الجهل فصح التوكل والعبد غير ناظر اليه

يوسف لم قال لما أتخوف من الفتنة فقال يوسف لكني لا أكره طول البقاء فقال سفيان لم قال لعلي أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا فقيل لوهيب ايش تقول أنت فقال أنا لا اختار شيأ أحب ذلك الى أحبه الى الله سبحانه فقبل الثوري بين عينيه وقال روحانية ورب الكعبة

(بيان جملة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفاتهم)

قيل لبعض العارفين انك محب فقال لست محبا انما أنا محبوب والمحب متعوب وقيل له أيضا الناس يقولون انك واحد من السبعة فقال انا كل السبعة وكان يقول اذا رأيتموني فقد رأيتم أربعين بدلا قيل وكيف وأنت شخص واحد قال لاني رأيت أربعين بدلا وأخذت من كل بدل خلقا من أخلاقه وقيل له بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام فتبسم وقال ليس العجب ممن يرى الخضر ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه وحكى عن الخضر عليه السلام أنه قال ماحدثت نفسي يوما قط انه لم يبق ولي لله تعالى الا عرفته الا ورأيت في ذلك اليوم وليا لم أعرفه وقيل لابي يزيد البسطامي مرة حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى فصاح ثم قال ويلكم لا يصلح لكم ان تعلموا ذلك قيل فحدثنا باشد مجاهدتك لنفسك في الله تعالى فقال وهذا أيضا لا يجوز أن أطلعكم عليه قيل فحدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك فقال نعم دعوت نفسي الى الله فجمحت علي فعزمت عليها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق النوم سنة فوفت لي بذلك* ويحكى عن يحيى بن معاذ انه رأى أبا يزيد في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء الى طلوع الفجر مستوفزا على صدور قدميه رافعا أخمصيه مع عقبيه عن الارض ضاربا بذقنه على صدره شاخصا بعينيه لا يطرف قال ثم سجد عند السحر فاطاله ثم قعد فقال اللهم ان قوما طلبوك فاعطيتهم المشي على الماء والمشي في الهواء فرضوا بذلك واني أعوذ بك من ذلك وان قوما طلبوك فاعطيتهم طي الارض فرضوا بذلك واني أعوذ بك من ذلك وان قوما طلبوك فاعطيتهم كنوز الارض فرضوا بذلك واني اعوذ بك من ذلك حتى عد نيفا وعشرين مقاما من كرامات الاولياء ثم التفت فرآني فقال يحيى قلت نعم يا سيدي فقال مذ متى أنت ههنا قلت منذ حين فسكت فقلت يا سيدي حدثني بشيء فقال أحدثك بما يصلح لك أدخلني في الفلك الاسفل فدورني في الملكوت السفلي وأراني الارضين وما تحتها الى الثرى ثم أدخلني في الفلك العلوي فطوف بي في السموات وأراني ما فيها من الجنان الى العرش ثم أوقفني بين يديه فقال سلني أي شيء رأيت حتى أهبه لك فقلت يا سيدي ما رأيت شيأ استحسنته فاسألك اياه فقال أنت عبدي حقا تعبدني لاجلي صدقا لافعلن بك ولافعلن فذكر أشياء قال يحيى فهالني ذلك وامتلأت به وعجبت منه فقلت يا سيدي لم لا سألته المعرفة به وقد قال لك ملك الملوك سلني ما شئت قال فصاح بي صيحة وقال اسكت ويلك غرت عليه مني حتى لا أحب أن يعرفه سواه وحكي ان أبا تراب النخشبي كان معجبا ببعض المريدين فكان يدنيه ويقوم بمصالحه والمريد مشغول بعبادته ومواجدته فقال له أبو تراب يوما لو رأيت أبا يزيد فقال اني عنه مشغول فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله لو رأيت أبا يزيد هاج وجد المريد فقال ويحك ما أصنع بابي يزيد قد رأيت الله تعالى فاغناني عن أبي يزيد قال أبو تراب فهاج طبعي ولم أملك نفسي فقلت ويلك تغتر بالله عز وجل لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة قال فبهت الفتى من قوله وأنكره فقال وكيف ذلك قال له ويلك أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره فعرف ما قلت فقال احملني اليه فذكر قصة قال في آخرها فوقفنا على تل ننتظره ليخرج الينا من الغيضة وكان يأوي الى غيضة فيها سباع قال فمر بنا وقد قلب فروة على ظهره فقلت للفتى هذا أبو يزيد فانظر اليه فنظر اليه الفتى فصعق فحركناه فاذا هو ميت فتعاونا على دفنه فقلت لابي يزيد يا سيدي نظره اليك قتله قال لا ولكن كان صاحبكم صادقا واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه فلما رآنا انكشف له سر قلبه فضاق عن حمله لانه في مقام الضعفاء المريدين فقتله ذلك* ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الانفس ونهبوا الاموال اجتمع الى سهل اخوانه فقالوا لو سألت الله تعالى دفعهم فسكت ثم قال ان لله عبادا في هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الارض ظالم الا مات في ليلة واحدة ولكن لا يفعلون قيل لم قال لانهم لا يحبون ما لا يحب ثم ذكر من اجابة الله أشياء لا يستطاع ذكرها حتى قال ولو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يقمها وهذه أمور ممكنة في أنفسها فمن لم يحظ بشيء منها فلا ينبغي أن يخلو عن التصديق والايمان بامكانها فان القدرة واسعة والفضل عميم وعجائب الملك والملكوت

وكل ما تحرك من النفس بقية يرد على ضميرهم سر قوله تعالى ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء فيغلب وجود الحق الاعيان والاكوان ويرى الكون بالله من غير استقلال الكون في نفسه ويصير التوكل حينئذ اضطرارا ولا يقدح في توكل مثل هذا المتوكل ما يقدح في توكل الضعفاء في التوكل من وجود الاسباب والوسايط لانه يرى الاسباب مواتا لا حياة لها الا بالتوكل وهذا توكل خواص أهل المعرفة

(قولهم في الرضا)

قال الحرث الرضا سكون القلب تحت جريان الحكم وقال ذو النون الرضا سرور القلب بمر القضاء (وقال) سفيان عند رابعة اللهم ارض عنا فقالت له أما تستحي أن تطلب رضا من لست عنه براض فسالها بعض الحاضرين متى يكون العبد راضيا

كثيرة ومقدورات الله تعالى لانهاية لها وفضله على عباده الذين اصطفى لاغاية له ولذلك كان أبو يزيد يقول ان أعطاك مناجاة موسى وروحانية عيسى وخلة ابراهيم فاطلب ماوراء ذلك فان عنده فوق ذلك أضعافا مضاعفة فان سكنت الى ذلك حجبك به وهذا بلاء مثلهم ومن هو فى مثل حالهم لانهم الامثل فالامثل وقد قال بعض العارفين كوشفت بأربعين حوراء رأيتهن يتساعين فى الهواء عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتخشخش ويتثنى معهن فنظرت اليهن نظرة فعوقبت أربعين يوما ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن فى الحسن والجمال وقيل لى انظر اليهن قال فسجدت وغمضت عينى فى سجودى لئلا أنظر اليهن وقلت أعوذ بك مما سواك لاحاجة لى بهذا فلم أزل أتضرع حتى صرفهن الله عنى فامثال هذه المكاشفات لا ينبغى أن ينكرها المؤمن لافلاسه عن مثلها فلو لم يؤمن كل واحد الا بما يشاهده من نفسه المظلمة وقلبه القاسى لضاق مجال الايمان عليه بل هذه أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ونيل مقامات كثيرة أدناها الاخلاص واخراج حظوظ النفس وملاحظة الخلق عن جميع الاعمال ظاهرا وباطنا ثم مكاتمة ذلك عن الخلق بستر الحال حتى يبقى متحصنا بحصن الخمول فهذه أوائل سلوكهم وأقل مقاماتهم وهى أعز موجود فى الاتقياء من الناس وبعد تصفية القلب عن كدورة الالتفات الى الخلق يفيض عليه نور اليقين وينكشف له مبادى الحق وانكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق يجرى مجرى انكار من انكر امكان انكشاف الصورة فى الحديدة اذا شكلت ونقيت وصقلت وصورت بصورة المرآة فنظر المنكر الى مافى يده من زبرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدأ والخبث وهو لا يحكى صورة من الصور فانكر امكان انكشاف المرئى فيها عند ظهور جوهرها وانكار ذلك غاية الجهل والضلال فهذا حكم كل من أنكر كرامات الاولياء اذ لا مستند له الا قصوره عن ذلك وقصور من رآه وبئس المستند ذلك فى انكار قدرة الله تعالى بل انما يشم روائح المكاشفة من سلك شيأ ولو من مبادى الطريق كما قيل لبشر بأى شئ بلغت هذه المنزلة قال كنت أكاتم الله تعالى حالى معناه أسأله ان يكتم على ويخفى أمرى وروى أنه رأى الخضر عليه السلام فقال له ادع الله تعالى لى فقال يسر الله عليك طاعته قلت زدنى قال وسترها عليك فقيل معناه سترها عن الخلق وقيل معناه سترها عنك حتى لا تلتفت أنت اليها وعن بعضهم أنه قال أقلقنى الشوق الى الخضر عليه السلام فسألت الله تعالى مرة أن يرينى اياه ليعلمنى شيأ كان أهم الاشياء على قال فرأيته فما غلب على همى ولا همتى الا ان قلت له يا أبا العباس علمنى شيأ اذا قلته حجبت عن قلوب الخليقة فلم يكن لى فيها قدر ولا يعرفنى أحد بصلاح ولا ديانة فقال قل اللهم أسبل على كثيف سترك وحط على سرادقات حجبك واجعلنى فى مكنون غيبك واحجبنى عن قلوب خلقك قال ثم غاب فلم أره ولم أشتق اليه بعد ذلك فمازلت أقول هذه الكلمات فى كل يوم فحكى أنه صار بحيث كان يستذل ويمتهن حتى كان أهل الذمة يسخرون به ويستسخرونه فى الطرق يحمل الاشياء لهم لسقوطه عندهم وكان الصبيان يلعبون به فكانت راحته ركود قلبه واستقامة حاله فى ذله وخموله فهكذا حال أولياء الله تعالى ففى أمثال هؤلاء ينبغى ان يطلبوا والمغرورون انما يطلبونهم تحت المرقعات والطيالسة وفى المشهورين بين الخلق بالعلم والورع والرياسة وغيرة الله تعالى على أوليائه تأبى الا اخفاءهم كما قال تعالى أوليائى تحت قبابى لا يعرفهم غيرى وقال صلى الله عليه وسلم رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لابره وبالجملة فابعد القلوب عن مشام هذه المعانى القلوب المتكبرة المعجبة بأنفسها المستبشرة بعملها وعلمها واقرب القلوب اليها القلوب المنكسرة المستشعرة ذل نفسها استشعارا اذا ذل واهتضم لم يحس بالذل كما لا يحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولاه فاذا لم يحس بالذل ولم يشعر أيضا بعدم التفاته الى الذل بل كان عند نفسه أخس منزلة من ان يرى جميع أنواع الذل ذلا فى حقه بل يرى نفسه دون ذلك حتى صار التواضع بالطبع صفة ذاته فمثل هذا القلب يرجى له ان يستنشق مبادى هذه الروائح فان فقدنا مثل هذا القلب وحرمنا مثل هذا الروح فلا ينبغى ان يطرح الايمان بامكان ذلك لاهله فمن لا يقدر أن يكون من أولياء الله فليكن محبا للاولياء الله مؤمنا بهم فعسى ان يحشر مع من أحب ويشهد لهذا ماروى ان عيسى عليه السلام قال لبنى اسرائيل أين ينبت الزرع قالوا فى التراب فقال بحق أقول لكم لا تنبت الحكمة الا فى قلب مثل التراب ولقد انتهى المريدون لولاية الله تعالى فى طلب شروطها باذلال النفس الى منتهى الضعة والخسة حتى روى ان ابن الكريبى وهو أستاذ

عن الله تعالى فقالت اذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنعمة (وقال) سهل اذا اتصل الرضا بالرضوان اتصلت الطمانينة فطوبى لهم وحسن مآب (وقال) رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا (وقال) عليه السلام ان الله تعالى بحكمته جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط (وقال) الجنيد الرضا هو صحة العلم الواصل الى القلوب فاذا باشر القلب حقيقة العلم أداه الى الرضا وليس الرضا والمحبة كالخوف والرجاء فانهما حالان لا يفارقان العبد فى الدنيا والآخرة لانه فى الجنة لا يستغنى عن الرضا والمحبة (وقال) ابن عطاء الرضا سكون القلب الى قديم اختيار الله للعبد لانه اختار له الافضل فيرضى له وهو ترك

الجنيد دعاه رجل الى طعام ثلاث مرات ثم كان يرده ثم يستدعيه فيرجع اليه بعد ذلك حتى أدخله فى المرة الرابعة فسأله عن ذلك فقال قد رضت نفسى على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد ثم يدعى فيرمى له عظم فيعود ولو رددتنى خمسين مرة ثم دعوتنى بعد ذلك لاجبت وعنه أيضا أنه قال نزلت فى محلة فعرفت فيها بالصلاح فتشتت على قلبى فدخلت الحمام وعدلت الى ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها ثم لبست مرقعتى فوقها وخرجت وجعلت أمشى قليلا قليلا فلحقونى فنزعوا مرقعتى وأخذوا الثياب وصفعونى وأوجعونى ضربا فصرت بعد ذلك أعرف بلص الحمام فسكنت نفسى فهكذا كانوا يروضون أنفسهم حتى يخلصهم الله من النظر الى الخلق ثم من النظر الى النفس فان الملتفت الى نفسه محجوب عن الله تعالى وشغله بنفسه حجاب له فليس بين القلب وبين الله حجاب بعد وتخلل حائل وانما بعد القلوب شغلها بغيره أو بنفسها وأعظم الحجب شغل النفس ولذلك حكى ان شاهدا عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لا يفارق مجلس أبى يزيد فقال له يوما أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لا أفطر وأقوم الليل لا أنام ولا أجد فى قلبى من هذا العلم الذى تذكر شيأ وأنا أصدق به وأحبه فقال أبو يزيد ولو صمت ثلثمائة سنة وقمت لياليها ما وجدت من هذا ذرة قال ولم قال لانك محجوب بنفسك قال فلهذا دواء قال نعم قال قل لى حتى أعمله قال لا تقبله قال فاذكره لى حتى أعمل قال اذهب الساعة الى المزين فاحلق رأسك ولحيتك وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة وعلق فى عنقك مخلاة مملوأة جوزا واجمع الصبيان حولك وقل كل من صفعنى صفعة أعطيته جوزة وادخل السوق وطف الاسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وأنت على ذلك فقال الرجل سبحان الله تقول لى مثل هذا فقال أبو يزيد قولك سبحان الله شرك قال وكيف قال لانك عظمت نفسك فسبحتها وما سبحت ربك فقال هذا لا أفعله ولكن دلنى على غيره فقال ابتدئ بهذا قبل كل شئ فقال لا أطيقه قال قد قلت لك انك لا تقبل فهذا الذى ذكره أبو يزيد هو دواء من اعتل بنظره الى نفسه ومرض بنظر الناس اليه ولا ينجى من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله فمن لا يطيق الدواء فلا ينبغى أن ينكر امكان الشفاء فى حق من داوى نفسه بعد المرض أولم يمرض بمثل هذا المرض أصلا فاقل درجات الصحة الايمان بامكانها فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضا وهذه أمور جلية فى الشرع واضحة وهى مع ذلك مستبعدة عند من يعد نفسه من علماء الشرع فقد قال صلى الله عليه وسلم لا يستكمل العبد الايمان حتى تكون قلة الشئ أحب اليه من كثرته وحتى يكون أن لا يعرف أحب من أن يعرف وقال عليه السلام ثلاث من كن فيه استكمل ايمانه لا يخاف فى الله لومة لائم ولا يرائى بشئ من عمله واذا عرض عليه أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر أمر الآخرة على الدنيا وقال عليه السلام لا يكمل ايمان عبد حتى يكون فيه ثلاث خصال اذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق واذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل واذا قدر لم يتناول ما ليس له وفى حديث آخر ثلاث من أوتيهن فقد أوتى مثل ما أوتى آل داود العدل فى الرضا والغضب والقصد فى الغنى والفقر وخشية الله فى السر والعلانية فهذه شروط ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لاولى الايمان فالعجب ممن يدعى علم الدين ولا يصادف فى نفسه ذرة من هذه الشروط ثم يكون نصيبه من علمه وعقله أن يجحد ما لا يكون الا بعد مجاوزة مقامات عظيمة علية وراء الايمان وفى الاخبار أن الله تعالى أوحى الى بعض أنبيائه انما أتخذ لخلتى من لا يفتر عن ذكرى ولا يكون له هم غيرى ولا يؤثر على شيأ من خلقى وان حرق بالنار لم يجد لحرق النار وجعا وان قطع بالمناشير لم يجد لمس الحديد ألما فمن لم يبلغ الى أن يغلبه الحب الى هذا الحد فمن أين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والمكاشفات وكل ذلك وراء الحب والحب وراء كمال الايمان ومقامات الايمان وتفاوته فى الزيادة والنقصان لا حصر له ولذلك قال عليه السلام للصديق رضى الله عنه ان الله تعالى قد أعطاك مثل ايمان كل من آمن بى من أمتى وأعطانى مثل ايمان كل من آمن به من ولد آدم وفى حديث آخر ان لله تعالى ثلثمائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة فقال أبو بكر يا رسول الله هل فى منها خلق فقال كلها فيك يا أبا بكر وأحبها الى الله السخاء وقال عليه السلام رأيت ميزانا دلى من السماء فوضعت فى كفة ووضعت أمتى فى كفة فرجحت بهم ووضع أبو بكر فى كفة وجئ بامتى فوضعت فى كفة فرجح بهم ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلة مع غيره فقال لو كنت متخذا من

السخط (وقال) أبو تراب ليس ينال الرضا من الله من للدنيا فى قلبه مقدار وقال السرى خمس من أخلاق المقربين الرضا عن الله فيما تحب النفس وتكره والحب له بالتحبب اليه والحياء من الله والانس به والوحشة مما سواه (وقال) الفضيل الراضى لا يتمنى فوق منزلته شيأ وقال ابن شمعون الرضا بالحق والرضا له والرضا عنه فالرضا به مدبرا ومختارا والرضا عنه قاسما ومعطيا والرضا له الها وربا (سئل) أبو سعيد هل يجوز أن يكون العبد راضيا ساخطا قال نعم يجوز أن يكون راضيا عن ربه ساخطا على نفسه وعلى كل قاطع يقطعه عن الله وقيل للحسن ابن على بن أبى طالب رضى الله عنهما ان أبا ذر يقول الفقر أحب الى من الغنى والسقم أحب الى من الصحة قال رحم الله أبا ذر أما

الناس خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله تعالى يعني نفسه

(خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها)

قال سفيان المحبة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال غيره دوام الذكر وقال غيره ايثار المحبوب وقال بعضهم كراهية البقاء في الدنيا وهذا كله اشارة الى ثمرات المحبة فأما نفس المحبة فلم يتعرضوا لها وقال بعضهم المحبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب عن ادراكه وتمتنع الالسن عن عبارته وقال الجنيد رحمه الله تعالى المحبة على صاحب العلاقة وقال كل محبة تكون بعوض فاذا زال العوض زالت المحبة وقال ذو النون قل لمن أظهر حب الله احذر أن تذل لغير الله وقيل للشبلي رحمه الله صف لنا العارف والمحب فقال العارف ان تكلم هلك والمحب ان سكت هلك

وقال الشبلي رحمه الله

يا أيها السيد الكريم * حبك بين الحشا مقيم

يا رافع النوم عن جفوني * أنت بما مر بي عليم

ولغيره

عجبت لمن يقول ذكرت الفي * وهل أنسى فاذكر ما نسيت

أموت اذا ذكرتك ثم أحيا * ولولا حسن ظني ما حييت

فأحيا بالمنى وأموت شوقا * فكم أحيا عليك وكم أموت

شربت الحب كأسا بعد كاس * فما نفد الشراب وما رويت

فليت خياله نصب لعيني * فان قصرت في نظري عميت

وقالت رابعة العدوية يوما من يدلنا على حبيبنا فقالت خادمة لها حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعتنا عنه وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى أوحى الله الى عيسى عليه السلام اني اذا اطلعت على سر عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبي وتوليته بحفظي وقيل تكلم سمنون يوما في المحبة فاذا بطائر نزل بين يديه فلم يزل ينقر بمنقاره الارض حتى سال الدم منه فمات وقال ابراهيم بن أدهم الهي انك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك وآنستني بذكرك وفرغتني للتفكر في عظمتك وقال السري رحمه الله من أحب الله عاش ومن مال الى الدنيا طاش والاحمق يغدو ويروح في لاش والعاقل عن عيوبه فتاش وقيل لرابعة كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم فقالت والله اني لاحبه حبا شديدا ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين وسئل عيسى عليه السلام عن أفضل الاعمال فقال الرضا عن الله تعالى والحب له وقال أبو يزيد المحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة انما يحب من مولاه مولاه وقال الشبلي الحب دهش في لذة وحيرة في تعظيم وقيل المحبة أن تمحو أثرك عنك حتى لا يبقى فيك شئ راجع منك اليك وقيل المحبة قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح وقال الخواص المحبة محو الارادات واحتراق جميع الصفات والحاجات وسئل سهل عن المحبة فقال عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للمراد منه وقيل معاملة المحب على أربع منازل على المحبة والهيبة والحياء والتعظيم وأفضلها التعظيم والمحبة لان هاتين المنزلتين يبقيان مع أهل الجنة في الجنة ويرفع عنهم غيرهما وقال هرم بن حيان المؤمن اذا عرف ربه عز وجل أحبه واذا أحبه أقبل عليه واذا وجد حلاوة الاقبال عليه لم ينظر الى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر الى الآخرة بعين الفترة وهي تحسره في الدنيا وتروحه في الآخرة وقال عبد الله بن محمد سمعت امرأة من المتعبدات تقول وهي باكية والدموع على خدها جارية والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقا الى الله تعالى وحبا للقائه قال فقلت لها فعلى ثقة أنت من عملك قالت لا ولكن لحبي اياه وحسن ظني به أفتراه يعذبني وأنا أحبه وأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي الى ترك معاصيهم لماتوا شوقا الي وتقطعت أوصالهم من محبتي يا داود هذه ارادتي في المدبرين عني فكيف ارادتي في المقبلين علي يا داود أحوج ما يكون العبد الي اذا استغنى عني وأرحم ما أكون بعبدي اذا أدبر عني وأجل ما يكون عندي اذا رجع الي وقال أبو خالد الصفار لقي نبي من الانبياء عابدا فقال له انكم معاشر العباد تعملون على أمر لسنا معاشر الانبياء نعمل عليه أنتم تعملون على الخوف والرجاء ونحن نعمل على المحبة والشوق وقال الشبلي رحمه الله أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام يا داود ذكري للذاكرين وجنتي للمطيعين وزيارتي

أنا فأقول من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن أنه في غير الحالة التي اختار الله له وقال علي رضي الله عنه من جلس على بساط الرضا لم ينله من الله مكروه أبدا ومن جلس على بساط السؤال لم يرض عن الله في كل حال (وقال) يحيى يرجع الامر كله الى هذين الاصلين فعل منه بك وفعل منك له فترضى بما عمل وتخلص فيما تعمل (وقال) بعضهم الراضي من لم يندم على فائت من الدنيا ولم يتأسف عليها (وقيل) ليحيى بن معاذ متى يبلغ العبد الى مقام الرضا قال اذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به يقول ان أعطيتني قبلت وان منعتني رضيت وان تركتني عبدت وان دعوتني أجبت وقال الشبلي رحمه الله بين يدي الجنيد لا حول ولا قوة

للمشتاقين وأنا خاصة للمحبين وأوحى الله تعالى الى آدم عليه السلام يا آدم من أحب حبيبا صدق قوله ومن أنس بحبيبه رضي فعله ومن اشتاق اليه جد في مسيره وكان الخواص رحمه الله يضرب على صدره ويقول واشوقاه لمن يراني ولا أراه وقال الجنيد رحمه الله بكى يونس عليه السلام حتى عمي وقام حتى انحنى وصلى حتى أقعد وقال وعزتك وجلالك لو كان بيني وبينك بحر من نار لخضته اليك شوقا مني اليك وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال سالت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال المعرفة رأس مالي والعقل أصل ديني والحب أساسي والشوق مركبي وذكر الله أنيسي والثقة كنزي والحزن رفيقي والعلم سلاحي والصبر ردائي والرضا غنيمتي والعجز فخري والزهد حرفتي واليقين قوتي والصدق شفيعي والطاعة حسبي والجهاد خلقي وقرة عيني في الصلاة وقال ذو النون سبحان من جعل الارواح جنودا مجندة فارواح العارفين جلالية قدسية فلذلك اشتاقوا الى الله تعالى وأرواح المؤمنين روحانية فلذلك حنوا الى الجنة وأرواح الغافلين هوائية فلذلك مالوا الى الدنيا وقال بعض المشايخ رأيت في جبل اللكام رجلا أسمر اللون ضعيف البدن وهو يقفز من حجر الى حجر ويقول

الشوق والهوى * صيراني كما ترى

ويقال الشوق نار الله أشعلها في قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما في قلوبهم من الخواطر والارادات والعوارض والحاجات فهذا القدر كاف في شرح المحبة والانس والشوق والرضا * فلنقتصر عليه والله الموفق للصواب تم كتاب المحبة والشوق والرضا والانس يتلوه كتاب النية والاخلاص والصدق

(كتاب النية والاخلاص والصدق وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

نحمد الله حمد الشاكرين ونؤمن به ايمان الموقنين ونقر بوحدانيته اقرار الصادقين ونشهد أن لا اله الا الله رب العالمين وخالق السموات والارضين ومكلف الجن والانس والملائكة المقربين أن يعبدوه عبادة المخلصين فقال تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين فما لله الا الدين الخالص المتين * فانه أغنى الاغنياء عن شركة المشاركين والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين وعلى جميع النبيين وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين (أما بعد) فقد انكشف لارباب القلوب ببصيرة الايمان وأنوار القرآن أن لا وصول الى السعادة الا بالعلم والعبادة فالناس كلهم هلكى الا العالمون والعالمون كلهم هلكى الا العاملون والعاملون كلهم هلكى الا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم فالعمل بغير نية عناء والنية بغير اخلاص رياء وهو للنفاق كفاء ومع العصيان سواء والاخلاص من غير صدق وتحقيق هباء وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بارادة غير الله مشوبا مغمورا وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وليت شعري كيف يصحح نيته من لا يعرف حقيقة النية أو كيف يخلص من صحح النية اذا لم يعرف حقيقة الاخلاص أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق اذا لم يتحقق معناه فالوظيفة الاولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولا لتحصل المعرفة ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والاخلاص اللذين هما وسيلتا العبد الى النجاة والخلاص ونحن نذكر معاني الصدق والاخلاص في ثلاثة أبواب (الباب الاول) في حقيقة النية ومعناها (الباب الثاني) في الاخلاص وحقائقه (الباب الثالث) في الصدق وحقيقته

(الباب الاول في النية)

وفيه بيان فضيلة النية وبيان حقيقة النية وبيان كون النية خيرا من العمل وبيان تفضيل الاعمال المتعلقة بالنفس وبيان خروج النية عن الاختيار

(بيان فضيلة النية)

قال الله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه والمراد بتلك الارادة هي النية وقال صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه وقال صلى الله عليه وسلم أكثر شهداء أمتي أصحاب الفرش ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته وقال تعالى ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما فجعل النية سبب التوفيق وقال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى لا ينظر الى صوركم وأموالكم وانما

الا بالله قال الجنيد قولك ذا ضيق صدر فقال صدقت قال فضيق الصدر ترك الرضا بالقضاء وهذا انما قاله الجنيد رحمه الله تنبيها منه على أصل الرضا وذلك أن الرضا يحصل لانشراح القلب وانفساحه وانشراح القلب من نور اليقين قال الله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فاذا تمكن النور من الباطن اتسع الصدر وانفتحت عين البصيرة وعاين حسن تدبير الله تعالى فينتزع السخط والتضجر لان اتساع الصدر يتضمن حلاوة الحب وفعل المحبوب بموقع الرضا عن المحب الصادق لان المحب يرى ان الفعل من المحبوب مراده واختياره فيفنى في لذة رؤية اختيار المحبوب عند اختيار نفسه كما قيل * وكل ما يفعل المحبوب محبوب *

(الباب الحادي والستون في ذكر الاحوال وشرحها)*

ينظر الى قلوبكم وأعمالكم وانما نظر الى القلوب لانها مظنة النية وقال صلى الله عليه وسلم ان العبد ليعمل أعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة فى صحف مختمة فتلقى بين يدى الله تعالى فيقول ألقوا هذه الصحيفة فانه لم يرد بما فيها وجهى ثم ينادى الملائكة اكتبوا له كذا وكذا اكتبوا له كذا وكذا فيقولون يا ربنا انه لم يعمل شيأ من ذلك فيقول الله تعالى انه نواه وقال صلى الله عليه وسلم الناس أربعة رجل آتاه الله عز وجل علما ومالا فهو يعمل بعلمه فى ماله فيقول رجل لو آتانى الله تعالى مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما فى الاجر سواء ورجل آتاه الله تعالى مالا ولم يؤته علما فهو يتخبط بجهله فى ماله فيقول رجل لو آتانى الله مثل ما آتاه عملت كما يعمل فهما فى الوزر سواء ألا ترى كيف شركه بالنية فى محاسن عمله ومساويه وكذلك فى حديث أنس بن مالك لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك قال ان بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا ولا وطئنا موطئا يغيظ الكفار ولا انفقنا نفقة ولا أصابتنا مخمصة الا شركونا فى ذلك وهم بالمدينة قالوا وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا قال حبسهم العذر فشركوا بحسن النية وفى حديث ابن مسعود من هاجر يبتغى شيأ فهو له فهاجر رجل فتزوج امرأة منا فكان يسمى مهاجر أم قيس وكذلك جاء فى الخبر ان رجلا قتل فى سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار لانه قاتل رجلا ليأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فاضيف الى نيته وفى حديث عبادة عن النبى صلى الله عليه وسلم من غزا وهو لا ينوى الا عقالا فله ما نوى وقال أبى استعنت رجلا يغزو معى فقال لا حتى تجعل لى جعلا فجعلت له فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال ليس له من دنياه وآخرته الا ما جعلت له وروى فى الاسرائيليات ان رجلا مر بكثبان من رمل فى مجاعة فقال فى نفسه لو كان هذا الرمل طعاما لقسمته بين الناس فاوحى الله تعالى الى نبيهم أن قل له ان الله تعالى قد قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاما فتصدقت به وقد ورد فى أخبار كثيرة من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة وفى حديث عبد الله بن عمرو من كانت الدنيا نيته جعل الله فقره بين عينيه وفارقها أرغب ما يكون فيها ومن تكن الآخرة نيته جعل الله تعالى غناه فى قلبه وجمع عليه ضيعته وفارقها أزهد ما يكون فيها وفى حديث أم سلمة ان النبى صلى الله عليه وسلم ذكر جيشا يخسف بهم بالبيداء فقلت يا رسول الله يكون فيهم المكره والاجير فقال يحشرون على نياتهم وقال عمر رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انما يقتل المقتتلون على النيات وقال عليه السلام اذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا فلان يقاتل حمية فلان يقاتل عصبية ألا فلا تقولوا فلان قتل فى سبيل الله فمن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال يبعث كل عبد على ما مات عليه وفى حديث الاحنف عن أبى بكرة اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال لانه أراد قتل صاحبه وفى حديث أبى هريرة من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوى أداءه فهو زان ومن ادان دينا وهو لا ينوى قضاءه فهو سارق وقال صلى الله عليه وسلم من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة (وأما الآثار)* فقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه أفضل الاعمال أداء ما افترض الله تعالى والورع عما حرم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله تعالى وكتب سالم بن عبد الله الى عمر بن عبد العزيز اعلم ان عون الله تعالى للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وان نقصت نقص بقدره وقال بعض السلف رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية وقال داود الطائى البر همته التقوى فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوما الى نية صالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك وقال الثورى كانوا يتعلمون النية للعمل كما تتعلمون العمل وقال بعض العلماء اطلب النية للعمل قبل العمل ومادمت تنوى الخير فانت بخير وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول من يدلنى على عمل لا أزال فيه عاملا لله تعالى فانى لا أحب ان يأتى على ساعة من ليل أو نهار الا وأنا عامل من عمال الله فقيل له قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فاذا فترت أو تركته فهم بعمله فان الهام بعمل الخير كعامله وكذلك قال بعض السلف ان نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها وان ذنوبكم أخفى من ان تعلموها ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين يغفر لكم ما بين ذلك وقال عيسى عليه السلام طوبى لعين نامت

(حدثنا) شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب السهروردى رحمه الله قال أنا أبو طالب الزينبى قال أخبرتنا كريمة المروزية قالت أنا أبو الهيثم الكشميهنى قال أنا أبو عبد الله الفربرى قال أنا أبو عبد الله البخارى قال ثنا سليمان ابن حرب قال حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس ابن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ومن أحب عبدا لا يحبه الا الله ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد اذ أنقذه الله منه كما يكره ان يلقى فى النار (وأخبرنا) شيخنا أبو زرعة طاهر ابن أبى الفضل قال أنا أبو بكر بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن قال أنا أبو عمر بن حيوة قال حدثنى أبو عبيد بن مؤمل عن أبيه قال

ولا

ولانهم بمعصيه وانتهت الى غيرانهم وقال أبوهريرة يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم وكان الفضيل بن عياض
اذا قرأ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم يبكي ويرددها ويقول انك ان بلوتنا فضحتنا
وهتكت أستارنا وقال الحسن انما خلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات وقال أبوهريرة مكتوب في
التوراة ما أريد به وجهي فقليله كثير وما أريد به غيري فكثيره قليل وقال بلال بن سعد ان العبد ليقول قول
مؤمن فلا يدعه الله عزوجل وقوله حتى ينظر في عمله فاذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر في ورعه فان تورع لم يدعه حتى
ينظر ماذا نوى فان صلحت نيته فبالحرى أن يصلح مادون ذلك فاذن عماد الاعمال النيات فالعمل مفتقر الى النية
ليصير بها خيرا والنية في نفسها خير وان تعذر العمل بعائق

(بيان حقيقة النية)

اعلم ان النية والارادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران علم وعمل
العلم يقدمه لانه اصله وشرطه والعمل يتبعه لانه ثمرته وفرعه وذلك لان كل عمل أعني كل حركة وسكون اختياري
فانه لا يتم الا بثلاثة أمور علم وارادة وقدرة لانه لا يريد الانسان مالا يعلمه فلابد وان يعلم ولا يعمل مالم يرد فلابد من
ارادة ومعنى الارادة انبعاث القلب الى ما يراه موافقا للغرض اما في الحال أو في المآل فقد خلق الانسان بحيث
يوافقه بعض الامور ويلائم غرضه ويخالفه بعض الامور فيحتاج الى جلب الملائم الموافق الى نفسه ودفع الضار
المنافي عن نفسه فافتقر بالضرورة الى معرفة وادراك للشئ المضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا فان
من لا يبصر الغذاء ولا يعرفه فلا يمكنه ان يتناوله ومن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها فخلق الله الهداية والمعرفة
وجعل لها أسبابا وهي الحواس الظاهرة والباطنة وليس ذلك من غرضنا ثم لو أبصر الغذاء وعرف انه موافق له
فلا يكفيه ذلك للتناول مالم يكن فيه ميل اليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه اذ المريض يرى الغذاء ويعلم انه
موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل ولفقد الداعية المحركة له فخلق الله تعالى له الميل والرغبة والارادة
وأعني به نزوعا في نفسه اليه وتوجها في قلبه اليه ثم ذلك لا يكفيه فكم من مشاهد طعاما راغب فيه مريد تناوله عاجز
عنه لكونه زمنا فخلقت له القدرة والاعضاء المتحركة حتى يتم به التناول والعضو لا يتحرك الا بالقدرة والقدرة تنتظر
الداعية الباعثة والداعية تنتظر العلم والمعرفة أو الظن والاعتقاد وهو ان يقوى في نفسه كون الشئ موافقا له
فاذا جزمت المعرفة بأن الشئ موافق ولابد وان يفعل وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الارادة
وتحقق الميل فاذا انبعثت الارادة انتهضت القدرة لتحريك الاعضاء فالقدرة خادمة للارادة والارادة تابعة لحكم
الاعتقاد والمعرفة فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهي الارادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل الى ما هو
موافق للغرض اما في الحال واما في المآل فالمحرك الاول هو الغرض المطلوب وهو الباعث والغرض الباعث هو
المقصد المنوي والانبعاث هو القصد والنية وانتهاض القدرة لخدمة الارادة بتحريك الاعضاء هو العمل الا ان
انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد وقد يكون بباعثين اجتمعا في فعل واحد واذا كان بباعثين فقد
يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان مليا بانهاض القدرة وقد يكون كل واحد قاصرا عنه الا بالاجتماع وقد يكون
أحدهما كافيا لولا الآخر لكن الآخر انتهض عاضدا له ومعاونا فيخرج من هذا التقسيم أربعة أقسام
فلنذكر لكل واحد مثالا واسما (أما الاول) فهو ان ينفرد الباعث الواحد ويتجرد كما اذا هجم على الانسان
سبع فكلما رآه قام من موضعه فلا مزعج له الا غرض الهرب من السبع فانه رأى السبع وعرفه ضارا فانبعثت
نفسه الى الهرب ورغبت فيه فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث فيقال نيته الفرار من السبع لا نية له في
القيام لغيره وهذه النية تسمى خالصة ويسمى العمل بموجبها اخلاصا بالاضافة الى الغرض الباعث ومعناه انه
خالص عن مشاركة غيره وممازجته (وأما الثاني) فهو أن يجتمع باعثان كل واحد مستقل بالانهاض لو انفرد
ومثاله من المحسوس ان يتعاون رجلان على حمل شئ بمقدار من القوة كان كافيا في الحمل لو انفرد ومثاله في غرضنا
ان يسأله قريبه الفقير حاجة فيقضيها لفقره وقرابته وعلم انه لولا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة وانه لولا قرابته
لكان يقضيها بمجرد الفقر وعلم ذلك من نفسه بان يحضره قريب غني فيرغب في قضاء حاجته وفقير أجنبي فيرغب

حدثني بشر بن محمد قال حدثنا عبد الملك بن وهب عن ابراهيم بن أبي عبلة عن العرباض بن سارية قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو اللهم اجعل حبك أحب الي من نفسي وسمعي وبصري وأهلي ومالي ومن الماء البارد فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب خالص الحب وخالص الحب هو ان يحب الله تعالى بكليته وذلك ان العبد قد يكون في حال قائما بشروط حاله بحكم العلم والجبلة تتقاضاه بضد ذلك العلم مثل أن يكون راضيا والجبلة قد تكره ويكون النظر الى الانقياد بالعلم لا الى الاستعصاء بالجبلة فقد يحب الله تعالى ورسوله بحكم الايمان ويحب الاهل والولد بحكم الطبع والمحبة وجوه وبواعث المحبة في الانسان متنوعة *فمنها محبة الروح ومحبة القلب ومحبة النفس

أيضا فيه وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم انه لولم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حمية ولولا الحمية لكان يتركه لاجل انه يوم عرفة وقد اجتمعا جميعا فاقدم على الفعل وكان الباعث الثانى رفيق الاول فلنسم هذا مرافقة للبواعث (والثالث) أن لا يستقل كل واحد لوانفردوا لكن قوى بمجموعهما على انهاض القدرة ومثاله فى المحسوس ان يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد أحدهما به ومثاله من غرضنا ان يقصده قريبه الغنى فيطلب درهما فلا يعطيه ويقصده الاجنبي الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقر وكذلك الرجل يتصدق بين يدى الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء ويكون بحيث لو كان منفردا لكان لا يبعثه مجرد قصد الثواب على العطاء ولو كان الطالب فاسقا لا ثواب فى التصدق عليه لكان لا يبعثه مجرد الرياء على العطاء ولو اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب ولنسم هذا الجنس مشاركة (والرابع) أن يكون أحد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه والثانى لا يستقل ولكن لما انضاف اليه لم ينفك عن تأثير بالاعانة والتسهيل ومثاله فى المحسوس أن يعاون الضعيف الرجل القوى على الحمل ولو انفرد القوى لاستقل ولو انفرد الضعيف لم يستقل فان ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر فى تخفيفه ومثاله فى غرضنا أن يكون للانسان ورد فى الصلاة وعادة فى الصدقات فاتفق أن حضر فى وقتها جماعة من الناس فصار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم وعلم من نفسه انه لو كان منفردا خاليا لم يفتر عن عمله وعلم ان عمله لولم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء يحمله عليه فهو شوب تطرق الى النية ولنسم هذا الجنس المعاونة فالباعث الثانى اما أن يكون رفيقا أو شريكا أو معينا وسنذكر حكمها فى باب الاخلاص والغرض الآن بيان أقسام النيات فان العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه ولذلك قيل انما الاعمال بالنيات لانها تابعة لا حكم لها فى نفسها وانما الحكم للمتبوع

*(بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم نية المؤمن خير من عمله)

اعلم انه قد يظن ان سبب هذا الترجيح ان النية سر لا يطلع عليه الا الله تعالى والعمل ظاهر ولعمل السر فضل وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد لانه لو نوى أن يذكر الله بقلبه أو يتفكر فى مصالح المسلمين فيقتضى عموم الحديث أن تكون نية التفكر خيرا من التفكر وقد يظن أن سبب الترجيح أن النية تدوم الى آخر العمل والاعمال لا تدوم وهو ضعيف لان ذلك يرجع معناه الى أن العمل الكثير خير من القليل بل ليس كذلك فان نية أعمال الصلاة قد لا تدوم الا فى لحظات معدودة والاعمال تدوم والعموم يقتضى أن تكون نيته خيرا من عمله وقد يقال ان معناه ان النية بمجردها خير من العمل بمجرده دون النية وهو كذلك ولكنه بعيد أن يكون هو المراد اذ العمل بلا نية أو على الغفلة لا خير فيه أصلا والنية بمجردها خير وظاهر الترجيح للمشتركين فى أصل الخير بل المعنى به ان كل طاعة تنتظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل أى لكل واحد منهما أثر فى المقصود وأثر النية أكثر من أثر العمل فمعناه نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذى هو من جملة طاعته والغرض ان للعبد اختيارا فى النية وفى العمل فهما عملان والنية من الجملة خيرهما فهذا معناه وأما سبب كونها خيرا ومترجحة على العمل فلا يفهمه الا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق فى الايصال الى المقصد وقاس بعض الآثار بالبعض حتى يظهر له بعد ذلك الارجح بالاضافة الى المقصود فمن قال الخبز خير من الفاكهة فانما يعنى به انه خير بالاضافة الى مقصود القوت والاغتذاء ولا يفهم ذلك الا من فهم ان للغذاء مقصدا وهو الصحة والبقاء وان الاغذية مختلفة الآثار فيها وفهم أثر كل واحد وقاس بعضها بالبعض فالطاعات غذاء للقلوب والمقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها فى الآخرة وسعادتها وتنعمها بلقاء الله تعالى فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله فقط ولن يتنعم بلقاء الله الا من مات محبا لله تعالى عارفا بالله وان يحبه الا من عرفه ولن يأنس به الا من طال ذكره له فالانس يحصل بدوام الذكر والمعرفة تحصل بدوام الفكر والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر الا اذا فرغ من شواغل الدنيا ولن يتفرغ من شواغلها الا اذا انقطع عنه شهواتها حتى يصير مائلا الى الخير مريدا له نافرا عن الشر مبغضا له وانما يميل الى الخيرات والطاعات اذا علم أن سعادته فى الآخرة منوطة بها كما يميل العاقل الى الفصد والحجامة لعلمه بان سلامته فيهما واذا

يحصل

وبحبة العقل فقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذكر الاهل والمال والماء البارد معناه استئصال عروق المحبة بمحبة الله تعالى حتى يكون حب الله تعالى غالبا فيحب الله تعالى بقلبه وروحه وكليته حتى يكون حب الله تعالى أغلب فى الطبع أيضا والجبلة من حب الماء البارد وهذا يكون حبا صافيا للخواص تنغمر به وبنوره نار الطبع والجبلة وهذا يكون حب الذات عن مشاهدة بعكوف الروح وخلوصه الى مواطن القربة (قال) الواسطى فى قوله تعالى يحبهم ويحبونه كما انه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته فالهاء راجعة الى الذات دون النعوت والصفات (وقال) بعضهم الحب شرطه ان تلحقه سكرات المحبة فاذا لم يكن ذلك لم يكن حبه فيه بحقيقة فاذا الحب حبان حب

حصل أصل الميل بالمعرفة فانما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه فان المواظبة على مقتضى صفات القلب وارادتها بالعمل تجري مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى تترشح الصفة وتقوى بسببها فالمائل الى طلب العلم أو طلب الرياسة لا يكون ميله في الابتداء الا ضعيفا فان اتبع مقتضى الميل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والاعمال المطلوبة لذلك تأكد ميله ورسخ وعسر عليه النزوع وان خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر وربما زال وانمحق بل الذي ينظر الى وجه حسن مثلا فيميل اليه طبعه ميلا ضعيفا لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمحاورة تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه ولو فطم نفسه ابتداء وخالف مقتضى ميله لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل ويكون ذلك زبرا ودفعا في وجهه حتى يضعف وينكسر بسببه وينقمع وينمحي وهكذا جميع الصفات والخيرات والطاعات كلها هي التي تراد بها الآخرة والشرور كلها هي التي تراد بها الدنيا لا الآخرة وميل النفس الى الخيرات الاخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرغها للذكر والفكر ولن يتأكد ذلك الا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصي بالجوارح لان بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى انه يتأثر كل واحد منهما بالآخر فترى العضو اذا أصابته جراحة تألم بها القلب وترى القلب اذا تألم بعلمه بموت عزيز من أعزته أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به الاعضاء وارتعدت الفرائص وتغير اللون الا أن القلب هو الاصل المتبوع فكأنه الامير والراعي والجوارح كالخدم والرعايا والاتباع فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه فالقلب هو المقصود والاعضاء آلات موصلة الى المقصود ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد وقال عليه السلام اللهم أصلح الراعي والرعية وأراد بالراعي القلب وقال الله تعالى لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم وهي صفة القلب فمن هذا الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح ثم يجب أن تكون النية من جملتها أفضل لانها عبارة عن ميل القلب الى الخير وارادته له وغرضنا من الاعمال بالجوارح أن يعود القلب ارادة الخير ويؤكد فيه الميل اليه ليفرغ من شهوات الدنيا ويكب على الذكر والفكر فبالضرورة يكون خيرا بالاضافة الى الغرض لانه متمكن من نفس المقصود وهذا كان المعدة اذا تألمت فقد تداوى بان يوضع الطلاء على الصدر وتداوى بالشرب والدواء الواصل الى المعدة فالشرب خير من طلاء الصدر لان طلاء الصدر أيضا انما أريد به ان يسري منه الاثر الى المعدة فما يلاقي عين المعدة فهو خير وأنفع فهكذا ينبغي أن تفهم تأثير الطاعات كلها اذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح فلا تظنن أن في وضع الجبهة على الارض غرضا من حيث انه جمع بين الجبهة والارض بل من حيث انه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع في القلب فان من يجد في نفسه تواضعا فاذا استكان باعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه ومن وجد في قلبه رقة على يتيم فاذا مسح رأسه وقبله تأكدت الرقة في قلبه ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيدا أصلا لان من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظان انه يمسح ثوبا لم ينتشر من أعضائه أثر الى قلبه لتأكيد الرقة وكذلك من يسجد غافلا وهو مشغول الهم باعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الارض أثر الى قلبه يتأكد به التواضع فكان وجود ذلك كعدمه وما ساوى وجوده عدمه بالاضافة الى الغرض المطلوب منه يسمى باطلا فيقال العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه اذا فعل عن غفلة فاذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كعدمه بل زاده شرا فانه لم يؤكد الصفة المطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة المطلوب قمعها وهي صفة الرياء التي هي من الميل الى الدنيا فهذا وجه كون النية خيرا من العمل وبهذا أيضا يعرف معنى قوله صلى الله عليه وسلم من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة لان هم القلب هو ميله الى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهي غاية الحسنات وانما الاتمام بالعمل يزيدها تأكيدا فليس المقصود من اراقة دم القربان الدم واللحم بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذلها ايثارا لوجه الله تعالى وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وان عاق عن العمل عائق فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم والتقوى ههنا أعني القلب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ان قوما بالمدينة قد شركونا في جهادنا كما تقدم ذكره لان قلوبهم في صدق ارادة الخير وبذل

عام وحب خاص فالحب العام مفسر بامتثال الامر ورد بما كان حبا من معدن العلم بالآلاء والنعماء وهذا الحب مخرجه من الصفات وقد ذكر جمع من المشايخ الحب في المقامات فيكون النظر الى هذا الحب العام الذي يكون لكسب العبد فيه مدخل (وأما) الحب الخاص فهو حب الذات عن مطالعة الروح وهو الحب الذي فيه السكرات وهو الاصطناع من الله الكريم لعبده واصطفاؤه اياه وهذا الحب يكون من الاحوال لانه محض موهبة ليس للكسب فيه مدخل وهو مفهوم من قول النبي صلى الله عليه وسلم أحب الي من الماء البارد لانه كلام عن وجدان روح تلتذ بحب الذات (وهذا) الحب روح والحب الذي يظهر عن مطالعة الصفات و يطلع من مطالع الايمان قالب هذا الروح

المال والنفس والرغبة فى طلب الشهادة واعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الخارجين فى الجهاد وانما فارقوهم بالابدان لعوائق تخص الاسباب الخارجة عن القلب وذلك غير مطلوب الا لتأكيد هذه الصفات وبهذه المعانى تفهم جميع الاحاديث التى أوردناها فى فضيلة النية فاعرضها عليها لينكشف لك أسرارها فلا نطول بالاعادة

(بيان تفصيل الاعمال المتعلقة بالنية)

اعلم أن الاعمال وان انقسمت أقساما كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذكر وغير ذلك مما لا يتصور احصاؤه واستقصاؤه فهى ثلاثة أقسام طاعات ومعاص ومباحات *(القسم الاول المعاصى)* وهى لا تتغير عن موضعها بالنية فلا ينبغى أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام انما الاعمال بالنيات فيظن أن المعصية تنقلب طاعة بالنية كالذى يغتاب انسانا مراعاة لقلب غيره أو يطعم فقيرا من مال غيره أو يبنى مدرسة أو مسجدا أو رباطا بمال حرام وقصده الخير فهذا كله جهل والنية لا تؤثر فى اخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر فان عرفه فهو معاند للشرع وان جهله فهو عاص بجهله اذ طلب العلم فريضة على كل مسلم والخيرات انما يعرف كونها خيرات بالشرع فكيف يمكن أن يكون الشر خيرا هيهات بل المروج لذلك على القلب خفى الشهوة وباطن الهوى فان القلب اذا كان مائلا الى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به الى التلبيس على الجاهل ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى ما عصى الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل قيل يا أبا محمد هل تعرف شيأ أشد من الجهل قال نعم الجهل بالجهل وهو كما قال لان الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم فمن يظن بنفسه انه عالم فكيف يتعلم وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم ورأس العلم العلم بالعلم كما أن رأس الجهل الجهل بالجهل فان من لا يعلم العلم النافع من العلم الضار اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التى هى وسائلهم الى الدنيا وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العلم والمقصود أن من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور الا اذا كان قريب العهد بالاسلام ولم يجد بعد مهلة للتعلم وقد قال الله سبحانه فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وقال النبى صلى الله عليه وسلم لا يعذر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والاشرار المشغولين بالفسق والفجور القاصرين هممهم على مماراة العلماء ومباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين واليتامى والمساكين فان هؤلاء اذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله وانتهض كل واحد منهم فى بلدته نائبا عن الدجال يتكالب على الدنيا ويتبع الهوى ويتباعد عن التقوى ويستجرئ الناس بسبب مشاهدته على معاصى الله ثم قد ينتشر ذلك العلم الى مثله وأمثاله ويتخذونه أيضا آلة ووسيلة فى الشر واتباع الهوى ويتسلسل ذلك ووبال جميعه يرجع الى المعلم الذى علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ومشاهدته أنواع المعاصى من أقواله وأفعاله وفى مطعمه وملبسه ومسكنه فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة فى العالم ألف سنة مثلا وألفى سنة وطوبى لمن اذا مات ماتت معه ذنوبه ثم العجب من جهله حيث يقول انما الاعمال بالنيات وقد قصدت بذلك نشر علم الدين فان استعمله هو فى الفساد فالمعصية منه لا منى وما قصدت به الا أن يستعين به على الخير وانما حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلو العلم يحسن ذلك فى قلبه والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه وليت شعرى ما جوابه عمن وهب سيفا من قاطع طريق وأعد له خيلا وأسبابا يستعين بها على مقصوده ويقول انما أردت البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة وقصدت به ان يغزو بهذا السيف والفرس فى سبيل الله فان اعداد الخيل والرباط والقوة للغزاة من أفضل القربات فان هو صرفه الى قطع الطريق فهو العاصى وقد أجمع الفقهاء على ان ذلك حرام مع ان السخاء هو أحب الاخلاق الى الله تعالى حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله تعالى ثلثمائة خلق من تقرب اليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها اليه السخاء فليت شعرى لم حرم هذا السخاء ولم وجب عليه ان ينظر الى قرينة الحال من هذا الظالم فاذا لاح له من عادته انه يستعين بالسلاح على الشر فينبغى أن يسعى فى سلب سلاحه لا أن يمده بغيره والعلم سلاح يقاتل به

الشيطان

ولما صحت محبتهم هذه أخبر الله تعالى عنهم بقوله أذلة على المؤمنين لان المحب بذل لمحبوبه ولمحبوب محبوبه وينشد

لعين تفدى ألف عين وتتقى
ويكرم ألف للحبيب المكرم

وهذا الحب الخالص هو أصل الاحوال السنية ومنبعها وهو فى الاحوال كالتوبة فى المقامات فمن صحت توبته على الكمال تحقق بسائر المقامات من الزهد والرضا والتوكل على ما شرحناه أولا ومن صحت محبته هذه تحقق بسائر الاحوال من الفناء والبقاء والصحو والمحو وغير ذلك والتوبة لهذا الحب أيضا ثابتة الجسمان لانها مشتملة على الحب العام الذى هو لهذا الحب كالجسد ومن أخذ فى طريق المحبوبين وهو طريق خاص من طريق المحبة يتكمل فيه ويجتمع

الشيطان وأعداء الله وقد يعاون به أعداء الله عز وجل وهو الهوى فمن لا يزال مؤثرا الدنيا على دينه ولهواه على آخرته وهو عاجز عنها القلة فضله فكيف يجوز امداده بنوع علم يتمكن به من الوصول الى شهواته بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله يتفقدون أحوال من يتردد اليهم فلو رأوا منه تقصيرا فى نفل من النوافل أنكروه وتركوا اكرامه واذا رأوا منه فجورا واستحلال حرام هجروه ونفوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلا عن تعليمه لعلمهم بان من تعلم مسئلة ولم يعمل بها وجاوزها الى غيرها فليس يطلب الا آلة الشر وقد تعوذ جميع السلف بالله من الفاجر العالم بالسنة وما تعوذوا من الفاجر الجاهل حكى عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله انه كان يتردد اليه سنين ثم اتفق أن أعرض عنه أحمد وهجره وصار لا يكلمه فلم يزل يسأله عن تغيره عليه وهو لا يذكره حتى قال بلغنى انك طينت حائط دارك من جانب الشارع وقد أخذت قدر سمك الطين وهو أنملة من شارع المسلمين فلا تصلح لنقل العلم فهكذا كانت مراقبة السلف لاحوال طلاب العلم وهذا وأمثاله مما يلتبس على الاغبياء وأتباع الشيطان وان كانوا أرباب الطيالسة والاكمام الواسعة وأصحاب الالسنة الطويلة والفضل الكثير أعنى الفضل من العلوم التى لا تشتمل على التحذير من الدنيا والزجر عنها والترغيب فى الآخرة والدعاء اليها بل هى العلوم التى تتعلق بالخلق ويتوصل بها الى جمع الحطام واستتباع الناس والتقدم على الاقران فاذا قوله عليه السلام انما الاعمال بالنيات يختص من الاقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات دون المعاصى اذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد فاما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلا نعم للنية دخل فيها وهو انه اذا انضاف اليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها كما ذكرنا ذلك فى كتاب التوبة *(القسم الثانى الطاعات)* وهى مرتبطة بالنيات فى أصل صحتها وفى تضاعف فضلها اما الاصل فهو ان ينوى بها عبادة الله تعالى لا غير فان نوى الرياء صارت معصية وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة فان الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب اذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها كما ورد به الخبر ومثاله القعود فى المسجد فانه طاعة ويمكن أن ينوى فيه نيات كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال المتقين ويبلغ به درجات المقربين أولها ان يعتقد انه بيت الله وان داخله زائر الله فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال من قعد فى المسجد فقد زار الله تعالى وحق على المزور اكرام زائره وثانيها ان ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون فى جملة انتظاره فى الصلاة وهو معنى قوله تعالى ورابطوا وثالثها الترهب بكف السمع والبصر والاعضاء عن الحركات والترددات فان الاعتكاف كف وهو فى معنى الصوم وهو نوع ترهب ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رهبانية أمتى القعود فى المساجد ورابعها عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر فى الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال الى المسجد وخامسها التجرد لذكر الله أو لاستماع ذكره وللتذكر به كما روى فى الخبر من غدا الى المسجد ليذكر الله تعالى أو يذكر به كان كالمجاهد فى سبيل الله تعالى وسادسها ان يقصد افادة العلم بامر بمعروف ونهى عن منكر اذ المسجد لا يخلو عمن يسىء فى صلاته أو يتعاطى ما لا يحل له فيأمره بالمعروف ويرشده الى الدين فيكون شريكا معه فى خيره الذى يعلم منه فتتضاعف خيراته وسابعها أن يستفيد أخا فى الله فان ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفى الله وثامنها ان يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من أن يتعاطى فى بيت الله ما يقتضى هتك الحرمة وقد قال الحسن بن على رضى الله عنهما من أدمن الاختلاف الى المسجد رزقه الله احدى سبع خصال أخا مستفادا فى الله أو رحمة مستنزلة أو علما مستطرفا أو كلمة تدله على هدى أو تصرفه عن ردى أو يترك الذنوب خشية أو حياء فهذا طريق تكثير النيات وقس به سائر الطاعات والمباحات اذ ما من طاعة الا وتحتمل نيات كثيرة وانما تحضر فى قلب العبد المؤمن بقدر جده فى طلب الخير وتشمره له وتفكره فيه فبهذا تزكو الاعمال وتتضاعف الحسنات (القسم الثالث المباحات) وما من شىء من المباحات الا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالى الدرجات فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطى البهائم المهملة عن سهو وغفلة ولا ينبغى أن يستحقر العبد شيأ من الخطرات والخطوات واللحظات فكل ذلك يسئل عنه يوم القيامة انه لم فعله وما الذى

له روح الحب الخاص مع قالب الحب العام الذى تشتمل عليه التوبة النصوح وعند ذلك لا يتقلب فى اطوار المقامات لان التقلب فى أطوار المقامات والترقى من شىء منها الى شىء طريق المحبين ومن أخذ فى طريق المجاهدة من قوله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ومن قوله تعالى ويهدى اليه من ينيب أثبت كون الانابة سببا الهداية فى حق المحب وفى حق المحبوب صرح بالاجتباء غير معلل بالكسب فقال تعالى الله يجتبى اليه من يشاء فمن أخذ فى طريق المحبوبين يطوى بساط أطوار المقامات ويندرج فيها صفوها وخالصها باتم وصفها والمقامات لا تقيده ولا تحبسه وهو يقيدها ويحبسها بترقيه منها وانتزاعه صفوها وخالصها لانه حيث

قصدبه هذا فى مباح محض لا يشوبه كراهة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم حلالها حساب وحرامها عقاب وفى حديث معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان العبد ليسئل يوم القيامة عن كل شئ حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطينة باصبعه وعن لمسه ثوب أخيه وفى خبر آخر من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغير الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة فاستعمال الطيب مباح ولكن لا بد فيه من نية فان قلت فما الذى يمكن أن ينوى بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس وكيف يتطيب لله فاعلم ان من يتطيب مثلا يوم الجمعة وفى سائر الاوقات يتصور ان يقصد التنعم بلذات الدنيا أو يقصد به اظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الاقران أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاه فى قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة أو ليتودد به الى قلوب النساء الاجنبيات اذا كان مستحلا للنظر اليهن ولامور أخر لا تحصى وكل هذا يجعل التطيب معصية فبذلك يكون أنتن من الجيفة فى القيامة الا القصد الاول وهو التلذذ والتنعم فان ذلك ليس بمعصية الا انه يسئل عنه ومن نوقش الحساب عذب ومن أتى شيأ من مباح الدنيا لم يعذب عليه فى الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره وناهيك خسرانا بان يستعجل ما يفنى ويخسر زيادة نعيم لا يفنى وأما النيات الحسنة فانه ينوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة وينوى بذلك أيضا تعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا يرى ان يدخله زائر الله الا طيب الرائحة وان يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا فى المسجد عند مجاورته بروائحه وان يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التى تؤدى الى ايذاء مخالطيه وان يقصد حسم باب الغيبة عن المغتابين اذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيعصون الله بسببه فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك فى تلك المعصية كما قيل

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا * أن لا تفارقهم فالراحلون هم

وقال الله تعالى ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم أشار به الى أن التسبب الى الشر شر وان يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر فقد قال الشافعى رحمه الله من طاب ريحه زاد عقله فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها اذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبة على قلبه واذا لم يغلب على قلبه الا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النيات وان ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها الا حديث النفس وليس ذلك من النية فى شئ والمباحات كثيرة ولا يمكن احصاء النيات فيها فقس بهذا الواحد ما عداه ولهذا قال بعض العارفين من السلف انى لاستحب أن يكون لى فى كل شئ نية حتى فى أكلى وشربى ونومى ودخولى الى الخلاء وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب الى الله تعالى لان كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن فهو معين على الدين فمن قصده من الاكل التقوى على العبادة ومن الوقاع تحصين دينه وتطييب قلب أهله والتوصل به الى ولد صالح يعبد الله تعالى بعده فتكثر به أمة محمد صلى الله عليه وسلم كان مطيعا بأكله ونكاحه وأغلب حظوظ النفس الاكل والوقاع وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه هم الآخرة ولذلك ينبغى أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول هو فى سبيل الله واذا بلغه اغتياب غيره له فليطيب قلبه بانه سيحمل سيآته وستنقل الى ديوانه حسناته ولينو ذلك بسكوته عن الجواب ففى الخبر ان العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من الاعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة فيتعجب ويقول يا رب هذه أعمال ما عملتها قط فيقال هذه أعمال الذين اغتابوك وآذوك وظلموك وفى الخبر ان العبد ليوافى القيامة بحسنات أمثال الجبال لو خلصت له لدخل الجنة فيأتى وقد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا فيقتص لهذا من حسناته ولهذا من حسناته حتى لا يبقى له حسنة فتقول الملائكة قد فنيت حسناته وبقى طالبون فيقول الله تعالى ألقوا عليه من سيآتهم ثم صكوا له صكا الى النار وبالجملة فاياك ثم اياك أن تستحقر شيأ من حركاتك فلا تحترز من غروره وشروره ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب فان الله تعالى مطلع عليك وشهيد وما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد وقال بعض السلف كتبت كتابا وأردت أن أتربه من حائط جار لى فتحرجت ثم قلت تراب وما تراب فتربته فهتف بى هاتف سيعلم من استخف بتراب ما يلقى غدا من سوء الحساب وصلى رجل مع الثورى فرآه مقلوب الثوب فعرفه فمد يده ليصلحه ثم قبضها فلم يسوه فسأله عن ذلك فقال انى لبسته لله تعالى ولا أريد أن أسويه لغير الله

أشرقت عليه أنوار الحب الخاص خلع ملابس صفات النفس ونعوتها والمقامات كلها مصفية للنعوت والصفات النفسانية فالزهد يصفيه عن الرغبة والتوكل يصفيه عن قلة الاعتماد المتولد عن جهل النفس والرضا يصفيه عن ضربات عرق المنازعة والمنازعة لبقاء بجود فى النفس ما أشرق عليها شموس المحبة الخاصة فبقى ظلمتها وجودها فمن تحقق بالحب الخاص لانت نفسه وذهب بجودها فماذا ينزع الزهد منه من الرغبة ورغبة الحب أحرقت رغبته وماذا يصفى منه التوكل ومطالعة الوكيل حشو بصيرته وماذا يسكن فيه الرضا من عروق المنازعة والمنازعة ممن لم تسلم كليته (قال) الروذبارى ما لم تخرج من كليتك لا تدخل فى حد المحبة وقال أبو يزيد من قتلته محبته

وقد قال الحسن ان الرجل ليتعلق بالرجل يوم القيامة فيقول بيني و بينك الله فيقول والله ما أعرفك فيقول بلى أنت أخذت لبنة من حائطي وأخذت خيطا من ثوبي فهذا وأمثاله من الاخبار قطع قلوب الخائفين فان كنت من أولي العزم والنهى ولم تكن من المغترين فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك وراقب أحوالك ولا تسكن ولا تتحرك مالم تتأمل أولا أنك لم تتحرك وماذا تقصد وما الذي تنال به من الدنيا وما الذي يفوتك به من الآخرة وبماذا ترجح الدنيا على الآخرة فاذا علمت أنه لا باعث الا الدين فامض عزمك وما خطر ببالك والا فامسك ثم راقب أيضا قلبك في امساكك وامتناعك فان ترك الفعل فعل ولا بد له من نية صحيحة فلا ينبغي أن يكون لداعي هوى خفي لا يطلع عليه ولا يغرنك ظواهر الامور ومشهورات الخيرات وافطن للاغوار والاسرار تخرج من حيز أهل الاغترار فقد روي عن زكريا عليه السلام أنه كان يعمل في حائط بالطين وكان أجير القوم فقدموا له رغيفه اذ كان لا يأكل الا من كسب يده فدخل عليه قوم فلم يدعهم الى الطعام حتى فرغ فتعجبوا منه لما علموا من سخائه وزهده وظنوا أن الخير في طلب المساعدة في الطعام فقال اني أعمل لقوم بالاجرة وقدموا الي الرغيف لاتقوى به على عملهم فلو أكلتم معي لم يكفكم ولم يكفني وضعفت عن عملهم فالبصير هكذا ينظر في البواطن بنور الله فان ضعفه عن العمل نقص في فرض وترك الدعوة الى الطعام نقص في فضل ولا حكم للفضائل مع الفرائض وقال بعضهم دخلت على سفيان وهو يأكل فما كلمني حتى لعق أصابعه ثم قال لولا أني أخذته بدين لاحببت أن تأكل منه وقال سفيان من دعا رجلا الى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه فان أجابه فأكل فعليه وزران وان لم يأكل فعليه وزر واحد وأراد بأحد الوزرين النفاق وبالثاني تعريضه أخاه لما يكرهه لو علمه فهكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيته في سائر الاعمال فلا يقدم ولا يحجم الا بنية فان لم تحضره النية توقف فان النية لا تدخل تحت الاختيار

(بيان أن النية غير داخلة تحت الاختيار)

اعلم أن الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله نويت أن أدرس لله أو أتجر لله أو آكل لله ويظن ذلك نية وهيهات فذلك حديث نفس وحديث لسان أو فكر أو انتقال من خاطر الى خاطر والنية بمعزل من جميع ذلك وانما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها الى ما ظهر لها أن فيه غرضها اما عاجلا واما آجلا والميل اذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الارادة بل ذلك كقول الشبعان نويت أن أشتهي الطعام وأميل اليه أو قول الفارغ نويت أن أعشق فلانا وأحبه وأعظمه بقلبي فذلك محال بل لا طريق الى اكتساب صرف القلب الى الشيء وميله اليه وتوجهه نحوه الا باكتساب أسبابه وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه وانما تنبعث النفس الى الفعل اجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها ومالم يعتقد الانسان ان غرضه منوط بفعل من الافعال فلا يتوجه نحوه قصده وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين واذا اعتقد فانما يتوجه القلب اذا كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه وذلك لا يمكن في كل وقت والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع ويختلف ذلك بالاشخاص وبالاحوال وبالاعمال فاذا غلبت شهوة النكاح مثلا ولم يعتقد غرضا صحيحا في الولد دينا ولا دنيا لا يمكنه أن يواقع على نية الولد بل لا يمكن الا على نية قضاء الشهوة اذ النية هي اجابة الباعث ولا باعث الا الشهوة فكيف ينوي الولد واذا لم يغلب على قلبه أن اقامة سنة النكاح اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعظم فضلها لا يمكن أن ينوي بالنكاح اتباع السنة الا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه وهو حديث محض ليس بنية نعم طريق اكتساب هذه النية مثلا أن يقوي أولا ايمانه بالشرع ويقوي ايمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد من ثقل المؤنة وطول التعب وغيره فاذا فعل ذلك ربما انبعث من قلبه رغبة الى تحصيل الولد للثواب فتحركه تلك الرغبة وتتحرك أعضاؤه لمباشرة العقد فاذا انتهضت القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان ناويا فان لم يكن كذلك فما يقدره في نفسه ويردده في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات اذ لم تحضرهم النية وكانوا يقولون ليس تحضرنا فيه نية حتى ان ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصري وقال

فديته رؤيته ومن قتله عشقه فديته منادمته (أخبرنا) بذلك أبو زرعة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن قال سمعت أحمد بن علي بن جعفر يقول سمعت الحسين بن علويه يقول قال أبو يزيد ذلك فاذا التقلب في أطوار المقامات لعوام المحبين وطي بساط الاطوار لخواص المحبين وهم المحبوبون تخلفت عن هممهم المقامات وربما كانت المقامات على مدارج طبقات السموات وهي مواطن من يتعثر في أذيال بقاياه (قال) بعض الكبار لابراهيم الخواص الى ماذا أدى بك التصوف فقال الى التوكل فقال تسعى في عمران باطنك أين أنت من الفناء في التوكل برؤية الوكيل فالنفس اذا تحركت بصفتها متفلتة من دائرة الزهد يردها الزاهد الى الدائرة بزهده والمتوكل

ليس تحضرني نية ونادى بعضهم امرأته وكان يسرح شعره أن هات المدرى فقالت أجيء بالمرآة فسكت ساعة ثم قال نعم فقيل له في ذلك فقال كان لي في المدرى نية ولم تحضرني في المرآة نية فتوقفت حتى هيأها الله تعالى ومات حماد بن سليمان وكان أحد علماء أهل الكوفة فقيل للثوري ألا تشهد جنازته فقال لو كان لي نية لفعلت وكان أحدهم اذا سئل عملا من أعمال البر يقول ان رزقني الله تعالى نية فعلت وكان طاوس لا يحدث الا بنية وكان يسئل أن يحدث فلا يحدث ولا يسئل فيبتدئ فقيل له في ذلك قال أفتحبون أن أحدث بغير نية اذا حضرتني نية فعلت وحكى أن داود بن المحبر لما صنف كتاب العقل جاءه أحمد بن حنبل فطلبه منه فنظر فيه أحمد صفحا ورده فقال مالك قال فيه أسانيد ضعاف فقال له داود أنا لم أخرجه على الاسانيد فانظر فيه بعين الخبر انما نظرت فيه بعين العمل فانتفعت قال أحمد فرده على حتى أنظر فيه بالعين التي نظرت فأخذه ومكث عنده طويلا ثم قال جزاك الله خيرا فقد انتفعت به وقيل لطاوس ادع لنا فقال حتى أجد له نية وقال بعضهم أنا في طلب نية لعيادة رجل منذ شهر فما صحت لي بعد وقال عيسى بن كثير مشيت مع ميمون بن مهران فلما انتهى الى باب داره انصرفت فقال ابنه ألا تعرض عليه العشاء قال ليس من نيتي وهذا لان النية تتبع النظر فاذا تغير النظر تغيرت النية وكانوا لا يرون أن يعملوا عملا الا بنية لعلمهم بان النية روح العمل وان العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لا سبب قرب وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه نويت بل هو انبعاث القلب يجري مجرى الفتوح من الله تعالى فقد تتيسر في بعض الاوقات وقد تتعذر في بعضها نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الاحوال احضار النية للخيرات فان قلبه مائل بالجملة الى أصل الخير فينبعث الى التفاصيل غالبا ومن مال قلبه الى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك بل لا يتيسر له في الفرائض الا بجهد جهيد وغايته أن يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها أو نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها فربما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته وأما الطاعة على نية اجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا تتيسر للراغب في الدنيا وهذه أعز النيات وأعلاها ويعز على بسيط الارض من يفهمها فضلا عمن يتعاطاها ونيات الناس في الطاعات أقسام اذ منهم من يكون عمله اجابة لباعث الخوف فانه يتقي النار ومنهم من يعمل اجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة وهذا وان كان نازلا بالاضافة الى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لامر سواه فهو من جملة النيات الصحيحة لانه ميل الى الموعود في الآخرة وان كان من جنس المألوفات في الدنيا وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرهما الجنة فالعامل لاجل الجنة عامل لبطنه وفرجه كالاجير السوء ودرجته درجة البله وانه لينالها بعمله اذ أكثر أهل الجنة البله وأما عبادة ذوي الالباب فانها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه حبا لجماله وجلاله وسائر الاعمال تكون مؤكدات وروادف وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات الى المنكوح والمطعوم في الجنة فانهم لم يقصدوها بل هم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فقط وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم يتنعمون بالنظر الى وجهه الكريم ويسخرون ممن يلتفت الى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر الى الحور العين ممن يتنعم بالنظر الى وجه الصور المصنوعة من الطين بل أشد فان التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشد وأعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان واعراضهم عن جمال وجه الله الكريم يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبتها والفها لها واعراضها عن النظر الى جمال وجوه النساء فعمى أكثر القلوب عن ابصار جمال الله وجلاله يضاهي عمى الخنفساء عن ادراك جمال النساء فانها لا تشعر به أصلا ولا تلتفت اليه ولو كان لها عقل وذكرناه لها لاستحسنت عقل من يلتفت اليهن ولا يزالون مختلفين كل حزب بما لديهم فرحون ولذلك خلقهم * حكى أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عز وجل في المنام فقال له كل الناس يطلبون مني الجنة الا أبا يزيد فانه يطلبني ورأى أبو يزيد ربه في المنام فقال يارب كيف الطريق اليك فقال اترك نفسك وتعال الي ورؤي الشبلي بعد موته في المنام فقيل له مافعل الله بك فقال لم يطالبني على الدعاوي بالبرهان الا على قول واحد قلت يوما أي خسارة أعظم من خسران الجنة فقال أي خسارة أعظم من خسران لقائي والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات

اذا تحركت نفسه يردها بتوكله والراضي يردها برضاه وهذه الحركة من النفس بقايا وجودية تفتقر الى سياسة العلم وفي ذلك تنسم روح القرب من بعيد وهو أداء حق العبودية مبلغ العلم وبحسبه الاجتهاد والكسب ومن أخذ في طريق الخاصة عرف طريق التخلص من البقايا بالتستر بأنوار فضل الحق ومن اكتسى ملابس نور القرب بروح دائمة العكوف محمية عن الطوارق والصروف لا يزعجه طلب ولا يوحشه سلب فالزهد والتوكل والرضا كائن فيه وهو غير كائن فيها على معنى أنه كيف تقلب كان زاهدا وان رغب لانه بالحق لا بنفسه وان رؤي منه الالتفات الى الاسباب فهو متوكل وان وجد منه الكراهة فهو راض لان كراهته لنفسه ونفسه للحق وكراهته للحق أعيد اليه

ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول الى غيرها ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالا وأفعالا لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء فانا نقول من حضرت له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة فالمباح أولى وانتقلت الفضيلة اليه وصارت الفضيلة في حقه نقيصة لان الاعمال بالنيات وذلك مثل العفو فانه أفضل من الانتصار في الظلم وربما تحضره نية في الانتصار دون العفو فيكون ذلك أفضل ومثل أن يكون له نية في الاكل والشرب والنوم ليريح نفسه ويتقوى على العبادات في المستقبل وليس تنبعث نيته في الحال للصوم والصلاة فالاكل والنوم هو الافضل له بل لو مل العبادة لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم انه لو ترفه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطه فاللهو أفضل له من الصلاة قال أبو الدرداء اني لاستجم نفسي بشئ من اللهو فيكون ذلك عونا لي على الحق وقال علي كرم الله وجهه روحوا القلوب فانها اذا أكرهت عميت وهذه دقائق لا يدركها الا سماسرة العلماء دون الحشوية منهم بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ويستبعده القاصر في الطب وانما يبتغي به أن يعيد أولا قوته ليحتمل المعالجة بالضد والحاذق في لعب الشطرنج مثلا قد ينزل عن الرخ والفرس مجانا ليتوصل بذلك الى الغلبة والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجب منه وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدي قرينه ويوليه دبره حيلة منه ليستجره الى مضيق فيكر عليه فيقهره فكذلك سلوك طريق الله تعالى كله قتال مع الشيطان ومعالجة للقلب والبصير الموفق يقف فيها على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء فلا ينبغي للمريد أن يضمر انكارا على ما يراه من شيخه ولا للمتعلم ان يعترض على أستاذه بل ينبغي أن يقف عند حد بصيرته وما لا يفهمه من أحوالهما يسلمه لهما الى أن ينكشف له أسرار ذلك بان يبلغ رتبتهما وينال درجتهما ومن الله حسن التوفيق

(الباب الثاني في الاخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته)

(فضيلة الاخلاص)

قال الله تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين وقال ألا لله الدين الخالص وقال تعالى الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله وقال تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا نزلت فيمن يعمل لله ويحب أن يحمد عليه وقال النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم اخلاص العمل لله وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال ظن أبي ان له فضلا على من هو دونه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم انما نصر الله عز وجل هذه الامة بضعفائها ودعوتهم واخلاصهم وصلاتهم وعن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى الاخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببت من عبادي وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لا تهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول فان النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل أخلص العمل يجزك منه القليل وقال عليه السلام ما من عبد يخلص لله العمل أربعين يوما الا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه وقال عليه السلام أول من يسئل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى ما صنعت فيما علمت فيقول يا رب كنت أقوم به آناء الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ألا فقد قيل ذلك ورجل آتاه الله مالا فيقول الله تعالى لقد أنعمت عليك فماذا صنعت فيقول يا رب كنت أتصدق به آناء الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ألا فقد قيل ذلك ورجل قتل في سبيل الله تعالى فيقول الله تعالى ماذا صنعت فيقول يا رب أمرت بالجهاد فقاتلت حتى قتلت فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ألا فقد قيل ذلك قال أبو هريرة ثم خط رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذي وقال يا أبا هريرة أولئك أول خلق تسعر نار جهنم بهم يوم القيامة فدخل راوي هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تزهق ثم قال صدق الله اذ قال من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها الآية وفي الاسرائيليات ان عابدا كان يعبد الله دهرا طويلا فجاءه قوم فقالوا ان ههنا قوما يعبدون شجرة من دون الله تعالى فغضب لذلك وأخذ فاسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها فاستقبله ابليس في صورة شيخ فقال أين تريد رحمك الله قال أريد ان أقطع هذه

نفسه بدواعيها وصفاتها مطهرة موهوبة مجولة ملطوف بها صار عين الداء دواءه وصار الاعلال شفاءه وناب طلب الله له مناب كل طالب من زهد وتوكل ورضا أو صار مطلوبه من الله ينوب عن كل مطلوب من زهد وتوكل ورضا (قالت) رابعة محب الله لا يسكن أنينه وحنينه حتى يسكن مع محبوبه (وقال) أبو عبد الله القرشي حقيقة المحبة ان تهب لمن أحببت كلك ولا يبقى لك منك شئ (وقال) أبو الحسين الوراق السرور بالله من شدة المحبة له والمحبة في القلب نار تحرق كل دنس (وقال) يحيى بن معاذ صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين واعجبا كيف يصبر الانسان عن حبيبه (وقال بعضهم) من ادعى محبة الله من غير تورع عن محارمه فهو كذاب ومن ادعى محبة الجنة من غير انفاق ملكه فهو

الشجرة قال وما أنت وذاك تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك فقال ان هذا من عبادتي قال فاني لا أتركك ان تقطعها فقاتله فأخذه العابد فطرحه الى الارض وقعد على صدره فقال له ابليس اطلقني حتى أكلمك فقام عنه فقال له ابليس يا هذا ان الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك وما تعبدها أنت وما عليك من غيرك ولله تعالى أنبياء في أقاليم الارض ولو شاء لبعثهم الى أهلها وأمرهم بقطعها فقال العابد لا بد لي من قطعها فنابذه للقتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فعجز ابليس فقال له هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأنفع قال وما هو قال أطلقني حتى أقول لك فاطلقه فقال ابليس أنت رجل فقير لا شئ لك انما أنت كل على الناس يعولونك ولعلك تحب أن تتفضل على اخوانك وتواسي جيرانك وتشبع وتستغني عن الناس قال نعم قال فارجع عن هذا الامر ولك علي ان أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين اذا أصبحت أخذتهما فانفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على اخوانك فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيأ ولا ينفع اخوانك المؤمنين قطعك اياها فتفكر العابد فيما قال وقال صدق الشيخ لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله ان أقطعها فاكون عاصيا بتركها وما ذكره أكثر منفعة فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له فرجع العابد الى متعبده فبات فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فاخذهما وكذلك الغد ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيأ فغضب وأخذ فاسه على عاتقه فاستقبله ابليس في صورة شيخ فقال له الى أين قال أقطع تلك الشجرة فقال كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك اليها قال فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة فقال هيهات فأخذه ابليس وصرعه فاذا هو كالعصفور بين رجليه وقعد ابليس على صدره وقال لتنتهين عن هذا الامر أو لأذبحنك فنظر العابد فاذا لا طاقة له به قال يا هذا غلبتني فخل عني وأخبرني كيف غلبتك أولا وغلبتني الآن فقال لانك غضبت أول مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله لك وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك وهذه الحكايات تصديق قوله تعالى الا عبادك منهم المخلصين اذ لا يتخلص العبد من الشيطان الا بالاخلاص ولذلك كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول يا نفس أخلصي تتخلصي وقال يعقوب المكفوف المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته وقال سليمان طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها الا الله تعالى وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه الى أبي موسى الاشعري من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس وكتب بعض الاولياء الى أخ له أخلص النية في أعمالك يكفك القليل من العمل وقال أيوب السختياني تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الاعمال وكان مطرف يقول من صفا صفي له ومن خلط خلط عليه وروئي بعضهم في المنام فقيل له كيف وجدت أعمالك فقال كل شئ عملته لله وجدته حتى حبة رمان لقطتها من طريق وحتى هرة ماتت لنا رأيتها في كفة الحسنات وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيته في كفة السيئات وكان قد نفق حمار لي قيمته مائة دينار فما رأيت له ثوابا فقلت موت سنور في كفة الحسنات وموت حمار ليس فيها فقيل لي انه قد وجه حيث بعثت به فانه لما قيل لك قد مات قلت في لعنة الله فبطل أجرك فيه ولو قلت في سبيل الله لوجدته في حسناتك وفي رواية قال وكنت قد تصدقت بصدقة بين الناس فأعجبني نظرهم الي فوجدت ذلك لا علي ولا لي قال سفيان لما سمع هذا ما أحسن حاله اذ لم يكن عليه فقد أحسن اليه * وقال يحيى بن معاذ الاخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز اللبن من الفرث والدم وقيل كان رجل يخرج في زي النساء ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء من عرس أو مأتم فاتفق ان حضر يوما موضعا فيه مجمع للنساء فسرقت درة فصاحوا ان أغلقوا الباب حتى نفتش فكانوا يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت النوبة الى الرجل والى امرأة معه فدعا الله تعالى بالاخلاص وقال ان نجوت من هذه الفضيحة لا أعود الى مثل هذا فوجدت الدرة مع تلك المرأة فصاحوا أن أطلقوا الحرة فقد وجدنا الدرة * وقال بعض الصوفية كنت قاعدا مع أبي عبيد التستري وهو يحرث أرضه بعد العصر من يوم عرفة فمر به بعض اخوانه من الابدال فساره بشئ فقال أبو عبيد لا فمر كالسحاب يمسح الارض حتى غاب عن عيني فقلت لابي عبيد ما قال لك فقال سألني أن أحج معه قلت لا فقلت فهلا فعلت قال ليس لي في الحج نية وقد نويت ان أتمم هذه الارض العشية فاخاف ان حججت معه لاجله تعرضت لمقت الله تعالى لاني أدخل في عمل الله شيأ غيره فيكون ما أنا فيه أعظم عندي من سبعين حجة وروى عن بعضهم قال غزوت في البحر فعرض

كذاب ومن ادعى حب رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير حب الفقراء فهو كذاب وكانت رابعة تنشد

تعصي الاله وأنت تظهر حبه
هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لاطعته
ان المحب لمن يحب مطيع

واذا كان الحب للاحوال كالتوبة للمقامات فمن ادعى حالا يعتبر حبه ومن ادعى محبة تعتبر توبته فان التوبة قالب روح الحب وهذا الروح قيامه بهذا القالب والاحوال أعراض قوامها بجوهر الروح (وقال) سمنون ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة لان النبي صلى الله عليه وسلم قال المرء مع من أحب فهم مع الله تعالى (وقال) أبو يعقوب السوسي لا تصح المحبة حتى تخرج من رؤية المحبة الى

بعضنا بمخلاة فقلت أشتريها فانتفع بها في غزوي فاذا دخلت مدينة كذا بعتها فربحت فيها فاشتريتها فرأيت تلك الليلة في النوم كأن شخصين قد نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه اكتب الغزاة فأملى عليه خرج فلان متنزها وفلان مرائيا وفلان تاجرا وفلان في سبيل الله ثم نظر الي وقال اكتب فلان خرج تاجرا فقلت الله الله في أمري ما خرجت أتجر وما معي تجارة أتجر فيها ما خرجت الا للغزو فقال يا شيخ قد اشتريت أمس مخلاة تريد أن تربح فيها فبكيت وقلت لا تكتبوني تاجرا فنظر الى صاحبه وقال ما ترى فقال اكتب خرج فلان غازيا الا أنه اشترى في طريقه مخلاة ليربح فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه بما يرى وقال سري السقطي رحمه الله تعالى لأن تصلي ركعتين في خلوة تخلصهما خير لك من ان تكتب سبعين حديثا أو سبعمائة بعلو وقال بعضهم في اخلاص ساعة نجاة الابد ولكن الاخلاص عزيز ويقال العلم بذر والعمل زرع وماؤه الاخلاص وقال بعضهم اذا أبغض الله عبدا أعطاه ثلاثا ومنعه ثلاثا أعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبول منهم وأعطاه الاعمال الصالحة ومنعه الاخلاص فيها وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها وقال السوسي مراد الله من عمل الخلائق الاخلاص فقط وقال الجنيد ان لله عبادا عقلوا فلما عقلوا عملوا فلما عملوا أخلصوا فاستدعاهم الاخلاص الى أبواب البر أجمع وقال محمد بن سعيد المروزي الامر كله يرجع الى أصلين فعل منه بك وفعل منك له فترضى ما فعل وتخلص فيما تعمل فاذا أنت قد سعدت بهذين وفزت في الدارين

(بيان حقيقة الاخلاص)

اعلم ان كل شئ يتصور أن يشوبه غيره فاذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصا ويسمى الفعل المصفى المخلص اخلاصا قال الله تعالى من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين فانما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به والاخلاص يضاده الاشراك فمن ليس مخلصا فهو مشرك الا ان الشرك درجات فالاخلاص في التوحيد يضاده التشريك في الالهية والشرك منه خفي ومنه جلي وكذا الاخلاص والاخلاص وضده يتواردان على القلب فمحله القلب وانما يكون ذلك في القصود والنيات وقد ذكرنا حقيقة النية وانها ترجع الى اجابة البواعث فمهما كان الباعث واحدا على التجرد سمي الفعل الصادر عنه اخلاصا بالاضافة الى المنوي فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص ومن كان غرضه محض التقرب الى الله تعالى فهو مخلص ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الاخلاص بتجريد قصد التقرب الى الله تعالى عن جميع الشوائب كما ان الالحاد عبارة عن الميل ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض للهلاك ولسنا نتكلم فيه اذ قد ذكرنا ما يتعلق به في كتاب الرياء من ربع المهلكات وأقل أموره ما ورد في الخبر من ان المرائي يدعى يوم القيامة بأربع أسام يا مرائي يا مخادع يا مشرك يا كافر وانما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر اما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب أو يعتق عبدا ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر أو يتخلص من شر يعرض له في بلده أو ليهرب عن عدو في منزله أو يتبرم بأهله وولده أو بشغل هو فيه فأراد أن يستريح منه أياما أو ليغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهيئة العساكر وجرها أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه به ليراقب أهله أو رحله أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عزيزا بين العشيرة أو ليكون عقاره وماله محروسا بعز العلم عن الاطماع أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث أو تكفل بخدمة العلماء أو الصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس أو لينال به رفقا في الدنيا أو كتب مصحفا ليجود بالمواظبة على الكتابة خطه أو حج ماشيا ليخفف عن نفسه الكراء أو توضأ ليتنظف أو يتبرد أو اغتسل لتطيب رائحته أو روى الحديث ليعرف بعلو الاسناد أو اعتكف في المسجد ليخف عليه كراء المسكن أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبخ الطعام أو ليتفرغ لاشغاله فلا يشغله الاكل عنها أو تصدق على السائل ليقطع ابرامه في السؤال عن نفسه أو يعود مريضا ليعاد اذا مرض أو يشيع جنازة ليشيع جنائز أهله أو يفعل شيأ من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به وينظر اليه بعين الصلاح والوقار فمهما كان باعثه هو التقرب الى الله تعالى ولكن انضاف اليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل

رؤية المحبوب بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب في الغيب ولم يكن هذا بالمحبة فاذا خرج المحب الى هذه النسبة كان محبا من غير محبة (سئل) الجنيد عن المحبة قال دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب (قيل) هذا على معنى قوله تعالى فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا وذلك ان المحبة اذا صفت وكملت لا تزال تجذب بوصفها الى محبوبها فاذا انتهت الى غاية جهدها وقفت والرابطة متأصلة متأكدة وكمال وصف المحبة أزال الموانع من المحب وبكمال وصف المحبة تجذب صفات المحبوب تعطفا على المحب المخلص من موانع قادحة في صدق الحب ونظرا الى قصوره بعد استنفاد جهده فيعود المحب بفوائد اكتساب الصفات من المحبوب فيقول عند ذلك

أخف عليه بسبب هذه الامور فقد خرج عمله عن حد الاخلاص وخرج عن ان يكون خالصا لوجه الله تعالى وتطرق اليه الشرك وقد قال تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشركة وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح اليه النفس ويميل اليه القلب قل أم كثر اذا تطرق الى العمل تكدر به صفوه وزال به اخلاصه والانسان مرتبط فى حظوظه منغمس فى شهواته قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الاجناس فلذلك قيل من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا وذلك لعزة الاخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب بل الخالص هو الذى لا باعث عليه الا طلب القرب من الله تعالى وهذه الحظوظ ان كانت هى الباعثة وحدها فلا يخفى شدة الامر على صاحبه فيها وانما نظرنا فيما اذا كان القصد الاصلى هو التقرب وانضافت اليه هذه الامور ثم هذه الشوائب اما أن تكون فى رتبة الموافقة أو فى رتبة المشاركة أو فى رتبة المعاونة كما سبق فى النية وبالجملة فاما أن يكون الباعث النفسى مثل الباعث الدينى أو أقوى منه أو أضعف ولكل واحد حكم آخر كما سنذكره وانما الاخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها قليلها وكثيرها حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه وهذا لا يتصور الا من محب لله مستهتر بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا فى قلبه قرار حتى لا يحب الاكل والشرب أيضا بل تكون رغبته فيه كرغبته فى قضاء الحاجة من حيث انه ضرورة الجبلة فلا يشتهى الطعام لانه طعام بل لانه يقوى به على عبادة الله تعالى ويتمنى أن لو كفى شر الجوع حتى لا يحتاج الى الاكل فلا يبقى فى قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة ويكون قدر الضرورة مطلوبا عنده لانه ضرورة دينه فلا يكون له هم الا الله تعالى فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل صحيح النية فى جميع حركاته وسكناته فلو نام مثلا حتى يريح نفسه ليتقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكان له درجة المخلصين فيه ومن ليس كذلك فباب الاخلاص فى الاعمال مسدود عليه الا على الندور وكما ان من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت اخلاصا فالذى يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة وبالجملة غير الله فقد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك الا نادرا فاذا علاج الاخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب فاذ ذاك يتيسر الاخلاص وكم من أعمال يتعب الانسان فيها ويظن انها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرورا لانه لا يرى وجه الآفة فيها كما حكى عن بعضهم أنه قال قضيت صلاة ثلاثين سنة صليتها فى المسجد فى الصف الاول لانى تأخرت يوما لعذر فصليت فى الصف الثانى فاعترتنى خجلة من الناس حيث رأونى فى الصف الثانى فعرفت ان نظر الناس الى فى الصف الاول كان مسرتى وسبب استراحة قلبى من حيث لا أشعر وهذا دقيق غامض قلما تسلم الاعمال من أمثاله وقل من يتنبه له الا من وفقه الله تعالى والغافلون عنه يرون حسناتهم كلها فى الآخرة سيئات وهم المرادون بقوله تعالى وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيئات ما كسبوا وبقوله تعالى قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحيوة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة العلماء فان الباعث للاكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذى شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وترى الواعظ يمن على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلاطين ويفرح بقبول الناس قوله واقبالهم عليه وهو يدعى انه يفرح بما يسر له من نصرة الدين ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى اذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول انما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك الى غيرك اذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لفوات الثواب محمود ولا يدرى المسكين ان انقياده للحق وتسليمه الامر أفضل وأجزل ثوابا وأعود عليه فى الآخرة من انفراده وليت شعرى لو اغتم عمر رضى الله عنه بتصدى أبى بكر رضى الله تعالى عنه للامامة أكان غمه محمودا أو مذموما ولا يستريب ذو دين أن لو كان ذلك لكان مذموما لان انقياده للحق وتسليمه الامر الى من هو أصلح منه أعود عليه فى الدين من تكفله بمصالح الخلق

أنا من أهوى ومن أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدنا
فاذا أبصرتنى أبصرته * واذا أبصرته أبصرتنا
وهذا الذى عبرنا عنه حقيقة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم تخلقوا باخلاق الله لانه بنزاهة النفس وكمال التزكية يستعد للمحبة والمحبة موهبة غير معللة بالتزكية ولكن سنة الله جارية ان يزكى نفوس أحبابه بحسن توفيقه وتأييده واذا صح نزاهة النفس وطهارتها ثم جذب روحه بجاذب المحبة خلع عليه خلع الصفات والاخلاق ويكون ذلك عنده رتبة فى الوصول فتارة ينبعث الشوق من باطنه الى ما وراء ذلك لكون عطايا الله غير متناهية وتارة يتسلى بما منح فيكون ذلك وصوله الذى يسكن نيران شوقه وبباعث الشوق تستقر

مع ما فيه من الثواب الجزيل بل فرح عمر رضي الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالامر فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان فيحدث نفسه بانه لو ظهر من هو أولى منه بالامر لفرح به واخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور فان النفس سهلة القياد في الوعد بامثال ذلك قبل نزول الامر ثم اذا دهاه الامر تغير ورجع ولم يف بالوعد وذلك لا يعرفه الا من عرف مكايد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحانها فمعرفة حقيقة الاخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع الا الشاذ النادر والفرد الفذ وهو المستثنى في قوله تعالى الا عبادك منهم المخلصين فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق والا التحق باتباع الشياطين وهو لا يشعر

(بيان أقاويل الشيوخ في الاخلاص)

قال السوسي الاخلاص فقد رؤية الاخلاص فان من شاهد في اخلاصه الاخلاص فقد احتاج اخلاصه الى اخلاص وما ذكره اشارة الى تصفية العمل عن العجب بالفعل فان الالتفات الى الاخلاص والنظر اليه عجب وهو من جملة الآفات والخالص ما صفا عن جميع الآفات فهذا تعرض لآفة واحدة وقال سهل رحمه الله تعالى الاخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض وفي معناه قول ابراهيم بن أدهم الاخلاص صدق النية مع الله تعالى وقيل لسهل أي شيء أشد على النفس فقال الاخلاص اذ ليس لها فيه نصيب وقال رويم الاخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا في الدارين وهذا اشارة الى أن حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا والعابد لاجل تنعم النفس بالشهوات في الجنة معلول بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل الا وجه الله تعالى وهو اشارة الى اخلاص الصديقين وهو الاخلاص المطلق فاما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالاضافة الى الحظوظ العاجلة والا فهو في طلب حظ البطن والفرج وانما المطلوب الحق لذوي الالباب وجه الله تعالى فقط وقول القائل لا يتحرك الانسان الا لحظ والبراءة من الحظوظ صفة الالهية ومن ادعى ذلك فهو كافر وقد قضى القاضي أبو بكر الباقلاني بتكفير من يدعي البراءة من الحظوظ وقال هذا من صفات الالهية وما ذكره حق ولكن القوم انما أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظا وهو الشهوات الموصوفة في الجنة فقط فاما التلذذ بمجرد المعرفة والمناجاة والنظر الى وجه الله تعالى فهذا حظ هؤلاء وهذا لا يعده الناس حظا بل يتعجبون منه وهؤلاء لو عوضوا عما هم فيه من لذة الطاعة والمناجاة وملازمة الشهود للحضرة الالهية سرا وجهرا جميع نعيم الجنة لاستحقروه ولم يلتفتوا اليه فحركتهم لحظ وطاعتهم لحظ ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره وقال أبو عثمان الاخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر الى الخالق فقط وهذا اشارة الى آفة الرياء فقط ولذلك قال بعضهم الاخلاص في العمل أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه فانه اشارة الى مجرد الاخفاء وقد قيل الاخلاص ما استتر عن الخلائق وصفا عن العلائق وهذا أجمع للمقاصد وقال المحاسبي الاخلاص هو اخراج الخلق عن معاملة الرب وهذا اشارة الى مجرد نفي الرياء وكذلك قول الخواص من شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن اخلاص العبودية وقال الحواريون لعيسى عليه السلام ما الخالص من الاعمال فقال الذي يعمل لله تعالى لا يحب أن يحمده عليه أحد وهذا أيضا تعرض لترك الرياء وانما خصه بالذكر لانه أقوى الاسباب المشوشة للاخلاص وقال الجنيد الاخلاص تصفية العمل من الكدورات وقال الفضيل ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك والاخلاص أن يعافيك الله منهما وقيل الاخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها وهذا هو البيان الكامل والاقاويل في هذا كثيرة ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة وانما البيان الشافي بيان سيد الاولين والآخرين صلى الله عليه وسلم اذ سئل عن الاخلاص فقال أن تقول ربي الله ثم تستقيم كما أمرت أي لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد الا ربك وتستقيم في عبادته كما أمرت وهذا اشارة الى قطع ما سوى الله عن مجرى النظر وهو الاخلاص حقا

(بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للاخلاص)

اعلم ان الآفات المشوشة للاخلاص بعضها جلي وبعضها خفي وبعضها ضعيف مع الجلاء وبعضها قوي مع الخفاء ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء الا بمثال وأظهر مشوشات الاخلاص الرياء فلنذكر منه مثالا

الصفات الموهوبة المحققة رتبة الوصول عند المحب ولولا باعث الشوق رجع القهقرى وظهرت صفات نفسه الحائلة بين المرء وقلبه ومن ظن من الوصول غير ما ذكرناه أو تخايل له غير هذا القدر فهو متعرض لمذهب النصارى في اللاهوت والناسوت (واشارات) الشيوخ في الاستغراق والفناء كلها عائدة الى تحقيق مقام المحبة باستيلاء نور اليقين وخلاصة الذكر على القلب وتحقيق حق اليقين بزوال اعوجاج البقايا وأمنت اللوث الوجودي من بقاء صفات النفس واذا صحت المحبة ترتبت عليها الاحوال وتبعتها (سئل) الشبلي عن المحبة فقال كاس لها وهج اذا استقر في الحواس وسكن في النفوس تلاشت (وقيل) للمحبة ظاهر

فنقول الشيطان يدخل الآفة على المصلى مهما كان مخلصا فى صلاته ثم نظر اليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له حسن صلاتك حتى ينظر اليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك فتخشع جوارحه وتسكن أطرافه وتحسن صلاته وهذا هو الرياء الظاهر ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين * الدرجة الثانية يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت اليه ويستمر فى صلاته كما كان فيأتيه فى معرض الخير ويقول أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور اليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسى بك غيرك فيكون لك ثواب أعمالهم ان أحسنت وعليك الوزر ان أسأت فأحسن عملك بين يديه فعساه يقتدى بك فى الخشوع وتحسين العبادة وهذا أغمض من الاول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالاول وهو أيضا عين الرياء ومبطل للاخلاص فانه ان كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه فلم لم يرتض لنفسه ذلك فى الخلوة ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه فهذا محض التلبيس بل المقتدى به هو الذى استقام فى نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره الى غيره فيكون له ثواب عليه فاما هذا فمحض النفاق والتلبيس فمن اقتدى به أثيب عليه وأما هو فيطالب بتلبيسه ويعاقب على اظهاره من نفسه ما ليس متصفا به * الدرجة الثالثة وهى أدق مما قبلها أن يجرب العبد نفسه فى ذلك ويتنبه لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء ويعلم ان الاخلاص فى أن تكون صلاته فى الخلوة مثل صلاته فى الملا ويستحى من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعا زائدا على عادته فيقبل على نفسه فى الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذى يرتضيه فى الملا ويصلى فى الملا أيضا كذلك فهذا أيضا من الرياء الغامض لانه حسن صلاته فى الخلوة لتحسن فى الملا فلا يكون قد فرق بينهما فالتفاته فى الخلوة والملا الى الخلق بل الاخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة فكأن نفس هذا ليست تسمح باساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحى من نفسه أن يكون فى صورة المرائين ويظن أن ذلك يزول بان تستوى صلاته فى الخلا والملا وهيهات بل زوال ذلك بان لا يلتفت الى الخلق كما لا يلتفت الى الجمادات فى الخلا والملا جميعا وهذا من شخص مشغول الهم بالخلق فى الملا والخلا جميعا وهذا من المكايد الخفية للشيطان * الدرجة الرابعة وهى أدق وأخفى أن ينظر اليه الناس وهو فى صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له اخشع لاجلهم فانه قد عرف انه تفطن لذلك فيقول له الشيطان تفكر فى عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه واستحى من أن ينظر الله الى قلبك وهو غافل عنه فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه ويظن ان ذلك عين الاخلاص وهو عين المكر والخداع فان خشوعه لو كان لنظره الى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه فى الخلوة ولكان لا يختص حضورها بحالة حضور غيره وعلامة الامن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يألفه فى الخلوة كما يألفه فى الملا ولا يكون حضور الغير هو السبب فى حضور الخاطر كما لا يكون حضور البهيمة سببا فما دام يفرق فى أحواله بين مشاهدة انسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الاخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفى من الرياء وهذا الشرك أخفى فى قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء كما ورد به الخبر ولا يسلم من الشيطان الا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته والا فالشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله تعالى لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء فى كل حركة من الحركات حتى فى كحل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب فان هذه سنن فى أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفى لارتباط نظر الخلق بها ولاستئناس الطبع بها فيدعوه الشيطان الى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغى أن تتركها ويكون انبعاث القلب باطنا لها لاجل تلك الشهوة الخفية أو مشوبه بها شوبا يخرج عن حد الاخلاص بسببه وما لا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص بل من يعتكف فى مسجد معمور نظيف حسن العمارة يأنس اليه الطبع فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف وقد يكون المحرك الخفى فى سره هو الانس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع اليه ويتبين ذلك فى ميله الى أحد المسجدين أو أحد الموضعين اذا كان أحسن من الآخر وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع وكدورات النفس ومبطل حقيقة الاخلاص لعمرى الغش الذى

وباطن ظاهرها اتباع رضا المحبوب وباطنها أن يكون مفتونا بالحبيب عن كل شئ ولا يبقى فيه بقية لغيره ولا لنفسه (فمن الاحوال السنية فى المحبة الشوق) ولا يكون المحب الا مشتاقا أبدا الان أمر الحق تعالى لا نهاية له فما من حال يبلغها المحب الا ويعلم أن ما وراء ذلك أوفى منها وأتم حوزنى لحسنك لا لذا أمد ينتهى اليه ولا لذا أمد (ثم) هذا الشوق الحادث عنده ليس كسبه وانما هو موهبة خص الله تعالى بها المحبين قال أحمد بن أبى الحوارى دخلت على أبى سليمان الدارانى فرأيته يبكى فقلت ما يبكيك رحمك الله قال ويحك يا أحمد اذا جن هذا الليل افترشت أهل المحبة أقدامهم وجرت دموعهم على خدودهم وأشرف الجليل جل جلاله عليهم يقول بعينى من تلذذ

يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة فمنها ما يغلب ومنها ما يقل لكن يسهل دركه ومنها ما يدق بحيث لا يدركه الا الناقد البصير وغش القلب ودغل الشيطان وخبث النفس أغمض من ذلك وأدق كثيرا ولهذا قيل ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الاعمال حتى يخلص عنها فان الجاهل نظره الى ظاهر العبادة واغتراره بها كنظر السوادي الى حمرة الدينار المموه واستدارته وهو مغشوش زائف في نفسه وقيراط من الخالص الذي يرتضيه الناقد البصير خير من دينار يرتضيه الغر الغبي فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشد وأعظم ومداخل الآفات المتطرقة الى فنون الاعمال لا يمكن حصرها واحصاؤها فلينتفع بما ذكرناه مثالا والفطن يغنيه القليل عن الكثير والبليد لا يغنيه التطويل بل أيضا فلا فائدة في التفصيل

(بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به)

اعلم ان العمل اذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس فقد اختلف الناس في ان ذلك هل يقتضي ثوابا أم يقتضي عقابا أم لا يقتضي شيأ أصلا فلا يكون له ولا عليه وأما الذي لم يرد به الا الرياء فهو عليه قطعا وهو سبب المقت والعقاب وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وانما النظر في المشوب وظاهر الاخبار يدل على انه لا ثواب له وليس تخلو الاخبار عن تعارض فيه والذي ينقدح لنا فيه والعلم عند الله أن ينظر الى قدر قوة الباعث فان كان الباعث الديني مساويا للباعث النفسي تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه وان كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب نعم العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرد للرياء ولم يمتزج به شائبة التقرب وان كان قصد التقرب أغلب بالاضافة الى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني وهذا لقوله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ولقوله تعالى ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير بل ان كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة وان كان مغلوبا سقط بسببه شئ من عقوبة القصد الفاسد *وكشف الغطاء عن هذا أن الاعمال تاثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها فداعية الرياء من المهلكات وانما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه وداعية الخير من المنجيات وانما قوتها بالعمل على وفقها فاذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان فاذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوى تلك الصفة واذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى أيضا تلك الصفة وأحدهما مهلك والآخر منج فان كان تقويته هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما فكان كالمستضر بالحرارة اذا تناول ما يضره ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوته فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما وان كان أحدهما غالبا لم يخل الغالب عن أثر فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والادوية ولا ينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر ولا ينفك عن تاثير في انارة القلب أو تسويده وفي تقريبه من الله أو ابعاده فاذا جاء بما يقربه شبرا مع ما يبعده شبرا فقد عاد الى ما كان فلم يكن له ولا عليه وان كان الفعل مما يقربه شبرين والآخر يبعده شبرا واحدا فضل له لا محالة شبر وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم أتبع السيئة الحسنة تمحها فاذا كان الرياء المحض يمحوه الاخلاص المحض عقيبه فاذا اجتمعا جميعا فلا بد وان يتدافعا بالضرورة ويشهد لهذا اجماع الامة على أن من خرج حاجا ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس نعم يمكن أن يقال انما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه الى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص وانما المشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة ولكن الصواب أن يقال مهما كان الحج هو المحرك الاصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا ينفك نفس السفر عن ثواب وما عندي ان الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها الغنائم وبين جهة لا غنيمة فيها ويبعد أن يقال ادراك هذه التفرقة يحبط بالكلية ثواب جهادهم بل العدل أن يقال اذا كان الباعث الاصلي والمزعج القوي هو اعلاء كلمة الله تعالى وانما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه الى الغنيمة أصلا فان هذا الالتفات نقصان لا محالة فان قلت فالآيات والاخبار تدل على ان شوب الرياء يحبط الثواب وفي معناه شوب طلب الغنيمة

بكلامي واستراح الى مناجاتي واني مطلع عليهم في خلواتهم اسمع أنينهم وأرى بكاءهم يا جبريل نادفيهم ماهذا البكاء الذي أراه فيكم هل خبركم مخبر أن حبيبا يعذب أحبابه بالنار كيف يجمل بي ان أعذب قوما اذا جن عليهم الليل تملقوا الي فبي حلفت اذا وردوا القيامة على ان أسفر لهم عن وجهي وأبيحهم رياض قدسي (وهذه) أحوال قوم من المحبين أقيموا مقام الشوق والشوق من المحبة كالزهد من التوبة اذا استقرت التوبة ظهر الزهد واذا استقرت المحبة ظهر الشوق (قال) الواسطي في قوله تعالى وعجلت اليك رب لترضى قال شوقا واستهانة بمن وراءه قال هم أولاء على أثري من شوقه الى مكالمة الله ورمي بالالواح لما فاته من وقته (قال) أبو عثمان الشوق ثمرة المحبة

والتجارة وسائر الحظوظ فقد روى طاوس وغيره من التابعين ان رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن يصطنع المعروف أو قال يتصدق فيحب أن يحمد ويؤجر فلم يدر ما يقول له حتى نزلت فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا وقد قصد الاجر والحمد جميعا وروى معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أدنى الرياء شرك وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم يقال لمن أشرك في عمله خذ أجرك ممن عملت له وروى عن عبادة ان الله عز وجل يقول أنا أغنى الاغنياء عن الشركة من عمل لي عملا فاشرك معي غيري ودعت نصيبي لشريكي وروى أبو موسى أن اعرابيا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله وقال عمر رضي الله عنه تقولون فلان شهيد ولعله أن يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقا وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من هاجر يبتغي شيأ من الدنيا فهو له فنقول هذه الاحاديث لا تناقض ما ذكرناه بل المراد بها من لم يرد بذلك الا الدنيا كقوله من هاجر يبتغي شيأ من الدنيا وكان ذلك هو الاغلب على همه وقد ذكرنا ان ذلك عصيان وعدوان لا لان طلب الدنيا حرام ولكن طلبها بأعمال الدين حرام لما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها وأما لفظ الشركة حيث ورد فمطلق للتساوي وقد بينا انه اذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له ولا عليه فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب ثم ان الانسان عند الشركة أبدا في خطر فانه لا يدري أي الامرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالا ولذلك قال تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا أي لا يرجى اللقاء مع الشركة التي أحسن أحوالها التساقط ويجوز أن يقال أيضا منصب الشهادة لا ينال الا بالاخلاص في الغزو وبعيد أن يقال من كانت داعيته الدينية بحيث تزعجه الى مجرد الغزو وان لم يكن غنيمة وقدر على غزو طائفتين من الكفار احداهما غنية والاخرى فقيرة فمال الى جهة الاغنياء لاعلاء كلمة الله وللغنيمة لا ثواب له على غزوه ألبتة ونعوذ بالله أن يكون الامر كذلك فان هذا حرج في الدين ومدخل لليأس على المسلمين لان أمثال هذه الشوائب التابعة قط لا ينفك الانسان عنها الا على الندور فيكون تأثير هذا في نقصان الثواب فاما أن يكون في احباطه فلا نعم الانسان فيه على خطر عظيم لانه ربما يظن ان الباعث الاقوى هو قصد التقرب الى الله ويكون الاغلب على سره الحظ النفسي وذلك مما يخفى غاية الخفاء فلا يحصل الاجر الا بالاخلاص والاخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وان بالغ في الاحتياط فلذلك ينبغي أن يكون أبدا بعد كمال الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول خائفا ان تكون في عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها وهكذا كان الخائفون من ذوي البصائر وهكذا ينبغي أن يكون كل ذي بصيرة ولذلك قال سفيان رحمه الله لا اعتد بما ظهر من عملي وقال عبد العزيز بن أبي رواد جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين حجة فما دخلت في شيء من أعمال الله تعالى الا وحاسبت نفسي فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله ليته لالي ولا علي ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فان ذلك منتهى بغية الشيطان منه اذ المقصود أن لا يفوت الاخلاص ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والاخلاص جميعا وقد حكي أن بعض الفقراء كان يخدم أبا سعيد الخراز ويخف في أعماله فتكلم أبو سعيد في الاخلاص يوما يريد اخلاص الحركات فاخذ الفقير يتفقد قلبه عند كل حركة ويطالبه بالاخلاص فتعذر عليه قضاء الحوائج واستضر الشيخ بذلك فسأله عن أمره فاخبره بمطالبته نفسه بحقيقة الاخلاص وانه يعجز عنها في أكثر أعماله فيتركها فقال أبو سعيد لا تفعل اذ الاخلاص لا يقطع المعاملة فواظب على العمل واجتهد في تحصيل الاخلاص فما قلت لك اترك العمل وانما قلت لك أخلص العمل وقد قال الفضيل ترك العمل بسبب الخلق رياء وفعله لاجل الخلق شرك

(الباب الثالث في الصدق وفضيلته وحقيقته)

(فضيلة الصدق)

قال الله تعالى رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وقال النبي صلى الله عليه وسلم ان الصدق يهدي الى البر والبر يهدي الى الجنة وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا وان الكذب يهدي الى الفجور والفجور يهدي الى النار

فمن أحب الله اشتاق الى لقائه (وقال) أيضا في قوله تعالى فان أجل الله لآت تقربة للمشتاقين معناه أني أعلم ان شوقكم الي غالب وأنا أجلت للقائكم أجلا وعن قريب يكون وصولكم الى من تشتاقون اليه (وقال) ذو النون الشوق أعلى الدرجات وأعلى المقامات فاذا بلغها الانسان استبطأ الموت شوقا الى ربه ورجاء لقائه والنظر اليه (وعندي) ان الشوق الكائن في المحبين الى رتب يتوقعونها في الدنيا غير الشوق الذي يتوقعون به ما بعد الموت والله تعالى يكاشف أهل وده بعطايا يجدونها علما ويطلبونها ذوقا فكذلك يكون شوقهم ليصير العلم ذوقا وليس من ضرورة مقام الشوق استبطاء الموت وربما الاصحاء من المحبين يتلذذون بالحياة لله تعالى كما قال الخليل لرسوله عليه الصلاة

وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا ويكفى فى فضيلة الصدق أن الصديق مشتق منه والله تعالى وصف الانبياء به فى معرض المدح والثناء فقال واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا وقال واذكر فى الكتاب اسمعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا وقال تعالى واذكر فى الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا وقال ابن عباس أربع من كن فيه فقد ربح الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر وقال بشر بن الحرث من عامل الله بالصدق استوحش من الناس وقال أبو عبد الله الرملى رأيت منصورا الدينورى فى المنام فقلت له مافعل الله بك قال غفر لى ورحمنى وأعطانى مالم أؤمل فقلت له أحسن ماتوجه العبد به الى الله ماذا قال الصدق وأقبح ماتوجه به الكذب وقال أبو سليمان اجعل الصدق مطيتك والحق سيفك والله تعالى غاية طلبتك وقال رجل لحكيم مارأيت صادقا فقال له لو كنت صادقا لعرفت الصادقين وعن محمد بن على الكتانى قال وجدنا دين الله تعالى مبنيا على ثلاثة أركان على الحق والصدق والعدل فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول وقال الثورى فى قوله تعالى ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة قال هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين وأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام ياداود من صدقنى فى سريرته صدقته عند المخلوقين فى علانيته وصاح رجل فى مجلس الشبلى ورمى نفسه فى دجلة فقال الشبلى ان كان صادقا فالله تعالى ينجيه كما نجى موسى عليه السلام وان كان كاذبا فالله تعالى يغرقه كما أغرق فرعون وقال بعضهم أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال انها اذا صحت ففيها النجاة ولا يتم بعضها الا ببعض الاسلام الخالص عن البدعة والهوى والصدق لله تعالى فى الاعمال وطيب المطعم وقال وهب بن منبه وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفا كان صلحاء بنى اسرائيل يجتمعون فيقرؤنها ويتدارسونها * لا كنز أنفع من العلم ولا مال أربح من الحلم ولا حسب أوضع من الغضب ولا قرين أزين من العمل ولا رفيق أشين من الجهل ولا شرف أعز من التقوى ولا كرم أوفى من ترك الهوى ولا عمل أفضل من الفكر ولا حسنة أعلى من الصبر ولا سيئة أخزى من الكبر ولا دواء ألين من الرفق ولا داء أوجع من الخرق ولا رسول أعدل من الحق ولا دليل أنصح من الصدق ولا فقر أذل من الطمع ولا غنى أشقى من الجمع ولا حياة أطيب من الصحة ولا معيشة أهنأ من العفة ولا عبادة أحسن من الخشوع ولا زهد خير من القنوع ولا حارس أحفظ من الصمت ولا غائب أقرب من الموت * وقال محمد بن سعيد المروزى اذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى مرآة بيدك حتى تبصر كل شئ من عجائب الدنيا والآخرة وقال أبو بكر الوراق احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق وقيل لذى النون هل للعبد الى صلاح أموره سبيل فقال

قد بقينا من الذنوب حيارى * نطلب الصدق مااليه سبيل

فدعاوى الهوى تخف علينا * وخلاف الهوى علينا ثقيل

وقيل لسهل ما أصل هذا الامر الذى نحن عليه فقال الصدق والسخاء والشجاعة فقيل زدنا فقال التقى والحياء وطيب الغذاء وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الكمال فقال قول الحق والعمل بالصدق وعن الجنيد فى قوله تعالى ليسأل الصادقين عن صدقهم قال يسأل الصادقين عند أنفسهم عن صدقهم عند ربهم وهذا أمر على خطر

(بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه)

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل فى ستة معان صدق فى القول وصدق فى النية والارادة وصدق فى العزم وصدق فى الوفاء بالعزم وصدق فى العمل وصدق فى تحقيق مقامات الدين كلها فمن اتصف بالصدق فى جميع ذلك فهو صديق لانه مبالغة فى الصدق ثم هم أيضا على درجات فمن كان له حظ فى الصدق فى شئ من الجملة فهو صادق بالاضافة الى مافيه صدقه *(الصدق الاول)* صدق اللسان وذلك لا يكون الا فى الاخبار أو فيما يتضمن الاخبار وينبه عليه والخبر اما أن يتعلق بالماضى أو بالمستقبل وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم الا بالصدق وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها فمن حفظ لسانه عن الاخبار عن الاشياء على خلاف ماهى عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كمالان أحدهما الاحتراز عن المعاريض فقد قيل فى المعاريض مندوحة عن الكذب وذلك لانها تقوم مقام الكذب اذ المحذور من الكذب تفهيم الشئ على

والسلام قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين فمن كانت حياته لله منحه الكريم لذة المناجاة والمحبة فتمتلئ عينه من التقدم ثم يكاشفه من المنح والعطايا فى الدنيا ما يتحقق بمقام الشوق من غير الشوق الى ما بعد الموت وأنكر بعضهم مقام الشوق وقال انما يكون الشوق لغائب ومتى يغيب الحبيب عن الحبيب حتى يشتاق ولهذا سئل الانطاكى عن الشوق فقال انما يشتاق الى الغائب وما غبت عنه منذ وجدته وانكار الشوق على الاطلاق لا أرى له وجها لان رتب العطايا والمنح من أنصبة القرب اذا كانت غير متناهية كيف ينكر الشوق من المحب فهو غير غائب وغير مشتاق بالنسبة الى ماوجد ولكن يكون مشتاقا الى مالم يجد من أنصبة القرب فكيف

خلاف ماهو عليه فى نفسه الا ان ذلك مما تمس اليه الحاجة و تقتضيه المصلحة فى بعض الاحوال وفى تأديب الصبيان والنشوان ومن يجرى مجراهم وفى الحذر عن الظلمة وفى قتال الاعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك فمن اضطر الى شئ من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به و يقتضيه الدين فاذا نطق به فهو صادق وان كان كلامه مفهما غير ماهو عليه لان الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء اليه فلا ينظر الى صورته بل الى معناه نعم فى مثل هذا الموضع ينبغى أن يعدل الى المعاريض ما وجد اليه سبيلا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا توجه الى سفر ورّى بغيره وذلك كى لا ينتهى الخبر الى الاعداء فيقصد وليس هذا من الكذب فى شئ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو أنمى خيرا ورخص فى النطق على وفق المصلحة فى ثلاثة مواضع من أصلح بين اثنين ومن كان له زوجتان ومن كان فى مصالح الحرب والصدق ههنا يتحول الى النية فلا يراعى فيه الا صدق النية وارادة الخير فمهما صح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير ارادته صار صادقا وصديقا كيفما كان لفظه ثم التعريض فيه أولى وطريقه ما حكى عن بعضهم انه كان يطلبه بعض الظلمة وهو فى داره فقال لزوجته خطى باصبعك دائرة وضعى الاصبع على الدائرة وقولى ليس هو ههنا واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه فكان قوله صدقا وأفهم الظالم انه ليس فى الدار فالكمال الاول فى اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعاريض أيضا الا عند الضرورة والكمال الثانى ان يراعى معنى الصدق فى ألفاظه التى يناجى بها ربه كقوله وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض فان قلبه ان كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا بأمانى الدنيا وشهواته فهو كذب وكقوله اياك نعبد وكقوله أنا عبد الله فانه اذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقا ولو طولب يوم القيامة بالصدق فى قوله أنا عبد الله لعجز عن تحقيقه فانه ان كان عبد النفسه أو عبد الدنيا أو عبد الشهوات لم يكن صادقا فى قوله وكل ما تقيد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام يا عبيد الدنيا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخميصة سمى كل من تقيد قلبه بشئ عبدا له وانما العبد الحق لله عز وجل من أعتق أولا من غير الله تعالى فصار حرا مطلقا فاذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا فخلت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبمحبته وتقيد باطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد الا الله تعالى ثم قد يتجاوز هذا الى مقام آخر أسنى منه يسمى الحرية وهو ان يعتق أيضا عن ارادته لله من حيث هو بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو ابعاد فتفنى ارادته فى ارادة الله تعالى وهذا عبد عتق عن غير الله فصار حرا ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرا وصار مفقود النفسه موجودا لسيده ومولاه ان حركه تحرك وان سكنه سكن وان ابتلاه رضى لم يبق فيه متسع لطلب والتماس واعتراض بل هو بين يدى الله كالميت بين يدى الغاسل وهذا منتهى الصدق فى العبودية لله تعالى فالعبد الحق هو الذى وجوده لمولاه لا لنفسه وهذه درجة الصديقين وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين و بعدها تحقق العبودية لله تعالى وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمى صادقا ولا صديقا فهذا هو معنى الصدق فى القول * (الصدق الثانى) فى النية والارادة ويرجع ذلك الى الاخلاص وهو أن لا يكون له باعث فى الحركات والسكنات الا الله تعالى فان مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز ان يسمى كاذبا كما روينا فى فضيلة الاخلاص من حديث الثلاثة حين يسئل العالم ما عملت فيما علمت فقال فعلت كذا وكذا فقال الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم فانه لم يكذبه ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذبه فى ارادته ونيته وقد قال بعضهم الصدق صحة التوحيد فى القصد وكذلك قول الله تعالى والله يشهد ان المنافقين لكاذبون وقد قالوا انك لرسول الله وهذا صدق ولكن كذبهم لا من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرق الى الخبر وهذا القول يتضمن اخبارا بقرينة الحال اذ صاحبه يظهر من نفسه انه يعتقد ما يقول فكذب فى دلالته بقرينة الحال على ما فى قلبه فانه كذب فى ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به فيرجع أحد معانى الصدق الى خلوص النية وهو الاخلاص فكل صادق فلابد وأن يكون مخلصا * (الصدق الثالث) * صدق العزم فان الانسان قد يقدم العزم على العمل فيقول فى نفسه ان رزقنى الله مالا تصدقت بجميعه أو بشطره أو ان لقيت عدوا فى سبيل

الله

يمنع حال الشوق والامر هكذا (ووجه آخر) ان الانسان لابد له من أمور يردها حكم الحال لموضع بشريته وطبيعته وعدم وقوفه على حد العلم الذى يقتضيه حكم الحال ووجود هذه الامور مثير لنار الشوق ولا نعنى بالشوق الا مطالبة تنبعث من الباطن الى الاولى والاعلى من أنصبة القرب وهذه المطالبة كائنة فى المحبين فالشوق اذا كان لا وجه لانكاره وقد قال قوم شوق المشاهدة واللقاء أشد من شوق البعد والغيبوبة فيكون فى حال الغيبوبة مشتاقا الى اللقاء ويكون فى حال اللقاء والمشاهدة مشتاقا الى المزيد و مضار من الحبيب وافضاله وهذا هو الذى أراه وأختاره (وقال) فارس قلوب المشتاقين منورة بنور الله فاذا تحركت اشتياقا أضاء النور ما بين المشرق

الله تعالى قاتلت ولم أبال وان قتلت وان أعطانى الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل الى خلق فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهى عزيمة جازمة صادقة وقد يكون فى عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق فى العزيمة فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة كما يقال لفلان شهوة صادقة ويقال هذا المريض شهوته كاذبة مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوى أو كانت ضعيفة فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى والصادق والصديق هو الذى تصادف عزيمته فى الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد بل تسخو نفسه أبدا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر رضى الله عنه لان أقدم فتضرب عنقى أحب الى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر رضى الله عنه فانه قد وجد من نفسه العزم الجازم والمحبة الصادقة بانه لا يتأمر مع وجود أبى بكر رضى الله عنه وأكد ذلك بما ذكره من القتل ومراتب الصديقين فى العزائم تختلف فقد يصادف العزم ولا ينتهى به الى أن يرضى بالقتل فيه ولكن اذا خلى ورأيه لم يقدم ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه بل فى الصادقين والمؤمنين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب اليه من حياة أبى بكر الصديق

(الصدق الرابع) فى الوفاء بالعزم فان النفس قد تسخو بالعزم فى الحال اذ لا مشقة فى الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة فاذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم وهذا يضاد الصدق فيه ولذلك قال الله تعالى رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فقد روى عن أنس ان عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه أما والله لئن أرانى الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما أصنع قال فشهد أحدا فى العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال يا أبا عمرو الى أين فقال واها لريح الجنة انى أجد ريحها دون أحد فقاتل حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة فقالت أخته بنت النضر ما عرفت أخى الا بثيابه فنزلت هذه الآية رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وقال فضالة بن عبيد سمعت عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الايمان لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذى يرفع الناس اليه أعينهم يوم القيامة هكذا ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته قال الراوى فلا أدرى قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجل جيد الايمان اذا لقى العدو فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح أتاه سهم عائر فقتله فهو فى الدرجة الثانية ورجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيأ لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذلك فى الدرجة الثالثة ورجل أسرف على نفسه لقى العدو فصدق الله حتى قتل فذلك فى الدرجة الرابعة * وقال مجاهد رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود فقالا ان رزقنا الله تعالى مالا لنصدقن فبخلوا به فنزلت ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين وقال بعضهم انما هو شئ نووه فى أنفسهم لم يتكلموا به فقال ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فاعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون فجعل العزم عهدا وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به صدقا وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث فان النفس قد تسخو بالعزم ثم تكيع عند الوفاء لشدته عليها ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الاسباب ولذلك استثنى عمر رضى الله عنه فقال لان أقدم فتضرب عنقى أحب الى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر اللهم الا ان تسول لى نفسى عند القتل شيأ لا أجده الآن لانى لا آمن أن يثقل عليها ذلك فتتغير عن عزمها أشار بذلك الى شدة الوفاء بالعزم وقال أبو سعيد الخراز رأيت فى المنام كان ملكين نزلا من السماء فقالا لى ما الصدق قلت الوفاء بالعهد فقالا لى صدقت وعرجا الى السماء

(الصدق الخامس) فى الاعمال وهو ان يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر فى باطنه لا يتصف هو به لا بان يترك الاعمال ولكن بان يستجر الباطن الى تصديق الظاهر وهذا مخالف لما ذكرناه من ترك الرياء لان المرائى هو الذى يقصد ذلك ورب واقف على هيئة الخشوع فى صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة فمن ينظر

والمغرب فيعرضهم الله على الملائكة فيقول هؤلاء المشتاقون الى أشهدكم أنى اليهم أشوق (وقال) أبو يزيد لو أن الله حجب أهل الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار (سئل) ابن عطاء عن الشوق فقال هو احتراق الحشا وتلهب القلوب وتقطع الاكباد من البعد بعد القرب (سئل) بعضهم هل الشوق أعلى أم المحبة فقال المحبة لان الشوق يتولد منها فلا مشتاق الا من غلبه الحب فالحب أصل والشوق فرع وقال النصراباذى للخلق كلهم مقام الشوق لا مقام الاشتياق ومن دخل فى حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له أثر ولا قرار (ومنها الانس) وقد سئل الجنيد عن الانس فقال ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة (وسئل) ذو النون عن الانس

اليه براه قائما بين يدى الله تعالى وهو بالباطن قائم فى السوق بين يدى شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن اعرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق فى الاعمال وكذلك قد يمشى الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفا بذلك الوقار فهذا غير صادق فى عمله وان لم يكن ملتفتا الى الخلق ولا مرائيا اياهم ولا ينجو من هذا الا باستواء السريرة والعلانية بان يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر ولبس ثياب الاشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذبا فى دلالة الظاهر على الباطن فاذا المخالفة الظاهر للباطن ان كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الاخلاص وان كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اجعل سريرتى خيرا من علانيتى واجعل علانيتى صالحة وقال يزيد بن الحرث اذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف وان كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل وان كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور وأنشدوا

اذا السر والاعلان فى المؤمن استوى * فقد عز فى الدارين واستوجب الثنا

فان خالف الاعلان سرا فماله * على سعيه فضل سوى الكد والعنا

فما خالص الدينار فى السوق نافق * ومغشوشه المردود لا يقتضى المنى

وقال عطية بن عبد الغافر اذا وافقت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به الملائكة يقول هذا عبدى حقا وقال معاوية بن قرة من يدلنى على بكاء بالليل بسام بالنهار وقال عبد الواحد بن زيد كان الحسن اذا أمر بشئ كان من أعمل الناس به واذا نهى عن شئ كان من أترك الناس له ولم أر أحدا قط أشبه سريرة بعلانية منه وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول الهى عاملت الناس فيما بينى وبينهم بالامانة وعاملتك فيما بينى وبينك بالخيانة ويبكى وقال أبو يعقوب النهرجورى الصدق موافقة الحق فى السر والعلانية فاذا مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق (الصدق السادس) وهو أعلى الدرجات وأعزها الصدق فى مقامات الدين كالصدق فى الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الامور فان هذه الامور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها واذا غلب الشئ وتمت حقيقته سمى صاحبه صادقا فيه كما يقال فلان صدق القتال ويقال هذا هو الخوف الصادق وهذه هى الشهوة الصادقة وقال الله تعالى انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا الى قوله أولئك هم الصادقون وقال تعالى ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر الى قوله أولئك الذين صدقوا وسئل أبو ذر عن الايمان فقرأ هذه الآية فقيل له سألناك عن الايمان فقال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقرأ هذه الآية ولنضرب للخوف مثلا فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر الا وهو خائف من الله خوفا ينطلق عليه الاسم ولكنه خوف غير صادق أى غير بالغ درجة الحقيقة أما تراه اذا خاف سلطانا أو قاطع طريق فى سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرائصه ويتنغص عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه وينقسم عليه فكره حتى لا ينتفع به أهله وولده وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالانس الوحشة وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للاخطار كل ذلك خوفا من درك المحذور ثم انه يخاف النار ولا يظهر عليه شئ من ذلك عند جريان معصية عليه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لم أر مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها فالتحقيق فى هذه الامور عزيز جدا ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله اما ضعيف واما قوى فاذا قوى سمى صادقا فيه فمعرفة الله وتعظيمه والخوف منه لا نهاية لها ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام أحب ان أراك فى صورتك التى هى صورتك فقال لا تطيق ذلك قال بل أرنى فواعده البقيع فى ليلة مقمرة فأتاه فنظر النبى صلى الله عليه وسلم فاذا هو به قد سد الافق يعنى جوانب السماء فوقع النبى صلى الله عليه وسلم مغشيا عليه فأفاق وقد عاد جبريل لصورته الاولى فقال النبى صلى الله عليه وسلم ما ظننت أن أحدا من خلق الله هكذا قال وكيف لو رأيت اسرافيل ان العرش لعلى كاهله وان رجليه قد مرقتا تخوم الارض السفلى وانه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع يعنى كالعصفور الصغير فانظر ما الذى يغشاه من العظمة والهيبة حتى يرجع الى ذلك الحد وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم فى المعرفة فهذا هو الصدق فى التعظيم وقال جابر

فقال هو انبساط المحب الى المحبوب قيل معناه قول الخليل أرنى كيف تحيى الموتى وقول موسى أرنى أنظر اليك وأنشد لرويم

شغلت قلبى عما لديك فلا ينفك طول الحياة عن فكر

آنستنى منك بالوداد فقد أوحشتنى من جميع ذا البشر

ذكرك لى مؤنس يعارضنى يوعدنى عنك منك بالظفر

وحيثما كنت يامدى هممى فأنت منى بموضع النظر

(وروى) أن مطرف بن الشخير كتب الى عمر بن عبد العزيز ليكن أنسك بالله وانقطاعك اليه فان لله عبادا استأنسوا بالله وكانوا فى وحدتهم أشد استيناسا من الناس فى كثرتهم وأوحش ما يكون الناس آنس ما يكونون وآنس ما يكون الناس

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مررت ليلة اسرى بى وجبريل بالملا الأعلى كالحلس البالى من خشية الله تعالى يعنى الكساء الذى يلقى على ظهر البعير وكذلك الصحابة كانوا خائفين وما كانوا بلغوا خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك قال ابن عمر رضى الله عنهما لن تبلغ حقيقة الايمان حتى تنظر الناس كلهم حمقى فى دين الله وقال مطرف مامن الناس أحد الا وهو أحمق فيما بينه وبين ربه الا أن بعض الحمق أهون من بعض وقال النبى صلى الله عليه وسلم لا يبلغ عبد حقيقة الايمان حتى ينظر الى الناس كالاباعر فى جنب الله ثم يرجع الى نفسه فيجدها أحقر حقير فالصادق اذا فى جميع هذه المقامات عزيز ثم درجات الصدق لانهاية لها وقد يكون للعبد صدق فى بعض الامور دون بعض فان كان صادقا فى الجميع فهو الصديق حقا قال سعد بن معاذ ثلاثة أنا فيهن قوى وفيما سواهن ضعيف ماصليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسى حتى أفرغ منها ولا شيعت جنازة فحدثت نفسى بغير ماهى قائلة وماهو مقول لها حتى يفرغ من دفنها وماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولا الا علمت انه حق فقال ابن المسيب ماظننت ان هذه الخصال تجتمع الا فى النبى عليه السلام فهذا صدق فى هذه الامور وكم قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة واتبعوا الجنائز ولم يبلغوا هذا المبلغ فهذه هى درجات الصدق ومعانيه والكلمات المأثورة عن المشايخ فى حقيقة الصدق فى الاغلب لاتتعرض الا لآحاد هذه المعانى نعم قد قال أبو بكر الوراق الصدق ثلاثة صدق التوحيد وصدق الطاعة وصدق المعرفة فصدق التوحيد لعامة المؤمنين قال الله تعالى والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون وصدق الطاعة لاهل العلم والورع وصدق المعرفة لاهل الولاية الذين هم أوتاد الارض وكل هذا يدور على ماذكرناه فى الصدق السادس ولكنه ذكر أقسام مافيه الصدق وهو أيضا غير محيط بجميع الاقسام وقال جعفر الصادق الصدق هو المجاهدة وان لاتختار على الله غيره كما لم يختر عليك غيرك فقال تعالى هو اجتباكم وقيل أوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام انى اذا أحببت عبدا ابتليته ببلايا لاتقوم لها الجبال لانظر كيف صدقه فان وجدته صابرا اتخذته وليا وحبيبا وان وجدته جزوعا يشكونى الى خلقى خذلته ولا أبالى فاذا من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعا وكراهة اطلاع الخلق عليها تم كتاب الصدق والاخلاص يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة والحمد لله

(كتاب المراقبة والمحاسبة وهو الكتاب الثامن من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب على كل جارحة بما اجترحت المطلع على ضمائر القلوب اذا هجست الحسيب على خواطر عباده اذا اختلجت الذى لايعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات والارض تحركت أو سكنت المحاسب على النقير والقطمير والقليل والكثير من الاعمال وان خفيت المتفضل بقبول طاعات العباد وان صغرت المتطول بالعفو من معاصيهم وان كثرت وانما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنظر فيما قدمت وأخرت فتعلم انه لولا لزومها المراقبة والمحاسبة فى الدنيا لشقيت فى صعيد القيامة وهلكت وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت وخسرت فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت واستغرقت رحمته الخلائق فى الدنيا والآخرة وغمرت فبنفحات فضله اتسعت القلوب للايمان وانشرحت وبيمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتادبت وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت وبتأييده ونصرته انقطعت مكايد الشيطان واندفعت وبلطف عنايته ترجح كفة الحسنات اذا ثقلت وبتيسيره تيسرت من الطاعات ما تيسرت فمنه العطاء والجزاء والابعاد والادناء والاسعاد والاشقاء والصلاة على محمد سيد الانبياء وعلى آله سادة الاصفياء وعلى أصحابه قادة الاتقياء (أما بعد) فقد قال الله تعالى ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيأ وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين وقال تعالى ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا وقال تعالى يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شئ شهيد وقال تعالى يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم

أوحش ما يكونون قال الواسطى لا يصل الى محل الانس من لم يستوحش من الاكوان كلها (وقال) أبو الحسين الوراق لايكون الانس بالله الا ومعه التعظيم لان كل من استأنست به سقط عن قلبك تعظيمه الا الله تعالى فانك لاتزداد به انسا الا ازددت منه هيبة وتعظيما (قالت) رابعة كل مطيع مستأنس وأنشدت

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثى
وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس
وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

(وقال مالك بن دينار) من لم يأنس بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين فقد قل علمه وعمى قلبه وضيع عمره * قيل لبعضهم من معك فى الدار قال الله تعالى معى ولا يستوحش

فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وقال تعالى ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون
وقال تعالى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم
الله نفسه وقال تعالى واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى
لهم بالمرصاد وأنهم سيناقشون فى الحساب ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات وتحققوا أنه لا ينجيهم
من هذه الاخطار الا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس فى الانفاس والحركات ومحاسبتها فى الخطرات
واللحظات فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف فى القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه وحسن منقلبه
ومآبه ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت فى عرصات القيامة وقفاته وقادته الى الخزى والمقت سيئاته
فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه الا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل يا أيها
الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا فرابطوا أنفسهم أولا بالمشارطة ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم
بالمجاهدة ثم بالمعاتبة فكانت لهم فى المرابطة ست مقامات ولا بد من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل
الاعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة ولكن كل حساب فبعد مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة
فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق

(المقام الاول من المرابطة المشارطة)

اعلم ان مطلب المتعاملين فى التجارات المشتركين فى البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أن التاجر يستعين
بشريكه فيسلم اليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر فى طريق الآخرة وانما مطلبه وربحه
تزكية النفس لان بذلك فلاحها قال الله تعالى قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها وانما فلاحها بالاعمال
الصالحة والعقل يستعين بالنفس فى هذه التجارة اذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر
بشريكه وغلامه الذى يتجر فى ماله وكما ان الشريك يصير خصما منازعا يجاذبه فى الربح فيحتاج الى أن يشارطه
أولا ويراقبه ثانيا ويحاسبه ثالثا ويعاقبه أو يعاتبه رابعا فكذلك العقل يحتاج الى مشارطة النفس أولا فيوظف
عليها الوظائف ويشرط عليها الشروط ويرشدها الى طرق الفلاح ويجزم عليها الامر بسلوك تلك الطرق ثم
لا يغفل عن مراقبتها لحظة فانه لو أهملها لم ير منها الا الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن اذا خلا له الجو
وانفرد بالمال ثم بعد الفراغ ينبغى ان يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها فان هذه تجارة ربحها الفردوس
الاعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الانبياء والشهداء فتدقيق الحساب فى هذا مع النفس أهم كثيرا من تدقيقه فى
ارباح الدنيا مع انها محتقرة بالاضافة الى نعيم العقبى ثم كيفما كانت فمصيرها الى التصرم والانقضاء ولا خير فى
خير لا يدوم بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم لان الشر الذى لا يدوم اذا انقطع بقى الفرح بانقطاعه دائما وقد
انقضى الشر والخير الذى لا يدوم يبقى الاسف على انقطاعه دائما وقد انقضى الخير ولذلك قيل

اشد الغم عندى فى سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

فحتم على كل ذى حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها فى حركاتها وسكناتها
وخطراتها وخطواتها فان كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشترى بها كنز من
الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد فانقضاء هذه الانفاس ضائعة أو مصروفة الى ما يجلب الهلاك خسران عظيم
هائل لا تسمح به نفس عاقل فاذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغى أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس
كما ان التاجر عند تسليم البضاعة الى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته فيقول للنفس مالى بضاعة الا العمر
ومهما فنى فقد فنى رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح وهذا اليوم الجديد قد أمهلنى الله فيه وانسأ
فى أجلى وأنعم على به ولو توفانى لكنت أتمنى أن يرجعنى الى الدنيا يوما واحدا حتى أعمل فيه صالحا فاحسبى انك قد
توفيت ثم قد رددت فاياك ثم اياك أن تضيعى هذا اليوم فان كل نفس من الانفاس جوهرة لا قيمة لها واعلمى يا نفس
ان اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة وقد ورد فى الخبر انه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة
مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوأة نورا من حسناته التى عملها فى تلك الساعة فيناله من الفرح والسرور
والاستبشار بمشاهدة تلك الانوار التى هى وسيلته عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لادهشهم ذلك الفرح

من أنس بربه (وقال الخراز) الانس محادثة الارواح مع المحبوب فى مجالس القرب ووصف بعض العارفين صفة أهل المحبة الواصلين فقال جدد لهم الود فى كل طرفة بدوام الاتصال وآواهم فى كنفه بحقائق السكون اليه حتى أنت قلوبهم وحنت أرواحهم شوقا وكان الحب والشوق منهم اشارة من الحق اليهم عن حقيقة التوحيد وهو الوجود بالله فذهبت مناهم وانقطعت آمالهم عنده لما بان منه لهم ولو أن الحق تعالى أمر جميع الانبياء يسألون لهم ما سألوه بعض ما أعد لهم من قديم وحدانيته ودوام أزليته وسابق علمه وكان نصيبهم معرفتهم به وفراغ همهم عليه واجتماع أهوائهم فيه فصار يحسدهم من عبيده العموم أن رفع عن قلوبهم جميع الهموم (وأنشد فى معناه)

عند الاحساس بألم النار ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح نتنها ويغشاه ظلامها وهي الساعة التي عصى الله فيها فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس له فيها ما يسره ولا ما يسوءه وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشئ من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوها وينا له من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير اذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته وناهيك به حسرة وغبنا وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه اجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك ولا تميلي الى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وان دخلت الجنة فألم الغبن وحسرته لا يطاق وان كان دون ألم النار وقد قال بعضهم هب ان المسيء قد عفي عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين أشار به الى الغبن والحسرة وقال الله تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن فهذه وصيته لنفسه في أوقاته ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة وهي العين والاذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل وتسليمها اليها فانها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة وبها تتم أعمال هذه التجارة وان لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم وانما تتعين تلك الابواب لمن عصى الله تعالى بهذه الاعضاء فيوصيها بحفظها عن معاصيها اما العين فيحفظها عن النظر الى وجه من ليس له بمحرم أو الى عورة مسلم أو النظر الى مسلم بعين الاحتقار بل عن كل فضول مستغنى عنه فان الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام ثم اذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها وهو ما خلقت له من النظر الى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر الى أعمال الخير للاقتداء والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة وهكذا ينبغي ان يفصل الامر عليها في عضو عضو لا سيما اللسان والبطن اما اللسان فلانه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه في الحركة وجنايته عظيمة بالغيبة والكذب والنميمة وتزكية النفس ومذمة الخلق والاطعمة واللعن والدعاء على الاعداء والمماراة في الكلام وغير ذلك مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان فهو بصدد ذلك كله مع انه خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وارشاد عباد الله الى طريق الله واصلاح ذات البين وسائر خيراته فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار الا في الذكر فنطق المؤمن ذكر ونظره عبرة وصمته فكرة وما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد واما البطن فيكلفه ترك الشره وتقليل الاكل من الحلال واجتناب الشبهات ويمنعه من الشهوات ويقتصر على قدر الضرورة ويشرط على نفسه انها ان خالفت شيأ من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها وهكذا يشرط عليها في جميع الاعضاء واستقصاء ذلك يطول ولا تخفى معاصي الاعضاء وطاعاتها ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة ثم في النوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها ويرتب لها تفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستعداد لها باسبابها وهذه شروط يفتقر اليها في كل يوم ولكن اذا تعود الانسان شرط ذلك على نفسه أياما وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنى عن المشارطة فيها وان أطاع في بعضها بقيت الحاجة الى تجديد المشارطة فيما بقي ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد ولله عليه في ذلك حق ويكثر هذا على من يشتغل بشئ من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس اذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج الى أن يقضي حق الله فيها فعليه ان يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق في مجاريها ويحذرها مغبة الاهمال ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد فان النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين فهذا وما يجري مجراه هو أول مقام المرابطة مع النفس وهي محاسبة قبل العمل والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير قال الله تعالى واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه وهذا للمستقبل وكل نظر في كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فانه يسمى محاسبة فالنظر فيما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا وقال تعالى ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ذكر ذلك تحذيرا وتنبيها

كانت لقلبي أهواء مفرقة
فاستجمعت اذ رأتك
النفس أهوائي
فصار يحسدني من كنت
أحسده
وصرت مولى الورى مذ
صرت مولائي
تركت للناس دنياهم
ودينهم
شغلا بذكرك يا ديني
ودنيائي
(وقد) يكون من الانس
الانس بطاعة الله
وذكره وتلاوة كلامه
وسائر أبواب القربات
وهذا القدر من الانس
نعمة من الله تعالى
ومنحة منه ولكن ليس
هو حال الانس الذي
يكون للمعنيين والانس
حال شريف يكون عند
طهارة الباطن وكنسه
بصدق الزهد وكمال
التقوى وقطع الاسباب
والعلائق ومحو الخواطر
والهواجس وحقيقته
عندي كنس الوجود
بثقل لائح العظمة
وانتشار الروح في ميادين
الفتوح وله استقلال

للاحتراز منه فى المستقبل و روى عبادة بن الصامت انه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه و يعظه اذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فان كان رشدا فامضه وان كان غيا فانته عنه وقال بعض الحكماء اذا أردت ان يكون العقل غالبا للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فان مكث الندامة فى القلب أكثر من مكث خفة الشهوة وقال لقمان ان المؤمن اذا أبصر العاقبة أمن الندامة وروى شداد بن أوس عنه صلى الله عليه وسلم انه قال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله دان نفسه أى حاسبها ويوم الدين يوم الحساب وقوله أئنا لمدينون أى لمحاسبون وقال عمر رضى الله عنه حاسبوا أنفسكم قبل ان تحاسبوا وزنوها قبل ان توزنوا وتهيؤا للعرض الاكبر وكتب الى أبى موسى الاشعرى حاسب نفسك فى الرخاء قبل حساب الشدة وقال لكعب كيف تجدها فى كتاب الله قال ويل لديان الارض من ديان السماء فعلاه بالدرة وقال الامن حاسب نفسه فقال كعب يا أمير المؤمنين انها الى جنبها فى التوراة ما بينهما حرف الامن حاسب نفسه وهذا كله اشارة الى المحاسبة للمستقبل اذ قال من دان نفسه يعمل لما بعد الموت ومعناه وزن الامور أولا وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فباشرها

(المرابطة الثانية المراقبة)

اذا أوصى الانسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى الا المراقبة لها عند الخوض فى الاعمال وملاحظتها بالعين الكالئة فانها ان تركت طغت وفسدت ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها (أما الفضيلة) فقد سأل جبريل عليه السلام عن الاحسان فقال أن تعبد الله كأنك تراه وقال عليه السلام اعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك وقد قال تعالى أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وقال تعالى ألم يعلم بان الله يرى وقال الله تعالى ان الله كان عليكم رقيبا وقال تعالى والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون وقال ابن المبارك لرجل راقب الله تعالى فسأله عن تفسيره فقال كن أبدا كأنك ترى الله عز وجل وقال عبد الواحد بن زيد اذا كان سيدى رقيبا على فلا أبالى بغيره وقال أبو عثمان المغربى أفضل ما يلزم الانسان نفسه فى هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم وقال ابن عطاء أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الاوقات وقال الجريرى أمرنا هذا مبنى على أصلين ان تلزم نفسك المراقبة لله عز وجل ويكون العلم على ظاهرك قائما وقال أبو عثمان قال لى أبو حفص اذا جلست للناس فكن واعظا لنفسك وقلبك ولا يغرنك اجتماعهم عليك فانهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك * وحكى انه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدمه فقال له بعض أصحابه كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ فدعا بعدة طيور وناول كل واحد منهم طائرا وسكينا وقال ليذبح كل واحد منكم طائره فى موضع لا يراه أحد ودفع الى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم فرجع كل واحد بطائره مذبوحا ورجع الشاب والطائر حى فى يده فقال مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك فقال لم أجد موضعا لا يرانى فيه أحد اذ الله مطلع على فى كل مكان فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا حق لك ان تكرم وحكى ان زليخا لما خلت بيوسف عليه السلام قامت فغطت وجه صنم كان لها فقال يوسف مالك أتستحيين من مراقبة جماد ولا أستحيى من مراقبة الملك الجبار وحكى عن بعض الاحداث أنه راود جارية عن نفسها فقالت له ألا تستحيى فقال ممن استحيى وما يرانا الا الكواكب قالت فاين مكوكبها وقال رجل للجنيد بم أستعين على غض البصر فقال بعلمك أن نظر الناظر اليك أسبق من نظرك الى المنظور اليه وقال الجنيد انما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل وعن مالك بن دينار قال جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة قيل له ومن يسكنها قال يقول الله عز وجل انما يسكن جنات عدن الذين اذا هموا بالمعاصى ذكروا عظمتى فراقبونى والذين انثنت أصلابهم من خشيتى وعزتى وجلالى انى لاهم بعذاب أهل الارض فاذا نظرت الى أهل الجوع والعطش من مخافتى صرفت عنهم العذاب وسئل المحاسبى عن المراقبة فقال أولها علم القلب بقرب الرب تعالى وقال المرتعش المراقبة مراعاة السر لملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة وروى أن الله تعالى قال لملائكته أنتم موكلون بالظاهر وأنا الرقيب على الباطن وقال محمد بن على الترمذى اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره اليك واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه واجعل

بنفسية يشتمل على القلب فيجمعه به عن الهيبة وفى الهيبة اجتماع الروح ورسوبه الى محل النفس وهذا الذى وصفناه من انس الذات وهيبة الذات يكون فى مقام البقاء بعد العبور على ممر الفناء وهما غير الانس والهيبة اللذين يذهبان بوجود الفناء لان الهيبة والانس قبل الفناء ظهرا من مطالعة الصفات من الجلال والجمال وذلك مقام التلوين وما ذكرناه بعد الفناء فى مقام التمكين والبقاء من مطالعة الذات ومن الانس خضوع النفس المطمئنة ومن الهيبة خشوعها والخضوع والخشوع يتقاربان ويفترقان بفرق لطيف يدرك باعياء الروح (ومنها) القرب قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام واسجد واقترب وقد ورد أقرب ما يكون العبد من ربه فى سجوده

خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه وقال سهل لم يتزين القلب بشئ أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان وسئل بعضهم عن قوله تعالى رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه فقال معناه ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده وسئل ذو النون بم ينال العبد الجنة فقال بخمس استقامة ليس فيها روغان واجتهاد ليس معه سهو ومراقبة الله تعالى فى السر والعلانية وانتظار الموت بالتأهب له ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل

اذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل * خلوت ولكن قل على رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة * ولا أن ما تخفيه عنه يغيب

ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب * وان غدا للناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن على عظنى فقال لئن كنت اذا عصيت الله خاليا ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم ولئن كنت تظن انه لا يراك فلقد كفرت وقال سفيان الثورى عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة وقال فرقد السبخى ان المنافق ينظر فاذا لم ير أحدا دخل مدخل السوء وانما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى وقال عبد الله بن دينار خرجت مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى مكة فعرسنا فى بعض الطريق فانحدر عليه راع من الجبل فقال له يا راعى بعنى شاة من هذه الغنم فقال انى مملوك فقال قل لسيدك أكلها الذئب قال فأين الله قال فبكى عمر رضى الله عنه ثم غدا الى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال أعتقتك فى الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك فى الآخرة

(بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها)

اعلم ان حقيقة المراقبة هى ملاحظة الرقيب وانصراف الهم اليه فمن احترز من أمر من الامور بسبب غيره يقال انه يراقب فلانا ويراعى جانبه ويعنى بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة أعمالا فى الجوارح وفى القلب اما الحالة فهى مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته اليه وملاحظته اياه وانصرافه اليه وأما المعرفة التى تثمر هذه الحالة فهو العلم بان الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت وان سر القلب فى حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشد من ذلك فهذه المعرفة اذا صارت يقينا أعنى انها خلت عن الشك ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته فرب علم لا شك فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالموت فاذا استولت على القلب استجرت القلب الى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه اليه والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون وهم ينقسمون الى الصديقين والى أصحاب اليمين فمراقبتهم على درجتين الدرجة الاولى مراقبة المقربين من الصديقين وهى مراقبة التعظيم والاجلال وهو أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ومنكسرا تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للالتفات الى الغير أصلا وهذه مراقبة لا نطول النظر فى تفصيل أعمالها فانها مقصورة على القلب اما الجوارح فانها تتعطل عن التلفت الى المباحات فضلا عن المحظورات واذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج الى تدبير وتثبيت فى حفظها على سنن السداد بل يسدد الرعية من ملك كلية الراعى والقلب هو الراعى فاذا صار مستغرقا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف وهذا هو الذى صار همه هما واحدا فكفاه الله سائر الهموم ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ولا يسمع ما يقال له مع انه لا صمم به وقد يمر على ابنه مثلا فلا يكلمه حتى كان بعضهم يجرى عليه ذلك فقال لمن عاتبه اذا مررت بى فحركنى ولا تستبعد هذا فانك تجد نظير هذا فى القلوب المعظمة لملوك الارض حتى ان خدم الملك قد لا يحسون بما يجرى عليهم فى مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم بل قد يشتغل القلب بمهم حقير من مهمات الدنيا فيغوص الرجل فى الفكر فيه ويمشى فربما يجاوز الموضع الذى قصده وينسى الشغل الذى نهض له وقد قيل لعبد الواحد بن زيد هل تعرف فى زمانك هذا رجلا قد اشتغل بحاله عن الخلق فقال ما أعرف الا رجلا سيدخل عليكم الساعة فما كان الا سريعا حتى دخل عتبة الغلام فقال له عبد الواحد بن زيد من أين جئت يا عتبة فقال

فالساجد اذا أذيق طعم السجود يقرب لانه يسجد ويطوى بسجوده بساط الكون ما كان وما يكون ويسجد على طرف رداء العظمة فيقرب (قال) بعضهم انى لاجد الحضور فاقول يا الله أو يا رب فاجد ذلك على أثقل من الجبال قيل ولم قال لان النداء يكون من وراء حجاب وهل رأيت جليسا ينادى جليسه وانما هى اشارات وملاحظات ومناغاة وملاطفات وهذا الذى وصفه مقام عزيز متحقق فيه القرب ولكنه مشعر بمحو ومؤذن بسكر يكون ذلك لمن غابت نفسه فى نور روحه لغلبة سكره وقوة محوه فاذا صحا وأفاق تتخلص الروح من النفس والنفس من الروح ويعود كل من العبد الى محله ومقامه فيقول يا الله ويا رب بلسان النفس المطمئنة العائدة الى

من موضع كذا وكان طريقه على السوق فقال من لقيت في الطريق فقال ما رأيت أحدا ويروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه مر بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له لم فعلت هذا فقال ما ظننتها الا جدارا وحكى عن بعضهم انه قال مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بعيد منهم فتقدمت اليه فاردت أن أكلمه فقال ذكر الله تعالى أشهى فقلت أنت وحدك فقال معي ربي وملكاي فقلت من سبق من هؤلاء فقال من غفر الله له فقلت أين الطريق فاشار نحو السماء وقام ومشى وقال أكثر خلقك شاغل عنك فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتكلم الا منه ولا يسمع الا فيه فهذا لا يحتاج الى مراقبة لسانه وجوارحه فانه لا تتحرك الا بما هو فيه ودخل الشبلي على أبي الحسين النوري وهو معتكف فوجده ساكنا حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شئ فقال له من أين أخذت هذه المراقبة والسكون فقال من سنور كانت لنا فكانت اذا أرادت الصيد رابطت رأس الجحر لا تتحرك لها شعرة وقال أبو عبد الله بن خفيف خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبي علي الروذباري فقال لي عيسى بن يونس المصري المعروف بالزاهد ان في صور شابا وكهلا قد اجتمعا على حال المراقبة فلو نظرت اليهما نظرة لعلك تستفيد منهما فدخلت صور وأنا جائع عطشان وفي وسطي خرقة وليس على كتفي شئ فدخلت المسجد فاذا بشخصين قاعدين مستقبلي القبلة فسلمت عليهما فما أجاباني فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب فقلت نشدتكما بالله الا رددتما على السلام فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر الي وقال يا ابن خفيف الدنيا قليل وما بقي من القليل الا القليل فخذ من القليل الكثير يا ابن خفيف ما أقل شغلك حتى تتفرغ الى لقائنا قال فاخذ بكليتي ثم طأطأ رأسه في المكان فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعي وعطشي وعنائي فلما كان وقت العصر قلت عظني فرفع رأسه الي وقال يا ابن خفيف نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيأ ولا شربا فلما كان اليوم الثالث قلت في سري أحلفهما أن يعظاني لعلي أنتفع بعظتهما فرفع الشاب رأسه وقال لي يا ابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيبته على قلبك يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله والسلام قم عنا فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الاجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك * الدرجة الثانية مراقبة الورعين من أصحاب اليمين وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم على قلوبهم ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للتلفت الى الاحوال والاعمال الا انها مع ممارسة الاعمال لا تخلو عن المراقبة نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجمون الا بعد التثبت فيه ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة فانهم يرون الله في الدنيا مطلعا عليهم فلا يحتاجون الى انتظار القيامة وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات فانك في خلواتك قد تتعاطى أعمالا فيحضرك صبي أو امرأة فتعلم انه مطلع عليك فتستحيي منه فتحسن جلوسك وتراعي أحوالك لا عن اجلال وتعظيم بل عن حياء فان مشاهدته وان كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فانها تهيج الحياء منك وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الاكابر فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلا به لا حياء منه فهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة الله تعالى ومن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته وبالجملة جميع اختياراته وله فيها نظران نظر قبل العمل ونظر في العمل أما قبل العمل فلينظر أن ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره أهو لله خاصة أو هو في هوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق فان كان لله تعالى أمضاه وان كان لغير الله استحيا من الله وانكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله اليه وعرفها سوء فعلها وسعيها في فضيحتها وانها عدوة نفسها ان لم يتداركها الله بعصمته وهذا التوقف في بداية الامور الى حد البيان واجب محتوم لا محيص لاحد عنه فان في الخبر انه ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وان صغرت ثلاثة دواوين الديوان الاول لم والثاني كيف والثالث لمن ومعنى لم أي لم فعلت هذا أكان عليك أن تفعله لمولاك أو ملت اليه بشهوتك وهواك فان سلم منه بان كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثاني فقيل له كيف فعلت هذا فان لله في كل عمل شرطا وحكما لا يدرك قدره ووقته وصفته الا بعلم فيقال له كيف فعلت أبعلم محقق أم بجهل وظن فان سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو

مقام خاجتها ومحل عبوديتها والروح تستقل بفتوحه وبكمال الحال عن الاقوال وهذا أتم وأقرب من الاول لانه وفى حق القرب باستقلال الروح بالفتوح وأقام رسم العبودية بعود حكم النفس الى محل الافتقار وحظ القرب لا يزال يتوفر نصيب الروح باقامة رسم العبودية من النفس (وقال) الجنيد ان الله تعالى يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه فانظر ماذا يقرب من قلبك (قال أبو يعقوب السوسي) مادام العبد يكون بالقرب لم يكن قريبا حتى يغيب عن رؤية القرب بالقرب فاذا ذهب عن رؤية القرب بالقرب فذلك قرب وقد قال قائلهم قد تحققتك في السر فناجاك لساني فاجتمعنا لمعان وافترقنا لمعان

المطالبة بالاخلاص فيقال له لمن عملت ألوجه الله خالصا وفاء بقولك لا اله الا الله فيكون أجرك على الله أو لمرا آة خلق مثلك فخذ أجرك منه أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا أم عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك وان عملت لغيرى فقد استوجبت مقتى وعقابى اذ كنت عبدا لى تأكل رزقى وتترفه بنعمتى ثم تعمل لغيرى أما سمعتنى أقول ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ويحك أما سمعتنى أقول ألا لله الدين الخالص فاذا عرف العبد انه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب وأعد للسؤال جوابا وليكن الجواب صوابا فلا يبدئ ولا يعيد الا بعد التثبت ولا يحرك جفنا ولا أنملة الا بعد التأمل وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ ان الرجل ليسئل عن كحل عينيه وعن فتة الطين باصبعه وعن لمسه ثوب أخيه وقال الحسن كان أحدهم اذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وتثبت فان كان لله أمضاه وقال الحسن رحم الله تعالى عبدا وقف عند همه فان كان لله مضى وان كان لغيره تأخر وقال فى حديث سعد حين أوصاه سلمان اتق الله عند همك اذا هممت وقال محمد بن على ان المؤمن وقاف متأن يقف عند همه ليس كحاطب ليل فهذا هو النظر الاول فى هذه المراقبة ولا يخلص من هذا الا العلم المتين والمعرفة الحقيقية باسرار الاعمال واغوار النفس ومكايد الشيطان فمتى لم يعرف نفسه وربه وعدوه ابليس ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يميز بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه فى نيته وهمته وفكرته وسكونه وحركته فلا يسلم فى هذه المراقبة بل الاكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ولا تظنن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يعذر هيهات بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم لانه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ومواضع الغرور فيتقى ذلك والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه فلا يزال الجاهل فى تعب والشيطان منه فى فرح وشماتة فنعوذ بالله من الجهل والغفلة فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران فحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة فيتوقف عن الهم وعن السعى حتى ينكشف له بنور العلم انه لله تعالى فيمضيه أو هو لهوى النفس فيتقيه ويزجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به فان الخطرة الاولى فى الباطل اذا لم تدفع أورثت الرغبة والرغبة تورث الهم والهم يورث جزم القصد والقصد يورث الفعل والفعل يورث البوار والمقت فينبغى أن تحسم مادة الشر من منبعه الاول وهو الخاطر فان جميع ما وراءه يتبعه ومهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر فى ذلك بنور العلم ويستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى فان عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضئ بنور علماء الدين وليفر من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان بل أشد فقد أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام لا تسأل عنى عالما أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتى أولئك قطاع الطريق على عبادى فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة الشره والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى فان مستضاء أنوار القلوب حضرة الربوبية فكيف يستضئ بها من استدبرها وأقبل على عدوها وعشق بغيضها ومقيتها وهى شهوات الدنيا فلتكن همة المريد أولا فى احكام العلم أو فى طلب عالم معرض عن الدنيا أو ضعيف الرغبة فيها ان لم يجد من هو عديم الرغبة فيها وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات جمع بين الامرين وهما متلازمان حقا فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد فى الشبهات ولذلك قال عليه السلام من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود اليه أبدا فما قدر العقل الضعيف الذى سعد الآدمى به حتى يعمد الى محوه ومحقه بمقارفة الذنوب ومعرفة آفات الاعمال قد اندرست فى هذه الاعصار فان الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا بالتوسط بين الخلق فى الخصومات الثائرة فى اتباع الشهوات وقالوا هذا هو الفقه وأخرجوا هذا العلم الذى هو فقه الدين عن جملة العلوم وتجردوا لفقه الدنيا الذى ما قصد به الا دفع الشواغل عن القلوب لتتفرغ لفقه الدين فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه وفى الخبر أنتم اليوم فى زمان خيركم فيه المسارع وسيأتى عليكم زمان خيركم فيه المتثبت ولهذا توقف طائفة من

ان يكن غيبك التعظيم عن لحظ عيانى
فلقد صيرك الوجد من الاحشاء دانى

قال ذو النون ما ازداد أحد من الله قربة الا ازداد هيبة (وقال سهل) أدنى مقام من مقامات القرب الحياء وقال النصراباذى باتباع السنة تنال المعرفة وباداء الفرائض تنال القربة وبالمواظبة على النوافل تنال المحبة

*ومنها الحياء والحياء على الوصف العام والوصف الخاص فاما الوصف العام فما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله استحيوا من الله حق الحياء قالوا انا نستحى يا رسول الله قال ليس ذلك ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وليذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء وهذا الحياء من

الصحابة فى القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الامر كسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر وأسامة ومحمد بن مسلمة وغيرهم فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعا الهواه معجبا برأيه وكان ممن وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ قال فاذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا واعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك وكل من خاض فى شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى ولا تقف ما ليس لك به علم وقوله عليه السلام اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث وأراد به ظنا بغير دليل كما يستفتى بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه واصعوبة هذا الامر وعظمه كان دعاء الصديق رضى الله تعالى عنه اللهم أرنى الحق حقا وارزقنى اتباعه وأرنى الباطل باطلا وارزقنى اجتنابه ولا تجعله متشابها على فأتبع الهوى وقال عيسى عليه السلام الامور ثلاثة أمر استبان رشده فاتبعه وأمر استبان غيه فاجتنبه وأمر أشكل عليك فكله الى عالمه وقد كان من دعاء النبى صلى الله عليه وسلم اللهم انى أعوذ بك أن أقول فى الدين بغير علم فاعظم نعمة الله على عباده هو العلم وكشف الحق والايمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال تعالى امتنانا على عبده وكان فضل الله عليك عظيما وأراد به العلم وقال تعالى فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وقال تعالى ان علينا للهدى وقال ثم ان علينا بيانه وقال وعلى الله قصد السبيل وقال على كرم الله وجهه الهوى شريك العمى ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ونعم طارد الهم اليقين وعاقبة الكذب الندم وفى الصدق السلامة رب بعيد أقرب من قريب وغريب من لم يكن له حبيب والصديق من صدق غيبه ولا يعدمك من حبيب سوء ظن نعم الخلق التكرم والحياء سبب الى كل جميل وأوثق العرا التقوى وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى انما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك والرزق رزقان رزق تطلبه ورزق يطلبك فان لم تأته أتاك وان كنت جازعا على ما أصيب مما فى يديك فلا تجزع على ما لم يصل اليك واستدل على ما لم يكن بما كان فانما الامور أشباه والمرء يسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه فما نالك من دنياك فلا تكثرن به فرحا وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفا وليكن سرورك بما قدمت وأسفك على ما خلفت وشغلك لآخرتك وهمك فيما بعد الموت وغرضنا من نقل هذه الكلمات قوله ومن التوفيق التوقف عند الحيرة * فاذا النظر الاول للمراقب نظره فى الهم والحركة أهى لله أم للهوى وقد قال صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه استكمل ايمانه لا يخاف فى الله لومة لائم ولا يرائى بشىء من عمله واذا عرض له أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر الآخرة على الدنيا وأكثر ما ينكشف له فى حركاته أن يكون مباحا ولكن لا يعنيه فيتركه لقوله صلى الله عليه وسلم من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه * النظر الثانى للمراقبة عند الشروع فى العمل وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه ويحسن النية فى اتمامه ويكمل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه وهذا ملازم له فى جميع أحواله فانه لا يخلو فى جميع أحواله عن حركة وسكون فاذا راقب الله تعالى فى جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الادب فان كان قاعدا مثلا فينبغى أن يقعد مستقبل القبلة لقوله صلى الله عليه وسلم خير المجالس ما استقبل به القبلة ولا يجلس متربعا اذ لا يجالس الملوك كذلك وملك الملوك مطلع عليه قال ابراهيم بن أدهم رحمه الله جلست مرة متربعا فسمعت هاتفا يقول هكذا تجالس الملوك فلم أجلس بعد ذلك متربعا وان كان ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب التى ذكرناها فى مواضعها فكل ذلك داخل فى المراقبة بل لو كان فى قضاء الحاجة فراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة فاذا لا يخلو العبد اما أن يكون فى طاعة أو فى معصية أو فى مباح فمراقبته فى الطاعة بالاخلاص والاكمال ومراعاة الادب وحراستها عن الآفات وان كان فى معصية فمراقبته بالتوبة والندم والاقلاع والحياء والاشتغال بالتفكر وان كان فى مباح فمراقبته بمراعاة الادب ثم بشهود المنعم فى النعمة وبالشكر عليها ولا يخلو العبد فى جملة أحواله عن بلية لا بد له من الصبر عليها ونعمة لا بد له من الشكر عليها وكل ذلك من المراقبة بل لا ينفك العبد فى كل حال من فرض لله تعالى عليه اما فعل يلزمه مباشرته أو محظور يلزمه تركه أو ندب حث عليه ليسارع به الى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته ولكل واحد من ذلك حدود لا بد من مراعاتها بدوام المراقبة ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه فينبغى أن يتفقد العبد نفسه فى جميع أوقاته فى هذه الاقسام

المقامات وأما الحياء الخاص فمن الاحوال وهو ما نقل عن عثمان رضى الله عنه انه قال انى لاغتسل فى البيت المظلم فانطوى حياء من الله (أخبرنا أبو زرعة) عن ابن خلف عن أبى عبد الرحمن قال سمعت أبا العباس البغدادى يقول سمعت أحمد السقطى بن صالح يقول سمعت محمد ابن عبدون يقول سمعت أبا العباس المؤدب يقول قال لى سرى احفظ عنى ما أقول لك ان الحياء والانس يطوفان بالقلب فاذا وجدا فيه الزهد والورع حطا والا رحلا والحياء اطراق الروح اجلالا لعظيم الجلال والانس التذاذ الروح بكمال الجمال فاذا اجتمعا فهو الغاية فى المنى والنهاية فى العطاء وأنشد شيخ الاسلام
أشتاقه فاذا بدا أطرقت من اجلاله
لا خيفة بل هيبة وصيانة لجماله

الثلاثة فاذا كان فارغا من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها فان من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون والارباح تنال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى ولا تنس نصيبك من الدنيا وكل ذلك انما يمكن بصبر ساعة واحدة فان الساعات ثلاثة ساعة مضت لا تعب فيها على العبد كيفما انقضت في مشقة أو رفاهية وساعة مستقبلة لم تأت بعد لا يدري العبد أيعيش اليها أم لا ولا يدري ما يقضي الله فيها وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه فان لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة وان أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الاولى ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها بل يكون ابن وقته كأنه في آخر أنفاسه فلعله آخر أنفاسه وهو لا يدري واذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر رضي الله تعالى عنه من قوله عليه السلام لا يكون المؤمن طامعا الا في ثلاث تزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لذة في غير محرم وما روي عنه أيضا في معناه وعلى العاقل أن تكون له أربع ساعات ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب فان في هذه الساعة عونا له على بقية الساعات ثم هذه الساعة التي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغي ان يخلو عن عمل هو أفضل الاعمال وهو الذكر والفكر فان الطعام الذي يتناوله مثلا فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح والناس فيه أقسام قسم ينظرون اليه بعين التبصر والاعتبار فينظرون في عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لاسبابه وخلق الشهوات الباعثة عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه كما فصلنا بعضه في كتاب الشكر وهذا مقام ذوي الالباب وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة ويلاحظون وجه الاضطرار اليه ويودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته وهذا مقام الزاهدين وقوم يرون في الصنعة الصانع ويترقون منها الى صفات الخالق فتكون مشاهدة ذلك سبب التذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين اذ المحب اذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسي الصنعة واشتغل قلبه بالصانع وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله تعالى فله في النظر منه الى الصانع مجال رحب ان فتحت له أبواب الملكوت وذلك عزيز جدا وقسم رابع ينظرون اليه بعين الرغبة والحرص فيتأسفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرهم من جملته ويذمون منه ما لا يوافق هواهم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطبيخ والطباخ ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى وان من ذم شيأ من خلق الله بغير اذن الله فقد ذم الله ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر فهذه المرابطة الثانية بمراقبة الاعمال على الدوام والاتصال وشرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهاج لمن أحكم الاصول

(المرابطة الثالثة محاسبة النفس بعد العمل ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها)

(أما الفضيلة) فقد قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد وهذه اشارة الى المحاسبة على ما مضى من الاعمال ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل ان توزنوا وفي الخبر أنه عليه السلام جاءه رجل فقال يا رسول الله أوصني فقال أمستوص أنت فقال نعم قال اذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فان كان رشدا فامضه وان كان غيا فانته عنه وفي الخبر وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه وقال تعالى وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم اني لاستغفر الله تعالى وأتوب اليه في اليوم مائة مرة وقال الله تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طيف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون وعن عمر رضي الله تعالى عنه انه كان يضرب قدميه بالدرة اذا جنه الليل ويقول لنفسه ماذا عملت اليوم وعن ميمون بن مهران انه قال لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه والشريكان يتحاسبان بعد العمل وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها ان أبا بكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت ما احد من الناس أحب الي من عمر ثم قال لها كيف

الموت في ادباره
والعيش في اقباله
وأصد عنه اذا بدا
وأروم طيف خياله
قال بعض الحكماء من تكلم في الحياء ولا يستحي من الله فيما يتكلم به فهو مستدرج (وقال ذو النون) الحياء وجود الهيبة في القلب مع حشمة ما سبق منك الى ربك (وقال ابن عطاء) العلم الاكبر الهيبة والحياء فاذا ذهب عنه الهيبة والحياء فلا خير فيه (وقال أبو سليمان) ان العباد عملوا على أربع درجات على الخوف والرجاء والتعظيم والحياء وأشرفهم منزلة من عمل على الحياء لما أيقن أن الله تعالى يراه على كل حال استحيا من حسناته أكثر مما استحيا العاصون من سيآتهم (وقال بعضهم) الغالب على قلوب المستحيين الاجلال والتعظيم دائما عند نظر الله اليهم

قالت فاعادت عليه ما قال فقال لا أحد اعز على من عمر فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها وحديث أبي طلحة حين شغله الطائر في صلاته فتدبر ذلك فجعل حائطه صدقة لله تعالى ندما ورجاء للعوض مما فاته وفي حديث ابن سلام انه حمل حزمة من حطب فقيل له يا أبا يوسف قد كان في بنيك وغلمانك ما يكفونك هذا فقال أردت ان أجرب نفسي هل تنكره وقال الحسن المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله وانما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا وانما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الامر من غير محاسبة ثم فسر المحاسبة فقال ان المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول والله انك لتعجبني وانك من حاجتي ولكن هيهات حيل بيني وبينك وهذا حساب قبل العمل ثم قال ويفرط منه الشيء فيرجع الى نفسه فيقول ماذا أردت بهذا والله لا أعذر بهذا والله لا أعود لهذا أبدا ان شاء الله وقال انس بن مالك سمعت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يوما وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطا فسمعته يقول وبيني وبينه جدار وهو في الحائط عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ والله لتتقين الله او ليعذبنك وقال الحسن في قوله تعالى ولا اقسم بالنفس اللوامة قال لا يلقى المؤمن الا يعاتب نفسه ماذا أردت بكلمتي ماذا أردت بأكلتي ماذا أردت بشربتي والفاجر يمضي قدما لا يعاتب نفسه وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى رحم الله عبدا قال لنفسه ألست صاحبة كذا ألست صاحبة كذا ثم ذمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائدا وهذا من معاتبة النفس كما سيأتي في موضعه وقال ميمون بن مهران التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح وقال ابراهيم التيمي مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها واعالج سلاسلها وأغلالها فقلت لنفسي يا نفس أي شيء تريدين فقالت أريد أن أرد الى الدنيا فاعمل صالحا قلت فانت في الامنية فاعملي وقال مالك بن دينار سمعت الحجاج يخطب وهو يقول رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب الى غيره رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به رحم الله امرأ نظر في مكياله رحم الله امرأ نظر في ميزانه فما زال يقول حتى أبكاني وحكى صاحب للاحنف بن قيس قال كنت أصحبه فكان عامة صلاته بالليل الدعاء وكان يجيء الى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا ما حملك على ما صنعت يوم كذا

(بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل)

اعلم ان العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغي ان يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصا منهم على الدنيا وخوفا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى الا أياما قلائل فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد ما هذه المساهلة الا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك ومعنى المحاسبة مع الشريك ان ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان فان كان من فضل حاصل استوفاه وشكره وان كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض وربحه النوافل والفضائل وخسرانه المعاصي وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه الامارة بالسوء فيحاسبها على الفرائض أولا فان أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها في مثلها وان فوتها من أصلها طالبها بالقضاء وان أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل وان ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط كما يصنع التاجر بشريكه وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن في شيء منها فينبغي ان يتقي غبينة النفس ومكرها فانها خداعة ملبسة مكارة فليطالبها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة وهكذا عن نظره بل عن خواطره وافكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه حتى عن سكوته انه لم سكت وعن سكونه لم سكن فاذا عرف مجموع الواجب على النفس وصح عنده قدر أدى الواجب فيه كان ذلك القدر محسوبا له فيظهر له الباقي على نفسه فليثبته عليها وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب

*ومنها الاتصال (قال النوري) الاتصال مكاشفات القلوب ومشاهدات الاسرار وقال بعضهم الاتصال وصول السر الى مقام الذهول وقال بعضهم الاتصال ان لا يشهد العبد غير خالقه ولا يتصل بسره خاطر لغير صانعه (وقال) سهل بن عبد الله تحركوا بالبلاء فتحركوا ولو سكنوا اتصلوا (وقال يحيى بن معاذ الرازي) العمال أربعة تائب وزاهد ومشتاق وواصل فالتائب محجوب بتوبته والزاهد محجوب بزهده والمشتاق محجوب بحاله والواصل لا يحجبه عن الحق شيء (وقال أبو سعيد القرشي) الواصل الذي يصله الله فلا يخشى عليه القطع أبدا والمتصل الذي يجهده يتصل وكلما دنا انقطع وكأن هذا الذي ذكره حال المريد والمراد لكون أحدهما مبادأ

الباقي الذى على شريكه على قلبه وفى جريدة حسابه ثم النفس غريم يمكن ان يستوفى منه الديون أما بعضها فبالغرامة والضمان وبعضها برد عينه وبعضها بالعقوبة لها على ذلك ولا يمكن شئ من ذلك الا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه فاذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء ثم ينبغي ان يحاسب النفس على جميع العمر يوما يوما وساعة ساعة فى جميع الاعضاء الظاهرة والباطنة كما نقل عن توبة بن الصمة وكان بالرقة وكان محاسبا لنفسه فحسب يوما فاذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها فاذا هى أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم فصرخ وقال ياويلتى ألقى المالك باحد وعشرين ألف ذنب فكيف وفى كل يوم عشرة آلاف ذنب ثم خر مغشيا عليه فاذا هو ميت فسمعوا قائلا يقول يالك ركضة الى الفردوس الاعلى فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الانفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح فى كل ساعة ولو رمى العبد بكل معصية حجرا فى داره لامتلأت داره فى مدة يسيرة قريبة من عمره ولكنه يتساهل فى حفظ المعاصي والملكان يحفظان عليه ذلك أحصاه الله ونسوه

(المرابطة الرابعة فى معاقبة النفس على تقصيرها)

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير فى حق الله تعالى فلا ينبغي أن يهملها فانه ان أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها وكان ذلك سبب هلاكها بل ينبغي ان يعاقبها فاذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع واذا نظر الى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته هكذا كانت عادة سالكى طريق الآخرة فقد روى عن منصور بن ابراهيم أن رجلا من العباد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست وروى انه كان فى بنى اسرائيل رجل يتعبد فى صومعته فمكث كذلك زمانا طويلا فاشرف ذات يوم فاذا هو بامرأة فافتتن بها وهم بها فاخرج رجله لينزل اليها فادركه الله بسابقة فقال ماهذا الذى أريد أن أصنع فرجعت اليه نفسه وعصمه الله تعالى فندم فلما أراد ان يعيد رجله الى الصومعة قال هيهات هيهات رجل خرجت تريد أن تعصى الله تعود معى فى صومعتى لا يكون والله ذلك أبدا فتركها معلقة فى الصومعة تصيبها الامطار والرياح والثلج والشمس حتى تقطعت فسقطت فشكر الله له ذلك وأنزل فى بعض كتبه ذكره ويحكى عن الجنيد قال سمعت ابن الكريبى يقول أصابتنى ليلة جنابة فاحتجت ان اغتسل وكانت ليلة باردة فوجدت فى نفسى تأخرا وتقصيرا فحدثتنى نفسى بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء أو ادخل الحمام ولا أعنى على نفسى فقلت واعجباه أنا أعامل الله فى طول عمرى فيجب له على حق فلا أجد فى المسارعة وأجد الوقوف والتأخر آليت ان لا أغتسل الا فى مرقعتى هذه وآليت ان لا أنزعها ولا أعصرها ولا أجففها فى الشمس ويحكى أن غزوان وأبا موسى كانا فى بعض مغازيهما فتكشفت جارية فنظر اليها غزوان فرفع يده فلطم عينه حتى بقرت وقال انك للحاظة الى ما يضرك ونظر بعضهم نظرة واحدة الى امرأة فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش ويحكى ان حسان بن أبى سنان مر بغرفة فقال متى بنيت هذه ثم أقبل على نفسه فقال تسألين عما لا يعنيك لاعاقبنك بصوم سنة فصامها وقال مالك بن ضيغم جاء رباح القيسى يسأل عن أبى بعد العصر فقلنا انه نائم فقال أنوم هذه الساعة هذا وقت نوم ثم ولى منصرفا فاتبعناه رسولا وقلنا ألا نوقظه لك فجاء الرسول وقال هو أشغل من أن يفهم عنى شيأ أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول أقلت وقت نوم هذه الساعة أفكان هذا عليك ينام الرجل متى شاء ومايدريك ان هذا ليس وقت نوم تتكلمين بما لا تعلمين أما ان لله على عهدا لا أنقضه أبدا الا أوسدك الارض لنوم حولا الا لمرض حائل أو لعقل زائل سوأة لك أما تستحين كم توبخين وعن غيك لا تنتهين قال وجعل يبكى وهو لا يشعر بمكانى فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته ويحكى عن تميم الدارى انه نام ليلة لم يقم فيها يتهجد فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذى صنع وعن طلحة رضى الله تعالى عنه قال انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ فى الرمضاء فكان يقول لنفسه ذوقى ونار جهنم أشد حرا أجيفة بالليل بطالة بالنهار فبينما هو كذلك اذ أبصر النبى صلى الله عليه وسلم فى ظل شجرة فأتاه فقال غلبتنى نفسى فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ألم يكن لك بد من الذى صنعت أما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد باهى الله بك الملائكة ثم قال لاصحابه تزودوا

بالكشوف وكون الآخر مردودا الى الاجتهاد (وقال أبو يزيد) الوصلون فى ثلاثة أحرف همهم لله وشغلهم فى الله ورجوعهم الى الله وقال السيارى الوصول مقام جليل وذلك أن الله تعالى اذا أحب عبدا أن يوصله اختصر عليه الطريق وقرب اليه البعيد وقال الجنيد الواصل هو الحاصل عند ربه وقال رويم أهل الوصول أوصل الله اليهم قلوبهم فهم محفوظون القوى ممنوعون من الخلق أبدا (وقال) ذو النون مارجع من رجع الا من الطريق وما وصل اليه أحد فرجع عنه واعلم ان الاتصال والمواصلة أشار اليه الشيوخ وكل من وصل الى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو من رتبة الوصول ثم يتفاوتون فمنهم من يجد الله بطريق الافعال وهو رتبة فى التجلى فيفنى

من أخيكم فجعل الرجل يقول له يا فلان ادع لي يا فلان ادع لي فقال النبي صلى الله عليه وسلم عمهم فقال اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم سدده فقال الرجل اللهم اجعل الجنة مآبهم وقال حذيفة بن قتادة قيل لرجل كيف تصنع بنفسك في شهواتها فقال ما على وجه الارض نفس أبغض الي منها فكيف اعطيها شهواتها ودخل ابن السماك على داود الطائي حين مات وهو في بيته على التراب فقال يا داود سجنت نفسك قبل أن تسجن وعذبت نفسك قبل أن تعذب فاليوم ترى ثواب من كنت تعمل له وعن وهب بن منبه ان رجلا تعبد زمانا ثم بدت له الى الله تعالى حاجة فقام سبعين سبتا يأكل في كل سبت احدى عشرة تمرة ثم سأل حاجته فلم يعطها فرجع الى نفسه وقال منك أتيت لو كان فيك خير لاعطيت حاجتك فنزل اليه ملك وقال يا ابن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت وقد قضى الله حاجتك وقال عبد الله بن قيس كنا في غزاة لنا فحضر العدو فصيح في الناس فقاموا الى المصاف في يوم شديد الريح واذا رجل امامي وهو يخاطب نفسه ويقول أي نفسي ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لي أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لي أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت والله لاعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك فقلت لارمقنه اليوم فرمقته فحمل الناس على عدوهم فكان في أوائلهم ثم ان العدو حمل على الناس فانكشفوا فكان في موضعه حتى انكشفوا مرات وهو ثابت يقاتل فوالله مازال ذلك دأبه حتى رأيته صريعا فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة وقد ذكرنا حديث أبي طلحة لما اشتغل قلبه في الصلاة بطائر في حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك وان عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول ماذا عملت اليوم وعن مجمع انه رفع رأسه الى السطح فوقع بصره على امرأة فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه الى السماء مادام في الدنيا وكان الاحنف بن قيس لا يفارقه المصباح بالليل فكان يضع أصبعه عليه ويقول للنفس ما حملك على أن صنعت يوم كذا كذا وأنكر وهيب بن الورد شيأ على نفسه فنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ثم جعل يقول لنفسه ويحك انما أريد بك الخير ورأى محمد بن بشر داود الطائي وهو يأكل عند افطاره خبزا بغير ملح فقال له لو أكلته بملح فقال ان نفسي لتدعوني الى الملح منذ سنة ولا ذاق داود ملحا مادام في الدنيا فهكذا كانت عقوبة أولي الحزم لانفسهم والعجب انك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر وتخاف انك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبغوا عليك ثم تهمل نفسك وهي أعظم عدو لك وأشد طغيانا عليك وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك فان غايتهم ان يشوشوا عليك معيشة الدنيا ولو عقلت لعلمت ان العيش عيش الآخرة وان فيه النعيم المقيم الذي لا آخر له ونفسك هي التي تنغص عليك عيش الآخرة فهي بالمعاقبة أولى من غيرها (المرابطة الخامسة المجاهدة) وهو أنه اذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية فينبغي ان يعاقبها بالعقوبات التي مضت وان رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الاوراد فينبغي أن يؤدبها بتثقيل الاوراد عليها ويلزمها فنونا من الوظائف جبرا لما فات منه وتداركا لما فرط فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة بان تصدق بارض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم وكان ابن عمر اذا فاتته صلاة في جماعة احيا تلك الليلة وأخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فاعتق رقبتين وفات ابن ابي ربيعة ركعتا الفجر فاعتق رقبة وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحج ماشيا أو التصدق بجميع ماله كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها فان قلت ان كانت نفسي لا تطاوعني على المجاهدة والمواظبة على الاوراد فما سبيل معالجتها فاقول سبيلك في ذلك أن تسمعها ما ورد في الاخبار من فضل المجتهدين ومن أنفع أسباب العلاج ان تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة فتلاحظ أقواله وتقتدي به وكان بعضهم يقول كنت اذا اعترتني فترة في العبادة نظرت الى أحوال محمد بن واسع والى اجتهاده فعملت على ذلك أسبوعا الا أن هذا العلاج قد تعذر اذ قد فقد في هذا الزمان من يجتهد في العبادة اجتهاد الاولين فينبغي أن يعدل من المشاهدة الى السماع فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد وقد انقضى تعبهم وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع فما أعظم ملكهم وما أشد حسرة من لا يقتدي بهم فيمتع نفسه أياما قلائل بشهوات مكدرة

فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله ويخرج في هذه الحالة من التدبير والاختيار وهذه رتبة في الوصول ومنهم من يوقف في مقام الهيبة والانس بما يكاشف قلبه به من مطالعة الجمال والجلال وهذا تجلي طريق الصفات وهو رتبة في الوصول ومنهم من ترقى لمقام الفناء مشتملا على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة مغيبا في شهوده عن وجوده وهذا ضرب من تجلي الذات لخواص المقربين وهذا المقام رتبة في الوصول وفوق هذا حق اليقين ويكون من ذلك في الدنيا الغواص لمح وهو سريان نور المشاهدة في كلية العبد حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه وهذا من أعلى رتب الوصول فاذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الاحوال الشريفة أنه بعد في أول المنزل فاين

ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد نعوذ بالله تعالى من ذلك ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة المريد فى الاجتهاد اقتداء بهم فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله أقواما يحسبهم الناس مرضى وماهم بمرضى قال الحسن أجهدتهم العبادة قال الله تعالى والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة قال الحسن يعملون ما عملوا من أعمال البر ويخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم طوبى لمن طال عمره وحسن عمله ويروى ان الله تعالى يقول للملائكة ما بال عبادى مجتهدين فيقولون الهنا خوفتهم شيأ فخافوه وشوقتهم الى شئ فاشتاقوا اليه فيقول الله تبارك وتعالى فكيف لو رآنى عبادى لكانوا أشد اجتهادا وقال الحسن أدركت أقواما وصحبت طوائف منهم ما كانوا يفرحون بشئ من الدنيا أقبل ولا يتأسفون على شئ منها أدبر ولهى كانت أهون فى أعينهم من هذا التراب الذى تطؤنه بأرجلكم ان كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوى له ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ولا جعل بينه وبين الارض شيأ قط وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم اذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم يفترشون وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم فى فكاك رقابهم اذا عملوا الحسنة فرحوا بها وداً بوا فى شكرها وسألوا الله أن يتقبلها واذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا الا بالمغفرة ويحكى ان قوما دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه فى مرضه واذا فيهم شاب ناحل الجسم فقال عمر له يا فتى ما الذى بلغ بك ما أرى فقال يا أمير المؤمنين أسقام وأمراض فقال سألتك بالله الا صدقتنى فقال يا أمير المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة وصغر عندى زهرتها وحلاوتها واستوى عندى ذهبها وحجرها وكأنى أنظر الى عرش ربى والناس يساقون الى الجنة والنار فاظمأت لذلك نهارى وأسهرت ليلى وقليل حقير كل ما أنا فيه فى جنب ثواب الله وعقابه وقال أبو نعيم كان داود الطائى يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز فقيل له فى ذلك فقال بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية ودخل رجل عليه يوما فقال ان فى سقف بيتك جذعا مكسورا فقال يا ابن أخى ان لى فى البيت منذ عشرين سنة ما نظرت الى السقف وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام وقال محمد بن عبد العزيز جلسنا الى أحمد بن رزين من غدوة الى العصر فما التفت يمنة ولا يسرة فقيل له فى ذلك فقال ان الله عز وجل خلق العينين لينظر بهما العبد الى عظمة الله تعالى فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة وقالت امرأة مسروق ما كان يوجد مسروق الا وساقاه منتفختان من طول الصلاة وقالت والله ان كنت لاجلس خلفه فابكى رحمة له وقال أبو الدرداء لولا ثلاث ما أحببت العيش يوما واحدا الظمأ لله بالهواجر والسجود لله فى جوف الليل ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر وكان الاسود بن يزيد يجتهد فى العبادة ويصوم فى الحر حتى يخضر جسده ويصفر فكان علقمة بن قيس يقول له لم تعذب نفسك فيقول كرامتها أريد وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلى حتى يسقط فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا له ان الله عز وجل لم يأمرك بكل هذا فقال انما أنا عبد مملوك لا أدع من الاستكانة شيأ الا جئت به وكان بعض المجتهدين يصلى كل يوم ألف ركعة حتى أقعد من رجليه فكان يصلى جالسا ألف ركعة فاذا صلى العصر احتبى ثم قال عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلا منك عجبت للخليقة كيف أنست بسواك بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك وكان ثابت البنانى قد حببت اليه الصلاة فكان يقول اللهم ان كنت أذنت لاحد أن يصلى لك فى قبره فائذن لى أن أصلى فى قبرى وقال الجنيد ما رأيت أعبد من السرى أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤى مضطجعا الا فى علة الموت وقال الحرث بن سعد مر قوم براهب فرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده فكلموه فى ذلك فقال وما هذا عندما يراد بالخلق من ملاقاة الاهوال وهم غافلون قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم ونسوا حظهم الاكبر من ربهم فبكى القوم عن آخرهم وعن أبى محمد المغازلى قال جاور أبو محمد الجريرى بمكة سنة فلم ينم ولم يتكلم ولم يستند الى عمود ولا الى حائط ولم يمد رجليه فعبر عليه أبو بكر الكتانى فسلم عليه وقال له يا أبا محمد بم قدرت على اعتكافك هذا فقال علم صدق باطنى فاعاننى على ظاهرى فاطرق الكتانى ومشى مفكرا وعن بعضهم قال دخلت على فتح الموصلى فرأيته قد مد كفيه يبكى حتى رأيت

الوصول هيهات منازل طريق الوصول لا تقطع أبد الآباد فى عمر الآخرة الابدى فكيف فى العمر القصير الدنيوى * ومنها القبض والبسط وهما حالان شريفان قال الله تعالى والله يقبض ويبسط وقد تكلم فيهما الشيوخ وأشاروا باشارات هى علامات القبض والبسط ولم أجد كشفا عن حقيقتهما لانهم اكتفوا بالاشارة والاشارة تقنع الاهل وأحببت أن أشبع الكلام فيهما لعله يتشوق الى ذلك طالب ويحب بسط القول فيه والله أعلم (واعلم) أن القبض والبسط لهما موسم معلوم ووقت محتوم لا يكونان قبله ولا يكونان بعده ووقتهما وموسمهما فى أوائل حال المحبة الخالصة لا فى نهايتها ولا قبيل حال المحبة الخالصة فمن هو فى مقام المحبة العامة الثابتة بحكم الايمان

الدموع تنحدر من بين أصابعه فدنوت منه فاذا دموعه قد خالطها صفرة فقلت ولم بالله يافتح بكيت الدم فقال لولا انك احلفتني بالله ما أخبرتك نعم بكيت دما فقلت له على ماذا بكيت الدموع فقال على تخلفي عن واجب حق الله تعالى وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ماصحت لي الدموع قال فرأيته بعد موته في المنام فقلت ماصنع الله بك قال غفر لي فقلت له فماذا صنع في دموعك فقال قربني ربي عزوجل وقال لي يافتح الدمع على ماذا قلت يارب على تخلفي عن واجب حقك فقال والدم على ماذا قلت على دموعي أن لا تصح لي فقال لي يافتح ما أردت بهذا كله وعزتي وجلالي لقد صعد حافظاك أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة وقيل ان قوما أرادوا سفرا فحادوا عن الطريق فانتهوا الى راهب منفرد عن الناس فنادوه فاشرف عليهم من صومعته فقالوا يا راهب انا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق فاومأ برأسه الى السماء فعلم القوم ما أراد فقالوا يا راهب انا سائلوك فهل أنت مجيبنا فقال سلوا ولا تكثروا فان النهار لن يرجع والعمر لا يعود والطالب حثيث فعجب القوم من كلامه فقالوا يا راهب علام الخلق غدا عند مليكهم فقال على نياتهم فقالوا أوصنا فقال تزودوا على قدر سفركم فان خير الزاد ما بلغ البغية ثم أرشدهم الى الطريق وأدخل رأسه في صومعته وقال عبد الواحد بن زيد مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديته يا راهب فلم يجبني فناديته الثانية فلم يجبني فناديته الثالثة فاشرف على وقال يا هذا ما أنا براهب انما الراهب من رهب الله في سمائه وعظمه في كبريائه وصبر على بلائه ورضي بقضائه وحمده على آلائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته وخضع لمهابته وفكر في حسابه وعقابه فنهاره صائم وليله قائم قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار فذلك هو الراهب وأما أنا فكلب عقور حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم فقلت يا راهب فما الذي قطع الخلق عن الله بعد أن عرفوه فقال يا أخي لم يقطع الخلق عن الله الاحب الدنيا وزينتها لانها محل المعاصي والذنوب والعاقل من رمى بها عن قلبه وتاب الى الله تعالى من ذنبه وأقبل على ما يقربه من ربه * وقيل لداود الطائي لو سرحت لحيتك فقال اني اذا الفارغ وكان أويس القرني يقول هذه ليلة الركوع فيحيي الليل كله في ركعة واذا كانت الليلة الآتية قال هذه ليلة السجود فيحيي الليل كله في سجدة وقيل لما تاب عتبة الغلام كان لا يتهنأ بالطعام والشراب فقالت له أمه لو رفقت بنفسك قال الرفق أطلب دعيني أتعب قليلا وأتنعم طويلا وحج مسروق فما نام قط الا ساجدا وقال سفيان الثوري عند الصباح يحمد القوم السرى وعند الممات يحمد القوم التقى وقال عبد الله بن داود كان أحدهم اذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أي كان لا ينام طول الليل وكان كهمس بن الحسن يصلي كل يوم ألف ركعة ثم يقول لنفسه قومي يا مأوى كل شر فلما ضعف اقتصر على خمسمائة ثم كان يبكي ويقول ذهب نصف عملي وكانت ابنة الربيع بن خيثم تقول له يا أبت مالي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام فيقول يا ابنتاه ان أباك يخاف البيات ولما رأت أم الربيع ما يلقى الربيع من البكاء والسهر نادته يا بني لعلك قتلت قتيلا قال نعم يا أماه قالت فمن هو حتى نطلب أهله فيعفو عنك فوالله لو يعلمون ما أنت فيه لرحموك وعفوا عنك فيقول يا أماه هي نفسي وعن عمر ابن أخت بشر بن الحرث قال سمعت خالي بشر ابن الحرث يقول لامي يا أختي جوفي وخواصري تضرب علي فقالت له أمي يا أخي تأذن لي حتى أصلح لك قليل حساء بكف دقيق عندي تحساه يرم جوفك فقال لها ويحك أخاف أن يقول من أين لك هذا الدقيق فلا أدري ايش أقول له فبكت أمي وبكى معها وبكيت معهم قال عمرو رأت أمي ما بيشر من شدة الجوع وجعل يتنفس نفسا ضعيفا فقالت له أمي يا أخي ليت أمك لم تلدني فقد والله تقطعت كبدي مما أرى بك فسمعته يقول لها وأنا فليت أمي لم تلدني واذ ولدتني لم يدر ثديها علي قال عمرو وكانت أمي تبكي عليه الليل والنهار وقال الربيع أتيت أويسا فوجدته جالسا قد صلى الفجر ثم جلس فجلست فقلت لا أشغله عن التسبيح فمكث مكانه حتى صلى الظهر ثم قام الى الصلاة حتى صلى العصر ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ثم ثبت مكانه حتى صلى العشاء ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ثم جلس فغلبته عيناه فقال اللهم اني أعوذ بك من عين نوامة ومن بطن لا تشبع فقلت حسبي هذا منه ثم رجعت ونظر رجل الى أويس فقال يا أبا عبد الله مالي أراك كأنك مريض فقال وما لاويس أن لا يكون مريضا يطعم المريض وأويس غير طاعم وينام المريض وأويس غير نائم وقال أحمد بن حرب يا عجبا لمن يعرف ان

لا يكون له قبض ولا بسط وانما يكون له خوف ورجاء وقد يجد شبه حال القبض وشبه حال البسط ويظن ذلك قبضا وبسطا وليس هو ذلك وانما هو هم يعتريه فيظنه قبضا واهتزاز نفساني ونشاط طبيعي يظنه بسطا والهم والنشاط يصدران من محل النفس ومن جوهرها لبقاء صفاتها ومادامت صفة الامارة فيها باقية على النفس يكون منها الاهتزاز والنشاط والهم وهج ساجور النفس والنشاط ارتفاع موج النفس عند تلاطم بحر الطبع فاذا ارتقى من حال المحبة العامة الى أوائل المحبة الخاصة يصير ذا حال وذا قلب وذا نفس لوامة ويتناوب القبض والبسط فيه عند ذلك لانه ارتقى من رتبة الايمان الى رتبة الايقان وحال المحبة الخاصة فيقبضه الحق تارة ويبسطه أخرى

الجنة تزين فوقه وان النار تسعر تحته كيف ينام بينهما وقال رجل من النساك أتيت ابراهيم بن أدهم فوجدته
قد صلى العشاء فقعدت أرقبه فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم ينقلب من جنب الى جنب الليل كله حتى طلع
الفجر وأذن المؤذن فوثب الى الصلاة ولم يحدث وضوأ فحاك ذلك فى صدرى فقلت له رحمك الله قد نمت الليل كله
مضطجعا ثم لم تجدد الوضوء فقال كنت الليل كله جائلا فى رياض الجنة أحيانا وفى أودية النار أحيانا فهل فى ذلك
نوم وقال ثابت البنانى أدركت رجالا كان أحدهم يصلى فيعجز عن ان يأتى فراشه الا حبوا وقيل مكث أبو بكر بن
عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش ونزل الماء فى احدى عينيه فمكث عشرين سنة لا يعلم به أهله وقيل كان
وردسمنون فى كل يوم خمسمائة ركعة وعن أبى بكر المطوعى قال كان وردى فى شبيبتى كل يوم وليلة أقرأ فيه قل
هو الله أحد احدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة شك الراوى وكان منصور بن المعتمر اذا رأيته قلت رجل
أصيب بمصيبة منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين ان حركته جاءت عيناه بأربع ولقد قالت له أمه
ماهذا الذى تصنع بنفسك تبكى الليل عامته لا تسكت لعلك يا بنى أصبت نفسا لعلك قتلت قتيلا فيقول يا أمه أنا أعلم
بما صنعت بنفسى وقيل لعامر بن عبد الله كيف صبرك على سهر الليل وظمأ الهواجر فقال هل هو الا أنى صرفت
طعام النهار الى الليل ونوم الليل الى النهار وليس فى ذلك خطير أمر وكان يقول ما رأيت مثل الجنة نام طالبها ولا
مثل النار نام هاربها وكان اذا جاء الليل قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يصبح فاذا جاء النهار قال أذهب حر
النار النوم فما ينام حتى يمسى فاذا جاء الليل قال من خاف ادلج عند الصباح يحمد القوم السرى وقال بعضهم صحبت
عامر بن عبد القيس أربعة أشهر فما رأيته نام بليل ولا نهار وروى عن رجل من أصحاب على بن أبى طالب رضى
الله تعالى عنه انه قال صليت خلف على رضى الله تعالى عنه الفجر فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى
طلعت الشمس ثم قلب يده وقال والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وما أرى اليوم شيأ يشبههم كانوا
يصبحون شعثا غبرا صفرا قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم وكانوا اذا
ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم وكأن القوم باتوا غافلين يعنى من كان
حوله وكان أبو مسلم الخولانى قد علق سوطا فى مسجد بيته يخوف به نفسه وكان يقول لنفسه قومى فوالله
لأزحفن بك زحفا حتى يكون الكلال منك لا منى فاذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه و يقول أنت
أولى بالضرب من دابتى وكان يقول أيظن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ان يستأثروا به دوننا كلا والله لنزاحمهم
عليه زحاما حتى يعلموا انهم قد خلفوا وراءهم رجالا وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ
من الاجتهاد مالو قيل له القيامة غدا ما وجد متزايدا وكان اذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد واذا
كان فى الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر فلا ينام وانه مات وهو ساجد وانه كان يقول اللهم انى أحب
لقاءك فاحب لقائى وقال القاسم بن محمد غدوت يوما وكنت اذا غدوت بدأت بعائشة رضى الله عنها أسلم عليها
فغدوت يوما اليها فاذا هى تصلى صلاة الضحى وهى تقرأ فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم وتبكى وتدعو وتردد
الآية فقمت حتى مللت وهى كما هى فلما رأيت ذلك ذهبت الى السوق فقلت أفرغ من حاجتى ثم ارجع ففرغت من
حاجتى ثم رجعت وهى كما هى تردد الآية وتبكى وتدعو وقال محمد بن اسحق لما ورد علينا عبد الرحمن بن الاسود حاجا
اعتلت احدى قدميه فقام يصلى على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء وقال بعضهم ما أخاف من الموت
الا من حيث يحول بينى وبين قيام الليل وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه سيما الصالحين صفرة الالوان من
السهر وعمش العيون من البكاء وذبول الشفاه من الصوم عليهم غبرة الخاشعين وقيل للحسن ما بال المتهجدين
أحسن الناس وجوها فقال لانهم خلوا بالرحمن فالبسهم نورا من نوره وكان عامر بن عبد القيس يقول الهى
خلقتنى ولم تؤامرنى وتميتنى ولا تعلمنى وخلقت معى عدوا وجعلته يجرى منى مجرى الدم وجعلته يرانى ولا أراه ثم
قلت لى استمسك الهى كيف استمسك ان لم تمسكنى الهى فى الدنيا الهموم والاحزان وفى الآخرة العقاب
والحساب فأين الراحة والفرح وقال جعفر بن محمد كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات كان اذا صلى العتمة
وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فاذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فاذا مضى الثلث

(قال) الواسطى يقبضك
عما لك ويبسطك فيما له
(وقال) النورى يقبضك
باياك ويبسطك لاياه
واعلم ان وجود القبض
لظهور صفة النفس
وغلبتها وظهور البسط
لظهور صفة القلب
وغلبته والنفس مادامت
لوامة فتارة مغلوبة وتارة
غالبة والقبض والبسط
باعتبار ذلك منها وصاحب
القلب تحت حجاب نورانى
لوجود قلبه كما أن صاحب
النفس تحت حجاب
ظلمانى لوجود نفسه
فاذا ارتقى من القلب
وخرج من حجابه لا يقيده
الحال ولا يتصرف فيه
فيخرج من تصرف
القبض والبسط حينئذ
فلا يقبض ولا يبسط ما
دام متخلصا من الوجود
النورانى الذى هو
القلب ومتحققا بالقرب
من غير حجاب النفس
والقلب فاذا عاد الى
الوجود من الفناء
والبقاء يعود الى
الوجود النورانى

الثانى صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فاذا كان السحر صاح صيحة قال جعفر بن محمد فحدثت به بعض البصريين فقال لا تنظر الى صياحه ولكن انظر الى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح وعن القاسم بن راشد الشيبانى قال كان زمعة نازلا عندنا بالمحصب وكان له أهل و بنات وكان يقوم فيصلى ليلا طويلا فاذا كان السحر نادى بأعلى صوته أيها الركب المعرسون أكل هذا الليل ترقدون أفلا تقومون فترحلون فيتواثبون فيسمع من ههنا باك ومن ههنا داع ومن ههنا قارئ ومن ههنا متوضئ فاذا طلع الفجر نادى باعلى صوته عند الصباح يحمد القوم السرى وقال بعض الحكماء ان لله عبادا أنعم عليهم فعرفوه وشرح صدورهم فاطاعوه وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والامر اليه فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين وبيوتا للحكمة وتوابيت للعظمة وخزائن للقدرة فهم بين الخلائق مقبلون ومدبرون وقلوبهم تجول فى الملكوت وتلوذ بمحجوب الغيوب ثم ترجع ومعها طرائف من لطائف الفوائد وما لا يمكن واصفا ان يصفه فهم فى باطن أمورهم كالديباج حسنا وهم فى الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعا وهذه طريقة لا يبلغ اليها بالتكلف وانما هو فضل الله يؤتيه من يشاء وقال بعض الصالحين بينما أنا أسير فى بعض جبال بيت المقدس اذ هبطت الى واد هناك فاذا أنا بصوت قد علا واذا تلك الجبال تجيبه لها دوى عال فاتبعت الصوت فاذا أنا بروضة عليها شجر ملتف واذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا الى قوله و يحذركم الله نفسه قال فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية اذ صاح صيحة خر مغشيا عليه فقلت واأسفاه هذا لشقائى ثم انتظرت افاقته فافاق بعد ساعة فسمعته وهو يقول أعوذ بك من مقام الكذابين أعوذ بك من أعمال البطالين أعوذ بك من اعراض الغافلين ثم قال لك خشعت قلوب الخائفين واليك فزعت آمال المقصرين ولعظمتك ذلت قلوب العارفين ثم نفض يده فقال مالى وللدنيا وما للدنيا ولى عليك يادنيا بابناء جنسك والاف نعيمك الى محبيك فاذهبى واياهم فاخدعى ثم قال أين القرون الماضية وأهل الدهور السالفة فى التراب يبلون وعلى الزمان يفنون فناديته يا عبد الله أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك فقال وكيف يفرغ من يبادر الاوقات وتبادره يخاف سبقها بالموت الى نفسه أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه وبقيت آثامه ثم قال أنت لها ولكل شدة أتوقع نزولها ثم لها عنى ساعة وقرأ وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ثم صاح صيحة أخرى أشد من الاولى وخر مغشيا عليه فقلت قد خرجت روحه فدنوت منه فاذا هو يضطرب ثم أفاق وهو يقول من أنا ما خطرى هب لى اساءتى من فضلك وجللنى بسترك واعف عن ذنوبى بكرم وجهك اذا وقفت بين يديك فقلت له بالذى ترجوه لنفسك وتثق به الا كلمتنى فقال عليك بكلام من ينفعك كلامه ودع كلام من أوبقته ذنوبه انى لفى هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد ابليس و يجاهدنى فلم يجد عونا على ليخرجنى مما أنا فيه غيرك فاليك عنى يا مخدوع فقد عطلت على لسانى وملت الى حديثك شعبة من قلبى وأنا أعوذ بالله من شرك ثم أرجو أن يعيذنى من سخطه و يتفضل على برحمته قال فقلت هذا ولى لله أخاف أن أشغله فأعاقب فى موضعى هذا فانصرفت وتركته وقال بعض الصالحين بينما أنا أسير فى مسير لى اذ ملت الى شجرة لاستريح تحتها فاذا أنا بشيخ قد أشرف على فقال لى يا هذا قم فان الموت لم يمت ثم هام على وجهه فاتبعته فسمعته وهو يقول كل نفس ذائقة الموت اللهم بارك لى فى الموت فقلت وفيما بعد الموت فقال من أيقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر ولم يكن له فى الدنيا مستقر ثم قال يا من لوجهه عنت الوجوه بيض وجهى بالنظر اليك واملأ قلبى من المحبة لك وأجرنى من ذل التوبيخ غدا عندك فقد آن لى الحياء منك وحان لى الرجوع عن الاعراض عنك ثم قال لولا حلمك لم يسعنى أجلى ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أملى ثم مضى وتركنى وقد أنشدوا فى هذا المعنى

نحيل الجسم مكتئب الفؤاد * تراه بقنة أو بطن وادى *
ينوح على معاص فاضحات * يكدر ثقلها صفو الرقاد *
فان هاجت مخاوفه وزادت * فدعوته أغثنى يا عمادى *
فانت بما ألاقيه عليم * كثير الصفح عن زلل العباد *

وقيل أيضا

ألذ من التلذذ بالغوانى * اذا أقبلن فى حلل حسان *
منيب فر من أهل ومال * يسيح الى مكان من مكان *
ليخمل ذكره و يعيش فردا * و يظفر فى العبادة بالامانى *

الذى هو القلب فيعود القبض والبسط اليه عند ذلك ومهما تخلص الى الفناء والبقاء فلا قبض ولا بسط قال فارس أولا القبض ثم البسط ثم لا قبض ولا بسط لان القبض والبسط يقع فى الوجود فاما مع الفناء والبقاء فلا ثم ان القبض قد يكون عقوبة الافراط فى البسط وذلك ان الوارد من الله تعالى يرد على القلب فيمتلئ القلب منه روحا وفرحا واستبشارا فتسترق النفس السمع عند ذلك وتأخذ نصيبها فاذا وصل أثر الوارد الى النفس طغت بطبعها وأفرطت فى البسط حتى تشاكل البسط نشاطا فتقابل بالقبض عقوبة وكل القبض اذا فتش لا يكون الا من حركة النفس وظهورها بصفتها ولو تأدبت النفس وعدلت ولم تجر بالطغيان تارة و بالعصيان أخرى ما وجد صاحب القلب

تلذذه التلاوة أين ولى * وذكر بالفؤاد وباللسان * وعند الموت يأتيه بشير
يبشر بالنجاة من الهوان * فيدرك ما أراد وما تمنى * من الراحات في غرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يختم القرآن في كل يوم ثلاث مرات ويجاهد نفسه في العبادات غاية المجاهدة فقيل له قد أجهدت نفسك فقال كم عمر الدنيا فقيل سبعة آلاف سنة فقال كم مقدار يوم القيامة فقيل خمسون ألف سنة فقال كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم يعني انك لو عشت عمر الدنيا واجتهدت سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة لكان ربحك كثيرا وكنت بالرغبة فيه جديرا فكيف وعمرك قصير والآخرة لا غاية لها فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين في مرابطة النفس ومراقبتها فمهما تمردت نفسك عليك وامتنعت من المواظبة على العبادة فطالع أحوال هؤلاء فانه قد عز الآن وجود مثلهم ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع في القلب وأبعث على الاقتداء فليس الخبر كالمعاينة واذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء فان لم تكن ابل فمعزى وخير نفسك بين الاقتداء بهم والكون في زمرتهم وغمارهم وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر في الدين وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك ولا ترض لها أن تنخرط في سلك الحمقى وتقنع بالتشبه بالأغبياء وتؤثر مخالفة العقلاء فان حدثتك نفسك بان هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها يا نفس لا تستنكفي أن تكوني أقل من امرأة فأخسس برجل يقصر عن امرأة في أمر دينها ودنياها ولنذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات فقد روي عن حبيبة العدوية انها كانت اذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت الهي قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامي بين يديك ثم تقبل على صلاتها فاذا طلع الفجر قالت الهي هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهنأ أم رددتها علي فأعزى وعزتك لهذا دأبي ودأبك ما أبقيتني وعزتك لو انتهرتني عن بابك ما برحت لما وقع في نفسي من جودك وكرمك ويروى عن عجرة أنها كانت تحيي الليل وكانت مكفوفة البصر فاذا كان في السحر نادت بصوت لها محزون اليك قطع العابدون دجى الليالي يستبقون الى رحمتك وفضل مغفرتك فبك يا الهي أسألك لا بغيرك أن تجعلني في أول زمرة السابقين وأن ترفعني لديك في عليين في درجة المقربين وان تلحقني بعبادك الصالحين فانت أرحم الرحماء وأعظم العظماء وأكرم الكرماء يا كريم ثم تخر ساجدة فيسمع لها وجبة ثم لا تزال تدعو وتبكي الى الفجر وقال يحيى بن بسطام كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء فقلت لصاحب لي لو أتيناها اذا خلت فأمرناها بالرفق بنفسها فقال أنت وذاك قال فأتيناها فقلت لها لو رفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيأ فكان لك أقوى على ما تريدين قال فبكت ثم قالت والله لوددت اني أبكي حتى تنفد دموعي ثم أبكي دما حتى لا تبقى قطرة من دم في جارحة من جوارحي وأنى لي بالبكاء وأنى لي بالبكاء فلم تزل تردد وأنى لي بالبكاء حتى غشي عليها وقال محمد بن معاذ حدثتني امرأة من المتعبدات قالت رأيت في منامي كأني أدخلت الجنة فاذا أهل الجنة قيام على أبوابهم فقلت ما شأن أهل الجنة قيام فقال لي قائل خرجوا ينظرون الى هذه المرأة التي زخرفت الجنان لقدومها فقلت ومن هذه المرأة فقيل أمة سوداء من أهل الايلة يقال لها شعوانة قالت فقلت أختي والله قالت فبينما أنا كذلك اذ أقبل بها على نجيبة تطير بها في الهواء فلما رأيتها ناديت يا أختي أما ترين مكاني من مكانك فلو دعوت لي مولاك فألحقني بك قالت فتبسمت الي وقالت لم يأن لقدومك ولكن احفظي عني اثنتين ألزمي الحزن قلبك وقدمي محبة الله على هواك ولا يضرك متى مت وقال عبد الله بن الحسن كانت لي جارية رومية وكنت بها معجبا فكانت في بعض الليالي نائمة الى جنبي فانتبهت فالتمستها فلم أجدها فقمت أطلبها فاذا هي ساجدة وهي تقول بحبك لي الا ما غفرت لي ذنوبي فقلت لها لا تقولي بحبك لي ولكن قولي بحبي لك فقالت يا مولاي بحبه لي أخرجني من الشرك الى الاسلام وبحبه لي أيقظ عيني وكثير من خلقه نيام وقال أبو هاشم القرشي قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سرية فنزلت في بعض ديارنا قال فكنت أسمع لها من الليل أنينا وشهيقا فقلت يوما لخادمي أشرف على هذه المرأة ماذا تصنع قال فأشرف عليها فما رآها تصنع شيأ غير أنها لا ترد

القبض ومادام روحه وانسه ورعاية الاعتدال الذي لا يسد باب القبض متلقى من قوله تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم فوارد الفرح مادام موقوفا على الروح والقلب لا يكثف ولا يستوجب صاحبه القبض سيما اذا لطف بالفرح بالوارد بالايواء الى الله واذا لم يلتج بالايواء الى الله تعالى تطلعت النفس وأخذت حظها من الفرح وهو الفرح بما أتى المنوع منه من ذلك القبض في بعض الاحايين وهذا

طرفها الى السماء وهي مستقبلة القبلة تقول خلقت سرية ثم غذيتها بنعمتك من حال الى حال وكل أحوالك لها حسنة وكل بلائك عندها جميل وهي مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك فلتة بعد فلتة أتراها تظن انك لا ترى سوء فعالها وأنت عليم خبير وأنت على كل شئ قدير * وقال ذو النون المصري خرجت ليلة من وادي كنعان فلما علوت الوادي اذا سواد مقبل علي وهو يقول وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ويبكي فلما قرب مني السواد اذا هي امرأة عليها جبة صوف وبيدها ركوة فقالت لي من أنت غير فزعة مني فقلت رجل غريب فقالت يا هذا وهل يوجد مع الله غربة قال فبكيت لقولها فقالت لي ما الذي أبكاك فقلت قد وقع الدواء على داء قد قرح فاسرع في نجاحه قالت فان كنت صادقا فلم بكيت قلت يرحمك الله والصادق لا يبكي قالت لا قلت ولم ذاك قالت لان البكاء راحة القلب فسكت متعجبا من قولها * وقال أحمد بن علي استأذنا على عفيرة فحجبتنا فلازمنا الباب فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعتها وهي تقول اللهم اني أعوذ بك ممن جاء يشغلني عن ذكرك ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها يا أمة الله ادعي لنا فقالت جعل الله قراكم في بيتي المغفرة ثم قالت لنا مكث عطاء السلمي أربعين سنة فكان لا ينظر الى السماء فحانت منه نظرة فخر مغشيا عليه فاصابه فتق في بطنه فياليت عفيرة اذا رفعت رأسها لم تعص ويا ليتها اذا عصت لم تعد وقال بعض الصالحين خرجت يوما الى السوق ومعي جارية حبشية فاحتبستها في موضع بناحية السوق وذهبت في بعض حوائجي وقلت لا تبرحي حتى أنصرف اليك قال فانصرفت فلم أجدها في الموضع فانصرفت الى منزلي وأنا شديد الغضب عليها فلما رأتني عرفت الغضب في وجهي فقالت يا مولاي لا تعجل علي انك أجلستني في موضع لم أر فيه ذاكرا الله تعالى فخفت أن يخسف بذلك الموضع فعجبت لقولها وقلت لها أنت حرة فقالت ساء ما صنعت كنت أخدمك فيكون لي اجران وأما الآن فقد ذهب عني أحدهما وقال ابن العلاء السعدي كانت لي ابنة عم يقال لها برة تعبدت وكانت كثيرة القراءة في المصحف فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت فلم تزل تبكي حتى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمها انطلقوا بنا الى هذه المرأة حتى نعذلها في كثرة البكاء قال فدخلنا عليها فقلنا يا برة كيف أصبحت قالت أصبحنا أضيافا منيخين بارض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب فقلنا لها كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه فقالت ان يكن لعيني عند الله خير فما ضرهما ما ذهب منهما في الدنيا وان كان لهما عند الله شر فسيزيدهما بكاء أطول من هذا ثم أعرضت قال فقال القوم قوموا بنا فهي والله في شئ غير ما نحن فيه * وكانت معاذة العدوية اذا جاء النهار تقول هذا يومي الذي أموت فيه فما تطعم حتى تمسي فاذا جاء الليل تقول هذه الليلة التي أموت فيها فتصلي حتى تصبح وقال أبو سليمان الداراني بت ليلة عند رابعة فقامت الى محراب لها وقمت أنا الى ناحية من البيت فلم تزل قائمة الى السحر فلما كان السحر قلت ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة قالت جزاؤه أن نصوم له غدا وكانت شعوانة تقول في دعائها الهي ما أشوقني الى لقائك وأعظم رجائي لجزائك وأنت الكريم الذي لا يخيب لديك أمل الآملين ولا يبطل عندك شوق المشتاقين الهي ان كان دنا أجلي ولم يقربني منك عملي فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللي فان عفوت فمن أولى منك بذلك وان عذبت فمن أعدل منك هنالك الهي قد جرت على نفسي في النظر لها وبقي لها حسن نظرك فالويل لها ان لم تسعدها الهي انك لم تزل بي برا أيام حياتي فلا تقطع عني برك بعد مماتي ولقد رجوت ممن تولاني في حياتي باحسانه أن يسعفني عند مماتي بغفرانه الهي كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتي ولم تولني الا الجميل في حياتي الهي ان كانت ذنوبي قد أخافتني فان محبتي لك قد أجارتني فتول من أمري ما أنت أهله وعد بفضلك على من غره جهله الهي لو أردت اهانتي لما هديتني ولو أردت فضيحتي لم تسترني فمتعني بما له هديتني وأدم لي ما به سترتني الهي ما أظنك تردني في حاجة أفنيت فيها عمري الهي لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك وقال الخواص دخلنا على رحلة العابدة وكانت قد صامت حتى اسودت وبكت حتى عميت وصلت حتى أقعدت وكانت تصلي قاعدة فسلمنا عليها ثم ذكرناها شيأ من العفو ليهون عليها الامر قال فشهقت ثم قالت علمي بنفسي قرح فؤادي وكلم كبدي والله لوددت أن الله لم يخلقني ولم أك شيأ مذكورا ثم أقبلت على صلاتها * فعليك ان كنت من المرابطين المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين لينبعث نشاطك ويزيد حرصك واياك أن تنظر الى أهل عصرك فانك

من ألطف الذنوب الموجبة للقبض وفي النفس من حركاتها وصفاتها وثبات متعددة موجبة للقبض ثم الخوف والرجاء لا يعدمهما صاحب القبض والبسط ولا صاحب الانس والهيبة لانهما من ضرورة الايمان فلا ينعدمان وأما القبض والبسط فينعدمان عند صاحب الايمان لنقصان الحظ من القلب وعند صاحب الفناء والبقاء والقرب لخلاصه من القلب وقد يرد على الباطن قبض وبسط

ان

ان تطع أكثر من فى الارض يضلوك عن سبيل الله وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر وان أردت مزيدا فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب حلية الاولياء فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين فان حدثتك نفسك بالنظر الى أهل زمانك وقالت انما تيسر الخير فى ذلك الزمان لكثرة الاعوان والآن فان خالفت أهل زمانك رأوك مجنونا وسخروا بك فوافقهم فيما هم فيه وعليه فلا يجرى عليك الا ما يجرى عليهم والمصيبة اذا عمت طابت فايال ان تتدلى بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها وقل لها أرأيت لو هجم سيل جارف يغرق أهل البلد وثبتوا على مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال وقدرت أنت على أن تفارقيهم وتركبى فى سفينة تتخلصين بها من الغرق فهل يختلج فى نفسك ان المصيبة اذا عمت طابت أم تتركين موافقتهم وتستجهلينهم فى صنيعهم وتأخذين حذرك مما دهاك فاذا كنت تتركين موافقتهم خوفا من الغرق وعذاب الغرق لا يتمادى الا ساعة فكيف لا تهربين من عذاب الابد وأنت متعرضة له فى كل حال ومن أين تطيب المصيبة اذا عمت ولاهل النار شغل شاغل عن الالتفات الى العموم والخصوص ولم يهلك الكفار الا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون فعليك اذا اشتغلت بمعاتبة نفسك وحملها على الاجتهاد فاستعصت أن لا تترك معاتبتها وتوبيخها وتقريعها وتعريفها سوء نظرها لنفسها فعساها تنزجر عن طغيانها

(المرابطة السادسة فى توبيخ النفس ومعاتبتها)

اعلم ان أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة الى الشر فرارة من الخير وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر الى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها فان أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك وان لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هى النفس اللوامة التى أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة الى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولا بوعظ نفسك أوحى الله تعالى الى عيسى عليه السلام يا ابن مريم عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس والا فاستحى منى وقال تعالى وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وانها أبدا تتعزز بفطنتها وهدايتها ويشتد أنفها واستنكافها اذا نسبت الى الحمق فتقول لها يا نفس ما أعظم جهالتك تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقا أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وانك صائرة الى احداهما على القرب فما لك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختطفين أو غدا فاراك ترين الموت بعيدا ويراه الله قريبا أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب وأن البعيد ما ليس بآت أما تعلمين أن الموت يأتى بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة وانه لا يأتى فى شئ دون شئ ولا فى شتاء دون صيف ولا فى صيف دون شتاء ولا فى نهار دون ليل ولا فى ليل دون نهار ولا يأتى فى الصبا دون الشباب ولا فى الشباب دون الصبا بل كل نفس من الانفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة فان لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ثم يفضى الى الموت فما لك لا تستعدين للموت وهو أقرب اليك من كل قريب أما تتدبرين قوله تعالى اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ويحك يا نفس ان كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك ان الله لا يراك فما أعظم كفرك وان كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك ويحك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من اخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأى جسارة تتعرضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه أفتظنين انك تطيقين عذابه هيهات هيهات جربى نفسك ان ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسى ساعة فى الشمس أو فى بيت الحمام أو قربى أصبعك من النار ليتبين لك قدر طاقتك أم تغترين بكرم الله وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك فما لك لا تعولين على كرم الله تعالى فى مهمات دنياك فاذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل فى دفعه ولا تكلينه الى كرم الله تعالى واذا أرهقتك حاجة الى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضى الا بالدينار والدرهم فما لك تنزعين الروح فى طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلم لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل

ولا يعرف سببهما ولا يخفى سبب القبض والبسط الا على قليل الحظ من العلم الذى لم يحكم علم الحال ولا علم المقام (ومن) أحكم علم الحال والمقام لا يخفى عليه سبب القبض والبسط وربما يشتبه عليه سبب القبض والبسط كما اشتبه عليه الهم بالقبض والنشاط بالبسط وانما علم ذلك لمن استقام قلبه ومن عدم القبض والبسط وارتقى منهما فنفسه مطمئنة لا تنقدح من جوهرها نار توجب القبض ولا يتلاطم بحر طبعهما من أهوية الهوى حتى يظهر منه البسط

اليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب أفتحسبين ان الله كريم في الآخرة دون الدنيا وقد عرفت ان سنة الله لا تبديل لها وان رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للانسان الا ما سعى ويحك يا نفس ما أعجب نفاقك ودعاويك الباطلة فانك تدعين الايمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك ومولاك وما من دابة في الارض الا على الله رزقها وقال في أمر الآخرة وأن ليس للانسان الا ما سعى فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعي فيها فكذبته بأفعالك وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر ووكل أمر الآخرة الى سعيك فأعرضت عنها اعراض المغرور المستحقر ما هذا من علامات الايمان لو كان الايمان باللسان فلم كان المنافقون في الدرك الاسفل من النار ويحك يا نفس كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب وتظنين انك اذا مت انفلت وتخلصت وهيهات أتحسبين انك تتركين سدى ألم تكوني نطفة من مني يمنى ثم كنت علقة فخلق فسوى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى فان كان هذا من اضمارك فما أكفرك وأجهلك أما تتفكرين انه مماذا خلقك من نطفة خلقك فقدرك ثم السبيل يسرك ثم أماتك فأقبرك أفتكذبينه في قوله ثم اذا شاء أنشرك فان لم تكوني مكذبة فما لك لا تأخذين حذرك ولو أن يهوديا أخبرك في ألذ أطعمتك بانه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه أفكان قول الانبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه المنزلة أقل عندك تأثيرا من قول يهودي يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم والعجب انه لو أخبرك طفل بان في ثوبك عقربا لرميت ثوبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان أفكان قول الانبياء والعلماء والحكماء وكافة الاولياء أقل عندك من قول صبي من جملة الاغبياء أم صار حر جهنم وأغلالها وأنكالها وزقومها ومقامعها وصديدها وسمومها وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من عقرب لا تحسين بألمها الا يوما أو أقل منه ما هذه أفعال العقلاء بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك فان كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فما لك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد ولعله يختطفك من غير مهلة فبماذا أمنت استعجال الاجل وهبك انك وعدت بالامهال مائة سنة أفتظنين أن من يطعم الدابة في حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها ان ظننت ذلك فما أعظم جهالك أرأيت لو سافر رجل ليتفقه في الغربة فأقام فيها سنين متعطلا بطالا يعد نفسه بالتفقه في السنة الاخيرة عند رجوعه الى وطنه هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدة قريبة أو حسبانه ان مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعتمادا على كرم الله سبحانه ثم هبي ان الجهد في آخر العمر نافع وانه موصل الى الدرجات العلا فلعل اليوم آخر عمرك فلم لا تشتغلين فيه بذلك فان أوحي اليك بالامهال فما المانع من المبادرة وما الباعث لك على التسويف هل له سبب الا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة أفتنتظرين يوما يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه فلا تكون الجنة قط الا محفوفة بالمكاره ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس وهذا محال وجوده أما تتأملين منذ كم تعدين نفسك وتقولين غدا غدا فقد جاء الغد وصار يوما فكيف وجدته أما علمت ان الغد الذي جاء وصار يوما كان له حكم الامس لا بل ما تعجزين عنه اليوم فانت غدا عنه أعجز وأعجز لان الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبد العبد بقلعها فاذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوي فأخرها الى سنة أخرى مع العلم بان طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخا ويزيد القالع ضعفا ووهنا فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في المشيب بل من العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذيب والقضيب الرطب يقبل الانحناء فاذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك فاذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الامور الجلية وتركنين الى التسويف فما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ولعلك تقولين ما يمنعني عن الاستقامة الا حرصي على لذة الشهوات وقلة صبري على الآلام والمشقات فما أشد غباوتك وأقبح اعتذارك ان كنت صادقة في ذلك فاطلبي التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد ولا مطمع في ذلك الا في الجنة فان كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها فرب أكلة تمنع أكلات وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويتهنأ بشربه طول عمره وأخبره انه ان شرب ذلك مرض مرضا مزمنا وامتنع عليه شربه طول العمر فما مقتضى

وربما صار لمثل هذا القبض والبسط في نفسه لا من نفسه فتكون نفسه المطمئنة بطبع القلب فيجري القبض والبسط في نفسه المطمئنة وما للقلب قبض ولا بسط لان القلب متحصن بشعاع نور الروح مستقر في دعة القرب فلا قبض ولا بسط

(ومنها الفناء والبقاء)

قد قيل الفناء أن يفنى عن الحظوظ فلا يكون له في شيء حظ بل يفنى عن الاشياء كلها شغلا بمن فني فيه وقد قال عامر بن عبد الله لا أبالي امرأة رأيت أم حائطا ويكون محفوظا فيما لله عليه

العقل فى قضاء حق الشهوة أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر أم يقضى شهوته فى الحال خوفا من ألم المخالفة ثلاثة أيام حتى يلزمه ألم المخالفة ثلثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم وجميع عمرك بالاضافة الى الابد الذى هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالاضافة الى جميع العمر وان طالت مدته وليت شعرى ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار فى دركات جهنم فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك الا لكفر خفى أو لحمق جلى اما الكفر الخفى فهو ضعف ايمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب وأما الحمق الجلى فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات الى مكره واستدراجه واستغنائه عن عبادتك مع انك لا تعتمدين على كرمه فى لقمة من الخبز أو حبة من المال أو كلمة واحدة تسمعينها من الخلق بل تتوصلين الى غرضك فى ذلك بجميع الحيل وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الامانى ويحك يا نفس لا ينبغى أن تغرك الحياة الدنيا ولا يغرنك بالله الغرور فانظرى لنفسك فما أمرك بمهم لغيرك ولا تضيعى أوقاتك فالانفاس معدودة فاذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك فاغتنمى الصحة قبل السقم والفراغ قبل الشغل والغنى قبل الفقر والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت واستعدى للآخرة على قدر بقائك فيها يا نفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الاسباب ولا تتكلين فى ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك فانه قادر على ذلك أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف بردا وأقصر مدة من زمهرير الشتاء أم تظنين أن ذلك دون هذا كلا أن يكون هذا كذلك أو أن يكون بينهما مناسبة فى الشدة والبرودة أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعى هيهات كما لا يندفع برد الشتاء الا بالجبة والنار وسائر الاسباب فلا يندفع حر النار وبردها الا بحصن التوحيد وخندق الطاعات وانما كرم الله تعالى فى أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لا فى أن يندفع عنك العذاب دون حصنه كما أن كرم الله تعالى فى دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى تدفعى بها برد الشتاء عن نفسك وكما أن شراء الحطب والجبة مما يستغنى عنه خالقك ومولاك وانما تشترينه لنفسك اذ خلقه سببا لاستراحتك فطاعاتك ومجاهداتك أيضا هو مستغن عنها وانما هى طريقك الى نجاتك فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها والله غنى عن العالمين ويحك يا نفس انزعى عن جهلك وقيسى آخرتك بدنياك ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة وكما بدأنا أول خلق نعيده وكما بدأكم تعودون وسنة الله تعالى لا تجدين لها تبديلا ولا تحويلا ويحك يا نفس ما أراك الا ألفت الدنيا وأنست بها فعسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مفارقتها وتؤكدين فى نفسك مودتها فاحسبى أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك افترين ان من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فمد بصره الى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ثم يضطر لا محالة الى مفارقته أهو معدود من العقلاء أم من الحمقى أما تعلمين ان الدنيا دار ملك الملوك وما لك فيها الا مجاز وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ولذلك قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم ان روح القدس نفث فى روعى أحبب من أحببت فانك مفارقه واعمل ما شئت فانك مجزى به وعش ما شئت فانك ميت ويحك يا نفس أما تعلمين أن كل من يلتفت الى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع ان الموت من ورائه فانما يستكثر من الحسرة عند المفارقة وانما يتزود من السم المهلك وهو لا يدرى أو ما تنظرين الى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم اما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون ويبنون ما لا يسكنون ويؤملون ما لا يدركون يبنى كل واحد قصرا مرفوعا الى جهة السماء ومقره قبر محفور تحت الارض فهل فى الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا ويخرب آخرته وهو صائر اليها قطعا أما تستحيين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم واحسبى أنك لست ذات بصيرة تهتدى الى هذه الامور وانما تميلين بالطبع الى التشبه والاقتداء فقيسى عقل الانبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المكبين على الدنيا

مصروفا عن جميع المخالفات والبقاء يعقبه وهو أن يفنى عما له ويبقى بما لله تعالى (وقيل) الباقى أن يصير الاشياء كلها له شيأ واحدا فيكون كل حركاته فى موافقة الحق دون مخالفته فكان فانيا عن المخالفات باقيا فى الموافقات (وعندى) أن هذا الذى ذكره هذا القائل هو مقام صحة التوبة النصوح وليس من الفناء والبقاء فى شئ ومن الاشارة الى الفناء ماروى عن عبد الله بن عمر أنه سلم عليه انسان وهو فى الطواف فلم يرد عليه فشكاه الى بعض أصحابه فقال له كنا نتراءى

واقتدى من الفريقين من هو أعقل عندك ان كنت تعتقدين فى نفسك العقل والذكاء يا نفس ما أعجب أمرك وأشد جهلك وأظهر طغيانك عجبا لك كيف تعمين عن هذه الامور الواضحة الجلية ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها أوما تتفكرين ان الجاه لا معنى له الا ميل القلوب من بعض الناس اليك فاحسبي ان كل من على وجه الارض سجد لك وأطاعك أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد من على وجه الارض ممن عبدك وسجد لك وسيأتى زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة ان بقى هذا ان كنت ملكا من ملوك الارض سلم لك الشرق والغرب حتى أذعنت لك الرقاب وانتظمت لك الاسباب كيف ويأبى ادبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلا عن محلتك فان كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة فى الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك فمالك لا تتركينها ترفعا عن خسة شركائها او تنزها عن كثرة عنائها او توقيا من سرعة فنائها أم مالك لا تزهدين فى قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها ومالك تفرحين بدنيا ان ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها او يزيدون عليك فى نعيمها وزينتها فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الاخساء فما أجهلك وأخس همتك وأسقط رأيك اذ رغبت عن ان تكونى فى زمرة المقربين من النبيين والصديقين فى جوار رب العالمين أبد الآبدين لتكونى فى صف النعال من جملة الحمقى الجاهلين أياما قلائل فياحسرة عليك اذ خسرت الدنيا والدين فبادرى ويحك يا نفس فقد أشرفت على الهلاك واقترب الموت وورد النذير فمن ذا يصلي عنك بعد الموت ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت ويحك يا نفس مالك الا أيام معدودة هى بضاعتك ان اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة فى حق نفسك فكيف اذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك أما تعلمين يا نفس ان الموت موعدك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود أنيسك والفزع الاكبر بين يديك أما علمت يا نفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالايمان المغلظة أنهم لا يبرحون من مكانهم مالم يأخذوك معهم أما تعلمين يا نفس انهم يتمنون الرجعة الى الدنيا يوما ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم وأنت فى أمنيتهم ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه وأنت تضيعين أيامك فى الغفلة والبطالة ويحك يا نفس أما تستحيين تزينين ظاهرك للخلق وتبارزين الله فى السر بالعظائم أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق ويحك أهو أهون الناظرين عليك أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل تدعين الى الله وأنت عنه فارة وتذكرين بالله وأنت له ناسية أما تعلمين يا نفس ان المذنب انتن من العذرة وان العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمعين فى تطهير غيرك وأنت غير طيبة فى نفسك ويحك يا نفس لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء الا بشؤمك ويحك يا نفس قد جعلت نفسك حمارا لابليس يقودك الى حيث يريد ويسخر بك ومع هذا فتعجبين بعملك وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأسا برأس لكان الربح فى يديك وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك وقد لعن الله ابليس بخطيئة واحدة بعد ان عبده مائتى ألف سنة وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه ويحك يا نفس ما أغدرك ويحك يا نفس ما أوقحك ويحك يا نفس ما أجهلك وما أجرأك على المعاصى ويحك كم تعقدين فتنقضين ويحك كم تعهدين فتغدرين ويحك يا نفس أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها أما تنظرين الى أهل القبور كيف كانوا جمعوا كثيرا وبنوا مشيدا وأملوا بعيدا فأصبح جمعهم بورا وبنيانهم قبورا وأملهم غرورا ويحك يا نفس أما لك بهم عبرة أما لك اليهم نظرة أتظنين انهم دعوا الى الآخرة وأنت من المخلدين هيهات هيهات ساء ما تتوهمين ما أنت الا فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فابنى على وجه الارض قصرك فان بطنها عن قليل يكون قبرك أما تخافين اذا بلغت النفس منك التراقى ان تبدو رسل ربك منحدرة اليك بسواد الالوان وكلح الوجوه وبشرى بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البكاء والعجب كل العجب منك يا نفس انك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزنين

بنقصان

الله فى ذلك المكان (وقيل) الفناء هو الغيبة عن الاشياء كما كان فناء موسى حين تجلى ربه للجبل (وقال الخراز) الفناء هو التلاشى بالحق والبقاء هو الحضور مع الحق (وقال) الجنيد الفناء استعجام الكل عن أوصافك واشتغال الكل منك بكليته وقال ابراهيم بن شيبان علم الفناء والبقاء يدور على اخلاص الوحدانية وصحة العبودية وما كان غير هذا فهو من المغاليط والزندقة (وسئل) الخراز ما علامة الفانى قال علامة من ادعى الفناء ذهاب حظه من

بنقصان عمرك وما نفع مال يزيد وعمر ينقص ويحك يا نفس تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك فكم من مستقبل يوما لا يستكمله وكم من مؤمل لغد لا يبلغه فانت تشاهدين ذلك في اخوانك وأقاربك وجيرانك فترين تحسرهم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك فاحذري أيتها النفس المسكينة يوما آلى الله فيه على نفسه ان لا يترك عبدا أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله سره وعلانيته فانظري يا نفس بأي بدن تقفين بين يدي الله وبأي لسان تجيبين وأعدي للسؤال جوابا وللجواب صوابا واعملي بقية عمرك في أيام قصار لايام طوال وفي دار زوال لدار مقامة وفي دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود اعملي قبل ان لا تعملي اخرجي من الدنيا اختيارا خروج الاحرار قبل ان تخرجي منها على الاضطرار ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا فرب مسرور مغبون ورب مغبون لا يشعر فويل لمن له الويل ثم لا يشعر يضحك ويفرح ويلهو ويمرح ويأكل ويشرب وقد حق له في كتاب الله انه من وقود النار فليكن نظرك يا نفس الى الدنيا اعتبارا وسعيك لها اضطرارا ورفضك لها اختيارا وطلبك للآخرة ابتدارا ولا تكوني ممن يعجز عن شكر ما أوتي ويبتغي الزيادة فيما بقي وينهى الناس ولا ينتهي واعلمي يا نفس انه ليس للدين عوض ولا للايمان بدل ولا للجسد خلف ومن كانت مطيته الليل والنهار فانه يسار به وان لم يسر فاتعظي يا نفس بهذه الموعظة واقبلي هذه النصيحة فان من أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار وما أراك بها راضية ولا لهذه الموعظة واعية فان كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعيني عليها بدوام التهجد والقيام فان لم تزل فبالمواظبة على الصيام فان لم تزل فبقلة المخالطة والكلام فان لم تزل فبصلة الارحام واللطف بالايتام فان لم تزل فاعلمي ان الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه وانه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه فوطني نفسك على النار فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا فكل ميسر لما خلق له فان لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطي من نفسك والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك فلا سبيل لك الى القنوط ولا سبيل لك الى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فان ذلك اغترار وليس برجاء فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فان سمحت فمستقى الدمع من بحر الرحمة فقد بقي فيك موضع للرجاء فواظبي على النياحة والبكاء واستغيثي بأرحم الراحمين واشتكي الى أكرم الاكرمين وأدمني الاستغاثة ولا تملي طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك يغيثك فان مصيبتك قد عظمت وبليتك قد تفاقمت وتماديك قد طال وقد انقطعت منك الحيل وراحت عنك العلل فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجا الا الى مولاك فافزعي اليه بالتضرع واخشعي في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك لانه يرحم المتضرع الذليل ويغيث الطالب المتلهف ويجيب دعوة المضطر وقد أصبحت اليه اليوم مضطرة والى رحمته محتاجة وقد ضاقت بك السبل وانسدت عليك الطرق وانقطعت منك الحيل ولم تنجع فيك العظات ولم يكسرك التوبيخ فالمطلوب منه كريم والمسؤول جواد والمستغاث به برؤوف والرحمة واسعة والكرم فائض والعفو شامل وقولي يا أرحم الراحمين يا رحمن يا رحيم يا حليم يا عظيم يا كريم أنا المذنب المصر أنا الجريء الذي لا أقلع أنا المتمادي الذي لا أستحي هذا مقام المتضرع المسكين والبائس الفقير والضعيف الحقير والهالك الغريب فعجل اغاثتي وفرجي وأرني آثار رحمتك وأذقني برد عفوك ومغفرتك وارزقني قوة عصمتك يا أرحم الراحمين اقتداء بأبيك آدم عليه السلام فقد قال وهب بن منبه لما أهبط الله آدم من الجنة الى الارض مكث لا ترقأ له دمعة فاطلع الله عز وجل عليه في اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكس رأسه فأوحى الله تعالى اليه يا آدم ما هذا الجهد الذي أرى بك قال يا رب عظمت مصيبتي وأحاطت بي خطيئتي وأخرجت من ملكوت ربي فصرت في دار الهوان بعد الكرامة وفي دار الشقاء بعد السعادة وفي دار النصب بعد الراحة وفي دار البلاء بعد العافية وفي دار الزوال بعد القرار وفي دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء فكيف لا أبكي على خطيئتي فأوحى الله تعالى اليه يا آدم ألم اصطفك لنفسي واحللتك داري وخصصتك بكرامتي وحذرتك سخطي ألم أخلقك بيدي ونفخت فيك من روحي وأسجدت لك ملائكتي فعصيت أمري ونسيت عهدي وتعرضت لسخطي فوعزتي وجلالي لو ملأت الارض رجالا كلهم مثلك يعبدونني ويسبحونني ثم عصوني لانزلتهم منازل العاصين فبكى آدم عليه السلام

الدنيا والآخرة الا من الله تعالى (وقال أبو سعيد الخراز) أهل الفناء في الفناء محنتهم ان يصحبهم علم البقاء وأهل البقاء في البقاء محنتهم ان يصحبهم علم الفناء * واعلم ان أقاويل الشيوخ في الفناء والبقاء كثيرة فبعضها اشارة الى فناء المخالفات وبقاء الموافقات وهذا تقتضيه التوبة النصوح فهو ثابت بوصف التوبة وبعضها يشير الى زوال الرغبة والحرص والامل وهذا يقتضيه الزهد وبعضها اشارة الى فناء الاوصاف المذمومة وبقاء

عندذلك ثلثمائة عام وكان عبيد الله البجلي كثير البكاء يقول في بكائه طول ليله الهي أنا الذي كلما طال عمري زادت ذنوبي أنا الذي كلما هممت بترك خطيئة عرضت لي شهوة أخرى واعبيداه خطيئة لم تبل وصاحبها في طلب أخرى واعبيداه ان كانت النار لك مقيلا ومأوى واعبيداه ان كانت المقامع لرأسك تهيأ واعبيداه قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى وقال منصور بن عمار سمعت في بعض الليالي بالكوفة عابدا يناجي ربه وهو يقول يارب وعزتك ما أردت بمعصيتك مخالفتك ولا عصيتك اذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا للعقوبتك متعرض ولا لنظرك مستخف ولكن سولت لي نفسي وأعانني على ذلك شقوتي وغرني سترك المرخى علي فعصيتك بجهلي وخالفتك بفعلي فمن عذابك الآن من يستنقذني أو بحبل من أعتصم ان قطعت حبلك عني واسوأتاه من الوقوف بين يديك غدا اذا قيل للمخفين جوزوا وقيل للمثقلين حطوا أمع المخفين أجوز أم مع المثقلين أحط ويلي كلما كبرسني كثرت ذنوبي ويلي كلما طال عمري كثرت معاصي فالي متى أتوب والي متى أعود أما آن لي أن أستحي من ربي فهذه طرق القوم في مناجاة مولاهم وفي معاتبة نفوسهم وانما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترعاء فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعيا ويوشك أن لا يكون الله تعالى عنه راضيا والسلام تم كتاب المحاسبة والمراقبة يتلوه كتاب التفكر ان شاء الله تعالى والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه

(كتاب التفكر وهو الكتاب التاسع من ربع المنجيات من كتب احياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي لم يقدر لانتهاء عزته نحوا ولا قطرا ولم يجعل لمراقي أقدام الاوهام ومرامي سهام الافهام الى حمى عظمته مجرى بل ترك قلوب الطالبين في بيداء كبريائه والهة حيرى كلما اهتزت لنيل مطلوبها ردتها سبحات الجلال قسرا واذا همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبرا صبرا ثم قيل لها أجيلي في ذل العبودية منك فكرا لانك لو تفكرت في جلال الربوبية لم تقدري له قدرا وان طلبت وراء الفكر في صفاتك أمرا فانظري في نعم الله تعالى وأياديه كيف توالت عليك تترى وجددي لكل نعمة منها ذكرا وشكرا وتأملي في بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيرا وشرا ونفعا وضرا وعسرا ويسرا وفوزا وخسرا وجبرا وكسرا وطيا ونشرا وايمانا وكفرا وعرفانا ونكرا فان جاوزت النظر في الافعال الى النظر في الذات فقد حاولت أمرا امرا وخاطرت بنفسك مجاوزة حد طاقة البشر ظلما وجورا فقد انبهرت العقول دون مبادي اشراقه وانتكصت على أعقابها اضطرارا وقهرا والصلاة على محمد سيد ولد آدم وان كان لم يعد سيادته فخرا صلاة تبقى لنا في عرصات القيامة عدة وذخرا وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم في سماء الدين بدرا ولطوائف المسلمين صدرا وسلم تسليما كثيرا (أما بعد) فقد وردت السنة بان تفكر ساعة خير من عبادة سنة وكثر الحث في كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الانوار ومبدأ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره ومورده ومجراه ومسرحه وطريقه وكيفيته ولم يعلم أنه كيف يتفكر وفيماذا يتفكر ولماذا يتفكر وما الذي يطلب به أهو مراد لعينه أم لثمرة تستفاد منه فان كان لثمرة فما تلك الثمرة أهي من العلوم أو من الاحوال أو منهما جميعا وكشف جميع ذلك مهم ونحن نذكر أولا فضيلة التفكر ثم حقيقة التفكر وثمرته ثم مجاري الفكر ومسارحه ان شاء الله تعالى

(فضيلة التفكر)

قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالى الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما ان قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال مالكم لا تتكلمون فقالوا نتفكر في خلق الله عز وجل قال فكذلك فافعلوا تفكروا في خلقه ولا تتفكروا فيه فان بهذا المغرب أرضا بيضاء نورها بياضها أو بياضها نورها مسيرة الشمس أربعين يوما بها خلق من خلق الله

الاوصاف المحمودة وهذا يقتضيه تزكية النفس وبعضها اشارة الى حقيقة الفناء المطلق وكل هذه الاشارات فيها معنى الفناء من وجه ولكن الفناء المطلق هو ما يستولي من أمر الحق سبحانه وتعالى على العبد فيغلب كون الحق سبحانه وتعالى على كون العبد وهو ينقسم الى فناء ظاهر وفناء باطن فاما الفناء الظاهر فهو ان يتجلى الحق سبحانه وتعالى بطريق الافعال ويسلب عن العبد اختياره وارادته فلا يرى لنفسه ولا لغيره فعلا الا بالحق ثم يأخذ

عزو جل لم يعصوا الله طرفة عين قالوا يارسول الله فاين الشيطان منهم قال مايدرون خلق الشيطان أم لا قالوا من
ولد آدم قال لايدرون خلق آدم أم لا وعن عطاء قال انطلقت يوما أنا وعبيد بن عمير الى عائشة رضي الله عنها
فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت ياعبيد ما يمنعك من زيارتنا قال قول رسول الله صلى الله عليه وسلم زرغبا تزدد
حبا قال ابن عمير فاخبرينا بأعجب شئ رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فبكت وقالت كل أمره كان عجبا
أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال ذريني أتعبد لربي عز وجل فقام الى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلي
فبكى حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الارض ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال يارسول
الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله تعالى
علي في هذه الليلة ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب ثم قال ويل لمن
قرأها ولم يتفكر فيها فقيل للاوزاعي ما غاية التفكر فيهن قال يقرؤهن ويعقلهن وعن محمد بن واسع أن رجلا
من أهل البصرة ركب الى أم ذر بعد موت أبي ذر فسألها عن عبادة أبي ذر فقالت كان نهاره أجمع في ناحية البيت
يتفكر وعن الحسن قال تفكر ساعة خير من قيام ليلة وعن الفضيل قال الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك
وقيل لابراهيم انك تطيل الفكرة فقال الفكرة مخ العقل وكان سفيان بن عيينة كثيرا ما يتمثل بقول القائل

اذا المرء كانت له فكرة * ففي كل شئ له عبرة

وعن طاوس قال قال الحواريون لعيسى ابن مريم ياروح الله هل على الارض اليوم مثلك فقال نعم من كان منطقه
ذكرا وصمته فكرا ونظره عبرة فانه مثلي وقال الحسن من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ومن لم يكن سكوته تفكرا
فهو سهو ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو وفي قوله تعالى سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير
الحق قال أمنع قلوبهم التفكر في أمري وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطوا
أعينكم حظها من العبادة فقالوا يارسول الله وما حظها من العبادة قال النظر في المصحف والتفكر فيه والاعتبار
عند عجائبه وعن امرأة كانت تسكن البادية قريبا من مكة أنها قالت لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها الى ما قد
ادخر لها في حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ولم تقر لهم في الدنيا عين وكان لقمان يطيل
الجلوس وحده فكان يمر به مولاه فيقول يالقمان انك تديم الجلوس وحدك فلو جلست مع الناس كان آنس
لك فيقول لقمان ان طول الوحدة أفهم للفكر وطول الفكر دليل على طريق الجنة وقال وهب بن منبه
ما طالت فكرة امرئ قط الا علم وما علم امرؤ قط الا عمل وقال عمر بن عبد العزيز الفكرة في نعم الله عز وجل من
أفضل العبادة وقال عبد الله بن المبارك يوما لسهل بن علي ورآه ساكتا متفكرا أين بلغت قال الصراط وقال بشر لو
تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل وعن ابن عباس ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة
بلا قلب وبينا أبو شريح يمشي اذ جلس فتقنع بكسائه فجعل يبكي فقيل له ما يبكيك قال تفكرت في ذهاب عمري
وقلة عملي واقتراب أجلي وقال أبو سليمان عودوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكر وقال أبو سليمان الفكر في الدنيا
حجاب عن الآخرة وعقوبة لاهل الولاية والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلوب وقال حاتم من العبرة
يزيد العلم ومن الذكر يزيد الحب ومن التفكر يزيد الخوف وقال ابن عباس التفكر في الخير يدعو الى العمل
به والندم على الشر يدعو الى تركه ويروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه اني لست أقبل كلام كل حكيم
ولكن أنظر الى همه وهواه فاذا كان همه وهواه لي جعلت صمته تفكرا وكلامه حمدا وان لم يتكلم وقال الحسن
ان أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت
بالحكمة وقال اسحاق بن خلف كان داود الطائي رحمه الله تعالى على سطح في ليلة قمراء فتفكر في ملكوت السموات
والارض وهو ينظر الى السماء ويبكي حتى وقع في دار جار له قال فوثب صاحب الدار من فراشه عريانا وبيده سيف
وظن أنه لص فلما نظر الى داود رجع ووضع السيف وقال من ذا الذي طرحك من السطح قال ما شعرت بذلك
وقال الجنيد أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتنسم بنسيم المعرفة والشرب
بكأس المحبة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن لله عز وجل ثم قال يالها من مجالس ما أجلها ومن شراب ما ألذه

في المعاملة مع الله تعالى
بحسبه حتى سمعت أن
بعض من أقيم في هذا
المقام من الفناء كان
يبقى أياما لا يتناول
الطعام والشراب حتى
يتجرد له فعل الحق فيه
ويقيض الله تعالى له
من يطعمه ويسقيه
كيف شاء وأحب وهذا
لعمري فناء لانه فني
عن نفسه وعن الغير
نظرا الى فعل الله تعالى
بفناء فعل غير الله
والفناء الباطن أن
يكاشف تارة بالصفات
وتارة بمشاهدة آثار
عظمة الذات فيستولي
على باطنه أمر الحق
حتى لا يبقى له هاجس

طوبى لمن رزقه وقال الشافعي رحمه الله تعالى استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر وقال أيضا صحة النظر في الامور نجاة من الغرور والعزم في الرأي سلامة من التفريط والندم والروية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة ففكر قبل أن تعزم وتدبر قبل أن تهجم وشاور قبل أن تقدم وقال أيضا الفضائل أربع احداها الحكمة وقوامها الفكرة والثانية العفة وقوامها في الشهوة والثالثة القوة وقوامها في الغضب والرابعة العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس فهذه أقاويل العلماء في الفكرة وماشرع أحد منهم في ذكر حقيقتها وبيان مجاريها

(بيان حقيقة الفكر وثمرته)

اعلم أن معنى الفكر هو احضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة ومثاله أن من مال الى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالايثار من العاجلة فله طريقان أحدهما أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالايثار من الدنيا فيقلده ويصدقه من غير بصيرة بحقيقة الامر فيميل بعمله الى ايثار الآخرة اعتمادا على مجرد قوله وهذا يسمى تقليدا ولا يسمى معرفة والطريق الثاني أن يعرف أن الابقى أولى بالايثار ثم يعرف أن الآخرة أبقى فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالايثار ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالايثار الا بالمعرفتين السابقتين فاحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به الى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا واعتبارا وتذكرا ونظرا وتأملا وتدبرا أما التدبر والتأمل والتفكر فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة وأما اسم التذكر والاعتبار والنظر فهي مختلفة المعاني وان كان أصل المسمى واحدا كما أن اسم الصارم والمهند والسيف يتوارد على شئ واحد ولكن باعتبارات مختلفة فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع والمهند يدل عليه من حيث نسبته الى موضعه والسيف يدل دلالة مطلقة من غير اشعار بهذه الزوائد فكذلك الاعتبار ينطلق على احضار المعرفتين من حيث انه يعبر منهما الى معرفة ثالثة وان لم يقع العبور ولم يمكن الا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم التذكر لا اسم الاعتبار وأما النظر والتفكر فيقع عليه من حيث ان فيه طلب معرفة ثالثة فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظرا فكل متفكر فهو متذكر وليس كل متذكر امتفكر وفائدة التذكار تكرار المعارف على القلب لترسخ ولا تنمحي عن القلب وفائدة التفكر تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر والمعارف اذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى فالمعرفة نتاج المعرفة فاذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر وهكذا يتمادى النتاج وتتمادى العلوم ويتمادى الفكر الى غير نهاية وانما تنسد طريق زيادة المعارف بالموت أو بالعوائق هذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدي الى طريق التفكر وأما أكثر الناس فانما منعوا الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال وهو المعارف التي بها تستثمر العلوم كالذي لا بضاعة له فانه لا يقدر على الربح وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيأ فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ولكن ليس يحسن استعمالها وتأليفها وايقاع الازدواج المفضي الى النتاج فيها ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور الهي في القلب يحصل بالفطرة كما كان للانبياء صلوات الله عليهم أجمعين وذلك عزيز جدا وقد تكون بالتعلم والممارسة وهو الاكثر ثم المتفكر قد تحضره هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها ولا يقدر على التعبير عنها لقلة ممارسته لصناعة التعبير في الايراد فكم من انسان يعلم أن الآخرة أولى بالايثار علما حقيقيا ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على ايراده والتعبير عنه مع أنه لم تحصل معرفته الا عن المعرفتين السابقتين وهو أن الابقى أولى بالايثار وان الآخرة أبقى من الدنيا فتحصل له معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالايثار فرجع حاصل حقيقة التفكر الى احضار معرفتين للتوصل بهما الى معرفة ثالثة وأما ثمرة الفكر فهي العلوم والاحوال والاعمال ولكن ثمرته الخاصة العلم لا غير نعم اذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب واذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح فالعمل تابع الحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر فالفكر اذا هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها وهذا هو الذي يكشف لك عن فضيلة التفكر وانه خير من الذكر والتذكر لان الفكر ذكر وزيادة وذكر القلب

ولا وسواس وليس من ضرورة الفناء أن يغيب احساسه وقد يتفق غيبة الاحساس لبعض الاشخاص وليس ذلك من ضرورة الفناء على الاطلاق وقد سألت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصري وقلت له هل يكون بقاء المتخيلات في السر ووجود الوسواس من الشرك الخفي وكان عندي أن ذلك من الشرك الخفي فقال لي هذا يكون في مقام الفناء ولم يذكر أنه هل هو من الشرك الخفي أم لا ثم ذكر حكاية مسلم بن يسار أنه كان في الصلاة فوقعت اسطوانة

خير من عمل الجوارح بل شرف العمل لما فيه من الذكر فاذا التفكر أفضل من جملة الاعمال ولذلك قيل تفكر ساعة خير من عبادة سنة فقيل هو الذى ينقل من المكاره الى المحاب ومن الرغبة والحرص الى الزهد والقناعة وقيل هو الذى يحدث مشاهدة وتقوى ولذلك قال تعالى لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا وان أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فمثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة فان الفكر فيه يعرفنا أن الآخرة أولى بالايثار فاذا رسخت هذه المعرفة يقينا فى قلوبنا تغيرت القلوب الى الرغبة فى الآخرة والزهد فى الدنيا وهذا ما عنيناه بالحال اذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل اليها والنفرة عن الآخرة وقلة الرغبة فيها وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت ارادته ورغبته ثم أثمر تغير الارادة أعمال الجوارح فى اطراح الدنيا والاقبال على أعمال الآخرة فههنا خمس درجات أولاها التذكر وهو احضار المعرفتين فى القلب وثانيتها التفكر وهو طلب المعرفة المقصودة منهما والثالثة حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها والرابعة تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة والخامسة خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدد له من الحال فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضىء بها الموضع فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة وتنتهض الاعضاء للعمل فكذلك زناد نور المعرفة هو الفكر فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر والحديد ويؤلف بينهما تأليفا مخصوصا كما يضرب الحجر على الحديد ضربا مخصوصا فينبعث نور المعرفة كما تنبعث النار من الحديد ويتغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل الى ما لم يكن يميل اليه كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه ثم تنتهض الاعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما ينتهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند ادراك البصر ما لم يكن يبصره فاذا ثمرة الفكر العلوم والاحوال والعلوم لا نهاية لها والاحوال التى تتصور أن تنقلب على القلب لا يمكن حصرها ولهذا لو أراد مريد أن يحصر فنون الفكر ومجاريه وأنه فيماذا يتفكر لم يقدر عليه لان مجارى الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية نعم نحن نجتهد فى ضبط مجاريه بالاضافة الى مهمات العلوم الدينية وبالاضافة الى الاحوال التى هى مقامات السالكين ويكون ذلك ضبطا جليا فان تفصيل ذلك يستدعى شرح العلوم كلها وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها فانها مشتملة على علوم تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة فلنشر الى ضبط الجامع فيها ليحصل الوقوف على مجارى الفكر

(بيان مجارى الفكر)

إعلم أن الفكر قد يجرى فى أمر يتعلق بالدين وقد يجرى فيما يتعلق بغير الدين وانما غرضنا ما يتعلق بالدين فلنترك القسم الآخر ونعنى بالدين المعاملة التى بين العبد وبين الرب تعالى فجميع أفكار العبد اما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله واما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله لا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين وما يتعلق بالعبد اما أن يكون نظرا فيما هو محبوب عند الرب تعالى أو فيما هو مكروه ولا حاجة الى الفكر فى غير هذين القسمين وما يتعلق بالرب تعالى اما أن يكون نظرا فى ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى واما أن يكون فى أفعاله وملكه وملكوته وجميع ما فى السموات والارض وما بينهما وينكشف لك انحصار الفكر فى هذه الاقسام بمثال وهو ان حال السائرين الى الله تعالى والمشتاقين الى لقائه يضاهى حال العشاق فلنتخذ العاشق المستهتر مثالا فنقول العاشق المستغرق الهم بعشقه لا يعدو فكره من ان يتعلق بمعشوقه أو يتعلق بنفسه فان تفكر فى معشوقه فاما ان يتفكر فى جماله وحسن صورته فى ذاته ليتنعم بالفكر فيه وبمشاهدته واما أن يتفكر فى أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مضعفا للذته ومقويا لمحبته وان تفكر فى نفسه فيكون فكره فى صفاته التى تسقطه من عين محبوبه حتى يتنزه عنها أو فى الصفات التى تقربه منه وتحببه اليه حتى يتصف بها فان تفكر فى شئ خارج عن هذه الاقسام فذلك خارج عن حد العشق وهو نقصان فيه لان العشق التام الكامل ما يستغرق العاشق ويستوفى القلب حتى لا يترك فيه متسعا لغيره فمحب الله تعالى ينبغى أن يكون كذلك فلا يعدو نظره وتفكره محبوبه ومهما كان تفكره محصورا فى هذه الاقسام الاربعة لم يكن خارجا عن مقتضى المحبة أصلا فلنبدأ بالقسم الاول وهو تفكره فى صفات نفسه وأفعال نفسه ليميز المحبوب منها عن المكروه فان هذا الفكر هو الذى يتعلق بعلم المعاملة الذى هو المقصود بهذا الكتاب وأما القسم الآخر فيتعلق بعلم المكاشفة ثم

فى الجامع فانزعج لهدتها أهل السوق فدخلوا المسجد فرأوه فى الصلاة ولم يحس بالاسطوانة ووقوعها فهذا هو الاستغراق والفناء باطنا ثم قد يتسع وعاؤه حتى لعله يكون متحققا بالفناء ومعناه روحا وقلبا ولا يغيب عن كل ما يجرى عليه من قول وفعل. ويكون من أقسام الفناء أن يكون فى كل فعل وقول مرجعه الى الله وينتظر الاذن فى كليات أموره ليكون فى الاشياء بالله لا بنفسه فتارك الاختيار منتظر لفعل الحق فان وصاحب الانتظار لاذن

كل واحد مما هو مكروه عند الله أو محبوب ينقسم الى ظاهر كالطاعات والمعاصي والى باطن كالصفات المنجيات
والمهلكات التي محلها القلب وذكرنا تفصيلها في ربع المهلكات والمنجيات والطاعات والمعاصي تنقسم الى
ما يتعلق بالاعضاء السبعة والى ما ينسب الى جميع البدن كالفرار من الزحف وعقوق الوالدين والسكون في
المسكن الحرام ويجب في كل واحد من المكاره التفكر في ثلاثة أمور الاول التفكر في أنه هل هو مكروه عند الله
أم لا فرب شيء لا يظهر كونه مكروها بل يدرك بدقيق النظر والثاني التفكر في أنه ان كان مكروها فما طريق
الاحتراز عنه والثالث ان هذا المكروه هل هو متصف به في الحال فيتركه أو هو متعرض له في الاستقبال فيحترز عنه
أو قارفه فيما مضى من الاحوال فيحتاج الى تداركه وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم الى هذه الانقسامات
فاذا جمعت هذه الاقسام زادت مجاري الفكر في هذه الاقسام على مائة والعبد مدفوع الى الفكر اما في جميعها
أو في أكثرها وشرح آحاد هذه الانقسامات يطول ولكن انحصر هذا القسم في أربعة أنواع الطاعات والمعاصي
والصفات المهلكات والصفات المنجيات فلنذكر في كل نوع مثالا ليقيس به المريد سائرها وينفتح له باب الفكر
ويتسع عليه طريقه *(النوع الاول المعاصي)* ينبغي أن يفتش الانسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه
السبعة تفصيلا ثم بدنه على الجملة هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها أو لابسها بالامس فيتداركها بالترك
والندم أو هو متعرض لها في نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها فينظر في اللسان ويقول انه متعرض للغيبة
والكذب وتزكية النفس والاستهزاء بالغير والمماراة والممازحة والخوض فيما لا يعني الى غير ذلك من المكاره
فيقرر أولا في نفسه انها مكروهة عند الله تعالى ويتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها ثم
يتفكر في أحواله انه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر ثم يتفكر انه كيف يحترز منه ويعلم انه لا يتم له ذلك الا
بالعزلة والانفراد أو بان لا يجالس الا صالحا تقيا ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله والا فيضع حجرا في فيه اذا
جالس غيره حتى يكون ذلك مذكرا له فهكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز ويتفكر في سمعه انه يصغى به الى
الغيبة والكذب وفضول الكلام والى اللهو والبدعة وأن ذلك انما يسمعه من زيد ومن عمرو وانه ينبغي أن يحترز
عنه بالاعتزال أو بالنهي عن المنكر فمهما كان ذلك فيتفكر في بطنه انه انما يعصي الله تعالى فيه بالاكل والشرب
اما بكثرة الاكل من الحلال فان ذلك مكروه عند الله ومقو للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدو الله واما بأكل
الحرام أو الشبهة فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه وما مكسبه ويتفكر في طريق الحلال
ومداخله ثم يتفكر في طريق الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام ويقرر على نفسه ان العبادات كلها
ضائعة مع أكل الحرام وان أكل الحلال هو أساس العبادات كلها وان الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه
درهم حرام كما ورد الخبر به فهكذا يتفكر في أعضائه ففي هذا القدر كفاية عن الاستقصاء فمهما حصل بالتفكر
حقيقة المعرفة بهذه الاحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الاعضاء عنها *(وأما النوع الثاني وهو
الطاعات)* فينظر أولا في الفرائض المكتوبة عليه انه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير
أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل ثم يرجع الى عضو عضو فيتفكر في الافعال التي تتعلق بها مما يحبه الله تعالى
فيقول مثلا ان العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والارض عبرة ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتنظر في
كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لا أفعله وأنا قادر
على أن أنظر الى فلان المطيع بعين التعظيم فادخل السرور على قلبه وأنظر الى فلان الفاسق بعين الازدراء
فازجره بذلك عن معصيته فلم لا أفعله وكذلك يقول في سمعه اني قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع حكمة وعلم
أو استماع قراءة وذكر فمالي أعطله وقد أنعم الله علي به وأودعنيه لاشكره فمالي أكفر نعمة الله فيه بتضييعه
أو تعطيله وكذلك يتفكر في اللسان ويقول اني قادر على أن أتقرب الى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد الى
قلوب أهل الصلاح وبالسؤال عن أحوال الفقراء وادخال السرور على قلب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة
وكل كلمة طيبة فانها صدقة وكذلك يتفكر في ماله فيقول أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلاني فاني مستغن عنه
ومهما احتجت اليه رزقني الله تعالى مثله وان كنت محتاجا الآن فانا الى ثواب الايثار أحوج مني الى ذلك المال

الحق في كليات أموره
راجع الى الله بباطنه
في جزئياتها فات ومن
ملكه الله تعالى اختياره
وأطلقه في التصرف
يختار كيف شاء وأراد
لا منتظرا للفعل ولا
للاذن هو باق والباقي
في مقام لا يحجبه الحق
عن الخلق ولا الخلق عن
الحق والفاني محجوب
بالحق عن الخلق والفناء
الظاهر لارباب القلوب
والاحوال والفناء
الباطن لمن أطلق عن
وثاق الاحوال وصار
بالله لا بالاحوال وخرج
من القلب فصار مع
مقلبه لا مع قلبه
*(الباب الثاني والستون

وهكذا

وهكذا يفتش عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله بل عن دوابه وغلمانه وأولاده فان كل ذلك أدواته وأسبابه ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ويتفكر فيما يرغبه في البدار الى تلك الطاعات ويتفكر في اخلاص النية فيها ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله وقس على هذا سائر الطاعات* (وأما النوع الثالث فهي الصفات المهلكة التي محلها القلب)* فيعرفها مما ذكرناه في ربع المهلكات وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك ويتفقد من قلبه هذه الصفات فان ظن ان قلبه منزه عنها فيتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات عليه فان النفس أبدا تعد بالخير من نفسها وتخلف فاذا ادعت التواضع والبراءة من الكبر فينبغي ان تجرب بحمل حزمة حطب في السوق كما كان الاولون يجربون به أنفسهم واذا ادعت الحلم تعرض لغضب يناله من غيره ثم يجربها في كظم الغيظ وكذلك في سائر الصفات وهذا تفكر في أنه هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا ولذلك علامات ذكرناها في ربع المهلكات فاذا دلت العلامة على وجودها فكر في الأسباب التي تقبح تلك الصفات عنده وتبين ان منشأها من الجهل والغفلة وخبث الدخلة كما لو رأى في نفسه عجبا بالعمل فيتفكر ويقول انما عملي ببدني وجارحتي وبقدرتي وارادتي وكل ذلك ليس مني ولا الي وانما هو من خلق الله وفضله علي فهو الذي خلقني وخلق جارحتي وخلق قدرتي وارادتي وهو الذي حرك أعضائي بقدرته وكذلك قدرتي وارادتي فكيف أعجب بعملي أو بنفسي ولا أقوم لنفسي بنفسي فاذا أحس في نفسه بالكبر قرر على نفسه ما فيه من الحماقة ويقول لها لم ترين نفسك أكبر والكبير من هو عند الله كبير وذلك ينكشف بعد الموت وكم من كافر في الحال يموت مقربا الى الله تعالى بنزوعه عن الكفر وكم من مسلم يموت شقيا بتغير حاله عند الموت بسوء الخاتمة فاذا عرف أن الكبر مهلك وان أصله الحماقة فيتفكر في علاج ازالة ذلك بان يتعاطى أفعال المتواضعين واذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشرهه تفكر في ان هذه صفة البهائم ولو كان في شهوة الطعام والوقاع كمال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة ولما اتصف به البهائم ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه وعن الملائكة المقربين أبعد وكذلك يقرر على نفسه في الغضب ثم يتفكر في طريق العلاج وكل ذلك ذكرناه في هذه الكتب فمن يريد أن يتسع له طريق الفكر فلا بد له من تحصيل ما في هذه الكتب* (وأما النوع الرابع وهو المنجيات)* فهو التوبة والندم على الذنوب والصبر على البلاء والشكر على النعماء والخوف والرجاء والزهد في الدنيا والاخلاص والصدق في الطاعات ومحبة الله وتعظيمه والرضا بافعاله والشوق اليه والخشوع والتواضع له وكل ذلك ذكرناه في هذا الربع وذكرنا أسبابه وعلاماته فليتفكر العبد كل يوم في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقربة الى الله تعالى فاذا افتقر الى شيء منها فليعلم انها أحوال لا يثمرها الا علوم وان العلوم لا يثمرها الا أفكار فاذا أراد أن يكتسب لنفسه أحوال التوبة والندم فليفتش ذنوبه أولا وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها وليتحقق عند نفسه انه متعرض لمقت الله تعالى حتى ينبعث له حال الندم واذا أراد ان يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر في احسان الله اليه وأياديه عليه وفي ارساله جميل ستره عليه على ما شرحنا بعضه في كتاب الشكر فليطالع ذلك واذا أراد حال المحبة والشوق فليتفكر في جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه كما سنشير الى طرف منه في القسم الثاني من الفكر واذا أراد حال الخوف فلينظر أولا في ذنوبه الظاهرة والباطنة ثم لينظر في الموت وسكراته ثم فيما بعده من سؤال منكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقاربه وديدانه ثم في هول النداء عند نفخة الصور ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ثم في المناقشة في الحساب والمضايقة في النقير والقطمير ثم في الصراط ودقته وحدته ثم في خطر الامر عنده انه يصرف الى الشمال فيكون من أصحاب النار أو يصرف الى اليمين فينزل دار القرار ثم ليحضر بعد أهوال القيامة في قلبه صورة جهنم ودركاتها ومقامعها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقومها وصديدها وأنواع العذاب فيها وقبح صور الزبانية الموكلين بها وانهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها وانهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وانهم اذا رأوها من

في شرح كلمات مشيرة الى بعض الاحوال في اصطلاح الصوفية)* (أخبرنا) الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقي ابن سليمان اجازة قال أنا أبو الفضل حمد ابن أحمد قال أنا الحافظ أبو نعيم الاصفهاني قال ثنا محمد بن ابراهيم قال ثنا أبو مسلم الكشي قال ثنا مسعود بن عيسى قال ثنا القاسم بن يحيى قال ثنا ياسين الزيات عن أبي الزبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان من معادن التقوى تعلمك الى ما قد علمت علم ما لم تعلم والنقص فيما علمت قلة

مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وهلم جرا الى جميع ما ورد في القرآن من شرحها واذا أراد أن يستجلب حال الرجاء
فلينظر الى الجنة ونعيمها وأشجارها وأنهارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملكها الدائم فهكذا طريق الفكر
الذي يطلب به العلوم التي تثمر اجتلاب أحوال محبوبة أو التنزه عن صفات مذمومة وقد ذكرنا في كل واحد من
هذه الاحوال كتابا مفردا يستعان به على تفصيل الفكر أما بذكر مجامعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن
بالتفكر فانه جامع لجميع المقامات والاحوال وفيه شفاء العالمين وفيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر
والمحبة والشوق وسائر الاحوال وفيه ما يزجر عن سائر الصفات المذمومة فينبغي أن يقرأه العبد ويردد الآية التي
هو محتاج الى التفكر فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة فقراءة آية بتفكر وفهم خير من ختمة بغير تدبر وفهم
فليتوقف في التأمل فيها ولو ليلة واحدة فان تحت كل كلمة منها أسرارا لا تنحصر ولا يوقف عليها الا بدقيق الفكر عن
صفاء القلب بعد صدق المعاملة وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه قد أوتي جوامع الكلم وكل
كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ولو تأملها العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره وشرح آحاد
الآيات والاخبار يطول فانظر الى قوله صلى الله عليه وسلم ان روح القدس نفث في روعي أحبب من أحببت فانك
مفارقه وعش ما شئت فانك ميت واعمل ما شئت فانك مجزي به فان هذه الكلمات جامعة حكم الاولين والآخرين
وهي كافية للمتأملين فيها طول العمر اذ لو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقتهم ولحال ذلك
بينهم وبين التلفت الى الدنيا بالكلية فهذا هو طريق الفكر في علوم المعاملة وصفات العبد من حيث هي محبوبة
عند الله تعالى أو مكروهة والمبتدئ ينبغي أن يكون مستغرق الوقت في هذه الافكار حتى يعمر قلبه بالاخلاق
المحمودة والمقامات الشريفة وينزه باطنه وظاهره عن المكاره وليعلم ان هذا مع انه أفضل من سائر العبادات فليس
هو له غاية المطلب بل المشغول به محجوب عن مطلب الصديقين وهو التنعم بالفكر في جلال الله تعالى وجماله
واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه اي ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرق الهم بالمحبوب
كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب فانه لا يتفرغ للنظر في أحوال نفسه وأوصافها بل يبقى كالمبهوت الغافل عن
نفسه وهو منتهى لذة العشاق فاما ما ذكرناه فهو تفكر في عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال فاذا ضيع جميع
عمره في اصلاح نفسه فمتى يتنعم بالقرب ولذلك كان الخواص يدور في البوادي فلقيه الحسين بن منصور وقال فيم
أنت قال أدور في البوادي أصلح حالي في التوكل فقال الحسين أفنيت عمرك في عمران باطنك فاين الفناء في التوحيد
فالفناء في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعيم الصديقين وأما التنزه عن الصفات المهلكات
فيجري مجرى الخروج عن العدة في النكاح وأما الاتصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجري مجرى تهيئة
المرأة جهازها وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك للقاء زوجها فان استغرقت جميع عمرها في تبرئة
الرحم وتزيين الوجه كان ذلك حجابا لها عن لقاء المحبوب فهكذا ينبغي ان تفهم طريق الدين ان كنت من أهل
المجالسة وان كنت كالعبد السوء لا يتحرك الا خوفا من الضرب وطمعا في الاجرة فدونك واتعاب البدن بالاعمال
الظاهرة فان بينك وبين القلب حجابا كثيفا فاذا قضيت حق الاعمال كنت من أهل الجنة ولكن للمجالسة أقوام
آخرون واذا عرفت مجال الفكر في علوم المعاملة التي بين العبد وبين ربه فينبغي أن تتخذ ذلك عادتك وديدنك
صباحا ومساء فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبعدة من الله تعالى وأحوالك المقربة اليه سبحانه وتعالى بل كل
مريد فينبغي أن يكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات وجملة الصفات المنجيات وجملة المعاصي
والطاعات ويعرض نفسه عليها كل يوم ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة فانه ان سلم منها سلم من غيرها وهي
البخل والكبر والعجب والرياء والحسد وشدة الغضب وشره الطعام وشره الوقاع وحب المال وحب الجاه ومن
المنجيات عشرة الندم على الذنوب والصبر على البلاء والرضا بالقضاء والشكر على النعماء واعتدال الخوف
والرجاء والزهد في الدنيا والاخلاص في الاعمال وحسن الخلق مع الخلق وحب الله تعالى والخشوع له فهذه
عشرون خصلة عشرة مذمومة وعشرة محمودة فمهما كفي من المذمومات واحدة فيخط عليها في جريدته ويدع
الفكر فيها ويشكر الله تعالى على كفايته اياها وتنزيه قلبه عنها ويعلم أن ذلك لم يتم الا بتوفيق الله تعالى وعونه

الزيادة فيه وانما زهد
الرجل في علم مالم يعلم
قلة الانتفاع بما قد علم
فمشايخ الصوفية أحكموا
أساس التقوى وتعلموا
العلم لله تعالى وعملوا
بما علموا لموضع تقواهم
فعلمهم الله تعالى مالم
يعلموا من غرائب
العلوم ودقيق الاشارات
واستنبطوا من كلام
الله تعالى غرائب
العلوم وعجائب الاسرار
وترسخ قدمهم في العلم
(قال) أبو سعيد الخراز
أول الفهم لكلام الله
العمل به لان فيه
العلم والفهم والاستنباط
وأول الفهم القاء السمع
والمشاهدة لقوله تعالى

ولو وكله الى نفسه لم يقدر على محو أقل الرذائل عن نفسه فيقبل على التسعة الباقية وهكذا يفعل حتى يحط على الجميع وكذلك يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجيات فاذا اتصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلا احتط عليها واشتغل بالباقي وهذا يحتاج اليه المريد المشمر وأما أكثر الناس من المعدودين من الصالحين فينبغي ان يثبتوا في جرائدهم المعاصي الظاهرة كأكل الشبهة واطلاق اللسان بالغيبة والنميمة والمراء والثناء على النفس والافراط في معاداة الاعداء وموالاة الاولياء والمداهنة مع الخلق في ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فان أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه ومالم يطهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من المعصية فينبغي أن يكون تفقدهم لها وتفكرهم فيها الا في معاص هم بمعزل عنها مثاله العالم الورع فانه لا يخلو في غالب الامر عن اظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت اما بالتدريس أو بالوعظ ومن فعل ذلك تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها الا الصديقون فانه ان كان كلامه مقبولا حسن الوقع في القلوب لم ينفك عن الاعجاب والخيلاء والتزين والتصنع وذلك من المهلكات وان رد كلامه لم يخل عن غيظ وأنفة وحقد على من رده وهو أكثر من غيظه على من يرد كلام غيره وقد يلبس الشيطان عليه ويقول ان غيظك من حيث انه رد الحق وأنكره فان وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرد أو الاعراض لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والايراد حرصا على استجلاب الثناء والله لا يحب المتكلفين والشيطان قد يلبس عليه ويقول انما حرصك على تحسين الالفاظ والتكلف فيه لينتشر الحق ويحسن موقعه في القلب اعلاء لدين الله فان كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع وانما يدورون حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك حتى يكون للموقر له المعتقد لفضله أكثر احتراما ويكون بلقائه أشد فرحا واستبشارا ممن يغلو في موالاة غيره وان كان ذلك الغير مستحقا للموالاة وربما ينتهي الامر باهل العلم الى أن يتغايروا تغاير النساء فيشق على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته الى غيره وان كان يعلم انه منتفع بغيره ومستفيد منه في دينه وكل ذلك رشح الصفات المهلكات المستكنة في سر القلب التي قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها وانما ينكشف ذلك بهذه العلامات ففتنة العالم عظيمة وهو اما مالك واما هالك ولا مطمع له في سلامة العوام فمن أحس في نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه العزلة والانفراد وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى مهما سئل فقد كان المسجد يحوي في زمن الصحابة رضي الله تعالى عنهم جمعا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم مفتون وكانوا يتدافعون الفتوى وكل من كان يفتي كان يود أن يكفيه غيره وعند هذا ينبغي أن يتقي شياطين الانس اذا قالوا لا تفعل هذا فان هذا الباب لو فتح لاندرست العلوم من بين الخلق وليقل لهم ان دين الاسلام مستغن عني فانه قد كان معمورا قبلي وكذلك يكون بعدي ولو مت لم تنهدم اركان الاسلام فان الدين مستغن عني وأنا فلست مستغنيا عن اصلاح قلبي وأما اداء ذلك الى اندراس العلم فخيال يدل على غاية الجهل فان الناس لو حبسوا في السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب الرياسة والعلو يحملهم على كسر القيود وهدم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم فالعلم لا يندرس ما دام الشيطان يحبب الى الخلق الرياسة والشيطان لا يفتر عن عمله الى يوم القيامة بل ينتهض لنشر العلم أقوام لا نصيب لهم في الآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يؤيد هذا الدين باقوام لا خلاق لهم وان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر فلا ينبغي ان يغتر العالم بهذه التلبيسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربى في قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم فان ذلك بذر النفاق قال صلى الله عليه وسلم حب الجاه والمال ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل وقال صلى الله عليه وسلم ما ذئبان ضاريان ارسلا في زريبة غنم باكثر افسادا فيها من حب الجاه والمال في دين المرء المسلم ولا ينقلع حب الجاه من القلب الا بالاعتزال عن الناس والهرب من مخالطتهم وترك كل ما يزيد جاهه في قلوبهم فليكن فكر العالم في التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منها وهذه وظيفة العالم المتقي فاما أمثالنا فينبغي أن يكون

ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد (وقال أبو بكر) الواسطي الراسخون في العلم هم الذين رسخوا بارواحهم في غيب الغيب وفي سر السر فعرفهم ما عرفهم وأراد منهم من مقتضى الآيات مالم يرد من غيرهم وخاضوا بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات فانكشف لهم من مدخور الخزائن والمخزون تحت كل حرف وآية من الفهم وعجائب النص فاستخرجوا الدرر والجواهر ونطقوا بالحكمة (وقد ورد في

تفكرنا فيما يقوى إعاننا بيوم الحساب اذلو رآنا السلف الصالحون لقالوا قطعا ان هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب فما أعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار فان من خاف شيأ هرب منه ومن رجا شيأ طلبه وقد علمنا ان الهرب من النار بترك الشبهات والحرام وبترك المعاصي ونحن منهمكون فيها وان طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ونحن مقصرون في الفرائض منها فلم يحصل لنا من ثمرة العلم الا أنه يقتدى بنا في الحرص على الدنيا والتكالب عليها ويقال لو كان هذا مذموما لكان العلماء أحق وأولى باجتنابه منا فليتنا كنا كالعوام اذامتنا ماتت معنا ذنوبنا فما أعظم الفتنة التي تعرضنا لها لو تفكرنا فنسأل الله تعالى ان يصلحنا ويصلح بنا ويوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا انه الكريم اللطيف بنا المنعم علينا فهذه مجاري أفكار العلماء والصالحين في علم المعاملة فان فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم وارتقوا منها الى التفكر في جلال الله وعظمته والتنعم بمشاهدته بعين القلب ولا يتم ذلك الا بعد الانفكاك من جميع المهلكات والاتصاف بجميع المنجيات وان ظهر شئ منه قبل ذلك كان مدخولا معلولا مكدرا مقطوعا وكان ضعيفا كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ويكون كالعاشق الذي خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى فتنغص عليه لذة المشاهدة ولا طريق له في كمال التنعم الا باخراج العقارب والحيات من ثيابه وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيات وهي مؤذيات ومشوشات وفي القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيات فهذا القدر كاف في التنبيه على مجاري فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عند ربه تعالى *القسم الثاني الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه وفيه مقامان *المقام الاعلى الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه وهذا مما منع منه حيث قيل تفكروا في خلق الله تعالى ولا تتفكروا في ذات الله وذلك لان العقول تتحير فيه فلا يطيق مد البصر اليه الا الصديقون ثم لا يطيقون دوام النظر بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالاضافة الى جلال الله تعالى كحال بصر الخفاش بالاضافة الى نور الشمس فانه لا يطيقه البتة بل يختفي نهارا وانما يتردد ليلا ينظر في بقية نور الشمس اذا وقع على الارض وأحوال الصديقين كحال الانسان في النظر الى الشمس فانه يقدر على النظر اليها ولا يطيق دوامه ويخشى على بصره لو أدام النظر ونظره المختطف اليها يورث العمش ويفرق البصر وكذلك النظر الى ذات الله تعالى يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل فالصواب اذا أن لا يتعرض لمجاري الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته فان أكثر العقول لا تحتمله بل القدر اليسير الذي صرح به بعض العلماء وهو أن الله تعالى مقدس عن المكان ومنزه عن الاقطار والجهات وانه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه قد حير عقول أقوام حتى أنكروه اذلم يطيقوا سماعه ومعرفته بل ضعفت طائفة عن احتمال أقل من هذا اذ قيل لهم انه يتعاظم ويتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين وعضو وأن يكون جسما مشخصا له مقدار وحجم فانكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح في عظمة الله وجلاله حتى قال بعض الحمقى من العوام ان هذا وصف بطيخ هندي لا وصف الاله لظن المسكين أن الجلالة والعظمة في هذه الاعضاء وهذا لان الانسان لا يعرف الا نفسه فلا يستعظم الا نفسه فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه نعم غايته أن يقدر نفسه جميل الصورة جالسا على سريره وبين يديه غلمان يمتثلون أمره فلا جرم غايته أن يقدر ذلك في حق الله تعالى وتقدس حتى يفهم العظمة بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران لانكر ذلك وقال كيف يكون خالقي أنقص مني أفيكون مقصوص الجناح أو يكون زمنا لا يقدر على الطيران أو يكون لي آلة وقدرة لا يكون له مثلها وهو خالقي ومصوري وعقول أكثر الخلق قريب من هذا العقل وان الانسان لجهول ظلوم كفار ولذلك أوحى الله تعالى الى بعض أنبيائه لا تخبر عبادي بصفاتي فينكروني ولكن اخبرهم عني بما يفهمون ولما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته مخطرا من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق أن لا يتعرض لمجاري الفكر فيه لكنا نعدل الى المقام الثاني وهو النظر في أفعاله ومجاري قدره وعجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه فانها تدل على جلاله وكبريائه وتقدسه وتعاليه وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته فينظر الى صفاته من آثار صفاته فانا لا نطيق النظر الى صفاته كما أنا نطيق النظر الى الارض مهما استنارت بنور الشمس ونستدل بذلك على عظم نور

الشمس

الخبر) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه سفيان بن عيينة عن ابن جريج عن عطاء عن أبي هريرة انه قال ان من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه الا العلماء بالله فاذا نطقوا به لا ينكره الا أهل الغرة بالله (أخبرنا) أبو زرعة قال أنا أبو بكر بن خلف قال ثنا أبو عبد الرحمن قال سمعت النصراباذي يقول سمعت ابن عائشة يقول سمعت القرشي يقول هي أسرار الله تعالى يبديها الى أمناء أوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة

الشمس بالاضافة الى نور القمر وسائر الكواكب لان نور الارض من آثار نور الشمس والنظر فى الآثار يدل على المؤثر دلالة ما وان كان لا يقوم مقام النظر فى نفس المؤثر وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من أنوار ذاته بل لا ظلمة أشد من العدم ولا نور اظهر من الوجود ووجود الاشياء كلها نور من أنوار ذاته تعالى وتقدس اذ قوام وجود الاشياء بذاته القيوم بنفسه كما ان قوام نور الاجسام بنور الشمس المضيئة بنفسها ومهما انكسف بعض الشمس فقد جرت العادة بان يوضع طشت ماء حتى ترى الشمس فيه و يمكن النظر اليها فيكون الماء واسطة يغض قليلا من نور الشمس حتى يطاق النظر اليها فكذلك الافعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا نبهر بانوار الذات بعد ان تباعدنا عنها بواسطة الافعال فهذا سر قوله صلى الله عليه وسلم تفكروا فى خلق الله ولا تتفكروا فى ذات الله تعالى

(بيان كيفية التفكر فى خلق الله تعالى)

اعلم أن كل ما فى الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته واحصاء ذلك غير ممكن لانه لو كان البحر مدادا لذلك لنفد البحر قبل أن ينفد عشر عشيره ولكنا نشير الى جمل منه ليكون ذلك كالمثال لما عداه فنقول الموجودات المخلوقة منقسمة الى ما لا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكر فيها وكم من الموجودات التى لا نعلمها كما قال الله تعالى ويخلق ما لا تعلمون سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون وقال وننشئكم فيما لا تعلمون والى ما يعرف أصلها وجملتها ولا يعرف تفصيلها فيمكننا أن نتفكر فى تفصيلها وهى منقسمة الى ما أدركناه بحس البصر والى ما لا ندركه بالبصر أما الذى لا ندركه بالبصر فكالملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسى وغير ذلك ومجال الفكر فى هذه الاشياء مما يضيق ويغمض فلنعدل الى الاقرب الى الافهام وهى المدركات بحس البصر وذلك هو السموات السبع والارض وما بينهما فالسموات مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها فى طلوعها وغروبها والارض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها وما بين السماء والارض وهو الجو مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها فهذه هى الاجناس المشاهدة من السموات والارض وما بينهما وكل جنس منها ينقسم الى أنواع وكل نوع ينقسم الى أقسام ويتشعب كل قسم الى أصناف ولا نهاية لانشعاب ذلك وانقسامه فى اختلاف صفاته وهيا آته ومعانيه الظاهرة والباطنة وجميع ذلك مجال الفكر فلا تتحرك ذرة فى السموات والارض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب الا والله تعالى هو محركها وفى حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ودال على جلاله وكبريائه وهى الآيات الدالة عليه وقد ورد القرآن بالحث على التفكر فى هذه الآيات كما قال الله تعالى ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب وكما قال تعالى ومن آياته من أول القرآن الى آخره فلنذكر كيفية الفكر فى بعض الآيات *(فمن آياته)* الانسان المخلوق من النطفة وأقرب شئ اليك نفسك وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضى الاعمار فى الوقوف على عشر عشيره وأنت غافل عنه فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع فى معرفة غيرك وقد أمرك الله تعالى بالتدبر فى نفسك فى كتابه العزيز فقال وفى أنفسكم أفلا تبصرون وذكر انك مخلوق من نطفة قذرة فقال قتل الانسان ما أكفره من أى شئ خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فاقبره ثم اذا شاء أنشره وقال تعالى ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون وقال تعالى ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى وقال تعالى ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه فى قرار مكين الى قدر معلوم وقال أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين وقال انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج ثم ذكر كيف جعل النطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة عظاما فقال تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة الآية فتكرير ذكر النطفة فى الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظه ويترك التفكر فى معناه فانظر الآن الى النطفة وهى قطرة من الماء قذرة لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت كيف أخرجها رب الارباب من الصلب والترائب وكيف جمع

وهى من الاسرار التى لم يطلع عليها الا الخواص (وقال) أبو سعيد الخراز للعارفين خزائن أودعوها علوما غريبة وأنباء عجيبة يتكلمون فيها بلسان الابدية ويخبرون عنها بعبارة الازلية وهى من العلم المجهول فقوله بلسان الابدية وعبارة الازلية اشارة الى انهم بالله ينطقون وقد قال تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بى ينطق وهو العلم اللدنى الذى قال الله تعالى فيه فى حق الخضر آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما (فما) تداولتـه

بين الذكر والانثى وألقى الالفة والمحبة في قلوبهم وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة الى الاجتماع وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكبر وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء ثم كيف جعلها مضغة ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية الى العظام والاعصاب والعروق والاوتار واللحم ثم كيف ركب من اللحوم والاعصاب والعروق الاعضاء الظاهرة فدور الرأس وشق السمع والبصر والانف والفم وسائر المنافذ ثم مد اليد والرجل وقسم رؤسها بالاصابع وقسم الاصابع بالانامل ثم كيف ركب الاعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والامعاء كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ثم كيف قسم كل عضو من هذه الاعضاء بأقسام أخر فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الابصار فلو ذهبنا الى أن نصف ما في آحاد هذه الاعضاء من العجائب والآيات لانقضى فيه الاعمار فانظر الآن الى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ثم جعلها قواما للبدن وعمادا له ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق ولما كان الانسان محتاجا الى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه مفتقرا للتردد في حاجاته لم يجعل عظمه عظما واحدا بل عظاما كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة وقدر شكل كل واحدة منها على وفق الحركة المطلوبة بها ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر حفرا غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها فصار العبد ان أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها وقد ركبها من خمسة وخمسين عظما مختلفة الاشكال والصور فألف بعضها الى بعض بحيث استوى به كرة الرأس كما تراه فمنها ستة تخص القحف وأربعة عشر للحي الاعلى واثنان للحي الاسفل والبقية هي الاسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع وهي الانياب والاضراس والثنايا ثم جعل الرقبة مركبا للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات فيها تحريفات وزيادات ونقصانات لينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر وجه الحكمة فيها ثم ركب الرقبة على الظهر وركب الظهر من أسفل الرقبة الى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة فيتصل به من أسفله عظم العصعص وهو أيضا مؤلف من ثلاثة أجزاء ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام العانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين فلا نطول بذكر عدد ذلك ومجموع عدد العظام في بدن الانسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظما سوى العظام الصغيرة التي حشى بها خلل المفاصل فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها فان هذا علم قريب يعرفه الاطباء والمشرحون وانما الغرض أن ينظر منها في مدبرها وخالقها أنه كيف قدرها ودبرها وخالف بين أشكالها وأقدارها وخصصها بهذا العدد المخصوص لانه لو زاد عليها واحدا لكان وبالا على الانسان يحتاج الى قلعه ولو نقص منها واحد لكان نقصانا يحتاج الى جبره فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصورها فشتان بين النظرين ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهي العضلات فخلق في بدن الانسان خمسمائة عضلة وتسعا وعشرين عضلة والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية وهي مختلفة المقادير والاشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدقة العين وأجفانها لو نقصت واحدة من جملتها اختل أمر العين وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدر مخصوص وأمر الاعصاب والعروق والاوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعاباتها أعجب من هذا كله وشرحه يطول فللفكر مجال في آحاد هذه الاجزاء ثم في آحاد هذه الاعضاء ثم في جملة البدن فكل ذلك نظر الى عجائب أجسام البدن

ألسنتهم من الكلمات تفهما من بعضهم للبعض واشارة منهم الى أحوال يجدونها ومعاملات قلبية يعرفونها قولهم الجمع والتفرقة قيل أصل الجمع والتفرقة قوله تعالى شهد الله أنه لا اله الا هو فهذا جمع ثم فرق فقال والملائكة وأولوا العلم وقوله تعالى آمنا بالله جمع ثم فرق بقوله وما أنزل الينا والجمع أصل والتفرقة فرع فكل جمع بلا تفرقة زندقة وكل تفرقة بلا جمع تعطيل (وقال الجنيد) القرب بالوجد جمع وغيبته في البشرية تفرقة وقيل جمعهم في

وعجائب المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم فانظر الآن الى ظاهر الانسان وباطنه والى بدنه وصفاته فترى به من العجائب والصنعة ما يقضي به العجب وكل ذلك صنع الله في قطرة ماء قذرة فترى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السموات وكواكبها وما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها فلا تظنن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم بل هي أحكم خلقا وأتقن صنعا وأجمع للعجائب من بدن الانسان بل لا نسبة لجميع ما في الارض الى عجائب السموات ولذلك قال تعالى أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها فارجع الآن الى النطفة وتأمل حالها أولا وما صارت اليه ثانيا وتأمل انه لو اجتمع الجن والانس على أن يخلقوا للنطفة سمعا أو بصرا أو عقلا أو قدرة أو علما أو روحا أو يخلقوا فيها عظما أو عرقا أو عصبا أو جلدا أو شعرا اهل يقدرون على ذلك بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه فالعجب منك لو نظرت الى صورة انسان مصور على حائط تأنق النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الانسان وقال الناظر اليها كأنه انسان عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته وعظم في قلبك محله مع أنك تعلم ان تلك الصورة انما تمت بالصبغ والقلم واليد وبالحائط وبالقدرة وبالعلم وبالارادة وشئ من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه بل هو من خلق غيره وانما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص فيكثر تعجبك منه وتستعظمه وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة فخلقها خالقها في الاصلاب والترائب ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها وقسم أجزاءها المتشابهة الى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في أرجائها وحسن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة وخلق لها الظهر أساسا لبدنها والبطن حاويا لآلات غذائها والرأس جامعا لحواسها ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيأتها ثم حماها بالاجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الاقذاء عنها ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر اليها ثم شق أذنيه وأودعهما ماء مرا ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وحوطها بصدفة الاذن لتجمع الصوت فترده الى صماخها ولتحس بدبيب الهوام اليها وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها اذا قصدها دابة في حال النوم ثم رفع الانف من وسط الوجه وأحسن شكله وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحا لحرارة باطنه وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقا وترجمانا ومعربا عما في القلب وزين الفم بالاسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع فأحكم أصولها وحدد رؤسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم وخلق الشفتين وحسن لونهما وشكلهما لتنطبق على الفم فتسد منفذه وليتم بهما حروف الكلام وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت وخلق للسان قدرة للحركات والتقطيعات لتقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها ثم خلق الحناجر مختلفة الاشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسببها الاصوات فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرقان حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة ثم زين الرأس بالشعر والاصداغ وزين الوجه باللحية والحاجبين وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل وزين العينين بالاهداب ثم خلق الاعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص فسخر المعدة لنضج الغذاء والكبد لاحالة الغذاء الى الدم والطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد فالطحال يخدمها بجذب السوداء عنها والمرارة تخدمها بجذب الصفراء عنها والكلية تخدمها بجذب المائية عنها والمثانة تخدم الكلية بقبول الماء عنها ثم تخرجه في طريق الاحليل والعروق تخدم الكبد في ايصال الدم الى سائر أطراف البدن ثم خلق اليدين وطولهما لتمتدا الى المقاصد وعرض الكف وقسم الاصابع الخمس وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ووضع الاربعة

المعرفة وفرقهم في الاحوال والجمع اتصال لا يشاهد صاحبه الا الحق فمتى شاهد غيره فما جمع والتفرقة شهود لمن شاء بالمباينة وعباراتهم في ذلك كثيرة والمقصود انهم أشاروا بالجمع الى تجريد التوحيد وأشاروا بالتفرقة الى الاكتساب فعلى هذا لا جمع الا بتفرقة ويقولون فلان في عين الجمع يعنون استيلاء مراقبة الحق على باطنه فاذا دعا الى شئ من أعماله عاد الى التفرقة فصحة الجمع بالتفرقة وصحة التفرقة بالجمع فهذا يرجع

فى جانب والابهام فى جانب لتدور الابهام على الجميع ولو اجتمع الاولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجها آخر فى وضع الاصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الابهام عن الاربع وتفاوت الاربع فى الطول وترتيبها فى صف واحد لم يقدروا عليه اذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والاعطاء فان بسطها كانت له طبقا يضع عليها ما يريد وان جمعها كانت له آلة للضرب وان ضمها ضما غير تام كانت مغرفة له وان بسطها وضم أصابعها كانت مجرفة له ثم خلق الاظفار على رؤسها زينة للانامل وعمادا لها من ورائها حتى لا تنقطع وليلتقط بها الاشياء الدقيقة التى لا تتناولها الانامل وليحك بها بدنه عند الحاجة فالظفر الذى هو أخس الاعضاء لو عدمه الانسان وظهر به حكة لكان أعجز الخلق وأضعفهم ولم يقم أحد مقامه فى حك بدنه ثم هدى اليد الى موضع الحك حتى تمتد اليه ولو فى النوم والغفلة من غير حاجة الى طلب ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك الا بعد تعب طويل ثم خلق هذا كله من النطفة وهى فى داخل الرحم فى ظلمات ثلاث ولو كشف الغطاء والغشاء وامتد البصر اليه لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيأ فشيأ ولا يرى المصور ولا آلته فهل رأيت مصورا أو فاعلا لا يمس آلته ومصنوعه ولا يلاقيه وهو يتصرف فيه فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه ثم انظر مع كمال قدرته الى تمام رحمته فانه لما ضاق الرحم عن الصبى لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكس وتحرك وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج اليه ثم لما خرج واحتاج الى الغذاء كيف هداه الى التقام الثدى ثم لما كان بدنه سخيفا لا يحتمل الاغذية الكثيفة كيف دبر له فى خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرث والدم سائغا خالصا وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبى ثم فتح فى حلمة الثدى ثقبا ضيقا جدا حتى لا يخرج اللبن منه الا بعد المص تدريجا فان الطفل لا يطيق منه الا القليل ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ثم انظر الى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الاسنان الى تمام الحولين لانه فى الحولين لا يتغذى الا باللبن فيستغنى عن السن واذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ويحتاج الى طعام غليظ ويحتاج الطعام الى المضغ والطحن فانبت له الاسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة فى تلك اللثات اللينة ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره فى الوقت الذى كان عاجزا عن تدبير نفسه فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجا حتى بلغ وتكامل فصار مراهقا ثم شابا ثم كهلا ثم شيخا اما كفورا أو شكورا مطيعا أو عاصيا مؤمنا أو كافرا تصديقا لقوله تعالى هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيأ مذكورا انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا فانظر الى اللطف والكرم ثم الى القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الربانية والعجب كل العجب ممن يرى خطا حسنا أو نقشا حسنا على حائط فيستحسنه فيصرف جميع همه الى التفكر فى النقاش والخطاط وانه كيف نقشه وخطه وكيف اقتدر عليه ولا يزال يستعظمه فى نفسه ويقول ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته ثم ينظر الى هذه العجائب فى نفسه وفى غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوره فلا تدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته فهذه نبذة من عجائب بدنك التى لا يمكن استقصاؤها فهو أقرب مجال لفكرك وأجلى شاهد على عظمة خالقك وأنت غافل عن ذلك مشغول ببطنك وفرجك لا تعرف من نفسك الا أن تجوع فتأكل وتشبع فتنام وتشتهى فتجامع وتغضب فتقاتل والبهائم كلها تشاركك فى معرفة ذلك وانما خاصية الانسان التى حجبت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر فى ملكوت السموات والارض وعجائب الآفاق والانفس اذ بها يدخل العبد فى زمرة الملائكة المقربين ويحشر فى زمرة النبيين والصديقين مقربا من حضرة رب العالمين وليست هذه المنزلة للبهائم ولا لانسان رضى من الدنيا بشهوات البهائم فانه شر من البهائم بكثير اذ لا قدرة للبهيمة على ذلك وأما هو فقد خلق الله له القدرة ثم عطلها وكفر نعمة الله فيها فاولئك كالانعام بل هم أضل سبيلا واذا عرفت طريق الفكر فى نفسك فتفكر فى الارض التى هى مقرك ثم فى أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها ثم ارتفع منها الى ملكوت السموات *(أما الارض)* فمن آياته أن خلق الارض فراشا ومهادا وسلك فيها سبلا فجاجا وجعلها ذلولا

حاصله الى ان الجمع من العلم بالله والتفرقة من العلم بامر الله ولابد منهما جميعا (قال) المزين الجمع عين الفناء بالله والتفرقة العبودية متصل بعضها بالبعض وقد غلط قوم وادعوا انهم فى عين الجمع وأشاروا الى صرف التوحيد وعطلوا الاكتساب فتزندقوا وانما الجمع حكم الروح والتفرقة حكم القالب ومادام هذا التركيب باقيا فلابد من الجمع والتفرقة (وقال) الواسطى اذا نظرت الى نفسك فرقت واذا نظرت الى ربك جمعت واذا

لتمشوا

لتمشوا فى مناكبها وجعلها قارة لا تتحرك وأرسى فيها الجبال أوتادا لها تمنعها من أن تميد ثم وسع أكنافها حتى عجز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وان طالت أعمارهم وكثر تطوافهم فقال تعالى والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون والارض فرشناها فنعم الماهدون وقال تعالى هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وقال تعالى الذى جعل لكم الارض فراشا وقد أكثر فى كتابه العزيز من ذكر الارض ليتفكر فى عجائبها فظهرها مقر للاحياء وبطنها مرقد للاموات قال الله تعالى ألم نجعل الارض كفاتا أحياء وأمواتا فانظر الى الارض وهى ميتة فاذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبتت عجائب النبات وخرجت منها أصناف الحيوانات ثم انظر كيف أحكم جوانب الارض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف أودع المياه تحتها فتفجر العيون وأسال الانهار تجرى على وجهها وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقا عذبا صافيا زلالا وجعل به كل شئ حى فاخرج به فنون الاشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان وفواكه كثيرة لا تحصى مختلفة الاشكال والالوان والطعوم والصفات والارايح يفضل بعضها على بعض فى الاكل تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة فان قلت ان اختلافها باختلاف بذورها وأصولها فمتى كان فى النواة نخلة مطوقة بعناقيد الرطب ومتى كان فى حبة واحدة سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ثم انظر الى أرض البوادى وفتش ظاهرها وباطنها فتراها ترابا متشابها فاذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ألوانا مختلفة ونباتا متشابها وغير متشابه لكل واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر فانظر الى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى العقاقير المنافع الغريبة فهذا النبات يغذى وهذا يقوى وهذا يحيى وهذا يقتل وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا اذا حصل فى المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق وهذا يستحيل الى الصفراء وهذا يقمع البلغم والسوداء وهذا يستحيل اليهما وهذا يصفى الدم وهذا يستحيل دما وهذا يفرح وهذا ينوم وهذا يقوى وهذا يضعف فلا تنبت من الارض ورقة ولا تبنة الا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح فى تربيته الى عمل مخصوص فالنخل تؤبر والكرم يكسح والزرع ينقى عنه الحشيش والدغل وبعض ذلك يستنبت ببث البذر فى الارض وبعضه بغرس الاغصان وبعضه يركب فى الشجر ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لانقضت الايام فى وصف ذلك فيكفيك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات *(ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال والمعادن الحاصلة من الارض)* ففى الارض قطع متجاورات مختلفة فانظر الى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروزج واللعل وغيرها بعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد وبعضها لا ينطبع كالفيروزج واللعل وكيف هدى الله الناس الى استخراجها وتنقيتها واتخاذ الاوانى والآلات والنقود والحلى منها ثم انظر الى معادن الارض من النفط والكبريت والقار وغيرها وأقلها الملح ولا يحتاج اليه الا لتطييب الطعام ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك اليها فانظر الى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الاراضى سبخة بجوهرها بحيث يجتمع فيها الماء الصافى من المطر فيستحيل ملحا مالحا محرقا لا يمكن تناول مثقال منه ليكون ذلك تطييبا لطعامك اذا أكلته فيتهنأ عيشك وما من جماد ولا حيوان ولا نبات الا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس ما خلق شئ منها عبثا ولا لعبا ولا هزلا بل خلق الكل بالحق كما ينبغى وعلى الوجه الذى ينبغى وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه ولذلك قال تعالى وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما الا بالحق *(ومن آياته أصناف الحيوانات)* وانقسامها الى ما يطير والى ما يمشى وانقسام ما يمشى الى ما يمشى على رجلين والى ما يمشى على أربع وعلى عشر وعلى مائة كما يشاهد فى بعض الحشرات ثم انقسامها فى المنافع والصور والاشكال والاخلاق والطباع فانظر الى طيور الجو والى وحوش البر والى البهائم الاهلية ترى فيها من العجائب ما لا تشك معه فى عظمة خالقها وقدرة مقدرها وحكمة مصورها وكيف يمكن أن يستقصى ذلك بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقة أو النملة أو النحلة أو العنكبوت وهى من صغار الحيوانات فى بنائها بيتها وفى جمعها غذاءها وفى الفها الزوجها

كنت قائما بغيرك فانت فان بلا جمع ولا تفرقة (وقيل) جمعهم بذاته وفرقهم فى صفاته وقد يدون بالجمع والتفرقة انه اذا أثبت لنفسه كسبا ونظر الى أعماله فهو فى التفرقة واذا أثبت الاشياء بالحق فهو فى الجمع ومجموع الاشارات ينبئ أن المكون يفرق والمكون يجمع فمن أفرد المكون جمع ومن نظر الى الكون فرق فالتفرقة عبودية والجمع توحيد فاذا أثبت طاعته نظر الى كسبه فرق واذا أثبتها بالله جمع اذا تحقق بالفناء فهو جمع الجمع ويمكن أن

وفى ادخارها لنفسها وفى حذقها فى هندسة بيتها وفى هدايتها الى حاجاتها لم تقدر على ذلك فترى العنكبوت يبنى بيته على طرف نهر فيطلب أولا موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه ثم يبتدئ و يلقى اللعاب الذى هو خيطه على جانب ليلتصق به ثم يغدو الى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط ثم كذلك يتردد ثانيا وثالثا و يجعل بعدما بينهما متناسبا تناسبا هندسيا حتى اذا أحكم معاقد القمط ورتب الخيوط كالسدى اشتغل باللحمة فيضع اللحمة على السدى و يضيف بعضه الى بعض و يحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدى و يراعى فى جميع ذلك تناسب الهندسة و يجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذباب و يقعد فى زاوية مترصدا لوقوع الصيد فى الشبكة فاذا وقع الصيد بادر الى أخذه وأكله فان عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط و وصل بين طرفى الزاوية بخيط ثم علق نفسه فيها بخيط آخر و بقى منكسا فى الهواء ينتظر ذبابة تطير فاذا طارت رمى بنفسه اليه فاخذه ولف خيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله وما من حيوان صغير ولا كبير الا وفيه من العجائب مالا يحصى أفترى انه تعلم هذه الصنعة من نفسه أو تكون بنفسه أو كونه آدمى أو علمه أولا هادى له ولا معلم أفيشك ذو بصيرة فى انه مسكين ضعيف عاجز بل الفيل العظيم شخصه الظاهرة قوته عاجز عن أمر نفسه فكيف هذا الحيوان الضعيف أفلا يشهد هو بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم فالبصير يرى فى هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الالباب والعقول فضلا عن سائر الحيوانات وهذا الباب أيضا لا حصر له فان الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة وانما سقط تعجب القلوب منها لانسها بكثرة المشاهدة نعم اذا رأى حيوانا غريبا ولو دودا تجدد تعجبه وقال سبحان الله ما أعجبه والانسان أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر الى الانعام التى ألفها ونظر الى أشكالها وصورها ثم الى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التى جعلها الله لباسا لخلقه وأكنانا لهم فى ظعنهم واقامتهم وآنية لاشربتهم وأوعية لاغذيتهم وصوانا لاقدامهم وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ثم جعل بعضها زينة للركوب و بعضها حاملة للاثقال قاطعة للبوادى والمفازات البعيدة لاكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها فانه ما خلقها الا بعلم محيط بجميع منافعها سابق على خلقه اياها فسبحان من الامور مكشوفة فى علمه من غير تفكر ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استعانة بوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير فلقد استخرج باقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده فما للخلق الا الاذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والاقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته فمن ذا الذى يحصى ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وانما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته بمنه ورأفته *(ومن آياته البحار العميقة المكتنفة لاقطار الارض)* التى هى قطع من البحر الاعظم المحيط بجميع الارض حتى ان جميع المكشوف من البوادى والجبال من الماء بالاضافة الى الماء كجزيرة صغيرة فى بحر عظيم وبقية الارض مستورة بالماء قال النبى صلى الله عليه وسلم الارض فى البحر كالاصطبل فى الارض فانسب اصطبلا الى جميع الارض واعلم ان الارض بالاضافة الى البحر مثله وقد شاهدت عجائب الارض وما فيها فتأمل الآن عجائب البحر فان عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر اضعاف عجائب ما تشاهده على وجه الارض كما أن سعته اضعاف سعة الارض ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها فى البحر فتظن انها جزيرة فينزل الركاب عليها فربما تحس بالنيران اذا اشتعلت فتتحرك و يعلم انها حيوان وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو طير أو بقر أو انسان الا وفى البحر أمثاله واضعافه وفيه أجناس لا يعهد لها نظير فى البر وقد ذكرت أوصافها فى مجلدات و جمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوره فى صدفه تحت الماء وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء وانما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر ثم تأمل ما عداه من العنبر وأصناف النفائس التى يقذفها البحر وتستخرج منه ثم انظر الى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الاموال وغيرهم وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم ثم أرسل الرياح لتسوق السفن ثم عرف الملاحين موارد الرياح

يقال ورؤية الافعال تفرقة ورؤية الصفات جمع ورؤية الذات جمع الجمع (سئل) بعضهم عن حال موسى عليه السلام فى وقت الكلام فقال افنى موسى عن موسى فلم يكن لموسى خبر من موسى ثم كاسم فكان المكلم والمكلم هو وكيف كان يطيق موسى حمل الخطاب ورد الجواب لولا ياياه سمع ومعنى هذا ان الله تعالى منحه قوة بتلك القوة سمع ولولا تلك القوة ماقدر على السمع ثم أنشد القائل متمثلا

ومهابها

ومهابها ومواقيتها ولا يستقصي على الجملة عجائب صنع الله في البحر في مجلدات وأعجب من ذلك كله ماهو أظهر من كل ظاهر وهو كيفية قطرة الماء وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف متصل الاجزاء كانه شئ واحد لطيف التركيب سريع القبول للتقطيع كانه منفصل مسخر للتصرف قابل للانفصال والاتصال به حياة كل ما على وجه الارض من حيوان ونبات فلو احتاج العبد الى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الارض وملك الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك ثم لو شربها ومنع من اخراجها لبذل جميع خزائن الارض وملك الدنيا في اخراجها فالعجب من الآدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويغفل عن نعمة الله في شربة ماء اذا احتاج الى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها فتأمل في عجائب المياه والانهار والآبار والبحار ففيها متسع للفكر ومجال وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكمته فيها منادية أرباب القلوب بنغماتها قائلة لكل ذي لب اما تراني وترى صورتي وتركيبي وصفاتي ومنافعي واختلاف حالاتي وكثرة فوائدي أتظن أني كونت نفسي أوخلقني أحد من جنسي أو ما تستحيي أن تنظر في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف فتقطع بأنها من صنعة آدمي عالم قادر مريد متكلم ثم تنظر الى عجائب الخطوط الالهية المرقومة على صفحات وجهي بالقلم الالهي الذي لا تدرك الابصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط ثم ينفك قلبك عن جلالة صانعه وتقول النطفة لارباب السمع والقلب لا للذين هم عن السمع معزولون توهمني في ظلمة الاحشاء مغموسة في دم الحيض في الوقت الذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي فينقش النقاش حدقتي وأجفاني وجبهتي وخدي وشفتي فترى التقويس يظهر شيأ فشيأ على التدريج ولا ترى داخل النطفة نقاشا ولا خارجها ولا داخل الرحم ولا خارجه ولا خبر منها للام ولا للاب ولا للنطفة ولا للرحم أفما هذا النقاش بأعجب مما تشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت اليها مرة أو مرتين لتعلمته فهل تقدر على أن تتعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذي يعم ظاهر النطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملامسة للنطفة ومن غير اتصال بها لا من داخل ولا من خارج فان كنت لا تتعجب من هذه العجائب ولا تفهم بها ان الذي صور ونقش وقدر لا نظير له ولا يساويه نقاش ولا مصور كما ان نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع فبين الفاعلين من المباينة والتباعد ما بين الفعلين فان كنت لا تتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك فانه أعجب من كل عجب فان الذي أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنعك من التبين مع هذا البيان جدير بان تتعجب منه فسبحان من هدى وأضل وأغوى وأرشد وأشقى وأسعد وفتح بصائر أحبابه فشاهدوه في جميع ذرات العالم وأجزائه وأعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزه وعلائه فله الخلق والامر والامتنان والفضل واللطف والقهر لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه *(ومن آياته الهواء اللطيف المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الارض)* لا يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه ولا يرى بالعين شخصه وجملته مثل البحر الواحد والطيور محلقة في جو السماء ومستقبة سباحة فيه باجنحتها كما تسبح حيوانات البحر في الماء وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر فاذا حرك الله الهواء وجعله ريحا هابة فان شاء جعله نشرا بين يدي رحمته كما قال سبحانه وأرسلنا الرياح لواقح فيصل بحركته روح الهواء الى الحيوانات والنباتات فتستعد للنماء وان شاء جعله عذابا على العصاة من خليقته كما قال تعالى انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ثم انظر الى لطف الهواء ثم شدته وقوته مهما ضغط في الماء فالزق المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوي ليغمسه في الماء فيعجز عنه والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوته مع لطافته وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه الماء وكذلك كل مجوف فيه هواء لا يغوص في الماء لان الهواء ينقبض عن الغوص في الماء فلا ينفصل عن السطح الداخل من السفينة فتبقى السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلقة في الهواء اللطيف كالذي يقع في بئر فيتعلق بذيل رجل قوي ممتنع عن الهوي في البئر فالسفينة بمقعرها تتشبث باذيال الهواء القوي حتى تمتنع من الهوي والغوص في الماء فسبحان من علق المركب الثقيل في الهواء اللطيف من غير علاقة تشاهد وعقدة تشد ثم انظر الى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم

وبدا له من بعد ما اندمل الهوى
برق تألق موهنا لمعانه
يبدو كحاشية الرداء ودونه
صعب الذرى متمنع أركانه
فبدا لينظر كيف لاح فلم يطق
نظرا اليه ورده أشجانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه
والماء ما سمحت به أجفانه

(ومنها) قولهم التجلي والاستتار (قال) الجنيد انما هو تأديب وتهذيب وتذويب فالتأديب محل الاستتار وهو للعوام والتهذيب للخواص وهو التجلي

والرعود والبروق والامطار والثلوج والشهب والصواعق فهي عجائب ما بين السماء والارض وقد أشار
القرآن الى جملة ذلك في قوله تعالى وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين وهذا هو الذي بينهما وأشار
الى تفصيله في مواضع شتى حيث قال تعالى والسحاب المسخر بين السماء والارض وحيث تعرض للرعد والبرق
والسحاب والمطر فاذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة الا أن ترى المطر بعينك وتسمع الرعد باذنك فالبهيمة تشاركك
في هذه المعرفة فارتفع من حضيض عالم البهائم الى عالم الملأ الاعلى فقد فتحت عينيك فادركت ظاهرها فاغمض
عينك الظاهرة وانظر ببصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها وهذا أيضا باب يطول الفكر
فيه اذ لا مطمع في استقصائه فتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه وكيف
يخلقه الله تعالى اذا شاء ومتى شاء وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل وممسك له في جو السماء الى أن يأذن الله في
ارسال الماء وتقطيع القطرات كل قطرة بالقدر الذي أراده الله تعالى وعلى الشكل الذي شاءه فترى السحاب يرش
الماء على الارض ويرسله قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها قطرة ولا تتصل واحدة باخرى بل تنزل كل واحدة
في الطريق الذي رسم لها لا تعدل عنه فلا يتقدم المتأخر ولا يتأخر المتقدم حتى يصيب الارض قطرة قطرة فلو
اجتمع الاولون والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة أو يعرفوا عدد ما ينزل منها في بلدة واحدة أو قرية واحدة
لعجز حساب الجن والانس عن ذلك فلا يعلم عددها الا الذي أوجدها ثم كل قطرة منها عينت لكل جزء من الارض
ولكل حيوان فيها من طير ووحش وجميع الحشرات والدواب مكتوب على تلك القطرة بخط الهي لا يدرك
بالبصر الظاهر انها رزق الدودة الفلانية التي في ناحية الجبل الفلاني تصل اليها عند عطشها في الوقت الفلاني هذا
مع ما في انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفي تناثر الثلوج كالقطن المندوف من العجائب التي لا تحصى كل
ذلك فضل من الجبار القادر وقهر من الخلاق القاهر ما لأحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل بل ليس للمؤمنين من
خلقه الا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته ولا للعميان الجاحدين الا الجهل بكيفيته ورجم الظنون
بذكر سببه وعلته فيقول الجاهل المغرور انما ينزل الماء لانه ثقيل بطبعه وانما هذا سبب نزوله ويظن أن هذه معرفة
انكشفت له ويفرح بها ولو قيل له ما معنى الطبع وما الذي خلقه ومن الذي خلق الماء الذي طبعه الثقل وما الذي
رقى الماء المصبوب في أسافل الشجر الى أعالي الاغصان وهو ثقيل بطبعه فكيف هوى الى أسفل ثم ارتفع الى فوق
في داخل تجاويف الاشجار شيأ فشيأ بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر في جميع أطراف الاوراق فيغذي كل جزء
من كل ورقة ويجري اليها في تجاويف عروق شعرية صغار يروى منه العرق الذي هو أصل الورقة ثم ينتشر من ذلك
العرق الكبير الممدود في طول الورقة عروق صغار فكأن الكبير نهر وما انشعب عنه جداول ثم ينشعب من
الجداول سواق أصغر منها ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن ادراك البصر حتى تنبسط في جميع
عرض الورقة فيصل الماء في أجوافها الى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ويزينها وتبقى طراوتها ونضارتها
وكذلك الى سائر أجزاء الفواكه فان كان الماء يتحرك بطبعه الى أسفل فكيف تحرك الى فوق فان كان ذلك بجذب
جاذب فما الذي سخر ذلك الجاذب وان كان ينتهي بالآخرة الى خالق السموات والارض وجبار الملك والملكوت
فلم لا يحال عليه من أول الامر فنهاية الجاهل بداية العاقل (ومن آياته ملكوت السموات وما فيها من الكواكب)
وهو الامر كله ومن أدرك الكل وفاته عجائب السموات فقد فاته الكل تحقيقا فالارض والبحار والهواء وكل جسم
سوى السموات بالاضافة الى السموات كقطرة في بحر وأصغر ثم انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم في
كتابه فما من سورة الا وتشتمل على تفخيمها في مواضع وكم من قسم في القرآن بها كقوله تعالى والسماء ذات
البروج والسماء والطارق والسماء ذات الحبك والسماء وما بناها وكقوله تعالى والشمس وضحاها والقمر اذا
تلاها وقوله تعالى فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس وقوله تعالى والنجم اذا هوى فلا أقسم بمواقع النجوم وانه
لقسم لو تعلمون عظيم فقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الاولون والآخرون وما أقسم الله بها فما
ظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال الارزاق عليه وأضافها اليه فقال تعالى وفي السماء رزقكم وما توعدون وأثنى
على المتفكرين فيه فقال ويتفكرون في خلق السموات والارض وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويل لمن قرأ

والتذويب للاولياء وهو المشاهدة وحاصل الاشارات في الاستتار والتجلي راجع الى ظهور صفات النفس *(ومنها)* الاستتار وهو اشارة الى غيبة صفات النفس بكمال قوة صفات القلب *(ومنها)* التجلي ثم التجلي قد يكون بطريق الافعال وقد يكون بطريق الصفات وقد يكون بطريق الذات والحق تعالى أبقى على الخواص موضع الاستتار رحمة منه لهم ولغيرهم فاما لهم فلانهم به يرجعون الى مصالح

هذه الآية ثم مسح بها سبلته أى تجاوزها من غير فكر وذم المعرضين عنها فقال وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون فأى نسبة لجميع البحار والارض الى السماء وهى متغيرات على القرب والسموات صلاب شداد محفوظات عن التغير الى أن يبلغ الكتاب أجله ولذلك سماه الله تعالى محفوظا فقال وجعلنا السماء سقفا محفوظا وقال سبحانه وبنينا فوقكم سبعا شدادا وقال أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها فانظر الى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت ولا تظنن أن معنى النظر الى الملكوت بأن تمد البصر اليه فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرقها فان البهائم تشاركك فى هذا النظر فان كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى ابراهيم بقوله وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض لا بل كل ما يدرك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة وما غاب عن الابصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت والله تعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط أحد بشىء من علمه الا بما شاء وهو عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول فأجل أيها العاقل فكرك فى الملكوت فعسى يفتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك فى أقطارها الى أن يقوم قلبك بين يدى عرش الرحمن فعند ذلك ربما يرجى لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه حيث قال رأى قلبى ربى وهذا لان بلوغ الاقصى لا يكون الا بعد مجاوزة الادنى وأدنى شىء اليك نفسك ثم الارض التى هى مقرك ثم الهواء المكتنف لك ثم النبات والحيوان وما على وجه الارض ثم عجائب الجو وهو ما بين السماء والارض ثم السموات السبع بكواكبها ثم الكرسى ثم العرش ثم الملائكة الذين هم حملة العرش وخزان السموات ثم منه تجاوز الى النظر الى رب العرش والكرسى والسموات والارض وما بينهما فبينك وبينه هذه المفاوز العظيمة والمسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة وهى معرفة ظاهر نفسك ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدعى معرفة ربك وتقول قد عرفته وعرفت خلقه ففيماذا أتفكر والى ماذا أتطلع فارفع الآن رأسك الى السماء وانظر فيها وفى كواكبها وفى دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤبها فى الحركة على الدوام من غير فتور فى حركتها ومن غير تغير فى سيرها بل تجرى جميعا فى منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص الى أن يطويها الله تعالى طى السجل للكتاب وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها فبعضها يميل الى الحمرة وبعضها الى البياض وبعضها الى اللون الرصاصى ثم انظر كيفية أشكالها فبعضها على صورة العقرب وبعضها على صورة الحمل والثور والاسد والانسان وما من صورة فى الارض الا ولها مثال فى السماء ثم انظر الى مسير الشمس فى فلكها فى مدة سنة ثم هى تطلع فى كل يوم وتغرب بسير آخر سخرها له خالقها ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف المواقيت ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة فانظر كيف جعل الله تعالى الليل لباسا والنوم سباتا والنهار معاشا وانظر الى ايلاجه الليل فى النهار والنهار فى الليل وادخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص وانظر الى امالته مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف فاذا انخفضت الشمس من وسط السماء فى مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء واذا استوت فى وسط السماء اشتد القيظ واذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان وعجائب السموات لا مطمع فى احصاء عشر عشير جزء من أجزائها وانما هذا تنبيه على طريق الفكر واعتقد على الجملة انه ما من كوكب من الكواكب الا ولله تعالى حكم كثيرة فى خلقه ثم فى مقداره ثم فى شكله ثم فى لونه ثم فى وضعه من السماء وقربه من وسط السماء وبعده وقربه من الكواكب التى بجنبه وبعده وقس على ذلك ما ذكرناه من أعضاء بدنك اذ ما من جزء الا وفيه حكمة بل حكم كثيرة وأمر السماء أعظم بل لا نسبة لعالم الارض الى عالم السماء لا فى كبر جسم ولا فى كثرة معانيه وقس التفاوت الذى بينهما فى كثرة المعانى بما بينهما من التفاوت فى كبر الارض فأنت تعرف من كبر الارض واتساع أطرافها انه لا يقدر آدمى على أن يدركها ويدور بجوانبها وقد اتفق الناظرون على أن الشمس مثل الارض مائة ونيفا وستين مرة وفى الاخبار ما يدل على عظمها ثم الكواكب التى تراها أصغرها مثل الارض ثمانى مرات وأكبرها ينتهى الى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الارض وبهذا تعرف ارتفاعها

النفوس وأما الغيرهم فلانه لولا مواضع الاستتار لم ينتفع بهم لاستغراقهم فى جمع الجمع وبروزهم لله الواحد القهار (قال بعضهم) علامة تجلى الحق للاسرار هو أن يشهد السر مالا يتسلط عليه التعبير ويحويه الفهم فمن عبر أو فهم فهو صاحب استدلال لا ناظر اجلال (وقال بعضهم) التجلى رفع حجبة البشرية لا أن يتلون ذات الحق عز وجل والاستتار ان تكون البشرية حائلة بينك وبين شهود الغيب (ومنها التجريد والتفريد) الاشارة منهم

وبعدها اذ البعد صارت ترى صغارا ولذلك أشار الله تعالى الى بعدها فقال رفع سمكها فسواها وفى الاخبار أن
مابين كل سماء الى الاخرى مسيرة خمسمائة عام فاذا كان مقدار كوكب واحد مثل الارض أضعافا فانظر الى
كثرة الكواكب ثم انظر الى السماء التى الكواكب مركوزة فيها والى عظمها ثم انظر الى سرعة حركتها وأنت
لاتحس بحركتها فضلا عن أن تدرك سرعتها لكن لاتشك انها فى لحظة تسير مقدار عرض كوكب لان الزمان
من طلوع أول جزء من كوكب الى تمامه يسير وذلك الكوكب هو مثل الارض مائة مرة وزيادة فقد دار الفلك
فى هذه اللحظة مثل الارض مائة مرة وهكذا يدور على الدوام وأنت غافل عنه وانظر كيف عبر جبريل عليه السلام
عن سرعة حركته اذ قال له النبى صلى الله عليه وسلم هل زالت الشمس فقال لا نعم فقال كيف تقول لا نعم فقال
من حين قلت لا الى أن قلت نعم سارت الشمس خمسمائة عام فانظر الى عظم شخصها ثم الى خفة حركتها ثم انظر الى
قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتها مع اتساع أكنافها فى حدقة العين مع صغرها حتى تجلس على الارض
وتفتح عينيك نحوها فترى جميعها فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لاتنظر اليها بل انظر الى بارئها كيف
خلقها ثم أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة من فوقها وكل العالم كبيت واحد والسماء سقفه فالعجب
منك انك تدخل بيت غنى فتراه مزوقا بالصبغ مموها بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولاتزال تذكره وتصف
حسنه طول عمرك وأنت أبدا تنظر الى هذا البيت العظيم والى أرضه والى سقفه والى هوائه والى عجائب أمتعته
وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه ثم لاتتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك اليه فما هذا البيت دون ذلك البيت الذى
تصفه بل ذلك البيت هو أيضا جزء من الارض التى هى أخس أجزاء هذا البيت ومع هذا فلا تنظر اليه ليس له
سبب الا انه بيت ربك هو الذى انفرد ببنائه وترتيبه وأنت قد نسيت نفسك وربك وبيت ربك واشتغلت
ببطنك وفرجك ليس لك هم الا شهوتك أو حشمتك وغاية شهوتك أن تملأ بطنك ولا تقدر على ان تأكل عشر
ما تأكله بهيمة فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات وغاية حشمتك ان تقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك
فينافقون بالسنتهم بين يديك ويضمرون خبائث الاعتقادات عليك وان صدقوك فى مودتهم اياك فلا
يملكون لك ولا لانفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا وقد يكون فى بلدك من أغنياء اليهود
والنصارى من يزيد جاهه على جاهك وقد اشتغلت بهذا الغرور وغفلت عن النظر فى جمال ملكوت السموات
والارض ثم غفلت عن التنعم بالنظر الى جلال مالك الملكوت والملك وما مثلك ومثل عقلك الا كمثل النملة تخرج
من جحرها الذى حفرته فى قصر مشيد من قصور الملك رفيع البنيان حصين الاركان مزين بالجوارى والغلمان
وأنواع الذخائر والنفائس فانها اذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبتها لم تتحدث لو قدرت على النطق الا عن بيتها
وغذائها وكيفية ادخارها فاما حال القصر والملك الذى فى القصر فهى بمعزل عنه وعن التفكر فيه بل لاقدرة لها
على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها الى غيره وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه
وسائر بنيانه وغفلت أيضا عن سكانه فانت أيضا غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان سمواته
فلا تعرف من السماء الا ما تعرفه النملة من سقف بيتك ولا تعرف من ملائكة السموات الا ما تعرفه النملة منك
ومن سكان بيتك نعم ليس للنملة طريق الى ان تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه وأما أنت
فلك قدرة على ان تجول فى الملكوت وتعرف من عجائبه ما الخلق غافلون عنه ولنقبض عنان الكلام عن هذا
النمط فانه مجال لا آخر له ولو استقصينا أعمارا طويلة لم نقدر على شرح ما تفضل الله تعالى علينا بمعرفته وكل
ما عرفناه قليل نزر حقير بالاضافة الى ما عرفه جملة العلماء والاولياء وما عرفوه قليل نزر حقير بالاضافة الى
ما عرفه الانبياء عليهم الصلاة والسلام وجملة ما عرفوه قليل بالاضافة الى ما عرفه محمد نبينا صلى الله عليه وسلم
وما عرفه الانبياء كلهم قليل بالاضافة الى ما عرفته الملائكة المقربون كاسرافيل وجبريل أو غيرهما ثم جميع
علوم الملائكة والجن والانس اذا أضيف الى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى علما بل هو الى أن يسمى
دهشا وحيرة وقصورا وعجزا أقرب فسبحان من عرف عباده ما عرف ثم خاطب جميعهم فقال وما أوتيتم من العلم
الا قليلا فهذا بيان معاقد الجمل التى تجول فيها فكر المتفكرين فى خلق الله تعالى وليس فيها فكر فى ذات الله
تعالى ولكن يستفاد من الفكر فى الخلق لامحالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته وكلما استكثرت

فى التجريد والتفريد ان العبد يتجرد عن الاغراض فيما يفعله لاياتى بما ياتى به نظرا الى الاغراض فى الدنيا والآخرة بل ما كوشف به من حق العظمة يؤديه حسب جهده عبودية وانقيادا والتفريد أن لا يرى نفسه فيما ياتى به بل يرى منة الله عليه فالتجريد بنفى الاغيار والتفريد بنفى نفسه واستغراقه فى رؤية نعمة الله عليه وغيبته عن كسبه

(ومنها الوجد والتواجد والوجود)

فالوجد ما يرد على الباطن من الله يكسبه فرحا أو

من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم وهذا كما انك تعظم عالما بسبب معرفتك بعلمه فلا تزال تطلع على غريبة غريبة من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسبه له توقيرا وتعظيما واحتراما حتى ان كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من أبيات شعره تزيده محلا من قلبك يستدعي التعظيم له في نفسك فهكذا تأمل في خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه وكل ما في الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر في الفكر فيه لا يتناهى أبدا وانما لكل عبد منهما بقدر ما رزق فلنقتصر على ما ذكرناه ولنضف الى هذا ما فصلناه في كتاب الشكر فانا نظرنا في ذلك الكتاب في فعل الله تعالى من حيث هو احسان الينا وانعام علينا وفي هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث انه فعل الله فقط وكل ما نظرنا فيه فان الطبيعي ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته والموفق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته وما من ذرة في السماء والارض الا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ويهدي بها من يشاء فمن نظر في هذه الامور من حيث انها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته واهتدى به ومن نظر فيها قاصرا النظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لا من حيث ارتباطها بمسبب الاسباب فقد شقي وارتدى فنعوذ بالله من الضلال ونسأله أن يجنبنا مزلة أقدام الجهال بمنه وكرمه وفضله وجوده ورحمته تم الكتاب التاسع من ربع المنجيات والحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله وسلامه يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده وبه كمل جميع الديوان بحمد الله تعالى وكرمه

(كتاب ذكر الموت وما بعده وهو الكتاب العاشر من ربع المنجيات وبه اختتام كتاب احياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي قصم بالموت رقاب الجبابره وكسر به ظهور الاكاسره وقصر به آمال القياصره الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافره حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم في الحافره فنقلوا من القصور الى القبور ومن ضياء المهود الى ظلمة اللحود ومن ملاعبة الجواري والغلمان الى مقاساة الهوام والديدان ومن التنعم بالطعام والشراب الى التمرغ في التراب ومن انس العشرة الى وحشة الوحدة ومن المضجع الوثير الى المصرع الوبيل فانظر هل وجدوا من الموت حصنا وعزا واتخذوا من دونه حجابا وحرزا وانظر هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء واستأثر باستحقاق البقاء وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء ثم جعل الموت مخلصا للاتقياء وموعدا في حقهم للقاء وجعل القبر سجنا للاشقياء وحبسا ضيقا عليهم الى يوم الفصل والقضاء فله الانعام بالنعم المتظاهرة وله الانتقام بالنقم القاهرة وله الشكر في السموات والارض وله الحمد في الاولى والآخرة والصلاة على محمد ذي المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا (أما بعد) فجدير بمن الموت مصرعه والتراب مضجعه والدود أنيسه ومنكر ونكير جليسه والقبر مقره وبطن الارض مستقره والقيامة موعده والجنة أو النار مورده أن لا يكون له فكر الا في الموت ولا ذكر الا له ولا استعداد الا لاجله ولا تدبير الا فيه ولا تطلع الا اليه ولا تعريج الا عليه ولا اهتمام الا به ولا حول الا حوله ولا انتظار وتربص الا له وحقيق بان يعد نفسه من الموتى ويراها في أصحاب القبور فان كل ما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت وقد قال صلى الله عليه وسلم الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ولن يتيسر الاستعداد للشئ الا عند تجدد ذكره على القلب ولا يتجدد ذكره الا عند التذكر بالاصغاء الى المذكرات له والنظر في المنبهات عليه ونحن نذكر من أمر الموت ومقدماته ولواحقه وأحوال الآخرة والقيامة والجنة والنار ما لا بد للعبد من تذكاره على التكرار وملازمته بالافتكار والاستبصار ليكون ذلك مستحثا على الاستعداد فقد قرب لما بعد الموت الرحيل فما بقي من العمر الا القليل والخلق عنه غافلون اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ونحن نذكر ما يتعلق بالموت في شطرين

(الشطر الاول في مقدماته وتوابعه الى نفخة الصور وفيه ثمانية أبواب)

حزنا ويغيره عن هيئته ويتطلع الى الله تعالى وهو فرحة يجدها المغلوب عليه بصفات نفسه ينظر منها الى الله تعالى والتواجد استجلاب الوجد بالذكر والتفكر والوجود اتساع فرجة الوجد بالخروج الى فضاء الوجدان فلا وجد مع الوجدان ولا خبر مع العيان فالوجد بعرضية الزوال والوجود ثابت بثبوت الجبال وقد قيل

قد كان يطربني وجدي فاقعدني
عن رؤية الوجد من في الوجد موجود

الراشدين من بعده الباب الخامس فى كلام المحتضرين من الخلفاء والامراء والصالحين الباب السادس فى أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور الباب السابع فى حقيقة الموت وما يلقاه الميت فى القبر الى نفخة الصور الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة فى المنام

(الباب الاول فى ذكر الموت والترغيب فى الاكثار من ذكره)

اعلم ان المنهمك فى الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لامحالة عن ذكر الموت فلا يذكره واذا ذكر به كرهه ونفر منه أولئك هم الذين قال الله فيهم قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ثم الناس اما منهمك واما تائب مبتدئ أو عارف منته أما المنهمك فلا يذكر الموت وان ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشتغل بمذمته وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعدا وأما التائب فانه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فيفى بتمام التوبة وربما يكره الموت خيفة من ان يختطفه قبل تمام التوبة وقبل اصلاح الزاد وهو معذور فى كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم من كره لقاء الله كره الله لقاءه فان هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وانما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره وهو كالذى يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه فلا يعد كارها للقائه وعلامة هذا ان يكون دائم الاستعداد له لاشغل له سواه والا التحق بالمنهمك فى الدنيا وأما العارف فانه يذكر الموت دائما لانه موعد للقائه لحبيبه والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب وهذا فى غالب الامر يستبطئ مجيء الموت ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل الى جوار رب العالمين كما روى عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم اللهم ان كنت تعلم أن الفقر أحب الى من الغنى والسقم أحب الى من الصحة والموت أحب الى من العيش فسهل على الموت حتى ألقاك فاذا التائب معذور فى كراهة الموت وهذا معذور فى حب الموت وتمنيه وأعلى منهما رتبة من فوض أمره الى الله تعالى فصار لا يختار لنفسه موتا ولا حياة بل يكون أحب الاشياء اليه أحبها الى مولاه فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء الى مقام التسليم والرضا وهو الغاية والمنتهى وعلى كل حال ففى ذكر الموت ثواب وفضل فان المنهمك أيضا يستفيد بذكر الموت التجافى عن الدنيا اذ ينغص عليه نعيمه ويكدر عليه صفو لذته وكل ما يكدر على الانسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة

(بيان فضل ذكر الموت كيفما كان)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثروا من ذكر هاذم اللذات معناه نغصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم اليها فتقبلوا على الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا وقالت عائشة رضى الله عنها يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد قال نعم من يذكر الموت فى اليوم والليلة عشرين مرة وانما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت يوجب التجافى عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للآخرة والغفلة عن الموت تدعو الى الانهماك فى شهوات الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم تحفة المؤمن الموت وانما قال هذا لان الدنيا سجن المؤمن اذ لا يزال فيها فى عناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومدافعة شيطانه فالموت اطلاق له من هذا العذاب والاطلاق تحفة فى حقه وقال صلى الله عليه وسلم الموت كفارة لكل مسلم وأراد بهذا المسلم حقا المؤمن صدقا الذى يسلم المسلمون من لسانه ويده ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدنس من المعاصى الا باللمم والصغائر فالموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنابه الكبائر واقامته الفرائض قال عطاء الخراسانى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات قالوا وما مكدر اللذات قال الموت وقال أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثروا من ذكر الموت فانه يمحص الذنوب ويزهد فى الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم كفى بالموت مفرقا وقال عليه السلام كفى بالموت واعظا وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المسجد فاذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال اذكروا الموت أما والذى نفسى بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فأحسنوا الثناء عليه فقال كيف ذكر صاحبكم للموت قالوا ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت قال فان صاحبكم ليس هنالك وقال ابن

والوجد يطرب من فى الوجد راحته والوجد عند حضور الحق مفقود

(ومنها الغلبة) الغلبة وجد متلاحق فالوجد كالبرق يبدو والغلبة كتلاحق البرق وتواتره يغيب عن التمييز فالوجد ينطفئ سريعا والغلبة تبقى للاسرار حرزا منيعا

(ومنها المسامرة) وهى تفرد الارواح بخفى مناجاتها ولطيف مناغاتها فى سر السر ولطيف ادراكها القلب لتفرد الروح بها فاتلتذ بها دون القلب

(ومنها السكر والصحو)

عمر رضى الله عنهما أتيت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الانصار من أكيس الناس وأكرم الناس يارسول الله فقال أكثرهم ذكرا للموت وأشدهم استعدادا له أولئك هم الاكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة (وأما الآثار) فقد قال الحسن رحمه الله تعالى فضح الموت الدنيا فلم يترك لذى لب فرحا وقال الربيع بن خيثم ما غائب ينتظره المؤمن خير اله من الموت وكان يقول لاتشعروا بى أحدا وسلونى الى ربى سلا وكتب بعض الحكماء الى رجل من اخوانه يا أخى احذر الموت فى هذه الدار قبل أن تصير الى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده وكان ابن سيرين اذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة وقال ابراهيم التيمى شيآن قطعا عنى لذة الدنيا ذكر الموت والوقوف بين يدى الله عز وجل وقال كعب من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها وقال مطرف رأيت فيما يرى النائم كان قائلا يقول فى وسط مسجد البصرة قطع ذكر الموت قلوب الخائفين فوالله ما تراهم الا والهين وقال أشعث كنا ندخل على الحسن فانما هو النار وأمر الآخرة وذكر الموت وقالت صفية رضى الله عنها ان امرأة اشتكت الى عائشة رضى الله عنها قساوة قلبها فقالت أكثرى ذكر الموت يرق قلبك ففعلت فرق قلبها فجاءت تشكر عائشة رضى الله عنها وكان عيسى عليه السلام اذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دما وكان داود عليه السلام اذا ذكر الموت والقيامة يبكى حتى تنخلع أوصاله فاذا ذكر الرحمة رجعت اليه نفسه وقال الحسن ما رأيت عاقلا قط الا أصبته من الموت حذرا وعليه حزينا وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء عظنى فقال أنت أول خليفة تموت قال زدنى قال ليس من آبائك أحد الى آدم الا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك فبكى عمر لذلك وكان الربيع بن خيثم قد حفر قبرا فى داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت وكان يقول لو فارق ذكر الموت قلبى ساعة واحدة لفسد وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير ان هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيما لاموت فيه وقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة أكثر ذكر الموت فان كنت واسع العيش ضيقه عليك وان كنت ضيق العيش وسعه عليك وقال أبو سليمان الدارانى قلت لام هرون أتحبين الموت قالت لا قلت لم قالت لو عصيت آدميا ما اشتهيت لقاءه فكيف أحب لقاءه وقد عصيته

(بيان الطريق فى تحقيق ذكر الموت فى القلب)

اعلم أن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا ينجع ذكر الموت فى قلبه فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل شئ الا عن ذكر الموت الذى هو بين يديه كالذى يريد أن يسافر الى مفازة مخطرة أو يركب البحر فانه لا يتفكر الا فيه فاذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ويتذكر صورهم فى مناصبهم وأحوالهم ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم وكيف تبددت أجزاؤهم فى قبورهم وكيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم فهما تذكر رجلا رجلا وفصل فى قلبه حاله وكيفية موته وتوهم صورته وتذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء ونسيانه للموت وانخداعه بمواتاة الاسباب وركونه الى القوة والشباب وميله الى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع وانه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله وانه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج اليه الى عشر سنين فى وقت لم يكن بينه وبين الموت الا شهر وهو غافل عما يراد به حتى جاءه الموت فى وقت لم يحتسبه فانكشف له صورة الملك وقرع سمعه النداء اما بالجنة أو بالنار فعند ذلك ينظر فى نفسه أنه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كعاقبتهم قال أبو الدرداء رضى الله عنه اذا ذكرت الموتى فعد نفسك كأحدهم وقال ابن مسعود رضى الله عنه السعيد من وعظ بغيره وقال عمر بن عبد العزيز ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غاديا أو رائحا الى الله عز وجل تضعونه فى صدع من الارض قد توسد التراب وخلف الاحباب وقطع

فالسكر استيلاء سلطان الحال والصحو العود الى ترتيب الافعال وتهذيب الاقوال قال محمد بن خفيف السكر غليان القلب عند معارضات ذكر المحبوب وقال الواسطى مقامات الوجد أربعة الذهول ثم الحيرة ثم السكر ثم الصحو كمن سمع بالبحر ثم دنا منه ثم دخل فيه ثم أخذته الامواج فعلى هذا من بقى عليه أثر من سريان الحال فيه فعليه أثر من السكر ومن عاد كل شئ منه الى مستقره فهو صاح فالسكر لارباب القلوب والصحو للمكاشفين بحقائق الغيوب

الاسباب فملازمة هذه الافكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذى يجدد ذكر الموت فى القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه فعند ذلك يوشك أن يستعد له ويتجافى عن دار الغرور والا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى فى التحذير والتنبيه ومهما طاب قلبه بشئ من الدنيا ينبغى أن يتذكر فى الحال انه لابد له من مفارقته نظر ابن مطيع ذات يوم الى داره فأعجبه حسنها ثم بكى فقال والله لولا الموت لكنت بك مسرورا ولولا ما نصير اليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا ثم بكى بكاء شديدا حتى ارتفع صوته

(الباب الثانى فى طول الامل وفضيلة قصر الامل وسبب طوله وكيفية معالجته)

(فضيلة قصر الامل)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر اذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء واذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لسقمك فانك يا عبد الله لا تدرى ما اسمك غدا وروى على كرم الله وجهه أنه صلى الله عليه وسلم قال ان أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الامل فأما اتباع الهوى فانه يصد عن الحق وأما طول الامل فانه الحب للدنيا ثم قال ألا ان الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ويبغض واذا أحب عبدا أعطاه الايمان ألا ان للدين أبناء وللدنيا أبناء فكونوا من أبناء الدين ولا تكونوا من أبناء الدنيا ألا ان الدنيا قد ارتحلت مولية ألا ان الآخرة قد ارتحلت مقبلة ألا وانكم فى يوم عمل ليس فيه حساب ألا وانكم توشكون فى يوم حساب ليس فيه عمل وقالت أم المنذر اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات عشية الى الناس فقال أيها الناس أما تستحيون من الله قالوا وماذاك يا رسول الله قال تجمعون ما لا تأكلون وتأملون ما لا تدركون وتبنون ما لا تسكنون وقال أبو سعيد الخدرى اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار الى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا تعجبون من أسامة المشترى الى شهر ان أسامة لطويل الامل والذى نفسى بيده ما طرفت عيناى الا ظننت أن شفرى لا يلتقيان حتى يقبض الله روحى ولا رفعت طرفى فظننت انى واضعه حتى أقبض ولا لقمت لقمة الا ظننت أنى لا أسيغها حتى أغص بها من الموت ثم قال يا بنى آدم ان كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى والذى نفسى بيده ان ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج يهريق الماء فيتمسح بالتراب فأقول له يا رسول الله ان الماء منك قريب فيقول ما يدرينى لعلى لا أبلغه وروى أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلاثة أعواد فغرز عودا بين يديه والآخر الى جنبه وأما الثالث فأبعده فقال هل تدرون ما هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا الانسان وهذا الاجل وذاك الامل يتعاطاه ابن آدم ويختلجه الاجل دون الامل وقال عليه السلام مثل ابن آدم والى جنبه تسع وتسعون منية ان أخطأته المنايا وقع فى الهرم قال ابن مسعود هذا المرء وهذه الحتوف حوله شوارع اليه والهرم وراء الحتوف والامل وراء الهرم فهو يؤمل وهذه الحتوف شوارع اليه فأيها أمر به أخذه فان أخطأته الحتوف قتله الهرم وهو ينتظر الامل وقال عبد الله خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطا وخط خطوطا الى جنب الخط وخط خطا خارجا وقال أتدرون ما هذا قلنا الله ورسوله أعلم قال هذا الانسان للخط الذى فى الوسط وهذا الاجل محيط به وهذه الاعراض للخطوط التى حوله تنهشه ان أخطأه هذا نهشه هذا وذاك الامل يعنى الخط الخارج وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان الحرص والامل وفى رواية وتشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نجا أول هذه الامة باليقين والزهد ويهلك آخر هذه الامة بالبخل والامل وقيل بينما عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة يثير بها الارض فقال عيسى اللهم انزع منه الامل فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة فقال عيسى اللهم اردد اليه الامل فقام فجعل يعمل فسأله عيسى عن ذلك فقال بينما أنا أعمل اذ قالت لى نفسى الى متى تعمل وأنت شيخ كبير فألقيت المسحاة واضطجعت ثم قالت لى نفسى والله لابد لك من عيش ما بقيت فقمت الى مسحاتى وقال الحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكلكم يحب أن يدخل الجنة قالوا نعم يا رسول الله قال قصروا من الامل وثبتوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء وكان صلى الله عليه وسلم

(ومنها المحو والاثبات) المحو بازالة أوصاف النفوس والاثبات بما أدير عليهم من آثار الحب كؤس أو المحو محو رسوم الاعمال بنظر الفناء الى نفسه وما منه والاثبات اثباتها بما أنشأ الحق له من الوجود به فهو بالحق لا بنفسه باثبات الحق اياه مستأنفا بعد أن محاه عن أوصافه* قال ابن عطاء يمحو أوصافهم ويثبت أسرارهم

(ومنها علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين)

فعلم اليقين ما كان من طريق النظر

يقول فى دعائه اللهم انى أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل (الآثار) قال مطرف بن عبد الله لو علمت متى أجلى لخشيت على ذهاب عقلى ولكن الله تعالى من على عباده بالغفلة عن الموت ولولا الغفلة ما تهنؤا بعيش ولا قامت بينهم الاسواق وقال الحسن السهو والامل نعمتان عظيمتان على بنى آدم ولولاهما ما مشى المسلمون فى الطرق وقال الثورى بلغنى أن الانسان خلق أحمق ولولا ذلك لم يهنأه العيش وقال أبو سعيد بن عبد الرحمن انما عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها وقال سلمان الفارسى رضى الله عنه ثلاث أعجبتنى حتى أضحكتنى مؤمل الدنيا والموت يطلبه وغافل وليس يغفل عنه وضاحك ملء فيه ولا يدرى أساخط رب العالمين عليه أم راض وثلاث أحزنتنى حتى أبكتنى فراق الاحبة محمد وحزبه وهول المطلع والوقوف بين يدى الله ولا أدرى الى الجنة يؤمر بى أو الى النار * وقال بعضهم رأيت زرارة بن أبى أوفى بعد موته فى المنام فقلت أى الاعمال أبلغ عندكم قال التوكل وقصر الامل وقال الثورى الزهد فى الدنيا قصر الامل ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباءة وسأل المفضل بن فضالة ربه أن يرفع عنه الامل فذهبت عنه شهوة الطعام والشراب ثم دعا ربه فرد عليه الامل فرجع الى الطعام والشراب وقيل للحسن يا أبا سعيد ألا تغسل قميصك فقال الامر أعجل من ذلك وقال الحسن الموت معقود بنواصيكم والدنيا تطوى من ورائكم وقال بعضهم أنا كرجل ماد عنقه والسيف عليه ينتظر متى تضرب عنقه وقال داود الطائى لو أملت أن أعيش شهرا لرأيتنى قد أتيت عظيما وكيف أؤمل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق فى ساعات الليل والنهار * وحكى انه جاء شقيق البلخى الى استاذه يقال له أبو هاشم الرمانى وفى طرف كسائه شئ مصرور فقال له استاذه ايش هذا معك فقال لوزات دفعها الى أخ لى وقال أحب أن تفطر عليها فقال يا شقيق وأنت تحدث نفسك انك تبقى الى الليل لا كلمتك أبدا قال فأغلق فى وجهى الباب ودخل * وقال عمر بن عبد العزيز فى خطبته ان لكل سفر زادا لا محالة فتزودوا لسفركم من الدنيا الى الآخرة التقوى وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا ولا يطولن عليكم الامد فتقسو قلوبكم وتنقادوا العدوكم فانه والله ما بسط أمل من لا يدرى لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يمسى بعد صباحه وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا وكم رأيت ورأيتم من كان بالدنيا مغترا وانما تقر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى وانما يفرح من أمن أهوال القيامة فأما من لا يداوى كلما الا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح أعوذ بالله من ان آمركم بما لا أنهى عنه نفسى فتخسر صفقتى وتظهر عيبتى وتبدو مسكنتى فى يوم يبدو فيه الغنى والفقر والموازين فيه منصوبة لقد عنيتم بامر لو عنيت به النجوم لانكدرت ولو عنيت به الجبال لذابت ولو عنيت به الارض لتشققت أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة وانكم صائرون الى احداهما وكتب رجل الى أخ له أما بعد فان الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن فى أضغاث أحلام والسلام وكتب آخر الى أخ له ان الحزن على الدنيا طويل والموت من الانسان قريب وللنقص فى كل يوم منه نصيب وللبلاء فى جسمه دبيب فبادر قبل أن تنادى بالرحيل والسلام وقال الحسن كان آدم عليه السلام قبل ان يخطئ أمله خلف ظهره وأجله بين عينيه فلما أصاب الخطيئة حول فجعل أمله بين عينيه وأجله خلف ظهره * وقال عبد الله بن سميط سمعت أبى يقول أيها المغتر بطول صحته أما رأيت ميتا قط من غير سقم أيها المغتر بطول المهلة أما رأيت مأخوذا قط من غير عدة انك لو فكرت فى طول عمرك لنسيت ما قد تقدم من لذاتك أبالصحة تغترون أم بطول العافية تمرحون أم الموت تأمنون أم على ملك الموت تجترؤن ان ملك الموت اذا جاء لا يمنعه منك ثروة مالك ولا كثرة احتشادك أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفريط ثم يقال رحم الله عبدا عمل لما بعد الموت رحم الله عبدا نظر لنفسه قبل نزول الموت وقال أبو زكريا التيمى بينما سليمان بن عبد الملك فى المسجد الحرام اذ أتى بحجر منقور فطلب من يقرؤه فأتى بوهب بن منبه فاذا فيه ابن آدم انك لو رأيت قرب ما بقى من أجلك لزهدت فى طول أملك ولرغبت فى الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك وحيلك وانما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك وفارقك الولد والقريب ورفضك الولد والنسيب فلا أنت الى دنياك عائد ولا فى حسناتك زائد فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة فبكى سليمان بكاء شديدا وقال بعضهم رأيت كتابا من محمد بن يوسف

والاستدلال وعين اليقين ما كان من طريق الكشوف والنوال وحق اليقين ما كان بتحقيق الانفصال عن لوث الصلصال بورود رائد الوصال قال فارس علم اليقين لا اضطراب فيه وعين اليقين هو العلم الذى أودعه الله الاسرار والعلم اذا انفرد عن نعت اليقين كان علما بشبهة فاذا انضم اليه اليقين كان علما بلا شبهة وحق اليقين هو حقيقة ما أشار اليه علم اليقين وعين اليقين وقال الجنيد حق اليقين ما يتحقق العبد بذلك وهو ان يشاهد الغيوب كما يشاهد المرئيات

الى عبد الرحمن بن يوسف سلام عليك فانى أحمد الله اليك الذى لا اله الا هو أما بعد فانى احذرك متحولك من دار مهلتك الى دار اقامتك وجزاء أعمالك فتصير فى قرار باطن الارض بعد ظاهرها فيأتيك منكر ونكير فيقعدانك وينتهرانك فان يكن الله معك فلا بأس ولا وحشة ولا فاقة وان يكن غير ذلك فاعاذنى الله واياك من سوء مصرع وضيق مضجع ثم تبلغك صيحة الحشر ونفخ الصور وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق وخلاء الارض من أهلها والسموات من سكانها فباحت الاسرار وأسعرت النار ووضعت الموازين وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين فكم من مفتضح ومستور وكم من هالك وناج وكم من معذب ومرحوم فياليت شعرى ما حالى وحالك يومئذ ففى هذا ما هادم اللذات وأسلى عن الشهوات وقصر عن الامل وأيقظ النائمين وحذر الغافلين أعاننا الله واياكم على هذا الخطر العظيم وأوقع الدنيا والآخرة من قلبى وقلبك موقعهما من قلوب المتقين فانما نحن به وله والسلام * وخطب عمر بن عبد العزيز فحمد الله وأثنى عليه وقال أيها الناس انكم لم تخلقوا عبثا ولن تتركوا سدى وان لكم معادا يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم فخاب وشقى غدا عبد أخرجه الله من رحمته التى وسعت كل شىء وجنته التى عرضها السموات والارض وانما يكون الامان غدا لمن خاف واتقى وباع قليلا بكثير وفانيا بباق وشقوة بسعادة ألا ترون انكم فى أسلاب الهالكين وسيخلف بعدكم الباقون ألا ترون انكم فى كل يوم تشيعون غاديا ورائحا الى الله عز وجل قد قضى نحبه وانقطع أمله فتضعونه فى بطن صدع من الارض غير موسد ولا ممهد قد خلع الاسباب وفارق الاحباب وواجه الحساب وايم الله انى لاقول مقالتى هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسى ولكنها سنن من الله عادلة آمر فيها بطاعته وأنهى فيها عن معصيته واستغفر الله ووضع كمه على وجهه وجعل يبكى حتى بلت دموعه لحيته وما عاد الى مجلسه حتى مات وقال القعقاع ابن حكيم قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة فلو أتانى ما أحببت تأخير شىء عن شىء وقال الثورى رأيت شيخا فى مسجد الكوفة يقول أنا فى هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بى ولو أتانى ما أمرته بشىء ولا نهيته عن شىء ولا لى على أحد شىء ولا لاحد عندى شىء وقال عبد الله بن ثعلبة تضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار وقال أبو محمد بن على الزاهد خرجنا فى جنازة بالكوفة وخرج فيها داود الطائى فانتبذ فقعد ناحية وهى تدفن فجئت فقعدت قريبا منه فتكلم فقال من خاف الوعيد قصر عليه البعيد ومن طال أمله ضعف عمله وكل ما هو آت قريب واعلم يا أخى أن كل شىء يشغلك عن ربك فهو عليك مشؤم واعلم ان أهل الدنيا جميعا من أهل القبور انما يندمون على ما يخلفون ويفرحون بما يقدمون فما ندم عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتتلون وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون وروى أن معروفا الكرخى رحمه الله تعالى أقام الصلاة قال محمد بن أبى توبة فقال لى تقدم فقلت انى ان صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها فقال معروف وأنت تحدث نفسك ان تصلى صلاة أخرى نعوذ بالله من طول الامل فانه يمنع من خير العمل وقال عمر بن عبد العزيز فى خطبته ان الدنيا ليست بدار قراركم دار كتب الله عليها الفناء وكتب على أهلها الظعن عنها فكم من عامر موثق عما قليل يخرب وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن فاحسنوا رحمكم الله منها الرحلة باحسن ما يحضركم من النقلة وتزودوا فان خير الزاد التقوى انما الدنيا كفىء ظلال قلص فذهب بينا ابن آدم فى الدنيا ينافس وهو قرير العين اذ دعاه الله بقدره ورماه بيوم حتفه فسلبه آثاره ودنياه وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه ان الدنيا لا تسر بقدر ما تضر انها تسر قليلا وتحزن طويلا * وعن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه انه كان يقول فى خطبته أين الوضاءة الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان أين الذين كانوا يعطون الغلبة فى مواطن الحرب قد تضعضع بهم الدهر فاصبحوا فى ظلمات القبور الوحا الوحا ثم النجا النجا

مشاهدة عيان ويحكم على الغيب فخبر عنه بالصدق كما أخبر الصديق حين قال لما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذا أبقيت لعيالك قال الله ورسوله وقال بعضهم علم اليقين حال التفرقة وعين اليقين حال الجمع وحق اليقين جمع الجمع بلسان التوحيد وقيل لليقين اسم ورسم وعلم وعين وحق فالاسم والرسم للعوام وعلم اليقين للاولياء وعين اليقين لخواص الاولياء وحق اليقين للانبياء عليهم الصلاة والسلام وحقيقة حق اليقين

(بيان السبب فى طول الامل وعلاجه)

اعلم ان طول الامل له سببان أحدهما الجهل والآخر حب الدنيا أما حب الدنيا فهو انه اذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها وكل من كره شيا دفعه عن نفسه والانسان مشغوف بالامانى الباطلة فيمنى نفسه أبدا بما يوافق مراده وانما يوافق مراده البقاء

في الدنيا فلا يزال يتوهمه ويقدره في نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج اليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر موقوفا عليه فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدر قربه فان خطر له في بعض الاحوال أمر الموت والحاجة الى الاستعداد له سوف ووعد نفسه وقال الايام بين يديك الى أن تكبر ثم تتوب واذا كبر فيقول الى أن تصير شيخا فاذا صار شيخا قال الى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة أو ترجع من هذه السفرة أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له أو تفرغ من قهر هذا العدو الذي يشمت بك فلا يزال يسوف ويؤخر ولا يخوض في شغل الا ويتعلق باتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر وهكذا على التدريج يؤخر يوما بعد يوم ويفضي به شغل الى شغل بل الى أشغال الى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه فتطول عند ذلك حسرته وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون واحزناه من سوف والمسوف المسكين لا يدري أن الذي يدعوه الى التسويف اليوم هو معه غدا وانما يزداد بطول المدة قوة ورسوخا ويظن انه يتصور أن يكون للخائض في الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيهات فما يفرغ منها الامن اطرحها

فما قضى أحد منها لبانته * وما انتهى أرب الا الى أرب

وأصل هذه الاماني كلها حب الدنيا والانس بها والغفلة عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم أحبب من أحببت فانك مفارقه وأما الجهل فهو أن الانسان قد يعول على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد وانما قلوا لان الموت في الشباب أكثر فالى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجأة ولا يدري أن ذلك غير بعيد وان كان ذلك بعيدا فالمرض فجأة غير بعيد وكل مرض فانما يقع فجأة واذا مرض لم يكن الموت بعيدا ولو تفكر هذا الغافل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع من ليل ونهار لعظم استشعاره واشتغل بالاستعداد له ولكن الجهل بهذه الامور وحب الدنيا دعواه الى طول الامل والى الغفلة عن تقدير الموت القريب فهو أبدا يظن أن الموت يكون بين يديه ولا يقدر نزوله به ووقوعه فيه وهو أبدا يظن انه يشيع الجنائز ولا يقدر أن تشيع جنازته لان هذا قد تكرر عليه وألفه وهو مشاهدة موت غيره فأما موت نفسه فلم يألفه ولا يتصور أن يألفه فانه لم يقع واذا وقع لم يقع دفعة أخرى بعد هذه فهو الاول وهو الآخر وسبيله أن يقيس نفسه بغيره ويعلم انه لابد وان تحمل جنازته ويدفن في قبره ولعل اللبن الذي يغطى به لحده قد ضرب وفرغ منه وهو لا يدري فتسويفه جهل محض واذا عرفت أن سببه الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه أما الجهل فيدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة وأما حب الدنيا فالعلاج في اخراجه من القلب شديد وهو الداء العضال الذي أعيا الاولين والآخرين علاجه ولا علاج له الا الايمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا فان حب الخطير هو الذي يمحو عن القلب حب الحقير فاذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت الى الدنيا كلها وان أعطي ملك الارض من المشرق الى المغرب وكيف وليس عنده من الدنيا الا قدر يسير مكدر منغص فكيف يفرح بها أو يترسخ في القلب حبها مع الايمان بالآخرة فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده ولا علاج في تقدير الموت في القلب مثل النظر الى من مات من الاقران والاشكال وانهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا أما من كان مستعدا فقد فاز فوزا عظيما وأما من كان مغرورا بطول الامل فقد خسر خسرانا مبينا فلينظر الانسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لا محالة وكيف تتفتت عظامها وليتفكر ان الدود يبدأ بحدقته اليمنى أولا أو اليسرى فما على بدنه شيء الا وهو طعمة الدود وماله من نفسه الا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى وكذلك يتفكر فيما سنورده من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ومن الحشر والنشر وأهوال القيامة وقرع النداء يوم العرض الاكبر فامثال هذه الافكار هي التي تجدد ذكر الموت على قلبه وتدعوه الى الاستعداد له

(بيان مراتب الناس في طول الامل وقصره)

اختص بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم *(ومنها الوقت)* والمراد بالوقت ماهو غالب على العبد وأغلب ما على العبد وقته فانه كالسيف يمضي الوقت بحكمه ويقطع وقد يراد بالوقت ما يهجم على العبد لا بكسبه فيتصرف فيه فيكون بحكمه يقال فلان بحكم الوقت يعني مأخوذا عما منه بما للحق *(ومنها الغيبة والشهود)* فالشهود هو الحضور وقتا بنعت المراقبة ووقتا بوصف المشاهدة فادام العبد موصوفا بالشهود اسم الرعاية فهو حاضر فاذا

اعلم ان الناس في ذلك يتفاوتون فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبدا قال الله تعالى يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ومنهم من يأمل البقاء الى الهرم وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه وهو الذي يحب الدنيا حبا شديدا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الشيخ شاب في حب طلب الدنيا وان التفت ترقوتاه من الكبر الا الذين اتقوا وقليل ماهم ومنهم من يأمل الى سنة فلا يشتغل بتدبير ماوراءها فلا يقدر لنفسه وجودا في عام قابل ولكن هذا يستعد في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف فاذا جمع ما يكفيه لسنته اشتغل بالعبادة ومنهم من يأمل مدة الصيف أو الشتاء فلا يدخر في الصيف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف ومنهم من يرجع أمله الى يوم وليلة فلا يستعد الا لنهاره وأما للغد فلا * قال عيسى عليه السلام لا تهتموا برزق غد فان يكن غد من آجالكم فستأتي فيه أرزاقكم مع آجالكم وان لم يكن من آجالكم فلا تهتموا للآجال غيركم ومنهم من لا يجاوز أمله ساعة كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم يا عبد الله اذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء واذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح ومنهم من لا يقدر البقاء أيضا ساعة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضي ساعة ويقول لعلي لا أبلغه ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به فهو ينتظره وهذا الانسان هو الذي يصلي صلاة مودع وفيه ورد ما نقل عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة ايمانه فقال ما خطوت خطوة الا ظننت اني لا أتبعها أخرى وكما نقل عن الاسود وهو حبشي انه كان يصلي ليلا ويلتفت يمينا وشمالا فقال له قائل ما هذا قال انظر ملك الموت من أي جهة يأتيني فهذه مراتب الناس ولكل درجات عند الله وليس من أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر ويوم بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله فان الله لا يظلم مثقال ذرة ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ثم يظهر أثر قصر الامل في المبادرة الى العمل وكل انسان يدعي انه قصير الامل وهو كاذب وانما يظهر ذلك بأعماله فانه يعتني بأسباب ربما لا يحتاج اليها في سنة فيدل ذلك على طول أمله وانما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لا يغفل عنه ساعة فليستعد للموت الذي يرد عليه في الوقت فان عاش الى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بأنه لم يضيع نهاره بل استوفى منه حظه وادخره لنفسه ثم يستأنف مثله الى الصباح وهكذا اذا أصبح ولا يتيسر هذا الا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه فمثل هذا اذا مات سعد وغنم وان عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة فالموت له سعادة والحياة له مزيد فليكن الموت على بالك يا مسكين فان السير حاث بك وأنت غافل عن نفسك ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا تكون كذلك الا بمبادرة العمل اغتناما لكل نفس أمهلت فيه

(بيان المبادرة الى العمل وحذر آفة التأخير)

اعلم ان من له أخوان غائبان وينتظر قدوم أحدهما في غد وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد للذي يقدم الى شهر أو سنة وانما يستعد للذي ينتظر قدومه غدا فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسي ما وراء المدة ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكمالها لا ينقص منها اليوم الذي مضى وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبدا فانه أبدا يرى لنفسه متسعا في تلك السنة فيؤخر العمل كما قال صلى الله عليه وسلم ما ينتظر أحدكم من الدنيا الا غنى مطغيا أو فقرا منسيا أو مرضا مفسدا أو هرما مقيدا أو موتا مجهزا أو الدجال فالدجال شر غائب ينتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر وقال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك وقال صلى الله عليه وسلم نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ أي انه لا يغتنمهما ثم يعرف قدرهما عند زوالهما وقال صلى الله عليه وسلم من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا ان سلعة الله غالية ألا ان سلعة الله الجنة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءت الراجفة تتبعها الرادفة وجاء الموت بما فيه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا آنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتتكم المنية راتبة لازمة اما بشقاوة واما بسعادة وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا النذير والموت المغير والساعة الموعد وقال ابن عمر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السعف فقال ما بقي من الدنيا الا كما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه وقال صلى الله عليه وسلم مثل الدنيا كمثل ثوب شق من أوله الى آخره فبقي متعلقا

فقد حال المشاهدة والمراقبة خرج من دائرة الحضور فهو غائب وقد يعنون بالغيبة الغيبة عن الاشياء بالحق فيكون على هذا المعنى حاصل ذلك راجعا الى مقام الفناء (ومنها الذوق والشرب والري) فالذوق ايمان والشرب علم والري حال فالذوق لارباب البواده والشرب لارباب الطوالع واللوائح واللوامع والري لارباب الاحوال وذلك أن الاحوال هي التي تستقر فما لم يستقر فليس بحال وانما هي لوامع وطوالع وقيل

بخيطا فى آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع وقال جابر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كأنه منذر جيش يقول صبحتكم ومستكم بعثت أنا والساعة كهاتين وقرن بين أصبعيه وقال ابن مسعود رضى الله عنه تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام فقال ان النور اذا دخل الصدر انفسح فقيل يارسول الله هل لذلك من علامة تعرف قال نعم التجافى عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله وقال السدى الذى خلق الموت والحيوة ليبلوكم أيكم أحسن عملا أى أيكم أكثر للموت ذكرا وأحسن له استعدادا وأشد منه خوفا وحذرا وقال حذيفة مامن صباح ولا مساء الا ومنادى ينادى أيها الناس الرحيل الرحيل وتصديق ذلك قوله تعالى انها لاحدى الكبر نذيرا للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر فى الموت وقال سحيم مولى بنى تميم جلست الى عامر بن عبد الله وهو يصلى فاوجز فى صلاته ثم أقبل على فقال أرحنى بحاجتك فانى أبادر قلت وما تبادر قال ملك الموت رحمك الله قال فقمت عنه وقام الى صلاته ومر داود الطائى فسأله رجل عن حديث فقال دعنى انما أبادر خروج نفسى قال عمر رضى الله عنه التؤدة فى كل شئ خير الا فى أعمال الخير للآخرة وقال المنذر سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه ويحك بادرى قبل أن يأتيك الامر ويحك بادرى قبل أن يأتيك الامر حتى كرر ذلك ستين مرة أسمعه ولا يرانى وكان الحسن يقول فى موعظته المبادرة المبادرة فانما هى الانفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التى تتقربون بها الى الله عز وجل رحم الله امرأ نظر الى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ثم قرأ هذه الآية انما نعد لهم عدا يعنى الانفاس آخر العدد خروج نفسك آخر العدد فراق أهلك آخر العدد دخولك فى قبرك واجتهد أبو موسى الاشعرى قبل موته اجتهادا شديدا فقيل له لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق فقال ان الخيل اذا أرسلت فقاربت رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها والذى بقى من أجلى أقل من ذلك قال فلم يزل على ذلك حتى مات وكان يقول لامرأته شدى رحلك فليس على جهنم معبر وقال بعض الخلفاء على منبره عباد الله اتقوا الله ما استطعتم وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا وعلموا ان الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا واستعدوا للموت فقد أظلكم وترحلوا فقد جد بكم وان غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة وان غائبا يحدبه الجديدان الليل والنهار لحرى بسرعة الاوبة وان قادما يحل بالفوز أو الشقوة لمستحق لافضل العدة فالتقى عند ربه من ناصح نفسه وقدم توبته وغلب شهوته لان أجله مستور عنه وأمله خادع له والشيطان موكل به يمنيه التوبة ليسوفها ويزين اليه المعصية ليرتكبها حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها وانه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار الا الموت ان ينزل به فيالها حسرة على ذى غفلة أن يكون عمره عليه حجة وان ترديه أيامه الى شقوة جعلنا الله واياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تقصر به عن طاعة الله معصية ولا يحل به بعد الموت حسرة انه سميع الدعاء وانه بيده الخير دائما فعال لما يشاء وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى فتنتم أنفسكم قال بالشهوات واللذات وتربصتم قال بالتوبة وارتبتم قال شككتم حتى جاء أمر الله قال الموت وغركم بالله الغرور قال الشيطان وقال الحسن تصبروا وتشددوا فانما هى أيام قلائل وانما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ما بحضرتكم وقال ابن مسعود ما منكم من أحد أصبح الا وهو ضيف وماله عارية والضيف مرتحل والعارية مؤداة وقال أبو عبيدة الباجى دخلنا على الحسن فى مرضه الذى مات فيه فقال مرحبا بكم وأهلا حيا كم الله بالسلام وأحلنا واياكم دار المقام هذه علانية حسنة ان صبرتم وصدقتم واتقيتم فلا يكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله أن تسمعوه بهذه الاذن وتخرجوه من هذه الاذن فان من رأى محمدا صلى الله عليه وسلم فقد رآه غاديا ورائحا لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ولكن رفع له علم فشمر اليه الوحا الوحا النجا النجا علام تعرجون أتيتم ورب الكعبة كأنكم والامر معا رحم الله عبدا جعل العيش عيشا واحدا فاكل كسرة ولبس خلقا ولزق بالارض واجتهد فى العبادة وبكى على الخطيئة وهرب من العقوبة وابتغى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك وقال عاصم الاحول قال لى فضيل الرقاشى وأنا سائل له ياهذا لا يشغلنك كثرة الناس عن نفسك فان الامر يخلص اليك دونهم ولا تقل اذهب ههنا وههنا فينقطع عنك النهار فى لا شئ فان الامر محفوظ عليك ولم تر شيأ قط أحسن طلبا ولا أسرع ادراكا من

الحال لا تستقر لانها تحول فاذا استقرت تكون مقاما

(ومنها المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة)
فالمحاضرة لارباب التلوين والمشاهدة لارباب التمكين والمكاشفة بينهما الى أن تستقر فالمشاهدة والمحاضرة لاهل العلم والمكاشفة لاهل العين والمشاهدة لاهل الحق أى حق اليقين

(ومنها الطوارق والبوادى والباده والواقع والقادح والطوالع واللوامع واللوائح)
وهذه كلها ألفاظ متقاربة

حسنة حديثة لذنب قديم *(الباب الثالث في سكرات الموت وشدته وما يستحب من الاحوال عنده)*
اعلم انه لو لم يكن بين يدى العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديرا بان يتنغص عليه عيشه و يتكدر عليه سروره و يفارقه سهوه وغفلته وحقيقا بان يطول فيه فكره و يعظم له استعداده لاسيما وهو في كل نفس بصدده كما قال بعض الحكماء كرب بيد سواك لاتدرى متى يغشاك* وقال لقمان لابنه يا بنى أمر لاتدرى متى يلقاك استعد له قبل أن يفجأك والعجب ان الانسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو فانتظر ان يدخل عليه جندى فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه غافل فما لهذا سبب الا الجهل والغرور * واعلم ان شدة الالم في سكرات الموت لايعرفها بالحقيقة الا من ذاقها ومن لم يذقها فانما يعرفها اما بالقياس الى الآلام التى أدركها واما بالاستدلال باحوال الناس في النزع على شدة ماهم فيه فاما القياس الذى يشهد له فهو أن كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالالم فاذا كان فيه الروح فالمدرك للالم هو الروح فهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الاثر الى الروح فبقدر ما يسرى الى الروح يتألم والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الاجزاء فلا يصيب الروح الا بعض الالم فان كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقى غيره فما أعظم ذلك الالم وما أشده *والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن الا وقد حل به الالم فلو أصابته شوكة فالالم الذى يجده انما يجرى في جزء من الروح يلاقى ذلك الموضع الذى أصابته الشوكة وانما يعظم أثر الاحتراق لان أجزاء النار تغوص في سائر أجزاء البدن فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهرا وباطنا الا وتصيبه النار فتحسه الاجزاء الروحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم وأما الجراحة فانما تصيب الموضع الذى مسه الحديد فقط فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار فالم النزع يهجم على نفس الروح و يستغرق جميع أجزائه فان المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الاعصاب وجزء من الاجزاء ومفصل من المفاصل ومن أصل كل شعرة و بشرة من الفرق الى القدم فلا تسأل عن كربه وألمه حتى قالوا ان الموت لاشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض لان قطع البدن بالسيف انما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف اذا كان المتناول المباشر نفس الروح وانما يستغيث المضروب و يصيح لبقاء قوته في قلبه وفي لسانه وانما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة ألمه لان الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه و بلغ كل موضع منه فهد كل قوة وضعف كل جارحة فلم يترك له قوة الاستغاثة أما العقل فقد غشيه وشوشه وأما اللسان فقد أبكمه وأما الاطراف فقد ضعفها و يود لو قدر على الاستراحة بالانين والصياح والاستغاثة ولكنه لا يقدر على ذلك فان بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارا وغرغرة من حلقه وصدره وقد تغير لونه واربد حتى كانه ظهر منه التراب الذى هو أصل فطرته وقد جذب منه كل عرق على حياله فالالم منتشر في داخله وخارجه حتى ترتفع الحدقتان الى أعالى أجفانه وتتقلص الشفتان ويتقلص اللسان الى أصله وترتفع الانثيان الى أعالى موضعهما وتخضر انامله فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ولو كان المجذوب عرقا واحدا لكان ألمه عظيما فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم لا من عرق واحد بل من جميع العروق ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجا فتبرد أولا قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها الى الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها و يغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تقبل توبة العبد مالم يغرغر وقال مجاهد في قوله تعالى وليست التوبة الذين يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن قال اذا عاين الرسل فعند ذلك تبدو له صفحة وجه ملك الموت فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم هون على محمد سكرات الموت والناس انما لا يستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به فان الاشياء قبل وقوعها انما تدرك بنور النبوة والولاية ولذلك عظم خوف الانبياء عليهم السلام والاولياء من الموت حتى قال عيسى عليه السلام يا معشر الحواريين ادعوا الله تعالى أن يهون على هذه السكرة يعنى الموت فقد خفت الموت مخافة أوقفنى خوفى من الموت

على

المعنى و يمكن بسط القول فيها و يكون حاصل ذلك راجعا الى معنى واحد يكثر بالعبارة فلا فائدة فيه والمقصود أن هذه الاسماء كلها مبادى الحال ومقدماته واذا صح الحال استوعب هذه الاسماء كلها ومعانيها
(ومنها التلوين والتمكين)
فالتلوين لارباب القلوب لانهم تحت حجب القلوب والقلوب تخلص الى الصفات والصفات تعدد بتعدد جهاتها فظهر لارباب القلوب بحسب تعدد الصفات تلوينات ولا

على الموت وروى أن نفرا من بني اسرائيل مروا بمقبرة فقال بعضهم لبعض لو دعوتم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتا تسألونه فدعوا الله تعالى فاذا هم برجل قد قام وبين عينيه أثر السجود وقد خرج من قبر من القبور فقال يا قوم ما أردتم مني لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة الموت من قلبي وقالت عائشة رضي الله عنها لا أغبط أحدا يهون عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى أنه عليه السلام كان يقول اللهم انك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والانامل اللهم فأعني على الموت وهونه على وعن الحسن ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال هو قدر ثلثمائة ضربة بالسيف وسئل صلى الله عليه وسلم عن الموت وشدته فقال ان أهون الموت بمنزلة حسكة في صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف الا ومعها صوف ودخل صلى الله عليه وسلم على مريض ثم قال اني أعلم ما يلقى ما منه عرق الا ويألم للموت على حدته وكان على كرم الله وجهه يحض على القتال ويقول ان لم تقتلوا تموتوا والذي نفسي بيده لالف ضربة بالسيف أهون على من موت على فراش وقال الاوزاعي بلغنا ان الميت يجد ألم الموت ما لم يبعث من قبره وقال شداد بن أوس الموت أفظع هول في الدنيا والآخرة على المؤمن وهو أشد من نشر بالمناشير وقرض بالمقاريض وغلي في القدور ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال اذا بقى على المؤمن من درجاته شئ لم يبلغها بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكربه درجته في الجنة واذا كان الكافر معروف لم يجز به هون عليه في الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير الى النار وعن بعضهم انه كان يسأل كثيرا من المرضى كيف تجدون الموت فلما مرض قيل له فأنت كيف تجده فقال كأن السموات مطبقة على الارض وكأن نفسي يخرج من ثقب ابرة وقال صلى الله عليه وسلم موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر وروى عن مكحول عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والارض لماتوا باذن الله تعالى لان في كل شعرة الموت ولا يقع الموت بشئ الا مات ويروى لو أن قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت وروى ان ابراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له كيف وجدت الموت يا خليلي قال كسفود جعل في صوف رطب ثم جذب فقال أما انا قد هونا عليك وروى عن موسى عليه السلام أنه لما صارت روحه الى الله تعالى قال له ربه يا موسى كيف وجدت الموت قال وجدت نفسي كالعصفور حين يقلى على المقلى لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير وروى عنه أنه قال وجدت نفسي كشاة حية تسلخ بيد القصاب وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان عنده قدح من ماء عند الموت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم هون على سكرات الموت وفاطمة رضي الله عنها تقول واكرباه لكربك يا أبتاه وهو يقول لا كرب على أبيك بعد اليوم وقال عمر رضي الله عنه لكعب الاحبار يا كعب حدثنا عن الموت فقال نعم يا أمير المؤمنين ان الموت كغصن كثير الشوك ادخل في جوف رجل وأخذت كل شوكة بعرق ثم جذبه رجل شديد الجذب فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى وقال النبي صلى الله عليه وسلم ان العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وان مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول عليك السلام تفارقني وأفارقك الى يوم القيامة فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه فما حالنا ونحن المنهمكون في المعاصي وتتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدواهي فان دواهي الموت ثلاث * (الاولى) * شدة النزع كما ذكرناه * (الداهية الثانية) * مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروع والخوف منه على القلب فلو رأى صورته التي يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته فقد روى عن ابراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت هل تستطيع أن تريني صورتك التي تقبض عليها روح الفاجر قال لا تطيق ذلك قال بلى قال فأعرض عني فأعرض عنه ثم التفت فاذا هو برجل أسود قائم الشعر منتن الريح أسود الثياب يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان فغشى على ابراهيم عليه السلام ثم أفاق وقد عاد ملك الموت الى صورته الاولى فقال يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت الا صورة وجهك لكان حسبه وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ان داود عليه السلام كان رجلا غيورا وكان اذا خرج أغلق الابواب فأغلق ذات يوم وخرج فأشرفت امرأته فاذا هي برجل في الدار فقالت

تجاوز القلوب وأربابها عن عالم الصفات وأما أرباب التمكين فخرجوا عن مشائم الاحوال وخرقوا حجب القلوب وباشرت أرواحهم سطوع نور الذات فارتفع التلوين لعدم التغير في الذات اذ جلت ذاته عن حلول الحوادث والتغيرات فلما خلصوا الى مواطن القرب من أنصبة تجلى الذات ارتفع عنهم التلوين فالتلوين حينئذ يكون في نفوسهم لانها في محل القلوب لموضع طهارتها وقدسها والتلوين الواقع في النفوس لا يخرج صاحبه عن حال التمكين

من أدخل هذا الرجل لئن جاء داود ليلقين منه عناء فجاء داود فرآه فقال من أنت فقال أنا الذى لا أهاب الملوك ولا يمنع منى الحجاب فقال فأنت والله اذا ملك الموت وزمل داود عليه السلام مكانه وروى أن عيسى عليه السلام مر بجمجمة فضربها برجله فقال تكلمى باذن الله فقالت يا روح الله أنا ملك زمان كذا وكذا بينا أنا جالس فى ملكى على تاجى وحولى جنودى وحشمى على سرير ملكى اذ بدا الى ملك الموت فزال منى كل عضو على حياله ثم خرجت نفسى اليه فياليت ما كان من تلك الجموع كان فرقة ويا ليت ما كان من ذلك الانس كان وحشة فهذه داهية يلقاها العصاة ويكفاها المطيعون فقد حكى الانبياء مجرد سكرة النزع دون الروعة التى يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك ولو رآها فى منامه ليلة لتنغص عليه بقية عمره فكيف برؤيته فى مثل تلك الحال وأما المطيع فانه يراه فى أحسن صورة وأجملها فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن ابراهيم عليه السلام كان رجلا غيورا وكان له بيت يتعبد فيه فاذا خرج أغلقه فرجع ذات يوم فاذا برجل فى جوف البيت فقال من أدخلك دارى فقال أدخلنيها ربها فقال أنا ربها فقال أدخلنيها من هو أملك بها منى ومنك فقال من أنت من الملائكة قال أنا ملك الموت قال هل تستطيع أن ترينى الصورة التى تقبض فيها روح المؤمن قال نعم فاعرض عنى فاعرض ثم التفت فاذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه فقال يا ملك الموت لو لم يلق المؤمن عند الموت الا صورتك كان حسبه ومنها مشاهدة الملكين الحافظين قال وهيب بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يتراءى له ملكاه الكاتبان عمله فان كان مطيعا قالا له جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس صدق أجلستنا وعمل صالح أحضرتنا وان كان فاجرا قالا له لا جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس سوء أجلستنا وعمل غير صالح أحضرتنا وكلام قبيح أسمعتنا فلا جزاك الله عنا خيرا فذلك شخوص بصر الميت اليهما ولا يرجع الى الدنيا أبدا (الداهية الثالثة) مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة فانهم فى حال السكرات قد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم ولن تخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نغمة ملك الموت بأحد البشريين اما أبشر يا عدو الله بالنار أو أبشر يا ولى الله بالجنة ومن هذا كان خوف أرباب الالباب وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار وقال صلى الله عليه وسلم من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه فقالوا كلنا نكره الموت قال ليس ذاك بذاك ان المؤمن اذا فرج له عما هو قادم عليه أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه وروى أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود وهو لما به من آخر الليل قم فانظر أى ساعة هى فقام ابن مسعود ثم جاءه فقال قد طلعت الحمراء فقال حذيفة أعوذ بالله من صباح الى النار ودخل مروان على أبى هريرة فقال مروان اللهم خفف عنه فقال أبو هريرة اللهم اشدد ثم بكى أبو هريرة وقال والله ما أبكى حزنا على الدنيا ولا جزعا من فراقكم ولكن أنتظر احدى البشريين من ربى بجنة أم بنار وروى فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله اذا رضى عن عبد قال يا ملك الموت اذهب الى فلان فائتنى بروحه لاريحه حسبى من عمله قد بلوته فوجدته حيث أحب فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ومعهم قضبان الريحان وأصول الزعفران كل واحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارة صاحبه وتقوم الملائكة صفين لخروج روحه معهم الريحان فاذا نظر اليهم ابليس وضع يده على رأسه ثم صرخ قال فيقول له جنوده ما لك يا سيدنا فيقول أما ترون ما أعطى هذا العبد من الكرامة أين كنتم من هذا قالوا قد جهدنا به فكان معصوما وقال الحسن لا راحة للمؤمن الا فى لقاء الله ومن كانت راحته فى لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه وقيل لجابر بن زيد عند الموت ما تشتهى قال نظرة الى الحسن فلما دخل عليه الحسن قيل له هذا الحسن فرفع طرفه اليه ثم قال يا اخواناه الساعة والله أفارقكم الى النار أو الى الجنة وقال محمد بن واسع عند الموت يا اخواناه عليكم السلام الى النار أو يعفو الله وتمنى بعضهم أن يبقى فى النزع أبدا ولا يبعث لثواب ولا عقاب * فخوف سوء الخاتمة قطع قلوب العارفين وهو من الدواهى العظيمة عند الموت وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة وشدة خوف العارفين منه فى كتاب الخوف والرجاء وهو لائق بهذا الموضع ولكنا لا نطول بذكره واعادته

* (بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت) *

لان جريان التلوين فى النفس لبقاء رسم الانسانية وثبوت القدم فى التمكين كشف حق الحقيقة وليس المعنى بالتمكين أن لا يكون للعبد تغير فانه بشر وانما المعنى به ان ما كوشف به من الحقيقة لا يتوارى عنه أبدا ولا يتناقص بل يزيد وصاحب التلوين قد يتناقص الشئ فى حقه عند ظهور صفات نفسه وتغيب عنه الحقيقة فى بعض الاحوال ويكون ثبوته على مستقر الايمان وتلوينه فى زوائد الاحوال (ومنها النفس) ويقال النفس للمنتهى والوقت

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدء والسكون ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى أما الصورة فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ارقبوا الميت عند ثلاث اذا رشح جبينه ودمعت عيناه ويبست شفتاه فهى من رحمة الله قد نزلت به واذا غطيط المخنوق واحمر لونه واربدت شفتاه فهو من عذاب الله قد نزل به وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة فهى علامة الخير قال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقنوا موتاكم لا اله الا الله وفى رواية حذيفة فانها تهدم ما قبلها من الخطايا وقال عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مات وهو يعلم أنه لا اله الا الله دخل الجنة وقال عبيد الله وهو يشهد وقال عثمان اذا احتضر الميت فلقنوه لا اله الا الله فانه ما من عبد يختم له بها عند موته الا كانت زاده الى الجنة وقال عمر رضى الله عنه احضروا موتاكم وذكروهم فانهم يرون ما لا ترون ولقنوهم لا اله الا الله وقال أبو هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر فى قلبه فلم يجد فيه شيأ ففك لحييه فوجد طرف لسانه لاصقا بحنكه يقول لا اله الا الله فغفر له بكلمة الاخلاص وينبغى للملقن أن لا يلح فى التلقين ولكن يتلطف فربما لا ينطق لسان المريض فيشق عليه ذلك ويؤدى الى استثقاله التلقين وكراهيته للكلمة ويخشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة وانما معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس فى قلبه شئ غير الله فاذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم فى حقه وان كان القلب مشغوفا بالدنيا ملتفتا اليها متأسفا على لذاتها وكانت الكلمة على رأس اللسان ولم ينطبق القلب على تحقيقها وقع الامر فى خطر المشيئة فان مجرد حركة اللسان قليل الجدوى الا أن يتفضل الله تعالى بالقبول وأما حسن الظن فهو مستحب فى هذا الوقت وقد ذكرنا ذلك فى كتاب الرجاء وقد وردت الاخبار بفضل حسن الظن بالله * دخل واثلة ابن الاسقع على مريض فقال أخبرنى كيف ظنك بالله قال أغرقتنى ذنوب لى وأشرفت على هلكة ولكنى أرجو رحمة ربى فكبر واثلة وكبر أهل البيت بتكبيره وقال الله أكبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء ودخل النبى صلى الله عليه وسلم على شاب وهو يموت فقال كيف تجدك قال أرجو الله وأخاف ذنوبى فقال النبى صلى الله عليه وسلم ما اجتمعا فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن الا أعطاه الله الذى يرجو وامنه من الذى يخاف وقال ثابت البنانى كان شاب به حدة وكان له أم تعظه كثيرا وتقول له يا بنى ان لك يوما فاذكر يومك فلما نزل به أمر الله تعالى أكبت عليه أمه وجعلت تقول له يا بنى قد كنت أحذرك مصرعك هذا وأقول ان لك يوما فقال يا أمه ان لى ربا كثير المعروف وانى لارجو أن لا يعدمنى اليوم بعض معروفه قال ثابت فرحمه الله بحسن ظنه بربه وقال جابر بن وداعة كان شاب به رهق فاحتضر فقالت له أمه يا بنى توصى بشئ قال نعم خاتمى لا تسلبينيه فان فيه ذكر الله تعالى فلعل الله يرحمنى فلما دفن رؤى فى المنام فقال أخبروا أمى أن الكلمة قد نفعتنى وان الله قد غفر لى * ومرض اعرابى فقيل له انك تموت فقال أين يذهب بى قالوا الى الله قال فما كراهتى أن أذهب الى من لا يرى الخير الا منه وقال أبو المعتمر بن سليمان قال أبى لما حضرته الوفاة يا معتمر حدثنى بالرخص لعلى ألقى الله عز وجل وأنا حسن الظن به وكانوا يستحبون أن يذكر للعبد محاسن عمله عند موته لكى يحسن ظنه بربه

(بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها)

قال أشعث بن أسلم سأل ابراهيم عليه السلام ملك الموت واسمه عزرائيل وله عينان عين فى وجهه وعين فى قفاه فقال يا ملك الموت ما تصنع اذا كان نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ووقع الوباء بارض والتقى الزحفان كيف تصنع قال أدعو الارواح باذن الله فتكون بين أصبعى هاتين وقال قد دحيت له الارض فتركت مثل الطشت بين يديه يتناول منها ما يشاء قال وهو يبشره بانه خليل الله عز وجل وقال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت عليه السلام مالى لا أراك تعدل بين الناس تأخذ هذا وتدع هذا قال ما أنا بذلك بأعلم منك انما هى صحف أو كتب تلقى الى فيها أسماء وقال وهب بن منبه كان ملك من الملوك أراد أن يركب الى أرض فدعا بثياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه بعد مرات وكذلك طلب دابة فاتى بها فلم تعجبه حتى أتى بدواب فركب أحسنها فجاء ابليس فنفخ فى منخره نفخة فملأه كبرا ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر الى الناس كبرا فجاءه رجل رث الهيئة فسلم

للمبتدى والحال للمتوسط فكأنه اشارة منهم الى أن المبتدى يطرقه من الله تعالى طارق لا يستقر والمتوسط صاحب حال غالب حاله عليه والمنتهى صاحب نفس متمكن من الحال لا يتناوب عليه الحال بالغيبة والحضور بل تكون المواجيد مقرونة بانفاسه مقيمة لا تتناوب عليه وهذه كلها أحوال لاربابها ولهم منها ذوق وشرب والله ينفع ببركتهم آمين

(الباب الثالث والستون فى ذكر شئ من البدايات والنهايات وصحتها)

فلم يرد عليه السلام فأخذ بلجام دابته فقال أرسل اللجام فقد تعاطيت أمرا عظيما قال ان لى اليك حاجة قال اصبر حتى أنزل قال لا الآن فقهره على لجام دابته فقال اذكرها قال هو سر فأدنى له رأسه فساره وقال أنا ملك الموت فتغير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال دعنى حتى أرجع الى أهلى وأقضى حاجتى وأودعهم قال لا والله لا ترى أهلك وثقلك أبدا فقبض روحه فخر كأنه خشبة ثم مضى فلقى عبدا مؤمنا فى تلك الحال فسلم عليه فرد عليه السلام فقال ان لى اليك حاجة أذكرها فى أذنك فقال هات فساره وقال أنا ملك الموت فقال أهلا ومرحبا بمن طالت غيبته على فوالله ما كان فى الارض غائب أحب الى أن ألقاه منك فقال ملك الموت اقض حاجتك التى خرجت لها فقال مالى حاجة أكبر عندى ولا أحب من لقاء الله تعالى قال فاختر على أى حال شئت أن أقبض روحك فقال تقدر على ذلك قال نعم انى أمرت بذلك قال فدعنى حتى أتوضأ وأصلى ثم اقبض روحى وأنا ساجد فقبض روحه وهو ساجد وقال أبو بكر بن عبد الله المزنى جمع رجل من بنى اسرائيل مالا فلما أشرف على الموت قال لبنيه أرونى أصناف أموالى فأتى بشئ كثير من الخيل والابل والرقيق وغيره فلما نظر اليه بكى تحسرا عليه فرآه ملك الموت وهو يبكى فقال له ما يبكيك فوالذى خولك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرق بين روحك وبدنك قال فالمهلة حتى أفرقه قال هيهات انقطعت عنك المهلة فهلا كان ذلك قبل حضور أجلك فقبض روحه * وروى أن رجلا جمع مالا فأوعى ولم يدع صنفا من المال الا اتخذه وابتنى قصرا وجعل عليه بابين وثيقين وجمع عليه حرسا من غلمانه ثم جمع أهله وصنع لهم طعاما وقعد على سريره ورفع احدى رجليه على الاخرى وهم يأكلون فلما فرغوا قال يا نفس أنعمى لسنين فقد جمعت لك ما يكفيك فلم يفرغ من كلامه حتى أقبل اليه ملك الموت فى هيئة رجل عليه خلقان من الثياب فى عنقه مخلاة يتشبه بالمساكين فقرع الباب بشدة عظيمة قرعا أفزعه وهو على فراشه فوثب اليه الغلمان وقالوا ما شأنك فقال ادعوا الى مولاكم فقالوا والى مثلك يخرج مولانا قال نعم فأخبروه بذلك فقال هلا فعلتم به وفعلتم فقرع الباب قرعة أشد من الاولى فوثب اليه الحرس فقال أخبروه أنى ملك الموت فلما سمعوه ألقى عليهم الرعب ووقع على مولاهم الذل والتخشع فقال قولوا له قولا لينا وقولوا هل تأخذ به أحدا فدخل عليه وقال اصنع فى مالك ما أنت صانع فانى لست بخارج منها حتى أخرج روحك فأمر بماله حتى وضع بين يديه فقال حين رآه لعنك الله من مال أنت شغلتنى عن عبادة ربى ومنعتنى أن أتخلى لربى فأنطق الله المال فقال لم تسبنى وقد كنت تدخل على السلاطين بى ويرد المتقى عن بابهم وكنت تنكح المتنعمات بى وتجلس مجالس الملوك بى وتنفقنى فى سبيل الشر فلا امتنع منك ولو أنفقتنى فى سبيل الخير نفعتك خلقت وابن آدم من تراب فمنطلق ببر ومنطلق باثم ثم قبض ملك الموت روحه فسقط وقال وهب بن منبه قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ما فى الارض مثله ثم عرج الى السماء فقالت الملائكة لمن كنت أشد رحمة ممن قبضت روحه قال أمرت بقبض نفس امرأة فى فلاة من الارض فأتيتها وقد ولدت مولودا فرحمتها لغربتها ورحمت ولدها لصغره وكونه فى فلاة لا متعهد له بها فقالت الملائكة الجبار الذى قبضت الآن روحه هو ذلك المولود الذى رحمته فقال ملك الموت سبحان اللطيف لما يشاء قال عطاء بن يسار اذا كان ليلة النصف من شعبان دفع الى ملك الموت صحيفة فيقال اقبض فى هذه السنة من فى هذه الصحيفة قال فان العبد ليغرس الغراس وينكح الازواج ويبنى البنيان وان اسمه فى تلك الصحيفة وهو لا يدرى * وقال الحسن ما من يوم الا وملك الموت يتصفح كل بيت ثلاث مرات فمن وجده منهم قد استوفى رزقه وانقضى أجله قبض روحه فاذا قبض روحه أقبل أهله برنة وبكاء فيأخذ ملك الموت بعضادتى الباب فيقول والله ما أكلت له رزقا ولا أفنيت له عمرا ولا انتقصت له أجلا وان لى فيكم لعودة بعد عودة حتى لا أبقى منكم أحدا قال الحسن فوالله لو يرون مقامه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ولبكوا على أنفسهم وقال يزيد الرقاشى بينما جبار من الجبابرة من بنى اسرائيل جالس فى منزله قد خلا ببعض أهله اذ نظر الى شخص قد دخل من باب بيته فثار اليه فزعا مغضبا فقال له من أنت ومن أدخلك على دارى فقال أما الذى أدخلنى الدار فربها وأما أنا فالذى لا يمنع منى الحجاب ولا استأذن على الملوك ولا أخاف صولة المتسلطنين ولا يمتنع منى كل جبار عنيد ولا شيطان مريد قال فسقط فى يد الجبار وارتعد حتى سقط منكبا على وجهه ثم رفع رأسه اليه مستجديا متذللا له فقال له أنت اذا ملك الموت قال أنا هو قال فهل أنت ممهلى حتى أحدث عهدا قال هيهات

حدثنا شيخنا شيخ الاسلام أبو النجيب السهروردى قال أنا الشريف أبو طالب الحسين بن محمد الزينبى قال أخبرتنا كريمة المروزية قالت أخبرنا أبو الهيثم محمد بن مكى الكشميهنى قال أنا أبو عبد الله محمد بن يوسف الفربرى قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن اسمعيل ابن ابراهيم البخارى قال حدثنا الحميدى قال حدثنا سفيان بن عيينة قال حدثنا يحيى ابن سعيد الانصارى قال أخبرنى محمد بن ابراهيم التيمى أنه سمع علقمة بن وقاص قال سمعت عمر

انقطعت مدتك وانقضت أنفاسك ونفدت ساعاتك فليس الى تأخيرك سبيل قال فالى أين تذهب بى قال الى عملك الذى قدمته والى بيتك الذى مهدته قال فانى لم أقدم عملا صالحا ولم أمهد بيتا حسنا قال فالى لظى نزاعة للشوى ثم قبض روحه فسقط ميتا بين أهله فن بين صارخ و باك قال يزيد الرقاشى لو يعلمون سوء المنقلب كان العويل على ذلك أكثر وعن الاعمش عن خيثمة قال دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليهما السلام فجعل ينظر الى رجل من جلسائه يديم النظر اليه فلما خرج قال الرجل من هذا قال هذا ملك الموت قال لقد رأيته ينظر الى كأنه يريدنى قال فماذا تريد قال أريد أن تخلصنى منه فتأمر الريح حتى تحملنى الى أقصى الهند ففعلت الريح ذلك ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أتاه ثانيا رأيتك تديم النظر الى واحد من جلسائى قال نعم كنت أتعجب منه لانى كنت أمرت أن أقبضه باقصى الهند فى ساعة قريبة وكان عندك فعجبت من ذلك

(الباب الرابع فى وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده)

(وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم)

اعلم أن فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة حيا وميتا وفعلا وقولا وجميع أحواله عبرة للناظرين وتبصرة للمستبصرين اذ لم يكن أحد أكرم على الله منه اذ كان خليل الله وحبيبه ونجيه وكان صفيه ورسوله ونبيه فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته وهل أخره لحظة بعد حضور منيته لا بل أرسل اليه الملائكة الكرام الموكلين بقبض أرواح الانام فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر الى رحمة ورضوان وخيرات حسان بل الى مقعد صدق فى جوار الرحمن فاشتد مع ذلك فى النزع كربه وظهر أنينه وترادف قلقه وارتفع حنينه وتغير لونه وعرق جبينه واضطربت فى الانقباض والانبساط شماله ويمينه حتى بكى لمصرعه من حضره وانتحب لشدة حاله من شاهد منظره فهل رأيت منصب النبوة دافعا عنه مقدورا وهل راقب الملك فيه أهلا وعشيرا وهل سامحه اذ كان للحق نصيرا وللخلق بشيرا ونذيرا هيهات بل امتثل ما كان به مأمورا واتبع ما وجده فى اللوح مسطورا فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود والحوض المورود وهو أول من تنشق عنه الارض وهو صاحب الشفاعة يوم العرض فالعجب أنا لا نعتبر به ولسنا على ثقة فيما نلقاه بل نحن أسراء الشهوات وقرناء المعاصى والسيآت فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين وامام المتقين وحبيب رب العالمين لعلنا نظن اننا مخلدون أو نتوهم انا مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون هيهات هيهات بل نتيقن انا جميعا على النار واردون ثم لا ينجو منها الا المتقون فنحن للورود مستيقنون وللصدور عنها متوهمون لا بل ظلمنا أنفسنا ان كنا كذلك لغالب الظن منتظرين فما نحن والله من المتقين وقد قال الله رب العالمين وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا فلينظر كل عبد الى نفسه انه الى الظالمين أقرب أم الى المتقين فانظر الى نفسك بعد أن تنظر الى سيرة السلف الصالحين فلقد كانوا مع ما وفقوا له من الخائفين ثم انظر الى سيد المرسلين فانه كان من أمره على يقين اذ كان سيد النبيين وقائد المتقين واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا وكيف اشتد أمره عند الانتقال الى جنة المأوى قال ابن مسعود رضى الله عنه دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت أمنا عائشة رضى الله عنها حين دنا الفراق فنظر الينا فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم ثم قال مرحبا بكم حياكم الله آواكم الله نصركم الله وأوصيكم بتقوى الله وأوصى بكم الله انى لكم منه نذير مبين ألا تعلوا على الله فى بلاده وعباده وقد دنا الاجل والمنقلب الى الله والى سدرة المنتهى والى جنة المأوى والى الكاس الاوفى فاقرؤا على أنفسكم وعلى من دخل فى دينكم بعدى منى السلام ورحمة الله * وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام عند موته من لأمتى بعدى فأوحى الله تعالى الى جبريل أن بشر حبيبى أنى لا أخذله فى أمته وبشره بانه أسرع الناس خروجا من الارض اذا بعثوا وسيدهم اذا جمعوا وأن الجنة محرمة على الامم حتى تدخلها أمته فقال الآن قرت عينى وقالت عائشة رضى الله عنها أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فصلى بالناس واستغفر لاهل أحد ودعا لهم وأوصى بالانصار فقال أما بعد يا معشر المهاجرين فانكم تزيدون وأصبحت

ابن الخطاب رضى الله عنه يقول على المنبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو الى امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه * النية أول العمل وبحسبها يكون العمل وأهم ما للمريد فى ابتداء أمره فى طريق القوم أن يدخل طريق الصوفية ويتزيا بزيهم ويجالس طائفتهم لله تعالى فان دخوله

الانصار لا تزيد على هيئتها التى هى عليها اليوم وان الانصار عيبتى التى أويت اليها فاكرموا كريمهم يعنى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم ثم قال ان عبدا خير بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله فبكى أبو بكر رضى الله عنه وظن أنه يريد نفسه فقال النبى صلى الله عليه وسلم على رسلك يا أبا بكر سدوا هذه الابواب الشوارع فى المسجد الا باب أبى بكر فانى لا أعلم امرأ أفضل عندى فى الصحبة من أبى بكر قالت عائشة رضى الله عنها فقبض صلى الله عليه وسلم فى بيتى وفى يومى وبين سحرى ونحرى وجمع الله بين ريقى وريقه عند الموت فدخل على أخى عبد الرحمن وبيده سواك فجعل ينظر اليه فعرفت أنه يعجبه ذلك فقلت له آخذه لك فأومأ برأسه أى نعم فناولته اياه فادخله فى فيه فاشتد عليه فقلت ألينه لك فأومأ برأسه أى نعم فلينته وكان بين يديه ركوة ماء فجعل يدخل فيها يده ويقول لا اله الا الله ان للموت لسكرات ثم نصب يده يقول الرفيق الاعلى الرفيق الاعلى فقلت اذا والله لا يختارنا وروى سعيد بن عبد الله عن أبيه قال لما رأت الانصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد ثقلا أطافوا بالمسجد فدخل العباس رضى الله عنه على النبى صلى الله عليه وسلم فأعلمه بمكانهم واشفاقهم ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك ثم دخل عليه على رضى الله عنه فأعلمه بمثله فمد يده وقال ها فتناولوه فقال ما يقولون قالوا يقولون نخشى أن تموت وتصايح نساؤهم لاجتماع رجالهم الى النبى صلى الله عليه وسلم فثار رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج متوكئا على على والفضل والعباس أمامه ورسول الله صلى الله عليه وسلم معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر وثاب الناس اليه فحمد الله وأثنى عليه وقال أيها الناس انه بلغنى أنكم تخافون على الموت كأنه استنكار منكم للموت وما تنكرون من موت نبيكم ألم أنع اليكم وتنعى اليكم أنفسكم هل خلد نبى قبلى فيمن بعث فاخلد فيكم ألا انى لاحق بربى وانكم لاحقون به وانى أوصيكم بالمهاجرين الاولين خيرا وأوصى المهاجرين فيما بينهم فان الله عز وجل قال والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا الى آخرها وان الامور تجرى باذن الله فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله فان الله عز وجل لا يعجل لعجلة أحد ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الارض وتقطعوا أرحامكم وأوصيكم بالانصار خيرا فانهم الذين تبوؤا الدار والايمان من قبلكم أن تحسنوا اليهم ألم يشاطروكم الثمار ألم يوسعوا عليكم فى الديار ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم ألا ولا تستأثروا عليهم ألا وانى فرط لكم وأنتم لاحقون بى ألا وان موعدكم الحوض حوضى أعرض مما بين بصرى الشام وصنعاء اليمن يصب فيه ميزاب الكوثر ماء أشد بياضا من اللبن وألين من الزبد وأحلى من الشهد من شرب منه لم يظمأ أبدا حصباؤه اللؤلؤ وبطحاؤه المسك من حرمه فى الموقف غدا حرم الخير كله ألا فمن أحب أن يرده على غدا فليكفف لسانه ويده الا مما ينبغى فقال العباس يا نبى الله أوص بقريش فقال انما أوصى بهذا الامر قريشا والناس تبع لقريش برهم لبرهم وفاجرهم لفاجرهم فاستوصوا آل قريش بالناس خيرا يا أيها الناس ان الذنوب تغير النعم وتبدل القسم فاذا بر الناس برهم أئمتهم واذا فجر الناس عقوهم قال الله تعالى وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون وروى ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لابى بكر رضى الله عنه سل يا أبا بكر فقال يا رسول الله دنا الاجل فقال قد دنا الاجل وتدلى فقال ليهنك يا نبى الله ما عند الله فليت شعرى عن منقلبنا فقال الى الله والى سدرة المنتهى ثم الى جنة المأوى والفردوس الاعلى والكاس الاوفى والرفيق الاعلى والحظ والعيش المهنا فقال يا نبى الله من يلى غسلك قال رجال من أهل بيتى الادنى فالادنى قال ففيم نكفنك قال فى ثيابى هذه وفى حلة يمانية وفى بياض مصر فقال كيف الصلاة عليك منا وبكينا وبكى ثم قال مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيرا اذا غسلتمونى وكفنتمونى فضعونى على سريرى فى بيتى هذا على شفير قبرى ثم اخرجوا عنى ساعة فان أول من يصلى على الله عز وجل هو الذى يصلى عليكم وملائكته ثم يأذن الملائكة فى الصلاة على فأول من يدخل على من خلق الله ويصلى على جبريل ثم ميكائيل ثم اسرافيل ثم ملك الموت مع جنود كثيرة ثم الملائكة بأجمعها صلى الله عليهم أجمعين ثم أنتم فادخلوا على أفواجا فصلوا على أفواجا زمرة زمرة وسلموا تسليما ولا تؤذونى بتزكية ولا صيحة ولا رنة وليبدأ منكم الامام وأهل بيتى الادنى فالادنى ثم زمر النساء ثم زمر الصبيان قال

فى طريقهم هجرة حاله ووقته (وقد ورد) المهاجر من هجر ما نهاه الله عنه وقد قال الله تعالى * ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله فالمريد ينبغى أن يخرج الى طريق القوم لله تعالى فانه ان وصل الى نهايات القوم فقد لحق بالقوم بالمنزل وان أدركه الموت قبل الوصول الى نهايات القوم فأجره على الله وكل من كانت بدايته أحكم كانت نهايته أتم (أخبرنا) أبو زرعة اجازة عن ابن خلف عن

فمن يدخلك القبر قال زمر من أهل بيتي الادنى فالادنى مع ملائكة كثيرة لا ترونهم وهم يرونكم قوموا فأدوا عني الى من بعدي وقال عبد الله بن زمعة جاء بلال في أول ربيع الاول فاذن بالصلاة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مروا أبا بكر يصلي بالناس فخرجت فلم أر بحضرة الباب الا عمر في رجال ليس فيهم أبو بكر فقلت قم يا عمر فصل بالناس فقام عمر فلما كبر وكان رجلا صيتا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بالتكبير فقال أين أبو بكر يأبى الله ذلك والمسلمون قالها ثلاث مرات مروا أبا بكر فليصل بالناس فقالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله ان أبا بكر رجل رقيق القلب اذا قام في مقامك غلبه البكاء فقال انكن صويحبات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس قال فصلى أبو بكر بعد الصلاة التي صلى عمر فكان عمر يقول لعبد الله بن زمعة بعد ذلك ويحك ماذا صنعت بي والله لولا أني ظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك ما فعلت فيقول عبد الله اني لم أر أحدا أولى بذلك منك قالت عائشة رضي الله عنها وما قلت ذلك ولا صرفته عن أبي بكر الا رغبة به عن الدنيا ولما في الولاية من المخاطرة والهلكة الا من سلم الله وخشيت أيضا أن لا يكون الناس يحبون رجلا صلى في مقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو حي أبدا الا أن يشاء الله فيحسدونه ويبغون عليه ويتشاءمون به فاذا الامر أمر الله والقضاء قضاؤه وعصمه الله من كل ما تخوفت عليه من أمر الدنيا والدين * وقالت عائشة رضي الله عنها فلما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة في أول النهار فتفرق عنه الرجال الى منازلهم وحوائجهم مستبشرين وأخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء فبينا نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اخرجن عني هذا الملك يستأذن علي فخرج من في البيت غيري ورأسه في حجري فجلس وتنحيت في جانب البيت فناجى الملك طويلا ثم انه دعاني فأعاد رأسه في حجري وقال للنسوة ادخلن فقلت ما هذا بحس جبريل عليه السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل يا عائشة هذا ملك الموت جاءني فقال ان الله عز وجل أرسلني وأمرني أن لا أدخل عليك الا باذن فان لم تأذن لي أرجع وان أذنت لي دخلت وأمرني أن لا أقبضك حتى تأمرني فماذا أمرك فقلت اكفف عني حتى يأتيني جبريل عليه السلام فهذه ساعة جبريل قالت عائشة رضي الله عنها فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأي فوجمنا وكأنما ضربنا بصاخة ما نحير اليه شيأ وما يتكلم أحد من أهل البيت اعظاما لذلك الامر وهيبة ملأت أجوافنا قالت وجاء جبريل في ساعته فسلم فعرفت حسه وخرج أهل البيت فدخل فقال ان الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول كيف تجدك وهو أعلم بالذي تجد منك ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفا وان يتم كرامتك وشرفك على الخلق وان تكون سنة في أمتك فقال أجدني وجعا فقال أبشر فان الله تعالى أراد أن يبلغك ما أعد لك فقال يا جبريل ان ملك الموت استأذن علي وأخبره الخبر فقال جبريل يا محمد ان ربك اليك مشتاق ألم يعلمك الذي يريد بك لا والله ما استأذن ملك الموت على أحد قط ولا يستأذن عليه أبدا الا أن ربك متم شرفك وهو اليك مشتاق قال فلا تبرح اذا حتى يجيء وأذن للنساء فقال يا فاطمة أدني فأكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وعيناها تدمع وما تطيق الكلام ثم قال أدني مني رأسك فأكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وهي تضحك وما تطيق الكلام فكان الذي رأينا منها عجبا فسألتها بعد ذلك فقالت أخبرني وقال اني ميت اليوم فبكيت ثم قال اني دعوت الله أن يلحقك بي في أول أهلي وأن يجعلك معي فضحكت وأدنت ابنيها منه فشمهما قالت وجاء ملك الموت فسلم واستأذن فأذن له فقال الملك ما تأمرنا يا محمد قال ألحقني بربي الآن فقال بلى من يومك هذا أما ان ربك اليك مشتاق ولم يتردد عن أحد تردده عنك ولم ينهني عن الدخول على أحد الا باذن غيرك ولكن ساعتك أمامك وخرج قالت وجاء جبريل فقال السلام عليك يا رسول الله هذا آخر ما أنزل فيه الى الارض أبدا طوي الوحي وطويت الدنيا وما كان لي في الارض حاجة غيرك ومالي فيها حاجة الا حضورك ثم لزوم موقفي لا والذي بعث محمدا بالحق ما في البيت أحد يستطيع أن يحير اليه في ذلك كلمة ولا يبعث الى أحد من رجاله لعظم ما يسمع من حديثه ووجدنا واشفاقنا قالت فقمت الى النبي صلى الله عليه وسلم حتى أضع رأسه بين ثديي وأمسكت بصدره وجعل يغمى عليه حتى يغلب وجبهته ترشح رشحا ما رأيته من انسان قط فجعلت أسلت ذلك العرق وما وجدت رائحة شيء أطيب منه فكنت أقول له اذا أفاق

أبي عبد الرحمن عن أبي العباس البغدادي عن جعفر الخلدي قال سمعت الجنيد يقول أكثر العوائق والحوائل والموانع من فساد الابتداء فالمريد في أول سلوك هذا الطريق يحتاج الى احكام النية واحكام النية تنزيهها من دواعي الهوى وكل ما كان للنفس فيه حظ عاجل حتى يكون خروجه خالصا لله تعالى (وكتب) سالم بن عبد الله الى عمر بن عبد العزيز اعلم يا عمر أن عون الله للعبد بقدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له ومن قصرت

بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي ما ألقى جبهتك من الرشح فقال يا عائشة ان نفس المؤمن تخرج بالرشح ونفس
الكافر تخرج من شدقيه كنفس الحمار فعند ذلك ارتعنا وبعثنا الى أهلنا فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده أخي
بعثه الى أبي فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يجيء أحد وانما صدهم الله عنه لانه ولاه جبريل وميكائيل
وجعل اذا أغمي عليه قال بل الرفيق الاعلى كأن الخيرة تعاد عليه فاذا أطاق الكلام قال الصلاة الصلاة انكم
لا تزالون متماسكين ما صليتم جميعا الصلاة الصلاة كان يوصي بها حتى مات وهو يقول الصلاة الصلاة قالت عائشة
رضي الله عنها مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين قالت فاطمة
رضي الله عنها ما لقيت من يوم الاثنين والله لا تزال الامة تصاب فيه بعظيمة وقالت أم كلثوم يوم أصيب علي كرم الله
وجهه بالكوفة مثلها ما لقيت من يوم الاثنين مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه قتل علي وفيه قتل أبي
فما لقيت من يوم الاثنين وقالت عائشة رضي الله عنها لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس حتى
ارتفعت الرنة وسجى رسول الله صلى الله عليه وسلم الملائكة بثوبي فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس
بعضهم فما تكلم الا بعد البعد وخلط آخرون فلاثوا الكلام بغير بيان وبقي آخرون معهم عقولهم وأقعد
آخرون فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته وعلي فيمن أقعد وعثمان فيمن أخرس فخرج عمر على الناس وقال
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت وليرجعنه الله عز وجل وليقطعن أيدي وأرجل رجال من المنافقين يتمنون
لرسول الله صلى الله عليه وسلم الموت انما واعده الله عز وجل كما واعد موسى وهو آتيكم وفي رواية أنه قال يا أيها
الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لم يمت والله لا أسمع أحدا يذكر أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قد مات الا علوته بسيفي هذا * وأما علي فانه أقعد فلم يبرح في البيت وأما عثمان فجعل لا يكلم أحدا
يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به ولم يكن أحد من المسلمين في مثل حال أبي بكر والعباس فان الله عز وجل أيدهما
بالتوفيق والسداد وان كان الناس لم يرعووا الا بقول أبي بكر حتى جاء العباس فقال والله الذي لا اله الا هو
لقد ذاق رسول الله صلى الله عليه وسلم الموت ولقد قال وهو بين أظهركم انك ميت وانهم ميتون ثم انكم يوم
القيامة عند ربكم تختصمون وبلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحرث بن الخزرج فجاء ودخل على رسول الله صلى الله
عليه وسلم فنظر اليه ثم أكب عليه فقبله ثم قال بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما كان الله ليذيقك الموت مرتين فقد والله
توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج الى الناس فقال أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن
كان يعبد رب محمد فانه حي لا يموت قال الله تعالى وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم
على أعقابكم الآية فكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية الا يومئذ وفي رواية أن أبا بكر رضي الله عنه لما بلغه الخبر
دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهملان وغصصه ترتفع
كقطع الجرة وهو في ذلك جلد العقل والمقال فأكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه وخديه ومسح وجهه
وجعل يبكي ويقول بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي طبت حيا وميتا انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من
الانبياء والنبوة فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء وخصصت حتى صرت مسلاة وعممت حتى صرنا فيك سواء
ولولا أن موتك كان اختيارا منك لجدنا لحزنك بالنفوس ولولا انك نهيت عن البكاء لانفدنا عليك ماء العيون
فأما ما لا نستطيع نفيه عنا فكمد وادكار محالفان لا يبرحان اللهم فأبلغه عنا اذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند
ربك ولنكن من بالك فلولا ما خلفت من السكينة لم يقم أحد لما خلفت من الوحشة اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه
فينا * وعن ابن عمر انه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأثنى عج أهل البيت عجيجا سمعه أهل المصلى كلما ذكر
شيأ ازدادوا فما سكن عجيجهم الا تسليم رجل على الباب صيت جلد قال السلام عليكم يا أهل البيت كل نفس ذائقة
الموت الآية ان في الله خلفا من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة من كل مخافة فالله فارجوا وبه فثقوا فاستمعوا له
وأنكروه وقطعوا البكاء فلما انقطع البكاء فقد صوته فاطلع أحدهم فلم ير أحدا ثم عادوا فبكوا فناداهم مناد آخر
لا يعرفون صوته يا أهل البيت اذكروا الله واحمدوه على كل حال تكونوا من المخلصين ان في الله عزاء من كل
مصيبة وعوضا من كل رغيبة فالله فأطيعوا وبأمره فاعملوا فقال أبو بكر هذا الخضر واليسع عليهما السلام حضرا

عنه نيته قصر عنه عون
الله بقدر ذلك (وكتب)
بعض الصالحين الى
أخيه أخلص النية في
أعمالك يكفك قليل
من العمل ومن لم يهتد
الى النية بنفسه يصحب
من يعلمه حسن النية
قال سهل بن عبد الله
التستري أول ما يؤمر
به المريد المبتدئ
التبري من الحركات
المذمومة ثم التنقل الى
الحركات المحمودة ثم
التفرد لامر الله تعالى ثم
التوقف في الرشاد ثم
الثبات ثم البيان ثم
القرب ثم المناجاة ثم
المصافاة ثم الموالاة ويكون
الرضا والتسليم مراده

النبي صلى الله عليه وسلم واستوفى القعقاع بن عمرو حكاية خطبة أبي بكر رضي الله عنه فقال قام أبو بكر في الناس خطيبا حيث قضى الناس عبراتهم بخطبة جلها الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه على كل حال وقال أشهد أن لا اله الا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وغلب الاحزاب وحده فلله الحمد وحده وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وخاتم أنبيائه وأشهد ان الكتاب كما نزل وأن الدين كما شرع وأن الحديث كما حدث وأن القول كما قال وأن الله هو الحق المبين اللهم فصل على محمد عبدك ورسولك ونبيك وحبيبك وأمينك وخيرتك وصفوتك بأفضل ما صليت به على أحد من خلقك اللهم واجعل صلواتك ومعافاتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وخاتم النبيين وامام المتقين محمد قائد الخير وامام الخير ورسول الرحمة اللهم قرب زلفته وعظم برهانه وكرم مقامه وابعثه مقاما محمودا يغبطه به الاولون والآخرون وانفعنا بمقامه المحمود يوم القيامة واخلفه فينا في الدنيا والآخرة وبلغه الدرجة والوسيلة في الجنة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على ابراهيم انك حميد مجيد أيها الناس انه من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لم يمت وان الله قد تقدم اليكم في أمره فلا تدعوه جزعا فان الله عز وجل قد اختار لنبيه صلى الله عليه وسلم ما عنده على ما عندكم وقبضه الى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ولا يشغلكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه ولا تستنظروه فيلحق بكم ويفتنكم وقال ابن عباس لما فرغ أبو بكر من خطبته قال يا عمر أنت الذي بلغني انك تقول ما مات نبي الله صلى الله عليه وسلم أما ترى أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال يوم كذا كذا وكذا ويوم كذا كذا وكذا وقال تعالى في كتابه انك ميت وانهم ميتون فقال والله لكأني لم أسمع بها في كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا أشهد أن الكتاب كما أنزل وان الحديث كما حدث وأن الله حي لا يموت انا لله وانا اليه راجعون وصلوات الله على رسوله وعند الله نحتسب رسوله صلى الله عليه وسلم ثم جلس الى أبي بكر * وقالت عائشة رضي الله عنها لما اجتمعوا لغسله قالوا والله ما ندري كيف نغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم أنجرده عن ثيابه كما نصنع بموتانا أو نغسله في ثيابه قالت فارسل الله عليهم النوم حتى ما بقي منهم رجل الا واضع لحيته على صدره نائما ثم قال قائل لا يدرى من هو غسلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه ثيابه فانتبهوا ففعلوا ذلك فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم في قميصه حتى اذا فرغوا من غسله كفن وقال علي كرم الله وجهه أردنا خلع قميصه فنودينا لا تخلعوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثيابه فاقررناه فغسلناه في قميصه كما نغسل موتانا مستلقيا ما نشاء أن يقلب لنا منه عضو لم يبالغ فيه الا قلب لنا حتى نفرغ منه وان معنا لحفيفا في البيت كالريح الرخاء ويصوت بنا ارفقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فانكم ستكفون فهكذا كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يترك سبدا ولا لبدا الا دفن معه قال أبو جعفر فرش لحده بمفرشه وقطيفته وفرشت ثيابه عليها التي كان يلبس يقظان على القطيفة والمفرش ثم وضع عليها في أكفانه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة ففي وفاته عبرة تامة وللمسلمين به اسوة حسنة (وفاة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه) لما احتضر أبو بكر رضي الله تعالى عنه جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى * اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال ليس كذا ولكن قولي وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد انظروا ثوبي هذين فاغسلوهما وكفنوني فيهما فان الحي الى الجديد أحوج من الميت وقالت عائشة رضي الله عنها عند موته

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ربيع اليتامى عصمة للارامل

فقال أبو بكر ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلوا عليه فقالوا ألا ندعو لك طبيبا ينظر اليك قال قد نظر الي طبيبي وقال اني فعال لما أريد ودخل عليه سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه يعوده فقال يا أبا بكر أوصنا فقال ان الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذن منها الا بلاغك واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله فلا تخفرن الله في ذمته فيكبك في النار على وجهك ولما ثقل أبو بكر رضي الله تعالى عنه وأراد الناس منه أن يستخلف فاستخلف عمر

والتفويض والتوكل حاله ثم من الله تعالى بعد هذه بالمعرفة فيكون مقامه عند الله مقام المتبرئين من الحول والقوة وهذا مقام حملة العرش وليس بعده مقام هذا من كلام سهل جمع فيه ما في البداية والنهاية ومتى تمسك المريد بالصدق والاخلاص بلغ مبالغ الرجال ولا يحقق صدقه واخلاصه شيء مثل متابعة أمر الشرع وقطع النظر عن الخلق فكل الآفات التي دخلت على أهل البدايات لموضع نظرهم الى الخلق وبلغنا عن رسول

رضى الله عنه فقال الناس له استخلفت علينا فظا غليظا فماذا تقول لربك فقال أقول استخلفت على خلقك خير
خلقك ثم أرسل الى عمر رضى الله عنه فجاء فقال انى موصيك بوصية اعلم أن لله حقا فى النهار لا يقبله فى الليل وأن
لله حقا فى الليل لا يقبله فى النهار وانه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة وانما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم
يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه الا الحق أن يثقل وانما خفت موازين من
خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفته عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه الا الباطل أن يخف وان الله
ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم فيقول القائل أنا دون هؤلاء ولا أبلغ مبلغ هؤلاء وان الله
ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم ورد عليهم صالح الذى عملوا فيقول القائل أنا أفضل من هؤلاء وان الله ذكر آية
الرحمة وآية العذاب ليكون المؤمن راغبا راهبا ولا يلقى بيديه الى التهلكة ولا يتمنى على الله غير الحق فان حفظت
وصيتى هذه فلا يكون غائب أحب اليك من الموت ولا بد لك منه وان ضيعت وصيتى فلا يكون غائب أبغض اليك
من الموت ولا بد لك منه ولست بمعجزه وقال سعيد بن المسيب لما احتضر أبو بكر رضى الله عنه أتاه ناس من الصحابة
فقالوا يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم زودنا فانا نراك لما بك فقال أبو بكر من قال هؤلاء الكلمات ثم مات
جعل الله روحه فى الافق المبين قالوا وما الافق المبين قال قاع بين يدى العرش فيه رياض الله وأنهار وأشجار
يغشاه كل يوم مائة رحمة فمن قال هذا القول جعل الله روحه فى ذلك المكان اللهم انك ابتدأت الخلق من غير حاجة
بك اليهم ثم جعلتهم فريقين فريقا للنعيم وفريقا للسعير فاجعلنى للنعيم ولا تجعلنى للسعير اللهم انك خلقت الخلق
فرقا وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت منهم شقيا وسعيدا وغويا ورشيدا فلا تشقنى بمعاصيك اللهم انك علمت
ما تكسب كل نفس قبل ان تخلقها فلا محيص لها مما علمت فاجعلنى ممن تستعمله بطاعتك اللهم ان أحدا لا يشاء
حتى تشاء فاجعل مشيئتك أن أشاء ما يقربنى اليك اللهم انك قد قدرت حركات العباد فلا يتحرك شئ الا باذنك
فاجعل حركاتى فى تقواك اللهم انك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملا يعمل به فاجعلنى من
خير القسمين اللهم انك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلا فاجعلنى من سكان جنتك اللهم انك
أردت بقوم الضلال وضيقت به صدورهم فاشرح صدرى للايمان وزينه فى قلبى اللهم انك دبرت الامور
وجعلت مصيرها اليك فاحينى بعد الموت حياة طيبة وقربنى اليك زلفى اللهم من أصبح وأمسى ثقته ورجاؤه
غيرك فانت ثقتى ورجائى ولا حول ولا قوة الا بالله قال أبو بكر هذا كله فى كتاب الله عز وجل

(وفاة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه)

قال عمرو بن ميمون كنت قائما غداة أصيب عمر ما بينى وبينه الا عبد الله بن عباس وكان اذا مر بين الصفين قام
بينهما فاذا رأى خللا قال استووا حتى اذا لم يرفيهم خللا تقدم فكبر قال وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو
ذلك فى الركعة الاولى حتى يجتمع الناس فما هو الا ان كبر فسمعته يقول قتلنى أو أكلنى الكلب حين طعنه أبو
لؤلؤة وطار العلج بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يمينا أو شمالا الا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا فمات منهم
تسعة وفى رواية سبعة فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما ظن العلج انه مأخوذ نحر نفسه
وتناول عمر رضى الله عنه عبد الرحمن بن عوف فقدمه فأما من كان يلى عمر فقد رأى ما رأيت وأما نواحى المسجد
ما يدرون ما الامر غير انهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون سبحان الله سبحان الله فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة
فلما انصرفوا قال يا ابن العباس انظر من قتلنى قال فغاب ساعة ثم جاء فقال غلام المغيرة بن شعبة فقال عمر رضى الله
عنه قاتله الله لقد كنت أمرت به معروفا ثم قال الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل مسلم قد كنت أنت وأبوك
تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة وكان العباس أكثرهم رقيقا فقال ابن عباس ان شئت فعلت أى ان شئت
قتلناهم قال بعد ما تكلموا بلسانكم وصلوا الى قبلتكم وحجوا حجكم فاحتمل الى بيته فانطلقنا معه قال وكأن الناس
لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ قال فقائل يقول أخاف عليه وقائل يقول لا بأس فأتى بنبيذ فشرب منه فخرج من جوفه
ثم أتى بلبن فشرب منه فخرج من جوفه فعرفوا انه ميت قال فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه وجاء رجل شاب
فقال ابشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله عز وجل قد كان لك صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم فى

الله صلى الله عليه وسلم انه قال لا يكمل ايمان المرء حتى يكون الناس عنده كالاباعر ثم يرجع الى نفسه فيراها أصغر صاغر اشارة الى قطع النظر عن الخلق والخروج منهم وترك التقيد بعاداتهم (قال) أحمد بن خضرويه من أحب أن يكون الله تعالى معه على كل حال فليلزم الصدق فان الله تعالى مع الصادقين وقد ورد فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الصدق يهدى الى البر ولا بد للمريد من الخروج من المال والجاه والخروج عن

الاسلام ماقدعلمت ثم وليت فعدلت ثم شهادة فقال وددت ان ذلك كان كفافالا على ولالى فلما أدبر الرجل اذا ازاره يمس الارض فقال ردوا على الغلام فقال يا ابن أخى ارفع ثوبك فانه أبقى لثوبك وأتقى لربك ثم قال ياعبدالله انظر ماعلى من الدين فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا أو نحوه فقال ان وفى به مال آل عمر فاده من أموالهم والافسل فى بنى عدى بن كعب فان لم تف أموالهم فسل فى قريش ولا تعدهم الى غيرهم وأدعنى هذا المال انطلق الى أم المؤمنين عائشة فقل عمر يقرأ عليك السلام ولا تقل أمير المؤمنين فانى لست اليوم للمؤمنين أميرا وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه فذهب عبدالله فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكى فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت كنت أريده لنفسى ولأوثرنه اليوم على نفسى فلما أقبل قيل هذا عبدالله بن عمر قد جاء فقال ارفعونى فاسنده رجل اليه فقال مالديك قال الذى تحب يا أمير المؤمنين قد أذنت قال الحمد لله ما كان شئ أهم الى من ذلك فاذا أنا قبضت فاحملونى ثم سلم وقل يستأذن عمر فان أذنت لى فأدخلونى وان ردتنى ردونى الى مقابر المسلمين وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها فلما رأيناها قمنا فولجت عليه فبكت عنده ساعة واستأذن الرجال فولجت داخلا فسمعنا بكاءها من داخل فقالوا أوص يا أمير المؤمنين واستخلف فقال ما أرى أحق بهذا الامر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن وقال يشهدكم عبدالله بن عمر وليس له من الامر شئ كهيئة التعزية له فان أصابت الامارة سعدا فذاك والا فليستعن به أيكم أمر فانى لم أعزله من عجز ولا خيانة وقال أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الاولين أن يعرف لهم فضلهم ويحفظ لهم حرمتهم وأوصيه بالانصار خيرا الذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم وأوصيه باهل الامصار خيرا فانهم ردء الاسلام وجباة الاموال وغيظ العدو وان لا يؤخذ منهم الا فضلهم عن رضاهم وأوصيه بالاعراب خيرا فانهم أصل العرب ومادة الاسلام وان يأخذ من حواشى أموالهم ويرد على فقرائهم وأوصيه بذمة الله عزوجل وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ان يوفى لهم بعهدهم وان يقاتل لهم من ورائهم ولا يكلفهم الا طاقتهم قال فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشى فسلم عبدالله بن عمر وقال يستأذن عمر بن الخطاب فقالت أدخلوه فادخلوه فى موضع هنالك مع صاحبيه الحديث وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال قال لى جبريل عليه السلام ليبك الاسلام على موت عمر وعن ابن عباس قال وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم فلم يرعنى الا رجل قد أخذ بمنكبى فالتفت فاذا هو على بن أبى طالب رضى الله عنه فترحم على عمر وقال ماخلفت أحدا أحب الى أن ألقى الله بمثل عمله منك وايم الله ان كنت لاظن أن يجعلك الله مع صاحبيك وذلك انى كنت كثيرا أسمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول ذهبت أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر فانى كنت لارجو أولاظن أن يجعلك الله معهما

(وفاة عثمان رضى الله عنه)

الحديث فى قتله مشهور وقد قال عبدالله بن سلام أتيت أخى عثمان لاسلم عليه وهو محصور فدخلت عليه فقال مرحبا يا أخى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فى هذه الخوخة وهى خوخة فى البيت فقال يا عثمان حصروك قلت نعم قال عطشوك قلت نعم فادلى الى دلوا فيه ماء فشربت حتى رويت حتى انى لأجد برده بين ثديى وبين كتفى وقال لى ان شئت نصرت عليهم وان شئت أفطرت عندنا فاخترت أن أفطر عنده فقتل ذلك اليوم رضى الله عنه وقال عبدالله بن سلام لمن حضر تشحط عثمان فى الموت حين جرح ماذا قال عثمان وهو يتشحط قالوا سمعناه يقول اللهم اجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثا قال والذى نفسى بيده لو دعا الله أن لايجتمعوا أبدا ما اجتمعوا الى يوم القيامة وعن ثمامة بن حزن القشيرى قال شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضى الله عنه فقال ائتونى بصاحبيكم اللذين ألباكم على قال فجئ بهما كأنما هما جملان أو حماران فاشرف عليهم عثمان رضى الله عنه فقال أنشدكم بالله والاسلام هل تعلمون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال من يشترى رومة فيجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها فى الجنة فاشتريتها من صلب

الخلق بقطع النظر عنهم الى أن يحكم أساسه فيعلم دقائق الهوى وخفايا شهوات النفس وأنفع شئ للمريد معرفة النفس ولا يقوم بواجب حق معرفة النفس من له فى الدنيا حاجة من طلب الفضول والزيادات أو عليه من الهوى بقية (قال) زيد بن أسلم خصلتان هما كمال أمرك تصبح لاتهم لله بمعصية وتمسى ولاتهم لله بمعصية فاذا أحكم الزهد والتقوى انكشفت له النفس وخرجت من حجبها وعلم طريق حركتها

مالى فانتم اليوم تمنعونى ان أشرب منها ومن ماء البحر قالوا اللهم نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون انى جهزت جيش العسرة من مالى قالوا نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أن المسجد كان قد ضاق باهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يشترى بقعة آل فلان فيزيدها فى المسجد بخير منها فى الجنة فاشتريتها من صلب مالى فانتم اليوم تمنعونى ان أصلى فيها ركعتين قالوا اللهم نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على ثبير بمكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض قال فركضه برجله وقال اسكن ثبير فما عليك الا نبى وصديق وشهيدان قالوا اللهم نعم قال الله أكبر شهدوا لى ورب الكعبة انى شهيد وروى عن شيخ من ضبة أن عثمان حين ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين اللهم انى استعديك عليهم وأستعينك على جميع أمورى وأسألك الصبر على ما ابتليتنى

(وفاة على كرم الله وجهه)

قال الاصبغ الحنظلى لما كانت الليلة التى أصيب فيها على كرم الله وجهه أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل فعاد الثانية وهو كذلك ثم عاد الثالثة فقام على يمشى وهو يقول

اشدد حيازيمك للمو * ت فان الموت لاقيكا
ولا تجزع من المو * ت اذا حل بواديكا

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه ابن ملجم فضربه فخرجت أم كلثوم ابنة على رضى الله عنه فجعلت تقول مالى ولصلاة الغداة قتل زوجى أمير المؤمنين صلاة الغداة وقتل أبى صلاة الغداة وعن شيخ من قريش ان عليا كرم الله وجهه لما ضربه ابن ملجم قال فزت ورب الكعبة وعن محمد بن على انه لما ضرب أوصى بنيه ثم لم ينطق الا بلا اله الا الله حتى قبض ولما ثقل الحسن بن على رضى الله عنهما دخل عليه الحسين رضى الله عنه فقال يا أخى لاى شئ تجزع تقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى على بن أبى طالب وهما أبواك وعلى خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وهما أماك وعلى حمزة وجعفر وهما عماك قال يا أخى أقدم على أمر لم اقدم على مثله وعن محمد ابن الحسن رضى الله عنهما قال لما نزل القوم بالحسين رضى الله عنه وأيقن انهم قاتلوه قام فى أصحابه خطيبا فحمد الله واثنى عليه ثم قال قد نزل من الامر ما ترون وان الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها وانشمرت حتى لم يبق منها الا كصبابة الاناء الا خسيس عيش كالمرعى الوبيل ألا ترون الحق لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن فى لقاء الله تعالى وانى لا أرى الموت الا سعادة والحياة مع الظالمين الا جرما

(الباب الخامس فى كلام المحتضرين من الخلفاء والامراء والصالحين)

لما حضرت معاوية بن أبى سفيان الوفاة قال أقعدونى فاقعد فجعل يسبح الله تعالى ويذكره ثم بكى وقال تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطام ألا كان هذا وغصن الشباب نضر ريان وبكى حتى علا بكاؤه وقال يا رب ارحم الشيخ العاصى ذا القلب القاسى اللهم أقل العثرة واغفر الزلة وعد بحلمك على من لم يرج غيرك ولم يثق باحد سواك وروى عن شيخ من قريش انه دخل مع جماعة عليه فى مرضه فرأوا فى جلده غضونا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فهل الدنيا أجمع الا ما جربنا ورأينا أما والله لقد استقبلنا زهرتها بجدتنا واستلذذنا بعيشنا فما لبثتنا الدنيا أن نقضت ذلك منا حالا بعد حال وعروة بعد عروة فاصبحت الدنيا وقد وترتنا وأخلقتنا واستلأمت الينا أف للدنيا من دار ثم أف لها من دار وروى ان آخر خطبة خطبها معاوية أن قال أيها الناس انى من زرع قد استحصد وانى قد وليتكم ولن يليكم أحد من بعدى الا وهو شر منى كما كان من قبلى خيرا منى ويا يزيد اذا وفى أجلى فول غسلى رجلا لبيبا فان اللبيب من الله بمكان فلينعم الغسل وليجهر بالتكبير ثم اعمد الى منديل فى الخزانة فيه ثوب من ثياب النبى صلى الله عليه وسلم وقراضة من شعره وأظفاره فاستودع القراضة أنفى وفمى وأذنى وعينى واجعل الثوب على جلدى دون اكفانى ويا يزيد احفظ وصية الله فى الوالدين فاذا أدرجتمونى فى جديدى ووضعتمونى فى حفرتى فخلوا معاوية وأرحم الراحمين وقال عقبة بن محمد لما نزل بمعاوية الموت قال يا ليتنى كنت رجلا من قريش بذى طوى وأنى لم أل من هذا الامر شيا ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر الى غسال بجانب

وتخفى شهواتها ودسائسها وتلبيساتها ومن تمسك بالصدق فقد تمسك بالعروة الوثقى (قال ذو النون) لله تعالى فى أرضه سيف ما وضع على شئ الا قطع وهو الصدق ونقل فى معنى الصدق أن عابدا من بنى اسرائيل راودته ملكة عن نفسه فقال اجعلوا لى ماء فى الخلاء اتنظف به ثم صعد على موضع فى القصر فرمى بنفسه فاوحى الله تعالى الى ملك الهواء ان الزم عبدى قال فلزمه ووضعه على الارض وضعا رفيقا فقيل لابليس ألا أغويته

دمشق يلوى ثوبا بيده ثم يضرب به المغسلة فقال عبد الملك ليتنى كنت غسالا آكل من كسب يدى يوما بيوم ولم أل من أمر الدنيا شيأ فبلغ ذلك أبا حازم فقال الحمد لله الذى جعلهم اذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه واذا حضرنا الموت لم نتمن ماهم فيه وقيل لعبد الملك بن مروان فى مرضه الذى مات فيه كيف تجدك يا أمير المؤمنين قال أجدنى كما قال الله تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم الآية ومات وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان امرأة عمر بن عبد العزيز كنت أسمع عمر فى مرضه الذى مات فيه يقول اللهم أخف عليهم موتى ولو ساعة من نهار فلما كان اليوم الذى قبض فيه خرجت من عنده فجلست فى بيت آخر بينى وبينه باب وهو فى قبة له فسمعته يقول تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ثم هدأ فجعلت لا أسمع له حركة ولا كلاما فقلت لوصيف له انظر أنائم هو فلما دخل صاح فوثبت فاذا هو ميت وقيل له لما حضره الموت اعهد يا أمير المؤمنين قال احذركم مثل مصرعى هذا فانه لابد لكم منه وروى انه لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعى له طبيب فلما نظر اليه قال أرى رجل قد سقى السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال ولا تأمن الموت أيضا على من لم يسق السم قال الطبيب هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين قال نعم قد عرفت ذلك حين وقع فى بطنى قال فتعالج يا أمير المؤمنين فانى أخاف ان تذهب نفسك قال ربى خير مذهوب اليه والله لو علمت ان شفائى عند شحمة أذنى ما رفعت يدى الى أذنى فتناولته اللهم خر لعمر فى لقائك فلم يلبث الا أياما حتى مات وقيل لما حضرته الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك يا أمير المؤمنين أبشر فقد أحيا الله بك سننا وأظهر بك عدلا فبكى ثم قال أليس أوقف فأسئل عن أمر هذا الخلق فوالله لو عدلت فيهم لخفت على نفسى ان لا تقوم بحجتها بين يدى الله الا ان يلقنها الله حجتها فكيف بكثير مما ضيعنا وفاضت عيناه فلم يلبث الا يسيرا حتى مات ولما قرب وقت موته قال أجلسونى فاجلسوه فقال انا الذى أمرتنى فقصرت ونهيتنى فعصيت ثلاث مرات ولكن لا اله الا الله ثم رفع رأسه فاحد النظر فقيل له فى ذلك فقال انى لارى خضرة ماهم بانس ولا جن ثم قبض رحمه الله وحكى عن هرون الرشيد انه انتقى اكفانه بيده عند الموت وكان ينظر اليها ويقول ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه وفرش المأمون رمادا واضطجع عليه وكان يقول يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه وكان المعتصم يقول عند موته لو علمت ان عمرى هكذا قصير ما فعلت ما فعلت وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته فقيل له لا بأس عليك يا أمير المؤمنين فقال ليس الا هذا لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة وقال عمرو بن العاص عند الوفاة وقد نظر الى صناديق لبنيه من يأخذها بما فيها ليته كان بعرا وقال الحجاج عند موته اللهم اغفر لى فان الناس يقولون انك لا تغفر لى فكان عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ويغبطه عليها ولما حكى ذلك للحسن قال أقالها قيل نعم قال عسى

(بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل التصوف رضى الله عنهم أجمعين)

لما حضر معاذا رضى الله عنه الوفاة قال اللهم انى قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك اللهم انك تعلم انى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجرى الانهار ولا لغرس الاشجار ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر ولما اشتد به النزع ونزع نزعا لم ينزعه أحد كان كلما أفاق من غمرة فتح طرفه ثم قال رب اخنقنى خنقك فوعزتك انك تعلم أن قلبى يحبك ولما حضرت سلمان الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك قال ما أبكى جزعا على الدنيا ولكن عهد الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب فلما مات سلمان نظر فى جميع ما ترك فاذا قيمته بضعة عشر درهما ولما حضر بلالا الوفاة قالت امرأته واحزناه فقال بل واطرباه غدا نلقى الاحبه محمدا وحزبه وقيل فتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال لمثل هذا فليعمل العاملون ولما حضر ابراهيم النخعى الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك قال انتظر من الله رسولا يبشرنى بالجنة أو بالنار ولما حضر ابن المنكدر الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك فقال والله ما ابكى لذنب اعلم انى أتيته ولكن أخاف انى أتيت شيأ حسبته هينا وهو عند الله عظيم ولما حضر عامر بن عبد القيس الوفاة بكى فقيل له ما يبكيك قال

فقال ليس لى سلطان على من خالف هواه وبذل نفسه لله تعالى (وينبغى) للمريد أن تكون له فى كل شئ نية لله تعالى حتى فى أكله وشربه وملبوسه فلا يلبس الا لله ولا يأكل الا لله ولا يشرب الا لله ولا ينام الا لله لان هذه كلها ارفاق أدخلها على النفس فكانت لله لا تستعصى النفس وتجيب الى ما يراد منها من المعاملة لله والاخلاص واذا دخل فى شئ من رفق النفس لا لله بغير نية صالحة صار ذلك وبالا عليه وقد ورد فى

مالبكى جزعا من الموت ولا حرصا على الدنيا ولكن ابكى على ما يفوتني من ظمأ الهواجر وعلى قيام الليل في الشتاء ولما حضرت فضيلا الوفاة غشي عليه ثم فتح عينيه وقال وابعد سفراه واقلة زاداه ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه اجعل رأسي على التراب فبكى نصر فقال له ما يبكيك قال ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هوذا تموت فقيرا غريبا قال اسكت فاني سألت الله تعالى ان يحييني حياة الاغنياء وان يميتني موت الفقراء ثم قال له لقني ولا تعد على مالم أتكلم بكلام ثان وقال عطاء بن يسار تبدى ابليس لرجل عند الموت فقال له نجوت فقال ما آمنك بعد وبكى بعضهم عند الموت فقيل له ما يبكيك قال آية في كتاب الله تعالى قوله عز وجل انما يتقبل الله من المتقين ودخل الحسن رضي الله عنه على رجل يجود بنفسه فقال ان أمرا هذا أوله لجدير ان يتقى آخره وان أمرا هذا آخره لجدير أن يزهد في أوله وقال الجريري كنت عند الجنيد في حال نزعه وكان يوم الجمعة ويوم النيروز وهو يقرأ القرآن فختم فقلت له في هذه الحالة يا أبا القاسم فقال ومن أولى بذلك مني وهوذا تطوى صحيفتي وقال رويم حضرت وفاة أبي سعيد الخراز وهو يقول

حنين قلوب العارفين الى الذكر * وتذكارهم وقت المناجاة للسر
أديرت كؤس للمنايا عليهم * فاغفوا عن الدنيا كاغفاء ذي الشكر
همومهم جوالة بمعسكر * به أهل ود الله كالانجم الزهر
فاجسامهم في الارض قتلى بحبه * وأرواحهم في الحجب نحو العلا تسري
فما عرسوا الا بقرب حبيبهم * وما عرجوا من مس بؤس ولا ضر

وقيل للجنيد ان أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت فقال لم يكن بعجب أن تطير روحه اشتياقا وقيل لذي النون عند موته ما تشتهي قال ان أعرفه قبل موتي بلحظة وقيل لبعضهم وهو في النزع قل الله فقال الى متى تقولون الله وأنا محترق بالله وقال بعضهم كنت عند ممشاد الدينوري فقدم فقير وقال السلام عليكم هل هنا موضع نظيف يمكن الانسان أن يموت فيه قال فاشاروا اليه بمكان وكان ثم عين ماء فجدد الفقير الوضوء وركع ما شاء الله ومضى الى ذلك المكان ومد رجليه ومات وكان أبو العباس الدينوري يتكلم في مجلسه فصاحت امرأة تواجدا فقال لها موتي فقامت المرأة فلما بلغت باب الدار التفتت اليه وقالت قدمت ووقعت ميتة ويحكى عن فاطمة أخت أبي علي الروذباري قالت لما قرب أجل أبي علي الروذباري وكان رأسه في حجري فتح عينيه وقال هذه أبواب السماء قد فتحت وهذه الجنان قد زينت وهذا قائل يقول يا أبا علي قد بلغناك الرتبة القصوى وان لم تردها ثم أنشا يقول

وحقك لا نظرت الى سواكا * بعين مودة حتى أراكا
أراك معذبي بفتور لحظ * وبالخد المورد من حياكا

وقيل للجنيد قل لا اله الا الله فقال ما نسيته فاذكره وسأل جعفر بن نصير بكران الدينوري خادم الشبلي ما الذي رأيت منه فقال قال علي درهم مظلمة وتصدقت عن صاحبه بالوف فما على قلبي شغل أعظم منه ثم قال وضئني للصلاة ففعلت فنسيت تخليل لحيته وقد أمسك على لسانه فقبض على يدي وأدخلها في لحيته ثم مات فبكى جعفر وقال ما تقولون في رجل لم يفته في آخر عمره أدب من آداب الشريعة وقيل لبشر بن الحرث لما احتضر وكان يشق عليه كانك تحب الحياة فقال القدوم على الله شديد وقيل لصالح بن مسمار ألا توصي بابنك وعيالك فقال اني لاستحي من الله أن أوصي بهم الى غيره ولما احتضر أبو سليمان الداراني أتاه أصحابه فقالوا أبشر فانك تقدم على رب غفور رحيم فقال لهم ألا تقولون احذر فانك تقدم على رب يحاسبك بالصغير ويعاقبك بالكبير ولما احتضر أبو بكر الواسطي قيل له أوصنا فقال احفظوا مراد الحق فيكم واحتضر بعضهم فبكت امرأته فقال لها ما يبكيك فقالت عليك أبكي فقال ان كنت باكية فابكي على نفسك فلقد بكيت لهذا اليوم أربعين سنة وقال الجنيد دخلت على سري السقطي أعوده في مرض موته فقلت كيف تجدك فأنشا يقول

كيف أشكو الى طبيبي ما بي * والذي بي أصابني من طبيبي

فأخذت المروحة لاروحه فقال كيف يجد ريح المروحة من جوفه يحترق ثم أنشا يقول

القلب محترق والدمع مستبق * والكرب مجتمع والصبر مفترق

الخير من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك الاذفر ومن تطيب لغير الله عز وجل جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة (وقيل) كان أنس يقول طيبوا كفي بمسك فان ثابتا يصافحني ويقبل يدي وقد كانوا يحسنون اللباس للصلاة متقربين بذلك الى الله بنيتهم فالمريد ينبغي أن يتفقد جميع أحواله وأعماله وأقواله ولا يسامح نفسه ان تتحرك بحركة أو تتكلم بكلمة الا لله تعالى وقد رأينا من أصحاب شيخنا من كان ينوي عند كل لقمة

كيف القرار على من لا قرار له * مما جناه الهوى والشوق والقلق
يارب ان يك شئ فيه لى فرج * فامنن على به مادام بي رمق

وحكى ان قوما من أصحاب الشبلى دخلوا عليه وهو فى الموت فقالوا له قل لا اله الا الله فانشأ يقول

ان بيتا أنت ساكنه * غير محتاج الى السرج
وجهك المأمول حجتنا * يوم يأتى الناس بالحجج
لا أتاح الله لى فرجا * يوم أدعو منك بالفرج

وحكى أن أبا العباس بن عطاء دخل على الجنيد فى وقت نزعه فسلم عليه فلم يجبه ثم أجاب بعد ساعة وقال اعذرنى فانى كنت فى وردى ثم ولى وجهه الى القبلة وكبر ومات وقيل للكتانى لما حضرته الوفاة ما كان عملك فقال لو لم يقرب أجلى ما أخبرتكم به وقفت على باب قلبى أربعين سنة فكلما مر فيه غير الله حجبته عنه وحكى عن المعتمر قال كنت فيمن حضر الحكم بن عبد الملك حين جاءه الحق فقلت اللهم هون عليه سكرات الموت فانه كان وكان فذكرت محاسنه فافاق فقال من المتكلم فقلت أنا فقال ان ملك الموت عليه السلام يقول لى انى بكل سخى رفيق ثم طفى ولما حضرت يوسف بن أسباط الوفاة شهده حذيفة فوجده قلقا فقال يا أبا محمد هذا أوان القلق والجزع فقال يا أبا عبد الله وكيف لا أقلق ولا أجزع وانى لا أعلم أنى صدقت الله فى شئ من عملى فقال حذيفة واعجبا لهذا الرجل الصالح يحلف عند موته انه لا يعلم انه صدق الله فى شئ من عمله وعن المغازلى قال دخلت على شيخ لى من أصحاب هذه الصفة وهو عليل وهو يقول بكنك ان تعمل ما تريد فارفق بى ودخل بعض المشايخ على ممشاد الدينورى فى وقت وفاته فقال له فعل الله تعالى وصنع من باب الدعاء فضحك ثم قال منذ ثلاثين سنة تعرض على الجنة بما فيها فما أعرتها طرفى وقيل لرويم عند الموت قل لا اله الا الله فقال لا أحسن غيره ولما حضر الثورى الوفاة قيل له قل لا اله الا الله فقال أليس ثم أمر ودخل المزنى على الشافعى رحمة الله عليهما فى مرضه الذى توفى فيه فقال له كيف أصبحت يا أبا عبد الله فقال أصبحت من الدنيا راحلا وللاخوان مفارقا ولسوء عملى ملاقيا ولكأس المنية شاربا وعلى الله تعالى واردا ولا أدرى أروحى تصير الى الجنة فاهنيها أم الى النار فاعزيها ثم أنشأ يقول

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى * جعلت رجائى نحو عفوك سلما
تعاظمنى ذنبى فلما قرنته * بعفوك ربى كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل * تجود وتعفو منة وتكرما
ولولاك لم يغوى بابليس عابد * فكيف وقد أغوى صفيك آدما

ولما حضر أحمد بن خضرويه الوفاة سئل عن مسئلة فدمعت عيناه وقال يا بنى باب كنت أدقه خمسا وتسعين سنة هو ذا يفتح الساعة لى لا أدرى أيفتح بالسعادة أو الشقاوة فانى لى أوان الجواب فهذه أقاويلهم وانما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم فغلب على بعضهم الخوف وعلى بعضهم الرجاء وعلى بعضهم الشوق والحب فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله والكل صحيح بالاضافة الى أحوالهم

(الباب السادس فى أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور)

اعلم ان الجنائز عبرة للبصير وفيها تنبيه وتذكير الا لاهل الغفلة فانها لا تزيدهم مشاهدتها الا قساوة لانهم يظنون أنهم أبدا الى جنازة غيرهم ينظرون ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لا يقدرون ولا يتفكرون أن المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون فبطل حسبانهم وانقرض على القرب زمانهم فلا ينظر عبد الى جنازة الا ويقدر نفسه محمولا عليها فانه محمول عليها على القرب وكأن قد ولعله فى غد أو بعد غد ويروى عن أبى هريرة أنه كان اذا رأى جنازة قال امضوا فانا على الاثر وكان مكحول الدمشقى اذا رأى جنازة قال اغدوا فانا رائحون موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الاول والآخر لا عقل له وقال أسيد بن حضير ما شهدت جنازة فحدثتنى نفسى بشئ سوى ما هو مفعول به وما هو صائر اليه ولما مات أخو مالك بن دينار خرج مالك فى جنازته يبكى ويقول والله لا تقر عينى حتى أعلم الى ماذا صرت اليه ولا أعلم ما دمت حيا وقال الاعمش كنا نشهد الجنائز فلا ندرى من نعزى لحزن الجميع وقال ثابت البنانى كنا نشهد الجنائز فلا نرى الا متقنعا باكيا فهكذا كان خوفهم من الموت والآن لا ننظر الى جماعة يحضرون جنازة الا وأكثرهم يضحكون ويلهون ولا

ويقول بلسانه أيضا آكل هذه اللقمة لله تعالى ولا ينفع القول اذا لم تكن النية فى القلب لان النية عمل القلب وانما اللسان ترجمان فما لم تشتمل عليها عزيمة القلب لله لا تكون نية (ونادى) رجل امرأته وكان يسرح شعره فقال هات المدرى أراد الميل ليفرق شعره فقالت له امرأته أجئ بالمدرى والمرآة فسكت ثم قال نعم فقال له من سمعه سكت وتوقفت عن المرآة ثم قلت نعم فقال انى قلت لها هات المدرى بنية فلما قالت والمرآة لم يكن لى فى المرآة نية

يتكلمون الا فى ميراثه وما خلفه لورثته ولا يتفكر أقرانه وأقاربه الا فى الحيلة التى بها يتناول بعض ما خلفه ولا يتفكر واحد منهم الى ماشاء الله فى جنازة نفسه وفى حاله اذا حمل عليها ولا سبب لهذه الغفلة الا قسوة القلوب بكثرة المعاصى والذنوب حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر والاهوال التى بين أيدينا فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا يعنينا فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة فان أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميت ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم لا على الميت نظر ابراهيم الزيات الى أناس يترحمون على الميت فقال لو ترحمون على أنفسكم لكان خيرا لكم انه نجا من أهوال ثلاثة وجه ملك الموت وقد رأى ومرارة الموت وقد ذاق وخوف الخاتمة وقد أمن وقال أبو عمرو بن العلاء جلست الى جرير وهو يملى على كاتبه شعرا فاطلعت جنازة فامسك وقال شيبتنى والله هذه الجنائز وأنشأ يقول

تروعنا الجنائز مقبلات * ونلهو حين تذهب مدبرات

كروعة ثلة لمغار ذئب * فلما غاب عادت راتعات

فمن آداب حضور الجنائز التفكر والتنبه والاستعداد والمشى أمامها على هيئة التواضع كما ذكرنا آدابه وسننه فى فن الفقه ومن آدابه حسن الظن بالميت وان كان فاسقا واساءة الظن بالنفس وان كان ظاهرها الصلاح فان الخاتمة مخطرة لا تدرى حقيقتها ولذلك روى عن عمر بن ذر أنه مات واحد من جيرانه وكان مسرفا على نفسه فتجافى كثير من الناس عن جنازته فحضرها هو وصلى عليها فلما دلى فى قبره وقف على قبره وقال يرحمك الله يا أبا فلان فلقد صحبت عمرك بالتوحيد وعفرت وجهك بالسجود وان قالوا مذنب وذو خطايا فمن منا غير مذنب وغير ذى خطايا ويحكى ان رجلا من المنهمكين فى الفساد مات فى بعض نواحى البصرة فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته اذ لم يدر بها أحد من جيرانه لكثرة فسقه فاستأجرت حمالين وحملتها الى المصلى فما صلى عليه أحد فحملتها الى الصحراء للدفن فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار فرأته كالمنتظر للجنازة ثم قصد أن يصلى عليها فانتشر الخبر فى البلد بان الزاهد نزل ليصلى على فلان فخرج أهل البلد فصلى الزاهد وصلوا عليه وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه فقال قيل لى فى المنام انزل الى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها أحد الا امرأة فصل عليه فانه مغفور له فزاد تعجب الناس فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله وانه كيف كانت سيرته قالت كما عرف كان طول نهاره فى الماخور مشغولا بشرب الخمر فقال انظرى هل تعرفين منه شيأ من أعمال الخير قالت نعم ثلاثة أشياء كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح يبدل ثيابه ويتوضأ ويصلى الصبح فى جماعة ثم يعود الى الماخور ويشتغل بالفسق والثانى انه كان أبدا لا يخلو بيته من يتيم أو يتيمين وكان احسانه اليهم أكثر من احسانه الى أولاده وكان شديد التفقد لهم والثالث انه كان يفيق فى أثناء سكره فى ظلام الليل فيبكى ويقول يارب أى زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الخبيث يعنى نفسه فانصرف الزاهد وقد ارتفع اشكاله من أمره * وعن صلة بن أشيم وقد دفن أخ له فقال على قبره

فان تنج منها تنج من ذى عظيمة * والا فانى لا اخالك ناجيا

(بيان حال القبر وأقاويلهم عند القبور)

قال الضحاك قال رجل يارسول الله من أزهد الناس قال من لم ينس القبر والبلى وترك فضل زينة الدنيا وآثر ما يبقى على ما يفنى ولم يعد غدا من أيامه وعد نفسه من أهل القبور وقيل لعلى كرم الله وجهه ماشأنك جاورت المقبرة قال انى أجدهم خير جيران انى أجدهم جيران صدق يكفون الالسنة ويذكرون الآخرة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مارأيت منظرا الا والقبر أفظع منه وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المقابر فجلس الى قبر وكنت أدنى القوم منه فبكى وبكيت وبكوا فقال ما يبكيكم قلنا بكينا لبكائك قال هذا قبر أمى آمنة بنت وهب استأذنت ربى فى زيارتها فاذن لى فاستأذنته أن أستغفر لها فابى على فادركنى ما يدرك الولد من الرقة وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه اذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فسئل عن ذلك وقيل له تذكر الجنة والنار فلا تبكى وتبكى اذا وقفت على قبر فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان القبر أول منازل الآخرة فان نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه وان لم ينج منه فما بعده أشد وقيل ان عمرو بن

فتوقفت حتى هيأ الله تعالى لى نية فقلت نعم وكل مبتدئ لا يحكم أساس بدايته بمهاجرة الالاف والاصدقاء والمعارف ويتمسك بالوحدة لا تستقر بدايته وقد قيل من قلة الصدق كثرة الخلطاء وأنفع ماله لزوم الصمت وأن لا يطرق سمعه كلام الناس فان باطنه يتغير ويتأثر بالاقوال المختلفة وكل من لا يعلم كمال زهده فى الدنيا وتمسكه بحقائق التقوى لا يغتر به أبدا فان عدم معرفته لا يفتح عليه خيرا وبواطن أهل الابتداء كالشمع تقبل كل نقش وربما استضر

العاص نظر الى المقبرة فنزل وصلى ركعتين فقيل له هذا شئ لم تكن تصنعه فقال ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم و بينه فأحببت أن أتقرب الى الله بهما وقال مجاهد أول ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول أنا بيت الدود وبيت الوحدة و بيت الغربة و بيت الظلمة هذا ما أعددت لك فما أعددت لى وقال أبو ذر ألا أخبركم بيوم فقرى يوم أوضع فى قبرى وكان أبو الدرداء يقعد الى القبور فقيل له فى ذلك فقال أجلس الى قوم يذكرونى معادى واذا قمت لم يغتابونى وكان جعفر بن محمد يأتى القبور ليلا و يقول يا أهل القبور مالى اذا دعوتكم لا تجيبونى ثم يقول حيل والله بينهم وبين جوابى وكأنى بى أكون مثلهم ثم يستقبل الصلاة الى طلوع الفجر * وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه يا فلان لقد أرقت الليلة أتفكر فى القبر وساكنه انك لو رأيت الميت بعد ثلاثة فى قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الانس منك به ولرأيت بيتا تجول فيه الهوام و يجرى فيه الصديد وتخترقه الديدان مع تغير الريح وبلى الاكفان بعد حسن الهيئة وطيب الريح ونقاء الثوب قال ثم شهق شهقة خر مغشيا عليه وكان يزيد الرقاشى يقول أيها المقبور فى حفرته والمتخلى فى القبر بوحدته المستأنس فى بطن الارض بأعماله ليت شعرى بأى أعمالك استبشرت و بأى اخوانك اغتبطت ثم يبكى حتى يبل عمامته ثم يقول استبشر والله بأعماله الصالحة واغتبط والله باخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالى وكان اذا نظر الى القبور خار كما يخور الثور وقال حاتم الاصم من مر بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم وكان بكر العابد يقول يا أماه ليتك كنت بى عقيما ان لابنك فى القبر حبسا طويلا ومن بعد ذلك منه رحيلا وقال يحيى بن معاذ يا ابن آدم دعاك ربك الى دار السلام فانظر من أين تجيبه ان أجبته من دنياك واشتغلت بالرحلة اليه دخلتها وان أجبته من قبرك منعتها وكان الحسن بن صالح اذا أشرف على المقابر يقول ما أحسن ظواهرك انما الدواهى فى بواطنك وكان عطاء السلمى اذا جن عليه الليل خرج الى المقبرة ثم يقول يا أهل القبور متم فواموتاه وعاينتم أعمالكم فواعملاه ثم يقول غدا عطاء فى القبور غدا عطاء فى القبور فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح وقال سفيان من أكثر من ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار وكان الربيع بن خيثم قد حفر فى داره قبرا فكان اذا وجد فى قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ما شاء الله ثم يقول رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت يرددها ثم يرد على نفسه يا ربيع قد رجعتك فاعمل وقال أحمد بن حرب تتعجب الارض من رجل يمهد مضجعه و يسوى فراشه للنوم فتقول يا ابن آدم لم لا تذكر طول بلاك وما بينى و بينك شئ وقال ميمون بن مهران خرجت مع عمر بن عبد العزيز الى المقبرة فلما نظر الى القبور بكى ثم أقبل على فقال يا ميمون هذه قبور آبائى بنى أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذاتهم وعيشهم أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات واستحكم فيهم البلى وأصابت الهوام مقيلا فى أبدانهم ثم بكى وقال والله ما أعلم أحدا أنعم ممن صار الى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله وقال ثابت البنانى دخلت المقابر فلما قصدت الخروج منها فاذا بصوت قائل يقول يا ثابت لا يغرنك صموت أهلها فكم من نفس مغمومة فيها و يروى أن فاطمة بنت الحسين نظرت الى جنازة زوجها الحسن بن الحسين فغطت وجهها وقالت

وكانوا رجاء ثم أمسوا رزية * لقد عظمت تلك الرزايا وجلت

وقيل انها ضربت على قبره فسطاطا واعتكفت عليه سنة فلما مضت السنة قلعوا الفسطاط ودخلت المدينة فسمعوا صوتا من جانب البقيع هل وجدوا ما فقدوا فسمعوا من الجانب الآخر بل يئسوا فانقلبوا وقال أبو موسى التميمى توفيت امرأة الفرزدق فخرج فى جنازتها وجوه البصرة وفيهم الحسن فقال له الحسن يا أبا فراس ماذا أعددت لهذا اليوم فقال شهادة أن لا اله الا الله منذ ستين سنة فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال

أخاف وراء القبر ان لم تعافنى * أشد من القبر التهابا وأضيقا
اذا جاءنى يوم القيامة قائد * عنيف وسواق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من مشى * الى النار مغلول القلادة أزرقا

وقد أنشدوا فى أهل القبور

المبتدى بمجرد النظر الى الناس ويستضر بفضول النظر أيضا وفضول المشى فيقتصر من الاشياء كلها على الضرورة فينظر ضرورة حتى لو مشى فى بعض الطريق يجتهد أن يكون نظره الى الطريق الذى يسلكه لا يلتفت يمينه و يساره ثم يتقى موضع نظر الناس اليه واحساسهم منه بالرعاية والاحتراز فان علم الناس منه بذلك أضر عليه من فعله ولا يستحقر فضول المشى فان كل شئ من قول وفعل ونظر وسماع خرج عن حد الضرورة

قف بالقبور وقل على ساحاتها * من منكم المغمور في ظلماتها
ومن المكرم منكم في قعرها * قد ذاق برد الامن من روعاتها
أما السكون لذي العيون فواحد * لا يستبين الفضل في درجاتها
لو جاوبوك لاخبروك بالسن * تصف الحقائق بعد من حالاتها
أما المطيع فنازل في روضة * يفضي الى ماشاء من دوحاتها
والمجرم الطاغي بها متقلب * في حفرة يأوي الى حياتها
وعقارب تسعى اليه فروحه * في شدة التعذيب من لدغاتها

ومر داود الطائي على امرأة تبكي على قبر وهي تقول

عدمت الحياة ولا نلتها * اذا كنت في القبر قد ألحدوكا
فكيف أذوق لطعم الكرى * وأنت بيمناك قد وسدوكا

ثم قالت يا ابناه ليت شعري بأي خديك بدأ الدود فصعق داود مكانه وخر مغشيا عليه وقال مالك بن دينار مررت بالمقبرة فانشأت أقول

أتيت القبور فناديتها * فاين المعظم والمحتقر
وأين المدل بسلطانه * وأين المزكى اذا ما افتخر

قال فنوديت من بينها أسمع صوتا ولا أرى شخصا وهو يقول

تفانوا جميعا فما مخبر * وماتوا جميعا ومات الخبر * تروح وتغدو بنات الثرى
فتمحو محاسن تلك الصور * فيا سائلي عن أناس مضوا * أمالك فيما ترى معتبر

قال فرجعت وأنا باك

(أبيات وجدت مكتوبة على القبور)

(وجد مكتوبا على قبر)

تناجيك أجداث وهن صموت * وسكانها تحت التراب خفوت
أيا جامع الدنيا لغير بلاغه * لمن تجمع الدنيا وأنت تموت

ووجد على قبر آخر مكتوبا

أيا غانم أما ذراك فواسع * وقبرك معمور الجوانب محكم
وما ينفع المقبور عمران قبره * اذا كان فيه جسمه يتهدم

وقال ابن السماك مررت على المقابر فاذا على قبر مكتوب

يمر أقاربي جنبات قبري * كأن أقاربي لم يعرفوني * ذوو الميراث يقتسمون مالي
وما يألون ان جحدوا ديوني * وقد أخذوا سهامهم وعاشوا * فيالله أسرع ما نسوني

ووجد على قبر مكتوبا

ان الحبيب من الاحباب مختلس * لا يمنع الموت بواب ولا حرس
فكيف تفرح بالدنيا ولذتها * يا من يعد عليه اللفظ والنفس
أصبحت يا غافلا في النقص منغمسا * وأنت دهرك في اللذات منغمس
لا يرحم الموت ذا جهل لغرته * ولا الذي كان منه العلم يقتبس
كم أخرس الموت في قبر وقفت به * عن الجواب لسانا ما به خرس
قد كان قصرك معمورا له شرف * فقبرك اليوم في الاجداث مندرس

(ووجد على قبر آخر مكتوبا)

وقفت على الاحبة حين صفت * قبورهم كافراس الرهان
فلما أن بكيت وفاض دمعي * رأت عيناي بينهم مكاني

حر الى الفضول ثم يجر الى تضييع الاصول (قال سفيان) انما حرموا الوصول بتضييع الاصول فكل من لا يتمسك بالضرورة في القول والفعل لا يقدر أن يقف على قدر الحاجة من الطعام والشراب والنوم ومتى تعدى الضرورة تداعت عزائم قلبه وانحلت شيأ بعد شئ (قال سهل ابن عبد الله) من لم يعبد الله اختيارا يعبد الخلق اضطرارا او ينفتح على العبد أبواب الرخص والاتساع ويهلك مع الهالكين ولا ينبغي للمبتدئ أن يعرف أحدا من أرباب

ووجد على قبر طبيب مكتوبا

قد قلت لما قال لي قائل * قد صار لقمان الى رمسه * فأين ما يوصف من طبه

وحذقه في الماء مع جسه * هيهات لا يدفع عن غيره * من كان لا يدفع عن نفسه

ووجد على قبر آخر مكتوبا

يا أيها الناس كان لي أمل * قصر بي عن بلوغه الاجل * فليتق الله ربه رجل

أمكنه في حياته العمل * ما أنا وحدي نقلت حيث ترى * كل الى مثله سينتقل

فهذه أبيات كتبت على قبور لتقصير سكانها عن الاعتبار قبل الموت والبصير هو الذي ينظر الى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم فيستعد للحوق بهم ويعلم أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يلحق بهم وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذي هو مضيع له لكان ذلك أحب اليهم من الدنيا بحذافيرها لانهم عرفوا قدر الاعمار وانكشفت لهم حقائق الامور فانما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره فيتخلص من العقاب وليستزيد الموافق به رتبته فيتضاعف له الثواب فانهم انما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه فحسرتهم على ساعة من الحياة وأنت قادر على تلك الساعة ولعلك تقدر على أمثالها ثم أنت مضيع لها فوطن نفسك على التحسر على تضييعها عند خروج الامر من الاختيار اذلم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار فقد قال بعض الصالحين رأيت أخا لي في الله فيما يرى النائم فقلت يا فلان عشت الحمد لله رب العالمين قال لان أقدر على أن أقولها يعني الحمد لله رب العالمين أحب الي من الدنيا وما فيها ثم قال ألم تر حيث كانوا يدفنونني فان فلانا قد قام فصلى ركعتين لأن أكون أقدر على ان أصليهما أحب الي من الدنيا وما فيها

(بيان أقاويلهم عند موت الولد)

حق على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن ينزله في تقدمه عليه في الموت منزلة ما لو كانا في سفر فسبقه الولد الى البلد الذي هو مستقره ووطنه فانه لا يعظم عليه تأسفه لعلمه أنه لاحق به على القرب وليس بينهما الا تقدم وتأخر وهكذا الموت فان معناه السبق الى الوطن الى أن يلحق المتأخر واذا اعتقد هذا قل جزعه وحزنه لا سيما وقد ورد في موت الولد من الثواب ما يعزى به كل مصاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن أقدم سقطا أحب الي من ان أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله وانما ذكر السقط تنبيها بالادنى على الاعلى والا فالثواب على قدر محل الولد من القلب وقال زيد بن أسلم توفي ابن لداود عليه السلام فحزن عليه حزنا شديدا فقيل له ما كان عدله عندك قال ملء الارض ذهبا قيل له فان لك من الاجر في الآخرة مثل ذلك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يموت لاحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم الا كانوا له جنة من النار فقالت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أو اثنان قال أو اثنان وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت فانه أرجى دعاء وأقربه الى الاجابة وقف محمد ابن سليمان على قبر ولده فقال اللهم اني أصبحت أرجوك له وأخافك عليه فحقق رجائي وآمن خوفي ووقف أبو سنان على قبر ابنه فقال اللهم اني قد غفرت له ما وجب لي عليه فاغفر له ما وجب لك عليه فانك أجود وأكرم ووقف اعرابي على قبر ابنه فقال اللهم اني قد وهبت له ما قصر فيه من بري فهب له ما قصر فيه من طاعتك ولما مات ذر بن عمر ابن ذر قام أبوه عمر بن ذر بعدما وضع في لحده فقال يا ذر لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك ثم قال اللهم ان هذا ذر متعتني به ما متعتني ووفيته أجله ورزقه ولم تظلمه اللهم وقد كنت ألزمته طاعتك وطاعتي اللهم وما وعدتني عليه من الاجر في مصيبتي فقد وهبت له ذلك فهب لي عذابه ولا تعذبه فابكى الناس ثم قال عند انصرافه ما علينا بعدك من خصاصة يا ذر وما بنا الى انسان مع الله حاجة فلقد مضينا وتركناك ولو أقمنا ما نفعناك ونظر رجل الى امرأة بالبصرة فقال ما رأيت مثل هذه النضارة وما ذاك الا من قلة الحزن فقالت يا عبد الله اني لفي حزن ما يشركني فيه أحد قال فكيف قالت ان زوجي ذبح شاة في يوم عيد الاضحى وكان لي صبيان مليحان يلعبان فقال أكبرهما للآخر أتريد أن أريك كيف ذبح أبي الشاة قال نعم فأخذه وذبحه وما شعرنا به الا متشحطا في دمه فلما ارتفع الصراخ هرب الغلام فلجأ الى جبل فرهقه ذئب فأكله وخرج أبوه

الدنيا فان معرفته لهم سم قاتل وقد ورد الدنيا مبغوضة الله فمن تمسك بحبل منها قادته الى النار وما حبل من حبالها الا كا بنائها والطالبين لها والمحبين فمن عرفهم انجذب اليها شاء أو أبى ويحترز المبتدئ عن مجالسة الفقراء الذين لا يقولون بقيام الليل وصيام النهار فانه يدخل عليه منهم أشر ما يدخل عليه بمجالسة أبناء الدنيا وربما يشيرون الى أن الاعمال شغل المتعبدين وان أرباب الاحوال ارتقوا عن ذلك وينبغي للفقير أن يقتصر على الفرائض

يطلبه فمات عطشا من شدة الحر قالت فافردني الدهر كما ترى فامثال هذه المصائب ينبغي أن تتذكر عند موت الاولاد ليتسلى بها عن شدة الجزع فما من مصيبة الا وثمه وراءها ما هو أعظم منها وما يدفعه الله في كل حال فهو الاكثر

(بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به)

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار وزيارة قبور الصالحين مستحبة لاجل التبرك مع الاعتبار وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ثم أذن في ذلك بعد روي عن علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا وزار رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه في ألف مقنع فلم ير باكيا أكثر من يومئذ وفي هذا اليوم قال أذن لي في الزيارة دون الاستغفار كما أوردناه من قبل * وقال ابن أبي مليكة أقبلت عائشة رضي الله عنها يوما من المقابر فقلت يا أم المؤمنين من أين أقبلت قالت من قبر أخي عبد الرحمن فقلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنها قالت نعم ثم أمر بها ولا ينبغي أن يتمسك بهذا فيؤذن للنساء في الخروج الى المقابر فانهن يكثرن الهجر على رؤس المقابر فلا يفي خير زيارتهن بشرها ولا يخلون في الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظائم والزيارة سنة فكيف يحتمل ذلك لاجلها نعم لا بأس بخروج المرأة في ثياب بذلة ترد أعين الرجال عنها وذلك بشرط الاقتصار على الدعاء وترك الحديث على رأس القبر * وقال ابو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم زر القبور تذكر بها الآخرة واغسل الموتى فان معالجة جسد خاو موعظة بليغة وصل على الجنائز لعل ذلك أن يحزنك فان الحزين في ظل الله * وقال ابن أبي مليكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم زوروا موتاكم وسلموا عليهم فان لكم فيهم عبرة وعن نافع عن ابن عمر كان لا يمر بقبر احد الا وقف عليه وسلم عليه وعن جعفر بن محمد عن أبيه ان فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم كانت تزور قبر عمها حمزة في الايام فتصلي وتبكي عنده وقال النبي صلى الله عليه وسلم من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برا وعن ابن سيرين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين وقال النبي صلى الله عليه وسلم من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي وقال صلى الله عليه وسلم من زارني بالمدينة محتسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة وقال كعب الاحبار ما من فجر يطلع الا نزل سبعون ألفا من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون باجنحتهم ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم حتى اذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك حتى اذا انشقت الارض خرج في سبعين ألفا من الملائكة يوقرونه والمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلا بوجهه الميت وأن يسلم ولا يمسح القبر ولا يمسه ولا يقبله فان ذلك من عادة النصارى * قال نافع كان ابن عمر رأيته مائة مرة أو أكثر يجيء الى القبر فيقول السلام على النبي السلام على أبي بكر السلام على أبي وينصرف * وعن أبي امامة قال رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فوقف فرفع يديه حتى ظننت انه افتتح الصلاة فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرف وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده الا استأنس به ورد عليه حتى يقوم وقال سليمان بن سحيم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم قلت يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقه سلامهم قال نعم وأرد عليهم وقال أبو هريرة اذا مر الرجل بقبر الرجل يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه واذا مر بقبر لا يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام وقال رجل من آل عاصم الجحدري رأيت عاصما في منامي بعد موته بسنتين فقلت أليس قد مت قال بلى فقلت أين أنت فقال أنا والله في روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها الى أبي بكر بن عبد الله المزني فنتلاقى أخباركم قلت أجسامكم أم أرواحكم قال هيهات بليت الاجسام وانما تتلاقى الارواح قال قلت فهل تعلمون بزيارتنا اياكم قال نعم نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت الى طلوع الشمس قلت وكيف ذلك دون الايام كلها قال لفضل يوم الجمعة وعظمه وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة فقيل له لو أخرت الى يوم الاثنين قال بلغني أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبله ويوما بعده وقال الضحاك من زار قبرا قبل طلوع الشمس يوم السبت علم الميت بزيارته قيل وكيف ذاك قال لمكان يوم الجمعة وقال بشر بن منصور لما كان

وصوم رمضان فحسب ولا ينبغي ان يدخل هذا الكلام سمعه رأسا فانا اختبرنا ومارسنا الامور كلها وجالسنا الفقراء والصالحين ورأينا أن الذين يقولون هذا القول ويرون الفرائض دون الزيادات والنوافل تحت القصور مع كونهم أصحاء في أحوالهم فعلى العبد التمسك بكل فريضة وفضيلة فبذلك يثبت قدمه في بدايته ويراعي يوم الجمعة خاصة ويجعله لله تعالى خالصا لا يمزجه بشيء من أحوال نفسه ومآربها ويبكر الى

زمن الطاعون كان رجل يختلف الى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز فاذا أمسى وقف على باب المقابر فقال آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيآتكم وقبل الله حسناتكم لا يزيد على هذه الكلمات قال الرجل فامسيت ذات ليلة فانصرفت الى أهلي ولم آت المقابر فادعو كما كنت ادعو فبينما أنا نائم اذا بخلق كثير قد جاؤني فقلت ما أنتم وما حاجتكم قالوا نحن أهل المقابر قلت ما جاء بكم قالوا انك قد عودتنا منك هدية عند انصرافك الى أهلك قلت وما هي قالوا الدعوات التي كنت تدعو لنا بها قلت فاني أعود لذلك فما تركتها بعد ذلك وقال بشار بن غالب النجراني رأيت رابعة العدوية العابدة في منامي وكنت كثير الدعاء لها فقالت لي يا بشار بن غالب هداياك تأتينا على أطباق من نور مخمرة بمناديل الحرير قلت وكيف ذاك قالت وهكذا دعاء المؤمنين الاحياء اذا دعوا للموتى فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على أطباق النور وخمر بمناديل الحرير ثم أتى به الميت فقيل له هذه هدية فلان اليك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الميت في قبره الا كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو أخيه أو صديق له فاذا لحقته كانت أحب اليه من الدنيا وما فيها وان هدايا الاحياء للاموات الدعاء والاستغفار * وقال بعضهم مات أخ لي فرأيته في المنام فقلت ما كان حالك حيث وضعت في قبرك قال أتاني آت بشهاب من نار فلولا أن داعيا دعا لي لرأيت أنه سيضربني به ومن هذا يستحب تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له قال سعيد بن عبد الله الاودي شهدت أبا امامة الباهلي وهو في النزع فقال يا سعيد اذا مت فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يا فلان بن فلانة فانه يسمع ولا يجيب ثم ليقل يا فلان بن فلانة الثانية فانه يستوي قاعدا ثم ليقل يا فلان بن فلانة الثالثة فانه يقول أرشدنا يرحمك الله ولكن لا تسمعون فيقول له اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وانك رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا وبالقرآن اماما فان منكرا ونكيرا يتأخر كل واحد منهما فيقول انطلق بنا ما يقعدنا عند هذا وقد لقن حجته ويكون الله عز وجل حجيجه دونهما فقال الرجل يا رسول الله فان لم يعرف اسم أمه قال فلينسبه الى حواء ولا بأس بقراءة القرآن على القبور روي عن علي بن موسى الحداد قال كنت مع أحمد بن حنبل في جنازة ومحمد بن قدامة الجوهري معنا فلما دفن الميت جاء رجل ضرير يقرأ عند القبر فقال له أحمد يا هذا ان القراءة عند القبر بدعة فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد يا أبا عبد الله ما تقول في مبشر بن اسمعيل الحلبي قال ثقة قال هل كتبت عنه شيأ قال نعم قال أخبرني مبشر بن اسمعيل عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن ابيه انه أوصى اذا دفن ان يقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وخاتمتها وقال سمعت ابن عمر يوصي بذلك فقال له أحمد فارجع الى الرجل فقل له يقرأ * وقال محمد بن أحمد المروزي سمعت أحمد بن حنبل يقول اذا دخلتم المقابر فاقرؤا بفاتحة الكتاب والمعوذتين وقل هو الله أحد واجعلوا ثواب ذلك لاهل المقابر فانه يصل اليهم وقال أبو قلابة أقبلت من الشام الى البصرة فنزلت الخندق فتطهرت وصليت ركعتين بليل ثم وضعت رأسي على قبر فنمت ثم تنبهت فاذا صاحب القبر يشتكيني يقول لقد آذيتني منذ الليلة ثم قال انكم لا تعلمون ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ثم قال للركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ثم قال جزى الله عنا أهل الدنيا خيرا اقرئهم السلام فانه قد يدخل علينا من دعائهم نور أمثال الجبال فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها وللمزور الانتفاع بدعائه فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ولا عن الاعتبار به وانما يحصل له الاعتبار بان يصور في قلبه الميت كيف تفرقت أجزاؤه وكيف يبعث من قبره وانه على القرب سيلحق به كما روي عن مطرف بن أبي بكر الهذلي قال كانت عجوز في عبد القيس متعبدة فكان اذا جاء الليل تحزمت ثم قامت الى المحراب واذا جاء النهار خرجت الى القبور فبلغني انها عوتبت في كثرة اتيانها المقابر فقالت ان القلب القاسي اذا جفا لم يلينه الا رسوم البلى واني لآتي القبور فكأني أنظر وقد خرجوا من بين أطباقها وكأني أنظر الى تلك الوجوه المتعفرة والى تلك الاجسام المتغيرة والى تلك الاجفان الدسمة فيا لها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ما أنكل مرارتها للانفس وأشد تلفها للابدان بل ينبغي أن يحضر من صورة الميت ما ذكره عمر بن عبد العزيز حيث دخل عليه فقيه فتعجب من تغير صورته لكثرة الجهد والعبادة فقال له يا فلان

الجامع قبل طلوع الشمس بعد الغسل للجمعة وان اغتسل قريبا من وقت الصلاة اذا أمكنه ذلك فحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة اغتسل للجمعة ولو اشتريت الماء بعشائك وما من نبي الا وقد أمره الله تعالى أن يغتسل للجمعة فان غسل الجمعة كفارة للذنوب ما بين الجمعتين ويشتغل بالصلاة والتضرع والدعاء والتلاوة وأنواع

لو رأيتني بعد ثلاث وقد ادخلت قبري وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين وتقلصت الشفتان عن الاسنان وخرج الصديد من الفم وانفتح الفم ونتأ البطن فعلا الصدر وخرج الصلب من الدبر وخرج الدود والصديد من المناخر لرأيت أعجب مما تراه الآن ويستحب الثناء على الميت وأن لا يذكر الا بالجميل قالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه وقال صلى الله عليه وسلم لا تسبوا الاموات فانهم قد أفضوا الى ما قدموا وقال صلى الله عليه وسلم لا تذكروا موتاكم الا بخير فانهم ان يكونوا من أهل الجنة تأثموا وان يكونوا من أهل النار فحسبهم ما هم فيه وقال أنس بن مالك مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاثنوا عليها شرا فقال عليه السلام وجبت ومروا بأخرى فاثنوا عليها خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت فسأله عمر عن ذلك فقال ان هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة وهذا أثنيتم عليه شرا فوجبت له النار وأنتم شهداء الله في الارض وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان العبد ليموت فيثني عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيره فيقول الله تعالى لملائكته أشهدكم أني قد قبلت شهادة عبيدي على عبدي وتجاوزت عن علمي في عبدي

الاذكار من غير فتور الى أن يصلي الجمعة ويجلس معتكفا في الجامع الى أن يصلي فرض العصر وبقية النهار يشغله بالتسبيح والاستغفار والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فانه يرى بركة ذلك في جميع الاسبوع حتى يرى ثمرة ذلك يوم الجمعة وقد كان من الصادقين من يضبط أحواله وأقواله وأفعاله جميع الاسبوع لانه يوم المزيد لكل صادق ويكون ما يجده يوم

(الباب السابع في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر الى نفخة الصور)

(بيان حقيقة الموت)

اعلم أن للناس في حقيقة الموت ظنونا كاذبة قد أخطؤا فيها فظن بعضهم أن الموت هو العدم وأنه لا حشر ولا نشر ولا عاقبة للخير والشر وأن موت الانسان كموت الحيوانات وجفاف النبات وهذا رأي الملحدين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر وظن قوم أنه ينعدم بالموت ولا يتألم بعقاب ولا يتنعم بثواب ما دام في القبر الى أن يعاد في وقت الحشر وقال آخرون ان الروح باقية لا تنعدم بالموت وانما المثاب والمعاقب هي الارواح دون الاجساد وان الاجساد لا تبعث ولا تحشر أصلا وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق بل الذي تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والاخبار أن الموت معناه تغير حال فقط وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد اما معذبة واما منعمة ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها فان الاعضاء آلات للروح تستعملها حتى انها لتبطش باليد وتسمع بالاذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الاشياء بالقلب والقلب ههنا عبارة عن الروح والروح تعلم الاشياء بنفسها من غير آلة ولذلك قد يتألم بنفسه بانواع الحزن والغم والكمد ويتنعم بانواع الفرح والسرور وكل ذلك لا يتعلق بالاعضاء فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد وما هو لها بواسطة الاعضاء فيتعطل بموت الجسد الى أن تعاد الروح الى الجسد ولا يبعد ان تعاد الروح الى الجسد في القبر ولا يبعد أن تؤخر الى يوم البعث والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده وانما تعطل الجسد بالموت يضاهي تعطل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه وبشدة تقع في الاعصاب تمنع نفوذ الروح فيها فتكون الروح العالمة العاقلة المدركة باقية مستعملة لبعض الاعضاء وقد استعصى عليها بعضها والموت عبارة عن استعصاء الاعضاء كلها وكل الاعضاء آلات والروح هي المستعملة لها وأعني بالروح المعنى الذي يدرك من الانسان العلوم وآلام الغموم ولذات الافراح ومهما بطل تصرفها في الاعضاء لم تبطل منها العلوم والادراكات ولا بطل منها الافراح والغموم ولا بطل منها قبولها للآلام واللذات والانسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم وللآلام واللذات وذلك لا يموت أي لا ينعدم ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن وخروج البدن عن أن يكون آلة له كما ان معنى الزمانة خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة فالموت زمانة مطلقة في الاعضاء كلها وحقيقة الانسان نفسه وروحه وهي باقية نعم تغير حاله من جهتين احداهما انه سلب منه عينه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه وسلب منه خيله ودوابه وغلمانه ودوره وعقاره وسائر أملاكه ولا فرق بين أن تسلب هذه الاشياء من الانسان وبين ان يسلب الانسان من هذه الاشياء فان المؤلم هو الفراق والفراق يحصل تارة بان ينهب مال الرجل وتارة بان يسبى الرجل عن الملك والمال والالم واحد في الحالتين وانما معنى الموت سلب الانسان عن أمواله بازعاجه الى عالم آخر لا يناسب هذا العالم فان كان له في الدنيا شئ يأنس به ويستريح اليه

ويعتد بوجوده فيعظم تحسره عليه بعد الموت ويصعب شقاوه فى مفارقته بل يلتفت قلبه الى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره حتى الى قميص كان يلبسه مثلا ويفرح به وان لم يكن يفرح الا بذكر الله ولم يانس الا به عظم نعيمه وتمت سعادته اذ خلى بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل اذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله فهذا أحد وجهى المخالفة بين حال الموت وحال الحياة والثانى انه ينكشف له بالموت مالم يكن مكشوفا له فى الحياة كما قد ينكشف للمتيقظ مالم يكن مكشوفا فى النوم والناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا وأول ما ينكشف له مايضره وينفعه من حسناته وسيئاته وقد كان ذلك مسطورا فى كتاب مطوى فى سر قلبه وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا فاذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله فلا ينظر الى سيئة الا ويتحسر عليها تحسرا يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة وعند ذلك يقال له كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدفن وتشتعل فيه نيران الفراق أعنى فراق ما كان يطمئن اليه من هذه الدنيا الفانية دون ما أراد منها لاجل الزاد والبلغة فان من طلب الزاد للبلغة فاذا بلغ المقصد فرح بمفارقته بقية الزاد اذ لم يكن يريد الزاد لعينه وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا الا بقدر الضرورة وكان يود ان تنقطع ضرورته ليستغنى عنه فقد حصل ما كان يوده واستغنى عنه وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمة تهجم عليه قبل الدفن ثم عند الدفن قد ترد روحه الى الجسد لنوع آخر من العذاب وقد يعفى عنه ويكون حال المتنعم بالدنيا المطمئن اليها كحال من تنعم عند غيبة ملك من الملوك فى داره وملكه وحريمه اعتمادا على ان الملك يتساهل فى أمره أو على ان الملك ليس يدرى ما يتعاطاه من قبيح أفعاله فاخذه الملك بغتة وعرض عليه جريدة قد دونت فيها جميع فواحشه وجناياته ذرة ذرة وخطوة خطوة والملك قاهر متسلط وغيور على حرمه ومنتقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت الى من يتشفع اليه فى العصاة عليه فانظر الى هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف والخجلة والحياء والتحسر والندم فهذا حال الميت الفاجر المغتر بالدنيا المطمئن اليها قبل نزول عذاب القبر به بل عند موته نعوذ بالله منه فان الخزى والافتضاح وهتك الستر أعظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع وغيرهما فهذه اشارة الى حال الميت عند الموت شاهدها أولو البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت اذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح فى نفسها وادراك ماهية ذاتها ولم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم فيها ولا أن يزيد على أن يقول الروح من أمر ربى فليس لاحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وان اطلع عليه وانما المأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت ويدل على ان الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام ادراكها آيات وأخبار كثيرة أما الآيات فما ورد فى الشهداء اذ قال تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين ولما قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا فلان يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدنى ربى حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا فقيل يا رسول الله أتناديهم وهم أموات فقال صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده انهم لاسمع لهذا الكلام منكم الا انهم لا يقدرون على الجواب فهذا نص فى بقاء روح الشقى وبقاء ادراكها ومعرفتها والآية نص فى أرواح الشهداء ولا يخلو الميت عن سعادة أو شقاوة وقال صلى الله عليه وسلم القبر اما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة وهذا نص صريح على ان الموت معناه تغير حال فقط وان ما سيكون من شقاوة الميت وسعادته يتعجل عند الموت من غير تأخر وانما يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله وروى أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال الموت القيامة فمن مات فقد قامت قيامته وقال صلى الله عليه وسلم اذا مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشية ان كان من أهل الجنة فمن الجنة وان كان من أهل النار فمن النار ويقال هذا مقعدك حتى تبعث اليه يوم القيامة وليس يخفى ما فى مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم فى الحال وعن أبى قيس قال كنا مع علقمة فى جنازة فقال أما هذا فقد قامت قيامته وقال على كرم الله وجهه حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هى أم من أهل النار وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مات غريبا مات

الجمعة معيارا يعتبر به سائر الاسبوع الذى مضى فانه اذا كان الاسبوع سليما يكون يوم الجمعة فيه مزيد الانوار والبركات وما يجد فى يوم الجمعة من الظلمة وسآمة النفس وقلة الانشراح فللماضيع فى الاسبوع يعرف ذلك ويعتبره ويتقى جدا أن يلبس للناس اما المرتفع من الثياب أو ثياب المتقشفين ليرى بعين الزهد ففى لبس المرتفع للناس هوى

شهيدا و وقي فتانات القبر وغدي وريح عليه برزقه من الجنة وقال مسروق ما غبطت أحدا ما غبطت مؤمنا في
اللحد قد استراح من نصب الدنيا وأمن من عذاب الله وقال يعلى بن الوليد كنت أمشي يوما مع أبي الدرداء فقلت له
ما تحب لمن تحب قال الموت قلت فان لم يمت قال يقل ماله و ولده وانما أحب الموت لانه لا يحبه الا المؤمن والموت
اطلاق المؤمن من السجن وانما أحب قلة المال والولد لانه فتنة وسبب للانس بالدنيا والانس بمن لا بد من فراقه
غاية الشقاء فكل ما سوى الله وذكره والانس به فلا بد من فراقه عند الموت لا محالة ولهذا قال عبد الله بن عمرو انما
مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات في سجن فأخرج منه فهو يتفسح في الارض و يتقلب فيها
وهذا الذي ذكره حال من تجافى عن الدنيا وتبرم بها ولم يكن له انس الا بذكر الله تعالى وكانت شواغل الدنيا
تحبسه عن محبوبه ومقاساة الشهوات تؤذيه فكان في الموت خلاصه من جميع المؤذيات وانفراده بمحبوبه
الذي كان به انسه من غير عائق ولا دافع وما أجدر ذلك بان يكون منتهى النعيم واللذات وأكمل اللذات للشهداء
الذين قتلوا في سبيل الله لانهم ما أقدموا على القتال الا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا مشتاقين الى لقاء الله
راضين بالقتل في طلب مرضاته فان نظر الى الدنيا فقد باعها طوعا بالآخرة والبائع لا يلتفت قلبه الى المبيع وان
نظر الى الآخرة فقد اشتراها وتشوق اليها فما أعظم فرحه بما اشتراه اذا رآه وما أقل التفاته الى ما باعه اذا فارقه
وتجرد القلب لحب الله تعالى قد يتفق في بعض الاحوال ولكن لا يدركه الموت عليه فيتغير والقتال سبب
للموت فكان سببا لادراك الموت على مثل هذه الحالة فلهذا عظم النعيم اذ معنى النعيم أن ينال الانسان ما يريده
قال الله تعالى ولهم ما يشتهون فكان هذا أجمع عبارة لمعاني لذات الجنة وأعظم العذاب أن يمنع الانسان عن
مراده كما قال الله تعالى وحيل بينهم وبين ما يشتهون فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنم وهذا النعيم
يدركه الشهيد كما انقطع نفسه من غير تأخير وهذا أمر انكشف لارباب القلوب بنور اليقين وان أردت عليه
شهادة من جهة السمع فجميع أحاديث الشهداء تدل عليه وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم
بعبارة أخرى فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر الا أبشرك
يا جابر وكان قد استشهد أبوه يوم أحد فقال بلى بشرك الله بالخير فقال ان الله عز وجل قد أحيا أباك وأقعده بين
يديه وقال تمن علي عبدي ما شئت أعطيكه فقال يا رب ما عبدتك حق عبادتك أتمنى عليك أن تردني الى الدنيا
فأقاتل مع نبيك فأقتل فيك مرة أخرى قال له انه قد سبق مني انك اليها لا ترجع وقال كعب يوجد رجل في الجنة
يبكي فيقال له لم تبكي وأنت في الجنة قال أبكي لاني لم أقتل في الله الا قتلة واحدة فكنت أشتهي ان أرد فأقتل فيه
قتلات واعلم ان المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالاضافة اليه كالسجن
والمضيق ويكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم فتح له باب الى بستان واسع الاكناف لا يبلغ طرفه أقصاه فيه أنواع
الاشجار والازهار والثمار والطيور فلا يشتهي العود الى السجن المظلم وقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه
وسلم مثلا فقال لرجل مات أصبح هذا مرتحلا عن الدنيا وتركها لاهلها فان كان قد رضي فلا يسره أن يرجع الى
الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع الى بطن أمه فعرفك بهذا أن نسبة سعة الآخرة الى الدنيا كنسبة سعة الدنيا
الى ظلمة الرحم وقال صلى الله عليه وسلم ان مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه اذا خرج من بطنها بكى
على مخرجه حتى اذا رأى الضوء ورضع لم يحب أن يرجع الى مكانه وكذلك المؤمن يجزع من الموت فاذا أفضى الى
ربه لم يحب أن يرجع الى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع الى بطن أمه وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان
فلانا قد مات فقال مستريح أو مستراح منه أشار بالمستريح الى المؤمن وبالمستراح منه الى الفاجر اذ يستريح أهل
الدنيا منه وقال أبو عمر صاحب السقيا مر بنا ابن عمر ونحن صبيان فنظر الى قبر فاذا جمجمة بادية فأمر رجلا
فواراها ثم قال ان هذه الابدان ليس يضرها هذا الثرى شيأ وانما الارواح التي تعاقب وتثاب الى يوم القيامة
وعن عمرو بن دينار قال ما من ميت يموت الا وهو يعلم ما يكون في أهله بعده وانهم ليغسلونه ويكفنونه وانه
لينظر اليهم وقال مالك بن أنس بلغني أن أرواح المؤمنين مرسلة تذهب حيث شاءت وقال النعمان بن بشير
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول الا انه لم يبق من الدنيا الا مثل الذباب يمور في جوها فالله الله

في

وفي لبس الخشن رياء فلا يلبس الا لله (بلغنا) ان سفيان لبس القميص مقلوبا ولم يعلم بذلك حتى ارتفع النهار ونبهه على ذلك بعض الناس فهم أن يخلع ويغير ثم أمسك وقال لبسته بنية لله فلا أغيره فالبسه بنية للناس فليعلم العبد ذلك وليعتبره ولا بد للمبتدئ أن يكون له حظ من تلاوة القرآن ومن حفظه فيحفظ من القرآن من السبع الى

فى اخوانكم من أهل القبور فان أعمالكم تعرض عليهم وقال أبو هريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم لا تفضحوا موتاكم بسيئات أعمالكم فانها تعرض على أوليائكم من أهل القبور ولذلك قال أبو الدرداء اللهم انى أعوذ بك ان أعمل عملا أخزى به عند عبد الله بن رواحة وكان قد مات وهو خاله وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤمنين اذا ماتوا أين هى قال فى حواصل طير بيض فى ظل العرش وأرواح الكافرين فى الارض السابعة وقال أبو سعيد الخدرى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه فى قبره وقال صالح المرى بلغنى ان الارواح تتلاقى عند الموت فتقول أرواح الموتى للروح التى تخرج اليهم كيف كان مأواك وفى أى الجسدين كنت فى طيب أو خبيث وقال عبيد بن عمير أهل القبور يترقبون الاخبار فاذا أتاهم الميت قالوا ما فعل فلان فيقول ألم يأتكم أوما قدم عليكم فيقولون انا لله وانا اليه راجعون سلك به غير سبيلنا وعن جعفر بن سعيد قال اذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب وقال مجاهد ان الرجل ليبشر بصلاح ولده فى قبره وروى أبو أيوب الانصارى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان نفس المؤمن اذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير فى الدنيا يقولون انظروا أخاكم حتى يستريح فانه كان فى كرب شديد فيسألونه ماذا فعل فلان وماذا فعلت فلانة وهل تزوجت فلانة فاذا سألوه عن رجل مات قبله وقال مات قبلى قالوا انا لله وانا اليه راجعون ذهب به الى أمه الهاوية

(بيان كلام القبر للميت وكلام الموتى اما بلسان المقال أو بلسان الحال)

التى هى أفصح فى تفهيم الموتى من لسان المقال فى تفهيم الاحياء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرك بى ألم تعلم انى بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ما غرك بى اذ كنت تمر بى فدادا فان كان مصلحا أجاب عنه مجيب القبر فيقول أرأيت ان كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول القبر انى اذا أتحول عليه خضرا ويعود جسده نورا وتصعد روحه الى الله تعالى والفداد هو الذى يقدم رجلا ويؤخر أخرى هكذا فسره الراوى وقال عبيد بن عمير الليثى ليس من ميت يموت الا نادته حفرته التى يدفن فيها أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد فان كنت فى حياتك لله مطيعا كنت عليك اليوم رحمة وان كنت عاصيا فانا اليوم عليك نقمة أنا الذى من دخلنى مطيعا خرج مسرورا ومن دخلنى عاصيا خرج مثبورا وقال محمد ابن صبيح بلغنا ان الرجل اذا وضع فى قبره فعذب أو أصابه بعض ما يكره ناداه جيرانه من الموتى أيها المتخلف فى الدنيا بعد اخوانه وجيرانه أما كان لك فينا معتبر أما كان لك فى متقدمنا اياك فكرة أما رأيت انقطاع أعمالنا عنا وأنت فى المهلة فهلا استدركت ما فات اخوانك وتناديه بقاع الارض أيها المغتر بظاهر الدنيا هلا اعتبرت بمن غيب من أهلك فى بطن الارض ممن غرته الدنيا قبلك ثم سبق به أجله الى القبور وأنت تراه محمولا تهاداه أحبته الى المنزل الذى لابد له منه وقال يزيد الرقاشى بلغنى أن الميت اذا وضع فى قبره احتوشته أعماله ثم أنطقها الله فقالت أيها العبد المنفرد فى حفرته انقطع عنك الاخلاء والاهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا وقال كعب اذا وضع العبد الصالح فى القبر احتوشته أعماله الصالحة الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة قال فتجىء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة اليكم عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطال بى القيام لله عليهما فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام لا سبيل لكم عليه فقد أطال ظمأه لله فى دار الدنيا فلا سبيل لكم عليه فيأتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد اليكم عنه فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه وحج وجاهد لله فلا سبيل لكم عليه قال فيأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة كفوا عن صاحبى فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت فى يد الله تعالى ابتغاء وجهه فلا سبيل لكم عليه قال فيقال له هنيأ طبت حيا وطبت ميتا قال وتأتيه ملائكة الرحمة فتفرش له فراشا من الجنة ودثارا من الجنة ويفسح له فى قبره مد بصره ويؤتى بقنديل من الجنة فيستضىء بنوره الى يوم يبعثه الله من قبره وقال عبيد الله بن عبيد بن عمير فى جنازة بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه شىء الا قبره يقول ويحك ابن آدم أليس قد حذرتنى وحذرت ضيقى ونتنى وهولى ودودى فما ذا أعددت لى

(بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير)

الجميع الى أقل أو أكثر كيف أمكن ولا يصغى الى قول من يقول ملازمة ذكر واحد أفضل من تلاوة القرآن فانه يجد بتلاوة القرآن فى الصلاة وفى غير الصلاة جميع ما يتمنى بتوفيق الله تعالى وانما اختار بعض المشايخ أن يديم المريد ذكرا واحدا ليجتمع الهم فيه ومن لازم التلاوة فى الخلوة وتمسك بالوحدة تفيده التلاوة والصلاة أوفى

قال البراء بن عازب خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الانصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ثم قال اللهم انى أعوذ بك من عذاب القبر ثلاثا ثم قال ان المؤمن اذا كان فى قبل من الآخرة بعث الله ملائكة كأن وجوههم الشمس معهم حنوطه وكفنه فيجلسون مد بصره فاذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والارض وكل ملك فى السماء وفتحت أبواب السماء فليس منها باب الا يحب أن يدخل بروحه منه فاذا صعد بروحه قيل أى رب عبدك فلان فيقول ارجعوه فاروه ماأعددت له من الكرامة فانى وعدته منها خلقناكم وفيها نعيدكم الآية وانه ليسمع خفق نعالهم اذا ولوا مدبرين حتى يقال ياهذا من ربك وما دينك ومن نبيك فيقول ربى الله ودينى الاسلام ونبيى محمد صلى الله عليه وسلم قال فينتهرانه انتهارا شديدا وهى آخر فتنة تعرض على الميت فاذا قال ذلك نادى مناد أن قد صدقت وهى معنى قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت الآية ثم يأتيه آت حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول ابشر برحمة ربك وجنات فيها نعيم مقيم فيقول وأنت فبشرك الله بخير من أنت فيقول أنا عملك الصالح والله ماعلمت ان كنت لسريعا الى طاعة الله بطيأ عن معصية الله فجزاك الله خيرا قال ثم ينادى مناد أن افرشوا له من فرش الجنة وافتحوا له بابا الى الجنة فيفرش له من فرش الجنة ويفتح له باب الى الجنة فيقول اللهم عجل قيام الساعة حتى أرجع الى أهلى ومالى قال وأما الكافر فانه اذا كان فى قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت اليه ملائكة غلاظ شداد معهم ثياب من نار وسرابيل من قطران فيحتوشونه فاذا خرجت نفسه لعنه كل ملك بين السماء والارض وكل ملك فى السماء وغلقت أبواب السماء فليس منها باب الا يكره أن يدخل بروحه منه فاذا صعد بروحه نبذ وقيل أى رب عبدك فلان لم تقبله سماء ولا أرض فيقول الله عز وجل ارجعوه فاروه ماأعددت له من الشر انى وعدته منها خلقناكم وفيها نعيدكم الآية وانه ليسمع خفق نعالهم اذا ولوا مدبرين حتى يقال له ياهذا من ربك ومن نبيك وما دينك فيقول لاأدرى فيقال لادريت ثم يأتيه آت قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب فيقول أبشر بسخط من الله وبعذاب أليم مقيم فيقول بشرك الله بشر من أنت فيقول أنا عملك الخبيث والله ان كنت لسريعا فى معصية الله بطيأ عن طاعة الله فجزاك الله شرا فيقول وأنت فجزاك الله شرا ثم يقيض له أصم أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على أن يقلوها لم يستطيعوا ولوضرب بها جبل صار ترابا فيضربه بها ضربة فيصير ترابا ثم تعود فيه الروح فيضربه بها بين عينيه ضربة يسمعها من على الارضين ليس الثقلين قال ثم ينادى مناد أن افرشوا له لوحين من نار وافتحوا له بابا الى النار فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب الى النار وقال محمد بن على مامن ميت يموت الا مثل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة قال فيشخص الى حسناته ويطرق عن سيئاته وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان المؤمن اذا احتضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر الريحان فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين ويقال أيتها النفس المطمئنة اخرجى راضية ومرضيا عنك الى روح الله وكرامته فاذا أخرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان وطويت عليها الحريرة وبعث بها الى عليين وان الكافر اذا احتضر أتته الملائكة بمسح فيه جمرة فتنزع روحه انتزاعا شديدا ويقال أيتها النفس الخبيثة اخرجى ساخطة ومسخوطا عليك الى هوان الله وعذابه فاذا أخرجت روحه وضعت على تلك الجمرة وان لها نشيشا ويطوى عليها المسح ويذهب بها الى سجين وعن محمد بن كعب القرظى انه كان يقرأ قوله تعالى حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت قال أى شئ تريد فى أى شئ ترغب أتريد أن ترجع لتجمع المال وتغرس الغراس وتبنى البنيان وتشق الانهار قال لا لعلى أعمل صالحا فيما تركت قال فيقول الجبار كلا انها كلمة هو قائلها أى ليقولنها عند الموت وقال أبو هريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم المؤمن فى قبره فى روضة خضراء ويرحب له فى قبره سبعون ذراعا ويضئ حتى يكون كالقمر ليلة البدر هل تدرون فيما ذا أنزلت فان له معيشة ضنكا قالوا الله ورسوله أعلم قال عذاب الكافر فى قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنينا هل تدرون ما التنين تسعة وتسعون حية لكل حية سبعة رؤس يخدشونه ويلحسونه وينفخون فى جسمه الى يوم يبعثون ولا ينبغى أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص فان أعداد هذه الحيات والعقارب بعدد الاخلاق المذمومة من الكبر والرياء والحسد والغل

والحقد

ما يفيده الذكر الواحد فاذا سئم فى بعض الاحايين بصانع النفس على الذكر مضانعة وينزل من التلاوة الى الذكر فانه أخف على النفس وينبغى أن يعلم ان الاعتبار بالقلب فكل عمل من تلاوة وصلاة وذكر لا يجمع فيه بين القلب واللسان لايعتد به كل الاعتداد فانه عمل ناقص ولا يحقر الوساوس وحديث النفس فانه مضر وداء

والحقد وسائر الصفات فان لها أصولا معدودة ثم تتشعب منها فروع معدودة ثم تنقسم فروعها الى أقسام وتلك الصفات باعيانها هي المهلكات وهي باعيانها تنقلب عقارب وحيات فالقوي منها يلدغ لدغ التنين والضعيف يلدغ لدغ العقرب وما بينهما يؤذي ايذاء الحية وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانشعاب فروعها الا ان مقدار عددها لا يوقف عليه الا بنور النبوة فامثال هذه الاخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خفية ولكنها عند أرباب البصائر واضحة فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي ان ينكر ظواهرها بل أقل درجات الايمان التصديق والتسليم فان قلت فنحن نشاهد الكافر في قبره مدة ونراقبه ولا نشاهد شيأ من ذلك فما وجه التصديق على خلاف المشاهدة فاعلم ان لك ثلاث مقدمات في التصديق بامثال هذا (أحدها) وهو الاظهر والاصح والاسلم ان تصدق بانها موجودة وهي تلدغ الميت ولكنك لا تشاهد ذلك فان هذه العين لا تصلح لمشاهدة الامور الملكوتية وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت اما ترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل وما كانوا يشاهدونه ويؤمنون بانه عليه السلام يشاهده فان كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح أصل الايمان بالملائكة والوحي أهم عليك وان كنت آمنت به وجوزت ان يشاهد النبي ما لا تشاهده الامة فكيف لا تجوز هذا في الميت وكما ان الملك لا يشبه الآدميين والحيوانات فالحيات والعقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس حيات عالمنا بل هي جنس آخر وتدرك بحاسة أخرى *(المقام الثاني)* ان تتذكر أمر النائم وانه قد يرى في نومه حية تلدغه وهو يتألم بذلك حتى تراه يصيح في نومه ويعرق جبينه وقد ينزعج من مكانه كل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى به كما يتأذى اليقظان وهو يشاهده وانت ترى ظاهره ساكنا ولا ترى حواليه حية والحية موجودة في حقه والعذاب حاصل ولكنه في حقك غير مشاهد واذا كان العذاب في ألم اللدغ فلا فرق بين حية تتخيل أو تشاهد *(المقام الثالث)* انك تعلم ان الحية بنفسها لا تؤلم بل الذي يلقاك منها وهو السم ثم السم ليس هو الالم بل عذابك في الاثر الذي يحصل فيك من السم فلو حصل مثل ذلك الاثر من غير سم لكان العذاب قد توفر وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب الا بان يضاف الى السبب الذي يفضي اليه في العادة فانه لو خلق في الانسان لذة الوقاع مثلا من غير مباشرة صورة الوقاع لم يمكن تعريفها الا بالاضافة اليه لتكون الاضافة للتعريف بالسبب وتكون ثمرة السبب حاصلة وان لم تحصل صورة السبب والسبب يراد لثمرته لا لذاته وهذه الصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت فتكون آلامها كآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات وانقلاب الصفة مؤذية يضاهي انقلاب العشق مؤذيا عند موت المعشوق فانه كان لذيذا فطرأت حالة صار اللذيذ بنفسه مؤلما حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يتمنى معه أن لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال بل هذا بعينه هو أحد أنواع عذاب الميت فانه قد سلط العشق في الدنيا على نفسه فصار يعشق ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه ولو أخذ جميع ذلك في حياته من لا يرجو استرجاعه منه فماذا ترى يكون حاله أليس يعظم شقاؤه ويشتد عذابه ويتمنى ويقول ليته لم يكن لي مال قط ولا جاه قط فكنت لا أتأذى بفراقه فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة

ما حال من كان له واحد * غيب عنه ذلك الواحد

فما حال من لا يفرح الا بالدنيا فتؤخذ منه الدنيا وتسلم الى أعدائه ثم ينضاف الى هذا العذاب تحسره على ما فاته من نعيم الآخرة والحجاب عن الله عز وجل فان حب غير الله يحجبه عن لقاء الله والتنعم به فيتوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته وحسرته على ما فاته من نعيم الآخرة أبد الآباد وذل الرد والحجاب عن الله تعالى وذلك هو العذاب الذي يعذب به اذ لا يتبع نار الفراق الا نار جهنم كما قال تعالى كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم وأما من لم يأنس بالدنيا ولم يحب الا الله وكان مشتاقا الى لقاء الله فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيها وقدم على محبوبه وانقطعت عنه العوائق والصوارف وتوفر عليه النعيم مع الامن من الزوال أبد الآباد ولمثل ذلك فليعمل العاملون والمقصود أن الرجل قد يحب فرسه بحيث لو خير بين أن يؤخذ منه وبين أن تلدغه عقرب آثر الصبر على لدغ العقرب فاذا ألم فراق الفرس عنده أعظم من لدغ العقرب وحبه للفرس هو الذي يلدغه اذا

عضال فيطالب نفسه ان تصبر في تلاوته معنى القرآن مكان حديث النفس من باطنه فكما ان التلاوة على اللسان هو مشغول بها ولا يمزجها بكلام آخر هكذا يكون معنى القرآن في القلب لا يمزجه بحديث النفس وان كان أعجميا لا يعلم معنى القرآن يكون لمراقبة خلية باطنه فيشغل باطنه بمطالعة نظر الله اليه مكان حديث

أخذ منه فرسه فليستعد لهذه اللدغات فان الموت يأخذ منه فرسه ومركبه وداره وعقاره وأهله وولده وأحبابه
ومعارفه ويأخذ منه جاهه وقبوله بل يأخذ منه سمعه وبصره وأعضاءه وييأس من رجوع جميع ذلك اليه فاذا لم يحب
سواه وقد أخذ جميع ذلك منه فذلك أعظم عليه من العقارب والحيات وكما لو أخذ ذلك منه وهو حي فيعظم عقابه
فكذلك اذا مات لانا قد بينا أن المعنى الذي هو المدرك للآلام واللذات لم يمت بل عذابه بعد الموت أشد لانه في
الحياة يتسلى بأسباب يشتغل بها حواسه من مجالسة ومحادثة و يتسلى برجاء العود اليه و يتسلى برجاء العوض منه
ولا سلوة بعد الموت اذ قد انسد عليه طرق التسلي وحصل اليأس فاذا كل قميص له ومنديل قد أحبه بحيث كان
يشق عليه لو أخذ منه فانه يبقى متأسفا عليه ومعذبا به فان كان مخفا في الدنيا سلم وهو المعنى بقولهم نجا المخفون
وان كان مثقلا عظم عذابه وكما أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من يسرق منه عشرة دنانير فكذلك حال
صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم صاحب الدرهم أخف
حسابا من صاحب الدرهمين ومامن شيء من الدنيا يتخلف عنك عند الموت الا وهو حسرة عليك بعد الموت فان
شئت فاستكثر وان شئت فاستقلل فان استكثرت فلست بمستكثر الا من الحسرة وان استقللت فلست تخفف الا
عن ظهرك وانما تكثر الحيات والعقارب في قبور الاغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وفرحوا بها
واطمأنوا اليها فهذه مقامات الايمان في حيات القبر وعقاربه وفي سائر أنواع عذابه رأى أبو سعيد الخدري ابناله
قد مات في المنام فقال له يابني عظني قال لاتخالف الله تعالى فيما يريد قال يابني زدني قال ياأبت لاتطيق قال قل قال
لاتجعل بينك وبين الله قميصا قال فما لبس قميصا ثلاثين سنة فان قلت فما الصحيح من هذه المقامات الثلاث فاعلم ان في
الناس من لم يثبت الا الاول وأنكر ما بعده ومنهم من أنكر الاول وأثبت الثاني ومنهم من لم يثبت الا الثالث وانما
الحق الذي انكشف لنا بطريق الاستبصار أن كل ذلك في حيز الامكان وان من ينكر بعض ذلك فهو لضيق
حوصلته وجهله باتساع قدرة الله سبحانه وعجائب تدبيره فينكر من أفعال الله تعالى مالم يأنس به ويألفه وذلك
جهل وقصور بل هذه الطرق الثلاثة في التعذيب ممكنة والتصديق بها واجب ورب عبد يعاقب بنوع واحد من
هذه الانواع ورب عبد تجمع عليه هذه الانواع الثلاثة نعوذ بالله من عذاب الله قليله وكثيره هذا هو الحق فصدق
به تقليدا فيعز على بسيط الارض من يعرف ذلك تحقيقا والذي أوصيك به أن لاتكثر نظرك في تفصيل ذلك ولا
تشتغل بمعرفته بل اشتغل بالتدبير في دفع العذاب كيفما كان فان أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن
ذلك كنت كمن أخذه سلطان وحبسه ليقطع يده ويجدع أنفه فأخذ طول الليل يتفكر في أنه هل يقطعه بسكين أو
بسيف أو بموسى وأهمل طريق الحيلة في دفع أصل العذاب عن نفسه وهذا غاية الجهل فقد علم على القطع أن
العبد لايخلو بعد الموت من عذاب عظيم أو نعيم مقيم فينبغي أن يكون الاستعداد له فأما البحث عن تفصيل العقاب
والثواب ففضول وتضييع زمان

(بيان سؤال منكر ونكير وصورتهما وضغطة القبر وبقية القول في عذاب القبر)

قال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم اذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لاحدهما منكر
وللآخر نكير فيقولان له ماكنت تقول في النبي فان كان مؤمنا قال هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا اله الا الله وأن
محمدا رسول الله فيقولان ان كنا لنعلم انك تقول ذلك ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين ذراعا وينور له
في قبره ثم يقال له نم فيقول دعوني أرجع الى أهلي فأخبرهم فيقال له نم فينام كنومة العروس الذي لايوقظه
الا أحب أهله اليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك وان كان منافقا قال لا أدري كنت أسمع الناس يقولون شيأ
وكنت أقوله فيقولون ان كنا لنعلم انك تقول ذلك ثم يقال للارض التئمي عليه فتلتئم عليه حتى تختلف فيها
أضلاعه فلا يزال معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك وعن عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ياعمر كيف بك اذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر
ثم رجعوا اليك فغسلوك وكفنوك وحنطوك ثم احتملوك حتى يضعوك فيه ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنوك فاذا
انصرفوا عنك أتاك فتانا القبر منكر ونكير أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف يجران

النفس فان بالدوام على ذلك يصير من أرباب المشاهدة (قال مالك) قلوب الصديقين اذا سمعت القرآن طربت الى الآخرة فليتمسك المريد بهذه الاصول وليستعن بدوام الافتقار الى الله فبذلك ثبات قدمه قال سهل على قدر لزوم الالتجاء والافتقار الى الله تعالى يعرف البلاء وعلى قدر معرفته بالبلاء يكون افتقاره الى الله فدوام

اشعارهما و يبحثان القبر بأنيابهما فتلتلاك وترترانك كيف بك عند ذلك يا عمر فقال عمر و يكون معي مثل عقلي الآن قال نعم قال اذا أكفيكهما وهذا نص صريح في أن العقل لا يتغير بالموت انما يتغير البدن والاعضاء فيكون الميت عاقلا مدركا عالما بالآلام واللذات كما كان لا يتغير من عقله شئ وليس العقل المدرك هذه الاعضاء بل هو شئ باطن ليس له طول ولا عرض بل الذي لا ينقسم في نفسه هو المدرك الاشياء ولو تناثرت أعضاء الانسان كلها ولم يبق الا الجزء المدرك الذي لا يتجزأ ولا ينقسم لكان الانسان العاقل بكماله قائما باقيا وهو كذلك بعد الموت فان ذلك الجزء لا يحله الموت ولا يطرأ عليه العدم وقال محمد بن المنكدر بلغني أن الكافر يسلط عليه في قبره دابة عمياء صماء في يدها سوط من حديد في رأسه مثل غرب الجمل تضربه به الى يوم القيامة لا تراه فتتقيه ولا تسمع صوته فترحمه وقال أبو هريرة اذا وضع الميت في قبره جاءت أعماله الصالحة فاحتوشته فان أتاه من قبل رأسه جاء قراءته القرآن وان أتاه من قبل رجليه جاء قيامه وان أتاه من قبل يده قالت اليدان والله لقد كان يبسطني للصدقة والدعاء لا سبيل لكم عليه وان جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه وكذلك تقف الصلاة والصبر ناحية فيقول أما اني لو رأيت خللا لكنت أنا صاحبه قال سفيان تحاجش عنه أعماله الصالحة كما يحاجش الرجل عن أخيه وأهله وولده ثم يقال له عند ذلك بارك الله لك في مضجعك فنعم الاخلاء أخلاؤك ونعم الاصحاب أصحابك وعن حذيفة قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ثم قال يضغط المؤمن في هذا ضغطة ترد منها حمائله وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان للقبر ضغطة ولو سلم أو نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ وعن أنس قال توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقامة فتبعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فساءنا حاله فلما انتهينا الى القبر فدخله التمع وجهه صفرة فلما خرج أسفر وجهه فقلنا يا رسول الله رأينا منك شيأ فمم ذلك قال ذكرت ضغطة ابنتي وشدة عذاب القبر فأتيت فأخبرت أن الله قد خفف عنها ولقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين

(الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام)

اعلم أن أنوار البصائر المستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن مناهج الاعتبار تعرفنا أحوال الموتى على الجملة وانقسامهم الى سعداء وأشقياء ولكن حال زيد وعمرو بعينه فلا ينكشف بذلك أصلا فانا ان عولنا على ايمان زيد وعمرو فلا ندري على ماذا مات وكيف ختم له وان عولنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محله القلب وهو غامض يخفى على صاحب التقوى فكيف على غيره فلا حكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن قال الله تعالى انما يتقبل الله من المتقين فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمرو الا بمشاهدته ومشاهدة ما يجري عليه واذا مات فقد تحول من عالم الملك والشهادة الى عالم الغيب والملكوت فلا يرى بالعين الظاهرة وانما يرى بعين أخرى خلقت تلك العين في قلب كل انسان ولكن الانسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية فصار لا يبصر بها ولا يتصور أن يبصر بها شيأ من عالم الملكوت ما لم تنقشع تلك الغشاوة عن عين قلبه ولما كانت الغشاوة منقشعة عن أعين الانبياء عليهم السلام فلا جرم نظروا الى الملكوت وشاهدوا عجائبه والموتى في عالم الملكوت فشاهدوهم وأخبروا ولذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته وكذلك حال أبي جابر لما استشهد اذ أخبر ان الله أقعده بين يديه ليس بينهما ستر ومثل هذه المشاهدة لا مطمع فيها لغير الانبياء والاولياء الذين تقرب درجتهم منهم وانما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضعيفة الا انها أيضا مشاهدة نبوية وأعني بها المشاهدة في المنام وهي من أنوار النبوة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة وهو أيضا انكشاف لا يحصل الا بانقشاع الغشاوة عن القلب فلذلك لا يوثق الا برؤيا الرجل الصالح الصادق ومن كثر كذبه لم تصدق رؤياه ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهارة عند النوم لينام طاهرا وهو اشارة الى طهارة الباطن أيضا فهو الاصل وطهارة الظاهر بمنزلة التتمة والتكملة لها ومهما صفا الباطن انكشف في حدقة القلب ما سيكون في المستقبل كما انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم حتى نزل

الافتقار الى الله أصل كل خير ومفتاح كل علم دقيق في طريق القوم وهذا الافتقار مع كل الانفاس لا يتشبث بحركة ولا يستقل بكلمة دون الافتقار الى الله فيها وكل كلمة وحركة خلت عن مراجعة الله والافتقار فيها لا تعقب خيرا قطعا علمنا ذلك وتحققناه قال سهل من انتقل من نفس الى نفس من غير ذكر فقد ضيع حاله

قوله تعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق وقلما يخلو الانسان عن منامات دلت على أمور فوجدها صحيحة
والرؤيا ومعرفة الغيب في النوم من عجائب صنع الله تعالى وبدائع فطرة الآدمي وهو من أوضح الادلة على عالم
الملكوت والخلق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم والقول في حقيقة الرؤيا من دقائق
علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره علاوة على علم المعاملة ولكن القدر الذي يمكن ذكره ههنا مثال يفهمك المقصود
وهو أن تعلم أن القلب مثاله مثال مرآة تتراءى فيها الصور وحقائق الامور وان كل ما قدره الله تعالى من ابتداء
خلق العالم الى آخره مسطور ومثبت في خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه تارة باللوح وتارة بالكتاب المبين وتارة
بامام مبين كما ورد في القرآن فجميع ما جرى في العالم وما سيجري مكتوب فيه ومنقوش عليه نقشا لا يشاهد بهذه
العين ولا تظنن أن ذلك اللوح من خشب أو حديد أو عظم وان الكتاب من كاغد أو رق بل ينبغي أن تفهم قطعا
أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق كما أن ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم بل
ان كنت تطلب له مثالا يقربه الى فهمك فاعلم ان ثبوت المقادير في اللوح يضاهي ثبوت كلمات القرآن وحروفه
في دماغ حافظ القرآن وقلبه فانه مسطور فيه حتى كأنه حين يقرؤه ينظر اليه ولو فتشت دماغه جزأ جزأ لم تشاهد
من ذلك الخط حرفا وان كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر فمن هذا النمط ينبغي أن تفهم كون اللوح
منقوشا بجميع ما قدره الله تعالى وقضاه واللوح في المثال كمرآة تظهر فيها الصور فلو وضع في مقابلة المرآة مرآة
أخرى لكانت صورة تلك المرآة تتراءى في هذه الا أن يكون بينهما حجاب فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم واللوح
مرآة رسوم العلم كلها موجودة فيها واشتغال القلب بشهواته ومقتضى حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالعة
اللوح الذي هو من عالم الملكوت فان هبت ريح حركت هذا الحجاب ورفعته تلألأ في مرآة القلب شيء من عالم
الملكوت كالبرق الخاطف وقد يثبت ويدوم وقد لا يدوم وهو الغالب ومادام متيقظا فهو مشغول بما تورده الحواس
عليه من عالم الملك والشهادة وهو حجاب عن عالم الملكوت ومعنى النوم أن تركد الحواس عليه فلا تورده على
القلب فاذا تخلص منه ومن الخيال وكان صافيا في جوهره ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ فوقع في قلبه
شيء مما في اللوح كما تقع الصورة من مرآة في مرآة أخرى اذا ارتفع الحجاب بينهما الا أن النوم مانع سائر الحواس
عن العمل وليس مانعا للخيال عن عمله وعن تحركه فما يقع في القلب يبتدره الخيال فيحاكيه بمثال يقاربه وتكون
المتخيلات أثبت في الحفظ من غيرها فيبقى الخيال في الحفظ فاذا انتبه لم يتذكر الا الخيال فيحتاج المعبر أن ينظر الى
هذا الخيال حكاية أي معنى من المعاني فيرجع الى المعاني بالمناسبة التي بين المتخيل والمعاني وأمثلة ذلك ظاهرة
عند من نظر في علم التعبير ويكفيك مثال واحد وهو أن رجلا قال لابن سيرين رأيت كأن بيدي خاتما اختم به
أفواه الرجال وفروج النساء فقال انك مؤذن تؤذن قبل الصبح في رمضان قال صدقت فانظر أن روح الختم هو
المنع ولاجله يراد الختم وانما ينكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه وهو كونه مانعا الناس
من الاكل والشرب ولكن الخيال ألف المنع عند الختم بالخاتم فمثله بالصورة الخيالية التي تتضمن روح المعنى
ولا يبقى في الحفظ الا الصورة الخيالية فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذي لا تحصر عجائبه وكيف لا وهو أخو
الموت وانما الموت هو عجيب من العجائب وهذا لانه يشبهه من وجه ضعيف أثر في كشف الغطاء عن عالم الغيب حتى
صار النائم يعرف ما سيكون في المستقبل فماذا ترى في الموت الذي يخرق الحجاب ويكشف الغطاء بالكلية حتى يرى
الانسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه اما محفوفة بالانكال والخازي والفضائح نعوذ بالله من ذلك واما
مكنوفا بنعيم مقيم وملك كبير لا آخر له وعند هذا يقال للاشقياء وقد انكشف الغطاء لقد كنت في غفلة من هذا
فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ويقال أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا
سواء عليكم انما تجزون ما كنتم تعملون والهم الاشارة بقوله تعالى وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون فأعلم
العلماء وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات ما لم يخطر قط بباله ولا اختلج به ضميره فلو لم
يكن للعاقل هم وغم الا الفكر في خطر تلك الحال ان الحجاب عماذا يرتفع وما الذي ينكشف عنه الغطاء من
شقاوة لازمة أم سعادة دائمة لكان ذلك كافيا في استغراق جميع العمر والعجب من غفلتنا وهذه العظائم بين

وأدنى ما يدخل على من ضيع حاله دخوله فيما لا يعنيه وتركه ما يعنيه (وبلغنا) ان حسان بن سنان قال ذات يوم لمن هذه الدار ثم رجع الى نفسه وقال مالي وهذا السؤال وهل هذه الا كلمة لا تعنيني وهل هذا الا لاستيلاء النفسي وقلة أدبها وآلى على نفسه ان يصوم سنة كفارة لهذه الكلمة فبالصدق نالوا ما نالوا وبقوة العزائم

أيدينا وأعجب من ذلك فرحنا باموالنا وأهلينا وباسبابنا وذريتنا بل باعضائنا وسمعنا وبصرنا مع انا نعلم مفارقة جميع ذلك يقينا ولكن أين من ينفث روح القدس في روعه فيقول ماقال لسيد النبيين أحبب من أحببت فانك مفارقه وعش ماشئت فانك ميت واعمل ماشئت فانك مجزى به فلا جرم لما كان ذلك مكشوفا له بعين اليقين كان في الدنيا كعابر سبيل لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ولم يخلف دينارا ولا درهما ولم يتخذ حبيبا ولا خليلا نعم قال لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الرحمن فبين أن خلة الرحمن تخللت باطن قلبه وأن حبه تمكن من حبة قلبه فلم يترك فيه متسعا لخليل ولا حبيب وقد قال لا مته ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله فانما أمته من اتبعه وما اتبعه الامن أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة فانه مادعا الا الى الله واليوم الآخر وماصرف الاعن الدنيا والحظوظ العاجلة فبقدر ما أعرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة فقد سلكت سبيله الذي سلكه وبقدر ماسلكت سبيله فقد اتبعته وبقدر ما اتبعته فقد صرت من أمته وبقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابعته والتحقت بالذين قال الله تعالى فيهم فامامن طغى وآثر الحيوة الدنيا فان الجحيم هي المأوى فلو خرجت من مكمن الغرور وانصفت نفسك يارجل وكلنا ذلك الرجل لعلمت انك من حين تصبح الى حين تمسي لا تسعى الا في الحظوظ العاجلة ولا تتحرك ولا تسكن الا للعاجل الدنيا ثم تطمع أن تكون غدا من أمته وأتباعه ما أبعد ظنك وما أبرد طمعك أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون ولنرجع الى ما كنا فيه وبصدده فقد امتد عنان الكلام الى غير مقصده ولنذكر الآن من المنامات الكاشفة لاحوال الموتى ما يعظم الانتفاع به اذ ذهبت النبوة وبقيت المبشرات وليس ذلك الا المنامات

(بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والاعمال النافعة في الآخرة)

فمن ذلك رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال عليه السلام من رآني في المنام فقد رآني حقا فان الشيطان لا يتمثل بي وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فرأيته لا ينظر الي فقلت يارسول الله ماشأني فالتفت الي وقال ألست المقبل وأنت صائم قال والذي نفسي بيده لا أقبل امرأة وأنا صائم أبدا وقال العباس رضي الله عنه كنت ودا لعمر فاشتهيت أن أراه في المنام فما رأيته الا عند رأس الحول فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول هذا أوان فراغي ان كان عرشي ليهد لولا أني لقيته رؤفا رحيما وقال الحسن بن علي قال لي علي رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سنح لي الليلة في منامي فقلت يارسول الله مالقيت من أمتك قال ادع عليهم فقلت اللهم أبدلني بهم من هو خير لي منهم وأبدلهم بي من هو شر لهم مني فخرج فضربه ابن ملجم وقال بعض الشيوخ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله استغفر لي فاعرض عني فقلت يارسول الله ان سفيان بن عيينة حدثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله انك لم تسأل شيأ فقلت لا فاقبل علي فقال غفر الله لك وروي عن العباس بن عبد المطلب قال كنت مواخيا لابي لهب مصاحبا له فلما مات وأخبر الله عنه بما أخبر حزنت عليه وأهمني أمره فسألت الله تعالى حولا أن يريني اياه في المنام قال فرأيته يلتهب نارا فسألته عن حاله فقال صرت الى النار في العذاب لا يخفف عني ولا يروح الا ليلة الاثنين في كل الايام والليالي قلت وكيف ذلك قال ولد في تلك الليلة محمد صلى الله عليه وسلم فجاءتني امية فبشرتني بولادة آمنة اياه ففرحت به واعتقت وليدة لي فرحا به فاثابني الله بذلك ان رفع عني العذاب في كل ليلة اثنين وقال عبد الواحد بن زيد خرجت حاجا فصحبني رجل كان لا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن الا صلى على النبي صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك فقال أخبرك عن ذلك خرجت أول مرة الى مكة ومعي أبي فلما انصرفنا نمت في بعض المنازل فبينا أنا نائم اذ أتاني آت فقال لي قم فقد أمات الله أباك وسود وجهه قال فقمت مذعورا فكشفت الثوب عن وجهه فاذا هو ميت أسود الوجه فداخلني من ذلك رعب فبينا أنا في ذلك الغم اذ غلبتني عيني فنمت فاذا على رأس أبي أربعة سودان معهم أعمدة حديد اذ أقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين أخضرين فقال لهم تنحوا فمسح وجهه بيده ثم أتاني فقال قم فقد بيض الله وجه أبيك فقلت له من أنت بأبي أنت وأمي فقال أنا محمد قال فقمت فكشفت الثوب عن وجه أبي فاذا هو أبيض فما تركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم *وعن عمر بن عبد العزيز قال

عزائم الرجال بلغوا مابلغوا (أخبرنا) أبو زرعة اجازة قال أنا أبو بكر بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن قال سمعت منصورا يقول سمعت أبا عمرو الانماطي يقول سمعت الجنيد يقول لو أقبل صادق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان مافاته من الله أكثر مما ناله وهذه الجملة يحتاج المبتدئ ان يحكمها والمنتهي عالم بها عامل

رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما جالسان عنده فسلمت وجلست فبينما أنا جالس اذ أتى بعلى ومعاوية فادخلا بيتا وأجيف عليهما الباب وأنا أنظر فما كان بأسرع من ان خرج على رضى الله عنه وهو يقول قضى لى ورب الكعبة وما كان بأسرع من ان خرج معاوية على أثره وهو يقول غفر لى ورب الكعبة واستيقظ ابن عباس رضى الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال قتل الحسين والله وكان ذلك قبل قتله فانكره أصحابه فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زجاجة من دم فقال ألا تعلم ما صنعت أمتى بعدى قتلوا ابنى الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرفعها الى الله تعالى فجاء الخبر بعد أربعة وعشرين يوما بقتله فى اليوم الذى رآه ورؤى الصديق رضى الله عنه فقيل له انك كنت تقول أبدا فى لسانك هذا أوردنى الموارد فماذا فعل الله بك قال قلت به لا اله الا الله فاوردنى الجنة

(بيان منامات المشايخ رحمة الله عليهم أجمعين)

قال بعض المشايخ رأيت ممشا الدورقى فى المنام فقلت ياسيدى مافعل الله بك فقال دير بى فى الجنان فقيل لى ياممشا هل استحسنت فيها شيأ قلت لا ياسيدى فقال لو استحسنت منها شيأ لوكلتك اليه ولم أوصلك الى ورؤى يوسف بن الحسين فى المنام فقيل له مافعل الله بك قال غفر لى قيل بماذا قال ماخلطت جدا بهزل وعن منصور بن اسمعيل قال رأيت عبد الله البزار فى النوم فقلت مافعل الله بك قال أوقفنى بين يديه فغفر لى كل ذنب أقررت به الا ذنبا واحدا فانى استحييت ان أقر به فاوقفنى فى العرق حتى سقط لحم وجهى فقلت ما كان ذلك الذنب قال نظرت الى غلام جميل فاستحسنته فاستحييت من الله ان أذكره وقال أبو جعفر الصيدلانى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم وحوله جماعة من الفقراء فبينما نحن كذلك اذا انشقت السماء فنزل ملكان أحدهما بيده طشت وبيد الآخر ابريق فوضع الطشت بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فغسل يده ثم أمر حتى غسلوا ثم وضع الطشت بين يدى فقال أحدهما للآخر لا تصب على يده فانه ليس منهم فقلت يارسول الله أليس قد روى عنك انك قلت المرء مع من أحب قال بلى قلت يارسول الله فانى أحبك وأحب هؤلاء الفقراء فقال صلى الله عليه وسلم صب على يده فانه منهم وقال الجنيد رأيت فى المنام كأنى أتكلم على الناس فوقف على ملك فقال أقرب ما تقرب به المتقربون الى الله تعالى ماذا فقلت عمل خفى بميزان وفى فولى الملك وهو يقول كلام موفق والله ورؤى مجمع فى النوم فقيل له كيف رأيت الامر فقال رأيت الزاهدين فى الدنيا ذهبوا بخير الدنيا والآخرة وقال رجل من أهل الشام للعلاء بن زياد رأيتك فى النوم كأنك فى الجنة فنزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال لعل الشيطان أراد أمرا فعصمت منه فاشخص رجلا يقتلنى وقال محمد بن واسع الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره وقال صالح ابن بشير رأيت عطاء السلمى فى النوم فقلت له رحمك الله لقد كنت طويل الحزن فى الدنيا قال أما والله لقد أعقبنى ذلك راحة طويلة وفرحا دائما فقلت فى أى الدرجات أنت فقال مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين الآية وسئل زرارة بن أبى أوفى فى المنام أى الاعمال أفضل عندكم فقال الرضا وقصر الامل وقال يزيد بن مذعور رأيت الاوزاعى فى المنام فقلت يا أبا عمرو دلنى على عمل أتقرب به الى الله تعالى قال ما رأيت هنالك درجة أرفع من درجة العلماء ثم درجة المحزونين قال وكان يزيد شيخا كبيرا فلم يزل يبكى حتى أظلمت عيناه وقال ابن عيينة رأيت أخى فى المنام فقلت يا أخى مافعل الله بك فقال كل ذنب استغفرت منه غفر لى ومالم أستغفر منه لم يغفر لى وقال على الطلحى رأيت فى المنام امرأة لا تشبه نساء الدنيا فقلت من أنت فقالت حوراء فقلت زوجينى نفسك قالت اخطبنى الى سيدى وأمهرنى قلت وما مهرك قالت حبس نفسك عن آفاتها وقال ابراهيم بن اسحق الحربى رأيت زبيدة فى المنام فقلت مافعل الله بك قالت غفر لى فقلت لها بما أنفقت فى طريق مكة قالت أما النفقات التى أنفقتها رجعت أجورها الى أربابها وغفر لى بنيتى ولما مات سفيان الثورى رؤى فى المنام فقيل له مافعل الله بك قال وضعت أول قدمى على الصراط والثانى فى الجنة وقال أحمد بن أبى الحوارى رأيت فيما يرى النائم جارية ما رأيت أحسن منها وكان يتلألأ وجهها نورا فقلت لها بما ذا ضوء وجهك قالت تذكر تلك الليلة التى بكيت فيها قلت نعم قالت أخذت دمعك فمسحت به وجهى فمن ثم ضوء وجهى كما ترى وقال الكتانى رأيت الجنيد فى المنام فقلت له مافعل الله بك قال طاحت تلك الاشارات وذهبت تلك العبارات وما حصلنا الا على ركعتين كنا نصليهما فى الليل وريئت

بحقائقها فالمبتدئ صادق والمنتهى صديق قال أبو سعيد القرشى الصادق الذى ظاهره مستقيم وباطنه يميل أحيانا الى حظ النفس وعلامته أن يجد الحلاوة فى بعض الطاعة ولا يجدها فى بعض واذا اشتغل بالذكر نور الروح واذا اشتغل بحظوظ النفس يحجب عن الاذكار والصديق الذى استقام ظاهره و باطنه يعبد الله تعالى

زبيدة فى المنام فقيل لها ما فعل الله بك قالت غفر لى بهذه الكلمات الاربع لا اله الا الله أفنى بها عمرى لا اله الا الله أدخل بها قبرى لا اله الا الله أخلو بها وحدى لا اله الا الله ألقى بها ربى ورىء بشر فى المنام فقيل له ما فعل الله بك قال رحمنى ربى عز وجل وقال يا بشر أما استحييت منى كنت تخافنى كل ذلك الخوف ورؤى أبو سليمان فى النوم فقيل له ما فعل الله بك قال رحمنى وما كان شئ أضر على من اشارات القوم الى وقال أبو بكر الكتانى رأيت فى النوم شابا لم أر أحسن منه فقلت له من انت قال التقوى قلت فاين تسكن قال كل قلب حزين ثم التفت فاذا امرأة سوداء فقلت من أنت قالت أنا السقم قلت فاين تسكنين قالت كل قلب فرح مرح قال فانتبهت وتعاهدت أن لا أضحك الا غلبة وقال أبو سعيد الخراز رأيت فى المنام كان ابليس وثب على فاخذت العصا لاضربه فلم يفزع منها فهتف بى هاتف ان هذا لا يخاف من هذه وانما يخاف من نور يكون فى القلب وقال المسوحى رأيت ابليس فى النوم يمشى عريانا فقلت ألا تستحى من الناس فقال بالله هؤلاء ناس لو كانوا من الناس ما كنت ألعب بهم طرفى النهار كما يتلاعب الصبيان بالكرة بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمى وأشار بيده الى أصحابنا الصوفية وقال أبو سعيد الخراز كنت فى دمشق فرأيت فى المنام كان النبى صلى الله عليه وسلم جاءنى متكئا على أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فجاء فوقف على وأنا أقول شيأ من الاصوات وأدق فى صدرى فقال شر هذا أكثر من خيره * وعن ابن عيينة قال رأيت سفيان الثورى فى النوم كانه فى الجنة يطير من شجرة الى شجرة يقول لمثل هذا فليعمل العاملون فقلت له اوصنى قال أقلل من معرفة الناس وروى ابو حاتم الرازى عن قبيصة بن عقبة قال رأيت سفيان الثورى فقلت ما فعل الله بك فقال

نظرت الى ربى كفاحا فقال لى * هنيأ رضائى عنك يا ابن سعيد
فقد كنت قواما اذا أظلم الدجى * بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أى قصر أردته * وزرنى فانى منك غير بعيد

ورؤى الشبلى بعد موته بثلاثة أيام فقيل له ما فعل الله بك قال ناقشنى حتى أيست فلما رأى يأسى تغمدنى برحمته ورؤى مجنون بنى عامر بعد موته فى المنام فقيل له ما فعل الله بك قال غفر لى وجعلنى حجة على المحبين ورؤى الثورى فى المنام فقيل له ما فعل الله بك قال رحمنى فقيل له ما حال عبد الله بن المبارك فقال هو ممن يلج على ربه فى كل يوم مرتين ورؤى بعضهم فسئل عن حاله فقال حاسبونا فدققوا ثم منوا فاعتقوا ورؤى مالك بن أنس فقيل له ما فعل الله بك قال غفر لى بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضى الله عنه عند رؤية الجنازة سبحان الحى الذى لا يموت ورىء فى الليلة التى مات فيها الحسن البصرى كأن أبواب السماء مفتحة وكأن مناديا ينادى ألا ان الحسن البصرى قدم على الله وهو عنه راض ورىء الجاحظ فقيل له ما فعل الله بك فقال

ولا تكتب بخطك غير شئ * يسرك فى القيامة أن تراه

ورأى الجنيد ابليس فى المنام عريانا فقال ألا تستحى من الناس فقال وهؤلاء ناس الناس أقوام فى مسجد الشونيزية قد أضنوا جسدى وأحرقوا كبدى قال الجنيد فلما انتبهت غدوت الى المسجد فرأيت جماعة قد وضعوا رؤسهم على ركبهم يتفكرون فلما رأونى قالوا لا يغرنك حديث الخبيث ورؤى النصراباذى بمكة بعد وفاته فى النوم فقيل له ما فعل الله بك قال عوتبت عتاب الاشراف ثم نوديت يا أبا القاسم أبعد الاتصال انفصال فقلت لا يا ذا الجلال فما وضعت فى اللحد حتى لحقت بربى ورأى عتبة الغلام حوراء فى المنام على صورة حسنة فقالت يا عتبة أنا لك عاشقة فانظر لا تعمل من الاعمال شيأ فيحال بينى وبينك فقال عتبة طلقت الدنيا ثلاثا لا رجعة لى عليها حتى ألقاك وقيل رأى ايوب السختيانى جنازة عاص فدخل الدهليز كيلا يصلى عليها فرأى الميت بعضهم فى المنام فقيل له ما فعل الله بك قال غفر لى وقال قل لايوب قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى اذا لامسكتم خشية الانفاق وقال بعضهم رأيت فى الليلة التى مات فيها داود الطائى نورا وملائكة نزولا وملائكة صعودا فقلت اى ليلة هذه فقالوا ليلة مات فيها داود الطائى وقد زخرفت الجنة لقدوم روحه وقال أبو سعيد الشحام رأيت سهلا الصعلوكى فى المنام فقلت ايها الشيخ قال دع التشيخ قلت تلك الاحوال التى شاهدتها فقال لم تغن عنا فقلت ما فعل الله بك قال غفر لى بمسائل كان يسأل عنها العجز وقال ابو بكر الرشيدى رأيت محمدا الطوسى المعلم فى النوم فقال لى قل لابى سعيد الصفار المؤدب

وكنا على ان لا نحول عن الهوى * فقد وحياة الحب حلتم وما حلنا

بتلوين الاحوال لا يحجبه عن الله وعن الاذكار أكل ولا نوم ولا شرب ولا طعام والصديق يريد نفسه لله واقرب الاحوال الى النبوة الصديقية (وقال أبو يزيد) آخر نهايات الصديقين أول درجات الانبياء * واعلم ان أرباب النهايات استقامت بواطنهم وظواهرهم لله وأرواحهم خلصت عن ظلمات النفوس ووطئت

قال فانتبهت فذكرت ذلك له فقال كنت أزور قبره كل جمعة فلم أزره هذه الجمعة وقال ابن راشد رأيت ابن المبارك في النوم بعد موته فقلت أليس قد مت قال بلى قلت فما صنع الله بك قال غفر لي مغفرة أحاطت بكل ذنب قلت فسفيان الثوري قال بخ بخ ذاك من الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين الآية وقال الربيع بن سليمان رأيت الشافعي رحمة الله عليه بعد وفاته في المنام فقلت يا أبا عبد الله ما صنع الله بك قال أجلسني على كرسي من ذهب ونثر على اللؤلؤ الرطب ورأى رجل من أصحاب الحسن البصري ليلة مات الحسن كأن مناديا ينادي ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين واصطفى الحسن البصري على أهل زمانه وقال ابو يعقوب القاري الدقيقي رأيت في منامي رجلا آدم طوالا والناس يتبعونه فقلت من هذا قالوا اويس القرني فأتيته فقلت أوصني رحمك الله فكلح في وجهي فقلت مسترشد فارشدني أرشدك الله فاقبل علي وقال اتبع رحمة ربك عند محبته واحذر نقمته عند معصيته ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك ثم ولى وتركني وقال أبو بكر بن أبي مريم رأيت ورقاء بن بشر الحضرمي فقلت ما فعلت يا ورقاء قال نجوت بعد كل جهد قلت فأي الاعمال وجدتموها أفضل قال البكاء من خشية الله وقال يزيد بن نعامة هلكت جارية في الطاعون الجارف فرآها ابوها في المنام فقال لها يا بنية أخبريني عن الآخرة قالت يا أبت قدمنا على أمر عظيم نعلم ولا نعمل وتعملون ولا تعلمون والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان في فسحة عمل أحب الي من الدنيا وما فيها وقال بعض أصحاب عتبة الغلام رأيت عتبة في المنام فقلت ما صنع الله بك قال دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة في بيتك قال فلما أصبحت جئت الى بيتي فاذا خط عتبة الغلام في حائط البيت يا هادي المضلين ويا راحم المذنبين ويا مقيل عثرات العاثرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم اجمعين واجعلنا مع الاحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يا رب العالمين وقال موسى بن حماد رأيت سفيان الثوري في الجنة يطير من نخلة الى نخلة ومن شجرة الى شجرة فقلت يا أبا عبد الله بم نلت هذا قال بالورع قلت فما بال علي بن عاصم قال ذاك لا يكاد يرى الا كما يرى الكوكب ورأى رجل من التابعين النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال يا رسول الله عظني قال نعم من لم يتفقد النقصان فهو في نقصان ومن كان في نقصان فالموت خير له وقال الشافعي رحمة الله عليه دهمني في هذه الايام امر أمضني وآلمني ولم يطلع عليه غير الله عز وجل فلما كان البارحة أتاني آت في منامي فقال لي يا محمد بن ادريس قل اللهم اني لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ولا استطيع ان آخذ الا ما أعطيتني ولا اتقي الا ما وقيتني اللهم فوفقني لما تحب وترضى من القول والعمل في عافية فلما اصبحت أعدت ذلك فلما ترحل النهار أعطاني الله عز وجل طلبتي وسهل لي الخلاص مما كنت فيه فعليكم بهذه الدعوات لا تغفلوا عنها فهذه جملة من المكاشفات تدل على احوال الموتى وعلى الاعمال المقربة الى الله زلفى فلنذكر بعدها ما بين يدي الموتى من ابتداء نفخة الصور الى آخر القرار اما في الجنة أو في النار والحمد لله حمد الشاكرين

(الشطر الثاني من كتاب ذكر الموت في احوال الميت من وقت نفخة الصور الى آخر الاستقرار في الجنة أو النار وتفصيل ما بين يديه من الاهوال والاخطار) وفيه بيان نفخة الصور وصفة ارض المحشر وأهله وصفة عرق اهل المحشر وصفة طول يوم القيامة وصفة يوم القيامة ودواهيها وأساميها وصفة المساءلة عن الذنوب وصفة الميزان وصفة الخصماء ورد المظالم وصفة الصراط وصفة الشفاعة وصفة الحوض وصفة جهنم واهوالها وانكالها وحياتها وعقاربها وصفة الجنة واصناف نعيمها وعدد الجنان وابوابها وغرفها وحيطانها وانهارها واشجارها ولباس اهلها وفرشهم وسررهم وصفة طعامهم وصفة الحور العين والولدان وصفة النظر الى وجه الله تعالى وباب في سعة رحمة الله تعالى وبه نختم الكتاب ان شاء الله تعالى

(صفة نفخة الصور)

قد عرفت فيما سبق شدة احوال الميت في سكرات الموت وخطره في خوف العاقبة ثم مقاساته لظلمة القبر وديدانه ثم لمنكر ونكير وسؤالهما ثم لعذاب القبر وخطره ان كان مغضوبا عليه وأعظم من ذلك كله الاخطار التي بين يديه من نفخ الصور والبعث يوم النشور والعرض على الجبار والسؤال عن القليل والكثير ونصب الميزان لمعرفة

المقادير

بساط القرب ونفوسهم منقادة مطواعة صالحة مع القلوب مجيبة الى كل ما تجيب اليه القلوب أرواحهم متعلقة بالمقام الاعلى انطفأت فيهم نيران الهوى وتخمر في بواطنهم صريح العلم وانكشفت لهم الآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حق أبي بكر رضي الله عنه من أراد أن ينظر الى ميت يمشي على وجه الارض فلينظر الى أبي

المقادير ثم جواز الصراط مع دقته وحدته ثم انتظار النداء عند فصل القضاء اما بالاسعاد واما بالاشقاء فهذه أحوال وأهوال لابد لك من معرفتها ثم الايمان بها على سبيل الجزم والتصديق ثم تطويل الفكر في ذلك لينبعث من قلبك دواعي الاستعداد لها وأكثر الناس لم يدخل الايمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحر جهنم وزمهريرها مع ما تكتنفه من المصاعب والاهوال بل اذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم ومن أخبر بان ما بين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه الذي أخبره صدقت ثم مد يده لتناوله كان مصدقا بلسانه ومكذبا بعمله وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني وكذبني وما ينبغي له أن يكذبني أما شتمه اياي فيقول ان لي ولدا وأما تكذيبه فقوله لن يعيدني كما بدأني وانما فتور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور لقلة الفهم في هذا العالم لامثال تلك الامور ولو لم يشاهد الانسان توالد الحيوانات وقيل له ان صانعا يصنع من النطفة القذرة مثل هذا الآدمي المصور العاقل المتكلم المتصرف لاشتد نفور باطنه عن التصديق به ولذلك قال الله تعالى أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين وقال تعالى أيحسب الانسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى ففي خلق الآدمي مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه أعاجيب تزيد على الاعاجيب في بعثه واعادته فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك في صنعته وقدرته فان كان في ايمانك ضعف فقو الايمان بالنظر في النشأة الاولى فان الثانية مثلها وأسهل منها وان كنت قوي الايمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والاخطار وأكثر فيها التفكر والاعتبار لتسلب عن قلبك الراحة والقرار فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار وتفكر أولا فيما يقرع سمع سكان القبور من شدة نفخ الصور فانها صيحة واحدة تنفرج بها القبور عن رؤس الموتى فيثورون دفعة واحدة فتوهم نفسك وقد وثبت متغيرا وجهك مغبرا بدنك من فرقك الى قدمك من تراب قبرك مبهوتا من شدة الصعقة شاخص العين نحو النداء وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم وقد أزعجهم الفزع والرعب مضافا الى ما كان عندهم من الهموم والغموم وشدة الانتظار لعاقبة الامر كما قال تعالى ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون وقال تعالى فاذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير وقال تعالى ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ما ينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون ونفخ في الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون فلو لم يكن بين يدي الموتى الا هول تلك النفخة لكان ذلك جديرا بان يتقى فانها نفخة وصيحة يصعق بها من في السموات والارض يعني يموتون بها الا من شاء الله وهو بعض الملائكة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة وأصغى بالاذن ينتظر متى يؤمر فينفخ قال مقاتل الصور هو القرن وذلك ان اسرافيل عليه السلام واضع فاه على القرن كهيئة البوق ودائرة رأس القرن كعرض السموات والارض وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الاولى فاذا نفخ صعق من في السموات والارض أي مات كل حيوان من شدة الفزع الا من شاء الله وهو جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل ثم روح ميكائيل ثم روح اسرافيل ثم يأمر ملك الموت فيموت ثم يلبث الخلق بعد النفخة الاولى في البرزخ أربعين سنة ثم يحيي الله اسرافيل فيأمره أن ينفخ الثانية فذلك تعالى ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون على أرجلهم ينظرون الى البعث وقال صلى الله عليه وسلم حين بعث أتى صاحب الصور فاهوى به الى فيه وقدم رجلا وأخر أخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ ألا فاتقوا النفخة فتفكر في الخلائق وذلهم وانكسارهم واستكانتهم عند الانبعاث خوفا من هذه الصعقة وانتظارا لما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم بل ان كنت في الدنيا من المترفهين والاغنياء المتنعمين فلوك الارض في ذلك اليوم

بكر اشارة منه عليه الصلاة والسلام الى ما كوشف به من صريح العلم الذي لا يصل اليه عوام المؤمنين الا بعد الموت حيث يقال فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد فارباب النهايات ماتت أهويتهم وخلصت أرواحهم (قال) يحيي ابن معاذ وقد سئل عن وصف العارف فقال رجل معهم بائن منهم وقال مرة عبد كان فبان فارباب النهايات هم عند

أذل أهل أرض الجمع وأصغرهم وأحقرهم يوطؤن بالاقدام مثل الذر وعند ذلك تقبل الوحوش من البراري والجبال منكسة رؤسها مختلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنست بها ولكن حشرتهم شدة الصعقة وهول النفخة وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم وذلك قوله تعالى وإذا الوحوش حشرت ثم أقبلت الشياطين المردة بعد تمردها وعتوها وأذعنت خاشعة من هيبة العرض على الله تعالى تصديقا لقوله تعالى فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا فتفكر في حالك وحال قلبك هنالك

(صفة أرض المحشر وأهله)

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة غرلا الى أرض المحشر أرض بيضاء قاع صفصف لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ولا ترى عليها ربوة يختفي الانسان وراءها ولا وهدة ينخفض عن الاعين فيها بل هو صعيد واحد بسيط لا تفاوت فيه يساقون اليه زمرا فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الارض إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة والراجفة هي النفخة الاولى والرادفة هي الثانية وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة ولتلك الابصار أن تكون خاشعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها معلم لاحد قال الراوي والعفرة بياض ليس بالناصع والنقي هو النقي عن القشر والنخالة ومعلم أي لا بناء يستر ولا تفاوت يرد البصر ولا تظنن أن تلك الارض مثل أرض الدنيا بل لا تساويها إلا في الاسم قال تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات قال ابن عباس يزاد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها وتمد مد الاديم العكاظي أرض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة والسموات تذهب شمسها وقمرها ونجومها فانظر يا مسكين في هول ذلك اليوم وشدته فانه اذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء وطمس الشمس والقمر وأظلمت الارض لخمود سراجها فبينا هم كذلك إذ دارت السماء من فوق رؤسهم وانشقت مع غلظها وشدتها خمسمائة عام والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها فيا هول صوت انشقاقها في سمعك ويا هيبة ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدتها ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صفرة فصارت وردة كالدهان وصارت السماء كالمهل وصارت الجبال كالعهن واشتبك الناس كالفراش المبثوث وهم حفاة عراة مشاة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان قالت سودة زوج النبي صلى الله عليه وسلم راوية الحديث قلت يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا الى بعض فقال شغل الناس عن ذلك لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه فاعظم بيوم تنكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات الى غيرهم قال أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف ركبانا ومشاة وعلى وجوههم فقال رجل يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم قال الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم في طبع الآدمي انكار كل مالم يأنس به ولو لم يشاهد الانسان الحية وهي تمشي على بطنها كالبرق الخاطف لانكر تصور المشي على غير رجل والمشي بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك فاياك أن تنكر شيأ من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما في الدنيا فانك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد انكارا لها فأحضر في قلبك صورتك وأنت واقف عار يا مكشوف ذليل مدحور متحير مبهوت منتظر لما يجري عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة وأعظم بهذه الحال فانها عظيمة

(صفة العرق)

ثم تفكر في ازدحام الخلائق واجتماعهم حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والارضين السبع من ملك وجن وانس وشيطان ووحش وسبع وطير فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ثم أدنيت من رؤس العالمين كقاب قوسين فلم يبق على الارض ظل إلا ظل عرش رب العالمين ولم يمكن من الاستظلال به إلا المقربون فمن بين مستظل بالعرش وبين مضح لحر الشمس قد صهرته بحرها واشتد كربه وغمه من وهجها ثم تدافعت الخلائق ودفع بعضهم بعضا لشدة الزحام واختلاف الاقدام وانضاف اليه شدة

الخجلة

الله بحقيقتهم معوقين بتوقيت الاجل جعلهم الله تعالى من جنوده في خلقه بهم يهدي وبهم يرشد وبهم يجذب أهل الارادة كلامهم دواء ونظرهم دواء ظاهرهم محفوظ بالحكم وباطنهم معمور بالعلم (قال ذو النون) علامة العارف ثلاثة لا يطفئ نور معرفته نور ورعه ولا يعتقد باطنا من العلم ينقض عليه ظاهرا من الحكم ولا يحمله كثرة نعم

الخجلة والحياء من الافتضاح والاخزاء عند العرض على جبار السماء فاجتمع وهج الشمس وحر الانفاس واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف ففاض العرق من أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله فبعضهم بلغ العرق ركبتيه وبعضهم حقويه وبعضهم الى شحمة أذنيه وبعضهم كاد يغيب فيه قال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه الى أنصاف أذنيه وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الارض سبعين باعا ويلجمهم ويبلغ آذانهم كذا رواه البخاري ومسلم في الصحيح وفي حديث آخر قياما شاخصة أبصارهم أربعين سنة الى السماء فيلجمهم العرق من شدة الكرب وقال عقبة بن عامر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تدنو الشمس من الارض يوم القيامة فيعرق الناس فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من يبلغ نصف ساقه ومنهم من يبلغ ركبته ومنهم من يبلغ فخذه ومنهم من يبلغ خاصرته ومنهم من يبلغ فاه وأشار بيده فألجمها فاه ومنهم من يغطيه العرق وضرب بيده على رأسه هكذا فتأمل يا مسكين في عرق أهل المحشر وشدة كربهم وفيهم من ينادي فيقول رب أرحني من هذا الكرب والانتظار ولو الى النار وكل ذلك ولم يلقوا بعد حسابا ولا عقابا فانك واحد منهم ولا تدري الى أين يبلغ بك العرق واعلم أن كل عرق لم يخرجه التعب في سبيل الله من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد في قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة في أمر بمعروف ونهي عن منكر فسيخرجه الحياء والخوف في صعيد القيامة ويطول فيه الكرب ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق في تحمل مصاعب الطاعات أهون أمرا وأقصر زمانا من عرق الكرب والانتظار في القيامة فانه يوم عظيمة شدته طويلة مدته

(صفة طول يوم القيامة)

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم منفطرة قلوبهم لا يكلمون ولا ينظر في أمورهم يقفون ثلثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة ولا يجدون فيه روح نسيم قال كعب وقتادة يوم يقوم الناس لرب العالمين قال يقومون مقدار ثلثمائة عام بل قال عبد الله بن عمرو تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ثم قال كيف بكم اذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر اليكم وقال الحسن ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لا يأكلون فيها أكلة ولا يشربون فيها شربة حتى اذا انقطعت أعناقهم عطشا واحترقت أجوافهم جوعا انصرف بهم الى النار فسقوا من عين آنية قد آن حرها واشتد لفحها فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضا في طلب من يكرم على مولاه ليشفع في حقهم فلم يتعلقوا بنبي الا دفعهم وقال دعوني نفسي نفسي شغلني أمري عن أمر غيري واعتذر كل واحد بشدة غضب الله تعالى وقال قد غضب اليوم ربنا غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله حتى يشفع نبينا صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن له فيه لا يملكون الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضي له قولا فتأمل في طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصي في عمرك المختصر واعلم أن من طال انتظاره في الدنيا للموت لشدة مقاساته للصبر عن الشهوات فانه يقصر انتظاره في ذلك اليوم خاصة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال والذي نفسي بيده انه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين فما دام يبقى لك نفس من عمرك فالامر اليك والاستعداد بيديك فاعمل في أيام قصار لايام طوال تربح ربحا لا منتهى لسروره واستحقر عمرك بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة فانك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلا لتخلص من يوم مقداره خمسون ألفا لكان ربحك كثيرا وتعبك يسيرا

(صفة يوم القيامة ودواهيه وأساميه)

فاستعد يا مسكين لهذا اليوم العظيم شأنه المديد زمانه القاهر سلطانه القريب أوانه يوم ترى السماء فيه قد انفطرت والكواكب من هوله قد انتثرت والنجوم الزواهر قد انكدرت والشمس قد كورت والجبال قد سيرت والعشار قد عطلت والوحوش قد حشرت والبحار قد سجرت والنفوس الى الابدان قد زوجت والجحيم قد سعرت والجنة قد أزلفت والجبال قد نسفت والارض قد مدت يوم ترى الارض قد زلزلت

الله وكرامته على هتك استار محارم الله فاربا ب النهايات كلما ازدادوا نعمة ازدادوا عبودية وكلما ازدادوا دنيا ازدادوا قربا وكلما ازدادوا جاها ورفعة ازدادوا تواضعا وذلة أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين وكلما تناولوا شهوة من شهوات النفوس استخرجت منهم شكرا صافيا يتناولون الشهوات تارة رفقا بالنفوس لانها

فيه زلزالها وأخرجت الارض أثقالها يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم يوم تحمل الارض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية والملك على ارجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية يوم تسير الجبال وترى الارض بارزة يوم ترج الارض فيه رجا وتبس الجبال بسا فكانت هباء منبثا يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار يوم تنسف فيه الجبال نسفا فتترك قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان فيومئذ لايسئل عن ذنبه انس ولا جان يوم يمنع فيه العاصي من الكلام ولا يسئل فيه عن الاجرام بل يؤخذ بالنواصي والاقدام يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وماعملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت وتشهد ماقدمت وأخرت يوم تخرس فيه الالسن وتنطق الجوارح يوم شيب ذكره سيد المرسلين اذ قال له الصديق رضي الله عنه أراك قد شبت يارسول الله قال شيبتني هود وأخواتها وهي الواقعة والمرسلات وعم يتساءلون واذا الشمس كورت فيا أيها القارئ العاجز انما حظك من قراءتك أن تمجمج القرآن وتحرك به اللسان ولو كنت متفكرا فيما تقرؤه لكنت جديرا بأن تنشق مرارتك مما شاب منه شعر سيد المرسلين واذا قنعت بحركة اللسان فقد حرمت ثمرة القرآن فالقيامة أحد ماذكر فيه وقد وصف الله بعض دواهيها وأكثر من أسامها لتقف بكثرة أسامها على كثرة معانيها فليس المقصود بكثرة الاسامي تكرير الاسامي والالقاب بل الغرض تنبيه أولى الالباب فتحت كل اسم من أسماء القيامة سر وفي كل نعت من نعوتها معنى فاحرص على معرفة معانيها ونحن الآن نجمع لك أساميها وهي يوم القيامة ويوم الحسرة ويوم الندامة ويوم المحاسبة ويوم المساءلة ويوم المسابقة ويوم المناقشة ويوم المنافسة ويوم الزلزلة ويوم الدمدمة ويوم الصاعقة ويوم الواقعة ويوم القارعة ويوم الراجفة ويوم الرادفة ويوم الغاشية ويوم الداهية ويوم الآزفة ويوم الحاقة ويوم الطامة ويوم الصاخة ويوم التلاق ويوم الفراق ويوم المساق ويوم القصاص ويوم التناد ويوم الحساب ويوم المآب ويوم العذاب ويوم الفرار ويوم القرار ويوم اللقاء ويوم البقاء ويوم القضاء ويوم الجزاء ويوم البلاء ويوم البكاء ويوم الحشر ويوم الوعيد ويوم العرض ويوم الوزن ويوم الحق ويوم الحكم ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم البعث ويوم الفتح ويوم الخزى ويوم عظيم ويوم عقيم ويوم عسير ويوم الدين ويوم اليقين ويوم النشور ويوم المصير ويوم النفخة ويوم الصيحة ويوم الرجفة ويوم الزجرة ويوم السكرة ويوم الفزع ويوم الجزع ويوم المنتهى ويوم المأوى ويوم الميقات ويوم الميعاد ويوم المرصاد ويوم القلق ويوم العرق ويوم الافتقار ويوم الانكدار ويوم الانتشار ويوم الانشقاق ويوم الوقوف ويوم الخروج ويوم الخلود ويوم التغابن ويوم عبوس ويوم معلوم ويوم موعود ويوم مشهود ويوم لاريب فيه ويوم تبلى السرائر ويوم لاتجزى نفس عن نفس شيأ ويوم تشخص فيه الابصار ويوم لايغنى مولى عن مولى شيأ ويوم لاتملك نفس لنفس شيأ ويوم يدعون الى نار جهنم دعا ويوم يسحبون في النار على وجوههم ويوم تقلب وجوههم في النار ويوم لايجزى والد عن ولده ويوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ويوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون يوم لامرد له من الله يوم هم بارزون يوم هم على النار يفتنون يوم لاينفع مال ولا بنون يوم لاتنفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار يوم ترد فيه المعاذير وتبلى السرائر وتظهر الضمائر وتكشف الاستار يوم تخشع فيه الابصار وتسكن الاصوات ويقل فيه الالتفات وتبرز الخفيات وتظهر الخطيآت يوم يساق العباد ومعهم الاشهاد ويشيب الصغير ويسكر الكبير فيومئذ وضعت الموازين ونشرت الدواوين وبرزت الجحيم وأغلى الحميم وزفرت النار ويئس الكفار وسعرت النيران وتغيرت الالوان وخرس

معهم كالطفل الذي يلطف بالشيء ويهدى له شيء لانه مقهور تحت السياسة مرحوم ماطوف به وتارة يمنعون نفوسهم الشهوات تأسيا بالانبياء واختيارهم التقلل من الشهوات الدنيوية قال يحيى بن معاذ الدنيا عروس تطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجهها وينتف شعرها ويخرق ثوبها والعارف بالله مشتغل بسيده ولا يلتفت اليها

اللسان ونطقت جوارح الانسان فيا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم حيث أغلقت الابواب وأرخيت الستور واستترت عن الخلائق ففارقت الفجور فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك فالويل كل الويل لنا معاشر الغافلين يرسل الله لنا سيد المرسلين وينزل عليه الكتاب المبين ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين ثم يعرفنا غفلتنا ويقول اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول اقتربت الساعة وانشق القمر انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملا فلا نتدبر معانيه ولا ننظر في كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه ولا نستعد للتخلص من دواهيه فنعوذ بالله من هذه الغفلة ان لم يداركنا الله بواسع رحمته

(صفة المساءلة)

ثم تفكر يا مسكين بعد هذه الاحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان فتسئل عن القليل والكثير والنقير والقطمير فبينا أنت في كرب القيامة وعرقها وشدة عظائمها اذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء باجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شداد أمروا أن يأخذوا بنواصي المجرمين الى موقف العرض على الجبار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل ملكا ما بين شفري عينيه مسيرة مائة عام فما ظنك بنفسك اذا شاهدت مثل هؤلاء الملائكة أرسلوا اليك ليأخذوك الى مقام العرض وتراهم على عظم أشخاصهم منكسرين لشدة اليوم مستشعرين بما بدا من غضب الجبار على عباده وعند نزولهم لا يبقى نبي ولا صديق ولا صالح الا ويخرون لاذقانهم خوفا من أن يكونوا هم المأخوذين فهذا حال المقربين فما ظنك بالعصاة المجرمين وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة أفيكم ربنا وذلك لعظم موكبهم وشدة هيبتهم فتفزع الملائكة من سؤالهم اجلالا لخالقهم عن أن يكون فيهم فنادوا باصواتهم منزهين لمليكهم عما توهمه أهل الارض وقالوا سبحان ربنا ما هو فينا ولكنه آت من بعد وعند ذلك تقوم الملائكة صفا محدقين بالخلائق من الجوانب وعلى جميعهم شعار الذل والخضوع وهيئة الخوف والمهابة لشدة اليوم وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين وقوله فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون فيبدأ سبحانه بالانبياء يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا انك أنت علام الغيوب فيا لشدة يوم تذهل فيه عقول الانبياء وتنمحي علومهم من شدة الهيبة اذ يقال لهم ماذا أجبتم وقد أرسلتم الى الخلائق وكانوا قد علموا فتدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون فيقولون من شدة الهيبة لا علم لنا انك أنت علام الغيوب وهم في ذلك الوقت صادقون اذ طارت منهم العقول وانمحت العلوم الى أن يقويهم الله تعالى فيدعى نوح عليه السلام فيقال له هل بلغت فيقول نعم فيقال لامته هل بلغكم فيقولون ما أتانا من نذير ويؤتى بعيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله فيبقى متشحطا تحت هيبة هذا السؤال سنين فيا أعظم يوم تقام فيه السياسة على الانبياء بمثل هذا السؤال ثم تقبل الملائكة فينادون واحدا واحدا يا فلان بن فلانة هلم الى موقف العرض وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول ويتمنى أقوام أن يذهب بهم الى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار ولا يكشف سترهم على ملا الخلائق وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش وأشرقت الارض بنور ربها وأيقن قلب كل عبد باقبال الجبار لمساءلة العباد وظن كل واحد أنه ما يراه أحد سواه وانه المقصود بالاخذ والسؤال دون من عداه فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك يا جبريل ائتني بالنار فيجيء لها جبريل ويقول يا جهنم أجيبي خالقك ومليكك فيصادفها جبريل على غيظها وغضبها فلم يلبث بعد ندائه أن ثارت وفارت وزفرت الى الخلائق وسمع الخلائق تغيظها وزفيرها وانتهضت خزنتها متوثبة الى الخلائق غضبا على من عصى الله تعالى وخالف أمره فاخطر ببالك وأحضر في قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزعا ورعبا فتساقطوا جثيا على الركب وولوا مدبرين يوم ترى كل أمة جاثية ويسقط بعضهم على الوجوه منكبين

(واعلم) ان المنتهي مع كمال حاله لا يستغنى أيضا عن سياسة النفس ومنعها الشهوات وأخذ الحظ من زيادة الصيام والقيام وأنواع البر وقد غلط في هذا الخلق وظنوا أن المنتهي استغنى عن الزيادات والنوافل ولا على قلبه من الاسترسال في تناول الملاذ والشهوات وهذا خطأ لا من حيث انه يحجب العارف عن معرفته ولكن يوقف

و ينادى العصاة والظالمون بالويل والثبور و ينادى الصديقون نفسى نفسى فبينما هم كذلك اذ زفرت النار زفرتها الثانية فتضاعف خوفهم وتخاذلت قواهم وظنوا أنهم مأخوذون ثم زفرت الثالثة فتساقط الخلائق على وجوههم وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفى خاشع وانهضمت عند ذلك قلوب الظالمين فبلغت الحناجر كاظمين وذهلت العقول من السعداء والاشقياء أجمعين و بعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال ماذا أجبتم فاذا رأوا ما قد أقيم من السياسة على الانبياء اشتد الفزع على العصاة ففر الوالد من ولده والاخ من أخيه والزوج من زوجته وبقى كل واحد منتظر الامر ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره وعن سره وعلانيته وعن جميع جوارحه وأعضائه قال أبو هريرة قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فقال هل تضارون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب قالوا لا قال فهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب قالوا لا قال فوالذى نفسى بيده لا تضارون فى رؤية ربكم فيلقى العبد فيقول له ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والابل وأذرك ترأس وتربع فيقول العبد بلى فيقول أظننت انك ملاقى فيقول لا فيقول فانا أنساك كما نسيتنى فتوهم نفسك يا مسكين وقد أخذت الملائكة بعضديك وأنت واقف بين يدى الله تعالى يسألك شفاها فيقول لك ألم أنعم عليك بالشباب ففيماذا أبليته ألم أمهل لك فى العمر ففيماذا أفنيته ألم أرزقك المال فمن أين اكتسبته وفيماذا أنفقته ألم أكرمك بالعلم فماذا عملت فيما علمت فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعد عليك انعامه ومعاصيك وأياديه ومساويك فان أنكرت شهدت عليك جوارحك * قال أنس رضى الله عنه كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك ثم قال أتدرون مم أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه يقول يارب ألم تجرنى من الظلم قال يقول بلى قال فيقول فانى لا أجيز على نفسى الا شاهدا منى فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وبالكرام الكاتبين شهودا قال فيختم على فيه ويقال لاركانه انطقى قال فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول لاعضائه بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل فنعوذ بالله من الافتضاح على ملا الخلق بشهادة الاعضاء الا ان الله تعالى وعد المؤمن بان يستر عليه ولا يطلع عليه غيره * سأل ابن عمر رجل فقال له كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النجوى فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم ثم يقول انى سترتها عليك فى الدنيا وانى أغفرها لك اليوم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة فهذا انما يرجى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم واحتمل فى حق نفسه تقصيرهم ولم يحرك لسانه بذكر مساويهم ولم يذكرهم فى غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه فهذا جدير بان يجازى بمثله فى القيامة وهب انه قد ستره عن غيرك أليس قد قرع سمعك النداء الى العرض فيكفيك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك اذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب ولبك طائر وفرائصك مرتعدة وجوارحك مضطربة ولونك متغير والعالم عليك من شدة الهول مظلم فقدر نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب وتخرق الصفوف وتقاد كما تقاد الفرس المجنوب وقد رفع الخلائق اليك أبصارهم فتوهم نفسك انك فى أيدى الموكلين بك على هذه الصفة حتى انتهى بك الى عرش الرحمن فرموك من أيديهم وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه يا ابن آدم ادن منى فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل وطرف خاشع ذليل وفؤاد منكسر وأعطيت كتابك الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها فكم من فاحشة نسيتها فتذكرتها وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف لك عن مساويها فكم لك من خجل وجبن وكم لك من حصر وعجز فليت شعرى باى قدم تقف بين يديه وباى لسان تجيب وباى قلب تعقل ما تقول ثم تفكر فى عظم حيائك اذا ذكرك ذنوبك شفاها اذ يقول يا عبدى أما استحييت منى فبارزتنى بالقبيح واستحييت من خلقى فاظهرت لهم الجميل أكنت أهون عليك من سائر عبادى استخففت بنظرى اليك فلم تكترث واستعظمت نظر غيرى ألم أنعم عليك فماذا غرك بى أظننت أنى لا أراك وانك لا تلقانى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد الا ويسأله الله رب العالمين ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقفن أحدكم بين يدى الله عز وجل ليس بينه وبينه حجاب فيقول له ألم أنعم

عن مقام المزيد وقوم لما رأوا ان هذه الاشياء لا تؤثر فيهم قسوة ولا تورثهم حجبة ركنوا اليها واسترسلوا فيها وقنعوا باداء الفرائض واتسعوا فى المأكل والمشرب وهذا الانبساط منهم بقية من سكر الاحوال وتقيد بنور الحال وعدم التخلص بالكلية الى نور الحق ومن تخلص من نور الحال الى نور الحق يذهب عنه بقايا السكر

عليك ألم أوتك مالا فيقول بلى فيقول ألم أرسل اليك رسولا فيقول بلى ثم ينظر عن يمينه فلا يرى الا النار ثم ينظر عن شماله فلا يرى الا النار فليتق أحدكم النار ولو بشق تمرة فان لم يجد فبكلمة طيبة وقال ابن مسعود ما منكم من أحد الا سيخلو الله عز وجل به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ثم يقول يا ابن آدم ما غرك بي يا ابن آدم ما عملت فيما علمت يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين يا ابن آدم ألم أكن رقيبا على عينك وأنت تنظر بها الى ما لا يحل لك ألم أكن رقيبا على أذنيك وهكذا حتى عد سائر أعضائه وقال مجاهد لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدى الله عز وجل حتى يسأله عن أربع خصال عن عمره فيما أفناه وعن علمه ما عمل فيه وعن جسده فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيماذا أنفقه فاعظم يا مسكين بحيائك عند ذلك وبخطرك فانك بين أن يقال لك سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فعند ذلك يعظم سرورك وفرحك ويغبطك الاولون والآخرون واما أن يقال للملائكة خذوا هذا العبد السوء فغلوه ثم الجحيم صلوه وعند ذلك لو بكت السموات والارض عليك لكان ذلك جديرا بعظم مصيبتك وشدة حسرتك على ما فرطت فيه من طاعة الله وعلى ما بعت آخرتك من دنيا دنيئة لم تبق معك

(صفة الميزان)

ثم لا تغفل عن الفكر في الميزان وتطاير الكتب الى الايمان والشمائل فان الناس بعد السؤال ثلاث فرق فرقة ليس لهم حسنة فيخرج من النار عنق أسود فيلقطهم لقط الطير الحب وينطوى عليهم ويلقيهم في النار فتبتلعهم النار وينادى عليهم شقاوة لا سعادة بعدها وقسم آخر لا سيئة لهم فينادى مناد ليقم الحمادون لله على كل حال فيقومون ويسرحون الى الجنة ثم يفعل ذلك باهل قيام الليل ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى وينادى عليهم سعادة لا شقاوة بعدها ويبقى قسم ثالث وهم الاكثرون خلطوا عملا صالحا وآخر سيأ وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى ان الغالب حسناتهم أو سيآتهم ولكن يأبى الله الا أن يعرفهم ذلك ليبين فضله عند العفو وعدله عند العقاب فتتطاير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيآت وينصب الميزان وتشخص الابصار الى الكتب أتقع في اليمين أو في الشمال ثم الى لسان الميزان أيميل الى جانب السيآت أو الى جانب الحسنات وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق وروى الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأسه في حجر عائشة رضى الله عنها فنعس فذكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها فنقط على خد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتبه فقال ما يبكيك يا عائشة قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة قال والذى نفسى بيده في ثلاث مواطن فان أحدا لا يذكر الا نفسه اذا وضعت الموازين ووزنت الاعمال حتى ينظر ابن آدم أيخف ميزانه أم يثقل وعند الصحف حتى ينظر أبيمينه يأخذ كتابه أو بشماله وعند الصراط وعن أنس قال يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتى الميزان ويوكل به ملك فان ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا وان خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار الى النار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم القيامة انه يوم ينادى الله تعالى فيه آدم عليه السلام فيقول له قم يا آدم فابعث بعث النار فيقول وكم بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فلما سمع الصحابة ذلك ابلسوا حتى ما أوضحوا بضاحكة فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عند أصحابه قال اعملوا وأبشروا فوالذى نفس محمد بيده ان معكم لخليقتين ما كانتا مع أحد قط الا كثرتاه مع من هلك من بنى آدم وبنى ابليس قالوا وما هما يا رسول الله قال يأجوج ومأجوج قال فسرى عن القوم فقال اعملوا وأبشروا فوالذى نفس محمد بيده ما أنتم في الناس يوم القيامة الا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة

(صفة الخصماء ورد المظالم)

قد عرفت هول الميزان وخطره وأن الاعين شاخصة الى لسان الميزان فمن ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ومن خفت موازينه فامه هاوية وما أدراك ماهيه نار حامية واعلم انه لا ينجو من خطر الميزان الا من حاسب في الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته كما قال عمر رضى الله عنه حاسبوا أنفسكم قبل

ويوقف نفسه مقام العبيد كاحد عوام المؤمنين يتقرب بالصلاة والصوم وأنواع البر حتى باماطة الاذى عن الطريق ولا يستكبر ولا يستنكف أن يعود في صور عوام المؤمنين من اظهار الارادة بكل بر وصلة فيتناول الشهوات وقتا رفقا بالنفس المطهرة المزكاة المنقادة المطاوعة لانها أسيرته ويمنعها الشهوات وقتا

أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وانما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحا ويتدارك ما فرط من تقصيره فى فرائض الله تعالى ويرد المظالم حبة بعد حبة ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه ويطيب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة فهذا يدخل الجنة بغير حساب وان مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه فهذا يأخذ بيده وهذا يقبض على ناصيته وهذا يتعلق بلببه هذا يقول ظلمتنى وهذا يقول شتمتنى وهذا يقول استهزأت بى وهذا يقول ذكرتنى فى الغيبة بما يسوءنى وهذا يقول جاورتنى فأسأت جوارى وهذا يقول عاملتنى فغششتنى وهذا يقول بايعتنى فغبنتنى وأخفيت عنى عيب سلعتك وهذا يقول كذبت فى سعر متاعك وهذا يقول رأيتنى محتاجا وكنت غنيا فما أطعمتنى وهذا يقول وجدتنى مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم عنى فداهنت الظالم وما راعيتنى فبينا أنت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخالبهم وأحكموا فى تلابيبك أيديهم وأنت مبهوت متحير من كثرتهم حتى لم يبق فى عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته فى مجلس الا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة أو خيانة أو نظر بعين استحقار وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء الى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم اذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة وتوقن نفسك بالبوار وتتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار مهطعين مقنعى رؤسهم لا يرتد اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء وأنذر الناس فما أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم وما أشد حسراتك فى ذلك اليوم اذا وقف ربك على بساط العدل وشوفهت بخطاب السياسة وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقا أو تظهر عذرا فعند ذلك تؤخذ حسناتك التى تعبت فيها عمرك وتنقل الى خصمائك عوضا عن حقوقهم قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تدرون من المفلس قلنا المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار ولا متاع قال المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته وان فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار فانظر الى مصيبتك فى مثل هذا اليوم اذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكايد الشيطان فان سلمت حسنة واحدة فى كل مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل لعلمت انه لا ينقضى عنك يوم الا ويجرى على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفى جميع حسناتك فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير فى الطاعات وكيف ترجو الخلاص من المظالم فى يوم يقتص فيه للجماء من القرناء فقد روى أبو ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين ينتطحان فقال يا أبا ذر أتدرى فيم ينتطحان قلت لا قال ولكن الله يدرى وسيقضى بينهما يوم القيامة وقال أبو هريرة فى قوله عز وجل وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم انه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شئ فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماء من القرناء ثم يقول كونى ترابا فذلك حين يقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا فكيف أنت يا مسكين فى يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها تعبك فتقول أين حسناتى فيقال نقلت الى صحيفة خصمائك وترى صحيفتك مشحونة بسيآت طال فى الصبر عنها نصبك واشتد بسبب الكف عنها عناؤك فتقول يا رب هذه سيآت ما قارفتها قط فيقال هذه سيآت القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم فى المبايعة والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والمدارسة وسائر أصناف المعاملة قال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الشيطان قد يئس أن تعبد الاصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات وهى الموبقات فاتقوا الظلم ما استطعتم فان العبد ليجئ يوم القيامة بأمثال الجبال من الطاعات فيرى انهن سينجينه فما يزال عبد يجئ فيقول رب ان فلانا ظلمنى بمظلمة فيقول امح من حسناته فما يزال كذلك حتى لا يبقى له من حسناته شئ وان مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة من الارض ليس معهم حطب فتفرق القوم فحطبوا فلم يلبثوا أن أعظموا نارهم وصنعوا ما أرادوا وكذلك الذنوب ولما نزل قوله تعالى انك ميت وانهم ميتون ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قال الزبير

لا ان فى ذلك صلاحها واعتبر هذا سواء بحال الصبى فانه ان جاوز حد الاعتدال من اعطاء المراد وقتا ومنعه وقتا انفسد طبعه لان الجبلة لا بد من قمعها بسياسة العلم ومادامت الجبلة باقية لا بد من سياسة العلم وهذا باب غامض دخل فى النهايات على المنتهى من ذلك دواخل ووقع الركون وانسد به باب المزيد فالمنتهى مسلك ناصية الاختيار فى الاخذ والترك

يارسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب قال نعم ليكررن عليكم حتى تؤدوا الى كل ذى حق حقه قال الزبير والله ان الامر لشديد فاعظم بشدة يوم لا يسامح فيه بخطوة ولا يتجاوز فيه عن لطمة ولا عن كلمة حتى ينتقم للمظلوم من الظالم قال أنس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الله العباد عراة غبرا بهما قال قلنا ما بهما قال ليس معهم شئ ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لا ينبغى لاحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولاحد من أهل النار عليه مظلمة حتى اقتصه منه ولا لاحد من أهل النار ان يدخل النار ولاحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقتصه منه حتى اللطمة قلنا وكيف وانما نأتى الله عز وجل عراة غبرا بهما فقال بالحسنات والسيئات فاتقوا الله عباد الله ومظالم العباد باخذ أموالهم والتعرض لاعراضهم وتضييق قلوبهم واساءة الخلق فى معاشرتهم فان ما بين العبد وبين الله خاصة فالمغفرة اليه أسرع ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم فليكثر من حسناته ليوم القصاص وليسر ببعض الحسنات بينه وبين الله بكمال الاخلاص بحيث لا يطلع عليه الا الله فعساه يقربه ذلك الى الله تعالى فينال به لطفه الذى ادخره لاحبابه المؤمنين فى دفع مظالم العباد عنهم كما روى عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس اذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر ما أضحكك يارسول الله بابى أنت وأمى قال رجلان من أمتى جثيا بين يدى رب العزة فقال أحدهما يارب خذلى مظلمتى من أخى فقال الله تعالى أعط أخاك مظلمته فقال يارب لم يبق من حسناتى شئ فقال الله تعالى للطالب كيف تصنع ولم يبق من حسناته شئ قال يارب يتحمل عنى من أوزارى قال وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال ان ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس الى أن يحمل عنهم من أوزارهم قال فقال الله للطالب ارفع رأسك فانظر فى الجنان فرفع رأسه فقال يارب أرى مدائن من فضة مرتفعة وقصورا من ذهب مكللة باللؤلؤ لاى نبى هذا أو لاى صديق هذا أو لاى شهيد هذا قال لمن أعطانى الثمن قال يارب ومن يملك ثمنه قال أنت تملكه قال وما هو قال عفوك عن أخيك قال يارب انى قد عفوت عنه قال الله تعالى خذ بيد أخيك فادخله الجنة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فان الله يصلح بين المؤمنين وهذا تنبيه على ان ذلك انما ينال بالتخلق باخلاق الله وهو اصلاح ذات البين وسائر الاخلاق فتفكر الآن فى نفسك ان خلت صحيفتك عن المظالم أو تلطف لك حتى عفا عنك وأيقنت بسعادة الابد كيف يكون سرورك فى منصرفك من مفصل القضاء وقد خلع عليك خلعة الرضا وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء وبنعيم لا يدور بحواشيه الفناء وعند ذلك طار قلبك سرورا وفرحا وابيض وجهك واستنار وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر فتوهم تبخترك بين الخلائق رافعا رأسك خاليا عن الاوزار ظهرك ونضرة نسيم النعيم وبرد الرضا يتلألأ من جبينك وخلق الاولين والآخرين ينظرون اليك والى حالك ويغبطونك فى حسنك وجمالك والملائكة يمشون بين يديك ومن خلفك وينادون على رؤس الاشهاد هذا فلان بن فلان رضى الله عنه وأرضاه وقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا أفترى أن هذا المنصب ليس باعظم من المكانة التى تنالها فى قلوب الخلق فى الدنيا برياءك ومداهنتك وتصنعك وتزينك فان كنت تعلم انه خير منه بل لا نسبة له اليه فتوسل الى ادراك هذه الرتبة بالاخلاص الصافى والنية الصادقة فى معاملتك مع الله فلن تدرك ذلك الا به وان تكن الاخرى والعياذ بالله بان خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هينة وهى عند الله عظيمة فمقتك لاجلها فقال عليك لعنتى يا عبد السوء لا أتقبل منك عبادتك فلا تسمع هذا النداء الا ويسود وجهك ثم تغضب الملائكة لغضب الله تعالى فيقولون وعليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين وعند ذلك تتناول اليك الزبانية وقد غضبت لغضب خالقها فاقدمت عليك بفظاظتها وزعارتها وصورها المنكرة فاخذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك على ملا الخلق وهم ينظرون الى اسوداد وجهك والى ظهور خزيك وأنت تنادى بالويل والثبور وهم يقولون لك لا تدع اليوم ثبورا واحدا وادع ثبورا كثيرا وتنادى الملائكة ويقولون هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه ومخازيه ولعنه بقبائح مساويه فشقى شقاوة لا يسعد بعدها أبدا وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عباد الله أو طلبا للمكانة فى قلوبهم أو خوفا من الافتضاح

ولابد له من أخذ وترك فى الاعمال والحظوظ ففى الاعمال لابد له من أخذ وترك فتارة يأتى بالاعمال كآحاد الصادقين وتارة يترك زيادة الاعمال رفقا بالنفس وتارة يأخذ الحظوظ والشهوات رفقا بالنفس وتارة يتركها افتقادا للنفس بحسن السياسة فيكون فى ذلك كله مختارا فمن ساكن ترك الحظوظ بالكلية فهو زاهد تارك بالكلية ومن

عندهم فما أعظم جهالك اذتحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله فى الدنيا المنقرضة ثم لاتخشى من الافتضاح العظيم فى ذلك الملأ العظيم مع التعرض لسخط الله وعقابه الاليم والسياق بايدى الزبانية الى سواء الجحيم فهذه أحوالك وأنت لم تشعر بالخطر الاعظم وهو خطر الصراط

(صفة الصراط)

ثم تفكر بعد هذه الاهوال فى قول الله تعالى يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين الى جهنم وردا وفى قوله تعالى فاهدوهم الى صراط الجحيم وقفوهم انهم مسؤلون فالناس بعد هذه الاهوال يساقون الى الصراط وهو جسر ممدود على متن النار أحد من السيف وأدق من الشعر فمن استقام فى هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا ومن عدل عن الاستقامة فى الدنيا وأثقل ظهره بالاوزار وعصى تعثر فى أول قدم من الصراط وتردى فتفكر الآن فيما يحل من الفزع بفؤادك اذا رأيت الصراط ودقته ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها وقد كلفت أن تمشى على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وثقل ظهرك بالاوزار المانعة لك عن المشى على بساط الارض فضلا عن حدة الصراط فكيف بك اذا وضعت عليه احدى رجليك فاحسست بحدته واضطررت الى أن ترفع القدم الثانية والخلائق بين يديك يزلون ويتعثرون وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب وأنت تنظر اليهم كيف ينكسون فتتسفل الى جهة النار رؤسهم وتعلو أرجلهم فياله من منظر ما أفظعه ومرتقى ما أصعبه ومجاز ما أضيقه فانظر الى حالك وأنت تزحف عليه وتصعد اليه وأنت مثقل الظهر باوزارك تلتفت يمينا وشمالا الى الخلق وهم يتهافتون فى النار والرسول عليه السلام يقول يارب سلم سلم والزعقات بالويل والثبور قد ارتفعت اليك من قعر جهنم لكثرة من زل عن الصراط من الخلائق فكيف بك لو زلت قدمك ولم ينفعك ندمك فناديت بالويل والثبور وقلت هذا ما كنت أخافه فياليتنى قدمت لحياتى ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ياليتنى كنت ترابا ياليتنى كنت نسيا منسيا ياليت أمى لم تلدنى وعند ذلك تختطفك النيران والعياذ بالله وينادى المنادى اخسؤا فيها ولا تكلمون فلا يبقى سبيل الا الصياح والانين والتنفس والاستغاثة فكيف ترى الآن عقلك وهذه الاخطار بين يديك فان كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار فى دركات جهنم وان كنت به مؤمنا وعنه غافلا وبالاستعداد له متهاونا فما أعظم خسرانك وطغيانك وماذا ينفعك ايمانك اذا لم يبعثك على السعى فى طلب رضا الله تعالى بطاعته وترك معاصيه فلو لم يكن بين يديك الا هول الصراط وارتياع قلبك من خطر الجواز عليه وان سلمت فناهيك به هولا وفزعا ورعبا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يضرب الصراط بين ظهرانى جهنم فاكون أول من يجيز بامته من الرسل ولا يتكلم يومئذ الا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم اللهم سلم وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان قالوا نعم يارسول الله قال فانها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها الا الله تعالى تختطف الناس باعمالهم فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من يخردل ثم ينجو وقال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف تختطف الناس يمينا وشمالا وعلى جنبتيه ملائكة يقولون اللهم سلم اللهم سلم فمن الناس من يمر مثل البرق ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس المجرى ومنهم من يسعى سعيا ومنهم من يمشى مشيا ومنهم من يحبو حبوا ومنهم من يزحف زحفا فاما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون ولا يحيون وأما ناس فيؤخذون بذنوب وخطايا فيحترقون فيكونون فحما ثم يؤذن فى الشفاعة وذكر الى آخر الحديث وعن ابن مسعود رضى الله عنه انه صلى الله عليه وسلم قال يجمع الله الاولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم الى السماء ينتظرون فصل القضاء وذكر الحديث الى أن ذكر وقت سجود المؤمنين قال ثم يقول للمؤمنين ارفعوا رؤسكم فيرفعون رؤسهم فيعطيهم نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين يديه ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نوره على ابهام قدمه فيضئ مرة ويخبو مرة فاذا أضاء قدم

استرسل فى أخذها فهو راغب بالكلية والمنتهى شهل الطرفين فانه على غاية الاعتدال واقف على الصراط بين الافراط والتفريط فمن ردت اليه الاقسام فى النهاية فاخذها زاهدا فى الزهد فهو تحت قهر الحال من ترك الاختيار وتارك الاختيار الواقف مع فعل الله تعالى مقيد بالحال وكما أن الزاهد مقيد بالترك تارك

قدمه تمشي واذا أظلم قام ثم ذكر مرورهم على الصراط على قدر نورهم فمنهم من يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كانقضاض الكواكب ومنهم من يمر كشد الفرس ومنهم من يمر كشد الرجل حتى يمر الذي أعطى نوره على ابهام قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه تجر منه يد وتعلق أخرى وتعلق رجل وتجر أخرى وتصيب جوانبه النار قال فلا يزال كذلك حتى يخلص فاذا خلص وقف عليها ثم قال الحمد لله لقد أعطاني الله مالم يعط أحدا اذ نجاني منها بعد اذ رأيتها فينطلق به الى غدير عند باب الجنة فيغتسل وقال أنس بن مالك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الصراط كحد السيف أو كحد الشعرة وان الملائكة ينجون المؤمنين والمؤمنات وان جبريل عليه السلام لآخذ بحجزتي واني لاقول يارب سلم سلم فالزالون والزالات يومئذ كثير فهذه أهوال الصراط وعظائمه فطول فيه فكرك فان أسلم الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره في الدنيا فان الله لا يجمع بين خوفين على عبد فمن خاف هذه الاهوال في الدنيا أمنها في الآخرة ولست أعني بالخوف رقة كرقة النساء تدمع عينك وترق قلبك حال السماع ثم تنساه على القرب وتعود الى لهوك ولعبك فما هذا من الخوف في شيء بل من خاف شيأ هرب منه ومن رجا شيأ طلبه فلا ينجيك الاخوف يمنعك عن معاصي الله تعالى ويحثك على طاعته وأبعد من رقة النساء خوف الحمقى اذا سمعوا الاهوال سبق الى ألسنتهم الاستعاذة فقال أحدهم استعنت بالله نعوذ بالله اللهم سلم سلم وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم فالشيطان يضحك من استعاذتهم كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ووراءه حصن فاذا رأى أنياب السبع وصولته من بعد قال بلسانه أعوذ بهذا الحصن الحصين وأستعين بشدة بنيانه واحكام أركانه فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه فأنى يغني ذلك عنه من السبع وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن الا قول لا اله الا الله صادقا ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره ومن اتخذ الهه هواه فهو بعيد من الصدق في توحيده وأمره مخطر في نفسه فان عجزت عن ذلك كله فكن محبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا على تعظيم سنته ومتشوقا الى مراعاة قلوب الصالحين من أمته ومتبركا بأدعيتهم فعساك أن تنال من شفاعته أو شفاعتهم فتنجو بالشفاعة ان كنت قليل البضاعة

(صفة الشفاعة)

اعلم انه اذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين فان الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الانبياء والصديقين بل شفاعة العلماء والصالحين وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فان له شفاعة في أهله وقرابته وأصدقائه ومعارفه فكن حريصا على أن تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعة وذلك بان لا تحقر آدميا أصلا فان الله تعالى خبأ ولايته في عباده فلعل الذي تزدريه عينك هو ولي الله ولا تستصغر معصية أصلا فان الله تعالى خبأ غضبه في معاصيه فلعل مقت الله فيه ولا تستحقر أصلا طاعة فان الله تعالى خبأ رضاه في طاعته فلعل رضاه فيه ولو الكلمة الطيبة أو اللقمة أو النية الحسنة أو ما يجري مجراه وشواهد الشفاعة في القرآن والاخبار كثيرة قال الله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى روى عمرو بن العاص ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول ابراهيم عليه السلام رب انهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم وقول عيسى عليه السلام ان تعذبهم فانهم عبادك ثم رفع يديه وقال أمتي أمتي ثم بكى فقال الله عز وجل ياجبريل اذهب الى محمد فسله ما يبكيك فأتاه جبريل فسأله فأخبره والله أعلم به فقال ياجبريل اذهب الى محمد فقل له انا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك وقال صلى الله عليه وسلم أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر واحلت لي الغنائم ولم تحل لاحد قبلي وجعلت لي الارض مسجدا وترابها طهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأعطيت الشفاعة وكل نبي بعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة وقال صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة كنت امام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر وقال صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ولا فخر وأنا أول من تنشق الارض عنه وأنا أول شافع وأول مشفع بيدي لواء الحمد تحته آدم فمن دونه وقال صلى الله عليه وسلم لكل نبي دعوة مستجابة فاريد أن أختبئ دعوتي شفاعة لامتي يوم القيامة وقال ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله

الاختيار فكذلك الزاهد في الزهد لا يأخذ من الدنيا ما سيق اليه لرؤيته فعل الله مقيدا بالاخذ واذا استقرت النهاية لا يتقيد بالاخذ ولا بالترك بل يترك وقتا واختياره من اختيار الله و يأخذ وقتا واختياره من اختيار الله وهكذا صوم النافلة وصلاة النافلة يأتي بها وقتا ويسمح للنفس وقتا لانه مختار صحيح في الاختيار في الحالين وهذا هو الصحيح

صلى الله عليه وسلم ينصب للانبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها ويبقى منبرى لا أجلس عليه قائما بين يدى ربى منتصبا مخافة أن يبعث بى الى الجنة وتبقى أمتى بعدى فأقول يارب أمتى فيقول الله عز وجل يا محمد وما تريد ان أصنع بامتك فأقول يارب عجل حسابهم فما أزال أشفع حتى أعطى صكا كابرجال قد بعث بهم الى النار وحتى ان مالكا خازن النار يقول يا محمد ما تركت النار لغضب ربك فى أمتك من بقية وقال صلى الله عليه وسلم انى لاشفع يوم القيامة لاكثر مما على وجه الارض من حجر ومدر وقال أبو هريرة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع اليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال أنا سيد المرسلين يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك يجمع الله الاولين والآخرين فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون فيقول الناس بعضهم لبعض ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم الى ربكم فيقول بعض الناس لبعض عليكم بآدم عليه السلام فيأتون آدم فيقولون له أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا الى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا فيقول لهم آدم عليه السلام ان ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وانه قد نهانى عن الشجرة فعصيته نفسى نفسى اذهبوا الى غيرى اذهبوا الى نوح فيأتون نوحا عليه السلام فيقولون يا نوح أنت أول الرسل الى أهل الارض وقد سماك الله عبدا شكورا اشفع لنا الى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول ان ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وانه قد كانت لى دعوة دعوتها على قومى نفسى نفسى اذهبوا الى غيرى اذهبوا الى ابراهيم خليل الله فيأتون ابراهيم خليل الله عليه السلام فيقولون أنت نبى الله وخليله من أهل الارض اشفع لنا الى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول لهم ان ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وانى كنت كذبت ثلاث كذبات ويذكرها نفسى نفسى اذهبوا الى غيرى اذهبوا الى موسى فيأتون موسى عليه السلام فيقولون ياموسى أنت رسول الله فضلك برسالته وبكلامه على الناس اشفع لنا الى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول ان ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وانى قتلت نفسا لم أومر بقتلها نفسى نفسى اذهبوا الى غيرى اذهبوا الى عيسى عليه السلام فيأتون عيسى فيقولون ياعيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه وكلمت الناس فى المهد اشفع لنا الى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول عيسى عليه السلام ان ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنبا نفسى نفسى اذهبوا الى غيرى اذهبوا الى محمد صلى الله عليه وسلم فيأتونى فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا الى ربك ألا ترى ما نحن فيه فانطلق فآتى تحت العرش فأقع ساجدا لربى ثم يفتح الله لى من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلى ثم يقال يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع فأرفع رأسى فأقول أمتى أمتى يارب فيقال يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الايمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الابواب ثم قال والذى نفسى بيده ان بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحجر أو كما بين مكة وبصرى وفى حديث آخر هذا السياق بعينه مع ذكر خطايا ابراهيم وهو قوله فى الكوكب هذا ربى وقوله لآلهتهم بل فعله كبيرهم هذا وقوله انى سقيم فهذه شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولآحاد أمته من العلماء والصالحين شفاعة أيضا حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من ربيعة ومضر وقال صلى الله عليه وسلم يقال للرجل قم يافلان فاشفع فيقوم الرجل فيشفع للقبيلة ولاهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول يافلان هل تعرفنى فيقول لا والله ما أعرفك من أنت فيقول أنا الذى مررت بى فى الدنيا فاستسقيتنى شربة ماء فسقيتك قال قد عرفت قال فاشفع لى بها عند ربك فيسأل الله تعالى ذكره ويقول انى أشرفت على أهل النار فنادانى رجل من أهلها فقال هل تعرفنى فقلت لا من أنت فقال أنا الذى استسقيتنى فى الدنيا فسقيتك فاشفع لى عند ربك فشفعنى

ونهاية النهاية وكل حال يستقر ويستقيم يشأ كل حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهكذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يقوم من الليل ولا يقوم الليل كله ويصوم من الشهر ولا يصوم الشهر كله غير رمضان ويتناول الشهوات ولما قال الرجل انى عزمت أن لا آكل اللحم قال فانى آكل اللحم وأحبه ولو سألت ربى أن يطعمنى كل يوم لاطعمنى وذلك

فيه فيشفعه الله فيه فيؤمر به فيخرج من النار وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أول الناس خروجا اذا بعثوا وأنا خطيبهم اذا وفدوا وأنا مبشرهم اذا يئسوا لواء الحمد يومئذ بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى أقوم بين يدى ربي عز وجل فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري وقال ابن عباس رضي الله عنه ما جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى اذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم عجبا ان الله عز وجل اتخذ من خلقه خليلا اتخذ ابراهيم خليلا وقال آخر ماذا بأعجب من كلام موسى كلمه تكليما وقال آخر فعيسى كلمة الله وروحه وقال آخر آدم اصطفاه الله فخرج عليهم صلى الله عليه وسلم فسلم وقال قد سمعت كلامكم وتعجبكم ان ابراهيم خليل الله وهو كذلك وموسى نجي الله وهو كذلك وعيسى روح الله وكلمته وهو كذلك وآدم اصطفاه الله وهو كذلك ألا وأنا حبيب الله ولا فخر وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لى فادخلها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر وأنا أكرم الاولين والآخرين ولا فخر

يدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مختارا فى ذلك ان شاء أكل وان شاء لم يأكل وكان يترك الاكل اختيارا وقد دخلت الفتنة على قوم كلما قيل لهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل كذا يقولون كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشرعا وهذا اذا قالوه على معنى انه لا يلزمهم التأسى به جهل محض فان الرخصة الوقوف على حد قوله والعزيمة

(صفة الحوض)

اعلم ان الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا صلى الله عليه وسلم وقد اشتملت الاخبار على وصفه ونحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى فى الدنيا علمه وفى الآخرة ذوقه فان من صفاته ان من شرب منه لم يظمأ أبدا قال أنس أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم اغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له يا رسول الله لم ضحكت فقال آية أنزلت على آنفا وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم انا أعطيناك الكوثر حتى ختمها ثم قال هل تدرون ما الكوثر قالوا الله ورسوله أعلم قال انه نهر وعدنيه ربي عز وجل فى الجنة عليه خير كثير عليه حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد نجوم السماء وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما أنا أسير فى الجنة اذا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف قلت ما هذا يا جبريل قال هذا الكوثر الذى أعطاك ربك فضرب الملك بيده فاذا طينه مسك أذفر وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما بين لابتى حوضى مثل ما بين المدينة وصنعاء أو مثل ما بين المدينة وعمان وروى ابن عمر انه لما نزل قوله تعالى انا أعطيناك الكوثر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نهر فى الجنة حافتاه من ذهب شرابه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وأطيب ريحا من المسك يجرى على جنادل اللؤلؤ والمرجان وقال ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان حوضى ما بين عدن الى عمان البلقاء ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا أول الناس ورودا عليه فقراء المهاجرين فقال عمر بن الخطاب ومن هم يا رسول الله قال هم الشعث رؤسا الدنس ثيابا الذين لا ينكحون المتنعمات ولا تفتح لهم أبواب السدد فقال عمر بن عبد العزيز والله لقد نكحت المتنعمات فاطمة بنت عبد الملك وفتحت لى أبواب السدد الا ان يرحمنى الله لا جرم لا ادهن رأسى حتى يشعث ولا أغسل ثوبى الذى على جسدى حتى يتسخ وعن أبى ذر قال قلت يا رسول الله ما آنية الحوض قال والذى نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها فى الليلة المظلمة المصحية من شرب منه لم يظمأ آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة عرضه مثل طوله ما بين عمان وايلة ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وعن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لكل نبى حوضا وانهم يتباهون أيهم أكثر واردة وانى لارجو أن أكون أكثرهم واردة فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فليرج كل عبد أن يكون فى جملة الواردين وليحذر ان يكون متمنيا ومغترا وهو يظن انه راج فان الراجى للحصاد من بث البذر ونقى الارض وسقاها الماء ثم جلس يرجو فضل الله بالانبات ودفع الصواعق الى أوان الحصاد فاما من ترك الحراثة أو الزراعة وتنقية الارض وسقيها وأخذ يرجو من فضل الله ان ينبت له الحب والفاكهة فهذا مغتر ومتمن وليس من الراجين فى شئ وهكذا رجاء أكثر الخلق وهو غرور الحمقى نعوذ بالله من الغرور والغفلة فان الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدنيا قال الله تعالى فلا تغرنكم

الحيوة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور

(القول في صفة جهنم وأهوالها وأنكالها)

يا أيها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه واصرف الفكر الى موردك فانك أخبرت بان النار مورد للجميع اذ قيل وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا فانت من الورود على يقين ومن النجاة في شك فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعد للنجاة منه وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفا ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيع شفعائها اذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب وأظلت عليهم نار ذات لهب وسمعوا لها زفيرا وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب وجثت الامم على الركب حتى أشفق البرآء من سوء المنقلب وخرج المنادي من الزبانية قائلا أين فلان بن فلان المسوف نفسه في الدنيا بطول الامل المضيع عمره في سوء العمل فيبادرونه بمقامع من حديد ويستقبلونه بعظائم التهديد ويسوقونه الى العذاب الشديد وينكسونه في قعر الجحيم ويقولون له ذق انك أنت العزيز الكريم فاسكنوا دارا ضيقة الارجاء مظلمة المسالك مبهمة المهالك يخلد فيها الاسير ويوقد فيها السعير شرابهم فيها الحميم ومستقرهم الجحيم الزبانية تقمعهم والهاوية تجمعهم أمانيهم فيها الهلاك ومالهم منها فكاك قد شدت أقدامهم الى النواصي واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي ينادون من أكنافها ويصيحون في نواحيها وأطرافها يا مالك قد حق علينا الوعيد يا مالك قد أثقلنا الحديد يا مالك قد نضجت منا الجلود يا مالك أخرجنا منها فانا لا نعود فتقول الزبانية هيهات لات حين أمان ولا خروج لكم من دار الهوان فاخسؤا فيها ولا تكلمون ولو أخرجتم منها لكنتم الى ما نهيتم عنه تعودون فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الاسف بل يكبون على وجوههم مغلولين النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن أيمانهم والنار عن شمائلهم فهم غرقى في النار طعامهم نار وشرابهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار فهم بين مقطعات النيران وسرابيل القطران وضرب المقامع وثقل السلاسل فهم يتجلجلون في مضايقها ويتحطمون في دركاتها ويضطربون بين غواشيها تغلي بهم النار كغلي القدور ويهتفون بالويل والعويل ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد تهشم بها جباههم فيتفجر الصديد من أفواههم وتنقطع من العطش أكبادهم وتسيل على الخدود أحداقهم ويسقط من الوجنات لحومها ويتمعط من الاطراف شعورها بل جلودها وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها قد عريت من اللحم عظامهم فبقيت الارواح منوطة بالعروق وعلائق العصب وهي تنش في لفح تلك النيران وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون فكيف بك لو نظرت اليهم وقد سودت وجوههم أشد سوادا من الحميم وأعميت أبصارهم وأبكمت ألسنتهم وقصمت ظهورهم وكسرت عظامهم وجدعت آذانهم ومزقت جلودهم وغلت أيديهم الى أعناقهم وجمع بين نواصيهم وأقدامهم وهم يمشون على النار بوجوههم ويطؤن حسك الحديد بأحداقهم فلهيب النار سار في بواطن أجزائهم وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم هذا بعض جملة أحوالهم وانظر الآن في تفصيل أهوالهم وتفكر أيضا في أودية جهنم وشعابها فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ان في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والمنافق حتى يواقع ذلك كله وقال علي كرم الله وجهه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعوذوا بالله من جب الحزن أو وادي الحزن قيل يا رسول الله وما وادي أو جب الحزن قال واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة أعده الله تعالى للقراء المرائين فهذه سعة جهنم وانشعاب أوديتها وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها وعدد أبوابها بعدد الاعضاء السبعة التي بها يعصي العبد بعضها فوق بعض الاعلى جهنم ثم سقر ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم الجحيم ثم الهاوية فانظر الآن في عمق الهاوية فانه لا حد لعمقها كما لا حد لعمق شهوات الدنيا فكما لا ينتهي أرب من الدنيا الا الى أرب أعظم منه فلا تنتهي هاوية من جهنم الا الى

التأسي بفعله وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لارباب الرخص وفعله لارباب العزائم ثم ان المنتهي يحاكي حاله حال رسول الله عليه الصلاة والسلام في دعاء الخلق الى الحق فكل ما كان يعتمده رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يعتمده فكان قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيامه الزائد لا يخلو اما انه كان ليقتدى به واما انه كان لمزيد كان يجده بذلك فان

هاوية أعمق منها قال أبو هريرة كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا وجبة فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم أتدرون ما هذا قلنا الله ورسوله اعلم قال هذا حجر أرسل فى جهنم منذ سبعين عاما الآن انتهى الى قعرها ثم
انظر الى تفاوت الدركات فان الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا فكما ان اكباب الناس على الدنيا يتفاوت
فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها ومن خائض فيها الى حد محدود فكذلك تناول النار لهم متفاوت فان الله لا يظلم
مثقال ذرة فلا تترادف أنواع العذاب على كل من فى النار كيفما كان بل لكل واحد حد معلوم على قدر عصيانه
وذنبه الا أن أقلهم عذابا لو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها لافتدى بها من شدة ما هو فيه قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم ان أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلى دماغه من حرارة نعليه فانظر الآن الى من
خفف عليه واعتبر به من شدد عليه ومهما تشككت فى شدة عذاب النار فقرب أصبعك من النار وقس ذلك به
ثم اعلم انك أخطأت فى القياس فان نار الدنيا لا تناسب نار جهنم ولكن لما كان أشد عذاب فى الدنيا عذاب هذه
النار عرف عذاب جهنم بها وهيهات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها طائعين هربا مما هم فيه وعن هذا
عبر فى بعض الاخبار حيث قيل ان نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا بل صرح
رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة نار جهنم فقال أمر الله تعالى ان يوقد على النار ألف عام حتى احمرت ثم أوقد
عليها ألف عام حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهى سوداء مظلمة وقال صلى الله عليه وسلم اشتكت
النار الى ربها فقالت يارب أكل بعضى بعضا فاذن لها فى نفسين نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف فاشد ما تجدونه
فى الصيف من حرها وأشد ما تجدونه فى الشتاء من زمهريرها وقال أنس بن مالك يؤتى بانعم الناس فى الدنيا من
الكفار فيقال اغمسوه فى النار غمسة ثم يقال له هل رأيت نعيما قط فيقول لا ويؤتى باشد الناس ضرا فى الدنيا
فيقال اغمسوه فى الجنة غمسة ثم يقال له هل رأيت ضرا قط فيقول لا وقال أبو هريرة لو كان فى المسجد مائة ألف
أو يزيدون ثم تنفس رجل من أهل النار لماتوا وقد قال بعض العلماء فى قوله تلفح وجوههم النار انها لفحتهم
لفحة واحدة فما أبقت لحما على عظم الا ألقته عند أعقابهم ثم انظر بعد هذا فى نتن الصديد الذى يسيل من
أبدانهم حتى يغرقون فيه وهو الغساق قال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو ان دلوا من
غساق جهنم ألقى فى الدنيا لانتن أهل الارض فهذا شرابهم اذا استغاثوا من العطش فيسقى أحدهم من ماء صديد
يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه
بئس الشراب وساءت مرتفقا ثم انظر الى طعامهم وهو الزقوم كما قال الله تعالى ثم انكم أيها الضالون المكذبون
لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم وقال تعالى انها
شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رؤس الشياطين فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ثم ان لهم
عليها لشوبا من حميم ثم ان مرجعهم لالى الجحيم وقال تعالى تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية وقال تعالى ان لدينا
أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أن قطرة من الزقوم
قطرت فى بحار الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف من يكون طعامه ذلك وقال أنس قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم ارغبوا فيما رغبكم الله واحذروا وخافوا ما خوفكم الله به من عذابه وعقابه ومن جهنم فانه لو كانت
قطرة من الجنة معكم فى دنياكم التى أنتم فيها طيبتها لكم ولو كانت قطرة من النار معكم فى دنياكم التى أنتم فيها خبثتها
عليكم وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب
فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ويستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام
ذى غصة فيذكرون انهم كانوا يجيزون الغصص فى الدنيا بشراب فيستغيثون بشراب فيرفع اليهم الحميم بكلاليب
الحديد فاذا دنت من وجوههم شوت وجوههم فاذا دخل الشراب بطونهم قطع ما فى بطونهم فيقولون ادعوا
خزنة جهنم قال فيدعون خزنة جهنم أن ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فيقولون أولم تك تأتيكم رسلكم
بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين الا فى ضلال قال فيقولون ادعوا مالكا فيدعون فيقولون يا مالك

كان ليقتدى به فالمنتهى
أيضا مقتدى به ينبغى
أن يأتى بمثل ذلك والصحيح
الحق ان رسول الله صلى
الله عليه وسلم لم يفعل
ذلك لمجرد الاقتداء بل
كان يجد بذلك زيادة
وهو ما ذكرناه من
تهذيب الجبلة * قال
الله تعالى خطابا له
واعبد ربك حتى يأتيك
اليقين لانه بذلك ازداد
استمدادا من الحضرة
الالهية وقرع باب
الكرم والنبى عليه
الصلاة والسلام مفتقر

ليقض علينا ربك قال فيجيبهم انكم ما كثون قال الاعمش أنبئت أن بين دعائهم وبين اجابة مالك اياهم ألف عام قال فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون قال فيجيبهم اخسؤا فيها ولا تكلمون قال فعند ذلك يئسوا من كل خير وعند ذلك أخذوا فى الزفير والحسرة والويل وقال أبو امامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه قال يقرب اليه فيتكرهه فاذا أدنى منه شوى وجهه فوقعت فروة رأسه فاذا شرب به قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره يقول الله تعالى وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم وقال تعالى وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم فانظر الآن الى حيات جهنم وعقاربها والى شدة سمومها وعظم اشخاصها وفظاظة منظرها وقد سلطت على أهلها واغريت بهم فهى لا تفتر عن النهش واللدغ ساعة واحدة قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهازمه يعنى أشداقه فيقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا قوله تعالى ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله الآية وقال الرسول صلى الله عليه وسلم ان فى النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا وان فيها العقارب كالبغال الموكفة يلسعن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا وهذه الحيات والعقارب انما تسلط على من سلط عليه فى الدنيا البخل وسوء الخلق وايذاء الناس ومن وقى ذلك وقى هذه الحيات فلم تمثل له ثم تفكر بعد هذا كله فى تعظيم أجسام أهل النار فان الله تعالى يزيد فى أجسامهم طولا وعرضا حتى يتزايد عذابهم بسببه فيحسون بلفح النار ولدغ العقارب والحيات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالى قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرس الكافر فى النار مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه وقال عليه السلام ان الكافر ليجر لسانه فى سجين يوم القيامة يتواطؤه الناس ومع عظم الاجسام كذلك تحرقهم النار مرات فتجدد جلودهم ولحومهم قال الحسن فى قوله تعالى كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها قال تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا ثم تفكر الآن فى بكاء أهل النار وشهيقهم ودعائهم بالويل والثبور فان ذلك يسلط عليهم فى أول القائهم فى النار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل على أهل النار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع ثم يبكون الدم حتى يرى فى وجوههم كهيئة الاخدود لو أرسلت فيها السفن لجرت ومادام يؤذن لهم فى البكاء والشهيق والزفير والدعوة بالويل والثبور فلهم فيه مستروح ولكنهم يمنعون أيضا من ذلك قال محمد بن كعب لاهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل فى أربعة فاذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج من سبيل فيقول الله تعالى مجيبا لهم ذلكم بانه اذا دعى الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير ثم يقولون ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا فيجيبهم الله تعالى أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال فيقولون ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل فيجيبهم الله تعالى أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ثم يقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون فيجيبهم الله تعالى اخسؤا فيها ولا تكلمون فلا يتكلمون بعدها أبدا وذلك غاية شدة العذاب قال مالك بن أنس رضى الله عنه قال زيد بن أسلم فى قوله تعالى سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص قال صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة ثم قالوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا وقال صلى الله عليه وسلم يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ويقال يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت وعن الحسن قال يخرج من النار رجل بعد ألف عام وليتنى كنت ذلك الرجل ورؤى الحسن رضى الله عنه جالسا

الى الزيادة من الله تعالى غير مستغن عن ذلك ثم فى ذلك سر غريب وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم برابطة جنسية النفس كان يدعو الخلق الى الحق ولولا رابطة الجنسية ما وصلوا اليه ولا انتفعوا به وبين نفسه الطاهرة ونفوس الاتباع رابطة التأليف كما بين روحه وأرواحهم رابطة التأليف ورابطة التأليف ان النفوس ألفت آنفا كان الارواح ألفت

فى زاوية وهو يبكى فقيل له لم تبكى فقال أخشى أن يطرحنى فى النار ولا يبالى فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة وتفصيل غمومها وأحزانها ومحنها وحسراتها لا نهاية له فاعظم الامور عليهم مع ما يلاقونه من شدة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله تعالى وفوت رضاه مع علمهم بانهم باعوا كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة اذلم يبيعوا ذلك الا بشهوات حقيرة فى الدنيا أياما قصيرة وكانت غير صافية بل كانت مكدرة منغصة فيقولون فى أنفسهم واحسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربنا وكيف لم نكلف أنفسنا الصبر أياما قلائل ولو صبرنا لكانت قد انقضت عنا أيامه وبقينا الآن فى جوار رب العالمين متنعمين بالرضا والرضوان فيا لحسرة هؤلاء وقد فاتهم ما فاتهم وبلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شئ من نعيم الدنيا ولذاتها ثم انهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتهم لكنها تعرض عليهم فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى يوم القيامة بناس من النار الى الجنة حتى اذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها ونظروا الى قصورها والى ما أعد الله لاهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة ما رجع الاولون والآخرون بمثلها فيقولون يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن تريناما أريتنا من ثوابك وما أعددت فيها لاوليائك كان أهون علينا فيقول الله تعالى ذاك أردت بكم كنتم اذا خلوتم بارزتمونى بالعظائم واذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين تراؤن الناس بخلاف ما تعطونى من قلوبكم هبتم الناس ولم تهابونى وأجللتم الناس ولم تجلونى وتركتم للناس ولم تتركوا لى فاليوم أذيقكم العذاب الاليم مع ما حرمتكم من الثواب المقيم قال أحمد بن حرب ان أحدنا يؤثر الظل على الشمس ثم لا يؤثر الجنة على النار وقال عيسى عليه السلام كم من جسد صحيح ووجه صبيح ولسان فصيح غدا بين أطباق النار يصيح وقال داود الهى لا صبر لى على حر شمسك فكيف صبرى على حر نارك ولا صبر لى على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك فانظر يا مسكين فى هذه الاهوال واعلم أن الله تعالى خلق النار باهوالها وخلق لها أهلا لا يزيدون ولا ينقصون وان هذا أمر قد قضى وفرغ منه قال الله تعالى وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضى الامر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون ولعمرى الاشارة به الى يوم القيامة بل فى أزل الازل ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا ولست تدرى أن القضاء بماذا سبق فى حقك فان قلت فليت شعرى ماذا موردى والى ماذا مآلى ومرجعى وما الذى سبق به القضاء فى حقى فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها وهو ان تنظر الى أحوالك وأعمالك فان كلا ميسر لما خلق له فان كان قد يسر لك سبيل الخير فابشر فانك مبعد عن النار وان كنت لا تقصد خيرا الا وتحيط بك العوائق فتدفعه ولا تقصد شرا الا ويتيسر لك أسبابه فاعلم انك مقضى عليك فان دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات ودلالة الدخان على النار فقد قال الله تعالى ان الابرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم فاعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقرك من الدارين والله أعلم

(القول فى صفة الجنة وأصناف نعيمها)

اعلم ان تلك الدار التى عرفت همومها وغمومها تقابلها دار أخرى فتأمل نعيمها وسرورها فان من بعد من أحدهما استقر لا محالة فى الاخرى فاستثر الخوف من قلبك بطول الفكر فى أهوال الجحيم واستثر الرجاء بطول الفكر فى النعيم المقيم الموعود لاهل الجنان وسق نفسك بسوط الخوف وقدها بزمام الرجاء الى الصراط المستقيم فبذلك تنال الملك العظيم وتسلم من العذاب الاليم فتفكر فى أهل الجنة وفى وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم جالسين على منابر الياقوت الاحمر فى خيام من اللؤلؤ الرطب الابيض فيها بسط من العبقرى الاخضر متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل محفوفة بالغلمان والولدان مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان يمشين فى درجات الجنان اذا اختالت احداهن فى مشيها حمل أعطافها سبعون ألفا من الولدان عليها من طرائف الحرير الابيض ما تتحير فيه الابصار مكللات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان شكلات غنجات عطرات آمنات من الهرم والبؤس مقصورات فى الخيام فى قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان قاصرات الطرف عين ثم يطاف عليهم وعليهن باكواب

أولا ولكل روح مع نفسه تأليف خاص والسكون والتألف والامتزاج واقع بين الارواح والنفوس وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يديم العمل لتصفية نفسه ونفوس الاتباع فما احتاج اليه نفسه من ذلك ناله وما فضل من ذلك وصل الى نفوس الامة وهكذا المنتهى مع الاصحاب والاتباع على هذا المعنى فلا يتخلف عن الزيادات والنوافل ولا يسترسل فى

وأباريق وكأس من معين بيضاء لذة للشاربين ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون في مقام أمين في جنات وعيون في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ينظرون فيها الى وجه الملك الكريم وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم لا يرهقهم قتر ولا ذلة بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لا يخافون فيها ولا يحزنون وهم من ريب المنون آمنون فهم فيها يتنعمون ويأكلون من أطعمتها ويشربون من أنهارها لبنا وخمرا وعسلا في أنهار أراضيها من فضة وحصباؤها مرجان وعلى أرض ترابها مسك أذفر ونباتها زعفران ويمطرون من سحاب فيها من ماء النسرين على كثبان الكافور ويؤتون بأكواب وأي أكواب بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان كوب فيه من الرحيق المختوم ممزوج به السلسبيل العذب كوب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه برقته وحمرته لم يصنعه آدمي فيقصر في تسوية صنعته وتحسين صناعته في كف خادم يحكي ضياء وجهه الشمس في اشراقها ولكن من أين للشمس مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه وملاحة أحداقه فيا عجبا لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها ولا تنظر الاحداث بعين التغيير الى أهلها كيف يأنس بدار قد أذن الله في خرابها ويتهنأ بعيش دونها والله لو لم يكن فيها الا سلامة الابدان مع الامن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان لكان جديرا بأن يهجر الدنيا بسببها وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنغص من ضروريته كيف وأهلها ملوك آمنون وفي أنواع السرور ممتعون لهم فيها كل ما يشتهون وهم في كل يوم بفناء العرش يحضرون والى وجه الله الكريم ينظرون وينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه الى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون وهم من زوالها آمنون قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادي مناد يا أهل الجنة ان لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وان لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وان لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وان لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا فذلك قوله عز وجل ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن فليس وراء بيان الله تعالى بيان واقرأ من قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان الى آخر سورة الرحمن واقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور وان أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الاخبار فتأمل الآن تفصيلها بعد أن اطلعت على جملتها وتأمل أولا (عدد الجنان) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان قال جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا الى ربهم الا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن ثم انظر الى (أبواب الجنة) فانها كثيرة بحسب أصول الطاعات كما أن أبواب النار بحسب أصول المعاصي قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنة كلها وللجنة ثمانية أبواب فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد فقال أبو بكر رضي الله عنه والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعي فهل يدعى أحد منها كلها قال نعم وأرجو أن تكون منهم وعن عاصم بن ضمرة عن علي كرم الله وجهه انه ذكر النار فعظم أمرها ذكرا لا أحفظه ثم قال وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا انتهوا الى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان فعمدوا الى احداهما كما أمروا به فشربوا منها فاذهبت ما في بطونهم من أذى أو بأس ثم عمدوا الى الاخرى فتطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم فلم تتغير أشعارهم بعدها أبدا ولا تشعث رؤسهم كأنما دهنوا بالدهان ثم انتهوا الى الجنة فقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما تطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة يقولون له أبشر أعد الله لك من الكرامة كذا قال فينطلق غلام من أولئك الولدان الى بعض أزواجه من الحور العين فيقول قد جاء فلان باسمه الذي كان يدعى به في الدنيا فتقول أنت رأيته فيقول أنا رأيته وهو بأثري فيستخفها الفرح حتى تقوم الى أسكفة بابها فاذا انتهى الى منزله نظر الى أساس بنيانه فاذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أخضر وأحمر وأصفر من كل لون ثم يرفع

الشهوات واللذات الا بدلالة تخص النفس ولا يعطي الاعتدال حقه من ذلك الا بتأييد الله تعالى ونور الحكمة وكل من يحتاج الى صحة الجلوة للغير لابد له من خلوة صحيحة بالحق حتى تكون جلوته في حماية خلوته ومن يتراءى له أن أوقاته كلها خلوة وأنه لا يحجبه شيء وأن أوقاته بالله ولله ولا يرى نقصانا لان الله ما فطنه لحقيقة المزيد فهو صحيح في حاله غير أنه تحت قصور

رأسه

رأسه فينظر الى سقفه فاذا مثل البرق ولولا ان الله تعالى قدره لالم ان يذهب بصره ثم يطأطئ رأسه فاذا أزواجه وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة ثم اتكأ فقال الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله ثم ينادى مناد تحيون فلا تموتون أبدا وتقيمون فلا تظعنون أبدا وتصحون فلا تمرضون أبدا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم آتى يوم القيامة باب الجنة فاستفتح فيقول الخازن من أنت فاقول محمد فيقول بك أمرت ان لا أفتح لاحد قبلك ثم تأمل الآن فى *(غرف الجنة)* واختلاف درجات العلو فيها فان الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا وكما ان بين الناس فى الطاعات الظاهرة والاخلاق الباطنة المحمودة تفاوتا ظاهرا فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر فان كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها فقال تعالى سابقوا الى مغفرة من ربكم وقال تعالى وفى ذلك فليتنافس المتنافسون والعجب انه لو تقدم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بعلو بناء ثقل عليك ذلك وضاق به صدرك وتنغص بسبب الحسد عيشك وأحسن أحوالك أن تستقر فى الجنة وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيهم الدنيا بحذافيرها فقد قال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كما تتراءون الكوكب الغائر فى الافق من المشرق والمغرب تفاضل ما بينهم قالوا يا رسول الله تلك منازل الانبياء لا يبلغها غيرهم قال بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وقال أيضا ان أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع فى أفق من آفاق السماء وان أبا بكر وعمر منهم وأنعما وقال جابر قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أحدثكم بغرف الجنة قال قلت بلى يا رسول الله صلى الله عليك بأبينا أنت وأمنا قال ان فى الجنة غرفا من أصناف الجوهر كله يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وفيها من النعيم واللذات والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال قلت يا رسول الله ولمن هذه الغرف قال ان أفشى السلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام قال قلنا يا رسول ومن يطيق ذلك قال أمتى تطيق ذلك وسأخبركم عن ذلك من لقى أخاه فسلم عليه أو رد عليه فقد أفشى السلام ومن أطعم أهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام ومن صام شهر رمضان ومن كل شهر ثلاثة أيام فقد أدام الصيام ومن صلى العشاء الآخرة وصلى الغداة فى جماعة فقد صلى بالليل والناس نيام يعنى اليهود والنصارى والمجوس وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله ومساكن طيبة فى جنات عدن قال قصور من لؤلؤ فى كل قصر سبعون دارا من ياقوت أحمر فى كل دار سبعون بيتا من زمرد أخضر فى كل بيت سرير على كل سرير سبعون فراشا من كل لون على كل فراش زوجة من الحور العين فى كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من الطعام فى كل بيت سبعون وصيفة ويعطى المؤمن فى كل غداة يعنى من القوة ما يأتى على ذلك أجمع

(صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها)

تأمل فى صورة الجنة وتفكر فى غبطة سكانها وفى حسرة من حرمها القناعته بالدنيا عوضا عنها فقد قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك وسئل صلى الله عليه وسلم عن تربة الجنة فقال درمكة بيضاء مسك خالص وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سره أن يسقيه الله عز وجل الخمر فى الآخرة فليتركها فى الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحرير فى الآخرة فليتركه فى الدنيا أنهار الجنة تتفجر من تحت تلال أو تحت جبال المسك ولو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحليه الله عز وجل به فى الآخرة أفضل من حلية الدنيا جميعها وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها اقرؤا ان شئتم وظل ممدود وقال أبو امامة كان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون ان الله عز وجل ينفعنا بالاعراب ومسائلهم أقبل اعرابى فقال يا رسول الله قد ذكر الله فى القرآن شجرة مؤذية وما كنت أدرى ان فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هى قال السدر فان لها شوكا فقال قد قال

لانه ما نبه لسياسة الجبلة وما عرف سر تمليك الاختيار وما وقف من البيان على البيضاء النقية وقد نقلت عن المشايخ كلمات فيها موضع الاشتباه فقد يسمعها الانسان ويبنى عليها والاولى أن يفتقر الى الله تعالى فى أى كلمة يسمعها حتى يسمعه الله من ذلك الصواب (نقل) عن بعضهم انه سئل عن كمال المعرفة فقال اذا اجتمعت المتفرقات واستوت الاحوال والاماكن وسقطت

الله تعالى فى سدر مخضود يخضد الله شوكه فيجعل مكان كل شوكة ثمرة ثم تنفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما منها لون يشبه الآخر وقال جرير بن عبد الله نزلنا الصفاح فاذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تبلغه فقلت للغلام انطلق بهذا النطع فاظله فانطلق فاظله فلما استيقظ فاذا هو سلمان فاتيته أسلم عليه فقال يا جرير تواضع لله فان من تواضع لله فى الدنيا رفعه الله يوم القيامة هل تدرى ما الظلمات يوم القيامة قلت لا أدرى قال ظلم الناس بعضهم بعضا ثم أخذ عويدا لا أكاد أراه من صغره فقال يا جرير لو طلبت مثل هذا فى الجنة لم تجده قلت يا أبا عبد الله فاين النخل والشجر قال أصولها اللؤلؤ والذهب وأعلاها الثمر

(صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وارائكهم وخيامهم)

قال الله تعالى يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير والآيات فى ذلك كثيرة وانما تفصيله فى الاخبار فقد روى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال من يدخل الجنة ينعم لا يبأس لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقال رجل يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أتخلق تخلقا أم تنسج نسجا فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك بعض القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مم تضحكون من جاهل سأل عالما ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل ينشق عنها ثمر الجنة مرتين وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوطون آنيتهم وامشاطهم من الذهب والفضة ورشحهم المسك لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشية وفى رواية على كل زوجة سبعون حلة وقال صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى يحلون فيها من أساور من ذهب قال ان عليهم التيجان ان أدنى لؤلؤة فيها تضىء ما بين المشرق والمغرب وقال صلى الله عليه وسلم الخيمة درة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلا فى كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون رواه البخارى فى الصحيح قال ابن عباس الخيمة درة مجوفة فرسخ فى فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب وقال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى وفرش مرفوعة قال ما بين الفراشين كما بين السماء والارض

(صفة طعام أهل الجنة)

بيان طعام أهل الجنة مذكور فى القرآن من الفواكه والطيور السمان والمن والسلوى والعسل واللبن وأصناف كثيرة لا تحصى قال الله تعالى كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة فى مواضع كثيرة وقد قال ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء حبر من أحبار اليهود فذكر أسئلة الى أن قال فمن أول اجازة يعنى على الصراط فقال فقراء المهاجرين قال اليهودى فما تحفتهم حين يدخلون الجنة قال زيادة كبد الحوت قال فما غذاؤهم على أثرها قال ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل فى أطرافها قال فما شرابهم عليه قال من عين فيها تسمى سلسبيلا فقال صدقت وقال زيد بن أرقم جاء رجل من اليهود الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا أبا القاسم ألست تزعم ان أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون وقال لاصحابه ان أقر لى بها خصمته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلى والذى نفسى بيده ان أحدهم ليعطى قوة مائة رجل فى المطعم والمشرب والجماع فقال اليهودى فان الذى يأكل ويشرب يكون له الحاجة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك فاذا البطن قد ضمر وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انك لتنظر الى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا وقال حذيفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فى الجنة طيرا أمثال البخاتى قال أبو بكر رضى الله عنه انها الناعمة يا رسول الله قال أنعم منها من يأكلها وأنت ممن يأكلها يا أبا بكر وقال عبد الله بن عمرو فى قوله تعالى يطاف عليهم بصحاف قال يطاف عليهم بسبعين صحفة من ذهب كل صحفة فيها لون ليس فى الاخرى مثله وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ومزاجه من تسنيم قال يمزج لاصحاب اليمين ويشربه المقربون صرفا وقال أبو الدرداء رضى الله عنه فى قوله تعالى ختامه مسك قال هو شراب أبيض مثل الفضة

رؤية التمييز ومثل هذا القول يوهم ان لا يبقى تمييز بين الخلوة والجلوة وبين القيام بصور الاعمال وبين تركها ولم يفهم منه ان القائل أراد بذلك معنى خاصا يعنى ان حظ المعرفة لا يتغير بحال من الاحوال وهذا صحيح لان حظ المعرفة لا يتغير ولا يفتقر الى التمييز وتستوى الاحوال فيه ولكن حظ المريد يتغير ويحتاج الى التمييز وليس فى هذا الكلام وأمثاله ما ينافى ما ذكرناه (قيل) لمحمد

يختمون به آخر شرابهم لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح الا وجد ريح طيبها

(صفة الحور العين والولدان)

قد تكرر فى القرآن وصفهم وو ردت الاخبار بزيادة شرح فيه روى أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال غدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدمه من الجنة خير من الدنيا وما فيها ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت الى الارض لاضاءت ولملأت ما بينهما رائحة ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا بما فيها يعنى الخمار وقال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى كأنهن الياقوت والمرجان قال ينظر الى وجهها فى خدرها أصفى من المرآة وان أدنى لؤلؤة عليها لتضىء ما بين المشرق والمغرب وانه يكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أسرى بى دخلت الجنة موضعا يسمى البيدخ عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الاخضر والياقوت الاحمر فقلن السلام عليك يا رسول الله فقلت يا جبريل ما هذا النداء قال هؤلاء المقصورات فى الخيام استأذن ربهن فى السلام عليك فأذن لهن فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ونحن الخالدات فلا نظعن أبدا وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى حور مقصورات فى الخيام وقال مجاهد فى قوله تعالى وأزواج مطهرة قال من الحيض والغائط والبول والبصاق والنخامة والمنى والولد وقال الاوزاعى فى شغل فاكهون قال شغلهم افتضاض الابكار وقال رجل يا رسول الله أيباضع أهل الجنة قال يعطى الرجل منهم من القوة فى اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم وقال عبد الله بن عمر ان أدنى أهل الجنة منزلة من يسعى معه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن مقدار عمره فى الدنيا وقال النبى صلى الله عليه وسلم ان فى الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء الا الصور من الرجال والنساء فاذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها وان فيها لمجتمع الحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط فطوبى لمن كان لنا وكنا له وقال أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الحور فى الجنة يتغنين نحن الحور الحسان خبئنا لازواج كرام وقال يحيى بن كثير فى قوله تعالى فى روضة يحبرون قال السماع فى الجنة وقال أبو امامة الباهلى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من عبد يدخل الجنة الا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين يغنيانه بأحسن صوت سمعه الانس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديسه

(بيان جمل متفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الاخبار)

روى أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه ألا هل مشمر للجنة ان الجنة لا خطر لها هى ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر مطرد وفاكهة كثيرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة فى حبرة ونعمة فى مقام أبدا ونضرة فى دار عالية بهية سليمة قالوا نحن المشمرون لها يا رسول الله قال قولوا ان شاء الله تعالى ثم ذكر الجهاد وحض عليه وجاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال هل فى الجنة خيل فانها تعجبنى قال ان أحببت ذلك أتيت بفرس من ياقوتة حمراء فتطير بك فى الجنة حيث شئت وقال له رجل ان الابل تعجبنى فهل فى الجنة من ابل فقال يا عبد الله ان أدخلت الجنة فلك فيها ما اشتهت نفسك ولذت عيناك وعن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهى يكون حمله وفصاله وشبابه فى ساعة واحدة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا استقر أهل الجنة فى الجنة اشتاق الاخوان الى الاخوان فيسير سرير هذا الى سرير هذا فيلتقيان ويتحدثان ما كان بينهما فى دار الدنيا فيقول يا أخى تذكر يوم كذا فى مجلس كذا فدعونا الله عز وجل فغفر لنا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أهل الجنة جرد مرد بيض جعاد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين على خلق آدم طولهم ستون ذراعا فى عرض سبعة أذرع وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أدنى أهل الجنة الذى له ثمانون ألف خادم وثنتان وسبعون زوجة وينصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد

ابن الفضل حاجة العارفين الى ماذا قال حاجتهم الى الخصلة التى كملت بها المحاسن كلها ألا وهى الاستقامة وكل من كان أتم معرفة كان أتم استقامة فاستقامة أرباب النهاية على التمام والعبد فى الابتداء مأخوذ فى الاعمال محجوب بها عن الاحوال وفى التوسط محفوظ بالاحوال فقد يحجب عن الاعمال وفى الانتهاء لاتحجبه الاعمال عن

فيا قوت كما بين الجابية الى صنعاء وان عليهم التيجان وان أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب وقال صلى الله عليه وسلم نظرت الى الجنة فاذا الرمانة من رمانها كجلف البعير المقتب واذا طيرها كالبخت واذا فيها جارية فقلت يا جارية لمن أنت فقالت لزيد بن حارثة واذا في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقال كعب خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيده وكتب التوراة بيده وغرس الجنة بيده ثم قال لها تكلمي فقالت قد أفلح المؤمنون فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم نقلناها تفصيلا وقد ذكر الحسن البصري رحمه الله جملتها فقال ان رمانها مثل الدلاء وان أنهارها من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال وأنهار من خمر لذة للشاربين لا تسفه الاحلام ولا تصدع منها الرؤس وان فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ملوك ناعمون أبناء ثلاث وثلاثين في سن واحد طولهم ستون ذراعا في السماء كحل جرد مرد قد أمنوا العذاب واطمأنت بهم الدار وان أنهارها لتجري على رضراض من ياقوت وزبرجد وان عروقها ونخلها وكرمها اللؤلؤ وثمارها لا يعلم علمها الا الله تعالى وان ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة وان لهم فيها خيلا وابلا هفافة رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت يتزاورون فيها وأزواجهم الحور العين كأنهن بيض مكنون وان المرأة لتأخذ بين أصبعيها سبعين حلة فتلبسها فيرى مخ ساقها من وراء تلك السبعين حلة قد طهر الله الاخلاق من السوء والاجساد من الموت لا يتمخطون فيها ولا يبولون ولا يتغوطون وانما هو جشاء ورشح مسك لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا أما انه ليس ليل يكر الغدو على الرواح والرواح على الغدو وان آخر من يدخل الجنة وأدناهم منزلة ليمد له في بصره وملكه مسيرة مائة عام في قصور من الذهب والفضة وخيام اللؤلؤ يفسح له في بصره حتى ينظر الى أقصاه كما ينظر الى أدناه يغدى عليهم بسبعين ألف صحفة من ذهب ويراح عليهم بمثلها في كل صحفة لون ليس في الاخرى مثله ويجد طعم آخره كما يجد طعم أوله وان في الجنة لياقوتة فيها سبعون ألف دار في كل دار سبعون ألف بيت ليس فيها صدع ولا ثقب وقال مجاهد ان أدنى أهل الجنة منزلة لمن يسير في ملكه ألف سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه وأرفعهم الذي ينظر الى ربه بالغداة والعشي وقال سعيد بن المسيب ليس أحد من أهل الجنة الا وفي يده ثلاثة أسورة سوار من ذهب وسوار من لؤلؤ وسوار من فضة وقال أبو هريرة رضي الله عنه ان في الجنة حوراء يقال لها العيناء اذا مشت مشى عن يمينها ويسارها سبعون ألف وصيفة وهي تقول أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وقال يحيى بن معاذ ترك الدنيا شديد وفوت الجنة أشد وترك الدنيا مهر الآخرة وقال أيضا في طلب الدنيا ذل النفوس وفي طلب الآخرة عز النفوس فيا عجبا لمن يختار المذلة في طلب ما يفنى ويترك العز في طلب ما يبقى

(صفة الرؤية والنظر الى وجه الله تبارك وتعالى)

قال الله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة وهذه الزيادة هي النظر الى وجه الله تعالى وهي اللذة الكبرى التي ينسى فيها نعيم أهل الجنة وقد ذكرنا حقيقتها في كتاب المحبة وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف ما يعتقده أهل البدعة قال جرير بن عبد الله البجلي كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر فقال انكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وهو مخرج في الصحيحين وروى مسلم في الصحيح عن صهيب قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال اذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة ان لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه قالوا ما هذا الموعد ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار قال فيرفع الحجاب وينظرون الى وجه الله عز وجل فما أعطوا شيئا أحب اليهم من النظر اليه وقد روى حديث الرؤيا جماعة من الصحابة وهذه هي غاية الحسنى ونهاية النعمى وكل ما فصلناه من النعم عند هذه النعمة ينسى وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى بل لا نسبة لشيء من لذات الجنة الى لذة اللقاء وقد أوجزنا في الكلام

الاحوال ولا الاحوال عن الاعمال وذلك هو الفضل العظيم (سئل الجنيد) عن النهاية فقال هي الرجوع الى البداية وقد فسر بعضهم قول الجنيد فقال معناه انه كان في ابتداء أمره في جهل ثم وصل الى المعرفة ثم رد الى التحير والجهل وهو كالطفولية يكون جهل ثم علم ثم جهل قال الله تعالى لكيلا يعلم بعد علم شيأ (وقال بعضهم) أعرف الخلق بالله أشدهم تحيرا فيه ويجوز أن

هنا ما فصلناه فى كتاب المحبة والشوق والرضا فلا ينبغى أن تكون همة العبد من الجنة بشئ سوى لقاء المولى وأما سائر نعيم الجنة فانه يشارك فيه البهيمة المسرحة فى المرعى

(نختم الكتاب بباب فى سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك)

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل وليس لنا من الاعمال ما نرجو به المغفرة فنقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم فى التفاؤل ونرجو أن يختم عاقبتنا بالخير فى الدنيا والآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى فقد قال الله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقال تعالى قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم وقال تعالى ومن يعمل سوأ أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلت به القدم أو طغى به القلم فى كتابنا هذا وفى سائر كتبنا ونستغفره من أقوالنا التى لا توافقها أعمالنا ونستغفره مما ادعيناه وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره ونستغفره من كل وعد وعدناه به من أنفسنا ثم قصرنا فى الوفاء به ونستغفر من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها فى معصيته ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به ونستغفره من كل خطرة دعتنا الى تصنع وتكلف تزينا للناس فى كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه أو استفدناه ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولمن طالع كتابنا هذا أو كتبه أو سمعه أن نكرم بالمغفرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيآت ظاهرا وباطنا فان الكرم عميم والرحمة واسعة والجود على أصناف الخلائق فائض ونحن خلق من خلق الله عز وجل لا وسيلة لنا اليه الا فضله وكرمه فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس والطير والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وأخر تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة ويروى انه اذا كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتابا من تحت العرش فيه ان رحمتى سبقت غضبى وأنا أرحم الراحمين فيخرج من النار مثلا أهل الجنة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجلى الله عز وجل لنا يوم القيامة ضاحكا فيقول أبشروا معشر المسلمين فانه ليس منكم أحد الا وقد جعلت مكانه فى النار يهوديا أو نصرانيا وقال النبى صلى الله عليه وسلم يشفع الله تعالى آدم يوم القيامة من جميع ذريته فى مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف وقال صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائى فيقولون نعم يا ربنا فيقول لم فيقولون رجونا عفوك ومغفرتك فيقول قد أوجبت لكم مغفرتى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرنى يوما أو خافنى فى مقام وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اجتمع أهل النار فى النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم اسلامكم اذ أنتم معنا فى النار فيقولون كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيسمع الله عز وجل ما قالوا فيأمر باخراج من كان فى النار من أهل القبلة فيخرجون فاذا رأى ذلك الكفار قالوا يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما أخرجوا ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها وقال جابر بن عبد الله من زادت حسناته على سيآته يوم القيامة فذلك الذى يدخل الجنة بغير حساب ومن استوت حسناته وسيآته فذلك الذى يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة وانما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره ويروى أن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام يا موسى استغاث بك قارون فلم تغثه وعزتى وجلالى لو استغاث بى لأغثته وعفوت عنه وقال سعد بن بلال يؤمر يوم القيامة باخراج رجلين من النار فيقول الله تبارك وتعالى ذلك بما قدمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد ويأمر بردهما الى النار فيعدو أحدهما فى سلاسله حتى يقتحمها ويتلكأ الآخر فيؤمر بردهما ويسألهما عن فعلهما فيقول الذى عدا الى النار قد حذرت من وبال المعصية فلم أكن لأتعرض لسخطك ثانية ويقول الذى تلكأ حسن ظنى بك كان يشعرنى أن لا تردنى اليها بعد ما أخرجتنى منها فيأمر بهما الى الجنة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادى

يكون معنى ذلك ما ذكرناه انه يبادئ الاعمال ثم يرقى الى الاحوال ثم يجمع له بين الاعمال والاحوال وهذا يكون للمنتهى المراد المأخوذ فى طريق المحبوبين تنجذب روحه الى الحضرة الالهية وتستتبع القلب والقلب يستتبع النفس والنفس تستتبع القالب فيكون بكليته قائما بالله ساجدا بين يدى الله تعالى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد لك

مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لى قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة برحمتى ويروى ان اعرابيا سمع ابن عباس يقرأ وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها فقال الاعرابى والله ما أنقذكم منها وهو يريد أن يوقعكم فيها فقال ابن عباس خذوها من غير فقيه وقال الصنابحى دخلت على عبادة بن الصامت وهو فى مرض الموت فبكيت فقال مهلا لم تبكى فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لكم فيه خير الا حدثتكموه الا حديثا واحدا وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحيط بنفسى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من شهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار وقال عبد الله بن عمرو بن العاص قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يستخلص رجلا من أمتى على رؤس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل منها مثل مد البصر ثم يقول أتنكر من هذا شيأ أظلمتك كتبتى الحافظون فيقول لا يارب فيقول أفلك عذر فيقول لا يارب فيقول بلى ان لك عندنا حسنة وانه لا ظلم عليك اليوم فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فيقول يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول انك لا تظلم قال فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة قال فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شئ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط ان الله يقول للملائكة من وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فاخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون يا ربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار من خير فاخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون يا ربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فاخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون يا ربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به فكان أبو سعيد يقول ان لم تصدقونى بهذا الحديث فاقرؤا ان شئتم ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما قال فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق الا أرحم الراحمين فيقبض قبضة فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما فيلقيهم فى نهر فى أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون منها كما تخرج الحبة فى حميل السيل ألا ترونها تكون مما يلى الحجر والشجر ما يكون الى الشمس أصفر وأخضر وما يكون منها الى الظل أبيض قالوا يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية قال فيخرجون كاللؤلؤ فى رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة يقولون هؤلاء عتقاء الرحمن الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتم فهو لكم فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين فيقول الله تعالى ان لكم عندى ما هو أفضل من هذا فيقولون يا ربنا أى شئ أفضل من هذا فيقول رضائى عنكم فلا أسخط عليكم بعده أبدا رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما وروى البخارى أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال عرضت على الامم فجعل النبى ومعه الرجل والنبى ومعه الرجلان والنبى ليس معه أحد والنبى معه الرهط فرأيت سوادا كثيرا فرجوت أن تكون أمتى فقيل لى هذا موسى وقومه ثم قيل لى انظر فرأيت سوادا كثيرا قد سد الافق فقيل لى انظر هكذا وهكذا فرأيت سوادا كثيرا فقيل لى هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب فتفرق الناس ولم يبين لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكر ذلك الصحابة فقالوا أما نحن فولدنا فى الشرك ولكن قد آمنا بالله ورسوله هؤلاء هم أبناؤنا فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة فقال ادع الله أن يجعلنى منهم يا رسول الله فقال أنت منهم ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة فقال النبى صلى الله عليه وسلم سبقك بها عكاشة وعن عمرو بن حزم الانصارى قال تغيب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لا يخرج الا الصلاة مكتوبة ثم يرجع فلما كان اليوم الرابع خرج الينا فقلنا يا رسول الله احتبست عنا حتى ظننا انه قد حدث حدث قال لم يحدث الا خير ان ربى عز وجل وعدنى ان يدخل من أمتى الجنة سبعين الفا لا حساب عليهم وانى سألت ربى فى هذه الثلاثة أيام المزيد فوجدت ربى ماجدا واجدا كريما فاعطانى مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين الفا قال قلت يارب وتبلغ أمتى هذا قال أكمل لك العدد من الاعراب وقال أبو ذر قال رسول

الله

سوادى وخيالى وقال الله تعالى ولله يسجد من فى السموات والارض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال والظلال القوالب تسجد بسجود الارواح وعند ذلك تسرى روح المحبة فى جميع اجزائهم وابعاضهم فيتلذذون ويتنعمون بذكر الله تعالى وتلاوة كلامه محبة ووداً فيحبهم الله تعالى ويحببهم الى خلقه نعمة منه عليهم وفضلا على ما أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو

الله صلى الله عليه وسلم عرض لى جبريل فى جانب الحرة فقال بشر أمتك انه من مات لا يشرك بالله شيأ دخل الجنة
فقلت يا جبريل وان سرق وان زنى قال نعم وان سرق وان زنى قلت وان سرق وان زنى قال وان سرق وان زنى قلت
وان سرق وان زنى قال وان سرق وان زنى وان شرب الخمر وقال أبو الدرداء قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن
خاف مقام ربه جنتان فقلت وان سرق وان زنى يا رسول الله فقال ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت وان سرق وان
زنى فقال ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت وان سرق وان زنى يا رسول الله قال وان رغم أنف أبى الدرداء وقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة دفع الى كل مؤمن رجل من أهل الملل فقيل له هذا فداؤك من
النار وروى مسلم فى الصحيح عن أبى بردة انه حدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبى موسى عن النبى صلى الله عليه
وسلم قال لا يموت رجل مسلم الا أدخل الله تعالى مكانه النار يهوديا أو نصرانيا فاستحلفه عمر بن عبد العزيز بالله
الذى لا اله الا هو ثلاث مرات ان أباه حدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلف له وروى انه وقف صبى
فى بعض المغازى ينادى عليه فيمن يزيد فى يوم صائف شديد الحر فبصرت به امرأة فى خباء القوم
فاقبلت تشتد واقبل أصحابها خلفها حتى أخذت الصبى وألصقته الى صدرها ثم ألقت ظهرها
على البطحاء وجعلته على بطنها تقيه الحر وقالت ابنى ابنى فبكى الناس وتركوا ما هم فيه
فاقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف عليهم فاخبروه الخبر فسر
برحمتهم ثم بشرهم فقال أعجبتم من رحمة هذه لابنها قالوا نعم قال صلى الله
عليه وسلم فان الله تبارك وتعالى أرحم بكم جميعا من هذه بابنها
فتفرق المسلمون على أفضل السرور وأعظم البشارة
فهذه الاحاديث وما أوردناه فى كتاب الرجاء
يبشرنا بسعة رحمة الله تعالى فنرجو
من الله تعالى ان لا يعاملنا بما
نستحقه ويتفضل علينا
بما هو أهله بمنه
وسعة جوده
ورحمته

النجيب السهروردى رحمه الله قال أنا أبو طالب الزينبى قال أخبرتنا كريمة المروزية قالت أنا أبو الهيثم الكشميهنى قال أنا أبو عبد الله الفربرى قال أنا أبو عبد الله البخارى قال حدثنى اسحق قال حدثنا عبد الصمد قال حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى اذا

﴿ يقول راجي غفران المساوي مصححه محمد الزهري الغمراوي ﴾

نحمدك يامن شرحت الحقائق لقلوب غرست في رياضها أشجار محبتك وسقيت بغيوث رجائك وأزعجت بسوط خوفك فأحسنت متابعة شريعتك وأثمرت غصونها الحياء هدايتك ومختزائد عنايتك فصحت بعد غفلتها ونهضت في اقتفاء مرضاتك بعد طول رقدتها ونشكرك وفقت من أبان عن واضح الحق اللثام حتى اتضح للسالك خزي من أثار في وجه الصدق القتام ونسألك أن تديم وافر صلواتك وكامل تسليماتك على خاتم النبيين ورسولك الى الخلق أجمعين من جعلت سنته في قوله وفعله هي الطريق اليك فمن شذ عنها ولو قلامة ظفر لا يظفر من مرضاتك بما يدله عليك وعلى آله سفينة النجاة الذين هم العروة الوثقى لمن يرجو شفاعته ورضاه وأصحابه الذين تهذبت نفوسهم بمتابعته فصاروا أنجما يهتدى بهم في شريعته وكل من اقتفى آثارهم وجاهد نفسه ليلقط من رياض أحوالهم ازهارهم ﴿ أما بعد ﴾ فان أولى ما يهتم الانسان بتحصيله وصرف العناية الى قراءته وترتيله ما تستطب به النفوس من أمراضها وتستعز به في تقويم أغراضها ولا شئ أوفى بذلك مع مزيد حسن مبين من كتاب احياء علوم الدين لامام الائمة وحجة الامة الشيخ محمد بن محمد الغزالي طيب الله ثراه ولقاه بما يتمناه وهو كتاب لا يستطيع البيان وصف محاسنه ولا يستجرئ البنان حصر درر معادنه وقد حسن الطبع شكل وضعه وزين مباني صنعه محلى الهوامش والطرر ومزين الحواشي والغرر بالكتابين الجليلين الاول كتاب تعريف الأحيا بفضائل الاحيا للعلامة الشيخ محي الدين قدوة المسلمين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله العيدروس باعلوي والثاني عوارف المعارف للامام السهروردي رحمهم الله وذلك بالمطبعة الميمنية بمصر المحروسة المحميه بجوار سيدي أحمد الدردير قريبا من الجامع الازهر المنير وذلك في شهر ربيع الاول سنة ١٣٢٢ هجريه على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التحيه آمين

المطبعة الميمنية بمصر ١٣٠٦

أحب عبدا نادى جبريل ان الله تعالى قد أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي جبريل في السماء ان الله قد أحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول في الارض وبالله العون والعصمة والتوفيق تم بحمد الله المعيد المبدي كتاب عوارف المعارف للامام السهروردي والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين


Bibliotheca Alexandrina
0503007